

مَحْيِ

مختصر تنبيه الزكيات

الحافظ عماد الدين في ألفداء إسماعيل بن عمر بن كثير

أفصره ورفعه أهداه وشرح غريب ألفاظه

أحمد عبد الرزاق البكري محمد حادول محمد محمد عبد اللطيف خائف

المجلد الثالث

دار السلام

الطبعة والنشر والتوزيع والزجعة

صَحِيح

مَخْنَصُ تَفْسِيرِ الزُّبَيْرِ

لِلْحَافِظِ عِمَادِ الدِّينِ أَبِي الْفَدَاءِ إِسْمَاعِيلَ بْنِ عُمَرَ بْنِ كَثِيرٍ

اَنْتَصَرَهُ وَفَرَعَ اُحْمَارِيَهُ وَشَرَعَ غَرِيبَ الْفَاظِ

أَحْمَدُ عَبْدُ الرَّازِقِ الْبَكْرِيُّ مُحَمَّدٌ عَادِلٌ مُحَمَّدٌ مُحَمَّدٌ عَبْدُ الْلطِيفِ خَلْفٌ

المجلد الثالث

دار السلام

للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة

كَافَةُ حُقُوقِ الطَّبْعِ وَالنَّشْرِ وَالْمُتَرَجِّمَةِ مَحْفُوظَةٌ
لِلنَّاشِرِ

دَارُ السَّلَامِ لِلطَّبَاعَةِ وَالنَّشْرِ وَالتَّوْزِيعِ وَالتَّجْمِيدِ
لصاحبها
عبدُ الفادرِ مُحَمَّدُ البَكَارُ

الطبعة الأولى

١٤٢١ هـ - ٢٠٠١ م

الطبعة الثانية

١٤٢٢ هـ - ٢٠٠٢ م

الطبعة الثالثة

١٤٢٣ هـ - ٢٠٠٣ م

دَارُ السَّلَامِ

للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة

ش.م.م

تأسست الدار عام ١٩٧٣م وحصلت
على جائزة أفضل ناشر للتراث لثلاثة
أعوام متتالية ١٩٩٩م ، ٢٠٠٠م ،
٢٠٠١م هي عثر الجائزة تتويجا لعقد
ثالث مضى في صناعة النشر

القاهرة - جمهورية مصر العربية

الإدارة : ١٩ شارع عمر لطفي مواز لشارع عباس العقاد خلف مكتب مصر للطيران

عند الحديقة الدولية وأمام مسجد الشهيد عمرو الشرييني - مدينة نصر

هاتف : ٢٧٠٤٢٨٠ - ٢٧٤١٥٧٨ (٢٠٢+) فاكس : ٢٧٤١٧٥٠ (٢٠٢+)

المكبة : فرع الأزهر : ١٢٠ شارع الأزهر الرئيسي - هاتف : ٥٩٣٢٨٢٠ (٢٠٢+)

المكبة : فرع مدينة نصر : ١ شارع الحسن بن علي متفرع من شارع علي أمين امتداد شارع

مصطفى النحاس - مدينة نصر - هاتف : ٤٠٥٤٦٤٢ (٢٠٢+)

بريدنا : ص.ب ١٦١ الغورية الرمز البريدي ١١٦٣٩

البريد الإلكتروني : info@dar-alsalam.com

موقعنا على الإنترنت : www.dar-alsalam.com

سورة النمل

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ طَسَّ تِلْكَ ءَايَتُ الْقُرْآنِ وَكِتَابِ تُبَيِّنُ ① هُدًى وَنُذْرًا لِلْمُؤْمِنِينَ ② الَّذِينَ يُعِيتُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ يُؤْفِقُونَ ③ إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ زَيَّنَّا لَهُمْ أَعْمَالَهُمْ فَهُمْ يَعْمَهُونَ ④ أُولَئِكَ الَّذِينَ لَهُمْ سُوءُ الْعَذَابِ وَهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمْ الْآخَسُونَ ⑤ وَإِنَّكَ لَتَلْقَى الْقُرْآنَ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ ﴾ .

قد تقدم الكلام في سورة البقرة على الحروف المقطعة في أوائل السور . وقوله تعالى : ﴿ تِلْكَ ءَايَتُ ﴾ أي : هذه آيات ﴿ الْقُرْآنِ وَكِتَابِ تُبَيِّنُ ﴾ أي : بين واضح ﴿ هُدًى وَنُذْرًا لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ أي : إنما تحصل الهداية والبشارة من القرآن لمن آمن به واتبعه وصدق ، وعمل فيه وأقام الصلاة المكتوبة ، وآتى الزكاة المفروضة ، وأيقن بالدار الآخرة والبعث بعد الموت ، والجزاء على الأعمال وشرها ، والجنة والنار ﴿ إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ ﴾ أي : يكذبون بها ويستبعدون وقوعها ﴿ زَيَّنَّا لَهُمْ أَعْمَالَهُمْ فَهُمْ يَعْمَهُونَ ﴾ أي : حسنا ما هم فيه ، ومددنا لهم في غيهم فهم يتيهون في ضلالهم ، وكان هذا جزاء على ما كذبوا من الدار الآخرة . ﴿ أُولَئِكَ الَّذِينَ لَهُمْ سُوءُ الْعَذَابِ ﴾ أي : في الدنيا والآخرة ﴿ وَهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمْ الْآخَسُونَ ﴾ أي : ليس يخسر أنفسهم وأموالهم سواهم من أهل المحشر . وقوله تعالى : ﴿ وَإِنَّكَ لَتَلْقَى الْقُرْآنَ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ ﴾ أي : يا محمد ﴿ لَتَلْقَى ﴾ أي : لتأخذ ﴿ الْقُرْآنَ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ ﴾ أي : من عند حكيم عليم أي : حكيم في أمره ونهيه ، عليم بالأمور جليلها وحقيقها ، فخبيره هو الصدق المحض ، وحكمه هو العدل التام .

﴿ إِذْ قَالَ مُوسَى لِأَخِيهِ هَارُونَ إِنِّي ءَأَسْتُ نَارًا سَتَابِثَةٌ مِنْهَا يَخْبَرُ أَوْ ءَاتِيكُمْ بِشِهَابٍ قَبِيرٍ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ① فَلَمَّا جَاءَهَا نُودِيَ أَنْ بُورِكَ مِنْ فِي النَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا وَسُبْحَنَ اللَّهُ رَبِّ الْعَالَمِينَ ② يَتُوسَعُ إِنَّهُ أَنَا اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ③ وَأَلْقَى عَصَاهُ فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ وَلَّى مُدْبِرًا وَلَّى يُعْطَبُ يَتُوسَعُ لَا تَخَفْ إِنِّي لَا يَخَافُ لَدَى الْمَرْسُولِ ④ إِلَّا مَنْ ظَلَمَ ثُمَّ بَدَلْ حُسْنًا بَعْدَ سُوءٍ فَإِنِّي عَفُورٌ رَحِيمٌ ⑤ وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخَرِّجْ يَصْفَاةً مِنْ غَيْرِ سُوءٍ فِي شَيْءٍ ءَايَتِي إِلَى فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ ⑥ فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ ءَايَتُنَا مُبْصِرَةً قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ ⑦ وَحَمَدُوا بِهَا وَأَسْتَفْتَنَاهَا أَنْفُسَهُمْ ظَلَمُوا وَعُلُوًّا فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ ﴾ .

يقول تعالى لرسوله محمد ﷺ مذكرا له ما كان من أمر موسى عليه السلام ، كيف اصطفاه الله ، وكلمه ونجاه ، وأعطاه من الآيات العظيمة الباهرة ، والأدلة القاهرة ، وابتعثه إلى فرعون وملئه ، فجحدها بها وكفروا واستكبروا عن اتباعه والانقياد له . فقال تعالى : ﴿ إِذْ قَالَ مُوسَى لِأَخِيهِ هَارُونَ ﴾ أي : اذكر حين سار موسى بأهله فأفضل الطريق ، وذلك في ليل وظلام ، فأنس من جانب الطور نارا أي : رأى نارا تأجج وتضطرم . فقال : ﴿ لِأَخِيهِ هَارُونَ إِنِّي ءَأَسْتُ نَارًا سَتَابِثَةٌ مِنْهَا يَخْبَرُ ﴾ أي : عن الطريق ﴿ أَوْ ءَاتِيكُمْ بِشِهَابٍ قَبِيرٍ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ﴾ أي : تستدفئون به . وكان كما قال فإنه رجع منها بخبر عظيم ، واقتبس منها نورا عظيما . ولهذا قال تعالى : ﴿ فَلَمَّا جَاءَهَا نُودِيَ أَنْ بُورِكَ مِنْ فِي النَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا ﴾ أي : فلما أتاها ورأى منظرا هائلا عظيما حيث انتهى إليها ، والنار تضطرم في شجرة خضراء لا تزداد النار إلا توقدا ، ولا تزداد الشجرة إلا خضرة ونضرة ، ثم رفع رأسه فإذا نورها متصل بعنان السماء . قال ابن عباس وغيره : لم

تكن نارا وإنما كانت نورًا يتوهج . وفي رواية عن ابن عباس : نور رب العالمين . فوق موسى متعجبا مما رأى فنودي ﴿ أَنْ بُرِكَ مِنْ فِي النَّارِ ﴾ . قال ابن عباس : تقدس . ﴿ وَمَنْ حَوَّلَهَا ﴾ أي : من الملائكة . وعن أبي موسى عليه السلام قال : قال رسول الله ﷺ : « إِنَّ اللَّهَ لَا يَنَامُ وَلَا يَتَبَغَّى لَهُ أَنْ يَنَامَ ، يَخْفِضُ الْقِسْطَ وَيَرْفَعُهُ ، يَرْفَعُ إِلَيْهِ عَمَلُ اللَّيْلِ قَبْلَ النَّهَارِ ، وَعَمَلُ النَّهَارِ قَبْلَ اللَّيْلِ » . زاد المسعودي : « وحجابه النور لو كشفه لأحرقت سبحات وجهه كل شيء أدركه البصر » . ثم قرأ أبو عبيدة : ﴿ أَنْ بُرِكَ مِنْ فِي النَّارِ وَمَنْ حَوَّلَهَا ﴾ ^(١) . وقوله تعالى : ﴿ وَسُبْحَنَ اللَّهُ رَبِّيَ الْعَلِيِّنِ ﴾ أي : الذي يفعل ما يشاء ولا يشبهه شيء من مخلوقاته ، ولا يحيط به شيء من مصنوعاته ، وهو العلي العظيم المبين لجميع المخلوقات ، ولا يكتفيه الأرض والسموات بل الأحاد الصمد المنزه عن ماثلة المحدثات .

وقوله تعالى : ﴿ يَتُوبُ إِلَيْهِ إِنَّهُ أَنَا اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ أعلمه أن الذي يخاطبه ويناجيه هو ربه الله العزيز الذي عز كل شيء وقهره وغلبه ، الحكيم في أقواله وأفعاله ، ثم أمره أن يلقي عصاه من يده ليظهر له دليلاً واضحاً على أنه الفاعل المختار القادر على كل شيء ، فلما ألقى موسى تلك العصا من يده انقلبت في الحال حية عظيمة هائلة في غاية الكبر وسرعة الحركة مع ذلك ؛ ولهذا قال تعالى : ﴿ فَلَمَّا رَمَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ ﴾ والجنان ضرب من الحيات أسرع حركة وأكثره اضطراباً . وفي الحديث نهى عن قتل جنان البيوت ^(٢) . فلما عاين موسى ذلك ﴿ وَكَأَنَّ مَذْبُوحًا دَرَسَ يَقْبَضُ ﴾ أي : لم يلتفت من شدة فرقه ﴿ يَتُوبُونَ لَا تَخَفْ لِي لَا يَخَافُ لَدَيْكَ الْمُرْسَلُونَ ﴾ أي : لا تخف مما ترى ، فإنني أريد أن أصطفيك رسولاً ، وأجعلك نبياً وجيهاً ، وقوله تعالى : ﴿ إِلَّا مَنْ ظَلَمَ ثُمَّ بَدَلْ حُسْنًا بَعْدَ سُوءٍ فَإِنِّي عَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ هذا استثناء منقطع وفيه بشارة عظيمة للبشر ، وذلك أن من كان على عمل سيئ ، ثم أفلح عنه ورجع وتاب وأناب ، فإن الله يتوب عليه . كما قال تعالى : ﴿ وَإِنِّي لَفَقَّارٌ لِّمَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ اهْتَدَى ﴾ . وقوله تعالى : ﴿ وَأَنزَلْنَا بِكَ فِي جَبَلِكَ مَخْرَجَ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ ﴾ هذه آية أخرى ، ودليل باهر على قدرة الله الفاعل المختار ، وصدق من جعل له معجزة ، وذلك أن الله تعالى أمره أن يدخل يده في جيب درعه ، فإذا أدخلها وأخرجها خرجت بيضاء ساطعة كأنها قطعة قمر لها لمعان تلتألاً كالبرق الخاطف . وقوله تعالى : ﴿ فِي يَتْبَعُ آيَاتِ ﴾ أي : هاتان ثنتان من تسع آيات أؤيدك بهن ، وأجعلهن برهاناً لك إلى فرعون وقومه . ﴿ إِنَّمْ كَانُوا قَوْمًا قَلِيلِينَ ﴾ وهذه هي الآيات التسع التي قال الله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى تِسْعَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ ﴾ . كما تقدم تقرير ذلك هنالك ، وقوله تعالى : ﴿ فَلَمَّا جَاءَهُمْ آيَاتُنَا مُبْصِرَةً ﴾ أي : بينة واضحة ظاهرة . ﴿ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ ﴾ وأرادوا معارضته بسحرم ، فغلبوا وانقلبوا صاغرين ﴿ وَحَمَدُوا بِهَا ﴾ أي : في ظاهر أمرهم ﴿ وَاسْتَبَقْنَهَا أَنْفُسَهُنَّ ﴾ أي : علموا في أنفسهم أنها حق من عند الله ، ولكن جحدوها وعاندوها وكابروها ﴿ ظَنُّوا وَعُلُوًّا ﴾ أي : ظلماً من أنفسهم سجيته ملعونة ﴿ وَعُلُوًّا ﴾ أي : استكباراً عن اتباع الحق ؛ ولهذا قال تعالى : ﴿ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ ﴾ أي : انظر يا محمد كيف كان عاقبة أمرهم في إهلاك الله إياهم ، وإغراقهم عن آخرهم في صبيحة واحدة . فحوى الخطاب يقول : احذروا أيها المكذبون لحمد الجاحدون لما جاء به من ربه أن

(١) أخرجه مسلم في الإيمان (٢٩٣ ، ٢٩٥) وابن ماجه في سننه (١٩٥) والإمام احمد في مسنده (٣٩٥/٤) .

(٢) أخرجه مسلم في (السلام) (١٣٤/٣١) والإمام أحمد في مسنده (١٤٦/٢) .

لَهَا سُلَيْمَانُ : أَقْبِضِي جَنَاحَا جَنَاحَا « قال أبو هريرة : يا رسول الله كيف فعلت الطير ؟ فقبض رسول الله ﷺ يده وغلبت عليه يومئذ المضرحية ^(١) . قال أبو الفرج ابن الجوزي : المضرحية هي النسور الحمراء . وقوله تعالى : ﴿ وَحِشْرَ لِسَاتِكُنَّ جُنُودُهُ مِنَ الْجِنَّ وَالطَّاغُوتِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴾ أي : وجمع لسليمان جنوده من الجن والإنس والطير يعني : ركب فيهم في أبهة وعظمة كبيرة في الإنس ، وكانوا هم الذين يلونه ، والجن وهم بعدهم في المنزلة والطير ، ومنزلتها فوق رأسه ، فإن كان حر أظلمته منه بأجنحتها . وقوله : ﴿ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴾ أي : يكف أولهم على آخرهم لثلا يتقدم أحد عن منزلته التي هي مرتبة له . قال مجاهد : جعل على كل صنف وزعة يردون أولها على آخرها لثلا يتقدموا في المسير كما يفعل الملوك اليوم . وقوله : ﴿ حَتَّى إِذَا اتَّوَا عَلَى وَادِ النَّمْلِ ﴾ أي : حتى إذا مر سليمان ﷺ بمن معه من الجيوش والجنود على وادي النمل ﴿ قَالَتْ نَمْلَةٌ بِأَتَائِهَا أَسْمَلُ أَدْخُلُو سَكَنَكُمُ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾ أي خافت على النمل أن تحطمها الخيول بحوافرها ، فأمرتهم بالدخول إلى مساكنهم . ففهم ذلك سليمان ﷺ منها ﴿ فَتَبَسَّ ضَاحِكًا مِّنْ قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ ارْزُقْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَلَدَتِي وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ ﴾ أي : ألهمني أن أشكر نعمتك التي مننت بها علي من تعليمي منطق الطير والحيوان ، وعلى والدي بالإسلام لك ، والإيمان بك ﴿ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ ﴾ أي : عملاً تحبه وترضاه . ﴿ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ ﴾ أي : إذا توفيتني فألحقني بالصالحين من عبادك ، والرفيق الأعلى من أوليائك . وعن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال : « قَرَضْتُ نَبِيًّا مِّنَ الْأَنْبِيَاءِ نَمْلَةً فَأَمَرَ بِقَرْيَةِ النَّمْلِ فَأَخْرَقَتْ ، فَأَوْحَى اللَّهُ إِلَيْهِ ، أَلَمْ أَرَأَ أَن قَرَضْتُكَ نَمْلَةً أَهْلَكَتْ أُمَّةً مِّنَ الْأُمَمِ تُسَبِّحُ ؟ فَهَلَّا نَمْلَةً وَاحِدَةً ؟ » ^(٢) . ﴿ وَتَقَعَّدَ الطَّيْرَ فَقَالَ مَا لِيَ لَا أَرَى الْهَدْهَدَ أَمْ كَانَ مِنَ الْفُكَاكِيِّينَ ۚ لَأَعْلَسُكُمْ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَذْبَحَنَّهُ أَوْ لَيَأْتِيَنِي بِسُلْطَنٍ مُّبِينٍ ﴾ .

قال ابن عباس وغيره : كان كان الهدهد مهندساً يدل سليمان ﷺ على الماء إذا كان بأرض فلاة طلبه ، فنظر له الماء في تخوم الأرض كما يرى الإنسان الشيء الظاهر على وجه الأرض ، ويعرف كم مساحة بعده من وجه الأرض ، فإذا دلهم عليه أمر سليمان ﷺ الجان ، فحفروا له ذلك المكان حتى يستنبط الماء من قراره . فنزل سليمان ﷺ يوماً بفلاة من الأرض ، فتفقد الطير ليرى الهدهد فلم يره ﴿ فَقَالَ مَا لِيَ لَا أَرَى الْهَدْهَدَ أَمْ كَانَ مِنَ الْفُكَاكِيِّينَ ﴾ حدث يوماً عبد الله بن عباس بنحو هذا ، وفي القوم رجل من الخوارج يقال له نافع بن الأزرق ، وكان كثير الاعتراض على ابن عباس فقال له : قف يا ابن عباس غلبت اليوم ، قال : ولم ؟ قال : إنك تخبر عن الهدهد أنه يرى الماء في تخوم الأرض ، وإن الصبي ليضع له الحبة في الفخ ، ويحثو على الفخ تراباً فيجئ الهدهد ليأخذها ، فيقع في الفخ فيصيده الصبي . فقال ابن عباس : لولا أن يذهب هذا فيقول : رددت على ابن عباس لما أجبتة ثم قال له : ويحك إنه إذا نزل القدر عمي البصر ، وذهب الحذر ، فقال له نافع : والله لا أجادلك في شيء من

(١) أخرجه الإمام أحمد في مسنده (٤١٩/٢) .

(٢) أخرجه البخاري في الجهاد والسير (٣٠١٩) ومسلم في (السلام) (١٤٨) . والإمام أحمد في مسنده (٤٠٣/٢) .

القرآن أبداً . وقوله : ﴿لَعَذَابُكَ عَذَابًا شَدِيدًا﴾ قال ابن عباس : يعني تنف ريشه ، وقال عبد الله بن شداد : تنف ريشه وتشميسه . وكذا قال غير واحد من السلف : إنه تنف ريشه وتركه ملقي يأكله الذر والنمل . وقوله : ﴿أَوْ لَاذَّبْنَاهُ﴾ يعني قتله ﴿أَوْ لِيَأْتِيَنَّ بِسُلْطَنٍ مُّبِينٍ﴾ بعذر يبين واضح ، وقال سفيان بن عيينة : لما قدم الهدد قلت الطير : ما خلفك . فقد نذر سليمان دمك ، فقال : هل استثنى ؟ قالوا : نعم قال : ﴿لَعَذَابُكَ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَاذَّبْنَاهُ أَوْ لِيَأْتِيَنَّ بِسُلْطَنٍ مُّبِينٍ﴾ قال : نجوت إذا . ﴿فَمَكَتْ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطْتُ بِمَا لَمْ نَحِيطْ بِهِ وَحِثْلَكِ مِنْ سَكِيمٍ بَنِيَّ يَقِينٍ﴾ إلى وَبَدَتْ أَمْرًا تَلِيَهُمْ وَأُوتِيَتْ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ وَلَمَّا عَزَّ عَظِيمٌ ﴿وَبَدَتْهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّيْءِ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَزَيْنَ لَهُمْ الشَّيْطَانُ أَعْمَلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ ﴿أَلَّا يَسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي يُخْرِجُ الْخَبْءَ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُنْصِرُونَ ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾ .

يقول تعالى : ﴿فَمَكَتْ﴾ الهدد . ﴿غَيْرَ بَعِيدٍ﴾ أي : غاب زماناً يسيراً ، ثم جاء فقال لسليمان : ﴿أَحَطْتُ بِمَا لَمْ نَحِيطْ بِهِ﴾ أي : اطلعت على ما لم تطلع عليه أنت ولا جنودك . ﴿وَحِثْلَكِ مِنْ سَكِيمٍ بَنِيَّ يَقِينٍ﴾ أي : بخبر صدق حق يقين ، وسبأ : هم حمير ، وهم ملوك اليمن ، ثم قال : ﴿إِنِّي وَبَدْتُ أَمْرًا تَلِيَهُمْ﴾ قال الحسن البصري : وهي بلقيس بنت شراحيل ملكة سبأ ، وقال قتادة : كانت من بيت مملكة ، وكان أولو مشورتها ثلثمائة واثنى عشر رجلاً كل رجل منهم على عشرة آلاف رجل ، وكانت بأرض يقال لها : مأرب على ثلاثة أميال من صنعاء . وقوله : ﴿وَأُوتِيَتْ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ﴾ أي : من متاع الدنيا مما يحتاج إليه الملك المتمكن ﴿وَلَمَّا عَزَّ عَظِيمٌ﴾ يعني : سرير تجلس عليه عظيم هائل مزخرف بالذهب وأنواع الجواهر والآلات . قال علماء التاريخ : وكان هذا السرير في قصر عظيم مشيد رفيع البناء محكم ، وكان فيه ثلثمائة وستون طاقة من مشرقه ، ومثلها من مغربه ، قد وضع بناؤه على أن تدخل الشمس كل يوم من طاقة ، وتغرب من مقابلها ، فيسجدون لها صباحاً ومساءً . ولهذا قال : ﴿وَبَدَتْهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّيْءِ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَزَيْنَ لَهُمْ الشَّيْطَانُ أَعْمَلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ﴾ .

وقوله : ﴿أَلَّا يَسْجُدُوا لِلَّهِ﴾ معناه . ﴿وَزَيْنَ لَهُمْ الشَّيْطَانُ أَعْمَلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ﴾ ألا يَسْجُدُوا لِلَّهِ ؟ أي : لا يعرفون سبيل الحق التي هي : إخلاص السجود لله وحده دون ما خلق من الكواكب وغيرها ، كما قال تعالى : ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَيْتِلْ وَالنَّهَارُ وَاللَّيْلُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ لَا يَسْجُدُوا لِلشَّيْءِ وَلَا يَلْقَمِرِ وَاللَّهُ الَّذِي خَلَقَهُمْ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾ . وقرأ بعضهم (ألا يا قوم اسجدوا لله) ^(١) جعلها ألا الاستفتاحية ويا للنداء وحذف المنادى تقديره عندهم : ألا يا قوم اسجدوا لله . وقوله : ﴿الَّذِي يُخْرِجُ الْخَبْءَ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ . قال ابن عباس : يعلم كل خبيثة في السماء والأرض . وقال سعيد بن المسيب : الخبء الماء . وقال عبد الرحمن بن زيد : خبء السماوات والأرض ما جعل فيهما من الأرزاق ؛ المطر من السماء ، والنبات من الأرض . وهذا

(١) قرأ أبو جعفر والكاساني ورويس (ألا يا اسجدوا) بتخفيف اللام ويقفون (ألا يا) ويسجدون (اسجدوا) بهزة مضمومة على الأمر فهو في تقدير (ألا يا هؤلاء اسجدوا) فهما كلمتان فمن فصلت وقفاً ، والباقيون بتشديد اللام ويسجدوا كلمة واحدة فلذا لم تفصل (انظر : تقريب النشر ص : ١٥٤) .

مناسب من كلام الهدهد الذي جعل الله فيه من الخاصة ما ذكره ابن عباس وغيره من أنه يرى الماء يجري في تخوم الأرض وداخلها . وقوله : ﴿ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُنْهَوْنَ ﴾ أي : يعلم ما يخفيه العباد وما يعلنونه من الأقوال والأفعال . وقوله : ﴿ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ﴾ أي : هو المدعو الله وهو الذي لا إله إلا هو رب العرش العظيم الذي ليس في المخلوقات أعظم منه . ولما كان الهدهد داعيًا إلى الخير ، وعبادة الله وحده ، والسجود له نهى عن قتله . فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : نهى النبي ﷺ عن قتل أربع من الدواب : النملة والنحلة والهدهد والصراد ^(١) .

﴿ قَالَ سَنْظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْكَاذِبِينَ ﴾ ٥٠ أَذْهَبَ بِكَتَبِي هَذَا فَأَلْفَيْهِ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّى عَنْهُمْ فَانْظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ ٥١ قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ إِنَّ إِلَهِي إِنَّكَ كَذِبٌ كَرِيمٌ ٥٢ إِنَّهُمْ مِنْ سُلَيْمَنَ وَإِنَّهُمْ يَسِرُ اللَّهُ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمِ ٥٣ أَلَا تَمْلَأُوا عَلَيَّ وَأَتُونِي مُسْلِمِينَ ٥٤ .

يقول تعالى مخبرًا عن قول قول سليمان للهدهد حين أخبره عن أهل سبأ وملكتهم ﴿ قَالَ سَنْظُرُ أَصَدَقْتَ ﴾ أي : في إخبارك هذا ﴿ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْكَاذِبِينَ ﴾ في مقاتلتك لتخلص من الوعيد الذي أوعدتك ﴿ أَذْهَبَ بِكَتَبِي هَذَا فَأَلْفَيْهِ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّى عَنْهُمْ فَانْظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ ﴾ وذلك : أن سليمان عليه السلام كتب كتابًا إلى بلقيس وقومها ، وأعطاه ذلك الهدهد فحملة ، وذهب إلى بلادهم ، فجاء إلى قصر بلقيس إلى الخلوة التي كانت تختلي فيها بنفسها ، فألقاه إليها من كوة هنالك بين يديها ، ثم تولى ناحية ؛ أدبًا ورياسة ، فتحيرت مما رأت وهالها ذلك ، ثم عمدت إلى الكتاب فأخذته ، ففتحت ختمه وقرأته فإذا فيه : ﴿ إِنَّهُمْ مِنْ سُلَيْمَنَ وَإِنَّهُمْ يَسِرُ اللَّهُ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمِ ٥٣ أَلَا تَمْلَأُوا عَلَيَّ وَأَتُونِي مُسْلِمِينَ ﴾ فجتمعت عند ذلك أمراءها وكبراء دولتها وملكتها . ثم قالت لهم : ﴿ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ إِنَّ إِلَهِي إِنَّكَ كَذِبٌ كَرِيمٌ ﴾ تعني بكرمه ما رآته من عجيب أمره ، كون طائر ذهب به فألقاه إليها ، ثم تولى عنها أدبًا ، وهذا أمر لا يقدر عليه أحد من الملوك ، ولا سبيل لهم إلى ذلك ، ثم قرأته عليهم : ﴿ إِنَّهُمْ مِنْ سُلَيْمَنَ وَإِنَّهُمْ يَسِرُ اللَّهُ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمِ ٥٣ أَلَا تَمْلَأُوا عَلَيَّ وَأَتُونِي مُسْلِمِينَ ﴾ ففرحوا أنه من نبي الله سليمان عليه السلام ، وأنه لا قبل لهم به ، وهذا الكتاب في غاية البلاغة والوجازة والفصاحة ، فإنه حصل المعنى بأيسر عبارة وأحسنها . وقال العلماء : لم يكتب أحد بسم الله الرحمن الرحيم قبل سليمان عليه السلام .

وقوله : ﴿ أَلَا تَمْلَأُوا عَلَيَّ ﴾ قال قتادة يقول : لا تجبروا علي ﴿ وَأَتُونِي مُسْلِمِينَ ﴾ . وقال عبد الرحمن ابن زيد : لا تمتنعوا ولا تتكبروا علي وأتوني مسلمين . قال ابن عباس : موحدن ، وقال غيره : مخلصين ، وقال سفيان بن عيينة : طائعين .

﴿ قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَفْتُونِي فِي أَمْرِي مَا كُنْتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّى تَشْهَدُونِ ٥٥ قَالُوا نَحْنُ أَوْلُوا قُوَّةً وَأُولُوا بَأْسَ شَدِيدٍ وَالْأَمْرُ إِلَيْكِ فَانْظُرِي مَاذَا تَأْمُرِينَ ٥٦ قَالَتْ إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوا أَعْرَءَ أَهْلِهَا أَوَّلَةً وَكَذَلِكَ يَفْعَلُونَ ٥٧ وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِمْ بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌ بِمَ يَرْجِعُ الْمُرْسَلُونَ ٥٨ .

لما قرأت عليهم كتاب سليمان استشارتهم في أمرها وما قد نزل بها ولهذا قالت : ﴿ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَفْتُونِي فِي أَمْرِي مَا كُنْتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّى تَشْهَدُونِ ﴾ أي : حتى تحضرون وتشيروا ﴿ قَالُوا نَحْنُ أَوْلُوا قُوَّةً وَأُولُوا بَأْسَ

(١) أخرجه الإمام أحمد في مسنده (٣٢٢/١ ، ٣٤٧) وأبو داود في سننه (٥٢٦٧) وابن ماجه في سننه (٣٢٢٤) .

وَأُولَئِكَ بِأَيْمَنِ شِيبٍ ﴿٣٦﴾ أَي : منوا بَعْدَهُمْ وَعُدَّهُمْ وَقُوَّتَهُمْ ، ثم فوضوا إليها بعد ذلك الأمر فقالوا : ﴿وَأَلَّا تَرَىٰ إِلَيْنَا قَاطِرِي مَاذَا نَأْمُرُ﴾ ﴿٣٧﴾ أَي : نحن ليس لنا عاقبة ، ولا بنا بأس إن شئت أن نقصديه ونحاريه فما لنا عاقبة عنه . قال الحسن البصري رحمته الله : فوضوا أمرهم إلى عجلة تضطرب ثدياها ، فلما قالوا لها ما قالوا كانت هي أحزم منهم ، وأعلم بأمر سليمان ، وأنه لا قبل لها بجنوده وجيوشه وما سخر له من الجن والإنس والطير ، وقد شاهدت من قضية الكتاب مع الهدهد أمرا عجيبا بديعا . فقالت لهم : إني أخشى أن نحاربه ونمتنع عليه ، فيقصدنا بجنوده ، ويهلكنا بمن معه ، ويخلص إليي وإليكم الهلاك والدمار دون غيرنا . ولهذا قالت : ﴿إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا﴾ قال ابن عباس : أي إذا دخلوا بلدا عنوة أفسدوه أي : خربوه . ﴿وَجَعَلُوا آيَةً أَهْلِهَا أَذِلَّةٌ﴾ ﴿٣٨﴾ أي : وقصدوا من فيها من الولاة والجنود ، فأهانوهم غاية الهوان ، إما بالقتل أو بالأسر . قال ابن عباس : قالت بلقيس : ﴿إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوا آيَةً أَهْلِهَا أَذِلَّةٌ﴾ قال الرب عليه السلام : ﴿وَكَذَلِكَ يَفْعَلُونَ﴾ ثم عدلت إلى المصالحة والمهادنة ، والمسالمة والمخادعة والمصانعة . فقالت : ﴿وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِمْ بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌ بِمَ يَرْجِعُ الْمُرْسَلُونَ﴾ ﴿٣٩﴾ أي : سأبعث إليه بهدية تليق بمثله ، وأنظر ماذا يكون جوابه بعد ذلك فلعله يقبل ذلك منا ويكف عنا ، أو يضرب علينا خراجا نحمله إليه في كل عام ونلتزم له بذلك ، ويترك قتالنا ومحاربتنا . قال قتادة رحمته الله : ما كان أعقلها في إسلامها وشركها ، علمت أن الهدية تقع موقعا من الناس . وقال ابن عباس وغير واحد : قالت لقومها : إن قبل الهدية فهو ملك فقاتلوه ، وإن لم يقبلها فهو نبي فاتبعوه .

﴿فَلَمَّا جَاءَ سُلَيْمَانَ قَالَ أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ فَمَا آتَيْنَاهُ اللَّهُ خَيْرٌ مِّمَّا آتَاكُمْ بَلْ أَنْتُمْ يَهْدِيَتَكُمُ فَرَحُونَ﴾ ﴿٤٠﴾ أَرْجِعْ إِلَيْهِمْ فَلَنَأَيِّبَنَّهُمْ بِمِثْلِ مَا جَاءَ وَلَنُخْرِجَنَّهُمْ مِنْهَا أَذِلَّةً وَهُمْ صَاغِرُونَ ﴿٤١﴾ .

ذكر غير واحد من المفسرين من السلف وغيرهم : أنها بعثت إليه عزيمة من ذهب وجواهر ولآلئ وغير ذلك . وقال بعضهم : أرسلت بلبن من ذهب . والصحيح أنها أرسلت إليه بأنية من ذهب . والظاهر أن سليمان عليه السلام لم ينظر إلى ما جاءوا به بالكلية ، ولا اعتنى به ، بل أعرض عنه ، وقال منكرا عليهم : ﴿أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ﴾ أَي : أتصنعونني بمال لأترككم على شرككم وملكمكم ؟ ﴿فَمَا آتَيْنَاهُ اللَّهُ خَيْرٌ مِّمَّا آتَاكُمْ﴾ أَي : الذي أعطاني الله من الملك والمال والجنود خير مما أنتم فيه ﴿بَلْ أَنْتُمْ يَهْدِيَتَكُمُ فَرَحُونَ﴾ أَي : أنتم الذين تنقادون للهدايا والتحف ، وأما أنا فلا أقبل إلا الإسلام أو السيف .

﴿أَرْجِعْ إِلَيْهِمْ﴾ أَي : بهديتهم ﴿فَلَنَأَيِّبَنَّهُمْ بِمِثْلِ مَا جَاءَ﴾ أَي : لا طاقة لهم بقتالهم . ﴿وَلَنُخْرِجَنَّهُمْ مِنْهَا أَذِلَّةً﴾ أَي : ولنخرجهم من بلدتهم أذلة ﴿وَهُمْ صَاغِرُونَ﴾ أَي : مهانون مدحورون . فلما رجعت إليها رسلها بهديتها ، وبما قال سليمان : سمعت وأطاعت هي وقومها ، وأقبلت تسير إليه في جنودها خاضعة ذليلة معظمة لسليمان ناوية متابعته في الإسلام ، ولما تحقق سليمان عليه السلام قدومهم عليه ، ووفودهم إليه فرح بذلك وسره .

﴿قَالَ يَبْنَئُ الْآلَمُؤُا إِلَيْكُمْ بِأَيْمَنِ بَعْرِيهَا بَلْ أَنْ يَأْتِيَنَّ سُلَيْمَانَ﴾ ﴿٤٢﴾ قَالَ عِفْرِيتٌ مِّنَ الْجِنِّ أَنَا ءَايِكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ وَإِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٌ ﴿٤٣﴾ قَالَ أَلَيْسَ عِنْدَهُ عِلْمٌ مِّنَ الْكِتَابِ أَنَا ءَايِكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ فَلَمَّا رَآهُ مُسْتَقِرًّا عِنْدَهُ قَالَ هَذَا مِن فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي ءَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَجِي عَنِّي كَرْيَمٌ ﴿٤٤﴾ .

عن يزيد بن رومان قال : فلما رجعت إليها الرسل بما قال سليمان قالت : قد والله عرفت ما هذا بملك ، وما لنا به من طاقة ، وما نصنع بمكابرته شيئاً ، وبعثت إليه : إني قادمة عليك بملوك قومي لأنظر ما أمرك ، وما تدعوننا إليه من دينك ، ثم أمرت بسرير ملكها الذي كانت تجلس عليه . وكان من ذهب مفصص بالياقوت والزبرجد واللؤلؤ ، فجعل في سبعة آيات بعضها في بعض ، ثم أقفلت عليه الأبواب ، ثم قالت لمن خلقت على سلطانها : احتفظ بما قبلك وسرير ملكي فلا يخلص إليه أحد من عباد الله ، ولا يرينه أحد حتى آتيك ، ثم شخصت إلى سليمان في اثني عشر ألف ، قيل : من ملوك اليمن تحت يدي كل قبيل منهم ألوف كثيرة ، فجعل سليمان يبعث الجن يأتونه بمسيرها ومنتهاها كل يوم وليلة ، حتى إذا دنت جمع من الجن والإنس من تحت يده فقال : ﴿ يٰٓأَيُّهَا الْمَلَكُ أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بِعَرْشِيْهَا قَبْلَ أَنْ يَأْتُوْنِي سُلَيْمٰنَ ﴾ . وقال قتادة : لما بلغ سليمان أنها جائية ، وكان قد ذكر له عرشها فأعجبه . وكان من ذهب وقوائمه لؤلؤ وجوهر ، وكان مستتراً بالدياج والحري ، وكانت عليه تسعة مغاليق ، فكره أن يأخذه بعد إسلامهم . وقد علم نبي الله أنهم متى أسلموا تحرم أموالهم ودمائهم فقال : ﴿ قَالَ يٰٓأَيُّهَا الْمَلَكُ أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بِعَرْشِيْهَا قَبْلَ أَنْ يَأْتُوْنِي سُلَيْمٰنَ ﴾ وهكذا قال عطاء والسدي . ﴿ قَبْلَ أَنْ يَأْتُوْنِي سُلَيْمٰنَ ﴾ فحرم علي أموالهم بإسلامهم ﴿ قَالَ عَفِيْتُ مِّنَ الْجَنِّ ﴾ قال مجاهد : أي مارد من الجن ، قال أبو صالح : وكان كأنه جبل ﴿ أَنَاْ أَمْرِيْكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ تَقُوْمَ مِنْ مَّعٰلِكَ ﴾ قال ابن عباس ؓ : يعني قبل أن تقوم من مجلسك . وقال مجاهد : مقعدك . وقال السدي وغيره : كان يجلس للناس للقضاء والحكومات ، وللطعام من أول النهار إلى أن تزول الشمس ﴿ وَلَٰٓئِيْ عَلَيْهِ لَقَوِيْ أَمِيْنَ ﴾ قال ابن عباس : أي قوي على حمله ، أمين على ما فيه من الجوهر ، فقال سليمان ؓ : أريد أعجل من ذلك ، ومن ها هنا يظهر أن سليمان أراد بإحضار هذا السرير إظهار عظمة ما وهب الله له من الملك ، وما سخر له من الجنود الذي لم يعطه أحد قبله ، ولا يكون لأحد من بعده ، وليتخذ ذلك حجة على نبوته عند بلقيس وقومها ؛ لأن هذا خارق عظيم أن يأتي بعرشها كما هو من بلادها قبل أن يقدموا عليه ، هذا وقد حجبتة بالأغلاق والأقفال والحفظة . فلما قال سليمان : أريد أعجل من ذلك ﴿ قَالَ الَّذِي عِنْدَهُ عِلْمٌ مِّنَ الْكِتٰبِ ﴾ قال ابن عباس : وهو آصف كاتب سليمان ، وكان صديقاً يعلم الاسم الأعظم . وقال قتادة : كان مؤمناً من الإنس واسمه آصف . زاد قتادة : من بني إسرائيل . وقال زهير بن محمد : هو رجل من الإنس يقال له ذو النور . وقوله : ﴿ أَنَاْ أَمْرِيْكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ ﴾ أي ارفع بصرك ، وانظر مد بصرك بما تقدر عليه ، فإنك لا يكل بصرك إلا وهو حاضر عندك ، فذكروا أنه أمره أن ينظر نحو اليمن التي فيها هذا العرش المطلوب ، ثم قام فتوضأ ودعا الله تعالى . قال مجاهد : قال : يا ذا الجلال والإكرام . قال الزهري : قال : يا إلهنا وإله كل شيء إلهنا واحداً لا إله إلا أنت اثنتي بعرشها . قال : فمثل بين يديه . قال مجاهد وغيره : لما دعا الله تعالى وسأله أن يأتيه بعرش بلقيس ، وكان في اليمن وسليمان ؓ بيت المقدس غاب السرير ، وغاص في الأرض ثم نبع من بين يدي سليمان .

وقال عبد الرحمن بن زيد أسلم : لم يشعر سليمان إلا وعرشها يحمل بين يديه قال : وكان هذا الذي جاء به من عباد البحر ، فلما عاين سليمان وملؤه ذلك ورآه مستقراً عنده ﴿ قَالَ هٰذَا مِنْ فَضْلِ

رَبِّي ﴿ أَي : هذا من نعم الله علي ﴿ لِبَلَوِّي ﴾ أي : ليختبرني ﴿ أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ وَمَنْ شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ ﴾ . كقوله : ﴿ مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا ﴾ . وقوله : ﴿ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّيَ غَنِيٌّ كَرِيمٌ ﴾ أي : هو غني عن العباد وعبادتهم ﴿ كَرِيمٌ ﴾ أي : كريم في نفسه ، وإن لم يعبد أحد ، فإن عظمته ليست مفتقرة إلى أحد ، وهذا كما قال موسى : ﴿ إِنْ تَكْفُرُوا أَنْتُمْ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ اللَّهَ لَغَفِيٌّ حَمِيدٌ ﴾ وفي صحيح مسلم « يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى : يَا عِبَادِيَ لَوْ أَنَّ أُولَئِكَ وَآخِرَهُمْ ، وَإِنْسَكُمْ وَجِئْتُكُمْ ، كَانُوا عَلَى أَتَقْبَى قَلْبِ رَجُلٍ مِنْكُمْ مَا زَادَ ذَلِكَ فِي مُلْكِي شَيْعًا . يَا عِبَادِيَ لَوْ أَنَّ أُولَئِكَ وَآخِرَهُمْ ، وَإِنْسَكُمْ وَجِئْتُكُمْ كَانُوا عَلَى أَفْجَرِ قَلْبِ رَجُلٍ مِنْكُمْ مَا تَقَصَّ ذَلِكَ مِنْ مُلْكِي شَيْعًا . يَا عِبَادِيَ إِنَّمَا هِيَ أَعْمَالُكُمْ أَحْصَيْهَا لَكُمْ ، ثُمَّ أَوْفَيْكُمْ بِهَا فَمَنْ وَجَدَ خَيْرًا فَلْيَحْمِدِ اللَّهَ ، وَمَنْ وَجَدَ غَيْرَ ذَلِكَ فَلَا يَلُومَنَّ إِلَّا نَفْسَهُ » (١) .

﴿ قَالَ نَكْرُوا لِمَا عَرَّشَهَا نَظَرُ أَهْنَدِي أَرَبُ تَكُونُ مِنَ الَّذِينَ لَا يَهْتَدُونَ ﴾ ﴿ فَلَمَّا جَاءَتْ قِيلَ أَهَكَذَا عَرْشِي قَالَتْ كَأَنَّهُ هُوَ وَأُوتِينَا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهَا وَكَأَنَّ سُلَيْمَانَ ﴾ ﴿ وَصَدَّهَا مَا كَانَتْ تَعْبُدُ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنَّهَا كَانَتْ مِنْ قَوْمٍ كَافِرِينَ ﴾ ﴿ قِيلَ لَهَا ادْخُلِي الصَّرْحَ فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَنْ سَاقِهَا قَالَتْ إِنَّهُ صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ مِنْ قَوَارِيرَ قَالَتْ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ .

لما جيء سليمان عليه السلام بعرش بلقيس قبل قدومها ، أمر به أن يغير بعض صفاته ليختبر معرفتها وثباتها عند رؤيته هل تقدم على أنه عرشها أو أنه ليس بعرشها فقال : ﴿ نَكْرُوا لِمَا عَرَّشَهَا نَظَرُ أَهْنَدِي أَرَبُ تَكُونُ مِنَ الَّذِينَ لَا يَهْتَدُونَ ﴾ قال ابن عباس : نزع منه فصوصه ومرافقه ، وقال مجاهد : أمر به بغير ما كان فيه أحمر جعل أصفر ، وما كان أخضر جعل أحمر ، غير كل شيء عن حاله . وقال عكرمة : زادوا فيه ونقصوا . وقال قتادة : جعل أسفله أعلاه ، ومقدمه مؤخره ، وزادوا فيه ونقصوا ﴿ فَلَمَّا جَاءَتْ قِيلَ أَهَكَذَا عَرْشِي ﴾ أي : عرض عليها عرشها وقد غير ونكر ، فكان فيها ثبات وعقل ، ولها لب ودهاء وحزم ، فلم تقدم على أنه هو لبعد مسافته عنها ، ولا أنه غيره لما رأت من آثاره وصفاته ، وإن غير وبدل ونكر . فقالت : ﴿ كَأَنَّهُ هُوَ ﴾ أي : يشبهه ويقاربه . وهذا غاية في الذكاء والحزم . وقوله : ﴿ وَأُوتِينَا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهَا وَكَأَنَّ سُلَيْمَانَ ﴾ قال مجاهد : يقول سليمان ، وقال تعالى : ﴿ وَصَدَّهَا مَا كَانَتْ تَعْبُدُ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنَّهَا كَانَتْ مِنْ قَوْمٍ كَافِرِينَ ﴾ هذا من تمام كلام سليمان عليه السلام في قول مجاهد ، أي : قال سليمان ﴿ وَأُوتِينَا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهَا وَكَأَنَّ سُلَيْمَانَ ﴾ ، وهي كانت قد صدها أي : منعها من عبادة الله وحده ﴿ مَا كَانَتْ تَعْبُدُ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنَّهَا كَانَتْ مِنْ قَوْمٍ كَافِرِينَ ﴾ . وقاله ابن جرير أيضًا ، ثم قال ابن جرير : ويحتمل أن يكون في قوله : ﴿ وَصَدَّهَا ﴾ ضمير يعود إلى سليمان أو إلى الله ﷻ تقديره ومنعها ﴿ مَا كَانَتْ تَعْبُدُ مِنْ دُونِ اللَّهِ ﴾ أي : صدها عن عبادة غير الله ﴿ إِنَّهَا كَانَتْ مِنْ قَوْمٍ كَافِرِينَ ﴾ قلت : ويؤيد قول مجاهد أنها إنما أظهرت الإسلام بعد دخولها إلى الصرح كما سيأتي .

وقوله : ﴿ قِيلَ لَهَا ادْخُلِي الصَّرْحَ فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَنْ سَاقِهَا ﴾ وذلك أن سليمان عليه السلام الشياطين فبنوا لها تمصراً عظيماً من قوارير ، أي : من زجاج ، وأجرى تحته الماء فالذي لا يعرف أمره يحسب أنه ماء ، لكن الزجاج يحول بين الماشي وبينه ﴿ فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَنْ سَاقِهَا ﴾ لا

تشك أنه ماء تخوضه قيل لها ﴿ إِنَّهُ سَرَجٌ مُّزْدًى مِنْ قَوَارِيرٍ ﴾ . فلما وقفت على سليمان دعاها إلى عبادة الله ﷻ وحده ، وعاتبها في عبادتها الشمس من دون الله فقالت بقول الزنادقة . فوقع سليمان ساجداً إعظاماً لما قالت ، وسجد معه الناس ، فسقط في يديها حين رأت سليمان صنع ما صنع فلما رفع سليمان رأسه قال : ويحك ماذا قلت ؟ قالت : أنسيت ما قلت ؟ فقالت : ﴿ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ فأسلمت وحسن إسلامها .

قلت : أصل الصرح في كلام العرب هو : القصر وكل بناء مرتفع ، قال ﷻ لإخباراً عن فرعون لعنه الله أنه قال لوزير هامان ﴿ ابْنِي لِي مِصْرًا لَعَلِّي أَتْلُجَ الْآبَتَيْنِ ﴾ الآية . والصرح قصر في اليمن عالي البناء ، والمرد المبني بناءً محكمًا أملس ﴿ مِنْ قَوَارِيرٍ ﴾ أي : زجاج ، وتمريد البناء تمليسه ، ومارد : حصن بدومة الجندل . والغرض أن سليمان ﷻ اتخذ قصرًا عظيمًا منيفًا من زجاج لهذه الملكة ليربها عظيمة سلطانه وتمكنه ، فلما رأت ما آتاه الله وجلالة ما هو فيه ، وتبصرت في أمره انقادت لأمر الله تعالى ، وعرفت أنه نبي كريم ، وملك عظيم ، وأسلمت لله ﷻ . وقالت : ﴿ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي ﴾ أي : بما سلف من كفرها وشركها ، وعبادته وقومها للشمس من دون الله ﴿ وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ أي : متابعة لدين سليمان في عبادته لله وحده لا شريك له الذي خلق كل شيء بقدره تقديرًا .

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِنْ ثُمُودَ أَنَا هُمْ صَالِحًا أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ فَإِذَا هُمْ فَرِيقَانِ يَخْتَصِمُونَ ﴾ ٥٥ قَالَ يَتَقَوَّمُ لِمَ سَتَعْبُدُونَ بِالسِّينَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ لَوْلَا سَتَعْبُدُونَ اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ٥٦ قَالُوا أَطِيعُوا بِكَ وَيَمْنُ مَعَكَ قَالِ طَاعَتُكُمْ عِنْدَ اللَّهِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ ٥٧ .

يخبر تعالى عن ثمود وما كان من أمرها مع نبيها صالح ﷻ ، حين بعثه الله إليهم فدعاهم إلى عبادة الله وحده لا شريك له ﴿ فَإِذَا هُمْ فَرِيقَانِ يَخْتَصِمُونَ ﴾ قال مجاهد : مؤمن وكافر ﴿ قَالَ يَتَقَوَّمُ لِمَ سَتَعْبُدُونَ بِالسِّينَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ ﴾ أي : لم تدعون بحضور العذاب ، ولا تطلبون من الله رحمته . ولهذا قال : ﴿ لَوْلَا سَتَعْبُدُونَ اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾ ٥٦ قَالُوا أَطِيعُوا بِكَ وَيَمْنُ مَعَكَ ﴾ أي : ما رأينا على وجهك ووجه من اتبعك خيرًا ، وذلك أنهم لشقاؤهم كان لا يصيب أحدًا منهم سوء إلا قال : هذا من قبل صالح وأصحابه . قال مجاهد : تشاءموا بهم ، وهذا كما قال الله تعالى لإخباراً عن قوم فرعون : ﴿ فَإِذَا جَاءَتْهُمُ الْحَسَنَةُ قَالُوا لَنَا هَذِهِ وَإِنْ تُصِيبُنَا سَيِّئَةٌ بَطَلَتْ أَيْمَانُنَا وَمِمَّا مَعَهُ ﴾ الآية . وقال هؤلاء : ﴿ أَطِيعُوا بِكَ وَيَمْنُ مَعَكَ قَالِ طَاعَتُكُمْ عِنْدَ اللَّهِ ﴾ أي : الله يجازيكم على ذلك ﴿ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ ﴾ قال قتادة : تبتلون بالطاعة والمعصية . والظاهر أن المراد بقوله : ﴿ تُفْتَنُونَ ﴾ أي : تستدرجون فيما أنتم فيه من الضلال .

﴿ وَكَانَ فِي الْمَدِينَةِ بَيْتٌ زَهِيدٌ يُغْدِقُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ﴾ ٥٨ قَالُوا تَقَاسَمُوا بِاللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُ وَأَهْلَهُ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ ٥٩ وَمَكْرُؤًا مَكَرًا وَكَمْ كُنَّا مَكْرًا وَمِمَّا لَا يَشْعُرُونَ ٦٠ فَأَنْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ مُكْرِهِمْ أَنَّا دَمَّرْنَاهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمِينَ ٦١ فَبَلَكَ بُيُوتَهُمْ بِأَرِيقَةٍ يَمَّا ظَلَمُوا وَإِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ٦٢ وَأَجْبَسْنَا أَلْبَانَهُمْ وَكُنُوا يَقْنُوتَ ٦٣ .

يخبر تعالى عن طغاة ثمود ورؤوسهم الذين كانوا دعاة قومهم إلى الضلال والكفر ، وتكذيب صالح وآل بهم الحال إلى أنهم عقروا الناقة ، وهما يقتل صالح أيضًا ، بأن يبيتوه في أهله ليلاً ، فيقتلوه

غلية ، ثم يقولوا لأوليائه من أقربيه إنهم ما علموا بشيء من أمره ، وإنهم لصادقون فيما أخبروهم به من أنهم لم يشاهدوا ذلك . فقال تعالى : ﴿ وَكَانَ فِي الدِّينَةِ ﴾ أي : مدينة ثمود ﴿ تِسْعَةُ رَعِيطٍ ﴾ أي : تسعة نفر ﴿ يُقِيدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ﴾ وإنما غلب هؤلاء على أمر ثمود ؛ لأنهم كانوا كباراءهم ورؤساءهم . قال ابن عباس : هؤلاء هم الذين عقروا الناقة أي : الذين صدر ذلك عن رأيهم ومشورتهم فبجحهم الله ولعنهم ، وقد فعل ذلك . قال تعالى : ﴿ فَأَنَّا صَالِحٌ مِّمَّنْ قَطَعْنَا مَفْزَعَ ﴾ وقال تعالى : ﴿ إِذْ أُنْعِتْ أَشْقَاهَا ﴾ . وقال عطاء - ابن أبي رباح - ﴿ وَكَانَ فِي الدِّينَةِ تِسْعَةُ رَعِيطٍ يُقِيدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ﴾ قال : كانوا يقرضون الدراهم ، يعني أنهم كانوا يأخذون منها ، وكأنهم كانوا يتعاملون بها عددًا كما كان العرب يتعاملون . وعن سعيد بن المسيب أنه قال : قطع الذهب والورق من الفساد في الأرض ، وفي الحديث أن رسول الله ﷺ نهى عن كسر سكة المسلمين الجائزة بينهم إلا من بأس^(١) . والغرض أن هؤلاء الكفرة الفسقة كان من صفاتهم الإفساد في الأرض بكل طريق يقدرون عليها ، فمنها ما ذكره هؤلاء الأئمة وغير ذلك . وقوله تعالى : ﴿ فَأَلَا تَنَاسَوْنَ بِاللَّهِ لَكَيْتَنَّهُمْ وَأَهْلُهُمْ ﴾ أي : تحالفوا وتبايعوا على قتل نبي الله صالح عليه السلام من لقيه ليلاً غيلة ، فكادهم الله وجعل الدائرة عليهم . قال مجاهد : تناسموا وتحالفوا على هلاكه ، فلم يصلوا إليه ، حتى هلكوا وقومهم أجمعين . وقال محمد بن إسحاق : قال هؤلاء التسعة بعدما عقروا الناقة : هلم فلنقتل صالحاً ، فإن كان صادقاً عجلناه قبلنا ، وإن كان كاذباً كنا قد ألحقناه بناقته . فَأَتَوْهُ لَيْلًا لِبَيْتِهِ فِي أَهْلِهِ ، فدمغتهم الملائكة بالحجارة ، فلما أبطأوا على أصحابهم أتوا منزل صالح ، فوجدوهم منشدين قد رضحوا بالحجارة ، فقالوا لصالح : أنت قتلتهم ثم هموا به ، فقامت عشرته دونه ، ولبسوا السلاح ، وقالوا لهم : والله لا تقتلونه أبداً ، وقد وعدكم أن العذاب نازل بكم في ثلاث ، فإن كان صادقاً تزيدوا ربكم عليكم غضباً ، وإن كان كاذباً فأنتم من وراء ما تريدون ، فانصرفوا عنهم ليلتهم تلك . وقال عبد الرحمن بن أبي حاتم : لما عقروا الناقة قال لهم صالح : ﴿ تَمَتُّوْا فِي دَارِكُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ ذَلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ ﴾ قالوا : زعم صالح أنه يفرغ منا إلى ثلاثة أيام ، فنحن نفرغ منه وأهله قبل ثلاث . وكان لصالح مسجد في الحجر عند شعيب هناك يصلي فيه ، فخرجوا إلى كهف - أي : غار - هناك ليلاً فقالوا : إذا جاء يصلي قتلناه ، ثم رجعنا إذا فرغنا منه إلى أهله ، ففرغنا منهم . فبعث الله عليهم صخرة من الهضب حيالهم ، فخشوا أن تشدهم فتبادروا ، فانطبقت عليهم الصخرة وهم في ذلك الغار فلا يدري قومهم أين هم ، ولا يدرون ما فعل بقومهم : فعذب الله هؤلاء ها هنا ، وهؤلاء ها هنا ، وأنجى الله صالحاً ومن معه ثم قرأ : ﴿ وَتَكُونُوا مَكْرًا وَتَكُونُوا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ ٥٠ فَأَنْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ مُكْرِهِمْ ٥١ أَنَّا دَمَّرْنَاهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ ٥٢ فَبَلَكَ يَوْمَهُمْ تَخَابِكُهُمْ ٥٣ أَي : فارغة ليس فيها أحد ﴿ يَمَّا ظَلَمُوا لَكَ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ٥٤ وَأَنجَيْنَا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ ٥٥ .

﴿ وَلَوْطَا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَتَحَةَ وَأَنْتُمْ تُبْعِرُونَ ٥٦ أَلَيْسَ لَكُم مِّنْ دُونِ النَّسَاءِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ يَّجْهَلُونَ ٥٧ ﴾ ٥٨ فَكَانَ جَوَابَ قَوْمِهِمْ إِلَّا أَن كَالُوا أَخْرَجُوا آلَ لُوطٍ مِّنْ قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أَنَاسٌ

يَطْهَرُونَ ﴿٥٤﴾ فَأَجْنَحْنَهُ وَوَلَّهُهُ إِلَّا أَمْرًا ثُمَّ قَدَرْنَاهَا مِنَ الْغَيْبِ ﴿٥٥﴾ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا فَسَاءَ مَطَرُ الْأُنْذِرِينَ ﴿٥٦﴾ .

يخبر تعالى عن عبده ورسوله لوط عليه السلام أنه أنذر قومه نعمة الله بهم في فعلهم الفاحشة ، التي لم يسبقهم إليها أحد من بني آدم ، وهي إتيان الذكور دون الإناث ، وذلك فاحشة عظيمة استغنى الرجال بالرجال ، والنساء بالنساء ، فقال : ﴿ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ وَأَنْتُمْ تُبْغِضُونَ ﴾ أي : يرى بعضكم بعضا ، وتأتون في ناديك المنكر ﴿ إِنْكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِنْ دُونِ النِّسَاءِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ بُغْهَلُونَ ﴾ أي : لا تعرفون شيئا لا طبعًا ولا شرعًا ، كما قال في الآية الأخرى : ﴿ أَتَأْتُونَ الذَّكَرَانَ مِنَ الْمَلْعُونِينَ ﴾ ﴿ وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ ﴾ . ﴿ فَمَا كَانَتْ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَخْرِجُو آلَ لُوطٍ مِنْ قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أَنْاسٌ يَبْغِضُونَ ﴾ أي : يتخرجون من فعل ما تفعلونه ، ومن إقراركم على صنيعكم ، فأخرجوهم من بين أظهركم ، فإنهم لا يصلحون لمجاورتكم في بلادكم ، فعزموا على ذلك ، فدمر الله عليهم وللكافرين أمثالهم ، قال الله تعالى : ﴿ فَأَجْنَحْنَهُ وَوَلَّهُهُ إِلَّا أَمْرًا ثُمَّ قَدَرْنَاهَا مِنَ الْغَيْبِ ﴾ أي : من الهالكين مع قومها ؛ لأنها كانت ردة لهم على دينهم وعلى طريقتهم ، في رضاها بأفعالهم القبيحة ، فكانت تدل قومها على ضيفان لوط ليأتوا إليهم ، لا أنها كانت تفعل الفواحش تكرمه لنبي الله عليه السلام لا كرامة لها . وقوله تعالى : ﴿ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا ﴾ أي : حجارة من سجيل منضود مسومة عند ربك ، وما هي من الظالمين يبيعد ولهذا قال : ﴿ فَسَاءَ مَطَرُ الْأُنْذِرِينَ ﴾ أي : الذين قامت عليهم الحجة ووصل إليهم الإنذار ، فخالقوا الرسول وكذبوه ، وهما بإخراجه من بينهم .

﴿ قُلْ لِّمَنْدُ اللَّهِ وَسَلِّمْ عَلَى عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَى اللَّهُ خَيْرٌ مِمَّا يَشْرُكُونَ ﴾ ﴿ أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا بِهِ حَبَائِظَ ذَاتِ بَهْجَةٍ مَا كَانَتْ لَكُمْ أَنْ تُنْبِتُوا شَجَرَهَا أَوَّلَهُ مَعَ اللَّهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ ﴾ .

يقول تعالى أمرا رسوله عليه السلام أن يقول : ﴿ لِّمَنْدُ اللَّهِ وَسَلِّمْ عَلَى عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَى ﴾ أي : على نعمه على عباده من النعم التي لا تعد ولا تحصى ، وعلى ما اتصف به من الصفات العلى والأسماء الحسنى ، وأن يسلم على عباد الله الذين اصطفاهم واختارهم ، وهم رسله وأنبيأؤه الكرام ، وقال الثوري : هم أصحاب محمد عليه السلام ، ورضي عنهم أجمعين . ولا منافاة فإنهم إذا كانوا من عباد الله الذين اصطفى فالأنبياء بطريق الأولى والأخرى . والقصد أن الله تعالى أمر رسوله ومن اتبعه بعد ذكره لهم ما فعل بأوليائه من النجاة والنصر والتأييد ، وما أحل بأعدائه من الخزي والنكال والقهر ، أن يحمده على جميع أفعاله ، وأن يسلموا على عباده المصطفين الأخيار . وعن ابن عباس : ﴿ وَسَلِّمْ عَلَى عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَى ﴾ قال : هم أصحاب محمد عليه السلام اصطفاهم الله لنبيه ﷺ .

وقوله تعالى : ﴿ اللَّهُ خَيْرٌ مِمَّا يَشْرُكُونَ ﴾ ؟ استفهام إنكار على المشركين في عبادتهم مع الله آلهة أخرى ، ثم شرع تعالى يبين أنه المنفرد بالخلق والرزق والتدبير دون غيره فقال تعالى : ﴿ أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ ﴾ أي : خلق تلك السماوات في ارتفاعها وصفاتها . وما جعل فيها ، وخلق الأرض في استفالها وكثافتها ، وما جعل فيها . وقوله تعالى : ﴿ وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً ﴾ أي : جعله رزقا للعباد ﴿ فَأَنْبَتْنَا بِهِ حَبَائِظَ ﴾ أي : بساتين . ﴿ ذَاتِ بَهْجَةٍ ﴾ أي : منظر حسن وشكل بهي ﴿ مَا كَانَتْ لَكُمْ أَنْ تُنْبِتُوا شَجَرَهَا أَوَّلَهُ مَعَ اللَّهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ ﴾ .

كَانَ لَكُمْ أَنْ تُبْنُوا شَجَرَهُمْ ﴿٦١﴾ أي : لم تكونوا تقفرون على إنبات أشجارها . وإنما يقدر على ذلك الخالق الرازق المستقل ، بذلك المتفرد به دون ما سواه من الأصنام والأنداد ، ﴿ وَلَكِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولَنَّ اللَّهُ ﴾ أي : هم معترفون بأنه الفاعل لجميع ذلك . وحده لا شريك له ، ثم هم يعبدون معه غيره مما يعترفون أنه لا يخلق ولا يرزق . وإنما يستحق أن يفرد بالعبادة ، من هو المتفرد بالخلق والرزق ، ولهذا قال تعالى : ﴿ أَوَلَمْ يَكُنْ مَعَ اللَّهِ ﴾ أي : إله مع الله يعبد ، وقد تبين لكم ولكل ذي لب مما يعترفون به أيضًا أنه الخالق الرازق !! ومن المفسرين من يقول : معنى قوله : ﴿ أَوَلَمْ يَكُنْ مَعَ اللَّهِ ﴾ فعل هذا ، وهو يرجع إلى معنى الأول ؛ لأن تقدير الجواب أنهم يقولون : ليس ثم أحد فعل هذا معه بل هو المتفرد به . فيقال : كيف تعبدون معه غيره ، كما قال : ﴿ أَفَمَنْ يَخْلُقُ كَمَنْ لَا يَخْلُقُ ﴾ الآية . وقوله تعالى ها هنا : ﴿ أَفَمَنْ خَلَقَ السَّمَكَاتِ وَالْأَرْضَ ﴾ ﴿ أَفَمَنْ أَتَى ﴾ في هذه الآيات كلها تقديره أمن يفعل هذه الأشياء كمن لا يقدر على شيء منها ؟ هذا معنى السياق ، وإن لم يذكر الآخر ؛ لأن في قوة الكلام ما يرشد إلى ذلك . وقد قال تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ خَيْرٌ أَنْ يُشْرَكَ ﴾ ، ثم قال في الآية الأخرى : ﴿ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ ﴾ أي : يجعلون لله عدلاً ونظيراً . وقال تعالى : ﴿ أَفَمَنْ هُوَ قَائِدٌ عَلَى كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ ﴾ أي : أمن هو شهيد على أفعال الخلق حرركاتهم وسكناتهم ، يعلم الغيب جليله وحقيقه ، كمن هو لا يعلم ولا يسمع ولا يبصر من هذه الأصنام التي عبدوها من دون الله ؟ ﴿ أَفَمَنْ جَعَلَ الْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَالَهَا أَنْهَارًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسِيَ وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا أَوَلَمْ يَكُنْ مَعَ اللَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ .

يقول تعالى : ﴿ أَفَمَنْ جَعَلَ الْأَرْضَ قَرَارًا ﴾ أي : قارة ساكنة ثابتة لا تميد ، ولا تتحرك بأهلها ، ولا ترتجف بهم ، فإنها لو كانت كذلك لما طاب عليها العيش والحياة ، بل جعلها من فضله ورحمته مهادًا بساطًا ثابتة لا تتزلزل ولا تتحرك . ﴿ وَجَعَلَ خِلَالَهَا أَنْهَارًا ﴾ أي : جعل فيها الأنهار العذبة الطيبة شقها في خلالها ، وصرفها فيها ما بين أنهار كبار وصغار ، وبين ذلك . وسيرها بحسب مصالح عباده وسير لهم أرزاقهم بحسب ما يحتاجون إليه . ﴿ وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسِيَ ﴾ أي : جبالاً شامخة ترسي الأرض ، وتثبتها لئلا تميد بكم . ﴿ وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا ﴾ أي : تجعل بين المياه العذبة والمالحة حاجزاً أي : مانعاً يمنعها من الاختلاط لئلا يفسد هذا بهذا وهذا بهذا . فإن الحكمة الإلهية تقتضي بقاء كل منهما على صفته المقصودة منه . فإن الأنهار السارحة الجارية بين الناس المقصود منها أن تكون عذبة زلالاً يسقى الحيوان والنبات والثمار منها . والبحار المالحة ماؤها ملح أجاج لئلا يفسد الهواء بريحها كما قال تعالى : ﴿ وَهُوَ الَّذِي مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا وَحِجْرًا مَحْجُورًا ﴾ . ولهذا قال تعالى : ﴿ أَوَلَمْ يَكُنْ مَعَ اللَّهِ ﴾ أي : فعل هذا أو يعبد على القول الأول والآخر ؟ وكلاهما متلازم صحيح ﴿ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ أي : في عبادتهم غيره .

﴿ أَفَمَنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُ لَكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ أَوَلَمْ يَكُنْ مَعَ اللَّهِ قَلِيلًا مَا تَذْكُرُونَ ﴾ .
 ينبه تعالى أنه هو المدعو عند الشدائد ، المرجو عند التوازل ﴿ أَفَمَنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ ﴾ أي : من هو الذي لا يلجأ المضطر إلا إليه ، والذي لا يكشف ضر المضرورين سواه . عن جابر بن سليم الهجيمي قال :

أَتَيْتَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ وهو محتب بشملة ، وقد وقع هديها على قدميه فقلت : أيكم محمد رسول الله ؟ فأولاً بيده إلى نفسه ، فقلت : يا رسول الله أنا من أهل البادية وفي جفاؤهم فأوصني قال : « لَا تَحْفَرْنَ مِنَ الْمَعْرُوفِ شَيْعًا ، وَلَوْ أَنَّ تَلَقَى أَخَاكَ وَوَجْهَكَ مُتَبَسِّطٌ ، وَلَوْ أَنَّ تُفْرَغَ مِنْ ذُلُوكَ فِي إِنَاءِ الْمُشْتَقِي ، وَإِنْ افْرُؤُ شَتَمَكَ بِمَا يَغْلُمُ فِيكَ ، فَلَا تَشْتُمُهُ بِمَا تَغْلُمُ فِيهِ ، فَإِنَّهُ يَكُونُ لَكَ أَجْرُهُ وَعَلَيْهِ وَزْرُهُ ، وَإِيَّاكَ وَإِسْبَالَ الْإِزَارِ ، فَإِنْ إِسْبَالَ الْإِزَارِ مِنَ الْخِيَلَةِ ، وَإِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْخِيَلَةَ ، وَلَا تَشُبُّ أَحَدًا » . قال : فما سببت بعده أحدًا ولا شاة ولا بعيرًا ^(١) . وقال عبيد الله بن أبي صالح : دخل علي طائوس يعودني فقلت له : ادع الله لي يا أبا عبد الرحمن . فقال : ادع لنفسك ، فإنه يجيب المضطر إذا دعاه . وقوله تعالى : ﴿ وَجَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ ﴾ أي : يخلف قرنًا لقرن قبلهم ، أي : أمة بعد أمة ، وجيلًا بعد جيل ، وقومًا بعد قوم ، ولو شاء لأوجدهم كلهم في وقت واحد ، ولم يجعل بعضهم من ذرية بعض ، بل لو شاء لخلقهم كلهم أجمعين كما خلق آدم من تراب ، ولو شاء أن يجعلهم بعضهم من ذرية بعض ، ولكن لا يمت أحدًا حتى تكون وفاة الجميع في وقت واحد لكانت تضيق عنهم الأرض ، وتضيق عليهم معاشهم وأكسابهم ، ويتضرر بعضهم ببعض . ولكن اقتضت حكمته وقدرته أن يخلقهم من نفس واحدة ، ثم يكثرت غاية الكثرة ، ويذراهم في الأرض ، ويجعلها قرونًا بعد قرون ، حتى ينقضي الأجل وتفرغ البرية ، كما قدر ذلك تبارك وتعالى ، ثم يقيم القيامة ويوفي كل عامل عمله إذا بلغ الكتاب أجله ، ولهذا قال تعالى : ﴿ أَتَنْ يُحِبُّ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْنِثُ أَلْسُوَ وَجَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ أَوَّلَهُ مَعَ اللَّهِ ﴾ أي : يقدر على ذلك أو إله مع الله بعد هذا ! وقد علم أن الله هو المتفرد بفعل ذلك وحده لا شريك له ؟ ﴿ قِيلَ لَا تَذْكُرُونَ ﴾ أي : ما أقل تذكرهم فيما يرشدكم إلى الحق ، ويهديهم إلى الصراط المستقيم .

﴿ أَتَنْ يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُمَاتٍ أَلْبَرٍ وَالْبَحْرِ وَمَنْ يُرْسِلُ الرِّيحَ بُشْرًا نَبَتْ يَدَى رَحْمَتِهِ أَوَّلَهُ مَعَ اللَّهِ تَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ .

يقول تعالى : ﴿ أَتَنْ يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُمَاتٍ أَلْبَرٍ وَالْبَحْرِ ﴾ أي : بما خلق من الدلائل السماوية والأرضية ، كما قال تعالى : ﴿ وَعَلَّمْنِي وَابْتَغِمْ هُمْ يَهْتَدُونَ ﴾ . ﴿ وَمَنْ يُرْسِلُ الرِّيحَ بُشْرًا نَبَتْ يَدَى رَحْمَتِهِ ﴾ أي : بين يدي السحاب الذي فيه مطر يغيث الله به عباده المجدين الأذلين القنطين ﴿ أَوَّلَهُ مَعَ اللَّهِ تَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ .

﴿ أَتَنْ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَمَنْ يَرْزُقُكَ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَوَّلَهُ مَعَ اللَّهِ قُلْ مَا كُنَّا بِرُفْعَتِكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ . أي : هو الذي بقدرته وسلطانه يبدأ الخلق ثم يعيده ، كما قال تعالى في الآية الأخرى : ﴿ إِنَّ بَلَدًا رَيْكَ لَشَرِيدٌ ﴾ إِنَّهُ هُوَ بَدِئُ وَيُئِدُّ . ﴿ وَمَنْ يَرْزُقُكَ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ﴾ أي : بما ينزل من مطر السماء ، وينبت من بركات الأرض ، كما قال تعالى : ﴿ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَرْجِعُ فِيهَا ﴾ فهو تبارك وتعالى ينزل من السماء ماء فيسلكه ينابيع في الأرض ، ثم يخرج به منها أنواع الزروع والثمار ، والأزاهير وغير ذلك من ألوان شتى ﴿ كُلُوا وَارْعَوْا أَنْفُسَكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ لَّاؤُلَى الْأَنْفَى ﴾ ولهذا قال تعالى : ﴿ أَوَّلَهُ مَعَ اللَّهِ ﴾ أي : فعل هذا ، وعلى القول الآخر بعد

هذا ﴿ قُلْ مَا تَدْعُونَ مِنْ عِبَادَةِ آلِهَةٍ أُخْرَى ، ﴿ إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ في ذلك ، وقد علم أنه لا حجة لهم ولا برهان كما قال تعالى : ﴿ وَمَنْ يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا لَّغَرٌ لَا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِنْدَ رَبِّهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ ﴾ .

﴿ قُلْ لَا يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ﴾ ﴿ بَلْ أَذْرَكَ عِلْمُهُمْ فِي الْآخِرَةِ بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِنْهَا بَلْ هُمْ مِنْهَا عَمُونَ ﴾ .

يقول تعالى أمراً رسوله ﷺ أن يقول معلماً لجميع الخلق أنه لا يعلم أحد من أهل السماوات والأرض الغيب إلا الله . وقوله تعالى : ﴿ إِلَّا اللَّهُ ﴾ استثناء منقطع أي : لا يعلم أحد ذلك إلا الله ﷻ ، فإنه المنفرد بذلك وحده لا شريك له كما قال تعالى : ﴿ وَحْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ ﴾ الآية . والآيات في هذا كثيرة . وقوله تعالى : ﴿ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ﴾ أي : وما يشعر الخلاق الساكنون في السماوات والأرض بوقت الساعة كما قال تعالى : ﴿ تَنَزَّلُ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا تَأْتِيكُمُ إِلَّا بَغْتَةً ﴾ أي : ثقل علمها على أهل السماوات والأرض . وعن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قالت : من زعم أنه يعلم - يعني النبي ﷺ - ما يكون في غد فقد أعظم على الله الفرية ؛ لأن الله تعالى يقول : ﴿ قُلْ لَا يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ ﴾ . وقال قتادة : إنما جعل الله هذه النجوم لثلاث خصال : جعلها زينة للسماء ، وجعلها يهتدى بها ، وجعلها رجوماً للشياطين ، فمن تعاطى فيها غير ذلك ، فقد قال برأيه وأخطأ حظه ، وأضاع نصيبه ، وتكلف ما لا علم له به . وإن أناساً جهلة بأمر الله قد أحدثوا من هذه النجوم كهانة ، من أعرس بنجم كذا وكذا كان كذا وكذا ، ومن سافر بنجم كذا وكذا كان كذا وكذا ، ومن ولد بنجم كذا وكذا كان كذا وكذا ، ولعمري ما من نجم إلا يولد به الأحمر والأسود ، والقصير والطويل ، والحسن والذميم ، وما علم هذا النجم ، وهذه الدابة ، وهذا الطير بشيء من الغيب ، وقضى الله تعالى أنه لا يعلم من في السماوات والأرض الغيب إلا الله ، وما يشعرون أيان يبعثون . وقوله : ﴿ بَلْ أَذْرَكَ عِلْمُهُمْ فِي الْآخِرَةِ بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِنْهَا ﴾ أي : انتهى علمهم ، وعجز عن معرفة وقتها . وقرأ آخرون : ﴿ بَلْ أَذْرَكَ عِلْمُهُمْ ﴾ أي : تساوى علمهم في ذلك . كما في الصحيح لمسلم أن رسول الله ﷺ قال لجبريل وقد سأله عن وقت الساعة : ﴿ مَا الْمَسْئُولُ عَنْهَا بِأَعْلَمَ مِنَ السَّائِلِ ﴾ ^(١) أي : تساوى في العجز عن درك ذلك علم المسؤل والسائل . قال ابن عباس : أي غاب . وقال قتادة : يعني : بجهلهم بربهم ، يقول : لم ينفذ لهم علم في الآخرة . وعن عطاء الخراساني ابن عباس : ﴿ بَلْ أَذْرَكَ عِلْمُهُمْ فِي الْآخِرَةِ ﴾ أي : حين لم ينفع العلم . وبه قال السدي أن علمهم إنما يدرك ، ويكمل يوم القيامة حيث لا ينفعهم ذلك . كما قال تعالى : ﴿ أَتَمِيعَ يَوْمٍ وَتَجِيرَ يَوْمٍ يَأْتُونَنَا لَكِنِ الْفَالِغُونَ أَلَيْمٌ فِي صُلُوكِ مُبِينٍ ﴾ . وعن الحسن أنه كان يقرأ : ﴿ بَلْ أَذْرَكَ عِلْمُهُمْ ﴾ ^(٢) قال : اضمحل علمهم في الدنيا حين عاينوا الآخرة . وقوله تعالى : ﴿ بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِنْهَا ﴾ عائد على الجنس والمراد الكافرون . أي شاكون في وجودها ووقوعها . ﴿ بَلْ هُمْ مِنْهَا عَمُونَ ﴾ أي : في عماية وجهل كبير في أمرها وشأنها .

(١) أخرجه مسلم في (الإيمان) (١ ، ٧ ، ٥) والإمام أحمد في مسنده (٤٢٦/٢) .

(٢) قرأ ابن كثير وأبو عمرو ﴿ بَلْ أَذْرَكَ ﴾ وقرأ نافع وابن عامر وعاصم وحزمة والكسائي ﴿ بَلْ اِدَارَكَ ﴾ انظر زاد المسير (١٨٨/٦) .

وتباينهم فيه فاليهود افتروا ، والنصارى غلوا ، فجاء القرآن بالقول الوسط الحق العدل أنه عبد من عباد الله وأنبياؤه ورسله الكرام . كما قال تعالى : ﴿ ذَٰلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ الْخَوَافِ الَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ ﴾ وقوله : ﴿ وَإِنَّهُ لَمُدَىٰ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴾ أي : هدى لقلوب المؤمنين به ، ورحمة لهم في العمليات . ثم قال تعالى : ﴿ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ ﴾ أي : يوم القيامة . ﴿ بِحُكْمِهِ وَهُوَ الْعَزِيزُ ﴾ أي : في انتقامه ﴿ الْعَلِيمُ ﴾ بأفعال عبادته وأقوالهم . ﴿ تَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ ﴾ أي : في جميع أمورك ، وبلغ رسالة ربك . ﴿ إِنَّكَ عَلَى الْخَوَافِ الْخَوَافِ ﴾ . أي : أنت على الحق المبين ، وإن خالفك من خالفك ممن كتبت عليه الشقاوة : ﴿ إِنَّكَ لَا تَسْمَعُ الْكُفْرَ ﴾ أي : لا تسمعهم شيئاً ينفعهم . فكذلك هؤلاء على قلوبهم غشاوة ، وفي آذانهم وقر الكفر ، ولهذا قال تعالى : ﴿ وَلَا تَسْمَعُ الْكُفْرَ إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ ﴾ وَمَا أَنْتَ بِهَدَى الْأَمْرِ عَنْ سَلَاقَتِهِمْ إِنْ تَسْمَعُ إِلَّا مَنْ يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا فَهُمْ مُسْلِمُونَ ﴾ أي : إنما يستجيب لك من هو سميع بصير السمع والبصر النافع في القلب ، والبصيرة الخاضع لله ، ولما جاء عنه على السنة . الرسل ﷺ .

﴿ وَإِذَا وَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَابَّةً مِّنَ الْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ النَّاسَ كَانُوا بِآيَاتِنَا لَا يُوقِنُونَ ﴾ .

هذه الدابة تخرج في آخر الزمان عند فساد الناس ، وتركهم أوامر الله ، وتبديلهم الدين الحق ، يخرج الله لهم دابة من الأرض قيل : من مكة ، وقيل : من غيرها - كما سيأتي تفصيله إن شاء الله تعالى - فتكلم الناس على ذلك . قال ابن عباس : ويروى عن علي عليه السلام تكلمهم كلاماً أي : تخاطبهم مخاطبة . وقال عطاء الخراساني : تكلمهم فقول لهم : إن الناس كانوا بآياتنا لا يوقنون . وفي هذا القول نظر لا يخفى والله أعلم . وقال ابن عباس في رواية : تجرحهم ، وعنه رواية قال : كلاً تفعل يعني هذا وهذا ، وهو قول حسن ، ولا منافاة والله أعلم . وفي الحديث : « لَا تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى تَرَوْا عَشْرَ آيَاتٍ : طُلُوعُ الشَّمْسِ مِنْ مَغْرِبِهَا ، وَالْدُّخَانُ ، وَخُرُوجُ يَأْجُوجَ وَمَاجُوجَ ، وَخُرُوجُ عِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ ، وَالْجَبَالُ ، وَثَلَاثَةُ خُسُوفٍ : خُسُوفٌ بِالْمَغْرِبِ ، وَخُسُوفٌ بِالْمَشْرِقِ ، وَخُسُوفٌ بِجَزِيرَةِ الْعَرَبِ ، وَنَارٌ تَخْرُجُ مِنْ قَعْرِ عَدْنٍ تَسْوِقُ - أَوْ تَحْشُرُ - النَّاسَ تَبِيثَ مَعَهُمْ حَيْثُ بَاتُوا ، وَتَقِيلُ مَعَهُمْ حَيْثُ قَالُوا » (١) .

وعنه عليه السلام قال : « إِنَّ أَوَّلَ الْآيَاتِ خُرُوجَ طُلُوعِ الشَّمْسِ مِنْ مَغْرِبِهَا ، وَخُرُوجَ الدَّابَّةِ عَلَى النَّاسِ ضُحًى ، وَابْتِهَا كَانَتْ قَبْلَ صَاحِبَتِهَا ، فَلَا أُخْرَى عَلَى أَثَرِهَا قَرِينَا » (٢) .

وعنه عليه السلام قال : « بَادِرُوا بِالْأَعْمَالِ سِتًّا : طُلُوعُ الشَّمْسِ مِنْ مَغْرِبِهَا ، وَالْدُّخَانُ ، وَالْجَبَالُ ، وَالدَّابَّةُ ، وَخَاصَّةُ أَحَدِكُمْ ، وَأَمْرُ الْعَامَّةِ » (٣) .

﴿ وَيَوْمَ نَخْتَرُ مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ فَوْجًا مَّمَّنْ يُكَذِّبُ بِآيَاتِنَا فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴾ (٤) حَتَّى إِذَا جَاءَهُ قَالَ أَكَذَّبْتُمْ بِآيَاتِي وَلَمْ تُحِطُوا بِهَا عَلِمًا أَمَّا ذَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ (٥) وَوَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ بِمَا ظَلَمُوا فَهُمْ لَا يَبْطَلُونَ ﴾ (٦) أَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا آلَ إِبْرَاهِيمَ فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ .

(١) أخرجه الإمام مسلم في الفتن (٤) والإمام أحمد في مسنده (٧/٤) والترمذي في سننه (٢١٨٣) .

(٢) أخرجه ابن ماجه في سننه (٤٠٦٩) والبيهقي في مجمع الروائد (٩/٨) .

(٣) أخرجه مسلم في الفتن (١٢٨ ، ١٢٩) والإمام أحمد في مسنده (٤٠٧/٢) .

يقول تعالى مخبراً عن يوم القيامة وحشر الظالمين من المكذبين بآيات الله ورسله إلى بين يدي الله ﷻ ليسألهم عما فعلوه في الدار الدنيا تقريباً وتوبيخاً، وتصغيراً وتحقيراً فقال تعالى : ﴿ وَيَوْمَ نَخْتَرُ مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ فَرِيْقًا ﴾ أي : من كل قوم وقرن فوجاً أي : جماعة ﴿ يَمَنْ يَكْذِبُ بَيِّنَاتِنَا ﴾ كما قال تعالى : ﴿ لَعَنُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَرْسَلَهُمْ ﴾ وقوله تعالى : ﴿ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴾ قال ابن عباس ؓ : يدفعون وقال قتادة : وزعة ترد أولهم على آخرهم . وقال عبد الرحمن بن زيد : يساقون ﴿ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُمْ ﴾ ووقفوا بين يدي الله ﷻ في مقام المسألة ﴿ قَالَ أَكَذَّبْتُمْ بِآيَاتِي وَلَمْ تُحِطُوا بِهَا عَلِمًا أَمَّا أَذًا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ أي : فيسألون عن اعتقادهم وأعمالهم ، فلما لم يكونوا من أهل السعادة . وكانوا كما قال الله عنهم : ﴿ فَلَا مَلَفَ وَلَا مَكَلَ ۚ وَلَكِنْ كَذَّبُوا وَقَوْلًا ﴾ فحيث قامت عليهم الحجة ، ولم يكن لهم عذر يعتذرون به كما قال تعالى : ﴿ هَذَا يَوْمُ لَا يَظْهَرُونَ ۚ وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ ﴾ الآية . وهكذا قال ها هنا : ﴿ وَرَفَعَ الْقَوْلَ عَلَيْهِمْ بِمَا ظَلَمُوا فَهُمْ لَا يَظْهَرُونَ ﴾ أي : بهتوا فلم يكن لهم جواب ؛ لأنهم كانوا في الدار الدنيا ظلمة لأنفسهم ، وقد وردوا إلى عالم الغيب والشهادة الذي لا تخفى عليه خافية . ﴿ أَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا آلِيلَ لِسِئَلِكُمْ فِيهِ ﴾ أي : في ظلام الليل لتسكن حركاتهم بسببه ، وتهذب أنفاسهم ، ويستريحون من نصب التعب في نهارهم ﴿ وَاللَّهَارَ مُبْصِرًا ﴾ أي : منيراً مشرقاً فبسبب ذلك يتصرفون في المعاش والمكاسب ، والأسفار والتجارات ، وغير ذلك من شؤونهم التي يحتاجون إليها . ﴿ إِنَّكَ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ .

﴿ وَيَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ فَتَرْجَمَنَّ فِي السَّمَاءِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ وَكُلُّ أَنْثَىٰ ذَخِيرَةٍ ۚ وَرَأَىٰ الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدًا وَهِيَ تَمُورُ مَرَّ السَّعَابِ صُنِعَ اللَّهُ الَّذِي أَنْفَخَ كُلَّ شَيْءٍ إِنَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ من جاءه بالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِّنْهَا وَهُمْ مِنْ فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ ءَامِنُونَ ۚ وَمَنْ جَاءَهُ بِالسَّيِّئَةِ فَكَيْتٌ وَجُوهُهُمْ فِي النَّارِ هَلْ يُعْذِرُونَ إِلَّا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ .

يخبر تعالى عن هول يوم نفخة الفزع في الصور ، وهو كما جاء في الحديث قرن ينفخ فيه . وفي حديث الصور أن إسرأفيل هو الذي ينفخ فيه بأمر الله تعالى ، فينفخ فيه أولاً نفخة الفزع ويطولها ، وذلك في آخر عمر الدنيا حين تقوم الساعة على شرار الناس من الأحياء ، فيفزع من في السماوات ، ومن في الأرض ﴿ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ ﴾ وهم الشهداء ، فإنهم أحياء عند ربهم يرزقون . عن عبد الله بن عمرو ؓ وجاءه رجل فقال : ما هذا الحديث الذي تحدث أن الساعة تقوم إلى كذا وكذا ؟ فقال : سبحان الله ؟ أو : لا إله إلا الله أو كلمة نحوهما . لقد هممت أن لا أحدث أحداً شيئاً أبداً ، إنما قلت : إنكم سترون بعد قليل أمراً عظيماً يخرب البيت ، ويكون ويكون - ثم قال - قال رسول الله ﷺ : « يَخْرُجُ الدُّجَالُ فِي أُمَّتِي فَيَمُوتُكَ أَرْبَعِينَ - لَا أَذْرِي أَرْبَعِينَ يَوْماً أَوْ أَرْبَعِينَ شَهْراً أَوْ أَرْبَعِينَ عَاماً - فَيَمُوتُكَ اللَّهُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ كَأَنَّهُ غُرُورَةٌ مِنْ مَسْغُودٍ فَيَطْلُبُهُ فَيَهْلِكُهُ ، ثُمَّ يَمُوتُكَ النَّاسُ سَبْعَ سِنِينَ لَيْسَ بَيْنَ اثْنَيْنِ عَدَاوَةٌ ، ثُمَّ يُرْسِلُ اللَّهُ رِيحاً بَارِدَةً مِنْ قِبَلِ الشَّامِ ، فَلَا يَبْقَى عَلَى وَجْهِ الْأَرْضِ أَحَدٌ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ مِنْ خَيْرٍ أَوْ إِيمَانٍ إِلَّا قَبَضَتْهُ ، حَتَّىٰ لَوْ أَنَّ أَحَدَكُمْ دَخَلَ فِي كَبِدِ جَبَلٍ لَدَخَلَتْهُ عَلَيْهِ حَتَّىٰ تَقْبِضَهُ » . قال : سمعتها من رسول الله ﷺ قال : « فَيَبْقَى شِرَارُ النَّاسِ فِي خِفَةِ الطَّيْرِ ، وَأَخْلَامِ السَّبَاعِ لَا يَعْرِفُونَ مَعْرِوفاً ، وَلَا يُنْكِرُونَ مُنْكَراً ، فَيَمَثِّلُ لَهُمُ الشَّيْطَانُ فَيَقُولُ : أَلَا تَسْتَعِجِبُونَ ؟ فَيَقُولُونَ : فَمَا تَأْمُرُنَا ؟

فَيَأْتِيهِمْ بَعْدَ الْآثَانِ ، وَهُمْ فِي ذَلِكَ دَارٌّ رِزْقُهُمْ ، حَسَنَ عَيْشُهُمْ ، ثُمَّ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ فَلَا يَسْمَعُهُ أَحَدٌ إِلَّا أَصْغَى لَيْثًا وَرَفَعَ لَيْثًا - قَالَ : وَأَوَّلُ مَنْ يَسْمَعُهُ رَجُلٌ يُلُوطُ حَوْضَ إِبِلِهِ قَالَ : قِيضَعُ ، وَيُضْعَقُ النَّاسُ ، ثُمَّ يُزِيلُ اللَّهُ - أَوْ يُنْزِلُ اللَّهُ - مَطَرًا كَأَنَّهُ الطَّلُّ - أَوْ قَالَ الظِّلُّ - شعبة الشاك - فَتَبَيَّنَتْ مِنْهُ أَجْسَادُ النَّاسِ ، ثُمَّ يُنْفَخُ فِيهِ أُخْرَى ، فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنْظُرُونَ ، ثُمَّ يُقَالُ : يَا أَيُّهَا النَّاسُ هَلُمُّوا إِلَيَّ رُبُكُم ، وَقِفُوهُمْ إِنَّهُمْ مَسْئُولُونَ ثُمَّ يُقَالُ : أَخْرِجُوا بَعَثَ النَّارِ ، فَيُقَالُ : مِنْ كَمْ . فَيُقَالُ : مِنْ كُلِّ أَلْفٍ تِسْعَمِائَةِ وَتِسْعَةِ تِسْعِينَ قَالَ : فَذَلِكَ يَوْمٌ يَجْعَلُ الْوِلْدَانَ شِيبًا ، وَذَلِكَ يَوْمٌ يَكْشِفُ عَنْ سَائِي (١) . ﴿ وَكُلُّ أُنثَى دَاخِرِينَ ﴾ أي : صاغرين مطيعين لا يتخلف أحد عن أمره كما قال تعالى : ﴿ يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَسَنَةٍ ﴾ وفي حديث الصور أنه في النفخة الثالثة يأمر الله الأرواح ، فتوضع في ثقب في الصور ، ثم ينفخ إسرافيل فيه بعد ما تنبت الأجساد في قبورها وأماكنها ، فإذا نفخ في الصور طارت الأرواح تتوهج أرواح المؤمنين نورًا ، وأرواح الكافرين ظلمة . فيقول الله ﷻ : وعزتي وجلالي لترجعن كل روح إلى جسدها فتجيء الأرواح إلى أجسادها فتدب فيها كما يدب السم في اللديع ، ثم يقومون ينفضون التراب من قبورهم . قال الله تعالى : ﴿ يَوْمَ يُخْرِجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ رِجَالًا كَأَنَّهُمْ لَأَنَّ نُسُفٍ يُؤْفَسُونَ ﴾ . وقوله تعالى : ﴿ وَزَيَّ الْجِبَالِ تَحْسَبُهَا جَاوِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ ﴾ أي : تراها كأنها ثابتة باقية على ما كانت عليه ، وهي تمر مر السحاب أي تزول عن أماكنها . كما قال تعالى : ﴿ يَوْمَ تَمُوتُ أَسْمَاءُ مَوْرًا ﴾ ① وَتَسِيرُ الْجِبَالُ سِيرًا ② . وقوله تعالى : ﴿ صُنْعَ اللَّهِ الَّذِي أَتَقَنَ كُلُّ شَيْءٍ ﴾ أي : يفعل ذلك بقدرته العظيمة . ﴿ الَّذِي أَتَقَنَ كُلُّ شَيْءٍ ﴾ أي : أتقن كل ما خلق ، وأودع فيه من الحكمة ما أودع ﴿ إِنَّهُ خَيْرٌ مِمَّا تَفَعَّلُونَ ﴾ أي : هو عليم بما يفعل عباده من خير وشر ، وسيجازيهم عليه أتم الجزاء . ثم بين تعالى حال السعداء والأشقياء يومئذ فقال : ﴿ مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِنْهَا ﴾ قال قتادة : بالإخلاص . وقال زين العابدين : هي لا إله إلا الله ، وقد بين تعالى في الموضع الآخر أن له عشر أمثالها ﴿ وَهُمْ يَنْفَعُ يَوْمَئِذٍ ءَامِنُونَ ﴾ كما قال في الآية الأخرى : ﴿ لَا يَخْزِيهِمُ النَّفْعُ الْكَبِيرُ ﴾ . وقال تعالى : ﴿ وَهُمْ فِي الْفِرْقَةِ ءَامِنُونَ ﴾ . وقوله تعالى : ﴿ وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَكُبَّتْ رُجُومُهُمْ فِي النَّارِ ﴾ أي : من لقي الله مسيقًا لا حسنة له ، أو قد رجحت سيئاته على حسناته كل بحسبه . ولهذا قال تعالى : ﴿ هَلْ تُخْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ وقال ابن عباس وأبو هريرة في قوله : ﴿ وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ ﴾ : يعني بالشرك .

﴿ إِنَّمَا أَمْرُهُ أَنْ عَبُدَ رَبَّ هَذِهِ الْبَلَدَةِ الَّذِي حَرَّمَهَا وَلَهُ كُلُّ شَيْءٍ وَأَمْرُهُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ③ ﴾ وَأَنْ أَتْلُوا الْقُرْآنَ فَمَنْ أَهْتَدَى بِهَدْيِ لَيْسَ بِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَقَدْ لَئِمَّا أَنَا مِنَ النَّاسِ ④ وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ سُبُّكَ مَا يَلِيهِ فَعَرِفْنَاهَا وَمَا رَبُّكَ بِغَفِيلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ⑤ .

يقول تعالى مخبرًا رسوله وأمرًا له أن يقول : ﴿ إِنَّمَا أَمْرُهُ أَنْ عَبُدَ رَبَّ هَذِهِ الْبَلَدَةِ الَّذِي حَرَّمَهَا وَلَهُ كُلُّ شَيْءٍ ﴾ كما قال تعالى : ﴿ قُلْ يَأَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي شَكٍّ مِنْ رَبِّي فَلَا آعْبُدُ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ آعْبُدُ اللَّهَ الَّذِي يَتَوَفَّنَكُمْ ﴾ وإضافة الربوبية إلى البلدة على سبيل التشريف والاعتناء ، وقوله تعالى :

(١) أخرجه مسلم في الفتن (١١٦) والحاكم في المستدرک (٥٥٠/٤) والإمام أحمد في مسنده (١٦٦/٢) .

﴿ الَّذِي حَرَّمَهَا ﴾ أي : الذي إنما صارت حراماً شرعاً وقدراً بتحريمه لها . كما ثبت في الصحيحين عن ابن عباس قال : قال رسول الله ﷺ يوم فتح مكة : « إِنَّ هَذَا الْبَلَدَ حَرَمُهُ اللَّهُ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ ، فَهُوَ حَرَامٌ بِحُزْمَةِ اللَّهِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ ، لَا يُغْضَدُ شَوْكُهُ ، وَلَا يُتَقَرُّ صَيْدُهُ ، وَلَا يُلْتَقِطُ لِقَطْعَتُهُ إِلَّا مَنْ عَرَفَهَا ، وَلَا يَخْتَلِي خَلَاَهَا » ^(١) . الحديث بتمامه . وقوله تعالى : ﴿ وَلَكُمْ كُلُّ شَيْءٍ إِلَّا هُوَ ﴾ من باب عطف العام على الخاص أي : هو رب هذه البلدة ، ورب كل شيء ومليكه لا إله إلا هو . ﴿ وَأَمَرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴾ أي : الموحدين المخلصين المنقادين لأمره المطيعين له . وقوله : ﴿ وَأَنْ أَتْلُوَ الْقُرْآنَ ﴾ أي : أنا مبلغ ومنذر . ﴿ فَمَنْ أَهْتَدَى فَأَنَا يَتَذَكَّرُ لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَقُلْ إِنَّمَا أَنَا مِنَ الْمُنذِرِينَ ﴾ أي : لي أسوة بالرسل الذين أنذروا قومهم ، وقاموا بما عليهم من أداء الرسالة إليهم ، وخلصوا من عهدتهم ، وحساب أمهم على الله تعالى كقوله تعالى : ﴿ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ ﴾ . ﴿ وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ سُبْحَانَهُ عَنِ النَّفْسِ الَّتِي نَفَعْنَاهَا ﴾ أي : لله الحمد الذي لا يعذب أحداً إلا بعد قيام الحجة عليه ، والإنذار إليه ، ولهذا قال تعالى : ﴿ سُبْحَانَهُ عَنِ النَّفْسِ الَّتِي نَفَعْنَاهَا ﴾ . كما قال تعالى : ﴿ سُبْحَانَهُ عَنِ النَّفْسِ الَّتِي نَفَعْنَاهَا ﴾ . ﴿ وَمَا رَأَيْتُكُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ أي : بل هو شهيد على كل شيء . عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « يَا أَيُّهَا النَّاسُ لَا يَغْتَرَّنَ أَحَدُكُمْ بِاللَّهِ ، فَإِنَّ اللَّهَ لَوْ كَانَ غَافِلًا شَيْئًا لَأَغْفَلَ الْبُعْضُ وَالْخَزْدَلَةُ وَالذَّرَّةُ » . وعن عمر بن عبد العزيز قال : فلو كان الله مغفلاً شيئاً لأغفل ما تعفي الرياح من أثر قدمي ابن آدم .

وقد ذكر عن الإمام أحمد أنه كان ينشد هذين البيتين إما له وإما لغيره :

إذا ما خلوت الدهر يوماً لا تقل خلوت ولكن قل عليّ رقيب
ولا تحسبن الله يغفل ساعةً ولا أن ما يخفى عليه يغيب

(١) أخرجه البخاري في الحج (١٥٧٨) ومسلم في الحج (٤٤٦) .

كبيرة تعي ما يقال لها فقالت لها : ﴿ قُصِيْبَةٌ ﴾ أي : اتبعني أثره وخذي خبره ، وتطلبي شأنه من نواحي البلد ، فخرجت لذلك . ﴿ فَبَصَّرَتْ بِهِ عَنْ جُنُبٍ ﴾ . قال مجاهد : بصرت به عن جنب : عن بعد . وقال قتادة : جعلت تنظر إليه وكأنها لا تريده . وذلك أنه لما استقر موسى عليه السلام بدار فرعون وأحبته امرأة الملك ، واستطلقته منه عرضوا عليه المراضع التي في دارهم فلم يقبل منها ثدياً ، وأبى أن يقبل شيئاً من ذلك ، فخرجوا به إلى السوق لعلهم يجدون امرأة تصلح لرضاعته فلما رأته بأيديهم عرفته ، ولم تظهر ذلك ولم يشعروا بها . قال تعالى : ﴿ وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ مِنْ قَبْلُ ﴾ أي : تحريماً قدرئاً ؛ وذلك لكرامته عند الله وصيافته له أن يرتضع غير ثدي أمه ، ولأن الله ﷻ جعل ذلك سبيلاً إلى أمه لترضعه وهي آمنة بعدما كانت خائفة . فلما رأتهم حائرين فيمن يرضعه قالت : ﴿ هَلْ أَتَاكَ عَلَىٰ أَهْلِ بَيْتِكَ يَكْفُلُونَكَ لَكُمْ وَهُمْ لَهُمْ نَصِيحَةٌ ﴾ قال ابن عباس : فلما قالت ذلك أخذوها وشكوا في أمرها ، وقالوا لها : وما يدريك بنصحهم له وشفقتهم عليه ؟ فقالت لهم : نصحهم له وشفقتهم عليه رغبتهم في سرور الملك ، ورجاء منفعة ، فأرسلوها . فلما قالت لهم ذلك ، وخلصت من أذاهم ، ذهبوا معها إلى منزلها ، فدخلوا به على أمه ، فأعطته ثديها فالتقمه ، ففرحوا بذلك فرحاً شديداً ، وذهب البشير إلى امرأة الملك ، فاستدعت أم موسى ، وأحسنّت إليها وأعطتها عطاءً جزيلاً ، وهي لا تعرف أنها أمه في الحقيقة ، ولكن لكونه وافق ثديها ، ثم سألتها آسية أن تقيم عندها فترضعه فأبت عليها ، وقالت : إن لي بعلًا وأولادًا ، ولا أقدر على المقام عندك ؛ ولكن إن أحببت أن أرضعه في بيتي فعلت . فأجابتها امرأة فرعون إلى ذلك ، وأجرت عليها النفقة والصلوات ، والكساوي والإحسان الجزيل . ولم يكن بين الشدة والفرج إلا القليل يوم ليلة أو نحوه والله أعلم . ولهذا قال تعالى : ﴿ فَرَدَدْنَاهُ إِلَىٰ آيَتِهِ كَإِذَا نَفَخْنَا فِيهِ ﴾ أي : به ﴿ وَلَا تَحْزَنْ ﴾ أي عليه . ﴿ وَلَتَعْلَمَنَّ أَنَّكَ عِنْدَ اللَّهِ حَقٌّ ﴾ أي : فيما وعدنا من رده إليها ، وجعله من المرسلين ، فحينئذ تحققت برده إليها أنه كائن منه رسول من المرسلين فعاملته في تربيته ما ينبغي له طبعا وشرعا . وقوله تعالى : ﴿ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ أي : حكم الله في أفعاله وعواقبها المحمودة التي هو المحمود عليها في الدنيا والآخرة ، كما قال تعالى : ﴿ فَسَيَعْلَمُونَ أَنَّ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَجَعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَبِيرًا كَثِيرًا ﴾ . ﴿ حَتَّىٰ بَلَغَ أَشُدَّهُ وَاسْتَوَىٰ ؕ ءَاتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴾ ١٤ وَدَخَلَ الْمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينٍ غَفْلَةٍ مِنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَٰذَا مِنْ شِيعَةِ إِحَدِهِمْ وَهَٰذَا مِنْ شِيعَةِ الْآخَرِ فَاِسْتَنَفَا الْآخَرَ مِنَ شِيعَتِهِ عَلَىٰ الَّذِي مِنْ عَدُوِّهِ فَوَكَرَهُ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيْهِ قَالَ هَٰذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ عَدُوٌّ مُضِلٌّ مُبِينٌ ١٥ قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُ ١٦ إِنَّكَ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ١٧ قَالَ رَبِّ يَمَا أَتَمَمْتَ عَلَيَّ فَلَن أَكُونَ ظَهِيرًا لِلْمُجْرِمِينَ ١٨

لما ذكر تعالى مبدأ أمر موسى عليه السلام ، ذكر أنه لما بلغ أشده ، واستوى آتاه الله حكماً وعِلْماً . قال مجاهد يعني : النبوة . ﴿ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴾ . ثم ذكر تعالى سبب وصوله إلى ما كان تعالى قدره له من النبوة ، والتكليم في قضية قتله ذلك القبطي الذي كان سبب خروجه من الديار المصرية إلى بلاد مدين . فقال تعالى : ﴿ وَدَخَلَ الْمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينٍ غَفْلَةٍ مِنْ أَهْلِهَا ﴾ . قال ابن عباس : وذلك بين المغرب والعشاء . وعن عطاء بن يسار عن ابن عباس : كان ذلك نصف النهار . ﴿ فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ ﴾ أي :

يتضاربان ويتنازعان ﴿ هَذَا مِنْ شِيعَتِهِ ﴾ أي : إسرائيلي . ﴿ وَمَكَدَ مِنْ عَدُوِّهِ ﴾ أي : قبطي . فاستغاث الإسرائيلي بموسى عليه السلام ، فوجد موسى فرصة ، وهي غفلة الناس ، فعمد إلى القبطي ﴿ فَوَكَرَهُ مُوسَى فَقَضَى عَلَيْهِ ﴾ قال مجاهد : ﴿ فَوَكَرَهُ ﴾ أي : طعنه بجمع كفه . وقال قتادة : وكره بعضا كانت معه فقضى عليه أي : كان فيها حتفه فمات . ﴿ قَالَ ﴾ موسى ﴿ هَذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ عَدُوٌّ مُضِلٌّ مُبِينٌ ﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُ إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ الرَّجِيمُ ﴿ قَالَ رَبِّ بِمَا أَفْتَمْتُ عَلَى ﴾ أي : بما جعلت لي من الجاه والعز والنعمة ﴿ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا ﴾ أي معينا ﴿ لِلْمُجْرِمِينَ ﴾ أي : الكافرين بك ، المخالفين لأمرك .

﴿ فَاصْبِرْ فِي الْمَدِينَةِ حَافِيًا يَرْقُبُ فَإِذَا الَّذِي اسْتَنْصَرَهُ بِالْأَمْسِ يَسْتَصْرِخُهُ ﴾ قَالَ لَهُ مُوسَى إِنَّكَ لَنَوِيٌّ مُبِينٌ ﴿ فَلَمَّا أَنْ أَرَادَ أَنْ يَبْطِشَ بِالَّذِي هُوَ عَدُوٌّ لَهُمَا قَالَ يَمْوَسَّى أَرِيدُ أَنْ نَمُنَّ بِمَا نَقُولُ إِنْ نُفِذْ إِلَّا أَنْ نَكُونَ جَبَّارًا فِي الْأَرْضِ وَمَا نُرِيدُ أَنْ نَكُونَ مِنَ الْمُصْلِحِينَ ﴾ .

يقول تعالى مخبرًا عن موسى عليه السلام لما قتل ذلك القبطي أنه أصبح ﴿ فِي الْمَدِينَةِ حَافِيًا ﴾ أي : من مرة ما فعل ﴿ يَرْقُبُ ﴾ أي : يتلفت ويتوقع ما يكون من هذا الأمر . فمر في بعض الطرق ، فإذا ذلك الذي استنصره بالأمس على ذلك القبطي يقاتل آخر ، فلما مر عليه موسى استصرخه على الآخر ، فقال موسى : ﴿ إِنَّكَ لَنَوِيٌّ مُبِينٌ ﴾ أي : ظاهر الغواية كثير الشر ، ثم عزم موسى على البطش بذلك القبطي ، فاعتقد الإسرائيلي لحوره وضعفه وذله أن موسى إنما يريد قصده لما سمعه يقول ذلك ، فقال يدفع عن نفسه ﴿ يَمْوَسَّى أَرِيدُ أَنْ نَمُنَّ بِمَا نَقُولُ إِنْ نُفِذْ كَمَا قُلْتُمْ نَفْسًا بِالْأَمْسِ ﴾ ؟ وذلك لأنه لم يعلم به إلا هو وموسى عليه السلام ، فلما سمعها ذلك القبطي لقفها من فمه ، ثم ذهب بها إلى باب فرعون ، وألقاها عنده . فعلم فرعون بذلك ، فاشتد حنقه وعزم على قتل موسى ، فطلبوه فبعثوا وراءه ليحضروه لذلك .

﴿ وَجَاءَ رَجُلٌ مِنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ يَسْعَى قَالَ يَمْوَسَّى إِنَّكَ أَلَمَّا بِأَتْمِرُونَ بِكَ لِيُقْتَلُوكَ فَاخْرُجْ إِلَيَّ لِنُصِيحَةٍ ﴾ . قال تعالى : ﴿ وَجَاءَ رَجُلٌ ﴾ وصفه بالرجولية ؛ لأنه خالف الطريق ، فسلك طريقًا أقرب من طريق الذين بعثوا وراءه فسبق إلى موسى فقال له : يا موسى . ﴿ إِنَّكَ أَلَمَّا بِأَتْمِرُونَ بِكَ ﴾ أي : يتشاورون فيك ﴿ لِيُقْتَلُوكَ فَاخْرُجْ ﴾ أي : من البلد ﴿ إِلَيَّ لِنُصِيحَةٍ ﴾ .

﴿ فَخَرَجَ مِنْهَا حَافِيًا يَرْقُبُ ﴾ قَالَ رَبِّي نَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿ وَلَمَّا تَوَجَّهَ تَلْقَاءَ مَدْيَنَ قَالَ عَسَى رَبِّي أَنْ يَهْدِيَنِي سَوَاءَ السَّبِيلِ ﴿ وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةٌ مِنَ النِّكَاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِنْ دُونِهِمْ امْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا قَالَتَا لَا نَسْقِي حَتَّى يُصْدِرَ الرِّعَاءُ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ ﴾ فَسَقَى لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّى إِلَى الظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنْزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ ﴾ .

لما أخبره ذلك الرجل بما تمألاً عليه فرعون ودولته في أمره ، خرج من مصر وحده ، ولم يألف ذلك قبله بل كان في رفاهية ونعمة ورياسة . ﴿ فَخَرَجَ مِنْهَا حَافِيًا يَرْقُبُ ﴾ أي : يتلفت . ﴿ قَالَ رَبِّي نَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴾ أي : من فرعون وملئه ، فذكروا أن الله ﷻ بعث إليه ملكا على فرس ، فأرشده إلى الطريق فالله أعلم . ﴿ وَلَمَّا تَوَجَّهَ تَلْقَاءَ مَدْيَنَ ﴾ أي : أخذ طريقًا سالكا مهيبا فرح بذلك . ﴿ قَالَ عَسَى رَبِّي أَنْ يَهْدِيَنِي سَوَاءَ السَّبِيلِ ﴾ أي : الطريق الأقوم ، ففعل الله به ذلك ، فجعله هاديا مهديا . ﴿ وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ ﴾ أي : لما وصل إلى مدين ، ورد ماءها ، وكان لها بئر يرده رعاء الشاء . ﴿ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةٌ مِنَ

النَّاسِ يَسْقُونَ ﴿٢٥﴾ أَي : جماعة يسقون . ﴿وَجَدَ مِنْ دُونِهِمْ امْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ﴾ أي : تكفكفان غنهما أن ترد مع غنم أولئك الرعاء لئلا يؤذيا . فلما رآهما موسى ﷺ رقا لهما ورحمهما ﴿قَالَ مَا خَطْبُكُمَا﴾ أي : ما خبركما لا تردان مع هؤلاء ؟ ﴿قَالَتَا لَا نَسْقِي حَتَّى يُصْدِرَ الرِّعَاءُ﴾ أي : لا يحصل لنا سقي إلا بعد فراغ هؤلاء . ﴿وَأَبُونا شَيْخٌ كَبِيرٌ﴾ أي : فهذا الحال الملجئ لنا إلى ما ترى . قال الله تعالى : ﴿فَسَقَى لَهُمَا﴾ . روي عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أن موسى ﷺ لما ورد ماء مدين وجد عليه أمة من الناس يسقون قال : فلما فرغوا أعادوا الصخرة على البئر ، ولا يطبق رفعها إلا عشرة رجال ، فإذا هو بامرأتين تذودان قال : ما خطبكما ؟ فحدثاه ، فأتى الحجر فرفعه ، ثم لم يستق إلا ذنوباً واحداً حتى رويت الغنم ، وقوله تعالى : ﴿ثُمَّ تَوَلَّى إِلَى الظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنْزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾ قال ابن عباس : سار موسى من مصر إلى مدين ليس له طعام إلا البقل وورق الشجر ، وكان حافياً فما وصل إلى مدين حتى سقطت نعل قدميه ، وجلس في الظل ، وهو صفوة الله من خلقه ، وإن بطنه للاصق بظهره من الجوع وإنه ل محتاج إلى شق تمر . وقوله : ﴿إِلَى الظِّلِّ﴾ قال ابن عباس : جلس تحت شجرة ، وقال عبد الله ابن مسعود : حثت على جمل ليلتين حتى صبحت مدين ، فسألت عن الشجرة التي أوى إليها موسى ، فإذا هي شجرة خضراء ترف فأهوى إليها جملي ، وكان جائعاً ، فأخذها جملي فعالجها ساعة ، ثم لفظها فدعوت الله لموسى ﷺ ، ثم انصرفت ^(١) . وقال السدي : كانت الشجرة من شجر السم ^(٢) . وقال عطاء بن السائب : لما قال موسى : ﴿رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنْزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾ أسمع المرأة . ﴿فَجَاءَتْهُ إِحْدَاهُمَا تَمْشِي عَلَى اسْتِحْيَاءٍ قَالَتْ إِنَّكِ ابْنِي يَدْعُوكَ لِجَزْيِكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا فَلَمَّا جَاءَهُ وَقَصَّ عَلَيْهِ الْقَصَصَ قَالَ لَا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ قَالَتْ إِحْدَاهُمَا يَبَايَبُ اسْتَجْرَهُ إِنَّكِ خَيْرٌ مَنِ اسْتَجَرْتَ الْقَوَى الْأَيْمِينَ ﴿٢٦﴾ قَالَ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أُنكِحَكَ إِحْدَى ابْنَتَي هُنَيْنٍ عَلَى أَنْ تَأْجُرَنِي ثَمَنِي حِجَجٍ فَإِنْ أَتَمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِنْدِكَ وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَمْلِكَ عَلَيْكَ سَنَدِيذٍ إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الْعَالَمِينَ ﴿٢٧﴾ قَالَ ذَلِكَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ أَيَّمَا الْأَجَلِينَ فَضَيْتُ فَلَا عُدْوَةَ عَلَيَّ وَاللَّهُ عَلَى مَا نَقُولُ وَكِيلٌ ﴿٢٨﴾ .

لما رجعت المرأتان سريعا بالغنم إلى أبيهما ، أنكر حالهما بسبب مجيئهما سريعا ، فسألهما عن خبرهما فقصتا عليه ما فعل موسى ﷺ . فبعث إحداهما إليه لتدعوه إلى أبيهما قال الله تعالى : ﴿فَجَاءَتْهُ إِحْدَاهُمَا تَمْشِي عَلَى اسْتِحْيَاءٍ﴾ أي : مشي الحائر . كما روي عن عمر رضي الله عنه أنه قال : جاءت تمشي على استحياء قائلة بثوبها على وجهها ليست بسلفع من النساء دلاجة ولاجة خراجة . قال الجوهري : السلفع من الرجال الجسور ، ومن النساء الجرية السليطة ومن النوق الشديدة . ﴿قَالَتْ إِنَّكِ ابْنِي يَدْعُوكَ لِجَزْيِكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا﴾ وهذا تأدب في العبارة لم تطلبه طلباً مطلقاً لئلا يوهم رية ، بل قالت : ﴿إِنَّكِ ابْنِي يَدْعُوكَ لِجَزْيِكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا﴾ يعني : ليشيك ويكاخلك على سقيك لغنمنا . ﴿فَلَمَّا جَاءَهُ وَقَصَّ عَلَيْهِ الْقَصَصَ﴾ أي : ذكر له ما كان من أمره ، وما جرى له من السبب الذي خرج من أجله من بلده ﴿قَالَ لَا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ يقول : طب نفساً ، وقر عيناً ، فقد خرجت من مملكتهم فلا حكم لهم في بلادنا . ولهذا قال : ﴿نَجَوْتَ مِنَ الْقَوْمِ

(٢) ذكره السيوطي في الدر المنثور (١٢٥/٥) .

(١) أورد ابن جرير الطبري في تفسيره (٧٢/٢٠) .

أَنْطَلِيلَيْنِ ﴿٢٥﴾ ، وقد اختلف المفسرون في هذا الرجل من هو ؟ على أقوال ؛ أحدها أنه شعيب النبي ﷺ الذي أرسل إلى أهل مدين ، وهذا هو المشهور عند كثير من العلماء . وقال آخرون : بل كان ابن أخي شعيب . وقيل : رجل مؤمن من قوم شعيب . وقال آخرون : كان شعيب قبل زمان موسى ﷺ بمدة طويلة لأنه قال لقومه : ﴿ وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِّنْكُمْ بِبَعِيدٍ ﴾ ﴿٢٦﴾ وقد كان هلاك قوم لوط في زمن الخليل ﷺ بنص القرآن ، وقد علم أنه كان بين الخليل وموسى ﷺ مدة طويلة ؛ تزيد على أربعمئة سنة كما ذكره غير واحد ، وما قيل إن شعيباً عاش مدة طويلة ، إنما هو والله أعلم احتراز من هذا الإشكال ، ثم من المقوي لكونه ليس بشعيب أنه لو كان إياه لأوشك أن ينص على اسمه في القرآن ها هنا . وما جاء في بعض الأحاديث من التصريح بذكره في قصة موسى لم يصح إسناده .

وقوله تعالى : ﴿ قَالَتْ لِمَ كَذَبَتُكَ يَا بَنِيَّ اسْتَفْجِرْ إِنَّكَ خَيْرٌ مِّنْ اسْتَفْجَرَتِ الْقَوِيُّ الْأَيُّمُ ﴾ ﴿٢٧﴾ أي : قالت إحدى ابنتي هذا الرجل ، قيل : هي التي ذهبت وراء موسى ﷺ قالت لأبيها : ﴿ يَتَأْتِيَّ اسْتَفْجِرْ ﴾ ﴿٢٨﴾ أي : لرعيه هذه الغنم ، قال عمر وابن عباس : لما قالت : ﴿ إِنَّكَ خَيْرٌ مِّنْ اسْتَفْجَرَتِ الْقَوِيُّ الْأَيُّمُ ﴾ قال لها أبوها : وما علمك بذلك ؟ قالت له : إنه رفع الصخرة التي لا يطيق حملها إلا عشرة رجال ، وإنني لما جئت معه تقدمت أمامه فقال لي : كوني من ورائي ، فإذا اختلفت علي الطريق فاحذني لي بحصاة أعلم بها كيف الطريق لأهتدي إليه . وقال عبد الله ابن مسعود : أفرس الناس ثلاثة : أبو بكر حين تفرس في عمر ، وصاحب يوسف حين قال : أكرمي مثواه ، وصاحبة موسى حين قالت : ﴿ يَتَأْتِيَّ اسْتَفْجِرْ إِنَّكَ خَيْرٌ مِّنْ اسْتَفْجَرَتِ الْقَوِيُّ الْأَيُّمُ ﴾ . قال : ﴿ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ بِكَ لِمَنِ اتَّبَعْنَا وَنَرُدَّنَّ وَكَفَّيْنَاكَ بِأَسَدٍ مُّسَدِّدٍ يُسَاقُ إِلَيْنَا قَبْلُ ﴾ ﴿٢٩﴾ أي : طلب إليه هذا الرجل الشيخ الكبير أن يرعى غنمه ، ويزوجه إحدى ابنتيه هاتين ، وقد استدلل أصحاب أبي حنيفة بهذه الآية على صحة البيع فيما إذا قال : بعثك أحد هذين العبدین بمائة فقال : اشتريت ، أنه يصح . والله أعلم .

وقوله : ﴿ عَلَى أَنْ تَأْجُرَنِي ثَمَنِي حَبَّ جِجٍّ فَإِنْ أَتَمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِنْدِكَ ﴾ ﴿٣٠﴾ أي : على أن ترعى غنمي ثمانين سنين ، فإن تبرعت بزيادة سنتين فهو إليك ، وإلا ففي الثمان كفاية . ﴿ وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ سَتَجِدُنِي إِِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴾ ﴿٣١﴾ أي : لا أشاقت ولا أؤذيك ، ولا أماريك . وقوله تعالى إخباراً عن موسى ﷺ : ﴿ قَالَ ذَلِكَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ أَيَّمَا الْأَجَلَيْنِ قَضَيْتَ فَلَا عُدْوَةَ عَلَيَّ وَاللَّهُ عَلَى مَا نَقُولُ وَكِيلٌ ﴾ ﴿٣٢﴾ . إن موسى قال لصهره : الأمر على ما قلت من أنك استأجرتني على ثمان سنين ، فإن أتممت عشراً فمن عندي ، فأنا متى فعلت أقلهما فقد برئت من العهد ، وخرجت من الشرط . ولهذا قال : ﴿ أَيَّمَا الْأَجَلَيْنِ قَضَيْتَ فَلَا عُدْوَةَ عَلَيَّ ﴾ ﴿٣٣﴾ أي : فلا حرج علي مع أن الكامل ، وإن كان مباحاً ، لكنه فاضل من جهة أخرى بدليل من خارج . كما قال تعالى : ﴿ قَمَنَ مَجْجَدٌ فِي يَوْمَيْنِ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ وَمَنْ تَأْتَرَ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ ﴾ وقال رسول الله ﷺ لحمزة بن عمرو الأسلمي ؓ ، وكان كثير الصيام ، وسأله عن الصوم في السفر فقال : « إِنْ شِئْتَ فَصُمْ وَإِنْ شِئْتَ فَأَفْطِرْ » ^(١) . مع أن فعل الصيام راجح من دليل آخر . هذا وقد دل الدليل على أن موسى ﷺ إنما فعل أكمل الأجلين وأتمهما . وعن سعيد بن جبير قال : قال سألتني يهودي من أهل الحيرة : أي الأجلين قضى موسى ؟

(١) أخرجه مسلم في (الصيام) (١٠٣) والإمام أحمد في مسنده (٤٩٤/٣) .

فقلت : لا أدري حتى أقدم على حبر العرب فأسأله ، فقدمت على ابن عباس رضي الله عنه ، فسأله فقال : قضى أكثرهما وأطيبهما ، إن رسول الله إذا قال فعل .

وعن محمد بن كعب القرظي أن النبي صلى الله عليه وسلم سئل أي الأجلين قضى موسى ؟ - قال - : «أَوْفَاهُمَا وَأَتْمَمَهَا» (١) .

﴿ فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى الْأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِ آنَسَ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ نَارًا قَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا لَّعَلِّي مَأْتِيكُمْ مِنْهَا يُخَوِّرُ أَزْ جَدَوْرَ رَبِّ النَّارِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَلُونَ ﴾ (٢) فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ مِنْ شَاطِئِ الْوَادِ الْأَيْمَنِ فِي الْبُقْعَةِ الْمُبَارَكَةِ مِنَ الشَّجَرَةِ أَنْ يَمْوَسَّيْ إِيَّاتِي أَنَا اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴾ (٣) وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَآهَا تُهَنِّئُ كَانَهَا جَانًّا وَلَنْ مُدِيرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ يَمْوَسَّيْ أَقِيلَ وَلَا تَخَفْ إِنَّكَ مِنَ الْآمِنِينَ ﴾ (٤) أَسْأَلُكَ بِكَ فِي جَيْبِكَ تَخَرُّجَ يَصْنَاءَ مِنْ غَيْرِ شَوْءٍ وَأَضْمَمَ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ الرَّهْبِ فَذُنُوبُكَ رُفَعَتْكَ مِنْ زِلْكَ إِنَّكَ فَرَعَوْتَ وَمَلَائِيكَةً مِنْهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَسِيقِينَ ﴾ .

قد تقدم في تفسير الآية قبلها أن موسى عليه السلام قضى أتم الأجلين وأوفاهما وأبرهما ، وأكملهما وأنقاهما . وقد يستفاد هذا أيضًا من الآية الكريمة حيث قال تعالى : ﴿ فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى الْأَجَلَ ﴾ أي : الأكمل منهما والله أعلم . وقال مجاهد : قضى عشرين سنين ، وبعدها عشرين ، وهذا القول لم أره لغيره ، فالله أعلم . وقوله : ﴿ وَسَارَ بِأَهْلِهِ ﴾ قالوا : كان موسى قد اشتاق إلى بلاده وأهله ، فغزم على زيارتهم في خفية من فرعون وقومه فتحمل بأهله ، وما كان معه من الغنم التي وهبها له صهره ، فسلك بهم في ليلة مطيرة مظلمة باردة ، فنزل منزلاً فجعل كلما أوري زنده لا يضيء شيئاً فتعجب من ذلك ، فبينما هو ذلك كذلك : ﴿ آنَسَ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ نَارًا ﴾ أي : رأى ناراً تضيء على بعد ف ﴿ قَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا ﴾ أي : حتى أذهب إليها ﴿ لَعَلِّي مَأْتِيكُمْ مِنْهَا يُخَوِّرُ ﴾ وذلك لأنه قد أضل الطريق . ﴿ أَوْ جَدَوْرَ رَبِّ النَّارِ ﴾ أي : قطعة منها ﴿ لَعَلَّكُمْ تَهْتَلُونَ ﴾ أي : تستدفون بها من البرد . قال الله تعالى : ﴿ فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ مِنْ شَاطِئِ الْوَادِ الْأَيْمَنِ ﴾ أي : من جانب الوادي مما يلي الجبل عن يمينه من ناحية الغرب . والنار قد وجدها تضطرم في شجرة خضراء في لفح الجبل مما يلي الوادي ، فوقف باهتاً في أمرها . فناداه ربه ﴿ مِنْ شَاطِئِ الْوَادِ الْأَيْمَنِ فِي الْبُقْعَةِ الْمُبَارَكَةِ مِنَ الشَّجَرَةِ ﴾ وعن أبي عبيدة عن عبد الله قال : رأيت الشجرة التي نودي منها موسى عليه السلام سمرة خضراء ترف ، وقال قتادة : هي من العوسج ، وعصاه من العوسج ، وقوله تعالى : ﴿ أَنْ يَمْوَسَّيْ إِيَّاتِي أَنَا اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴾ أي : الذي يخاطبك ويكلمك هورب العالمين الفعال لما يشاء لا إله غيره ، وقوله : ﴿ وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ ﴾ أي : التي في يدك قال تعالى : ﴿ فَالْقَنَاءُ بِمَا مَنَ حَتَّى تَسْتَنِي ﴾ فعرف وتحقق أن الذي يكلمه ويخاطبه هو الذي يقول للشيء كن فيكون . وقال ها هنا : ﴿ فَلَمَّا رَآهَا تُهَنِّئُ ﴾ أي : تضطرب ﴿ كَانَهَا جَانًّا وَلَنْ مُدِيرًا ﴾ أي : في حركتها السريعة مع عظم خلقتها ، وقوائمها واتساع فمها ، واصطكاك أنيابها وأضراسها ، بحيث لا تمر بصخرة إلا ابتلعها ، تنحدر في فيها تتقعقع كأنها حادة في واد فعند ذلك ﴿ وَلَنْ مُدِيرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ ﴾ . أي ولم يكن يتلفت ؛ لأن طبع البشرية ينفر من ذلك ، فلما قال الله له : ﴿ يَمْوَسَّيْ أَقِيلَ وَلَا تَخَفْ إِنَّكَ مِنَ الْآمِنِينَ ﴾ رجع فوقف في مقامه الأول ، ثم قال الله تعالى : ﴿ أَسْأَلُكَ بِكَ فِي جَيْبِكَ تَخَرُّجَ يَصْنَاءَ مِنْ غَيْرِ

سُورَ ﴿ أَي إِذَا أَدَخَلْتَ يَدَكَ فِي جَيْبِ دَرْعِكَ ، ثُمَّ أَخْرَجْتَهَا ، فَإِنِهَا تَخْرُجُ تَلَالُأً كَأَنُهَا قِطْعَةُ قَمَرٍ فِي لَمْعَانِ الْبَرْقِ . وَلِهَذَا قَالَ : ﴿ مِنْ غَيْرِ سُورٍ ﴾ أَي : مِنْ غَيْرِ بَرَصٍ .

وقوله تعالى : ﴿ وَأَضْمَمْتَ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ الرَّقَبِ ﴾ قَالَ مُجَاهِدٌ : مِنَ الْفَرْعِ . وَقَالَ قَتَادَةُ : مِنَ الرَّعْبِ . وَقَالَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ زَيْدٍ : مِمَّا حَصَلَ لَكَ مِنْ خَوْفِكَ مِنَ الْحَيَةِ ، وَالظَّاهِرُ أَنَّ الْمُرَادَ أَعْمَ مِنْ هَذَا ، وَهُوَ أَنَّهُ أَمَرَ الطَّيْرَ إِذَا خَافَ مِنْ شَيْءٍ أَنْ يَضْمَرَ إِلَيْهِ جَنَاحَهُ مِنَ الرَّهْبِ ، وَهُوَ يَدُهُ ، فَإِذَا فَعَلَ ذَلِكَ ذَهَبَ عَنْهُ مَا يَجِدُهُ مِنَ الْجَوْفِ . وَرَبَّمَا إِذَا اسْتَعْمَلَ أَحَدُ ذَلِكَ عَلَى سَبِيلِ الْاِقْتِدَاءِ ، فَوَضَعَ يَدَهُ عَلَى فُؤَادِهِ ، فَإِنَّهُ يَزُولُ عَنْهُ مَا يَجِدُهُ أَوْ يَخَفُ إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى وَبِهِ الثِّقَةُ . وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ فَذَلِكَ بُرْهَانَانِ مِنْ رَبِّكَ ﴾ يَعْنِي إِلْقَاءَ الْعَصَا ، وَجَعْلَهَا حَيَةً تَسْعَى ، وَإِدْخَالَ يَدِهِ فِي جَيْبِهِ فَتَخْرُجُ بِيضَاءً مِنْ غَيْرِ سُوءٍ ، دَلِيلَانِ قَاطِعَانِ وَاضِحَانِ عَلَى قُدْرَةِ الْفَاعِلِ الْمُخْتَارِ ، وَصَحَّةِ نَبْوَةٍ مِنْ جَرَى هَذَا الْخَارِقِ عَلَى يَدَيْهِ ؛ وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ إِنَّكَ إِذْ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِيئَهُ ﴾ أَي : وَقَوْمَهُ مِنَ الرُّؤَسَاءِ ، وَالْكَبَرَاءِ وَالْأَتْبَاعِ . ﴿ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ ﴾ أَي : خَارِجِينَ عَنْ طَاعَةِ اللَّهِ مُخَالَفِينَ لِأَمْرِهِ وَدِينِهِ .

﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُونِ ﴾ وَأَخَى هَكَوْرُثُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا فَأَرْسَلَهُ مَعِيَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِي إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ ﴿ قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجْعَلُ لَكَ سُلْطَانًا فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا بِأَيِّتِنَا أَنْتُمْ وَمِمَّنْ آتَيْنَاكُمَا الْقُلُوبَ ﴾ .

لَمَّا أَمَرَهُ اللَّهُ تَعَالَى بِالذَّهَابِ إِلَى فِرْعَوْنَ الَّذِي إِنَّمَا خَرَجَ مِنْ دِيَارِ مِصْرَ فَرَارًا مِنْهُ ، وَخَوْفًا مِنْ سَطْوَتِهِ . ﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا ﴾ يَعْنِي ذَلِكَ الْقَبْطِيَّ ﴿ فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُونِ ﴾ أَي : إِذَا رَأَوْنِي ﴿ وَأَخَى هَكَوْرُثُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا ﴾ وَذَلِكَ أَنَّ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ كَانَ فِي لِسَانِهِ لُثْفَةٌ بِسَبَبِ مَا كَانَ تَنَاوَلَ تِلْكَ الْجَمْرَةَ حِينَ خِيرَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ الثَّمَرَةِ أَوْ الدَّرَةِ ، فَأَخَذَ الْجَمْرَةَ فَوَضَعَهَا عَلَى لِسَانِهِ ، فَحَصَلَ فِيهِ شِدَّةٌ فِي التَّعْبِيرِ ، ﴿ فَأَرْسَلَهُ مَعِيَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِي ﴾ أَي : وَزِيرًا وَمَعِينًا ، وَمَقْوِيًا لِأَمْرِي يَصَدِّقُنِي فِيمَا أَقُولُهُ ، وَأَخْبِرَ بِهِ عَنِ اللَّهِ ﷻ ؛ لِأَنَّ خَبَرَ الْاِثْنَيْنِ أَنْجَعُ فِي النُّفُوسِ مِنْ خَبَرِ الْوَاحِدِ وَلِهَذَا قَالَ : ﴿ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ ﴾ وَقَالَ مُحَمَّدُ بْنُ إِسْحَاقَ : ﴿ رِدْءًا يُصَدِّقُنِي ﴾ أَي : يَبِينُ لَهُمْ عَنِّي مَا أَكْلَمُهُمْ بِهِ ، فَإِنَّهُ يَفْهَمُ عَنِّي مَا لَا يَفْهَمُونَ . فَلَمَّا سَأَلَ ذَلِكَ مُوسَى قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ ﴾ أَي : سَنَقْوِي أَمْرَكَ ، وَنَعِزُّ جَانِبَكَ الَّذِي سَأَلْتَ لَهُ أَنْ يَكُونَ نَبِيًّا مَعَكَ . وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَنَجْعَلُ لَكَ سُلْطَانًا ﴾ أَي : حُجَّةً قَاهِرَةً ﴿ فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا بِأَيِّتِنَا ﴾ أَي : لَا سَبِيلَ لَهُمْ إِلَى الْوَصُولِ إِلَى أَذَاكُمَا بِسَبَبِ إِبْلَاغِكُمَا آيَاتِ اللَّهِ كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ الَّذِينَ يَلْمِزُونَ رِسَالَاتِ اللَّهِ - إِلَى قَوْلِهِ - وَكَفَى بِاللَّهِ نَاصِرًا وَمَعِينًا وَمُؤَيِّدًا ، وَلِهَذَا أَخْبَرَهُمَا أَنَّ الْعَاقِبَةَ لَهُمَا ، وَلَمَنْ اتَّبَعَهُمَا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ، فَقَالَ تَعَالَى : ﴿ أَنْتُمْ وَمِمَّنْ آتَيْنَاكُمَا الْقُلُوبَ ﴾ . كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ كَتَبَ اللَّهُ لَأَخِيكَ أَنَا وَرُسُلِي إِنَّكَ قَوْمٌ عَزِيزٌ ﴾ وَوَجْهُ ابْنِ جَرِيرٍ عَلَى أَنَّ الْمَعْنَى : ﴿ وَنَجْعَلُ لَكَ سُلْطَانًا فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا ﴾ ، ثُمَّ يَتَدَيُّ فَيَقُولُ : ﴿ بِأَيِّتِنَا أَنْتُمْ وَمِمَّنْ آتَيْنَاكُمَا الْقُلُوبَ ﴾ تَقْدِيرُهُ أَنْتُمْ وَمَنْ اتَّبَعَكُمْمَا الْغَالِبُونَ بِآيَاتِنَا . وَلَا شَكَّ أَنَّ هَذَا الْمَعْنَى صَحِيحٌ ، وَهُوَ حَاصِلٌ مِنَ التَّوْجِيهِ الْأَوَّلِ ، فَلَا حَاجَةَ إِلَى هَذَا وَاللَّهُ أَعْلَمُ .

﴿ فَلَمَّا جَاءَهُمْ مُوسَى بِآيَاتِنَا بَيِّنَاتٍ قَالُوا مَا هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُفْتَرٍ وَمَا سَعَيْنَا بِهِذِهِ مِنْ آيَاتِنَا الْأُولَى ﴾

وَقَالَ مُوسَى رَبِّیْ أَعْلَمُ بِمَنْ جَاءَ بِآلِهَهِدَى مِنْ عِنْدِهِ وَنَ تَكُونُ لَهُ عَاقِبَةُ الدَّارِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ ﴿٣٦﴾ .
 يخبر تعالى عن مجيء موسى وأخيه هارون إلى فرعون وملئه ، وعرضه ما آتاها الله من المعجزات الباهرة ، والدلالة القاهرة على صدقهما فيما أخبرا به عن الله ﷻ . فلما عاين فرعون وملؤه ذلك ، وأيقنوا أنه من عند الله عدلوا بكفرهم ، وبغيهم إلى العناد والمباهنة ، وذلك لطغيانهم ، وتكبرهم عن اتباع الحق فقالوا : ﴿ مَا هَذَا إِلَّا نَجْمُ مَفْتَرَى ﴾ أي : مفتعل مصنوع وأرادوا معارضته بالحيلة والجاه فما صعد معهم ذلك . وقوله : ﴿ وَمَا سَعَيْنَا بِهِدَا فِي مَابَيْنَا الْأَوَّلِينَ ﴾ يعنون : عبادة الله وحده لا شريك له ، ويقولون : ما رأينا أحدا من آبائنا على هذا الدين ، ولم نر الناس إلا يشركون مع الله آلهة أخرى . فقال موسى ﷺ مجيبا لهم : ﴿ رَبِّیْ أَعْلَمُ بِمَنْ جَاءَ بِآلِهَهِدَى مِنْ عِنْدِهِ ﴾ يعني : مني ومنكم ، وسيفصل بيني وبينكم ولهذا قال : ﴿ وَنَ تَكُونُ لَهُ عَاقِبَةُ الدَّارِ ﴾ أي : من النصرة والظفر والتأكيد . ﴿ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ ﴾ أي : المشركون بالله ﷻ .

﴿ وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَتَأَيُّهَا الْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنَ اللَّهِ مُضِرٍّ فَآوَدَ لِی بِنَهْمَنِ عَلَى الطِّينِ فَأَجْعَلَ لِي مَصْرَعًا لَعَلِّي أَطْلُعُ إِلَى إِلَهِ مُوسَى وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ مِنَ الْكَاذِبِينَ ﴾ ٣٧ ﴿ وَاسْتَكْبَرَ هُوَ وَجُودُهُ فِي الْأَرْضِ بِكِبَرِ الْعَتَى وَطَنُوا أَنَّهُمْ إِنِّنَا لَا يَرْجِعُونَ ﴾ ٣٨ ﴿ فَأَحْذَرْتَهُ وَجُودُهُ فَسَدَّنَتْهُمْ فِي الْيَمِّ فَأَنْظَرُ كَيْفَ كَانَتْ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ ﴾ ٣٩ ﴿ وَجَعَلْنَاهُمْ أَيْمَةً يَكْفُرُونَ إِلَى الْكَافِرِ وَيَوْمَ الْقِيَمَةِ لَا يُصْرُونَ ﴾ ٤٠ ﴿ وَأَتَّبَعْنَاهُمْ فِي هَٰذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَمَةِ هُمْ مِنَ الْمَقْبُوحِينَ ﴾ .

يخبر تعالى عن كفر فرعون وطغيانه ، واقترائه في الإلهية لنفسه القبيحة لعنه الله : كما قال تعالى : ﴿ فَاسْتَحَفَّ قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ ﴾ وذلك أنه دعاهم إلى الاعتراف له بالإلهية : فأجابوه إلى ذلك بقلة عقولهم ، قال : ﴿ يَتَأَيُّهَا الْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنَ اللَّهِ غَيْرِي ﴾ ؛ وانتقم الله تعالى منه فجعله عبرة لغيره في الدنيا والآخرة ، وحتى أنه واجه موسى الكليم بذلك فقال : ﴿ لَیْنِ اتَّخَذْتَ إِلَٰهًا غَيْرِي لَأَجْعَلَكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ ﴾ وقوله : ﴿ فَآوَدَ لِی بِنَهْمَنِ عَلَى الطِّينِ فَأَجْعَلَ لِي مَصْرَعًا لَعَلِّي أَطْلُعُ إِلَى إِلَهِ مُوسَى ﴾ يعني : أمر وزيره هامان ، ومدبر رعيته ، ومشير دولته ، أن يوقد له على الطين يعني : يتخذ له أجرا لبناء الصرح ، وهو القصر المنيف الرفيع العالي كما قال في الآية الأخرى : ﴿ وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَنْهَكُنِي أَبْنِي لِي مَصْرَعًا لَعَلِّي أَتْلُعُ ﴾ ٣٨ ﴿ أَلَسْتُ بِأَتْلُعُ أَلَسْتُ بِأَتْلُعُ فَطُلِعَ إِلَى إِلَهِ مُوسَى وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ كَذِبًا وَكَذَٰلِكَ زَيْنَ لِفِرْعَوْنَ سُوءُ عَمَلِهِ وَصُدَّ عَنِ السَّبِيلِ وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِي مَبَايِ ﴾ .

وذلك لأن فرعون بنى هذا الصرح الذي لم ير في الدنيا أعلى منه ، وإنما أراد بهذا أن يظهر لرعيته تكذيب موسى فيما زعمه من دعوى إله غير فرعون ولهذا قال : ﴿ وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ مِنَ الْكَاذِبِينَ ﴾ أي : في قوله أن ثم ربًا غيري لا أنه كذبه في أن الله تعالى أرسله ؛ لأنه لم يكن يعترف بوجود الصانع جل وعلا ، فإنه قال : ﴿ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴾ وقال : ﴿ لَیْنِ اتَّخَذْتَ إِلَٰهًا غَيْرِي لَأَجْعَلَكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ ﴾ وقال : ﴿ يَتَأَيُّهَا الْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنَ اللَّهِ غَيْرِي ﴾ . وقوله تعالى : ﴿ وَاسْتَكْبَرَ هُوَ وَجُودُهُ فِي الْأَرْضِ بِكِبَرِ الْعَتَى وَطَنُوا أَنَّهُمْ إِنِّنَا لَا يَرْجِعُونَ ﴾ أي : طغوا وتجبروا ، وأكثروا في الأرض الفساد ، واعتقدوا أنه لا قيامة ولا معاد ﴿ فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ ﴾ ٤١ ﴿ إِنَّ رَبَّكَ لَإِلَٰهٌ مُّصَدِّقٌ ﴾ ولهذا قال تعالى ها هنا :

﴿ فَأَخَذْنَاهُ وَجُودَهُ فَنَبَذْنَاهُ فِي الْيَمِّ ﴾ أي : أغرقناه في البحر في صبيحة واحدة فلم يبق منهم أحد . ﴿ فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَتْ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ ﴾ ﴿ وَجَعَلْنَاهُمْ آيَةً يُذَكِّرُ إِلَى الْآخِرِ ﴾ أي : لمن سلك وراءهم ، وأخذ طريقهم في تكذيب الرسل ، وتعطيل الصانع . ﴿ وَيَوْمَ الْقِيَمَةِ لَا يُبْصَرُونَ ﴾ أي فاجتمع عليهم خزي الدنيا موصولاً بذل الآخرة وقوله تعالى : ﴿ وَأَتَّبَعْنَاهُمْ فِي هَٰذِهِ الدُّنْيَا لِنَكْفِكَ ﴾ أي وشرع الله لعنتهم ، ولعنة ملكهم فرعون على ألسنة المؤمنين من عباده المتبعين لرسله ، كما أنهم في الدنيا ملعونون على ألسنة الأنبياء ، وأتباعهم كذلك . ﴿ وَيَوْمَ الْقِيَمَةِ هُمْ مِنَ الْمَقْبُوحِينَ ﴾ .
﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ مِنْ بَعْدِ مَا أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ الْأُولَىٰ بَصَائِرَ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾ .

يخبر تعالى عما أنعم به على موسى الكليم ، عليه من ربه أفضل الصلاة والتسليم ، من إنزال التوراة عليه بعد ما أهلك فرعون وملأه . وقوله تعالى : ﴿ مِنْ بَعْدِ مَا أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ الْأُولَىٰ ﴾ يعني أنه بعد إنزال التوراة لم يعذب أمة بعامة بل أمر المؤمنين أن يقاتلوا أعداء الله من المشركين . وقال أبو سعيد الخدري : ما أهلك الله قوماً بعذاب من السماء ، ولا من الأرض بعدما أنزلت التوراة على وجه الأرض غير أهل القرية الذين مسحوا قردة بعد موسى . ثم قرأ : ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ مِنْ بَعْدِ مَا أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ الْأُولَىٰ ﴾ ^(١) . وقوله : ﴿ بَصَائِرَ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةً ﴾ أي : من العمى والغي ، ﴿ وَهُدًى ﴾ إلى الحق ﴿ وَرَحْمَةً ﴾ أي : إرشاداً إلى العمل الصالح ﴿ لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾ أي : لعل الناس يتذكرون به ، ويهتدون بسببه .

﴿ وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الْفَرْقِ إِذْ فَصَيْنَا إِلَىٰ مُوسَى الْأَمْرَ وَمَا كُنْتَ مِنَ الشَّاهِدِينَ ﴾ ﴿ وَلَكِنَّا أَنْشَأْنَا قُرُونًا فَتَطَاوَلَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ وَمَا كُنْتَ ثَاوِيًّا فِي أَهْلِ مَدْيَنَ تَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا وَلَكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ ﴾ ﴿ وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا وَلَكِنْ رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ لِتُنْذِرَ قَوْمًا مِمَّا أَنْتُمْ مِنْ بَيْنِ قَبَائِلِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾ ﴿ وَلَوْلَا أَنْ تُصِيبَهُمْ مُصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَيَقُولُوا رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنُتَّبِعَ آيَاتِكَ وَنَكُونُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ .

يقول تعالى منبهاً على برهان نبوة محمد ﷺ ، حيث أخبر بالغيوب الماضية خبراً كان سامعه شاهداً وراء لما تقدم ، وهو رجل أُمي لا يقرأ شيئاً من الكتب ، نشأ بين قوم لا يعرفون شيئاً من ذلك . ﴿ وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الْفَرْقِ إِذْ فَصَيْنَا إِلَىٰ مُوسَى الْأَمْرَ ﴾ يعني : ما كنت يا محمد بجانب الجبل الغربي الذي كلم الله موسى من الشجرة التي هي شرقية على شاطئ الوادي ﴿ وَمَا كُنْتَ مِنَ الشَّاهِدِينَ ﴾ لذلك ، ولكن الله ﷻ أوحى إليك ذلك ليكون حجة وبرهاناً على قرون قد تطاول عهدا ، ونسوا حجج الله عليهم ، وما أوحاه إلى الأنبياء المتقدمين ، وقوله تعالى : ﴿ وَمَا كُنْتَ ثَاوِيًّا فِي أَهْلِ مَدْيَنَ تَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا ﴾ أي : وما كنت مقيماً في أهل مدين تتلو عليهم آياتنا حين أخبرت عن نبينا شعيب ، وما قال لقومه وما ردوا عليه : ﴿ وَلَكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ ﴾ أي : ولكن نحن أوحينا إليك ذلك ، وأرسلناك إلى الناس رسولاً . ﴿ وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا ﴾ عن أبي هريرة ؓ قال : نودوا أن : يا أمة محمد أعطيتكم قبل أن تسألوني ، وأجبتكم قبل أن تدعوني ^(٢) .

(١) ذكره الطبري في تفسيره (٩٨/٢٠) .

(٢) ذكره الطبري في تفسيره (١٠٠/٢٠) .

وقال مقاتل بن حيان : ﴿ وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا ﴾ أمتك في أصلاب آبائهم أن يؤمنوا بك إذا بعثت . وقال قتادة : ﴿ وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا ﴾ موسى . وهذا - والله أعلم - أشبه بقوله تعالى : ﴿ وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ آلِ فِرْعَوْنَ إِذْ قُضِيَتْ إِلَيْهِمْ أَلْأَمْرُ ﴾ ثم أخبرنا هنا بصيغة أخرى أخص من ذلك ، وهو النداء كما قال تعالى : ﴿ وَإِذْ نَادَى رَبُّكَ مُوسَى ﴾ . وقوله تعالى : ﴿ وَلَكِنْ رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ ﴾ أي : ما كنت مشاهداً لشيء من ذلك ، ولكن الله تعالى أوحاه إليك ، وأخبرك به رحمة منه بك ، وبالعباد بإرسالك إليهم : ﴿ لِنُذِرَ قَوْمًا مَّا أَنتَهُمْ مِنْ نَذِيرٍ مِنْ قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾ أي : لعلمهم يهتدون بما جنتهم به من الله ﷻ ﴿ وَلَوْلَا أَنْ تُصِيبَهُمْ مُصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَيَقُولُوا رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا ﴾ الآية . أي : وأرسلناك إليهم لتقيم عليهم الحجة ، ولينقطع عذرهم إذا جاءهم عذاب من الله بكفرهم ، فيحتجوا بأنهم لم يأتهم رسول ولا نذير ، كما قال تعالى بعد ذكره إنزال كتابه المبارك وهو القرآن : ﴿ أَنْ تَقُولُوا إِنَّمَا أُنْزِلَ الْكِتَابُ عَلَيَّ طَائِفَتَيْنِ مِنْ قَبْلِنَا وَإِنْ كُنَّا عَنْ دِرَاسَتِهِمْ لَفَنَافِلَتٌ ۖ أَوْ تَقُولُوا لَوْ أَنَّا أُنْزِلَ عَلَيْنَا الْكِتَابُ لَكُنَّا أَهْدَىٰ مِنْهُمْ فَقَدْ جَاءَكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ ۖ ﴾ .

﴿ فَلَمَّا جَاءَهُمْ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِنَا قَالُوا لَوْلَا أُوتِيَ مِثْلَ مَا أُوتِيَ مُوسَىٰ أُولَٰئِكَ يَكْفُرُوا بِمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ مِنْ قَبْلِ قَالُوا سِحْرَانِ تَظَاهَرَا وَقَالُوا إِنَّا بِكُلِّ كَافِرُونَ ۝ قُلْ فَأَنَّا نَبْكِبُ مِنَ عِنْدِ اللَّهِ هُوَ أَهْدَىٰ مِنْهُمَا أَتَبَعُهُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ۝ فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ يَتَّبِعِ هُدًى مِنَ اللَّهِ ۚ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ۝ وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ الْقَوْلَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ۖ ﴾ .

يقول تعالى مخبراً عن القوم الذين لو عذبهم قبل قيام الحجة عليهم ، لاحتجوا بأنهم لم يأتهم رسول . أنهم لما جاءهم الحق من عنده على لسان محمد ﷺ قالوا على وجه التعنت والعناد ، والكفر والجهل والإلحاد : ﴿ لَوْلَا أُوتِيَ مِثْلَ مَا أُوتِيَ مُوسَىٰ ﴾ الآية . يعنون والله أعلم من الآيات الكثيرة مثل : العصا واليد ، والطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم وتنقيص الزروع والثمار ، وكفلق البحر وتظليل الغمام وإنزال المن والسلوى إلى غير ذلك من الآيات الباهرة والحجج القاهرة ، التي أجزاها الله تعالى على يدي موسى ﷺ حجة وبرهاناً له على فرعون وملئه وبني إسرائيل ، ومع هذا كله لم ينبجع في فرعون وملئه . بل كفروا بموسى وأخيه هارون كما قالوا لهما : ﴿ أَجِئْتَنَا لِنَلْفِتَنَّا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا وَنَكُونَ لَكُمُ الْكِبْرِيَاءَ فِي الْأَرْضِ وَمَا نَحْنُ لَكُمُ بِمُؤْمِنِينَ ﴾ . ولهذا قال ها هنا : ﴿ أُولَٰئِكَ يَكْفُرُوا بِمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ مِنْ قَبْلِ ﴾ أي : أو لم يكفر البشر بما أوتي موسى من تلك الآيات العظيمة ﴿ قَالُوا سِحْرَانِ تَظَاهَرَا ﴾ أي : تعاونا ﴿ وَقَالُوا إِنَّا بِكُلِّ كَافِرُونَ ﴾ أي : بكل منهما كافرون .

قال مجاهد : أمرت اليهود قريشاً أن يقولوا لمحمد ﷺ ذلك فقال الله : ﴿ أُولَٰئِكَ يَكْفُرُوا بِمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ مِنْ قَبْلِ قَالُوا سِحْرَانِ تَظَاهَرَا ﴾ قال : يعني موسى وهارون صلى الله عليهما وسلم . ﴿ تَظَاهَرَا ﴾ أي : تعاونا وتناصرا ، وصدق كل منهما الآخر ؟ وبهذا قال سعيد بن جبير في قوله : (ساحران) يعنون موسى وهارون ، وهذا قول جيد قوي ، والله أعلم . وعن ابن عباس : (قالوا ساحران تظاهرا) قال : يعنون موسى ومحمداً صلى الله عليهما وسلم ، وقال قتادة : يعني عيسى ومحمداً صلى الله عليهما وسلم ، وهذا فيه بعد ؛ لأن عيسى لم يجر له ذكر ها هنا والله أعلم . وأما من قرأ : ﴿ سِحْرَانِ تَظَاهَرَا ﴾

تَظَاهَرَا ﴿٥٢﴾ فقال العوفي عن ابن عباس : يعنون التوراة والقرآن . قال السدي : يعني صدق كل واحد منهما الآخر . وقال عكرمة : يعنون التوراة والإنجيل ، واختاره ابن جرير . وقال الضحاك وقادة : الإنجيل والقرآن . والله ﷻ أعلم بالصواب . والظاهر على قراءة ﴿يَسْحَرَانِ﴾ أنهم يعنون التوراة والقرآن ؛ لأنه قال بعده : ﴿قُلْ فَاتَّوَأُ بِكِتَابٍ مِّنْ عِندِ اللَّهِ هُوَ أَهْدَىٰ مِمَّا تَتَّبِعُهُ﴾ ، وكثيرا ما يقرن الله بين التوراة والقرآن كما في قوله تعالى : ﴿قُلْ مَنْ أَنزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَىٰ نُورًا وَهُدًى لِلنَّاسِ﴾ - إلى قوله - وَهَذَا كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ ﴿٥٣﴾ . وقال ورقة بن نوفل : هذا الناموس الذي أنزل على موسى . وقد علم بالضرورة لذوي الأبواب أن الله تعالى لم ينزل كتابا من السماء ، فيما أنزل من الكتب المتعددة على أنبيائه ، أكمل ولا أشمل ، ولا أفصح ولا أعظم ، أشرف من الكتاب الذي أنزل على محمد ﷺ ، وهو القرآن وبعده في الشرف والعظمة . الكتاب الذي أنزله على موسى بن عمران عليه السلام ، وهو الكتاب الذي قال الله فيه : ﴿إِنَّا أَنزَلْنَا التَّوْرَةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا وَالرَّسُولُ وَالْأَجَارُ إِنَّمَا اسْتَخِيفُوا مِنْ كِتَابِ اللَّهِ وَكَانُوا عَلَيْهِ شُهَدَاءَ﴾ . والإنجيل إنما أنزل متمما للتوراة ، ومحلا لبعض ما حرم على بني إسرائيل ؛ ولهذا قال تعالى : ﴿قُلْ فَاتَّوَأُ بِكِتَابٍ مِّنْ عِندِ اللَّهِ هُوَ أَهْدَىٰ مِمَّا تَتَّبِعُهُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ أي : فيما تدافعون به الحق وتعارضون به من الباطل .

قال الله تعالى : ﴿فَإِنْ لَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ﴾ أي : فإن لم يجيبوك عما قلت لهم ، ولم يتبعوا الحق ﴿فَاعْلَمْ أَنَّمَا يُفِيقُونَ أَهْوَاءَهُمْ﴾ أي : بلا دليل ولا حجة . ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ اللَّهِ﴾ أي : بغير حجة مأخوذة من كتاب الله ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ . وقوله تعالى : ﴿وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ الْقَوْلَ﴾ قال مجاهد : فصلنا لهم القول . وقال السدي : بينا لهم القول . وقال قتادة : يقول تعالى : أخبرهم كيف صنع بمن مضى ، وكيف هو صانع ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ . قال مجاهد وغيره ﴿وَصَّلْنَا لَهُمْ﴾ يعني : قريشا ، وهذا هو الظاهر .

﴿الَّذِينَ ءَاتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِهِ هُمْ بِهِ يُؤْمِنُونَ﴾ ولِذَا يَتْلُ عَلَيْهِمْ قَالُوا ءَأَمَّا بِهِ إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلِهِ مُسْلِمِينَ ﴿٥٤﴾ أُولَٰئِكَ يُؤْمِنُونَ أَجْرَهُمْ مَّرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٥٥﴾ وَلِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ وَقَالُوا لَنَا أَعْمَلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَلُكُمْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ لَا تَبْنِئُوا الْجَهْلِيَّينَ﴾ .

يخبر تعالى عن العلماء الأولياء من أهل الكتاب أنهم يؤمنون بالقرآن ، كما قال تعالى : ﴿الَّذِينَ ءَاتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ أُولَٰئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ﴾ . وقال تعالى : ﴿وَلِإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِمْ خَشِيعِينَ لِلَّهِ﴾ . وقال تعالى : ﴿وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُمْ مَوَدَّةً لِلَّذِينَ ءَامَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصْرُكَ﴾ - إلى قوله - فَاتَّكَبْنَاكَ مَعَ الشَّاهِدِينَ ﴿٥٦﴾ قال سعيد بن جبیر : نزلت في سبعين من القيسيين بعثهم النجاشي ، فلما قدموا على النبي ﷺ قرأ عليهم ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ حتى ختمها ، فجعلوا ييكون ، وأسلموا ونزلت فيهم الآية الأخرى : ﴿الَّذِينَ ءَاتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِهِ هُمْ بِهِ يُؤْمِنُونَ﴾ ولِذَا يَتْلُ عَلَيْهِمْ قَالُوا ءَأَمَّا بِهِ إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلِهِ مُسْلِمِينَ ﴿٥٧﴾ يعني : من قبل هذا القرآن كنا مسلمين أي : موحدين مخلصين لله مستجيبين له . قال الله تعالى : ﴿أُولَٰئِكَ يُؤْمِنُونَ أَجْرَهُمْ مَّرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا﴾ أي : هؤلاء المتصفون بهذه الصفات الذين آمنوا بالكتاب الأول ثم بالثاني ؛

ولهذا قال : ﴿ بِمَا صَبَرُوا ﴾ أي على اتباع الحق ؛ فإن تجشّم مثل هذا شديد على النفوس . وقد ورد في الصحيح عن أبي موسى الأشعري ؓ قال : قال رسول الله ﷺ : « ثلاثة يؤتون أجرهم مرتين ؛ رجل من أهل الكتاب آمن بنيه ثم آمن بي ، وعبد مملوك أدى حق الله وحق مواليه ، ورجل كانت له أمة فأدبها فأحسن تأديبها ، ثم أعتمقها فزوجهها » ^(١) . وعن القاسم بن أبي أمامة قال : إني لتهت راحلة رسول الله ﷺ يوم الفتح فقال قولاً حسناً جميلاً ، وقال فيما قال : « مَنْ أَسْلَمَ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابَيْنِ فَلَهُ أَجْرُهُ مَرَّتَيْنِ ، وَلَهُ مَا لَنَا وَعَلَيْهِ مَا عَلَيْنَا » ^(٢) . وقوله تعالى : ﴿ وَيَذَرُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ ﴾ أي : لا يقابلون السيئ بمثلها ، ولكن يعفون ويصفحون .

﴿ وَمِمَّا رَزَقْنَهُمْ يُنفِقُونَ ﴾ أي : ومن الذي رزقهم من الحلال ينفقون على خلق الله في النفقات الواجبة لأهلهم وأقاربهم ، والزكاة المفروضة والمستحبة من التطوعات ، وصدقات النفل والقربات . وقوله تعالى : ﴿ وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ ﴾ أي : لا يخالطون أهله ولا يعاشرهم ، بل كما قال تعالى : ﴿ وَإِذَا ثَرَوْا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا ﴾ . ﴿ وَقَالُوا لَنَّا أَعْمَلُنَا وَلَكُنْ أَعْمَلُكُمْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ لَا تَبْنِي الْجَنَّةِينَ ﴾ أي : إذا سغه عليهم سفيه ، وكلمهم بما لا يليق بهم الجواب عنه أعرضوا عنه ، ولم يقابلوه بمثلها من الكلام القبيح ، ولا يصدر عنهم إلا كلام طيب ، ولهذا قال عنهم أنهم قالوا : ﴿ لَنَّا أَعْمَلُنَا وَلَكُنْ أَعْمَلُكُمْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ لَا تَبْنِي الْجَنَّةِينَ ﴾ أي : لا نريد طريق الجاهلين ولا نجبهما . قال محمد بن إسحاق في السيرة : ثم قدم على رسول الله ﷺ - وهو بمكة - عشرون رجلاً أو قريب من ذلك من النصارى ، حين بلغهم خبره من الحبشة ، فوجدوه في المسجد ، فجلسوا إليه ، وكلموه وسألوه ، ورجال من قريش في أندية حول الكعبة ، فلما فرغوا من مساءلة رسول الله ﷺ عما أرادوا ، دعاهم إلى الله تعالى ، وتلا عليهم القرآن ، فلما سمعوا القرآن ، فاضت أعينهم من الدمع ، ثم استجابوا لله وآمنوا به ، وصدقوه وعرفوا منه ما كان يوصف لهم في كتابهم من أمره ، فلما قاموا عنه اعترضهم أبو جهل بن هشام في نفر من قريش فقالوا لهم : خيكم الله من ركب ، بعثكم من وراءكم من أهل دينكم ترتادون لهم لتأتوهم بخبر الرجل ، فلم تطمئن مجالسكم عنده حتى فارقت دينكم ، وصدقتموه فيما قال ، ما نعلم ركباً أحق منكم ، أو كما قالوا لهم . فقالوا لهم : سلام عليكم لا نجاهلكم ، لنا ما نحن عليه ، ولكم ما أنتم عليه لم نأل أنفسنا خيراً . قال ويقال : إن النفر النصارى من أهل نجران فالله أعلم أي ذلك كان . قال : ويقال - والله أعلم - : نزلت هذه الآيات : ﴿ الَّذِينَ آمَنَتْهُمْ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِهِ هُمْ بِهِ يُؤْتُونَ - إِلَى قَوْلِهِ - لَا تَبْنِي الْجَنَّةِينَ ﴾ قال : وسألت الزهري عن هذه الآيات فيمن نزلت . قال : ما زلت أسمع من علمائنا أنهم نزلن في النجاشي وأصحابه ، والآيات اللاتي في سورة المائدة : ﴿ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَتَلُوا نَبِيَّكُمْ وَرَدُّوا كَيْدَهُمْ إِلَى قَوْلِهِ - فَأَكْثَبْنَاكَ مِنَ الشَّاهِدِينَ ﴾ ^(٣) .

﴿ إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ﴾ ^(٤) وَقَالُوا إِنْ تَتَّبِعِ الْهْدَى مَعَكَ تَنَحَّطَفَ مِنْ أَرْضِنَا أَوْ لَمْ تَكُنْ لَهُمْ حَرَمًا مَأْمُونًا يَبْجِجْ إِلَيْهِ نَمُرَتْ كُلُّ شَيْءٍ رِزْقًا مِنْ لَدُنَّا وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ .

(١) أخرجه البخاري في الجهاد والسير (٣٠١١) ومسلم في (الإيمان) (٢٤١) والإمام أحمد في مسنده (٤٠٢/٤) .

(٢) أخرجه الإمام أحمد في مسنده (٢٥٩/٢) والهيتمي في مجمع الزوائد (٩٣/١) .

(٣) سيرة ابن هشام (٣٢/٢) .

يقول تعالى لرسوله ﷺ : **إِنَّكَ يَا مُحَمَّدٌ ﴿ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ ﴾** أي : ليس إليك ذلك ، إنما عليك البلاغ ، والله يهدي من يشاء ، له الحكمة البالغة ، والحجة الدامغة ، ﴿ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ﴾ أي : هو أعلم بمن يستحق الهداية ، ممن يستحق الغواية . وقد ثبت في الصحيحين أنها نزلت في أبي طالب عم رسول الله ﷺ وكان يحوطه وينصره ، ويحبه حباً شديداً لا شرعياً فلما حضرته الوفاة ، وحن أجله دعاه رسول الله ﷺ إلى الإيمان والدخول في الإسلام فسبق القدر فيه ، واستمر على ما كان عليه من الكفر ، ولله الحكمة التامة ، عن سعيد بن المسيب عن أبيه قال : لما حضرت أبا طالب الوفاة ، جاءه رسول الله ﷺ فوجد عنده أبا جهل بن هشام وعبد الله بن أبي أمية بن المغيرة فقال رسول الله ﷺ : **« يَا عَمُّ قُلْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ كَلِمَةً أَحَاجُّ لَكَ بِهَا عِنْدَ اللَّهِ »** فقال أبو جهل وعبد الله بن أبي أمية : يا أبا طالب أترغب عن ملة عبد المطلب ؟ فلم يزل رسول الله ﷺ يعرضها عليه ويعودان له بتلك المقالة حتى كان آخر ما قال هو : **« عَلَى مِلة عبد المطلب ، وأبى أن يقول : لا إله إلا الله فقال رسول الله ﷺ : « وَاللَّهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ مَا لَمْ أَتُكِّفْ عَنْكَ » . فأنزل الله تعالى : ﴿ مَا كَانِ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولَى قُرْبَى ﴾** وأنزل في أبي طالب : **﴿ إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ ﴾** ^(١) .

وقوله تعالى : **﴿ وَقَالُوا إِن نَّبِيعَ الْمَدْيَنَ مَعَكَ تَنَحَّطَفُ مِنْ أَرْضِنَا ﴾** يقول تعالى مخبراً عن اعتذار بعض الكفار في عدم اتباع الهدى حيث قالوا لرسول الله ﷺ : **﴿ إِنْ نَّبِيعَ الْمَدْيَنَ مَعَكَ تَنَحَّطَفُ مِنْ أَرْضِنَا ﴾** أي : نخشى إن اتبعنا ما جئت به من الهدى ، وخالفنا من حولنا من أحياء العرب المشركين أن يقصدونا بالأذى والمحاربة ، ويتخطفونا أينما كنا . قال الله تعالى مجيباً لهم : **﴿ أَوَلَمْ تُحِبُّوا أَنْ يَكُونَ لَكُمْ حَرَمٌ مِثْلُ مَا كَانَ ﴾** يعني : هذا الذي اعتذروا به كذب وباطل ؛ لأن الله تعالى جعلهم في بلد أمين وحرم معظم آمن منذ وضع ، فكيف يكون هذا الحرم أمناً لهم في حال كفرهم وشركهم ، ولا يكون أمناً لهم وقد أسلموا وتابوا الحق ؟ وقوله تعالى : **﴿ يَجْعَلْ لِيئِهِ نَمْرُتٌ كُلِّ مَقْعٍ ﴾** أي : من سائر الشار مما حوله من الطائف وغيره ، وكذلك المتاجر والأمتعة **﴿ زَرْقًا مِنْ لَدُنَّا ﴾** أي من عندنا **﴿ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾** ولهذا قالوا ما قالوا .

﴿ وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ بَطَرَتْ مَعِيشَتَهَا فَبَلَكَ مَسْكَنُهُمْ لَوْ تَشْكُرُ مِنْ بَدْرِهِ إِلَّا قَلِيلًا وَكُنَّا نَحْنُ الْوَارِثِينَ ﴾ وَمَا كَانَ رَيْكَ مَهْلِكَ الْفَرَى حَتَّى يَبْعَثَ فِي أُمَمٍ رَسُولًا يَنْتَلُوا عَلَيْهِمْ مَا يَتَّبِعُونَ وَمَا كُنَّا مَهْلِكِي الْفَرَى إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَالِمُونَ .

يقول تعالى معرضاً بأهل مكة في قوله تعالى : **﴿ وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ بَطَرَتْ مَعِيشَتَهَا ﴾** أي : طغت وأشرت ، وكفرت نعمة الله فيما أنعم به عليهم من الأزراق ، قال تعالى : **﴿ فَبَلَكَ مَسْكَنُهُمْ لَوْ تَشْكُرُ مِنْ بَدْرِهِ إِلَّا قَلِيلًا ﴾** أي : دثرت ديارهم ، فلا ترى إلا مساكنهم . وقوله تعالى : **﴿ وَكُنَّا نَحْنُ الْوَارِثِينَ ﴾** أي : رجعت خراباً ليس فيها أحد ، ثم قال تعالى مخبراً عن عدله ، وأنه لا يهلك أحداً ظالماً له ، وإنما يهلك من أهلك بعد قيام الحجة عليهم ؛ ولهذا قال : **﴿ وَمَا كَانَ رَيْكَ مَهْلِكَ الْفَرَى حَتَّى يَبْعَثَ فِي أُمَمٍ ﴾** وهي مكة **﴿ رَسُولًا يَنْتَلُوا عَلَيْهِمْ مَا يَتَّبِعُونَ ﴾** فيه دلالة على أن النبي الأمي - وهو

(١) أخرجه البخاري في التفسير (٤٧٧٢) ومسلم في (الإيمان) (٣٩) والإمام أحمد في مسنده (٤٢٣/٥) .

محمد ﷺ المبعوث من أم القرى - رسول إلى جميع القرى من عرب وأعجم . كما قال تعالى : ﴿ وَلَنُنَزِّدَ أُمَّ الْقُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا ﴾ . وقال تعالى : ﴿ قُلْ يَأَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ﴾ . فجعل تعالى بعثة النبي الأمي شاملة لجميع القرى ؛ لأنه مبعوث إلى أمها ، وأصلها التي ترجع إليها . وثبت عنه صلوات الله وسلامه عليه أنه قال : « بُعِثْتُ إِلَى الْأَخْصَرِ وَالْأَسْوَدِ » ^(١) . ولهذا ختم به النبوة والرسالة ، فلا نبي بعده ولا رسول ، بل شرعه باق بقاء الليل والنهار إلى يوم القيامة . وقيل : المراد بقوله : ﴿ حَتَّى يَبْعَثَ فِي أُمِّهَا رَسُولًا ﴾ أي : أصلها وعظمتها كأهميات الرساتيق والأقاليم .

﴿ وَمَا أُرْسِلْتُ مِنْ شَيْءٍ مِّنَ الْحَيَوةِ الدُّنْيَا وَرَبِّتُهَا وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَى أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ ^(٢) أَفَنَ وَعَدْتَهُ وَعَدَا حَسَنًا فَهُوَ لَنَبِيِّ كُنَّ مَنَعْنَهُ مَنَعَ الْحَيَوةِ الدُّنْيَا ثُمَّ هُوَ يَوْمَ الْقِيَمَةِ مِنَ الْمُحْضَرِينَ .

يقول تعالى مخبراً عن حقارة الدنيا ، بالنسبة إلى ما أعدّه الله لعباده الصالحين في الدار الآخرة من النعيم العظيم المقيم ، كما قال تعالى : ﴿ وَمَا لِلْحَيَوةِ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا مَتَّعٌ ﴾ . وقال تعالى : ﴿ بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَوةَ الدُّنْيَا ﴾ ^(٣) وَالْآخِرَةَ خَيْرٌ وَأَبْقَى ﴾ . وقال رسول الله ﷺ : « وَاللَّهِ مَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا كَمَا يَغْمِسُ أَحَدُكُمْ إصْبَعَهُ فِي السَّيِّءِ ، فَلْيَنْظُرْ مَاذَا يَرْجِعُ إِلَيْهِ » ^(٤) . وقوله : ﴿ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ أي : أفلا يعقل من يقدم الدنيا على الآخرة . وقوله تعالى : ﴿ أَفَنَ وَعَدْتَهُ وَعَدَا حَسَنًا فَهُوَ لَنَبِيِّ كُنَّ مَنَعْنَهُ مَنَعَ الْحَيَوةِ الدُّنْيَا ثُمَّ هُوَ يَوْمَ الْقِيَمَةِ مِنَ الْمُحْضَرِينَ ﴾ . يقول تعالى : أفمن هو مؤمن مصدق بما وعده الله على صالح الأعمال ، كمن هو كافر مكذب ببقاء الله ، فهو ممتنع في الحياة الدنيا أيأما قلائل . ﴿ ثُمَّ هُوَ يَوْمَ الْقِيَمَةِ مِنَ الْمُحْضَرِينَ ﴾ . قال مجاهد : من المعذنين ، ثم قد قيل : إنها نزلت في رسول الله ﷺ ، وفي أبي جهل . وقيل : في حمزة وعلي وأبي جهل ، وكلاهما عن مجاهد والظاهر أنها عامة .

﴿ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ ﴾ ^(٥) قَالَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ رَبَّنَا هَؤُلَاءِ الَّذِينَ أَغْوَيْنَا أَغْوَيْنَاهُمْ كَمَا غَوَيْنَا تَبَرَّأْنَا إِلَيْكَ مَا كَانُوا إِيَّانَا يَشْكُرُونَ ﴾ ^(٦) وَقِيلَ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ فَذَعَبُوهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ وَرَأَوُا الْعَذَابَ لَوْ أَنَّهُمْ كَانُوا يَهْتَدُونَ ﴾ ^(٧) وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَا أَجَبْتُمُ الْمُرْسَلِينَ ﴾ ^(٨) فَجِئْتُمْ عَلَيْهِمُ الْأَنْبَاءَ يَوْمَئِذٍ فَهُمْ لَا يَتَسَاءَلُونَ ﴾ ^(٩) فَأَمَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَسَوْفَ أُنْزِلُ إِلَيْهِ رِجْسٌ مِّنَ السَّمَاءِ كَاسٌ مِّنْ عَذَابٍ مُّهِينٍ ﴾ ^(١٠) .

يقول تعالى مخبراً عما يوبخ به الكفار المشركين يوم القيامة حيث يناديهم فيقول : ﴿ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ ﴾ يعني : أين الآلهة التي كنتم تعبدونها في الدار الدنيا من الأصنام والأنداد ، هل ينصرونكم أو ينتصرون ؟ وهذا على سبيل التقرير والتهديد . وقوله : ﴿ قَالَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ ﴾ يعني : الشياطين والمردة ، والدعاة إلى الكفر . ﴿ رَبَّنَا هَؤُلَاءِ الَّذِينَ أَغْوَيْنَاهُمْ كَمَا غَوَيْنَا تَبَرَّأْنَا إِلَيْكَ مَا كَانُوا إِيَّانَا يَشْكُرُونَ ﴾ فشهدوا عليهم أنهم أغووههم ، فاتبعوهم ، ثم تبرؤوا من عبادتهم كما قال تعالى : ﴿ وَاتَّخِذُوا مِن دُونِ اللَّهِ إِلَهاتٍ لِّتَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا ﴾ ^(١١) كَلَّا سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا ﴾ . وقال الله تعالى : ﴿ إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتُّبِعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوُا الْعَذَابَ وَتَقَطَعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ ﴾ ^(١٢) وَقَالَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا لَوْ أَنَّا كُنَّا نَدْرَأُ فَنَتَبَرَّأُ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّأُوا مِنَّا كَذَلِكَ يُرِيهِمُ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ وَمَا هُمْ بِبَخْرَجِينَ مِنَ النَّارِ ﴾ .

(١) أخرجه مسلم في المساجد (٣) والإمام أحمد في مسنده (١١٦/٤) والهيثم في مجمع الزوائد (٦٥/٦) .

(٢) أخرجه الترمذي في جامعه (٢٣٢٣) والمنذري في الترغيب والترهيب (١٧٤/٤) .

ولهذا قال : ﴿ وَقِيلَ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ ﴾ أي ليخلصوكم مما أنتم فيه كما كنتم ترجون منهم في الدار الدنيا . ﴿ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ وَرَأَوُا الْعَذَابَ ﴾ أي : وتيقنوا أنهم صاثرون إلى النار لا محالة . وقوله : ﴿ لَوْ أَنَّهُمْ كَانُوا يَئْتَدُونَ ﴾ أي : فودوا حين عاينوا العذاب لو أنهم كانوا من المهتدين في الدار الدنيا ، وقوله : ﴿ وَيَوْمَ يَبْذِبُهُمْ فَيَقُولُ مَاذَا أَجَبْتُمُ الْمُرْسَلِينَ ﴾ . النداء الأول عن سؤال التوحيد ، وهذا فيه إثبات النبوات ماذا كان جوابكم للمرسلين إليكم ؟ وكيف كان حالكم معهم ؟ وهذا كما يُسأل العبد في قبره : من ربك ، ومن نبيك ، وما دينك ؟ فأما المؤمن ، فيشهد أنه لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله ، وأما الكافر فيقول : هاه هاه لا أدري ، ولهذا لا جواب له يوم القيامة غير السكوت ؛ لأن من كان في هذه أعمى ، فهو في الآخرة أعمى وأضل سبيلاً . ولهذا قال تعالى : ﴿ فَصَبَّحَتْ عَلَيْهِمُ الْآبَاءُ يَوْمَئِذٍ فَهُمْ لَا يَتَسَاءَلُونَ ﴾ قال مجاهد : فعميت عليهم الحجج ، فهم لا يتساءلون بالأنساب . وقوله : ﴿ فَأَمَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ﴾ أي : في الدنيا ﴿ فَمَعَهُ أَثَرٌ مِنَ الْإِيمَانِ ﴾ أي : يوم القيامة ، وعسى من الله موجبة ، فإن هذا واقع بفضل الله ومنته لا محالة .

﴿ وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ سُبْحَنَ اللَّهِ وَتَكَلَّى عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ ﴿ وَرَبُّكَ يَعْلَمُ مَا يُبْذَرُ وَمَا يُغْنِي عَنْهُ وَاللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْخُسُوفُ فِي الْأَوَّلِ وَالْآخِرَةِ وَلَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ . يخبر تعالى أنه المنفرد بالخلق والاختيار ، وأنه ليس له في ذلك منازع ولا معقب ، قال تعالى : ﴿ وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ سُبْحَنَ اللَّهِ وَتَكَلَّى عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ أي : ما يشاء فما شاء كان ، وما لم يشأ لم يكن ، فالأمور كلها خيرها وشرها بيده ، ومرجعها إليه . وقوله : ﴿ مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ ﴾ نفى على أصح القولين . كقوله تعالى : ﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُمْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ﴾ . وقد اختار ابن جرير أن ﴿ مَا ﴾ ها هنا بمعنى الذي تقديره : ويختار الذي لهم فيه خيرة ، والصحيح أنها : نافية كما نقل عن ابن عباس وغيره أيضاً ، فإن المقام في بيان انفراده تعالى بالخلق والتقدير والاختيار ، وأنه لا نظير له في ذلك ؛ ولهذا قال : ﴿ سُبْحَنَ اللَّهِ وَتَكَلَّى عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ أي : من الأصنام والأنداد التي لا تخلق ولا تختار شيئاً . ثم قال تعالى : ﴿ وَرَبُّكَ يَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴾ . أي : يعلم ما تكن الضمائر ، وما تنطوي عليه السرائر ، كما يعلم ما تبديه الظواهر من سائر الخلائق . وقوله : ﴿ وَهُوَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ ﴾ أي : هو المنفرد بالإلهية ، فلا معبود سواه ، كما لا رب يخلق ما يشاء ويختار سواه ﴿ لَهُ الْخُسُوفُ فِي الْأَوَّلِ وَالْآخِرَةِ ﴾ أي في جميع ما يفعله هو الحمود عليه بعد له وحكمته ﴿ وَلَهُ الْحُكْمُ ﴾ أي : الذي لا معقب له لقهره ، وغلبته ، وحكمته ، ورحمته ﴿ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ أي : جميعكم يوم القيامة ، فيجزى كل عامل بعمله من خير وشر ، ولا يخفى عليه منهم خافية في سائر العمال .

﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَهُ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِضِيَاءٍ أَمْ لَا تَسْمَعُونَ ﴾ ﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَهُ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَمْ لَا تَصِيرُونَ ﴾ ﴿ وَمِنْ رَحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ .

يقول تعالى ممثلاً على عباده بما سخر لهم من الليل والنهار للذين لا قوام لهم بدونهما ، وبين أنه

لو جعل الليل دائماً عليهم سرمداً إلى يوم القيامة ، لأضر ذلك بهم ولستمته النفوس ، وانحصرت منه ؛ ولهذا قال تعالى : ﴿ مَن إِلَهُ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيَكُم بِضِيَائِهِ ﴾ أي : تبصرون به وتستأنسون بسببه ﴿ أَفَلَا تَسْمَعُونَ ﴾ ؟ ثم أخبر تعالى : أنه لو جعل النهار سرمداً أي : دائماً مستمراً إلى يوم القيامة لأضر ذلك بهم ، ولتعبت الأبدان من كثرة الحركات والأشغال ؛ ولهذا قال تعالى : ﴿ مَن إِلَهُ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيَكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُوتُ فِيهِ ﴾ أي : تستريحون من حركاتكم وأشغالكم ﴿ أَفَلَا تَبْصُرُونَ ﴾ ومن رَحْمَتِهِ ﴿ أَيُّكُمْ ﴾ ﴿ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ ﴾ أي : خلق هذا وهذا . ﴿ لَتَسْكُنُوا فِيهِ ﴾ أي : في الليل . ﴿ وَلَتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ ﴾ أي : في النهار بالأسفار والترحال ، والحركات والأشغال ، وهذا من باب اللف والنشر . وقوله : ﴿ وَلَتَكُنَّ تَشْكُرُونَ ﴾ أي : تشكرون الله بأنواع العبادات في الليل والنهار ، ومن فاته شيء بالليل استدركه بالنهار ، أو بالنهار استدركه بالليل .

﴿ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ ﴾ وَزَعَنَّا مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا فَقُلْنَا هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ فَعَلِمُوا أَنَّ الْحَقَّ لِلَّهِ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴾ .

وهذا أيضاً نداء ثان على سبيل التوبيخ والتفريع لمن عبد مع الله إلهاً آخر . يناديهم الرب تعالى على رؤوس الأشهاد فيقول : ﴿ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ ﴾ أي : في دار الدنيا . ﴿ وَزَعَنَّا مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا ﴾ قال مجاهد : يعني رسولا ﴿ فَقُلْنَا هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ ﴾ أي : على صحة ما ادعيتموه من أن لله شركاء ﴿ فَعَلِمُوا أَنَّ الْحَقَّ لِلَّهِ ﴾ أي : لا إله غيره ، فلم ينطقوا ، ولا يحيروا جواباً . ﴿ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴾ أي ذهبوا فلم ينفعموه .

﴿ إِنَّ قُرُونًا كَانَتْ مِن قَوْمِ مُوسَى فَبَيَّ عَلَيْنِهِمْ وَأَيَّتَهُمُ الْكُفْرُ مَا إِنَّ مَقَائِعَهُمُ لَنَسْوًا بِالْمُصِيبَةِ أُولَى الْفُورَةِ إِذْ قَالَ لَهُمْ قَوْمُهُمْ لَا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ ﴾ وَابْتَغَ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِنَ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ الْفُسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُنْفِسِينَ ﴾ .

قال ابن عباس : ﴿ إِنَّ قُرُونًا كَانَتْ مِن قَوْمِ مُوسَى ﴾ كان ابن عمه ، قال ابن جريج : هو قارون بن يهصب بن قاهث ، وموسى بن عمران بن قاهث . وزعم محمد بن إسحاق بن يسار أن قارون كان عم موسى بن عمران عليه السلام . قال ابن جريج : وأكثر أهل العلم على أنه كان ابن عمه والله أعلم . وقال قتادة ابن دعامه : كنا نحدث أنه كان ابن عم موسى ، وكان يسمى المنور لحسن صوته بالتوراة ، ولكن عدو الله نافق ، كما نافق السامري ، فأهلكه البغي لكثرة ماله ، وقال شهر بن حوشب : زاد في ثيابه شبراً طولاً ترفعاً على قومه . وقوله : ﴿ وَأَيَّتَهُمُ الْكُفْرُ ﴾ أي : الأموال . ﴿ مَا إِنَّ مَقَائِعَهُمُ لَنَسْوًا بِالْمُصِيبَةِ أُولَى الْفُورَةِ ﴾ أي : ليثقل حملها الفئام من الناس لكثرتها . وقوله : ﴿ إِذْ قَالَ لَهُمْ قَوْمُهُمْ لَا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ ﴾ أي : وعظه فيما هو فيه صالحو قومه فقالوا ، على سبيل النصيح والإرشاد : لا تفرح بما أنت فيه ، يعنون لا تبطر بما أنت فيه من المال . ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ ﴾ . قال ابن عباس : يعني المرحين . وقال مجاهد : يعني الأشرين البطرين الذين لا يشكرون الله على ما أعطاهم ، وقوله : ﴿ وَابْتَغَ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا ﴾ أي : استعمل ما وهبك الله من هذا المال الجزيل ، والنعمة الطائلة في طاعة ربك ، ﴿ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا ﴾ أي : مما أباح الله فيها من

الماكُل والمشارب ، والملابس والمساكن ، والمناكح ، فإن لربك عليك حقًا ، ولنفسك عليك حقًا ، ولأهلك عليك حقًا ، ولزورك عليك حقًا ، فأت كل ذي حق حقه . ﴿ وَأَحْسِنَ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ ﴾ أي : أحسن إلى خلقه كما أحسن هو إليك ﴿ وَلَا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ ﴾ أي : لا تكن همتك بما أنت فيه أن تفسد به في الأرض ، وتسيء إلى خلق الله ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ ﴾ .

﴿ قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُمْ عَلَىٰ ظَنٍّ عِنْدِي أَلَمْ تَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِنْ قَبْلِهِ مِنَ الْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمًّا ﴾ وَلَا يُسْتَلْ عَنْ ذُنُوبِهِ الْمُجْرِمُونَ .

يقول تعالى مخبرًا عن جواب قارون لقومه حين نصحوه وأرشدوه إلى الخير : ﴿ قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُمْ عَلَىٰ ظَنٍّ عِنْدِي ﴾ أي : إنما أعطيتهم لعلم الله في أني أهل له ، وهذا كقوله : ﴿ إِذَا مَنَّ الْأَمْسَنُ سُوءَ دَعَا ثُمَّ إِذَا حَوَّلْنَاهُ نِعْمَةً يَنَّا قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُمْ عَلَىٰ ظَنٍّ ﴾ أي : على من الله بي ، وقال الله تعالى رآذا عليه فيما ادعاه من اعتناء الله به فيما أعطاه من المال : ﴿ أَلَمْ تَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِنْ قَبْلِهِ مِنَ الْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمًّا ﴾ أي : قد كان من هو أكثر منه مالًا ، وما كان ذلك عن محبة منا له ، وقد أهلكهم الله مع ذلك بكفرهم ، وعدم شكرهم . ولهذا قال : ﴿ وَلَا يُسْتَلْ عَنْ ذُنُوبِهِ الْمُجْرِمُونَ ﴾ أي لكثرة ذنوبهم . قال قتادة : ﴿ عَلَىٰ ظَنٍّ عِنْدِي ﴾ : على خير عندي ، وقال السدي : على علم أني أهل لذلك . وقد أجاد في تفسير هذه الآية الإمام عبد الرحمن بن زيد ، فإنه قال في قوله : ﴿ قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُمْ عَلَىٰ ظَنٍّ عِنْدِي ﴾ قال : لولا رضا الله عني ، ومعرفة بفضل ما أعطاني هذا المال . وقرأ : ﴿ أَلَمْ تَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِنْ قَبْلِهِ مِنَ الْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمًّا ﴾ الآية ، وهكذا يقول من قل علمه إذا رأى من وسع الله عليه لولا أن يستحق ذلك لما أعطي .

﴿ فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ قَالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بَلِّتْ لَنَا مَائًا أَوْفَىٰ قُرُونُ إِنَّمَا لَكُمْ لَدُو حَظٌّ عَظِيمٌ ۝ وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَيَلَكُمْ تَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا وَلَا يُفْلِتُهَا إِلَّا الصَّادِقُونَ ﴾ .

يقول تعالى مخبرًا عن قارون أنه خرج ذات يوم على قومه في زينة عظيمة ، فلما رآه من يريد الحياة الدنيا ، ويميل إلى زخارفها وزينتها ، تمنوا أن لو كان لهم مثل الذي أعطي . ﴿ قَالُوا بَلِّتْ لَنَا مَائًا أَوْفَىٰ قُرُونُ إِنَّمَا لَكُمْ لَدُو حَظٌّ عَظِيمٌ ﴾ أي : ذو حظ وافر من الدنيا ، فلما سمع مقالتهم أهل العلم النافع قالوا لهم : ﴿ وَيَلَكُمْ تَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ﴾ أي : جزاء الله لعباده المؤمنين الصالحين في الدار الآخرة خير مما ترون . كما في الحديث الصحيح : « يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى : أَعْدَدْتُ لِعِبَادِي الصَّالِحِينَ مَا لَا عَيْنٌ رَأَتْ ، وَلَا أُذُنٌ سَمِعَتْ ، وَلَا خَطَرَ عَلَىٰ قَلْبِ بَشَرٍ ، وَأَقْرَبُوا إِن شِئْتُمْ : ﴾ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿ (١) . وقوله : ﴿ وَلَا يُفْلِتُهَا إِلَّا الصَّادِقُونَ ﴾ . قال السدي : ولا يلقى الجنة إلا الصابرون ، كأنه جعل ذلك من تمام كلام الذين أوتوا العلم . قال ابن جرير : ولا يلقى هذه الكلمة إلا الصابرون عن محبة الدنيا الراغبون في الدار الآخرة ، وكأنه جعل ذلك مقطوعًا من كلام أولئك ، وجعله من كلام الله ﷻ ، وإخباره بذلك .

(١) أخرجه البخاري في تفسير القرآن (٤٧٧٩) والإمام أحمد في مسنده (٦٦/٢) .

﴿ فَخَسَفْنَا بِهِ وَبَدَارِهِ الْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُ مِنْ فِئَةٍ يَنْصُرُوهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَتْ مِنَ الْإِنْسَانِ إِلَّا كَذِبًا ﴾ وَأَصْبَحَ الَّذِينَ تَمَنَّوْا مَكَانَهُ بِالْأَمْسِ يَقُولُونَ وَيَكَاثُرُ اللَّهُ يَسْطُرُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَوْلَا أَنْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا وَيَكَانَهُ لَا يَفْلِحُ الْكَافِرُونَ ﴿١﴾ .

لما ذكر تعالى اختيال قارون في زينته وفخره على قومه ، وبغيه عليهم عقب ذلك بأنه خسف به وبداره الأرض كما ثبت في الصحيح عن سالم عن أبيه عنه عليه السلام قال : « يَتَمَنَّأ رَجُلٌ يَجُوزُ إِزَارَهُ إِذَا خُسِفَ بِهِ فَهُوَ يَتَجَلَجَلُ فِي الْأَرْضِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ » ^(١) .

وعن أبي سعيد قال : قال عليه السلام : بينما رجل من كان قبلكم خرج في بردين أخضرين يختال فيهما أمر الله الأرض فأخذته ، فإنه ليتجلجل فيها إلى يوم القيامة ^(٢) .

وقوله تعالى : ﴿ فَمَا كَانَ لَهُ مِنْ فِئَةٍ يَنْصُرُوهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَتْ مِنَ الْإِنْسَانِ إِلَّا كَذِبًا ﴾ أي : ما أغنى عنه ماله ولا جمعه ولا خدمه وحشمه ، ولا دفعوا عنه نعمة الله وعذابه ونكاله ولا كان هو في نفسه منتصرا لنفسه فلا ناصر له من نفسه ولا من غيره .

وقوله تعالى : ﴿ وَأَصْبَحَ الَّذِينَ تَمَنَّوْا مَكَانَهُ بِالْأَمْسِ ﴾ أي : الذين لما رأوه في زينته قالوا : ﴿ يَبَيِّتُ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَدْرُهُ إِنَّهُمْ لَدُوٌّ حَظِيظٌ عَظِيمٌ ﴾ . فلما خسف به أصبحوا يقولون : ﴿ وَيَكَاثُرُ اللَّهُ يَسْطُرُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ ﴾ أي : ليس المال ببدال على رضا الله عن صاحبه ، كما في الحديث المرفوع عن ابن مسعود : « إِنَّ اللَّهَ قَسَمَ بَيْنَكُمْ أَخْلَاقَكُمْ كَمَا قَسَمَ أَرْزَاقَكُمْ ، وَإِنَّ اللَّهَ يُعْطِي الْمَالَ مَنْ يُحِبُّ ، وَمَنْ لَا يُحِبُّ ، وَلَا يُعْطِي الْإِيمَانَ إِلَّا مَنْ يُحِبُّ » ^(٣) . ﴿ لَوْلَا أَنْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا ﴾ أي : لولا لطف الله بنا ، وإحسانه إلينا لخسف بنا كما خسف به لأنا وددنا أن نكون مثله ﴿ وَيَكَانَهُ لَا يَفْلِحُ الْكَافِرُونَ ﴾ يعنون أنه كان كافرا ، ولا يفلح الكافر عند الله لا في الدنيا ولا في الآخرة . ﴿ تِلْكَ الْأْدَارُ الْأَخْرَىٰ جَعَلْنَا لِلَّذِينَ لَا يَرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فُسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ ^(٤) مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِنْهَا وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَىٰ الَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٥﴾ .

يخبر تعالى أن الدار الآخرة ونعيمها المقيم الذي لا يحول ولا يزول ، جعلها لعباده المؤمنين المتواضعين الذين لا يريدون علوا في الأرض أي ترفعا على خلق الله ، وتجبرا بهم ، ولا فسادا فيهم . كما قال عكرمة : العلو : التجبر . وقال سعيد بن جبير : العلو البغي . وعن مسلم البطون : العلو في الأرض التكبر بغير حق ، والفساد أخذ المال بغير حق ^(٤) ، وعن علي قال : إن الرجل ليعجبه من شراك نعله أن يكون أجود من شراك نعل صاحبه فيدخل في قوله تعالى : ﴿ تِلْكَ الْأْدَارُ الْأَخْرَىٰ جَعَلْنَا لِلَّذِينَ لَا يَرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فُسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ ^(٥) وهذا محمول على ما إذا أراد بذلك الفخر والتطاول على غيره . فإن ذلك مذموم . كما ثبت في الصحيح عنه عليه السلام : « إِنَّهُ أُوجِيَ إِلَيَّ أَنْ

(١) أخرجه البخاري في اللباس (٥٧٩٠) .

(٢) أخرجه الإمام أحمد في مسنده (٤٠/٣) .

(٣) أخرجه الإمام أحمد في مسنده (٣٨٧/١) والحاكم في المستدرک (٣٣/١) .

(٤) ذكره الطبري في تفسيره (١٤٩/٢٠) .

(٥) ذكره الطبري في تفسيره (١٤٩/٢٠) .

تَوَاضَعُوا حَتَّى لَا يَفْخَرُ أَحَدٌ عَلَى أَحَدٍ ، وَلَا يَتَّبِعِي أَحَدٌ عَلَى أَحَدٍ ^(١) . وأما إذا أحب ذلك لمجرد التجميل ، فهذا لا بأس به . فقد ثبت أن رجلاً قال : يا رسول الله إني أحب أن يكون ردائي حسناً ، ونعلي حسنة أفمن الكبر ذلك ؟ فقال : « لَا ، إِنَّ اللَّهَ جَمِيلٌ يُحِبُّ الْجَمَالَ » ^(٢) . وقال تعالى : ﴿ مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ ﴾ أي : يوم القيامة . ﴿ فَلَهُ عِزٌّ مُتَنَبِّأٌ ﴾ أي : ثواب الله خير من حسنة العبد ، فكيف والله يضاعفه أضعافاً كثيرة ، وهذا مقام الفضل . ثم قال : ﴿ وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يَمُوزِي الَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ إِلَّا مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴾ . كما قال في الآية الأخرى : ﴿ وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَكُبَّتْ وَجُوهُهُمْ فِي النَّارِ هَلْ تُخْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ وهذا مقام الفضل والعدل .

﴿ إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَأْدُكَ إِنْ مَعَادُ قُلُوبِهِ أَهْلَمَ مِنْ جَاءَ بِالْمُنْكَرِ وَمَنْ هُوَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ^(٣) وَمَا كُنْتَ تَرْجُو أَنْ يُفْلِحَ إِلَيْكَ الْكِتَابُ إِلَّا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ ظَهِيراً لِلْكَافِرِينَ ^(٤) وَلَا يَصُدُّكَ عَنْ مَائِتَةِ اللَّهِ بَعْدَ إِذْ أَنْزَلْتَ إِلَيْكَ وَإِلَيْكَ وَأَدْعُ إِلَى رَبِّكَ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الشَّرِيعِينَ ^(٥) وَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهاً مَعَهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ لَهُ الْفَتْحُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ .

يقول تعالى آمراً رسوله صلوات وسلامه عليه بيلاغ الرسالة ، وتلاوة القرآن على الناس ، ومخبراً له بأنه سيرده إلى معاد ، وهو يوم القيامة ، فيسأله عما استراحه من أعباء النبوة . ولهذا قال تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَأْدُكَ إِنْ مَعَادُ ﴾ أي : افترض عليك أدائه إلى الناس . ﴿ لَرَأْدُكَ إِنْ مَعَادُ ﴾ أي : إلى يوم القيامة ، فيسألك عن ذلك كما قال تعالى : ﴿ يَوْمَ يَجْمَعُ اللَّهُ الرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَا أَجَبْتُمْ ﴾ . وقال ابن عباس : ﴿ إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَأْدُكَ إِنْ مَعَادُ ﴾ يقول : لرأذك إلى الجنة ، ثم سائلك عن القرآن . وقال عكرمة عن ابن عباس : ﴿ لَرَأْدُكَ إِنْ مَعَادُ ﴾ قال : إلى يوم القيامة ، وعن سعيد ابن جبير عن ابن عباس : ﴿ لَرَأْدُكَ إِنْ مَعَادُ ﴾ : إلى الموت ، ولهذا طرق عن ابن عباس رضي الله عنه ، وفي بعضها لرادك إلى معدنك من الجنة . وقال مجاهد : يحييك يوم القيامة . وقال الحسن البصري : أي والله إن له لمعاداً ، فيبعثه الله يوم القيامة ، ثم يدخله الجنة . وقد روي عن ابن عباس غير ذلك ، كما قال البخاري في التفسير من صحيحه عن ابن عباس : ﴿ لَرَأْدُكَ إِنْ مَعَادُ ﴾ قال : إلى مكة ^(٦) . وقال مجاهد : إلى مولدك بمكة . وعن نعيم القاري أنه قال : إلى بيت المقدس . وهذا والله أعلم يرجع إلى قول من فسر ذلك بيوم القيامة ؛ لأن بيت المقدس هو أرض المحشر والمنتشر ، والله الموفق للصواب . ووجه الجمع بين هذه الأقوال أن ابن عباس فسر ذلك تارة برجوعه إلى مكة ، وهو الفتح الذي هو عند ابن عباس أمانة على اقتراب أجل النبي صلى الله عليه وسلم كما فسر ابن عباس سورة : ﴿ إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ ﴾ إلى آخر السورة ، أنه أجل رسول الله صلى الله عليه وسلم نعي إليه ، وكان ذلك بحضرة عمر بن الخطاب ، ووافقه عمر على ذلك وقال : لا أعلم منها غير الذي تعلم . ولهذا فسر ابن عباس تارة أخرى قوله : ﴿ لَرَأْدُكَ إِنْ مَعَادُ ﴾ بالموت ، وتارة بيوم القيامة الذي هو بعد الموت ، وتارة بالجنة التي هي جزاؤه ومصيره على أداء رسالة الله ، وإبلاغها إلى الإنس والجن ؛ ولأنه أكمل خلق الله وأفصح خلق الله على الإطلاق .

(١) أخرجه مسلم في الجنة (٦٤) وأبو داود في سننه (٤٨٩٥) .

(٢) ذكره ابن الجوزي في زاد المسير (٢٤٨/٦) . (٣) أخرجه البخاري في التفسير (٤٧٧٣) .

وقوله تعالى : ﴿ قُلْ رَبِّيَ أَعْلَمُ مَنْ جَاءَ بِالْهُدَىٰ وَمَنْ هُوَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴾ أي : قل لمن خالفك وكذبك من قومك من المشركين ، ومن تبعهم على كفرهم . قل : ربي أعلم بالمهتدي منكم ومني ، وستعلمون لمن تكون العاقبة والنصرة في الدنيا والآخرة . ثم قال مذكراً لنبيه نعمته العظيمة عليه ، وعلى العباد إذ أرسله إليهم : ﴿ وَمَا كُنْتُمْ تَرْجَوْنَ أَنْ يُلْقَىٰ إِلَيْكَ الْكِتَابُ ﴾ أي : أما كنت تظن قبل إنزال الوحي إليك أن الوحي ينزل عليك ولكن ﴿ رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ ﴾ أي : إنما أنزل الوحي عليك من الله ، من رحمته بك وبالعباد بسببك ، فإذا منحك بهذه النعمة العظيمة ﴿ فَلَا تَكُونَنَّ ظَاهِرًا ﴾ أي معيئاً . ﴿ لِلْكَافِرِينَ ﴾ ولكن فارقهم ونابذهم وخالفهم ، ﴿ وَلَا يَصُدُّكَ عَنْ آيَاتِ اللَّهِ بَعْدَ إِذْ أُنْزِلَتْ إِلَيْكَ ﴾ أي : لا تتأثر لخالفهم لك وصدهم الناس عن طريقك ، لا تلوي على ذلك ، ولا تباله ، فإن الله معك كلمتك ، ومؤيد دينك ، ومظهر ما أرسلك به على سائر الأديان ، ولهذا قال : ﴿ وَادْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ ﴾ أي : إلى عبادة ربك وحده لا شريك له . ﴿ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الشَّرِكَائِ ﴾ . وقوله : ﴿ وَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ ﴾ أي : لا تليق العبادة إلا له ، ولا تنبغي الإلهية إلا لعظمته . وقوله : ﴿ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ ﴾ إخبار بأنه الدائم الباقي الحي القيوم الذي تموت الخلائق ولا يموت ، ﴿ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ ﴾ أي إلا إياه . وقد ثبت في الصحيح عن أبي هريرة عنه عليه السلام قال : « أَصْدَقُ كَلِمَةٍ قَالَهَا الشَّاعِرُ لَبِيدٌ :

أَلَا كُلُّ شَيْءٍ مَا خَلَا اللَّهَ بَاطِلٌ » ^(١)

وقال مجاهد والثوري في قوله : ﴿ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ ﴾ أي : إلا ما أريد به وجهه . وهذا القول لا ينافي القول الأول ، فإن هذا إخبار عن كل الأعمال بأنها باطلة ، إلا ما أريد به وجه الله تعالى من الأعمال الصالحة المطابقة للشرعة ، والقول الأول مقتضاه أن كل الذوات فانية وزائلة ، إلا ذاته تعالى وتقدس ، فإنه الأول الآخر الذي هو قبل كل شيء وبعد كل شيء . وقوله : ﴿ لَهُ الْخُكْرُ ﴾ أي : الملك والتصرف ، ولا معقب لحكمه . ﴿ وَلِلَّهِ تَرْجُوعُونَ ﴾ أي يوم معادكم ، فيجزىكم بأعمالكم إن خيراً فخير ، وإن شراً فشر .

(١) أخرجه البخاري في (الأدب) (٦١٤٧) و (مناقب الأنصار) (٣٨٤١) ومسلم في (الشعر المقدمة) (٣) والإمام أحمد في مسنده (٤٧٠/٢) .

سورة العنكبوت

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ اَللّٰهُ ۝ اَحْسِبَ النَّاسُ اَنْ يَّبْرُكُوا اَنْ يَقُولُوا اٰمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ۝ وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِيْنَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللّٰهُ الَّذِيْنَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَٰذِبِيْنَ ۝ اَمْ حَسِبَ الَّذِيْنَ يَعْمَلُوْنَ السَّيِّئَاتِ اَنْ يَّسْفُرْنَا سَاءَ مَا يَحْكُمُوْنَ ﴾ .

أما الكلام على الحروف المقطعة فقد تقدم في أول سورة البقرة . وقوله تعالى : ﴿ اَحْسِبَ النَّاسُ اَنْ يَّبْرُكُوا اَنْ يَقُولُوا اٰمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ﴾ استفهام إنكار ، ومعناه أن الله ﷻ لا بد أن يتلي عباده المؤمنين بحسب ما عندهم من الإيمان . كما جاء في الحديث الصحيح : « أَشَدُّ النَّاسِ بَلَاءً الْأَنْبِيَاءُ ، ثُمَّ الصَّالِحُونَ ، ثُمَّ الْأَمْثَلُ فَلَا أَمْثَلُ ، يُتْلَى الرَّجُلُ عَلَى حَسَبِ دِينِهِ ، فَإِنْ كَانَ فِي دِينِهِ صَلَاحَةٌ ؛ زِيدَ لَهُ فِي الْبَلَاءِ » ^(١) . وهذه الآية كقوله : ﴿ اَمْ حَسِبْتُمْ اَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَلَمْزْ اللّٰهُ الَّذِيْنَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَلَيَعْلَمَنَّ الْقٰصِيْنَ ﴾ ولهذا قال ها هنا : ﴿ وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِيْنَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللّٰهُ الَّذِيْنَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَٰذِبِيْنَ ﴾ أي : الذين صدقوا في دعوى الإيمان ممن هو كاذب في قوله ودعواه ، والله ﷻ يعلم ما كان ، وما يكون ، وما لم يكن لو كان كيف يكون . وهذا مجمع عليه عند أئمة السنة والجماعة . وبهذا يقول ابن عباس وغيره في مثل قوله : ﴿ اِلَّا لِنَعْلَمَ ﴾ إلا لنرى ؛ وذلك لأن الرؤية إنما تتعلق بالموجود ، والعلم أعم من الرؤية ، فإنه يتعلق بالمعدوم والموجود .

وقوله تعالى : ﴿ اَمْ حَسِبَ الَّذِيْنَ يَعْمَلُوْنَ السَّيِّئَاتِ اَنْ يَّسْفُرْنَا سَاءَ مَا يَحْكُمُوْنَ ﴾ أي : لا يحسن الذين لم يدخلوا في الإيمان أنهم يتخلصون من هذه الفتنة والامتحان ، فإن من ورائهم من العقوبة والنكال ما هو أغلظ من هذا وأطم ولهذا قال : ﴿ اَمْ حَسِبَ الَّذِيْنَ يَعْمَلُوْنَ السَّيِّئَاتِ اَنْ يَّسْفُرْنَا ﴾ أي : يفوتونا ﴿ سَاءَ مَا يَحْكُمُوْنَ ﴾ أي : بمس ما يظنون .

﴿ مَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ اللّٰهِ فَإِنَّ أَجَلَ اللّٰهِ لَآتٍ وَهُوَ السَّكِيْتُ الْعَلِيْمُ ۝ وَمَنْ جَاهَدْ فَإِنَّمَا يُجَاهِدُ لِنَفْسِهِ إِنَّ اللّٰهَ لَغَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِيْنَ ۝ وَالَّذِيْنَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّٰلِحٰتِ لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ اَحْسَنَ الَّذِيْ كَانُوْا يَعْمَلُوْنَ ۝ يَقُولُ تَعَالٰى ۝ مَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ اللّٰهِ ۝ اَي ۝ فِي الدَّارِ الْآخِرَةِ ، وعمل الصالحات ، ورجا ما عند الله من الثواب الجزيل ، فإن الله سيحقق له رجاؤه ، ويوفيه عمله كاملاً موفراً ؛ لأنه سميع الدعاء ؛ ولهذا قال تعالى : ﴿ مَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ اللّٰهِ فَإِنَّ أَجَلَ اللّٰهِ لَآتٍ وَهُوَ السَّكِيْتُ الْعَلِيْمُ ﴾ . وقوله تعالى : ﴿ وَمَنْ جَاهَدْ فَإِنَّمَا يُجَاهِدُ لِنَفْسِهِ ﴾ . وقوله تعالى : ﴿ مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ ﴾ أي : من عمل صالحاً ، فإنه يعود نفع عمله على نفسه ، فإن الله تعالى غني عن أفعال العباد ، ولهذا قال تعالى : ﴿ وَمَنْ جَاهَدْ فَإِنَّمَا يُجَاهِدُ لِنَفْسِهِ إِنَّ اللّٰهَ لَغَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِيْنَ ﴾ قال الحسن البصري : إن الرجل ليجاهد ، وما ضرب يوماً من الدهر بسيف . ثم أخبر تعالى أنه مع غناه عن الخلائق جميعهم ، ومع يره وإحسانه بهم يجازي الذين آمنوا وعملوا الصالحات أحسن الجزاء ، فيقبل القليل من الحسنات ، ويثيب عليها الواحدة بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف ، ويجزي على السيئة بمثلها أو يعفو ويصفح ، كما قال تعالى : ﴿ إِنَّ اللّٰهَ لَا يَظْلِمُ شَيْئًا

﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا اتَّبِعُوا سَبِيلَنَا وَلْنَحْمِلْ خَطَايَكُمْ وَمَا هُمْ بِحَامِلِينَ مِنْ خَطَايَهُمْ مِنْ شَيْءٍ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿١٢﴾ وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَعَ أَثْقَالِهِمْ وَلَيَسْئَلَنَّ يَوْمَ أَفْئِكَتِهِمْ عَمَّا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴾ .

يقول تعالى مخبرًا عن كفار قريش ، أنهم قالوا لمن آمن منهم واتبع الهدى : ارجعوا عن دينكم إلى ديننا واتبعوا سبيلنا ، ﴿ وَلْنَحْمِلْ خَطَايَكُمْ ﴾ أي : وآثامكم إن كانت لكم آثام في ذلك علينا وفي رقابنا ، كما يقول القائل : افعِلْ هذا وخطيئتك في رقبتي ، قال الله تعالى تكذبتا لهم : ﴿ وَمَا هُمْ بِحَامِلِينَ مِنْ خَطَايَهُمْ مِنْ شَيْءٍ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴾ أي : فيما قالوه إنهم يحتملون عن أولئك خطاياهم ، فإنه لا يحمل أحد وزر أحد . قال الله تعالى : ﴿ وَلَا يَسْتَلْ حِمِيمٌ حِمِيمًا ﴾ يَسْرُوبُهُمْ . وقوله تعالى : ﴿ وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَعَ أَثْقَالِهِمْ ﴾ ، إخبار عن الدعاة إلى الكفر والضلالة أنهم يحملون يوم القيامة أوزار أنفسهم ، وأوزارًا آخر بسبب ما أضلوا من الناس من غير أن ينقص من أوزار أولئك شيئًا ، الآية . وفي الصحيح : « مَنْ دَعَا إِلَى هُدًى كَانَ لَهُ مِنَ الْأَجْرِ مِثْلُ أُجُورِ مَنْ اتَّبَعَهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مِنْ غَيْرِ أَنْ يُنْقُصَ مِنْ أُجُورِهِمْ شَيْئًا ، وَمَنْ دَعَا إِلَى ضَلَالَةٍ كَانَ عَلَيْهِ مِنَ الْإِثْمِ مِثْلُ آثَامِ مَنْ اتَّبَعَهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مِنْ غَيْرِ أَنْ يُنْقُصَ مِنْ آثَامِهِمْ شَيْئًا » ^(١) . وفي الصحيح : « وَمَا قُتِلَتْ نَفْسٌ ظُلْمًا إِلَّا كَانَ عَلَى ابْنِ آدَمَ الْأَوَّلِ كِفْلٌ مِنْ دِمَهِهَا ؛ لِأَنَّهُ أَوَّلُ مَنْ سَنَّ الْقَتْلَ » ^(٢) . وقوله تعالى : ﴿ وَلَيَسْئَلَنَّ يَوْمَ أَفْئِكَتِهِمْ عَمَّا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴾ أي : يكذبون ، ويختلقون من البهتان ، وفي الصحيح « إِنَّ الرَّجُلَ لَيَأْتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِحَسَنَاتٍ أَمْثَالِ الْجِبَالِ ، وَقَدْ ظَلَمَ هَذَا ، وَأَخَذَ مَالَ هَذَا ، وَأَخَذَ مِنْ غَرَضِ هَذَا ، فَيَأْخُذُ هَذَا مِنْ حَسَنَاتِهِ ، وَهَذَا مِنْ حَسَنَاتِهِ ، فَإِذَا لَمْ يَبْقَ لَهُ حَسَنَةٌ ؛ أَخَذَ مِنْ سَيِّئَاتِهِمْ فَطَرِحَ عَلَيْهِ » ^(٣) .

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ الطُّوفَانُ وَهُمْ ظَالِمُونَ ﴿١٣﴾ فَأَنجَيْنَاهُ وَأَصْحَبَ السَّيْفِينَا وَأَيُّهُ لِّلْعَالَمِينَ ﴾ .

هذه تسليية من الله تعالى لعبده ورسوله محمد ﷺ يخبره عن نوح عليه السلام أنه مكث في قومه هذه المدة يدعوهم إلى الله تعالى ليلاً ونهارًا ، وسرًا وجهرًا ، ومع هذا ما آمن معه منهم إلا قليل ؛ ولهذا قال تعالى : ﴿ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ الطُّوفَانُ وَهُمْ ظَالِمُونَ ﴾ أي : بعد هذه المدة الطويلة ما نجح فيهم البلاغ والإنذار ، فأنت يا محمد لا تأسف على من كفر بك من قومك ، ولا تحزن عليهم ، فإن الله يهدي من يشاء ، ويده الأمر وإليه ترجع الأمور ﴿ إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ . الآية . اعلم أن الله سيظهرك ، وينصرك ويؤيدك ، عن ابن عباس قال : بعث نوح وهو لأربعين سنة ، ولبث في قومه ألف سنة إلا خمسين عامًا ، وعاش بعد الطوفان ستين عامًا حتى كثر الناس وفشوا . وقال مجاهد : قال لي ابن عمر : كم لبث نوح في قومه ؟ قال : قلت : ألف سنة إلا خمسين عامًا . قال : فإن الناس لم يزلوا في نقصان من أعمارهم ، وأحلامهم وأخلاقهم إلى يومك هذا . وقوله تعالى : ﴿ فَأَنجَيْنَاهُ وَأَصْحَبَ السَّيْفِينَا ﴾ أي الذين آمنوا

(١) أخرجه مسلم في (العلم) (١٦) والإمام أحمد في مسنده (٣٩٧/٢) والترمذي في السنن (٢٦٧٤) .

(٢) أخرجه مسلم في (القسامة) (٢٧) والإمام أحمد في مسنده (٣٨٣/١) .

(٣) أخرجه بنحوه مسلم في البر (٦٠) والإمام أحمد في مسنده (٣٠٣/٢) .

بنوح عليه السلام ، وقوله تعالى : ﴿ وَجَعَلْنَاهَا آيَةً لِلْعَالَمِينَ ﴾ أي : وجعلنا تلك السفينة باقية ، إما عنها كما قال قتادة : إنها بقيت إلى أول الإسلام على جبل الجودي ، أو نوعها جعله الناس تذكرة لنعمه على الخلق كيف أنجاهم من الطوفان كما قال تعالى : ﴿ إِنَّا لَنَّا طَافًا أَلَمَّا هَمَلْنَا فِي الْغَابَةِ ۖ لَنَجْعَلَهَا لَكُمْ تَذِكْرًا وَرَبِّهَا أَذُنٌ ذَرْيَةٌ ﴾ . وقال ها هنا : ﴿ فَأَنبِئْنَهُ وَأَصْحَبَ السَّفِينَةَ وَجَعَلْنَاهَا آيَةً لِلْعَالَمِينَ ﴾ . وهذا من باب التدرج من الشخص إلى الجنس كقوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصْبِيحٍ وَجَعَلْنَاهَا رُجُومًا لِلشَّيَاطِينِ ﴾ أي : وجعلنا نوعها رجوماً ، فإن التي يرمى بها ليست هي زينة للسماء . وقال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ ۚ ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُفْلَةً فِي قَرَارٍ مَكِينٍ ﴾ ولهذا نظائر كثيرة . وقال ابن جرير : لو قيل : إن الضمير في قوله : ﴿ وَجَعَلْنَاهَا ﴾ عائد إلى العقوبة لكان وجهها ، والله أعلم .

﴿ وَإِبْرَاهِيمَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ۝ إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا إِنَّ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَابْتَغُوا عِنْدَ اللَّهِ الرِّزْقَ وَاعْبُدُوهُ وَاشْكُرُوا لَهُ ۚ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ۝ وَإِنْ تَكْذِبُوا فَقَدْ كَذَّبْتُمْ أَمْرٌ مِنْ قَبْلِكُمْ وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا أَنْبَأُ النَّاسَ ۚ ﴾

يخبر تعالى عن عبده ورسوله وخليله إبراهيم إمام الحنفاء أنه دعا قومه إلى عبادة الله وحده لا شريك له والإخلاص له في التقوى ، فقال لقومه : ﴿ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ ﴾ أي : أخلصوا له العبادة والخوف ﴿ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ أي : إذا فعلتم ذلك حصل لكم الخير في الدنيا والآخرة ، واندفع عنكم الشرف في الدنيا والآخرة . ثم أخبر تعالى أن الأصنام التي يعبدونها لا تضر ولا تنفع ، وإنما اختلقتم أنتم لها أسماء فسميتموها آلهة ، وإنما هي مخلوقة مثلكم . هكذا رواه العوفي عن ابن عباس ، وروى الوالبي عن ابن عباس ، وتصنعون إفكاً أي : تحتونها أصناماً ، واختاره ابن جرير رحمته الله . وهي لا تملك لكم رزقاً . ﴿ فَابْتَغُوا عِنْدَ اللَّهِ الرِّزْقَ ﴾ وهذا أبلغ في الحصر ، كقوله : ﴿ إِنَّا نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ . ولهذا قال ﴿ فَابْتَغُوا ﴾ أي فاطلبوا ﴿ عِنْدَ اللَّهِ الرِّزْقَ ﴾ أي لا عند غيره فإن غيره لا يملك شيئاً . ﴿ وَاعْبُدُوهُ وَاشْكُرُوا لَهُ ﴾ أي : كلوا من رزقه واعبدوه وحده ، واشكروا له على ما أنعم به عليكم . ﴿ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ أي : يوم القيامة فيجازي كل عامل بعمله . وقوله تعالى : ﴿ وَإِنْ تَكْذِبُوا فَقَدْ كَذَّبْتُمْ أَمْرٌ مِنْ قَبْلِكُمْ ﴾ أي : فبلغكم ما حل بهم من العذاب والنكال في مخالفة الرسل ﴿ وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا أَنْبَأُ النَّاسَ ۚ ﴾ يعني : إنما على الرسول أن يبلغكم ما أمره الله تعالى به من الرسالة ، والله يضل من يشاء ، ويهدي من يشاء ، فاحرصوا لأنفسكم أن تكونوا من السعداء .

﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا كَيْفَ يُبْدِئُ اللَّهُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ۝ قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللَّهُ يُعِيدُ الشَّعْأَ الْآخِرَةَ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ۝ يُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَيَرْحَمُ مَنْ يَشَاءُ وَإِلَيْهِ تُقْلَبُونَ ۝ وَمَا أَنتُمْ بِمُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ۝ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَنَبَّأُونَ أَنَّ اللَّهَ وَلَقَائِهِمْ أَوْلَيْكَ يَسْأَلُونَ مِنْ رَحْمَتِي وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ .

يقول تعالى مخبراً عن الخليل عليه السلام : أنه أرشدهم إلى إثبات المعاد الذي ينكرونه بما يشاهدونه في أنفسهم من خلق الله إياهم بعد أن لم يكونوا شيئاً مذكوراً ثم وجدوا ، وصاروا أناساً سامعين مبصرين ، فالذي بدأ هذا قادر على إعادته ، ثم أرشدهم إلى الاعتبار بما في الآيات المشاهدة من

خلق الله الأشياء : السماوات وما فيها من الكواكب النيرة الثوابت والسيارات ، والأرضين وما فيها من مهاد وجبال ، وأودية وبراري وقفار ، وأشجار وأنهار ، وثمار وبحار ، كل ذلك دال على حدوثها في أنفسها ، وعلى وجود صانعها الفاعل المختار ، الذي يقول للشيء كن فيكون . ولهذا قال : ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا كَيْفَ يُبْدِئُ اللَّهُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴾ . ثم قال تعالى : ﴿ قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللَّهُ يُنشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ ﴾ أي يوم القيامة ﴿ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ وهذا المقام شبيه بقوله تعالى : ﴿ سَرَّيْنَاهُ إِلَيْنَا فِي الْأَفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ ﴾ . وقوله تعالى : ﴿ يُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَيَرْحَمُ مَنْ يَشَاءُ ﴾ أي : هو الحاكم المتصرف الذي يفعل ما يشاء ، ويحكم ما يريد لا معقب لحكمه ، كما جاء في الحديث : « إِنَّ اللَّهَ لَوُ عَذِّبَ أَهْلَ سَمَآوَاتِهِ ، وَأَهْلَ أَرْضِهِ لَعَذَابُهُمْ ، وَهُوَ غَيْرُ ظَالِمٍ لَهُمْ » ^(١) . ولهذا قال تعالى : ﴿ يُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَيَرْحَمُ مَنْ يَشَاءُ وَإِلَيْهِ تُقْلَبُونَ ﴾ أي : ترجعون يوم القيامة . وقوله تعالى : ﴿ وَمَا أَنتُمْ بِمُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ ﴾ أي : لا يعجزه أحد من أهل سماواته وأرضه ، بل هو القاهر فوق عباده ، فكل شيء خائف منه فقير إليه ، وهو الغني عما سواه ﴿ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴾ وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِكَآيَاتِ اللَّهِ وَلِقَائِهِ ﴿ أَي : جحدوها وكفروا بالمعاد ﴾ أُولَئِكَ يَشْأَوْنَ مِنْ رَحْمَتِي ﴿ أَي لا نصيب لهم فيها ﴾ وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿ أي : موجع شديد في الدنيا والآخرة .

﴿ فَمَا كَانَتْ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا اقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ فَأَنْجَاهُ اللَّهُ مِنْ النَّارِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ وَقَالَ إِنَّمَا اتَّخَذْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا مَوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ لِيَقُضَ لِكُلِّ بَعْضٍ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴾ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ .

يقول تعالى مخبراً عن قوم إبراهيم في كفرهم وعنادهم ، ومكابرتهم ، ودفعهم الحق بالباطل ، أنهم ما كان لهم جواب بعد مقالة إبراهيم هذه المشتملة على الهدى والبيان ﴿ إِلَّا أَنْ قَالُوا اقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ ﴾ وذلك لأنهم قام عليهم البرهان ، فعدلوا إلى استعمال جاههم ، وقوة ملكهم ﴿ قَالُوا إِنَّا لَنَرُّكُمْ بَيْنَنَا فَأَقْصُوا فِي الْحَجِيرِ ﴾ فَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَسْقَلِينَ ﴿ وذلك أنهم حشدوا في جمع أحطاب عظيمة مدة طويلة ، وحوطوا حولها ، ثم أضرموا فيها النار ، فارتفع لها لهب إلى عنان السماء ، ولم توقد نار قط أعظم منها ، ثم عمدوا إلى إبراهيم ، فكتموه وألقوه في كفة المنجنيق ، ثم قذفوه فيها ، فجعلها الله عليه برداً وسلاماً ، وخرج منها سالماً بعد ما مكث فيها أياماً ، وقوله تعالى : ﴿ فَأَنْجَاهُ اللَّهُ مِنَ النَّارِ ﴾ أي : سلمه منها بأن جعلها عليه برداً وسلاماً ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ وَقَالَ إِنَّمَا اتَّخَذْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا مَوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴿ يقول لقومه مفرعاً لهم ، وموبخاً على سوء صنيعهم في عبادتهم للأوثان ، إنما اتخذتم هذه لتجتمعوا على عبادتها في الدنيا صداقة ، وألفة منكم بعضكم لبعض في الحياة الدنيا ، وهذا على قراءة من نصب ﴿ مودة بينكم ﴾ على أنه مفعول له ، وأما على قراءة الرفع ^(٢) فمعناه إنما اتخذكم هذا لتحصل لكم المودة في الدنيا فقط ﴿ ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴾

(١) أخرجه الإمام أحمد في مسنده (١٨٢/٥) .

(٢) قرأ نافع وابن عامر وأبو بكر ﴿ مودة ﴾ وقرأ الأعشى ﴿ مودة ﴾ وقرأ أبو عمرو والكسائي ﴿ مودة ﴾ (حجة القراءات ص ٥٥٠) .

ينعكس هذا الحال ، فتبقى هذه الصداقة ، والمودة بغضاً وشناتاً ، ثم : ﴿ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ ﴾ أي : تتجاهدون ما كان بينكم ﴿ وَلَيَعْلَمَنَّ بِمَعْصِكُمْ بَعْضًا ﴾ أي : يلعن الأتباع المتبوعين ، والمتبوعون الأتباع . ومصيركم ومرجعكم بعد عرصات القيامة إلى النار ، عن أم هانئ أخت علي بن أبي طالب قالت : قال لي النبي ﷺ : « أَخْبِرْكَ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى يَجْمَعُ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ ، فَمَنْ يَذَرِي أَثْنَ الطَّرْفَانِ ؟ » قَالَتْ : اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ - « ثُمَّ يُنَادِي مُنَادٍ مِنْ تَحْتِ الْعَرْشِ يَا أَهْلَ التَّوْحِيدِ فَيُسْرِبُونَ - قَالَ : أَبُو عَاصِمٍ يَذْفَعُونَ رُؤُوسَهُمْ - ثُمَّ يُنَادِي : يَا أَهْلَ التَّوْحِيدِ ، ثُمَّ يُنَادِي الثَّالِثَةَ : يَا أَهْلَ التَّوْحِيدِ : إِنَّ اللَّهَ قَدْ عَفَا عَنْكُمْ - قال : « فَيَقُومُ النَّاسُ قَدْ تَعَلَّقَ بَعْضُهُمْ بِبَعْضٍ فِي ظُلُمَاتِ الدُّنْيَا - يعني المظالم - ثُمَّ يُنَادِي : يَا أَهْلَ التَّوْحِيدِ : لِيَعْفَ بَعْضُكُمْ عَنْ بَعْضٍ وَعَلَى اللَّهِ الثَّوَابُ » (١) .

﴿ فَامَّا لَمْ لُوطٌ وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَى رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْغَرِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ وَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ وَآتَيْنَاهُ أَجْرَهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ .

يقول تعالى مخبراً عن إبراهيم أنه آمن له لوط يقال إنه ابن أخي إبراهيم ، يقولون : هو لوط بن هارون بن آزر يعني : ولم يؤمن به من قومه سواه ، وسارة امرأة إبراهيم الخليل ، لكن يقال : كيف الجمع بين هذه الآية ، وبين الحديث الوارد في الصحيح أن إبراهيم حين مر على ذلك الجبار ، فسأل إبراهيم عن سارة ما هي منه فقال : أختي ، ثم جاء إليها فقال لها : إني قد قلت له إنك أختي فلا تكذبيني ، فإنه ليس على وجه الأرض مؤمن غيري وغيرك ، فأنت أختي في الدين (٢) . وكأما المراد من هذا - والله أعلم - أنه ليس على وجه الأرض زوجان على الإسلام غيري وغيرك ، فإن لوطاً عليه السلام آمن به من قومه ، وهاجر معه إلى بلاد الشام ، ثم أرسل في حياة الخليل إلى أهل سدوم وإقليمها ، وكان من أمرهم ما تقدم وما سيأتي . وقوله تعالى : ﴿ وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَى رَبِّي ﴾ يحتمل عود الضمير في قوله : ﴿ وَقَالَ ﴾ على لوط ؛ لأنه هو أقرب المذكورين ، ويحتمل عوده إلى إبراهيم . قاله ابن عباس والضحاك . وهو المكنى عنه بقوله : ﴿ فَامَّا لَمْ لُوطٌ ﴾ أي : من قومه ، ثم أخبر عنه بأنه اختار الهجرة من بين أظهرهم ابتغاء إظهار الدين ، والتحكيم من ذلك ؛ ولهذا قال : ﴿ إِنَّهُ هُوَ الْغَرِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ أي : له العزة ولرسوله وللمؤمنين به الحكيم في أقواله وأفعاله ، وأحكامه القدريّة والشرعية . وقال قتادة : هاجرا جميعاً من كوثي وهي من سواد الكوفة إلى الشام . وعن شهر بن حوشب قال : لما جاءتنا بيعة يزيد بن معاوية قدمت الشام ، فأخبرت بمقام يقومه نوف البكالي فجنثته ، إذ جاء فانتدب الناس ، وعليه خميصة ، فإذا هو عبد الله بن عمرو بن العاص ، فلما رآه نوف أمسك عن الحديث فقال عبد الله : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « إِنَّهَا سَتَكُونُ هِجْرَةٌ بَعْدَ هِجْرَةٍ ، فَيَنْحَازُ النَّاسُ إِلَى مَهَاجِرِ إِبْرَاهِيمَ لَا يَتَّقِي فِي الْأَرْضِ إِلَّا شَرَّ أَهْلِهَا ، فَتَلْفُظُهُمْ أَرْضُهُمْ ، تَقْدِرُهُمْ نَفْسُ الرَّحْمَنِ ، تَحْشَرُهُمُ النَّارُ مَعَ الْقِرَدَةِ وَالْخَنَازِيرِ ، فَتَبِيْثُ مَعَهُمْ إِذَا بَاثُوا ، وَتَقِيلُ مَعَهُمْ إِذَا قَالُوا ، وَتَأْكُلُ مَنْ تَخَلَّفَ مِنْهُمْ » . قال : وسمعت

(٢) أخرجه البخاري في أحاديث الأنبياء (٣٣٥٨) .

(١) ذكره السيوطي في الدر المنثور (١٦١/٣) .

رسول الله ﷺ يقول: «سَيُخْرِجُ أَنَاسٌ مِن أُتْمِي مِنْ قِبَلِ الْمَشْرِقِ يَقْرَأُونَ الْقُرْآنَ لَا يُجَاوِزُ تَرَاقِيهِمْ كُلَّمَا خَرَجَ مِنْهُمْ قَرْنٌ قَطَعَ ، كُلَّمَا خَرَجَ مِنْهُمْ قَرْنٌ قَطَعَ - حتى عدما زيادة على عشرين مرة - كلما خرج منهم قرن حتى يخرج الدجال في بقيتهم»^(١).

وقال عبد الله بن عمرو : لقد رأينا وما صاحب الدينار والدرهم بأحق من أخيه المسلم ، ثم لقد رأيتنا بآخرة الآن والدينار والدرهم أحب إلى أحدنا من أخيه المسلم ، وسمعت رسول الله ﷺ يقول : « لَئِنْ أَنْتُمْ اتَّبَعْتُمْ أَذْنَآبَ الْبَيْتِ ، وَتَبَايَعْتُمْ بِالْعِيَةِ ، وَتَرَكْتُمْ الْجِهَادَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ؛ لَيُزِيلَنَّكُمْ اللَّهُ مَذَلَّةً فِي أَعْنَآكِكُمْ لَا تَنْزِعُ مِنْكُمْ حَتَّى تَرْجِعُوا إِلَى مَا كُنْتُمْ عَلَيْهِ ، وَتَوْبُوا إِلَى اللَّهِ تَعَالَى » (٢) . وفي الحديث : « يَخْرُجُ قَوْمٌ مِنْ أُمَّتِي يُسَيِّفُونَ الْأَغْمَالَ يَقْرَأُونَ الْقُرْآنَ لَا يُجَاوِزُ حَنَاجِرَهُمْ » قال يزيد لا أعلمه إلا قال : « يَخْوَفُ أَحَدُكُمْ عِلْمَهُ مَعَ عَلَيْهِمْ ، يَقْتُلُونَ أَهْلَ الْإِسْلَامِ فَإِذَا خَرَجُوا فَاقْتُلُوهُمْ ، ثُمَّ إِذَا خَرَجُوا فَاقْتُلُوهُمْ ، ثُمَّ إِذَا خَرَجُوا فَاقْتُلُوهُمْ ، فَطَوْبَى لِمَنْ قَتَلَهُمْ ، وَطَوْبَى لِمَنْ قَتَلُوهُ ، كُلَّمَا طَلَعَ مِنْهُمْ قَرْنٌ قَطَعَهُ اللَّهُ » . فردد ذلك رسول الله ﷺ عشرين مرة أو أكثر ، وأنا أسمع (٣) .

[illegible]

وقوله تعالى : ﴿ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ ﴾ هذه خلعة سننية عظيمة مع اتخاذ الله إياه خليلاً ، وجعله للناس إماماً أن جعل في ذريته النبوة والكتاب ، فلم يوجد نبي بعد إبراهيم عليه السلام إلا وهو من سلالة ، فجميع أنبياء بني إسرائيل من سلالة يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم حتى كان آخرهم عيسى ابن مريم فقام في ملتهم مبشراً بالنبي العربي القرشي الهاشمي خاتم الرسل على الإطلاق ، وسيد ولد آدم في الدنيا والآخرة . الذي أصطفاه الله من صميم العرب العرباء من سلالة إسماعيل بن إبراهيم عليه السلام ، ولم يوجد نبي من سلالة إسماعيل سواه عليه أفضل الصلاة والسلام . وقوله : ﴿ وَءَاتَيْنَاهُ أَجْرَهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ ﴾ أي جمع الله له بين سعادة الدنيا

(١) أخرجه الإمام أحمد في مسنده (١٩٩/٢) والحاكم في المستدرک (٤٨٦/٤).

(٢، ٣) أخرجه الإمام أحمد في مسنده (٨٤/٢).

(٤) أخرجه البخاري في التفسير (٤٦٨٨) والإمام أحمد في مسنده (٩٦/٢).

الموصولة بسعادة الآخرة ، فكان له في الدنيا الرزق الواسع الهني ، والزوجة الحسنة الصالحة ، والذكر الحسن ، وكل أحد يحبه ويتولاه كما قال ابن عباس ، مع القيام بطاعة الله من جميع الوجوه ، كما قال تعالى : ﴿ وَابْتَهِمَ الَّذِي وَكَّفُ أَي : قام بجميع ما أمر به ، وكمل طاعة ربه ، ولهذا قال تعالى : ﴿ وَءَاتَيْنَاهُ أَجْرَهُ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ لِمَنْ الصَّالِحِينَ ۝ .

﴿ وَلَوْطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ إِنَّكُمْ لَأَنْتَوْنَ الْفَاحِشَةُ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنْ الْعَالَمِينَ ۝ ابْنَتْكُمْ لَأَنْتَوْنَ الرِّجَالُ وَتَقْطَعُونَ السَّبِيلَ وَتَأْتُونَ فِي نَادِيَكُمُ الْمُنْكَرَ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَتَيْنَا بِعَذَابِ اللَّهِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ۝ قَالَ رَبِّ أَنْصُرْنِي عَلَى الْقَوْمِ الْمُفْسِدِينَ ۝ .

يقول تعالى مخبراً عن نبيه لوط عليه السلام أنه أنكر على قومه سوء صنيعهم ، وما كانوا يفعلونه من قبيح الأعمال في إتيانهم الذكران من العالمين ، ولم يسبقهم إلى هذه الفعلة أحد من بني آدم قبلهم ، وكانوا مع هذا يكفرون بالله ، ورسوله ، ويخالفون ويقطعون السبيل أي : يقفون في طريق الناس يقتلونهم ويأخذون أموالهم ﴿ وَتَأْتُونَ فِي نَادِيَكُمُ الْمُنْكَرَ ﴾ أي : يفعلون ما لا يليق من الأقوال والأفعال في مجالسهم التي يجتمعون فيها لا ينكر بعضهم على بعض شيئاً من ذلك . فمن قائل : كانوا يأتون بعضهم بعضاً في الملأ ، قاله مجاهد . ومن قائل : كانوا يتضارطون ويتضاحكون ، قاله عائشة رضي الله عنها والقاسم . ومن قائل : كانوا يناطحون بين الكباش ، وينافرون بين الديوك ، وكل ذلك كان يصدر عنهم ، وكانوا شراً من ذلك ، وعن مجاهد ﴿ وَتَأْتُونَ فِي نَادِيَكُمُ الْمُنْكَرَ ﴾ قال : الصفيير ولعب الحمام ، والجلالقي والسؤال في المجلس ، وحل أضرار القباء . وقوله تعالى : ﴿ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَتَيْنَا بِعَذَابِ اللَّهِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴾ وهذا من كفرهم واستهزائهم ، وعنادهم ، ولهذا استنصر عليهم نبي الله فقال : ﴿ رَبِّ أَنْصُرْنِي عَلَى الْقَوْمِ الْمُفْسِدِينَ ۝ .

﴿ وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبَشَرِ قَالُوا إِنَّا مَهْلِكُوا أَهْلَ هَذِهِ الْقَرْيَةِ إِنَّ أَهْلَهَا كَانُوا ظَالِمِينَ ۝ قَالَ إِنَّ فِيهَا لُوطًا قَالُوا نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَنْ فِيهَا لَنَنْجِيَنَّهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا امْرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ ۝ وَلَمَّا أَنْ جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِتًّا مِنْهُمْ وَصَافَكَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالُوا لَا تَخَفْ وَلَا تَحْزَنْ إِنَّا مُنْجِيُكَ وَأَهْلَكَ إِلَّا امْرَأَتَكَ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ ۝ إِنَّا مُنْزِلُونَ عَلَى أَهْلِ هَذِهِ الْقَرْيَةِ رِجْزًا مِنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ۝ وَلَقَدْ تَرَكْنَا مِنْهَا آيَةً بَيِّنَةً لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ۝ .

لما استنصر لوط عليه السلام بالله صلى الله عليه وسلم عليهم ، بعث الله لنصرتهم ملائكة ، فمروا على إبراهيم عليه السلام في هيئة أضياف ، فجاءهم بما ينبغي للضيف ، فلما رأى إبراهيم أنه لا همة لهم إلى الطعام ، نكرهم وأوجس منهم خيفة ، فشرعوا يؤانسونه ، ويشرونه بوجود ولد صالح من امرأته سارة ، وكانت حاضرة ، فتعجبت من ذلك ، فلما جاءت إبراهيم بالبشرى ، وأخبروه بأنهم أرسلوا لهلاك قوم لوط أخذ يدافع عنهم ينظرون لعل الله أن يهديهم ، ولما قالوا : إِنَّا مَهْلِكُوا أَهْلَ هَذِهِ الْقَرْيَةِ ﴿ قَالَ إِنَّ فِيهَا لُوطًا قَالُوا نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَنْ فِيهَا لَنَنْجِيَنَّهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا امْرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ ﴾ أي : من الهالكين لأنها كانت تماثلهم على كفرهم ، وبغيهم ودبرهم ، ثم ساروا من عنده ، فدخلوا على لوط في صورة شبان حسان ، فلما رآهم كذلك ﴿ سِتًّا مِنْهُمْ وَصَافَكَ بِهِمْ ذَرْعًا ﴾ أي : اغتم بأمرهم إن هو

أضافهم ، خاف عليهم من قومه ، وإن لم يصفهم خشى عليهم منهم ، ولم يعلم بأمرهم في الساعة الراهنة ﴿ وَقَالُوا لَا تَخَفْ وَلَا تَحْزَنْ إِنَّا مُنْجُونَكَ وَأَهْلَكَ إِلَّا أَمْرًا لَّهِ كَانَتْ مِنْكَ الْفَتَنُوتُ ﴾ ﴿٣٦﴾ إِنَّا مُنْزِلُونَكَ عَلَى أَهْلِ هَذِهِ الْقَرْيَةِ رِجْرًا مِنْ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴿٣٧﴾ وذلك أن جبريل عليه السلام اقتلع قراهم من قرار الأرض ، ثم رفعها إلى عنان السماء ، ثم قلبها عليهم ، وأرسل الله عليهم حجارة من سجيل منضود مسومة عند ربك ، وما هي من الظالمين يبيعد ، وجعل الله مكانها بحيرة خبيثة منتنة ، وجعلها عبرة إلى يوم التناد ، وهم من أشد الناس عذاباً يوم المعاد . ولهذا قال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ تَرَكْنَا مِنْهَا آيَةً بَيِّنَةً ﴾ أي واضحة ﴿ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ كما قال تعالى : ﴿ وَلَئِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ الْبَاطِلَ فَاصْبِرُوا فِي دَارِهِمْ جَسِيبِينَ ﴾ . ﴿ وَإِلَى مَدِينِكَ أَخَاهُمْ شُعَيْبٌ فَقَالَ يَنْفِرُوا بَعْدُ اللَّهُ وَارْجُوا الْيَوْمَ الْآخِرَ وَلَا تَمُوتُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴾ ﴿٣٨﴾ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَسِيبِينَ ﴾ .

يخبر تعالى عن عبده ورسوله شعيب عليه السلام أنه أُنذر قومه أهل مدين ، فقال : ﴿ يَنْفِرُوا بَعْدُ اللَّهُ وَارْجُوا الْيَوْمَ الْآخِرَ ﴾ قال ابن جرير : قال بعضهم : معناه : واخشوا اليوم الآخر ، وقوله : ﴿ وَلَا تَمُوتُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴾ نهاهم عن العيث في الأرض بالفساد ، وهو السعي فيها والبغي على أهلها ، وذلك أنهم كانوا ينقصون المكيال والميزان ، ويقطعون الطريق على الناس ، هذا مع كفرهم بالله ورسوله ، فأهلكهم الله برجفة عظيمة زلزلت عليهم بلادهم ، وصيحة أخرجت القلوب من حناجرهم ، وعذاب يوم الظلة الذي أزهق الأرواح من مستقرها إنه كان عذاب يوم عظيم . وقوله : ﴿ فَاصْبِرُوا فِي دَارِهِمْ جَسِيبِينَ ﴾ قال قتادة : ميتين . وقال غيره : قد ألقى بعضهم على بعض . ﴿ وَعَادَا وَتَحْمُودَا وَقَدْ تَبَيَّنَ لَكُمْ مِنْ مَسْكِنِهِمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَكَانُوا مُسْتَبْصِرِينَ ﴾ ﴿٣٩﴾ وَتَوَرَّتْ عَنْهُمْ وَفَرَّقَوْنَهُمْ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ ثَمُودُ بِالْبَيِّنَاتِ فَنَسَكَّهُمْ فِي الْأَرْضِ وَمَا كَانُوا سَاقِقِينَ ﴿٤٠﴾ فَكَلَّا أَخَذْنَا بِذُنُوبِهِمْ فَنِنْهُمْ مَنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُمْ مَنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُمْ مَنْ خَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ وَمِنْهُمْ مَنْ أَغْرَقْنَا وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ .

يخبر تعالى عن هؤلاء الأمم المكذبة للرسول كيف أبادهم وتنوع في عذابهم ، فعاد قوم هود عليه السلام يسكنون الأحقاف ، وهي قرية من حضر موت بلاد اليمن ، وثمود قوم صالح كانوا يسكنون الحجر قريباً من وادي القرى . وقارون صاحب الأموال الجزيلة ومفاتيح الكنوز الثقيلة ، وفرعون ملك مصر في زمان موسى ووزيره هامان القبطيان الكافران بالله ورسوله ﷺ ﴿ فَكَلَّا أَخَذْنَا بِذُنُوبِهِمْ ﴾ أي : كانت عقوبته بما يناسبه ﴿ فَنِنْهُمْ مَنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا ﴾ وهم عاد وذلك أنهم قالوا : من أشد منا قوة ، فجاءتهم ريح صرصر باردة شديدة البرد ، عاتية شديدة الهبوب جداً ، تحمل عليهم حصاء الأرض فتلقىهم عليهم وتقتلعهم من الأرض فترفع الرجل منهم من الأرض إلى عنان السماء ، ثم تنكسه على أم رأسه فتشدخه ، فيبقى بدنًا بلا رأس كأنهم أعجاز نخل منقعر ﴿ وَمِنْهُمْ مَنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ ﴾ وهم ثمود ، قامت عليهم الحجة وظهرت لهم الدلالة من تلك الناقة التي انفلقت عنها الصخرة مثل ما سألوه سواء بسواء ، ومع هذا ما آمنوا بل استمروا على طغيانهم وكفرهم وتهددوا نبي الله صالحاً ومن آمن معه ، وتوعدوهم بأن يخرجوهم ويرجموهم ، فجاءتهم صيحة أخرجت

الأصوات منهم والحركات ﴿ وَمِنْهُمْ مَنْ خَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ ﴾ وهو قارون الذي طغى وبغى ومشى في الأرض مرحاً ، وفرح ومرح ، وتاه بنفسه واعتقد أنه أفضل من غيره ، واختال في مشيته فخسف الله به وبداره الأرض ، فهو يتجلجل فيها إلى يوم القيامة ﴿ وَمِنْهُمْ مَنْ أَغْرَقْنَا ﴾ وهو فرعون ووزيره هامان وجنودهما عن آخرهم أغرقوا في صبيحة واحدة فلم ينج منهم مخبر ﴿ وَمَا كَانَتْ اللَّهُ لِيُظْلِمَهُمْ ﴾ أي فيما فعل بهم ﴿ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ أي : إنما فعل ذلك بهم جزاء وفاقاً بما كسبت أيديهم . ثم قال : ﴿ فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذُنُوبِهِ ﴾ أي : من هؤلاء المذكورين ، وإنما نهت على هذا ؛ لأنه قد قال ابن عباس في قوله : ﴿ فَيَنْهَضُ مَنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا ﴾ قال : قوم لوط ﴿ وَمِنْهُمْ مَنْ أَغْرَقْنَا ﴾ قال : قوم نوح وهذا منقطع عن ابن عباس ، فإن ابن جريج لم يدركه . ثم قد ذكر الله في هذه السورة إهلاك قوم نوح بالطوفان ، وقوم لوط بإنزال الرجز من السماء ، وأطال السياق والفصل بين ذلك وبين هذا السياق . وقال قتادة : ﴿ فَيَنْهَضُ مَنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا ﴾ قال : قوم لوط ﴿ وَمِنْهُمْ مَنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ ﴾ قوم شعيب ، وهذا بعيد أيضاً لما تقدم ، والله أعلم .

﴿ مَثَلُ الَّذِينَ أَخَذُوا مِنَ دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ كَشَلِّ الْعُنُكِيِّنَ انْخَضَتْ يَدَايَ وَأَهْرَ الْأَبْيُوتِ لَيْتَ الْعُنُكِيُّ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴾ ١٠٠ إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ١٠١ وَتِلْكَ الْأَمْثَلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ .

هذا مثل ضربه الله تعالى للمشركين في اتخاذهم آلهة من دون الله ، فهم في ذلك كبيت العنكبوت في ضعفه ووهنه ، فليس في أيدي هؤلاء من آلهتهم إلا كمن يتمسك ببيت العنكبوت ، فإنه لا يجدي عنه شيئاً . ثم قال تعالى متوعداً لمن عبد غيره ، وأشرك به ، إنه تعالى يعلم ما هم عليه من الأعمال ويعلم ما يشركون به من الأنداد ، وسيجزئهم وصفهم إنه حكيم عليم . ثم قال تعالى : ﴿ وَتِلْكَ الْأَمْثَلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ ﴾ أي : وما يفهمها ويتدبرها إلا الراسخون في العلم ، المتضلعون منه . قال عمرو بن العاص رضي الله عنه : عقلت عن رسول الله ﷺ ألف مثل ^(١) . وهذه منقبة عظيمة لعمرو بن العاص رضي الله عنه حيث يقول الله تعالى : ﴿ وَتِلْكَ الْأَمْثَلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ ﴾ .

﴿ خَلَقَ اللَّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴾ ١٠٢ أَتَىٰ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ وَأَقْرَبَ الصَّكَاةَ إِنَّ الصَّكَاةَ تَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ ١٠٣ يقول تعالى مخبراً عن قدرته العظيمة أنه خلق السماوات والأرض بالحق يعني لا على وجه العبث واللعب ، ﴿ لِيُجْزِيَ كُلَّ نَفْسٍ بِمَا سَعَى ﴾ . وقوله تعالى : ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴾ أي : لدلالة واضحة على أنه تعالى المتفرد بالخلق والتدبير والإلهية . ثم قال تعالى أمراً رسوله والمؤمنين بتلاوة القرآن ، وهو قراءته وإبلاغه للناس : ﴿ وَأَقْرَبَ الصَّكَاةَ إِنَّ الصَّكَاةَ تَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ ﴾ يعني : أن الصلاة تشتمل على شيئين : على ترك الفواحش والمنكرات أي : مواظبتها تحمل على ترك ذلك ، وقد جاء في الحديث من رواية عمران وابن عباس مرفوعاً : « مَنْ لَمْ

تَنْتَهُ صَلَاتُهُ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ ؛ لَمْ تَزِدْهُ مِنَ اللَّهِ إِلَّا بَعْدًا ^(١) .

وعن ابن مسعود عن النبي ﷺ قال : « لَا صَلَاةَ لِمَنْ لَمْ يُطِيعِ الصَّلَاةَ » وطاعة الصلاة أن تنهاه عن الفحشاء والمنكر . قال : وقال سفيان ﴿ قَالُوا يَسْتَعِيبُ أَمَلُوتُكَ تَأْمُرُكَ ﴾ قال سفيان : أي والله تأمره وتنهاه ^(٢) .

وعن أبي هريرة قال : جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال : إن فلانا يصلي بالليل ، فإذا أصبح سرق . فقال : « إِنَّهُ سَيَنْتَهُ مَا تَقُولُ » ^(٣) . وتشتمل الصلاة أيضًا على ذكر الله تعالى ، وهو المطلوب الأكبر ، ولهذا قال تعالى : ﴿ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ ﴾ أي : أعظم من الأول ﴿ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ ﴾ أي : يعلم جميع أعمالكم ، وأقوالكم . وقال أبو العالية في قوله تعالى : ﴿ لِمَنِ الصَّلَاةُ تَنْتَهُ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ ﴾ قال : إن الصلاة فيها ثلاث خصال ، فكل صلاة لا يكون فيها شيء من هذه الخصال فليست بصلاة : الإخلاص ، والخشية ، وذكر الله ؛ فالإخلاص يأمره بالمعروف ، والخشية تنهاه عن المنكر ، وذكر الله القرآن يأمره وينهاه . وقال ابن عون الأنصاري : إذا كنت في صلاة فأنت في معروف ، وقد حجرتك عن الفحشاء والمنكر ، والذي أنت فيه من ذكر الله أكبر . وقال حماد بن أبي سليمان : ﴿ لِمَنِ الصَّلَاةُ تَنْتَهُ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ ﴾ يعني : ما دمت فيها . وقال ابن عباس في قوله تعالى : ﴿ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ ﴾ يقول : ولذكر الله لعباده أكبر ، إذا ذكره من ذكرهم إياه . وكذا روى غير واحد عن ابن عباس ، وفي رواية عن ابن عباس ﴿ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ ﴾ قال : ذكر الله عند طعامك ، وعند منامك ، قلت : فإن صاحبًا لي في المنزل يقول غير الذي تقول ، قال : وأي شيء يقول ؟ قلت : قال : يقول الله تعالى : ﴿ فَادْكُرُوا اللَّهَ إِذْ تَأْكُلُونَ ﴾ فلذكر الله إيانا أكبر من ذكرنا إياه ، قال : صدق . وفي رواية أخرى عن ابن عباس في قوله تعالى : ﴿ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ ﴾ قال : لها وجهان : قال : ذكر الله عند ما حرمة ، قال : وذكر الله إياكم أعظم من ذكركم إياه ، عن عبد الله بن ربيعة قال : قال لي ابن عباس : هل تدري ما قوله تعالى : ﴿ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ ﴾ ؟ قال : قلت : نعم ، قال : فما هو ؟ قلت : التسبيح ، والتحميد ، والتكبير في الصلاة ، وقراءة القرآن ونحو ذلك ، قال : لقد قلت قولاً عجيباً ، وما هو كذلك ، ولكنه إنما يقول : ذكر الله إياكم عندما أمر به ، أو نهى عنه إذا ذكرتموه أكبر من ذكركم إياه ، واختاره ابن جرير .

﴿ وَلَا تَجِدُوا أُمَّةً ظَلَمُوا مِنْهُمْ وَقَوْلُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَأَنْزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَهُنَا وَإِلَهُكُمْ وَاحِدٌ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴾ .

قال قتادة وغير واحد : هذه الآية منسوخة بآية السيف ، ولم يبق معهم مجادلة ، وإنما هو الإسلام أو الجزية أو السيف . وقال آخرون : بل هي باقية محكمة لمن أراد الاستبصار منهم في الدين ، فيجادل بالتي هي أحسن ليكون أنجع فيه . كما قال تعالى : ﴿ ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمِ وَالْمَعْرَظَةِ الْحَسَنَةِ ﴾ الآية . وقال تعالى لموسى وهارون حين بعثهما إلى فرعون : ﴿ فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَيْسَ لَكَ لَنَا مَلَكٌ يَنْذَرُكَ أَوْ يَخَفُكَ ﴾

(١) أخرجه الهيثمي في مجمع الزوائد (٢٥٨/٢) والطبراني في الكبير (٥٤/١١) .

(٢) أخرجه أحمد في مسنده (٤٤٧/٢) .

(٣) ذكره الطبري في تفسيره (١٨٩/٢٠) .

وهذا القول اختاره ابن جرير . وقوله تعالى : ﴿لَا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ﴾ أي : حادوا عن وجه الحق ، وعموا عن واضح المحجة ، وعاندوا وكابروا . فحينئذ ينتقل من الجدال إلى الجلال ، ويقاثلون بما يمنهم ويردعهم . قال مجاهد : ﴿لَا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ﴾ يعني أهل الحرب ، ومن امتنع منهم من أداء الجزية . وقوله تعالى : ﴿وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَأَنْزِلَ إِلَيْكُمْ﴾ يعني : إذا أخبروا بما لا نعلم صدقه ولا كذبه ، فهذا لا نقدم على تكذيبه ؛ لأنه قد يكون حقاً . ولا تصديقه فلعله أن يكون باطلاً ، ولكن نؤمن به إيماناً مجملاً معلقاً على شرط : وهو أن يكون منزلاً ، لا مبدلاً ، ولا مؤولاً . وفي الحديث « لَا تُصَدِّقُوا أَهْلَ الْكِتَابِ وَلَا تُكْذِبُوهُمْ وَقُولُوا : آمَنَّا بِالَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَهُنَا وَإِلَهُكُمْ وَاحِدٌ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ » ^(١) .

وعن عبد الله بن مسعود قال : لا تسألوا أهل الكتاب عن شيء ؛ فإنهم لن يهدوكم وقد ضلوا ، إما أن تكذبوا بحق ، أو تصدقوا بباطل ، فإنه ليس أحد من أهل الكتاب إلا وفي قلبه تالية تدعوه إلى دينه كتالية المال ^(٢) . وقال ابن عباس : كيف تسألون أهل الكتاب عن شيء ؟ وكتابكم الذي أنزل إليكم على رسول الله ﷺ أحدث ، تقرأونه محضاً لم يشب ، وقد حدثكم أن أهل الكتاب بدلوا وغيروا وكتبوا بأيديهم الكتاب وقالوا : هو من عند الله ؛ ليشتروا به ثمناً قليلاً ؟ ألا ينهاكم ما جاءكم من العلم عن مسألتهم ؟ لا والله ما رأينا منهم رجلاً يسألكم عن الذي أنزل عليكم ^(٣) . وقال حميد بن عبد الرحمن ، أنه سمع معاوية يحدث رهطاً من قريش بالمدينة . وذكر كعب الأحبار فقال : إن كان من أصدق هؤلاء المحدثين الذين يحدثون عن أهل الكتاب ، وإن كنا مع ذلك لنبلو عليه الكذب ^(٤) ، قلت : معناه أنه يقع منه الكذب لغة من غير قصد ؛ لأنه يحدث عن صحف هو يحسن بها الظن ، وفيها أشياء موضوعة ومكذوبة ؛ لأنهم لم يكن في ملتهم حفاظ متقنون كهذه الأمة العظيمة . ومع ذلك وقرب العهد وضعت أحاديث كثيرة في هذه الأمة لا يعلمها إلا الله ﷻ ، ومن منحه الله علماً بذلك . كل بحسبه ولله الحمد والمنة .

﴿وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ فَالَّذِينَ ءَاتَيْنَهُمُ الْكِتَابَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَبِهِ هَتَّاءٌ مَن يُؤْمِنُ بِهِ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا الْكَافِرُونَ﴾ ^(٥) وَمَا كُنْتَ تَسْلُو مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلَا تَخْطُبُ بِبَيْتِكَ إِذَا لَأَزَابَ الْمُطِيلُونَ ^(٦) بَلْ هُوَ آيَاتٌ يَبَيِّنُ فِي صُورٍ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا الظَّالِمُونَ﴾ .

قال ابن جرير : يقول الله تعالى : كما أنزلنا الكتب على من قبلك يا محمد من الرسل . كذلك أنزلنا إليك هذا الكتاب ، وهذا الذي قاله حسن ، ومناسبته وارتباطه جيد . وقوله تعالى : ﴿فَالَّذِينَ ءَاتَيْنَهُمُ الْكِتَابَ يُؤْمِنُونَ بِهِ﴾ أي : الذي أخذه فتلوه حتى تلاوته من أحبارهم العلماء الأذكياء ، كعبد الله بن سلام وسلمان الفارسي وأشباهم . وقوله تعالى : ﴿وَبِهِ هَتَّاءٌ مَن يُؤْمِنُ بِهِ﴾ يعني : العرب من قريش وغيرهم . ﴿وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا الْكَافِرُونَ﴾ أي : ما يكذب بها ويجهل حقها إلا من يستر الحق بالباطل ، ثم قال تعالى : ﴿وَمَا كُنْتَ تَسْلُو مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلَا تَخْطُبُ بِبَيْتِكَ﴾ أي : قد لبثت

(١) أخرجه البخاري في (الاعتصام) (٧٣٦٢) (والتوحيد) (٧٥٤٢) والبيهقي في سننه (١٦٣/١٠) .

(٢) ذكره الطبري في تفسيره (٢١/٦) .

(٣) أخرجه البخاري في الاعتصام (٧٣٦٣) .

(٤) أخرجه البخاري في الاعتصام (٧٣٦١) .

في قومك يا محمد من قبل أن تأتي بهذا القرآن عمراً ، لا تقرأ كتاباً ، ولا تحسن الكتابة ، بل كل أحد من قومك وغيرهم يعرف أنك رجل أمي ، وهكذا صفته في الكتب المتقدمة كما قال تعالى : ﴿ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْنُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ ﴾ الآية . وهكذا كان رسول الله ﷺ دائماً إلى يوم الدين ، لا يحسن الكتابة ولا يخط سطرًا ولا حرفاً بيده ، بل كان له كتاب يكتبون بين يده الوحي والرسائل إلى الأقاليم . ومن زعم من متأخري الفقهاء كالقاضي أبي الوليد الباجي ، ومن تابعه أنه عليه السلام كتب يوم الحديبية : هذا ما قاضى عليه محمد بن عبد الله . فإنما حمله على ذلك رواية في صحيح البخاري ، ثم أخذ فكتب . وهذه محمولة على الرواية الأخرى ، ثم أمر فكتب . ولهذا اشتهر النكير من فقهاء المشرق والمغرب على من قال بقول الباجي : وتبرأوا منه وأنشدوا في ذلك أقوالاً ، وخطبوا به في محافلهم ، وإنما أراد الرجل - أعني الباجي - فيما يظهر عنه : أنه كتب ذلك على وجه المعجزة ، لا أنه كان يحسن الكتابة كما قال ﷺ لإخباراً عن الدجال : « مَكْنُوبٌ يَبِينُ عَيْنَيْهِ كَافِرٌ » وفي رواية « ك ف ر ، يقرؤها كل مؤمن » ^(١) . وما أورده بعضهم من الحديث أنه لم يمت ﷺ حتى تعلم الكتابة فضعيف لا أصل له .

قال الله تعالى : ﴿ وَمَا كُنْتَ تَتْلُو ﴾ أي : تقرأ ﴿ مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ ﴾ لتأكيد النفي ﴿ وَلَا تَخْطُهُ يَمِينُكَ ﴾ تأكيد أيضاً ، وخرج مخرج الغالب كقوله تعالى : ﴿ وَلَا تَلَطَّ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ ﴾ وقوله تعالى : ﴿ إِذَا لَزَزْتَ أَلْبِطُونَ ﴾ أي : لو كنت تحسنها لارتاب بعض الجهلة من الناس ، فيقول إنما تعلم هذا من كتب قبله مأثورة عن الأنبياء مع أنهم قالوا ذلك مع علمهم بأنه أمي لا يحسن الكتابة ﴿ وَقَالُوا أَتُطِيرُ الْأَوَّلِينَ أَكُتِّبَهَا فِيهِ نَسَمٌ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴾ وقال ها هنا : ﴿ بَلْ هُوَ آيَاتٌ يَبْنِتُ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُورُوا أَلَمَلَةً ﴾ أي : هذا القرآن آيات بينة واضحة في الدلالة على الحق ، أمراً ونهيًا وخبرًا يحفظه العلماء ، يسره الله عليهم حفظًا وتلاوة وتفسيرًا ، كما قال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَذَا مِنْ مَّذَكِّرٍ ﴾ وقال رسول الله ﷺ : « مَا مِنْ نَبِيٍّ إِلَّا وَقَدْ أُعْطِيَ مَا أَمَرَ عَلَى مِثْلِهِ الْبَشَرُ ، وَإِنَّمَا كَانَ الَّذِي أُوتِيَهُ وَحْيًا أَوْحَاهُ اللَّهُ إِلَيْهِ ، فَأَرْجُو أَنْ أَكُونَ أَكْثَرُهُمْ تَابِعًا » ^(٢) . وفي صحيح مسلم يقول الله تعالى : « إِنِّي مُبْعِلُّكَ بِكَ وَمُنَزِّلٌ عَلَيْكَ كِتَابًا لَا يَغْسِلُهُ الْمَاءُ تَقْرُؤُهُ نَائِمًا وَيَقْظَانًا » ^(٣) . أي : لو غسل الماء الحبل المكتوب فيه لما احتجج إلى ذلك الحبل ؛ لأنه قد جاء في الحديث الآخر : « لَوْ كَانَ الْقُرْآنُ فِي إِهَابٍ مَا أَخْرَقَتْهُ النَّارُ » ^(٤) ولأنه محفوظ في الصدور ، ميسر على الألسنة ، مهيمن على القلوب معجز لفظًا ومعنى . ولهذا جاء في الكتب المتقدمة في هذه صفة الأمة : أناجيلهم في صدورهم . واختار ابن جرير أن المعنى في قوله تعالى : ﴿ بَلْ هُوَ آيَاتٌ يَبْنِتُ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُورُوا أَلَمَلَةً ﴾ بل العلم بأنك ما كنت تتلو من قبل هذا الكتاب كتابًا ، ولا تخطه يمينك آيات

(١) أخرجه مسلم في الفتن (٩٥) والإمام أحمد في مسنده (٤٣٣/٥) .

(٢) أخرجه البخاري في فضائل القرآن (٤٩٨١) ومسلم في الإيمان (٢٣٩) .

(٣) مسلم في (الجنة) (٦٣) .

(٤) أخرجه الإمام أحمد في مسنده (١٥١/٤ ، ١٥٥ ، ١٧١) والهيتمي في مجمع الزوائد (١٥٨/٧) .

بينات في صدور الذين أوتوا العلم من أهل الكتاب . قلت : وهو الذي رواه العوفي عن ابن عباس ، وهو الأظهر والله أعلم . وقوله تعالى : ﴿ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا الظَّالِمُونَ ﴾ أي : ما يكذب بها ، ويخس حقها ويردها إلا الظالمون أي : المعتدون المكابرون الذين يعلمون الحق ، ويحيدون عنه .

﴿ وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَاتٌ مِنْ رَبِّهِ قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِنْدَ اللَّهِ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ ﴾ أولم يكفهم أننا أنزلنا عليك الكتاب ينزل عليهم إيت في ذلك رحمة وذكرى لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿ قُلْ كَفَىٰ بِاللَّهِ بَيِّنًا وَبَيِّنَاتٍ شَهِيدًا بَعَلُّهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالَّذِينَ آمَنُوا بِالْبَاطِلِ وَكَفَرُوا بِاللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴾ . يقول تعالى مخبراً عن المشركين في تعتهم وطلبهم آيات ، يعنون ترشدكم إلى أن محمداً رسول الله كما أتى صالح بناقته قال الله تعالى : ﴿ قُلْ ﴾ يا محمد ﴿ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِنْدَ اللَّهِ ﴾ أي : إنما أمر ذلك إلى الله ، فإنه لو علم أنكم تهتدون لأجابكم إلى سؤالكم ؛ لأن هذا سهل عليه يسير لديه ، ولكنه يعلم منكم أنكم إنما قصدتم التعنت والامتحان فلا يجيبكم إلى ذلك ، وقوله : ﴿ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ ﴾ أي : إنما بعثت نذيراً لكم بين النذارة فعلي أن أبلغكم رسالة الله تعالى . ثم قال تعالى مبيناً كثرة جهلهم وسخافة عقولهم حيث طلبوا آيات تدلهم على صدق محمد ﷺ فيما جاءهم ، وقد جاءهم بالكتاب العزيز الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، الذي هو أعظم من كل معجزة ، إذ عجزت الفصحاء والبلغاء عن معارضته ، بل عن معارضة عشر سور من مثله ، بل عن معارضة سورة منه . فقال تعالى : ﴿ أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُنزل عَلَيْهِمْ ﴾ أي : أولم يكفهم آية أنا أنزلنا عليك الكتاب العظيم الذي فيه خبر ما قبلهم ، ونبأ ما بعدهم ، وحكم ما بينهم ، وأنت رجل أُمي لا تقرأ ولا تكتب ، ولم تخالط أحداً من أهل الكتاب ، فجتهم بأخبار ما في الصحف الأولى ببيان الصواب ، مما اختلفوا فيه وبالحق الواضح البين الجملي ، وقال تعالى : ﴿ وَقَالُوا لَوْلَا يُنزلُنَا آيَاتُنَا مِنْ رَبِّهِ أَوَلَمْ تَأْتِهِمْ بَيِّنَةٌ مَا فِي الْأَنْحَادِ ﴾ . وقد قال تعالى : ﴿ إِنْ فِي ذَلِكَ لَرَحْمَةٌ وَذِكْرٌ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ أي : إن في هذا القرآن ﴿ لَرَحْمَةٌ ﴾ أي : بياناً للحق وإزاحة للباطل ، وذكراً بما فيه حلول النقمات ونزول العقاب بالمكذبين ، والعاصين لقوم يؤمنون .

ثم قال تعالى : ﴿ قُلْ كَفَىٰ بِاللَّهِ بَيِّنًا وَبَيِّنَاتٍ شَهِيدًا ﴾ أي : أعلم بما تفيضون فيه من التكذيب ، ويعلم ما أقول لكم من إخباري عنه بأنه أرسلني فلو كنت كاذباً عليه لانتقم مني ، كما قال تعالى : ﴿ وَلَوْ نَقُولُ عَلَيْنَا بَعْضُ الْأَقَابِ ﴾ لَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ ﴿ ثُمَّ لَقَطْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ ﴾ فَمَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِيزٌ ﴿ . وإنما أنا صادق عليه فيما أخبركم به . ولهذا أيدني بالمعجزات الواضحات ﴿ بَعَلُّهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ أي : لا تخفى عليه خافية ﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا بِالْبَاطِلِ وَكَفَرُوا بِاللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴾ أي : يوم القيامة سيجزيهم على ما فعلوا ، ويقابلهم على ما صنعوا في تكذيبهم بالحق ، واتباعهم الباطل ، كذبوا برسل الله مع قيام الأدلة على صدقهم ، فسيجزيهم على ذلك إنه حكيم عليم . ﴿ وَنَسْتَعْلِفُكَ بِالْعَذَابِ وَلَوْلَا أَجَلٌ مُسَمًّى لَجَاءَهُ الْعَذَابُ وَلِيَأْتِيَنَّكَ بَعَثَةٌ مِنْهُمْ لَا يُشْعُرُونَ ﴾ يَسْتَعْلِفُكَ بِالْعَذَابِ وَلِيَأْتِيَنَّكَ بَعَثَةٌ مِنْهُمْ لَا يُشْعُرُونَ ﴿ وَنَسْتَعْلِفُكَ بِالْعَذَابِ وَلَوْلَا أَجَلٌ مُسَمًّى لَجَاءَهُ الْعَذَابُ وَلِيَأْتِيَنَّكَ بَعَثَةٌ مِنْهُمْ لَا يُشْعُرُونَ ﴾ . يقول تعالى مخبراً عن جهل المشركين في استعجالهم عذاب الله أن يقع بهم ، وبأس الله من أن

يحل عليهم : ﴿ وَنَسْتَعْلِفُكَ بِالْعَذَابِ وَلَوْلَا أَجَلٌ مُّسَمًّى لَّجَاءُكَ الْعَذَابُ ﴾ أي : لولا ما حتم الله من تأخير العذاب إلى يوم القيامة . لجاءهم العذاب قريباً سريعاً كما استعجلوه . ثم قال : ﴿ وَلَيَأْتِيَنَّهُمْ بَغْتَةً ﴾ أي : فجأة ﴿ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾ يَسْتَعْلِفُكَ بِالْعَذَابِ وَلَوْلَا جَهَنَّمُ لَمُحِطَةٌ بِالْكَافِرِينَ ﴾ أي : يستعجلون العذاب وهو واقع بهم لا محالة .

ثم قال ﷻ : ﴿ يَوْمَ يَنْشَأُهُمُ الْعَذَابُ مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ ﴾ . كقوله تعالى : ﴿ لَهُمْ مِنْ جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِنْ فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ ﴾ . وقال تعالى : ﴿ لَهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِنَ النَّارِ وَمِنْ تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ ﴾ . وقال تعالى : ﴿ لَوْ يَعْلَمُ الَّذِينَ كَفَرُوا حِينَ لَا يَكْفُرُونَ عَنْ وُجُوهِِهِمُ النَّارَ وَلَا عَنْ ظُهُورِهِمْ ﴾ الآية . فالنار تغشاهم من سائر جهاتهم ، وهذا أبلغ في العذاب الحسي وقوله تعالى : ﴿ وَيَقُولُ ذُقُوا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ تهديد وتقريع وتوبيخ ، وهذا عذاب معنوي على النفوس ، كقوله تعالى : ﴿ يَوْمَ يَدْعُوكَ إِلَى نَارِ جَهَنَّمَ دَعَاً ﴾ هَذِهِ النَّارُ الَّتِي كُنتُمْ يَهَا تُكَذِّبُونَ ﴿ أَفَسِحْرٌ هَذَا أَمْ أَنَا نَسْتَعْلِفُكَ بِالْعَذَابِ وَلَوْلَا جَهَنَّمُ دَعَاً ﴾ إِنَّمَا تُحْرَمُونَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ .

﴿ يَبْعِدُ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّا أَرْضِي رِسْعَةً فَإِنِّي فَأَعْبُدُونَ ﴾ كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ ثُمَّ إِنَّا تُرْجَعُونَ ﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُبَوِّئَنَّهُمْ مِنَ الْجَنَّةِ غُرَفًا تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا يَغْمُرُ أَجْرُ الْعَمَلِينَ ﴾ الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿ وَكَأَنَّ مِنْ دَائِبَةٍ لَا تَحْدِلُ رِزْقَهَا اللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِنَّا كَافِرِينَ ﴾ .

هذا أمر من الله تعالى لعباده المؤمنين بالهجرة من البلد الذي لا يقدرّون فيه على إقامة الدين إلى أرض الله الواسعة ، حيث يمكن إقامة الدين بأن يوحدوا الله ويعبدوه كما أمرهم . ولهذا قال تعالى : ﴿ يَبْعِدُ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّا أَرْضِي رِسْعَةً فَإِنِّي فَأَعْبُدُونَ ﴾ عن الزبير بن العوام قال : قال رسول الله ﷺ : « الْبِلَادُ بِلَادُ اللَّهِ ، وَالْعِبَادُ عِبَادُ اللَّهِ ، فَحَيْثُمَا أَصَبْتَ خَيْرًا فَأَقِم » (١) . ولهذا لما ضاق على المستضعفين بمكة مقامهم بها خرجوا مهاجرين إلى أرض الحبشة ليأمنوا على دينهم هنالك . فوجدوا خير المنزلين هنالك ، أصحمة النجاشي ملك الحبشة رحمه الله تعالى . فأواهم وأيدهم بنصره ، وجعلهم سيوماً بيلاده ، ثم بعد ذلك هاجر رسول الله ﷺ والصحابه الباقيون إلى المدينة النبوية يثرب المطهرة . ثم قال تعالى : ﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ ثُمَّ إِنَّا تُرْجَعُونَ ﴾ أي : أينما كنتم يدرّكم الموت . فكونوا في طاعة الله وحيث أمركم الله ؛ فهو خير لكم . فإنه إلى الله المرجع والمآب ، فمن كان مطيعاً له جازاه أفضل الجزاء ووافاه أتم الثواب . ولهذا قال تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُبَوِّئَنَّهُمْ مِنَ الْجَنَّةِ غُرَفًا تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ﴾ أي : لنسكنهم منازل عالية في الجنة تجري من تحتها الأنهار ، على اختلاف أصنافها من ماء وخمر وعسل ولبن يصرفونها ويجرونها حيث شاءوا ﴿ خَالِدِينَ فِيهَا ﴾ أي : ماكنين فيها أبداً لا يغيّرون عنها حولاً ﴿ يَغْمُرُ أَجْرُ الْعَمَلِينَ ﴾ نعمت هذه الغرف أجراً على أعمال المؤمنين ﴿ الَّذِينَ صَبَرُوا ﴾ أي : على دينهم وهاجروا إلى الله وناذبوا الأعداء ، وفارقوا الأهل والأقرباء ، ابتغاء وجه الله ، ورجاء ما عنده وتصديق موعوده ، وعن أبي مالك الأشعري : أن رسول الله ﷺ حدثه : أن في الجنة غرفاً ، يُرى ظاهرها من باطنها ، وباطنها من ظاهرها ، أعدها الله تعالى لمن أطعم

(١) أخرجه الإمام أحمد في مسنده (١٦٦/١) والبيهقي في سننه (١٤٢/٦) .

الطعام ، وأطاب الكلام ، وتابع الصلاة والصيام ، وقام بالليل والناس نيام ^(١) .

﴿ وَكَانَ رَبُّهُمْ بَرُّكَرًا ﴾ في أحوالهم كلها ، في دينهم ودنياهم . ثم أخبرهم تعالى أن الرزق لا يختص ببقعة ، بل رزقه تعالى عام لخلقه ، بل كانت أرزاق المهاجرين حيث هاجروا أكثر وأوسع وأطيب ؛ فإنهم بعد قليل صاروا حكام البلاد في سائر الأقطار والأمصار . ولهذا قال تعالى : ﴿ وَكَانَ مِنْ دَائِرَةِ لَا تَحْدِلُ رِزْقَهَا ﴾ أي : لا تطيق جمعه وتحصيله ، ولا تدخر شيئاً لغد ﴿ اللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ ﴾ أي : الله يقيض لها رزقها على ضعفها ويسره عليها ، فيبعث إلى كل مخلوق من الرزق ما يصلحه حتى الذر في قرار الأرض ، والطير في الهواء ، والحيتان في الماء . قال تعالى : ﴿ وَمَا مِنْ دَائِرَةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعُهَا كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ ﴾ .

وفي الحديث « سافروا تصيحوا وتغنموا » ^(٢) . قوله : ﴿ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾ أي : السميع لأقوال عبادہ ، العليم بحركاتهم وسكناتهم .

﴿ وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَخَرَّ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ ﴾ ﴿ اللَّهُ يَسْطُرُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ إِنْ شَاءَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمٌ ﴾ ﴿ وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴾ .

يقول تعالى مقررًا أنه لا إله إلا هو ؛ لأن المشركين الذين يعبدون معه غيره ، معترفون بأنه المستقل بخلق السماوات والأرض ، وأنه الخالق الرازق لعباده ، ومقدر آجالهم واختلافها واختلاف أرزاقهم ، فتفاوت بينهم فمنهم الغني والفقير ، وهو العليم بما يصلح كلاً منهم ، ومن يستحق الغنى ممن يستحق الفقر ، فكما أنه الواحد في ملكه فليكن الواحد في عبادته ، وكثيراً ما يقرر تعالى مقام الإلهية بالاعتراف بتوحيد الربوبية . وقد كان المشركون يعترفون بذلك ، كما كانوا يقولون في تليبتهم : لبيك لا شريك لك ، إلا شريكاً هو لك ، تملكه وما ملك ^(٣) .

﴿ وَمَا هَذِهِ الْحَيَوةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴾ ﴿ فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلِكِ دَعَاُ اللَّهَ تَحْلِصِينَ لَهُ الَّذِينَ فَلَمَّا بَجَّهْتُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ ﴾ ﴿ لِيَكْفُرُوا بِمَا ءَاتَيْنَاهُمْ وَلِيَسْتَمْنَعُوا فَنُوفَ يَعْلَمُونَ ﴾ .

يقول تعالى مخبراً عن حقارة الدنيا وزوالها وانقضائها ، وأنها لا دوام لها ، وغاية ما فيها لهو ولعب ﴿ وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ ﴾ أي : الحياة الدائمة الحق الذي لا زوال له ولا انقضاء ، بل هي مستمرة أبد الآباد . وقوله تعالى : ﴿ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴾ أي : لآثروا ما يبقى على ما يفنى ، ثم أخبر تعالى عن المشركين أنهم عند الاضطراب يدعونه وحده لا شريك له ، فهنا يكون هذا منهم دائماً ﴿ فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلِكِ دَعَاُ اللَّهَ تَحْلِصِينَ لَهُ الَّذِينَ ﴾ كقوله تعالى : ﴿ وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إِلَّا إِلَهُةً فَلَمَّا بَجَّهْتُمْ إِلَى الْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ ﴾ الآية ، وقال ها هنا : ﴿ فَلَمَّا بَجَّهْتُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ ﴾ عن عكرمة ابن أبي جهل أنه لما فتح رسول الله ﷺ مكة ذهب فارّاً منها ، فلما ركب في البحر ليذهب إلى الحبشة اضطربت بهم السفينة فقال أهلها : يا قوم أخلصوا لربكم الدعاء ؛ فإنه لا ينجي ها هنا إلا هو ، فقال

(١) أخرجه الإمام أحمد في مسنده (١٥٦/١) .

(٢) أخرجه البيهقي في سننه (١٠٢/٧) .

(٣) أخرجه مسلم في الحج (٢٢) .

عكرمة : والله لئن كان لا ينجي في البحر غيره فإنه لا ينجي في البر أيضًا غيره ، اللهم لك علي عهد لئن خرجت لأذهبن فلأضعن يدي في يد محمد ، فلأجدنه رعوفاً رحيماً فكان كذلك . وقوله تعالى : ﴿ يَكْفُرُوا بِمَا ءَاتَيْنَهُمْ وَلَيَنْتَعِمُوا ﴾ هذه اللام يسميها كثير من أهل العربية والتفسير لام العاقبة ؛ لأنهم لا يقصدون ذلك ولا شك أنها كذلك بالنسبة إليهم ، وأما بالنسبة إلى تقدير الله عليهم ذلك ، وتقويضه إياهم لذلك فهي لام التعليل .

﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا ءَامِنًا وَنَحْفَظُ النَّاسَ مِنْ حَوْلِهِمْ أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ اللَّهِ يَكْفُرُونَ ﴾ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَافِرِينَ ﴿ وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ .

يقول تعالى ممتثلاً على قریش فيما أحلهم من حرمة الذي جعله للناس سواء العاكف فيه والباد ، ومن دخله كان آمناً فهم في أمن عظيم ، والأعراب حوله ينهب بعضهم بعضاً ، ويقتل بعضهم بعضاً . وقوله تعالى : ﴿ أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ اللَّهِ يَكْفُرُونَ ﴾ أي : أفكان شكرهم على هذه النعمة العظيمة أن أشركوا به ، وعبدوا معه غيره من الأصنام والأنداد ، و ﴿ بَدَلُوا بِعَمَتِ اللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ ﴾ فكفروا بنبي الله وعبدوه ورسوله ، فكذبوه فقاتلوه فأخرجوه من بين أظهرهم ، ولهذا أرغم الله أنافهم وأذل رقابهم ، ثم قال تعالى : ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُ ﴾ أي لا أحد أشد عقوبة ممن كذب على الله ، فقال : إن الله أوحى إليه ، ولم يوح إليه شيء . ومن قال : سأنزل مثل ما أنزل الله ، وهكذا لا أحد أشد عقوبة ممن كذب بالحق لما جاءه ، فالأول مفتر والثاني مكذب . ولهذا قال تعالى : ﴿ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَافِرِينَ ﴾ ثم قال تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ﴾ يعني الرسول ﷺ وأصحابه وأتباعه إلى يوم الدين . ﴿ لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ﴾ أي : لنبصرنهم سبلنا أي : طرقتنا في الدنيا والآخرة . قال عباس الهمداني أبو أحمد من أهل عكا في قول الله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ : الذين يعملون بما يعلمون يهديهم الله لما لا يعلمون . قال أحمد بن أبي الحواري : فحدثت به أبا سليمان يعني الداراني فأعجبه ، وقال : ليس ينبغي لمن ألهم شيئاً من الخير أن يعمل به حتى يسمعه في الأثر ، فإذا سمعه في الأثر عمل به ، وحمد الله حتى وافق ما في قلبه . وقوله : ﴿ وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ قال الشعبي : قال عيسى ابن مريم عليه السلام : إنما الإحسان أن تحسن إلى من أساء إليك ، ليس الإحسان أن تحسن إلى من أحسن إليك ، والله أعلم .

سورة الروم

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿الذِّكْرُ﴾ ١ ﴿غُلِبَتِ الرُّومُ﴾ ٢ ﴿فَإِذَا دُفِنَ الرُّومُ﴾ ٣ ﴿فِي بَضْعِ سِنِينَ﴾ ٤ ﴿لِلَّهِ الْأَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ﴾ ٥ ﴿يَنْصُرُ اللَّهُ يَنْصُرُ مَن يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾ ٦ ﴿وَعَدَ اللَّهُ لَا يَخْلِفُ اللَّهُ وَعْدَهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ ٧ ﴿يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَعَهُ الْآخِرَةُ هُمْ يَعْلَمُونَ﴾ ٨ .
نزلت هذه الآيات حين غلب سايور ملك الفرس على بلاد الشام ، وما والاها من بلاد الجزيرة ، وأقاصى بلاد الروم ، فاضطر هرقل ملك الروم حتى أُلجأه إلى القسطنطينية ، وحاصره فيها مدة طويلة ، ثم عادت الدولة لهرقل كما سيأتي .

عن مسروق قال : قال عبد الله : خمس قد مضين : الحان والزام والبطشة ، والقمر ، والروم ^(١) . وقال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه : كانت فارس ظاهرة على الروم ، وكان المشركون يحبون أن تظهر فارس على الروم . وكان المسلمون يحبون أن تظهر الروم على فارس ؛ لأنهم أهل كتاب ، وهم أقرب دينهم فلما نزلت : ﴿الذِّكْرُ﴾ ١ ﴿غُلِبَتِ الرُّومُ﴾ ٢ ﴿فَإِذَا دُفِنَ الرُّومُ﴾ ٣ ﴿بَعْدَ غَلَبِهِمْ سَبْعِينَ﴾ ٤ ﴿يَضَعُ سِنِينَ﴾ ٥ قالوا : يا أبا بكر إن صاحبك يقول : إن الروم تظهر على فارس في بضع سنين قال : صدق ، قالوا : هل لك أن نقامرك ؟ فبايعوه على أربع قلائص إلى سبع ، فمضت السبع ولم يكن شيء ، ففرح المشركون بذلك فشق على المسلمين ، فذكر ذلك للنبي صلى الله عليه وسلم فقال : « مَا بَضْعُ سِنِينَ عِنْدَكُمْ ؟ » قالوا : دون العشر . قال : « أَذْهَبَ قَرَابِدُهُمْ وَازْدَدَ سَنَتَيْنِ فِي الْأَجْلِ . » قال : فما مضت الستتان حتى جاءت الركبان بظهور الروم على فارس ، ففرح المؤمنون بذلك وأنزل الله تعالى : ﴿الذِّكْرُ﴾ ١ ﴿غُلِبَتِ الرُّومُ﴾ ٢ إلى قوله تعالى ﴿وَعَدَ اللَّهُ لَا يَخْلِفُ اللَّهُ وَعْدَهُ﴾ ^(٢) .

وعن نيار بن مكرم الأسلمي قال : لما نزلت ﴿الذِّكْرُ﴾ ١ ﴿غُلِبَتِ الرُّومُ﴾ ٢ ﴿فَإِذَا دُفِنَ الرُّومُ﴾ ٣ ﴿بَعْدَ غَلَبِهِمْ سَبْعِينَ﴾ ٤ ﴿يَضَعُ سِنِينَ﴾ ٥ فكانت فارس يوم نزلت هذه الآية قاهرين للروم ، وكان المسلمون يحبون ظهور الروم عليهم ؛ لأنهم وإياهم أهل كتاب ، وفي ذلك قوله تعالى : ﴿وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ﴾ ٥ ﴿يَنْصُرُ اللَّهُ يَنْصُرُ مَن يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾ ٦ . وكانت قريش تحب ظهور فارس ؛ لأنهم وإياهم ليسوا بأهل كتاب ، ولا إيمان بيعث ، فلما أنزل الله هذه الآية خرج أبو بكر يصيح في نواحي مكة ﴿الذِّكْرُ﴾ ١ ﴿غُلِبَتِ الرُّومُ﴾ ٢ ﴿فَإِذَا دُفِنَ الرُّومُ﴾ ٣ ﴿بَعْدَ غَلَبِهِمْ سَبْعِينَ﴾ ٤ ﴿يَضَعُ سِنِينَ﴾ ٥ فقال ناس من قريش لأبي بكر : فذاك بيننا وبينكم زعم صاحبكم أن الروم ستغلب فارس في بضع سنين ، أفلا نراهنك على ذلك ؟ قال : بلى ، وذلك قبل تحريم الرهان ، فارتهن أبو بكر والمشركون ، وتواضعوا الرهان ، وقالوا لأبي بكر : كم نجعل البضع ثلاث سنين إلى سبع سنين ؟ فسم بيننا وبينك وسطاً تنتهي إليه قال : فسموا بينهم ست سنين قال : فمضت ست السنين قبل أن يظهروا ، فأخذ المشركون رهن أبي بكر . فلما دخلت السنة السابعة ظهرت الروم على فارس قال :

(٢) ذكره الطبري في تفسيره (٢٥/٢١) .

(١) أخرجه البخاري في (تفسير القرآن) (٤٧٦٧) .

فعاب المسلمون على أبي بكر تسميته ست سنين . قال : لأن الله يقول ﴿ فِي يَضْعَ سِنِينَ ﴾ قال : فأسلم عند ذلك ناس كثير ^(١) .

ولتكلم على كلمات هذه الآيات الكريمات فقوله تعالى : ﴿ اللَّهُ ۝ غَلَبَتِ الرُّومُ ﴾ قد تقدم الكلام على الحروف المقطعة في أوائل السور في أول سورة البقرة . وأما الروم من سلالة العيص بن إسحاق بن إبراهيم ، وهم أبناء عم لإسرائيل ويقال لهم : بنو الأصغر ، وكانوا على دين اليونان ، واليونان من سلالة يافث بن نوح ، أبناء عم الترك وكانوا يعبدون الكواكب السيارة السبعة . ويقال لها : المتحيرة ويصلون إلى القطب الشمالي ، وهم الذين أسسوا دمشق وبنوا معبدها ، وفيه محارب إلى جهة الشمال ، فكان الروم على دينهم إلى بعد مبعث المسيح بنحو من ثلثمائة سنة . وكان من ملك منهم الشام يقال له : قيصر ، فكان أول من دخل في دين النصارى من ملوك الروم قسطنطين ابن قسطنس ، وأمه مريم الهيلانية الغنداقية من أرض حران كانت قد تنصرت قبله ، فدعته إلى دينها وكان قبل ذلك فيلسوفاً فتابعها . يقال : تقية واجتمعت به النصارى ، وتناظروا في زمانه مع عبد الله بن أريوس ، واختلفوا اختلافاً كثيراً منتشرًا متشتتًا لا ينضبط ، إلا أنه اتفق من جماعتهم ثلثمائة وثمانية عشر أسقفًا ، فوضعوا لقسطنطين العقيدة وهي التي يسمونها الأمانة الكبيرة وإنما هي الخيانة الحقيرة ، ووضعوا له القوانين ؛ يعنون كتب الأحكام من تحریم وتحليل وغير ذلك مما يحتاجون إليه ، وغيروا دين المسيح ﷺ ، وزادوا فيه ، ونقصوا منه فصلوا إلى المشرق واعتاضوا عن السبت بالأحد ، وعبدوا الصليب وأحلوا الخنزير ، واتخذوا أعيادًا أحدثوها ، كعيد الصليب والقداس والغطاس وغير ذلك من البواعيث والشعائير ، وجعلوا له الباب ، وهو كبيرهم ، ثم البتاركة ، ثم المطارنة ، ثم الأساقفة والقساوسة ثم الشمامسة ، وابتدعوا الرهبانية ، وبنى لهم الملك الكنائس والمعابد ، وأسس المدينة المنسوبة إليه وهي القسطنطينية يقال : إنه بنى في أيامه اثني عشر ألف كنيسة ، وبنى بيت لحم بثلاثة محاريب وبنى أمه القمامة ، وهؤلاء هم الملكية يعنون الذين هم على دين الملك ، ثم حدث بعدهم اليعقوبية أتباع يعقوب الأسكاف ، ثم النسطورية أصحاب نسطورا وهم فرق وطوائف كثيرة . كما قال رسول الله ﷺ : « إِنَّهُمْ افْتَرَقُوا عَلَى اثْنَتَيْنِ وَسَبْعِينَ فِرْقَةً » ^(٢) .

والغرض أنهم استمروا على النصرانية . كلما هلك قيصر خلفه آخر بعده حتى كان آخرهم هرقل ، وكان من عقلاء الرجال ومن أحزم الملوك وأدهاهم ، وأبعدهم غورًا ، وأقصاهم رأيًا ، فتملك عليهم في رئاسة عظيمة ، وأبهة كثيرة فناوأه كسرى ملك الفرس ، وملك البلاد كالعراق وخراسان والري وجميع بلاد العجم ، وهو سابور ذو الأكتاف ، وكانت مملكته أوسع من مملكة قيصر ، وكانوا مجوسًا يعبدون النار ، فتقدم عن عكرمة أنه قال : بعث إليه نوابه وجيشه فقاتلوه . والمشهور أن كسرى غزاه بنفسه في بلاده فقهره وكسره وقصره ، حتى لم يبق معه سوى مدينة قسطنطينية ، فحاصره بها مدة طويلة حتى ضاقت عليه ، وكانت النصارى تعظمه تعظيمًا زائدًا ، ولم يقدر كسرى على فتح البلد ، ولا أمكنه ذلك لحصانتها ؛ لأن نصفها من ناحية البر ، ونصفها الآخر من

(١) أخرجه الترمذي في جامعه (٣١٩٤) .

(٢) أخرجه وابن ماجه في سننه (٣٩٩٢) .

ناحية البحر فكانت تأتئهم الميرة والمدد من هنالك ، فلما طال الأمر ، دبر قيصر مكيدة ، ورأى في نفسه خديعة ، فطلب من كسرى أن يقلع من بلاده على مال يصلحه عليه ويشترط عليه ما شاء ، فأجابته إلى ذلك وطلب منه أموالاً عظيمة ، لا يقدر عليها أحد من ملوك الدنيا من ذهب وجواهر وأقمشة وجوار وخدام وأصناف كثيرة ، فطاوعه قيصر ، وأوهمه أن عنده جميع ما طلب ، واستقل عقله لما طلب منه ما طلب ، ولو اجتمع هو وإياه لعجزت قدرتهما عن جمع عشرة ، وسأل كسرى أن يمكنه من الخروج إلى بلاد الشام ، وأقاليم مملكته ليسعى في تحصيل ذلك من ذخائره وحواصله ودفائنه ، فأطلق سراحه ، فلما عزم قيصر على الخروج من مدينة قسطنطينية جمع أهل ملته وقال : إني خارج في أمر قد أيرمته في جند قد عينته من جيشي ، فإن رجعت إليكم قبل الحول فأنا ملككم ، وإن لم أرجع إليكم قبلها فأنتم بالخيار ، إن شئتم استمرتم على بيعتي ، وإن شئتم وليتم عليكم غيري ، فأجابوه بأنك ملكنا ما دمت حيًا ، ولو غبت عشرة أعوام ، فلما خرج من القسطنطينية خرج جريدة في جيش متوسط ، هذا وكسرى مخيم على القسطنطينية ينتظره ليرجع ، فركب قيصر من فوره وسار مسرعًا حتى انتهى إلى بلاد فارس . فعاث في بلادهم قتلاً لرجالها ، ومن بها من المقاتلة أولاً فأول ، ولم يزل يقتل حتى انتهى إلى المدائن ، وهي كرسي مملكة كسرى فقتل من بها وأخذ جميع حواصله وأمواله ، وأسر نساءه وحرمة وحلق رأس ولده ، وركبه على حمار ، وبعث معه من الأساورة من قومه في غاية الهوان والذلة ، وكتب إلى كسرى يقول : هذا ما طلبت فخذ ، فلما بلغ ذلك كسرى أخذه من الغم ما لا يحصىه إلا الله تعالى واشتد حنقه على البلد ، فجد في حصارها بكل ممكن ، فلم يقدر على ذلك ، فلما عجز ركب ليأخذ عليه الطريق من مخاضة جيحون التي لا سبيل لقيصر إلى القسطنطينية إلا منها ، فلما علم قيصر بذلك . احتال بحيلة عظيمة لم يسبق إليها ، وهو أنه أرسد جنده وحواصله التي معه عند فم المخاضة ، وركب في بعض الجيش ، وأمر بأحمال من التين والبر والروث فحملت معه ، وسار إلى قريب من يوم في الماء مصعدًا ، ثم أمر بالقاء تلك الأحمال في النهر ، فلما مرت بكسرى وجنده ظن أنهم قد خاضوا من هنالك ، فركبوا في طلبهم فشغرت المخاضة عن الفرس ، وقدم قيصر فأمرهم بالنهوض والخوض فخاضوا وأسرعوا السير ، فغاثوا كسرى وجنوده ودخلوا القسطنطينية فكان ذلك يومًا مشهودًا عند النصارى ، وبقي كسرى وجيوشه حائرين لا يدرون ماذا يصنعون ، لم يحصلوا على بلاد قيصر ، وبلادهم قد خربت الروم ، وأخذوا حواصلهم ، وسبوا ذراريهم ونساءهم ، فكان هذا من غلب الروم لفارس ، وكان ذلك بعد تسع سنين من غلب فارس للروم ، وكانت الواقعة الكائنة بين فارس والروم حين غلبت الروم بين أذرعات وبصرى على ما ذكره ابن عباس وعكرمة وغيرهما ، وهي طرف بلاد الشام مما يلي بلاد الحجاز . وقال مجاهد : كان ذلك في الجزيرة وهي أقرب بلاد الروم من فارس ، فالله أعلم . ثم كان غلب الروم لفارس بعد بضع سنين ، وهي تسع فإن البضع في كلام العرب ما بين الثلاث إلى التسع . وكذلك جاء في الحديث « أَلَا اخْتَطَبْتُ يَا أَبَا بَكْرٍ ؟ فَإِنَّ الْبِضْعَ مَا بَيْنَ ثَلَاثٍ إِلَى تِسْعٍ » (١) .

وقوله تعالى : ﴿لِلَّهِ الْأَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ﴾ أي : من قبل ذلك ومن بعده ، فبني على الضم لما قطع المضاف ، وهو قوله : ﴿قَبْلُ﴾ عن الإضافة ونويت ﴿وَيَوْمَئِذٍ يَقَرِّحُ الْمُؤْمِنُونَ﴾ ❶ ينصّر الله أي : للروم أصحاب قيصر ملك الشام على فارس أصحاب كسرى ، وهم المجوس . وكانت نصرة الروم على فارس يوم وقعة بدر في قول طائفة كثيرة من العلماء ، وعن أبي سعيد قال : لما كان يوم بدر ، ظهرت الروم على فارس فأعجب ذلك المؤمنين ففرحوا به ، وأنزل الله : ﴿وَيَوْمَئِذٍ يَقَرِّحُ الْمُؤْمِنُونَ﴾ ❷ ينصّر الله ينصّر من يشاء وهو العكيز الرجيض ❸ . وقال الآخرون : بل كان نصر الروم على فارس عام الحديبية . إلا أنه لما انتصرت فارس على الروم ساء ذلك المؤمنين ، فلما انتصرت الروم على فارس ، فرح المؤمنون بذلك ؛ لأن الروم أهل كتاب في الجملة ؛ فهم أقرب إلى المؤمنين من المجوس كما قال تعالى : ﴿تَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الْيَهُودُ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُمْ مَوَدَّةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصْرُكَ﴾ إلى قوله : ﴿رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ﴾ وقال تعالى ها هنا : ﴿وَيَوْمَئِذٍ يَقَرِّحُ الْمُؤْمِنُونَ﴾ ❹ ينصّر الله ينصّر من يشاء وهو العكيز الرجيض ❺ وقال ابن الزبير الكلابي يحدث عن أبيه قال : رأيت غلبة فارس الروم ، ثم رأيت غلبة الروم فارس ، ثم رأيت غلبة المسلمين فارس والروم ، كل ذلك في خمس عشرة سنة .

وقوله تعالى : ﴿وَهُوَ الْعَكِيزُ﴾ أي : انتصاره وانتقامه من أعدائه ﴿الرَّجِيزُ﴾ بعباده المؤمنين . وقوله تعالى : ﴿وَعَدَ اللَّهُ لَا يَخْلِفُ اللَّهُ وَعْدَهُ﴾ أي : هذا الذي أخبرناك به يا محمد من أنا سننصر الروم على فارس وعد من الله حق ، وخبر صدق لا يخلف . ولا بد من كونه ووقوعه ؛ لأن الله قد جرت سنته أن ينصر أقرب الطائفتين المقتلتين إلى الحق ، ويجعل لها العاقبة ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أي : بحكم الله في كونه وأفعاله المحكمة الجارية على وفق العدل . وقوله تعالى : ﴿يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَفِلُونَ﴾ أي : أكثر الناس ليس لهم علم ، إلا بالدينيا وأكسابها وشؤونها ، وهم غافلون في أمور الدين وما ينفعهم في الدار الآخرة ، كأن أحدهم مغفل لا ذهن له ولا فكرة . قال الحسن البصري : والله ليلبلغ من أحدهم بدنياء أنه يقبل الدرهم على ظفره فيخبرك بوزنه ، وما يحسن أن يصلي . وقال ابن عباس في قوله تعالى : ﴿يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَفِلُونَ﴾ يعني الكفار يعرفون عمران الدنيا ، وهم في أمر الدين جهال .

﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنفُسِهِمْ مَا خَلَقَ اللَّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِآلْحَقٍّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ بِلِقَائِ رَبِّهِمْ لَكَاثِرُونَ﴾ ❶ أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم كانوا أشد منهم قوة وأناروا الأرض وعمروها أكثر مما عمروها وحلوا نعم رسلهم بالبينات فما كانت الله يظلمهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون ❷ ثم كان عاقبة الذين آمنوا السوء أن كذبوا بآيات الله وكانوا بها يستهزئون .

يقول تعالى منبها على التفكير في مخلوقاته الدالة على وجوده ، وانفراده بخلقها ، وأنه لا إله غيره ولا رب سواه فقال : ﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنفُسِهِمْ﴾ يعني به النظر والتدبر والتأمل لخلق الله الأشياء من العالم العلوي والسفلي ، وما بينهما من المخلوقات المتنوعة ، فيعلموا أنها ما خلقت سدى ، ولا باطلا

بل بالحق ، وأنها مؤجلة إلى أجل مسمى ، وهو يوم القيامة . ولهذا قال تعالى : ﴿ وَلَئِنْ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ
يَلْقَآئُ رَبِّهِمْ لَكُفْرُونَ ﴾ ثم نبههم على صدق رسله فيما جاءوا به عنه ، بما أيدهم به من المعجزات
والدلائل الواضحات من إهلاك من كفر بهم ، ونجاة من صدقهم . فقال تعالى : ﴿ أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي
الْأَرْضِ أَي : بأفهامهم وعقولهم ونظرهم وسماع أخبار الماضين . ولهذا قال : ﴿ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ
عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَانُوا أَشَدَّ مِمَّنْ قُوَّة ﴾ أي : كانت الأمم الماضية والقرون السالفة أشد منكم قوة ،
أيها المبعوث إليهم محمد ﷺ . وما أوتيتم معشار ما أوتوا ، ومكنوا في الدنيا تمكينًا لم تبلغوا إليه ،
وعمروا فيها أعمارًا طوالًا فعمروها أكثر منكم ، واستغلوها أكثر من استغلالكم ، ومع هذا فلما
جاءتهم رسلهم بالبينات ، وفرحوا بما أوتوا أخذهم الله بذنوبهم ، وما كان لهم من الله من واق ، ولا
حالت أموالهم وأولادهم بينهم وبين بأس الله ، ولا دفعوا عنهم مثقال ذرة ، وما كان الله ليزلهم فيما
أحل بهم من العذاب والنكال ﴾ وَلَكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ أي : وإنما أوتوا من أنفسهم حيث
كذبوا بآيات الله واستهزأوا بها ، وما ذاك إلا بسبب ذنوبهم السالفة وتكذيبهم المتقدم . ولهذا قال
تعالى : ﴿ ثُمَّ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا أَن كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَكَانُوا بِهَا يَسْتَهْزِئُونَ ﴾ كما قال تعالى :
﴿ فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ ﴾ وعلى هذا تكون السوأي منصوبة مفعولاً لأساءوا ، وقيل : بل المعنى في
ذلك ﴿ ثُمَّ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا ﴾ أي : كانت السوأي عاقبتهم ؛ لأنهم كذبوا بآيات الله
وكانوا بها يستهزئون . فعلى هذا تكون السوأي منصوبة خبر كان ، هذا توجيه ابن جرير ، ونقله عن
ابن عباس وهو الظاهر - والله أعلم - لقوله : ﴿ وَكَانُوا بِهَا يَسْتَهْزِئُونَ ﴾ .

﴿ اللَّهُ يَذَّارُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ وَيَوْمَ نَقُومُ السَّاعَةَ يُبْلِسُ الْمُجْرِمُونَ ﴿١١﴾ وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ مِّنْ شُرَكَائِهِمْ
شُفَعَاتٌ وَكَانُوا بِشُرَكَائِهِمْ كَافِرِينَ ﴿١٢﴾ وَيَوْمَ نَقُومُ السَّاعَةَ يُتَفَرَّقُونَ ﴿١٣﴾ فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ
فَهُمْ فِي رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ ﴿١٤﴾ وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَلِقَآئِ الْآخِرَةِ فَأُولَٰئِكَ فِي الْعَذَابِ مُحْضَرُونَ ﴿١٥﴾ .

يقول تعالى : ﴿ اللَّهُ يَذَّارُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ أي : كما هو قادر على بداءته ، فهو قادر على إعادته .
﴿ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ أي : يوم القيامة ، فيجازي كل عامل بعمله . ثم قال : ﴿ وَيَوْمَ نَقُومُ السَّاعَةَ يُبْلِسُ
الْمُجْرِمُونَ ﴾ قال ابن عباس : يأس المجرمون ، وقال مجاهد : يفتضح المجرمون ، وفي رواية : يكتشب
المجرمون ﴿ وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ مِّنْ شُرَكَائِهِمْ شُفَعَاتٌ ﴾ أي : لما شفعت فيهم الآلهة التي كانوا يعبدونها من
دون الله تعالى ، وكفروا بهم وخانوهم أحوج ما كانوا إليهم . ثم قال تعالى : ﴿ وَيَوْمَ نَقُومُ السَّاعَةَ يُتَفَرَّقُونَ ﴾ .
قال قتادة : هي والله الفرقة التي لا اجتماع بعدها ، يعني أنه إذا رفع هذا إلى عليين ،
وخفض هذا إلى أسفل سافلين ، فذلك آخر العهد بينهما ؛ ولهذا قال تعالى : ﴿ فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا
وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَهُمْ فِي رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ ﴾ قال مجاهد وقتادة : ينعمون . وقال يحيى بن أبي كثير :
يعني سماع الغناء ، والحبرة أعم من هذا كله .

﴿ فَسَبِّحْ لِلَّهِ حِينَ تُمْسِرُ وَحِينَ تُصْبِحُ ﴿١٦﴾ وَلَهُ الْحَمْدُ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَحِينَ تَضْحِكُونَ ﴿١٧﴾
يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَيُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَكَذَٰلِكَ تُفْرَجُونَ ﴾ .

هذا تسبيح منه تعالى لنفسه المقدسة ، وإرشاد لعباده إلى تسبيحه وتحميده في هذه الأوقات المتعاقبة

الدالة على كمال قدرته ، وعظيم سلطانه عند المساء وهو إقبال الليل بظلامه ، وعند الصباح وهو إسفار النهار بضيائه . ثم اعترض بحمده مناسبة للتسبيح - وهو التحميد - فقال تعالى : ﴿ وَلَهُ الْحَمْدُ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ أي : هو المحمود على ما خلق في السماوات والأرض ، ثم قال تعالى : ﴿ وَعِشَاءً وَحِينَ تَظْهَرُونَ ﴾ فالعشاء هو شدة الظلام ، والإظهار قوة الضياء ، فسبحان خالق هذا وهذا ، فالتق الإصباح ، وجاعل الليل سكنا ، كما قال تعالى : ﴿ وَآتِلٌ إِذَا يَتَخَنَ ۝ وَالنَّهَارُ إِذَا تَجَلَّى ۝ . وعن معاذ بن أنس الجهني عن أبيه عن رسول الله ﷺ أنه قال : « أُخْبِرَكُمْ لِمَ سَمَّى اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلَهُ الَّذِي وَفَّى ؟ ! لَأَنَّهُ كَانَ يَقُولُ كُلَّمَا أَمْسَى : سُبْحَانَ اللَّهِ حِينَ تُمْشُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ وَلَهُ الْحَمْدُ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَعِشَاءً وَحِينَ تَظْهَرُونَ » ^(١) . وعن عبد الله بن عباس عن رسول الله ﷺ قال : « من قال حين يصبح : ﴿ سُبْحَانَ اللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ ۝ وَلَهُ الْحَمْدُ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَعِشَاءً وَحِينَ تَظْهَرُونَ ﴾ الآية بكمالها ، أدرك ما فاته في يومه ، ومن قالها حين يمسي أدرك ما فاته في ليلته » ^(٢) . وقوله تعالى : ﴿ يُخْرِجُ الْغَيَّ مِنَ الْغَيْتِ وَيُخْرِجُ الْآبِيتَ مِنَ الْغَيْيِ ﴾ هو ما نحن فيه من قدرته على خلق الأشياء المتقابلة ، وهذه الآيات المتابعة الكريمة كلها من هذا النمط ، فإنه يذكر فيها خلقه الأشياء وأضدادها ؛ ليدل خلقه على كمال قدرته ، فمن ذلك : إخراج النبات من الحب والحب من النبات ، والبيض من الدجاج والدجاج من البيض ، والإنسان من النطفة والنطفة من الإنسان ، والمؤمن من الكافر والكافر من المؤمن . وقوله تعالى : ﴿ وَيَجِيءُ الْأَرْضُ بَعْدَ مَوْتِهَا ﴾ . كقوله تعالى : ﴿ وَآيَةٌ لَّهُمُ الْأَرْضُ الْيَسَّةُ الَّتِي بَنَيْنَاهَا وَأَفْرَجْنَاهَا مِنْهَا حَبًا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ ﴾ إلى قوله : ﴿ وَفَجَرْنَا فِيهَا مِنَ الْعُيُونِ ﴾ . وقال تعالى : ﴿ وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيحَ بُشْرًا يَبْتَغِي ذَرْئًا مِمَّا يَكْمُلُ إِذَا أَقَلَّتْ سَحَابًا ﴾ إلى قوله ﴿ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ . ولهذا قال ها هنا : ﴿ وَكَذَلِكَ تُخْرَجُونَ ﴾ .

يقول تعالى : ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ ﴾ الدالة على عظمته وكمال قدرته ، أنه خلق أباكم آدم من تراب . ﴿ ثُمَّ إِذَا أَنْشَرُ بَشَرٌ تَنْثِيرُونَ ﴾ فاصلكم من تراب مهين ، ثم تصوّر فكان علقه ، ثم مضغة ، ثم صار عظاما شكله على شكل الإنسان ، ثم كسا الله تلك العظام لحما ، ثم نفخ فيه الروح ، فإذا هو سميع بصير ، ثم خرج من بطن أمه صغيرا ضعيف القوى ، ثم كلما طال عمره تكاملت قواه حتى آل به الحال إلى أن صار بيني المداخن والحصون ، ويسافر في أقطار الأقاليم ، فسبحان من أقدرهم وسيّرهم وصرّفهم في فنون المعاش والمكاسب ، وفاوت بينهم في العلوم والفكر ، والحسن والقبح ، والغنى والفقر ، والسعادة والشقاوة ؛ ولهذا قال تعالى : ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ إِذَا أَنْشَرُ بَشَرٌ تَنْثِيرُونَ ﴾ وعن أبي موسى قال : قال رسول الله ﷺ : « إِنَّ اللَّهَ خَلَقَ آدَمَ مِنْ قِصْبَةٍ قَبْضُهَا مِنْ جَمِيعِ الْأَرْضِ فَجَاءَ بَنُو آدَمَ عَلَى قَدَرِ الْأَرْضِ ، جَاءَ مِنْهُمْ الْأَبْيَضُ وَالْأَحْمَرُ وَالْأَسْوَدُ وَبَيْنَ ذَلِكَ ،

(١) أخرجه الإمام أحمد في مسنده (٤٣٩/٣) والهيثم في مجمع الزوائد (١١٧/١٠) .

(٢) أخرجه أبو داود في سننه (٥٠٧٦) .

وَالْخَبِيثَ وَالطَّيِّبَ وَالسَّهْلَ وَالْحَزْنَ وَيَتَنَ ذَلِكَ ^(١) . وقوله تعالى : ﴿وَمِنَ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا﴾ أي : خلق لكم من جنسكم إناثًا تكون لكم أزواجًا ﴿لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا﴾ كما قال تعالى : ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا ذَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا﴾ يعني بذلك حواء ، خلقها الله من آدم من ضلعه الأقصر الأيسر . ولو أنه تعالى جعل بني آدم كلهم ذكورًا ، وجعل لإناثهم من جنس آخر من غيرهم ، إما من جان أو حيوان لما حصل هذا الائتلاف بينهم وبين الأزواج ، بل كانت تحصل نفرة لو كانت الأزواج من غير الجنس ، ثم من تمام رحمته ببني آدم أن جعل أزواجهم من جنسهم ، وجعل بينهم وبينهن مودة - وهي : المحبة - ورحمة - وهي : الرأفة - فإن الرجل يمسك المرأة ، إما لمحبتها لها ، أو لرحمة بها بأن يكون لها منه ولد ، أو محتاجة إليه في الإنفاق ، أو للألفة بينهما ، وغير ذلك ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ .

﴿وَمِنَ آيَاتِهِ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَخَلَقَ السَّيِّئَاتِ وَالْطَّيِّبَاتِ﴾ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْمَعْلِينَ ^(٢) وَمِنَ آيَاتِهِ مَنَامُكَ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَابْتِغَاؤُكُمْ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ﴾ .

يقول تعالى : ﴿وَمِنَ آيَاتِهِ﴾ الدالة على قدرته العظيمة ﴿خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾ أي : خلق السماوات في ارتفاعها واتساعها وشفوف أجرامها وزهرة كواكبها ونجومها الثوابت والسيارات ، وخلق الأرض في انخفاضها وكثافتها ، وما فيها من جبال وأودية وبحار وقفار وحيوان وأشجار . وقوله تعالى : ﴿وَخَلَقَ السَّيِّئَاتِ وَالطَّيِّبَاتِ﴾ يعني : اللغات ، فهؤلاء بلغة العرب ، وهؤلاء تتر لهم لغة أخرى ، وهؤلاء كرج ، وهؤلاء فرنج ، وهؤلاء تكرور ، إلى غير ذلك ، مما لا يعلمه إلا الله تعالى من اختلاف لغات بني آدم ، واختلاف ألوانها وهي حلاهم فجميع أهل الأرض ، بل أهل الدنيا منذ خلق الله آدم إلى قيام الساعة ، كل له عيان وحاجبان وأنف وجبين وفم وخدان ، وليس يشبه واحد منهم الآخر ، ولو توافق جماعة في صفة من جمال أو قبح ، لابد من فارق بين كل واحد منهم وبين الآخر . ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْمَعْلِينَ﴾ وَمِنَ آيَاتِهِ مَنَامُكَ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَابْتِغَاؤُكُمْ مِنْ فَضْلِهِ﴾ أي : ومن الآيات ما جعل الله من صفة النوم في الليل والنهار ، فيه تحصل الراحة وسكون الحركة ، وذهاب الكلال والتعب ، وجعل لكم الانتشار والسعي في الأسباب ، والأسفار في النهار وهذا ضد النوم . ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ﴾ أي : يعون ، عن زيد بن ثابت رضي الله عنه قال : أصابني أرق من الليل ، فشكوت ذلك إلى رسول الله ﷺ فقال : ﴿قُلْ : اللَّهُمَّ غَارِزِ النُّجُومِ ، وَهَدَّاتِ الْغُيُوثِ ، وَأَنْتَ حَيِّ قَيُّومٌ ، يَا قَيُّومُ أَنْتَ عَنِّي وَأَهْدَى لِيْلِي﴾ ^(٢) فقلتها فذهب عني .

﴿وَمِنَ آيَاتِهِ يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَيَخْشِي بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ وَمِنَ آيَاتِهِ أَنْ تَقُومَ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ بِأَمْرِهِ ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِنَ الْأَرْضِ إِذَا أَنْتُمْ تَخْرُجُونَ﴾ .

يقول تعالى : ﴿وَمِنَ آيَاتِهِ﴾ الدالة على عظمته أنه ﴿يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا﴾ أي : تارة تخافون مما يحدث بعده من أمطار مزعجة وصواعق متلفة ، وتارة ترجون وميضه ، وما يأتي بعده من

(١) أخرجه الإمام أحمد (٤٠/٤ ، ٤٠٦) والحاكم في المستدرک (٦١/٢) وأبو داود في السنن (٤٦٩٣) والترمذي في السنن (٢٩٥٥) .

(٢) ذكره الهيثمي في مجمع الزوائد (١٢٨/١٠) .

المطر المحتاج إليه ؛ ولهذا قال تعالى : ﴿ وَيُرْسِلُ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَيُخْرِجُ بِهِ الْأَرْضَ بَقْعًا مَرْقُومًا ﴾ أي : بعدما كانت هامدة لا نبات فيها ولا شيء ، فلما جاءها الماء ﴿ أَغْرَزْتَ وَرَبَّتْ وَأَنْبَتَتْ مِنْ كُلِّ رَوْحٍ بَهِيحٍ ﴾ وفي ذلك عبرة ودلالة واضحة على المعاد وقيام الساعة ؛ ولهذا قال : ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ ثم قال تعالى : ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ نَقُومَ السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ بِأَمْرٍ ﴾ كقوله تعالى : ﴿ وَنَسِيتُ الْكَسَاءَ أَنْ تَفْعَ عَلَى الْأَرْضِ إِلَّا بَازْنَةً ﴾ وكان عمر بن الخطاب رضي الله عنه إذا اجتهد في اليمين قال : والذي تقوم السماء والأرض بأمره ، أي : هي قائمة ثابتة بأمره لها وتسخيرها لإياها ، ثم إذا كان يوم القيامة بدلت الأرض غير الأرض والسموات ، وخرجت الأموات من قبورها أحياء بأمره تعالى ، ودعائه لإياهم ، ولهذا قال تعالى : ﴿ ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِنَ الْأَرْضِ إِذَا أَنْتُمْ تَخْرُجُونَ ﴾ أي : من الأرض كما قال تعالى : ﴿ يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْجُدُونَ لِحُجَّتِهِمْ وَقُلْتُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا قُلُوبُهُ ﴾ وقال تعالى : ﴿ فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ ۖ فَإِذَا هُمْ بِالسَّاهِرَةِ ۖ ﴾ .

﴿ وَلَمْ يَكُنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ شَيْءٌ لَمْ يَخْلُقْهُ إِلَّا اللَّهُ ۖ وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَتْ عَلَيْهِ ۚ وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ۚ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ۚ ﴾ يقول تعالى : ﴿ وَلَمْ يَكُنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ شَيْءٌ لَمْ يَخْلُقْهُ إِلَّا اللَّهُ ۚ ﴾ أي : ملكه وعبيده ﴿ كَلَّا لَمْ يَخْلُقْهُ إِلَّا اللَّهُ ۚ ﴾ أي : خاضعون خاشعون طوعاً وكرهاً ، عن أبي سعيد مرفوعاً « كُلُّ حَرْفٍ فِي الْقُرْآنِ يُذَكِّرُ فِيهِ الْقُنُوتَ فَهُوَ الطَّاعَةُ » ^(١) . وقوله : ﴿ وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَتْ عَلَيْهِ ﴾ قال ابن عباس يعني : أيسر عليه ، وقال مجاهد : الإعادة أهون عليه من البداية والبداءة عليه هينة . وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى : كَذَّبَنِي ابْنُ آدَمَ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ ذَلِكَ ، وَشَتَّنِي وَلَمْ يَكُنْ لَهُ ذَلِكَ ، فَأَمَّا تَكْذِيبُهُ إِيَّايَ : فَقَوْلُهُ : لَنْ يُعِيدَنِي كَمَا بَدَأَنِي ، وَلَيْسَ أَوَّلُ الْخَلْقِ بِأَهْوَنَ عَلَيَّ مِنْ إِعَادَتِهِ ، وَأَمَّا شَتْنُهُ إِيَّايَ : فَقَوْلُهُ : اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا ، وَأَنَا الْأَخْذُ الصَّمَدُ الَّذِي لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ » ^(٢) . وقال آخرون : كلاهما بالنسبة إلى القدرة على السواء . وقال العوفي عن ابن عباس : كل عليه هين . ومال إليه ابن جرير وذكر عليه شواهد كثيرة قال : ويحتمل أن يعود الضمير في قوله : ﴿ وَهُوَ أَهْوَتْ عَلَيْهِ ۚ ﴾ إلى الخلق أي : وهو أهون على الخلق . وقوله : ﴿ وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ قال ابن عباس : كقوله تعالى : ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ ﴾ وقال قتادة : مثله أنه لا إله إلا هو ولا رب غيره ، وهو العزيز الذي لا يغالب ولا يمانع ، بل قد غلب كل شيء ، وقهر كل شيء بقدرته وسلطانه الحكيم في أقواله وأفعاله شرعاً وقدرًا . وعن محمد بن المنكدر في قوله تعالى : ﴿ وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ ﴾ قال : لا إله إلا الله .

﴿ صَبَّ لَكُمْ مَثَلًا مِنْ أَنْفُسِكُمْ هَلْ لَكُمْ مِنْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ مِنْ شُرَكَاءَ فِي مَا رَزَقْنَاكُمْ فَأَنْتُمْ فِيهِ سَوَاءٌ تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنْفُسَكُمْ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ۝ بَلِ اتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَهْوَاءَهُمْ بِغَيْرِ

(١) ذكره السيوطي في الدر (١١٠/١) بنحوه الإمام أحمد في مسنده (٧٥/٣) والهيتمي في مجمع الزوائد (٣٢٠/٦) .

(٢) أخرجه البخاري في التفسير (٤٩٩٤) والإمام أحمد في مسنده (٣٥٠/٢ ، ٣٩٤) .

عَلِمَ قَسَمَ يَهْدِي مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ ﴿١﴾ .

هذا مثل ضربه تعالى للمشركين به العابدين معه غيره الجاعلين له شركاء ، وهم مع ذلك معترفون أن شركاءهم من الأصنام والأنداد عبيد له ، ملك له ، كما كانوا يقولون : لبيك لا شريك لك إلا شريكاً هو لك ، تملكه وما ملك . فقال تعالى : ﴿ صَرَبَ لَكُمْ مَثَلًا مِنْ أَنْفُسِكُمْ ﴾ أي : تشهدونه وتفهمونه من أنفسكم . ﴿ هَلْ لَكُمْ مِنْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ مِنْ شُرَكَاءَ فِي مَا رَزَقْتَكُمْ فَأَنْتُمْ فِيهِ سَوَاءٌ ﴾ أي : يرضى أحدكم أن يكون عبده شريكاً له في ماله ، فهو وهو فيه على السواء ﴿ تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنْفُسَكُمْ ﴾ أي : تخافون أن يقاسموكم الأموال . قال أبو مجلز : إن مملوكك لا تخاف أن يقاسمك مالك وليس له ذاك ، كذلك الله لا شريك له . والمعنى : أن أحدكم يأنف من ذلك ، فكيف تجعلون لله الأنداد من خلقه ، وعن ابن عباس قال : كان يلبي أهل الشرك : لبيك اللهم لبيك ، لا شريك لك ، إلا شريكاً هو لك ، تملكه وما ملك . فأنزل الله تعالى : ﴿ هَلْ لَكُمْ مِنْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ مِنْ شُرَكَاءَ فِي مَا رَزَقْتُمْ فَأَنْتُمْ فِيهِ سَوَاءٌ تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنْفُسَكُمْ ﴾ (١) ولما كان التنبيه بمثل هذا المثل على براءته تعالى ونزاهته عن ذلك بطريق الأولى والأحرى . قال تعالى : ﴿ كَذَلِكَ نَقُصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ ثم قال تعالى مبيناً أن المشركين إنما عبدوا غيره سفهاً وجهلاً : ﴿ بَلِ اتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا ﴾ أي المشركون ﴿ أَهْوَاءَهُمْ ﴾ أي : في عبادتهم الأنداد بغير علم ﴿ قَسَمَ يَهْدِي مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ ﴾ أي : فلا أحد يهديهم إذا كتب الله ضلالهم ﴿ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ ﴾ أي : ليس لهم من قدرة الله منقذ ، ولا مجير ولا محيد لهم عنه ؛ لأنه ما شاء كان ، وما لم يشأ لم يكن .

﴿ فَأَوَدَّ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَوِيمُ وَلَكِنْ أَكْثَرُ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ ﴿ ٢٨ ﴾ ﴿ مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَاتَّقُوهُ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ ﴿ ٢٩ ﴾ مِنَ الدِّينِ فَرَقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيعًا كُلٌّ رِزْقٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَيَرْحُونَ ﴾ .

يقول تعالى : فسدد وجهك . واستمر على الدين الذي شرعه الله لك من الحنيفية ملة إبراهيم الذي هداك الله لها ، وكملها لك غاية الكمال ، وأنت مع ذلك لازم فطرتك السليمة التي فطر الله الخلق عليها ، إنه تعالى فطر خلقه على معرفته وتوحيده وأنه لا إله غيره . وفي الحديث : « إِنِّي خَلَقْتُ عِبَادِي خُتَفَاءً فَاجْتَالَتْهُمْ الشَّيَاطِينُ عَنْ دِينِهِمْ » (٢) . وقوله تعالى : ﴿ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ﴾ قال بعضهم : معناه لا تبدلوا خلق الله ، فتغيروا الناس عن فطرتهم التي فطرهم الله عليها ، فيكون خبراً بمعنى الطلب ، كقوله تعالى : ﴿ وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا ﴾ وهو معنى حسن صحيح ، وقال آخرون : هو خبر على بابه ، ومعناه : أنه تعالى ساوى بين خلقه كلهم في الفطرة على الجبلية المستقيمة ، لا يولد أحد إلا على ذلك ، ولا تفاوت بين الناس في ذلك . ولهذا قال ابن عباس في قوله : ﴿ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ﴾ أي : لدين الله ، وقال البخاري : قوله : ﴿ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ﴾ لدين الله ، خلق الأولين دين الأولين ، الدين والفطرة الإسلام (٣) . وعن أبي هريرة قال : « مَا مِنْ مَوْلُودٍ يُوَلَّدُ إِلَّا عَلَى الْفِطْرَةِ فَأَبَوَاهُ يُهَوِّدَانِهِ أَوْ يُنَصْرَانِهِ أَوْ يُمَجْسِنَانِهِ ، كَمَا تُنْتَجِجُ الْبَيْهَمَةُ

(١) أخرجه مسلم في الحج (٢٢) .

(٢) أخرجه بنحوه مسلم في (الجنة) (٦٣) والطبراني في الكبير (٢٦٣/١٧) .

(٣) أخرجه مسلم في الجنة (٦٣) .

بِهَيْمَةَ جَمْعَاءَ هَلْ تَحْسُونَ فِيهَا مِنْ جَذَعَاءَ . ثم يقول : ﴿ فَطَرْتَ اللَّهُ أَلَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلِيًّا لَا بَدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الَّذِي أَلْفَيْتُ ﴾ (١) . عن الأسود بن سريع قال : أتيت رسول الله ﷺ ، وغزوت معه فأصبحت ظفرا . فقاتل الناس يومئذ حتى قتلوا الولدان فبلغ ذلك رسول الله ﷺ فقال : « مَا بَالُ أَقْوَامٍ جَاوَزَهُمُ الْقَتْلُ الْيَوْمَ حَتَّى قَتَلُوا الذَّرِيَّةَ ؟ » ، فقال رجل : يا رسول الله أما هم أبناء المشركين ؟ فقال : لا ، إنما خياركم أبناء المشركين ، ثم قال : « لَا تَقْتُلُوا ذَرِيَّةً ، لَا تَقْتُلُوا ذَرِيَّةً » وقال : « كل نسمة تولد على الفطرة حتى يعرب عنها لسانها ، فأبواها يهودانها ، أو ينصرانها » (٢) .

وعن ابن عباس ؓ أن رسول الله ﷺ سئل عن أولاد المشركين فقال : « اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا كَانُوا عَامِلِينَ إِذْ خَلَقَهُمْ » (٣) .

وعن عياض بن حمار أن رسول الله ﷺ خطب ذات يوم فقال في خطبته : « إِنَّ رَبِّي ﷻ أَمَرَنِي أَنْ أَعْلَمَكُمْ مَا جَهِلْتُمْ بِمَا عَلَّمَنِي فِي يَوْمِي هَذَا : كُلُّ مَا نَخْلَعُهُ عِبَادِي خَلَالًا . وَإِنِّي خَلَقْتُ عِبَادِي خُفَاءَ كُلُّهُمْ ، وَإِنَّهُمْ أَتَتْهُمْ الشَّيَاطِينُ فَأَصْلَتْهُمْ عَنْ دِينِهِمْ وَحَرَمَتْ عَلَيْهِمْ مَا أَخْلَقْتُ لَهُمْ ، وَأَمَرْتُهُمْ أَنْ يُشْرِكُوا بِي مَا لَمْ أَنْزِلْ بِهِ سُلْطَانًا ، ثُمَّ إِنَّ اللَّهَ ﷻ نَظَرَ إِلَى أَهْلِ الْأَرْضِ فَمَقَعَتْهُمْ ، عَزَبَهُمْ وَعَجَبَهُمْ ، إِلَّا بَقَايَا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ ، وَقَالَ : إِنَّمَا بَعَثْتُكَ لِأَتْبِلِكَ وَأَتْبِلِي بِكَ ، وَأَنْزَلْتُ عَلَيْكَ كِتَابًا لَا يَغْسِلُهُ الْمَاءُ تَقْرُؤُهُ نَائِمًا وَيَقْظَانُ ، ثُمَّ إِنَّ اللَّهَ ﷻ أَمَرَنِي أَنْ أَخْرِقَ قُرَيْشًا فَقُلْتُ : رَبِّ إِذَا يَنْتَعِلُ رَأْسِي فَيَدْعُهُ خَبِزَةً ، قَالَ : اسْتَخْرِجْهُمْ كَمَا اسْتَخْرِجُوكَ ، وَاغْرُثْهُمْ نَغْرَكَ ، وَأَنْتَفِقْ فَسَنْتَفِقْ عَلَيْكَ ، وَابْعَثْ جَيْشًا يَبْعَثُ خَمْسَةَ مِثْلِهِ ، وَقَاتِلْ بِمَنْ أَطَاعَكَ مِنْ عَصَاكَ ، قَالَ : وَأَهْلُ الْجَنَّةِ ثَلَاثَةٌ : ذُو سُلْطَانٍ مُقْسِطٌ مُتَصَدِّقٌ مُؤْتَقٌ ، وَرَجُلٌ رَجِيمٌ رَقِيقُ الْقَلْبِ لِكُلِّ ذِي قُوَّةٍ مُسْلِمٍ ، وَرَجُلٌ غَفِيفٌ مُتَعَفِّفٌ ذُو عِيَالٍ » قال : « وَأَهْلُ النَّارِ خَمْسَةٌ : الضَّعِيفُ الَّذِي لَا زَبَرَ لَهُ ، الَّذِي فِيكُمْ هُمْ تَبِعٌ لَا يَتَّبِعُونَ أَهْلًا وَلَا مَالًا ، وَالْخَائِئِ الَّذِي لَا يَخْفَى لَهُ طَمَعٌ وَإِنْ دَقَّ إِلَّا خَائَةً ، وَرَجُلٌ لَا يُضْبِحُ وَلَا يُنْسِي إِلَّا وَهُوَ يُخَادِعُكَ عَنْ أَهْلِكَ وَمَالِكَ » (٤) . وذكر البخيل والكذاب والشنظير الفحاش . وقوله تعالى : ﴿ ذَلِكَ الَّذِي أَلْفَيْتُ ﴾ أي : التمسك بالشرعية والفطرة السليمة هو الدين القيم المستقيم ﴿ وَلَكِنْ أَكْثَرُ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ أي : فلهذا لا يعرفه أكثر الناس فهم عنه ناكبون كما قال تعالى : ﴿ وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ ﴾ . وقوله تعالى : ﴿ مُبِينٌ إِلَيْهِ ﴾ قال ابن زيد : أي : راجعين إليه ﴿ وَاتَّقُوا ﴾ أي : خافوه وراقبوه ﴿ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ ﴾ الطاعة العظيمة ﴿ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ أي : بل كونوا من الموحدين المخلصين له العبادة لا يريدون بها سواه . قال يزيد بن أبي مریم : مر عمر ؓ بمعاذ بن جبل ، فقال عمر : ما قوام هذه الأمة ؟ قال معاذ : ثلاث وهن النجيات ؛ الإخلاص وهي الفطرة فطرة الله التي فطر الناس عليها ، والصلاة وهي الملة ، والطاعة وهي

(١) أخرجه البخاري في التفسير (٤٧٥٥) ومسلم في القدر (٢٢ ، ٢٣) والإمام أحمد في مسنده (٣٤٦/٢) .

(٢) أخرجه الإمام أحمد في مسنده (٤٣٥/٣) .

(٣) أخرجه مسلم في القدر (٢٣ - ٢٦) والإمام أحمد في مسنده (٣٢٨/١) (٢٤٤) .

(٤) أخرجه مسلم في الجنة (٦٣) .

العصمة ، فقال عمر : صدقت . وقوله تعالى : ﴿ مِنْ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيعًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴾ أي : لا تكونوا من المشركين الذين قد فرقوا دينهم أي : بدلوه وغيروه وآمنوا ببعض وكفروا ببعض ، وقرأ بعضهم (فارقوا دينهم) أي تركوا ظهورهم ، وهؤلاء كاليهود والنصارى والجوس وعبدة الأوثان وسائر أهل الأديان الباطلة ، مما عدا أهل الإسلام ، فأهل الأديان قبلنا اختلفوا فيما بينهم على آراء ومثل باطلة . وكل فرقة منهم تزعم أنهم على شيء . وهذه الأمة أيضًا اختلفوا فيما بينهم على نحل كلها ضلالة إلا واحدة . وهم أهل السنة والجماعة المتمسكون بكتاب الله وسنة رسول الله ﷺ ، وبما كان عليه الصدر الأول من الصحابة والتابعين وأئمة المسلمين في قديم الدهر وحديثه .

﴿ وَإِذَا مَنَّ النَّاسُ ضُرَّ دَعَا رَبَّهُمْ مُبِينٌ إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا أَذَاقَهُمْ مِنْهُ رَحْمَةً إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ ﴾ لِيَكْفُرُوا بِمَا ءَالَيْتَهُمْ فَتَمْتَعُوا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٣٣﴾ أم أَرْزَأْنَا عَلَيْهِمْ سُلْطَانًا فَهُوَ يَتَكَلَّمُ بِمَا كَانُوا بِهِ يُشْرِكُونَ ﴾ وَإِذَا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً فَرِحُوا بِهَا وَإِنْ تُصِيبَهُمْ سَيِّئَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ إِذَا هُمْ يَقْتُلُونَ ﴿٣٤﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ .

يقول تعالى مخبرًا عن الناس أنهم في حال الاضطراب يدعون الله وحده لا شريك له ، وأنه إذا أسبغ عليهم النعم إذا فريق منهم في حالة الاختيار يشركون بالله ويعبدون معه غيره . وقوله تعالى : ﴿ لِيَكْفُرُوا بِمَا ءَالَيْتَهُمْ ﴾ هي : لام العاقبة ولام التعليل عند آخرين ، ولكنها تعليل لتقييض الله لهم ذلك ثم توعدهم بقوله : ﴿ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴾ قال بعضهم : والله لو توعدني حارس درب لحفت منه ، فكيف والمتوعد ها هنا هو الذي يقول للشيء كن فيكون . ثم قال تعالى منكراً على المشركين فيما اختلفوا فيه من عبادة غيره بلا دليل ولا حجة ولا برهان : ﴿ أَمْ أَرْزَأْنَا عَلَيْهِمْ سُلْطَانًا ﴾ أي : حجة ﴿ فَهُوَ يَتَكَلَّمُ ﴾ أي : ينطق ﴿ بِمَا كَانُوا بِهِ يُشْرِكُونَ ﴾ وهذا استفهام إنكار ، أي لم يكن لهم شيء من ذلك ، ثم قال تعالى : ﴿ وَإِذَا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً فَرِحُوا بِهَا وَإِنْ تُصِيبَهُمْ سَيِّئَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ إِذَا هُمْ يَقْتُلُونَ ﴾ هذا إنكار على الإنسان من حيث هو إلا من عصمه الله ووقفه . فإن الإنسان إذا أصابته نعمة بطر وقال : ﴿ ذَهَبَ السَّيِّئَاتُ عَنِّي إِنَّهُ لَنَجَّى مُخَارَئِي ﴾ أي : يفرج في نفسه ويفجر على غيره ، وإذا أصابته شدة قنط وأيس أن يحصل له بعد ذلك خير بالكلية . قال الله تعالى : ﴿ إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ﴾ أي : صبروا في الضراء ، وعملوا الصالحات في الرخاء . كما ثبت في الصحيح : « عَجَبًا لِلْمُؤْمِنِ لَا يَقْضِي اللَّهُ لَهُ قَضَاءٌ إِلَّا كَانَ خَيْرًا لَهُ ، إِنْ أَصَابَتْهُ سَرَاءٌ شَكَرَ فَكَانَ خَيْرًا لَهُ ، وَإِنْ أَصَابَتْهُ ضَرَاءٌ صَبَرَ فَكَانَ خَيْرًا لَهُ » (١) . وقوله تعالى : ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ ﴾ أي : هو المتصرف الفاعل لذلك بحكمته وعدله ، فيوسع على قوم ويضيق على آخرين ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ .

﴿ فَاتَّبَعَ ذَا الْقُرْبَىٰ حَقَّهُ وَالْيَسِيرَ وَالَّذِينَ يَبِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ وَمَا ءَاتَيْتُهُمْ مِنْ زَبَا لَرَبِّوْا فِي أَمْوَالِ النَّاسِ فَلَا يَرَوْنَ أَنَّ اللَّهَ مِمَّا ءَاتَيْتُهُمْ مِنْ دُكُورٍ تَرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُضْلِعُونَ ﴿٣٥﴾ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمْسِكُكُمْ ثُمَّ يُخَيِّبُكُمْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَقُولُ مِنْ ذَلِكُمْ مِنْ شَيْءٍ سُبْحَنَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ .

(١) أخرجه الإمام أحمد في مسنده (٢٤/٥) وذكره الألباني في الصحيحة (١٤٨) .

يقول تعالى آمراً بإعطاء كل ذي القربي حقه أي : من البر والصلة ﴿وَالْيَسِيرِينَ﴾ وهو الذي لا شيء له ينفق عليه أو له شيء لا يقوم بكفايته ﴿وَأَنَّ السَّيْلَ﴾ وهو المسافر المحتاج إلى نفقة ﴿ذَلِكَ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ﴾ أي : النظر إليه يوم القيامة وهو الغاية القصوى ﴿وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ أي : في الدنيا والآخرة . ثم قال تعالى : ﴿وَمَا آتَيْنَهُ مِنْ رَبِّا لَّيَبْرُأَ فِي آمَوِلِ النَّاسِ فَلَا يَرِيوُا عِنْدَ اللَّهِ﴾ أي : من أعطى عطية يريد أن يرد عليه الناس أكثر مما أهدى لهم ، فهذا لا ثواب له عند الله . بهذا فسره ابن عباس ، وهذا الصنيع مباح - وإن كان لا ثواب فيه - إلا أنه قد نهى عنه رسول الله ﷺ خاصة ، قاله الضحاك واستدل بقوله تعالى : ﴿وَلَا تَتَنَزَّكُوا فِيهِ﴾ أي : لا تعط العطاء تريد أكثر منه . وقال ابن عباس : الربا رباءان ، فربا لا يصح - يعني : ربا البيع - وربا لا بأس به - وهو هدية الرجل يريد فضلها أضعافها - ثم تلا هذه الآية : ﴿وَمَا آتَيْنَهُ مِنْ رَبِّا لَّيَبْرُأَ فِي آمَوِلِ النَّاسِ فَلَا يَرِيوُا عِنْدَ اللَّهِ﴾ وإنما الثواب عند الله في الزكاة . ولهذا قال تعالى : ﴿وَمَا آتَيْنَهُ مِنْ زَكَوٰةٍ تَزِيدُكَ وَجْهَ اللَّهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاضِلُونَ﴾ أي : الذين يضاعف الله لهم الثواب والجزاء . كما جاء في الصحيح « وَمَا تَصَدَّقُ أَخَذَ بِعَدْلِ ثَمَرَةٍ مِنْ كَثَبٍ طَيِّبٍ إِلَّا أَخَذَهَا الرَّحْمَنُ يَمِينِهِ ، فَيُرِيهَا لِصَاحِبِهَا كَمَا يُرِي أَحَدُكُمْ فَلَوْهُ ^(١) أَوْ فَصِيلُهُ حَتَّى تَصِيرَ الثَّمَرَةُ أَكْظَمَ مِنْ أُحَدٍ ^(٢) . وقوله ﷺ : ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ﴾ أي : هو الخالق الرازق ، يخرج الإنسان من بطن أمه عرياناً لا علم له ولا سمع ولا بصر ولا قوى ، ثم يرزقه جميع ذلك بعد ذلك ، والرياش واللباس والمال والأموال والمكاسب . وعن حبة وسواء ابني خالد قالوا : دخلنا على النبي ﷺ وهو يصلح شيئاً فأعناه فقال : «لَا تَيَاسَا مِنَ الرِّزْقِ مَا تَهْزِهْرَتْ رُءُوسُكُمْ» ، فَإِنَّ الْإِنْسَانَ تِلْذُهُ أُمُّهُ أَحْمَرُ لَيْسَ عَلَيْهِ قَشْرَةٌ ، ثُمَّ يَرْزُقُهُ اللَّهُ ﷻ ^(٣) . وقوله تعالى : ﴿ثُمَّ يُبَشِّرُكُمْ﴾ أي : بعد هذه الحياة ﴿ثُمَّ يُبَشِّرُكُمْ﴾ أي : يوم القيامة . وقوله تعالى : ﴿هَذَا مِنْ شُرَاكِكُمْ﴾ أي : الذين تعبدونهم من دون الله ﴿مَنْ يَقْعَلْ مِنْ ذَلِكَ مِنْ شَيْءٍ﴾ ؟ أي : لا يقدر أحد منهم على فعل شيء من ذلك ، بل الله ﷻ هو المستقل بالخلق والرزق والإحياء والإماتة ، ثم يعث الخلائق يوم القيامة ؛ ولهذا قال بعد هذا كله : ﴿سُبْحَنَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ أي : تعالى وتنزه عن أن يكون له شريك أو نظير أو مساو أو ولد أو والد ، بل هو الأحد الفرد الصمد الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد .

﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ قل سيروا في الأرض فأنظروا كيف كان عاقبة الذين من قبل كان أكثرهم مشركين .

قال ابن عباس وغيره : المراد بالبر هاهنا الفياضي ، وبالبحر الأمصار والقرى . وفي رواية عن ابن عباس وعكرمة : البحر الأمصار والقرى ما كان منها على جانب نهر . وقال آخرون : بل المراد بالبر هو البر المعروف ، وبالبحر هو البحر المعروف . وقال زيد بن ربيع : ﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ﴾ يعني انقطاع المطر عن البر يعقبه القحط ، وعن البحر يعني دوابه . وعن مجاهد قال : فساد البر قتل ابن آدم ، وفساد البحر أخذ السفينة غصباً ، وقال عطاء الجراساني : المراد بالبر ما فيه من المدائن والقرى ، وبالبحر جزائره .

(١) الفلأ : الجحش أو المهر يغطم أو يبلغ السنة . والجمع أفلاء ، المعجم الوسيط ص ٧٢٨ .

(٢) أخرجه البخاري في الزكاة (١٤١٠) ومسلم في الزكاة (٦٤) والإمام أحمد في مسنده (٣٣١/٢ ، ٤١٩) .

(٣) أخرجه الإمام أحمد في مسنده (٤٦٩/٣) وابن ماجه في سننه (٤١٦٥) .

والقول الأول أظهر وعليه الأكثر ، ويؤيده ما قاله محمد بن إسحاق في السيرة : أن رسول الله ﷺ صالح ملك أيلة وكتب إليه يحره يعني يبلده . ومعنى قوله تعالى : ﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ﴾ ، أي : بأن النقص في الزروع والثمار بسبب المعاصي . وقال أبو العالية : من عصى الله في الأرض ، فقد أفسد في الأرض ؛ لأن صلاح الأرض والسماء بالطاعة . ولهذا جاء في الحديث « لَحْدُ يُقَامُ فِي الْأَرْضِ أَحَبُّ إِلَيَّ أَهْلِهَا مِنْ أَنْ يُنْظَرُوا أَوْ يُعَيَّنَ صَبَاحُهَا » ^(١) . والسبب في هذا أن الحدود إذا أقيمت انكف الناس أو أكثرهم أو كثير منهم عن تعاطي المحرمات ، وإذا تركت المعاصي كان سبباً في حصول البركات من السماء والأرض . ولهذا ثبت في الصحيحين : أن الفاجر إذا مات يستريح منه العباد والبلاد والشجر والدواب ^(٢) . وعن زيد بن أسلم أن المراد بالفساد ها هنا الشرك وفيه نظر . وقوله تعالى : ﴿لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا﴾ الآية . أي : يثليهم بنقص الأموال والأنفس والثمرات اختباراً منه لهم ومجازاة على صنيعهم . ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ أي : عن المعاصي كما قال تعالى : ﴿وَيَكُونَتْ لَهُمْ السَّخِرَاتِ وَالسَّخِرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ . ثم قال تعالى : ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلُ﴾ أي من قبلكم ﴿كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُشْرِكِينَ﴾ أي : فانظروا ما حل بهم من تكذيب الرسل وكفر النعم .

﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ الْقَدِيمِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَبَاقِيَ يَوْمَ لَا مَرَدَّ لَهُ مِنَ اللَّهِ يَوْمَئِذٍ يُصَدَّقُونَ ﴿٣٨﴾ مَنْ كَفَرَ فَقَلِيلٌ كُفَرُوا وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِأَنْفُسِهِمْ يَهْتَدُونَ ﴿٣٩﴾ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ﴾ . يقول تعالى أمراً عباده بالمبادرة إلى الاستقامة في طاعته والمبادرة إلى الخيرات : ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ الْقَدِيمِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَبَاقِيَ يَوْمَ لَا مَرَدَّ لَهُ مِنَ اللَّهِ﴾ أي : يوم القيامة إذا أراد كونه فلا راد له ﴿يَوْمَئِذٍ يُصَدَّقُونَ﴾ أي : يتفرقون ؛ ففريق في الجنة وفريق في السعير ؛ ولهذا قال تعالى : ﴿مَنْ كَفَرَ فَقَلِيلٌ كُفَرُوا وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِأَنْفُسِهِمْ يَهْتَدُونَ ﴿٣٩﴾ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْ فَضْلِهِ﴾ أي : يجازيهم مجازاة الفضل ، الحسنة بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف إلى ما يشاء الله ﴿إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ﴾ ومع هذا هو العادل فيهم الذي لا يجور .

﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ يُرْسِلَ الرِّيحَ مُبَشِّرَاتٍ وَلِيُذِيقَكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ وَلِتَجْرِيَ الْفُلُكُ بِأَمْرِهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٤٠﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ رُسُلًا إِلَى قَوْمِهِمْ فَجَاءَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَأَنْقَسْنَا مِنَ الَّذِينَ أَجْرَمُوا وَكَانَ خُفَاةً عَلَيْنا فَصَرَّ الْمُؤْمِنِينَ﴾ . يذكر تعالى نعمه على خلقه في إرساله الرياح مبشرات بين يدي رحمته بمجيء الغيث عقبها . ولهذا قال تعالى : ﴿وَلِيُذِيقَكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ﴾ أي : المطر الذي ينزله فيحيي به العباد والبلاد ﴿وَلِتَجْرِيَ الْفُلُكُ بِأَمْرِهِ﴾ أي : في البحر وإنما سيرها بالريح ﴿وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ﴾ أي : في التجارات والمعيش والسير من إقليم إلى إقليم وقطر إلى قطر ، ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ أي : تشكرون الله على ما أنعم به عليكم من النعم الظاهرة والباطنة التي لا تعد ولا تحصى . ثم قال تعالى : ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ رُسُلًا إِلَى قَوْمِهِمْ فَجَاءَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَأَنْقَسْنَا مِنَ الَّذِينَ أَجْرَمُوا﴾ هذه تسلية من الله تعالى لعبده ورسوله محمد ﷺ ،

(١) أخرجه الإمام أحمد في مسنده (٣٦٢/٢) .

(٢) انظر صحيح البخاري في الرقاق (٦٥١٢) ومسلم في الجنائز (٦١) .

بأنه وإن كذبه كثير من قومه ومن الناس ، فقد كُذبت الرسل المتقدمون مع ما جاءوا أمهم به من الدلائل الواضحات . ولكن انتقم الله ممن كذبهم ، وخالفهم وأنجى المؤمنين بهم ﴿ وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ أي : هو حق أوجبه على نفسه الكريمة تكريمًا وتفضيلًا . كقوله تعالى : ﴿ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ ﴾ . وعن أبي الدرداء رضي الله عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « مَا مِنْ أَمْرٍ مُسْلِمٍ يُرَدُّ عَنْ عِرْضِ أَخِيهِ ؛ إِلَّا كَانَ حَقًّا عَلَى اللَّهِ أَنْ يُرَدَّ عَنْهُ نَارُ جَهَنَّمَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ » ثم تلا هذه الآية : ﴿ وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ ^(١) .

﴿ اللَّهُ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَّحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُ فِي السَّمَاءِ كَيْفَ يَشَاءُ وَيَجْعَلُهُ كِسْفًا فَنَزَّلِي الدِّقَّ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ فَإِذَا أَصَابَ بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴾ ^(٢) وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلِ أَنْ يُنْزَلَ عَلَيْهِمْ مِنَ قَبْلِهِ لَمُبْلِسِينَ ﴿ فَانظُرْ إِلَى آثَارِ رَحْمَةِ اللَّهِ كَيْفَ يُغِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ ذَلِكَ لَمُنِجِي الْمَوْتِ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ ^(٣) وَلَئِنْ أَرْسَلْنَا بِمَا فَرَّادُهُ مُمْصِقًا لَطَلُّوا مِنْ بَعْدِهِ يَكْفُرُونَ ﴾ .

يبين تعالى كيف يخلق السحاب الذي ينزل منه الماء . فقال تعالى : ﴿ اللَّهُ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَّحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا ﴾ إما من البحر كما ذكره غير واحد ، أو مما يشاء الله ﷻ ﴿ فَيَبْسُطُهُ فِي السَّمَاءِ كَيْفَ يَشَاءُ ﴾ أي : يمدّه فيكثره وينميّه ، ويجعل من القليل كثيرًا . ينشئ سحابة ترى في رأي العين مثل الترس ، ثم يبسطها حتى تملأ أرجاء الأفق ، وتارة يأتي السحاب من نحو البحر ثقلاً مملوءة . كما قال تعالى : ﴿ وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَّحَ بُثْرًا بَيِّنَةً يَدَّبِي رَحْمَةً حَتَّى إِذَا أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُقْنَتْهُ لِيَكْثِرَ مِمَّا تَرَى ﴾ إلى قوله : ﴿ كَذَلِكَ نُخْرِجُ الْمَوْتَى لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ وكذلك قال ما هنا : ﴿ اللَّهُ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَّحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُ فِي السَّمَاءِ كَيْفَ يَشَاءُ وَيَجْعَلُهُ كِسْفًا ﴾ قال مجاهد وغيره : يعني ، قطعًا . وقال غيره : متراكماً ، وقال غيره : أسود من كثرة الماء تراه مدلهماً ثقيلاً قريباً من الأرض . وقوله تعالى : ﴿ فَتَدْبِي الدِّقَّ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ ﴾ أي : فترى المطر - وهو القطر - يخرج من بين ذلك السحاب ﴿ فَإِذَا أَصَابَ بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴾ أي : لحاجتهم إليه يفرحون بنزوله عليهم ووصوله إليهم . وقوله تعالى : ﴿ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلِ أَنْ يُنْزَلَ عَلَيْهِمْ مِنَ قَبْلِهِ لَمُبْلِسِينَ ﴾ معنى الكلام أن هؤلاء القوم الذين أصابهم هذا المطر كانوا قانطين أزليين من نزول المطر إليهم قبل ذلك . فلما جاءهم على فاقة فوقع منهم موقعا عظيماً . وقد اختلف النحاة في قوله : ﴿ مِنْ قَبْلِ أَنْ يُنْزَلَ عَلَيْهِمْ مِنَ قَبْلِهِ لَمُبْلِسِينَ ﴾ فقال ابن جرير : هو تأكيد ، وقال آخرون : ﴿ مِنْ قَبْلِ أَنْ يُنْزَلَ عَلَيْهِمْ ﴾ المطر ﴿ مِنْ قَبْلِهِ ﴾ أي الإنزال ﴿ لَمُبْلِسِينَ ﴾ ، ويحتمل أن يكون ذلك من دلالة التأسيس . ويكون معنى الكلام أنهم كانوا محتاجين إليه قبل نزوله ومن قبله أيضاً قد فات عندهم نزوله وقتاً بعد وقت ، فترقبوه في إبانته فتأخر ، ثم مضت مدة فترقبوه فتأخر ، ثم جاءهم بغتة بعد الإياس منه والقنوط ، فبعد ما كانت أرضهم مقشعة هامة أصبحت وقد اهترت وربت وأنبتت من كل زوج بهيج . ولهذا قال تعالى : ﴿ فَانظُرْ إِلَى آثَارِ رَحْمَةِ اللَّهِ ﴾ يعني : المطر ؛ ﴿ كَيْفَ يُغِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ﴾ ثم نبه بذلك على إحياء الأجساد بعد موتها وفتحها وتمزقها . فقال تعالى : ﴿ إِنَّ ذَلِكَ لَمُنِجِي الْمَوْتِ ﴾ أي : إن الذي فعل

ذلك لقادر على إحياء الأموات ﴿ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ . ثم قال تعالى : ﴿ وَلَئِنْ أَرْسَلْنَا رِيحًا فَرَأَوْهُ مُصْفَرًّا لَّظَلُّوا مِنْ بَعْدِهِ يَكْفُرُونَ ﴾ يقول تعالى : ﴿ وَلَئِنْ أَرْسَلْنَا رِيحًا ﴾ يابسة على الزرع الذي زرعه ونبت وشب واستوى على سوقه ﴿ فَرَأَوْهُ مُصْفَرًّا ﴾ أي : قد اصفر وشرع في الفساد ﴿ لَّظَلُّوا مِنْ بَعْدِهِ ﴾ أي بعد هذا الحال ﴿ يَكْفُرُونَ ﴾ أي : يجحدون ما تقدم إليهم من النعم . كقوله تعالى : ﴿ أَرَأَيْتُمْ مَا تَحْرُثُونَ ﴾ إلى قوله : ﴿ بَلْ تَحْنُ حَرْثُكُمْ ﴾ قال عبيد الله بن عمرو : الرياح ثمانية : أربعة منها رحمة ، وأربعة منها عذاب ؛ فأما الرحمة : فالنواشرات والمبشرات والمرسلات والذاريات ، وأما العذاب . فالعقيم والصرصر وهما في البر ، والعاصف والقاصف وهما في البحر ، فإذا شاء ﷻ حركه بحركة الرحمة ، فجعله رخاء ورحمة وبشرى بين يدي رحمته ، ولاقحًا للسحاب تلقحه بحمله الماء ، كما يلقيح الذكر الأنثى بالحمل ، وإن شاء حركه بحركة العذاب فجعله عقيمًا وأودعه عذابًا أليمًا وجعله نقمة على من يشاء من عباده ، فيجعله صرصرًا وعاتيًا ومفسدًا لما يمر عليه . والرياح مختلفة في مهابها ، صبا ودبور وجنوب وشمال ، وفي منفعتها وتأثيرها أعظم اختلاف ، فريح لينة رطبة تغذي النبات وأبدان الحيوان وأخرى تجففه ، وأخرى تهلكه وتعطبه ، وأخرى تسيره وتصلبه ، وأخرى توهنه وتضعفه .

﴿ فَإِنَّكَ لَا تَسْمِعُ الْمَوْتَى وَلَا تُسْمِعُ الذُّعَلَةَ إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ ﴾ وَمَا أَنْتَ بِهَادٍ الْقَمِي عَنْ ضَلَالَتِهِمْ إِنْ سَمِعُوا إِلَّا مَنْ يُوْنِسَ يَتَابِعُنَا فَهُمْ مُسْلِمُونَ ﴾ .

يقول تعالى : كما أنك ليس في قدرتك أن تسمع الأموات في أجدائها ، ولا تبلغ كلامك الصم الذين لا يسمعون وهم مع ذلك مدبرون عنك ، كذلك لا تقدر على هداية العميان عن الحق ، وردهم عن ضلالتهم ، بل ذلك إلى الله ؛ فإنه تعالى بقدرته يسمع الأموات أصوات الأحياء إذا شاء ، ويهدي من يشاء ويضل من يشاء وليس ذلك لأحد سواه ، ولهذا قال تعالى : ﴿ إِنْ سَمِعُوا إِلَّا مَنْ يُوْنِسَ يَتَابِعُنَا فَهُمْ مُسْلِمُونَ ﴾ أي : خاضعون مستجيبون مطيعون ، فأولئك هم الذين يسمعون الحق ويتبعونه وهذا حال المؤمنين ، والأول مثل الكافرين .

وقد استدلت أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها بهذه الآية ﴿ فَإِنَّكَ لَا تَسْمِعُ الْمَوْتَى ﴾ على توهيم عبد الله بن عمر في روايته مخاطبة النبي صلى الله عليه وسلم القتلى الذين ألقوا في قليب بدر بعد ثلاثة أيام ومعاينته إياهم وتقريعه لهم ، حتى قال له عمر : يا رسول الله ما تخاطب من قوم قد جيفوا ؟ فقال : « والذي نفسي بيده ما أنتم بأسمع لما أقول منهم ولكن لا يجيبون » . وتأولته عائشة على أنه قال : « إِنْهُمْ الْآنَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّ مَا كُنْتُ أَقُولُ لَهُمْ حَقٌّ » ^(١) . وقال قتادة : أحياهم الله له حتى سمعوا مقالته تفرقًا وتوبيرًا ونقمة . والصحيح عند العلماء رواية عبد الله بن عمر لما لها من الشواهد على صحتها من وجوه كثيرة . من أشهر ذلك ما روي عن ابن عباس مرفوعًا : « مَا مِنْ أَحَدٍ يَمُوتُ بِقَبْرِ أَخِيهِ الْمُسْلِمِ كَانَ يَعْرِفُهُ فِي الدُّنْيَا فَيَسْتَلِمُ عَلَيْهِ ؛ إِلَّا رَدَّ اللَّهُ عَلَيْهِ رُوحَهُ حَتَّى يَرُدَّ عَلَيْهِ السَّلَامَ » ^(٢) . وثبت عنه صلى الله عليه وسلم لأتمه إذا سلموا على

(١) أخرجه مسلم في (الحج) (٧٧) والإمام أحمد في مسنده (٢٨٨/٣) .

(٢) أورده الزبيدي في إتحاف السادة المتقين (٣٦٥/١٠) والسيوطي في الخواص للفتاوى (٣٠٢/٢) .

أهل القبور أن يسلموا عليهم سلام من يخاطبونه فيقول المسلم : السلام عليكم دار قوم مؤمنين ، وهذا خطاب لمن يسمع ويعقل ، ولولا هذا الخطاب لكانوا بمنزلة خطاب المردود والجماد ، والسلف مجمعون على هذا ، وقد تواترت الآثار عنهم بأن الميت يعرف بزيارة الحي له ويستبشر .

وقد شرع السلام على الموتى ، والسلام على من لم يشعر ، ولا يعلم بالمسلم محال ، وقد علم النبي ﷺ أمته إذا رأوا القبور أن يقولوا : « سلام عليكم أهل الديار من المؤمنين ، وإنا إن شاء الله بكم لاحقون ، يرحم الله المستقدمين منا ومنكم والمستأخرين ، نسأل الله لنا ولكم العافية » (١) . فهذا سلام والخطاب والنداء لموجود يسمع ويخاطب ويعقل ويرد ، وإن لم يسمع المسلم الرد ، والله أعلم .

﴿ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ ضَعِفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ ضَعِفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْقَدِيرُ ﴾ .

يبني تعالى على تنقل الإنسان في أطوار الخلق حالاً بعد حال ؛ فأصله من تراب ثم من نطفة ثم من علقة ثم من مضغة ثم يصير عظاماً ثم تكسي العظام لحماً ، وينفخ فيه الروح ، ثم يخرج من بطن أمه ضعيفاً نحيفاً واهن القوى ، ثم يشب قليلاً قليلاً حتى يكون صغيراً ، ثم حدثاً ثم مراهقاً ثم شاباً ، وهو القوة بعد الضعف ، ثم يشرع في النقص ، فيكتهل ثم يشيخ ثم يهرم ، وهو الضعف بعد القوة ، فتضعف الهمة والحركة والبطش ، وتشيب اللمة وتنغبر الصفات الظاهرة والباطنة . ولهذا قال تعالى : ﴿ ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ ﴾ أي : يفعل ما يشاء ويتصرف في عبيده بما يريد ﴿ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْقَدِيرُ ﴾ قال عطية العوفي : قرأت على ابن عمر ﴿ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ ضَعِفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ ضَعِفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا ﴾ فقال : ﴿ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ ضَعِفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ ضَعِفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا ﴾ . ثم قال : قرأت على رسول الله ﷺ كما قرأت علي فأخذ علي كما أخذت عليك (٢) .

﴿ وَيَوْمَ نَقُومُ السَّاعَةَ يُخْسِرُ الْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا غَيْرَ سَاعَةٍ كَذَلِكَ كَانُوا يُؤْفَكُونَ ﴾ ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَالْإِيمَانَ لَقَدْ لَبِثْنَا فِي كِتَابِ اللَّهِ إِلَى يَوْمِ الْبَئِثِ فَهَكَذَا يَوْمَ الْبَئِثِ وَلَكِنْ كُنْتُمْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ ﴿ قَبْوِمٌ لَا يَنْفَعُ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَعِدْرَتُهُمْ وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ﴾ .

يخبر تعالى عن جهل الكفار في الدنيا والآخرة ، ففي الدنيا فعلوا ما فعلوا من عبادة الأوثان ، وفي الآخرة يكون منهم جهل عظيم أيضاً . فمنه إقسامهم بالله أنهم ما لبثوا غير ساعة واحدة في الدنيا ومقصودهم بذلك عدم قيام الحجة عليهم ، وأنهم لم ينظروا حتى يعذر إليهم . قال الله تعالى : ﴿ كَذَلِكَ كَانُوا يُؤْفَكُونَ ﴾ ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَالْإِيمَانَ لَقَدْ لَبِثْنَا فِي كِتَابِ اللَّهِ إِلَى يَوْمِ الْبَئِثِ ﴾ أي : فيرد عليهم المؤمنون العلماء في الآخرة . كما أقاموا عليهم حجة الله في الدنيا فيقولون لهم حين يحلفون ما لبثوا غير ساعة ، ﴿ لَقَدْ لَبِثْنَا فِي كِتَابِ اللَّهِ ﴾ أي : في كتاب الأعمال ﴿ إِلَى يَوْمِ الْبَئِثِ ﴾ أي : من يوم خلقتم إلى أن بعثتم ﴿ وَلَكِنْ كُنْتُمْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ قال الله تعالى : ﴿ قَبْوِمٌ ﴾ أي : يوم القيامة

(١) أخرجه مسلم في الطهارة (٣٩) .

(٢) أخرجه الإمام أحمد في مسنده (٥٨/٢) وأبو داود في سننه (٣٢/٤) ، وقرأ عاصم وحزمة ﴿ مِنْ ضَعِفٍ ﴾ بفتح الضاد ، والباقيون

﴿ مِنْ ضَعْفٍ ﴾ بالرفع (حجة القراءات ص ٥٦٢) .

﴿ لَا يَنْفَعُ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَعْذِرَتُهُمْ ﴾ أي : اعتذارهم عما فعلوا ﴿ وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ﴾ أي : ولا هم يرجعون إلى الدنيا .

﴿ وَلَقَدْ صَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ وَلَكِنْ جَسَّتْهُمُ بَاطِلُهُمْ يَقُولُوا الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُبْطِلُونَ ﴾ كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿ فَأَصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَا يَسْتَخِفَّنَكَ الَّذِينَ لَا يُوفُونَ ﴾ .
 يقول تعالى : ﴿ وَلَقَدْ صَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ ﴾ أي : قد بينا لهم الحق ، ووضحناه لهم ، وضربنا لهم فيه الأمثال ، ليستبينوا الحق ويتبعوه ﴿ وَلَكِنْ جَسَّتْهُمُ بَاطِلُهُمْ يَقُولُوا الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُبْطِلُونَ ﴾ أي : لو رأوا أي آية كانت ، سواء كانت باقتراحهم أو غيره ، لا يؤمنون بها ويعتقدون أنها سحر وباطل . كما قالوا في انشقاق القمر ونحوه . كما قال تعالى : ﴿ إِنْ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْكُمْ لَآ يُؤْمِنُونَ ﴾ ﴿ وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّى يَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ﴾ . ولهذا قال ها هنا : ﴿ كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ ﴿ فَأَصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ ﴾ أي : اصبر على مخالفتهم وعنادهم ، فإن الله تعالى منجز لك ما وعدك من نصره إياك عليهم ، وجعله العاقبة لك ولمن اتبعك في الدنيا والآخرة ﴿ وَلَا يَسْتَخِفَّنَكَ الَّذِينَ لَا يُوفُونَ ﴾ أي : بل اثبت على ما بعثك الله به ، فإنه الحق الذي لا مرية فيه ولا تعديل عنه ، وليس فيما سواه هدى يتبع ، بل الحق كله منحصر فيه ، قال قتادة : نادى رجل من الخوارج علياً عليه السلام ، وهو في صلاة الغداة فقال : ﴿ وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكَكَ لَيَحْطَبَنَّ عَلَيْكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾ فأنصت له علي حتى فهم ما قال ، فأجابه وهو في الصلاة : ﴿ فَأَصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَا يَسْتَخِفَّنَكَ الَّذِينَ لَا يُوفُونَ ﴾ .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿الذِّكْرُ﴾ ١ تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ ٢ هُدًى وَرَحْمَةً لِّلْمُحْسِنِينَ ٣ الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ٤ أُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ .

تقدم في أول سورة البقرة عامة الكلام على ما يتعلق بصدر هذه السورة ، وهو أنه ﷺ جعل هذا القرآن هدى ، وشفاء ورحمة للمحسنين ، وهم الذين أحسنوا العمل في اتباع الشريعة ، فأقاموا الصلاة المفروضة بحدودها وأوقاتها ، وما يتبعها من نوافل راتبة وغير راتبة ، وآتوا الزكاة المفروضة عليهم إلى مستحقها وأيقنوا بالجزاء في الدار الآخرة ، فرغبوا إلى الله في ثواب ذلك ، ولا أرادوا جزاء من الناس ولا شكورا ، فمن فعل ذلك كذلك ، فهو من الذين قال الله تعالى : ﴿ أُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ ﴾ أي على بصيرة وينة ومنهج واضح جلي ﴿ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ أي في الدنيا والآخرة .

﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًا أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴾ ٥ وَإِذَا تَنَادَىٰ عَالِيَهُمَا أَيُّنَا وَلَىٰ مُسْتَكْبِرًا كَانَتْ لَهُمْ جَهَنَّمُ مَسَكِنًا وَعَرَوُا أَنَّهَا مُنْجِيَةٌ .

لما ذكر تعالى حال السعداء ، وهم الذين يهتدون بكتاب الله ، ويتفكرون بسماعه عطف بذكر حال الأشقياء الذين أعرضوا عن الانتفاع بسماع كلام الله ، وأقبلوا على استماع الزامير والغناء بالألحان وآلات الطرب . كما قال ابن مسعود في قوله تعالى : ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ . قال : هو والله الغناء . وقال الحسن البصري : نزلت هذه الآية : ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ ﴾ في الغناء والمزامير . وقال قتادة : قوله : ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ ﴾ والله لعله لا ينفق فيه مالا ، ولكن شراؤه استحبابه بحسب المرء من الضلالة أن يختار حديث الباطل على حديث الحق ، وما يضر على ما ينفع . وقيل : أراد بقوله : ﴿ يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ ﴾ اشتراء المغنيات من الجواري ، وقال الضحّاك : يعني الشرك . واختار ابن جرير أنه كل كلام يصد عن آيات الله ، واتباع سبيله . وقوله : ﴿ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ أي : إنما يضع هذا للتخالف للإسلام وأهله . وعلى قراءة فتح الياء تكون اللام لام العاقبة ، أو تعليلا للأمر القدري أي : فيضوا لذلك ليكونوا كذلك . وقوله تعالى : ﴿ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًا ﴾ قال مجاهد : ويتخذ سبيل الله هزوا يستهزئ بها . وقال قتادة : يعني ويتخذ آيات الله هزوا ، وقول مجاهد أولى ، وقوله : ﴿ أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴾ أي : كما استهانوا بآيات الله وسبيله ، أهينوا يوم القيامة في العذاب الدائم المستمر . ثم قال تعالى : ﴿ وَإِذَا تَنَادَىٰ عَالِيَهُمَا أَيُّنَا وَلَىٰ مُسْتَكْبِرًا كَانَتْ لَهُمْ جَهَنَّمُ مَسَكِنًا وَعَرَوُا أَنَّهَا مُنْجِيَةٌ . هذا المقبل على اللهو واللعب والطرب إذا تليت عليه الآيات القرآنية ولَّى عنها وأعرض ؛ إذ لا انتفاع له بها ، ولا أرب له فيها ﴾ بَشَرَةٌ بِعَذَابِ أَلِيمٍ ﴾ أي يوم القيامة ، يؤلمه كما تألم بسماع كتاب الله وآياته . ﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَمْ يَجْنُ أَلَيْسَ خَلْقِينَ فِيهَا وَعَدَ اللَّهُ حَقًّا وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ . هذا ذكر مآل الأبرار من السعداء في الدار الآخرة الذين آمنوا بالله وصدقوا المرسلين ، وعملوا

الأعمال الصالحة التابعة لشريعة الله . ﴿ لَمْ جَنَّتْ أَلَيْمٌ ﴾ أي : يتنعمون فيها بأنواع الملاذ والمسار من المأكَل والمشارب والملابس والمساكن والمراكب والنساء والنضرة ، والسماع الذي لم يخطر ببال أحد وهم في ذلك مقيمون دائماً ، لا يظنون ولا ييغون عنها حولاً . وقوله تعالى : ﴿ وَعَدَ اللَّهُ حَقًّا ﴾ أي : هذا كائن لا محالة ؛ لأنه من وعد الله والله لا يخلف الميعاد . ﴿ وَهُوَ الْعَزِيزُ ﴾ الذي قهر كل شيء ، ودان له كل شيء . ﴿ أَلْحَكُمُ ﴾ في أقواله وأفعاله الذي جعل القرآن هدى للمؤمنين ، ﴿ قُلْ هُوَ إِلَهِكَ ءَامَنُوا هُدًى وَبَيِّنَاتٍ لِّلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي ءَاذَانِهِمْ وَقُرْ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى ﴾ الآية . ﴿ خَلَقَ السَّمَوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ؕ وَآلَتْنِي فِي الْأَرْضِ رَوْسِي أَنْ تَبِيدَ بِكُمْ وَيَتَّيَّبُ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ ؕ وَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ ۝ ﴾ هَذَا خَلَقَ اللَّهُ فَأَرَوَيْ مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ ؕ بَلِ الظَّالِمُونَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ .

يبين سبحانه بهذا قدرته العظيمة على خلق السماوات والأرض ، وما فيهما وما بينهما فقال تعالى : ﴿ خَلَقَ السَّمَوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ ﴾ . قال الحسن : ليس لها عمد مرئية ولا غير مرئية . وقال ابن عباس : لها عمد لا ترونها . ﴿ وَآلَتْنِي فِي الْأَرْضِ رَوْسِي ﴾ يعني : الجبال أُرست الأرض ، وثقلتها لئلا تضطرب بأهلها على وجه الماء . ولهذا قال : ﴿ أَنْ تَبِيدَ بِكُمْ ﴾ أي : لئلا تميد بكم . وقوله تعالى : ﴿ وَيَتَّيَّبُ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ ﴾ أي : وذراً فيها من أصناف الحيوانات مما لا يعلم عدد أشكالها وألوانها إلا الذي خلقها ، ولما قرر سبحانه أنه الخالق نبه على أنه الرازق بقوله : ﴿ وَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ ﴾ أي : من كل زوج من النبات ﴿ كَرِيمٍ ﴾ أي : حسن المنظر وقال الشعبي : والناس أيضاً من نبات الأرض ، فمن دخل الجنة فهو كريم ، ومن دخل النار فهو لئيم ، وقوله تعالى : ﴿ هَذَا خَلَقَ اللَّهُ ﴾ أي : صادر عن فعل الله وخلقه وتقديره وحده لا شريك له في ذلك . ولهذا قال تعالى : ﴿ فَأَرَوَيْ مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ ﴾ أي : مما تعبدون وتدعون من الأصنام والأنداد ﴿ بَلِ الظَّالِمُونَ ﴾ يعني : المشركين بالله العابدين معه غيره ﴿ فِي ضَلَالٍ ﴾ أي : جهل وعمى ﴿ مُّبِينٍ ﴾ أي : واضح ظاهر لا خفاء به .

﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا لَقْمَنَ الْحِكْمَةَ إِذْ أَشْكُرَ لِلَّهِ وَمَنْ يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ ﴾ .
اختلف السلف في لقمان ، هل كان نبياً أو عبداً صالحاً من غير نبوة ؟ على قولين ، الأكثرون على الثاني . قال ابن عباس : كان لقمان عبداً حبشياً نجاراً . وقال قتادة : عن عبد الله بن الزبير : قلت لجابر بن عبد الله : ما انتهى إليكم من شأن لقمان ؟ قال : كان قصيراً أفطس الأنف من النبوة ، وقال سعيد بن المسيب : كان لقمان من سودان مصر ذا مشافر أعطاه الله الحكمة ، ومنعه النبوة . وقال خالد الربعي : كان لقمان عبداً حبشياً نجاراً فقال له مولاة : اذبح لنا هذه الشاة فذبحها ، قال : أخرج أطيب مضغتين فيها ، فأخرج اللسان والقلب ، ثم مكث ما شاء الله . ثم قال : اذبح لنا هذه الشاة ، فذبحها فقال : أخرج أحب مضغتين فيها فأخرج اللسان والقلب ، فقال له مولاة : أمرتك أن تخرج أطيب مضغتين فيها فأخرجتهما ، وأمرتك أن تخرج أحب مضغتين فيها فأخرجتهما ، فقال لقمان : إنه ليس من شيء أطيب منهما إذا طابا ، ولا أحب منهما إذا خبثا ^(١) . وقال مجاهد : كان لقمان عبداً صالحاً ولم يكن نبياً . وقال الأعمش : قال مجاهد : كان لقمان عبداً

(١) ذكره الطبري في تفسيره (٨٢/٢١) .

أسود عظيم الشفتين مشقق القدمين . وعن سعيد الزبيدي : كان لقمان الحكيم عبداً حبشياً غليظ الشفتين ، مصفح القدمين ، قاضياً على بني إسرائيل . وذكر غيره أنه كان قاضياً على بني إسرائيل في زمان داود عليه السلام . وقال عمرو بن قيس : كان لقمان عبداً أسود غليظ الشفتين ، مصفح القدمين ، فأتاه رجل وهو في مجلس ناس يحدثهم فقال له : أأنت الذي كنت ترعى معي الغنم في مكان كذا وكذا ؟ قال : نعم ، قال : فما بلغ بك ما أرى ؟ قال : صدق الحديث والصمت عما لا يعنيني^(١) . فهذه الآثار منها ما هو مصرح فيه بنفي كونه نبياً ؛ ومنها ما هو مشعر بذلك ؛ لأن كونه عبداً قد مسه الرق ينافي كونه نبياً ؛ لأن الرسل كانت تبعث في أحساب قومها ؛ ولهذا كان جمهور السلف على أنه لم يكن نبياً . وإنما ينقل كونه نبياً عن جابر عن عكرمة إن صح السند إليه ، فإنه رواه ابن جرير وابن أبي حاتم من حديث وكيع عن إسرائيل عن جابر عن عكرمة قال : كان لقمان نبياً . وجابر هذا هو ابن يزيد الجعفي ، وهو ضعيف والله أعلم . وعن قتادة في قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا لُقْمَانَ الْحِكْمَةَ ﴾ أي : الفقه في الإسلام . ولم يكن نبياً ولم يوح إليه . وقوله : ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا لُقْمَانَ الْحِكْمَةَ ﴾ أي : الفهم والعلم والتعبير ﴿ أَيْنَ أَشْكُرَ لِلَّهِ ﴾ أي أمرناه أن يشكر الله تعالى على ما آتاه الله ، ومنحه ووهبه من الفضل الذي خصصه به عن سواه من أبناء جنسه وأهل زمانه ثم قال تعالى : ﴿ وَمَنْ يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ ﴾ أي : إنما يعود نفع ذلك وثوابه على الشاكرين لقوله تعالى : ﴿ وَمَنْ عَمِلْ صَالِحًا فَلِأَنْفُسِهِمْ يَتَهَدُونَ ﴾ وقوله : ﴿ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَفِيرٌ حَسِيدٌ ﴾ أي : غني عن العباد لا يتضرر بذلك . ولو كفر أهل الأرض كلهم جميعاً ، فإنه الغني عما سواه ؛ فلا إله إلا الله ولا نعبد إلا إياه .

﴿ وَلَئِنْ قَالَ لِقْمَانُ لِأَبْنَيْهِ وَهُوَ يَعْظُمُ يَبْنِي لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴾ ١٥ وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهَذَا عَلَى وَهْنٍ وَفَصَّلَهُ فِي عَامَيْنِ أَنْ أَشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَى الْوَصِيرِ ١٦ وَإِنْ جَاهَدَاكَ عَلَى أَنْ تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبُهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَى تَمِّمْ إِلَى مَرْحَمَتِكُمْ فَأَنِتُّكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ .

يقول تعالى مخبراً عن وصية لقمان لولده ، الذي هو أشفق الناس عليه وأحبهم إليه ، فهو حقيق أن يمنحه أفضل ما يعرف ، ولهذا أوصاه أولاً بأن يعبد الله وحده ولا يشرك به شيئاً ، ثم قال مجذراً له : ﴿ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴾ أي : هو أعظم الظلم . وعن عبد الله قال : لما نزلت : ﴿ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ ﴾ شق ذلك على أصحاب رسول الله ﷺ وقالوا : أين لم يلبس إيمانه بظلم ؟ فقال رسول الله ﷺ : « إِنَّهُ لَيْسَ بِذَلِكَ ، أَلَا تَسْمَعُ إِلَى قَوْلِ لُقْمَانَ ؟ ﴾ يَبْنِي لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ ﴿ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴾ ١٥ . ثم قرن بوصيته إياه بعبادة الله وحده البر بالوالدين ، كما قال تعالى : ﴿ وَقَضَى رَبِّيَ أَلَّا تُعْبَدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا ﴾ وكثيراً ما يقرن تعالى بين ذلك في القرآن ؛ وقال ما هنا : ﴿ وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهَذَا عَلَى وَهْنٍ ﴾ قال مجاهد : مشقة وهن الولد ؛ وقال قتادة : جهداً على جهد ؛ وقال عطاء الخرساني : ضعفاً على ضعف . وقوله : ﴿ وَفَصَّلَهُ فِي عَامَيْنِ ﴾ أي : تربيته وإرضاعه بعد وضعه في عامين . كما قال تعالى : ﴿ وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَادَهُنَّ حَوْلَيْنِ

كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يُنِمْ الرَّصَاعَةَ ﴿١٦﴾ الآية . ﴿١٧﴾ أَنْ أَشْكُرَ لِي وَلَوْلَاكَ إِلَى الْمَصِيرِ ﴿١٨﴾ أي : فإني سأجزيك على ذلك أوفر جزاء .

وعن سعيد بن وهب قال : قدم علينا معاذ بن جبل ، وكان بعثه النبي ﷺ فقام فحمد الله وأثنى عليه ثم قال : إني رسول رسول الله ﷺ إليكم أن تعبدوا الله ، ولا تشركوا به شيئاً ، وأن تطيعوني لا ألوكم خيراً ، وإن المصير إلى الله ، وإلى الجنة أو إلى النار إقامة فلا ظن ، وخلود فلا موت . وقوله : ﴿١٧﴾ وَإِنْ جَهَدَاكَ عَلَى أَنْ تُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا ﴿١٨﴾ أي : إن حرصا عليك كل الحرص على أن تتابعهما على دينهما فلا تقبل منهما ذلك ، ولا يمنعك ذلك من أن تصاحبهما في الدنيا معروفاً أي : محسناً إليهما . ﴿١٩﴾ وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ ﴿٢٠﴾ يعني : المؤمنين ﴿٢١﴾ ثُمَّ إِلَىٰ مَرْجِعِكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٢﴾ عن سعد بن مالك قال : أنزلت في هذه الآية ﴿٢٣﴾ وَإِنْ جَهَدَاكَ عَلَى أَنْ تُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا ﴿٢٤﴾ الآية قال : كنت رجلاً بَرّاً بأمي ، فلما أسلمت قالت : يا سعد ما هذا الذي أراك قد أحدثت ؟ لتدعن دينك هذا أو لا أكل ولا أشرب حتى أموت فتعير بي فيقال : يا قاتل أمه . فقلت : لا تفعل بي يا أمه فإني لا أدع ديني هذا لشيء . فمكثت يوماً وليلة لم تأكل ، فأصبحت قد جهدت ، فمكثت يوماً آخر وليلة لم تأكل ، فأصبحت قد جهدت ، فمكثت يوماً وليلة أخرى لا تأكل فأصبحت قد اشتد جهدها ، فلما رأيت ذلك قلت : يا أمه تعلمين والله لو كانت لك مائة نفس ، فخرجت نفساً نفساً ما تركت ديني هذا لشيء ، فإن شئت فكلني وإن شئت لا تأكلي . فأكلت .

﴿٢٥﴾ يَبْنِيْ لَهُمَا إِبْرَاهِيْمَ إِنْ تَكُ يَتَّقَالِ حَبْرَ مِنْ خَرْدَلٍ فَتَكُنْ فِيْ صَخْرَةٍ أَوْ فِي السَّمَكِيْنَ أَوْ فِي الْأَرْضِ يَأْتِي بِهَا اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ﴿٢٦﴾ يَبْنِيْ أَيْمَنَ الصَّلَاةِ وَأَمْرٌ بِالْمَعْرُوفِ وَأَنَّهُ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأَصْبَرَ عَلَى مَا آصَابَكَ إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ ﴿٢٧﴾ وَلَا تَصْعَقْ خَدَّكَ لِلتَّائِبِ وَلَا تَمَسْ فِي الْأَرْضِ مَرَمًا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخَالٍ فَخُورٍ ﴿٢٨﴾ وَأَقْبِدْ فِي مَشِيكِ وَأَغْضُضْ مِنْ صَوْتِكَ إِنْ أَنْكَرَ الْأَصَوْتُ لَصُوتُ الْخَبِيرِ ﴿٢٩﴾ .

هذه وصايا نافعة قد حكاها الله سبحانه عن لقمان الحكيم . ليمثلها الناس ويقتدوا بها فقال : ﴿٣٠﴾ يَبْنِيْ لَهُمَا إِبْرَاهِيْمَ إِنْ تَكُ يَتَّقَالِ حَبْرَ مِنْ خَرْدَلٍ ﴿٣١﴾ أي إن المظلمة أو الخطيئة إن كانت مثقال حبة خردل . وجوز بعضهم أن يكون الضمير في قوله : ﴿٣٢﴾ إِبْرَاهِيْمَ ﴿٣٣﴾ ضمير الشأن والقصة ، وجوز على هذا رفع مثقال والأول أولى . وقوله ﴿٣٤﴾ يَأْتِي بِهَا اللَّهُ ﴿٣٥﴾ أي : أحضرها الله يوم القيامة حين يضع الموازين القسط ، وجازى عليها إن خيراً فخير ، وإن شراً فشر . كما قال تعالى : ﴿٣٦﴾ وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا ﴿٣٧﴾ الآية . وقال تعالى : ﴿٣٨﴾ فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ﴿٣٩﴾ وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ﴿٤٠﴾ . ولو كانت تلك الذرة محصنة محجبة في داخل صخرة صماء ، أو غائبة ذاهبة في أرجاء السماوات والأرض ، فإن الله يأتي بها ؛ لأنه لا تخفى عليه خافية ، ولا يعزب عنه مثقال ذرة في السماوات ولا في الأرض . ولهذا قال تعالى : ﴿٤١﴾ إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ﴿٤٢﴾ أي : لطيف العلم ، فلا تخفى عليه الأشياء وإن دقت ولطفت وتضاءلت . ﴿٤٣﴾ خَبِيرٌ ﴿٤٤﴾ بديب النمل في الليل البهيم ، وقد زعم بعضهم أن المراد بقوله : ﴿٤٥﴾ فَتَكُنْ فِي صَخْرَةٍ ﴿٤٦﴾ أنها صخرة تحت الأرضين السبع ، والظاهر - والله أعلم - أن المراد أن هذه الحبة في حقارتها لو كانت داخل صخرة ، فإن الله

سيديها ويظهرها بلطيف علمه . كما قال رسول الله ﷺ : « لَوْ أَنَّ أَحَدَكُمْ يَغْمَلُ فِي صَخْرَةٍ صَمَاءَ لَيْسَ لَهَا بَابٌ وَلَا كُؤُةٌ لَخَرَجَ عَمَلُهُ لِلنَّاسِ كَأَنَّهُمَا كَانَ » (١) .

ثم قال : ﴿ يَبْتَئِي أَقِيرَ الصَّلَاةِ ﴾ أي : بحدودها وفروضها وأوقاتها ﴿ وَأَمْرٌ بِالْمَعْرُوفِ وَأَنْهَ عَنِ الْمُنْكَرِ ﴾ أي : بحسب طاعتك وجهدك ﴿ وَأَصْبِرْ عَلَى مَا أَصَابَكَ ﴾ ، اعلم أن الأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر لا بد أن يناله من الناس أذى ، فأمره بالصبر . وقوله : ﴿ إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ ﴾ أي : إن الصبر على أذى الناس لمن عزم الأمور . وقوله : ﴿ وَلَا تُصَيِّرْ خَذَلَكَ لِلنَّاسِ ﴾ . يقول : لا تعرض بوجهك عن الناس إذا كلمتهم ، أو كلموك احتقاراً منك لهم وإستكباراً عليهم ، ولكن ألن جانبك ، وابسط وجهك إليهم ، كما جاء في الحديث : « وَلَوْ أَنَّ تَلَقَّى أَخَاكَ وَوَجْهَكَ إِلَيْهِ مُتَبَسِّطٌ ، وَإِيَّاكَ وَإِسْبَالُ الإِزَارِ فَإِنَّهَا مِنَ الْخِيَلَةِ ، وَالْخِيَلَةُ لَا يُجِبُّهَا اللَّهُ » (٢) . قال ابن عباس في قوله : ﴿ وَلَا تُصَيِّرْ خَذَلَكَ لِلنَّاسِ ﴾ لا تتكبر ، فتحقر عباد الله ، وتعرض عنهم بوجهك إذا كلموك ، وقال زيد بن أسلم : ﴿ وَلَا تُصَيِّرْ خَذَلَكَ لِلنَّاسِ ﴾ لا تتكلم وأنت معرض . وقال إبراهيم النخعي : يعني بذلك التشديق في الكلام ، والصواب القول الأول . قال ابن جرير : وأصل الصعر داء يأخذ الإبل في أعناقها أو رؤوسها ، حتى تلتفت أعناقها عن رؤوسها فشبه به الرجل المتكبر .

وقوله : ﴿ وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا ﴾ أي : خيلاء متكبراً جباراً عنيداً ، لا تفعل ذلك يفضلك الله ، ولهذا قال : ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴾ أي : مختال معجب في نفسه ﴿ فَخُورٍ ﴾ أي : على غيره ، وقال تعالى : ﴿ وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّكَ لَنْ تَخْرِقَ الْأَرْضَ وَلَنْ تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولًا ﴾ وقال ثابت ابن قيس بن شماس : ذكر الكبير عند رسول الله ﷺ ، فشدد فيه فقال : « إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ » فقال رجل من القوم : والله يا رسول الله ، إني لأغسل ثيابي ، فيعجبني بياضها ويعجبني شرك نعلي وعلاقة سوطي ، فقال : « لَيْسَ ذَلِكَ الْكِبَرُ إِنَّمَا الْكِبَرُ أَنْ تُسَفِّهُ الْحَقَّ وَتُغْمِطَ النَّاسَ » (٣) . وقوله : ﴿ وَأَقْصِدْ فِي مَشْيِكَ ﴾ أي : امش مقتصدًا مشيًا ليس بالبطيء المشبط ولا السريع المفرط ، بل عدلاً وسطاً بينين . وقوله : ﴿ وَأَغْضُضْ مِنْ صَوْتِكَ ﴾ أي : لا تبalg في الكلام ، ولا ترفع صوتك فيما لا فائدة فيه . ولهذا قال : ﴿ إِنَّ أَنْكَرَ الْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ ﴾ قال مجاهد وغير واحد : أي غاية من رفع صوته أنه يشبه بالحمير في علوه ورفعه ، ومع هذا هو يغيض إلى الله تعالى ، وهذا التشبيه في هذا بالحمير ، يقتضي تحريمه وذمه غاية الذم ؛ لأن رسول الله ﷺ قال : « لَيْسَ لَنَا مَثَلُ السَّوءِ الْعَائِدِ فِي هَيْبَتِهِ كَالْكَلْبِ يَبْقَى ثُمَّ يَعُودُ فِي قَيْبِهِ » (٤) . وعن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال : « إِذَا سَمِعْتُمْ صَيْحَاكَ الدِّيَكَةِ فَاسْأَلُوا اللَّهَ مِنْ فَضْلِهِ ، وَإِذَا سَمِعْتُمْ نَهْيَ الْحَمِيرِ فَتَعَوَّدُوا بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ ، فَإِنَّهَا رَأَتْ شَيْطَانًا » (٥) . وفي بعض الألفاظ : بالليل ، فالله أعلم . فهذه وصايا نافعة جداً

(١) أخرجه الإمام أحمد في مسنده (٢٨/٣) والبيهقي في مجمع الزوائد (٢٢٥/١٠) .

(٢) أخرجه الإمام أحمد في مسنده (٦٥/٤) .

(٣) أخرجه الإمام أحمد في مسنده (٤٨٢/٣) والحاكم في المستدرک (١٨٦/٤) والطبراني في الكبير (٦٠/٢) .

(٤) أخرجه مسلم في الهبات (١ ، ٢ ، ٧ ، ٨) والإمام أحمد في مسنده (٢١٧/١) .

(٥) أخرجه البخاري في بدء الخلق (٣٣٠٣) ومسلم في الذكر والدعاء (٨٢) وأبو داود في سننه (٥١٠٢) .

وهي من قصص القرآن العظيم عن لقمان الحكيم . وقد روي عنه من الحكم والمواعظ أشياء كثيرة ، فلنذكر منها نموذجاً ودستوراً إلى ذلك .

عن ابن عمر قال : أخبرنا رسول الله ﷺ قال : « إِنَّ لُقْمَانَ الْحَكِيمَ كَانَ يَقُولُ : إِنَّ اللَّهَ إِذَا اسْتَوْدَعَ شَيْئًا حَفِظَهُ » ^(١) . وعنه ﷺ قال : « قَالَ لُقْمَانُ الْحَكِيمُ لِابْنِهِ وَهُوَ يَعِظُهُ : يَا بُنَيَّ إِنِّي لَأَنتَ أَكْبَرُ وَإِنِّي لَأَخْشَى اللَّهَ يَوْمَ تَفُتَّلُ الْبُلْبُلُ مَذْمُومًا بِالنَّهَارِ » ^(٢) . وعن الثري بن يحيى قال : قال لقمان لابنه : يا بني إن الحكمة أجلس المساكين مجالس الملوك . وعن عون بن عبد الله قال : قال لقمان لابنه : يا بني إذا أتيت نادي قوم فارمهم بسهم الإسلام - يعني السلام - ثم اجلس في ناحيتهم ، فلا تنطق حتى تراهم قد نطقوا ، فإن أفاضوا في ذكر الله فأجل سهمك معهم ، وإن أفاضوا في غير ذلك فتحول عنهم إلى غيرهم .

فصل في الخمول والتواضع

وذلك متعلق بوصية لقمان عليه السلام لابنه ، عن أنس بن مالك قال سمعت رسول الله ﷺ يقول : « رُبَّ أَشْعَثَ ذِي طَعْمَيْنِ يُضْفَعُ عَنْ أَبْوَابِ النَّاسِ إِذَا أَقْسَمَ عَلَى اللَّهِ لَأَبْرَهُ » . وفي رواية : « مِنْهُمْ الْبِرَاءُ بَيْنَ مَالِكٍ » ^(٣) . وعن عمر رضي الله عنه : أنه دخل المسجد ، فإذا هو بمعاذ بن جبل يبكي عند قبر رسول الله ﷺ فقال له : ما يبكيك يا معاذ ؟ قال : حديث سمعته من رسول الله ﷺ : سمعته يقول : « إِنَّ الْبَيْسَرَ مِنَ الْبِرَاءِ شِرْكٌ وَإِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْأَتْقِيَاءَ الْأَخْفِيَاءَ الْأَثَرِيَاءَ الَّذِينَ إِذَا غَابُوا لَمْ يُفْتَقَدُوا ، وَإِذَا حَضَرُوا لَمْ يُعْرَفُوا ، قُلُوبُهُمْ مَصَابِيحُ الْهُدَى يُنْجُونَ مِنْ كُلِّ غَيْرَاءٍ مُظْلِمَةٍ » ^(٤) . وكان الخليل بن أحمد يقول : اللهم اجعلني عندك من أرفع خلقك ، واجعلني في نفسي من أوضع خلقك ، وعند الناس من أوسط خلقك .

باب ما جاء في الشهرة

عن أنس عن رسول الله ﷺ أنه قال : « حَسْبُ امْرِئٍ مِنَ الشَّرِّ إِلاَّ مَنْ غَصَمَ اللَّهُ أَنْ يُبَشِّرَ النَّاسَ إِلَيْهِ بِالأَصَابِعِ فِي دِينِهِ وَدُنْيَاهُ ، وَإِنَّ اللَّهَ لَا يَنْظُرُ إِلَى صُورِكُمْ ، وَلَكِنْ إِلَى قُلُوبِكُمْ وَأَعْمَالِكُمْ » ^(٥) . وروي عن الحسن مرسلاً نحوه ، فقيل للحسن : فإنه يشار إليك بالأصابع ، فقال : إنما المراد من يشار إليه في دينه بالبدعة وفي دنياه بالفسق . وعن علي رضي الله عنه قال : لا تبدأ لأن تشتهر ، ولا ترفع شخصك لتذكر ، وتعلم واكتم واصمت تسلم ، تسر الأبرار وتغيظ الفجار . وقال إبراهيم بن أدهم عليه السلام : ما صدق الله من أحب الشهرة . وقال أيوب : ما صدق الله عبد إلا سره أن لا يشعر بمكانه . وقال محمد بن العلاء : من أحب الله أحب أن لا يعرفه الناس . وقال سماك بن سلمة : إياك وكثرة الأخلاء . وقال أبان بن عثمان : إن أحببت أن يسلم إليك دينك ، فأقل من المعارف . كان أبو العالية

(١) أخرجه الإمام أحمد في مسنده (٨٧/٢) والسيوطي في الدر المنثور (١٦٢/٥) .

(٢) أخرجه الحاكم في المستدرک (٤١١/٢) السيوطي في الدر المنثور (١٦٢/٤) .

(٣) أخرجه نحوه الإمام أحمد في مسنده (١٤٥/٣) .

(٤) أخرجه الحاكم في المستدرک (٤/١) .

(٥) أخرجه نحوه الترمذي في السنن (٢٤٥٣) .

إذا جلس إليه أكثر من ثلاثة نهض وتركهم . وعن أبي رجاء قال : رأى طلحة قوماً يمشون معه ، فقال : ذباب طمع وفراش النار . وقال إبراهيم النخعي : لا تلبس من الثياب ما يشهر في الفقهاء ولا ما يزدريك السفهاء . وقال الثوري : كانوا يكرهون من الثياب الجياد التي يشتهر بها ، ويرفع الناس إليه فيها أبصارهم . والثياب الرديئة التي يحتقر فيها ويستذل دينه ، وقال الحسن عليه السلام : إن قوماً جعلوا الكبر في قلوبهم والتواضع في ثيابهم ، فصاحب الكساء بكسائه أعجب من صاحب المطرف بطرفه ما لهم تفاقدوا .

فصل في حسن الخلق

قال أنس رضي الله عنه ، كان رسول الله ﷺ من أحسن الناس خلقاً ^(١) . وابن عمر قيل : يا رسول الله أي المؤمنين أفضل ؟ قال : « أَحْسَنُهُمْ خُلُقًا » ^(٢) .

وقال ميمون بن مهران عن رسول الله ﷺ : « مَا مِنْ ذَنْبٍ أَكْبَرُ عِنْدَ اللَّهِ مِنْ سُوءِ الْخُلُقِ » ^(٣) . وعن أبي هريرة مرفوعاً « إِنَّكُمْ لَا تَسْعَوْنَ النَّاسَ بِأَمْوَالِكُمْ وَلَكِنْ يَسْعَهُمْ مِنْكُمْ بِسُوءِ وَجْهِهِمْ وَخُسْرِ خُلُقِهِ » ^(٤) وقال محمد بن سيرين : حسن الخلق عون على الدين .

فصل في ذم الكبر

قال ابن مسعود رفعه : « لَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ مَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ مِنْ كِبَرٍ ، وَلَا يَدْخُلُ النَّارَ مَنْ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ مِنْ إِيْمَانٍ » ^(٥) . وعن أنس قال : كان أبو بكر يخطبنا ، فيذكر بدء خلق الإنسان حتى إن أحدنا ليقدر نفسه يقول : خرج من مجرى البول مرتين . وقال الحسن : عجبا لابن آدم يغسل الخرق بيده في اليوم مرتين ثم يتكبر يعارض جبار السماوات .

فصل في الاختيال

عن ابن بريدة عن أبيه مرفوعاً : « مَنْ جَرَّ ثَوْبَهُ خَيْلَاءَ لَمْ يَنْظُرِ اللَّهُ إِلَيْهِ » ^(٦) وعن أبي هريرة مرفوعاً : « لَا يَنْظُرُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِلَى مَنْ جَرَّ إِزَارَهُ ، وَيَتَنَمَّا رَجُلٌ يَتَبَخَّضُ فِي بُؤْدِيهِ أَغْشَبَتْهُ نَفْسُهُ خَسَفَ اللَّهُ بِهِ الْأَرْضَ فَهُوَ يَتَجَلَجَلُ فِيهَا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ » ^(٧) .

﴿ أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَهِيرَةً وَبَاطِنَةً وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُّبِينٍ ۖ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَبِغُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا ۖ أَوَلَوْ كَانَ الشَّيْطَانُ يَدْعُوهُمْ إِلَىٰ عَذَابِ السَّعِيرِ ۝ ﴾

(١) أخرجه مسلم في الفضائل (٥٤) وأحمد في مسنده (٣٧٠/٣) والترمذي في سننه (٢٠١٥) .

(٢) ذكره المنذري في الترغيب والترهيب (٤٠٤/٣) . (٣) ذكره المنذري في الترغيب والترهيب (٤١٣/٣) .

(٤) أخرجه الحاكم في المستدرک (١٢٤/١) والسيوطي في الدر المنثور (٧٣/٢) .

(٥) أخرجه مسلم في الإيمان (١٤٧ ، ١٤٨ ، ١٤٩) .

(٦) له روايات كثيرة منها ما أخرجه البخاري في اللباس (٥٧٨٣) ومسلم في اللباس (٤٥) وأحمد في مسنده (٤٢/٢) .

(٧) أخرجه البخاري في (اللباس) (٥٧٨٨) .

يقول تعالى منبها خلقه على نعمه عليهم في الدنيا والآخرة ، بأنه سخر لهم ما في السماوات من نجوم يستضيئون بها في ليلهم ونهارهم ، وما يخلق فيها من سحب وأمطار وتلج وبرد ، وجعله إياها لهم سقفا محفوظا . وما خلق لهم في الأرض من قرار وأنهار وأشجار وزروع وثمار ، وأسبغ عليهم نعمه الظاهرة والباطنة من إرسال الرسل ، وإنزال الكتب ، وإزاحة الشبه والعلل . ثم مع هذا كله ما آمن الناس كلهم ، بل منهم من يجادل في الله ، أي في توحيدهِ وإرساله الرسل ومجادلته في ذلك بغير علم ولا مستند من حجة صحيحة ولا كتاب مأثور صحيح ؛ ولهذا قال تعالى : ﴿ وَمَنْ آتَيْنَا مِنْ بَدِلٍ فِي اللَّهِ يَغْيِرْ عَلَيْهِ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٌ مُبِينٌ ﴾ أي : مبین مضى ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ﴾ أي : لهؤلاء المجادلين في توحيد الله ﴿ أَتَعْبُدُونَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ ﴾ أي : على رسوله من الشرائع المطهرة ﴿ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا ﴾ أي : لم يكن لهم حجة إلا اتباع الآباء الأقدمين ، قال الله تعالى : ﴿ أَوَلَوْ كُنَّا آبَاءَكُمْ لَا يَقُولُ شَيْئًا وَلَا يَسْتَدِينُ ﴾ أي : فما ظنكم أيها المحتجون بصنيع آبائهم ، أنهم كانوا على ضلالة وأنتم خلف لهم فيما كانوا فيه ؛ ولهذا قال تعالى : ﴿ أَوَلَوْ كَانَ الشَّيْطَانُ يَدْعُوهُمْ إِلَى عَذَابِ السَّعِيرِ ﴾ .

﴿ وَمَنْ يُسْلِمْ وَجْهَهُ إِلَى اللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدْ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ وَإِلَى اللَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ ﴾ ﴿ وَمَنْ كَفَرَ فَلَا يَحْزَنُكَ كُفْرُهُ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ فَنُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴾ ﴿ ثُمَّ نُنَبِّئُهُمْ قَلِيلًا ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴾ .

يقول تعالى مخبرا عن أسلم وجهه لله ، أي أخلص له العمل وانقاد لأمره واتباع شرعه ، ولهذا قال : ﴿ وَهُوَ مُحْسِنٌ ﴾ أي : في عمله باتباع ما به أمر ، وترك ما عنه زجر ﴿ فَقَدْ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ ﴾ أي : فقد أخذ موثقا من الله متينا أنه لا يعذبه . ﴿ وَإِلَى اللَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ ﴾ ﴿ وَمَنْ كَفَرَ فَلَا يَحْزَنُكَ كُفْرُهُ ﴾ أي : لا تحزن عليهم يا محمد في كفرهم بالله ، وبما جئت به ، فإن قدر الله نافذ فيهم ، وإلى الله مرجعهم ، فننبئهم بما عملوا أي : فيجزئهم عليه ﴿ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴾ فلا تخفى عليه خافية . ثم قال تعالى : ﴿ ثُمَّ نُنَبِّئُهُمْ قَلِيلًا ﴾ أي : في الدنيا ﴿ ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ ﴾ أي : نلجئهم ﴿ إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴾ أي : فظيع صعب مشق على النفوس .

﴿ وَلَكِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ ﴿ اللَّهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ ﴾ .

يقول تعالى مخبرا عن هؤلاء المشركين به : إنهم يعرفون أن الله خالق السماوات والأرض وحده لا شريك له ، ومع هذا يعبدون معه شركاء يعترفون أنها خلق له وملك له ، ولهذا قال تعالى : ﴿ وَلَكِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ ﴾ أي : إذ قامت عليكم الحجة باعترافكم ﴿ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ . ثم قال تعالى : ﴿ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ أي : هو خلقه وملكه ﴿ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ ﴾ أي : الغني عما سواه وكل شيء فقير إليه ، الحميد في جميع ما خلق له الحمد في السماوات والأرض على ما خلق وشرع ، وهو المحمود في الأمور كلها .

﴿ وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلَةً وَالْيَحْرُ يَذْرَأُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أُنْحُرٍ مَا نَفِدَتْ كَلِمَتُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ ﴿ مَا خَلَقَكُمْ وَلَا يَحْيَاكُمْ وَلَا يَمُوتُكُمْ إِلَّا كَفْئَتٍ وَاحِدَةً إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ ﴾ .

يقول تعالى مخبراً عن عظمته وكبريائه وجلاله وأسمائه الحسنى وصفاته العلا وكلماته التامة التي لا يحيط بها أحد ولا اطلاع لبشر على كنهها وإحصائها : ﴿ وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلَةٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ ﴾ أي : ولو أن جميع أشجار الأرض جعلت أقلاماً وجعل البحر مداً وأمد سبعة أبحر معه ، فكتبت بها كلمات الله الدالة على عظمته وصفاته وجلاله لتكسرت الأقلام ونفذ ماء البحر ، ولو جاء أمثالها مداً . وإنما ذكرت السبعة على وجه المبالغة ، ولم يرد الحصر ولا أن ثم سبعة أبحر موجودة محيطة بالعالم ؛ لأنه لا حصر لآيات الله وكلماته . قال الحسن البصري : لو جعل شجر الأرض أقلاماً ، وجعل البحر مداً ، وقال الله : إن من أمري كذا ومن أمري كذا ، لنفذ ماء البحر وتكسرت الأقلام . وقال قتادة : قال المشركون : إنما هذا كلام يوشك أن ينفذ فقال الله تعالى : ﴿ وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلَةٌ ﴾ أي : لو كان شجر الأرض أقلاماً ومع البحر سبعة أبحر ما كان لتنفذ عجائب ربي وحكمته وخلقه وعلمه .

وقوله : ﴿ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ أي : عزيز قد عز كل شيء وقهره وغلبه ، فلا مانع لما أراد ولا مخالف ولا معقب لحكمه حكيم في خلقه وأمره وأقواله وأفعاله وشرعه وجميع شؤونه . وقوله تعالى : ﴿ مَا خَلَقَكُمْ وَلَا يَعْثُبُكُمْ إِلَّا كَفَّيْنِ وَجَدَ ﴾ أي : ما خلق جميع الناس ، وبعثهم يوم المعاد بالنسبة إلى قدرته إلا كنسبة خلق نفس واحدة ، الجميع هين عليه ﴿ إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴾ ، وقوله : ﴿ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ ﴾ أي : كما هو سميع لأقوالهم بصير بأفعالهم كسمعه وبصره بالنسبة إلى نفس واحدة كذلك قدرته عليهم كقدرته على نفس واحدة ، ولهذا قال تعالى : ﴿ مَا خَلَقَكُمْ وَلَا يَعْثُبُكُمْ إِلَّا كَفَّيْنِ وَجَدَ ﴾ الآية .

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُبْلِغُ أَلْفَ فِي النَّهَارِ وَيُؤَلِّجُ النَّهَارَ فِي أَلْفٍ وَسَحَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلَّ يَوْمٍ يَجْعَلُ لِكُلِّ أَجَلٍ مُسَمًّى وَأَنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴾ ذلك بأن الله هو الحق وأن ما يدعون من دونه الباطل وأن الله هو العلي الكبير . يخبر تعالى أنه ﴿ يُبْلِغُ أَلْفَ فِي النَّهَارِ ﴾ يعني : يأخذ منه في النهار ، فيطول ذاك ويقصر هذا ، وهذا يكون زمن الصيف ، يطول النهار إلى الغاية ، ثم يشرع في النقص فيطول الليل ويقصر النهار ، وهذا يكون في الشتاء .. ﴿ وَسَحَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلَّ يَوْمٍ يَجْعَلُ لِكُلِّ أَجَلٍ مُسَمًّى ﴾ قيل : إلى غاية محدودة . وقيل : إلى يوم القيامة . وكلا المعنيين صحيح ويستشهد للقول الأول بحديث أبي ذر رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « يَا أَبَا ذَرٍّ أَتَدْرِي أَتَيْنَ تَذْهَبُ هَذِهِ الشَّمْسُ ؟ » قلت : الله ورسوله أعلم . قال : « فَإِنَّهَا تَذْهَبُ فَتَسْجُدُ تَحْتَ الْعَرْشِ ثُمَّ تَسْتَأْذِنُ رَبَّهَا فَيُوشِكُ أَنْ يُقَالَ لَهَا ارْجِعِي مِنْ حَيْثُ جِئْتِ » ^(١) . وقال ابن عباس : الشمس بمنزلة الساقية تجري بالنهار في السماء في فللكها ، فإذا غربت جرت بالليل في فللكها تحت الأرض حتى تطلع من مشرقها قال : وكذلك القمر ، وقوله : ﴿ وَأَنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴾ ، كقوله : ﴿ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّكَّةِ وَالْأَرْضِ ﴾ ومعنى هذا أنه تعالى الخالق العالم بجميع الأشياء . وقوله تعالى : ﴿ ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ الْبَاطِلُ ﴾ أي : إنما يظهر لكم آياته لتستدلوا بها على أنه الحق ، وأن كل ما سواه باطل . فإنه الغني عما سواه

وكل شيء فقير إليه ؛ لأن كل ما في السماوات والأرض الجميع خلقه وعبيده لا يقدر أحد منهم على تحريك ذرة إلا بإذنه ، ولو اجتمع كل أهل الأرض على أن يخلقوا ذباباً لعجزوا عن ذلك . ولهذا قال تعالى : ﴿ ذَلِكَ يَأْنِ لِلَّهِ هُوَ الْغَنِيُّ وَأَنْ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ الْبَاطِلُ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ ﴾ أي : العلي الذي لا أعلى منه الكبير الذي هو أكبر من كل شيء ، فكل خاضع حقير بالنسبة إليه .

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ الْفُلْكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِنِعْمَتِ اللَّهِ لِيُرِيَكُمْ مِنْ آيَاتِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴾ وإذا غشيهم موجٌ كالظللٍ دعواُ اللهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الَّذِينَ فَلَمَّا بَجَدْتُهُمْ إِلَى الْبَرِّ فَيَتَّقِدْهُمْ مُقَصِّدٌ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا كُلُّ خَسَّارٍ كَفُورٍ .

يخبر تعالى أنه هو الذي سخر البحر لتجري فيه الفلك بأمره أي بلطفه وتسخيره ، فإنه لولا ما جعل في الماء من قوة يحمل بها السفن لما جرت . ولهذا قال : ﴿ لِيُرِيَكُمْ مِنْ آيَاتِهِ ﴾ أي : من قدرته ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴾ . أي صبار في الضراء شكور في الرخاء . ثم قال تعالى : ﴿ وَإِذَا غَشِيَهُمْ مَوَاجٌ كَالظُّلَلِ ﴾ أي : كالجبال والغمام . ﴿ دَعَوْا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الَّذِينَ ﴾ . كما قال تعالى : ﴿ وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ مَدَّ مِنْ دَعْوَانَا إِلَى آيَاتِهِ ﴾ . ثم قال تعالى : ﴿ فَلَمَّا بَجَدْتُهُمْ إِلَى الْبَرِّ فَيَتَّقِدْهُمْ مُقَصِّدٌ ﴾ قال مجاهد : أي كافر كأنه فسر المقتصد ها هنا بالجاحد . كما قال تعالى : ﴿ فَلَمَّا بَجَدْتُهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ ﴾ وقال ابن زيد : هو المتوسط في العمل ، وهذا الذي قاله ابن زيد هو المراد في قوله تعالى : ﴿ فَيَتَّقِدْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَيَتَّقِدْهُمْ مُقَصِّدٌ ﴾ الآية . فالمقتصد ها هنا هو المتوسط في العمل ، ويحتمل أن يكون مراداً هنا أيضاً ، ويكون من باب الإنكار على من شاهد تلك الأحوال والأمور العظام ، والآيات الباهرات في البحر . ثم بعدما أنعم الله عليه بالخلاص . كان ينبغي أن يقابل ذلك بالعمل التام والدؤوب في العبادة والمبادرة إلى الخيرات ، فمن اقتصد بعد ذلك كان مقصراً والحالة هذه والله أعلم . وقوله تعالى : ﴿ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا كُلُّ خَسَّارٍ كَفُورٍ ﴾ . فالخسار هو الغدار . قاله مجاهد والحسن وقتادة ، وهو الذي كلما عاهد نقض عهده . والخسر أتم الغدر وأبلغه . وقوله : ﴿ كَفُورٍ ﴾ أي جحود للنعم لا يشكرها بل يتناساها ولا يذكرها .

﴿ يَأْتِيهَا النَّاسُ آتِفًا رَبُّكُمْ وَأَخْشَوْا يَوْمًا لَا يَجْزِي وَالِدٌ عَنْ وَلَدِهِ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَارٍ عَنِ وَالِدِهِ شَيْئًا إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِاللَّهِ الْفُرُودُ ﴾ .

يقول تعالى منذراً للناس يوم المعاد ، وأمرهم بتقواه والخوف منه والخشية من يوم القيامة حيث ﴿ لَا يَجْزِي وَالِدٌ عَنْ وَلَدِهِ ﴾ أي : لو أراد أن يفدية بنفسه لما قبل منه . كذلك الولد لو أراد فداء والده بنفسه لم يقبل منه ، ثم عاد بالموعظة عليهم بقوله : ﴿ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا ﴾ أي : لا تلهينكم بالطمأنينة فيها على الدار الآخرة . ﴿ وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِاللَّهِ الْفُرُودُ ﴾ يعني الشيطان . فإنه يغر ابن آدم ويعدده ويمنيه وليس من ذلك شيء ، بل كان كما قال تعالى : ﴿ يَعِدُّهُمْ وَيَمْنِيهِمْ وَمَا يَعِدُّهُمْ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا ﴾ .

﴿ إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَآذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴾ .

هذه مفاتيح الغيب التي استأثر الله تعالى بعلمها ، فلا يعلمها أحد إلا بعد إعلامه تعالى بها ؛

وكذلك لا يعلم ما في الأرحام مما يريد أن يخلقه تعالى سواه ، ولكن إذا أمر بكونه ذكراً أو أنثى أو شقيّاً أو سعيداً علم الملائكة الموكلون بذلك ومن شاء الله من خلقه ، وكذا لا تدري نفس ماذا تكسب غداً في دنياها وأخرها ﴿ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ ﴾ في بلدها أو غيره من أي بلاد الله كان ، لا علم لأحد بذلك ، وهذه شبيهة بقوله تعالى : ﴿ وَعِنْدَهُ مَفَاتِيحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ ﴾ الآية . وقد وردت السنة بتسمية هذه الخمس مفاتيح الغيب .

عن ابن عمر قال : قال رسول الله ﷺ : « مَفَاتِيحُ الْغَيْبِ خَمْسٌ لَا يَعْلَمُهُنَّ إِلَّا اللَّهُ ، ﴾ ﴿ إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُرْسِلُ الْفَيْتَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْآرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴾ (١) .

وعن عبد الله بن سلمة قال : قال عبد الله : أوتي نبيكم ﷺ مفاتيح كل شيء غير خمس ﴿ إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُرْسِلُ الْفَيْتَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْآرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴾ (٢) .

وعن أبي هريرة ؓ أن رسول الله ﷺ كان يوماً بارزاً للناس إذ أتاه رجل يمشي فقال : يا رسول الله ، ما الإيمان ؟ قال : « الْإِيمَانُ أَنْ تُؤْمِنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَلِقَائِهِ ، وَتُؤْمِنَ بِالْبَعْثِ الْآخِرِ » . قال : يا رسول الله ، ما الإسلام ؟ قال : « الْإِسْلَامُ ، أَنْ تَعْبُدَ اللَّهَ وَلَا تُشْرِكَ بِهِ شَيْئاً وَتُقِيمَ الصَّلَاةَ ، وَتُؤْتِيَ الزَّكَاةَ الْمَفْرُوضَةَ وَتَصُومَ رَمَضَانَ » . قال : يا رسول الله ، ما الإحسان ؟ قال : « الْإِحْسَانُ أَنْ تَعْبُدَ اللَّهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ » . قال : يا رسول الله ، متى الساعة ؟ قال : « مَا الْمَشْهُوْلُ عَنْهَا بِأَعْلَمَ مِنَ السَّائِلِ وَلَكِنْ سَأَحْذَرُكَ عَنْ أَشْرَاطِهَا : إِذَا وَلَدَتِ الْأُمَّةُ رَبَّتَهَا فَذَلِكَ مِنْ أَشْرَاطِهَا ، وَإِذَا كَانَ الْحَفَاةُ الْعَرَاءُ رُؤُوسَ النَّاسِ ، فَذَلِكَ مِنْ أَشْرَاطِهَا فِي خَمْسٍ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا اللَّهُ ، ﴾ ﴿ إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُرْسِلُ الْفَيْتَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْآرْحَامِ ﴾ » . ثم انصرف الرجل فقال : « رُدُّوهُ عَلَيَّ » فأخذوا ليردوه ، فلم يروا شيئاً فقال : « هَذَا جَبْرِيلُ بَجَاءٍ لِيُعَلِّمَ النَّاسَ دِينَهُمْ » (٣) .

وعن ربعي بن حراش عن رجل من بني عامر أنه استأذن على النبي ﷺ فقال : أألج ؟ فقال النبي ﷺ لحادمه : « اخْرِجْ إِلَيْهِ فَإِنَّهُ لَا يُحْسِنُ الْاسْتِئْذَانَ فَقُلْ لَهُ : فَلْيَسِّرْ السَّلَامَ عَلَيْكُمْ أَدْخُلْ ؟ » قال : فسمعتة يقول ذلك فقلت : السلام عليكم أَدْخُلْ ؟ فأذن لي فدخلت فقلت : بم أتيتنا ؟ قال : « لَمْ آتِكُمْ إِلَّا بِخَيْرٍ ، أَتَيْتُكُمْ بِأَنْ تَعْبُدُوا اللَّهَ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ ، وَأَنْ تَدْعُوا اللَّاتَ وَالْعُزَّى ، وَأَنْ تُصَلُّوا بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ خَمْسَ صَلَوَاتٍ ؛ وَأَنْ تَصُومُوا مِنَ الشَّهْرِ شَهْرًا ، وَأَنْ تَحُجُّوا الْبَيْتَ ، وَأَنْ تَأْخُذُوا الزَّكَاةَ مِنْ مَالٍ أَغْنَيْتُكُمْ فَتَرُدُّوهَا عَلَى فُقَرَائِكُمْ » . فقال : فهل بقي من العلم شيء لا تعلمه ؟ قال : « قَدْ عَلَّمَنِي اللَّهُ خَيْرًا وَإِنْ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَا يَعْلَمُهُ إِلَّا اللَّهُ ﷻ : الْخَمْسُ : ﴾ ﴿ إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ

(١) أخرجه البخاري في (تفسير القرآن) (٤٧٧٨) وأحمد في مسنده (١٢٢/٢) .

(٢) أخرجه أحمد في مسنده (٨٥/٢) .

(٣) أخرجه البخاري في (الإيمان) (٤٧٧٧) ومسلم في (الإيمان) (٥) .

وَيَزِلُّ الْغَيْثَ وَيَمَلِّءُ مَا فِي الْأَرْحَامِ ﴿١﴾ . وقال مجاهد : جاء رجل من أهل البادية فقال : إن امرأتي حبلى ، فأخبرني ما تلد ؟ وبلادنا مجدبة ، فأخبرني متى ينزل الغيث ؟ وقد علمت متى ولدت ، فأخبرني متى أموت ؟ فأنزل الله ﷻ : ﴿ إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ ﴾ - إلى قوله - ﴿ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴾ قال مجاهد : وهي مفاتيح الغيب التي قال تعالى : ﴿ وَعِنْدَهُ مَفَاتِيحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ ﴾ وعن عائشة رضي الله عنها أنها قالت : من حدثك أنه يعلم ما في غد فقد كذب ثم قرأت : ﴿ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا ﴾ . وقوله تعالى : ﴿ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ ﴾ . قال قتادة : أشياء استأثر الله بهن فلم يطلع عليهن ملكًا مقربًا ولا نبيًا مرسلًا ﴿ إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ ﴾ ، فلا يدري أحد من الناس متى تقوم الساعة ، في أي سنة ، أو أي شهر أو ليل أو نهار . ﴿ وَيَزِلُّ الْغَيْثَ ﴾ فلا يعلم أحد متى ينزل الغيث ليلًا أو نهارًا . ﴿ وَيَمَلِّءُ مَا فِي الْأَرْحَامِ ﴾ . فلا يعلم أحد ما في الأرحام أذكر أم أنثى ، أحمر أو أسود ، وما هو . ﴿ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا ﴾ أخير أم شر ، ولا تدري يا ابن آدم متى تموت لعلك الميت غدا ، لعلك المصاب غدا ﴿ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ ﴾ أي : ليس أحد من الناس يدري أين مضجعه من الأرض ، أفي بحر أم بر أو سهل أو جبل . وقد جاء في الحديث « إِذَا أَرَادَ اللَّهُ قَبْضَ رُوحِ عَبْدٍ بِأَرْضٍ جَعَلَ لَهُ فِيهَا - أَوْ قَالَ يَهَا - حَاجَةً »^(٢)

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٣٦٨/٥) .

(٢) أخرجه الحاكم في المستدرک (٤٢/١) .

سورة السجدة

عن أبي هريرة قال : كان النبي ﷺ يقرأ في الفجر يوم الجمعة ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ ﴿تَنْزِيلُ﴾ السجدة و ﴿هَذَا آتَى عَلَى الْإِنْسَانِ﴾ (١) .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ تَنْزِيلُ الْكِتَابِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١﴾ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ بَلْ هُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّا أَتَتْهُمْ مِنْ نَذِيرٍ مِنْ قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴿٢﴾ .

قد تقدم الكلام على الحروف المقطعة في أول سورة البقرة بما أغنى عن إعادته ها هنا . وقوله : ﴿تَنْزِيلُ الْكِتَابِ لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ أي : لا شك فيه ولا مرية أنه منزل ﴿مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ ثم قال تعالى مخبراً عن المشركين : ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ﴾ أي : اختلقه من تلقاء نفسه . ﴿بَلْ هُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّا أَتَتْهُمْ مِنْ نَذِيرٍ مِنْ قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ﴾ أي يتبعون الحق .

﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ مَا لَكُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا شَفِيعٍ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ﴾ ﴿٣﴾ يُدِيرُ الْأَمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ ﴿٤﴾ ذَلِكَ عَلِيمٌ الْغُيُوبِ وَالشَّهَادَةُ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿٥﴾ .

يخبر تعالى أنه خالق للأشياء ، فخلق السماوات والأرض وما بينهما في ستة أيام ، ثم استوى على العرش ، وقد تقدم الكلام على ذلك . ﴿مَا لَكُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا شَفِيعٍ﴾ أي : بل هو المالك لأزمة الأمور ، القادر على كل شيء ، فلا ولي لخلقه سواه ، ولا شفيع إلا من بعد إذنه . ﴿أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ﴾ يعني . أيها العابدون غيره المتوكلون على من عداه تعالى ، وتقدس وتنزه أن يكون له نظير أو شريك ، وقوله تعالى : ﴿يُدِيرُ الْأَمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ﴾ أي : يتنزل أمره من أعلى السماوات إلى أقصى تخوم الأرض السابعة . كما قال تعالى : ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ يَنَالُهُنَّ بِزَكَاةٍ الْأَمْرِ يَنْهَنُ﴾ الآية . وترفع الأعمال إلى ديوانها فوق سماء الدنيا ، ومسافة ما بينها وبين الأرض مسيرة خمسمائة سنة ، وسمك السماء خمسمائة سنة . وقال مجاهد : النزول من الملك في مسيرة خمسمائة عام ، وصعوده في مسيرة خمسمائة عام . ولكنه يقطعها في طرفة عين . ولهذا قال تعالى : ﴿فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ﴾ ﴿٥﴾ ذَلِكَ عَلِيمٌ الْغُيُوبِ وَالشَّهَادَةُ﴾ أي : المدبر لهذه الأمور الذي هو شهيد على أعمال عباده ، يرفع إليه جليلها وحقيرها وصغيرها وكبيرها ، وهو عزيز في رحمته رحيم في عزته ، وهذا هو الكمال ، العزة مع الرحمة والرحمة مع العزة فهو رحيم بلا ذل . ﴿الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنْسَانِ مِنْ طِينٍ﴾ ﴿٦﴾ ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِنْ سُلَالَةٍ مِّنْ مَّاءٍ مَّهِينٍ ﴿٧﴾ ثُمَّ سَوَّاهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِنْ رُّوحِ رَبِّهِ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿٨﴾ .

يقول تعالى مخبراً أنه الذي أحسن خلق الأشياء وأتقنها وأحكمها . وقال زيد بن أسلم : ﴿الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ﴾ قال : أحسن خلق كل شيء ، كأنه جعله من المقدم والمؤخر . ثم لما ذكر تعالى

خلق السماوات والأرض ، شرع في ذكر خلق الإنسان ، فقال تعالى : ﴿ وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنْسَانِ مِنْ طِينٍ ﴾ يعني : خلق أبا البشر آدم من طين . ﴿ ثُمَّ جَعَلْنَا سَلَكًا مِنْ سُكَّرٍ مِنْ مَاءٍ مَهِينٍ ﴾ . أي : يتناسلون كذلك من نطفة تخرج من بين صلب الرجل وترائب المرأة ﴿ ثُمَّ سَوَّيْنَاهُ ﴾ يعني آدم لما خلقه من تراب خلقه سوياً مستقيماً ﴿ وَنَفَخْنَا فِيهِ مِنْ رُسُودٍ وَجَعَلْنَا لَكُمْ السَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ وَالْأَفْئِدَةَ ﴾ يعني العقول ﴿ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴾ أي : بهذه القوى التي رزقكموها الله ﷻ ، فالسعيد من استعملها في طاعة ربه ﷻ . ﴿ وَقَالُوا أَإِذَا ضَلَلْنَا فِي الْأَرْضِ أَإِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ بَلْ هُمْ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ كَافِرُونَ ❶ ﴾ قُلْ يَتَوَفَّنَا مَلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَٰكُمْ تُرْجَعُونَ .

يقول تعالى مخبراً عن المشركين في استبعادهم المعاد ، حيث قالوا : ﴿ إِذَا ضَلَلْنَا فِي الْأَرْضِ ﴾ أي : تفرقت أجسامنا وتفرقت في أجزاء الأرض وذهبت ﴿ أَإِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴾ أي : أننا لنعود بعد تلك الحال ؟ يستبعدون ذلك ، وهذا إنما هو بعيد بالنسبة إلى قدرتهم العاجزة لا بالنسبة إلى قدرة الذي بدأهم وخلقهم من العدم ، الذي إنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون . ولهذا قال تعالى : ﴿ بَلْ هُمْ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ كَافِرُونَ ﴾ . ثم قال تعالى : ﴿ قُلْ يَتَوَفَّنَا مَلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ ﴾ الظاهر من هذه الآية : أن ملك الموت شخص معين من الملائكة ، وقد سمي في بعض الآثار بعزرائيل وهو المشهور . قاله قتادة وغير واحد وله أعوان ، وورد في الحديث أن أعوانه يزرعون الأرواح من سائر الجسد حتى إذا بلغت الحلقوم تناولها ملك الموت ، قال مجاهد : حوت له الأرض ، فجعلت مثل الطست يتناول منها متى يشاء . وعن جعفر بن محمد ، قال : سمعت أبي يقول : نظر رسول الله ﷺ إلى ملك الموت عند رأس رجل من الأنصار فقال له النبي ﷺ : « يَا مَلَكُ الْمَوْتِ أَزِفَ بَصَاحِي فَإِنَّهُ مُؤْمِنٌ » فقال ملك الموت : يا محمد ، طب نفساً وقر عيناً ، فإني بكل مؤمن رفيق ، واعلم أن ما في الأرض بيت مدر ، ولا شعر في بر ولا بحر إلا وأنا أتصفحهم في كل يوم خمس مرات حتى إني أعرف بصغيرهم وكبيرهم منهم بأنفسهم ، والله يا محمد لو أنني أردت أن أقبض روح بعوضة ما قدرت على ذلك حتى يكون الله هو الأمر بقبضها ^(١) . قال جعفر : بلغني أنه إنما يتصفحهم عند مواقيت الصلاة ، فإذا حضرهم عند الموت ، فإن كان ممن يحافظ على الصلاة دنا منه الملك ودفع عنه الشيطان ، ولقنه الملك لا إله إلا الله محمد رسول الله في تلك الحال العظيمة . وقوله تعالى : ﴿ ثُمَّ إِلَٰكُمْ تُرْجَعُونَ ﴾ أي : يوم معادكم وقيامكم من قبوركم لجزائكم .

﴿ وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الْمُخْرَجُونَ نَاكِسُوا رُءُوسِهِمْ عِندَ رَبِّهِمْ رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَانْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ ❷ ﴾ وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدًى وَلَكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ ❸ فَذُوقُوا يَمَّا نَسِبْتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا إِنَّا نَسِينَكُمُ وَذُوقُوا عَذَابَ الْخُلْدِ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ .

يخبر تعالى عن حال المشركين يوم القيامة وقالهم حين عاينوا البعث ، وقاموا بين يدي الله ﷻ حقيرين ذليلين ناكسي رؤوسهم أي : من الحياء والخجل يقولون : ﴿ رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا ﴾ أي : نحن الآن نسمع قولك ونطيع أمرك كما قال تعالى : ﴿ أَسْمِعْ يَوْمَ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُوتَنَّا ﴾ . وهكذا هؤلاء يقولون :

(١) ذكره الهشبي في مجمع الزوائد (٣٢/٢) والسيوطي في الدر المنثور (١٧٣/٥) .

﴿ رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَارْجِعْنَا ﴾ أي : إلى دار الدنيا ﴿ تَعْمَلْ مَلِئًا مُّؤْمِنًا ﴾ أي : قد أبقنا وتحققنا فيها أن وعدك حق ولقائك حق ، وقد علم الرب تعالى منهم أنه لو أعادهم إلى دار الدنيا لكانوا كما كانوا فيها كفارًا ، يكذبون بأيات الله ويخالفون رسله . كما قال تعالى : ﴿ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى النَّارِ فَعَالُوا يُلَاقِيَنَّاهُمْ وَلَا يَخَافُوكُمْ لِآيَاتِنَا ﴾ الآية . وقال هاهنا : ﴿ وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدًى ﴾ . كما قال تعالى : ﴿ وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَن فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمَّ جِمْعًا ﴾ . ﴿ وَلَكِن حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴾ أي : من الصنفين فدارهم النار لا محيد لهم عنها ولا محيص لهم منها . نعوذ بالله وكلماته الثامة من ذلك . ﴿ فَذُوقُوا يَمَّا نَبِيئُهُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا ﴾ أي : يقال لأهل النار على سبيل التقرير والتوبيخ ذوقوا هذا العذاب بسبب تكذيبكم به واستبعادكم وقوعه وتناسيكم له إذ عاملتموه معاملة من هو ناس له ﴿ إِنَّا نَبِّئُكُمْ ﴾ أي : سنعاملكم معاملة الناس ؛ لأنه تعالى لا ينسي شيئًا ، ولا يضل عنه شيء . بل من باب المقابلة كما قال تعالى : ﴿ الْيَوْمَ نَسْكَرُ كَمَا نَبِئْتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا ﴾ . وقوله تعالى : ﴿ وَذُوقُوا عَذَابَ الْخُلْدِ يَمَّا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ أي : بسبب كفركم وتكذيبكم .

﴿ إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا الَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِهَا خَرُّوا سُجَّدًا وَسَبَّحُوا بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴾ ﴿ ١٥ ﴾ نَسْجَأُ جُنُودَهُم مِّنَ الْمَصَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴿ ١٦ ﴾ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿ ١٧ ﴾ .

يقول تعالى : ﴿ إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا ﴾ أي : إنما يصدق بها ﴿ الَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِهَا خَرُّوا سُجَّدًا ﴾ أي : استمعوا لها وأطاعوها قولًا وفعلاً . ﴿ وَسَبَّحُوا بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴾ أي : عن اتباعها والانقياد لها كما يفعله الجاهلة من الكفرة الفجرة . قال الله تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴾ . ثم قال تعالى : ﴿ نَسْجَأُ جُنُودَهُم مِّنَ الْمَصَاجِعِ ﴾ يعني بذلك قيام الليل ، وترك النوم والاضطجاع على الفرش الوطيئة ، قال مجاهد والحسن في قوله تعالى : ﴿ نَسْجَأُ جُنُودَهُم مِّنَ الْمَصَاجِعِ ﴾ يعني بذلك قيام الليل ، وعن أنس وعكرمة وقتادة : هو الصلاة بين العشاءين ، وعن أنس أيضًا : هو انتظار صلاة العتمة . وقال الضحاك : هو صلاة العشاء في جماعة وصلاة الغداة في جماعة . ﴿ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا ﴾ أي : خوفًا من وبال عقابه وطمعًا في جزيل ثوابه . ﴿ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴾ ، فيجمعون بين فعل القربات اللازمة والمتعدي ومقدم هؤلاء وسيدهم وفخرهم في الدنيا والآخرة رسول الله ﷺ .

وعن ابن مسعود عن النبي ﷺ قال : « عَجِبَ رَبُّنَا مِنْ رَجُلَيْنِ : رَجُلٍ نَارَ مِنْ وَطَائِهِ وَلِحَافِهِ مِنْ تَيْنٍ جِيهٍ وَأَهْلِهِ إِلَى صَلَاتِهِ رَغْبَةً فِيمَا عِنْدِي وَشَفَقَةً بِّمَا عِنْدِي ، وَرَجُلٍ غَزَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ تَعَالَى فَأَنهَزُمُوا فَعَلِمَ مَا عَلَيْهِ مِنَ الْفَرَارِ وَمَا لَهُ فِي الرُّجُوعِ فَرَجَعَ حَتَّى أَهْرَقَ دَمَهُ رَغْبَةً فِيمَا عِنْدِي وَشَفَقَةً بِّمَا عِنْدِي ، فَيَقُولُ اللَّهُ ﷻ لِلْمَلَائِكَةِ : انظُرُوا إِلَى عَبْدِي رَجَعَ رَغْبَةً فِيمَا عِنْدِي وَرَهْبَةً مِّمَّا عِنْدِي حَتَّى أَهْرَقَ دَمَهُ » (١) .

وعن معاذ بن جبل قال : كنت مع النبي ﷺ في سفر فأصبحت يومًا قريبًا منه ونحن نسير فقلت :

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٤١٦/١) والبيهقي في السنن (١٦٤/٩) والهيتمي في مجمع الزوائد (٢٥٥/٢) .

يا نبي الله أخبرني بعمل يدخلني الجنة ويباعدني من النار قال : « لَقَدْ سَأَلْتُ عَنْ عَظِيمٍ وَإِنَّهُ لَيَسِيرٌ عَلَى مَنْ يَشْرُهُ اللَّهُ عَلَيْهِ ، تَعْبُدُ اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا ، وَتُقِيمُ الصَّلَاةَ ، وَتُؤْتِي الزَّكَاةَ ، وَتَصُومُ رَمَضَانَ ، وَتَحُجُّ الْبَيْتَ » ثُمَّ قَالَ : « أَلَا أَدُلُّكَ عَلَى أَبْوَابِ الْخَيْرِ؟ الصَّوْمُ جَنَّةٌ ، وَالصَّدَقَةُ تُطْفِئُ الْخَطِيئَةَ ، وَصَّلَاةُ الرَّجُلِ فِي جَوْفِ اللَّيْلِ - ثُمَّ قَرَأَ - ﴿ نَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ ﴾ حَتَّى بَلَغَ ﴿ جَزَاءً يَمَآ كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ » ، ثُمَّ قَالَ : « أَلَا أَخْبِرُكَ بِرَأْسِ الْأَمْرِ وَعَمُودِهِ وَذُرْوَةِ سَنَامِهِ ؟ » فَقُلْتُ : بَلَى يَا رَسُولَ اللَّهِ فَقَالَ : « رَأْسُ الْأَمْرِ الْإِسْلَامُ ، وَعَمُودُهُ الصَّلَاةُ ، وَذُرْوَةُ سَنَامِهِ الْجِهَادُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ » ، ثُمَّ قَالَ : « أَلَا أَخْبِرُكَ بِمِلَاكِ ذَلِكَ كُلُّهُ ؟ » فَقُلْتُ : بَلَى يَا نَبِيَّ اللَّهِ ، فَأَخَذَ بِلِسَانِهِ ثُمَّ قَالَ : « كُفَّ عَنْكَ هَذَا » . فَقُلْتُ : يَا رَسُولَ اللَّهِ وَإِنَّا لَمُؤَاخِدُونَ بِمَا نَتَكَلَّمُ بِهِ ؟ فَقَالَ : « نِكَالَتُكَ أُمُّكَ يَا مُعَاذُ وَهَلْ يَكُفُّ النَّاسَ فِي النَّارِ عَلَى وَجْهِهِمْ - أَوْ قَالَ : عَلَى مَنَاحِيرِهِمْ - إِلَّا حَصَائِدُ أَلْسِنَتِهِمْ ؟ » ^(١) .

وعن معاذ أيضًا عن النبي ﷺ في قوله تعالى : ﴿ نَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ ﴾ قَالَ : « قِيَامُ الْعَبْدِ مِنَ اللَّيْلِ » ^(٢) . وعن معاذ بن جبل قَالَ : كُنْتُ مَعَ النَّبِيِّ ﷺ فِي غَزْوَةِ تَبُوكَ فَقَالَ : « إِنْ شِئْتُ نَبَاتُكَ بِأَبْوَابِ الْخَيْرِ : الصَّوْمُ جَنَّةٌ ، وَالصَّدَقَةُ تُطْفِئُ الْخَطِيئَةَ ، وَقِيَامُ الرَّجُلِ فِي جَوْفِ اللَّيْلِ » . ثُمَّ تَلَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : ﴿ نَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ ﴾ ^(٣) الْآيَةَ .

عن أبي هريرة ؓ قَالَ حَمَادٌ : أَحْسَبُهُ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ : « مَنْ يَدْخُلُ الْجَنَّةَ يَنْعَمُ لَا يَبْأَسُ لَا تُبْلَى ثِيَابُهُ ، وَلَا يَفْنَى شَبَابُهُ ، فِي الْجَنَّةِ مَا لَا عَيْنٌ رَأَتْ وَلَا أَذُنٌ سَمِعَتْ وَلَا خَطَرَ عَلَى قَلْبٍ بَشَرٍ » ^(٤) .

وعن سهل بن سعد الساعدي ؓ قَالَ : شَهِدْتُ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ مُجْلِسًا وَصَفَ فِيهِ الْجَنَّةَ حَتَّى انْتَهَى . ثُمَّ قَالَ فِي آخِرِ حَدِيثِهِ : « فِيهَا مَا لَا عَيْنٌ رَأَتْ وَلَا أَذُنٌ سَمِعَتْ وَلَا خَطَرَ عَلَى قَلْبٍ بَشَرٍ » . ثُمَّ قَرَأَ هَذِهِ الْآيَةَ : ﴿ نَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ ﴾ - إِلَى قَوْلِهِ - ﴿ يَعْمَلُونَ ﴾ ^(٥) .

وعن الشعبي يخبر عن المغيرة بن شعبة قَالَ : سَمِعْتُهُ عَلَى الْمَنْبَرِ يَرْفَعُهُ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ قَالَ : سَأَلَ مُوسَى الطَّلَحَةَ رَبَّهُ ﷺ ، مَا أَدْنَى أَهْلِ الْجَنَّةِ مَنْزِلَةً ؟ قَالَ : هُوَ رَجُلٌ يَجِيءُ بَعْدَمَا أَدْخَلَ أَهْلَ الْجَنَّةِ الْجَنَّةَ فَيَقَالُ لَهُ : ادْخُلِ الْجَنَّةَ ، فَيَقُولُ : أَيُّ رَبِّ كَيْفَ وَقَدْ أَخَذَ النَّاسَ مَنَازِلَهُمْ وَأَخَذُوا أَخْدَانَهُمْ ؟ فَيَقَالُ لَهُ : أَتَرْضَى أَنْ يَكُونَ لَكَ مِثْلُ مَلِكٍ مِنْ مُلُوكِ الدُّنْيَا ؟ فَيَقُولُ : رَضِيتُ رَبِّ فَيَقُولُ لَكَ ذَلِكَ وَمِثْلُهُ وَمِثْلُهُ فَقَالَ فِي الْخَامِاسَةِ : رَضِيتُ رَبِّي فَيَقُولُ : هَذَا لَكَ وَعِشْرَةُ أَمْثَالِهِ مَعَهُ ، وَلَكَ مَا اشْتَهَتْ نَفْسُكَ وَلَذَتْ عَيْنُكَ فَيَقُولُ : رَضِيتُ رَبَّ قَالَ : رَبِّ فَأَعْلَاهُمْ مَنْزِلَةً ؟ قَالَ : أُولَئِكَ الَّذِينَ أَرَدْتُ ، غَرَسَتْ كَرَامَتُهُمْ يَدَيَّ وَخَتَمَتْ عَلَيْهَا فَلَمْ تَرَ عَيْنٌ وَلَمْ تَسْمَعْ أُذُنٌ ، وَلَمْ يَخْطُرْ عَلَى قَلْبٍ بَشَرٌ . قَالَ : وَمَصْدَاقُهُ مِنْ كِتَابِ

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٢٣١/٥) والمنذري في الترغيب والترهيب (٥١٧/١) .

(٢) أخرجه أحمد في مسنده (٢٣٢/٥) والهيثمي في مجمع الزوائد (٩٠/٧) .

(٣) أخرجه مسلم في الصيام (١٦١) وأحمد في مسنده (٢٥٧/٢) .

(٤) أخرجه مسلم في (الجنة) (٢١) أحمد في مسنده (٣٦٩/٢) .

(٥) أخرجه أحمد في مسنده (٣٣٤/٥) .

اللَّهُ ﷻ : ﴿ فَلَا تَقْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُمْ مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ ﴾ الآية (١) . وعن ابن عباس عن النبي ﷺ عن الروح الأمين قال : « يُؤْتَى بِحَسَنَاتِ الْعَبْدِ وَسَيِّئَاتِهِ يُنْقَضُ بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ فَإِنْ بَقِيََتْ حَسَنَةٌ وَاحِدَةٌ وَسِعَ اللَّهُ لَهُ فِي الْجَنَّةِ » قال : فدخلت على بزداد فحدث بمثل هذا الحديث . قال : فقلت فأين ذهبت الحسنة قال : ﴿ أُولَئِكَ الَّذِينَ نَقَبَلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَتَتَجَاوَزُ عَنْ سَيِّئَاتِهِمْ ﴾ الآية . قلت : قوله تعالى : ﴿ فَلَا تَقْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُمْ مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ ﴾ قال العبد يعمل سرًّا أسره إلى الله لم يعلم به الناس ، فأسر الله له يوم القيامة قرّة أعين (٢) .

﴿ أَفَمَن كَانَ مُؤْمِنًا كَمَن كَانَ فَاسِقًا لَّا يَسْتَوُونَ ﴾ أَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ جَنَّاتُ الْمَأْوَى نُزُلًا يَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿ وَأَمَّا الَّذِينَ فَسَقُوا فَمَأْوِيَهُمُ النَّارُ كُلَّمَا أَرَادُوا أَن يَخْرُجُوا مِنْهَا أُعِيدُوا فِيهَا وَقِيلَ لَهُمْ ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّتِي كُنتُمْ بِهِ تَكْذِبُونَ ﴾ وَلَنَذِيقَنَّكَ الْعَذَابَ الْأَذَنَّى دُونَ الْعَذَابِ الْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿ وَمَن أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَا إِنَّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ مُنْفِقُونَ ﴾ .

يخبر تعالى عن عدله وكرمه أنه لا يساوي في حكمه يوم القيامة من كان مؤمناً بآياته متبياً لرسله بمن كان فاسقاً أي خارجاً عن طاعة ربه مكذباً لرسل الله إليه . كما قال تعالى : ﴿ أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَن نَّجْلَهُنَّ كَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً نَّجْهَهُمْ وَمَنَاسِكُهُمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴾ . ولهذا قال تعالى ها هنا : ﴿ أَفَمَن كَانَ مُؤْمِنًا كَمَن كَانَ فَاسِقًا لَّا يَسْتَوُونَ ﴾ . أي : عند الله يوم القيامة ، وقد ذكر عطاء بن يسار والسدي وغيرهما أنها نزلت في علي بن أبي طالب وعقبة بن أبي معيط ، ولهذا فصل حكمهم فقال : ﴿ أَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ﴾ أي : صدقت قلوبهم بآيات الله ، وعملوا بمقتضاها وهي : الصالحات ﴿ فَلَهُمْ جَنَّاتُ الْمَأْوَى نُزُلًا ﴾ أي : التي فيها المساكن والدور والغرف العالية ﴿ نُزُلًا ﴾ أي : ضيافة وكرامة ﴿ يَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ وَأَمَّا الَّذِينَ فَسَقُوا ﴾ أي : خرجوا عن الطاعة ﴿ فَمَأْوِيَهُمُ النَّارُ كُلَّمَا أَرَادُوا أَن يَخْرُجُوا مِنْهَا أُعِيدُوا فِيهَا ﴾ كقولهم : ﴿ كُلَّمَا أَرَادُوا أَن يَخْرُجُوا مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا فِيهَا ﴾ الآية . قال الفضيل بن عياض : والله إن الأيدي لموثقة ، وإن الأرجل لمقيدة ، وإن اللهب ليرفعهم ، والملائكة تقمعهم . ﴿ وَقِيلَ لَهُمْ ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّتِي كُنتُمْ بِهِ تَكْذِبُونَ ﴾ أي : يقال لهم ذلك تقريباً وتوبيخاً . وقوله تعالى : ﴿ وَلَنَذِيقَنَّكَ الْعَذَابَ الْأَذَنَّى دُونَ الْعَذَابِ الْأَكْبَرِ ﴾ . قال ابن عباس : يعني بالعذاب الأدنى مصائب الدنيا وأسقامها وآفاتهما وما يحل بأهلها مما يتلى الله به من عبادته ليتوبوا إليه ، وقال في رواية عنه : يعني به إقامة الحدود عليهم . وقال البراء بن عازب : يعني به عذاب القبر ، وعن عبد الله ﴿ وَلَنَذِيقَنَّكَ الْعَذَابَ الْأَذَنَّى دُونَ الْعَذَابِ الْأَكْبَرِ ﴾ قال : سنون أصابهم . وقال أبي بن كعب في هذه الآية : ﴿ وَلَنَذِيقَنَّكَ الْعَذَابَ الْأَذَنَّى دُونَ الْعَذَابِ الْأَكْبَرِ ﴾ . قال : القمر والدخان قد مضيا والبطشة واللزام (٣) . وقال عبد الله بن مسعود في رواية عنه : العذاب الأدنى ما أصابهم من القتل والسبي يوم بدر ، قال السدي وغيره : لم يبق بيت بمكة إلا دخله الحزن على قتيل لهم أو أسير ، فأصيبوا أو غرموا ومنهم من جمع له الأمران . وقوله تعالى : ﴿ وَمَن أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ ثُمَّ أَعْرَضَ ﴾

(٢) ذكره ابن جرير الطبري في تفسيره (١٢٧/٢١) .

(١) أخرجه مسلم في (الإيمان) (٣١٢) .

(٣) أخرجه الإمام أحمد في مسنده (١٢٨/٥) .

عَنْهَا ﴿ أَي : لا أظلم ممن ذكره الله بآياته وبينها له ووضحها ، ثم بعد ذلك تركها وجعلها وأعرض عنها وتناساها كأنه لا يعرفها . قال قتادة : إياكم والإعراض عن ذكر الله ، فإن من أعرض عن ذكره فقد اغتر أكبر الغرة ، وأعوز أشد العوز وعظم من أعظم الذنوب . ولهذا قال تعالى متهددا لمن فعل ذلك : ﴿ إِنَّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ مُنْفِقُونَ ﴾ أي : سأنتقم ممن فعل ذلك أشد الانتقام .

﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَلَا تَكُنْ فِي مِرْيَةٍ مِنْ لِقَائِهِ وَجَعَلْنَاهُ هُدًى لِبَنِي إِسْرَءِيلَ ﴿٢٣﴾ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَيْمَةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ ﴿٢٤﴾ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴾ .

يقول تعالى مخبراً عن عبده ورسوله موسى ﷺ أنه آتاه الكتاب ؛ وهو التوراة . وقوله تعالى ﴿ فَلَا تَكُنْ فِي مِرْيَةٍ مِنْ لِقَائِهِ ﴾ قال قتادة : يعني به ليلة الإسراء . وعن ابن عباس قال : قال رسول الله ﷺ : « أَرَيْتَ لَيْلَةَ أُسْرِي بِي مُوسَى بْنِ عِمْرَانَ رَجُلًا آدَمَ طَوَالًا جَعْدًا كَأَنَّهُ مِنْ رِجَالِ شَوْعَةَ ، وَرَأَيْتُ عِيسَى رَجُلًا مَرْبُوعَ الْخَلْقِ إِلَى الْحُمْرَةِ وَالْبَيَاضِ سَبَطَ الرَّأْسِ ، وَرَأَيْتُ مَالِكًا خَازِنَ النَّارِ وَالذُّجَالَ » ^(١) ؟ في آيات أراه الله إياه ﴿ فَلَا تَكُنْ فِي مِرْيَةٍ مِنْ لِقَائِهِ ﴾ أنه قد رأى موسى ولقي موسى ليلة أسري به .

وعن أبي العالية عن ابن عباس عن النبي ﷺ في قوله تعالى : ﴿ وَجَعَلْنَاهُ هُدًى لِبَنِي إِسْرَءِيلَ ﴾ قال : جعل موسى هدى لبني إسرائيل . وفي قوله : ﴿ فَلَا تَكُنْ فِي مِرْيَةٍ مِنْ لِقَائِهِ ﴾ قال : من لقاء موسى ربه ﷻ . وقال تعالى : ﴿ وَجَعَلْنَاهُ ﴾ أي : الكتاب الذي آتيناه ﴿ هُدًى لِبَنِي إِسْرَءِيلَ ﴾ كما قال تعالى في سورة الإسراء : ﴿ وَمَا آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَجَعَلْنَاهُ هُدًى لِبَنِي إِسْرَءِيلَ أَلَّا يَتَّبِعُوا مِنْ دُونِ رَحْمَةٍ ﴾ . وقوله تعالى : ﴿ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَيْمَةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ ﴾ أي : لما كانوا صابرين على أوامر الله وترك زواجه وتصديق رسله كان منهم أئمة يهدون إلى الحق بأمر الله ، ويدعون إلى الخير ، ويأمرون بالمعروف ، وينهون عن المنكر ، ثم لما بدلوا وحرفوا وأولوا سلبوا ذلك المقام وصارت قلوبهم قاسية يحرفون الكلم عن مواضعه ، فلا عمل صالحاً ولا اعتقاداً صحيحاً . ولهذا قال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا بَنِي إِسْرَءِيلَ الْكِتَابَ ﴾ قال قتادة وسفيان : لما صبروا عن الدنيا ، وكذلك قال الحسن بن صالح قال سفيان : هكذا كان هؤلاء ، ولا ينبغي للرجل أن يكون إماماً يقتدى به حتى يتحامي عن الدنيا ، قال وكيع قال سفيان : لا بد للدين من العلم ، كما لا بد للجسد من الخبز . وسئل سفيان عن قول علي ﷺ : الصبر من الإيمان بمنزلة الرأس من الجسد ، ألم تسمع قوله : ﴿ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَيْمَةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا ﴾ . قال : لما أخذوا برأس الأمر صاروا رؤوساً . قال بعض العلماء : بالصبر واليقين تنال الإمامة في الدين . ولهذا قال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا بَنِي إِسْرَءِيلَ الْكِتَابَ وَكُلَّمَا نَزَّلْنَا مِنْهُنَّ آيَةً وَنَزَّلْنَاهُمْ عَلَى الْطَّبِئِ وَقَضَيْنَاهُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿٢٥﴾ وَمَا آتَيْنَاهُمْ يَنْتَبِهُنَّ مِنَ الْأَمْرِ ﴾ الآية . كما قال هنا : ﴿ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴾ أي : من الاعتقادات والأعمال .

﴿ أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسْجِدِهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ أَفَلَا يَسْمَعُونَ ﴾
 ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَسُوقُ الْمَاءَ إِلَى الْأَرْضِ الْجُرُزِ فَنُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا نَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعُمُهُمْ وَأَنْفُسُهُمْ أَفَلَا يُبْصِرُونَ ﴾ .

يقول تعالى : أولم يهد لهؤلاء المكذبين بالرسول ما أهلك الله قبلهم من الأمم الماضية بتكذيبهم الرسل ومخالفتهم إياهم فيما جاؤوهم به من قويم السبل ، فلم يبق منهم باقية ولا عين ولا أثر ﴿ هَلْ يَخْشَى مِنْهُمْ رَبُّ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ وَكْرًا ﴾ . ولهذا قال : ﴿ يَمْشُونَ فِي مَسْجِدِهِمْ ﴾ أي : وهؤلاء المكذبين يمشون في مساكن أولئك المكذبين ، فلا يرون فيها أحدًا ممن كان يسكنها ويعمرها ذهبوا منها ﴿ كَانَ لَمْ يَقْنُوا فِيهَا ﴾ كما قال : ﴿ فَبَلَكَ يَبُوءُهُمْ خَاوِيَةً يَمَا ظَلَمُوا ﴾ وقال : ﴿ فَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ فِيهَا خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا وَيَبْعَثُ لَهَا نُعْمَةً وَقَدْ عَصَى تَعَالَى عَنْهَا فَلَا تَكْفُرُ ﴾ . ولهذا قال ها هنا : ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ ﴾ أي : إن في ذهاب أولئك القوم ودمارهم وما حل بهم بسبب تكذيبهم الرسل ، ونجاة من آمن بهم لآيات وعبرًا ومواعظ ودلائل متناظرة . ﴿ أَفَلَا يَسْمَعُونَ ﴾ أي : أخبار من تقدم كيف كان أمرهم . وقوله تعالى : ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَسُوقُ الْمَاءَ إِلَى الْأَرْضِ الْجُرُزِ ﴾ يبين تعالى لطفه بخلقه وإحسانه إليهم في إرساله الماء ، إما من السماء ، أو من السبح وهو ما تحمله الأنهار ويتحدر من الجبال إلى الأراضي المحتاجة إليه في أوقاته . ولهذا قال تعالى : ﴿ إِلَى الْأَرْضِ الْجُرُزِ ﴾ وهي : التي لا نبات فيها . كما قال تعالى : ﴿ وَإِنَّا لَجَاعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرًّا ﴾ أي : ييسا لا تنبت شيئًا ، وليس المراد من قوله : ﴿ إِلَى الْأَرْضِ الْجُرُزِ ﴾ أرض مصر فقط ، بل هي بعض المقصود . وإن مثل بها كثير من المفسرين ، فليست هي المقصودة وحدها ، ولكنها مرادة قطعًا من هذه الآية ، فإنها في نفسها أرض رخوة غليظة تحتاج من الماء ما لو نزل عليها مطرًا لتهدمت أبنيتها ، فيسوق الله تعالى إليها النيل بما يتحمله من الزيادة الحاصلة من أمطار بلاد الحبشة وفيه طين أحمر ، فيغشى أرض مصر ، وهي أرض سبخة مرملة محتاجة إلى ذلك الماء وذلك الطين أيضًا لينبت الزرع فيه ، فيستغلون كل سنة على ماء جديد ممطر في غير بلادهم ، وطين جديد من غير أرضهم فسبحان الحكيم الكريم المنان الحمود أبدًا . ولهذا قال تعالى : ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَسُوقُ الْمَاءَ إِلَى الْأَرْضِ الْجُرُزِ فَنُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا نَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعُمُهُمْ وَأَنْفُسُهُمْ أَفَلَا يُبْصِرُونَ ﴾ كما قال تعالى : ﴿ فَيَنْظُرُ الْإِنْسَانُ إِلَى طَلْحِهِ ﴾ ﴿ إِنَّا سَبَّحْنَا اللَّهَ مَبًا ﴾ الآية . ولهذا قال ها هنا : ﴿ أَفَلَا يُبْصِرُونَ ﴾ . وقال ابن عباس في قوله : ﴿ إِلَى الْأَرْضِ الْجُرُزِ ﴾ قال : هي التي لا تمطر إلا مطرًا لا يغني عنها شيئًا إلا ما يأتيها من السيول ، وعن ابن عباس ومجاهد : هي أرض باليمن ، وقال الحسن عليه السلام : هي قرى فيما بين اليمن والشام . وقال عكرمة وابن زيد : الأرض الجزر التي لا نبات فيها وهي مغبرة ، قلت : وهذا كقوله تعالى : ﴿ وَآيَةٌ لَهُمُ الْأَرْضُ الَّتِي تَبْعَثُ فِيهَا الْحَبَّ وَالنَّارَ ﴾ الآية . ﴿ وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْفَتْحُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ قُلْ يَوْمَ الْفَتْحِ لَا يَنْفَعُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِسْمُهُمْ وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ ﴿ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَانظُرْ إِلَيْهِمْ مُنْتَظِرُونَ ﴾ .

يقول تعالى مخبرًا عن استعجال الكفار ، ووقوع بأس الله بهم ، وحلول غضبه ونقمته عليهم استبعادًا وتكذيبًا وعنادًا : ﴿ وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْفَتْحُ ﴾ أي : متى تنصر علينا يا محمد ؟ كما تزعم أن لك وقتًا تدال علينا وينتقم لك منا فمتى يكون هذا ؟ ما نراك أنت وأصحابك إلا مختلفين خائفين

ذليلين . قال الله تعالى : ﴿ قَدْ يَوْمَ الْفَتْحِ ﴾ أي : إذا حل بكم بأس الله ، وسخطه وغضبه في الدنيا وفي الآخرة ﴿ لَا يَنْفَعُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِيمَانُهُمْ وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ ﴾ كما قال تعالى : ﴿ فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَرِحُوا بِمَا عِنْدَهُمْ مِنَ الْعِلْمِ ﴾ الآيتين . ومن زعم أن المراد من هذا الفتح فتح مكة ، فقد أبعد النجعة ، وأخطأ فأفحش . فإن يوم الفتح قد قبل رسول الله ﷺ إسلام الطلقاء ، وقد كانوا قريباً من ألفين ، ولو كان المراد فتح مكة لما قبل إسلامهم لقوله تعالى : ﴿ قَدْ يَوْمَ الْفَتْحِ لَا يَنْفَعُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِيمَانُهُمْ وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ ﴾ وإنما المراد الفتح الذي هو القضاء والفصل كقوله : ﴿ فَافْتَحَ بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ فَتْحًا ﴾ الآية . وكقوله : ﴿ قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ ﴾ الآية . وقال تعالى : ﴿ وَكَانُوا مِنْ قَبْلُ يَسْتَفِئُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ . وقال تعالى : ﴿ إِنْ تَسْتَفِئُوا فَقَدْ جَاءَكُمْ الْفَتْحُ ﴾ ، ثم قال تعالى : ﴿ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَانْتَظِرْ إِنَّهُمْ مُنْتَضِرُونَ ﴾ . أي : أعرض عن هؤلاء المشركين ، وبلغ ما أنزل إليك من ربك ، وانتظر فإن الله سينجز لك ما وعدك وسينصرك على من خالفك ، إنه لا يخلف الميعاد . وقوله : ﴿ إِنَّهُمْ مُنْتَضِرُونَ ﴾ أي : أنت منتظر وهم منتظرون ويطربصون بكم الدوائر ﴿ أَمْ يَقُولُونَ شَاعَرٌ نَتَرَكُنَّ بِيَدِ رَبِّبِ الْمُنُونِ ﴾ وسترى أنت عاقبة صبرك عليهم ، وسيجدون غيب ما ينتظرونه فيك وفي أصحابك من وييل عقاب الله لهم ، وحلول عذابه بهم . وحسبنا الله ونعم الوكيل .

سورة الأحزاب

عن زر قال : قال لي أبي بن كعب : كأين تقرأ سورة الأحزاب ؟ أو كأين تعددها ؟ قال : قلت : ثلاثاً وسبعين آية ، فقال : قط ، لقد رأيتها وأنها لتعادل سورة البقرة ، ولقد قرأنا فيها : الشيخ والشيخة إذا زنيا فارجموهما البتة نكالا من الله والله عزيز حكيم ^(١) .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ يَأَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّ اللَّهَ لَا يُطِيعُ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ۝ وَاتَّبِعْ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ۝ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَكِيلًا ۝ ﴾ .

هذا تنبيه بالأعلى على الأدنى ، فإنه تعالى إذا كان يأمر عبده ورسوله بهذا فلا ياتمر من دونه بذلك بطريق الأولى والأخرى . وقد قال طلق بن حبيب : التقوى أن تعمل بطاعة الله على نور من الله ترجو ثواب الله ، وأن تترك معصية الله على نور من الله مخافة عذاب الله . قوله تعالى : ﴿ وَلَا تُطِيعُ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ ﴾ أي : لا تسمع منهم ولا تستشرهم ﴿ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴾ أي : فهو أحق أن تتبع أوامره وتطيعه ، فإنه عليم بعواقب الأمور ، حكيم في أقواله وأفعاله ، ولهذا قال تعالى : ﴿ وَاتَّبِعْ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ ﴾ أي : من قرآن وسنة ﴿ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴾ . أي : فلا تخفى عليه خافية ﴿ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ ﴾ أي : في جميع أمورك وأحوالك ﴿ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَكِيلًا ﴾ أي : وكفى به وكيلاً لمن توكل عليه وأتاب إليه .

﴿ مَا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِنْ قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ ۚ وَمَا جَعَلَ أَزْوَاجَكُمْ الَّتِي تُظَاهِرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهَاتِكُمْ وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَاءَكُمْ أَبْنَاءَكُمْ ۚ ذَٰلِكُمْ قَوْلُكُمْ بِأَفْوَاهِكُمْ وَاللَّهُ يَقُولُ الْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ ۝ ادْعُوهُمْ لِأَبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ فَإِنْ لَمْ تَعْلَمُوا آبَاءَهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ وَمَوَالِيكُمْ وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَا أَخْطَأْتُمْ بِهِ ۚ وَلَكِنْ مَا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ ۚ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ۝ ﴾ .

يقول تعالى موطئاً قبل المقصود المعنوي أمراً معروفاً حسياً ، وهو أنه كما لا يكون للشخص الواحد قلبان في جوفه ، ولا تصوير زوجته التي يظاهر منها بقوله : أنت علي كظهر أمي أمّا له ، كذلك لا يصير الدعي ولداً للرجل إذا تبناه فدعاه ابناً له فقال : ﴿ مَا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِنْ قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ ۚ وَمَا جَعَلَ أَزْوَاجَكُمْ الَّتِي تُظَاهِرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهَاتِكُمْ ﴾ وقوله تعالى : ﴿ وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَاءَكُمْ أَبْنَاءَكُمْ ﴾ هذا هو المقصود بالنفي ، فإنها نزلت في شأن زيد بن حارثة رضي الله عنه مولى النبي صلى الله عليه وسلم ، كان النبي صلى الله عليه وسلم قد تبناه قبل النبوة ، فكان يقال : له زيد بن محمد ، فأراد الله تعالى أن يقطع هذا الإلحاق وهذه النسبة بقوله تعالى : ﴿ وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَاءَكُمْ أَبْنَاءَكُمْ ﴾ كما قال تعالى في أثناء السورة : ﴿ مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِنْ رِجَالِكُمْ وَلَكِنْ رَسُولُ اللَّهِ وَخَاتَمُ النَّبِيِّينَ ۚ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا ﴾ . وقال ها هنا : ﴿ ذَٰلِكُمْ قَوْلُكُمْ بِأَفْوَاهِكُمْ ﴾ يعني : تبنيكم لهم قول لا يقتضي أن يكون ابناً حقيقياً ، فإنه مخلوق من صلب رجل آخر . فما يمكن أن يكون له أبوان ، كما لا يمكن أن يكون للبشر الواحد قلبان . ﴿ وَاللَّهُ يَقُولُ الْحَقَّ ۚ ﴾

وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ . قال سعيد بن جبیر : ﴿ يَقُولُ الْحَقُّ ﴾ أي : العدل ، وقال قتادة : ﴿ وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ ﴾ أي : الصراط المستقيم ، وقد ذكر غير واحد أن هذه الآية نزلت في رجل من قريش ، كان يقال له : ذو القليين ، وأنه كان يزعم أن له قليين كل منهما بعقل وافر ، فأنزل الله تعالى هذه الآية ردًا عليه . هكذا روى العوفي عن ابن عباس ، وعن قابوس بن أبي ظبيان قال : إن أباه حدثه قال : قلت لابن عباس : أرأيت قول الله تعالى : ﴿ مَا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِي جَوْفَيْهِ ﴾ ما عني بذلك ؟ قال : قام رسول الله ﷺ يومًا يصلي فخطر خطرة فقال المنافقون الذين يصلون معه : ألا ترون له قليين ؛ قلبًا معكم وقلبًا معهم ، فأنزل الله تعالى : ﴿ مَا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِي جَوْفَيْهِ ﴾ ^(١) . وعن معمر الزهري في قوله : ﴿ مَا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِي جَوْفَيْهِ ﴾ قال : بلغنا أن ذلك كان في زيد بن حارثة ضرب له مثل : يقول ليس ابن رجل آخر ابنك .

وقوله ﷺ : ﴿ ادْعُوهُمْ لِأَبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ ﴾ هذا أمر ناسخ لما كان في ابتداء الإسلام من جواز ادعاء الأبناء الأجانب ، وهم الأديعاء ، فأمر تبارك وتعالى برد نسبهم إلى آبائهم في الحقيقة ، وأن هذا هو العدل والقسط والبر .

وعن عبد الله بن عمر قال : إن زيد بن حارثة ﷺ مولى رسول الله ﷺ ما كنا ندعوه إلا زيد بن محمد حتى نزل القرآن : ﴿ ادْعُوهُمْ لِأَبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ ﴾ ^(٢) . وقد كانوا يعاملونهم معاملة الأبناء من كل وجه في الخلوة بالمحارم وغير ذلك . ولهذا قالت سهلة بنت سهيل امرأة أبي حذيفة ؓ : يا رسول الله كنا ندعو سالمًا ابنًا ، وإن الله قد أنزل ما أنزل ، وإنه كان يدخل علي ، وإنني أجد في نفس أبي حذيفة من ذلك شيئًا ، فقال ﷺ : « أَرْضِعِيهِ تَحْرِمِي عَلَيْهِ » ^(٣) ولهذا لما نسخ هذا الحكم أباح تبارك وتعالى زوجة الدعي ، وتزوج رسول الله ﷺ بزينب بنت جحش ، مطلقة زيد بن حارثة ﷺ ، وقال ﷺ : ﴿ لَيْكُنْ لَا يَكُونُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَرْوَاحِ أَدْعِيائِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَرًا ﴾ . وقال تبارك وتعالى في آية التحريم : ﴿ وَحَلَائِلُ أَبْنَائِكُمُ الَّذِينَ مِنْ أَصْلَابِكُمْ ﴾ احترازًا عن زوجة الدعي ، فإنه ليس من الصلب ، فأما الابن من الرضاعة فمنزول منزلة ابن الصلب شرعًا بقوله ﷺ في الصحيحين : « حَرِّمُوا مِنَ الرِّضَاعَةِ مَنْ يَخْرُجُ مِنَ النَّسَبِ » ^(٤) . فأما دعوة الغير ابنًا على سبيل التكريم والتجيب فليس مما نهى عنه في هذه الآية بدليل ما رواه ابن عباس ؓ قال : قدمنا على رسول الله ﷺ أغيلمة بني عبد المطلب على جمرات لنا من جمع ، فجعل يلطخ أنفسنا ويقول : « أَبْنَيْ لَا تَزْمُوا الْجَمْرَةَ حَتَّى تَطْلُعَ الشَّمْسُ » ^(٥) . قال أبو عبيدة وغيره : أَبْنَيْ تصغير ابني وهذا ظاهر الدلالة . فإن هذا كان في حجة الوداع سنة عشر .

وقوله : ﴿ ادْعُوهُمْ لِأَبَائِهِمْ ﴾ في شأن زيد بن حارثة ﷺ ، وقد قتل في يوم مؤتة سنة ثمان .

(١) أخرجه الإمام أحمد في مسنده (٢٦٧/١) والترمذي في سننه (٣١٩٩) .

(٢) أخرجه البخاري في تفسير القرآن (٤٧٨٢) ومسلم في فضائل الصحابة (٦٢) والترمذي في سننه (٣٢٠٩) .

(٣) أخرجه مسلم في الرضاع (٢٧ ، ٢٨) والإمام أحمد في مسنده (٢٠١/٦) .

(٤) أخرجه البخاري في النكاح (٥١١١) ومسلم في الرضاع (٥) والإمام أحمد في مسنده (٧٢/٦) .

(٥) أخرجه الإمام أحمد في مسنده (٣٤٣/١) وابن ماجه في سننه (٣٠٢٥) .

وأيضاً عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال : قال لي رسول الله ﷺ : « يَا بُنَيَّ » ^(١) ، وقوله ﷺ : ﴿ فَإِنْ لَمْ تَعْلَمُوا آبَاءَهُمْ فَلَا تُخَوِّنُكُمْ فِي الَّذِينَ وَمَوْلَاكُمْ ﴾ أمر تعالى برد أنساب الأدعياء إلى آبائهم إن عرفوا ، فإن لم يعرفوا فهم إخوانهم في الدين ومواليهم ، أي عوضاً عما فاتهم من النسب ؛ ولهذا قال رسول الله ﷺ يوم خرج من مكة عام عمرة القضاء ، وتبعته ابنة حمزة رضي الله عنه تنادي : يا عم ، يا عم ، فأخذها علي رضي الله عنه وقال لفاطمة رضي الله عنها : دونك ابنة عمك ، فاحتلمها فاختصم فيها علي وزيد وجعفر رضي الله عنه في أيهم يكفلها فكل أدلى بحجة . فقال علي رضي الله عنه : أنا أحق بها وهي ابنة عمي ، وقال زيد : ابنة أخي ، وقال جعفر بن أبي طالب : ابنة عمي وخالتي تحتي ، يعني أسماء بنت عميس ، فقضى بها النبي ﷺ لخالتيها ، وقال : « الْحَالَةُ بِمِثْلَةِ الْأُمِّ » وقال لعلي رضي الله عنه : « أَنْتَ مِنِّي وَأَنَا مِنْكَ » ، وقال لجعفر رضي الله عنه : « أَشْبَهْتَ خَلْقِي وَخُلُقِي » . وقال لزيد رضي الله عنه : « أَنْتَ أَخُونَا وَمَوْلَانَا » ^(٢) . ففي هذا الحديث أحكام كثيرة من أحسنها أنه ﷺ ، حكم بالحق وأرضى كلًّا من المتنازعين وقال لزيد رضي الله عنه : « أَنْتَ أَخُونَا وَمَوْلَانَا » كما قال تعالى : ﴿ فَلَا تُخَوِّنُكُمْ فِي الَّذِينَ وَمَوْلَاكُمْ ﴾ . وقد جاء في الحديث « لَيْسَ مِنْ رَجُلٍ ادَّعَى إِلَى غَيْرِ أَبِيهِ وَهُوَ يُعَلِّمُهُ إِلَّا كَفَرَ » ^(٣) . ولهذا قال تعالى : ﴿ ادْعُوهُمْ لِآبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ فَإِنْ لَمْ تَعْلَمُوا آبَاءَهُمْ فَلَا تُخَوِّنُكُمْ فِي الَّذِينَ وَمَوْلَاكُمْ ﴾ .

ثم قال تعالى : ﴿ وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَا أَخْطَأْتُمْ بِهِ ﴾ . إذا نسبتهم بعضهم إلى غير أبيه في الحقيقة خطأ بعد الاجتهاد واستفراغ الوسع . فإن الله تعالى قد وضع الحرج في الخطأ ورفع إثمهم ، كما أرشد إليه في قوله تبارك وتعالى أمراً عباده أن يقولوا : ﴿ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا ﴾ . وثبت أن رسول الله ﷺ قال : « قَالَ اللَّهُ ﷻ : قَدْ فَعَلْتُ » ^(٤) وعن عمرو بن العاص رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « إِذَا اجْتَهَدَ الْحَاكِمُ فَأَصَابَ فَلَهُ أَجْرَانِ ، وَإِنْ اجْتَهَدَ فَأَخْطَأَ فَلَهُ أَجْرٌ » ^(٥) وفي الحديث الآخر : « إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى رَفَعَ عَنْ أُمَّتِي : الْخَطَأَ وَالنَّسْيَانَ وَالْأَمْرَ الَّذِي يُكْرَهُونَ عَلَيْهِ » ^(٦) . وقال تبارك وتعالى ها هنا : ﴿ وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَا أَخْطَأْتُمْ بِهِ ، وَلَكِنْ مَا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ﴾ أي : وإنما الإثم على من تعدد الباطل ، وفي القرآن المنسوخ : فإنه كفر بكم أن ترغبوا عن آبائكم . وفي الحديث : « ثَلَاثٌ فِي النَّاسِ كُفْرٌ : الطُّغْيَانُ فِي النَّسَبِ ، وَالنِّيَاحَةُ عَلَى الْمَيِّتِ ، وَالِاسْتِشْقَاءُ بِالنُّجُومِ » ^(٧) .

﴿ الَّذِينَ أُولَى بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَأَزْوَاجُهُمْ وَأُولُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ إِلَّا أَنْ تَفْعَلُوا إِلَيْكُمْ أُولَى أَنْ تَكُونُوا مَعْرُوفًا . كَانَتْ ذَلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُورًا ﴾ .

قد علم الله تعالى شفقة رسوله ﷺ على أمته ونصحه لهم ، فجعله أولى بهم من أنفسهم ،

(١) أخرجه مسلم في الآداب (٣١) .

(٢) أخرجه البخاري في الصلح (٢٦٩٩) والإمام أحمد في مسنده (٩٨/١ ، ١٠٨ ، ١١٥) والترمذي في سننه (٣٧٦٥ ، ٣٧٦٦) .

(٣) أخرجه البخاري في المناقب (٣٥٠٨) ومسلم في الإيمان (١١٢) والإمام أحمد في مسنده (١٦٦/٥) .

(٤) أخرجه مسلم في الإيمان (٢٠٠) .

(٥) أخرجه البخاري في الاعتصام (٧٣٥٢) ومسلم في الأفضية (١٥) .

(٦) أخرجه ابن ماجه في سننه (١٦) والبيهقي في السنن (٣٥٦/٧) والحاكم في المستدرک (١٩٨/٢) .

(٧) أخرجه الإمام أحمد في مسنده (٣٤٢/٥) .

وحكمه فيهم كان مقدماً على اختيارهم لأنفسهم ، كما قال تعالى : ﴿ فَلَا وَرَيْكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا سَلِيمًا ﴾ . وفي الصحيح : « وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى أَكُونَ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِنْ نَفْسِهِ وَمَالِهِ وَوَلَدِهِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ » ^(١) . وفي الصحيح أيضاً : أن عمر رضي الله عنه قال : يا رسول الله والله لأنت أحب إلي من كل شيء إلا من نفسي ، فقال صلى الله عليه وسلم : « لَا يَا عُمَرُ حَتَّى أَكُونَ أَحَبَّ إِلَيْكَ مِنْ نَفْسِكَ » فقال : يا رسول الله والله لأنت أحب إلي من كل شيء حتى من نفسي ، فقال صلى الله عليه وسلم : « الْآنَ يَا عُمَرُ » ^(٢) . ولهذا قال تعالى في هذه الآية : ﴿ أَلَيْسَ أَوْلَىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ ﴾ . وعن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « مَا مِنْ مُؤْمِنٍ إِلَّا وَأَنَا أَوْلَى النَّاسِ بِهِ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ، أَفَرَوْوْا إِنْ شِئْتُمْ ﴾ أَلَيْسَ أَوْلَىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ ﴾ فَأَيُّمَا مُؤْمِنٍ تَرَكَ مَا لَا فَلَئِنَّهُ عَصَبَتْهُ مِنْ كَانُوا ، وَإِنْ تَرَكَ دِينًا أَوْ ضَيَاعًا فَلْيَأْتِنِي فَأَنَا مَوْلَاهُ » ^(٣) ؟ .

وقوله تعالى : ﴿ وَأَرْوَجُهُمْ لِنَفْسِهِمْ ﴾ أي : في الحرمة والاحترام ، والتوقير والإكرام والإعظام ، ولكن لا تجوز الخلوة بهن ولا ينتشر التحريم إلى بناتهن وأخواتهن بالإجماع ، وإن سمي بعض العلماء بناتهن أخوات المؤمنين . كما هو منصوص الشافعي رضي الله عنه في المختصر ، وهو من باب إطلاق العبارة لا إثبات الحكم ، وهل يقال لمعاوية وأمثاله خال المؤمنين ؟ فيه قولان للعلماء رضي الله عنهم ونص الشافعي رضي الله عنه على أنه لا يقال ذلك ، وهل لهن أمهات المؤمنات ، وهل يقال له صلى الله عليه وسلم : أبو المؤمنين ، فيدخل النساء في جمع المذكر السالم تغليظاً ؟ فيه قولان ، صح عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت : لا يقال ذلك ، وهذا أصح الوجهين في مذهب الشافعي رضي الله عنه . وقد روي عن أبي بن كعب وابن عباس رضي الله عنهما قرآ (النبي أولى بالمؤمنين من أنفسهم وأزواجه أمهاتهم وهو أب لهم) . وروي نحو هذا عن معاوية ومجاهد وعكرمة والحسن ، وهو أحد الوجهين في مذهب الشافعي رضي الله عنه . واستأنسوا عليه بالحديث الذي رواه أبو هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إِنَّمَا أَنَا لَكُمْ بِمَنْزِلَةِ الْوَالِدِ ، أَعْلَمُكُمْ ، فَإِذَا أَتَى أَحَدُكُمْ الْغَائِطُ فَلَا يَسْتَقْبِلُ الْقِبْلَةَ وَلَا يَسْتَدْبِرُهَا وَلَا يَسْتَطْبِ يَمِينَهُ ، وَكَانَ يَأْمُرُ بِثَلَاثَةِ أَحْجَارٍ وَيَنْهَى عَنِ الرُّوثِ وَالرِّمَةِ » ^(٤) .

وقوله تعالى : ﴿ وَأَوَّلُوا الْأَرْحَامَ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ ﴾ أي : في حكم الله صلى الله عليه وسلم من المؤمنين رضي الله عنهم والْمُهَاجِرِينَ ﴾ أي : القرابات أولى بالتوارث من المهاجرين والأنصار ، وهذه ناسخة لما كان قبلها من التوارث بالحلف والمواخاة التي كانت بينهم . كما قال ابن عباس وغيره : كان المهاجري يرث الأنصاري دون قراباته وذوي رحمه للأخوة التي آخى بينهما رسول الله صلى الله عليه وسلم . وقد ورد عن الزبير بن العوام رضي الله عنه قال : أنزل الله تعالى فينا خاصة معشر قريش والأنصار : ﴿ وَأَوَّلُوا الْأَرْحَامَ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ ﴾ وذلك أنا معشر قريش لما قدمنا المدينة قدمنا ، ولا أموال لنا ، فوجدنا الأنصار نعم

(١) أخرجه البخاري في الإيمان (٨) ومسلم في الإيمان (٦٩) .

(٢) ذكره ابن الجوزي في زاد المسير ٣٥٣/٦ .

(٣) أخرجه البخاري في تفسير القرآن (٤٧٨١) والإمام أحمد في مسنده (٣٣٤/٢) .

(٤) أخرجه أبو داود في سننه (٨) .

الإخوان فواخيئناهم ووارثناهم فأخى أبو بكر عليه السلام خارجة بن زيد ، وأخى عمر عليه السلام فلاناً ، وأخى عثمان عليه السلام رجلاً من بني زريق ابن سعد الزرقى ، ويقول بعض الناس غيره ، قال الزبير عليه السلام : وواخيت أنا كعب بن مالك فجنته فابتعلته ، فوجدت السلاح قد ثقله فيما يرى ، فوالله يا بني لو مات يومئذ عن الدنيا ما ورثه غيري . حتى أنزل الله تعالى هذه الآية فينا معشر قريش والأنصار خاصة فرجعنا إلى موارثنا . وقوله تعالى : ﴿ إِنْ أَنْ تَفْعَلُوا إِلَّا أُولَئِكَ مَقْرُوفًا ﴾ أي : ذهب الميراث وبقي النصر والبر والصلة والإحسان والوصية . وقوله تعالى : ﴿ كَانَتْ ذَلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُورًا ﴾ أي : هذا الحكم ، وهو أن أولي الأرحام بعضهم أولى ببعض ، حكم من الله مقدر مكتوب في الكتاب الأول الذي لا يبدل ولا يغير . قاله مجاهد وغير واحد ، وإن كان تعالى قد شرع خلافه في وقت ، لما له في ذلك من الحكمة البالغة وهو يعلم أنه سينسخه إلى ما هو جار في قدره الأزلي وقضائه القدري الشرعي ، والله أعلم .

﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَقَهُمْ وَمِنْكَ مِنْ نُوْحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰ ابْنِ مَرْيَمَ وَأَخَذْنَا مِنْهُمْ مِيثَقًا غَلِيظًا ۖ ﴾ لَيْسَتِ الْأَعْدَىٰ لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا أَلِيمًا ۖ .

يقول تعالى مخبراً عن أولي العزم الخمسة ، وبقية الأنبياء أنه أخذ عليهم العهد والميثاق في إقامة دين الله تعالى ، وإبلاغ رسالته والتعاون والتناصر والإنفاق كما قال تعالى : ﴿ وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْنَاكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنْصُرُنَّهُ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِي قَالُوا أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ ﴾ . فهذا العهد والميثاق أخذ عليهم بعد إرسالهم وكذلك هذا ، ونص من بينهم على هؤلاء الخمسة وهم أولو العزم . وهو من باب عطف الخاص على العام ، وقد صرح بذكرهم أيضاً في هذه الآية وفي قوله تعالى : ﴿ شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰ أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ ﴾ . فذكر الطرفين والوسط الفاتح والخاتم ومن بينهما على الترتيب ، فهذه هي الوصية التي أخذ عليهم الميثاق بها كما قال تعالى : ﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَقَهُمْ وَمِنْكَ مِنْ نُوْحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰ ابْنِ مَرْيَمَ ﴾ فبدأ في هذه الآية بالخاتم لشرفه صلوات الله عليه ثم رتبهم بحسب وجودهم صلوات الله عليهم . وقال ابن عباس : الميثاق الغليظ العهد .

وقوله تعالى : ﴿ لَيْسَتِ الْأَعْدَىٰ لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا أَلِيمًا ﴾ أي : من أهمهم ﴿ عَذَابًا أَلِيمًا ﴾ أي : موجعاً ، فنحن نشهد أن الرسل قد بلغوا رسالات ربهم ونصحوا الأمم ، وأفصحوا لهم عن الحق المبين الواضح الجلي الذي لا لبس فيه ولا شك ولا امتراء ، وإن كذبهم من كذبهم من الجهالة والمعاندين والمارقين والقاسطين ، فما جاءت به الرسل هو الحق ، ومن خالفهم فهو على الضلال . كما يقول أهل الجنة : ﴿ لَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْحَقِّ ﴾ . ﴿ يَتَأْتِيَ الَّذِينَ آمَنُوا أَذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ۖ ﴾ إِذْ جَاءَكُمْ مِنْ فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونًا ۖ .

يقول تعالى مخبراً عن نعمته وفضله وإحسانه إلى عباده المؤمنين في صرفه أعداءهم ، وهزمه إياهم عام تألبوا عليهم وتحزبوا وذلك عام الخندق ، وذلك في شوال سنة خمس من الهجرة على الصحيح المشهور ، وقال موسى بن عقبة وغيره : كان في سنة أربع وكان سبب قدوم الأحزاب : أن نفرًا من أشراف يهود بني النضير الذين كانوا قد أجلاهم رسول الله ﷺ من المدينة إلى خيبر ، ومنهم سلام ابن أبي الحقيق وسلام بن مشكم وكنانة بن الربيع خرجوا إلى مكة ، فاجتمعوا بأشراف قريش ، وألبوهم على حرب النبي ﷺ ، ووعدهم من أنفسهم النصر والإعانة فأجابوهم إلى ذلك ، ثم خرجوا إلى غطفان ، فدعاهم فاستجابوا لهم أيضًا ، وخرجت قريش في أحابيشها ومن تابعها وقائدهم أبو سفيان صخر بن حرب ، وعلى غطفان عيينة بن حصن بن بدر ، والجميع قريب من عشرة آلاف ، فلما سمع رسول الله ﷺ بمسيرهم أمر المسلمين بحفر الخندق حول المدينة مما يلي الشرق ، وذلك بإشارة سلمان الفارسي رضي الله عنه ، فعمل المسلمون فيه واجتهدوا ونقل معهم رسول الله ﷺ التراب وحفر ، وكان في حفره ذلك آيات بينات ودلائل واضحات . وجاء المشركون فنزلوا شرقي المدينة قريًا من أحد ، ونزلت طائفة منهم في أعالي أرض المدينة ، كما قال الله تعالى : ﴿ إِذْ جَاءَكُمْ مِنْ فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ ﴾ . وخرج رسول الله ﷺ ومن معه من المسلمين نحو ثلاثة آلاف وقيل : سبعمائة ، فأسندوا ظهورهم إلى سلع ووجوههم إلى نحو العدو ، والخندق حفير ليس فيه ماء بينهم وبينهم يحجب الخيالة والرجالة أن تصل إليهم ، وجعل النساء والذراري في أطام المدينة ، وكانت بنو قريظة وهم طائفة من اليهود لهم حصن شرقي المدينة ، ولهم عهد من النبي ﷺ وذمة وهم قريب من ثمانمائة مقاتل ، فذهب إليهم حبي ابن أخطب النضري فلم يزل بهم حتى نقضوا العهد ومالؤا الأحزاب على رسول الله ﷺ فعظم الخطب واشتد الأمر وضاق الحال ، ومكثوا محاصرين للنبي ﷺ وأصحابه قريًا من شهر إلا أنهم لا يصلون إليهم ، ولم يقع بينهم قتال ، إلا أن عمرو بن عبد ود العامري وكان من الفرسان الشجعان المشهورين في الجاهلية ركب ومعه فوارس فاقتحموا الخندق ، وخلصوا إلى ناحية المسلمين ، فندب رسول الله ﷺ خيل المسلمين إليه فيقال : إنه لم يبرز إليه أحد ، فأمر عليًا رضي الله عنه فخرج إليه ، فتجاولا ساعة ثم قتله علي رضي الله عنه ، فكان علامة على النصر .

ثم أرسل الله ﷻ على الأحزاب ريحاً شديدة الهبوب قوية حتى لم يبق لهم خيمة ولا شيء ، ولا توقد لهم نار ولا يقر لهم قرار حتى ارتحلوا خائبين خاسرين . كما قال الله ﷻ : ﴿ يَتَابَعُ الَّذِينَ ءَامَنُوا أَذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُودًا ﴾ قال مجاهد : وهي الصبا ، ويؤيده الحديث الآخر : « نُصِرْتُ بِالصَّبَا وَأَغْلِبْتُ عَادَ بِالْذُّبُورِ » ^(١) . وعن عكرمة قال : قالت الجنوب للشمال ليلة الأحزاب : انطلقني ننصر رسول الله ﷺ فقالت الشمال : إن الحرة لا تسري بالليل قال : فكانت الريح التي أرسلت عليهم الصبا . وعن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال : أرسلني خالي عثمان بن مظعون رضي الله عنه ليلة الخندق في برد شديد وريح إلى المدينة فقال : اثنا بطعام ولحاف قال : فاستأذنت رسول الله ﷺ فأذن لي وقال : « مَنْ أَتَيْتَ مِنْ أَصْحَابِي فَمَرْهُمُ يَزِجُفُوا » . قال : فذهبت

(١) أخرجه البخاري في المغازي (٤١٠٥) ومسلم في صلاة الإستسقاء (١٧) والإمام أحمد في مسنده (٢٢٨/١) .

والريح تسفي كل شيء ، فجعلت لا ألقى أحداً إلا أمرته بالرجوع إلى النبي ﷺ قال : فما يلوي أحد منهم عنقه ، قال : وكان معي ترس لي ، فكانت الريح تضربه علي ، وكان فيه حديد قال : فضربته الريح حتى وقع بعض ذلك الحديد على كفي ، فأبعدها إلى الأرض ^(١) .

وقوله : ﴿ وَجُودًا لَمْ تَرَوْهَا ﴾ هم الملائكة زلزلتهم وألقت في قلوبهم الرعب والخوف . فكان رئيس كل قبيلة يقول : يا بني فلان إلي ، فيجتمعون إليه فيقول : النجاء ، النجاء ، لما ألقى الله ﷻ في قلوبهم من الرعب .

وقال محمد بن كعب القرظي : قال فتى من أهل الكوفة لحذيفة بن اليمان ﷺ : يا أبا عبد الله رأيت رسول الله ﷺ وصحبتموه ؟ قال : نعم يا ابن أخي قال : وكيف كنتم تصنعون ؟ قال : والله لقد كنا نجهد ، قال الفتى : والله لو أدركناه ما تركناه يمشي على الأرض ، ولحملناه على أعناقنا . قال : قال حذيفة ﷺ : يا ابن أخي والله لو رأيتنا مع رسول الله ﷺ بالخندق وصلى رسول الله ﷺ هويًا من الليل ثم التفت فقال : « مَنْ رَجُلٌ يَقُومُ فَيَنْظُرُ لَنَا مَا فَعَلَ الْقَوْمُ ؟ - يشترط له النبي ﷺ أن يرجع - أَدْخَلَهُ اللَّهُ الْجَنَّةَ » . قال : فما قام رجل ، ثم صلى رسول الله ﷺ هويًا من الليل ثم التفت إلينا فقال مثله ، فما قام منا رجل ، ثم صلى رسول الله ﷺ هويًا من الليل ثم التفت إلينا فقال : « مَنْ يَقُومُ فَيَنْظُرُ لَنَا مَا فَعَلَ الْقَوْمُ ثُمَّ يَرْجِعُ ، - يشترط له رسول الله الرجعة - أسأل الله تعالى أَنْ يَكُونَ رَفِيقِي فِي الْجَنَّةِ » ، فما قام رجل من القوم من شدة الخوف وشدة الجوع وشدة البرد ، فلما لم يقدّم أحد دعاني رسول الله ﷺ ، فلم يكن لي بد من القيام حين دعاني فقال ﷺ : « يَا حَذِيفَةُ اذْهَبْ فَأَدْخُلْ فِي الْقَوْمِ فَاَنْظُرْ مَا يَفْعَلُونَ وَلَا تُحَدِّثَنَّ شَيْئًا حَتَّى تَأْتِيَنَا » قال : فذهبت فدخلت في القوم ، والريح وجنود الله ﷻ تفعل بهم ما تفعل لا تفر لهم قرارًا ولا نارًا ولا بناء فقام أبو سفيان فقال : يا معشر قريش لينظر كل امرئ من جلسه . قال حذيفة ﷺ : فأخذت بيد الرجل الذي إلي جنبي فقلت : من أنت ؟ فقال : أنا فلان ابن فلان ، ثم قال أبو سفيان : يا معشر قريش إنكم والله ما أصبحتم بدار مقام ، لقد هلك الكراع والخف وأخلفتنا بنو قريظة وبلغنا عنهم الذي نكره ، ولقينا من هذه الريح ما ترون ، والله ما تطمئن لنا قدر ، ولا تقوم لنا نار ولا يستمسك لنا بناء ، فارتحلوا فإني مرتحل ، ثم قام إلى جملة وهو معقول فجلس عليه ثم ضربه فوثب به على ثلاث فما أطلق عقاله إلا وهو قائم ، ولولا عهد رسول الله ﷺ إلي أن لا تحدث شيئًا حتى تأتيني لو شئت لقتلته بسهم ، قال حذيفة ﷺ : فرجعت إلى رسول الله ﷺ ، وهو قائم يصلي في مرط لبعض نسائه مرحل ، فلما رأيته أدخلني بين رجليه وطرح علي طرف المرط ، ثم ركع وسجد وإني لفيه ، فلما سلم أخبرته الخبر ، وسمعت غطفان بما فعلت قريش ، فانشمروا راجعين إلى بلادهم ^(٢) .

وعن إبراهيم التيمي عن أبيه قال : كنا عند حذيفة بن اليمان ﷺ فقال له رجل : لو أدرت رسول الله ﷺ قاتلت معه وأبليت ، فقال له حذيفة : أنت كنت تفعل ذلك ؟ لقد رأيتنا مع رسول الله ﷺ ليلة

الأحزاب ، في ليلة ذات ريح شديدة وقر ، فقال رسول الله ﷺ : « أَلَا رَجُلٌ يَأْتِي بِخَبَرِ الْقَوْمِ يَكُونُ مَعِيَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ » . فلم يجبه منا أحد ، ثم الثانية ، ثم الثالثة مثله ثم قال ﷺ : « يَا حُذَيْفَةُ قُمْ فَأَتِنَا بِخَبَرِ مِنَ الْقَوْمِ » فلم أجد بداً إذ دعاني باسمي أن أقوم فقال : « اثْنِي بِخَبَرِ الْقَوْمِ وَلَا تُذَعِرْهُمْ عَلَيَّ » . قال : فمضيت كأنما أمشي في حمام حتى أتيتهم فإذا أبو سفيان يصلي ظهره بالنار ، فوضعت سهماً في كبد قوسي وأردت أن أرميه ، ثم ذكرت قول رسول الله ﷺ : « لَا تُذَعِرْهُمْ عَلَيَّ » ولو رميته لأصبته قال : فرجعت كأنما أمشي في حمام فأتيت رسول الله ﷺ ، ثم أصابني البرد حين فرغت وقررت ، فأخبرت رسول الله ﷺ وألبسني من فضل عبادة كانت عليه يصلي فيها ، فلم أزل نائماً حتى الصبح ، فلما أن أصبحت قال رسول الله ﷺ : « قُمْ يَا نَوْمَانُ » ^(١) .

وقوله تعالى : ﴿ إِذْ جَاءُوكُمْ مِنْ فَوْقِكُمْ ﴾ أي : الأحزاب ﴿ وَبَيْنَ أَسْفَلَ مِنْكُمْ ﴾ تقدم عن حذيفة رضي الله عنه أنهم بنو قريظة ﴿ وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ ﴾ . أي : من شدة الخوف والفرع ﴿ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا ﴾ قال ابن جرير : ظن بعض من كان مع رسول الله ﷺ أن الدائرة على المؤمنين وأن الله سيفعل ذلك . وقال محمد بن إسحاق : ظن المؤمنون كل ظن ونجم النفاق حتى قال معتب بن قشير أخو بني عمرو بن عوف : كان محمد يعدنا أن نأكل كنوز كسرى وقيصر وأحدنا لا يقدر على أن يذهب إلى الغائط ، وقال الحسن في قوله ﷺ : ﴿ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا ﴾ ظنون مختلفة ، ظن المنافقون أن محمداً ﷺ وأصحابه يستأصلون . وأيقن المؤمنون أن ما وعد الله ورسوله حق ، وأنه سيظهره على الدين كله ولو كره المشركون ، وعن أبي سعيد رضي الله عنه قال : قلنا يوم الخندق : يا رسول الله : هل من شيء نقول فقد بلغت القلوب الحناجر . قال ﷺ : « نَعَمْ ، قُولُوا : اللَّهُمَّ اسْتُرْ عَوزَاتِنَا ، وَآمِنْ رَوْعَاتِنَا » . قال : فضرب وجوه أعدائه بالريح فزههم بالريح ^(٢) .

﴿ هَٰلِكَ أَتَى الْمُؤْمِنُونَ زُلْزَلًا شَدِيدًا ﴾ وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُورًا ﴿ وَإِذْ قَالَتْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ يَا أَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَارْجِعُوا وَيَسْتَأْذِنُ فَرِيقٌ مِنْهُمُ النَّبِيَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ إِنْ يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا ﴾ .

يقول تعالى مخبراً عن ذلك الحال حين نزلت الأحزاب حول المدينة ، والمسلمون محصورون في غاية الجهد والضيق ، ورسول الله ﷺ بين أظهرهم أنهم ابتلوا واختبروا وزلزلوا زلزلاً شديداً . فحينئذ ظهر النفاق وتكلم الذين في قلوبهم مرض بما في أنفسهم : ﴿ وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُورًا ﴾ أما المنافق فنجم نفاقه ، والذي في قلبه شبهة أو حسكة ضعف حاله فتنفس بما يجده من الوسواس في نفسه لضعف إيمانه وشدة ما هو فيه من ضيق الحال . وقوم آخرون قالوا كما قال الله تعالى : ﴿ وَإِذْ قَالَتْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ يَا أَهْلَ يَثْرِبَ ﴾ يعني : المدينة كما جاء في الصحيح : « أَرِيتُ فِي الْمَتَامِ دَارَ هِجْرَتِكُمْ أَرْضَ يَيْنَ حَرَّتَيْنِ ، فَذَهَبَ وَهَلِيَ أَنَّهَا هَجْرٌ فَإِذَا هِيَ يَثْرِبُ » ^(٣) . وفي لفظ : المدينة ، ويقال : إنما كان أصل تسميتها يثرب برجل نزلها من العماليق

(١) أخرجه مسلم في الجهاد (٩٩) والبيهقي في سننه (١٤٨/٩) . (٢) رواه الإمام أحمد في مسنده (٣/٣) .

(٣) أخرجه البخاري في مناقب الأنصار (٥٤) والإمام أحمد في مسنده (١٩٨/٦) .

يقال له يثرب بن عبيد بن مهليل بن عوص بن عملاق بن لاوذ بن إرم بن سام بن نوح ، قاله السهيلي . قال : وروي عن بعضهم أنه قال : إن لها في التوراة أحد عشر اسماً : المدينة وطابة وطيبة والمسكينة والجابرة والمحبة والمحبوبة والقاصمة والمحبورة والعذراء والمرحومة . قوله : ﴿ لَا مَقَامَ لَكُمْ ﴾ أي : ها هنا يعنون عند النبي ﷺ في مقام المراقبة ﴿ فَارْجِعُوا ﴾ أي : إلى بيوتكم ومنازلكم ﴿ وَاسْتَعِذْنَ فِرَقٍ مِّنْهُمْ النَّبِيُّ ﴾ قال ابن عباس ؓ : هم بنو حارثة قالوا : بيوتنا نخاف عليها السراق ، وكذا قال غير واحد ، وذكر ابن إسحاق أن القائل لذلك هو أوس بن قيطي يعني : اعتذروا في الرجوع إلى منازلهم بأنها عورة أي : ليس دونها ما يحجبها من العدو فهم يخشون عليها منهم قال الله تعالى : ﴿ وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ ﴾ أي ليست كما يزعمون ﴿ إِنْ يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا ﴾ أي : هرباً من الزحف . ﴿ وَلَوْ دَخَلَتْ عَلَيْهِمْ مِّنْ أَطْطَارِهَا ثُمَّ سَأَلُوا الْفِتْنَةَ لَآتَوْهَا وَمَا تَلَاَوْهَا بِهَا إِلَّا بَصِيرًا ﴾ ولقد كانوا عهدوا الله من قبل لا يؤلّون الأدبَرُ وكان عهد الله مستولاً ﴿ قُلْ لَنْ نَفْعَكُمْ الْفِرَارُ إِنْ فَرَرْتُمْ مِّنَ الْمَوْتِ أَوِ الْقَتْلِ وَإِذَا لَا تَتَّقُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ قُلْ مَنْ ذَا الَّذِي يَعْصِيكُمْ مِّنَ اللَّهِ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوءًا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً وَلَا يَحِذُّونَ لَهُمْ مِّنْ ذُنُوبِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا .

يخبر تعالى عن هؤلاء الذين ﴿ يَقُولُونَ إِنْ يُؤْتِنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ إِنْ يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا ﴾ أنهم لو دخل عليهم الأعداء من كل جانب من جوانب المدينة وقطر من أطوارها ، ثم سئلوا الفتنة وهي الدخول في الكفر لكفروا سريعاً ، وهم لا يحافظون على الإيمان ، ولا يستمسكون به مع أدنى خوف وفزع . هكذا فسرها قتادة وعبد الرحمن بن زيد وابن جرير ، وهذا ذم لهم في غاية الذم . ثم قال تعالى يذكّرهم بما كانوا عاهدوا الله من قبل هذا الخوف أن لا يولوا الأدبار ، ولا يفروا من الزحف . ﴿ كَانَ عَهْدُ اللَّهِ مَسْئُولًا ﴾ أي : وإن الله سيسألهم عن ذلك العهد لا بد من ذلك ، ثم أخبرهم أن فرارهم ذلك لا يؤخر أجالهم ولا يطول أعمارهم بل ربما كان ذلك سبباً في تعجيل أخذهم غرة . ولهذا قال تعالى : ﴿ وَإِذَا لَا تَتَّقُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ أي : بعد هربكم وفراركم ﴿ قُلْ مَتَى الدُّنْيَا قَلِيلٌ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ اتَّقَى ﴾ ثم قال تعالى : ﴿ قُلْ مَنْ ذَا الَّذِي يَعْصِيكُمْ مِّنَ اللَّهِ ﴾ أي : يمنعكم ﴿ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوءًا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً وَلَا يَحِذُّونَ لَهُمْ مِّنْ ذُنُوبِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴾ أي ليس لهم ولا لغيرهم من دون الله مجير ولا مغيث .

﴿ قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الْمُعَوِّنِينَ مِنَكُمُ وَالْقَالِينَ لِإِخْرَجِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا وَلَا يَأْتُونَ الْبَاسَ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ أشحّة عليكم فإذا جاءَ الْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَالَّذِي يُغْشَى عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ فَإِذَا ذَهَبَ الْخَوْفُ سَلَقُوكُمْ بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ أَشِحَّةً عَلَى الْخَيْرِ أُولَئِكَ لَمْ يُؤْمِنُوا فَأَحْبَطَ اللَّهُ أَعْمَلَهُمْ وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا .

يخبر تعالى عن إحاطة علمه بالمعوقين لغيرهم عن شهود الحرب والقائلين لإخوانهم أي : أصحابهم وعشرائهم وخطائهم : ﴿ هَلُمَّ إِلَيْنَا ﴾ أي : إلى ما نحن فيه من الإقامة في الظلال والثمار ، وهم مع ذلك : ﴿ وَلَا يَأْتُونَ الْبَاسَ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ أشحّة عليكم ﴿ أي بخلاء بالمودة والشفقة عليكم ، وقال السدي : ﴿ أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ ﴾ أي : في الغنائم ﴿ فَإِذَا جَاءَ الْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَالَّذِي يُغْشَى عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ ﴾ أي : من شدة خوفه وجزعه ، وهكذا خوف هؤلاء الجبناء من القتال ﴿ فَإِذَا ذَهَبَ الْخَوْفُ سَلَقُوكُمْ بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ ﴾ أي : فإذا كان الأمن تكلموا كلاماً بليغاً فصيحاً عالياً ، وادعوا لأنفسهم المقامات العالية في الشجاعة والنجدة وهم يكذبون في ذلك . وقال ابن عباس ؓ : ﴿ سَلَقُوكُمْ ﴾

أي : استقبلوكم ، وقال قتادة : أما عند الغنمة فأشح قوم وأسوأه مقاسمة أعطونا أعطونا قد شهدنا معكم ، وأما عند البأس فأجبن قوم وأخذله للحق ، وهم مع ذلك أشحه على الخير أي : ليس فيهم خير قد جمعوا الجبن والكذب وقلة الخير ، فهم كما قال في أمثالهم الشاعر :

أَفِي السَّلْمِ أَعْيَارٌ جَفَاءٌ وَغِلْظَةٌ وَفِي الْحَرْبِ أَمْثَالُ النِّسَاءِ الْعَوَارِكِ

أي في حال المسالمة كأنهم الحمر ، والأعيار جمع عير وهو الحمار ، وفي الحرب كأنهم النساء الحيض ، ولهذا قال تعالى : ﴿ أُولَئِكَ لَا يُؤْمِنُوا فَأَحْبَطَ اللَّهُ أَعْمَلَهُمْ وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا ﴾ أي سهلاً هيناً عنده . ﴿ يَحْسَبُونَ الْأَحْزَابَ لَمْ يَذْهَبُوا وَإِنْ يَأْتِ الْأَحْزَابُ يَوَدُّوا لَوْ أَنَّهُمْ بَادُوا فِي الْأَعْرَابِ يَتَشَلَّوْنَ عَنْ أَنْبَائِكُمْ وَلَوْ كَانُوا فِيكُمْ مَا قَتَلُوا إِلَّا قَلِيلًا ﴾ .

وهذا أيضاً من صفاتهم القبيحة في الجبن والخور والخوف ﴿ يَحْسَبُونَ الْأَحْزَابَ لَمْ يَذْهَبُوا ﴾ بل هم قريب منهم وإن لهم عودة إليهم ﴿ وَإِنْ يَأْتِ الْأَحْزَابُ يَوَدُّوا لَوْ أَنَّهُمْ بَادُوا فِي الْأَعْرَابِ يَتَشَلَّوْنَ عَنْ أَنْبَائِكُمْ ﴾ أي : ويودون إذا جاءت الأحزاب أنهم لا يكونون حاضرين معكم في المدينة ، بل في البادية يسألون عن أخباركم وما كان من أمركم مع عدوكم ﴿ وَلَوْ كَانُوا فِيكُمْ مَا قَتَلُوا إِلَّا قَلِيلًا ﴾ أي : ولو كانوا بين أظهركم لما قاتلوا معكم إلا قليلاً لكثرة جنهم وذلتهم وضعف يقينهم والله   العالم بهم . ﴿ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا ۝ وَلَمَّا رَأَى الْمُؤْمِنُونَ الْأَحْزَابَ قَالُوا هَذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّا إِيمَانًا وَتَسْلِيمًا ﴾ .

هذه الآية الكريمة أصل كبير في التأسى برسول الله   ، ولهذا أمر تبارك وتعالى الناس بالتأسي بالنبي   يوم الأحزاب في صبره ومصابرته ومرابطته ومجاهدته ، وانتظاره الفرج من ربه   ، ولهذا قال تعالى للذين تغلبوا وتضجروا وتزلزلوا واضطربوا في أمرهم يوم الأحزاب : ﴿ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ ﴾ أي : هلا اقتديتم به وتأسيتم بشمائله   ؟ ولهذا قال تعالى : ﴿ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا ﴾ ثم قال تعالى مخبراً عن عباده المؤمنين المصدقين بموعود الله لهم ، وجعله العاقبة حاصلة لهم في الدنيا والآخرة . فقال تعالى : ﴿ وَلَمَّا رَأَى الْمُؤْمِنُونَ الْأَحْزَابَ قَالُوا هَذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ ۝ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ   وقاتلة : يعنون قوله تعالى في سورة البقرة : ﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تُدْخَلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مِّثْلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسَّتِهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَاءُ وَزُلُّوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ ﴾ أي : هذا ما وعدنا الله ورسوله من الابتلاء والاختبار والامتحان الذي يعقبه النصر القريب ؛ ولهذا قال تعالى : ﴿ وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ ﴾ وقوله تعالى : ﴿ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّا إِيمَانًا وَتَسْلِيمًا ﴾ دليل على زيادة الإيمان وقوته بالنسبة إلى الناس وأحوالهم كما قال جمهور الأئمة : إنه يزيد وينقص ، ومعنى قوله جلت عظمته : ﴿ وَمَا زَادَهُمْ ﴾ أي : ذلك الحال والضيق والشدة ﴿ إِلَّا إِيمَانًا ﴾ بالله   ، أي انقياداً لأوامره وطاعة لرسوله   .

﴿ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَن قَضَىٰ نَجْبَتُهُ وَمِنْهُمْ مَن يَنْظِرُ وَمَا بَدَلُوا بَدِيلًا ۝ لِيَجْزِيَ اللَّهُ الصَّادِقِينَ بِصِدْقِهِمْ وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ إِنْ شَاءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾ .

لما ذكر   عن المنافقين أنهم نقضوا العهد الذي كانوا عاهدوا الله عليه لا يولون الأدبار ، وصف

المؤمنين بأنهم استمروا على العهد والميثاق ﴿وَصَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَيَنْتَهُمْ مَنْ قَضَىٰ نَجَبَهُ﴾ قال بعضهم : أجله وقال البخاري : عهده وهو يرجع إلى الأول ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَلُوا بُدِيلًا﴾ أي : وما غيروا عهد الله ولا نقضوه ولا بدلوه ^(١) ، وروي عن زيد بن ثابت قال : لما نسخنا المصحف فقدت آية من سورة الأحزاب كنت أسمع رسول الله ﷺ يقرؤها لم أجدها مع أحد إلا مع خزيمة بن ثابت الأنصاري ﷺ الذي جعل رسول الله ﷺ شهادته بشهادة رجلين ﴿يَنْتَظِرِينَ رِجَالًا صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ﴾ ^(٢) . وقال أنس بن مالك ﷺ نرى هذه الآية نزلت في أنس بن النضر ﷺ ﴿يَنْتَظِرِينَ رِجَالًا صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ﴾ الآية ^(٣) .

قال أنس : عمي أنس بن النضر ﷺ سميت به لم يشهد مع رسول الله ﷺ يوم بدر فشقي عليه ، وقال : أول مشهد شهده رسول الله ﷺ غبت عنه لئن أراني الله تعالى مشهداً فيما بعد مع رسول الله ﷺ ليرين الله ﷻ ما أصنع . قال : فهاب أن يقول غيرها ، فشهد مع رسول الله ﷺ يوم أحد . فاستقبل سعد بن معاذ ﷺ فقال له أنس ﷺ : يا أبا عمرو أين وأها لريح الجنة إنني أجده دون أحد قال : فقاتلهم حتى قتل ﷺ . قال : فوجد في جسده بضع وثمانون بين ضربة وطعنة ورمية . فقالت أخته عمتي الربيع بنت النضر : فما عرفت أخي إلا بينانه . قال فنزلت هذه الآية : ﴿يَنْتَظِرِينَ رِجَالًا صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَيَنْتَهُمْ مَنْ قَضَىٰ نَجَبَهُ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَلُوا بُدِيلًا﴾ قال : فكانوا يرون أنها نزلت فيه ، وفي أصحابه ﷺ ^(٤) . قال مجاهد في قوله تعالى : ﴿فَيَنْتَهُمْ مَنْ قَضَىٰ نَجَبَهُ﴾ : يعني : عهده ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ﴾ قال : يوماً فيه القتال فيصدق في اللقاء . وقال الحسن ﴿فَيَنْتَهُمْ مَنْ قَضَىٰ نَجَبَهُ﴾ يعني موته على الصدق والوفاء ومنهم من ينتظر الموت على مثل ذلك ، ومنهم من لم يدل تبديلاً . وقال بعضهم : نجه نذره .

وقوله تعالى : ﴿وَمَا بَدَلُوا بُدِيلًا﴾ أي : وما غيروا عهدهم وبدلوا الوفاء بالغدر ، بل استمروا على ما عاهدوا الله عليه وما نقضوه كفعل المنافقين الذين قالوا : ﴿يُؤْتِنَا عَهْدًا وَمَا هِيَ بِعَهْدٍ إِنْ يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا﴾ ﴿وَلَقَدْ كَاثَرُوا عَهْدًا لِلَّهِ مِنْ قَبْلُ لَا يَأْتُونَكَ إِلَّا بَيِّنَاتٌ﴾ . وقوله تعالى : ﴿لِيَجْزِيَ اللَّهُ الصَّادِقِينَ بِصِدْقِهِمْ وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ إِنْ شَاءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ﴾ أي : إنما يختبر عباده بالخوف والزلازل ليميز الخبيث من الطيب ، فيظهر أمر هذا بالفعل ، وأمر هذا بالفعل ، مع أنه تعالى يعلم الشيء قبل كونه ، ولكن لا يعذب الخلق بعلمه فيهم حتى يعملوا بما يعلمه منهم . كما قال تعالى : ﴿وَلَتَبْلُوكُمْ حَتَّىٰ تَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنْكُمْ وَالصَّادِقِينَ وَتَبْلُوا لَخَبَارُكُمْ﴾ . فهذا علم بالشيء بعد كونه ، وإن كان العلم السابق حاصلاً به قبل وجوده ؛ ولهذا قال تعالى ها هنا : ﴿لِيَجْزِيَ اللَّهُ الصَّادِقِينَ بِصِدْقِهِمْ﴾ أي : بصبرهم على ما عاهدوا الله عليه وقيامهم به ومحافظةهم عليه ﴿وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ﴾ وهم الناقضون لعهد الله المخالفون لأوامره فاستحقوا بذلك عقابه وعذابه ، ولكن هم تحت مشيئته في الدنيا إن شاء استمر بهم على ما فعلوا حتى يلقيه فيعذبهم عليه ، وإن شاء تاب عليهم ، بأن أرشدهم إلى التزوع عن النفاق إلى الإيمان والعمل

(١) ذكره البخاري في صحيحه (تفسير القرآن) في تفسير سورة الأحزاب باب ٣ ﴿فَيَنْتَهُمْ مَنْ قَضَىٰ نَجَبَهُ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَلُوا بُدِيلًا﴾ .

(٢) أخرجه البخاري في تفسير القرآن (٤٧٨٤) والترمذي في سننه (٣١٠٤) .

(٣) أخرجه البخاري في تفسير القرآن (٤٧٨٣) .

(٤) أخرجه مسلم في الإمامة (١٤٨) والإمام أحمد في مسنده (١٩٣/٤) .

الصالح بعد الفسوق والعصيان . ولما كانت رحمته ورأفته تبارك وتعالى بخلقه هي الغالبة لغضبه قال : ﴿ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا ﴾ .

﴿ وَكَذَلِكَ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا يَغْضِبُهُمْ لَمْ يُنَالُوا خَيْرًا وَكَفَى اللَّهُ الْمُتَوَكِّلِينَ الْفِتْنَالُ وَكَانَ اللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا ﴾ .

يقول تعالى مخبرًا عن الأحزاب لما أجلاهم عن المدينة بما أرسل عليهم من الريح والجند الإلهية ، ولولا أن الله جعل رسوله رحمة للعالمين لكانت هذه الريح عليهم أشد من الريح العقيم التي أرسلها على عاد ، ولكن قال تعالى : ﴿ وَمَا كَانَتْ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ ﴾ فسلط عليهم هواء فرق شملهم كما كان سبب اجتماعهم من الهوى ، وهم أخلاط من قبائل شتى أحزاب وآراء ، فناسب أن يرسل عليهم الهواء الذي فرق جماعتهم وردهم خائبين خاسرين يغيظهم وحنقهم ، ولم ينالوا خيرًا لا في الدنيا مما كان في أنفسهم من الظفر والمغنم ، ولا في الآخرة بما تحملوه من الآثام في مبارزة الرسول ﷺ بالعدواة وهمهم بقتله واستئصال جيشه ، ومن هم بشيء وصدق هم بفعله ، فهو في الحقيقة كفاعله . وقوله تبارك وتعالى : ﴿ وَكَفَى اللَّهُ الْمُتَوَكِّلِينَ الْفِتْنَالُ ﴾ أي : لم يحتاجوا إلى منازلتهم ومبارزتهم حتى يجلوهم عن بلادهم ؛ بل كفى الله وحده ونصر عبده وأعز جنده . ولهذا كان رسول الله ﷺ يقول : « لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ ، صَدَقَ وَعْدُهُ ، وَنَصَرَ عِبْدَهُ ، وَأَعَزَّ جُنْدَهُ ، وَهَزَمَ الْأَحْزَابَ وَحْدَهُ ، فَلَا شَيْءَ بَعْدَهُ » ^(١) وعن عبد الله بن أبي أوفى ؓ قال : دعا رسول الله ﷺ على الأحزاب فقال : « اللَّهُمَّ مُنْزِلَ الْكِتَابِ ، سَرِيعَ الْحِسَابِ ، اهْزِمِ الْأَحْزَابَ ، اللَّهُمَّ اهْزِمْهُمْ وَزَلْزَلْهُمْ » ^(٢) . وفي قوله ﷺ : ﴿ وَكَفَى اللَّهُ الْمُتَوَكِّلِينَ الْفِتْنَالُ ﴾ إشارة إلى وضع الحرب بينهم وبين قريش ، وهكذا وقع بعدها لم يغزهم المشركون . بل غزاهم المسلمون في بلادهم . عن سليمان بن صرد ؓ قال : قال رسول الله ﷺ يوم الأحزاب : « الْآنَ تَغْزَوْهُمْ وَلَا يَغْزُونَا » ^(٣) . وقوله تعالى : ﴿ وَكَانَ اللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا ﴾ أي : بحوله وقوته ردهم خائبين لم ينالوا خيرًا ، وأعز الله الإسلام وأهله ، وصدق وعده ، ونصر رسوله وعبده ، فله الحمد والمنة .

﴿ وَأَنْزَلَ الَّذِينَ ظَاهَرُوهُمْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ صَافِيَتِهِمْ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا ۖ وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَارَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ وَأَرْضًا لَمْ تَطَّوْعُوا وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا ﴾ .

قد تقدم أن بني قريظة لما قدمت جنود الأحزاب ، ونزلوا على المدينة نقضوا ما كان بينهم وبين رسول الله ﷺ من العهد ، وكان ذلك بسفارة حيي بن أخطب النضري - لعنه الله - دخل حصنهم ولم يزل بسيدهم كعب بن أسد حتى نقض العهد وقال له فيما قال : ويحك قد جئتكم بعر الدهر ، أتيتك بقريش وأحايشها وغطفان وأتباعها ، ولا يزالون هاهنا حتى يستأصلوا محمدًا وأصحابه . فقال له كعب : بل والله أتيتني بذل الدهر . ويحك يا حيي إنك مشؤوم فلم يزل يقتل في الذروة والغارب حتى أجابه ، واشترط له حيي إن ذهب الأحزاب ولم يكن من أمرهم شيء أن يدخل معهم في الحصن فيكون له أسوتهم ، فلما نقضت قريظة وبلغ ذلك رسول الله ﷺ ساءه

(١) أخرجه البخاري في المغازي (٤١١٤) ومسلم في الذكر والدعاء (٧٧) والإمام أحمد في مسنده (٣٠٧/٢ ، ٣٤١ ، ٤٩٤) .

(٢) أخرجه البخاري في الجهاد (٢٩٣٣) ومسلم في الجهاد (٢٠ - ٢٢) والإمام أحمد في مسنده (٣٥٥ ، ٣٥٣/٤) .

(٣) أخرجه البخاري في المغازي (٤١١٠) والإمام أحمد في مسنده (٢٦٦/٤) .

وشق عليه وعلى المسلمين جدًّا ، فلما أيدّه الله تعالى ونصره وكبت الأعداء وردّهم خائئين بأخسر صفقة ، ورجع رسول الله ﷺ إلى المدينة مؤيِّداً منصوراً ووضع الناس السلاح ، فبينما رسول الله ﷺ يغتسل من وعاء تلك الرابطة في بيت أم سلمة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا إذ تبدى له جبريل عليه الصلاة والسلام معتجراً بعمامة من إستبرق على بغلة عليها قطيفة من ديباج فقال : أوضعت السلاح يا رسول الله ؟ قال ﷺ : « نعم » قال : لكن الملائكة لم تضع أسلحتها وهذا الآن رجوعي من طلب القوم . ثم قال : إن الله تبارك وتعالى يأمرك أن تنهض إلى بني قريظة .

وفي رواية فقال له : عذيرك من مقاتل أوضعتم السلاح ؟ قال : « نعم » قال : لكننا لم نضع أسلحتنا بعد ، انهض إلى هؤلاء . قال ﷺ : « أين ؟ » قال : بني قريظة ، فإن الله تعالى أمرني أن أزلزل عليهم ، فنهض رسول الله ﷺ من فوره وأمر الناس بالمسير إلى بني قريظة ، وكانت على أميال من المدينة وذلك بعد صلاة الظهر . وقال ﷺ : « لَا يُصَلِّينَ أَحَدٌ مِنْكُمْ الْعَصْرَ إِلَّا فِي بَنِي قُرَيْظَةَ » ^(١) . فسار الناس فأدركتهم الصلاة في الطريق فصلّى بعضهم في الطريق وقالوا : لم يرد منا رسول الله ﷺ إلا تعجيل المسير ، وقال آخرون : لا نصليها إلا في بني قريظة فلم يعنف واحداً من الفريقين ، وتبعهم رسول الله ﷺ ، وقد استخلف على المدينة ابن أم مكتوم ؓ وأعطى الراية لعلي بن أبي طالب ؓ . ثم نازلهم رسول الله ﷺ وحاصرهم خمساً وعشرين ليلة ، فلما طال عليهم الحال نزلوا على حكم سعد بن معاذ سيد الأوس ؓ ؛ لأنهم كانوا حلفاءهم في الجاهلية ، واعتقدوا أنه يحسب إليهم في ذلك كما فعل عبد الله بن أبي بن سلول في مواليه بني قينقاع حين استطلقهم من رسول الله ﷺ ، فظن هؤلاء أن سعداً سيفعل فيهم كما فعل ابن أبي في أولئك . ولم يعلموا أن سعداً ؓ كان قد أصابه سهم في أكحله أيام الخندق ، فكواه رسول الله ﷺ في أكحله وأنزله في قبة في المسجد ليعوده من قريب . وقال سعد ؓ فيما دعا به : اللهم إن كنت أبقيت من حرب قريش شيئاً فأبقني لها ، وإن كنت وضعت الحرب بيننا وبينهم فافجرها ، ولا تمنني حتى تفر عيني من بني قريظة ، فاستجاب الله تعالى دعاءه وقدر عليهم أن نزلوا على حكمه باختيارهم طلباً من تلقاء أنفسهم ، فعند ذلك استدعاه رسول الله ﷺ من المدينة ليحكم فيهم ، فلما أقبل وهو راكب على حمار قد وطئوا له عليه جعل الأوس يلوذون به ويقولون : يا سعد إنهم مواليك فأحسن فيهم ويرققونه عليهم ويعطفونه وهو ساكت لا يرد عليهم . فلما أكثروا عليه قال ﷺ : لقد آن لسعد أن لا تأخذه في الله لومة لائم . فعرفوا أنه غير مستبقيهم ، فلما دنا من الخيمة التي فيها رسول الله ﷺ قال رسول الله ﷺ : « قُومُوا إِلَيَّ سَيِّدُكُمْ » فقام إليه المسلمون فأنزلوه إعظاماً وإكراماً واحتراماً له في محل ولايته ليكون أنفذ لحكمه فيهم . فلما جلس قال له رسول الله ﷺ : « إِنَّ هَؤُلَاءِ - وأشار إليهم - قَدْ نَزَلُوا عَلَى حُكْمِكَ فَأَحْكُمْ فِيهِمْ بِمَا شِئْتَ » . فقال ﷺ : وحكمي نافذ عليهم ؟ قال ﷺ : « نعم » قال : وعلى من في هذه الخيمة ؟ قال : « نعم » قال : وعلى من ها هنا وأشار إلى الجانب الذي فيه رسول الله ﷺ ، وهو معرض بوجهه عن رسول الله ﷺ إجلالاً وإكراماً وإعظاماً ، فقال له رسول الله ﷺ :

(١) أخرجه البخاري بنحوه في المغازي (٤١١٧) ، (٤/١٩) .

« نَعَمْ » فقال ﷺ : إني أحكم أن تقتل مقاتلتهم ، وتسبى ذريتهم وأموالهم . فقال له رسول الله ﷺ : « لَقَدْ حَكَمْتَ بِحُكْمِ اللَّهِ تَعَالَى مِنْ فَوْقِ سَبْعَةِ أَرْقَعَةٍ » . ثم أمر رسول الله ﷺ بالأخاديد فحدث في الأرض . وحيء بهم مكثفين فضرب أعناقهم ، وكانوا ما بين السبعمائة إلى الثمانمائة ، وسبى من لم يثبت منهم مع النساء وأموالهم ^(١) . ولهذا قال تعالى : ﴿ وَأَنْزَلَ الَّذِينَ ظَاهَرُوهُمْ ﴾ أي عاونوا الأحزاب وساعدوهم على حرب رسول الله ﷺ ﴿ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ ﴾ يعني بني قريظة من اليهود من بعض أسباط بني إسرائيل ، كان قد نزل أبأؤهم الحجاز قديماً طمعاً في اتباع النبي الأمي الذي يجدونه مكتوباً عندهم في التوراة والإنجيل ﴿ فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ ﴾ فعليهم لعنة الله .

وقوله تعالى : ﴿ مِنْ صَيَاصِيهِمْ ﴾ يعني حصونهم . ومنه سمي صياصي البقر ، وهي قرونها ، لأنها أعلى شيء فيها ﴿ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ ﴾ وهو : الخوف لأنهم كانوا مألواً للمشركين على حرب النبي ﷺ ، وليس من يعلم كمن لا يعلم وأخافوا المسلمين وراموا قتلهم ليعزوهم في الدنيا فانعكس عليهم الحال ، وانقلب إليهم القتال ، انشمر المشركون ، ففازوا بصفقة المغبون ، فكما راموا العز ذلوا وأرادوا استئصال المسلمين فاستؤصلوا ، وأضيف إلى ذلك شقاوة الآخرة فصارت الجملة أن هذه هي الصفقة الخاسرة ؛ ولهذا قال تعالى : ﴿ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا ﴾ فالذين قتلوا هم المقاتلة ، والأسراء هم الأصاغر والنساء ، عن عطية القرظي قال : عرضت على النبي ﷺ يوم قريظة فشكوا في فأمر النبي ﷺ أن ينظروا هل أنبت بعد فنظروني فلم يجدوني أنبت ، فخلى عني وألحقني بالسبي ^(٢) . وقوله تعالى : ﴿ وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَارَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ ﴾ أي : جعلها لكم من قتلهم لهم ﴿ وَأَرْضًا لَمْ تَطَّوْعُوا ﴾ قيل : خيبر ، وقيل مكة . وقيل : فارس والروم ، وقال ابن جرير : يجوز أن يكون الجميع مراداً ﴿ وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا ﴾ .

﴿ يَكَايَأُ الْيَتِيمَ قُلْ لَا زَوْلِكَ إِنْ كُنْتُمْ تُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْتُمْ أَمْتَعْتَكُمْ وَأَسْرَحَكُمْ سَرَاحًا جَمِيلًا ﴾ وَلِنْ كُنْتُمْ تُرِيدُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالْآخِرَةَ فَإِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾ .

هذا أمر من الله تبارك وتعالى لرسوله ﷺ بأن يخير نساءه بين أن يفارقهن فيذهبن إلى غيره ممن يحصل لهن عنده الحياة الدنيا وزينتها ، وبين الصبر على ما عنده من ضيق الحال ، ولهن عند الله تعالى في ذلك الثواب الجزيل فاخترن رضي الله عنهن وأرضاهن الله ورسوله والدار الآخرة ، فجمع الله تعالى لهن بعد ذلك بين خير الدنيا وسعادة الآخرة .

قال أبو سلمة بن عبد الرحمن : إن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا زوج النبي ﷺ أخبرته أن رسول الله ﷺ جاءها حين أمره الله تعالى أن يخير أزواجه قالت : فبدأ بي رسول الله ﷺ فقال : « إِنِّي ذَاكِرٌ لِكَ أُمْرًا فَلَا عَلَيْكَ أَنْ لَا تَسْتَعْجِلِي حَتَّى تَسْتَأْذِنِي أَبُوتُكَ » وقد علم أن أبوي لم يكونا يأمراني بفراقه ، قالت : ثم قال : « إِنْ اللَّهُ تَعَالَى قَالَ : ﴿ يَكَايَأُ الْيَتِيمَ قُلْ لَا زَوْلِكَ ﴾ » إلى تمام الآيتين فقلت له : ففي أي هذا أستمأر أبوي ؟ فإني أريد الله ورسوله والدار الآخرة ^(٣) . وعن أبي سلمة عن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا فذكره

(١) انظر السيرة النبوية لابن كثير (٢٢٣/٣ - ٢٤٣) وسيرة ابن هشام (٢٤٤ - ٢٥٦) .

(٢) أخرجه أحمد في مسنده (٣٨٣/٤) ، (٣١١/٥) وأخرج أبو داود نحوه في سننه (٤٤٠٥) .

(٣) أخرجه البخاري في تفسير القرآن (٤٧٨٥) .

وزاد قالت : ثم فعل أزواج النبي ﷺ مثل ما فعلت ^(١) .

وعن جابر ﷺ قال : أقبل أبو بكر ﷺ يستأذن رسول الله ﷺ ، والناس يباه جلوس والنبي ﷺ جالس فلم يؤذن له ، ثم أقبل عمر ﷺ ، فاستأذن فلم يؤذن له ، ثم أذن لأبي بكر وعمر ﷺ فدخلا والنبي ﷺ جالس وحوله نسائه وهو ﷺ ساكت فقال عمر ﷺ : لأكلمن النبي ﷺ لعله يضحك فقال عمر ﷺ : يا رسول الله لو رأيت ابنة زيد - امرأة عمر - سألتني النفقة أنفاً فوجأت عنقها . فضحك النبي ﷺ حتى بدت نواجذه وقال : « هُنَّ حَوْلِي يَسْأَلُنِي النَّفَقَةَ » فقام أبو بكر ﷺ إلى عائشة ليضربها ، وقام عمر ﷺ إلى حفصة كلاهما يقولان : تسألان النبي ﷺ ما ليس عنده ، فنهاهما رسول الله ﷺ فقلن : والله لا نسأل رسول الله ﷺ بعد هذا المجلس ما ليس عنده قال : وأنزل الله ﷻ الخيار ، فبدأ بعائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا فقال : « إِنِّي أَذْكُرُ لَكَ أَمْرًا مَا أَحْبَبْتُ أَنْ تَعْجَلِي فِيهِ حَتَّى تَسْتَأْمِرِي أَبَوَيْكَ » قالت : وما هو ؟ قال فتلا عليها ﴿ يَكَايَا أَلَيْسَ لَكَ لِلزَّوْجِ كَ الْآيَةِ . قالت عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا : أفيك أستأمر أبوي ؟ بل أختار الله تعالى ورسوله وأسألك أن لا تذكر لامرأة من نسائك ما اخترت . فقال ﷺ : « إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى لَمْ يَعْثُبْنِي مُعْتَقًا وَلَكِنْ بَعَثَنِي مُعَلِّمًا مُبَشِّرًا لَا تَسْأَلُنِي امْرَأَةً مِنْهُنَّ عَمَّا اخْتَرْتُ إِلَّا أَخْبَرْتُهَا » ^(٢) .

﴿ فَتَعَالَى أُمِّتُكَ أَتَمَّ مِمَّنْ سَلَكُوا سَبِيلًا ﴾ أي : أعطيك حقوقك وأطلق سراحك ، وقد اختلف العلماء في جواز تزوج غيره لهن لو طلقهن على قولين ؛ أصحهما : نعم لو وقع ليحصل المقصود من السراح والله أعلم . قال عكرمة : وكان تحته يومئذ تسع نسوة خمس من قریش عائشة وحفصة وأم حبيبة وسودة وأم سلمة رضي الله عنهن ، وكانت تحته ﷺ صفية بنت حيي النضرية وميمونة بنت الحارث الهلالية ، وزينب بنت جحش الأسدية ، وجويرة بنت الحارث المصطلقية رضي الله عنهن وأرضاهن أجمعين .

﴿ يَسْأَلُ النَّبِيُّ مَنْ يَأْتِيهِ مِنْكُمْ بِفَحِشَةٍ مُبَيَّنَةٍ يُضَعِّفُ لَهَا الْعَذَابَ ضِعْفَيْنِ وَكَانَ عَلَى اللَّهِ بِسِيرًا ﴾ ^(٣) وَمَنْ يَقْنُتْ مِنْكُمْ لِلَّهِ وَرَسُولِهِ وَتَمَعَلْ صَالِحًا نُؤْتِهَا أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ وَأَعْتَدْنَا لَهَا رِزْقًا كَرِيمًا .

يقول تعالى واعظاً نساء النبي ﷺ اللاتي اخترن الله ورسوله والدار الآخرة ، واستقر أمرهن تحت رسول الله ﷺ فناسب أن يخبرهن بحكمهن وتخصيصهن دون سائر النساء ، بأن من يأت منهن بفاحشة مبينة لا يقتضي الوقوع كقوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ آلِكَ وَلِئِذِينَ مِنْ قَبْلِكَ لَنْ أَشْرَكَتَ لِيَجْطَنَ عَمَّاكَ ﴾ . فلما كانت محلتهن رقيقة ناسب أن يجعل الذنب لو وقع منهن مغلاً صيانة لجنابهن وحجابهن الرفيع . ولهذا قال تعالى : ﴿ مَنْ يَأْتِ مِنْكُمْ بِفَحِشَةٍ مُبَيَّنَةٍ يُضَعِّفْ لَهَا الْعَذَابَ ضِعْفَيْنِ ﴾ عن زيد بن أسلم ﴿ يُضَعِّفْ لَهَا الْعَذَابَ ضِعْفَيْنِ ﴾ قال : في الدنيا والآخرة ﴿ وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا ﴾ أي : سهلاً هيناً ، ثم ذكر عدله وفضله في قوله : ﴿ وَمَنْ يَقْنُتْ مِنْكُمْ لِلَّهِ وَرَسُولِهِ ﴾ أي : يطع الله ورسوله ويستجب ﴿ نُؤْتِهَا أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ وَأَعْتَدْنَا لَهَا رِزْقًا كَرِيمًا ﴾ أي : في الجنة فإنهن في

(١) أخرجه البخاري في تفسير القرآن (٤٧٨٦) .

(٢) أخرجه مسلم في (الطلاق) (٢٩) وأحمد في مسنده (٣٢٨/٣) .

وكانت ألف سنة . وإن بطنين من ولد آدم كان أحدهما يسكن السهل والآخر يسكن الجبل ، وكان رجال الجبل صباحاً وفي النساء دمامة . وكان نساء السهل صباحاً وفي الرجال دمامة ، وإن إبليس لعنه الله أتى رجلاً من أهل السهل في صورة غلام فأجر نفسه منه فكان يخدمه . فاتخذ إبليس شيئاً من مثل الذي يزمر فيه الرعاء فجاء فيه بصوت لم يسمع الناس مثله فبلغ ذلك من حوله فانتابوهم يسمعون إليه ، واتخذوا عيداً يجتمعون إليه في السنة فيتبرج النساء للرجال . قال : ويتزين الرجال لهن وإن رجلاً من أهل الجبل هجم عليهم في عيدهم ذلك ، فرأى النساء وصباحتهن فأتى أصحابه فأخبرهم بذلك فتحولوا إليهن فزلوا معهن ، وظهرت الفاحشة فيهن فهو قول الله تعالى : ﴿ وَبَرَّحَ نَبْرَجَ الْجَهْلِيَّةِ الْأُولَى ﴾ ^(١) .

وقوله تعالى : ﴿ وَأَقِمْنَ الصَّلَاةَ وَآتِينَ الزَّكَاةَ وَأَطِعْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ ﴾ نهان أولاً عن الشر ، ثم أمرهن بالخير من إقامة الصلاة ، وهي عبادة الله وحده لا شريك له وإيتاء الزكاة ، وهي الإحسان إلى المخلوقين ﴿ وَأَطِعْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ ﴾ وهذا من باب عطف العام على الخاص . وقوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً ﴾ وهذا نص في دخول أزواج النبي ﷺ في أهل البيت ها هنا ؛ لأنهن سبب نزول هذه الآية . وسبب النزول داخل فيه قولاً واحداً إما وحده على قول أو مع غيره على الصحيح . وروي عن عكرمة أنه كان ينادي في السوق ﴿ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً ﴾ نزلت في نساء النبي ﷺ خاصة ^(٢) . فإن كان المراد أنهن كن سبب النزول دون غيرهن فصحيح ، وإن أريد أنهن المراد فقط دون غيرهن ففي هذا نظر ، فإنه وردت أحاديث تدل على أن المراد أعم من ذلك .

عن أنس بن مالك ؓ قال : إن رسول الله ﷺ كان يمر بباب فاطمة ؓ ستة أشهر إذا خرج إلى صلاة الفجر يقول : « الصَّلَاةُ يَا أَهْلَ الْبَيْتِ ، إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً » ^(٣) .

وعن عطاء بن أبي رباح ، حدثني من سمع أم سلمة ؓ تذكر أن النبي ﷺ ، كان في بيتها فأتته فاطمة ؓ ببرمة فيها خزيرة فدخلت عليه ، فجلسوا يأكلون من تلك الخزيرة وهو على قائمته ، وكان تحته كساء خبيري قالت : وأنا في الحجرة أصلي فأنزل الله ﷻ هذه الآية : ﴿ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً ﴾ . قالت ؓ : فأخذ ﷺ فضل الكساء فغطاهم به ثم أخرج يده فألوى بها إلى السماء ثم قال : « اللَّهُمَّ هَؤُلَاءِ أَهْلُ بَيْتِي وَخَاصَّتِي فَأَذْهِبْ عَنْهُمْ الرِّجْسَ وَطَهِّرْهُمْ تَطْهِيراً » قالت : فأدخلت رأسي البيت فقلت : وأنا معكم يا رسول الله ؟ فقال ﷺ : « إِنَّكَ إِلَى خَيْرٍ ، إِنَّكَ إِلَى خَيْرٍ » ^(٤) .

وعن يزيد بن حبان قال : انطلقت أنا وحصين بن سبرة وعمر بن سلمة إلى زيد بن أرقم ؓ فلما

(١) ذكره الطبري في تفسيره (٧/٢٢) .

(٢) ذكره الطبري في تفسيره (١٣/٢٢) .

(٣) أخرجه أحمد في مسنده (٢٥٩/٣ ، ٢٨٥) والترمذي في سننه (٣٢٠٦) .

(٤) ذكره السيوطي في الدر المنثور (١٩٨/٥) .

جلسنا إليه قال له حصين : لقد لقيت يا زيد خيراً كثيراً رأيت رسول الله ﷺ ، وسمعت حديثه ، وغزوت معه ، وصليت خلفه ، لقد لقيت يا زيد خيراً كثيراً . حدثنا يا زيد ما سمعت من رسول الله ﷺ قال : « يا ابن أخي والله لقد كبرت سني وقدم عهدي ونسيت بعض الذي كنت أعي من رسول الله ﷺ فما حدثتكم فاقبلوا ومالا فلا تكلفوا فيه ، ثم قال : قام فينا رسول الله ﷺ يوماً خطيباً بماء يدعي حُماً بين مكة والمدينة فحمد الله تعالى وأثنى عليه ووعظ وذكر ثم قال : « أَمَا بَعْدُ أَلَا أَيُّهَا النَّاسُ فَإِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ أَيُّنَّتِي رَسُولُ رَبِّي فَأَجِيبْ وَأَنَا تَارِكٌ فِيكُمْ ثَقَلَيْنِ أَوَّلُهُمَا كِتَابُ اللَّهِ تَعَالَى فِيهِ الْهُدَى وَالثُّبُورُ ، فَخُذُوا بِكِتَابِ اللَّهِ وَاسْتَمْسِكُوا بِهِ » . فحث على كتاب الله ﷻ ورغب فيه ثم قال : « وَأَهْلُ بَيْتِي أَذْكُرُكُمْ اللَّهُ فِي أَهْلِ بَيْتِي ، أَذْكُرُكُمْ اللَّهُ فِي أَهْلِ بَيْتِي » ثلاثاً فقال له حصين : ومن أهل بيته يا زيد ؟ أليس نساؤه من أهل بيته ؟ قال : نساؤه من أهل بيته ولكن أهل بيته من حرم الصدقة بعده . قال : ومن هم ؟ قال : هم آل علي وآل عقيل وآل جعفر وآل عباس ؑ قال : كل هؤلاء حرم الصدقة بعده ؟ قال : نعم ^(١) .

وروي عن زيد بن أرقم بنحو ما تقدم وفيه فقلت له : من أهل بيته نساؤه ؟ قال : لا وإيم الله إن المرأة تكون مع الرجل العصر من الدهر ثم يطلقها فترجع إلى أبيها وقومها ، أهل بيته أصله وعصبته الذين حرموا الصدقة بعده . هكذا وقع في هذه الرواية والأولى أولى والأخذ بها أخرى . وهذه الثانية تحتمل أنه أراد تفسير الأهل المذكورين في الحديث الذي رواه ، وإنما المراد بهم آل الذين حرموا الصدقة أو أنه ليس المراد بالأهل الأزواج فقط ، بل هم مع آلهم ، وهذا الاحتمال أرجح جمعاً بينها وبين الرواية التي قبلها ، وجمعاً أيضاً بين القرآن والأحاديث المتقدمة إن صححت ، فإن في بعض أسانيدنا نظراً والله أعلم . ثم الذي لا يشك فيه من تدبر القرآن أن نساء النبي ﷺ داخلات في قوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً ﴾ فإن سياق الكلام معهن ؛ ولهذا قال تعالى بعد هذا كله : ﴿ وَأَذْكُرَنَّ مَا يَكُنْ فِي بَيْتِكُمْ مِنْ بَإْتِ اللَّهِ وَالْحِكْمَةِ ﴾ أي : واعملن بما ينزل الله تبارك وتعالى على رسوله ﷺ في بيوتكن من الكتاب والسنة . قاله قتادة وغير واحد . واذكرن هذه النعمة التي خصصتن بها من بين الناس ، أن الوحي ينزل في بيوتكن دون سائر الناس ، وعائشة الصديقة بنت الصديق ؓ أولاهن بهذه النعمة وأحظاهن بهذه الغنيمة وأخصهن من هذه الرحمة العظيمة ، فإنه لم ينزل على رسول الله ﷺ الوحي في فراش امرأة سواها . كما نص على ذلك صلوات الله وسلامه عليه . قال بعض العلماء ؒ : لأنه لم يتزوج بكراً سواها ، ولم ينم معها رجل في فراشها سواه ﷺ ورضي الله عنها فناسب أن تخصص بهذه المزية ، وأن تفرد بهذه المرتبة العلية ، ولكن إذا كان أزواجه من أهل بيته فقربته أحق بهذه التسمية . كما تقدم في الحديث : « وَأَهْلُ بَيْتِي أَحَقُّ » وهذا يشبه ما ثبت في صحيح مسلم أن رسول الله ﷺ لما سئل عن المسجد الذي أسس على التقوى من أول يوم فقال : « هُوَ مَسْجِدِي هَذَا » ^(٢) . فهذا من هذا

(١) أخرجه مسلم في (فضائل الصحابة) (٣٦) .

(٢) أخرجه مسلم في الحج (٥١٤) وأحمد في مسنده (٨/٣) والترمذي في سننه (٣٠٩٩) .

القبيل . فإن الآية إنما نزلت في مسجد قباء كما ورد في الأحاديث الأخر . ولكن إذا كان ذلك أسس على التقوى من أول يوم ، فمسجد رسول الله ﷺ أولى بتسميته بذلك والله أعلم .

وقوله تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ كَاتٌ لَطِيفًا خَيْرًا ﴾ قال ابن جرير رحمه الله : واذكروا نعمة الله عليكم بأن جعلكم في بيوت تتلى فيها آيات الله والحكمة ، فاشكروا الله تعالى على ذلك واحمدنه ^(١) . ﴿ إِنَّ اللَّهَ كَاتٌ لَطِيفًا خَيْرًا ﴾ أي ذا لطف بكن إذ جعلكم في البيوت التي تتلى فيها آيات الله والحكمة وهي السنة ، خبيراً بكن إذ اختاركن لرسوله أزواجاً . وقال قتادة : ﴿ وَاذْكُرْنَ مَا يُكُنْ فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ وَالْحِكْمَةِ ﴾ قال : يمتن عليهن بذلك . وقال عطية العوفي في قوله تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ كَاتٌ لَطِيفًا خَيْرًا ﴾ يعني : لطيفاً باستخراجها خبيراً بموضعها .

﴿ إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَالْقَنِينَ وَالْقَنِينَ وَالصَّادِقِينَ وَالصَّادِقَاتِ وَالصَّابِرِينَ وَالصَّابِرَاتِ وَالْخَاشِعِينَ وَالْخَاشِعَاتِ وَالْمُتَصَدِّقِينَ وَالْمُتَصَدِّقَاتِ وَالصَّانِعِينَ وَالصَّانِعَاتِ وَالْحَافِظِينَ وَالْحَافِظَاتِ وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ﴾ .

قال عبد الرحمن بن شيبه : سمعت أم سلمة رضي الله عنها زوج النبي ﷺ تقول : قلت للنبي ﷺ : ما لنا لا نذكر في القرآن كما يذكر الرجال ؟ قالت : فلم يرعني منه ذات يوم إلا وندأوه على المنبر قالت : وأنا أسرح شعري فلففت شعري ثم خرجت إلى حجرتي حجرة بيتي ، فجعلت سمعي عند الجريد ، فإذا هو يقول عند المنبر : « يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى يَقُولُ : ﴿ إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ﴾ » إلى آخر الآية ^(٢) .

وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال : قال النساء للنبي ﷺ : ما له يذكر المؤمنين ولا يذكر المؤمنات ؟ فأَنزَلَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ ﴾ الآية . وعن قتادة قال : دخل نساء على نساء النبي ﷺ فقلن : قد ذكركن الله تعالى في القرآن ولم نذكر بشيء أما فينا ما يذكر ؟ فَأَنزَلَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ ﴾ الآية ^(٣) . فقله تعالى : ﴿ إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ﴾ دليل على أن الإيمان غير الإسلام وهو أخص منه لقوله تعالى : ﴿ قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ ﴾ وفي الصحيحين : « لَا يَزْنِي الزَّانِي حِينَ يَزْنِي وَهُوَ مُؤْمِنٌ » ^(٤) فيسلبه الإيمان ولا يلزم من ذلك كفره بإجماع المسلمين فدل على أنه أخص منه . وقوله تعالى : ﴿ وَالْقَنِينَ وَالْقَنِينَ ﴾ القنوت : هو الطاعة في سكون ﴿ آمَنَ هُوَ قَنِيئٌ مَائَةٌ أَلِيلٌ سَاجِدٌ وَقَائِمًا يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ ﴾ فالإسلام بعده مرتبة يرتقي إليها ، وهو الإيمان ، ثم القنوت ناشئ عنهما . ﴿ وَالصَّادِقِينَ وَالصَّادِقَاتِ ﴾ هذا في الأقوال فإن الصدق خصلة محمودة ؛ ولهذا كان بعض الصحابة رضي الله عنهم لم تجرب عليه كذبة لا في الجاهلية ولا في الإسلام وهو علامة على الإيمان كما أن الكذب أمانة على النفاق ، ومن صدق نجا « عَلَيْكُمْ بِالصُّدُقِ ، فَإِنَّ الصُّدُقَ يَهْدِي إِلَى الْبِرِّ ، وَإِنَّ الْبِرَّ يَهْدِي إِلَى

(١) ذكره ابن جرير الطبري في تفسيره (١٣/٢٢) .

(٢) أخرجه أحمد في مسنده (٣٠١/٦) .

(٣) ذكره ابن جرير الطبري في تفسيره (١٤/٢٢) .

(٤) أخرجه البخاري في الأشربة (٥٥٧٨) والحدود (٦٧٨٢) ومسلم في الإيمان (١٠٠ ، ١٠٥) .

الْجَنَّةِ ، وَإِيَّاكُمْ وَالْكَذِبَ ، فَإِنَّ الْكَذِبَ يَهْدِي إِلَى الْفُجُورِ ، وَإِنَّ الْفُجُورَ يَهْدِي إِلَى النَّارِ . وَلَا يَزَالُ الرَّجُلُ يَصْدُقُ وَيَتَحَرَّى الصَّدْقَ حَتَّى يُكْتَبَ عِنْدَ اللَّهِ صِدْقًا ، وَلَا يَزَالُ الرَّجُلُ يَكْذِبُ وَيَتَحَرَّى الْكَذِبَ حَتَّى يُكْتَبَ عِنْدَ اللَّهِ كَذَابًا ^(١) . وَالْأَحَادِيثُ فِيهِ كَثِيرَةٌ جَدًّا . ﴿ وَالصَّادِقِينَ وَالصَّادِقَاتِ ﴾ هذه سجية الأثبات وهي الصبر على المصائب والعلم بأن المقدر كائن لا محالة ، وتلقي ذلك بالصبر والثبات ، وإنما الصبر عند الصدمة الأولى . أي : أصعبه في أول وهلة ، ثم ما بعده أسهل منه وهو صدق السجية وثباتها . ﴿ وَالْخَاشِعِينَ وَالْخَاشِعَاتِ ﴾ الخشوع : السكون والطمأنينة والتؤدة والوقار والتواضع ، والحامل عليه الخوف من الله تعالى ومراقبته . كما في الحديث : « اغْبِثْ اللَّهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ ، فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ » ^(٢) . ﴿ وَالْمُصْذِقِينَ وَالْمُصْذِقَاتِ ﴾ الصدقة ، هي الإحسان إلى الناس المحايير الضعفاء الذين لا كسب لهم ولا كاسب يعطون من فضول الأموال طاعة لله وإحساناً إلى خلقه . وقد ثبت في الصحيحين : « سَبْعَةٌ يُظِلُّهُمُ اللَّهُ فِي ظِلِّهِ يَوْمَ لَا ظِلَّ إِلَّا ظِلُّهُ - فذكر منهم - وَرَجُلٌ تَصَدَّقَ بِصَدَقَةٍ فَأَخْفَاهَا حَتَّى لَا تَعْلَمَ شِمَالُهُ مَا تُنْفِقُ بِيَمِينِهِ » ^(٣) . وفي الحديث الآخر : « وَالصَّدَقَةُ تُطْفِئُ الْخَطِيئَةَ كَمَا يُطْفِئُ الْمَاءُ النَّارَ » ^(٤) . وَالْأَحَادِيثُ فِي الْحَثِّ عَلَيْهَا كَثِيرَةٌ جَدًّا ﴿ وَالصَّادِقِينَ وَالصَّادِقَاتِ ﴾ وفي الحديث « وَالصُّومُ زَكَاةُ الْبَدَنِ » أي : يركبه ويطهره وينقيه من الأخلاط الرديئة طبعاً وشرعاً . كما قال سعيد بن جبيرة : من صام رمضان وثلاثة أيام من كل شهر دخل في قوله تعالى : ﴿ وَالصَّادِقِينَ وَالصَّادِقَاتِ ﴾ ولما كان الصوم من أكبر العون على كسر الشهوة كما قال رسول الله ﷺ : « يَا مَعْشَرَ الشَّبَابِ مَنْ اسْتَطَاعَ مِنْكُمُ الْبَاءَةَ فَلْيَتَزَوَّجْ ، فَإِنَّهُ أَغْضُ لِلْبَصَرِ وَأَحْصَنُ لِلْفَرْجِ ، وَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَعَلَيْهِ بِالصُّومِ فَإِنَّهُ لَهُ وَجَاءٌ » ^(٥) ناسب أن يذكر بعده ﴿ وَالْحَافِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَالْحَافِظَاتِ ﴾ أي : عن المحارم والمأثم إلا عن المباح كما قال ﷺ : ﴿ وَالَّذِينَ هُمْ يُفَرِّجُهُمْ حَفِظُوهُ ۖ إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ۚ فَمَنْ أَتَىٰ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْعَادُونَ ﴾ .

وقوله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ اللَّهُ كَثِيرًا وَالذِّكْرُ ﴾ عن أبي سعيد الخدري ﷺ قال : إن رسول الله ﷺ قال : « إِذَا أَقْبَضَ الرَّجُلُ أَمْرَاتِهِ مِنَ اللَّيْلِ فَصَلِّيًا رُكْعَتَيْنِ كَانَا تِلْكَ اللَّيْلَةُ مِنَ الذَّاكِرِينَ اللَّهُ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ » ^(٦) . وعن أبي سعيد الخدري ﷺ أيضاً أنه قال : قلت : يا رسول الله أي العباد أفضل درجة عند الله تعالى يوم القيامة ؟ قال ﷺ : « الذَّاكِرُونَ اللَّهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتُ » قال : قلت : يا رسول الله ومن الغازي في سبيل الله تعالى ؟ قال : « لَوْ ضَرَبَ بِسَيْفِهِ فِي الْكُفَّارِ وَالْمُشْرِكِينَ حَتَّى

(١) أخرجه مسلم في (البر والصلة) (١٠٥) وأحمد في مسنده (٣٨٤/١ ، ٤٣٢) والترمذي في سننه (١٩٧١) .

(٢) أخرجه أحمد في مسنده (١٣٢/٢) والهيثم في مجمع الزوائد (٤٠/٢) ، (٢١٨/٤) .

(٣) أخرجه البخاري في (الأذان) (٦٦٠) ومسلم في الزكاة (٩١) .

(٤) أخرجه أحمد في مسنده (٣٢١/٣) ، (٢٣١/٥) .

(٥) أخرجه البخاري في (النكاح) (٥٠٦٥) ومسلم في النكاح (١ ، ٢) .

(٦) أخرجه الحاكم في المستدرک (٤١٦/٢) وأبو داود بنحوه (١٣٠٩) .

يُتَكَبَّرُ وَيَخْتَضِبُ دَمَا لَكَانَ الذَّاكِرُونَ اللَّهَ تَعَالَى أَفْضَلَ مِنْهُ « (١) .

وعن أبي هريرة ؓ قال : كان رسول الله ﷺ يسير في طريق مكة فأتى على جمدان فقال : « هَذَا جَمْدَانُ سِيرُوا فَقَدْ سَبَقَ الْمَفْرُودُونَ » قالوا : وما المفردون ؟ قال ﷺ : « الذَّاكِرُونَ اللَّهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتُ » . ثم قال ﷺ : « اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِلْمُخَلِّقِينَ » قالوا : والمقصرين ؟ قال ﷺ : « اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِلْمُخَلِّقِينَ » قالوا : والمقصرين قال : « وَالْمُقَصِّرِينَ » (٢) . وعن معاذ بن جبل ؓ أنه قال : قال رسول الله ﷺ : « مَا عَمِلَ آدَمِيُّ عَمَلًا قَطُّ أَنْجَى لَهُ مِنْ عَذَابِ اللَّهِ تَعَالَى مِنْ ذِكْرِ اللَّهِ ﷻ » (٣) . وعن سهل ابن معاذ بن أنس الجهني عن أبيه ؓ عن رسول الله ﷺ قال : إن رجلاً سأله فقال : أي المجاهدين أعظم أجراً يا رسول الله ؟ قال ﷺ : « أَكْثَرُهُمْ لِلَّهِ تَعَالَى ذِكْرًا » قال : فأبي الصائمين أكثر أجراً ؟ قال ﷺ : « أَكْثَرُهُمْ لِلَّهِ ذِكْرًا » ثم ذكر الصلاة والزكاة والحج والصدقة . كل ذلك يقول رسول الله ﷺ : « أَكْثَرُهُمْ لِلَّهِ ذِكْرًا » فقال أبو بكر لعمر ؓ : ذهب الذَّاكِرُونَ بكل خير فقال رسول الله ﷺ : « أَجَلٌ » (٤) . وقوله تعالى : ﴿ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ﴾ خبر عن هؤلاء المذكورين كلهم ، أي : أن الله تعالى قد أعد لهم ؛ أي هيأ لهم مغفرة منه لذنوبهم وأجراً عظيماً وهو الجنة . ﴿ وَمَا كَانَ لِلْمُؤْمِنِينَ وَلَا الْمُؤْمِنَاتِ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُبِينًا ﴾ .

قال ابن عباس ؓ في قوله تعالى : ﴿ وَمَا كَانَ لِلْمُؤْمِنِينَ وَلَا الْمُؤْمِنَاتِ ﴾ الآية : وذلك أن رسول الله ﷺ انطلق ليخطب على فتاه زيد بن حارثة ؓ ، فدخل على زينب بنت جحش الأسدية ؓ فخطبها فقالت : لست بناكحته . فقال رسول الله ﷺ : « بَلْ فَاثْكُجِيهِ » قالت : يا رسول الله أوامر في نفسي ؟ فبينما هما يتحدثان أنزل الله هذه الآية على رسول الله ﷺ ﴿ وَمَا كَانَ لِلْمُؤْمِنِينَ وَلَا الْمُؤْمِنَاتِ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا ﴾ الآية . قالت : قد رضيته لي يا رسول الله منكحاً ؟ قال رسول الله ﷺ : « نَعَمْ » قالت : إذا لا أعصي رسول الله ﷺ قد أنكحته نفسي (٥) . وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم : نزلت في أم كلثوم بنت عقبة بن أبي معيط ؓ وكانت أول من هاجر من النساء - يعني بعد صلح الحديبية - فوهبت نفسها للنبي ﷺ فقال : قد قبلت فزوجها زيد بن حارثة ؓ - يعني - والله أعلم - بعد فراقه زينب فسخطت هي وأخوها وقالوا : إنما أردنا رسول الله ﷺ فزوجنا عبده قال : فنزل القرآن ﴿ وَمَا كَانَ لِلْمُؤْمِنِينَ وَلَا الْمُؤْمِنَاتِ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا ﴾ إلى آخر الآية . قال : وجاء أمر أجمع من هذا ﴿ أَلَيْسَ أُولَىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ ﴾ قال : فذاك خاص وهذا أجمع .

وقال أبو ברزة الأسلمي : إن جليبيثا كان امرأة يدخل على النساء يمرنهن ويلاعبهن ، فقلت

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٧٥/٣) .

(٢) أخرجه مسلم بنحوه في (الذكر والدعاء) (٤) وأحمد في مسنده (٤١١/٢) .

(٣) أخرجه أحمد في مسنده (٢٣٩/٥) .

(٤) أخرجه أحمد في مسنده (٤٣٨/٣) والهيثمي في مجمع الزوائد (٧٤/١٠) .

(٥) أورده ابن الجوزي في زاد المسير (٣٨٥/٦) .

لامرأتي : لا تدخلن عليكن جليبيتا فإنه إن دخل عليكن لأفعلن ولأفعلن . قال : وكانت الأنصار إذا كان لأحدهم أيم لم يزوجها حتى يعلم هل للنبي ﷺ فيها حاجة أم لا ، فقال النبي ﷺ لرجل من الأنصار : « زَوِّجْنِي ابْنَتَكَ » قال : نعم وكرامة يا رسول الله ونعمة عين ، فقال ﷺ : « إِنِّي لَسْتُ أُرِيدُهَا لِنَفْسِي » قال : فلمن يا رسول الله ؟ قال ﷺ : « لجلييب » فقال : يا رسول الله أشاور أمها ، فأتى أمها ، فقال : رسول الله ﷺ يخطب ابنتك ، فقالت : نعم ونعمة عين . فقال : إنه ليس يخطبها لنفسه إنما يخطبها لجلييب فقالت : أجلييب ابنه ، أجلييب ابنه ؟ لا لعمر الله لا نزوجه ، فلما أراد أن يقوم ليأتي رسول الله ﷺ فيخبره بما قالت أمها . قالت الجارية : من خطبني إليكم ؟ فأخبرتها أمها ، قالت : أتردون على رسول الله ﷺ أمره ؟ ادفعوني إليه فإنه لن يضيعني . فانطلق أبوها إلى رسول الله ﷺ فقال : شأنك بها فزوجها جليبيتا قال : فخرج رسول الله ﷺ في غزوة له ، فلما أفاء الله عليه قال لأصحابه ﷺ : « هَلْ تَفْقِدُونَ مِنْ أَحَدٍ » قالوا : نفقد فلانا ونفقد فلانا ، قال ﷺ : « انظُرُوا هَلْ تَفْقِدُونَ مِنْ أَحَدٍ » قالوا : لا ، قال ﷺ : « لَكِنِّي أَفْقِدُ جَلِيبِيَّتَا » قال ﷺ : فاطلبوه في القَتْلِى فطلبوه فوجدوه إلى جنب سبعة قد قتلهم ، ثم قتلوه . فقالوا : يا رسول الله ها هو ذا إلى جنب سبعة قد قتلهم ثم قتلوه . فأتاه رسول الله ﷺ فقام عليه فقال : « قَتَلَ سَبْعَةً وَقَتَلُوهُ ، هَذَا مِنِّي وَأَنَا مِنْهُ » مرتين أو ثلاثا ثم وضعه رسول الله ﷺ على ساعديه وحفر له ، ما له سرير إلا ساعد النبي ﷺ ثم وضعه في قبره ولم يذكر أنه غسله ﷺ . قال ثابت ﷺ : فما كان في الأنصار أيم أنفق منها . وحدث إسحاق بن عبد الله ابن أبي طلحة ثابتا ، هل تعلم ما دعا لها رسول الله ﷺ ؟ فقال : « اللَّهُمَّ صُبْ عَلَيْهَا الْخَيْرَ صَبًّا ، وَلَا تَجْعَلْ عَيْشَهَا كَدًّا » . وكذا كان فما كان في الأنصار أيم أنفق منها ^(١) .

وقال طاووس : إنه سأل ابن عباس عن ركعتين بعد العصر فنهاه . وقرأ ابن عباس ﷺ : ﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ﴾ فهذه الآية عامة في جميع الأمور ، وذلك أنه إذا حكم الله ورسوله بشيء فليس لأحد مخالفته ولا اختيار لأحد ها هنا ولا رأي ولا قول كما قال تبارك وتعالى : ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُعْكِمُوا شَجَرَكُمْ بِمَا شَكَرْتُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتُمْ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴾ وفي الحديث : « وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى يَكُونَ هَوَاهُ تَبَعًا لِمَا جُفْتُ بِهِ » ولهذا شدد في خلاف ذلك فقال : ﴿ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُبِينًا ﴾ كقوله تعالى : ﴿ فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ .
﴿ وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللَّهَ وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ فَلَمَّا قَضَى زَيْدٌ مِنْهَا وَطَرَ زَوْجَهَا لَوْ كَانَ عَلَيْهِ سَمْعُ السَّمْعِ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَنْزِلِ أَدْعِيَائِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَرَ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا ﴾ .

يقول تعالى مخبرًا عن نبيه ﷺ أنه قال لمولاه زيد بن حارثة ﷺ ، وهو الذي أنعم الله عليه ، أي بالإسلام ومتابعة الرسول ﷺ : ﴿ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ ﴾ أي : بالعتق من الرق وكان سيدًا كبير الشأن جليل القدر حبيبًا إلى النبي ﷺ يقال له : الحب ، ويقال لابنه أسامة : الحب ابن الحب . قالت عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا :

ما بعثه رسول الله ﷺ في سرية إلا أثره عليهم ، ولو عاش بعده لاستخلفه ^(١) . وقال عمر بن أبي سلمة عن أبيه قال : حدثني أسامة بن زيد ؓ قال : كنت في المسجد فأتاني العباس وعلي بن أبي طالب ؓ فقالا : يا أسامة استأذن لنا على رسول الله ﷺ ، قال : فأتيت رسول الله ﷺ فأخبرته فقلت : علي والعباس يستأذنان ، فقال ﷺ : « أَتَدْرِي مَا حَاجَتُهُمَا ؟ » قلت : لا يا رسول الله . قال ﷺ : « لِكَيْنِي أُدْرِي » ، قال : فأذن لهما ، قال : يا رسول الله جنناك لتخبرنا أي أهلِكَ أحب إليك ؟ قال ﷺ : « أَحَبُّ أَهْلِي إِلَيَّ فَاطِمَةُ بِنْتُ مُحَمَّدٍ » . قال : يا رسول الله ما نسألك عن فاطمة ، قال ﷺ : « فَأَسَامَةُ بْنُ زَيْدٍ بِنَ حَارِثَةَ الَّذِي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ » . وكان رسول الله ﷺ قد زوجه بابنة عمته زينب بنت جحش الأسديّة ؓ وأمها أميمة بنت عبد المطلب ، وأصدقها عشرة دنانير وستين درهماً وخمراً وملحفة ودرعاً وخمسين مداً من طعام وعشرة أمداد من تمر . قاله مقاتل بن حيان ، فمكثت عنده قريباً من سنة أو فوقها ثم وقع بينهما ، فجاء زيد يشكوها إلى رسول الله ﷺ فجعل رسول الله ﷺ يقول له : « أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللَّهَ » . قال الله تعالى : ﴿ وَتَخْفَى فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ ﴾ . وعن أنس بن مالك ؓ قال : إن هذه الآية نزلت في شأن زينب بنت جحش وزيد بن حارثة ؓ ^(٢) . وروى عن السدي قال فيها : قد أخبرتك أنني مزوجكها وتخفي في نفسك ما الله مبديه .

عن عائشة ؓ أنها قالت : لو كنتم محمد ﷺ شيئاً مما أوحى إليه من كتاب الله تعالى لكنتم ﴿ وَتَخْفَى فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ ﴾ ^(٣) . وقوله تعالى : ﴿ فَلَمَّا قَضَى زَيْدٌ مِنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَاكَهَا ﴾ الوطر : هو الحاجة والأرب أي : لما فرغ منها وفارقها زوجها ، وكان الذي ولي تزويجها منه هو الله ﷻ . بمعنى : أنه أوحى إليه أن يدخل عليها بلا ولي ولا عقد ولا مهر ولا شهود من البشر . فعن أنس ؓ قال : لما انقضت عدة زينب ؓ قال رسول الله ﷺ لزيد بن حارثة : « أَذْهَبَ فَأَذْكُرُهَا عَلَيَّ » فانطلق حتى أتاها وهي تخمر عجبها قال : فلما رأيتها عظمت في صدري حتى ما أستطيع أن أنظر إليها ، وأقول : إن رسول الله ﷺ ذكرها فوليتها ظهري ونكصت على عقبي وقلت : يا زينب أبشري أرسلني رسول الله ﷺ يذكرك ، قالت : ما أنا بصانعة شيئاً حتى أوامر ربي ﷻ ، فقامت إلى مسجدتها ونزل القرآن وجاء رسول الله ﷺ فدخل عليها بغير إذن ، ولقد رأيتنا حين دخلت على رسول الله ﷺ وأطعمنا عليها الخبز واللحم فخرج الناس وبقي رجال يتحدثون في البيت بعد الطعام ، فخرج رسول الله ﷺ واتبعته فجعل ﷺ يتبع حجر نسائه يسلم عليهن ويقلن : يا رسول الله كيف وجدت أهلِكَ ؟ فما أدري أنا أخبرته أن القوم قد خرجوا أو أخبر فانطلق حتى دخل البيت فذهبت أدخل معه ، فألقى الستر بيني وبينه ونزل الحجاب ووعظ القوم بما وعظوا به ﴿ لَا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إِلَّا أَنْ يُؤْذَنَ لَكُمْ ﴾ الآية كلها ^(٤) . وعن أنس بن مالك ؓ قال : إن زينب بنت جحش ؓ كانت تغفر على أزواج النبي ﷺ فتقول : زوجكن أهاليكن وزوجني

(٢) أخرجه البخاري في (تفسير القرآن) (٤٧٨٧) .

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٢٢٧/٦) .

(٣) ذكره ابن جرير الطبري في تفسيره (١٨/٢٢) .

(٤) أخرجه أحمد في مسنده (١٩٥/٣) والسيوطي في الدر المنثور (٢٠١/٥) .

اللَّهُ تعالى من فوق سبع سموات ^(١) ، وعن عبد الله بن جحش قال : فتفاخرت زينب وعائشة رضي الله عنهما فقالت زينب رضي الله عنها : أنا التي نزل تزويجي من السماء ، وقالت عائشة رضي الله عنها : أنا التي نزل عذري من السماء فاعترفت لها زينب رضي الله عنها . وقال الشعبي : كانت زينب رضي الله عنها تقول للنبي صلى الله عليه وسلم : إني لأدل عليك بثلاث ، ما من نسائك امرأة تدل بهن : إن جدي وجدك واحد ، وإني أنكحنيك الله تعالى من السماء ، وإن السفير جبريل عليه الصلاة والسلام ^(٢) . وقوله تعالى : ﴿ لَيْسَ لَكَ بِكَوْنٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَاجٌّ فِي أَنْزِلِ أَدْعِيَاهُمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَرًا ﴾ أي : إنما أبحنا لك تزويجها ، فعلنا ذلك ؛ لئلا يبقى حرج على المؤمنين في تزويج مطلقات الأدعياء . وذلك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان قبل النبوة قد بنى زيد بن حارثة رضي الله عنه فكان يقال له : زيد بن محمد ، فلما قطع الله تعالى هذه النسبة بقوله تعالى : ﴿ وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَاءَكُمْ أَبْنَاءَكُمْ ۖ أَدْعَوْهُمْ لِأَبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ ﴾ ثم زاد بيانا وتأكيذا بوقوع تزويج رسول الله صلى الله عليه وسلم بزينب بنت جحش رضي الله عنها لما طلقها زيد بن حارثة رضي الله عنه ، ولهذا قال تعالى في آية التحريم : ﴿ وَحَلَائِلُ أَبْنَائِكُمُ الَّذِينَ مِنْ أَطْلَافِكُمْ ﴾ ليحترز من الابن الدعي ، فإن ذلك كان كثيرا فيهم . وقوله تعالى : ﴿ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا ﴾ أي : كان هذا الأمر الذي وقع قد قدره الله تعالى وحتمه ، وهو كائن لا محالة ، كانت زينب رضي الله عنها في علم الله ستصير من أزواج النبي صلى الله عليه وسلم .

﴿ مَا كَانَ عَلَى النَّبِيِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ اللَّهُ لَهُ سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَرًا مَقْدُورًا ﴾ . يقول تعالى : ﴿ مَا كَانَ عَلَى النَّبِيِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ اللَّهُ لَهُ ﴾ أي : فيما أحل له وأمره به من تزويج زينب رضي الله عنها التي طلقها دعيه زيد بن حارثة رضي الله عنه . وقوله تعالى : ﴿ سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ ﴾ أي : هذا حكم الله تعالى في الأنبياء قبله ، لم يكن ليأمرهم بشيء وعليهم في ذلك حرج . وهذا رد عن من توهم من المنافيين نقصا في تزويجه امرأة زيد مولاة ودعيه الذي قد تنباه ﴿ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَرًا مَقْدُورًا ﴾ أي : وكان أمره الذي يقدره كائنا لا محالة وواقعا لا محيد عنه . ولا معدل ، فما شاء كان وما لم يشأ لم يكن .

﴿ الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالَاتِ اللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا اللَّهَ وَكُنْ بِاللَّهِ حَسِيبًا ﴾ ١٥ مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِنْ رِجَالِكُمْ وَلَكِنْ رَسُولُ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا .

يمدح تبارك وتعالى : ﴿ الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالَاتِ اللَّهِ ﴾ أي : إلى خلقه ويؤدونها بأماناتها ﴿ وَيَخْشَوْنَهُ ﴾ أي : يخافونه ولا يخافون أحدا سواه ، فلا تمنعهم سطوة أحد عن إبلاغ رسالات الله تعالى ﴿ وَكُنْ بِاللَّهِ حَسِيبًا ﴾ أي : وكفى بالله ناصرا ومعينا ، وسيد الناس في المقام ، بل وفي كل مقام محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم فإنه قام بأداء الرسالة ، وإبلاغها إلى أهل المشرق والمغرب ، إلى جميع أنواع بني آدم . وأظهر الله تعالى كلمته ودينه وشرعه على جميع الأديان والشرائع ، فإنه قد كان النبي قبله إنما يبعث إلى قومه خاصة ، وأما هو صلى الله عليه وسلم فإنه بعث إلى جميع الخلق عربهم وعجمهم ﴿ قَدْ يَأْتِيهَا النَّاسُ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ﴾ ثم ورث مقام البلاغ عنه أمته من بعده ، فكان أعلى من قام بها بعده أصحابه رضي الله عنهم بلغوا عنه كما أمرهم به ، ففي جميع أقواله وأفعاله وأحواله في ليله ونهاره وحضره وسفره وسره

وعلانيتها ، فرضي الله عنهم وأرضاهم . ثم ورثه كل خلف عن سلفهم إلى زماننا هذا ، فبنورهم يقتدي المهتدون ، وعلى منهجهم يسلك الموفقون . فنسأل الله الكريم المنان أن يجعلنا من خلفهم .

وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال : قال عليه السلام : « لَا يَخْقِرُونَ أَحَدَكُمْ نَفْسُهُ أَنْ يَرَى أَمْرًا لِلَّهِ فِيهِ مَقَالٌ ، ثُمَّ لَا يَقُولُهُ فَيَقُولُ اللَّهُ : مَا يَمْنَعُكَ أَنْ تَقُولَ مِنْهُ ؟ فَيَقُولُ : رَبِّ خَشِيتُ النَّاسَ ، فَيَقُولُ : فَأَنَا أَحَقُّ أَنْ يُخْشَى » ^(١) . وقوله تعالى : ﴿ مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِنْ رِجَالِكُمْ ﴾ نهى أن يقال بعد هذا : زيد بن محمد ، أي : لم يكن أباه - وإن كان قد تبناه - فإنه عليه السلام لم يعيش له ولد ذكر حتى بلغ الحلم ، فإنه عليه السلام ولد له القاسم والطيب والطاهر من خديجة رضي الله عنها فماتوا صغارًا ، وولد له عليه السلام إبراهيم من مارية القبطية فمات أيضًا رضيعًا ، وكان له عليه السلام من خديجة أربع بنات : زينب ورقية وأم كلثوم وفاطمة رضي الله عنهن أجمعين فمات في حياته عليه السلام ثلاث ، وتأخرت فاطمة رضي الله عنها حتى أصيبت به عليه السلام ، ثم ماتت بعده لسته أشهر . وقوله تعالى : ﴿ وَلَكِنْ رَسُولَ اللَّهِ وَخَاتَرَ النَّبِيِّنَّ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا ﴾ كقوله عليه السلام : ﴿ اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ ﴾ فهذه الآية نص في أنه لا نبي بعده ، وإذا كان لا نبي بعده فلا رسول بعده بالطريق الأولى والأخرى ؛ لأن مقام الرسالة أخص من مقام النبوة ، فإن كل رسول نبي ولا ينعكس . وبذلك وردت الأحاديث المتواترة عن رسول الله عليه السلام من حديث جماعة من الصحابة رضي الله عنهم ، قال أبي ابن كعب عن أبيه رضي الله عنه عن النبي عليه السلام قال : « مَلَكِي فِي النَّبِيِّينَ كَمَلِ رَجُلٍ بَنَى دَارًا فَأَحْسَنَهَا وَأَكْمَلَهَا وَتَرَكَ فِيهَا مَوْضِعَ لَبَنَةٍ لَمْ يَضَعْهَا ، فَجَعَلَ النَّاسُ يَطْوُقُونَ بِالْبَنِيَانِ وَيَعْجَبُونَ مِنْهُ وَيَقُولُونَ : لَوْ تَمَّ مَوْضِعُ هَذِهِ اللَّبَنَةِ ؟ فَأَنَا فِي النَّبِيِّينَ مَوْضِعُ تِلْكَ اللَّبَنَةِ » ^(٢) .

وعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال : قال رسول الله عليه السلام : « إِنَّ الرِّسَالَةَ وَالنَّبُوَّةَ قَدْ انْقَطَعَتْ فَلَا رَسُولَ بَعْدِي وَلَا نَبِيٍّ » . قال : فشق ذلك على الناس . فقال : « وَلَكِنَّ الْمُبَشِّرَاتِ » قالوا : يا رسول الله وما المبشرات ؟ قال : « رُؤْيَا الرَّجُلِ الْمُسْلِمِ وَهِيَ جُزْءٌ مِنْ أَجْزَاءِ النَّبُوَّةِ » ^(٣) .

وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله عليه السلام قال : « فَضَّلْتُ عَلَى الْأَنْبِيَاءِ بَيْتٌ : أُعْطِيتُ جَوَامِعَ الْكَلِمِ ، وَنُصِرْتُ بِالرَّغْبِ ، وَأُحِلَّتْ لِي الْغَنَائِمُ ، وَجُعِلَتْ لِي الْأَرْضُ مَسْجِدًا وَطَهُورًا ، وَأُزِيلَتْ إِلَيَّ الْحَلْقِي كَافَّةً ، وَخُتِمَ بِي النَّبِيُّونَ » ^(٤) .

وعن جبير بن مطعم رضي الله عنه قال : سمعت رسول الله عليه السلام يقول : « إِنَّ لِي أَسْمَاءً : أَنَا مُحَمَّدٌ ، وَأَنَا أَحْمَدُ ، وَأَنَا الْمَاجِي الَّذِي يَخُوهُ اللَّهُ تَعَالَى بِي الْكَفَرُ ، وَأَنَا الْحَاشِرُ الَّذِي يُخْشَرُ النَّاسُ عَلَيَّ قَدَمِي ، وَأَنَا الْعَاقِبُ الَّذِي لَيْسَ بَعْدَهُ نَبِيٌّ » ^(٥) . وقال عبد الله بن عمرو : خرج علينا رسول الله عليه السلام يومًا

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٣٠/٣) وابن ماجه في سننه (٤٠٠٨) .

(٢) أخرجه أحمد في مسنده (١٣٨/٥) والترمذي في سننه (٣٦١٣) .

(٣) أخرجه أحمد في مسنده (٢٦٧/٣) والترمذي في سننه (٢٢٧٢) .

(٤) أخرجه مسلم في المساجد (٤) والبيهقي في الكبرى (٢١٣/١) .

(٥) أخرجه البخاري في (تفسير القرآن) (٤٨٩٦) ومسلم في الفضائل (١٢٤) .

كالمودع فقال : « أَنَا مُحَمَّدُ النَّبِيِّ الْأُمِّي - ثَلَاثًا - وَلَا نَبِيَّ بَعْدِي ، أَوْتَيْتُ فَوَاحِشَ الْكَلِمِ وَجَوَامِعَهُ وَخَوَاتِمَهُ ، وَعِلِمْتُ كَمَ خَزَنَةِ النَّارِ وَحَمَلَةُ الْعَرْشِ ، وَتَجَوَّزْتُ بِي ، وَغُوفِيْتُ وَغُوفِيْتُ أَمْنِي ، فَاسْمَعُوا وَأَطِيعُوا مَا دُمْتُ فِيكُمْ ، فَإِذَا ذُهِبَ بِي فَعَلَيْكُمْ يَكْتَابُ اللَّهُ تَعَالَى أَجْلُوا حَلَالَهُ وَحَرَّمُوا حَرَامَهُ » (١) .

والأحاديث في هذا كثيرة ، فمن رحمة الله تعالى بالعباد ، لإرسال محمد ﷺ إليهم ، ثم من تشريفه لهم ختم الأنبياء والمرسلين به وإكمال الدين الخفيف له ، وقد أخبر الله تبارك وتعالى في كتابه ورسوله ﷺ في السنة المتواترة عنه أنه : لا نبي بعده ؛ ليعلموا أن كل من ادعى هذا المقام بعده فهو كذاب أفك دجال ضال مضل ، ولو تخرق وشعبذ وأتى بأنواع السحر والطلاسم والنيرنجيات فكلها محال وضلال عند أولي الأبواب . كما أجرى الله ﷻ على يد الأسود العنسي باليمن ومسيلمة الكذاب باليمامة من الأحوال الفاسدة والأقوال الباردة ما علم كل ذي لب وفهم وحجى أنهما كاذبان ضالان لعنهما الله . وكذلك كل مدع لذلك إلى يوم القيامة حتى يختموا بالمسيح الدجال ، فكل واحد من هؤلاء الكذابين يخلق الله معه من الأمور ما يشهد العلماء والمؤمنون بكذب من جاء بها ، وهذا من تمام لطف الله تعالى بخلقه . فإنهم بضرورة الواقع لا يأمرؤن بمعروف ، ولا ينهاون عن المنكر إلا على سبيل الاتفاق أو لما لهم فيه من المقاصد إلى غيره . ويكون في غاية الإفك والفجور في أقوالهم وأفعالهم كما قال تعالى : ﴿ هَلْ أَتَيْتُكُمْ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلَ الْأَنبِيَاءُ ﴾ (٢) تَنَزَّلَ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيرٍ ﴿ الآية . وهذا بخلاف حال الأنبياء عليهم الصلاة والسلام . فإنهم في غاية البر والصدق والرشد والاستقامة والعدل فيما يقولونه ويفعلونه ، ويأمرؤن به وينهاون عنه ، مع ما يؤيدون به من الخوارق للعدادات والأدلة الواضحات والبراهين الباهرات . فصلوات الله وسلامه عليهم دائماً مستمراً ما دامت الأرض والسموات .

﴿ يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَبِيرًا ﴾ (٣) وَسِعْهُ بُكْرًا وَأَصِيلًا ﴿ هُوَ الَّذِي يُصَلِّيْ عَلَيْكُمْ وَمَلَائِكَتُهُ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا ﴾ (٤) نَجَّيْتَهُمْ يَوْمَ يَقُونَ سَلَامٌ وَأَعَدَّ لَهُمْ أَجْرًا كَرِيمًا ﴿ .

يقول تعالى أمراً عباده المؤمنين بكثرة ذكرهم لربهم تبارك وتعالى المنعم عليهم بأنواع النعم وصنوف المنن لما لهم في ذلك من جزيل الثواب ، وجميل المآب . فعن أبي الدرداء ؓ قال : قال رسول الله ﷺ : « أَلَا أُتَبِّحُكُمْ بِخَيْرِ أَعْمَالِكُمْ وَأَزْكَاهَا عِنْدَ مَلِيكِكُمْ ، وَأَرْفَعُهَا فِي دَرَجَاتِكُمْ ، وَخَيْرَ لَّكُمْ مِنْ إِعْطَاءِ الذَّهَبِ وَالْوَرِقِ ، وَخَيْرَ لَّكُمْ مِنْ أَنْ تَلْقَوْا عَدُوَّكُمْ فَتَضْرِبُوا أَعْنَاقَهُمْ وَيَضْرِبُوا أَعْنَاقَكُمْ ؟ » قالوا : وما هو يا رسول الله ؟ قال ﷺ : « ذِكْرُ اللَّهِ ﷻ » (٥) .

وعن عبد الله بن بشر قال : جاء أعرابي إلى رسول الله ﷺ فقال أحدهما : يا رسول الله أي الناس خير ؟ قال ﷺ : « مَنْ طَالَ عُمرُهُ وَحَسَنَ عَمَلُهُ » . وقال الآخر : يا رسول الله إن شرائع الإسلام قد كثرت علينا فمربي بأمر أتشبه به قال ﷺ : « لَا يَزَالُ لِسَانُكَ رَطْبًا بِذِكْرِ اللَّهِ تَعَالَى » (٦) . وعن أبي سعيد الخدري ؓ قال : إن رسول الله ﷺ قال : « أَكْثَرُوا ذِكْرَ اللَّهِ تَعَالَى حَتَّى يَقُولُوا مَجْنُونُونَ » (٧) .

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٢١٢/٢) .

(٢) أخرجه أحمد في مسنده (١٩٥/٥) والترمذي في سننه (٣٣٧٧) .

(٣) أخرجه أحمد في مسنده (١٩٠/٤) .

(٤) أخرجه أحمد في مسنده (٦٨/٣ ، ٧١) .

ومن أحسن الكتب المؤلفة في ذلك ، كتاب الأذكار للشيخ محيي الدين النووي رحمته الله . وقوله تعالى : ﴿ وَسَيَحْمِلُهُ كُرْهُهُ وَأَمْسِلَا ۖ ﴾ أي : عند الصباح والمساء كقوله رحمته الله : ﴿ فَسُبْحَنَ اللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ ۚ وَلَهُ الْحَمْدُ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَعَشِيًا وَبَيْنَ ظُهُورِهِمْ ۚ ﴾ .

وقوله تعالى : ﴿ هُوَ الَّذِي يُصَلِّيْ عَلَيْكُمْ وَمَلَائِكَتُهُ ۚ ﴾ هذا تهيج إلى الذكر أي : سبحانه يذكركم فاذكروه أنتم . كقوله تعالى رحمته الله : ﴿ كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِنْكُمْ يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ ۚ ﴾ فأذكروني أذكركم وأنشروني ولا تكفروني وقال النبي صلى الله عليه وسلم : « يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى : مَنْ ذَكَرَنِي فِي نَفْسِهِ ذَكَرْتُهُ فِي نَفْسِي ، وَمَنْ ذَكَرَنِي فِي مَلَأٍ ذَكَرْتُهُ فِي مَلَأٍ خَيْرٌ مِنْهُ » ^(١) . والصلاة من الله تعالى ثأؤه على العبد عند الملائكة ، قيل : الصلاة من الله رحمته الله الرحمة . وقد يقال : لا منافاة بين القولين والله أعلم . وأما الصلاة من الملائكة فمعنى الدعاء للناس والاستغفار كقوله تبارك وتعالى : ﴿ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الْقَرْيَةَ وَبَيْنَ حَوْلِهَا يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ ۚ رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّاتٍ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدْتَهُمْ وَمَنْ صَلَحَ مِنْ ءَابَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ۚ ﴾ وقِهِم السَّعَاتِ الآية . وقوله تعالى : ﴿ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ ۚ ﴾ أي : بسبب رحمته بكم وثناؤه عليكم ودعاء ملائكته لكم يخرجكم من ظلمات الجهل والضلال إلى نور الهدى واليقين ﴿ وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا ۚ ﴾ أي : في الدنيا والآخرة . أما في الدنيا ، فإنه هداهم إلى الحق الذي جهله غيرهم وبصرهم الطريق الذي ضل عنه وحاد عنه من سواهم من الدعاة إلى الكفر أو البدعة وأتباعهم من الطغاة ، وأما رحمته بهم في الآخرة فآمنهم من الفرع الأكبر وأمر ملائكته يتلقونهم بالبشارة بالفوز بالجنة ، والنجاة من النار ، وما ذاك إلا لمحبتهم ورأفته بهم .

وعن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم رأى امرأة من السبي قد أخذت صبيًا لها فألبصته إلى صدرها وأرضعته فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أَتَرَوْنَ هَذِهِ تُلْقِي وَلَدَهَا فِي النَّارِ وَهِيَ تَقْدِرُ عَلَى ذَلِكَ ؟ » قالوا : لا ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : فَوَاللَّهِ لَللَّهِ أَرْحَمُ بِعِبَادِهِ مِنْ هَذِهِ بَوْلَدِهَا » ^(٢) . وقوله تعالى : ﴿ تَجِيئُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ سَلَامٌ ۚ ﴾ الظاهر أن المراد والله أعلم تحيتهم أي : من الله تعالى يوم يلقونه سلام أي يوم يسلم عليهم كما قال رحمته الله : ﴿ سَلَامٌ قَوْلًا مِنْ رَبِّ رَحِيمٍ ۚ ﴾ وزعم قتادة أن المراد أنهم يحيي بعضهم بعضًا بالسلام يوم يلقون الله في الدار الآخرة ، واختاره ابن جرير . قلت : وقد يستدل بقوله تعالى : ﴿ دَعَوْهُمْ فِيهَا سُبْحَنَكَ اللَّهُمَّ وَتَجِيئَتْهُمْ فِيهَا سَلَامٌ ۚ ﴾ وأخبر دَعَوْهُمْ أَنَّ لِمَسَدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ . وقوله تعالى : ﴿ وَآذَنَّا لَهُمْ آجَرًا كَرِيمًا ۚ ﴾ يعني : الجنة وما فيها من المآكل والمشارب والملابس المساكن والمناجح والملاذ والمناظر مما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر . ﴿ يَأْتِيهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ۚ ﴾ ودَاعِيًا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجًا مُنِيرًا ۚ ﴿ وَيَنْشُرُ الْمُؤْمِنِينَ يَآنُ لَهُمْ مِنَ اللَّهِ فَضْلًا كَبِيرًا ۚ ﴾ وَلَا يُطْعَمُ الْكُفْرَانُ وَالْمُنَافِقِينَ وَدَعَا أَذْنَهُمْ وَقَوَّعَلَى اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا ۚ .

(١) أخرجه البخاري في (التوحيد) (٧٤٠٥) وأحمد في مسنده (٢٥١/٢) .

(٢) أخرجه مسلم في التوبة (٢٢) .

عن عطاء بن يسار قال : لقيت عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنه فقلت : أخبرني عن صفة رسول الله ﷺ في التوراة قال : أجل والله إنه لموصوف في التوراة ببعض صفته في القرآن . ﴿ يَأْتِيهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَهِيدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴾ وحررًا للأمين أنت عبيد ورسولي ، سميتك المتوكل ليس بفظ ولا غليظ ولا صخاب في الأسواق ، ولا يدفع السيئة بالسيئة ، ولكن يعفو ويصفح ويغفر ، ولن يقبضه الله حتى يقيم به الملة العوجاء ، بأن يقولوا : لا إله إلا الله فيفتح بها أعينا عميًا ، وأذانًا صمًا ، وقلوبًا غلفًا ^(١) .

وعن ابن عباس رضي الله عنه قال : لما نزلت ﴿ يَأْتِيهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَهِيدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴾ وقد كان أمر عليًا ومعاذًا رضي الله عنه أن يسيرا إلى اليمن فقال : « انْطَلِقَا فَبَشِّرَا وَلَا تَنْفَرَا ، وَيَسِّرَا وَلَا تُعَسِّرَا ، إِنَّهُ قَدْ أُنْزِلَ عَلَيَّ : ﴿ يَأْتِيهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَهِيدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴾ » ^(٢) . وفي رواية قال في آخره : « فَإِنَّهُ قَدْ أُنْزِلَ عَلَيَّ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَهِيدًا عَلَى أُمَّتِكَ وَمُبَشِّرًا بِالْجَنَّةِ وَنَذِيرًا مِنَ النَّارِ وَذَاعِيًا إِلَى شَهَادَةِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ يَأْذِنُهُ وَسِرَاجًا مُنِيرًا بِالْقُرْآنِ » ^(٣) . فقله تعالى : ﴿ شَهِيدًا ﴾ أي لله بالوحدانية ، وأنه لا إله غيره وعلى الناس بأعمالهم يوم القيامة وجئنا بك على هؤلاء شهيدًا كقوله : ﴿ لَنَكُونَنَّ شُحَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَكَوْنُ الرُّسُلُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ﴾ ، وقوله ﷻ : ﴿ وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴾ أي : بشيرًا للمؤمنين بجزيل الثواب ونذيرًا للكافرين من وييل العقاب . وقوله جلت عظمته : ﴿ وَذَاعِيًا إِلَى اللَّهِ يَأْذِنُهُ ﴾ أي : داعيًا للخلق إلى عبادة ربهم عن أمره لك بذلك ﴿ وَسِرَاجًا مُنِيرًا ﴾ أي : وأمرك ظاهر فيما جئت به من الحق كالشمس في إشراقها وإضاءتها لا يجحدها إلا معاند . وقوله جل وعلا : ﴿ وَلَا تُطِيعُ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ وَدَعْ أَذْنَهُمْ ﴾ أي : لا تطعمهم وتسمع منهم في الذي يقولونه ﴿ وَدَعْ أَذْنَهُمْ ﴾ أي : اصفح وتجاوز عنهم وكل أمرهم إلى الله تعالى ، فإن فيه كفاية لهم ، ولهذا قال جل جلاله : ﴿ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَى بِكَ وَكِيلًا ﴾ .

﴿ يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا نَكَحْتُمُ الْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ طَلَقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمْسُوهُنَّ فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عَدُوٍّ تَعْتَدُونَهَا فَمَنَعُوهُنَّ وَسَرَّحُوهُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا ﴾ .

هذه الآية فيها أحكام كثيرة ، منها إطلاق النكاح على العقد وحده ، وليس في القرآن آية أصرح في ذلك منها ، وقد اختلفوا في النكاح هل هو حقيقة في العقد وحده أو في الوطء أو فيهما ؟ على ثلاثة أقوال : واستعمال القرآن إنما هو في العقد والوطء بعده إلا في هذه الآية فإنه استعمل في العقد وحده لقوله تبارك وتعالى : ﴿ إِذَا نَكَحْتُمُ الْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ طَلَقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمْسُوهُنَّ ﴾ وفيها دلالة لإباحة طلاق المرأة قبل الدخول بها . وقوله تعالى : ﴿ الْمُؤْمِنَاتِ ﴾ خرج محرج الغالب ؛ إذ لا فرق في الحكم بين المؤمنة والكتانية في ذلك بالاتفاق . وقد استدل ابن عباس رضي الله عنه وسعيد بن المسيب وغيرهما بهذه الآية على أن الطلاق لا يقع إلا إذا تقدمه نكاح ؛ لأن الله تعالى قال : ﴿ إِذَا نَكَحْتُمُ الْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ طَلَقْتُمُوهُنَّ ﴾ فعقب النكاح بالطلاق ، فدل على أنه لا يصح ولا يقع قبله ، وهذا مذهب

(١) أخرجه أحمد في مسنده (١٧٤/٢) .

(٢) ذكره القرطبي في تفسيره (٢٠١/١٤) .

(٣) أخرجه الطبراني في الكبير (٣١٢/١١) والهيثمي في مجمع الزوائد (٩٢/٧) .

الشافعي وأحمد بن حنبل وطائفة كثيرة من السلف والخلف رحمهم الله تعالى ، وذهب مالك وأبو حنيفة رحمهما الله تعالى إلى صحة الطلاق قبل النكاح فيما إذا قال : إن تزوجت فلانة فهي طالق ، فعندهما متى تزوجها طلقت منه ، واختلفا فيما إذا قال : كل امرأة أتزوجها فهي طالق فقال مالك : لا تطلق حتى يعين المرأة . وقال أبو حنيفة رحمهما الله : كل امرأة يتزوجها بعد هذا الكلام تطلق منه . فأما الجمهور فاحتجوا على عدم وقوع الطلاق بهذه الآية . عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : إذا قال : كل امرأة أتزوجها فهي طالق قال : ليس بشيء من أجل أن الله تعالى يقول : ﴿ يَتَّخِذُ الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نَكَحْتُمُ الْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ طَلَقْتُمُوهُنَّ ﴾ الآية . وقد ورد الحديث بذلك عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده قال : قال رسول الله ﷺ : « لَا طَلَّاقَ لِابْنِ آدَمَ فِيمَا لَا يَمْلِكُ » ^(١) وعن علي والمصور بن مخزومة رضي الله عنهما عن رسول الله ﷺ أنه قال : « لَا طَلَّاقَ قَبْلَ النِّكَاحِ » ^(٢) . وقوله ﷺ : ﴿ فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدْوٍ مَعَدُونَهَا ﴾ هذا أمر مجمع عليه بين العلماء أن المرأة إذا طلقت قبل الدخول بها لا عدة عليها فتذهب فتزوج في فورها من شاءت . ولا يستثنى من هذا إلا المتوفى عنها زوجها فإنها تعتد منه أربعة أشهر وعشراً وإن لم يكن دخل بها بالإجماع أيضاً . وقوله تعالى : ﴿ فَمَتَّعُوهُنَّ وَسِرَّهِنَّ سِرًّا حَسِيلًا ﴾ المتعة ها هنا أعم من أن تكون نصف الصداق المسمى أو المتعة الخاصة ، إن لم يكن قد سمي لها . قال الله تعالى : ﴿ وَإِنْ طَلَقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمْسُوهُنَّ وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً فَنِصْفُ مَا قَرَضْتُمْ ﴾ . وقال ﷺ : ﴿ لَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِنْ طَلَقْتُمُ النِّسَاءَ مَا لَمْ تَمْسُوهُنَّ أَوْ قَرَضْتُمُوهُنَّ فَرِيضَةً وَمَتَّعُوهُنَّ عَلَى التَّوَسُّعِ قَدَرُهُ وَعَلَى الْمُقْتَرِ قَدَرُهُ مَتَّعًا بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُحْسِنِينَ ﴾ . وعن سهل بن سعد قال : إن رسول الله ﷺ تزوج أميمة بنت شراحيل ، فلما أن دخلت عليه ﷺ بسط يده إليها فكانها كرهت ذلك ، فأمر أبا أسيد أن يجهزها ويكسوها ثوبين رازقين ^(٣) . قال علي بن أبي طلحة رضي الله عنه : إن كان سمي لها صداقاً ، فليس لها إلا النصف ، وإن لم يكن سمي لها صداقاً أمتعها على قدر عسره ويسره ، وهو السراح الجميل .

﴿ يَتَّخِذُ الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ أَحَلَّ لَنَا لَكَ أَنْزَوَجَكَ الَّتِي مَاتَتْ أَجُورُهَا وَمَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ مِمَّا آفَاءَ اللَّهِ عَلَيْكَ وَنَوَاتِ عَيْكَ وَنَوَاتِ عَمْرِكَ وَنَوَاتِ خَلَّتِكَ الَّتِي هَاجَرَ مَعَكَ وَأَمَّا الْمُؤْمِنَةُ إِنْ وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ إِنْ أَرَادَ النَّبِيُّ أَنْ يَسْتَنْكِحَهَا خَالِصَةً لَكَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ قَدْ عَلِمْنَا مَا فَرَضْنَا عَلَيْهِمْ فِي أَنْزَوَجِهِمْ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَنُهُمْ لِكَيْلَا يَكُونَ عَلَيْكَ حَرَجٌ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ﴾ .

يقول تعالى مخاطباً نبيه ﷺ بأنه قد أحل له من النساء أزواجه اللاتي أعطاهن مهورهن وهي : الأجور ها هنا . كما قاله مجاهد وغير واحد . وقد كان مهره لنسائه اثنتي عشرة أوقية ونشز وهو نصف أوقية فالجميع خمسمائة درهم إلا أم حبيبة بنت أبي سفيان ، فإنه أمهرها عنه النجاشي رحمه الله تعالى أربعمائة دينار ، وإلا صفية بنت حيي ، فإنه اصطفاها من سبي خيبر ، ثم أعتقها وجعل عتقها صداقها . وكذلك جويرية بنت الحارث المصطلقية أدى عنها كتابتها إلى ثابت بن قيس بن شماس وتزوجها - رضي الله عنهن أجمعين - وقوله تعالى : ﴿ وَمَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ مِمَّا آفَاءَ اللَّهِ عَلَيْكَ ﴾ أي :

(١) أخرجه أحمد في مسنده (١٨٩/٢) وابن ماجه في سننه (٢٠٤٧) .

(٢) أخرجه ابن ماجه في سننه (٢٠٤٨ ، ٢٠٤٩) .

(٣) أخرجه البخاري في (الطلاق) (٥٢٥٦) أحمد في مسنده (٤٩٨/٣) .

وأباح لك التسري مما أخذت من المغام ، وقد ملك صفية وجويرية فأعتقهما وتزوجهما ، وملك ربحانة بنت شمعون النضرية ومارية القبطية أم ابنه إبراهيم عليهما السلام وكانتا من السراي (١) . وقوله تعالى : ﴿ وَنَنَاءَ عَيْكَ وَنَنَاءَ عَمَّتِكَ وَنَنَاءَ خَالِكَ وَنَنَاءَ خَلَّتِكَ ﴾ الآية . هذا عدل وسط بين الإفراط والتفريط ، فإن النصارى لا يتزوجون المرأة إلا إذا كان الرجل بينه وبينها سبعة أجداد فصاعدًا ، واليهود يتزوج أحدهم بنت أخيه وبنت أخته ، فجاءت هذه الشريعة الكاملة الطاهرة بهدم إفراط النصارى فأباح بنت العم والعمة ، وبنت الخال والخالة ، وتحريم ما فرطت فيه اليهود من إباحة بنت الأخ والأخت وهذا شنيع فظيع . وإنما قال : ﴿ وَنَنَاءَ عَيْكَ وَنَنَاءَ عَمَّتِكَ وَنَنَاءَ خَالِكَ وَنَنَاءَ خَلَّتِكَ ﴾ . فوحد لفظ الذكر لشرفه وجمع الإناث لنقصهن كقوله : ﴿ عَنِ الْيَمِينِ وَالْشَّمَائِلِ ﴾ . وقوله تعالى : ﴿ أَلَتِي هَاجَرَ مَعَكَ ﴾ عن أم هانئ قالت : خطبني رسول الله ﷺ فاعتذرت إليه فعذرني ، ثم أنزل الله تعالى : ﴿ إِنَّا آتَلْنَاكَ لَكَ أَزْوَاجَ أَلَّتِي ءَاتَيْتَ أَجُورَهُنَّ وَمَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ مِمَّا آفَاءَ اللَّهِ عَلَيْكَ وَنَنَاءَ عَيْكَ وَنَنَاءَ عَمَّتِكَ وَنَنَاءَ خَالِكَ وَنَنَاءَ خَلَّتِكَ أَلَتِي هَاجَرَ مَعَكَ ﴾ قالت : فلم أكن أحل له ولم أكن ممن هاجر معه كنت من الطلقاء (٢) . وهكذا قال أبو رزین وقتادة : إن المراد من هاجر معه إلى المدينة . وفي رواية عن قتادة : ﴿ أَلَتِي هَاجَرَ مَعَكَ ﴾ أي : أسلمن ، وقال الضحاک : قرأ ابن مسعود (واللائي هاجرن معك) .

﴿ وَأَمْرًا مُؤْمِنَةً إِنْ وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ إِنْ أَرَادَ النَّبِيُّ أَنْ يَسْتَنْكِحَهَا خَالِصَةً لَكَ ﴾ الآية . أي : ويحل لك أيها النبي المرأة المؤمنة إن وهبت نفسها لك أن تتزوجها بغير مهر إن شئت ذلك . وهذه الآية توالى فيها شرطان كقوله تعالى إخبارًا عن نوح عليه السلام أنه قال لقومه : ﴿ وَلَا يَتَّبِعُوا تُهْجِي إِنْ أَرَدْتُ أَنْ أَصْحَ لَكُمْ إِنْ كَانَ اللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يُغْوِيَكُمْ ﴾ . وقال ها هنا : ﴿ وَأَمْرًا مُؤْمِنَةً إِنْ وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ ﴾ الآية . عن سهل بن سعد الساعدي أن رسول الله ﷺ جاءته امرأة فقالت : يا رسول الله إني قد وهبت نفسي لك فقامت قيامًا طويلًا ، فقام رجل فقال : يا رسول الله زوجنيها إن لم يكن لك بها حاجة ، فقال رسول الله ﷺ : « هَلْ عِنْدَكَ مِنْ شَيْءٍ تُصَدِّقُهَا بِإِيَّاهُ ؟ » فقال : ما عندي إلا إزار ي هذا ، فقال رسول الله ﷺ : « إِنْ أُعْطِيَتهَا إِزَارَكَ جَلَسَتْ لَا إِزَارَ لَكَ فَالْتَمِسْ شَيْئًا » فقال : لا أجد شيئًا ، فقال : « التَّمِسْ وَلَوْ خَاتَمًا مِنْ حَدِيدٍ » فالتمس فلم يجد شيئًا ، فقال له النبي ﷺ : « هَلْ مَعَكَ مِنَ الْقُرْآنِ شَيْءٌ ؟ » قال نعم سورة كذا وسورة كذا - السور يسميها - فقال له النبي ﷺ : « زَوِّجْكَهَا بِمَا مَعَكَ مِنَ الْقُرْآنِ » (٣) .

وقال أنس : جاءت امرأة إلى النبي ﷺ فقالت : يا نبي الله هل لك في حاجة ؟ فقالت ابنته : ما كان أقل حياءها ، فقال : « هِيَ خَيْرٌ مِنْكِ رَغِبْتُ فِي النَّبِيِّ فَعَرَضْتُ عَلَيْهِ نَفْسَهَا » (٣) . وعن أنس بن مالك أن امرأة أتت النبي ﷺ فقالت : يا رسول الله ابنة لي كذا وكذا فذكرت من حسناتها وجمالها فأقرت بها فقال : « قَدْ قَبِلْتُهَا » فلم تزل تمدحها حتى ذكرت أنها لم تصدع ولم تشك شيئًا قط

(١) أخرجه الحاكم في المستدرک (٤٢٠/٢) ، (٥٣/٤) والطبري في تفسيره (٢٧/٢٢) .

(٢) أخرجه البخاري في (فضائل القرآن) (٥١٢٦) ومسلم في النكاح (٧٦) .

(٣) أخرجه البخاري في النكاح (٥١٢٠) وأحمد في مسنده (٢٦٨/٣) .

فقال : « لَا حَاجَةَ لِي فِي ابْتِكَ » ^(١) . وعن عائشة قالت : التي وهبت نفسها للنبي ﷺ خولة بنت حكيم . وقال هشام بن عروة عن أبيه : إن خولة بنت حكيم بن الأرقص من بني سليم كانت من اللاتي وهبت أنفسهن لرسول الله ﷺ . وفي رواية عن هشام عن أبيه كنا نتحدث أن خولة بنت حكيم كانت وهبت لرسول الله ﷺ وكانت امرأة صالحة . فيحتمل أن أم سليم هي خولة بنت حكيم أو هي امرأة أخرى . وقال محمد بن كعب وعمر بن الحكم وعبد الله بن عبيدة : تزوج رسول الله ﷺ ثلاث عشرة امرأة ؛ سناً من قریش : خديجة وعائشة وحفصة وأم حبيبة وسودة وأم سلمة ، وثلاثاً من بني عامر بن صعصعة ، وامرأتين من بني هلال بن عامر : ميمونة بنت الحارث وهي التي وهبت نفسها للنبي ﷺ ، وزينب أم المساكين ، وامرأة من بني بكر بن كلاب من القرظيات وهي التي اختارت الدنيا ، وامرأة من بني الجون وهي التي استعاذت منه ، وزينب بنت جحش الأسدية ، والسبيتين صفية بنت حيي بن أخطب وجويرية بنت الحارث بن عمرو بن المصطلق الخزاعية ، وقال ابن عباس ﴿ وَامْرَأَةٌ مُؤْمِنَةٌ إِنْ وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ ﴾ قال : هي ميمونة بنت الحارث فيه انقطاع هذا مرسل والمشهور أن زينب التي كانت تدعى أم المساكين هي : زينب بنت خزيمة الأنصاري ، وقد ماتت عند النبي ﷺ في حياته فالله أعلم . والغرض من هذا أن اللاتي وهبن أنفسهن للنبي ﷺ كثير ، كما ورد عن عائشة قالت : كنت أغار من اللاتي وهبن أنفسهن للنبي ﷺ وأقول : أتهب المرأة نفسها ؟ فلما أنزل الله تعالى : ﴿ تَرْجِي مَن تَشَاءُ مِنْهُنَّ وَتَقْوِي إِلَيْكَ مَن تَشَاءُ وَمِنْ ابْنَتَيْكَ مِمَّنْ عَزَلْتَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكَ ﴾ قلت : ما أرى ربك إلا يسارع في هواك ^(٢) . وقد قال سماك عن ابن عكرمة عن ابن عباس قال : لم يكن عند رسول الله ﷺ امرأة وهبت نفسها له ^(٣) أي أنه لم يقبل واحدة ممن وهبت نفسها له ، وإن ذلك مباحاً له ومخصوصاً ؛ لأنه مردود إلى مشيئته كما قال الله تعالى : ﴿ إِنْ أَرَادَ النَّبِيُّ أَنْ يَسْتَنْكِحَهَا ﴾ أي : إن اختار ذلك .

وقوله تعالى : ﴿ خَالِصَةً لِّكَ مِنَ الدُّنْيَا الْمُؤْمِنِينَ ﴾ قال عكرمة : أي لا تحمل الموهوبة لغيرك ولو أن امرأة وهبت نفسها لرجل لم تحمل له حتى يعطيها شيئاً . وكذا قال مجاهد والشعبي وغيرهما أي أنها إذا فوضت المرأة نفسها إلى رجل ، فإنه متى دخل بها وجب عليه لها مهر مثلها . كما حكم به رسول الله ﷺ في تزويج بنت واشق لما فوضت ، فحكم لها رسول الله ﷺ بصدق مثلها لما توفي عنها زوجها . والموت والدخول سواء في تقرير المهر وثبوت مهر المثل في المفوضة لغير النبي ﷺ ، وأما هو عليه الصلاة والسلام فإنه لا يجب عليه للمفوضة شيء لو دخل بها ؛ لأن له أن يتزوج بغير صداق ولا ولي ولا شهود كما في قصة زينب بنت جحش رضي الله عنها . ولهذا قال قتادة في قوله : ﴿ خَالِصَةً لِّكَ مِنَ الدُّنْيَا الْمُؤْمِنِينَ ﴾ يقول : ليس لامرأة تهب نفسها لرجل بغير ولي ولا مهر إلا للنبي ﷺ . وقوله تعالى : ﴿ قَدْ عَلِمْنَا مَا فَرَضْنَا عَلَيْهِمْ فِي أَزْوَاجِهِمْ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ ﴾ قال أبي بن كعب أي : من حصرهم في أربع نسوة حرائر وما شاءوا من الإماء واشترط الولي والمهر والشهود عليهم وهم الأمة . وقد رخصنا لك في ذلك نوجب عليك شيئاً منه ﴿ لِكَيْلَا يَكُونَ عَلَيْكَ حَرَجٌ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ﴾ .

(١) أخرجه أحمد في مسنده (١٥٥/٣) .

(٢) أخرجه البخاري في تفسير القرآن (٤٧٨٨) .

(٣) ذكره ابن جرير الطبري في تفسيره (٢٩/٢٢) (٢١٧٨٩) .

﴿ تَرْجِي مَن نَّشَاءُ مِنْهُنَّ وَتُؤْفِقُ إِلَيْكَ مَن نَّشَاءُ وَمَنِ ابْتَغَيْتَ مِمَّنْ عَزَلْتَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكَ ذَلِكَ أَدْنَىٰ أَن تَقَرَّ أَعْيُنُهُنَّ وَلَا يَخْزَيْكَ وَرِضْيَتِكَ يَمَّا آتَيْنَهُنَّ كُلُّهُنَّ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي قُلُوبِكُمْ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَلِيمًا ﴾ .

قال هشام بن عروة عن أبيه عن عائشة رضي الله عنها ، أنها كانت تغير من النساء اللاتي وهبن أنفسهن لرسول الله ﷺ قالت : ألا تستحي المرأة أن تعرض نفسها بغير صداق ؟ فأنزل الله ﻋَلَيْكَ : ﴿ تَرْجِي مَن نَّشَاءُ مِنْهُنَّ وَتُؤْفِقُ إِلَيْكَ مَن نَّشَاءُ ﴾ الآية . قالت : إني أرى ربك يسارع لك في هোক ^(١) . فدل هذا على أن المراد بقوله : ﴿ تَرْجِي ﴾ أي : تؤخر ﴿ مَن نَّشَاءُ مِنْهُنَّ ﴾ أي : من الواهبات ﴿ وَتُؤْفِقُ إِلَيْكَ مَن نَّشَاءُ ﴾ أي : من شئت قبلتها ومن شئت رددتها ، ومن رددتها فأنت فيها أيضًا بالخيار بعد ذلك إن شئت عدت فيها فأوتيتها ولهذا قال : ﴿ وَمَنِ ابْتَغَيْتَ مِمَّنْ عَزَلْتَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكَ ﴾ قال عامر الشعبي في قوله تعالى : ﴿ تَرْجِي مَن نَّشَاءُ مِنْهُنَّ ﴾ الآية . كن نساءً وهبن أنفسهن للنبي ﷺ ، فدخل ببعضهن وأرجأ بعضهن لم ينكحن بعده ، منهن أم شريك . وقال آخرون : بل المراد بقوله : ﴿ تَرْجِي مَن نَّشَاءُ مِنْهُنَّ ﴾ الآية . أي من أزواجك لا حرج عليك أن تترك القسم لهن ، فتقدم من شئت ، وتؤخر من شئت ، وتجامع من شئت ، وتترك من شئت . هكذا يروى عن ابن عباس ومجاهد والحسن وغيرهم . ومع هذا كان النبي ﷺ يقسم لهن ، ولهذا ذهب طائفة من الفقهاء من الشافعية وغيرهم إلى أنه لم يكن القسم واجباً عليه ﷺ واحتجوا بهذه الآية الكريمة . وعن عائشة أن رسول الله ﷺ : كان يستأذن في اليوم المرأة منا بعد أن نزلت هذه الآية : ﴿ تَرْجِي مَن نَّشَاءُ مِنْهُنَّ وَتُؤْفِقُ إِلَيْكَ مَن نَّشَاءُ وَمَنِ ابْتَغَيْتَ مِمَّنْ عَزَلْتَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكَ ﴾ فقلت لها : ما كنت تقولين ؟ فقالت : كنت أقول : إن كان ذلك إلي ، فإني لا أريد يا رسول الله أن أؤثر عليك أحداً ^(٢) . فهذا الحديث عنها يدل على أن المراد من ذلك عدم وجود القسم . وحديثها الأول يقتضي أن الآية نزلت في الواهبات . ومن ها هنا اختار ابن جرير أن الآية عامة في الواهبات وفي النساء اللاتي عنده أنه مخير فيهن إن شاء قسم وإن شاء لم يقسم ، وهذا الذي اختاره حسن جيد قوي وفيه جمع بين الأحاديث : ولهذا قال تعالى : ﴿ ذَلِكَ أَدْنَىٰ أَن تَقَرَّ أَعْيُنُهُنَّ وَلَا يَخْزَيْكَ وَرِضْيَتِكَ يَمَّا آتَيْنَهُنَّ كُلُّهُنَّ ﴾ أي : إذا علمن أن الله قد وضع عنك الحرج في القسم ، فإن شئت قسمت وإن شئت لم تقسم ، لا جناح عليك في أي ذلك فعلت ، ثم مع هذا أن تقسم لهن اختياريًا منك ، لا أنه على سبيل الوجوب فرحن بذلك ، واستبشرن به ، وحملن جميلك في ذلك ، واعترفن بملكك عليهن في قسمتك لهن وتسويتك بينهن وإنصافك لهن وعدلك فيهن . وقوله تعالى : ﴿ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي قُلُوبِكُمْ ﴾ أي : من الميل إلى بعضهن دون بعض مما لا يمكن دفعه . كما في الحديث عن عائشة قالت : كان رسول الله ﷺ يقسم بين نسائه فيعدل ثم يقول : « اللَّهُمَّ هَذَا فِغْلِي فِيمَا أَمْلِكُ فَلَا تُلْغِنِي فِيمَا تَمْلِكُ وَلَا أَمْلِكُ » ^(٣) . ولهذا عقب ذلك بقوله تعالى : ﴿ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا ﴾ أي بضمائر السرائر ﴿ حَلِيمًا ﴾ أي يحلم ويغفر .

﴿ لَا يَحِلُّ لَكَ النَّسَاءُ مِنْ بَعْدُ وَلَا أَنْ تَبَدَّلَ مِنْ أَزْوَاجٍ وَلَوْ أَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَّ إِلَّا مَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ وَكَانَ

(١) أخرجه أحمد في مسنده (١٥٨/٣) .

(٢) أخرجه البخاري في التفسير (٤٧٨٩) .

(٣) أخرجه أحمد في مسنده (١٤٤/٦) والترمذي في سننه (١١٤٠) وابن ماجه في سننه (١٩٧١) .

اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ رَقِيبٌ .

ذكر غير واحد من العلماء كابن عباس ومجاهد أن هذه الآية نزلت مجازاة لأزواج النبي ﷺ ورضاً عنهن على حسن صنعهن في اختيارهن الله ورسوله والدار الآخرة لما خيرهن رسول الله ﷺ . كما تقدم في الآية ، فلما اخترن رسول الله ﷺ كان جزاؤهن أن الله تعالى قصره عليهن ، وحرّم عليه يتزوج بغيرهن ، أو يستبدل بهن أزواجاً غيرهن ، ولو أعجبه حسنهن ، إلا الإماء والسراي فلا حرج عليه فيهن ، ثم إنه تعالى رفع عنه الحرج في ذلك ونسخ حكم هذه الآية ، وأباح له التزوج ، ولكن لم يقع منه بعد ذلك تزوج لتكون المنّة لرسول الله ﷺ عليهن . فعن عائشة رضي الله عنها قالت : ما مات رسول الله ﷺ حتى أحل الله له النساء ^(١) . وعن أم سلمة إنها قالت : لم يمّت رسول الله ﷺ حتى أحل الله له أن يتزوج من النساء ما شاء إلا ذات محرم . وذلك قول الله تعالى : ﴿ تَرَى مِنْ فِتْنَةٍ مِثْنَهُ ﴾ الآية . فجعلت هذه ناسخة للتي بعدها في التلاوة كآيتي عدة الوفاة في البقرة ، الأولى ناسخة للتي بعدها والله أعلم ، وقال آخرون : بل معنى الآية : ﴿ لَا يَحِلُّ لَكَ الْنِسَاءُ مِنْ بَعْدُ ﴾ أي : من بعد ما ذكرنا لك من صفة النساء اللاتي أحللنا لك من نسائك اللاتي أتيت أجورهن وما ملكت يمينك وبنات العم والعلمات والحال والحالات والواهمة وما سوى ذلك من أصناف النساء فلا يحل لك ، وهذا ما روي عن أبي بن كعب ومجاهد في رواية عنه وعكرمة والضحاك في رواية . وعن زياد عن رجل من الأنصار قال : قلت لأبي بن كعب : أرأيت لو أن أزواج النبي ﷺ توفين أما كان له أن يتزوج ؟ فقال : وما يمنعه من ذلك ؟ قال : قلت : قول الله تعالى : ﴿ لَا يَحِلُّ لَكَ الْنِسَاءُ مِنْ بَعْدُ ﴾ فقال : إنما أحل الله له ضرباً من النساء . فقال تعالى : ﴿ يَتَأْتِيهَا النَّبِيُّ إِنْ أَحَلَّ لَكَ أَزْوَاجَكَ - إِلَى قَوْلِهِ - إِنْ وَهَبْتَ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ ﴾ . ثم قيل له : ﴿ لَا يَحِلُّ لَكَ الْنِسَاءُ مِنْ بَعْدُ ﴾ وعن ابن عباس قال : نهى رسول الله ﷺ عن أصناف النساء إلا ما كان من المؤمنات المهاجرات بقوله تعالى : ﴿ لَا يَحِلُّ لَكَ الْنِسَاءُ مِنْ بَعْدُ وَلَا أَنْ تَبَدَّلَ بِهِنَ مِنْ أَزْوَاجٍ وَلَوْ أَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَّ إِلَّا مَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ ﴾ فأحل الله فتياتكم المؤمنات ، وامرأة مؤمنة إن وهبت نفسها للنبي . وحرّم كل ذات دين غير الإسلام ، ثم قال : ﴿ وَمَنْ يَكْفُرْ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ ﴾ الآية .

وقال تعالى : ﴿ يَتَأْتِيهَا النَّبِيُّ إِنْ أَحَلَّ لَكَ أَزْوَاجَكَ أَلَيْسَ مَا تَأْتِي أَجُورُهُنَّ ﴾ - إلى قوله - خَالِصَةً لَكَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ وحرّم ما سوى ذلك من أصناف النساء . وقال مجاهد : ﴿ لَا يَحِلُّ لَكَ الْنِسَاءُ مِنْ بَعْدُ ﴾ أي : من بعد ما سمى لك لا مسلمة ولا يهودية ولا نصرانية ولا كافرة . وقال أبو صالح : ﴿ لَا يَحِلُّ لَكَ الْنِسَاءُ مِنْ بَعْدُ ﴾ أمر أن لا يتزوج أعرابية ولا عرية ويتزوج بعد من نساء تهامة وما شاء من بنات العم والعمة والحال والحالة إن شاء ثلاثاً . وقال عكرمة : ﴿ لَا يَحِلُّ لَكَ الْنِسَاءُ مِنْ بَعْدُ ﴾ أي : التي سمى الله ، واختار ابن جرير أن الآية عامة فيمن ذكر من أصناف النساء ، وفي النساء اللواتي في عصمته وكن تسعاً ، وهذا الذي قاله جيد . ولعله مراد كثير بمن حكينا عنه من السلف ، فإن كثيراً منهم روي عنه هذا وهذا ، ولا منافاة والله أعلم . ثم أورد ابن جرير على نفسه ما روي أن رسول الله ﷺ طلق حفصة ثم راجعها ، وعزم على فراق سودة حتى وهبت يومها لعائشة ، ثم

(١) أخرجه الترمذي في سننه (٣٢١٦) والبيهقي في سننه (٥٤/٧) .

أجاب بأن هذا كان قبل نزول قوله تعالى : ﴿ لَا يَحِلُّ لَكَ الْفِسَاءُ مِنْ بَعْدِ وَلَا أَنْ تَبَدَّلَ بِهِ مِنْ أَنْزِلَ ﴾ الآية . وهذا الذي قاله من أن هذا كان قبل نزول الآية صحيح . ولكن لا يحتاج إلى ذلك ، فإن الآية إنما دلت على أنه لا يتزوج بمن عدا اللواتي في عصمته ، وأنه لا يستبدل بهن غيرهن ، ولا يدل ذلك على أنه لا يطلق واحدة منهن من غير استبدال فالله أعلم . فأما قضية سودة ففي الصحيح عن عائشة رضي الله تبارك وتعالى عنها وهي سبب نزول قوله تعالى : ﴿ وَإِنْ أَرَأَيْتُ خَافَتْ مِنْ بَيْتِهَا شُرُوكًا أَوْ إِعْرَاضًا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَنْ يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحًا ﴾ الآية ^(١) . وأما قضية حفصة فروي عن ابن عباس وعن عمر : أن رسول الله ﷺ طلق حفصة ، ثم راجعها ^(٢) . وعن ابن عمر قال : دخل عمر على حفصة وهي تبكي فقال : ما يبكيك ؟ لعل رسول الله ﷺ طلقك ، وإنه كان طلقك مرة ثم راجعك من أجلي ، والله لئن كان طلقك مرة أخرى لا أكلمك أبداً ^(٣) . وقوله تعالى : ﴿ وَلَا أَنْ تَبَدَّلَ بِهِ مِنْ أَنْزِلَ ﴾ ولو أعجبك حسنته فنهاه عن الزيادة عليهن إن طلق واحدة منهن واستبدال غيرها بها إلا ما ملكت يمينه .

﴿ يَأْتِيهَا الْبُرُكُ ءَامِنًا لَا تَدْخُلُا بُيُوتَ النَّبِيِّ إِلَّا أَنْ يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَى طَعَامٍ غَيْرَ نَبِطٍ إِنَّهُ وَلَكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَادْخُلُوا إِذَا طَعِمْتُمْ فَانْصَرُوا وَلَا مُسْتَقْنِينَ لِلدَّيْنِ إِنَّ ذَلِكَ كَانَ يُؤْذَى النَّبِيُّ فَيَسْتَعِجِ مِنْكُمْ وَاللَّهُ لَا يَسْتَعِجِ مِنْ الْوَعْدِ وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعًا فَسْأَلُوهُنَّ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ ذَلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ وَمَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُؤْذُوا رَسُولَ اللَّهِ وَلَا أَنْ تُنْكِحُوا زُجُجَهُ مِنْ بَعْدِهِ أَبَدًا إِنَّ ذَلِكَ كَانَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمًا ﴾ ^(٤) إن بُدُوا شَيْئًا أَوْ تُخَفُّوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَتْ يَكُلُ شَيْءٍ عَلَيْهِمَا .

هذه آية الحجاب ، وفيها أحكام وآداب شرعية ، وهي مما وافق تنزيلها قول عمر بن الخطاب ؓ كما ثبت ذلك في الصحيحين عنه أنه قال : وافقت ربي في ثلاث ، قلت : يا رسول الله لو اتخذت من مقام إبراهيم مصلى فأنزل الله تعالى : ﴿ وَاتَّخِذُوا مِنْ مَقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى ﴾ وقلت : يا رسول الله إن نساءك يدخل عليهن البر والفاجر فلو حجبتهم فأنزل الله آية الحجاب . وقلت لأزواج النبي ﷺ لما تمالأن عليه في الغيرة ﴿ عَسَى رَبُّهُ إِنْ طَلَّقَكُنَّ أَنْ يُبَدِّلَهُ أَزْوَاجًا خَيْرًا مِنْكُنَّ ﴾ فنزلت كذلك ^(٥) . عن أنس بن مالك قال : قال عمر بن الخطاب : يا رسول الله يدخل عليك البر والفاجر ، فلو أمرت أمهات المؤمنين بالحجاب فأنزل الله آية الحجاب وكان وقت نزولها في صبيحة عرس رسول الله ﷺ بزینب بنت جحش التي تولى الله تعالى تزويجها بنفسه ^(٥) . وكان ذلك في ذلك في ذي القعدة من السنة الخامسة في قول قتادة والواقدي وغيرهما ، وزعم أبو عبيدة معمر بن المثنى وخليفة بن خياط أن ذلك كان في سنة ثلاث فالله أعلم . وعن أنس ابن مالك ؓ قال : لما تزوج رسول الله ﷺ زينب بنت جحش دعا القوم ، فطعموا ثم جلسوا يتحدثون ، فإذا هو يتهيأ للقيام فلم يقوموا فلما رأى ذلك قام ، فلما قام ، قام من قام وقعد ثلاثة نفر ، فجاء النبي ﷺ ليدخل ، فإذا القوم جلوس ، ثم

(١) أخرجه البخاري في تفسير القرآن (٤٦٠١) .

(٢) ذكره أبو يعلى الموصلي في مسنده (١٧٢/١) .

(٣) أخرجه البخاري في تفسير القرآن (٤٧٩٠) .

(٤) أخرجه أبو داود في سنن (٢٢٨٣) .

(٥) أخرجه البخاري في الصلاة (٤٠٢) .

إِنَّهُمْ قَامُوا فَانْطَلَقُوا فَجِئْتُ فَأَخْبَرْتُ النَّبِيَّ ﷺ أَنَّهُمْ قَدْ انْطَلَقُوا فَجَاءَ حَتَّى دَخَلَ . فَذَهَبْتُ أَدْخُلُ فَأَلْقَى الْحِجَابَ بَيْنِي وَبَيْنَهُ ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إِلَّا أَنْ يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَى طَعَامٍ غَيْرَ نَبْظِيرٍ إِنَّهُ وَلَكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَادْخُلُوا فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَانْتَبِرُوا ﴾ الآية (١) . وعن أنس بن مالك قال : بنى النبي ﷺ بزينب بنت جحش بخبز ولحم فأرسلت على الطعام داعيًا فيجيء قوم فيأكلون ويخرجون . ثم يجيء قوم فيأكلون ويخرجون فدعوت حتى ما أجد أحدًا أدعوه فقلت : يا رسول الله ما أجد أحدًا أدعوه قال : « ازْفَعُوا طَعَامَكُمْ » وبقي ثلاثة رهط يتحدثون في البيت فخرج النبي ﷺ فانطلق إلى حجرة عائشة رضي الله عنها فقال : « السَّلَامُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ وَرَحْمَةُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ » قالت : وعليك السلام ورحمة الله كيف وجدت أهلك يا رسول الله بارك الله لك ؟ فتقرى حجر نسائه كلهن يقول لهن كما يقول لعائشة ، ويقلن له كما قالت عائشة . ثم رجع النبي ﷺ فإذا ثلاثة رهط في البيت يتحدثون وكان النبي ﷺ شديد الحياء فخرج منطلقًا نحو حجرة عائشة فما أدري أخبرته أم أخبر أن القوم خرجوا فرجع حتى إذا وضع رجله في أسكفة الباب داخله والأخرى خارجه أرخى الستر بيني وبينه وأنزلت آية الحجاب (٢) .

وعن عروة عن عائشة قالت : إن أزواج النبي ﷺ كن يخرجن بالليل إذا تبرزن إلى المناصب - وهو صعيد أفج - وكان عمر يقول لرسول الله ﷺ : احجب نساءك ، فلم يكن رسول الله ﷺ ليفعل ، فخرجت سودة بنت زمعة زوج رسول الله ﷺ وكانت امرأة طويلة فناداها عمر بصوته الأعلى : قد عرفناك يا سودة حرصًا على أن ينزل الحجاب ، قالت : فَأَنْزَلَ اللَّهُ الْحِجَابَ (٣) . وهكذا وقع في الرواية ، والمشهور أن هذا كان بعد نزول الحجاب ، كما روي عن عائشة رضي الله عنها قالت : خرجت سودة بعد ضرب الحجاب لحاجتها وكانت امرأة جسيمة لا تخفى على من يعرفها فرآها عمر بن الخطاب فقال : يا سودة أما والله ما تخفين علينا فانظري كيف تخرجين . قالت : فانكفأت راجعة ورسول الله ﷺ في بيتي وإنه ليتعشى وفي يده عرق . فدخلت فقالت : يا رسول الله إني خرجت لبعض حاجتي فقال لي عمر كذا وكذا ، قالت : فأوحى الله إلي ، ثم رفع عنه وإن العرق في يده ما وضعه فقال : « إِنَّهُ قَدْ أَدِنَ لَكُمْ أَنْ تَخْرُجْنَ لِحَاجَتِكُنَّ » (٤) . فقله تعالى : ﴿ لَا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ ﴾ حظر على المؤمنين أن يدخلوا منازل رسول الله ﷺ بغير إذن . كما كانوا قبل ذلك يصنعون في بيوتهم في الجاهلية وابتداء الإسلام حتى غار الله لهذه الأمة فأمرهم بذلك . وذلك من إكرامه تعالى هذه الأمة ولهذا قال رسول الله ﷺ : « إِيَّاكُمْ وَالدُّخُولُ عَلَى النَّسَاءِ » الحديث (٥) . ثم استثنى من ذلك فقال تعالى : ﴿ إِلَّا أَنْ يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَى طَعَامٍ غَيْرَ نَبْظِيرٍ إِنَّهُ ﴾ قال مجاهد وقتادة وغيرهما : أي غير متحينين نضجه واستواءه أي : لا ترقبوا الطعام إذا طبخ حتى إذا قارب

(١) أخرجه البخاري في تفسير القرآن (٤٧٩١) ومسلم في النكاح (٨٧ ، ٩٢) .

(٢) أخرجه البخاري في التفسير (٤٧٩٣) .

(٣) أخرجه البخاري في الوضوء (١٤٦) ومسلم في السلام (١٨) وصعيد أفج أي مكان متسع .

(٤) أخرجه البخاري في تفسير القرآن (٤٧٩٥) ومسلم في السلام (١٧) واللفظ للبخاري .

(٥) أخرجه البخاري في النكاح (٥٢٣٢) أحمد في مسنده (١٤٩/٤) .

الاستواء تعرضتم للدخول ، فإن هذا مما يكرهه الله ويذمه وهذا دليل على تحريم التطفيل . وهو الذي تسميه العرب الضيفن .

ثم قال تعالى : ﴿ وَلَٰكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَأَدُّوا إِذَا طَلَعْتُمْ فَانْتَشِرُوا ﴾ . عن ابن عمر رضي الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ : « إِذَا دَعَا أَحَدُكُمْ أَخَاهُ فَلْيَجِبْ ، غُرْسًا كَانَ أَوْ غَيْرَهُ » ^(١) وفي الصحيح أيضًا عن رسول الله ﷺ : « لَوْ دُعِيتُ إِلَى ذِرَاعٍ لَأَجِبْتُ ، وَلَوْ أَهْدَيْتُ إِلَيَّ كِرَاعًا لَقَبِلْتُ ، فَإِذَا فَرَعْتُمْ مِنَ الَّذِي دُعِيتُمْ إِلَيْهِ فَحَقُّوهُ عَنْ أَهْلِ الْمَنْزِلِ وَانْتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ » ^(٢) . ولهذا قال تعالى : ﴿ وَلَا مُسْتَنْسِفِينَ لِجَدِيدٍ ﴾ أي : كما وقع لأولئك نفر الثلاثة الذين استرسل بهم الحديث ونسوا أنفسهم حتى شق ذلك على رسول الله ﷺ كما قال تعالى : ﴿ إِنَّ ذَلِكَ كَانَ يَؤْذِي النَّبِيَّ فَيَسْتَجِئُ مِنْكُمْ ﴾ وقيل : المراد أن دخولكم منزله بغير إذنه كان يشق عليه ويتأذى به . ولكن كان يكره أن ينهاهم عن ذلك من شدة حياته عليه السلام حتى أنزل الله عليه النهي عن ذلك . ولهذا قال تعالى : ﴿ وَاللَّهُ لَا يَسْتَجِئُ مِنْ آلِْحَقٍّ ﴾ أي : ولهذا نهاكم عن ذلك وزجركم عنه ، ثم قال تعالى : ﴿ وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعًا فَسْأَلُوهُنَّ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ ﴾ أي : وكما نهيتكم عن الدخول عليهن ، كذلك لا تنظروا إليهن بالكلية ، ولو كان لأحدكم حاجة يريد تناولها منهن فلا ينظر إليهن ولا يسألهن حاجة إلا من وراء حجاب . ﴿ ذَلِكَكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ ﴾ أي هذا الذي أمرتكم به وشرعته لكم من الحجاب أطهر وأطيب . وقوله تعالى : ﴿ وَمَا كَانَتْ لَكُمْ أَنْ تُؤْذُوا رَسُولَ اللَّهِ وَلَا أَنْ تَنْكِحُوا أَزْوَاجَهُ مِنْ بَعْدِهِ أَبَدًا إِنَّ ذَلِكَ كَانَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمًا ﴾ عن ابن عباس قال : نزلت في رجل هم أن يتزوج بعض نساء النبي ﷺ بعده ، قال رجل لسفيان : أهي عائشة ؟ قال : قد ذكروا ذلك ، وكذا قال مقاتل بن حيان وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم ، وذكر بسنده عن السدي أن الذي عزم على ذلك طلحة بن عبد الله ﷺ حتى نزل التنبيه على تحريم ذلك ، ولهذا أجمع العلماء قاطبة على أن من توفي عنها رسول الله ﷺ من أزواجه أنه يحرم على غيره تزوجها من بعده ؛ لأنهن أزواجه في الدنيا والآخرة وأمهات المؤمنين كما تقدم . واختلفوا فيمن دخل بها ثم طلقها في حياته هل يحل لغيره أن يتزوجها ؟ على قولين ، مأخذهما هل دخلت هذه في عموم قوله : ﴿ مِنْ بَعْدِهِ ﴾ أم لا ؟ فأما من تزوجها ثم طلقها قبل أن يدخل بها فما نعلم في حلها لغيره ، والحالة هذه ، نزاعًا ، والله أعلم .

وعن عامر أن نبي الله ﷺ مات وقد ملك قبيلة بنت الأشعث - يعني ابن قيس - فتزوجها عكرمة بن أبي جهل بعد ذلك فشق ذلك على أبي بكر مشقة شديدة فقال له عمر : يا خليفة رسول الله ، إنها ليست من نسائه إنها لم يخيرها رسول الله ﷺ ولم يحجبها وقد برأها الله منه بالردة التي ارتدت مع قومها ، قال : فاطمأن أبو بكر رضي الله عنه وسكن ^(٣) . وقد عظم الله تبارك وتعالى ذلك وشدد

(١) أخرجه مسلم في النكاح (١٠٠) وأحمد في مسنده (١٤٦/٣) وأبو داود في سننه (٣٧٣٨) .

(٢) أخرجه البخاري في (الهبة وفضلها) (٢٥٦٨) وأحمد في مسنده (٤٧٩/٢) .

(٣) ذكره ابن جرير الطبري في تفسيره (٥٠/٢٢) (٢١٨٤١) .

فيه ، وتوعد عليه بقوله : ﴿ إِنَّ ذَلِكُمْ كَانَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمًا ﴾ ثم قال تعالى : ﴿ إِنْ تَبَدُّوا شَيْئًا أَوْ تُخَفُّوهُ فَإِنَّ اللَّهَ كَاتِبٌ كُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا ﴾ أي : مهما تكنه ضمائرهم وتنطوي عليه سرائرهم ، فإن الله يعلمه فإنه لا تخفى عليه خافية ﴿ يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ ﴾ .

﴿ لَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِي آبَائِهِمْ وَلَا أَبْنَائِهِمْ وَلَا إِخْوَانِهِمْ وَلَا أُمَّهَاتِهِمْ أُولَئِكَ مَنَعُ اللَّهِ وَأُولَئِكَ أَهْلُ حُسْنِكُمْ ﴾ .

لما أمر تبارك وتعالى النساء بالحجاب من الأجانب يبين أن هؤلاء الأقارب لا يجب الاحتجاب منهم كما استثناهم في سورة النور عند قوله تعالى : ﴿ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ آبَائِهِنَّ أَوْ آبَائِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَائِهِمْ أَوْ إِخْوَانِهِمْ أَوْ بَنِي إِخْوَانِهِمْ أَوْ نِسَائِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ أَوْ التَّبِيعِينَ غَيْرَ أُولِي إِلَازٍ مِنَ الرِّجَالِ أَوْ الصِّبْيَانِ لَمْ يَأْمُرُ اللَّهُ بِالْجُلُودِ الْمَأْكُونَةِ ﴾ . وفيها زيادات على هذه وقد تقدم تفسيرها والكلام عليها بما أغنى عن إعادته ها هنا . وقد سأل بعض السلف فقال : لم لم يذكر العم والحال في هاتين الآيتين ؟ فأجاب عكرمة والشعبي بأنهما قد يصفان ذلك لبنيهما ^(١) . وقوله تعالى : ﴿ وَلَا نِسَائِهِمْ ﴾ يعني بذلك عدم الاحتجاب من النساء المؤمنات ، وقوله تعالى : ﴿ وَلَا مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ ﴾ يعني به أرقاءهن من الذكور والإناث . كما تقدم التنبيه عليه ، وإيراد الحديث فيه ، قال سعيد بن المسيب : إنما يعني به الإماء فقط . وقوله تعالى : ﴿ وَأَقْرَبُونَ لِلَّهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدًا ﴾ أي : واخشينه في الخلوة والعلانية فإنه شهيد على كل شيء لا تخفى عليه خافية فراقبن الرقيب .

﴿ إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴾ .

قال أبو العالية : صلاة الله تعالى ثناؤه عليه عند الملائكة ، وصلاة الملائكة الدعاء ، وقال ابن عباس : يصلون يركون ^(٢) ؛ وروي عن سفيان الثوري وغير واحد من أهل العلم قالوا : صلاة الرب الرحمة وصلاة الملائكة الاستغفار . وعن عطاء بن أبي رباح ﴿ إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ ﴾ قال : صلاته تبارك وتعالى سبوح قدوس سبقت رحمتي غضبي . والمقصود من هذه الآية أن الله ﷻ ، أخبر عباده بمنزلة عبده ونبيه عنده في الملأ الأعلى بأنه يشي عليه عند الملائكة المقرين ، وأن الملائكة تصلي عليه . ثم أمر تعالى أهل العالم السفلي بالصلاة والتسليم عليه ليجتمع الثناء عليه من أهل العالمين العلوي والسفلي جميعا ، وعن ابن عباس : أن بني إسرائيل قالوا لموسى ﷺ : هل يصلي ربك ؟ فناده ربه ﷻ : يا موسى سألك هل يصلي ربك فقل : نعم أنا أصلي وملائكتي على أنبيائي ورسلي ، فأنزل الله ﷻ على نبيه ﷺ ﴿ إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴾ وقد أخبر ﷻ بأنه يصلي على عباده المؤمنين في قوله تعالى : ﴿ هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ وَمَلَائِكَتُهُ يُصَلُّونَ عَلَى مَبَايِمِ الصُّفُوفِ ﴾ ^(٣) .

(١) ذكره ابن جرير الطبري في تفسيره (٥٢/٢٢) (٢١٨٤٥) .

(٢) أخرجه البخاري في تفسير القرآن ، تفسير سورة الأحزاب ، قوله تعالى ﴿ إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ ﴾ الآية .

(٣) أخرجه أبو داود في سننه (٦٧٦) وابن ماجه في سننه (١٠٠٥) .

وفي الحديث الآخر : « اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى آلِ أَبِي أَوْفَى » ^(١) . وقد جاءت الأحاديث المتواترة عن رسول الله ﷺ بالأمر بالصلاة عليه ، وكيفية الصلاة عليه ونحن نذكر منها إن شاء الله ما تيسر والله المستعان . فعن كعب بن عجرة قال : قيل يا رسول الله أما السلام عليك فقد عرفناه فكيف الصلاة ؟ قال : « قُولُوا اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِ مُحَمَّدٍ ، كَمَا صَلَّيْتَ عَلَى آلِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّكَ حَمِيدٌ مَجِيدٌ ، اللَّهُمَّ بَارِكْ عَلَى مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِ مُحَمَّدٍ ، كَمَا بَارَكْتَ عَلَى آلِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّكَ حَمِيدٌ مَجِيدٌ » ^(٢) .

وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال : قلنا : يا رسول الله هذا السلام عليك فكيف نصلي عليك ؟ قال : « قُولُوا : اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ عَبْدِكَ وَرَسُولِكَ كَمَا صَلَّيْتَ عَلَى آلِ إِبْرَاهِيمَ ، وَبَارِكْ عَلَى مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِ مُحَمَّدٍ كَمَا بَارَكْتَ عَلَى آلِ إِبْرَاهِيمَ » قال أبو صالح عن الليث : على محمد وعلى آل محمد كما باركت على آل إبراهيم ^(٣) .

وعن عبد الله بن أبي بكر عن أبيه عن عمرو بن سليم أنه قال : أخبرني أبو حميد الساعدي أنهم قالوا : يا رسول الله كيف نصلي عليك ؟ قال : « قُولُوا اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ وَأَزْوَاجِهِ وَذُرِّيَّتِهِ ، كَمَا صَلَّيْتَ عَلَى إِبْرَاهِيمَ ، وَبَارِكْ عَلَى مُحَمَّدٍ وَأَزْوَاجِهِ وَذُرِّيَّتِهِ كَمَا بَارَكْتَ عَلَى آلِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّكَ حَمِيدٌ مَجِيدٌ » ^(٤) .

وعن أبي مسعود الأنصاري قال : أتانا رسول الله ﷺ ونحن في مجلس سعد بن عباد فقال له بشير بن سعد : أمرنا الله أن نصلي عليك يا رسول الله فكيف نصلي عليك ؟ قال : فسكت رسول الله ﷺ حتى تمنينا أنه لم يسأله ، ثم قال رسول الله ﷺ : « قُولُوا : اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِ مُحَمَّدٍ كَمَا صَلَّيْتَ عَلَى آلِ إِبْرَاهِيمَ ، وَبَارِكْ عَلَى مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِ مُحَمَّدٍ كَمَا بَارَكْتَ عَلَى آلِ إِبْرَاهِيمَ فِي الْعَالَمِينَ إِنَّكَ حَمِيدٌ مَجِيدٌ ، وَالسَّلَامُ كَمَا قَدْ عَلِمْتُمْ » ^(٥) .

وعن محمد بن إبراهيم التيمي ومحمد بن عبد الله أبي مسعود البصري أنهم قالوا : يا رسول الله أما السلام فقد عرفناه فكيف نصلي عليك إذا نحن صلينا في صلاتنا ؟ فقال : « قُولُوا : اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِ مُحَمَّدٍ كَمَا صَلَّيْتَ عَلَى آلِ إِبْرَاهِيمَ » ^(٦) . ومن ها هنا ذهب الشافعي رحمه الله إلى أنه يجب على المصلي أن يصلي على رسول الله ﷺ في التشهد الأخير فإن تركه لم تصح صلاته . وقد شرع بعض المتأخرين من المالكية وغيرهم يشنع على الإمام الشافعي في اشتراطه ذلك في الصلاة ، ويزعم أنه تفرد بذلك . وحكى الإجماع على خلافه أبو جعفر الطبري والطحاوي والخطابي وغيرهم فيما نقله القاضي عياض عنهم ، وقد تعسف هذا القائل في رده على الشافعي وتكلف في دعواه الإجماع في ذلك ، وقال ما لم يحط به علماً .

(١) أخرجه البخاري في الدعوات (٦٣٣٢) ومسلم في (الزكاة) (١٧٦) .

(٢) أخرجه البخاري في أحاديث الأنبياء (٣٣٧٠) . (٣) أخرجه البخاري في تفسير القرآن (٤٧٩٨) .

(٤) أخرجه الإمام أحمد في مسنده (٤٢٤/٥) وأبو داود في سننه (٩٧٩ ، ٩٨٠) .

(٥) أخرجه مسلم في الصلاة (٦٥) . وأحمد في مسنده (٢٧٤/٥) والترمذي في سننه (٤٨٣) .

(٦) أخرجه أحمد في مسنده (١١٩/٤) .

فإننا قد روينا وجوب ذلك والأمر بالصلاة على رسول الله ﷺ في الصلاة ، كما هو ظاهر الآية ، ومفسر بهذا الحديث عن جماعة من الصحابة منهم ابن مسعود وأبو مسعود البصري وجابر ابن عبد الله ، ومن التابعين : الشعبي وأبو جعفر الباقر ومقاتل بن حيان وإليه ذهب الشافعي لا خلاف عنه في ذلك ولا بين أصحابه أيضًا ، وإليه ذهب الإمام أحمد أخيرًا فيما حكاه عنه أبو زرعة الدمشقي به ، وبه قال إسحاق بن راهويه والفقهاء الإمام محمد بن إبراهيم المعروف بابن المواز المالكي رحمهم الله . حتى أن بعض أئمة الحنابلة أوجب أن يقال في الصلاة عليه ﷺ ، كما علمهم أن يقولوا لما سألوهم وحتى أن بعض أصحابنا أوجب الصلاة على آله فيما حكاه البندنجي وسليم الرازي وصاحبه نصر ابن إبراهيم المقدسي ، ونقله إمام الحرمين وصاحبه الغزالي قولاً عن الشافعي . والصحيح أنه وجه ، على أن الجمهور على خلافه وحكوا الإجماع على خلافه وللقول بوجوبه ظواهر الحديث والله أعلم . والغرض أن الشافعي رحمه الله يقول بوجوب الصلاة على النبي ﷺ في الصلاة سلفاً وخلفاً ، كما تقدم والله الحمد والمنة ، فلا إجماع على خلافه في المسألة لا قديماً ولا حديثاً والله أعلم . وما يؤيد ذلك الحديث الآخر الذي رواه فضالة بن عبيد ؓ قال : سمع رسول الله ﷺ رجلاً يدعو في صلاته لم يمجّد الله ولم يصل على النبي ، فقال رسول الله ﷺ : « عجل هذا » ثم دعاه فقال له أو لغيره : « إذا صَلَّى أَحَدُكُمْ فَلْيَبْدَأْ بِتَمْجِيدِ اللَّهِ ﷻ وَالتَّسْلِيمِ عَلَيْهِ ثُمَّ لِيُصَلِّ عَلَى النَّبِيِّ ثُمَّ لِيَدْعُ بِغَدٍّ بِمَا شَاءَ » (١) . وعن عبد الله بن مسعود ؓ قال : إذا صليتم على رسول الله ﷺ فأحسنوا الصلاة عليه ، فإنكم لا تدرون لعل ذلك يعرض عليه قال : فقالوا له : علمنا ، قال : قولوا : اللهم اجعل صلواتك ورحمتك وبركاتك على سيد المرسلين ، وإمام المتقين وخاتم النبيين ، محمد عبدك ورسولك ، إمام الخير وقائد الخير ، ورسول الرحمة . اللهم ابعته مقاماً محموداً يغبطه به الأولون والآخرون ، اللهم صل على محمد وعلى آل محمد كما صليت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم إنك حميد مجيد ، اللهم بارك على محمد وعلى آل محمد كما باركت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم إنك حميد مجيد (٢) .

وقال أبو إسرائيل عن يونس بن خباب : خطبنا بفارس فقال : ﴿ إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴾ فقال : أنبأني من سمع ابن عباس يقول : هكذا أنزل ، فقلنا أو قالوا : يا رسول الله علمنا السلام عليك فكيف الصلاة عليك ؟ قال : « اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِ مُحَمَّدٍ كَمَا صَلَّيْتَ عَلَى إِبْرَاهِيمَ وَعَلَى آلِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّكَ حَمِيدٌ مَجِيدٌ ، وَارْحَمْ مُحَمَّدًا وَآلَ مُحَمَّدٍ كَمَا رَحَّمْتَ آلَ إِبْرَاهِيمَ إِنَّكَ حَمِيدٌ مَجِيدٌ ، وَبَارِكْ عَلَى مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِ مُحَمَّدٍ كَمَا بَارَكْتَ عَلَى إِبْرَاهِيمَ إِنَّكَ حَمِيدٌ مَجِيدٌ » فيستدل بهذا الحديث من ذهب إلى جواز الترحم على النبي ﷺ كما هو قول الجمهور ويعضده حديث الأعرابي الذي قال : اللهم ارحمني ومحمداً ولا ترحم معنا أحداً ، فقال رسول الله ﷺ : « لَقَدْ حَبِطَتْ وَاسِعًا » (٣) .

(١) أخرجه أحمد في مسنده (١٨/٦) والترمذي في سننه (٣٤٧٧) وأبو داود في سننه (١٤٨١) .

(٢) ذكره الطبري في تفسيره (٥٤/٢٢) .

(٣) أخرجه ابن ماجه في سننه (٩٠٦) .

وعن عامر بن ربيعة : سمعت النبي ﷺ يقول : « مَنْ صَلَّى عَلَيَّ صَلَاةً لَمْ تَزَلِ الْمَلَائِكَةُ تُصَلِّيْ عَلَيْهِ مَا صَلَّى عَلَيَّ فَلْيَقُلْ عَبْدٌ مِنْ ذَلِكَ أَوْ لِيَكْثِر » ^(١) .

وعن عبد الله بن مسعود أن رسول الله ﷺ قال : « أَوْلَى النَّاسِ بِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَكْثَرُهُمْ عَلَيَّ صَلَاةً » ^(٢) .

عن الطفيل بن أبي بن كعب عن أبيه قال : كان رسول الله ﷺ إذا ذهب ثلثا الليل قام فقال : « يَا أَيُّهَا النَّاسُ اذْكُرُوا اللَّهَ اذْكُرُوا اللَّهَ ، جَاءَتْ الرَّاجِفَةُ تَتَّبِعُنَا الرَّادِفَةُ ، جَاءَ الْمَوْتُ بِمَا فِيهِ ، جَاءَ الْمَوْتُ بِمَا فِيهِ . » قال أبي : قلت : يا رسول الله إني أكثر الصلاة عليك فكم أجعل لك من صلاتي ؟ قال : « مَا شِئْتَ » قلت : الربع ؟ قال : « مَا شِئْتَ فَإِنْ زِدْتَ فَهُوَ خَيْرٌ لَكَ » قلت : فالنصف ؟ قال : « مَا شِئْتَ فَإِنْ زِدْتَ فَهُوَ خَيْرٌ لَكَ » قلت : فالثلثين ؟ قال : « مَا شِئْتَ فَإِنْ زِدْتَ فَهُوَ خَيْرٌ لَكَ » . قلت : أجعل لك صلاتي كلها قال : « إِذَنْ تُكْفَى هَمَّكَ وَيُغْفَرُ لَكَ ذَنْبُكَ » ^(٣) .

وعن عبد الله بن أبي طلحة عن أبيه : أن رسول الله ﷺ جاء ذات يوم والسرور يرى في وجهه فقالوا : يا رسول الله إنا لنرى السرور في وجهك ؟ فقال : « إِنَّهُ أَتَانِي الْمَلَكُ فَقَالَ : يَا مُحَمَّدُ أَمَّا يُرْضِيكَ أَنْ رَبَّكَ ﷻ يَقُولُ : إِنَّهُ لَا يُصَلِّي عَلَيْكَ أَحَدٌ مِنْ أُمَّتِكَ إِلَّا صَلَّيْتُ عَلَيْهِ عَشْرًا ، وَلَا يُسَلِّمُ عَلَيْكَ أَحَدٌ مِنْ أُمَّتِكَ إِلَّا سَلَّمْتُ عَلَيْهِ عَشْرًا ؟ قُلْتُ : بَلَى » ^(٤) .

وعن أبي طلحة الأنصاري قال : أصبح رسول الله ﷺ يومًا طيب النفس يرى في وجهه البشر ، قالوا : يا رسول الله أصبحت اليوم طيب النفس يرى في وجهك البشر . قال : « أَجَلُ أَتَانِي آتٍ مِنْ رَبِّي ﷻ فَقَالَ : مَنْ صَلَّى عَلَيْكَ مِنْ أُمَّتِكَ صَلَاةً كَتَبَ اللَّهُ لَهُ بِهَا عَشْرَ حَسَنَاتٍ ، وَمَعََا عَنْهُ عَشْرَ سَيِّئَاتٍ ، وَرَفَعَ لَهُ عَشْرَ دَرَجَاتٍ ، وَرَدَّدَ عَلَيْهِ مِثْلَهَا » ^(٥) .

وعن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال : « صَلُّوا عَلَيَّ فَإِنَّهَا زَكَاةٌ لَكُمْ وَسَلُّوا اللَّهَ لِي الْوَسِيلَةَ فَإِنَّهَا دَرَجَةٌ فِي أَعْلَى الْجَنَّةِ وَلَا يَنَالُهَا إِلَّا رَجُلٌ ، وَأَزْجُو أَنْ أَكُونَ أَنَا هُوَ » ^(٦) .

وعن علي بن الحسين عن أبيه أن رسول الله ﷺ قال : « البخيل من ذكرت عنده ثم لم يصل علي » ^(٧) وعن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « رَغِمَ أَنْفُ رَجُلٍ ذُكِرَتْ عَنْدهُ فَلَمْ يَصَلِّ عَلَيَّ ، وَرَغِمَ أَنْفُ رَجُلٍ دَخَلَ عَلَيْهِ شَهْرُ رَمَضَانَ ثُمَّ انْسَلَخَ قَبْلَ أَنْ يَغْفَرَ لَهُ ، وَرَغِمَ أَنْفُ رَجُلٍ أَذْرَكَ عَنْدهُ أَبَوَاهُ الْكِبَرَ فَلَمْ يَذْخِلَاهُ الْجَنَّةَ » ^(٨) . وهذا الحديث دليل على وجوب الصلاة على النبي ﷺ .

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٤٤٥/٣) وابن ماجه في سننه (٩٠٧/١) .

(٢) أخرجه الترمذي في سننه (٤٨٤) . (٣) ذكره المنذري في الترغيب والترهيب (٥٠٠/٢) .

(٤) أخرجه أحمد في مسنده (٣٠/٤) . (٥) أخرجه أحمد في مسنده (٢٩/٤) .

(٦) أخرجه أحمد في مسنده (٣٦٥/٢) والهيثم في مجمع الزوائد (٣٣٢/١) .

(٧) أخرجه أحمد في مسنده (٢٠١/١) .

(٨) أخرجه أحمد في مسنده (٢٥٤/٢) ، والحاكم في المستدرک (٥٤٩/١) .

كما ذكر ، وهو مذهب طائفة من العلماء منهم الطحاوي والحليمي ويتقوى بالحديث الآخر الذي رواه ابن ماجه ، عن ابن عباس قال : قال رسول الله ﷺ : « مَنْ نَسِيَ الصَّلَاةَ عَلَيَّ أَخْطَأَ طَرِيقَ الْجَنَّةِ » ^(١) . وذهب آخرون إلى وجوب الصلاة عليه في المجلس مرة واحدة ويتأيد ذلك بحديث أبي هريرة عن النبي ﷺ قال : « مَا جَلَسَ قَوْمٌ مَجْلِسًا لَمْ يَذْكُرُوا اللَّهَ فِيهِ وَلَمْ يُصَلُّوا عَلَيَّ نَبِيَّهُمْ إِلَّا كَانَ عَلَيْهِمْ تَرَةٌ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، فَإِنْ شَاءَ عَذَّبَهُمْ وَإِنْ شَاءَ غَفَرَ لَهُمْ » ^(٢) . وحكي عن بعضهم أنه إنما تجب الصلاة عليه - عليه الصلاة والسلام - في العمر مرة واحدة امتثالاً لأمر الآية . ثم هي مستحبة في كل حال ، وهذا هو الذي نصره القاضي عياض بعدما حكى الإجماع على وجوب الصلاة عليه ﷺ في الجملة . قال : وقد حكى الطبري أن محمل الآية على الندب وادعى فيه الإجماع ، قال : ولعله فيما زاد على المرة ، والواجب فيه مرة كالشهادة له بالنبوة وما زاد على ذلك فمندوب ومرغب فيه من سنن الإسلام وشعار أهله .

قلت : وهذا قول غريب ، فإنه قد ورد الأمر بالصلاة عليه في أوقات كثيرة ، فمنها واجب ، ومنها مستحب على ما نبينه . فمنه بعد النداء للصلاة : لحديث : « إِذَا سَمِعْتُمْ مُؤَذَّنًا فَقُولُوا مِثْلَ مَا يَقُولُ ، ثُمَّ صَلُّوا عَلَيَّ ؛ فَإِنَّهُ مَنْ صَلَّى عَلَيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ بِهَا عَشْرًا ، ثُمَّ سَلُوا اللَّهَ لِي الْوَسِيلَةَ فَإِنَّهَا مَنْزِلَةٌ فِي الْجَنَّةِ لَا تَنْبَغِي إِلَّا لِعَبْدٍ مِنْ عِبَادِ اللَّهِ ، وَأَرْجُو أَنْ أَكُونَ أَنَا هُوَ ، فَمَنْ سَأَلَ لِي الْوَسِيلَةَ حَلَّتْ عَلَيْهِ الشَّفَاعَةُ » ^(٣) .

وفي الحديث : « مَنْ صَلَّى عَلَيَّ مُحَمَّدٍ وَقَالَ : « اللَّهُمَّ أَنْزِلْهُ الْمَقْعَدَ الْمُقَرَّبَ عِنْدَكَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَجَبَتْ لَهُ شَفَاعَتِي » ^(٤) .

ومن ذلك عند دخول المسجد والخروج منه ؛ للحديث الذي روي عن فاطمة بنت رسول الله ﷺ قالت : كان رسول الله ﷺ إذا دخل المسجد صلى على محمد وسلم ثم قال : « اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي ذُنُوبِي وَافْتَحْ لِي أَبْوَابَ رَحْمَتِكَ » وإذا خرج صلى على محمد وسلم ثم قال : « اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي ذُنُوبِي وَافْتَحْ لِي أَبْوَابَ فَضْلِكَ » ^(٥) . وقال علي بن أبي طالب ؓ : إذا مررت بالمساجد فصلوا على النبي ﷺ .

وأما الصلاة عليه ﷺ في الصلاة . فقد قدمنا الكلام عليها في التشهد الأخير ، ومن ذهب إلى ذلك من العلماء : منهم الشافعي رحمه الله وأكرمه ، وأحمد ، وأما التشهد الأول فلا تجب فيه قولاً واحداً وهل تستحب ؟ على قولين للشافعي ، ومن ذلك الصلاة عليه ﷺ في صلاة الجنازة فإن السنة أن يقرأ في التكبيرة الأولى فاتحة الكتاب ، وفي الثانية : أن يصلي على النبي ﷺ ، وفي الثالثة : يدعو

(١) أخرجه ابن ماجه في سننه (٩٠٨) والبيهقي في سننه (٢٨٦/٩) .

(٢) أخرجه الترمذي في سننه (٣٣٨٠) .

(٣) أخرجه مسلم في الصلاة (١٥) وأحمد في مسنده (١٦٨/٢) وأبو داود في سننه (٥٢٣) والترمذي في سننه (٣٦١٤) .

(٤) أخرجه أحمد في مسنده (١٠٨/٤) والبيهقي في مجمع الزوائد (١٦٣/١٠) .

(٥) أخرجه أحمد في مسنده (٢٨٢/٦) وابن ماجه في سننه (٧٧١) .

للميت ، وفي الرابعة : يقول اللهم لا تحرمننا أجره ولا تفتننا بعده . قال الشافعي رحمته الله : حدثنا مطرف ابن مازن عن معمر عن الزهري أخبرني أبو أمامة بن سهل بن حنيف أنه أخبره رجل من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم أن السنة في الصلاة على الجنائز أن يكبر الإمام ، ثم يقرأ بفاتحة الكتاب بعد التكبيرة الأولى سرًا في نفسه ، ثم يصلي على النبي صلى الله عليه وسلم ويخلص الدعاء للجنائز ، وفي التكبيرات لا يقرأ في شيء منها ثم يسلم سرًا في نفسه . وهكذا روي عن أبي هريرة وابن عمر والشعبي ، ومن ذلك في صلاة العيد عن علقمة أن ابن مسعود وأبا موسى وحذيفة خرج عليهم الوليد بن عقبة يومًا قبل العيد فقال لهم : إن هذا العيد قد دنا فكيف التكبير فيه ؟ قال عبد الله : تبدأ فتكبر تكبيرة تفتتح بها الصلاة وتحمد ربك وتصلي على النبي صلى الله عليه وسلم ، ثم تدعو وتكبر وتفعل مثل ذلك ، ثم تكبر وتفعل مثل ذلك ، ثم تكبر وتفعل مثل ذلك ، ثم تقرأ ثم تكبر وتركع ، ثم تقوم فتقرأ وتحمد ربك وتصلي على النبي صلى الله عليه وسلم ، ثم تدعو وتكبر وتفعل مثل ذلك ، ثم تركع ، فقال حذيفة وأبو موسى صدق : أبو عبد الرحمن . ومن ذلك أنه يستحب ختم الدعاء بالصلاة عليه صلى الله عليه وسلم ، وعن عمر بن الخطاب قال : الدعاء موقوف بين السماء والأرض لا يصعد منه شيء حتى تصلي على نبيك ^(١) . وعن الحسن بن علي رضي الله عنه قال : علمني رسول الله صلى الله عليه وسلم كلمات أقولهن في الوتر : « اللَّهُمَّ اهْدِنِي فِيمَنْ هَدَيْتَ ، وَعَافِنِي فِيمَنْ عَافَيْتَ ، وَتَوَلَّنِي فِيمَنْ تَوَلَّيْتَ ، وَبَارِكْ لِي فِيمَا أَعْطَيْتَ ، وَفِي سِرِّ مَا قَضَيْتَ ، فَإِنَّكَ تَقْضِي وَلَا يُقْضَى عَلَيْكَ ، إِنَّهُ لَا يَذِلُّ مَنْ وَالَيْتَ ، وَلَا يَعْزُزُ مَنْ عَادَيْتَ ، تَبَارَكْتَ رَبَّنَا وَتَعَالَيْتَ » ^(٢) ومن ذلك أنه يستحب الإكثار من الصلاة عليه يوم الجمعة وليلة الجمعة .

وعن أوس بن أوس الثقفي رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « مِنْ أَفْضَلِ أَيَّامِكُمْ يَوْمُ الْجُمُعَةِ ؛ فِيهِ خُلِقَ آدَمُ ، وَفِيهِ قُبِضَ ، وَفِيهِ النِّفْخَةُ فِيهِ الصُّعْقَةُ فَأَكْثَرُوا عَلَيَّ مِنَ الصَّلَاةِ فِيهِ ، فَإِنْ صَلَّاتُكُمْ مَغْرُوضَةٌ عَلَيَّ » قالوا : يا رسول الله وكيف تعرض عليك صلاتنا وقد أُرمت ؟ - يعني وقد بليت - قال : « إِنَّ اللَّهَ حَرَّمَ عَلَى الْأَرْضِ أَنْ تَأْكُلَ أَجْسَادَ الْأَنْبِيَاءِ » ^(٣) .

وهكذا يجب على الخطيب أن يصلي على النبي صلى الله عليه وسلم يوم الجمعة على المنبر في الخطبتين ولا تصح الخطبتان إلا بذلك ؛ لأنها عبادة ، وذكر الله شرط فيها فوجب ذكر الرسول صلى الله عليه وسلم فيها كالأذان والصلاة . هذا مذهب الشافعي وأحمد رحمهما الله . ومن ذلك أنه يستحب الصلاة والسلام عليه عند زيارة قبره صلى الله عليه وسلم فعن أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « مَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ يُسَلِّمُ عَلَيَّ إِلَّا رَدَّ اللَّهُ عَلَيَّ رُوحِي حَتَّى أَرُدَّ عَلَيْهِ السَّلَامَ » ^(٤) . وعن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لَا تَجْعَلُوا مِثْوَتَكُمْ قُبُورًا وَلَا تَجْعَلُوا قَبْرِي عِيدًا ، وَصَلُّوا عَلَيَّ إِنَّ صَلَاتَكُمْ تَبْلُغُنِي حَيْثُمَا كُنْتُمْ » ^(٥) . وعن

(١) أخرجه الترمذي في سننه (٤٨٦) .

(٢) أخرجه أحمد في مسنده (١٩٩/١) والحاكم في المستدرک (١٧٢/٣) .

(٣) أخرجه أحمد في مسنده (٨/٤) وابن ماجه في سننه (١٠٨٥) .

(٤) أخرجه أبو داود في سننه (٢٠٤١) .

(٥) أخرجه أحمد في مسنده (٣٦٧/٢) وأبو داود في سننه (٢٠٤٢) .

الحسن بن الحسين بن علي قال : رأى قوماً عند قوماً عند القبر فنهاهم وقال : إن النبي ﷺ قال : « لَا تَتَّخِذُوا قَبْرِي عَيْدًا وَلَا تَتَّخِذُوا مَيُوتَكُمْ قُبُورًا ، وَصَلُّوا عَلَيَّ حَيْثُمَا كُنْتُمْ فَإِنْ صَلَاتَكُمْ تَبْلُغُنِي » ^(١) . فلعله رآهم يسيئون الأدب برفع أصواتهم فوق الحاجة فنهاهم . وقد روي أنه رأى رجلاً ينتاب القبر فقال : يا هذا ما أنت ورجل بالأندلس منه إلا سواء . أي : الجميع يبلغه صلوات الله وسلامه عليه دائماً إلى يوم الدين .

وعن عبد الله بن مسعود أن رسول الله ﷺ قال : « إِنْ لِلَّهِ مَلَائِكَةٌ سَيَّاحِينَ فِي الْأَرْضِ يُبَلِّغُونِي عَنْ أَتْمِي السَّلَامِ » ^(٢) . وقد قيل : إنه ويستحب للمحرم إذا لبى وفرغ من تلبيته أن يصلي على النبي ﷺ ؛ لما روي عن القاسم بن محمد بن أبي بكر الصديق قال : كان يؤمر الرجل إذا فرغ من تلبيته أن يصلي على النبي ﷺ على كل حال ، وعن وهب بن الأجدع قال : سمعت عمر الخطاب رضي الله عنه يقول : إذا قدمتم فطوفوا بالبيت سبعا وصلوا عند المقام ركعتين ، ثم اتوا الصفا ، فقوموا عليه من حيث ترون البيت فكبروا سبع مرات تكبيراً بين حمد الله وثناء عليه وصلاة على النبي ﷺ ومسألة لنفسك ، وعلى المروة مثل ذلك .

قالوا : ويستحب الصلاة على النبي ﷺ مع ذكر الله عند الذبح ، واستأنسوا بقوله تعالى : ﴿ رَوَّعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ ﴾ قال بعض المفسرين : يقول الله تعالى : لا أذكر إلا ذكرت معي . وخالفهم في ذلك الجمهور ، وقالوا : هذا موطن يفرد فيه ذكر الله تعالى . كما عند الأكل والدخول والوقاع وغير ذلك . مما لم ترد فيه السنة بالصلاة على النبي ﷺ .

مسألة : وقد استحَب أهل الكتابة أن يكرر الكاتب الصلاة على النبي ﷺ كلما كتبه ، وقد ذكر الخطيب البغدادي في كتابه [الجامع لأدب الراوي والسامع] قال : رأيت بخط الإمام أحمد بن حنبل رضي الله عنه كثيراً ما يكتب اسم النبي ﷺ من غير ذكر الصلاة عليه كتابة قال : وبلغني أنه كان يصلي عليه لفظاً .

فصل : وأما الصلاة على غير الأنبياء ، فإن كانت على سبيل التبعية كما تقدم في الحديث : اللهم صل على محمد وآله وأزواجه وذريته فهذا جائز بالإجماع . وإنما وقع النزاع فيما إذا أفرد غير الأنبياء بالصلاة عليهم فقال قائلون : يجوز ذلك واحتجوا بقول الله تعالى : ﴿ هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ وَمَلَائِكَتُهُ فِي سَمَوَاتِهِ صَلَاتُهُمْ صَلَافٌ عَلَيْهِمْ وَرُكُوعُهُمْ رُكُوعٌ لِيَا وَصَلَّى عَلَيْهِمْ ﴾ الآية . وبحديث عبد الله بن أبي أوفى قال : كان رسول الله ﷺ : إذا أتاه قوم بصدقتهم قال : « اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَيْهِمْ » . فأتاه أبي بصدقته فقال : « اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى آلِ أَبِي أَوْفَى » ^(٣) . قال الجمهور من العلماء : لا يجوز لإفراد غير الأنبياء بالصلاة ؛ لأن هذا قد صار شعاراً للأنبياء إذا ذكروا فلا يلحق بهم غيرهم فلا يقال : قال أبو بكر صلى الله عليه ، أو : قال علي صلى الله عليه ، وإن كان المعنى

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٣٦٧/٢) والهيتمي في مجمع الزوائد (٤/٣) .

(٢) أخرجه أحمد في مسنده (٤٤١/١ ، ٤٥٢) .

(٣) أخرجه البخاري في الدعوات (٦٣٣٢) ومسلم في الزكاة (١٧٦) .

صحيحًا . كما لا يقال : قال محمد ﷺ ، وإن كان عزيزًا جليلًا ؛ لأن هذا من شعار ذكر الله ﷻ ، وحملوا ما ورد في ذلك من الكتاب والسنة على الدعاء لهم ؛ ولهذا لم يثبت شعارًا لآل أبي أوفى ولا لغيره ، وهذا مسلك حسن . وقال آخرون : لا يجوز ذلك ؛ لأن الصلاة على غير الأنبياء قد صارت من شعار أهل الأهواء يصلون على من يعتقدون فيهم ، فلا يقتدى بهم في ذلك والله أعلم .

ثم اختلف المانعون من ذلك هل هو من باب التحريم أو الكراهة التنزيهية أو خلاف الأولى ؟ على ثلاثة أقوال حكاه الشيخ أبو زكريا النووي في كتاب الأذكار . ثم قال : والصحيح الذي عليه الأكثر أنه مكروه كراهة تنزيه ؛ لأنه شعار أهل البدع وقد نهينا عن شعارهم ، والمكروه هو ما ورد فيه نهي مقصود . قال أصحابنا : والمعتمد في ذلك أن الصلاة صارت مخصوصة في لسان السلف بالأنبياء ، كما أن قولنا ﷺ مخصوص بالله تعالى ، فكما لا يقال محمد ﷺ وإن كان عزيزًا جليلًا لا يقال أبو بكر أو علي صلى الله عليه ، هذا لفظ بحروفه ، قال : وأما السلام فقال الشيخ أبو محمد الجويني من أصحابنا : هو في معنى الصلاة فلا يستعمل في الغائب ولا يفرد به غير الأنبياء ، فلا يقال علي ﷺ وسواء في هذا الأحياء والأموات . وأما الحاضر فيخاطب به فيقال : سلام عليك وسلام عليكم أو السلام عليك أو عليكم وهذا مجمع عليه . انتهى ما ذكره .

قلت : وقد غلب هذا في عبارة كثير من النساخ للكتب أن يفرد علي ﷺ بأن يقال ﷺ من دون سائر الصحابة أو كرم الله وجهه ، وهذا وإن كان معناه صحيحًا لكن ينبغي أن يسوى بين الصحابة في ذلك ، فإن هذا من باب التعظيم والتكريم ، فالشيخان وأمير المؤمنين عثمان أولى بذلك منه ﷺ أجمعين . قال ابن عباس : لا تصح الصلاة على أحد إلا على النبي ﷺ ولكن يدعى للمسلمين والمسلمات بالمغفرة . وقال جعفر بن برقان : كتب عمر بن عبد العزيز رضى الله عنه : أما بعد فإن ناسًا من الناس قد التمسوا الدنيا بعمل الآخرة ، وإن ناسًا من القصاص قد أحدثوا في الصلاة على خلفائهم وأمرائهم عدل الصلاة على النبي ﷺ . فإذا جاءك كتابي هذا فمرهم أن تكون صلاتهم على النبيين ، ودعائهم للمسلمين عامة ويدعوا ما سوى ذلك .

فرع : قال النووي : إذا صلى على النبي ﷺ فليجمع بين الصلاة والتسليم ، فلا يقتصر على أحدهما ، فلا يقول صلى الله عليه فقط ولا ﷺ فقط ، وهذا الذي قاله منتزع من هذه الآية الكريمة : ﴿ يَأْتِيهَا الْبُتَّةُ ءَامِنَاتٌ مَلُوءَاتُ عَلَيْهِ وَسَلَامٌ تَسْلِيمًا ﴾ فالأولى أن يقال ﷺ تسليمًا .

﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَعَنَهُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُهِينًا ﴾ وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ بَغْيٍ مَا اكْتَسَبُوا فَقَدْ احْتَمَلُوا بُهْتَانًا وَإِنَّمَا تُبْهَتٌ .

يقول تعالى متهددًا ومتوعدًا من آذنه بمخالفة أوامره وارتكاب زواجره وإصراره على ذلك وإيذاء رسوله بعبث أو بنقص - عيادًا بالله من ذلك - قال عكرمة في قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ ﴾ نزلت في المصورين . وفي الصحيحين عنه ﷺ : « يَقُولُ اللَّهُ ﷻ : يُؤْذِنِي ابْنُ آدَمَ ، يَسْبُ

الدَّهْرُ وَأَنَا الدَّهْرُ ، أَقْلَبُ لَيْلَهُ وَنَهَارَهُ ^(١) . ومعنى هذا أن الجاهلية كانوا يقولون : يا خيبة الدهر فعل بنا كذا وكذا ، فيسندون أفعال الله إلى الدهر ويسبونه ، وإنما الفاعل لذلك هو الله ﷻ فنهى عن ذلك . هكذا قرره الشافعي وأبو عبيدة وغيرهما من العلماء رحمهم الله . وقال ابن عباس في قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ ﴾ : نزلت في الذين طعنوا على النبي ﷺ في تزويجه صفية بنت حيي بن أخطب . والظاهر أن الآية عامة في كل من آذاه بشيء ومن آذاه فقد آذى الله . كما أن من أطاعه فقد أطاع الله . كما قال عبد الله بن المغفل المزني : قال رسول الله ﷺ : « الله الله في أصحابي ، لا تتخذوهم غرضا بغدي ، فَمَنْ أَحْبَبَهُمْ فَيَحْبِبِي أَحْبَبَهُمْ ، وَمَنْ أَبْغَضَهُمْ فَيَبْغِضِي أَبْغَضَهُمْ ، وَمَنْ آذَاهُمْ فَقَدْ آذَانِي ، وَمَنْ آذَانِي فَقَدْ آذَى اللَّهَ ، وَمَنْ آذَى اللَّهَ يُوشِكُ أَنْ يَأْخُذَهُ » ^(٢) .

وقوله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ بغيرِ مَا اكْتَسَبُوا ﴾ أي : ينسبون إليهم ما هم براء منه ولم يعملوه ولم يفعلوه ﴿ فَقَدْ أَحْتَمَلُوا بِهَتَّائِنَا وَإِنَّا مُبِينَا ﴾ وهذا هو البهت الكبير أن يحكى أو ينقل عن المؤمنين والمؤمنات ما لم يفعلوه على سبيل العيب والتقص لهم . ومن أكثر من يدخل في هذا الوعيد الكفرة بالله ورسوله ، ثم الرافضة الذين يتنقصون الصحابة ويعيبونهم بما قد برأهم الله منه ، ويصفونهم بنقيض ما أخبر الله عنهم ، فإن الله ﷻ قد أخبر أنه قد رضي عن المهاجرين والأنصار ومدحهم وهؤلاء الجهلة الأغبياء يسبونهم وينقصونهم ويذكرون عنهم ما لم يكن ولا فعلوه أبداً ، فهم في الحقيقة منكسو القلوب يذمون الممدوحين ويمدحون المذمومين . وعن أبي هريرة أنه قيل : يا رسول الله ما الغيبة ؟ قال : « ذِكْرُكَ أَخَاكَ بِمَا يَكْرَهُ » قيل : أفأريت إن كان في أخي ما أقول ؟ قال : « إِنْ كَانَ فِيهِ مَا تَقُولُ فَقَدْ اغْتَيْبْتَهُ ، وَإِنْ لَمْ يَكُنْ فِيهِ مَا تَقُولُ فَقَدْ بَهْتُهُ » ^(٣) . وعن عائشة قالت : قال رسول الله ﷺ لأصحابه : « أَيُّ الرِّبَا أَرْثَى عِنْدَ اللَّهِ ؟ » قالوا : الله ورسوله أعلم ، قال : « أَرْثَى الرِّبَا عِنْدَ اللَّهِ اسْتِخْلَالُ عِرْضِ امْرِئٍ مُسْلِمٍ » ثم قرأ ﴿ وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ بغيرِ مَا اكْتَسَبُوا فَقَدْ أَحْتَمَلُوا بِهَتَّائِنَا وَإِنَّا مُبِينَا ﴾ ^(٤) .

﴿ يَتَأْتِيهَا النَّبِيُّ قُلُوبًا لَّازِيَةً فَالْزَوَاجُ وَبَنَاتُكَ وَسَاءَ الْمُؤْمِنِينَ بِأَيْدِيكَ عَلَيْنَ مِنْ جَلِيلٍ ذَلِكَ أَدَّى أَنْ يَعْرِفَ فَلَا يُؤْذِنُ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ﴾ ^(٥) . لَيْنَ لَزِيَّةَ الْمُتَنَفِّقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْمُرْجُفُونَ فِي الْمَدِينَةِ لَنُغْرِبَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَا إِلَّا قَلِيلًا ^(٦) . مُلْعُونِينَ أَيْنَمَا شِئْتُمُوْا أُخِذُوا وَقُتِلُوا قَتِيلًا ^(٧) . سَخَّ اللَّهُ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ وَلَنْ يَجِدَ لِسَخَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا .

يقول تعالى أمراً رسوله ﷺ أن يأمر النساء المؤمنات - خاصة أزواجه وبناته لشرفهن - بأن يدين عليهن من جلايبهن ليميزن عن سمات نساء الجاهلية وسمات الإماء ، والجلاب هو الرداء فوق اللحمار . قاله ابن مسعود وعبيدة وقادة وغير واحد ، وهو بمنزلة الإزار اليوم . قال الجوهري :

(١) أخرجه البخاري في التفسير (٤٨٢٦) ومسلم في الأنفاظ من الأدب وغيرها (٢ ، ٣) .

(٢) أخرجه أحمد في مسنده (٥٤/٥ ، ٥٧) والترمذي في سننه (٣٨٦٢) .

(٣) أخرجه أحمد في مسنده (٣٨٦ ، ٣٨٤/٢٠) وأبو داود في سننه (٤٨٧٤) والترمذي في سننه (١٩٣٤) .

(٤) أخرجه أحمد في مسنده (١٩٠/١) .

الجلباب : الملحفة ، قال ابن عباس : أمر الله نساء المؤمنين إذا خرجن من بيوتهن في حاجة أن يغطين وجوههن من فوق رؤوسهن بالجلابيب ويدين عينا واحدة . وقال محمد بن سيرين : سألت عبيدة السلماني عن قول الله ﷻ : ﴿ يُدْنِيكَ عَلَيْنَّ مِنْ جَلْبَابٍ ﴾ فغطى وجهه ورأسه وأبرز عينه اليسرى . وقال عكرمة : تغطي ثغرة نحرها بجلبابها تدنيه عليها . وعن أم سلمة قالت : لما نزلت هذه الآية : ﴿ يُدْنِيكَ عَلَيْنَّ مِنْ جَلْبَابٍ ﴾ خرج نساء الأنصار كأن علي رؤوسهن الغربان من السكينة وعليهن أكسية سود يلبسهن . وقال يونس بن يزيد : وسألناه - يعني الزهري - هل على الوليدة خمار متزوجة أو غير متزوجة ؟ قال : عليها الخمار إن كانت متزوجة وتنهى عن الجلباب ؛ لأنه يكره لهن أن يتشبهن بالحرائر المحصنات ، وقد قال الله تعالى : ﴿ يَتَأْتِيَ النَّبِيَّ قُلُوبُ لِرَازِقِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَاءَ الْمُؤْمِنِينَ يُدْنِيكَ عَلَيْنَّ مِنْ جَلْبَابٍ ﴾ ، وروي عن سفيان الثوري أنه قال : لا بأس بالنظر إلى زينة نساء أهل الذمة . وإنما نهى عن ذلك لخوف الفتنة لا لحرمتهم واستدل بقوله تعالى : ﴿ وَنِسَاءَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ . وقوله : ﴿ ذَلِكَ أَذَقَهُ أَنْ يُعْرِفَ فَلَا يُؤْذِنُ ﴾ أي : إذا فعلن ذلك عرفن أنهن حرائر ، لسن إماء ولا عواهر . قال السدي في قوله تعالى : ﴿ يَتَأْتِيَ النَّبِيَّ قُلُوبُ لِرَازِقِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَاءَ الْمُؤْمِنِينَ يُدْنِيكَ عَلَيْنَّ مِنْ جَلْبَابٍ ﴾ ذَلِكَ أَذَقَهُ أَنْ يُعْرِفَ فَلَا يُؤْذِنُ : كان ناس من فساق أهل المدينة يخرجون بالليل حين يختلط الظلام إلى طرق المدينة فيعرضون للنساء ، وكانت مساكن أهل المدينة ضيقة فإذا كان الليل خرج النساء إلى الطرق يقضين حاجتهن ، فكان أولئك الفساق يبتغون ذلك منهن ، فإذا رأوا المرأة عليها جلباب قالوا : هذه حرة فكفوا عنها ، وإذا رأوا المرأة ليس عليها جلباب قالوا : هذه أمة فوثبوا عليها . وقال مجاهد : يتجلببن فيعلم أنهن حرائر فلا يتعرض لهن فاسق بأذى ولا رية . وقوله تعالى : ﴿ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ﴾ أي : لما سلف في أيام الجاهلية حيث لم يكن عندهن علم بذلك ، ثم قال تعالى متوعدا للمنافقين وهم الذين يظهرون الإيمان ويطنون الكفر ﴿ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ ﴾ قال عكرمة وغيره : هم الزناة ها هنا ﴿ وَالْمُرْجُفُونَ فِي الْمَدِينَةِ ﴾ يعني : الذين يقولون : جاء الأعداء وجاءت الحروب وهو كذب وافتراء لئن لم ينتهوا عن ذلك ويرجعوا إلى الحق ﴿ لَنُفْرِنَكَ بِهِمْ ﴾ قال ابن عباس : أي لنسلطنك عليهم . وقال قتادة : لنحرشك بهم ، وقال السدي : لنعلمنك بهم . ﴿ ثُمَّ لَا يُجَاوِزُونَكَ فِيهَا ﴾ أي : في المدينة ﴿ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ مَلْعُونِينَ ﴿ حَالِ مِنْهُمْ فِي إِقَامَتِهِمْ فِي الْمَدِينَةِ مَدَّةَ قَرْيَةٍ مَطْرُودِينَ مَبْعَدِينَ ﴾ آيِنَا نَقُفُوا ﴿ أي : وجدوا ﴾ أَخَذُوا ﴿ لذلتهم وقتلتهم ﴾ وَقَتَلُوا نَفْسِيلاً ﴿ ثم قال تعالى : ﴿ سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ ﴾ أي : هذه سنته في المنافقين إذا تردوا على نفاقهم وكفرهم ولم يرجعوا عما هم فيه ، أن أهل الإيمان يسلطون عليهم ويقهرونهم ﴿ وَلَنْ نَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا ﴾ أي : وسنة الله في ذلك لا تبدل ولا تغير .

﴿ يَسْأَلُكَ النَّاسُ عَنِ السَّاعَةِ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ اللَّهِ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا ﴾ إِنَّ اللَّهَ لَعَنَ الْكَافِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيرًا ﴿ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا لَا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴾ يَوْمَ نُقَلِّبُ وَجُوهَهُمْ فِي النَّارِ يَقُولُونَ بَلَيَّتَنَا طَعْنَا اللَّهَ وَأَطَعْنَا الرَّسُولَ ﴿ وَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكِبَرَاءَنَا فَأَصْلَحْنَا السَّبِيلَ ﴾ رَبَّنَا إِنَّا هُمْ ضَعُفَيْنِ مِنَ الْعَذَابِ وَالْعَنَتِمْ لَنَا كَبِيرًا ﴿ .

يقول تعالى مخبراً لرسوله صلوات الله وسلامه عليه أنه لا علم له بالساعة ، وإن سأله الناس عن ذلك ، وأرشده أن يرد علمها إلى الله ﷻ . كما قال تعالى في سورة الأعراف وهي مكية وهذه مدنية فاستمر الحال في رد علمها إلى الذي يقيمها ، لكن أخبره أنها قريبة بقوله : ﴿ وَمَا يَدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا ﴾ . كما قال تعالى : ﴿ أَتَقَرَّبُ السَّاعَةُ وَانْشَقَّ الْقَمَرُ ﴾ ثم قال : ﴿ إِنْ أَلَّهَ لَمَنَّ الْكَافِرِينَ ﴾ أي : أبعدهم من رحمته ﴿ وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيرًا ﴾ أي : في الدار الآخرة ﴿ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ﴾ أي : ما كثين مستمرين فلا خروج لهم منها ولا زوال لهم عنها ﴿ لَا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴾ أي : ليس لهم مغيث ولا معين ينقذهم مما هم فيه ثم قال : ﴿ يَوْمَ تُغْلَبُ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ يَقُولُونَ يَلَيِّنَا أَطْعَمَنَا اللَّهُ وَأَطْعَمَنَا الرَّسُولَ ﴾ . أي : يسحبون في النار على وجوههم وتلوى وجوههم على جهنم يقولون ، وهم كذلك يتمنون لو أن كانوا في الدار الدنيا من أطاع الله وأطاع الرسول . كما أخبر الله عنهم في حال العرصات بقوله : ﴿ وَيَوْمَ يَصْرُ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ يَقُولُ يَلَيِّنِي أَنْخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَيْلًا ﴾ ﴿ يَتَوَلَّى لِيَّتِي لَرَأَيْتُ لَهَا فَلَائًا خَلِيلًا ﴾ ﴿ لَقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَعَلَنِي وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلْإِنْسَانِ خَذُلًا ﴾ . وهكذا أخبر عنهم في حالتهم هذه أنهم يودون أن لو كانوا أطاعوا الله وأطاعوا الرسول في الدنيا ﴿ وَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكِبَرَانَا فَأَصْلَحْنَا السَّبِيلَ ﴾ . وقال طاوس : سادتنا يعني : الأشراف ، وكبراءنا يعني العلماء ، أي : اتبعنا السادة - وهم الأمراء والكبراء من المشيخة - وخالفنا الرسل واعتقدنا أن عندهم شيئاً وأنهم على شيء ، فإذا هم ليسوا على شيء . ﴿ رَبَّنَا أَنْتَ ضَعُفْتِ مِنَّا الْعَذَابَ ﴾ أي : بكفرهم ولغواتهم إيانا . ﴿ وَاللَّهُمَّ لَنَّا كَبِيرًا ﴾ قرأ بعض القراء بالباء الموحدة ، وقرأ آخرون بالثاء المثلثة ^(١) وهما قريباً المعنى كما في حديث عبد الله بن عمرو أن أبا بكر قال : يا رسول الله : علمني دعاء أدعوه في صلاتي قال : « قُلِ : اللَّهُمَّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي ظُلْمًا كَبِيرًا وَلَا تَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا أَنْتَ ، فَاغْفِرْ لِي مَغْفِرَةً مِنْ عِنْدِكَ وَارْحَمْنِي إِنَّكَ أَنْتَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ » ^(٢) . يروى كثيراً وكبيراً وكلاهما بمعنى صحيح واستحب بعضهم أن يجمع الداعي بين اللفظين في دعائه ، وفي ذلك نظر ، بل الأولى أن يقول هذا تارة وهذا تارة . كما أن القارئ مخير بين القراءة أيتهما قرأ أحسن وليس له الجمع بينهما والله أعلم .

﴿ يَتَأْتِيهِمُ الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ آذَوْا مُوسَى فَبَرَّاهُ اللَّهُ مِمَّا قَالُوا وَكَانَ عِنْدَ اللَّهِ وَجْهًا ﴾ .

عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « إِنْ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ كَانَ رَجُلًا حَيًّا سَيِّئًا لَا يُرَى مِنْ جِلْدِهِ شَيْءٌ اسْتِخْيَاءَ مِنْهُ . فَأَذَاهُ مِنْ أَذَاهِ مَنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ فَقَالُوا : مَا يَسْتَسْرِ هَذَا التَّسْتَرُ إِلَّا مِنْ عَيْبٍ فِي جِلْدِهِ إِمَّا بَرَصٌ وَإِمَّا أَدْرَةٌ وَإِمَّا آفَةٌ . وَإِنَّ اللَّهَ ﷻ أَرَادَ أَنْ يُرَوِّثَهُ بِمَا قَالُوا لِمُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ فَخَلَا يَوْمًا وَخَذَهُ فَخَلَعَ ثِيَابَهُ عَلَى حَجَرٍ ثُمَّ اغْتَسَلَ فَلَمَّا فَرَغَ ، أَقْبَلَ عَلَى ثِيَابِهِ لِيَأْخُذَهَا وَإِنَّ الْحَجَرَ عَدَا بِقُوِّهِ ، فَأَخَذَ مُوسَى غَصَاهُ وَطَلَبَ الْحَجَرَ فَجَعَلَ يَقُولُ : ثَوْبِي حَبْرٌ ، ثَوْبِي حَبْرٌ ، حَتَّى انْتَهَى إِلَى مَلَأٍ مِنْ بَنِي

(١) قرأ عاصم ﴿ كبيرًا ﴾ بالباء وقرأ الباقون ﴿ كثيراً ﴾ بالثاء انظر حجة القراءات ص ٥٨٠ .

(٢) أخرجه البخاري في الدعوات (٦٣٢٦) ومسلم في الذكر والدعاء (٤٨) .

إِسْرَائِيلَ فَرَّأُوهُ غُرَبَاتًا أَحْسَنَ مَا خَلَقَ اللَّهُ ﷻ وَأَبْرَأَهُ بِمَا يَقُولُونَ ، وَقَامَ الْحَجَرُ فَأَخَذَ ثَوْبَهُ فَلَبَسَهُ وَطَفِقَ بِالْحَجَرِ ضَرْبًا بَعْضَاهُ فَوَاللَّهِ إِنَّ بِالْحَجَرِ لِنُدْبًا مِنْ أَثَرِ ضَرْبِهِ ثَلَاثًا أَوْ أَرْبَعًا أَوْ خَمْسًا - قال - فَذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ بَنَاتِهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ ءَادُوا مُوسَى فَبَرَّاهُ اللَّهُ مِمَّا قَالُوا وَكَانَ عِنْدَ اللَّهِ وَجِبَاحُهَا ﴾ (١) .

وعن الحكم عن سعيد بن جبير عن ابن عباس عن علي بن أبي طالب ﷺ في قوله : ﴿ فَبَرَّاهُ اللَّهُ مِمَّا قَالُوا ﴾ قال : صعد موسى وهارون الجبل فمات هارون ﷺ فقال بنو إسرائيل لموسى ﷺ : أنت قتلتهم كان ألين لنا منك وأشد حياء فأذوه من ذلك ، فأمر الله الملائكة فحملته فمروا به على مجالس بني إسرائيل فتكلمت بموته فما عرف موضع قبره إلا الرخم ، وإن الله جعله أصم أبكم . قال ابن جرير : وجائز أن يكون هذا هو المراد بالأذى . وجائز أن يكون الأول هو المراد . فلا قول أولى من قول الله ﷻ . قلت : يحتمل أن يكون الكل مرادًا وأن يكون معه غيره . والله أعلم (٢) .

وعن شقيق عن عبد الله قال : قسم رسول الله ﷺ ذات يومًا قسمًا فقال رجل من الأنصار : إن هذه القسمة ما أريد بها وجه الله قال : فقلت : يا عدو الله أما لأخبرن رسول الله ﷺ بما قلت فذكرت ذلك للنبي ﷺ فاحمر وجهه ثم قال : « رَحِمَهُ اللَّهُ عَلَى مُوسَى لَقَدْ أَوْدِي بِأَكْثَرٍ مِنْ هَذَا فَصَبَّرَ » (٣) .

وقوله تعالى : ﴿ وَكَانَ عِنْدَ اللَّهِ وَجِبَاحُهَا ﴾ أي له وجاهة وجاه عند ربه ﷻ . قال الحسن البصري : كان مستجاب الدعوة عند الله . وقال غيره من السلف : لم يسأل الله شيئًا إلا أعطاه ، ولكن منع الرؤية لما يشاء ﷻ . وقال بعضهم : من وجاهته العظيمة عند الله أنه شفع في أخيه هارون أن يرسله معه فأجاب الله سؤاله فقال : ﴿ وَوَعَيْنَا لَهُ مِنْ رَحْمَتِنَا أَخَاهُ هَارُونَ نَبِيًّا ﴾ .

﴿ بَنَاتِهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا ۖ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴾ .

يقول تعالى أمرًا عباده المؤمنين بتقواه وأن يعبدوه عبادة من كأنه يراه ، وأن يقولوا قولًا سديدًا أي مستقيمًا لا اعوجاج فيه ولا انحراف ، ووعدهم أنهم إذا فعلوا ذلك أثابهم عليه بأن يوفقهم للأعمال الصالحة ، وأن يغفر لهم الذنوب الماضية . وما يقع منهم في المستقبل يلهمهم التوبة منها ، ثم قال تعالى : ﴿ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴾ وذلك أنه يجاز من نار الجحيم ويصير إلى النعيم المقيم . عن أبو موسى الأشعري قال : صلى بنا رسول الله ﷺ صلاة الظهر ، فلما انصرف أوأملنا بيده فجلسنا فقال : « إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى أَمَرَنِي أَنْ أَمُرْكُمْ أَنْ تَتَّقُوا اللَّهَ وَتَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا » ثم أتى النساء فقال : « إِنَّ اللَّهَ أَمَرَنِي أَنْ أَمُرْكُمْ أَنْ تَتَّقِينَ اللَّهَ وَتَقُلْنَ قَوْلًا سَدِيدًا » (٤) . وعن ابن عباس موقوفًا قال : من سره أن يكون أكرم الناس فليقت الله ، قال عكرمة : القول السديد : لا إله إلا الله . وقال غيره : السديد الصدق ، وقال مجاهد : هو السداد ، وقال غيره : هو الثواب ، والكل حق .

(١) أخرجه البخاري في أحاديث الأنبياء (٣٤٠٤) والذَّب كالأثر وزنًا ومعنى .

(٢) ذكره ابن جرير الطبري في تفسيره (٦٥/٢٢) .

(٣) أخرجه البخاري في الأدب (٦٠٥٩) ومسلم في الزكاة (١٤٠ ، ١٤١) .

(٤) أخرجه البخاري في (المغازي) (٤٣٣٥) والإمام أحمد في مسنده (٣٨٠/١) .

﴿ إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴾ ٧٢ لِيُعَذِّبَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ وَيَتُوبَ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ٧٣ .

قال العوفي عن ابن عباس : يعني بالأمانة الطاعة عرضها عليهم قبل أن يعرضها على آدم فلم يطقنها فقال لآدم : إني قد عرضت الأمانة على السموات والأرض والجبال ، فلم يطقنها فهل أنت تأخذ بما فيها ؟ قال : يا رب وما فيها ؟ قال : إن أحسنت جزيت ، وإن أسأت عوقبت . فأخذها آدم فتحملها فذلك قوله تعالى : ﴿ وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴾ . وقال على بن أبي طلحة عن ابن عباس : الأمانة الفرائض عرضها الله على السماوات والأرض والجبال إن أدوها أتأبهم وإن ضيعوها عذبهم ، فكروها ذلك وأشفقوا عليه من غير معصية ولكن تعظيمًا لدين الله أن لا يقوموا بها . ثم عرضها على آدم فقبلها بما فيها ، وهو قوله تعالى : ﴿ وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴾ يعني غرًا بأمر الله . وعن سعيد بن جبیر عن ابن عباس أنه قال في هذه الآية : عرضت على آدم فقال : خذها بما فيها فإن أطعت غفرت لك ، وإن عصيت عذبتك . قال : قبلت ، فما كان إلا مقدار ما بين العصر إلى الليل من ذلك اليوم حتى أصاب الخطيئة . قال مجاهد وسعيد بن جبیر وغير واحد : إن الأمانة هي الفرائض ، وقال آخرون : هي الطاعة . وقال أبي بن كعب : من الأمانة أن المرأة أؤتمنت على فرجها . وقال قتادة : الأمانة الدين والفرائض والحدود ، وقال بعضهم : الغسل من الجنابة ، وقال زيد بن أسلم : الأمانة ثلاثة : الصلاة والصوم والاعتسال من الجنابة ، وكل هذه الأقوال لا تنافي بينها ، بل هي متفقة وراجعة إلى أنها التكليف وقبول الأوامر والنواهي بشرطها ، وهو : أنه إن قام بذلك أثيب ، وإن تركها عوقب ، فقبلها الإنسان على ضعفه وجهله وظلمه إلا من وفق الله وبالله المستعان .

قال عون بن معمر يحدث عن الحسن - يعني البصري - أنه تلا هذه الآية ﴿ إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ ﴾ قال : عرضها على السبع الطبايق الطرائق التي زينت بالنجوم ، وحملة العرش العظيم ، فقيل لها : هل تحملين الأمانة وما فيها ؟ قالت : وما فيها ؟ قال : قيل لها : إن أحسنت جزيت ، وإن أسأت عوقبت قالت : لا . ثم عرضها على الأرضين السبع الشداد ، التي شدت بالأوتاد ، وذلت بالمهاد ، قال : فقيل لها : هل تحملين الأمانة وما فيها ؟ قالت : وما فيها ؟ قال : قيل لها : إن أحسنت جزيت ، وإن أسأت عوقبت ، قالت : لا . ثم عرضها على الجبال الشامخ الشوامخ الصعاب الصلاب قال : قيل لها : هل تحملين الأمانة وما فيها ؟ قالت : وما فيها ؟ قال لها : إن أحسنت جزيت ، وإن أسأت عوقبت ، قالت : لا .

وقال مقاتل بن حيان : إن الله تعالى حين خلق خلقه جمع بين الإنس والجن والسماوات والأرض والجبال ، فبداً بالسماوات فعرض عليهن الأمانة وهي الطاعة فقال لهن : أتحملن هذه الأمانة ولكن على الفضل والكرامة والثواب في الجنة ؟ فقلن : يا رب إنا لا نستطيع هذا الأمر وليس بنا قوة ولكننا لك مطيعين ، ثم عرض الأمانة على الأرضين فقال لهن : أتحملن هذه الأمانة وتقبلنها مني وأعطيكن الفضل والكرامة في الدنيا ؟ فقلن : لا صبر لنا على هذا يا رب ولا نطيع ، ولكننا لك سامعين مطيعين

لا نعصيك في شيء أمرتنا به . ثم قرب آدم فقال له : أتحمل هذه الأمانة وترعاها حق رعايتها ؟ فقال عند ذلك آدم : ما لي عندك ؟ قال : يا آدم إن أحسنت وأطعت ورعيت الأمانة فلك عندي الكرامة والفضل وحسن الثواب في الجنة ، وإن عصيت ولم ترعها حق رعايتها وأسأت فإنني معذبك ومعاقبك وأنزلك النار . قال : رضيت يا رب وحملها . فقال الله ﷻ عند ذلك : قد حملتكها . فذلك قوله : ﴿ وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ ﴾ . وعن مجاهد أنه قال: عرضها على السماوات ، فقالت : يا رب حملتني الكواكب وسكان السماء وما ذكر وما أريد ثواباً ولا أحمل فريضة . قال : وعرضها على الأرض ، فقالت : يا رب غرست في الأشجار وأجريت في الأنهار وسكان الأرض وما ذكر وما أريد ثواباً ولا أحمل فريضة ، وقالت الجبال مثل ذلك ، قال الله تعالى : ﴿ وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴾ في عاقبة أمره . وهكذا قال ابن جريج . وعن هشام بن سعد عن زيد بن أسلم في هذه الآية ، قال الإنسان : بين أذني وعاتقي فقال الله ﷻ : إني معينك عليها ، إني معينك على عينيك بطبقتين ، فإذا نازعاك إلى ما أكره فأطبق ، ومعينك على لسانك بطبقتين ، فإذا نازعك إلى ما أكره فأطبق . ومعينك على فرجك بلباس فلا تكشفه إلى ما أكره .

وعن أبي الدرداء رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « خَمْسٌ مَنْ جَاءَ بِهِنَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَعَ إِيْمَانٍ دَخَلَ الْجَنَّةَ ؛ مَنْ حَافَظَ عَلَى الصَّلَوَاتِ الْخَمْسِ عَلَى وَضُوئِهِنَّ وَزُكُوعِهِنَّ وَشُجُودِهِنَّ وَمَوَاقِيْتِهِنَّ ، وَأَعْطَى الزَّكَاةَ مِنْ مَالِهِ طَيِّبَ النَّفْسِ بِهَا - وَكَانَ يَقُولُ - وَإِيْمُ اللَّهِ لَا يَفْعَلُ ذَلِكَ إِلَّا مُؤْمِنٌ وَأَدَّى الْأَمَانَةَ » . قالوا : يا أبا الدرداء وما أداء الأمانة ؟ قال ﷻ : الغسل من الجنابة ، فإن الله تعالى لم يأمن من ابن آدم على شيء من دينه غيره ^(١) . وعن زاذان عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال : « الْقَتْلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُكَفِّرُ الذُّنُوبَ كُلَّهَا - أَوْ قَالَ - يُكَفِّرُ كُلَّ شَيْءٍ إِلَّا الْأَمَانَةَ ، يُؤْتَى بِصَاحِبِ الْأَمَانَةِ فَيَقَالُ لَهُ : أَدَّ أَمَانَتَكَ ، فَيَقُولُ : أُنَى يَا رَبِّ وَقَدْ ذَهَبَتِ الدُّنْيَا ؟ فَيَقَالُ لَهُ : أَدَّ أَمَانَتَكَ فَيَقُولُ : أُنَى يَا رَبِّ وَقَدْ ذَهَبَتِ الدُّنْيَا ؟ فَيَقَالُ لَهُ : أَدَّ أَمَانَتَكَ ؟ فَيَقُولُ : أُنَى يَا رَبِّ وَقَدْ ذَهَبَتِ الدُّنْيَا ؟ فَيَقُولُ : أَذْهَبُوا بِهِ إِلَى أُمِّهِ الْهَآوِيَةِ فَيَذْهَبُ بِهِ إِلَى الْهَآوِيَةِ فَيَهْوِي فِيهَا حَتَّى يَنْتَهِيَ إِلَى قَعْرِهَا فَيَجِدُهَا هُنَالِكَ كَهَيْئَتِهَا فَيَحْمِلُهَا فَيَضَعُهَا عَلَى عَاتِقِهِ فَيَضَعُهَا بِهَا إِلَى شَفِيرِ جَهَنَّمَ حَتَّى إِذَا رَأَى أَنَّهُ قَدْ خَرَجَ زَلَّتْ قَدَمُهُ فَهَوَى فِي آثَرِهَا أَبَدَ الْآبِدِينَ » . قال : والأمانة في الصلاة والأمانة في الصوم والأمانة في الوضوء والأمانة في الحديث ، وأشد ذلك الودائع . فلقيت البراء فقلت : ألا تسمع ما يقول أخوك عبد الله ؟ فقال : صدق ^(٢) .

ومما يتعلق بالأمانة الحديث الذي روي عن حذيفة رضي الله عنه قال : حدثنا رسول الله ﷺ حديثين قد رأيت أحدهما وأنا أنتظر الآخر ، حدثنا أن الأمانة نزلت في جذر قلوب الرجال ، ثم نزل القرآن فعلموا من القرآن وعلموا من السنة . ثم حدثنا عن رفع الأمانة فقال : « ينام الرجل النومة فتقبض الأمانة من قلبه فيظل أثرها مثل أثر الجمل كجمر دحرجته على رجلك تراه منتبهاً وليس فيه شيء -

(١) ذكره الطبري في تفسيره (٦٨/٢٢) .

(٢) ذكره الطبري في تفسيره (٦٩/٢٢) .

قال : ثم أخذ حصي فدرجته على رجله قال - فيصبح الناس يتبايعون لا يكاد أحد يؤدي الأمانة حتى يقال : إن في بني فلان رجلاً أميناً ، حتى يقال للرجل : ما أجلده وأظرفه وأعقله وما في قلبه حبة خردل من إيمان ، ولقد أتى علي زمان وما أبالي أيكم بايعت إن كان مسلماً ليردنه علي دينه ، وإن كان نصرانياً أو يهودياً ليردنه علي ساعيه ، فأما اليوم فما كنت أبايح منكم إلا فلاناً وفلاناً^(١) .

وعن عبد الله بن عمرو رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « أَرْبَعٌ إِذَا كُنَّ فِيكَ فَلَا عَلَيْكَ مَا قَاتَكَ مِنْ الدُّنْيَا : حِفْظُ أَمَانَةٍ وَصِدْقُ حَدِيثٍ وَحُسْنُ خَلِيقَةٍ وَعِفَّةٌ طُعْمَةٍ »^(٢) . وقد ورد النهي عن الحلف بالأمانة فعن أبي إسحاق الشيباني عن خناس بن سحيم أو قال جبلة بن سحيم : قال : أقبلت مع زياد بن حدير من الجابية ، فقلت في كلامي : لا والأمانة ، فجعل زياد يكي ويكي فظننت أنني أوتيت أمراً عظيماً فقلت له : أكان يكره هذا ؟ قال : نعم ، كان عمر بن الخطاب ينهى عن الحلف بالأمانة أشد النهي . وقد ورد في ذلك حديث مرفوع عن ابن بريدة عن أبيه رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « مَنْ حَلَفَ بِالْأَمَانَةِ فَلَيْسَ مِنَّا »^(٣) . وقوله تعالى : ﴿ لَيُعَذِّبَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ ﴾ أي : إنما حمل بني آدم الأمانة ، وهي التكليف ؛ ليعذب الله المنافقين منهم والمنافقات ، وهم الذين يظهرون الإيمان خوفاً من أهله ويطنون الكفر متابعة لأهله ﴿ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ ﴾ وهم : الذين ظاهرهم وباطنهم على الشرك بالله ومخالفة رسله ﴿ وَيَتَوَبَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ﴾ أي : وليرحم المؤمنين من الخلق الذين آمنوا بالله وملائكته وكتبه ورسله العاملين بطاعته ﴿ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ﴾ .

(١) أخرجه البخاري في (الفتن) (٧٠٨٦) ومسلم في الإيمان (٢٣٠) والإمام أحمد في مسنده (٣٨٣/٥) .

(٢) أخرجه الإمام أحمد في مسنده (١٧٧/٢) .

(٣) أخرجه الإمام أحمد في مسنده (٣٥٢/٥) وأبو داود في سننه (٣٢٥٣) .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَمُوتْ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَلَهُ الْحَمْدُ فِي الْآخِرَةِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ ۝ يَعْلَمُ مَا يَلِيحُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ الرَّحِيمُ الْغَفُورُ ۝

يخبر تعالى عن نفسه الكريمة أن له الحمد المطلق في الدنيا والآخرة ؛ لأنه المنعم المفضل على أهل الدنيا والآخرة ، المالك لجميع ذلك ، الحاكم في جميع ذلك كما قال تعالى : ﴿ وَهُوَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْحَمْدُ فِي الْأَوَّلِ وَالْآخِرَةِ وَلَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُجْعَلُونَ ﴾ ولهذا قال تعالى ها هنا : ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَمُوتْ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ۝ أَي : الجميع ملكه وعبيده وتحت تصرفه وقهره كما قال تعالى : ﴿ وَلَدُنَا لَكُفْرَةٌ وَالْأَوَّلُ ۝ ثُمَّ قَالَ تَبَّكَ ۝ وَلَهُ الْحَمْدُ فِي الْآخِرَةِ ﴾ فهو المعبود أبداً ، المحمود على طول المدى وقوله تعالى : ﴿ وَهُوَ الْحَكِيمُ ﴾ أي : في أقواله وأفعاله وشرعه وقدره ﴿ الْخَبِيرُ ﴾ الذي لا تخفى عليه خافية ، ولا يغيب عنه شيء ، وقال الزهري : خبير بخلقه حكيم بأمره ، ولهذا قال تَبَّكَ : ﴿ يَعْلَمُ مَا يَلِيحُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا ۝ أَي : يعلم عدد القطر النازل في أجزاء الأرض والحب المبدور والكامن فيها ، ويعلم ما يخرج من ذلك عدده وكيفيته وصفاته ﴾ وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ ۝ أَي : من قطر وورق ، ﴿ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا ۝ أَي : من الأعمال الصالحة وغير ذلك ﴾ وَهُوَ الرَّحِيمُ الْغَفُورُ ۝ أَي : الرحيم بعباده فلا يعاجل عصاتهم بالعقوبة ، الغفور عن الذنوب الناثين إليه المتوكلين عليه .

﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَأْتِينَا السَّاعَةُ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ عِلَّيْهِ الْغَيْبُ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَلَا أَصْغَرُ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرُ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ ۝ لَيَجْزِيَنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ لَمْ يَغْفِرْ رِزْقٌ كَرِيمٌ ۝ وَالَّذِينَ سَعَوْا فِي آيَاتِنَا مُعْجِرِينَ أُولَئِكَ لَمْ يَكُنْ لَهُمْ عَذَابٌ مِنْ رِجْزِ أَلَيْسَ ۝ وَرَبِّي الَّذِينَ آمَنُوا أُولَئِكَ الَّذِينَ أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ مِنَ رَّبِّكَ هُوَ الْحَقُّ وَيَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ الْعَرْشِ الْحَمِيدِ ۝

هذه إحدى الآيات الثلاث التي لا رابع لهن مما أمر الله تعالى رسوله ﷺ أن يقسم بربه العظيم على وقوع المعاد لما أنكره من أنكره من أهل الكفر والعناد ، فإحداهن في سورة يونس الطيِّبَة وهي قوله تعالى : ﴿ وَيَسْتَأْذِنُكَ أَحَقُّ هُوَ قُلْ إِي وَرَبِّي إِنَّهُ لَحَقٌّ وَمَا أَنتُمْ بِمُعْجِزِينَ ﴾ والثانية هذه ، والثالثة في سورة التغابن وهي قوله تعالى : ﴿ زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ لَنْ يُصْعِقَهُ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتُصْعِقَنَّهُ بِمَا كُفَرْتُمْ وَكَذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴾ . فقال تعالى : ﴿ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ ﴾ ثم وصفه بما يؤكد ذلك ويقرره فقال : ﴿ عِلَّيْهِ الْغَيْبُ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَلَا أَصْغَرُ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرُ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ ﴾ . قال مجاهد وقتادة : ﴿ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ ﴾ : لا يغيب عنه ، أي الجميع مندرج تحت علمه فلا يخفى عليه شيء ، فالعظام ، وإن تلاشت وتفرقت وتمزقت ، فهو عالم أين ذهبت وأين تفرقت ، ثم يعيدها كما بدأها أول مرة فإنه بكل شيء عليم . ثم بين حكمته في إعادة الأبدان وقيام الساعة بقوله تعالى : ﴿ لَيَجْزِيَنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ لَمْ يَغْفِرْ رِزْقٌ كَرِيمٌ ۝ وَالَّذِينَ سَعَوْا فِي آيَاتِنَا مُعْجِرِينَ ﴾ أي : سعوا في الصد عن سبيل الله تعالى وتكذيب رسوله . ﴿ أُولَئِكَ لَمْ يَكُنْ لَهُمْ عَذَابٌ مِنْ رِجْزِ أَلَيْسَ ۝ أَي : لينعم السعداء من المؤمنين ويعذب

الْأَشْقِيَاءَ مِنَ الْكَافِرِينَ . كما قال ﷻ : ﴿ أَرَأَيْتَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ أَرَأَيْتَ أَن تَجْعَلَ

وَقوله تعالى : ﴿ وَرَبِّیَ الَّذِينَ أَوْتُوا الْعِلْمَ الَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ هُوَ الْحَقُّ ﴾ هذه حكمة أخرى معطوفة على التي قبلها ، وهي : أن المؤمنين بما أنزل على الرسل إذا شاهدوا قيام الساعة ومجازاة الأبرار والفجار بالذي كانوا قد علموه من كتب الله تعالى في الدنيا ، رأوه حيث عین اليقين ، ويقولون يومئذ أيضًا : ﴿ لَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُنَا بِالْحَقِّ ﴾ . ﴿ وَرَبِّیَ الَّذِينَ أَوْتُوا الْعِلْمَ الَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ هُوَ الْحَقُّ وَيَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ ﴾ العزيز هو المنيع الجنب الذي لا يغالب ولا يمانع ، بل قد قهر كل شيء وغلبه ، الحميد في جميع أقواله وشرعه وقدره ، وهو المحمود في ذلك كله جل وعلا .

﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ نُنَبِّئُكَ عَلَىٰ رُبِّهِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا ۚ إِذَا تُزْقَعُونَ كُلُّ مُزْقَعٍ إِلَيْكُمْ لَنِي خَلَقَ جَدِيدًا ۚ أَفَرَأَيْتَ عَلَىٰ اللَّهِ كَذِبًا أَمْ بِهِ جِنَّةٌ بَلِ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ فِي الْعَذَابِ وَالضَّلَالِ الْبَعِيدِ ۚ أَفَلَمْ يَرَوْا إِلَىٰ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ مِنْ سَمَاءٍ وَالْأَرْضِ إِنْ نَشَأْ نُخَفِّفْ بِهِمُ الْأَرْضَ أَوْ نُسْقِطْ عَلَيْهِمْ كِسَفًا مِنْ السَّمَاءِ ۚ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّكُلِّ عَبْدٍ مُنِيبٍ ﴾ .

هذا إخبار من الله ﷻ عن استبعاد الكفرة الملحدین قيام الساعة ، واستهزائهم بالرسول ﷺ في إخباره بذلك : ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ نُنَبِّئُكَ عَلَىٰ رُبِّهِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا ۚ إِذَا تُزْقَعُونَ كُلُّ مُزْقَعٍ ﴾ أي : تفرقت أجسادكم في الأرض وذهبت فيها كل مذهب وتمزقت كل ممزق ﴿ إِنَّكُمْ ﴾ أي : بعد هذا الحال ﴿ لَنِي خَلَقَ جَدِيدًا ﴾ أي : تعودون أحياء ترزقون بعد ذلك . وهو في هذا الإخبار لا يخلو أمره من قسمين : إما أن يكون قد تعمد الافتراء على الله تعالى أنه قد أوحى إليه ذلك ، أو أنه لم يتعمد لكن لبس عليه كما يلبس على المعتوه والمجنون ولهذا قالوا : ﴿ أَفَرَأَيْتَ عَلَىٰ اللَّهِ كَذِبًا أَمْ بِهِ جِنَّةٌ ﴾ قال الله ﷻ رادًا عليهم : ﴿ بَلِ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ فِي الْعَذَابِ وَالضَّلَالِ الْبَعِيدِ ﴾ أي : ليس الأمر كما زعموا ، ولا كما ذهبوا إليه ، بل محمد ﷺ هو الصادق البار الراشد الذي جاء بالحق ، وهم الكذبة الجهلة الأغبياء ﴿ فِي الْعَذَابِ ﴾ أي : الكفر المفضي بهم إلى عذاب الله تعالى ﴿ وَالضَّلَالِ الْبَعِيدِ ﴾ من الحق في الدنيا ، ثم قال تعالى منبها لهم على قدرته في خلق السماوات والأرض : ﴿ أَفَلَمْ يَرَوْا إِلَىٰ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ مِنْ سَمَاءٍ وَالْأَرْضِ ﴾ . أي : حيثما توجهوا وذهبوا فالسمااء مطلة عليهم والأرض تحتهم ، كما قال ﷻ : ﴿ وَالسَّمَاءُ بَيْنَهُمَا يَبْتَئِثُ وَإِنَّا لَنُؤْمِنُ ۖ وَالْأَرْضُ قَرَشْنَاهَا ۖ وَنَحْنُ أَلَمَّهَدُونَ ﴾ . وعن قتادة قال : إنك إن نظرت عن يمينك أو عن شمالك أو من بين يديك أو من خلفك رأيت السماء والأرض . وقوله تعالى : ﴿ إِنْ نَشَأْ نُخَفِّفْ بِهِمُ الْأَرْضَ أَوْ نُسْقِطْ عَلَيْهِمْ كِسَفًا مِنْ السَّمَاءِ ﴾ أي : لو شئنا لفعلنا بهم ذلك بظلمهم وقدرتنا عليهم ، ولكن نؤخر ذلك لحلمنا وعفونا ثم قال : ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّكُلِّ عَبْدٍ مُنِيبٍ ﴾ عن قتادة : المنيب المقبل إلى الله تعالى أي : إن في النظر إلى خلق السماوات والأرض لدلالة لكل عبد فطن ليب رجاء إلى الله على قدرة الله تعالى على بعث الأجساد ، ووقوع المعاد ؛ لأن من قدر على خلق هذه السماوات في ارتفاعها واتساعها وهذه الأرضين في انخفاضها ، وأطوالها وأعراضها إنه لقادر على إعادة الأجساد ونشر الرميم من العظام ، وكما قال تعالى : ﴿ أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَدِيرٍ عَلَيَّ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ بَلَىٰ ﴾ .

﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُدَ مِنَّا فَضْلًا يَجَالُ أَوْبَىٰ مَعَهُ وَالطَّيْرُ وَأَلْنَا لَهُ الْحَدِيدَ ۝ أَنْ أَتَمَلَ سَيْفَتِي وَقَدِرَ فِي السَّرِّ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ .

يخبر تعالى عما أنعم به على عبده ورسوله داود عليه الصلاة والسلام ، مما آتاه من الفضل المبين ، وجمع له بين النبوة والملك المتمكن ، والجنود ذوي العدة والعدد ، وما أعطاه ومنحه من الصوت العظيم الذي كان إذا سبج به تسبج معه الجبال الراسيات الصم الشامخات ، وتقف له الطيور السارحات ، والغاديات والرائحات ، وتجاوبه بأنواع اللغات . وفي الصحيح أن رسول الله ﷺ سمع صوت أبي موسى الأشعري ﷺ يقرأ من الليل فوقفت فاستمع لقراءته ثم قال ﷺ : « لَقَدْ أَوْتِي هَذَا مِزْمَارًا مِنْ مَزَامِير آلِ دَاوُدَ » ^(١) . وقال أبو عثمان النهدي : ما سمعت صوت صنع ولا وتر يربط ولا أحسن من صوت أبي موسى الأشعري ﷺ ومعنى قوله تعالى : ﴿ أَوْبَىٰ ﴾ أي : سبحي قاله ابن عباس ، وقوله تعالى : ﴿ وَأَلْنَا لَهُ الْحَدِيدَ ﴾ قال الحسن البصري وقتادة والأعشى وغيرهم : كان لا يحتاج أن يدخله نارًا ولا يضربه بمطرقة بل كان يقتله بيده مثل الخيوط ولهذا قال تعالى : ﴿ أَنْ أَتَمَلَ سَيْفَتِي ﴾ وهي الدروع . قال قتادة : وهو أول من عملها من الخلق ، وإنما كانت قبل ذلك صفائح ، وعن ابن شاذب قال : كان داود عليه السلام يرفع في كل يوم درعًا فيبيعها بستة آلاف درهم ألفين له ولأهله ، وأربعة آلاف درهم يطعم بها بني إسرائيل خبز الحواري ﴿ وَقَدِرَ فِي السَّرِّ ﴾ هذا إرشاد من الله تعالى لنبيه داود عليه السلام في تعليمه صنعة الدروع ، قال مجاهد في قوله تعالى : ﴿ وَقَدِرَ فِي السَّرِّ ﴾ لا تدق المسمار فيخلق في الحلقة ولا تغلظه فيقصمها واجعله بقدر ، وقال الحكيم بن عيينة : لا تغلظه فيقصم ولا تدقه فيخلق ، وقوله تعالى : ﴿ وَاعْمَلُوا صَالِحًا ﴾ أي : في الذي أعطاكم الله تعالى من النعم ﴿ إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ أي : مراقب لكم بصير بأعمالكم وأقوالكم ، لا يخفى علي من ذلك شيء .

﴿ وَإِسْلَمْنَا آلَ رَيْحٍ غُدُوها شَهْرٌ وَرَوَاحُها شَهْرٌ وَأَسَلْنَا لَهُ عَيْنَ الْقِطْرِ ۝ وَمَنْ يَرْجُ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نَذَرُهُ مِنْ عَذَابِ السَّعِيرِ ۝ يَعْمَلُونَ لَهُ مَا يَشَاءُ مِنْ مَحْرِبٍ وَنَمَثِيلٍ يُجَفَّانِ كَالْجَوَابِ وَقُدِيرَ رَأْسِيَّتٍ اَعْمَلُوا ءَالَ دَاوُدَ شُكْرًا وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ ﴾ .

لما ذكر تعالى ما أنعم به على داود عطف بذكر ما أعطى ابنه سليمان عليهما الصلاة والسلام من تسخير الريح له تحمل بساطه غدوها شهر ورواحها شهر . وقوله تعالى : ﴿ وَأَسَلْنَا لَهُ عَيْنَ الْقِطْرِ ﴾ قال ابن عباس ؓ ومجاهد وعكرمة وعطاء الخرساني وغير واحد : القطر النحاس . قال قتادة : وكانت باليمن فكل ما يصنع الناس مما أخرج الله تعالى لسليمان عليه السلام ، قال السدي : وإنما أسيلت له ثلاثة أيام . وقوله تعالى : ﴿ وَمَنْ يَرْجُ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نَذَرُهُ مِنْ عَذَابِ السَّعِيرِ ﴾ أي : وسخرنا له الجن يعملون بين يديه يأذن ربه ، أي : بقدره وتسخيره لهم بمشيئته ما يشاء من البنايات وغير ذلك ﴿ وَمَنْ يَرْجُ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا ﴾ أي : ومن يعدل ويخرج منهم عن الطاعة ﴿ نَذَرُهُ مِنْ عَذَابِ السَّعِيرِ ﴾ وهو : الحريق . وقال ابن أنعم : الجن ثلاثة أصناف ، صنف لهم الثواب وعليهم العقاب ، وصنف طيارون فيما بين السماء والأرض ، وصنف حيات وكلاب . قال بكر : ولا أعلم إلا أنه حدثني ، أن الإنس ثلاثة أصناف ،

(١) أخرجه البخاري في فضائل القرآن (٥٠٤٨) ومسلم في صلاة المسافرين (٣٦) .

صنف يظلمهم الله بظل عرشه يوم القيامة ، وصنف كالأنعام بل هم أضل سبيلاً ، وصنف في صور الناس على قلوب الشياطين . عن الحسن قال : الجن ولد إبليس ، والإنس ولد آدم ، ومن هؤلاء مؤمنون ، ومن هؤلاء مؤمنون وهم شركاؤهم في الثواب والعقاب ، ومن كان من هؤلاء وهؤلاء مؤمناً فهو ولي الله تعالى ، ومن كان من هؤلاء وهؤلاء كافراً فهو شيطان . وقوله تعالى : ﴿ يَمْلِكُونَ لَكُمْ مَا يَشَاءُونَ مِنْ تَحْرِيْبٍ وَتَنْزِيْلٍ ﴾ أما المحارب فهي البناء الحسن ، وهو أشرف شيء في المسكن وصدره . وقال مجاهد : المحارب ببيان دون القصور . وقال الضحاك : هي المساجد . وقال قتادة : هي القصور والمساجد . وقال ابن زيد : هي المساكن . وأما التماثيل فقال عطية العوفي : التماثيل الصور . قال مجاهد : وكانت من نحاس . وقال قتادة : من طين وزجاج .

وقوله تعالى : ﴿ وَفَقَانِ كَلْبُورَ وَفُدُورَ رَاسِيْنِ ﴾ الجواب : جمع جابية ، وهي الحوض الذي يجبي فيه الماء . وعن ابن عباس رضي الله عنه : ﴿ كَلْبُورَ ﴾ أي كالجوبة من الأرض وقال العوفي عنه : كالحياض ، والقذور الراسيات أي : الثابتات في أماكنها لا تتحرك ولا تتحول عن أماكنها لعظمها . كذا قال مجاهد والضحاك وغيرهما : وقال عكرمة : أثافيها منها . وقوله تعالى : ﴿ أَعْمَلُوا آلَ دَاوُدَ شُكْرًا ﴾ أي : قلنا لهم اعملوا شكراً على ما أنعم به عليكم في الدين والدنيا ، وشكراً مصدر من غير الفعل ، أو أنه مفعول له وعلى التقديرين فيه دلالة على أن الشكر يكون بالفعل كما يكون بالقول والنية .

قال أبو عبد الرحمن السلمي : الصلاة شكر والصيام شكر وكل خير عمله لله تعالى شكر ، وأفضل الشكر الحمد . وعن محمد بن كعب القرطبي قال : الشكر تقوى الله تعالى والعمل الصالح . وهذا يقال لمن هو متلبس بالفعل . وقد كان آل داود عليهم السلام كذلك قائمين بشكر الله تعالى قولاً وعملاً . وعن ثابت البناني قال : كان داود عليه السلام قد جزأ على أهله وولده ونسائه الصلاة ، فكان لا تأتي عليهم ساعة من الليل والنهار إلا وإنسان من آل داود قائم يصلي فغمرتهم هذه الآية : ﴿ أَعْمَلُوا آلَ دَاوُدَ شُكْرًا وَقِيلَ مِنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ ﴾ . وفي الصحيحين عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : « إِنْ أَحَبَّ الصَّلَاةَ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى صَلَاةَ دَاوُدَ ، كَانَ يَنَامُ نِصْفَ اللَّيْلِ وَيَقُومُ ثُلُثَهُ ، وَيَنَامُ سُدُسَهُ ، وَأَحَبُّ الصِّيَامِ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى صِيَامُ دَاوُدَ ، كَانَ يَصُومُ يَوْمًا وَيَفْطُرُ يَوْمًا ، وَلَا يَغْرُ إِذَا لَاقَى » ^(١) . عن جابر رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « قَالَتْ أُمُّ سُلَيْمَانَ بِنْتُ دَاوُدَ عليها السلام لِسُلَيْمَانَ : يَا بُنَيَّ لَا تُكْبِرِ الثُّومَ بِاللَّيْلِ ، فَإِنَّ كَثْرَةَ الثُّومِ بِاللَّيْلِ تَشْرُكُ الرَّجُلَ فَيَقْرَأُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ » ^(٢) . وقال فضيل في قوله تعالى : ﴿ أَعْمَلُوا آلَ دَاوُدَ شُكْرًا ﴾ قال داود : يا رب كيف أشكرك والشكر نعمة منك ؟ قال : الْآنَ شَكَرْتَنِي حِينَ عَلِمْتَ أَنَّ النِّعْمَةَ مِنِّي . وقوله تعالى : ﴿ وَقِيلَ مِنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ ﴾ إخبار عن الواقع . ﴿ فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ الْمَوْتَ مَا دَلَّمْ عَلَى مَوْتِهِ إِلَّا دَابَّةٌ الْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنْسَأَتَهُ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ الْجِنُّ أَنْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ الْغَيْبَ مَا لَبِثُوا فِي الْعَذَابِ الْمُهِينِ ﴾ .

يذكر تعالى كيفية موت سليمان عليه السلام ، وكيف عمى الله موته على الجن المسخرين له في

(١) أخرجه البخاري في التهجد (١١٣١) ومسلم في الصيام (١٨٩) .

(٢) أخرجه ابن ماجه في سننه (١٣٣٢) .

الأعمال الشاقة ، فإنه مكث متوكفاً على عصاه وهي منسأته . كما قال ابن عباس رضي الله عنه ومجاهد وغير واحد : مدة طويلة نحواً من سنة ، فلما أكلتها دابة الأرض - وهي الأرضة - ضعفت وسقط إلى الأرض ، وعلم أنه قد مات قبل ذلك بمدة طويلة ، وتبينت الجن والإنس أيضاً أن الجن لا يعلمون الغيب ، كما كانوا يتوهمون ويوهمون الناس ذلك .

﴿ لَقَدْ كَانَ لِسِمْ فِي مَسْكِهِمْ آيَةٌ جَنَّتَانِ عَنْ يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلَُّا مِنْ رِزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَمْ بَلَدَةً طَيِّبَةً وَرَبُّ غَفُورٌ ۝ فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ وَبَدَّلْنَاهُمْ بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتِ أَكْطٍ خَمَطٍ وَاتْلٍ وَتَوَّوْا مِنْ سِذْرِ قَلِيلٍ ۝ ذَٰلِكَ جَزَاؤُهُمْ بِمَا كَفَرُوا وَهَلْ يُجْزَى إِلَّا الْكَفُورُ ۝ ﴾ .

كانت سبأ ملوك اليمن وأهلها وكانت التابعة منهم وبلقيس صاحبة سليمان عليه الصلاة والسلام من جعلتهم ، وكانوا في نعمة وغبطة في بلادهم وعيشتهم واتساع أرزاقهم وزروعهم وثمارهم ، وبعث الله تبارك وتعالى إليهم الرسل تأمرهم أن يأكلوا من رزقه ويشكروه بتوحيده وعبادته ، فكانوا كذلك ما شاء الله تعالى ثم أعرضوا عما أمروا به فعوقبوا بإرسال السيل والفرق في البلاد أيدي سبأ شذر مذر . عن عبد الرحمن بن ولة قال : سمعت ابن عباس يقول : إن رجلاً سأل رسول الله ﷺ عن سبأ ما هو أرجل أم امرأة أم أرض ؟ قال ﷺ : « بَلْ هُوَ رَجُلٌ وَلَدَ لَهُ عَشْرَةٌ ، فَسَكَنَ الْيَمَنَ مِنْهُمْ سِتَّةٌ وَالشَّامَ مِنْهُمْ أَرْبَعَةٌ ، فَأَمَّا الْيَمَانِيُّونَ فَمَذْجَحٌ وَكَنْدَةُ وَالْأَزْدُ وَالْأَشْعَرِيُّونَ وَأَمَّارٌ وَحَمِيرٌ ، وَأَمَّا الشَّامِيُّونَ فَلَحْمٌ وَجَذَامٌ وَعَامِلَةٌ وَعَسَّانُ » ^(١) .

قال علماء النسب - منهم محمد بن إسحاق - اسم سبأ عبد الشمس بن يشجب بن يعرب بن قحطان ، وإنما سمي سبأ ؛ لأنه أول من سبأ في العرب وكان يقال له : الرائش لأنه أول من غنم في الغزو فأعطى قومه فسمي الرائش ، والعرب تسمي المال ريشاً ورياشاً . وذكروا أنه بشر برسول الله ﷺ في زمانه المتقدم وقال في ذلك شعراً :

سَيَمْلِكُ بَعْدَنَا مُلْكًا عَظِيمًا	نَبِيٍّ لَا يُرْخَصُ فِي الْحَرَامِ
وَيَمْلِكُ بَعْدَهُ مِنْهُمْ مُلْكٌ	يُدْبِثُونَ الْقِيَادَ بِكُلِّ دَامِي
وَيَمْلِكُ بَعْدَهُمْ مِنَّا مُلْكٌ	يَصِيرُ الْمَلِكُ فِينَا بِاقْتِسَامِ
وَيَمْلِكُ بَعْدَ قَحْطَانَ نَبِيٍّ	تَقِيٍّ مُحِبِّ خَيْرِ الْأَنَامِ
يُسَمَّى أَحْمَدًا يَا لَيْتَ أَنِّي	أَعْمُرُ بَعْدَ مَبْنَعِيهِ بَعَامِ
فَأَغْضَبُهُ وَأَخْبُوهُ بِنَضْرِي	بِكُلِّ مُدْجَجٍ وَبِكُلِّ رَامِ
مَتَى يَظْهَرُ فَكُونُوا نَاصِرِيهِ	وَمَنْ يَلْقَاهُ يُبْلِغْهُ سَلَامِي

واختلفوا في قحطان على ثلاثة أقوال : أحدها : أنه من سلالة إرم بن سام بن نوح . واختلفوا في كيفية اتصال نسبه به على ثلاثة طرائق . والثاني : أنه من سلالة عابر ، وهو هود عليه الصلاة والسلام واختلفوا أيضاً في كيفية اتصال نسبه به على ثلاث طرائق أيضاً . والثالث : أنه من سلالة إسماعيل بن

إبراهيم الخليل عليهما الصلاة والسلام ، واختلفوا في كيفية اتصال نسبه به على ثلاث طرائق أيضًا . وقد ذكر ذلك مستقصى الإمام الحافظ أبو عمر بن عبد البر النمري رحمته الله في كتابه المسمى - الإنباه على ذكر أصول القبائل الرواه - ومعنى قوله عليه السلام : « كَانَ رَجُلًا مِّنَ الْعَرَبِ » يعني : العرب العاربة الذين كانوا قبل الخليل عليه الصلاة والسلام من سلالة سام بن نوح ، وعلى القول الثالث : كان من سلالة الخليل عليه السلام ، وليس هذا بالمشهور عندهم والله أعلم . ولكن في صحيح البخاري أن رسول الله عليه السلام مر بنفر من أسلم ينتضلون فقال : « اِزْمُوا بَنِي إِسْمَاعِيلَ فَإِنَّ آبَاءَكُمْ كَانَ رَامِيًا » ^(١) . فأسلم قبيلة من الأنصار ، والأنصار أوسها وخزرجها من غسان من عرب اليمن من سبأ ، نزلوا يثرب لما تفرقت سبأ في البلاد حين بعث الله عليه السلام عليهم سيل العرم ، ونزلت طائفة منهم بالشام ، وإنما قيل لهم : غسان بماء نزلوا عليه باليمن ، وقيل : إنه قريب من المشلل كما قال حسان بن ثابت رضي الله عنه :

إِنَّمَا سَأَلْتُ فَإِنَّا مَعْشَرٌ نُّحِبُّ الْأَزْدَ نَسَبَتُنَا وَالْمَاءُ غَسَّانُ

ومعنى قوله عليه السلام : « وَلِدَ لَهُ عَشْرَةٌ مِّنَ الْعَرَبِ » أي : كان من نسله هؤلاء العشرة الذين يرجع إليهم أصول القبائل من عرب اليمن ، لا أنهم ولدوا من صلبه ، بل منهم من بينه وبينه الأبوان والثلاثة ، والأقل والأكثر . كما هو مقرر مبين في مواضعه من كتب النسب . ومعنى قوله عليه السلام : « فَيَتَأَمَّرُ مِنْهُمْ سِتَّةٌ وَتَشَاعَمُ مِنْهُمْ أَرْبَعَةٌ » . أي : بعد ما أرسل الله تعالى عليهم سيل العرم منهم من أقام ببلادهم ، ومنهم من نرح عنها إلى غيرها . وكان من أمر السد أنه كان الماء يأتيهم من بين جبلين وتجتمع إليه أيضًا سيول أمطارهم وأوديتهم ، فعمد ملوكهم الأقدام فبنوا بينهما سدًا عظيمًا محكمًا حتى ارتفع الماء وحكم على حافات ذينك الجبلين . فغرسوا الأشجار واستغلوا الثمار في غاية ما يكون من الكثرة والحسن . كما ذكر غير واحد من السلف منهم قتادة أن المرأة كانت تمشي تحت الأشجار وعلى رأسها مكتل أو زنبيل - وهو الذي تختف فيه الثمار - فيتساقط من الأشجار في ذلك ما يملؤه من غير أن يحتاج إلى كلفة ولا قطاف لكثرتة ونضجه واستوائه . وكان هذا السد بمأرب ، بلدة بينها وبين صنعاء ثلاث مراحل ، ويعرف بسد مأرب ، وذكر آخرون : أنه لم يكن يبلدهم شيء من الذباب ولا البعوض ولا البراغيث ولا شيء من الهوام ، وذلك لاعتدال الهواء وصحة المزاج وعناية الله بهم ليوحدوه ويعبدوه كما قال تبارك وتعالى : ﴿ لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكِنِهِمْ آيَةٌ ﴾ ثم فسرها بقوله عليه السلام : ﴿ جَنَّاتٍ عَنْ يَمِينٍ وَشِمَالٍ ﴾ أي : من ناحيتي الجبلين والبلدة بين ذلك ﴿ كُلُوا مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَأَشْكُرُوا لَهُمْ بَلَدَهُ طَيِّبَةً وَرَبِّ غَفُورٌ ﴾ أي : غفور لكم إن استمرتم على التوحيد . وقوله تعالى : ﴿ فَأَعْرَضُوا ﴾ أي : عن توحيد الله وعبادته الله وشكره على ما أنعم به عليهم ، وعدلوا إلى عبادة الشمس من دون الله .

وقوله تعالى : ﴿ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ ﴾ المراد بالعرم المياه ، وقيل : الوادي . وقيل : الجرذ . وقيل : الماء الغزير . فيكون من باب إضافة الاسم إلى صفته مثل مسجد الجامع وسعيد كرز ، حكى ذلك السهيلي . وذكر غير واحد منهم ابن عباس أن الله عليه السلام لما أراد عقوبتهم بإرسال العرم عليهم بعث على السد دابة من الأرض يقال لها : الجرذ نقيبته . قال وهب بن منبه : وقد كانوا يجدون في كتبهم أن

(١) أخرجه البخاري في المناقب (٣٥٠٧) والحاكم في المستدرک (٩٤/٢) .

سبب خراب هذا السد هو الجرد ، فكانوا يرصدون عنده السنائير برهة من الزمان ، فلما جاء القدر غلبت الفأر السنائير وولجت إلى السد فنقبت فأنهار عليهم . وقال قتادة وغيره : الجرد : هو الخلد نقبت أسفله حتى إذا ضعف ووهى ، وجاءت أيام السيول صدم الماء البناء فسقط فانساب الماء في أسفل الوادي وخرب ما بين يديه من الأبنية والأشجار وغير ذلك ، ونضب الماء عن الأشجار التي في الجبلين عن يمين وشمال ، فيست وتخطمت وتبدلت تلك الأشجار المثمرة الأنيقة النضرة ، كما قال الله تبارك وتعالى : ﴿ وَدَلَّلْنَاهُمْ بِحَنْتِهِمْ جَنَّاتٍ ذَوَاتِ أَكْثِلٍ حَمَلٌ ﴾ قال ابن عباس ومجاهد وعكرمة وغيرهم : وهو الأراك وأكلة البربر ﴿ وَأَثَلِ ﴾ قال العوفي عن ابن عباس : هو الطرفاء وقال غيره : هو شجر يشبه الطرفاء وقيل : هو السمر والله أعلم . وقوله : ﴿ وَتَقْوٍ مِّنْ سِدْرٍ قَلِيلٍ ﴾ لما كان أجود هذه الأشجار المبدل بها هو السدر ﴿ وَأَثَلِ وَتَقْوٍ مِّنْ سِدْرٍ قَلِيلٍ ﴾ فهذا الذي صار أمر تينك الجنتين إليه ، بعد الثمار النضيجة والمناظر الحسنة والظلال العميقة والأنهار الجارية تبدلت إلى شجر الأراك والطرفاء والسدر ذي الشوك الكثير والثمر القليل ، وذلك بسبب كفرهم وشركهم بالله وتكذيبهم الحق ، وعدولهم عنه إلى الباطل ؛ ولهذا قال تعالى : ﴿ ذَلِكَ جَزَاءُ الَّذِينَ كَفَرُواْ وَهَلْ يُجْزَىٰ إِلَّا الْكُفُورُ ﴾ أي : عاقبتهم بكفرهم . قال مجاهد : ولا يعاقب إلا الكفور . وقال الحسن البصري : صدق الله العظيم لا يعاقب بمثل فعله إلا الكفور . وقال طاوس : لا يناقش إلا الكفور . وقال ابن خيرة وكان من أصحاب علي عليه السلام : جزاء المعصية الوهن في العبادة والضيق في المعيشة والتعسر في اللذة قيل : وما التعسر في اللذة ؟ قال : لا يصادف لذة حلال إلا جاءه من ينغصه إياها .

﴿ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْقَرْيَةِ الَّتِي بَرَكْنَا فِيهَا قَرْيَ ظَهْرَةٍ وَقَدَرْنَا فِيهَا السَّبْطَ سَبْطًا لِّبَالِيٍّ وَأَيَّامًا مَّامِينٍ ﴾ فَقَالُوا رَبَّنَا بَعْدَ بَيْنِ أَسْفَارِنَا وَظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ وَزَفَنَاهُمْ كُلَّ مَرْغَبٍ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ . يذكر ما كانوا فيه من النعمة والغبطة والعيش الهني الرغيد ، والبلاد الرخية ، والأماكن الآمنة والقرى المتواصلة المتقاربة بعضها من بعض مع كثرة أشجارها وزروعها وثمارها بحيث إن مسافريهم لا يحتاج إلى حمل زاد ولا ماء ، بل حيث نزل وجد ماءً وثمرًا ، ويقبل في قرية ويبيت في أخرى بمقدار ما يحتاجون إليه في سيرهم ولهذا قال تعالى : ﴿ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْقَرْيَةِ الَّتِي بَرَكْنَا فِيهَا ﴾ قال وهب ابن منبه : هي قرى بصنعاء ، وقال مجاهد والحسن وسعيد بن جبير وغيرهم : يعني : قرى الشام ، يعنون أنهم كانوا يسIRON من اليمن إلى الشام في قرى ظاهرة متواصلة . وقال ابن عباس : القرى التي باركنا فيها بيت المقدس ، وقال العوفي عنه أيضًا : هي قرى عربية بين المدينة والشام ﴿ قَرْيَ ظَهْرَةٍ ﴾ أي : بينة واضحة يعرفها المسافرون يقلون في واحدة ويبيتون في أخرى ، ولهذا قال تعالى : ﴿ وَقَدَرْنَا فِيهَا السَّبْطَ ﴾ أي : جعلناها بحسب ما يحتاج المسافرون إليه ﴿ سَبْطًا لِّبَالِيٍّ وَأَيَّامًا مَّامِينٍ ﴾ أي : الأمن حاصل لهم في سيرهم ليلاً ونهارًا ﴿ فَقَالُوا رَبَّنَا بَعْدَ بَيْنِ أَسْفَارِنَا وَظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ﴾ وقرأ آخرون (بَعْدَ بَيْنِ أَسْفَارِنَا) ^(١) وذلك أنهم بطروا هذه النعمة . كما قال ابن عباس وغير واحد . وأحبوا مفاوز ومهامه يحتاجون في قطعها إلى الزاد والرواحل والسير في الحرور والمخاوف ، كما طلب بنو إسرائيل

(١) قرأ ابن كثير وأبو عمرو (بَعْدَ) بالتشديد والباقون بالألف (باعد) (حجة القراءات ص ٥٨٨) .

من موسى ، أن يخرج الله لهم مما تنبت الأرض من بقلها وقثائها وفومها وعدسها وبصلها ، مع أنهم كانوا في عيش رغيد في من وسلوى وما يشتهون من مأكّل ومشارب وملابس مرتفعة . ولهذا قال لهم : ﴿ أَتَنْبُلُونَ الَّذِي هُوَ أَذَقَ الْإِنْسَانَ مِمَّا خَبَا أَفَظِلُوا مِمَّنْ شَاءَ لَكُمْ مَا سَأَلْتُمْ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ وَبَاءُوا بِمَعْصِيَهِمِ مِنَ اللَّهِ ﴾ . وقال ﷻ : ﴿ وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِكَ بَطَرَتْ مَعِيشَتُهُمْ ﴾ . وقال تعالى في حق هؤلاء : ﴿ فَقَالُوا رَبَّنَا بَعْدَ بَيْنِ أَسْفَارِنَا وَظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ﴾ أي : بكفرهم ﴿ فَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ وَنَزَّلْنَاهُمْ كُلَّ مَتَرٍ ﴾ أي : جعلناها حديثاً للناس وسمراً يتحدثون به من خبرهم . وكيف مكر الله بهم وفرق شملهم بعد الاجتماع والألفة والعيش الهنيء ، تفرقوا في البلاد ها هنا وها هنا . ولهذا تقول العرب في القوم إذا تفرقوا : تفرقوا أيدي سبأ وأيادي سبأ ، وتفرقوا شذر مذر .

وقد ذكر محمد بن إسحاق بن يسار في أول السيرة ما كان من أمر عمرو بن عامر الذي كان أول من خرج من بلاد اليمن بسبب استشعاره بإرسال العرم عليهم فقال : وكان سبب خروج عمرو بن عامر من اليمن فيما حدثني به أبو زيد الأنصاري أنه رأى جرذاً يحفر في سد مأرب الذي كان يحبس عنهم الماء فيصرفونه حيث شاؤوا من أرضهم ، فعلم أنه لا بقاء للسد على ذلك فاعتزم على النقلة عن اليمن ، وكاد قومه ، فأمر أصغر ولده إذا أغلظ له ولطمه أن يقوم إليه فيلطمه ففعل ابنه ما أمره به فقال عمرو : لا أقيم ببلد لطم وجهي فيها أصغر ولدي وعرض أمواله . فقال أشراف من أشراف اليمن : اغتبنوا غصية عمرو فاشتروها منه أمواله ، وانتقل هو في ولده وولد ولده ، وقالت الأسد : لا تتخلف عن عمرو بن عامر فباعوا أموالهم وخرجوا معه فساروا حتى نزلوا بلاد عك مجتازين يرتادون البلدان فحاربهم عك وكانت حربهم سجلاً ، ففي ذلك يقول عباس بن مرداس السلمى ﷻ :

وَعَكَ بَنُ عَدْنَانَ الَّذِينَ تَلَعَّبُوا بِغَسَّانَ حَتَّى طُرِدُوا كُلَّ مَطَرِدٍ

وهذا البيت من قصيدة له . قال : ثم ارتحلوا عنهم ، فتفرقوا في البلدان فتزل آل جفنة بن عمرو ابن عامر الشام ، ونزلت الأوس والخزرج ييثرب ، ونزلت خزاعة مرأ . ونزلت أزد السراة السراة ، ونزلت أزد عمان عمان ، ثم أرسل الله على السد السيل ، فهدمه . وفي ذلك أنزل الله ﷻ هذه الآيات . وقد ذكر السدي قصة عمرو بن عامر بنحو مما ذكر محمد بن إسحاق إلا أنه قال : فأمر ابن أخيه مكان ابنه - إلى قوله - فباع ماله وارتحل بأهله فتفرقوا . وقال ابن جرير : عن ابن إسحاق قال : يزعمون أن عمرو بن عامر - وهو عم القوم - كان كاهناً فرأى في كهانته أن قومه سيمزقون ويواعد بين أسفارهم . فقال لهم : إني قد علمت أنكم ستمزقون فمن كان منكم ذا هم بعيد وحمل شديد ، ومزاد حديد ، فليلق بكاس أو كرود . قال : فكانت وادعة بن عمرو . ومن كان منكم ذا هم مدن ، وأمر دعن ، فليلق بأرض شن ، فكانت عوف بن عمرو وهم الذين يقال لهم : بارق ، ومن كان منكم يريد عيشاً آتياً ، وحرماً آمناً فليلق بالأرضين فكانت خزاعة ، ومن كان منكم يريد الراسيات في الوحل ، والمطعمات في المحل ، فليلق ييثرب ذات النخل فكانت الأوس والخزرج ، وهما هذان الحيان من الأنصار ، ومن كان منكم يريد خمراً وخميراً وذهباً وحريراً ، وملكاً وتأميراً ، فليلق بكوثي وبصرى ، فكانت غسان بنو جفنة ملوك الشام ومن كان منهم بالعراق . قال ابن

إسحاق : وقد سمعت بعض أهل العلم يقول : إنما قالت هذه المقالة طريفة امرأة عمرو بن عامر ، وكانت كاهنة فرأت في كهانتها ذلك ، فאלله أعلم أي ذلك كان ^(١) . وقال سعيد عن قتادة عن الشعبي : أما غسان فلحقوا بعمان فمزقهم الله كل ممزق بالشام ، وأما الأنصار فلحقوا بيشرب ، وأما خزاعة فلحقوا بتهامة ، وأما الأزد فلحقوا بعمان ، فمزقهم الله كل ممزق .

وقوله تعالى : ﴿ إِنِّي فِي ذَلِكَ لَآتِيٌ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴾ أي : إن في هذا الذي حل بهؤلاء من النعمة والعذاب وتبديل النعمة ، وتحويل العافية عقوبة على ما ارتكبه من الكفر والآثام ، لعلهم يدركون لعلهم يدركون . قال سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه : قال رسول الله ﷺ : « عَجِبْتُ مِنْ قَضَاءِ اللَّهِ تَعَالَى لِلْمُؤْمِنِينَ إِذَا أَصَابَهُ خَيْرٌ حَمِدَ رَبَّهُ وَشَكَرَ ، وَإِنْ أَصَابَتْهُ مُصِيبَةٌ حَمِدَ رَبَّهُ وَصَبَرَ . يُؤْجِرُ الْمُؤْمِنُ فِي كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى فِي اللَّقْمَةِ يَرْفَعُهَا إِلَى فِي امْرَأَتِهِ » ^(٢) .

﴿ وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ فَاتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ وَمَا كَانَ لَهُ عَلَيْهِمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَنْ يُوَفِّي بِالْآخِرَةِ مَنْ مَوْنَهَا فِي شَيْءٍ وَرَبِّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَفِيطٌ .

لما ذكر تعالى قصة سبأ وما كان من أمرهم في اتباعهم الهوى والشيطان ، أخبر عنهم وعن أمثالهم ممن اتبع إبليس والهوى وخالف الرشاد والهدى فقال : ﴿ وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ ﴾ . قال ابن عباس رضي الله عنه وغيره : هذه الآية كقوله تعالى إخباراً عن إبليس حين امتنع من السجود لآدم عليه الصلاة والسلام . ثم قال : ﴿ أَرَأَيْتَكَ هَذَا آلَتِي كَرَّمْتُ عَلَىٰ لَيْسَ أَخْرَجْتَنِي إِلَيَّ يَوْمَ الْفِتْنَةِ لَأَحْتَنِكَ دَرِيتَهُ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ . وقال الحسن البصري : لما أهبط الله آدم عليه الصلاة والسلام من الجنة ومعه حواء هبط إبليس فرحاً بما أصاب منهما وقال : إذا أصبت من الأبوين ما أصبت فالذرية أضعف وأضعف ، وكان ذلك ظناً من إبليس فأنزل الله ﷻ : ﴿ وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ فَاتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ فقال عند ذلك إبليس : لا أفارق ابن آدم ما دام فيه الروح أعده وأمنيه وأخذه ، فقال الله تعالى : وعزتي وجلالي لا أحجب عنه التوبة ما لم يفرغ بالموت ، ولا يدعوني إلا أجبته ، ولا يسألني إلا أعطيته ، ولا يستغفرني إلا غفرت له ، وقوله تبارك وتعالى : ﴿ وَمَا كَانَ لَهُ عَلَيْهِمْ مِنْ سُلْطَانٍ ﴾ قال ابن عباس رضي الله عنه : أي من حجة . وقال الحسن البصري : والله ما ضربهم بعضاً ، ولا أكرههم على شيء . وما كان إلا غروراً وأمانياً دعاهم إليها فأجابوه . وقوله ﷻ : ﴿ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَنْ يُوَفِّي بِالْآخِرَةِ مَنْ مَوْنَهَا فِي شَيْءٍ ﴾ أي : إنما سلطناه عليهم ليطهر أمر من هو مؤمن بالآخرة وقيامها والحساب فيها والجزاء فيحسن عبادة ربه ﷻ في الدنيا ممن هو منها في شك .

وقوله تعالى : ﴿ وَرَبِّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ حَفِيطٌ ﴾ أي : ومع حفظه ضل من ضل من أتباع إبليس ، وبحفظه وكلايته سلم من سلم من المؤمنين أتباع الرسل .

﴿ قُلْ أَدْعُوا إِلَيْكَ رِعْمَتِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهَا مِنْ شِرْكٍ وَمَا لَهُ مِنْهُمْ مِنْ ظَهِيرٍ ﴾ وَلَا تَنْفَعُ الشَّفَعَةُ عِنْدَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ . لَمْ يَحْجِ إِذَا فَرَجَ عَنْ قُلُوبِهِمْ قَالُوا مَاذَا

(١) ذكره ابن جرير الطبري في تفسيره (١٠٥/٢٢) .

(٢) أخرجه الإمام أحمد في مسنده (١٧٣/١) والهيتمي في مجمع الزوائد (٢٠٩/٧) .

قَالَ رَبُّكُمْ قَالُوا الْحَقُّ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ ﴿١﴾ .

بين تبارك وتعالى أنه الإله الواحد الأحد الفرد الصمد الذي لا نظير له ولا شريك له ، بل هو المستقل بالأمر وحده من غير مشارك ولا منازع ولا معارض . فقال : ﴿ قُلْ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ ﴾ أي : الآلهة التي عبدت من دونه ﴿ لَا يَمْلِكُونَ شَيْئًا وَشَقَّالَ ذَرَرٌ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ ﴾ . كما قال تبارك وتعالى : ﴿ وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِنْ قِطْمِيرٍ ﴾ . وقوله تعالى : ﴿ وَمَا لَكُمْ فِيهِمَا مِنْ شَرِكٍ ﴾ . أي : لا يملكون شيئاً استقلالاً ولا على سبيل الشراكة . ﴿ وَمَا لَكُمْ مِنْهُمْ مِنْ ظَلِيمٍ ﴾ أي : وليس لله من هذه الأنداد من ظهير يستظهر به في الأمور ، بل الخلق كلهم فقراء إليه عبيد لديه ، قال قتادة في قوله ﴿ وَمَا لَكُمْ مِنْهُمْ مِنْ ظَلِيمٍ ﴾ من عون يعينه بشيء . ثم قال تعالى : ﴿ وَلَا تَنْفَعُ الشَّفَعَةُ عِنْدَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ ﴾ أي : لعظمته وجلاله وكبريائه لا يجتري أحد أن يشفع عنده تعالى في شيء إلا بعد إذنه له في الشفاعة ، كما قال ﴿ مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ ﴾ ولهذا ثبت عن رسول الله ﷺ - وهو سيد ولد آدم ، وأكبر شافع عند الله تعالى - أنه حين يقوم المقام المحمود ليشفع في الخلق كلهم أن يأتي ربهم لفصل القضاء قال : « فَأَسْجُدْ لِلَّهِ تَعَالَى فَيَدْعُنِي مَا شَاءَ اللَّهُ أَنْ يَدْعُنِي ، وَيَفْتَحْ عَلَيَّ بِمَحَامِدٍ لَا أَحْصِيهَا الْآنَ ، ثُمَّ يَقَال : يَا مُحَمَّدُ ارْفَعْ رَأْسَكَ ، وَقُلْ تَسْمَعُ ، وَسَلْ تُعْطَى ، وَاشْفَعْ تُشْفَعُ » (١) . الحديث بتمامه .

وقوله تعالى : ﴿ حَتَّىٰ إِذَا فُزِعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ قَالُوا مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُوا الْحَقُّ ﴾ وهذا أيضاً مقام رفيع في العظمة وهو أنه تعالى إذا تكلم بالوحي فسمع أهل السموات كلامه أرعدوا من الهيبة حتى يلحقهم مثل الغشي . قاله ابن مسعود ؓ ومسروق وغيرهما . ﴿ حَتَّىٰ إِذَا فُزِعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ ﴾ أي : زال الفزع عنها . قال ابن عباس وابن عمر ؓ وقاتدة : في قوله ﴿ حَتَّىٰ إِذَا فُزِعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ قَالُوا مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُوا الْحَقُّ ﴾ يقول : خلى عن قلوبهم ، وقرأ بعض السلف ، وجاء مرفوعاً (إذا فرغ) بالعين المعجمة ويرجع إلى الأول ، فإذا كان كذلك سأل بعضهم بعضاً : ماذا قال ربكم ؟ فيخبر بذلك حملة العرش للذين يلونهم ، ثم الذين يلونهم لمن تحته حتى ينتهي الخبر إلى أهل السماء الدنيا ؛ ولهذا قال تعالى : ﴿ قَالُوا الْحَقُّ ﴾ أي : أخبروا بما قال من غير زيادة ولا نقصان ، ﴿ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ ﴾ . وقال آخرون : بل معنى قوله تعالى : ﴿ حَتَّىٰ إِذَا فُزِعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ ﴾ يعني المشركين عند الاحتضار ، ويوم القيامة إذا استيقظوا مما كانوا فيه من الغفلة في الدنيا ، ورجعت إليهم عقولهم يوم القيامة قالوا : ماذا قال ربكم ؟ فقيل لهم : الحق وأخبروا به مما كانوا عنه لاهين في الدنيا ، قال مجاهد : ﴿ حَتَّىٰ إِذَا فُزِعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ ﴾ : كشف عنها الغطاء يوم القيامة ، وقال الحسن : يعني : ما فيها من الشك والتكذيب . وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم : يعني : ما فيها من الشك قال : فرغ الشيطان عن قلوبهم وفارقهم وأمانيتهم وما كان يضلهم . ﴿ قَالُوا مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُوا الْحَقُّ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ ﴾ قال : وهذا في بني آدم هذا عند الموت ، أقرأ حين لا ينفعهم الإقرار . وقد اختار ابن جرير القول الأول ، وأن الضمير عائد على الملائكة ، وهذا هو الحق الذي لا مرية فيه لصحة الأحاديث فيه والآثار ولندكر منها طرفاً يدل على غيره .

(١) أخرجه البخاري في التوحيد (٧٤١٠) ومسلم في الإيمان (٣٢٢) .

عن سفيان ، حدثنا عمرو قال : سمعت عكرمة قال : سمعت أبا هريرة رضي الله عنه قال : إن نبي الله صلى الله عليه وسلم قال : « إِذَا قَضَى اللَّهُ تَعَالَى الْأَمْرَ فِي السَّمَاءِ ضَرَبَتْ الْمَلَائِكَةُ بِأَجْنِحَتِهَا خُضْعَانًا لِقَوْلِهِ كَأَنَّهُ سُلْسِلَةٌ عَلَى صَفْوَانٍ ، فَإِذَا فُزِعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ قَالُوا : مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ ؟ قَالُوا لِلَّذِي قَالَ : الْحَقُّ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ . فَيَسْمَعُهَا مُسْتَرَقُّ السَّمْعِ وَمُسْتَرَقُّ السَّمْعِ هَكَذَا بَعْضُهُ فَوْقَ بَعْضٍ - وَوَصَفَ سَفِيَانُ يَدَهُ فَحَرَفَهَا وَنَشَرَ بَيْنَ أَصَابِعِهِ - فَيَسْمَعُ الْكَلِمَةَ فَيَلْقِيهَا إِلَى مَنْ تَحْتَهُ ، ثُمَّ يَلْقِيهَا الْآخَرُ إِلَى مَنْ تَحْتَهُ ، حَتَّى يَلْقِيَهَا عَلَى لِسَانِ السَّاحِرِ أَوْ الْكَاهِنِ فَرُبَّمَا أَدْرَكَهُ الشَّهَابُ قَبْلَ أَنْ يَلْقِيَهَا ، وَرُبَّمَا أَقْلَقَهَا قَبْلَ أَنْ يَدْرِكَهُ ، فَيَكْذِبُ مَعَهَا مِائَةَ كَذِبَةٍ فَيَقَالُ : أَلَيْسَ قَدْ قَالَ لَنَا يَوْمَ كَذَا وَكَذَا ، كَذَا وَكَذَا فَيَصْدُقُ بِتِلْكَ الْكَلِمَةِ الَّتِي سَمِعْتَ مِنَ السَّمَاءِ » ^(١) .

وعن ابن عباس رضي الله عنه ، وعن قتادة أنهما فسرا هذه الآية بابتداء إحياء الله تعالى إلى محمد صلى الله عليه وسلم بعد الفترة التي كانت بينه وبين عيسى عليه الصلاة والسلام ، ولا شك أن هذا أولى ما دخل في هذه الآية .
﴿ قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ قُلْ اللَّهُ وَإِنَّا أَوْ لِيَاكُم لَمَعْنٌ هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴾ ^(١) قُلْ لَا تَسْتَكْبِرُوا عَنْمَا أَجْرُنَا وَلَا تَسْتَلْ عَمَّا تَعْمَلُونَ ^(٢) قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبَّنَا ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَهُوَ الْفَتَّاحُ الْعَلِيمُ ^(٣) قُلْ أَرَأَيْتِ الَّذِينَ آلَفَنَاهُمْ يَوْمَ كَدَّ كَلَّ بَلْ هُوَ اللَّهُ الْغَنِيُّ الْحَكِيمُ ^(٤) .

قال تعالى مقرراً تفرد به بالخلق والرزق وانفراده بالإلهية أيضاً . فكما كانوا يعترفون بأنهم لا يرزقهم من السماء والأرض أي : بما ينزل من المطر وينبت من الزرع إلا الله ، فكذلك فليعلموا أنه لا إله غيره ، وقوله تعالى : ﴿ وَإِنَّا أَوْ لِيَاكُم لَمَعْنٌ هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴾ هذا من باب اللف والنشر ، أي : واحد من الفريقين مبطل ، والآخر محق لا سبيل إلى أن تكونوا أنتم ونحن على الهدى أو على الضلال ، بل واحد منا مصيب ، ونحن قد أقمنا البرهان على التوحيد . فدل على بطلان ما أنتم عليه من الشرك بالله تعالى ؛ ولهذا قال : ﴿ وَإِنَّا أَوْ لِيَاكُم لَمَعْنٌ هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴾ . قال قتادة : قد قال ذلك أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم للمشركين ، والله ما نحن وإياكم على أمر واحد ، إن أحد الفريقين لمهتد . وقال عكرمة : معناها إنا نحن لعلى هدى وإنكم لفي ضلال مبين . وقوله تعالى : ﴿ قُلْ لَا تَسْتَكْبِرُوا عَنْمَا أَجْرُنَا وَلَا تَسْتَلْ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ معناه : التبري منهم أي : لستم منا ولا نحن منكم ، بل ندعوكم إلى الله تعالى وإلى توحيده وإفراد العبادة له ، فإن أجبتم فأنتم منا ونحن منكم ، وإن كذبتم فنحن برآء منكم وأنتم برآء منا . كما قال تعالى : ﴿ وَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقُلْ لِي عَمَلٍ وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ أَنْتُمْ بَرِيءُونَ مِمَّا أَعْمَلُ وَأَنَا بَرِيءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ . وقوله تعالى : ﴿ قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبَّنَا ﴾ أي : يوم القيامة يجمع بين الخلائق في صعيد واحد ، ﴿ ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ ﴾ أي : يحكم بيننا بالعدل . فيجزئ كل عامل بعمله إن خيراً فخير ، وإن شراً فشر ، وستعلمون يومئذ لمن العزة والنصرة والسعادة الأبدية . كما قال تعالى : ﴿ وَيَوْمَ نَقُومُ السَّاعَةَ يُؤْمِدُ بَنَفَرُوتٌ ^(٥) فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَهُمْ فِي رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ ^(٦) وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَلِقَاءِ الْآخِرَةِ فَأُولَئِكَ فِي الْعَذَابِ مُحْضَرُونَ ﴾ .

ولهذا قال صلى الله عليه وسلم : ﴿ وَهُوَ الْفَتَّاحُ الْعَلِيمُ ﴾ أي : الحاكم العالم بحقائق الأمور . وقوله تبارك

(١) أخرجه البخاري في تفسير القرآن (٤٨٠٠) والرمذي في سننه (٣٢٢٣) وابن ماجه في سننه (١٩٤) .

وتعالى : ﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمُ الَّذِينَ اتَّخَفْتُمْ بِهِ شُرَكَاءَ ﴾ أي : أروني هذه الآلهة التي جعلتموها لله أندادا وصيرتموها له عدلا ﴿ كَلَّا ﴾ أي : ليس له نظير ولا نديد ولا شريك ولا عديل . ولهذا قال تعالى : ﴿ بَلْ هُوَ اللَّهُ ﴾ أي : الواحد الأحد الذي لا شريك له ﴿ أَلَمْ يَزِدْكَ الْحِكْمَ ﴾ أي : ذو العزة الذي قد قهر بها كل شيء وغلبت كل شيء ، الحكيم في أفعاله وأقواله وشرعه وقدره تبارك وتعالى وتقدس عما يقولون علوا كبيرا ، والله أعلم .

﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا الْوَعْدُ إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿ قُلْ لَّكُمْ مِيعَادُ يَوْمٍ لَا تَسْتَحْزِنُونَ عَنْهُ سَاعَةً وَلَا تَسْتَقْدِرُونَ ﴾ .

يقول تعالى لعبدہ ورسولہ محمد ﷺ تسليما . ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا ﴾ أي : إلا إلى جميع الخلائق من المكلفين ؛ كقوله تبارك وتعالى : ﴿ قُلْ يٰٓأَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ﴾ ﴿ بَشِيرًا وَنَذِيرًا ﴾ أي : تبشر من أطاعك بالجنة ، وتنذر من عصاك بالنار . ﴿ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ . كقوله ﷺ : ﴿ وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ ﴾ . قال محمد بن كعب في قوله تعالى : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِّلنَّاسِ ﴾ : يعني : إلى الناس عامة . وقال قتادة في هذه الآية : أرسل الله تعالى محمدا ﷺ إلى العرب والعجم فأكرمهم على الله تبارك وتعالى أطوعهم لله ﷻ . وعن عكرمة قال : سمعت ابن عباس رضی اللہ عنہما يقول : إن الله تعالى فضل محمدا ﷺ على أهل السماء وعلى الأنبياء . قالوا : يا ابن عباس فيم فضله على الأنبياء ؟ قال ﷺ : إن الله تعالى قال : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانٍ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ ﴾ وقال للنبي ﷺ : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِّلنَّاسِ ﴾ . فأرسله الله تعالى إلى الجن والإنس . وهذا الذي قاله ابن عباس رضی اللہ عنہما قد ثبت في الصحيحين رفعه عن جابر رضي الله عنه : قال رسول الله ﷺ : « أُعْطِيتُ خَمْسًا لَمْ يُعْطَهُنَّ أَحَدٌ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ قَبْلِي : نُصِرْتُ بِالرَّغَبِ مَسِيرَةَ شَهْرٍ ، وَجُعِلَتْ لِي الْأَرْضُ مَسْجِدًا وَطَهُورًا ، فَأَيُّمَا رَجُلٍ مِنْ أُمَّتِي أَدْرَكْتُهُ الصَّلَاةَ فَلْيُصَلِّ ، وَأَجِلْتُ لِي الْغَنَائِمُ وَلَمْ تَحِلَّ لِأَحَدٍ قَبْلِي ، وَأُعْطِيتُ الشَّفَاعَةَ ، وَكَانَ النَّبِيُّ يُعْتَقُ إِلَى قَوْمِهِ خَاصَّةً وَيُعْتَقُ إِلَى النَّاسِ عَامَّةً » (١) . وفي الصحيح أيضا أن رسول الله ﷺ قال : « بُعِثْتُ إِلَى الْأَسْوَدِ وَالْأَحْمَرِ » (٢) . قال مجاهد : يعني الجن والإنس . وقال غيره : يعني العرب والعجم والكل صحيح . ثم قال ﷺ مخبرا عن الكفار في استبعادهم قيام الساعة : ﴿ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا الْوَعْدُ إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ وهذه الآية كقوله ﷺ : ﴿ يَسْتَعْجِلُ بِهَا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مُشْفِقُونَ مِنْهَا وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا الْحَقُّ ﴾ الآية . ثم قال تعالى : ﴿ قُلْ لَّكُمْ مِيعَادُ يَوْمٍ لَا تَسْتَحْزِنُونَ عَنْهُ سَاعَةً وَلَا تَسْتَقْدِرُونَ ﴾ أي : لكم ميعاد مؤجل معدود محرم لا يزداد ولا ينقص ، فإذا جاء فلا يؤخر ساعة ولا يقدم كما قال تعالى : ﴿ وَمَا تُؤَخِّرُهُ إِلَّا لِأَجَلٍ مُّعَدَّدٍ ﴾ يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِ فَمِنْهُمْ شَقِيقٌ وَسَعِيدٌ ﴿

﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ نُؤْمِنَ بِهَٰذَا الْقُرْآنِ وَلَا بِالَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الظَّالِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِنْدَ

(١) أخرجه البخاري في التيمم (٣٣٥) ومسلم في المساجد (٣) .

(٢) أخرجه الإمام أحمد في مسنده (١٦٦/٤) ، (١٤٥/٥) والبيهقي في مجمع الزوائد (٦٥/٦) .

رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ الْقَوْلَ يَقُولُ الَّذِينَ اسْتَضَعُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لَوْلَا أَنْتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ ﴿٣١﴾ قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لِلَّذِينَ اسْتَضَعُوا أَنْخُنْ صَدَدْتَكُمْ عَنْ الْمَدْنَى بَعْدَ إِذْ جَاءَكُمْ بِهَا كُنْتُمْ تُخْرِجُونَ ﴿٣٢﴾ اسْتَضَعُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا بَلْ مَكْرَ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَا أَنْ نَكْفُرَ بِاللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُ أَنْدَادًا وَأَسْرُوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ وَجَعَلْنَا الْأَغْلَلَ فِي آصْنَاقِ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ يُخْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٣٣﴾ .

يخبر تعالى عن تمادي الكفار في طغيانهم وعنادهم وإصرارهم على عدم الإيمان بالقرآن الكريم ، وبما أخبر به من أمر المعاد ؛ ولهذا قال تعالى : ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ نُؤْمِنَ بِهَذَا الْقُرْآنِ وَلَا بِالَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ ﴾ . قال الله ﷻ متهددا لهم ومتوعدا ومخيبرا عن مواقفهم الدلالية بين يديه في حال تخصصهم وتحاجهم ﴿ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ الْقَوْلَ يَقُولُ الَّذِينَ اسْتَضَعُوا ﴾ وهم الأنباع . ﴿ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا ﴾ منهم وهم قادتهم وسادتهم ، ﴿ لَوْلَا أَنْتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ ﴾ أي : لولا أنتم تصدونا لكنا اتبعنا الرسل وأما بما جاؤونا به ، فقال لهم القادة والسادة وهم الذين استكبروا : ﴿ أَنْخُنْ صَدَدْتَكُمْ عَنْ الْمَدْنَى بَعْدَ إِذْ جَاءَكُمْ ﴾ ؟ أي : نحن ما فعلنا بكم أكثر من أنا دعوناكم فاتبعتونا من غير دليل ولا برهان ، وخالفتم الأدلة والبراهين والحجج التي جاءت بها الرسل لشهوتكم واختياركم لذلك ؛ ولهذا قالوا : ﴿ بَلْ كُنْتُمْ تُخْرِجُونَ ﴾ ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ اسْتَضَعُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا بَلْ مَكْرَ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ ﴾ أي : بل كنتم تماركون بنا ليلا ونهارا وتفرون وتمنونا وتخبرونا أنا على هدى ، وأنا على شيء ، فإذا جميع ذلك باطل وكذب ومين . قال قتادة وابن زيد : ﴿ بَلْ مَكْرَ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ ﴾ يقول : بل مكرهم بالليل والنهار ، وكذا قال زيد بن أسلم . ﴿ إِذْ تَأْمُرُونَنَا أَنْ نَكْفُرَ بِاللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُ أَنْدَادًا ﴾ أي نظراء وآلهة معه وتقيموا لنا شيئا وأشياء من المحال تضلوننا بها ﴿ وَأَسْرُوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ ﴾ أي : الجميع من السادة والأنباع كل ندم على ما سلف منه ﴿ وَجَعَلْنَا الْأَغْلَلَ فِي آصْنَاقِ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ وهي : السلاسل التي تجمع أيديهم مع أعناقهم ﴿ هَلْ يُخْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ أي : إنما نجازيكم بأعمالكم كل بحسبه للقادة عذاب بحسبهم وللأنباع بحسبهم . ﴿ قَالَ لِكُلِّ ضِعْفٌ وَلَكِنْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ .

وعن أبي هريرة ؓ قال : قال رسول الله ﷺ : « إِنْ جَهَنَّمَ لَأُتِىَ بِهَا نَارٌ تَلْقَاهُمْ لَهَا بَهِيمَةٌ ثُمَّ لَفَتْهُمْ لَفْحَةً فَلَمْ يَتَّخِذْ لِحْمٍ إِلَّا سَقَطَ عَلَى الْمُزْقُوبِ » ^(١) .

﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ ﴾ ﴿ وَقَالُوا نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالًا وَأَوْلَدًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴾ ﴿ قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ ﴿ وَمَا أَوْلَدُهُمْ بِالْبَاطِلِ يُفَرِّقُهُمْ عِنْدَنَا زُلْفَى إِلَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَأُولَئِكَ لَهُمْ جَزَاءُ الضَّعِيفِ بِمَا عَمِلُوا وَهُمْ فِي الْفُرُوقِ ءَامِنُونَ ﴾ ﴿ وَالَّذِينَ يَسْعَوْنَ فِي آيَاتِنَا مُعْجِزِينَ أُولَئِكَ فِي الْعَذَابِ مُحْضَرُونَ ﴾ ﴿ قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ ﴾ .

يقول تعالى مسلينا لنبيه ﷺ وأمرأ له بالتأسي بمن قبله من الرسل ومخبره بأنه ما بعث نبيا في قرية إلا كذبه مترفوها واتبعه ضعفاؤهم ، كما قال قوم نوح عليه الصلاة والسلام : ﴿ اتَّوَيْنُكَ وَأَتَّبَعَكَ الْأَرْذِلُونَ ﴾ . وقال تعالى : ﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ أَكْثَرَ مُجْرِمِينَ لِيَتَذَكَّرُوا فِيهَا ﴾ . وقال جل

وعلاها هنا : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرِيْبَةٍ مِّنْ نَّذِيْرٍ ﴾ أي : نبي أو رسول ﴿ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا ﴾ وهم أولو النعمة والحشمة والثروة والرياسة . قال قتادة : هم جابريتهم وقادتهم ورؤوسهم في الشر . ﴿ إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ ﴾ أي : لا تؤمن به ولا تتبعه . عن أبي رزين قال : كان رجلاً شريكاً خرج أحدهما إلى الساحل وبقي الآخر ، فلما بعث النبي ﷺ كتب إلى صاحبه يسأله ما فعل . فكتب إليه أنه لم يتبعه أحد من قريش إنما اتبعه أراذل الناس ومساكينهم قال : فترك تجارته ثم أتى صاحبه فقال : دلني عليه قال : وكان يقرأ الكتب أو بعض الكتب . قال : فأتى النبي ﷺ فقال : إلام تدعو ؟ قال : « أدعوني كذا وكذا » قال : أشهد أنك رسول الله . قال ﷺ : « وَمَا عَلِمْتُكَ بِذَلِكَ ؟ » قال : إنه لم يبعث نبي إلا اتبعه أراذل الناس ومساكينهم . قال : فنزلت هذه الآية : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرِيْبَةٍ مِّنْ نَّذِيْرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ ﴾ الآية . قال : فأرسل إليه النبي ﷺ : « إِنَّ اللَّهَ ﷻ قَدْ أَنْزَلَ تَصْدِيْقَ مَا قُلْتَ » وهكذا قال هرقل لأبي سفيان حين سأله عن تلك المسائل قال فيها : وسألتك : أضعفاء الناس اتبعه أم أشرافهم ؟ فرعمت بل ضعفاؤهم ، وهم أتباع الرسل . وقال تبارك وتعالى إخباراً عن المترفين المكذبين : ﴿ وَقَالُوا نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالًا وَأَوْلَدًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴾ أي : افتخروا بكثرة الأموال والأولاد واعتقدوا أن ذلك دليل على محبة الله تعالى لهم واعتائته بهم ، وأنه ما كان ليعطيهم هذا في الدنيا ثم يعذبهم في الآخرة ، وهيهات لهم ذلك . قال الله تعالى : ﴿ فَلَا تُصِجْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَتَرْهَقَ أَنْفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ ﴾ .

وقد أخبر الله ﷻ عن صاحب تينك الجنتين أنه : كان ذا مال وثمر وولد ثم لم يغن عنه شيئاً . بل سلب ذلك في الدنيا قبل الآخرة ، ولهذا قال ﷻ ها هنا : ﴿ قُلْ إِن رَّبِّي يَسْطُرُ الرَّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ ﴾ أي : يعطي المال لمن يحب ومن لا يحب ، فيفقر من يشاء ويغني من يشاء وله الحكمة التامة البالغة والحجة القاطعة الدامغة ، ﴿ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ .

ثم قال تعالى : ﴿ وَمَا أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ بِالَّتِي تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَى ﴾ أي : ليست هذه دليلاً على محبتنا لكم ولا اعتنائنا بكم . وعن أبي هريرة ؓ أن رسول الله ﷺ قال : « إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى لَا يَنْظُرُ إِلَى صُورِكُمْ وَأَمْوَالِكُمْ وَلَكِنْ إِنَّمَا يَنْظُرُ إِلَى قُلُوبِكُمْ وَأَعْمَالِكُمْ » ^(١) . ولهذا قال الله تعالى : ﴿ إِلَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ﴾ أي : إنما يقربكم عندنا زلفى الإيمان والعمل الصالح . ﴿ فَأُولَئِكَ لَهُمْ جَزَاءُ الْوَفَافِ بِمَا عَاهَدُوا ﴾ أي : تضاعف لهم الحسنة بعشرة أمثالها إلى سبعمائة ضعف . ﴿ وَهُمْ فِي الْفِرْقَانِ ءَامِنُونَ ﴾ أي : في منازل الجنة العالية آمنون من كل بأس وخوف وأذى ومن كل شيء يحذر منه . وعن علي ؓ قال : قال رسول الله ﷺ : « إِنَّ فِي الْجَنَّةِ لَغُرَفًا تَرَى ظُهُورَهَا مِنْ بُطُونِهَا وَبُطُونَهَا مِنْ ظُهُورِهَا » فقال أعرابي : لمن هي ؟ قال ﷺ : « لِمَنْ طَيَّبَ الْكَلَامَ ، وَأَطْعَمَ الطَّعَامَ ، وَأَدَامَ الصِّيَامَ ، وَصَلَّى بِاللَّيْلِ وَالنَّاسُ نِيَامٌ » ^(٢) . ﴿ وَأُولَئِكَ يَسْعَوْنَ فِي الْأَعْدَابِ مُخْضَرُونَ ﴾ أي : يسعون في الصد عن سبيل الله واتباع رسله والتصديق بآياته . ﴿ أُولَئِكَ فِي الْعَذَابِ مُخْضَرُونَ ﴾ أي : جميعهم مجزيون بأعمالهم فيها بحسبهم .

(١) أخرجه الإمام أحمد في مسنده (٢٨٥/٢ ، ٥٣٩) وابن ماجه في سننه (٤١٤٣) والإمام مسلم في البر والصلة (٣٤) من حديث كثير بن هشام عن جعفر بن برقان به .
(٢) أخرجه الترمذي في سننه (٢٥٢٧) والإمام أحمد في مسنده (١٥٦/١) .

إِلَيْهِمْ قَبْلَكَ مِنْ نَذِيرٍ ﴿٤٣﴾ وَكَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَمَا بَلَغُوا مِعْشَارَ مَا آتَيْنَاهُمْ فَكَذَّبُوا رَسُولِيَّ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿٤٤﴾ .
 يخبر تعالى عن الكفار أنهم يستحقون منه العقوبة والأليم من العذاب ؛ لأنهم كانوا إذا تلى عليهم آياته يبنات يسمعونها غضة طرية من لسان رسول الله ﷺ ﴿٤٥﴾ قَالُوا مَا هَذَا إِلَّا رَجُلٌ يُرِيدُ أَنْ يَصُدَّكُمْ عَنَّا كَمَا كَانَ يَصُدُّ آبَاؤُكُمْ ﴿٤٦﴾ يعنون أن دين آبائهم هو الحق ، وأن ما جاءهم به الرسول عندهم باطل ، عليهم وعلى آبائهم لعائن الله تعالى . ﴿٤٧﴾ وَقَالُوا مَا هَذَا إِلَّا إِفْكٌ مُفْتَرٍ ﴿٤٨﴾ يعنون : القرآن ﴿٤٩﴾ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ إِنَّ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ شَيْئٌ ﴿٥٠﴾ . قال الله تعالى : ﴿٥١﴾ وَمَا آتَيْنَاهُمْ مِنْ كُتُبٍ يَدْرُسُونَهَا وَمَا أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمْ قَبْلَكَ مِنْ نَذِيرٍ ﴿٥٢﴾ أي : ما أنزل الله على العرب من كتاب قبل القرآن ، وما أرسل إليهم نبيا قبل محمد ﷺ ، وقد كانوا يودون ذلك ويقولون : لو جاءنا نذير أو أنزل علينا كتاب لكننا أهدى من غيرنا ، فلما من الله عليهم بذلك كذبوه وجحدوه وعاندوه ، ثم قال تعالى : ﴿٥٣﴾ وَكَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ ﴿٥٤﴾ أي : من الأمم ﴿٥٥﴾ وَمَا بَلَغُوا مِعْشَارَ مَا آتَيْنَاهُمْ ﴿٥٦﴾ قال ابن عباس ؓ : أي : من القوة في الدنيا . كما قال تعالى : ﴿٥٧﴾ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَانُوا أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً ﴿٥٨﴾ أي : وما دفع ذلك عنهم عذاب الله ولا رده ، بل دمر الله عليهم لما كذبوا رسله ولهذا قال : ﴿٥٩﴾ فَكَذَّبُوا رَسُولِيَّ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿٦٠﴾ أي : فكيف كان عقابي ونكالي وانتصاري لرسلي . ﴿٦١﴾ قُلْ إِنَّمَا أَعْطِيَكُمْ بِوَحْدَةٍ أَنْ تَقُومُوا لِلَّهِ مَتَى وُقِرْدَى ثُمَّ تَنفَكُّوْا مَا بِصَاحِبِكُمْ مِنْ حِجَّةٍ إِنَّ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَكُمْ بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ﴿٦٢﴾ .

يقول تبارك وتعالى : ﴿٦٣﴾ قُلْ يا محمد لهؤلاء الكافرين الزاعمين أنك مجنون ﴿٦٤﴾ إِنَّمَا أَعْطِيَكُمْ بِوَحْدَةٍ ﴿٦٥﴾ أي : إنما أمركم بوحدة وهي : ﴿٦٦﴾ أَنْ تَقُومُوا لِلَّهِ مَتَى وُقِرْدَى ثُمَّ تَنفَكُّوْا مَا بِصَاحِبِكُمْ مِنْ حِجَّةٍ ﴿٦٧﴾ أي : تقوموا قياما خالصا لله ﷻ من غير هوى ولا عصبية ، فيسأل بعضهم بعضا : هل بمحمد من جنون ؟ فينصح بعضهم بعضا ﴿٦٨﴾ ثُمَّ تَنفَكُّوْا ﴿٦٩﴾ أي : ينظر الرجل لنفسه في أمر محمد ﷺ ، ويسأل غيره من الناس عن شأنه إن أشكل عليه ويتفكر في ذلك . ولهذا قال تعالى : ﴿٧٠﴾ أَنْ تَقُومُوا لِلَّهِ مَتَى وُقِرْدَى ثُمَّ تَنفَكُّوْا مَا بِصَاحِبِكُمْ مِنْ حِجَّةٍ ﴿٧١﴾ هذا معنى ما ذكره مجاهد والسدي وقاتدة وغيرهم . وهذا هو المراد من الآية .

وقوله تعالى : ﴿٧٢﴾ إِنَّ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَكُمْ بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ﴿٧٣﴾ عن ابن عباس ؓ أنه قال : صعد النبي ﷺ الصفا ذات يوم فقال : « يا صباحاه » فاجتمعت إليه قريش فقالوا : ما لك ؟ فقال : « أَرَأَيْتُمْ لَوْ أَخْبَرْتُكُمْ أَنَّ الْعَدُوَّ يُصَبِّحُكُمْ أَوْ يُمَسِّحُكُمْ أَمَا كُنْتُمْ تُصَدِّقُونِي » قالوا : بلى ؟ قال ﷺ : « فَإِنِّي نَذِيرٌ لَكُمْ بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ » . فقال أبو لهب : تبأ لك ألهذا جمعتنا . فأنزل الله ﷻ : ﴿٧٤﴾ تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ﴿٧٥﴾ (١) . وعن عبد الله بن بريدة عن أبيه ؓ قال : خرج إلينا رسول الله ﷺ يوما فنأدى ثلاث مرات فقال : « أَيُّهَا النَّاسُ تَذَرُونَ مَا مَنَّلِي وَمَنَّلَكُمْ ؟ » قالوا : الله تعالى ورسوله أعلم ، قال ﷺ : « إِنَّمَا مَنَّلِي وَمَنَّلَكُمْ مَثَلُ قَوْمٍ خَافُوا عَدُوًّا يَأْتِيهِمْ فَبَعَثُوا رَجُلًا يَتَرَاى لَهُمْ ، فَبَيِّنَمَا هُوَ كَذَلِكَ أَبْصَرَ الْعَدُوَّ فَأَقْبَلَ لِيُنْذِرَهُمْ وَخَشِيَ أَنْ يُنْذِرَهُ الْعَدُوَّ قَبْلَ أَنْ يُنْذِرَ قَوْمَهُ فَأَهْوَى بِثَوْبِهِ ،

(١) أخرجه البخاري في التفسير (٤٨٠١) ومسلم في الإيمان (٣٥٥٢) والإمام أحمد في مسنده (٢٨١/١) .

أَيُّهَا النَّاسُ أُوْتِيتُمْ ، أَيُّهَا النَّاسُ أُوْتِيتُمْ « ثلاث مرات ، قال رسول الله ﷺ : « بُعِثْتُ أَنَا وَالسَّاعَةُ جَمِيعًا إِنْ كَادَتْ لَتُسْبِقَنِي » ^(١) .

﴿ قُلْ مَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجَرٍ فَهُوَ لَكُمْ إِنْ أَجَرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴾ ﴿ قُلْ إِنْ رَبِّي يَذْفُ بِالْحَقِّ عِلْمَ الْغُيُوبِ ﴾ ﴿ قُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَمَا يُبَدِّلُ الْبَاطِلَ وَمَا يُعِيدُ ﴾ ﴿ قُلْ إِنْ ضَلَّكَ فَإِنَّمَا أَضِلُّ عَلَى نَفْسِي وَإِنْ أَهْتَدَيْتُ فِيمَا يُوحِي إِلَيَّ رَبِّي إِنَّهُ سَمِيعٌ قَرِيبٌ ﴾ .

يقول تعالى أمرا رسوله ﷺ أن يقول للمشركين : ﴿ مَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجَرٍ فَهُوَ لَكُمْ ﴾ أي : لا أريد منكم جعلاً ولا عطاء على أداء رسالة الله ﷻ إليكم ، ونصحي إياكم وأمركم بعبادة الله . ﴿ إِنْ أَجَرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ ﴾ أي : إنما أطلب ثواب ذلك من عند الله ﴿ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴾ أي : عالم بجميع الأمور بما أنا عليه من إخباري عنه بإرساله إياي إليكم وما أنتم عليه . وقوله ﷻ : ﴿ قُلْ إِنْ رَبِّي يَذْفُ بِالْحَقِّ عِلْمَ الْغُيُوبِ ﴾ . كقوله تعالى : ﴿ يَلْقَى الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ ﴾ أي : يرسل الملك إلى من يشاء من عباده من أهل الأرض وهو علام الغيوب ، فلا تخفى عليه خافية في السموات ولا في الأرض . وقوله تبارك وتعالى : ﴿ قُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَمَا يُبَدِّلُ الْبَاطِلَ وَمَا يُعِيدُ ﴾ . أي : جاء الحق من الله والشرع العظيم وذهب الباطل ، وزهق واضمحل ، كقوله تعالى : ﴿ بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ ﴾ . ولهذا لما دخل رسول الله ﷺ المسجد الحرام يوم الفتح ، ووجد تلك الأصنام منصوبة حول الكعبة جعل يطعن الصنم منها بسية قوسه ويقرأ : ﴿ وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَذَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا ﴾ ^(٢) . ﴿ قُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَمَا يُبَدِّلُ الْبَاطِلَ وَمَا يُعِيدُ ﴾ . أي : لم يبق للباطل مقالة ولا رياسة ولا كلمة ، وزعم قتادة والسدي : أن المراد بالباطل ها هنا إبليس أي : أنه لا يخلق أحدا ولا يعيده ولا يقدر على ذلك ، وهذا وإن كان حقا ولكن ليس هو المراد ها هنا والله أعلم . وقوله تبارك وتعالى : ﴿ قُلْ إِنْ ضَلَّكَ فَإِنَّمَا أَضِلُّ عَلَى نَفْسِي وَإِنْ أَهْتَدَيْتُ فِيمَا يُوحِي إِلَيَّ رَبِّي ﴾ أي : الخير كله من عند الله وفيما أنزل الله ﷻ من الوحي والحق المبين فيه الهدى والبيان والرشاد ، ومن ضل فإنما يضل من تلقاء نفسه . كما قال عبد الله بن مسعود ؓ لما سئل عن تلك المسألة في المفوضة : أقول فيها برأيي ، فإن يكن صوابا فمن الله ، وإن يكن خطأ فمني ومن الشيطان ، والله ورسوله بريان منه ، وقوله تعالى : ﴿ إِنَّهُمْ سَمِيعٌ قَرِيبٌ ﴾ أي : سميع لأقوال عباده قريب يجيب دعوة الداعي إذا دعاه . وفي الصحيحين : « إِنَّكُمْ لَا تَدْعُونَ أَصَمَّ وَلَا غَائِبًا ، إِنَّمَا تَدْعُونَ سَمِيعًا قَرِيبًا مُجِيبًا » ^(٣) .

﴿ وَلَوْ تَرَى إِذْ فِرْعَوْنُ فَلَا قُوَّةَ وَأُحْذَرُ مِنْ مَكَانٍ قَرِيبٍ ﴾ ﴿ وَقَالُوا آمَنَّا بِهِ وَأَنَّى لَهُمُ اتِّسَاعُ مِنْ مَكَانٍ يَعْبُدُ ﴾ ﴿ وَقَدْ كَفَرُوا بِهِ مِنْ قَبْلُ وَيَقْذِفُونَ بِالْأَغْيَابِ مِنْ مَكَانٍ يَعْبُدُ ﴾ ﴿ وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِمْ مِنْ قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا فِي سَكِّ مَرِيبٍ ﴾ .

(١) أخرجه الإمام أحمد في مسنده (٣٤٨/٥) .

(٢) أخرجه البخاري في المظالم (٢٤٧٨) ومسلم في الجهاد (٨٤ ، ٨٧) والإمام أحمد في مسنده (٣٧٧/١) .

(٣) أخرجه البخاري في الدعوات (٦٣٨٤) ومسلم في الذكر والدعاء (٤٤ ، ٤٥) .

يقول تبارك وتعالى ولو ترى يا محمد إذا فزع هؤلاء المكذبون يوم القيامة ﴿فَلَا قُوَّةَ﴾ أي : فلا مفر لهم ولا وزر لهم ولا ملجأ . ﴿وَأُخِذُوا مِنْ مَّكَانٍ قَرِيبٍ﴾ أي : لم يمكنوا أن يمنعوا في الهرب ، بل أخذوا من أول وهلة . والمراد بذلك يوم القيامة وهو الطامة العظمى ، ﴿وَقَالُوا ءَأَمَّا إِلَهُهُ﴾ أي : يوم القيامة يقولون : آمنا بالله وملائكته وكتبه ورسله . كما قال تعالى : ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الْمُجْرِمُونَ نَاكِسُوا رُءُوسِهِمْ عِندَ رَبِّهِمْ رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَاتَّجِعْنَا نَمَسَّ بِفُنُوسِنَا إِنَّنَا مُّؤْمِنُونَ﴾ . ولهذا قال تعالى : ﴿وَأَنَّىٰ لَهُمُ النَّشْأُ مِنْ مَّكَانٍ بَعِيدٍ﴾ أي : وكيف لهم تعاطي الإيمان ، وقد بعدوا عن محل قبوله منهم وصاروا إلى الدار الآخرة ، وهي دار الجزاء ، لا دار الابتلاء فلو كانوا آمنوا في الدنيا لكان ذلك نافعهم ، ولكن بعد مصيرهم إلى الدار الآخرة لا سبيل لهم إلى قبول الإيمان . كما لا سبيل إلى حصول الشيء لمن يتناوله من بعيد . قال مجاهد : ﴿وَأَنَّىٰ لَهُمُ النَّشْأُ﴾ قال : تناول لذلك . وقال الزهري : تناولهم الإيمان وهم في الآخرة وقد انقطعت عنهم الدنيا ، وقال الحسن البصري : أما إنهم طلبوا الأمر من حيث لا ينال ، تعاطوا الإيمان من مكان بعيد . وقال ابن عباس رضي الله عنه : طلبوا الرجعة إلى الدنيا والتوبة مما هم فيه وليس بحين رجعة ولا توبة . وقوله تعالى : ﴿وَقَدْ كَفَرُوا بِهِ مِنْ قَبْلُ﴾ أي : كيف يحصل لهم الإيمان في الآخرة ؟ وقد كفروا بالحق في الدنيا وكذبوا الرسل ﴿وَيَقْدِرُونَ بِالْغَيْبِ مِنْ مَّكَانٍ بَعِيدٍ﴾ قال مالك عن زيد بن أسلم ﴿وَيَقْدِرُونَ بِالْغَيْبِ﴾ قال : بالظن ، قلت : كما قال تعالى : ﴿رَحْمًا بِالْغَيْبِ﴾ فتارة يقولون : شاعر ، وتارة يقولون : كاهن ، وتارة يقولون : ساحر ، وتارة يقولون : مجنون ، إلى غير ذلك من الأقوال الباطلة ، ويكذبون بالبعث والنشور والمعاد ﴿إِنْ نَظُنُّ إِلَّا غَنًا وَمَا نَحْنُ بِمُستَغْنِينَ﴾ قال قتادة ومجاهد : يرجمون بالظن لا بعث ولا جنة ولا نار .

وقوله تعالى : ﴿وَجِلَّ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ﴾ قال الحسن البصري والضحاك وغيرهما : يعني : الإيمان . وقال السدي : ﴿وَجِلَّ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ﴾ وهي : التوبة ، وقال مجاهد ﴿وَجِلَّ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ﴾ من هذه الدنيا من مال وزهرة وأهل . والصحيح : أنه لا منافاة بين القولين فإنه قد حيل بينهم وبين شهواتهم في الدنيا وبين ما طلبوه في الآخرة فمنعوا منه . وقوله تعالى : ﴿كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِمْ مِنْ قَبْلُ﴾ أي : كما جرى للأمم الماضية المكذبة بالرسل لما جاءهم بأس الله تمنوا أن لو آمنوا فلم يقبل منهم ﴿فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا ءَأَمَّا إِلَهُهُ وَحْدَهُ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ﴾ ﴿فَلَمَّا يَكُفُّهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا سَأَلُوهُ أَلَيْسَ الَّذِي قَدْ خَلَقَ فِي عِبَادِهِ وَخَيْرَ هَؤُلَاءِ الْكَافِرُونَ﴾ ^(١) . وقوله تبارك وتعالى : ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا فِي شَكٍّ مُرِيبٍ﴾ أي : كانوا في الدنيا في شك وريبة ، فلهذا لم يتقبل منهم الإيمان عند معاناة العذاب : قال قتادة : إياكم والشك والريبة ، فإن من مات على شك بعث عليه ، ومن مات على يقين بعث عليه .

(١) ذكره السيوطي في الدر المنثور (٢٤٢/٥) .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ اَلَمْتَدُّ لِلّٰهِ فَاطِرِ السَّمٰوٰتِ وَالْاَرْضِ جَاوِلَ الْمَلٰٓئِكَةِ رُسُلًا اَوْۤ اُتِيَ اَجْمَعُوۡمٌ مِّنۡهُنَّ وَتِلْكَ رُۢسُۡعٌ يَّزِيۡدُ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَآءُ اِنَّ اللّٰهَ عَلٰى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيۡرٌ ۝۱﴾ .

قال ابن عباس ؓ : كنت لا أدري ما فاطر السماوات والأرض حتى أتاني أعرابيان يختصمان في بئر فقال أحدهما لصاحبه : أنا فطرتهما أي : بدأتها . وقال ابن عباس ؓ أيضًا : ﴿ فَاطِرَ السَّمٰوٰتِ وَالْاَرْضِ ۝۱﴾ أي : بديع السماوات والأرض . وقال الضحاك : كل شيء في القرآن فاطر السماوات والأرض ، فهو خالق السماوات والأرض . وقوله تعالى : ﴿ جَاوِلَ الْمَلٰٓئِكَةِ رُسُلًا ۝۱﴾ أي : بينه وبين أنبيائه ﴿ اَوْۤ اُتِيَ اَجْمَعُوۡمٌ ۝۱﴾ أي : يطيطون بها ليلغوا ما أمروا به سريعًا . ﴿ مِّنۡهُنَّ وَتِلْكَ رُۢسُۡعٌ ۝۱﴾ أي : منهم من له جناحان ، ومنهم من له ثلاثة ، ومنهم من له أربعة ، ومنهم من له أكثر من ذلك . كما جاء في الحديث أن رسول الله ﷺ رأى جبريل عليه السلام ليلة الإسراء ، وله ستمائة جناح بين كل جناحين كما بين المشرق والمغرب ، ولهذا قال جل وعلا : ﴿ يَّزِيۡدُ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَآءُ اِنَّ اللّٰهَ عَلٰى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيۡرٌ ۝۱﴾ قال السدي : يزيد في الأجنحة وخلقها ما يشاء . وقال الزهري وابن جريج في قوله تعالى : ﴿ يَّزِيۡدُ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَآءُ ۝۱﴾ يعني : حسن الصوت . ﴿ مَا يَفْتَحُ اللّٰهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكُ فَلَا مُرْسِلَ لَّهُ مِنْۢ بَعْدِهِۦ وَهُوَ الْعَزِيۡزُ الْحَكِيۡمُ ۝۲﴾ .

يخبر تعالى أنه ما شاء كان ، وما لم يشأ لم يكن ، وأنه لا مانع لما أعطى ، ولا معطي لما منع . عن أبي سعيد الخدري ؓ قال : إن رسول الله ﷺ كان إذا رفع رأسه من الركوع يقول : « سَمِعَ اللّٰهُ لِمَنْ حَمِدَهُ اللّٰهُمَّ رَبَّنَا لَكَ الْحَمْدُ مِلءَ السَّمٰوٰتِ وَالْاَرْضِ ، وَمِلءَ مَا بَيْنَهُمَا مِنْ شَيْءٍ بَعْدُ ، اللّٰهُمَّ اَهْلُ الثَّنَآءِ وَالْمَجْدِ ، اَحَقُّ مَا قَالَ الْعَبْدُ وَكَلَّمْنَا لَكَ عِبْدٌ . اللّٰهُمَّ لَا مَانِعَ لِمَا اَعْطَيْتَ وَلَا مُعْطِيٍّ لِمَا مَنَعْتَ وَلَا يَنْفَعُ ذَا الْجَدِّ مِنْكَ الْجَدُ » ^(١) وهذه الآية كقوله تبارك وتعالى : ﴿ وَاِنْ يَمْسَسْكَ اللّٰهُ بِضُرٍّ فَلَا كَآفٍ لّٰهُ اِلَّا هُوَ وَلَآ اِلٰهَ يَرْۢدُكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَادَّ لِفَضْلِهِۦ ۝۱﴾ . ولها نظائر كثيرة . وقال الإمام مالك رحمه الله عليه : كان أبو هريرة ؓ إذا مطروا يقول : مطرنا بئو الفتح ثم يقرأ هذه الآية : ﴿ مَا يَفْتَحُ اللّٰهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكُ فَلَا مُرْسِلَ لَّهُ مِنْۢ بَعْدِهِۦ وَهُوَ الْعَزِيۡزُ الْحَكِيۡمُ ۝۲﴾ .

﴿ يٰۤاَيُّهَا النَّاسُ اذْكُرُوۡا اللّٰهَ عَلَيۡكُمْ هَدٰى مِنْ خَلْقٍ غَيْرِ اللّٰهِ يَزۡرُقُكُم مِّنَ السَّمَآءِ وَالْاَرْضِ لَا اِلٰهَ اِلَّا هُوَ فَآفَ تُوۡفَكُوۡنَ ۝۳﴾ .

ينبه تعالى عباده ويرشدهم إلى الاستدلال على توحيده في إفراد العبادة له . كما أنه المستقل بالخلق والرزق ، فكذلك فليفرد بالعبادة ، ولا يشرك به غيره من الأصنام والأنداد والأوثان . ولهذا قال تعالى : ﴿ لَا اِلٰهَ اِلَّا هُوَ فَآفَ تُوۡفَكُوۡنَ ۝۳﴾ أي : فكيف توفكون بعد هذا البيان ، ووضوح هذا البرهان ، وأنتم بعد هذا تعبدون الأنداد والأوثان ، والله أعلم .

﴿ وَإِنْ يَكْذِبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ ﴾ ﴿ يَأْتِيهَا النَّاسُ إِن وَعَدَ اللَّهُ حَقًّا فَلَا تَعْرِضُكُمُ الْحَيَوةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرُّكُمُ بِاللَّهِ الْغُرُورُ ﴾ ﴿ إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُودٌ فَاجْهَدُوهُ عَدُوًّا إِنَّمَا يَدْعُوا حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ ﴾ .
يقول تبارك وتعالى : وإن يكذبوك يا محمد هؤلاء المشركين بالله ، ويخالفوك فيما جنتهم به من التوحيد فلك فيمن سلف قبلك من الرسل أسوة ، فإنهم كذلك جاؤوا قومهم بالبينات وأمروهم بالتوحيد فكذبوهم وخالفوهم . ﴿ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ ﴾ أي : وسنجزئهم على ذلك أوفر الجزاء . ثم قال تعالى : ﴿ يَأْتِيهَا النَّاسُ إِن وَعَدَ اللَّهُ حَقًّا ﴾ أي : المعاد كائن لا محالة . ﴿ فَلَا تَعْرِضُكُمُ الْحَيَوةُ الدُّنْيَا ﴾ أي : العيشة الدنيئة بالنسبة إلى ما أعد الله لأوليائه وأتباع رسله من الخير العظيم ، فلا تتلهوا عن ذلك الباقي بهذه الزهرة الفانية . ﴿ وَلَا يَغُرُّكُمُ بِاللَّهِ الْغُرُورُ ﴾ وهو الشيطان ؛ قاله ابن عباس رضي الله عنه : أي : لا يفتنكم الشيطان ويصرفكم عن اتباع رسل الله وتصديق كلماته ، فإنه غرار كذاب أفك ، وهذه الآية كالأية التي في آخر لقمان . ﴿ فَلَا تَعْرِضُكُمُ الْحَيَوةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرُّكُمُ بِاللَّهِ الْغُرُورُ ﴾ . وقال زيد بن أسلم : هو الشيطان . كما قال المؤمنون للمنافقين يوم القيامة حين يضرب ﴿ يَتَّبِعُهُمُ بَاسٌ بِالْحَيْثُ فِيهِ الرِّجْمَةُ وَظُهُرُهُمْ مِّن قِبَلِهِ الْعَذَابُ ﴾ ﴿ يَتَادُونَهُمْ أَلَمْ نَكُنْ مَعَكُمْ قَالُوا بَلَىٰ وَلَكِنَّكُمْ فَتَنْتُمْ أَنْفُسَكُمْ وَتَقَبَّلْنَ مِنَّا بِغَضَبِكُمْ وَتَعَزَّيْنَنَا حَتَّىٰ جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ وَعَزَّيْكُمُ بِاللَّهِ الْغُرُورُ ﴾ . ثم بين تعالى عداوة إبليس لابن آدم فقال : ﴿ إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُودٌ فَاجْهَدُوهُ عَدُوًّا ﴾ أي : هو مبارز لكم بالعداوة فعادوه أنتم أشد العداوة ، وخالفوه وكذبوه فيما يغركم به . ﴿ إِنَّمَا يَدْعُوا حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ ﴾ أي : إنما يقصد أن يضللكم حتى تدخلوا معه إلى عذاب السعير ، فهذا هو العدو المبين نسأل الله القوي العزيز أن يجعلنا أعداء الشيطان ، وأن يرزقنا اتباع كتاب الله ، والافتقار بطريق رسوله ، إنه على ما يشاء قدير وبالإجابة جدير .

﴿ الَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴾ ﴿ أَمَنَ زَيْنَ لِمُ سُوِّ عَلَيْهِ فَرَأَاهُ حَسَنًا فَإِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ فَلَا تَذْهَبُ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسْرَتٌ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴾ .
لما ذكر تعالى أن أتباع إبليس مصيرهم إلى السعير ، ذكر بعد ذلك أن الذين كفروا لهم عذاب شديد ؛ لأنهم أطاعوا الشيطان وعصوا الرحمن ، وأن الذين آمنوا بالله ورسله ﴿ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ ﴾ . أي : لما كان منهم من ذنب ﴿ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴾ على ما عملوه من خير . ثم قال تعالى : ﴿ أَمَنَ زَيْنَ لِمُ سُوِّ عَلَيْهِ فَرَأَاهُ حَسَنًا ﴾ يعني : كالكفار والفجار يعملون أعمالاً سيئة ، وهم في ذلك يعتقدون ويحسبون أنهم يحسنون صنعا ، أي : أؤمن كان هكذا قد أضله الله ألك فيه حيلة ؟ لا حيلة لك فيه . ﴿ فَإِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ ﴾ أي : بقدره كان ذلك ﴿ فَلَا تَذْهَبُ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسْرَتٌ ﴾ أي : لا تأسف على ذلك ، فإن الله الحكيم في قدره إنما يضل من يضل ويهدي من يهدي ؛ لما له في ذلك من الحجة البالغة والعلم التام ؛ ولهذا قال تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴾ وعن عبد الله بن الديلمى قال : أتيت عبد الله بن عمرو رضي الله عنه ، وهو في حائط بالطائف يقال له : الوهط قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى خَلَقَ خَلْقَهُ فِي ظُلْمَةٍ ثُمَّ أَلْقَى عَلَيْهِمْ مِنْ نُورِهِ ، فَمَنْ أَصَابَهُ مِنْ نُورِهِ يَوْمِيذٍ فَقَدْ اهْتَدَى ، وَمَنْ أَخْطَاهُ مِنْهُ ضَلَّ ؛ فَلِذَلِكَ أَقُولُ : جَفَّ الْقَلَمُ عَلَى مَا عَلِمَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ » ^(١) .

﴿ وَاللَّهُ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيحَ فَثِيرٌ سَحَابًا فَسَقَنَهُ إِلَى بَلَدٍ مَّتَبَرٍّ فَلَمَّعِنَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا كَذَلِكَ النُّشُورُ ۝ مَن كَانَ يُرِيدُ الْعِزَّةَ فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعًا إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ وَالَّذِينَ يَمْكُرُونَ السَّيِّئَاتِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَكْرُ أُولَئِكَ هُوَ يَبُورُ ۝ وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَاجًا وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنْثَى وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِ وَمَا يُعَمَّرُ مِنْ مُعَمَّرٍ وَلَا يُنْقَصُ مِنْ عُمرِهِ إِلَّا فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ۝ .

كثيراً ما يستدل تعالى على المعاد بإحيائه الأرض بعد موتها ، كما في أول سورة الحج بنبيه عباده أن يعتبروا بهذا على ذلك ، فإن الأرض تكون ميتة هامة لا نبات فيها ، فإذا أرسل إليها السحاب تحمل الماء ، وأنزله عليها ﴿ أَمَرَّتْ وَرَبَّتْ وَأَنْبَتَتْ مِنْ كُلِّ رَوْحٍ بِهِجٍ ﴾ . كذلك الأجساد إذا أراد الله تعالى بعثها ونشورها أنزل من تحت العرش مطراً يعم الأرض جميعاً ، ونبتت الأجساد في قبورها ، كما تنبت الحبة في الأرض . ولهذا جاء في الصحيح : « كُلُّ ابْنِ آدَمَ يَتَلَى إِلَّا عَجَبَ الذَّنْبِ ، مِنْهُ خُلِقَ وَمِنْهُ يُرَكَّبُ » ^(١) . ولهذا قال تعالى : ﴿ كَذَلِكَ النُّشُورُ ﴾ وتقدم في الحج حديث أبي رزين قلت : يا رسول الله كيف يحيي الله الموتى ، وما آية ذلك في خلقه ؟ قال ﷺ : « يَا أَبَا رُزَيْنَ أَمَا مَرَرْتَ بِوَادِي قَوْمِكَ ثُمَّ جَلَّاءَ ثُمَّ مَرَرْتَ بِهِ يَهْتَرُ خَضِرًا ؟ » قلت : بلى ، قال ﷺ : « فَكَذَلِكَ يُحْيِي اللَّهُ الْمَوْتَى » ^(٢) . وقوله تعالى : ﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ الْعِزَّةَ فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعًا ﴾ . أي : من كان يحب أن يكون عزيزاً في الدنيا والآخرة ، فليلزم طاعة الله تعالى ، فإنه يحصل له مقصوده ؛ لأن الله تعالى مالك الدنيا والآخرة وله العزة جميعاً . قال تعالى : ﴿ وَلَا تَحْزَنْكَ قَوْلُهُمْ إِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا ﴾ . قال مجاهد : ﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ الْعِزَّةَ ﴾ بعبادة الأوثان ﴿ فَإِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا ﴾ وقال قتادة : ﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ الْعِزَّةَ فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعًا ﴾ أي : فليتعزز بطاعة الله ﷻ . وقيل : من كان يريد علم العزة لمن هي ﴿ فَإِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا ﴾ .

وقوله تبارك وتعالى : ﴿ إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ ﴾ يعني : الذكر والتلاوة والدعاء ؛ قاله غير واحد من السلف ، وعن المخارق بن سليم قال : قال لنا عبد الله هو ابن مسعود ﷺ : إذا حدثناكم بحديث أتيناكم بتصديق ذلك من كتاب الله تعالى ، إن العبد المسلم إذا قال : سبحان الله وبحمده والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر تبارك الله . أخذهن ملك فجعلهن تحت جناحه ، ثم صعد بهن إلى السماء فلا يمر بهن على جمع من الملائكة إلا استغفروا لقائلهن حتى يجيء بهن وجه الله ﷻ . ثم قرأ عبد الله ﷺ : ﴿ إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ ﴾ ^(٣) وعن النعمان بن بشير ﷺ قال : قال رسول الله ﷺ : « الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ مِنْ جَلَالِ اللَّهِ مِنْ تَسْبِيحِهِ وَتَكْبِيرِهِ وَتَهْلِيلِهِ يَتَعَاطَفْنَ حَوْلَ الْعَرْشِ لَهُمْ دَوِيٌّ كَدَوِيٌّ التَّحَلُّلِ يَذْكُرُونَ بِصَاحِبِهِمْ ، أَلَا يُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ لَا يَزَالَ لَهُ عِنْدَ اللَّهِ شَيْءٌ يَذْكُرُ بِهِ » ^(٤) .

وقوله تعالى : ﴿ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ ﴾ قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس ﷺ : الكلم الطيب ذكر الله تعالى يصعد به إلى الله ﷻ ، والعمل الصالح أداء الفريضة . فمن ذكر الله تعالى في أداء فرائضه حمل عمله ذكر الله تعالى يصعد به إلى الله ﷻ . ومن ذكر الله تعالى ولم يؤد فرائضه رد كلامه على عمله فكان أولى به . وكذا قال مجاهد : العمل الصالح يرفع الكلام الطيب . وقال إياس

(٢) أخرجه الإمام أحمد في مسنده (١٢/٤) .

(١) أخرجه الإمام أحمد في مسنده (٤٢٨/٢) .

(٤) أخرجه الإمام أحمد في مسنده (٢٦٨/٤) .

(٣) ذكره ابن جرير الطبري في تفسيره (١٤٤/٢٢) .

ابن معاوية القاضي : لولا العمل الصالح لم يرفع الكلام . وقال الحسن وقتادة : لا يقبل قول إلا بعمل .
وقوله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ يَنْتَكِرُونَ الصَّغِيرَاتِ ﴾ قال مجاهد وسعيد بن جبير وشهر بن حوشب : هم
المراؤون بأعمالهم ، يعني : يمتكرون بالناس يوهمون أنهم في طاعة الله تعالى وهم بغضاء إلى الله ﷻ
يراؤون بأعمالهم ﴿ وَلَا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ . وقال عبد الرحمن بن زيد : هم المشركون ، والصحيح
أنها عامة والمشركون داخلون بطريق الأولى . ولهذا قال تعالى : ﴿ لَمْ تَكُنْ لَهُمْ مَكْرًا وَلَا يُدْرِكُهُمْ الْيَوْمَ ﴾
أي : يفسد ويبطل ويظهر زيفهم عن قريب لأولي البصائر والنهي ، فإنه ما أسر أحد سريرة إلا أبداها الله
تعالى على صفحات وجهه وفتلت لسانه ، وما أسر أحد سريرة إلا كساه الله تعالى رداءها إن خيرا فخير
وإن شرا فشر ، فالمرائي لا يروج أمره ويستمر إلا على غبي ، أما المؤمنون المتفرسون فلا يروج ذلك عليهم ،
بل ينكشف لهم عن قريب وعالم الغيب لا تخفى عليه خافية . وقوله تبارك وتعالى : ﴿ وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ مِنْ
تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُفُثٍ ﴾ أي : ابتداء خلق أيكم آدم من تراب ثم جعل نسله من سلالة من ماء مهين ﴿ ثُمَّ
جَعَلَكُمْ أَزْوَاجًا ﴾ أي : ذكرا وأنثى لطفًا منه ورحمة أن جعل لكم أزواجًا من جنسكم لتسكنوا إليها . وقوله
﴿ وَمَا تَحْدِثُ مِنْ أَنْثَى وَلَا نَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِ ﴾ أي : هو عالم بذلك لا يخفى عليه من ذلك شيء ، بل
﴿ وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٌ فِي ظُلُمَاتٍ الْأَرْضِ وَلَا رَكْبٌ وَلَا يَابِسٌ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ ﴾ .
وقوله ﷻ : ﴿ وَمَا يَعْمُرُ مِنْ مُعَمَّرٍ وَلَا يُنْقُصُ مِنْ عُمرِهِ إِلَّا فِي كِتَابٍ ﴾ أي : ما يعطي بعض النطف من
العمر الطويل يعلمه وهو عنده في الكتاب الأول . ﴿ وَلَا يُنْقُصُ مِنْ عُمرِهِ ﴾ الضمير عائد على الجنس
لا على العين ؛ لأن الطويل العمر في الكتاب وفي علم الله تعالى لا ينقص من عمره وإنما عاد الضمير
على الجنس . قال ابن جرير : وهذا كقولهم عندي ثوب ونصفه أي ونصف ثوب آخر . عن ابن
عباس في قوله تعالى : ﴿ وَمَا يَعْمُرُ مِنْ مُعَمَّرٍ وَلَا يُنْقُصُ مِنْ عُمرِهِ إِلَّا فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴾ يقول :
ليس أحد قضيت له بطول العمر والحياة إلا وهو بالغ ما قدرت له من العمر ، وقد قضيت ذلك له فلما
ينتهي إلى الكتاب الذي قدرت لا يزداد عليه ، وليس أحد قدرت له أنه قصير العمر والحياة يبلغ
العمر ، ولكن ينتهي إلى الكتاب الذي كتبت له فذلك قوله تعالى : ﴿ وَلَا يُنْقُصُ مِنْ عُمرِهِ إِلَّا فِي كِتَابٍ
إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴾ . يقول : كل ذلك في كتاب عنده . وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم عن
أبيه ﴿ وَلَا يُنْقُصُ مِنْ عُمرِهِ إِلَّا فِي كِتَابٍ ﴾ قال : ما لفظت الأرحام من الأولاد من غير تمام ، وقال عبد
الرحمن في تفسيرها : ألا ترى الناس يعيش الإنسان مائة سنة ، وآخر يموت حين يولد فهذا هذا .
وقال قتادة : والذي ينقص من عمره فالذي يموت قبل ستين سنة . وقال مجاهد : ﴿ وَمَا يَعْمُرُ مِنْ
مُعَمَّرٍ وَلَا يُنْقُصُ مِنْ عُمرِهِ إِلَّا فِي كِتَابٍ ﴾ أي : في بطن أمه يكتب له ذلك . لم يخلق الخلق على عمر
واحد ، بل لهذا عمر ولهذا عمر هو أنقص من عمره ، فكل ذلك مكتوب لصاحبه بالغ ما بلغ . وقال
بعضهم : بل معناه ﴿ وَمَا يَعْمُرُ مِنْ مُعَمَّرٍ ﴾ أي : ما يكتب من الأجل . ﴿ وَلَا يُنْقُصُ مِنْ عُمرِهِ ﴾ وهو
ذهابه قليلا قليلا ، الجميع معلوم عند الله تعالى سنة بعد سنة وشهرا بعد شهر ، وجمعه بعد جمعة ،
ويوما بعد يوم ، وساعة بعد ساعة . الجميع مكتوب عند الله تعالى في كتابه ^(١) . واختار ابن جرير

(١) ذكره الطبري في تفسيره (١٤٦/٢٢ ، ١٤٧) .

الأول ، وهو كما قال ، وقال النسائي عند تفسير هذه الآية الكريمة : عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « مَنْ سَرَّهُ أَنْ يُسْطَلَ لَهُ فِي رِزْقِهِ وَيُنْسَأَ لَهُ فِي أَثَرِهِ فَلْيَصِلْ رَحْمَةً » ^(١) . وقوله ﷻ : ﴿ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴾ أي : سهل عليه يسير لديه علمه بذلك وبتفصيله في جميع مخلوقاته ، فإن علمه شامل للجميع لا يخفى عليه شيء منها .

﴿ وَمَا يَسْتَوِي الْبَحْرَانِ هَذَا عَذَبٌ فُرَاتٌ سَائِغٌ شَرَابُهُ وَهَذَا يَمْلَحُ أجاجٌ وَمِنْ كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ حَبْلَةً تَلْبَسُونَهَا وَنَرَى الْفَلَكَ فِيهِ مَوَازِيرَ لِتَنْبِذُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ .

يقول تعالى منبها على قدرته العظيمة في خلقه الأشياء المختلفة خلق البحرين العذب الزلال ، وهو هذه الأنهار السارحة بين الناس من كبار وصغار بحسب الحاجة إليها في الأقاليم والأمصار ، والعمران والبراري والقفار ، وهي عذبة سائغ شرابها لمن أراد ذلك . ﴿ وَهَذَا يَمْلَحُ أجاجٌ ﴾ أي : مر وهو البحر الساكن الذي تسير فيه السفن الكبار ، وإنما تكون مالحة زعاقا مرة ، ثم قال تعالى : ﴿ وَمِنْ كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا ﴾ يعني : السمك ﴿ وَتَسْتَخْرِجُونَ حَبْلَةً تَلْبَسُونَهَا ﴾ كما قال ﷻ : ﴿ يَخْرُجُ مِنْهَا الْوَلَدُ وَالْمَرْثَا ۚ فَإِنِّي آتٍ بَرَكَاتٍ لَكُمْ كَذِبَانِ ﴾ . وقوله جل وعلا : ﴿ وَنَرَى الْفَلَكَ فِيهِ مَوَازِيرَ ﴾ أي : تمخره وتشقه بحيزومها وهو مقدمها المسنم الذي يشبه جَوْجُو الطير وهو صدره . وقال مجاهد : تمخر الريح السفن ولا يمحّر الريح من السفن إلا العظام . وقوله جل وعلا : ﴿ لِتَنْبِذُوا مِنْ فَضْلِهِ ﴾ أي : بأسفاركم بالتجارة من قطر إلى قطر وإقليم إلى إقليم ﴿ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ أي : تشكرون ربكم على تسخيره لكم هذا الخلق العظيم ، وهو البحر ، تتصرفون فيه كيف شئتم ، وتذهبون أين أردتم ، ولا يمتنع عليكم شيء منه ، بل بقدرته قد سخر لكم ما في السماوات وما في الأرض ، من فضله ورحمته . ﴿ يُؤْتِي الْبَلَدَ فِي النَّهَارِ وَيُؤْتِي النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُسَمًّى ذَلِكَ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِنْ قِطْمِيرٍ ۚ إِن تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ وَيَوْمَ الْقِيَمَةِ يَكْفُرُونَ بَشْرِكِكُمْ ۖ وَلَا يَبْتَئِكَ مِنْ خَيْرٍ ﴾ .

وهذا أيضا من قدرته التامة وسلطاناه العظيم في تسخير الليل بظلامه والنهار بضياؤه ، ويأخذ من طول هذا فيزيده في قصر هذا فيعتلان ، ثم يأخذ من هذا في هذا فيطول هذا ويقصر هذا . ثم يتقارضان صيفا وشتاء ﴿ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ ﴾ أي : والنجوم السيارات ، والثوابث الثاقبات بأضوائهن أجرام السماوات ، الجميع يسرون بمقدار معين ، وعلى منهاج مقتن محرر ، تقديرا من عزيز عليم . ﴿ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُسَمًّى ﴾ أي : إلى يوم القيامة ﴿ ذَلِكَ اللَّهُ رَبُّكُمْ ﴾ أي : الذي فعل هذا هو الرب العظيم الذي لا إله غيره . ﴿ وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ ﴾ أي : من الأصنام والأنداد التي هي على صورة من تزعمون من الملائكة المقربين . ﴿ مَا يَمْلِكُونَ مِنْ قِطْمِيرٍ ﴾ قال ابن عباس رضي الله عنه ومجاهد وعكرمة وغيرهم : القطمير هو اللقافة التي تكون على نواة التمرة أي : لا يملكون من السماوات والأرض شيئا ولا بمقدار هذا القطمير . ثم قال تعالى : ﴿ إِن تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ ۖ يَعْنِي : الآلهة التي تدعونها من دون الله لا تسمع دعاءكم ؛ لأنها جماد لا أرواح فيها . ﴿ وَلَوْ سَمِعُوا مَا

أَسْتَجَابُوا لَكَ ﴿١﴾ أي : لا يقدرُونَ على شيء مما تطلبون منها . ﴿ وَيَوْمَ الْقِيَمَةِ يَكْفُرُونَ بَشِرِكُمْ ﴾ أي : يتبرؤون منكم . كما قال تعالى : ﴿ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ مَنْ لَا يَسْتَجِيبُ لَهُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ وَهُمْ عَنْ دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ ﴾ ١ وَإِذَا حُيِّرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً وَكَانُوا بِسَادَتِهِمْ كَافِرِينَ ﴿ . وقوله تعالى : ﴿ وَلَا يَنْتَفِكُ عَنْ يَدَيْكَ ﴾ أي : ولا يخبرك بعواقب الأمور ومآلها وما تصير إليه مثل خبير بها . قال قتادة : يعني نفسه تبارك وتعالى ، فإنه أخبر بالواقع لا محالة .

﴿ يَأْتِيهَا النَّاسُ أَنتَهُ الْفَرَادَ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ ﴾ ٢ إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿٣﴾ وَمَا ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ ﴿٤﴾ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ﴿٥﴾ وَإِنْ تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَىٰ جِوْهَا لَا يَحْمِلُ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ ﴿٦﴾ إِنَّمَا نُنَادِيُ الَّذِينَ يُجَاهِدُونَ رَهْمَ بِالْغَيْبِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَمَنْ تَرَكَنَّ فَإِنَّمَا يَتَرَكَ لِنَفْسِهِ . وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ ﴿٧﴾ . يخبر تعالى بغناؤه عما سواه وبافتقار المخلوقات كلها إليه وتذللها بين يديه ، فقال تعالى : ﴿ يَأْتِيهَا النَّاسُ أَنتَهُ الْفَرَادَ إِلَى اللَّهِ ﴾ أي : هم محتاجون إليه في جميع الحركات والسكنات ، وهو تعالى الغني عنهم بالذات ؛ ولهذا قال ﷻ : ﴿ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ ﴾ أي : هو المنفرد بالغنى وحده لا شريك له وهو الحميد في جميع ما يفعله ويقوله ويقدره ويشعره ، وقوله تعالى : ﴿ إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ﴾ أي : لو شاء لأذهبكم أيها الناس وأتى بقوم غيركم ، وما هذا عليه بصعب ، ولا ممتنع ؛ ولهذا قال تعالى : ﴿ وَمَا ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ ﴾ . وقوله تعالى : ﴿ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ﴾ أي : يوم القيامة ﴿ وَإِنْ تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَىٰ جِوْهَا ﴾ أي : وإن تدع نفس مثقلة بأوزارها إلى أن تساعد على حمل ما عليها من الأوزار أو بعضه ﴿ لَا يَحْمِلُ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ ﴾ أي : وإن كان قريباً إليها حتى ولو كان أبها أو ابنها ، كل مشغول بنفسه وحاله ، قال عكرمة في قوله تعالى : ﴿ وَإِنْ تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَىٰ جِوْهَا ﴾ الآية : هو الجار يتعلق بجاره يوم القيامة فيقول : يا رب سل هذا لم كان يغلق بابه دوني ، وإن الكافر ليتعلق بالمؤمن يوم القيامة فيقول : يا مؤمن إن لي عندك يداً ، قد عرفت كيف كنت لك في الدنيا وقد احتجت إليك اليوم ، فلا يزال المؤمن يشفع له عند ربه حتى يرده إلى منزل دون منزله وهو في النار ، وإن الوالد ليتعلق بولده يوم القيامة فيقول : يا بني أي والد كنت لك ؟ فتسني خيراً فيقول له : يا بني إني قد احتجت إلى مثقال ذرة من حسناتك أنجو بها مما ترى . فيقول له ولده : يا أبت ما أيسر ما طلبت ولكني أتخوف مثل ما تتخوف ، فلا أستطيع أن أعطيك شيئاً ، ثم يتعلق بزوجه فيقول : يا فلانة ، أو يا هذه أي زوج كنت لك ؟ فتسني خيراً فيقول لها : إني أطلب إليك حسنة واحدة تهيبها لي لعلني أنجو بها مما ترين ، قال : فتقول : ما أيسر ما طلبت ولكني لا أطيق أن أعطيك شيئاً إني أتخوف مثل الذي تتخوف ، يقول الله تعالى : ﴿ وَإِنْ تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَىٰ جِوْهَا ﴾ الآية . ويقول تبارك وتعالى : ﴿ لَا يَجْزِي وَالِدٌ عَنْ وَلَدِهِ وَلَا مَوْلَىٰ هُوَ جَارٌ عَنْ وَلَدِهِ شَيْئاً ﴾ . ثم قال تبارك وتعالى : ﴿ إِنَّمَا نُنَادِيُ الَّذِينَ يُجَاهِدُونَ رَهْمَ بِالْغَيْبِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ ﴾ أي : إنما يتغبط بما جئت به أولو البصائر والنهي ، الخائفون من ربهم الفاعلون ما أمرهم به . ﴿ وَمَنْ تَرَكَنَّ فَإِنَّمَا يَتَرَكَ لِنَفْسِهِ ﴾ أي : ومن عمل صالحاً ، فإنما يعود نفعه على نفسه ﴿ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ ﴾ أي : واليه المرجع والمآب وهو سريع الحساب . وسيجزي كل عامل بعمله إن خيراً فخير ، وإن شراً فشر . ﴿ وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ ﴾ ٨ وَلَا الظُّلُمَتُ وَلَا النُّورُ ﴿٩﴾ وَلَا الظِّلُّ وَلَا الْحَرُورُ ﴿١٠﴾ وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَلَا

الْأَمْوَاتِ إِنَّ اللَّهَ يُسْمِعُ مَن يُشَاءُ وَمَا أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِي الْقُبُورِ ﴿٣٠﴾ إِنَّ أَنتَ إِلَّا نَذِيرٌ ﴿٣١﴾ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَإِن مِّن أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ ﴿٣٢﴾ وَلَئِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ ﴿٣٣﴾ وَإِلَّا كَتَبَ الْغَنِيُّ ﴿٣٤﴾ ثُمَّ أَخَذْتُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿٣٥﴾

يقول تعالى كما لا تستوي هذه الأشياء المتباينة المختلفة كالأعمى والبصير لا يستويان بل بينهما فرق وبون كثير ، وكما لا تستوي الظلمات ولا النور ولا الظل ولا الحرور ، كذلك لا تستوي الأحياء ولا الأموات ، وهذا مثل ضربه الله تعالى للمؤمنين - وهم الأحياء - وللكافرين - وهم الأموات - كقوله تعالى : ﴿ أَوْ مَن كَانَ مَيِّتًا فَأُحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّارِ كَذَلِكَ يَسْمُكَ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِمَخْرُجٍ مِنْهَا ﴾ . فالؤمن بصير سميع في نور يمشي على صراط مستقيم في الدنيا والآخرة حتى يستقر به الحال في الجنات ذات الظلال والعيون ، والكافر أعمى وأصم في ظلمات يمشي لا خروج له منها ، بل هو يتيه في غيه وضلاله في الدنيا والآخرة حتى يفضي له ذلك إلى الحرور والسموم والحميم ، وظل من يحموم لا بارد ولا كريم .

وقوله تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَسْمِعُ مَنْ يَشَاءُ ﴾ أي : يهديهم إلى سماع الحجة وقبولها والانقياد لها .
﴿ وَمَا أَنْتَ بِمُسْمِعٍ مَنْ فِي الْقُبُورِ ﴾ أي : كما لا يتفجع الأموات بعد موتهم وصيرورتهم إلى قبورهم ،
وهم كفار بالهداية والدعوة إليها ، كذلك هؤلاء المشركون الذين كتب عليهم الشقاوة لا حيلة لك
فيهم ولا تستطيع هدايتهم . ﴿ إِنَّ أَنْتَ إِلَّا نَذِيرٌ ﴾ أي : إنما عليك البلاغ والإنذار والله يضل من يشاء
ويهدي من يشاء . ﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا ﴾ أي : بشيرًا للمؤمنين ونذيرًا للكافرين .
﴿ وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ ﴾ أي : وما من أمة خلت من بني آدم إلا وقد بعث الله تعالى إليهم
النذر وأزاح عنهم العلل . كما قال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنْ تَعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا
الطَّاغُوتَ فَمِنْهُمْ مَنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُمْ مَنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ ﴾ الآية . وقوله تبارك تعالى : ﴿ وَإِنْ
يَكْذِبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ ﴾ وهي المعجزات الباهرات والأدلة
القاطعات . ﴿ وَبِالْزُّبُرِ ﴾ وهي : الكتب ﴿ وَبِالْكِتَابِ الْمُنِيرِ ﴾ أي : الواضح البين ﴿ ثُمَّ أَخَذْتُ الَّذِينَ
كَفَرُوا ﴾ أي : ومع هذا كله كذب أولئك رسولهم فيما جاؤوهم به فأخذتهم أي : بالعقاب
والنكال . ﴿ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴾ أي : فكيف رأيت إنكارهم عليهم عظيمًا شديدًا بليغًا والله أعلم .
﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بَيضٌ وَحُمْرٌ مُخْتَلِفٌ
أَلْوَانُهَا وَغَرِيظٌ سُودٌ ۝ وَمِنَ النَّاسِ وَالْأَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ كَذَلِكَ ۚ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ
الْمُتَّقُونَ ۚ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ ۝ ﴾ .

يقول تعالى منبهاً على كمال قدرته في خلقه الأشياء المتنوعة المختلفة من الشيء الواحد وهو الماء الذي نزل من السماء ، يخرج به ثمرات مختلفاً ألوانها من أصفر وأحمر وأخضر وأبيض ، إلى غير ذلك من ألوان الثمار ، كما هو المشاهد من تنوع ألوانها وطعومها وروائحها . كما قال تعالى في الآية الأخرى : ﴿ وَفِي الْأَرْضِ قُطْعٌ مُتَجَاوِرَاتٌ وَجِئَتْ مِنْ غَشَبٍ ذَكَرَ الْكِتَابَ وَبَيْنَهُ أَرْبَابُ الْقُرُبَىٰ وَالْحُكْمَ وَالْكَرَمَ وَالْحِلَّ وَالْحِلْمَ وَالْجَبَالَ جُدَدٌ بَضُّ

وَحُمْرٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ ﴿٢٧﴾ أي : وخلق الجبال كذلك مختلفة الألوان ، كما هو المشاهد أيضًا من بيض وحمرة ، وفي بعضها طرائق وهي الجدد جمع جدة مختلفة الألوان أيضًا . قال ابن عباس : الجدد الطرائق ، وكذا قال أبو مالك والحسن وقادة والسدي . ومنها ﴿٢٨﴾ وَغَرَابِيبُ سُودٍ ﴿٢٨﴾ قال عكرمة : الغرابيب الجبال الطوال السود . وقال ابن جرير : والعرب إذا وصفوا الأسود قالوا : أسود غريب . ولهذا قال بعض المفسرين في هذه الآية : هذا من المقدم والمؤخر في قوله تعالى : ﴿٢٩﴾ وَغَرَابِيبُ سُودٍ ﴿٢٩﴾ أي : سود غريب وفيما قاله نظر . وقوله تعالى : ﴿٣٠﴾ وَمِنَ النَّاسِ وَالْأَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ كَذَلِكَ ﴿٣٠﴾ أي : كذلك الحيوانات من الأناسي والدواب وهو كل ما دب على القوائم ، والأنعام من باب عطف الخاص على العام ، كذلك هي مختلفة أيضًا ، فالناس منهم بربر وحوش وطماطم في غاية السواد ، وصقالبة وروم في غاية البياض ، والعرب بين ذلك والهنود دون ذلك ، ولهذا قال تعالى في الآية الأخرى : ﴿٣١﴾ وَخَلَقْنَا أَلْوَانَكُمْ وَأَلْوَانُكُمْ أَنفُسُكُمْ وَأَلْوَانُكُمْ لَكُمْ لَعَلَّيْكُمْ ﴿٣١﴾ . وكذلك الدواب والأنعام مختلفة الألوان حتى في الجنس الواحد ، بل النوع الواحد منهم مختلف الألوان ، بل الحيوان الواحد يكون أبلق فيه من هذا اللون وهذا اللون ، فتبارك الله أحسن الخالقين . وعن ابن عباس رضي الله عنه قال : جاء رجل إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال : أيصبغ ربك ، قال صلى الله عليه وسلم : « نَعَمْ صَبِغًا لَا يُنْقَضُ ، أَحْمَرُ وَأَصْفَرُ وَأَبْيَضُ » ^(١) . ولهذا قال تعالى بعد هذا : ﴿٣٢﴾ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ ﴿٣٢﴾ أي إنما يخشاه حق خشيته العلماء العارفون به ؛ لأنه كلما كانت المعرفة للتعظيم التقدير العليم الموصوف بصفات الكمال المنعوت بالأسماء الحسنى ، كلما كانت المعرفة به أتم والعلم به أكمل كانت الخشية له أعظم وأكثر .

عن ابن عباس في قوله تعالى : ﴿٣٣﴾ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ ﴿٣٣﴾ قال ابن عباس : الذين يعلمون أن الله على كل شيء قدير . وقال عكرمة عن ابن عباس : العالم بالرحمن من عباده من لم يشرك شيئًا ، وأحل حلاله ، وحرم حرامه ، وحفظ وصيته ، وأيقن أنه ملاقيه ومحاسب بعمله . وقال سعيد بن جبیر : الخشية : هي التي تحول بينك وبين معصية الله تعالى . وقال الحسن البصري : العالم من خشي الرحمن بالغيب ورغب فيما رغب الله فيه ، وزهد فيما سخط الله فيه . ثم تلا الحسن : ﴿٣٤﴾ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ ﴿٣٤﴾ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ ﴿٣٥﴾ . وعن ابن مسعود رضي الله عنه أنه قال : ليس العلم عن كثرة الحديث ولكن العلم عن كثرة الخشية . وعن ابن وهب عن مالك قال : إن العلم ليس بكثرة الرواية ، وإنما العلم نور يجعله الله في القلب . قال أحمد بن صالح المصري : معناه أن الخشية لا تدرك بكثرة الرواية ، وإنما العلم الذي فرض الله تعالى أن يتبع ؛ فإنما هو الكتاب والسنة ، وما جاء عن الصحابة رضي الله عنهم ومن بعدهم من أئمة المسلمين . فهذا لا يدرك إلا بالرواية ، ويكون تأويل قوله : نور يريد به فهم العلم ومعرفة معانيه . وقال أبو حيان التميمي عن رجل قال : كان يقال : العلماء ثلاثة ؛ عالم بالله عالم بأمر الله ، وعالم بالله ليس بعالم بأمر الله ، وعالم بالله ليس بعالم بالله ، فالعالم بالله وبأمر الله الذي يخشى الله تعالى ، ويعلم الحدود والفرائض ، والعالم بالله ليس بعالم بأمر الله : الذي يخشى الله ولا يعلم الحدود والفرائض ، والعالم بأمر الله ليس بعالم بالله الذي يعلم الحدود والفرائض ولا يخشى الله تعالى .

(١) ذكره الهيثمي في مجمع الزوائد (١٢٨/٥) .

﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَارَةً لَّنْ تَكْبُرَ ۚ لِيُؤْفِقَهُمْ أَجْرَهُمْ وَبَرِّبَهُمْ مِن فَضْلِهِ إِنَّهُ غَفُورٌ شَكُورٌ ۝ ﴾ .

يخير تعالى عن عباده المؤمنين الذين يتلون كتابه ويؤمنون به ويعملون بما فيه من إقام الصلاة والإنفاق مما رزقهم الله تعالى في الأوقات المشروعة ليلاً ونهاراً سرّاً وعلانية ، ﴿ يَرْجُونَ تِجَارَةً لَّنْ تَكْبُرَ ۚ ﴾ أي : يرجون ثواباً عند الله لا بد من حصوله ، كما قدمنا في أول التفسير عند فضائل القرآن أنه يقول لصاحبه : إن كل تاجر من وراء تجارته وإنك اليوم من وراء كل تجارة ، ولهذا قال تعالى : ﴿ لِيُؤْفِقَهُمْ أَجْرَهُمْ وَبَرِّبَهُمْ مِن فَضْلِهِ ﴾ أي : ليوفيهم ثواب ما عملوه ويضاعفه لهم بزيادات لم تخطر لهم ﴿ إِنَّهُ غَفُورٌ ﴾ أي : لذنوبهم ﴿ شَكُورٌ ﴾ للقليل من أعمالهم . قال قتادة : كان مطرف رضي الله عنه إذا قرأ هذه الآية يقول : هذه آية القراء . وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال : إنه سمع رسول الله ﷺ يقول : « إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى إِذَا رَضِيَ عَنِ الْعَبْدِ أَتَى عَلَيْهِ بِسَبْعَةِ أَصْنَافٍ مِنَ الْخَيْرِ لَمْ يَعْمَلْهُ ، وَإِذَا سَخَطَ عَلَى الْعَبْدِ أَتَى عَلَيْهِ بِسَبْعَةِ أَصْنَافٍ مِنَ الشَّرِّ لَمْ يَفْعَلْهُ » ^(١) .

﴿ وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ هُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ إِنَّ اللَّهَ بِعِبَادِهِ لَخَبِيرٌ بَصِيرٌ ۝ ﴾ .
يقول تعالى : ﴿ وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ ﴾ يا محمد من الكتاب ؛ وهو القرآن ﴿ هُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ ﴾ أي : من الكتب المتقدمة يصدقها كما شهدت هي له بالتنويه وأنه منزل من رب العالمين . ﴿ إِنَّ اللَّهَ بِعِبَادِهِ لَخَبِيرٌ بَصِيرٌ ﴾ أي : هو خير بهم بصير بمن يستحق ما يفضل به على من سواه ؛ ولهذا فضل الأنبياء والرسل على جميع البشر ، وفضل النبيين بعضهم على بعض ، ورفع بعضهم درجات . وجعل منزلة محمد ﷺ فوق جميعهم صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين .
﴿ ثُمَّ أَرْسَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ الَّذِي نَصَّحْنَاكَ بِهِ فَنِهَضْتَ عَلَى نَفْسِكَ وَلَمْ تُؤْمَرْ أَنْ تَنصَحَ لِنَفْسِكَ إِنَّكَ أَنْتَ الْحَكِيمُ ۝ ﴾
يقول تعالى : ثم جعلنا القارئ بالكتاب العظيم المصدق لما بين يديه من الكتب الذين اصطفينا من عبادنا وهم هذه الأمة ، ثم قسمهم إلى ثلاثة أنواع ، فقال تعالى : ﴿ فَنِهَضْتَ عَلَى نَفْسِكَ ﴾ وهو المفرط في فعل بعض الواجبات المرتكب لبعض المحرمات ﴿ وَنَهَضْتَ عَلَى نَفْسِكَ ﴾ وهو المؤدي للواجبات التارك للمحرمات ، وقد يترك بعض المستحبات ويفعل بعض المكروهات . ﴿ وَنَهَضْتَ عَلَى نَفْسِكَ بِالْخَيْرِ ﴾ بإذن الله وهو الفاعل للواجبات والمستحبات ، التارك للمحرمات والمكروهات وبعض المباحات . وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس في قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ أَرْسَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ الَّذِي نَصَّحْنَاكَ بِهِ فَنِهَضْتَ عَلَى نَفْسِكَ ﴾ قال : هم أمة محمد ﷺ ورتبهم الله تعالى كل كتاب أنزله فظالمهم يغفر له ، ومقتصدهم يحاسب حساباً يسيراً ، وسابقهم يدخل الجنة بغير حساب . وعن ابن عباس عن رسول الله ﷺ أنه قال ذات يوم : « شَفَاعَتِي لِأَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ أُمَّتِي » ^(٢) . قال ابن عباس رضي الله عنه : السابق بالخيرات يدخل الجنة بغير حساب ، والمقتصد يدخل الجنة برحمة الله ، والظالم لنفسه وأصحاب الأعراف يدخلون الجنة بشفاعته محمد ﷺ . وكذا روي عن غير

(١) أخرجه الإمام أحمد في مسنده (٣٨/٣) وقال عنه ابن كثير : غريب جداً .

(٢) أخرجه الإمام أحمد في مسنده (٢١٣/٣) وأبو داود في مسنده (٤٧٣٩) والترمذي في مسنده (٢٤٣٦) والطبراني في الكبير (٢٣٢/١) .

واحد من السلف ، أن الظالم لنفسه من هذه الأمة من المصطفين على ما فيه من عوج وتقصير . وقال آخرون : بل الظالم لنفسه ليس من هذه الأمة ، ولا من المصطفين الوارثين للكتاب .

قال ابن أبي حاتم عن ابن عباس رضي الله عنه ﴿ فَيَنْهَرُ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ ﴾ قال : هو الكافر . وقال مجاهد في قوله تعالى : ﴿ فَيَنْهَرُ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ ﴾ قال : هم أصحاب المشأمة . وقال مالك عن زيد بن أسلم والحسن وقادة : هو المنافق . ثم قد قال ابن عباس والحسن وقادة : وهذه الأقسام الثلاثة كالأقسام الثلاثة المذكورة في أول سورة الواقعة وآخرها ، والصحيح أن الظالم لنفسه من هذه الأمة ، وهذا اختيار ابن جرير . كما هو ظاهر الآية . وكما جاءت به الأحاديث عن رسول الله ﷺ من طرق يشد بعضها بعضاً .

عن أبي الدرداء رضي الله عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « قال الله تعالى : ﴿ ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَيَنْهَرُ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ ، وَمِنْهُمْ مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَائِقٌ بِالْخَيْرَاتِ يُاذِنُ اللَّهُ ﴾ . فَأَمَّا الَّذِينَ سَبَقُوا فَأُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ بِغَيْرِ حِسَابٍ ، وَأَمَّا الَّذِينَ اتَّقَصَّدُوا فَأُولَئِكَ الَّذِينَ يُحَاسِبُونَ حِسَابًا يَسِيرًا ، وَأَمَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَأُولَئِكَ الَّذِينَ يُخَبِّشُونَ فِي طُولِ الْحَشْرِ ثُمَّ هُمْ الَّذِينَ تَلَفَاهُمْ اللَّهُ بِرَحْمَتِهِ فَهُمْ الَّذِينَ يَقُولُونَ : ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزْنَ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ ﴾ ﴾ الَّذِي أَلْهَنَّا دَارَ الْمَقَامَةِ مِنْ فَضْلِهِ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ ﴾ (١) .

عن أسامة بن زيد رضي الله عنه ﴿ فَيَنْهَرُ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ ، وَمِنْهُمْ مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَائِقٌ بِالْخَيْرَاتِ يُاذِنُ اللَّهُ ﴾ الآية . قال : قال رسول الله ﷺ : « كُلُّهُمْ مِنْ هَذِهِ الْأُمَّةِ » (٢) .

وعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال : إن هذه الأمة ثلاث أثلاث يوم القيامة ، ثلث يدخلون الجنة بغير حساب ، وثلث يحاسبون حساباً يسيراً ، وثلث يعجزون بذنوب عظام حتى يقول الله ﻻ إِلَهَ إِلَّا هُوَ ؟ وهو أعلم تبارك وتعالى فتقول الملائكة : هؤلاء جاؤوا بذنوب عظام إلا أنهم لم يشرکوا بك شيئاً ، فيقول الرب ﻻ إِلَهَ إِلَّا هُوَ : أَدْخَلُوا هَؤُلَاءِ فِي سَعَةِ رَحْمَتِي . وتلا عبد الله رضي الله عنه هذه الآية : ﴿ ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا ﴾ الآية .

وعن عقبة بن صهبان الهنائي قال : سألت عائشة رضي الله عنها عن قول الله تعالى : ﴿ ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَيَنْهَرُ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ ﴾ الآية . فقالت لي : يا بني هؤلاء في الجنة ، أما السابق بالخيرات فمن مضى على عهد رسول الله ﷺ شهد له رسول الله ﷺ بالحياة والرزق ، وأما المقتصد فمن اتبع أثره من أصحابه حتى لحق به ، وأما الظالم لنفسه فمثلي ومثلكم قال : فجعلت نفسها رضي الله عنها معنا وهذا منها رضي الله عنها من باب الهضم والتواضع ، وإلا فهي من أكبر السابقين بالخيرات ؛ لأن فضلها على النساء كفضل الشريد على سائر الطعام . وقال عبد الله بن المبارك رحمته الله : قال أمير المؤمنين عثمان بن عفان رضي الله عنه في قوله تبارك وتعالى : ﴿ فَيَنْهَرُ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ ﴾ قال : هي لأهل بدونا ومقتصدنا أهل حضرنا وسابقنا أهل الجهاد . فهذا ما تيسر من إيراد الأحاديث والآثار المتعلقة بهذا المقام . وإذا تقرر هذا ، فإن الآية عامة في

(١) أخرجه الإمام أحمد في مسنده (١٩٨/٥) .

(٢) أخرجه الطبراني في الكبير (١٣١/١) والهيتمي في مجمع الزوائد (٩٦/٧) .

جميع الأقسام الثلاثة في هذه الأمة ، فالعلماء أغبط الناس بهذه النعمة وأولى الناس بهذه الرحمة ، وعن قيس ابن كثير قال : قدم رجل من أهل المدينة إلى أبي الدرداء رضي الله عنه وهو بدمشق فقال : ما أقدمك أي أخي ؟ قال حديث بلغني أنك تحدث به عن رسول الله ﷺ ، قال : أما قدمت لتجارة ؟ قال : لا ، قال : أما قدمت لحاجة ، قال : لا ؟ ، قال : أما قدمت إلا في طلب هذا الحديث ؟ قال : نعم . قال ﷺ : فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول : « مَنْ سَلَكَ طَرِيقًا يَطْلُبُ فِيهَا عِلْمًا سَلَكَ اللَّهُ تَعَالَى بِهِ طَرِيقًا إِلَى الْجَنَّةِ ، وَإِنَّ الْمَلَائِكَةَ لَتَضَعُ أَجْنِحَتَهَا رِضًا لَطَالِبِ الْعِلْمِ وَإِنَّهُ لَيَسْتَعْفِرُ لِلْعَالَمِ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ حَتَّى الْحَيَاتَانِ فِي الْمَاءِ ، وَفَضَّلَ الْعَالَمَ عَلَى الْعَابِدِ كَفَضَّلَ الْقَمَرَ عَلَى سَائِرِ الْكَوَاكِبِ . إِنَّ الْعُلَمَاءَ هُمْ وَرَثَةُ الْأَنْبِيَاءِ ، وَإِنَّ الْأَنْبِيَاءَ لَمْ يُوَرِّثُوا دِينَارًا وَلَا دِرْهَمًا ، وَإِنَّمَا وَرَّثُوا الْعِلْمَ فَمَنْ أَخَذَ بِهِ أَخَذَ بِحَبْطِ وَافِرٍ » ^(١) .

وعن ثعلبة بن الحكم رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ قال : « يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى يَوْمَ الْقِيَامَةِ لِلْعُلَمَاءِ : إِنِّي لَمْ أَضَعْ عِلْمِي وَجَعَلْتِي فِيكُمْ إِلَّا وَأَنَا أُرِيدُ أَنْ أَغْفِرَ لَكُمْ عَلَى مَا كَانَ مِنْكُمْ وَلَا أَتَابِي » ^(٢) .

﴿ جَنَّتٌ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ ﴾ ﴿ وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزْنَ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ ﴾ ﴿ الَّذِي أَلْهَنَّا دَارَ الْمَقَامَةِ مِنْ فَضْلِهِ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نُصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ ﴾ .

يخبر تعالى أن هؤلاء المصطفين من عباده الذين أورشوا الكتاب المنزل من رب العالمين يوم القيامة ، مأواهم جنات عدن ، أي جنات الإقامة يدخلونها يوم معادهم وقدمهم على الله ﷻ : ﴿ يَحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا ﴾ . كما ثبت عن أبي هريرة رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ أنه قال : « تَبْلُغُ الْجَلِيلَةَ مِنَ الْمُؤْمِنِ حَيْثُ يَبْلُغُ الرُّؤُوسُ » ^(٣) . ﴿ وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ ﴾ ولهذا كان محظورًا عليهم في الدنيا فأباحه الله تعالى لهم في الآخرة ، وثبت في الصحيح أن رسول الله ﷺ : « مَنْ لَبِسَ الْحَرِيرَ فِي الدُّنْيَا لَمْ يَلْبَسْهُ فِي الْآخِرَةِ » ^(٤) .

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : إن أبا أمامة رضي الله عنه حدث أن رسول الله ﷺ حدثهم وذكر حلي أهل الجنة فقال : « مُسَوَّرُونَ بِالذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ مُكَلَّلَةٌ بِالدُّرِّ أَكْأَلِيلُ مِنْ دُرٍّ وَيَأْتَوْنَ مُتَوَاصِلَةً ، وَعَلَيْهِمْ تَأْجِجُ كَتَّاجِ الْمَلُوكِ ، شَبَابٌ جَزْدٌ مُرْدٌ مُكْحُولُونَ » ^(٥) . ﴿ وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزْنَ ﴾ . وهو الخوف من المحذور أراحه عنا وأراحنا مما كنا نتخوفه ونحذره من هموم الدنيا والآخرة .

قال ابن عباس رضي الله عنه وغيره : غفر لهم الكثير من السيئات ، وشكر لهم اليسير من الحسنات . ﴿ الَّذِي أَلْهَنَّا دَارَ الْمَقَامَةِ مِنْ فَضْلِهِ ﴾ . يقولون الذي أعطانا هذه المنزلة ، وهذا المقام من فضله ومنه ورحمته لم تكن أعمالنا تساوي ذلك كما ثبت في الصحيح أن رسول الله ﷺ قال : « لَنْ يُدْخَلَ

(١) أخرجه الإمام أحمد في مسنده (١٩٦/٥) وأبو داود في سننه (٣٦٤١) .

(٢) ذكره السيوطي في الدر (٣٥٠/١) والألباني في سلسلة الأحاديث الضعيفة (٨٦٧) .

(٣) أخرجه مسلم في الطهارة (٤٠) والإمام أحمد في مسنده (٣٧١/٢) .

(٤) أخرجه البخاري في اللباس (٥٨٣٤) ومسلم في اللباس (٢١ ، ٢٢) .

(٥) ذكره الهيثمي في مجمع الزوائد (٨٢/١٠ ، ٣٢٣) والمنذري في الترغيب والترهيب (٤١٦/٢) .

أَحَدًا مِنْكُمْ عَمَلُهُ الْجَنَّةَ . قالوا : ولا أنت يا رسول الله ؟ قال : « وَلَا أَنَا إِلَّا أَنْ يَتَغَمَّدَنِي اللَّهُ تَعَالَى بِرَحْمَةٍ مِنْهُ وَفَضْلٍ » ^(١) . ﴿ لَا يَسْتَنَّا فِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ ﴾ أي : لا يمسنا فيها عناء . والنصب واللغوب كل منها يستعمل في التعب ، وكان المراد بنفي هذا وهذا عنهم أنهم لا تعب على أبدانهم ولا أرواحهم والله أعلم . فمن ذلك أنهم كانوا يدبثون أنفسهم في العبادة في الدنيا . فسقط عنهم التكليف بدخولها وصاروا في راحة دائمة مستمرة ، قال الله تبارك وتعالى : ﴿ كَلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ لِلْآلَةِ ﴾ .

﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ مِنْ عَذَابِهَا كَذَلِكَ نَجْزِي كُلَّ كَافِرٍ ﴾ ^(٢) . وَهُمْ يَصْطَرِّحُونَ فِيهَا رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَنْ تَذَكَّرْ وَجَاءَكُمُ النَّذِيرُ فَذُوقُوا فَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ نَاصِرٍ ﴾ .

لما ذكر تبارك وتعالى حال السعداء شرع في بيان ما للأشقياء فقال : ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا ﴾ . ثبت أن رسول الله ﷺ قال : « أَمَّا أَهْلُ النَّارِ الَّذِينَ هُمْ أَهْلُهَا فَلَا يَمُوتُونَ فِيهَا وَلَا يَحْيَوْنَ » ^(٣) . وقال ﷺ : ﴿ وَكَأَدُّوا بِكَ يَمُوتُ لَقَدْ يَمُوتُ عَذَابُكَ قَالَ إِنَّكَ تُكَلِّمُكَ فَمَهْمُ فِي حَالِهِمْ ذَلِكَ يرون موتهم راحة لهم ، ولكن لا سبيل إلى ذلك . قال الله تعالى : ﴿ لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ مِنْ عَذَابِهَا ﴾ . كما قال ﷺ : ﴿ فَذُوقُوا فَلَنْ نَزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا ﴾ . ثم قال تعالى : ﴿ كَذَلِكَ نَجْزِي كُلَّ كَافِرٍ ﴾ . أي : هذا جزاء كل من كفر بربه وكذب الحق . وقوله جلّت عظمته : ﴿ وَهُمْ يَصْطَرِّحُونَ فِيهَا ﴾ أي : ينادون فيها يجأرون إلى الله ﷻ بأصواتهم : ﴿ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ ﴾ أي : يسألون الرجعة إلى الدنيا ليعملوا غير عملهم الأول ، وقد علم الرب جل جلاله أنه لو ردهم إلى الدار الدنيا لعادوا لما نهوا عنه وإنهم لكاذبون . قال تعالى : ﴿ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَنْ تَذَكَّرْ وَجَاءَكُمُ النَّذِيرُ ﴾ أي : أو ما عشتم في الدنيا أعمارًا لو كنتم ممن ينتفع بالحق لانتفعتم به في مدة عمركم ؟

وقد اختلف المفسرون في مقدار العمر المراد هاهنا . فروي عن علي بن الحسين زين العابدين ؑ أنه قال : مقدار سبع عشرة سنة . وقال قتادة : اعلموا أن طول العمر حجة فنعوذ بالله أن نعير بطول العمر . قد نزلت هذه الآية ﴿ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَنْ تَذَكَّرْ ﴾ وإن فيه لابن ثمانين عشرة سنة . وقال وهب بن منبه في قوله تعالى : ﴿ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَنْ تَذَكَّرْ ﴾ قال : عشرين سنة . وقال الحسن : أربعين سنة ، وقال مسروق : إذا بلغ أحدكم أربعين سنة فليأخذ حذره من الله ﷻ ، وعن ابن عباس ؓ قال : العمر الذي أعذر الله تعالى لابن آدم ﴿ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَنْ تَذَكَّرْ ﴾ : أربعون سنة ^(٤) ؟ . وهذا القول هو اختيار ابن جرير ، وعن ابن عباس ؓ قال : ستون سنة . فهذه الرواية أصح عن ابن عباس ؓ وهي الصحيحة في نفس الأمر أيضًا . لما ثبت في ذلك من الحديث . كما سنورده لا كما زعمه ابن جرير من أن الحديث لم يصح في ذلك ؛ لأن في

(١) أخرجه البخاري في المرضى (٥٦٧٣) ومسلم في (صفات المنافقين) (٧٥) .

(٢) ذكره الطبري في تفسيره (١٦٩/٢٢) .

(٣) أخرجه مسلم في الإيمان (٣٠٦) .

إسناده من يجب الثبت في أمره .

وقد روى أصبغ بن نباته عن علي ؑ أنه قال : ستون سنة .

وعن أبي هريرة ؓ قال : قال رسول الله ﷺ : « أَغْدَرَ اللَّهُ ﷻ إِلَى أَمْرِي أُخْرَ عُمرُهُ حَتَّى بَلَغَ سِتِينَ سَنَةً » ^(١) .

وذكر بعضهم أن العمر الطبيعي عند الأطباء مائة وعشرون سنة ، فالإنسان لا يزال في ازدياد إلى كمال الستين ، ثم يشرع بعد هذا في النقص والهرم كما قال الشاعر :

إِذَا بَلَغَ الْفَتَى سِتِينَ عَامًا فَقَدْ ذَهَبَ الْمَرْءُ وَالْفَتَاءُ

ولما كان هذا هو العمر الذي يعذر الله إلى عباده به ويزيح به عنهم العلل . كان هو الغالب على أعمار هذه الأمة . كما ورد بذلك الحديث . فعن أبي هريرة ؓ قال : قال رسول الله ﷺ : « أَغْمَرُ أُمْتِي مَا بَيْنَ السَّتِينَ إِلَى السَّبْعِينَ وَأَقْلُهُمْ مَنْ يَجُوزُ ذَلِكَ » ^(٢) .

وقد ثبت في الصحيح أن رسول الله ﷺ عاش ثلاثاً وستين سنة ^(٣) ، وقيل : ستين . وقيل : خمساً وستين . والمشهور الأول والله أعلم . وقوله تعالى : ﴿ وَحَاءُكُمُ النَّذِيرُ ﴾ روي عن ابن عباس ؓ وعكرمة وأبي جعفر الباقر ؓ وقادة وسفيان بن عيينة أنهم قالوا : يعني الشيب . وقال السدي : يعني به رسول الله ﷺ ، وقرأ ابن زيد ﴿ هَذَا نَذِيرٌ مِنَ النَّذِيرِ الْأَوَّلِ ﴾ وهذا الصحيح عن قتادة فيما رواه شيبان عنه أنه قال : احتج عليهم بالعمر والرسول ، وهذا اختيار ابن جرير وهو الأظهر . لقوله تعالى : ﴿ وَكَادُوا بِمَكَاتِكُمْ لِيُقْضَىٰ عَلَيْكُمْ رَبُّكُمْ قَالَ إِنِّي أَنَا مَزْكُورٌ ﴾ لَقَدْ جِئْتَكُمْ بِالْحَقِّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ ﴾ أي : لقد بينا لكم الحق على ألسنة الرسل فأيتيم وخالفتم . وقال تعالى : ﴿ وَمَا كُنَّا مُعْذِرِينَ حَتَّىٰ تَبْعَثَ رَسُولًا ﴾ . وقوله تعالى : ﴿ فَذُوقُوا فَمَا لِلظَّالِمِينَ مِن نَّصِيرٍ ﴾ أي : فذوقوا عذاب النار جزاء على مخالفتكم للأنبياء في مدة أعمالكم . فما لكم اليوم ناصر ينقذكم مما أنتم فيه من العذاب والنكال والأغلال .

﴿ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ غَيْبِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴾ هُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ فِي الْأَرْضِ فَمَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ وَلَا يُرِيدُ الْكَافِرِينَ كُفْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ إِلَّا مَقْتًا وَلَا يُرِيدُ الْكَافِرِينَ كُفْرُهُمْ إِلَّا خَسَارًا . يخبر تعالى بعلمه غيب السماوات والأرض ، وأنه يعلم ما تكنه السرائر ، وما تنطوي عليه الضمائر . وسيجازي كل عامل بعمله . ثم قال ﷻ : ﴿ هُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ فِي الْأَرْضِ ﴾ أي : يخلف قوم الآخرين قبلهم وجيل لجيل قبلهم . كما قال تعالى : ﴿ وَبَجَلَكُمْ خَلَائِفَ الْأَرْضِ ﴾ . ﴿ فَمَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ ﴾ أي : فإنما يعود وبال ذلك على نفسه دون غيره . ﴿ وَلَا يُرِيدُ الْكَافِرِينَ كُفْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ إِلَّا مَقْتًا ﴾ أي : كلما استمروا على كفرهم أبغضهم الله تعالى ، وكلما استمروا فيه خسروا أنفسهم وأهلهم يوم القيامة بخلاف المؤمنين ، فإنهم كلما طال عمر أحدهم ، وحسن عمله ارتفعت درجته ومنزله في الجنة ، وزاد أجره وأحبه خالقه وبارئ رب العالمين .

(١) أخرجه البخاري في الرقاق (٦٤١٩) .

(٢) أخرجه الترمذي في سننه (٣٥٥٠) وابن ماجه في سننه (٤٢٣٦) .

(٣) أخرجه مسلم في الفضائل (١١٤ ، ١١٥) .

﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ شُرَكَاءَكُمُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَوَاتِ أَمْ آتَيْنَهُمْ كِتَابًا فِيهِمْ عَلَى يَمِينٍ مِّنْهُ بَلْ إِنْ يَبْعُدُ الظَّالِمُونَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا إِلَّا غُرُورًا ٤٠ ﴾ . إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولَا وَلَئِنْ زَالَتَا إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِنْ بَعْدِيَّ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا .

يقول تعالى لرسوله ﷺ أن يقول للمشركين : ﴿ أَرَأَيْتُمْ شُرَكَاءَكُمُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ ﴾ . أي : من الأصنام والأنداد ﴿ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَوَاتِ ﴾ أي : ليس لهم شيء من ذلك ما يملكون من قطمير . وقوله : ﴿ أَمْ آتَيْنَهُمْ كِتَابًا فِيهِمْ عَلَى يَمِينٍ مِّنْهُ ﴾ أي : أم أنزلنا عليهم كتابًا بما يقولونه من الشرك والكفر ؟ ليس الأمر كذلك ﴿ بَلْ إِنْ يَبْعُدُ الظَّالِمُونَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا إِلَّا غُرُورًا ﴾ أي : بل إنما اتبعوا في ذلك أهواءهم وآراءهم وأمانيتهم التي تمنوها لأنفسهم وهي غرور وباطل وزور ، ثم أخبر تعالى عن قدرته العظيمة التي بها تقوم السماء والأرض عن أمره وما جعل فيهما من القوة الماسكة لهما فقال : ﴿ إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولَا ﴾ أي : أن تضطربا عن أماكنهما . كما قال ﷻ : ﴿ وَيُمْسِكُ السَّمَاءَ أَنْ تَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِ ﴾ . ﴿ وَلَئِنْ زَالَتَا إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِنْ بَعْدِيَّ ﴾ . أي : لا يقدر على دوامهما وإبقائهما إلا هو ، وهو مع ذلك حلیم غفور أي : يرى عباده وهم يكفرون به ويعصونه وهو يحلم فيؤخر وينظر ويؤجل ولا يعجل ، ويستمر آخرين ويغفر . ولهذا قال تعالى : ﴿ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴾ وعن أبي موسى الأشعري قال : قال رسول الله ﷺ : « إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى لَا يَنَامُ وَلَا يَنبُغِي لَهُ أَنْ يَنَامَ ، يُخَفِّضُ الْقِسْطَ وَيَرْفَعُهُ ، يُرَفِّعُ إِلَيْهِ عَمَلُ اللَّيْلِ قَبْلَ النَّهَارِ ، وَعَمَلُ النَّهَارِ قَبْلَ اللَّيْلِ ، حِجَابُهُ التُّورُ أَوْ النَّارُ ، لَوْ كَشَفَهُ لَأُخْرِقَتْ سَبِيحَاتُ وَجْهِهِ مَا أَنْتَهَى إِلَيْهِ بَصَرُهُ مِنْ خَلْقِهِ » (١) .

وعن أبي وائل قال : جاء رجل إلى عبد الله هو ابن مسعود ؓ فقال : من أين جئت ؟ قال : من الشام قال : من لقيت ؟ قال : لقيت كعبًا قال : ما حدثك ؟ قال : حدثني أن السماوات تدور على منكب ملك ، قال : أفصدقه أو كذبه ؟ قال : ما صدقه ولا كذبه ، قال : لوددت أنك افتديت من رحلتك إليه براحتك ورحلها كذب كعب . إن الله تعالى يقول : ﴿ إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولَا وَلَئِنْ زَالَتَا إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِنْ بَعْدِيَّ ﴾ (٢) .

﴿ وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ جَاءَهُمْ نَذِيرٌ لَّيَكُونُنَّ أَهْدَىٰ مِنْ إِحْدَى الْأُمَمِ فَلَمَّا جَاءَهُمْ نَذِيرٌ مَا زَادَهُمْ إِلَّا نُفُورًا ٤١ ﴾ أَسْتَغْبِكَ فِي الْأَرْضِ وَمَكْرَ السَّيِّئِ وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ الْأَوَّلِينَ فَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَبْدِيلًا وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلًا ٤٢ .

يخبر تعالى عن قريش والعرب أنهم أقسموا بالله جهد أيمانهم قبل إرسال الرسول إليهم ﴿ لَئِنْ جَاءَهُمْ نَذِيرٌ لَّيَكُونُنَّ أَهْدَىٰ مِنْ إِحْدَى الْأُمَمِ ﴾ أي : من جميع الأمم الذين أرسل إليهم الرسل ، قاله الضحاك وغيره ، كقوله تعالى : ﴿ أَنْ تَقُولُوا إِنَّمَا أُنْزِلَ الْكِتَابُ عَلَى طَائِفَتَيْنِ مِنْ قَبْلِنَا وَإِنْ كُنَّا عَنْ دِرَاسَتِهِمْ لَفَنَافِلِينَ ٤٣ ﴾ أَوْ تَقُولُوا لَوْ أَنَّا أُنْزِلَ عَلَيْنَا الْكِتَابُ لَكُنَّا أَهْدَىٰ مِنْهُمْ فَقَدْ جَاءَكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ فَمَنْ أَظْلَمُ

(١) أخرجه مسلم في الإيمان (٢٩٤ ، ٢٩٥) والإمام أحمد في مسنده (٣٩٥/٤) وابن ماجه في سننه (١٩٥ ، ١٩٦) .

(٢) ذكره ابن جرير الطبري في تفسيره (١٧٣/٢٢) .

مَنْ كَذَّبَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَصَدَفَ عَنْهَا ﴿٤٤﴾ . قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ فَلَمَّا جَاءَهُمْ نَذِيرٌ ﴾ وهو محمد ﷺ بما أنزل معه من الكتاب العظيم ، وهو القرآن المبين ﴿ مَا زَادَهُمْ إِلَّا قُتُورًا ﴾ أي : ما ازدادوا إلا كفوراً إلى كفرهم ثم بين ذلك بقوله : ﴿ اسْتَكْبَارًا فِي الْأَرْضِ ﴾ أي : استكبروا عن اتباع آيات الله ﴿ وَمَكْرَ أَسْفَى ﴾ أي : ومكروا بالناس في صدهم إياهم عن سبيل الله ﴿ وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ ﴾ أي : وما يعود وبال ذلك إلا عليهم أنفسهم دون غيرهم . وقال محمد بن كعب القرظي : ثلاث من فعلهن لم ينج حتى ينزل به مكر أو بغي أو نكث وتصديقها في كتاب الله تعالى : ﴿ وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ ﴾ ، ﴿ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَيَّ أَنْفُسِكُمْ ﴾ ، ﴿ مَنْ تَكَتْ فَانَّمَا يَنْتَكُ عَلَى نَفْسِهِ ﴾ وقوله ﷻ : ﴿ فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ الْأَوَّلِينَ ﴾ يعني : عقوبة الله لهم على تكذيبهم رسله ومخالفتهم أمره . ﴿ فَلَنْ نَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَبْدِيلًا ﴾ أي : لا تغير ولا تبدل ، بل هي جارية كذلك في كل مكان مكذب ﴿ وَلَنْ نَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلًا ﴾ أي : ﴿ وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُ ﴾ ولا يكشف ذلك عنهم ويحوله عنهم أحد والله أعلم .

﴿ أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَكُنُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعْجِزَهُ مِنْ شَيْءٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ إِنَّهُمْ كَانَتْ عَلَيْهِمْ قَدِيرًا ﴾ ﴿٤٥﴾ وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكَ عَلَى ظَهْرِهِمَا مِنْ ذَنْبٍ وَلَا كُنْ يُؤَخِّرُهُمْ إِلَّا أَجَلٌ مُسَمًّى فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ فَلَا يَسْتَأْذِنُ اللَّهُ كَانِ يَعْكَادُهُ بَصِيرًا ﴾ . يقول تعالى : قل يا محمد لهؤلاء المكذبين بما جنتهم به من الرسالة : سيروا في الأرض فانظروا كيف كان عاقبة الذين كذبوا الرسل ، كيف دمر الله عليهم ، وللكافرين أمثالها فخلت منهم منازلهم ، وسلبوا ما كانوا فيه من النعيم بعد كمال القوة ، وكثرة الأموال والأولاد فما أغنى ذلك شيئاً ، ولا دفع عنهم من عذاب الله من شيء لما جاء أمر ربك ؛ لأنه تعالى لا يعجزه شيء إذا أراد كونه في السماوات والأرض . ﴿ إِنَّهُمْ كَانَتْ عَلَيْهِمْ قَدِيرًا ﴾ أي : عليم بجميع الكائنات قدير على مجموعها . ثم قال تعالى : ﴿ وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكَ عَلَى ظَهْرِهِمَا مِنْ ذَنْبٍ ﴾ أي : لو أخذهم بجميع ذنوبهم لأهلك جميع أهل السماوات والأرض وما يملكونه من دواب وأرزاق . وعن أبي الأحوص عن عبد الله قال : كاد الجعل أن يعذب في جحره بذنب ابن آدم ثم قرأ : ﴿ وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكَ عَلَى ظَهْرِهِمَا مِنْ ذَنْبٍ ﴾ . وقال سعيد ابن جبير والسدي : أي : لما سقاهم المطر فماتت جميع الدواب . ﴿ وَلَكِنْ يُؤَخِّرُهُمْ إِلَّا أَجَلٌ مُسَمًّى ﴾ أي : ولكن ينظرهم إلى يوم القيامة فيحاسبهم يومئذ ، ويوفي كل عامل بعمله فيجازي بالثواب أهل الطاعة ، وبالعقاب أهل المعصية . ولهذا قال تبارك وتعالى : ﴿ فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ فَلَا يَسْتَأْذِنُ اللَّهُ كَانِ يَعْكَادُهُ بَصِيرًا ﴾ .

سورة يس

روي عن الحسن قال : سمعت أبا هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « مَنْ قَرَأَ يَسَ فِي لَيْلَةٍ أَصْبَحَ مَغْفُورًا لَهُ ، وَمَنْ قَرَأَ حَمَّ التِّي يُذَكِّرُ فِيهَا الدُّخَانَ أَصْبَحَ مَغْفُورًا لَهُ » (١) .

وعن معقل بن يسار رضي الله عنه قال : إن رسول الله ﷺ قال : « الْبَقْرَةُ سَنَامُ الْقُرْآنِ وَذُرْوَتُهُ نَزَلَ مَعَ كُلِّ آيَةٍ مِنْهَا ثَمَانُونَ مَلَكًا ، وَاسْتَخْرَجَتْ ﴿ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزَّ وَالْقُدُّوسُ ﴾ مِنْ تَحْتِ الْعَرْشِ فَوصلت بها أو فوصلت بسورة البقرة - ويس قلب القرآن لَا يَقْرَؤُهَا رَجُلٌ يُرِيدُ اللَّهُ تَعَالَى وَالْذَّارَ الْآخِرَةَ إِلَّا غَفَرَ لَهُ ، وَأَقْرَأُوهَا عَلَى مَوْتَاكُمْ » (٢) . ولهذا قال بعض العلماء : من خصائص هذه السورة أنها لا تقرأ عند أمر عسير إلا يسره الله تعالى ، وكان قراءتها عند الميت لتنزل الرحمة والبركة وليسهل عليه خروج الروح ، والله تعالى أعلم . وعن صفوان قال : كان المشيخة يقولون : إذا قرئت - يعني يس - عند الميت خفف الله عنه بها (٣) .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ يَسَ ١ وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ ٢ إِنَّكَ لِنَ الْمُرْسَلِينَ ٣ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ٤ نَزِيلَ الْفَرِّيزِ الرَّحِيمِ ٥ لِشَذِيرَ قَوْمًا ٦ أَذِيرَ ءَابَاؤُهُمْ فَهُمْ غَافِلُونَ ٧ لَقَدْ حَقَّ الْقَوْلُ عَلَى أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ٨ ﴾ .

قد تقدم الكلام على الحروف المقطعة في أول سورة البقرة . وروي عن ابن عباس رضي الله عنه وعكرمة والضحاك : أن يس بمعنى يا إنسان ، وقال سعيد بن جبير : وهو كذلك في لغة الحبشة ، وقال زيد ابن أسلم : هو اسم من أسماء الله تعالى ﴿ وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ ﴾ أي : المحكم الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه . ﴿ إِنَّكَ ﴾ أي : يا محمد ﴿ لِنَ الْمُرْسَلِينَ ٣ ﴾ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿ أي : على منهج ودين قويم وشرع مستقيم ﴿ نَزِيلَ الْفَرِّيزِ الرَّحِيمِ ﴾ أي : هذا الصراط والمنهج والدين الذي جئت به تنزيل من رب العزة الرحيم بعباده المؤمنين كما قال تعالى : ﴿ وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ٤ ﴾ صِرَاطُ اللَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ آتِ إِلَى اللَّهِ تَصِيرُ الْأُمُورُ ﴾ . وقوله تعالى : ﴿ لِشَذِيرَ قَوْمًا ٦ أَذِيرَ ءَابَاؤُهُمْ فَهُمْ غَافِلُونَ ﴾ يعني بهم العرب ، فإنه ما أتاهم من نذير من قبله ، وذكرهم وحدهم لا ينفي من عداهم كما أن ذكر بعض الأفراد لا ينفي العموم وقد تقدم ذكر الآيات والأحاديث المتواترة في عموم بعثته ﷺ عند قوله تعالى : ﴿ قُلْ يَتَّبِعُوا النَّاسَ إِنْ رَشَوْا إِلَى كَيْفَ بَيِّنَاتٍ جَمِيعًا ﴾ . وقوله تعالى : ﴿ لَقَدْ حَقَّ الْقَوْلُ عَلَى أَكْثَرِهِمْ ﴾ . قال ابن جرير : لقد وجب العذاب على أكثرهم بأن الله تعالى قد حتم عليهم في أم الكتاب أنهم لا يؤمنون ﴿ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ بالله ولا يصدقون رسله (٤) .

﴿ إِنَّا جَعَلْنَا فِي أَنْفُسِهِمْ غَلْظًا فَوْهً إِلَى الْأَذْقَانِ فَهُمْ مُقْمَحُونَ ٩ وَجَعَلْنَا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَبْطًا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَبْطًا فَأَعْيَيْنَاهُمْ فَهُمْ لَا يَبْصُرُونَ ١٠ وَسَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أُنذِرَتْهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ١١ إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ اتَّبَعَ

(١) ذكره المنفري في الترهيب والترهيب (٤٤٨/٢) .

(٢) أخرجه الإمام أحمد في مسنده (٢٦/٥) والبيهقي في مجمع الزوائد (٣١١/٦) .

(٣) أخرجه الإمام أحمد في مسنده (١٠٥/٤) . (٤) ذكره الطبري في تفسيره (١٨٠/٢٢) .

الذِّكْرَ وَخَشِيَ الرَّحْمَنَ الْعَلِيمَ فَفِشْرَهُ بَغْفِرَةً وَأَجْرٍ كَرِيمٍ ﴿٨﴾ إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي الْمَوْتِ وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآخَرَهُمْ وَكُلُّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُبِينٍ ﴿٩﴾ .

يقول تعالى : إنا جعلنا هؤلاء المحتوم عليهم بالشقاء نسبتهم إلى الوصول إلى الهدى كنسبة من جعل في عنقه غل ، فجمع يديه مع عنقه تحت ذقنه فارتفع رأسه فصار مقمحا . ولهذا قال تعالى : ﴿فَهُمْ مُقْمَحُونَ﴾ والمقمح هو الرافع رأسه ، واكتفى بذكر الغل في العنق عن ذكر اليدين وإن كانتا مرادتين كما قال الشاعر :

فَمَا أَذْرِي إِذَا تِمَمْتُ أَزْضَا أُرِيدُ الْخَيْرَ أَثْمَمَا يَلِينِي
الْخَيْرُ الَّذِي أَنَا أَبْتَغِيهِ أَمْ الشَّرُّ الَّذِي لَا يَأْتِلِينِي

فاكتفى بذكر الخير عن ذكر الشر لما دل الكلام والسياق عليه . وهكذا هذا لما كان الغل إنما يعرف فيما جمع اليدين مع العنق اكتفى بذكر العنق عن اليدين . وعن ابن عباس رضي الله عنه في قوله تعالى : ﴿إِنَّا جَعَلْنَا فِيْ أَعْنَاقِهِمْ أَغْلًا فَمَيَّ إِلَى الْأَذْقَانِ فَهُمْ مُقْمَحُونَ﴾ قال : هو كقوله عز وجل : ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ﴾ يعني : بذلك أن أيديهم موثقة إلى أعناقهم لا يستطيعون أن يسطوها بخير . وقال مجاهد : ﴿فَهُمْ مُقْمَحُونَ﴾ قال : رافعي رؤوسهم وأيديهم موضوعة على أفواههم ، فهم مغلولون عن كل خير . وقوله تعالى : ﴿وَجَعَلْنَا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا﴾ قال مجاهد : عن الحق . ﴿وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا﴾ قال مجاهد : عن الحق فهم يترددون . وقال قتادة : في الضلالات .

وقوله تعالى : ﴿فَأَعْشَيْنَهُمْ﴾ أي : أغشنا أبصارهم عن الحق ﴿فَهُمْ لَا يَبْصُرُونَ﴾ أي : لا ينتفعون بخير ولا يهتدون إليه ، قال ابن جرير : وروي عن ابن عباس رضي الله عنه أنه كان يقرأ (فأعشناهم) بالعين المهملة من العشا وهو داء في العين ، وقال عبد الرحمن بن زيد : جعل الله تعالى هذا السد بينهم وبين الإسلام والإيمان فهم لا يخلصون إليه . وقرأ : ﴿إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ۚ وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّى يَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ﴾ ثم قال : من منعه الله تعالى لا يستطيع ^(١) . وقال عكرمة : قال أبو جهل : لئن رأيت محمداً لأفعلن ولأفعلن . فأنزلت : ﴿إِنَّا جَعَلْنَا فِيْ أَعْنَاقِهِمْ أَغْلًا فَمَيَّ إِلَى الْأَذْقَانِ فَهُمْ مُقْمَحُونَ ۚ وَجَعَلْنَا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَعْشَيْنَهُمْ فَهُمْ لَا يَبْصُرُونَ﴾ . قال : وكانوا يقولون : هذا محمد ، فيقول : أين هو أين هو ؟ لا يبصره ^(٢) . وعن محمد بن كعب قال : قال أبو جهل وهم جلوس : إن محمداً يزعم أنكم إن تابعتموه كنتم ملوكاً ، فإذا متم بعثتم بعد موتكم ، وكانت لكم جنات خير من جنات الأردن ، وأنكم إن خالفتموه كان لكم منه ذبح ، ثم بعثتم بعد موتكم وكانت لكم نار تعذبون بها ، وخرج عليهم رسول الله ﷺ عند ذلك وفي يده حفنة من تراب ، وقد أخذ الله تعالى على أعينهم دونه فجعل يذرها على رؤوسهم ويقرأ : ﴿يَسْ ۚ وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ﴾ حتى انتهى إلى قوله تعالى : ﴿وَجَعَلْنَا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَعْشَيْنَهُمْ فَهُمْ لَا يَبْصُرُونَ﴾ . وانطلق رسول الله ﷺ لحاجته وباتوا رصداء على بابهم حتى خرج عليهم بعد ذلك خارج من الدار فقال : ما لكم ؟ قالوا : ننتظر محمداً ، قال : قد خرج عليكم فما بقي منكم من رجل إلا

(١) ذكره الطبري في تفسيره (١٨٢/٢٢) .

(٢) ذكره الطبري في تفسيره (١٨٢/٢٢) .

وضع على رأسه تراباً ثم ذهب لحاجته ، فجعل كل منهم ينفض ما على رأسه من التراب . قال : وقد بلغ النبي ﷺ قول أبي جهل فقال : « وَأَنَا أَقُولُ ذَلِكَ إِنْ لَهُمْ مِنِّي لَذَبْحًا وَإِنَّهُ لَا يَخِذُهُمْ » ^(١) .

وقوله تبارك وتعالى : ﴿ وَسَوَاءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ أي : قد ختم الله عليهم بالضلالة فما يفيد فيهم الإنذار ولا يتأثرون به . ﴿ إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ ﴾ أي : إنما ينتفع بإنذارك المؤمنون الذين يتبعون الذكر ، وهو القرآن العظيم ﴿ وَخَشِيَ الرَّحْمَنَ الْغَيْبَ ﴾ أي : حيث لا يراه أحد إلا الله تبارك وتعالى يعلم أن الله مطلع عليه وعالم بما يفعل . ﴿ فَبَشِّرْهُ بِسَفَرَةٍ ﴾ أي : لذنوبه ﴿ وَأَجْرٍ كَرِيمٍ ﴾ أي : كثير واسع حسن جميل . ثم قال ﷻ : ﴿ إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي الْمَوْتَى ﴾ أي يوم القيامة ، وفيه إشارة إلى أن الله تعالى يحيي قلب من يشاء من الكفار الذين قد ماتت قلوبهم بالضلالة فيهديهم بعد ذلك إلى الحق ، كما قال تعالى بعد ذكر قسوة القلوب : ﴿ أَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا قَدْ يَتَنَبَّأُ لَكُمْ آيَاتٍ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ وقوله تعالى : ﴿ وَكَتَبْتُ مَا قَدَّمُوا ﴾ أي : من الأعمال : وفي قوله تعالى : ﴿ وَءَاثَرَهُمْ ﴾ قولان :

أحدهما : نكتب أعمالهم التي باشروها بأنفسهم وآثارهم التي أثروها من بعدهم فنجزهم على ذلك أيضاً إن خيراً فخير ، وإن شراً فشر ، كقوله ﷺ : « مَنْ سَنَّ فِي الْإِسْلَامِ شَيْئاً حَسَنَةً كَانَ لَهُ أَجْرُهَا وَأَجْرُ مَنْ عَمِلَ بِهَا مِنْ بَعْدِهِ مِنْ غَيْرِ أَنْ يَنْقُصَ مِنْ أَجُورِهِمْ شَيْئاً ، وَمَنْ سَنَّ فِي الْإِسْلَامِ شَيْئاً سَيِّئَةً كَانَ عَلَيْهِ وِزْرُهَا وَوِزْرُ مَنْ عَمِلَ بِهَا مِنْ بَعْدِهِ مِنْ غَيْرِ أَنْ يَنْقُصَ مِنْ أَجُورِهِمْ شَيْئاً » ^(٢) .

وعن أبي هريرة ؓ قال : قال رسول الله ﷺ : « إِذَا مَاتَ ابْنُ آدَمَ انْقَطَعَ عَمَلُهُ إِلَّا مِنْ ثَلَاثٍ : مِنْ عِلْمٍ يَنْتَفِعُ بِهِ ، أَوْ وَلَدٍ صَالِحٍ يَدْعُو لَهُ ، أَوْ صَدَقَةٍ جَارِيَةٍ مِنْ بَعْدِهِ » ^(٣) . وقال سفيان الثوري : عن أبي سعيد ؓ قال : سمعت مجاهداً يقول في قوله تعالى : ﴿ إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي الْمَوْتَى وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَءَاثَرَهُمْ ﴾ : ما أوثروا من الضلالة . وقال سعيد بن جبير في قوله : ﴿ وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَءَاثَرَهُمْ ﴾ : يعني : ما أثروا ، يقول : ما سنا من سنة فعمل بها قوم من بعد موتهم ، فإن كانت خيراً فلهم مثل أجورهم لا ينقص من أجر من عمل به شيئاً ، وإن كانت شراً فعليهم مثل أوزارهم ولا ينقص من أوزار من عمل بها شيئاً . والقول الثاني : إن المراد بذلك آثار خطاهم إلى الطاعة أو المعصية ، قال مجاهد : ﴿ مَا قَدَّمُوا ﴾ : أعمالهم ﴿ وَءَاثَرَهُمْ ﴾ : قال : خطاهم بأرجلهم . وكذا قال الحسن وقتادة : ﴿ وَءَاثَرَهُمْ ﴾ : يعني : خطاهم . وقال قتادة : لو كان الله ﷻ مغفلاً شيئاً من شأنك يا ابن آدم أغفل ما تعفي الرياح من هذه الآثار ، ولكن أحصى على ابن آدم أثره وعمله كله حتى أحصى هذا الأثر فيما هو من طاعة الله تعالى ، أو من معصيته ، فمن استطاع منكم أن يكتب أثره في طاعة الله تعالى فليفعل . وقد وردت في هذا المعنى أحاديث :

عن جابر بن عبد الله ؓ قال : خلت البقاع حول المسجد فأراد بنو سلمة أن ينتقلوا قرب المسجد ، فبلغ ذلك رسول الله ﷺ ، فقال لهم : « إِنَّهُ بَلَّغَنِي أَنَّكُمْ تُرِيدُونَ أَنْ تَتَّقِلُوا قُرْبَ

(١) ذكره بنحوه الهيثمي في مجمع الزوائد (٧٨/٦) .

(٢) أخرجه مسلم في الزكاة (٦٩) والإمام أحمد في مسنده (٣٥٧/٤) .

(٣) أخرجه مسلم في الذكر والدعاء (١٣) والترمذي في سننه (١٣٧٦) .

لِلْمَسْجِدِ ؟ قالوا : نعم يا رسول الله قد أردنا ذلك ، فقال ﷺ : يا بني سلمة : « دياركم تكتب آثاركم ، دياركم تكتب آثاركم » ^(١) .

وعن عبد الله بن عمرو رضي الله عنه قال : توفي رجل بالمدينة فصلى عليه النبي ﷺ وقال : « يَا لَيْتَهُ مَاتَ فِي غَيْرِ مَوْلِدِهِ » فقال رجل من الناس : ولم يا رسول الله ؟ فقال رسول الله ﷺ : « إِنَّ الرَّجُلَ إِذَا تُوفِّيَ فِي غَيْرِ مَوْلِدِهِ قِيسَ لَهُ مِنْ مَوْلِدِهِ إِلَى مُنْقَطِعِ أَثَرِهِ فِي الْجَنَّةِ » ^(٢) . وعن ثابت قال : مشيت مع أنس رضي الله عنه فأسرعت المشي فأخذ بيدي فمشينا رويداً ، فلما قضينا الصلاة قال أنس : مشيت مع زيد بن ثابت فأسرعت المشي فقال : يا أنس أما شعرت أن الآثار تكتب ؟ ^(٣) . وهذا القول لا تنافي بينه وبين الأول . بل في هذا تنبيه ودلالة على ذلك بطريق الأولى والأخرى . فإنه إذا كانت هذه الآثار تكتب فلأن تكتب تلك التي فيها قدوة بهم من خير أو شر بطريق الأولى والله أعلم . وقوله تعالى : ﴿ وَكُلُّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَارٍ تُبِينٍ ﴾ أي : وجميع الكائنات مكتوب في كتاب مسطور مضبوط في لوح محفوظ ، والإمام المبين ههنا هو أم الكتاب قاله مجاهد وقتادة وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم ، وكذا في قوله تعالى : ﴿ يَوْمَ نَدْعُوا كُلَّ أَنَسٍ بِإِسْمِهِ ﴾ أي : بكتاب أعمالهم الشاهد عليهم بما عملوه من خير أو شر . كما قال عليه السلام : ﴿ وَوُضِعَ الْكِتَابُ فَرَأَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا مَا لَ هَذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَيْنَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلَا يَظِلُّ رِيكًا لَحَدًا ﴾ .

﴿ وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلًا آخَصَّ الْقُرْآنِ إِذْ جَاءَهَا الْمُرْسَلُونَ ﴾ ^(١) إِذْ أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمُ اثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ فَقَالُوا إِنَّا إِلَيْكُمْ مُّرْسَلُونَ ﴿ قَالُوا مَا أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا وَمَا أَنزَلَ الرَّحْمَنُ مِن شَيْءٍ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَكْذِبُونَ ﴿ قَالُوا رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّا إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ ﴿ وَمَا عَلَيْنَا بِالْبَلَّغِ الْكَمِثِ ﴾ .

يقول تعالى : واضرب يا محمد لقومك الذين كذبوك ﴿ مَثَلًا آخَصَّ الْقُرْآنِ إِذْ جَاءَهَا الْمُرْسَلُونَ ﴾ قال ابن عباس : إنها مدينة أنطاكية . وهكذا روي عن بريدة بن الحصب وعكرمة وقتادة والزهري وقد استشكل بعض الأئمة كونها أنطاكية بما سذكروه بعد تمام القصة إن شاء الله تعالى .

وقوله تعالى : ﴿ إِذْ أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمُ اثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا ﴾ أي : بادروهما بالكذب ﴿ فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ ﴾ أي : قويناهما وشددنا أزرهما برسول ثالث . ﴿ فَقَالُوا ﴾ أي : لأهل تلك القرية ﴿ إِنَّا إِلَيْكُمْ مُّرْسَلُونَ ﴾ أي : من ربكم الذي خلقكم بأمركم بعبادته وحده لا شريك له ، قاله أبو العالية وزعم قتادة بن دعامة أنهم كانوا رسل المسيح عليه السلام إلى أهل أنطاكية ، ﴿ قَالُوا مَا أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا ﴾ أي : فكيف أوحى إليكم وأنتم بشر فلم لا أوحى إلينا مثلكم ؟ ولو كنتم رسلاً لكنتم ملائكة وهذه شبهة كثير من الأمم المكذبة كما أخبر الله تعالى عنهم في قوله عليه السلام : ﴿ ذَلِكَ بِأَنَّهُ كَانَتْ تَأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَقَالُوا أَبَشَرٌ يَهْدُونَنَا ﴾ أي : استعجبوا من ذلك وأنكروه ، ولهذا قال هؤلاء : ﴿ مَا أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا وَمَا أَنزَلَ الرَّحْمَنُ مِن شَيْءٍ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَكْذِبُونَ ﴾ ^(٢) قَالُوا رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّا إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ ﴿ أي أجابتهم رسلهم الثلاثة قائلين : الله يعلم أنا رسله إليكم ، ولو كنا كذبة عليه لانتقم منا أشد الانتقام ، ولكنه سيعزنا وينصرنا عليكم

(١) أخرجه مسلم في المساجد (٢٨٠) والإمام أحمد في مسنده (٣٢٢/٣) .

(٢) أخرجه الإمام أحمد في مسنده (٧٢/٢) والهندي في كنز العمال (١٦٦٩٢) .

(٣) ذكره ابن جرير الطبري في تفسيره (١٨٥/٢٢) .

وستعلمون لمن تكون عاقبة الدار . كقوله تعالى : ﴿ قُلْ كَفَىٰ بِاللَّهِ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ شَهِيدًا بِمَا فِي السَّمُوتِ وَالْأَرْضِ وَالَّذِينَ آمَنُوا بِالْبَاطِلِ وَكَفَرُوا بِاللَّهِ أُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴾ . ﴿ وَمَا عَلَيْنَا إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ ﴾ . يقولون : إنما علينا أن نبليكم ما أربلنا به إليكم ، فإذا أطعتم كانت لكم السعادة في الدنيا والأخرى ، وإن لم تجيبوا فستعملون غيب ذلك ، والله أعلم .

﴿ قَالُوا إِنَّا تَطَّعْنَا بِكُمْ لَيْنًا لَّزَجْنَاهُمْ لِرَجْمِكُمْ وَلَيَسَّغَنَّ رِثَا عَذَابِ آلِهِ ﴾ ١٥ قَالُوا عَلَيْهِمْ مَعَكُمْ أَيْنَ دُكِّرْتُمْ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ﴾ .

فعند ذلك قال لهم أهل القرية : ﴿ إِنَّا تَطَّعْنَا بِكُمْ ﴾ أي : لم نر على وجوهكم خيرًا في عيشنا . وقال قتادة : يقولون : إن أصابنا شر فإنا هو من أجلكم . وقال مجاهد : يقولون لم يدخل مثلكم إلى قرية إلا عذب أهلها ﴿ لَيْنًا لَّزَجْنَاهُمْ لِرَجْمِكُمْ ﴾ قال قتادة : بالحجارة ، وقال مجاهد : بالشم . ﴿ وَلَيَسَّغَنَّ رِثَا عَذَابِ آلِهِ ﴾ أي : عقوبة شديدة ، فقالت لهم رسلهم : ﴿ عَلَيْهِمْ مَعَكُمْ ﴾ أي : مردود عليكم ، كقوله تعالى في قوم فرعون : ﴿ فَإِذَا جَاءَتْهُمْ الْحَسَنَةُ قَالُوا لَنَا هَذِهِ وَإِنْ تُصِيبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا بِمُوسَىٰ وَمَنْ مَعَهُ إِلَّا إِنَّمَا مَلَائِكُهُمْ عِنْدَ اللَّهِ ﴾ وقوله تعالى : ﴿ لَيْسَ دُكِّرْتُمْ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ﴾ أي : من أجل أنا ذكرناكم وأمرناكم بتوحيد الله وإخلاص العباد له قابليتمونا بهذا الكلام وتوعدتمونا وتهددتمونا ﴿ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ﴾ . وقال قتادة : أي إن ذكرناكم بالله تطيرتم منا بل أنتم قوم مسرفون .

﴿ وَجَاءَ مِنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَىٰ قَالَ يَنْفَوْرُ آتِيَهُمُ الْمُرْسَلِينَ ﴾ ١٦ آتِيَهُمْ مِنْ لَا يَسْتَكْبِرُ أَجْرًا وَهُمْ مُّهْتَدُونَ ﴿ وَمَا لِيَ لَا أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيْهِ رُجُوعُونَ ﴾ ١٧ مَا أَخَذَ مِنْ دُونِهِ آلِهَةً إِنْ يُرِيدِ الْإِنْسَانُ بِضْرًا لَا تَعْنِ عَفَىٰ شَفَعَتُهُمْ شَيْئًا وَلَا يُنْقَدُونَ ﴾ ١٨ إِنْ إِنْكَارِي صَلَّىٰ مُبِينٍ ﴿ إِنْ إِنْكَارِي بَرِيكُمْ فَاسْمَعُونَ ﴾ .

قال ابن إسحاق فيما بلغه عن ابن عباس ؓ وكعب الأحبار ووهب بن منبه : إن أهل القرية هموا بقتل رسلهم ، فجاءهم رجل من أقصى المدينة يسعى أي لينصرهم من قومه . قالوا : وهو حبيب وكان يعمل الحرير وهو الحباك ، وكان رجلاً سقيماً قد أسرع فيه الجذام ، وكان كثير الصدقة يتصدق بنصف كسبه مستقيم الفطرة ، وقال السدي : كان قصارًا . وقال عمر بن الحكم : كان إسكافًا . وقال قتادة : كان يتعب في غار هناك ﴿ قَالَ يَنْفَوْرُ آتِيَهُمُ الْمُرْسَلِينَ ﴾ يحض قومه على اتباع الرسل الذين أتوهم ﴿ آتِيَهُمْ مِنْ لَا يَسْتَكْبِرُ أَجْرًا ﴾ أي : على إبلاغ الرسالة ﴿ وَهُمْ مُّهْتَدُونَ ﴾ فيما يدعونكم إليه من عبادة الله وحده لا شريك له ﴿ وَمَا لِيَ لَا أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي ﴾ أي : وما يمنعني من إخلاص العباد للذي خلقني وحده لا شريك له ﴿ وَإِلَيْهِ رُجُوعُونَ ﴾ أي : يوم المعاد فيجازيكم على أعمالكم ، إن خيرًا فخير ، وإن شرًا فشر ﴿ مَا أَخَذَ مِنْ دُونِهِ آلِهَةً ﴾ ؟ استفهام إنكار وتوبيخ وتقرع ﴿ إِنْ يُرِيدِ الْإِنْسَانُ بِضْرًا لَا تَعْنِ عَفَىٰ شَفَعَتُهُمْ شَيْئًا وَلَا يُنْقَدُونَ ﴾ أي : هذه الآلهة التي تعبدونها من دونه لا يملكون من الأمر شيئًا . فإن الله تعالى لو أرادني بسوء ﴿ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ ﴾ وهذه الأصنام لا تملك دفع ذلك ولا منعه ولا ينقذوني مما فيه ﴿ إِنْ إِنْكَارِي بَرِيكُمْ فَاسْمَعُونَ ﴾ قال ابن إسحاق فيما بلغه عن ابن عباس ؓ وكعب ووهب يقول لقومه : ﴿ إِنْ إِنْكَارِي بَرِيكُمْ ﴾ الذي كفرتم به

﴿ فَاسْتَعُونِ ﴾ أي : فاسمعوا قولي ، ويحتمل أن يكون خطابه للرسل بقوله : ﴿ إِنْ تَنْتَهِتُمْ ﴾ أي الذي أرسلكم ﴿ فَاسْتَعُونِ ﴾ أي : فاشهدوا لي بذلك عنده . وقد حكاه ابن جرير فقال : وقال آخرون : بل خاطب بذلك الرسل وقال لهم : اسمعوا قولي لتشهدوا لي بما أقول لكم عند ربي : إني آمنت بربكم واتبعتم وهذا القول الذي حكاه عن هؤلاء أظهر في المعنى والله أعلم .
﴿ قِيلَ ادْخُلِ الْجَنَّةَ قَالَ يَلَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ ﴿٢٦﴾ بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُكْرِمِينَ ﴿٢٧﴾ وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَى قَوْمِهِ مِنْ بَعْدِهِ مِنْ جُنْدٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَمَا كُنَّا مُنْزِلِينَ ﴿٢٨﴾ إِنْ كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ خَامِدُونَ ﴾ .

قال ابن مسعود رضي الله عنه : إنهم وطئوه بأرجلهم حتى خرج قصه من دبره ، وقال الله له : ﴿ ادْخُلِ الْجَنَّةَ ﴾ فدخلها فهو يرزق فيها قد أذهب الله عنه سقم الدنيا وحزنها ونصبها . وقال مجاهد : قيل لحبيب النجار ، ادخل الجنة ، وذلك أنه قتل فوجبت له فلما رأى الثواب ﴿ قَالَ يَلَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ ﴾ قال قتادة : لا تلقى المؤمن إلا ناصحا لا تلقاه غاشا . لما عاين ما عاين من كرامة الله تعالى ﴿ قَالَ يَلَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ ﴾ ﴿ بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُكْرِمِينَ ﴾ تمنى والله أن يعلم قومه بما عاين من كرامة الله وما هجم عليه . وقال ابن عباس : نصح قومه في حياته بقوله : ﴿ يَنْقُورُ أَتَيْمُوا الْمُرْسَلِينَ ﴾ وبعد مماته في قوله : ﴿ يَلَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ ﴾ ﴿ بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُكْرِمِينَ ﴾ قال عاصم الأحوال عن أبي مجلز ﴿ بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُكْرِمِينَ ﴾ : بإيماني بربي وتصديقي المرسلين ، ومقصوده أنهم لو اطلعوا على ما حصل لي من هذا الثواب والجزاء والنعيم المقيم لقادهم ذلك إلى اتباع الرسل فرحمه الله ورضي عنه ، فلقد كان حريصا على هداية قومه . قال عروة بن مسعود الثقفي رضي الله عنه للنبي ﷺ : ابغني إلى قومي أَدْعُوهم إلى الإسلام ، فقال رسول الله ﷺ : « إِنِّي أَخَافُ أَنْ يَقْتُلُوكَ » فقال : لو وجدوني نائما ما أيقظوني ، فقال له رسول الله ﷺ : « انْطَلِقْ » فانطلق فمر على اللات والعزى فقال : لأصبحنك غدا بما يسوؤك فغضبت ثقيف ، فقال : يا معشر ثقيف إن اللات لا لات ، وإن العزى لا عزى أسلموا تسلموا ، يا معشر الأحلاف إن العزى لا عزى ، وإن اللات لا لات أسلموا تسلموا ، قال ذلك ثلاث مرات ، فرماه رجل فأصاب أكحله فقتله فبلغ رسول الله ﷺ فقال : « هَذَا مِثْلُ كَمَثَلِ صَاحِبِ يَسَ » ، ﴿ قَالَ يَلَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ ﴿٢٦﴾ بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُكْرِمِينَ ﴾ ^(١) .

وقوله تبارك وتعالى : ﴿ وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَى قَوْمِهِ مِنْ بَعْدِهِ مِنْ جُنْدٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَمَا كُنَّا مُنْزِلِينَ ﴾ يخبر تعالى أنه انتقم من قومه بعد قتلهم إياه غضبا منه تبارك وتعالى عليهم ؛ لأنهم كذبوا رسله ، وقتلوا وليه ، ويذكر ﷺ أنه ما أنزل عليهم وما احتاج في إهلاكه إياهم إلى إنزال جند من الملائكة عليهم ، بل الأمر كان أيسر من ذلك . قال ابن مسعود أي : ما كاثرتهم بالجموع ، والأمر كان أيسر علينا من ذلك .
﴿ إِنْ كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ خَامِدُونَ ﴾ قال : فأهلك الله تعالى ذلك الملك الجبار ، وأهلك أهل أنطاكية فبادوا عن وجه الأرض فلم يبق منهم باقية . وقيل : ﴿ وَمَا كُنَّا مُنْزِلِينَ ﴾ أي : وما كنا ننزل الملائكة على الأمم إذا أهلكناهم بل نبعث عليهم عذابا يدمرهم . وقيل : المعنى في قوله تعالى : ﴿ وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَى قَوْمِهِ مِنْ بَعْدِهِ مِنْ جُنْدٍ مِّنَ السَّمَاءِ ﴾ أي : من رسالة أخرى إليهم . قاله مجاهد وقاتدة ، قال

(١) أخرجه الحاكم في المستدرک (٦١٥/٣) والهيتمي في مجمع الزوائد (٣٨٦/٩) .

قتادة : فلا والله ما عاتب الله قومه بعد قتله . ﴿ إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ خَامِدُونَ ﴾ . قال ابن جرير : والأول أصح ؛ لأن الرسالة لا تسمى جنذا ^(١) . قال المفسرون : بعث الله تعالى إليهم جبريل عليه الصلاة والسلام ، فأخذ بعضادتي باب بلدهم ثم صاح بهم صيحة واحدة فإذا هم خامدون عن آخرهم لم تبق بهم روح تتردد في جسد . وقد تقدم عن كثير من السلف أن هذه القرية هي أنطاكية ، وأن هؤلاء الثلاثة كانوا رسلاً من عند المسيح ابن مريم عليه الصلاة والسلام . كما نص عليه قتادة وغيره ، وهو الذي لم يذكر عن واحد من متأخري المفسرين غيره . وفي ذلك نظر من وجوه :

أحدها : أن ظاهر القصة يدل على أن هؤلاء كانوا كذبوا رسل الله ﷻ ، لا من جهة المسيح عليه السلام كما قال تعالى : ﴿ إِذْ أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمُ اثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ فَقَالُوا إِنَّا إِلَيْكُمْ مُّرْسَلُونَ ﴾ - إلى أن قالوا - ﴿ رَبَّنَا يَعْلَمُ إِنََّّا إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ ﴾ وَمَا عَلَيْنَا إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ . ولو كان هؤلاء من الحوارين لقالوا عبارة تناسب أنهم من عند المسيح عليه السلام والله تعالى أعلم . ثم لو كانوا رسل المسيح لما قالوا لهم : ﴿ مَا أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا ﴾ .

الثاني : أن أهل أنطاكية آمنوا برسل المسيح إليهم وكانوا أول مدينة آمنت بالمسيح ؛ ولهذا كانت عند النصراني إحدى المدائن الأربعة اللاتي فيهن بئركة ، وهن : القدس ؛ لأنها بلد المسيح ، وأنطاكية ؛ لأنها أول بلدة آمنت بالمسيح عن آخر أهلها ، والإسكندرية ؛ لأن فيها اصطالحوا على اتخاذ البئركة والمطارنة والأساقفة والقساوسة والشمامسة والراهبين . ثم رومية ؛ لأنها مدينة الملك قسطنطين الذي نصر دينهم وأوطده ، ولما ابنتي القسطنطينية نقلوا البترك من رومية إليها . كما ذكره غير واحد من ذكر تواريخهم ، كسعيد بن بطريق وغيره من أهل الكتاب والمسلمين ، فإذا تقرر أن أنطاكية أول مدينة آمنت ، فأهل هذه القرية ذكر الله تعالى أنهم كذبوا رسله وأنه أهلكهم بصيحة واحدة أخدمتهم ، والله أعلم .

الثالث : أن قصة أنطاكية مع الحوارين أصحاب المسيح بعد نزول التوراة ، وقد ذكر أبو سعيد الخدري رحمه الله وغير واحد من السلف أن الله تبارك وتعالى بعد إنزاله التوراة لم يهلك أمة من الأمم عن آخرهم بعذاب يعثه عليهم ، بل أمر المؤمنين بعد ذلك بقتال المشركين . ذكروه عند قوله تبارك وتعالى : ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ مِنْ بَعْدِ مَا أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ الْأُولَى ﴾ . فعلى هذا يتعين أن هذه القرية المذكورة في القرآن قرية أخرى غير أنطاكية . كما أطلق ذلك غير واحد من السلف أيضًا . أو تكون أنطاكية إن كان لفظها محفوظًا في هذه القصة مدية أخرى غير هذه المشهورة المعروفة ، فإن هذه لم يعرف أنها أهلكت لا في الملة النصرانية ولا قبل ذلك . والله ﷻ أعلم .

﴿ يَحْزَنُونَ عَلَى الْعِبَادِ مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴾ ١١ أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنَ الْقُرُونِ أَنَّهُمْ إِلَيْهِمْ لَا يَرْجِعُونَ ١٢ وَإِنْ كُلُّ لُتَّا جَمِيعٌ لَدُنَّا مُحْضَرُونَ ﴾ .

عن ابن عباس في قوله تعالى : ﴿ يَحْزَنُونَ عَلَى الْعِبَادِ ﴾ أي : يا ويل العباد . وقال قتادة : أي : يا حسرة العباد على أنفسهم على ما ضيعت من أمر الله وفرطت في جنب الله ، وفي بعض القراءات - يا حسرة العباد على أنفسهم - ومعنى هذا يا حسرتهم وندامتهم يوم القيامة إذا عاينوا العذاب كيف كذبوا

رسل الله ، وخالفوا أمر الله ، فإنهم كانوا في الدار الدنيا المكذبون منهم ﴿ مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴾ أي يكذبونه ويستهزئون به ويجحدون ما أرسل به من الحق . ثم قال تعالى : ﴿ أَلَمْ يَرَوْا كَرِهَ أهلكنا قبلهم مِنْ الْفُرْقَانِ أَنتُمُ الْيَوْمَ لَا تَرْجِعُونَ ﴾ أي : ألم يتعظوا بمن أهلك قبلهم من المكذبين للرسل ، كيف لم يكن لهم إلى هذه الدنيا كرة ولا رجعة ، ولم يكن الأمر كما زعم كثير من جهلتهم وفجرتهم من قولهم : ﴿ إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا ﴾ . وهم القائلون بالدور من الدهرية وهم الذين يعتقدون جهلاً منهم أنهم يعودون إلى الدنيا ، كما كانوا فيها ، فرد الله تبارك وتعالى عليهم باطلهم فقال تبارك وتعالى : ﴿ أَلَمْ يَرَوْا كَرِهَ أهلكنا قبلهم مِنْ الْفُرْقَانِ أَنتُمُ الْيَوْمَ لَا تَرْجِعُونَ ﴾ . وقوله ﴿ وَإِنْ كُلُّ لَمَّا جَمِيعٌ لَدُنَّا مُحْضَرُونَ ﴾ أي : وإن جميع الأمم الماضية والآتية ستحضر للحساب يوم القيامة بين يدي الله جل وعلا فيجازيهم بأعمالهم كلها خيرا وشرها ، ومعنى هذا كقوله جل وعلا : ﴿ وَإِنْ كُلُّ لَمَّا يَكُونُ مِنْكُمْ لَمَّا جَمِيعٌ لَدُنَّا مُحْضَرُونَ ﴾ وقد اختلف القراء في أداء هذا الحرف فمنهم من قرأ ﴿ وَإِنْ كُلُّ لَمَّا ﴾ بالتخفيف فعنده أن ﴿ وَإِنْ ﴾ للإثبات ومنهم من شدد ﴿ لَمَّا ﴾ وجعل إن نافية و ﴿ لَمَّا ﴾ بمعنى إلا ، تقديره : وما كل إلا جميع لدينا محضرون ، ومعنى القراءتين واحد ، والله ۞ أعلم .

﴿ وَآيَةٌ لَهُمُ الْأَرْضُ الَّتِي بَنَيْنَا فِيهَا جَبَلًا مِمَّا بَاكُلُونَ ۝ وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّاتٍ مِنْ نَجِيلٍ وَأَعْنَبٍ وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ الْعُيُونِ ۝ لِيَأْكُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ أَفَلَا يَشْكُرُونَ ۝ سُبْحَنَ الَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ كَلِمًا مِمَّا تَنْبُتُ الْأَرْضُ وَمِنْ أَنْفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ ﴾ .

يقول تبارك وتعالى : ﴿ وَآيَةٌ لَهُمُ ﴾ أي : دلالة لهم على وجود الصانع وقدرته التامة ، وإحيائه الموتى ﴿ الْأَرْضُ الَّتِي ﴾ أي : إذا كانت ميتة هامة لا شيء فيها من النبات ، فإذا أنزل الله تعالى عليها الماء اهتزت وربت وأنبتت من كل زوج بهيج ؛ ولهذا قال تعالى : ﴿ آخِيتْنَاهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا جَبَلًا مِمَّا يَأْكُلُونَ ﴾ أي : جعلناه رزقا لهم ولأنعامهم ، ﴿ وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّاتٍ مِنْ نَجِيلٍ وَأَعْنَبٍ وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ الْعُيُونِ ﴾ أي جعلنا فيها أنهارا سارحة في أمكنة يحتاجون إليها لياكلوا من ثمره : لما امتن على خلقه بإيجاد الزروع لهم عطف بذكر الثمار وتنوعها وأصنافها . وقوله جل وعلا : ﴿ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ ﴾ أي : وما ذاك كله إلا من رحمة الله تعالى بهم لا بسعيهم ولا كدهم ولا بحولهم وقوتهم . قاله ابن عباس ۞ : ولهذا قال تعالى : ﴿ أَفَلَا يَشْكُرُونَ ﴾ أي : فهلا يشكروني على ما أنعم به عليهم من هذه النعم التي لا تعد ولا تحصى ، واختار ابن جرير - بل جزم به ، ولم يحك غيره إلا احتمالا - أن ما في قوله تعالى : ﴿ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ ﴾ بمعنى الذي تقديره : لياكلوا من ثمره وما عملته أيديهم أي : غرسه ونصبوه ، قال : وهي كذلك في قراءة ابن مسعود رضي الله تعالى عنه ﴿ لِيَأْكُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ أَفَلَا يَشْكُرُونَ ﴾ ، ثم قال تبارك وتعالى : ﴿ سُبْحَنَ الَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ كَلِمًا مِمَّا تَنْبُتُ الْأَرْضُ ﴾ . أي من زروع وثمار ونبات ﴿ وَمِنْ أَنْفُسِهِمْ ﴾ فجعلهم ذكرا وأنثى ﴿ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ ﴾ أي : من مخلوقات شتى لا يعرفونها كما قال جلست عظمته : ﴿ وَبَيْنَ كُلِّ شَيْءٍ خَلْقًا زَجْجِيًّا لَمَّا تَذْكُرُونَ ﴾ .

﴿ وَآيَةٌ لَهُمُ الْبَلُّ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ فَإِذَا هُمْ مُظْلِمُونَ ۝ وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ۝ وَالْقَمَرَ قَدَرْتَهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيرِ ۝ لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا الْبَلُّ الْقَمَرَ ﴾

سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴿٤٠﴾ .

يقول تعالى ومن الدلالة لهم على قدرته تبارك وتعالى العظيمة خلق الليل والنهار ، هذا بظلامه ، وهذا بضياؤه ، وجعلهما يتعاقبان يجيء هذا فيذهب هذا ، ويذهب هذا فيجيء هذا ، كما قال تعالى : ﴿ يَتَّبِعُ اللَّيْلُ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا ﴾ ولهذا قال ﷺ ها هنا : ﴿ وَمَا يَكُونُ لَكُمْ أَلَيْلٌ تَسْلُخُ مِنْهُ النَّهَارَ ﴾ أي : نصرمه منه فيذهب فيقبل الليل ولهذا قال تبارك وتعالى : ﴿ فَإِذَا هُمْ مُنْظَلِمُونَ ﴾ . كما جاء في الحديث : « إِذَا أَقْبَلَ اللَّيْلُ مِنْ هَا هُنَا ، وَأَذْبَرَ النَّهَارَ مِنْ هَا هُنَا ، وَغَرَبَتِ الشَّمْسُ فَقَدْ أَفْطَرَ الصَّائِمُ » ^(١) . هذا هو الظاهر من الآية ، وزعم قتادة أنها كقوله تعالى : ﴿ يُؤَلِّجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُؤَلِّجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ ﴾ وقد ضعف ابن جرير قوله قتادة ها هنا ، وقال : إنما معنى الإيلاج الأخذ من هذا في هذا وليس هذا مرادًا في هذه الآية ^(٢) ، وهذا الذي قاله ابن جرير حق . وقوله ﷺ : ﴿ وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴾ في معنى قوله : ﴿ لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا ﴾ قولان أحدهما : أن المراد مستقرها المكاني وهو تحت العرش بما يلي الأرض من ذلك الجانب ، وهي أينما كانت فهي تحت العرش هي وجميع المخلوقات ؛ لأنه أحقها وليس بكرة . كما يزعمه كثير من أرباب الهيئة ، وإنما هو قبة ذات قوائم تحملها الملائكة ، وهو فوق العالم بما يلي رؤوس الناس ، فالشمس إذا كانت في قبة الفلك وقت الظهيرة تكون أقرب ما تكون إلى العرش ، فإذا استدارت في فلكها الرابع إلى مقابلة هذا المقام ، وهو وقت نصف الليل صارت أبعد ما تكون إلى العرش ، فحينئذ تسجد وتستأذن في الطلوع . كما جاءت بذلك الأحاديث . فعن أبي ذر رضى الله عنه قال : كنت مع النبي ﷺ في المسجد عند غروب الشمس فقال ﷺ : « يَا أَيُّهَا الَّذِي أَتْلُو آيَةَ الْقُرْآنِ تَغْرُبُ الشَّمْسُ ؟ » قلت : الله ورسوله أعلم . قال ﷺ : « فَإِنَّهَا تَذْهَبُ حَتَّى تَسْجُدَ تَحْتَ الْعَرْشِ فَذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴾ » ^(٣) . وعن أبي ذر رضى الله عنه ، قال : سألت رسول الله ﷺ عن قوله تبارك وتعالى : ﴿ وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا ﴾ قال ﷺ : « مُسْتَقَرُّهَا تَحْتَ الْعَرْشِ » ^(٤) .

• القول الثاني : إن المراد بمسقطها هو منتهى سيرها وهو يوم القيامة يطل سيرها ، وتسكن حركتها وتكور ، وينتهي هذا العالم إلى غايته وهذا هو مستقرها الزماني . قال قتادة : ﴿ لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا ﴾ لوقتها ولأجل لا تعدوه ، وقيل : المراد أنها لا تزال تنتقل في مطالعها الصيفية إلى مدة لا تزيد عليها . ثم تنتقل في مطالع الشتاء إلى مدة لا تزيد عليها ، يروى هذا عن عبد الله بن عمرو رضى الله عنه . وقرأ ابن مسعود وابن عباس رضى الله عنهما : (والشمس تجري لا مستقر لها) أي : لا قرار لها ولا سكون ، بل هي سائرة ليلاً ونهارًا لا تفتقر ولا تقف . كما قال تبارك وتعالى : ﴿ وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبَيْنِ ﴾ . أي : لا يفتران ولا يقفان إلى يوم القيامة ﴿ ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ ﴾ أي : الذي لا يخالف ولا يمانع ﴿ الْعَلِيمِ ﴾ بجميع الحركات والسكنات ، وقد قدر ذلك ووقته ذلك على منوال لا اختلاف فيه ولا تعاكس .

(١) أخرجه البخاري في الصوم (١٩٥٤) والإمام أحمد في مسنده (٣٨٠/٤) .

(٢) ذكره الطبري في تفسيره (٨ ، ٧/٢٣) .

(٣) أخرجه البخاري في تفسير القرآن (٤٨٠٢) والترمذي في سننه (٢١٨٦) .

(٤) أخرجه البخاري في التوحيد (٧٤٣٣) ومسلم في الإيمان (٢٥١) .

ثم قال جل وعلا : ﴿ وَالْقَمَرَ قَدَرْتَهُ مَنَازِلَ ﴾ أي : جعلناه يسير سيرا آخر يستدل به على مضي الشهور ، كما أن الشمس يعرف بها الليل والنهار . كما قال ﷻ : ﴿ هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَرَهُ مَنَازِلَ لِيَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ ﴾ الآية . وقال تبارك وتعالى : ﴿ وَجَعَلْنَا آيَاتٍ فَحُوتًا آيَةَ الْيَلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً لِّيَبْتَغُوا فَضْلًا مِّن رَّبِّكَمْ وَلِيَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ وَكُلُّ شَيْءٍ فَصَلَّتْهُ نَقْصِيلاً ﴾ فجعل الشمس لها ضوء يخصها والقمر له نور يخصه ، وفادت بين سير هذه وهذا ، فالشمس تطلع كل يوم وتغرب في آخره على ضوء واحد ، ولكن تنتقل في مطالعها ومغاربها صيفا وشتاء يطول بسبب ذلك النهار ويقصر الليل ، ثم يطول الليل ويقصر النهار ، وجعل سلطانها بالنهار فهي كوكب نهارى ، وأما القمر فقدره منازل يطلع في أول ليلة من الشهر ضئيلًا قليل النور ، ثم يزداد نورًا في الليلة الثانية ، ويرتفع منزلة ثم كلما ارتفع ازداد ضياء وإن كان مقتبسا من الشمس حتى يتكامل نوره في الليلة الرابعة عشرة ، ثم يشرع في النقص إلى آخر الشهر حتى يصير كالعرجون القديم . قال ابن عباس ؓ : وهو أصل العذق . وقال مجاهد : العرجون القديم أي : العذق اليابس . يعني ابن عباس ؓ ، أصل العنقود من الرطب إذا عتق ويس وانحنى .

وكذا قال غيرهما ، ثم بعد هذا يديه الله تعالى جديداً في أول الشهر الآخر ، والعرب تسمي كل ثلاث ليال من الشهر باسم باعتبار القمر ، فيسمون الثلاث الأول : غرر ، واللواتي بعدها : نقل واللواتي بعدها : تسع ؛ لأن آخرهن التاسعة فاللواتي بعدها : عشر ؛ لأن أولاهن العاشرة ، واللواتي بعدها : البيض ؛ لأن ضوء القمر فيهن إلى آخرهن ، واللواتي بعدهن : درع جمع درعاء ؛ لأن أولهن أسود لتأخر القمر في أولهن منه . ومنه الشاة الدرعاء وهي التي رأسها أسود ، وبعدهن ثلاث ظلم ، ثم ثلاث حنادس ، وثلاث دأدي ، وثلاث محاق لامتحاق القمر أول الشهر فيهن ، وكان أبو عبيدة ؓ ينكر التسع والعشر . وكذا قال : في كتاب غريب المصنف .

وقوله تبارك وتعالى : ﴿ لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ ﴾ . قال مجاهد : لكل منهما حد لا يعدوه ولا يقصر دونه إذا جاء سلطان هذا ذهب هذا ، وإذا ذهب سلطان هذا جاء سلطان هذا ، وعن الحسن في قوله تعالى : ﴿ لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ ﴾ قال : ذلك ليلة الهلال . وقال أبو صالح : لا يدرك هذا ضوء هذا ولا هذا ضوء هذا . وقال عكرمة : يعني أن لكل منهما سلطاناً فلا ينبغي للشمس أن تطلع بالليل . وقوله تعالى : ﴿ وَلَا آيَاتُ سَائِغِ النَّهَارِ ﴾ يقول : لا ينبغي إذا كان الليل أن يكون ليل آخر حتى يكون النهار ، فسلطان الشمس بالنهار ، وسلطان القمر بالليل . وقال الضحاک : لا يذهب الليل من هاهنا حتى يجيء النهار من ها هنا وأوماً بيده إلى المشرق . وقال مجاهد : ﴿ وَلَا آيَاتُ سَائِغِ النَّهَارِ ﴾ يطلبان حثيثين يسلم أحدهما من الآخر . والمعنى في هذا أنه لا فترة بين الليل والنهار بل كل منهما يعقب الآخر بلا مهلة ولا تراخ ؛ لأنهما مسخران دائبين يتطلبان طلباً حثيثاً . وقوله تبارك وتعالى : ﴿ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴾ يعني : الليل والنهار والشمس والقمر كلهم يسبحون أي : يدورون في فلك السماء . وقال ابن عباس ؓ وغير واحد من السلف : في فلكة كفلكة المغزل ، وقال مجاهد : الفلك كحديدة الرحي ، أو كفلكة المغزل لا تدور المغزل إلا بها ولا تدور إلا به .

﴿وَمَا يَكُنْ لَّكُمْ أَمَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِي الْفَلَكِ الْمَشْهُورِ ﴿٤١﴾ وَخَلَقْنَا لَهُمْ مِنْ مِثْلِهِ مَا يَرْكَبُونَ ﴿٤٢﴾ وَإِنْ نَشَأْ نُفْرِقَهُمْ فَلَا صَرِيحَ لَكُمْ وَلَا هُمْ يُقَدَّرُونَ ﴿٤٣﴾ إِلَّا رَحْمَةً مِنَّا وَمَتَاعًا إِلَىٰ حِينٍ ﴿٤٤﴾﴾ .

يقول تبارك وتعالى : ودلالة لهم أيضًا على قدرته تبارك وتعالى ، تسخيره البحر ليحمل السفن ، فمن ذلك بل أوله سفينة نوح عليه الصلاة والسلام التي أنجاه الله تعالى فيها بمن معه من المؤمنين الذين لم يبق على وجه الأرض من ذرية آدم عليه الصلاة والسلام غيرهم ؛ ولهذا قال ﷻ : ﴿وَمَا يَكُنْ لَّكُمْ أَمَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ ﴿٤١﴾ أَي : آبائهم ﴿٤٢﴾ فِي الْفَلَكِ الْمَشْهُورِ ﴿٤٣﴾ أَي فِي السَّفِينَةِ الْمَمْلُوءَةِ مِنَ الْأُمْتَعَةِ وَالْحَيَوَانَاتِ الَّتِي أَمَرَهُ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى أَنْ يَحْمِلَ فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ اثْنَيْنِ ، قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ ﷻ : الْمَشْحُونُ الْمَوْقَرُ ، وَقَالَ الضَّحَّاكُ وَقَتَادَةُ وَابْنُ زَيْدٍ : وَهِيَ سَفِينَةُ نُوحٍ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ . وَقَوْلُهُ جَلَّ وَعَلَا : ﴿وَخَلَقْنَا لَهُمْ مِنْ مِثْلِهِ مَا يَرْكَبُونَ ﴿٤٢﴾﴾ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ ﷻ : يَعْنِي بِذَلِكَ الْإِبِلَ فَإِنَّهَا سَفُنُ الْبَرِّ يَحْمِلُونَ عَلَيْهَا وَيَرْكَبُونَهَا . قَالَ السَّيِّدِي فِي رَوَايَةٍ : هِيَ الْأَنْعَامُ . وَعَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ ﷻ قَالَ : أَنْتَدِرُونَ مَا قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿وَخَلَقْنَا لَهُمْ مِنْ مِثْلِهِ مَا يَرْكَبُونَ ﴿٤٢﴾ ؟ قُلْنَا : لَا ، قَالَ : هِيَ السَّفِينُ جَعَلَتْ مِنْ بَعْدِ سَفِينَةِ نُوحٍ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ عَلَى مِثْلِهَا ^(١) . وَيَقْوِي هَذَا الْمَذْهَبُ فِي الْمَعْنَى قَوْلُهُ جَلَّ وَعَلَا : ﴿إِنَّا لَنَا كَلِمَاتُ الْمَلَكَةِ حَمَلَتُكَ فِي اللَّيْلِ ﴿٤١﴾ لِنَجْعَلَهَا لَكَ تَذْكِرَةً وَهِيَ أَذْنٌ رَءِيَّةٌ ﴿٤٢﴾﴾ . وَقَوْلُهُ ﷻ : ﴿وَإِنْ نَشَأْ نُفْرِقَهُمْ ﴿٤٣﴾﴾ يَعْنِي الَّذِينَ فِي السَّفِينِ ﴿٤٤﴾ فَلَا صَرِيحَ لَكُمْ ﴿٤٥﴾ أَي : فَلَا مَغِيثَ لَهُمْ هُمْ فِيهِ ﴿٤٦﴾ وَلَا هُمْ يُقَدَّرُونَ ﴿٤٧﴾ أَي : مِمَّا أَصَابَهُمْ ﴿٤٨﴾ إِلَّا رَحْمَةً مِنَّا ﴿٤٩﴾ . وَهَذَا اسْتِثْنَاءٌ مُنْقَطِعٌ تَقْدِيرُهُ وَلَكِنْ بِرَحْمَتِنَا نَسِيرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ ، وَنَسْلَمُكُمْ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى . وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى : ﴿وَمَتَاعًا إِلَىٰ حِينٍ ﴿٤٤﴾﴾ أَي : إِلَى وَقْتٍ مَعْلُومٍ عِنْدَ اللَّهِ ﷻ .

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ اتَّقُوا مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَمَا خَلْفَكُمْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٥١﴾ وَمَا تَأْتِيهِمْ مِنْ مَائَةٍ مِنْ مَائَةٍ مِنْ مَائَةٍ رَيْبَهُمْ إِلَّا كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴿٥٢﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ أَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ قَالُوا الَّذَيْنِ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْطَعِمُ مَنْ لَوْ يَشَاءُ اللَّهُ أَطْعَمَهُ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴿٥٣﴾﴾ .

يقول تعالى مخبرًا عن تمادي المشركين في غيبتهم وضلالهم ، وعدم اكتراثهم بذنوبهم التي أسلفوها ، وما يستقبلون بين أيديهم يوم القيامة ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ اتَّقُوا مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَمَا خَلْفَكُمْ ﴿٥١﴾﴾ قَالَ مُجَاهِدٌ : مِنَ الذَّنُوبِ . وَقَالَ غَيْرُهُ : بِالْعَكْسِ ﴿لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٥٢﴾﴾ أَي : لَعَلَّ اللَّهَ بِاتِّقَائِكُمْ ذَلِكَ يَرْحَمَكُمْ وَيُؤْمِنُكُمْ مِنْ عَذَابِهِ . وَتَقْدِيرُ الْكَلَامِ أَنَّهُمْ لَا يَجِيبُونَ إِلَى ذَلِكَ بَلْ يَعْضُونَ عَنْهُ ، وَكَتَفَى عَنْ ذَلِكَ بِقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿وَمَا تَأْتِيهِمْ مِنْ مَائَةٍ مِنْ مَائَةٍ مِنْ مَائَةٍ رَيْبَهُمْ ﴿٥١﴾﴾ أَي : عَلَى التَّوْحِيدِ وَصَدَقَ الرَّسُلُ ﴿٥٢﴾ إِلَّا كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴿٥٣﴾ أَي : لَا يَتَأَمَّلُونَهَا وَلَا يَقْبَلُونَهَا وَلَا يَنْتَفِعُونَ بِهَا . وَقَوْلُهُ ﷻ : ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ أَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ ﴿٥١﴾﴾ أَي : وَإِذَا أَمُرُوا بِالْإِنْفَاقِ مِمَّا رَزَقَهُمُ اللَّهُ عَلَى الْفُقَرَاءِ ، وَالْمَحَاجِرِينَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴿٥٢﴾ قَالُوا الَّذَيْنِ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا ﴿٥٣﴾ أَي : عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا مِنَ الْفُقَرَاءِ أَي : قَالُوا لِمَنْ أَمْرُهُمْ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ بِالْإِنْفَاقِ مُحَاجِينَ لَهُمْ فِيمَا أَمَرُوهُمْ بِهِ : ﴿أَنْطَعِمُ مَنْ لَوْ يَشَاءُ اللَّهُ أَطْعَمَهُ ﴿٥١﴾ ؟ أَي : هَؤُلَاءِ الَّذِينَ أَمَرْتُمُونَا بِالْإِنْفَاقِ عَلَيْهِمْ ، لَوْ شَاءَ اللَّهُ لِأَغْنَاهُمْ وَلَأَطْعَمَهُمْ مِنْ رِزْقِهِ فَنَحْنُ نَوَافِقُ مَشِيقَةَ اللَّهِ تَعَالَى فِيهِمْ . ﴿٥٢﴾ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴿٥٣﴾﴾ أَي : فِي أَمْرِكُمْ لَنَا بِذَلِكَ .

﴿ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَذَا الْوَعْدُ إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ ٥٨ مَا يَنْظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ ٥٩ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً وَلَا إِلَىٰ أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ ٦٠ .

يخبر تعالى عن استبعاد الكفرة لقيام الساعة في قولهم : ﴿ مَتَىٰ هَذَا الْوَعْدُ ﴾ قال الله ﷻ : ﴿ مَا يَنْظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ ﴾ أي : ما ينتظرون إلا صيحة واحدة . وهذه والله أعلم نفخة الفزع . ينفخ في الصور نفخة الفزع والناس في أسواقهم ومعاشهم يختصمون ويشاجرون على عاداتهم ، فبينما هم كذلك إذ أمر الله ﷻ لإسرائيل فنفخ في الصور نفخة يطولها ويمدها ، فلا يبقى أحد على وجه الأرض إلا أصفى ليثاً ورفع ليثاً ، وهي صفحة العنق يتسمع الصوت من قبل السماء ، ثم يساق الموجودون من الناس إلى محشر القيامة بالنار تحيط بهم من جوانبهم ، ولهذا قال تعالى : ﴿ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً ﴾ أي : على ما يملكونه ، الأمر أهم من ذلك ﴿ وَلَا إِلَىٰ أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ ﴾ وقد وردت ها هنا آثار وأحاديث ذكرناها في موضع آخر ، ثم يكون بعد هذا نفخة الصعق التي تموت بها الأحياء كلهم ما عدا الحي القيوم ، ثم بعد ذلك نفخة البعث .

﴿ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَإِذَا هُمْ مِنَ الْأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنْسِلُونَ ﴾ ٦١ قَالُوا يَوَيْلَنَا مِنْ بَعَثَانَا مَرْقَدًا ٦٢ هَذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَنُ وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ ٦٣ إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَدَيْنَا مُحْضَرُونَ ٦٤ قَالِیْمٌ لَا تَنْظَلُمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَلَا تُحْزَنُونَ إِلَّا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ٦٥ .

هذه هي النفخة الثالثة ، وهي نفخة البعث والنشور للقيام من الأجداث والقبور . ولهذا قال تعالى : ﴿ فَإِذَا هُمْ مِنَ الْأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنْسِلُونَ ﴾ والنسلان هو المشي السريع . كما قال تعالى : ﴿ يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ يَرَوْنَهَا كَأَنَّهِمْ إِلَىٰ نَسَبٍ يُوَفُّونَ ﴾ ﴿ قَالُوا يَوَيْلَنَا مِنْ بَعَثَانَا مَرْقَدًا ﴾ يعنون قبورهم التي كانوا يعتقدون في الدار الدنيا أنهم لا يبعثون منها ، فلما عاينوا ما كذبوا به في محشرهم ، ﴿ قَالُوا يَوَيْلَنَا مِنْ بَعَثَانَا مَرْقَدًا ﴾ وهذا لا ينفي عذابهم في قبورهم لأنه بالنسبة إلى ما بعده في الشدة كالرقاد . وقال أبي بن كعب ؓ ومجاهد والحسن وقادة : ينامون نومة قبل البعث . قال قتادة : وذلك بين النفختين ، فلذلك يقولون : من بعثنا من مرقدا . فإذا قالوا ذلك أجابهم المؤمنون ﴿ هَذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَنُ وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ ﴾ وقال الحسن : إنما يجيبهم بذلك الملائكة ، ولا منافاة إذا الجمع ممكن والله ﷻ أعلم . وقال عبد الرحمن بن زيد : الجميع من قول الكفار . ﴿ يَوَيْلَنَا مِنْ بَعَثَانَا مَرْقَدًا ٦٢ هَذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَنُ وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ ﴾ . نقله ابن جرير واختار الأول وهو أصح .

وقوله تعالى : ﴿ إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَدَيْنَا مُحْضَرُونَ ﴾ . كقوله ﷻ : ﴿ فَإِنَّمَا مِنْ زَجْرَةٍ وَاحِدَةٍ ٦٦ فَإِذَا هُمْ بِالنَّارِ ٦٧ ﴾ . وقال جل جلاله : ﴿ يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِ وَتَنْتَوْنُ أَنْ لَيْتَكُمْ إِلَّا قَلِيلًا ٦٨ ﴾ أي : إنما نأمركم أمراً واحداً ، فإذا الجميع محضرون . ﴿ قَالِیْمٌ لَا تَنْظَلُمُ نَفْسٌ شَيْئًا ﴾ أي : من عملها ﴿ وَلَا تُحْزَنُونَ إِلَّا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ .

﴿ إِنَّ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ الْيَوْمَ فِي شُغْلٍ فَكِهِونَ ٦٩ ثُمَّ وَأَوَّجُهُمْ فِي ظِلَالٍ عَلَى الْأَرْبَابِ مُتَكُونَ ٧٠ لَمْ يَنَالُوا فِيهَا فَكْهَةً وَلَهُمْ مَا يَدْعُونَ ٧١ سَلَامٌ قَوْلًا مِنْ رَبِّ رَحِيمٍ ٧٢ ﴾ .

يخبر تعالى عن أهل الجنة . أنهم يوم القيامة إذا ارتحلوا من العرصات فنزلوا في روضات الجنات

أنهم في شغل عن غيرهم بما هم فيه من النعيم المقيم والفوز العظيم . قال الحسن البصري وإسماعيل ابن أبي خالد : في شغل عما فيه أهل النار من العذاب . وقال مجاهد : ﴿ فِي شُغْلٍ فَكَيْهُونَ ﴾ أي : في نعيم معجبون أي به ، وكذا قال قتادة : وقال ابن عباس رضي الله عنه : ﴿ فَكَيْهُونَ ﴾ أي فرحون ، قال عبد الله بن مسعود وابن عباس رضي الله عنهما وسعيد بن المسيب وغيرهم : شغلهم اقتضاض الأبكار وقوله عليه السلام : ﴿ ثُمَّ زَاوَجَهُمْ ﴾ قال مجاهد : حلالهم ﴿ فِي ظِلِّلٍ ﴾ أي في ظلال الأشجار ﴿ عَلَى الْأَرَاكِ مَكُونُونَ ﴾ قال ابن عباس ومجاهد وعكرمة ومحمد بن كعب والحسين وقتادة والسدي وخصيف : ﴿ الْأَرَاكِ ﴾ هي : السرر تحت الحجال قلت : نظيره في الدنيا هذه التخوت تحت البشاخين والله أعلم . وقوله عليه السلام : ﴿ لَمْ يَمُنْ فِيهَا فَكَيْهَةٌ ﴾ أي : من جميع أنواعها ﴿ وَلَمْ تَأْ يَدْعُونَ ﴾ : مهما طلبوا وجدوا من جميع أصناف الملاذ .

عن أسامة بن زيد رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أَلَا هَلْ مُشِعِرٌ إِلَى الْجَنَّةِ ! فَإِنَّ الْجَنَّةَ لَا خَطَرَ لَهَا ، هِيَ وَرَبِّ الْكَفَّةِ نُورٌ كُلُّهَا يَتَلَأَلُ ، وَرِيحَانَةٌ تَهْتَرُ ، وَقَصْرٌ مَشِيدٌ وَنَهْرٌ مُطَرِدٌ ، وَثَمَرَةٌ نَضِيجَةٌ ، وَزَوْجَةٌ حَشَنَاءُ جَمِيلَةٌ وَخَلْلٌ كَثِيرٌ ، وَمَقَامٌ فِي أَبَدٍ فِي دَارِ سَلَامَةٍ ، وَفَاكِهَةٌ خَضِرَةٌ ، وَخَيْرٌ وَنِعْمَةٌ فِي مَحَلَّةٍ عَالِيَةٍ بَهِيَّةٍ » . قالوا : نعم يا رسول الله نحن المَشْعِرُونَ لَهَا ، قال صلى الله عليه وسلم : « قُولُوا إِنْ شَاءَ اللَّهُ » فقال القوم : إِنْ شَاءَ اللَّهُ ^(١) . وقوله تعالى : ﴿ سَلِّمْتُ قَوْلًا مِنْ رَبِّ رَجِيمٍ ﴾ قال ابن عباس رضي الله عنه في قوله تعالى : ﴿ سَلِّمْتُ قَوْلًا مِنْ رَبِّ رَجِيمٍ ﴾ فَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى نَفْسَهُ سَلَامٌ عَلَى أَهْلِ الْجَنَّةِ . وهذا الذي قاله ابن عباس رضي الله عنه كقوله تعالى : ﴿ يَحْيِيهِمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ سَلِّمٌ ﴾ .

﴿ وَاتَّخَذُوا أَلْوَمَ أَيُّهَا النَّجْمُونَ ﴾ ﴿ أَلَمْ نَعْهَدْ إِلَيْكُمْ بَنِي آدَمَ أَنْ لَا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُرْ عَدُوٌّ مُبِينٌ ﴾ ﴿ وَإِنْ أَعْبُدْتُمْ هَذَا صِرْطٌ مُسْتَقِيمٌ ﴾ وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنْكُمْ جِبَلًا كَثِيرًا أَفَلَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ .

يقول تعالى مخبراً عما يؤول إليه حال الكفار يوم القيامة من أمره لهم أن يمتازوا بمعنى : يتميزون عن المؤمنين في موقفهم كقوله تعالى : ﴿ وَيَوْمَ نَقُومُ السَّاعَةَ يُؤْمِدُ بِفَرْقَتِكَ ﴾ ﴿ يَوْمَئِذٍ يَصْدَعُونَ ﴾ أي : يصيرون صاعدين فرقين ﴿ لَنُخْرِجَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَرْجَمَهُمْ وَمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ ﴾ ﴿ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَاهْتَدُوا إِلَى صِرْطِ الْحَقِّ ﴾ . وقوله تعالى : ﴿ أَلَمْ نَعْهَدْ إِلَيْكُمْ بَنِي آدَمَ أَنْ لَا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُرْ عَدُوٌّ مُبِينٌ ﴾ هذا تقرير من الله تعالى للكفرة من بني آدم الذين أطاعوا الشيطان ، وهو عدو لهم مبين ، وعصوا الرحمن وهو الذي خلقهم ورزقهم . ولهذا قال تعالى : ﴿ وَإِنْ أَعْبُدْتُمْ هَذَا صِرْطٌ مُسْتَقِيمٌ ﴾ أي : قد أمرتكم في دار الدنيا بعضيان الشيطان ، وأمرتكم بعبادتي . وهذا هو الصراط المستقيم فسلكتهم غير ذلك واتبعت الشيطان فيما أمركم به . ولهذا قال عليه السلام : ﴿ وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنْكُمْ جِبَلًا كَثِيرًا ﴾ يقال : جبلاً بكسر الجيم وتشديد اللام ، ويقال : جبلاً بضم الجيم والباء وتخفيف اللام ، ومنهم من يسكن الباء والمراد بذلك الخلق الكثير ^(٢) . قاله مجاهد وقتادة والسدي . وقوله تعالى : ﴿ أَفَلَمْ تَكُونُوا

(١) أخرجه ابن ماجه في سننه (٤٣٣٢) وذكره السيوطي في الدر المنثور (٣٦/١) ، (١٨٧/٢) .

(٢) قرأ أبو عمرو وابن عامر ﴿ جِبَلًا ﴾ بضم الجيم وسكون الباء ، وابن كثير وحزمة والكسائي ﴿ جِبَلًا ﴾ بضمنتين ، والباقرن ﴿ جِبَلًا ﴾ (انظر : حجة القراءات ص ٦٠٢) .

تَعْمَلُونَ ﴿٦٣﴾ أَيُّ أَمَّا كَانَ لَكُمْ عَقْلٌ فِي مَخَالَفَةِ رَبِّكُمْ فِيمَا أَمَرَكُمْ بِهِ مِنْ عِبَادَتِهِ وَحَدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ وَعَدُولَكُمْ إِلَى اتِّبَاعِ الشَّيْطَانِ . وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ؓ : أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ : « إِذَا كَانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ أَمَرَ اللَّهُ تَعَالَى جَهَنَّمَ فَيُخْرِجُ مِنْهَا عُنُقَ سَاطِعٍ مُظْلِمٍ يَقُولُ : ﴿ أَلَمْ أَعْهِدْ إِلَيْكُمْ بَيْنِي مَادَمَ أَنْ لَا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ ﴾ ٦٣ وَأَنْ أَعْبُدُونِي هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ ٦٤ وَلَقَدْ أَصَلَّ مِنْكُمْ جِيلًا كَثِيرًا أَقَلَّمْ تَكُونُوا تَعْمَلُونَ ٦٥ هَذِهِ جَهَنَّمَ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ ﴾ . ﴿ وَأَمْسُرُوا آلِهَتَكُمْ الْيَوْمَ الْمُجْرِمُونَ ﴾ ٦٦ (١) فَيُمَيِّزُ النَّاسَ وَيَجْعَلُونَ ، وَهِيَ الَّتِي يَقُولُ اللَّهُ ﷻ : ﴿ وَرَبِّیْ كُلِّ شَيْءٍ جَانِبَهُ كُلُّ شَيْءٍ يُدْعَى إِلَى كَنِيبَتِهَا الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ .

﴿ هَذِهِ جَهَنَّمَ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ ﴾ ٦٧ أَصْلَوْهَا الْيَوْمَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ ٦٨ الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَى أَفْوَاهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَنَشْهَدُ أَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ٦٩ وَلَوْ نَشَاءُ لَطَمَسْنَا عَلَى أَعْيُنِهِمْ فَاسْتَبَقُوا الصِّرَاطَ فَأَنْزَلُنَاهُمْ ٧٠ وَلَوْ نَشَاءُ لَمَسَخْنَاهُمْ عَلَى مَكَانَتِهِمْ فَمَا اسْتَطَاعُوا مُضِيًّا وَلَا يَرْجِعُونَ ﴾ .

يَقَالُ لِلْكَفَرَةِ مِنْ بَنِي آدَمَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَقَدْ بَرَزَتْ الْجَحِيمَ لَهُمْ تَقْرِيقًا وَتَوْبِيخًا : ﴿ هَذِهِ جَهَنَّمَ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ ﴾ أي : هذه التي حذرتكم الرسل فكذبتموهم ﴿ أَصْلَوْهَا الْيَوْمَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ ﴾ . وقوله تعالى : ﴿ الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَى أَفْوَاهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَنَشْهَدُ أَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾ هذا حال الكفار والمنافقين يوم القيامة حين ينكرون ما اجترموا في الدنيا ويحلفون ما فعلوه ، فيختم الله على أفواههم ويستنطق جوارحهم بما عملت .

فَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ؓ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فِي حَدِيثِ الْقِيَامَةِ الطَّوِيلِ قَالَ فِيهِ : « ثُمَّ يُلْقَى الثَّلَاثُ فَيَقُولُ : مَا أَنْتَ ؟ فَيَقُولُ : أَنَا عَبْدُكَ آمَنْتُ بِكَ وَبَنَيْتُكَ وَبِكِتَابِكَ ، وَصُنْتُ وَصَلَيْتُ وَتَصَدَّقْتُ ، وَيُثْنِي بِخَيْرٍ مَا اسْتَطَاعَ » قَالَ - فَيَقَالُ لَهُ : أَلَا نَبَعْتُ عَلَيْكَ شَاهِدًا ؟ - قَالَ : فَيَمُكِّرُ فِي نَفْسِهِ مَنْ الَّذِي يَشْهَدُ عَلَيْهِ ، فَيُخْتَمُ عَلَى فِيهِ وَيَقَالُ لِفَخْذِهِ : انْطِقِي » قَالَ : « فَتَنْطِقُ فِخْذُهُ وَلَحْمُهُ وَعِظَامُهُ بِمَا كَانَ يَفْعَلُ . وَذَلِكَ الْمُنَافِقُ ، وَذَلِكَ لِيُعَذَّرَ مِنْ نَفْسِهِ ، وَذَلِكَ الَّذِي يَسْخَطُ اللَّهُ تَعَالَى عَلَيْهِ » (٢) .

وَعَنْ عَقْبَةَ بْنِ عَامِرٍ ؓ أَنَّهُ سَمِعَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ : « إِنَّ أَوَّلَ عَظْمٍ مِنَ الْإِنْسَانِ يَتَكَلَّمُ يَوْمَ يُخْتَمُ عَلَى الْأَفْوَاهِ فِخْذُهُ مِنَ الرَّجُلِ الْيُسْرَى » (٣) . وَقَالَ أَبُو مُوسَى الْأَشْعَرِيُّ ؓ : يَدْعَى الْمُؤْمِنَ لِلْحِسَابِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَيَعْرِضُ عَلَيْهِ رَبُّهُ عَمَلَهُ فِيمَا بَيْنَهُ وَبَيْنَهُ ، فَيُعْتَرَفُ فَيَقُولُ : نَعَمْ أَيُّ رَبِّ عَمَلْتَ عَمِلْتَ عَمِلْتَ قَالَ : فَيَغْفِرُ اللَّهُ تَعَالَى لَهُ ذُنُوبَهُ وَيَسْتَرُهُ مِنْهَا ، قَالَ : فَمَا عَلَى الْأَرْضِ خَلِيقَةً تَرَى مِنْ تِلْكَ الذُّنُوبِ شَيْئًا وَتَبْدُو حَسَنَاتِهِ فَوَدَّ أَنْ النَّاسَ كُلَّهُمْ يَرُونَهَا ، وَيَدْعَى الْكَافِرَ وَالْمُنَافِقَ لِلْحِسَابِ ، فَيَعْرِضُ عَلَيْهِ رَبُّهُ عَمَلَهُ فَيَجْحَدُ وَيَقُولُ : أَيُّ رَبِّ : وَعَزَّتْكَ لَقَدْ كَتَبَ عَلَيَّ هَذَا الْمَلِكُ مَا لَمْ أَعْمَلْ ، فَيَقُولُ لَهُ الْمَلِكُ : أَمَا عَمِلْتَ كَذَا فِي يَوْمٍ كَذَا فِي مَكَانٍ كَذَا ؟ فَيَقُولُ : لَا وَعَزَّتْكَ أَيُّ رَبِّ مَا عَمِلْتَهُ ، فَإِذَا فَعَلَ ذَلِكَ خَتَمَ اللَّهُ تَعَالَى عَلَى فِيهِ . قَالَ أَبُو مُوسَى الْأَشْعَرِيُّ ؓ : فَإِنِّي أَحْسَبُ أَوَّلَ مَا يَنْطِقُ مِنْهُ الْفَخْذُ الْيَمْنَى . ثُمَّ تَلَا : ﴿ الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَى أَفْوَاهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَنَشْهَدُ أَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾ (٤) .

(١) ذكره ابن جرير الطبري في تفسيره (٢٨/٢٣) .

(٢) أخرجه مسلم في الزهد (١٦) .

(٣) أخرجه أحمد في مسنده (١٥١/٤) .

(٤) ذكره ابن جرير الطبري في تفسيره (٣٠/٢٣) .

وقوله تبارك وتعالى : ﴿ وَلَوْ نَشَاءُ لَطَمَسْنَا عَلَى أَعْيُنِهِمْ فَاسْتَبَقُوا الصِّرَاطَ فَأَنْتَ يُبَصِّرُكَ ﴾ قال ابن عباس رضي الله عنه في تفسيرها : ولو نشاء لأضللناهم عن الهدى فكيف يهتدون ؟ وقال مرة : أعميناهم . وقال الحسن البصري : لو شاء الله لطمس على أعينهم فجعلهم عميا يترددون . وقال السدي : يقول : ولو نشاء أعمينا أبصارهم . وقال مجاهد وأبو صالح وقتادة والسدي : ﴿ فَاسْتَبَقُوا الصِّرَاطَ ﴾ يعني الطريق . وقال ابن زيد : يعني : الحق ، فأني يصرون وقد طمسنا على أعينهم ؟ . وقال ابن عباس رضي الله عنه : فأني يصرون ، لا يصرون الحق . وقوله ﷻ : ﴿ وَلَوْ نَشَاءُ لَمَسَخْنَاهُمْ عَلَى مَكَانَتِهِمْ ﴾ قال ابن عباس رضي الله عنه : أهلكناهم . وقال السدي : لغيرنا خلقهم . وقال أبو صالح : لجعلناهم حجارة ، وقال الحسن البصري وقتادة : لأقعدهم على أرجلهم ، ولهذا قال تبارك وتعالى : ﴿ فَمَا اسْتَطَعُوا مُضِيَاً ﴾ أي : إلى أمام ﴿ وَلَا يَرْجِعُونَ ﴾ إلى وراء بل يلزمون حالاً واحداً لا يتقدمون ولا يتأخرون .
﴿ وَمَنْ نُعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ فِي الْخَلْقِ أَفَلَا يَعْقِلُونَ ﴾ وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنْبَغِي لَهُ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُبِينٌ ﴿ لِنُنذِرَ مَنْ كَانَ حَيًّا وَيَحِقَّ الْقَوْلُ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴾ .

يخبر تعالى عن ابن آدم أنه كلما طال عمره رد إلى الضعف بعد القوة ، والعجز بعد النشاط . كما قال تبارك وتعالى : ﴿ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ ضَعِفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ ضَعِفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْقَدِيرُ ﴾ والمراد من هذا والله أعلم الإخبار عن هذه الدار بأنها دار زوال وانتقال لا دار دوام واستقرار ؛ ولهذا قال ﷻ : ﴿ أَفَلَا يَعْقِلُونَ ﴾ أي : يتفكرون بعقولهم في ابتداء خلقهم ، ثم صيرورتهم إلى سن الشيبة ثم إلى الشيخوخة ، ليعلموا أنهم خلقوا لدار أخرى لا زوال لها ولا انتقال منها ولا محيد عنها . وهي الدار الآخرة . وقوله تبارك وتعالى : ﴿ وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنْبَغِي لَهُ ﴾ يقول ﷻ مخبراً عن نبيه محمد ﷺ ، أنه ما علمه الشعر ﴿ وَمَا يَنْبَغِي لَهُ ﴾ أي : ما هو في طبعه فلا يحسنه ولا يحبه ولا تقتضيه جبلته . ولهذا أورد أنه ﷺ كان لا يحفظ بيتاً على وزن منتظم ، بل إن أنشده زحفه أو لم يتمه . وعن الشعبي أنه قال : ما ولد عبد المطلب ذكراً ولا أنثى إلا يقول الشعر إلا رسول الله ﷺ . وعن الحسن هو البصري قال : إن رسول الله ﷺ كان يتمثل بهذا البيت :

كفى بالإسلام والشيب للمرء ناهياً

فقال أبو بكر رضي الله عنه : يا رسول الله :

كفى الشيب والإسلام للمرء ناهياً

قال أبو بكر أو عمر رضي الله عنه : أشهد أنك رسول الله يقول تعالى : ﴿ وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنْبَغِي لَهُ ﴾ ^(١) . وعن قتادة : قيل لعائشة رضي الله عنها : هل كان رسول الله ﷺ يتمثل بشيء من الشعر ؟ قالت رضي الله عنها : كان أبعض الحديث إليه ، غير أنه ﷺ كان يتمثل ببيت أخي بني قيس فيجعل أوله آخره وآخره أوله فقال أبو بكر رضي الله عنه : ليس هذا هكذا يا رسول الله ، فقال رسول الله ﷺ : « إِنِّي وَاللَّهِ مَا أَنَا بِشَاعِرٍ وَمَا يَنْبَغِي لِي » ^(٢) . وثبت في الصحيح أنه ﷺ تمثل يوم حفر الخندق بأبيات عبد الله بن رواحة رضي الله عنه ،

(١) أخرجه أحمد في مسنده (١٥٦/٦) .

(٢) ذكره الطبري في تفسيره (٣٤/٢٣) والسيوطي في الدرر (٧١/٧) .

ولكن تبعاً لقول أصحابه ﷺ فإنهم كانوا يرتجزون وهم يحفرون فيقولون :

لَا هُمْ لَوْ لَا أَنْتَ مَا اهْتَدَيْنَا وَلَا تَصَدَّقْنَا وَلَا صَلَّيْنَا
فَأَنْزَلْنَا سَكِينَةً عَلَيْنَا وَتُبَّتِ الْأَقْدَامُ إِنْ لَأَقَيْنَا
إِنْ الْأُولَى قَدْ بَغَوْا عَلَيْنَا إِذَا أَرَادُوا فِتْنَةً أَبَيْنَا

ويرفع ﷺ صوته بقوله : أيينا ويمدها ^(١) . وقد روي هذا بزحاف أيضاً ، وكذا ثبت أنه ﷺ قال يوم حنين وهو راكب البغلة يقدم بها في نحور العدو :

أَنَا النَّبِيُّ لَا كَذِبَ أَنَا ابْنُ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ ^(٢)

لكن قالوا : هذا وقع اتفاقاً من غير قصد لوزن شعر بل جرى على اللسان من غير قصد إليه . وكذلك ما ثبت عن جندب بن عبد الله ﷺ قال : كنا مع رسول الله ﷺ في غار فنكبت أصبعه فقال ﷺ :

هَلْ أَنْتِ إِلَّا إِضْبَعٌ دَمِيتُ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ مَا لَقِيتُ ^(٣)
وسأيتني عند قوله تعالى : ﴿ إِلَّا اللَّهُ ﴾ إنشاد :

إِنْ تَغْفِرِ اللَّهُمَّ تَغْفِرْ جَمًّا وَأَيُّ عَبْدٍ لَكَ مَا أَلَمَّا ^(٤)

وكل هذا لا ينافي كونه ﷺ ما علم شعراً وما ينبغي له ، فإن الله تعالى إنما علمه القرآن العظيم ﴿ لَا يَأْتِيهِ الْبُطْلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴾ وليس هو بشعر كما زعمه طائفة من جهلة كفار قريش ولا كهانة ولا مفتعل ولا سحر يؤثر ، كما تنوعت فيه أقوال الضلال وآراء الجهال . وقد كانت سجيته ﷺ تأبى صناعة الشعر طبعاً وشرعاً ، كما رواه عبد الله بن عمرو رضي الله عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « مَا أَبَالِي مَا أُوْتِيتُ إِنْ أَنَا شَرِبْتُ تَزْيَاقًا ، أَوْ تَعَلَّقْتُ تَمِيمَةً ، أَوْ قُلْتُ الشُّعْرَ مِنْ قِتْلِ نَفْسِي » ^(٥) .

على أن الشعر فيه ما هو مشروع وهو هجاء المشركين الذين كان يتعاطاه شعراء الإسلام كحسان ابن ثابت رضي الله عنه . وكعب بن مالك ، وعبد الله بن رواحة وأمثالهم وأضرابهم رضي الله عنهم . ومنه ما فيه حكم ومواعظ وآداب . كما يوجد في شعر جماعة من الجاهلية . ومنهم أمية بن أبي الصلت الذي قال فيه رسول الله ﷺ : « أَمِنْ شِعْرِهِ وَكَفَرَ قَلْبُهُ » ^(٦) . وقد أنشد بعض الصحابة رضي الله عنهم للنبي ﷺ مائة بيت يقول ﷺ عقب كل بيت : « هيه » ^(٧) . يعني : يستطيعه فيزيده من ذلك . وقد روى أبو

(١) أخرجه البخاري في المغازي (٤١٠٦) والإمام أحمد في مسنده (٢٨٢/٤) .

(٢) أخرجه البخاري في المغازي (٤٣١٥ ، ٤٣١٦) ومسلم في الجهاد والسير (٧٨) .

(٣) أخرجه البخاري في الجهاد والسير (٢٨٠٢) ومسلم في الجهاد (١١٢) والترمذي في سننه (٣٣٤٥) .

(٤) أخرجه الحاكم في المستدرک (٤٦٩/٢) .

(٥) أخرجه أبو داود في السنن (٣٨٦٩) والبيهقي في السنن (٣٥٥/٩) .

(٦) ذكره الهندي في كنز العمال (١٥٢٤١) .

(٧) أخرجه مسلم في الشعر (١) وابن ماجه في سننه (٣٧٥٨) والبيهقي في الكبرى (٢٢٧/١٠) .

داود من حديث أبي بن كعب وبريدة بن الحصيب وعبد الله بن عباس ؓ أن رسول الله ﷺ قال : « إِنَّ مِنَ الْبَيِّنَاتِ سِحْرًا ، وَإِنَّ مِنَ الشَّعْرِ حِكْمًا » ^(١) . ولهذا قال : ﴿ وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ ﴾ يعني محمدًا ﷺ ما علمه الشعر ﴿ وَمَا يَنْبَغِي لَهُ ﴾ أي : وما يصلح له ﴿ إِنَّ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُبِينٌ ﴾ أي : ما هذا الذي علمناه ﴿ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُبِينٌ ﴾ أي : بين واضح جلي لمن تأمله وتدبره ؛ ولهذا قال تعالى : ﴿ لِيُنذِرَ مَن كَانَ حَيًّا ﴾ أي : لينذر هذا القرآن المبين كل حي على وجه الأرض . وإنما ينتفع بنذارته من هو حي القلب مستنير البصيرة . كما قال قتادة : حي القلب حي البصر . وقال الضحاك : يعني : عاقلًا ﴿ وَيَحَقِّقَ الْقَوْلَ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴾ أي : هو رحمة للمؤمنين وحجة على الكافرين .

﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُمْ مِنَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَمًا فَهُمْ لَهَا مَالِكُونَ ﴾ ^(٢) وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ فَمِنهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنهَا يَأْكُلُونَ ^(٣) وَلَمْ يَكُنْ فِيهَا مَنَافِعٌ وَمَشَارِبٌ أَفَلَا يَشْكُرُونَ ﴾ .

يذكر تعالى ما أنعم به على خلقه من هذه الأنعام التي سخرها لهم ﴿ فَهُمْ لَهَا مَالِكُونَ ﴾ قال قتادة : مطبقون أي : جعلهم يقهرونها . وهي ذليلة لهم لا تمتنع منهم بل لو جاء صغير إلى بعير لأناخه ، ولو شاء لأقامه وساقه ، وذاك ذليل منقاد معه . وكذا لو كان القطار مائة بعير أو أكثر لسار الجميع بسير الصغير . وقوله تعالى : ﴿ فَمِنهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنهَا يَأْكُلُونَ ﴾ أي : منها ما يركبون في الأسفار ، ويحملون عليه الأثقال إلى سائر الجهات والأقطار ﴿ وَمِنهَا يَأْكُلُونَ ﴾ إذا شاءوا نحروا واجتزروا ﴿ وَلَمْ يَكُنْ فِيهَا مَنَافِعٌ ﴾ أي : من أصوافها وأوبارها وأشعارها أثاثًا ومتاعًا إلى حين ﴿ وَمَشَارِبٌ ﴾ أي : من ألبانها وأبوالها لمن يتداوى ونحو ذلك ﴿ أَفَلَا يَشْكُرُونَ ﴾ أي : أفلا يوحّدون خالق ذلك ومسخره ولا يشركون به غيره ؟

﴿ وَاتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لَّعَلَّهُم يُنصَرُونَ ﴾ ^(٤) لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ وَهُمْ لَهُمْ جُنْدٌ مُّحْضَرُونَ ^(٥) فَلَا يَخْزِيكَ قَوْلُهُمْ إِنَّا نَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴾ .

يقول تعالى منكرًا على اتخاذهم الأنداد آلهة مع الله يتغون بذلك أن تنصرهم تلك الآلهة وترزقهم وتقربهم إلى الله زلفى ، قال الله تعالى : ﴿ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ ﴾ أي : لا تقدر الآلهة على نصر عابديها ، بل هي أضعف من ذلك وأقل وأذل وأحق وأدحر ، بل لا تقدر على الاستنصار لأنفسها ولا الانتقام ممن أرادها بسوء ؛ لأنها جماد لا تسمع ولا تعقل . وقوله تبارك وتعالى : ﴿ وَهُمْ لَهُمْ جُنْدٌ مُّحْضَرُونَ ﴾ قال مجاهد : يعني عند الحساب ، يريد أن هذه الأصنام محشورة مجموعة يوم القيامة محضرة عند حساب عابديها ؛ ليكون ذلك أبلغ في جزئهم وأدل عليهم في إقامة الحجة عليهم . وقال قتادة : ﴿ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ ﴾ يعني : الآلهة ﴿ وَهُمْ لَهُمْ جُنْدٌ مُّحْضَرُونَ ﴾ والمشركون يغيضون الآلهة في الدنيا ، وهي لا تسوق إليهم خيرًا ولا تدفع عنهم شرًا ، وإنما هي أصنام ، وهكذا قال الحسن البصري ، وهذا القول : حسن وهو اختيار ابن جرير ؒ تعالى . وقوله تعالى ﴿ فَلَا يَخْزِيكَ قَوْلُهُمْ ﴾ أي تكذيبهم لك وكفرهم بالله ﴿ إِنَّا نَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴾ أي : نحن نعلم جميع ما هم فيه وسنجزئهم وصفهم ، ونعاملهم على ذلك يوم لا يفقدون من أعمالهم جليلًا ولا حقيرًا ولا صغيرًا ولا كبيرًا ، بل يعرض عليهم جميع ما كانوا يعملون قديمًا وحديثًا .

(١) أخرجه الإمام أحمد في مسنده (٢٦٩/١) وأبو داود في سننه (٥٠١١ ، ٥٠١٢) .

﴿ أَوَلَمْ يَرِ الْإِنْسَنُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ﴾ (٧٨) وَصَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُعْطِي الْعِظَمَ وَهِيَ رَمِيمٌ ﴿ ٧٩ ﴾ قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴿ ٨٠ ﴾ الَّذِي جَعَلَ لَكُم مِّنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَا أَنْتُمْ تُؤْفِكُونَ ﴾ .

قال مجاهد وعكرمة وعروة بن الزبير والسدي وقتادة : جاء أبي بن خلف - لعنه الله - إلى رسول الله ﷺ وفي يده عظم رميم ، وهو يفته ويدروه في الهواء وهو يقول : يا محمد أترعّم أن الله يبعث هذا ؟ قال ﷺ : « نَعَمْ يُحْيِيكَ اللَّهُ تَعَالَى ، ثُمَّ يَمُوتُكَ ، ثُمَّ يَحْشُرُكَ إِلَى النَّارِ » (١) . ونزلت هذه الآيات من آخر يس ﴿ أَوَلَمْ يَرِ الْإِنْسَنُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِن نُّطْفَةٍ ﴾ إلى آخرهن .

والألف واللام في قوله تعالى : ﴿ أَوَلَمْ يَرِ الْإِنْسَنُ ﴾ للجنس يعم كل منكر للبعث ﴿ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ﴾ أي : أولم يستدل من أنكر البعث بالبدء على الإعادة . فإن الله ابتداء خلق الإنسان من سلاله من ماء مهين فخلقه من شيء حقير ضعيف مهين ، كما قال ﷺ : ﴿ أَرَأَيْتُمْ مِمَّنْ مَاتُوا مَيِّتِينَ ﴾ (٢) فَمَلَأَتْهُ فِي قَبْرِ مَكِينٍ (٣) إِنْ قَدَرِ مَقْلُوبٍ ﴿ . وقال تعالى : ﴿ إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنْسَنَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْسَاجٍ ﴾ أي : من نطفة من أخلاط متفرقة فالذي خلقه من هذه النطفة الضعيفة أليس بقادر على إعادته بعد موته ؟ كما قال بشر بن جحاش : إن رسول الله ﷺ بصق يوماً في كفه فوضع عليها إصبعه . ثم قال رسول الله ﷺ : « قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : يَا ابْنَ آدَمَ أَتَى تُفْجِزُنِي وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِنْ مِثْلِ هَذِهِ ، إِذَا سَوَّيْتُكَ وَعَدَدْتُكَ مَشَيْتَ يَتَرَى بُرُودِيكَ وَلِلْأَرْضِ مِنْكَ وَتِيْدٌ فَجَمَعْتَ وَمَتَعْتَ ، حَتَّى إِذَا بَلَغْتَ التَّرَاقِي قُلْتَ : أَتَصَدَّقُ ، وَأَتَى أَوَانُ الصُّدَقَةِ ؟ » (٤) .

ولهذا قال تعالى : ﴿ وَصَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُعْطِي الْعِظَمَ وَهِيَ رَمِيمٌ ﴾ . أي : استبعد إعادة الله تعالى ذي القدرة العظيمة التي خلقت السماوات والأرض للأجساد والعظام الرميمة ونسي نفسه ، وأن الله تعالى خلقه من العدم إلى الوجود فعلم من نفسه ما هو أعظم مما استبعده وأنكره وجحدته . ولهذا قال ﷺ : ﴿ قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴾ أي : يعلم العظام في سائر أقطار الأرض وأرجائها أين ذهبت وأين تفرقت وتمزقت . فعن عبد الملك ابن عمير عن ربيعي قال : قال عقبة بن عمرو لحذيفة (رضي الله عنه) : ألا تحدثنا ما سمعت من رسول الله ﷺ فقال : سمعته ﷺ يقول : « إِنَّ رَجُلًا خَضِرَهُ الْمَوْتُ ، فَلَمَّا أَيْسَ مِنَ الْحَيَاةِ أَوْصَى أَهْلَهُ إِذَا أَنَا مِتُّ فَاجْتَمِعُوا لِي حَطْبًا كَثِيرًا جَزَلًا ، ثُمَّ أَوْقِدُوا فِيهِ نَارًا ، حَتَّى إِذَا أَكَلْتُ لَحْمِي وَخَلَصْتُ إِلَى عَظْمِي فَاثْمُجِحْشْتُ ، فَخُذُوهَا فَذُقُوهَا فَذُقُوهَا فِي النَّيْمِ ، فَفَعَلُوا ، فَجَمَعَهُ اللَّهُ تَعَالَى إِلَيْهِ ثُمَّ قَالَ لَهُ : لِمَ فَعَلْتَ ذَلِكَ ؟ قَالَ : مِنْ خَشْيَتِكَ ، فَقَفَرَهُ اللَّهُ ﷻ لَهُ » . فقال عقبة بن عمرو : وأنا سمعته ﷺ يقول ذلك . وكان نباشاً (٥) .

وقوله تعالى : ﴿ الَّذِي جَعَلَ لَكُم مِّنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَا أَنْتُمْ تُؤْفِكُونَ ﴾ أي : الذي بدأ خلق هذا الشجر من ماء حتى صار خضراً نضراً ذا ثمر وينع ثم أعاده إلى أن صار يابساً توقد به النار ، كذلك هو فعال لما يشاء قادر على ما يريد لا يمنعه شيء . قال قتادة في قوله : ﴿ الَّذِي جَعَلَ لَكُم مِّنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَا أَنْتُمْ تُؤْفِكُونَ ﴾ أي : الذي بدأ خلق

(٢) أخرجه الإمام أحمد في مسنده (٢١٠/٤) .

(١) ذكره ابن الجوزي في زاد المسير (٤٠/٧) .

(٣) أخرجه البخاري في الأنبياء (٣٤٥٢) ، ومسلم في الإمارة (٤٠) ، والإمام أحمد في مسنده (٣٩٥/٥) .

الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَا أَشْتَبَ مِنْهُ نُورٌ قَدْرُونَ ﴿٨١﴾ يقول : الذي أخرج هذه النار من هذا الشجر قادر على أن يبعثه . وقيل : المراد بذلك شجر المرخ والعفار ينبت في أرض الحجاز ، فيأتي من أراد قدح نار وليس معه زناد ، فيأخذ منه عودين أخضرين ويقدح أحدهما بالآخر فتولد النار من بينهما كالزناد سواء . وروي هذا عن ابن عباس رضي الله عنه ، وفي المثل : لكل شجر نار واستمجد المرخ والعفار ، وقال الحكماء : في كل شجر نار إلا العناب .

﴿ أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَدِيرٍ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ بَلَىٰ وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ ﴿٨٢﴾ إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴿٨٣﴾ فَسُبْحَانَ الَّذِي يَبْدِئُ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٨٤﴾ ۝ ﴾

يقول تعالى مخبرًا منبها على قدرته العظيمة على خلق السماوات السبع بما فيها من الكواكب السيارة والثواب ، والأرضين السبع وما فيها من جبال ورمال وبحار وقفار وما بين ذلك . ومرشداً إلى الاستدلال على إعادة الأجساد بخلق هذه الأشياء العظيمة . كقوله تعالى : ﴿ لَخَلَقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ ﴾ وقال عليه السلام ها هنا : ﴿ أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَدِيرٍ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ ﴾ أي : مثل البشر فيعيدهم كما بدأهم ، قاله ابن جرير ، وهذه الآية الكريمة كقوله عليه السلام : ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَمْ يَتَّخِذْ لَهُنَّ بَنِينَ يُخَلِّقْهُنَّ بِقَدِيرٍ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ الْوَقُوفَ بَلَىٰ إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ . وقال تبارك وتعالى ها هنا : ﴿ بَلَىٰ وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ ﴿٨٢﴾ إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴿٨٣﴾ ۝ ﴾ أي : إنما يأمر بالشيء أمراً واحداً لا يحتاج إلى تكرار وتأکید .

إِذَا مَا أَرَادَ اللَّهُ أَمْرًا فَيَأْمُرُ يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ

وعن أبي ذر رضي الله عنه قال : إن رسول الله ﷺ قال : « إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى يَقُولُ : يَا عِبَادِي ، كُلُّكُمْ مُذْنِبٌ إِلَّا مَنْ غَافِتٌ ، فَاسْتَغْفِرُونِي أَغْفِرَ لَكُمْ ، وَكُلُّكُمْ فَقِيرٌ إِلَّا مَنْ أَنْعَيْتُ ، إِنِّي جَوَادٌ مَاجِدٌ وَاجِدٌ أَفْعَلُ مَا أَشَاءُ ، عَطَائِي كَلَامٌ ، وَعَذَابِي كَلَامٌ ، إِذَا أَرَدْتُ شَيْئًا فَلَمَّا أَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ » ^(١) . وقوله تعالى : ﴿ فَسُبْحَانَ الَّذِي يَبْدِئُ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ أي : تنزيه وتقديس وتبرئة من السوء للحي القيوم الذي بيده مقاليد السماوات والأرض ، وإليه يرجع الأمر كله ، وله الخلق والأمر وإليه ترجع العباد يوم المعاد ، فيجازي كل عامل بعمله وهو العادل المنعم المتفضل . ومعنى قوله ﷻ : ﴿ فَسُبْحَانَ الَّذِي يَبْدِئُ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ ﴾ كقوله ﷻ : ﴿ قُلْ مَنْ يَبْدِئُ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ ﴾ فالملك والملكوت واحد في المعنى كرحمة ورحموت ورهبة ورهبوت وجبر وجبروت . ومن الناس من زعم أن الملك هو عالم الأجساد ، والملكوت هو عالم الأرواح . والصحيح الأول ، وهو الذي عليه الجمهور من المفسرين وغيرهم .

وعن حذيفة رضي الله عنه ، أنه رأى رسول الله ﷺ يصلي من الليل وكان يقول : « اللَّهُ أَكْبَرُ - ثلاثاً - ذِي الْمَلَكُوتِ وَالْجَبْرُوتِ وَالْكِبْرِيَاءِ وَالْعِظَمَةِ » . ثم استفتح فقرأ البقرة ثم ركع فكان ركوعه نحواً من قيامه ، وكان يقول في ركوعه : « شُبْحَانَ رَبِّيَ الْعَظِيمِ » ثم رفع رأسه من الركوع ، فكان قيامه نحواً من ركوعه ، وكان يقول في قيامه : « لِرَبِّي الْحَمْدُ » ثم سجد فكان سجوده نحواً من قيامه ، وكان

يقول في سجوده : « سُبحَانَ رَبِّيَ الْأَعْلَى » ثم رفع رأسه من السجود ، وكان يقعد فيما بين السجدين نحوًا من سجوده وكان يقول : « رَبِّ اغْفِرْ لِي ، رَبِّ اغْفِرْ لِي » فصلّى أربع ركعات ، فقرأ فيهن البقرة ، وآل عمران والنساء ، والمائدة أو الأنعام - شك شعبة ^(١) .

(١) أخرجه الإمام أحمد في مسنده (٣٩٨/٥) وأبو داود في سننه (٨٧٤) والنسائي في سننه (٢٣١/٢) .

سورة الصفات

عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنه قال : كان رسول الله ﷺ يأمرنا بالتخفيف ويؤمنا بالصفات ^(١) .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ وَالصَّفَّاتِ صَفًا ﴾ ﴿ فَالْجَبَرِ نَجْرًا ﴾ ﴿ فَالتَّائِبِ ذِكْرًا ﴾ ﴿ إِنَّ إِلَهَكُمْ لَوَاحِدٌ ﴾ ﴿ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا رَبُّ الْمَشْرِقِ ﴾ .

عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه أنه قال : ﴿ وَالصَّفَّاتِ صَفًا ﴾ هي الملائكة ﴿ فَالْجَبَرِ نَجْرًا ﴾ هي الملائكة ﴿ فَالتَّائِبِ ذِكْرًا ﴾ هي الملائكة ، وكذا قال ابن عباس رضي الله عنه ومسروق وسعيد بن جبير وعكرمة ومجاهد ، وعن حذيفة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « فَضَّلْنَا عَلَى النَّاسِ ثَلَاثَ : جُعِلَتْ صُفُوفُنَا كَصُفُوفِ الْمَلَائِكَةِ ، وَجُعِلَتْ لَنَا الْأَرْضُ كُلُّهَا مَسْجِدًا ، وَجُعِلَ لَنَا ثَرَابُهَا طَهُورًا إِذَا لَمْ نَجِدِ الْمَاءَ » ^(٢) وعن جابر بن سمرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « أَلَا تَصِفُونَ كَمَا تُصَفِ الْمَلَائِكَةُ عِنْدَ رَبِّهِمْ ؟ » قلنا : وكيف تصف الملائكة عند ربهم ؟ قال ﷺ : « يَتَمَوَّنُ الصُّفُوفَ الْمُتَقَدِّمَةَ ، وَيَتَرَاوُونَ فِي الصَّفِّ » ^(٣) ﴿ فَالْجَبَرِ نَجْرًا ﴾ قال السدي : أنها تزجر السحاب ﴿ فَالتَّائِبِ ذِكْرًا ﴾ قال السدي : الملائكة يجيئون بالكتاب والقرآن من عند الله إلى الناس . وقوله ﷻ : ﴿ إِنَّ إِلَهَكُمْ لَوَاحِدٌ ﴾ ﴿ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ هذا هو المقسم عليه أنه تعالى لا إله إلا هو رب السموات والأرض ﴿ وَمَا بَيْنَهُمَا ﴾ أي من المخلوقات ﴿ رَبُّ الْمَشْرِقِ ﴾ أي هو المالك المتصرف في الخلق بتسخيره بما فيه من كواكب ثوابت وسيارات تبدو من المشرق وتغرب من المغرب . واكتفى بذكر المشارق عن المغارب لدلالتهما عليه وقد صرح بذلك في قوله ﷻ : ﴿ فَلَا أُنِيمُ رَبِّيَ الشَّرِقَ وَالْمَغْرِبَ إِنَّا لَقَائِدُونَ ﴾ .

﴿ إِنَّا رَبَّنَا أَلَمَاءُ الدُّنْيَا بَرِيَّةُ الْكَوْكَبِ ﴾ ﴿ وَحِفْظًا مِّنْ كُلِّ شَيْطَانٍ مَّارِدٍ ﴾ ﴿ لَا يَسْمَعُونَ إِلَى آلِهَا الْفَوْقَ وَيَقْدِفُونَ مِن كُلِّ جَانِبٍ ﴾ ﴿ دُخْرًا وَلَمْ يَكُنْ لَهُ عَذَابٌ وَاصِبٌ ﴾ ﴿ إِلَّا مَنْ خِطَفَ لِلنَّلَاقَةِ فَاَنْتَعَمَ شِهَابٌ ثَائِبٌ ﴾ .

يخبر تعالى أنه زين السماء الدنيا للناظرين إليها من أهل الأرض ﴿ بَرِيَّةُ الْكَوْكَبِ ﴾ ، قرئ بالإضافة وبالبديل وكلاهما بمعنى واحد ^(٤) ؛ فالكواكب السيارة والثوابت يقبض ضوءها جرم السماء الشفاف فتضيء لأهل الأرض ﴿ وَحِفْظًا ﴾ تقديره وحفظناها حفظًا ﴿ مِّنْ كُلِّ شَيْطَانٍ مَّارِدٍ ﴾ يعني المتمرد العاتي إذا أراد أن يسترق السمع أتاها شهاب ثاقب ، فأحرقه ، ولهذا قال ﷻ : ﴿ لَا يَسْمَعُونَ إِلَى آلِهَا الْفَوْقَ ﴾ أي لئلا

(١) أخرجه النسائي في السنن (٩٥/٢) بلفظ : « يأمر بالتخفيف » .

(٢) أخرجه مسلم في المساجد (٤) والبيهقي في السنن (٢١٣/١) .

(٣) أخرجه مسلم في الصلاة (٢٩/٢) وابن ماجه في السنن (٩٩٢) .

(٤) قرأ حفص وحمة : « بَرِيَّةٌ » منون ، « الكواكب » جر ، وقرأ أبو بكر عن عاصم « بَرِيَّةٌ » بالتثنية ، « الكواكب » نصب مفعول بها ، وقرأ الباقون « بَرِيَّةُ الْكَوَاكِبِ » مضاعفًا (انظر : حجة القراءات ص : ٦٠٤) .

يصلوا إلى الملاء الأعلى وهي السموات ومن فيها من الملائكة إذا تكلموا بما يوحيه الله تعالى مما يقوله من شرعه وقدره ؛ ولهذا قال تعالى : ﴿ وَيَقْدِرُونَ ﴾ أي يرمون ﴿ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ ﴾ أي من كل جهة يقصدون السماء منها ﴿ دُخْرًا ﴾ أي رجماً يدحرون به ويزجرون ويمنعون من الوصول إلى ذلك ويرجمون ﴿ وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ ﴾ أي في الدار الآخرة لهم عذاب دائم موجه مستمر كما قال جلت عظمته : ﴿ وَاعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ السَّعِيرِ ﴾ وقوله تبارك وتعالى : ﴿ إِلَّا مَنْ خَلَفَ الْخَلْفَةَ ﴾ أي إلا من اختطف من الشياطين الكلمة التي يسمعونها من السماء ، فيلقوها إلى الذي تحته ، ويلقيها الآخر إلى الذي تحته ، وربما أدركه الشهاب قبل أن يلقها ، وربما ألغاهما بقدر الله تعالى قبل أن يأتيه الشهاب فيحرقه فيذهب بها الآخر إلى الكاهن ؛ ولهذا قال : ﴿ إِلَّا مَنْ خَلَفَ الْخَلْفَةَ فَأَتَتْهُ شَهَابٌ نَائِبٌ ﴾ أي مستتير . عن ابن عباس رضي الله عنه قال : كان للشياطين مقاعد في السماء قال : فكانوا يستمعون الوحي قال : وكانت النجوم لا تجري وكانت الشياطين لا ترمي ، قال : فإذا سمعوا الوحي نزلوا إلى الأرض فزادوا في الكلمة تسعاً ، قال : فلما بعث رسول الله ﷺ جعل الشيطان إذا قعد مقعده جاءه شهاب فلم يخطئه حتى يحرقه ، قال : فشكوا ذلك إلى إبليس لعنه الله ، فقال : ما هو إلا من أمر حدث ، قال : فبعث جنوده فإذا رسول الله ﷺ قائم يصلي بين جبلي نخلة . قال وكيع : يعني بطن نخلة ، قال : فرجعوا إلى إبليس فأخبروه فقال : هذا الذي حدث ^(١) .

﴿ فَاسْتَفْهِمِهِمْ أَفَمَنْ أَشَدَّ خَلْقًا أَمْ مَنْ خَلَقْنَا إِنَّا خَلَقْنَاهُمْ مِنْ طِينٍ لَازِبٍ ﴾ ﴿ بَلْ عَجِبْتَ وَيَسْخَرُونَ ﴾ ﴿ وَإِذَا ذُكِّرُوا لَا يَذْكُرُونَ ﴾ ﴿ وَإِذَا رَأَوْا آيَةً يَسْتَسْخَرُونَ ﴾ ﴿ وَقَالُوا إِن هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ ﴾ ﴿ أَوَلَا يَنْتَظِرُونَ أَنَّا آتَاؤُنَا الْأَوَّلُونَ ﴾ ﴿ قُلْ نَعَمْ وَأَنْتُمْ دَاخِرُونَ ﴾ ﴿ فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ فَإِذَا هُمْ يَنْظُرُونَ ﴾ .

يقول تعالى : فسل هؤلاء المنكرين للبعث أيهما أشد خلقاً ، هم أم السموات والأرض وما بينهما من الملائكة والشياطين والمخلوقات العظيمة ؟ وقرأ ابن مسعود رضي الله عنه : « أم من عددنا » فإنهم يقولون أن هذه المخلوقات أشد خلقاً منهم ، وإذا كان الأمر كذلك ، فلم ينكرون البعث ؟ وهم يشاهدون ما هو أعظم مما أنكروا ثم بين أنهم خلقوا من شيء ضعيف فقال : ﴿ إِنَّا خَلَقْنَاهُمْ مِنْ طِينٍ لَازِبٍ ﴾ قال مجاهد وسعيد ابن جبير والضحاك : هو الجيد الذي يلتزق ببعضه ببعض ، وقال ابن عباس رضي الله عنه وعكرمة : هو اللزج الجيد ، وقوله ﷻ : ﴿ بَلْ عَجِبْتَ وَيَسْخَرُونَ ﴾ أي بل عجبت يا محمد من تكذيب هؤلاء المنكرين للبعث ، وأنت موقن مصدق بما أخبر الله تعالى من الأمر العجيب وهو إعادة الأجسام بعد فنائها ، وهم بخلاف أمرك من شدة تكذيبهم ، يسخرون مما تقول لهم من ذلك .

﴿ وَإِذَا رَأَوْا آيَةً يَسْتَسْخَرُونَ ﴾ أي دلالة واضحة على ذلك ﴿ يَسْتَسْخَرُونَ ﴾ ﴿ وَقَالُوا إِن هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ ﴾ أي ما هذا الذي جئت به إلا سحر مبين ﴿ أَوَلَا يَنْتَظِرُونَ أَنَّا آتَاؤُنَا الْأَوَّلُونَ ﴾ يستبعدون ذلك ويكذبون به ﴿ قُلْ نَعَمْ وَأَنْتُمْ دَاخِرُونَ ﴾ أي قل لهم يا محمد : نعم تبعثون يوم القيامة بعدما تصيرون تراباً وعظاماً ﴿ وَأَنْتُمْ دَاخِرُونَ ﴾ أي حقرون تحت القدرة العظيمة . ثم قال جلت عظمته : ﴿ فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ فَإِذَا هُمْ يَنْظُرُونَ ﴾ أي فإنما هو أمر واحد من الله ﷻ ، يدعوهم دعوة واحدة أن يخرجوا من الأرض ، فإذا هم قيام بين يديه ينظرون إلى أهوال يوم القيامة .

﴿ وَقَالُوا يَوَيْلَنَا هَذَا يَوْمُ الَّذِينَ كُنْتُمْ بِهِ تَكْذِبُونَ ﴾ ﴿١٠﴾ هَذَا يَوْمُ الْفَصْلِ الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تَكْذِبُونَ ﴿١١﴾ أَخْشَرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْجَحَهُمْ وَمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ ﴿١٢﴾ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَأَهْدُوهُمْ إِلَى صِرَاطِ الْجَحِيمِ ﴿١٣﴾ وَقَفَوْهُمْ إِيَّاهُمْ مَسْئُولُونَ ﴿١٤﴾ مَا لَكُمْ لَا تَنصُرُونَ ﴿١٥﴾ بَلْ هُمْ أَلْتِيمٌ مُسْتَسْلِمُونَ ﴿١٦﴾ .

يخبر تعالى عن قبل الكفار يوم القيامة أنهم يرجعون على أنفسهم بالملامة ، ويعترفون بأنهم كانوا ظالمين لأنفسهم في الدار الدنيا ، فإذا عاينوا أهوال القيامة ندموا كل الندم حيث لا ينفعهم الندم ﴿ وَقَالُوا يَوَيْلَنَا هَذَا يَوْمُ الَّذِينَ ﴾ فنقول لهم الملائكة والمؤمنون : ﴿ هَذَا يَوْمُ الْفَصْلِ الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تَكْذِبُونَ ﴾ وهذا يقال لهم على وجه التفرع والتوبيخ ، ويأمر الله تعالى الملائكة أن تميز الكفار من المؤمنين في الموقف في محشرهم ومنشرهم ؛ ولهذا قال تعالى : ﴿ أَخْشَرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْجَحَهُمْ ﴾ قال النعمان بن بشير رضي الله عنه : يعني بأزواجهم : أشباههم وأمثالهم ، وعن ابن عمر والسدي قال : يجيء أصحاب الزنا مع أصحاب الزنا ، وأصحاب الربا مع أصحاب الربا ، وأصحاب الخمر مع أصحاب الخمر . وقوله تعالى : ﴿ فَأَهْدُوهُمْ إِلَى صِرَاطِ الْجَحِيمِ ﴾ أي أرشدوهم إلى طريق جهنم ﴿ وَقَفَوْهُمْ إِيَّاهُمْ مَسْئُولُونَ ﴾ أي قفوهم حتى يسألوا عن أعمالهم وأقوالهم التي صدرت عنهم في الدار الدنيا قال ابن عباس : يعني احبسوهم لإنهم محاسبون . وعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « أَيْمًا دَاعِ دَعَا إِلَى شَيْءٍ ؛ كَانَ مَوْقُوفًا مَعَهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَا يُغَادِرُهُ وَلَا يُفَارِقُهُ ، وَإِنْ دَعَا رَجُلٌ رَجُلًا » ثم قرأ ﴿ وَقَفَوْهُمْ إِيَّاهُمْ مَسْئُولُونَ ﴾ ^(١) ثم يقال لهم على سبيل التفرع والتوبيخ : ﴿ مَا لَكُمْ لَا تَنصُرُونَ ﴾ أي كما زعمتم أنكم جميع منتصر ﴿ بَلْ هُمْ أَلْتِيمٌ مُسْتَسْلِمُونَ ﴾ أي منقادون لأمر الله لا يخالفونه ولا يحدون عنه .

﴿ وَأَجَبَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَسْتَأْذِنُونَ ﴾ ﴿١٧﴾ قَالُوا إِنَّكُمْ كُنْتُمْ تَأْتُونَنَا عَنِ الْيَمِينِ ﴿١٨﴾ قَالُوا بَلْ لَرَّ تَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ﴿١٩﴾ وَمَا كَانَ لَنَا عَلَيْكَ مِنْ سُلْطَانٍ بَلْ كُنْتُمْ قَوْمًا طَٰغِينَ ﴿٢٠﴾ فَحَقَّ عَلَيْنَا قَوْلُ رَبِّنَا إِنَّا لَلْذٰلِقُونَ ﴿٢١﴾ فَأَعْوَجْتُمْ كَيْدًا كَثِيرًا ﴿٢٢﴾ فَأَنْتُمْ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ ﴿٢٣﴾ إِنَّا كَذَلِكَ نَفْعَلُ بِالْمُجْرِمِينَ ﴿٢٤﴾ إِيَّاهُمْ كَانُوا إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٢٥﴾ وَيَقُولُونَ إِنَّا لَا تَارِكُونَ ءَالِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَجْنُونٍ ﴿٢٦﴾ بَلْ جَاءَ بِالْحَقِّ وَصَدَّقَ الْمُرْسَلِينَ ﴿٢٧﴾ .

يذكر تعالى أن الكفار يتلاومون في عرصات القيامة كما يتخاصمون في دركات النار ﴿ قَالُوا إِنَّكُمْ كُنْتُمْ تَأْتُونَنَا عَنِ الْيَمِينِ ﴾ قال ابن عباس : يقولون : كنتم تقهرونا بالقدرة منكم علينا ؛ لأننا كنا أذلاء وكنتم أعزاء ، وقال مجاهد : يعني عن الحق ، والكفار تقول للشياطين . وقال السدي : تأتوننا من قبل الحق وتزينوا لنا الباطل وتصدونا عن الحق ، وقال ابن زيد : معناه تحولون بيننا وبين الخير ، ورددتمونا عن الإسلام والإيمان والعمل بالخير الذي أمرنا به . وقوله تعالى : ﴿ قَالُوا بَلْ لَرَّ تَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ﴾ تقول القادة من الجن والإنس للأتباع : ما الأمر كما تزعمون ، بل كانت قلوبكم منكرة للإيمان قابلة للكفر والعصيان ﴿ وَمَا كَانَ لَنَا عَلَيْكَ مِنْ سُلْطَانٍ ﴾ أي من حجة على صحة ما دعوناكم إليه ﴿ بَلْ كُنْتُمْ قَوْمًا طَٰغِينَ ﴾ أي بل كان فيكم طغيان ومجاوزة للحق ؛ فلهذا استجبتم لنا وتركم الحق الذي جاءكم به الأنبياء وأقاموا لكم الحجج على صحة ما جاءوكم به فخالفتموهم ﴿ فَحَقَّ عَلَيْنَا قَوْلُ رَبِّنَا إِنَّا لَلْذٰلِقُونَ ﴾ فأعوجتكم إنا كذا غيبتكم يقول الكبراء للمستضعفين : حقت علينا كلمة الله إنا من الأشقياء الذائقين للعذاب يوم القيامة ﴿ فَأَعْوَجْتُمْ كَيْدًا كَثِيرًا ﴾ أي دعوناكم إلى الضلالة ﴿ إِنَّا كَذٰلِكَ نَفْعَلُ بِالْمُجْرِمِينَ ﴾ أي فدعوناكم إلى ما نحن

فيه فاستجبتم لنا ، قال الله تبارك وتعالى : ﴿ فَإِنَّهُمْ يَوْمَئِذٍ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ ﴾ أي الجميع في النار كل بحسبه ﴿ إِنَّا كَذَلِكَ نَفْعَلُ بِالْمُجْرِمِينَ ﴾ إِنَّهُمْ كَانُوا ﴿ أَي فِي الدار الدنيا ﴾ ﴿ إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ ﴾ أي يستكبرون أن يقولوها كما يقولها المؤمنون . عن أبي هريرة ؓ قال : قال رسول الله ﷺ : « أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا : لا إله إلا الله ، فمن قال لا إله إلا الله ؛ فقد عصم مني ماله ونفسه ، إلا بحقه ، وحسابه على الله ﷻ » ^(١) ﴿ وَيَقُولُونَ إِنَّا لَا نَدْرِكُهَا إِلَهِنَا لِشَايِعِ نَجْثُونَ ﴾ أي أننا نترك عبادة آلهتنا وآلهة آبائنا عن قول هذا الشاعر المجنون ؛ يعنون رسول الله ، قال الله تعالى تكذبتا لهم وردًا عليهم : ﴿ بَلْ جَاءَ بِالْحَقِّ ﴾ يعني رسول الله ﷺ جاء بالحق في جميع شرعة الله تعالى له من الأخبار والطلب ﴿ وَصَدَّقَ الْمُرْسَلِينَ ﴾ أي صدقهم فيما أخبروا عنه من الصفات الحميدة ، والمناهج السديدة ، وأخبر عن الله تعالى في شرعه وأمره كما أخبروا ﴿ مَا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِنْ قَبْلِكَ ﴾ الآية . ﴿ إِنَّكُمْ لَذَائِقُوا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ﴾ وَمَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿ إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ ﴾ أُولَئِكَ لَهُمْ رِزْقٌ مَعْلُومٌ ﴿ فَوَكَّدَهُ وَهُمْ مُكْرَمُونَ ﴾ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ ﴿ عَلَى سُرُرٍ مُتَقَابِلِينَ ﴾ يُطَافُ عَلَيْهِمْ بِكَأْسٍ مِنْ مَعِينٍ ﴿ بِيَضَاءٍ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ ﴾ لَا فِيهَا غَوْلٌ وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنْفَرُونَ ﴿ وَعِنْدَهُمْ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ عِينٌ ﴾ كَأَنَّهُنَّ بَصُرٌ مُكَوَّنٌ ﴿ .

يقول تعالى مخاطبًا للناس : ﴿ إِنَّكُمْ لَذَائِقُوا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ﴾ وَمَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿ ثم استثنى من ذلك عباده المخلصين . ولهذا قال جلا وعلا ههنا ﴾ ﴿ إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ ﴾ أي ليسوا يذوقون العذاب الأليم ولا يناقشون في الحساب ، بل يتجاوز عن سيئاتهم إن كان لهم سيئات ، ويجزون الحسنة بعشر أمثالها إلى سبعمئة ضعف إلى أضعاف كثيرة إلى ما شاء الله تعالى من التضعيف ، . وقوله جل وعلا : ﴿ أُولَئِكَ لَهُمْ رِزْقٌ مَعْلُومٌ ﴾ قال قتادة والسدي : يعني الجنة ، ثم فسره بقوله : ﴿ فَوَكَّدَهُ ﴾ أي متنوعة ﴿ وَهُمْ مُكْرَمُونَ ﴾ أي يخدمون ويرفهن وينعمون ﴿ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ ﴾ عَلَى سُرُرٍ مُتَقَابِلِينَ ﴿ قال مجاهد : لا ينظر بعضهم إلى قفا بعض . وقوله تعالى : ﴿ يُطَافُ عَلَيْهِمْ بِكَأْسٍ مِنْ مَعِينٍ ﴾ بِيَضَاءٍ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ ﴿ لَا فِيهَا غَوْلٌ وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنْفَرُونَ ﴾ نزه الله ﷻ خمر الجنة عن الآفات التي في خمر الدنيا من صداع الرأس ، ووجع البطن ، وهو الغول ، وذهابها بالعقل جملة ، فقال تعالى : ﴿ يُطَافُ عَلَيْهِمْ بِكَأْسٍ مِنْ مَعِينٍ ﴾ أي بخمر من أنهار جارية لا يخافون انقطاعها ولا فراغها ، قال زيد بن أسلم : خمر جارية بيضاء ، أي لونها مشرق حسن يهي لا كخمر الدنيا في منظرها البشع الرديء من حمرة أوسود أو اصفرار أو كدورة إلى غير ذلك مما ينفر الطبع السليم .

وقوله ﷻ ﴿ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ ﴾ أي طعمها طيب كلونها ، وطيب الطعم دليل على طيب الريح بخلاف خمر الدنيا في جميع ذلك . وقوله تعالى : ﴿ لَا فِيهَا غَوْلٌ ﴾ يعني لا تؤثر فيهم غولاً وهو وجع البطن . قال مجاهد : كما تفعله خمر الدنيا من القولنج ونحوه لكثرة مائيتها ، وقيل : المراد بالغول ههنا صداع الرأس ، وقال قتادة : هو صداع الرأس ووجع البطن . وعن السدي : لا تغتال عقولهم كما قال الشاعر :
فما زالت الكأس تغتالنا وتذهب بالأول الأول ^(٢)

(١) أخرجه البخاري في الاعتصام (٧٢٨٤) ومسلم في الإيمان (٣٤) وأبو داود في السنن (٢٦٠٦) .

(٢) البيت من شواهد أبي عبيد في مجاز القرآن (١٦٩/٢) ، وهو منسوب لمطيع بن إياس بن أبي قرعة كما في الأغاني (٧٠/١٣) .

وقال سعيد بن جبير : لا مكروه فيها ولا أذى ، والصحيح قول مجاهد ، وقوله تعالى : ﴿ وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنْفَرُونَ ﴾ قال مجاهد : لا تذهب عقولهم ، وقال ابن عباس : في الخمر أربع خصال : السكر ، والصداع ، والقيء ، والبول ، فذكر الله خمر الجنة فترها عن هذه الخصال . وقوله تعالى : ﴿ وَعِنْدَهُمْ قَصِيرَاتُ الْكَافِرِينَ ﴾ أي عفيفات لا ينظرن إلى غير أزواجهن .

وقوله تبارك وتعالى : ﴿ عَيْنٌ ﴾ أي حسان الأعين وهي النجلاء العبناء ؛ ولهذا قال ﴿ عَيْنٌ ﴾ ﴿ وَعِنْدَهُمْ قَصِيرَاتُ الْكَافِرِينَ ﴾ .

وقوله ﴿ كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَّنْكُونٌ ﴾ وصفهن بترافة الأبدان بأحسن الألوان ، قال ابن عباس ﴿ كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَّنْكُونٌ ﴾ أي اللؤلؤ المكنون .

وقال الحسن : يعني محصون لم تمسه الأيدي ، وقال السدي : يياض البيض حين نزع قشرته ، واختاره ابن جرير قال : والقشرة العليا يمسها جناح الطير والعش وتناها الأيدي بخلاف داخلها ، والله أعلم . وعن أم سلمة رضي الله عنها قالت : قلت : يا رسول الله أخبرني عن قول الله ﴿ عَيْنٌ ﴾ قال : « العين : الضخام العيون ، شفر الحوراء بمنزلة جناح النسر » قلت : يا رسول الله أخبرني عن قول الله ﴿ كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَّنْكُونٌ ﴾ قال : « رقبتهن كرقعة الجلدة التي رأسها في داخل البيضة التي تلي القشر وهي الغرقى » (١) .

﴿ فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ ﴾ قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ ﴿١٠﴾ يَقُولُ أَهْلَكَ لَئِن الْمَصْدِقَ ﴿١١﴾ أَلَا هَذَا مِنَّا وَكُنَّا تُرَاكِبًا وَعَظْمًا يُؤْتَا لَمَدِينُونَ ﴿١٢﴾ قَالَ هَلْ آنَسَ مَقْلُوبُونَ ﴿١٣﴾ فَأَطْلَعَ قَرَأَهُ فِي سَوَاءٍ الْجَحِيمِ ﴿١٤﴾ قَالَ تَاللَّهِ إِن كِدْتَ لَتَزُوِينِ ﴿١٥﴾ وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّي لَكُنْتُ مِنَ الْمُخْضِرِينَ ﴿١٦﴾ أَمَّا نَحْنُ بِمَعِينٍ ﴿١٧﴾ إِلَّا مَوْلَانَا الْأُولَى وَمَا نَحْنُ بِمُعَدِّيْنَ ﴿١٨﴾ إِنَّ هَذَا لَمَوْ الْقَوُورُ الْعَظِيمِ ﴿١٩﴾ لِيُثَلَّ هَذَا فَلْيَعْمَلِ الْعَامِلُونَ ﴿٢٠﴾ .

يخبر تعالى عن أهل الجنة أنه أقبل بعضهم على بعض يتساءلون ، أي عن أحوالهم ، وكيف كانوا في الدنيا ، وماذا يعانون فيها ، وذلك من حديثهم على شرايبهم واجتماعهم في تنادهم ومعاشرتهم في مجالسهم وهم جلوس على السرر والخدم بين أيديهم يسعون ويجيئون بكل خير عظيم من مأكول ومشروب وملابس وغير ذلك مما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر ﴿ قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ ﴾ قال مجاهد : يعني شيطاناً . وعن ابن عباس : هو الرجل المشرك يكون له صاحب من أهل الإيمان في الدنيا ، ولا تنافي بين كلام مجاهد وابن عباس ﴿ فَإِن الشَّيْطَانُ يَكُونُ مِنَ الْجَنِّ فَيُؤَسَّسُ فِي النَّفْسِ وَيَكُونُ مِنَ الْإِنْسِ فَيَقُولُ كَلَامًا تَسْمَعُهُ الْأَذْنَانُ وَكَلَامًا يَتَعَاوَنَانِ ، وَكُلُّ مِنْهُمَا يُوَسَّسُ ، وَلِهَذَا ﴾ قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ ﴿١٠﴾ يَقُولُ أَهْلَكَ لَئِن الْمَصْدِقَ ﴿١١﴾ أي : آنت تصدق بالبعث والنشور والحساب والجزاء ، يعني يقول ذلك على وجه التعجب والتكذيب والاستبعاد ، والكفر والعناد ﴿ أَلَا هَذَا مِنَّا وَكُنَّا تُرَاكِبًا وَعَظْمًا يُؤْتَا لَمَدِينُونَ ﴾ قال مجاهد والسدي : لحاسبون . وقال ابن عباس : لمحزونون بأعمالنا ، وكلاهما صحيح . قال تعالى : ﴿ قَالَ هَلْ آنَسَ مَقْلُوبُونَ ﴾ أي مشرفون ، ﴿ فَأَطْلَعَ قَرَأَهُ فِي سَوَاءٍ الْجَحِيمِ ﴾ قال ابن عباس وسعيد بن جبير وقتادة والسدي : يعني في وسط الجحيم ، وقال الحسن

البصري : في وسط الجحيم كأنه شهاب يتقد ، وقال قتادة : ذكر لنا أنه اطلع فرأى جماجم القوم تغلي ، ﴿ قَالَ تَاللَّهِ إِنْ كِدَتْ لَتَذَرِينِ ﴾ يقول المؤمن مخاطباً للكافر : والله إن كدت لتهلكني لو أطعتك ﴿ وَلَوْلَا رَحْمَةُ رَبِّي لَكُنْتَ مِنَ الْمُخْضَرِّينِ ﴾ أي ولولا فضل الله عليّ لكنتُ مثلك في سواء الجحيم حيث أنت محضر معك في العذاب ولكنه تفضل عليّ ورحمني فهداني للإيمان وأرشدني إلى توحيده ، وقوله تعالى : ﴿ أَمَّا نَحْنُ بِمَبْتَلِينَ ﴾ ^(١) إِلَّا مَوْتَنَا الْأَوَّلُ وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴾ هذا من كلام المؤمن مغبطاً نفسه بما أعطاه الله تعالى من الخلد في الجنة والإقامة في دار الكرامة بلا موت فيها ولا عذاب ؛ ولهذا قال ﷻ : ﴿ إِنَّ هَذَا لَهُمُ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴾ . وقال الحسن البصري : علموا أن كل نعيم فإن الموت يقطعه فقالوا : ﴿ أَمَّا نَحْنُ بِمَبْتَلِينَ ﴾ ^(٢) إِلَّا مَوْتَنَا الْأَوَّلُ وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴾ قيل : لا ، قالوا : ﴿ إِنَّ هَذَا لَهُمُ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴾ وقوله ﷻ : ﴿ لِيُنْزِلَ هَذَا فَيَلْعَمَ الْعَمِلُونَ ﴾ قال قتادة : هذا من كلام أهل الجنة ، وقال ابن جرير : هو من كلام الله تعالى ومعناه : لمثل هذا النعيم وهذا الفوز فليعمل العاملون في الدنيا ، ليصيروا إليه في الآخرة وقد ذكروا قصة رجلين كانا شريكين في بني إسرائيل تدخل في ضمن عموم هذه الآية الكريمة ، قال أبو جعفر بن جرير في تفسيره : إن رجلين كانا شريكين فاجتمع لهما ثمانية آلاف دينار ، وكان أحدهما له حرفة والآخر ليس له حرفة ، فقال الذي له حرفة للآخر : ليس عندك حرفة ما أراني إلا مفارقتك ومقاسمك ، فقاومه ، وفارقه ثم إن الرجل اشترى داراً بألف دينار كانت للملك مات ، فدعا صاحبه فأراه فقال : كيف ترى هذه الدار ابتعتها بألف دينار ؟ قال : ما أحسنها ، فلما خرج قال : اللهم إن صاحبي هذا ابتاع هذه الدار بألف دينار ، وإنني أسألك داراً من دور الجنة ، فتصدق بألف دينار ، ثم مكث ما شاء الله تعالى أن يمكث ، ثم إنه تزوج بامرأة بألف دينار فدعاه وصنع له طعاماً ، فلما أتاه قال : إنني تزوجت هذه المرأة بألف دينار ، قال : ما أحسن هذا ، فلما انصرف قال : يارب إن صاحبي تزوج امرأة بألف دينار ، وإنني أسألك امرأة من الحور العين ، فتصدق بألف دينار ، ثم إنه مكث ما شاء الله تعالى أن يمكث ، ثم اشترى بستانين بألفي دينار ثم دعاه فأراه فقال : إنني ابتعت هذين البستانين بألفي دينار . فقال : ما أحسن هذا ، فلما خرج قال : يا رب إن صاحبي قد اشترى بستانين بألفي دينار وأنا أسألك بستانين في الجنة ، فتصدق بألفي دينار ، ثم أن الملك أتاهما فتوفاهما ، ثم انطلق بهذا المتصدق فأدخله داراً تعجبه ، وإذا بامرأة تطلع يضيء ما تحتها من حسننها ، ثم أدخله بستانين وشيئاً الله به عليم ، فقال عند ذلك : ما أشبه هذا برجل كان من أمره كذا وكذا ، قال : فإنه ذاك ولك هذا المنزل والبستانان والمرأة ، قال : فإنه كان لي صاحب يقول : ﴿ أَوَيْكَ لَيْنَ الْمَصْدِقِينَ ﴾ قيل له : فإنه في الجحيم ، ﴿ قَالَ هَلْ أَسْتَهْ مُطْلِعُونَ فَأَطْلَعَ قَرَأَهُ فِي سَوَاءِ الْجَحِيمِ ﴾ فقال عند ذلك : ﴿ تَاللَّهِ إِنْ كِدَتْ لَتَذَرِينِ ﴾ ^(٣) وَلَوْلَا رَحْمَةُ رَبِّي لَكُنْتَ مِنَ الْمُخْضَرِّينِ ﴾ الآيات ^(١) قال ابن جرير : وهذا يقوي قراءة من قرأ ﴿ أَوَيْكَ لَيْنَ الْمَصْدِقِينَ ﴾ بالتشديد ^(٢) .

﴿ أَدْرَاكَ خَيْرٌ نَزَلًا أَمْ شَجَرَةُ الزَّوْقِمِ ﴾ ^(٤) إِنَّا جَعَلْنَاهَا فِتْنَةً لِلْقَلِيلِينَ ^(٥) إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِي أَصْلِ الْجَحِيمِ ^(٦) طَلْعُهَا كَأَنَّهُ رِئَاسُ الشَّيْطَانِ ^(٧) فَإِنَّهُمْ لَا يَكُونُونَ مِنْهَا فَاكِهِينَ ^(٨) مِنْهَا أَلْبَطُونَ ^(٩) ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا لَشَوْبًا مِنْ حِمِيرٍ ^(١٠) ثُمَّ إِنَّ

(١) ذكره الطبري في تفسيره (٧٠/٢٣) ، والسيوطي في الدر المنثور (٩/٧) وعزاه لسعيد بن منصور .

(٢) وهي قراءة حمزة (انظر : الدر المنثور ٥٩/٦) والقرطبي (٨٢/١٥) .

مَرَّجَمَهُمْ لِإِلَى الْجَحِيمِ ﴿٥١﴾ إِنَّهُمْ أَلْفَوْا آيَاتَهُمْ حَصَّالِينَ ﴿٥٢﴾ فَهُمْ عَلَىٰ عَذَابٍ مُّهِينٍ ﴿٥٣﴾ .

يقول الله تعالى أهدأ الذي ذكره من نعيم الجنة وما فيها من مأكَل ومشارب ومناكح وغير ذلك من الملاذ خير ضيافة وعطاء ﴿٥١﴾ أَمْ شَجَرَةُ الزَّقُّومِ ﴿٥٢﴾ التي في جهنم ، وقد يحتمل أن يكون المراد بذلك شجرة واحدة معينة ، كما قال بعضهم : إنها شجرة تمتد فروعها إلى جميع محال جهنم ، كما أن شجرة طوبى ما من دار في الجنة إلا وفيها منها غصن ، وقد يحتمل أن يكون المراد بذلك جنس شجر يقال له الزقوم . وقوله ﴿٥٣﴾ : ﴿ إِنَّا جَعَلْنَاهَا فِتْنَةً لِلظَّالِمِينَ ﴾ قال قتادة : ذكرت شجرة الزقوم فافتتن بها أهل الضلالة ، وقالوا : صاحبكم ينشكركم أن في النار شجرة والنار تأكل الشجر ، فأنزل الله تعالى : ﴿ إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِي أَصْلِ الْجَحِيمِ ﴾ غذيت من النار ومنها خلقت .

قلت : ومعنى الآية : إنما أخبرناك يا محمد بشجرة الزقوم اختباراً نختبر به الناس من يصدق منهم من يكذب . وقوله تعالى : ﴿ إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِي أَصْلِ الْجَحِيمِ ﴾ أي أصل منبتها في قرار النار ﴿ طَلَعَهَا كَأَنَّهَ رُؤُوسُ الشَّيَاطِينِ ﴾ تبشيع لها وتكريه لذكرها . قال وهب بن منبه : شعور الشياطين قائمة إلى السماء ، وإنما شبهها برؤوس الشياطين - وإن لم تكن معروفة عند المخاطبين - لأنه قد استقر في النفوس أن الشياطين قبيحة المنظر ، وقيل : المراد بذلك ضرب من الحيات رؤوسها بشعة المنظر .

وقوله تعالى : ﴿ فَإِنَّهُمْ لَا يَكُونُونَ مِنْهَا فَنَالُوا بِهَا الظُّلُمَاتِ ﴾ ذكر تعالى أنهم يأكلون من هذه الشجرة التي لا أبشع منها ولا أقبح من منظرها مع ما هي عليه من سوء الطعم والريح والطبع ؛ فإنهم ليضطربون إلى الأكل منها ؛ لأنهم لا يجدون إلا إياها وما هو في معناها ، كما قال تعالى : ﴿ لَيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِن ضَرِيعٍ ﴿٥٤﴾ لَا يَسْتَوُونَ وَلَا يُنْفِىٰ مِن جُوعٍ ﴾ وعن ابن عباس ؓ أن رسول الله ﷺ تلا هذه الآية وقال : « اتقوا الله حق تقاته ، فلو أن قطرة من الزقوم قطرت في بحار الدنيا لأفسدت على أهل الأرض معاشهم ، فكيف بمن يكون طعامه ؟ » (١) . وقوله تعالى : ﴿ ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهِمْ لَشَوْأً مِّنْ حَيْمٍ ﴾ قال ابن عباس ؓ : يعني شرب الحميم على الزقوم ، وقال غيره : يمزج لهم الحميم بصديد وغساق مما يسيل من فروجهم وعيونهم . وعن سعيد بن جبیر قال : إذا جاع أهل النار استغاثوا بشجرة الزقوم فأكلوا منها فاختلست جلود وجوههم ، فلو أن ماؤا مر بهم يعرفهم ، لعرفهم بوجوههم فيها ، ثم يصب عليهم العطش فيستغيثون فيغاثون بماء كالمهل ، وهو الذي قد انتهى حره ، فإذا أدنوه من أفواههم اشتوى من حره لحوم وجوههم التي قد سقطت عنها الجلود ويصهر ما في بطونهم فيمشون تسيل أمعاؤهم وتتساقط جلودهم ثم يضربون بمقامع من حديد ، فيسقط كل عضو على حياله يدعون بالشبور . وقوله ﴿٥٥﴾ : ﴿ ثُمَّ إِنَّ مَرَّجَمَهُمْ لِإِلَى الْجَحِيمِ ﴾ أي ثم إن مردهم بعد هذا الفصل لإلى نار تتأجج وجحيم تتوقد وسعير تتوهج ، فتارة في هذا ، وتارة في هذا .

وقوله تعالى : ﴿ إِنَّهُمْ أَلْفَوْا آيَاتَهُمْ حَصَّالِينَ ﴾ أي إنما جازيناهم بذلك ؛ لأنهم وجدوا آباءهم على الضلالة فاتبعوهم فيها بمجرد ذلك من غير دليل ولا برهان ، ولهذا قال : ﴿ فَهُمْ عَلَىٰ عَذَابٍ مُّهِينٍ ﴾ قال مجاهد : شبيهة بالهرولة ، وقال سعيد بن جبیر : يسفهن .

(١) أخرجه ابن ماجه في السنن (٣٧/٢) ، والترمذي في السنن (٢٥٨٥) .

﴿ وَلَقَدْ ضَلَّ قَبْلَهُمْ أَكْثَرُ الْأَوَّلِينَ ﴾ ٨٧ ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا فِيهِمْ مُنْذِرِينَ ﴾ ٨٨ ﴿ فَأَنْظَرَ كَيْفَ كَانَ عَقِبَةُ الْمُُنْذِرِينَ ﴾ ٨٩ ﴿ إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ ﴾ .

يخبر تعالى عن الأمم الماضية أن أكثرهم كانوا ضالين يجعلون مع الله آلهة أخرى ، وذكر تعالى أنه أرسل فيهم منذرين ينذرونهم بأس الله ، ويحذرونهم سطوته ونقمته من كفر به وعبد غيره ، وأنهم تمادوا على مخالفة رسلهم وتكذيبهم ، فأهلك الله المكذبين ودمرهم ، ونجى المؤمنين ونصرهم وظفرهم ؛ ولهذا قال تعالى : ﴿ فَأَنْظَرَ كَيْفَ كَانَ عَقِبَةُ الْمُُنْذِرِينَ ﴾ ٨٨ ﴿ إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ ﴾ .
﴿ وَلَقَدْ نَادَيْنَا نُوْحًا فَلَيْسَ بِالْمُجِيبِ ﴾ ٩٠ ﴿ وَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ ﴾ ٩١ ﴿ وَجَعَلْنَا دُرِّيَّتَهُ هُرَّ الْبَاقِينَ ﴾ ٩٢ ﴿ وَرَكَّنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ ﴾ ٩٣ ﴿ سَلَّمَ عَلَى نُوْحٍ فِي الْعَالَمِينَ ﴾ ٩٤ ﴿ إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴾ ٩٥ ﴿ إِنَّمَا مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ ﴾ ٩٦ ﴿ ثُمَّ أَغْرَقْنَا الْآخَرِينَ ﴾ ٩٧ .

لما ذكر تعالى عن أكثر الأولين أنهم ضلوا عن سبيل النجاة ، شرع يبين ذلك مفصلاً فذكر نوحاً - عليه الصلاة والسلام - وما لقي من قومه من التكذيب ، وأنه لم يؤمن منهم إلا القليل مع طول المدة ، لبث فيهم ألف سنة إلا خمسين عاماً ، فلما طال عليه ذلك واشتد عليه تكذيبهم ، وكلما دعاهم ازدادوا نفرة ﴿ فَدَعَا رَبَّهُ أَنِّي مَلُوبٌ فَاغْتَمِرْ ﴾ فغضب الله تعالى لغضبه عليهم ؛ ولهذا قال ﷺ : ﴿ وَلَقَدْ نَادَيْنَا نُوْحًا فَلَيْسَ بِالْمُجِيبِ ﴾ له ﴿ وَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ ﴾ وهو التكذيب والأذى ﴿ وَجَعَلْنَا دُرِّيَّتَهُ هُرَّ الْبَاقِينَ ﴾ قال ابن عباس ﷺ : لم تبق إلا ذرية نوح ﷺ (١) . وعن سمرة عن النبي ﷺ في قوله تعالى : ﴿ وَجَعَلْنَا دُرِّيَّتَهُ هُرَّ الْبَاقِينَ ﴾ قال : « سام ، وحام ، ويافث » (٢) . وعنه أيضاً أن نبي الله ﷺ قال : « سام أبو العرب ، وحام أبو الحبش ، ويافث أبو الروم » (٣) والمراد بالروم ههنا هم الروم الأول ، وهم اليونان المنتسبون إلى رومي بن ليطي بن يونان بن يافث بن نوح ﷺ . وقوله تبارك وتعالى : ﴿ وَرَكَّنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ ﴾ قال ابن عباس ﷺ : يذكر بخير ، وقال مجاهد : يعني لسان صدق للأنبياء كلهم ، وقال قتادة والسدي : أبقى الله عليه الثناء الحسن في الآخرين . وقوله تعالى : ﴿ سَلَّمَ عَلَى نُوْحٍ فِي الْعَالَمِينَ ﴾ مفسر لما أبقى عليه الذكر الجميل والثناء الحسن أنه يسلم عليه في جميع الطوائف والأمم ﴿ إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴾ أي هكذا نجزي من أحسن من العباد في طاعة الله تعالى ونجعل له لسان صدق يذكر به بعده بحسب مرتبته في ذلك ، ثم قال تعالى : ﴿ إِنَّمَا مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ ﴾ أي المصدقين الموحدين الموقنين ﴿ ثُمَّ أَغْرَقْنَا الْآخَرِينَ ﴾ أي أهلكناهم فلم يبق منهم عين تطرف ، ولا ذكر ولا عين ولا أثر ، ولا يعرفون إلا بهذه الصفة القبيحة .

﴿ وَاتَّكَ مِنْ شَيْعَتِهِ لَإِزْهِيمَ ﴾ ٩٨ ﴿ إِذْ جَاءَ رَبُّهُ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴾ ٩٩ ﴿ إِذْ قَالَ لِأَيُّهِ وَقَوْمِهِ مَاذَا تَعْبُدُونَ ﴾ ١٠٠ ﴿ أَيُّهَا إِلَهُةَ دُونِ اللَّهِ تُرِيدُونَ ﴾ ١٠١ ﴿ فَمَا تَعْلَمُونَ بِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ .

قال ابن عباس : ﴿ وَاتَّكَ مِنْ شَيْعَتِهِ لَإِزْهِيمَ ﴾ أي من أهل دينه ، وقال مجاهد : علي منهاجه وسنته ﴿ إِذْ جَاءَ رَبُّهُ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴾ قال ابن عباس : يعني شهادة أن لا إله إلا الله . سأل عوفٌ محمد

(١) ذكره السيوطي في الدر المنثور (٩٩/٧) ونسبه إلى ابن المنذر وابن جرير .

(٢) أخرجه الترمذي في السنن (٣٢٣٠) .

(٣) أخرجه الترمذي في السنن (٣٢٣١) وأحمد في مسنده (٩/٥) والطبراني في الكبير (٢٥٤/٧) .

ابن سيرين : ما القلب السليم ؟ قال : يعلم أن الله حق وأن الساعة آتية لا ريب فيها ، وأن الله يبعث من في القبور ، وقال الحسن : سليم من الشر ، وقوله تعالى : ﴿ إِذْ قَالَ لِأَيُّهِ وَقَوْمِهِ مَاذَا تَعْبُدُونَ ﴾ أنكر عليهم عبادة الأصنام والأنداد ؛ ولهذا قال ﴿ كَذَلِكَ ﴾ : ﴿ إِنَّا كُنَّا إِلَهُكُمْ دُونَ اللَّهِ تُرِيدُونَ ﴾ ﴿ ١٥ ﴾ فَمَا تَلَذُّكَ رَبِّكَ الْغَالِيِينَ ﴾ قال قتادة : يعني ما ظنكم أنه فاعل بكم إذا لاقيتموه وقد عبدتم معه غيره .

﴿ فَنَظَرُ نَظْرَةً فِي التُّجُورِ ﴾ ﴿ ١٦ ﴾ فَقَالَ إِنِّي سَقِيمٌ ﴿ ١٧ ﴾ فَنُودُوا عَنْهُ مُنِيرِينَ ﴿ ١٨ ﴾ فَرَأَى إِلَهُ الْإِنْسَانِ فَقَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ ﴿ ١٩ ﴾ مَا لَكُمْ لَا تَنْطَلِقُونَ ﴿ ٢٠ ﴾ فَرَأَى عَلَيْهِمْ مَรَبًّا بِالْيَمِينِ ﴿ ٢١ ﴾ فَأَقْبَلُوا إِلَيْهِ يَرِيُونَ ﴿ ٢٢ ﴾ قَالَ أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ ﴿ ٢٣ ﴾ وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴿ ٢٤ ﴾ قَالُوا ابْنُوا لَهُ بُيُوتًا فَأَلْفَوْهُ فِي الْجَحِيمِ ﴿ ٢٥ ﴾ فَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَسْفَلِينَ ﴿ ٢٦ ﴾ .

إنما قال إبراهيم لقومه ذلك ؛ ليقم في البلد إذا ذهبوا إلى عيدهم ، فإنه كان قد أرف خروجهم إلى عيد لهم ، فأحب أن يختلي بالهتهم ليكسرهما ، فقال لهم كلاماً هوحق في نفس الأمر ، فهموا منه أنه سقيم على مقتضى ما يعتقدونه ﴿ فَنُودُوا عَنْهُ مُنِيرِينَ ﴾ قال قتادة : والعرب تقول لمن تفكر : نظر في النجوم ، يعني قتادة : أنه نظر إلى السماء متفكراً فيما يلهمهم به ﴿ فَقَالَ إِنِّي سَقِيمٌ ﴾ أي ضعيف . وقال سفيان : يعني طعين ، وكانوا يفرون من المطعون ، فأراد أن يخلو بالهتهم . وقيل : أراد ﴿ إِنِّي سَقِيمٌ ﴾ أي مريض القلب من عبادتكم الأوثان من دون الله تعالى ولهذا قال تعالى : ﴿ فَنُودُوا عَنْهُ مُنِيرِينَ ﴾ أي ذهب إليها بعد ما خرجوا في سرعة واختفاء ، ﴿ فَقَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ ﴾ وذلك أنهم كانوا قد وضعوا بين أيديهم طعاماً قرباناً لعبادتهم لهم فيه .

وقوله تعالى : ﴿ فَرَأَى عَلَيْهِمْ مَรَبًّا بِالْيَمِينِ ﴾ قال الفراء : معناه مال عليهم ضرباً باليمين . وقال قتادة والجوهري : فأقبل عليهم ضرباً باليمين . وإنما ضربهم باليمين ؛ لأنها أشد وأنكى ؛ ولهذا تركهم جذاذاً إلا كبيراً لهم لعلمهم إليه يرجعون . وقوله ﴿ فَأَقْبَلُوا إِلَيْهِ يَرِيُونَ ﴾ قال مجاهد وغيره : أي يسرعون ؛ فإنهم لما رجعوا ما عرفوا من أول وهلة متفعل ذلك حتى كشفوا واستعلموا ، فعرفوا أن إبراهيم - عليه الصلاة والسلام - هو الذي فعل ذلك . فلما جاءوا ليعاتبوه أخذ في تأنيبهم وعيهم فقال : ﴿ أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ ﴾ أي تعبدون من دون الله من الأصنام ما أنتم تحتونها وتعملونها بأيديكم ﴿ وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴾ يحتمل أن تكون ما مصلوية فيكون تقدير الكلام : خلقكم وعملكم ، ويحتمل أن تكون بمعنى الذي تقديره : والله خلقكم والذي تعملونه ، وكلا القولين متلازم ، والأول أظهر لما رواه حذيفة ؓ مرفوعاً قال : « إن الله تعالى يصنع كل صانع وصنعه » ^(١) فعند ذلك لما قامت عليهم الحجة عدلوا إلى أخذه باليد والقهر فقالوا : ﴿ ابْنُوا لَهُ بُيُوتًا فَأَلْفَوْهُ فِي الْجَحِيمِ ﴾ فنجاه الله من النار وأظهره عليهم ، وأعلى حجته ونصرها ؛ ولهذا قال تعالى : ﴿ فَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَسْفَلِينَ ﴾ .

﴿ وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي سَبْعِينَ ﴾ ﴿ ٢٧ ﴾ رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿ ٢٨ ﴾ فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ ﴿ ٢٩ ﴾ فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعَىٰ قَالَ يَبْنَؤُ إِنِّي أَرَىٰ فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُ فَأَنْظَرْ مَاذَا فَرَّعَ قَالَ يَتَأْتِي أَفْعَلٌ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿ ٣٠ ﴾ فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّمَ لِلْجَبِينِ ﴿ ٣١ ﴾ وَتَدَبَّرْنَاهُ أَنْ يَبْرَاهِيمُ ﴿ ٣٢ ﴾ قَدْ صَدَّقَ الرُّؤْيَا إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿ ٣٣ ﴾ إِنَّ هَذَا لَمَّا بَلَّغُوا إِلَيْنَا ﴿ ٣٤ ﴾ وَقَدَرْنَاهُ بِذَنْبِ عَظِيمٍ ﴿ ٣٥ ﴾ وَرَكَّعْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ ﴿ ٣٦ ﴾ سَلَّمَ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ ﴿ ٣٧ ﴾ كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿ ٣٨ ﴾ إِنَّهُمْ مِنْ عِبَادِنَا

الْمُؤْمِنِينَ ﴿٩٩﴾ وَنَزَّلْنَاهُ بِإِسْحَاقَ نَبِيًّا مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿١٠٠﴾ وَبَارَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَى إِسْحَاقَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ وَظَالِمٌ لِنَفْسِهِ مُبِينٌ ﴿١٠١﴾ .

يقول تعالى مخبراً عن خليفه إبراهيم عليه الصلاة والسلام أنه بعد ما نصره الله تعالى على قومه وأيس من إيمانهم بعد ما شاهدوا من الآيات العظيمة ، هاجر من بين أظهرهم وقال : ﴿ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَى رَبِّي سَيِّدِينَ ﴾ ﴿١٠٠﴾ رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿١٠١﴾ يعني أولاداً مطيعين عوضاً من قومه وعشيرته الذين فارقهم ، قال الله تعالى : ﴿ فَبَشِّرْنَاهُ بِقُلُوبٍ حَلِيمَةٍ ﴾ وهذا الغلام هو إسماعيل عليه السلام ، فإنه أول ولد بشر به إبراهيم عليه السلام ، وهو أكبر من إسحاق باتفاق المسلمين وأهل الكتاب ؛ بل في نص كتابهم أن إسماعيل عليه السلام ولد لإبراهيم عليه السلام ست وثمانون سنة ، وولد إسحاق وعمر إبراهيم عليه الصلاة والسلام تسع وتسعون سنة ، وعندهم أن الله تبارك وتعالى أمر إبراهيم أن يذبح ابنه وحيداً ، وفي نسخة أخرى : بكره فأقحموا ههنا كذباً وبهتاناً إسحاق ، ولا يجوز هذا ؛ لأنه مخالف لنص كتابهم ، وإنما أقحموا إسحاق ؛ لأنه أبوهم وإسماعيل أبو العرب ، فحسدوهم فزادوا ذلك وحرفوا وجحدك بمعنى الذي ليس عندك غيره ، فإن إسماعيل كان قد ذهب به وبأمه إلى مكة ، وهو تأويل وتحريف باطل ؛ فإنه لا يقال : وحيدك إلا لمن ليس له غيره ، وأيضاً فإن أول ولد له معزة ما ليس لمن بعده من الأولاد ، فالأمر بذبحه أبلغ في الابتلاء والاختبار . وقد ذهب جماعة من أهل العلم إلى أن الذبيح هو إسحاق وحكي ذلك عن طائفة من السلف حتى نقل عن بعض الصحابة عليه السلام أيضاً ، وليس ذلك في كتاب ولا سنة ، وما أظن ذلك ثُلُثِيَّيْ إلا عن أجبار أهل الكتاب ، وأخذ ذلك مسلماً من غير حجة ، وهذا كتاب الله شاهد ومرشد إلى أنه إسماعيل ؛ فإنه ذكر البشارة بغلام حليم وذكر أنه الذبيح ، ثم قال بعد ذلك : ﴿ وَبَشِّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ نَبِيًّا مِنَ الصَّالِحِينَ ﴾ ﴿١٠٠﴾ ولما بشرت الملائكة إبراهيم بإسحاق قالوا : ﴿ إِنَّا نَبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ ﴾ . وقال تعالى : ﴿ فَبَشِّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِمَا يَعْقُوبُ ﴾ أي يولد له في حياتهما ولد يسمى يعقوب ، فيكون من ذريته عقب ونسل ، وقد قدمنا هناك أنه لا يجوز بعد هذا أن يؤمر بذبحه وهو صغير ؛ لأن الله تعالى قد وعدهما بأنه سيعقب ويكون له نسل ، فكيف يمكن بعد هذا أن يؤمر بذبحه صغيراً ؟ وإسماعيل وصف ههنا بالحليم ؛ لأنه مناسب لهذا المقام .

وقوله تعالى : ﴿ فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ ﴾ أي كبر وترعرع وصار يذهب مع أبيه ويمشي معه . ﴿ قَالَ يَبْنَؤُ إِنِّي أَكْبَرُ فِي الْمَنَازِلِ أَتَى أَذْهَبَكَ فَأَنْظِرْ مَاذَا تَرَى ﴾ ﴿١٠٢﴾ عن ابن عباس عليه السلام قال : قال رسول الله ﷺ : « رُؤْيَا الْأَنْبِيَاءِ فِي الْمَنَامِ وَحْيٌ » ^(١) . وإنما أعلم ابنه بذلك ليكون أهون عليه ، وليختبر صبره وجلده وعزمه في صغره على طاعة الله تعالى وطاعة أبيه ﴿ قَالَ يَتَأَتَّى أَقْبَلُ مَا تَوْصَرُّ ﴾ أي امض لما أمرك الله من ذبحي ﴿ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴾ أي سأصبر وأحسب ذلك عند الله ﷻ ، وصدق صلوات الله وسلامه عليه فيما وعد قال تعالى : ﴿ فَلَمَّا أَتَيْنَا وَقَلَّ اللَّجَيْنِ ﴾ أي فلما تشهدا وذكرنا الله تعالى ، إبراهيم على الذبيح والولد شهادة الموت ، وقيل : ﴿ أَسْلَمَا ﴾ يعني استسلما وانقادا ، إبراهيم امثل أمر الله تعالى ، وإسماعيل طاعة لله ولأبيه ، ومعنى ﴿ وَقَلَّ اللَّجَيْنِ ﴾ أي صرعه على وجهه ليذبحه من قفاه ولا يشاهد وجهه عند ذبحه ليكون أهون عليه . قال ابن عباس ومجاهد

(١) ذكره ابن حجر في فتح الباري (٢٣٩/١) والهيتمي في مجمع الزوائد (١٧٦/٧) وعزاه للطبراني في الكبير ، وليس هو في شيء من الكتب الستة من هذا الوجه .

والضحك : ﴿ وَنَكَهَ لِلْجَيْنِ ﴾ أكتبه على وجهه . وقال : لما أمر إبراهيم عليه الصلاة والسلام بالمناusk عرض له الشيطان عند السعي ، فسابقه فسبقه إبراهيم عليه الصلاة والسلام ، ثم ذهب به جبريل عليه الصلاة والسلام إلى جمرة العقبة ، فعرض له الشيطان فرماه بسبع حصيات حتى ذهب ، ثم عرض له عند الجمرة الوسطى فرماه بسبع حصيات ، ثم تله للجبين وعلى إسماعيل عليه الصلاة والسلام قميص أبيض ، فقال له : يا أبت إنه ليس لي ثوب تكفنتي فيه غيره ، فاخلعه حتى تكفنتي فيه فعالجه ليخلعه فنودي من خلفه ﴿ أَنْ يَتَابَرَّهُمْ ۖ ﴾ قَدْ صَدَقْتَ الرَّؤْيَا ۖ فالتفت إبراهيم فإذا بكبش أبيض أقرن أعين ، قال ابن عباس : لقد رأيتنا نتبع ذلك الضرب من الكبش^(١) ، وروي أن أبا هريرة وكعب اجتماعا فجعل أبو هريرة ﷺ يحدث عن النبي ﷺ فجعل كعب يحدث عن الكتب ، فقال أبو هريرة ﷺ قال النبي ﷺ : « إن لكل نبي دعوة مستجابة ، وإنني قد خبأت دعوتي شفاعة لأمتي يوم القيامة »^(٢) ، فقال له كعب : أنت سمعت هذا من رسول الله ﷺ ؟ قال : نعم ، قال : فذاك أبي وأمي - أو فداه أبي وأمي - أفلا أخبرك عن إبراهيم عليه الصلاة والسلام ؟ إنه لما أرى ذبح ابنه إسحاق قال الشيطان : إن لم أقتن هؤلاء عند هذه لم أقتنهم أبداً ، فخرج إبراهيم عليه الصلاة والسلام بابنه ليذبحه ، فذهب الشيطان فدخل على سارة فقال : أين ذهب إبراهيم بابنك ؟ قالت : غدا به لبعض حاجته ، قال : فإنه لم يغد به لحاجة ، إنما ذهب به ليذبحه ، قالت : ولم يذبحه ؟ قال : زعم أن ربه أمره بذلك ، قالت : فقد أحسن أن يطيع ربه ، فذهب الشيطان في أثرهما فقال للغلام : أين يذهب بك أبوك ؟ قال : لبعض حاجته ، قال : فإنه لا يذهب بك لحاجة ولكنه يذهب بك ليذبحك ، قال : ولم يذبحني ؟ قال : يزعم أن ربه أمره بذلك ، قال : فوالله لئن كان الله تعالى أمره بذلك ليفعلن ، قال : فيس منه فتركه ولحق إبراهيم عليه الصلاة والسلام فقال : أين غدوت بابنك ؟ قال : لحاجة ، قال : فإنك لم تغد به لحاجة وإنما غدوت به لتذبحه ، قال : ولم أذبحه ؟ قال : تزعم أن ربك أمرك بذلك ، قال : فوالله لئن كان الله تعالى أمرني بذلك لأفعلن ، قال : فتركه ويس أن يطاع^(٣) . وقوله تعالى : ﴿ وَتَدْبِثُ أَنْ يَتَابَرَّهُمْ ۖ ﴾ قَدْ صَدَقْتَ الرَّؤْيَا ۖ أي قد حصل المقصود من رؤياك بإضجاعك ولدك للذبح ، وذكر السدي وغيره أنه أمر السكين على رقبتة فلم تقطع شيئاً ، بل حال بينها وبينه صفحة من نحاس ونودي إبراهيم عليه الصلاة والسلام عند ذلك ﴿ قَدْ صَدَقْتَ الرَّؤْيَا ۖ ﴾ . وقوله تعالى : ﴿ إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴾ أي هكذا نصرّف عن أطاعنا المكاره والشدائد ، ونجعل لهم من أمرهم فرجاً ومخرجاً كقوله تعالى : ﴿ وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجاً ۖ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ ۚ إِنَّ اللَّهَ بَلِّغُ أَمْرَهُ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدَرًا ۖ ﴾ وقد استدلل بهذه الآية والقصة جماعة من علماء الأصول على صحة النسخ قبل التمكن من الفعل خلافاً لطائفة من المعتزلة . والدلالة من هذه ظاهرة ؛ لأن الله تعالى شرع لإبراهيم عليه الصلاة والسلام ذبح ولده ثم نسخه عنه وصرفه إلى الفداء ، وإنما كان المقصود من شرعه أولاً : إثابة الخليل على الصبر على

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٢٩٧/١) .

(٢) أخرجه أحمد في مسنده (٤٢٦/٢) .

(٣) ذكره السيوطي في الدر المنثور (١٠٨/٧) وعزه إلى عبد الرزاق في مصنفه وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر والحاكم والبيهقي .

ذبح ولده وعزمه على ذلك ؛ ولهذا قال تعالى : ﴿ إِنَّكَ هَذَا لَهُوَ الْبَتُّ الْيُسَيْنُ ﴾ أي الاختبار الواضح الجلي ؛ حيث أمر بذبح ولده فسارع إلى ذلك مستسلماً لأمر الله تعالى منقاداً لطاعته ؛ ولهذا قال تعالى : ﴿ وَابْتَرِهَيْمَ الَّذِي وَفَّى ﴾ . وقوله تعالى : ﴿ وَفَدَيْنَهُ بِذَنبِ عَظِيمٍ ﴾ بكبش أبيض أعين أقرن قد ربط بسمرة ، عن ابن عباس رضي الله عنه قال : كبش قد رعى في الجنة أربعين خريفاً . وعن صفية بنت شيبة قالت : أخبرني امرأة من بني سليم ولدت عامة أهل دارنا ، أرسل رسول الله ﷺ إلى عثمان بن طلحة رضي الله عنه ، وقالت مرة : إنها سألت عثمان لم دعاك النبي ﷺ ؟ قال : قال لي رسول الله ﷺ : « إني كنت رأيت قرني الكبش حين دخلت البيت ، ففسيت أن أمرك أن تخمرهما ، فخرهما ؛ فإنه لا ينبغي أن يكون في البيت شيء يشغل المصلي » ^(١) قال سفيان : لم يزل قرنا الكبش معلقين في البيت حتى احترق البيت فاحترقا ، وهذا دليل مستقل على أنه إسماعيل عليه الصلاة والسلام ؛ فإن قريشا توارثوا قرني الكبش الذي فدى به إبراهيم خلفاً عن سلف وجيلاً بعد جيل إلى أن بعث الله رسوله ﷺ ، والله أعلم .

فصل في ذكر الآثار الواردة عن السلف في أن الذبيح هو :

ذكر من قال هو إسحاق عليه الصلاة والسلام : قال حمزة الزيات عن أبي ميسرة رضي الله عنه قال : قال يوسف عليه الصلاة والسلام للملك في وجهه : ترغب أن تأكل معي وأنا - والله - يوسف بن يعقوب ، نبي الله ابن إسحاق ذبيح الله ابن إبراهيم خليل الله ^(٢) .

ذكر الآثار الواردة بأنه إسماعيل عليه الصلاة والسلام وهو الصحيح المقطوع به : عن ابن عباس رضي الله عنه أنه قال : المقدى إسماعيل عليه السلام وزعمت اليهود أنه إسحاق وكذبت اليهود ، وعن ابن عمر رضي الله عنه قال : الذبيح إسماعيل ، وقال الشعبي : هو إسماعيل عليه الصلاة والسلام ، وقد رأيت قرني الكبش في الكعبة . عن الحسن البصري أنه كان لا يشك في ذلك ، أن الذي أمر بذبحه من ابني إبراهيم إسماعيل عليه السلام ، قال ابن إسحاق وسمعت محمد بن كعب القرظي وهو يقول : إن الذي أمر الله تعالى إبراهيم بذبحه من ابنه إسماعيل ، وإنا لنجد ذلك في كتاب الله تعالى ، وذلك أن الله تعالى حين فرغ من قصة المذبح من ابني إبراهيم قال تعالى : ﴿ وَبَشِّرْهُ بِإِسْحَاقَ بَيْتًا بَيْنَ الصَّالِحِينَ ﴾ ويقول الله تعالى : ﴿ فَبَشِّرْهَا بِإِسْحَاقَ وَيَسَّاقَ وَنَحْلَاقَ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ ﴾ يقول : بآبن وابن ابن ، فلم يكن ليأمره بذبح إسحاق وله فيه من الموعد بما وعده وما الذي أمر بذبحه إلا إسماعيل . وذكر محمد بن كعب القرظي ذلك لعمر بن عبد العزيز رضي الله عنه وهو خليفة فقال : إن هذا لشيء ما كنت أنظر فيه ، وإني لأراه كما قلت ، ثم أرسل إلى رجل كان عنده بالشام كان يهودياً فأسلم وحسن إسلامه ، وكان يرى أنه من علمائهم ، فسأله عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه عن ذلك ، قال محمد بن كعب : وأنا عند عمر بن عبد العزيز ، فقال له عمر : أي ابني إبراهيم أمر بذبحه ؟ فقال : إسماعيل والله يا أمير المؤمنين ، وإن يهود لتعلم بذلك ، ولكنهم يحسدونكم معشر العرب على أن يكون أباكم الذي كان من أمر الله فيه ، والفضل الذي ذكر الله تعالى منه لصبره لما أمر به ، فهم يجحدون ذلك ويزعمون أنه إسحاق ؛ لأن

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٦٨/٤) .

(٢) ذكرت روايات عديدة أن الذبيح هو إسحاق عليه السلام ، ولكن جميع هذه الأقوال لا يرقى إلى درجة الحديث الصحيح ، وكلها مأخوذة عن كعب الأحبار ؛ لذا أترنا عدم ذكرها نظراً لما فيها من الإسرائيليات .

إسحاق أبوهم ، والله أعلم أيهما كان ، وكل قد كان طاهراً طيباً مطيعاً لله ﷻ .

وقال عبد الله بن الإمام أحمد بن حنبل رحمه الله : سألت أبي عن الذبيح هل هو إسماعيل أو إسحاق ؟ فقال : إسماعيل وإنما عول ابن جرير في اختياره أن الذبيح إسحاق على قوله تعالى : ﴿ فَبَشِّرْهُ بِأَنَّكَ يُكَلِّمُ حَلِيمٌ ﴾ فجعل هذه البشارة هي البشارة بإسحاق في قوله تعالى : ﴿ وَبَشِّرْهُ بِأَنَّكَ يُكَلِّمُ حَلِيمٌ ﴾ وأجاب عن البشارة يعقوب ؛ بأنه قد كان بلغ معه السعي أي العمل ، ومن الممكن أنه قد كان ولد له أولاد مع يعقوب أيضاً قال : وأما القرنان المملذان كانا معلقين بالكعبة ؛ فمن الجائز أنهما نقلا من بلاد كنعان ، قال : وقد تقدم أن من الناس من ذهب إلى أنه ذبح إسحاق هناك ، هذا ما اعتمد عليه في تفسيره ، وليس ما ذهب إليه بمذهب ولا لازم ، بل هو بعيد جداً ، والذي استدل به محمد بن كعب القرظي على أنه إسماعيل أثبت وأصح وأقوى ، والله أعلم .

وقوله تعالى : ﴿ وَبَشِّرْهُ بِإِسْحَاقَ نَبِيًّا مِنَ الصَّالِحِينَ ﴾ لما تقدمت البشارة بالذبيح وهو إسماعيل عطف بذكر البشارة بأخيه إسحاق . وعن ابن عباس ﴿ وَبَشِّرْهُ بِإِسْحَاقَ نَبِيًّا مِنَ الصَّالِحِينَ ﴾ قال : بشر به حين ولد وحين نبى ، وقوله تعالى : ﴿ وَبَرَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَىٰ إِسْحَاقَ وَمِن دُرَّتَيْهِمَا يَحُيُّ وَيُطَالِمُ لِنَفْسِهِ مِثْرًا ﴾ كقوله تعالى ﴿ قِيلَ يَنْحُوتُ أَقِطْ إِبْرَاهِيمَ مِنَّا وَبَرَكْنَا عَلَيْكَ وَعَلَىٰ أُمِّهِ وَمَنْ مَعَكَ وَأُمُّهُمْ سَمِعَتْهُنَّ ثُمَّ يَمْسَهُنَّ مِنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ .

﴿ وَلَقَدْ مَنَّا عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَارُونَ ﴾ ١١٤ ﴿ وَجَعَلْنَاهُمَا قَوْمَهُمَا مِنَ الصَّالِحِينَ ﴾ ١١٥ ﴿ وَنَصَرْنَاهُمْ فَكَانُوا هُمُ الْغَالِبِينَ ﴾ ١١٦ ﴿ وَءَاتَيْنَاهُمَا الْكِتَابَ الْمُسْتَقِيمَ ﴾ ١١٧ ﴿ وَوَدَّعَيْنَاهُمَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ﴾ ١١٨ ﴿ وَوَرَكْنَا عَلَيْهِمَا فِي الْآخِرِينَ ﴾ ١١٩ ﴿ عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَارُونَ ﴾ ١٢٠ ﴿ إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴾ ١٢١ ﴿ إِنَّمَا مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ ﴾ ١٢٢ .

يذكر تعالى ما أنعم به على موسى وهارون من النبوة والنجاة بمن آمن معهما من قهر فرعون وقومه ، وما كان يعتمد في حقهم من الإساءة العظيمة من قتل الأبناء واستحياء النساء ، واستعمالهم في أخس الأشياء - ثم بعد هذا كله نصرهم عليهم وأقر أعينهم منهم فغلبوهم وأخذوا أرضهم وأموالهم وما كانوا جمعه طول حياتهم ، ثم أنزل الله ﷻ على موسى الكتاب العظيم الواضح الجلي المستبين وهو التوراة كما قال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ مَنَّا عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَارُونَ الْفَرَاقَانَ وَضِيقَهُ ﴾ وقال ﷻ ههنا : ﴿ وَءَاتَيْنَاهُمَا الْكِتَابَ الْمُسْتَقِيمَ ﴾ ١١٧ ﴿ وَوَدَّعَيْنَاهُمَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ﴾ ١١٨ أي في الأقوال والأفعال ﴿ وَوَرَكْنَا عَلَيْهِمَا فِي الْآخِرِينَ ﴾ أي أبقينا لها من بعدهما ذكراً جميلاً وثناءً حسناً ، ثم فسره بقوله تعالى : ﴿ سَلَّمْ عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَارُونَ ﴾ ١٢٠ ﴿ إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴾ ١٢١ ﴿ إِنَّمَا مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ ﴾ ١٢٢ .

﴿ وَإِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ لَمَّا أُنْمِتَ لِمَا كَفَرَ ﴾ ١٢٣ ﴿ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَلَا تَتَّقُونَ ﴾ ١٢٤ ﴿ أَتَدْعُونَ بَعْلًا وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ الْخَالِقِينَ ﴾ ١٢٥ ﴿ اللَّهُ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأُولَىٰ ﴾ ١٢٦ ﴿ فَكذبُوهُ فِائِهِمْ فَتَضَرَّوْهُ ﴾ ١٢٧ ﴿ إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ ﴾ ١٢٨ ﴿ وَوَرَكْنَا عَلَيْهِمَا فِي الْآخِرِينَ ﴾ ١٢٩ ﴿ سَلَّمْ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ ﴾ ١٣٠ ﴿ إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴾ ١٣١ ﴿ إِنَّهُمْ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ ﴾ ١٣٢ .

يقال : إلياس هو إدريس ، وعن عبد الله بن مسعود ﷺ قال : إلياس هو إدريس ، ﴿ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَلَا تَتَّقُونَ ﴾ أي ألا تخافون الله ﷻ في عبادتكم غيره ﴿ أَتَدْعُونَ بَعْلًا وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ الْخَالِقِينَ ﴾ قال ابن عباس ﷺ ومجاهد وعكرمة وقتادة والسدي : بعلاً يعني رباً . وهي لغة أهل اليمن ، وقال ابن

إسحاق : أخبرني بعض أهل العلم أنهم كانوا يعبدون امرأة اسمها بعل . وقال زيد بن أسلم : هو اسم صنم كان يعبد أهل مدينة يقال لها : بعلبك غربي دمشق ، وقوله تعالى : ﴿ أَتَدْعُونَ بَعْلًا ﴾ أي أتعبدون صنمًا ﴿ وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ الْخَلْقِينَ ﴾ اللَّهُ رَبُّكُمْ وَالْأَوَّلِينَ ﴿ أي هو المستحق للعبادة وحده لا شريك له ، قال الله تعالى : ﴿ فَكَذَّبُوهُ فَأَتَيْنَهُمُ الْفِتْرَةُ ﴾ أي للعذاب يوم الحساب ﴿ إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ ﴾ أي الموحدين منهم وهذا استثناء منقطع من مثبت . وقوله تعالى : ﴿ وَرَبَّنَا عَلَيْنَا فِي الْآخِرِينَ ﴾ أي ثناء جميلًا ﴿ سَلَامٌ عَلَى إِبْرَاهِيمَ ﴾ كما يقال في إسماعيل وإسماعيل وهي لغة بني أسد .

وقرأ آخرون ﴿ سلام على إدريس ﴾ وهي قراءة ابن مسعود ؓ ، وقرأ آخرون ﴿ سَلَامٌ عَلَى إِبْرَاهِيمَ ﴾ ^(١) يعني آل محمد ﷺ .

﴿ وَإِنَّ لَوْلَا لَيْنَ الْمُرْسَلِينَ ﴾ إِذْ بَخَّيْتَهُ وَأَهْلَهُ أَجْمَعِينَ ﴿ إِلَّا عَجُوزًا فِي الْغَنِيِّينَ ﴾ ثُمَّ دَمَرْنَا الْآخَرِينَ ﴿ وَإِذْ كُنْتُمْ فِيكُمْ مُصْطَفَيْنَ ﴾ وَإِلَّا أَفْلَا تَقُولُونَ ﴾ .

يخبر تعالى عن عبده ورسوله لوط عليه السلام أنه بعثه إلى قومه فكذبوه فنجاه الله تعالى من بين أظهرهم هو وأهله إلا امرأته فإنها هلكت مع من هلك من قومها ؛ فإن الله تعالى أهلكهم بأنواع من العقوبات وجعل محللتهم من الأرض بحيرة منتنة قبيحة المنظر والطعم والريح ، وجعلها بسبيل مقيم يمر بها المسافرون ليلا ونهارًا ؛ ولهذا قال تعالى : ﴿ وَإِذْ كُنْتُمْ فِيكُمْ مُصْطَفَيْنَ ﴾ وَإِلَّا أَفْلَا تَقُولُونَ ﴾ أي أفلا تعتبرون بهم كيف دمر الله عليهم وتعلمون أن للكافرين أمثالها .

﴿ وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴾ إِذْ أَبَقَ إِلَى الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ ﴿ فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ الْمُدْحَضِينَ ﴾ فَالْتَقَمَهُ الْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ ﴿ فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسْتَجِيبِينَ ﴿ لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴾ ﴿ فَنَدَيْنَاهُ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ سَقِيمٌ ﴿ وَأَبْلَسْنَا عَلَيْهِ سَجْرَةً يَتَخَطَّى ﴾ وَارْسَلْنَاهُ إِلَى يَاقَةَ آلِ يُونُسَ أَوْ يَزِيدُونَ ﴿ فَاتَمَتُوا فَمَتَعْنَاهُمْ إِلَى حِينٍ ﴾ .

عن رسول الله ﷺ أنه قال : « ما ينبغي لعبد أن يقول أنا خير من يونس بن متى » ونسبه إلى أمه ^(٢) . وفي رواية « إلى أبيه » وقوله تعالى : ﴿ إِذْ أَبَقَ إِلَى الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ ﴾ قال ابن عباس ؓ : هو الموقر أي المملوء بالأمعة ﴿ فَسَاهَمَ ﴾ أي قارع ﴿ فَكَانَ مِنَ الْمُدْحَضِينَ ﴾ أي المغلوبين ؛ وذلك أن السفينة تلعبت بها الأمواج من كل جانب ، وأشرفوا على الغرق ، فساهموا على من تقع عليه القرعة يلقي في البحر لتخف بهم السفينة ، فوقعت القرعة على نبي الله يونس عليه الصلاة والسلام ثلاث مرات ، وهم يظنون به أن يلقي من بينهم فتجرد من ثيابه ليلقي نفسه وهم يأبون عليه ذلك ، وأمر الله تعالى حوتًا من البحر الأخضر أن يشق البحار وأن يلتقم يونس عليه السلام ، فلا يهشم له لحمًا ولا يكسر له عظمًا ، فجاء ذلك الحوت وألقى يونس عليه السلام نفسه ، فالتقمه الحوت وذهب به فطاف به البحار كلها . ولما استقر يونس في بطن الحوت حسب أنه قد مات ، ثم حرك رأسه ورجليه وأطرافه فإذا هو حي ، واختلفوا في مقدار ما لبث في بطن الحوت فقيل : ثلاثة أيام ، وقيل : سبعة ، وقيل : أربعين يوما ، والله تعالى أعلم بمقدار ذلك .

(١) قرأ نافع وابن عامر ﴿ سلام على آل ياسين ﴾ بفتح الألف وكسر اللام ، وقرأ الباقون ﴿ الباسين ﴾ بكسر الألف ساكنة اللام (انظر : حجة القراءات ص ٦١٠) .

(٢) أخرجه البخاري في أحاديث الأنبياء (٣٤١٣) وأبو داود في السنن (٤٦٦٩) وأحمد في مسنده (٤٠٥٢) .

وقوله تعالى : ﴿ قُلْ لَا أَنْتُمْ كَانُوا مِنَ الْمَسِيحِينَ ﴾ ﴿ لَيْتَ فِي بَطْنِهِ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴾ قيل : لولا ما تقدم له من العمل في الرخاء ، واختاره ابن جرير وفي حديث ابن عباس « تعرف إلى الله في الرخاء يعرفك في الشدة » ^(١) . وقيل : المراد ﴿ قُلْ لَا أَنْتُمْ كَانُوا مِنَ الْمَسِيحِينَ ﴾ هو قوله ﴿ لَيْتَ فِي بَطْنِهِ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴾ . وقيل : ﴿ قُلْ لَا أَنْتُمْ كَانُوا مِنَ الْمَسِيحِينَ ﴾ ﴿ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَجِئْنَاهُ مِنَ الْغَيْبِ وَكَذَلِكَ نُشَوِّجُ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ . عن أنس بن مالك ؓ - ولا أعلم أنشأ إلا يرفع الحديث إلى رسول الله ﷺ : إن يونس النبي عليه الصلاة والسلام حين بدا له أن يدعو بهذه الكلمات وهو في بطن الحوت ، فقال : اللهم لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين ، فأقبلت الدعوة تحن بالعرش ، قالت الملائكة : يا رب هذا صوت ضعيف معروف من بلاد بعيدة غريبة ، فقال الله تعالى : أما تعرفون ذلك ؟ قالوا : يا رب ومن هو ؟ قال ﷺ : عبدي يونس ، قالوا : عبدك يونس الذي لم يزل يرفع له عمل متقبل ودعوة مستجابة ، قالوا : يا رب أولاً ترحم ما كان يصنع في الرخاء فتنجيه في البلاء ، قال : بلى ، فأمر الحوت فطرحة بالعراء ^(٢) .

قال تعالى : ﴿ فَتَذَكَّرْهُ ﴾ أي ألقيناه ﴿ بِالْعَرَاءِ ﴾ قال ابن عباس ؓ وغيره : وهي الأرض التي ليس بها نبت ولا بناء ، قيل : على جانب دجلة وقيل : بأرض اليمن فالله أعلم ﴿ وَمَوْ سِيقًا ﴾ أي ضعيف البدن ، ﴿ وَأَبْنَيْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِنْ يَقْطِينٍ ﴾ قال ابن مسعود وابن عباس ؓ وغيرهما : اليقطين هو القرع . وقال سعيد بن جبير : كل شجرة لا ساق لها فهي من اليقطين ، وفي رواية عنه : كل شجرة تهلك من عامها فهي من اليقطين ، وذكر بعضهم في القرع فوائد منها : سرعة نباته ، وتظليل ورقة لكبره ونعومته ، وأنه لا يقربها الذباب ، وجودة تغذية ثمره ، وأنه يؤكل نيئاً ومطبوخاً بلبه وقشره أيضاً ، وقد ثبت أن رسول الله ﷺ كان يحب الدباء ويتبعه من نواحي الصحفة ^(٣) .

قوله تعالى : ﴿ وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَى مِائَةِ آلَافٍ أَوْ يَزِيدُونَ ﴾ عن ابن عباس ؓ أنه قال : إنما كانت رسالة يونس عليه الصلاة والسلام بعدها نبذه الحوت عن مجاهد : أرسل إليهم قبل أن يلتقمه الحوت . (قلت) ولا مانع أن يكون الذين أرسل إليهم أولاً أمر بالعود إليهم بعد خروجه من الحوت فصدقوه كلهم وآمنوا به ، وحكى البغوي : أنه أرسل إلى أمة أخرى بعد خروجه من الحوت كانوا مائة ألف أو يزيدون وقوله تعالى : ﴿ أَوْ يَزِيدُونَ ﴾ قال ابن عباس ؓ : بل يزيدون .

وقال مكحول : كانوا مائة ألف وعشرة آلاف . عن أبي بن كعب ؓ أنه سأل رسول الله ﷺ عن قوله تعالى : ﴿ وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَى مِائَةِ آلَافٍ أَوْ يَزِيدُونَ ﴾ قال : « يزيدون عشرين ألفاً ؟ » ^(٤) قال ابن جرير : وكان بعض أهل العربية من أهل البصرة يقول في ذلك : معناه إلى المائة الألف أو كانوا يزيدون عندكم ، يقول : كذلك كانوا عندكم . وقوله تعالى : ﴿ فَتَأْتُوا ﴾ أي فآمن هؤلاء القوم الذين أرسل إليهم يونس عليه السلام جميعهم ﴿ فَتَعْتَبْهُمْ إِلَى يَوْمِ الْبَاسِ ﴾ أي إلى وقت آجالهم ، كقوله جل جلالته : ﴿ قُلْ لَا كُفْرَ إِلَّا كُفْرًا فَتَعْتَبْهُمْ إِلَى يَوْمِ الْبَاسِ ﴾ .

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٣٧٠/١) .

(٢) ذكره الهندي في كنز العمال (٣٥٥٧٦) والسيوطي في الدر المنثور (٣٣٤/٤) والطبري في تفسيره (٦٤/٢٣) .

(٣) أخرجه البخاري في الأطعمة (٥٤٣٣) ومسلم في الأطعمة (٢١) والدارمي في الأطعمة (١٩) .

(٤) أخرجه الترمذي في تفسير القرآن (٣٢٢٩) .

﴿ فَاسْتَفْتِهِمْ أَلَرَبُّكَ الْبَنَاتُ وَلَهُمُ الْبُتُونَ ﴾ ١٤٩ ﴿ أَمْ خَلَقْنَا الْمَلَائِكَةَ إِنثًا وَهُمْ شَاهِدُونَ ﴾ ١٥٠ ﴿ أَلَا إِنَّهُمْ مِنْ إِنْكَهَرٍ لَيَقُولُونَ ﴾ ١٥١ ﴿ وَلَدَ اللَّهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴾ ١٥٢ ﴿ أَصْطَلَى الْبَنَاتُ عَلَى الْبَنِينَ ﴾ ١٥٣ ﴿ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴾ ١٥٤ ﴿ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴾ ١٥٥ ﴿ أَمْ لَكُمْ سُلْطَانٌ مُبِينٌ ﴾ ١٥٦ ﴿ فَأَنَّا يُكَذِّبُكَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ ١٥٧ ﴿ وَجَعَلُوا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْجَنَّةِ نَبًّا وَلَقَدْ عَلِمَتِ الْجِنَّةُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ ﴾ ١٥٨ ﴿ سُبْحَنَ اللَّهِ عَمَّا يُصِفُونَ ﴾ ١٥٩ ﴿ إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ ﴾ ١٦٠ .

يقول تعالى منكراً على هؤلاء المشركين في جعلهم لله تعالى البنات - سبحانه - ولهم ما يشتهون أي من الذكور، أي يودون لأنفسهم الجيد ﴿ وَإِنَّا بَشِيرٌ أَحَدُهُمْ بِالْأُنْثَى ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوًوًا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴾ أي يسوؤه ذلك ولا يختار لنفسه إلا البنين، يقول ﷻ فكيف نسبوا إلى الله تعالى القسم الذي لا يختارونه لأنفسهم، ولهذا قال تعالى : ﴿ فَاسْتَفْتِهِمْ ﴾ أي سلهم على سبيل الإنكار عليهم ﴿ أَلَرَبُّكَ الْبَنَاتُ وَلَهُمُ الْبُتُونَ ﴾ كقوله جل وعلا : ﴿ وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِنْدَ الرَّحْمَنِ إِنثًا أَشْهَدُوا خَلْقَهُمْ سَخِيبُ شَهِدَتْهُمْ وَنَسَوْنَ ﴾ أي يسألون عن ذلك يوم القيامة . وقوله جلت عظمته ﴿ أَلَا إِنَّهُمْ مِنْ إِنْكَهَرٍ ﴾ أي من كذبهم ﴿ لَيَقُولُونَ ﴾ ١٥١ ﴿ وَلَدَ اللَّهُ ﴾ أي صدر منه الولد ﴿ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴾ فذكر الله تعالى عنهم في الملائكة ثلاثة أقوال في غاية الكفر والكذب ، فأولاً : جعلوهم بنات الله فجعلوا لله ولداً تعالى وتقدس ، وجعلوا ذلك الولد أنثى ، ثم عبدوهم من دون الله تعالى وتقدس . وكل منها كاف في التخليد في نار جهنم . ثم قال تعالى منكراً عليهم ﴿ أَصْطَلَى الْبَنَاتُ عَلَى الْبَنِينَ ﴾ أي أي شيء يحمله علي أن يختار البنات دون البنين كقوله ﷻ : ﴿ أَفَأَصْفَكَ رُثًى وَالْبَيْنَ وَأَخَذَ مِنَ الْمَلَائِكَةِ إِنثًا إِنَّكُمْ لَعَاوِلُونَ قَوْلًا عَظِيمًا ﴾ ولهذا قال تبارك وتعالى : ﴿ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴾ أي مالكم عقول تندبرون بها ما تقولون ﴿ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴾ ١٥٥ ﴿ أَمْ لَكُمْ سُلْطَانٌ مُبِينٌ ﴾ أي حجة على ما تقولونه ، ﴿ فَأَنَّا يُكَذِّبُكَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ أي هاتوا برهاناً على ذلك يكون مستنداً إلى كتاب منزل من السماء عن الله تعالى أنه اتخذ ما تقولونه ، فإن ما تقولونه لا يمكن استناده إلى عقل ، بل لا يجوز العقل بالكلية . وقوله تعالى : ﴿ وَجَعَلُوا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْجَنَّةِ نَبًّا ﴾ قال مجاهد : قال المشركون : الملائكة بنات الله تعالى ، فقال أبو بكر ؓ : فمن أمهاتهن ، قالوا : بنات سروات الجن ^(١) ولهذا قال تبارك وتعالى : ﴿ وَلَقَدْ عَلِمَتِ الْجِنَّةُ ﴾ أي الذين نسبوا إليهم ذلك ﴿ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ ﴾ أي إن الذين قالوا ذلك لمحضرون في العذاب يوم الحساب لكذبهم في ذلك وافتراءهم وقولهم الباطل بلا علم ، وقوله جلت عظمته : ﴿ سُبْحَنَ اللَّهِ عَمَّا يُعِشُونَ ﴾ أي تعالى وتقدس وتنزه عن أن يكون له ولد وعما يصفه به الظالمون الملحدون علواً كبيراً . وقوله تعالى : ﴿ إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ ﴾ استثناء منقطع وهو من مثبت إلا أن يكون الضمير في قوله تعالى : ﴿ عَمَّا يُعِشُونَ ﴾ عائد إلى الناس جميعهم ، ثم استثنى منهم المخلصين ، وهم المتبعون للحق المنزل على كل نبي مرسل .

﴿ فَأَنَّا يُكَذِّبُكَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ ١٥٧ ﴿ مَا أَشَرُّ عَلَىٰ بَغِيَّتَيْنِ ﴾ ١٥٨ ﴿ إِلَّا مَنْ هُوَ صَالٍ الْجَحِيمِ ﴾ ١٥٩ ﴿ وَإِنَّا لَنَحْنُ الصَّافُونَ ﴾ ١٦٠ ﴿ وَإِنَّا لَنَحْنُ النَّصِيرُونَ ﴾ ١٦١ ﴿ وَإِن كَانُوا لَيَقُولُوا ﴾ ١٦٢ ﴿ لَوْ أَنَّ عِنْدَنَا ذِكْرًا مِنَ الْأَوَّلِينَ ﴾ ١٦٣ ﴿ لَكُنَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ ﴾ ١٦٤ ﴿ فَكُفُّوا يَدَيْهِ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴾ ١٦٥ .

يقول تعالى مخاطباً المشركين : ﴿ فَأَنَّا يُكَذِّبُكَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ ١٥٧ ﴿ مَا أَشَرُّ عَلَىٰ بَغِيَّتَيْنِ ﴾ ١٥٨ ﴿ إِلَّا مَنْ هُوَ صَالٍ الْجَحِيمِ ﴾ ١٥٩ ﴿ وَإِنَّا لَنَحْنُ الصَّافُونَ ﴾ ١٦٠ ﴿ وَإِنَّا لَنَحْنُ النَّصِيرُونَ ﴾ ١٦١ ﴿ وَإِن كَانُوا لَيَقُولُوا ﴾ ١٦٢ ﴿ لَوْ أَنَّ عِنْدَنَا ذِكْرًا مِنَ الْأَوَّلِينَ ﴾ ١٦٣ ﴿ لَكُنَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ ﴾ ١٦٤ ﴿ فَكُفُّوا يَدَيْهِ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴾ ١٦٥ .

أي إنما ينقاد لمقاتلتكم وما أنتم عليه من الضلالة والعبادة الباطلة من هو أضل منكم ممن ذرئ للنار فهذا الضرب من الناس هو الذي ينقاد لدين الشرك والكفر والضلالة كما قال تبارك وتعالى : ﴿ إِنَّكَ لَنِي قَوْلِي تُخْلِفُ ۝ يُوَفِّكَ عَنْهُ مَنْ أَفْك ۝ أي إنما يضل به من هو مأفوك ومبطل ، ثم قال تبارك وتعالى منزهاً للملائكة عما نسبوا إليهم من الكفر بهم والكذب عليهم أنهم بنات الله ﴿ وَمَا يَنَّا إِلَّا لَمْ مَقَامٌ مَعْلُومٌ ۝ أي له موضع مخصوص في السموات ومقامات العبادات لا يتجاوزوه ولا يتعداه فغن العلاء بن سعد - وكان ممن بايع يوم الفتح - أن رسول الله ﷺ قال يوماً لجلسائها : « أطت السماء وحق لها أن تظ ، ليس فيها موضع قدم إلا عليه ملك رافع أو ساجد » ثم ﴿ وَمَا يَنَّا إِلَّا لَمْ مَقَامٌ مَعْلُومٌ ۝ وَنَا لَنَحْنُ الصَّافُونَ ۝ وَنَا لَنَحْنُ السَّيُّونَ ۝ ﴾ (١) .

﴿ وَنَا لَنَحْنُ الصَّافُونَ ۝ أي نفق صفوفاً في الطاعة ، عن الوليد بن عبد الله بن أبي مغيث قال : كانوا لا يصفون في الصلاة حتى نزلت ﴿ وَنَا لَنَحْنُ الصَّافُونَ ۝ فصفوا : وقال أبو نضرة : كان عمر ؓ إذا أقيمت الصلاة استقبل الناس بوجهه ثم قال : أقيموا صفوفكم ، استووا قياماً ، يريد الله تعالى بكم هدي الملائكة ثم يقول : ﴿ وَنَا لَنَحْنُ الصَّافُونَ ۝ تأخر يا فلان تقدم يا فلان ثم يتقدم فيكبر (٢) . وعن حذيفة ؓ قال : قال رسول الله ﷺ « فضلنا على الناس بثلاث : جعلت صفوفنا كصفوف الملائكة ، وجعلت لنا الأرض مسجداً ، وتربتها طهوراً » (٣) ﴿ وَنَا لَنَحْنُ السَّيُّونَ ۝ أي نصطف ، فنسبح الرب ونعجده ونقدسه وننزله عن النقائص فنحن عبيد له فقراء إليه خاضعون لديه . وقال ابن عباس ؓ ومجاهد : ﴿ وَمَا يَنَّا إِلَّا لَمْ مَقَامٌ مَعْلُومٌ ۝ الملائكة ﴿ وَنَا لَنَحْنُ الصَّافُونَ ۝ الملائكة ﴿ وَنَا لَنَحْنُ السَّيُّونَ ۝ الملائكة تسبح الله ﷻ . وقوله جلي وعلا : ﴿ وَلَن كَانُوا لَيَقُولُونَ ۝ لَوْ أَنَّ عِنْدَنَا ذِكْرًا مِنَ الْأَوَّلِينَ ۝ لَكُنَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلِصِينَ ۝ أي قد كانوا يتمنون قبل أن تأتيهم يا محمد لو كان عندهم من يذكرهم بأمر الله وما كان من أمر القرون الأولى ويأتيهم بكتاب الله كما قال ﷻ : ﴿ وَأَنسُوا بِأَنَّهُ جَهْدُ آبَتِهِمْ لَيْتَ جَهْدُهُمْ نَذِيرٌ لِّكَوْنِ أَهْلِي مِنَ الْبَدَى الْأُمِّ فَلَمَّا جَاءَهُمْ نَذِيرٌ مَا زَادَهُمْ إِلَّا نُفُورًا ۝ ولهذا قال تعالى هاهنا : ﴿ فَكْفَرُوا بِهِ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ۝ وحيد أكيد وتهديد شديد على كفرهم بربهم ﷻ وتكذيبهم رسوله ﷺ .

﴿ وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْغَرَسِينَ ۝ إِيَّاهُمْ لَمْ الْغُورُونَ ۝ وَلَن جُذُنًا لَّهُمُ الْقَلِيلُونَ ۝ قَوْلٌ عَنْهُمْ حَتَّى جِنِ ۝ وَأَبْصِرْتُمْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ ۝ أَفَعَدَّيْنَا لِمَن يَعْمَلُونَ ۝ فَإِذَا نَزَلَ بِصَاحِبِ الْقُسُودِ ۝ وَقَوْلٌ عَنْهُمْ حَتَّى جِنِ ۝ وَأَبْصِرْتُمْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ ۝ .

يقول تبارك وتعالى : ﴿ وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْغَرَسِينَ ۝ أي تقدم في الكتاب الأول أن العاقبة للرسول وأتباعهم في الدنيا والآخرة كما قال تعالى : ﴿ كَتَبَ اللَّهُ لَأَخِي أَنَا وَرَسُولِي إِنَّ اللَّهَ فَوْى عَزِيزٌ ۝ ولهذا

(١) أخرجه أحمد في مسنده (١٧٣/٥) ، والترمذي في الزهد (٢٣١٢) وابن ماجه في السنن (٤٩٠) والأطيط : صوت الأخاب ؛ أي أن كثرة الملائكة في السماء قد أهلها حتى أطت ، وهذا كناية عن كثرة الملائكة ، أريد بها تقرير عظمة الله تعالى .

(٢) ذكره السيوطي في الدر المنثور (١٣٥/٧) ، وعزاه لمحمد بن قنر المروزي وابن جرير وابن مردويه وابن أبي حاتم .

(٣) أخرجه مسلم في المساجد (٤) والبيهقي في السنن (٢١٣/١) ، وابن خزيمة في صحيحه (٢٦٤) .

قال ﷻ : ﴿ وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِإِِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ ﴿١٨٠﴾ إِنَّهُمْ لَمُ مِّنَ الْمُصْوِّرِينَ ﴾ أي في الدنيا والآخرة كما تقدم بيان نصرتهم على قومهم ممن كذبهم وخالفهم ، كيف أهلك الله الكافرين ونجى عباده المؤمنين ﴿ وَإِنَّ جُنَدَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ ﴾ أي تكون لهم العاقبة . وقوله جل وعلا : ﴿ فَوَلَّوْا عَنْهُمْ حَتَّىٰ حِينٍ ﴾ أي اصبر على أذاهم لك ، وانتظر إلى وقت مؤجل فإننا سنجعل لك العاقبة والنصرة والظفر ، ولهذا قال بعضهم : نسأ ذلك إلى يوم بدر وما بعدها أيضًا في معناها ، وقوله جلت عظمتة : ﴿ وَأَصْبِرْهُمْ فَسَوْفَ يُبَيِّرُونَ ﴾ أي أنظرهم وارقب ماذا يحل بهم من العذاب والنكال بمخالفتك وتكذيبك ، ولهذا قال تعالى على وجه التهديد والوعيد ﴿ فَسَوْفَ يُبَيِّرُونَ ﴾ ثم قال ﷻ : ﴿ أَفَبِعَدَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ ﴾ أي هم إنما يستعجلون العذاب لتكذيبهم وكفرهم بك ؛ فإن الله تعالى يغضب عليهم بذلك ويعجل لهم العقوبة ، ومع هذا أيضًا كانوا من كفرهم وعنادهم يستعجلون العذاب والعقوبة . قال الله تبارك وتعالى : ﴿ فَإِذَا نَزَلَ بِسَاحَتِهِمْ فَسَاءَ صَبَاحُ الْمُنْذَرِينَ ﴾ أي فإذا نزل العذاب بمحلتهم فبئس ذلك اليوم يومهم يهلكهم ودمارهم ، عن أنس ؓ قال : صبح رسول ﷺ خير ، فلما خرجوا بفؤوسهم ومساحيهم ورأوا الجيش رجعوا وهم يقولون : محمد والله ، محمد والخميس ، فقال النبي ﷺ : « الله أكبر ، خربت خير ، إنا إذا نزلنا بساحة قوم فساء صباح المنذرين » ^(١) ، وقوله تعالى : ﴿ وَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ حَتَّىٰ حِينٍ ﴾ وَأَصْبِرْهُمْ فَسَوْفَ يُبَيِّرُونَ ﴿١٨١﴾ تأكيد لما تقدم من الأمر بذلك .

﴿ سُبْحَنَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٨٢﴾ وَسَلَامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ ﴿١٨٣﴾ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ .

ينزه تبارك وتعالى نفسه ويقدها ويرثها عما يقول الظالمون المكذبون المعتدون ، تعالى وتنزه وتقديس عن قولهم علوا كبيرا ؛ ولهذا قال تبارك وتعالى : ﴿ سُبْحَنَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ ﴾ أي ذي العزة التي لا ترام ﴿ عَمَّا يَصِفُونَ ﴾ أي عن قول هؤلاء المعتدين المفتريين ﴿ وَسَلَامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ ﴾ أي سلام الله عليهم في الدنيا والآخرة ؛ لسلامة ما قالوه في ربهم وصحته وحقيقته ﴿ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ أي له الحمد في الأولى والآخرة في كل حال ، ولما كان التسبيح يتضمن التنزيه والتبرئة من النقص بدلالة المطابقة ، ويستلزم إثبات الكمال ، كما أن الحمد يدل على إثبات صفات الكمال مطابقة ، ويستلزم التنزيه من النقص قرن بينهما في هذا الموضع ؛ وفي مواضع كثيرة من القرآن ، ولهذا قال تبارك وتعالى : ﴿ سُبْحَنَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٨٢﴾ وَسَلَامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ ﴿١٨٣﴾ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ ، عن قتادة قال : قال رسول الله ﷺ : « إذا سلمتم علي فسلموا على المرسلين ؛ فإنما أنا رسول من المرسلين » ^(٢) .

عن عبد الله بن زيد بن أرقم عن أبيه عن رسول الله ﷺ أنه قال : « من قال دبر كل صلاة : ﴿ سُبْحَنَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٨٢﴾ وَسَلَامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ ﴿١٨٣﴾ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ ثلاث مرات ؛ فقد اكتال بالجرب الأوفى من الأجر » ^(٣) وقد وردت أحاديث في كفارة المجلس : سبحانك اللهم وبحمدك ، لا إله إلا أنت ، أستغفرك وأتوب إليك ^(٤) .

(١) أخرجه البخاري في صلاة الخوف (٩٤٧) ومسلم في الجهاد والسير (١٢٠) والنسائي في السنن (١٣٢/٦) .

(٢) ذكره الطبري في تفسيره (١٣٩/٢٣) ، والسيوطي في الدر المنثور (١٤٠/٧) ، وعزه لعبد الرزاق وعبد بن حميد وابن منذر .

(٣) أخرجه الطبراني في الكبير (١٦٩٢٦) والمنذري في الترغيب والترهيب (٤٥٤/٢) والهيشي (١٠٢/١٠) .

(٤) أخرجه أبو داود (٤٨٥٨) والنسائي في السنن (٢٢٣/٢) .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ص وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ﴾ ١ بِلِ اللَّيْنِ كَفَرُوا فِي عِزِّهِ وَشِقَاقِي ٢ كَرَّ أَهْلَكُنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ قَرْنٍ فَنَادَوا وَلَا تَجِئْ مِنَّا ٣ .
 أما الكلام على الحروف المقطعة فقد تقدم في أول سورة البقرة بما أغنى عن إعادته ههنا . وقوله تعالى :
 ﴿وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ﴾ أي القرآن المشتمل على ما فيه ذكر للعباد ونفع لهم في المعاش والمعاد ، قال
 الضحاك في قوله تعالى : ﴿ذِي الذِّكْرِ﴾ أي تذكيرهم ، وقال ابن عباس وغيره : ذي الشرف أي ذي الشأن
 والمكانة ، ولا منافاة بين القولين ؛ فإنه كتاب شريف مشتمل على التذكير والإعذار والإنذار ، واختلفوا في
 جواب هذا القسم فقال بعضهم : هو قوله تعالى : ﴿إِنْ كُلُّ إِلَّا كَذَّبَ الرَّسُولَ فَحَقَّ عِقَابِي﴾ وقيل : قوله
 تعالى : ﴿إِنَّ ذَلِكَ لَحَقٌّ تَخَاسُمَ أَهْلِ النَّارِ﴾ وهذا الثاني فيه بعد كبير وضعفه ابن جرير ، وقال قتادة : جوابه
 ﴿بِلِ اللَّيْنِ كَفَرُوا فِي عِزِّهِ وَشِقَاقِي﴾ ، وقوله تبارك وتعالى : ﴿بِلِ اللَّيْنِ كَفَرُوا فِي عِزِّهِ وَشِقَاقِي﴾ أي إن في هذا القرآن
 لذكر لمن يتذكر وعبرة لمن يعتبر ، وإنما لم ينتفع به الكافرون ؛ لأنهم ﴿فِي عِزِّهِ﴾ أي استكبار عنه وحمية
 ﴿وَشِقَاقِي﴾ أي ومخالفة له ومعاندة ومفارقة ، ثم خوفهم ما أهلك به الأمم المكذبة قبلهم بسبب مخالفتهم
 للرسول وتكذيبهم الكتب المنزلة من السماء ، فقال تعالى : ﴿كَرَّ أَهْلَكُنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ قَرْنٍ﴾ أي من أمة مكذبة
 ﴿فَنَادَوا﴾ أي حين جاءهم العذاب استغاثوا وجأروا إلى الله تعالى وليس ذلك بمجد عنهم شيئا كما
 قال ﷻ : ﴿فَلَمَّا أَحَسُّوا بَأْسَنَا إِذَا هُمْ مِنْهَا يَرْكُضُونَ﴾ أي يهربون ﴿لَا تَرْكُضُوا وَارْجِعُوا إِلَيَّ مَا أَتُفَتَّمُ فِيهِ وَمَسْكِكُمْ
 لِمَلَكُمُ تَسْتَلُونَ﴾ قال ابن عباس ؓ عن قول الله تبارك وتعالى : ﴿فَنَادَوا وَلَا تَجِئْ مِنَّا﴾ . قال : ليس
 بحين نداء ولا نزو ولا فرار .

وقال محمد بن كعب في قوله تعالى : ﴿فَنَادَوا وَلَا تَجِئْ مِنَّا﴾ يقول : نادوا بالتوحيد حين تولت
 الدنيا عنهم ، واستنصوا للتوبة حين تولت الدنيا عنهم ، وقال قتادة : لما رأوا العذاب أرادوا التوبة في
 غير حين النداء ، وقال مجاهد ﴿فَنَادَوا وَلَا تَجِئْ مِنَّا﴾ ليس بحين فرار ولا إجابة وقد روي نحو هذا
 عن عكرمة وسعيد بن جبيرة ، وهذه الكلمة وهي لات : هي لا التي للنفي زيدت معها التاء كما تزداد
 في ثم فيقولون : ثمت ، ورب فيقولون : ربت وهي مفصولة والوقف عليها ، ومنهم من حكى عن
 المصنف الإمام فيما ذكره ابن جرير أنها متصلة بحين ولا تحين مناص والمشهور الأول ، ثم قرأ
 الجمهور بنصب حين تقديره ، وليس الحين حين مناص ، ومنهم من جوز النصب بها ، وأنشد :
 تذكر حب ليلى لات حيناً وأضحى الشيب قد قطع القرينا ^(١)
 ومنهم من جوز الجر بها وأنشد :
 ولات ساعة مندم ^(٢)

(١) البيت لمرو بن شاس (انظر : معاني القرآن للفراء ص : ٢٧٦ ، ومعجم الهوامع ١/١٢٦) .

(٢) هو جزء من بيت للمهلهل بن مالك الكناشي ، وقيل : لمحمد بن عيسى بن طلحة (انظر : خزنة الأدب ٤/١٧٥ ، وشرح شذور الذهب
 ص : ٢٦٠) .

بخفض الساعة ، وأهل اللغة يقولون : النوص التأخر والبوص التقدم ، ولهذا قال تبارك وتعالى : ﴿وَلَا تَجِدُ حِينَ مَوْتِهِ أَيْ لَيْسَ الْحَيُّ حِينَ فَرَارٍ وَلَا ذَهَابٌ .

﴿وَعَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ وَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا سِحْرٌ كَذَّابٌ ① أَجَعَلَ الْآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ ② وَأَنْطَلَقَ الْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنْ آمَنُوا بِأَصْبِرُوا عَلَى الْإِهْكَ إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ يُرَادُ ③ مَا سَعَيْنَا هَذَا فِي الْآخِرَةِ إِنَّ هَذَا إِلَّا خَلْقٌ ④ أَنْزَلَ عَلَيْهِ الذِّكْرَ مِنْ بَيْنِنَا بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِنْ ذِكْرِي بَلْ لَمَّا يَدْعُونَ عَذَابٌ ⑤ أَمْ عَنْدَهُمْ خَزَائِنُ رَحْمَةِ رَبِّكَ الْعَزِيزِ الْوَهَّابِ ⑥ أَمْ لَهُمْ مُلْكٌ الْأَسْمَانِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَلْيَرْتَقُوا فِي الْأَسْبَابِ ⑦ حُنْتُ مَا هَٰذَا مِنْ مَهْزُومٍ مِنَ الْآخِرَابِ ⑧ .

يقول تعالى مخبراً عن المشركين في تعجبهم من بعثة رسول الله ﷺ بشيراً ونذيراً : ﴿وَعَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ ①﴾ أي بشر مثلهم ، ﴿وَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا سِحْرٌ كَذَّابٌ ②﴾ أَجَعَلَ الْآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا ﴿أَيَّ أَزْعَمَ أَنْ الْمَعْبُودَ وَاحِدًا لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ ؟ أَنْكَرَ الْمُشْرِكُونَ ذَلِكَ قَبْحُهُمُ اللَّهُ تَعَالَى ، وَتَعَجَّبُوا مِنْ تَرْكِ الشَّرِكِ بِاللَّهِ ؛ فَإِنَّهُمْ كَانُوا قَدْ تَلَقَّوْا عَنْ آبَائِهِمْ عِبَادَةَ الْأَوْثَانِ وَأَشْرَبَتْهُ قُلُوبُهُمْ ، فَلَمَّا دَعَاهُمُ الرَّسُولُ ﷺ إِلَى خُلْعِ ذَلِكَ مِنْ قُلُوبِهِمْ وَإِفْرَادِ الْإِلَهِ بِالْوَحْدَانِيَّةِ أَعْظَمُوا ذَلِكَ وَتَعَجَّبُوا وَقَالُوا : ﴿أَجَعَلَ الْآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ ②﴾ وَأَنْطَلَقَ الْمَلَأُ مِنْهُمْ ③﴾ وَهُمْ سَادَتُهُمْ وَقَادَتُهُمْ وَرُؤُسَاؤُهُمْ وَكِبْرَاؤُهُمْ قَائِلِينَ ﴿أَنْ آمَنُوا ④﴾ أَيِ اسْتَمَرُّوا عَلَى دِينِكُمْ ﴿وَأَصْبِرُوا عَلَى الْإِهْكَ ⑤﴾ وَلَا تَسْتَجِيبُوا لِمَا يَدْعُوكُمْ إِلَيْهِ مُحَمَّدٌ مِنَ التَّوْحِيدِ ، وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ يُرَادُ ③﴾ قَالَ ابْنُ جَرِيرٍ : إِنَّ هَذَا الَّذِي يَدْعُونَا إِلَيْهِ مُحَمَّدٌ مِنَ التَّوْحِيدِ لَشَيْءٍ يُرِيدُ بِهِ الشَّرَفَ عَلَيْكُمْ وَالِاسْتِعْلَاءَ وَأَنْ يَكُونَ لَهُ مِنْكُمْ أَتْبَاعٌ وَلَسْنَا نَجِيهِ إِلَيْهِ .

ذكر سبب نزول هذه الآيات الكريمات : قال السدي : إن ناساً من قريش اجتمعوا فيهم أبو جهل بن هشام والعاص بن وائل والأسود بن عبد المطلب والأسود بن عبد يغوث في نفر من مشيخة قريش ، فقال بعضهم لبعض : انطلقوا بنا إلى أبي طالب فلنكلمه فيه فلينصفنا منه فليكيف عن شتم آلهمنا وندعه وإلهه الذي يعبد ؛ فإننا نخاف أن يموت هذا الشيخ فيكون منا إليه شيء ، فتعيرنا به العرب يقولون : تركوه حتى إذا مات عنه تناولوه ؟ فبعثوا رجلاً منهم يقال له : المطلب ، فاستأذن لهم على أبي طالب فقال : هؤلاء مشيخة قومك وسراهم يستأذنون عليك ، قال : أدخلهم ، فلما دخلوا عليه قالوا : يا أبا طالب أنت كبيرنا وسيدنا فأنصفنا من ابن أخيك فمره فليكيف عن شتم آلهمنا وندعه وإلهه ، قال : فبعث إليه أبو طالب فلما دخل عليه رسول الله ﷺ قال : يا ابن أخي هؤلاء مشيخة قومك وسراهم وقد سألوكم أن تكف عن شتم آلهم ، ويدعوك وإلهك قال ﷺ : « يا عم أفلا أدعوهم إلى ما هو خير لهم ؟ » ، قال : « ولا ما تدعوهم ؟ » قال ﷺ : « أدعوهم أن يتكلموا بكلمة تدين لهم بها العرب ، ويملكون بها العجم » فقال أبو جهل لعنه الله من بين القوم : ما هي وأبيك لنعطينكها وعشراً أمثالها ، قال ﷺ : « تقولون لا إله إلا الله » فنفروا وقالوا : سلنا غيرها : قال ﷺ : « لو جئتموني بالشمس حتى تضعوها في يدي ما سألتكم غيرها » فقاموا من عنده غضاباً وقالوا : والله لنشتمنك ، وإلهك الذي أمرك بهذا ﴿وَأَنْطَلَقَ الْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنْ آمَنُوا بِأَصْبِرُوا عَلَى الْإِهْكَ إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ يُرَادُ ③﴾ فلما خرجوا دعا رسول الله ﷺ عمه إلى قول لا إله إلا الله فأبى وقال : بل على دين الأسياف ونزلت ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ ①﴾ .

وقولهم : ﴿ مَا مَعَنَا يَهْدَا فِي آيَةِ الْآخِرَةِ ﴾ أي ما سمعنا بهذا الذي يدعونا إليه محمد من التوحيد في الملة الآخرة .

قال مجاهد وقتادة وأبو زيد : يعنون دين قريش ، وقال ابن عباس ؓ : ما سمعنا بهذا في الملة الآخرة يعني النصرانية قالوا : لو كان هذا القرآن حقاً لأخبرتنا به النصارى ﴿ إِنَّ هَذَا إِلَّا خَيْلَانٌ ﴾ قال مجاهد وقتادة : كذب وقال ابن عباس : تخرص . وقولهم : ﴿ أُنْزِلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ مِنْ بَيْنِنَا ﴾ يعني أنهم يستبعدون تخصيصه بإنزال القرآن عليه من بينهم كلهم ، ولهذا لما قالوا هذا الذي دل على جهلهم وقلة عقلهم في استبعادهم لإنزال القرآن على الرسول من بينهم . قال الله تعالى : ﴿ بَلْ لَأَنْتُمْ بَدُوٌّ عَذَابٍ ﴾ أي إنما يقولون هذا ؛ لأنهم ماذاقوا إلى حين قولهم ذلك عذاب الله تعالى ونقمته ، سيعلمون غيب ما قالوا وما كذبوا به يوم يدعون إلى نار جهنم دُعَا . ثم قال تعالى مبيّناً أنه المتصرف في ملكه الفعال لما يشاء الذي يعطي من يشاء ما يشاء ، ويعز من يشاء ، ويذل من يشاء ، ويهدي من يشاء ، ويضل من يشاء ، وينزل الروح من أمره على من يشاء من عباده ، ويختم على قلب من يشاء فلا يهديه أحد من بعد الله ، وإن العباد لا يملكون شيئاً من الأمر ، وليس إليهم من التصرف في الملك ولا مثقال ذرة وما يملكون من قطعير . ولهذا قال تعالى منكراً عليهم ﴿ أَمْ عِنْدَهُمْ خَزَائِنُ رَحْمَةِ رَبِّكَ الْعَزِيزِ الْوَقَّابِ ﴾ أي العزيز الذي لا يرام جنباه الوهاب الذي يعطي ما يريد لمن يريد .

وقوله تعالى : ﴿ أَرَأَيْتُمْ لَكُمْ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَلْيَنْظُرُوا فِي الْآسَافِ ﴾ أي إن كان لهم ذلك فليصعدوا في الأسباب . قال ابن عباس ؓ ومجاهد وسعيد بن جبير وقتادة وغيرهم : يعني طرق السماء ، وقال الضحاك : فليصعدوا إلى السماء السابعة .

ثم قال ﷺ : ﴿ جُنْدٌ مَا هُنَالِكَ مَهْرُومٌ مِنَ الْآخِرَاتِ ﴾ أي هؤلاء الجند المكذبون الذين هم في عزة وشقاق سيهزمون ويغلبون ويكتبون كما كتبت الذين من قبلهم من الأحزاب المكذبين .

﴿ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ ذُو الْأَوْدَادِ ۖ وَثَمُودُ وَقَوْمُ لُوطٍ وَأَصْحَابُ لَيْكَةِ أُولَئِكَ الْأَحْزَابُ ۖ ﴾ إن كلَّ إِلَّا كَذَّبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ عِقَابٌ ۖ وَمَا يَنْظُرُ هَؤُلَاءِ إِلَّا صَيَّعَةً وَجِدَةً مَا لَهَا مِنْ فَوَاقٍ ۖ وَقَالُوا رَبَّنَا عَجَلْ لَنَا قَطَنًا قَبْلَ يَوْمِ الْحِسَابِ ۖ أَصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ ۖ .

يقول تعالى مخبراً عن هؤلاء القرون الماضية وما حل بهم من العذاب والنكال والنقمات في مخالفة الرسل وتكذيب الأنبياء عليهم الصلاة والسلام . وقد تقدمت قصصهم مبسوطه في أماكن متعددة ، وقوله تعالى : ﴿ أُولَئِكَ الْأَحْزَابُ ﴾ أي كانوا أكثر منكم وأشد قوة وأكثر أموالاً وأولاداً ، فما دفع ذلك عنهم من عذاب الله من شيء لما جاء أمر ربك ؛ ولهذا قال ﷺ : ﴿ إن كلَّ إِلَّا كَذَّبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ عِقَابٌ ﴾ فجعل علة إهلاكهم هو تكذيبهم بالرسول ، فليحذر المخاطبون من ذلك أشد الحذر .

وقوله تعالى : ﴿ وَمَا يَنْظُرُ هَؤُلَاءِ إِلَّا صَيَّعَةً وَجِدَةً مَا لَهَا مِنْ فَوَاقٍ ﴾ قال زيد بن أسلم : أي ليس لها مثنوية ، أي ما ينظرون إلا الساعة أن تأتيهم بغتة فقد جاء أشراطها ، أي فقد اقتربت ودنت وأزفت ، وهذه الصيحة هي نفخة الفزع التي يأمر الله تعالى إسرائيل أن يطولها فلا يبقى أحد من أهل السموات والأرض إلا فزع ، إلا من استثنى الله ﷻ . وقوله ﷺ : ﴿ وَقَالُوا رَبَّنَا عَجَلْ لَنَا قَطَنًا قَبْلَ يَوْمِ الْحِسَابِ ﴾ هذا

إنكار من الله تعالى على المشركين في دعائهم على أنفسهم بتعجيل العذاب ؛ فإن القبط هو الكتاب ، وقيل : هو الحظ والنصيب . قال ابن عباس ومجاهد والضحاك والحسن وغير واحد : سألوا تعجيل العذاب ، وقيل : سألوا تعجيل نصيبهم من الجنة إن كانت موجودة ليلقوا ذاك في الدنيا وإنما خرج هذا منهم مخرج الاستبعاد والتكذيب . وقال ابن جرير : سألوا تعجيل ما يستحقونه من الخير أو الشر في الدنيا ، وهذا الذي قاله جيد . ولما كان هذا الكلام منهم على وجه الاستهزاء والاستبعاد . قال الله تعالى لرسوله ﷺ آمراً له بالصبر على أذاهم ومبشراً له على صبره بالعاقبة والنصر والظفر .

﴿ وَادْكُرْ عَبْدًا دَاوُدَ ذَا الْأَيْدِ إِنَّهُ أَوَّابٌ ﴾ ﴿ إِنَّا سَخَّرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِشْرَاقِ ﴾ ﴿ وَالطَّيْرَ مَحْشُورَةً كُلٌّ لَهُ أَوَّابٌ ﴾ ﴿ وَشَدَدْنَا مُلْكَهُمْ وَآتَيْنَهُ الْحِكْمَةَ وَفَصَّلَ الْخُطَابَ ﴾ .

يذكر تعالى عن عبده ورسوله داود عليه الصلاة والسلام أنه كان ذا أيد ، والأيد القوة في العلم والعمل . وقال قتادة : أعطى داود عليه الصلاة والسلام قوة في العبادة وفقها في الإسلام ، وقد ذكر لنا أنه عليه الصلاة والسلام كان يقوم ثلث الليل يصوم نصف الدهر ، وهذا ثابت عن رسول الله ﷺ أنه قال : « أحب الصلاة إلى الله تعالى صلاة داود ، وأحب الصيام إلى الله ﷺ صيام داود ؛ كان ينام نصف الليل ويقوم ثلثة وبنام سدسه ، وكان يصوم يوماً ويفطر يوماً ، ولا يفر إذا لاقى ، وأنه كان أواباً » ^(١) وهو الرجاء إلى الله ﷻ في جميع أموره وشؤونه . وقوله تعالى : ﴿ إِنَّا سَخَّرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِشْرَاقِ ﴾ أي أنه تعالى سخر الجبال تسبح معه عند إشراق الشمس وآخر النهار ، كما قال ﷻ : ﴿ يَجِئَالُ أَوَّي مَعَهُ وَالطَّيْرُ ﴾ وكذلك كانت الطير تسبح بتسبيحه وترجع بترجيحه إذا مر به الطير وهو سابح في الهواء فسمعه وهو يترنم بقراءة الزبور ، لا يستطيع الذهاب بل يقف في الهواء ويسبح معه وتحميه الجبال الشامخات ترجع معه وتسبح تبعاً له . وعن عبد الله بن الحارث بن نوفل أن ابن عباس ؓ كان لا يصلي الضحى ، قال : فأدخلته على أم هانئ رضي الله عنها فقالت : أخبرني هذا ما أخبرني ، فقالت : دخل علي رسول الله ﷺ يوم الفتح في بيتي ، ثم أمر بماء صب في قصعة ، ثم أمر بثوب فأخذ بيني وبينه فاغتسل ، ثم رش ناحية البيت فصلى ثمان ركعات وذلك من الضحى قيامهن وركوعهن وسجودهن وجلوسهن سواء ، قريب بعضهن من بعض ، فخرج ابن عباس ؓ وهو يقول : لقد قرأت ما بين اللوحين ما عرفت صلاة الضحى إلا الآن ﴿ يُسَبِّحْنَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِشْرَاقِ ﴾ وكنت أقول : أين صلاة الإشراف وكان بعد يقول : صلاة الإشراف ^(٢) . ولهذا قال ﷻ : ﴿ وَالطَّيْرَ مَحْشُورَةً ﴾ أي محبوسة في الهواء ﴿ كُلٌّ لَهُ أَوَّابٌ ﴾ أي مطيع يسبح تبعاً له .

وقوله تعالى : ﴿ وَشَدَدْنَا مُلْكَهُمْ ﴾ أي جعلنا له ملكاً كاملاً من جميع ما يحتاج إليه الملوك وقوله ﷻ : ﴿ وَآتَيْنَهُ الْحِكْمَةَ ﴾ قال مجاهد : يعني الفهم والعقل والفطنة ، وقال مرة : الحكمة والعدل ، وقال مرة : الصواب ، وقوله ﷻ : ﴿ وَفَصَّلَ الْخُطَابَ ﴾ قال شريح القاضي والشعبي : فصل الخطاب الشهود والأيمان وقال قتادة : شاهدان على المدعي أو يمين المدعى عليه هو فصل الخطاب الذي فصل به الأنبياء

(١) أخرجه البخاري في التهجيد (١١٣١) ومسلم في الصيام (١٨٩) والنسائي في السنن (٢١٤/٣) وابن ماجه في السنن (١٧١٢) .

(٢) أخرجه الحاكم في المستدرک (٥٣/٤) وقال : صحيح على شرط الشيخين .

والرسل ، أو قال : المؤمنون والصالحون ، وهو قضاء هذه الأمة إلى يوم القيامة ، وقال مجاهد أيضًا : هو الفصل في الكلام وفي الحكم وهذا يشمل هذا كله . وهو المراد واختاره ابن جرير ، وعن أبي موسى رضي الله عنه قال : أول من قال : أما بعد داود عليه السلام ، وهو فصل الخطاب ^(١) .

﴿ وَهَلْ أَتَاكَ نَبَأُ الْخَصَمِ إِذْ سَرَرُوا لِلْمِحْرَابِ ۖ إِذْ دَخَلُوا عَلَى دَاوُدَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ قَالُوا لَا تَخَفْ خَصِمَانِ بَعْضُنَا عَلَى بَعْضٍ فَأَخَرْنَا بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَلَا تَطْغَبْ وَأَعِدْنَا لَكَ سَوَاءَ الصِّرَاطِ ۖ إِنَّ هَذَا أَخِي لَهُ تَتَعَ وَيسْعُونَ هِمَّةً وَلِي فَجْهٌ وَجِدَةٌ فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا وَعَزَّنِي فِي الْخِطَابِ ۖ قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعِيمِكَ إِلَيْنَا فَمَا لَكَ بِالْأَخِي مِنْ غِلٍّ ۖ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ الظَّالِمِ لِيَئِنِّي بِبَعْضِهِمْ عَلَى بَعْضٍ إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَقِيلَ مَا هُمْ ۖ وَطَنَّ دَاوُدُ أَنَّمَا فَتَنَّاهُ فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ ۚ ۝ فَفَقَرْنَا لَهُ ذَلِكَ وَإِنَّ لَهُ عِنْدَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَّكَابٍ ۚ ۞ ﴾

وقوله تعالى : ﴿ فَفَزِعَ مِنْهُمْ ﴾ إنما كان ذلك لأنه كان في محرابه ، وهو أشرف مكان في داره وكان قد أمر أن لا يدخل عليه أحد ذلك اليوم فلم يشعر إلا بشخصين قد تسورا عليه المحراب ، أي احتاطا به يسألانه عن شأنهما . وقوله عليه السلام : ﴿ وَعَزَّنِي فِي الْخِطَابِ ﴾ أي غلبني . وقوله تعالى : ﴿ وَطَنَّ دَاوُدُ أَنَّمَا فَتَنَّاهُ ﴾ قال ابن عباس رضي الله عنه : أي اختبرناه . وقوله تعالى ﴿ وَخَرَّ رَاكِعًا ﴾ أي ساجدًا ﴿ وَأَنَابَ ﴾ ويحتمل أنه ركع أولاً ثم سجد بعد ذلك ، ﴿ فَفَقَرْنَا لَهُ ذَلِكَ ﴾ أي ما كان منه مما يقال : فيه إن حسنات الأبرار سيئات المقربين .

وقد اختلف الأئمة في سجدة ﴿ مَرَّ ﴾ هل هي من عزائم السجود؟ على قولين : الجديد من مذهب الشافعي رضي الله عنه أنها ليست من عزائم السجود بل هي سجدة شكر ، والدليل على ذلك ما روي عن ابن عباس رضي الله عنه قال : السجدة في ﴿ مَرَّ ﴾ ليست من عزائم السجود ، وقد رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يسجد فيها ^(٢) . عن ابن عباس رضي الله عنه قال : إن النبي صلى الله عليه وسلم سجد في ﴿ مَرَّ ﴾ وقال : « سجدها داود عليه الصلاة والسلام توبة ، ونسجدها شكرًا » ^(٣) . وعن ابن عباس رضي الله عنه قال : جاء رجل إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال : يا رسول الله إني رأيت فيما يرى النائم كأنني أصلي خلف شجرة فقرأت السجدة فسجدت ، فسجدت الشجرة بسجودي فسمعتها تقول وهي ساجدة : اللهم اكتب لي بها عندك أجرًا ، واجعلها لي عندك ذخراً ، وضع بها عني وزراً ، وقبلها مني كما قبلتها من عبدك داود . قال ابن عباس رضي الله عنه : فرأيت النبي صلى الله عليه وسلم قام فقرأ السجدة ثم سجد ، فسمعتة يقول وهو ساجد كما حكى الرجل عن كلام الشجرة ^(٤) . عن العوام قال : سألت مجاهدًا عن سجدة ﴿ مَرَّ ﴾ فقال : فقال : سألت ابن عباس رضي الله عنه : من أين سجدت ؟ فقال : أو ما تقرأ ﴿ وَبَيْنَ ذُرِّيَّتَيْهِ دَاوُدُ وَسُلَيْمَانُ ﴾ ، ﴿ أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فِيمُدَّتْهُمْ أَفْعِدَّةُ ﴾ فكان داود عليه الصلاة والسلام ممن أمر نبيكم صلى الله عليه وسلم أن يقتدي به فسجدها داود عليه الصلاة والسلام فسجدها رسول الله صلى الله عليه وسلم ^(٥)

(١) ذكره الطبري في تفسيره (١٦٧/١٢) .

(٢) أخرجه البخاري في سجود القرآن (١٠٦٩) والترمذي في الصلاة (٥٧٧) وأبو داود في الصلاة (١٤٠٩) . وقال الحافظ في الفتح

(٤٥٦/٢) والمراد بالعزائم ما وردت العزيمة على فعله كصيغة الأمر مثلاً .

(٣) أخرجه النسائي في السنن (١٥٩/٢) .

(٤) أخرجه الترمذي في الصلاة (٥٧٩) والحاكم في المستدرک (٢١٩/١) وابن خزيمة في صحيحه (٥٦٢) .

(٥) أخرجه البخاري في أحاديث الأنبياء (٣٤٢١) .

عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال : قرأ رسول الله ﷺ وهو على المنبر ﴿صَ﴾ ، فلما بلغ السجدة نزل فسجد وسجد الناس معه ، فلما كان يوم آخر قرأها ، فلما بلغ السجدة تشرف الناس للسجود فقال ﷺ : «إنما هي توبة نبي ، ولكنني رأيتمكم تشرفتم» فنزل وسجد ^(١) .

وقوله تعالى : ﴿وَإِنَّ لَكُمْ عِنْدَنَا لَآلِهَةً وَحَسَنَ مَقَآبٍ﴾ أي وإن له يوم القيامة لقربة يقربه الله ﷻ بها وحسن مرجع وهو الدرجات العالية في الجنة لتوبته وعذله التام في ملكه كما جاء في الصحيح : «المقسطون على منابر من نور عن يمين الرحمن وكلتا يديه يمين ؛ الذين يقسطون في أهلهم وما ولوا» ^(٢) وعن أبي سعيد الخدري قال : قال رسول الله ﷺ : «إن أحب الناس إلى الله يوم القيامة وأقربهم منه مجلساً : إمام عادل ، وإن أبغض الناس إلى الله يوم القيامة وأشدهم عذاباً إمام جائر» ^(٣) .

﴿بَدَاوُدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّ الَّذِينَ يَعْزِلُونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ﴾ .

هذه وصية من الله ﷻ لولاة الأمور أن يحكموا بين الناس بالحق المنزل من عنده تبارك وتعالى ولا يعدلوا عنه فيضلوا عن سبيل الله ، وقد توعد تبارك وتعالى من ضل عن سبيله وتناسى يوم الحساب بالوعيد الأكيد والعذاب الشديد . وعن أبي زرعة وكان قد قرأ الكتاب أن الوليد بن عبد الملك قال له : أيحاسب الخليفة ؟ فإنك قد قرأت الكتاب الأول وقرأت القرآن وفقهت ، فقلت : يا أمير المؤمنين أقول ؟ قال : قل في أمان الله ، قلت : يا أمير المؤمنين أنت أكرم على الله أو داود عليه الصلاة والسلام ، إن الله تعالى جمع له النبوة والخلافة ، ثم توعد في كتابه فقال تعالى : ﴿بَدَاوُدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّ الَّذِينَ يَعْزِلُونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ وقال عكرمة ﴿لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ﴾ هذا من المقدم والمؤخر ، لهم عذاب شديد يوم الحساب بما نسوا ، وقال السدي : لهم عذاب شديد بما تركوا أن يعملوا ليوم الحساب وهذا القول أمشى على ظاهر الآية والله ﷻ الموفق للصواب .

﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَطْلًا ذَلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا قَوْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ ﴿٢٧﴾ أَمْ يَجْعَلُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ أَمْ يَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ ﴿٢٨﴾ كَذَّبَ آتَاوُنَا إِلَيْكَ مَبْرُكًا لِيَذَبُوا عَنِ بَيْتِهِمْ وَلِيَذْكُرُوا الْأَلْبَابَ﴾ .

يخبر تعالى أنه ما خلق الخلق عبثاً وإنما خلقهم ليعبده ويوحده ، ثم يجمعهم يوم الجمع فيثيب المطيع ويعذب الكافر ؛ ولذا قال تبارك وتعالى : ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَطْلًا ذَلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أي الذين لا يرون عبثاً ولا معاداً وإنما يعتقدون هذه الدار فقط ﴿قَوْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ﴾ أي ويل لهم يوم معادهم ونشورهم من النار المعدة لهم ، ثم بين تعالى أنه ﷻ من عدله وحكمته لا يساوي بين المؤمنين والكافرين فقال تعالى : ﴿أَمْ يَجْعَلُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ

(١) أخرجه أبو داود في السنن (١٤١٠) وابن ماجه في السنن (١٩٩٨) والحاكم في المستدرک (٢٨٤/١) وابن خزيمة في صحيحه (١٤٥٥) .

(٢) أخرجه أحمد في مسنده (٢٠٣/٢) ومسلم في الإمامة (١٨) والشمسي في السنن (٢٢١/٨) .

(٣) أخرجه الترمذي في السنن (١٣٢٩) وأحمد في مسنده ٢٢/٣ ، والبيهقي في السنن (٨٨/١٠) .

أَمْ تَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ ﴿١﴾ أي لا نفعل ذلك ولا يستوون عند الله ، وإذا كان الأمر كذلك فلا بد من دار أخرى يثاب فيها هذا المطيع ويعاقب فيها هذا الفاجر ، وهذا الإرشاد يدل العقول السليمة والفطر المستقيمة على أنه لا بد من معاد وجزاء ، فإننا نرى الظالم الباغي يزداد ماله وولده ونعيمه ويموت كذلك ، ونرى المطيع المظلوم يموت بكمده ، فلا بد في حكمة الحكيم العليم العادل الذي لا يظلم مثقال ذرة من إنصاف هذا من هذا ، وإذا لم يقع هذا في هذه الدار ، فتعين أن هناك داراً أخرى لهذا الجزاء والمواساة . ولما كان القرآن يرشد إلى المقاصد الصحيحة والمآخذ العقلية الصريحة قال تعالى : ﴿ كَتَبَ آتْرَافَهُ إِلَيْكَ مَبْرُوكٌ لِّتَبَرَّأَ بِآيَاتِهِ وَلِتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ ﴾ أي ذور العقول ، قال الحسن البصري : والله ما تدبره بحفظ حروفه وإضاعة حدوده حتى أن أحدهم ليقول : قرأت القرآن كله ما يرى له القرآن في خلق ولا عمل ؟ .

﴿ وَهَبْنَا لِذَاوُدَ سُلَيْمَانَ نِعَمَ الْعَبْدِ إِنَّهُ أَوَّابٌ ﴾ ٢٥ إِذْ عَرَضَ عَلَيْهِ بِالْعَنِيِّ الصَّفِيْنَتُ الْجَاوِدُ ٢٦ فَقَالَ إِنِّي أَحْبَبْتُ حُبَّ الْخَيْرِ عَنْ ذِكْرِ رَبِّي حَتَّى تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ ٢٧ رُدُّوهُمَا عَلَيَّ فَطَفِقَ مَسْتًا بِالسُّوقِ وَالْأَعْنَاقِ .

يقول تعالى مخبراً أنه وهب لداود سليمان أي نبياً كما قال ﷺ : ﴿ وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُدَ ﴾ ، أي في النبوة . وقوله تعالى : ﴿ نِعَمَ الْعَبْدِ إِنَّهُ أَوَّابٌ ﴾ ثناء على سليمان بآله كثير الطاعة والعبادة والإنابة إلى الله ﷻ .

وقوله تعالى : ﴿ إِذْ عَرَضَ عَلَيْهِ بِالْعَنِيِّ الصَّفِيْنَتُ الْجَاوِدُ ﴾ أي إذ عرض على سليمان عليه الصلاة والسلام في حال مملكته وسلطانه الخيل الصافنات ، قال مجاهد : وهي التي تقف على ثلاث وطرف حافر الرابعة ، والحياد السراع وكذا قال غير واحد من السلف . وعن عائشة رضي الله عنها قالت : قدم رسول الله ﷺ من غزوة تبوك أو خيبر وفي سهوتها ستر ، فهبت الريح فكشفت ناحية الستر عن بنات لعائشة رضي الله عنها ، فقال ﷺ : « ما هذا يا عائشة ؟ » قالت رضي الله عنها : بناتي ، ورأى بينهما فرساً له جناحان من رقا ق فقال ﷺ : « ما هذا الذي أرى وسطهن ؟ » قالت رضي الله عنها : فرس ، قال رسول الله ﷺ : « ما هذا الذي عليه ؟ » قالت رضي الله عنها : جناحان . قال رسول الله ﷺ : « فرس له جناحان ؟ » قالت رضي الله عنها : أما سمعت أن سليمان عليه الصلاة والسلام كانت له خيل لها أجنحة ؟ قالت رضي الله عنها : فضحك ﷺ حتى رأيت نواجذه ^(١) .

وقوله تبارك وتعالى : ﴿ فَقَالَ إِنِّي أَحْبَبْتُ حُبَّ الْخَيْرِ عَنْ ذِكْرِ رَبِّي حَتَّى تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ ﴾ ذكر غير واحد من السلف والمفسرين أنه اشتغل بعرضها حتى فات وقت صلاة العصر ، والذي يقطع به أنه لم يتركها عمداً بل نسياناً كما شغل النبي ﷺ يوم الخندق عن صلاة العصر حتى صلاها بعد الغروب ، عن جابر رضي الله عنه قال : جاء عمر رضي الله عنه يوم الخندق بعدما غربت الشمس ، فجعل يسب كفار قريش ويقول : يا رسول الله والله ما كدت أصلي العصر حتى كادت الشمس تغرب ، فقال رسول الله ﷺ : « والله ما صليتها » فقال : قمنا إلى بطحان فنوذاً نبي الله ﷺ للصلاة وتوضأنا لها ، فصلى العصر بعد ما غربت الشمس ثم صلى بعدها المغرب ^(٢) ويحتمل أنه كان سائقاً في ملتهم تأخير الصلاة لعذر الغزو

(١) أخرجه أبو داود في السنن (٤٩٣٢) « وسهوتها » البيت الصغير المنحدر قليلاً في الأرض .

(٢) أخرجه البخاري في المواقيت (٥٩٦) والترمذي في السنن (١٨٠) ويطحان : واد بالمدينة وهو أحد أوديتها الثلاث وهي : العقيق ، ويطحان ، وبقعة .

والقتال ، والخيل تراد للقتال وقد ادعى طائفة من العلماء أن هذا كان مشروعاً فنسخ ذلك بصلاة الخوف ، ومنهم من ذهب إلى ذلك في حال المسايقة والمضايقة حيث لا تمكن صلاة ولا ركوع ولا سجود كما فعل الصحابة رضي الله عنهم في فتح تستر ^(١) والأول أقرب ؛ لأنه قال بعده ﴿ رُدُّوْهَا عَلَيَّ فَلَظِقْ مَسْتَا بِالشُّوْقِ وَالْأَغْنَاكِ ﴾ ، قال الحسن البصري : لا ، قال : والله لا تشغليني عن عبادة ربي آخر ما عليك ، ثم أمر بها ففقرت ، وقال السدي : ضرب أعناقها وعراقيبها بالسيوف . وقال ابن عباس رضي الله عنهم : جعل يمسح أعراف الخيل وعراقيبها حباً لها ، وهذا القول اختاره ابن جرير قال : لأنه لم يكن ليعذب حيواناً بالعرقبة ويهلك ماله بلا سبب سوى أنه اشتغل عن صلاته بالنظر إليها ولا ذنب لها ، وهذا الذي رجح به ابن جرير فيه نظر ؛ لأنه قد يكون في شرعهم جواز مثل هذا ولا سيما إذا كان غضباً الله تعالى بسبب أنه اشتغل بها حتى خرج وقت الصلاة ؛ ولهذا لما خرج عنها الله تعالى عوضه الله تعالى ما هو خير منها وهو الريح التي تجري بأمره رخاء حيث أصاب ، غدوها شهر ورواحها شهر ، فهذا أسرع وخير من الخيل ، عن أبي قتادة وأبي الدهماء - وكانا يكثران السفر نحو البيت - قال : أتينا على رجل من أهل البادية فقال لنا البدوي : أخذ بيدي رسول الله صلى الله عليه وسلم فجعل يعلمني مما علمه الله تعالى وقال : « إنك لا تدع شيئاً اتقاء الله تعالى إلا أعطاك الله تعالى خيراً منه » ^(٢) .

﴿ وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَانَ وَأَلْقَيْنَا عَلَى كُرْسِيِّهِ جَسَداً ثُمَّ أَنَابَ ﴾ ﴿ قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكاً لَّا يَبْئُتِي لِأَحَدٍ مِنْ بَعْدِي إِنَّكَ أَنْتَ الرَّحْمَاطُ ﴾ ﴿ فَخَرَّناً لَهُ الرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِ رُطَاءً حَيْثُ أَصَابَ ﴾ ﴿ وَالْقَبِيلِينَ كُلَّ بَلَاءٍ وَغَوَاسٍ ﴾ ﴿ وَآخَرِينَ مُقَرَّبِينَ فِي الْأَصْفَادِ ﴾ ﴿ هَذَا عَطَاؤُنَا فَامْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ ﴿ وَإِنْ لَمْ عِنْدَنَا لُزْلٌ وَحُشْنٌ مَتَابٍ ﴾ .

يقول تعالى : ﴿ وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَانَ ﴾ ، أي اختبرناه بأن سلبناه الملك ﴿ وَأَلْقَيْنَا عَلَى كُرْسِيِّهِ جَسَداً ﴾ ، قال ابن عباس رضي الله عنه ومجاهد وسعيد بن جبير وغيرهم : يعني شيطاناً ﴿ أَنَابَ ﴾ أي رجع إلى ملكه وسلطانه وأبتهته . ﴿ قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكاً لَّا يَبْئُتِي لِأَحَدٍ مِنْ بَعْدِي ﴾ إِنَّكَ أَنْتَ الرَّحْمَاطُ ﴿ ، قال بعضهم : لا ينبغي لأحد من بعدي ، أي لا يصلح لأحد أن يسلبني بعدى ، كما كان من قضية الجسد الذي ألقي على كرسيه لا أنه يحجر على من بعده من الناس ، والصحيح أنه سأل من الله تعالى ملكاً لا يكون لأحد من بعده من البشر مثله وهذا هو ظاهر السياق من الآية وبذلك وردت الأحاديث الصحيحة من طرق عن رسول الله صلى الله عليه وسلم .

فعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « إن عفريتاً من الجن تفلت عليّ البارحة - أو كلمة نحوها - ليقطع علي الصلاة فأمكنني الله تبارك وتعالى منه ، وأردت أن أربطه إلى سارية من سواري المسجد حتى تصبحوا وتنظروا إليه كلكم ، فذكرت قول أخي سليمان عليه الصلاة والسلام : ﴿ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكاً لَّا يَبْئُتِي لِأَحَدٍ مِنْ بَعْدِي ﴾ ، قال روح : فردّه خاسماً ^(٣) . وعن أبي الدرداء رضي الله عنه قال : قام رسول الله صلى الله عليه وسلم يصلي ، فسمعناه يقول : « أعوذ بالله منك » ثم قال : « ألعلك بلعنة الله » ثلاثاً وبسط يده كأنه يتناول

(١) تستر ، أعظم مدن خوزستان قديماً من بلاد فارس (انظر : معجم البلدان ٢/٢٩) .

(٢) أخرجه أحمد في مسنده (٧٨/٥) .

(٣) أخرجه البخاري في الصلاة (٤٦١) وأحمد في مسنده (٢٩٨/٢) وأبو عروانة في مسنده (١٤٤/٢) .

شيئاً ، فلما فرغ من الصلاة قلنا : يا رسول الله سمعناك تقول في الصلاة شيئاً لم نسمعك تقوله قبل ذلك ، ورأيناك بسطت يدك قال ﷺ : « إن عدو الله إبليس جاء بشهاب من نار ليجمعه في وجهي ، فقلت : أعوذ بالله منك ثلاث مرات ، ثم قلت : ألعنك بلعنة الله التامة فلم يستأخر ثلاث مرات ، ثم أردت أن أخذه ، والله لولا دعوة أخينا سليمان لأصبح موثقاً يلعب به صبيان أهل المدينة ^(١) . وعن ربيعة بن يزيد بن عبد الله الديلمي قال : دخلت على عبد الله بن عمرو رضي الله عنه وهو في حائط له بالطائف يقال له : الوهط وهو محاصر فتى من قريش يزني ويشرب الخمر ، فقلت : بلغني عنك حديث أنه من شرب شربة من الخمر لم يقبل الله تعالى له توبة أربعين صباحاً ، وأن الشقي من شقي في بطن أمه ، وأنه من أتى بيت المقدس لا تنهزه إلا الصلاة فيه ، خرج من خطيئته مثل يوم ولدته أمه ، فلما سمع الفتى ذكر الخمر اجتذب يده من يده ثم انطلق ، فقال عبد الله بن عمرو رضي الله عنه : إني لا أحل لأحد أن يقول علي ما لم أقل ، سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « من شرب من الخمر شربة لا تقبل له صلاة أربعين صباحاً ، فإن تاب تاب الله عليه ، فإن عاد لم تقبل له صلاة أربعين صباحاً ، فإن تاب تاب الله عليه » قال : فلا أدري في الثالثة أو الرابعة قال : « فإن عاد كان حقاً على الله تعالى أن يسقيه من طينة الخبال يوم القيامة » قال : وسمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « إن الله تعالى خلق خلقه في ظلمة ، ثم ألقى عليهم من نوره ، فمن أصابه من نوره يومئذ اهتدى ، ومن أخطأه ضل ، فلذلك أقول : جف القلم على علم الله تعالى » ^(٢) . وسمعت رسول الله يقول : « إن سليمان عليه السلام سأل الله تعالى ثلاثاً فأعطاه اثنتين ، ونحن نرجو أن تكون لنا الثالثة ، سألته حكماً يصادف حكمه فأعطاه إياه ، وسألته ملكاً لا ينبغي لأحد من بعده ، فأعطاه إياه ، وسألته أيما رجل خرج من بيته لا يريد إلا الصلاة في هذا المسجد خرج من خطيئته كيوم ولدته أمه ، فنحن نرجو أن يكون الله تعالى قد أعطانا إياها » ^(٣) . وعن سلمة بن الأكوع رضي الله عنه قال : ما سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم دعا إلا استفتحته : « سبحان الله ربي العلمي الأعلى الوهاب » ^(٤) . وقوله تبارك وتعالى : ﴿ فَسَخَّرْنَا لَهُ الرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِ رِجَاءً حَيْثُ أَصَابَ ﴾ قال الحسن البصري رضي الله عنه : لما عقر سليمان عليه الصلاة والسلام الخيل غضباً لله تعالى عوضه الله تعالى ما هو خير منها وأسرع ، الريح التي غدوها شهر ورواحها شهر .

وقوله جل وعلا : ﴿ حَيْثُ أَصَابَ ﴾ أي حيث أراد من البلاد . وقوله تعالى : ﴿ وَالشَّيْطَانُ كُلُّ بَنَاءٍ وَعَوَاصٍ ﴾ أي منهم ما هو مستعمل في الأبنية الهائلة من محاريب وثمانيل وجفان كالجواب وقدور واسيات إلى غير ذلك من الأعمال الشاقة التي لا يقدر عليها البشر ، وطائفة غواصون في البحار يستخرجون ما فيها من اللآلئ والجواهر والأشياء النفيسة التي لا توجد إلا فيها ﴿ وَمَا خَرَجَ فِي الْأَصْفَادِ ﴾ أي موثقون في الأغلال والأكبال ممن قد تمرد وعصى وامتنع من العمل وأبى ، أو قد أساء في صنيعه واعتدى .

وقوله تعالى : ﴿ هَذَا عَطَاؤُنَا فَانْقُصْ أَوْ زِدْ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ أي هذا الذي أعطيناك من الملك التام والسلطان الكامل كما سألنا ، فأعط من شئت ، واحرم من شئت ، لا حساب عليك ، أي مهما فعلت فهو جائز

(١) أخرجه النسائي في السنن (١٣/٣) ومسلم في المساجد (٤٠) والبيهقي في السنن (٢٦٤/٢) .

(٢) أخرجه أحمد في مسنده (١٧٦/٢ ، ١٩٧) .

(٣) أخرجه أحمد في مسنده (١٧٦/٢) والنسائي في السنن (٤٣/٢) وابن ماجه في السنن (١٤٠٨) .

(٤) أخرجه أحمد في مسنده (٥٤/٤) .

لك ، احكم بما شئت فهو صواب . وقد ثبت في الصحيحين أن رسول الله ﷺ لما خُير بين أن يكون عبداً رسولاً - وهو الذي يفعل ما يؤمر به وإنما هو قاسم يقسم بين الناس كما أمره الله تعالى به - وبين أن يكون نبياً ملكاً يعطي من يشاء ويمنع من يشاء بلا حساب ولا جناح ، اختار المنزلة الأولى بعدما استشار جبريل عليه الصلاة والسلام ، فقال له : تواضع فاختر المنزلة الأولى ؛ لأنها أرفع قدراً عند الله ﷻ وأعلى منزلة في المعاد ، وإن كانت المنزلة الثانية وهي النبوة مع الملك عظيمة أيضاً في الدنيا والآخرة ، ولهذا لما ذكر تبارك وتعالى ما أعطى سليمان عليه الصلاة والسلام في الدنيا نبه تعالى على أنه ذو حظ عظيم عند الله يوم القيامة أيضاً فقال تعالى : ﴿ وَإِنَّ لَكَ عِندَنَا لَكَرْهًا وَحَسَنًا نَّيِّبًا ﴾ أي في الدار الآخرة .

﴿ وَأَذْكُرُ عَبْدًا أَوْبًا إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ أَنِّي مَسَىٰ الشَّيْطَانُ يُمْسِي وَعَذَابٌ ﴾ ﴿ أَزْكُضْ بِرِجْلِكَ هَذَا مُغْتَسَلٌ بَارِدٌ وَشَرَابٌ ﴾ ﴿ وَهَبْنَا لَهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ رَحْمَةً مِنَّا وَلَذِكْرُ لَآئِلَى الْأَلْبَابِ ﴾ ﴿ وَخَذَ يَدُكَ ضَعْفًا فَأَضْرِبَ يَدَهُ وَلَا تَحْتَسِبْ إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا نِّعَمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ ﴾ .

يذكر تبارك وتعالى عبده ورسوله أيوب عليه الصلاة والسلام وما كان ابتلاه تعالى به من الضر في جسده وماله وولده حتى لم يبق في جسده مغرز لإبرة سليماً سوى قلبه ، ولم يبق له من الدنيا شيء يستعين به على مرضه وما هوفيه غير أن زوجته حفظت وده ؛ لإيمانها بالله تعالى ورسوله ؛ فكانت تخدم الناس بالأجرة وتطعمه وتخدمه نحوًا من ثماني عشرة سنة ، وقد كان قبل ذلك في مال جزيل وأولاد وسعة طائلة في الدنيا ، فسلب جميع ذلك ، عن أنس بن مالك ؓ قال : إن رسول الله ﷺ قال : « إن نبي الله أيوب عليه الصلاة والسلام لبث به بلاؤه ثماني عشرة سنة ، فرفضه القريب والبعيد إلا رجلين كانا من أخص إخوانه به كانا يغدوان إليه ويروحان ، فقال أحدهما لصاحبه : تعلم والله لقد أذنب أيوب ذنبًا ما أذنبه أحد من العالمين ، قال له صاحبه : وما ذاك ؟ قال : منذ ثماني عشرة سنة لم يرحمه الله فيكشف ما به ، فلما راحا إليه لم يصبر الرجل حتى ذكر ذلك له ، فقال أيوب عليه الصلاة والسلام : لا أدري ما تقول غير أن الله ﷻ يعلم أنني كنت أمر على الرجلين يتنازعا فيذكران الله تعالى فأرجع إلى بيتي فأكفر عنهما كراهية أن يذكر الله تعالى إلا في حق ، قال : وكان يخرج إلى حاجته ، فإذا قضاه أمسكت امرأته بيده حتى يبلغ ، فلما كان ذات يوم أبطأ عليها فأوحى الله تبارك وتعالى إلى أيوب عليه الصلاة والسلام أن ﴿ أَزْكُضْ بِرِجْلِكَ هَذَا مُغْتَسَلٌ بَارِدٌ وَشَرَابٌ ﴾ ثم فاستبطأته فالتفتت تنظر فأقبل عليها وقد أذهب الله مابه من البلاء وهو على أحسن ما كان ، فلما رأته قالت : أي بارك الله فيك هل رأيت نبي الله هذا المبتلى ، فوالله القدير على ذلك مارأيت رجلاً أشبه به منك إذ كان صحيحًا ، قال : فإني أنا هو ، قال : وكان له أندران ^(١) أندر للقمح وأندر للشعير ، فبعث الله تعالى سحابتين ، فلما كانت إحدهما على أندر القمح أفرغت فيه الذهب حتى فاض ، وأفرغت الأخرى في أندر الشعير حتى فاض ^(٢) .

وعن أبي هريرة ؓ قال : قال رسول الله ﷺ : « بينما أيوب يغتسل عريانًا خر عليه جراد من ذهب ، فجعل أيوب عليه الصلاة والسلام يحشو في ثوبه فناده ربه ﷻ : يا أيوب ألم أكن أغنيتك عما ترى ؟ قال عليه الصلاة والسلام : بلى يارب ولكن لا غنى بي عن بركتك » ^(٣) ، ولهذا قال

(٢) ذكره الطبري في تفسيره (١٩٩/٢٣) .

(١) الأندر : البيدر من القمح خاصة .

(٣) أخرجه البخاري في أحاديث الأنبياء (٣٣٩١) وأحمد في مسنده (٣١٤/٢) والبيهقي في السنن (١٩٨/١) .

تبارك وتعالى : ﴿ وَهَبْنَا لَهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِنَّا وَذِكْرَى لَأُولَى الْأَلْبَابِ ﴾ قال الحسن وقتادة : أحياءهم الله تعالى له بأعيانهم وزادهم مثلهم معهم .

وقوله ﷻ : ﴿ رَحْمَةً مِنَّا ﴾ أي به على صبره وثباته وإنابته وتواضعه واستكانته ﴿ وَذِكْرَى لَأُولَى الْأَلْبَابِ ﴾ أي لذوي العقول ليعلموا أن عاقبة الصبر الفرج والخروج والراحة . وقوله جلت عظمتة : ﴿ وَتَحْتَ يَدَيْكَ مُتَعَانٍ مُّكْرِبٌ يَدْعُو لَوْلَا فَتَحْنَا لَكَ إِلَهُكَ لَإَكْفَلْنَاكَ مِنَ الْمَرْءِ مَا هُوَ بِأَعْلَمُ بِهِ ﴾ وذلك أن أيوب عليه الصلاة والسلام كان قد غضب على زوجته ووجد عليها في أمر فعلته فلامها على ذلك وحلف إن شفاه الله تعالى ليضربنها مائة جلدة ، فلما شفاه الله عز وجل وعافاه ما كان جزاؤها مع هذه الخدمة التامة والرحمة والشفقة والإحسان أن تقابل بالضرب ، فأفتاه الله ﷻ أن يأخذ ضغثا وهو الشمر أخ في مائة قضيب فيضربها به ضربة واحدة ، وقد برت يمينه وخرج من حنثه ووفى بنذره ، وهذا من الفرج والخروج لمن اتقى الله تعالى وأناب إليه ، ولهذا قال جل وعلا : ﴿ إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا نِّعَمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ ﴾ أي رجاع منيب .

﴿ وَادَّكَرَ بَعْدَ إِيْرِهِمْ وَإِسْحَقَ وَيَعْقُوبَ أُولَى الْأَيْدِي وَالْأَبْصَرِ ﴾ إِنَّا أَخْلَصْنَاهُمْ بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى الدَّارِ ﴿ وَلَهُمْ عِنْدَنَا لِيَنَ الْمُصْطَفَيْنَ الْأَخْيَارِ ﴾ وَادَّكَرَ إِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَذَا الْكِفْلِ وَكُلٌّ مِّنَ الْأَخْيَارِ ﴿ هَذَا ذِكْرٌ ﴾ .

يقول تبارك وتعالى مخبرا عن فضائل عباده المرسلين وأنبيائه العابدين ﴿ وَادَّكَرَ بَعْدَ إِيْرِهِمْ وَإِسْحَقَ وَيَعْقُوبَ أُولَى الْأَيْدِي وَالْأَبْصَرِ ﴾ يعني بذلك العمل الصالح والعلم النافع والقوة في العبادة والبصيرة النافذة . قال ابن عباس ؓ : ﴿ أُولَى الْأَيْدِي ﴾ أولي القوة ﴿ وَالْأَبْصَرِ ﴾ يقول : الفقه في الدين . وقال مجاهد : ﴿ أُولَى الْأَيْدِي ﴾ يعني القوة في طاعة الله تعالى ﴿ وَالْأَبْصَرِ ﴾ يعني البصر في الحق . وقوله تبارك وتعالى : ﴿ إِنَّا أَخْلَصْنَاهُمْ بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى الدَّارِ ﴾ قال مجاهد : أي جعلناهم يعملون للآخرة ليس لهم هم غيرها . وقال مالك بن دينار : نزع الله تعالى من قلوبهم حب الدنيا وذكرها وأخلصهم بحب الآخرة وذكرها .

وقوله تعالى : ﴿ وَلَهُمْ عِنْدَنَا لِيَنَ الْمُصْطَفَيْنَ الْأَخْيَارِ ﴾ أي لمن المختارين المجتبيين الأخيار فهم أختيار مختارون . وقوله تعالى : ﴿ وَادَّكَرَ إِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَذَا الْكِفْلِ وَكُلٌّ مِّنَ الْأَخْيَارِ ﴾ قد تقدم الكلام على قصصهم وأخبارهم مستقصاة في سورة الأنبياء عليهم الصلاة والسلام بما أغنى عن إعادته ههنا . وقوله ﷻ : ﴿ هَذَا ذِكْرٌ ﴾ أي هذا فصل فيه ذكر لمن يتذكر ، قال السدي : يعني القرآن العظيم . ﴿ وَإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ لَحُسْنَ مَّكَابٍ ﴾ جَنَّتٍ عَدْنٍ مُّتَّعَةً لَّهُمُ الْأَبْوَابُ ﴿ مُتَّعِينَ فِيهَا بِدَعْوَى فِيهَا بِفِكَهْمَ كَثِيرَةً وَشَرَابٍ ﴾ وَعِنْدَهُمْ قَصِيرَاتُ الْإِلَافِ أَنْزَابٍ ﴿ هَذَا مَا تُوْعَدُونَ لِيَوْمِ الْحِسَابِ ﴾ إِنَّ هَذَا لَرْزُقًا مَّا لَهُ مِنْ نَّعَادٍ ﴿ .

يخبر تعالى عن عباده المؤمنين السعداء أن لهم في الدار الآخرة لحسن مآب وهو المرجع والمنقلب ، ثم فسره بقوله تعالى : ﴿ جَنَّتٍ عَدْنٍ ﴾ أي جنات إقامة مفتحة لهم الأبواب أي إذا جاءوها فتحت لهم أبوابها ، عن عبد الله بن عمرو ؓ قال : قال رسول الله ﷺ : « إن في الجنة قصيرا يقال له : عدن حوله البروج والبروج ، له خمسة آلاف باب عند كل باب ، خمسة آلاف حبرة ، لا يدخله - أو لا يسكنه - إلا نبي أو صديق أو شهيد أو إمام عدل (١) .

(١) ذكره السيوطي في الدر المنثور (٥٧/٤) .

وقوله ﷻ : ﴿ مُكِينٍ فِيهَا ﴾ قيل : مترعين على سرر تحت الحجال ﴿ يَدْعُونَ فِيهَا بِفَكَهَةٍ كَثِيرَةٍ ﴾ أي مهما طلبوا وجدوا وأحضر كما أرادوا ﴿ وَتَرَابٍ ﴾ أي من أي أنواعه شأوا أتهم به الخدام ﴿ وَعِنْدَهُمْ قَصِيرَتُ اللَّظْفِ ﴾ أي عن غير أزواجهن ، فلا يلتفتن إلى غير بعولتهن ﴿ أَرْأَبُ ﴾ أي متساويات في السن والعمر ، هذا معنى قول ابن عباس ومجاهد وسعيد بن جبير ﴿ هَذَا مَا تَدْعُونَ لِيَوْمِ الْيَسَابِ ﴾ أي هذا الذي ذكرنا من صفة الجنة هي التي وعدا لعباده المتقين التي يصيرون إليها بعد نشورهم وقيامهم من قبورهم وسلامتهم من النار . ثم أخبر تبارك وتعالى عن الجنة أنه لا فراغ لها ولا زوال ولا انقضاء ولا انتهاء فقال تعالى : ﴿ إِنَّ هَذَا لِرِزْقِنَا مَا لَهُ مِنْ نَفَادٍ ﴾ كقوله ﷻ : ﴿ مَا عِنْدَكُمْ يَنْفَدُ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ بَاقٍ ﴾ .

﴿ هَذَا وَارِثُ اللَّظْفَيْنِ لَشَرِّ مَنَابٍ ﴾ ﴿ جَهَنَّمَ يَصَلَوْنَهَا فَيَمْنُ الْيَهَادُ ﴾ ﴿ هَذَا فَلْيُدْفُوهُ حِمِيْدٌ وَعَسَاقٌ ﴾ ﴿ وَآخِرُ مِنْ شَكْلِهِ أَزْوَاجٌ ﴾ ﴿ هَذَا قَوْجٌ مُتَنَجِّمٌ مَعَكُمْ لَا مَرْحَبًا بِهِمْ إِلَيْكُمْ صَلَّوْا النَّارَ ﴾ ﴿ قَالُوا بَلْ أَنْتُمْ لَمْ تَكُنْ أَنْتُمْ قَدْ مَشُوهُ لَنَا فَيَمْنُ الْقَرَارُ ﴾ ﴿ قَالُوا رَبَّنَا مَنْ قَدَّمَ لَنَا هَذَا فَرَدَهُ عَذَابًا ضِعْفًا فِي النَّارِ ﴾ ﴿ وَقَالُوا مَا لَنَا لَا نَرَى رِجَالًا كَمَا نَعُدُّهُمْ مِنْ الْأَشْرَارِ ﴾ ﴿ اتَّخَذْتَهُمْ سِخْرِيًّا أَمْ رَآغَتْ عَنْهُمْ الْأَبْصَرُ ﴾ ﴿ إِنَّ ذَلِكَ لَحَقٌّ تَخَاصُمُ أَهْلِ النَّارِ ﴾ .

لما ذكر تبارك وتعالى مآل السعداء ثنى بذكر حال الأشقياء ومرجعهم ومآبهم في دار معادهم وحسابهم فقال ﷻ : ﴿ هَذَا وَارِثُ اللَّظْفَيْنِ ﴾ ، وهم الخارجون عن طاعة الله ﷻ المخالفون لرسول الله ﷺ ﴿ لَشَرِّ مَنَابٍ ﴾ أي لسوء منقلب ومرجع . ثم فسره بقوله جل وعلا : ﴿ جَهَنَّمَ يَصَلَوْنَهَا ﴾ أي يدخلونها فتغمرهم من جميع جوانبهم ﴿ فَيَمْنُ الْيَهَادُ ﴾ ﴿ هَذَا فَلْيُدْفُوهُ حِمِيْدٌ وَعَسَاقٌ ﴾ أما الحميم : فهو الحار الذي قد انتهى حره ، وأما الغساق : فهو ضده وهو البارد الذي لا يستطيع من شدة برده المؤلم .

ولهذا قال ﷻ : ﴿ وَآخِرُ مِنْ شَكْلِهِ أَزْوَاجٌ ﴾ أي وأشياء من هذا القبيل : الشيء وضده يعاقبون بها . عن أبي سعيد رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ أنه قال : « لو أن دلوا من غساق يهراق في الدنيا لأنتن أهل الدنيا » ^(١) . وقال الحسن البصري في قوله تعالى : ﴿ وَآخِرُ مِنْ شَكْلِهِ أَزْوَاجٌ ﴾ ألوان من العذاب ، وقال غيره : كالزهرير والسموم وشرب الحميم وأكل الزقوم والصعود والهوي إلى غير ذلك من الأشياء المختلفة المتضادة والجميع مما يعذبون به ، ويهانون بسببه .

وقوله ﷻ : ﴿ هَذَا قَوْجٌ مُتَنَجِّمٌ مَعَكُمْ لَا مَرْحَبًا بِهِمْ إِلَيْكُمْ صَلَّوْا النَّارَ ﴾ هذا إخبار من الله تعالى عن قيل أهل النار بعضهم لبعض ، كما قال تعالى : ﴿ كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَمَنَتْ أُخْتَهَا ﴾ يعني بدل السلام يتلاعنون . ويتكاذبون ويكفر بعضهم ببعض ، فنقول الطائفة التي تدخل قبل الأخرى إذا أقبلت التي بعدها مع الخزنة من الزبانية : ﴿ هَذَا قَوْجٌ مُتَنَجِّمٌ ﴾ أي داخل ﴿ مَعَكُمْ لَا مَرْحَبًا بِهِمْ إِلَيْكُمْ صَلَّوْا النَّارَ ﴾ أي لأنهم من أهل جهنم ﴿ قَالُوا بَلْ أَنْتُمْ لَمْ تَكُنْ أَنْتُمْ قَدْ مَشُوهُ لَنَا فَيَمْنُ الْقَرَارُ ﴾ أي فيقول لهم الداخلون ﴿ بَلْ أَنْتُمْ لَمْ تَكُنْ أَنْتُمْ قَدْ مَشُوهُ لَنَا ﴾ أي أنتم دعوتونا إلى ما أفضى بنا إلى هذا المصير ﴿ فَيَمْنُ الْقَرَارُ ﴾ أي فبمس المنزل والمستقر والمصير ﴿ قَالُوا رَبَّنَا مَنْ قَدَّمَ لَنَا هَذَا فَرَدَهُ عَذَابًا ضِعْفًا فِي النَّارِ ﴾ كما قال ﷻ : ﴿ قَالَتْ أُفْرَنْجُهُمْ لِأَوْلَئِهِمْ رَبَّنَا هَؤُلَاءِ أَسْأَلُونَا فَفَاتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِنْ النَّارِ قَالَ لِكُلِّ ضِعْفٌ وَلَكِنْ لَا تَقْلُوبُونَ ﴾ أي لكل منكم عذاب بحسبه ﴿ وَقَالُوا مَا لَنَا لَا نَرَى رِجَالًا كَمَا نَعُدُّهُمْ مِنْ الْأَشْرَارِ ﴾ ﴿ اتَّخَذْتَهُمْ سِخْرِيًّا أَمْ رَآغَتْ عَنْهُمْ الْأَبْصَرُ ﴾ . هذا

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٢٨/٣) والترمذي في السنن (٢٥٨٤) والنسائي في الترهيب (٤٧٨/٤) .

إخبار عن الكفار في النار أنهم يعتقدون رجالاً كانوا يعتقدون أنهم على الضلالة وهم المؤمنون في زعمهم ، قالوا : مالنا لا نراهم معنا في النار ؟ قال مجاهد : هذا قول أبي جهل يقول : مالي لا أرى بلالا وعماراً وصهيباً وفلاناً وفلاناً ، وهذا ضرب مثل ، وإلا فكل الكفار هذا حالهم يعتقدون أن المؤمنين يدخلون النار ، فلما دخل الكفار النار افتقدوهم فلم يجدوهم ، فقالوا : ﴿ مَا لَنَا لَا نَرَى رِجَالًا كَمَا نَدْخُلُ مِنْ الْأَشْجَارِ ۖ أَفْتَدَتْهُمْ سِجْرًا ۖ ﴾ أي في الدار الدنيا ﴿ أَمْ زَاغَتْ عَنْهُمْ الْبَصَرُ ۖ ﴾ يسألون أنفسهم بالحال ، يقولون : أو لعلهم معنا في جهنم ولكن لم يقع بصرنا عليهم ، فعند ذلك يعرفون أنهم في الدرجات العاليات ، وقوله تعالى : ﴿ إِنَّ ذَلِكَ لَحَقٌّ تَخَاسُمُ أَهْلِ النَّارِ ﴾ أي إن هذا الذي أخبرناك به يامحمد من تخاسم أهل النار بعضهم في بعض ولعن بعضهم لبعض لحق لا مرية فيه ولا شك . ﴿ قُلْ إِنَّمَا أَنَا مُنذِرٌ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا اللَّهُ الَّذِي آتَى الْقَهَّارَ ﴿١٥﴾ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا الْعَزِيزُ الْفَعَّارُ ﴿١٦﴾ قُلْ هُوَ نَبَأٌ عَظِيمٌ ﴿١٧﴾ أَنْتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ ﴿١٨﴾ مَا كَانَ لِي مِنْ عِلْمٍ بِالْمَلِكِ الْأَعْلَى إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴿١٩﴾ إِنْ يُرِىَ لَكَ إِلَّا ظَنًّا أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ ﴿٢٠﴾ .

يقول تعالى أمراً رسول الله ﷺ أن يقول للكفار بالله المشركين به المكذبين لرسوله : إِنَّمَا أَنَا مُنذِرٌ ولست كما تزعمون ﴿ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا اللَّهُ الَّذِي آتَى الْقَهَّارَ ﴾ أي هو وحده قد قهر كل شيء وعلمه ﴿ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ﴾ أي هو مالك جميع ذلك ومتصرف فيه ﴿ الْعَزِيزُ الْفَعَّارُ ﴾ أي غفار مع عظمته وعزته ﴿ قُلْ هُوَ نَبَأٌ عَظِيمٌ ﴾ أي خبر عظيم وشأن بليغ وهو إرسال الله تعالى إياي إليكم ﴿ أَنْتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ ﴾ أي غافلون ، قال مجاهد وشريح القاضي والسدي في قوله ﷻ : ﴿ قُلْ هُوَ نَبَأٌ عَظِيمٌ ﴾ يعني القرآن .

وقوله تعالى : ﴿ مَا كَانَ لِي مِنْ عِلْمٍ بِالْمَلِكِ الْأَعْلَى إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴾ أي لولا الوحي من أين كنت أدري باختلاف الملأ الأعلى ؟ يعني في شأن آدم عليه الصلاة والسلام وامتناع إبليس من السجود له ومحاجته ربه في تفضيله عليه . فأما الحديث الذي رواه معاذ ﷺ قال : احتبس علينا رسول الله ﷺ ذات غداة من صلاة الصبح حتى كدنا نراى قرن الشمس ، فخرج ﷺ ثوب بالصلاة ، فصلى وتجوذ في صلاته ، فلما سلم قال ﷺ : « كما أنتم » ثم أقبل إلينا فقال : « إني قمت من الليل فصليت ما قدر لي ، فنعست في صلاتي حتى استيقظت فإذا أنا بربي ﷻ في أحسن صورة ، فقال : يا محمد أتدري فيم يختصم الملأ الأعلى ، قلت : لا أدري يارب - أعادها ثلاثاً - فأريته وضع كفه بين كتفي حتى وجدت برد أنامله بين صدري ، فتجلى لي كل شيء وعرفت فقال : يا محمد فيم يختصم الملأ الأعلى ؟ قلت : في الكفارات . قال : وما الكفارات ؟ قلت : نقل الأقدام في الجماعات والجلوس في المساجد بعد الصلوات ، وإسباغ الوضوء عند الكريهات . قال : وما الدرجات ؟ قلت : إطعام الطعام ، ولين الكلام ، والصلاة والناس نيام ، قال : سل ، قلت : اللهم إني أسألك فعل الخيرات ، وترك المنكرات ، وحب المساكين ، وأن تغفر لي وترحمني ، وإذا أردت فتنة بقوم فتوفني غير مفتون ، وأسألك حبك ، وحب من يحبك ، وحب عمل يقربني إلى حبك - وقال رسول الله عليه ﷺ : « إنها حق فادرسوها وتعلموها » ^(١) فهو حديث النام المشهور ، ومن جعله يقظة فقد غلط .

﴿ إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَأِكَةِ إِنِّي خَلِئْتُ بَشَرًا مِنْ طِينٍ ﴿٢١﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُمُ سَجْدِينَ ﴿٢٢﴾ فَسَجَدَ الْمَلَأِكَةُ

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٢٤٣/٥) والترمذي في السنن (٢٢٣٥) والألباني في إرواء الغليل (١٤٨/٣) .

كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴿٦٨﴾ إِلَّا إِبْلِيسَ اسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ ﴿٦٩﴾ قَالَ يَبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِإِيدِي اسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْغَالِينَ ﴿٧٠﴾ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِّمَّنْ خَلَقْتَنِي مِنْ نَّارٍ وَخَلَقْتَهُمْ مِنْ طِينٍ ﴿٧١﴾ قَالَ فَخَرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ﴿٧٢﴾ وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِي إِلَى يَوْمِ الدِّينِ ﴿٧٣﴾ قَالَ رَبِّ فَأَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿٧٤﴾ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ ﴿٧٥﴾ إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ ﴿٧٦﴾ قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغَوِّيَهُنَّ أَجْمَعِينَ ﴿٧٧﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ ﴿٧٨﴾ قَالَ فَالْحَقُّ وَالْحَقُّ أَقُولُ ﴿٧٩﴾ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكَ وَمِمَّنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٠﴾ .

هذه القصة ذكرها الله تبارك وتعالى في سورة البقرة وهي أن الله ﷻ أعلم الملائكة قبل خلق آدم عليه الصلاة والسلام بأنه سيخلق بشراً من صلصال من حمأ مسنون ، وتقدم إليهم بالأمر متى فرغ من خلقه وتسويته فليسجدوا له إكراماً وإعظاماً واحتراماً وامثالاً لأمر الله ﷻ فامتلأ الملائكة كلهن ذلك سوى إبليس ولم يكن منهم جنساً . كان من الجن فخانته طبيعه وجبلته أحوج ما كان إليه فاستكف عن السجود لآدم وخاصم ربه ﷻ فيه وادعى أنه خير من آدم فإنه مخلوق من نار وآدم خلق من طين ، والنار خير من الطين في زعمه ، وقد أخطأ في ذلك وخالف أمر الله تعالى وكفر بذلك فأبعده الله ﷻ وأرغم أنفه وطرده عن باب رحمته ومحل أنسه ، وحضرة قدسه ، وسماه إبليس إعلماً له بأنه قد أبلس من الرحمة وأنزله من السماء مذموماً مدحوراً إلى الأرض ، فسأل الله النظرة إلى يوم البعث ، فأنظره الحليم الذي لا يعجل على من عصاه . فلما أمن الهلاك إلى يوم القيامة تمرد وطفى وقال : ﴿ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغَوِّيَهُنَّ أَجْمَعِينَ ﴾ ﴿٧٧﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ ﴿٧٨﴾ وهؤلاء هم المستثنون في الآية الأخرى وهي قوله تعالى : ﴿ إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ وَكَفَى بِرَبِّكَ وَكِيلًا ﴾ .

وقوله تبارك وتعالى : ﴿ قَالَ فَالْحَقُّ وَالْحَقُّ أَقُولُ ﴾ ﴿٧٩﴾ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكَ وَمِمَّنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٠﴾ قرأ ذلك جماعة منهم مجاهد برفع الحق الأول وفسره مجاهد بأن معناه : أنا الحق والحق أقول ، وفي رواية عنه : الحق مني وأقول الحق ، وقرأ آخرون بنصبهما ، قال السدي هو قسم أقسم الله به ^(١) (قلت) وهذه الآية كقوله تعالى : ﴿ وَلَكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴾ .

﴿ قُلْ مَا اسْتَكْبَرْتُ عَلَيْهِ مِنْ آخِرٍ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَبِّرِينَ ﴾ ﴿٧٧﴾ إِنَّهُ هُوَ إِلَا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ ﴿٧٨﴾ وَلَعَلَّنَّ نَبَأُ بَعْدَ جِبِ . يقول تعالى : قل يا محمد لهؤلاء المشركين ما أسألكم على هذا البلاغ وهذا النصح أجراً تعطونيهِ من عرض الحياة الدنيا ﴿ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَبِّرِينَ ﴾ أي وما أريد على ما أرسلني الله تعالى به ولا أبتغي زيادة عليه ؛ بل ما أمرت به أدبته لا أزيد عليه ولا أنقص منه ، وإنما أبتغي بذلك وجه الله ﷻ والدار الآخرة ، قال مسروق : أتينا عبد الله بن مسعود ﷺ فقال : يا أيها الناس من علم شيئاً فليقل به ، ومن لم يعلم فليقل : الله أعلم ؛ فإن من العلم أن يقول الرجل لما لا يعلم : الله أعلم ؟ فإن الله ﷻ قال لنبيكم ﷺ : ﴿ قُلْ مَا اسْتَكْبَرْتُ عَلَيْهِ مِنْ آخِرٍ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَبِّرِينَ ﴾ ^(٢) ، وقوله تعالى : ﴿ إِنَّهُ هُوَ إِلَا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ ﴾ يعني القرآن ذكر لجميع المكلفين به من الإنس والجن ، وقوله تعالى : ﴿ وَلَعَلَّنَّ نَبَأُ ﴾ أي خبره وصدقه ﴿ بَعْدَ جِبِ ﴾ أي عن قريب ، قال قتادة : بعد الموت ، وقال عكرمة : يعني يوم القيامة ؟ ولا منافاة بين القولين ؛ فإن من مات فقد دخل في حكم القيامة .

(١) قرأ عاصم وحزمة ﴿ قَالَ فَالْحَقُّ ﴾ بالضم ﴿ وَالْحَقُّ ﴾ بالنصب وقرأ الباقون بالنصب فيها . انظر حجة القراءات ص ٦١٨ .

(٢) أخرجه البخاري في تفسير القرآن (٤٨٠٩) .

سورة الزمر

عن عائشة رضي الله عنها قالت : كان رسول الله ﷺ يصوم حتى نقول : ما يريد أن يفطر ، ويفطر حتى نقول : ما يريد أن يصوم ، وكان ﷺ يقرأ في كل ليلة بني إسرائيل والزمر ^(١)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ۝ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ بِالْحَقِّ فَاغْبِذْ اللَّهُ مُخْلِصًا لَهُ الَّذِينَ ۝ أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ ۚ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِي مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ۚ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ ۝ لَوْ أَرَادَ اللَّهُ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا لَأَخْطَأَ مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَسْكَنُهُ سُبْحَنَهُ هُوَ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ ۝ ﴾

يخبر تعالى أن تنزيل هذا الكتاب وهو القرآن العظيم من عنده تبارك وتعالى فهو الحق الذي لا مرية فيه ولا شك كما قال ﷻ : ﴿ لَا يَأْتِيهِ الْبُطْلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ ۚ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴾ وقال جل وعلا هاهنا ﴿ تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ ﴾ أي المنيع الجنب ﴿ الْحَكِيمِ ﴾ أي في أقواله وأفعاله وشرعه وقدره ﴿ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ بِالْحَقِّ فَاغْبِذْ اللَّهُ مُخْلِصًا لَهُ الَّذِينَ ﴾ أي فاعبد الله وحده لا شريك له وادع الخلق إلى ذلك ، وأعلمهم أنه لا تصلح العبادة إلا له وحده ، وأنه ليس له شريك ولا عديل ولا نديد ؛ ولهذا قال تعالى : ﴿ أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ ﴾ أي لا يقبل من العمل إلا ما أخلص فيه العامل لله وحده لا شريك له .

ثم أخبر ﷻ عن عبادة الأصنام من المشركين أنهم يقولون : ﴿ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ ﴾ أي إنما يحملهم على عبادتهم لهم أنهم عمدوا إلى أصنام اتخذوها على صور الملائكة المقربين في زعمهم فعبدوا تلك الصور تنزيلاً لذلك منزلة عبادتهم الملائكة ليشفعوا لهم عند الله تعالى في نصرهم ورزقهم وما ينوبهم من أمور الدنيا ، فأما المعاد فكانوا جاحدين له كافرين به . قال قتادة والسدي ومالك عن زيد بن أسلم وابن زيد : ﴿ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ ﴾ أي ليشفعوا لنا ويقربونا عنده منزلة ؛ ولهذا كانوا يقولون في تلبيتهم إذا حجوا في جاهليتهم : لبيك لا شريك لك ، إلا شريكاً هو لك ، تملكه وما ملك . وهذه الشبهة هي التي اعتمدها المشركون في قديم الدهر وحديثه وجاءتهم الرسل صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين بتردها والنهي عنها والدعوة إلى أفراد العبادة لله وحده لا شريك له وإن هذا شيء اخترعه للمشركون من عند أنفسهم لم يأذن الله فيه ولا رضي به ؛ بل أبغضه ونهى عنه وأخبر أن الملائكة التي في السموات من الملائكة المقربين وغيرهم كلهم عبيد خاضعون لله لا يشفعون عنده إلا بإذنه لمن ارتضى ، وليسوا عنده كالأمراء عند ملوكهم يشفعون عندهم بغير إذنهم فيما أحبه الملوك وأبوه ﴿ فَلَا تَقْرَبُوا لِلَّهِ الْأَمْثَالَ ﴾ تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً . وقوله ﷻ : ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ ﴾ أي يوم القيامة ﴿ فِي مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴾ أي سيفصل بين الخلائق يوم معادهم ويجزي كل عامل بعمله ، وقوله ﷻ : ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ ﴾ أي لا يرشد

(١) أخرجه النسائي في السنن (١٥٠/٤) وأحمد في مسنده (٦٨/٦٥) والحاكم في المستدرک (٤٣٢/٢) .

إلى الهداية من قصده الكذب والافتراء على الله تعالى وقلبه كافر بآياته وحججه وبراهينه ، ثم بين تعالى أنه لا ولد له كما يزعمه جهلة المشركين في الملائكة ، والمعاقدون من اليهود والنصارى في العزيز وعيسى ؛ فقال تبارك وتعالى : ﴿ لَوْ أَرَادَ اللَّهُ أَنْ يَخْلُقَ لَوْحًا لَمْ يَخْلُقْ مِمَّا يَخْلُقُ ﴾ أي لكان الأمر على خلاف ما يزعمون وهذا شرط لا يلزم وقوعه ولا جوازه ؛ بل هو محال ، وإنما قصد تجهيلهم فيما ادعوه وزعموه .
وقوله تعالى : ﴿ سُبْحَنَهُ هُوَ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ ﴾ أي تعالى وتنزه وتقدس عن أن يكون له ولد ، فإنه الواحد الأحد الفرد الصمد ، الذي كل شيء عبد لديه فقير إليه وهو الغني عما سواه الذي قد قهر الأشياء فدانت له وذلت وخضعت ، تبارك وتعالى عما يقول الظالمون والجاحدون علواً كبيراً .

﴿ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ يَكُونُ أَلْبَنَ عَلَى النَّهَارِ وَيَكُونُ أَلْبَنَ عَلَى اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُسَمًّى أَلَا هُوَ الْعَزِيزُ الْفَعْلُ ٥ خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَأَنزَلَ لَكُمْ مِنْ الْأَنْعَامِ ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ يَخْلُقْكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ خَلْقًا مِنْ بَعْدِ خَلْقٍ فِي ظُلُمَاتٍ ثَلَاثٍ ذَلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَآفَئِ تُصَرِّفُونَ ﴾ .

يخبر تعالى أنه الخالق لما في السموات والأرض وما بين ذلك من الأشياء ، وبأنه مالك الملك المتصرف فيه يقلب ليله ونهاره ﴿ يَكُونُ أَلْبَنَ عَلَى النَّهَارِ وَيَكُونُ أَلْبَنَ عَلَى اللَّيْلِ ﴾ أي سخرهما يجريان متعاقبين لا يفتران كل منهما يطلب الآخر طلباً حثيثاً . وقوله ﴿ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُسَمًّى ﴾ ، أي إلى مدة معلومة عند الله تعالى ؛ ثم ينقضي يوم القيامة ﴿ أَلَا هُوَ الْعَزِيزُ الْفَعْلُ ﴾ ، أي مع عزته وعظمته وكبريائه هو غفار لمن عصاه ثم تاب وأناب إليه .

وقوله جلت عظمتة ﴿ خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ ﴾ ، أي خلقكم مع اختلاف أجناسكم وأصنافكم وألستكم والوأنكم من نفس واحدة وهو آدم عليه الصلاة والسلام ﴿ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا ﴾ وهي حواء عليها السلام ، كقوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَفَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً ﴾ ، وقوله تعالى : ﴿ وَأَنزَلَ لَكُمْ مِنَ الْأَنْعَامِ ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ ﴾ أي خلق لكم من ظهور الأنعام ثمانية أزواج وهي المذكورة في سورة الأنعام ، ثمانية أزواج : من الضأن اثنين ، ومن المعز اثنين ، ومن الإبل اثنين ، ومن البقر اثنين . وقوله ﴿ يَخْلُقْكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ ﴾ أي قدركم في بطون أمهاتكم ﴿ خَلْقًا مِنْ بَعْدِ خَلْقٍ ﴾ ، يكون أحدهم أولاً نطفة ثم يكون علقة ثم يكون مضغة ثم يخلق فيكون لحماً وعظماً وعصباً وعروفاً وينفخ فيه الروح فيصير خلقاً آخر ﴿ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ ﴾ .

وقوله جل وعلا : ﴿ فِي ظُلُمَاتٍ ثَلَاثٍ ﴾ يعني في ظلمة الرحم وظلمة المشيمة التي هي كالغشاوة والوقاية على الولد وظلمة البطن . وقوله ﴿ ذَلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ ﴾ أي هذا الذي خلق السموات والأرض وما بينهما وخلقكم وخلق آباءكم ، هو الرب له الملك والتصرف في جميع ذلك ﴿ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ ﴾ أي الذي لا تنبغي العبادة إلا له وحده لا شريك له ﴿ فَآفَئِ تُصَرِّفُونَ ﴾ أي فكيف تعبدون معه غيره ؟ وأين يذهب بعقولكم ؟ .

﴿ إِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللَّهَ عَنَىٰ عَنْكُمْ وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ وَإِنْ تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ مَرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ إِنَّهُمْ عَلَيْهِمْ يَذَاتِ الصُّدُورِ ٥ وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُ ﴾

مُنِيْبًا إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا حَوَّلَهُ نِعْمَةً مِّنْهُ نِسَىٰ مَا كَانَ يُدْعَوُا إِلَيْهِ مِنْ قَبْلُ وَجَعَلَ لِلَّهِ أَنْدَادًا لِّيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِهِ قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلًا إِنَّكَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ ﴿١﴾ .

يقول تبارك وتعالى مخبراً عن نفسه : أنه الغني عما سواه من المخلوقات كما قال موسى عليه الصلاة والسلام : ﴿ إِن تَكْفُرُوا أَنْتُمْ وَمَن فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ حَمِيدٌ ﴾ وفي صحيح مسلم : « يا عبادي لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أفجر قلب رجل منكم مانقص ذلك من ملكي شيئاً » ^(١) . وقوله تعالى : ﴿ وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ ﴾ أي لا يحبه ولا يأمر به ﴿ وَإِن تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ ﴾ أي يحبه لكم ويزدكم من فضله ﴿ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ﴾ أي لا تحمل نفس عن نفس شيئاً بل كل مطالب بأمر نفسه ﴿ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكَ مَرْجِعُكُمْ فَيُنشَأُكُمْ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴾ أي فلا تخفى عليه خافية .

وقوله ﷻ : ﴿ وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُ مُنِيبًا إِلَيْهِ ﴾ أي عند الحاجة يتضرع ويستغيث بالله وحده لا شريك له ، ولهذا قال تبارك وتعالى : ﴿ ثُمَّ إِذَا حَوَّلَهُ نِعْمَةً مِّنْهُ نِسَىٰ مَا كَانَ يُدْعَوُا إِلَيْهِ مِنْ قَبْلُ ﴾ أي في حال الرفاهية ينسى ذلك الدعاء والتضرع كما قال ﷻ : ﴿ وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ الضُّرُّ دَعَا لِحُشْنِهِ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَائِمًا فَلَمَّا كَفَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَا إِلَىٰ ضُرِّهِ مَسْمُومٌ ﴾ .

وقوله تعالى : ﴿ وَجَعَلَ لِلَّهِ أَنْدَادًا لِّيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِهِ ﴾ أي في حال العافية يشرك بالله ويجعل له أنداداً ﴿ قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلًا إِنَّكَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ ﴾ أي قل لمن هذه حالته وطريقته ومسلكه تتمتع بكفرك قليلاً وهو تهديد شديد ووعيد أكيد كقوله تعالى : ﴿ قُلْ تَمَتَّعُوا فَإِن مَّصِيرَكُمْ إِلَى النَّارِ ﴾ .
﴿ أَمَّنْ هُوَ قَنِيتُ ءَانَاءَ اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ ﴾ .

يقول ﷻ : أَمَّنْ هذه صفته كمن أشرك بالله وجعل له أنداداً ، لا يستون عند الله كما قال تعالى : ﴿ لَيْسُوا سَوَاءً مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ ءَايَاتِ اللَّهِ ءَانَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْتَجُدُونَ ﴾ وقال تبارك وتعالى ههنا ﴿ أَمَّنْ هُوَ قَنِيتُ ءَانَاءَ اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا ﴾ أي في حال سجوده وفي حال قيامه ولهذا استدلل بهذه الآية من ذهب إلى أن القنوت هو الخشوع في الصلاة ، ليس هو القيام وحده كما ذهب إليه آخرون . وعن ابن مسعود ﷺ أنه قال : القانت المطيع لله ﷻ ولرسوله ﷺ . وقال ابن عباس ﷺ والحسن والسدي : ﴿ ءَانَاءَ اللَّيْلِ ﴾ جوف الليل . وقوله تعالى : ﴿ يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ ﴾ أي في حال عبادته خائف راج ، ولا بد في العبادة من هذا وهذا ، وأن يكون الخوف في مدة الحياة هو الغالب ؛ ولهذا قال تعالى : ﴿ يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ ﴾ فإذا كان عند الاحتضار فليكن الرجاء هو الغالب عليه . وعن أنس ﷺ قال : دخل رسول الله ﷺ على رجل وهو في الموت فقال له : « كيف تجدك ؟ » فقال : أرجو وأخاف ، فقال رسول الله ﷺ : « لا يجتمعان في قلب عبد في مثل هذا الموطن إلا أعطاه الله ﷻ الذي يرجو وأمنه الذي يخافه » ^(٢) . وشيخ ابن

(١) أخرجه مسلم في البر والصلة (٥٥) .

(٢) أخرجه الترمذي في السنن (٩٨٣) وابن ماجه في السنن (٤٢٦١) .

عمر عليه السلام يقرأ ﴿ اَمَنْ هُوَ فَنِيْتُ اَمَانَةَ اَيْلٍ سَاجِدًا وَقَايِمًا يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ ﴾ قال ابن عمر : ذاك عثمان بن عفان رضي الله عنه وإنما قال ابن عمر عليه السلام ذلك لكثرة صلاة أمير المؤمنين عثمان رضي الله عنه بالليل وقراءته حتى أنه ربما قرأ القرآن في ركعة ، وعن تميم الداري رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « من قرأ بمائة آية في ليلة ؛ كتب له قنوت ليلة ^(١) » . قوله تعالى : ﴿ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ أي هل يستوي هذا والذي قبله ممن جعل أندادا ليضل عن سبيله ﴿ إِنَّمَا يَذْكُرُ أُولَ الْأَلْبَابِ ﴾ أي إنما يعلم الفرق بين هذا وهذا من له لب وهو العقل ، والله أعلم .

﴿ قُلْ يَعْبادُ الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا رَبَّكُمْ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَأَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةٌ إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّادِقُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ ۚ وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ الْمُسْلِمِينَ ۚ .

يقول تعالى آمرا عباده المؤمنين بالاستمرار على طاعته وتقواه ﴿ قُلْ يَعْبادُ الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا رَبَّكُمْ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ ﴾ أي لمن أحسن العمل في هذه الدنيا حسنة في دنياهم وأخراهم ، وقوله ﴿ وَأَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةٌ ﴾ قال مجاهد : فهاجروا فيها وجاهدوا واعتزلوا الأوثان ، وقال عطاء في قوله تبارك وتعالى : ﴿ وَأَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةٌ ﴾ : إذا دعيت إلى معصية فاهربوا ثم قرأ ﴿ أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا ﴾ وقوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّادِقُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ قال الأوزاعي : ليس يوزن لهم ولا يكال لهم إنما يغرف لهم غرقا ، وقال ابن جريج : بلغني أنه لا يحسب عليهم ثواب عملهم قط ، ولكن يزدون على ذلك . وقوله ﴿ قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ ﴾ أي إنما أمرت بإخلاص العبادة لله وحده لا شريك له ﴿ وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ الْمُسْلِمِينَ ﴾ قال السدي : يعني من أمته ﷺ .

﴿ قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾ قُلْ اللَّهُ أَعْبُدْ مُخْلِصًا لَهُ دِينِي ۚ فاعْبُدُوا مَا شِئْتُمْ مِنْ دُونِهِ قُلْ إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ أَلَا ذَلِكَ هُوَ الْخَسِرَانِ الَّذِينَ هُمْ مِنْ قَوْفِهِمْ ضَلُّوا مِنَ النَّارِ وَمِنْ تَحْنِيهِمْ ضَلَّ ذَلِكَ يَحُوفُ اللَّهِ بِهِ عِبَادُهُمْ يَعْبادُ فَاَتَقُونَ ۚ .

يقول تعالى : قل يا محمد وأنت رسول الله ﴿ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾ وهو يوم القيامة ، وهذا شرط ، ومعناه التعريض بغيره بطريق الأولى والأحرى ﴿ قُلْ اللَّهُ أَعْبُدْ مُخْلِصًا لَهُ دِينِي ۚ فاعْبُدُوا مَا شِئْتُمْ مِنْ دُونِهِ ﴾ وهذا أيضا تهديد وتبرؤ منهم ﴿ قُلْ إِنَّ الْخَاسِرِينَ ﴾ أي إنما الخاسرون كل الخسران ﴿ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَأَهْلِيَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ ﴾ أي تفارقوا فلا تقاء لهم أبدا وسواء ذهب أهلهم إلى الجنة وقد ذهبوا هم إلى النار أو أن الجميع أسكنوا النار ولكن لا اجتماع لهم ولا سرور ﴿ أَلَا ذَلِكَ هُوَ الْخَسِرَانِ الَّذِينَ هُمْ مِنْ قَوْفِهِمْ ضَلُّوا مِنَ النَّارِ وَمِنْ تَحْنِيهِمْ ضَلَّ ذَلِكَ يَحُوفُ اللَّهِ بِهِ عِبَادُهُمْ يَعْبادُ فَاَتَقُونَ ۚ ﴾ كما قال ﷻ : ﴿ لَمْ يَنْ جَهَنَّمَ مَهَادٌ وَمِنْ قَوْفِهِمْ غَوَاشٍ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ ﴾ .

وقوله ﷻ : ﴿ ذَلِكَ يَحُوفُ اللَّهِ بِهِ عِبَادُهُمْ ﴾ أي إنما يقص خبر هذا الكائن لا محالة ليخوف به عباده لينزجروا عن المحارم والماتم . وقوله تعالى : ﴿ يَعْبادُ فَاَتَقُونَ ﴾ أي اخشوا بأسي وسطوتي وعذابي ونقمتي . ﴿ وَالَّذِينَ اجْتَنَبُوا الطَّاغُوتَ أَنْ يَعْبُدُوهَا وَأَنَابُوا إِلَى اللَّهِ لَهُمُ الْبُشْرَى فَبَشِّرْ عِبَادَ ۚ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ الْكَوْلَ فَيَسْمَعُونَ أَحْسَنَهُ أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ وَأُولَئِكَ هُمْ أُولُوا الْأَلْبَابِ ۚ .

قال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم عن أبيه : ﴿ وَالَّذِينَ لَبَّتُوا الطُّغُورَ أَنْ يَبْعُدُوا ﴾ نزلت في زيد بن عمرو بن نفيل وأبي ذر وسلمان الفارسي رضي الله تعالى عنهم ، والصحيح أنها شاملة لهم ولغيرهم من اجتنب عبادة الأوثان وأتاب إلى عبادة الرحمن فهؤلاء هم الذين لهم البشرية ، في الحياة الدنيا وفي الآخرة ثم قال ﷺ : ﴿ فَبَشِّرْ عِبَادَ ۖ الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ ۚ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ ۚ أَيُّ الْمُتَصِفِينَ بِهِذِهِ الصِّفَةِ هُمَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ۚ وَأُولَٰئِكَ هُمُ أُولُوا الْأَلْبَابِ ۚ أَيُّ ذُووِ الْعُقُولِ الصَّحِيحَةِ وَالْفَطَرِ الْمُسْتَقِيمَةِ .

﴿ أَفَنْ حَقِّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ الْعَذَابِ أَفَأَنْتَ تُنْقِذُ مَنْ فِي النَّارِ ۚ لَكِنَّ الَّذِينَ اتَّفَعُوا رَبَّهُمْ لَمْ يُغْرِقْ مِنْ قَوْفِهَا عُرُقٌ مَبْنِيَّةٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَعَدَ اللَّهُ لَا يَخْلُفُ اللَّهُ الْوَعْدَ ۚ .

يقول تعالى : أفمن كتب الله أنه شقي ، أتقدر أن تنقذه مما هو فيه من الضلال والهلاك ؟ أي لايهديه أحد من بعد الله ؛ لأنه من يضل الله فلا هادي له ، ومن يهده فلا مضل له . ثم أخبر ﷺ عن عباده السعداء أن لهم غرفاً في الجنة وهي القصور أي الشاهقة ﴿ مِنْ قَوْفِهَا عُرُقٌ مَبْنِيَّةٌ ﴾ طباق فوق طباق مبنيات محكمات مزخرفات عاليات . عن علي عليه السلام قال : قال رسول الله ﷺ : « إن في الجنة لغرفاً يرى بطونها من ظهورها ، وظهورها من بطونها » فقال أعرابي : لمن هي يا رسول الله ؟ قال ﷺ : « لمن أطاب الكلام ، وأطعم الطعام ، وصلى بالليل والناس نيام » ^(١) .

عن أبي المدله مولى أم المؤمنين رضي الله عنها أنه سمع أبا هريرة رضي الله عنه يقول : قلنا : يا رسول الله إنا إذا رأيناك رقت قلوبنا وكنا من أهل الآخرة ، فإذا فارقتنا أعجبتنا الدنيا وشممتنا النساء والأولاد ، قال ﷺ : « لو أنكم تكونون على كل حال على الحال التي أنتم عليها عندي لصافحتكم الملائكة بأكفهم ، ولزارتكم في بيوتكم ، ولو لم تذبوا ، لجاء الله ﷻ يقوم يذبون كي يغفر لهم » قلنا : يا رسول الله حدثنا عن الجنة وما بناؤها ؟ قال ﷺ : « لينة ذهب ولينة فضة ، وملاطها المسك الأذفر ، وحصباؤها اللؤلؤ والياقوت ، وترابها الزعفران ، من يدخلها ينعم ولا يأس ، ويخلد ولا يموت ، لا تبلى ثيابه ، ولا يفنى شبابه ، ثلاثة لا ترد دعوتهم : الإمام العادل ، والصائم حتى يفطر ، ودعوة المظلوم تحمل على الغمام وتفتح لها أبواب السموات ويقول الرب تبارك وتعالى : وعزتي لأنصركنك ، ولو بعد حين » ^(٢) ﴿ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ﴾ أي تسلك الأنهار بين خلال ذلك كما يشاءوا وأين أرادوا ﴿ وَعَدَ اللَّهُ ﴾ أي هذا الذي ذكرناه وعده الله عباده المؤمنين ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَخْلُفُ الْوَعْدَ ۚ .

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَلَكَهُ يَنْبُوعٌ فِي الْأَرْضِ ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا مُخْتَلِفًا أَلْوَنُهُ ثُمَّ يَهِيَجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَجْعَلُهُ حُطَلًا إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرًا لِأُولِي الْأَلْبَابِ ۚ أَفَنْ شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِنْ رَبِّهِ فَوَيْلٌ لِلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ مِنْ ذِكْرِ اللَّهِ أُولَٰئِكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ۚ .

يخبر تعالى أن أصل الماء في الأرض من السماء كما قال ﷺ : ﴿ وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً طَهُورًا ﴾ فإذا أنزل الماء من السماء كمن في الأرض ، ثم يصرفه تعالى في أجزاء الأرض كما يشاء ، وينبعه عيوننا ما

(١) أخرجه أحمد في مسنده (١٥٥/١) والترمذي في السنن (٢٥٢٧) والحاكم في المستدرک (٨٠/١) والبيهقي في السنن (٣٠١/٤) .

(٢) أخرجه أحمد في مسنده (٣٠٥/٢) والترمذي في السنن (٢٥٢٦) والطبراني في الكبير (١٣/٤) والألباني في الصحيحة (٩٦٩) .

بين صغارو كبار بحسب الحاجة إليها ؛ ولهذا قال تبارك وتعالى : ﴿ فَسَلَكُمُ يَنبِيعَ فِي الْأَرْضِ ﴾ عن ابن عباس رضي الله عنه في قوله تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَلَكُمُ يَنبِيعَ فِي الْأَرْضِ ﴾ قال : ليس في الأرض ماء إلا نزل من السماء ولكن عروق في الأرض تغيره ؛ فذلك قوله تعالى : ﴿ فَسَلَكُمُ يَنبِيعَ فِي الْأَرْضِ ﴾ فمن سره أن يعود الملح عذبا فليصعده ، وقوله تعالى : ﴿ ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ ﴾ أي ثم يخرج بالماء النازل من السماء والنابع من الأرض زرعًا مختلفًا ألوانه أي أشكاله وطعومه وروائحهم ومنافعه ﴿ ثُمَّ يَهِيْجُ ﴾ أي بعد نضارته وشبابه يكتهل فتراه مصفرًا قد خالطه اليبس ﴿ ثُمَّ يَجْعَلُهُ حُطَامًا ﴾ أي ثم يعود يابسًا يتحطم ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرًا لِأُولِي الْأَلْبَابِ ﴾ أي الذين يتذكرون بهذا فيعتبرون إلى أن الدنيا هكذا تكون خضرة نضرة حسناء ، ثم تعود عجوزًا شوهاء ، والشباب يعود شيخًا هرمًا كبيرًا ضعيفًا وبعد ذلك كله الموت ، فالسعيد من كان حاله بعده إلى خير ، وكثيرًا ما يضرب الله تعالى مثل الحياة الدنيا بما ينزل الله من السماء من ماء وينبت به زرعًا وثمارًا ثم يكون بعد ذلك حطامًا كما قال تعالى : ﴿ وَأَنْزَلْنَا لَهُمْ مِنَ السَّمَاءِ لُحْمًا ذَلِيلًا وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً ثَبَاتًا فَاصْبَحَ هَيْشًا ثَدًى أَفَئِنَّ شَاءَ اللَّهُ صَدْرُ الْإِنْسَانِ لَوَّاهٍ ﴾ وقوله تبارك وتعالى ﴿ أَفَمَنْ مَرَحَ اللَّهُ صَدْرُهُ لِإِنْسَانٍ هُوَ عَلَى شَرٍّ مِنْ نَبِيٍّ ﴾ أي هل يستوي هذا ومن هو قاسي القلب بعيد من الحق ؛ ولهذا قال تعالى : ﴿ قَوْلٌ لِلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ مِّنْ ذِكْرِ اللَّهِ ﴾ أي فلا تلين عند ذكره ولا تخشع ولا تعي ولا تفهم ﴿ أُولَئِكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴾ .

﴿ اللَّهُ نَزَلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُّتَشَابِهًا مَّثَانِي ﴾ أي ذكر الله ذلك هدى الله بهدي به من يسأله ومن يضل الله فما له من هادي .

هذا مدح من الله ﷻ لكتابه القرآن العظيم المنزل على رسوله الكريم . قال الله تعالى : ﴿ اللَّهُ نَزَلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُّتَشَابِهًا مَّثَانِي ﴾ ، عن ابن عباس رضي الله عنه قال : القرآن يشبه بعضه بعضًا ويرد بعضه على بعض ، وقال بعض العلماء : معنى قوله تعالى : ﴿ مُّتَشَابِهًا مَّثَانِي ﴾ أن سياقات القرآن تارة تكون في معنى واحد فهذا من التشابه ، وتارة تكون بذكر الشيء وضده كذكر المؤمنين ثم الكافرين ، وكصفة الجنة ثم صفة النار وما أشبه هذا ، فهذا من المثاني كقوله تعالى : ﴿ إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نِجْمٍ ﴾ وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ ﴿ وكقوله ﷻ : ﴿ كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الْفُجَّارِ لَفِي سِجِّينٍ ﴾ - إلى أن قال - ﴿ كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الْأَبْرَارِ لَفِي عِلِّيِّينَ ﴾ ﴿ هَذَا ذِكْرٌ وَإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ لَحُسْنَ مَّكَابٍ ﴾ - إلى أن قال - ﴿ هَذَا وَرِثٌ لِلطَّالِفِينَ لَشَرِّ مَّكَابٍ ﴾ ونحو هذا من السياقات فهذا كله من المثاني أي في معنيين اثنين ، وأما إذا كان السياق كله في معنى واحد يشبه بعضه بعضًا ؛ فهو التشابه وليس هذا من التشابه المذكور في قوله تعالى : ﴿ مِنْهُ آيَاتٌ مُّكَنَّتْ مِنْهُ ثُمَّ أَتَتْ كِتَابًا وَآخَرُ مُتَشَابِهَةٌ ﴾ ذاك معنى آخر . وقوله تعالى : ﴿ نَفْسٌ مِنْهُ جُلُودٌ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِيْنُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ ﴾ أي هذه صفة الأبرار ، عند سماع كلام الجبار ، المهيمن العزيز الغفار ، لما يفهمون منه من الوعد والوعيد ، والتخويف والتهديد تقشع منه جلودهم من الخشية والخوف ﴿ ثُمَّ تَلِيْنُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ ﴾ لما يرجون ويؤملون من رحمته ولطفه ، فهم مخالفون لغيرهم من الفجار من وجوه : أحدها : أن سماع هؤلاء هو تلاوة الآيات ، وسماع أولئك نغمات الأبيات من أصوات القينات ، الثاني : أنهم إذا تليت عليهم آيات الرحمن خروا سجدًا وبكيتًا بأدب وخشية

ورجاء ومحبة وفهم وعلم . قال تبارك وتعالى : ﴿ وَالَّذِينَ إِذَا دُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا ﴾ أي لم يكونوا عند سماعها متشاغلين لاهين عنها بل مصغين إليها فاهمين بصيرين بمعانيها فلهذا إنما يعملون بها ويسجدون عندها عن بصيرة لا عن جهل ومتابعة لغيرهم .

الثالث : أنهم يلزمون الأدب عند سماعها كما كان الصحابة ؓ عند سماعهم كلام الله تعالى من تلاوة رسول الله ﷺ فتشعر جلودهم ثم تلين مع قلوبهم إلى ذكر الله . ثم يكونوا يتصارخون ولا يتكلفون بما ليس فيهم ، بل عندهم من الثبات والسكون والأدب والخشية ما لا يلحقهم أحد في ذلك ؛ ولهذا فازوا بالمدح من الرب الأعلى في الدنيا والآخرة . قال معمر : تلا فتادة رحمه الله ﴿ فَتَشْعُرُ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ ﴾ قال : هذا نعت أولياء الله ، نعتهم الله ﷻ بأن تشعر جلودهم وتبكي أعينهم وتطمئن قلوبهم إلى ذكر الله ، ولم ينعتهم بذهاب عقولهم والغشيان عليهم إنما هذا في أهل البدع ، وهذا من الشيطان .

وقال السدي : ﴿ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ ﴾ أي إلى وعد الله ، وقوله : ﴿ ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ ﴾ أي هذه صفة من هداه الله ومن كان على خلاف ذلك فهو ممن أضله الله ﴿ وَمَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ ﴾ .

﴿ أَفَمَنْ يَبْقَى بِوَجْهِهِ سُوءَ الْعَذَابِ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَقِيلَ لِلظَّالِمِينَ ذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ ﴾ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَأَنْتَهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴿ فَأَذَاقَهُمُ اللَّهُ الْغُرْزَ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلِ الْعَذَابِ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴾ . يقول تعالى : ﴿ أَفَمَنْ يَبْقَى بِوَجْهِهِ سُوءَ الْعَذَابِ يَوْمَ الْقِيَمَةِ ﴾ ويقرعه فيقال له ولأمثاله من الظالمين : ﴿ ذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ ﴾ كمن يأتي آمناً يوم القيامة كما قال ﷻ : ﴿ أَفَنْ يَبْقَى مُبْكًا عَلَى وَجْهِهِ أَهْدَى أَمَّنْ يَبْقَى سَوِيًّا عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾ .

وقوله جلست عظمته : ﴿ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَأَنْتَهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴾ يعني القرون الماضية المكذبة للرسل أهلكتهم الله بذنوبهم وما كان لهم من الله من واق ، وقوله جل وعلا : ﴿ فَأَذَاقَهُمُ اللَّهُ الْغُرْزَ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴾ أي بما أنزل بهم من العذاب والنكال وتشفي المؤمنين منهم ، فليحذر المخاطبون من ذلك ؛ فإنهم قد كذبوا أشرف الرسل وخاتم الأنبياء ﷺ والذي أعدده الله ﷻ لهم في الآخرة من العذاب الشديد أعظم مما أصابهم في الدنيا ولهذا قال ﷻ : ﴿ وَلِ الْعَذَابِ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴾ .

﴿ وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾ قُرْآنًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِي عِوَجٍ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَجُلًا فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَاكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا رَجُلًا هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا لَأَحْسَنُ اللَّهُ بَلْ أَكْثَرُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿ إِنَّكَ مِثْلُ وَابْنِهِمْ مِثْرُونَ ﴾ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ عِنْدَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ ﴾ .

يقول تعالى : ﴿ وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ ﴾ أي بينا للناس فيه بضرب الأمثال ﴿ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾ فإن المثل يقرب المعنى إلى الأذهان كما قال تبارك وتعالى : ﴿ ضَرَبَ لَكُمْ مَثَلًا مِنْ أَنْفُسِكُمْ ﴾ أي تعلمونه من أنفسكم ، وقال ﷻ : ﴿ وَتِلْكَ الْأَمْثَلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ ﴾ وقوله جل وعلا : ﴿ قُرْآنًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِي عِوَجٍ ﴾ أي هو قرآن بلسان عربي مبين لا اعوجاج فيه ولا انحراف ولا لباس بل هو بيان ووضوح وبرهان ، وإنما جعله الله تعالى كذلك ، وأنزله بذلك

﴿ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴾ أي يحذرون مافيه من الوعيد ويعملون بما فيه من الوعد . ثم قال : ﴿ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَجُلًا فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَاكِمُونَ ﴾ أي يتنازعون في ذلك العبد المشترك بينهم ﴿ وَرَجُلًا سَلَمًا ﴾ أي سالمًا ﴿ لِرَبِّهِ ﴾ أي خالصًا لا يملكه أحد غيره ﴿ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا ﴾ ؟ أي لا يستوي هذا وهذا . كذلك لا يستوي المشرك الذي يعبد آلهة مع الله والمؤمن المخلص الذي لا يعبد إلا الله وحده لا شريك له . فأين هذا من هذا ؟ قال ابن عباس رضي الله عنه ومجاهد وغير واحد : هذه الآية ضربت مثلاً للمشرك والمخلص ، ولما كان هذا المثل ظاهراً بيناً جلياً قال : ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ ﴾ أي على إقامة الحجة عليهم ﴿ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ أي فلهذا يشركون بالله . وقوله تبارك وتعالى : ﴿ إِنَّكَ بَيْنَ يَدَيْهِمْ مَتْنُونٌ ﴾ هذه الآية من الآيات التي استشهد بها الصديق رضي الله عنه عند موت الرسول صلى الله عليه وسلم حتى تحقق الناس موته ، ومعنى هذه الآية : أنكم ستقلون من هذه الدار لامحالة ، وستجتمعون عند الله تعالى في الدار الآخرة وتختصمون فيما أنتم فيه في الدنيا من التوحيد والشرك بين يدي الله تعالى فيفصل بينكم ويفتح بالحق وهو الفتح العليم ، فينجي المؤمنين المخلصين الموحدين . ويعذب الكافرين الجاحدين المشركين المكذبين . ثم إن هذه الآية وإن كان سياقها في المؤمنين والكافرين وذكر الخصومة بينهم في الدار الآخرة ؛ فإنها شاملة لكل المتنازعين في الدنيا ؛ فإنه تعاد عليهم الخصومة في الدار الآخرة .

عن الزبير بن العوام رضي الله عنه قال : لما نزلت هذه السورة على رسول الله صلى الله عليه وسلم ﴿ إِنَّكَ مِثٌّ وَإِنَّهُمْ مِثْنُونَ ﴾ ٣٢ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ عِنْدَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ ﴾ قال الزبير رضي الله عنه : أي رسول الله صلى الله عليه وسلم أكرر علينا ما كان بيننا في الدنيا مع خواص الذنوب ؟ قال صلى الله عليه وسلم : « نعم ، ليكررن عليكم حتى يؤدي إلى كل ذي حق حقه » قال الزبير رضي الله عنه : والله إن الأمر لشديد (١) . وعن عقبة بن عامر رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أول الخصمين يوم القيامة جاران » (٢) وعن أبي ذر رضي الله عنه أنه قال : رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم شاتين ينتطحان فقال : « أتدري فيم ينتطحان يا أبا ذر ؟ » قلت : لا ، قال صلى الله عليه وسلم : « لكن الله يدري وسيحكم بينهما » (٣) وقال ابن عباس رضي الله عنه : يخاصم الصادق الكاذب ، والمظلوم الظالم ، والمهتدي الضال ، والضعيف المستكبر ، وعن ابن عمر رضي الله عنه قال : نزلت هذه الآية وما نعلم في أي شيء نزلت ﴿ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ عِنْدَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ ﴾ قال : قلنا : من نخاصم ؟ ليس بيننا وبين أهل الكتاب خصومة ، فمن نخاصم ؟ حتي وقعت الفتنة ، فقال ابن عمر رضي الله عنه : هذا الذي وعدنا ربنا تعالى نختصم فيه .

﴿ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَذَبَ عَلَى اللَّهِ وَكَذَبَ بِالصِّدْقِ إِذْ جَاءَهُ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَافِرِينَ ﴾ ٣٣ وَالَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِ أُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ ﴾ ٣٤ لَمْ يَأْتِ بِشَأْنٍ عِنْدَ رَبِّهِمْ ذَلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ ﴾ ٣٥ لِيُكَفِّرَ اللَّهُ عَنْهُمْ أَسْوَأَ الَّذِي عَمِلُوا وَيَجْزِيَهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ .

يقول صلى الله عليه وسلم مخاطباً للمشركين الذين افتروا على الله وجعلوا معه آلهة أخرى وادعوا أن الملائكة بنات الله ، وجعلوا لله ولداً تعالى الله عن قولهم علواً كبيراً ، ومع هذا كذبوا بالحق إذ جاءهم على ألسنة رسل الله صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين ، ولهذا قال صلى الله عليه وسلم : ﴿ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَذَبَ عَلَى

(٢) أخرجه أحمد في مسنده (١٥١/٤) .

(١) أخرجه أحمد في مسنده (١٦٧/١) .

(٣) أخرجه أحمد في مسنده (١٦٢/٥) .

اللَّهُ وَكَذَّبَ بِالْصِّدْقِ إِذْ جَاءَهُ ﴿١﴾ أَي لا أحد أظلم من هذا ؛ لأنه جمع بين طرفي الباطل كذب على الله وكذب رسول الله ، قالوا الباطل وردوا الحق ولهذا قال جلّت عظمته متوعداً لهم : ﴿ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَافِرِينَ ﴾ وهم الجاحدون المكذبون . ثم قال جل وعلا : ﴿ وَالَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِ ﴾ قال مجاهد وقتادة والربيع بن أنس وابن زيد : الذي جاء بالصدق هو الرسول ﷺ . وقال السدي : هو جبريل عليه السلام ﴿ وَصَدَّقَ بِهِ ﴾ يعني محمداً ﷺ . وقال ابن عباس رضي الله عنهما : ﴿ وَالَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ ﴾ من جاء بلا إله إلا الله ﴿ وَصَدَّقَ بِهِ ﴾ يعني رسول الله ﷺ . قال مجاهد أصحاب القرآن المؤمنون يجيئون يوم القيامة فيقولون : هذا ما أعطيتمونا فعملنا فيه بما أمرتمونا . وهذا القول عن مجاهد يشمل كل المؤمنين ؛ فإن المؤمنين يقولون الحق ويعملون به ، والرسول ﷺ أولى الناس بالدخول في هذه الآية على هذا التفسير ؛ فإنه جاء بالصدق وصدق المرسلين وآمن بما أنزل إليه من ربه والمؤمنون كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله . ﴿ أُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ ﴾ قال ابن عباس رضي الله عنهما : اتقوا الشرك ﴿ لَمْ يَأْتُوا بِشَاءٍ عِنْدَ رَبِّهِمْ ﴾ يعني في الجنة مهما طلبوا وجدوا ﴿ ذَلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ ﴾ يَكْفِرَ اللَّهُ عَنْهُمْ أَسْوَأَ الَّذِي عَمِلُوا وَيَجْزِيَهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿ .

﴿ أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ وَيُخَوِّفُونَكَ بِالَّذِينَ مِنْ دُونِهِ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ ﴾ وَمَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ مُضِلٍّ أَلَيْسَ اللَّهُ بِعَزِيزٍ ذِي انْتِقَامٍ ﴿ وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلْ أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ أَرَادَنِيَ اللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَاشِفَاتُ ضُرِّيهِ أَوْ أَرَادَنِي بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَاتُ رَحْمَتِي قُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ الْمُتَوَكِّلُونَ ﴾ قُلْ يَتَّقُوا اللَّهَ عَمَلُوا عَلَىٰ مَكَانِكُمْ إِنِّي عَمِلْتُ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿ مِنْ بَيْنِهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴾ .

يقول تعالى ﴿ أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ ﴾ وقرأ بعضهم ﴿ عبادة ﴾ ^(١) يعني أنه تعالى يكفي مَنْ عبده وتوكل عليه . وعن فضالة بن عبيد الأنصاري رضي الله عنه سمع رسول الله ﷺ يقول : « أفلح من هدي إلى الإسلام وكان عيشه كفافاً وقع به » ^(٢) ﴿ وَيُخَوِّفُونَكَ بِالَّذِينَ مِنْ دُونِهِ ﴾ يعني المشركين يخوفون الرسول ﷺ ويتوعدونه بأصنامهم وألهتهم التي يدعونها من دون الله جهلاً منهم وضلالاً ؛ ولهذا قال ﷺ : ﴿ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ وَمَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ مُضِلٍّ أَلَيْسَ اللَّهُ بِعَزِيزٍ ذِي انْتِقَامٍ ﴾ أي منيع الجناب لا يضام من استند إلى جناحه ولجأ إلى بابه ، فإنه العزيز الذي لا أغر منه ولا أشد انتقاماً منه ممن كفر به وأشرك وعاند رسوله ﷺ .

وقوله تعالى : ﴿ وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ ﴾ يعني المشركين كانوا يعترفون بأن الله ﷻ هو الخالق للأشياء كلها ، ومع هذا يعبدون معه غيره مما لا يملك لهم ضراً ولا نفعاً ، ولهذا قال تبارك وتعالى : ﴿ قُلْ أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ أَرَادَنِيَ اللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَاشِفَاتُ ضُرِّيهِ أَوْ أَرَادَنِي بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَاتُ رَحْمَتِي ﴾ أي لا تستطيع شيئاً من الأمر ، وعن ابن عباس رضي الله عنهما مرفوعاً : « احفظ الله يحفظك ، احفظ الله تجده تجاهك ، تعرّف إلى الله في الرخاء يعرفك

(١) قرأ حمزة والكسائي ﴿ عبادة ﴾ بالألف ، وقرأ الباقرن ﴿ عبده ﴾ . (انظر حجة القراءات ٦٢٢) .

(٢) أخرجه الحاكم في المستدرک (١٢٢/٤) والطبراني في الكبير (٣٠٥/١٨) .

في الشدة ، إذا سألت فاسأل الله ، وإذا استعنت فاستعن بالله ، واعلم أن الأمة لو اجتمعوا على أن يضروك بشيء لم يكتبه الله عليك لم يضروك ، ولو اجتمعوا على أن ينفعوك بشيء لم يكتبه الله لك لم ينفعوك ، جفت الصحف ورفعت الأقلام ، واعمل لله بالشكر في اليقين ، واعلم أن في الصبر على ماتركه خيرا كثيرا . وأن النصر مع الصبر ، وأن الفرج مع الكرب وأن مع العسر يسرا ^(١) ﴿ قُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ ﴾ أي الله كافي ﴿ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ ﴾ وعن ابن عباس رضي الله عنه رفع الحديث إلى رسول الله ﷺ قال : « من أحب أن يكون أقوى الناس ؛ فليتوكل على الله تعالى ، ومن أحب أن يكون أغنى الناس ؛ فليكن بما في يد الله ﷻ أوثق منه بما في يديه ، ومن أحب أن يكون أكرم الناس ؛ فليتنق الله ﷻ » ^(٢) وقوله تعالى : ﴿ قُلْ يَتُوبِ إِلَى اللَّهِ مَنْ يَشَاءُ لِمَنْ تَوَكَّلْتُ وَأَنَا تَوَكَّلُ عَلَى اللَّهِ وَهُوَ يُكَفِّرُ عَنْ سَيِّئَاتِهِمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ ذَكِيمٌ ﴾ أي على طريقي ومنهجي ﴿ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴾ أي ستعلمون غيب ذلك ووباله ﴿ مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ ﴾ أي في الدنيا ﴿ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴾ أي دائم مستمر لامحيد له عنه وذلك يوم القيامة ، أعاذنا الله منها .

﴿ إِنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ لِلنَّاسِ بِالْحَقِّ فَمَنِ اهْتَكَيْتَ فَلِنَفْسِهِ ۖ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهِ ۖ وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ ۝ اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تُمُتْ فِي مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَىٰ عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الْأُخْرَىٰ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ۝ ﴾ .

يقول تعالى مخاطبا رسوله محمدا ﷺ ﴿ إِنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ ﴾ يعني القرآن ﴿ لِلنَّاسِ بِالْحَقِّ ﴾ أي لجميع الخلق من الإنس والجن لتنذرهم به ﴿ فَمَنِ اهْتَكَيْتَ فَلِنَفْسِهِ ﴾ أي فانما يعود نفع ذلك إلى نفسه ﴿ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهِ ﴾ أي إنما يرجع وبال ذلك على نفسه ﴿ وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ ﴾ أي بموكل أن يهتدوا ﴿ إِنَّمَا أَنْتَ نَذِيرٌ ۚ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ﴾ . ثم قال تعالى مخبرا عن نفسه الكريمة بأنه المتصرف في الوجود بما يشاء وأنه يتوفى الأنفس الوفاة الكبرى بما يرسل من الحفظة الذين يقبضونها من الأبدان والوفاة الصغرى عند المنام ﴿ اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تُمُتْ فِي مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَىٰ عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الْأُخْرَىٰ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ﴾ فيه دلالة على أنها تجتمع في الملأ الأعلى كما ورد بذلك الحديث المرفوع عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « إذا أوى أحدكم إلى فراشه فلينفذه بداخلة إزاره ؛ فإنه لا يدري ما خلفه عليه ، ثم ليقل : باسمك ربي وضعت جنبي وبك أرفعه إن أمسكت نفسي فارحمها ، وإن أرسلتها فاحفظها بما تحفظ به عبادك الصالحين » ^(٣) . وقال بعض السلف : تقبض أرواح الأموات إذا ماتوا وأرواح الأحياء إذا ناموا فتتعارف ما شاء الله تعالى أن تتعارف ﴿ فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَىٰ عَلَيْهَا الْمَوْتَ ﴾ التي قد ماتت ﴿ وَيُرْسِلُ الْأُخْرَىٰ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ﴾ قال السدي : إلى بقية أجلها ، وقال ابن عباس رضي الله عنه : يمسك أنفس الأموات ويرسل أنفس الأحياء ولا يغلط ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ۝ ﴾ .

(١) أخرجه الترمذي في السنن (٢٥١٦) وأحمد في مسنده (٢٩٣/١) والحاكم في المستدرک (٥٤١/٣) .

(٢) أخرجه الحاكم في المستدرک (٢٧٠/٤) بنحوه وابن عدي في الضعفاء (١٨٢/٥) .

(٣) أخرجه مسلم في الذكر والدعاء (٦٤) وأبو داود في السنن (٥٠٥٠) وأحمد في مسنده (٤٣٢/٢) .

﴿ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ اللَّهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ شُفَعَاءَ قُلُوبَهُمْ أَفَلَا يَكُونُ سَبِيلًا وَلَا يَحْشُرُونَ ﴾ ٤٣ قُلْ لِلَّهِ الشَّفَعَةُ جَمِيعًا لَمْ يَكُنْ لَكُمْ الْمَلَكُوتُ وَالْأَرْضُ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿ ٤٤ وَإِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَحْدَهُ اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَإِذَا ذُكِرَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴾ .

يقول تعالى دائماً للمشركين في اتخاذهم شفعاء من دون الله وهم الأصنام والأنداد التي اتخذوها من تلقاء أنفسهم بلا دليل ولا برهان حادهم على ذلك ، وهي لا تملك شيئاً من الأمر ، بل وليس لها عقل تعقل به ، ولا سمع تسمع به ، ولا بصر تبصر به ؛ بل هي جمادات أسوأ من الحيوان بكثير ، ثم قال : ﴿ قُلْ ﴾ أي يا محمد لهؤلاء الزاعمين أن ما اتخذوه شفعاء لهم عند الله تعالى ، أخبرهم أن الشفاعة لا تنفع عند الله إلا لمن ارتضاه وأذن له فمرجعها كلها إليه ﴿ لَمْ يَكُنْ لَكُمْ الْمَلَكُوتُ وَالْأَرْضُ ﴾ أي هو المتصرف في جميع ذلك ﴿ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ أي يوم القيامة فيحكم بينكم بعدله ويجزي كلأ بعمله ، ثم قال تعالى دائماً للمشركين أيضاً ﴿ وَإِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَحْدَهُ ﴾ أي إذا قيل : لا إله إلا الله وحده ﴿ اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ ﴾ قال مجاهد : اشمازت : انقبضت ، وقال السدي : نفرت ، وقال قتادة : كفرت واستكبرت ، قال تبارك وتعالى : ﴿ وَإِذَا ذُكِرَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ ﴾ أي من الأصنام والأنداد ﴿ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴾ أي يفرحون ويسرون .

﴿ قُلِ اللَّهُمَّ فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ عَلِيمَ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ أَنْتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِي مَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴾ ٤٥ وَلَوْ أَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لَافْتَدَوْا بِهِ مِنْ سُوءِ الْعَذَابِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَبَدَا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ ﴿ ٤٦ وَبَدَا لَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ ﴾ .

يقول تبارك وتعالى بعد ما ذكر عن المشركين ما ذكر من المذمة لهم في حبهيم الشرك ونفرتهم عن التوحيد ﴿ قُلِ اللَّهُمَّ فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ عَلِيمَ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ ﴾ أي ادع أنت الله وحده لا شريك له الذي خلق السموات والأرض وفطرها ، أي جعلها على غير مثال سبق ﴿ عَلِيمَ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ ﴾ أي السر والعلانية ﴿ أَنْتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِي مَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴾ أي في دنياهم ستفصل بينهم يوم معادهم ونشورهم وقيامهم من قبورهم . عن أبي سلمة بن عبد الرحمن قال : سألت عائشة رضي الله عنها : بأي شيء كان رسول الله ﷺ يفتح صلاته إذا قام من الليل ؟ قالت رضي الله عنها : كان رسول الله ﷺ إذا قام من الليل افتتح صلاته : « اللَّهُمَّ رَبِّ جِبْرِيلَ وَمِيكَائِيلَ وَإِسْرَافِيلَ ، فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ، عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ ، أَنْتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ، اهْدِنِي لِمَا اخْتَلَفَ فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِكَ إِنَّكَ تهدي من تشاء إلى صراط مستقيم » ^(١) . وعن عبد الله ابن مسعود رضي الله عنه قال : إن رسول الله ﷺ قال : « من قال اللَّهُمَّ فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ ؛ إني أعهد اليك في هذه الدنيا أنني أشهد أن لا إله إلا أنت ، وحدك لا شريك لك ، وأن محمداً عبدك ورسولك ، فإنك إن تكلمني إلى نفسي تقربني من الشر وتبعدني من الخير ، وإني لا أثق إلا برحمتك ، فاجعل لي عندك عهداً توفينيه يوم القيامة إنك لا تخلف الميعاد ، إلا قال ﷻ للملائكة يوم القيامة : إن عبدي قد عهد إلي عهداً فأوفوه إياه فيدخله الله الجنة » ^(٢) .

(١) أخرجه مسلم في صلاة المسافرين (٢٠٠) والنسائي في السنن (٢١٣/٣) والترمذي في السنن (٣٤٢٠) والحاكم في المستدرک (٦٢٢/٣) وأحمد في المسند (٦١/٦) .

(٢) أخرجه أحمد في مسنده (٩/١) والترمذي في السنن (٣٥٢٩) وأبو داود في السنن (٥٠٨٣) .

عن أبي راشد الحبراني قال : أتيت عبد الله بن عمرو رضي الله عنه فقلت له : حدثنا ما سمعت من رسول الله ﷺ فألقى بين يدي صحيفة فقال : هذا ما كتب لي رسول الله ﷺ فظرت فيها ، فإذا فيها أن أبا بكر الصديق رضي الله عنه قال : يا رسول الله علمني ما أقول إذا أصبحت وإذا أمسيت ، فقال له رسول الله ﷺ : « يا أبا بكر قل : اللهم فاطر السموات والأرض عالم الغيب والشهادة لا إله إلا أنت رب كل شيء ومليكه ، أعوذ بك من شر نفسي ، وشر الشيطان وشركه ، أن اقترف على نفسي سوءاً أو أجره إلى مسلم » ^(١) . وقوله ﷻ : ﴿ وَبَوَّأْنَا لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ﴾ وهم المشركون ﴿ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِثْلَهُ مَعَهُ ﴾ أي ولو أن جميع ما في الأرض وضعفه معه ﴿ لَا تَقْنَدُوا بِهِ مِنْ سُوءِ الْعَذَابِ ﴾ أي الذي أوجبه الله تعالى لهم يوم القيامة ، ومع هذا لا يقبل منهم الفداء ولو كان ملء الأرض ذهباً كما قال في الآية الأخرى ﴿ وَبَدَا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ ﴾ أي وظهر لهم من الله من العذاب والنكال بهم ما لم يكن في بالهم ولا في حسابهم ﴿ وَبَدَا لَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا ﴾ أي وظهر لهم جزاء ما اكتسبوا في الدار الدنيا من المحارم والمأثم ﴿ وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴾ أي وأحاط بهم من العذاب والنكال ما كانوا يستهزئون به في الدار الدنيا .

﴿ فَإِذَا مَنَّ الْإِنْسَانُ مَنَّ دَعَانُ ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُ نِعْمَةً مِّنَّا قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ بَلْ هِيَ فِتْنَةٌ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ ﴿ قَدْ قَالُوا الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾ ﴿ فَأَصَابَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا وَالَّذِينَ ظَلَمُوا مِن هَٰؤُلَاءِ سَيُصِيبُهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا وَمَا لَهُم بِمُعْجِزِينَ ﴾ ﴿ أَوَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ .

يقول تبارك وتعالى مخبراً عن الإنسان أنه في حال الضراء يتضرع إلى الله ﷻ وينيب إليه ويدعوه ، وإذا خوله نعمة منه بغى وطغى وقال : ﴿ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ ﴾ أي لما يعلم الله تعالى من استحقاقي له ، ولولا أنني عند الله خصيص لما خولني هذا ، ﴿ بَلْ هِيَ فِتْنَةٌ ﴾ أي ليس الأمر كما زعم بل إنما أنعمنا عليه بهذه النعمة لنختبره فيما أنعمنا عليه أيطيع أم يعصي مع علمنا المتقدم بذلك ؛ فهي فتنة أي اختبار ﴿ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ ؛ فهذا يقولون ما يقولون ويدعون ما يدعون ﴿ قَدْ قَالُوا الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ﴾ أي قد قال هذه المقالة وزعم هذا الزعم وادعى هذه الدعوى كثير ممن سلف من الأمم ﴿ فَأَصَابَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا وَالَّذِينَ ظَلَمُوا مِن هَٰؤُلَاءِ ﴾ أي من المخاطبين ﴿ سَيُصِيبُهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا ﴾ أي كما أصاب أولئك ﴿ وَمَا لَهُم بِمُعْجِزِينَ ﴾ كما قال تبارك وتعالى : ﴿ وَقَالُوا نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالًا وَأَوْلَدًا وَمَا نَحْنُ بِمُعْذِرِينَ ﴾ وقوله تبارك وتعالى : ﴿ أَوَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ ﴾ أي يوسعه على قوم ويضيقه على آخرين ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ أي لعبراً وحججاً .

﴿ قُلْ يٰعِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴾ ﴿ وَابْتَغُوا إِلَٰهَ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا لَهُ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصِرُونَ ﴾ ﴿ وَاتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ﴾ ﴿ أَن تَقُولَ نَفْسٌ بِحَسْرَتٍ عَلَىٰ مَا

فَرَطْتُ فِي جَنْبِ اللَّهِ وَإِنْ كُنْتُ لَمِنَ السَّخِرِينَ ﴿٥٣﴾ أَوْ تَقُولَ لَوْ أَنَّ اللَّهَ هَدَانِي لَكُنْتُ مِنَ الْمُتَّقِينَ ﴿٥٤﴾ أَوْ تَقُولَ
جِئْتُكَ تَرَى الْعَذَابَ لَوْ أَنَّ لِي كَرَّةٌ فَأَكُونَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٥٥﴾ بَلَى قَدْ جَاءَ تِلْكَ آيَاتِي فَكَذَّبْتَ بِهَا وَاسْتَكْبَرْتَ
وَكُنْتَ مِنَ الْكَافِرِينَ ﴿٥٦﴾ .

هذه الآية الكريمة دعوة لجميع العصاة من الكفرة وغيرهم إلى التوبة والإنابة وإخبار بأن الله تبارك وتعالى يغفر الذنوب جميعاً لمن تاب منها ورجع عنها وإن كانت مهما كانت ، وإن كثرت وكانت مثل زبد البحر ، ولا يصح حمل هذه على غير توبة ؛ لأن الشرك لا يغفر لمن لم يتب منه . عن ابن عباس رضي الله عنه أن ناساً من أهل الشرك كانوا قد قتلوا فأكثروا ، وزنوا فأكثروا ، فأتوا محمداً صلى الله عليه وسلم فقالوا : إن الذي تقول وتدعو إليه لحسن ، لو تخبرنا أن لما عملنا كفارة فنزل ﴿ وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ ﴾ ونزل ﴿ قُلْ يَمُودَى الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ ﴾ ^(١) وعن عمرو بن عبسة رضي الله عنه قال : جاء رجل إلى النبي صلى الله عليه وسلم شيخ كبير يدعم على عصا له فقال : يا رسول الله إن لي غدرات وفجرات ، فهل يغفر لي ؟ فقال صلى الله عليه وسلم : « أأست تشهد أن لا إله إلا الله » قال : بلى ، وأشهد أنك رسول الله ، فقال صلى الله عليه وسلم : « قد غفر لك كدراك وفجراتك » ^(٢) .

وفي الصحيحين عن أبي سعيد رضي الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم حديث الذي قتل تسعاً وتسعين نفساً ثم ندم وسأل عابداً من عباد بني إسرائيل هل له من توبة ، فقال : لا ، فقتله وأكمل به مائة ، ثم سأل عالماً من علمائهم هل له من توبة ، فقال : ومن يحول بينك وبين التوبة ؟ ثم أمره بالذهاب إلى قرية يعبد الله فيها ، فقصدها فأتاه الموت في أثناء الطريق فاخصمت فيه ملائكة الرحمة وملائكة العذاب ، فأمر الله تعالى أن يقيسوا ما بين الأرضين فإلى أيهما كان أقرب فهو منها ، فوجدوه أقرب إلى الأرض التي هاجر إليها بشير ، فقبضته ملائكة الرحمة ، وذكر أنه نأى بصدرة عند الموت ، وأن الله تبارك وتعالى أمر البلدة الحيرة أن تقترب وأمر تلك البلدة أن تتباعد ^(٣) ، وعن سنيد بن شكل أنه قال : سمعت ابن مسعود يقول أن أعظم آية في كتاب الله ﴿ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ وأن أجمع آية في القرآن بخير وشر ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ ﴾ وإن أكثر آية في القرآن فرحاً في سورة الزمر ﴿ قُلْ يَمُودَى الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ ﴾ وأن أشد آية في كتاب الله تفويضاً ﴿ وَمَنْ يَتَّبِعِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا ﴿٥٧﴾ وَرِزْقَهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ﴾ فقال له مسروق : صدقت .

[ذكر أحاديث فيها نفى القنوط]

عن حسن السدوسي قال : دخلت على أنس بن مالك رضي الله تعالى عنه فقال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « والذي نفسي بيده لو أخطأتم حتى تملأوا خطاياكم ما بين السماء والأرض ثم استغفرت الله تعالى لغفر لكم ، والذي نفس محمد صلى الله عليه وسلم بيده لو لم تخطئوا ؛ لجاء الله تعالى بكم يخطئون ثم يستغفرون الله فيغفر لهم » ^(٤) .

(١) أخرجه البخاري في تفسير القرآن (٤٨١٠) .

(٢) أخرجه أحمد في مسنده (٣٨٥/٤) وقد ورد في هذا المعنى الكثير من الآيات التي تؤدي إلى نفس المعنى .

(٣) أخرجه أحمد في مسنده (٧٢/٣) .

(٤) أخرجه أحمد في مسنده (٢٣٨/٣) وذكره الألباني في الصحيحة (١٩٥١) .

وعن ابن عباس رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « كفارة الذنب الندامة » ^(١) وقال رسول الله ﷺ : « لو لم تذبوا لجاء الله تعالى بقوم يذنبون فيغفر لهم » ^(٢) .

ثم استحث تبارك وتعالى عباده إلى المسارعة إلى التوبة فقال : ﴿ وَأَيُّبُوا لِي رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا لَهُ ﴾ الآية ، أي ارجعوا إلى الله واستسلموا له ﴿ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمْ الْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُصْرَفُونَ ﴾ أي بادروا بالتوبة والعمل الصالح قبل حلول النعمة ﴿ وَأَتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ ﴾ وهو القرآن العظيم ﴿ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمْ الْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ﴾ أي من حيث لا تعلمون ولا تشعرون ثم قال ﷻ : ﴿ أَنْ تَقُولَ نَفْسٌ بِهَتَرَكْتُ عَلَى مَا قَرَّبْتُ فِي حُبِّ اللَّهِ ﴾ أي يوم القيامة يتحسر الجرم المفرط في التوبة والإنابة ويود لو كان من المحسنين المخلصين المطيعين لله ﷻ ، وقوله تبارك وتعالى : ﴿ وَإِنْ كُنْتُ لِمَنِ السَّخِرِينَ ﴾ أي إنما كان عملي في الدنيا عمل ساخر مستهزئ غير موقن مصدق ﴿ أَوْ تَقُولَ لَوْ أَنَّ اللَّهَ هَدَانِي لَكُنْتُ مِنَ الْمُتَّقِينَ ﴾ ^(٣) أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَى الْعَذَابَ لَوْ أَنَّ لِي كَرَّةً فَأَكُونَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ أي تود لو أعيدت إلى الدنيا لتحسن العمل . قال ابن عباس رضي الله تعالى عنهما : أخبر الله ﷻ ما العباد قائلون قبل أن يقولوه ، وعملهم قبل أن يعملوه وقال تعالى : ﴿ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ ﴾ ﴿ أَوْ تَقُولَ لَوْ أَنَّ اللَّهَ هَدَانِي لَكُنْتُ مِنَ الْمُتَّقِينَ ﴾ ^(٣) أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَى الْعَذَابَ لَوْ أَنَّ لِي كَرَّةً فَأَكُونَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ فأخبر الله ﷻ أن لو ردوا لما قدروا على الهدى فقال : ﴿ وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴾ عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « كل أهل النار يرى مقعده من الجنة ، فيقول : لو أن الله هداني فتكون عليه حسرة » قال : « وكل أهل الجنة يرى مقعده من النار فيقول : لولا أن الله هداني ، قال : فيكون له الشكر » ^(٣) . ولما تمنى أهل الجرائم العود إلى الدنيا وتحسروا على تصديق آيات الله واتباع رسله ، قال الله ﷻ : ﴿ بَلَى قَدْ جَاءَ نَكَأًائِي فَكَذَّبْتَ بِهَا وَاسْتَكْبَرْتَ وَكُنْتَ مِنَ الْكَافِرِينَ ﴾ أي قد جاءتك أيها العبد النادم على ما كان منه - آياتي في الدار الدنيا وقامت حججي عليك فكذبت بها واستكبرت عن اتباعها وكنت من الكافرين بها الجاحدين لها . ﴿ وَيَوْمَ الْقِيَمَةِ تَرَى الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى اللَّهِ وُجُوهُهُم مُسْوَدَّةٌ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ ﴾ ^(٤) وَيَسْخَى اللَّهُ الَّذِينَ اتَّقَوْا بِمَفَازِهِمْ لَا يَمَسُّهُمْ الشَّوْءُ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ .

يخبر تعالى عن يوم القيامة أنه تسود فيه وجوه وتبيض فيه وجوه ، تسود وجوه أهل الفرقة والاختلاف ، وتبيض وجوه أهل السنة والجماعة ، قال تعالى ههنا ﴿ وَيَوْمَ الْقِيَمَةِ تَرَى الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى اللَّهِ ﴾ أي في دعواهم له شريكا ولدا ﴿ وَجُوهُهُم مُسْوَدَّةٌ ﴾ أي بكذبهم وافتراءهم ، وقوله تعالى : ﴿ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ ﴾ أي أليست جهنم كافية لهم سجتا وموتلا ، لهم فيها الخزي والهوان بسبب تكبرهم وتجرهم وإبائهم عن الانقياد للحق . عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « إن المتكبرين يحشرون يوم القيامة أشباه الذر في صور الناس يعلمهم كل شيء من الصغار حتى يدخلوا سجتا من النار في واد يقال له : بولس من نار الأنيار ، ويسقون من

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٢٨٩/١) والطبراني في الكبير (١٧٢/١٢) والمجلوني في كشف الخفاء (١٦٣/١) .

(٢) أخرجه أحمد في مسنده (٤١٤/٥) والترمذي في السنن (٢٥٢٦) .

(٣) أخرجه الحاكم في المستدرک (٤٣٥/٢) وأحمد في مسنده (٥١٢/٢) .

عصارة أهل النار ومن طينة الخبال» ^(١) . وقوله تبارك وتعالى : ﴿ وَيَسْجَىٰ اللَّهُ الَّذِينَ اتَّقَوْا بِمَقَازِهِمْ ﴾ أي بما سبق لهم من السعادة والفوز عند الله ﴿ لَا يَمَسُّهُمْ أَسْوَةٌ ﴾ ، أي يوم القيامة ﴿ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ أي ولا يحزنهم الفرع الأكبر ، بل هم آمنون من كل فرع مزحزون عن كل شر نائلون كل خير .
﴿ اللَّهُ خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ﴾ ٥ ﴿ لَهُ مَقَالِيدُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ أُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴾ ٦ ﴿ قُلْ أَغْوَىٰ اللَّهُ تَأْمُرُوهَ أَغْبُدُوا إِلَٰهًا لَّجَاهِلُونَ ﴾ ٧ ﴿ وَلَقَدْ أَوْحَىٰ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾ ٨ ﴿ بَلِ اللَّهُ فَاعْبُدْ وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ ﴾ ٩ .

يخبر تعالى أنه خالق الأشياء كلها وربها ومليكمها والمتصرف فيها ، وكل تحت تديره وقهره وكلاءته ، وقوله ﴿ لَهُ مَقَالِيدُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ قال مجاهد : المقاليد هي المفاتيح بالفارسية ، وقال السدي : ﴿ لَهُ مَقَالِيدُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ أي خزائن السموات والأرض ، والمعنى على كلا القولين أن أزمنة الأمور بيده تبارك وتعالى له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير ، ولهذا قال جل وعلا : ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ ﴾ أي حججه وبراهينه ﴿ أُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴾ .

وقوله تبارك وتعالى : ﴿ قُلْ أَغْوَىٰ اللَّهُ تَأْمُرُوهَ أَغْبُدُوا إِلَٰهًا لَّجَاهِلُونَ ﴾ ذكروا في سبب نزولها ما روي عن ابن عباس رضي الله عنه أن المشركين من جهلهم دعوا رسول الله ﷺ إلى عبادة آلهتهم ويعبدوا معه إلهه فنزلت ﴿ قُلْ أَغْوَىٰ اللَّهُ تَأْمُرُوهَ أَغْبُدُوا إِلَٰهًا لَّجَاهِلُونَ ﴾ ٦ ﴿ وَلَقَدْ أَوْحَىٰ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾ وهذه كقوله تعالى : ﴿ وَلَوْ أَشْرَكُوا لَحَبِطَ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَمَعُولُونَ ﴾ .
﴿ وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَالسَّمَوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَنَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ .

يقول تبارك وتعالى : ﴿ وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ ﴾ أي ما قدر المشركون الله حق قدره حين عبدوا معه غيره وهو العظيم الذي لا أعظم منه ، القادر على كل شيء ، المالك لكل شيء ، وكل شيء تحت قهره وقدرته ، قال مجاهد : نزلت في قريش ، وقال السدي : ما عظموه حق تعظيمه ، وقال محمد بن كعب : لو قدروه حق قدره ما كذبوا ، وعن ابن عباس رضي الله عنه قال : هم الكفار الذين لم يؤمنوا بقدرة الله عليهم . فمن آمن أن الله على كل شيء قدير ، فقد قدر الله حق قدره ، ومن لم يؤمن بذلك ؛ فلم يقدر الله حق قدره وقد وردت أحاديث كثيرة متعلقة بهذه الآية الكريمة والطريق فيها وفي أمثالها مذهب السلف وهو إمرارها كما جاءت من غير تكليف ولا تحريف . وعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال : جاء حبر من الأحبار إلى رسول الله ﷺ فقال : يا محمد ، إنا نجد أن الله ﷻ يجعل السموات على إصبع والأرضين على إصبع ، والشجر على إصبع ، والماء والثرى على إصبع ، وسائر الخلق على إصبع فيقول : أنا الملك ، فضحك رسول الله ﷺ حتى بدت نواجذه تصدقاً لقول الحبر ، ثم قرأ رسول الله ﷺ عنه ﴿ وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ ﴾ الآية ^(٢) وعن أبي سلمة بن عبد الرحمن أن أبا هريرة رضي الله عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول :

(١) ذكره القرطبي في تفسيره (٩٥/١٠) .

(٢) أخرجه البخاري في التوحيد (٧٤١٤) ومسلم في المناقين (١٩) والترمذي في السنن (٣٢٣٨) وأحمد في مسنده (٤٢٩/١) .

« يقبض الله تعالى الأرض ويطوي السماء يمينه ، ثم يقول : أنا الملك أين ملوك الأرض ؟ » ^(١) .
 ﴿ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَبَقَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنْظُرُونَ ٥١ وَأَشْرَفَتِ الْأَرْضُ بِرُؤُوسِهَا وَوُضِعَ الْكِتَابُ وَجِئَتْ بِالنَّبِيِّينَ وَالشُّهَدَاءُ وَفُتِحَ بَيْنَهُمْ بِالْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ٥٢ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴾ .

يقول تبارك وتعالى مخبراً عن هول يوم القيامة وما يكون فيه من الآيات العظيمة والزلازل الهائلة فقولته تعالى : ﴿ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَبَقَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ ﴾ هذه النفخة هي الثانية وهي نفخة الصعق ، وهي التي يموت بها الأحياء من أهل السموات والأرض إلا من شاء الله كما جاء مصرحاً به مفسراً في حديث الصور المشهور ، ثم يقبض أرواح الباقين حتى يكون آخر من يموت ملك الموت ، وينفرد الحي القيوم الذي كان أولاً وهو الباقي آخرًا بالديمومة والبقاء ويقول : ﴿ لَئِنْ أَسْأَلُكَ الْيَوْمَ ﴾ ثلاث مرات ثم يجيب نفسه بنفسه فيقول : ﴿ لِلَّهِ الْوَجْدُ الْقَهَّارِ ﴾ أنا الذي كنت وحدي ، وقد قهرت كل شيء ، وحكمت بالفناء على كل شيء ، ثم يحيي أول من يحيي لإسرائيل ويأمره أن ينفخ في الصور مرة أخرى وهي النفخة الثالثة نفخة البعث ، قال الله ﷻ : ﴿ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنْظُرُونَ ﴾ أي أحياء بعدما كانوا عظاماً ورفاتاً صاروا أحياء ينظرون إلى أهوال يوم القيامة ، كما قال تعالى : ﴿ فَلَمَّا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ ٥٢ فَإِذَا هُمْ بِالسَّاعِرَةِ ﴾ . ورد أن رجلاً قال لعبد الله بن عمرو رضي الله عنه : إنك تقول : الساعة تقوم إلى كذا وكذا ، قال : لقد هممت أن لا أحدثكم شيئاً ، إنما قلت : سترون بعد قليل أمراً عظيماً ، ثم قال عبد الله بن عمرو رضي الله عنه : قال رسول الله ﷺ : « يخرج الدجال في أمتي فيمكث فيهم أربعين لا أدري أربعين يوماً ، أو أربعين شهراً ، أو أربعين عاماً ، أو أربعين ليلة ؛ فيبعث الله تعالى عيسى ابن مريم عليهما الصلاة والسلام كأنه عروة بن مسعود الثقفي ، فيظهر فيهلكه الله تعالى ثم يلبث الناس بعده سنين سبعمائة ليس بين اثنين عداوة ، ثم يرسل الله تعالى ريحاً باردة من قبل الشام فلا يبقى أحد في قلبه مثقال ذرة من إيمان إلا قبضته ، حتى أن لو كان أحدهم كان في كبد جبل لدخلت عيه » قال : سمعتها من رسول الله ﷺ : « ويبقى شرار الناس في خفة الطير وأحلام السباع لا يعرفون معروفاً ولا ينكرون منكراً ، قال : فيتمثل لهم الشيطان فيقول : ألا تستجيبون ؟ فيأمرهم بعبادة الأوثان فيعبدونها ؛ وهم في ذلك ذائرة أرزاقهم ، حسن عيشهم ، ثم ينفخ في الصور فلا يسمعه أحد إلا أصغى ليتها ، ورفع ليتها ، وأول من يسمعه رجل يلوط حوضه فيصعق ، ثم لا يبقى أحد إلا صُعِقَ ، ثم يرسل الله تعالى أو ينزل الله ﷻ مطراً كأنه الطل - أو الظل شك نعمان - فتنبت منه أجساد الناس ، ثم ينفخ فيه أخرى فإذا هم قيام ينظرون ، ثم يقال : أيها الناس هلموا إلى ربكم ﴾ ﴿ وَفُتِحَتْ بَيْنَهُمْ مَسْئَلَاتُهُمْ ﴾ قال : ثم يقال : أخرجوا بعث النار قال : فيقال : كم ؟ فيقال : من كل ألف تسعمائة وتسعة وتسعين ، فيومئذ تبعث الولدان شيئاً ، ويومئذ يكشف عن ساق » ^(٢) .

عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه يحدث عن النبي ﷺ قال : « ما بين النفختين أربعون » قالوا : يا

(١) أخرجه مسلم في صفات المؤمنين (٢٣) وابن ماجه في السنن (١٩٢) والدارمي في السنن (٣٢٥/٢) وأحمد في مسنده (٣٧٤/٢) .

(٢) أخرجه مسلم في الفتن (١١٦) وأحمد في مسنده (١٦٦/٢) والحاكم في المستدرک (٥٥٠/٤) .

أبا هريرة أربعون يوماً ؟ قال رضي الله تعالى عنه : أييت ، قالوا : أربعون سنة ؟ قال : أييت ، قالوا : أربعون شهراً ؟ قال : أييت ، ويلى كل شيء من الإنسان إلا عجب ذنبه ، فيه يركب الخلق ^(١) .

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال نحوه سألت جبريل عليه الصلاة والسلام عن هذه الآية ﴿ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصُوعِقَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ ﴾ من الذين لم يشأ الله تعالى أن يصعقهم ؟ قال : هم الشهداء ، يتقلدون أسيافهم حول عرشه تتلقاهم ملائكة يوم القيامة الى المحشر بنجائب من ياقوت نمارها ألين من الحرير ، مد خطاها مد أبصار الرجال يسرون في الجنة يقولون عند طول الزهرة : انطلقوا بنا الى ربنا لننظر كيف يقضي بين خلقه ، يضحك إليهم إلهي ، وإذا ضحك الى عبد في موطن فلا حساب عليه ^(٢) . وقوله تبارك وتعالى : ﴿ وَأَشْرَقَتِ الْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا ﴾ أي أضاءت يوم القيامة اذا تجلى الحق جل وعلا للخلائق لفصل القضاء ﴿ وَرُضِعَ الْكِتَابُ ﴾ قال قتادة : كتاب الأعمال ﴿ وَجَاءَ يَأْتِيَتِينَ ﴾ قال ابن عباس رضي الله تعالى عنهما : يشهدون على الأمم بأنهم بلغوهم رسالات الله إليهم ﴿ وَالشُّهَدَاءُ ﴾ أي الشهداء من الملائكة الحفظة على أعمال العباد من خير وشر ﴿ وَنُفِخَ بَنَفْثِهِمْ بِالْحَقِّ ﴾ أي بالعدل ﴿ وَهُمْ لَا يَظْلُمُونَ ﴾ قال الله تعالى : ﴿ وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِنْ كَانَ مِثْقَالُ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكُنْ مِنْ حَاسِبِينَ ﴾ ، ولهذا قال ﷻ : ﴿ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ ﴾ أي من خير أو شر ﴿ وَهُمْ أَتَعْلَمُ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴾ .

﴿ وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ دُمَرًا ﴾ حتى إذا جاءوها فُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِ رَبِّكُمْ وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا قَالُوا بَلَىٰ وَلَكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴿ قِيلَ ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَبِمَا قَسَّيْتُمْ مَتَوًى الشُّكُورِ ﴾ .

يخبر تعالى عن حال الأشقياء الكفار كيف يساقون الى النار وإنما يساقون سوقاً عنيقاً بجزر وتهديد ووعيد وهم عطاش ظماء وهم في تلك الحال صم وبكم وعمي ، منهم من يمشي على وجهه ﴿ وَتَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ وقوله تبارك وتعالى : ﴿ حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوهَا فَتُحْتِ أَبْوَابُهَا ﴾ أي بمجرد وصولهم إليها فتحت لهم أبوابها سريعا لتعجل لهم العقوبة ، ثم يقول لهم خزنتها من الزبانية الذين هم غلاظ الأخلاق بشداد القوى على وجه التقريع والتوبيخ والتنكيل : ﴿ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ ﴾ أي من جنسكم تتمكنون من مخاطبتهم والأخذ عنهم ﴿ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِ رَبِّكُمْ ﴾ أي يقيمون عليكم الحجج والبراهين على صحة ما دعوكم إليه ﴿ وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا ﴾ أي ويحذرونكم من شر هذا اليوم ، فيقول الكفار لهم : ﴿ بَلَىٰ ﴾ أي قد جاءونا وأنذرونا وأقاموا علينا الحجج والبراهين ﴿ وَلَكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴾ أي ولكن كذبناهم وخالفناهم لما سبق لنا من الشقوة التي كنا نستحقها حيث عدلنا عن الحق إلى الباطل .

وقوله تبارك وتعالى : ﴿ قِيلَ ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا ﴾ أي كل من رآهم وعلم حالهم يشهد عليهم بأنهم مستحقون للعذاب ؛ ولهذا لم يسند هذا القول إلى قائل معين ؛ بل أطلقه ليدل

(١) أخرجه البخاري في تفسير القرآن (٤٩٣٥) ومسلم في الفن (١٤١) .

(٢) ذكره الهندي في كنز العمال (١١١١) والطبري في تفسيره (١٤/٢٠) .

على أن الكون شاهد عليهم بأنهم يستحقون ما هم فيه بما حكم العدل الخبير عليهم به ؛ ولهذا قال جل وعلا : ﴿ قِيلَ ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا ﴾ أي ما كنتم فيها لا خروج لكم منها ولا زوال لكم عنها ﴿ فَيَتَسَمَتُونَ الْمُتَكَبِّرِينَ ﴾ أي فبئس المصير وبئس المقيّل لكم بسبب تكبركم في الدنيا وإيائكم عن اتباع الحق ؛ فهو الذي صيركم الى ما أنتم فيه ، فبئس الحال وبئس المآل .

﴿ وَيَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَرًا حَتَّى إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ ۝ ﴾ وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقَنَا وَعْدَهُ وَأَوْرَثَنَا الْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ فَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ ۝

وهذا إخبار عن حال السعداء المؤمنين حين يساقون على النجائب وفداً الى الجنة زمراً ، أي جماعة بعد جماعة : المقربون ، ثم الأبرار ، ثم الذين يلونهم ، ثم الذين يلونهم ، كل طائفة مع من يناسبهم : الأنبياء مع الأنبياء ، والصدّيقون مع أشكالهم ، والشهداء مع أضرابهم ، والعلماء مع أقرانهم ، وكل صنف مع صنف ، كل زمرة تناسب بعضها بعضاً ﴿ حَتَّى إِذَا جَاءُوهَا ﴾ أي وصلوا الى أبواب الجنة بعد مجاوزة الصراط حبسوا على قنطرة بين الجنة والنار ، فاقصص لهم مظالم كانت بينهم في الدنيا ، حتى إذا هذبوا ونقوا أذن لهم في دخول الجنة . عن أبي هريرة ؓ قال : قال رسول الله ﷺ : « أول زمرة يدخلون الجنة على صورة القمر ليلة البدر ، والذين يلونهم على ضوء أشد كوكب دري في السماء إضاءة ، لا يبولون ، ولا يتغوطون ولا يتفلون ، ولا يمتخطون ، أمشاطهم الذهب ، ورشحهم المسك ، ومجامرهم الآلوة ، وأزواجهم الحور العين ، أخلاقهم على خلق رجل واحد على صورة أبيهم آدم ستون ذراعاً في السماء » ^(١) . وعن أبي هريرة ؓ عن رسول الله ﷺ قال : « ويدخل الجنة من أمتي زمرة هم سبعون ألفاً تضئ وجوههم إضاءة القمر ليلة البدر » فقام عكاشة بن محصن فقال : يا رسول الله ادع الله أن يجعلني منهم ، فقال ﷺ : اللهم اجعله منهم . ثم قام رجل من الأنصار فقال يا رسول الله ادع الله تعالى أن يجعلني منهم . فقال ﷺ : « سبقك بها عكاشة » ^(٢) .

وقوله تعالى : ﴿ حَتَّى إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ ﴾ لم يذكر الجواب ههنا ، وتقديره : حتى إذا جاءوها وكانت هذه الأمور من فتح الأبواب لهم إكراماً وتعظيماً وتلقئهم الملائكة الخزنة بالبشارة والسلام والثناء كما تلقى الزبانية الكفرة بالشراب والتأنيب ، فتقديره : إذا كان هذا سعدوا وطابوا وسروا وفرحوا بقدر كل ما يكون لهم فيه نعيم ، وإذا حذف الجواب ههنا ذهب الذهن كل مذهب في الرجاء والأمل ، ومن زعم أن الواو في قوله تبارك وتعالى : ﴿ وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا ﴾ واو الثمانية واستدل به على أن أبواب الجنة ثمانية فقد أبعد النجعة وأغرق في النزاع ، وإنما يستفاد كون أبواب الجنة ثمانية من الأحاديث الصحيحة .

عن أبي هريرة ؓ قال : قال رسول الله ﷺ : « من أنفق زوجين من ماله في سبيل الله تعالى دعي من أبواب الجنة ، وللجنة أبواب ، فمن كان من أهل الصلاة دعي من باب الصلاة ، ومن كان

(١) أخرجه البخاري في بدء الخلق (٣٢٤٦) ومسلم في الجنة وصفة نعيمها (١٥) والترمذي في السنن (٢٥٢٢) وأحمد في مسنده

(٢) أخرجه البخاري في اللباس (٥٨١١) ومسلم في الإيمان (٣٦٧) .

من أهل الصدقة دعي من باب الصدقة ، ومن كان من أهل الجهاد دعي من باب الجهاد ، ومن كان من أهل الصيام دعي من باب الريان » فقال أبو بكر رضي الله تعالى عنه : يا رسول الله ما على أحد من ضرورة دعي من أيها دعي ، فهل يدعى منها كلها أحد يا رسول الله ؟ قال ﷺ : « نعم ، وأرجو أن تكون منهم » ^(١) عن سهل بن سعد ؓ أن رسول الله ﷺ قال : « إن في الجنة ثمانية أبواب ، باب منها يسمى الريان لا يدخله إلا الصائمون » ^(٢) عن عمر بن الخطاب ؓ قال : قال رسول الله ﷺ : « ما منكم من أحد يتوضأ فيبلغ ، أو فيسبغ الوضوء ثم يقول : أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله ؛ إلا فتحت له أبواب الجنة الثمانية يدخل من أيها شاء » ^(٣) .

ذكر سعة أبواب الجنة - نسأل الله من فضله العظيم أن يجعلنا من أهلها

عن أبي هريرة ؓ في حديث الشفاعة الطويل : « ... فيقول الله تعالى : يا محمد أدخل من لأحساب عليه من أمتك من الباب الأيمن وهم شركاء الناس في الأبواب الأخر ، والذي نفس محمد بيده إن ما بين المصراعين من مصاريع الجنة ما بين عضادتي الباب لكما من مكة وهجر - وأهجر ومكة - وفي رواية - مكة وبصرى ^(٤) عن أبي سعيد ؓ عن رسول الله ﷺ قال : « إن ما بين مصراعين في الجنة مسيرة أربعين سنة » ^(٥) . وقوله تبارك وتعالى : ﴿ وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ ﴾ أي طابت أعمالكم وأقوالكم وطاب سعيكم وطاب جزاؤكم ، وقوله : ﴿ فَأَدْخَلَوْهَا خَالِدِينَ ﴾ أي ماكنين فيها أبداً لا يغيثون عنها حولا ﴿ وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقَنَا وَعْدَهُ ﴾ أي يقول المؤمنون إذا عاينوا في الجنة ذلك الثواب الوافر والعطاء العظيم والنعيم المقيم والملك الكبير يقولون عند ذلك : ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقَنَا وَعْدَهُ ﴾ أي الذي كان وعدنا على ألسنة رسله الكرام ﴿ وَقَالُوا لَلْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ لَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلٌ مِنْ رَبِّهِمْ بِالْحَقِّ ﴾ وقولهم : ﴿ وَأَوْزَعْنَا الْأَرْضَ نَبْوَاً مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ فَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ ﴾ قال أبو العالية وأبو صالح وقتادة والسدي وابن زيد : أي أرض الجنة ، و ﴿ نَبْوَاً مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ ﴾ أي أين شئنا حللنا فنعم الأجر أجرتنا على عملنا .

عن أبي سعيد ؓ قال : إن رسول الله ﷺ سأل ابن صائد عن تربة الجنة فقال : در مكة ييضاء مسك خالص ، فقال رسول الله ﷺ : « صدق » ^(٦) .

﴿ وَرَى الْمَلَكَةَ حَافِيَتٍ مِنْ حَوْلِ الْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ وَقِيلَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ .

لما ذكر تعالى حكمه في أهل الجنة والنار وأنه نزل كلاً في المحل الذي يليق به ويصلح له ، وهو العادل في ذلك الذي لا يجور ، أخبر عن ملائكته أنهم محدقون من حول العرش المجيد يسبحون

(١) أخرجه البخاري في فضائل الصحابة (٣٦٦٦) ومسلم في الزكاة (٨٥) والترمذي في السنن (٣٦٧٤) .

(٢) أخرجه البخاري في الصوم (١٨٩٦) ومسلم في الصوم (١٦٦) والبيهقي في السنن (٣٠٥/٤) جميعهم بنحوه .

(٣) أخرجه مسلم في الطهارة (١٧) وأحمد في مسنده (١٥٣/٤) .

(٤) أخرجه البخاري في تفسير القرآن (٤٧١٢) ومسلم في الإيمان (٣٢٧) وأحمد في مسنده (٤٣٦/٢) .

(٥) أخرجه أحمد في مسنده (٣/٥) . (٦) أخرجه مسلم في الفتن (٩٣) .

بحمد ربهم ويمجدونه ويعظمونه ويقدسونه وينزهونه عن النقائص والحوادث ، وقد فصل القضية ، وقضي الأمر ، وحكم بالعدل ولهذا ، قال ﷻ : ﴿ وَفُصِّلَ بَيْنَهُمْ ﴾ أي بين الخلائق ﴿ بِالْحَقِّ ﴾ . ثم قال : ﴿ وَقِيلَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ أي نطق الكون أجمع ، ناطقه وبهيمه لله رب العالمين بالحمد في حكمه وعدله ؛ ولهذا لم يسند القول إلى قائل ، بل أطلقه ؛ فدل على أن جميع المخلوقات شهدت له بالحمد .

سورة غافر

قال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه آل حم دياج القرآن . وقال ابن عباس رضي الله عنه : إن لكل شيء لبابا ، وللباب القرآن آل حم أو قال : الحواميم . وقال مسعر بن كدام : كان يقال لهن العرائس ، وروي أن رجلاً رأى أبا الدرداء رضي الله عنه بيني مسجدًا فقال له : ما هذا ؟ فقال : أبنيه من أجل آل حم ، وقد يكون هذا المسجد الذي بناه أبو الدرداء رضي الله عنه هو المسجد المنسوب إليه داخل قلعة دمشق ، وقد يكون صيانتها وحفظها ببركته وبركة ماوضع له ، فإن هذا الكلام يدل على النصر على الأعداء كما قال رسول الله ﷺ لأصحابه في بعض الغزوات « إن يثُم الليلة فقولوا : حم ، لا ينصرون - وفي رواية - لا تنصرون » ^(١) وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « من قرأ آية الكرسي وأول حم المؤمن ؛ عصم ذلك اليوم من كل سوء » ^(٢) .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ حَمَّ ۝ تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ۝ غَافِرِ الذَّنْبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ شَدِيدِ الْعِقَابِ ذِي الطَّلَوِّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ إِلَهِيَ الْمَصِيرُ ۝ ﴾ .

أما الكلام على الحروف المقطعة فقد تقدم في أول سورة البقرة بما أغنى عن إعادته ههنا وقد قيل إن ﴿ حَمَّ ﴾ اسم من أسماء الله ﷻ وأنشدوا في ذلك بيتا :

يذكرني حم والرمح شاجر فهلا تلا حم قبل التقدم ^(٣)

وقوله تعالى : ﴿ تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴾ أي تنزيل هذا الكتاب وهو القرآن من الله ذي العزة والعلم فلا يرام جنباه ولا يخفى عليه الذر وإن تكاثف حجاباه . وقوله ﷻ ﴿ غَافِرِ الذَّنْبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ ﴾ أي يغفر ما سلف من الذنب ويقبل التوبة في المستقبل لمن تاب إليه وخضع لديه . وقوله جل وعلا : ﴿ شَدِيدِ الْعِقَابِ ﴾ أي لمن تمرد وطغى وأثر الحياة الدنيا وعثا عن أوامر الله تعالى وبغى . وقوله تعالى ﴿ ذِي الطَّلَوِّ ﴾ ، قال ابن عباس رضي الله عنه : يعني السنعة والغنى ، وقال يزيد بن الأصم : ذي الطول يعني الخير الكثير . وقال عكرمة : ﴿ ذِي الطَّلَوِّ ﴾ ذي المن . وقال قتادة : ذي النعم والفواضل ، والمعنى أنه المتفضل على عباده المتطول عليهم بما هم فيه من المن والإنعام التي لا يطيقون القيام بشكر واحدة منها . وقوله جلّت عظمتة : ﴿ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ ﴾ أي لا نظير له في جميع صفاته فلا إله غيره ولا رب سواه ﴿ إِلَهِيَ الْمَصِيرُ ﴾ أي المرجع والمآب فيجازي كل عامل بعمله .

عن يزيد بن الأصم قال : كان رجل من أهل الشام ذو بأس وكان يفد إلى عمر بن الخطاب رضي الله عنه ففقده عمر فقال : ما فعل فلان ابن فلان ، فقالوا : يا أمير المؤمنين تتابع في هذا الشراب . قال فدعا عمر كاتبه فقال : اكتب : من عمر بن الخطاب إلى فلان ابن فلان ، سلام عليك ، فإني أحمد إليك الله الذي لا إله

(١) أخرجه أبو داود في السنن (٢٥٩٧) والترمذي في سننه (١٦٨٢) وأحمد في مسنده (٦٥/٤) .

(٢) ذكره النووي في الأذكار (١٠٢) .

(٣) البيت لشريح بن أوفى العيصي وهو من شواهد أبي عبيد في مجاز القرآن (١٩٣/٢) وشواهد الكشاف ص : ٢٦١ .

إلا هو غافر الذنب وقابل التوب شديد العقاب ذي الطول لا إله إلا هو إليه المصير . ثم قال لأصحابه : ادعوا الله لأخيكم أن يقبل بقلبه ويتوب الله عليه ، فلما بلغ الرجل كتاب عمر عليه السلام جعل يقرؤه ويردده ويقول : ﴿ غَافِرَ الذَّنْبِ وَقَابِلَ التَّوْبِ شَدِيدِ الْعِقَابِ ﴾ ، قد حذرني عقوبته ووعدني أن يغفر لي . وزاد : فلم يزل يرددتها على نفسه ثم بكى ، ثم نزع فأحسن النزع ، فلما بلغ عمر خبره قال : هكذا فاصنعوا إذا رأيتم أخا لكم زل زلة فسدوده ووثقوه ، وادعوا الله له أن يتوب عليه ولا تكونوا أعوانا للشيطان عليه .

﴿ مَا يَجِدُوا فِي آيَاتِ اللَّهِ إِلَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَا يَزِيدُكَ تَقَاتُلُهُمْ فِي الْيَلْدِ ﴾ ❶ كَذَبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَالْأَخْرَابُ مِنْ بَنِي إِدْرِيسَ وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ وَجَدُوا بِالْبَاطِلِ يُدْخِشُوا بِهِ الْحَقَّ فَأَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ ❶ وَكَذَلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ أَصْحَابُ النَّارِ .

يقول تعالى ما يدفع الحق ويجادل فيه بعد البيان وظهور البرهان ﴿ إِلَّا الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ أي الجاحدون لآيات الله وحججه وبراهينه ﴿ فَلَا يَزِيدُكَ تَقَاتُلُهُمْ فِي الْيَلْدِ ﴾ أي في أموالها ونعيمها وزهرتها ، ثم قال تعالى مسلينا لنبية محمد عليه السلام في تكذيب من كذبه من قومه بأن له أسوة فيمن سلف من الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ، فإنه قد كذبهم أمهم وخالفهم وما آمن بهم منهم إلا قليل فقال : ﴿ كَذَبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ ﴾ وهو أول رسول بعثه الله ينهى عن عبادة الأوثان ﴿ وَالْأَخْرَابُ مِنْ بَنِي إِدْرِيسَ ﴾ أي من كل أمة ﴿ وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ ﴾ أي حرصوا على قتله بكل ممكن ومنهم من قتل رسوله ﴿ وَجَدُوا بِالْبَاطِلِ يُدْخِشُوا بِهِ الْحَقَّ ﴾ أي ماحلوا بالشبهة ليردوا الحق الواضح الجلي . عن ابن عباس رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « من أعان باطلا ليدحض به حقا ؛ فقد برئت منه ذمة الله تعالى وذمة رسوله صلى الله عليه وسلم » ^(١) وقوله جلّت عظمتهم ﴿ فَأَخَذْتُهُمْ ﴾ أي أهلكتهم على ما صنعوا من هذه الآثام والذنوب العظام ﴿ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ ﴾ أي فكيف بلغك عذابي لهم ونكالي بهم قد كان شديدا موجعا مؤلما . قال قتادة كان شديدا والله . وقوله ﴿ وَكَذَلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ أَصْحَابُ النَّارِ ﴾ أي كما حقت كلمة العذاب على الذين كفروا من الأمم السالفة كذلك حقت على المكذبين من هؤلاء الذين كذبوك وخالفوك يا محمد بطريق الأولى والأخرى ؛ لأن من كذبك فلا وثوق له بتصديق غيرك ، والله أعلم .

﴿ الَّذِينَ يَجْلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَعِلْمًا فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ ❶ رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّاتٍ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدْتَهُمْ وَمَنْ صَلَحَ مِنْ ءَابَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ❶ وَفِيهِمُ الْمُسْتَقِيمُونَ ❶ وَمَنْ تَبَى السَّيِّئَاتِ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْتَهُ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ .

يخبر تعالى عن الملائكة المقرين من حملة العرش الأربعة ومن حوله من الملائكة الكرويين بأنهم يسبحون بحمد ربهم أي يقرون بين التسبيح الدال على نفي النقائص والتحميد المقتضي لإثبات صفات المدح ﴿ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ ﴾ أي خاشعون له أذلاء بين يديه وأنهم ﴿ وَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا ﴾ أي من أهل الأرض ممن آمنوا بالغيب فقيض الله تعالى ملائكته المقرين أن يدعوا للمؤمنين بظهر الغيب ، ولما

(١) أخرجه الحاكم في المستدرک (١٠٠/٤) والطبراني في الكبير (٢١٦/١١) .

كان هذا من سجايا الملائكة عليهم الصلاة والسلام كانوا يؤمنون على دعاء المؤمن لأخيه بظهر الغيب .
كما ثبت في صحيح مسلم : « إذا دعا المسلم لأخيه بظهر الغيب ، قال الملك : آمين ولك بمثل » ^(١) .
وعن ابن عباس رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « صدق أمية بن أبي الصلت في شيء من شعره فقال :

زحل وثور تحت رجل يمينه والنسر للأخرى وليث مرصد
فقال رسول الله ﷺ : « صدق » فقال :

والشمس تطلع كل آخر ليلة
تأبى فما تطلع لنا في رسلها
إلا معذبة ولا تجلد

فقال رسول الله ﷺ : « صدق » ^(٢) ، وهو يقتضي أن حملة العرش اليوم أربعة ، فإذا كان يوم القيامة كانوا ثمانية كما قال تعالى : ﴿ وَيَجْلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَنِيَّةٌ ﴾ وهنا سؤال وهو أن يقال : ما الجمع بين المفهوم من هذه الآية ودلالة هذا الحديث ؟ وبين الحديث الذي رواه العباس بن عبد المطلب رضي الله عنه قال : كنت بالبطحاء في عصاة فيهم رسول الله ﷺ ، فمرت بهم سحابة ، فنظر إليها فقال : « ما تسمون هذه ؟ » قالوا : السحاب ، قال : « والمزن ؟ » قالوا : والمزن قال : « والعنان ؟ » قالوا : والعنان ، قال : « هل تدرون بُعد ما بين السماء والأرض ؟ » قالوا : لا ندري ، قال : بُعد ما بينهما إما واحدة ، أو اثنتان ، أو ثلاث وسبعون سنة ، ثم السماء فوقها كذلك حتى عد سبع سموات ، ثم فوق السماء السابعة بحر ما بين أسفله وأعلاه مثل بين سماء إلى سماء ، ثم فوق ذلك ثمانية أوعال بين أظلالهن وركبهن مثل ما بين سماء إلى سماء ، ثم على ظهورهن العرش بين أسفله وأعلاه مثل ما بين سماء إلى سماء ، ثم الله تبارك وتعالى فوق ذلك » ^(٣) ، وهذا يقتضي أن حملة العرش ثمانية . ﴿ رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَعِلْمًا ﴾ أي رحمتك تسع ذنوبهم وخطاياهم ، وعلمك محيط بجميع أعمالهم وأقوالهم وحركاتهم وسكناتهم ﴿ فَأَعْرِ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ ﴾ أي فاصفح عن المسيئين إذا تابوا وأنبأوا وأقلعوا عما كانوا فيه واتبعوا ما أمرتهم به من فعل الخيرات وترك المنكرات ﴿ وَفِيهِمْ عَذَابٌ لَجِيمٌ ﴾ أي وزحزحهم عن عذاب الجحيم وهو العذاب الموجه الأليم ﴿ رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّاتٍ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدْتَهُمْ وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ ﴾ أي اجمع بينهم وبينهم لتقر بذلك أعينهم بالاجتماع في منازل متجاورة . وقال سعيد بن جبير : إن المؤمن إذا دخل الجنة سأل عن أبيه وابنه وأخيه : أين هم ؟ فيقال : إنهم لم يلبغوا طبقتك في العمل فيقول : إني إنما عملت لي ولهم ، فيلحقون به في الدرجة ، ثم تلا سعيد بن جبير هذه الآية : ﴿ رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّاتٍ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدْتَهُمْ وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْغَفُورُ الْحَكِيمُ ﴾ ، قال مطرف بن عبد الله بن الشخير : أنصح عباد الله للمؤمنين الملائكة ثم تلا هذه الآية : ﴿ رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّاتٍ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدْتَهُمْ ﴾ ، الآية وأنش عباده للمؤمنين الشياطين . وقوله تبارك وتعالى : ﴿ إِنَّكَ أَنْتَ الْغَفُورُ الْحَكِيمُ ﴾ ، أي الذي لا يمانع ولا يغالب وما شاء كان وما لم يشأ لم يكن ، الحكيم في أقوالك وأفعالك من شرعك وقدرك ﴿ وَفِيهِمُ السَّكَنَاتُ ﴾ ، أي فعلها أو

(١) أخرجه أبو داود في السنن (١٥٣٤) .

(٢) أخرجه أحمد في مسنده (٢٥٦/١) .

(٣) أخرجه أبو داود في السنن (٤٧٢٣) وابن ماجه في السنن (١٩٣٠) .

وبالها ممن وقعت منه ﴿وَمَنْ تَقِ السَّيِّئَاتِ يَوْمَئِذٍ﴾ أي يوم القيامة ﴿فَقَدْ رَجَعْتُمْ﴾ أي لطف به ونجيته من العقوبة ﴿وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ .

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يَسْأَلُونَ لِمَقْتُ اللَّهِ أَكْبَرُ مِنْ مَقَّتِكُمْ أَنْفُسَكُمْ إِذْ تُدْعَوْنَ إِلَى الْإِيمَانِ فَتَكْفُرُونَ﴾
 قَالُوا رَبَّنَا آمَنَّا آتَيْنَاكَ أَتَيْنًا فَاعْتَرَفْنَا بِذُنُوبِنَا فَهَلْ إِلَى خُرُوجٍ مِنْ سَبِيلٍ ﴿ذَلِكَ بِمَا يَأْتُهُ إِذَا دُعِيَ اللَّهُ وَحْدَهُ كَفَرْتُمْ وَإِنْ يُشْرَكَ بِهِ يُؤْمِنُوا فَالْحُكْمُ لِلَّهِ الْعَلِيِّ الْكَبِيرِ﴾ هُوَ الَّذِي يُرِيكُمُ آيَاتِهِ وَيُرْسِلُ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ رِزْقًا وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَنْ يُنِيبُ ﴿فَادْعُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾ .

يقول تعالى مخبراً عن الكفار أنهم ينادون يوم القيامة وهم في غمرات النيران يتلظون ، وذلك عندما باشروا من عذاب الله تعالى ما لا قبل لأحد به ، فمقتوا عند ذلك أنفسهم وأبغضوها غاية البغض بسبب ما أسلفوا من الأعمال السيئة التي كانت سبب دخولهم إلى النار ، فأخبرتهم الملائكة عند ذلك إخباراً عالياً ، نادوهم نداء بأن مقت الله تعالى لهم في الدنيا حين كان يعرض عليهم الإيمان فيكفرون أشد من مقتكم أيها المعذبون أنفسكم اليوم في هذه الحالة . قال قتادة في قوله تعالى : ﴿لَمَقْتُ اللَّهِ أَكْبَرُ مِنْ مَقَّتِكُمْ أَنْفُسَكُمْ إِذْ تُدْعَوْنَ إِلَى الْإِيمَانِ فَتَكْفُرُونَ﴾ يقول لمقت الله أهل الضلالة حين عرض عليهم الإيمان في الدنيا فتركوه وأبوأ أن يقبلوه أكبر مما مقتوا أنفسهم حين عاينوا عذاب الله يوم القيامة . وقوله : ﴿قَالُوا رَبَّنَا آمَنَّا آتَيْنَاكَ أَتَيْنًا وَلَمْ يَكُنْ لَنَا حِجَابٌ﴾ عن ابن مسعود ؓ : هذه الآية كقوله تعالى : ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنْتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمَيِّتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِنَّكُمْ رُجَعْتُمْ﴾ وكذا قال ابن عباس والضحاك وقاتدة وأبو مالك وهذا هو الصواب الذي لا شك فيه ولا مرية . والمقصود من هذا أن الكفار يسألون الرجعة وهم وقوف بين يدي الله ﷻ في عرصات القيامة كما قال ﷻ : ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الْمُجْرِمُونَ نَاكِسُوا رُءُوسِهِمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ﴾ . فلا يجابون ثم إذا رأوا النار وعابنوها ووقفوا عليها ونظروا إلى ما فيها من العذاب والنكال سألوا الرجعة أشد مما سألوا أول مرة فلا يجابون ، فإذا دخلوا النار وذاقوا مسها وحسبها ومقامها وأغلالها ؛ كان سؤالهم للرجعة أشد وأعظم وتلطفوا في السؤال وقدموا بين يدي كلامهم مقدمة وهي قولهم : ﴿رَبَّنَا آمَنَّا آتَيْنَاكَ أَتَيْنًا وَلَمْ يَكُنْ لَنَا حِجَابٌ﴾ أي قدرتك عظيمة ؛ فإنك أحيتنا بعد ما كنا أمواتا ثم أمتنا ثم أحيتنا ، فأنت قادر على ما تشاء ، وقد اعترفنا بذنوبنا وإننا كنا ظالمين لأنفسنا في الدار الدنيا ﴿فَهَلْ إِلَى خُرُوجٍ مِنْ سَبِيلٍ﴾ أي فهل أنت مجيبنا إلى أن تعيدنا إلى الدار الدنيا فإنك قادر على ذلك لنعمل غير الذي كنا نعمل ، فإن عدنا إلى ما كنا فيه فإننا ظالمون ، فأجيبوا أن لاسبيل إلى عودكم ومرجعكم إلى الدار الدنيا ، ثم علل المنع من ذلك بأن سجايكم لاتقبل الحق ولا تقتضيه بل تمجه وتنفيه ، ولهذا قال تعالى : ﴿ذَلِكَ بِمَا يَأْتُهُ إِذَا دُعِيَ اللَّهُ وَحْدَهُ كَفَرْتُمْ وَإِنْ يُشْرَكَ بِهِ يُؤْمِنُوا﴾ أي أنتم هكذا تكونون وإن رُددم إلى الدار الدنيا : ﴿فَالْحُكْمُ لِلَّهِ الْعَلِيِّ الْكَبِيرِ﴾ أي هو الحاكم في خلقه العادل الذي لا يجور فيهدي من يشاء ويضل من يشاء ، ويرحم من يشاء ويعذب من يشاء ، لا إله إلا هو .

وقوله ﷻ : ﴿هُوَ الَّذِي يُرِيكُمُ آيَاتِهِ﴾ أي يظهر قدرته لخلقه بما يشاهدونه في خلقه العلوي والسفلي من الآيات العظيمة الدالة على كمال خالقها ومبدعها ومنشئها ﴿وَيُرْسِلُ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ

رَزَقًا ﴿١٥﴾ وهو المطر الذي يخرج به من الزروع والثمار ما هو مشاهد بالحس من اختلاف ألوانه وطعومه وروائحه وأشكاله وألوانه ، وهو ماء واحد فبالقدرة العظيمة فاوت بين هذه الأشياء ﴿١٦﴾ وَمَا يَنْذَكُرُ ﴿١٧﴾ أي يعتبر ويتفكر في هذه الأشياء ويستدل بها على عظمة خالقها ﴿١٨﴾ إِلَّا مَنْ يُبِيتُ ﴿١٩﴾ أي من هو بصير منيب إلى الله تبارك وتعالى : وقوله ﴿٢٠﴾ : ﴿٢١﴾ فَادْعُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ ﴿٢٢﴾ أي فأخلصوا لله وحده العبادة والدعاء وخالفوا المشركين في مسلكتهم ومذهبهم .

وقد ثبت في الصحيح عن ابن الزبير رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ كان يقول عقب الصلوات المكتوبات : « لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير ، لاحول ولا قوة إلا بالله ، لا إله إلا الله ، ولا نعبد إلا إياه ، له النعمة وله الفضل وله الثناء الحسن ، لا إله إلا الله مخلصين له الدين ولو كره الكافرون » ^(١) . وعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال : « ادعوا الله تبارك وتعالى وأنتم موقنون بالإجابة ، واعلموا أن الله تعالى لا يستجيب دعاء من قلب غافل لاه » ^(٢) .

﴿ رَفِيعُ الدَّرَجَاتِ ذُو الْعَرْشِ يُلْقِي الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ لِيُنْذِرَ يَوْمَ التَّلَافِ ﴿١٥﴾ يَوْمَ هُمْ بَرْزُورٌ لَا يَخْفَى عَلَى اللَّهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ ﴿١٦﴾ لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ ﴿١٧﴾ الْيَوْمَ تُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ لَا ظُلْمَ الْيَوْمَ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴾ .

يقول تعالى مخبراً عن عظمته وكبريائه وارتفاع عرشه العظيم العالي على جميع مخلوقاته كالسقف ، وقد ذكر غير واحد أن العرش من ياقوتة حمراء ، اتساع ما بين قطريه مسيرة خمسين ألف سنة ، وارتفاعه عن الأرض السابعة مسيرة خمسين ألف سنة ^(٣) . وقوله تعالى : ﴿ يُلْقِي الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ ﴾ كقوله جلت عظمته : ﴿ يُزِيلُ الْمُلْكَ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ أَنْ أَنْذِرُوا أَنَّهُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاتَّقُونِ ﴾ ولهذا قال ﷻ : ﴿ لِيُنْذِرَ يَوْمَ التَّلَافِ ﴾ عن ابن عباس : يوم التلاق اسم من أسماء يوم القيامة حذر الله منه عباده ، وعنه أيضاً : يلتقي فيه آدم وآخر ولده . وقال قتادة والسدي وبلال بن سعد وسفيان بن عيينة : يلتقي فيه أهل السماء وأهل الأرض والخالق والمخلوق . وقال ميمون بن مهران : يلتقي الظالم والمظلوم وقد يقال : إن يوم التلاق يشمل هذا كله ، ويشمل أن كل عامل سيليقي ما عمله من خير وشر كما قاله آخرون .

وقوله ﷻ : ﴿ يَوْمَ هُمْ بَرْزُورٌ لَا يَخْفَى عَلَى اللَّهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ ﴾ أي ظاهرون بادون كلهم لا شيء يكنهم ولا يظلمهم ولا يسترهم ؛ ولهذا قال ﴿ يَوْمَ هُمْ بَرْزُورٌ لَا يَخْفَى عَلَى اللَّهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ ﴾ أي الجميع في علمه على السواء . وقوله تبارك وتعالى : ﴿ لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ ﴾ أي الذي هو وحده قد قهر كل شيء وغلبه . وعن ابن عباس رضي الله عنه قال : ينادي مناد بين يدي الساعة : يا أيها الناس أتتكم الساعة فيسمعها الأحياء والأموات ، قال : وينزل الله ﷻ إلى السماء الدنيا ويقول : ﴿ لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ ﴾ . وقوله جلت عظمته : ﴿ الْيَوْمَ تُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ لَا ظُلْمَ الْيَوْمَ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴾ يخبر تعالى

(١) أخرجه البخاري في الرقاق (٦٣٧٣) ومسلم في الحج (١٤٧) .

(٢) أخرجه الترمذي في السنن (٤٣٧٩) .

(٣) ذكره الهندي في كنز العمال (١٥/٩٥) والسيوطي في الدر المنثور (٢٩٧/٣) .

عن عدله في حكمه بين خلقه أنه لا يظلم مثقال ذرة من خير ولا من شر ، بل يجزي بالحسنة عشر أمثالها وبالسيدة واحدة ، ولهذا قال تبارك وتعالى : ﴿ لَا ظُلْمَ الْيَوْمَ ﴾ كما ثبت في صحيح مسلم عن أبي ذر رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ فيما يحكي عن ربه ﷻ أنه قال : « يا عبادي إني حرمت الظلم على نفسي وجعلته بينكم محرماً فلا تظالموا - إلى أن قال - يا عبادي إنما هي أعمالكم أحصيها عليكم ثم أوفيكم إياها ، فمن وجد خيراً فليحمد الله تبارك وتعالى ، ومن وجد غير ذلك فلا يلومن إلا نفسه » ^(١) وقوله ﷻ : ﴿ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴾ أي يحاسب الخلائق كلهم كما يحاسب نفساً واحدة .

﴿ وَأَنذَرْتُمْ يَوْمَ الْآزِفَةِ إِذِ الْقُلُوبُ لَدَى الْحَنَاجِرِ كَظِيمٍ مَّا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حِمِيمٍ وَلَا شَفِيعَ يُطَاعُ ﴾ يَعْلَمُ حَاطَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ ﷻ وَاللَّهُ يَقْضِي بِالْحَقِّ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَقْضُونَ شَيْئاً إِنَّ اللَّهَ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﷻ .

﴿ يَوْمَ الْآزِفَةِ ﴾ اسم من أسماء يوم القيامة وسميت بذلك لاقترابها . وقوله تبارك وتعالى : ﴿ إِذِ الْقُلُوبُ لَدَى الْحَنَاجِرِ كَظِيمٍ ﴾ أي ساكتين لا يتكلم أحد إلا بإذنه ، وقال ابن جريج : ﴿ كَظِيمٍ ﴾ أي باكين . وقوله ﷻ : ﴿ مَّا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حِمِيمٍ وَلَا شَفِيعَ يُطَاعُ ﴾ أي ليس للذين ظلموا أنفسهم بالشرك بالله من قريب منهم ينفعهم ولا شفيع يشفع فيهم ، بل قد تقطعت بهم الأسباب من كل خير . وقوله تعالى : ﴿ يَعْلَمُ حَاطَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ ﴾ يخبر ﷻ عن علمه التام المحيط بجميع الأشياء جليلها وحقيرها ، صغيرها وكبيرها ، دقيقها ولطيفها ، ليحذر الناس علمه فيهم فيستحيوا من الله تعالى حق الحياء ويتقوه حق تقواه ، ويراقبوه مراقبة من يعلم أنه يراه ؛ فإنه ﷻ يعلم العين الخائنة وإن أبدت أمانة ، ويعلم ما تنطوي عليه خبايا الصدور من الضمائر والسرائر . قال ابن عباس رضي الله عنهما في قوله تعالى : ﴿ يَعْلَمُ حَاطَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ ﴾ : هو الرجل يدخل على أهل البيت يبتهم وفيهم المرأة الحسنة ، أو تمر به وبهم المرأة الحسنة ، فإذا غفلوا لحظ إليها ، فإذا فطنوا غص بصره عنها ، فإذا غفلوا لحظ فإذا فطنوا غص . وقد اطلع الله تعالى من قلبه أنه ود أن لو اطلع على فرجها . وقال الضحاك رضي الله عنه : ﴿ حَاطَةَ الْأَعْيُنِ ﴾ هو الغمز . وقول الرجل : رأيت ولم ير . أو : لم أر وقد رأى . وقال ابن عباس رضي الله عنهما في قوله تعالى : ﴿ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ ﴾ يعلم إذا أنت قدرت عليها هل تزني بها أم لا ؟ وقال السدي : ﴿ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ ﴾ أي من الوسوسة .

وقوله ﷻ : ﴿ وَاللَّهُ يَقْضِي بِالْحَقِّ ﴾ أي يحكم بالعدل . وقال ابن عباس : قادر على أن يجزي بالحسنة الحسنة وبالسيدة السيئة ﴿ إِنَّ اللَّهَ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴾ وهذا الذي فسر به ابن عباس رضي الله عنهما هذه الآية كقوله تبارك وتعالى : ﴿ يَجْزِي الَّذِينَ آمَنُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِي الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحَسَنَةِ ﴾ وقوله جل وعلا : ﴿ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ ﴾ أي من الأصنام والأوثان والأنداد ﴿ لَا يَقْضُونَ شَيْئاً ﴾ أي لا يملكون شيئاً ولا يحكمون بشيء ﴿ إِنَّ اللَّهَ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴾ أي سميع لأقوال خلقه بصير بهم ، فيهدي من يشاء ويضل من يشاء ، وهو الحاكم العادل في جميع ذلك .

﴿ أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ كَانُوا مِنْ قَبْلِهِمْ كَانُوا هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَآثَارًا فِي الْأَرْضِ فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ يُذَوِّبُهُمْ وَمَا كَانَ لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَاقٍ ﷻ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانَتْ تَأْتِيهِمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فكَفَرُوا

(١) أخرجه مسلم في البر والصلة (٥٥) وأحمد في المسند (١٦٠/٥) .

فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ إِنَّهُمْ قَوْمٌ شَدِيدُ الْعِقَابِ .

يقول تعالى : ﴿ أَوَلَمْ يَسِيرُوا ﴾ هؤلاء المكذوبون برسالتك يا محمد ﴿ فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ كَانُوا مِنْ قَبْلِهِمْ ﴾ أي من الأمم المكذبة بالأنبياء عليهم الصلاة والسلام ما حل بهم من العذاب والنكال مع أنهم كانوا أشد من هؤلاء قوة ﴿ وَآثَارًا فِي الْأَرْضِ ﴾ أي أثروا في الأرض من البناءات والمعالم والديارات ما لا يقدر هؤلاء عليه ، أي مع هذه القوة العظيمة والبأس الشديد أخذهم الله بذنوبهم وهي كفرهم برسلمهم ﴿ وَمَا كَانَ لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَاقٍ ﴾ أي وما دفع عنهم عذاب الله أحد ولا رده عنهم راد ، ولا وقاهم واق ، ثم ذكر علة أخذه إياهم وذنوبهم التي ارتكبوها واجترموها فقال تعالى : ﴿ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانَتْ تَأْتِيهِمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ ﴾ أي بالدلائل الواضحات والبراهين القاطعات ﴿ فَكَفَرُوا ﴾ أي مع هذا البيان والبرهان كفروا وجحدوا ﴿ فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ ﴾ تعالى أي أهلكهم ودمر عليهم وللكافرين أمثالها ﴿ إِنَّهُمْ قَوْمٌ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴾ أي ذو قوة عظيمة وبطش شديد وهو ﴿ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴾ أي عقابه أليم شديد وجيع ، أعاذنا الله تبارك وتعالى منه .

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُبِينٍ ٣١ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَقَوْمِهِمْ فَقَالُوا سِحْرٌ كَذَّابٌ ٣٢ فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِالْحَقِّ مِنْ عِنْدِنَا قَالُوا اقْتُلُوا أَبْنَاءَ الَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ وَاسْتَحْيُوا نِسَاءَهُمْ وَمَا كَيْدُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ ٣٣ وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَى وَلْيَدْعُ رَبَّهُ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَنْ يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادَ ٣٤ وَقَالَ مُوسَى إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ مِنْ كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَا يُؤْمِنُ بَيُّورِ الْحِسَابِ ٣٥ .

يقول تعالى مسلماً لنبيه محمد ﷺ في تكذيب من كذبه من قومه ومبشراً له بأن العاقبة والنصرة له في الدنيا والآخرة كما جرى لموسى بن عمران عليه السلام ، فإن الله تعالى أرسله بالآيات البينات . والدلائل الواضحات . ولهذا قال تعالى : ﴿ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُبِينٍ ﴾ والسلطان هو الحجة والبرهان ﴿ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ ﴾ وهو ملك القبط بالديار المصرية ﴿ وَهَامَانَ ﴾ وهو وزيره في مملكته ﴿ وَقَوْمِهِ ﴾ وكان أكثر الناس في زمانه مالاً وتجارة ﴿ فَقَالُوا سِحْرٌ كَذَّابٌ ﴾ أي كذبوه وجعلوه ساحراً مجنوناً موهاً كذاباً في أن الله أرسله ﴿ فَلَمَّا جَاءَهُم بِالْحَقِّ مِنْ عِنْدِنَا ﴾ أي بالبرهان القاطع الدال على أن الله ﷻ أرسله إليهم ﴿ قَالُوا اقْتُلُوا أَبْنَاءَ الَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ وَاسْتَحْيُوا نِسَاءَهُمْ ﴾ وهذا أمر ثان من فرعون بقتل ذكور بني إسرائيل . أما الأول فكان لأجل الاحتراز من وجود موسى أو لإذلال هذا الشعب وتقليل عددهم أو لمجموع الأمرين ؟ وأما الأمر الثاني فللعلة الثانية وإهانة هذا الشعب ولكي يتشاءموا بموسى عليه السلام قال الله ﷻ : ﴿ وَمَا كَيْدُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ ﴾ أي وما مكرهم وقصدهم الذي هو تقليل عدد بني إسرائيل لئلا ينصروا عليهم إلا ذاهب وهالك في ضلال ﴿ وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَى وَلْيَدْعُ رَبَّهُ ﴾ وهذا عزم من فرعون - لعنه الله تعالى - على قتل موسى عليه الصلاة والسلام أي قال لقومه : دعوني حتى أقتل لكم هذا ﴿ وَلْيَدْعُ رَبَّهُ ﴾ أي لا أبالي منه . وهذا في غاية الجحد والتجهرم والعناد .

وقوله قبحه الله ﴿ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَنْ يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادَ ﴾ يعني موسى ، وهذا كما يقال في المثل : صار فرعون مذكراً ؛ يعني واعظا يشفق على الناس من موسى عليه السلام . وقرأ الأكثرون (أن يبدل دينكم وأن يظهر في الأرض الفساد) وقرأ الآخرون (أن يبدل دينكم أو أن

يظهر في الأرض الفساد) وقرأ بعضهم (يظهر في الأرض الفساد) بالضم ^(١) ﴿ وَقَالَ مُوسَىٰ إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ مِنْ كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَا يُؤْمِنُ بَيُّومِ الْحِسَابِ ﴾ أي لما بلغه قول فرعون ﴿ ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَىٰ ﴾ قال موسى عليه السلام : استجرت بالله وعذت به من شره وشر أمثاله ؛ ولهذا قال : ﴿ إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ ﴾ أيها المخاطبون ﴿ مِنْ كُلِّ مُتَكَبِّرٍ ﴾ أي عن الحق مجرماً ﴿ لَا يُؤْمِنُ بَيُّومِ الْحِسَابِ ﴾ ولهذا جاء في الحديث عن أبي موسى عليه السلام أن رسول الله ﷺ كان إذا خاف قوما قال : « اللهم إنا نعوذ بك من شرورهم وندراً بك في نحورهم » ^(٢) .

﴿ وَقَالَ رَبُّ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمَلَكُوتِ يُقْتُلُونَ رَجُلًا أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ وَقَدْ جَاءَكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ مِنْ رَبِّكُمْ وَإِنْ يَكُ كَذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ وَإِنْ يَكُ صَادِقًا يُصِيبْكُمْ بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ ﴾ يَقُومُ لَكُمْ أَلْيَوْمَ ظَاهِرِينَ فِي الْأَرْضِ فَمَنْ يَصْرِفُنَا مِنْ بَأْسِ اللَّهِ إِنْ جَاءَنَا قَالَ فِرْعَوْنُ مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَىٰ وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ .

المشهور أن هذا الرجل المؤمن كان قبطيًّا من آل فرعون ويقال : إنه الذي نجا مع موسى عليه الصلاة والسلام . واختاره ابن جرير ورد قول من ذهب إلى أنه كان إسرائيليًّا ؛ لأن فرعون انفعِل لكلامه واستمعه وكف عن قتل موسى عليه السلام ، ولو كان إسرائيليًّا لأوشك أن يعاجل بالعقوبة ؛ لأنه منهم . وعن ابن عباس عليه السلام : لم يؤمن من آل فرعون سوى هذا الرجل وامرأة فرعون . والذي قال : ﴿ يَمْوُئُونَ إِلَيْكَ الْمَلَائِكَةُ يُثَبِّتُونَ بِكَ لِقَاتَكَ ﴾ وقد كان هذا الرجل يكتُم إيمانه عن قومه القبط فلم يظهر إلا هذا اليوم حين قال فرعون ﴿ ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَىٰ ﴾ فأخذت الرجل غضبةً لله ﷻ . وأفضل المجاهد كلمة عدل عند سلطان جائر ولا أعظم من هذه الكلمة عند فرعون وهي قوله : ﴿ أَنْقَتُلُونَ رَجُلًا أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ ﴾ . وعن عروة بن الزبير رضي الله تعالى عنهما قال : قلت لعبد الله بن عمرو بن العاص عليه السلام : أخبرني بأشد شيء صنعه المشركون برسول الله ﷺ قال : بينا رسول الله ﷺ يصلي بفناء الكعبة إذ أقبل عقبة بن أبي معيط فأخذ بمنكب رسول الله ﷺ ولوى ثوبه في عنقه فخنقه خنقًا شديدًا ، فأقبل أبو بكر عليه السلام فأخذ بمنكبه ودفعه عن النبي ﷺ ثم قال : ﴿ أَنْقَتُلُونَ رَجُلًا أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ وَقَدْ جَاءَكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ مِنْ رَبِّكُمْ ﴾ ^(٣) وقوله تعالى : ﴿ وَقَدْ جَاءَكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ مِنْ رَبِّكُمْ ﴾ أي كيف تقتلون رجلاً لكونه يقول : ربي الله وقد أقام لكم البرهان علي صدق ما جاءكم به من الحق . ثم تنزل معهم في المخاطبة فقال : ﴿ وَإِنْ يَكُ كَذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ وَإِنْ يَكُ صَادِقًا يُصِيبْكُمْ بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ ﴾ يعني إذا لم يظهر لكم صحة ما جاءكم به فمن العقل والرأي التام والحزم أن تتركوه ونفسه فلا تؤذوه ؛ فإن يك كاذبًا فإن الله ﷻ سيجازيه على كذبه بالعقوبة في الدنيا والآخرة ، وإن يك صادقًا وقد آذيتموه يصيبكم بعض الذي يعدكم ؛ فإنه يتوعدكم إن خالفتموه بعذاب في الدنيا والآخرة ، فمن الجائز عندكم أن يكون صادقًا ؛ فينبغي على هذا أن لا تتعرضوا له بل اتركوه وقومهم

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٤/٤١٤) والطبراني في الصغير (٩/٨٤) .

(٢) قرأ عاصم وحزمة والكسائي ﴿ أَوْ أَنْ يُطْهِرَ ﴾ وقرأ الباقون ﴿ وَأَنْ يُطْهِرَ ﴾ . وقرأ نافع وأبو عمر وحفص ﴿ يُطْهِرُ - الفساد ﴾ وقرأ الباقون ﴿ يُطْهِرُ - الفساد ﴾ انظر (حجة القراءات ص ٩٢٩ ، ٩٣٠) .

(٣) أخرجه البخاري في تفسير القرآن (٤٨١٥) .

يدعوه ويبتعونه . وهكذا أخبر الله ﷻ عن موسى عليه السلام أنه طلب من فرعون وقومه المواعدة في قوله : ﴿ وَلَقَدْ مَتَنَّا بَيْنَهُمْ يَوْمَ فِرْعَوْنَ وَجَاءَهُمْ رَسُولٌ كَرِيمٌ ۝ أَنْ أَذْأَبْكَ عِبَادَ اللَّهِ إِلَيْنَا لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ۝ وَأَنْ لَا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَهَ إِلَهَيْكُمْ بِسُلْطَانٍ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ أَنْ تَزْعُمُوا ۝ فَإِنْ لَرُّؤُسُنَا إِلَى فَعَالَتُنَا ۝ وَهَكَذَا قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ لقريش أن يتركوه يدعو إلى الله تعالى عباد الله ولا يمسوه بسوء ، ويصلوا ما بينه وبينهم من القرابة في ترك أذيته ، قال الله ﷻ : ﴿ قُلْ لَا أَشْتَكُرُ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَىٰ ۝ أَيْ أَنْ لَا تُوْذُونِي فِيمَا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ مِنَ الْقُرَابَةِ ، فَلَا تُوْذُونِي وَتَرْكُوا بَيْنِي وَبَيْنَ النَّاسِ . وَعَلَىٰ هَذَا وَقَعَتِ الْهَدَنَةُ يَوْمَ الْحَدِيدِ وَكَانَ فَتْحًا مَبِينًا . وَقَوْلُهُ جَلَّ وَعَلَا : ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ ۝ أَيْ لَوْ كَانَ هَذَا الَّذِي يَزْعُمُ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى أَرْسَلَهُ إِلَيْكُمْ كَاذِبًا كَمَا تَزْعُمُونَ لَكَانَ أَمْرُهُ بَيِّنًا يَظْهَرُ لِكُلِّ أَحَدٍ فِي أَقْوَالِهِ وَأَفْعَالِهِ فَكَانَتْ تَكُونُ فِي غَايَةِ الْاِخْتِلَافِ وَالْاضْطِرَابِ ، وَهَذَا نَرَى أَمْرَهُ سَدِيدًا وَمُنْهَجَهُ مُسْتَقِيمًا ، وَلَوْ كَانَ مِنَ الْمُسْرِفِينَ الْكَذَّابِينَ لَمَا هَدَاهُ اللَّهُ وَأَرْشَدَهُ إِلَى مَا تَرُونَ مِنْ ائْتِظَامِ أَمْرِهِ وَفَعْلِهِ ؟ ثُمَّ قَالَ الْمُؤْمِنُ مُحْذِرًا قَوْمَهُ زَوَالَ نِعْمَةِ اللَّهِ عَنْهُمْ وَحُلُولِ نِقْمَةِ اللَّهِ بِهِمْ : ﴿ يَقْوَرُ لَكُمْ الْمَلِكُ الْيَوْمَ ظَاهِرِينَ فِي الْأَرْضِ ۝ أَيْ قَدْ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ بِهَذَا الْمَلِكِ وَالظَّاهِرِ فِي الْأَرْضِ بِالْكَلِمَةِ الْنافِذَةِ وَالْجَاهِ الْعَرِضِ فَرَاغُوا هَذِهِ النِّعْمَةَ بِشُكْرِ اللَّهِ تَعَالَى وَتَصَدِيقِ رَسُولِهِ ﷺ ، وَاحْذَرُوا نِقْمَةَ اللَّهِ إِنْ كَذَبْتُمْ رَسُولَهُ ۝ فَمَنْ يَصْضُرُّنَا مِنْ بَأْسِ اللَّهِ إِنْ جَاءَنَا ۝ أَيْ لَا تَغْنِي عَنْكُمْ هَذِهِ الْجُنُودُ وَهَذِهِ الْعَسَاكِرُ وَلَا تَرُدُّ عَنَّا شَيْئًا مِنْ بَأْسِ اللَّهِ إِنْ أَرَادَنَا بِسُوءٍ ، قَالَ فِرْعَوْنُ لِقَوْمِهِ رَاذًا عَلَى مَا أَشَارَ بِهِ هَذَا الرَّجُلُ الصَّالِحُ الْبَارِ الرَّاشِدُ الَّذِي كَانَ أَحَقُّ بِالْمَلِكِ مِنْ فِرْعَوْنَ ۝ مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَىٰ ۝ أَيْ مَا أَقُولُ لَكُمْ وَأُشِيرُ عَلَيْكُمْ إِلَّا مَا أَرَاهُ لِنَفْسِي وَقَدْ كَذَبَ فِرْعَوْنُ فَإِنَّهُ كَانَ يَتَحَقَّقُ صِدْقَ مُوسَى عليه السلام فيما جاء به مِنَ الرِّسَالَةِ ، فَقَوْلُهُ ۝ مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَىٰ ۝ كَذَبَ فِيهِ وَافْتَرَى وَخَانَ اللَّهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى وَرَسُولَهُ ﷺ وَرَعِيْتَهُ فَنَغَشَهُمْ وَمَا نَصَحَهُمْ ، وَكَذَا قَوْلُهُ : ﴿ وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ ۝ أَيْ وَمَا أَدْعُوكُمْ إِلَّا إِلَى طَرِيقِ الْحَقِّ وَالصِّدْقِ وَالرَّشْدِ ، وَقَدْ كَذَبَ أَيْضًا فِي ذَلِكَ وَإِنْ كَانَ قَوْمُهُ قَدْ أَطَاعُوهُ وَاتَّبَعُوهُ قَالَ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى : ﴿ فَاتَّبَعُوا أَمْرَ فِرْعَوْنَ وَمَا أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ ۝ وَفِي الْحَدِيثِ « مَا مِنْ إِمَامٍ يَمُوتُ يَوْمَ يَمُوتُ وَهُوَ غَاشٍ لِرَعِيَّتِهِ ؛ إِلَّا لَمْ يَرْحَ رَائِحَةُ الْجَنَّةِ ، وَإِنْ رِيحُهَا لِيُوجَدَ مِنْ مَسِيرَةِ خَمْسِمِائَةِ عَامٍ » (١) .

﴿ وَقَالَ الَّذِي آمَنَ يَقْوَرُ إِلَيْنَا خَافَ عَلَيْكُمْ يَوْمَ الْآخِرَاتِ ۝ يَمْلِكُ ذَآبٌ قَوِيٌّ نُوْحٌ وَكَانَ وَثْمُودٌ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظَلْمًا لِلْعِبَادِ ۝ وَيَقْوَرُ إِلَيْنَا خَافَ عَلَيْكُمْ يَوْمَ النَّارِ ۝ يَوْمَ تَوَلَّوْنَ مُدْبِرِينَ مَا لَكُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِرٍ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ ۝ وَلَقَدْ جَاءَكُمْ يُسُفُّ مِنْ قَبْلِ الْإِنْتِنَىٰ فَمَا زِلْتُمْ فِي شَكٍّ وَمَا جَاءَكُمْ بِهِ حَقٌّ إِذَا هَلَكْتُمْ قُلْتُمْ لَنْ يَبْعَثَ اللَّهُ مِنْ بَعْدِهِ رَسُولًا ۝ كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُرْتَابٌ ۝ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَتْهُمْ كِبَرٌ مَقْنًا عِنْدَ اللَّهِ وَعِنْدَ الَّذِينَ آمَنُوا كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبٍ مُنْكَرٍ جَبَّارٍ ۝ .

هذا إخبار من الله ﷻ عن هذا الرجل الصالح مؤمن آل فرعون أنه حذر قومه بأس الله تعالى في الدنيا والآخرة فقال : ﴿ يَقْوَرُ إِلَيْنَا خَافَ عَلَيْكُمْ يَوْمَ الْآخِرَاتِ ۝ أَيْ الَّذِينَ كَذَّبُوا رَسُلَ اللَّهِ فِي قَدِيمِ الدَّهْرِ يَقُومُ نُوحٌ وَعَادٌ وَثَمُودٌ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ مِنَ الْأُمَمِ الْمَكْذِبَةِ كَيْفَ حَلَّ بِهِمْ بَأْسُ اللَّهِ وَمَا رَدَّهُ عَنْهُمْ رَادٌ وَلَا

يقول المؤمن لقومه ممن ترمد وطني وآثر الحياة الدنيا ونسي الجبار الأعلى فقال لهم : ﴿ يَنْقُورُ أَتَيْمُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ الرَّشَادِ ﴾ لا كما كذب فرعون في قوله : ﴿ وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ ﴾ ثم زهدهم في الدنيا التي قد آثروها على الأخرى وصدّتهم عن التصديق برسول الله موسى عليه الصلاة والسلام فقال : ﴿ يَنْقُورُ إِنَّمَا هَذِهِ الْحَيَوةُ الدُّنْيَا مَتَّعَ ﴾ أي قليلة زائلة فانية عن قريب تذهب وتضمحل ﴿ وَإِنَّ الْآخِرَةَ هِيَ دَارُ الْفَكَارِ ﴾ أي الدار التي لا زوال لها ولا انتقال منها ولا ظن عنها إلى غيرها ، بل إما نعيم وإما جحيم ، ولهذا قال جلّت عظمتها : ﴿ مَن عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَى إِلَّا مِنهَا ﴾ أي واحدة مثلها ﴿ وَمَن عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أَنَّى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ أي لا يتقدر بجزاء بل يشيئه الله ﷻ ثوابا كثيرا لا انقضاء له ولا نفاذ .

﴿ وَيَنْقُورُ مَا لَيْتَ أَذْعُوكُمْ إِلَى النَّارِ ﴾ تَدْعُونِي لِأَكْفُرَ بِاللَّهِ وَأُشْرِكَ بِهِ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَأَنَا أَدْعُوكُمْ إِلَى الْعَزِيزِ الْفَقِيرِ ﴿ لَا جَرَمَ أَنَّمَا تَدْعُونِي إِلَيْهِ لَيْسَ لَمْ دَعْوَةٍ فِي الدُّنْيَا وَلَا فِي الْآخِرَةِ وَأَنَا مُرَدَّنَا إِلَى اللَّهِ وَأَنَّ الْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَابُ النَّارِ ﴾ فَتَسْتَذَكِّرُونَ مَا أَقُولُ لَكُمْ وَأَفْوِضُ أَمْرِي إِلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بَصِيرٌ بِالْإِسْكَادِ ﴿ فَوَقَدَ اللَّهُ سَيِّئَاتٍ مَا مَكَرُوا وَحَاقَ بِإِثْمِهِمْ فَزَعُونَ سُوءَ الْعَذَابِ ﴾ النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ .

يقول لهم المؤمن : ما بالي أدعوكم إلى النجاة وهي عبادة الله وحده لا شريك له وتصديق رسوله ﷺ الذي بعثه ﴿ وَتَدْعُونِي إِلَى النَّارِ ﴾ تَدْعُونِي لِأَكْفُرَ بِاللَّهِ وَأُشْرِكَ بِهِ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ ﴿ أي على جهل بلا دليل ﴾ وَأَنَا أَدْعُوكُمْ إِلَى الْعَزِيزِ الْفَقِيرِ ﴿ أي هو في عزته وكبريائه يغفر ذنب من تاب إليه ﴾ لَا جَرَمَ أَنَّمَا تَدْعُونِي إِلَيْهِ ﴿ قال السدي وابن جرير : معنى قوله ﴿ لَا جَرَمَ ﴾ حَقًّا ، وقال الضحاك : لا كذب ، ﴿ لَيْسَ لَمْ دَعْوَةٍ فِي الدُّنْيَا وَلَا فِي الْآخِرَةِ ﴾ قال السدي : لا يجيب داعيه لا في الدنيا ولا في الآخرة وقوله : ﴿ وَأَنَا مُرَدَّنَا إِلَى اللَّهِ ﴾ أي في الدار الآخرة فيجازي كلًّا بعمله ولهذا قال : ﴿ وَأَنَّ الْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَابُ النَّارِ ﴾ أي خالدين فيها بإسرافهم وهو شركهم بالله ﷻ ﴿ فَتَسْتَذَكِّرُونَ مَا أَقُولُ لَكُمْ ﴾ أي سوف تعلمون صدق ما أمرتكم به ونهيتمكم عنه ونصحتكم ووضحت لكم وتذكرونه وتندمون حيث لا ينفعكم الندم ﴿ وَأَفْوِضُ أَمْرِي إِلَى اللَّهِ ﴾ أي وأتوكل على الله وأستعينه وأقاطعكم وأباعدكم ﴿ إِنَّ اللَّهَ بَصِيرٌ بِالْإِسْكَادِ ﴾ أي هو بصير بهم تعالى وتقّس فيهدي من يستحق الهداية ويضل من يستحق الإضلال وله الحجة البالغة والحكمة التامة والقدر النافذ . وقوله تبارك وتعالى : ﴿ فَوَقَدَ اللَّهُ سَيِّئَاتٍ مَا مَكَرُوا ﴾ أي في الدنيا والآخرة ، أما في الدنيا فنجاه الله تعالى مع موسى عليه الصلاة والسلام وأما في الآخرة فبالجنة ﴿ وَحَاقَ بِإِثْمِهِمْ فَزَعُونَ سُوءَ الْعَذَابِ ﴾ وهو الفرق في اليوم ثم النقلة منه إلى الجحيم ، فإن أرواحهم تعرض على النار صباحا ومساء إلى قيام الساعة ، فإذا كان يوم القيامة اجتمعت أرواحهم وأجسادهم في النار ولهذا قال : ﴿ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ ﴾ أي أشده ألما وأعظمه نكالاً ، وهذه الآية أصل كبير في استدلال أهل السنة على عذاب البرزخ في القبور وهي قوله تعالى : ﴿ النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا ﴾ .

ولكن هنا سؤال وهو أنه لا شك أن هذه الآية مكية وقد استدلو بها على عذاب القبر في البرزخ

فمن عائشة رضي الله عنها أن يهودية كانت تخدمها فلا تصنع عائشة رضي الله عنها إليها شيئاً من المعروف إلا قالت لها اليهودية وراك الله عذاب القبر قالت عائشة رضي الله عنها : فدخل رسول الله ﷺ عليّ فقلت : يا رسول الله هل للقبر عذاب قبل يوم القيامة ؟ قال ﷺ : « لا ، من زعم ذلك ؟ » قالت : هذه اليهودية لا أصنع إليها شيئاً من المعروف إلا قالت : وراك الله عذاب القبر ، قال ﷺ : « كذبت يهود وهم على الله أكذب لا عذاب دون يوم القيامة » ثم مكث بعد ذلك ما شاء الله أن يمكث ، فخرج ذات يوم نصف النهار مشتملاً بثوبه محمرة عيناه وهو ينادي بأعلى صوته : « القبر كقطع الليل المظلم ، أيها الناس لتعلمون ما أعلم بكيتم كثيراً وضحكتم قليلاً ، أيها الناس استعينوا بالله من عذاب القبر ، فإن عذاب القبر حق » ^(١) . فيقال : فما الجمع بين هذا وبين كون الآية مكية وفيها الدلالة على عذاب البرزخ ؟ والجواب أن الآية دلت على عرض الأرواح على النار غدوً وعشيّاً في البرزخ وليس فيها دلالة على اتصال تألمها بأجسادها في القبور ؛ إذ قد يكون ذلك مختصاً بالروح ، فأما حصول ذلك للجسد في البرزخ وتألمه بسببه فلم يدل عليه إلا السنة في الأحاديث المرضية الآتي ذكرها . وقد يقال إن هذه الآية إنما دلت على عذاب الكفار في البرزخ ولا يلزم من ذلك أن يعذب المؤمن في قبره بذنب .

وقد يقال أن هذه الآية دلت على عذاب الأرواح في البرزخ ولا يلزم من ذلك أن يتصل في الأجساد في قبورها فلما أوحى إلى النبي ﷺ في ذلك بخصوصه استعاذ منه ، وعن عائشة رضي الله عنها أن يهودية دخلت عليها فقالت : نعوذ بالله من عذاب القبر ، فسألت عائشة رضي الله عنها رسول الله ﷺ عن عذاب القبر فقال ﷺ : « نعم عذاب القبر حق » قالت عائشة رضي الله عنها : فما رأيت رسول الله ﷺ بعد صلى صلاة إلا تعوذ من عذاب القبر ^(٢) . فهذا يدل على أنه بادر ﷺ إلى تصديق اليهودية في هذا الخبر وقرر عليه . وقال قتادة في قوله تعالى : ﴿ عُدُوْا وَعَشِيْآ ﴾ صباحاً ومساءً ما بقيت الدنيا ، يقال لهم : يا آل فرعون هذه منازلكم ، توييحاً ونقمةً وصغاراً لهم ، وقال ابن زيد : هم فيها اليوم يغدى بهم ويراح إلى أن تقوم الساعة . وعن ابن مسعود رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال : « ما أحسن محسن من مسلم أو كافر إلا أثابه الله تعالى » قال : قلنا : يا رسول الله ما إثابة الله للكافر ؟ فقال : « إن كان قد وصل رحماً أو تصدق بصدقة أو عمل حسنة أثابه الله تبارك وتعالى المال والولد والصحة وأشبه ذلك » قلنا : فما إثابته في الآخرة ؟ قال ﷺ عذاباً دون العذاب » وقرأ ﴿ اذْخُلُواْ اِلَآءَ فِرْعَوْنَ اَشَدَّ الْعَذَابِ ﴾ ^(٣) .

وعن ابن عمر رضي الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ : « إن أحدكم إذا مات عرض عليه مقعده بالغداة والعشي ، إن كان من أهل الجنة فمن أهل الجنة ، وإن كان من أهل النار فمن أهل النار ، فيقال : هذا مقعدك حتى يبعثك الله ﷻ إليه يوم القيامة » ^(٤) .

﴿ وَإِذْ يَتَحَاوَرْنَ فِي النَّارِ فَيَقُولُ اَلْضُعِفَتُوْا لِلَّذِيْنَ اَسْتَكْبَرُوْا اِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ اَنْتُمْ مُّغْنُوْنَ عَنَّا نَصِيْبًا مِّنَ النَّارِ ۝ قَالَ الَّذِيْنَ اَسْتَكْبَرُوْا اِنَّا كُلٌّ فِيْهَا اِنَّكَ اَنْتَ الَّذِيْ قَدْ حَكَمْتَ بَيْنَ الْعِبَادِ ۝ وَقَالَ الَّذِيْنَ فِي

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٨١/٦) .

(٢) أخرجه البخاري في الجناز (١٣٧٢) والنسائي في السنن (١٣٠٨) وأحمد في مسنده (١٧٤/٦) .

(٣) أخرجه الحاكم في المستدرک (٢٥٣/٢) .

(٤) أخرجه البخاري في الجناز (١٣٧٩) ومسلم في الجنة وصفة نعيمها (٦٥) وأحمد في مسنده (١١٣/٢) .

النَّارِ لِحَزْنَةٍ جَهَنَّمَ أَدْعُوا رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِّنَ الْعَذَابِ ﴿٥٥﴾ قَالُوا أَوَلَمْ تَكُنْ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا بَلَىٰ قَالُوا فَادْعُوا وَمَا دُعَاؤُا الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ ﴿٥٦﴾ .

يخبر تعالى عن تهاج أهل النار في النار وتخاصمهم ، وفرعون وقومه من جملتهم ، فيقول الضعفاء وهم الأتباع للذين استكبروا وهم القادة والسادة والكبراء ﴿ إِنَّا كُنَّا لَكُمْ نَبْعًا ﴾ أي أطعناكم فيما دعوتهمنا إليه في الدنيا من الكفر والضلال ﴿ فَهَلْ أَنتُمْ مُّعْتَدُونَ عَنَّا نَصِيبًا مِّنَ النَّارِ ﴾ أي قسطًا تتحملونه عنا ، ﴿ قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُلٌّ فِيهَا ﴾ أي لا نتحمل عنكم شيئًا كفى بنا ما عندنا وما حملنا من العذاب والنكال ﴿ إِنَّكَ اللَّهُ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ الْيَبَادِ ﴾ أي قسم بيننا العذاب بقدر ما يستحقه كل منا ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ فِي النَّارِ لِحَزْنَةٍ جَهَنَّمَ أَدْعُوا رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِّنَ الْعَذَابِ ﴾ لما علموا أن الله ﷻ لا يستجيب منهم ولا يستمع لدعائهم بل قد قال ﴿ أَخْشَرُوا فِيهَا وَلَا تَكْظُمُونَ ﴾ سألوا الحزنة وهم كالسجانين لأهل النار أن يدعوا لهم الله تعالى أن يخفف عن الكافرين ولو يومًا واحدًا من العذاب ، فقالت لهم الحزنة رادين عليهم ﴿ أَوَلَمْ تَكُنْ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ ﴾ أي أوما قامت عليكم الحجج في الدنيا على ألسنة الرسل ﴿ قَالُوا بَلَىٰ قَالُوا فَادْعُوا ﴾ أي أنتم لأنفسكم فنحن لا ندعو لكم ولا نسمع منكم ولا نود خلاصكم ، ونحن منكم برآء ، ثم نخبركم أنه سواء دعوتهم أو لم تدعوا لا يستجاب لكم ، ولا يخفف عنكم ، ولهذا قالوا : ﴿ وَمَا دُعَاؤُا الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ ﴾ أي إلا في ذهاب لا يقبل ولا يستجاب .

﴿ إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ ﴾ ﴿ يَوْمَ لَا يَنفَعُ الظَّالِمِينَ مَعَذَرَتُهُمْ وَلَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ ﴾ ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى الْهُدَىٰ وَأَوْرَثْنَا بَنِي إِسْرَءِيلَ الْكِتَابَ ﴾ ﴿ هُدًى وَذِكْرَىٰ لِأُولَى الْأَلْبَابِ ﴾ ﴿ فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَاسْتَغْفِرْ لِذُنُوبِكَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَارِ ﴾ ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي ءَايَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَتْهُمْ إِن فِي صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ مَّا هُمْ بِبَالِغِيهِ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّكَ هُوَ السَّكِينُ ﴾ ﴿ الْبَصِيرُ ﴾ .

أورد ابن جرير رحمه الله تعالى عند قوله تعالى : ﴿ إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴾ سؤالاً فقال : قد علم أن بعض الأنبياء عليهم الصلاة والسلام قتله قومه بالكلية كيحيى وزكريا وشعيا ومنهم من خرج من بين أظهرهم إما مهاجراً كإبراهيم ، وإما إلى السماء كعيسى فأين النصرة في الدنيا ، ثم أجاب عن ذلك بجوابين : أحدهما : أن يكون الخبر خرج عائماً والمراد به البعض ، قال : وهذا سائغ في اللغة : الثاني : أن يكون المراد بالنصر الانتصار لهم ممن آذاهم ، وسواء كان ذلك بحضرتهم أو في غيبتهم أو بعد موتهم كما فعل بقتلة يحيى وزكريا وشعيا ، سلط عليهم من أعدائهم من أهانهم وسفك دماءهم ، وقد ذكر أن النمرود أخذه الله تعالى أخذ عزيز مقتدر ، وأما الذين راموا صلب المسيح ﷺ من اليهود ؛ فسلط الله تعالى عليهم الروم فأهانوهم وأذلوهم وأظهرهم الله تعالى عليهم ، ثم قبل يوم القيامة سينزل عيسى ابن مريم عليه الصلاة والسلام إماماً عادلاً وحكماً مقسطاً ؛ فيقتل المسيح الدجال وجنوده من اليهود ، ويقتل الخنزير ، ويكسر الصليب ، ويضع الجزية فلا يقبل إلا الإسلام ، وهذه نصرة عظيمة وهذه سنة الله تعالى في خلقه في قديم الدهر

وحديثه أنه ينصر عباده المؤمنين في الدنيا ويقر أعينهم من آذاهم ^(١) . وعن أبي هريرة رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ أنه قال : « يقول الله تبارك وتعالى : من عادى لي وليا فقد بارزني بالحرب » ^(٢) ولهذا أهلك الله ﷻ قوم نوح وعاد وثمود وأصحاب الرس وقوم لوط وأهل مدين وأشباهم وأضرابهم ممن كذب الرسل وخالف الحق . وأنجى الله تعالى من بينهم المؤمنين ، فلم يهلك منهم أحداً ، وعذب الكافرين فلم يفلت منهم أحداً ، قال السدي : لم يعث الله ﷻ رسولا قط إلى قوم فيقتلونهم أو قوما من المؤمنين يدعون إلى الحق فيقتلون ، فيذهب ذلك القرن حتى يعث الله تبارك وتعالى لهم من ينصرهم ، فيطلب بدمائهم ممن فعل ذلك بهم في الدنيا قال : فكانت الأنبياء والمؤمنون يقتلون في الدنيا وهم منصورون فيها . وهكذا نصر الله نبيه محمداً ﷺ وأصحابه على من خالفه وناوأه وكذبه وعاداه ؛ فجعل كلمته هي العليا ودينه هو الظاهر على سائر الأديان ، وأمره بالهجرة من بين ظهراني قومه إلى المدينة النبوية وجعل له فيها أنصاراً وأعواناً ، ثم منحه أكتاف المشركين يوم بدر فنصره عليهم وخذلهم وقتل صنائدهم ، وأسر سرائهم فاستاقهم مقرنين في الأصفاد ، ثم من عليهم بأخذه الفداء منهم ، ثم بعد مدة قرية فتح عليه مكة فقرت عينه ببلده وهو البلد المحرم الحرام المشرف العظيم ، فأنقذه الله تعالى به مما كان فيه من الكفر والشرك ، وفتح له اليمن ، ودانت له جزيرة العرب بكاملها ، ودخل الناس في دين الله أفواجا ، ثم قبضه الله تعالى إليه لما له عنده من الكرامة العظيمة فأقام الله تبارك وتعالى أصحابه خلفاء بعده فبلغوا عنه دين الله ﷻ ، ودعوا عباد الله تعالى إلى الله جل وعلا ، وفتحوا البلاد والرساتيق والأقاليم والمداين والقرى والقلوب حتى انتشرت الدعوة المحمدية في مشارق الأرض ومغاربها . ثم لا يزال هذا الدين قائما منصورا ظاهرا إلى قيام الساعة ولهذا قال تعالى : ﴿ إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَنَوْمٍ يَقَوْمُ الْآلَشَهْدُ ﴾ أي يوم القيامة تكون النصره أعظم وأكبر وأجل ، قال مجاهد : الأَشهاد الملائكة . وقوله تعالى : ﴿ يَوْمَ لَا يَنْفَعُ الظَّالِمِينَ مَعَذِرَتُهُمْ ﴾ بدل من قوله : ﴿ يَوْمٍ يَقَوْمُ الْآلَشَهْدُ ﴾ وقرأ آخرون يوم بالرفع كأنه فسر به ﴿ يَوْمٍ يَقَوْمُ الْآلَشَهْدُ ﴾ يَوْمَ لَا يَنْفَعُ الظَّالِمِينَ وهم المشركون ﴿ مَعَذِرَتُهُمْ ﴾ أي لا يقبل منهم عذر ولا فدية ﴿ وَلَهُمُ اللَّعْنَةُ ﴾ أي الإبعاد والطرده من الرحمة ﴿ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ ﴾ وهي النار . وعن ابن عباس رضي الله عنه : ﴿ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ ﴾ أي سوء العاقبة . وقوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى الْهَدْيَ ﴾ وهو ما بعثه الله ﷻ به من الهدى والنور ﴿ وَأَوْزَنَّا بَيْنَ إِسْرَءِيلَ أَنْ يَكْتُوبَ ﴾ ، أي جعلنا لهم العاقبة وأورثناهم بلاد فرعون وأمواله وحواصله وأرضه بما صبروا على طاعة الله تبارك وتعالى واتباع رسوله موسى عليه الصلاة والسلام ، وفي الكتاب الذي أورثوه وهو التوراة ﴿ هُدًى وَذِكْرٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ ﴾ وهي العقول الصحيحة السليمة . وقوله ﷻ ﴿ فَأَصْبِرْ ﴾ أي يا محمد ﴿ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ ﴾ ، أي وعدناك أنا سنعلي كلمتك ونجعل العاقبة لك ولن اتبعك والله لا يخلف الميعاد ، وهذا الذي أخبرناك به حق لا مرية فيه ولا شك ، وقوله تبارك وتعالى : ﴿ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ ﴾ هذا تهيج للامة على الاستغفار ﴿ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِالْعِشِيِّ ﴾ أي في أواخر النهار وأوائل الليل ﴿ وَالْإِكْرَارِ ﴾

(١) تفسير الطبري (٩٣/٢٤ ، ٩٤) .

(٢) أخرجه البخاري في الرقاق (٣٥٠٢) .

وهي أوائل النهار وأواخر الليل . وقوله تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِيَّ آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَتْهُمْ ﴾ أي يدفعون الحق بالباطل ، ويردون الحجج الصحيحة بالشبه الفاسدة بلا برهان ولا حجة من الله ﴿ إِنَّ فِي مُنْذِرِهِمْ إِلَّا كِبْرًا مَّا هُمْ بِيَلْفِيهِ ﴾ أي ما في صدورهم إلا كبر على اتباع الحق واحتقار لمن جاءهم به ، وليس ما يروونه من إخماد الحق وإعلاء الباطل بحاصل لهم ؛ بل الحق هو المرفوع وقولهم وقصدهم هو الموضوع ﴿ فَاسْتَحِذْ بِاللَّهِ ﴾ أي من حال مثل هؤلاء ﴿ إِنَّكُمْ هُمْ السَّكَبِيُّ الْبَصِيرُ ﴾ أو من شر مثل هؤلاء المجادلين في آيات الله بغير سلطان ^(١) .

﴿ لَخَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَلَا الْمُسِيءُ قَلِيلًا مَّا تَتَذَكَّرُونَ ﴿ إِنَّ السَّاعَةَ لَأَيُّبَةٌ لَا رَيْبَ فِيهَا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ .

يقول تعالى منبها على أنه يعيد الخلائق يوم القيامة وأن ذلك سهل عليه يسير لديه بأنه خلق السموات والأرض ، وخلقهما أكبر من خلق الناس بدأة وإعادة ، فمن قدر على ذلك فهو قادر على ما دونه بطريق الأولى والأحرى فلماذا لا يتدبرون هذه الحجة ولا يتأملونها كما كان كثير من العرب يعترفون بأن الله تعالى خلق السموات والأرض وينكرون المعاد استبعادا وكفرا وعنادا وقد اعترفوا بما هو أولى مما أنكروا ثم قال تعالى : ﴿ وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَلَا الْمُسِيءُ قَلِيلًا مَّا تَتَذَكَّرُونَ ﴾ أي كما لا يستوي الأعمى الذي لا يبصر شيئا والبصير الذي يرى ما انتهى إليه بصره ؛ بل بينهما فرق عظيم كذلك لا يستوي المؤمنون الأبرار والكفرة الفجار ﴿ قَلِيلًا مَّا تَتَذَكَّرُونَ ﴾ ، أي ما أقل ما يتذكر كثير من الناس ، ثم قال تعالى : ﴿ إِنَّ السَّاعَةَ لَأَيُّبَةٌ ﴾ أي لكائنة وواقعة ﴿ لَا رَيْبَ فِيهَا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ أي لا يصدقون بها بل يكذبون بوجودها .

﴿ وَقَالَ رَبُّكُمْ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴾ . هذا من فضله تبارك وتعالى وكرمه أنه ندب عباده إلى دعائه وتكفل لهم بالإجابة كما كان سفيان الثوري يقول : يا من أحب عباده إليه من سألته فأكثر سؤاله ، ويا من أبغض عباده إليه من لم يسأله وليس أحد كذلك غيرك يا رب . وفي هذا المعنى يقول الشاعر :

الله يغضب إن تركت سؤاله وبئني آدم حين يُسأل يغضب

عن أنس بن مالك رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم فيما يروي عن ربه ﷻ قال : « أربع خصال واحدة منهن لي ، وواحدة لك وواحدة فيما بيني وبينك ، وواحدة فيما بينك وبين عبادي ، فأما التي لي : فتعبدني لا تشرك بي شيئا ، وأما التي لك علي : فما عملت من خير جزيتك به ، وأما التي بيني وبينك ، فمنك الدعاء وعلي الإجابة ، وأما التي بينك وبين عبادي : فارض لهم ما ترضى لنفسك » ^(٢) . وعن النعمان بن بشير رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن الدعاء هو العبادة » ثم قرأ ﴿ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ

(١) تفسير الطبري (٩٧/٢٤) .

(٢) أخرجه أبو يعلى في مسنده (٢٧٥٧/٥) والمجروحين لابن حبان (٣٧٢/١) والحدیث إسناده ضعيف .

يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴿١﴾ وعن أبي هريرة ؓ قال : قال رسول الله ﷺ : « من لم يَدْعُ اللهَ ﷻ غضب عليه » ^(٢) وعن محمد بن سعيد قال : لما مات محمد بن مسلمة الأنصاري وجدنا في ذؤابة سيفه كتابا : باسم الله الرحمن الرحيم سمعت رسول الله ﷺ يقول : « إن لربكم في بقية أيام دهركم نفحات ، فعرضوا له ، لعل دعوة أن توافق رحمة فيسعد بها صاحبها سعادة لا يخسر بعدها أبدا » ^(٣) . وقوله ﷻ ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي ﴾ أي عن دعائي وتوحيدي ﴿ سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴾ أي صاغرين حقيرين ، وعن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده عن النبي ﷺ قال : « يحشر المتكبرون يوم القيامة أمثال الذر في صور الناس ، يعلوهم كل شيء من الصغار حتى يدخلوا سجنا في جهنم يقال له : بولس ، تعلوهم نار الأنيار ، يسقون من طينة الخبال عصارة أهل النار » ^(٤) .

﴿ اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْآيَةَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴾ ﴿ ذَٰلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ خَلِقُ كُلِّ شَيْءٍ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَآلَيْهِ تُقَدَّرُونَ ﴾ ﴿ كَذَٰلِكَ يُؤَفِّكُ الَّذِينَ كَانُوا يَتَابِعَاتِ اللَّهِ بِحَمْدِهِ ﴾ ﴿ اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فَرَكَارًا وَالسَّمَاءَ بِسَاءً مُصَوَّرَةً فَأَحْسَنَ صُورَكُمْ وَرَزَقَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ ذَرْبًا ذَرْبًا فَتَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴾ ﴿ هُوَ الْحَيُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ .

يقول تعالى ممثنا على خلقه بما جعل لهم من الليل الذي يسكنون فيه ، ويستريحون فيه من حركات ترددهم في المعاش بالنهار وجعل ﴿ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا ﴾ أي مضيقا ليتصرفوا فيه بالأسفار وقطع الأقطار والتمكن من الصناعات ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴾ أي لا يقومون بشكر نعم الله عليهم ، ثم قال ﷻ : ﴿ ذَٰلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ خَلِقُ كُلِّ شَيْءٍ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ ﴾ أي الذي فعل هذه الأشياء هو الله الواحد الأحد خالق الأشياء الذي لا إله غيره ولا رب سواه ﴿ فَآلَيْهِ تُقَدَّرُونَ ﴾ أي فكيف تعبدون غيره من الأصنام التي لا تخلق شيئا بل هي مخلوقة منحوتة .

وقوله ﷻ : ﴿ كَذَٰلِكَ يُؤَفِّكُ الَّذِينَ كَانُوا يَتَابِعَاتِ اللَّهِ بِحَمْدِهِ ﴾ أي كما ضل هؤلاء بعبادة غير الله كذلك أفلك الذين من قبلهم فعبدوا غيره بلا دليل ولا برهان بل بمجرد الجهل والهوى . وجحدوا حجج الله وآياته وقوله تعالى : ﴿ اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فَرَكَارًا ﴾ أي جعلها لكم مستقرا بساتنا مهادا تعيشون عليها وتتصرفون فيها وتمشون في مناكبها وأرساها بالجبال للآلئ تميد بكم ﴿ وَالسَّمَاءَ بِسَاءً ﴾ أي سقفا للعالم محفوظا ﴿ وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُورَكُمْ ﴾ أي فخلقكم في أحسن الأشكال ومنحكم أكمل الصور في أحسن تقويم ﴿ وَرَزَقَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ ذَرْبًا ذَرْبًا فَتَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴾ أي فعالي وتقدس وتنزه رب العالمين ، ثم قال تعالى : ﴿ هُوَ الْحَيُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ ﴾ أي هو الحي أزلا وأبدا لم يزل ولا يزال ؛ وهو الأول والآخر والظاهر والباطن ﴿ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ ﴾ أي لا

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٢٦٧/٤) وابن ماجه في السنن (٣٨٢٧) والحاكم في المستدرک (٤٩٠/١) .

(٢) أخرجه أحمد في مسنده (٤٧٧/٢) .

(٣) أخرجه الطبراني في الكبير (٢٣٤/١٩) والألباني في الصحيحة (١٨٩٠) .

(٤) أخرجه الترمذي في السنن (٢٤٩٢) وأحمد في مسنده (١٧٩/٢) والحميدي في مسنده (٥٩٨) .

نظير له ولا عدِيل له ﴿ فَادْعُوْهُ مُخْلِصِيْنَ لَهُ الدِّيْنَ ﴾ أي موحدين له مقرين بأنه لا إله إلا هو ﴿ الْحَمْدُ لِلّٰهِ رَبِّ الْعَالَمِيْنَ ﴾ .

قال ابن جرير : كان جماعة من أهل العلم يأمرّون من قال : لا إله إلا الله أن يتبعها بالحمد لله رب العالمين عملاً بهذه الآية .

وعن ابن عباس قال : من قال : لا إله إلا الله فليقل على أثرها : الحمد لله رب العالمين ^(١) .
عن أبي الزبير محمد بن مسلم بن بدر المكي قال : كان عبد الله بن الزبير يقول في دبر كل صلاة حين يسلم : لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير ، لا حول ولا قوة إلا بالله ، لا إله إلا الله ولا نعبد إلا إياه له النعمة وله الفضل وله الثناء الحسن ، لا إله إلا الله مخلصين له الدين ولو كره الكافرون . قال : وكان رسول الله ﷺ يهل بهن دبر كل صلاة ^(٢) .

﴿ قُلْ إِنِّي نُهَيْتُ أَنْ أَعْبُدَ الدِّينَ تَدْعُوْنَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَمَّا جَاءَنِي الْيَتِيْمُ مِنْ رَبِّي وَأَمِرْتُ أَنْ أُسَلِّمَ لِربِّ الْعَالَمِيْنَ ﴾ هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ رُءُوبٍ ثُمَّ مِنْ تَطْفَءٍ ثُمَّ مِنْ عِلْقَةٍ ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ ثُمَّ لِتَكُونُوا شُيُوخًا وَمِنْكُمْ مَنْ يُتَوَفَّى مِنْ قَبْلٍ وَلْيَبْلُغُوا أَجَلَ مُّسَمًّى وَلَمَّا كُمْتُمْ تَقُولُ ﴿ هُوَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ فَإِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴾ .

يقول تبارك وتعالى : قل يا محمد لهؤلاء المشركين : إن الله ﷻ ينهى أن يعبد أحد سواه من الأصنام والأنداد والأوثان ، وقد بين تبارك وتعالى أنه لا يستحق العبادة أحد سواه في قوله جلّت عظمته : ﴿ هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ رُءُوبٍ ثُمَّ مِنْ تَطْفَءٍ ثُمَّ مِنْ عِلْقَةٍ ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ ثُمَّ لِتَكُونُوا شُيُوخًا ﴾ أي هو الذي يخلقكم في هذه الأطوار كلها وحده لا شريك له ، وعن أمره وتديره وتقديره يكون ذلك كله ﴿ وَمِنْكُمْ مَنْ يُتَوَفَّى مِنْ قَبْلٍ ﴾ أي من قبل أن يوجد ويخرج إلى هذا العالم بل تسقطه أمه سقطاً ، ومنهم من يتوفى صغيراً وشاباً وكهلاً قبل الشيخوخة كقوله تعالى : ﴿ لَنُبَيِّنَنَّ لَكُمْ وَنُفَصِّلَنَّ فِي الْأَرْصَادِ مَا نَشَاءُ إِنَّكَ أَجَلٌ مُّسَمًّى ﴾ وقال ﷻ ههنا : ﴿ وَلْيَبْلُغُوا أَجَلَ مُّسَمًّى وَلَمَّا كُمْتُمْ تَقُولُ ﴾ ، قال ابن جرير : تذكرون البعث ، ثم قال تعالى : ﴿ هُوَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ ﴾ أي هو المتفرد بذلك لا يقدر على ذلك أحد سواه ﴿ فَإِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴾ أي لا يخالف ولا يمانع بل ماشاء كان لا محالة .

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي ءَايَاتِ اللَّهِ أَنْ يَضُرُّوْهُ ۖ الَّذِينَ كَذَبُوا بِالْكِتَابِ وَمِمَّا أَرْسَلْنَا بِهِ رُسُلَنَا فَسَوْفَ يَعْلَمُوْنَ ۚ ﴾ إِذِ الْأَغْلَظُ فِي أَغْنَتِهِمْ وَالسَّلَاسِلُ يُسْحَبُونَ ۚ ﴿ فِي الْحَمِيْمِ ثُمَّ فِي النَّارِ يُسْجَرُونَ ۚ ﴾ ثُمَّ قِيلَ لَهُمْ إِنَّنِ مَا كُنْتُمْ تَشْرِكُونَ ۚ ﴿ مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالُوا ضَلُّوا عَنَّا بَلْ لَمْ نَكُنْ نَدْعُوا مِنْ قَبْلُ شَيْئًا كَذَلِكَ يَضِلُّ اللَّهُ الْكَافِرِينَ ۚ ﴾ ذَلِكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَفْرَحُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَمِمَّا كُنْتُمْ تَمْرَحُونَ ۚ ﴿ ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَبِئْسَ مَثْوًى الْمُتَكَبِّرِينَ ﴾ .

يقول تعالى : ألا تعجب يا محمد من هؤلاء المكذبين بآيات الله ويجادلون في الحق بالباطل كيف

(١) ذكره الطبري في تفسيره (١٠٢/٢٤) .

(٢) أخرجه مسلم في المساجد (١٣٩) وقوله : يهل به : أي يرفع صوته ب تلك الكلمات .

تصرف عقولهم عن الهدى إلى الضلال ﴿ الَّذِينَ كَذَبُوا بِالْكِتَابِ وَمِمَّا أَرْسَلْنَا بِهِ رُسُلَنَا ﴾ ، أي من الهدى والبيان ﴿ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴾ هذا تهديد شديد ، ووعد أكيد ، من الرب ﷻ لهؤلاء ، وقوله ﷻ ﴿ إِذِ الْأَغْلُلُ فِيَّ آغْتَقِفَهُمُ وَالسَّلْسِلُ ﴾ ، أي متصلة بالأغلال بأيدي الزبانية يسحبونهم على وجوههم تارة إلى الحميم ، وتارة إلى الجحيم ، ولهذا قال تعالى : ﴿ يُسْحَبُونَ ﴾ في لُغَيْمٍ ثَمَّ فِي النَّارِ يُسْجَرُونَ ﴿ ، كما قال تبارك وتعالى : ﴿ هَذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي يُكَذِّبُ بِهَا الْمُجْرِمُونَ ﴾ يَطُوفُونَ فِيهَا فِي حِمْيمٍ ءَانٍ ﴿ وقال تعالى بعد ذكر أكلهم الزقوم وشربهم الحميم ﴿ ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ لَإِلَى الْجَحِيمِ ﴾ عن يعلى بن منبه رفع الحديث إلى رسول الله ﷺ قال : « ينشئ الله ﷻ سحابة لأهل النار سوداء مظلمة ويقال : يا أهل النار أي شيء تطلبون ؟ فيذكرون بها سحاب الدنيا فيقولون : نسأل بارد الشراب فتمطرهم أغلالاً تزيد في أغلالهم ، وسلاسل تزيد في سلاسلهم ، وجمراً يلهب النار عليهم » (١) . وقوله تعالى : ﴿ ثُمَّ قِيلَ لَهُمْ أَنْتُمْ مَا كُنْتُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ مِنْ دُونِ اللَّهِ ﴿ ، أي قيل لهم أين الأصنام التي كنتم تعبدونها من دون الله ؛ هل ينصرونكم اليوم ؛ ﴿ قَالُوا صَلُّوا عَلَيْنَا ﴾ أي ذهبوا فلم ينفعونا ﴿ بَلْ لَئِنْ نَدَعُوا مِنْ قَبْلُ شَيْئًا ﴾ أي جحدوا عبادتهم كقوله جلّت عظمته : ﴿ ثُمَّ لَئِنْ كُنَّا فِتْنَتُهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا وَاللَّهِ رَبَّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ ﴾ ، ولهذا قال ﷻ : ﴿ كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ الْكَافِرِينَ ﴾ . وقوله : ﴿ ذَلِكَ بِمَا كُنْتُمْ تَفْرَحُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَمِمَّا كُنْتُمْ تَمْرَحُونَ ﴾ أي تقول لهم الملائكة هذا الذي أنتم فيه جزاء على فرحكم في الدنيا بغير حق ومرحكم وأشركم وبطركم ﴿ أَدْخَلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَلِيلِينَ فِيهَا فَيَنسَكُ مَتَوًى الْمُتَكَبِّرِينَ ﴾ أي فبئس المنزل والمقيل الذي فيه الهوان والعذاب الشديد لمن استكبر عن آيات الله واتباع دلائله وحججه ، والله أعلم .

﴿ فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَكَيْمَا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَقَّعَنَّكَ فَإِنَّا يَرْجِعُونَ ﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِنْ قَبْلِكَ مِنْهُمْ مَنْ قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَنْ لَمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَنْ يَأْتِيَ بِتَايَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ فَإِذَا جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ فُضِيَ بِالْحَقِّ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْمُبْطِلُونَ ﴿ .

يقول تعالى أمراً رسوله ﷺ بالصبر على تكذيب من كذبه من قومه ، فإن الله تعالى سينجز لك ما وعدك من النصر والظفر على قومك وجعل العاقبة لك ولمن اتبعك في الدنيا والآخرة ﴿ فَكَيْمَا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ ﴾ أي في الدنيا ، وكذلك وقع ؛ فإن الله تعالى أقر أعينهم من كبرائهم وعظمائهم ؛ أبيدوا في يوم بدر ، ثم فتح الله عليه مكة وسائر جزيرة العرب في حياته ﷺ . وقوله ﷻ : ﴿ أَوْ نَتَوَقَّعَنَّكَ فَإِنَّا يَرْجِعُونَ ﴾ أي فنذيقهم العذاب الشديد في الآخرة ، ثم قال تعالى مسلتيًا له ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِنْ قَبْلِكَ مِنْهُمْ مَنْ قَصَصْنَا عَلَيْكَ ﴾ أي منهم من أوحينا إليك خبرهم وقصصهم ، مع قومهم كيف كذبوهم ، ثم كانت للرسول العاقبة والنصرة ﴿ وَمِنْهُمْ مَنْ لَمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ ﴾ وهم أكثر من ذكر بأضعاف أضعاف . وقوله تعالى : ﴿ وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَنْ يَأْتِيَ بِتَايَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ ﴾ أي ولم يكن لواحد من الرسل أن يأتي قومه بخارق للعدادات إلا أن يأذن الله له في ذلك فيدله ذلك على صدقه فيما جاءهم به ﴿ فَإِذَا جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ ﴾ وهو عذابه ونكاله المحيط بالمكذبين ﴿ فُضِيَ بِالْحَقِّ ﴾ فينجي المؤمنين ، ويهلك الكافرين ؛ ولهذا قال ﷻ : ﴿ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْمُبْطِلُونَ ﴾ .

(١) ذكره المنذري في الترغيب والترهيب (٤/٤٧٣) والسيوطي في الدر المنثور (٥/٣٥٧) .

﴿ اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَنْعَامَ لِتَرْكَبُوا مِنْهَا وَنَحْمِلُ عَنْكُمُ وِثْرَها تَأْكُلُونَ ﴾ ٨٥ ﴿ وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ وَلِتَبَلَّغُوا عَلَيْهَا حَاجَةً فِي صُورِكُمْ وَعَلَيْهَا الْفَلَاحُ تَحْمَلُونَ ﴾ ٨٦ ﴿ وَتُرِيكُمْ آيَاتِهِ فَأَيُّ آيَاتِ اللَّهِ تُنْكِرُونَ ﴾ .

يقول تعالى ممتثاً على عباده بما خلق لهم من الأنعام وهي الإبل والبقر والغنم فمنها ركوبهم ومنها يأكلون ، فالإبل تركب وتؤكل وتحلب ويحمل عليها الأثقال في الأسفار والرحال إلى البلاد النائية ، والأقطار الشاسعة ، والبقر تؤكل ويشرب لبنها وتحث عليها الأرض ، والغنم تؤكل ويشرب لبنها ، والجميع تجز أصوافها وأشعارها وأوبارها ؛ فيتخذ منها الأثاث والثياب والأمتعة ؛ ولذا قال ﷻ ﴿ لَتَرْكَبُوا مِنْهَا وَنَحْمِلُ عَنْكُمُ وِثْرَها تَأْكُلُونَ ﴾ ٨٥ ﴿ وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ وَلِتَبَلَّغُوا عَلَيْهَا حَاجَةً فِي صُورِكُمْ وَعَلَيْهَا الْفَلَاحُ تَحْمَلُونَ ﴾ ٨٦ وقوله جل وعلا ﴿ وَتُرِيكُمْ آيَاتِهِ ﴾ أي حججه وبراهينه في الآفاق وفي أنفسكم ﴿ فَأَيُّ آيَاتِ اللَّهِ تُنْكِرُونَ ﴾ أي لا تقدرون على إنكار شيء من آياته إلا أن تعاندوا وتكابروا .

﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَانُوا أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً وَأَسَاقًا فِي الْأَرْضِ فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾ ٨٧ ﴿ فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَرِحُوا بِمَا عِنْدَهُمْ مِنَ الْعِلْمِ وَحَافَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴾ ٨٨ ﴿ فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَحَدُّهُ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ ﴾ ٨٩ ﴿ فَلَمْ يَكُ يَنْفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا سُنَّتَ اللَّهُ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْكَافِرُونَ ﴾ .

يخبر تعالى عن الأمم المكذبة بالرسول في قديم الدهر وماذا حل بهم من العذاب الشديد مع شدة قواهم وما أثروه في الأرض وجمعوه من الأموال ، فما أغنى عنهم ذلك شيئاً ، ولا رد عنهم ذرة من بأس الله ؛ وذلك لأنهم لما جاءتهم الرسل بالبينات ، والحجج القاطعات ، والبراهين الدامغات ، لم يلتفتوا إليهم ولا أقبلوا عليهم ، واستغنوا بما عندهم من العلم في زعمهم عما جاءتهم به الرسل . قال مجاهد : قالوا : نحن أعلم منهم لن نبعث ولن نعذب ، وقال السدي : فرحوا بما عندهم من العلم بجهالتهم ، فاتاهم من بأس الله تعالى ما لا قبل لهم به ﴿ وَحَافَ بِهِمْ ﴾ أي أحاط بهم ﴿ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴾ أي يكدبون ويستبعدون وقوعه ﴿ فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا ﴾ أي عاينوا وقوع العذاب بهم ﴿ قَالُوا ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَحَدُّهُ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ ﴾ أي وحدوا الله ﷻ وكفروا بالطاغوت ، ولكن حيث لا تقال العثرات ولا تنفع المعذرة ، وهذا كما قال فرعون حين أدركه الفرق ﴿ ءَامَنْتُ أَنْتَ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي ءَامَنْتَ بِهِ بَنُو إِسْرَءِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴾ قال الله تبارك وتعالى : ﴿ ءَاكُنْ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلَ وَكُنْتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ ﴾ أي فلم يقبل الله منه ؛ لأنه قد استجاب لنبيه موسى عليه الصلاة والسلام دعاءه حين قال : ﴿ وَأَشَدُّ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا حَتَّى يَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ﴾ وهكذا قال تعالى ههنا : ﴿ فَلَمْ يَكُ يَنْفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا سُنَّتَ اللَّهُ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ ﴾ أي هذا حكم الله في جميع من تاب عند معاينة العذاب أنه لا يقبل ، ولهذا جاء في الحديث : « إن الله تعالى يقبل توبة العبد ما لم يغرغر » ^(١) أي فإذا غرغر وبلغت الروح الحنجرة وعاین الملك فلا توبة حيثئذ ، ولهذا قال تعالى : ﴿ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْكَافِرُونَ ﴾ .

(١) أخرجه الترمذي في السنن (٣٥٣٧) وأحمد في مسنده (٤٢٥/٣) والحاكم في المستدرک (٢٥٧/٤) .

سورة فصلت

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ حَدْ ١ تَنْزِيلٌ مِنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ٢ كُنْتُ فُصِّلْتُ ءَايَاتُكُمْ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ٣ بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ٤ وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِمَّا نَدْعُونَا إِلَيْهِ وَفِي ءَاذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنْ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ فَأَعْمَلْنَا عَنِيْلُونَ ٥ 》 .

يقول تعالى : ﴿ حَدْ ١ تَنْزِيلٌ مِنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ٢ ﴾ يعني القرآن منزل من الرحمن الرحيم : ﴿ كُنْتُ فُصِّلْتُ ءَايَاتُكُمْ قُرْآنًا عَرَبِيًّا ﴾ أي بينت معانيه وأحكامه ﴿ قُرْآنًا عَرَبِيًّا ﴾ أي في حال كونه قرآنًا عربيًّا بينًا واضحًا فمعانيه مفصلة وألفاظه واضحة غير مشككة أي هو معجز من حيث لفظه ومعناه ﴿ لَا يَأْتِيهِ الْبُطْلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴾ وقوله تعالى : ﴿ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾ ، أي إنما يعرف هذا البيان والوضوح العلماء الراسخون ﴿ بَشِيرًا وَنَذِيرًا ﴾ أي تارة ييسر المؤمنين وتارة ينذر الكافرين ﴿ فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴾ ، أي أكثر قريش فهم لا يفهمون منه شيئًا مع بيانه ووضوحه ﴿ وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ ﴾ أي في غلف مغطاة ﴿ مِمَّا نَدْعُونَا إِلَيْهِ وَفِي ءَاذَانِنَا وَقْرٌ ﴾ أي صمم عما جئنا به ﴿ وَمِنْ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ ﴾ فلا يصل إلينا شيء مما تقول ﴿ فَأَعْمَلْنَا عَنِيْلُونَ ٥ 》 .

عن محمد بن كعب القرظي قال : حدثت أن عتبة بن ربيعة - وكان سيّدًا - قال يومًا وهو جالس في نادي قريش ورسول الله ﷺ جالس في المسجد وحده : يا معشر قريش ألا أقوم إلى محمد فأكلمه وأعرض عليه أمورًا لعله أن يقبل بعضها فنعطيه أيها شاء ويكف عنا ؟ وذلك حين أسلم حمزة ؓ ورأوا أصحاب رسول الله ﷺ يزيدون ويكثرون ، فقالوا : بلى يا أبا الوليد ، قم إليه فكلمه ، فقام إليه عتبة حتى جلس إلى رسول الله ﷺ فقال : يا ابن أخي إنك منا حيث علمت من البسطة في العشيرة والمكان في النسب ، وإنك قد أتيت قومك بأمر عظيم فرقت به جماعتهم وسفهت به أحلامهم وعبت به آلهتهم ودينهم وكفرت به من مضى من آبائهم ، فاسمع مني أعرض عليك أمورًا تنظر فيها لعلك تقبل منها بعضها . قال : فقال له رسول الله ﷺ : « قل يا أبا الوليد أسمع » قال : يا ابن أخي إن كنت إنما تريد بما جئت به من هذا الأمر مألًا جمعنا لك من أموالنا حتى تكون أكثرنا مألًا ، وإن كنت تريد به شرفًا سودناك علينا حتى لا نقطع أمرًا دونك ، وإن كنت تريد به ملكًا ملكناك علينا ، وإن كان هذا الذي يأتيك رتيًا نراه لا تستطيع رده عن نفسك طلبنا لك الأطباء وبدلنا فيه أموالنا حتى نبرئك منه ؛ فإنه ربما غلب التابع على الرجل حتى يداوى منه ، أو كما قال له ، حتى إذا فرغ عتبة ورسول الله ﷺ يستمع منه قال : « أفرغت يا أبا الوليد ؟ » قال : نعم . قال : « فاسمع مني » قال : أفعل . قال ﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ١ تَنْزِيلٌ مِنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ٢ كُنْتُ فُصِّلْتُ ءَايَاتُكُمْ قُرْآنًا عَرَبِيًّا ٣ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ٤ بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ٥ 》 ثم مضى رسول الله ﷺ فيها وهو يقرؤها عليه . فلما سمع عتبة أنصت لها وألقى يديه خلف ظهره معتمدًا عليهما يستمع منه حتى انتهى رسول الله ﷺ إلى السجدة منها فسجد ، ثم قال : « قد سمعت يا أبا الوليد ما سمعت فأنت وذاك » فقام

أَنذَادًا ﴿٩﴾ أَي نظراء وأمثالا تعبدونها معه ﴿١٠﴾ ذَلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿١١﴾ أَي الخالق للأشياء هو رب العالمين كلهم . وهذا المكان فيه تفصيل لقوله تعالى : ﴿ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ﴾ ففصل ههنا ما يختص بالأرض مما اختص بالسماء فذكر أنه خلق الأرض أولاً لأنها كالأساس ، والأصل أن يبدأ بالأساس ثم بعده بالسقف . عن سعيد بن جبير قال : قال رجل لابن عباس ؓ : إني لأجد في القرآن أشياء تختلف علي ، قال : ﴿ فَلَا أَنْسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَاءَلُونَ ﴾ ، ﴿ وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ ﴾ ، ﴿ وَلَا يَكْتُمُونَ اللَّهُ حَدِيثًا ﴾ ، ﴿ وَاللَّهُ رَبُّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ ﴾ فقد كنتموا في هذه الآية ، وقال تعالى : ﴿ بَلَّغْتُمْ أُنْتُمْ خَلْقًا إِلَى اللَّهِ لَعَلَّهُمْ يَنْبَغُوا ﴾ إِلَى قَوْلِهِ ﴿ وَالْأَرْضُ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا ﴾ فذكر خلق السماء قبل الأرض ثم قال تعالى : ﴿ قُلْ أَيْتُكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ ﴾ إِلَى قَوْلِهِ : ﴿ طَائِفِينَ ﴾ فذكر في هذه خلق الأرض قبل خلق السماء قال : ﴿ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ﴾ ، ﴿ عَذِيبًا حَكِيمًا ﴾ ، ﴿ مِيمًا بَصِيرًا ﴾ فكأنه كان ثم مضى فقال ابن عباس ؓ : ﴿ فَلَا أَنْسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَاءَلُونَ ﴾ في النفخة الأولى ، ثم ينفخ في الصور ﴿ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَبَقَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ ﴾ فلا أنساب بينهم عند ذلك ولا يتساءلون ، ثم في النفخة الأخرى ﴿ وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ ﴾ وأما قوله : ﴿ مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ ﴾ ﴿ وَلَا يَكْتُمُونَ اللَّهُ حَدِيثًا ﴾ فإن الله تعالى يغفر لأهل الإخلاص ذنوبهم فيقول المشركون : تعالوا نقول : لم تكن مشركين ، فيختم على أفواههم فتنتطق أيديهم ؛ فعند ذلك يعرف أن الله تعالى لا يكتم حديثا ، وعنده ﴿ يَوْمَ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ الآية ، وخلق الأرض في يومين ثم خلق السماء ، ثم استوى إلى السماء فسواهن في يومين آخرين ، ثم دحى الأرض ، ودحياها أن أخرج منها الماء والمرعى وخلق الجبال والرمال والجماد والآكام وما بينهما في يومين آخرين ؛ فذلك قوله تعالى : ﴿ دَحَاهَا ﴾ وقوله : ﴿ خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ ﴾ فخلق الأرض وما فيها من شيء في أربعة أيام وخلق السموات في يومين ﴿ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ﴾ سمي نفسه بذلك وذلك قوله ؛ أي لم يزل كذلك فإن الله تعالى لم يرد شيئا إلا أصاب به الذي أراد ، فلا يختلفن عليك القرآن ؛ فإن كلا من عند الله ﷻ (١) . وقوله ﴿ خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ ﴾ يعني يوم الأحد ويوم الاثنين ﴿ وَجَعَلَ فِيهَا رِجْسًا مِنْ قَوْمِهَا وَبَرَكَ فِيهَا ﴾ أي جعلها مباركة قابلة للخير والبذر والغراس ﴿ وَقَدَّرَ فِيهَا أَوْثَانًا ﴾ وهو ما يحتاج أهلها إليه من الأرزاق والأماكن التي تزرع وتغرس يعني يوم الثلاثاء والأربعاء فهما مع اليومين السابقين أربعة ولهذا قال : ﴿ فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَّاهُ لَلْطَائِفِينَ ﴾ أي لمن أراد السؤال عن ذلك ليعلمه . وقال عكرمة ومجاهد في قوله ﷻ : ﴿ وَقَدَّرَ فِيهَا أَوْثَانًا ﴾ جعل في كل أرض ما لا يصلح في غيرها ومنه العصب باليمن ، والسابوري بسابور ، والطيلاسة بالري ، وقال ابن عباس وقتادة والسدي في قوله تعالى : ﴿ سَوَّاهُ لَلْطَائِفِينَ ﴾ أي لمن أراد السؤال عن ذلك ، وقوله تبارك وتعالى : ﴿ ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ ﴾ وهو بخار الماء المتصاعد منه حين خلقت الأرض ﴿ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ أَيْنِمَا طَوَّرْتِ أَوْ كَرِهْتِ ﴾ أي استجيبا لأمري وانفعلا لفعلي طائعتين أو مكرهتين ﴿ قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِفِينَ ﴾ أي بل نستجيب لك مطيعين بما فينا مما تريد خلقه من الملائكة والجن والإنس جميعا

(١) أخرجه البخاري في تفسير القرآن (تفسير سورة حم السجدة) .

مطيعين لك ، حكاة ابن جرير عن بعض أهل العربية قال : وقيل تنزيلاً لهن معاملة من يعقل بكلامهما ﴿ فَفَضَّلْنَهُنَّ سَبْعَ سَعَوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ ﴾ أي ففرغ من تسويتهن سبع سموات في يومين أي آخرين وهما يوم الخميس ويوم الجمعة ﴿ وَأَوْحَى فِي كُلِّ سَكَّةٍ أَمْرًا ﴾ أي ورتب مقرراً في كل سماء ما تحتاج إليه من الملائكة وما فيها من الأشياء التي لا يعلمها إلا هو ﴿ وَرَبَّنَا أَلَمَنَّا الْدُّنْيَا بِمَصْنُوعٍ ﴾ وهي الكواكب المنيرة المشرقة على أهل الأرض ﴿ وَحِفْظًا ﴾ أي حرصاً من الشياطين أن تستمع إلى الملائكة الأعلى ﴿ ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴾ أي العزيز الذي قد عز كل شيء فعلبه وقهره ، العليم بجميع حركات المخلوقات وسكناتهم ، عن أبي هريرة ؓ قال : أخذ ، رسول الله ﷺ بيدي فقال : « خلق الله التربة يوم السبت ، وخلق فيها الجبال يوم الأحد ، وخلق الشجر يوم الاثنين ، وخلق المكروه يوم الثلاثاء ، وخلق النور يوم الأربعاء ، وبث فيها الدواب يوم الخميس ، وخلق آدم بعد العصر يوم الجمعة ، آخر الخلق في آخر ساعة من ساعات يوم الجمعة فيما بين العصر إلى الليل (١) .

﴿ فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنْذَرْتُكُمْ صِغَةً مِثْلَ صِغَةِ عَادٍ وَتَمُودَ ﴾ إِذْ جَاءَتْهُمْ الرُّسُلُ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ قَالُوا لَوْ شَاءَ رَبُّنَا لَأَنْزَلَ مَلَائِكَةً فَإِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ ﴿ فَأَمَّا عَادُ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ ﴿ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي أَيَّامٍ نَحْسَاتٍ لِنُذِيقَهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَخْزَىٰ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ﴿ وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَىٰ عَلَى الْهُدَىٰ فَأَخَذَتْهُمْ صِغَةُ الْعَذَابِ الَّتِي لَمْ كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿ وَنَجَّيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَنْقُوتُونَ .

يقول تعالى : قل يا محمد لهؤلاء المشركين المكذبين بما جنتهم به من الحق إن أعرضتم عما جنتكم به من عند الله تعالى ؛ فإنني أنذركم حلول نقمة الله بكم كما حلت بالأُمم الماضية من المكذبين بالمرسلين ﴿ صِغَةً مِثْلَ صِغَةِ عَادٍ وَتَمُودَ ﴾ أي ومن شاكلهما ممن فعل ك فعلهما ﴿ إِذْ جَاءَتْهُمْ الرُّسُلُ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ ﴾ كقوله تعالى : ﴿ وَادَّكَّرَ أَمَّا عَادُ إِذْ أَنْذَرَهُمْ قَوْمُهُ بِالْآخِفَافِ وَقَدْ خَلَتْ النُّجُودُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ ﴾ أي في القرى المجاورة لبلادهم بعث الله اليهم الرسل يأمرهم بعبادة الله وحده لا شريك له ومبشرين ومنذرين ، ورأوا ما أحل الله بأعدائه من النقم ، وما ألبس أوليائه من النعم ، ومع هذا ما آمنوا ولا صدقوا بل كذبوا وجحدوا وقالوا : ﴿ لَوْ شَاءَ رَبُّنَا لَأَنْزَلَ مَلَائِكَةً ﴾ أي لو أرسل الله رسلاً لكانوا ملائكة من عنده ﴿ فَإِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ ﴾ أي أيها البشر ﴿ كَافِرُونَ ﴾ أي لا نتبعكم وأنتم بشر مثلنا قال الله تعالى : ﴿ فَأَمَّا عَادُ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ ﴾ أي بغوا وعتوا وعصوا ﴿ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً ﴾ أي متوا بشدة تركيبيهم وقواهم واعتقدوا أنهم يمتنعون بها من بأس الله ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً ﴾ أي أفما يتفكرون فيمن يبارزون بالعداوة فإنه العظيم الذي خلق الأشياء وركب فيها قواها الحاملة لها وأن بطشه شديد فبارزوا الجبار بالعداوة ؛ وجحدوا بآياته وعصوا رسله فلماذا قال : ﴿ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا ﴾ قال بعضهم : وهي شديدة الهبوب ، وقيل الباردة . وقيل : هي التي لها صوت ، والحق أنها متصفة بجميع ذلك . وقوله تعالى : ﴿ فِي أَيَّامٍ نَحْسَاتٍ ﴾ أي متتابعات أي ابتدأوا العذاب في يوم نحس عليهم واستمر بهم هذا النحس ﴿ سَبْعَ لَيَالٍ

(١) أخرجه مسلم في صفات المنافقين (٢٧) وأحمد في مسنده (٣٢٧/٢) والحاكم في المستدرک (٤٥٠/٢) .

وَتُذَيِّبُهُمْ أُنْجَارٌ حُسُومًا ﴿١٩﴾ حتى أبادهم عن آخرهم واتصل بهم خزي الدنيا بعذاب الآخرة ولهذا قال : ﴿لِيَذِيبَهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَوةِ الدُّنْيَا وَلِعَذَابِ الْآخِرَةِ أَخْرَىٰ﴾ أي أشد خزيًا لهم ﴿وَهُمْ لَا يُصْزَرُونَ﴾ أي في الآخرة كما لم ينصروا في الدنيا ، وما كان لهم من الله من واق يقيمهم العذاب ويدراً عنهم النكال ، وقوله ﷻ : ﴿وَأَمَّا نُمُودُ فَمَهَيِّتُهُمْ﴾ قال ابن عباس وقتادة والسدي وغيرهم : بينا لهم ، وقال الثوري : دعوانهم ﴿فَاسْتَحَبُّوا أَلَمَ عَلَى الْهَدْيِ﴾ أي بصرناهم وبيننا لهم ووضحنا لهم الحق على لسان نبيهم صالح عليه الصلاة والسلام فخالفوه وكذبوه وعقروا ناقة الله تعالى التي جعلها آية وعلامة على صدق نبيهم ﴿فَأَخَذْتَهُمْ صَیْغَةَ الْعَذَابِ الْمُوْنِ﴾ أي بعث الله عليهم صيحة ورجفة وذلاً وهواناً وعذاباً ونكالاً ﴿يَمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ أي من التكذيب والجحود ﴿وَنَجَّيْنَا الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ أي من بين أظهرهم لم يمسهم سوء ولا نالهم من ذلك ضرر ؛ بل نجاهم الله تعالى مع نبيهم صالح عليه الصلاة والسلام بإيمانهم بتقواهم الله ﷻ .

﴿وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَاؤُ اللَّهِ إِلَى النَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ﴾ ٢٠ حَقَّ إِذَا مَا جَاءَهُمَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَرُهُمْ وَجُلُودُهُمْ يَمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ٢١ وَقَالُوا لِيُجْلِدُوهُمْ لِمَ شَهِدْتُمْ عَلَيْنَا قَالُوا أَنْطَقْنَا اللَّهَ الَّذِي أَنْطَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلَإِلَهِ تَرْجِعُونَ ٢٢ وَمَا كُنْتُمْ تَسْتَشِيرُونَ أَنْ يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَا أَبْصَرُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ وَلَكِنْ ظَنَنْتُمْ أَنَّ اللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَيْفَ أَمَّا تَعْمَلُونَ ٢٣ وَذَلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِي ظَنَنْتُمْ بِرَبِّكُمْ أَرَدْتُمْ فَأَصْبَحْتُمْ مِنَ الْخَاسِرِينَ ٢٤ فَإِنْ يَصْبِرُوا فَالنَّارُ مَثْوًى لَهُمْ وَإِنْ يَسْتَغِيثُوا فَمَا هُمْ مِنَ الْمُعْتَضِينَ .

يقول تعالى : ﴿وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَاؤُ اللَّهِ إِلَى النَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ﴾ أي اذكر لهؤلاء المشركين يوم يحشرون إلى النار يوزعون أي تجمع الزبانية أولهم على آخرهم . وقوله ﷻ : ﴿حَقَّ إِذَا مَا جَاءَهُمَا﴾ أي وقفوا عليها ﴿شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَرُهُمْ وَجُلُودُهُمْ يَمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ أي بأعمالهم مما قدموه وأخروه لا يكتف من حرف ﴿وَقَالُوا لِيُجْلِدُوهُمْ لِمَ شَهِدْتُمْ عَلَيْنَا﴾ أي لاموا أعضاءهم وجلودهم حين شهدوا عليهم فعند ذلك أجابتهم الأعضاء ﴿قَالُوا أَنْطَقْنَا اللَّهَ الَّذِي أَنْطَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ أي فهو لا يخالف ولا يمانع وإليه ترجعون .

عن أنس بن مالك ؓ قال : ضحك رسول الله ﷺ ذات يوم وتبسم فقال ﷺ : «ألا تسألوني عن أي شيء ضحكك ؟» قالوا : يا رسول الله عن أي شيء ضحكك ؟ قال ﷺ : «عجبت من مجادلة العبد ربّه يوم القيامة يقول : أي ربي أليس وعدتني أن لا تظلمني ؟ قال : بلى ، فيقول : فإني لا أقبل علي شأهاذا إلا من نفسي ، فيقول الله تبارك وتعالى : أو ليس كفى بي شهيداً وبالملائكة الكرام الكاتبين - قال : فيردد هذا الكلام مراراً - قال : فيختم على فيه وتتكلم أركانه بما كان يعمل ، فيقول : بعداً لكن ومسحفاً ، عنكن كنت أجادل» (١) . وعن جابر بن عبد الله ؓ قال : لما رجعت إلى رسول الله ﷺ مهاجرة البحر قال : «ألا تحدثون بأعاجيب ما رأيتم بأرض الحبشة ؟» فقال فتية منهم : بلى يا رسول الله ، بينما نحن جلوس إذ مرت علينا عجوز من عجائز رهايينهم تحمل على رأسها قلة من ماء ، فمرت بغتي منهم فجعل إحدى يديه بين كتفها ، ثم دفعها فخرت

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٥٨/١) والحاكم في المستدرک (٦٠١/٤) والطبراني في الكبير (٤٧/٨) .

على ركبتيها فانكسرت قلتها ، فلما ارتفعت التفتت إليه فقالت : سوف تعلم يا غدر إذا وضع الله الكرسي وجمع الأولين والآخرين ، وتكلمت الأيدي والأرجل بما كانوا يكسبون فسوف تعلم كيف أمري وأمرك عنده غدا ؟ قال : يقول رسول الله ﷺ : « صدقت صدقت ؛ كيف يقدر الله قوما لا يؤخذ لضعيفهم من شديدهم ؟ » ^(١) وقوله تعالى : ﴿ وَمَا كُنْتُمْ تَسْتَوُونَ أَنْ يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَا أَبْصَرُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ ﴾ أي تقول لهم الأعضاء والجلود حين يلومونها على الشهادة عليهم ما كنتم تكتمون منا الذي كنتم تفعلونه ؛ بل كنتم تجاهرون الله بالكفر والمعاصي ولا تبالون منه في زعمكم ؛ لأنكم كنتم لا تعتقدون أنه يعلم جميع أفعالكم ؛ ولهذا قال تعالى : ﴿ وَلَكِنْ ظَنَنْتُمْ أَنَّ اللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ ^(٢) وَذَلِكَ ظَنُّكَ الَّذِي ظَنَنْتُمْ بِرَبِّكُمْ أَرَدْتُمْ بِهِ أَنْ يَكُونَ الظن الفاسد وهو اعتقادكم أن الله تعالى لا يعلم كثيرا مما تعملون هو الذي أتلفكم وأرداكم عند ربكم ﴿ فَأَصْبَحْتُمْ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾ أي في مواقف القيامة خسرتم أنفسكم وأهلكم . عن عبد الله ﷺ قال : كنت مستترا بأستار الكعبة ، فجاء ثلاثة نفر قرشي وخثناه ثقيان - أوثقي وخثناه قرشيان - كثير شحم بطونهم ، قليل فقه قلوبهم فتكلموا بكلام لم أسمع ، فقال أحدهم : أترون أن الله يسمع كلامنا هذا ؟ فقال الآخر : إنا إذا رفعنا أصواتنا سمعه وإذا لم نرفعه لم يسمعه ، فقال الآخر : إن سمع منه شيئا سمعه كله . قال : فذكرت ذلك للنبي ﷺ فأنزل الله ﷻ ﴿ وَمَا كُنْتُمْ تَسْتَوُونَ أَنْ يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَا أَبْصَرُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ ﴾ إلى قوله ﴿ فَأَصْبَحْتُمْ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾ ^(٣) ، وعن بهز بن حكيم عن أبيه عن جده عن النبي ﷺ في قوله تعالى : ﴿ أَنْ يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَا أَبْصَرُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ ﴾ قال : « إنكم تدعون يوم القيامة مفدما على أنفواهم بالفدام ، فأول شيء يبين عن أحدكم فحذه وكفه » ^(٤) وعن جابر ﷺ قال : قال رسول الله ﷺ : « لا يموتن أحد منكم إلا وهو يحسن بالله الظن ؛ فإن قوما قد أرداهم سوء ظنهم بالله فقال الله تعالى : ﴿ وَذَلِكَ ظَنُّكَ الَّذِي ظَنَنْتُمْ بِرَبِّكُمْ أَرَدْتُمْ فَأَصْبَحْتُمْ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾ » ^(٥) .

وقوله تعالى : ﴿ فَإِنْ يَصْبِرُوا فَالنَّارُ مَثْوًى لَهُمْ وَإِنْ يَسْتَعْتِبُوا فَمَا لَهُمْ مِنَ الْمُعْتَبِينَ ﴾ أي سواء عليهم صبروا أم لم يصبروا هم في النار لا محيد لهم عنها ولا خروج لهم منها ، وإن طلبوا أن يستعتبوا ويبدوا أعذارا ، فما لهم أعذار ولا تقال لهم عثرات .

﴿ وَفَصَّاتُ لَحْمٍ قُرْنًا فَرِيئُوا لَهُمْ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِي أُمِّرٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ إِنَّهُمْ كَانُوا خَاسِرِينَ ﴾ ^(٦) وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْعَزَافُ فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَعْلَمُونَ ^(٧) فَلَنُيَبِّضَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا عَذَابًا شَدِيدًا وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَشْوَأَ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ ^(٨) ذَلِكَ جَزَاءُ أَعْدَاءِ اللَّهِ النَّارُ لَهُمْ فِيهَا دَارُ الْخُلْدِ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ^(٩) وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا رَبَّنَا أَلَّذِينَ أَضَلَّانَا مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ جَعَلَهُمَا نَحْتًا فَقَدِ اسْتَمْعَلُوا ^(١٠) .

يذكر تعالى أنه هو الذي أضل المشركين وأن ذلك بمشيئته وكونه وقدرته ، وهو الحكيم في أفعاله بما قبض لهم من القرناء من شياطين الإنس والجن ﴿ فَرِيئُوا لَهُمْ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ ﴾ أي حسنوا

(١) أخرجه ابن ماجه في السنن (٤٠١) .

(٢) أخرجه أحمد في مسنده (٣٨١/١) والترمذي في السنن (٣٢٤٩) والحنن : الصهر ، أو كل قريب من قبل المرأة والأب والأخ .

(٣) أخرجه الطبراني في الكبير (٤٠٨/١٩) والألباني في الضعيفة (٤٣٣) .

(٤) أخرجه مسلم في الجنة وصفة نعيمها (٨١) وأحمد في مسنده (٣٩٠/٤) والبيهقي في السنن (٣٧٨/٣) .

لهم أعمالهم في الماضي والمستقبل فلم يروا أنفسهم إلا محسنين كما قال تعالى : ﴿ وَمَنْ يَمَسَّ عَن ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نَقِيضٌ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ ۖ وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُّهْتَدُونَ ﴾ . وقوله تعالى : ﴿ وَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ ﴾ أي كلمة العذاب ، كما حق على أم قد خلت من قبلهم ممن فعل كفعلمهم من الجن والإنس ﴿ إِنَّهُمْ كَانُوا خَاسِرِينَ ﴾ أي استواهم هم وإياهم في الخسار والدمار . وقوله تعالى : ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ ﴾ أي تواصوا فيما بينهم أن لا يطيعوا للقرآن ولا ينقادوا لأوامره ﴿ وَالْقَوْلَا فِيهِ ﴾ أي إذا تلي لا تسمعوا له كما قال مجاهد ﴿ وَالْقَوْلَا فِيهِ ﴾ يعني بالمكاء والصفير والتخليط في المنطق على رسول الله إذا قرأ القرآن ، ثم قال ﷺ منتصرا للقرآن ومنتقما ممن عاداه من أهل الكفران : ﴿ فَلَنَذِقَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا عَذَابًا شَدِيدًا ﴾ أي في مقابلة ما اعتمدوه في القرآن وعند سماعه ﴿ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَشْرَ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ أي بشر أعمالهم وسوء أفعالهم ﴿ ذَلِكَ جَزَاءُ أَعْدَاءِ اللَّهِ النَّارُ لَهُمْ فِيهَا دَارُ الْخُلْدِ جَزَاءُ يَمَّا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ ﴾ وقال الذين كفروا ربنا آرينا الذين أضلانا من الجن والإنس نجعلهما تحت أقدامنا ليَكُونَا مِنَ الْأَسْفَلِينَ ﴿ عن علي عليه السلام في قوله تعالى : ﴿ الَّذِينَ أَضَلْنَا ﴾ قال : إبليس وابن آدم الذي قتل أخاه . وقال السدي : عن علي عليه السلام : إبليس يدعو به كل صاحب شرك ، وابن آدم يدعو به كل صاحب كبيرة ، إبليس : الداعي إلى كل شر من شرك فما دونه ، وابن آدم الأول كما ثبت في الحديث : « ما قتلت نفس ظلما إلا كان على ابن آدم الأول كفل من دمها ؛ لأنه أول من سن القتل » ^(١) . وقولهم : ﴿ نَجْعَلُهُمَا تَحْتَ أَفْدَانِنَا ﴾ أي أسفل منا في العذاب ليكونا أشد عذابا منا ، ولهذا قالوا : ﴿ يَكُونَا مِنَ الْأَسْفَلِينَ ﴾ أي في الدرك الأسفل من النار .

﴿ إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَفْتَمُوا عَنْهُمْ الْمَلَائِكَةُ أَلَا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴾ ^(٢) نحن أولياؤكم في الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهَى أَنْفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدْعُونَ ^(٣) نَزَّلْنَا مِن عَفْوٍ رَّحِيمٍ .

يقول تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَفْتَمُوا ﴾ أي أخلصوا العمل لله وعملوا بطاعة الله تعالى على ما شرع الله لهم ، وعن أنس بن مالك عليه السلام قال : قرأ علينا رسول الله ﷺ هذه الآية : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَفْتَمُوا ﴾ قد قالها ناس ثم كفر أكثرهم ، فمن قالها حتى يموت فقد استقام عليها ^(٢) ، وعن سعيد بن عمران قال : قرأت عند أبي بكر الصديق عليه السلام هذه الآية : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَفْتَمُوا ﴾ قال : هم الذين لم يشركوا بالله شيئا ^(٣) . وعن عكرمة قال : سئل ابن عباس عليه السلام : أي آية في كتاب الله تبارك وتعالى أرخص ؟ قال : قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَفْتَمُوا ﴾ على شهادة أن لا إله إلا الله .

وعن ابن عباس عليه السلام : ﴿ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَفْتَمُوا ﴾ على أداء فرائضه ، وكذا قال قتادة . قال : وكان الحسن يقول : اللهم أنت ربنا فارزقنا الاستقامة ، وقال أبو العالية : ﴿ ثُمَّ اسْتَفْتَمُوا ﴾ أخلصوا له الدين والعمل .

(١) أخرجه البخاري في أحاديث الأنبياء (٣٣٣٥) ومسلم في القسامة (٢٧) وأحمد في مسنده (٣٨٣/١) .

(٢) أخرجه الترمذي في السنن (٣٢٥٠) .

(٣) أورده الطبري في تفسيره (١٤٣/٢٤) .

عن سفیان بن عبد الله الثقفي قال : قلت : يا رسول الله حدثني بأمر أعتصم به ، قال ﷺ : « قل ربي الله ثم استقم » قلت : يا رسول الله ما أكثر ما تخاف علي ؟ فأخذ رسول الله ﷺ بطرف لسان نفسه ثم قال : « هذا » ^(١) . وقوله تعالى : ﴿ تَنَزَّلُ عَلَيْهِ الْمَلَائِكَةُ ﴾ قال مجاهد والسدي وزيد بن أسلم : وابنه : يعني عند الموت قائلين ﴿ أَلَّا تَخَافُوا ﴾ أي مما تقدمون عليه من أمر الآخرة ﴿ وَلَا تَحْزَنُوا ﴾ على ما خلفتموه من أمر الدنيا من ولد وأهل ومال أو دين ؛ فإننا نخلفكم فيه ﴿ وَأَبَشِّرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴾ فيبشرونهم بذهاب الشر وحصول الخير . وهذا كما جاء في حديث البراء ؓ قال : « إن الملائكة تقول لروح المؤمن : اخرجي أيتها الروح الطيبة في الجسد الطيب ، كنت تعمريه ، اخرجيني إلى روح وريحان ورب غير غضبان » ^(٢) وقيل : إن الملائكة تنزل عليهم يوم خروجهم من قبورهم . وقال زيد بن أسلم : يبشرونه عند موته وفي قبره وحين يبعث ، وهذا القول يجمع الأقوال كلها وهو حسن جدًا وهو الواقع .

وقوله تبارك وتعالى : ﴿ تَحْنُ أُولَئِكَكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ ﴾ أي تقول الملائكة للمؤمنين عند الاحتضار نحن كنا أولياءكم في الحياة الدنيا نسددكم ونوفقكم ونحفظكم بأمر الله ، وكذلك نكون معكم في الآخرة نؤنس منكم الوحشة في القبور وعند النفخة في الصور ، ونؤمنكم يوم البعث والنشور ، ونجاوز بكم الصراط المستقيم ، ونوصلكم إلى جنات النعيم ﴿ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهُ أَنْفُسُكُمْ ﴾ أي في الجنة من جميع ما تختارون مما تشتهي النفوس وتقر به العيون ﴿ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدْعُونَ ﴾ أي مهما طلبتم وجدتم وحضر بين أيديكم كما اخترتم ﴿ نَزَلًا مِنْ غَفُورٍ رَحِيمٍ ﴾ أي ضيافة وعطاء وإنعامًا من غفور لذنوبكم رحيم بكم رءوف ؛ حيث غفر وستر ورحم ولطف . عن سعيد بن المسيب أنه لقي أبا هريرة ؓ فقال أبو هريرة ؓ : أسأل الله أن يجمع بيني وبينك في سوق الجنة ، فقال سعيد : أوفيهما سوق ؟ فقال : نعم ، أخبرنا رسول الله ﷺ أن أهل الجنة إذا دخلوا فيها ونزلوا بفضل أعمالهم ، فيؤذن لهم في مقدار يوم الجمعة من أيام الدنيا فيزورون الله ﷻ ، ويرز لهم عرشه ، ويتبدى لهم في روضة من رياض الجنة ، ويوضع لهم منابر من نور ، ومنابر من لؤلؤ ، ومنابر من ياقوت ، ومنابر من زبرجد ، ومنابر من ذهب ، ومنابر من فضة ، ويجلس أدناهم وما فيهم دنيء على كنان المسك والكافور ما يرون أن أصحاب الكراسي بأفضل منهم مجلسًا . قال أبو هريرة ؓ : قلت : يا رسول الله وهل نرى ربنا ؟ قال ﷺ : « نعم ، هل تمارون في رؤية الشمس والقمر ليلة البدر ؟ » قلنا : لا . قال ﷺ : « فكذلك لا تمارون في رؤية ربكم تعالى ، ولا يبقى في ذلك المجلس أحد إلا حاضره الله محاضرة ، حتى إنه ليقول للرجل منهم : يا فلان ابن فلان أتذكر يوم عملت كذا وكذا ؟ - يذكره ببعض غدراته في الدنيا - فيقول : أي رب أفلم تغفر لي ؟ فيقول : بلى ، فبسعة مغفرتي بلغت منزلتك هذه » قال : « فبينما هم على ذلك ؛ غشيتهم سحابة من فوقهم فأطمرت عليهم طيما لم يجدوا مثل ريحه شيئًا قط » قال : « ثم يقول ربنا ﷻ : قوموا إلى ما أعددت لكم من الكرامة وخذوا ما اشتهيتم » قال : « فنأتي سوقًا قد حفت به الملائكة ، فيها ما لم تنظر

(١) أخرجه مسلم في الإيمان (٦٢) وأحمد في مسنده (٤١٣/٣) .

(٢) ذكره ابن الجوزي في زاد المسير (٢٥٥/٧) .

العيون إلى مثله ، ولم تسمع الآذان ، ولم يخطر على القلوب ، قال : فيحمل لنا ما اشتهدنا ليس يباع فيه شيء ولا يشتري ، وفي ذلك السوق يلقي أهل الجنة بعضهم بعضاً . قال : فيقبل الرجل ذو المنزلة الرفيعة فيلقى من هو دونه وما فيهم دنيء ، فيروعه ما يرى عليه من اللباس ، فما ينقضي آخر حديثه حتى يتمثل عليه أحسن منه ؛ وذلك لأنه لا ينبغي لأحد أن يحزن فيها ، ثم ننصرف إلى منازلنا ، فيتلقانا أزواجنا فيقبلن : مرحباً وأهلاً بحبيبتنا ، لقد جئت وإن بك من الجمال والطيب أفضل مما فارقتنا عليه ، فيقول : إنا جالسنا اليوم ربنا الجبار تبارك وتعالى ، وبحقنا أن نقلب بمثل ما انقلبنا به ^(١) .

﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴾ وَلَا تَسْتَوِ الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ ﴿ وَمَا يُلْقِيهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلْقِيهَا إِلَّا ذُرٌّ حَقٌّ عَظِيمٌ ﴾ وَإِنَّمَا يَرْزُقُكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْعٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿ .

يقول ﷺ : ﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ ﴾ أي دعا عباد الله إليه ﴿ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴾ أي هو في نفسه مهتد بما يقوله فنفعه لنفسه ولغيره لازم ومتعد ، وليس هو من الذين يأمرون بالمعروف ولا يأتونه وينهون عن المنكر ويأتونه ؛ بل يأتمر بالخير ويترك الشر ويدعو الخلق إلى الخالق تبارك وتعالى ، وهذه عامة في كل من دعا إلى خير وهو في نفسه مهتد ، ورسول الله ﷺ أولى الناس بذلك ، وقيل : المراد بها المؤذنون الصالحاء كما ثبت في صحيح مسلم : « المؤذنون أطول الناس أعناقاً يوم القيامة » ^(٢) وفي السنن مرفوعاً : « الإمام ضامن ، والمؤذن مؤتمن ، فأرشد الله الأئمة ، وغفر للمؤذنين » ^(٣) . وعن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه قال : سهام المؤذنين عند الله تعالى يوم القيامة كسهام المجاهدين وهو بين الأذان والإقامة كالتشحيط في سبيل الله تعالى في دمه . قال : وقال ابن مسعود رضي الله عنه : لو كنت مؤذناً ما باليت أن لا أحج ولا أعتمر ولا أجاهد ، قال : وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه : لو كنت مؤذناً لكمل أمري ، وما باليت أن لا أنتصب لقيام الليل ، ولا لصيام النهار ، سمعت رسول الله ﷺ يقول : « اللهم اغفر للمؤذنين » ثلاثاً ، قال : فقلت : يا رسول الله تركتنا ونحن نجتلد على الأذان بالسيوف ، قال ﷺ : « كلا يا عمر ، إنه سيأتي على الناس زمان يتركون الأذان على ضعفائهم ، وتلك لحوم حرمها الله ﷻ على النار لحوم المؤذنين » ^(٤) قال : وقالت عائشة رضي الله عنها : ولهم هذه الآية ﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴾ ، قالت : فهو المؤذن إذا قال : حي على الصلاة ؛ فقد دعا إلى الله . وعن أبي أمامة الباهلي رضي الله عنه قال في قوله ﷻ : ﴿ وَعَمِلَ صَالِحًا ﴾ يعني صلاة ركعتين بين الأذان والإقامة ^(٥) . وعن أنس بن مالك قال : - قال الثوري : لا أراه إلا قد رفعه إلى النبي ﷺ - : « الدعاء لا يرد بين الأذان والإقامة » ^(٦) . والصحيح أن الآية عامة

(١) أخرجه ابن ماجه في السنن (٤٣٣٦) .

(٢) أخرجه مسلم في الصلاة (١٤) وابن ماجه في السنن (٧٢٥) والبيهقي في السنن (٤٣٣/١) .

(٣) أخرجه أحمد في مسنده (٣٧٨/٢) .

(٤) ذكره الهندي في كثر العمال (٢٣١٥٨) والسيوطي في جمع الجوامع (٩٧٦٨) .

(٥) أخرجه الترمذي في السنن (٣٥٩٤) وأحمد في مسنده (١١٩/٣) .

(٦) أخرجه الترمذي في سننه (٣٥٩٤ ، ٣٥٩٥) والإمام أحمد في مسنده (١١٩/٣) .

في المؤذنين وفي غيرهم فأما حال نزول هذه الآية : فإنه لم يكن الأذان مشروعاً بالكلية ؛ لأنها مكية والأذان إنما شرع بالمدينة بعد الهجرة حين أريه عبد الله بن عبد ربه الأنصاري ﷺ في منامه فقصه على رسول الله ﷺ فأمره أن يلقيه على بلال ﷺ فإنه أندى صوتاً كما هو مقرر في موضعه ؛ فالصحيح إذن أنها عامة ﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ وَحَمَلَ صَبْلًا وَقَالَ إِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴾ .

وقوله تعالى : ﴿ وَلَا تَسْتَوِ الْحَسَنَةُ وَلَا الْأَنِّيَّةُ ﴾ أي فرق عظيم بين هذه وهذه ﴿ أَدْفَعْ بِأَلْيِّ هِي أَحْسَنُ ﴾ أي من أساء إليك فادفعه عنك بالإحسان إليه كما قال عمر ﷺ : ما عاقبت من عصى الله فيك بمثل أن تطيع الله فيه . وقوله ﷻ : ﴿ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ ﴾ وهو الصديق إذا أحسنت إلى من أساء إليك قادته تلك الحسنة إليه إلى مصافاتك ومحبتك والحنو عليك حتى يصير كأنه قريب إليك من الشفقة عليك والإحسان إليك ، ثم قال ﷻ : ﴿ وَمَا يُلْقِيهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا ﴾ أي وما يقبل هذه الوصية ويعمل بها إلا من صبر على ذلك ، فإنه يشق على النفوس ﴿ وَمَا يُلْقِيهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴾ أي ذو نصيب وافر من السعادة في الدنيا والآخرة ، عن ابن عباس في تفسير هذه الآية : أمر الله المؤمنين بالصبر عند الغضب ، والحلم عند الجهل ، والعفو عند الإساءة ، فإذا فعلوا ذلك ؛ عصمهم الله من الشيطان وخضع لهم عدوهم كأنه ولي حميم . وقوله تعالى : ﴿ وَإِنَّمَا يَرْتَعَنُكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْعٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ ﴾ أي إن شيطان الإنس ربما يندفع بالإحسان إليه فأما شيطان الجن فإنه لا حيلة فيه إذا وسوس إلا الاستعاذة بخالقه الذي سلطه عليك ، فإذا استعذت بالله والتجأت إليه ؛ كفه عنك ورد كيده ، وقد كان رسول الله ﷺ إذا قام إلى الصلاة يقول : « أعوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم من همزه ونفخه ونفثه » (١) .

﴿ وَمِنْ ءَايَاتِهِ أَلِيلٌ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ لَا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴾ (٣) فَإِنْ اسْتَكْبَرُوا فَالَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَهُمْ لَا يَسْأَمُونَ ﴿٥﴾ وَمِنْ ءَايَاتِهِ أَنَّا نَرَى أَرْضَ حَبَشَةٍ إِذَا زُلْزِلَتْ عَلَيْهَا أَلَمَةٌ أُمُتَتْ وَرَبَّتْ إِنَّ الَّذِي أَحْيَاهَا لَمَتِي الْمَوْتِ إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ .

يقول تعالى منبهاً خلقه على قدرته وأنه الذي لا نظيره له على ما يشاء قادر ﴿ وَمِنْ ءَايَاتِهِ أَلِيلٌ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ ﴾ أي أنه خلق الليل بظلامه والنهار بضياءه وهما متعاقبان لا يفتران ، والشمس ونورها وإشراقها ، والقمر وضياءه وتقدير منازلها في فلكه واختلاف سيره في سمائه ؛ ليعرف باختلاف سيره وسير الشمس مقادير الليل والنهار ، والجمع والشهور والأعوام ، ويتبين بذلك حلول الحقوق وأوقات العبادات والمعاملات . ثم لما كان الشمس والقمر أحسن الأجرام المشاهدة في العالم العلوي والسفلي ، نبه تعالى على أنهما مخلوقان عبدان من عبيده تحت قهره وتسخيره فقال : ﴿ لَا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ ﴾ إِنْ كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿٥﴾ أي ولا تشركوا به فما تنفعكم عبادتكم له مع عبادتكم لغيره ؛ فإنه لا يغفر أن يشرك به ، ولهذا قال تعالى : ﴿ فَإِنْ اسْتَكْبَرُوا ﴾ أي عن أفراد العبادة له وأبوا إلا أن يشركوا معه غيره ﴿ فَالَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ ﴾ يعني الملائكة ﴿ يُسَبِّحُونَ لَهُ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَهُمْ لَا يَسْأَمُونَ ﴾ عن جابر ﷺ قال : قال رسول الله ﷺ : « لا

تسبوا الليل ولا النهار ، ولا الشمس ولا القمر ، ولا الرياح ؛ فإنها ترسل رحمة لقوم وعذاباً لقوم ^(١) .
 قوله ﴿ وَبَيْنَ يَدَيْهِ ﴾ أي على قدرته على إعادة الموتى ﴿ أَتَىكَ تَرَى الْأَرْضَ خَاشِعَةً ﴾ أي هامة لا نبات فيها بل هي ميتة ﴿ فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ افْعُرَّتْ وَرَبَّتْ ﴾ أي أخرجت من جميع ألوان الزروع والثمار ﴿ إِنَّ إِلَٰهَ الْأَشْيَاءِ أَحْيَاكُمْ لَمَتَى الْمَوْتُ إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ .

﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي آيَاتِنَا لَا يَخَفُونَ عَلَيْنَا أَفَنُيْلِقُ فِي النَّارِ خَيْرٌ أَمْ مَنْ يَأْتِي بَاطِلًا يَوْمَ الْقِيَمَةِ أَعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالذِّكْرِ لَمَّا جَاءَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبٌ عَرِضُونَ ﴾ ﴿ لَا يَأْتِيهِمُ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴾ ﴿ مَا يَقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرَّسُولِ مِنْ قَبْلِكَ إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ ﴾ .
 قوله تبارك وتعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي آيَاتِنَا ﴾ قال ابن عباس : الإلحاد وضع الكلام على غير مواضعه . وقال قتادة وغيره : هو الكفر والعناد . وقوله ﴿ لَا يَخَفُونَ عَلَيْنَا ﴾ فيه تهديد شديد ووعيد أكيد ، أي إنه تعالى عالم بمن يلحد في آياته وأسمائه وصفاته وسيجزيه على ذلك بالعقوبة والتكال ، ولهذا قال تعالى : ﴿ أَفَنُيْلِقُ فِي النَّارِ خَيْرٌ أَمْ مَنْ يَأْتِي بَاطِلًا يَوْمَ الْقِيَمَةِ ﴾ أي أيستوي هذا وهذا ؟ لا يستويان . ثم قال ﴿ تَعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ ﴾ أي من خير أو شر إنه عالم بكم وبصير بأعمالكم ، ولهذا قال : ﴿ إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ ثم قال ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالذِّكْرِ لَمَّا جَاءَهُمْ ﴾ قال الضحاك والسدي وقاتدة : وهو القرآن ﴿ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبٌ عَرِضُونَ ﴾ أي منيع الجانب لا يرام أن يأتي أحد بمثله ﴿ لَا يَأْتِيهِمُ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ ﴾ أي ليس للبطلان إليه سبيل ؛ لأنه منزل من رب العالمين ، ولهذا قال : ﴿ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴾ أي حكيم في أقواله وأفعاله حميد بمعنى محمود أي في جميع ما يأمر به وينهى عنه الجميع محمودة عواقبه وغاياته . ثم قال ﴿ مَا يَقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرَّسُولِ مِنْ قَبْلِكَ ﴾ قال قتادة والسدي وغيرهما : ما يقال لك من التكذيب إلا كما قد قيل للرسل من قبلك ، فكما كذبت كذبوا ، وكما صبروا على أذى قومهم لهم ، فاصبر أنت على أذى قومك لك . وهذا اختيار ابن جرير .
 وقوله تعالى : ﴿ إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ ﴾ أي لمن تاب إليه ﴿ وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ ﴾ أي لمن استمر على كفره وطغيانه وعناده وشقاقه ومخالفته .

﴿ وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَجَبِيًّا لَقَالُوا لَوْلَا فُصِّلَتْ آيَاتُهُ أَفَعْجَبِيٌّ وَعَرَفِيٌّ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَبَيِّنَاتٌ وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي مَآذِنِهِمْ وَقُرْ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى أُولَٰئِكَ يُنَادَوْنَ مِنْ مَكَايِدٍ بُعِيدٍ ﴾ .
 لما ذكر تعالى القرآن وفصاحته وبلاغته وأحكامه في لفظه ومعناه ومع هذا لم يؤمن به المشركون ، نبه على أن كفرهم به كفر عناد وتعنت وكذلك لو أنزل القرآن كله بلغة العجم لقالوا على وجه التعنت والعناد ﴿ لَوْلَا فُصِّلَتْ آيَاتُهُ أَفَعْجَبِيٌّ وَعَرَفِيٌّ ﴾ أي لقالوا هلا أنزل مقصلاً بلغة العرب ولأنكروا ذلك فقالوا : أعجمي وعربي ، أي كيف ينزل كلام أعجمي على مخاطب عربي لا يفهمه ؟ وقيل : المراد بقولهم : ﴿ لَوْلَا فُصِّلَتْ آيَاتُهُ أَفَعْجَبِيٌّ وَعَرَفِيٌّ ﴾ أي هل أنزل بعضها بالأعجمي وبعضها بالعربي ؟ هذا قول الحسن البصري وكان يقرؤها كذلك بلا استفهام في قوله أعجمي وهو رواية عن سعيد بن جبير ^(٢) ، وهو في

(١) أخرجه أبو يعلى في مسنده (٢١٩٢) بلفظه ، والترمذي في السنن (٢٢٥٣) بنحوه .

(٢) قرأ حمزة والكسائي وأبو بكر ﴿ أعجمي ﴾ بهزتين ، وقرأ القواس ﴿ أعجمي ﴾ بهزمة واحدة على وجه الخبر لا على معنى الاستفهام ، وقرأ الباقون ﴿ أعجمي ﴾ بهزمة واحدة ومد . انظر حجة القراءات ص ٦٣٧ .

التعنت والعناد أبلغ ، ثم قال ﷻ : ﴿ قُلْ مَوْ لَدَيْكَ ءَمْرٌأ هُدًى وَشِفَاءٌ ﴾ أي قل يا محمد : هذا القرآن لمن آمن به هدى لقلبه وشفاء لما في الصدور من الشكوك والريب ﴿ وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي ءَاذَانِهِمْ وَقُرْ ﴾ أي لا يفهمون ما فيه ﴿ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى ﴾ أي لا يهتدون إلى ما فيه من البيان ﴿ أُولَٰئِكَ يُنَادُونَكَ مِنْ مَّكَانٍ بَعِيدٍ ﴾ يعني بعيد من قلوبهم . قال ابن جرير : معناه كأن من يخاطبهم يناديهم من مكان بعيد لا يفهمون ما يقول .

قلت : وهذا كقوله تعالى : ﴿ وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَتَّقُ مَاءً لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَاً وَنِدَاً مِمَّنْ جُمِعَ عَنْهُمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ ﴾ وقال الضحاك : ينادون يوم القيامة بأشنع أسمائهم . وقوله تبارك وتعالى : ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَاتَّخِذْ فِيهِ ﴾ أي كُذِبَ وَأُوذِيَ ﴿ وَتَوَلَّى كَلِمَةً سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ إِلَيْكَ أَجَلٍ مُّسَمًّى ﴾ بتأخير الحساب إلى يوم المعاد ﴿ لَقَعْنَى بَيْنَهُمْ ﴾ أي لعجل لهم العذاب ، بل لهم موعد لن يجدوا من دونه موثلاً ﴿ وَإِنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مُرِيبٍ ﴾ أي وما كان تكذيبهم له عن بصيرة منهم لما قالوا بل كانوا شاكين فيما قالوه غير محققين لشيء كانوا فيه .

﴿ مَّنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ ٥٥ ﴾ * إِلَيْهِ يُرَدُّ عِلْمُ السَّاعَةِ وَمَا تَخْرُجُ مِنْ تَحَرَّتْ مِنْ أَكْثَامِهَا وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنْثَى وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ أَتَيْنَ شُرَكَاءَ قَالُوا ءَاذَنَّاكَ مَا مِنَّا مِنْ شَيْءٍ ٥٦ ﴾ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَدْعُونَ مِنْ قَبْلُ وَظَنَّوْا مَا لَمْ يَنْ يَحْيِصْ .

يقول تعالى : ﴿ مَّنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ ﴾ أي إنما يعود نفع ذلك على نفسه ﴿ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا ﴾ أي إنما يرجع وبال ذلك عليه ﴿ وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ ﴾ أي لا يعاقب أحداً إلا بذنبه ولا يعذب أحداً إلا بعد قيام الحجة عليه وإرسال الرسول إليه . ثم قال جل وعلا : ﴿ إِلَيْهِ يُرَدُّ عِلْمُ السَّاعَةِ ﴾ أي لا يعلم ذلك أحد سواه كما قال محمد ﷺ - وهو سيد البشر - لجبريل عليه الصلاة والسلام - وهو من سادات الملائكة - حين سأله عن الساعة فقال : « ما المسؤول عنها بأعلم من السائل » ^(١) وقوله تبارك وتعالى :

﴿ وَمَا تَخْرُجُ مِنْ تَحَرَّتْ مِنْ أَكْثَامِهَا وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنْثَى وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِ ﴾ أي الجميع بعلمه ، لا يعزب عن علمه مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء ، وقد قال ﷻ : ﴿ وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا بِأَعْلَمِهَا ﴾ .

وقوله جل وعلا : ﴿ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ أَتَيْنَ شُرَكَاءَ ﴾ أي يوم القيامة ينادي الله المشركين على رؤوس الخلائق ، أين شركائي الذين عبدتموهم معي ؟ ﴿ قَالُوا ءَاذَنَّاكَ ﴾ أي أعلمناك ﴿ مَا مِنَّا مِنْ شَيْءٍ ﴾ أي ليس أحد منا يشهد اليوم أن معك شريكا ﴿ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَدْعُونَ مِنْ قَبْلُ ﴾ أي ذهبوا فلم ينفعوهم ﴿ وَظَنَّوْا مَا لَمْ يَنْ يَحْيِصْ ﴾ أي وظن المشركون يوم القيامة وهذا بمعنى اليقين ﴿ مَا لَمْ يَنْ يَحْيِصْ ﴾ أي لا محيد لهم عن عذاب الله .

﴿ لَا يَسْمَعُ الْإِنْسَانُ مِنْ دُعَاِ الْخَيْرِ وَإِنْ مَسَّهُ الشَّرُّ فَيَئُوسٌ قَوُتٌ ٥٧ ﴾ وَلَٰكِنْ أَذَقْنَاهُ رَحْمَةً مِنَّا مِنْ بَعْدِ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ هَذَا لِي وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَٰكِنْ رُجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّي إِنَّ لِي عِنْدَهُ لَلْحُسْبَىٰ فَلَنُنَبِّئَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِمَا عَمِلُوا وَلَنُذِيقَنَّهُمْ مِنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ ٥٨ ﴾ وَإِذَا أُنْمِتْنَا عَلَى الْإِنْسَانِ أُغْرِضَ وَتَا بِيحَانِهِ وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ فَذُو دُعَاٍ عَرِيضٍ .

يقول تعالى : لا يمل الإنسان من دعاء ربه بالخير وهو المال وصحة الجسم وغير ذلك ؛ فإن مسه الشر وهو البلاء أو الفقر ﴿ فَيُؤْتِي قُتُوبٌ ﴾ أي يقع في ذهنه أنه لا يتهيأ له بعده هذا خير ﴿ وَلَئِنْ أَذَقْتَهُ رَحْمَةً مِنَّا مِنْ بَعْدِ ضَرْبَةٍ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ هَذَا لِي ﴾ أي إذا أصابه خير ورزق بعد ما كان في شدة ليقولن هذا لي إني كنت أستحقه عند ربي ﴿ وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً ﴾ أي يكفر بقيام الساعة أي لأجل أنه خول نعمة يطر ويفخر ويكفر ﴿ وَلَئِنْ رُجِعْتُ لِمِ رَبِّي إِنَّ لِي عِندَهُ لَلْحُسْنَى ﴾ أي ولئن كان ثم معاد فليحسنن إلي ربي كما أحسن إلي في هذه الدار ، يتمنى على الله ﷻ مع إساءته العمل وعدم اليقين ، قال الله تبارك وتعالى : ﴿ فَلَنُنَبِّئَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِمَا عَمِلُوا وَلَنُذِيقَنَّهُمْ مِنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴾ يتهدد تعالى من كان هذا عمله واعتقاده بالعقاب والنعكال . ثم قال تعالى : ﴿ وَإِذَا أَمْنًا عَلَى الْإِنْسَانِ أَعْرَضَ وَنَأَى بِجَانِبِهِ ﴾ أي أعرض عن الطاعة واستكبر عن الانقياد لأوامر الله ﷻ ﴿ وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ ﴾ أي الشدة ﴿ فَدُودِعَا عَرِيضٍ ﴾ أي يطيل المسألة في الشيء الواحد ؛ فالكلام العريض ما طال لفظه وقل معناه ، والوجيز عكسه وهو ما قل ودل .

﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كَانَ مِنْ عِندِ اللَّهِ ثُمَّ كَفَرْتُمْ بِهِ مِنْ أَسْأَلُ مِمَّنْ هُوَ فِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ ۝ أَيْنَبْنَا فِي الْأَفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَبَيِّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ۝ أَلَا إِنَّهُمْ فِي مِرْيَةٍ مِنْ لِقَاءِ رَبِّهِمْ أَلَا إِنَّهُمْ بِكُلِّ شَيْءٍ مُحِيطُونَ ۝ ﴾

يقول تعالى : ﴿ قُلْ ﴾ يا محمد لهؤلاء المشركين المكذبين بالقرآن ﴿ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كَانَ ﴾ هذا القرآن ﴿ مِنْ عِندِ اللَّهِ ثُمَّ كَفَرْتُمْ بِهِ ﴾ أي كيف ترون حالكم عند الذي أنزله على رسوله ؟ ولهذا قال ﷻ : ﴿ مَنْ أَسْأَلُ مِمَّنْ هُوَ فِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ ﴾ أي في كفر وعناد ومشاقة للحق ومسلوك بعيد من الهدى ثم قال ﷻ : ﴿ سَرُّبِهِمْ ۝ أَيْنَبْنَا فِي الْأَفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ ﴾ أي سنظهر لهم دلالاتنا وحججنا على كون القرآن حقاً منزلاً من عند الله على رسول الله ﷺ بدلائل خارجية ﴿ فِي الْأَفَاقِ ﴾ من الفتوحات وظهور الإسلام على الأقاليم وسائر الأديان ، قال مجاهد والحسن والسدي : ودلائل في أنفسهم قالوا : وقعة بدر وفتح مكة ونحو ذلك من الوقائع التي حلت بهم نصر الله فيها محمداً ﷺ وصحبه وخذل فيها الباطل وحزبه .

وقوله تعالى : ﴿ حَتَّى يَبَيِّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴾ أي كفى بالله شهيداً على أفعال عباده وأقوالهم وهو يشهد أن محمداً ﷺ صادق فيما أخبر به عنه كما قال : ﴿ لَكِنَّ اللَّهَ يَشْهَدُ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ أَنْزَلَهُ بِحُكْمِهِ ۝ ﴾ الآية . وقوله تعالى : ﴿ أَلَا إِنَّهُمْ فِي مِرْيَةٍ مِنْ لِقَاءِ رَبِّهِمْ ﴾ أي في شك من قيام الساعة ، ولهذا لا يتفكرون فيه ولا يعملون له ولا يحذرون منه ؛ بل هو عندهم هدر لا يعبأون به وهو كائن لا محالة وواقع لا ريب فيه . عن سعيد الأنصاري قال : إن عمر بن عبد العزيز رحمه الله صعد المنبر فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال : أما بعد : أيها الناس فإني لم أجمعكم لأمر أحدثه فيكم ، ولكن فكرت في هذا الأمر الذي أنتم إليه صائرون ، فعلمت أن المصدق بهذا الأمر أحق والمكذب به هالك ، ثم نزل . ومعنى قوله ﷻ : إن المصدق به أحق : أي لأنه لا يعمل له عمل مثله ، ولا يحذر منه ، ولا يخاف من هوله ، وهو مع ذلك مصدق به موقن

بوقوعه ، وهو مع ذلك يتمادى في لعبه وغفلته وشهواته وذنوبه ، فهو أحمق بهذا الاعتبار ، والأحمق في اللغة ضعيف العقل ، وقوله : والمكذب به هالك ، هذا واضح ، واللّه أعلم . ثم قال تعالى مقررًا أنه على كل شيء قدير وبكل شيء محيط ، وإقامة الساعة لديه يسير سهل عليه تبارك وتعالى : ﴿ أَلَا إِنَّكُمْ يَكُودُونَ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ لَا تَأْمِنُونَ بِنِعْمَةِ اللَّهِ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ أي المخلوقات كلها تحت قهره وفي قبضته وتحت طي علمه ، وهو المتصرف فيها كلها بحكمه فما شاء كان ، وما لم يشأ لم يكن لا إله إلا هو .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿حَمْدٌ ۝ عَسَىٰ ۝ كَذَٰلِكَ يُوحَىٰ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ۝﴾ لَمْ يَأْتِ فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ
وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ ۝ تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْ دُخَانٍ مُسَبَّحَةٍ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَنْ فِي الْأَرْضِ
أَلَا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ۝ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ اللَّهُ حَفِيفٌ عَلَيْهِمْ وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ ۝ .
قد تقدم الكلام على الحروف المقطعة . وقوله ﴿كَذَٰلِكَ يُوحَىٰ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ اللَّهُ الْعَزِيزُ
الْحَكِيمُ﴾ أي كما أنزل إليك هذا القرآن ، كذلك أنزل الكتب والصحف ، على الأنبياء قبلك .
وقوله تعالى : ﴿اللَّهُ الْعَزِيزُ﴾ أي في انتقامه ﴿الْحَكِيمُ﴾ في أقواله وأفعاله .

عن عائشة رضي الله عنها قالت : إن الحارث بن هشام سأل رسول الله فقال : يا رسول الله كيف يأتيك
الوحي ؟ فقال رسول الله ﷺ : « أحياناً يأتيني مثل صلصلة الجرس وهو أشده علي ، فيفصم عني
وقد وعيت ما قال ، وأحياناً يأتيني الملك رجلاً فيكلمني فأعي ما يقول » قالت عائشة رضي الله عنها : فلقد
رأيتُه ينزل عليه الوحي في اليوم الشديد البرد فيفصم عنه وإن جبينه ليتفصد عرقاً ^(١) . وقوله تبارك
وتعالى : ﴿لَمْ يَأْتِ فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ أي الجميع عبيد له وملك له تحت قهره وتصريفه ﴿وَهُوَ
الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ﴾ . وقوله ﴿تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْ دُخَانٍ مُسَبَّحَةٍ﴾ أي فرقا من العظمة ﴿وَاللَّاتِكَةِ
يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَنْ فِي الْأَرْضِ﴾ كقوله جل وعلا ﴿الَّذِينَ يَمْلِكُونَ الْغَشَقَ وَنَحْوَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ
رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَعِلْمًا﴾ وقوله ﴿أَلَا إِنَّ اللَّهَ هُوَ
الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ إعلام بذلك وتنويه به ، وقوله ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ﴾ يعني المشركين
﴿اللَّهُ حَفِيفٌ عَلَيْهِمْ﴾ أي شهيد على أعمالهم يحصيها ويعدّها عدلاً ، وسيجزئهم بها أوفر الجزاء ﴿وَمَا أَنْتَ
عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ﴾ أي إنما أنت نذير والله على كل شيء وكيل .

﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِنُنْذِرَ أُمَّ الْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا وَنُنْذِرَ يَوْمَ الْلَٰمَةِ لَا رَبَّ فِيهِ فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي
السَّعِيرِ ۝ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَهُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ يُدْخِلُ مَنْ يَشَاءُ فِي رَحْمَتِهِ وَالظَّالِمُونَ مَا لَهُمْ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ۝ .
يقول تعالى : وكما أوحينا إلى الأنبياء قبلك ﴿أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ قُرْآنًا عَرَبِيًّا﴾ أي واضحاً جليلاً يتنا
﴿لِنُنْذِرَ أُمَّ الْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا﴾ وهي مكة ﴿وَمَنْ حَوْلَهَا﴾ أي من سائر البلاد شرقاً وغرباً ، وسميت مكة أم
القرى ؛ لأنها أشرف من سائر البلاد لأدلة كثيرة مذكورة في مواضعها ، ومن أوجز ذلك وأدله ما
قال عبد الله بن عدي بن الحمراء الزهري أنه سمع رسول الله ﷺ يقول وهو واقف بالحزورة في
سوق مكة : « والله إنك لخير أرض الله وأحب أرض الله إلى الله ، ولولا أنني أخرجت منك ما
خرجت » ^(٢) . وقوله ﴿وَنُنْذِرَ يَوْمَ الْلَٰمَةِ﴾ وهو يوم القيامة يجمع الله الأولين والآخرين في
صعيد واحد . قوله تعالى : ﴿لَا رَبَّ فِيهِ﴾ أي لا شك في وقوعه وأنه كائن لا محالة ، وقوله جل

(١) أخرجه البخاري في بدء الخلق (٢) .

(٢) أخرجه أحمد في مسنده (٣٠٥/٤) والترمذي في السنن (٣٩٢٥) والحاكم في المستدرک (٧/٣) والدارمي في السنن (٢٣٩/٢) .

وعلا : ﴿ فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ ﴾ كقوله تعالى : ﴿ يَوْمَ يَجْمَعُكُمُ إِلَهُكُمْ يَوْمَ الْفَاقَاتِ ﴾ أي يغبن أهل الجنة أهل النار ، عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنه قال : خرج علينا رسول الله ﷺ وفي يده كتابان فقال : « أتدرون ما هذان الكتابان ؟ » قلنا : لا ، إلا أن نخبرنا يا رسول الله . قال ﷺ للذي في يمينه : « هذا كتاب من رب العالمين بأسماء أهل الجنة وأسماء آبائهم وقبائلهم - ثم أجمل على آخرهم - لا يزداد فيهم ولا ينقص منهم أبداً » - ثم قال ﷺ للذي في يساره : « هذا كتاب أهل النار بأسمائهم وأسماء آبائهم وقبائلهم ، ثم أجمل على آخرهم لا يزداد فيهم ولا ينقص منهم أبداً » فقال أصحاب رسول الله ﷺ : فلأي شيء نعمل إن كان هذا أمر قد فرغ منه ؟ قال رسول الله ﷺ : سدّدوا وقاربوا ، فإن صاحب الجنة يختم له بعمل أهل الجنة وإن عمل أي عمل ، وإن صاحب النار يختم له بعمل أهل النار ، وإن عمل أي عمل » ثم قال ﷺ بيده فقبضها ثم قال : « فرغ ربكم ﷻ من العباد » - ثم قال باليمين فنبذ بها فقال - « فريق في الجنة - ونبذ باليسرى وقال - فريق في السعير » ^(١) وعن أبي نضرة قال : إن رجلاً من أصحاب النبي ﷺ يقال له : أبو عبد الله دخل عليه أصحابه يعني يزورونه فوجدوه يبكي ، فقالوا له : ما يبكيك ؟ ألم يقل لك رسول الله ﷺ : « خذ من شاربك ثم أفره حتى تلقاني ؟ » ، قال : بلى ، ولكن سمعت رسول الله ﷺ يقول : « إن الله تعالى قبض يمينه قبضة وأخرى باليد الأخرى قال : هذه لهذه ، وهذه لهذه ولأبالي » فلا أدري في أي القبضتين أنا ^(٢) . وقوله تبارك وتعالى : ﴿ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَهُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً ﴾ أي إما على الهداية أو على الضلالة ، ولكنه تعالى فاوت بينهم ، فهدى من يشاء إلى الحق ، وأضل من يشاء عنه ، وله الحكمة والحجة البالغة ، ولهذا قال ﷻ : ﴿ وَلَكِنْ يُدْخِلُ مَنْ يَشَاءُ فِي رَحْمَتِهِ وَالظَّالِمُونَ مَا لَهُمْ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴾ .

عن ابن حجرية أنه بلغه أن موسى عليه الصلاة والسلام قال : يا رب خلّك ، الذين خلقتهم جعلت منهم فريقاً في الجنة وفريقاً في النار ، لوما أدخلتهم كلهم الجنة ؟ فقال : يا موسى ارفع درعك ، فرفع ، قال : قد رفعت ، قال : ارفع ، فرفع ، فلم يترك شيئاً ، قال : يا رب قد رفعت ، قال : ارفع ، قال : قد رفعت إلا ما لا خير فيه ، قال : كذلك أدخل خلقي كلهم الجنة إلا ما لا خير فيه ^(٣) .

﴿ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ فَاَللَّهُ هُوَ الْوَلِيُّ وَهُوَ يُحْيِي الْمَوْتِ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ٩ وَمَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِنْ شَيْءٍ فَحُكْمُهُ إِلَى اللَّهِ ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبِّي عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ١٠ فَاطِرُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَمِنَ الْأَنْعَامِ أَزْوَاجًا يَذُرُّكُمْ فِيهِ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ١١ لَكُمْ مَقَالِيدُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّكُمْ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ١٢ ﴾ .

يقول تعالى منكراً على المشركين في اتخاذهم آلهة من دون الله ومخبراً أنه هو الولي الحق الذي لا تنبغي العبادة إلا له وحده ، فإنه هو القادر على إحياء الموتى وهو على كل شيء قدير . ثم قال ﷻ : ﴿ وَمَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِنْ شَيْءٍ فَحُكْمُهُ إِلَى اللَّهِ ﴾ أي مهما اختلفتم فيه من الأمور وهذا عام في جميع الأشياء ﴿ فَحُكْمُهُ

(١) أخرجه أحمد في مسنده (١٦٧/٢) والترمذي في السنن (٢١٤١) .

(٢) أخرجه أحمد في مسنده (١٧٦/٤) والألباني في الصحيحة (٤٧) .

(٣) ذكره الطبري في تفسيره (١٥/٢٥) .

إِلَى اللَّهِ ﴿ أَيُّهُوَ الْحَاكِمُ فِيهِ بِكِتَابِهِ وَسُنَّةِ نَبِيِّهِ ﷺ ﴾ ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبِّي ﴿ أَيُّ الْحَاكِمِ فِي كُلِّ شَيْءٍ ﴾ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ لُيُبْتُ ﴿ أَيُّ أَرْجِعُ فِي جَمِيعِ الْأُمُورِ ﴾ وَقَوْلُهُ ﷻ : ﴿ قَاطِرُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ أَيُّ خَالِقَهُمَا وَمَا بَيْنَهُمَا ﴿ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا ﴾ أَيُّ مِنْ جَنْسِكُمْ وَشَكْلِكُمْ مَنَّةً عَلَيْكُمْ وَتَفَضُّلاً جَعَلَ مِنْ جَنْسِكُمْ ذَكَرًا وَأُنْثَى ﴿ وَمِنَ الْأَنْعَامِ أَزْوَاجًا ﴾ أَيُّ وَخَلَقَ لَكُمْ مِنَ الْأَنْعَامِ ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ . وَقَوْلُهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى ﴿ يَذَرُوكُمْ فِيهِ ﴾ أَيُّ يَخْلُقُكُمْ فِيهِ أَيُّ فِي ذَلِكَ الْخَلْقِ عَلَى هَذِهِ الصِّفَةِ لَا يَزَالُ يَذَرُوكُمْ فِيهِ ذَكَرًا وَإِنَاثًا خَلْقًا مِنْ بَعْدِ خَلْقٍ وَجِيلًا بَعْدَ جِيلٍ ، وَنَسَلًا بَعْدَ نَسْلِ مِنَ النَّاسِ وَالْأَنْعَامِ ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ ﴾ أَيُّ لَيْسَ كَخَالِقِ الْأَزْوَاجِ كُلِّهَا شَيْءٌ ؛ لِأَنَّهُ الْفَرْدُ الصَّمَدُ الَّذِي لَا نَظِيرَ لَهُ ﴿ وَمَوَدَّ السَّيِّعِ الْبَصِيرُ ﴾ . وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ لَمْ يَمَالِكِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ الْمَتَصَرِّفُ الْحَاكِمُ فِيهِمَا ﴿ يَسْطُرُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ ﴾ أَيُّ يَوْسَعُ عَلَى مَنْ يَشَاءُ وَيَضِيقُ عَلَى مَنْ يَشَاءُ ، وَلَهُ الْحِكْمَةُ وَالْعَدْلُ التَّامُ ﴿ إِنَّهُ يَكُلُّ شَيْءًا عَلِيمٌ ﴾ .

﴿ شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ يُنِيبُ ﴾ ﴿ وَمَا تَفَرَّقُوا إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَلَاءُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى لَفُتِنَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ أُورِثُوا الْكُتُبَ مِنْ بَعْدِهِمْ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٌ ﴾ .

يقول تعالى لهذه الأمة أن أول الرسل بعد آدم ﷺ وهو نوح ﷺ وآخرهم وهو محمد ﷺ . ثم ذكر من بين ذلك من أولي العزم : وهم إبراهيم وموسى وعيسى ابن مريم . وهذه الآية انتظمت ذكر الخمسة والدين والذي جاءت به الرسل كلهم هو عبادة الله وحده لا شريك له كما قال ﷻ : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ ﴾ وفي الحديث : « نحن معشر الأنبياء أولاد علات ، ديننا واحد » ^(١) أي القدر المشترك بينهم هو عبادة الله وحده لا شريك له وإن اختلفت شرائعهم ومناهجهم ولهذا قال تعالى ههنا : ﴿ أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ ﴾ أَيُّ وَصَّى اللَّهُ تَعَالَى جَمِيعَ الْأَنْبِيَاءِ عَلَيْهِمُ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ بِالْإِتِّلَافِ وَالْجَمَاعَةِ . ونهاهم عن الافتراق والاختلاف . وقوله ﷻ : ﴿ كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ ﴾ أَيُّ شَقَّ عَلَيْهِمْ وَأَنْكَرُوا مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ يَا مُحَمَّدُ مِنَ التَّوْحِيدِ . ثم قال ﷻ : ﴿ اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ يُنِيبُ ﴾ أَيُّ هُوَ الَّذِي يَقْدِرُ الْهَدَايَةَ لِمَنْ يَسْتَحِقُّهَا وَيَكْتُبُ الضَّلَالَةَ عَلَى مَنْ أَثَرَهَا عَلَى طَرِيقِ الرُّشْدِ ، ولهذا قال تبارك وتعالى : ﴿ وَمَا تَفَرَّقُوا إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَلَاءُ ﴾ أَيُّ إِنَّمَا كَانَ مَخَالَفَتُهُمْ لِلْحَقِّ بَعْدَ بُلُوغِهِ الْبِهِمُ وَقِيَامِ الْحُجَّةِ عَلَيْهِمْ وَمَا حَمَلَهُمْ عَلَى ذَلِكَ إِلَّا الْبَغْيُ وَالْعِنَادُ وَالْمَشَاقَّةُ . ثم قال ﷻ : ﴿ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى ﴾ أَيُّ لَوْلَا الْكَلِمَةُ السَّابِقَةُ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى بِإِنْظَارِ الْعِبَادِ بِإِقَامَةِ حَسَابِهِمْ إِلَى يَوْمِ الْمَعَادِ لَعَجَلَ عَلَيْهِمُ الْعُقُوبَةُ فِي الدُّنْيَا سَرِيعًا . وقوله جلَّتْ عَظَمَتُهَا : ﴿ وَإِنَّ الَّذِينَ أُورِثُوا الْكُتُبَ مِنْ بَعْدِهِمْ ﴾ يَعْنِي الْجِيلَ الْمُتَأَخِّرَ بَعْدَ الْقَرْنِ الْأَوَّلِ الْمَكْذُوبَ لِلْحَقِّ ﴿ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٌ ﴾ أَيُّ لَيْسُوا عَلَى يَقِينٍ مِنْ أَمْرِهِمْ وَإِيمَانِهِمْ وَإِنَّمَا هُمْ مُقْلِدُونَ لِأَبَائِهِمْ وَأَسْلَافِهِمْ بِلَا دَلِيلٍ وَلَا بُرْهَانٍ ، وَهُمْ فِي حَيْرَةٍ مِنْ أَمْرِهِمْ وَشَكٍّ مُرِيبٍ وَشَقَاقٍ بَعِيدٍ .

﴿ فَلِذَلِكَ فَادْعُ وَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَقُلْ مِمَّا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ كُتُبٍ وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ

يَتَّبِعُكُمْ اللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ لَنَّا أَفْعَلْنَا وَلَكُمُ أَعْمَلُكُمْ لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ اللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ ﴿١٦﴾ .
اشتملت هذه الآية الكريمة على عشر كلمات مستقلة ، كل منها منفصلة عن التي قبلها حكم برأسها ، قالوا : ولا نظير لها سوى آية الكرسي ، فإنها أيضًا عشرة فصول كهذه .

وقوله : ﴿ فَلِلَّهِ قَادِرٌ ﴾ أي فللذي أوحينا إليك من الدين الذي وصينا به جميع المرسلين قبلك ، أصحاب الشرائع الكبار التابعة كأولي العزم وغيرهم فادع الناس إليه . وقوله ﴿ وَاسْتَقِمْ كَمَا أَمَرْتُ ﴾ أي واستقم أنت ومن اتبعك على عبادة الله تعالى كما أمركم الله ﷻ ، وقوله تعالى : ﴿ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ ﴾ يعني المشركين فيما اختلقوه وكذبوه وافتروه من عبادة الأوثان .

وقوله جل وعلا : ﴿ وَقُلْ ءَأَمْسَتْ يَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنْ كِتَابٍ ﴾ أي صدقت بجميع الكتب المنزلة من السماء على الأنبياء ، لا نفرق بين أحد منهم . وقوله : ﴿ وَأَمَرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ ﴾ أي في الحكم كما أمرني الله ، وقوله جل وعظمته : ﴿ اللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ ﴾ أي هو المعبود لا إله غيره ، فنحن نقر بذلك اختيارًا وأنتم وإن لم تفعلوه اختيارًا ؛ فله يسجد من في العالمين طوعًا واجبارًا . وقوله تبارك وتعالى : ﴿ لَنَّا أَعْمَلْنَا وَلَكُمُ أَعْمَلُكُمْ ﴾ أي نحن برآء منكم ، وقوله تعالى : ﴿ لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ﴾ قال مجاهد : أي لا خصومة : وقوله ﷻ : ﴿ اللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا ﴾ أي يوم القيامة ، وقوله جل وعلا : ﴿ وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ ﴾ أي المرجع والمآب يوم الحساب .

﴿ وَالَّذِينَ يُحَاجُّوكَ فِي اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا اسْتَجِيبَ لَهُمْ فَجَاءَهُمْ دَاحِضَةٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ﴾ ﴿١٧﴾ الله الَّذِي أَنْزَلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَالْمِيزَانَ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ قَرِيبٌ ﴿١٨﴾ يَسْتَعْجِلُ بِهَا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مُشْفِقُونَ مَنَّا وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا الْحَقُّ أَلَا إِنَّ الَّذِينَ يُعَاذِرُونَ فِي السَّاعَةِ لَفِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ ﴿١٩﴾ .

يقول تعالى متوعدًا الذين يصدون عن سبيل الله من آمن به ﴿ وَالَّذِينَ يُحَاجُّوكَ فِي اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا اسْتَجِيبَ لَهُمْ ﴾ أي يجادلون المؤمنين المستجيبين لله ولرسوله ليصدوهم عما سلكوه من طريق الهدى ﴿ فَجَاءَهُمْ دَاحِضَةٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ ﴾ أي باطلة عند الله ﴿ وَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ ﴾ أي منه ﴿ وَلَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ﴾ أي يوم القيامة ، وقال قتادة : هم اليهود والنصارى ، قالوا لهم : ديننا خير من دينكم ونبينا قبل نبيكم ، ونحن خير منكم وأولى بالله منكم ، وقد كذبوا في ذلك . ثم قال تعالى : ﴿ اللَّهُ الَّذِي أَنْزَلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ ﴾ يعني الكتب المنزلة من عنده على أنبيائه ﴿ وَالْمِيزَانَ ﴾ وهو العدل والإنصاف ، قاله مجاهد وقاتادة ، وهذه كقوله تعالى : ﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ ﴾ ﴿١٨﴾ وَالسَّاعَةَ رَفَعْنَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ ﴿١٩﴾ . وقوله تبارك وتعالى : ﴿ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ قَرِيبٌ ﴾ فيه ترغيب فيها وترهيب منها وترهيد في الدنيا .

وقوله ﷻ : ﴿ يَسْتَعْجِلُ بِهَا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا ﴾ أي يقولون متى هذا الوعد إن كنتم صادقين ، وإنما يقولون ذلك تكذيبًا واستبعادًا وكفرًا وعنادًا ﴿ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مُشْفِقُونَ مَنَّا ﴾ أي خائفون وجلون من وقوعها ﴿ وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا الْحَقُّ ﴾ أي كائنة لا محالة ؛ فهم مستعدون لها عاملون من أجلها . وقد روي أن رجلاً سأل رسول الله ﷺ بصوت جهوري وهو في بعض أسفاره ، فناداه فقال : يا محمد ، فقال له رسول الله ﷺ نحوًا من صوته « هاؤم » ، فقال له : متى الساعة ؟ فقال رسول الله ﷺ ويحك إنها كائنة فما أعددت لها ؟ فقال : حب الله ورسوله . فقال ﷺ : « أنت مع من

أحببت» ^(١) ، والغرض أنه لم يجبه عن وقت الساعة بل أمره بالاستعداد لها . وقوله تعالى : ﴿ هَلْ أَتَىٰ عَلَى الَّذِينَ يَمَارُؤْنَ فِي السَّاعَةِ ﴾ أي يجادلون في وجودها ويدفعون وقوعها ﴿ لَعْنَى ضَلَالٍ بَعِيدٍ ﴾ أي في جهل بين ؛ لأن الذي خلق السموات والأرض قادر على إحياء الموتى بطريق الأولى والأخرى ؟ كما قال تعالى : ﴿ وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَقْوَمُ عَلَيْهِ ﴾ .

﴿ اللَّهُ لَطِيفٌ بِمَا يَصَادُونَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ ١٩ ﴾ مَنْ كَانَتْ يُرِيدُ حَرْثَ الْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ وَمَنْ كَانَتْ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ نَصِيبٍ ٢٠ أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ شَرَعُوا لَهُمْ مِنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنْ بِهِ اللَّهُ وَلَوْلَا كَلِمَةُ الْفَصْلِ لَفُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ٢١ تَرَى الظَّالِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا كَسَبُوا وَهُمْ وَاقِعٌ بِهِمْ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَصَلُوا الصَّالِحِينَ فِي رَوْحَاتٍ الْجَنَّاتِ لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ ٢٢ .

يقول تعالى مخبراً عن لطفه بخلقه في رزقه إياهم عن آخرهم لا ينسى أحدا منهم ، سواء في رزقه البر والفاجر ، وقوله جل وعلا : ﴿ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ ﴾ أي يوسع على من يشاء ﴿ وَهُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ ﴾ أي لا يعجزه شيء ثم قال ﷻ ﴿ مَنْ كَانَتْ يُرِيدُ حَرْثَ الْآخِرَةِ ﴾ أي عمل الآخرة ﴿ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ ﴾ أي تقويه ونعيته على ما هو بصدده ونكثرت غناؤه ونجزه بالحسنة عشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف إلى ما يشاء الله ﴿ وَمَنْ كَانَتْ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ نَصِيبٍ ﴾ أي ومن كان إنما سعيه ليحصل له شيء من الدنيا وليس له إلى الآخرة هم البتة بالكلية ؛ حرمة الله الآخرة ؛ والدنيا إن شاء أعطاه منها ، وإن لم يشأ لم يحصل لا هذه ولا هذه ، وفاز الساعي بهذه النية بالصفقة الخاسرة في الدنيا والآخرة ، والدليل على هذا أن هذه الآية ههنا مقيدة بالآية التي في سبحان وهي قوله تبارك وتعالى : ﴿ مَنْ كَانَتْ يُرِيدُ الْمَالَةَ عَجَلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَنْ نُرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُمْ جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا مَذْمُومًا مَدْحُورًا ٢٣ وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ كَانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُورًا ٢٤ كَلَّا نَبْذُلُهُمْ وَنُؤَلِّهُ مِنْ عَطَايَ رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَايَ رَبِّكَ مَحْظُورًا ٢٥ أَنْتَزِعْ كَيْفَ نَضَلُّنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ وَلِلْآخِرَةِ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا ﴾ .

عن أبي بن كعب ؓ قال : قال رسول الله ﷺ : « بشر هذه الأمة بالسنة والرفعة والنصر والتمكين في الأرض ، فمن عمل منهم عمل الآخرة للدنيا ، لم يكن له في الآخرة من نصيب » ^(٢) .

وقوله جل وعلا : ﴿ أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ شَرَعُوا لَهُمْ مِنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنْ بِهِ اللَّهُ ﴾ أي هم لا يتبعون ما شرع الله لك من الدين القويم ، بل يتبعون ما شرع لهم شياطينهم من الجن والإنس من تحريم ما حرموا عليهم من البحيرة والسائبة والوصيلة والحام ، وتحليل أكل الميتة والدم والقمار إلى نحو ذلك من الضلالات والجهالات الباطلة التي كانوا قد اخترعوها في جاهليتهم من التحليل والتحريم والعبادات الباطلة والأموال الفاسدة ، وقد ثبت أن رسول الله ﷺ قال : « رأيت عمرو بن لحي بن قمعة يجرقصبه في النار » ؛ لأنه أول من سبب السوائب ^(٣) . وكان هذا الرجل أحد ملوك خزاعة ، وهو أول من فعل هذه الأشياء ، وهو

(١) أخرجه البخاري في الأدب (٦١٦٧) .

(٢) أخرجه أحمد في مسنده (١٣٤/٥) والحاكم في المستدرک (٤٤٤/٤) والمنذري في الترغيب والترهيب (٦٢/١) .

(٣) أخرجه مسلم في الجنة وصفة نعيمها (٥) وأحمد في مسنده (٢٧٥/٢) .

الذي حمل قريشاً على عبادة الأصنام ، لعنه الله وقبحه ، ولهذا قال تعالى : ﴿ وَلَوْلَا كَلِمَةُ الْفَصْلِ لَفُصِّىَ بَيْنَهُمْ ﴾ أي لعوجلوا بالعقوبة لولا ماتقدم من الإنظار إلى يوم المعاد ﴿ وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ أي شديد موجه في جهنم وبئس المصير . ثم قال تعالى : ﴿ تَرَى الظَّالِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا كَسَبُوا ﴾ أي في عرصات القيامة ﴿ وَهُوَ رَاقِعٌ بِهِمْ ﴾ أي الذي يخافون منه واقع بهم لامحالة هذا حالهم يوم معادهم وهم في هذا الخوف والوجل ﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فِي رَوْضَاتِ الْجَنَّاتِ لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ ﴾ فأين هذا من هذا ؟ أي أين من هو في العرصات في الذل والهوان والخوف المحقق عليه بظلمه من هو في روضات الجنات فيما يشاء من مآكل ومشارب وملابس ومسكن ومناظر ومناجح وملاذ مما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر ، ولهذا قال تعالى : ﴿ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ ﴾ أي الفوز العظيم والنعمة التامة السابعة الشاملة العامة .

﴿ ذَلِكَ الَّذِي يُبَيِّرُ اللَّهُ عِبَادَهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَىٰ وَمَن يَقَرِّضْ حَسَنَةً نَّزِدْ لَهُ فِيهَا حَسَنًا إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ شَكُورٌ ﴾ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا فَإِنِ إِيَّاهُ يَخْتَارُ عَلَىٰ فَلَإِنَّ اللَّهَ يَسْمَعُ الْكَلِمَ الْبَاطِلَ وَيُخَوِّفُ الْخَوْفَ يَكْفُرُونَ إِنَّهُمْ عَلَيْهِمْ يَذَاتِ الصُّدُورِ .

يقول تعالى لما ذكر روضات الجنات ، لعباده الذين آمنوا وعملوا الصالحات ﴿ ذَلِكَ الَّذِي يُبَيِّرُ اللَّهُ عِبَادَهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ﴾ أي هذا حاصل لهم كائن لامحالة بيشارة الله تعالى لهم به . وقوله ﴿ قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَىٰ ﴾ أي قل يا محمد لهؤلاء المشركين من كفار قريش لا أسألكم على هذا البلاغ والنصح لكم مالا تعطوني ، وإنما أطلب منكم أن تكفوا شركم عني وتذروني أبلغ رسالات ربي إن لم تنصروني ، فلا تؤذوني بما بيني وبينكم من القرابة . عن ابن عباس ؓ أنه سئل عن قوله تعالى : ﴿ إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَىٰ ﴾ فقال سعيد بن جبير : قربي آل محمد ، فقال ابن عباس : عجلت ، إن النبي ﷺ : لم يكن بطن من قريش إلا كان له فيهم قرابة ، فقال : « إلا أن تصلوا ما بيني وبينكم من القرابة » ^(١) .

وعن ابن عباس ؓ أن النبي ﷺ قال : « لا أسألكم على ما آتيتكم من البيئات والهدى أجراً إلا أن تودوا الله تعالى ، وأن تقرّبوا إليه بطاعته » ^(٢) .

وعن أبي الديلم قال : لما جيء بعلي بن الحسين ؓ أسيراً فأقيم على درج دمشق ، قام رجل من أهل الشام فقال : الحمد لله الذي قتلكم واستأصلكم وقطع قرن الفتنة ، فقال له علي بن الحسين ؓ : أقرأت القرآن ؟ قال : نعم ، قال : أقرأت آل حم ؟ قال : قرأت القرآن ولم أقرأ آل حم ؟ قال : ما قرأت ﴿ قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَىٰ ﴾ قال : وإنكم لأنتم هم ؟ قال : نعم . عن ابن عباس ؓ ، قال : قالت الأنصار : فعلنا وفعلنا ، وكأنهم فخرنا ، فقال ابن عباس أو العباس ؓ - شك عبد السلام - : لنا الفضل عليكم ، فبلغ ذلك رسول الله ﷺ فأتاهم في مجالسهم فقال : « يا معشر الأنصار ، ألم تكونوا أذلة فأنزلكم الله بي ؟ » قالوا : بلى يا رسول الله ، قال ﷺ : ألم

(١) أخرجه البخاري في تفسير القرآن (٤٨/٨) .

(٢) أخرجه أحمد في مسنده (٢٦٨/١) والحاكم في المستدرک (٤٤٤/٢) والطبراني في الكبير (٩١/١١) .

تكونوا ضللاً فهذاكم الله بي ؟ » قالوا : بلى يا رسول الله ، قال ﷺ : « أفلا تجيبوني ١٩ » قالوا : ما نقول يا رسول الله ؟ قال : « ألا تقولون ألم يخرجك قومك فأويناك ، ألم يكذبوك فصدقناك ؟ ألم يأخذوك ففصرناك ؟ » قال : فما زال ﷺ يقول حتى جثوا على الركب ، وقالوا : أموالنا في أيدينا لله ولرسوله ، قال : فنزلت ﴿ قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَىٰ ﴾ (١) .

وقد ثبت أن رسول الله ﷺ قال في خطبته بغدير خم : « إني تارك فيكم الثقلين كتاب الله وعترتي ، وإنهما لم يفترقا حتى يردا علي الحوض » (٢) . وعن العباس بن عبد المطلب ؓ قال : قلت : يا رسول الله ، إن قريشاً إذا لقي بعضهم بعضاً لقوهم ببشر حسن ، وإذا لقونا لقونا بوجوه لا نعرفها ، قال : فغضب النبي ﷺ غضباً شديداً وقال : « والذي نفسي بيده لا يدخل قلب الرجل الإيمان حتى يحبكم لله ورسوله » (٣) .

عن ابن عمر ؓ عن أبي بكر - هو الصديق - ؓ قال : ارقبوا محمداً ﷺ في أهل بيته (٤) . وفي الصحيح : أن الصديق ؓ قال لعلي ؓ : والله لقراة رسول الله ﷺ أحب إلي أن أصل من قرابتي (٥) . وقال عمر بن الخطاب للعباس ؓ : والله لإسلامك يوم أسلمت كان أحب إلي من إسلام الخطاب لو أسلم ؛ لأن إسلامك كان أحب إلي رسول الله ﷺ من إسلام الخطاب . فحال الشيخين ؓ هو الواجب على كل أحد أن يكون كذلك ، ولهذا كانا أفضل المؤمنين بعد النبيين والمرسلين ؓ وعن سائر الصحابة أجمعين .

وعن يزيد بن حيان قال : انطلقت أنا وحصين بن ميسرة وعمر بن مسلم إلى زيد بن أرقم ؓ ، فلما جلسنا إليه قال حصين : لقد لقيت يازيد خيراً كثيراً ، رأيت رسول الله ﷺ وسمعت حديثه وغزوت معه وصليت معه ، لقد رأيت يا زيد خيراً كثيراً ، حدثنا يا زيد ما سمعت من رسول الله ﷺ ، فقال : يا ابن أخي لقد كبرسني وقدم عهدي ونسيت بعض الذي كنت أعني من رسول الله ﷺ فما حدثتكم فاقبلوه ، وما لا فلا تكلفوني ، ثم قال ؓ : قام رسول الله ﷺ يوماً خطيباً فبنا بماء يدعى خجماً بين مكة والمدينة ، فحمد الله تعالى وأثنى عليه وذكر ووعظ ، ثم قال ﷺ : « أما بعد ، أيها الناس إنما أنا بشر يوشك أن يأتيني رسول ربي فأجيب ، وإني تارك فيكم الثقلين أولهما كتاب الله تعالى فيه الهدى والنور ، فخذوا بكتاب الله واستمسكوا به » فحث على كتاب الله ورغب فيه ، وقال ﷺ : « وأهل بيتي ، أذكركم الله في أهل بيتي ، أذكركم الله في أهل بيتي فقال له حصين : ومن أهل بيته يازيد ؟ أليس نساؤه من أهل بيته ؟ قال : إن نساءه لسن من أهل بيته ، ولكن أهل بيته من حرم عليه الصدقة بعده ، قال : ومن هم ؟ قال : هم آل علي وآل عقيل وآل جعفر وآل العباس ؓ ، قال : أكل هؤلاء حرم عليه الصدقة ؟ قال : نعم (٦) .

(١) ذكره الطبري في تفسيره (٣٣/٢٥) .

(٢) أخرجه مسلم في فضائل الصحابة (٣٦) وأحمد في مسنده (١٧/٣) والحاكم في المستدرک (١٤٨/٣) .

(٣) أخرجه أحمد في مسنده (٢٠٧/١) والترمذي في السنن (٣٧٥٨) .

(٤) أخرجه أحمد في مسنده (٢٠٨/١) .

(٥) أخرجه مسلم في فضائل الصحابة (٣٦) وأحمد في مسنده (٣٦٧/٤) والبيهقي في السنن (١٤٨/٢) .

(٦) أخرجه أحمد في مسنده (٣٦٦/٤) .

وقوله ﷻ : ﴿ وَمَنْ يَقْرَفْ حَسَنَةً زِدْنَا لَهُ فِيهَا حَسَنًا ﴾ أي ومن يعمل حسنة نزيد له فيها حسنة أي أجزًا وثوابًا ، وقال بعض السلف : إن من ثواب الحسنة الحسنة بعدها ، ومن جزاء السيئة السيئة بعدها .
وقوله تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ عَفُورٌ شَكُورٌ ﴾ أي يغفر الكثير من السيئات ، ويكثر القليل من الحسنات ، فيستر ويغفر ويضاعف فيشكر ، وقوله جل وعلا : ﴿ أَمْ يَقُولُونَ أَفَنَدَّ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا فَإِنْ يَشَاءُ اللَّهُ يَخْتِمْ عَلَى قَلْبِكَ ﴾ أي لو افتريت عليه كذبًا كما يزعم هؤلاء الجاهلون ﴿ يَخْتِمْ عَلَى قَلْبِكَ ﴾ أي يطبع على قلبك ، وسلبك ما كان آتاك من القرآن .

وقوله جلّت عظمتة : ﴿ وَيَسَّخُ اللَّهُ الْبَاطِلَ ﴾ ليس معطوفًا على قوله ﴿ يَخْتِمْ ﴾ فيكون مجزومًا بل هو مرفوع على الابتداء ، قاله ابن جرير ، قال : وحذفت من كتابته الواو في رسم مصحف الإمام ، كما حذفت في قوله : ﴿ سَنَخُ الزَّانِيَةَ ﴾ . وقوله ﷻ : ﴿ وَيُخَيِّمُ الْمَوْتُ يَكْنِئِيهِ ﴾ معطوف على ﴿ وَيَسَّخُ اللَّهُ الْبَاطِلَ وَيُخَيِّمُ الْمَوْتُ ﴾ أي يحققه ويثبتته ويبينه ويوضحه بكلماته ، أي بحججه وبراهينه ﴿ إِنَّهُمْ عَلَيْهِ يَدَاتِ الصُّدُورِ ﴾ أي بما تكنه الضمائر وتنطوي عليه السرائر .

﴿ وَهُوَ الَّذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَعْفُو عَنِ السَّيِّئَاتِ وَيَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ﴾ ٢٥ ﴿ وَسَتَجِيبُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَيزِيدُهُمْ مِنْ فَضْلِهِ وَالْكَافِرُونَ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ﴾ ٢٦ ﴿ وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِي الْأَرْضِ وَلَكِنْ يُنْزِلُ بِقَدَرٍ مَا يَشَاءُ إِنَّهُمْ بِبِعَادِهِ خَيْرٌ بَصِيرٌ ﴾ ٢٧ ﴿ وَهُوَ الَّذِي يُنْزِلُ الْغَيْثَ مِنْ بَعْدِ مَا قَنَطُوا وَيَنْشُرُ رَحْمَتَهُ وَهُوَ الْوَلِيُّ الْحَمِيدُ ﴾ .

يقول تعالى ممتثًا على عبادته بقبول توبتهم إليه إذا تابوا ورجعوا إليه : أنه من كرمه وحلمه أن يعفو ويصفح ويستر ويغفر ، وقد ثبت عن أنس بن مالك قال : قال رسول الله ﷺ : « لله تعالى أشد فرحًا بتوبة عبده حين يتوب إليه من أحدكم كانت راحلته بأرض فلاة فانفلتت منه وعليها طعامه وشرابه فأيس منها ، فأتى شجرة فاضطجع في ظلها قد أيس من راحلته ، فبينما هو كذلك إذا هو بها قائمة عنده ، فأخذ بخطامها ثم قال من شدة الفرح : اللهم أنت عبدي وأنا ربك ، أخطأ من شدة الفرح » (١) .

وقوله ﷻ : ﴿ وَيَعْفُو عَنِ السَّيِّئَاتِ ﴾ أي يقبل التوبة في المستقبل ، ويعفو عن السيئات في الماضي ﴿ وَيَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ﴾ أي هو عالم بجميع ما فعلتم وصنعتم وقتلتم ومع هذا يتوب على من تاب إليه .

وقوله تعالى : ﴿ وَسَتَجِيبُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ﴾ قال ابن جرير : معناه يستجيب لهم الدعاء لأنفسهم ولأصحابهم وإخوانهم ، وحكاه عن بعض النحاة ، عن سلمة بن سبرة قال : خطبنا معاذ ﷺ بالشام ، فقال : أنتم المؤمنون وأنتم أهل الجنة ، والله إني لأرجو أن يدخل الله تعالى من تسبون من فارس والروم الجنة ؛ وذلك بأن أحدكم إذا عمل له - يعني أحدهم عملاً - قال : أحسنت رحكك الله ، أحسنت بارك الله فيك ، ثم قرأ ﴿ وَسَتَجِيبُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَيزِيدُهُمْ مِنْ فَضْلِهِ ﴾ .

وقوله ﷻ : ﴿ وَالْكَافِرُونَ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ﴾ لما ذكر المؤمنين ومالهم من الثواب الجزيل ، ذكر الكافرين ومالهم عنده يوم القيامة من العذاب الشديد الموجه المؤلم يوم معادهم وحسابهم .

وقوله تعالى : ﴿ وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِي الْأَرْضِ ﴾ أي لو أعطاهم فوق حاجتهم من الرزق لحملهم ذلك على البغي والطغيان من بعضهم على بعض أشراً وبطراً . وقال قتادة : كان يقال خير

(١) أخرجه مسلم في التوبة (٢) وأحمد في مسنده (٣١٦/٢) والبيهقي في السنن (١٨٨/١٠) .

العيش مالا يلهيك ولا يطغيك . وقوله ﷻ : ﴿ وَلَكِنْ يُزِيلُ يُقَدِّرُ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ بِمَا دُونَ خَيْرٌ بَصِيرٌ ﴾ أي ولكن يرزقهم من الرزق ما يختاره مما فيه صلاحهم وهو أعلم بذلك ، فيغني من يستحق الغنى ويفقر من يستحق الفقر ، كما جاء في الحديث المروي : « إن من عبادي من لا يصلحه إلا الغنى ، ولو أفقرته لأفسدت عليه دينه ، وإن من عبادي من لا يصلحه إلا الفقر ، ولو أغنيته لأفسدت عليه دينه » (١) .

وقوله تعالى : ﴿ وَهُوَ الَّذِي يُزِيلُ الْقَيْتَ مِنْ بَيْنِ مَا قَنَطُوا ﴾ أي من بعد إياس الناس من نزول المطر ينزله عليهم في وقت حاجتهم وفقرهم إليه . وقوله ﷻ : ﴿ وَيَنْشُرُ رَحْمَتَهُ ﴾ أي يعم بها الوجود على أهل ذلك القطر وتلك الناحية . قال قتادة : ذكر لنا أن رجلاً قال لعمر بن الخطاب ﷺ : يا أمير المؤمنين فحط المطر وقنط الناس . فقال عمر ﷺ : مطرتم ، ثم قرأ ﴿ وَهُوَ الَّذِي يُزِيلُ الْقَيْتَ مِنْ بَيْنِ مَا قَنَطُوا وَيَنْشُرُ رَحْمَتَهُ وَهُوَ الْوَلِيُّ الْحَمِيدُ ﴾ أي هو المتصرف الخلقه بما ينفعهم في دنياهم وآخرهم ، وهو الحمود العاقبة في جميع ما يقدره ويفعله .

﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا مِنْ دَابَّةٍ وَهُوَ عَلَى جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَاءُ قَدِيرٌ ﴾ وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فِيمَا كُنْتُمْ آيْدِكُمْ وَيَعْقُوا عَنْ كَثِيرٍ ﴿ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴾ .

يقول تعالى : ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ ﴾ الدالة على عظمته وقدرته العظيمة وسلطانه القاهر ﴿ خَلْقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ﴾ أي ذراً فيهما أي في السموات والأرض ﴿ مِنْ دَابَّةٍ ﴾ وهذا يشمل الملائكة والإنس والجن وسائر الحيوانات على اختلاف أشكالهم وألوانهم ولغاتهم وطباعهم وأجناسهم وأنواعهم وقد فرقهم في أرجاء أقطار السموات والأرض ﴿ وَهُوَ ﴾ ، مع هذا كله ﴿ عَلَى جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَاءُ قَدِيرٌ ﴾ أي يوم القيامة يجمع الأولين والآخرين وسائر الخلائق في صعيد واحد يسمعهم الداعي وينفذهم البصر فيحكم فيهم بحكمه العدل الحق .

وقوله ﷻ : ﴿ وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فِيمَا كُنْتُمْ آيْدِكُمْ ﴾ أي مهما أصابكم أيها الناس من المصائب فإنا هي عن سيئات تقدمت لكم ﴿ وَيَعْقُوا عَنْ كَثِيرٍ ﴾ أي من السيئات ، فلا يجازيكم عليها بل يعفو عنها ﴿ وَلَوْ يَرَاكُمُ اللَّهُ النَّاسَ يَمَانًا كَسَبُوا مَا تَرَكَ عَلَى ظَهْرِهِمْ مِنْ دَابَّةٍ ﴾ وفي الحديث الصحيح : « والذي نفسي بيده ما يصيب المؤمن من نصب ولا وصب ولا هم ولا حزن ؛ إلا كفر الله عنه بها من خطاياهم حتى الشوكة يشاكها » (٢) .

وعن عائشة رضي الله عنها قالت : قال رسول الله ﷺ : « إذا كثرت ذنوب العبد ولم يكن له ما يكفرها ابتلاه الله تعالى بالحزن ليكفرها » (٣) .

وعن الضحاک قال : ما نعلم أحداً حفظ القرآن ثم نسيه إلا بذنب ، ثم قرأ الضحاک ﴿ وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فِيمَا كُنْتُمْ آيْدِكُمْ وَيَعْقُوا عَنْ كَثِيرٍ ﴾ ثم يقول الضحاک : وأي مصيبة أعظم من نسيان القرآن .

(١) ذكره ابن أبي حاتم في علل الحديث ٣٢١/١ .

(٢) أخرجه البخاري في الرضى (٥٦٤١) ومسلم في البر (٥٢) وأحمد في مسنده (٣٠٣/٢) والوصف الوجع اللازم الثابت ،

(٣) أخرجه أحمد في مسنده (١٥٧/٦) .

والنصب : التعب .

﴿ وَمَنْ يَأْتِهِ الْبُحُورُ فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلَاقِ ۝٣٢﴾ إِنَّ يَشَأْ يُسْكِنَ الرِّيحَ فَيَظْلَنَ رَوَاكِدَ عَلَى ظَهْرِهِ ۚ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ۝٣٣﴾ أَوْ يُوقِنُ أَنَّ مَا كَسَبُوا يَرْثُهُ عَنْ كَثِيرٍ ۝٣٤﴾ وَيَعْلَمَ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي ءَايَاتِنَا مَا لَهُمْ مِنْ نَجِيصٍ ۝٣٥﴾ .

يقول تعالى ومن آياته الدالة على قدرته الباهرة وسلطانه تسخير البحر لتجري فيه الفلك بأمره كالجبال في البر ﴿ إِنَّ يَشَأْ يُسْكِنَ الرِّيحَ ﴾ أي التي تسير في البحر بالسفن لو شاء لسكنها حتى لا تحرك السفن بل تبقى راكدة لا تجمي . ولا تذهب ، بل واقفة على ظهره ، أي على وجه الماء ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ ﴾ أي في الشدائد ﴿ شَكُورٍ ﴾ أي إن في تسخير البحر وإجرائه في الهوى بقدر ما يحتاجون إليه لسيرهم لدلالات على نعمه تعالى على خلقه ﴿ لِّكُلِّ صَبَّارٍ ﴾ أي في الشدائد ﴿ شَكُورٍ ﴾ في الرخاء . وقوله ﴿ ۝٣٣﴾ أَوْ يُوقِنُ أَنَّ مَا كَسَبُوا ﴾ أي ولو شاء لأهلك السفن وغرقها بذنوب أهلها الذين هم راكبون فيها ﴿ وَيَعْفُ عَنْ كَثِيرٍ ﴾ أي من ذنوبهم ، ولو أخذهم بجميع ذنوبهم لأهلك كل من ركب البحر . وقال بعض علماء التفسير : معنى قوله تعالى : ﴿ أَوْ يُوقِنُ أَنَّ مَا كَسَبُوا ﴾ أي لو شاء لأرسل الريح قوة عاتية فأخذت السفن وأحالتها عن سيرها المستقيم فصرفتها ذات اليمين أو ذات الشمال أبقة لا تسير على طريق ولا إلى جهة مقصد ، وهذا القول يتضمن هلاكها وهو مناسب للأول ، وهو أنه تعالى لو شاء لسكن الريح فوقفت ، أو لقوؤه فشردت وأبقت وهلكت ، ولكن من لطفه ورحمته أنه يرسله بحسب الحاجة كما يرسل المطر بقدر الكفاية ، ولو أنزله كثيرا جدا لهدم البنيان ، أو قليلا لما أنبت الزرع والثمار حتى إنه يرسل إلى مثل بلاد مصر سيحا من أرض أخرى غيرها ؛ لأنهم لا يحتاجون إلى مطر ، ولو أنزل عليهم لهدم بنيانهم وأسقط جدرانهم . وقوله تعالى : ﴿ وَيَعْلَمَ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي ءَايَاتِنَا مَا لَهُمْ مِنْ نَجِيصٍ ﴾ أي لا محيد لهم عن بأسنا ونقمنا فإنهم مقهورون بقدرتنا . ﴿ فَأَؤْتَيْتُم مِّن قَوِّ قَنَاقِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَى لِلَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ۝٣٦﴾ وَالَّذِينَ يَخْتَفُونَ بَاطِنًا كَيْفَ يُزَكَّيْنَهُمْ أَتَنَزَّلُ إِذَا مَا عَظِبُوا مِمَّا يَقُولُونَ ۝٣٧﴾ وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ۝٣٨﴾ وَالَّذِينَ ءَاتَىٰ سَابِقَهُمُ الْبَيْتَ مِمَّا بَنَوْا ۝٣٩﴾ .

يقول تعالى محققا لشأن الحياة الدنيا وزينتها وما فيها من الزهرة والنعيم الفاني بقوله تعالى : ﴿ فَأَؤْتَيْتُم مِّن قَوِّ قَنَاقِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴾ أي مهما حصلتم وجمعتم فلا تغتروا به فإنما هو متاع الحياة الدنيا وهي دار دنية فانية زائلة لا محالة ﴿ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَى ﴾ أي وثواب الله تعالى خير من الدنيا وهو باق سرمدي ، فلا تقدموا الفاني على الباقي ، ولهذا قال تعالى : ﴿ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا ﴾ أي للذين صبروا على ترك الملاذ في الدنيا ﴿ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴾ أي ليعينهم على الصبر في أداء الواجبات وترك المحرمات . ثم قال تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ يَخْتَفُونَ بَاطِنًا كَيْفَ يُزَكَّيْنَهُمْ أَتَنَزَّلُ إِذَا مَا عَظِبُوا مِمَّا يَقُولُونَ ﴾ أي سجيبتهم تقتضي الصفح والعفو عن الناس ليس سجيبتهم الانتقام من الناس . وقد ثبت في الصحيح أن رسول الله ﷺ ما انتقم لنفسه قط إلا أن تنتهك حرمة الله (١) .

وقوله ﴿ ۝٣٨﴾ وَالَّذِينَ ءَاتَىٰ سَابِقَهُمُ الْبَيْتَ ﴾ أي اتبعوا رسله وأطاعوا أمره واجتنبوا زجره ﴿ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ ﴾ وهي أعظم العبادات لله ﷻ ﴿ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ ﴾ أي لا يرمون أمرا حتى يتشاوروا فيه

ليتساعدوا بأرائهم في مثل الحروب وما جرى مجراها ولهذا كان ﷺ يشاورهم في الحروب ونحوها، لطيب بذلك قلوبهم، وهكذا لما حضرت عمر بن الخطاب رض الله عنه الوفاة حين طعن جعل الأمر بعده شورى في ستة نفر وهم : عثمان وعلي وطلحة والزبير وسعد وعبد الرحمن بن عوف رض الله عنهم فاجتمع رأي الصحابة كلهم رض الله عنهم على تقديم عثمان عليهم رض الله عنهم ﴿ وَمِمَّا رَفَقْتَهُمْ يُنْفِقُونَ ﴾ وذلك بالإحسان إلى خلق الله الأقرب إليهم منهم فالأقرب .

وقوله ﷻ ﴿ وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ ثُمَّ يَنْصَرُونَ ﴾ أي فيهم قوة الانتصار من ظلمهم واعتدى عليهم ليسوا بالعاجزين ولا الأذلين بل يقدرون على الانتقام من بغى عليهم ، فإن كانوا مع هذا إذا قدروا عفوا كما قال يوسف عليه الصلاة والسلام لإخوته : ﴿ لَا تَزِرُ وَازِرَتُكَ أَلْوَمًا يَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ ﴾ مع قدرته على مؤاخذتهم ومقابلتهم على صنيعهم إليه ، وكما عفا رسول الله ﷺ عن أولئك النفر الثمانين الذين قصده عام الحديبية ونزلوا من جبل التنعيم ، فلما قدر عليهم من عليهم مع قدرته على الانتقام ، وكذلك عفوه ﷺ عن غورث بن الحارث الذي أراد الفتك به حين اخترط سيفه وهو نائب فاستيقظ ﷺ وهو في يده مصلاً فانتهره ، فوضعه من يده وأخذ رسول الله ﷺ السيف في يده ودعا أصحابه ثم أعلمهم بما كان من أمره وأمر هذا الرجل وعفا عنه ^(١) ، وكذلك عفا ﷺ عن لبيد ابن الأعصم الذي سحره الطليح ، مع قدرته عليه ، وكذلك عفوه ﷺ عن المرأة اليهودية - وهي زينب أخت مرحب اليهودي الخيري الذي قتله محمود بن سلمة - التي سمت الذراع يوم خيبر - فأخبره الذراع بذلك فدعاها فاعترفت فقال ﷺ : « ما حملك على ذلك ؟ » قالت : أردت إن كنت نبياً لم يضرك ، وإن لم تكن نبياً استرحنا منك ، فأطلقها عليه الصلاة والسلام ولكن لما مات منه بشر بن البراء رض الله عنه قتلها به ^(٢) ، والأحاديث والأثار في هذا كثيرة جداً .

﴿ وَحَرَّزُوا سِنَتَهُ سِنَةً مِّنْهُمَا فَكُنَّا فَاجِرٌ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْفَاسِقِينَ ﴾ وَلَمَّا أَنْصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ فَأُولَئِكَ مَا عَلَيْهِمْ مِّنْ سَبِيلٍ ﴿ إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَظْلِمُونَ النَّاسَ وَيَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ وَلَمَّا سَبَرَ وَظَفَرَ إِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ ﴿ .

قوله تبارك وتعالى : ﴿ وَحَرَّزُوا سِنَتَهُ سِنَةً مِّنْهُمَا ﴾ كقوله تعالى : ﴿ فَمَنْ أَعَدَّكَ عَلَيْهِمْ فَأَعْدُوا عَلَيْهِ يُبْثَلِ مَا أَعَدَّكَ عَلَيْهِمْ ﴾ فشرع العدل وهو القصاص وندب إلى الفضل وهو العفو ولهذا قال : ﴿ فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ ﴾ أي لا يضيع ذلك عند الله كما صح ذلك في الحديث : « وما زاد الله تعالى عبداً بعفو إلا عزاً » ^(٣) وقوله تعالى : ﴿ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْفَاسِقِينَ ﴾ أي المعتدين وهو المبتدئ بالسيئة .

ثم قال جل وعلا : ﴿ وَلَمَّا أَنْصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ فَأُولَئِكَ مَا عَلَيْهِمْ مِّنْ سَبِيلٍ ﴾ أي ليس عليهم جناح في الانتصار من ظلمهم . عن عروة ، قال : قالت عائشة رض الله عنها : ما علمت حتى دخلت علي زينب بغير إذن وهي غضبي ، ثم قالت لرسول الله ﷺ : حسبك إذا قلبت لك ابنة أبي بكر درعها ، ثم أقبلت

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٣١١/٣) والبيهقي في السنن (٣١٩/٦) .

(٢) أخرجه أحمد في مسنده (٣٠٥/١) والحاكم في المستدرک (٤٨٣/١) وابن ماجه في السنن (٢٠٦٥) .

(٣) أخرجه الترمذي في السنن (٢٠٢٩) ومالك في الموطأ (١٢) وأحمد في مسنده (٣٨٦/٢) .

علي فأعرضت عنها ، حتى قال النبي ﷺ : « دونك فانتصري » فأقبلت عليها حتى رأيت ريقها قد يس في فمها ماترد علي شيئا ، فرأيت النبي ﷺ يتهلل وجهه ^(١) .

وعن عائشة رضي الله عنها قالت : قال رسول الله ﷺ : « من دعا علي من ظلمه فقد انتصر » ^(٢) . وقوله ﷺ : ﴿ إِنَّمَا السَّبِيلُ ﴾ أي إنما الحرج والعنت ﴿ عَلَى الَّذِينَ يَظْلِمُونَ النَّاسَ وَيَبْعُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ ﴾ أي يبدعون الناس بالظلم ، كما جاء في الحديث الصحيح : « المستبان ما قالا ، فعلى البادئ ما لم يعتد المظلوم » ^(٣) ﴿ أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ أي شديد موجه .

ثم إن الله تعالى ، لما ذم الظلم وأهله وشرع القصاص ، قال نادبا إلى العفو والصفح : ﴿ وَكَانَ صَبْرًا وَتَوَكَّرَ ﴾ أي صبر على الأذى ، وستر السيئة ﴿ إِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ ﴾ قال سعيد بن جبير : يعني لمن حق الأمور التي أمر الله تعالى بها ، أي لمن الأمور المشكورة ، والأفعال الحميدة التي عليها ثواب جزيل ، وثناء جميل .

قال الفضيل بن عياض : إذا أتاك رجل يشكو إليك رجلا ، فقل : يا أخي اعف عنه ؛ فإن العفو أقرب للتقوى ، فإن قال : لا يحتمل قلبي العفو ، ولكن أنتصر كما أمرني الله ﷻ ، فقل له : إن كنت تحسن أن تنتصر وإلا فارجع إلى باب العفو ؛ فإنه باب واسع ؛ فإنه من عفا وأصلح فأجره على الله ، وصاحب العفو ينال على فراشه بالليل ، وصاحب الانتصار يقلب الأمور .

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : إن رجلا شتم أبا بكر رضي الله عنه والنبي ﷺ جالس ، فجعل النبي ﷺ يعجب ويتبسم ، فلما أكثر رد عليه بعض قوله ، فغضب النبي وقام ، فلققه أبو بكر رضي الله عنه فقال : يا رسول الله ، إنه كان يشتمني وأنت جالس ، فلما رددت عليه بعض قوله غضبت وقمت ، قال : « إنه كان معك ملك يرد عنك ، فلما رددت عليه بعض قوله حضر الشيطان ، فلم أكن لأقعد مع الشيطان - ثم قال : « يا أبا بكر ، ثلاث كلهن حق : ما من عبد ظلم بمظلمة فيغضي عنها لله ؛ إلا أعزه الله تعالى بها ونصره ، وما فتح رجل باب عطية يريد بها صلة ؛ إلا زاده الله بها كثرة ، وما فتح رجل باب مسألة يريد بها كثرة ؛ إلا زاده الله ﷻ بها قلة » ^(٤) .

﴿ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ وَارِدٍ مِنْ بَعْدِهِ وَتَرَى الظَّالِمِينَ لَمَّا رَأَوْا الْعَذَابَ يَقُولُوا هَلْ لَنَا مَرَّةٌ مِنْ سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ وَتَرَاهُمْ يَرْجِعُونَ عَلَيْهَا خَشِيعِينَ مِنَ الدَّلِيلِ يَنْظُرُونَ مِنْ طَرَفٍ خَفِيِّ وَقَالَ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ الْغَائِبِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ أَلَا إِنَّ الظَّالِمِينَ فِي عَذَابٍ مُقِيمٍ ﴿ وَمَا كَانَتْ لَهُمْ مِنْ آوِيَاتٍ يَبْصُرُونَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ سَبِيلٍ ﴾ .

يقول تعالى مخبرا عن نفسه الكريمة أنه ما شاء كان ولا راد له ، وما لم يشأ لم يكن فلا موجد له ، وأنه من هداه فلا مضل له ، ومن يضل الله فلا هادي له ، ثم قال ﷻ مخبرا عن الظالمين وهم المشركون بالله ﴿ لَمَّا رَأَوْا الْعَذَابَ ﴾ أي يوم القيامة تمنوا الرجعة إلى الدنيا ﴿ يَقُولُوا هَلْ لَنَا مَرَّةٌ مِنْ سَبِيلِ اللَّهِ ﴾

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٩٣/٦) وابن ماجه في السنن (١٩٨١) والألباني في الصحيحة (١٨٦٢) .

(٢) أخرجه الترمذي في السنن (٣٥٥٢) .

(٣) أخرجه مسلم في البر والصلة (٦٨) وأبو داود في السنن (٤٨٩٤) وأحمد في مسنده (٢٣٥/٢) والترمذي في السنن (١٩٨١) .

(٤) أخرجه أحمد في مسنده (٤٣٦/٢) وأبو داود في السنن (٤٨٩٦) .

سَيَّلِي ﴿٤٧﴾ . وقوله ﴿٤٨﴾ : ﴿وَرَهْمٌ يُرْمَوْنَ عَلَيْهَا﴾ أي على النار ﴿خَشِيعِينَ مِنَ الذَّلِيلِ﴾ أي الذي قد اعتراهم بما أسلفوا من عصيان الله تعالى ﴿يَنْظُرُونَ مِنْ طَرْفٍ خَفِيٍّ﴾ قال مجاهد : يعني ذليل ، أي ينظرون إليها مسارقة خوفاً منها ، والذي يحذرون منه واقع بهم لا محالة ، وما هو أعظم مما في نفوسهم ، أجارنا الله من ذلك ﴿وَقَالَ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ أي يقولون يوم القيامة ﴿إِنَّ الْخَسِرَ الْأَكْبَرَ﴾ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَأَهْلِيَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ ﴿أَي ذَهَبَ بِهِمْ إِلَى النَّارِ فَعَدِمُوا لِنَتِهِمْ فِي دَارِ الْأَبَدِ وَخَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ ، وَفَرَقَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ أَحِبَّابِهِمْ وَأَصْحَابِهِمْ وَأَهْلِيهِمْ وَقَرَابَاتِهِمْ فَخَسِرُوهُمْ﴾ ﴿إِنَّ الْفُلْجَيْنِ فِي عَذَابٍ مُقِيمٍ﴾ أي دائم سرمدي أبدي لا خروج لهم منها ولا محيد لهم عنها .

وقوله تعالى : ﴿وَمَا كَانَتْ لَهُمْ مِنْ أُولِيَاءَ يَنْصُرُونَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ أي ينقذونهم مما هم فيه من العذاب والنكال ﴿وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ سَبِيلٍ﴾ أي ليس له خلاص .

﴿أَسْتَجِيبُوا لِرَبِّكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا مَرَدَّ لَهُ مِنْ اللَّهِ مَا لَكُمْ مِنْ مَلَجٍ يَوْمَئِذٍ وَمَا لَكُمْ مِنْ نَكِيرٍ﴾ ﴿٤٩﴾ فَإِنْ أَعْرَضُوا فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِظًا إِلَّا أَلْبَلَعُ وَإِنَّا إِذَا أَذَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنَّا رَحْمَةً فَجَحَّ بِهَا وَإِنْ نُصِيبَهُمْ سَيِّئَةً يَمَا فَدَمَتْ أَيْدِيهِمْ فَإِنَّ الْإِنْسَانَ كَفُورٌ﴾ .

لما ذكر تعالى ما يكون في يوم القيامة من الأهوال والأمور العظام الهائلة ، حذر منه وأمر بالاستعداد له ، فقال ﴿أَسْتَجِيبُوا لِرَبِّكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا مَرَدَّ لَهُ مِنْ اللَّهِ﴾ أي إذا أمر بكونه فإنه كلمح البصر يكون ، وليس له دافع ولا مانع . وقوله ﴿٥٠﴾ : ﴿مَا لَكُمْ مِنْ مَلَجٍ يَوْمَئِذٍ وَمَا لَكُمْ مِنْ نَكِيرٍ﴾ أي ليس لكم حصن تتحصنون فيه ولا مكان يستركم وتتكرون فيه فتغيبون عن بصره تبارك وتعالى ، بل هو محيط بكم بعلمه وبصره وقدرته ، فلا ملجأ منه إلا إليه . وقوله تعالى : ﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا﴾ يعني المشركين ﴿فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِظًا﴾ أي لست عليهم بمسيطر ، وقال جل وعلا : ﴿إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا الْبَلَعُ﴾ أي إنما كلفناك أن تبلغهم رسالة الله إليهم .

ثم قال تبارك وتعالى : ﴿وَإِنَّا إِذَا أَذَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنَّا رَحْمَةً فَجَحَّ بِهَا﴾ أي إذا أصابه رخاء ونعمة فرح بذلك ﴿وَإِنْ نُصِيبَهُمْ﴾ يعني الناس ﴿سَيِّئَةً﴾ أي جذب ونقمة وبلاء وشدة ﴿فَإِنَّ الْإِنْسَانَ كَفُورٌ﴾ أي يجحد ما تقدم من النعم ولا يعرف إلا الساعة الراهنة ، فإن أصابته نعمة أشرب ويطر ، وإن أصابته محنة يشرب وقنط ، فالمؤمن كما قال ﷺ : «إن أصابته سراء شكر فكان خيراً له ، وإن أصابته ضراء صبر فكان خيراً له ، وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن» ^(١) .

﴿لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ يَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ إِنِشَاءً وَيَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ الذَّكُورَ﴾ ﴿٥١﴾ أَوْ بُرُوجَهُمْ ذَكَرَانًا وَلِإِنثَاءً يَجْعَلُ مَنْ يَشَاءُ عَقِيماً إِنَّهُمْ عَلَيْهِ قَدِيرٌ﴾ .

يخبر تعالى أنه خالق السموات والأرض ومالكهما والمتصرف فيهما ، وأنه ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن ، وأنه يعطي من يشاء ويمنع من يشاء ، ولا مانع لما أعطى ولا معطي لما منع ، وأنه يخلق ما يشاء ﴿يَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ إِنِشَاءً﴾ أي يرزقه البنات فقط . قال البغوي : ومنهم لوط عليه الصلاة والسلام . ﴿وَيَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ الذَّكُورَ﴾ أي يرزقه البنين فقط ، قال البغوي : كإبراهيم الخليل عليه الصلاة والسلام

(١) أخرجه مسلم في الزهد (٦٤) وأحمد في مسنده (٣٣٢/٤) .

لم يولد له أنثى ﴿ أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنْتِسَاءً ﴾ أي ويعطي لمن يشاء من الناس الزوجين الذكر والأنثى أي من هذا وهذا ، قال البغوي : كمحمد ﷺ ﴿ وَيَجْعَلُ مَنْ يَشَاءُ عَقِيمًا ﴾ أي لا يولد له . قال البغوي : كيحيى وعيسى عليهما الصلاة والسلام ، فجعل الناس أربعة أقسام : منهم من يعطيه البنات ، ومنهم من يعطيه البنين ، ومنهم من يعطيه من النوعين ذكورا وإناثا ، ومنهم من يمنعه هذا وهذا فيجعله عقيما لا نسل له ولا ولد له ﴿ إِنَّهُمْ عَلَيْهِمْ ﴾ أي بمن يستحق كل قسم من هذه الأقسام ﴿ فَيَذَرُ ﴾ أي على من يشاء من تفاوت الناس في ذلك ، وهذا المقام شبيهه بقوله تبارك وتعالى عن عيسى عليه الصلاة والسلام : ﴿ وَلَنَجْعَلَ لَهَآءَ لَتَاتَيْنِ ﴾ أي دلالة لهم على قدرته تعالى وتقدس حيث خلق الخلق على أربعة أقسام : فآدم عليه الصلاة والسلام مخلوق من تراب لا من ذكر ولا أنثى ، وحواء عليها السلام مخلوقة من ذكر بلا أنثى ، وسائر الخلق سوى عيسى عليه السلام من ذكر وأنثى ، وعيسى عليه السلام من أنثى بلا ذكر ، فتمت الدلالة بخلق عيسى ابن مريم عليهما الصلاة والسلام . ولهذا قال تعالى : ﴿ وَلَنَجْعَلَ لَهَآءَ لَتَاتَيْنِ ﴾ فهذا المقام في الآباء والمقام الأول في الأبناء وكل منهما أربعة أقسام ، فسبحان العليم القدير .

﴿ وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكْلِمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِنْ وَرَآئِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ إِنَّهُمْ عَلَىٰ حَكِيمٍ ﴾ وكذلك أوحينا إليك رؤيا من أمرنا ما كنت تدري ما الكذب ولا اليمين ولكن جعلناه نورا تهدي به من شاء من عبادنا وإنك لتهدى إلى صراط مستقيم ﴿ صَرِّطَ اللَّهُ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ آيَةً إِلَى اللَّهِ تُصِيرُ الْأُمُورُ ﴾ .

هذه مقامات الوحي بالنسبة إلى جناب الله ﷻ ، وهو أنه تبارك وتعالى تارة يقذف في روع النبي ﷺ شيئا لا يتماهى فيه أنه من الله ﷻ ، كما جاء عن رسول الله ﷺ أنه قال : « إن روح القدس نفث في روعي أن نفسا لن تموت حتى تستكمل رزقها وأجلها ، فاتقوا الله وأجملوا في الطلب » ^(١) . وقوله تعالى : ﴿ أَوْ مِنْ وَرَآئِ حِجَابٍ ﴾ كما كلم موسى عليه الصلاة والسلام ؛ فإنه سأل الرؤية بعد التكليم فحجب عنها .

وفي الصحيح أن رسول الله ﷺ قال لجابر بن عبد الله رضي الله عنه : « ما كلم الله أحدا إلا من وراء حجاب ، وإنه كلم أباك كفاحا » ^(٢) ، وكان قد قتل يوم أحد ، ولكن هذا في عالم البرزخ ، والآية إنما هي في الدار الدنيا . وقوله ﷻ : ﴿ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ ﴾ كما ينزل جبريل عليه السلام وغيره من الملائكة على الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ﴿ إِنَّهُمْ عَلَىٰ حَكِيمٍ ﴾ فهو علي عليم خبير حكيم .

وقوله ﷻ : ﴿ وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُؤْيَا مِنْ أَمْرِنَا ﴾ يعني القرآن ﴿ مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ ﴾ أي على التفصيل الذي شرع لك في القرآن ﴿ وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ ﴾ أي القرآن ﴿ نُورًا تَهْدِي بِهِ مَنْ شَاءَ مِنْ عِبَادِنَا ﴾ كقوله تعالى : ﴿ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَبَشِيرَةٌ وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي مَذَابِهِمْ وَقُرْهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى ﴾ الآية .

وقوله تعالى : ﴿ وَإِنَّكَ ﴾ أي يا محمد ﴿ لَتَهْدَى إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾ وهو الخلق القويم ، ثم فسره بقوله تعالى : ﴿ صِرَاطَ اللَّهِ ﴾ أي وشرعه الذي أمر به الله ﴿ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ﴾ أي ربهما ومالكهما والمتصرف فيهما والحاكم الذي لا معقب لحكمه ﴿ آيَةً إِلَى اللَّهِ تُصِيرُ الْأُمُورُ ﴾ أي ترجع الأمور فيفصلها ، ويحكم فيها ﴿ عَمَّا يَقُولُ الظَّالِمُونَ وَالْجَاهِدُونَ عُلُوءًا كَبِيرًا ﴾ .

(١) ذكره البغوي في شرح السنة (٣٠٤/١٤) والمراد بروح القدس : جبريل عليه السلام .

(٢) أخرجه الترمذي في السنن (٣٠١٠) وابن ماجه في السنن (١٩٠) بنحوه .

سورة الزخرف

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ حَمَّ ۝ وَالْكِتَابِ الثَّانِي ۝ إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ۝ وَإِنَّمَا فِي أُمِّ الْكِتَابِ لَدَيْنَا لَعَلٌّ حَكِيمٌ ۝ أَفَتَضْرِبُ عَنْكُمْ الذِّكْرَ صَافِحًا أَمْ كُنتُمْ فَرِحَافَةً ۝ وَكَمْ أَرْسَلْنَا مِنْ نَبِيِّ فِي الْأَوَّلِينَ ۝ وَمَا تَلَايِهِمْ مِنْ نَبِيٍّ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ ۝ فَأَمْلَكْنَا أَسَدَهُمْ بَطْشًا وَمَعَى مَثَلِ الْأَوَّلِينَ ۝ ﴾

يقول تعالى : ﴿ حَمَّ ۝ وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ ﴾ أي البين الواضح الجلي المعاني والألفاظ ؛ لأنه نزل بلغة العرب التي هي أفصح اللغات للتخاطب بين الناس ، ولهذا قال تعالى : ﴿ إِنَّا جَعَلْنَاهُ ۝ أَنْزَلْنَاهُ ۝ قُرْآنًا عَرَبِيًّا ﴾ أي بلغة العرب فصيحاً واضحاً ﴿ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ أي تفهمونه وتتدبرونه . وقوله تعالى : ﴿ وَإِنَّمَا فِي أَزْرِ الْكِتَابِ لَدَيْنَا لَعَلُّ حِكْمِكُمْ ﴾ بين شرفه في الملأ الأعلى ليشرفه ويعظمه ويطيعه أهل الأرض ، فقال تعالى : ﴿ وَإِنَّمَا ۝ أَيْ الْقُرْآنُ ﴾ في أَزْرِ الْكِتَابِ أي اللوح المحفوظ ﴿ لَدَيْنَا ﴾ أي عندنا ، ﴿ لَعَلُّ ﴾ أي ذو مكانة عظيمة وشرف وفضل ﴿ حِكْمِكُمْ ﴾ أي محكم بريء من اللبس والزيغ . وهذا كله تنبيه على شرفه وفضله ، كما قال تبارك وتعالى : ﴿ إِنَّمَا لِقُرْآنٍ كَرِيمٍ ۝ فِي كِتَابٍ مَكْنُونٍ ۝ لَا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ ﴾ وقال تعالى : ﴿ كَلَّا إِنَّمَا نُنذِرُكُم ۝ مِّنْ شَأْنٍ ذَكَّرَكُم ۝ فِي صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ ۝ مَّرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍ ۝ يُأْتِيهِ سَفَرٌ ۝ كَرِيمٌ بَرَزَ ﴾ ولهذا استنبط العلماء من هاتين الآيتين ان المحدث لا يمس المصحف كما ورد به الحديث إن صح ، لأن الملائكة يعظمون المصاحف المشتملة على القرآن في الملأ الأعلى ، فأهل الأرض بذلك أولى وأحرى ؛ لأنه نزل عليهم ، وخطابه متوجه إليهم ، فهم أحق أن يقابلوه بالإكرام والتعظيم ، والانقياد له بالقبول والتسليم ، لقوله تعالى : ﴿ وَإِنَّمَا فِي أَزْرِ الْكِتَابِ لَدَيْنَا لَعَلُّ حِكْمِكُمْ ۝ .

وقوله ﷺ : ﴿ أَفَضْرِبُ عَنْكُمْ الذِّكْرَ صَفْحًا أَنْ كُنْتُمْ قَوْمًا مُسْرِفِينَ ﴾ ^(١) اختلف المفسرون في معناها ، فقيل : معناها أتحسبون أن نصفح عنكم فلا تعذبكم ولم تفعلوا ما أمرتم به ، قاله ابن عباس ومجاهد والسدي واختاره ابن جرير ، وقال قتادة : والله لو أن هذا القرآن رفع حين رده أوائل هذه الأمة لهلكوا ، ولكن الله تعالى عاد بعائده ورحمته فكرره عليهم ودعاهم إليه عشرين سنة أو مائتي سنة ، والله من ذلك ، وقول قتادة لطيف المعنى جدًا ، وحاصله أنه يقول في معناه : أنه تعالى من لطفه ورحمته بخلقه لا يترك دعاءهم إلى الخير وإلى الذكر الحكيم وهو القرآن ، وإن كانوا مسرفين معرضين عنه بل أمر به ليهتدي به من قدر هدايته ، وتقوم الحجة على من كتب شقاوته .

ثم قال جل وعلا مسلماً لنبيه ﷺ في تكذيب من قومه وأما له بالصبر عليهم ﴿وَكَمْ أَرْسَلْنَا مِنْ نَبِيٍّ فِي الْأَوَّلِينَ﴾ أي في شيع الأولين ﴿وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ نَبِيٍّ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ أي يكذبونه ويسخرون به . وقوله تبارك وتعالى : ﴿فَأَعْلَفْنَا بِطَغْوَاهُمْ أَفْدَىٰ مِنْهُمْ بَطْشًا﴾ أي فأهلكنا المكذبين بالرسل ، وقد كانوا أشد بطشاً من هؤلاء المكذبين لك يا محمد .

وقوله ﷺ : ﴿ وَمَضَىٰ مَنذُ الْأَوَّلِينَ ﴾ قال مجاهد : سبهم . وقال قتادة : عقوبتهم .

﴿ وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْغَلِيْبُ ۝١ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا وَجَعَلَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ۝٢ وَالَّذِي نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً يَقْدِرُ فَأَنْشُرَنَا بِهِ بَلْدَةً مَيِّتًا كَذَلِكَ نُخْرِجُوهَا ۝٣ وَالَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ الْفَلَاحِ وَالْأَنْعَامِ مَا تَرْكَبُونَ ۝٤ لِيَسْتَوُوا عَلَى ظُهُورِهِ ثُمَّ تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا اسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا سُبْحَنَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ ۝٥ وَإِنَّا إِلَٰك رَبَّنَا لَمُنْقَلِبُونَ ۝٦ .

يقول تعالى : ولئن سألت يامحمد هؤلاء المشركين بالله العابدين معه غيره ﴿ ١ ﴾ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْغَلِيْبُ ﴿ ٢ ﴾ أي ليعترفن بأن الخالق لذلك هو الله وحده لا شريك له ، وهم مع هذا يعبدون معه غيره من الأصنام والأنداد . ثم قال تعالى : ﴿ ٣ ﴾ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا ﴿ ٤ ﴾ أي فرأى قرارًا ثابتة تسيرون عليها وتقومون وتنامون وتنصرفون ، مع أنها مخلوقة على تيار الماء ، لكنه أرساها بالجبال لئلا تميد هكذا ولا هكذا ﴿ ٥ ﴾ وَجَعَلَ لَكُم فِيهَا سُبُلًا ﴿ ٦ ﴾ أي طرقًا بين الجبال والأودية ﴿ ٧ ﴾ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿ ٨ ﴾ أي في سيركم من بلد الى بلد ، وقطر إلى قطر ، وإقليم إلى إقليم ﴿ ٩ ﴾ وَالَّذِي نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً يَقْدِرُ ﴿ ١٠ ﴾ أي بحسب الكفاية لزروعكم وثماركم وشربكم لأنفسكم ولأنعامكم .

وقوله تبارك وتعالى : ﴿ ١١ ﴾ فَأَنْشُرْنَا بِهِ بَلْدَةً مَيِّتًا ﴿ ١٢ ﴾ أي أرضًا ميتة ، فلما جاءها الماء اهترت وربت وأنبتت من كل زوج بهيج ، ثم نبه تعالى بإحياء الأرض على إحياء الأجساد يوم المعاد بعد موتها ، فقال : ﴿ ١٣ ﴾ كَذَلِكَ نُخْرِجُوهَا ﴿ ١٤ ﴾ ثم قال ﷻ : ﴿ ١٥ ﴾ وَالَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا ﴿ ١٦ ﴾ أي مما تنبت الأرض من سائر الأصناف من نبات وزروع وثمار وأزاهير وغير ذلك . ومن الحيوانات على اختلاف أجناسها وأصنافها ﴿ ١٧ ﴾ وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ الْفَلَاحِ ﴿ ١٨ ﴾ أي السفن ﴿ ١٩ ﴾ وَالْأَنْعَامِ مَا تَرْكَبُونَ ﴿ ٢٠ ﴾ أي ذللها لكم وسخرها ويسرها لأكلكم لحومها وشربكم ألبانها وركوبكم ظهورها ، ولهذا قال جل وعلا : ﴿ ٢١ ﴾ لِيَسْتَوُوا عَلَى ظُهُورِهِ ﴿ ٢٢ ﴾ أي لتستوا متمكين مرتفعين ﴿ ٢٣ ﴾ عَلَى ظُهُورِهِ ﴿ ٢٤ ﴾ أي على ظهور هذا الجنس ﴿ ٢٥ ﴾ ثُمَّ تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ ﴿ ٢٦ ﴾ أي فيما سخر لكم ﴿ ٢٧ ﴾ إِذَا اسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا سُبْحَنَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ ﴿ ٢٨ ﴾ أي مقاومين ، ولولا تسخير الله لنا هذا ما قدرنا عليه . قال ابن عباس وقتادة والسدي : مقرنين ، أي مطبقين ﴿ ٢٩ ﴾ وَإِنَّا إِلَٰك رَبَّنَا لَمُنْقَلِبُونَ ﴿ ٣٠ ﴾ أي لصاترون إليه بعد مماتنا وإليه سيرنا الأكبر ، وهذا من باب التنبيه بسير الدنيا على سير الآخرة ، كما نبه بالزاد الدنيوي على الزاد الأخروي في قوله تعالى : ﴿ ٣١ ﴾ وَكَزَوَّدُوا فَوَاسِكَ خَيْرَ الزَّادِ الْقَتَوَىٰ ﴿ ٣٢ ﴾ وباللباس الدنيوي على الأخروي في قوله تعالى : ﴿ ٣٣ ﴾ وَرَبِّدْنَا وَيَٰلِاسَ الْقَتَوَىٰ ذَلِكَ خَيْرٌ ﴿ ٣٤ ﴾ .

ذكر الاحاديث الواردة عند ركوب الدابة : عن عبد الله بن عباس رضي الله عنه ، قال : إن رسول الله ﷺ أُرْدِفَ على دابته ، فلما استوى عليها كبر رسول الله ﷺ ثلاثًا ، وحمد ثلاثًا ، وسبح ثلاثًا ، وهلل واحدة . ثم استلقى عليه وضحك ، ثم أقبل عليه فقال : « ما من امرئ مسلم يركب دابة فيصنع كما صنعت ؛ إلا أقبل الله ﷻ عليه ، فضحك إليه كما ضحكت إليك » ^(١) .

وعن عبد الله بن عمر رضي الله عنه قال : إن النبي ﷺ كان إذا ركب راحلته كبر ثلاثًا ثم قال : ﴿ ٣٥ ﴾ سُبْحَنَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ ﴿ ٣٦ ﴾ وَإِنَّا إِلَٰك رَبَّنَا لَمُنْقَلِبُونَ ﴿ ٣٧ ﴾ ثم يقول : « اللهم إني أسألك في سفري هذا البر والتقوى ، ومن العمل ما ترضى ، اللهم هون علينا السفر واطو لنا البعيد ،

اللَّهُم أنت الصاحب في السفر ، والخليفة في الأهل ، اللَّهُم اصحبنا في سفرنا واخلفنا في أهلنا .
وكان ﷺ إذا رجع إلى أهله قال : « آيُونَ تَأْيُوثُونَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ عَابِدُونَ لِرَبِّنَا حَامِدُونَ » (١) .

عن أبي لاس الخزازي قال : حملنا رسول الله ﷺ على إبل من إبل الصدقة إلى الحج ، فقلنا :
يا رسول الله ما نرى أن تحملنا هذه ، فقال له ﷺ : « ما من يعير إلا في ذروته شيطان ، فاذكروا
اسم الله عليها إذا ركبتموها كما أمركم ، ثم امتهنوها لأنفسكم فإنما يحمل الله ﷻ » (٢) .

﴿ وَجَعَلُوا لَهُ مِنْ عِبَادِهِ جُزْءًا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَكَفُورٌ مُبِينٌ ١٥ ﴾ أَرَأَيْتُمْ مِمَّا يَخْلُقُ بَنَاتٍ وَأَصْفَنَكُمْ يَالْبَئِينَ ١٦
وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِمَا صَرَبَ لِلرَّحْمَنِ مَثَلًا ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ١٧ أَوْمِنْ يُنْسَوْنَ فِي الْحِلْيَةِ وَهُوَ فِي
الْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ ١٨ وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبْدُ الرَّحْمَنِ إِنثًا أَشْهَدُوا خَلْقَهُمْ سَتُكْتَبُ شَهَادَتُهُمْ وَيُسْأَلُونَ ١٩
وَقَالُوا لَوْ شَاءَ الرَّحْمَنُ مَا عَبَدْنَاهُمْ مَا لَهُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ٢٠ .

يقول تعالى مخبرًا عن المشركين فيما افتروه وكذبوه في جعلهم بعض الأنعام لطواغيتهم وبعضها
للله تعالى ، وكذلك جعلوا له في قسمة البنات والبنين أحسهما وأردأهما وهو البنات ، كما قال
تعالى : ﴿ أَلَكُمُ الذَّكَرُ وَلَهُ الْأُنثَى ١٥ تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَى ١٦ ﴾ وقال جل وعلا ههنا ﴿ وَجَعَلُوا لَهُ مِنْ عِبَادِهِ
جُزْءًا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَكَفُورٌ مُبِينٌ ١٥ ﴾ ثم قال جل وعلا : ﴿ أَرَأَيْتُمْ مِمَّا يَخْلُقُ بَنَاتٍ وَأَصْفَنَكُمْ يَالْبَئِينَ ١٦ ﴾ وهذا
إنكار عليهم غاية الإنكار . ثم ذكر تمام الإنكار ، فقال جلت عظمتة : ﴿ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِمَا صَرَبَ
لِلرَّحْمَنِ مَثَلًا ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ١٧ ﴾ أي إذا بشر أحد هؤلاء بما جعلوه لله من البنات يأنف من
ذلك غاية الأنفة ، وتعلوه كآبة من سوء ما بشر به ، ويتوارى من القوم من خجله من ذلك ، يقول
تبارك وتعالى : فكيف تأنفون أنتم من ذلك وتنسبونوه إلى الله ﷻ . ثم قال ﷻ : ﴿ أَوْمِنْ يُنْسَوْنَ فِي
الْحِلْيَةِ وَهُوَ فِي الْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ ١٨ ﴾ أي المرأة ناقصة يكمل نقصها بلبس الجلي منذ تكون طفلة ، وإذا
خاصمت فلا عبارة لها ، بل هي عاجزة عيبة ، أو من يكون هكذا ينسب إلى جناب الله العظيم ،
وقوله تبارك وتعالى : ﴿ وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبْدُ الرَّحْمَنِ إِنثًا ١٩ ﴾ أي اعتقدوا فيهم ذلك ، فأنكر
عليهم تعالى قولهم ذلك فقال : ﴿ أَشْهَدُوا خَلْقَهُمْ ٢٠ ﴾ أي شاهده وقد خلقهم الله إناثًا ﴿ سَتُكْتَبُ
شَهَادَتُهُمْ ٢١ ﴾ أي بذلك ﴿ وَيُسْأَلُونَ ٢٢ ﴾ عن ذلك يوم القيامة ، وهذا تهديد شديد ووعيد أكيد ﴿ وَقَالُوا
لَوْ شَاءَ الرَّحْمَنُ مَا عَبَدْنَاهُمْ ٢٣ ﴾ أي لو أراد الله لحال بيننا وبين عبادة هذه الأصنام التي هي على صور
الملائكة التي هي بنات الله ؛ فإنه عالم بذلك ، وهو يقرنا عليه ، فجمعوا بين أنواع كثيرة من الخطأ :
أحدها : جعلهم لله تعالى ولدًا ، تعالى وتقدس وتنزه عن ذلك علوًا كبيرًا .

الثاني : دعواهم أنه اصطفى البنات على البنين فجعلوا الملائكة الذين هم عباد الرحمن إناثًا .
الثالث : عبادتهم لهم مع ذلك كله بلا دليل ولا برهان ولا إذن من الله ﷻ ، بل بمجرد الآراء
والأهواء والتقليد للأسلاف والكبراء والآباء والخطب في الجاهلية الجاهلاء .

(١) أخرجه الترمذي في السنن (٣٤٤٧) وأبو داود في السنن (٢٥٩٩) والترمذي في السنن (٢٨٧/٢) وأحمد في مسنده (١٤٤/٢) .

(٢) أخرجه أحمد في مسنده (٢٢١/٤) والحاكم في المستدرک (٤٤٤/١) وابن خزيمة في صحيحه (٢٥٤٣) .

الرابع : احتجاجهم بتقديرهم على ذلك قدراً ، وقد جهلوا في هذا الاحتجاج جهلاً كبيراً ؛ فإنه تعالى قد أنكر ذلك عليهم أشد الإنكار ؛ فإنه منذ بعث الرسل وأنزل الكتب يأمر بعبادته وحده لا شريك له ، وينهى عن عبادة ما سواه قال تعالى : ﴿ وَتَوَكَّلْ عَلَىٰ رَبِّكَ إِنَّكَ عِنْدَ رَبِّكَ بِعَيْنِ الْيَقِينِ ﴾ وقال جل وعلا في هذه الآية بعد أن ذكر حجتهم هذه ﴿ تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الَّتِي كُنَّا نُزِّلُهَا عَلَيْكَ لَعَلَّ لَكَ تَحْفَظُهَا ﴾ أي بصحة ما قالوه واحتجوا به ﴿ إِنَّهُمْ إِلَّا يَفْزَعُونَ ﴾ أي يكذبون ويتقولون ، وقال مجاهد يعني ما يعلمون قدرة الله تبارك وتعالى على ذلك .

﴿ أَمْ أَلَيْسَ لَكُم مَّا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ مِثْلِ الَّذِي هُمْ عَلَىٰ أَعْنَاقِهِمْ فَكَفَرُوا بِهٖ فَكُنَّا لُكُم بَٰرِئِينَ ﴾ ﴿ قُلْ أَوَلَمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لِلنَّاسِ عَقْلًا لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾ ﴿ قُلْ أَوَلَمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لِلنَّاسِ عَقْلًا لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾ ﴿ قُلْ أَوَلَمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لِلنَّاسِ عَقْلًا لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾ .

يقول تعالى منكرًا على المشركين في عبادتهم غير الله بلا برهان ولا دليل ولا حجة ﴿ أَمْ أَلَيْسَ لَكُم مَّا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ مِثْلِ الَّذِي هُمْ عَلَىٰ أَعْنَاقِهِمْ فَكَفَرُوا بِهٖ فَكُنَّا لُكُم بَٰرِئِينَ ﴾ أي فيما هم فيه أي ليس الأمر كذلك ، ثم قال تعالى : ﴿ بَلْ قَالُوا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ مِثْلِ الَّذِي هُمْ عَلَىٰ أَعْنَاقِهِمْ فَكَفَرُوا بِهٖ فَكُنَّا لُكُم بَٰرِئِينَ ﴾ أي ليس لهم مستند فيما هم فيه من الشرك سوى تقليد الآباء والأجداد بأنهم كانوا على أمة ، والمراد بها الدين ههنا . وقولهم ﴿ وَإِنَّا عَلَىٰ أَعْنَاقِهِمْ ﴾ أي وراءهم ﴿ مُتَهَدُونَ ﴾ دعوى منهم بلا دليل . ثم بين جل وعلا أن مقالة هؤلاء قد سبقهم إليها أشباههم ونظراؤهم من الأمم السالفة المكذبة للرسل ، تشابهت قلوبهم فقالوا مثل مقالتهم ﴿ وَكَذَٰلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ مِثْلِ الَّذِي هُمْ عَلَىٰ أَعْنَاقِهِمْ فَكَفَرُوا بِهٖ فَكُنَّا لُكُم بَٰرِئِينَ ﴾ ثم قال ﴿ قُلْ أَوَلَمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لِلنَّاسِ عَقْلًا لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾ أي يا محمد لهؤلاء المشركين ﴿ أَوَلَمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لِلنَّاسِ عَقْلًا لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾ أي ولو علموا وتيقنوا صحة ما جئتهم به لما انقادوا لذلك لسوء قصدهم ومكابرتهم للحق وأهله . قال الله تعالى : ﴿ فَانقَضَتْ مِنْهُمْ لُكُم بَٰرِئِينَ ﴾ أي من الأمم المكذبة بأنواع من العذاب كما فصله تبارك وتعالى في قصصهم ﴿ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكْذِبِينَ ﴾ أي كيف بادوا وهلكوا وكيف نجى الله المؤمنين .

﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِي بَرَاءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ ﴾ ﴿ إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُ سَيِّدِي ﴾ ﴿ وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَٰقِيَةً فِي عَقْبِهِ ﴾ ﴿ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ ﴿ بَلْ مَتَّعْتُ هَٰؤُلَاءَ وَآبَاءَهُمْ حَيَاتٍ مَّا جَاءَهُمْ لَحْظًا يَنظُرُونَ ﴾ ﴿ وَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ قَالُوا هَٰذَا سِحْرٌ وَإِنَّا بِهِ كَافِرُونَ ﴾ ﴿ وَقَالُوا لَوْلَا نَزَلَ هَٰذَا الْفَرَّاقُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴾ ﴿ أَهَرَأَيْتُم مَّا يَكْفُرُونَ بِرَبِّكَ إِذْ قَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا الْفَرَّاقُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴾ ﴿ أَهَرَأَيْتُم مَّا يَكْفُرُونَ بِرَبِّكَ إِذْ قَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا الْفَرَّاقُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴾ ﴿ أَهَرَأَيْتُم مَّا يَكْفُرُونَ بِرَبِّكَ إِذْ قَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا الْفَرَّاقُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴾ ﴿ أَهَرَأَيْتُم مَّا يَكْفُرُونَ بِرَبِّكَ إِذْ قَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا الْفَرَّاقُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴾ ﴿ أَهَرَأَيْتُم مَّا يَكْفُرُونَ بِرَبِّكَ إِذْ قَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا الْفَرَّاقُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴾ .

يقول تعالى مخبرًا عن عبده ورسوله وخليفه إمام الخنفاء ووالد من بعث بعده من الأنبياء ، الذي تنتسب إليه قريش في نسبها ومذهبها ، أنه تبرأ من أبيه وقومه في عبادتهم الأوثان ، فقال : ﴿ إِنَّنِي بَرَاءٌ

مِمَّا تَقْبُدُونَ ﴿٢٦﴾ إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُ سَيِّدِي ﴿٢٧﴾ وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِيْدِهِ ﴿٢٨﴾ أَي هَذِهِ الْكَلِمَةُ وَهِيَ عِبَادَةُ اللَّهِ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ وَخَلَعَ مَا سِوَاهُ مِنَ الْأَوْثَانِ ، وَهِيَ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ ، أَي جَعَلَهَا دَائِمَةً فِي ذَرِيَّتِهِ يَقْتَدِي بِهَا فِيهَا مِنْ هَدَاهُ اللَّهُ تَعَالَى مِنْ ذَرِيَةِ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ ﴿٢٩﴾ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٣٠﴾ أَي إِلَيْهَا . قَالَ عِكْرَمَةُ وَمُجَاهِدٌ وَالضَّحَّاكُ وَغَيْرُهُمْ فِي قَوْلِهِ ﷻ : ﴿٣١﴾ وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِيْدِهِ ﴿٣٢﴾ يَعْنِي لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ لَا يَزَالُ فِي ذَرِيَّتِهِ مِنْ يَقُولُهَا ، ثُمَّ قَالَ جُل وَعَلَا : ﴿٣٣﴾ بَلْ مَتَّعْتُ هَؤُلَاءِ ﴿٣٤﴾ يَعْنِي الْمُشْرِكِينَ ﴿٣٥﴾ وَآبَاءَهُمْ ﴿٣٦﴾ أَي : فَتَطَاوَلَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ فِي ضَلَالِهِمْ ﴿٣٧﴾ حَتَّى جَاءَهُمُ الْحَقُّ وَرَسُولٌ مُبِينٌ ﴿٣٨﴾ أَي بَيْنَ الرِّسَالَةِ وَالنَّذَارَةِ ﴿٣٩﴾ وَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ وَإِنَّا بِهِ كَاذِبُونَ ﴿٤٠﴾ أَي كَابُرُوهُ وَعَانَدُوهُ وَدَفَعُوا بِالْصَّدُورِ وَالرَّاحِ كُفْرًا وَحَسَدًا وَبَغْيًا ﴿٤١﴾ وَقَالُوا ﴿٤٢﴾ أَي كَالْمُعْتَرِضِينَ عَلَى الَّذِي أَنْزَلَهُ تَعَالَى وَتَقَدَّسَ ﴿٤٣﴾ لَوْلَا نَزَلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِّنَ الْفَرِثِيِّينَ عَظِيمٍ ﴿٤٤﴾ أَي هَلْ كَانَ أَنْزَالَ هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى رَجُلٍ عَظِيمٍ كَبِيرٍ فِي أَعْيُنِهِمْ مِنَ الْقَرِيتَيْنِ ؟ يَعْنُونَ مَكَّةَ وَالطَّائِفَ ، قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَغَيْرُ وَاحِدٍ : إِنَّهُمْ أَرَادُوا بِذَلِكَ الْوَلِيدَ بْنِ الْمَغِيرَةِ وَعُرْوَةَ بْنَ مَسْعُودٍ الثَّقَفِي . وَعَنْ مُجَاهِدٍ : يَعْنُونَ عَمِيرَ بْنَ عَمْرِو بْنِ مَسْعُودٍ الثَّقَفِي . وَعَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ : جَبَارًا مِنْ جَبَايِرَةِ قُرَيْشَ ، وَعَنْهُ أَنَّهُمْ يَعْنُونَ الْوَلِيدَ بْنَ الْمَغِيرَةِ وَحَبِيبَ بْنَ عَمْرِو بْنِ عَمِيرِ الثَّقَفِي ، وَعَنْ مُجَاهِدٍ : يَعْنُونَ عَتَبَةَ بْنَ رَبِيعَةَ بِمَكَّةَ وَابْنَ عَبْدِ يَالِيلَ بِالطَّائِفِ ، وَالظَّاهِرُ أَنَّ مَرَادَهُمْ رَجُلًا كَبِيرًا مِنْ أَيِّ الْبَلَدَتَيْنِ كَانَ . قَالَ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى رَاذًا عَلَيْهِمْ فِي هَذَا الْإِعْتِرَاضِ : ﴿٤٥﴾ أَمَرَ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ ﴿٤٦﴾ أَي لَيْسَ الْأَمْرُ مَرْدُودًا إِلَيْهِمْ . بَلْ إِلَى اللَّهِ ﷻ ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَاتِهِ ؛ فَإِنَّهُ لَا يَنْزِلُهَا إِلَّا عَلَى أَزْكَى الْخَلْقِ قَلْبًا وَنَفْسًا . وَأَشْرَفُهُمْ بَيْتًا ، وَأَطْهَرُهُمْ أَصْلًا .

ثُمَّ قَالَ ﷻ مَبِينًا أَنَّهُ قَدْ فَاءَتْ بَيْنَ خَلْقِهِ فِيمَا أَعْطَاهُمْ مِنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَرْزَاقِ وَالْعُقُولِ وَالْفُهُومِ وَغَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الْقُوَى الظَّاهِرَةِ وَالْبَاطِنَةِ ، فَقَالَ : ﴿٤٧﴾ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَّيْسَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴿٤٨﴾ الْآيَةُ . وَقَوْلُهُ جَلَّتْ عَظَمَتُهُ ﴿٤٩﴾ لِيَسْخِذَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ سُخْرِيًّا ﴿٥٠﴾ قِيلَ : مَعْنَاهُ لِيَسْخِرَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا فِي الْأَعْمَالِ لِحَاجَتِاجِ هَذَا إِلَى هَذَا ، وَهَذَا إِلَى هَذَا . ثُمَّ قَالَ ﷻ : ﴿٥١﴾ وَرَحِمْتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿٥٢﴾ أَي رَحْمَةُ اللَّهِ بِخَلْقِهِ خَيْرٌ لَهُمْ مِمَّا بَأْيَدِيهِمْ مِنَ الْأَمْوَالِ وَمَتَاعِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ، ثُمَّ قَالَ ﷻ : ﴿٥٣﴾ وَلَوْلَا أَنْ يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً ﴿٥٤﴾ أَي لَوْلَا أَنْ يَعْتَقِدَ كَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ الْجَهْلَةَ أَنَّ إِعْطَاءَنَا الْمَالَ دَلِيلٌ عَلَى مَحَبَّتِنَا لِمَنْ أَعْطَيْنَاهُ فَيَجْتَمِعُوا عَلَى الْكُفْرِ لِأَجْلِ الْمَالِ ﴿٥٥﴾ لَجَعَلْنَا لِمَنْ يَكْفُرْ بِالرَّحْمَنِ لِيُذِيقَهُمْ سُقْمًا مِّنْ فُضْصَةٍ وَمَعَارِجَ ﴿٥٦﴾ أَي سِلَاحًا وَدَرَجًا مِنْ فَضْةٍ ﴿٥٧﴾ عَلَيْهِمْ يَظْهَرُونَ ﴿٥٨﴾ أَي يَصْعَدُونَ ﴿٥٩﴾ وَلِيُذِيقَهُمْ آثَرًا ﴿٦٠﴾ أَي أَغْلَاقًا عَلَى أَبْوَابِهِمْ ﴿٦١﴾ وَسُرْرًا عَلَيْهِمْ يَنْكَبُونَ ﴿٦٢﴾ أَي جَمِيعَ ذَلِكَ يَكُونُ فَضْةً ﴿٦٣﴾ وَزُخْرَفًا ﴿٦٤﴾ أَي وَذَهَبًا .

ثُمَّ قَالَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى : ﴿٦٥﴾ وَإِنْ كُفُّوا ذَلِكَ لَمَّا مَتَّعَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ﴿٦٦﴾ أَي إِنَّمَا ذَلِكَ مِنَ الدُّنْيَا الْفَانِيَةِ الزَّائِلَةِ الْحَقِيرَةِ عِنْدَ اللَّهِ تَعَالَى ، أَي يَعَجَلُ لَهُمْ بِحَسَنَاتِهِمُ الَّتِي يَعْمَلُونَهَا فِي الدُّنْيَا مَأْكُلًا وَمَشَارِبًا لِيُؤَفِّقُوا الْآخِرَةَ ، وَلَيْسَ لَهُمْ عِنْدَ اللَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى حَسَنَةٌ يَجْزِيهِمْ بِهَا . ثُمَّ قَالَ ﷻ : ﴿٦٧﴾ وَالْآخِرَةُ عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٦٨﴾ أَي هِيَ لَهُمْ خَاصَّةٌ لَا يَشَارِكُهُمْ فِيهَا أَحَدٌ غَيْرُهُمْ ، وَلِهَذَا لَمَّا قَالَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ ﷺ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ حِينَ صَعِدَ إِلَيْهِ فِي تِلْكَ الْمَشْرُبَةِ لَمَّا آلَى ﷺ مِنْ نِسَائِهِ فَرَأَاهُ عَلَى رِمَالٍ حَصِيرٍ قَدْ أَثَرُ بَجْنِهِ ، فَابْتَدَرَتْ عَيْنَاهُ بِالْبُكَاءِ وَقَالَ : يَا رَسُولَ اللَّهِ هَذَا كَسْرِي وَقِصْرُ فِيمَا هُمَا فِيهِ ، وَأَنْتَ صَفْوَةٌ

اللَّهُ من خلقه ، وكان رسول الله ﷺ متكئا فجلس وقال : « أوفي شك أنت يا ابن الخطاب ؟ » ثم قال ﷺ أولئك قوم عجلت لهم طيباتهم في حياتهم الدنيا ^(١) . وعن سهل بن سعد قال : قال رسول الله ﷺ : « لو كانت الدنيا ترن عند الله جناح بعوضة ؛ ما سقى منها كافرا شربة ماء أبدا ^(٢) » .

﴿ وَمَنْ يَعْشُ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقِضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَمْ يَقِرْ ۖ ﴾ ^(٣) وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّوهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُهُتَدُونَ ^(٤) حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُ قَالَ بَلَغْتَ بَنِيَّ وَبَيْنَكَ بَعْدَ الْمَشْرِقَيْنِ فَيَسَّ الْقَرْيَتَيْنِ ^(٥) وَلَنْ يَنْفَعَكُمُ الْيَوْمَ إِذْ ظَلَمْتُمْ أَتُكْرَرُ فِي الْعَذَابِ مُشْرِكُونَ ^(٦) أَفَأَنْتَ تُشْمِعُ الصُّمَّ أَوْ تَهْدِي الْأَعْمَىٰ وَمَنْ كَانَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ^(٧) فَإِنَّمَا تَذَهَبُ بِكَ فَإِنَّمَا مِنْهُمْ مُتَسَيِّمُونَ ^(٨) أَوْ تُرْسِكَ الَّذِي وَعَدْتَهُمْ فَإِنَّا عَلَيْهِمْ مُّقْتَدِرُونَ ^(٩) فَاسْتَسْيِكَ بِالَّذِي أُرِجَىٰ إِلَيْكَ إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ^(١٠) وَإِنَّمَا لَذِكْرُ لَكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُشْأَلُونَ ^(١١) وَسَلِّ مَنْ أُرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رُسُلِنَا أَجَعَلْنَا مِنْ دُونِ الرَّحْمَنِ إِلَهًا يُعْبَدُونَ ۖ .

يقول تعالى : ﴿ وَمَنْ يَعْشُ ﴾ أي يتعمى ويتغافل ويعرض ﴿ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ ﴾ والعشا في العين ضعف بصرها ، والمراد ههنا عشا البصيرة ﴿ نُقِضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَمْ يَقِرْ ﴾ كقوله تعالى : ﴿ وَفُضِّنَا لَهُمْ قُرْآنًا فَرْتَوْا لَهُمْ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ ﴾ الآية ، ولهذا قال تبارك وتعالى ههنا : ﴿ وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّوهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُهُتَدُونَ ﴾ ^(٥) حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُ ﴾ أي هذا الذي تغافل عن الهدى نقض له من الشياطين من يضلّه ويهديه إلى صراط الحليم . فإذا وافى الله ﷻ يوم القيامة يترجم بالشیطان الذي وكل به ، فقال : ﴿ بَلَغْتَ بَنِيَّ وَبَيْنَكَ بَعْدَ الْمَشْرِقَيْنِ فَيَسَّ الْقَرْيَتَيْنِ ﴾ وقرأ بعضهم ﴿ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَنَا ﴾ يعني القرين والمقارن . والمراد بالمشرقين ها هنا هو ما بين المشرق والمغرب ، وإنما استعمل ها هنا تغليظا كما يقال : القمران والعمران والأبوان .

ثم قال تعالى : ﴿ وَلَنْ يَنْفَعَكُمُ الْيَوْمَ إِذْ ظَلَمْتُمْ أَتُكْرَرُ فِي الْعَذَابِ مُشْرِكُونَ ﴾ أي لا يغني عنكم اجتماعكم في النار واشتراككم في العذاب الأليم . وقوله جلت عظمتي ﴿ أَفَأَنْتَ تُشْمِعُ الصُّمَّ أَوْ تَهْدِي الْأَعْمَىٰ وَمَنْ كَانَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴾ أي ليس ذلك إليك إنما عليك البلاغ وليس عليك هداهم ، ولكن الله يهدي من يشاء ويضل من يشاء وهو الحكم العدل في ذلك ، ثم قال تعالى : ﴿ فَإِنَّمَا تَذَهَبُ بِكَ فَإِنَّمَا مِنْهُمْ مُتَسَيِّمُونَ ﴾ أي لا بد أن تنتقم منهم ونعاقبهم ولو ذهبت أنت ﴿ أَوْ تُرْسِكَ الَّذِي وَعَدْتَهُمْ فَإِنَّا عَلَيْهِمْ مُّقْتَدِرُونَ ﴾ أي نحن قادرون على هذا وعلى هذا ، ولم يقبض الله تعالى رسوله ﷺ حتى أقر عينه من أعدائه وحكمه في نواصيهم ، وملكه ماتضمنته صياهم .

وفي الحديث : « والنجوم أمانة للسماء ، فإذا ذهبت النجوم أتى السماء ما توعد ، وأنا أمانة لأصحابي ، فإذا ذهبت أتى أصحابي ما يوعدون » ^(١) ثم قال ﷻ : ﴿ فَاسْتَسْيِكَ بِالَّذِي أُرِجَىٰ إِلَيْكَ إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾ أي خذ بالقرآن المنزل على قلبك ، فإنه هو الحق وما يهدي إليه هو الحق المفضي إلى صراط الله المستقيم الموصل إلى جنات النعيم والخير الدائم المقيم .

ثم قال ﷻ : ﴿ وَإِنَّمَا لَذِكْرُ لَكَ وَلِقَوْمِكَ ﴾ قيل : معناه لشرف لك ولقومك ، قاله ابن عباس ومجاهد ،

(١) أخرجه البخاري في تفسير القرآن (٤٩١٣) وأحمد في مسنده (١٤٠/٣) .

(٢) أخرجه الترمذي في السنن (٢٣٢٠) والألباني في الصحيحة (٦٨٦) .

(٣) أخرجه مسلم في فضائل الصحابة (٢٧) وأحمد في مسنده (٣٩٩/٤) والحاكم في المستدرک (٤٥٧/٣) ومعنى الحديث : أن النجوم مادامت باقية في السماء فإن السماء باقية ، فإذا انكدرت النجوم وتناثر في السماء وهنت السماء فانفطرت وانشتت وذهبت .

واختاره ابن جرير ولم يحك سواه . وعن معاوية رضي الله عنه قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « إن هذا الأمر في قریش لا ينازعهم فيه أحد إلا أكبه الله تعالى على وجهه ما أقاموا الدين » ^(١) ومعناه أنه شرف لهم من حيث أنه أنزل بلغتهم ؛ فهم أفهم الناس له ، فينبغي أن يكونوا أقوم الناس به وأعملهم بمقتضاه ، وهكذا كان خيارهم وصفوتهم من الخالص من المهاجرين السابقين الأولين ومن شايعهم وتابعهم ، وقيل : معناه ﴿ وَأَنَّهُ لَذِكْرُكَ وَلِقَوْمِكَ ﴾ أي لتذكير لك ولقومك ، وتخصيصهم بالذكر لا ينفي من سواهم ﴿ وَسَوْفَ تَسْتَخِرُونَ ﴾ أي عن هذا القرآن ، وكيف كنتم في العمل به والاستجابة له . وقوله عليه السلام : ﴿ وَتَسْتَلِّ مَنْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رُسُلِنَا أَجْعَلْنَا مِنْ دُونِ الرَّحْمَنِ إِلَهًا يُعْبَدُونَ ﴾ أي جميع الرسل دعوا إلى ما دعوت الناس إليه من عبادة الله وحده لا شريك له ، ونهوا عن عبادة الأصنام والأنداد .

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَقَالَ إِنِّي رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ ۝ فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِآيَاتِنَا إِذَا هُمْ مِنْهَا يَعْصُونَ ۝ وَمَا يُرِيدُهُمْ مِنْ آيَةٍ إِلَّا هِيَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتَيْهَا وَأَخَذْنَاهُمْ بِالْعَذَابِ لَأَعْلَاهُمْ يَرْجِعُونَ ۝ وَقَالُوا يَتَّبِعُهُ السَّاحِرُ أَنْعَ لَنَا رَبِّكَ بِمَا عَهِدَ عِنْدَكَ إِنَّا لَمُهْتَدُونَ ۝ فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمْ الْعَذَابَ إِذَا هُمْ يَنْكُتُونَ ﴾ .

يقول تعالى مخبراً عن عبده ورسوله موسى عليه السلام أنه ابتعثه إلى فرعون وملائته من الأمراء والوزراء والقادة والأنبأ والرعايا من القبط وبني إسرائيل يدعوهم إلى عبادة الله وحده لا شريك له ، وينهاهم عن عبادة ما سواه ، وأنه بعث معه آيات عظيمة كيد وعصاه ، وما أرسل معه من الطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم ، ومن نقص الزروع ، والأنفس والثمرات ، ومع هذا كله استكبروا عن اتباعها والانقياد لها ، وكذبوها وسخروا منها وضحكوا بمن جاءهم بها ﴿ وَمَا يُرِيدُهُمْ مِنْ آيَةٍ إِلَّا هِيَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتَيْهَا ﴾ ومع هذا مارجعوا عن غيهم وضلالهم ، وجهلهم وخبالهم ، وكلما جاءتهم آية من هذه الآيات يضرعون إلى موسى عليه الصلاة والسلام ويتلطفون له في العبارة بقولهم : ﴿ يَتَّبِعُهُ السَّاحِرُ ﴾ أي العالم ، قاله ابن جرير ، وكان علماء زمانهم هم السحرة . ولم يكن السحر في زمانهم مذموماً عندهم ؛ فليس هذا منهم على سبيل الانتقاص منهم ؛ لأن الحال حال ضرورة منهم إليه لاتناسب ذلك ، وإنما هو تعظيم في زعمهم ، ففي كل مرة يعدون موسى عليه السلام إن كشف عنهم هذا أن يؤمنوا به ويرسلوا معه بني إسرائيل ، وفي كل مرة ينكثون ما عاهدوا عليه .

﴿ وَكَادَىٰ فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِ قَالَ يَنْتَوِي إِلَيْكَ يَصِرَ هَكَذَا أَأَلْتَهَرُجْجِي مِنْ تَحْتِي أَفَلَا تُبْصِرُونَ ۝ أَرَأَيْتَ إِنْ هَذَا الَّذِي هُوَ مِثْلُ آبَاءِنَا لَا يَحْكُمُونَ إِلَّا بِالْحَاقِّ أَفَلَا يَسْخَرُونَ مِنْهُ ۝ فَاسْتَحَفَّ قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ ۝ فَلَمَّا ءَاسَفُونَا انْتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ ۝ فَجَعَلْنَاهُمْ سَلَفًا وَمَثَلًا لِّلْآخِرِينَ ﴾ .

يقول تعالى مخبراً عن فرعون وتمرده وعتوه وكفره وعناده : أنه جمع قومه فنادى فيهم متبجحاً مفتخراً بملك مصر وتصرفه فيها ﴿ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِنْ تَحْتِي ﴾ قال قتادة : قد كانت لهم جنات وأنهار ماء ﴿ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴾ أي أفلا ترون ما أنا فيه من العظمة والملك ، يعني موسى وأتباعه فقراء ضعفاء .

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٣٩٦/٤) والبيهقي في السنن (١٤٣/٨) والطبراني في الكبير (٣٣٨/١٩) .

وقوله : ﴿ أَزْ أَنَا خَيْرٌ مِّنْ هَذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ ﴾ قال السدي : يقول بل أنا خير من هذا الذي هو مهين ، وهكذا قال بعض نحاة البصرة : أن أم ههنا بمعنى بل ويؤيد هذا ما حكاه الفراء عن بعض القراء أنه قرأها (أما أنا خير من هذا الذي هو مهين) قال ابن جرير : ولو صحت هذه القراءة لكان معناها واضحا ولكنها خلاف قراءة الأمصار فإنهم قرأوا ﴿ أَزْ أَنَا خَيْرٌ مِّنْ هَذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ ﴾ على الاستفهام . قلت : وعلى كل تقدير فإنما يعني فرعون لعنه الله بذلك أنه خير من موسى عليه الصلاة والسلام ، وقد كذب في قوله هذا كذبا بينا ، واضحا فعليه لعائن الله المتتابعة إلى يوم القيامة . ويعني بقوله مهين كما قال سفيان : حقير ، وقال قتادة والسدي : يعني ضعيف . وقال ابن جرير : يعني لا ملك له ولا سلطان ولا مال ﴿ وَلَا يَكَادُ يَبِينُ ﴾ يعني لا يكاد يفصح عن كلامه فهو عبي حصر . قال السدي : ﴿ وَلَا يَكَادُ يَبِينُ ﴾ أي لا يكاد يفهم . وقال قتادة والسدي وابن جرير : يعني عبي اللسان ، وقال سفيان : يعني في لسانه شيء من الجمرة حين وضعها في فمه وهو صغير ، وهذا الذي قاله فرعون لعنه الله كذب واختلاق ، وإنما حملة على هذا الكفر والعناد وهو ينظر إلى موسى عليه الصلاة والسلام بعين كافرة شقية ، وقد كان موسى عليه السلام من الجلالة والعظمة والبهاء في صورة يهر أبصار ذوي الأبواب .

وقوله : ﴿ مَهِينٌ ﴾ كذب ، بل هو المهين الحقير خلقه وخلقا ودينا ، وموسى هو الشريف الرئيس الصادق البار الراشد . وقوله : ﴿ وَلَا يَكَادُ يَبِينُ ﴾ افتراء أيضا فإنه وإن كان قد أصاب لسانه في حال صغره شيء من جهة تلك الجمرة ، فقد سأل الله تعالى أن يحل عقدة من لسانه ليفقهوا قوله ، وقد استجاب الله تبارك وتعالى له ذلك في قوله : ﴿ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَمُوسَى ﴾ ويتقدير أن يكون قد بقي شيء لم يسأل إزالته ، كما قاله الحسن البصري ، وإنما سأل زوال ما يحصل معه الإبلاغ والإفهام ، فالأشياء الخلقية التي ليست من فعل العبد لا يعاب بها ولا يذم عليها ، وفرعون وإن كان يفهم وله عقل ، فهو يدري هذا ، وإنما أراد الترويح على رعيته ؛ فإنهم كانوا جهلة أغبياء ، وهكذا قوله : ﴿ فَلَوْلَا أُلِّيَ عَلَيْهِ أَسْرُؤُهُ مِّنْ ذَهَبٍ ﴾ وهي ما يجعل في الأيدي من الحلي ﴿ أَوْ جَاءَ مَعَهُ الْمَلَائِكَةُ مَقَرِّيْنَ ﴾ أي يكتفونه خدمة له ويشهدون بتصديقه ، نظر إلى الشكل الظاهر ولم يفهم السر المعنوي الذي هو أظهر مما نظر إليه لو كان يفهم ، ولهذا قال تعالى : ﴿ فَاسْتَحَفَّ قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ ﴾ أي استخف عقولهم فدعاهم إلى الضلالة فاستجابوا له ﴿ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَتِيحِينَ ﴾ قال الله تعالى : ﴿ فَلَمَّا ءَاسَفُونَا ائْتَمَرْنَا مِنْهُمُ طَآءِفَةً فَاغْرَقْنَاهُمْ بَعْجَةً عَنِ عِبَادِ ﴾ عن ابن عباس : ﴿ ءَاسَفُونَا ﴾ أسخطونا .

وعن عقبة بن عامر رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « إذا رأيت الله تبارك وتعالى يعطي العبد ما يشاء وهو مقيم على معاصيه ؛ فإنما ذلك استدراج منه له » ثم تلا ﷻ ﴿ فَلَمَّا ءَاسَفُونَا ائْتَمَرْنَا مِنْهُمُ طَآءِفَةً فَاغْرَقْنَاهُمْ بَعْجَةً عَنِ عِبَادِ ﴾ (١) . وقوله ﷻ : ﴿ فَجَعَلْنَاهُمْ سَلَفًا وَمَثَلًا لِّلْآخِرِينَ ﴾ قال أبو مجلز : سلفا لمثل من عمل بعملهم . وقال مجاهد : ﴿ وَمَثَلًا ﴾ أي عبرة لمن بعدهم .

﴿ وَلَمَّا شَرِبَ ابْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ ﴾ وقالوا ءَالِهَتُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًا بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ ﴿٥٥﴾ إِنَّ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ ائْتَمَرْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَاهُ مَثَلًا لِّبَنِي إِسْرَءِيلَ ﴿٥٦﴾ وَلَوْ نَشَاءُ لَجْعَلْنَا مِنْكُمْ

مَلَائِكَةٍ فِي الْأَرْضِ يَخْلُقُونَ ﴿٥٧﴾ وَإِنَّكُمْ لِلسَّاعَةِ فَلَا تَمْتَرُونَ بِهَا وَأَتَّبِعُونَ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ ﴿٥٨﴾ وَلَا يَصُدُّكُمْ
الشَّيْطَانُ إِنَّكُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ تُبِينٌ ﴿٥٩﴾ وَلَمَّا جَاءَ عِيسَى بِالْبَيِّنَاتِ قَالَ قَدْ جِئْتُكُمْ بِالْحِكْمَةِ وَلِأُبَيِّنَ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي
تَخْتَلِفُونَ فِيهِ فَأَتَقُوا اللَّهَ وَالْعَمَلُونَ ﴿٦٠﴾ إِنَّ اللَّهَ هُوَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَأَعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ ﴿٦١﴾ فَاتَّخَذَ الْأَخْرَابُ مِنْ
بَيْنِهِمْ قَوِيلًا لَلَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ عَذَابِ يَوْمِ إِلَهِ ﴿٦٢﴾ .

يقول تعالى مخبراً عن تعنت قريش في كفرهم وتعمدهم العناد والجدل ﴿٥٧﴾ وَلَمَّا شَرِبَ أَنْ مَرَّيَ
مَثَلًا إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ ﴿٥٨﴾ قال ابن عباس ومجاهد وعكرمة والسدي والضحاك : يضحكون
أي أعجبوا بذلك ، وقال قتادة : يجزعون ويضحكون . وقال إبراهيم النخعي : يعرضون ، وكان
السبب في ذلك ما ذكره محمد بن إسحاق في السيرة حيث قال : وجلس رسول الله ﷺ ، فيما
بلغني ، يوماً مع الوليد بن المغيرة في المسجد ، فجاء النضر بن الحارث حتى جلس معهم ، وفي
الجلس غير واحد من رجال قريش ، فتكلم رسول الله ﷺ ، فعرض له النضر بن الحارث ، فكلمه
رسول الله ﷺ حتى أفحمه ، ثم تلا عليه ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ
لَهَا وَرْدُونَ﴾ الآيات . ثم قام رسول الله ﷺ وأقبل عبد الله بن الزبير التميمي حتى جلس ،
فقال الوليد بن المغيرة له : والله ما قام النضر بن الحارث لابن عبد المطلب وما قعد ، وقد زعم
محمد أنا وما نعبد من آلهتنا هذه حصب جهنم ، فقال عبد الله الزبيرى : أما والله لو وجدته
لخصمته ، سلوا محمداً أكل ما يعبد من دون الله في جهنم مع من عبده ، فنحن نعبد الملائكة
واليهود تعبد عزيزاً ، والنصارى تعبد المسيح عيسى ابن مريم ، فعجب الوليد ومن كان معه في
الجلس من قول عبد الله بن الزبيرى ، ورأوا أنه قد احتج وخاصم ، فذكر ذلك لرسول الله ﷺ
فقال : « كل من أحب أن يعبد من دون الله فهو مع من عبده ؛ فإنهم إنما يعبدون الشيطان ومن
أمرهم بعبادته » فأنزل الله ﷻ : ﴿إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنَىٰ أُولَٰئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ﴾ ، أي عيسى
وعزير ومن عبد معهما من الأحرار والرهبان ، الذين مضوا على طاعة الله ﷻ ، فاتخذهم من بعدهم
من أهل الضلالة أرباباً من دون الله ، ونزل فيما يذكر من أنهم يعبدون الملائكة وأنهم بنات الله
﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ﴾ الآيات . ونزل فيما يذكر من أمر عيسى عليه
الصلاة والسلام ، وأنه يعبد من دون الله ، وعجب الوليد ومن حضر من حجته وخصومته ﴿وَلَمَّا
شَرِبَ أَنْ مَرَّيَ مَثَلًا إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ﴾ أي يصدون عن أمرك بذلك من قوله . ثم ذكر عيسى
عليه الصلاة والسلام فقال : ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَاهُ مَثَلًا لِّبَنِي إِسْرَءِيلَ﴾ وَلَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَا
مِنْكُمْ مَلَائِكَةً فِي الْأَرْضِ يَخْلُقُونَ ﴿٥٧﴾ وَإِنَّكُمْ لِلسَّاعَةِ ﴿٥٨﴾ أي ما وضع على يديه من الآيات من إحياء الموتى
وإبراء الأسقام فكفى به دليلاً على علم الساعة يقول : ﴿فَلَا تَمْتَرُوا بِهَا وَأَتَّبِعُونَ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ﴾ .

وقوله ﴿وَقَالُوا إِنَّمَا الْإِنسَانُ خَيْرٌ مِّنْ هَؤُلَاءِ﴾ قال قتادة : يقولون آلهتنا خير منه .

وقوله تبارك وتعالى : ﴿مَا حَرَّبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًا﴾ أي مراء ، وهم يعلمون أنه ليس بوارد على الآية ،
لأنها لما لا يعقل ، وهي قوله تعالى : ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ﴾ ثم هي
خطاب لقريش ، وهم إنما كانوا يعبدون الأصنام والأنداد ، ولم يكونوا يعبدون المسيح حتى يوردوه ،

فتعين أن مقاتلهم إنما كانت جدلاً منهم ليسوا يعتقدون صحتها ، عن أبي أمامة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « ما ضل قوم بعد هدى كانوا عليه إلا أوتوا الجدل » ثم تلا رسول الله له هذه الآية ﴿ مَا ضَلَّ قَوْمُكَ إِلَّا جَدَلًا بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ ﴾ ^(١) وقوله تعالى : ﴿ إِنَّ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ ﴾ يعني عيسى عليه الصلاة والسلام . ما هو إلا عبد من عباد الله ﷺ أنعم الله عليه بالنبوة والرسالة ﴿ وَجَعَلْنَاهُ مَثَلًا لِّبَنِي إِسْرَءِيلَ ﴾ أي دلالة وحجة وبرهانا على قدرتنا على ما نشاء . وقوله ﷻ : ﴿ وَلَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَا مِنْكُمْ آيَاتِكُمْ فِي الْأَرْضِ بَدَلَكُمْ ﴾ أي بدلكما ﴿ فِي الْأَرْضِ يَخْتَفُونَ ﴾ قال السدي : يخلفونكم فيها ، وقال ابن عباس رضي الله عنه وقناة : يخلف بعضهم بعضا كما يخلف بعضهم بعضا ، وهذا القول يستلزم الأول . وقوله ﷻ : ﴿ وَإِنَّكُمْ لِلسَّاعَةِ لَلْغَامُ ﴾ أي أمانة ودليل على وقوع الساعة . قال مجاهد : ﴿ وَإِنَّكُمْ لَلْغَامُ ﴾ أي آية للساعة خروج عيسى ابن مريم عليه السلام قبل يوم القيامة ، وهكذا روي عن أبي هريرة وابن عباس وأبي العالية وأبي مالك وغيرهم ، وقد تواترت الأحاديث عن رسول الله ﷺ أنه أخبر بنزول عيسى عليه السلام قبل يوم القيامة إماما عادلاً وحكماً مقسطاً .

وقوله تعالى : ﴿ فَلَا تَتَّبِعُوا فِيهَا ﴾ أي لا تشكوا فيها أنها واقعة وكائنه لا محالة ﴿ وَاتَّبِعُوا ﴾ أي فيما أخبركم به ﴿ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ ﴾ ولا يصدنكم الشيطان ! أي عن اتباع الحق ﴿ إِنَّكُمْ لَكُورِ عَذُو مُبِينٌ ﴾ وَلَمَّا جَاءَ عِيسَى بِالْبَيِّنَاتِ قَالَ قَدْ جِئْتُكُمْ بِالْحِكْمَةِ ﴿ أي بالنبوة ﴾ وَلَأُبَيِّنَ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي تَخْتَلَفُونَ فِيهِ ﴾ قال ابن جرير : يعني من الأمور الدينية لا الدنيوية . وقوله ﷻ : ﴿ فَاتَّقُوا اللَّهَ ﴾ أي فيما أمركم به ﴿ وَاطِيعُونَ ﴾ فيما جئتمكم به ﴿ إِنَّ اللَّهَ هُوَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاتَّبِعُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ ﴾ أي أنا وأنتم عبيد له فقراء إليه مشتركون في عبادته وحده لا شريك له ﴿ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ ﴾ أي هذا الذي جئتمكم به هو الصراط المستقيم وهو عبادة الرب جل وعلا وحده . وقوله ﷻ : ﴿ فَاتَّخَذَ الْأَعْرَابُ مِنْ بَيْنِهِمْ ﴾ أي اختلفت الفرق وصاروا شيعا فيه ، منهم من يقر بأنه عبد الله ورسوله وهو الحق ، ومنهم من يدعي أنه ولد الله ، ومنهم من يقول إنه الله . تعالى الله عن قولهم علوا كبيرا ، ولهذا قال تعالى : ﴿ قَوْلٌ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ عَذَابٍ يَوْمَ إِلَهِ ﴾ .

﴿ هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا السَّاعَةَ أَنْ تَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾ ^(٢) الْأَخْلَاقُ يَوْمَئِذٍ بِبَعْضِهَا لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ ^(٣) يَتَجَادَفُ لَاحِقٌ عَلَيْكُمْ الْيَوْمَ وَلَا أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ ^(٤) الَّذِينَ آمَنُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا مُسْلِمِينَ ^(٥) ادْخُلُوا الْجَنَّةَ أَنْتُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ تُحْبَرُونَ ^(٦) يُطَافُ عَلَيْهِمْ بِصِحَافٍ مِنْ ذَهَبٍ وَأَكْوَابٍ وَفِيهَا مَا تَشْتَهُوهُ الْأَنْفُسُ وَكَذَلِكَ أُفْخِضَتْ وَأَنْشُرَتْ فِيهَا خِلَافٌ ^(٧) وَتِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي أُرْسِلْتُمْوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ^(٨) لَكُمْ فِيهَا فَاكِهَةٌ كَثِيرَةٌ مِنْهَا تَأْكُلُونَ ^(٩) .

يقول تعالى : هل ينتظر هؤلاء المشركون المكذبون للرسول ﴿ إِلَّا السَّاعَةَ أَنْ تَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾ أي فإنها كائنه لا محالة وواقعة ، وهؤلاء غافلون عنها غير مستعدين فإذا جاءت إنما تنجيهم وهم لا يشعرون بها فحينئذ يندمون كل الندم حيث لا ينفعهم ولا يدفع عنهم ، وقوله تعالى : ﴿ الْأَخْلَاقُ يَوْمَئِذٍ بِبَعْضِهَا لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ ﴾ أي كل صداقة وصحابة لغير الله فانها تنقلب يوم القيامة عداوة ، إلا ما كان لله ﷻ فإنه دائم بدوامه . عن علي رضي الله عنه : ﴿ الْأَخْلَاقُ يَوْمَئِذٍ بِبَعْضِهَا لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ ﴾ .

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٢٥٦/٢) والترمذي في السنن (٣٢٥٣) والحاكم في المستدرک (٤٤٧/٢) .

لَيَقْبِضَنَّ عَذْرُؤًا إِلَّا الْمُنْقَذِينَ ﴿٦٦﴾ قال : خليلان مؤمنان و خليلان كافران ، فتوفي أحد المؤمنين وبشر بالجنة ، فذكر خليله فقال : اللهم إن فلانا خليلي كان يأمرني بطاعتك وطاعة رسولك ويأمرني بالخير وينهاني عن الشر ، وينبئني أنني ملائكتك ، اللهم فلا تضله بعدي حتى تریه مثل ما أريتني ، وترضى عنه كما رضيت عني ، فيقال له : اذهب فلو تعلم ماله عندي لضحكت كثيرا وبكيت قليلا ، قال : ثم يموت الآخر فتجتمع أرواحهما فيقال : ليشن أحدكما على صاحبه ، فيقول كل واحد منهما لصاحبه : نعم الأخ ونعم الصاحب ونعم الخليل . وإذا مات أحد الكافرين وبشر بالنار ذكر خليله فيقول : اللهم إن خليلي فلانا كان يأمرني بمعصيتك ومعصية رسولك . ويأمرني بالشر وينهاني عن الخير ، ويخبرني أنني غير ملائكتك . اللهم فلا تهده بعدي حتى تریه مثل ما أريتني ، وتسخط عليه كما سخطت علي قال : فيموت الكافر الآخر فيجمع بين أرواحهما فيقال : ليشن كل واحد منهما على صاحبه فيقول كل واحد منهما لصاحبه : بس الأخ وبس الصاحب وبس الخليل .

وقوله تبارك وتعالى : ﴿ يَمِيزُ لَّا حَوْثَ عَلَيْكَ الْيَوْمَ وَلَا أَنتَ تَحْزَنُونَ ﴾ ﴿٦٧﴾ ثم بشرهم فقال : ﴿ الَّذِينَ ءَامَنُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا مُسْلِمِينَ ﴾ ﴿٦٨﴾ أي آمنتم قلوبهم وبواطنهم ، وانقادوا لشرع الله جوارحهم وظواهرهم ، قال المعتمر بن سليمان عن أبيه : إذا كان يوم القيامة فإن الناس حين يبعثون لا يبقى أحد منهم إلا فزع فينادي مناد ﴿ يَمِيزُ لَّا حَوْثَ عَلَيْكَ الْيَوْمَ وَلَا أَنتَ تَحْزَنُونَ ﴾ ﴿٦٩﴾ فيرجوها الناس كلهم ، قال : فيفتبعها ﴿ الَّذِينَ ءَامَنُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا مُسْلِمِينَ ﴾ ﴿٧٠﴾ قال : فيأبس الناس منها غير المؤمنين . ﴿ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ ﴾ ﴿٧١﴾ أي يقال لهم ادخلوا الجنة ﴿ أَنتَ وَأَزْوَاجُكَ ﴾ ﴿٧٢﴾ أي نظراؤكم ﴿ تَحْزَنُونَ ﴾ ﴿٧٣﴾ أي تنعمون وتسعدون ﴿ يُطَافُ عَلَيْهِمْ بِصِافٍ مِّنْ ذَهَبٍ ﴾ ﴿٧٤﴾ أي زبادي آنية الطعام ﴿ وَآكَافٍ ﴾ ﴿٧٥﴾ وهي آنية الشراب أي من ذهب لا خراطيم لها ولا عرى ﴿ وَفِيهَا مَا تشتهي الأنفس ﴾ ﴿٧٦﴾ وقرأ بعضهم ﴿ تشتهي الأنفس ﴾ ﴿٧٧﴾ . ﴿ وَتَكَذُّبُ الْأَعْيُنِ ﴾ ﴿٧٨﴾ أي طيب الطعام والريح وحسن المنظر .

عن أبي هريرة ؓ قال : قال رسول الله ﷺ : « إن أدنى أهل الجنة منزلة من له سبع درجات وهو على السادسة وفوقه السابعة ، وإن له ثلثمائة خادم ، ويغدى عليه ويراح كل يوم بثلثمائة صحفة - ولا أعلمه إلا قال : من ذهب ، في كل صحفة لون ليس في الأخرى ، وإنه ليلذ أوله كما يلذ آخره ، ومن الأشربة ثلثمائة إناء في كل إناء لون ليس في الآخر ، وإنه ليلذ أوله كما يلذ آخره ، وإنه ليقول : يارب ، لو أذنت لي لأطعمت أهل الجنة وسقيتهم ، لم ينقص مما عندي شيء ، وإن له من الحور العين لاثنتين وسبعين زوجة سوى أزواجه من الدنيا ، وإن الواحدة منهن لتأخذ مقعدها قدر ميل من الأرض » ﴿٧٩﴾ . وقوله تعالى : ﴿ وَأَنتَ فِيهَا ﴾ ﴿٨٠﴾ أي في الجنة ﴿ خَالِدٌ ﴾ ﴿٨١﴾ ، أي لا تخرجون منها ولا تبغون عنها حولا . ثم قيل لهم على وجه التفضل والامتنان ﴿ وَتِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي أَوْفِئْتُمْوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ ﴿٨٢﴾ ، أي أعمالكم الصالحة كانت سببا لشمول رحمة الله إياكم ؛ فإنه لا يدخل أحدًا عمله الجنة ، ولكن برحمة الله وفضله ، وإنما الدرجات ينال تفاوتها بحسب الأعمال الصالحات ، عن أبي هريرة ؓ قال : قال رسول الله ﷺ :

(١) قرأ نافع وابن عامر وحفص ﴿ وفيها ما تشتهي ﴾ وإثبات الهاء بعد الهاء وقرأ الباقون بحذف الهاء (حجة القراءات ص ٦٥٤) .

(٢) أخرجه مسلم في الإيمان (٣١١) والترمذي في السنن (٢٥٥٣) وأحمد في مسنده ٢٧/٣ .

عَلَيْهِمْ : « كل أهل النار يرى منزله من الجنة حسرة ، فيكون له فيقول : ﴿ لَوْ أَنَّ اللَّهَ هَدَانِي لَكُنْتُ مِنَ الْمُتَّقِينَ ﴾ وكل أهل الجنة يرى منزله من النار فيقول : ﴿ وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنَّ هَدَانَا اللَّهُ ﴾ فيكون له شكراً »^(١) قال : وقال رسول الله ﷺ : « ما من أحد إلا وله منزل في الجنة ومنزل في النار ، فالكاfer يرث المؤمن منزله من النار . والمؤمن يرث الكافر منزله من الجنة »^(٢) . وذلك قوله تعالى : ﴿ وَتِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ وقوله تعالى : ﴿ لَكُمْ فِيهَا فَاكِهَةٌ ﴾ أي من جميع الأنواع ﴿ فِيهَا تَأْكُلُونَ ﴾ أي مهما اخترتم وأردتم . ولما ذكر الطعام والشراب ذكر بعده الفاكهة لتتم النعمة والغبطة .

﴿ إِنَّ الْمُتَجَرِّبِينَ فِي عَذَابٍ جَهَنَّمَ خَالِدُونَ ﴾ لَا يُفْتَرُ عَنْهُمْ وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ ﴿ وَمَا ظَنَنْتُمْ وَلَكِنْ كَانُوا هُمْ الظَّالِمِينَ ﴾ وَكَادُوا يَنْكِيكَ لِيَقْضِيَ عَلَيْكَ رَبُّكَ قَالَ إِنَّكَ مَنَّكَوْتُ ﴿ لَقَدْ جِئْتَكُمْ بِالْحَقِّ وَلَكِنْ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ ﴾ أَمْ أَبْرَمُوا أَمْرًا فَإِنَّا مُبْرِمُونَ ﴿ أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ بَلَى وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ ﴾ .

لما ذكر تعالى حال السعداء ثنى بذكر الأشقياء فقال : ﴿ إِنَّ الْمُتَجَرِّبِينَ فِي عَذَابٍ جَهَنَّمَ خَالِدُونَ ﴾ لَا يُفْتَرُ ﴿ أَي سَاعَةً وَاحِدَةً ﴾ وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ ﴿ أَي آيسون من كل خير ﴾ وَمَا ظَنَنْتُمْ وَلَكِنْ كَانُوا هُمْ الظَّالِمِينَ ﴿ أَي بأعمالهم السيئة بعد قيام الحجة عليهم . وإرسال الرسل إليهم ، فكذبوا وعصوا فجوزوا بذلك جزاء وفاقاً وماربك بظلام للعبيد ﴾ وَكَادُوا يَنْكِيكَ ﴿ وهو خازن النار . عن صفوان ابن يعلى عن أبيه ؓ قال : سمعت رسول الله ﷺ يقرأ على المنبر : ﴿ وَكَادُوا يَنْكِيكَ لِيَقْضِيَ عَلَيْكَ رَبُّكَ ﴾^(٣) ، أي يقبض أرواحنا فيريحنا مما نحن فيه فإنهم كما قال تعالى : ﴿ لَا يَقْضِي عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ مِنْ عَذَابِهَا ﴾ فلما سألو أن يموتوا أجابهم مالكا ﴿ قَالَ إِنَّكَ مَنَّكَوْتُ ﴾ أي لا خروج لكم منها ولا محيد لكم عنها ، ثم ذكر سبب شقوتهم ، وهو مخالفتهم للحق ومعاندتهم له فقال ﴿ لَقَدْ جِئْتَكُمْ بِالْحَقِّ ﴾ أي بيناه لكم ووضحناه وفسرناه ﴿ وَلَكِنْ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ ﴾ أي ولكن كانت سجاياكم لا تقبله ولا تقبل عليه ، وإنما تنقاد للباطل وتعظمه ، وتصد عن الحق وتأباه وتبغض أهله ، فعودوا على أنفسكم بالملازمة . واندموا حيث لا تتفعمكم الندامة ، ثم قال تبارك وتعالى : ﴿ أَمْ أَبْرَمُوا أَمْرًا فَإِنَّا مُبْرِمُونَ ﴾ قال مجاهد : أرادوا كيد شر ، فكذبناهم ؛ وذلك لأن المشركين كانوا يتحيلون في رد الحق بالباطل بحيل ومكر يسلكونه ، فكادهم الله تعالى ورد وبال ذلك عليهم ، ولهذا قال : ﴿ أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ ﴾ أي سرهم وعلانياتهم ﴿ بَلَى وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ ﴾ أي نحن نعلم ما هم عليه والملائكة أيضاً يكتبون أعمالهم صغيرها وكبيرها .

﴿ قُلْ إِنْ كَانَ لِلرَّحْمَنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَبِيدِينَ ﴾ سُبْحَنَ رَبِّ الْأَسْمَاءِ وَالْأَرْضِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿ فَذَرْنَهُمْ يَمُوتُوا وَيَلْعَبُوا حَتَّى يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي يَوْمَعُهُونَ ﴾ وَهُوَ الَّذِي فِي الْأَسْمَاءِ إِلَهُ وَفِي الْأَرْضِ إِلَهُ وَهُوَ الْمَلِكُ الْعَلِيُّ ﴿ وَتَبَارَكَ الَّذِي لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يَكُنْ لَكَ الْكُنُوتُ وَالْأَرْضُ وَمَا بَيْنَهُمَا وَعِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ وَلَا يَمْلِكُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ الشَّفَعَةَ إِلَّا مَنْ شَهِدَ بِالْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿ وَلَكِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَهُمْ يَقُولُ اللَّهُ فَاَنْ يَقُولُ كُونَ ﴿ وَيَقِيلُ يَكْرَبُ إِنْ هُوَ لَكُمْ قَوْمٌ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ فَاصْفَحْ عَنْهُمْ وَقُلْ سَلَامٌ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴾ .

(١) أخرجه أحمد في مسنده ٥١٢/٢ ، والحاكم في المستدرک ٤٣٥/٢ بتقديم أهل النار على أهل الجنة .

(٢) أخرجه البخاري في تفسير القرآن (٤٨١٩) .

(٣) ذكره السيوطي في الدر المنثور (٢٣/٦) .

يقول تعالى : ﴿ قُلْ ﴾ يا محمد ﴿ إِنْ كَانَ لِلزَّحْنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَبِيدِ ﴾ ، أي لو فرض هذا لعبده على ذلك ؛ لأنني عبد من عبده مطيع لجميع ما يأمرني به ليس عندي استكبار ولا إباء عن عبادته ، فلو فرض هذا لكان هذا ، ولكن هذا ممتنع في حقه تعالى ، وقال بعض المفسرين في قوله تعالى : ﴿ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَبِيدِ ﴾ أي الأنفين ، ويقال : ﴿ أَوَّلُ الْعَبِيدِ ﴾ الجاحدين من عبد يعبد ^(١) . وقال قتادة : هي كلمة من كلام العرب ﴿ قُلْ إِنْ كَانَ لِلزَّحْنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَبِيدِ ﴾ أي إن ذلك لم يكن فلا ينبغي ، وقال أبو صخر : أي فانا أول من عبده بأن لا ولد له ، وأول من وحده ، وقال مجاهد : أي أول من عبده ووحده وكذبكم ، وقال البخاري : ﴿ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَبِيدِ ﴾ الأنفين وهما لغتان رجل عابد وعبد . والأول أقرب على أنه شرط وجزاء ولكن هو ممتنع ، وقال السدي : لو كان له ولد كنت أول من عبده بأن له ولد ولكن لا ولد له ، وهو اختيار ابن جرير ، ورد قول من زعم أن إن نافية . ولهذا قال تعالى : ﴿ سُبْحَنَ رَبِّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴾ أي تعالى وتقدس وتنزه خالق الأشياء عن أن يكون له ولد ؛ فإنه فرد أحد صمد ، لا نظير له ولا كفاء له فلا ولد له .

وقوله تعالى : ﴿ فَذَرَهُمْ يَبْخُضُوا ﴾ أي في جهلهم وضلالهم ﴿ وَيَلْبِئُكُمْ ﴾ في دنياهم ﴿ حَتَّى يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي يُوْعَدُونَ ﴾ وهو يوم القيامة ، أي فسوف يعلمون كيف يكون مصيرهم ومآلهم وحالهم في ذلك اليوم . وقوله تبارك وتعالى : ﴿ وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَهٌ وَفِي الْأَرْضِ إِلَهٌ ﴾ أي هو إله من في السماء وإله من في الأرض يعبده أهلها وكلهم خاضعون له أذلاء بين يديه ﴿ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ ﴾ ﴿ وَتَبَارَكَ الَّذِي لَمْ يَكُنْ لَكَ الْكُفُورُ وَالْأَرْضُ وَمَا بَيْنَهُمَا ﴾ أي هو خالقهما ومالكهما ، والمتصرف فيهما بلا مدافعة ولا ممانعة ، فسبحانه وتعالى عن الولد وتبارك ، أي استقر له السلامة من العيوب والنقائص ؛ لأنه الرب العلي العظيم المالك للأشياء الذي بيده أزمة الأمور نقضاً وإبراماً ﴿ وَعِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ ﴾ أي لا يجليها لوقتها إلا هو ﴿ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ أي فيجازي كلأ بعمله إن خيراً فخير وإن شراً فشر . ثم قال تعالى : ﴿ وَلَا يَمْلِكُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ ﴾ أي من الأصنام والأوثان ﴿ الشَّفَعَةَ ﴾ أي لا يقدرون على الشفاعة لهم ﴿ إِلَّا مَنْ شَهِدَ بِالْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ هذا استثناء منقطع ؛ أي لكن من شهد بالحق على بصيرة وعلم ، فإنه تنفع شفاعته عنده بإذنه له . ثم قال ﷻ : ﴿ وَلَكِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ ﴾ أي ولئن سألت هؤلاء المشركين بالله العابدين معه غيره ﴿ مَنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ ﴾ أي هم يعترفون أنه الخالق للأشياء جميعها وحده لا شريك له في ذلك ، ومع هذا يعبدون معه غيره ممن لا يملك شيئاً ولا يقدر على شيء ؛ فهم في ذلك في غاية الجهل والسفاهة وسخافة العقل . ولهذا قال تعالى : ﴿ فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ ﴾ .

وقوله جل وعلا : ﴿ وَبَقِيلِهِ يَرْبِّ إِنَّ هَؤُلَاءِ قَوْمٌ لَا يَوْمِنُونَ ﴾ أي وقال محمد ﷺ : قبله أي شكاً إلى ربه شكواه من قومه الذين كذبوه ، فقال : يارب إن هؤلاء قوم لا يؤمنون ، قال البخاري : وقرأ عبد الله - يعني ابن مسعود - ﷺ وقال الرسول يارب ، وقال مجاهد : في قوله : ﴿ وَبَقِيلِهِ يَرْبِّ إِنَّ هَؤُلَاءِ قَوْمٌ لَا يَوْمِنُونَ ﴾ قال : يؤثر الله ﷻ قول محمد ﷺ . ثم حكى ابن جرير في قوله تعالى : ﴿ وَبَقِيلِهِ يَرْبِّ ﴾ ، قراءتين إحداهما النصب ، ولها توجيهان : أحدهما أنه معطوف على قوله تبارك

وتعالى : ﴿ سَمِعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ ﴾ والثاني : أن يقدر فعل وقال : قيله ، والثانية : الخفض ^(١) وقيله عطفاً على قوله : ﴿ وَعِنْدُ عِلْمِ السَّاعَةِ ﴾ وتقديره وعلم قيله . وقوله تعالى : ﴿ فَأَصْفَحْ عَنْهُمْ ﴾ أي المشركين ﴿ وَقَدْ سَلَّمْ ﴾ ، أي لا تجاوبهم بمثل ما يخاطبونك به من الكلام السيئ ، ولكن تألفهم واصفح عنهم فعلاً وقولاً ﴿ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴾ هذا تهديد من الله تعالى لهم ، ولهذا أحل بهم بأسمه الذي لا يرد وأعلى دينه وكلمته ، وشرع بعد ذلك الجهاد والجلاد حتى دخل الناس في دين الله أفواجا ، وانتشر الاسلام في المشارق والمغارب والله اعلم .

(١) قرأ عاصم وحزمة ﴿ وقيله يا رب ﴾ بكسر اللام ، والباقون بالنصب (حجة القراءات ص : ٦٥٥) .

سورة الدخان

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « من قرأ حم الدخان في ليلة ، أصبح يستغفر له سبعون ألف ملك » ^(١) .

وعن زيد بن حارثة أن رسول الله ﷺ قال لابن صياد : « إني قد خبأت خبأ فما هو ؟ » وخبأ له رسول الله ﷺ سورة الدخان ، فقال : هو الدخ . فقال : « احسأ ما شاء الله » ثم انصرف ^(٢) .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ حَمَّ ① وَالْكَتَبِ ② الْمُبِينِ ③ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ مُبَرَكَةٍ ④ إِنَّا كُنَّا مُنْذِرِينَ ⑤ فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ ⑥ أَمْرًا مِّنْ عِندِنَا ⑦ إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ ⑧ رَحْمَةً مِّنْ رَبِّكَ ⑨ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ ⑩ الْعَلِيمُ ⑪ رَبِّ السَّمَوَاتِ ⑫ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ⑬ إِنْ كُنْتُمْ مُّوقِنِينَ ⑭ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ رَبُّكُمْ رَبُّ ⑮ الْأَوَّلِينَ ⑯ ⑰ ⑱ ⑲ ⑳ ㉑ ㉒ ㉓ ㉔ ㉕ ㉖ ㉗ ㉘ ㉙ ㉚ ㉛ ㉜ ㉝ ㉞ ㉟ ㊱ ㊲ ㊳ ㊴ ㊵ ㊶ ㊷ ㊸ ㊹ ㊺ ㊻ ㊼ ㊽ ㊾ ㊿ ﴾ .

يقول تعالى مخبراً عن القرآن العظيم أنه أنزله في ليلة مباركة ، وهي ليلة القدر وكان ذلك في شهر رمضان ، ومن قال : إنها ليلة النصف من شعبان كما روي عن عكرمة فقد أبعد النجعة ، فإن نص القرآن أنها في رمضان : وقوله ﷻ : ﴿ إِنَّا كُنَّا مُنْذِرِينَ ﴾ أي معلمين الناس ما ينفعهم ويضرهم شرعاً لتقوم حجة الله على عباده .

وقوله : ﴿ فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ ﴾ أي في ليلة القدر يفصل من اللوح المحفوظ إلى الكتبة أمر السنة ، وما يكون فيها من الآجال والأرزاق وما يكون فيها إلى آخرها . وهكذا روي عن ابن عمر ومجاهد وأبي مالك والضحاك وغير واحد من السلف . وقوله جل رعلا : ﴿ حَكِيمٍ ﴾ ، أي محكم لا يبدل ولا يغير ، ولهذا قال ﷻ : ﴿ أَمْرًا مِّنْ عِندِنَا ﴾ ، أي جميع ما يكون ويقدره الله تعالى وما يوحيه فبأمره وإذنه وعلمه ﴿ إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ ﴾ أي إلى الناس رسولا يتلو عليهم آيات الله مبينات ، فإن الحاجة كانت ماسة إليه ، ولهذا قال تعالى : ﴿ رَحْمَةً مِّنْ رَبِّكَ ⑨ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ ⑩ الْعَلِيمُ ⑪ رَبِّ السَّمَوَاتِ ⑫ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ⑬ إِنْ كُنْتُمْ مُّوقِنِينَ ⑭ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ رَبُّكُمْ رَبُّ ⑮ الْأَوَّلِينَ ⑯ ﴾ أي الذي أنزل القرآن هو رب السموات والأرض وخالقهما ومالكهما وما فيهما ﴿ إِنْ كُنْتُمْ مُّوقِنِينَ ⑭ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ رَبُّكُمْ رَبُّ ⑮ الْأَوَّلِينَ ⑯ ﴾ وهذه الآية كقوله تعالى : ﴿ قُلْ يٰٓأَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ ﴾ الآية .

﴿ بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ يَلْعَبُونَ ① فَارْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ ② يَغْشى النَّاسُ هَذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ③ رَبَّنَا اكْشِفْ عَنَّا الْعَذَابَ إِنَّا مُؤْمِنُونَ ④ أَفَى لَهُمُ الذِّكْرَى وَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مُّبِينٌ ⑤ ثُمَّ تَوَلَّوْا عَنْهُ وَقَالُوا مُعَلَّوْا بَعْثُوا ⑥ إِنَّا كَاشِفُو الْعَذَابِ قَلِيلًا إِنَّكُمْ عَائِدُونَ ⑦ يَوْمَ نَبْطِشُ الْبَطْشَةَ الْكُبْرَى إِنَّا مُنْذِقُونَ ⑧ ﴾ .

يقول تعالى : بل هؤلاء المشركون في شك يلعبون ، أي : قد جاءهم الحق اليقين وهم يشكون فيه ويمترون ولا يصدقون به ، ثم قال ﷻ متوعداً لهم ومهدداً : ﴿ فَارْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ ﴾ عن

(١) أخرجه الترمذي في السنن (٢٨٨٨) بنحوه .

(٢) أخرجه أحمد في مسنده (١٤٨/٥) والطبراني في الكبير (١٦٢/١٢) .

مسروق قال : دخلنا المسجد ، يعني مسجد الكوفة عند أبواب كندة ، فإذا رجل يقص على أصحابه ﴿ يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُبِينٍ ﴾ تدرّون ما ذلك الدخان ؟ ذلك دخان يأتي يوم القيامة فيأخذ بأسماع المنافقين وأبصارهم ويأخذ المؤمنين منه شبه الزكام ، قال : فأتينا ابن مسعود رضي الله عنه ، فذكرنا له ذلك وكان مضطجعاً ، ففزع فقعده وقال : إن الله تعالى قال لنبيكم عليه السلام : ﴿ قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَبِّرِينَ ﴾ إن من العلم أن يقول الرجل لما لا يعلم الله أعلم ، سأحدثكم عن ذلك ، إن قريشاً لما أبطأت عن الإسلام واستعصت على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم دعا عليهم بسنين كسني يوسف ، فأصابهم من الجهد والجوع حتى أكلوا العظام والميتة ، وجعلوا يرفعون أبصارهم إلى السماء فلا يرون إلا الدخان ، قال الله تعالى : ﴿ فَأَرْقَبَتْ يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُبِينٍ ۝ يَغْشَى النَّاسَ هَذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ فأتى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فقيل : يا رسول الله استسقى الله لمضر فإنها قد هلكت ، فاستسقى صلى الله عليه وآله وسلم لهم فسقوا فنزلت ﴿ إِنَّا كَاشِفُوا الْعَذَابَ قَلِيلًا إِنَّكُمْ عَائِدُونَ ﴾ قال ابن مسعود رضي الله عنه : فيكشف عنهم العذاب يوم القيامة ، فلما أصابهم الرفاهية عادوا إلى حالهم ، فأنزل الله تعالى : ﴿ يَوْمَ نَبْطِشُ الْبَطْشَةَ الْكُبْرَى إِنَّا مُنْقِمُونَ ﴾ قال : يعني يوم بدر ، قال ابن مسعود رضي الله عنه : فقد مضى خمسة : الدخان ، والروم والقمر ، والبطشة ، والزام ^(١) . وقال آخرون : لم يمض الدخان بعد ، بل هو من أمارات الساعة عن أبي سريحة حذيفة بن أسيد الغفاري رضي الله عنه ، قال : أشرف علينا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم من عرفة ونحن نتذاكر الساعة فقال صلى الله عليه وآله وسلم : « لا تقوم الساعة حتى تروا عشر آيات : طلوع الشمس من مغربها ، والدخان ، والدابة ، وخروج يأجوج ومأجوج ، وخروج عيسى ابن مريم ، والدجال ، وثلاثة خسوف : خسف بالمشرق ، وخسف بالمغرب ، وخسف بجزيرة العرب ، ونار تخرج من قعر عدن تسوق الناس - أو تحشر الناس - تبيت معهم حيث باتوا ، وتقيل معهم حيث قالوا » ^(٢) . عن أبي مالك الأشعري رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : « إن ربكم أنذركم ثلاثاً : الدخان يأخذ المؤمن كالزكمة ، ويأخذ الكافر فينتفخ حتى يخرج من كل مسمع منه ، والثانية الدابة ، والثالثة الدجال » ^(٣) .

قال الله تبارك وتعالى : ﴿ فَأَرْقَبَتْ يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُبِينٍ ﴾ أي بين واضح يراه كل أحد ، وعلى ما فسر به ابن مسعود رضي الله عنه إنما هو خيال رأوه في أعينهم من شدة الجوع والجهد ، وهكذا قوله تعالى : ﴿ يَغْشَى النَّاسَ ﴾ أي يتغشاهم ويعممهم ، ولو كان أمراً خيالياً يخص أهل مكة المشركين لما قيل فيه ﴿ يَغْشَى النَّاسَ ﴾ .

وقوله تعالى : ﴿ هَذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ أي يقال لهم ذلك تقريباً وتوبيخاً كقوله تعالى : ﴿ يَوْمَ يُدْعَوْنَ إِلَى نَارِ جَهَنَّمَ دَعَا ۝ هَٰذَا النَّارُ الَّتِي كُنتُمْ بِهَا تُكْذِبُونَ ﴾ أو يقول بعضهم لبعض ذلك . وقول الله تعالى : ﴿ رَبَّنَا أَكْفِ عَنَّا الْعَذَابَ إِنَّا مُؤْمِنُونَ ﴾ أي يقول الكافرون إذا عابنوا عذاب الله وعقابه سائلين رفعه وكشفه عنهم كقوله جلّت عظمتهم ﴿ وَتَوَّجَّهْ إِذْ دُفِعُوا عَلَى النَّارِ فَقَالُوا يَكَلِّمُنَا رَبُّهُ وَلَا نَنصَرُ ۚ فَتَنَبَّأَ رَبُّنَا وَكَوْنُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ وهكذا قال جل وعلا ههنا : ﴿ أَلَمْ لَكُمُ الدُّكْرُ وَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُبِينٌ ۚ ثُمَّ

(١) أخرجه الترمذي في السنن (٣٢٥٤) . (٢) أخرجه أحمد في مسنده (٧/٤) والترمذي في السنن (٢١٨٣) .

(٣) أخرجه البخاري في الجنائز (١٣٥٤) ومسلم في الزكاة (١٢٩) .

تَوَلَّوْا عَنْهُ وَقَالُوا مُعَلَّجُ مَجْزُوهُمْ ﴿١٧﴾ . يقول : كيف لهم بالتذكر وقد أرسلنا إليهم رسولاً بين الرسالة والنذارة ، ومع هذا تولوا عنه وما وافقوه بل كذبوه وقالوا : معلم مجنون .

وقوله تعالى : ﴿ إِنَّا كَاشِفُو الْعَذَابِ قَلِيلًا إِنَّكُمْ عَائِدُونَ ﴾ ﴿١٨﴾ يحتمل معنيين : (أحدهما) أنه بقوله تعالى ولو كشفنا عنهم العذاب ورجعناكم إلى الدار الدنيا ، لعدتم إلى ما كنتم فيه من الكفر والتكذيب . و (الثاني) : أن يكون المراد إنا مؤخرو العذاب عنكم قليلاً بعد انعقاد أسبابه ووصوله إليكم . وأنتم مستمرون فيما أنتم فيه من الطغيان والضلال ، ولا يلزم من الكشف عنهم أن يكون باشرهم كقوله تعالى : ﴿ إِلَّا قَوْمَ يُوشَعَ لَمْ يَأْمُرُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَّا جِثِينَ ﴾ ﴿١٩﴾ ولم يكن العذاب باشرهم واتصل بهم بل كان قد انعقد سببه عليهم ، ولا يلزم أيضاً أن يكونوا قد أقلعوا عن كفرهم ثم عادوا إليه . وقوله ﴿ يَوْمَ تَبِطُشُ الْبَطْشَةُ الْكُبْرَى إِنَّا مُنْقِضُونَ ﴾ ﴿٢٠﴾ فسر ذلك ابن مسعود رضي الله عنه يوم بدر ، والظاهر أن ذلك يوم القيامة وإن كان يوم بدر يوم بطشة أيضاً .

﴿ وَلَقَدْ مَتَّعْنَا قَبْلَهُمْ قَوْمَ فِرْعَوْنَ وَكَانَ رَسُولُهُمْ كَارِئِمٌ ﴾ ﴿٢١﴾ أَنْ أَدْرَأَ إِلَيْكَ عِبَادَ اللَّهِ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿٢٢﴾ وَأَنْ لَا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِنِّي آتَيْكُم بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ ﴿٢٣﴾ وَإِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ أَنْ تَرْجُمُونِ ﴿٢٤﴾ وَإِنْ لَرَأَوْهُمُ لِي قَاتِلُونَ ﴿٢٥﴾ فَدَعَا رَبَّهُ أَنْ هَؤُلَاءِ قَوْمٌ مُجْرِمُونَ ﴿٢٦﴾ فَأَنسِرْ بِيَادِي لَيْلًا إِنَّكُمْ مُتَّبَعُونَ ﴿٢٧﴾ وَاتَّزَلَوْا الْبَحْرَ رَهَوًا إِنَّهُمْ جُنْدٌ مُغْرَقُونَ ﴿٢٨﴾ كَذَّبُوا مِنْ جَحَنِّ وَشُؤْبٍ ﴿٢٩﴾ وَزُرُوعٍ وَمَقَارٍ كَرِيرٍ ﴿٣٠﴾ وَنَعَمَوْا كَانُوا فِيهَا فِتْكِهِمْ ﴿٣١﴾ كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا قَوْمًا آخَرِينَ ﴿٣٢﴾ فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ وَمَا كَانُوا مُنْظَرِينَ ﴿٣٣﴾ وَلَقَدْ فَجَّيْنَا بَنِي إِسْرَءِيلَ مِنَ الْعَذَابِ أَلَمِينَ ﴿٣٤﴾ مِنْ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ كَانَ عَلِيًّا مِنَ الْمُسْرِفِينَ ﴿٣٥﴾ وَلَقَدْ أَخَذْنَاهُمْ عَلَىٰ عِلْمٍ عَلَى الْغَالِيِينَ ﴿٣٦﴾ وَأَلْبَسْنَاهُمْ مِنْ الْآبَاكِ مَا فِيهِ بَلَكَاؤٌ مُبِيتٌ ﴿٣٧﴾ . يقول تعالى : ولقد اخترنا قبل هؤلاء المشركين قوم فرعون وهم قبط مصر ﴿ وَكَانَ رَسُولُهُمْ كَارِئِمٌ ﴾ ﴿٢١﴾ يعني موسى الكليم عليه الصلاة والسلام ﴿ أَنْ أَدْرَأَ إِلَيْكَ عِبَادَ اللَّهِ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴾ ﴿٢٢﴾ أي مأمون على ما أبلغكموه .

وقوله تعالى : ﴿ وَأَنْ لَا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ ﴾ أي لا تستكبروا عن اتباع آياته والانقياد لحججه والإيمان ببراهيمه ﴿ إِنِّي آتَيْكُم بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ ﴾ أي بحجة ظاهرة واضحة وهي ما أرسله الله تعالى به من الآيات البيّنات والأدلة القاطعات ﴿ وَإِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ أَنْ تَرْجُمُونِ ﴾ قال ابن عباس رضي الله عنه وأبو صالح : هو الرجم باللسان وهو الشتم . وقال قتادة : الرجم بالحجارة ؛ أي أعوذ بالله الذي خلقني وخلقكم من أن تصلوا إلي بسوء من قول أو فعل ﴿ وَإِنْ لَرَأَوْهُمُ لِي قَاتِلُونَ ﴾ أي فلا تتعرضوا لي ودعوا الأمر بيني وبينكم مسألة إلى أن يقضي الله بيننا . فلما طال مقامه عليه السلام بين أظهرهم وأقام حجج الله تعالى عليهم . كل ذلك وما زادهم ذلك إلا كفراً وعناداً ، دعا ربه عليهم دعوة نفذت فيهم ﴿ فَدَعَا رَبَّهُ أَنْ هَؤُلَاءِ قَوْمٌ مُجْرِمُونَ ﴾ فعند ذلك أمره الله تعالى أن يخرج بيني إسرائيل من بين أظهرهم من غير أمر فرعون ومشاورته واستئذانه ولهذا قال عليه السلام : ﴿ فَأَنسِرْ بِيَادِي لَيْلًا إِنَّكُمْ مُتَّبَعُونَ ﴾ .

﴿ وَاتَّزَلَوْا الْبَحْرَ رَهَوًا إِنَّهُمْ جُنْدٌ مُغْرَقُونَ ﴾ ﴿٢٨﴾ وذلك أن موسى عليه الصلاة والسلام لما جاوز هو وبنو إسرائيل البحر ، أراد موسى أن يضربه بعصاه حتى يعود كما كان ، ليصير حائلاً بينهم وبين فرعون فلا يصل إليهم ، فأمره الله تعالى أن يتركه على حاله ساكناً وبشره بأنهم جند مغرقون فيه ، وأنه لا

يخاف دركاً ولا يخشى ، قال ابن عباس رحمته ﴿ وَأَنْزِلُ الْبَحْرَ رَهَوًا ﴾ كهيته وامضه ، وقال مجاهد : ﴿ رَهَوًا ﴾ طريقاً يسيراً كهيته . يقول : لا تأمره يرجع ، اتركه حتى يرجع آخرهم ، ثم قال تعالى : ﴿ كَذَٰلِكَ تَرْكُؤًا مِنْ جَنَّتٍ ﴾ وهي البساتين ﴿ وَيُؤَيِّدُ ۝ زُرُّوعًا ﴾ والمراد بها الأنهار والأبار ﴿ وَمَقَارٍ كَرِيرٍ ﴾ وهي المساكن الأنيقة والأماكن الحسنة ، وقال مجاهد وسعيد بن جبیر ﴿ وَمَقَارٍ كَرِيرٍ ﴾ المناير ، وقال في قول الله تعالى : ﴿ كَذَٰلِكَ تَرْكُؤًا مِنْ جَنَّتٍ وَيُؤَيِّدُ ۝ زُرُّوعًا وَمَقَارٍ كَرِيرٍ ﴾ وَتَعْمَرُ كَانُوا فِيهَا فَتَكْهِنَ ﴿ قال : كانت الجنان بحافتي نهر النيل من أوله إلى آخره في الشقين جميعاً ، ما بين أسوان إلى رشيد ، وكان له تسع خلج : خليج الأسكندرية ، وخليج دمياط ، وخليج سردوس ، وخليج منف ، وخليج الفيوم ، وخليج المنتهى ، متصلة لا ينقطع منها شيء عن شيء ، وزرع ما بين الجبلين كله من أول مصر إلى آخر ما يبلغه الماء ، وكانت جميع أرض مصر تروى من ستة عشر ذراعاً لما قدروا ودبروا من قناطرها وجسورها وخلجها .

﴿ وَتَعْمَرُ كَانُوا فِيهَا فَتَكْهِنَ ﴾ أي عيشة كانوا يتفكهون فيها فيأكلون ما شاءوا ويلبسون ما أحبوا مع الأموال والجاهات والحكم في البلاد ، فسلبوا ذلك جميعه في صبيحة واحدة ، وفارقوا الدنيا وصاروا إلى جهنم وبئس المصير ، واستولى على البلاد المصرية وتلك الخواصل الفرعونية والممالك القبطية بنو إسرائيل كما قال تبارك وتعالى : ﴿ كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا بَنِي إِسْرَءِيلَ ۚ .

وقال عليه السلام ههنا : ﴿ كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا قَوْمًا آخَرِينَ ﴾ وهم بنو إسرائيل كما تقدم . وقوله عليه السلام : ﴿ فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ ﴾ أي لم تكن لهم أعمال صالحة تصعد في أبواب السماء فتبكي على فقدانهم ، ولا لهم في الأرض بقاء عبدوا الله تعالى فيها فقدتهم ، فلماذا استحقوا أن لا ينظروا ولا يؤخروا لكفرهم بإجرامهم وعتوهم وعنادهم . عن أنس بن مالك رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « ما من عبد إلا وله في السماء بابان : باب يخرج منه رزقه ، وباب يدخل منه عمله وكلامه ، فإذا مات فقداه وبكيا عليه » وتلا هذه الآية ﴿ فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ ﴾ ^(١) . وذكر أنهم لم يكونوا يعملوا على الأرض عملاً صالحاً يبكي عليهم ، ولم يصعد لهم إلى السماء من كلامهم ولا من عملهم كلام طيب ولا عمل صالح ، فنفقدهم فتبكي عليهم .

وعن عباد بن عبد الله قال : سأل رجل علياً عليه السلام : هل تبكي السماء والأرض على أحد ؟ فقال له : لقد سألتني عن شيء ما سألتني عنه أحد قبلك ، إنه ليس من عبد إلا له مصلى في الأرض ومصعد عمله من السماء ، وإن آل فرعون لم يكن لهم عمل صالح في الأرض ولا عمل يصعد في السماء ، ثم قرأ علي عليه السلام ﴿ فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ وَمَا كَانُوا مُنْظَرِينَ ﴾ . وقال مجاهد : ما مات مؤمن إلا بكت عليه السماء والأرض أربعين صباحاً ، قال : فقلت له : أتبكي الأرض ؟ فقال : أتعجب ؟ وما للأرض لا تبكي على عبد كان يعمرها بالركوع والسجود ؟ وما للسماء لا تبكي على عبد كان لتكبيره وتسييحه فيها دوي كدوي النحل ؟

وقوله تبارك وتعالى : ﴿ وَلَقَدْ نَجَّيْنَا بَنِي إِسْرَءِيلَ مِنَ الْعَذَابِ الْمُهِينِ ۝ مِنْ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ كَانَ عَلِيًّا مِّنَ الْمُتَكِبِينَ ﴾ يمتن عليهم تعالى بذلك حيث أنقذهم مما كانوا فيه من إهانة فرعون ولإذلاله لهم ،

(١) أخرجه أبو يعلى في مسنده (٤١٣٣) والهيتمي في مجمع الزوائد (١٠٥/٧) .

وتسخيره إياهم في الأعمال المهينة الشاقة ، وقوله تعالى : ﴿ مِنْ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ كَانَ عَلِيًّا ﴾ أي مستكبرا جبارا عنيدا ﴿ بَيْنَ الشَّرِيفَيْنِ ﴾ أي مسرف في أمره مخيف الرأي على نفسه . وقوله ﴿ وَقَدْ أَخَّرْنَاهُمْ عَلَىٰ عِلْمٍ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴾ قال مجاهد : على من هم بين ظهريه . وقال قتادة : اختبروا على أهل زمانهم ذلك ، وكان يقال : إن لكل زمان عالما ، وهذا كقوله تعالى : ﴿ قَالَ يَتُوبُ إِلَىٰ أَمَلِيكَ عَلَى النَّاسِ ﴾ أي أهل زمانه ذلك . وقوله ﴿ وَآيَاتِنَاهُمْ مِنَ الْآيَاتِ ﴾ أي الحجج والبراهين وخوارق العادات ﴿ مَا فِيهِ بَلَاءٌ مُبِينٌ ﴾ أي اختبار ظاهر جلي لمن اهتدى به .

﴿ إِنَّ هَؤُلَاءَ لَيُتْلَوْنَ ۖ إِنَّ هِيَ إِلَّا مَوْتَنَا الْأُولَىٰ وَمَا نَحْنُ بِمُنْشَرِينَ ۖ فَأَنذَرْتُ بِآيَاتِنَا إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ۖ أَهُمْ خَيْرٌ أَمْ قَوْمُ تُبَّعٍ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ أَفَلَا تَعْلَمُونَ ۚ كَانُوا يُجْرِمُونَ ۚ ﴾ .

يقول تعالى منكرا على المشركين في إنكارهم البعث والمعاد ، وأنه ما ثم إلا هذه الحياة الدنيا ولا حياة بعد للمات ولا بعث ولا نشور ، ويحتجون بآياتهم الماضية الذين ذهبوا فلم يرجعوا ، فإن كان البعث حقا ﴿ فَأَنذَرْتُ بِآيَاتِنَا إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾ وهذه حجة باطلة وشبهة فاسدة ، فإن المعاد إنما هو يوم القيامة لا في الدار الدنيا بل بعد انقضائها وذهابها وفراغها ، يعيد الله العالمين خلقا جديدا ، ويجعل الظالمين لنار جهنم وقودا ، يوم تكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيدا ، ثم قال تعالى متهددا لهم ومتوعدا ومنذرا لهم بأسه الذي لا يرد كما حل بأشباههم ونظرائهم من المشركين المنكرين للبعث كقوم تبع ، وهم سبأ ، حيث أهلكهم الله ﷻ وخرب بلادهم وشردهم في البلاد وفرقهم شذر مذر ، كما تقدم ذلك في سورة سبأ وهي مصدرة بإنكار المشركين للمعاد ، وكذلك ههنا شبههم بأولئك وقد كانوا عربا من قحطان ، كما أن هؤلاء عرب من عدنان ، وقد كانت حمير وهم سبأ كلما ملك فيهم رجل سموه تبعا ، كما يقال : كسرى لمن ملك الفرس ، وقيصر لمن ملك الروم ، وفرعون لمن ملك مصر كافرا ، والنجاشي لمن ملك الحبشة وغير ذلك من أعلام الأجناس .

ولكن اتفق أن بعض تبايعتهم خرج من اليمن وسار في البلاد حتى وصل إلى سمرقند واشتد ملكه وعظم سلطانه وجيشه ، واتسعت مملكته وكثرت رعاياه وهو الذي مصر الحيرة ، فاتفق أنه مر بالمدينة النبوية وذلك في أيام الجاهلية ، فأراد قتال أهلها فمانعوه وقاتلوه بالنهار ، وجعلوا يقرونه بالليل فاستحيا منهم وكف عنهم ، واستصحب معه حبرين من أجبار يهود كانا قد نصحاه وأخبراه أنه لا سبيل له على هذه البلدة ، فإنها مهاجر نبي يكون في آخر الزمان ، فرجع عنها وأخذهما معه إلى بلاد اليمن ، فلما اجتاز بمكة أراد هدم الكعبة فنهاه عن ذلك أيضا وأخبراه بعظمة هذا البيت ، وأنه من بناء إبراهيم الخليل عليه الصلاة والسلام ، وأنه سيكون له شأن عظيم على يدي ذلك النبي المبعوث في آخر الزمان ، فعظمها وطاف بها وكساها الملاء والوصائل والحبر ، ثم كر راجعا إلى اليمن ودعا أهلها إلى اليهود معه ، وكان إذا ذاك دين موسى عليه الصلاة والسلام فيه من يكون من الهداية قبل بعثة المسيح عليه الصلاة والسلام ، فتهود معه عامة أهل اليمن ، وقد ذكر القصة بطولها الإمام محمد بن إسحاق في كتابه السيرة ^(١) ، وقال سعيد بن جبير : كسا تبع الكعبة وكان سعيد ينهى عن سبه ، وتبع هذا

هو تبع الأوسط ، واسمه أسعد أبو كريب بن مليكرب اليماني ، ذكروا أنه ملك على قومه ثلاثمائة سنة وستا وعشرين سنة ، ولم يكن في حمير أطول مدة منه ، وتوفي قبل مبعث رسول الله ﷺ بنحو من سبعمائة سنة . وذكروا أنه لما ذكر له الحيران من يهود المدينة أن هذه البلدة مهاجر نبي في آخر الزمان اسمه أحمد ، قال في ذلك شعراً واستودعه عند أهل المدينة ، فكانوا يتوارثونه ويروونه خلقاً عن سلف ، وكان ممن يحفظه أبو أيوب خالد بن يزيد الذي نزل رسول الله ﷺ في داره وهو :

شهدت على أحمد أنه رسول من الله باري النسم
فلو مد عمري إلى عمره لكنت وزيراً له وابن عم
وجاهدت بالسيف أعداءه وفرجت عن صدره كل غم

وذكر ابن أبي الدنيا أنه حفر قبر بصنعاء في الإسلام فوجدوا فيه امرأتين صحيحتين ، وعند رؤوسهما لوح من فضة مكتوب فيه بالذهب : هذا قبر حيي وتميس ، وروي أن حيي وتماضر ابنتي تبع ، ماتتا وهما تشهدان أن لا إله إلا الله ولا تشركان به شيئاً ، وعلى ذلك مات الصالحون قبلهما وكانت عائشة رضي الله عنها تقول : لا تسبوا تبعاً فإنه قد كان رجلاً صالحاً . وعن سهل بن سعد الساعدي رضي الله عنه يقول : قال رسول الله ﷺ : « لا تسبوا تبعاً ؛ فإنه قد كان أسلم » (١) .

﴿ وَمَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَعَيْبٌ ﴾ ٣٨ ﴿ مَا خَلَقْنَاهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ ٣٩ ﴿ إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ مِيقَاتُهُمْ أَجْمِيعٌ ﴾ ٤٠ ﴿ يَوْمَ لَا يَغْنَى مَوْلَى عَنْ مَوْلَى شَيْئًا وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴾ ٤١ ﴿ إِلَّا مَنْ رَجِمَ اللَّهُ إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴾ .

يقول تعالى مخبراً عن عدله وتنزيهه نفسه عن اللعب والعبث والباطل كقوله جل وعلا : ﴿ وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَطْلًا ذَلِكَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا قَوْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ ﴾ ثم قال تعالى : ﴿ إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ مِيقَاتُهُمْ أَجْمِيعٌ ﴾ وهو يوم القيامة يفصل الله تعالى فيه بين الخلائق ، فيعذب الكافرين ويشيب المؤمنين . وقوله ﴿ إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ مِيقَاتُهُمْ أَجْمِيعٌ ﴾ ، أي يجمعهم كلهم أولهم وآخرهم ﴿ يَوْمَ لَا يَغْنَى مَوْلَى عَنْ مَوْلَى شَيْئًا ﴾ أي لا ينفع قريب قريباً . وقوله جل وعلا ﴿ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴾ أي لا ينصر القريب قريبه ولا يأتيه نصره من خارج ، ثم قال : ﴿ إِلَّا مَنْ رَجِمَ اللَّهُ ﴾ أي لا ينفع يومئذ إلا رحمة الله ﷻ بخلقه ﴿ إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴾ أي هو عزيز ذو رحمة واسعة .

﴿ إِنَّ شَجَرَتَ الزُّقُومِ ﴾ ٤٢ ﴿ طَعَامُ الْأَثِيمِ ﴾ ٤٣ ﴿ كَالْمُهْلِ يَغْلِي فِي الْبُطُونِ ﴾ ٤٤ ﴿ كَغَلِي الْحَمِيمِ ﴾ ٤٥ ﴿ خُذُوهُ فَاعْتِلُوهُ إِلَى سَوَاءِ الْجَحِيمِ ﴾ ٤٦ ﴿ ثُمَّ صُبُّوا فَوْقَ رَأْسِهِ مِنْ عَذَابِ الْحَمِيمِ ﴾ ٤٧ ﴿ ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ ﴾ ٤٨ ﴿ إِنَّ هَذَا مَا كُنْتُمْ بِهِ تَمْتَرُونَ ﴾ .

يقول تعالى مخبراً عما يعذب به الكافرين الجاحدين للقاءه ﴿ إِنَّ شَجَرَتَ الزُّقُومِ ﴾ ٤٢ ﴿ طَعَامُ الْأَثِيمِ ﴾ ٤٣ أي في قوله وفعله ، وهو الكافر ، وذكر غير واحد أنه أبو جهل ، ولا شك في دخوله في هذه الآية ، ولكن ليست خاصة به . وقوله ﴿ كَالْمُهْلِ يَغْلِي فِي الْبُطُونِ ﴾ قالوا : كعكر الزيت ﴿ يَغْلِي فِي الْبُطُونِ ﴾ ٤٤ كغلي

الْحَمِيمِ ﴿١﴾ أَي من حرارتها ورداءتها ، وقوله : ﴿ خُذُوهُ ﴾ أي الكافر ، وقد ورد أنه تعالى إذا قال للزبانية خذوه ابتدره سبعون ألفاً منهم . وقوله : ﴿ فَأَعْتَلُوهُ ﴾ أي سلقوه سحبا ودفعاً في ظهره ، قال مجاهد : أي خذوه فادفعوه ﴿ إِلَى سَوَاءِ الْجَحِيمِ ﴾ أي وسطها ﴿ ثُمَّ صُبُّوا قَوْلَ رَأْسِهِ مِنْ عَذَابِ الْحَمِيمِ ﴾ وقد تقدم أن الملك يضربه بمقعدة من حديد ، فتفتح دماغه ثم يصب الحميم على رأسه فينزل في بدنه ، فيسلت ما في بطنه من أمعائه حتى تترق من كعبيه ، أعاذنا الله تعالى من ذلك . وقوله تعالى : ﴿ ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ ﴾ أي قولوا له ذلك على وجه التهكم والتوبيخ ، وقال الضحاك عن ابن عباس ؓ : أي لست بعزيز ولا كريم . عن عكرمة قال : لقي رسول الله ﷺ أبا جهل لعنه الله فقال : « إن الله تعالى أمرني أن أقول لك : أولى لك فأولى ثم أولى لك فأولى » قال : فنزع ثوبه من يده وقال : ما تستطيع لي أنت ولا صاحبك من شيء ، ولقد علمت أنني أمتع أهل البطحاء وأنا العزيز الكريم ، قال : فقتله الله تعالى يوم بدر وأذله وغيره بكلمته وأنزل ﴿ ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ ﴾ . وقوله ﷻ : ﴿ إِنَّ هَذَا مَا كُنْتُمْ بِهِ تَسْتَكْبِرُونَ ﴾ كقوله تعالى : ﴿ هَذِهِ النَّارُ الَّتِي كُنْتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴾ ﴿ أَنْصِرْ هَذَا أَمْ أَنْتَ لَا تَبْعُرُونَ ﴾ .

﴿ إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي مَقَارِ أَمِينٍ ﴾ في جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿ يَلْبَسُونَ مِنْ سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُتَقَابِلِينَ ﴾ كَذَلِكَ وَزَوَّجْنَاهُمْ بِحُورٍ عِينٍ ﴿ يَدْخُلُونَ فِيهَا بِكُلِّ فُكْهَةٍ ءَامِنِينَ ﴾ لَا يَذُقُونَ فِيهَا الْمَوْتَ إِلَّا الْمَوْتَةَ الْأُولَى . وَوَقَّعَهُمْ عَذَابِ الْجَحِيمِ ﴿ فَضَلَا مِنْ رَبِّكَ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴾ ﴿ فَإِنَّمَا يَسْتَرْزِقُهُ يِلْسَانُكَ لَعَلَّهُمْ يَنْذَكَّرُونَ ﴾ ﴿ فَأَرْقِيبَ لَهُمْ مُرْتَبِعُونَ ﴾ .

لما ذكر تعالى حال الأشقياء عطف بذكر السعداء ولهذا سمي القرآن مثاني ، فقال : ﴿ إِنَّ الْمُتَّقِينَ ﴾ أي لله في الدنيا ﴿ فِي مَقَارِ أَمِينٍ ﴾ أي في الآخرة وهو الجنة ، قد آمنوا فيها من الموت والخروج ، ومن كل هم وحزن وجزع وتعب ونصب ومن الشيطان وكيدهِ وسائر الآفات والمصائب ﴿ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴾ وهذا في مقابلة ما أولئك فيه من شجرة الزقوم وشرب الحميم . وقوله تعالى : ﴿ يَلْبَسُونَ مِنْ سُندُسٍ ﴾ وهو رفيع الحرير كالقمصان ونحوها ﴿ وَإِسْتَبْرَقٍ ﴾ وهو ما فيه بريق ولمعان وذلك كالرياش وما يلبس على أعالي القماش ﴿ مُتَقَابِلِينَ ﴾ أي على السرر لا يجلس أحد منهم وظهره إلى غيره . وقوله تعالى : ﴿ كَذَلِكَ وَزَوَّجْنَاهُمْ بِحُورٍ عِينٍ ﴾ أي هذا العطاء مع ما قد منحناهم من الزوجات الحسن الحور العين اللاتي ﴿ لَمْ يَطْمِئِنَّ عَنْ قَبْلِهِمْ وَلَا جِأَنَّ ﴾ ﴿ كَانَتْ أَلْيَافُهُنَّ وَالزَّيْتَانُ ﴾ ﴿ هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَانِ إِلَّا الْإِحْسَانُ ﴾ عن أنس ؓ رفعه قال : لو أن حوراء بزقت في بحر لجي لعذب ذلك الماء لعذوبة ريقها ^(١) .

وقوله ﷻ : ﴿ يَدْخُلُونَ فِيهَا بِكُلِّ فُكْهَةٍ ءَامِنِينَ ﴾ أي مهما طلبوا من أنواع الثمار أحضر لهم ، وهم آمنون من انقطاعه وامتناعه ؛ بل يحضر إليهم كلما أرادوا . وقوله : ﴿ لَا يَذُقُونَ فِيهَا الْمَوْتَ إِلَّا الْمَوْتَةَ الْأُولَى ﴾ هذا استثناء يؤكد النفي فإنه استثناء منقطع ، ومعناه أنهم لا يذوقون فيها الموت أبداً كما ثبت أن رسول الله ﷺ قال : « يؤتى بالموت في صورة كبش أملح ، فيوقف بين الجنة والنار ، ثم يذبح ، ثم يقال : يا أهل الجنة خلود فلا موت ، ويا أهل النار خلود فلا موت » ^(٢) وعن

(١) أخرجه المنذري في الترغيب والترهيب ٥٣٥/٤ .

(٢) أخرجه البخاري في تفسير القرآن (٤٧٣٠) وأحمد في مسنده (٢٦١/٢) . والحاكم في المستدرک (٨٣/١) .

أبي سعيد وأبي هريرة رضي الله عنهما قالا : قال رسول الله ﷺ : « يقال لأهل الجنة : إن لكم أن تصحوا فلا تسقموا أبدًا ، وإن لكم أن تعيشوا فلا تموتوا أبدًا ، وإن لكم أن تنعموا فلا تبأسوا أبدًا ، وإن لكم أن تشبوا فلا تهرموا أبدًا » ^(١) وعن جابر رضي الله عنه قال : سئل نبي الله ﷺ : أينام أهل الجنة ؟ فقال ﷺ : « النوم أخو الموت ، وأهل الجنة لا ينامون » ^(٢) .

وقوله تعالى : ﴿ وَوَقَّعْنَهُمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ ﴾ أي مع هذا النعيم العظيم المقيم قد وقاهم وسلمهم ونجاهم وزحزحهم عن العذاب الأليم في دركات الجحيم ، فحصل لهم المطلوب ونجاهم من المهروب ، ولهذا قال ﷻ : ﴿ فَصَلَّاءٌ يَتَذَكَّرُ فِي ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴾ أي إنما كان هذا بفضلهم عليهم وإحسانه إليهم كما ثبت عن رسول الله ﷺ أنه قال : « اعملوا وسددوا وقاربوا ، واعلموا أن أحدًا لن يدخله عمله الجنة » قالوا : ولا أنت يا رسول الله ؟ قال ﷺ : ولا أنا ، إلا أن يتغمدني الله برحمة منه وفضل » ^(٣) . وقوله تعالى : ﴿ فَإِنَّمَا يَتَذَكَّرُ لِسَانُكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾ أي إنما يسرنا هذا القرآن الذي أنزلناه سهلًا واضحًا بينًا جليًا بلسانك الذي هو أفصح اللغات وأجلها وأعلاها ﴿ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾ أي يتفهمون ويعلمون .

ثم لما كان مع هذا الوضوح والبيان من الناس من كفر وخالف وعاند قال الله تعالى لرسوله ﷺ مسليًا له وواعدًا له بالنصر ، ومتوعدًا لمن كذبه بالعطب والهلاك : ﴿ فَارْتَقِبْ ﴾ أي انتظر ﴿ إِنَّهُمْ مُّرتَقِبُونَ ﴾ أي فسيعلمون لمن تكون النصرة والظفر وعلو الكلمة في الدنيا والآخرة ، فإنها لك يا محمد وإخوانك من النبيين والمرسلين ومن اتبعكم من المؤمنين كما قال تعالى : ﴿ كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي ﴾ الآية .

(١) أخرجه مسلم في الجنة وصفة نعيمها (٢٢) والترمذي في التفسير (٣٣٤٦) وأحمد في مسنده (٣٨/٣) .

(٢) أخرجه الطبراني في الأوسط (٩٢٣) والهيثم في مجمع الزوائد (٤١٥/١٠) والألباني في الصحيحة (١٠٨٧) .

(٣) أخرجه البخاري في الرقاق (٦٤٦٤) ومسلم في صفات المنافقين (٧١) وأحمد في مسنده (٢٣٥/٢) جميعهم بنحوه .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿حَمْدٌ ۝ تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ۝ إِنَّ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِلْمُؤْمِنِينَ ۝ وَفِي خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُذُّ مِنْ دَائِبَةٍ ءَايَاتٍ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ ۝ وَخَلْقِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَمَا أُنْزِلَ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ رِزْقٍ فَأَنبِئْ بِهَ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَتَصْرِيفِ الرِّيْحِ ءَايَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ۝﴾ .

يرشد تعالى خلقه إلى التفكير في آلائه ونعمه ، وقدرته العظيمة التي خلق بها السموات والأرض ، وما فيهما من المخلوقات المختلفة الأجناس ، والأنواع من الملائكة والجن والإنس والدواب والطيور والوحوش والسباع والحشرات ، وما في البحر من الأصناف المتنوعة واختلاف الليل والنهار في تعاقبهما دائبين لا يفتران ، هذا بظلامه وهذا بضياؤه ، وما أنزل الله تبارك وتعالى من السحاب من المطر في وقت الحاجة إليه ، وسماه رزقاً ؛ لأن به يحصل الرزق ﴿فَأَنبِئْ بِهَ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ أي بعد ما كانت هامة لا نبات فيها ولا شيء . وقوله ﴿وَتَصْرِيفِ الرِّيْحِ﴾ أي جنوباً وشمالاً ودبوراً وصبا ، برية وبحرية ، ليلية ونهارية . ومنها ما هو للمطر ، ومنها ما هو للقاح ، ومنها ما هو غذاء للأرواح ، ومنها ما هو عقيم لا ينتج ، وقال ﴿أَوَلَا﴾ : ﴿لَآيَاتٍ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ ثم يوقنون ، ثم يعقلون ، وهو ترقى من حال شريف إلى ما هو أشرف منه وأعلى .

﴿تِلْكَ ءَايَاتُ اللَّهِ تَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِإِلْحَاقِ قِيَامِ حَدِيثِهِ بَعْدَ اللَّهِ وَءَايَاتِهِ يُؤْمِنُونَ ۝ وَبَلِّ لِكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ۝ يَسْمَعُ ءَايَاتُ اللَّهِ تَنْزِيلَ عَلَيْهِ ثُمَّ يُخْرِجُ صُفْرًا مَسْكُورًا كَأَن لَّهُ يَسْمَعُا فَيَنْزِعُ بِعَذَابِ أَلِيمٍ ۝ وَإِذَا عَلِمَ مِنْ ءَايَاتِنَا شَيْئًا أَخَذَهَا مِزْوًا أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ ۝ يَنْ رَأَوْهُمْ جَهَنَّمَ وَلَا يُغْنِي عَنْهُمْ مَا كَسَبُوا شَيْئًا وَلَا مَا أَخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ۝ هَذَا هَدَى وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِيَاثِبَتِ رَبِّهِمْ لَهُمْ عَذَابٌ مِنْ رِجْزٍ أَلِيمٌ ۝﴾ .

يقول تعالى : ﴿تِلْكَ ءَايَاتُ اللَّهِ﴾ يعني القرآن بما فيه من الحجج والبيانات ﴿تَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِإِلْحَاقِ﴾ أي متضمنة الحق من الحق ، فإذا كانوا لا يؤمنون بها ولا ينقادون لها ﴿قِيَامِ حَدِيثِهِ بَعْدَ اللَّهِ وَءَايَاتِهِ يُؤْمِنُونَ﴾ ثم قال تعالى : ﴿وَبَلِّ لِكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ﴾ أي أفاك في قوله كذاب حلاف مهين أثم في فعله وقلبه كافر بآيات الله ولهذا قال : ﴿يَسْمَعُ ءَايَاتُ اللَّهِ تَنْزِيلَ عَلَيْهِ﴾ أي تقرأ عليه ﴿ثُمَّ يُخْرِجُ صُفْرًا مَسْكُورًا﴾ أي على كفره وجحوده استكباراً وعناداً ﴿كَأَن لَّهُ يَسْمَعُا﴾ أي كأنه ما سمعها ﴿فَيَنْزِعُ بِعَذَابِ أَلِيمٍ﴾ أي فأخبره أن له عند الله تعالى يوم القيامة عذاباً أليماً موجعاً ﴿وَإِذَا عَلِمَ مِنْ ءَايَاتِنَا شَيْئًا أَخَذَهَا مِزْوًا﴾ أي إذا حفظ شيئاً من القرآن كفر به واتخذته سخرية وهزواً ﴿أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ﴾ أي في مقابلة ما استهان بالقرآن واستهزأ به ، ولهذا روي عن ابن عمر رضي الله عنه قال : نهى رسول الله ﷺ أن يسافر بالقرآن إلى أرض العدو مخافة أن يناله العدو ^(١) . ثم فسر العذاب الحاصل له يوم معاده فقال : ﴿يَنْ رَأَوْهُمْ جَهَنَّمَ﴾ أي كل من اتصف بذلك سيصيرون إلى جهنم يوم القيامة ﴿وَلَا يُغْنِي عَنْهُمْ مَا كَسَبُوا شَيْئًا﴾ أي لا تنفعهم أموالهم ولا أولادهم ﴿وَلَا مَا أَخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أُولَئِكَ﴾ أي ولا تغني عنهم الآلهة التي عبدوها من دون الله شيئاً

(١) أخرجه البخاري في الجهاد (٢٩٩٠) ومسلم في الإمارة (٩٢) وأبو دود في السنن (٢٦١٠) وأحمد في مسنده (٦/٢) .

﴿ وَلَقَدْ عَدَّتْ عَظِيمٌ ﴾ ثم قال تبارك وتعالى : ﴿ هَذَا هُدًى ﴾ يعني القرآن ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَذَكَّرُ بِهِمْ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ﴾ وهو المؤلم الموجه .

﴿ اللَّهُ الَّذِي سَخَّرَ لَكُمُ الْبَحْرَ لِتَجْرِيَ الْفُلُكُ فِيهِ بِأَمْرِهِ وَلِتَسْتَوُوا مِنْ فَضْلِهِ ۚ وَلَقَدْ لَكُمُ شُكْرُونَ ۝ ﴾ وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِمَّا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُفَكِّرُونَ ۝ قُلْ لِلَّذِينَ آمَنُوا يَغْفِرُوا لِلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ اللَّهِ لِيَجْزِيَ قَوْمًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ۝ مَن عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ ۖ وَمَن أَسَاءَ فَلِنَفْسِهِ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكَ تُرْجَعُونَ ۝ .

يذكر تعالى نعمه على عبده فيما سخر لهم من البحر ﴿ لِيَجْزِيَ الْفُلُكُ ﴾ وهي السفن فيه بأمره تعالى ، فإنه هو الذي أمر البحر بحملها ﴿ وَلِتَسْتَوُوا مِنْ فَضْلِهِ ﴾ أي في المتاجر والمكاسب ﴿ وَلَقَدْ لَكُمُ شُكْرُونَ ﴾ أي على حصول المنافع المجلوبة من الأقاليم النائية والأفاق القاصية ، ثم قال ﴿ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ﴾ أي من الكواكب والجبال والبحار والأنهار ، وجميع ما تنتفعون به أي الجميع من فضله وإحسانه وامتنانه ولهذا قال ﴿ جَمِيعًا مِمَّا ﴾ أي من عنده وحده لا شريك له في ذلك ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُفَكِّرُونَ ۝ .

وقوله تعالى : ﴿ قُلْ لِلَّذِينَ آمَنُوا يَغْفِرُوا لِلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ اللَّهِ ﴾ أي ليصفحوا عنهم ويتحملون الأذى منهم ، وكان هذا في ابتداء الإسلام ، أمروا أن يصبروا على أذى المشركين وأهل الكتاب ؛ ليكون ذلك كالتأليف لهم ، ثم لما أصرروا على العناد شرع الله للمؤمنين الجهاد . هكذا روي عن ابن عباس ؓ وقال مجاهد : لا ينالون نعم الله تعالى ، وقوله تبارك وتعالى : ﴿ لِيَجْزِيَ قَوْمًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾ أي إذا صفحوا عنهم في الدنيا فإن الله ﷻ مجازيهم بأعمالهم السيئة في الآخرة ، ولهذا قال تعالى : ﴿ مَن عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ ۖ وَمَن أَسَاءَ فَلِنَفْسِهِ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكَ تُرْجَعُونَ ﴾ أي تعودون إليه يوم القيامة فتعرضون بأعمالكم عليه فيجزىكم بأعمالكم خيرا وشرها ، والله سبحانه وتعالى أعلم .

﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا بَنِي إِسْرَءِيلَ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ وَوَعَدْنَاهُمْ عَلَى الْعَمَلِينَ ۝ وَآتَيْنَاهُمْ مِيسِرَ قُلُوبِهِمْ وَمَا اخْتَلَفُوا إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَعْثًا يَبْتِغُونَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ۝ ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ الْأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۝ إِنَّهُمْ لَنُغْنُوا عَنْكَ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَإِنَّ الظَّالِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ ۝ هَذَا بَصِيرَتُ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ۝ .

يذكر تعالى ما أنعم به على بني إسرائيل من إنزال الكتب عليهم وإرسال الرسل إليهم وجعله الملك فيهم ، ولهذا قال تبارك وتعالى : ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا بَنِي إِسْرَءِيلَ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ وَوَعَدْنَاهُمْ عَلَى الْعَمَلِينَ ﴾ أي في زمانهم ﴿ وَآتَيْنَاهُمْ مِيسِرَ قُلُوبِهِمْ يَبْتَغُونَ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴾ أي سيفصل بينهم بحكمه العدل ، وهذا فيه تحذير لهذه الأمة أن تسلك مسلكهم وأن تقصد منهجهم ، ولهذا قال جل وعلا : ﴿ ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ الْأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا ﴾ أي اتبع ما أوحى إليك من ربك لا إله إلا هو وأعرض عن المشركين ، وقال ﷻ ههنا : ﴿ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۝ إِنَّهُمْ لَنُغْنُوا عَنْكَ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَإِنَّ الظَّالِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ ﴾ أي وماذا تغني عنهم ولا يتهم لبعضهم

بعضًا ؛ فإنهم لا يزيدونهم إلا خسارًا ودمارًا وهلاكًا ﴿ وَاللَّهُ وَكَى الْمُنْفِقِينَ ﴾ وهو تعالى يخرجهم من الظلمات إلى النور والذين كفروا أولياؤهم الطاغوت يخرجونهم من النور إلى الظلمات ، ثم قال ﷺ : ﴿ هَذَا بَصِيرَتُ لِلنَّاسِ ﴾ يعني القرآن ﴿ وَهَدَىٰ وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴾ .

يقول تعالى : لا يستوي المؤمنون والكَافِرُونَ وقال تبارك وتعالى : ﴿ أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ ﴾ أي عملوها وكسبوها ﴿ أَنْ نَجْزِيَهُمْ كَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَجْزَاهُمْ ﴾ أي نساويهم بهم في الدنيا والآخرة ﴿ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴾ أي ساء ما ظنوا بنا وبعدلنا أن نساوي بين الأبرار والفجار في الدار الآخرة وفي هذه الدار . عن أبي ذر رضي الله عنه قال : إن الله تعالى بنى دينه على أربعة أركان ، فمن صبر عليهن ولم يعمل بهن لقي الله من الفاسقين ، قيل : وما هن يا أبا ذر ؟ قال : يسلم حلال الله لله ، وحرام الله لله ، وأمر الله لله ، ونهي الله لله ، لا يؤتمن عليهن إلا الله ، قال أبو القاسم عليه السلام : « كما أنه لا يجتنب من الشوك العنب كذلك لا ينال الفجار منازل الأبرار » ^(١) . وقال عليه السلام : ﴿ وَخَلَقَ اللَّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ ﴾ أي بالعدل ﴿ وَلَتَجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴾ .

ثم قال جل وعلا : ﴿ أَفَرَأَيْتَ مَنِ اخْتَلَفَ إِلَهُهُ هَوْنَهُ ﴾ أي إثمًا يأتمر بهواه ، فما رآه حسنًا فعله وما رآه قبيحًا تركه ، وهذا قد يستدل به على المعتزلة في قولهم بالتحسين والتقيح العقليين ، وعن مالك فيما روي عنه من التفسير لا يهوى شيئًا إلا عبده . وقوله : ﴿ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ ﴾ يحتمل قولين : أحدهما : وأضله الله لعلمه أنه يستحق ذلك ، والآخر : وأضله الله بعد بلوغ العلم إليه وقيام الحجة عليه . والثاني يستلزم الأول ولا ينعكس ﴿ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِ وَغَلَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِ غِشَاوَةً ﴾ أي فلا يسمع ما ينفعه ولا يعي شيئًا يهتدي به ولا يرى حجة يستضيء بها . ولهذا قال تعالى : ﴿ فَمَنْ يَهْدِيهِ مِنْ بَعْدِ اللَّهِ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴾ .

﴿ وَقَالُوا مَا مِنْ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ وَمَا لَهُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴿١٠﴾ وَإِذَا نُنْفِثُ عَلَيْهِمُ الْمَاءَ يَأْتِيَنَّ مَا كَانَ حُجَّتَهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا اقْتُلُوا بِأَبَائِنَا إِنَّكُمْ كَفَّارٌ صٰدِقِينَ ﴿١١﴾ قُلِ اللَّهُ يُخَيِّبُكُمْ ثُمَّ يُمَسِّكُكُمْ ثُمَّ يَجْعَلُ لَكُمْ جَنَّةً كَمَا يَوْمَ الْيَوْمَةِ لَا رَدَّ فِيهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٢﴾ ۝

يخبر تعالى عن قول الدهرية من الكفار ومن وافقهم من مشركي العرب في إنكار المعاد ﴿وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا﴾ أي ما ثم إلا هذه الدار ، يموت قوم ويعيش آخرون ، وما ثم معاد ولا قيامة ، وهذا يقوله مشركو العرب المنكرون المعاد ، وتقولوه الفلاسفة الإلهيون منهم ، وهم ينكرون البدأة والرجعة ، وتقولوه الفلاسفة الدهرية الدورية المنكرون للصانع ، المعتقدون أن في كل ستة وثلاثين ألف سنة يعود كل شيء إلى ما كان عليه ، وزعموا أن هذا قد تكرر مرات لا تتناهى ، فكابروا العقول وكذبوا المنقول ، ولهذا قالوا ﴿وَمَا يَحْكُمُ إِلَّا الدَّهْرُ﴾ قال الله تعالى : ﴿وَمَا لَهُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ﴾ أي يتوهمون ويتخيلون . عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « يقول تعالى : يؤذيني ابن آدم ،

(١) ذكره السيوطي في الدر المنثور (٣٠٨/٥) .

(١) ذكره السيوطي في الدر المنثور (٣٠٨/٥) .

يسبب الدهر وأنا الدهر ، يبدي الأمر ، أقلب ليله ونهاره» ^(١) وفي رواية : « لا تسبوا الدهر فان الله تعالى هو الدهر» ^(٢) . وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « يقول الله تعالى : استقرضت عبيدي فلم يعطني وسبني عبيدي ، يقول : وادهره ، وأنا الدهر» ^(٣) قال الشافعي وأبو عبيدة وغيرهما من الأئمة في تفسير قوله ﷺ : « لا تسبوا الدهر فإن الله هو الدهر » كانت العرب في جاهليتها إذا أصابهم شدة أو بلاء أو نكبة قالوا : يا خيبة الدهر ، فيسندون تلك الأفعال إلى الدهر ويسبونه ، وإنما فاعلها هو الله تعالى فكأنهم إنما سبوا الله ﷻ ؛ لأنه فاعل ذلك في الحقيقة ، فلهذا نهى عن سب الدهر بهذا الاعتبار ، لأن الله تعالى هو الدهر الذي يعنونه ويسندون إليه تلك الأفعال ، هذا أحسن ما قيل في تفسيره وهو المراد ، والله أعلم ، وقد غلط ابن حزم ومن نحا نحوه من الظاهرية في عدهم الدهر من الأسماء الحسنی أخذاً من هذا الحديث .

وقوله تعالى : ﴿ وَإِذَا نُنَاجِيهِمْ مَائِثًا بَيْنَتِ ﴾ أي إذا استدل عليهم وبين لهم الحق ، وأن الله تعالى قادر على إعادة الأبدان بعد فنائها وتفرقها ﴿ مَا كَانَ حُجَّتَهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا اقْتُلُوا بِنَائِبَاتٍ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ أي أحيوهم إن كان ما تقولونه حقاً . قال الله تعالى : ﴿ قُلِ اللَّهُ يُخَيِّبُكُمْ ثُمَّ يُبْسِكُ ﴾ أي كما تشاهدون ذلك يخرجكم من العدم إلى الوجود أي فالذي قدر على البدأة قادر على الإعادة بطريق الأولى والأخرى ﴿ وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَتْ عَلَيْهِ ﴾ ﴿ ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ ﴾ أي إنما يجمعكم إلى يوم القيامة لا يبعدكم في الدنيا حتى تقولوا ﴿ اقْتُلُوا بِنَائِبَاتٍ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ ﴿ ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ ﴾ أي لا شك فيه ﴿ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ أي فلهذا ينكرون المعاد ويستبعدون قيام الأجساد قال الله تعالى : ﴿ إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُ بَعِيدًا ۖ وَرَأَوْهُ قَرِيبًا ﴾ أي يرون وقوعه بعيداً والمؤمنون يرون ذلك سهلاً قريباً . ﴿ وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُنْفِخُ بِخَسَرِ الْبَطْلُونَ ۖ وَرَأَى كُلُّ أَثَرٍ جَائِيَةً كُلُّ أَثَرٍ دُعَىٰ إِلَىٰ كِتَابِهَا الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ۖ هَذَا كِتَابُنَا يَنْطِقُ عَلَيْكُمْ بِالْحَقِّ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ .

يخبر تعالى أنه مالك السموات والأرض والحاكم فيهما في الدنيا والآخرة ، ولهذا قال ﷻ : ﴿ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ ﴾ أي يوم القيامة ﴿ يَنْفِخُ الْبَطْلُونَ ﴾ وهم الكافرون بالله الجاحدون بما أنزله على رسله من الآيات البينات والدلائل الواضحات .

ثم قال تعالى : ﴿ وَرَأَى كُلُّ أَثَرٍ جَائِيَةً ﴾ أي على ركبها من الشدة والعظمة ، ويقال إن هذا إذا جيء بجهنم فإنها تفرز زفرة ، لا يبقى أحد إلا جثا لركبته ، حتى إبراهيم الخليل عليه الصلاة والسلام ويقول : نفسي نفسي نفسي ! لا أسألك اليوم إلا نفسي . وحتى إن عيسى عليه الصلاة والسلام ليقول : لا أسألك اليوم إلا نفسي ، لا أسألك مريم التي ولدني . وعن عبد الله بن باباه أن رسول الله ﷺ قال : « كأني أراكم جاثين بالكوم دون جهنم » ^(٤) .

وقوله ﷻ : ﴿ كُلُّ أَثَرٍ دُعَىٰ إِلَىٰ كِتَابِهَا ﴾ يعني كتاب أعمالها ولهذا قال ﷻ : ﴿ الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ

(١) أخرجه البخاري في التوحيد (٧٤٩١) وأحمد في مسنده (٢٧٢/٢) .

(٢) أخرجه مسلم في الأدب (٥) وأحمد في مسنده (٣٩٥/٢) .

(٣) أخرجه أحمد في مسنده (٣٠٠/٢) والحاكم في المستدرک (٤٩١/٢) .

(٤) ذكره السيوطي في الدر المنثور (٢٧٢/٤) .

تَمَلُّونَ ﴿١﴾ أَي تَجَازُونَ بِأَعْمَالِكُمْ خَيْرَهَا وَشَرِّهَا وَلِهَذَا قَالَ جَلَّتْ عَظَمَتُهُ ﴿٢﴾ هَذَا كَيْتَبْنَا بَطْنُكُمْ بِالْحَقِّ ﴿٣﴾ أَي يَسْتَحْضِرُ جَمِيعَ أَعْمَالِكُمْ مِنْ غَيْرِ زِيَادَةٍ وَلَا نَقْصٍ . وَقَوْلُهُ ﴿٤﴾ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنْسِخُ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٥﴾ أَي إِنَّا كُنَّا نَأْمُرُ الْحَفَظَةَ أَنْ تَكْتُبَ أَعْمَالَكُمْ عَلَيْكُمْ . قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ ؓ وَغَيْرُهُ : تَكْتُبُ الْمَلَائِكَةُ أَعْمَالَ الْعِبَادِ ثُمَّ تَصْعَدُ بِهَا إِلَى السَّمَاءِ ، فَيَقَابِلُونَ الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ فِي دِيْوَانِ الْأَعْمَالِ عَلَى مَا بِأَيْدِي الْكُتُبَةِ ، مِمَّا قَدْ أُبْرِزَ لَهُمْ مِنَ اللَّوْحِ الْمَحْفُوظِ فِي كُلِّ لَيْلَةٍ قَدَرٌ ، مِمَّا كَتَبَهُ اللَّهُ فِي الْقَدَمِ عَلَى الْعِبَادِ قَبْلَ أَنْ يَخْلُقَهُمْ فَلَا يَزِيدُ حَرْفًا وَلَا يَنْقُصُ حَرْفًا ثُمَّ قَرَأَ ﴿٦﴾ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنْسِخُ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٧﴾ .

﴿٨﴾ فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُدْخِلُهُمْ رَبُّهُمْ فِي رَحْمَتِهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَلِيُّ ﴿٩﴾ وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا أَفَلَمْ تَكُنْ ءَايَتِي تَتْلَىٰ عَلَيْهِمْ فَاستَكْبَرْتُمْ وَكُنْتُمْ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴿١٠﴾ وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَالسَّاعَةُ لَا رَيْبَ فِيهَا قُلْتُمْ مَا نَدْرِي مَا السَّاعَةُ إِنْ نَقُلُّ إِلَّا غَلَاً وَمَا نَحْنُ بِمُتَحَقِّقِينَ ﴿١١﴾ وَبَدَا لَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا عَمِلُوا حَقًّا بِهِنَّ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴿١٢﴾ وَقِيلَ الْيَوْمَ نَنسِفُكَ كَمَا نَفْسْنَا لِفُلَانٍ هَذَا وَنَأْوِيكَ النَّارَ وَمَا لَكَ مِنْ نَصِيرِينَ ﴿١٣﴾ ذَلِكَ بِأَنَّهُ أَخَذْتَ ءَايَاتِ اللَّهِ هُزُولًا وَعَرَّفَكَ الْخُبْرَ الدُّنْيَا قَالِيَوْمَ لَا يُخْرَجُونَ مِنْهَا وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ﴿١٤﴾ فَلِلَّهِ الْحُكْمُ رَبِّ السَّمَوَاتِ وَرَبِّ الْأَرْضِينَ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٥﴾ وَلَهُ الْكِبْرِيَاءُ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿١٦﴾ .

يُخْبِرُ تَعَالَى عَنْ حُكْمِهِ فِي خَلْقِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، فَقَالَ تَعَالَى : ﴿١﴾ فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ﴿٢﴾ أَي : أَمِنْتُ قُلُوبَهُمْ وَعَمِلَتْ جَوَارِحُهُمُ الْأَعْمَالُ الصَّالِحَةُ وَهِيَ الْخَالِصَةُ الْمَوَافِقَةُ لِلشَّرْعِ ﴿٣﴾ فَيُدْخِلُهُمْ رَبُّهُمْ فِي رَحْمَتِي ﴿٤﴾ وَهِيَ الْجَنَّةُ كَمَا ثَبَتَ فِي الصَّحِيحِ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى قَالَ لِلْجَنَّةِ : أَنْتِ رَحْمَتِي أَرْحَمُ بِكَ مِنْ أَشْيَاءِ ^(١) ﴿٥﴾ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَلِيُّ ﴿٦﴾ أَي الْبَيِّنُ الْوَاضِحُ . ثُمَّ قَالَ تَعَالَى : ﴿٧﴾ وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا أَفَلَمْ تَكُنْ ءَايَتِي تَتْلَىٰ عَلَيْهِمْ فَاستَكْبَرْتُمْ ﴿٨﴾ أَي يَقَالُ لَهُمْ ذَلِكَ تَقْرِيعًا وَتَوْبِيخًا : أَمَا قَرَأْتُمْ عَلَيْكُمْ آيَاتِ اللَّهِ تَعَالَى فَاسْتَكْبَرْتُمْ عَنْ اتِّبَاعِهَا ، وَأَعْرَضْتُمْ عَنْ سَمَاعِهَا ، وَكُنْتُمْ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ فِي أَعْمَالِكُمْ مَعَ مَا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ قُلُوبُكُمْ مِنَ التَّكْذِيبِ ؟ ﴿٩﴾ وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَالسَّاعَةُ لَا رَيْبَ فِيهَا ﴿١٠﴾ ، أَي إِذْ قَالَ لَكُمْ الْمُؤْمِنُونَ ذَلِكَ ﴿١١﴾ قُلْتُمْ مَا نَدْرِي مَا السَّاعَةُ ﴿١٢﴾ أَي لَا نَعْرِفُهَا ﴿١٣﴾ إِنْ نَقُلُّ إِلَّا غَلَاً ﴿١٤﴾ أَي إِنْ نَتَوَهَّمُ وَقُوعَهَا إِلَّا تَوَهَّمًا أَي مَرْجُوحًا وَلِهَذَا قَالَ : ﴿١٥﴾ وَمَا نَحْنُ بِمُتَحَقِّقِينَ ﴿١٦﴾ أَي بِمُتَحَقِّقِينَ . قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿١٧﴾ وَبَدَا لَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا عَمِلُوا ﴿١٨﴾ أَي وَظَهَرَ لَهُمْ عَقُوبَةُ أَعْمَالِهِمُ السَّيِّئَةِ ﴿١٩﴾ حَقًّا بِهِنَّ ﴿٢٠﴾ أَي أَحَاطَ بِهِمْ ﴿٢١﴾ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴿٢٢﴾ أَي مِنَ الْعَذَابِ وَالنَّكَالِ ﴿٢٣﴾ وَقِيلَ الْيَوْمَ نَنسِفُكَ أَي نَعَامِلُكُمْ مَعَامِلَةَ النَّاسِ لَكُمْ فِي نَارِ جَهَنَّمَ ﴿٢٤﴾ كَمَا نَفْسْنَا لِفُلَانٍ هَذَا يَوْمَئِذٍ هَذَا ﴿٢٥﴾ أَي فَلَمْ تَعْمَلُوا لَهُ لِأَنَّكُمْ لَمْ تَصَدَّقُوا بِهِ ﴿٢٦﴾ وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُمْ مِنْ نَصِيرِينَ ﴿٢٧﴾ . وَقَدْ ثَبَتَ فِي الصَّحِيحِ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى يَقُولُ لِبَعْضِ الْعَبِيدِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ «أَلَمْ أَزُوجْكَ ؟ أَلَمْ أَكْرِمَكَ ؟ أَلَمْ أَسْخَرْ لَكَ الْخَيْلَ وَالْإِبِلَ وَأَذْرَكَ تَرَأْسَ وَتَرْبَعٍ ؟ فَيَقُولُ : بَلَى يَا رَبِّ . فَيَقُولُ : أَفَظَنْنْتَ أَنَّكَ مَلَاقِي ؟ فَيَقُولِي : لَا . فَيَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى : فَالْيَوْمَ أَنَسَاكَ كَمَا نَسِيتَنِي » ^(٢) .

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿١﴾ ذَلِكَ بِأَنَّهُ أَخَذْتَ ءَايَاتِ اللَّهِ هُزُولًا ﴿٢﴾ أَي إِنَّمَا جَازَيْنَاكُمْ هَذَا الْجَزَاءَ لِأَنَّكُمْ اتَّخَذْتُمْ حُجَجَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ سَخَرِيًا تَسْخَرُونَ وَتَسْتَهْزِئُونَ بِهَا ﴿٣﴾ وَعَرَّفَكَ الْخُبْرَ الدُّنْيَا ﴿٤﴾ أَي خَدَعْتَكُمْ فَاطْمَأْنَنْتُمْ

(١) أخرجه البخاري في التفسير (٤٨٥٠) ومسلم في الجنة وصفة نعيمها (٣٤) وأحمد في مسنده (٢٧٦/٢) .

(٢) أخرجه مسلم في الزهد (١٥) .

إليها فأصبحتم من الخاسرين ، ولهذا قال ﷻ : ﴿ فَأَلَيْتُمْ لَا تَخْرُجُونَ مِنْهَا ﴾ أي من النار ﴿ وَلَا هُمْ يُسْمِنُونَ ﴾ أي لا يطلب منهم العتبي بل يعذبون بغير حساب ولا عتاب كما تدخل طائفة من المؤمنين الجنة بغير عذاب ولا حساب ثم لما ذكر تعالى حكمه في المؤمنين والكافرين ، قال ﴿ فَلِلَّهِ الْحَمْدُ رَبِّ السَّمَوَاتِ وَرَبِّ الْأَرْضِ ﴾ أي المالك لهما وما فيهما ، ولهذا قال : ﴿ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ ثم قال جل وعلا ﴿ وَلَهُ الْكِبَرِيَّةُ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ قال مجاهد : يعني السلطان أي هو العظيم المجد الذي كل شيء خاضع لديه فقير إليه . وقد ورد في الحديث الصحيح « يقول الله تعالى : العظمة إزارني ، والكبرياء ردائي فمن ، نازعني واحداً منهما أسكنته ناري »^(١) . وقوله تعالى : ﴿ وَمَوَ الْأَصْرُ ﴾ أي الذي لا يغالب ولا يمانع ﴿ الْحَكِيمُ ﴾ في أقواله وأفعاله وشرعه وقدره تعالى وتقدس لا إله إلا هو .

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٤٤٢/٢) والحاكم في المستدرک (١٦/١) .

يَدْعَا مِنَ الرُّسُلِ وَمَا أَدْرَى مَا يُفْعَلُ فِي وَلَا يَكْفُرُ إِلَّا مَا يُوْحَىٰ إِلَيْكَ وَمَا أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٧﴾ .

يقول ﷺ مخبراً عن المشركين في كفرهم وعنادهم : إنهم إذا تلى عليهم آيات الله بينات ، أي في حال بيانها ووضوحها وجلالاتها ، يقولون : ﴿ هَذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴾ أي سحر واضح وقد كذبوا وافتروا وضلوا وكفروا ﴿ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَيْنَاهُ ﴾ يعنون محمد ﷺ قال الله ﷻ : ﴿ قُلْ إِنْ افْتَرَيْتُمْ فَلَا تَمْلِكُونَ لِي مِنَ اللَّهِ شَيْئًا ﴾ أي لو كذبت عليه وزعمت أنه أرسلني وليس كذلك لعاقبني أشد العقوبة ، ولم يقدر أحد من أهل الأرض لا أنتم ولا غيركم ، أن يجيرني منه ، ﴿ قُلْ إِنْ افْتَرَيْتُمْ فَلَا تَمْلِكُونَ لِي مِنَ اللَّهِ شَيْئًا هُوَ أَعْلَمُ بِمَا تُفِيضُونَ فِيهِ كَفَىٰ بِهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ ﴾ هذا تهديد لهم ووعد أكيد وترهيب شديد .

وقوله جل وعلا : ﴿ وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴾ ترغيب لهم إلى التوبة والإنابة ، أي ومع هذا كله إن رجعتم وتبتم تاب عليكم وعفا عنكم وغفر ورحم ، وقوله تبارك وتعالى : ﴿ قُلْ مَا كُنتُ بِدْعًا مِنَ الرُّسُلِ ﴾ أي لست بأول رسول طرق العالم بل قد جاءت الرسل من قبلي ، فما أنا بالأمر الذي لا نظير له حتى تستنكرون وتستبعدون بعثتي إليكم ؛ فإنه قد أرسل الله جل وعلا قبلي جميع الأنبياء إلى الأمم ، قال ابن عباس ومجاهد وقتادة : ﴿ قُلْ مَا كُنتُ بِدْعًا مِنَ الرُّسُلِ ﴾ ما أنا بأول رسول .

وقوله تعالى : ﴿ وَمَا أَدْرَى مَا يُفْعَلُ فِي وَلَا يَكْفُرُ ﴾ قال ابن عباس ؓ في هذه الآية : نزل بعدها ﴿ لِيُغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ ﴾ ، وهكذا قال عكرمة والحسن وقتادة : والذي هو ثابت في الصحيح أن المؤمنين قالوا : هنيئاً لك يا رسول الله فما لنا ؟ فأنزل الله ﷻ هذه الآية . وقال الحسن البصري في قوله تعالى : ﴿ وَمَا أَدْرَى مَا يُفْعَلُ فِي وَلَا يَكْفُرُ ﴾ قال : أما في الآخرة فمعاذ الله وقد علم أنه في الجنة ، ولكن قال : لا أدري ما يفعل بي ولا بكم في الدنيا ، أخرج كما أخرجت الأنبياء عليهم الصلاة والسلام من قبلي ؟ أم أقتل كما قتلت الأنبياء من قبلي ؟ ولا أدري أيخسف بكم أو ترمون بالحجارة ؟ وهذا القول هو الذي عول عليه ابن جرير وأنه لا يجوز غيره ، ولاشك أن هذا هو اللائق به ﷺ ، فإنه بالنسبة إلى الآخرة جازم أنه يصير إلى الجنة هو ومن اتبعه ، وأما في الدنيا ؛ فلم يدر ما كان يؤول إليه أمره وأمر مشركي قريش إلى ماذا ، أيؤمنون أم يكفرون ، فيعذبون فيستأصلون بكفرهم .

روي عن أم العلاء وكانت بايعت رسول الله ﷺ قالت : طار لهم في السكني حين اقترعت الأنصار على سكنى المهاجرين عثمان بن مظعون ؓ فاشتكى عثمان ؓ عندنا فمرضناه ، حتى إذا توفي أدرجناه في أثوابه فدخل علينا رسول الله ﷺ فقلت : رحمة الله عليك أبا السائب ، شهادتي عليك لقد أكرمك الله ﷻ ، فقال رسول الله ﷺ : « وما يدريك أن الله تعالى أكرمه ؟ » فقلت : لا أدري بأبي أنت وأمي ، فقال رسول الله ﷺ : « أما هو فقد جاءه اليقين من ربه ، وإنني لأرجو له الخير ، والله ما أدري وأنا رسول الله ما يفعل بي » . قالت : والله لا أزكي أحداً بعده أبداً وأحزنني ذلك فمنت فرأيت لعثمان ؓ عيناً تجري ، فحُثت إلى رسول الله ﷺ فأخبرته بذلك ، فقال رسول الله ﷺ : « ذاك عمله » (١) .

وفي هذا وأمثاله دلالة على أنه لا يقطع لمعين بالجنة إلا الذي نص الشارع على تعيينهم كالعشرة وابن سلام والعميصاء وبلال وسراقة ، وعبد الله بن عمرو ابن حرام والد جابر ، والقراء السبعين

الذين قتلوا بيثر معونة ، وزيد بن حارثة وجعفر بن رواحة وما أشبه هؤلاء ﷺ . وقوله ﴿ إِنَّا أَنْجَيْنَا آلَ مَآيُوسَ إِلَى الْيَمِّ ﴾ . أي إنما اتبع ما ينزل الله علي من الوحي ﴿ وَمَا أَنْتَ إِلَّا نَذِيرٌ مُبِينٌ ﴾ أي بين النذارة أمري ظاهر لكل ذي لب وعقل ، والله أعلم .

﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كَانَ مِنَ عِنْدِ اللَّهِ كُفْرُكُمْ بِهِ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِنْ بَنِي إِسْرَءِيلَ عَلَى مِثْلِهِ فَقَامَ وَاسْتَكْبَرْتُمْ إِنْكَ اللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾ وقال الذين كفروا للذين آمنوا لو كان خيرا ما سبقونا إليه وإذ لم يهتدوا به فسيقولون هذا إفك قديم ﴿ وَمِنْ قَبْلِهِ كَتَبَ مُوسَى إِمَامًا وَرَحْمَةً وَهَذَا كِتَابٌ مُصَدِّقٌ لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَإِنْ كُنْتُمْ مِنْ شَكٍّ مِنْهُ فُلُوكُمْ وَلَبِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلًا ﴾ إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَفْتَوْا فَلَا خَوْفَ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ .

يقول تعالى : ﴿ قُلْ ﴾ يا محمد لهؤلاء المشركين الكافرين بالقرآن ﴿ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كَانَ ﴾ هذا القرآن ﴿ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَكَفَرْتُمْ بِهِ ﴾ أي ماظنكم أن الله صانع بكم إن كان هذا الكتاب الذي جمعكم به قد أنزل علي لأبلغكموه ، وقد كفرتم به وكذبتموه ﴿ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِنْ بَنِي إِسْرَءِيلَ عَلَى مِثْلِهِ ﴾ أي وقد شهدت بصدقه وصحته الكتب المتقدمة المنزلة على الأنبياء عليهم الصلاة والسلام قبلي ، بشرت به واخبرت بمثل ما اخبر هذا القرآن به : وقوله ﴿ قَامَ ﴾ أي هذا الذي شهد بصدقه من بني إسرائيل لمعرفته بحقيقته ﴿ وَاسْتَكْبَرْتُمْ ﴾ أنتم عن اتباعه ، وقال مسروق : فآمن هذا الشاهد بنبيه وكتابه وكفرتم أنتم بنبيكم وكتابكم ﴿ إِنْكَ اللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾ وهذا الشاهد اسم جنس يعمر عبد الله بن سلام ﷺ وغيره ، فإن هذه الآية مكية نزلت قبل إسلام عبد الله بن سلام ﷺ ، عن عامر ابن سعد عن أبيه قال : ماسمعت رسول الله ﷺ يقول لأحد يمشي على وجه الأرض أنه من أهل الجنة ، إلا لعبد الله بن سلام ﷺ ، قال : وفيه نزلت ﴿ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِنْ بَنِي إِسْرَءِيلَ عَلَى مِثْلِهِ ﴾ (١) .

وقوله تعالى : ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا لَوْ كَانَ خَيْرًا مَا سَبَقُونَا إِلَيْهِ ﴾ أي قالوا عن المؤمنين بالقرآن لو كان القرآن : خيرا ما سبقنا هؤلاء إليه ، يعنون بلالاً وعماراً وصهيباً وخباباً ﷺ ، وأشباههم وأضرابهم من المستضعفين والعبيد والإماء ، وماذا إلا لأنهم عند أنفسهم يعتقدون أن لهم عند الله وجاهة وله بهم عناية ، وقد غلطوا في ذلك غلطاً فاحشاً وأخطأوا خطأ يئساً ولهذا قالوا : ﴿ لَوْ كَانَ خَيْرًا مَا سَبَقُونَا إِلَيْهِ ﴾ وأما أهل السنة والجماعة ، فيقولون : في كل فعل وقول لم يثبت عن الصحابة ﷺ هو بدعة ؛ لأنه لو كان خيراً لسبقونا إليه ؛ لأنهم لم يتركوا خصلة من خصال الخير إلا وقد بادروا إليها .

وقوله تعالى : ﴿ وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا بِهِ ﴾ أي بالقرآن ﴿ فسيقولون هذا إفك قديم ﴾ : أي كذب قديم ، أي مأثور عن الناس الأقدمين فينتقصون القرآن وأهله ، وهذا هو الكبير الذي قال رسول الله ﷺ : « بطل الحق ، وغمط الناس » (٢) . ثم قال تعالى : ﴿ وَمِنْ قَبْلِهِ كَتَبَ مُوسَى إِمَامًا وَرَحْمَةً وَهَذَا كِتَابٌ مُصَدِّقٌ ﴾ أي لما قبله من الكتب ﴿ لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ ﴾ أي فصيحاً يئساً واضحاً ﴿ لِيُنذِرَ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَيُشْرَى لِلْمُحْسِنِينَ ﴾ أي مشتمل على النذارة للكافرين والبشارة للمؤمنين ، وقوله

(١) أخرجه البخاري في مناقب الأنصار (٥٣٨١) .

(٢) أخرجه أبو داود في السنن (٤٠٩٣) وأحمد في مسنده (٣٨٥/١) .

تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَمُوا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ ﴾ أي فيما يستقبلون ﴿ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ على ما خلفوا ﴿ أُولَئِكَ أَحْبَبْتُ الْبَنَاتِ خَلِيدِينَ فِيهَا جَزَاءٌ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ أي الأعمال سبب لنيل الرحمة لهم وسبوغها عليهم ، والله أعلم .

﴿ وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ إِحْسَانًا حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا وَحَمَلُهُ وَفِصْلُهُ ثَلَاثُونَ شَهْرًا حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِي إِنِّي بُثْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ ٥٠ ﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ نَقَبْلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَنَتَجَاوَزُ عَنْ سَيِّئَاتِهِمْ فِي أَحْسَنِ الْجَنَّةِ وَعَدَ الصَّادِقُ الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ .

لما ذكر تعالى في الآية الأولى التوحيد له وإخلاص العبادة والاستقامة إليه ، عطف بالوصية بالوالدين كما هو مقرون في غير ما آية من القرآن كقوله ﷻ : ﴿ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا ﴾ . وقال ﷻ ههنا : ﴿ وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ إِحْسَانًا ﴾ أي أمرناه بالإحسان إليهما والحنو عليهما عن سعد ﷺ قال : قالت أم سعد لسعد : أليس قد أمر الله بطاعة الوالدين ؟ فلا أكل طعامًا ولا أشرب شرابًا حتى تكفر بالله تعالى ، فامتعت من الطعام والشراب حتى جعلوا يفتحون فاهما بالعصا ونزلت هذه الآية ﴿ وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ إِحْسَانًا ﴾ الآية ^(١) . ﴿ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهًا ﴾ أي قابست بسببه في حال حملة مشقة وتعبًا من وحم وغشيان وثقل وكرب ، إلى غير ذلك مما تنال الحوامل من التعب والمشقة ، ﴿ وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا ﴾ أي بمشقة أيضا من الطلق وشدته ﴿ وَحَمَلُهُ وَفِصْلُهُ ثَلَاثُونَ شَهْرًا ﴾ وقد استدل علي ﷺ بهذه الآية مع التي في لقمان ﴿ وَفِصْلُهُ فِي عَامَيْنِ ﴾ وقوله تبارك وتعالى ﴿ وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَدَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يُنِمَّ الرِّضَاعَةُ ﴾ على أن أقل مدة الحمل ستة أشهر وهو استنباط قوي صحيح ، ووافقه عليه عثمان وجماعة من الصحابة ﷺ .

وعن ابن عباس قال : إذا وضعت المرأة لتسعة أشهر كفاه من الرضاع أحد وعشرون شهرا ، وإذا وضعته لسبعة أشهر كفاه من الرضاع ثلاثة وعشرون شهرا ، وإذا وضعته لسته أشهر فحولين كاملين ؛ لأن الله تعالى يقول : ﴿ وَحَمَلُهُ وَفِصْلُهُ ثَلَاثُونَ شَهْرًا حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ ﴾ أي قوي وشب وارتمل . ﴿ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً ﴾ أي تنهاى عقله وكمل فهمه وحلمه .. ويقال : إنه لا يتغير غالبا عما يكون عليه ابن الأربعين ، عن القاسم بن عبد الرحمن قال : قلت لمسروق : متى يؤخذ الرجل بذنوبه ؟ قال : إذا بلغت الأربعين فخذ حذرك .

عن عثمان ﷺ عن النبي ﷺ قال : « العبد المسلم إذا بلغ أربعين سنة ، خفف الله تعالى حسابه ، وإذا بلغ ستين سنة رزقه الله تعالى الإنابة إليه ، وإذا بلغ سبعين سنة أحبه أهل السماء ، وإذا بلغ ثمانين سنة ثبت الله تعالى حسناته ومحا سيئاته ، وإذا بلغ تسعين سنة غفر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر ، وشفعه الله تعالى في أهل بيته ، وكتب في السماء أسير الله في أرضه » ^(٢) وقد قال الحجاج بن عبد الله الحكمي أحد أمراء بني أمية بدمشق : تركت المعاصي والذنوب أربعين سنة حياء من الناس ، ثم تركتها حياء من الله ﷻ : ﴿ قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي ﴾ أي ألهمني ﴿ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ ﴾

(٢) أخرجه أحمد في مسنده (٢١٨/٣) .

(١) أخرجه مسلم في فضائل الصحابة (٤٣) .

أي في المستقبل ﴿ وَأَصْلَحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِي ﴾ أي نسلي وعقبى ﴿ إِنِّي بُنْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴾ وهذا فيه إرشاد لمن بلغ الأربعين أن يجدد التوبة والإنابة إلى الله ﷻ ويعزم عليها ، عن ابن مسعود ﷺ أن رسول الله ﷺ كان يعلمهم أن يقولوا في التشهد : « اللهم ألف بين قلوبنا ، وأصلح ذات بيننا ، واهدنا سبل السلام ، ونجنا من الظلمات إلى النور ، وجنبنا الفواحش ماظهر منها ومابطن ، وبارك لنا في أسماعنا وأبصارنا وقلوبنا وأزواجنا وذرياتنا ، وتب علينا إنك أنت التواب الرحيم ، واجعلنا شاكرين نعمتك ، مشنين بها عليك قابليها ، وأتممها علينا ^(١) » .

قال الله ﷻ : ﴿ أُولَئِكَ الَّذِينَ نَقَبْلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَنَتَجَاوَزُ عَنْ سَيِّئَاتِهِمْ فِي أَصْحَابِ الْجَنَّةِ ﴾ أي هؤلاء المتصفون بما ذكرنا ، الثابون إلى الله المنيبون إليه ، المستركون مافات بالتوبة والاستغفار ، هم الذين نقبل عنهم أحسن ما عملوا ونتجاوز عن سيئاتهم ؛ فنغفر لهم الكثير من الزلل ، ونقبل منهم اليسير من العمل . ﴿ فِي أَصْحَابِ الْجَنَّةِ ﴾ أي هم في جملة أصحاب الجنة ؟ وهذا حكمهم عند الله كما وعد الله ﷻ من تاب إليه وأناب ، ولهذا قال تعالى : ﴿ وَعَدَ الْوَيْدِيُّ الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ ﴾ عن ابن عباس ، عن رسول الله ﷺ ، عن الروح الأمين عليه الصلاة والسلام قال : « يؤتى بحسنات العبد وسيئاته ، فيقتص بعضها ببعض ، فإن بقيت حسنة وسع الله تعالى له في الجنة » قال : فدخلت على يزيد ، فحدث بمثل هذا ، قال : قلت : فإن ذهبت الحسنة ؟ قال : ﴿ أُولَئِكَ الَّذِينَ نَقَبْلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَنَتَجَاوَزُ عَنْ سَيِّئَاتِهِمْ فِي أَصْحَابِ الْجَنَّةِ وَعَدَ الْوَيْدِيُّ الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ ﴾ ^(٢) .

عن محمد بن حاطب قال : ونزل في داري حيث ظهر علي ﷺ على أهل البصرة فقال لي يوماً : لقد شهدت أمير المؤمنين علياً ﷺ ، وعنده عمار وصعصعة والأشتر ومحمد بن أبي بكر ﷺ ، فذكروا عثمان ﷺ فقالوا منه ، فكان علي ﷺ على السرير ومعه عود في يده ، فقال قائل منهم : إن عندكم من يفصل بينكم ، فسألوه ، فقال علي ﷺ : كان عثمان ﷺ من الذين قال الله تعالى : ﴿ أُولَئِكَ الَّذِينَ نَقَبْلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَنَتَجَاوَزُ عَنْ سَيِّئَاتِهِمْ فِي أَصْحَابِ الْجَنَّةِ وَعَدَ الْوَيْدِيُّ الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ ﴾ قال : والله عثمان وأصحاب عثمان ﷺ ، قالها ثلاثاً . قال يوسف : فقلت لمحمد بن حاطب : آله لسمعت هذا من علي ﷺ ؟ قال : آله لسمعت هذا من علي ﷺ .

﴿ وَالَّذِي قَالَ لَوْلَايَ أَفِي لَكُمَا أَعْدَانِي أَنْ أَخْرِجَ وَقَدْ خَلَّتِ الْقُرُونُ مِنْ قَبْلِي وَهَذَا يَسْتَفِيتَانِ اللَّهَ وَيَلُكُ مَإِنَّ وَعَدَ اللَّهُ حَقًّا فَيَقُولُ مَا هَذَا إِلَّا أَسْطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِي أَمْرِ قَدْ خَلَّتْ مِنْ قَبْلِهِمْ يَنْ أَلْجَيْنَ وَالْإِنْسِ إِنَّهُمْ كَانُوا خَيْرِينَ ﴿ وَلِكُلِّ دَرَجَةٍ مِمَّا عَمِلُوا وَلِيُوفيَهُمْ أَعْمَلَهُمْ وَهُمْ لَا يَظْلَمُونَ ﴾ وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَذْمَبْتُمْ لَيْسَتُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا وَاسْتَنْتَعْتُمْ بِهَا فَالْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنْتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَمَا كُنْتُمْ تَفْقَهُونَ ﴿

لما ذكر تعالى حال الداعين للوالدين البارين بهما وما لهم عنده من الفوز ، والنجاة ، عطف بحال الأشقياء العاقين للوالدين فقال : ﴿ وَالَّذِي قَالَ لَوْلَايَ أَفِي لَكُمَا ﴾ وهذا عام في كل من قال هذا ، ومن زعم أنها نزلت في عبد الرحمن بن أبي بكر ﷺ فقلوه ضعيف ؛ لأن عبد الرحمن بن أبي

(١) أخرجه أبو داود في السنن (٩٦٥) .

(٢) ذكره الطبري في تفسيره (٢٤/٢٦) .

بكر ﷺ أسلم بعد ذلك ، وحسن إسلامه وكان من خيار أهل زمانه . عن يوسف بن ماهك قال : كان مروان على الحجاز ، استعمله معاوية بن أبي سفيان ﷺ فخطب وجعل يذكر يزيد بن معاوية لكي يبايع له بعد أبيه ، فقال له عبد الرحمن بن أبي بكر ﷺ شيئا ، فقال : خذوه ، فدخل بيت عائشة رضي الله عنها فلم يقدرُوا عليه ، فقال مروان : إن هذا الذي أنزل فيه : ﴿ وَالَّذِي قَالَ لِوَلِيِّهِ أُتِيَ لَكُمْ آيَاتِي أَنْ أُنْزَلَ مِنْ قَبْلِي ﴾ فقالت عائشة رضي الله عنها من وراء الحجاب : ما أنزل الله ﷻ علينا شيئا من القرآن إلا أن الله تعالى أنزل عذري ^(١) .

وقوله : ﴿ أَتُؤَدِّينَ أَنْ أُخْرَجَ ﴾ أي أبعث ﴿ وَقَدْ خَلَتْ الْقُرُونُ مِنْ قَبْلِي ﴾ أي قد مضى الناس فلم يرجع منهم مختبر ﴿ وَهَذَا بَيْنَيْنَا وَاللَّهِ ﴾ أي يسألان الله فيه أن يهديه ويقولان لولدتهما ﴿ وَبَيْنَكَ مَا بَيْنَ يَدَيْهِ ﴾ أي قد مضى الناس فلم يرجع منهم مختبر ﴿ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ أُولَئِكَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِي أَمْرٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْغَنَى وَالْإِسْنِ إِنَّهُمْ كَانُوا خَسِيرِينَ ﴾ أي دخلوا في زمرة أشباههم وأضرابهم ، من الكافرين الخاسرين أنفسهم وأهلهم يوم القيامة . وقوله ﴿ أُولَئِكَ ﴾ بعد قوله ﴿ وَالَّذِي قَالَ ﴾ دليل على ما ذكرناه من أنه جنس يعم كل من كان كذلك . وقال الحسن وقادة : هو الكافر الفاجر العاق لوالديه المكذب بالبعث .

وقوله تبارك وتعالى : ﴿ وَلِكُلِّ دَرَجَةٍ مِمَّا عَمِلُوا ﴾ أي لكل عذاب بحسب عمله ﴿ وَيُؤْتِيهِمْ أَعْمَالَهُمْ وَهُمْ لَا يَظُنُّونَ ﴾ أي لا يظلمهم ، من مثقال ذرة فما دونها . قال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم : درجات النار تذهب سفلا ، ودرجات الجنة تذهب علوا . وقوله ﷻ : ﴿ وَيَوْمَ يَمْرُؤُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا وَاسْتَنْتَعْتُمْ بِهَا ﴾ أي يقال لهم ذلك تقريبا وتوبيخا ، وقد تورع أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه عن كثير من طيبات المأكَل والمشارب . وتزعه عنها ويقول : إني أخاف أن أكون كالذين قال الله لهم ووبخهم وقرعهم . ﴿ أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا وَاسْتَنْتَعْتُمْ بِهَا ﴾ . وقال أبو مجلز : ليفقدن أقوام حسنات كانت لهم في الدنيا فيقال لهم : ﴿ أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا ﴾ . وقوله ﷻ : ﴿ فَأَلْوَمُ يُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كَانُوا يَسْتَكْبِرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَبِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴾ فجوزوا من جنس عملهم ، فكما متعوا أنفسهم واستكبروا عن اتباع الحق وتعاطوا الفسق والمعاصي ، جازاهم الله تبارك وتعالى بعذاب الهون ، وهو الإهانة والخزي والآلام الموجعة والحسرات المتتابعة والمنازل في الدرجات المفضطة ، أجازنا الله ﷻ من ذلك كله .

﴿ وَادَّكَّرَ أَمَّا عَادُ إِذْ أَنْذَرْنَاهُمْ بِالْأَحْقَافِ وَقَدْ خَلَتْ الْأَنْدَادُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾ ﴿ قَالُوا أَجِئْنَا لِنُؤْفِكَ عَنْ آلِهَتِنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴾ ﴿ قَالَ إِنَّمَا أَعْلِمُ عِنْدَ اللَّهِ وَأُبَلِّغُكُمْ مَا أُرْسِلْتُ بِهِ وَلَكِنِّي أَرْتِكُمْ قَوْمًا جَاهِلُونَ ﴾ ﴿ فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُسْتَقْبِلَ أَوْدِيَّتِهِمْ قَالُوا هَذَا عَارِضٌ مُظْتَرٌّ بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُمْ بِهِ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ ﴿ تَدْمِيرُ كُلِّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُوا لَا يُرَى إِلَّا مَسَكِنُهُمْ كَذَلِكَ يَجْزِي اللَّهُ الْمُتَجَرِّينَ ﴾ .

يقول تعالى مسلينا لنبيه ﷺ في تكذيب من كذبه من قومه ﴿ وَادَّكَّرَ أَمَّا عَادُ ﴾ وهو هود عليه الصلاة والسلام ، بعثه الله ﷻ إلى عاد الأولى وكانوا يسكنون الأحقاف ، جمع حقف وهو الجبل

من الرمل ، قال ابن زيد ، وقال عكرمة : الأحقاف الجبل والغار ، وقال علي بن أبي طالب عليه السلام : الأحقاف واد بحضرموت يدعى برهوت تلقى فيه أرواح الكفار ، عن ابن عباس عليه السلام قال : قال رسول الله ﷺ : « يرحمنا الله وأخا عاد » ^(١) . وقوله تعالى : ﴿ وَقد خَلَتِ أُنْدُرُ من بَيْنِ يَدَيْهِ وَمن خَلْفِهِ ﴾ يعني وقد أرسل الله تعالى إلى من حول بلادهم في القرى مرسلين ومنذرين كقوله ﷻ : ﴿ فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنْذَرْتُكُمْ صِغَةً مِّثْلَ صِغَةِ عادٍ وَثَمُودَ ﴾ إِذْ جَاءَتْهُمْ الرُّسُلُ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمن خَلْفِهِمْ أَلَّا تَتَّبِعُوا إِلَّا اللَّهَ ﴾ ﴿ إِنِّي لَأَنذَرْتُكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾ أي قال لهم هود ذلك ، فأجابه قومه قائلين ﴿ أَجِئْنَا لِنُؤْفِكَا عَنْ آلِهَتِنَا ﴾ أي لتصدنا عن آلهتنا ﴿ فَأَنَّا بِمَا نَعْبُدُكَ إِن كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴾ استعجلوا عذاب الله وعقوبته استبعاداً منهم وقوعه ﴿ قَالَ إِنَّمَا أَعْلِمُ عِنْدَ اللَّهِ ﴾ أي الله أعلم بكم إن كنتم مستحقين لتعجيل العذاب فسيفعل ذلك بكم ، وأما أنا فمن شأني أني أبلغكم ما أرسلت به ﴿ وَلَكِنِّي أَرَى أَنَّكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ ﴾ أي لا تعقلون ولا تفهمون .

قال الله تعالى : ﴿ فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَّتِهِمْ ﴾ أي لما رأوا العذاب مستقبلهم اعتقدوا أنه عارض مطر ، ففرحوا واستبشروا به وقد كانوا محلين محتاجين إلى المطر . قال الله تعالى : ﴿ بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُمْ بِهِ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ أي هو العذاب الذي قلم : فأتينا بما تعدنا إن كنت من الصادقين ﴿ تُدْمِرُ ﴾ أي تخرب ﴿ كُلَّ شَيْءٍ ﴾ من بلادهم مما من شأنه الخراب ﴿ بِأَمْرِ رَبِّهَا ﴾ أي بإذن الله لها في ذلك . ولهذا قال ﷻ : ﴿ فَاصْبِرُوا لَا يُبْرَأُ إِلَّا مَنْ كُفِرَ بِهِ ﴾ أي قد بادوا كلهم عن آخرهم ولم تبق لهم باقية ﴿ كَذَلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ ﴾ أي هذا حكمنا فيمن كذب رسلنا وخالف أمرنا . عن الحارث البكري قال : خرجت أشكو العلاء بن الحضرمي إلى رسول الله ﷺ ، فمررت بالريذة فإذا عجوز من بني تميم منقطع بها ، فقالت لي : يا عبد الله إن لي إلى رسول الله ﷺ حاجة ، فهل أنت مبلغني إليه ؟ قال : فحملتها فأتيت بها المدينة ، فإذا المسجد غاص بأهله ، وإذا راية سوداء تخفق ، وإذا بلال رضي الله عنه ، متقلداً السيف بين يدي رسول الله ﷺ فقلت : ما شأن الناس ؟ قالوا : يريد أن يبعث عمرو بن العاص رضي الله عنه وجهاً قال : فجلست فدخل منزله - أو قال : رحله - فاستأذنت عليه ، فإذا لي ، فدخلت فسلمت ، فقال ﷺ : « هل كان بينكم وبين تميم شيء ؟ » قلت : نعم وكانت لنا الدائرة عليهم ، ومرت بعجوز من بني تميم منقطع بها ، فسألته أن أحملها اليك فهامي بالباب ، فأذن لها فدخلت فقلت : يا رسول الله ان رأيت إن تجعل بيننا وبين تميم حاجزاً فاجعل الدهناء ، فحميت العجوز واستوفزت وقالت : يا رسول الله فإلى أين يضطر مضطرك ؟ قال : قلت : إن مثلي ما قال الأول معزى حملت حنتها ، حملت هذه ولا أشعر أنها كانت لي خصماً ، أعوذ بالله ورسوله أن أكون كوافد عاد ، قال لي وما وافد عاد ؟ - وهو أعلم بالحديث منه ، ولكن يستطيعه - قلت : إن عاداً قحطوا فبعثوا وفدًا لهم يقال له قيل ، فمر بمعاوية بن بكر فأقام عنده شهراً يسقيه الخمر وتغنيه جارتين يقال لهما : الجرادتان ، فلما مضى الشهر خرج إلى جبال مهرة ، فقال : اللهم إنك تعلم أنني لم أجيء إلى مريض فأداويه ، ولا إلى أسير فأفاديه ، اللهم اسق عادًا ما كنت تسقيه ، فمرت به سحباب سود فنودي منها : اختر . فأومأ إلى سحابة منها سوداء فنودي منها ، خذها رماداً رمداً ، لا تبقي

(١) أخرجه ابن ماجه في السنن (٣٨٥٢) .

من عاد أحدًا ، قال : فما بلغني أنه أرسل عليهم من الريح إلا قدر مايجري في خاتمي هذا حتى هلكوا ، قال أبو وائل : وصدق وكانت المرأة والرجل اذا بعثوا وافدا لهم قالوا : لا تكن كرافد عاد ^(١) . وعن عائشة رضي الله عنها أنها قالت : ما رأيت رسول الله ﷺ مستجمعًا ضاحكًا حتى أرى منه لهواته إنما كان يتسم . وقالت : كان رسول الله ﷺ إذا رأى غيما أو ريحا عرف ذلك في وجهه . قالت : يا رسول الله إن الناس إذا رأوا الغيم فرحوا رجاء أن يكون فيه المطر ، وأراك إذا رأيته عرفت في وجهك الكراهية ، فقال رسول الله ﷺ : « يا عائشة ما يؤمنني أن يكون فيه عذاب ؟ قد عذب قوم بالريح ، وقد رأى قوم العذاب وقالوا : هذا عارض ممطرنا » ^(٢) . وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ : « ما فتح على عاد من الريح إلا مثل موضع الخاتم ، ثم أرسلت عليهم في البدو إلى الحضر ، فلما رأها أهل الحضر قالوا : هذا عارض ممطرنا مستقبل أوديتنا ، وكان أهل البوادي فيها ، فالتقى أهل البادية على أهل الحاضرة حتى هلكوا - قال - : عنت على خزانها حتى خرجت من خلال الأبواب » ^(٣) .

﴿ وَلَقَدْ مَكَنْتَهُمْ فِيمَا إِنْ مَكَنْتَكُمْ فِيهِ وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَرًا وَأَفْئِدَةً فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَا أَبْصَرُهُمْ وَلَا أَفْئِدَتُهُمْ مِنْ شَيْءٍ إِذْ كَانُوا يَجْحَدُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴾ ﴿ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا مَا حَوْلَكُمْ مِنَ الْقُرَىٰ وَصَرَّفْنَا الْآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ ﴿ فَلَوْلَا نَصْرُهُمُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ قُرْبَانًا آلِهَةً بَلْ ضَلُّوا عَنْهُمْ وَذَلِكَ إِنْكِبُهُمْ وَمَا كَانُوا يَعْقِلُونَ ﴾ .

يقول تعالى : ولقد مكنا الأُمم السالفة في الدنيا من الأموال والأولاد ، وأعطيناهم منها ما لم نعطكم مثله ولا قريبا منه ﴿ وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَرًا وَأَفْئِدَةً فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَا أَبْصَرُهُمْ وَلَا أَفْئِدَتُهُمْ مِنْ شَيْءٍ إِذْ كَانُوا يَجْحَدُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴾ أي وأحاط بهم العذاب والنكال الذي كانوا يكذبون به ويستبدون وقوعه ، أي فاحذروا أيها المخاطبون أن تكونوا مثلهم فيصيبكم مثل ما أصابهم من العذاب في الدنيا والآخرة .

وقوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا مَا حَوْلَكُمْ مِنَ الْقُرَىٰ ﴾ يعني أهل مكة ، وقد أهلك الله الأُمم المكذبة بالرسول مما حولها كعاد ، وكانوا بالأحقاف بحضرموت عند اليمن ، وثمود وكانت منازلهم بينهم وبين الشام ، وكذلك سبأ وهم أهل اليمن ، ومدين وكانت في طريقهم وممرهم إلى غزة ، وكذلك بحيرة قوم لوط كانوا يميرون بها أيضا . وقوله ﴿ وَصَرَّفْنَا الْآيَاتِ ﴾ أي بيناها وأوضحناها ﴿ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ ﴿ فَلَوْلَا نَصْرُهُمُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ قُرْبَانًا آلِهَةً ﴾ أي فهل نصرهم عند احتياجهم إليهم ؟ ﴿ بَلْ ضَلُّوا عَنْهُمْ ﴾ أي بل ذهبوا عنهم أحوج ما كانوا إليهم ﴿ وَذَلِكَ إِنْكِبُهُمْ ﴾ أي : كذبهم ﴿ وَمَا كَانُوا يَعْقِلُونَ ﴾ أي وافتراؤهم في اتخاذهم إياهم آلهة وقد خابوا وخسروا في عبادتهم لها واعتمادهم عليها ، والله أعلم . ﴿ وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِنَ الَّذِينَ يَسْتَعِينُونَ الْفُرَّانَ لَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنْصِبْ لَنَا نَضِي وَلَوْ إِلَىٰ قَوْمِهِمْ مُنْذِرِينَ ﴾ ﴿ قَالُوا يَنْقُومَنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنْزِلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ وَإِلَاقِ طَرِيقِ مُسْتَقِيمٍ ﴾

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٤٨٣/٣) والطبراني في الكبير (٢٨٨/٣) .

(٢) أخرجه البخاري في تفسير القرآن (٤٨٢٨ ، ٤٨٢٩) ومسلم في صلاة الاستسقاء (١٦) وأحمد في مسنده ٦٦/٦ ، ولهواته : جمع لهاء وهي اللحمة الحمراء المعلقة في أعلى الحنك .

(٣) أخرجه الطبراني في الكبير (٤٢/١٢) والهيثمي في مجمع الزوائد (١١٣/٧) .

أَجِيبُوا دَاعِيَ اللَّهِ وَآمِنُوا بِهِ يَغْفِرَ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُجْعَلَ لَكُمْ مِنْ عَذَابِ آلِيمٍ ﴿٣١﴾ وَمَنْ لَا يُجِبْ دَاعِيَ اللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِي الْأَرْضِ وَلَيْسَ لَهُ مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءُ أُولَئِكَ فِي سَلَاطٍ مَبِينٍ ﴿٣٢﴾ .

عن الزبير ﴿ وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِنَ الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ ﴾ قال : بنخلة ، ورسول الله ﷺ يصلي العشاء الآخرة ^(١) ﴿ كَادُوا يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِيَدَا ﴾ قال سفيان : اللبد بعضهم على بعض كاللبد بعضهم على بعض ، عن ابن عباس ؓ قال : ما قرأ رسول الله ﷺ على الجن ولا رآهم ، انطلق رسول الله ﷺ في طائفة من أصحابه عامدين إلى سوق عكاظ وقد حيل بين الشياطين وبين خبر السماء ، وأرسلت عليهم الشهب فرجعت الشياطين ، إلى قومهم فقالوا : ما لكم ؟ فقالوا : حيل بيننا وبين خبر السماء وأرسلت علينا الشهب ، قالوا : ما حال بينكم وبين خبر السماء إلا شيء حدث ، فاضربوا مشارق الأرض ومغاربها ، وانظروا ما هذا الذي حال بينكم وبين خبر السماء ؟ فانطلقوا يضربون مشارق الأرض ومغاربها يتفنون ما هذا الذي حال بينهم وبين خبر السماء . فانصرف أولئك النفر الذين توجهوا نحو تهامة إلى رسول الله ﷺ وهو بنخلة عامداً إلى سوق عكاظ وهو يصلي بأصحابه صلاة الفجر ، فلما سمعوا القرآن استمعوا له فقالوا : هذا والله الذي حال بينكم وبين خبر السماء ، فهناك حين رجعوا إلى قومهم ﴿ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا ﴿٣٣﴾ يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ وَلَنْ نُشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا ﴾ وأنزل الله على نبيه ﷺ : ﴿ قُلْ أَوْحَى إِلَيَّ أَنَّهُ لَسْتُمْ تَعْلَمُونَ نَفَرًا مِنَ الْجِنِّ ﴾ وإنما أوحى إليه قول الجن ^(٢) .

وذكر محمد بن كعب القرظي قصة خروج النبي ﷺ إلى الطائف ودعائه إياهم إلى الله ﷻ وإياهم عليه ، فذكر القصة بطولها وأورد ذلك الدعاء الحسن : « اللهم إليك أشكو ضعف قوتي ، وقلة حيلتي ، وهواني على الناس ، يا أرحم الراحمين ، أنت أرحم الراحمين وأنت رب المستضعفين ، وأنت ربي إلى من تكلني ؟ إلى عدو بعيد يتجهمني ، أم إلى صديق قريب ملكته أمري ؟ إن لم يكن بك غضب علي فلا أبالي ، غير أن عافيتك أوسع لي ، أعوذ بنور وجهك الذي أشرقت له الظلمات وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة أن ينزل بي غضبك ، أو يحل بي سخطك ، ولك العتبي حتى ترضى ، ولا حول ولا قوة إلا بك » ^(٣) .

قال : فلما انصرف عنهم بات بنخلة فقرأ تلك الليلة من القرآن فاستمعه الجن من أهل نصيبين ، وهذا صحيح ، ولكن قوله : إن الجن كان استماعهم تلك الليلة فيه نظر ؛ فإن الجن كان استماعهم في ابتداء الإحياء كما دل عليه حديث ابن عباس المذكور ، وخروجه ﷺ إلى الطائف كان بعد موت عمه ، وذلك قبل الهجرة بسنة أو سنتين عن عبد الله بن مسعود ؓ قال : هبطوا على النبي ﷺ وهو يقرأ القرآن بطن نخلة ﴿ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنْصِتُوا ﴾ قال : صه ، وكانوا تسعة أحدهم زوبعة ، فأنزل الله ﷻ ﴿ وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِنَ الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنْصِتُوا فَلَمَّا قُضِيَ وَلَوْا إِلَى قَوْمِهِمْ مُنْذِرِينَ ﴾ إلى : ﴿ سَلَاطٍ مَبِينٍ ﴾ فهذا مع الأول من رواية ابن عباس ؓ يقتضي أن رسول الله ﷺ لم يشعر بحضورهم في هذه المرة ، وإنما استمعوا قراءته ثم رجعوا إلى قومهم ، ثم

(١) أخرجه أحمد في مسنده (١٦٧/١) .

(٢) أخرجه أحمد في مسنده (٢٥٢/١) والحاكم في المستدرک (٥٠٣/٢) والترمذي في السنن (٣٣٢٣) .

(٣) ذكره الهيثمي في مجمع الزوائد (٣٥/٦) والسيوطي في جمع الجوامع (٩٧٤٣) .

بعد ذلك وفدوا إليه أرسالاً قومًا بعد قوم ، وفوجًا بعد فوج .

عن معن بن عبد الرحمن ، قال : سمعت أبي يقول : سألت مسروقًا من آذن النبي ﷺ ليلة استمعوا القرآن ؟ فقال : حدثني . أبوك - يعني ابن مسعود ؓ - أنه آذنته بهم شجرة ^(١) ، فيحتمل أن يكون هذا في المرة الأولى ويكون إثباتًا مقدمًا على نفي ابن عباس ؓ ، ويحتمل أن يكون في الأولى ، ولكن لم يشعر بهم حال استماعهم حتى آذنته بهم الشجرة أي أعلمته باجتماعهم ، والله أعلم ، ويحتمل أن يكون هذا في بعض المرات المتأخرات ، والله أعلم .

قال الحافظ البيهقي : وهذا الذي حكاه ابن عباس ؓ إنما هو أول ما سمعت الجن قراءة رسول الله ﷺ ، وعلمت حاله ، وفي ذلك الوقت لم يقرأ عليهم ولم يرمهم ، ثم بعد ذلك أتاه داعي الجن فقرأ عليهم القرآن ودعاهم إلى الله ﷻ كما رواه عبد الله بن مسعود ؓ .

ذكر الرواية عنه بذلك : عن علقمة قال : قلت لعبد الله بن مسعود ؓ : هل صحب رسول الله ﷺ ليلة الجن منكم أحدًا فقال : ما صحبه منا أحد ، ولكننا فقدناه ذات ليلة بمكة ، فقلنا : اغتيل ؟ استطير ؟ ما فعل ؟ قال : فبتنا بشر ليلة بات بها قوم ، فلما كان في وجه الصبح - أو قال في السحر - : إذ نحن به يجيء من قبل حراء ، فقلنا : يا رسول الله ، فذكروا له الذي كانوا فيه فقال : « إنه أتاني داعي الجن ، فأتيتهم فقرأت عليهم » قال : فانطلق فأرانا آثارهم وآثار نيرانهم ، قال : قال الشعبي : سألوهم الزاد ، قال عامر : سألوهم بمكة وكانوا من جن الجزيرة فقال : « كل عظم ذكر اسم الله عليه يقع في أيديكم أوفر ما يكون لحمًا ، وكل بكرة أو روثة علف لدوابكم » - قال - : « فلا تستنجوا بهما ، فإنهما زاد إخوانكم من الجن » ^(٢) .

عن ابن عباس عن عبد الله بن مسعود ؓ قال : إنه كان مع رسول الله ﷺ ليلة الجن فقال رسول الله ﷺ : « يا عبد الله أملك ماء ؟ » قال : معي نبيذ في إداوة . قال ﷺ : « اصبب عليّ فتوضأ . فقال النبي ﷺ : « يا عبد الله شراب وطهور » ^(٣) . وعن ابن مسعود أن رسول الله ﷺ خط حوله ، فكان أحدهم مثل سواد النحل ، وقال : « لا تبرح مكانك فأقرئهم كتاب الله » فلما رأى المرعى قال : كأنهم هؤلاء وقال النبي ﷺ : « أملك ماء ؟ » قلت : لا . قال : « أملك نبيذ ؟ » قلت : نعم ، فتوضأ به ^(٤) .

وعن قتادة في قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ الْجِنِّ ﴾ قال : ذكر لنا أنهم صرفوا إليه من نينوى وأن نبي الله ﷺ قال : « إني أمرت أن أقرأ على الجن فأيكلم بتيبني ؟ » فاطرقوا ثم استتبعهم ، فاطرقوا ثم استتبعهم الثالثة ، فقال رجل : يا رسول الله إن ذاك لذو نذبة ، فأتبعه ابن مسعود ؓ أخو هذيل ، قال : فدخل النبي ﷺ شعبا يقال له : شعب الحجون وخط عليه ، وخط على ابن مسعود ؓ خطا ليثبت به بذلك ، قال : فجعلت أهال وأرى أمثال النور تمشي في دفونها ، وسمعت لفظًا شديدًا حتى خفت على نبي الله ﷺ ، ثم تلا القرآن فلما رجع رسول الله ﷺ قلت : يا رسول الله

(١) أخرجه البخاري في مناقب الأنصار (٣٨٥٩) ومسلم في الصلاة (١٥٣) .

(٢) أخرجه مسلم في الصلاة (١٥٢) والترمذي في السنن (٣٢٥٨) وأحمد في مسنده (٤٣٦/١) والبيهقي في السنن (١١/١) .

(٣) أخرجه أحمد في مسنده (٣٩٨/١) .

(٤) أخرجه أحمد في مسنده (٤٥٥/١) .

ما اللفظ الذي سمعت ؟ قال ﷺ : « اختصموا في قتيل ، ففضي بينهم بالحق » ^(١) .

فهذه الطرق كلها تدل على أنه ﷺ ذهب إلى الجن قصداً ، فلا عليهم القرآن ودعاهم إلى الله ﷻ وشرع الله تعالى لهم على لسانه ما هم محتاجون إليه في ذلك الوقت ، وقد يحتمل أن أول مرة سمعوه يقرأ القرآن لم يشعر بهم ، كما قال ابن عباس رضي الله عنه . ثم بعد ذلك وفدوا إليه كما رواه ابن مسعود رضي الله عنه ، وأما ابن مسعود رضي الله عنه فإنه لم يكن مع رسول الله ﷺ حال مخاطبته للجن ودعائه إياهم ، وإنما كان بعيداً منه ، ولم يخرج مع النبي ﷺ أحد سواه ، ومع هذا لم يشهد حال المخاطبة ، هذه طريقة البيهقي ، وقد يحتمل أن يكون أول مرة خرج إليهم لم يكن معه ﷺ ابن مسعود رضي الله عنه ولا غيره ، عن سعيد بن عمرو قال : كان أبو هريرة رضي الله عنه يتبع رسول الله ﷺ بإدواة لوضوئه وحاجته ، فأدركه يوماً فقال : « من هذا ؟ » قال : أنا أبو هريرة . قال ﷺ : « اتنتي بأحجار استنج بها ، ولا تأتني بعظم ولا روثه » فأثبته بأحجار في ثوبي فوضعتها إلى جنبه حتى إذا فرغ وقام اتبعته ، فقلت : يا رسول الله ما بال العظم والروث ؟ قال ﷺ : « أتاني وفد جن نصيبين فسألوني الزاد ، فدعوت الله تعالى لهم أن لا يمروا بروثه ولا عظم إلا وجدوه طعائماً » ^(٢) فهذا يدل على ماتقدم على أنهم وفدوا عليه بعد ذلك . وقد روي عن ابن عباس غير ما روي عنه أولاً من وجه جيد ، في قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ الْجِنِّ ﴾ الآية . قال : كانوا سبعة نفر من أهل نصيبين ، فجعلهم رسول الله رسلاً إلى قومهم . فهذا يدل على أنه قد روى القصة .

عن ابن مسعود رضي الله عنه : كانوا تسعة أحدهم زوجة ، أتوه من أصل نخلة ، وتقدم عنهم أنهم كانوا خمسة عشر ، وفي رواية : أنهم كانوا على ستين راحلة ، وتقدم عنه أن اسم سيدهم وردان ، وقيل : كانوا ثلثمائة ، وتقدم عن عكرمة أنهم كانوا اثني عشر ألفاً ، فلعل هذا الاختلاف دليل على تكرر وفادتهم عليه ﷺ ، وما يدل على ذلك قول عبد الله بن عمر رضي الله عنه : ما سمعت عمر رضي الله عنه يقول لشيء قط إني لأظنه هكذا إلا كان كما يظن ، بينما عمر بن الخطاب رضي الله عنه جالس ؛ إذ مر به رجل جميل فقال : لقد أخطأ ظني - أو أن هذا على دينه في الجاهلية ، أو لقد كان كاهنهم - علي بالرجل ، فدعي له ، فقال له ذلك ، فقال : ما رأيت كالיום استقبل به رجل مسلم ، قال : فإني أعزم عليك إلا ما أخبرني قال : كنت كاهنهم في الجاهلية قال : فما أعجب ما جاءتك به جنتك ، قال : بينما أنا يوماً في السوق جاءتني أعرف فيها الفزع فقالت :

ألم تر الجن وبلاساها ويأسها من بعد انكاسها

ولحوقها بالقلاص وأحلاسها

قال عمر رضي الله عنه : صدق ، بينما أنا نائم عند آلهتهم ؛ إذ جاء رجل بعجل فذبحه فصرخ به صارخ لم أسمع صارخاً قط أشد صوتاً منه يقول : يا جليح ، أمر نجيح ، رجل فصيح ، يقول لا إله إلا الله قال : فوثب القوم فقلت : لا أبرح حتى أعلم ما وراء هذا ، ثم نادى : يا جليح ، أمر نجيح ، رجل فصيح يقول : لا إله إلا الله ، فقممت فما نشبتنا أن قيل : هذا نبي ^(٣) .

(٢) أخرجه البخاري في مناقب الأنصار (٣٨٦٠) .

(١) ذكره ابن جرير في تفسيره (٤١/٢٦) .

(٣) أخرجه البخاري في مناقب الأنصار (٣٨٦٦) .

وعن البراء رضي الله عنه قال : بينما عمر بن الخطاب رضي الله عنه يخطب الناس على منبر رسول الله صلى الله عليه وسلم إذ قال : أيها الناس أفياكم سواد بن قارب ؟ قال : فلم يجبه أحد تلك السنة . فلما كانت السنة المقبلة قال : أيها الناس أفياكم سواد بن قارب ؟ قال : فقلت : يا أمير المؤمنين وماسواد بن قارب ؟ قال : فقال له عمر رضي الله عنه : إن سواد بن قارب كان بدء إسلامه شيئاً عجيباً ، قال : فبينما نحن كذلك ؛ إذ طلع سواد ابن قارب قال : فقال له عمر رضي الله عنه يا سواد حدثنا ببدا إسلامك كيف كان ؟ قال سواد رضي الله عنه : فإني كنت نازلاً بالهند وكان لي رثي من الجن ، قال : فبينما أنا ذات ليلة نائم إذ جاءني في منامي ذلك ، قال : قم فافهم واعقل إن كنت تعقل ، قد بعث رسول من لؤي بن غالب ثم أنشأ يقول :

عجبت للجن وتحساسها وشدها العيس بأحلاسها
تهوي إلى مكة تبغي الهدى ما خير الجن كأنجاسها
فانهض إلى الصفوة من هاشم واسم بعينك إلى رأسها
قال : ثم أنبهني فأفرعني وقال : يا سواد بن قارب ، إن الله ﷻ بعث نبياً فانهض إليه تهتد وترشد ، فلما كان من الليلة الثانية أتاني فأنبهني ثم أنشأ يقول :

عجبت للجن وتطلابها وشدها العيس بأقتابها
تهوي إلى مكة تبغي الهدى ليس قدامها كأذنبها
فانهض إلى الصفوة من هاشم واسم بعينك إلى قابها
فلما كان في الليلة الثالثة أتاني فأنبهني ثم قال :

عجبت للجن وتخبارها وشدها العيس بأكوارها
تهوي إلى مكة تبغي الهدى ليس ذوو الشر كأخيارها
فانهض إلى الصفوة من هاشم ما مؤمنو الجن ككفارها

قال : فلما سمعته تكرر ليلة بعد ليلة وقع في قلبي حب الإسلام من أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم ما شاء الله ، قال : فانطلقت إلى رحلي فشددته على راحلتي ، فما حلت تسعة ولا عقدت أخرى حتى أتيت رسول الله صلى الله عليه وسلم فإذا هو بالمدينة يعني مكة ، والناس عليه كعرف الفرس ، فلما رأيته النبي صلى الله عليه وسلم قال : « مرحباً بك يا سواد بن قارب قد علمنا ما جاء بك ، قال : قلت : يا رسول الله قد قلت شعراً فاسمعه مني قال صلى الله عليه وسلم : « قل ياسواد » فقلت :

أتاني رثيي بعد ليل وهجعة ولم يك فيما قد بلوت بكاذب
ثلاث ليال قوله كل ليلة أتاك رسول من لؤي بن غالب
فשמرت عن ساقِي الإزار ووسطت بي الدغْلِبُ الوجناء بين المَبَايِبِ
فأشهد أن الله لا رب غيره وأنت مأمون على كل غائب
وأنت أدنى المرسلين وسيلة إلى الله يا ابن الأكرمين الأطايب

فمرنا بما ياتيك يا خير مرسل وإن كان فيما جاء شيب الذوائب
وكن لي شفيعاً يوم لا ذو شفاعة سواك بمغن عن سواد بن قارب

قال : فضحك ، النبي ﷺ حتى بدت نواجذه وقال لي : « أفلحت ياسواد » فقال له عمر ؓ : هل يأتيك ريثك الآن ؟ فقال : منذ قرأت القرآن لم يأتني ، ونعم العوض كتاب الله ﷻ من الجن ^(١) .
وقوله تبارك وتعالى : ﴿ وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ الْجِنِّ ﴾ أي طائفة من الجن ﴿ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنصِتُوا ﴾ أي استمعوا وهذا أدب منهم .

عن جابر بن عبد الله ؓ قال : قرأ رسول الله ﷺ سورة الرحمن حتى ختمها ثم قال : « ما لي أراكم سكوتا ؟ للجن كانوا أحسن منكم رداً ، ما قرأت عليهم هذه الآية من مرة ﴿ فَإِنِّي ءِلَآءُ رِيكُمْ مُّكَذِّبِينَ ﴾ إلا قالوا : ولا بشيء من آلائك أو نعمك ربنا نكذب فلك الحمد » ^(٢) . وقوله ﷻ ﴿ قَالُوا فُتِنُوا ﴾ أي فرغ كقوله تعالى : ﴿ فَإِذَا فُتِنَتِ الرَّاسِلَةُ ﴾ ﴿ وَلَوْ أَنَّا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ مُّنْذِرِينَ ﴾ أي رجعوا إلى قومهم فأنذروهم ما سمعوه من رسول الله ﷺ وقد استدل بهذه الآية على أنه في الجن نذر وليس فيهم رسل ، ولأشك أن الجن لم يبعث الله تعالى منهم رسولاً لقوله تعالى : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِي إِلَيْهِمْ فَتَلَوْا أَهْلَ الذِّكْرِ ﴾ . وقال عن إبراهيم الخليل عليه الصلاة والسلام ﴿ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ ﴾ فكل نبي بعثه الله تعالى بعد إبراهيم فمن ذريته وسلالته .

فأما قوله تبارك وتعالى في الأنعام : ﴿ يَمْشُرَ الْجَيْنَ وَالْإِنسَ أَلَّا يَأْتِيَكُمُ رُسُلٌ مِّنكُمْ ﴾ فالمراد هنا مجموع الجنسين فيصدق على أحدهما وهو الإنس كقوله : ﴿ يَخْرُجُ مِنْهَا الثُّلُوثُ وَالرَّيْحَاتُ ﴾ أي أحدهما ، ثم إنه تعالى فسر إنذار الجن لقومهم فقال مخبراً عنهم : ﴿ قَالُوا يَقَوْمَانَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنزِلَ مِن بَعْدِ مُوسَىٰ ﴾ ولم يدكروا عيسى لأن عيسى عليه السلام أنزل عليه الإنجيل فيه مواعظ وترقيقات وقليل من التحليل والتحرير ، وهو في الحقيقة كالتميم لشريعة التوراة فالعمدة هو التوراة ، فلماذا قالوا : أنزل من بعد موسى ، وهكذا قال ورقة بن نوفل حين أخبره النبي ﷺ بقصة نزول جبريل عليه الصلاة والسلام أول مرة فقال : يخ بخ ! هذا الناموس الذي كان يأتي موسى ، ياليتني أكون فيه جذعاً . ﴿ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ ﴾ أي من الكتب المنزلة على الأنبياء قبله . وقوله ﴿ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ ﴾ أي في الاعتقاد والإخبار ﴿ وَإِلَّا طَرِيقٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴾ في الأعمال ؛ فإن القرآن مشتمل على شيئين خبر وطلب ، فخبيره صدق ، وطلبه عدل ، كما قال تعالى : ﴿ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا ﴾ .

وهكذا قالت الجن ﴿ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ ﴾ في الاعتقادات ﴿ وَإِلَّا طَرِيقٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴾ أي في العمليات ﴿ يَقَوْمَانَا لَجِئُوا دَاعِيَ اللَّهِ ﴾ فيه دلالة على أنه تعالى أرسل محمداً ﷺ إلى الثقلين الجن والإنس ، حيث دعاهم إلى الله تعالى وقرأ عليهم السورة التي فيها خطاب الفريقين وتكليفهم ووعدهم ووعيدهم وهي سورة الرحمن ولهذا قال : ﴿ لَجِئُوا دَاعِيَ اللَّهِ وَءَامِنُوا بِهِ ﴾ وقوله تعالى : ﴿ يَفْزَ لَكُمْ مِّنْ ذُنُوبِكُمْ ﴾ قيل : إن من ههنا زائدة ، وفيه نظر ؛ لأن زيادتها في الإثبات قليل ، وقيل : إنها

(١) أخرجه البيهقي في دلائل النبوة (٢٥١/٢) .

(٢) أخرجه الحاكم في المستدرک (٤٧٣/٢) والبيهقي في دلائل النبوة (١٧/٢) .

على بابها للتبعض ﴿ وَنَجِّرْكُمْ مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ أي ويقيكم من عذابه الأليم ، وقد استدل بهذه الآية من ذهب من العلماء إلى أن الجن المؤمنين لا يدخلون الجنة ، وإنما جزاء صالحهم أن يجاروا من عذاب النار يوم القيامة ، ولهذا قالوا هذا في هذا المقام وهو مقام تبجح ومبالغة ، فلو كان لهم جزاء على الإيمان أعلى من هذا لأوشك أن يذكروه . عن ابن عباس رضي الله عنه قال : لا يدخل مؤمنو الجن الجنة ؛ لأنهم من ذرية إبليس ، ولا تدخل ذرية إبليس الجنة ، والحق أن مؤمنهم كمؤمني الإنس يدخلون الجنة كما هو مذهب جماعة من السلف ، وقد استدل بعضهم لهذا بقوله ﷻ : ﴿ لَّا يَطْمِئِنُّنَّ إِنْسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَانٌّ ﴾ وفي هذا الاستدلال نظر ، وأحسن منه قوله جل وعلا : ﴿ وَلَئِن شَاءَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّاتٌ ۖ فَإِنِّي آتَاهُ رِيحًا كَذَّابًا ۖ ﴾ فقد امتن تعالى على الثقلين بأن جعل جزاء محسنهم الجنة ، وقد قابلت الجن هذه الآية بالشكر القولي أبلغ من الإنس فقالوا : ولا بشيء من الألائك ربنا نكذب فلك الحمد ، فلم يكن تعالى ليمتن عليهم بجزاء لا يحصل لهم ، وأيضاً فإنه إذا كان يجازي كافرهم بالنار وهو مقام عدل ؛ فلأن يجازي مؤمنهم بالجنة وهو مقام فضل بطريق الأولى والأحرى .

وقد أفردت هذه المسألة في جزء على حدة ولله الحمد والمنة ، وهذه الجنة لا يزال فيها فضل حتى ينشئ الله تعالى لها خلقاً ، أفلا يسكنها من آمن به وعمل له صالحاً ؟ وماذكروه ههنا من الجزاء على الإيمان من تكفير الذنوب والإجارة من العذاب الأليم ، هو يستلزم دخول الجنة ؛ لأنه ليس في الآخرة إلا الجنة أو النار ، فمن أجبر من النار دخل الجنة لامحالة ، ولم يرد معنا نص صريح ولا ظاهر عن الشرع أن مؤمني الجن لا يدخلون الجنة ، وإن أجبروا من النار ، ولو صح لقلنا به ، والله أعلم ، ثم قال مخبراً عنهم ﴿ وَمَنْ لَا يُحِبَّ دَاعِيَ اللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِي الْأَرْضِ ﴾ أي بل قدرة الله شاملة له ومحيطه به ﴿ وَلَيْسَ لَهُ مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءُ ﴾ أي لا يجيرهم منه أحد ﴿ أُولَئِكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴾ وهذا مقام تهديد وترهيب فدعوا قومهم بالترغيب والترهيب ، ولهذا نجح في كثير منهم . وجاءوا إلى رسول الله ﷺ وفوداً وفوداً . ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُ مَكْنَنٌ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ۖ وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَلَيْسَ هَذَا بِالْحَقِّ قَالُوا بَلَىٰ وَرَبِّنَا قَالَ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ ۖ فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِلْ لَهُمْ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَّا يَلْبِثُوا إِلَّا سَاعَةً مِّن نَّهَارٍ بَلَّغْ فَعَلَّ يُهْلِكَ إِلَّا الْقَوْمَ الْفَاسِقُونَ ۖ ﴾ .

يقول تعالى : أولم ير هؤلاء المنكرون للبعث يوم القيامة المستبعدون لقيام الأجساد يوم المعاد ﴿ أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُ مَكْنَنٌ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ۖ وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَلَيْسَ هَذَا بِالْحَقِّ ﴾ أي يقال لهم : أما هذا حق أفسحر هذا أم أنتم لا تبصرون ؟ ﴿ قَالُوا بَلَىٰ وَرَبِّنَا ﴾ أي لا يسعهم إلا الاعتراف ﴿ قَالَ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ ﴾ ثم قال تبارك وتعالى أمراً رسوله ﷺ بالصبر على تكذيب من كذبه من قومه ﴿ فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ ﴾ أي على تكذيب قومهم لهم . وقد اختلفوا في تعداد أولي العزم على أقوال وأشهرها أنهم : نوح وإبراهيم

وموسى وعيسى وخاتم الأنبياء كلهم محمد ﷺ ، وقد نص الله تعالى على أسمائهم من بين الأنبياء في آيتين من سورتي الأحزاب والشورى ، وقد يحتمل أن يكون المراد بأولي العزم جميع الرسل فتكون ﴿ مِنْ ﴾ في قوله ﴿ مِنْ الرُّسُلِ ﴾ لبيان الجنس ، والله أعلم .

وعن مسروق قال : قالت لي عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا : ظل رسول الله ﷺ صائماً ثم طواه ، ثم ظل صائماً ، ثم طواه ، ثم ظل صائماً ثم قال : « يا عائشة إن الدنيا لاتبغي لمحمد ولا لآل محمد ، يا عائشة إن الله تعالى لم يرض من أولي العزم من الرسل إلا بالصبر على مكروها والصبر على محبوبها ، ثم لم يرض مني إلا أن يكلفني ماكلفهم فقال : ﴿ قَاصِرٌ كَمَا صَبَرَأُولُوا الْقَرْيَةِ مِنَ الرُّسُلِ ﴾ وإنني والله لأصبرن كما صبروا جهدي ولا قوة إلا بالله ^(١) ﴾ وَلَا تَسْتَعْجِلْ لَّيْسَ ﴾ أي لا تستعجل لهم حلول العقوبة بهم . وقوله جل وعلا ﴿ بَلِّغْ ﴾ . قال ابن جرير : يحتمل معنيين : أحدهما : أن يكون تقديره : وذلك لبث بلاغ ، والآخر : أن يكون تقديره هذا القرآن بلاغ . وقوله تعالى : ﴿ فَهَلْ يَهْلِكُ إِلَّا الْقَوْمُ الْفَاسِقُونَ ﴾ أي لا يهلك على الله إلا هالك ، وهذا من عدله ﷻ أنه لا يعذب إلا من يستحق العذاب ، والله أعلم .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ أَضَلَّ أَعْمَلُهُمْ﴾ ❶ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَءَامَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَى مُحَمَّدٍ وَهُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ ❷ ذَلِكَ بِأَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا اتَّبَعُوا الْبَاطِلَ وَأَنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّبَعُوا الْحَقَّ مِنْ رَبِّهِمْ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ لِلنَّاسِ أَمْثَلَهُمْ ❸ .

يقول تعالى : ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أي بآيات الله ﴿وَصَدُّوا﴾ غيرهم ﴿عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ أَضَلَّ أَعْمَلُهُمْ﴾ أي أبطلها وأذهبها ولم يجعل لها ثوابا ولا جزاء . ثم قال جل وعلا : ﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ أي آمنت قلوبهم وسرائرهم وانقادت لشرع الله جوارحهم وبواطنهم وظواهرهم ﴿وَمَا نُزِّلَ عَلَى مُحَمَّدٍ﴾ عطف خاص على عام ، وهو دليل على أنه شرط في صحة الإيمان بعد بعثته ﷺ . وقوله تبارك وتعالى : ﴿وَهُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ﴾ جملة معترضة حسنة ، ولهذا قال ﷺ : ﴿كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ﴾ قال ابن عباس رضي الله عنه : أي أمرهم . وقال مجاهد : شأنهم . وقال قتادة وابن زيد : حالهم ، والكل متقارب . وقد جاء في حديث تسميت العاطس « يهديكم الله ويصلح بالكم » ^(١) ثم قال ﷺ : ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا اتَّبَعُوا الْبَاطِلَ﴾ أي إنما أبطلنا أعمال الكفار . وتجاوزنا عن سيئات الأبرار ، وأصلحنا شؤونهم ؛ لأن الذين كفروا اتبعوا الباطل أي اختاروا الباطل على الحق ﴿وَأَنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّبَعُوا الْحَقَّ مِنْ رَبِّهِمْ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ لِلنَّاسِ أَمْثَلَهُمْ﴾ أي يبين لهم مآل أعمالهم ، وما يصيرون إليه في معادهم .

﴿فَإِذَا لَقِيتُ الَّذِينَ كَفَرُوا قَضَرْتُ لِرِيقَابٍ حَتَّى إِذَا أَتَخْتَنُمُونَهُمْ فُتِدُوا وَقَاتَ فَإِنَّمَا بَعْدُ وَإِنَّمَا فِتْنَةٌ حَتَّى تَجْعَلَ جُنُودَهُمُ الْقَدْحَاءُ﴾ ❶ وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَانْتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَكِنْ لِنَبِّئُوا بِبَعْضِ مَا يَصْعَدُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَلَنْ يُضِلَّ أَعْمَالَهُمْ ❷ سَيِّئَاتِهِمْ وَيُصْلِحَ بَالَهُمْ ❸ وَيَذِلُّهُمْ لِمَنَّةٍ عَرَفَهَا لَهُمْ ❹ بِأَنَّهُمُ الَّذِينَ ءَامَنُوا إِن تَضُرُّوهُمُ اللَّهُ يَضُرَّكُمْ وَبِئْسَ أَقْدَامُكُمْ ❺ وَالَّذِينَ كَفَرُوا فَتَقَسَّ لَهُمْ وَأَضَلَّ أَعْمَلُهُمْ ❻ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَلُهُمْ ❼ .

يقول تعالى مرشداً للمؤمنين إلى ما يعتمدونه في حروبهم مع المشركين ﴿فَإِذَا لَقِيتُ الَّذِينَ كَفَرُوا قَضَرْتُ لِرِيقَابٍ﴾ أي إذا واجهتهم فاحصدوهم حصداً بالسيوف ﴿حَتَّى إِذَا أَتَخْتَنُمُونَهُمْ﴾ أي أهلكتهم قتلًا ﴿فُتِدُوا وَقَاتَ﴾ الأسارى الذين تأسروهم ، ثم أنتم بعد انقضاء الحرب وانفصال المعركة مخيرون في أمرهم ، إن شئتم منتقم عليهم فأطلقتم أسراهم مجاناً ، وإن شئتم فاديتهم بمال تأخذونه منهم وتشارطونهم عليه ، والظاهر أن هذه الآية نزلت بعد وقعة بدر ، فإن الله ﷻ عاتب المؤمنين على الاستكثار من الأسارى يومئذ ، ليأخذوا منهم الفداء والتقليل من القتل يومئذ فقال : ﴿مَا كَانَتْ لِيَّ أَنْ يَكُونَ لَهُمْ أَسْرَى حَتَّى يَتَخَفَتِ فِي الْأَرْضِ تَرِيدُوتُ عَرْشَ الدُّنْيَا وَاللَّهُ يُرِيدُ الْآخِرَةَ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ ❶ لَوْلَا كِتَابٌ مِنَ اللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَا أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ❷ ثم قد ادعى بعض العلماء أن هذه الآية الخيرة بين مفاداة الأسير والمن عليه منسوخة بقوله تعالى : ﴿فَإِذَا أَسْلَخَ الْأَشْهُرَ الْحُرُمَ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ﴾ ❸ الآية ، وقال الآخرون وهو الأكثرون : ليست بمنسوخة ، ثم قال بعضهم : إنما الإمام مخير بين المن على

(١) أخرجه أبو داود في السنن (٥٠٣٣) والترمذي في السنن (٢٧٤١) وأحمد في مسنده (٤١٩/٥) والحاكم في المستدرک (٢٦٦/٤) .

الأسير ومفاداته فقط ، ولا يجوز له قتله . وقال آخرون منهم : بل له أن يقتله إن شاء لحديث قتل النبي ﷺ النضر بن الحارث وعقبة بن أبي معيط من أسارى بدر . وقال ثمامة بن أثال لرسول الله ﷺ حين قال له : « ما عندك يا ثمامة ؟ » فقال إن تقتل تقتل ذا دم ، وإن تمنن تمنن على شاكرك ، وإن كنت تريد المال فاسأل تعط منه ما شئت ^(١) . وزاد الشافعي رحمة الله عليه فقال : الإمام مخير بين قتله أو المن عليه أو مفاداته أو استرقاقه أيضًا .

وقوله ﷺ : ﴿ حَتَّى تَصَعَ الْكُرْبَى أَوْزَارَهَا ﴾ قال مجاهد : حتى ينزل عيسى ابن مريم عليه الصلاة والسلام ، وكأنه أخذه من قوله ﷺ : « لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق حتى يقاتل آخرهم الدجال » ^(٢) . عن جبير بن نفير قال : إن سلمة بن نفيل أخبرهم أنه أتى رسول الله ﷺ فقال : « لاني سبيت الخيل وألقيت السلاح ووضعت الحرب أوزارها وقتل : لا قتال ، فقال له النبي ﷺ : « الآن جاء القتال ، لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الناس ، يزيغ الله تعالى قلوب أقوام فيقاتلونهم ، ويرزقهم الله منهم حتى يأتي أمر الله وهم على ذلك ، ألا إن عقد دار المؤمنين بالشام ، والخيال معقود في نواصيها الخير إلى يوم القيامة » ^(٣) .

وقال قتادة : ﴿ حَتَّى تَصَعَ الْكُرْبَى أَوْزَارَهَا ﴾ حتى لا يبقى شرك ، ثم قال بعضهم : ﴿ حَتَّى تَصَعَ الْكُرْبَى أَوْزَارَهَا ﴾ أي أوزار المحاررين وهم المشركون بأن يتوبوا إلى الله ﷻ ، وقيل : أوزار أهلها بأن يبدلوا الوسع في طاعة الله تعالى . وقوله ﷺ : ﴿ ذَلِكَ وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَانْتَصَرَ مِنْهُمْ ﴾ أي ولو شاء الله لانتقم من الكافرين بعقوبة ونكال من عنده ﴿ وَلَكِنْ لِيَبْلُوَ بَعْضَكُمْ بِبَعْضٍ ﴾ أي ولكن شرع لكم الجهاد وقتال الأعداء ليختبركم ، ويبلو أخباركم ثم لما كان من شأن القتال أن يقتل كثير من المؤمنين قال : ﴿ وَالَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَكَانَ يُعِدَّلُ أَعْمَلُهُمْ ﴾ أي لن يذهبها بل يكثرها وينميها ويضاعفها . ومنهم من يجري عليه عمله طول برزخه .

فمن المقدم بن معد يكرب الكندي رحمه الله قال : قال رسول الله ﷺ : « إن للشهيد عند الله ست خصال : أن يغفر له في أول دفقة من دمه ، ويرى مقعده من الجنة ، ويحلى حلة الإيمان ، ويزوج الحور العين ، ويجار من عذاب القبر ، ويأمن من الفرع الأكبر ، ويوضع على رأسه تاج الوقار مرصع بالدر والياقوت ، الياقوتة منه خير من الدنيا وما فيها ، ويزوج اثنتين وسبعين زوجة من الحور العين ، ويشفع في سبعين إنسانًا من أقاربه » ^(٤) . وعن أبي قتادة رحمه الله أن رسول الله ﷺ قال : « يغفر للشهيد كل شيء إلا الدين » ^(٥) . وقال أبو الدرداء رحمه الله : قال رسول الله ﷺ : « يشفع الشهيد في سبعين من أهل بيته » ^(٦) . وقوله تبارك وتعالى : ﴿ سَبِّحْهُمْ ﴾ أي إلى الجنة ﴿ وَيَصْلِحْ بِأَلَمِهِمْ ﴾ أي أمرهم وحالهم ﴿ وَبَدِّلْهُمْ

(١) أخرجه البخاري في المغازي (٤٣٧٢) ومسلم في الجهاد (٥٩) وأحمد في مسنده (٤٥٢/٢) وابن خزيمة في صحيحه (٢٥٣) .

(٢) أخرجه أبو داود في سننه (٢٤٨٤) .

(٣) أخرجه الترمذي في السنن (٢١٩٢) وابن ماجه في السنن (٦) وأحمد في مسنده (٩٧/٤) .

(٤) أخرجه أحمد في مسنده (١٣١/٤) والبيهقي في مجمع الزوائد (٢٩٣/٥) .

(٥) أخرجه مسلم في الإمامة (١١٩) وأحمد في مسنده (٢٢٠/٢) والحاكم في المستدرک (١١٩/٢) .

(٦) أخرجه أبو داود في السنن (٢٥٢٢) والبيهقي في السنن (١٦٥/٩) .

الْجَنَّةَ عَنْهَا لَمْ يَأْتِي عَرَفَهُمْ بِهَا وَهَدَاهُمْ إِلَيْهَا . قَالَ مُجَاهِدٌ : يَهْتَدِي أَهْلُهَا إِلَى يَبُوتِهِمْ وَمَسَاكِنِهِمْ ، وَحَيْثُ قَسَمَ اللَّهُ لَهُمْ مِنْهَا لَا يَخْطِئُونَ كَأَنَّهُمْ سَاكِنُهَا مِنْذُ خَلَقُوا لَا يَسْتَدِلُّونَ عَلَيْهَا أَحَدٌ ، وَقَالَ مُحَمَّدُ بْنُ كَعْبٍ : يَعْرِفُونَ يَبُوتَهُمْ إِذَا دَخَلُوا الْجَنَّةَ كَمَا تَعْرِفُونَ يَبُوتَكُمْ إِذَا انْصَرَفْتُمْ مِنَ الْجُمُعَةِ . وَقَالَ مُقَاتِلُ بْنُ حِيَّانٍ : بَلَّغْنَا أَنَّ الْمَلِكَ الَّذِي كَانَ وَكَلَّ بِحِفْظِ عَمَلِهِ فِي الدُّنْيَا يَمْسُحُ بَيْنَ يَدَيْهِ فِي الْجَنَّةِ ، وَيَتْبَعُهُ ابْنُ آدَمَ حَتَّى يَأْتِيَ أَقْصَى مَنْزِلٍ هُوَ لَهُ ، فَيَعْرِفُهُ كُلُّ شَيْءٍ أَعْطَاهُ اللَّهُ تَعَالَى فِي الْجَنَّةِ ، فَإِذَا انْتَهَى إِلَى أَقْصَى مَنْزِلِهِ فِي الْجَنَّةِ دَخَلَ إِلَى مَنْزِلِهِ وَأَزْوَاجِهِ وَانْصَرَفَ عَنْهُ . وَعَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ : « إِذَا خَلَصَ الْمُؤْمِنُونَ مِنَ النَّارِ حَبَسُوا بِقَنْطَرَةٍ بَيْنَ الْجَنَّةِ وَالنَّارِ : يَقْتَصِرُونَ مِظَالَهُمْ كَانَتْ بَيْنَهُمْ فِي الدُّنْيَا ، حَتَّى إِذَا هَذَبُوا وَنَقَوْا ؛ أَذُنَ لَهُمْ فِي دُخُولِ الْجَنَّةِ ، وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ إِنْ أَحَدُهُمْ بِمَنْزِلِهِ فِي الْجَنَّةِ أَهْدَى مِنْهُ بِمَنْزِلِهِ الَّذِي كَانَ فِي الدُّنْيَا » (١) .

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى : ﴿ يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنْ نَشَاءُ اللَّهُ نَصْرُهُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَهُمْ ﴾ فَإِنَّ الْجَزَاءَ مِنْ جِنْسِ الْعَمَلِ وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَهُمْ ﴾ كَمَا جَاءَ فِي الْحَدِيثِ « مِنْ بَلَغَ ذَا سُلْطَانٍ حَاجَةٌ مِنْ لَا يَسْتَطِيعُ إِبْلَاغُهَا ؛ ثَبَّتَ اللَّهُ تَعَالَى قَدَمَيْهِ عَلَى الصِّرَاطِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ » (٢) ثُمَّ قَالَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى : ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا فَتَعَسَا لَهُمْ ﴾ عَكْسُ ثَبَّتِ الْأَقْدَامَ لِلْمُؤْمِنِينَ النَّاصِرِينَ لِلَّهِ تَعَالَى وَلِرَسُولِهِ ﷺ ، وَقَدْ ثَبَّتَ فِي الْحَدِيثِ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَنَّهُ قَالَ : « تَعَسَى عَبْدُ الدِّينَارِ ، تَعَسَى عَبْدُ الدَّرْهَمِ ، تَعَسَى عَبْدُ الْقُطَيْفَةِ ، تَعَسَى وَانْتَكَسَ وَإِذَا شَيْكَ فَلَا انْتَقَشَ » (٣) « أَيُ فَلَاشْفَاهُ اللَّهُ ﷻ . وَقَوْلُهُ ﷻ : ﴿ وَأَصَلَّ اعْتَلَهُمْ ﴾ أَيُ أَحْبَطُهَا وَأَبْطَلُهَا ، وَلِهَذَا قَالَ ﴿ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ ﴾ أَيُ لَا يَرِيدُونَهُ وَلَا يَحْبُونَهُ ﴿ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ ﴾ .

﴿ أَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ دَمَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلِلْكَافِرِينَ أَشْتَبُهَا ﴾ ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ مَوْلَى الَّذِينَ ءَامَنُوا وَأَنَّ الْكَافِرِينَ لَا مَوْلَى لَهُمْ ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَدْخُلُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَنَبَّهُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الْأَنْعَامُ وَالنَّارُ مَوْجِيهِمْ ﴾ وَكَأَيُّنَ مِنْ قَرْيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِنْ قَرْيَتِكَ الَّتِي أَخْرَجْنَاكَ مِنْهَا لَكِنَّهُمْ فَلَا نَاصِرَ لَهُمْ .

يَقُولُ تَعَالَى : ﴿ أَلَمْ يَسِيرُوا ﴾ يَعْنِي الْمَشْرُوكِينَ بِاللَّهِ الْمَكْذِبِينَ لِرَسُولِهِ ﴿ فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ دَمَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ ﴾ أَيُ عَاقِبَهُمْ بِتَكْذِيبِهِمْ وَكَفَرِهِمْ ، أَيُ وَجَّهَ الْمُؤْمِنِينَ مِنْ بَيْنِ أَظْهَرِهِمْ ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَلِلْكَافِرِينَ أَشْتَبُهَا ﴾ ثُمَّ قَالَ : ﴿ ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ مَوْلَى الَّذِينَ ءَامَنُوا وَأَنَّ الْكَافِرِينَ لَا مَوْلَى لَهُمْ ﴾ لِهَذَا لَمَّا قَالَ أَبُو سَفْيَانَ صَخْرُ بْنُ حَرْبٍ رَئِيسَ الْمَشْرُوكِينَ يَوْمَ أَحَدٍ ، حِينَ سَأَلَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ وَعَنْ أَبِي بَكْرٍ وَعُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا فَلَمْ يَجِبْ ، وَقَالَ : أَمَا هَؤُلَاءِ فَقَدْ هَلَكُوا ، وَأَجَابَهُ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فَقَالَ : كَذَبْتَ يَا عَدُوَّ اللَّهِ بَلْ أَبْقَى اللَّهُ تَعَالَى لَكَ مَا يَسُوءُكَ ، وَإِنَّ الَّذِينَ عُدَّتْ لِأَحْيَاءٍ ، فَقَالَ أَبُو سَفْيَانَ : يَوْمَ يَوْمٍ بِدَرٍ ، وَالْحَرْبُ سَجَالٌ ، أَمَا إِنَّكُمْ سَتَجِدُونَ مِثْلَهُ لَمْ أَمْرُ بِهَا ، وَلَمْ أَنُحِ عَنْهَا ، ثُمَّ ذَهَبَ يَرْتَجِزُ وَيَقُولُ : أَعْلَ هَبْلٍ ، أَعْلَ هَبْلٍ . فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « أَلَا تَجِيبُوهُ ؟ » فَقَالُوا : يَارَسُولَ اللَّهِ وَمَا نَقُولُ ، قَالَ : « قُولُوا : اللَّهُ أَعْلَى وَأَجَلٌ » ثُمَّ قَالَ أَبُو سَفْيَانَ : لَنَا الْعِزُّ وَالْعِزُّ لَكُمْ ، فَقَالَ ﷺ : « أَلَا تَجِيبُوهُ ؟ » قَالُوا : وَمَا نَقُولُ يَا رَسُولَ اللَّهِ ؟ قَالَ : « قُولُوا : اللَّهُ مَوْلَانَا وَلَا مَوْلَى لَكُمْ » .

(١) أخرجه البخاري في المظالم (٢٤٤٠) ومسلم في الإيمان (٣٠٢) .

(٢) أخرجه ابن ماجه في السنن (٤١٣٥) والبيهقي في السنن (١٥٩/٩) والمنذري في الترغيب والترهيب (٢٤٧/٢) .

(٣) أخرجه أحمد في مسنده (٢٩٣/٤) .

ثم قال ﷺ : ﴿ إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ﴾ أي يوم القيامة ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَسْمَعُونَ وَاكْلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الْأَنْعَامُ ﴾ أي في دنياهم يتمتعون بها ويأكلون منها كأكل الأنعام تحضماً وقضماً ، وليس لهم همة إلا في ذلك ، ولهذا ثبت في الصحيح « المؤمن يأكل في معي واحد ، والكافر يأكل في سبعة أمعاء » ^(١) ثم قال تعالى : ﴿ وَالنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ ﴾ أي يوم جزائهم ، وقوله ﷻ : ﴿ وَكَانَ مِنْ قَرْنِهِ مِنْ أَشَدُّ قُوَّةً مِنْ قَرْنِكَ الْإِنِّي أَخَرَجَكَ ﴾ يعني مكة ﴿ أَهْلَكْتَهُمْ فَلَا نَصِيرَ لَهُمْ ﴾ وهذا تهديد شديد ووعد أكيد لأهل مكة في تكذيبهم لرسول الله ﷺ ، وهو سيد الرسل وخاتم الأنبياء ، فإذا كان الله ﷻ قد أهلك الأمم الذين كذبوا الرسل قبله بسببهم ، وقد كانوا أشد قوة من هؤلاء ، فماذا ظن هؤلاء أن يفعل الله بهم في الدنيا والأخرى ؟

فإن رفع عن كثير منهم العقوبة في الدنيا لبركة وجود الرسول نبي الرحمة ، فإن العذاب يوفر على الكافرين به في معادهم .

وقوله تعالى : ﴿ مِنْ قَرْنِكَ الْإِنِّي أَخَرَجَكَ ﴾ أي الذين أخرجوك من بين أظهرهم . عن ابن عباس رضي الله عنهما ، أن النبي ﷺ لما خرج من مكة إلى الغار ، وأتاه فالتفت إلى مكة وقال : « أنت أحب بلاد الله إلى الله ، وأنت أحب بلاد الله إلي ، ولولا أن المشركين أخرجوني لم أخرج منك » ^(٢) .

﴿ أَفَن كَانَ عَلَى بَيْنَةٍ مِنْ رَبِّيَ كُنَ زَيْنَ لَمْ سُوءَ عَلَيْهِمْ وَانْبَغَوْا آهْوَاهُمْ ﴾ ﴿ مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعدَ الْمُتَّقُونَ فِيهَا أَنْهَارٌ مِنْ مَاءٍ غَيْرِ آسِنٍ وَأَنْهَارٌ مِنْ لَبَنٍ لَمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ وَأَنْهَارٌ مِنْ خَمْرٍ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ وَأَنْهَارٌ مِنْ عَسَلٍ مُصَفًّى وَلَهُمْ فِيهَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَمَغْفِرَةٌ مِنْ رَبِّهِمْ كُنَّ هُوَ خَالِدًا فِي النَّارِ وَسُقُوا مَاءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَاءَهُمْ ﴾ .

يقول تعالى : ﴿ أَفَن كَانَ عَلَى بَيْنَةٍ مِنْ رَبِّيَ ﴾ أي على بصيرة ويقين في أمر الله ودينه بما أنزل في كتابه من الهدى والعلم ، وبما جبله الله عليه من الفطرة المستقيمة ، ﴿ كُنَ زَيْنَ لَمْ سُوءَ عَلَيْهِمْ وَانْبَغَوْا آهْوَاهُمْ ﴾ أي ليس هذا كهذا ، ثم قال ﷻ : ﴿ مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعدَ الْمُتَّقُونَ ﴾ قال عكرمة : أي نعتها ﴿ فِيهَا أَنْهَارٌ مِنْ مَاءٍ غَيْرِ آسِنٍ ﴾ قال ابن عباس رضي الله عنهما والحسن وقادة : يعني غير متغير . وقال قتادة والضحاك وعطاء الخراساني : غير منتن ، والعرب تقول : أسن الماء إذا تغير ريحه ، قال عبد الله ﷻ : أنهار الجنة تفجر من جبل من مسك ﴿ وَأَنْهَارٌ مِنْ لَبَنٍ لَمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ ﴾ أي بل في غاية البياض والحلاوة والدسومة ، ﴿ وَأَنْهَارٌ مِنْ خَمْرٍ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ ﴾ أي ليست كريهة الطعم والرائحة كخمر الدنيا بل حسنة المنظر والطعم والرائحة والفعل ﴿ وَأَنْهَارٌ مِنْ عَسَلٍ مُصَفًّى ﴾ أي وهو في غاية الصفاء وحسن اللون والطعم والريح .

عن حكيم بن معاوية عن أبيه ، قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « في الجنة بحر اللين ، وبحر الماء ، وبحر العسل ، وبحر الخمر ، ثم تشقق الأنهار منها بعد » ^(٣) . وعن عبد الله بن قيس قال : قال رسول الله ﷺ : « هذه الأنهار تشخب من جنة عدن في جوبة ، ثم تصدع بعد أنهارا » ^(٤) وفي الصحيح « إذا سألتكم الله تعالى فاسألوه الفردوس فإنه أوسط الجنة ، وأعلى الجنة ، ومنه تفجر أنهار الجنة »

(١) أخرجه البخاري في الأطعمة (٥٣٩٣) .

(٢) أخرجه الترمذي في السنن (٣٩٢٥) والحاكم في المستدرک (٧/٣) وأحمد في مسنده (٣٠٥/٤) جميعهم بنحوه ، والطبري في

تفسيره (٣١/٢٦) بلفظه .

(٣) أخرجه أحمد في مسنده (٥/٥) والترمذي في السنن (٢٥٧١) .

(٤) أخرجه أبو عوانة في مسنده (١٥٧/١) .

وفوقه عرش الرحمن ^(١) .

وعن عاصم بن لقيط قال : إن لقيط بن عامر خرج وافداً إلى رسول الله ﷺ قلت : يا رسول الله فعلى ما نطلع من الجنة ؟ قال ﷺ على أنهار من عسل مصفى ، وأنهار من خمر ما بها من صداع ولاندامة ، وأنهار من لبن لم يتغير طعمه ، وماء غير آسن ، وفاكهة ، لعمر إلهك ما تعلمون ، وخير من مثله ، وأزواج مطهرة » قلت : يا رسول الله أولنا فيها أزواج مصلاحات ؟ قال الصالحات للصالحين ، تلذونهن مثل لذاتكم في الدنيا ، ويلذونكم غير أن لا توالد ^(٢) .

وقوله تعالى : ﴿ وَلَمْ يَبْهِنَا مِنْ كُلِّ الشَّرِّ ﴾ كقوله ﷺ ﴿ يَدْخُونَ فِيهَا بِكُلِّ فِتْكَهَةٍ مَّامِنِينَ ﴾ وقوله ﷺ : ﴿ وَغَفِرَةً مِّن رَّبِّهِمْ ﴾ أي مع ذلك كله . وقوله ﷺ : ﴿ كُنْ هُوَ خَلِدٌ فِي النَّارِ ﴾ أي هؤلاء الذين ذكرنا منزلتهم من الجنة كمن هو خالد في النار ؟ ليس هؤلاء كهؤلاء ، وليس من هو في الدرجات كمن هو في الدرجات ﴿ وَسُقُوا مَاءً حَمِيماً ﴾ أي حاراً شديد الحر لا يستطيع ﴿ فَتَقَطَّ أَعْيُنُهُمْ ﴾ أي قطع ما في بطونهم من الأمعاء والأحشاء .

﴿ وَمِنْهُمْ مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّىٰ إِذَا خَرَجُوا مِنْ عِندِكَ قَالُوا لِلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مَاذَا قَالَ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ طَعَّ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ ﴾ وَالَّذِينَ آمَنُوا زَادَهُمْ هُدًى وَهَاجَتْهُمْ نَفْسُهُمْ ﴿ فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا السَّاعَةَ أَنْ تَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً فَقَدْ جَاءَ أَشْرَاطُهَا فَأَنَّىٰ لَهُمْ إِذَا جَاءَتْهُمْ ذِكْرُهُمْ ﴾ فَأَعْلَزَ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَاسْتَغْفِرَ لِذُنُوبِهِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَاكُمْ .

يقول تعالى مخبراً عن المنافقين في بلادهم وقلة فهمهم ، حيث كانوا يجلسون إلى رسول الله ﷺ ويستمعون كلامه فلا يفهمون منه شيئاً فإذا خرجوا من عنده ﴿ قَالُوا لِلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ ﴾ من الصحابة ﴿ مَاذَا قَالَ أَيْفَاقاً ﴾ أي الساعة . لا يعقلون ما قال ولا يكثرثون له . قال الله تعالى : ﴿ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ طَعَّ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ ﴾ أي فلا فهم صحيح ولا قصد صحيح . ثم قال ﷺ : ﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا زَادَهُمْ هُدًى ﴾ أي والذين قصدوا الهداية وفقهم الله تعالى لها فهداهم إليها وثبتهم عليها وزادهم منها ﴿ وَهَاجَتْهُمْ نَفْسُهُمْ ﴾ أي ألهمهم رشدهم . وقوله تعالى : ﴿ فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا السَّاعَةَ أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً ﴾ أي وهم غافلون عنها ﴿ فَقَدْ جَاءَ أَشْرَاطُهَا ﴾ أي أمارات اقترابها كقوله تبارك وتعالى : ﴿ هَٰذَا نَذِيرٌ مِّنَ النَّذِيرِ الْأُولَىٰ ﴾ أُرِفَتِ الْأَوَّلَةُ ﴿ فَبَعَثَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ من أشراط الساعة ؛ لأنه خاتم الرسل الذي أكمل الله تعالى به الدين وأقام به الحجة على العالمين .

وقد أخبر ﷺ بأمارات الساعة وأشراطها وأبان عن ذلك وأوضحه بما لم يؤته نبي قبله ، كما هو مبسوط في موضعه . وقال الحسن البصري : بعثه محمد ﷺ من أشراط الساعة وهو كما قال ، ولهذا جاء في أسمائه ﷺ أنه نبي التوبة ونبي الملحمة ، والحاشر الذي يحشر الناس على قدميه ، والعاقب الذي ليسى بعده نبي ^(٣) . وعن سهل بن سعد رضي الله عنه قال : رأيت رسول الله ﷺ قال بأصبعيه هكذا بالوسطى والتي تليها

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٣٢٥/٢) والبيهقي في السنن (١٥/٩) .

(٢) أخرجه أحمد في مسنده (١٤/٤) .

(٣) أخرجه البخاري في التفسير (٤٨٩٦) ومسلم في الفضائل (١٢٤ ، ١٢٥) .

« بعثت أنا والساعة كهاتين » ^(١) ثم قال تعالى : ﴿ فَأَنَّى لَهُمْ إِذَا جَاءَهُمْ ذِكْرُهُمْ ﴾ أي فكيف للكافرين بالتذكر إذا جاءتهم القيامة حيث لا ينفعهم ذلك . وقوله ﷺ : ﴿ فَأَعْلَزَ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ ﴾ هذا إخبار بأنه لا إله إلا الله ولا يتأتى كونه أمراً بعلم ذلك ، ولهذا عطف عليه قوله ﷺ : ﴿ وَأَسْتَغْفِرُ لِدُنْيِكَ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ﴾ وفي الصحيح : أن رسول الله ﷺ كان يقول : « اللهم اغفر لي خطيئتي وجهلي ، وإسرافي في أمري ، وما أنت أعلم به في ، اللهم اغفر لي هزلي وجدي ، وخطيئي وعمدي ، وكل ذلك عندي » ^(٢) . وفي الصحيح أنه كان يقول في آخر الصلاة : « اللهم اغفر لي ما قدمت وما أخرت ، وما أسررت وما أعلنت وما أسرفت ، وما أنت أعلم به مني ، أنت إلهي لا إله إلا أنت » ^(٣) وفي الصحيح أنه قال : « يا أيها الناس توبوا إلى ربكم فإني استغفر الله وأتوب إليه في اليوم أكثر من سبعين مرة » ^(٤) .

عن أبي بكر الصديق رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ أنه قال : « عليكم بلا إله إلا الله والاستغفار ، فأكثروا منهما ؛ فإن إبليس قال : إنما أهلك الناس بالذنوب وأهلكوني بلا إله إلا الله والاستغفار ، فلما رأيت ذلك أهلكتهم بالأهواء ، فهم يحسبون أنهم مهتدون » ^(٥) وفي الأثر المروي : فقال إبليس وعزتك وجلالك لا أزال أغويهم مادامت أرواحهم في أجسادهم . فقال الله ﷻ : وعزتي وجلالي لا أزال أغفر لهم ما استغفروني ^(٦) . وقوله تبارك وتعالى : ﴿ وَاللَّهُ يَتْلُمُ مُتَقَلِّبَكُمْ وَمُتَوَكِّدُكُمْ ﴾ أي يعلم تصرفكم في نهاركم ومستقركم في ليلكم وهذا القول ذهب إليه ابن جريج وهو اختيار ابن جرير ، وعن ابن عباس رضي الله عنهما متقلبكم في الدنيا ، ومتواكم في الآخرة ، وقال السدي : متقلبكم في الدنيا ومتواكم في قبوركم ، والأول أولى وأظهر ، والله أعلم .

﴿ وَيَقُولُ الَّذِينَ ءَامَنُوا لَوْلَا نُزِّلَتْ سُورَةٌ فَإِذَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ مُحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا الْقِتَالُ رَأَيْتَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ يُنْظَرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ الْمَغْشِيِّ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ فَأُولَئِكَ لَهُمْ ۖ طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَعْرُوفٌ فَإِذَا عَزَمَ الْأَمْرُ فَلَوَّ صَكَفُوا اللَّهَ لَكَانَ خِيراً لَهُمْ ۖ فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ أَنْ تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتَقَطَّعُوا أَرْحَامَكُمْ ۗ أُولَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعَمَّى أَبْصَرَهُمْ ۖ ۝ ٢٠ ۖ ۝ ٢١ ۖ ۝ ٢٢ ۖ ۝ ٢٣ ۖ ۝ ٢٤ ۖ ۝ ٢٥ ۖ ۝ ٢٦ ۖ ۝ ٢٧ ۖ ۝ ٢٨ ۖ ۝ ٢٩ ۖ ۝ ٣٠ ۖ ۝ ٣١ ۖ ۝ ٣٢ ۖ ۝ ٣٣ ۖ ۝ ٣٤ ۖ ۝ ٣٥ ۖ ۝ ٣٦ ۖ ۝ ٣٧ ۖ ۝ ٣٨ ۖ ۝ ٣٩ ۖ ۝ ٤٠ ۖ ۝ ٤١ ۖ ۝ ٤٢ ۖ ۝ ٤٣ ۖ ۝ ٤٤ ۖ ۝ ٤٥ ۖ ۝ ٤٦ ۖ ۝ ٤٧ ۖ ۝ ٤٨ ۖ ۝ ٤٩ ۖ ۝ ٥٠ ۖ ۝ ٥١ ۖ ۝ ٥٢ ۖ ۝ ٥٣ ۖ ۝ ٥٤ ۖ ۝ ٥٥ ۖ ۝ ٥٦ ۖ ۝ ٥٧ ۖ ۝ ٥٨ ۖ ۝ ٥٩ ۖ ۝ ٦٠ ۖ ۝ ٦١ ۖ ۝ ٦٢ ۖ ۝ ٦٣ ۖ ۝ ٦٤ ۖ ۝ ٦٥ ۖ ۝ ٦٦ ۖ ۝ ٦٧ ۖ ۝ ٦٨ ۖ ۝ ٦٩ ۖ ۝ ٧٠ ۖ ۝ ٧١ ۖ ۝ ٧٢ ۖ ۝ ٧٣ ۖ ۝ ٧٤ ۖ ۝ ٧٥ ۖ ۝ ٧٦ ۖ ۝ ٧٧ ۖ ۝ ٧٨ ۖ ۝ ٧٩ ۖ ۝ ٨٠ ۖ ۝ ٨١ ۖ ۝ ٨٢ ۖ ۝ ٨٣ ۖ ۝ ٨٤ ۖ ۝ ٨٥ ۖ ۝ ٨٦ ۖ ۝ ٨٧ ۖ ۝ ٨٨ ۖ ۝ ٨٩ ۖ ۝ ٩٠ ۖ ۝ ٩١ ۖ ۝ ٩٢ ۖ ۝ ٩٣ ۖ ۝ ٩٤ ۖ ۝ ٩٥ ۖ ۝ ٩٦ ۖ ۝ ٩٧ ۖ ۝ ٩٨ ۖ ۝ ٩٩ ۖ ۝ ١٠٠ ۖ ۝ ١٠١ ۖ ۝ ١٠٢ ۖ ۝ ١٠٣ ۖ ۝ ١٠٤ ۖ ۝ ١٠٥ ۖ ۝ ١٠٦ ۖ ۝ ١٠٧ ۖ ۝ ١٠٨ ۖ ۝ ١٠٩ ۖ ۝ ١١٠ ۖ ۝ ١١١ ۖ ۝ ١١٢ ۖ ۝ ١١٣ ۖ ۝ ١١٤ ۖ ۝ ١١٥ ۖ ۝ ١١٦ ۖ ۝ ١١٧ ۖ ۝ ١١٨ ۖ ۝ ١١٩ ۖ ۝ ١٢٠ ۖ ۝ ١٢١ ۖ ۝ ١٢٢ ۖ ۝ ١٢٣ ۖ ۝ ١٢٤ ۖ ۝ ١٢٥ ۖ ۝ ١٢٦ ۖ ۝ ١٢٧ ۖ ۝ ١٢٨ ۖ ۝ ١٢٩ ۖ ۝ ١٣٠ ۖ ۝ ١٣١ ۖ ۝ ١٣٢ ۖ ۝ ١٣٣ ۖ ۝ ١٣٤ ۖ ۝ ١٣٥ ۖ ۝ ١٣٦ ۖ ۝ ١٣٧ ۖ ۝ ١٣٨ ۖ ۝ ١٣٩ ۖ ۝ ١٤٠ ۖ ۝ ١٤١ ۖ ۝ ١٤٢ ۖ ۝ ١٤٣ ۖ ۝ ١٤٤ ۖ ۝ ١٤٥ ۖ ۝ ١٤٦ ۖ ۝ ١٤٧ ۖ ۝ ١٤٨ ۖ ۝ ١٤٩ ۖ ۝ ١٥٠ ۖ ۝ ١٥١ ۖ ۝ ١٥٢ ۖ ۝ ١٥٣ ۖ ۝ ١٥٤ ۖ ۝ ١٥٥ ۖ ۝ ١٥٦ ۖ ۝ ١٥٧ ۖ ۝ ١٥٨ ۖ ۝ ١٥٩ ۖ ۝ ١٦٠ ۖ ۝ ١٦١ ۖ ۝ ١٦٢ ۖ ۝ ١٦٣ ۖ ۝ ١٦٤ ۖ ۝ ١٦٥ ۖ ۝ ١٦٦ ۖ ۝ ١٦٧ ۖ ۝ ١٦٨ ۖ ۝ ١٦٩ ۖ ۝ ١٧٠ ۖ ۝ ١٧١ ۖ ۝ ١٧٢ ۖ ۝ ١٧٣ ۖ ۝ ١٧٤ ۖ ۝ ١٧٥ ۖ ۝ ١٧٦ ۖ ۝ ١٧٧ ۖ ۝ ١٧٨ ۖ ۝ ١٧٩ ۖ ۝ ١٨٠ ۖ ۝ ١٨١ ۖ ۝ ١٨٢ ۖ ۝ ١٨٣ ۖ ۝ ١٨٤ ۖ ۝ ١٨٥ ۖ ۝ ١٨٦ ۖ ۝ ١٨٧ ۖ ۝ ١٨٨ ۖ ۝ ١٨٩ ۖ ۝ ١٩٠ ۖ ۝ ١٩١ ۖ ۝ ١٩٢ ۖ ۝ ١٩٣ ۖ ۝ ١٩٤ ۖ ۝ ١٩٥ ۖ ۝ ١٩٦ ۖ ۝ ١٩٧ ۖ ۝ ١٩٨ ۖ ۝ ١٩٩ ۖ ۝ ٢٠٠ ۖ ۝ ٢٠١ ۖ ۝ ٢٠٢ ۖ ۝ ٢٠٣ ۖ ۝ ٢٠٤ ۖ ۝ ٢٠٥ ۖ ۝ ٢٠٦ ۖ ۝ ٢٠٧ ۖ ۝ ٢٠٨ ۖ ۝ ٢٠٩ ۖ ۝ ٢١٠ ۖ ۝ ٢١١ ۖ ۝ ٢١٢ ۖ ۝ ٢١٣ ۖ ۝ ٢١٤ ۖ ۝ ٢١٥ ۖ ۝ ٢١٦ ۖ ۝ ٢١٧ ۖ ۝ ٢١٨ ۖ ۝ ٢١٩ ۖ ۝ ٢٢٠ ۖ ۝ ٢٢١ ۖ ۝ ٢٢٢ ۖ ۝ ٢٢٣ ۖ ۝ ٢٢٤ ۖ ۝ ٢٢٥ ۖ ۝ ٢٢٦ ۖ ۝ ٢٢٧ ۖ ۝ ٢٢٨ ۖ ۝ ٢٢٩ ۖ ۝ ٢٣٠ ۖ ۝ ٢٣١ ۖ ۝ ٢٣٢ ۖ ۝ ٢٣٣ ۖ ۝ ٢٣٤ ۖ ۝ ٢٣٥ ۖ ۝ ٢٣٦ ۖ ۝ ٢٣٧ ۖ ۝ ٢٣٨ ۖ ۝ ٢٣٩ ۖ ۝ ٢٤٠ ۖ ۝ ٢٤١ ۖ ۝ ٢٤٢ ۖ ۝ ٢٤٣ ۖ ۝ ٢٤٤ ۖ ۝ ٢٤٥ ۖ ۝ ٢٤٦ ۖ ۝ ٢٤٧ ۖ ۝ ٢٤٨ ۖ ۝ ٢٤٩ ۖ ۝ ٢٥٠ ۖ ۝ ٢٥١ ۖ ۝ ٢٥٢ ۖ ۝ ٢٥٣ ۖ ۝ ٢٥٤ ۖ ۝ ٢٥٥ ۖ ۝ ٢٥٦ ۖ ۝ ٢٥٧ ۖ ۝ ٢٥٨ ۖ ۝ ٢٥٩ ۖ ۝ ٢٦٠ ۖ ۝ ٢٦١ ۖ ۝ ٢٦٢ ۖ ۝ ٢٦٣ ۖ ۝ ٢٦٤ ۖ ۝ ٢٦٥ ۖ ۝ ٢٦٦ ۖ ۝ ٢٦٧ ۖ ۝ ٢٦٨ ۖ ۝ ٢٦٩ ۖ ۝ ٢٧٠ ۖ ۝ ٢٧١ ۖ ۝ ٢٧٢ ۖ ۝ ٢٧٣ ۖ ۝ ٢٧٤ ۖ ۝ ٢٧٥ ۖ ۝ ٢٧٦ ۖ ۝ ٢٧٧ ۖ ۝ ٢٧٨ ۖ ۝ ٢٧٩ ۖ ۝ ٢٨٠ ۖ ۝ ٢٨١ ۖ ۝ ٢٨٢ ۖ ۝ ٢٨٣ ۖ ۝ ٢٨٤ ۖ ۝ ٢٨٥ ۖ ۝ ٢٨٦ ۖ ۝ ٢٨٧ ۖ ۝ ٢٨٨ ۖ ۝ ٢٨٩ ۖ ۝ ٢٩٠ ۖ ۝ ٢٩١ ۖ ۝ ٢٩٢ ۖ ۝ ٢٩٣ ۖ ۝ ٢٩٤ ۖ ۝ ٢٩٥ ۖ ۝ ٢٩٦ ۖ ۝ ٢٩٧ ۖ ۝ ٢٩٨ ۖ ۝ ٢٩٩ ۖ ۝ ٣٠٠ ۖ ۝ ٣٠١ ۖ ۝ ٣٠٢ ۖ ۝ ٣٠٣ ۖ ۝ ٣٠٤ ۖ ۝ ٣٠٥ ۖ ۝ ٣٠٦ ۖ ۝ ٣٠٧ ۖ ۝ ٣٠٨ ۖ ۝ ٣٠٩ ۖ ۝ ٣١٠ ۖ ۝ ٣١١ ۖ ۝ ٣١٢ ۖ ۝ ٣١٣ ۖ ۝ ٣١٤ ۖ ۝ ٣١٥ ۖ ۝ ٣١٦ ۖ ۝ ٣١٧ ۖ ۝ ٣١٨ ۖ ۝ ٣١٩ ۖ ۝ ٣٢٠ ۖ ۝ ٣٢١ ۖ ۝ ٣٢٢ ۖ ۝ ٣٢٣ ۖ ۝ ٣٢٤ ۖ ۝ ٣٢٥ ۖ ۝ ٣٢٦ ۖ ۝ ٣٢٧ ۖ ۝ ٣٢٨ ۖ ۝ ٣٢٩ ۖ ۝ ٣٣٠ ۖ ۝ ٣٣١ ۖ ۝ ٣٣٢ ۖ ۝ ٣٣٣ ۖ ۝ ٣٣٤ ۖ ۝ ٣٣٥ ۖ ۝ ٣٣٦ ۖ ۝ ٣٣٧ ۖ ۝ ٣٣٨ ۖ ۝ ٣٣٩ ۖ ۝ ٣٤٠ ۖ ۝ ٣٤١ ۖ ۝ ٣٤٢ ۖ ۝ ٣٤٣ ۖ ۝ ٣٤٤ ۖ ۝ ٣٤٥ ۖ ۝ ٣٤٦ ۖ ۝ ٣٤٧ ۖ ۝ ٣٤٨ ۖ ۝ ٣٤٩ ۖ ۝ ٣٥٠ ۖ ۝ ٣٥١ ۖ ۝ ٣٥٢ ۖ ۝ ٣٥٣ ۖ ۝ ٣٥٤ ۖ ۝ ٣٥٥ ۖ ۝ ٣٥٦ ۖ ۝ ٣٥٧ ۖ ۝ ٣٥٨ ۖ ۝ ٣٥٩ ۖ ۝ ٣٦٠ ۖ ۝ ٣٦١ ۖ ۝ ٣٦٢ ۖ ۝ ٣٦٣ ۖ ۝ ٣٦٤ ۖ ۝ ٣٦٥ ۖ ۝ ٣٦٦ ۖ ۝ ٣٦٧ ۖ ۝ ٣٦٨ ۖ ۝ ٣٦٩ ۖ ۝ ٣٧٠ ۖ ۝ ٣٧١ ۖ ۝ ٣٧٢ ۖ ۝ ٣٧٣ ۖ ۝ ٣٧٤ ۖ ۝ ٣٧٥ ۖ ۝ ٣٧٦ ۖ ۝ ٣٧٧ ۖ ۝ ٣٧٨ ۖ ۝ ٣٧٩ ۖ ۝ ٣٨٠ ۖ ۝ ٣٨١ ۖ ۝ ٣٨٢ ۖ ۝ ٣٨٣ ۖ ۝ ٣٨٤ ۖ ۝ ٣٨٥ ۖ ۝ ٣٨٦ ۖ ۝ ٣٨٧ ۖ ۝ ٣٨٨ ۖ ۝ ٣٨٩ ۖ ۝ ٣٩٠ ۖ ۝ ٣٩١ ۖ ۝ ٣٩٢ ۖ ۝ ٣٩٣ ۖ ۝ ٣٩٤ ۖ ۝ ٣٩٥ ۖ ۝ ٣٩٦ ۖ ۝ ٣٩٧ ۖ ۝ ٣٩٨ ۖ ۝ ٣٩٩ ۖ ۝ ٤٠٠ ۖ ۝ ٤٠١ ۖ ۝ ٤٠٢ ۖ ۝ ٤٠٣ ۖ ۝ ٤٠٤ ۖ ۝ ٤٠٥ ۖ ۝ ٤٠٦ ۖ ۝ ٤٠٧ ۖ ۝ ٤٠٨ ۖ ۝ ٤٠٩ ۖ ۝ ٤١٠ ۖ ۝ ٤١١ ۖ ۝ ٤١٢ ۖ ۝ ٤١٣ ۖ ۝ ٤١٤ ۖ ۝ ٤١٥ ۖ ۝ ٤١٦ ۖ ۝ ٤١٧ ۖ ۝ ٤١٨ ۖ ۝ ٤١٩ ۖ ۝ ٤٢٠ ۖ ۝ ٤٢١ ۖ ۝ ٤٢٢ ۖ ۝ ٤٢٣ ۖ ۝ ٤٢٤ ۖ ۝ ٤٢٥ ۖ ۝ ٤٢٦ ۖ ۝ ٤٢٧ ۖ ۝ ٤٢٨ ۖ ۝ ٤٢٩ ۖ ۝ ٤٣٠ ۖ ۝ ٤٣١ ۖ ۝ ٤٣٢ ۖ ۝ ٤٣٣ ۖ ۝ ٤٣٤ ۖ ۝ ٤٣٥ ۖ ۝ ٤٣٦ ۖ ۝ ٤٣٧ ۖ ۝ ٤٣٨ ۖ ۝ ٤٣٩ ۖ ۝ ٤٤٠ ۖ ۝ ٤٤١ ۖ ۝ ٤٤٢ ۖ ۝ ٤٤٣ ۖ ۝ ٤٤٤ ۖ ۝ ٤٤٥ ۖ ۝ ٤٤٦ ۖ ۝ ٤٤٧ ۖ ۝ ٤٤٨ ۖ ۝ ٤٤٩ ۖ ۝ ٤٥٠ ۖ ۝ ٤٥١ ۖ ۝ ٤٥٢ ۖ ۝ ٤٥٣ ۖ ۝ ٤٥٤ ۖ ۝ ٤٥٥ ۖ ۝ ٤٥٦ ۖ ۝ ٤٥٧ ۖ ۝ ٤٥٨ ۖ ۝ ٤٥٩ ۖ ۝ ٤٦٠ ۖ ۝ ٤٦١ ۖ ۝ ٤٦٢ ۖ ۝ ٤٦٣ ۖ ۝ ٤٦٤ ۖ ۝ ٤٦٥ ۖ ۝ ٤٦٦ ۖ ۝ ٤٦٧ ۖ ۝ ٤٦٨ ۖ ۝ ٤٦٩ ۖ ۝ ٤٧٠ ۖ ۝ ٤٧١ ۖ ۝ ٤٧٢ ۖ ۝ ٤٧٣ ۖ ۝ ٤٧٤ ۖ ۝ ٤٧٥ ۖ ۝ ٤٧٦ ۖ ۝ ٤٧٧ ۖ ۝ ٤٧٨ ۖ ۝ ٤٧٩ ۖ ۝ ٤٨٠ ۖ ۝ ٤٨١ ۖ ۝ ٤٨٢ ۖ ۝ ٤٨٣ ۖ ۝ ٤٨٤ ۖ ۝ ٤٨٥ ۖ ۝ ٤٨٦ ۖ ۝ ٤٨٧ ۖ ۝ ٤٨٨ ۖ ۝ ٤٨٩ ۖ ۝ ٤٩٠ ۖ ۝ ٤٩١ ۖ ۝ ٤٩٢ ۖ ۝ ٤٩٣ ۖ ۝ ٤٩٤ ۖ ۝ ٤٩٥ ۖ ۝ ٤٩٦ ۖ ۝ ٤٩٧ ۖ ۝ ٤٩٨ ۖ ۝ ٤٩٩ ۖ ۝ ٥٠٠ ۖ ۝ ٥٠١ ۖ ۝ ٥٠٢ ۖ ۝ ٥٠٣ ۖ ۝ ٥٠٤ ۖ ۝ ٥٠٥ ۖ ۝ ٥٠٦ ۖ ۝ ٥٠٧ ۖ ۝ ٥٠٨ ۖ ۝ ٥٠٩ ۖ ۝ ٥١٠ ۖ ۝ ٥١١ ۖ ۝ ٥١٢ ۖ ۝ ٥١٣ ۖ ۝ ٥١٤ ۖ ۝ ٥١٥ ۖ ۝ ٥١٦ ۖ ۝ ٥١٧ ۖ ۝ ٥١٨ ۖ ۝ ٥١٩ ۖ ۝ ٥٢٠ ۖ ۝ ٥٢١ ۖ ۝ ٥٢٢ ۖ ۝ ٥٢٣ ۖ ۝ ٥٢٤ ۖ ۝ ٥٢٥ ۖ ۝ ٥٢٦ ۖ ۝ ٥٢٧ ۖ ۝ ٥٢٨ ۖ ۝ ٥٢٩ ۖ ۝ ٥٣٠ ۖ ۝ ٥٣١ ۖ ۝ ٥٣٢ ۖ ۝ ٥٣٣ ۖ ۝ ٥٣٤ ۖ ۝ ٥٣٥ ۖ ۝ ٥٣٦ ۖ ۝ ٥٣٧ ۖ ۝ ٥٣٨ ۖ ۝ ٥٣٩ ۖ ۝ ٥٤٠ ۖ ۝ ٥٤١ ۖ ۝ ٥٤٢ ۖ ۝ ٥٤٣ ۖ ۝ ٥٤٤ ۖ ۝ ٥٤٥ ۖ ۝ ٥٤٦ ۖ ۝ ٥٤٧ ۖ ۝ ٥٤٨ ۖ ۝ ٥٤٩ ۖ ۝ ٥٥٠ ۖ ۝ ٥٥١ ۖ ۝ ٥٥٢ ۖ ۝ ٥٥٣ ۖ ۝ ٥٥٤ ۖ ۝ ٥٥٥ ۖ ۝ ٥٥٦ ۖ ۝ ٥٥٧ ۖ ۝ ٥٥٨ ۖ ۝ ٥٥٩ ۖ ۝ ٥٦٠ ۖ ۝ ٥٦١ ۖ ۝ ٥٦٢ ۖ ۝ ٥٦٣ ۖ ۝ ٥٦٤ ۖ ۝ ٥٦٥ ۖ ۝ ٥٦٦ ۖ ۝ ٥٦٧ ۖ ۝ ٥٦٨ ۖ ۝ ٥٦٩ ۖ ۝ ٥٧٠ ۖ ۝ ٥٧١ ۖ ۝ ٥٧٢ ۖ ۝ ٥٧٣ ۖ ۝ ٥٧٤ ۖ ۝ ٥٧٥ ۖ ۝ ٥٧٦ ۖ ۝ ٥٧٧ ۖ ۝ ٥٧٨ ۖ ۝ ٥٧٩ ۖ ۝ ٥٨٠ ۖ ۝ ٥٨١ ۖ ۝ ٥٨٢ ۖ ۝ ٥٨٣ ۖ ۝ ٥٨٤ ۖ ۝ ٥٨٥ ۖ ۝ ٥٨٦ ۖ ۝ ٥٨٧ ۖ ۝ ٥٨٨ ۖ ۝ ٥٨٩ ۖ ۝ ٥٩٠ ۖ ۝ ٥٩١ ۖ ۝ ٥٩٢ ۖ ۝ ٥٩٣ ۖ ۝ ٥٩٤ ۖ ۝ ٥٩٥ ۖ ۝ ٥٩٦ ۖ ۝ ٥٩٧ ۖ ۝ ٥٩٨ ۖ ۝ ٥٩٩ ۖ ۝ ٦٠٠ ۖ ۝ ٦٠١ ۖ ۝ ٦٠٢ ۖ ۝ ٦٠٣ ۖ ۝ ٦٠٤ ۖ ۝ ٦٠٥ ۖ ۝ ٦٠٦ ۖ ۝ ٦٠٧ ۖ ۝ ٦٠٨ ۖ ۝ ٦٠٩ ۖ ۝ ٦١٠ ۖ ۝ ٦١١ ۖ ۝ ٦١٢ ۖ ۝ ٦١٣ ۖ ۝ ٦١٤ ۖ ۝ ٦١٥ ۖ ۝ ٦١٦ ۖ ۝ ٦١٧ ۖ ۝ ٦١٨ ۖ ۝ ٦١٩ ۖ ۝ ٦٢٠ ۖ ۝ ٦٢١ ۖ ۝ ٦٢٢ ۖ ۝ ٦٢٣ ۖ ۝ ٦٢٤ ۖ ۝ ٦٢٥ ۖ ۝ ٦٢٦ ۖ ۝ ٦٢٧ ۖ ۝ ٦٢٨ ۖ ۝ ٦٢٩ ۖ ۝ ٦٣٠ ۖ ۝ ٦٣١ ۖ ۝ ٦٣٢ ۖ ۝ ٦٣٣ ۖ ۝ ٦٣٤ ۖ ۝ ٦٣٥ ۖ ۝ ٦٣٦ ۖ ۝ ٦٣٧ ۖ ۝ ٦٣٨ ۖ ۝ ٦٣٩ ۖ ۝ ٦٤٠ ۖ ۝ ٦٤١ ۖ ۝ ٦٤٢ ۖ ۝ ٦٤٣ ۖ ۝ ٦٤٤ ۖ ۝ ٦٤٥ ۖ ۝ ٦٤٦ ۖ ۝ ٦٤٧ ۖ ۝ ٦٤٨ ۖ ۝ ٦٤٩ ۖ ۝ ٦٥٠ ۖ ۝ ٦٥١ ۖ ۝ ٦٥٢ ۖ ۝ ٦٥٣ ۖ ۝ ٦٥٤ ۖ ۝ ٦٥٥ ۖ ۝ ٦٥٦ ۖ ۝ ٦٥٧ ۖ ۝ ٦٥٨ ۖ ۝ ٦٥٩ ۖ ۝ ٦٦٠ ۖ ۝ ٦٦١ ۖ ۝ ٦٦٢ ۖ ۝ ٦٦٣ ۖ ۝ ٦٦٤ ۖ ۝ ٦٦٥ ۖ ۝ ٦٦٦ ۖ ۝ ٦٦٧ ۖ ۝ ٦٦٨ ۖ ۝ ٦٦٩ ۖ ۝ ٦٧٠ ۖ ۝ ٦٧١ ۖ ۝ ٦٧٢ ۖ ۝ ٦٧٣ ۖ ۝ ٦٧٤ ۖ ۝ ٦٧٥ ۖ ۝ ٦٧٦ ۖ ۝ ٦٧٧ ۖ ۝ ٦٧٨ ۖ ۝ ٦٧٩ ۖ ۝ ٦٨٠ ۖ ۝ ٦٨١ ۖ ۝ ٦٨٢ ۖ ۝ ٦٨٣ ۖ ۝ ٦٨٤ ۖ ۝ ٦٨٥ ۖ ۝ ٦٨٦ ۖ ۝ ٦٨٧ ۖ ۝ ٦٨٨ ۖ ۝ ٦٨٩ ۖ ۝ ٦٩٠ ۖ ۝ ٦٩١ ۖ ۝ ٦٩٢ ۖ ۝ ٦٩٣ ۖ ۝ ٦٩٤ ۖ ۝ ٦٩٥ ۖ ۝ ٦٩٦ ۖ ۝ ٦٩٧ ۖ ۝ ٦٩٨ ۖ ۝ ٦٩٩ ۖ ۝ ٧٠٠ ۖ ۝ ٧٠١ ۖ ۝ ٧٠٢ ۖ ۝ ٧٠٣ ۖ ۝ ٧٠٤ ۖ ۝ ٧٠٥ ۖ ۝ ٧٠٦ ۖ ۝ ٧٠٧ ۖ ۝ ٧٠٨ ۖ ۝ ٧٠٩ ۖ ۝ ٧١٠ ۖ ۝ ٧١١ ۖ ۝ ٧١٢ ۖ ۝ ٧١٣ ۖ ۝ ٧١٤ ۖ ۝ ٧١٥ ۖ ۝ ٧١٦ ۖ ۝ ٧١٧ ۖ ۝ ٧١٨ ۖ ۝ ٧١٩ ۖ ۝ ٧٢٠ ۖ ۝ ٧٢١ ۖ ۝ ٧٢٢ ۖ ۝ ٧٢٣ ۖ ۝ ٧٢٤ ۖ ۝ ٧٢٥ ۖ ۝ ٧٢٦ ۖ ۝ ٧٢٧ ۖ ۝ ٧٢٨ ۖ ۝ ٧٢٩ ۖ ۝ ٧٣٠ ۖ ۝ ٧٣١ ۖ ۝ ٧٣٢ ۖ ۝ ٧٣٣ ۖ ۝ ٧٣٤ ۖ ۝ ٧٣٥ ۖ ۝ ٧٣٦ ۖ ۝ ٧٣٧ ۖ ۝ ٧٣٨ ۖ ۝ ٧٣٩ ۖ ۝ ٧٤٠ ۖ ۝ ٧٤١ ۖ ۝ ٧٤٢ ۖ ۝ ٧٤٣ ۖ ۝ ٧٤٤ ۖ ۝ ٧٤٥ ۖ ۝ ٧٤٦ ۖ ۝ ٧٤٧ ۖ ۝ ٧٤٨ ۖ ۝ ٧٤٩ ۖ ۝ ٧٥٠ ۖ ۝ ٧٥١ ۖ ۝ ٧٥٢ ۖ ۝ ٧٥٣ ۖ ۝ ٧٥٤ ۖ ۝ ٧٥٥ ۖ ۝ ٧٥٦ ۖ ۝ ٧٥٧ ۖ ۝ ٧٥٨ ۖ ۝ ٧٥٩ ۖ ۝ ٧٦٠ ۖ ۝ ٧٦١ ۖ ۝ ٧٦٢ ۖ ۝ ٧٦٣ ۖ ۝ ٧٦٤ ۖ ۝ ٧٦٥ ۖ ۝ ٧٦٦ ۖ ۝ ٧٦٧ ۖ ۝ ٧٦٨ ۖ ۝ ٧٦٩ ۖ ۝ ٧٧٠ ۖ ۝ ٧٧١ ۖ ۝ ٧٧٢ ۖ ۝ ٧٧٣ ۖ ۝ ٧٧٤ ۖ ۝ ٧٧٥ ۖ ۝ ٧٧٦ ۖ ۝ ٧٧٧ ۖ ۝ ٧٧٨ ۖ ۝ ٧٧٩ ۖ ۝ ٧٨٠ ۖ ۝ ٧٨١ ۖ ۝ ٧٨٢ ۖ ۝ ٧٨٣ ۖ ۝ ٧٨٤ ۖ ۝ ٧٨٥ ۖ ۝ ٧٨٦ ۖ ۝ ٧٨٧ ۖ ۝ ٧٨٨ ۖ ۝ ٧٨٩ ۖ ۝ ٧٩٠ ۖ ۝ ٧٩١ ۖ ۝ ٧٩٢ ۖ ۝ ٧٩٣ ۖ ۝ ٧٩٤ ۖ ۝ ٧٩٥ ۖ ۝ ٧٩٦ ۖ ۝ ٧٩٧ ۖ ۝ ٧٩٨ ۖ ۝ ٧٩٩ ۖ ۝ ٨٠٠ ۖ ۝ ٨٠١ ۖ ۝ ٨٠٢ ۖ ۝ ٨٠٣ ۖ ۝ ٨٠٤ ۖ ۝ ٨٠٥ ۖ ۝ ٨٠٦ ۖ ۝ ٨٠٧ ۖ ۝ ٨٠٨ ۖ ۝ ٨٠٩ ۖ ۝ ٨١٠ ۖ ۝ ٨١١ ۖ ۝ ٨١٢ ۖ ۝ ٨١٣ ۖ ۝ ٨١٤ ۖ ۝ ٨١٥ ۖ ۝ ٨١٦ ۖ ۝ ٨١٧ ۖ ۝ ٨١٨ ۖ ۝ ٨١٩ ۖ ۝ ٨٢٠ ۖ ۝ ٨٢١ ۖ ۝ ٨٢٢ ۖ ۝ ٨٢٣ ۖ ۝ ٨٢٤ ۖ ۝ ٨٢٥ ۖ ۝ ٨٢٦ ۖ ۝ ٨٢٧ ۖ ۝ ٨٢٨ ۖ ۝ ٨٢٩ ۖ ۝ ٨٣٠ ۖ ۝ ٨٣١ ۖ ۝ ٨٣٢ ۖ ۝ ٨٣٣ ۖ ۝ ٨٣٤ ۖ ۝ ٨٣٥ ۖ ۝ ٨٣٦ ۖ ۝ ٨٣٧ ۖ ۝ ٨٣٨ ۖ ۝ ٨٣٩ ۖ ۝ ٨٤٠ ۖ ۝ ٨٤١ ۖ ۝ ٨٤٢ ۖ ۝ ٨٤٣ ۖ ۝ ٨٤٤ ۖ ۝ ٨٤٥ ۖ ۝ ٨٤٦ ۖ ۝ ٨٤٧ ۖ ۝ ٨٤٨ ۖ ۝ ٨٤٩ ۖ ۝ ٨٥٠ ۖ ۝ ٨٥١ ۖ ۝ ٨٥٢ ۖ ۝ ٨٥٣ ۖ ۝ ٨٥٤ ۖ ۝ ٨٥٥ ۖ ۝ ٨٥٦ ۖ ۝ ٨٥٧ ۖ ۝ ٨٥٨ ۖ ۝ ٨٥٩ ۖ ۝ ٨٦٠ ۖ ۝ ٨٦١ ۖ ۝ ٨٦٢ ۖ ۝ ٨٦٣ ۖ ۝ ٨٦٤ ۖ ۝ ٨٦٥ ۖ ۝ ٨٦٦ ۖ ۝ ٨٦٧ ۖ ۝ ٨٦٨ ۖ ۝ ٨٦٩ ۖ ۝ ٨٧٠ ۖ ۝ ٨٧١ ۖ ۝ ٨٧٢ ۖ ۝ ٨٧٣ ۖ ۝ ٨٧٤ ۖ ۝ ٨٧٥ ۖ ۝ ٨٧٦ ۖ ۝ ٨٧٧ ۖ ۝ ٨٧٨ ۖ ۝ ٨٧٩ ۖ ۝ ٨٨٠ ۖ ۝ ٨٨١ ۖ ۝ ٨٨٢ ۖ ۝ ٨٨٣ ۖ ۝ ٨٨٤ ۖ ۝ ٨٨٥ ۖ ۝ ٨٨٦ ۖ ۝ ٨٨٧ ۖ ۝ ٨٨٨ ۖ ۝ ٨٨٩ ۖ ۝ ٨٩٠ ۖ ۝ ٨٩١ ۖ ۝ ٨٩٢ ۖ ۝ ٨٩٣ ۖ ۝ ٨٩٤ ۖ ۝ ٨٩٥ ۖ ۝ ٨٩٦ ۖ ۝ ٨٩٧ ۖ ۝ ٨٩٨ ۖ ۝ ٨٩٩ ۖ ۝ ٩٠٠ ۖ ۝ ٩٠١ ۖ ۝ ٩٠٢ ۖ ۝ ٩٠٣ ۖ ۝ ٩٠٤ ۖ ۝ ٩٠٥ ۖ ۝ ٩٠٦ ۖ ۝ ٩٠٧ ۖ ۝ ٩٠٨ ۖ ۝ ٩٠٩ ۖ ۝ ٩١٠

وقوله ﷺ : ﴿ فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ ﴾ أي عن الجهاد ونكلتهم عنه ﴿ أَنْ تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْصَامَكُمْ ﴾ ، أي تعودوا إلى ما كنتم فيه من الجاهلية الجهلاء تسفكون الدماء وتقطعون الأرحام ، ولهذا قال تعالى : ﴿ أُولَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعَمَّهُمْ أَصْنَمَهُمْ ﴾ وهذا نهى عن الإفساد في الأرض عموماً ، وعن قطع الأرحام خصوصاً ، بل قد أمر الله تعالى بالإصلاح في الأرض وصلة الأرحام ، وهو الإحسان إلى الأقارب في المقال والأفعال وبذل الأموال ، وقد وردت الأحاديث الصحاح والحسان بذلك عن رسول الله ﷺ من طرق عديدة ووجوه كثيرة ، عن أبي هريرة ؓ عن النبي ﷺ قال : « خلق الله تعالى الخلق ، فلما فرغ منه قامت الرحم فأخذت بحقوي الرحمن ﷻ فقال : مه ، فقالت : هذا مقام العائذ بك من القطيعة ، فقال تعالى : ألا ترضين أن أصل من وصلك وأقطع من قطعك ؟ قالت : بلى ، قال : فذاك لك » قال أبو هريرة ؓ : اقرأوا إن شئتم ﴿ فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ أَنْ تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْصَامَكُمْ ﴾ ^(١) .

وعن أبي بكر ؓ قال : قال رسول الله ﷺ : « ما من ذنب أحرى أن يعجل الله تعالى عقوبته في الدنيا مع ما يدخر لصاحبه في الآخرة من البغي وقطيعة الرحم ^(٢) » . وعن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده قال : جاء رجل إلى رسول الله ﷺ فقال يا رسول الله : إن لي ذوي أرحام ، أصل ويقطعون ، وأعفو ويظلمون ، وأحسن ويسبون ، أفأكافهم ؟ قال ﷺ : « لا ، إذن تتركون جميعاً ، ولكن مجد بالفضل وصلهم ؛ فإنه لن يزال معك ظهير من الله ﷻ ما كنت على ذلك » ^(٣) .

وعن عبد الله بن عمرو ؓ قال : « قال رسول الله ﷺ : « إن الرحم معلقة بالعرش ، وليس الواصل بالمكافئ ولكن الواصل الذي إذا قطعت رحمه وصلها ^(٤) » .

وعن إبراهيم بن عبد الله بن فارض ، أنه دخل على عبد الرحمن بن عوف ؓ وهو مريض ، فقال له عبد الرحمن ؓ : وصلتك رحم ، إن رسول الله ﷺ قال : قال الله ﷻ : أنا الرحمن خلقت الرحم وشققت لها اسماً من اسمي ، فمن يصلها أصله ، ومن يقطعها أقطعه فأبته » أو قال : « من بتها أبته » ^(٥) .

﴿ أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْفُرَاتِ أَدْرَ عَلَى قُلُوبِ أَقْفَالِهَا ﴾ ۝ ٢٨ ﴿ إِنَّ الَّذِينَ أَرَادُوا عَلَىٰ آذِينَهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّ لَهُمْ أَلْهُدًى ۖ الشَّيْطَانُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمَلَىٰ لَهُمْ ۝ ٢٩ ﴾ ذَلِكَ يَأْتِيهِمْ قَالُوا لِلَّذِينَ كَرِهُوا مَا نَزَّلَ اللَّهُ سَنُطِيعُكُمْ فِي بَعْضِ الْأَمْرِ ۖ وَاللَّهُ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ۝ ٣٠ فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَذْنَبَتُهُمْ ۝ ٣١ ذَلِكَ يَأْتِيهِمْ أَنْتَبَحُوا مَا أَسْخَطَ اللَّهُ وَكَرِهُوا رِضْوَانَهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَلَهُمْ ﴾ .

يقول تعالى أمراً بتدبر القرآن وتفهمه ونهاياً عن الإعراض عنه فقال : ﴿ أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْفُرَاتِ أَدْرَ عَلَى قُلُوبِ أَقْفَالِهَا ﴾ أي بل على قلوب أقفالها ، فهي مطبقة لا يخلص إليها شيء من معانيه ، عن هشام بن

(١) أخرجه البخاري في التوحيد (٧٥٠٢) ومسلم في البر والصلة (٢٥٥٤) ومعنى : « فأخذت بحقوي الرحمن » أي استجارت واعتصمت بالله تعالى .

(٢) أخرجه أحمد في مسنده (٣٨/٥) والترمذي في السنن (٢٥١١) والدارمي في السنن (٢٥٢) .

(٣) أخرجه أحمد في مسنده (١٨١/٢) .

(٤) أخرجه البخاري في الأدب (٥٩٨٩) وأحمد في مسنده (١٦٣/٢) والبيهقي في السنن (٢٧٠/٧) .

(٥) أخرجه أحمد في مسنده (١٩١/١) .

عروة عن أبيه عليه السلام قال : تلا رسول عليه السلام يوما ﴿ أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْفَرَاتِ أَرَأَيْتَ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا ﴾ فقال شاب من أهل اليمن : بل عليها أقفالها حتى يكون الله تعالى يفتحها أو يفرجها ، فما زال الشاب في نفس عمر عليه السلام حتى ولي فاستعان به ^(١) . ثم قال تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ ارْتَدَوْا عَلَىٰ أَدْبَارِهِمْ مِن بَعْدِ مَا بَيَّنَّ لَهُمُ الْهُدَىٰ ﴾ أي فارقوا الإيمان ورجعوا إلى الكفر ﴿ مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّ لَهُمُ الْهُدَىٰ الشَّيْطَانُ سَوَّلَ لَهُمْ ﴾ أي زين لهم ذلك وحسنه ﴿ وَأَمَّا لَهُمْ ﴾ أي غرهم وخدعهم ﴿ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لِلَّذِينَ كَرِهُوا مَا نَزَّلَ اللَّهُ سُبُطُكُمْ فِي بَعْضِ الْأُمَرِ ﴾ أي مالؤوهم وناصحوهم في الباطن على الباطل ، وهذا شأن المنافقين يظهرهم خلاف ما يظنون ، ولهذا قال الله تعالى : ﴿ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ ﴾ أي ما يسرون وما يخفون ، الله مطلع عليه وعالم به كقوله تبارك وتعالى : ﴿ وَاللَّهُ يَكْتُبُ مَا يُبَيِّنُونَ ﴾ .

ثم قال تعالى : ﴿ فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُ الْمَلَائِكَةُ يُضَيَّرُونَ وَحُجُوبُهُمْ وَأَدْبَارُهُمْ ﴾ أي كيف حالهم إذا جاءتهم الملائكة لقبض أرواحهم وتعاصت الأرواح في أجسادهم واستخرجتها الملائكة بالعنف والقهر والضرب ، كما قال عليه السلام : ﴿ وَلَوْ نَرَىٰ إِذْ يَتَوَفَّى الَّذِينَ كَفَرُوا الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ ﴾ الآية . ولهذا قال ههنا : ﴿ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ اتَّبَعُوا مَا آسَخَطَ اللَّهُ وَكَرِهُوا رِضْوَانَهُ فَاحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ ﴾ . ﴿ أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ أَنْ لَنْ يُخْرِجَ اللَّهُ أَضْغَنَهُمْ ﴾ وَلَوْ نَشَاءُ لَأَرَيْنَاكَهُمْ فَتَعَرَّفَهُمْ بِسِمَتِهِمْ لَنَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَالَكُمْ ﴾ وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ الْمُجْتَهِدِينَ مِنكُمْ وَالصَّادِقِينَ وَنَبْلُوَ أَخْبَارَكُمْ ﴾ . يقول تعالى : ﴿ أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ أَنْ لَنْ يُخْرِجَ اللَّهُ أَضْغَنَهُمْ ﴾ أي أيعتقد المنافقون أن الله لا يكشف أمرهم لعباده المؤمنين ، بل سيوضح أمرهم ويجليه حتى يفهمهم ذرو البصائر ، وقد أنزل الله تعالى في ذلك سورة براءة فبين فيها فضائحهم ، وما يعتمدونه من الأفعال الدالة على نفاقهم ، ولهذا كانت تسمى الفاضحة . والأضغان : جمع ضغن وهو مافي النفوس من الحسد والحقد للإسلام وأهله والقائمين بنصره . وقوله تعالى : ﴿ وَلَوْ نَشَاءُ لَأَرَيْنَاكَهُمْ فَتَعَرَّفَهُمْ بِسِمَتِهِمْ ﴾ يقول عليه السلام : ولو نشاء لأريناك أشخاصهم فعرفتهم عياناً ، ولكن لم يفعل تعالى ذلك في جميع المنافقين سترًا منه على خلقه ، وحملًا للأمور على ظاهر السلامة ، وردًا للسرائر إلى عالمها ﴿ وَلَنَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ ﴾ أي فيما يبدو من كلامهم الدال على مقاصدهم يفهم المتكلم من أي الحزين هو بمعاني كلامه وفجواه ، وهو المراد من لحن القول كما قال أمير المؤمنين عثمان بن عفان عليه السلام : ما أسر أحد سريرة إلا أبداها الله على صفحات وجهه وفتلت لسانه .

وفي الحديث : « ما أسر أحد سريرة إلا كساه الله تعالى جلبابها إن خيرًا فخير وإن شرًا فشر » ^(٢) عن أبي مسعود عقبة بن عمرو عليه السلام قال : خطبنا رسول الله عليه السلام خطبة فحمد الله تعالى وأثنى عليه ثم قال : « إن منكم منافقين فمن سميت فليقم » - ثم قال : « قم يا فلان ، قم يا فلان ، قم يا فلان » حتى سمي ستة وثلاثين رجلًا ثم قال : « إن فيكم - أو منكم - منافقين فاتقوا الله » قال فمر عمر عليه السلام برجل من سمي مقنع قد كان يعرفه فقال : مالك ؟ فحدثه بما قال رسول الله عليه السلام فقال : بعدًا لك

(١) ذكره الطبري في تفسيره (٧٥/٢٦) .

(٢) أخرجه الطبراني في الكبير (١٨٤/٢) والهيتمي في مجمع الزوائد (٢٢٥/١٠) .

سائر اليوم ^(١) . وقوله ﷻ ﴿ وَلِتَبَيِّنُكُمْ ﴾ أي لنختبرنكم بالأوامر والنواهي ، ﴿ حَتَّى نَعْلَمَ الْمُحْسِنِينَ مِنْكُمْ وَالضَّالِّينَ وَنَبْلُوَ أَخْبَارَكُمْ ﴾ ، وليس في تقدم علم الله تعالى بما هو كائن أنه سيكون شك ولا ريب ، فالمراد حتى نعلم وقوعه ، ولهذا يقول ابن عباس ؓ في مثل هذا : إلا لنعلم أي لنرى .

﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَشَاقُّوا الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَىٰ لَنْ يَصْرِفُوا عَنْهُ شَيْئًا وَسَيُحِطُّ أََعْمَلُهُمْ ﴾ • يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَلَا تُبْطِلُوا أَعْمَالَكُمْ • إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ مَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ • فَلَا تَهْتُوا وَتَدْعُوا إِلَى السَّلٰى وَأَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ وَاللَّهُ مَعَكُمْ وَلَنْ يَزِيَّكُمْ أَعْمَالَكُمْ • .
يخبر تعالى عن كفر وصد عن سبيل الله وخالف الرسول وشاقه ، وارتد عن الإيمان من بعد ما تبين له الهدى أنه لن يضر الله شيئاً ، وإنما يضر نفسه ويخسرها يوم معادها ، وسيحبط الله عمله فلا يشبهه على سالف ما تقدم من عمله الذي عقبه برده مثقال بعوضة من خير ، بل يحبطه ويمحقه بالكلية كما أن الحسنات يذهبن السيئات ، وعن أبي العالية : كان أصحاب رسول الله ﷺ يرون أنه لا يضر مع « لا إلا الله » ذنب كما لا ينفع مع الشرك عمل فنزلت ﴿ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَلَا تُبْطِلُوا أَعْمَالَكُمْ ﴾ فخافوا أن يبطل الذنب العمل . وعن ابن عمر ؓ قال : كنا معشر أصحاب رسول الله ﷺ نرى أنه ليس شيء من الحسنات إلا مقبول حتى نزلت ﴿ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَلَا تُبْطِلُوا أَعْمَالَكُمْ ﴾ ، فقلنا : ما هذا الذي يبطل أفعالنا ؟ قلنا : الكبائر الموجبات والفواحش حتى نزل قوله تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ ﴾ فلما نزلت كففنا عن القول في ذلك فكنا نخاف على من أصاب الكبائر والفواحش ونرجو لمن لم يصبها .

ثم أمر تبارك وتعالى عباده المؤمنين بطاعته وطاعة رسوله التي هي سعادتهم في الدنيا والآخرة ونهاهم عن الارتداد الذي هو مبطل للأعمال ، ولهذا قال تعالى : ﴿ وَلَا تُبْطِلُوا أَعْمَالَكُمْ ﴾ أي بالردة ، ولهذا قال بعدها ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ مَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ • . ثم قال جلا وعلا لعباده المؤمنين ﴿ فَلَا تَهْتُوا ﴾ أي لا تضعفوا عن الأعداء ﴿ وَتَدْعُوا إِلَى السَّلٰى ﴾ أي المهادنة والمسالمة ووضع القتال بينكم وبين الكفار في حال قوتكم وكثرة عددكم وعددكم ، .. ولهذا قال : ﴿ فَلَا تَهْتُوا وَتَدْعُوا إِلَى السَّلٰى وَأَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ ﴾ أي في حال علوكم على عدوكم . . فأما إذا كان الكفار فيهم قوة وكثرة بالنسبة إلى جميع المسلمين ، ورأى الإمام في المهادنة ، والمعاهدة مصلحة ؛ فله أن يفعل ذلك ، كما فعل رسول الله ﷺ حين صده كفار قريش عن مكة ودعوه إلى الصلح ، ووضع الحرب بينهم وبينه عشر سنين فأجابهم ﷺ إلى ذلك . وقوله جلت عظمته ﴿ وَاللَّهُ مَعَكُمْ ﴾ فيه بشارة عظيمة بالنصر والظفر على الأعداء ﴿ وَلَنْ يَزِيَّكُمْ أَعْمَالَكُمْ ﴾ أي ولن يحبطها ويبطلها ويسلبكم إياها بل يوفيكم ثوابها ولا ينقصكم منها شيئاً ، والله أعلم .

﴿ إِنَّمَا الْحَيٰوةُ الدُّنْيَا لَبِيسٌ وَلَهُوَ الْآخِرُ وَإِنْ تَوَيْمُوا وَتَنَفَّوْا يُؤَيِّدُكُمْ أَجُورُكُمْ وَلَا يَسْتَلْكُمْ أَمْوَالُكُمْ • إِنَّ يَسْتَلْكُمُوهَا فَيُخْفِئَكُمْ بِهَا تَبْطُلُوا وَتُخْرِجُ أَصْعَانَكُمْ • هَآأَنْتُمْ هَآؤَآءَ تَدْعُونَ لِشِفْعَتِكَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَمُوتُ مَنْ يَبْخُلُ وَمَنْ يَبْخُلْ فَإِنَّمَا يَبْخُلُ عَنْ نَفْسِهِ وَاللَّهُ الْغَفُورُ الْكَرِيمُ وَأَنْتُمْ الْفُقَرَاءُ وَإِنْ تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَلَكُمْ • .

يقول تعالى تحقيرا لأمر الدنيا وتهويئا لشأنها ﴿ إِنَّمَا لِلْيَتِيمِ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهُوَ ﴾ أي حاصلها ذلك إلا ما كان منها لله ﷻ ، ولهذا قال تعالى : ﴿ وَإِنْ تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا يُؤْتِكُمْ أَجْرَكُمْ وَلَا يَسْتَلْكُمْ أَمْوَالُكُمْ ﴾ أي هو غني عنكم لا يطلب منكم شيئا وإنما فرض عليكم الصدقات من الأموال مواساة لإخوانكم الفقراء ، ليعود نفع ذلك عليكم ويرجع ثوابه إليكم ، ثم قال ﷻ : ﴿ إِنْ يَسْأَلْكُمُوهَا فَيُحْبِبْكُمُ بِهَا ﴾ أي يخرجكم تبخلوا ﴿ وَيُخْرِجْ أَضْعَافَكُمْ ﴾ قال قتادة : قد علم الله تعالى إن في إخراج الأموال إخراج الأضغان . وصدق قتادة ؛ فإن المال محبوب ولا يصرف إلا فيما هو أحب إلى الشخص منه . وقوله تعالى : ﴿ هَتَأْتُهُمْ بَعْثَ أَهْلِكَ بِتِلْكَ الْوَلَدِ الْمَرْجُومِ ﴾ أي لا يجيب إلى ذلك ﴿ وَمَنْ يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلْ عَنْ نَفْسِهِ ﴾ أي إنما نقص نفسه من الأجر وإنما يعود وبال ذلك عليه ﴿ وَاللَّهُ الْغَنِيُّ ﴾ أي عن كل ماسواه وكل شيء فقير إليه دائما ، ولهذا قال تعالى : ﴿ وَأَنْتُمْ الْفُقَرَاءُ ﴾ أي بالذات إليه ، فوصفه بالغنى وصف لازم له ، ووصف الخلق بالفقر وصف لازم لهم لا ينفكون عنه . وقوله تعالى : ﴿ وَإِنْ تَتَوَلَّوْا ﴾ أي عن طاعته واتباع شرعه ﴿ يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَلَكُمْ ﴾ أي ولكن يكونون سامعين مطيعين له ولأوامره . عن أبي هريرة ﷺ قال : إن رسول الله ﷺ تلا هذه الآية ﴿ وَإِنْ تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَلَكُمْ ﴾ قالوا : يا رسول الله من هؤلاء الذين إن تولينا استبدل بنا ثم لا يكونوا أمثالنا ؟ قال : فضرب يده على كتف سلمان الفارسي ﷺ ثم قال : « هذا وقومه ، ولو كان الدين عند الثريا لتناوله رجال من الفرس » ^(١) .

(١) أخرجه الترمذي في السنن (٣٢٦٠) والألباني في الصحيحة (١٠١٧) .

سورة الفتح

عن عبد الله بن مغفل يقول : قرأ رسول الله ﷺ عام الفتح في مسيرة سورة الفتح على راحلته ، فرجع فيها . قال معاوية : لولا أنني أكره أن يجتمع الناس علينا لحكيت قراءته ^(١) .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا ۝ لِيُغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَيَهْدِيكَ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا ۝ وَيَنْصُرَكَ اللَّهُ نَصْرًا عَظِيمًا ۝ ﴾ .

نزلت هذه السورة الكريمة لما رجع رسول الله ﷺ ، من الحديبية في ذي القعدة من سنة ست من الهجرة ، حين صده المشركون عن الوصول الى المسجد الحرام فيقضي عمرته فيه ، وحالوا بينه وبين ذلك ثم مالوا إلى المصالحة والمهادنة ، وأن يرجع عامه هذا ثم يأتي من قابل ، فأجابهم إلى ذلك على تكره من جماعة من الصحابة ، منهم عمر بن الخطاب ، فلما نحر هديه حيث أحصر ورجع أنزل الله ﷻ هذه السورة فيما كان من أمره وأمرهم ، وجعل ذلك الصلح فتحا باعتبار ما فيه المصلحة وما آل الأمر إليه ، وعن البراء ، قال : تعدون أنتم الفتح فتح مكة ، وقد كان فتح مكة فتحا ، ونحن نعد الفتح بيعة الرضوان يوم الحديبية ، كنا مع رسول الله ﷺ أربع عشرة مائة ، والحديبية بئر فترحناها ، فلم نترك فيها قطرة ، فبلغ ذلك رسول الله ﷺ فأتاها فجلس على شفيرها ثم دعا بإناء من ماء فتوضأ ، ثم تغمض ودعا ثم صبه فيها فتركناها غير بعيد ، ثم أنها أصدرتنا ماشئنا نحن وركائبنا ^(٢) .

وعن عمر بن الخطاب ، قال : كنا مع رسول الله ﷺ في سفر قال : فسألت عن شيء ثلاث مرات فلم يرد علي ، قال : فقلت في نفسي : ثكلتك أمك يا ابن الخطاب ألححت على رسول الله ﷺ ثلاث مرات فلم يرد عليك ؟ قال : فركبت راحلتي فحركت بعيري فتقدمت مخافة أن يكون نزل في شيء ، قال : فإذا أنا بمناد يا عمر ، قال : فرجعت وأنا أظن أنه نزل في شيء ، قال : فقال النبي ﷺ « نزل علي البارحة سورة هي أحب إلي من الدنيا وما فيها ﴾ ﴿ إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا ۝ لِيُغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ ۝ ﴾ ^(٣) ، وعن مجمع بن حارثة الأنصاري ، وكان أحد القراء الذين قرأوا القرآن قال : شهدنا الحديبية ، فلما انصرفنا عنها إذا الناس ينفرون الأباغر ، فقال الناس بعضهم لبعض : ما للناس ؟ قالوا : أوحى إلى رسول الله ﷺ فخرجنا مع الناس نوجف ، فإذا رسول الله ﷺ على راحلته عند كراع الغميم ، فاجتمع الناس عليه فقرأ عليهم ﴿ إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا ﴾ قال : فقال رجل من أصحاب رسول الله ﷺ : أي رسول الله أوفتح هو ؟ قال ﷺ : « إي والذي نفس محمد بيده إنه لفتح » قسمت خير على أهل الحديبية ، لم يدخل معهم فيها أحد إلا من شهد الحديبية ، فقسمها رسول الله ﷺ ثمانية عشر سهما . وكان الجيش ألفا وخمسمائة منهم ثلثمائة

(١) أخرجه البخاري في تفسير القرآن (٤٨٣٥) وأحمد في مسنده (٢٤/٥) .

(٢) أخرجه البخاري في المغازي (٤١٥٠) .

(٣) أخرجه البخاري في تفسير القرآن (٤٨٣٣) والترمذي في السنن (٣٢٦٢) كلاهما بنحوه ، وأحمد في مسنده (٣١/١) بلفظه .

فارس ، فأعطي الفارس سهمين ، وأعطي الرجل سهماً ^(١) .

وعن المغيرة بن شعبه يقول : كان النبي ﷺ يصلي حتى ترم قدماه ، فقيل له : أليس قد غفر الله لك ماتقدم من ذنبك وما تأخر ؟ فقال ﷺ : « أفلا أكون عبداً شكوراً » ^(٢) . فقلوه : ﴿ إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا ﴾ أي بيناً وظاهراً ، والمراد به صلح الحديبية ، فإنه حصل بسببه خير جليل ، وآمن الناس واجتمع بعضهم ببعض ، وتكلم المؤمن مع الكافر وانتشر العلم النافع والإيمان .

وقوله تعالى : ﴿ لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ ﴾ هذا من خصائصه ﷺ التي لا يشاركه فيها غيره ، وليس في حديث صحيح في ثواب الأعمال لغيره غفر له ماتقدم من ذنبه وماتأخر ، وهذا فيه تشريف لرسول الله ﷺ ، وهو ﷺ في جميع أموره على الطاعة والبر والاستقامة التي لم ينلها بشر سواه لا من الأولين ولا من الآخرين ، وهو ﷺ أكمل البشر على الإطلاق وسيدهم في الدنيا والآخرة ، ولما كان أطوع خلق الله تعالى وأشدهم تعظيماً لأوامره ونواهيه قال : حين بركت به الناقة : « حبسها حابس الفيل » ثم قال ﷺ : « والذي نفسي بيده لا يسألوني اليوم شيئاً يعظمون به جرمات الله إلا أجبتهم إليها » ^(٣) فلما أطاع الله في ذلك وأجاب إلى الصلح قال الله تعالى له : ﴿ إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا ﴾ لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ أَي فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَيَهْدِيكَ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا ﴾ أي بما يشرعه لك من الشرع العظيم والدين القويم ﴿ وَيَنْصُرَكَ اللَّهُ نَصْرًا عَظِيمًا ﴾ أي بسبب خضوعك لأمر الله ﷻ يرفعك الله وينصرك على أعدائك كما جاء في الحديث الصحيح « وما زاد الله عبداً بعفو إلا عزاً ، وما تواضع أحد لله ﷻ إلا رفعه الله تعالى » ^(٤) .

﴿ هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوا إِيمَانًا مَعَ إِيْمَانِهِمْ وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴾ لِيَدْخُلَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَيُكَفِّرُ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَكَانَ ذَلِكَ عِنْدَ اللَّهِ فَوْزًا عَظِيمًا ﴿ وَيُعَذِّبُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ الظَّالِمَاتِ بِاللَّهِ ظَلَمَ السَّوْءَ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا ﴾ وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا .

يقول تعالى : ﴿ هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ السَّكِينَةَ ﴾ أي جعل الطمأنينة ، قال ابن عباس ، الرحمة ، وقال قتادة : الوقار في قلوب المؤمنين ، وهم الصحابة يوم الحديبية الذين استجابوا لله ولرسوله وانقادوا لحكم الله ورسوله ، فلما اطمأنت قلوبهم بذلك واستقرت زادهم إيماناً مع إيمانهم ، وقد استدل بها البخاري وغيره من الأئمة على تفاضل الإيمان في القلوب ، ثم ذكر تعالى أنه لو شاء لانتصر من الكافرين فقال ﷻ : ﴿ وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ أي ولو أرسل عليهم ملكاً واحداً لأباد خضراءهم ، ولكنه تعالى شرع لعباده المؤمنين الجهاد والقتال ، لما له في ذلك من الحكمة البالغة والحجة القاطعة والبراهين الدامغة ، ولهذا قال جلت عظمته ﴿ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴾ .

ثم قال ﷻ : ﴿ لِيَدْخُلَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ﴾ قد تقدم حديث أنس

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٤٢٠/٣) .

(٢) أخرجه البخاري في التهجد (٤٨٣٦) ومسلم في صفات المنافقين (٧٩) وابن ماجه في السنن (١٤١٩) وأحمد في مسنده (١١٥/٦) .

(٣) أخرجه البيهقي في السنن (٢١٩/٩) .

(٤) أخرجه مسلم في البر والصلة (٦٩) والدارمي في السنن (٣٥) ومالك في الموطأ (١٢) .

حين قالوا : هنيئاً لك يا رسول الله ، هذا لك فما لنا ؟ فأنزل الله تعالى : ﴿ يَذِخِرَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ﴾ أي ما كثر فيها أبداً ﴿ وَيُكَفِّرُ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ ﴾ أي خطاياهم وذنوبهم فلا يعاقبهم عليها ، بل يعفو ويصفح ويغفر ويستر ويرحم ويشكر ﴿ وَكَانَ ذَلِكَ عِنْدَ اللَّهِ فَوْزاً عَظِيماً ﴾ كقوله تعالى : ﴿ فَمَنْ ذُخِرَ عَنِ الْكَارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ ﴾ . وقوله تعالى : ﴿ وَيَعِزُّبِ الْمُنِيفِينَ وَالْمُنِيفَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ ظِلَّاتٍ بِاللَّهِ ظَلِ الشَّوْرِ ﴾ أي يهتمون الله تعالى في حكمه ويظنون بالرسول ﷺ وأصحابه ﷺ أن يقتلوا ويذهبوا بالكلية ، ولهذا قال تعالى : ﴿ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْرِ وَعَظِيبُ اللَّهِ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ ﴾ أي أبعدهم من رحمته ﴿ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا ﴾ ، ثم قال ﷺ مؤكداً لقدرته على الانتقام من الأعداء ، أعداء الإسلام من الكفرة والمنافقين : ﴿ وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ غَرِيْبًا حَكِيْمًا ﴾ .

﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَهِيدًا وَبَشِيرًا وَنَذِيرًا ﴾ ﴿ لَتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴾ ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكُمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ يَدْ أَفَّ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ فَمَنْ نَكَتْ فَإِنَّمَا يَنْكُ عَلَى نَفْسِهِ وَمَنْ أَوْفَى بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهِ اللَّهُ فَمَسِيُوْنُهُ أَجْرًا عَظِيْمًا ﴾ .

يقول تعالى لنبيه محمد ﷺ : ﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَهِيدًا ﴾ أي على الخلق ﴿ وَبَشِيرًا ﴾ أي للمؤمنين ﴿ وَنَذِيرًا ﴾ أي للكافرين ﴿ لَتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ ﴾ وغير واحد : تعظموه ﴿ وَتُسَبِّحُوهُ ﴾ من التوقير وهو الاحترام والإجلال والإعظام ﴿ وَتُسَبِّحُوهُ ﴾ أي تسبحون الله ﴿ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴾ أي أول النهار وآخره . ثم قال ﷺ لرسوله ﷺ تشريفاً له وتعظيماً وتكريماً ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكُمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ يَدْ أَفَّ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ ﴾ أي هو حاضر معهم يسمع أقوالهم ويرى مكانهم ويعلم ضمائرهم وظواهرهم ؛ فهو تعالى هو المبايع بواسطة رسول الله ﷺ . عن أبي هريرة ؓ قال : قال رسول الله ﷺ : « من سل سيفه في سبيل الله فقد بايع الله » ^(١) وعن ابن عباس ؓ قال : قال رسول الله ﷺ في الحجر « والله ليعبثه الله ﷻ يوم القيامة له عيان ينظر بهما ، ولسان ينطق به ، ويشهد على من استلمه بالحق ، فمن استلمه فقد بايع الله تعالى » ثم قرأ رسول الله ﷺ ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكُمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ يَدْ أَفَّ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ ﴾ ^(٢) . ولهذا قال تعالى ههنا : ﴿ فَمَنْ نَكَتْ فَإِنَّمَا يَنْكُ عَلَى نَفْسِهِ ﴾ أي إنما يعود وبال ذلك على الناكث والله غني عنه ﴿ وَمَنْ أَوْفَى بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهِ اللَّهُ فَمَسِيُوْنُهُ أَجْرًا عَظِيْمًا ﴾ أي ثواباً جزيلًا . وهذه البيعة هي بيعة الرضوان وكانت تحت شجرة سمره بالحديبية ، وكان الصحابة ؓ الذين بايعوا رسول الله ﷺ يومئذ قبل ألفاً وثلاثمائة ، وقيل وأربعمائة ، وقيل وخمسمائة ، والأوسط أصح .

ذكر الأحاديث الواردة في ذلك : عن جابر ؓ قال : كنا يومئذ ألفاً وأربعمائة ، ووضع يده في ذلك الماء فجعل الماء ينبع من بين أصابعه حتى رويوا كلهم ، وهذا مختصر من سياق آخر حين ذكر قصة عطشهم يوم الحديبية ، وأن رسول الله ﷺ أعطاهم سهماً من كنانته فوضعه في بئر الحديبية ، فجاشت بالماء حتى كفتهم فقيل لجابر ؓ : كم كنتم يومئذ ؟ قال : كنا ألفاً وأربعمائة ولو كنا مائة ألف لكفانا ^(٣) ، وعنه أنهم كانوا خمس عشرة مائة ^(٤) .

(١) ذكره الهندي في كنز العمال (١٠٤٨٩) وعزه لابن مردويه .

(٢) أخرجه الترمذي في السنن (٩٦١) .

(٣) أخرجه البخاري في تفسير القرآن (٤٨٤٠) .

(٤) أخرجه البخاري في الناقب (٣٥٧٧) .

ذكر سبب هذه البيعة العظيمة

قال محمد بن إسحاق بن يسار في السيرة : ثم دعا رسول الله ﷺ عمر بن الخطاب ﷺ لبيعته إلى مكة ، ليلبلغ عنه أشراف قريش ما جاء له فقال : يا رسول الله إني أخاف قريشاً على نفسي ، وليس بمكة من بني عدي بن كعب من يمنعي ، وقد عرفت قريش عداوتي إياها وغلظي عليها ، ولكنني أدلك على رجل أعز بها مني ، عثمان بن عفان ﷺ ، نبعثه إلى أبي سفيان وأشراف قريش يخبرهم أنه لم يأت للحرب ، وأنه إنما جاء زائراً لهذا البيت ومعظماً لحرمة . فخرج عثمان ﷺ إلى مكة ، فلقه أبان بن سعيد بن العاص حين دخل مكة أو قبل أن يدخلها ، فحملة بين يديه ثم أجاره حتى بلغ رسالة رسول الله ﷺ ، فانطلق عثمان ﷺ حتى أتى أبا سفيان وعظماً قريش ، فبلغهم عن رسول الله ﷺ ما أرسله به ، فقالوا لعثمان ﷺ حين فرغ من رسالة رسول الله ﷺ إليهم : إن شئت أن تطوف بالبيت فطف . فقال : ما كنت لأفعل حتى يطوف به رسول الله ﷺ . واحتبسته قريش عندها ، فبلغ رسول الله ﷺ والمسلمين أن عثمان ﷺ قد قتل . قال ابن إسحاق : فحدثني عبد الله ابن أبي بكر أن رسول الله ﷺ قال حين بلغه أن عثمان قد قتل : « لانبرح حتى نناجز القوم » ^(١) .

ودعا رسول الله ﷺ الناس إلى البيعة ، فكانت بيعة الرضوان تحت الشجرة ، فكان الناس يقولون : بايعهم رسول الله ﷺ على الموت ، وكان جابر بن عبد الله ﷺ يقول : إن رسول الله ﷺ لم يبايعهم على الموت ، ولكن بايعنا على أن لا نفر ، فبايع الناس ولم يتخلف أحد من المسلمين حضرها إلا الجذ بن قيس أخو بني سلمة ، فكان جابر ﷺ يقول : والله لكأنني أنظر إليه لاصقاً يابط ناقته قد صبأ إليها يستتر بها من الناس ، ثم أتى رسول الله ﷺ أن الذي كان من أمر عثمان ﷺ باطل ، وذكر عن عروة بن الزبير قريئاً من هذا السياق ، وزاد في سياقه أن قريشاً بعثوا - وعندهم عثمان ﷺ - سهيل بن عمرو ، وحويطب بن عبد العزى ، ومكرز بن حفص إلى رسول الله ﷺ فيبينما هم عندهم ؛ إذ وقع كلام بين بعض المسلمين وبعض المشركين ، وتراموا بالنبل والحجارة وصاح الفريقان كلاهما ، وارتهن كل من الفريقين من عنده من الرسل ، ونادى منادي رسول الله ﷺ : ألا إن روح القدس قد نزل على رسول الله ﷺ وأمر بالبيعة ، فاخرجوا على اسم الله تعالى فبايعوا ، فسار المسلمون إلى رسول الله ﷺ وهو تحت الشجرة فبايعوه على أن لا يفروا أبداً . فأرعب ذلك المشركين وأرسلوا من كان عندهم من المسلمين ودعوا إلى المودة والصالح .

وعن نافع ﷺ قال : إن الناس يتحدثون أن ابن عمر ﷺ أسلم قبل عمر وليس كذلك ، ولكن عمر ﷺ يوم الحديبية أرسل عبد الله إلى فرس له عند رجل من الأنصار ، أن يأتي به ، ليقا تل عليه ورسول الله ﷺ يبايع عند الشجرة ، وعمر ﷺ لا يدري بذلك ، فبايعه عبد الله ﷺ ، ثم ذهب إلى الفرس فجاء به إلى عمر ﷺ ، وعمر ﷺ يستلهم للقتال ، فأخبره أن رسول الله ﷺ يبايع تحت الشجرة ، فانطلق فذهب معه حتى بايع رسول الله ﷺ وهي التي يتحدث عنها . الناس أن ابن عمر أسلم قبل عمر ﷺ ^(٢) .

(٢) ذكره ابن الجوزي في زاد المسير (٤٢٢/٧) .

(١) أخرجه البخاري في المغازي (٤١٨٦) .

وعن معقل بن يسار رضي الله عنه قال : لقد رأيتني يوم الشجرة والنبي صلى الله عليه وسلم يبايع الناس ، وأنا رافع غصنًا من أغصانها على رأسه ، ونحن أربع عشرة مائة ، قال : ولم نبايعه على الموت ، ولكن بايعناه على أن لا نفر ^(١) . وعن سلمة بن الأكوع رضي الله عنه قال : بايعت رسول الله صلى الله عليه وسلم تحت الشجرة . قال يزيد : قلت : يا أبا مسلمة على أي شيء كنتم تبايعون يومئذ ؟ قال : على الموت ^(٢) .

وعن سلمة بن الأكوع رضي الله عنه أيضًا قال : قدمنا الحديبية مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ونحن أربع عشرة مائة ، وعليها خمسون شاة لا ترونها ، ففقد رسول الله صلى الله عليه وسلم على جباها ، يعني الركي ، فإما دعا وإما بصق فيها فجاشت فسقينا واستقينا . قال : ثم إن رسول الله صلى الله عليه وسلم دعا إلى البيعة في أصل الشجرة ، فبايعته أول الناس ثم بايع وبايع حتى إذا كان في وسط الناس قال صلى الله عليه وسلم : « بايعني يا سلمة » قال : قلت : يا رسول الله : قد بايعتك في أول الناس قال صلى الله عليه وسلم : « وأيضًا » قال ورأني رسول الله صلى الله عليه وسلم عزلاً فأعطاني حجة أو درقة ، ثم بايع ، حتى إذا كان في آخر الناس ، قال صلى الله عليه وسلم : « ألا تبايع يا سلمة ؟ » قال : قلت : يا رسول الله قد بايعتك في أول الناس وأوسطهم ، قال صلى الله عليه وسلم : « وأيضًا » فبايعته الثالثة ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « يا سلمة أين حجفتك أو درقتك التي أعطيتك ؟ » قال : قلت : يا رسول الله لقيني عامر عزلاً فأعطيتها إياه فضحك رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم قال : « إنك كالذي قال الأول اللهم ابغني حبيبا هو أحب إلي من نفسي » قال : ثم إن المشركين من أهل مكة راسلونا في الصلح حتى مشى بعضهم في بعض فاصطلحنا . قال : وكنت خادماً لطلحة بن عبيد الله رضي الله عنه أسقي فرسه وأجنبه وأكل من طعامه ، وتركت أهلي ومالي مهاجراً إلى الله ورسوله ، فلما اصطلحنا نحن وأهل مكة واختلط بعضهم في بعض أتيت شجرة فكشحت شوكة ، ثم اضطجعت في أصلها - في ظلها - فأتاني أربعة من مشركي أهل مكة ، فجعلوا يقعون في رسول الله صلى الله عليه وسلم فأبغضتهم وتحولت إلى شجرة أخرى فعلقوا سلاحهم واضطجعوا ، فبينما هم كذلك ؛ إذ نادى مناد من أسفل الوادي : ياللمهاجرين قتل ابن زنيم ، فاخترطت سيفي فشددت على أولئك الأربعة ، وهم رقود ، فأخذت سلاحهم وجعلته ضغثاً في يدي ثم قلت : والذي كرم وجهه محمد صلى الله عليه وسلم لا يرفع أحد منكم رأسه إلا ضربت الذي فيه عيناه ، قال : ثم جئت بهم أسوقهم إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : وجاء عمي عامر برجل من العيلات يقال له : مكرز من المشركين يقوده حتى وقفنا بهم على رسول الله صلى الله عليه وسلم في سبعين من المشركين ، فنظر إليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال : « دعوهم يكن لهم بدء الفجور وثناؤه » فعفا عنهم رسول الله صلى الله عليه وسلم وأنزل الله تعالى ﴿ وَمَنْ أَلْزَىٰ كَيْفَ أَيْدِيهِمْ عَنْكُمْ وَأَيْدِيكُمْ عَنْهُمْ بَيْنَ مَكَّةَ مِنْ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ ﴾ ^(٣) .

وعن جابر رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « من يصعد الثنية ثنية المزار ؛ فإنه يحط عنه ما حط عن بني إسرائيل » فكان أول من صعد خيل بني الخزرج ثم تبادر الناس بعد ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : « كلكم مغفور له إلا صاحب الجمل الأحمر » فقلنا : تعال يستغفر لك رسول الله صلى الله عليه وسلم . فقال : والله لأن أجد ضالتي أحب إلي من أن يستغفر لي صاحبكم ، فإذا هو رجل ينشد ضالة ^(٤) .

(١) أخرجه البخاري في تفسير القرآن (٤٨٤٠) .

(٢) أخرجه البخاري في الأحكام (٧١٩٩) .

(٣) أخرجه مسلم في الجهاد (١٣٢) وأحمد في مسنده (٥٤/٤) .

(٤) أخرجه مسلم في صفات المنافقين (١٢) والحاكم في المستدرک (٨٣/٤) .

وعن أبي الزبير أنه سمع جابرًا رضي الله عنه يقول : أخبرني أم مبشر أنها سمعت رسول الله ﷺ يقول عند حفصة رضي الله عنها : « لا يدخل النار إن شاء الله تعالى من أصحاب الشجرة الذين بايعوا تحتها أحد » قالت : بلي يا رسول الله ، فانتهرها ، فقالت حفصة رضي الله عنها : ﴿ وَلَنْ يَنْكُرَ إِلَّا وَارِدَهَا ﴾ فقال النبي ﷺ : قد قال الله تعالى : ﴿ ثُمَّ نَتَجَّى الَّذِينَ اتَّقَوْا وَنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثًا ﴾ ^(١) .

﴿ سَيَقُولُ لَكَ الْمُخَلَّفُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ شَغَلَتْنَا أَمْوَالُنَا وَأَعْلَوْنَا فَنَشْتَفِعُ بِأَشْفَعِئِكَ لَأَ يَقُولُونَ بِلَا شَيْءٍ مَّا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ قُلْ مَنْ يَمْلِكُ لَكُمْ مِنْ اللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًا بَلْ كَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴾ ﴿ بَلْ ظَنَنْتُمْ أَنْ لَنْ يَنْقَلِبَ الرَّسُولُ وَالْمُؤْمِنُونَ إِلَى أَهْلِيهِمْ أَبَدًا وَزُيِّنَ ذَلِكَ فِي قُلُوبِكُمْ وَظَنَّشْتُمْ ظَنًّا أَسْوَأَ وَكُنْتُمْ قَوْمًا بُورًا ﴾ ﴿ وَمَنْ لَمْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ فَإِنَّا أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ سَعِيرًا ﴾ ﴿ وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يُغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ﴾ .

يقول تعالى مخبرًا رسوله ﷺ بما يعتذر به المخلفون من الأعراب الذين اختاروا المقام في أهلهم وشغلهم وتركوا المسير مع رسول الله ﷺ فاعتذروا بشغلهم بذلك وسألوا أن يستغفر لهم الرسول ﷺ وذلك قول منهم لا على سبيل الاعتقاد بل على وجه التقية والمصانعة ، ولهذا قال تعالى : ﴿ يَقُولُونَ بِلَا شَيْءٍ مَّا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ قُلْ مَنْ يَمْلِكُ لَكُمْ مِنْ اللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًا ﴾ أي لا يقدر أحد أن يرد ما أَرَادَهُ اللهُ فيكم تعالى وتقدس ، وهو العليم بسر أركم وضمائرهم وإن صانعتونا ونافقتونا ، ولهذا قال تعالى : ﴿ بَلْ كَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴾ ﴿ ثُمَّ قَالَ تَعَالَى : ﴿ بَلْ ظَنَنْتُمْ أَنْ لَنْ يَنْقَلِبَ الرَّسُولُ وَالْمُؤْمِنُونَ إِلَى أَهْلِيهِمْ أَبَدًا ﴾ أي اعتقدتم أنهم يقتلون وتستأصل شأفتهم ، وتستبد خضراؤهم ولا يرجع منهم مخبر ﴿ وَظَنَّشْتُمْ ظَنًّا أَسْوَأَ وَكُنْتُمْ قَوْمًا بُورًا ﴾ أي هلكى . قاله ابن عباس رضي الله عنهما ومجاهد وغير واحد ، وقال قتادة : فاسدين ، وقيل هي لغة عمان . ثم قال تعالى : ﴿ وَمَنْ لَمْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ﴾ أي من لم يخلص العمل في الظاهر والباطن لله فإن الله تعالى سيعذبه في السعير ، وإن أظهر للناس ما يعتدون خلاف ما هو عليه في نفس الأمر . ثم بين تعالى أنه الحاكم المالك المتصرف في أهل السموات والأرض ﴿ يُغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ﴾ أي لمن تاب إليه وأتاب وخضع لديه .

﴿ سَيَقُولُ الْمُخَلَّفُونَ إِذَا انْطَلَقْتُمْ إِلَى مَغَائِرِهِمْ لِنَاخِذُوهُمْ ذُرُونَا نَتَّبِعْكُمْ يُرِيدُونَ أَنْ يُبَدِّلُوا كَلِمَ اللَّهِ قُلْ لَنْ نَتَّبِعُوهُمْ كَذَلِكَ قَالَهُ مِنْ قَبْلُ سَيَقُولُونَ بَلْ نَحْشُدُونَكُمْ بَلْ كَاوُوا لَا يَفْقَهُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ .

يقول تعالى مخبرًا عن الأعراب الذين تخلفوا عن رسول الله ﷺ في عمرة الحديبية ، إذ ذهب النبي ﷺ وأصحابه رضي الله عنهم إلى خيبر يفتحونها إنهم يسألون أن يخرجوا معهم إلى المغنم ، وقد تخلفوا عن وقت محاربة الأعداء ومجالدتهم ومصابرتهم ، فأمر الله تعالى رسوله ﷺ أن لا يأذن لهم في ذلك معاقبة لهم من جنس ذنبهم ، فإن الله تعالى قد وعد أهل الحديبية بمغانم خيبر وحدهم ، لا يشاركون فيها غيرهم من الأعراب المتخلفين ، فلا يقع غير ذلك شرعًا ولا قدرًا ولهذا قال تعالى : ﴿ يُرِيدُونَ أَنْ يُبَدِّلُوا كَلِمَ اللَّهِ ﴾ قال مجاهد وقاتدة وجوير وهو الوعد الذي وعد به أهل الحديبية

(١) أخرجه مسلم في فضائل الصحابة (١٦٣) وأحمد في مسنده (٤٢٠/٦) وأبو داود في السنن (٤٦٥٣)

واختاره ابن جرير . وقال ابن جرير ﴿ يُرِيدُونَ أَنْ يُبَدِّلُوا كَلِمَ اللَّهِ ﴾ يعني بتبسيطهم المسلمين عن الجهاد ﴿ قُلْ لَنْ تَغَيِّرُوا كَلِمَتَكُمْ ﴾ قَالَ اللَّهُ مِنْ قَبْلُ ﴿ أَي وَعَدَ اللَّهُ أَهْلَ الْحَدِيثِ قَبْلَ سُؤَالِكُمُ الْخُرُوجَ مَعَهُمْ ﴾ فَسَيَقُولُونَ بَلْ تَحْسُدُونَنَا ﴿ أَي أَنْ نُشْرِكُكُمْ فِي الْمَغَانِمِ ﴾ بَلْ كَانُوا لَا يَفْقَهُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿ أَي لَيْسَ الْأَمْرُ كَمَا زَعَمُوا وَلَكِنْ لَا فَهْمَ لَهُمْ .

﴿ قُلْ لِلْمُخَلَّفِينَ مِنَ الْأَعْرَابِ سُدُّونَ إِلَى قَوْمِ أُولَى بَأْسٍ شَدِيدٍ تُقَاتِلُونَهُمْ أَوْ يُسَلِّتُونَ فَإِنْ تُطِيعُوا يُؤَيِّدُكُمْ اللَّهُ أَجْرًا حَسَنًا وَإِنْ تَنَازَلُوا كَمَا تَوَلَّيْتُمْ مِنْ قَبْلُ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ۝ لَيْسَ عَلَى الْأَعْمَى حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَمَنْ يَتَوَلَّ يُعَذِّبْهُ عَذَابًا أَلِيمًا ۝ .

اختلف المفسرون في هؤلاء القوم الذين يدعون إليهم الذين هم أولو بأس شديد على أقوال أحدها ، أنهم هوازن ؟ الثاني : ثقيف . الثالث : بنو حنيفة . الرابع : هم أهل فارس وقال كعب الأحبار : هم الروم ، وعن ابن أبي ليلى وعطاء والحسن وقتادة : هم فارس والروم ، وعن مجاهد : هم أهل الأوثان ، وعنه أيضًا : هم رجال أولو بأس شديد ، ولم يعين فرقة ، وبه يقول ابن جريج وهو اختيار ابن جرير . وعن الزهري في قوله تعالى : ﴿ سَدُّونَ إِلَى قَوْمِ أُولَى بَأْسٍ شَدِيدٍ ﴾ قال : لم يأت أولئك بعد .

عن أبي هريرة ؓ في قوله تعالى : ﴿ سَدُّونَ إِلَى قَوْمِ أُولَى بَأْسٍ شَدِيدٍ ﴾ قال : هم البارزون . وعنه عن النبي ﷺ قال : « لا تقوم الساعة حتى تقاتلوا قوماً صغار الأعين ذلف الأنوف ، كأن وجوههم المجان المطرقة » (١) قال سفيان : هم الترك ، وقوله تعالى : ﴿ تُقَاتِلُونَهُمْ أَوْ يُسَلِّتُونَ ﴾ يعني شرع لكم جهادهم وقتالهم ، فلا يزال ذلك مستمراً عليهم ، ولكم النصرة عليهم أو يسلمون فيدخلون في دينكم بلا قتال بل باختيار .

ثم قال ﷺ : ﴿ فَإِنْ تُطِيعُوا ﴾ أي تستجيبوا وتنفروا في الجهاد وتؤدوا الذي عليكم فيه ﴿ يُؤَيِّدُكُمْ اللَّهُ أَجْرًا حَسَنًا وَإِنْ تَنَازَلُوا كَمَا تَوَلَّيْتُمْ مِنْ قَبْلُ ﴾ يعني زمن الحديبية حيث دعيتم فتخلفتم ﴿ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴾ . ثم ذكر تعالى الأعداء في ترك الجهاد فمنها لازم كالعمى والعرج المستمر ، وعارض كالمرض الذي يطرأ أياً ما ثم يزول ، فهو في حال مرضه ملحق بذوي الأعداء اللازمة حتى يبرأ . ثم قال تبارك وتعالى مرغبا في الجهاد وطاعة الله ورسوله ﴿ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَمَنْ يَتَوَلَّ ﴾ أي ينكل عن الجهاد ويقبل على المعاش ﴿ يُعَذِّبْهُ عَذَابًا أَلِيمًا ﴾ ، في الدنيا بالمذلة وفي الآخرة بالنار ، والله تعالى أعلم .

﴿ لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا ۝ وَمَعَائِدَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ۝ .

يخبر تعالى عن رضاه عن المؤمنين الذين بايعوا رسول الله ﷺ تحت الشجرة ، عن طارق أن عبد الرحمن ؓ قال : انطلقت حاججا فمررت بقوم يصلون فقلت : ما هذا المسجد ؟ قالوا : هذه الشجرة حيث بايع رسول الله ﷺ بيعة الرضوان ، فأثبت سعيد بن المسيب فأخبرته ، فقال سعيد : حدثني أبي أنه كان فيمن بايع رسول الله ﷺ تحت الشجرة ، قال : فلما خرجنا من العام المقبل نسيناها فلم نقدر

(١) أخرجه مسلم في الفتن (٦٤) والترمذي في السنن (٢٢١٥) وابن ماجه في السنن (٤٠٩٦) وأحمد في مسنده (٣١/٣) .

عليها ، فقال سعيد : إن أصحاب محمد ﷺ لم يعلموها وعلمتموها أنتم ، فأنتم أعلم ^(١) .
 وقوله تعالى : ﴿ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ ﴾ أي من الصدق والوفاء والسمع والطاعة ﴿ فَأَنزَلَ السَّكِينَةَ ﴾ وهي الطمأنينة ﴿ عَلَيْهِمْ وَأَنبَأَهُمْ فَتَمَّ قَرِيبًا ﴾ وهو ما أجرى الله ﷻ على أيديهم من الصلح بينهم وبين أعدائهم ، وما حصل بذلك من الخير العام المستمر المتصل بفتح خيبر وفتح مكة ، ثم فتح سائر البلاد والأقاليم عليهم وما حصل لهم من العز والنصر والرفعة في الدنيا والآخرة ، ولهذا قال تعالى : ﴿ وَمَعَانِدَ كَثِيرَةٍ يَأْخُذُونَهَا وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴾ .

﴿ وَعَدَكُمْ اللَّهُ مَعَانِدَ كَثِيرَةٍ تَأْخُذُونَهَا فَعَجَلَ لَكُمْ هَذِهِ وَكَفَّ أَيْدِيَ النَّاسِ عَنْكُمْ وَلِتَكُونَ آيَةً لِلْمُؤْمِنِينَ وَيَهْدِيَكُمْ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا ﴾ ^(٢) وأخرى لَمْ تَقْدِرُوا عَلَيْهَا فَدَاحَاكُ اللَّهُ بِهَا وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا ^(٣) وَلَوْ فَتَنَّاكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوَلَّوْا الْأَذْبَنَ ثُمَّ لَا يَجِدُونَ وِلَا وَلَا نَصِيرًا ^(٤) سُنَّةَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلُ وَلَنْ يَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا ^(٥) وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ وَيُؤَيِّدُكُمْ عَنْهُمْ بِطَنٍ مَكَّةَ مِنْ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ^(٦) .

قال مجاهد في قوله تعالى : ﴿ وَعَدَكُمْ اللَّهُ مَعَانِدَ كَثِيرَةٍ تَأْخُذُونَهَا ﴾ هي جميع المغام إلى اليوم ﴿ فَعَجَلَ لَكُمْ هَذِهِ ﴾ يعني فتح خيبر ، وروى العوفي عن ابن عباس رضي الله عنهما ﴿ فَعَجَلَ لَكُمْ هَذِهِ ﴾ يعني صلح الحديبية ﴿ وَكَفَّ أَيْدِيَ النَّاسِ عَنْكُمْ ﴾ أي لم يترككم سوء مما كان أعداؤكم أضمره لكم من المحاربة والقتال ، وكذلك كف أيدي الناس عنكم الذين خلفتموهم وراء ظهوركم عن عيالكم وحريمكم ﴿ وَلِتَكُونَ آيَةً لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ أي يعتبرون بذلك ، فإن الله تعالى حافظهم وناصرهم على سائر الأعداء مع قلة عددهم ، وليعلموا بصنيع الله هذا بهم أنه العالم بعواقب الأمور ، وأن الخيرة فيما يختاره لعباده المؤمنين وإن كرهوه في الظاهر كما قال ﷻ : ﴿ وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ ﴾ .

وقوله تبارك وتعالى : ﴿ وَأُخْرَى لَمْ تَقْدِرُوا عَلَيْهَا فَدَاحَاكُ اللَّهُ بِهَا وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا ﴾ أي وغنيمة أخرى وفتحاً آخر معينا لم تكونوا تقدرعون عليها ، قد يسرها الله عليكم وأحاط بها لكم ، فإنه تعالى يرزق عباده المتقين له من حيث لا يحتسبون ، وقد اختلف المفسرون في هذه الغنيمة ما المراد بها ، فقال ابن عباس رضي الله عنهما : هي خيبر ، وهذا على قوله في قوله ﷻ ﴿ فَعَجَلَ لَكُمْ هَذِهِ ﴾ إنها صلح الحديبية ، وقال قتادة : هي مكة واختاره ابن جرير ، وقال ابن أبي ليلى والحسن البصري : هي فارس والروم ، وقال مجاهد : هي كل فتح وغنيمة إلى يوم القيامة . عن ابن عباس قال : هذه الفتوح التي تفتح إلى اليوم .

وقوله تعالى : ﴿ وَلَوْ فَتَنَّاكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوَلَّوْا الْأَذْبَنَ ثُمَّ لَا يَجِدُونَ وِلَا وَلَا نَصِيرًا ﴾ يقول ﷻ مبشراً لعباده المؤمنين ، بأنه لو ناجزهم المشركون لنصر الله رسوله وعباده المؤمنين عليهم ، ولا نهزم جيش الكفر فاراً مديراً لا يجدون وِلَا وَلَا نَصِيرًا ؛ لأنهم محاربون لله ولرسوله ولحزبه المؤمنين . ثم قال تبارك وتعالى : ﴿ سُنَّةَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلُ وَلَنْ يَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا ﴾ أي هذه سنة الله وعادته في خلقه ، ما تقابل الكفر والإيمان في موطن فيصل إلا نصر الله الإيمان على الكفر فرفع الحق ووضع الباطل ، كما فعل تعالى يوم بدر بأوليائه المؤمنين نصرهم على أعدائهم من المشركين مع قلة عدد المسلمين وعددهم وكثرة المشركين وعددهم .

وقوله ﷻ : ﴿ وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ وَارْدِيَكُمْ عَنْهُمْ بِطَرْفِ مَكَّةَ مِنْ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ﴾ هذا امتنان من الله تعالى على عباده المؤمنين حين كف أيدي المشركين عنهم فلم يصل إليهم منهم سوء ، وكف أيدي المؤمنين عن المشركين فلم يقاتلوهم عند المسجد الحرام ، بل صان كلا من الفريقين وأوجد بينهم صلحا فيه خيرة للمؤمنين وعاقبة لهم في الدنيا والآخرة ، وعن أنس بن مالك ﷺ قال : لما كان يوم الحديبية هبط على رسول الله ﷺ وأصحابه ثمانون رجلا من أهل مكة بالسلاح ، من قبل جبل التنعيم ، يريدون غرة رسول الله ﷺ فدعا عليهم فأخذوا . قال عفان : فعفا عنهم ونزلت هذه الآية ﴿ وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ وَارْدِيَكُمْ عَنْهُمْ بِطَرْفِ مَكَّةَ مِنْ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ ﴾ (١) .

وعن عبد الله بن مغفل المزني ﷺ قال : كنا مع رسول الله ﷺ في أصل الشجرة التي قال تعالى في القرآن ، وكان يقع من أغصان تلك الشجرة على ظهر رسول الله ﷺ وعلي بن أبي طالب ﷺ ، وسهيل بن عمرو بين يديه فقال رسول الله ﷺ لعلي ﷺ : « اكتب بسم الله الرحمن الرحيم » فأخذ سهيل بيده وقال : ما نعرف الرحمن الرحيم ، اكتب في قضيتنا ما نعرف فقال : « اكتب باسمك اللهم » - وكتب - هذا ما صالح عليه محمد رسول الله أهل مكة » فأمسك سهيل بن عمرو بيده وقال : لقد ظلمناك إن كنت رسوله ، اكتب في قضيتنا ما نعرف ، فقال : « اكتب هذا ما صالح عليه محمد بن عبد الله » فبينما نحن كذلك ؛ إذ خرج علينا ثلاثون شابا عليهم السلاح ، فثاروا في وجوهنا فدعا عليهم رسول الله ﷺ ، فأخذ الله تعالى بأسماعهم فقمنا إليهم فأخذناهم فقال رسول الله ﷺ : « هل جئتم في عهد أحد ؟ أو هل - جعل لكم أحدا أمانا ؟ » فقالوا : لا ، فخلى سبيلهم فأنزل الله تعالى : ﴿ وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ وَارْدِيَكُمْ عَنْهُمْ بِطَرْفِ مَكَّةَ مِنْ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ ﴾ (٢) الآية .

وعن ابن أبيزى قال : لما خرج النبي ﷺ بالهدي وانتهى إلى ذي الحليفة قال له عمر ﷺ : يا نبي الله ، تدخل على قوم لك حرب بغير سلاح ولا كراع ؟ قال : فبعث ﷺ إلى المدينة فلم يدع فيها كراعا ولا سلاحا إلا حملة ، فلما دنا من مكة منعه أن يدخل فصار حتى أتى منى ، فنزل بمنى فأتاه عينه أن عكرمة بن أبي جهل قد خرج عليك في خمسمائة ، فقال لخالد بن الوليد ﷺ : « يا خالد هذا ابن عمك قد أتاك في الخيل » فقال خالد ﷺ : أنا سيف الله وسيف رسوله ، فيومئذ سمي سيف الله ، فقال : يا رسول الله ابعثني أين شئت ، فبعثه على خيل فلقي عكرمة في الشعب فهزمه حتى أدخله حيطان مكة ، ثم عاد في الثانية فهزمه حتى أدخله حيطان مكة ، ثم عاد في الثالثة فهزمه حتى أدخله حيطان مكة ، فأنزل الله تعالى : ﴿ وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ وَارْدِيَكُمْ عَنْهُمْ بِطَرْفِ مَكَّةَ مِنْ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ » - إلى قوله تعالى - عَدَابًا أَيْمًا ﴿ قال فكف الله ﷻ النبي ﷺ عنهم من بعد أن أظفروا عليهم لبقايا من المسلمين كانوا أبقوا فيها كراهية أن تطأهم الخيل (٣) .

﴿ هُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَالْمَدَى مَعَكُوفًا أَنْ يَبْلُغَ يَحِلَّهُمْ وَلَوْلَا رِجَالٌ مُؤْمِنُونَ وَنِسَاءٌ مُؤْمِنَاتٌ لَمْ تَعْلَمُوهُمْ أَنْ تَطَافُكُمُ فِيْهِمْ فَتُصِيبَكُمْ مِنْهُمْ مَعَرَّةٌ بِغَيْرِ عِلْمٍ لِيَدْخُلَ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ لَوْ تَزَيَّلُوا لَعَذَّبْنَا

(١) أخرجه أحمد في مسنده (١٢٢/٣) . (٢) أخرجه أحمد في مسنده (٢٦٨/٣) والبيهقي في السنن (٢٢٠/٩) .

(٣) ذكره ابن جرير الطبري في تفسيره (١٢٣/٢٦) .

الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٥﴾ إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْحَمِيَّةَ حِمَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَارْتَمَاهُمْ كَلِمَةً التَّقْوَى وَكَانُوا أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا ﴿١٦﴾ .

يقول تعالى مخبرًا عن الكفار من مشركي العرب من قريش ، ومن مالأهم على نصرتهم على رسول الله ﷺ ﴿ هُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ أي هم الكفار دون غيرهم ﴿ وَصَدَّكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ ﴾ أي أنتم أحق به وأنتم أهله في نفس الأمر ﴿ وَالَّذِينَ مَكَوْنَا أَنْ يَبْلُغَ حِمْلَهُ ﴾ أي وصدوا الهدي أن يصل إلى محله ، وهذا من بغيتهم وعنادهم ، وكان الهدي سبعين بدنة ، وقوله ﷻ : ﴿ وَلَوْ لَا رِجَالٌ ثَمُونُونَ وَنِسَاءٌ ثَمُونَتٌ ﴾ أي بين أظهرهم ممن يكتن إيمانه ويخفيه منهم خيفة على أنفسهم من قومهم ، لمنا سلطانكم عليهم فقتلتهم وأبدم خضراءهم ، ولكن بين أفئدتهم من المؤمنين والمؤمنات أقوام لا تعرفونهم حالة القتل ، ولهذا قال تعالى : ﴿ لَوْ تَقَوُّهُمْ أَنْ تَقُوتَهُمْ فَتُضْيِكُمْ مِنْهُمْ مَعَرَّةٌ ﴾ أي إثم وغرامة ﴿ يَنْتَرِ عَلَيْهِ لِيَدْخُلَ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ ﴾ أي يؤخر عقوبتهم ليخلص من بين أظهرهم المؤمنين ، وليرجع كثير منهم إلى الإسلام ، ثم قال تبارك وتعالى : ﴿ لَوْ تَرَى لَوْ أَنَّ لُوطًا مِنْ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ بَيْنَ أَظْهَرِهِمْ ﴾ لَعَذَابُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿ أي لسلطانكم عليهم لقتلتهم وهم قتلاً ذريعاً . وعن عبد الله بن عمرو قال : سمعت جنيد بن سبيع يقول : قاتلت رسول الله ﷺ أول النهار كافراً ، وقاتلت معه آخر النهار مسلماً ، وفيما نزلت ﴿ وَلَوْ لَا رِجَالٌ ثَمُونُونَ وَنِسَاءٌ ثَمُونَتٌ ﴾ قال : كنا تسعة نفر ، سبعة رجال وأمرأتين .

وقوله ﷻ : ﴿ إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْحَمِيَّةَ حِمَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ ﴾ وذلك حين أبوا أن يكتبوا : بسم الله الرحمن الرحيم ، وأبوا أن يكتبوا : هذا ما قاضى عليه محمد رسول الله ﷺ ﴿ فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَارْتَمَاهُمْ كَلِمَةً التَّقْوَى ﴾ وهي قول : لا إله إلا الله فعن أبي بن كعب ؓ ، أنه سمع رسول الله ﷺ يقول ﴿ وَارْتَمَاهُمْ كَلِمَةً التَّقْوَى ﴾ ، قال « لا إله إلا الله » ^(١) .

وعن أبي هريرة ؓ أن رسول الله ﷺ قال : « أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا : لا إله إلا الله ، فمن قال : لا إله إلا الله فقد عضم مني ماله ونفسه إلا بحقه وحسابه على الله ﷻ » ^(٢) وأنزل الله ﷻ في كتابه وذكر قوما فقال : ﴿ إِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ ﴾ وقال الله جل ثناؤه ﴿ وَارْتَمَاهُمْ كَلِمَةً التَّقْوَى وَكَانُوا أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا ﴾ ، وهي لا إله إلا الله محمد رسول الله ، فاستكبروا عنها ، واستكبر عنها المشركون يوم الحديبية فكاتبهم رسول الله ﷺ على قضية المدة وقال مجاهد : كلمة التقوى الإخلاص ، وقال عطاء بن أبي رباح : هي لا إله إلا الله وحده لا شريك له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير ، وعن عروة بن المسور : لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وعن علي ؓ : لا إله إلا الله والله أكبر ، وعن سعيد بن جبير : لا إله إلا الله والجهاد في سبيله . ﴿ وَكَانُوا أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا ﴾ ، كان المسلمون أحق بها وكانوا أهلها ﴿ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا ﴾ أي هو عليم بمن يستحق الخير ممن يستحق الشر ، عن أبي بن كعب ؓ أنه كان يقرأ ﴿ إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي قُلُوبِهِمُ

(١) أخرجه الترمذي في السنن (٣٢٦٥) وذكره الطبري في تفسيره (١٣٥/٢٦) والإمام أحمد نحوه في مسنده (١٣٨/٥) .

(٢) أخرجه البخاري في الاختصاص (٧٢٨٤) ومسلم في الإيمان (٣٣) وأبو داود في السنن (١٥٥٦) والترمذي في السنن (٢٦٠٦) .

الْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ ﴿٢٥﴾ ولو حميتكم كما حتموا لفسد المسجد الحرام ، فبلغ ذلك عمر رضي الله عنه فأغلظ له فقال : إنك لتعلم أنني كنت أدخل على رسول الله ﷺ فيعلمني مما علمه الله تعالى ، فقال عمر رضي الله عنه : بل أنت رجل عندك علم وقرآن ، فاقراً وعلم مما علمك الله تعالى ورسوله .

وهذا ذكر الأحاديث الواردة في قصة الحديبية وقصة الصلح

عن المسور بن مخزومة ومروان بن الحكم ، يصدر كل واحد منهما حديث صاحبه ، قال : خرج رسول الله ﷺ من الحديبية في بضع عشرة مائة من أصحابه ، فلما أتى ذا الحليفة قلد الهدي وأشعره وأحرم منها بعمره ، وبعث عيناً من خزاعة ، وسار حتى إذا كان بغدير الأشطاط أتاه عينه فقال : إن قريشاً قد جمعوا لك جمعوا وقد جمعوا لك الأحابيش ، وهم مقاتلون وصادوك ومانعوك . فقال ﷺ : « أشيروا أيها الناس علي ، أترون أن غيل على عيالهم وذرياري هؤلاء الذين يريدون أن يصدونا عن البيت ؟ » في لفظ : « فإن قعدوا قعدوا موتورين مجهودين محزونين ، وإن نجوا يكن عنقاً قطعها الله ﷻ . أم ترون أن نؤم البيت فمن صدنا عنه قاتلناه » .

فقال أبو بكر رضي الله عنه : يا رسول الله خرجت عامداً لهذا البيت ، لا تريد قتل أحد ولا حرباً ، فتوجه له فمن صدنا عنه قاتلناه ، فقال النبي ﷺ « فزوهوا إذن » : حتى إذا كانوا ببعض الطريق قال النبي ﷺ : « إن خالد بن الوليد في خيل لقريش طليعة ، فخذوا ذات اليمين » فوالله ما شعر بهم خالد حتى إذا هم بقترة الجيش ، فانطلق يركض نذيراً لقريش ، وسار النبي ﷺ حتى إذا كان بالثنية التي يهبط عليهم منها بركت به راحلته ، فقال الناس : حل حل فألحت ، فقالوا : خلأت القصواء ، خلأت القصواء . فقال النبي ﷺ « ما خلأت القصواء ، وما ذاك لها بخُلُق ، ولكن حبسها حابس الفيل » ، ثم قال ﷺ : « والذي نفسي بيده لا يسألوني خطة يعظمون فيها حرمان الله تعالى إلا أعطيتهم أياها » . ثم زجرها فوثبت فعدل عنهم حتى نزل بأقصى الحديبية على ثمد قليل الماء يتبرضه الناس تبرضاً ، فلم يلبث الناس حتى نزحوه ، وشكى إلى رسول الله العطش ، فانتزع ﷺ من كنانته سهماً ثم أمرهم أن يجعلوه فيه فوالله ما زال يجيش لهم بالري حتى صدروا عنه .

فبينما هم كذلك إذ جاء بديل بن ورقاء الخزاعي في نفر من قومه من خزاعة ، وكانوا عيبة نصح رسول الله ﷺ ، من أهل تهامة . فقال : إني تركت كعب بن لؤي وغامر بن لؤي نزلوا عند مياه الحديبية ، معهم العوذ المطافيل وهم مقاتلون وصادوك عن البيت . فقال النبي ﷺ : « إنا لم نجئ لقتال أحد ، ولكن جئنا معتمرين ، وإن قريشاً قد نهكتهم الحرب ، فأضرت بهم ، فإن شاءوا ماددتهم مدة ويخلوا بيني وبين الناس ، فإن أظهر ، فإن شاءوا أن يدخلوا فيما دخل فيه الناس فعلوا وإلا فقد حموا ، وإن هم أبوا فوالذي نفسي بيده لأقاتلنهم على أمري هذا حتى تنفرد سالفتي أو لينفذن الله أمره » . قال بديل : سأبلغهم ما تقول . فانطلق حتى أتى قريشاً فقال : إنا قد جئنا من عند هذا الرجل وسمعناه يقول قولاً ، فإن شئتم أن نعرضه عليكم فعلنا ، فقال سفهاؤهم : لا حاجة لنا أن نخبرنا عنه بشيء . وقال ذوو الرأي منهم : هات ما سمعته يقول . قال : سمعته يقول كذا وكذا ، فحدثهم بما قال رسول الله ﷺ فقام عروة بن مسعود فقال : أي قوم ، أستم بالوالد ؟ قالوا : بلى ، قال : أولست بالولد ؟

قالوا : بلى ، قال : فهل تتهمونني ؟ قالوا : لا ، قال : أستم تعلمون أنني استغفرت أهل عكاظ ، فلما بلحوا علي جفتكم بأهلي وولدي ومن أطاعني ؟ قالوا : بلى . قال : فإن هذا قد عرض عليكم خطة رشد فاقبلوها ودعوني آتة . قالوا : آتته . فأتاه فجعل يكلم النبي ﷺ فقال النبي ﷺ له نحوًا من قوله لبديل بن ورقاء ، فقال عروة عند ذلك : أي محمد ، أرايت إن استأصلت قومك ، هل سمعت بأحد من العرب اجتاحت أصله قبلك ؟ وإن تلك الأخرى فإنني والله لأرى وجوهاً ، وإنني لأرى أشواجا من الناس خليفًا أن يفروا ويدعوك ، فقال له أبو بكر ؓ : امصص بظر اللات ، أنحن نفر وندعه ؟ قال : من ذا ؟ قالوا : أبو بكر . قال : أما والذي نفسي بيده لولا يد لك عندي لم أجرك بها لأجتك . قال : وجعل يكلم النبي ﷺ فكلما كلمه أخذ بلحيته ﷺ ، والمغيرة بن شعبة ؓ قائم على رأس النبي ﷺ ، ومعه السيف وعليه المغفر ، وكلما أهوى عروة بيده إلى لحية النبي ﷺ ضرب يده بنعل السيف وقال : أخر يدك عن لحية رسول الله ﷺ . فرفع عروة رأسه وقال : من هذا ؟ قال : المغيرة بن شعبة . قال : أي غدر ألتست أسعى في غدرتك ؟ وكان المغيرة بن شعبة ؓ صحب قومًا في الجاهلية فقتلهم وأخذ أموالهم ، ثم جاء فأسلم ، فقال النبي ﷺ : « أما الإسلام فأقبل ، وأما المال فلست منه في شيء » . ثم إن عروة جعل يرمق أصحاب النبي ﷺ بعينيه قال : فوالله ما تنخم رسول الله ﷺ نخامة إلا وقعت في كف رجل منهم ، فذلك بها وجهه وجلده ، وإذا أمرهم ابتدروا أمره ، فإذا توضأ كادوا يقتتلون على وضوئه ، وإذا تكلم خفضوا أصواتهم عنده وما يحدون النظر إليه تعظيمًا له ﷺ ، فرجع عروة إلى أصحابه . فقال : أي قوم والله لقد وفدت على الملوك ووفدت على كسرى وقيصر والنجاشي ، والله ما رأيت ملكًا قط يعظمه أصحابه ما يعظم أصحاب محمد محمدًا ، والله إن تنخم نخامة إلا وقعت في كف رجل منهم فذلك بها وجهه وجلده ، وإذا أمرهم ابتدروا أمره ، وإذا توضأ كادوا يقتتلون على وضوئه ، وإذا تكلم خفضوا أصواتهم عنده ، وما يحدون النظر إليه تعظيمًا له ، وإنه قد عرض عليكم خطة رشد فاقبلوها .

فقال رجل منهم من بني كنانة : دعوني آتة . فقالوا : آتته . فلما أشرف على النبي ﷺ وأصحابه ﷺ ، قال النبي ﷺ : « هذا فلان ، وهو من قوم يعظمون البدن فابعثوها له » . فبعثت له واستقبله الناس يلبون . فلما رأى ذلك قال : سبحان الله ما ينبغي لهؤلاء أن يُصَدَّوا عن البيت ، فلما رجع إلى أصحابه قال : رأيت البدن قد قلدت وأشعرت ، فما أرى أن يصدوا عن البيت . فقام رجل منهم يقال له مكرز بن حفص ، فقال : دعوني آتة . فقالوا : آتته . فلما أشرف عليهم قال النبي ﷺ : « هذا مكرز ، وهو رجل فاجر » فجعل يكلم النبي ﷺ ، فبينما هو يكلم ؛ إذ جاء سهيل بن عمرو ، وقال معمر : أخبرني أيوب عن عكرمة أنه قال : لما جاء سهيل بن عمرو قال النبي ﷺ : « قد سُهِلَ لكم من أمركم » . فجاء سهيل بن عمرو فقال : هات اكتب بيننا وبينك كتابا . فدعا النبي ﷺ بعلي ؓ وقال : « اكتب بسم الله الرحمن الرحيم » فقال سهيل بن عمرو : أما الرحمن فوالله ما أدري ما هو ، ولكن اكتب باسمك اللهم كما كنت تكتب . فقال المسلمون : والله لا نكتبها إلا بسم الله الرحمن الرحيم . فقال النبي ﷺ اكتب باسمك اللهم - ثم قال - هذا ما قاضى عليه

محمد رسول الله فقال سهيل : والله لو كنا نعلم أنك رسول الله ما صددناك عن البيت ولا قاتلناك ، ولكن اكتب محمد بن عبد الله . فقال له النبي ﷺ : « والله إني لرسول الله وإن كذبتُموني ، اكتب محمد بن عبد الله » قال الزهري : وذلك لقوله « والله لا يسألوني خطة يعظمون فيها حرمة الله تعالى إلا أعطيتهم إياها » فقال له النبي ﷺ : « على أن تخلوا بيننا وبين البيت فطوف به . فقال سهيل : والله لا تتحدث العرب أنا أخذنا ضغطة ، ولكن ذلك من العام المقبل ، فكتب ، فقال سهيل : وعلى أن لا يأتيك منا رجل وإن كان على دينك إلا رددته إلينا فقال المسلمون : سبحان الله ! كيف يرد إلى المشركين وقد جاء مسلماً ؟ .

فبينما هم كذلك إذ جاء أبو جندل بن سهيل بن عمرو يرسف في قيوده قد خرج من أسفل مكة حتى رمى بنفسه بين أظهر المسلمين ، فقال سهيل : هذا يا محمد أول من أقاضيك عليه أن ترده إلي . فقال النبي ﷺ : « إنا لم نقض الكتاب بعد » قال : فوالله إذا لا أصالحك على شيء أبداً ، فقال النبي ﷺ : « فأجزه لي » قال : ما أنا بمجيز ذلك لك قال ﷺ : « بلى فافعل » قال : ما أنا بفاعل . قال مكرز : بلى قد أجزناه لك . قال أبو جندل : أي معشر المسلمين أرد إلى المشركين وقد جئت مسلماً ، ألا ترون ما قد لقيت ؟ وكان قد عذب عذاباً شديداً في الله ﷻ . قال عمر ﷻ : فأتيت نبي الله ﷺ فقلت ألسنت نبي الله حقاً ؟ قال ﷺ : « بلى » قلت : ألسنا على الحق وعدونا على الباطل ؟ قال ﷺ : « بلى » قلت فلم نعطي الدنية في ديننا إذا ؟ قال ﷺ : « إني رسول الله ولست أعصيه وهو ناصري » قلت : أولست كنت تحدثنا أنا سنأتي البيت ونطوف به ؟ قال ﷺ : « بلى أفأخبرتكم أنا تأتيه العام ؟ » . قلت : لا . قال ﷺ : « فإنك آتية ومطوف به » قال : فأتيت فقلت : يا أبا بكر أليس هذا نبي الله حقاً ؟ قال : بلى . قلت : ألسنا على الحق وعدونا على الباطل ؟ قال : بلى . قلت : فلم نعطي الدنية في ديننا إذا ؟ قال : أيها الرجل إنه رسول الله وليس يعصي ربه ، وهو ناصره فاستمسك بغرزه ، فوالله إنه على الحق . قلت : أوليس كان يحدثنا أنا سنأتي البيت ونطوف به ؟ قال : بلى ، أفأخبركم أنك تأتيه العام ؟ قلت : لا . قال : فإنك تأتيه وتطوف به . قال الزهري : قال عمر ﷻ : فعملت لذلك أعمالاً . قال فلما فرغ من قضية الكتاب قال رسول الله ﷺ لأصحابه : « قوموا فأنحروا ثم احلقوا » قال : فوالله ما قام منهم رجل حتى قال ﷺ ذلك ثلاث مرات ، فلما لم يقم منهم أحد دخل ﷺ على أم سلمة ﷺ ، فذكر لها ما لقي من الناس ، قالت له أم سلمة ﷺ : يا نبي الله أتحب ذلك ؟ اخرج ثم لا تكلم أحداً منهم كلمة حتى تنحر بدنك وتدعو حالقك فيحلقك فخرج رسول الله ﷺ ، فلم يكلم أحداً منهم حتى فعل ذلك ، نحر بدنه ودعا حالقه فحلقه . فلما رأوا ذلك قاموا فنحروا وجعل بعضهم يحلق بعضاً حتى كاد بعضهم يقتل بعضاً غمًا ، ثم جاءه نسوة مؤمنات فأنزل الله ﷻ ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا جَاءَكُمُ الْمُؤْمِنَاتُ مُهَاجِرَاتٌ - حَتَّى بَلَغَ - ﴾ بِعَصِمِ الْكَوْكَرِ ﴿ فَطَلَّقْ عَمْرَ ﴾ يومئذ امرأتين كانتا له في الشرك ، فتزوج إحداهما معاوية بن أبي سفيان ، والأخرى صفوان بن أمية .

ثم رجع النبي ﷺ إلى المدينة فجاءه أبو بصير رجل من قريش وهو مسلم ، فأرسلوا في طلبه رجلين

فقالوا : العهد الذي جعلت لنا ، فدفعه إلى الرجلين فخرجا به حتى إذا بلغا ذا الحليفة فنزلوا يأكلون من تمر لهم ، فقال أبو بصير لأحد الرجلين : والله إنني لأرى سيفك هذا يا فلان جيدا ، فاستله الآخر فقال : أجل والله إنه لجيد ، لقد جربت منه ثم جربت . فقال أبو بصير : أرني أنظر إليه ، فأمكنه منه فضربه حتى برد وفر الآخر حتى أتى المدينة ، فدخل المسجد يعدو ، فقال رسول الله ﷺ حين رآه « لقد رأى هذا ذعرا » فلما انتهى إلى النبي ﷺ قال : قتل والله صاحبي وإني لمقتول . فجاء أبو بصير فقال : يا رسول الله قد والله أوفى الله ذمتك ، قد رددتني إليهم ثم نجاني الله تعالى منهم . فقال النبي ﷺ : « ويل أمه مُشعر حرب لو كان معه أحد » .

فلما سمع ذلك عرف أنه سيرده إليهم ، فخرج حتى أتى سيف البحر ، قال : وتفلت منهم أبو جندل بن سهيل ، فلحق بأبي بصير ، فجعل لا يخرج من قريش رجل قد أسلم إلا لحق بأبي بصير ، حتى اجتمعت منهم عصابة ، فوالله ما يسمعون بعير خرجت لقريش إلى الشام إلا اعترضوا لها ، فقتلوه وأخذوا أموالهم . فأرسلت قريش إلى النبي ﷺ تناسده الله والرحم لما أرسل إليهم ، فمن أتاه منهم فهو آمن فأرسل النبي ﷺ إليهم وأنزل الله ﷻ ﴿ هُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ وَدَيْدِيَكُمْ عَنْهُمْ بِطَنِ مَكَّةَ - حَتَّى بَلَّغَ حِمَّةَ الْمُهَاجِرَةِ ﴾ وكانت حميتهم أنهم لم يقرأوا رسول الله ، ولم يقرأوا بيسم الله الرحمن الرحيم ، وحالوا بينهم وبين البيت ^(١) . وعن حبيب بن أبي ثابت قال : أتيت أبا وائل أسأله ، فقال : كنا بصفين ، فقال رجل : ألم تر إلى الذين يدعون إلى كتاب الله ، فقال علي بن أبي طالب ؓ : نعم ، فقال سهل بن حنيف : اتهموا أنفسكم فلقد رأيتنا يوم الحديبية يعني الصلح الذي كان بين النبي ﷺ والمشركين ، ولو نرى قتالا لقاتلنا ، فجاء عمر ؓ فقال : ألسنا على الحق وهم على الباطل ؟ أليس قتلانا في الجنة وقتلاهم في النار ؟ فقال : « بلى » . قال : فقيم نعطي الدنية في ديننا ونرجع ولما يحكم الله بيننا ؟ فقال ﷺ : « يا ابن الخطاب إنني رسول الله ولن يضيعني الله أبدا » فرجع متغيظا فلم يصبر حتى جاء أبا بكر ؓ فقال : يا أبا بكر ألسنا على الحق وهم على الباطل ؟ فقال : يا ابن الخطاب إنه رسول الله ولن يضيعه الله أبدا ، فنزلت سورة الفتح ^(٢) .

﴿ لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ لَتَدْخُلَنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ ءَامِينَتَ مُحَلِّقِينَ زُيُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا فَجَعَلَ مِنْ دُونِ ذَلِكَ فَتَمَا قَرِيبًا ﴾ هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا .

كان رسول الله ﷺ قد رأى في المنام أنه دخل مكة وطاف بالبيت ، فأخبر أصحابه بذلك وهو بالمدينة فلما ساروا عام الحديبية لم يشك جماعة منهم أن هذه الرؤيا تفسر هذا العام ، فلما وقع ما وقع من قضية الصلح ورجعوا عامهم ذلك على أن يعودوا من قابل وقع في نفس بعض الصحابة ؓ من ذلك شيء ، حتى سأل عمر بن الخطاب ؓ في ذلك فقال له فيما قال : أقلم تكن تخبرنا أنا سنأتي البيت ونطوف به ؟ قال : « بلى فأخبرت أنك تأتيه عامك هذا ؟ » قال : لا ، قال النبي ﷺ :

(١) أخرجه البخاري في الشروط (٢٧٣٢) .

(٢) أخرجه البخاري في تفسير القرآن (٤٨٤٤) ومسلم في الجهاد (٦٤) وأحمد في مسنده (٤٨٦/٣) .

« فَإِنَّكَ آتِيهِ وَمَطُوفٌ بِهِ » وبهذا أجاب الصديق ﷺ أيضًا حذو القعدة بالقعدة ولهذا قال تبارك وتعالى : ﴿ لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ لَتَدْخُلَنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ ﴾ هذا لتحقيق الخبر وتوكيده وليس هذا من الاستثناء في شيء . وقوله ﷺ : ﴿ ءَامِنِينَ ﴾ أي في حال دخولكم ، وقوله : ﴿ مُخْلِفينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ ﴾ حال مقدرة ؛ لأنهم في حال دخولهم لم يكونوا محلقين ومقصرين وإنما كان هذا في ثاني الحال . كان منهم من حلق رأسه ومنهم من قصره ، وثبت أن رسول الله ﷺ قال « رحم الله المحلقين » قالوا : والمقصرين يا رسول الله ؟ قال ﷺ : « رحم الله المحلقين » قالوا : والمقصرين يا رسول الله ؟ قال ﷺ : « رحم الله المحلقين » قالوا : والمقصرين يا رسول الله ؟ قال ﷺ : « والمقصرين » في الثالثة أو الرابعة ^(١) . وقوله ﷺ : ﴿ لَا تَخَافُ ﴾ حال مؤكدة في المعنى فأثبت لهم الأمن حال الدخول ونفى عنهم الخوف حال استقرارهم في البلد لا يخافون من أحد ، وهذا كان في عمرة القضاء في ذي القعدة سنة سبع فإن النبي ﷺ لما رجع من الحديبية في ذي القعدة رجع إلى المدينة ، فأقام بها ذا الحجة والحرم وخرج في صفر إلى خيبر ، ففتحها الله عليه بعضها عنوة وبعضها صلحا ، وهي إقليم عظيم كثير النخل والزروع ، فاستخدم من فيها من اليهود عليها على الشطر وقسمها بين أهل الحديبية وحدهم ، ولم يشهدوا أحد غيرهم إلا الذين قدموا من الحبشة جعفر بن أبي طالب وأصحابه ، وأبو موسى الأشعري وأصحابه ﷺ ، ولم يغب منهم أحد ، قال ابن زيد : إلا أبا دجانة سماك بن خرشة ، كما هو مقرر في موضعه ثم رجع إلى المدينة .

فلما كان في ذي القعدة من سنة سبع خرج ﷺ إلى مكة معتمرا هو وأهل الحديبية ، فأحرم من ذي الحليفة وساق معه الهدى ، قيل : كان ستين بدنة ، فلبى وسار أصحابه يلبون . فلما كان ﷺ قريبا من مر الظهران بعث محمد بن سلمة بالخيال والسلاح أمامه . فلما رآه المشركون رعبوا رعبا شديدا ، وظنوا أن رسول الله ﷺ يغزوهم ، وأنه قد نكث العهد الذي بينهم وبينه من وضع القتال عشر سنين ، فذهبوا فأخبروا أهل مكة ، فلما جاء رسول الله ﷺ فنزل بمر الظهران حيث ينظر إلى أنصاب الحرم ، بعث السلاح من القسي والنبل والرماح إلى بطن يأجج ، وسار إلى مكة بالسيوف مغمدة في قريها كما شارطهم عليه . فلما كان في أثناء الطريق بعث قريش مكرز بن حفص فقال : يا محمد ما عرفناك تنقض العهد ، فقال ﷺ : « وما ذاك ؟ » قال : دخلت علينا بالسلاح والقسي والرماح . فقال : ﷺ : « لم يكن ذلك وقد بعثنا به إلى يأجج » . فقال : بهذا عرفناك بالبر والوفاء ، وخرجت رؤوس الكفار من مكة لئلا ينظروا إلى رسول الله ﷺ وإلى أصحابه ﷺ غيظا وحنقا . وأما بقية أهل مكة من الرجال والنساء والولدان ، فجلسوا في الطرق وعلى البيوت ينظرون إلى رسول الله ﷺ وأصحابه ، فدخلها عليه الصلاة والسلام وبين يديه أصحابه يلبون ، والهدى قد بعثه إلى ذي طوى وهو راكب ناقته القصواء التي كان راكبها يوم الحديبية ، وعبد الله بن رواحة الأنصاري أخذ بزمام ناقة رسول الله ﷺ يقودها وهو يقول :

باسم الذي لا دين إلا دينه باسم الذي محمدٌ رسوله
خلُّوا بني الكفار عن سبيله اليوم نضربكم على تأويله

(١) أخرجه مسلم في الحج (٣١٦) والترمذي في السنن (٩١٣) وابن ماجه في السنن (٣٠٤٤) وأحمد في مسنده (١١٩/٢) .

كما ضربناكم على تنزيله ضربا يُزيل الهام عن مقيله
ويذهل الخليل عن خليله قد أنزل الرحمن في تنزيله
في صحف تُثلى على رسوله بأن خير القتل فى سبيله
يارب إني مؤمن بقبيله ^(١)

عن البراء رضي الله عنه قال : اعتمر النبي ﷺ في ذي القعدة فأبى أهل مكة أن يدعوه يدخل مكة ، حتى قاضاهم على أن يقيموا بها ثلاثة أيام ، فلما كتبوا الكتاب كتبوا : هذا ما قاضى عليه محمد رسول الله ، قالوا : لا نفر بهذا ، ولو نعلم أنك رسول الله ما منعناك شيئا ، ولكن اكتب محمد بن عبد الله . قال ﷺ : « أنا رسول الله وأنا محمد بن عبد الله » ثم قال ﷺ لعلي بن أبي طالب رضي الله عنه : « امح رسول الله » قال ﷺ : لا والله لا أمحوك أبدا ، فأخذ رسول الله ﷺ الكتاب وليس يحسن يكتب فكتب : « هذا ما قاضى عليه محمد بن عبد الله أن لا يدخل مكة بالسلاح إلا بالسيف في القرب ، وأن لا يخرج من أهلها بأحد أراد أن يتبعه ، وأن لا يمنع من أصحابه أحدا إن أراد أن يقيم بها » . فلما دخلها ومضى الأجل أتوا عليا فقالوا : قل لصاحبك اخرج عنا فقد مضى الأجل ، فخرج النبي ﷺ فبعته ابنة حمزة رضي الله عنه تنادي يا عم يا عم ، فتناولها علي رضي الله عنه فأخذ بيدها وقال لفاطمة رضي الله عنها : دونك ابنة عمك فحملها ، فاخصم فيها علي وزيد وجعفر رضي الله عنهم فقال علي رضي الله عنه : أنا أخذتها وهي ابنة عمي . وقال جعفر رضي الله عنه : ابنة عمي وخالتها تحتي ، وقال زيد رضي الله عنه : ابنة أخي ، فقضى بها النبي ﷺ لخالتها وقال : « الخالة بمنزلة الأم » وقال لعلي رضي الله عنه : « أنت مني وأنا منك » وقال لجعفر رضي الله عنه « أشبهت خلقي وخلقي » وقال لزيد رضي الله عنه : « أنت أخونا ومولانا » قال علي رضي الله عنه : ألا تتزوج ابنة حمزة رضي الله عنه ؟ قال ﷺ : « إنها ابنة أخي من الرضاعة » ^(٢) .

وقوله تعالى : ﴿ قَلِيلٌ مَّا لَمْ تَسْلُكُوا فَجَعَلَ مِنْ دُونِ ذَلِكَ فَتَمَا قَرِيبًا ﴾ أي فعلم الله ﷻ من الخير والمصلحة في صرفكم عن مكة ودخولكم إليها عامكم ذلك ما لم تعلموا أنتم ﴿ فَجَعَلَ مِنْ دُونِ ذَلِكَ ﴾ أي قبل دخولكم الذي وعدتم به في رؤيا النبي ﷺ ﴿ فَتَمَا قَرِيبًا ﴾ ، وهو الصلح الذي كان بينكم وبين أعدائكم من المشركين ، ثم قال تبارك وتعالى مبشرا للمؤمنين بنصرة الرسول ﷺ على عدوه ، وعلى سائر أهل الأرض ﴿ هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ ﴾ أي بالعلم النافع والعمل الصالح ، فإن الشريعة تشتمل على شيئين : علم وعمل ، فالعلم الشرعي صحيح ، والعمل الشرعي مقبول ، فأخباراتها حق وإنشاءاتها عدل ﴿ لِنُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ ﴾ أي على أهل جميع الأديان من سائر أهل الأرض من عرب وعجم ومسلمين ومشركين ﴿ وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا ﴾ أي أنه رسوله وهو ناصره ، والله ﷻ أعلم .

﴿ مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنْجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْئَهُ فَفَزَزَهُ فَأَسْتَقْلَطَ فَاسْتَوَى عَلَى

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٣٠٥/١) .

(٢) أخرجه البخاري في الصلح (٢٦٩٩) والبيهقي في السنن (٢٣٦/١٠) والطبراني في الكبير (٧٤/٧) .

سُوْفِيهِ يُعْجِبُ الزَّانِعَ لِيَنْظُرَ بِهِمُ الْكُفَّارُ وَعَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ﴿١﴾ .

يخبر تعالى عن محمد ﷺ أنه رسوله حقاً بلا شك ولا ريب فقال : ﴿ مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ ﴾ وهذا مبتدأ وخبر ، وهو مشتمل على كل وصف جميل ، ثم ثنى بالثناء على أصحابه ﷺ فقال : ﴿ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ ﴾ كما قال ﷺ : ﴿ مَثَرَتِي إِلَى اللَّهِ يَقْوَىٰ جُيُوشُهُمْ وَيُجِيبُونَهُ أَذْلَقَهُ عَلَى الْمُتَوَكِّلِينَ أَعَزَّهُ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴾ وهذه صفة المؤمنين أن يكون أحدهم شديداً عنيفاً على الكفار ، رحيماً برباً بالأخبار ، غضوباً عبوساً في وجه الكافر ضحوكاً بشوشاً في وجه أخيه المؤمن وقال النبي ﷺ : « مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم كمثل الجسد الواحد ، إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالحسنى والحسنى » (١) . وقال ﷺ : « المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضاً . وشبك ﷺ بين أصابعه » (٢) .

وقوله ﷺ : ﴿ تَرَنَّهُمْ زَكَاةً سُبْحًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا ﴾ وصفهم بكثرة العمل وكثرة الصلاة وهي خير الأعمال ، ووصفهم بالإخلاص فيها لله ﷻ والاحتساب عند الله تعالى بجزيل الثواب ، وهو الجنة المشتملة على فضل الله ﷻ وهو سعة الرزق عليهم ورضاه تعالى عنهم ، وهو أكثر من الأول وقوله ﷺ : ﴿ سَيَمَاهُمْ فِي جُوهِهِمْ مِنْ أَرَى السُّجُودَ ﴾ عن ابن عباس : يعني السميت الحسن . وقال مجاهد وغير واحد : يعني الخشوع والتواضع . عن مجاهد قال : الخشوع . قلت : ما كنت أراه إلا هذا الأثر في الوجه . فقال : ربما كان بين عيني من هو أقسى قلباً من فرعون . وقال السدي : الصلاة تحسن وجوههم ، وقال بعض السلف : من كثرت صلاته بالليل حسن وجهه بالنهار ، عن جابر ﷺ قال : قال رسول الله ﷺ : « من كثرت صلاته بالليل حسن وجهه بالنهار » (٣) . وقال بعضهم : إن للحسنة نوراً في القلب وضياء في الوجه وسعة في الرزق ومحبة في قلوب الناس .

وقال أمير المؤمنين عثمان ﷺ : ما أسر أحد سريرة إلا أبداها الله تعالى على صفحات وجهه وقلبات لسانه ، والغرض أن الشيء الكامن في النفس يظهر على صفحات الوجه ، فالمؤمن إذا كانت سريرته صحيحة مع الله تعالى أصلح الله ﷻ ظاهره للناس ، وعن أبي سعيد ﷺ عن رسول الله ﷺ أنه قال : « لو أن أحدكم يعمل في صخرة صماء ليس لها باب ولا كوة لخرج عمله للناس كائناً ما كان » (٤) .

وعن ابن عباس ﷺ ، عن النبي ﷺ قال : « إن الهدي الصالح والسمت الصالح والاقتصاد جزء من خمسة وعشرين جزءاً من النبوة » (٥) ، فالصحابة ﷺ خلصت نياتهم وحسنت أعمالهم ، فكل من نظر إليهم أعجبه في سمتهم وهديهم . وقال مالك ﷺ : بلغني أن النصاري كانوا إذا رأوا الصحابة ﷺ الذين فتحوا الشام يقولون : والله لهؤلاء خير من الحواريين فيما بلغنا ، وصدقوا في ذلك فإن هذه الأمة معظمة في الكتب المتقدمة ، وأعظمها وأفضلها أصحاب رسول الله ﷺ ، وقد نوه الله تبارك وتعالى بذكرهم في الكتب المنزلة والأخبار المتداولة ، ولهذا قال ﷺ ههنا : ﴿ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَةِ ﴾ ثم قال : ﴿ وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنْجِيلِ كَرَجَجٍ أُخْرِجَ شَطْنُهُ ﴾ أي فراخه ﴿ فَتَأَنَّى ﴾ أي شده

(١) أخرجه مسلم في البر والصلة (٦٦) وأحمد في مسنده (٢٧٠/٤) والبيهقي في السنن (٣٥٣/٣) .

(٢) أخرجه البخاري في الأدب (٦٠٢٦) ومسلم في البر والصلة (٦٥) والترمذي في السنن (١٩٢٨) وأحمد في مسنده (٤٠٤/٤) .

(٣) أخرجه ابن ماجه في السنن (٤٢٢/١) . (٤) أخرجه أحمد في مسنده (٢٨/٣) والطبراني في الكبير (١٨٤/٢) .

(٥) أخرجه أحمد في مسنده (٢٩٩/١) .

﴿ فَاسْتَغْلَظْ ﴾ أي شب و طال ﴿ فَاسْتَوَىٰ عَلَىٰ شَوْجِيهِ يُصِيبُ الزَّرْعَ ﴾ أي فكذلك أصحاب رسول الله ﷺ أزروه وأيدوه ونصروه فهم معه كالشطء مع الزرع ﴿ لِيَغِطَّ بِهِمُ الْكُفَّارُ ﴾ .

ومن هذه الآية انتزع الإمام مالك رحمة الله عليه ، في رواية عنه ، بتكفير الروافض الذين يغيضون الصحابة ﷺ قال : لأنهم يغيظونهم ومن غاظ الصحابة ﷺ فهو كافر لهذه الآية ، ووافقه طائفة من العلماء ﷺ على ذلك ، والأحاديث في فضل الصحابة ﷺ والنهي عن التعرض لهم بمساوئهم كثيرة ، ويكفيهم ثناء الله عليهم ورضاه عنهم . ثم قال تبارك وتعالى : ﴿ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُمْ ﴾ من هذه لبيان الجنس ﴿ مَقَرَّةً ﴾ أي لذنوبهم ﴿ وَأَجْرًا عَظِيمًا ﴾ أي ثوابًا . جزيلًا ورزقًا كريمًا . ووعد الله حق وصدق لا يخلف ولا يبدل ، وكل من اقتفى أثر الصحابة ﷺ فهو في حكمهم ، ولهم الفضل والسبق والكمال الذي لا يلحقهم فيه أحد من هذه الأمة ، ﷺ وأرضاهم وجعل جنات الفردوس مأواهم ، وقد فعل . عن أبي هريرة ﷺ قال : قال رسول الله ﷺ : « لا تسبوا أصحابي ، فوالذي نفسي بيده لو أن أحدكم أنفق مثل أحد ذهبًا ما أدرك مد أحدهم ولا نصيفه » (١) .

(١) أخرجه مسلم في فضائل الصحابة (٢٢٢) وأحمد في مسنده (٥٤/٣) والبيهقي في السنن (٢٠٣/١٠) .

سورة الحجرات

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْدُمُوا بَيْنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَانْفُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَلُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ﴿٢﴾ إِنَّ الَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَاتَهُمْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ أُولَئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلْقَوْلِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٣﴾﴾ .

هذه آيات أدب الله تعالى بها عباده المؤمنين ، فيما يعاملون به الرسول ﷺ من التوقير والاحترام والتبجيل والإعظام ، فقال تبارك وتعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْدُمُوا بَيْنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ ﴾ أي لا تسارعوا في الأشياء بين يديه أي قبله ، بل كونوا تبعاً له في جميع الأمور حتى يدخل في عموم هذا الأدب الشرعي حديث معاذ ﷺ حيث قال له النبي ﷺ حين بعثه إلى اليمن « بم تحكم ؟ » قال : بكتاب الله تعالى ، قال ﷺ : « فإن لم تجد ؟ » قال : بسنة رسول الله ﷺ ، قال ﷺ : « فإن لم تجد ؟ » قال ﷺ : أجتهد رأيي ، فضرب في صدره وقال : « الحمد لله الذي وفق رسول رسول الله ﷺ لما يرضي رسول الله ﷺ » (١) .

وعن ابن عباس ﷺ ﴿ لَا تَقْدُمُوا بَيْنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ ﴾ : لا تقولوا خلاف الكتاب والسنة ، وقال العوفي عنه : نهوا أن يتكلموا بين يدي كلامه ، وقال مجاهد : لا تفتاتوا على رسول الله ﷺ بشيء حتى يقضي الله تعالى على لسانه ، وقال الضحاك : لا تقضوا أمراً دون الله ورسوله من شرائع دينكم ، وقال سفيان الثوري : بقول ولا فعل ، وقال الحسن البصري : لا تدعوا قبل الإمام ، وقال قتادة : ذكر لنا أن ناساً كانوا يقولون : لو أنزل في كذا وكذا ، لو صح كذا ، فكره الله تعالى ذلك وتقدم فيه ﴿ وَانْفُوا اللَّهَ ﴾ أي فيما أمركم به ﴿ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ أي لأقوالكم ﴿ عَلِيمٌ ﴾ بنياتكم . وقوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ ﴾ هذا أدب ثان أدب الله تعالى به المؤمنين أن لا يرفعوا أصواتهم بين يدي النبي ﷺ فوق صوته ، وقد روي أنها نزلت في الشيخين أبي بكر وعمر ﷺ . وعن ابن أبي مليكة ، قال : كاد الخيران أن يهلكا أبو بكر وعمر ﷺ ، رفعاً أصواتهما عند النبي ﷺ حين قدم عليه ركب بني تميم ، فأشار أحدهما بالأقرع بن حابس ﷺ أخي بني مجاشع ، وأشار الآخر برجل آخر ، قال نافع : لا أحفظ اسمه ، فقال أبو بكر لعمر ﷺ : ما أردت إلا خلافي ، قال : ما أردت خلافتك ، فارتفعت أصواتهما في ذلك فأنزل الله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَلُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ﴾ قال ابن الزبير ﷺ فما كان عمر ﷺ يسمع رسول الله ﷺ بعد هذه الآية حتى يستفهمه (٢) .

وعن أنس بن مالك ﷺ ، أن النبي ﷺ افتقد ثابت بن قيس ﷺ فقال رجل : يا رسول الله أنا أعلم لك علمه ، فأتاه فوجده في بيته منكساً رأسه فقال له : ما شأنك ؟ فقال : شر ، كان يرفع

(١) أخرجه الترمذي في السنن (١٣٢٧) وأحمد في مسنده (٢٣٦/٥) والدارمي في السنن (٦٠/١) .

(٢) أخرجه البخاري في تفسير القرآن (٤٨٤٥) .

ثم إنه تبارك وتعالى ذم الذين ينادونه من وراء الحجرات وهي بيوت نسائه ، كما يصنع أجلاف الأعراب فقال : ﴿ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴾ ثم أرشد تعالى الى الأدب في ذلك فقال ﷺ : ﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا حَتَّى تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ ﴾ أي لكان لهم في ذلك الخيرة والمصلحة في الدنيا والآخرة . ثم قال جل ثناؤه داعيًا لهم إلى التوبة والإنابة ﴿ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ وقد ذكر أنها نزلت في الأقرع بن حابس التميمي ؓ فيما أورده غير واحد . عن الأقرع بن حابس ؓ ، أنه نادى رسول الله ﷺ فقال : يا محمد يا محمد ، وفي رواية : يا رسول الله ، فلم يجبه فقال : يا رسول الله إن حمدي لزين ، وإن ذمي لشين ، فقال ﷺ : « ذاك الله ﷻ » ^(١) وعن زيد بن أرقم ؓ قال : اجتمع أناس من العرب فقالوا : انطلقوا بنا إلى هذا الرجل فإن يك نبيًا فنحن أسعد الناس به ، وإن يك ملكًا نعش بجناحه . قال : فأتيت رسول الله ﷺ فأخبرته بما قالوا ، فجاءوا إلى حجرة النبي ﷺ فجعلوا ينادونه وهو في حجرته : يا محمد يا محمد ، فأنزل الله تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَبْذُلُونَ مِنْ وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴾ قال : فأخذ رسول الله ﷺ بأذني ، فمدّها فجعل يقول : « لقد صدّق الله تعالى قولك يا زيد ، لقد صدّق الله قولك يا زيد » ^(٢) .

﴿ يَتَأْتِيهِمُ الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا جَاءَهُمْ فَاسِقٌ يَنْتَبِهُونَ أَن يُصِيبُوا قَوْمًا يَحْتَلِمُ فَتُصَيِّرُوا عَلَى مَا فَعَلْتُمْ نَادِينَ ﴾ وَأَعْلَمُوا أَن فِيكُمْ رَسُولَ اللَّهِ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِّنَ الْأَمْرِ لَعَنِتُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ أُولَئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ ﴿ فَضَلَّ مِنَ اللَّهِ وَنِعْمَ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ .

يأمر تعالى بالتثبت في خبر الفاسق ليحتاط له لئلا يحكم بقوله ، فيكون في نفس الأمر كاذبًا أو مخطئًا ، فيكون الحاكم بقوله قد اقتضى وراه ، وقد نهى الله ﷻ عن اتباع سبيل المفسدين ، ومن هاهنا امتنع طوائف من العلماء من قبول رواية مجهول الحال لاحتمال فسقه في نفس الأمر ، وقبلها آخرون ؛ لأننا إنما أمرنا بالتثبت عند خبر الفاسق ، وهذا ليس بمحقق الفسق ؛ لأنه مجهول الحال ، وقد ذكر كثير من المفسرين أن هذه الآية نزلت في الوليد بن عقبة بن أبي معيط ، حين بعثه رسول الله ﷺ على صدقات بني المصطلق ^(٣) . وعن الحارث بن أبي ضرار الخزاعي ؓ قال : قدمت على رسول الله ﷺ فدعاني إلى الاسلام فدخلت فيه وأقررت به ، ودعاني إلى الزكاة فأقررت بها ، وقلت : يا رسول الله أرجع إليهم فأدعهم إلى الاسلام وأداء الزكاة فمن استجاب لي جمعت زكاته . وترسل إلي يا رسول الله رسولًا إبان كذا وكذا ليأتيك بما جمعت من الزكاة . فلما جمع الحارث الزكاة ممن استجاب له وبلغ الإبان الذي أراد رسول الله ﷺ أن يبعث إليه احتبس عليه الرسول ولم يأته وظن الحارث أنه قد حدث فيه سخطة من الله تعالى ورسوله ، فدعا بسروات قومه . فقال لهم : إن رسول الله ﷺ كان وقت لي وقتًا يرسل إلي رسوله ليقبض ما كان عندي من الزكاة وليس من رسول الله ﷺ الخلف ، ولا أرى حيس رسوله إلا من سخطة ، فانطلقوا بنا نأتي رسول الله ﷺ ، وبعث رسول الله ﷺ الوليد بن عقبة إلى الحارث ليقبض ما كان عنده مما جمع من

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٤٨٨/٣) والترمذي في السنن (٣٢٦٨) .

(٢) أخرجه الطبراني في الكبير (٢٤٠/٥) والهيتمي في مجمع الزوائد (١٠٨/٧) .

(٣) أسباب النزول للسياهري (ص ٢١٧) .

الزكاة ، فلما أن سار الوليد حتى بلغ بعض الطريق فرق أي خاف ، فرجع حتى أتى رسول الله ﷺ فقال : يا رسول الله إن الحارث قد منعني الزكاة وأراد قتلي ، فغضب رسول الله ﷺ وبعث البعث إلى الحارث ﷺ وأقبل الحارث بأصحابه حتى اذا استقبل البعث وفصل عن المدينة لقيهم الحارث فقالوا : هذا الحارث ، فلما غشيهم قال لهم : إلى من بعثتم ؟ قالوا : إليك . قال : ولم ؟ قالوا : إن رسول الله ﷺ بعث إليك الوليد بن عقبة فزعم أنك منعه الزكاة وأردت قتله . قال ﷺ : لا والذي بعث محمدًا ﷺ بالحق ما رأيته بته ولا أتاني .

فلما دخل الحارث على رسول الله ﷺ قال : « منعت الزكاة وأردت قتل رسولي ؟ » قال : لا والذي بعثك بالحق ما رأيته ولا أتاني وما أقبلت الا حين احتبس علي رسول الله ﷺ ، خشيت أن يكون كانت سخطه من الله تعالى ورسوله . قال فنزلت الحجرات ﴿ يٰٓأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا ﴾ إلى قوله ﴿ حَكِيمٌ ﴾ ^(١) .

وقوله تعالى : ﴿ وَاعْلَمُوا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللَّهِ ﴾ أي اعلموا أن بين أظهركم رسول الله ﷺ فغضموه ووقروه وتآدبوا معه وانقادوا لأمره ، فإنه أعلم بمصالحكم وأشفق عليكم منكم ، ورأيه فيكم أتم من رأيكم لأنفسكم ، كما قال تبارك وتعالى : ﴿ أَلَيْسَ أُولَٓئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ ﴾ ثم يبين أن رأيهم سخيف بالنسبة الى مراعاة مصالحهم فقال : ﴿ لَوْ يَطِغْكُمُ فِي كَثِيرٍ مِّنَ الْأَمْرِ لَعَسَٔمُ ﴾ أي لو أطاعكم في جميع ما تختارونه لأدى ذلك إلى عنتكم وحرجمكم ، وقوله ﷻ : ﴿ وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَبٌ إِلَيْكُمْ الْإِيمَنَ وَرَزَقَنِي فِي قُلُوبِكُمْ ﴾ أي حبيه إلى نفوسكم وحسنه في قلوبكم .

وعن أنس ﷺ قال : كان رسول الله ﷺ يقول : « الإسلام علانية والإيمان في القلب » قال ثم يشير بيده إلى صدره ثلاث مرات ثم يقول : « التقوى ههنا ، التقوى ههنا » ^(٢) ﴿ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمْ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ ﴾ أي وبغض إليكم الكفر والفسوق وهي الذنوب الكبار ﴿ وَالْعِصْيَانَ ﴾ ، وهي جميع المعاصي وهذا تدرج لكمال النعمة ، وقوله تعالى : ﴿ أُولَٓئِكَ هُمُ الرَّشِدُونَ ﴾ أي المتصفون بهذه الصفة هم الراشدون الذين قد آتاهم الله رشدهم .

عن أبي رفاعة الزرقعي عن أبيه قال : لما كان يوم أحد وانكفأ المشركون قال رسول الله ﷺ : « استووا حتى أثنى على ربي ﷻ فصاروا خلفه صفوفًا ، فقال ﷺ : « اللهم لك الحمد كله ، اللهم لا قابض لما بسطت ، ولا باسط لما قبضت ، ولا هادي لمن أضللت ، ولا مضل لمن هديت ، ولا معطي لما منعت ، ولا مانع لما أعطيت ، ولا مقرب لما باعدت ، ولا مباعد لمن قربت . اللهم ابسط علينا من بركاتك ورحمتك وفضلك ورزقك ، اللهم إني أسألك النعيم المقيم الذي لا يحول ولا يزول . اللهم إني أسألك النعيم يوم العيلة ، والأمن يوم الخوف ، اللهم إني عائذ بك من شر ما أعطيتنا ومن شر ما منعتنا . اللهم حبب إلينا الإيمان وزينه في قلوبنا ، وكره إلينا الكفر والفسوق والعصيان واجعلنا من الراشدين . اللهم توفنا مسلمين وأحينا مسلمين وألحقنا بالصالحين غير خزايا

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٢٧٩/٤) .

(٢) أخرجه أحمد في مسنده (١٣٤/٣) والبيهقي في مجمع الزوائد (٥٢/١) .

ولا مفتونين ، اللهم قاتل الكفرة الذين يكذبون رسلك ويصدون عن سبيلك ، واجعل عليهم رجزك وعذابك ، اللهم قاتل الكفرة الذين أوتوا الكتاب إله الحق » (١) . ﴿ فَضَلَا مِنْ اللَّهِ رِجْمَةً ﴾ أي هذا العطاء الذي منحكموه هو فضل منه عليكم ونعمة من لدنه ﴿ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ أي عليم بمن يستحق الهداية ممن يستحق الغواية حكيم في أقواله وأفعاله وشرعه وقدره .

﴿ وَلَنْ طَافِقَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَفْتَنَلُوا فَأَصْلَحُوا بَيْنَهُمَا فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَىٰ فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبَغَىٰ حَتَّىٰ تَأْتِيَ إِلَهُ تَأْمُرُ فَإِنْ فَاتَتْ فَأَصْلَحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْضُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ﴾ (٢) إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلَحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿

يقول تعالى أمراً بالاصلاح بين الفئتين الباغيتين بعضهم على بعض ﴿ وَلَنْ طَافِقَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَفْتَنَلُوا فَأَصْلَحُوا بَيْنَهُمَا ﴾ فسامهم مؤمنين مع الاقتتال ، وبهذا استدلال البخاري وغيره على أنه لا يخرج عن الإيمان بالمعصية وإن عظمت ، لا كما يقوله الخوارج ومن تابعهم من المعتزلة ونحوهم ، وهكذا ثبت عن أبي بكر ؓ قال : إن رسول الله ﷺ خطب يوماً ، ومعه على المنبر الحسين بن علي ؓ ، فجعل ينظر اليه مرة ، وإلى الناس أخرى ويقول : « إن ابني هذا سيد ولعل الله تعالى أن يصلح به بين فئتين عظيمتين من المسلمين » (٣) . فكان كما قال ﷺ ، أصلح الله تعالى به بين أهل الشام وأهل العراق بعد الحروب الطويلة ، والوقائع المهولة . وقوله تعالى : ﴿ فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَىٰ فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبَغَىٰ حَتَّىٰ تَأْتِيَ إِلَهُ تَأْمُرُ ﴾ أي حتى ترجع إلى أمر الله ورسوله ، وتسمع للحق وتطيعه ، عن أنس ؓ ، أن رسول الله ﷺ قال : « انصر أخاك ظالماً أو مظلوماً » قلت : يا رسول الله ، هذا نصرته مظلوماً ، فكيف أنصره ظالماً ؟ قال ﷺ : « تمنعه من الظلم ؛ فذاك نصرته إياه » (٣) .

وروي أن أنساً ؓ قال : قيل للنبي ﷺ : لو أتيت عبد الله بن أبي ، فانطلق إليه النبي ﷺ ، وركب حملاً وانطلق المسلمون يمشون وهي أرض سبخة ، فلما انطلق النبي ﷺ إليه قال : إليك عني ، فوالله لقد أذاني ريح حمارك ، فقال رجل من الأنصار : والله لحمار رسول الله ﷺ أطيب ريحاً منك . قال : فغضب لعبد الله رجال من قومه ، فغضب لكل واحد منهما أصحابه ، قال : فكان بينهم ضرب بالجريد والأيدي والنعال ، فبلغنا أنه أثرت فيهم ﴿ وَلَنْ طَافِقَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَفْتَنَلُوا فَأَصْلَحُوا بَيْنَهُمَا ﴾ (٤) .

وذكر سعيد بن جبير أن الأوس والخزرج كان بينهما قتال بالسعف والنعال ، فأنزل الله تعالى هذه الآية فأمر بالصلح بينهما . وقوله ﷺ : ﴿ فَإِنْ فَاتَتْ فَأَصْلَحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْضُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ﴾ أي اعدلوا بينهما فيما كان أصاب بعضهم لبعض بالقسط وهو العدل ﴿ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ﴾ .

عن عبد الله بن عمرو ؓ عن النبي ﷺ قال : « المقسطون عند الله تعالى يوم القيامة على منابر من

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٤٢٤/٣) والحاكم في المستدرک (٥٠٦/١) والطبراني في الكبير (٤٠/٥) .

(٢) أخرجه البخاري في الصلح (٢٧٠٤) وأحمد في مسنده (٣٨/٥) .

(٣) أخرجه البخاري في اللقطة (٢٤٤٣) وأحمد في مسنده (٢٩٩/٣) والترمذي في السنن (٢٢٥٥) .

(٤) أخرجه أحمد في مسنده (١٥٧/٣) .

نور على يمين العرش ، الذين يعدلون في حكمهم وأهاليهم وماؤلو^(١) . وقوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ ﴾ أي الجميع أخوة في الدين ، كما قال رسول الله ﷺ : « المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يسلمه »^(٢) وفي الصحيح « والله في عون العبد ما كان العبد في عون أخيه »^(٣) وفي الصحيح أيضا « إذا دعا المسلم لأخيه بظهر الغيب قال الملك : أمين ولك مثله »^(٤) ، وفي الصحيح « مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم وتواصلهم كمثل الجسد الواحد ، إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالحصى والسهر »^(٥) .

وقوله تعالى ﴿ فَاصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ ﴾ يعني الفتتين المقتلتين ، ﴿ وَاتَّقُوا اللَّهَ ﴾ أي في جميع أموركم ﴿ لَعَلَّكُمْ تَرْحَمُونَ ﴾ وهذا تحقيق منه تعالى للرحمة لمن اتقاه .

﴿ يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا يَحْزَنَ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰ أَن يَكُونُوا خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلَا نِسَاءٌ مِّن نِّسَاءٍ عَسَىٰ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ وَلَا تَلْمِزُوا أَنفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ بِئْسَ الْأَلْمِزُ بَعْدَ الْإِيمَانِ وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴾ .

ينهى تعالى عن السخرية بالناس وهو احتقارهم والاستهزاء بهم ، كما ثبت في الصحيح عن رسول الله ﷺ أنه قال : « الكبر بطن الحق وغمص الناس » ويروى « وغمط الناس »^(٦) والمراد من ذلك احتقارهم واستصغارهم ، وهذا حرام فإنه قد يكون المحتقر أعظم قدرا عند الله تعالى ، وأحب إليه من الساخر منه المحتقر له ، ولهذا قال تعالى : ﴿ يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا يَحْزَنَ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰ أَن يَكُونُوا خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلَا نِسَاءٌ مِّن نِّسَاءٍ عَسَىٰ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ ﴾ فنص على نهى الرجال ، وعطف بنهي النساء . وقوله تبارك وتعالى : ﴿ وَلَا تَلْمِزُوا أَنفُسَكُمْ ﴾ أي لا تلمزوا الناس . والهماز اللماز من الرجال مذموم ملعون والهمز بالفعل واللمز بالقول .

قال ابن عباس ومجاهد وسعيد بن جبيرة وقتادة ومقاتل بن حيان ﴿ وَلَا تَلْمِزُوا أَنفُسَكُمْ ﴾ أي لا يطعن بعضكم على بعض ، وقوله تعالى : ﴿ وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ ﴾ أي لا تداعوا بالألقاب ، وهي التي يسوء الشخص سماعها . عن أبي جبيرة بن الضحاك ، قال : فينا نزلت في بني سلمة ﴿ وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ ﴾ قال : قدم رسول الله ﷺ المدينة ، وليس فينا رجل إلا وله اسمان أو ثلاثة ، فكان إذا دعا أحدا منهم باسم من تلك الأسماء ، قالوا : يا رسول الله إنه يغضب من هذا ، فنزلت ﴿ وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ ﴾^(٧) . وقوله جل وعلا : ﴿ بِئْسَ الْأَلْمِزُ بَعْدَ الْإِيمَانِ ﴾ أي بشم الصفة والاسم الفسوق ، وهو التنازع بالألقاب ، كما كان أهل الجاهلية يتنازعون بعد ما دخلتم في الإسلام وعقلتموه ﴿ وَمَن لَّمْ يَتُبْ ﴾ أي من هذا ﴿ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴾ .

﴿ يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَجْنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ وَلَا تَجَسَّسُوا وَلَا يَغْتَبَ بَئْضُكُم بَئْضًا يَجِبُ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ ﴾ .

يقول تعالى ناهيا عباده المؤمنين عن كثير من الظن ، وهو التهمة والتخون للأهل والأقارب والناس

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٢٠٣/٢) والحاكم في المستدرک (٨٨/٤) والبيهقي في السنن (٨٧/١٠) .

(٢) أخرجه البخاري في اللقطة (٢٤٤٢) ومسلم في البر والصلة (٥٨) وأحمد في مسنده (٣١١/٢) .

(٣) أخرجه أحمد في مسنده (٢٥٢/٢) . (٤) أخرجه أبو داود في السنن (١٥٣٤) .

(٥) أخرجه البخاري في الأدب (٦٠٢٦) ومسلم في البر والصلة (٦٥) وأحمد في مسنده (٤٠٤/٤) .

(٦) أخرجه مسلم في الإيمان (١٤٧) والترمذي في السنن (١٩٩٩) .

(٧) أخرجه أحمد في مسنده (٦٩/٤) والبيهقي في مجمع الزوائد (١١١/٧) .

في غير محله ؛ لأن بعض ذلك يكون إثماً محضاً ، فليجتنب كثيراً منه احتياطاً . وروينا عن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه قال : ولا تظنن بكلمة خرجت من أخيك المؤمن إلا خيراً ، وأنت تجد لها في الخير محملاً . وعن عبد الله بن عمر رضي الله عنه قال : رأيت النبي صلى الله عليه وسلم يطوف بالكعبة ويقول : « ما أطيبك وأطيب ريحك ، ما أعظمك وأعظم حرمتك ، والذي نفس محمد بيده لحرمة المؤمن أعظم عند الله تعالى حرمة منك ، ماله ودمه وأن يظن به إلا خيراً » ^(١) وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إياكم والظن ؛ فإن الظن أكذب الحديث ، ولا تحسسوا ، ولا تحسسوا ، ولا تنافسوا ، ولا تحاسدوا ، ولا تباغضوا ، ولا تدابروا ، وكونوا عباد الله إخواناً » ^(٢) .

وعن أنس رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لا تقاطعوا ولا تدابروا ولا تباغضوا ولا تحاسدوا ، وكونوا عباد الله إخواناً ، ولا يحل لمسلم أن يهجر أخاه فوق ثلاثة أيام » ^(٣) . وعن حارثة بن النعمان رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ثلاث لازمات لأمتي : الطيرة والحسد وسوء الظن » فقال الرجل : وما يذهبن يا رسول الله ممن هن فيه ؟ قال صلى الله عليه وسلم : « إذا حسدت فاستغفر الله ، وإذا ظننت فلا تحقق ، وإذا تطيرت فامض » ^(٤) . وعن دجين كاتب عقبة قال : قلت لعقبة : إن لنا جيراناً يشربون الخمر وأنا داع لهم الشرط فأأخذونهم . قال : لا تفعل ولكن عظمهم وتهددهم ، قال : ففعل فلم ينتهوا . قال : فجاءه دجين فقال : إني قد نهيتهم فلم ينتهوا ، وإني داع لهم الشرط فتأخذهم ، فقال له عقبة : ويحك لا تفعل ؟ فإني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « من ستر عورة مؤمن فكأنما استحيا موعودة من قبرها » ^(٥) وعن معاوية رضي الله عنه قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « إنك إن اتبعت عورات الناس أفسدتهم أو كدت أن تفسدهم » فقال أبو الدرداء رضي الله عنه : كلمة سمعها معاوية رضي الله عنه من رسول الله صلى الله عليه وسلم نفعه الله تعالى بها ^(٦) .

﴿ وَلَا تَجَسَّسُوا ﴾ أي على بعضكم بعضاً والتجسس غالباً يطلق في الشر ومنه الجاسوس . وأما التجسس : فيكون غالباً في الخير كما قال صلى الله عليه وسلم إخباراً عن يعقوب أنه قال : ﴿ يَنْبَغُ أَذْهَبُوا مَتَجَسَّسُوا مِنْ يُؤَسَّفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَأْتَسُوا مِنْ رَجَعِ اللَّهِ ﴾ وقد يستعمل كل منهما في الشر كما ثبت في الصحيح أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « لا تجسسوا ولا تحسسوا ولا تباغضوا ولا تدابروا ، وكونوا عباد الله إخواناً » ^(٧) وقال الأوزاعي : التجسس البحث عن الشيء . والتجسس الاستماع إلى حديث القوم وهم له كارهون أو يتسمع على أبوابهم ، والتدابير : الصرم ، وقوله تعالى ﴿ وَلَا يَنْتَبِ بِمَعْصِكُمْ بَعْضًا ﴾ فيه نهي عن الغيبة ، وقد فسرها الشارع كما جاء في الحديث عن أبي هريرة قال : قيل : يا رسول الله ما الغيبة ؟ قال صلى الله عليه وسلم : « ذكرك أخاك بما يكره » قيل : أفرأيت إن كان في أخي ما أقول ؟ قال صلى الله عليه وسلم : « إن كان فيه ما تقول فقد اغتبته ، وإن لم يكن فيه ما تقول فقد بهته » ^(٨) عن عائشة رضي الله عنها قالت : قلت للنبي صلى الله عليه وسلم حسبك من

(١) أخرجه ابن ماجه في السنن (٢٩٣٢) والطبراني في الكبير (٣٧/١١) والمنذري في الترغيب والترهيب (٢٩٤/٣) .

(٢) أخرجه البخاري في الأدب (٦٠٦٤) ومسلم في البر والصلة (٢٨) والترمذي في السنن (١٩٨٨) ومالك في الموطأ (٩٠٨) .

(٣) أخرجه مسلم في البر والصلة (٣٠) والترمذي في السنن (١٩٣٥) وأحمد في مسنده (١٦٥/٣) .

(٤) أخرجه الطبراني في الكبير (٢٥٨/٣) والهندي في كنز العمال (٤٣٩١٩) .

(٥) أخرجه أحمد في مسنده (١٥٣/٤) . (٦) أخرجه أبو داود في السنن (٤٨٨٨) والطبراني في الكبير (٣٧٩/١٩) .

(٧) أخرجه مسلم في البر والصلة (٢٩) .

(٨) أخرجه الترمذي في السنن (١٩٣٤) وأبو داود في السنن (٤٨٧٤) والبيهقي في السنن (٤٧/١٠) .

صفية كذا وكذا . تعني قصيرة ، فقال ﷺ : « لقد قلت كلمة لو مزجت بماء البحر لمزجته » قالت : وحكيت له إنساناً فقال : « ما أحب أني حكيت إنساناً وإن لي كذا وكذا » ^(١) والغيبة محرمة بالاجماع ، ولا يستثنى من ذلك إلا من رجحت مصلحته ، كما في الجرح والتعديل والنصيحة كقوله ﷺ لفاطمة بنت قيس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا ، وقد خطبها معاوية وأبو الجهم : « أما معاوية فصعلوك ، وأما أبو الجهم فلا يضع عصاه عن عاتقه » ^(٢) وكذا ما جرى مجرى ذلك ، ثم بقيتها على التحريم الشديد ، وقد ورد فيها الزجر الأكيد ، ولهذا شبهها تبارك وتعالى بأكل اللحم من الإنسان الميت كما قال ﷺ : ﴿ اَيُّكُمْ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ ﴾ أي كما تكرهون هذا طبعاً فاكروهوا ذاك شرعاً ، فإن عقوبته أشد من هذا ، وهذا من التنفير عنها والتحذير منها كما قال ﷺ : « العائد في هبته كالكلب يقيء ثم يرجع في قيئه » ^(٣) وثبت في الصحاح والحسان والمسانيد من غير وجه أنه ﷺ قال في خطبة الوداع : « إن دماءكم وأموالكم وأعراضكم عليكم حرام كحرمة يومكم هذا في شهركم هذا في بلدكم هذا » ^(٤) .

وعن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « كل المسلم على المسلم حرام ماله وعرضه ودمه ، حسب امرئ من الشر أن يحقر أخاه المسلم » ^(٥) وعن أبي بردة البلوي قال : قال رسول الله ﷺ : « يا معشر من آمن بلسانه ولم يدخل الإيمان في قلبه ، لا تغتابوا المسلمين ولا تتبعوا عوراتهم ، فإنه من يتبع عوراتهم يتبع الله عورته ، ومن يتبع الله عورته يفضحه في بيته » ^(٦) وعن أنس بن مالك قال : قال رسول الله ﷺ : « لما عرج بي مررت بقوم لهم أظفار من نحاس يخمشون وجوههم وصدورهم ، قلت : من هؤلاء يا جبرائيل ؟ قال : هؤلاء الذين يأكلون لحوم الناس ويقعون في أعراضهم » ^(٧) .

عن عبيد مولى رسول الله ﷺ أن امرأتين صامتا على عهد رسول الله ﷺ ، وأن رجلاً أتى رسول الله ﷺ فقال : يا رسول الله ان ههنا امرأتين صامتا وإنهما كادتتا تموتان من العطش ، أراه قال : بالهاجرة ، فأعرض عنه أو سكت عنه ، فقال : يا نبي الله إنهما والله قد ماتتا أو كادتتا تموتان ، فقال : ادعهما . فجاءتا قال : فجيء بقدرح أو عس ، فقال لإحدهما : قيئي . فقاعت من قيح ودم وصديد حتى قاءت نصف القدح ، ثم قال للأخرى : قيئي ، فقاعت قيحاً ودمًا وصديدًا ولحمًا ودمًا عبيطًا وغيره حتى ملأت القدح ، ثم قال : « إن هاتين صامتا عما أحل الله تعالى لهما وأفطرتا على ما حرم الله عليهما ، جلست إحدهما إلى الأخرى فجعلتا تأكلان لحوم الناس » ^(٨) .

وعن ابن عمر لأبي هريرة أن ماعزًا جاء إلى رسول الله ﷺ فقال : يا رسول الله إنني قد زنيت ، فأعرض عنه حتى قالها أربعًا ، فلما كان في الخامسة قال : « زنيت ؟ » قال : نعم . قال : « وتدرى ما الزنا ؟ » قال : نعم أتيت منها حرامًا ما يأتي الرجل من امرأته حلالًا . قال : « ما تريد إلى هذا القول ؟ »

(١) أخرجه أبو داود في السنن (٤٨٧٦) والمنذري في الترغيب والترهيب (٥٠٥/٣) .

(٢) أخرجه أحمد في مسنده (٤١٢/٦) . (٣) أخرجه البخاري بنحوه في الهبة (٢٦٢٢) .

(٤) أخرجه مسلم في الحج (١٤٧) وأحمد في مسنده (٣٢٠/١) .

(٥) أخرجه مسلم في البر والصلة (٣٢) والترمذي في السنن (١٩٢٧) وابن ماجه في السنن (٣٩٣٣) وأبو داود في السنن (٤٨٨٢) .

(٦) أخرجه أبو داود في السنن (٤٨٨٠) والبيهقي في السنن (٢٤٧/١٠) .

(٧) أخرجه أحمد في مسنده (٢٢٤/٣) .

(٨) أخرجه أحمد في مسنده (٤٣١/٥) والهيتمي في مجمع الزوائد (٢٧١/٣) .

قال : أريد أن تطهرني . قال : فقال رسول الله ﷺ : «أدخلت ذلك منك في ذلك منها كما يغيب الميل في المكحلة والرشا في البئر؟ قال : نعم يا رسول الله قال : فأمر برجمه ، فرجم ؟ فسمع النبي ﷺ رجلين يقول أحدهما لصاحبه : ألم تر إلى هذا الذي ستر الله عليه ، فلم تدعه نفسه حتى رجم رجم الكلب؟ ثم سار النبي ﷺ حتى مر بجيفة حمار فقال : «أين فلان وفلان ؟ انزلا فكلنا من جيفة هذا الحمار .» قالا : غفر الله لك يا رسول الله وهل يؤكل هذا ؟ قال ﷺ : «ما نلتما من أخيكما أنفاً أشد أكلاً منه ، والذي نفسي بيده إنه الآن لفي أنهار الجنة ينغمس فيها» (١) .

وعن جابر بن عبد الله ﷺ قال : كنا مع النبي ﷺ فارتفعت ريح جيفة منتنة . فقال رسول الله ﷺ : «أتدرون ما هذه الريح ؟ هذه ريح الذين يغتابون الناس» (٢) .

وقوله ﷻ : ﴿وَأَقْرَأُوا اللَّهَ﴾ أي فيما أمركم به ونهاكم عنه فراقبوه في ذلك واخشوا منه ﴿إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَحِيمٌ﴾ أي تواب على من تاب إليه رحيم لمن رجع إليه واعتمد عليه . قال الجمهور من العلماء : طريق المغتاب للناس في توبته أن يقلع عن ذلك ويعزم على أن لا يعود ، وهل يشترط الندم على ما فات ؟ فيه نزاع ، وأن يتحلل من الذي اغتابه . وقال آخرون : لا يشترط أن يتحلل ؛ فإنه إذا أعلمه بذلك ربما تأذى أشد مما إذا لم يعلم بما كان منه ، فطريقه إذاً أن يثني عليه بما فيه في المجالس التي كان يذمه فيها ، وأن يرد عنه الغيبة بحسبه وطاقته ، لتكون تلك بتلك ، وعن معاذ بن أنس الجهني عن أبيه ﷺ عن النبي ﷺ قال : «من حمى مؤمناً من منافق يغتابه ، بعث الله تعالى إليه ملكاً يحمي لحمه يوم القيامة من نار جهنم ، ومن رمى مؤمناً بشيء يريد سبه ؛ حبسه الله تعالى على جسر جهنم حتى يخرج مما قال» (٣) وعن جابر بن عبد الله وأبي طلحة بن سهل الأنصاري ﷺ قالا : قال رسول الله ﷺ : «ما من امرئ يخذل امرأ مسلماً في موضع تنتهك فيه حرمة وينتقص فيه من عرضه ، إلا خذله الله تعالى في مواطن يحب فيها نصرته ، وما من امرئ ينصر امرأ مسلماً في موضع ينتقص فيه من عرضه وينتهك فيه من حرمة إلا نصره الله ﷻ في مواطن يحب فيها نصرته» (٤) .

﴿يَتَأْتِيَ النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاهُ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاهُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ .

يقول تعالى مخبراً للناس أنه خلقهم من نفس واحدة وجعل منها زوجها ، وهما آدم وحواء ، وجعلهم شعوباً وهي أعم من القبائل ، وبعد القبائل مراتب أخر ، كالفصائل والعشائر والعماثر والأفخاذ وغير ذلك ، وقيل : المراد بالشعوب بطون العجم ، وبالقبائل بطون العرب ، كما أن الأسباط بطون بني إسرائيل ، فجميع الناس في الشرف بالنسبة الطينية إلى آدم وحواء ﷺ سواء ، وإنما يتفاضلون بالأمر الدينية وهي طاعة الله تعالى ومتابعة رسوله ﷺ ، ولهذا قال تعالى بعد النهي عن الغيبة واحتقار بعض الناس بعضاً ، منبهاً على تساويهم في البشرية ﴿يَتَأْتِيَ النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى﴾

(٢) أخرجه أحمد في مسنده (٣٥١/٣) .

(١) أخرجه البيهقي في السنن (٢٢٧/٨) .

(٣) أخرجه أحمد في مسنده (٤٤١/٣) .

(٤) أخرجه أبو داود في السنن (٢٨٨٤) وأحمد في مسنده (٣٠/٤) والدارمي في السنن (٢٤٣/١) .

وَجَعَلَكُمْ شُعوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا ﴿١﴾ أي ليحصل التعارف بينهم ، كل يرجع إلى قبيلته ، وقال مجاهد في قوله ﴿لِتَعَارَفُوا﴾ ﴿٢﴾ كما يقال : فلان بن فلان من كذا وكذا ، أي قبيلة كذا وكذا ، وقال سفيان الثوري : كانت حمير ينتسبون إلى مخاليفها ، وكانت عرب الحجاز ينتسبون إلى قبائلها .

وقوله تعالى : ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَنُكُمْ﴾ ﴿٣﴾ أي إنما تتفاضلون عند الله تعالى بالتقوى لا بالأحساب ، وعن أبي هريرة قال : سئل رسول الله ﷺ : أي الناس أكرم ؟ قال : « أكرمهم عند الله أتقاهم » قالوا : ليس عن هذا نسألك . قال : « فأكرم الناس يوسف نبي الله ، ابن نبي الله ، ابن خليل الله » قالوا : ليس عن هذا نسألك . قال : « فغن معادن العرب تسألوني ؟ » قالوا : نعم . قال : « فخيركم في الجاهلية خياركم في الإسلام إذا فقهوا » ^(١)

وعن أبي هريرة ؓ قال : قال رسول الله ﷺ « إن الله لا ينظر إلى صوركم وأموالكم ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم » ^(٢) وعن أبي ذر ؓ قال : إن النبي ﷺ قال له : « انظر فإنك لست بخير من أحمر ولا أسود إلا أن تفضله بتقوى الله » ^(٣) .

وعن عقبة بن عامر ؓ قال : إن رسول الله ﷺ قال : « إن أنسابكم هذه ليست بمسبة على أحد ، كلكم بنو آدم طف الصاع لم يملؤوه ، ليس لأحد على أحد فضل إلا بدين وتقوى ، وكفى بالرجل أن يكون بذنبا بخيلا فاحشا » ^(٤) .

وعن درة بنت أبي لهب ؓ قالت : قام رجل إلى النبي ﷺ هو على المنبر فقال : يا رسول الله أي الناس خير ؟ قال ﷺ : « خير الناس أقرأهم وأتقاهم لله ﷻ ، وأمرهم بالمعروف وأنهاهم عن المنكر وأوصلهم للرحم » ^(٥) .

وقوله تعالى : ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ ﴿٤﴾ أي عليم بكم خبير بأموركم ، فيهدي من يشاء ويضل من يشاء ، ويرحم من يشاء ويعذب من يشاء ، ويفضل من يشاء على من يشاء ، وهو الحكيم العليم الخبير في ذلك كله ، وقد استدلل بهذه الآية الكريمة وهذه الأحاديث الشريفة من ذهب من العلماء إلى أن الكفاءة في النكاح لا تشترط ولا يشترط سوى الدين لقوله تعالى : ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَنُكُمْ﴾ ﴿٥﴾ وذهب الآخرون إلى أدلة أخرى مذكورة في كتب الفقه .

﴿قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِسْلَامُ فِي قُلُوبِكُمْ وَإِنْ تُطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَا يَنفَكَنَّ مِنْكُمْ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ ﴿٦﴾ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ ﴿٧﴾ قُلْ أَتَسْلِمُونَ لِلَّهِ يَدْبِرُكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٨﴾ يَمُنُونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُلْ لَا تَسْمَعُوا عَلَى إِسْلَامِكُمْ بَلِ اللَّهُ يَمُنُ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَيْكُمْ لِلْإِيمَانِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٩﴾ إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٠﴾ .

(١) أخرجه البخاري في الأنبياء (٣٣٨٣) وأحمد في مسنده (٩٦/٢) .

(٢) أخرجه مسلم في البر والصلة (٣٤) وابن ماجه في السنن (٤١٤٣) وأحمد في السنن (٢٨٥/٢) .

(٣) أخرجه أحمد في مسنده (١٠٨/٥) . (٤) أخرجه أحمد في مسنده (١٨٥/٤) .

(٥) أخرجه أحمد في مسنده (٤٣٢/٦) والهيتمي في مجمع الزوائد (٢٦٣/٧) .

يقول تعالى منكراً على الأعراب الذين أول ما دخلوا في الإسلام ، ادعوا لأنفسهم مقام الإيمان ولم يتمكن الإيمان في قلوبهم بعد ﴿ قَالَتِ الْأَعْرَابُ ءَمَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ ﴾ وقد استفيد من هذه الآية الكريمة أن الإيمان أخص من الإسلام كما هو مذهب أهل السنة والجماعة ، ويدل عليه حديث جبريل عليه الصلاة والسلام حين سأل عن الإسلام ثم عن الإيمان ثم عن الإحسان ، فترقى من الأعم إلى الأخص ثم للأخص منه . وعن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه قال : أعطى رسول الله ﷺ رجالاً ولم يعط رجلاً منهم شيئاً ، فقال سعد رضي الله تعالى عنه : يا رسول الله أعطيت فلاناً وفلاناً ولم تعط فلاناً شيئاً ، وهو مؤمن ، فقال النبي ﷺ : « أو مسلم ؟ » حتى أعادها سعد رضي الله عنه ثلاثاً والنبي ﷺ يقول : « أو مسلم ؟ » ثم قال النبي ﷺ : « إني لأعطي رجلاً وأدع من هو أحب إليّ منهم ، فلم أعطه شيئاً مخافة أن يكبوا في النار على وجوههم » ^(١) . ودل ذلك على أن ذاك الرجل كان مسلماً ليس منافقاً لأنه تركه من العطاء ، ووكله إلى ما هو فيه من الإسلام ، فدل هذا على أن هؤلاء الأعراب المذكورين في هذه الآية ليسوا بمنافقين ، وإنما هم مسلمون لم يستحكم الإيمان في قلوبهم ، فادعوا لأنفسهم مقاماً أعلى مما وصلوا إليه فأدبوا في ذلك ، وهذا معنى قول ابن عباس رضي الله عنه وإبراهيم النخعي وقادة واختاره ابن جرير . وإنما قلنا هذا لأن البخاري رحمته الله ذهب إلى أن هؤلاء كانوا منافقين يظهرن الإيمان وليسوا كذلك .

وقد روي عن سعيد بن جبيرة ومجاهد وابن زيد أنهم قالوا في قوله تبارك وتعالى : ﴿ وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا ﴾ أي استسلمنا ، خوف القتل والسبي . قال مجاهد : نزلت في بني أسد بن خزيمه . وقال قتادة : نزلت في قوم امتنوا بإيمانهم على رسول الله ﷺ ، والصحيح الأول أنهم قوم ادعوا لأنفسهم مقام الإيمان ، ولم يحصل لهم بعد ، فأدبوا ، وأعلمهم أن ذلك لم يصلوا إليه بعد . ولو كانوا منافقين لعنفوا وفضحوا كما ذكر المنافقون في سورة براءة ، وإنما قيل لهؤلاء تأديباً ﴿ قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ ﴾ أي لم تصلوا إلى حقيقة الإيمان بعد . ثم قال تعالى : ﴿ وَإِنْ تَقِيلُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَا يَلَيْكُ مِنْ أَعْمَالِكُمْ شَيْئاً ﴾ أي لا ينقصكم من أجوركم شيئاً . وقوله تعالى : ﴿ إِنْ اللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ أي لمن تاب إليه وأتاب . وقوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ ﴾ أي إنما المؤمنون الكمل ﴿ الَّذِينَ ءَامَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا ﴾ أي لم يشكوا ولا تزلزلوا بل ثبتوا على حال واحدة هي التصديق المحض ﴿ وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ أي وبذلوا مهجهم ونفائس أموالهم في طاعة الله ورضوانه ﴿ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ ﴾ أي في قولهم إذا قالوا أنهم مؤمنون ، لا كـ بعض الأعراب الذين ليس لهم من الإيمان إلا الكلمة الظاهرة .

وعن أبي سعيد رضي الله عنه قال : إن النبي ﷺ قال : « المؤمنون في الدنيا على ثلاثة أجزاء : الذين آمنوا بالله ورسوله ثم لم يرتابوا وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله ، والذي يأمنه الناس على أموالهم وأنفسهم ، والذي إذا أشرف على طمع تركه لله ﷻ » ^(٢) وقوله ﷻ : ﴿ قُلْ أَمَّا الْمُؤْمِنُونَ وَالَّذِينَ آمَنُوا بِدِينِكُمْ ﴾ أي تخبرونه بما في ضمائرهم ﴿ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ﴾ أي لا يخفى عليه

(١) أخرجه أحمد في مسنده (١٧٦/١) والنسائي في السنن (٤٩٩٢) .

(٢) أخرجه أحمد في مسنده (٨/٣) .

مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء ولا أصغر من ذلك ولا أكبر ﴿ وَاللَّهُ يَكُلُّ شَيْءًا عَلَيْهِ ﴾ ثم قال تعالى : ﴿ يَمْشُونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قَدْ لَمْ تَمُنُوا عَلَيَّ إِسْلَمَكُمْ ﴾ يعني الأعراب الذين يمينون بإسلامهم ومتابعتهم ونصرتهم على الرسول ﷺ يقول الله تعالى ردًا عليهم ﴿ قَدْ لَمْ تَمُنُوا عَلَيَّ إِسْلَمَكُمْ ﴾ فإن نفع ذلك إنما يعود عليكم ولله المنّة عليكم فيه ﴿ بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَيْكُمْ لِلْإِيمَانِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ أي في دعواكم ذلك كما قال النبي ﷺ للأنصار يوم حنين « يا معشر الأنصار ألم أجدكم ضلّالًا فهداكم الله بي ؟ وكنتم متفرقين فآلفكم الله بي ؟ وكنتم عالة فأغناكم الله بي ؟ » كلما قال شيئًا قالوا : الله ورسوله أمرٌ ^(١) .

ثم كرر الإخبار بعلمه بجميع الكائنات وبصره بأعمال المخلوقات فقال : ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ .

(١) أخرجه البخاري في المغازي (٤٣٣٠) ومسلم في الزكاة (٣٩) وأحمد في مسنده (٥٧/٣) .

سورة ق

هذه السورة هي أول الحزب المفصل على الصحيح وقيل : من الحجرات . وأما مايقوله العوام إنه من (عم) فلا أصل له ولم يقله أحد من العلماء ؓ المعبرين فيما نعلم . والدليل على أن هذه السورة هي أول المفصل مارواه أوس بن حذيفة قال : قدمنا على رسول الله ﷺ في وفد ثقيف ، قال : فنزلت الأحلاف على المغيرة بن شعبه ؓ ، وأنزل الرسول ﷺ بني مالك في قبة له ، قال مسدد : وكان في الوفد الذين قدموا على رسول الله ﷺ من ثقيف ، قال : كان رسول الله ﷺ كل ليلة يأتينا بعد العشاء يحدثنا - قال أبو سعيد : قائماً على رجله حتى يراوح بين رجله من طول القيام ، فأكثر ما يحدثنا ﷺ مالقي من قومه فريش ثم يقول ﷺ « لا أساء ، وكنا مستضعفين مستذلين » - قال مسدد : « بمكة - فلما خرجنا إلى المدينة كانت الحرب سجالاً بيننا وبينهم ندال عليهم ويدالون علينا » فلما كانت ليلة أبطأ عنا ﷺ عن الوقت الذي كان يأتينا فيه ، فقلنا : لقد أبطأت علينا الليلة ، قال ﷺ « إنه طرأ على حزبي من القرآن فكرهت أن أجيء حتى أتمه » قال أوس : سألت أصحاب رسول الله ﷺ كيف يحزبون القرآن ؟ فقالوا : ثلاث وخمس وسبع وتسع وإحدى عشرة وثلاث عشرة ، وحزب المفصل وحده ^(١) .

إذا علم هذا فإذا عددت ثمانيا وأربعين سورة فالتى بعدهن سورة ق . بيانه : ثلاث : البقرة وآل عمران والنساء . وخمس : المائدة والأنعام والأعراف والأنفال وبراءة . وسبع : يونس وهود ويوسف والرعد وإبراهيم والحجر والنحل . وتسع : سبحان والكهف ومريم وطه والأنبياء والحج والمؤمنون والنور والفرقان . وإحدى عشرة : الشعراء والتمل والقصص والعنكبوت والروم ولقمان وآلم السجدة والأحزاب وسبأ وفاطر ويس . وثلاث عشرة : الصافات وصى والزمر وغافر وحم السجدة وحم عسق والزخرف والدخان والجاثية والأحقاف والقتال والفتح والحجرات . ثم بعد ذلك الحزب المفصل كما قاله الصحابة ؓ . فتعين أن أوله سورة ق وهو الذي قلنا ولله الحمد والمنة . عن عبد الله بن عبيد الله أن عمر بن الخطاب سأل أبا واقد الليثي : ما كان رسول الله ﷺ يقرأ في العيد ؟ قال : بقاف واقتربت ^(٢) .

وعن أم هشام بنت حارثة قالت : لقد كان تنورنا وتنور النبي ﷺ واحداً ستين أو سنة وبعض سنة ، وما أخذت ﴿ قَ وَالْقُرْآنَ الْجِيدَ ﴾ إلا على لسان رسول الله ﷺ ، وكان يقرأها كل يوم جمعة على المنبر إذا خطب الناس ^(٣) .

والقصد أن رسول الله ﷺ كان يقرأ بهذه السورة في المجمع الكبار كالعيد والجمع لاشتغالها على ابتداء الخلق ، والبعث والنشور والمعاد والقيام والحساب والجنة والنار والثواب والعقاب والترغيب والترهيب .

(١) أخرجه ابن ماجه في السنن (١٣٤٥) وأحمد في مسنده (٩/٤) .

(٢) أخرجه أحمد في مسنده (٢١٧/٥) . (٣) أخرجه أحمد في مسنده (٤٣٥/٦) .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ قَ وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ ۝ بَلْ عَجَبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ فَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا نَسْءٌ عَجَبٌ ۝ أَوَدَا يَمْنًا وَكُنَّا نُرَابًا ذَلَاكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ ۝ قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنْقُصُ الْأَرْضُ مِنْهُمْ وَعِنْدَنَا كِتَابٌ حَفِيظٌ ۝ بَلْ كَذَّبُوا بِآلِحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ فَهُمْ فِي أَمْرٍ مَرِيحٍ ۝ .

﴿ قَ ﴾ : حرف من حروف الهجاء المذكورة في أوائل السور ، وقد روي عن بعض السلف أنهم قالوا : ق جبل محيط بجميع الأرض يقال له جبل قاف ، وكأن هذا - والله أعلم - من خرافات بني إسرائيل التي أخذها عنهم بعض الناس لما رأى من جواز الرواية عنهم مما لا يصدق ولا يكذب ، وعندى أن هذا وأمثاله وأشباهه من اختلاق بعض زنادقهم ، يلبسون به على الناس أمر دينهم ، كما افترى في هذه الأمة مع جلالة قدر علمائها وحفاظها وأئمتها أحاديث عن النبي ﷺ وما بالعهد من قدم ، فكيف بأمة بني إسرائيل مع طول المدى وقلة الحفاظ النقاد فيهم وشربهم الخمر ، وتحريف علماءهم الكلم عن مواضعه وتبديل كتب الله وآياته ، وإنما أباح الشارع الرواية عنهم في قوله : « وحدثوا عن بني إسرائيل ولا حرج » ^(١) فيما قد يجوزه العقل ، فأما فيما تحيله العقول ويحكم فيه بالبطلان ويغلب على الظنون كذبه ؛ فليس من هذا القبيل ، والله أعلم .

وقد أكثر كثير من السلف من المفسرين ، وكذا طائفة كثيرة من الخلف من الحكاية عن كتب أهل الكتاب في تفسير القرآن المجيد ، وليس بهم احتياج إلى أخبارهم ، عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله ﷻ ﴿ قَ ﴾ هو اسم من أسماء الله ﷻ . والذي ثبت عن مجاهد أنه حرف من حروف الهجاء كقوله تعالى : (ص - ن - ح - طس - الم) .

وقوله تعالى : ﴿ وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ ﴾ أي الكريم العظيم الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد واختلفوا في جواب القسم ما هو ؟ فحكى ابن جرير عن بعض النحاة أنه قوله تعالى : ﴿ قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنْقُصُ الْأَرْضُ مِنْهُمْ وَعِنْدَنَا كِتَابٌ حَفِيظٌ ﴾ وفي هذا نظر بل الجواب هو مضمون الكلام بعد القسم ، وهو إثبات النبوة وإثبات المعاد وتقريره وتحقيقه ، وإن لم يكن القسم يلتقى لفظاً ، وهذا كثير في أقسام القرآن كما تقدم في قوله : ﴿ صَ وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ ۝ بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي عِزِّ وَشِقَاقٍ ﴾ وهكذا قال ههنا ﴿ قَ وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ ۝ بَلْ عَجَبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ فَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا نَسْءٌ عَجَبٌ ﴾ أي تعجبوا من إرسال رسول إليهم من البشر .

ثم قال ﷻ مخبراً عنهم في تعجبهم أيضاً من المعاد واستبعادهم لوقوعه ﴿ أَوَدَا يَمْنًا وَكُنَّا نُرَابًا ذَلَاكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ ﴾ أي يقولون أئذا متنا وبلينا وتقطعت الأوصال منا وصرنا تراباً ، كيف يمكن الرجوع بعد ذلك إلى هذه البنية والتركيب ؟ ﴿ ذَلَاكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ ﴾ أي بعيد الوقوع . والمعنى : أنهم يعتقدون استحالة وعدم إمكانه . قال الله تعالى راداً عليهم : ﴿ قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنْقُصُ الْأَرْضُ مِنْهُمْ ﴾ أي ما تأكل من أجسادهم في البلى ، نعلم ذلك ولا يخفى علينا أين تفرقت الأبدان وأين ذهبت وإلى أين صارت ﴿ وَعِنْدَنَا كِتَابٌ حَفِيظٌ ﴾ أي حافظ لذلك ؛ فالعلم شامل ، والكتاب أيضاً فيه كل الأشياء مضبوطة .

(١) أخرجه البخاري في أحاديث الأنبياء (٣٤٦١) وأحمد في مسنده (٤٦/٣) .

ثم بين تبارك وتعالى سبب كفرهم وعنادهم واستبعادهم ما ليس ببعيد فقال : ﴿ بَلْ كَذَّبُوا بِآلِهَتِنَا لَمَّا جَاءَهُمْ فَهُمْ فِي أَمْرٍ مَّرِيجٍ ﴾ أي وهذا حال كل من خرج عن الحق مهما قال بعد ذلك فهو باطل ، والمريج : المختلف المضطرب الملتبس المنكر خلا له .

﴿ أَفَلَمْ يَنْظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِنْ فُرُوجٍ ۝ وَالْأَرْضِ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَلْبَسْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ ۝ تَبِيرُهُ وَذُرْغَىٰ لِكُلِّ عَبْدٍ نَّيِّبٍ ۝ وَزَكَاةً مِّنَ السَّمَاءِ مَاءً مُّبَرِّكًا فَالْبُسَاتِ فِيهِ جَنَّاتُ وَحَبِّ الْجَنَّةِ ۝ وَالنَّخْلُ بِأَسْفَلِهَا طَلْعٌ نَّضِيدٌ ۝ زَيْفًا لِلْعِبَادِ وَأَحْيَيْنَا فِيهِ بِلَدَةٍ مِّنْهُنَّ كَذَلِكَ الْخُرُوجُ ﴾ .

يقول تعالى منبها للعباد على قدرته العظيمة التي أظهر بها ما هو أعظم مما تعجبوا مستبعدين لوقوعها ﴿ أَفَلَمْ يَنْظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا ﴾ أي بالمصاييح ﴿ وَمَا لَهَا مِنْ فُرُوجٍ ﴾ قال مجاهد : يعني من شقوق ، وقال غيره : فتوق ، وقال غيره : صدوع ، والمعنى متقارب . وقوله تبارك وتعالى : ﴿ وَالْأَرْضِ مَدَدْنَاهَا ﴾ أي وسعناها وفرشناها ﴿ وَالْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ ﴾ وهي الجبال لئلا تميد بأهلها وتضطرب ، فإنها مقرة على تيار الماء المحيط بها من جميع جوانبها ﴿ وَأَلْبَسْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ ﴾ أي من جميع الزروع والثمار والنبات والأنواع . وقوله ﴿ بَهِيجٍ ﴾ أي حسن المنظر ﴿ تَبِيرُهُ وَذُرْغَىٰ لِكُلِّ عَبْدٍ نَّيِّبٍ ﴾ أي ومشاهدة خلق السموات والأرض وما جعل الله فيهما من الآيات العظيمة تبصرة ودلالة وذكرى لكل عبد منيب أي خاضع خائف وجل رجاء إلى الله ﷻ .

وقوله تعالى : ﴿ وَزَكَاةً مِّنَ السَّمَاءِ مَاءً مُّبَرِّكًا ﴾ أي نافعا ﴿ فَالْبُسَاتِ فِيهِ جَنَّاتُ ﴾ أي حدائق من بساتين ونحوها ﴿ وَحَبِّ الْجَنَّةِ ﴾ وهو الزرع الذي يراد لحبه وادخاره ﴿ وَالنَّخْلُ بِأَسْفَلِهَا ﴾ أي طولا شاهقات ، قال ابن عباس ﷻ ومجاهد وعكرمة والحسن وقتادة والسدي وغيرهم : الباسقات الطوال ﴿ لَمَّا طَلَعَ نَضِيدٌ ﴾ أي منضود ﴿ زَيْفًا لِلْعِبَادِ ﴾ أي للخلق ﴿ وَأَحْيَيْنَا فِيهِ بِلَدَةٍ مِّنْهُنَّ ﴾ وهي الأرض التي كانت هامة ، فلما نزل عليها الماء اهتزت وربت وأنبت من كل زوج بهيج من أزاهير وغير ذلك ، مما يحار الطرف في حسننها ، وذلك بعد ما كانت لا نبات بها فأصبحت تهتز خضراء ، فهذا مثال للبعث بعد الموت والهلاك ، كذلك يحيي الله الموتى وهذه المشاهد من عظيم قدرته بالحس أعظم مما أنكره الجاحدون للبعث .

﴿ كَذَّبَتْ قَلْبَهُمْ قَوْمٌ تُوحٍ وَأَصْحَبُ الرِّيقِ وَنَمُودُ ۝ وَغَادَ وَرَقَوْنَ وَخَوْنُ لُوطٍ ۝ وَأَصْحَبُ الْأَيْكَةِ وَقَوْمُ تُجٍّ كُلٌّ كَذَّبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ وَعِيدُ ۝ أَنْصَبْنَا بِالْخَلْقِ الْأَوَّلِ بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴾ .

يقول تعالى مهددا لكفار قريش ، بما أحله بأشباههم ونظرائهم وأمثالهم من المكذبين قبلهم ، من النعمات والعذاب الأليم في الدنيا كقوم نوح وما عذبهم الله تعالى به من الفرق العام لجميع أهل الأرض وأصحاب الرس ﴿ وَنَمُودُ ۝ وَغَادَ وَرَقَوْنَ وَخَوْنُ لُوطٍ ﴾ وهم أمته الذين بعث إليهم من أهل سدوم ومعاملتها من الغور ، وكيف خسف الله تعالى بهم الأرض ، وأحال أرضهم بحيرة منتنة خبيثة بكفرهم وطغيانهم ومخالفتهم الحق ﴿ وَأَصْحَبُ الْأَيْكَةِ ﴾ وهم قوم شعيب عليه الصلاة والسلام ﴿ وَقَوْمُ تُجٍّ ﴾ وهو اليماني .

﴿ كُلٌّ كَذَّبَ الرُّسُلَ ﴾ أي كل من هذه الأمم وهؤلاء القرون كذب رسولهم ، ومن كذب رسولا فكأنما كذب جميع الرسل ﴿ فَحَقَّ وَعِيدُ ﴾ أي فحق عليهم ما أوعدهم الله تعالى على التكذيب من

العذاب والنكال ، فليحذر المخاطبون أن يصيبهم ما أصابهم فإنهم قد كذبوا رسولهم كما كذب أولئك . وقوله تعالى : ﴿ أَتَمِينًا يَخْلَقُ الْآوَّلَ ﴾ أي أفأعجزنا ابتداء الخلق حتى هم في شك من الإعادة ؟ ﴿ بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ مِنْ خَلْقِ حَبِيدٍ ﴾ والمعنى أن ابتداء الخلق لم يعجزنا والإعادة أسهل منه كما قال ﷻ : ﴿ وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَتْ عَلَيْهِ ﴾ .

﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ وَنَعَلَهُ مَا تَوَسَّسُ بِهِ فَسَمُّ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ ﴾ (١) إِذْ يَتَلَقَّى التَّتْلِفَانِ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَيْدٌ مَا يَلْفُظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَيْنٌ ﴿ وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ ذَلِكَ مَا كُنْتَ مِنْهُ تَحِيدُ ﴾ (٢) وَنُفِخَ فِي الصُّورِ ذَلِكَ يَوْمُ الْوَعْدِ ﴿ وَجَاءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَعَهَا سَائِقٌ وَنَهْيٌ ﴿ لَقَدْ كُنْتَ فِي غَفْلَةٍ مِنْ هَذَا فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ ﴾ .

يخبر تعالى عن قدرته على الإنسان بأنه خالقه وعلمه محيط بجميع أموره ، حتى إنه تعالى يعلم ما توسوس به نفوس بني آدم من الخير والشر . وقد ثبت في الصحيح عن رسول الله ﷺ أنه قال : « إن الله تعالى تجاوز لأمتي ما حدثت به أنفسها ما لم تقل أو تعمل » (١) وقوله ﷻ : ﴿ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ ﴾ يعني ملائكته تعالى أقرب إلى الإنسان من حبل وريده إليه ، ومن تأوله على العلم فإنما فر لئلا يلزم حلول أو اتحاد وهما منفيان بالإجماع ، تعالى الله وتقدس ، ولكن اللفظ لا يقتضيه فإنه لم يقل : وأنا أقرب إليه من حبل الوريد وإنما قال : ﴿ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ ﴾ كما قال في المحضر ﴿ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْكُمْ وَلَكِنْ لَا بُرْهَانَ ﴾ يعني ملائكته ، وكذلك الملائكة أقرب إلى الإنسان من حبل وريده إليه بأقدار الله جل وعلا لهم على ذلك . فللملك لمة من الإنسان كما أن للشيطان لمة ، وكذلك الشيطان يجري من ابن آدم مجرى الدم ، كما أخبر بذلك الصادق المصدوق (٢) ، ولهذا قال تعالى ههنا ﴿ إِذْ يَتَلَقَّى التَّتْلِفَانِ ﴾ يعني الملكين الذين يكتبان عمل الإنسان .

﴿ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَيْدٌ ﴾ أي مترصد ﴿ مَا يَلْفُظُ ﴾ أي ابن آدم ﴿ مِنْ قَوْلٍ ﴾ أي ما يتكلم بكلمة ﴿ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَيْنٌ ﴾ أي إلا ولها من يرقبها معد لذلك يكتبها لا يترك كلمة ولا حركة . وقد اختلف العلماء هل يكتب الملك كل شيء من الكلام ؟ . وهو قول الحسن وقتادة ، أو إنما يكتب ما فيه ثواب وعقاب ؟ كما هو قول ابن عباس ؓ . فعلى قولين وظاهر الآية الأول لعموم قوله تبارك وتعالى : ﴿ مَا يَلْفُظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَيْنٌ ﴾ . عن بلال بن الحارث المزني ؓ قال : قال رسول الله ﷺ : « إن الرجل ليتكلم بالكلمة من رضوان الله تعالى ما يظن أن تبلغ ما بلغت يكتب الله ﷻ له بها رضوانه إلى يوم يلقاه ، وإن الرجل ليتكلم بالكلمة من سخط الله تعالى ما يظن أن تبلغ ما بلغت ، يكتب الله تعالى عليه بها سخطه إلى يوم يلقاه ، فكان علقمة يقول : كم من كلام قد منعه حديث بلال بن الحارث (٣) .

وقال الأحنف بن قيس : صاحب اليمين يكتب الخير وهو أمين على صاحب الشمال ، فإن أصاب العبد خطيئة قال له : أمسك ، فإن استغفر الله تعالى نهاه أن يكتبها وإن أبى كتبها .

وعن ابن عباس ؓ ﴿ مَا يَلْفُظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَيْنٌ ﴾ قال : يكتب كل ما تكلم به من خير أو

(١) أخرجه البخاري في الطلاق (٥٢٦٩) ومسلم في الإيمان (٢٠١) والنسائي في السنن (١٥٧/٦) وابن ماجه في السنن (٢٠٤٠) .

(٢) انظر أحمد في مسنده (١٥٦/٣) وابن ماجه في السنن (٥٦٥/١) .

(٣) أخرجه أحمد في مسنده (٤٦٩/٣) والحاكم في المستدرک (٥٩٧/٤) والطبراني في الكبير (٣٥٤/١) .

شر حتى أنه ليكتب قوله : أكلت شربت ذهبت جئت رأيت ، حتى إذا كان يوم الخميس عرض قوله وعمله فأقر منه ما كان فيه من خير أو شر وألقى سائرته ، وذلك قوله تعالى : ﴿ يَمْحُورُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُنَبِّئُكَ وَعِنْدَهُ أَثْمُ الْكِتَابِ ﴾ وذكر عن الإمام أحمد أنه كان يئن في مرضه فبلغه عن طاوس أنه قال يكتب الملك كل شيء حتى الأئين ؛ فلم يئن أحمد حتى مات ﷺ . وقوله تبارك وتعالى : ﴿ وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ ذَلِكَ مَا كُنْتَ مِنْهُ تَحِيدُ ﴾ يقول ﷺ : ﴿ وَجَاءَتْ ﴾ أيها الإنسان ﴿ سَكْرَةُ الْمَوْتِ ﴾ أي كشفت لك عن اليقين الذي كنت تتمري فيه ﴿ ذَلِكَ مَا كُنْتَ مِنْهُ تَحِيدُ ﴾ أي هذا هو الذي كنت تفر منه قد جاءك فلا محيد ولا مناص ولا فكاك ولا خلاص .

وقد اختلف المفسرون في المخاطب بقوله ﴿ وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ ذَلِكَ مَا كُنْتَ مِنْهُ تَحِيدُ ﴾ فالصحيح أن المخاطب بذلك الإنسان من حيث هو ، وقيل : الكافر ، وقيل : غير ذلك . عن عائشة رضي الله عنها قالت : حضرت أبي ﷺ وهو يموت ، وأنا جالسة عند رأسه فأخذته غشية ، فتمثلت ببيت من الشعر :
من لا يزال دمه مقلنا فإنه لا بد مرة مدفوق
قالت : فرفع ﷺ رأسه فقال : يا بنية ليس كذلك ، ولكن كما قال تعالى : ﴿ وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ ذَلِكَ مَا كُنْتَ مِنْهُ تَحِيدُ ﴾ .

وقد ثبت في الصحيح عن النبي ﷺ أنه لما تغشاه الموت جعل يمسح العرق عن وجهه ويقول « سبحان الله إن للموت لسكرت » ^(١) . وفي قوله : ﴿ ذَلِكَ مَا كُنْتَ مِنْهُ تَحِيدُ ﴾ قولان : أحدهما : أن ما ههنا موصولة أي الذي كنت منه تحيد بمعنى تبتعد وتتأذى وتفر ، قد حل بك ونزل بساحتك . والقول الثاني : أن ما نافية بمعنى ذلك ما كنت تقدر على الفراق منه ، ولا الحيد عنه . عن سمرة قال : قال رسول الله ﷺ : « مثل الذي يفر من الموت مثل الثعلب تطلبه الأرض بدين ، فجاء يسعى حتى إذا أعياى وأشهد دخل جحره ، وقالت له الأرض : يا ثعلب ديني ، فخرج وله حصاص ، فلم يزل كذلك حتى تقطعت عنقه ومات » ^(٢) ومضمون هذا المثل كما لا انفكاك له ولا محيد عن الأرض ، كذلك الإنسان لا محيد له عن الموت . وقوله تبارك وتعالى : ﴿ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ ذَلِكَ يَوْمَ الْوَعِيدِ ﴾ وفي الحديث أن رسول الله ﷺ قال : « كيف أنعم وصاحب القرن قد التقم القرن وحنى جبهته وانتظر أن يؤذن له ؟ » قالوا : يا رسول الله كيف نقول ؟ قال ﷺ : « قولوا : حسبنا الله ونعم الوكيل » فقال القوم : حسبنا الله ونعم الوكيل ^(٣) ﴿ وَجَاءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَعَهَا سَائِقٌ وَنَهْيٌ ﴾ أي ملك يسوقه إلى المحشر وملك يشهد عليه بأعماله . هذا هو الظاهر من الآية الكريمة . وهو اختيار ابن جرير . وعن يحيى بن رافع - مولى لثقيف - قال : سمعت عثمان بن عفان ﷺ يخطب فقرأ هذه الآية ﴿ وَجَاءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَعَهَا سَائِقٌ وَنَهْيٌ ﴾ فقال : سائق يسوقها إلى الله تعالى وشاهد يشهد عليها بما عملت . عن أبي هريرة ﷺ قال : السائق ، الملك والشهيد العمل ، وعن ابن عباس ﷺ : السائق من الملائكة والشهيد الإنسان نفسه ، يشهد على نفسه .

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٦٤/٦) .

(٢) أخرجه الطبراني في الصغير (٢٦٨/٧) والهيتمي في مجمع الزوائد (٣٢٠/٢) والحصاص : شدة العدو .

(٣) أخرجه الترمذي في السنن (٢٤٣١) والحاكم في المستدرک (٥٥٩/٤) وأحمد في مسنده (٧/٣) .

وحكى ابن جرير ثلاثة أقوال في المراد بهذا الخطاب في قوله تعالى : ﴿ لَقَدْ كُنْتَ فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَمَّ حَيِّدٌ ﴾ أحدها : أن المراد بذلك الكافر . والثاني : أن المراد بذلك كل أحد من بر وفاجر ؛ لأن الآخرة بالنسبة إلى الدنيا كاليقظة ، والدنيا كالنمائم ، وهذا اختيار ابن جرير . والثالثة : أن المخاطب بذلك النبي ﷺ وبه يقول زيد بن أسلم وابنه ، والمعنى على قولهما : لقد كنت في غفلة من هذا القرآن قبل أن يوحى إليك ، فكشفنا عنك غطاءك بإزاله إليك فبصرك اليوم حديد ، والظاهر من السياق خلاف هذا بل الخطاب مع الإنسان من حيث هو ، والمراد بقوله تعالى : ﴿ لَقَدْ كُنْتَ فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا ﴾ يعني من هذا اليوم ﴿ فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَمَّ حَيِّدٌ ﴾ أي قوي ؛ لأن كل أحد يوم القيامة يكون مستبصرًا حتى الكفار في الدنيا ، يكونون يوم القيامة على الاستقامة ، لكن لا ينفعهم ذلك . قال الله تعالى : ﴿ أَتَعْبَرُ يَوْمَ مَا أَتُوتَنَّا ﴾ .

﴿ وَقَالَ رَبُّنَا هَٰذَا مَا لَدَىٰ عَيْنِدُ ﴿٢٣﴾ آتَيْنَا فِي جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَيْنِدُ ﴿٢٤﴾ مَتَاعٍ لِلخَيْرِ مُعْتَرِ مُرِيبٌ ﴿٢٥﴾ الَّذِي جَعَلَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا مَّا خَرَّ قَائِيَاهُ فِي الْعَذَابِ الشَّدِيدِ ﴿٢٦﴾ قَالَ رَبُّنَا مَا أَلْفَيْتُمْ وَلَكِنْ كَانُوا فِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ ﴿٢٧﴾ قَالَ لَا تَخْصِمُوا لَدَىٰ وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُم بِالْوَيْدِ ﴿٢٨﴾ مَا يُبَدِّلُ الْقَوْلُ لَدَىٰ وَمَا أَنَا بِظَلَمِ لِلْيَدِ ﴾ .

يقول تعالى مخبرًا عن الملك الموكل بعمل ابن آدم إنه يشهد عليه يوم القيامة بما فعل ويقول : ﴿ هَٰذَا مَا لَدَىٰ عَيْنِدُ ﴾ أي معتد محضر بلا زيادة ولا نقصان . وقال مجاهد : هذا كلام الملك السائق ، يقول هذا ابن آدم الذي وكلتني به قد أحضرته ، وقد اختار ابن جرير أنه يعم السائق والشهيد ، وله اتجاه وقوة ، فعند ذلك يحكم الله تعالى في الخليقة بالعدل فيقول : ﴿ آتَيْنَا فِي جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَيْنِدُ ﴾ وقد اختلف النحاة في قوله : ﴿ آتَيْنَا ﴾ فقال بعضهم : هي لغة لبعض العرب يخاطبون المفرد بالثنية كما روي عن الحجاج أنه كان يقول : يا حרسي اضربا عنقه ، والظاهر أنها مخاطبة مع السائق والشهيد ، فالسائق أحضره الى عرصة الحساب ، فلما أدى الشهيد عليه أمرهما الله تعالى بإلقائه في نار جهنم ، وبئس المصير ﴿ آتَيْنَا فِي جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَيْنِدُ ﴾ أي كثير الكفر والتكذيب بالحق عنيد معاند للحق ، معارض له بالباطل مع علمه بذلك ﴿ مَتَاعٍ لِلخَيْرِ ﴾ أي لا يؤدي ما عليه من الحقوق ولا بر فيه ولا صلة ولا صدقة ﴿ مُعْتَرِ ﴾ أي فيما ينفقه ويصرفه يتجاوز فيه الحد . وقال قتادة : معتد في منطقته وسيره وأمره ﴿ مُرِيبٌ ﴾ أي شاك في أمره مرِيب لمن نظر في أمره ﴿ الَّذِي جَعَلَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا مَّا خَرَّ ﴾ أي أشرك بالله فعبد معه غيره ﴿ قَائِيَاهُ فِي الْعَذَابِ الشَّدِيدِ ﴾ عن أبي سعيد الخدري ؓ عن النبي ﷺ أنه قال : « يخرج عنق من النار يتكلم يقول : وكلت اليوم بثلاثة : بكل جبار عنيد ، ومن جعل مع الله إلهاً آخرًا ، ومن قتل نفسًا بغير نفس ، فتنتطوي عليهم فتقذفهم في غمرات جهنم » (١) .

﴿ قَالَ رَبُّنَا ﴾ قال ابن عباس ؓ ومجاهد وقاتة وغيرهم : هو الشيطان الذي وكل به ﴿ رَبَّنَا مَا أَلْفَيْتُمْ ﴾ أي يقول عن الإنسان الذي قد وافى القيامة كافرًا يتبرأ منه شيطانه فيقول : ﴿ رَبَّنَا مَا أَلْفَيْتُمْ ﴾ أي ما أضللتهم ﴿ وَلَكِنْ كَانُوا فِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ ﴾ أي بل كان هو في نفسه ضالًا قابلاً للباطل معاندًا للحق ،

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٤٠/٣) والمنذري في الترغيب والترهيب (٢٩٧/٣) والألباني في الصحيحة (٥١٣) . والعنق : دابة وحشية أكبر من السنور وأصغر من الكلب .

وقوله تبارك وتعالى : ﴿ قَالَ لَا تَخْتَصِمُوا لَدَيَّ ﴾ يقول الرب ﷻ للإنسي وقرينه من الجن ، وذلك أنهما يختصمان بين يدي الحق تعالى ، فيقول الإنسي : يارب هذا أضلني عن الذكر بعد إذ جاءني ، ويقول الشيطان : ﴿ رَبَّنَا مَا أَفْقَيْتَهُ وَلَكِنْ كَانَ فِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ ﴾ أي عن منهج الحق ، فيقول الرب ﷻ لهما : ﴿ لَا تَخْتَصِمُوا لَدَيَّ ﴾ أي عندي ﴿ وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُمْ بِالْوَعِيدِ ﴾ أي قد أعددت إليكم على السنة الرسل ، وأنزلت الكتب وقامت عليكم الحجج والبينات والبراهين ﴿ مَا يَبْذُلُ الْقَوْلَ لَدَيَّ ﴾ قال مجاهد : يعني قد قضيت ما أنا قاض ﴿ وَمَا أَنَا بِظَلْمٍ لِّتَبِيدٍ ﴾ أي لست أعذب أحداً إلا بذنبه بعد قيام الحجة عليه .

﴿ يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ امْتَلَأَتْ وَنَقُولُ هَلْ مِنْ مَزِيدٍ ﴾ وَأَزَلَّيْتُ الْجَنَّةَ لِلنَّارِ بَشِيرًا ﴿ هَذَا مَا تُوْعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيفٍ ﴾ مَن حَبِثَ الرَّحْمَنَ بِالْقَبِيحِ رَجَاً بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ ﴿ ادْخُلُوهَا بِسَلْوَةٍ ذَٰلِكَ يَوْمُ الْخُلُودِ ﴾ لَمْ يَأْشَؤْكَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ ﴿ .

يخبر تعالى أنه يقول لجهنم يوم القيامة : ﴿ هَلِ امْتَلَأَتْ ﴾ ؟ وذلك لأنه تبارك وعدها أن سيملؤها من الجنة والناس أجمعين ، فهو ﴿ يَأْمُرُ مَن يَأْمُرُ بِهِ إِلَيْهَا وَيُلْقَى فِيهَا ﴾ هل من مزيد أي هل بقي شيء تزيدوني ؟ هذا هو الظاهر في سياق الآية وعليه تدل الأحاديث . عن أنس بن مالك ؓ عن النبي ﷺ قال : ﴿ يلقى في النار وتقول : هل من مزيد ؟ ﴾ حتى يضع قدمه فتقول : قط قط ^(١) . وعن أبي هريرة ؓ قال : قال رسول الله ﷺ : « تحاجت الجنة والنار ، فقالت النار : أوثرت بالمتكبرين والمتجبرين ، وقالت الجنة : ما لي لا يدخلني إلا ضعفاء الناس وسقطهم ؟ قال الله ﷻ للجنة : أنت رحمتي أرحم بك من أشياء من عبادي ، وقال للنار : إنما أنت عذابي أعذب بك من أشياء من عبادي ، ولكل واحدة منكما ملؤها ، فأما النار فلا تمتلئ حتى يضع رجله فيها فتقول : قط قط ، فهناك تمتلئ وينزوي بعضها إلى بعض ولا يظلم الله ﷻ من خلقه أحداً ، وأما الجنة : فإن الله ﷻ ينشئ لها خلقاً آخر » ^(٢) .

عن أبي بن كعب ؓ قال : إن رسول الله ﷺ قال : « يعرفني الله تعالى نفسه يوم القيامة ، فأسجد سجدة يرضى بها عني ، ثم أمدحه مدحة يرضى بها عني ، ثم يؤذن لي في الكلام ، ثم تمر أمتي على الصراط مضروب بين ظهرائي جهنم ، فيمرون أسرع من الطرف والسهم وأسرع من أجود الخيل ، حتى يخرج الرجل منها يحبو وهي الأعمال ، وجهنم تسأل المزيد حتى يضع فيها قدمه ، فينزوي بعضها إلى بعض وتقول : قط قط وأنا على الحوض » قيل : وما الحوض يا رسول الله ؟ قال رسول الله ﷺ : « والذي نفسي بيده إن شرابه أبيض من اللبن ، وأحلى من العسل ، وأبرد من الثلج وأطيب ريحاً من المسك ، وآتيته أكثر من عدد النجوم ، لا يشرب منه إنسان فيظلم أبداً ، ولا يصرف فيروى أبداً » ^(٣) وهذا القول هو اختيار ابن جرير .

وعن مجاهد يقول : لا يزال يقذف فيها حتى تقول : قد امتلأت فتقول : هل في مزيد فعند هؤلاء أن قوله تعالى ﴿ هَلِ امْتَلَأَتْ ﴾ إنما هو بعدما يضع عليها قدمه فتنزوي وتقول حينئذ : هل بقي في مزيد يسع شيئاً ؟ قال ابن عباس : وذلك حين لا يبقى فيها موضع يسع إبرة وقوله تعالى : ﴿ وَأَزَلَّيْتُ الْجَنَّةَ لِلنَّارِ بَشِيرًا ﴾

(١) أخرجه البخاري في تفسير القرآن (٤٨٤٨) ومسلم في الجنة وصفة نعيمها (٣٧) وأحمد في مسنده (٢٣٤/٣) .

(٢) أخرجه البخاري في تفسير القرآن (٤٨٥٠) ومسلم في الجنة وصفة نعيمها (٣٥) وأحمد في مسنده (٢١٤/٢) .

(٣) ذكره الهندي في كنز العمال (٣٩١٩٦) وابن حجر في فتح الباري (٤٣٧/١١) والسيوطي في الدر المنثور (١٠٧/٦) .

بَعِيدٌ ﴿١﴾ قَالَ قَتَادَةُ وَأَبُو مَالِكٍ وَالسَّيِّدِيُّ : ﴿وَأُزْلِفَتْ﴾ أَدْنَيْتُ وَقَرَّبْتُ مِنَ الْمُتَّقِينَ ﴿عَبِيدٌ﴾ وَذَلِكَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ ، وَلَيْسَ بِبَعِيدٍ لِأَنَّهُ وَاقِعٌ لَا مُحَالَةٌ وَكُلُّ مَا هُوَ آتٍ قَرِيبٌ ﴿هَذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ﴾ أَيُّ رَجَاعٍ تَائِبٍ مُقْلَعٍ ﴿حَنِيفٌ﴾ أَيُّ يَحْفَظُ الْعَهْدَ فَلَا يَنْقُضُهُ وَلَا يَنْكُتُهُ ، وَقَالَ عُبَيْدُ بْنُ عَمِيرٍ : الْأَوَّابُ الْحَفِيفُ الَّذِي لَا يَجْلِسُ مُجْلِسًا فَيَقُومُ حَتَّى يَسْتَغْفِرَ اللَّهُ ﷻ ﴿مَنْ خِئْيَ الرَّحْمَنُ بِالْقَيْبِ﴾ أَيُّ مَنْ خَافَ اللَّهَ فِي سِرِّهِ حَيْثُ لَا يَرَاهُ أَحَدٌ إِلَّا اللَّهَ ﷻ كَقَوْلِهِ ﷺ : « وَرَجُلٌ ذَكَرَ اللَّهَ تَعَالَى خَالِيًا ، فَفَاضَتْ عَيْنَاهُ » ^(١) ﴿وَجَاءَ يَنْتَقِبُ نُيُوبٌ﴾ أَيُّ وَلَقِيَ اللَّهَ ﷻ يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِقَلْبٍ مُنِيبٍ سَلِيمٍ إِلَيْهِ خَاضِعٌ لَدَيْهِ ﴿أَدْخُلُوهَا﴾ أَيُّ الْجَنَّةِ ﴿يَسْلُكُونَ﴾ قَالَ قَتَادَةُ : سَلِمُوا مِنْ عَذَابِ اللَّهِ ﷻ ، وَسَلِمَ عَلَيْهِمْ مَلَائِكَةُ اللَّهِ . وَقَوْلُهُ ﷺ : ﴿ذَلِكَ يَوْمُ الْخُلُودِ﴾ أَيُّ يَخْلُدُونَ فِي الْجَنَّةِ فَلَا يَمُوتُونَ أَبَدًا ، وَلَا يَظْعَنُونَ أَبَدًا وَلَا يَبْغُونَ عَنْهَا حَوْلًا ، وَقَوْلُهُ جَلَّتْ عَظَمَتُهُ : ﴿لَمْ يَأْمَأْ بِشَاءٍ وَفِيَّ﴾ أَيُّ مَهْمَا اخْتَارُوا وَجَدُوا مِنْ أَيِّ أَصْنَافِ الْمَلَاذِ طَلَبُوا أَحْضَرُ لَهُمْ . عَنْ كَثِيرِ بْنِ مَرَّةٍ قَالَ : مِنَ الْمَزِيدِ أَنْ تَمُرَ السَّحَابَةُ بِأَهْلِ الْجَنَّةِ فَتَقُولُ : مَاذَا تَرِيدُونَ ؟ فَاْمَطْرَهُ لَكُمْ ؟ فَلَا يَدْعُونَ بِشَيْءٍ إِلَّا أَمَطَرْتَهُمْ ، قَالَ كَثِيرٌ : لَعَنَ أَشْهَدُنِي اللَّهَ تَعَالَى ذَلِكَ لِأَقُولَنْ : أَمَطَرْنَا جَوَارِي مَزِينَاتٍ .

عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ : إِنْ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ : « إِذَا اشْتَهَى الْمُؤْمِنُ الْوَلَدَ فِي الْجَنَّةِ كَانَ حَمْلُهُ وَوَضْعُهُ وَسَنَهُ فِي سَاعَةٍ وَاحِدَةٍ » ^(٢) ، وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ﴾ هُوَ كَقَوْلِهِ ﷻ ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا لِمُنَاسَقٍ وَزِيَادَةٍ﴾ عَنْ صَهْبِ بْنِ سَنَانٍ الرُّومِيِّ : أَنَّهَا النَّظَرُ إِلَى وَجْهِ اللَّهِ الْكَرِيمِ . وَعَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فِي قَوْلِهِ ﷻ ﴿وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ﴾ قَالَ : يَظْهَرُ لَهُمُ الرَّبُّ ﷻ فِي كُلِّ جُمُعَةٍ . وَعَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ : أَتَى جِبْرَائِيلُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ بِمِرَّةٍ يَبِضُّاءَ فِيهَا نَكْتَةٌ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « مَا هَذِهِ » فَقَالَ : هَذِهِ الْجُمُعَةُ فَضَلْتُ بِهَا أَنْتَ وَأَمْتُكَ ، فَالْأَناسُ لَكُمْ فِيهَا تَبِعَ الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى ، وَلَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ ، وَلَكُمْ فِيهَا سَاعَةٌ لَا يُوَافِقُهَا مُؤْمِنٌ يَدْعُو اللَّهَ تَعَالَى فِيهَا بِخَيْرٍ إِلَّا اسْتَجِيبَ لَهُ وَهُوَ عِنْدَنَا يَوْمَ الْمَزِيدِ . قَالَ النَّبِيُّ ﷺ : « يَا جِبْرِيلُ وَمَا يَوْمُ الْمَزِيدِ ؟ » قَالَ ﷺ : إِنْ رَبُّكَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى اتَّخَذَ فِي الْفَرْدُوسِ وَادِيًا أَفِيحَ فِيهِ كُتُبُ الْمُسْكِ ، فَإِذَا كَانَ يَوْمَ الْجُمُعَةِ أَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى مَا شَاءَ مِنْ مَلَائِكَتِهِ ، وَحَوْلَهُ مَنَابِرٌ مِنْ نُورٍ عَلَيْهَا مَقَاعِدُ النَّبِيِّينَ ، وَحَفَّتْ تِلْكَ الْمَنَابِرُ مِنْ ذَهَبٍ ، مَكْلَلَةٌ بِالْيَاقُوتِ وَالزَّبْرِجَدِ عَلَيْهَا الشُّهَدَاءُ وَالصَّدِيقُونَ ، فَجَلَسُوا مِنْ وَرَائِهِمْ عَلَى تِلْكَ الْكُتُبِ ، فَيَقُولُ اللَّهُ ﷻ : أَنَا رَبُّكُمْ قَدْ صَدَقْتُمْ وَعَدِي ، فَسَلُونِي أَعْطُكُمْ ، فَيَقُولُونَ : رَبَّنَا نَسْأَلُكَ رِضْوَانَكَ ، فَيَقُولُ : قَدْ رَضِيتُ عَنْكُمْ وَلَكُمْ عَلِيٌّ مَا تَمْنِيْتُمْ وَلَدِي مَزِيدٌ . فَهَمْ يَحْبُونَ يَوْمَ الْجُمُعَةِ لِمَا يُعْطِيهِمْ فِيهِ رِهْمٌ تَبَارَكَ وَتَعَالَى مِنَ الْخَيْرِ ، وَهُوَ الْيَوْمُ الَّذِي اسْتَوَى فِيهِ رَبُّكُمْ عَلَى الْعَرْشِ ، وَفِيهِ خَلَقَ آدَمَ ، وَفِيهِ تَقُومُ السَّاعَةُ » ^(٣) . وَعَنْ أَبِي سَعِيدٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ، عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ قَالَ : « إِنْ الرَّجُلُ فِي الْجَنَّةِ لَيْتَكَئِي فِي الْجَنَّةِ سَبْعِينَ سَنَةً قَبْلَ أَنْ يَتَحَوَّلَ ، ثُمَّ تَأْتِيهِ امْرَأَةٌ تُضْرِبُ عَلَى مَنْكِبِهِ فَيَنْظُرُ وَجْهَهُ فِي خَدِّهَا أَصْفَى مِنَ الْمَرْأَةِ ، وَإِنْ أَدْقَ لَوْلُؤَةٍ عَلَيْهَا تُضِيءُ مَا بَيْنَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ ، فَتَسْلِمُ عَلَيْهِ فَيَرُدُّ السَّلَامَ فَيَسْأَلُهَا مَنْ أَنْتِ فَتَقُولُ : أَنَا مِنَ الْمَزِيدِ ، وَإِنَّهُ لَيَكُونُ عَلَيْهَا سَبْعُونَ حَلَةً أَدْنَاهَا مِثْلُ النُّعْمَانِ مِنْ طُوبَى ، فَيَنْفِذُهَا بِصَرِّهِ حَتَّى يَرَى مَخَ سَاقِهَا مِنْ وَرَاءِ ذَلِكَ ، وَإِنْ عَلَيْهَا مِنَ التِّيْجَانِ ، إِنْ أَدْنَى لَوْلُؤَةٍ مِنْهَا لِتُضِيءُ مَا بَيْنَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ » ^(٤) .

(١) أخرجه البخاري في الرقاق (٦٤٧٩) .

(٢) أخرجه أحمد في مسنده (٩/٣) .

(٣) أخرجه الشافعي في مسنده (١٠٤/٦) .

(٤) أخرجه أحمد في مسنده (٧٥/٣) والسيوطي في جمع الجوامع (٥٥٢٧) .

﴿ وَكَمْ أَفْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْنٍ هُمْ أَشَدُّ مِنْهُمْ بَطْشًا فَنَقَّبُوا فِي الْبِلَادِ هَلْ مِنْ مَحْصِينٍ ﴾ ٣٦ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرًا لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ٣٧ وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَا مِنْ لُتُوبٍ ٣٨ فَأَصْبَرَ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ الْغُرُوبِ ٣٩ وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَأَدْبَرَ الشُّجُورِ ٤٠ يقول تعالى : ﴿ وَكَمْ أَفْلَكْنَا قَبْلَهُمْ ﴾ قبل هؤلاء المكذبين ﴿ مِنْ قَرْنٍ هُمْ أَشَدُّ مِنْهُمْ بَطْشًا ﴾ أي كانوا أكثر منهم وأشد قوة وأثاروا الأرض وعمروها أكثر مما عمروها ، ولهذا قال تعالى ههنا : ﴿ فَنَقَّبُوا فِي الْبِلَادِ هَلْ مِنْ مَحْصِينٍ ﴾ قال ابن عباس ؓ : أثروا فيها . وقال مجاهد : ضربوا في الأرض ، وقال قتادة : فساروا في البلاد أي ساروا فيها يتتغون الأرزاق والمتاجر والمكاسب أكثر مما طغتم بها ، ويقال لمن طوف في البلاد نقب فيها .

وقوله تعالى : ﴿ هَلْ مِنْ مَحْصِينٍ ﴾ أي هل من مفر كان لهم من قضاء الله وقدره ، وهل نفعهم ما جمعوه ورد عنهم عذاب الله إذ جاءهم لما كذبوا الرسل ، فأنتم أيضًا لا مفر لكم ولا محيد ولا مناص ولا محيص . وقوله ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرًا ﴾ أي لعبرة ﴿ لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ ﴾ أي لب يعي به . وقوله ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَا مِنْ لُتُوبٍ ﴾ فيه تقرير للمعاد ؛ لأن من قدر على خلق السموات والأرض ولم يغني بخلقهن قادر على أن يحيي الموتى بطريق الأولى والأخرى ، وقال قتادة : قالت اليهود - عليهم لعائن الله - : خلق الله السموات والأرض في ستة أيام ثم استراح في اليوم السابع وهو يوم السبت ، وهم يسمونه يوم الراحة فأنزل الله تعالى تكذيبهم فيما قالوه وتأولوه ﴿ وَمَا مَسَا مِنْ لُتُوبٍ ﴾ أي من إعياء ولا تعب ولا نصب .

وقوله ﴿ فَأَصْبَرَ عَلَى مَا يَقُولُونَ ﴾ يعني المكذبين اصبر عليهم واهجرهم هجرًا جميلًا ﴿ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ الْغُرُوبِ ﴾ وكانت الصلاة المفروضة قبل الإسرائئلين قبل طلوع الشمس في وقت الفجر وقبل الغروب في وقت العصر ، وقيام الليل كان واجبًا على النبي ﷺ وعلى أمته حولًا ثم نسخ في حق الأمة وجوبه ، ثم بعد ذلك نسخ الله تعالى ذلك كله ليلة الإسرائئلين بخمس صلوات ، ولكن منهن صلاة الصبح والعصر فهما قبل طلوع الشمس وقبل الغروب . عن جرير بن عبد الله ؓ قال : كنا جلوسًا عند النبي ﷺ فنظر إلى القمر ليلة البدر فقال : « أما إنكم ستعرضون على ربكم فترونه كما ترون هذا القمر لاتضامون فيه ، فإن استطعتم أن لا تغلبوا على صلاة قبل طلوع الشمس وقبل غروبها فافعلوا » ثم قرأ ﴿ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ الْغُرُوبِ ﴾ ^(١) . وقوله تعالى : ﴿ وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ ﴾ أي فصل له ﴿ وَأَدْبَرَ الشُّجُورِ ﴾ عن ابن عباس ؓ : هو التسبيح بعد الصلاة . يؤيد هذا ما ثبت عن أبي هريرة ؓ أنه قال : جاء فقراء المهاجرين فقالوا : يا رسول الله ذهب أهل الدثور بالدرجات العلى والنعيم المقيم ، فقال النبي ﷺ : « وذاك ؟ » قالوا : يصلون كما نصلي ، ويصومون كما نصوم ، ويتصدقون ولا تنصدق ، ويعتقون ولا نعتق . قال ﷺ : « أفلا أعلمكم شيئًا إذا فعلتموه سبقتم من بعدكم ، ولا يكون أحد أفضل منكم إلا من فعل مثل ما فعلتم ؟ تسبحون وتحمدون وتكبرون دبر كل صلاة ثلاثا وثلاثين » قال : فقالوا : يا رسول

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٣٦٥/٤) ومسلم في المساجد (٢١٢) والطبراني في الكبير (٣٣٢/٢) .

اللَّهُ سَمِعَ إِخْوَانَنَا أَهْلَ الْأَمْوَالِ بِمَا فَعَلْنَا فَفَعَلُوا مِثْلَهُ . فَقَالَ ﷺ : « ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ » ^(١) .
والقول الثاني : أن المراد بقول تعالى : ﴿ وَادْبَرْهُ الشُّجُورَ ﴾ هما الركعتان بعد المغرب . عن
علي عليه السلام قال : كان رسول الله ﷺ يصلي على أثر كل صلاة مكتوبة ركعتين إلا الفجر والعصر .
وقال عبد الرحمن : دبر كل صلاة ^(٢) .

﴿ وَاسْتَنْعِ يَوْمَ يَدُودُ الْأُنَادِ مِنْ مَكَانٍ قَرِيبٍ ﴾ ^(٣) يَوْمَ يَسْمَعُونَ الصَّيْحَةَ بِالْحَقِّ ذَلِكَ يَوْمَ الْخُرُوجِ ﴿ إِنَّا نَحْنُ نُحْيِيهِ وَنُيِّتُ
وَلِإِنَّا لَآلَمِيعِينَ ﴾ ^(٤) يَوْمَ تَشَقَّقُ الْأَرْضُ عَنْهُمْ سِرَاعًا ذَلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا يَسِيرٌ ﴿ نَحْنُ أَكْلَرُ بِمَا يُقُولُونَ وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ
بِصَبَّارٍ فَذَكِّرْ بِالْقُرْآنِ مَنْ يَخَافُ وَعِيدِ ﴾ .

يقول تعالى : ﴿ وَاسْتَنْعِ ﴾ يا محمد ﴿ يَوْمَ يَدُودُ الْأُنَادِ مِنْ مَكَانٍ قَرِيبٍ ﴾ قال قتادة : قال كعب الأحبار :
يأمر الله تعالى ملكاً أن ينادي على صخرة بيت المقدس أيتها العظام البالية والأوصال المتقطعة ، إن الله
تعالى يأمر من أن تجتمعن لفصل القضاء ﴿ يَوْمَ يَسْمَعُونَ الصَّيْحَةَ بِالْحَقِّ ﴾ يعني النفخة في الصور التي تأتي
بالحق الذي كان أكثرهم فيه يمترون ﴿ ذَلِكَ يَوْمَ الْخُرُوجِ ﴾ أي من الأجداث ﴿ إِنَّا نَحْنُ نُحْيِيهِ وَنُيِّتُ وَلِإِنَّا
لَآلَمِيعِينَ ﴾ أي هو الذي يبدأ الخلق ثم يعيده وهو أهون عليه وإليه مصير الخلائق كلهم ، فيجازي كلًّا
بعمله إن خيراً فخير وإن شراً فشر . وقوله تعالى : ﴿ يَوْمَ تَشَقَّقُ الْأَرْضُ عَنْهُمْ سِرَاعًا ﴾ وذلك إن الله ﷻ
ينزل مطراً من السماء ينبت به أجساد الخلائق كلها في قبورها ، كما ينبت الحب في الثرى بالماء ، فإذا
تكاملت الأجساد أمر الله تعالى إسرافيل فينفخ في الصور ، وقد أودعت الأرواح في ثقب في الصور ،
فإذا نفخ إسرافيل فيه خرجت الأرواح تتوهج بين السماء والأرض ، فيقول الله ﷻ : وعزتي وجلالي
لترجعن كل روح إلى الجسد الذي كانت تعمه ، فترجع كل روح إلى جسدها ، فتدب فيه كما يدب
السم في اللدغ ، وتنشق الأرض عنهم فيقومون إلى موقف الحساب سراعاً مبادرين إلى أمر الله ﷻ
﴿ مُهْطِينَ إِلَى الدَّاعِ يَقُولُ الْكَافِرُونَ هَذَا يَوْمٌ عَرِيرٌ ﴾ عن أنس عليه السلام قال قال رسول الله ﷺ : « أنا أول من تنشق
عنه الأرض » ^(٥) . وقوله ﷻ : ﴿ ذَلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا يَسِيرٌ ﴾ أي تلك إعادة سهلة علينا ، يسيرة لدينا .

وقوله جل وعلا : ﴿ نَحْنُ أَكْلَرُ بِمَا يُقُولُونَ ﴾ أي نحن علمنا محيط بما يقول لك المشركون من
التكذيب فلا يهولنك ذلك ﴿ وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِصَبَّارٍ ﴾ أي ولست بالذي تجبر هؤلاء على الهدى ، وليس
ذلك مما كلفت به . وقال مجاهد وقاتدة والضحاك : ﴿ وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِصَبَّارٍ ﴾ أي لا تتجبر عليهم ،
والقول الأول أولى ، ولو أراد ما قالوه لقال : ولا تكن جباراً عليهم ، وإنما قال : ﴿ وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِصَبَّارٍ ﴾
بمعنى وما أنت بمجبرهم على الإيمان إنما أنت مبلغ ، قال الفراء : سمعت العرب تقول : جبر فلان فلانا
على كذا بمعنى أجبره ، ثم قال ﷻ : ﴿ فَذَكِّرْ بِالْقُرْآنِ مَنْ يَخَافُ وَعِيدِ ﴾ أي بلغ أنت رسالة ربك فإنما
يتذكر من يخاف الله ووعيده ويرجو وعده ، كقوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلْغُ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ ﴾
وقوله ﷻ : ﴿ فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ ﴾ لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيِّرٍ .

(١) أخرجه البخاري في الأذان (٨٤٣) ومسلم في الإيمان (١٧٩) والترمذي في السنن (٧٣١) .

(٢) أخرجه أحمد في مسنده (١٢٤/١) .

(٣) أخرجه الترمذي في السنن (٣١٤٨) وابن ماجه في السنن (٤٣٠٨) وأحمد في مسنده (٢٨١/١) والحاكم في المستدرک (٤٦٥/٢) .

سورة الذاريات

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ وَالَّذِينَ ذَرَوْا ﴿ فَاَلْمَلَأْتِمْ وَقَرًا ﴿ فَاَلْمَلَأْتِمْ بُرًّا ﴿ فَاَلْمَلَأْتِمْ أَمْرًا ﴿ إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٌ ﴿ وَإِنَّ الَّذِينَ ﴿ لَرِيقٌ ﴿ وَاسْمَاءَ ذَاتِ الْحَبِّكَ ﴿ إِنَّكُمْ لَفِي قَوْلٍ مِّنْ خَلْفٍ ﴿ يُؤْتِكُمْ عَنْهُ مَنَ أَيْكَ ﴿ قُلِ الْخَرَصُونَ ﴿ الَّذِينَ هُمْ فِي عَمَرِهِ ﴿ سَاهُونَ ﴿ يَسْتَوُونَ أَيَّانَ يَوْمَ الَّذِينَ ﴿ يَوْمَ هُمْ عَلَى النَّارِ يُنْفَتُونَ ﴿ ذُوقُوا فَنَقُصِّ هَذَا الَّذِي كُنتُمْ بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ ﴾ .

عن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب ؑ ، أنه صعد منبر الكوفة فقال : لا تسألوني عن آية في كتاب الله تعالى ، ولا عن سنة عن رسول الله إلا أنبأكم بذلك ، فقام إليه ابن الكواء ، فقال : يا أمير المؤمنين ما معنى قوله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ ذَرَوْا ﴾ قال علي ؑ : الریح ، قال : ﴿ فَاَلْمَلَأْتِمْ وَقَرًا ﴾ قال ؑ : السحاب ، قال : ﴿ فَاَلْمَلَأْتِمْ بُرًّا ﴾ قال ؑ : السفن ، قال : ﴿ فَاَلْمَلَأْتِمْ أَمْرًا ﴾ قال ؑ : الملائكة .

وقال بعضهم : هي النجوم تجري يسرا في أفلاكها ليكون ذلك ترقيا من الأدنى إلى الأعلى إلى ما هو أعلى منه ، فالرياح فوقها السحاب ، والنجوم فوقه كذلك ، والمقسمات أمرا : الملائكة فوق ذلك تنزل بأوامر الله الشرعية والكونية ، وهذا قسم من الله ﷻ على وقوع المعاد ، ولهذا قال تعالى : ﴿ إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٌ ﴾ أي لخبر صدق ﴿ وَإِنَّ الَّذِينَ ﴾ وهو الحساب ﴿ لَرِيقٌ ﴾ أي لكائن لا محالة .

ثم قال تعالى : ﴿ وَاسْمَاءَ ذَاتِ الْحَبِّكَ ﴾ قال ابن عباس ؓ : ذات الجمال والبهاء والحسن والاستواء ، وكذا قال مجاهد وعكرمة وسعيد بن جبیر وغيرهم . وقال الضحاك والمنهال بن عمرو وغيرهما : مثل تجمع الماء والرمل والزرع ، إذا ضربته الريح فينسج بعضه بعضا طرائق طرائق ، فذلك الحبك . عن أبي قلابة عن رجل من أصحاب النبي ﷺ عن رسول الله ﷺ أنه قال : « إن من ورائكم الكذاب المضل ، وإن رأسه من ورائه حُبْكَا حُبْكَا » ^(١) يعني بالحبك الجمودة . وعن أبي صالح : ﴿ ذَاتِ الْحَبِّكَ ﴾ الشدة . وعن عبد الله بن عمرو ؓ : ﴿ وَاسْمَاءَ ذَاتِ الْحَبِّكَ ﴾ يعني السماء السابعة ، وكأنه والله أعلم أراد بذلك السماء التي فيها الكواكب الثابتة ، وهي عند كثير من علماء الهيئة في الفلك الثامن الذي فوق السابع ، والله أعلم . وكل هذه الأقوال ترجع إلى شيء واحد وهو الحسن والبهاء كما قال ابن عباس ؓ ، فإنها من حسنهما مرتفعة شفاقة صفيقة شديدة البناء متسعة الأرجاء أنيقة البهاء ، مكللة بالنجوم الثوابت والسيارات ، موشحة بالشمس والقمر والكواكب الزاهرات . وقوله تعالى : ﴿ إِنَّكُمْ لَفِي قَوْلٍ مِّنْ خَلْفٍ ﴾ أي إنكم أيها المشركون المكذبون للرسول لفي قول مختلف مضطرب لا يلثم ولا يجتمع ، وقال قتادة : إنكم لفي قول مختلف مابين مصدق بالقرآن ومكذب به . ﴿ يُؤْتِكُمْ عَنْهُ مَنَ أَيْكَ ﴾ أي إنما يروج على من هو ضال في نفسه ؛ لأنه قول باطل إنما ينقاد له ويضل بسببه ، ويؤفك عنه من هو مأفوك ضال غمر لا فهم له قال ابن عباس ؓ والسدي : ﴿ يُؤْتِكُمْ عَنْهُ مَنَ أَيْكَ ﴾ يضل عنه من ضل . وقال مجاهد : يؤفن عنه من أفن ، وقال الحسن البصري : يصرف عن هذا القرآن من كذب به . وقوله تعالى : ﴿ قُلِ الْخَرَصُونَ ﴾ قال مجاهد : الكذابون ،

قال : وهي مثل التي في عيس ﴿ قَدْ آتَيْنَهُمَا أَكْثَرُ ﴾ والحرصون الذين يقولون لا نبعث ولا يوقنون . قال ابن عباس : أي لعن المرتابون . وهكذا كان معاذ ؓ يقول في خطبته . هلك المرتابون . وقوله تبارك وتعالى : ﴿ الَّذِينَ هُمْ فِي غَمَرَةٍ سَاهَوْنَ ﴾ قال ابن عباس ؓ وغير واحد : في الكفر والشك غافلون لاهون ﴿ يَسْتَلُونَ أَيَّانَ يَوْمَ الَّذِينَ ﴾ وإنما يقولون هذا تكذيباً وعناداً وشكاً واستبعاداً ، قال الله تعالى : ﴿ يَوْمَ هُمْ عَلَى النَّارِ يُفْتَنُونَ ﴾ قال ابن عباس ومجاهد والحسن وغير واحد : ﴿ يُفْتَنُونَ ﴾ يعذبون . قال مجاهد : كما يفتن الذهب على النار ، وقال جماعة آخرون : يحرقون ﴿ ذُرُوءًا يُنْتَكَرُ ﴾ قال مجاهد : حريقكم ، وقال غيره : عذابكم ﴿ هَذَا الَّذِي كُنتُمْ بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ ﴾ أي يقال لهم ذلك تقريراً وتوبيخاً وتحقيراً وتصغيراً ، والله أعلم .

﴿ إِنَّ الَّذِينَ فِي جَهَنَّمَ وَعُيُونٌ ﴾ عَيْنِينَ مَا ءَانَتْهُمْ رَهْمُ إِهْمَ كَانُوا قَلَّ ذَلِكَ مُحْسِنِينَ ﴿ كَانُوا قَلِيلًا مِّنَ الَّذِينَ يَهْتَجُونَ ﴾ وَيَا لَأَشْحَارٍ هُمْ يَسْتَفْهِقُونَ ﴿ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ ﴾ فِي الْأَرْضِ ءَايَاتٌ لِّلْمُتَوَكِّلِينَ ﴿ فِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴾ فِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ ﴿ قَرِيبَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ مِّثْلَ مَا أَنَّكُمْ تَنْطِفُونَ ﴾ .
يقول تعالى مخبراً عن المتقين لله ﷻ أنهم يوم معادهم يكونون في جنات وعيون بخلاف ما أولئك الأشقياء فيه من العذاب والنكال والحرق والأغلال . وقوله تعالى : ﴿ عَيْنِينَ مَا ءَانَتْهُمْ رَهْمُ ﴾ قال ابن جرير : أي عاملين بما آتاهم الله من الفرائض ﴿ إِهْمَ كَانُوا قَلَّ ذَلِكَ مُحْسِنِينَ ﴾ أي قبل أن يفرض عليهم الفرائض كانوا محسنين في الأعمال أيضاً .

وقوله ﷻ : ﴿ إِهْمَ كَانُوا قَلَّ ذَلِكَ ﴾ أي في الدار الدنيا ﴿ مُحْسِنِينَ ﴾ كقوله ﷻ : ﴿ كَانُوا قَلِيلًا مِّنَ الَّذِينَ يَهْتَجُونَ ﴾ اختلف المفسرون في ذلك على قولين : أحدهما ، أن ما نافية تقديره : كانوا قليلاً من الليل لا يهجعونه ، قال ابن عباس ؓ : لم تكن تمضي عليهم ليلة إلا يأخذون منها ولو شيئاً ، وقال قتادة عن مطرف بن عبد الله : قل ليلة تأتي عليهم إلا يصلون فيها لله ﷻ ، إما من أولها وإما من أوسطها . وقال أنس بن مالك وأبو العالية : كانوا يصلون بين المغرب والعشاء . القول الثاني : أن ما مصدرية تقديره كانوا قليلاً من الليل هجوعهم ونومهم ، واختاره ابن جرير .

وقال الحسن البصري : ﴿ كَانُوا قَلِيلًا مِّنَ الَّذِينَ يَهْتَجُونَ ﴾ كابدوا قيام الليل فلا ينامون من الليل إلا أقله ، ونشطوا فمدوا إلى السحر حتى كان الاستغفار بسحر . وقال الحسن البصري : كان الأحنف بن قيس يقول : عرضت عملي على عمل أهل الجنة ، فإذا قوم قد باينونا بونا بعيداً ، إذا قوم لا نبليغ أعمالهم كانوا قليلاً من الليل ما يهجعون ، وعرضت عملي على عمل أهل النار ، فإذا قوم لا خير فيهم مكذبون بكتاب الله وبرسل الله ، مكذبون بالبعث بعد الموت ، فقد وجدت من خيرنا منزلة قومًا خلطوا عملاً صالحاً وآخر سيئاً . وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم : قال رجل من بني تميم لأبي : يا أبا أسامة صفة لا أجدها فينا ، ذكر الله تعالى قوما فقال : ﴿ كَانُوا قَلِيلًا مِّنَ الَّذِينَ يَهْتَجُونَ ﴾ ونحن والله قليلاً من الليل ما نقوم ، فقال له أبي ؓ : طوبى لمن رقد إذا نعس واتقى الله إذا استيقظ . وقال عبد الله ابن سلام ؓ : لما قدم رسول الله ﷺ المدينة انجفل الناس إليه ، فكنيت فيمن انجفل ، فلما رأيت

وجهه ﷺ عرفت أن وجهه ليس بوجه رجل كذاب ، فكان أول ما سمعته ﷺ يقول : « يا أيها الناس أطمعوا الطعام ، وصلوا الأرحام ، وأفشوا السلام ، وصلوا بالليل والناس نيام ؛ تدخلوا الجنة بسلام »^(١) .

وعن عبد الله بن عمر رضي الله عنه قال : إن رسول الله ﷺ قال : « إن في الجنة غرفا يرى ظاهرها من باطنها ، وباطنها من ظاهرها » فقال أبو موسى الأشعري رضي الله عنه : لمن هي يا رسول الله ؟ قال ﷺ : « لمن ألان الكلام ، وأطعم الطعام ، وبات لله قائما والناس نيام »^(٢) .

وقوله ﷺ : ﴿ وَبِالْأَنْحَارِ تَمْ جَسْتَفِرُونَ ﴾ قال مجاهد وغير واحد : يصلون . وقال آخرون : قاموا الليل وأخروا الاستغفار إلى الأسحار كما قال تبارك وتعالى : ﴿ وَاللَّيْلِ بِالسَّحَارِ ﴾ فإن كان الاستغفار في صلاة فهو أحسن . وقد ثبت في الصحيح وغيرها عن جماعة من الصحابة رضي الله عنهم ، عن رسول الله ﷺ أنه قال : « إن الله تعالى ينزل كل ليلة إلى سماء الدنيا حين يبقى ثلث الليل الأخير ، فيقول : هل من تائب فأتوب عليه ؟ هل من مستغفر فأغفر له ؟ هل من سائل فيعطى سؤله ؟ حتى يطلع الفجر »^(٣) وقال كثير من المفسرين في قوله تعالى إخباراً عن يعقوب أنه قال لبيه : ﴿ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّي ﴾ : قالوا : أخرهم إلى وقت السحر .

وقوله تبارك وتعالى : ﴿ وَفِي أَنْوَالِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّائِلِ وَالْحَرَوِ ﴾ لما وصفهم بالصلاة ثنى بوصفهم بالزكاة والبر والصلة فقال : ﴿ وَفِي أَنْوَالِهِمْ حَقٌّ ﴾ أي جزء مقسوم قد أفرزوه للسائل والمحروم . أما السائل فمعروف وهو الذي يتدنى بالسؤال ، وله حق ، عن الحسين بن علي رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « للسائل حق وإن جاء على فرس »^(٤) وأما المحروم : فقال ابن عباس رضي الله عنه ومجاهد : هو المحارف الذي ليس له في الإسلام سهم ؛ يعني لا سهم له في بيت المال ولا كسب له ولا حرفة يتقوت منها ، وقالت أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها : هو المحارف الذي لا يكاد يتيسر له مكسبه ، وقال الضحاك : هو الذي لا يكون له مال إلا ذهب ، قضى الله تعالى له ذلك . وقال قتادة والزهري : المحروم الذي لا يسأل الناس شيئا . قال الزهري : وقد قال رسول الله ﷺ : « ليس المسكين بالطواف الذي ترده اللقمة واللقمتان ، والتمر والتمران ؛ ولكن المسكين الذي لا يجد غنى يغنيه ، ولا يفطن له فيتصدق عليه »^(٥) ، وقوله ﷺ : ﴿ وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِّلْمُتَّقِينَ ﴾ أي فيها من الآيات الدالة على عظمة خالقها وقدرته الباهرة مما قد ذرأ فيها من صنوف النبات والحيوانات والمهاد والجبال والقفار والأنهار والبحار ، واختلاف ألسنة الناس وألوانهم وما جلبوا عليه من الإرادات والقوى ، وما بينهم من التفاوت في العقول والفهوم والحركات والسعادة والشقاوة ، وما في تركيبتهم من الحكم في وضع كل عضو من أعضائهم في المحل الذي هو محتاج إليه فيه ، ولهذا قال ﷺ : ﴿ وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴾ قال قتادة :

(١) أخرجه الترمذي في السنن (٢٤٨٥) والحاكم في المستدرک (١٣١/٣) وأحمد في مسنده (٤٥١/٥) .

(٢) أخرجه أحمد في مسنده (٣٤٣/٥) والحاكم في المستدرک (٣٧١/١) والبيهقي في السنن (٣٠١/٤) .

(٣) أخرجه أحمد في مسنده (٣٨٨/١) .

(٤) أخرجه أحمد في مسنده (٢٠١/١) وأبو داود في السنن (١٦٦٦) والبيهقي في السنن (٢٣/٧) .

(٥) أخرجه البخاري في الزكاة (١٤٧٦) ومسلم في الزكاة (١٠٢) وأبو داود في السنن (١٦٣٢) وأحمد في مسنده (٣٩٥/٢) .

من تفكر في خلق نفسه عرف أنه إنما خلق ولينت مفاصله للعبادة .

ثم قال تعالى : ﴿ وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ ﴾ يعني المطر ﴿ وَمَا تُوَعَّدُونَ ﴾ يعني الجنة ، قاله ابن عباس ؓ ومجاهد وغير واحد . وقال سفيان الثوري : قرأ واصل الأحدب هذه الآية ﴿ وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوَعَّدُونَ ﴾ فقال : ألا أرى رزقي في السماء وأنا أطلبه في الأرض ، فدخل خربة فمكث ثلاثاً لا يصيب شيئاً ، فلما أن كان في اليوم الثالث إذا هو بدوخلة من رطب ، وكان له أخ أحسن نية منه ، دخل معه فصارتا دوختين ، فلم يزل ذلك دأبهما حتى فرق بينهما الموت .

وقوله تعالى : ﴿ قَوْرَبِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ لَغَوْثٌ يَنْتَلِ مَا أَنْتُمْ تَنْطِقُونَ ﴾ يقسم تعالى بنفسه الكريمة أن ما وعدهم به من أمر القيامة والبعث والجزاء كائن لا محالة ، وهو حق لا مرية فيه ، فلا تشكوا فيه كما لا تشكوا في نطقكم حين تنطقون ، وكان معاذ ؓ إذا حدث بالشيء يقول لصاحبه : إن هذا لحق كما أنك ههنا .

﴿ هَلْ أَتَاكَ حَدِيثٌ ضَيْفَ إِبْرَاهِيمَ الْمُكْرَمِ ﴾ إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَامٌ قَوْمٌ مُنْكَرُونَ ﴿ فَرَأَى إِلَهُتِ أَهْلِيهِ فَجَاءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ ﴾ فَقَرَّبَهُ إِلَيْهِمْ قَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ ﴿ فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لَا تَحْزَنْ وَبَشِّرْهُ بِبُكَرٍ عَلَيْهِمْ ﴿ فَأَقْبَلَ بَرَأَتُهُ فِي صَرَخٍ فَصَكَتْ وَجْهَهَا وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ ﴿ قَالُوا كَذَلِكَ قَالَ رَبُّنَا إِنَّهُ هُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ ﴾ .

﴿ هَلْ أَتَاكَ حَدِيثٌ ضَيْفَ إِبْرَاهِيمَ الْمُكْرَمِ ﴾ أي الذين أرصد لهم الكرامة ، وقد ذهب الإمام أحمد وطائفة من العلماء إلى وجوب الضيافة للزئيل ، وقد وردت السنة بذلك كما هو ظاهر التنزيل . وقوله تعالى : ﴿ فَقَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَامٌ ﴾ الرفع أقوى وأثبت من النصب ، فرده أفضل من التسليم ولهذا قال تعالى : ﴿ وَإِذَا حِينُكُمْ بِنَجْوَى فَخَبِرُوا يَأْحَسَنَ مِنْهَا أَوْ رُدُّوهَا ﴾ فالخليل اختار الأفضل ، وقوله تعالى : ﴿ قَوْمٌ مُنْكَرُونَ ﴾ وذلك أن الملائكة وهم جبريل وميكائيل وإسرافيل قدموا عليه في صورة شبان حسان عليهم مهابة عظيمة ولهذا قال : ﴿ قَوْمٌ مُنْكَرُونَ ﴾ وقوله ﴿ هَلْ أَتَاكَ حَدِيثٌ ضَيْفَ إِبْرَاهِيمَ ﴾ أي انسل خفية في سرعة ﴿ فَجَاءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ ﴾ أي من خيار ماله ﴿ فَقَرَّبَهُ إِلَيْهِمْ ﴾ أي أدناه منهم ﴿ قَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ ﴾ تلطف في العبارة وعرض حسن ، وهذه الآية انتظمت آداب الضيافة فإنه جاء بطعام من حيث لا يشعرون بسرعة ، ولم يمتن عليهم أولاً فقال : نأتيكم بطعام بل جاء به بسرعة وخفاء ، وأتى بأفضل ما وجد من ماله ، وهو عجل فتي سمين مشوي ، فقربه إليهم لم يضعه وقال : اقتربوا ، بل وضعه بين أيديهم ولم يأمرهم أمراً يشق على سامعه بصيغة الجزم بل قال : ﴿ أَلَا تَأْكُلُونَ ﴾ على سبيل العرض والتلطف ، كما يقول القائل : اليوم إن رأيت أن تتفضل وتحسن وتتصدق فافعل .

وقوله تعالى : ﴿ فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً ﴾ هذا محال على ما تقدم في القصة في السورة الأخرى وهي قوله تعالى : ﴿ فَلَمَّا رَأَى أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لَا تَحْزَنْ إِنَّا أَرْسَلْنَا إِلَيْكَ قَوْمَ لُوطٍ وَآمَرْنَاهُ فَاقْبَمْ فَضَجَّكَتْ ﴾ أي استبشرت بهلاكهم لتعمردهم وعتوهم على الله تعالى ، فعند ذلك بشرتها الملائكة بإسحاق ومن وراء إسحاق يعقوب ﴿ قَالَتْ يَوْنِلَقَ إِلَهُي وَإِنَّا عَجُوزٌ وَهَذَا بَعْلِي شَيْخًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ ﴾ قَالُوا أَنْتَجِبِينَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ رَحِمْتُ اللَّهُ وَبَرَكْنَاهُ عَلَيْكَ أَهْلَ الْبَيْتِ إِنَّهُ حَمِيدٌ مَجِيدٌ ﴿ ولهذا قال الله ﷻ ههنا ﴿ وَبَشِّرْهُ بِبُكَرٍ عَلَيْهِمْ ﴾ فالبشارة له هي بشاره لها . لأن الولد منهما فكل منهما بشر به . وقوله تعالى : ﴿ فَأَقْبَلَ بَرَأَتُهُ فِي صَرَخٍ ﴾ أي في صرخة عظيمة ورنه ، قال ابن عباس ومجاهد وعكرمة وغيرهم

وهي قولها : يا ويلتاه ﴿ فَصَكَّتْ وَجْهَهَا ﴾ أي ضربت يدها على جبينها ﴿ وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ ﴾ أي كيف ألد وأنا عجوز وقد كنت في حال الصبا عقيما لا أحبل ، ﴿ قَالُوا كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ إِنَّهُ هُوَ الْعَكِيمُ الْحَلِيمُ ﴾ أي عليم بما تستحقون من الكرامة ، حكيم في أقواله وأفعاله .

﴿ قَالَ مَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ ﴾ ﴿ قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ ﴾ ﴿ لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَابًا مِّنْ طِينٍ ﴾ ﴿ مُّسَوِّمَةً عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُسْرِفِينَ ﴾ ﴿ فَأَخْرَجْنَا مَن كَانَ فِيهَا مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ ﴿ فَأَمْدَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِّنَ الْمُسْلِمِينَ ﴾ ﴿ وَرَزَقْنَا فِيهَا آيَةً لِّلَّذِينَ يَخَافُونَ الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ﴾ .

قال الله تعالى مخبرا عن إبراهيم عليه الصلاة والسلام ﴿ قَالَ مَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ ﴾ أي ما شأنكم وفيما جئتم ﴿ قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ ﴾ يعنون قوم لوط ﴿ لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَابًا مِّنْ طِينٍ ﴾ ﴿ مُّسَوِّمَةً ﴾ أي معلمة ﴿ عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُسْرِفِينَ ﴾ أي مكتبة عنده بأسمائهم كل حجر عليه اسم صاحبه ، ﴿ فَأَخْرَجْنَا مَن كَانَ فِيهَا مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ وهم لوط وأهل بيته إلا امرأته ﴿ فَأَمْدَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِّنَ الْمُسْلِمِينَ ﴾ احتج بهذه من ذهب إلى رأي المعتزلة ممن لا يفرق بين مسمى الإيمان والإسلام ، لأنه أطلق عليهم المؤمنين والمسلمين ، وهذا الاستدلال ضعيف ؛ لأن هؤلاء كانوا قوماً مؤمنين ، وعندنا أن كل مؤمن مسلم ولا ينعكس ، فاتفق الاسمان ههنا لخصوصية الحال ، ولا يلزم ذلك في كل حال . وقوله تعالى : ﴿ وَرَزَقْنَا فِيهَا آيَةً لِّلَّذِينَ يَخَافُونَ الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ﴾ أي جعلناها عبرة بما أنزلنا بهم من العذاب والنكال وحجارة السجيل ، وجعلنا محلهم بحيرة منتنة خبيثة ، ففي ذلك عبرة للمؤمنين .

﴿ وَفِي مُّوسَى إِذْ أَرْسَلْنَاهُ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ﴾ ﴿ فَتَوَلَّىٰ رُكُوبِهِ وَقَالَ سَجِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ ﴾ ﴿ فَأَخَذَتْهُ وَجُودُهُ فَبَذَلَتْهُمْ فِي أَلَمٍ وَهُوَ مُلِيمٌ ﴾ ﴿ وَفِي عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ ﴾ ﴿ مَا تَذَرُ مِنْ شَيْءٍ أَنتَ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلَتْهُ كَالْأَرِيسِ ﴾ ﴿ وَفِي ثُودٍ إِذْ قِيلَ لَهُمُ تَنْعَمُوا حَتَّىٰ جِئَ جِبْنَ ﴾ ﴿ فَمَتَرْنَا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْغَةُ وَهُمْ يَنْظُرُونَ ﴾ ﴿ فَأَسْتَطَفُوا مِّنْ قِبَابِهِ وَمَا كَانُوا مُنْصِفِينَ ﴾ ﴿ وَقَوْمٌ نُوحٍ مِّن قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ ﴾ .

يقول تعالى : ﴿ وَفِي مُّوسَى إِذْ أَرْسَلْنَاهُ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ﴾ أي بدليل باهر وحجة قاطعة ﴿ فَتَوَلَّىٰ رُكُوبِهِ ﴾ أي فأعرض فرعون عما جاءه به موسى من الحق المبين استكباراً وعناداً . وقال مجاهد : تعزز بأصحابه ، وقال قتادة : غلب عدو الله على قومه ، وقال ابن زيد : ﴿ فَتَوَلَّىٰ رُكُوبِهِ ﴾ أي بجموعه التي معه ثم قرأ ﴿ قَالَ لَوْ أَنِّي بِيَدِي قُوَّةٌ أَوْ آوَيْتُ إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ ﴾ والمعنى الأول قوي ﴿ وَقَالَ سَجِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ ﴾ أي لا يخلو أمرك فيما جئتني به من أن تكون ساحراً أو مجنوناً ، قال الله تعالى : ﴿ فَأَخَذَتْهُ وَجُودُهُ فَبَذَلَتْهُمْ ﴾ أي ألقيناهم ﴿ فِي أَلَمٍ ﴾ وهو البحر ﴿ وَهُوَ مُلِيمٌ ﴾ أي وهو ملوم كافر جاحد فاجر معاند . ثم قال ﴿ وَفِي عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ ﴾ أي المفسدة التي لا تنتج شيئاً ، قاله الضحاك وقاتادة وغيرهما ولهذا قال تعالى : ﴿ مَا تَذَرُ مِنْ شَيْءٍ أَنتَ عَلَيْهِ ﴾ أي مما تفسده الريح . وإلا جعلته كالمرمى أي كالشيء الهالك البالي ، قال سعيد بن المسيب وغيره في قوله تعالى : ﴿ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ ﴾ قالوا : هي الجنوب . عن ابن عباس ؓ قال : قال رسول الله ﷺ : « نصرت بالصبا وأهلك عاد بالذبور » ^(١) . ﴿ وَفِي ثُودٍ إِذْ قِيلَ لَهُمُ تَنْعَمُوا حَتَّىٰ جِئَ جِبْنَ ﴾ قال ابن جرير : يعني إلى وقت فناء آجالكم .

(١) أخرجه البخاري في المغازي (٤١٠٥) ومسلم في صلاة الاستسقاء (١٧) وأحمد في مسنده (٣٥٥/١) والحاكم في المستدرک (٤٥٦/٢) .

عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال : أقرأني رسول الله (إني أنا الرزاق ذو القوة المتين) ^(١) . ومعنى الآية : أنه تبارك وتعالى خلق العباد ليعبدوه وحده لا شريك له ، فمن أطاعه جازاه أتم الجزاء ، ومن عصاه عذبه أشد العذاب . وأخبر أنه غير محتاج إليهم بل هم الفقراء إليه في جميع أحوالهم . فهو خالقهم ورازقهم . عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « قال الله تعالى : يا ابن آدم تفرغ لعبادتي أملأ صدرك غنى ، وأسد فقرك ، وإلا تفعل ؛ ملأت صدرك شغلاً ، ولم أسد فقرك » ^(٢) . وقد ورد في بعض الكتب الإلهية : يقول الله تعالى : ابن آدم خلقتك لعبادتي فلا تلعب ، وتكفلت برزقك فلا تتعب ، فاطلبنى تجدني ، فان وجدتنى وجدت كل شيء ، وإن فتك فاتك كل شيء ، وأنا أحب إليك من كل شيء .

وقوله تعالى : ﴿ فَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُنُوبًا ﴾ أي نصيبًا من العذاب ﴿ يَنْتَلِ ذُنُوبُ أَصْحَابِهِمْ فَلَا يَسْتَعِجِلُونَ ﴾ أي فلا يستعجلون ذلك فإنه واقع لا محالة ﴿ قَوْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ يَوْمِهِمُ الَّذِي يُوعَدُونَ ﴾ يعني يوم القيامة .

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٣٩٤/١) .

(٢) أخرجه أحمد في مسنده (٣٥٨/٢) .

سورة الطور

عن جبير بن مطعم : سمعت النبي ﷺ يقرأ في المغرب بالطور ، فما سمعت أحداً أحسن صوتاً أو قراءة منه ^(١) . عن أم سلمة قالت : شكوت إلى رسول الله ﷺ أنني أشتكي فقال : « طوفي من وراء الناس وأنت راكبة » فطفت ورسول الله يصلي إلى جنب البيت يقرأ بالطور وكتاب مسطور ^(٢) .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ وَالطُّورِ ﴾ ١ وَكَتَبَ مَسْطُورٍ ٢ فِي رَقٍّ مَّنْشُورٍ ٣ وَالْبَيْتِ الْمَعْمُورِ ٤ وَالنَّافِثِ الْمَرْجُوعِ ٥ وَالْبَحْرِ الْمَسْجُورِ ٦ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ ٧ مَا لَهُ مِنْ دَافِعٍ ٨ يَوْمَ تَمُورُ السَّمَاءُ مَكْشَاةً ٩ وَتَسِيرُ الْجِبَالُ سَيْرًا ١٠ فَوَيْلٌ لِلْمُكَذِّبِينَ ١١ الَّذِينَ هُمْ فِي حُوزٍ يَلْعَبُونَ ١٢ يَوْمَ يُدْعَوْنَ لَكُمْ تَارَ جَهَنَّمَ دَعَا ١٣ هَٰذَا النَّارُ الَّتِي كُنتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ ١٤ أَفَسِحْرٌ هَٰذَا أَمْ أَنْتُمْ لَا تَبْصُرُونَ ١٥ أَسْأَلُهَا فَاصْبِرِي أَوْ لَا تَصْبِرِي سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ إِنَّمَا تُحْزَنُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ١٦ .

يقسم تعالى بمخلوقاته الدالة على قدرته العظيمة ، أن عذابه واقع بأعدائه ، وأنه لا دافع عنهم ، فالطور هو الجبل الذي يكون فيها أشجار مثل الذي كلم الله عليه موسى وأرسل منه عيسى ، وما لم يكن فيه شجر لا يسمى طورا إنما يقال له جبل ﴿ وَكَتَبَ مَسْطُورٍ ﴾ قيل : هو اللوح المحفوظ ، وقيل : الكتب المنزلة المكتوبة التي تقرأ على الناس جهاراً ، ولهذا قال : ﴿ فِي رَقٍّ مَّنْشُورٍ ﴾ ٣ وَالْبَيْتِ الْمَعْمُورِ ٤ ثبت في الصحيحين أن رسول الله ﷺ قال في حديث الإسراء بعد مجاوزته إلى السماء السابعة : « ثم رفع بي إلى البيت المعمور ، وإذا هو يدخله كل يوم سبعون ألفاً لا يعودون إليه آخر ما عليهم » يعني يتعبدون فيه ويطوفون به كما يطوف أهل الأرض بكعبتهم ، كذلك ذاك البيت المعمور هو كعبة أهل السماء السابعة ، ولهذا وجد إبراهيم الخليل عليه الصلاة والسلام مسنداً ظهره إلى البيت المعمور ؛ لأنه باني الكعبة الأرضية ، والجزء من جنس العمل ، وهو بحيال الكعبة ، وفي كل سماء بيت يتعبد فيه أهلها ويصلون إليه والذي في السماء الدنيا يقال له بيت العزة .

وقال قتادة والريبع بن أنس والسدي : ذكر لنا أن رسول الله ﷺ قال يوماً لأصحابه : « هل تدرون ما البيت المعمور ؟ » قالوا : الله ورسوله أعلم . قال « فإنه مسجد في السماء بحيال الكعبة لوخر لخر عليها ، يصلي فيه كل يوم سبعون ألف ملك إذا خرجوا منه لم يعودوا آخر ما عليهم » ^(٣) وزعم الضحّاك أنه يعمره طائفة من الملائكة يقال لهم الجن من قبيلة إلبليس ، فالله أعلم .

وقوله تعالى : ﴿ وَالنَّافِثِ الْمَرْجُوعِ ﴾ عن علي ﴿ وَالنَّافِثِ الْمَرْجُوعِ ﴾ يعني السماء . وكذا قال مجاهد وقاتدة والسدي وابن جريج وابن زيد واختاره ابن جرير . وقال الريبع بن أنس : هو العرش ، يعني أنه سقف لجميع المخلوقات ، وله اتجاه وهو مراد مع غيره كما قاله الجمهور .

وقوله تعالى : ﴿ وَالْبَحْرِ الْمَسْجُورِ ﴾ قال الريبع بن أنس : هو الماء الذي تحت العرش الذي ينزل الله

(١) أخرجه البخاري في تفسير القرآن (٤٨٥٤) .

(٢) أخرجه البخاري في تفسير القرآن (٤٨٥٣) ومسلم في الحج (٢٥٨) وأبو داود في السنن (١٨٨٢) وأحمد في مسنده (٢٩٠/٦) .

(٣) ذكره السيوطي في الدر المنثور (١١٨/٦) والقرطبي في تفسيره (٤٠٤/٧) .

منه المطر ، الذي تحيا به الأجساد في قبورها يوم معادها ، وقال الجمهور : هو هذا البحر ، واختلف في معنى قوله : ﴿ اَلْأَسْجُورِ ﴾ ، فقال بعضهم : المراد أنه يوقد يوم القيامة نارا كقوله : ﴿ وَإِذَا أَلْبَحَارُ سُجِّرَتْ ﴾ أي أضرمت فتصير نارا تتأجج محيطه بأهل الموقف . وقال العلاء بن بدر : إنما سمي البحر المسجور لأنه لا يشرب منه ماء ولا يسقى به زرع وكذلك البحار يوم القيامة . وقال قتادة : المسجور المملوء ، واختاره ابن جرير ووجهه بأنه ليس موقدا فهو مملؤ . وقيل : المراد به الفارغ . وقيل : المراد بالمسجور الممنوع المكفوف عن الأرض لئلا يغمرها فيغرق أهلها ، قاله ابن عباس وبه يقول السدي وغيره ، وعليه يدل الحديث الذي رواه عمر بن الخطاب عن رسول الله ﷺ قال : « ليس من ليلة إلا البحر يشرف فيها ثلاث مرات ، يستأذن الله تعالى أن ينفضح عليهم ، فيكفه الله ﷻ » (١) .

وقوله تعالى : ﴿ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ ﴾ هذا هو المقسم عليه أي لواقع بالكافرين كما قال في الآية الأخرى ﴿ مَا لَكُمْ مِنْ دَافِعٍ ﴾ أي ليس له دافع يدفعه عنهم إذا أراد الله بهم ذلك . عن جعفر بن زيد العبدي قال : خرج عمر يعس في المدينة ذات ليلة ، فمر بدار رجل من المسلمين فواقفه قائما يصلي فوقف يستمع قراءته فقرأ ﴿ وَالْقُورِ ﴾ حتى إذا بلغ ﴿ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ ﴾ ﴿ مَا لَكُمْ مِنْ دَافِعٍ ﴾ قال : قسم - ورب الكعبة - حق ، فنزل عن حماره واستند إلى حائط فمكث مليا ثم رجع إلى منزله ، فمكث شهرا يعود الناس لا يدرون ما مرضه . وقوله تعالى : ﴿ يَوْمَ تَمُورُ السَّمَاءُ مَوْرًا ﴾ قال ابن عباس وقاتدة : تتحرك تحريكا . وقال مجاهد : تدور دورا ، وقال الضحاك : استدارتها وتحركها لأمر الله وموج بعضها في بعض . وهذا اختيار ابن جرير أنه التحرك في استدارة ﴿ وَتَسِيرُ الْجِبَالُ سَيْرًا ﴾ أي تذهب فتصير هباء منبثا وتنسف نسفا ﴿ فَوَيْلٌ لِلْمُكَذِّبِينَ ﴾ أي ويل لهم ذلك اليوم من عذاب الله ونكاله بهم وعقابه لهم ﴿ الَّذِينَ هُمْ فِي حَوْضٍ يَلْعَبُونَ ﴾ أي هم في الدنيا يخوضون في الباطل ويتخذون دينهم هزوا ولعبا ﴿ يَوْمَ يُدْعَوْنَ ﴾ أي يدفعون ويساقون ﴿ إِنْ نَارِ جَهَنَّمَ دَعَا ﴾ قال مجاهد والشعبي وغيرهما : يدفعون فيها دفعا ﴿ هَٰذَا النَّارُ الَّتِي كُنْتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴾ أي تقول لهم الزبانية ذلك تقريرا وتوبيخا ﴿ أَفَسِحْرٌ هَٰذَا أَمْ أَنْتُمْ لَا تُبْصِرُونَ ﴾ ﴿ أَصْلَوْهَا ﴾ أي ادخلوها دخول من تغمره من جميع جهاته ﴿ فَاصْبِرُوا أَوْ لَا تَصْبِرُوا سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ ﴾ أي سواء صبرتم على عذابها ونكالها أم لم تصبروا لا محيد لكم عنها ولا خلاص لكم منها ﴿ إِنَّمَا تُحْزَنُونَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ أي ولا يظلم الله أحدا بل يجازي كلأ بعمله . ﴿ إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَعِيمٍ ﴾ ﴿ فَتَكْبِهِمْ يَمَّا ءَانَتْهُمْ رَبُّهُمْ وَوَقَّعَتْهُمْ رَبُّهُمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ ﴾ ﴿ كَلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا يَمَّا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ ﴿ مُتَكَبِّينَ عَلَىٰ سُرُرٍ مَّصْفُوفَةٍ وَزَوَّجْنَاهُمْ بِحُورٍ عِينٍ ﴾ .

أخبر الله تعالى عن حال السعداء فقال : ﴿ إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَعِيمٍ ﴾ وذلك بضد ما أولئك فيه من العذاب والنكال ﴿ فَتَكْبِهِمْ يَمَّا ءَانَتْهُمْ رَبُّهُمْ ﴾ أي يتفكهون بما آتاهم الله من النعيم من أصناف الملاذ من مأكّل ومشارب وملابس ومساكن ومراكب وغير ذلك ﴿ وَوَقَّعَتْهُمْ رَبُّهُمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ ﴾ ووقاهم ربهم عذاب الجحيم أي وقد نجاهم من عذاب النار ، وتلك نعمة مستقلة بذاتها على حدتها مع ما أضيف إليها من دخول الجنة التي فيها من السرور ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ، ولا خطر

على قلب بشر . وقوله تعالى : ﴿ كَلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ كقوله تعالى : ﴿ كَلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا أَتْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الْفَالِآءِ ﴾ أي هذا بذاك تفضلاً منه وإحساناً . وقوله تعالى : ﴿ مُمْكِنِينَ عَلَى سُرُرٍ مَّصْفُوفَةٍ ﴾ عن ابن عباس : السرر في الحجال ، عن الهيثم بن مالك الطائي يقول : إن رسول الله ﷺ قال : « إن الرجل ليتكئ المتكأ مقدار أربعين سنة ما يتحول عنه ولا يمله ، يأتيه ما اشتتهت نفسه ولذت عينه » ^(١) ﴿ وَرَزَقْنَاهُمْ بِحُورٍ عِينٍ ﴾ أي وجعلنا لهم قرينات صالحات وزوجات حسناً من الحور العين ، وقال مجاهد : ﴿ وَرَزَقْنَاهُمْ بِحُورٍ عِينٍ ﴾ أنكحناهم بحور عين .

﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَا أَلَتْنَاهُمْ مِنْ عَمَلِهِمْ مِنْ شَيْءٍ كُلُّ امْرِئٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ ۝ وَأَمَدَدْنَاهُمْ بِغَنَمٍ وَلَحْمٍ مِمَّا يَشْتَبُونَ ۝ يَشْرَبُونَ فِيهَا كَأْسًا لَا نَجْوَى فِيهَا وَلَا تَأْيِيدٌ ۝ وَسَطُوفٌ عَلَيْهِمْ ظِلْمَانٌ لَهُمْ كَأَنَّهُمْ لَوْلُؤُا مَكُونُونَ ۝ وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ ۝ قَالُوا إِنَّا كُنَّا قَبْلَ فِيهِ أَهْلًا مُتَقَبِّينَ ۝ فَمَنْ أَتَى اللَّهَ عَلَيْتَنَا وَوَعَدَنَا عَذَابَ السَّمُورِ ۝ إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلُ نَدْعُوهُ إِنَّهُ هُوَ الْبَرُّ الرَّحِيمُ ۝﴾ .

يخبر تعالى عن فضله وكرمه وامتنانه ولطفه بخلقه وإحسانه ، أن المؤمنين إذا اتبعتهم ذرياتهم في الإيمان يلحقهم بأبائهم في المنزلة ، وإن لم يبلغوا عملهم لتقر أعين الآباء بالأبناء عندهم في منازلهم ، فيجمع بينهم على أحسن الوجوه بأن يرفع الناقص العمل بكامل العمل ، ولا ينقص ذلك من عمله ومنزله للتساوي بينه وبين ذاك ، ولذا قال : ﴿ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَا أَلَتْنَاهُمْ مِنْ عَمَلِهِمْ مِنْ شَيْءٍ ﴾ عن ابن عباس قال : إن الله ليرفع ذرية المؤمن في درجته وإن كانوا دونه في العمل لتقر بهم عينه ، ثم قرأ ﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَا أَلَتْنَاهُمْ مِنْ عَمَلِهِمْ مِنْ شَيْءٍ ﴾ عن ابن عباس في قوله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ ﴾ قال : هم ذرية المؤمن يموتون على الإيمان ، فإن كانت منازل آبائهم أرفع من منازلهم ألحقوا بأبائهم ، ولم ينقصوا من أعمالهم التي عملوها شيئاً . وعن ابن عباس ، أظنه عن النبي ﷺ قال : « إذا دخل الرجل الجنة سأل عن أبويه وزوجته وولده ، فيقال : إنهم لم يبلغوا درجتك ، فيقول : يارب قد عملت لي ولهم ، فيؤمر بالحاقهم به وقرأ ابن عباس ﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ بِإِيمَانٍ ﴾ ^(٢) الآية .

عن علي قال : سألت خديجة النبي ﷺ عن ولدتين ماتتا لها في الجاهلية ، فقال رسول الله ﷺ : « هما في النار » فلما رأى الكراهية في وجهها قال : « لو رأيت مكانهما لأبغضتهما » قالت : يا رسول الله فولدي منك ؟ قال : « في الجنة » قال : ثم قال رسول الله ﷺ : « إن المؤمنين وأولادهم في الجنة ، وإن المشركين وأولادهم في النار » ثم قرأ رسول الله ﷺ : ﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ بِإِيمَانٍ ﴾ ^(٣) الآية ، هذا فضله تعالى على الأبناء ببركة عمل الآباء ، وأما فضله على الآباء ببركة دعاء الأبناء فعن أبي هريرة ؓ قال : قال رسول الله ﷺ : « إن الله ليرفع الدرجة للعبد الصالح في الجنة فيقول : يا رب أنى لي هذه ؟ فيقول : باستغفار ولدك لك » ^(٤) . وعن أبي هريرة عن رسول الله ﷺ : « إذا مات ابن آدم

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٧٥/٣) بنحوه والسيوطي في الدر المنثور (٢٢٢/٤) بلفظه .

(٢) أخرجه الطبراني في الصغير (٢٢٩/١) والهيتمي في مجمع الزوائد (١١٤/٧) .

(٣) رواه ابن أبي عاصم في السنة (١٢٣/١) والهيتمي في مجمع الزوائد (٢١٧/٧) .

(٤) أخرجه أحمد في مسنده (٥٠٩/٢) والهيتمي في مجمع الزوائد (٢١٠/١٠) .

انقطع عمله إلا من ثلاث : صدقة جارية ، أو علم ينتفع به ، أو ولد صالح يدعو له ^(١) .

وقوله تعالى : ﴿ كُلُّ امْرِئٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ ﴾ لما أخبر عن مقام الفضل وهورفع درجة الذرية إلى منزلة الآباء من غير عمل يقتضي ذلك ، أخبر عن مقام العدل وهو أنه لا يؤاخذ أحدًا بذنب أحد ، فقال تعالى : ﴿ كُلُّ امْرِئٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ ﴾ أي مرتبه بعمله لا يحمل عليه ذنب غيره من الناس ، سواء كان أبًا أو ابنًا وقوله ﴿ وَامْدَدْنَاهُمْ بِفِكَهٍ وَلَحْمٍ مِّنَ الشَّجَرِ ﴾ أي وألحقناهم بفواكه ولحوم من أنواع شتى مما يستطاب ويشتهى . وقوله ﴿ يَنْزِعُونَ فِيهَا كَأْسًا ﴾ أي يتعاطون فيها كأسًا أي من الخمر ، قاله الضحاك ﴿ لَا لَعْنُ فِيهَا وَلَا تَأْيِيْدٌ ﴾ أي لا يتكلمون فيها بكلام لاغ أي هذيان ولا لثم أي فحش كما يتكلم به الشربة من أهل الدنيا ، قال ابن عباس : اللغو الباطل والتأثيم الكذب ، وقال مجاهد : لا يستبون ولا يؤثمون . وقال قتادة : كان ذلك في الدنيا مع الشيطان فزله الله خمر الآخرة عن قاذورات خمر الدنيا وأذاها ، كما تقدم ، نفى عنها صداع الرأس ، ووجع البطن ، وإزالة العقل بالكلية ، وأخبر أنها لا تحملهم على الكلام السيئ الفارغ عن الفائدة المتضمن هذيانًا وفحشًا ، وأخبر بحسن منظرها وطيب طعمها ومخيرها . وقوله تعالى : ﴿ وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ زُمُرًا لَهُمْ كَأَنَّهُمْ لَوُؤْلُؤُ مَكْنُونٌ ﴾ إخبار عن خدمهم وحشمهم في الجنة ، كأنهم اللؤلؤ الرطب المكنون في حشمتهم وبهائهم ونظافتهم وحسن ملايسهم . وقوله تعالى : ﴿ وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ ﴾ أي أقبلوا يتحادثون ويتساءلون عن أعمالهم وأحوالهم في الدنيا ، وهذا كما يتحدث أهل الشراب على شرايبهم إذا أخذ فيهم الشراب بما كان من أمرهم ﴿ قَالُوا إِنَّا كُنَّا قَبْلَ فِي أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ ﴾ أي كنا في الدار الدنيا ونحن بين أهلنا خائفين من ربنا مشفقين من عذابه وعقابه ﴿ فَمَرَعَ اللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقْنَا عَذَابَ السَّعِيرِ ﴾ أي فتصدق علينا وأجارنا مما نخاف ﴿ إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلُ نَدْعُوهُ ﴾ أي نتضرع إليه فاستجاب لنا وأعطانا سؤلنا ﴿ إِنَّهُ هُوَ الْبَرُّ الرَّحِيمُ ﴾ .

عن أنس قال : قال رسول الله ﷺ : « إذا دخل أهل الجنة الجنة ، اشتاقوا إلى الإخوان ، فيجيء سرير هذا حتى يحاذي سرير هذا فيتحدثان ، فيتكى هذا ويتكى هذا ، فيتحدثان بما كان في الدنيا ، فيقول أحدهما لصاحبه : يا فلان تدري أي يوم غفر الله لنا يوم كنا في موضع كذا وكذا ، فدعونا الله ﷻ فغفر لنا » ^(٢) وعن عائشة أنها قرأت هذه الآية ﴿ فَمَرَعَ اللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقْنَا عَذَابَ السَّعِيرِ ﴾ ﴿ إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلُ نَدْعُوهُ ﴾ ﴿ إِنَّهُ هُوَ الْبَرُّ الرَّحِيمُ ﴾ فقالت : اللهم من علينا وقنا عذاب السموم إنك أنت البر الرحيم . قيل للأعمش : في الصلاة ؟ قال : نعم .

﴿ فَذَكِّرْ فَمَا أَنْتَ بِنِعْمَتِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ ﴾ ﴿ أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَّبَرَّسَ بِهِ رَبَّنَا السُّنُونَ ﴾ ﴿ قُلْ تَرَىٰ صُورًا فَإِنِّي مَعَكُمْ مِّنَ الْمُرْسَلِينَ ﴾ ﴿ أَمْ تَأْمُرُهُمْ أَعْلَانُهُمْ بِهِذَا أَمْ هُمْ قَوْمٌ طَاعُونَ ﴾ ﴿ أَمْ يَقُولُونَ نَقُولُ بَلْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ ﴿ فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِ إِنْ كَانُوا صَادِقِينَ ﴾ .

يقول تعالى آمرا رسوله ﷺ بأن يبلغ رسالته إلى عباده ، وأن يذكرهم بما أنزل الله عليه ، ثم نفى عنه ما يرميه به أهل البهتان والفجور فقال : ﴿ فَذَكِّرْ فَمَا أَنْتَ بِنِعْمَتِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ ﴾ أي لست

(١) أخرجه الترمذي في السنن (١٣٧٦) والمذري في الترميز والترهيب (٩٩/١) .

(٢) ذكره الهيثمي في مجمع الزوائد (٤٢١/١٠) والبيهقي في مسنده (٣٥٥٣) .

بحمد الله بكاهن كما تقوله الجهلة من كفار قريش ، والكاهن الذي يأتيه الرئي من الجان بالكلمة يتلقاها من خبر السماء ﴿ وَلَا تَجْنُونَ ﴾ وهو الذي يتخطبه الشيطان من المس . ثم قال تعالى منكرا عليهم في قولهم في الرسول ﷺ ﴿ أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَّتَرَبَّصُ بِهِ رَبِّبَ الْمُتُونِ ﴾ أي قوارع الدهر ، والمنون الموت ، يقولون : ننتظره ونصبر عليه حتى يأتيه الموت فنستريح منه ومن شأنه ، قال الله تعالى : ﴿ قُلْ تَرَبَّصُوا فَإِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُتَرَبِّصِينَ ﴾ أي انتظروا فاني متظر معكم ، وستعلمون لمن تكون العقابة والنصرة في الدنيا والآخرة . عن ابن عباس ؓ : إن قريشا لما اجتمعوا في دار الندوة في أمر النبي ﷺ قال قائل منهم : احتبسوه في وثاق وتربصوا به ريب المنون حتى يهلك كما هلك من كان قبله من الشعراء : زهير والنابعة ، إنما هو كأحدهم ، فأنزل الله تعالى ذلك من قولهم ﴿ أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَّتَرَبَّصُ بِهِ رَبِّبَ الْمُتُونِ ﴾ ثم قال تعالى : ﴿ أَمْ تَأْمُرُهُمْ أَخْلَقُوا بِدًّا ﴾ أي عقولهم تأمرهم بهذا الذي يقولونه فيك من الأقاويل الباطلة التي يعلمون في أنفسهم أنها كذب وزور ﴿ أَمْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ ﴾ أي ولكن هم قوم طاغون ضلال معاندون ، فهذا هو الذي يحملهم على ما قالوه فيك . وقوله تعالى : ﴿ أَمْ يَقُولُونَ نَقُولُ مَا لَا يُغْنِي عَنْهُمْ كَيْدُهُمْ وَلَئِنِ بَدَّلْنَاهُمْ بِآيَاتِنَا آخَرِينَ ﴾ أي إن كانوا صادقين في قولهم : تقوله وافتراه ، فليأتوا بمثل ما جاء به محمد ﷺ من هذا القرآن ، فإنهم لو اجتمعوا هم وجميع أهل الأرض من الجن والإنس ماجاءوا بمثله ، ولا بعشر سور من مثله ، ولا بسورة من مثله .

﴿ أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ ﴾ ١٥ ﴿ أَمْ خَلَقُوا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بَلْ لَا يُؤْفِقُونَ ﴾ ١٦ ﴿ أَمْ عِنْدَهُمْ خَزَائِنُ رَيْكِ أَمْ هُمُ الْمُصْطَفُونَ ﴾ ١٧ ﴿ أَمْ لَهُمْ سُلُوكٌ يَسْمَعُونَ فِيهِ فَلَيَاتِ مُسْتَعْمِلٌ يَشْأَلُنِي يُبَيِّنُ ١٨ ﴿ أَمْ لَهُ الْبَنَاتُ وَلَكُمْ الْبُتُونَ ﴾ ١٩ ﴿ أَمْ نَسْتُلْهُمْ آتِزًا فَهُمْ يَنْفَرُونَ مَثَلُونَ ﴾ ٢٠ ﴿ أَمْ عِنْدَهُمُ الْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ ﴾ ٢١ ﴿ أَمْ يُرِيدُونَ كَيْدًا فَالَّذِينَ كَفَرُوا هُمُ الْمَكِيدُونَ ﴾ ٢٢ ﴿ أَمْ لَهُمْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ سُبْحَنَ اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ .

هذا المقام في إثبات الربوبية وتوحيد الألوهية فقال تعالى : ﴿ أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ ﴾ أي أوجدوا من غيره موجد ، أم هم أوجدوا أنفسهم ، أي لا هذا ولا هذا ، بل الله هو الذي حفيهم وأنشأهم بعد أن لم يكونوا شيئا مذكورا . عن جبير بن مطعم قال : سمعت النبي ﷺ يقرأ في المغرب بالطور فلما بلغ هذه الآية ﴿ أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ ﴾ ١٥ ﴿ أَمْ خَلَقُوا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بَلْ لَا يُؤْفِقُونَ ﴾ ١٦ ﴿ أَمْ عِنْدَهُمْ خَزَائِنُ رَيْكِ أَمْ هُمُ الْمُصْطَفُونَ ﴾ ١٧ ﴿ أَمْ لَهُ سُلُوكٌ يَسْمَعُونَ فِيهِ فَلَيَاتِ مُسْتَعْمِلٌ يَشْأَلُنِي يُبَيِّنُ ١٨ ﴿ أَمْ لَهُ الْبَنَاتُ وَلَكُمْ الْبُتُونَ ﴾ ١٩ . وجبير بن مطعم كان قد قدم على النبي ﷺ بعد وقعة بدر في فداء الأسارى ، وكان إذ ذاك مشركا ، فكان سماعه هذه الآية من هذه السورة من جملة ما حملة على الدخول في الإسلام بعد ذلك . ثم قال تعالى : ﴿ أَمْ خَلَقُوا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بَلْ لَا يُؤْفِقُونَ ﴾ أي أهم خلقوا السموات والأرض ، وهذا إنكار عليهم في شركهم بالله ، وهم يعلمون أنه الخالق وحده لا شريك له ، ولكن عدم إيقانهم هو الذي يحملهم على ذلك ﴿ أَمْ عِنْدَهُمْ خَزَائِنُ رَيْكِ أَمْ هُمُ الْمُصْطَفُونَ ﴾ أي هم يتصرفون في الملك ويدهم مفاتيح الخزائن ﴿ أَمْ هُمُ الْمُصْطَفُونَ ﴾ أي المحاسبون للخلائق ، ليس الأمر كذلك بل الله ﷻ هو المالك المتصرف الفعال لما يريد .

وقوله تعالى : ﴿ أَمْ لَمْ سَأَلْهُمْ سَاعَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴾ أي مرقاة إلى الملاء الأعلى ﴿ فَلَيَأْتِيَنَّهُمْ سَاعَتُهُمْ ﴾ أي فليأت الذي يستمع لهم بحجة ظاهرة على صحة ما هم فيه من الفعال والمقال ، أي وليس لهم سبيل إلى ذلك فليسوا على شيء ولا لهم دليل ، ثم قال منكراً عليهم فيما نسبوه إليه من البنات وجعلهم الملائكة إناثاً ، واختيارهم لأنفسهم الذكور على الإناث ، بحيث إذا بشر أحدهم بالأنثى ظل وجهه مسوداً وهو كظيم ، هذا وقد جعلوا الملائكة بنات الله وعبدوهم مع الله فقال : ﴿ أَمْ لَمْ يَأْتِ الْبَنَاتُ وَلَكُمُ الْبَنُونَ ﴾ وهذا تهديد شديد ووعد أكيد ﴿ أَمْ تَنْتَهُنَّ أَنْتُمْ ﴾ أي أجرة على إبلاغك إياهم رسالة الله ، أي لست تسألهم على ذلك شيئاً ﴿ فَمَنْ يَنْفَرْ يَنْفَرُوا ﴾ أي فهم من أدنى شيء يتبرمون منه ويثقلهم ويشق عليهم ﴿ أَمْ عِنْدَهُ الْفِتْيَةُ فَهُمْ يَكْتُمُونَ ﴾ أي ليس الأمر كذلك ، فإنه لا يعلم أحد من أهل السموات والأرض الغيب إلا الله ﴿ أَمْ يُرِيدُونَ كَيْدًا فَالَّذِينَ كَفَرُوا هُمُ الْمَكِيدُونَ ﴾ يقول تعالى : أم يريد هؤلاء بقولهم هذا في الرسول وفي الدين غرور الناس وكيد الرسول وأصحابه ، فكيدهم إنما يرجع وباله على أنفسهم ﴿ فَالَّذِينَ كَفَرُوا هُمُ الْمَكِيدُونَ ﴾ أم لم يأتهم غير الله سبحانه الله عما يشركون ﴿ وهذا إنكار شديد على المشركين في عبادتهم الأصنام والأنداد مع الله ، ثم نزه نفسه الكريمة عما يقولون ويفترون ويشركون فقال : ﴿ سُبْحَنَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ .

﴿ وَإِنْ يَرَوْا كِسْفًا مِنَ السَّمَاءِ سَاقِطًا يَقُولُوا سَحَابٌ مَرْكُومٌ ﴾ فذَرَهُمْ حَتَّى يَلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي فِيهِ يُصْعَقُونَ ﴿ يَوْمَ لَا يُغْنِي عَنْهُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴾ وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا عَذَابًا دُونَ ذَلِكَ وَلَكِنْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿ وَأَصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ ﴿ وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَإِدْبَارَ النُّجُومِ ﴾ .

يقول تعالى مخبراً عن المشركين بالعناد والمكابرة للمحسوس ﴿ وَإِنْ يَرَوْا كِسْفًا مِنَ السَّمَاءِ سَاقِطًا ﴾ ، أي عليهم يعذبون به لما صدقوا ، ولما أيقنوا بل يقولون : هذا سحب مرموم ، أي متراكم وقال الله تعالى ﴿ فذَرَهُمْ ﴾ أي دعهم يا محمد ﴿ حَتَّى يَلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي فِيهِ يُصْعَقُونَ ﴾ وذلك يوم القيامة ﴿ يَوْمَ لَا يُغْنِي عَنْهُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا ﴾ أي لا ينفعهم كيدهم ولا مكرهم الذي استعملوه في الدنيا ، لا يجزي عنهم يوم القيامة شيئاً ﴿ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴾ . ثم قال تعالى : ﴿ وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا عَذَابًا دُونَ ذَلِكَ ﴾ أي قبل ذلك في الدار الدنيا ولهذا قال تعالى : ﴿ وَلَكِنْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ أي نعذبهم في الدنيا ونبليهم فيها بالمصائب لعلمهم يرجعون وينبيون فلا يفهمون ما يراد بهم ، بل إذا جلي عنهم مما كانوا فيه ، عادوا إلى أسوأ ما كانوا عليه كما جاء في بعض الأحاديث : « إن المنافق إذا مرض وعوفي مثله في ذلك كمثل البعير ، لا يدري فيما عقلوه ولا فيما أرسلوه » ^(١) وفي الأثر الإلهي : كم أعصيك ولا تعاقبني ؟ قال الله تعالى : يا عبدي كم أعافيك وأنت لا تدري ، وقوله تعالى : ﴿ وَأَصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا ﴾ أي اصبر على أذاهم ولا تباليهم فإنك بمراى منا وتحت كلاءتنا والله يعصمك من الناس . وقوله تعالى : ﴿ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ ﴾ قال الضحاك : أي إلى الصلاة . سبحانك اللهم وبحمدك وتبارك اسمك ، وتعالى جدك ، ولا إله غيرك . وعن أبي سعيد وغيره ، عن النبي ﷺ أنه كان يقول ذلك ^(٢) . وقال أبو الجوزاء

(١) أخرجه أبو داود في السنن (٣٠٨٩) والمذني في الترغيب والترهيب (٢٩٤/٤) .

(٢) أخرجه أحمد في مسنده (٥٠/٣) والنسائي في السنن (١٣٢/٢) .

﴿ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بَيْنَ الْغُفُورِ ﴾ أي من نومك من فراشك ، واختاره ابن جرير ويتأيد هذا القول بما روي عن عبادة بن الصامت عن رسول الله ﷺ قال : « من تعار من الليل فقال : لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، له الملك وله الحمد ، وهو على كل شيء قدير ، سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر ولا حول ولا قوة إلا بالله . ثم قال : رب اغفر لي - أو قال ثم دعا - استجيب له فإن عزم ، فتوضاً ثم صلى قبلت صلاته » ^(١) .

وقد وردت أحاديث مسندة من طرق يقوي بعضها بعضاً بذلك ، فمن ذلك حديث أبي هريرة ، عن النبي ﷺ أنه قال : « من جلس في مجلس فكثر فيه لغطه ، فقال قبل أن يقوم من مجلسه : سبحانك اللهم وبحمدك ، أشهد أن لا إله إلا أنت ، أستغفرك وأتوب إليك ، إلا غفر الله له ما كان في مجلسه ذلك » ^(٢) .

وقوله تعالى : ﴿ وَبَيْنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ ﴾ أي اذكره واعبد به بالتلاوة والصلاة في الليل ، وقوله تعالى : ﴿ وَإِذْ بَرَ الْفُجُورِ ﴾ قد تقدم في حديث ابن عباس ، أنهما الركعتان اللتان قبل صلاة الفجر ؛ فإنهما مشروعتان عند إدبار النجوم أي عند جنوحها للغيوبة . وقد روي عن أبي هريرة مرفوعاً : « لا تدعوها وإن طردتكم الخيل » يعني ركعتي الفجر ^(٣) . ومن هذا الحديث حكى عن بعض أصحاب أحمد القول بوجوبهما ، وهو ضعيف لحديث « خمس صلوات في اليوم والليلة » قال : هل علي غيرها ؟ قال : « لا إلا أن تطوع » ^(٤) . وقد ثبت عن عائشة رضي الله عنها قالت : « لم يكن رسول الله ﷺ على شيء من النوافل أشد تعاهداً منه على ركعتي الفجر » ^(٥) .

(١) أخرجه البخاري في التهجد (١١٥٤) وأحمد في مسنده (٣١٣/٥) والترمذي في السنن (٣٤١٤) وابن ماجه في السنن (٣٨٧٨) .
 (٢) أخرجه الترمذي في السنن (٣٤٣٣) وأحمد في مسنده (٤٩٤/٢) .
 (٣) أخرجه أبو داود في السنن (١٢٥٨) والبيهقي في السنن (٤٧١/٢) .
 (٤) أخرجه البخاري في الشهادات (٢٦٧٨) ومسلم في الإيمان (٨) وأبو داود في السنن (٣٩١) والنسائي في السنن (١١٨/٨) .
 (٥) أخرجه البخاري في التهجد (١١٦٩) .

سورة النجم

عن عبد الله قال : أول سورة أنزلت فيها سجدة « والنجم » قال : فسجد النبي ﷺ وسجد من خلفه ، إلا رجلاً رأيته أخذ كفاً من تراب فسجد عليه ، فرأيته بعد ذلك قتل كافراً وهو أمية بن خلف (١) .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ ۝ مَا مَثَلُ صَاحِبِكُمْ وَمَا عَوَىٰ ۝ وَمَا يُبْدِي عَنِ الْفَوَىٰ ۝ إِنَّ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ۝ ﴾ .

قال الشعبي وغيره : الخالق يقسم بما شاء من خلقه ، والمخلوق لا ينبغي له أن يقسم إلا بالخالق واختلف المفسرون في معنى قوله ﴿ وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ ﴾ فقال مجاهد : يعني بالنجم الثريا إذا سقطت مع الفجر ، وكذا روي عن ابن عباس وسفيان الثوري واختاره ابن جرير ، وزعم السدي أنها الزهرة وعن مجاهد في قوله تعالى : ﴿ وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ ﴾ يعني القرآن إذا نزل ، وقوله تعالى : ﴿ مَا مَثَلُ صَاحِبِكُمْ وَمَا عَوَىٰ ﴾ هذا هو المقسم عليه ، وهو الشهادة للرسول ﷺ بأنه راشد تابع للحق ليس بضال ، وهو الجاهل الذي يسلك على غير طريق بغير علم ، والغاوي هو العالم بالحق ، العادل عنه قصداً إلى غيره ، فتره الله رسوله ﷺ عن مشابهة أهل الضلال كالنصارى وطرائق اليهود . وهي علم الشيء وكمثانه ، والعمل بخلافه ، بل هو صلاة الله وسلامه عليه وما بعثه الله به من الشرع العظيم في غاية الاستقامة والاعتدال والسداد ، ولهذا قال تعالى : ﴿ وَمَا يُبْدِي عَنِ الْفَوَىٰ ﴾ أي ما يقول قولاً عن هوى وغرض ﴿ إِنَّ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ﴾ أي إنما يقول ما أمر به يبلغه إلى الناس كاملاً موفوراً من غير زيادة ولا نقصان . عن أبي أمامة أنه سمع رسول الله ﷺ يقول : « ليدخل الجنة بشفاعة رجل ليس بنبي مثل الحيين - أو مثل أحد الحيين - ربيعة ومضر » فقال رجل : يا رسول الله أو ما ربيعة من مضر ؟ قال : « إنما أقول ما أقول » (٢) .

وعن عبد الله بن عمرو قال : كنت أكتب كل شيء أسمعه من رسول الله ﷺ أريد حفظه ، فنهتني قريش فقالوا : إنك تكتب كل شيء تسمعه من رسول الله ﷺ ، ورسول الله ﷺ بشر يتكلم في الغضب ، فأمسكت عن الكتاب ، فذكرت ذلك لرسول الله ﷺ فقال : « اكتب فوالذي نفسي بيده ما خرج مني إلا الحق » (٣) وعن أبي هريرة عن رسول الله ﷺ أنه قال : « لا أقول إلا حقاً » قال بعض أصحابه : فإنك تداعبنا يا رسول الله ، قال : « إني لا أقول إلا حقاً » (٤) .

﴿ عَلَّمَ شَدِيدُ الْقُوَىٰ ۝ ذُو مِرَّةٍ فَاسْتَوَىٰ ۝ وَهُوَ بِالْأُفُقِ الْأَعْلَىٰ ۝ ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ ۝ فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ ۝ فَأَوْحَىٰ إِلَىٰ عَبْدِهِ مَا أَوْحَىٰ ۝ مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَىٰ ۝ أَفَتَحْسَبُونَهُ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ ۝ وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ۝ عِنْدَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهَىٰ ۝ عِنْدَ جَنَّاتٍ الْمَأْوَىٰ ۝ إِذْ يَبْعَثُ السِّدْرَةَ مَا يَشْهَىٰ ۝ مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ ۝ لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَىٰ ۝ ﴾ .

(٢) أخرجه البخاري في تفسير القرآن (٤٨٦٣) .

(١) أخرجه البخاري في تفسير القرآن (٤٨٦٣) .

(٣) أخرجه أحمد في مسنده (١٦٢/٢) .

(٤) أخرجه أحمد في مسنده (٣٤٠/٢) والترمذي في السنن (١٩٩٠) والبيهقي في السنن (٢٤٨/١٠) .

يقول تعالى مخبراً عن عبده ورسوله محمد ﷺ أنه علمه الذي جاء به إلى الناس ﴿ شَدِيدُ الْقُوَى ﴾ وهو جبريل عليه الصلاة والسلام ، ﴿ ذُو مِرَّةٍ ﴾ أي ذو قوة ، قاله مجاهد والحسن وابن زيد . وقال ابن عباس : ذو منظر حسن وقال قتادة : ذو خلق قوي حسن ولا منافاة بين القولين فإنه ﷺ ذو منظر حسن وقوة شديدة . وقوله تعالى : ﴿ فَاسْتَوَى ﴾ يعني جبريل ﷺ ، ﴿ وَهُوَ بِالْأُفُقِ الْأَعْلَى ﴾ يعني جبريل استوى في الأفق الأعلى ، قال عكرمة : والأفق الأعلى الذي يأتي منه الصبح . وقال مجاهد : هو مطلع الشمس . وقال قتادة : هو الذي يأتي منه النهار ، وكذا قال ابن زيد وغيرهم .

وعن عبد الله بن مسعود ، أن رسول الله ﷺ لم ير جبريل في صورته إلا مرتين : أما واحدة فإنه سأله أن يراه في صورته ففسد الأفق . وأما الثانية فإنه كان معه حيث صعد ، فذلك قوله : ﴿ وَهُوَ بِالْأُفُقِ الْأَعْلَى ﴾ وقد قال ابن جرير ههنا قولاً لم أره لغيره ، ولا حكاة هو عن أحد ؛ وحاصله أنه ذهب إلى أن المعنى فاستوى أي هذا الشديد القوي ذو المرة هو ومحمد ﷺ بالأفق الأعلى ، أي استويا جميعاً بالأفق الأعلى وذلك ليلة الإسراء ، كذا قال ، ولم يوافق أحد على ذلك ، ثم شرع يوجه ما قاله من حيث العربية فقال وهو كقوله ﴿ إِذَا كُنَّا تَرْتِلاً وَكَبَّارَةً ﴾ فعطف بالآباء على المكنى في ﴿ كُنَّا ﴾ من غير إظهار نحن فكذلك قوله : ﴿ فَاسْتَوَى ﴾ وهو ، قال : وذكر الفراء عن بعض العرب أنه أنشده :

ألم تر أن النبع يصلب عوده
ولا يستوي والخروج المتقصف

وهذا الذي قاله من جهة العربية متجه ، ولكن لا يساعده المعنى على ذلك ، فإن هذه الرؤية لجبريل لم تكن ليلة الإسراء بل قبلها ، ورسول الله ﷺ في الأرض ، فهبط عليه جبريل ﷺ وتدلى إليه فاقرب منه وهو على الصورة التي خلقه الله عليها ، له ستمائة جناح ، ثم رآه بعد ذلك نزلة أخرى عند سدره المنتهى يعني ليلة الإسراء ، وكانت هذه الرؤية الأولى في أوائل البعثة بعدما جاءه جبريل ﷺ أول مرة ، فأوحى الله إليه صدر سورة اقرأ ، ثم فتر الوحي فترة ذهب النبي ﷺ فيها مراراً ليرتد من رؤوس الجبال ، فكلما همَّ بذلك ناداه جبريل من الهواء ، يا محمد أنت رسول الله حقاً وأنا جبريل ، فيسكن لذلك جأشه وتقر عينه ، وكلما طال عليه الأمر عاد لمثلها حتى تبدى له جبريل ورسول الله ﷺ بالأبطح في صورته التي خلقه الله عليها ، له ستمائة جناح قد سد عظم خلقه الأفق ، فاقرب منه وأوحى إليه عن الله ﷻ ما أمره به ، فعرف عند ذلك عظمة الملك الذي جاءه بالرسالة وجلالة قدره وعلو مكانته عند خالقه الذي بعثه إليه .

عن عبد الله أنه قال : « رأى رسول الله ﷺ : جبريل في صورته وله ستمائة جناح ، كل جناح منها قد سد الأفق ، يسقط من جناحه من التهاويل والدر والياقوت ما الله به عليم » ^(١) . وعن ابن عباس قال : سأل النبي ﷺ جبريل أن يراه في صورته فقال : ادع ربك ، فدعا الله ﷻ فطلع عليه سواد من قبل المشرق فجعل يرتفع وينتشر ، فلما رآه النبي ﷺ صبق فأتاه فنعشه ومسح البزاق عن شدة ^(٢) .

وعن هناد بن الأسود قال : كان أبو لهب وابنه عتبة قد تجهزا إلى الشام فتجهزت معهما ، فقال ابنه عتبة : والله لأنطلقن إلى محمد ولأذنيه في ربه ﷻ ، فانطلق حتى أتى النبي ﷺ فقال :

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٣٩٥/١) .

(٢) أخرجه أحمد في مسنده (٣٢٢/١) .

يا محمد هو يكفر بالذي دنا فتدلى فكان قاب قوسين أو أدنى ، فقال النبي ﷺ : « اللهم سلط عليه كلبا من كلابك » ثم انصرف عنه فرجع الى أبيه فقال : يا بني ما قلت له ، فذكر له ما قاله ، فقال : فما قال لك ، قال : قال : « اللهم سلط عليه كلبا من كلابك » قال : يا بني والله ما آمن عليك دعاءه ، فسرنا حتى نزلنا أبواء وهي في سدة ، ونزلنا إلى صومعة راهب فقال الراهب : يامعشر العرب ، ما أنزلكم هذه البلاد فإنها يسرح الأسد فيها كما تسرح الغنم . فقال لنا أبو لهب : إنكم قد عرفتم كبر سني وحقي ، وإن هذا الرجل قد دعا على ابني دعوة ، والله ما آمنها عليه ، فاجمعوا متاعكم إلى هذه الصومعة وافرشوا لابني عليها ثم افرشوا حولها ، ففعلنا فجاء الأسد فشم وجوهنا فلما لم يجد ما يريد تقبض فوثب وثبة فإذا هو فوق المتاع ، فشم وجهه ثم هزمه ، ففسخ رأسه ، فقال أبو لهب : قد عرفت أنه لا يتفلس عن دعوة محمد ^(١) .

وقوله تعالى : ﴿ كَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى ﴾ أي فاقترب جبريل إلى محمد لما هبط عليه إلى الأرض حتى كان بينه وبين محمد ﷺ قاب قوسين ، أي بقدرهما إذا مدا ، قاله مجاهد وقتادة ، وقد قيل إن المراد بذلك بُعد ما بين وتر القوس إلى كبدها . وقوله تعالى : ﴿ أَوْ أَدْنَى ﴾ : قال عبد الله بن مسعود في هذه الآية ﴿ كَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى ﴾ قال : قال رسول الله ﷺ : « رأيت جبريل له ستمائة جناح » ^(٢) .

وعن عائشة رضي الله عنها قالت : كان أول شأن رسول الله ﷺ أنه رأى في منامه جبريل بأجساد ، ثم إنه خرج ليقضي حاجته فصرخ به جبريل : يا محمد يا محمد ، فنظر رسول الله ﷺ يميناً وشمالاً فلم ير أحداً ثلاثاً ، ثم رفع بصره فإذا هو ثاني إحدى رجله مع الأخرى على أفق السماء ، فقال : يا محمد جبريل جبريل يسكنه . فهرب النبي ﷺ حتى دخل في الناس ، فنظر فلم ير شيئاً ، ثم خرج من الناس ثم نظر فراه فدخل في الناس فلم ير شيئاً ، ثم خرج فنظر فراه ، فذلك قول الله ﷻ : ﴿ وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ - إِلَى قَوْلِهِ - ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّى ﴾ ^(٣) يعني جبريل إلى محمد عليهما الصلاة والسلام ﴿ كَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى ﴾ ويقولون : القاب نصف إصبع ، وقال بعضهم : ذراعين كان بينهما .

وقوله تعالى : ﴿ مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَى ﴾ ^(٤) أفتضرون على ما يرى عن ابن عباس قال : رآه بفؤاده مرتين ، وقد خالفه ابن مسعود وغيره ، وفي رواية عنه : أنه أطلق الرؤية وهي محمولة على المقيدة بالفؤاد ، ومن روى عنه بالبصر فقد أغرب فإنه لا يصح في ذلك شيء عن الصحابة رضي الله عنهم .

عن أبي ذر قال : سألت رسول الله ﷺ : هل رأيت ربك ؟ فقال : « نور أنى أراه » وفي رواية « رأيت نورا » ^(٥) وعن ابن عباس أن رسول الله ﷺ قال : « أتاني ربي الليلة في أحسن صورة - أحسبه يعني في النوم - فقال : يا محمد أتدري فيم يختصم الملائكة الأعلى ؟ قال : قلت لا ، فوضع يده على كتفي حتى وجدت بردها بين ثديي - أو قال : نحري - فعلمت ما في السموات وما في الأرض . ثم قال : يا محمد ، هل تدري فيم يختصم الملائكة الأعلى ؟ قال : قلت : نعم ، يختصمون

(١) أخرجه أبو نعيم في دلائل النبوة (١٦٣) وابن حجر في فتح الباري (٣٩/٤) .

(٢) أخرجه أحمد في مسنده (٤٦٠/١) والطبراني في الكبير (٢٣٤/١٠) .

(٣) أورده السيوطي في الدر المنثور (١٢٣/٦) والطبري في تفسيره (٦١/٢٦) .

(٤) أخرجه مسلم في الإيمان (٢٩١) والترمذي في السنن (٣٢٨٣) وأحمد في مسنده (١٧٥/٥) .

في الكفارات والدرجات ، قال : وما الكفارات ؟ قال : قلت : المكث في المساجد بعد الصلوات ، والمشي على الأقدام إلى الجماعات ، وإبلاغ الضوء في المكاره ، من فعل ذلك عاش بخير ومات بخير ، وكان من خطيئته كيوم ولدته أمه . وقال : قل يا محمد إذا صليت : اللهم إني أسألك فعل الخيرات ، وترك المنكرات ، وحب المساكين ، وإذا أردت بعبادك فتنة أن تقبضني إليك غير مفتون ، وقال : والدرجات : بذل الطعام ، وإفشاء السلام ، والصلاة بالليل والناس نيام » (١) .

وقوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَى ۖ عِنْدَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهَى ۚ عِنْدَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَى ۖ هَذِهِ الْمَرَّةَ الثَّانِيَةَ ۚ الَّتِي رَأَى رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فِيهَا جِبْرِيلَ عَلَى صُورَتِهِ الَّتِي خَلَقَهُ اللَّهُ عَلَيْهَا وَكَانَتْ لَيْلَةَ الْإِسْرَاءِ . وَعَنْ ابْنِ مَسْعُودٍ فِي هَذِهِ الْآيَةِ ﴿ وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَى ۖ عِنْدَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهَى ۚ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : رَأَيْتَ جِبْرِيلَ وَلَهُ سِتْمَاءٌ جَنَاحٌ يَنْشُرُ مِنْ رِيشِهِ التَّهَاقُوتَ مِنَ الدَّرِّ وَالْيَاقُوتَ ۖ ﴾ (٢) .

وعن ابن مسعود قال : قال رسول الله ﷺ : « رأيت جبريل على سدة المنتهى وله ستمائة جناح » (٣) سألت عاصما عن الأجنحة فأبى أن يخبرني ، قال : فأخبرني بعض أصحابه أن الجناح ما بين المشرق والمغرب ، وعن ابن مسعود قال : قال رسول الله ﷺ : « أتاني جبريل ﷺ في حصر معلق به الدر » (٤) .

وعن مسروق قال : كنت عند عائشة فقلت : أليس الله يقول ﴿ وَلَقَدْ رَآهُ بِالْأُتَى الْيَمِينِ ۖ ﴾ ﴿ وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَى ۖ ﴾ ، فقالت : أنا أول هذه الأمة سألت رسول الله ﷺ عنها فقال : « إنما ذاك جبريل » لم يره في صورته التي خلق عليها إلا مرتين ، رآه منهبطاً من السماء إلى الأرض ساداً عظم خلقه ما بين السماء والأرض (٥) .

وقوله تعالى : ﴿ إِذْ يَفْتَنَى الْيَدْرَةَ مَا يَفْتَنَى ۖ ﴾ قد تقدم في أحاديث الإسراء أنه غشيتها الملائكة مثل الغربان ، وغشيتها نور الرب ، وغشيتها ألوان ما أدري ما هي . عن عبد الله هو ابن مسعود قال : لما أسري برسول الله ﷺ انتهى به إلى سدة المنتهى وهي في السماء السابعة إليها ينتهي ما يعرج به من الأرض ، فيقبض منها وإليها ينتهي ما يهبط به من فوقها فيقبض منها ﴿ إِذْ يَفْتَنَى الْيَدْرَةَ مَا يَفْتَنَى ۖ ﴾ قال : فراش من ذهب . قال : وأعطي رسول الله ﷺ ثلاثاً : أعطي الصلوات الخمس ، وأعطي خواتيم سورة البقرة ، وغفر لمن لا يشرك بالله شيئاً من أمته المقححات (٦) .

وقوله تعالى : ﴿ مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا كُنَّ ۖ ﴾ قال ابن عباس ؓ : ما ذهب يميناً ولا شمالاً ﴿ وَمَا كُنَّ ۖ ﴾ ما جاوز ما أمر به ، وهذه صفة عظيمة في الثبات والطاعة ، فإنه ما فعل إلا ما أمر به ، ولا سأل فوق ما أعطي ، وما أحسن ما قال الناظم :

رأى جنة المأوى وما فوقها ولو رأى غيره ما قد رآه لتأها

وقوله تعالى : ﴿ لَقَدْ رَأَى مِنْ مِائَتِ رَبِّهِ الْكُبْرَى ۖ ﴾ كقوله : ﴿ لِيُؤْتِكَ مِنْ مِائَتِنَا الْكُبْرَى ۖ ﴾ أي الدالة على قدرتنا وعظمتنا ، وبهاتين الآيتين استدلل من ذهب من أهل السنة أن الرؤية تلك الليلة لم تقع ؛ لأنه

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٦٦/٤) والترمذي في السنن (٣٢٣٤) .

(٢) أخرجه أحمد في مسنده (٤٦٠/١) .

(٣) أخرجه أحمد في مسنده (٤٠٧/١) .

(٤) أخرجه أحمد في مسنده (٤٠٧/١) .

(٥) أخرجه أحمد في مسنده (٤٦١/٦) .

(٦) أخرجه أحمد في مسنده (٤٢٢/١) .

قال : ﴿ لَقَدْ رَأَى مِنْ ءَايَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَى ﴾ ولو كان رأى ربه لأخبر بذلك ولقال ذلك للناس ، وقد تقدم تقرير ذلك في سورة سبحان .

﴿ أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّىٰ ۚ وَمَنْوَةَ الثَّالِثَةَ الْآخِرَىٰ ۚ أَلَكُمُ الذَّكْرُ وَلَهُ الْأُنثَىٰ ۚ تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰ ۚ إِنْ هِيَ إِلَّا أَسْمَاءٌ سَمِيَتْهُمَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الْأَنْفُسُ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنْ رَبِّهِمُ الْهُدَىٰ ۚ أَمْ لِلْإِنْسَانِ مَا تَنْقَىٰ ۚ فَلِلَّهِ الْآخِرَةُ وَالْأُولَىٰ ۚ وَكَرِهَ مِنْ مَلِكٍ فِي السَّمَوَاتِ لَا تَنْفِي سَفْعَتُهُمْ شَيْئًا إِلَّا مِنْ بَعْدِ أَنْ يَأْذَنَ اللَّهُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُرِضَ ۚ ۞ .

يقول تعالى مقررًا للمشركين في عبادتهم الأصنام والأنداد والأوثان ، واتخاذهم لها البيوت مضاهاة للكعبة التي بناها خليل الرحمن ﷺ ﴿ أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ ﴾ وكانت اللات صخرة بيضاء منقوشة عليها بيت بالطائف ، له أستار وسدنة وحوله فناء معظم عند أهل الطائف ، وهم ثقيف من تابعها ، يفتخرون بها على من عداهم من أحياء العرب بعد قريش ، قال ابن جرير : وكانوا قد اشتقوا اسمها من اسم الله فقالوا : اللات ، يعنون مؤنثة منه ، تعالى الله عن قولهم علوًا كبيرًا ، وحكي عن ابن عباس ومجاهد والربيع بن أنس أنهم قرأوا ﴿ اللات ﴾ بتشديد التاء ^(١) وفسروه بأنه كان رجلًا يلت للحجيج في الجاهلية السوق ، فلما مات عكفوا على قبره فعبدوه . وعن ابن عباس ؓ في قوله ﴿ اللَّاتُ وَالْعُزَّىٰ ﴾ قال : كان اللات رجلًا يلت السوق سوق الحجاج ^(٢) ، قال ابن جرير : وكذا العزى من العزيز ، وكانت شجرة عليها بناء وأستار بنخلة ، وهي بين مكة والطائف ، كانت قريش يعظمونها كما قال أبو سفيان يوم أحد : لنا العزى ولا عزى لكم ، فقال رسول الله ﷺ : « قولوا الله مولانا ولا مولى لكم » ^(٣) .

وعن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « من حلف فقال في حلفه واللات والعزى فليقل : لا إله إلا الله ، ومن قال لصاحبه : تعال أقامرك فليتصدق » ^(٤) فهذا محمول على من سبق لسانه في ذلك ، كما كانت ألستهم قد اعتادته من زمن الجاهلية ، وعن سعد بن أبي وقاص قال : حلفت باللات والعزى ، فقال لي أصحابي : بش ما قلت ! قلت هجرا . فأثبت رسول الله ﷺ فذكرت ذلك له فقال : « قل : لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير ، وانفث عن شمالك ثلاثًا ، وتعوذ بالله من الشيطان الرجيم ثم لا تعد » ^(٥) .

وأما مناة فكانت بالمشلل عند قديد بين مكة والمدينة ، وكانت خزاعة والأوس والخزرج في جاهليتها يعظمونها ويهلون منها للحج إلى الكعبة . وقد كانت بجزيرة العرب وغيرها طواغيت أخر تعظمها العرب كتعظيم الكعبة ، غير هذه الثلاثة التي نص عليها في كتابه العزيز ، وإنما أفرد هذه بالذكر لأنها أشهر من غيرها . قال ابن إسحاق في السيرة : وقد كانت العرب اتخذت مع الكعبة طواغيت وهي بيوت تعظمها كتعظيم الكعبة ، لها سدنة وحجاب ويهدى لها كما يهدى للكعبة ، وتطوف بها كطوافها بها ، وتنحر عندها ، وهي تعرف فضل الكعبة عليها ؛ لأنها كانت قد عرفت أنها بيت إبراهيم ﷺ

(١) قرأ رويس ﴿ اللات ﴾ بتشديد التاء والباقون بخفيفها (تقريب النشر ص : ١٧٧) .

(٢) أخرجه البخاري في تفسير القرآن (٤٨٥٩) . (٣) أخرجه البخاري في الجهاد (٣٠٣٩) وأحمد في مسنده (٢٩٣/٤) .

(٤) أخرجه البخاري في تفسير القرآن (٤٨٦٠) . (٥) أخرجه النسائي في السنن (٨/٧) .

ومسجده : فكانت لقريش ولبنى كنانة العزى بنخلة ، وكان سدنتها وحجابها بني شيبان من سليم ،
حلفاء بني هاشم ، قال : بعث إليها رسول ﷺ خالد بن الوليد فهدمها وجعل يقول :
يا عزى كفرانك لاسبحانك إني رأيت الله قد أهانك

قال ابن إسحاق : وكانت اللات لثقيف بالطائف ، وكان سدنتها وحجابها بني معتب . قلت :
وقد بعث إليها رسول الله ﷺ ، المغيرة بن شعبة ، وأبا سفيان صخر بن حرب ، فهدماها وجعلها
مكانها مسجداً بالطائف . قال ابن إسحاق : وكانت مناة للأوس والخزرج ومن دان بدينهم من أهل
يثرب على ساحل البحر من ناحية المشلل بقديد ، فبعث رسول الله ﷺ إليها أبا سفيان صخر بن
حرب فهدمها ، ويقال علي بن أبي طالب قال : وكانت ذو الخلصة لدوس وخثعم وبجيلة ، ومن
كان يبلادهم من العرب بتيالة . قلت : وكان يقال لها الكعبة اليمانية ، وللكعبة التي بمكة الكعبة
الشامية ، فبعث إليه رسول الله ﷺ جرير بن عبد الله البجلي فهدمه ، قال : وكانت قيس لطي
ومن يليها بجبل طي بين سلمى وأجأ ، قال ابن هشام : فحدثني بعض أهل العلم أن رسول الله ﷺ
بعث إليه علي بن أبي طالب فهدمه ، واصطفى منه سيفين : الرسوب والخزرم ، فنقله إليهما رسول
الله ﷺ فهما سيفا علي . قال ابن إسحاق : وكان لحمير وأهل اليمن بيت بصنعاء يقال له ريام ،
وذكر أنه كان به كلب أسود وأن الحبرين اللذين ذهبا مع تبع استخرجاه وقتلاه وهدما البيت . قال
ابن إسحاق : وكانت رضاء بيتاً لبني ربيعة بن كعب بن سعد بن زيد مناة بن تميم ، ولها يقول
المستوغر بن ربيعة بن كعب بن سعد حين هدمها في الإسلام :

ولقد شددت على رضاء شدة فتركتهما قفراً بقاع أسحما

قال ابن إسحاق : وكان ذو الكعبات لبكر وتغلب ابني وائل وإياد بسنداد ، وله يقول أعشى بن
قيس بن ثعلبة :

بين الخورنق والسدير وبارق والبيت ذو الكعبات من سنداد ^(١)

ولهذا قال تعالى : ﴿ أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّىٰ ۝ وَنَزَوَ الثَّالِثَةَ الْأُخْرَىٰ ۝ ثُمَّ قَالَ تَعَالَىٰ : ﴿ أَلَكُمُ الذَّكَرُ
وَلَهُ الْأُنثَىٰ ۝ أَيُتَجْعَلُونَ لَهُ وَلَدًا وَتَجْعَلُونَ وَلَدَهُ أَنْثَىٰ ، وتختارون لأنفسكم الذكور ، فلو اقتسمتم
أنتم ومخلوق مثلكم هذه القسمة لكانت ﴿ قِسْمٌ ضَيْرٌ ۝ أَيُجَوْرُا بِاطْلَةٍ ، فكيف تقاسمون ربكم
هذه القسمة التي لو كانت بين مخلوقين كانت جوراً وسفهاً ، ثم قال تعالى منكراً عليهم فيما
ابتدعوه وأحدثوه من الكذب والافتراء والكفر من عبادة الأصنام وتسميتها آلهة ﴿ إِنْ هِيَ إِلَّا أَسْمَاءُ
سَمِيَتْهُمَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ ۝ أَيُ مِنْ تَلْقَاءُ أَنْفُسَكُمْ ﴿ مَا أُنْزِلَ إِلَهُ يَهْدِي بَيْنَ سُلْطَانٍ ۝ أَيُ مِنْ حِجَّةٍ ﴿ إِنْ يَنْتَعُونَ
إِلَّا الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الْأَنْفُسُ ۝ أَيُ لَيْسَ لَهُ مُسْتَدٌ إِلَّا حَسَنَ ظَنِّهِمْ بَابَائِهِمُ الَّذِينَ سَلَكَوا هَذَا الْمَسْلَكُ
الباطل قبلهم ، وإلا حظ نفوسهم في رياستهم وتعظيم آبائهم الأقدمين . ﴿ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنْ رَبِّهِمْ
الْمُذَكَّرُ ۝ أَيُ وَلَقَدْ أَرْسَلَ اللَّهُ إِلَيْهِمُ الرُّسُلَ بِالْحَقِّ النَّذِيرِ وَالْحِجَّةِ الْقَاطِعَةِ ، ومع هذا ما اتبعوا ما جاءوهم
به ولا انقادوا له .

ثم قال تعالى : ﴿ أَمْ لِلْإِنسَانِ مَا تَنَى ﴾ أي ليس كل من تمنى خيراً حصل له ﴿ لَيْسَ بِأَمَانِيكُمْ وَلَا مَأْنِي ﴾ أهمل الهمزة ﴿ ما كل من زعم أنه مهتد يكون كما قاله ، ولا كل من ود شيئاً يحصل له . عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « إذا تمنى أحدكم فلينظر ما يتمنى ، فإنه لا يدري ما يكتب له من أمنيته » ^(١) وقوله : ﴿ لِلَّهِ الْآخِرَةُ وَالْأُولَى ﴾ أي إنما الأمر كله لله مالك الدنيا والآخرة والمتصرف في الدنيا والآخرة ، فهو الذي ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن . وقوله تعالى : ﴿ وَكَرِهَ مِنْ ثَمَرِهِ أَنْ يَشْمَازَ فِي السَّمَوَاتِ لَا تَتَنَبَّيْ شَفَعَنَّهُمْ شَيْئاً إِلَّا مِنْ بَعْدِ أَنْ يَأْذَنَ اللَّهُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَرْضَى ﴾ فإذا كان هذا في حق الملائكة المقربين ، فكيف ترجون أيها الجاهلون شفاعة هذه الأصنام والأنداد عند الله ، وهو تعالى لم يشرع عبادتها ولا أذن فيها ، بل قد نهى عنها على السنة جميع رسله وأنزل بالنهي عن ذلك جميع كتبه .

﴿ إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ لَيَسْمَعُونَ أَلْسِنَتَكُمْ لَيُشَهِدُنَّكُمْ عَلَى آلَتِكُمْ وَيَتَّبِعُونَ آلَ الظُّلُمَاتِ إِنَّ الظُّلُمَاتِ لَا يَخْفَى مِنْهَا شَيْئاً ﴾ فَأَعْرَضَ عَنْ مَنْ تَوَكَّلَ عَلَيْنَا وَلَمْ يَدْعُنَا إِلَى الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴿ ذَلِكَ مَبْلَغُهُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ سَلَ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اهْتَدَى ﴾ .

يقول تعالى منكراً على المشركين في تسميتهم الملائكة تسمية الأتني ، وجعلهم لها أنها بنات الله ، تعالى الله عن ذلك ولهذا قال تعالى : ﴿ وَمَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ ﴾ أي ليس لهم علم صحيح بصدق ما قالوه ، بل هو كذب وزور وافتراء وكفر شنيع . ﴿ إِنَّ يَتَّبِعُونَ آلَ الظُّلُمَاتِ وَإنَّ الظُّلُمَاتِ لَا يَخْفَى مِنْهَا شَيْئاً ﴾ أي لا يجدي شيئاً ولا يقوم أبداً مقام الحق ، وقد ثبت في الصحيح أن رسول الله ﷺ قال : « إياكم والظن فإن الظن أكذب الحديث » ^(٢) .

وقوله تعالى : ﴿ فَأَعْرَضَ عَنْ مَنْ تَوَكَّلَ عَلَيْنَا ﴾ أي أعرض عن الذي أعرض عن الحق واهجره . وقوله : ﴿ وَلَمْ يَدْعُنَا إِلَى الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴾ أي وإنما أكثر همه ومبلغ علمه الدنيا ، فذاك هو غاية مالا خير فيه ، ولهذا قال تعالى : ﴿ ذَلِكَ مَبْلَغُهُمْ مِنَ الْعِلْمِ ﴾ أي طلب الدنيا والسعي لها هو غاية ما وصلوا إليه . وقد روي عن أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها قالت : قال رسول الله ﷺ : « الدنيا دار من لا دار له ، ومال من لا مال له ، ولها يجمع من لا عقل له » ^(٣) وفي الدعاء المأثور : « اللهم لا تجعل الدنيا أكبر همنا ، ولا مبلغ علمنا » ^(٤) وقوله تعالى : ﴿ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ سَلَ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اهْتَدَى ﴾ أي هو الخالق لجميع المخلوقات والعالم بمصالح عباده ، وهو الذي يهدي من يشاء ويضل من يشاء ، وذلك كله عن قدرته وعلمه وحكمته وهو العادل الذي لا يجور أبداً في شرعه ولا في قدره .

﴿ وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسْتَوُوا يَمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحَسَنَى ﴾ الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبِيرَ الْإِنِّيرِ وَالْفَوَاحِشِ إِلَّا اللَّهُمَّ إِنَّ رَبَّكَ رَسِيعُ الْغَفْرِ هُوَ أَعْلَمُ بِكَوْذِ أَنْشَاكَرِ مِنَ الْأَرْضِ وَإِذْ أَنْشَأَ آجَنَةً فِي بَطُونِ أَهْمِيَّتِكُمْ فَلَا تُزَكُّوا أَنْفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَى ﴾ .

يخبر تعالى أنه مالك السموات والأرض ، وأنه الغني عما سواه ، الحاكم في خلقه بالعدل وخلق

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٣٥٧/١) .

(٢) أخرجه البخاري في الأدب (٦٠٦٦) ومسلم في البر والصلة (٢٨) والترمذي في السنن (١٩٨٨) وأحمد في مسنده (٢٤٥/٢) .

(٣) أخرجه أحمد في مسنده (٧١/٦) والمنذري في الترغيب والترهيب (١٧٨/٤) .

(٤) أخرجه الترمذي في الدعوات (٣٥٠٢) .

الخلق بالحق ﴿لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسْتَوُوا يَمًا وَعِلًا وَالَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحَسَنَى﴾ أي يجازي كلا بعمله إن خيرًا فخير وإن شرًا فشر ، ثم فسر المحسنين بأنهم الذين يجتنبون كبائر الإثم والفواحش ، أي لا يتعاطون المحرمات الكبائر ، وإن وقع منهم بعض الصغائر فإنه يغفر لهم ويستمر عليهم كما قال في الآية الأخرى ﴿إِنْ تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ تُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَتُدْخِلَكُمْ مُدْخَلَ كَرِيمٍ﴾ وقال ههنا ﴿الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبِيرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشِ إِلَّا اللَّمَمَ﴾ وهذا استثناء منقطع ، لأن اللمم من صغائر الذنوب ومحقرات الأعمال . عن ابن عباس قال : ما رأيت شيئًا أشبه باللمم مما قال أبو هريرة عن النبي ﷺ قال : « إن الله تعالى كتب على ابن آدم حظه من الزنا أدرك ذلك لا محالة ، فزنا العين النظر ، وزنا اللسان النطق ، والنفس تمنى وتشتهي ، والفرج يصدق ذلك أو يكذبه » ^(١)

وقال عبد الرحمن بن نافع الذي يقال له ابن لبابة الطائفي قال : سألت أبا هريرة عن قول الله ﴿إِلَّا اللَّمَمَ﴾ قال : القبلة والغمرة والنظرة والمباشرة ، فإذا مس الختان الختان فقد وجب الغسل ، وهو الزنا . وعن مجاهد أنه قال : الذي يلم بالذنب ثم يدعه ، قال الشاعر :

إِنْ تَغْفِرَ اللَّهُمَّ تَغْفِرَ جَمَا وَأَيُّ عَبْدٍ لَكَ مَا أَلَمَا

عن الحسن في قوله تعالى : ﴿الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبِيرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشِ إِلَّا اللَّمَمَ﴾ قال : اللمم من الزنا أو السرقة أو شرب الخمر ثم لا يعود إليه .

وعن ابن عباس في قوله : ﴿إِلَّا اللَّمَمَ﴾ كل شيء بين الحدين حد الدنيا وحد الآخرة ، تكفره الصلوات فهو اللمم ، وهو دون كل موجب ، فأما حد الدنيا : فكل حد فرض الله عقوبته في الدنيا ، وأما حد الآخرة : فكل شيء ختمه الله بالنار وأخر عقوبته إلى الآخرة . وكذا قال عكرمة وقتادة والضحاك .

وقوله تعالى : ﴿إِنَّ رَبَّكَ وَسِعَ كُلَّ شَيْءٍ وَمَغْفِرَتُهُ تَسَعُ الذُّنُوبَ كُلَّهَا لِمَنْ تَابَ مِنْهَا وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿هُوَ أَتَعْلَمُ بِكُلِّ شَيْءٍ أَنْشَأَ ثَرْبَ الْأَرْضِ﴾ أي هو بصير بكم عليم بأحوالكم وأفعالكم وأقوالكم التي ستصدر عنكم ، وتقع منكم حين أنشأ أباكم آدم من الأرض ، واستخرج ذريته من صلبه أمثال الذر ، ثم قسمهم فريقين : فريقًا للجنة وفريقًا للسعير . وكذا قوله ﴿وَإِذْ أَنْتَرُ أَجْنَةً فِي بَطْنِ أُمَمِيكُمْ﴾ قد كتب الملك الذي يوكل به رزقه وأجله وعمله وشقي أم سعيد ، قال مكحول : كنا أجنة في بطون أمهاتنا فسقط منا من سقط ، وكنا فيمن بقي ، ثم كنا مرضيع فهلك منا من هلك ، وكنا فيمن بقي ، ثم صرنا يفعة فهلك منا من هلك ، وكنا فيمن بقي ، ثم صرنا شبانا فهلك منا من هلك ، وكنا فيمن بقي ثم صرنا شيوخًا لا أبا لك فماذا بعد هذا تنتظر ؟ .

وقوله تعالى : ﴿فَلَا تُزَكُّوا أَنْفُسَكُمْ﴾ أي تمدحوها وتشكروها وتمنوا بأعمالكم ﴿هُوَ أَتَعْلَمُ بِمَنْ اتَّقَى﴾ عن محمد بن عمرو بن عطاء قال : سميت ابنتي برة ، فقالت لي زينب بنت أبي سلمى : إن رسول الله ﷺ نهى عن هذا الاسم ، وسميت برة ، فقال رسول الله ﷺ : « ولا تزكوا أنفسكم ، إن الله أعلم بأهل البر منكم » فقالوا : بسم نسميها ، قال : « سموها زينب » ^(٢) وعن أبي بكرة قال :

(١) أخرجه البخاري في الاستعذان (٦٢٤٣) ومسلم في القدر (٢٠) وأحمد في مسنده (٢٧٦/٢) وأبو داود في السنن (٢١٥٢) .

(٢) أخرجه مسلم في الأدب (١٩) وأبو داود في السنن (٤٩٥٣) .

مدح رجل رجلاً عند النبي ﷺ فقال رسول الله ﷺ : « ويليكَ قطعت عنق صاحبك - مراؤاً - إذا كان أحدكم مادحاً صاحبه لا محالة فليقل : أحسب فلاناً واللّٰه حسيبه ولا أركي على اللّٰه أحدًا ، أحسبه كذا وكذا إن كان يعلم ذلك » ^(١)

وعن همام بن الحارث قال : جاء رجل إلى عثمان فأثنى عليه في وجهه قال : فجعل المقداد بن الأسود يحثو في وجهه التراب ويقول : أمرنا رسول الله ﷺ إذا لقينا المداحين أن نحثو في وجوههم التراب (٢) .

﴿ أَمَرَ بَنَاتُ اللَّهِ تَوَكَّلْ ١٠ وَأَعْطَى قَلِيلًا وَأَكْثَى ١١ أَعِنْدَهُ عِلْمُ الْغَيْبِ فَهوَ يَرَى ١٢ أَمْ لَمْ يُبْنَأْ بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَى ١٣ وَإِنزِيلِهِ إِلَى وَكَّى ١٤ أَلَا نَزِدُّ وَزْرَهُ وَزِدَّ آخَرَهُ ١٥ وَأَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى ١٦ وَأَنْ سَعْيُهُ سَوْفَ يَرَى ١٧ ثُمَّ يُجْزَاهُ الْجَزَاءَ الْأَوْفَى ١٨ ﴾ .

يقول تعالى ذامًا لمن تولّى عن طاعة الله ﴿فَلَا حَافَظَ وَلَا مَلَأَ﴾ وَلَكِنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّى ﴿وَأَعْطَى قَلِيلًا وَأَكْثَى﴾ قال ابن عباس : أطاع قليلاً ثم قطعه ، وكذا قال مجاهد وغير واحد . قال عكرمة وسعيد : كمثل القوم إذا كانوا يحفرون بئراً ، فيجدون في أثناء الحفر صخرة تمنعهم من تمام العمل فيقولون أكدينا ، ويتركون العمل . وقوله تعالى : ﴿أَعِنْدُ عِلْمَ الْغَيْبِ فَهُوَ بِرِيٍّ﴾ أي أعند هذا الذي قد أمسك يده خشية الإنفاق وقطع معروفة ، أعنده علم الغيب أنه سينفذ ما في يده حتى قد-أمسك عن معروفة فهو يرى ذلك عياناً ، أي ليس الأمر كذلك . وإنما أمسك عن الصدقة والمعروف والبر والصلة بخلاً وشحاً وهلمّا ، ولهذا جاء في الحديث : « أنفق بلائاً ولا تخش من ذي العرش إقلالاً » ^(٣) وقد قال الله تعالى ﴿وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ وَهُوَ خَيْرُ الْكَافِرِينَ﴾ .

وقوله تعالى : ﴿ أَمْ لَمْ يُنَبِّأْ بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَى ﴾ وَإِذْ يُرِيهِمُ آلَ ذِي وَرْقٍ ﴿١٥﴾ قال سعيد بن جبير والثوري : أي بلغ جميع ما أمر به ، وقال ابن عباس : ﴿ وَرَقٌ ﴾ لله بالبلاغ ، وقال سعيد بن جبير ﴿ وَرَقٌ ﴾ ما أمر به ، وقال قتادة : ﴿ وَرَقٌ ﴾ طاعة الله وأدى رسالته إلى خلقه وهذا القول هو اختيار ابن جرير ، وهو يشمل الذي قبله ويشهد له قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ أَوْفَىٰ إِلَهُكَ إِذْ يَرِيهِمْ رَبُّكَ بِكَيْفَتِكَ فَاذْهَبْ قَالَ إِنِّي جَاءُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا ﴾ فقام بجميع الأوامر وترك جميع النواهي وبلغ الرسالة على التمام والكمال ، فاستحق بهذا أن يكون للناس إمامًا يقتدى به في جميع أحواله وأقواله وأفعاله .

عن أنس عن رسول الله ﷺ أنه قال: «ألا أخبركم لم سمى الله تعالى إبراهيم خليله الذي وفى؟ إنه كان يقول كلما أصبح وأمسى: ﴿مُبَشِّرَنَ اللَّهِ حِينَ تُسْئَلُونَ رَجِيمَنَ تُصِيحُونَ﴾» حتى ختم الآية ^(١).

ثم شرع تعالى يبين ما كان أوحاه في صحف إبراهيم وموسى فقال: ﴿الْأَنْزِلُ وَرَزَقُ وَرَثَتِي﴾ أي كل نفس ظلمت نفسها بكفر أو شيء من الذنوب فإنما عليها وزرها لا يحمله عنها أحد ﴿وَأَنْ لَّيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى﴾ أي كما لا يحمل عليه وزر غيره ، كذلك لا يحصل من الأجر إلا ما كسب

(١) أخرجه البخاري في الشهادات (٢٦٦٢) وأحمد في مسنده (٤٦/٥) والبيهقي في السنن (٢٤٢/١٠) .

(٢) أخرجه أحمد في مسنده (٥/٦) ومسلم في الزهد (٦٨).

(٣) أخرجه الطبراني في الكبير (١٩٢/١٠) والسيوطي في جمع الجوامع (٤٥٨٤) .

(٤) أخرجه أحمد في مسنده (٤٣٩/٣) والهيثمى في مجمع الزوائد (١١٧/١٠) .

هو لنفسه ، ومن هذه الآية الكريمة استنبط الشافعي رحمته الله ، أن القراءة لا يصل إهداء ثوابها إلى الموتى ، لأنه ليس من عملهم ولا كسبهم ولهذا لم يندب إليه رسول الله ﷺ أمته ولا حثهم عليه ولا أرشدهم إليه بنص ولا إيماء ، ولم ينقل ذلك عن أحد من الصحابة رضي الله عنهم ، ولو كان خيراً لسبقونا إليه ، وباب القربات يقتصر فيه على النصوص ولا يتصرف فيه بأنواع الأقيسة والآراء ، فأما الدعاء والصدقة فذاك مجمع على وصولهما ومنصوص من الشارع عليهما .

وأما الحديث الذي روي عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « إذا مات الإنسان انقطع عمله إلا من ثلاث : من ولد صالح يدعو له ، أو صدقة جارية من بعده ، أو علم ينتفع به » ^(١) فهذه الثلاثة في الحقيقة هي من سعيه وكده وعمله ، كما جاء في الحديث : « إن أطيب ما أكل الرجل من كسبه وإن ولده من كسبه » ^(٢) والصدقة الجارية كالوقوف ونحوه هي من آثار عمله ووقفه ، وقد قال تعالى ﴿ إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي الْمَوْتَى وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآَخَّرُهُمْ ﴾ الآية . والعلم الذي نشره في الناس فاقتردى به الناس بعده هو أيضاً من سعيه وعمله ، وثبت في الصحيح « من دعا إلى هدى كان له من الأجر مثل أجور من اتبعه من غير أن ينقص من أجورهم شيئاً » ^(٣) . وقوله تعالى : ﴿ وَأَنْ سَعَيْكُمْ سَوْفَ يُرَى ﴾ أي يوم القيامة ﴿ ثُمَّ يُجْزَاهُ الْجَزَاءَ الْأَوَّلَ ﴾ أي الأوفر .

﴿ وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ الْمُنْتَهَى ﴾ وَأَنَّ هُوَ أَصْحَكَ وَأَنَّكَ ﴿ وَأَنَّ هُوَ أَمَاتَ وَأَحْيَا ﴾ وَأَنَّ هُوَ خَلَقَ الرَّجَمَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنثَى ﴿ مِنْ تَلْفَعَةٍ إِذَا تَنَفَّسْتَ ﴾ وَأَنَّ عَلَيْهِ النَّشْأَةَ الْآخِرَى ﴿ وَأَنَّ هُوَ أَغْنَىٰ وَأَقْنَى ﴾ وَأَنَّ هُوَ رَبُّ الْبُعْثِ ﴿ وَأَنَّ هُوَ أَهْلَكَ عَادًا الْأُولَى ﴾ وَتَمُودًا ﴿ فَأَآتَيْنَا ﴿ وَقَدْ نُوحِىٰ مِنْ قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا هُمْ أَظْلَمَ وَأَطْلَمَ ﴾ وَالْمُؤْنِفَةَ أَعْمَى ﴿ فَعَشْنَهَا مَا عَشَّى ﴿ فَيَأْتِي آلَهِ رَبِّكَ تَسْمَاءً ﴾ .

يقول تعالى : ﴿ وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ الْمُنْتَهَى ﴾ أي المعاد يوم القيامة . عن عمرو بن ميمون الأودي قال : قام فينا معاذ بن جبل فقال : يا بني أود إنني رسول رسول الله ﷺ إليكم ، تعلمون أن المعاد إلى الله ، إلى الجنة أو إلى النار . وعن أبي بن كعب عن النبي ﷺ في قوله : ﴿ وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ الْمُنْتَهَى ﴾ قال : لا فكرة في الرب . قال البغوي : وهذا مثل ما روي عن أبي هريرة مرفوعاً : « تفكروا في الخلق ولا تفكروا في الخالق ؛ فإنه لا تحيط به الفكرة » ^(٤) وكذا أورده وليس بمحفوظ بهذا اللفظ ، وإنما الذي في الصحيح « يأتي الشيطان أحدكم فيقول : من خلق كذا من خلق كذا ؟ حتى يقول : من خلق ربك ؟ فإذا بلغ أحدكم ذلك فليستعذ بالله وليتته » ^(٥) وقوله تعالى : ﴿ وَأَنَّ هُوَ أَصْحَكَ وَأَنَّكَ ﴾ أي خلق في عباده الضحك والبكاء وسببهما وهما مختلفان ﴿ وَأَنَّ هُوَ أَمَاتَ وَأَحْيَا ﴾ كقوله ﴿ الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ ﴾ ﴿ وَأَنَّ هُوَ خَلَقَ الرَّجَمَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنثَى ﴾ من تَلْفَعَةٍ إِذَا تَنَفَّسْتَ ﴿ كقوله ﴿ يَخْتَصِبُ الْإِنْسَانُ أَنْ يُبْرَكَ سُنًى ﴾ أَلَمْ يَكُ تَلْفَعَةً مِنْ مَنًى يَتَخَيَّ ﴿ ثُمَّ كَانَ عِلْقَةً مُّلتَكَ سَوًى ﴿ جَمَلٌ مِنْهُ الرَّجَمَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنثَى ﴿ أَلَيْسَ ذَلِكَ بِقَدِيرٍ عَلَيَّ أَنْ يُخَيَّ الْمَوْتَ ﴾ .

وقوله تعالى : ﴿ وَأَنَّ عَلَيْهِ النَّشْأَةَ الْآخِرَى ﴾ أي كما خلق البداءة هو قادر على الإعادة وهي النشأة

(١) أخرجه مسلم في الوصية (١٤) وأبو داود في السنن (٢٨٨٠) والترمذي في السنن (١٣٧٦) والنسائي في السنن (٢٥١/٦) .

(٢) أخرجه النسائي في السنن (٢٤١/٧) وابن ماجه في السنن (٢١٣٧) وأحمد في مسنده (٢٣١/٦) والبيهقي في السنن (٤٨٠/٧) .

(٣) أخرجه مسلم في العلم (١٦) والترمذي في السنن (٢٦٧٤) وابن ماجه في السنن (٢٠٦) وأحمد في مسنده (٣٩٧/٢) .

(٤) ذكره الهندي في كنز العمال (٥٧٠٦) والسيوطي في الدر المنثور (١١٠/٢) والأباني في الصحيحة (١٧٨٨) بنحوه .

(٥) أخرجه البخاري في بدء الخلق (٣٢٧٦) .

الآخرة يوم القيامة ﴿وَأَنْتَ هُوَ أَفْتَقُ وَآفَقُ﴾ أي ملك عباده المال وجعله لهم قنية مقيماً عندهم لا يحتاجون إلى بيعه ، فهذا تمام النعمة عليهم ، وعلى هذا يدور كلام كثير من المفسرين ، منهم أبو صالح وابن جرير وغيرهما ، وعن مجاهد ﴿أَفْتَقُ﴾ مؤل ﴿وَأَفْتَقُ﴾ أخدم ، وكذا قال قتادة ، وقال ابن عباس ومجاهد أيضاً ﴿أَفْتَقُ﴾ أعطى ﴿وَأَفْتَقُ﴾ رضي . وقيل : معناه أغنى نفسه وأفقر الخلائق إليه ، وقوله ﴿وَأَنْتَ هُوَ رَبُّ الْغَفْرِ﴾ قال ابن عباس ومجاهد وقاتة ولهن زيد وغيرهم : هو هذا النجم الوقاد الذي يقال له مرزم الجوزاء كانت طائفة من العرب يعبدونه ﴿وَأَنْتَ أَهْلَكَ عَادًا الْأُولَى﴾ وهم قوم هود ويقال لهم عاد بن إرم بن سام بن نوح كما قال تعالى : ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلْنَا بِكَ يَمَادٍ ۝ إِرَمَ ذَاتَ الْوِجَادِ ۝ أَلَمْ يَلْمِ يَئُتَاهَا فِي الْبَلَدِ﴾ فكانوا من أشد الناس وأقواهم وأعتاهم على الله تعالى وعلى رسوله فأهلكهم الله ﴿يَبْرِجُ صَوْرِهِ عَلَيْهِمْ ۝ سَخَرَمَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَفَنِيَةً يَأْتِيَهُمْ حُسُومًا﴾ أي متتابعة .

وقوله تعالى : ﴿وَنُودُوا فَآفَقُ﴾ أي دمرهم فلم يبق منهم أحداً ﴿وَقَدْ نُوحِ بْنِ قَلِّ﴾ أي من قبل هؤلاء ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا هُمْ أَهْلَكُمُ وَالْعَلَى﴾ أي أشد تمرداً من الذين من بعدهم ﴿وَالْمُؤَنِّكَ أَهْوَى﴾ يعني مدائن لوط قلبها عليهم فجعل عليها سافلها ، وأمطر عليها حجارة من سجيل منضود ، ولهذا قال : ﴿فَنَسْنَاهَا مَا عَنَّ﴾ يعني من الحجارة التي أرسلها عليهم ﴿يَأْتِي مَالَهُ رِيكَ نَمَارَى﴾ أي فني أي نعم الله عليك أيها الإنسان تمتري ؟ قاله قتادة وقال ابن جريج ﴿يَأْتِي مَالَهُ رِيكَ نَمَارَى﴾ يا محمد والأول أولى ، وهو اختيار ابن جريج .

﴿هَذَا نَذِيرٌ مِّنَ النَّذْرِ الْأُولَى﴾ ٥ أُرْفَتِ الْآزِفَةُ ٦ لَبَسَ لَهَا مِن دُونِ اللَّهِ كَافِيَةً ٧ أَفَنَ هَذَا الْمَدْيَنُ تَعْبُونَ ٨ وَتَضْمَكُونَ وَلَا تَبْكُونَ ٩ وَأَنْتُمْ سَيِّدُونَ ١٠ فَاتَّخِذُوا لِلَّهِ وَاعْبُدُوا ١١ .

﴿هَذَا نَذِيرٌ﴾ يعني محمداً ﷺ ﴿مِّنَ النَّذْرِ الْأُولَى﴾ أي من جنسهم أرسل كما أرسلوا ﴿أُرْفَتِ الْآزِفَةُ﴾ أي اقتربت القرية وهي القيامة ﴿لَبَسَ لَهَا مِن دُونِ اللَّهِ كَافِيَةً﴾ أي لا يدفعها إذا من دون الله أحد ولا يطلع على علمها سواه ، ثم قال تعالى منكراً على المشركين في استماعهم القرآن وإعراضهم عنه وتلهمهم ﴿تَعْبُونَ﴾ من أن يكون صحيحاً ﴿وَتَضْمَكُونَ﴾ منه استهزاء وسخرية ﴿وَلَا تَبْكُونَ﴾ أي كما يفعل الموقنون به .

وقوله تعالى : ﴿وَأَنْتُمْ سَيِّدُونَ﴾ . عن ابن عباس قال : الغناء هي يمانيه أسمد لنا : غن لنا وقال الحسن : غافلون ، وهو رواية عن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب ، ثم قال تعالى آمراً لعباده بالسجود له والعبادة المتابعة لرسوله ﷺ والتوحيد والإخلاص ﴿فَاتَّخِذُوا لِلَّهِ وَاعْبُدُوا﴾ أي فاحضعوا له وأخلصوا ووحده . عن ابن عباس قال : سجد النبي ﷺ بالنجم وسجد معه المسلمون والمشركون والجن والإنس ^(١) . وعن المطلب بن أبي وداعة قال : قرأ رسول الله ﷺ بمكة سورة النجم فسجد وسجد من عنده فرفعت رأسي فأبيت أن أسجد ، ولم يكن أسلم يومئذ المطلب فكان بعد ذلك لا يسمع أحداً يقرؤها إلا سجد معه ^(٢) .

ذكر حديث له مناسبة بما تقدم من قوله تعالى ﴿هَذَا نَذِيرٌ مِّنَ النَّذْرِ الْأُولَى﴾ ٥ أُرْفَتِ الْآزِفَةُ ٦ فَإِن

(٢) أخرجه أحمد في مسنده (٣٩٩/٦) .

(١) أخرجه البخاري في تفسير القرآن (٤٨٦٢) .

النذير هو الحذر لما يعاين من الشر الذي يخشى وقوعه فيمن أنذرهم كما قال : ﴿ إِن هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَّكُمْ بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ﴾ وفي الحديث « أنا النذير العريان » أي الذي أعجله شدة ما عاين من الشر عن أن يلبس عليه شيئا ، بل بادر إلى إنذار قومه قبل ذلك فجاءهم عريانا مسرعا ، وهو مناسب لقوله : ﴿ أَزِفَتِ الْآزِفَةُ ﴾ أي اقتربت القرية يعني يوم القيامة . عن سهل بن سعد قال : قال رسول الله ﷺ : « إياكم ومحقرات الذنوب ، فإنما مثل محقرات الذنوب كمثل قوم نزلوا بيطن واد ، فجاء ذا بعود وجاء ذا بعود حتى أنضجوا خبزتهم ، وإن محقرات الذنوب متى يؤخذ بها صاحبها تهلكه » ^(١) وقال : قال رسول الله ﷺ : « مثلي ومثل الساعة كهاتين » وفرق بين أصبعيه الوسطى والتي تلي الإبهام ثم قال « مثلي ومثل الساعة كمثل فرسي رهان » ^(٢) ثم قال : « مثلي ومثل الساعة كمثل رجل بعثه قومه طليعة ، فلما خشي أن يسبق ألاح بثوبه أتيتم أتيتم » ثم يقول رسول الله ﷺ : « أنا ذلك » ^(٣) وله شواهد من وجوه آخر من صحاح وحسان .

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٤٠٢/١) والطبراني في الكبير (٢٦١/١٠) والألباني في الصحيحة (٣٨٩) .

(٢) ذكره الهندي في كنز العمال (٣٨٣٣٤) .

(٣) أخرجه أحمد في مسنده (٣٣١/٥) والهيتمي في مجمع الزوائد (٢٢٨/١٠) .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانْشَقَّ الْقَمَرُ ۚ وَإِنْ يَرَوْا آيَةً يُعْرَضُوا وَيُقُولُوا يَبْحَرُ مُنْشَرِّ ۚ وَكَذَّبُوا وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ ۚ وَكُلُّ أَمْرٍ مُنْتَفِرٌ ۚ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنَ الْآثَانِ مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ ۚ حَكَمُهُ بَلَلَةٌ فَمَا تُغْنِ الْأَنْذُرُ ۚ .
 يخبر تعالى عن اقتراب الساعة وفراغ الدنيا وانقضائها كما قال تعالى : ﴿ أَتَى أَمْرُ اللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ ﴾
 وقد وردت الأحاديث بذلك . فعن أنس أن رسول الله ﷺ خطب أصحابه ذات يوم ، وقد كادت الشمس أن تغرب ، فلم يبق منها إلا سف يسير فقال : « والذي نفسي بيده ما بقي من الدنيا فيما مضى منها إلا كما بقي من يومكم هذا فيما مضى منه وما نرى من الشمس إلا يسيرا » ^(١) .

وعن ابن عمر قال : كنا جلوساً عند النبي ﷺ والشمس على قيعمان بعد العصر فقال : « ما أعماركم في أعمار من مضى إلا كما بقي من النهار فيما مضى » ^(٢) وعن سهل بن سعد قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « بعثت أنا والساعة هكذا » وأشار بأصبعه السبابة والوسطى ^(٣) .
 وعن خالد بن عمير قال : خطب عتبة بن غزوان ، قال بهز : وقال قبل هذه المرة : خطبنا رسول الله ﷺ ، قال : فحمد الله تعالى وأثنى عليه ثم قال : « أما بعد فإن الدنيا قد آذنت بصرم وولت حذاء ، ولم يبق منها إلا صباية كصباية الإناء يتصا بها صاحبها ، وإنكم منتقلون منها إلى دار لا زوال لها ، فانتقلوا منها بخير ما يحضرنكم ، فإنه قد ذكر لنا أن الحجر يلقي من شفير جهنم فيهوي فيها سبعين عاماً ما يدرك لها قعرًا ، والله لتملؤنه ، أفعجبتهم والله لقد ذكر لنا أن ما بين مصراعي الجنة مسيرة أربعين عامًا ، وليأتين عليه يوم وهو كظليظ من الزحام » ^(٤) .

وعن أبي عبد الرحمن السلمي قال : نزلنا المدائن فكننا منها على فرسخ ، فجاءت الجمعة ، فحضر أبي وحضرت معه ، فخطبنا حذيفة فقال : ألا إن الله يقول : ﴿ اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانْشَقَّ الْقَمَرُ ﴾ ألا وإن الساعة قد اقتربت ، ألا وإن القمر قد انشق ، ألا وإن الدنيا قد آذنت بفراق ، ألا وإن اليوم المضمار وغدا السباق ، فقلت لأبي : أيستبق الناس غداً ؟ فقال : يا بني إنك لجاهل ، إنما هو السباق بالأعمال ، ثم جاءت الجمعة الأخرى ، فحضرنا فخطب حذيفة فقال : ألا إن الله ﷻ يقول ﴿ اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانْشَقَّ الْقَمَرُ ﴾ ألا وإن الدنيا قد آذنت بفراق ، ألا وإن اليوم المضمار وغداً السباق ، ألا وإن الغاية النار ، والسابق من سبق إلى الجنة . وقوله تعالى : ﴿ وَانْشَقَّ الْقَمَرُ ﴾ قد كان هذا في زمان رسول الله ﷺ ، كما ورد ذلك في الأحاديث المتواترة بالأسانيد الصحيحة . عن ابن مسعود أنه قال : « خمس قد مضين : الروم ، والدخان ، والزرار ، والبطشة ، والقمر » ^(٥) وهذا أمر متفق

(١) ذكره الهيثمي في مجمع الزوائد (٣١١/١٠) والهندي في كنز العمال (٣٨٣٥٩) .

(٢) أخرجه أحمد في مسنده (١١٥/٢) .

(٣) أخرجه البخاري في الرقاق (٦٥٠٣) ومسلم في الفتن (١٣٥) وأحمد في مسنده (٢٣٧/٣) والترمذي في السنن (٢٢١٤) .

(٤) أخرجه أحمد في مسنده (١٧٤/٤) .

(٥) أخرجه البخاري في التفسير (٤٨٢٠) وأحمد في مسنده ١٢٨/٥ .

عليه بين العلماء أن انشقاق القمر قد وقع في زمان النبي ﷺ وأنه كان إحدى المعجزات الباهرات .
ذكر الأحاديث الواردة في ذلك

عن أنس بن مالك قال : سأل أهل مكة النبي ﷺ آية ، فانشق القمر بمكة مرتين فقال : ﴿ أَقْدَرَتِ السَّاعَةُ وَأَنْشَقَّ الْقَمَرُ ﴾ ^(١) وعن جبير بن مطعم قال : انشق القمر على عهد رسول الله ﷺ فصار فرقتين : فرقة على هذا الجبل ، وفرقة على هذا الجبل ، فقالوا : سحرنا محمد . فقالوا : إن كان سحرنا فإنه لا يستطيع أن يسحر الناس كلهم ^(٢) .

وعن ابن عباس قال : انشق القمر في زمان النبي ﷺ ^(٣) . وعن ابن مسعود قال : انشق القمر على عهد رسول الله ﷺ شقتين ، حتى نظروا إليه ، فقال رسول الله ﷺ : « اشهدوا » ^(٤) .
وقوله تعالى ، ﴿ وَإِنْ بَرَأْنا آيَةً ﴾ أي دليلاً وحجة وبرهاناً ﴿ يَمُرُّوا ﴾ أي لا ينقادوا له بل يعرضون عنه ويتركونه وراء ظهورهم ﴿ وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُّسْتَعِزٌّ ﴾ أي ويقولون هذا الذي شاهدناه من الحجاج سحر سحرنا به ومعنى ﴿ مُّسْتَعِزٌّ ﴾ أي ذاهب ، وقال مجاهد وقتادة وغيرهما : أي باطل مضمحل لا دوام له ﴿ وَكَذَّبُوا وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ ﴾ أي كذبوا بالحق إذ جاءهم ، واتبعوا ما أمرتهم به آرائهم وأهوائهم من جهلهم وسخافة عقولهم .

وقوله : ﴿ وَكُلُّ أَمْرٍ مُّسْتَفْتَرٍ ﴾ قال قتادة : معناه أن الخير واقع بأهل الخير والشر واقع بأهل الشر ، وقال ابن جريج : مستقر بأهله ، وقال مجاهد : أي يوم القيامة ، وقال السدي : أي واقع ، وقوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنَ الْأَنْبَاءِ ﴾ أي من الأخبار عن قصص الأمم المكذبين بالرسول وما حل بهم من العقاب والنكال والعذاب مما يتلى عليهم في هذا القرآن ﴿ مَا فِيهِ مُّرَدَجَرٌ ﴾ أي ما فيه واعظ لهم عن الشرك والتماذي على التكذيب . وقوله تعالى : ﴿ حِكْمَةٌ بَلِغَةٌ ﴾ أي في هدايته تعالى لمن هداه وإضلاله لمن أضله ﴿ فَمَا تَعْنِ الْأَنْذُرُ ﴾ يعني أي شيء تعني النذر عمن كتب الله عليه الشقاوة وختم على قلبه فمن الذي يهديه من بعد الله .

﴿ فَوَلَّ عَنْهُمْ يَوْمَ يَدْعُ الدَّاعِ إِلَى شَيْءٍ نُكْرٍ ﴾ ^(١) خُشْعًا أَنْصَرُهُمْ يُخْرَجُونَ مِنَ الْأَلْحَادِ كَانَهُمْ جَرَادٌ مُّثَنِّيرٌ ^(٢)
مُطْطِيعِينَ إِلَى الدَّاعِ يَقُولُ الْكَافِرُونَ هَذَا يَوْمٌ عَرِيرٌ .

يقول تعالى : فتول يا محمد عن هؤلاء الذين إذا رأوا آية يعرضوا ويقولوا هذا سحر مستمر ، أعرض عنهم وانتظرهم ﴿ يَوْمَ يَدْعُ الدَّاعِ إِلَى شَيْءٍ نُكْرٍ ﴾ أي إلى شيء منكر فظيع ، وهو موقف الحساب وما فيه من البلاء بل والزلازل والأحوال ، ﴿ خُشْعًا أَنْصَرُهُمْ ﴾ أي ذليلة أبصارهم ﴿ يُخْرَجُونَ مِنَ الْأَلْحَادِ ﴾ وهي القبور ﴿ كَانَهُمْ جَرَادٌ مُّثَنِّيرٌ ﴾ أي كأنهم في انتشارهم وسرعة سيرهم إلى موقف الحساب إجابة للداعي جراد منتشر في الآفاق ، ولهذا قال ﴿ مُطْطِيعِينَ ﴾ أي مسرعين ﴿ إِلَى الدَّاعِ ﴾ لا

(١) أخرجه أحمد في مسنده (١٦٥/٣) .

(٢) أخرجه البخاري في تفسير القرآن (٤٨٦٤) وأحمد في مسنده (٨١/٤) .

(٣) أخرجه البخاري في تفسير القرآن (٤٨٦٦) .

(٤) أخرجه البخاري في تفسير القرآن (٤٨٦٤) وأحمد في مسنده (٣٧٧/١) .

يخالفون ولا يتأخرون ﴿ يَبُولُ الْكَافِرُونَ هَذَا يَوْمَ عَيْشٍ ﴾ أي يوم شديد الهول عبوس قمطير .

﴿ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا عَبْدَنَا وَقَالُوا مَجْنُونٌ وَازْدَجَرَ ۝ فَدَعَا رَبَّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانْتَصِرَ ۝ فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُنْهَرٍ ۝ وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُونًا فَالْتَقَى الْمَاءُ عَلَى أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ ۝ وَجَمَعْنَاهُ عَلَى ذَاتِ الْوَجِّ وَدُسِرَ ۝ تَجَرَّى بِأَعْيُنِنَا جَزَاءُ لِمَن كَانَ كَفِرَ ۝ وَلَقَدْ تَرَكْنَاهَا آيَةً فَهَلْ مِن مُّدَكِّرٍ ۝ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذْرٍ ۝ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَكِّرٍ ﴾ .

يقول تعالى : ﴿ كَذَّبَتْ ﴾ قبل قومك يا محمد ﴿ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا عَبْدَنَا ﴾ أي صرحوا له بالتكذيب واتهموه بالجنون ﴿ وَقَالُوا مَجْنُونٌ وَازْدَجَرَ ﴾ قال مجاهد : وازدجر . أي استطير جنونا ، وقيل : وازدجر أي انتهروه وزجروه وتواعدهو لمن لم تنته يا نوح لتكونن من المرجومين ، قاله ابن زيد ، وهذا متوجه حسن ﴿ فَدَعَا رَبَّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانْتَصِرَ ﴾ أي إني ضعيف عن هؤلاء وعن مقاومتهم فانتصر أنت لدينك . قال الله تعالى : ﴿ فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُنْهَرٍ ﴾ قال السدي : وهو الكثير ﴿ وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُونًا ﴾ أي نبعث جميع أرجاء الأرض حتى التناير التي هي محال النيران نبعث عيوننا ، ﴿ فَالْتَقَى الْمَاءُ ﴾ أي من السماء والأرض ﴿ عَلَى أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ ﴾ أي أمر مقدر .

وعن ابن عباس ﴿ فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُنْهَرٍ ﴾ كثير لم تمطر السماء قبل ذلك اليوم ولا بعده إلا من السحاب ، فتحت أبواب السماء بالماء من غير سحاب ذلك اليوم ، فالتقى الماء على أمر قد قدر ، ﴿ وَجَمَعْنَاهُ عَلَى ذَاتِ الْوَجِّ وَدُسِرَ ﴾ ، قال ابن عباس وسعيد بن جبير والقرظي وقادة وابن زيد : هي المسامير ، واختاره ابن جرير ، قال : وواحد دسار . وقال مجاهد : الدسر أضلاع السفينة . وقال عكرمة والحسن : هو صدرها الذي يضرب به الموج . وقال الضحاك : الدسر طرفاها وأصلها ، وقوله : ﴿ تَجَرَّى بِأَعْيُنِنَا ﴾ أي بأمرنا بمرأى منا وتحت حفظنا وكلاءتنا ﴿ جَزَاءُ لِمَن كَانَ كَفِرَ ﴾ أي جزاء لهم على كفرهم بالله وانتصارا لنوح عليه السلام .

وقوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ تَرَكْنَاهَا آيَةً ﴾ قال قتادة : أبقي الله سفينة نوح حتى أدركها أول هذه الأمة ، والظاهر أن المراد من ذلك جنس السفن ، كقوله تعالى : ﴿ وَآيَةً لِّمَن أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِي الْفُلِّ الْمَشْحُونِ ۝ وَخَلَقْنَا لِمَن يَنْصَلِيهِ مَابِرَكَيْنِ ﴾ ، ولهذا قال ههنا ﴿ فَهَلْ مِن مُّدَكِّرٍ ﴾ أي فهل من يتذكر ويتعظ . وعن أبي إسحاق أنه سمع رجلا يسأل الأسود : ﴿ فَهَلْ مِن مُّدَكِّرٍ ﴾ أو مذكر ؟ قال : سمعت عبد الله يقرأ ﴿ فَهَلْ مِن مُّدَكِّرٍ ﴾ وقال : سمعت رسول الله ﷺ يقرأها ﴿ فَهَلْ مِن مُّدَكِّرٍ ﴾ دالا ^(١) .

وقوله تعالى : ﴿ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذْرٍ ﴾ أي كيف كان عذابي لمن كفر بي وكذب رسلي ، ولم يتعظ بما جاءت به نذري ، وكيف انتصرت لهم وأخذت لهم بالثأر ﴿ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ ﴾ أي سهلنا لفظه ويسرنا معناه لمن أراد له ليتذكر الناس ، وعن ابن عباس : لولا أن الله يسره على لسان الآدميين ما استطاع أحد من الخلق أن يتكلم بكلام الله ﷻ ، قلت : ومن تيسيره تعالى على الناس تلاوة القرآن ما تقدم عن النبي ﷺ أنه قال : « إن هذا القرآن أنزل على سبعة أحرف » ^(٢) وقوله ﴿ فَهَلْ مِن مُّدَكِّرٍ ﴾ أي فهل من متذكر بهذا القرآن الذي قد يسر الله حفظه ومعناه ؟ ، وقال محمد ابن كعب القرظي : فهل من منزجر عن المعاصي .

(٢) أخرجه البخاري في فضائل القرآن (٤٩٩٢) .

(١) أخرجه البخاري في تفسير القرآن (٤٨٧١) .

﴿ كَذَّبَتْ عَادٌ فَكَيْفَ كَانَ عَدَايَ وَنَذِيرٍ ﴿١٨﴾ إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا مَّرَصْرَاً فِي يَوْمٍ نَحْسٍ مُّسْتَمِرٍّ ﴿١٩﴾ تَنْزِجُ النَّاسَ كَالْهَيْمِ أَعْجَازُ نَخْلٍ مَّنْفَعِرٍ ﴿٢٠﴾ فَكَيْفَ كَانَ عَدَايَ وَنَذِيرٍ ﴿٢١﴾ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُّذَكِّرٍ ﴿٢٢﴾ ۝

يقول تعالى مخبراً عن عاد قوم هود ، أنهم كذبوا رسولهم أيضاً ، كما صنع قوم نوح وأنه تعالى أرسل عليهم ﴿ رِيحًا مَّرَصْرَاً ﴾ وهي الباردة الشديدة البرد ﴿ فِي يَوْمٍ نَحْسٍ ﴾ أي عليهم ، ﴿ مُّسْتَمِرٍّ ﴾ عليهم نحسه ودماره ؛ لأنه يوم اتصل فيه عذابهم الدنيوي بالأخروي . بقوله تعالى : ﴿ تَنْزِجُ النَّاسَ كَالْهَيْمِ أَعْجَازُ نَخْلٍ مَّنْفَعِرٍ ﴾ وذلك أن الريح كانت تأتي أحدهم فترفعه حتى تغيبه عن الأبصار ، ثم تنكسه على أم رأسه فيسقط إلى الأرض ، فتثقل رأسه فيبقى جثة بلا رأسه ، ولهذا قال : ﴿ كَالْهَيْمِ أَعْجَازُ نَخْلٍ مَّنْفَعِرٍ ﴾ فكيف كان عداي ونذير ﴿ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُّذَكِّرٍ ۝

﴿ كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِالنُّذُرِ ﴿٢٣﴾ فَقَالُوا أَبَشَرًا مِّنَّا وَاحِدًا نَّنِيعُهُ ﴿٢٤﴾ إِنَّا إِذَا لَبِئْنَا ضَلَّلِيلٍ وَسُعُرٍ ﴿٢٥﴾ أَلَمَلِىَ الذِّكْرُ عَلَيْهِ مِنْ بَيْنِنَا بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَثِيرٌ ﴿٢٦﴾ سَيَعْمَلُونَ عَدَاً مِّنَ الْكُذَّابِ الْآثِيرِ ﴿٢٧﴾ إِنَّا مُرْسِلُوا النَّاقَةِ فَمَنَئِيْلُ لَّهُمْ فَارْتَقِبْهُمْ وَاصْطَبِرْ ﴿٢٨﴾ وَنَبِّئْهُمْ أَنَّ الْمَاءَ قِسْمَةٌ بَيْنَهُمْ كُلٌّ يُّزْبِذُ تُخَفَضُّ ﴿٢٩﴾ فَادَّوَّا صَاحِبَهُمْ فَتَعَاطَى فَمَقَرَ ﴿٣٠﴾ فَكَيْفَ كَانَ عَدَايَ وَنَذِيرٍ ﴿٣١﴾ إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْعَةً رَّجْدَةً فَكَانُوا كَالْهَيْبِ الْمَخْطِرِ ﴿٣٢﴾ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُّذَكِّرٍ ۝

وهذا إخبار عن ثمود أنهم كذبوا رسولهم صالحاً ﴿ فَقَالُوا أَبَشَرًا مِّنَّا وَاحِدًا نَّنِيعُهُ ﴾ إِنَّا إِذَا لَبِئْنَا ضَلَّلِيلٍ وَسُعُرٍ ﴿٢٥﴾ يقولون : لقد خبنا وخسرنا إن سلمنا كلنا قيادنا لواحد منا . ثم تعجبوا من إلقاء الوحي عليه خاصة من دونهم ثم رموه بالكذب فقالوا : ﴿ بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَثِيرٌ ﴾ أي متجاوز في حد الكذب ، قال الله تعالى : ﴿ سَيَعْمَلُونَ عَدَاً مِّنَ الْكُذَّابِ الْآثِيرِ ﴾ وهذا تهديد لهم شديد ووعيد أكيد . ثم قال تعالى : ﴿ إِنَّا مُرْسِلُوا النَّاقَةِ فَمَنَئِيْلُ لَّهُمْ ﴾ أي اختبأوا لهم ، أخرج الله لهم ناقة عظيمة عشراء ، من صخرة صماء طبق ما سألوا ، لتكون حجة الله عليهم في تصديق صالح عليه السلام فيما جاءهم به ، ثم قال تعالى آمراً لعبده ورسوله صالح : ﴿ فَارْتَقِبْهُمْ وَاصْطَبِرْ ﴾ أي انتظر ما يؤول إليه أمرهم ، واصبر عليهم فإن العاقبة لك ، والنصر في الدنيا والآخرة ﴿ وَنَبِّئْهُمْ أَنَّ الْمَاءَ قِسْمَةٌ بَيْنَهُمْ ﴾ أي يوم لهم ويوم للناقة .

وقوله تعالى : ﴿ كُلٌّ يُّزْبِذُ تُخَفَضُّ ﴾ قال مجاهد : إذا غابت حضروا الماء . وإذا جاءت حضروا اللبن ، ثم قال تعالى : ﴿ فَادَّوَّا صَاحِبَهُمْ فَتَعَاطَى فَمَقَرَ ﴾ قال المفسرون : هو عافر الناقة واسمه قدار بن سالف وكان أشقى قومه . ﴿ فَتَعَاطَى ﴾ أي حسر ﴿ فَمَقَرَ ﴾ فكيف كان عداي ونذير ﴿ أَيِ فَعَاقِبْتَهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِي لَهُمْ ﴾ على كفرهم بي وتكذيبهم رسولي ﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْعَةً رَّجْدَةً فَكَانُوا كَالْهَيْبِ الْمَخْطِرِ ﴾ أي فبادوا عن آخرهم لم تبق منهم باقية ، وخمدوا وهمدوا كما يهمد ييس الزرع والنبات والمختظر هو المرعى بالصحراء حين ييس ويحترق وتسفيه الريح ، وقال ابن زيد : كانت العرب يجعلون حظاراً على الإبل والمواشي .

﴿ كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ بِالنُّذُرِ ﴿٣٣﴾ إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِبًا إِلَّا مَالَ لُوطٍ لَّجَّئَتْهُمُ بَسْرٌ ﴿٣٤﴾ نِعْمَةً مِّنْ عِنْدِنَا كَذَلِكَ نَجْزِي مَنْ شَكَرَ ﴿٣٥﴾ وَلَقَدْ أَنْذَرَهُمْ بَطْشَتَنَا فَتَمَارَا بِالنُّذُرِ ﴿٣٦﴾ وَلَقَدْ رَاوَدُوهُ عَنْ صَافِيَةٍ فَلَمَسَهَا فَعِجِبَتْ فِدُوهُوَ عَدَايَ وَنَذِيرٍ ﴿٣٧﴾ وَلَقَدْ صَبَّحَهُمْ بِكْرَةٌ عَدَابٌ مُّسْتَقِرٌّ ﴿٣٨﴾ فَدُوقُوا عَذَابِي وَنَذِيرٍ ﴿٣٩﴾ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُّذَكِّرٍ ۝

يقول تعالى مخبراً عن قوم لوط كيف كذبوا رسولهم وخالفوه ، وارتكبوا المكروه من إتيان الذكور وهي الفاحشة التي لم يسبقهم بها أحد من العالمين ، ولهذا أهلكهم الله هلاكاً لم يهلكه أمة

من الأمم ، فإنه تعالى أمر جبريل عليه السلام فحمل مدائنهم حتى وصل بها إلى عنان السماء ، ثم قلبها عليهم وأرسلها وأتبع بحجارة من سجيل منضود ، ولهذا قال ههنا ﴿ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ عَلَيْهَا حَاصِبًا ﴾ وهي الحجارة ﴿ إِلَّا عَالِ لُوطٍ نَجَّيْنَاهُمْ بِسَحَرٍ ﴾ أي خرجوا من آخر الليل فنجوا مما أصاب قومهم ، ولم يؤمن بلوط من قومه أحد ولا رجل واحد ، حتى ولا امرأته ، أصابها ما أصاب قومها ، وخرج نبي الله لوط وبنات له من بين أظهرهم سالماً لم يمسسه سوء ، ولهذا قال تعالى : ﴿ كَذَلِكَ نَجِّي مِنَ الشَّرِّ ﴾ وَلَقَدْ أَنْذَرَهُمْ بَطْشَتَنَا ﴾ أي ولقد كان قبل حلول العذاب بهم قد أنذرهم بأس الله وعذابه فما التفتوا إلى ذلك ولا أصغوا إليه ، بل شكوا فيه وتمازوا به ﴿ وَلَقَدْ رَدَدْنَاهُ عَنْ صَفِيِّهِ ﴾ وذلك ليلة ورد عليه الملائكة في صور شباب مرد حسان محنة من الله بهم ، فأضافهم لوط عليه السلام ، وبعثت امرأته العجوز السوء إلى قومها فأعلمتهم بأضياف لوط ، فأقبلوا يهرعون إليه من كل مكان ، فأغلق لوط دونهم الباب ، فجعلوا يحاولون كسر الباب ، وذلك عشية ، ولوط عليه السلام يدافعهم ويمانعهم دون أضيافه قال الله تعالى ﴿ وَلَقَدْ صَبَّحَهُمْ بُكْرَةً عَذَابٌ مُسْتَقِرٌّ ﴾ أي لا محيد لهم عنه ولا انفكاك لهم منه ﴿ فَذُوقُوا عَذَابِي وَنُذْرِي ﴾ وَلَقَدْ يَسْرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ .

﴿ وَلَقَدْ جَاءَ عَالِ فِرْعَوْنَ الْوَحْدُ ﴾ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كُلِّهَا فَأَخَذْنَاهُ أَخْذَ عَزِيزٍ مُقْتَدِرٍ ﴿ أَكْفَارُكَ خَيْرٌ مِنْ أَوْلَئِكَ أَمْ لَكَ بَرَاءَةٌ فِي الزُّبُرِ ﴾ أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُنْتَصِرُونَ ﴿ سَيَهْبِتُهُمُ الْيَمُّ وَيُؤَلِّقُونَ الدُّبُرَ ﴾ بَلِ السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَالسَّاعَةُ أَذَى وَأَمْرٌ ﴿ يقول تعالى مخبراً عن فرعون وقومه : إنهم جاءهم رسول الله موسى وأخوه هارون بالبراسة إن آمنوا ، والنذارة إن كفروا ، وأيدهما بمعجزات عظيمة وآيات متعددة فكذبوا بها كلها ، فأخذهم الله أخذ عزيز مقتدر أي فأبادهم الله ولم يبق منهم مخبر ولا عين ولا أثر . ثم قال تعالى : ﴿ أَكْفَارُكَ ﴾ أي أيها المشركون من كفار قريش ﴿ خَيْرٌ مِنْ أَوْلَئِكَ ﴾ يعني من الذين تقدم ذكرهم ممن أهلكوا بسبب تكذيبهم الرسل وكفرهم بالكتب ، أنتم خير من أولئك ، ﴿ أَمْ لَكَ بَرَاءَةٌ فِي الزُّبُرِ ﴾ أي أم معكم من الله براءة أن لا ينالكم عذاب ولا نكال ، ثم قال تعالى مخبراً عنهم : ﴿ أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُنْتَصِرُونَ ﴾ أي يعتقدون أنهم يتناصرون بعضهم بعضاً ، وأن جمعهم يغني عنهم من أرادهم بسوء . قال الله تعالى : ﴿ سَيَهْبِتُهُمُ الْيَمُّ وَيُؤَلِّقُونَ الدُّبُرَ ﴾ أي سيتفرق شملهم ويغلبون .

عن ابن عباس أن النبي صلى الله عليه وسلم قال وهو في قبة له يوم بدر : « أنشدك عهدك ووعدك ، اللهم إن شئت لم تعبد بعد اليوم في الأرض أبداً » فأخذ أبو بكر رضي الله عنه بيده وقال : حسبك يا رسول الله ألححت على ربك ، فخرج وهو يثب في الدرع وهو يقول : ﴿ سَيَهْبِتُهُمُ الْيَمُّ وَيُؤَلِّقُونَ الدُّبُرَ ﴾ بَلِ السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَالسَّاعَةُ أَذَى وَأَمْرٌ ﴿ ^(١) وعن يوسف بن ماهك قال : إني عند عائشة أم المؤمنين فقالت : نزل على محمد صلى الله عليه وسلم بمكة وإني لجارية ألب ^(٢) ﴿ بَلِ السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَالسَّاعَةُ أَذَى وَأَمْرٌ ﴾ ^(٣) .

﴿ إِنَّ الْمُتَجَرِّمِينَ فِي صَلَاحٍ وَشَرٍّ ﴾ يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي النَّارِ عَلَى وُجُوهِهِمْ ذُوقُوا مَسَّ سَقَرَ ﴿ إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ ﴿ وَمَا أَمْرُنَا إِلَّا وَجْدَةٌ كُلَّجٍ بِالْبَصَرِ ﴾ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا أَشْيَاعَكُمْ فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ ﴿ وَكُلَّ شَيْءٍ فَعَلُوهُ فِي الزُّبُرِ ﴾

(١) أخرجه البخاري في تفسير القرآن (٤٨٧٧) والبيهقي في السنن (٤٦/٩) .

(٢) أخرجه أحمد في مسنده (٤٤٤/٢) .

وَكُلَّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُسْتَطَرٌّ ﴿٤٦﴾ إِنَّ الْفُتَيْنِ فِي جَنَّتٍ وَنَهْرٍ ﴿٤٧﴾ فِي مَقْعَدٍ صِدْقٍ عِنْدَ مَلِكٍ مُنْقَدِرٍ ﴿٤٨﴾ .

يخبرنا تعالى عن المجرمين أنهم في ضلال عن الحق ، وسعر مما هم فيه من الشكوك والاضطراب في الآراء ، وهذا يشمل كل من اتصف بذلك من كافر ومبتدع من سائر الفرق ، ثم قال تعالى : ﴿يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي النَّارِ عَلَى وُجُوهِهِمْ﴾ أي كما كانوا في سعر وشك وتردد ، أورثهم ذلك النار ، وكما كانوا ضلالاً يسحبون فيها على وجوههم لا يدرون أين يذهبون ، ويقال لهم تقريباً وتوبيخاً ﴿ذُوقُوا مَسَّ سَرَرَ﴾ . وقوله تعالى : ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ﴾ كقوله : ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَرَهُ تَقْدِيرًا﴾ ، ولهذا يستدل بهذه الآية الكريمة أئمة السنة على إثبات قدر الله السابق لخلقه ، وهو علمه الأشياء قبل كونها وكتابته لها قبل برئها ، وردوا بهذه الآية وبما شاكلها من الآيات وما ورد في معناها من الأحاديث الثابتات على الفرقة القدرية ، الذين نبغوا في أواخر عصر الصحابة .

عن أبي هريرة قال : جاء مشركو قريش إلى النبي ﷺ يخاصمونهم في القدر فنزلت ﴿يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي النَّارِ عَلَى وُجُوهِهِمْ ذُوقُوا مَسَّ سَرَرَ﴾ ﴿٤٦﴾ إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ ﴿٤٧﴾ .^(١)

عن ابن زرارة عن أبيه عن النبي ﷺ أنه تلا هذه الآية ﴿ذُوقُوا مَسَّ سَرَرَ﴾ ﴿٤٦﴾ إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ ﴿٤٧﴾ قال : « نزلت في أناس من أمتي يكونون في آخر الزمان يكذبون بقدر الله »^(٢) . وعن عبد الله بن عباس قال : قيل له أن رجلاً قدم علينا يكذب بالقدر ، فقال : دلوني عليه وهو أعمى ، قالوا : وما تصنع به يا أبا عباس ، قال : والذي نفسي بيده لئن استمكننت منه لأعضن أنفه حتى أقطعها ، ولئن وقعت رقبته في يدي لأدقنها فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول : « كأني بنساء بني فهر يطفن بالخزرج تصطفق ألياتهن مشركات ، هذا أول شرك هذه الأمة ، والذي نفسي بيده لينتهين بهم سوء رأيهم حتى يخرجوا الله من أن يكون قدر خيرا ، كما أخرجوه من أن يكون قدر شرا »^(٣) .

وعن نافع قال : كان لابن عمر صديق من أهل الشام يكتبه . فكتب إليه عبد الله بن عمر أنه بلغني أنك تكلمت في شيء من القدر ، فإياك أن تكتب إلي فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول : « سيكون في أمتي أقوام يكذبون بالقدر »^(٤) وعن طاوس اليماني قال : سمعت ابن عمر قال : قال رسول الله ﷺ : « كل شيء بقدر حتى العجز والكيس »^(٥) . وفي الحديث الصحيح : « استعن بالله ولا تعجز ، فإن أصابك أمر فقل ، قدر الله وما شاء فعل ، ولا تقل ، لو أني فعلت لكان كذا فإن لو تفتح عمل الشيطان »^(٦) وفي حديث ابن عباس : أن رسول الله ﷺ قال له : « واعلم أن الأمة لو اجتمعوا على أن ينفعوك بشيء لم يكتبه الله لك لم ينفعوك ، ولو اجتمعوا على أن يضروك بشيء لم يكتبه الله عليك لم يضروك جفت الأقلام وطويت الصحف »^(٧) وعن عبد الله بن عمرو قال :

(١) أخرجه مسلم في القدر (١٩) والترمذي في السنن (٣٢٩٠) وأحمد في مسنده (٤٤٤/٢) .

(٢) أخرجه الطبراني في الكبير (٣١٩/٥) والبيهقي في مجمع الزوائد (١١٧/٧) .

(٣) أخرجه أحمد في مسنده (٣٣٠/١) . (٤) أخرجه أحمد في مسنده (٩٠/٢) .

(٥) أخرجه مسلم في القدر (٨) وأحمد في مسنده (١١٠/٢) .

(٦) أخرجه مسلم في القدر (٣٤) وابن ماجه في السنن (٧٩) والبيهقي في السنن (١٤٨/١) .

(٧) أخرجه أحمد في مسنده (٢٩٣/١) .

قال رسول الله ﷺ : « إن الله كتب مقادير الخلق قبل أن يخلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة » زاد ابن وهب ﴿ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ ﴾ ^(١) .

وقوله تعالى : ﴿ وَمَا أَمْرُنَا إِلَّا وَجِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ ﴾ وهذا إخبار عن نفوذ مشيئته في خلقه ، كما أخبر بنفوذ قدره فيهم فقال : ﴿ وَمَا أَمْرُنَا إِلَّا وَجِدَةٌ ﴾ أي إنما نأمر بالشيء مرة واحدة لا نحتاج إلى تأكيد بثانية ، فيكون ذلك الذي نأمر به حاصلًا موجودًا كلمح البصر ، لا يتأخر طرفة عين ، وما أحسن ما قال بعض الشعراء :

إذا ما أراد الله أمراً
فإنما يقول له كن قوله فيكون

وقوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا أَشْيَاعَكُمْ ﴾ يعني أمثالكم وسلفكم من الأمم السابقة المكذبين بالرسول ﴿ فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ ﴾ أي فهل من منعت بما أخزى الله أولئك وقدر لهم من العذاب ، وقوله تعالى : ﴿ وَكُلُّ شَيْءٍ فَعَلُوهُ فِي الزُّبُرِ ﴾ أي مكتوب عليهم في الكتب التي بأيدي الملائكة ﷺ ﴿ وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ ﴾ أي من أعمالهم ﴿ تُسَنَّتْ ﴾ أي مجموع عليهم ومسطر في صحائفهم ، لا يغادر صغيرة ولا كبيرة ألا أحصاها ، وعن عائشة أن رسول الله ﷺ كان يقول : « يا عائشة إياك ومحقرات الذنوب ، فإن لها من الله طالباً » ^(٢) .

وقوله تعالى : ﴿ إِنَّ لِلنَّفِثِينَ فِي جَنَّتِ وَهَرٍ ﴾ أي بعكس ما الأشقياء فيه من الضلال والسعر والسحب في النار على وجوههم ، مع التوبيخ والتقريع والتهديد . وقوله تعالى : ﴿ فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ ﴾ أي في دار كرامة الله ورضوانه وفضله وامتنانه وجوده وإحسانه ﴿ عِنْدَ مَلِكٍ مُّقْنَدٍ ﴾ أي عند الملك العظيم الخالق للأشياء كلها ومقدرها . وهو مقتدر على ما يشاء مما يطلبون ويريدون . عن عبد الله بن عمرو يبلغ به النبي ﷺ قال : « المقسطون عند الله على منابر من نور عن يمين الرحمن وكلتا يديه يمين ، الذين يعدلون في حكمهم وأهليهم وما ولوا » ^(٣) .

(١) أخرجه الحاكم في المستدرک (٢٦٠/٢) .

(٢) أخرجه أحمد في مسنده (٧٠/٦) والدارمي في السنن (٣٠٣/٢) والمنذري في الترغيب والترهيب (٣١٢/٣) .

(٣) أخرجه أحمد في مسنده (٢٠٣/٢) والحاكم في المستدرک (٨٨/٤) والبيهقي في السنن (٨٧/١٠) .

سورة الرحمن

عن زر أن رجلاً قال : كيف تعرف هذا الحرف من ماء غير آسن أو أسن ، فقال : كل القرآن قد قرأت . قال : إني لأقرأ المفصل في ركعة واحدة ، فقال : أهذا كهذا الشعر لا أبالك ، قد علمت قرأتين النبي ﷺ التي كان يقرن قرينتين من أول المفصل ، وكان أول مفصل ابن مسعود ﴿ الرَّحْمَنُ ﴾ ^(١) .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ الرَّحْمَنُ ﴾ ١ عِلَّمَ الْقُرْآنَ ٢ خَلَقَ الْإِنْسَانَ ٣ عَلَّمَهُ الْبَيَانَ ٤ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ ٥ وَالنَّجْمُ وَالشَّجَرُ يَسْجُدَانِ ٦ وَالسَّمَاءُ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ ٧ أَلَّا تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ ٨ وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ ٩ وَالْأَرْضُ وَضَعَهَا لِلْأَنَارِ ١٠ فِيهَا فَكِكُمْهُ ١١ وَالْخَلْقُ ذَاتُ الْأَكْبَارِ ١٢ وَلَقَبْتُ ذُو الْقُصْفِ وَالرَّيْحَانُ ١٣ فَيَا أَيُّهَا الْآءُ رَيْكُمَا تَكْذِبَانِ .

يخبر تعالى عن فضله ورحمته بخلقه أنه أنزل على عباده القرآن ، ويسر حفظه وفهمه على من رحمه فقال تعالى : ﴿ الرَّحْمَنُ ﴾ ١ عِلَّمَ الْقُرْآنَ ٢ خَلَقَ الْإِنْسَانَ ٣ عَلَّمَهُ الْبَيَانَ ٤ قال الحسن : يعني النطق ، وقال الضحاك وقتادة وغيرهما : يعني الخير والشر ، وقول الحسن ههنا أحسن وأقوى ؛ لأن السياق في تعليمه تعالى القرآن ، وهو أداء تلاوته ، وإنما يكون ذلك بتيسير النطق على الخلق ، وتسهيل خروج الحروف من مواضعها من الحلق واللسان والشفيتين على اختلاف مخارجها وأنواعها . وقوله تعالى : ﴿ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ ﴾ أي يجريان متعاقبين بحساب مقنن لا يختلف ولا يضطرب . وعن عكرمة أنه قال : لو جعل الله نور جميع أبصار الإنسان والجن والدواب والطيور في عيني عبد ، ثم كشف حجاباً واحداً من سبعين حجاباً دون الشمس ، لما استطاع أن ينظر إليها . ونور الشمس جزء من سبعين جزءاً من نور الكرسي ، ونور الكرسي جزء من سبعين جزءاً من نور العرش ، ونور العرش جزء من سبعين جزءاً من نور الستر . فأنظر ماذا أعطى الله عبده من النور في عينيه وقت النظر إلى وجه ربه الكريم عياناً . وقوله تعالى : ﴿ وَالنَّجْمُ وَالشَّجَرُ يَسْجُدَانِ ﴾ قال ابن جرير : اختلف المفسرون في معنى قوله ﴿ وَالنَّجْمُ ﴾ بعد إجماعهم على أن الشجر ما قام على ساق ، وعن ابن عباس ؓ قال : النجم ما انبسط على وجه الأرض يعني من النبات وقد اختاره ابن جرير رضي الله عنه تعالى . وقال مجاهد : النجم الذي في السماء . وهذا القول هو الأظهر والله أعلم .

وقوله تعالى : ﴿ وَالسَّمَاءُ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ ﴾ يعني العدل ﴿ أَلَّا تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ ﴾ أي خلق السموات والأرض بالحق والعدل لتكون الأشياء كلها بالحق والعدل . ولهذا قال تعالى : ﴿ وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ ﴾ أي لا تبخسوا الوزن بل زنوا بالحق والقسط وقوله تعالى : ﴿ وَالْأَرْضُ وَضَعَهَا لِلْأَنَارِ ﴾ أي كما رفع السماء وضع الأرض ومهدا وأرساها بالجبال الراسيات الشامخات ، لتستقر بما على وجهها من الأنام وهم الخلائق المختلفة أنواعهم وأشكالهم وألوانهم وألوانهم وألوانهم في سائر أقطارها وأرجائها .

﴿ فِيهَا فَاكِهَةٌ ﴾ أي مختلفة الألوان والطعوم والروائح ﴿ وَالنَّخْلُ ذَاتُ الْأَكْمَامِ ﴾ أفردته بالذكر لشرفه ونفعه وطبًا وبأسًا ، ﴿ الْأَكْمَامِ ﴾ : هي أوعية الطلع ، وهو الذي يطلع فيه القنؤ ثم ينشق عن العنقود ، فيكون بسرًا ثم رطبًا ثم ينضج ويتناهى يفعه واستواؤه . ﴿ وَلَقَدْ ذُو الْقَفْصِ وَالرِّيحَانُ ﴾ قال ابن عباس : يعني التبن . وقال : العصف ورق الزرع الأخضر الذي قطع رؤوسه ، فهو يسمى العصف إذا يس ، وقال : والريحان يعني الورق . وقال الحسن : هو ريحانكم هذا ، وقال ابن عباس : والريحان خضر الزرع ، ومعنى هذا - والله أعلم - أن الحب كالقمح والشعير ونحوهما له في حال نباته عصف ، وهو ما على السنبلة ، وريحان وهو الورق الملتف على ساقها .

وقوله تعالى : ﴿ فَيَأْتِي ءَالَآءُ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ أي فبأي الألاء يا معشر الثقلين من الإنس والجن تكذبان ؟ قاله مجاهد وغير واحد ، ويدل عليه السياق بعده ، أي النعم ظاهرة عليكم وأنتم مغمورون بها لا تستطيعون إنكارها ولا جحودها ، فنحن نقول كما قالت الجن المؤمنون به : اللهم ولا بشيء من الآلائك ربنا نكذب ، فلك الحمد . عن أسماء بنت أبي بكر قالت : سمعت رسول الله ﷺ وهو يقرأ وهو يصلي نحو الركن قبل أن يصدع بما يؤمر والمشركون يستمعون ﴿ فَيَأْتِي ءَالَآءُ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ ^(١) .

﴿ خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَلٍ كَالْفَخَّارِ ۝ وَخَلَقَ الْجَانَّ مِنْ مَّارِجٍ مِنْ نَارٍ ۝ فَيَأْتِي ءَالَآءُ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝ رَبُّ الْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ الْمَغْرِبَيْنِ ۝ فَيَأْتِي ءَالَآءُ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝ مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ ۝ بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَا يَبْغِيَانِ ۝ فَيَأْتِي ءَالَآءُ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝ يَخْرُجُ مِنْهُمَا اللُّؤْلُؤُ وَالْمَرْجَانُ ۝ فَيَأْتِي ءَالَآءُ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝ وَلَهُ الْمَوَارِجُ الْمَتَشَاتُ فِي الْبَحْرِ ۝ كَالْعَلَمِ ۝ فَيَأْتِي ءَالَآءُ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝ ﴾

يذكر تعالى خلقه الإنسان من صلصال كالفخار ، وخلق الجن من نار وهو طرف لهما ، وعن عائشة ، قالت : قال رسول الله ﷺ : « خلقت الملائكة من نور ، وخلق الجن من نار ، وخلق آدم مما وصف لكم » ^(٢) . وقوله تعالى : ﴿ رَبُّ الْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ الْمَغْرِبَيْنِ ﴾ يعني مشرقى الصيف والشتاء ومغربى الصيف والشتاء ولما كان في اختلاف هذه المشارق والمغارب مصالح للخلق من الجن والإنس قال : ﴿ فَيَأْتِي ءَالَآءُ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ وقوله تعالى : ﴿ مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ ﴾ قال ابن عباس : أي أرسلهما . وقوله ﴿ يَلْتَقِيَانِ ﴾ قال ابن زيد : أي منعهما أن يلتقيا بما جعل بينهما من البرزخ الحاجز الفاصل بينهما ، والمراد بقوله ﴿ الْبَحْرَيْنِ ﴾ الملح والحلو ، فالخلو هذه الأنهار السارحة بين الناس وقد اختار ابن جرير ههنا أن المراد بالبحرين : بحر السماء وبحر الأرض قال ابن جرير : لأن اللؤلؤ يتولد من ماء السماء وأصداف بحر الأرض ، وهذا وإن كان هكذا ليس المراد بذلك ما ذهب إليه ، فإنه لا يساعده اللفظ ؛ فإنه تعالى قد قال : ﴿ بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَا يَبْغِيَانِ ﴾ أي وجعل بينهما برزخًا ، وهو الحاجز من الأرض لئلا يغني هذا على هذا ، وهذا على هذا ، فيفسد كل واحد منهما الآخر ويزيله عن صفته التي هي مقصودة منه ، وما بين السماء والأرض لا يسمى برزخًا وحجراً محجوراً .

وقوله تعالى : ﴿ يَخْرُجُ مِنْهُمَا اللُّؤْلُؤُ وَالْمَرْجَانُ ﴾ أي من مجموعهما ، فإذا وجد ذلك من أحدهما

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٣٤٩/٦) .

(٢) أخرجه مسلم في الزهد (٦٠) والبيهقي في السنن (٣/٩) وأحمد في مسنده (١٥٣/٦) .

كفى . واللؤلؤ معروف ، وأما المرجان فقيل : هو صغار اللؤلؤ ، وقيل : كباره وحجده ، وقيل : هو نوع من الجواهر أحمر اللون عن عبد الله قال : المرجان الخرز الأحمر . وعن ابن عباس قال : إذا أمطرت السماء فتحت الأصداف في البحر أفواها فما وقع فيها ، يعني من قطر فهو اللؤلؤ ولما كان اتخاذ هذه الحلية نعمة على أهل الأرض ، امتن بها عليهم فقال : ﴿ فَإِنِّي ءَالَاءُ رِيكُمَا تَكْذِبَانِ ﴾ .

وقوله تعالى : ﴿ وَكَهْ لِحُجْرٍ أَلْتَشَاكَ ﴾ يعني السفن التي تجري ﴿ فِي الْبَحْرِ ﴾ قال مجاهد : ما رفع قلعه من السفن فهي منشآت وما لم يرفع قلعه فليس بمنشآت ، وقال قتادة : المنشآت يعني المخلوقات ، وقال غيره : المنشآت بكسر الشين يعني البادات ﴿ كَالْأَعْلَمِ ﴾ أي كالجبال في كبرها وما فيها من المتاجر والمكاسب المنقولة من قطر إلى قطر وإقليم إلى إقليم ، مما فيه صلاح الناس في جلب ما يحتاجون إليه من سائر أنواع البضائع ، ولهذا قال : ﴿ فَإِنِّي ءَالَاءُ رِيكُمَا تَكْذِبَانِ ﴾ عن عمرة بن سويد قال : كنت مع علي بن أبي طالب ؓ على شاطئ الفرات إذ أقبلت سفينة مرفوع شراعها ، فبسط علي يديه ثم قال : يقول الله ﷻ : ﴿ وَكَهْ لِحُجْرٍ أَلْتَشَاكَ فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلَمِ ﴾ والذي أنشأها تجري في بحوره ما قتلت عثمان ولا مالأت على قتله .

﴿ كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴾ وَبَيَّنَّ وَجْهَ رِيكَ ذُو الْجَلْدِ وَالْإِكْرَامِ ﴿ فَإِنِّي ءَالَاءُ رِيكُمَا تَكْذِبَانِ ﴾ يَتَنَلَّهَنَّ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلُّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ ﴿ فَإِنِّي ءَالَاءُ رِيكُمَا تَكْذِبَانِ ﴾ .

يخبر تعالى أن جميع أهل الأرض سيذهبون ويموتون أجمعون ، وكذلك أهل السماوات إلا من شاء الله ولا يبقى أحد سوى وجهه الكريم ، فإن الرب تعالى وتقدس لا يموت بل هو الحي الذي لا يموت أبداً ، قال قتادة : أنبأ بما خلق ثم أنبأ أن ذلك كله فان . وفي الدعاء المأثور : يا حي يا قيوم يا بديع السموات والأرض يا ذا الجلال والإكرام ، لا إله إلا أنت برحمتك نستغيث ، أصلح لنا شأننا كله ، ولا تكلنا إلى أنفسنا طرفة عين ، ولا إلى أحد من خلقك . وقال الشعبي : إذا قرأت ﴿ كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴾ فلا تسكت حتى تقرأ ﴿ وَبَيَّنَّ وَجْهَ رِيكَ ذُو الْجَلْدِ وَالْإِكْرَامِ ﴾ وقد نعت تعالى وجهه الكريم في هذه الآية بأنه ذو الجلال والإكرام أي هو أهل أن يجل فلا يعصى ، وأن يطاع فلا يخالف قال ابن عباس : ﴿ ذُو الْجَلْدِ وَالْإِكْرَامِ ﴾ ذو العظمة والكبرياء ، ولما أخبر تعالى عن تساوي أهل الأرض كلهم في الوفاة ، وأنهم سيصيرون إلى الدار الآخرة فيحكم فيهم ذو الجلال والإكرام بحكمه العدل قال ﴿ فَإِنِّي ءَالَاءُ رِيكُمَا تَكْذِبَانِ ﴾ وقوله تعالى : ﴿ يَتَنَلَّهَنَّ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلُّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ ﴾ وهذا إخبار عن غناه عما سواه وافتقار الخلائق إليه في جميع الآفات وأنهم يسألونه بلسان حالهم وقالهم ، وأنه كل يوم هو في شأن ، فمن شأنه أن يجيب داعياً أو يعطي سائلاً ، أو يفك عانياً أو يشفي سقيماً . وعن أبي الدرداء عن النبي ﷺ قال : « قال الله ﷻ : ﴿ كُلُّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ ﴾ قال - من شأنه أن يغفر ذنباً ، ويفرج كرباً ، ويرفع قوماً ، ويضع آخرين » (١) .

﴿ سَنَفَعُ لَكُمْ إِيَّاهُ الثَّلَاثَ ﴾ فَإِنِّي ءَالَاءُ رِيكُمَا تَكْذِبَانِ ﴿ يَمَعَّرَ لَيْلٍ وَإِنِّي إِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَن تَبْذُرُوا مِنْ أَفْئَادِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ فَافْتَدُوا لَا تَفْذُرُوا إِلَّا يَسْطَرُّنِي ﴾ فَإِنِّي ءَالَاءُ رِيكُمَا تَكْذِبَانِ ﴿ يُرْسِلُ عَلَيْكُمْ شَوَاظٍ مِنْ نَارٍ وَخَسَافًا فَلَا

تَنْصِرَانِ ﴿٥٥﴾ فَإِنِّي ءَالَآءَ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ .

قال ابن عباس في قوله تعالى : ﴿ سَنَفَعُ لَكُمْ أَيُّهَ الثَّقَلَانِ ﴾ وعيد من الله تعالى للعباد وليس بالله شغل وهو فارغ ، وقال ابن جريج : ﴿ سَنَفَعُ لَكُمْ ﴾ أي سنقضي لكم ، وقال البخاري : سنحاسبكم لا يشغله شيء عن شيء ، وهو معروف في كلام العرب ، يقال لأتفرغن لك وما به شغل ، يقول : لأخذنك على غرتك ^(١) . وقوله تعالى : ﴿ أَيُّهَ الثَّقَلَانِ ﴾ الثقلان : الإنس والجن كما جاء في الصحيح « يسمعه كل شيء إلا الثقلين » ^(٢) ﴿ فَإِنِّي ءَالَآءَ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ . ثم قال تعالى : ﴿ يَتَمَتَّعُ الْغَيْنِ وَالْإِنْسِ إِنَّ اسْتَغْلَمُوا أَنْ تَنْفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ فَانْفُذُوا لَا تَنْفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَانٍ ﴾ أي لا تستطيعون هرباً من أمر الله وقدره ؛ بل هو محيط بكم ، لا تقدرُونَ على التخلص من حكمه ولا النفوذ عن حكمه فيكم ، أينما ذهبتم أحيط بكم ، وهذا في مقام الحشر ، الملائكة محدقة بالخلائق سبع صفوف من كل جانب فلا يقدر أحد على الذهاب ﴿ إِلَّا بِسُلْطَانٍ ﴾ أي إلا بأمر الله . ولهذا قال تعالى : ﴿ يُرْسِلُ عَلَيْكُمْ شَوَاطِئَ مِّنْ نَّارٍ وَنَحَّاسٍ فَلَا تَنْصِرَانِ ﴾ قال ابن عباس الشواط : هو لهب النار ، وقال الدخان ، وقال مجاهد : هو اللهب الأخضر المنقطع ، وقال أبو صالح : هو اللهب الذي فوق النار ودون الدخان . وقال الضحاك سيل من نار . وقوله تعالى : ﴿ وَنَحَّاسٍ ﴾ قال ابن عباس دخان النار ، وروي مثله عن أبي صالح وسعيد ابن جبير وأبي سنان . وقال ابن جرير : والعرب تسمي الدخان نحاساً ، بضم النون وكسرها ، والقراء مجمعة على الضم ^(٣) . وقال مجاهد : النحاس الصفر يذاب فيصب على رؤوسهم ، وكذا قال قتادة ، وقال الضحاك : ونحاس سيل من نحاس ، والمعنى على كل قول : لو ذهبتم هاربين يوم القيامة لردتكم الملائكة والزبانية بإرسال اللهب من النار ، والنحاس المذاب عليكم لترجعوا ، ولهذا قال : ﴿ فَلَا تَنْصِرَانِ ﴾ ﴿ فَإِنِّي ءَالَآءَ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ .

﴿ فَإِذَا انشَقَّتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ وَرْدَةً كَالدِّهَانِ ﴾ ﴿ فَإِنِّي ءَالَآءَ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ ﴿ فَيَوْمَئِذٍ لَا يُشْعَلُ عَنْ ذُنُوبِهِ إِنْسٌ وَلَا جَانٌ ﴾ ﴿ فَإِنِّي ءَالَآءَ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ ﴿ يَعْرِفُ الْمُجْرِمُونَ بِسَبْتِهِمْ فَيُؤْخَذُ بِالنَّوَصِي وَالْأَقْدَامِ ﴾ ﴿ فَإِنِّي ءَالَآءَ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ ﴿ هَٰذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي يُكَذِّبُ بِهَا الْمُجْرِمُونَ ﴾ ﴿ بَطُورُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ ءَانٍ ﴾ ﴿ فَإِنِّي ءَالَآءَ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ .

يقول تعالى : ﴿ فَإِذَا انشَقَّتِ السَّمَاءُ ﴾ يوم القيامة ﴿ فَكَانَتْ وَرْدَةً كَالدِّهَانِ ﴾ أي تذوب كما تذوب الدردي والفضة في السبك ، وتتلون كما تتلون الأصباغ التي يدهن بها ، فتارة حمراء وصفراء وزرقاء وخضراء ، وذلك من شدة الأمر وهول يوم القيامة العظيم ، وعن أنس بن مالك قال : قال رسول الله ﷺ : « يبعث الناس يوم القيامة والسماء تطش عليهم » ^(٤) قال الجوهري : الطش المطر الضعيف ، وقوله تعالى : ﴿ فَيَوْمَئِذٍ لَا يُشْعَلُ عَنْ ذُنُوبِهِ إِنْسٌ وَلَا جَانٌ ﴾ قال مجاهد : لاتسأل الملائكة عن المجرمين بل يعرفون بسيماهم ، وكأن هذا بعدما يؤمر بهم إلى النار فذلك الوقت لا يسألون عن ذنوبهم بل يقادون إليها ويلقون فيها كما قال تعالى : ﴿ يَعْرِفُ الْمُجْرِمُونَ بِسَبْتِهِمْ ﴾ أي بعلامات تظهر

(١) أخرجه البخاري في تفسير القرآن (تفسير سورة الرحمن باب ٥٥) .

(٢) أخرجه أحمد في مسنده (٤ / ٣) .

(٣) قرأ ابن كثير وأبو عمرو وروح ﴿ ونحاسٍ ﴾ بالخفض ، والباقون بالرفع وانفرد ابن مهران عن روح (انظر : تقريب النشر ص : ١٧٨) .

(٤) أخرجه أحمد في مسنده (٢٦٧ / ٣) والهيتمي في مجمع الزوائد (٣٣٤ / ١٠) .

عليهم . وقال الحسن وقتادة : يعرفون بأسوداد الوجوه وزرقة العيون . قلت : وهذا كما يعرف المؤمنون بالغرة والتحجيل من آثار الوضوء . وقوله تعالى : ﴿ فَيُؤْخَذُ بِالنَّوَصِي وَالْأَقْلَامِ ﴾ أي يجمع الزبانية ناصيته مع قدميه ويلقونه في النار كذلك ، وقال ابن عباس : يؤخذ بناصرته وقدميه فيكسر كما يكسر الحطب في التنور ، وقال الضحاك : يجمع بين ناصيته وقدميه في سلسلة وراء ظهره ، وقال السدي : يجمع بين ناصية الكافر وقدميه فتربط ناصيته بقدمه ويقتل ظهره .

وقوله تعالى : ﴿ هَذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي يُكَذِّبُ بِهَا الْمُجْرِمُونَ ﴾ أي هذه النار التي كنتم تكذبون بوجودها ، هاهي حاضرة تشاهدونها عياناً ، يقال لهم ذلك تقريباً وتوبيخاً وتصغيراً وتحقيراً . وقوله تعالى : ﴿ يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ ءَاكِنٍ ﴾ أي تارة يعذبون في الحميم وتارة يسقون من الحميم ، وهو الشراب الذي هو كالتحس المذاب يقطع الأمعاء والأحشاء ، وقوله تعالى : ﴿ ءَاكِنٍ ﴾ أي حار قد بلغ الغاية في الحرارة لا يستطيع من شدة ذلك ، قال ابن عباس في قوله ﴿ يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ ءَاكِنٍ ﴾ أي قد انتهى عليه واشتد حره ، وقال قتادة : قد آن طبعه منذ خلق الله السموات والأرض ، وقال محمد ابن كعب القرظي : يؤخذ العبد فيحرك بناصرته في ذلك الحميم حتى يذوب اللحم ويبقى العظم والعينان في الرأس وهي كالتي يقول الله تعالى : ﴿ فِي اللَّعِيمِ ثُرٌّ فِي النَّارِ يَسْجَرُونَ ﴾ والحميم الآن يعني الحار ، فقوله ﴿ حَمِيمٍ ءَاكِنٍ ﴾ حميم حار جداً . ولما كان معاقبة العصاة المجرمين وتنعيم المتقين من فضله ورحمته وعدله ولطفه بخلقه ، وكان إنذاره لهم عن عذابه وبأسه مما يزرهم عما هم فيه من الشرك والمعاصي وغير ذلك قال ممثلاً بذلك على برئته ﴿ فَإِنِّي ءَأْلَوْ رِيكُمَا نَكْذِبَانِ ﴾ .

﴿ وَلَمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّاتٍ ۖ فَإِنِّي ءَأْلَوْ رِيكُمَا نَكْذِبَانِ ۖ ذَوَاتَا أَفْنَانٍ ۖ فَإِنِّي ءَأْلَوْ رِيكُمَا نَكْذِبَانِ ۖ فِيهَا عَيْنَانِ تَجْرِيَانِ ۖ فَإِنِّي ءَأْلَوْ رِيكُمَا نَكْذِبَانِ ۖ فِيهَا مِنْ كُلِّ فَرْكَمٍ نَعِيمَانِ ۖ فَإِنِّي ءَأْلَوْ رِيكُمَا نَكْذِبَانِ ۖ .

قال ابن شاذب وعطاء الخراساني : نزلت هذه الآية ﴿ وَلَمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّاتٍ ﴾ في أبي بكر الصديق ، وقال عطية بن قيس نزلت في الذي قال : أحرقوني بالنار لعلي أضل الله ، قال : تاب يوماً وليلة ، بعد أن تكلم بهذا ، فقبل الله منه وأدخله الجنة ، والصحيح أن هذه الآية عامة كما قاله ابن عباس وغيره . ﴿ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ ﴾ ولم يطع ولا أثر الحياة الدنيا ، وعلم أن الآخرة خير وأبقى فأدى فرائض الله واجتنب محارمه ، فله يوم القيامة عند ربه جنتان ، عن عبد الله بن قيس أن رسول الله ﷺ قال : « جنتان من فضة آتيتهما وما فيهما ، وجنتان من ذهب آتيتهما وما فيهما ، وما بين القوم وبين أن ينظروا إلى ربهم ﷻ إلا رداء الكبرياء على وجهه في جنة عدن » (١) .

وعن أبي الدرداء أن رسول الله ﷺ قرأ يوماً هذه الآية ﴿ وَلَمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّاتٍ ﴾ فقلت : وإن زنى وإن سرق ؟ فقال : ﴿ وَلَمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّاتٍ ﴾ فقلت : وإن زنى وإن سرق فقال : ﴿ وَلَمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّاتٍ ﴾ فقلت : وإن زنى وإن سرق يارسول الله ، فقال « وإن رغم أنف أبي الدرداء » (٢) . وهذه الآية عامة في الإنس والجن ، فهي من أدل دليل على أن الجن يدخلون الجنة إذا آمنوا واتقوا ، ولهذا امتن الله تعالى على الثقلين بهذا الجزاء فقال : ﴿ وَلَمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّاتٍ ۖ فَإِنِّي ءَأْلَوْ رِيكُمَا نَكْذِبَانِ ﴾

(١) أخرجه البخاري في التوحيد (٧٤٤٤) .

(٢) أخرجه أحمد في مسنده (٨٦٠١) .

ثم نعت هاتين الجنتين فقال : ﴿ ذَوَاتَا أَفْنَانٍ ﴾ أي أغصان نظرة حسنة تحمل من كل ثمرة نضيجة فائقة ﴿ فَإِنِّي ءَالَاءُ رِيكَمًا تُكَذِّبَانِ ﴾ قال عطاء الخراساني وجماعة : أن الأفنان أغصان الشجر يمس بعضها بعضًا ، وعن ابن عباس : ﴿ ذَوَاتَا أَفْنَانٍ ﴾ ذواتا ألوان ، ومعنى هذا القول أن فيهما فنونًا من الملاذ ، واختاره ابن جرير . وقال عطاء : كل غصن يجمع فنونًا من الفاكهة ، وقال الريح بن أنس واسعتا الفناء وكل هذه الأقوال صحيحة ولا منافات بينها ، وعن أسماء بنت أبي بكر قالت : سمعت رسول الله ﷺ وذكر سدره المنتهى ، فقال : « يسير في ظل الفنن منها الراكب مائة سنة » أو قال : « يستظل في ظل الفنن منها مائة راكب ؛ فيها فراش الذهب كأن ثمرها القلال » ^(١) .

﴿ فِيهَا عَيْنَانِ غَمْرَانِ ﴾ أي تسرحان لسقي تلك الأشجار والأغصان فتشمر من جميع الألوان ﴿ فَإِنِّي ءَالَاءُ رِيكَمًا تُكَذِّبَانِ ﴾ قال الحسن البصري : إحداهما يقال لها : تسنيم ، والأخرى : السلسبيل وقال عطية : إحداهما من ماء غير آسن ، والأخرى : من خمر لذة للشاربين ، ولهذا قال بعد هذا ﴿ فِيهَا مِنْ كُلِّ ثَمَرٍ فَتَكُونُ زَوَاجَانِ ﴾ : أي من جميع أنواع الثمار مما يعلمون وخير مما يعلمون ، وبما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر ﴿ فَإِنِّي ءَالَاءُ رِيكَمًا تُكَذِّبَانِ ﴾ عن ابن عباس ، مافي الدنيا ثمرة حلوة ولامرة إلا وهي في الجنة حتى الخنظل .

﴿ مُتَكَبِّرِينَ عَلَى نُفُوسِهِمْ بَطَّائِنًا مِنْ إِسْتَرْبٍ وَحَى الْجَنَّتَيْنِ دَانٍ ﴾ ﴿ فَإِنِّي ءَالَاءُ رِيكَمًا تُكَذِّبَانِ ﴾ ﴿ فِيهِنَّ قَصِيرَتٌ أَظْفَرٍ لَرَّ بَطِينَتُهُنَّ إِنْسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَانٌّ ﴾ ﴿ فَإِنِّي ءَالَاءُ رِيكَمًا تُكَذِّبَانِ ﴾ ﴿ كَأَنَّهُنَّ آيَاثُ وَالْمَرْجَانِ ﴾ ﴿ فَإِنِّي ءَالَاءُ رِيكَمًا تُكَذِّبَانِ ﴾ ﴿ هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَنِ إِلَّا الْإِحْسَنُ ﴾ ﴿ فَإِنِّي ءَالَاءُ رِيكَمًا تُكَذِّبَانِ ﴾ .

يقول تعالى : ﴿ مُتَكَبِّرِينَ ﴾ يعني أهل الجنة ، والمراد بالانكباء ههنا الاضطجاع ويقال : الجلوس على صفة التربع ﴿ عَلَى نُفُوسِهِمْ بَطَّائِنًا مِنْ إِسْتَرْبٍ ﴾ وهو ما غلظ من الديباج ، وقال أبو عمران الجوني : هو الديباج المزين بالذهب ، فنبه على شرف الظهارة بشرف البطانة ، فهذا من التنبيه بالأدنى على الأعلى . عن عبد الله بن مسعود قال : هذه البطائن ، فكيف لو رأيتهم الظواهر . وقال مالك بن دينار : بطائنها من إستربق وظواهرها من نور ، وقال سفيان الثوري أو شريك : بطائنها من إستربق وظواهرها من نور جامد ﴿ وَحَى الْجَنَّتَيْنِ دَانٍ ﴾ أي ثمرهما قريب إليهم متى شاءوا تناولوه على أي صفة كانوا ، أي لا تمتنع ممن تناولها بل تنحط إليه من أغصانها ﴿ فَإِنِّي ءَالَاءُ رِيكَمًا تُكَذِّبَانِ ﴾ ولما ذكر الفرش وعظمتها قال بعد ذلك ﴿ فِيهِنَّ ﴾ أي في الفرش ﴿ قَصِيرَتٌ أَظْفَرٍ ﴾ أي غصنضات عن غير أزواجهن فلا يرين شيئًا في الجنة أحسن من أزواجهن ، وقد ورد أن الواحدة منهن تقول لبعلاها : والله ما أرى في الجنة شيئًا أحسن منك ، ولا في الجنة شيئًا أحب إلي منك فالحمد لله الذي جعلك لي وجعلني لك .

﴿ لَرَّ بَطِينَتُهُنَّ إِنْسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَانٌّ ﴾ أي بل هن أبكار عرب أتراب لم يطأهن أحد قبل أزواجهن من الإنس والجن ، وهذه أيضًا من الأدلة على دخول مؤمني الجن الجنة ، قال أروطاه بن المنذر : سئل ضمرة بن حبيب هل يدخل الجن الجنة ، قال : نعم وينكحون ، للجن جنيات وللإنس إنسيات ، وذلك قوله : ﴿ لَرَّ بَطِينَتُهُنَّ إِنْسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَانٌّ ﴾ ﴿ فَإِنِّي ءَالَاءُ رِيكَمًا تُكَذِّبَانِ ﴾ .

ثم قال : ينعمهم للخطاب ﴿كَأَنَّهُنَّ الْيَاقُوتُ وَالْمَرْجَانُ﴾ عن عبد الله بن مسعود عن النبي ﷺ قال : « إن المرأة من نساء أهل الجنة ليرى يياض ساقها من وراء سبعين حلة من حرير حتى يرى مخها » وذلك قول الله تعالى : ﴿كَأَنَّهُنَّ الْيَاقُوتُ وَالْمَرْجَانُ﴾ فأما الياقوت ؛ فإنه حجر بلو أدخلت فيه سلكا ثم استصفيته لرأيته من ورائه^(١) .
وعن محمد بن سيرين قال : إما تفاخروا وإما تذاكروا ، الرجال أكثر في الجنة أم النساء ؟ فقال أبو هريرة : أو لم يقل أبو القاسم ﷺ : « إن أول زمرة تدخل الجنة على صورة القمر ليلة البدر ، والتي تليها على أضواء كوكب دري في السماء ، لكل امرئ منهم زوجتان اثنتان يرى مخ سوقهما من وراء اللحم وما في الجنة أعزب »^(٢) وعن أنس ، أن رسول الله ﷺ قال : « لغدوة في سبيل الله أو روحه خير من الدنيا وما فيها ، ولقاب قوس أحدكم أو موضع قدمه - يعني سوطه - من الجنة خير من الدنيا وما فيها ، ولو اطلعت امرأة من نساء أهل الجنة إلى الأرض لملأت ما بينهما ريحا ولطاب ما بينهما ، ولنصفها على رأسها خير من الدنيا وما فيها »^(٣) .

وقوله تعالى : ﴿هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَنِ إِلَّا الْإِحْسَنُ﴾ أي لا لمن أحسن العمل في الدنيا إلا الإحسان إليه في الآخرة ، ولما كان في الذي ذكر نعم عظيمة لا يقاومها عمل بل مجرد تفضل وامتنان قال بعد ذلك كله : ﴿فَإِنِّي ءَالَاءُ رَبِّكَ كَذِبَانٌ﴾ وما يتعلق بقوله تعالى : ﴿وَلَمَن خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّاتٍ﴾ ما رواه أبو هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « من خاف أدلج ، ومن أدلج بلغ المنزل ، ألا إن سلعة الله غالية ، ألا إن سلعة الله الجنة »^(٤) .

﴿وَمِنْ دُونِهِمَا جَنَّتَانِ ۝ فَإِنِّي ءَالَاءُ رَبِّكَ كَذِبَانٌ ۝ مِّدْمَا تَنَانِ ۝ فَإِنِّي ءَالَاءُ رَبِّكَ كَذِبَانٌ ۝ فِيهِمَا عَيْتَانِ ۝ نَضَّائَتَانِ ۝ فَإِنِّي ءَالَاءُ رَبِّكَ كَذِبَانٌ ۝ فِيهِمَا نَكْبَةٌ وَمَخْلٌ وَرَمَانٌ ۝ فَإِنِّي ءَالَاءُ رَبِّكَ كَذِبَانٌ ۝ فِيهِمَا خَبَرٌ ۝ حَسَنٌ ۝ فَإِنِّي ءَالَاءُ رَبِّكَ كَذِبَانٌ ۝ حُرٌّ مَّقْصُورٌ فِي الْخِيَارِ ۝ فَإِنِّي ءَالَاءُ رَبِّكَ كَذِبَانٌ ۝ لَمْ يَطْمِئِنَّ إِشْرُ قَلْبُهُمْ وَلَا جَانٌ ۝ فَإِنِّي ءَالَاءُ رَبِّكَ كَذِبَانٌ ۝ مُتَكَبِّرِينَ عَلَى رَقَرٍ خَضِرٍ وَعَبْقَرِيٍّ حِسَانٍ ۝ فَإِنِّي ءَالَاءُ رَبِّكَ كَذِبَانٌ ۝ بَنَرَكُ أَتَمُّ رَبِّكَ ذِي الْمَلَأِ وَالْإِكْرَامِ ۝﴾ .

هاتان الجنتان دون اللتين قبلهما في المرتبة والفضيلة والمنزلة بنص القرآن ، قال الله تعالى : ﴿وَمِنْ دُونِهِمَا جَنَّتَانِ﴾ وقد تقدم في الحديث : جنتان من ذهب أنيتهما وما فيها وجنتان من فضة أنيتهما وما فيها ، فالأوليان للمقربين والأخريان لأصحاب اليمين ، وقال أبو موسى : جنتان من ذهب للمقربين ، وجنتان من فضة لأصحاب اليمين ، وقال ابن عباس : من دونهما في الدرج ، وقال ابن زيد : من دونهما في الفضل . والدليل على شرف الأولين على الآخرين وجوه : أحدها : أنه نعت الأولين قبل هاتين ، والتقديم يدل على الاعتناء ثم قال : ﴿وَمِنْ دُونِهِمَا جَنَّتَانِ﴾ وهذا ظاهر في شرف التقدم وعلوه على الثاني ، وقال هناك ﴿ذَوَاتَا أَنْفَانِ﴾ وهي الأغصان أو الفنون في الملاذ ، وقال ﴿مِدْمَا تَنَانِ﴾ ، أي سوداوان من شدة الري من الماء قال ابن عباس في قوله : ﴿مِدْمَا تَنَانِ﴾ قد اسودتا من الحصرة من شدة

(١) أخرجه الترمذي في السنن (٢٥٣٣) والمنذري في الترغيب والترهيب (٥٣٣/٤) .

(٢) أخرجه مسلم في الجنة وصفة نعيمها (١٤) وأحمد في مسنده (٢٣٠/٢) والترمذي في السنن (٢٥٥) .

(٣) أخرجه البخاري في الجهاد والسير (٢٧٩٢) ومسلم في الإمارة (١١٢) والترمذي في السنن (١٦٥١) وأحمد في مسنده (٢٦٦/٥) .

(٤) أخرجه الترمذي في السنن (٢٤٥٠) والحاكم في المستدرک (٣١٨/٤) .

الري من الماء ، وقال محمد بن كعب : ﴿ مَدَامَتَانِ ﴾ ممتلئتان من الخضرة ، وقال قتادة : حضروان من الري ناعمتان ولاشك في نضارة الأغصان على الأشجار المشتبكة بعضها في بعض .

وقال هناك : ﴿ فِيهَا عَيْنَانِ تَجْرِيَانِ ﴾ وقال ههنا ﴿ نَخَّاتَانِ ﴾ قال ابن عباس ، أي فياضتان والجري أقوى من النضج ، وقال الضحّاك أي ممتلئتان ولا تنقطعان وقال هناك : ﴿ فِيهَا مِنْ كُلِّ فَاكِهَةٍ رَوْحَانٌ ﴾ وقال ههنا ﴿ فِيهَا فَاكِهَةٌ وَغُلٌّ وَزَيْتَانٌ ﴾ ولاشك أن الأولى أعم وأكثر في الأفراد والتنوع على فاكهة ، وهي نكرة في سياق الإثبات لا تعم ، ولهذا ليس قوله ﴿ وَغُلٌّ وَزَيْتَانٌ ﴾ من باب عطف الخاص على العام لما قرره البخاري وغيره ، وإنما أفرد النخل والرمان بالذكر لشرفهما على غيرهما . وعن أبي سعيد الحديري أن رسول الله ﷺ قال : « نظرت إلى الجنة فإذا الرمان من رمانها كالبعير المقتب » ^(١) .

ثم قال ﴿ فِيهِ خَيْرٌ حَسَنٌ ﴾ قيل : المراد خيرات كثيرة حسنة في الجنة وقيل : خيرات جمع خيرة وهي المرأة الصالحة الحسنة الخلق الحسنة الوجه ، وروي مرفوعاً عن أم سلمة ، وفي الحديث الآخر الذي سنورده في سورة الواقعة إن شاء الله تعالى أن الحور العين يغنين : نحن الخيرات الحسان خلقنا لأزواج كرام ، ولهذا قرأ بعضهم ﴿ فِيهِ خَيْرَاتٌ ﴾ بالتشديد ^(٢) ﴿ حَسَنٌ ﴾ ﴿ فَإِنَّ آلاءَ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ ثم قال : ﴿ حُورٌ مَّقْصُورَاتٌ فِي الْبُيُوتِ ﴾ وهناك قال ﴿ فِيهِ قَصِيرَاتُ الْطَّرَفِ ﴾ ولاشك أن التي قد قصرت طرفها بنفسها أفضل ممن قصرت وإن كان الجميع مخدرات ، وقوله تعالى : ﴿ فِي الْبُيُوتِ ﴾ عن ابن عبد الله بن قيس أن رسول الله ﷺ قال : « إن في الجنة خيمة من لؤلؤة مجوفة عرضها ستون ميلاً ، في كل زاوية منها أهل مايرون الآخرين ، يطوف عليهم المؤمنون » ^(٣) .

عن أبي سعيد عن النبي ﷺ قال : « أدنى أهل الجنة منزلة الذي له ثمانون ألف خادم ، واثنان وسبعون زوجة ، وتنصب له قبة من لؤلؤ وزبرجد ويقوت كما بين الحايية وصنعاء » ^(٤) .

وقوله تعالى : ﴿ لَمْ يَلْبِسْهُمْ إِثْمَ قَبْلَهُمْ وَلَا جَانًّا ﴾ قد تقدم مثله سواء ، إلا أنه زاد في وصف الأوائل بقوله ﴿ كَانَتْ أَلْفَاوُتٌ وَالْمُرْجَانُ ﴾ ﴿ فَإِنَّ آلاءَ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ . وقوله تعالى : ﴿ مُتَكَبِّرِينَ عَلَى رَفَرٍ خُسْفٍ ﴾ وَعَبْقَرِيَّ حَسَانٍ ﴾ قال ابن عباس : الرفرف المحابس ، وكذا قال مجاهد وعكرمة والحسن وغيرهم ، وقال عاصم الجحدري : ﴿ مُتَكَبِّرِينَ عَلَى رَفَرٍ خُسْفٍ ﴾ يعني الوسائد ، وهو قول الحسن البصري في رواية عنه ، وقال سعيد بن جبير : الرفرف رياض الجنة .

وقوله تعالى : ﴿ وَعَبْقَرِيَّ حَسَانٍ ﴾ قال ابن عباس وقاتدة والضحّاك والسدي : العبقرى الزرابي ، وقال سعيد بن جبير : هي عتاق الزرابي يعني جياها ، وقال مجاهد : العبقرى الديباج ، وسئل الحسن البصري عن قوله تعالى : ﴿ وَعَبْقَرِيَّ حَسَانٍ ﴾ فقال : هي بسط أهل الجنة لا أبالكم فاطلبوها ، وقال الخليل بن أحمد : كل شيء نفيس من الرجال وغير ذلك يسمى عند العرب عبقرئاً ، ومنه قول النبي ﷺ في عمر : « فلم أر عبقرئاً يفري فريه » ^(٥) وعلى كل تقدير فصفة مرافق أهل الجنتين

(١) أورده السيوطي في الدر المنثور (١٥٠/٦) .

(٢) قرأ معاذ القارئ وعاصم الجحدري وأبو نهيك ﴿ خَيْرَاتٌ ﴾ بتشديد الراء . انظر زاد المسير (١٢٥/٨) .

(٣) أخرجه البخاري في تفسير القرآن (٤٨٧٩) . (٤) أخرجه الترمذي في السنن (٢٥٦٢) بنحوه .

(٥) أخرجه البخاري في فضائل الصحابة (٣٦٦٤) ومسلم في فضائل الصحابة (١٧) .

الأولين أرفع وأعلى من هذه الصفة فإنه قد قال هناك ﴿ مُتَكَبِّرِينَ عَلَى مُرْتَبِ بَطَانَتِهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍ ﴾ فنتعت بطائن فرشهم وسكت عن ظواهرها اكتفاء بما مدح به البطائن بطريق الأولى والأحرى . وتمام الخاتمة أنه قال بعد الصفات المتقدمة ﴿ هَذَا جَزَاءُ الْإِحْسَنِ إِلَّا الْإِحْسَنُ ﴾ فوصف أهلها بالإحسان ، وهو أعلى المراتب والنهائيات كما في حديث جبريل لما سأل عن الإسلام ثم الإيمان ثم الإحسان ، فهذه وجوه عديدة في تفضيل الجنتين الأولين على هاتين الأخريين ، ونسأل الله الكريم الوهاب أن يجعلنا من الأولين .

ثم قال : ﴿ بَرَكَةً أَنْتُمْ رِزْقُ ذِي الْجَنَّةِ وَالْإِكْرَامِ ﴾ أي هو أهل أن يجل فلا يعصى ، وأن يكرم فيعبد ، ويشكر فلا يكفر ، وأن يذكر فلا ينسى ، وقال ابن عباس : ﴿ ذِي الْجَنَّةِ وَالْإِكْرَامِ ﴾ ذي العظمة والكبرياء . عن أبي الدرداء قال : قال رسول الله ﷺ : « أَجْلُوا الله يغفر لكم » ^(١) وفي الحديث الآخر : « إن من إجلال الله إكرام ذي الشيبة المسلم ، وذو السلطان ، وحامل القرآن غير الغالي فيه ولا الجافي عنه » ^(٢) وعن أنس أن رسول الله ﷺ قال : « أَلْظُوا يَا ذَا الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ » ^(٣) . وقال الجوهري : أَلْظَ فلان بفلان إذا لزمه ، وقول ابن مسعود أَلْظُوا يَا ذَا الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ أي الزموا ، يقال : الإلْظاظ هو الإلحاح . قلت ، وكلاهما قريب من الآخر ، والله أعلم ، وهو المداومة واللزوم والإلحاح . فعن عائشة قالت : كان رسول الله ﷺ إذا سلم لا يقعد ؛ يعني بعد الصلاة إلا بقدر ما يقول : « اللهم أنت السلام ومنك السلام تباركت يا ذَا الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ » ^(٤) .

(١) أخرجه أحمد في مسنده (١٩٩/٥) .

(٢) أخرجه أبو داود في السنن (٤٨٤٣) والبيهقي في السنن (١٦٣/٨) .

(٣) أخرجه أحمد في مسنده (١٧٧/٤) .

(٤) أخرجه مسلم في المساجد (١٣٦) والنسائي في السنن (٦٩/٣) وأحمد في مسنده (٢٧٥/٥) والبيهقي في السنن (١٨٣/٢) .

سورة الواقعة

عن ابن عباس قال : قال أبو بكر : يارسول الله قد شئت ، قال : « شيتني هود والواقعة والمرسلات ، وعم يتساءلون ، وإذا الشمس كورت » ^(١) عن أبي ظبية قال : مرض عبد الله مرضه الذي توفي فيه ، فعاده عثمان بن عفان فقال : ما تشكي ؟ قال : ذنوبي قال : فما تشتهي ؟ قال : رحمة ربي . قال : ألا أمر لك بطبيب ؟ قال : الطبيب أمرضني . قال : ألا أمر لك بعطاء ؟ قال : لا حاجة لي فيه . قال : يكون لبناتك من بعدك . قال : أتخشى على بناتي الفقر ؟ إني أمرت بناتي يقرأن كل ليلة سورة الواقعة ، إني سمعت رسول الله ﷺ يقول : « من قرأ سورة الواقعة كل ليلة لم تصبه فاقة أبدا » ^(٢) . وعن سماك بن حرب أنه سمع جابر بن سمرة يقول : كان رسول الله ﷺ يصلي الصلوات كنحو من صلاتكم التي تصلون اليوم ، ولكنه كان يخفف ، كانت صلاته أخف من صلاتكم ، وكان يقرأ في الفجر الواقعة ونحوها من السور ^(٣) .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ إِذَا وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ ۝ لَيْسَ لِقَوْمِهَا كَذِبَةٌ ۝ خَافِضَةٌ رَافِعَةٌ ۝ إِذَا رَجَعَتِ الْأَرْضُ رَجًا ۝ وَسُيِّرَتِ الْجِبَالُ سَيًّا ۝ فَكَانَتْ هَبَاءً مُتْبِنًا ۝ وَكُنْتُمْ أَزْوَاجًا ثَلَاثَةً ۝ فَأَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ ۝ وَأَصْحَابُ الْمَشْأَمِ مَا أَصْحَابُ الْمَشْأَمِ ۝ وَالسَّيِّفُونَ السَّيِّفُونَ ۝ أُولَئِكَ الْمَقَرُّونَ ۝ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ ۝ ﴾ .

الواقعة من أسماء يوم القيامة سميت بذلك لتحقيق كونها وجودها كما قال تعالى : ﴿ فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ ﴾ وقوله تعالى : ﴿ لَيْسَ لِقَوْمِهَا كَذِبَةٌ ﴾ أي ليس لوقوعها إذا أراد الله كونها صارف يصرفها ولا دافع يدفعها . ومعنى ﴿ كَذِبَةٌ ﴾ كما قال محمد بن كعب : لا بد أن تكون ، وقال قتادة : ليس فيها مشنوية ولا ارتداد ولا رجعة وقوله تعالى : ﴿ خَافِضَةٌ رَافِعَةٌ ﴾ أي تخفض أقواما إلى أسفل سافلين إلى الجحيم ، وإن كانوا في الدنيا أعزاء ، وترفع آخرين إلى أعلى عليين إلى النعيم المقيم ، وإن كانوا في الدنيا وضعاء وعن ابن عباس قال : تخفض أقواما وترفع آخرين وقال عكرمة : خفضت فأسمعت الأدنى ، ورفعت فأسمعت الأقصى ، وقوله تعالى : ﴿ إِذَا رَجَعَتِ الْأَرْضُ رَجًا ﴾ أي حركت تحريكاً فاهتزت واضطربت بطولها وعرضها ، ولهذا قال ابن عباس وغير واحد : أي زلزلت زلزلاً ، وقال الربيع بن أنس : ترج بما فيها كرج الغراب بما فيه . وقوله تعالى : ﴿ وَسُيِّرَتِ الْجِبَالُ سَيًّا ﴾ أي فتت فتاً ، وقوله تعالى : ﴿ فَكَانَتْ هَبَاءً مُتْبِنًا ﴾ عن علي عليه السلام : هباء منبثاً كرهج الغبار يسطع ثم يذهب فلا يبقى منه شيء ، وقال ابن عباس : الهباء الذي يطير من النار إذا اضطربت يطير منه الشرر فإذا وقع لم يكن شيئاً ، وقال عكرمة : المنبث الذي قد ذرته الريح وبثته . وهذه الآية كأخواتها الدالة على زوال الجبال عن أماكنها يوم القيامة وذهابها وتسييرها ونسفها أي قلعها وصيرورتها كالعهن المنفوش .

(١) أخرجه الترمذي في السنن (٣٢٩٧) والحاكم في المستدرک (٣٤٣/٢) .

(٢) أورده الهندي في كنز العمال (٢٦٤٠) والسيوطي في الدر المنثور (١٥٣/٦) .

(٣) أخرجه أحمد في مسنده (١٠٤/٥) .

ومما يستأنس به لهذا القول ما رواه أبو هريرة قال : لما نزلت ﴿ثُمَّ لَنْ يَنْفَعَكَ الْآزَلِينَ﴾ ﴿وَلَيْلٌ مِنَ الْآخِرِينَ﴾ ﴿شَقَّ ذَلِكَ عَلَى أَصْحَابِ النَّبِيِّ ﷺ﴾ فنزلت ﴿ثُمَّ لَنْ يَنْفَعَكَ الْآزَلِينَ﴾ ﴿وَلَنْ يَنْفَعَكَ الْآخِرِينَ﴾ فقال النبي ﷺ : «إني لأرجو أن تكونوا ربع أهل الجنة ثلث أهل الجنة ، بل أنتم نصف أهل الجنة ، أو شطر أهل الجنة وتقاسمونهم النصف الثاني» (١) .

وهذا الذي اختاره ابن جرير ههنا فيه نظر بل هو قول ضعيف ؛ لأن هذه الأمة هي خير الأمم بنص القرآن ، فيبعد أن يكون المقربون في غيرها أكثر منها ، اللهم إلا أن يقابل مجموع الأمم بهذه الأمة ، والظاهر أن المقربين من هؤلاء أكثر من سائر الأمم والله أعلم . فالقول الثاني في هذا المقام هو الراجح ، وهو أن يكون المراد بقوله تعالى : ﴿ثُمَّ لَنْ يَنْفَعَكَ الْآزَلِينَ﴾ أي من صدر هذه الأمة ﴿وَلَيْلٌ مِنَ الْآخِرِينَ﴾ أي من هذه الأمة .

وعن محمد بن سيرين أنه قال في هذه الآية ﴿ثُمَّ لَنْ يَنْفَعَكَ الْآزَلِينَ﴾ ﴿وَلَيْلٌ مِنَ الْآخِرِينَ﴾ قال : كانوا يقولون أو يرجون أن يكونوا كلهم من هذه الأمة ، فهذا قول الحسن وابن سيرين أن الجميع من هذه الأمة ؛ ولا شك أن أول كل أمة خير من آخرها ، فيحتمل أن تعم الآية جميع الأمم كل أمة بحسبها ، ولهذا ثبت في الصحاح وغيرها من غير وجه أن رسول الله ﷺ قال : «خير القرون قرني ، ثم الذين يلونهم ، ثم الذين يلونهم» (٢) الحديث بتمامه . فأما الحديث الذي رواه عمار بن ياسر قال : قال رسول الله ﷺ : «مثل أمتي مثل المطر لا يدرى أوله خير أم آخره» (٣) فهذا الحديث ، بعد الحكم بصحة إسناده ، محمول على أن الدين كما هو محتاج إلى أول الأمة في إبلاغه إلى من بعدهم ، كذلك هو محتاج إلى القائمين به في أواخرها وتثبيت الناس على السنة وروايتها وإظهارها ، والفضل للمقدم ، وكذلك الزرع هو محتاج إلى المطر الأول وإلى المطر الثاني ، ولكن العمدة الكبرى على الأول واحتياج الزرع إليه أكد ، فإنه لولاه ما نبت في الأرض ولا تعلق أساسه فيها ولهذا قال عليه السلام : «لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق لا يضرهم من خذلهم ولا من خالفهم إلى قيام الساعة» وفي لفظ : «حتى يأتي أمر الله تعالى وهم كذلك» (٤) والغرض أن هذه الأمة أشرف من سائر الأمم ، والمقربون فيها أكثر من غيرها وأعلى منزلة لشرف دينها وعظم نبيها ، ولهذا ثبت بالتواتر عن رسول الله ﷺ أنه أخبر أن في هذه الأمة سبعين ألفاً يدخلون الجنة بغير حساب وفي لفظ «مع كل ألف سبعون ألفاً» (٥) - وفي آخر - «مع كل واحد سبعون ألفاً» .

وعن أبي زمل الجهني رضي الله عنه قال : كان رسول الله ﷺ إذا صلى الصبح يقول وهو ثاب رجله : «سبحان الله وبحمده ، أستغفر الله إن الله كان تواباً» سبعين مرة ثم يقول : «سبعين بسبعمائة لا خير لمن كانت ذنوبه في يوم واحد أكثر من سبعمائة» ثم يقول ذلك مرتين ثم يستقبل الناس بوجهه (٦) . وكان رسول الله ﷺ تعجبه الرؤيا ثم يقول : «هل رأى أحد منكم شيئاً» قال أبو زمل : فقلت

(١) أخرجه الترمذي في السنن (٣١٦٨) وأحمد في مسنده (٤٣٢/٤) ومسلم في الإيمان (٣٧٧) .

(٢) أخرجه البخاري في الرقاق (٦٤٢٩) والترمذي في السنن (٢٣٠٢) وأحمد في مسنده (٧٨/١) .

(٣) أخرجه أحمد في مسنده (٣١٩/٤) . (٤) أخرجه البخاري في المناقب (٣٦٤٠) .

(٥) أخرجه مسلم في الإيمان (٣٧١ ، ٣٧٢) وأحمد في مسنده (٤٠٠/٢) ، والطبري في الكبير (١٨٢/٨) .

(٦) أخرجه البخاري في الرقاق (٦٤٧٣) ومسلم في الإيمان (٣٦٧) .

أنا يا رسول الله ، فقال : « خير تلقاه ، وشر توقاه ، وخير لنا ، وشر على أعدائنا الحمد لله رب العالمين اقصص رؤياك » فقلت : رأيت جميع الناس على طريق رحب سهل لاحب والناس على الجادة منطلقين ، فبينما هم كذلك ، إذ أشفى ذلك الطريق على مرج لم تر عيني مثله ، يرف رفيقاً يقطر ماؤه فيه من أنواع الكلال ، قال : وكانوا بالرحلة الأولى حين أشفوا على المرج كبروا ثم أكبوا رواحلهم في الطريق ، فلم يظلموه يميناً ولا شمالاً ، قال فكأنني أنظر إليهم منطلقين ، ثم جاءت الرحلة الثانية ، وهم أكثر منهم أضعافاً فلما أشفوا على المرج كبروا ثم أكبوا رواحلهم في الطريق ، فمنهم المرتع ، ومنهم الآخذ الضغث ، ومضوا على ذلك ، قال : ثم قدم عظم الناس ، فلما أشفوا على المرج كبروا وقالوا : هذا خير المنزل ، كأنني أنظر إليهم يميلون يميناً وشمالاً ، فلما رأيت ذلك لزممت الطريق حتى أتى أقصى المرج ، فإذا أنا بك يا رسول الله على منبر فيه سبع درجات وأنت في أعلاها درجة ، وإذا عن يمينك رجل آدم شتل أقتى إذا هو تكلم يسمو فيقرع الرجال طولاً ، وإذا عن يسارك رجل ربعة باز كثير خيلان الوجه ، كأنما حمم شعره بالماء إذا هو تكلم أصغيتهم إكراماً له ، وإذا أمام ذلك رجل شيخ أشبه الناس بك خلقاً ووجهاً ، كلكم تأمونه تريدونه ، وإذا أمام ذلك ناقة عجفاء شارف ، وإذا أنت يا رسول الله كأنك تبعثها . قال : فامتقع لون رسول الله ﷺ ساعة ثم سري عنه ، وقال رسول الله ﷺ : « أما مارأيت من الطريق السهل الرحب اللاحب : فذاك ما حملتكم عليه من الهدى وأنتم عليه ، وأما المرج الذي رأيت : فالدنيا وغدارة عيشها ، مضيت أنا وأصحابي لم نتعلق منها بشيء ولم تتعلق منا ، ولم نردها ولم تردنا ، ثم جاءت الرحلة الثانية من بعدنا وهم أكثر منا أضعافاً ، فمنهم المرتع ومنهم الآخذ الضغث ونجوا على ذلك ، ثم جاء عظم الناس فمالوا في المرج يميناً وشمالاً ، فإنا لله وإنا إليه راجعون . وأما أنت : فمضيت على طريقة صالحة ، فلن تزال عليها حتى تلقاني ، وأما المنبر الذي رأيت فيه سبع درجات وأنا في أعلاها درجة : فالدنيا سبعة آلاف سنة ، أنا في آخرها ألفاً ، وأما الرجل الذي رأيت على يمين الأدم الشتل : فذلك موسى عليه السلام ، إذا تكلم يعلو الرجال بفضل كلام الله إياه ، والذي رأيت عن يساري الباز الربعة الكثير خيلان الوجه كأنما حمم شعره بالماء ، فذلك عيسى ابن مريم نكرمه لإكرام الله إياه ، وأما الشيخ الذي رأيت أشبه الناس بي خلقاً ووجهاً فذاك أبونا إبراهيم كلنا نؤمه ونقتدي به ، وأما الناقة التي رأيت ورأيتني أبعثها : فهي الساعة علينا تقوم ، لا نبي بعدي ولا أمة بعد أمتي » قال : فما سأل رسول الله ﷺ عن رؤيا بعد هذا إلا أن يجيء الرجل فيحدثه بها متبرعاً ^(١) .

وقوله تعالى : ﴿ عَلَى سُرُرٍ مَوْشَوْنَ ﴾ قال ابن عباس : أي مرمولة بالذهب يعني منسوجة به ، وكذا قال مجاهد وغيره ، وقال ابن جرير : ومنه يسمى وضين الناقة الذي تحت بطنها ، وهو فصيل بمعنى مفعول ؛ لأنه مضافور ، وكذلك السرر في الجنة مضافورة بالذهب واللائي .

وقوله تعالى : ﴿ مُتَكَبِّرِينَ عَلَيْهَا مُتَقَلِّبِينَ ﴾ أي وجوه بعضهم إلى بعض ليس أحد وراء أحد ﴿ يَلُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ ﴾ أي مخلدون على صفة واحدة لا يتكبرون عنها ولا يشيرون ولا يتغيرون

(١) أخرجه الطبراني في الكبير (٣٦١/١٠) والهيثمي في مجمع الزوائد (١٨٣/٧) والرحل : القطعة من الفرسان .

﴿ يَا كُوفِرُ وَابْرِهٖنَ وَكُلِّينَ نَعِينَ ﴾ أما الأكوأب : فهي الكيزان التي لا خراطيم لها ولا أذنان ، والأباريق التي جمعت الوصفين ، والكوؤوس الهنابات ، والجميع من خمر من عين جارية معين ، ليس من أوعية تنقطع وتفرغ بل من عيون سارحة . وقوله تعالى : ﴿ لَا يَصْدَعُونَ عَنْهَا وَلَا يُزْفُونَ ﴾ أي لا تصدع رؤوسهم ولا تنزف عقولهم ، بل هي ثابتة مع الشدة المطربة واللذة الحاصلة عن ابن عباس أنه قال : في الخمر أربع خصال : السكر ، والصداع ، والقيء ، والبول ، فذكر الله تعالى خمر الجنة ونزهها عن هذه الخصال وقالوا في قوله : ﴿ وَلَا يُزْفُونَ ﴾ أي لاتذهب بعقولهم .

وقوله تعالى : ﴿ وَفَكَهَرْنَا بِتَحَنُّنٍ ﴾ وَلَمْ يَكُنْ لِيَدِي تَحَنُّنٌ أي ويطوفون عليهم بما يتخيرون من الثمار ، وهذه الآية دليل على جواز أكل الفاكهة على صفة التخير لها ، ويدل على ذلك حديث عكراش بن ذؤيب قال : بعثني مرة في صدقات أموالهم إلى رسول الله ﷺ ، فقدمت المدينة فإذا هو جالس بين المهاجرين والأنصار ، وقدمت عليه بإبل كأنها عروق الأرطى قال : « من الرجل ؟ » قلت : عكراش بن ذؤيب ، قال : « ارفع في النسب » فانتسبت له إلى مرة بن عبيد ، وهذه صدقة مرة بن عبيد ، فتبسم رسول الله ﷺ وقال : « هذه إبل قومي ، هذه صدقات قومي » ثم أمر بها أن توسم بميسم إبل الصدقة وتضم إليها ، ثم أخذ بيدي فانطلقنا إلى منزل أم سلمة فقال : « هل من طعام ؟ » فأتينا بجفنة كالفصصة كثيرة الثريد والودر ، فجعل يأكل منها ، فأقبلت أخبط بيدي في جوانبها ، فقبض رسول الله ﷺ بيده اليسرى على يدي اليمنى ، فقال : « يا عكراش ، كل من موضع واحد ؛ فإنه طعام واحد . ثم أتينا بطبق فيه تمر أو رطب شك عبيد الله رطباً كان أو تمرًا ، فجعلت أكل من بين يدي ، وجالت يد رسول الله ﷺ في الطبق وقال : « يا عكراش ، كل من حيث شئت ، فإنه غير لون واحد » . ثم أتينا بماء فغسل رسول الله ﷺ يده ومسح ببلل كفيه وجهه وذراعيه ورأسه ثلاثاً ثم قال : « يا عكراش هذا الوضوء مما غيرت النار » (١) .

قال أنس كان رسول الله ﷺ تعجبه الرؤيا ، فرمى رأى الرجل الرؤيا فسأل عنه إذا لم يكن يعرفه ، فإذا أثنى عليه معروف كان أعجب لرؤياه إليه ، فأتته امرأة فقالت : يا رسول الله رأيت كأنني أتيت فأخرجت من المدينة فأدخلت الجنة ، فسمعت وجبة انتحبت لها الجنة ، فنظرت فإذا فلان ابن فلان وفلان ابن فلان فسمت اثني عشر رجلاً ، كان النبي ﷺ قد بعث سرية قبل ذلك فجاء بهم عليهم ثياب طلس تشخب أوداجهم ، فقيل : اذهبوا بهم إلى نهر البيدخ أو البيدخ ، قال : فغمسوا فيه ، فخرجوا ووجوههم كالقمر ليلة البدر ، فأتوا بصفحة من ذهب فيها بسر ، فأكلوا من بسر ما شاءوا فما يقبلونها من وجه إلا أكلوا من الفاكهة ما أرادوا ، وأكلت معهم ، فجاء البشير من تلك السرية ، فقال : ما كان من رؤيا كذا وكذا ، فأصيب فلان وفلان حتى عد اثني عشر رجلاً ، فدعا رسول الله ﷺ المرأة ، فقال : قصي رؤياك . فقصتها وجعلت تقول : فجاء بفلان وفلان (٢) .

وقوله تعالى : ﴿ وَلَمْ يَكُنْ لِيَدِي تَحَنُّنٌ ﴾ عن أنس قال : قال رسول الله ﷺ : « إن طير الجنة كأمثال البخت يرعى في شجر الجنة » . فقال أبو بكر : يا رسول الله إن هذه لطير ناعمة ، فقال :

(١) أخرجه ابن ماجه في السنن (٣٢٧٤) .

(٢) أخرجه أحمد في مسنده (١٣٥/٣) .

« آكلها أنعم منها - قالها ثلاثاً - وإنني لأرجو أن تكون ممن يأكل منها » ^(١) وعن ابن عمر قال ذكرت عند النبي ﷺ طوبى فقال رسول الله ﷺ : « يا أبا بكر هل بلغك ما طوبى ؟ » قال : الله ورسوله أعلم . قال : « طوبى شجرة في الجنة ما يعلم طولها إلا الله ، يسير الراكب تحت غصن من أغصانها سبعين خريفاً ورقها الحلل ، يقع عليها الطير كأمثال البخت » فقال أبو بكر : يا رسول الله إن هناك لطيراً ناعماً ، قال : « أنعم منه من يأكله ، وأنت منهم إن شاء الله تعالى » ^(٢) .

وعن أنس بن مالك أن رسول الله ﷺ سئل عن الكوثر فقال : « نهو أعطانيه ربي ﷻ في الجنة أشد يياضاً من اللبن ، وأحلى من العسل ، فيه طيور أعناقها يعني كأعناق الجزر » فقال عمر : إنها لناعمة ، قال رسول الله ﷺ : « آكلها أنعم منها » ^(٣) .

وقوله تعالى : ﴿ وَحُورٌ عِينٌ ﴾ ^(٤) كَأَمْثَلِ اللَّوْلِيِّ الْأَوَّلِ الْكَتُونِ ﴿ قرأ بعضهم بالرفع ^(٥) وتقديره ، ولهم فيها ﴿ وَحُورٌ عِينٌ ﴾ وقراءة الجر تحتل معنيين : أحدهما : أن يكون الإعراب على الاتباع بما قبله كقوله تعالى : ﴿ يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ ﴾ ^(٦) بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقٍ وَكَأْسٍ مِنْ مَّيْمِينٍ ﴿ لَا يَصُدُّونَ عَنْهَا وَلَا يَرْفِقُونَ ﴾ ^(٧) وَفَكَهْمٌ مِمَّا يَتَخَبَّروُنَ ﴿ وَلَهُنَّ طَيْرٌ مِمَّا يَشْتَهُونَ ﴾ ^(٨) وَحُورٌ عِينٌ ﴿ كما قال تعالى : ﴿ وَأَمْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْسِلْكُمْ ﴾ ^(٩) وكما قال تعالى : ﴿ عَلَيْهِمْ ثِيَابٌ سُدُودٌ خُضَرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ ﴾ ^(١٠) والاحتمال الثاني : أن يكون مما يطوف به الولدان المخلدون عليهم الحور العين ، ولكن يكون ذلك في القصور لا بين بعضهم بعضاً ، بل في الخيام يطوف عليهم الخدام بالحوور العين ، والله أعلم . وقوله تعالى : ﴿ كَأَمْثَلِ اللَّوْلِيِّ الْأَوَّلِ الْكَتُونِ ﴾ أي كأنهن اللؤلؤ الرطب في يياضه وصفائه كما تقدم في سورة الصافات ﴿ كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَكْنُونٌ ﴾ ^(١١) ولهذا قال : ﴿ جَزَاءً يَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ أي هذا الذي أتحفناهم به مجازاة لهم على ما أحسنوا من العمل . ثم قال تعالى : ﴿ لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْثِيمًا ﴾ ^(١٢) إِلَّا قِيلًا سَلَامًا سَلَامًا ﴿ أي لا يسمعون في الجنة كلاماً لاغياً أي عبثاً خالياً من المعنى أو مشتتلاً على معنى حقير أو ضعيف ﴿ وَلَا تَأْثِيمًا ﴾ أي ولا كلاماً فيه قبح ﴿ إِلَّا قِيلًا سَلَامًا سَلَامًا ﴾ أي إلا التسليم منهم بعضهم على بعضا وكلامهم أيضاً سالم من اللغو والإثم . ﴿ وَأَصْحَابُ الْيَمِينِ مَا أَصْحَابُ الْيَمِينِ ﴾ ^(١٣) فِي سِدْرٍ مَخْضُودٍ ﴿ وَطَلْحٍ مَّنْضُودٍ ﴿ وَظِلِّ مَمْدُودٍ ﴿ وَمَاءٍ مَّسْكُوبٍ ﴿ وَفَكَهْمٌ كَثِيرٌ ﴿ لَا مَقْطُوعَةٍ وَلَا مَمْنُوعَةٍ ﴿ وَفُرشٌ مَّرْفُوعَةٍ ﴿ إِنَّا أَنشَأْنَاهُنَّ إِنشَاءً ﴿ فَجَعَلْنَاهُنَّ أَبْكَارًا ﴿ غُرًّا أَزْوَاجًا ﴿ لِأَصْحَابِ الْيَمِينِ ﴿ ثُلَّةٌ مِنْ آلِ الْأَوَّلِينَ ﴿ وَثُلَّةٌ مِنَ الْآخِرِينَ ﴿ .

لما ذكر تعالى مآل السابقين وهم المقربون ، عطف عليهم بذكر أصحاب اليمين وهم الأبرار ، كما قال ميمون بن مهران : أصحاب اليمين منزلتهم دون المقرين فقال : ﴿ وَأَصْحَابُ الْيَمِينِ مَا أَصْحَابُ الْيَمِينِ ﴾ أي أي شيء أصحاب اليمين وما حالهم وكيف مآلهم . ثم فسر ذلك فقال تعالى : ﴿ فِي سِدْرٍ مَخْضُودٍ ﴾ قال ابن عباس وعكرمة ومجاهد وأبو الأحوص وغيرهم : هو الذي لا شوك فيه ، وعن ابن عباس : هو الموقر بالثمر ، والظاهر أن المراد هذا وهذا ، فإن سدر الدنيا كثير الشوك قليل الثمر ،

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٢٢١/٣) .

(٢) أورده السيوطي في الدر المنثور (٦٢/٤) .

(٣) أخرجه الترمذي في السنن (٣٣٥٩) والحاكم في المستدرک (٥٣٧/٢) .

(٤) قرأ أبو جعفر وحمة والكسائي ﴿ وَحُورٍ عِينٍ ﴾ بخفض الاثنين والباقون بالرفع (انظر : تقريب النشر ص : ١٧٨) .

وفي الآخرة على العكس من هذا لا شوك فيه وفيه الثمر الكثير الذي قد أثقل أصله ، عن سليم بن عامر قال : كان أصحاب رسول الله ﷺ يقولون : إن الله لينفعا بالأعراب ومساثلهم ، قال : أقبل أعرابي يوماً فقال : يا رسول الله ذكر الله في الجنة شجرة تؤذي صاحبها ، فقال رسول الله ﷺ : « وما هي ؟ » قال : السدر ؛ فإن له شوكاً مؤذياً ، فقال رسول الله ﷺ : « أليس الله تعالى يقول : ﴿ فِي سِدْرٍ مَخْضُودٍ ﴾ خضد الله شوكه فجعل مكان كل شوكة ثمرة ، فإنها لتنبت ثمراً تفتق الثمرة منها عن اثنين وسبعين لوتاً من طعام ، مافيهما من لون يشبه الآخر » (١) .

وقوله : ﴿ وَطَلَحَ مَخْضُودٍ ﴾ الطلح شجر عظام يكون بأرض الحجاز من شجر العضاه واحدته طلحة ، وهو شجر كثير الشوك وقال مجاهد ﴿ مَخْضُودٍ ﴾ أي متراكم الثمر يذكر بذلك قريشاً ؛ لأنهم كانوا يعجبون من وج وظلاله من طلح وسدر . وقال السدي : ﴿ مَخْضُودٍ ﴾ مصفود . قال ابن عباس : يشبه طلح الدنيا ، ولكن له ثمر أحلى من العسل ، قال الجوهري : والطلح لغة في الطلع قلت : وقد روي من حديث الحسن بن سعد عن شيخ من همدان قال : سمعت علياً يقول : هذا الحرف في طلح منضود ، قال : طلع منضود ، فعلى هذا يكون من صفة السدر ، فكأنه وصفه بأنه مخضود ، وهو الذي لا شوك له ، وأن طلعه منضود وهو كثرة ثمره ، والله أعلم . قال مجاهد وابن زيد أهل اليمن يسمون الموز الطلح ، ولم يحك ابن جرير غير هذا القول .

وقوله تعالى : ﴿ وَطَلَحٍ تَمْذُورٍ ﴾ عن أبي هريرة ، يبلغ به النبي ﷺ قال : « إن في الجنة شجرة يسير الراكب في ظلها مائة عام لا يقطعها ، اقرعوا إن شئتم ﴿ وَطَلَحٍ تَمْذُورٍ ﴾ » (٢) . وعن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « ما في الجنة شجرة إلا مناقها من ذهب » (٣) ، وقال الضحاك والسدي وأبو حذرة في قوله تعالى : ﴿ وَطَلَحٍ تَمْذُورٍ ﴾ لا ينقطع ، ليس فيها شمس ولا حر مثل قبل طلوع الفجر ، وقال ابن مسعود : الجنة سحسح . كما بين طلوع الفجر إلى طلوع الشمس .

وقوله تعالى : ﴿ وَمَاءٌ مَّسْكُوبٌ ﴾ قال الثوري : يجري في غير أخدود ، وقد تقدم الكلام عند تفسير قوله تعالى : ﴿ فِيهَا أَنْهَارٌ مِنْ مَّاءٍ غَيْرِ ءَاسِنٍ ﴾ الآية . بما أغنى عن إعادته هنا .

وقوله تعالى : ﴿ وَفَكَهَمٌ كَثِيرٌ ﴾ لَا مَقْطُوعٌ وَلَا تَمْنَعُ أَي وعندهم من الفواكه الكثيرة المتنوعة في الألوان مما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر ، وفي ذكر سدرة المنتهى : « فإذا ورقها كأذان الفيلة ، ونبقها مثل قلال هجر » (٤) وعن ابن عباس قال : خسفت الشمس فصلى رسول الله ﷺ والناس معه فذكر الصلاة ، وفيه قالوا : يا رسول الله رأيناك تناولت شيئاً في مقامك هذا ثم رأيناك تكلمت ، قال : « إني رأيت الجنة فتناولت منها عنقوداً ، ولو أخذته ؛ لأكلمتم منه ما بقيت الدنيا » (٥) وعن عتبة بن عبد السلمي يقول : « جاء أعرابي إلى رسول الله ﷺ ، فسأله عن الحوض وذكر الجنة ، ثم قال الأعرابي : فيها فاكهة ؟ قال : نعم ، وفيها شجرة تدعى طوبى » قال : فذكر

(١) أورده السيوطي في الدر المنثور (١٥٦/٦) .

(٢) أخرجه البخاري في بدء الخلق (٣٢٥٢) .

(٣) أخرجه الترمذي في السنن (٢٥٢٥) .

(٤) أخرجه البخاري في بدء الخلق (٣٢٠٧) ومسلم في الإيمان (٢٥٩) وأحمد في مسنده (١٦٤/٣) .

(٥) أخرجه البخاري في الأذان (٦٠٩) ومسلم في الكسوف (١٧) وأحمد في مسنده (٣٥٨/١) والنسائي في السنن (١٤٧/٣) .

شيئاً لا أدري ما هو ، قال : أي شجرة أرضنا تشبه ؟ قال : ليست تشبه شيئاً من شجر أرضك ، فقال النبي ﷺ : « أتيت الشام ؟ » قال : لا . قال : « تشبه شجرة بالشام تدعى الجوزة تنبت على ساق واحد وينفرش أعلاها » . قال : ما عظم العنقود ؟ قال : « مسيرة شهر للغراب الأبقع لا يفتر » . قال : وعظم أصلها ؟ قال : « لو ارتحلت جذعة من إبل أهلك ما أحاطت بأصلها حتى تنكسر ترقوتها هرماً » . قال : فيها عنب ؟ قال : « نعم » قال : فما عظم الحبة ؟ قال : « هل ذبح أبوك تيساً من غنمه قط عظيماً ؟ » قال : نعم ، قال : « فسلخ إهابه فأعطاه أمك : فقال اتخذي لنا منه دلواً ؟ » قال : نعم . قال الأعرابي : فإن تلك الحبة لتشبعني وأهل بيتي ، قال : « نعم ، وعامة عشيرتك » ^(١) .

وقوله تعالى : ﴿ لَا مَقْطُوعَ وَلَا مَمْنُوعَ ﴾ أي لا تنقطع شتاء ولا صيفاً بل أكلها دائم مستمر أبداً ، مهما طلبوا وجدوا لا يمتنع عليهم بقدرة الله شيء . وقال قتادة : لا يمنعهم من تناولها عود ولا شوك ولا بعد ، وقوله تعالى : ﴿ وَفُتِي مَرْوَةَ ﴾ أي عالية وطيبة ناعمة عن أبي سعيد عن النبي ﷺ في قوله تعالى : ﴿ وَفُتِي مَرْوَةَ ﴾ قال : ارتفاعها كما بين السماء والأرض ومسيرة ما بينهما خمسمائة عام ^(٢) .

وقوله تعالى : ﴿ إِنَّا أَنْشَأْنَاهُنَّ إِنثَاءً ﴾ ﴿ فَجَعَلْنَهُنَّ أَبْكَارًا ﴾ ﴿ عَرَبًا أَزْوَاجًا ﴾ ﴿ لَأَصْحَابِ آلِيَيْنِ ﴾ جرى الضمير على غير مذكور . لكن لما دل السياق وهو ذكر الفرش على النساء اللاتي يضاجعن فيها اكتفى بذلك عن ذكرهن وعاد الضمير عليهن ، وقال الأخفش في قوله تعالى : ﴿ إِنَّا أَنْشَأْنَاهُنَّ إِنثَاءً ﴾ أضمرهن ولم يذكرن قبل ذلك ، وقال أبو عبيدة : ذكرن في قوله تعالى : ﴿ وَحُورٌ عِينٌ ﴾ ﴿ كَأَمْثَلِ اللَّوْلُؤِ الْمَكْنُونِ ﴾ فقوله تعالى : ﴿ إِنَّا أَنْشَأْنَاهُنَّ إِنثَاءً ﴾ أي أعدناهن في النشأة الأخرى بعد ما كن عجائز رمصاً ، صرن أبكاراً عرباً أي بعد الثيوبه عدن أبكاراً عرباً متحبيات إلى أزواجهن بالحلاوة والظرافة والملاحة . وقال بعضهم : ﴿ عَرَبًا ﴾ أي غنجات ، عن أنس بن مالك قال : قال رسول الله ﷺ ﴿ إِنَّا أَنْشَأْنَاهُنَّ إِنثَاءً ﴾ قال : « نساء عجائز كن في الدنيا عمشاً رمصاً » ^(٣) . وعن الحسن قال : أتت عجوز فقالت : يا رسول الله ادع الله تعالى أن يدخلني الجنة فقال : « يا أم فلان إن الجنة لا تدخلها عجوز » قال : فقلت تبيكي . قال : « أخبروها أنها لا تدخلها وهي عجوز ، إن الله تعالى يقول : ﴿ إِنَّا أَنْشَأْنَاهُنَّ إِنثَاءً ﴾ ﴿ فَجَعَلْنَهُنَّ أَبْكَارًا ﴾ » ^(٤) .

وعن أم سلمة قالت : قلت يا رسول الله أخبرني عن قول الله تعالى : ﴿ وَحُورٌ عِينٌ ﴾ قال : « حور بيض ضخام العيون ، شفر الحوراء بمنزلة جناح النسر » قلت : أخبرني عن قوله تعالى : ﴿ كَأَمْثَلِ اللَّوْلُؤِ الْمَكْنُونِ ﴾ قال : « صفاؤهن صفاء الدر الذي في الأصداق الذي لم تمسه الأيدي » قلت : أخبرني عن قوله : ﴿ فِيهِنَّ خَبَرٌ حَسَنٌ ﴾ قال : « خيرات الأخلاق حسان الوجوه » قلت : أخبرني عن قوله : ﴿ كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَكْنُونٌ ﴾ قال : « رقتهن كركة الجلد الذي رأيت في داخل البيضة مما يلي القشر وهو الغرقى » قلت : يا رسول الله أخبرني عن قوله : ﴿ عَرَبًا أَزْوَاجًا ﴾ قال : « هن اللواتي قبضن في الدار الدنيا عجائز رمصاً شمطاً ، خلقهن الله بعد الكبر فجعلهن عذارى عرباً متعشقات محبيات أتراباً على ميلاد واحد » قلت : يا رسول الله نساء الدنيا أفضل أم الحور العين ؟ قال : « بل

(٢) أخرجه الترمذي في السنن (٣٢٩٤) .

(٤) ذكره البغوي في تفسيره (١٩/٧) .

(١) أخرجه أحمد في مسنده (١٨٤/٤) .

(٣) أخرجه الترمذي في السنن (٢٥٣٦) .

نساء الدنيا أفضل من الحور العين كفضل الظهارة على البطانة » قلت : يا رسول الله وبم ذاك ؟ قال : « بصلاتهن وصيامهن وعبادتهن الله ﷻ ، ألبس الله وجوههن النور وأجسادهن الحرير . يبيض الألوان خضر الثياب صفر الحلبي ، مجامرهن الدر ، وأمشاطهن الذهب ، يقلن : نحن الخالدات فلا نموت أبدًا ، ونحن الناعمات فلا نبأس أبدًا ، ونحن المقيمات فلا نظعن أبدًا ، ألا ونحن الراضيات فلا نسخط أبدًا ، طوبى لمن كنا له وكان لنا » قلت : يا رسول الله المرأة منا تتزوج زوجين والثلاثة والأربعة ، ثم تموت فتدخل الجنة ويدخلون معها ، من يكون زوجها ؟ قال : « يا أم سلمة إنها تخير فتختار أحسنهم خلقًا ، فتقول : يارب إن هذا كان أحسن خلقًا معي فزوجنيه ، يا أم سلمة ذهب حسن الخلق بخير الدنيا والآخرة » ^(١) . وعن أنس قال : قال رسول الله ﷺ : « يعطى المؤمن في الجنة قوة كذا وكذا في النساء ، قلت : يا رسول الله ويطبق ذلك ؟ قال : يعطى قوة مائة » ^(٢) .

وقوله ﴿عُرِّيَا﴾ قال ابن عباس : يعني متحبات إلى أزواجهن ، ألم تر إلى الناقة الضبيعة هي كذلك ، وسأل ابن عباس عن قوله ﴿عُرِّيَا﴾ قال : هي الملقاة لزوجها . وعن جعفر بن محمد عن أبيه عن جده قال : قال رسول الله ﷺ : ﴿عُرِّيَا﴾ قال : « كلامهن عربي » . وقوله ﴿أَزْرَابًا﴾ قال ابن عباس : في سن واحدة ثلاث وثلاثين سنة ، وقال مجاهد : الأتراب المستويات ، وفي رواية عنه الأمثال ، وقال عطية : الأقران وقال السدي : أي في الأخلاق المتواخيات بينهم ، ليس بينهم تباغض ولا تحاسد ، يعني لا كما كن ضرائر متعديات . وعن علي عليه السلام قال : قال رسول الله ﷺ : « إن في الجنة مجتمعًا للحور العين يرفعن أصواتًا لم تسمع الخلائق بمثلهما - قال - يقلن : نحن الخالدات فلا نبئد ، ونحن الناعمات فلا نبأس ، ونحن الراضيات فلا نسخط ، طوبى لمن كان لنا وكنا له » ^(٣) . وعن أنس أن رسول الله ﷺ قال : « إن الحور العين ليغنين في الجنة يقلن : نحن خيرات حسان خبيثنا لأزواج كرام » ^(٤) وقوله تعالى : ﴿لَا مَحْصَبَ الْيَمِينِ﴾ أي خلقن لأصحاب اليمين أو ادخرن لأصحاب اليمين أو زوجن لأصحاب اليمين . والأظهر أنه متعلق بقوله ﴿إِنَّا أَنشَأْنَهُنَّ إِنثَاءً﴾ ﴿فَجَعَلْنَهُنَّ أَزْوَاجًا﴾ ﴿عُرِّيَا﴾ ﴿أَزْرَابًا﴾ ﴿لَا مَحْصَبَ الْيَمِينِ﴾ فقديره : أنشأناهن لأصحاب اليمين ، وهذا توجيه ابن جرير .

قلت : ويحتمل أن يكون قوله : ﴿لَا مَحْصَبَ الْيَمِينِ﴾ متعلقًا بما قبله وهو قوله ﴿أَزْرَابًا﴾ ﴿لَا مَحْصَبَ الْيَمِينِ﴾ أي في أسنانهم ، كما جاء عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « أول زمرة يدخلون الجنة على صورة القمر ليلة البدر ، والذين يلونهم على ضوء أشد كوكب دري في السماء إضاءة ، لا يبولون ، ولا يتغوطون ، ولا يتفلون ، ولا يتمخضون ، أمشاطهم الذهب ، وريحهم المسك ، ومجامرهم الألوة ، وأزواجهم الحور العين ، أخلاقهم على خلق رجل واحد على صورة أبيهم آدم ستون ذراعًا في السماء » ^(٥) وعن ابن معاذ بن جبل أن رسول الله ﷺ قال : « يدخل

(١) أخرجه المنذري في الترغيب والترهيب (٥٣٦/٤) والهيتمي في مجمع الزوائد (٤١٧/١٠) .

(٢) أخرجه الترمذي في السنن (٢٥٣٦) .

(٣) أخرجه الترمذي في السنن (٢٥٦٤) وأحمد في مسنده (١٥٦/١) والمنذري في الترغيب والترهيب (٥٣٧/٤) .

(٤) أخرجه المنذري في الترغيب والترهيب (٥٣٨/٤) والسيوطي في جمع الجوامع (٥٤٥٤) والهيتمي في مجمع الزوائد (٤١٩/١٠) .

(٥) أخرجه البخاري في بدء الخلق (٣٢٥٤) والترمذي في السنن (٢٥٣٧) والحاكم في المستدرک (٢٢٨/٣) وأحمد في مسنده (٢٥٧/٢) .

أهل الجنة الجنة جُزْءًا مُزْدًا مكملين بني ثلاث وثلاثين سنة ^(١) .

وعن عبد الله بن مسعود قال : وكان بعضهم يأخذ عن بعض قال : أكرنا ذات ليلة عند رسول الله ﷺ ثم غدونا عليه فقال : « عرضت علي الأنبياء وأتباعها بأسمها ، فيمر علي النبي ، والنبي في العصابة ، والنبي في الثلاثة والنبي وليس معه أحد - وتلا قتادة هذه الآية ﴿ الْبَسْ مِنْكُمْ رَجُلٌ رَشِيدٌ ﴾ قال : حتى مر علي موسى بن عمران في كيبكة من بني إسرائيل قال : قلت : ربي من هذا ؟ قال : هذا أخوك موسى بن عمران ومن تبعه من بني إسرائيل ! قال : قلت : رب فأين أمي ؟ قال : انظر عن يمينك في الضراب قال : فإذا وجوه الرجال ، قال : قال : أرضيت ؟ قال : قلت : قد رضيت رب . قال : انظر إلى الأفق عن يسارك ، فإذا وجوه الرجال ، قال : أرضيت ؟ قلت : قد رضيت رب . قال : فإن مع هؤلاء سبعين ألفا يدخلون الجنة بغير حساب » . قال : وأنشأ عكاشة بن محصن من بني أسد - قال سعيد : وكان بدريا - قال : يا نبي الله ادع الله أن يجعلني منهم ، قال : فقال : « اللهم اجعله منهم » قال : أنشأ رجل آخر قال : يا نبي الله ادع الله أن يجعلني منهم فقال : « سبقك بها عكاشة » قال : فقال رسول الله ﷺ : « فإن استطعتم فداكم أبي وأمي أن تكونوا من أصحاب السبعين فافعلوا ، وإلا فكونوا من أصحاب الضراب ، وإلا فكونوا من أصحاب الأفق ، فإني قد رأيت ناسا كثيرا قد ناشبوا أحوالهم » ثم قال : « إني لأرجو أن تكونوا ربع أهل الجنة » فكبرنا ، ثم قال : « إني لأرجو أن تكونوا ثلث أهل الجنة » قال : فكبرنا قال : « إني لأرجو أن تكونوا نصف أهل الجنة » قال : فكبرنا ، قال : ثم تلا رسول الله ﷺ هذه الآية ﴿ ثَلَاثَةٌ مِنْ الْأَوَّلِينَ ﴾ وَثَلَاثَةٌ مِنَ الْآخِرِينَ ﴿ قال : فقلنا بيننا : من هؤلاء السبعون ألفا ، فقلنا : هم الذين ولدوا في الإسلام ولم يشركوا . قال : فبلغه ذلك فقال : « بل هم الذين لا يكتون ، ولا يسترقون ، ولا يتطيرون ، وعلى ربهم يتوكلون » ^(٢) .

﴿ وَاتَّخَذَ الشَّيْطَانُ مَا أَحْبَبَ أَلْفَالًا ﴾ فِي سُورَةِ وَحْمٍ ﴿ وَظَلَّ مِنْ يَحْمُورٍ ﴾ لَا بَارِدَ وَلَا كَرِيمٍ ﴿ إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُتْرَفِينَ ﴾ وَكَانُوا يُصْرَفُونَ عَلَى الْحَنُوتِ الْعَظِيمِ ﴿ وَكَانُوا يَقُولُونَ أَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴾ أَوْ أَبَاؤُنَا الْأَوَّلُونَ ﴿ قُلْ إِنَّ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ ﴾ لَمَجْمُوعُونَ إِلَى مِيقَاتٍ يَوْمَ تَعْلَمُونَ ﴿ ثُمَّ إِنَّكُمْ أَنتُمُ الْفَاعِلُونَ ﴾ لَا تَكُونُ مِنْ شَجَرٍ مِنْ زُفُورٍ ﴿ قَالَتِ مِنْهَا الْبَلْغُونَ ﴾ فَتَشْرَبُونَ عَلَيْهِ مِنْ الْعَمِيمِ ﴿ فَتَشْرَبُونَ شَرْبَ الْعَمِيمِ ﴾ هَذَا تَزْلُمُ يَوْمَ الدِّينِ ﴿ .

لما ذكر تعالى حال أصحاب اليمين عطف عليهم بذكر أصحاب الشمال فقال ﴿ وَاتَّخَذَ الشَّيْطَانُ مَا أَحْبَبَ أَلْفَالًا ﴾ أي أي شيء هم فيه أصحاب الشمال ، ثم فسر ذلك فقال ﴿ فِي سُورَةٍ ﴾ وهو الهواء الحار ﴿ وَحْمٍ ﴾ وهو الماء الحار ﴿ وَظَلَّ مِنْ يَحْمُورٍ ﴾ قال ابن عباس : ظل الدخان ، ﴿ لَا بَارِدَ وَلَا كَرِيمٍ ﴾ أي ليس طيب الهبوب ولا حسن المنظر ، وقال الضحاک : كل شراب ليس بعذب فليس بكریم . وقال ابن جرير : العرب تتبع هذه اللفظة في النفي فيقولون : هذا الطعام ليس بطيب ولا كريم ، هذا اللحم ليس بسمين ولا كريم . وهذه الدار ليست بنظيفة ولا كريمة . ثم ذكر تعالى استحقاقهم لذلك فقال تعالى : ﴿ إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُتْرَفِينَ ﴾ أي كانوا في الدار الدنيا منعمين مقبلين على

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٢٩٥/٢) والمنذري في الترغيب والترهيب (٥٠٠/٤) .

(٢) أخرجه أحمد في مسنده (٤٢٠/٢) والحاكم في المستدرک (٥٧٧/٤) والطبراني في الكبير (٦/١٠) .

لذات أنفسهم لا يلوون على ما جاءتهم به الرسل ﴿ وَكَأَنَّا يُهْلِكُونَ ﴾ أي يقيمون ولا ينوون توبة ﴿ عَلَيَّ الْحِنثُ الْعَظِيمُ ﴾ وهو الكفر بالله وجعل الأوثان والأنداد أرباباً من دون الله . قال ابن عباس : الحنث العظيم : الشرك . وقال الشعبي : هو اليمين الغموس ﴿ وَكَأَنَّا يَقُولُونَ أَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظْمًا إِذَا نَحْنُ لَمَبْعُوثُونَ ﴾ أي نأبأؤنا الأولون ﴿ يعني أنهم يقولون ذلك مكذبين به مستبعدة لوقوعه ، قال الله تعالى : ﴿ قُلْ إِنَّ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ ﴾ ﴿ لَمَجْمُوعُونَ إِلَيَّ يَوْمَ يُنْفَخُ الْأَوَّلِينَ ﴾ أي أخبرهم يا محمد أن الأولين والآخرين من بني آدم سيجمعون إلى عرصات القيامة لا يغادر منهم أحد ، ولهذا قال : ﴿ لَمَجْمُوعُونَ إِلَيَّ يَوْمَ يُنْفَخُ الْأَوَّلِينَ ﴾ أي هو موقت بوقت محدود ، لا يتقدم ولا يتأخر ولا يزيد ولا ينقص .

﴿ ثُمَّ إِنَّكُمْ أَنتُمُ الْفَائِزُونَ ﴾ ﴿ لَا كُفْرَ بَيْنَ شَجَرَيْنِ زَيْتُونٍ ﴾ ﴿ فَالْقَوْمَ الَّذِينَ الْيَزِيدُ يَكْذِبُونَ ﴾ وذلك أنهم يقضون ويسجرون حتى يأكلوا من شجر الزقوم حتى يملأوا منها بطونهم ، ﴿ فَتَشْرَبُونَ عَلَيْهِ مِنَ الْحَمِيمِ ﴾ ﴿ فَتَشْرَبُونَ شَرْبَ الْحَمِيمِ ﴾ وهي الإبل العطاش ، وعن عكرمة أنه قال : الهميم الإبل المراض تمص الماء مضاً ولا تروى . وقال السدي : الهميم داء يأخذ الإبل فلا تروى أبداً حتى تموت ، فكَذلك أهل جهنم لا يروون من الحميم أبداً . ثم قال تعالى : ﴿ هَذَا زُرْتُمُ يَوْمَ الَّذِينَ ﴾ أي هذا الذي وصفنا هو ضيافتهم عند ربهم يوم حسابهم .

﴿ نَحْنُ خَلَقْنَكُمْ فَلَوْلَا تَصَدَّقُونَ ﴾ ﴿ أَوَلَمْ يَكُنْ مَا تَمْتُتُونَ ﴾ ﴿ أَمْ تَنْتَظِرُونَ أَنْ نَخْلَقَ لَكُم مِّنْ أَلْفُلٍ فَتَجِدَ الْآلِفَةَ ﴾ ﴿ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوبِينَ ﴾ ﴿ عَلَيَّ أَنْ تُبَدِّلَ أَمْنَلَكُمْ وَتُنشِئَكُمْ فَمَا لَا تَحْكُمُونَ ﴾ وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ النَّشْأَةَ الْأُولَىٰ فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ ﴾ .

يقول تعالى مقررًا للمعاد ، ورادًا على المكذبين به من أهل الزينج والإلحاد ، من الذين قالوا ﴿ إِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظْمًا إِذَا نَحْنُ لَمَبْعُوثُونَ ﴾ وقولهم ذلك صدر منهم على وجه التكذيب والاستبعاد . فقال تعالى : ﴿ نَحْنُ خَلَقْنَكُمْ ﴾ أي نحن ابتدأنا خلقكم بعد أن لم تكونوا شيئاً مذكوراً ، أفليس الذي قدر على البدأة بقادر على الإعادة بطريق الأولى والأخرى ! ولهذا قال ﴿ فَلَوْلَا تَصَدَّقُونَ ﴾ أي فهلا تصدقون بالبعث ! ثم قال تعالى مستدلاً عليهم بقوله : ﴿ أَوَلَمْ يَكُنْ مَا تَمْتُتُونَ ﴾ ﴿ أَمْ تَنْتَظِرُونَ أَنْ نَخْلَقَ لَكُم مِّنْ أَلْفُلٍ فَتَجِدَ الْآلِفَةَ ﴾ أي أنتم تقرونه في الأرحام وتخلقونه فيها أم الله الخالق لذلك ، ثم قال تعالى : ﴿ نَحْنُ قَدَرْنَا بَيْنَكُمْ الْمَوْتَ ﴾ أي صرفناه بينكم ، وقال الضحاك : ساوى فيه بين أهل السماء والأرض ﴿ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوبِينَ ﴾ أي وما نحن بعاجزين ﴿ عَلَيَّ أَنْ تُبَدِّلَ أَمْنَلَكُمْ ﴾ أي نغير خلقكم يوم القيامة .

﴿ وَتُنشِئَكُمْ فَمَا لَا تَحْكُمُونَ ﴾ أي من الصفات والأحوال . ثم قال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ النَّشْأَةَ الْأُولَىٰ فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ ﴾ أي قد علمتم أن الله أنشأكم بعد أن لم تكونوا شيئاً مذكوراً ، فخلقكم وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة ، فهلا تتذكرون وتعرفون أن الذي قدر على هذه النشأة وهي البدأة ، قادر على النشأة الأخرى وهي الإعادة بطريق الأولى والأخرى ، كما قال تعالى : ﴿ وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَىٰ عَلَيْهِ ﴾ .

﴿ أَوَلَمْ يَكُنْ مَا تَمْتُتُونَ ﴾ ﴿ أَمْ تَنْتَظِرُونَ أَنْ نَخْلَقَ لَكُم مِّنْ أَلْفُلٍ فَتَجِدَ الْآلِفَةَ ﴾ ﴿ وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ النَّشْأَةَ الْأُولَىٰ فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ ﴾ ﴿ أَوَلَمْ يَكُنْ مَا تَمْتُتُونَ ﴾ ﴿ أَمْ تَنْتَظِرُونَ أَنْ نَخْلَقَ لَكُم مِّنْ أَلْفُلٍ فَتَجِدَ الْآلِفَةَ ﴾ ﴿ وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ النَّشْأَةَ الْأُولَىٰ فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ ﴾ ﴿ أَوَلَمْ يَكُنْ مَا تَمْتُتُونَ ﴾ ﴿ أَمْ تَنْتَظِرُونَ أَنْ نَخْلَقَ لَكُم مِّنْ أَلْفُلٍ فَتَجِدَ الْآلِفَةَ ﴾ ﴿ وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ النَّشْأَةَ الْأُولَىٰ فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ ﴾ ﴿ أَوَلَمْ يَكُنْ مَا تَمْتُتُونَ ﴾ ﴿ أَمْ تَنْتَظِرُونَ أَنْ نَخْلَقَ لَكُم مِّنْ أَلْفُلٍ فَتَجِدَ الْآلِفَةَ ﴾ ﴿ وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ النَّشْأَةَ الْأُولَىٰ فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ ﴾ .

يقول تعالى : ﴿ أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَحْرُثُونَ ﴾ وهو شق الأرض وإثارتها والبذر فيها ﴿ ءَأَنْتُمْ تَزْرَعُونَهُ ﴾ أي تبتونه في الأرض ﴿ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ ﴾ أي بل نحن الذي نقره قراره وننبته في الأرض . عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « لا تقولن زرعت ، ولكن قل : حرثت » قال أبو هريرة : ألم تسمع إلى قوله تعالى : ﴿ أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَحْرُثُونَ ﴾ ﴿ ءَأَنْتُمْ تَزْرَعُونَهُ ﴾ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ ﴿ (١) .

وقوله تعالى : ﴿ لَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَاهُ حُطًا ﴾ أي نحن أنبتناه بلطفنا ورحمتنا وأبقيناه لكم رحمة بكم ولو نشاء لجعلناه حطامًا أي لأيسنائه قبل استوائه واستحصاده ﴿ فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ ﴾ ثم فسر ذلك بقوله ﴿ إِنَّا لَمُعْرِضُونَ ﴾ ﴿ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ ﴾ أي لو جعلناه حطامًا لظلمتم تفكهون في المقالة تنوعون كلامكم فتقولون تارة ﴿ إِنَّا لَمُعْرِضُونَ ﴾ أي للمقون ، وقال مجاهد وعكرمة : إنا لموقع بنا . وقال قتادة : معذبون ، وتارة تقولون ﴿ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ ﴾ . قال مجاهد أيضا : ملقون للشر أي بل نحن محارفون أي لا يثبت لنا مال ولا ينتج لنا ربح ، وقال مجاهد : مجدودون يعني لا حظ لنا ، وقال ابن عباس ومجاهد ﴿ فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ ﴾ تعجبون . وقال مجاهد أيضا : تفجعون وتحزنون على ما فاتكم من زرعكم ، وهذا يرجع إلى الأول ، وهو التعجب من السبب الذي من أجله أصيبوا في مالهم ، وهذا اختيار ابن جرير . وقال عكرمة ﴿ فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ ﴾ : تلاومون ، وقال الحسن وقاتة والسدي : تندمون ، ومعناه إما على ما أنفقتم أو على ما أسلفتم من الذنوب ، قال الكسائي : تفكه من الأضداد ، تقول العرب تفكهت بمعنى تنعمت ، وتفكهت بمعنى حزنت .

ثم قال تعالى : ﴿ أَفَرَأَيْتُمُ الْمَاءَ الَّذِي تَشْرَبُونَ ﴾ ﴿ ءَأَنْتُمْ أَنْزَلْتُمُوهُ مِنَ الْمُزْنِ ﴾ يعني السحاب ﴿ أَمْ نَحْنُ الْمُنْزِلُونَ ﴾ يقول : بل نحن المنزلون ﴿ لَوْ نَشَاءُ جَعَلْنَاهُ أَجْلًا ﴾ أي زعاقًا مَرًّا لا يصلح لشرب ولا زرع ﴿ فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ ﴾ أي فهلا تشكرون نعمة الله عليكم في إنزاله المطر عليكم عذابًا زلًا . وعن أبي جعفر عن النبي ﷺ أنه كان إذا شرب الماء قال : « الحمد لله الذي سقانا عذبا فراتا برحمته ، ولم يجعله ملحًا أجابًا بذنوبنا » (٢) ثم قال : ﴿ أَفَرَأَيْتُمُ النَّارَ الَّتِي تُورُونَ ﴾ أي تقدحون من الزناد وتستخرجونها من أصلها ﴿ ءَأَنْتُمْ أَنْشَأْتُمْ شَجَرَتَهَا أَمْ نَحْنُ الْمُنْشِئُونَ ﴾ أي بل نحن الذين جعلناها مودعة في موضعها . وللعرب شجرتان إحدهما : المرخ ، والأخرى : العفار ، إذا أخذ منها غصنان أخضران فحك أحدهما بالآخر تناثر من بينهما شرر النار . وقوله تعالى : ﴿ نَحْنُ جَعَلْنَاهَا تَذَكُّرًا ﴾ قال مجاهد وقاتة : أي تذكر النار الكبرى ، وعن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال : « نار بني آدم التي يوقدون جزء من سبعين جزءًا من نار جهنم » فقالوا : يا رسول الله إن كانت لكافية ، فقال : « فإنها قد فضلت عليها بتسعة وستين جزءًا » (٣) .

وقوله تعالى : ﴿ وَمَتَّعْنَا لِلْأُمَمِينَ ﴾ قال ابن عباس ومجاهد وقاتة والضحاك والنضر بن عربي : يعني بالمقوين المسافرين ، واختاره ابن جرير وقال : ومنه قولهم : أقوت الدار إذا رحل أهلها ، وقال

(١) ذكره السيوطي في الدر المنثور (٢٣/٨) وعزاه إلى البزار وابن مردويه وأبو نعيم والبيهقي في شعب الإيمان .

(٢) ذكره السيوطي في الدر المنثور (١٦١/٦) والهندي في كنز العمال (١٨٢٦٦) .

(٣) أخرجه أحمد في مسنده (٤٦٧/٢) وإلحاكم في المستدرک (٥٩٣/٤) وبنحوه البخاري في بدء الخلق (٣٢٦٥) والترمذي في

السنن (٢٥٩٠) .

غيره : القي والقواء القفر الخالي البعيد من العمران . وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم : المقوي ههنا الجائع . وقال مجاهد : للحاضر والمسافر لكل طعام لا يصلحه إلا النار ، وقال أيضًا : يعني للمستمتعين من الناس أجمعين ، وهذا التفسير أعم من غيره ، فإن الحاضر والبادي من غني وفقير الجميع محتاجون إليها للطبخ والاصطلاء والإضاءة وغير ذلك من المنافع ، ثم من لطف الله تعالى أن أودعها في الأحجار وخالص الحديد بحيث يتمكن المسافر من حمل ذلك في متاعه وبين ثيابه ، فإذا احتاج إلى ذلك في منزله أخرج زنده وأورى وأوقد ناره فاطبخ بها واصطلى بها واشتوى ، واستأنس بها وانتفع بها سائر الانتفاعات ، فلهذا أفرد المسافرون وإن كان ذلك عامًا في حق الناس كلهم ! وقد يستدل له بحديث أبي خدّاش حبان بن زيد الشرعبي الشامي عن رجل من المهاجرين من قرن أن رسول الله ﷺ قال : « المسلمون شركاء في ثلاثة : النار والكلاء والماء » ^(١) وعن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « ثلاثة لا يمنعن : الماء والكلاء والنار » ^(٢) .

وقوله تعالى : ﴿ فَسَيَحْ يَأْسِرُ رِيكَ الْعَظِيمِ ﴾ أي الذي بقدرته خلق هذه الأشياء المختلفة المتضادة : الماء الزلال العذب البارد ولو شاء لجعله ملحًا أجاجًا كالبحار المفرقة ، وخلق النار المحرقة وجعل ذلك مصلحة للعباد ، وجعل هذا منفعة لهم في معاش دنياهم وزجرًا لهم في المعاد .

﴿ فَلَا أَقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ ﴾ وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَوْ تَغْلَمُونَ عَظِيمٌ ﴿ إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ ﴾ فِي كِتَابٍ مَكْنُونٍ ﴿ لَا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ ﴾ تَنْزِيلٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ ﴿ أَفَبِهَذَا الْحَدِيثِ أَنْتُمْ مُذْهِبُونَ ﴿ وَيَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنْكُمْ تُكَذِّبُونَ ﴾ . الذي عليه الجمهور أنه قسم من الله تعالى يقسم بما شاء من خلقه ، وهو دليل على عظمته ، ثم قال بعض المفسرين : لا ههنا زائدة وتقديره : أقسم بمواقع النجوم ويكون جوابه ﴿ إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ ﴾ وقال آخرون : ليست لا زائدة لا معنى لها بل يؤتى بها في أول القسم إذا كان مقسمًا به على منفي كقول عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا : لا والله ما مست يد رسول الله ﷺ يد امرأة قط ^(٣) . وهكذا ههنا تقدير الكلام : لا أقسم بمواقع النجوم ، ليس الأمر كما زعمتم في القرآن أنه سحر أو كهانة بل هو قرآن كريم . وقال ابن جرير : وقال بعض أهل العربية : معنى قوله ﴿ فَلَا أَقْسِمُ ﴾ فليس الأمر كما تقولون ثم استأنف القسم بعد ذلك فقيل : أقسم ، واختلفوا في معنى قوله ﴿ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ ﴾ فعن ابن عباس : يعني نجوم القرآن فإنه نزل جملة ليلة القدر من السماء العليا إلى السماء الدنيا ، ثم نزل مفردًا في السنين بعد . ثم قرأ ابن عباس هذه الآية ، وقال الضحاك عن ابن عباس : نزل القرآن جملة من عند الله من اللوح المحفوظ إلى السفارة الكرام الكاتبين في السماء الدنيا ، فنجمته السفارة على جبريل عشرين ليلة ، ونجمه جبريل على محمد ﷺ عشرين سنة فهو قوله ﴿ فَلَا أَقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ ﴾ نجوم القرآن ، وقال مجاهد أيضًا : مواقع النجوم في السماء ويقال : مطالعها ومشارقها . وكذا قال الحسن وقتادة وهو اختيار ابن جرير ، وعن قتادة : مواقعها : منازلها . وعن الحسن

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٣٦٤/٥) وأبو داود في السنن (٣٤٧٧) وابن ماجه في السنن (٢٤٧٢) والبيهقي في السنن (١٥٠/٦) .

(٢) أخرجه ابن ماجه في السنن (٢٤٧٣) .

(٣) أخرجه الترمذي في السنن (٣٣٠٦) والألباني في الصحيحة (٥٢٩) .

أيضًا : أن المراد بذلك انتشارها يوم القيامة . وقوله ﴿ وَإِنَّ لَكُمْ لَأَوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ ﴾ أي وإن هذا القسم الذي أقسمت به لقسم عظيم ، لو تعلمون عظيمته لعظمتهم المقسم به عليه ﴿ إِنَّهُ لَقَرَّانٌ كَرِيمٌ ﴾ أي إن هذا القرآن الذي نزل على محمد لكتاب عظيم ﴿ فِي كِتَابٍ مُّكْتُونٍ ﴾ أي معظم ، في كتاب معظم محفوظ موقر . وعن ابن عباس ﴿ لَا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ ﴾ قال : الكتاب الذي في السماء . وقال ﴿ الْمُطَهَّرُونَ ﴾ : يعني الملائكة ، وكذا قال أنس ومجاهد وعكرمة وغيرهم .

وقال قتادة : لا يمسه عند الله إلا المطهرون ، فأما في الدنيا فإنه يمسه المجوسي النجس ، والمنافق الرجس ، وقال أبو العالية : ليس أنتم أصحاب الذنوب ، وقال ابن زيد : زعمت كفار قريش أن هذا القرآن تنزلت به الشياطين ، فأخبر الله تعالى أنه لا يمسه إلا المطهرون ، وهذا القول قول جيد ، وهو لا يخرج عن الأقوال التي قبله . وقال الفراء : لا يجد طعمه ونفعه إلا من آمن به . وقال آخرون ﴿ لَا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ ﴾ أي من الجنابة والحدث ، قالوا : ولفظ الآية خير ومعناها الطلب ، قالوا : والمراد بالقرآن ههنا المصحف ، كما روى ابن عمر أن رسول الله ﷺ نهى أن يسافر بالقرآن إلى أرض العدو مخافة أن يناله العدو ^(١) . واحتجوا في ذلك بما ورد في الكتاب الذي كتبه رسول الله ﷺ لعمرو بن حزم أن لا يمسه القرآن إلا طاهر ^(٢) .

وقوله تعالى : ﴿ تَزِيلُ بَيْنَ رَبِّهِ الْاَلَمَيْنِ ﴾ أي هذا القرآن منزل من الله رب العالمين وليس هو كما يقولون إنه سحر أو كهانة أو شعر ، بل هو الحق الذي لا مرية فيه وليس وراءه حق نافع . وقوله تعالى : ﴿ أَفَبِهَذَا الْحَدِيثِ أَنْتُمْ مُّذْهِبُونَ ﴾ قال ابن عباس : أي مكذبون غير مصدقين ، وقال مجاهد : أي تريدون أن تمالئوهم فيه وتركوا إليهم ﴿ وَتَعْمَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنْتُمْ تُكْذِبُونَ ﴾ قال بعضهم : معنى ﴿ وَتَعْمَلُونَ رِزْقَكُمْ ﴾ بمعنى شكركم ﴿ أَنْتُمْ تُكْذِبُونَ ﴾ أي : تكذبون بدل الشكر ، وقد روي عن علي وابن عباس أنهما قرأها (وَتَعْمَلُونَ شُكْرَكُمْ أَنْتُمْ تُكْذِبُونَ) .

وعن علي عليه السلام قال : قال رسول الله ﷺ : « ﴿ وَتَعْمَلُونَ رِزْقَكُمْ ﴾ يقول : شكركم ﴿ أَنْتُمْ تُكْذِبُونَ ﴾ تقولون : مطرنا بنوء كذا وكذا بنجم كذا وكذا » ^(٣) وعن زيد بن خالد الجهني أنه قال : صلى بنا رسول الله ﷺ صلاة الصبح بالحديبية في أثر سماء كانت من الليل ، فلما انصرف أقبل على الناس فقال : « هل تدرون ماذا قال ربكم ؟ » قالوا : الله ورسوله أعلم . قال : « أصبح من عبادي مؤمن بي وكافر ، فأما من قال : مطرنا بفضل الله ورحمته ؛ فذلك مؤمن بي كافر بالكواكب ، وأما من قال : مطرنا بنوء كذا وكذا فذلك كافر بي ومؤمن بالكواكب » ^(٤) وعن أبي هريرة عن رسول الله ﷺ أنه قال : « ما أنزل الله من السماء من بركة إلا أصبح فريق من الناس بها كافرين ، ينزل الغيث فيقولون : بكوكب كذا وكذا » ^(٥) . وقال مجاهد ﴿ وَتَعْمَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنْتُمْ تُكْذِبُونَ ﴾ قال : قولهم في

(١) أخرجه ابن ماجه في السنن (٢٨٧٩) وأحمد في مسنده (١٦٣/٢) والبيهقي في السنن (١٠٨/٩) .

(٢) أخرجه الدارمي في السنن (١٦١/٢) والبيهقي في السنن (٨٨/١) والدارقطني في السنن (١٢١/١) .

(٣) أخرجه أحمد في مسنده (١٠٨/١) .

(٤) أخرجه البخاري في الاستسقاء (١٠٣٨) ومسلم في الإيمان (١٢٥) وأحمد في مسنده (١١٧/٤) وأبو داود في السنن (٣٩٠٦) .

(٥) أخرجه مسلم في الإيمان (١٢٦) .

الأنواء : مطرنا بنوء كذا ، وبنوء كذا ، يقول : قولوا : هو من عند الله وهو رزقه .

﴿ فَلَوْلَا إِذَا بَلَغَتِ الْحُلُقُومَ ﴿٥٧﴾ وَأَنْتَ حِينِيذٍ تَنْظُرُونَ ﴿٥٨﴾ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْكُمْ وَلَكِنْ لَا بُدَّ لَهُمْ أَنْ يَرَوُا إِلَهُهُمُ يُبْصِرُونَ ﴿٥٩﴾ فَلَوْلَا إِنْ كُنْتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ ﴿٦٠﴾ تَرْجِعُونَهَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٦١﴾ .

يقول تعالى : ﴿ فَلَوْلَا إِذَا بَلَغَتِ ﴾ أي الروح ﴿ الْحُلُقُومَ ﴾ أي الحلق وذلك حين الاحتضار ، ولهذا قال : ﴿ وَأَنْتَ حِينِيذٍ تَنْظُرُونَ ﴾ أي إلى المحتضر وما يكابده من سكرات الموت ﴿ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْكُمْ ﴾ أي بملائكتنا ﴿ وَلَكِنْ لَا بُدَّ لَهُمْ أَنْ يَرَوُا إِلَهُهُمُ يُبْصِرُونَ ﴾ أي ولكن لا ترونهم . وقوله تعالى : ﴿ فَلَوْلَا إِنْ كُنْتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ تَرْجِعُونَهَا ﴾ معناه فهلا ترجعون هذه النفس التي قد بلغت الحلقوم إلى مكانها الأول ومقرها من الجسد إن كنتم غير مدنين . قال ابن عباس : يعني محاسبين ، وقال سعيد بن جبيرة والحسن البصري ﴿ فَلَوْلَا إِنْ كُنْتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ ﴾ : غير مصدقين أنكم تدانون وتبعثون وتجزون فردوا هذه النفس ، وعن مجاهد غير موقنين . وقال ميمون بن مهران : غير معذنين مقهورين .

﴿ فَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ الْمُقَرَّبِينَ ﴿٦٢﴾ فَرَوْحٌ وَرِيحٌ وَجَنَّتْ نَبِيرٌ ﴿٦٣﴾ وَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ ﴿٦٤﴾ فَسَلْسَلٌ لَكَ مِنَ أَصْحَابِ الْيَمِينِ ﴿٦٥﴾ وَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ الْمَكِيدِينَ الْفَآلِينَ ﴿٦٦﴾ فَنَزْلٌ مِنْ جَمِيمٍ ﴿٦٧﴾ وَنَصِيلَةٌ يَجِيمُ ﴿٦٨﴾ إِنَّ هَذَا لَمَوْحٌ أُبِينٌ ﴿٦٩﴾ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ ﴿٧٠﴾ .

هذه الأحوال الثلاثة هي أحوال الناس عند احتضارهم ، إما أن يكون من المقربين ، أو يكون من دونهم من أصحاب اليمين ، وإما أن يكون من المكذبين بالحق الضالين عن الهدى الجاهلين بأمر الله ، ولهذا قال تعالى : ﴿ فَأَمَّا إِنْ كَانَ ﴾ أي المحتضر ﴿ مِنَ الْمُقَرَّبِينَ ﴾ وهم الذين فعلوا الواجبات والمستحبات ، وتركوا المحرمات والمكروهات وبعض المباحات ﴿ فَرَوْحٌ وَرِيحٌ وَجَنَّتْ نَبِيرٌ ﴾ أي فلهم روح وريحان وتبشرهم الملائكة بذلك عند الموت كما تقدم في حديث البراء « أن ملائكة الرحمة تقول : أيتها الروح الطيبة في الجسد الطيب كنت تعمريه ، أخرجني إلى روح وريحان ورب غير غضبان » . قال ابن عباس ﴿ فَرَوْحٌ ﴾ يقول : راحة وريحان ، يقول : مستراحة ، وكذا قال مجاهد : إن الروح الاستراحة ، وقال أبو حمزة : الراحة من الدنيا ، وعن مجاهد ﴿ فَرَوْحٌ وَرِيحٌ ﴾ جنة ورخاء وقال قتادة : ﴿ فَرَوْحٌ ﴾ فرحة ، وقال ابن عباس ومجاهد وسعيد بن جبيرة : ﴿ وَرِيحٌ ﴾ ورزق ، وكل هذه الأقوال متقاربة صحيحة ، فإن من مات مقرَّبًا حصل له جميع ذلك من الرحمة والراحة والاستراحة ، والفرح والسرور والرزق الحسن ، ﴿ وَجَنَّتْ نَبِيرٌ ﴾ قال أبو العالية : لا يفارق أحد من المقربين حتى يؤتى بغصن من ريحان الجنة فيقبض روحه فيه . وقال محمد بن كعب : لا يموت أحد من الناس حتى يعلم أمن أهل الجنة هو أم من أهل النار ، وعن تميم الداري عن النبي ﷺ يقول : « يقول الله تعالى لملك الموت : انطلق إلى فلان فائتني به فإنه قد جربته بالسراء والضراء فوجدته حيث أُجِبْتُ ، اتسني فلأريحه قال : فينطلق إليه ملك الموت ومعه خمسمائة من الملائكة معهم أكفان وحنوط من الجنة ، ومعهم ضبائر الريحان - أصل الريحانة واحد - وفي رأسها عشرون لونًا لكل لون منها ريح سوى ريح صاحبه ، ومعهم الحرير الأبيض فيه المسك » (١) .

وعن عائشة أنها سمعت رسول الله ﷺ يقرأ ﴿ فَرَوْحٌ وَرِيحٌ ﴾ برفع الراء (٢) ، وهذه القراءة هي

(١) أورده السيوطي في الدر المنثور (١٦٤/٦) .

(٢) أخرجه أحمد في مسنده (٤٢٦/٦) .

قراءة يعقوب وحده وخالفه الباقر فقروا ﴿ فَرَجَّ وَرَحَّانَ ﴾ بفتح الراء ^(١) . وعن أم هانئ ، أنها سألت رسول الله ﷺ : أتزاور إذا متنا ويرى بعضنا بعضًا ؟ فقال رسول الله ﷺ : « يكون النسم طيرًا يعلق بالشجر حتى إذا كان يوم القيامة دخلت كل نفس في جسدها » ^(٢) . هذا الحديث فيه بشارة لكل مؤمن ، ومعنى يعلق يأكل ، وعن عطاء بن السائب قال : كان أول يوم عرفت فيه عبد الرحمن بن أبي ليلى رأيت شيخًا أبيض الرأس واللحية على حمار ، وهو يتبع جنازة فسمعتة يقول : حدثني فلان ابن فلان سمع رسول الله ﷺ يقول : « من أحب لقاء الله أحب الله لقاءه ، ومن كره لقاء الله كره الله لقاءه » قال : فأكب القوم ييكون ، فقال : « ما ييكيكم ؟ » فقالوا : إنا نكره الموت ، قال : « ليس ذاك ، ولكنه إذا احتضر ﴿ فَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ الْمُقَرَّبِينَ ﴾ فَرَجَّ وَرَحَّانَ وَحَنَّتْ نَيْبِهِ ﴾ فإذا بشر بذلك أحب لقاء الله ﷻ ، والله ﷻ للقاءه أحب ﴿ وَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ الْمُكَذِّبِينَ الضَّالِّينَ ﴾ فَنَزَلَ مِنْ جَمِيرٍ ۖ وَنَصْلُهُ جَمِيرٌ ﴾ فإذا بشر بذلك كره لقاء الله ﷻ والله تعالى للقاءه أكره » ^(٣) .

وقوله تعالى : ﴿ وَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ الْمُتَكَبِّرِينَ ﴾ أي وأما إذا كان المحتضر من أصحاب اليمين ﴿ فَسَلَّمَ لَكَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ ﴾ أي تبشرهم الملائكة بذلك تقول لأحدهم : سلام لك أي لا بأس عليك أنت إلى سلامة ، أنت من أصحاب اليمين . وقال قتادة وابن زيد : سلم من عذاب الله وسلمت عليه ملائكة الله ، وقال البخاري ﴿ فَسَلَّمَ لَكَ ﴾ أي مسلم لك أنك من أصحاب اليمين ، وألغيت إن وبقي معناها كما تقول : أنت مصدق مسافر عن قليل إذا كان قد قال : إني مسافر عن قليل ، وقد يكون كالدعاء له كقولك : سقيا لك من الرجال إن رفعت السلام ، فهو من الدعاء ^(٤) . وقد حكاه ابن جرير هكذا عن بعض أهل العربية ومال إليه والله أعلم .

وقوله تعالى : ﴿ وَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ الْمُكَذِّبِينَ الضَّالِّينَ ﴾ فَنَزَلَ مِنْ جَمِيرٍ ۖ وَنَصْلُهُ جَمِيرٌ ﴾ أي وأما إن كان المحتضر من المكذبين بالحق الضالين عن الهدى ﴿ فَنَزَلَ ﴾ أي فضيافة ﴿ مِنْ جَمِيرٍ ﴾ وهو المذاب الذي يصهر به ما في بطونهم والجلود ﴿ وَنَصْلُهُ جَمِيرٌ ﴾ أي وتقدير له في النار التي تغمره من جميع جهاته . ثم قال تعالى : ﴿ إِنَّ هَذَا لَهُوَ حَقُّ الْيَقِينِ ﴾ أي إن هذا الخبر لهو حق اليقين الذي لا مرية فيه ولا محيد لأحد عنه ﴿ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ ﴾ . عن عقبه بن عامر الجهني قال : لما نزلت على رسول الله ﷺ ﴿ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ ﴾ قال : « اجعلوها في ركوعكم » ولما نزلت ﴿ سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى ﴾ قال رسول الله ﷺ : « اجعلوها في سجودكم » ^(٥) وعن جابر قال : قال رسول الله ﷺ : « من قال : سبحان الله العظيم وبحمده ، غرست له نخلة في الجنة » ^(٦) وعن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « كلمتان خفيفتان على اللسان ثقيلتان في الميزان حبيبتان إلى الرحمن : سبحان الله وبحمده سبحان الله العظيم » ^(٧) .

(١) روى رويس ﴿ فَرَجَّ ﴾ بضم الراء وانفرد به ابن مهران عن روح ، والباقر بالفتح (انظر : تقريب النشر ص : ١٧٨) .

(٢) أخرجه أحمد في مسنده (٤٥٥/٣) .

(٣) أخرجه البخاري في الرقاق (٦٥٠٧) ومسلم في الذكر والدعاء (١٤) والترمذي في السنن (١٠٦٦) وأحمد في مسنده (٣٤٦/٢) .

(٤) أخرجه البخاري في تفسير القرآن (تفسير سورة الواقعة) . (٥) أخرجه أحمد في مسنده (١٥٥/٤) .

(٦) أخرجه الترمذي في السنن (٣٤٦٤) والحاكم في المستدرک (٥٠١/١) والألباني في الصحيحة (٦٤) .

(٧) أخرجه البخاري في الدعوات (٦٤٠٦) ومسلم في الذكر والدعاء (٣١) والترمذي في السنن (٣٤٦٧) وابن ماجه في السنن (٣٨٠٦) .

سورة الحديد

عن عرياض بن سارية أنه حدثهم أن رسول الله ﷺ كان يقرأ المسبحات قبل أن يرقد وقال :
« إن فيهن آية أفضل من ألف آية » (١)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴾ (١) لَمْ تَكُنِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ نَحْيًى وَبُيُوتٌ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿ هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ .

يخبر تعالى أنه يسبح له ما في السموات والأرض أي من الحيوانات والنباتات ، وقوله تعالى :
﴿ وَهُوَ الْعَزِيزُ ﴾ أي الذي قد خضع له كل شيء ﴿ الْعَزِيزُ ﴾ في خلقه وأمره وشرعه ﴿ لَمْ تَكُنِ السَّمَوَاتُ
وَالْأَرْضُ نَحْيًى وَبُيُوتٌ ﴾ أي هو المالك المتصرف في خلقه فيحيي ويميت ويعطي من يشاء ما يشاء ﴿ وَهُوَ
عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ أي ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن . وقوله تعالى : ﴿ هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ ﴾
وهذه الآية هي المشار إليها في حديث عرياض بن سارية أنها أفضل من ألف آية ، عن أبي زميل قال :
سألت ابن عباس فقلت : ما شيء أجده في صدري ، قال : ما هو ؟ قلت : والله لا أتكلم به . قال :
فقال لي : شيء من شك ؟ قال وضحك ، قال : ما نجا من ذلك أحد ، قال : حتى أنزل الله تعالى :
﴿ فَإِنْ كُنْتَ فِي شكٍ مِمَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ فَتَنَّا آلِ الْيَتِيمِ يَقْرَءُونَ الْحِكْمَةَ مِنْ قَبْلِكَ لَقَدْ جَاءَكَ أَلْحَقٌ مِنْ رَبِّكَ ﴾ الآية ،
قال : وقال لي : إذا وجدت في نفسك شيئا فقل ﴿ هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ
عَلِيمٌ ﴾ (٢) وقد اختلفت عبارات المفسرين في هذه الآية وأقوالهم على نحو من بضعة عشر قولاً .

قال البخاري : قال يحيى : الظاهر على كل شيء علماً والباطن على كل شيء علماً . وعن
سهيل قال : كان أبو صالح يأمرنا إذا أراد أحدنا أن ينام أن يضطجع على شقه الأيمن ، ثم يقول :
اللهم رب السموات ورب الأرض ورب العرش العظيم ، ربنا ورب كل شيء فالق الحب والنوى ،
ومنزّل التوراة والإنجيل والفرقان ، أعوذ بك من شر كل ذي شر أنت آخذ بناصيته ، اللهم أنت الأول
فليس قبلك شيء ، وأنت الآخر فليس بعدك شيء ، وأنت الظاهر فليس فوقك شيء ، وأنت الباطن
فليس دونك شيء ، اقض عنا الدين ، وأغننا من الفقر (٣) .

وعن أبي هريرة قال : بينما نبي الله ﷺ جالس وأصحابه إذ أتى عليهم سحاب فقال نبي الله ﷺ :
« هل تدرون ما هذا ؟ » قالوا : الله ورسوله أعلم . قال : « هذا العنان ، هذه روايا الأرض تسوقه إلى
قوم لا يشكرونه ولا يدعونه » ثم قال : « هل تدرون ما فوقكم ؟ » قالوا : الله ورسوله أعلم . قال :
« فإنها الرفيع سقف محفوظ وموج مكفوف » ثم قال : « هل تدرون كم بينكم وبينها ؟ » قالوا : الله
ورسوله أعلم . قال : « بينكم وبينها خمسمائة سنة » ثم قال : « هل تدرون ما فوق ذلك ؟ » قالوا :
الله ورسوله أعلم . قال : « فإن فوق ذلك سماء بُعْدُ ما بينهما مسيرة ستمائة سنة - حتى عد سبع

(٢) أخرجه أبو داود في السنن (٥١١٠) .

(١) أخرجه أحمد في مسنده (١٢٨/٤) .

(٣) أخرجه مسلم في الذكر والدعاء (٦١) وابن ماجه في السنن (٣٨٧٣) وأحمد في مسنده (٥٣٦/٢) .

سموات - ما بين كل سماءين كما بين السماء والأرض » ثم قال : « هل تدرون ما فوق ذلك ؟ » قالوا : الله ورسوله أعلم ، قال : « فإن فوق ذلك العرش وبينه وبين السماء مثل بُعْدِ ما بين السماءين » ثم قال : « هل تدرون ما الذي تحتكم ؟ » قالوا : الله ورسوله أعلم . قال : « فإنها الأرض » ثم قال : « هل تدرون ما الذي تحت ذلك ؟ » قالوا : الله ورسوله أعلم . قال : « فإن تحتها أرضاً أخرى بينهما مسيرة خمسمائة سنة - حتى عد سبع أرضين - بين كل أرضين مسيرة خمسمائة سنة » ثم قال : « والذي نفس محمد بيده لو أنكم دليتم حبلاً إلى الأرض السفلى لهبط على الله ثم قرأ : ﴿ هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ » ^(١) .

﴿ هُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ ① لَمْ تَلِكِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضُ وَاللَّهُ تَجِيعُ الْأُمُورِ ② يُرْجِعُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُؤَلِّجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَهُوَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ③ .

يخبر تعالى عن خلقه السموات والأرض وما بينهما في ستة أيام ، ثم أخبر تعالى باستوائه على العرش بعد خلقهن ، وقد تقدم الكلام على هذه الآية وأشباهها في سورة الأعراف بما أغنى عن إعادته ههنا . وقوله تعالى : ﴿ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ ﴾ أي يعلم عدد ما يدخل فيها من حب وقطر ﴿ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا ﴾ من نبات وزرع وثمار ، وقوله تعالى : ﴿ وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ ﴾ أي من الأمطار . والثلوج والبرد والأقذار . والأحكام مع الملائكة الكرام ، ما ينزل من قطرة من السماء إلا ومعها ملك يقررها في المكان الذي يأمر الله به حيث يشاء الله تعالى . وقوله تعالى ﴿ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا ﴾ أي : من الملائكة والأعمال ، كما جاء في الصحيح : « يُرْفَعُ إِلَيْهِ عَمَلُ اللَّيْلِ قَبْلَ النَّهَارِ ، وَعَمَلُ النَّهَارِ قَبْلَ اللَّيْلِ » ^(٢) . وقوله تعالى : ﴿ وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ أي رقيب عليكم شهيد على أعمالكم حيث كنتم وأين كنتم من بر أو بحر ، في ليل أو نهار ، في البيوت أو في القفار ، الجميع في علمه على السواء وتحت بصره وسمعه ، فيسمع كلامكم ويرى مكانكم ، ويعلم سركم ونجواكم .

فلا إله غيره ولا رب سواه ، وقد ثبت أن رسول الله ﷺ قال لجبريل لما سأله عن الإحسان : « أن تعبد الله كأنك تراه ، فإن لم تكن تراه فإنه يراك » ^(٣) وعن عبد الله بن معاوية الغاضري مرفوعاً : « ثلاث من فعلهن فقد طعم الإيمان ، إن عبد الله وحده وأعطى زكاة ماله طيبة بها نفسه في كل عام ، ولم يُعطِ الهرمة ولا الرذية ولا الشرطة اللثيمة ولا المريضة ، ولكن من أوسط أموالكم وزكى نفسه » وقال رجل : يا رسول الله ما تزكية المرء نفسه ، فقال : « يعلم أن الله معه حيث كان » ^(٤) وكان الإمام أحمد رحمه الله تعالى ينشد هذين البيتين :

إِذَا مَا خَلَوْتُ الدَّهْرَ يَوْمًا فَلَا تَقُلْ خَلَوْتُ وَلَكِنْ قُلْ عَلَيَّ رَقِيبٌ
وَلَا تَحْسِبَنَّ اللَّهَ يَغْفُلُ سَاعَةً وَلَا أَنْ مَا تُخْفِي عَلَيْهِ يَغِيبُ

(١) أخرجه الترمذي في السنن (٣٢٩٨) .

(٢) أخرجه مسلم في الإيمان (٢٩٣ ، ٢٩٥) .

(٣) أخرجه البخاري في التفسير (٤٧٧٧) ومسلم في الإيمان (١) وأحمد في مسنده (٤٢٦/٢) .

(٤) أخرجه أبو داود في السنن (١٥٨٢) والبيهقي في السنن (٩/٤) والألباني في الصحيحة (١٠٤٦) .

وقوله تعالى : ﴿لَمْ تَلِكْ أَسْمَوَاتٍ وَالْأَرْضَ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ﴾ أي هو المالك للعالمين والآخرة كما قال تعالى : ﴿وَلَا تَلِكُ لَنَا الْآخِرَةُ وَالْأُولَى﴾ وهو الحمود على ذلك كما قال تعالى : ﴿وَهُوَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْقُدْرَةُ فِي الْأُولَى وَالْآخِرَةِ﴾ فجميع ما في السموات والأرض ملك له ، وأهلها عبيد أرقاء أذلاء بين يديه ولهذا قال : ﴿وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ﴾ أي إليه المرجع يوم القيامة فيحكم في خلقه بما يشاء وهو العادل الذي لا يجور ولا يظلم مثقال ذرة ، بل إن يكن عمل أحدهم حسنة واحدة يضاعفها إلى عشر أمثالها ﴿وَيُؤْتِي مِنْ لَدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ وقوله تعالى : ﴿يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُؤَلِّجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ﴾ أي هو المتصرف في الخلق يقلب الليل والنهار ويقدرهما بحكمته كما يشاء ، فتارة يطول الليل ويقصر النهار ، وتارة بالعكس ، وتارة يتركهما معتدلين ، وتارة يكون الفصل شتاء ثم ربيعاً ثم قيظاً ثم خريفاً ، وكل ذلك بحكمته وتقديره لما يريد به خلقه ﴿وَهُوَ عَلِيمٌ بِمَا يَصْدُورُ﴾ أي يعلم السرائر وإن دقت أو خفيت .

﴿مَأْمُونًا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَأَنْقَضُوا مِمَّا جَعَلَكُمْ مُتَخَلِّفِينَ فِيهِ فَالَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَأَنْقَضُوا مِمَّا أُجْرَ كَيْدٍ ۝ وَمَا لَكُمْ لَا تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالرَّسُولِ يَدْعُوكُمْ لِتُؤْمِنُوا بِرَبِّكُمْ وَقَدْ أَخَذَ مِيثَاقَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ۝ هُوَ الَّذِي يُزِيلُ عَنْ عَبْدِهِ مَا يُرِيدُ لِيُخْرِجَكُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَإِنَّ اللَّهَ بِكُمْ لَرَؤُوفٌ رَحِيمٌ ۝ وَمَا لَكُمْ أَلَّا تُنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلِلَّهِ يَرْجِعُ أَسْمَوَاتُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ يَوْمَ تَكُونُ أُلُوفٌ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِنَ الَّذِينَ أَنْفَقُوا مِنْ بَدْدٍ وَقَتْلُوا وَكَلَّا وَعَدَّ اللَّهُ الْحَسَنَى وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ۝ مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَمْ وَلَهُ أَجْرٌ كَرِيمٌ﴾ .

أمر تبارك وتعالى بالإيمان به وبرسوله على الوجه الأكمل ، والدوام والثبات على ذلك والاستمرار ، وحث على الإنفاق مما جعلكم مستخلفين فيه ؛ أي مما هو معكم على سبيل العارية ؛ فإنه قد كان في أيدي من قبلكم ، ثم صار إليكم ، فأرشد تعالى إلى استعمال ما استخلفهم فيه من المال في طاعته ، فإن يفعلوا وإلا حاسبهم عليه وعاقبهم لتركهم الواجبات فيه ، وقوله تعالى : ﴿مِمَّا جَعَلَكُمْ مُتَخَلِّفِينَ فِيهِ﴾ فيه إشارة إلى أنه سيكون مخلفاً عنك ، فلعل وارثك أن يطيع الله فيه فيكون أسعد بما أنعم الله به عليك منك ، أو يعصي الله فيه فتكون قد سعت في معاونته على الإثم والعُدوان . عن عبد الله بن الشخير قال : انتهيت إلى رسول الله ﷺ وهو يقول : «أهلأكم التكاثر» ، يقول ابن آدم : مالي مالي ، وهل لك من مالك إلا ما أكلت فأفنت ، أو لبست فأبليت ، أو تصدقت فأمضيت » (١) .

وقوله تعالى : ﴿فَالَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَأَنْقَضُوا مِمَّا أُجْرَ كَيْدٍ﴾ ترغيب في الإيمان والإنفاق في الطاعة ثم قال تعالى : ﴿وَمَا لَكُمْ لَا تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالرَّسُولِ يَدْعُوكُمْ لِتُؤْمِنُوا بِرَبِّكُمْ﴾ أي وأي شيء يمنعكم من الإيمان والرسول بين أظهركم يدعوكم إلى ذلك ويبين لكم الحجج والبراهين على صحة ما جاءكم به . وقوله تعالى : ﴿وَقَدْ أَخَذَ مِيثَاقَكُمْ﴾ كما قال تعالى : ﴿وَأَذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمِيثَاقَهُ الَّذِي وَاثَقَكُمْ بِهِ إِذْ قُلْتُمْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا﴾ ويعني بذلك بيعة الرسول ﷺ ، وزعم ابن جرير أن المراد بذلك الميثاق الذي أخذ عليهم في صلب آدم وهو مذهب مجاهد ، فالله أعلم . وقوله تعالى : ﴿هُوَ الَّذِي يُزِيلُ عَنْ عَبْدِهِ مَا يُرِيدُ لِيُخْرِجَكُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾ أي حججاً واضحات ودلائل باهرات وبراهين قاطعات ﴿لِيُخْرِجَكُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾ أي من ظلمات الجهل والكفر والآراء المتضادة إلى نور الهدى واليقين والإيمان ﴿وَإِنَّ اللَّهَ بِكُمْ لَرَؤُوفٌ رَحِيمٌ﴾

أي في إنزاله الكتب وإرساله الرسل لهداية الناس وإزاحة العلل وإزالة الشبه ، ولما أمرهم أولاً بالإيمان والإنفاق ثم حثهم على الإيمان وبين أنه قد أزال عنهم موانعه حثهم أيضاً على الإنفاق فقال : ﴿ وَمَا لَكُمْ أَلَّا تُنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلِلَّهِ يَمُوتُ الْبَرُّ وَالْكَافِرُ ﴾ أي أنفقوا ولا تخشوا فقرا وإقلاقاً ؛ فإن الذي أنفقتم في سبيله هو مالك السموات والأرض ويده مقاليدهما وعنده خزائنها ، وهو مالك العرش بما حوى ، وهو القائل : ﴿ وَمَا أَفْقَرُ مِنْ شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ وَهُوَ خَيْرُ الْخَالِقِينَ ﴾ .

فمن توكل على الله أنفق ولم يخش من ذي العرش إقلالاً ، وعلم أن الله سيخلفه عليه . وقوله تعالى : ﴿ لَا يَسْتَوِي مِنْكُمْ مَنْ أَنْفَقَ مِنْ قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَتْلٌ ﴾ أي لا يستوي هذا ومن لم يفعل كفعله ، وذلك أنه قبل فتح مكة كان الحال شديداً فلم يكن يؤمن حينئذ إلا الصديقون ، وأما بعد الفتح فإنه ظهر الإسلام ظهوراً عظيماً ودخل الناس في دين الله أفواجا . ولهذا قال تعالى : ﴿ أُولَئِكَ أَكْثَرُ دَرَجَةٍ مِنَ الَّذِينَ أَنْفَقُوا مِنْ قَبْلُ وَتَنَزَّلُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّسُلُ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَوْلَى الْغَنِيُّ ﴾ والجمهور على أن المراد بالفتح ههنا فتح مكة ، وعن الشعبي وغيره أن المراد بالفتح ههنا صلح الحديبية ، وقد يستدل لهذا القول بما روي عن أنس قال : كان بين خالد بن الوليد وبين عبد الرحمن بن عوف كلام ، فقال خالد لعبد الرحمن : تستطيلون علينا بأيام سبقتمونا بها ، فبلغنا أن ذلك ذكر للنبي ﷺ فقال : « دعوا لي أصحابي ، فوالذي نفسي بيده لو أنفقتم مثل أحد أو مثل الجبال ذهباً ما بلغتم أعمالهم » ^(١) ومعلوم أن إسلام خالد بن الوليد المواجه بهذا الخطاب كان بين صلح الحديبية وفتح مكة ، وكانت هذه المشاجرة بينهما في بني جذيمة الذين بعث إليهم رسول الله ﷺ خالد بن الوليد بعد الفتح ، فجعلوا يقولون : صبأنا صبأنا ، فلم يحسنوا أن يقولوا : أسلمنا ، فأمر خالد بقتلهم وقتل من أسر منهم ، فخالفه عبد الرحمن بن عوف وعبد الله بن عمر وغيرهما ، فاختصم خالد وعبد الرحمن بسبب ذلك ، والذي في الصحيح عن رسول الله ﷺ أنه قال : « لا تسبوا أصحابي فوالذي نفسي بيده لو أنفق أحدكم مثل أحد ذهباً ما بلغ مد أحدهم ولا نصيفه » ^(٢) .

وعن عطاء بن يسار عن أبي سعيد ذكر الخوارج : « تَحْقِرُونَ صَلَاتَكُمْ مَعَ صَلَاتِهِمْ وَصِيَامَكُمْ مَعَ صِيَامِهِمْ يَمْرُقُونَ مِنَ الدِّينِ كَمَا يَمْرُقُ السَّهْمُ مِنَ الرِّمِيَةِ .. » ^(٣) . وقوله تعالى : ﴿ وَمَا لَكُمْ أَلَّا تُنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلِلَّهِ يَمُوتُ الْبَرُّ وَالْكَافِرُ ﴾ يعني المنفقين قبل الفتح وبعده ، كلهم لهم ثواب على ما عملوا ، وإن كان بينهم تفاوت في تفاضل الجزاء ، وفي الصحيح : « المؤمن القوي خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف ، وفي كل خير » ^(٤) وإنما نبه بهذا لئلا يهدر جانب الآخر بمدح الأول دون الآخر ، فيتوهم متوهم ذمه ، فلماذا عطف بمدح الآخر والثناء عليه مع تفضيل الأول عليه ، ولهذا قال تعالى : ﴿ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴾ أي فلخبرته فاوت بين ثواب من أنفق من قبل الفتح وقاتل ومن فعل ذلك بعد ذلك ، وما ذاك إلا لعلمه بقصد الأول وإخلاصه التام وإنفاقه في حال الجهد والقلة والضيق ، وفي الحديث « سَبَقَ دَرَاهِمُ مِائَةِ أَلْفٍ » ^(٥) ولا شك عند أهل

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٢٦٦/٣) .

(٢) أخرجه مسلم في فضائل الصحابة (٢٢١) والترمذي في السنن (٣٨٦١) وابن ماجه في السنن (١٦١) .

(٣) أخرجه مسلم في الجنة وصفة نعيمها (٥٣) .

(٤) أخرجه مسلم في القدر (٣٤) وابن ماجه في السنن (٧٩) وأحمد في مسنده (٣٧٠/٢) والبيهقي في السنن (٨٩/١٠) .

(٥) أخرجه النسائي في السنن (٥٩/٥) .

الإيمان أن الصديق أبا بكر رضي الله عنه ، له الحظ الأوفر من هذه الآية ، فإنه سيد من عمل بها من سائر أئم الأنبياء ؛ فإنه أنفق ماله كله ابتغاء وجه الله تعالى ، ولم يكن لأحد عنده نعمة يجزيه بها . وقوله تعالى : ﴿ مَنْ ذَا الَّذِي يقرضُ اللهَ قرضًا حسنًا ﴾ قال عمر بن الخطاب : هو الإنفاق في سبيل الله ، وقيل : هو النفقة على العيال ، والصحيح أنه أعم من ذلك ، فكل من أنفق في سبيل الله بنية خالصة ، وعزيمة صادقة دخل في عموم هذه الآية ، ولهذا قال تعالى : ﴿ مَنْ ذَا الَّذِي يقرضُ اللهَ قرضًا حسنًا فيضضوه له ﴾ أي جزاء جميل ورزق باهر ، وهو الجنة يوم القيامة .

وعن عبد الله بن مسعود قال : لما نزلت هذه الآية ﴿ مَنْ ذَا الَّذِي يقرضُ اللهَ قرضًا حسنًا فيضضوه له ﴾ قال أبو الدحداح الأنصاري : يا رسول الله ، وإن الله ليريد منا القرض ، قال : « نعم يا أبا الدحداح » قال : أرني يدك يا رسول الله . قال : فناولوه يده . قال : فإني قد أقرضت ربي حائطي - وله حائط فيه ستمائة نخلة ، وأم الدحداح فيه وعيالها - قال : فجاء أبو الدحداح فناداها يا أم الدحداح . قالت : لييك ، قال : اخرجي فقد أقرضته ربي رضي الله عنه « وفي رواية أنها قالت له : ربح بيعك يا أبا الدحداح ، ونقلت منه متاعها وصبيانها ، وإن زسول عليه السلام قال : « كم من عذق رداح في الجنة لأبي الدحداح » وفي لفظ : « رب نخلة مدلاة عروقها در وياقوت لأبي الدحداح في الجنة » ^(١) .

﴿ يَوْمَ تَرَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ يَسْعَىٰ ثَوْرُهُمْ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ بُشْرانُكَ الْيَوْمَ جَنَّتْ تَحْزِينًا الْأَنْهَارُ خَلِيدِينَ فِيهَا ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ٧ يَوْمَ يَقُولُ الْمُسْقِفُونَ وَالْمُنْفِقُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا انظُرُونَا نَقْتِس مِنْ ثَوْرِكُمْ قِيلَ ارْجِعُوا وَرَاءَكُمْ فَالْتَمِسُوا ثَوْرَكُمْ فَضَرَبَ بِتَنَاهِمْ بِسُورٍ لَمْ يَأْبَ بِلُطْنِهِ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهَرَهُ مِنْ قِبَلِهِ الْعَذَابُ ٨ يَنَادُوهُمْ أَلَمْ تَكُنْ مَعَكُمْ قَالُوا بَلَىٰ وَلَكِنَّكُمْ فَتَنْتُمْ أَنْفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَارْتَبَسْتُمْ وِعَرَضْتُمْ الْأَمَانِيُّ حَتَّىٰ جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ وَعَزَّكَم بِاللَّهِ الْغُرُورُ ٩ قَالِيَوْمَ لَا يُؤْخَذُ مِنْكُمْ فِدْيَةٌ وَلَا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مَأْوِيَكُمْ أَلَقَارٌ هِيَ مَوْلَانَكُمْ وَبَشَىٰ النَّصِيرُ ﴾ .

يقول تعالى مخبرًا عن المؤمنين المتصدقين أنهم يوم القيامة يسعى نورهم بين أيديهم في عرصات القيامة ، بحسب أعمالهم كما قال عبد الله بن مسعود في قوله تعالى : ﴿ يَسْعَىٰ ثَوْرُهُمْ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ ﴾ قال : على قدر أعمالهم يمشون على الصراط ، منهم من نوره مثل الجبل ، ومنهم من نوره مثل النخلة ، ومنهم من نوره مثل الرجل القائم ، وأدناهم نورًا من نوره في إنباهما يتقد مرة ويطفا مرة ، وعن جنادة بن أبي أمية قال : إنكم مكتوبون عند الله بأسمائكم وسيماءكم وحلاككم ونجواكم ومجالسكم ، فإذا كان يوم القيامة ، قيل : يا فلان هذا نورك ، يا فلان لا نور لك ، وقرأ ﴿ يَسْعَىٰ ثَوْرُهُمْ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ ﴾ .

وعن أبي الدرداء وأبي ذر يخبران عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « أنا أول من يؤذن له يوم القيامة بالسجود ، وأول من يؤذن الله برفع رأسه ، فأنظر من بين يدي ومن خلفي وعن يميني وعن شمالي ، فأعرف أمتي من بين الأمم » فقال له رجل : يا نبي الله كيف تعرف أمتك من بين الأمم ما بين نوح إلى أمتك ؟ فقال : « أعرفهم محجلون من أثر الوضوء ، ولا يكون لأحد من الأمم غيرهم ، وأعرفهم يؤتون كتبهم بأيمانهم ، وأعرفهم بسيماهم في وجوههم ، وأعرفهم بنورهم يسعى بين أيديهم » ^(٢) .

(١) أورده الهيثمي في مجمع الزوائد (١١٤/٣) .

(٢) أخرجه أحمد في مسنده (١٩٩/٥) والحاكم في المستدرک (٤٧٨/٢) والبيهقي في السنن (١٧٢/٦) .

وقوله : ﴿ وَيَأْتِيهِمْ ﴾ قال الضحاك : أي وبأيامهم كتبهم وقوله : ﴿ بُشِّرْكُمْ أَلَيْمَ جَنَّتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ﴾ أي يقال لهم : بشراكم اليوم جنات أي لكم البشارة بجنات تجري من تحتها الأنهار ﴿ خَالِدِينَ فِيهَا ﴾ أي ماكنين فيها أبداً ﴿ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴾ وقوله ﴿ يَوْمَ يَقُولُ الْمُنْفِقُونَ وَالْمُفَقِّتُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا انظُرُونَا نَقْتِسِمْ مِنْ ثُورِكُمْ ﴾ وهذا إخبار منه تعالى عما يقع يوم القيامة في العرصات من الأحوال المزعجة والزلازل العظيمة ، والأمور الفظيعة ، وأنه لا ينجو يومئذ إلا من آمن بالله ورسوله وعمل بما أمر الله به وترك ما عنه زجر . وعن سليم بن عامر قال : خرجنا على جنازة في باب دمشق ومعنا أبو أمامة الباهلي ، فلما صلى على الجنازة وأخذوا في دفنها قال أبو أمامة : أيها الناس إنكم قد أصبحتم وأمسيتم في منزل تقتسمون فيه الحسنات والسيئات ، وتوشكون أن تظعنوا منه إلى منزل آخر وهو هذا - يشير إلى القبر - بيت الوحدة وبيت الظلمة وبيت الدود وبيت الضيق إلا ما وسع الله ، ثم تنتقلون منه إلى مواطن يوم القيامة ، فإنكم في بعض تلك المواطن حتى يغشى الناس أمر من الله فبيض وجوه وتسود وجوه ، ثم تنتقلون منه إلى منزل آخر فيغشى الناس ظلمة شديدة ، ثم يقسم النور فيعطى المؤمن نوراً ، ويترك الكافر والمنافق فلا يعطيان شيئاً ، وهو المثل الذي ضربه الله تعالى في كتابه فقال : ﴿ أَمْ كُفَلِّمْتُ فِي بَحْرِ لُجِّي يَفْسُهُ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ سَحَابٌ طُلُوتُ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَا أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ يَكِدْ عَلَيْهَا وَإِنْ رَىٰ يَجْعَلُ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِنْ نُّورٍ ﴾ فلا يستضيء الكافر والمنافق بنور المؤمن كما لا يستضيء الأعمى ببصر البصير ، ويقول المنافقون والمنافقات للذين آمنوا ﴿ انظُرُونَا نَقْتِسِمْ مِنْ ثُورِكُمْ فَبَلَّغْنَا فِي الْوَعْدِ وَأَنزَلْنَا نَارَكُمْ فَاالتَّسْوَا نُورًا ﴾ وهي خدعة الله التي خدع بها المنافقين حيث قال : ﴿ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ ﴾ فيرجعون إلى المكان الذي قسم فيه النور فلا يجدون شيئاً ، فينصرفون إليهم وقد ضرب بينهم بسور له باب ﴿ بَاطِلُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِنْ قِبَلِهِ الْعَذَابُ ﴾ الآية .

وعن ابن عباس قال : قال رسول الله ﷺ : « إن الله تعالى يدعو الناس يوم القيامة بأسمائهم سترًا منه على عباده ، وأما عند الصراط : فإن الله تعالى يعطي كل مؤمن نوراً وكل منافق نوراً ، فإذا استوتوا على الصراط سلب الله نور المنافقين والمنافقات ، فقال المنافقون : انظرونا نقْتِسِمْ مِنْ نُورِكُمْ ، وقال المؤمنون : ربنا أتمم لنا نورنا ، فلا يذكر عند ذلك أحد أحداً » (١) .

وقوله تعالى : ﴿ فَصَرَبَ يَنْهَمُ بِسُورٍ لَّهُمْ بَابٌ بَاطِلُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِنْ قِبَلِهِ الْعَذَابُ ﴾ قال الحسن وقتادة : هو حائط بين الجنة والنار ، وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم : هو الذي قال الله تعالى : ﴿ وَبَيْنَهُمَا جَبَابٌ ﴾ وهكذا روي عن مجاهد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وغير واحد وهو الصحيح ﴿ بَاطِلُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ ﴾ أي الجنة وما فيها ﴿ وَظَاهِرُهُ مِنْ قِبَلِهِ الْعَذَابُ ﴾ أي النار . قال ابن جرير : وقد قيل إن ذلك السور سور بيت المقدس عند وادي جهنم ، وعن أبي العوام مؤذن بيت المقدس قال : سمعت عبد الله بن عمرو يقول : إن السور الذي ذكره الله في القرآن ﴿ فَصَرَبَ يَنْهَمُ بِسُورٍ لَّهُمْ بَابٌ بَاطِلُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِنْ قِبَلِهِ الْعَذَابُ ﴾ وهو السور الشرقي باطنه المسجد وما يليه وظاهره وادي جهنم . وروي عن عبادة بن الصامت وغيره مثل ذلك ، وهذا محمول منهم على أنهم أرادوا بهذا تقريب المعنى ومثالا لذلك ، لا أن هذا هو الذي

(١) أخرجه الطبراني في الكبير (١١٢٤٢) . والبيهقي في مجمع الزوائد (٣٥٩/١٠) .

أريد من القرآن هذا الجدار المعين ونفس المسجد ، وما وراءه من الوادي المعروف بوادي جهنم ، فإن الجنة في السموات في أعلى عليين والنار في الدركات أسفل سافلين ، وقول كعب الأحبار : إن الباب المذكور في القرآن هو باب الرحمة الذي هو أحد أبواب المسجد فهذا من إسرائيلياته وترهاته ، وإنما المراد بذلك سور يضرب يوم القيامة ليحجز بين المؤمنين والمنافقين ، فإذا انتهى إليه المؤمنون دخلوه من بابه ، فإذا استكملوا دخولهم أغلق الباب وبقي المنافقون من وراءه في الحيرة والظلمة والعذاب كما كانوا في الدار الدنيا في كفر وجهل وشك وحيرة .

﴿يَادُّوهُمْ أَلَمْ تَكُنْ مَعَهُمْ﴾ أي ينادي المنافقون المؤمنين أما كنا معكم في الدار الدنيا نشهد معكم الجمعات ونصلي معكم الجماعات ، ونقف معكم بعرفات ، ونحضر معكم الغزوات ونؤدي معكم سائر الواجبات ، ﴿قَالُوا بَلَىٰ﴾ أي فأجاب المؤمنون المنافقين قائلين : بلى قد كنتم معنا ﴿وَلَكِنَّكُمْ فَتَنَّا أَنْفُسَكُمْ وَتَرَفْتُمْ وَارْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ الْأَمَانَةُ﴾ قال بعض السلف : أي فتنتم أنفسكم بالذات والمعاصي والشهوات ﴿وَتَرَفْتُمْ﴾ أي أخرتم التوبة من وقت إلى وقت . وقال قتادة ﴿وَتَرَفْتُمْ﴾ بالحق وأهله ﴿وَارْتَبْتُمْ﴾ أي بالبعث بعد الموت ﴿وَغَرَّتْكُمُ الْأَمَانَةُ﴾ أي قلتم سيغفر لنا وقيل : غرتكم الدنيا ﴿حَتَّىٰ جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ﴾ أي ما زلتم في هذا حتى جاءكم الموت ﴿وَعَزَّكُمُ اللَّهُ الْفُرُوزَ﴾ أي الشيطان ، قال قتادة : كانوا على خدعة من الشيطان ، والله ما زالوا عليها حتى قذفهم الله في النار . ومعنى هذا الكلام من المؤمنين للمنافقين أنكم كنتم معنا أي بأبدان لا نية لها ولا قلوب معها ، وإنما كنتم في حيرة وشك ، فكنتم تراءون الناس ولا تذكرون الله إلا قليلاً ، قال مجاهد : كان المنافقون مع المؤمنين أحياء يناكحونهم ويعشونهم ويعاشرونهم ، وكانوا معهم أمواتاً ويعطون النور جميعاً يوم القيامة ، ويطفأ النور من المنافقين إذا بلغوا السور ويماز بينهم حينئذ .

وهذا القول من المؤمنين لا ينافي قولهم الذي أخبر الله تعالى به عنهم حيث يقول ، وهو أصدق القائلين ﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَجِيَّةٌ﴾ ١٦ ﴿إِلَّا أَصْحَابَ الْيَمِينِ﴾ ١٧ ﴿فِي جَنَّاتٍ يَسْقَوْنَ مِنْ غَيْرِ الْمَجْرِيَةِ﴾ ١٨ ﴿مَّا سَلَكَ فِي سَعَرٍ﴾ ١٩ ﴿قَالُوا لَوْ نَكُنْ مِنَ الْمُصْلِينَ﴾ ٢٠ ﴿وَلَوْ نَكُنْ لَطَمِ الْأَيْسَرِينَ﴾ ٢١ ﴿وَكُنَّا نَحْمُوسُ مَعَ الْفَاجِينَ﴾ ٢٢ ﴿وَكُنَّا نَكْذِبُ يَوْمَ الَّذِينَ﴾ ٢٣ ﴿حَتَّىٰ أَتَانَا الْيَقِينُ﴾ . فهذا إنما خرج منهم على وجه التقرير لهم والتوبيخ . ثم قال تعالى ﴿فَمَا تَنْفَعُهُمْ شَفِيعَةُ الشَّيَاطِينِ﴾ كما قال ههنا ﴿فَالْيَوْمَ لَا يُؤْخَذُ مِنْكُمْ فِدْيَةٌ وَلَا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أي لو جاء أحدكم اليوم بملء الأرض ذهباً ومثله معه ليفتدي به من عذاب الله ما قبل منه . وقوله تعالى : ﴿مَأْرُسَكُمْ أَلْتَّارُ﴾ أي هي مصيركم وإليها منقلبكم ، وقوله تعالى : ﴿هِيَ مَوْلَانَكُمْ﴾ أي : هي أولى بكم من كل منزل على كفركم وارتيابكم ﴿وَيَسِّرَ الْمَصِيرُ﴾ .

﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلَ فَلَمَّا عَلَيْهِمُ الْآيَاتُ فَحَسَّ قُلُوبُهُمْ وَكِبَرَتْ مِنْهُمْ فَيَقُولُوا ٢٤ أَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يُخَيِّ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ .

يقول تعالى : أما أن للمؤمنين أن تخشع قلوبهم لذكر الله ؟ أي تلين عند الذكر والموعظة وسماع القرآن فتفهمه وتنقاد له وتسمع له وتطيعه . عن ابن عباس أنه قال : إن الله استبطأ قلوب المؤمنين

فَعَاتِبَهُمْ عَلَى رَأْسِ ثَلَاثِ عَشْرَةَ مِنْ نَزُولِ الْقُرْآنِ فَقَالَ : ﴿ أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ ﴾ الآية وعن ابن مسعود رضي الله عنه قال : ما كان بين إسلامنا وبين أن عاتبنا الله بهذه الآية ﴿ أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ ﴾ الآية ، إلا أربع سنين ^(١) .

وقوله تعالى : ﴿ وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ ﴾ نهى الله تعالى المؤمنين أن يتشبهوا بالذين حملوا الكتاب من قبلهم من اليهود والنصارى ، لما تطاول عليهم الأمد بدلوا كتاب الله الذي بأيديهم واشتروا به ثمناً قليلاً ونبدوه وراء ظهورهم ، وأقبلوا على الآراء المختلفة والأقوال المؤتلفة ، وقلدوا الرجال في دين الله واتخذوا أحوارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله ، فعند ذلك قست قلوبهم فلا يقبلون موعظة ولا تلين قلوبهم بوعده ولا وعيد ﴿ وَكَذَلِكَ نَسُفُّونَ ﴾ أي في الأعمال فقلوبهم فاسدة وأعمالهم باطلة ولهذا نهى الله المؤمنين أن يتشبهوا بهم في شيء من الأمور الأصلية والفرعية .

عن إبراهيم قال : جاء عتريس بن عرقوب إلى ابن مسعود فقال : يا عبد الله هلك من لم يأمر بالمعروف وبينه عن المنكر ، فقال عبد الله : هلك من لم يعرف قلبه معروفاً ولم ينكر قلبه منكراً . إن بني إسرائيل لما طال عليهم الأمد وقست قلوبهم اخترعوا كتاباً من بين أيديهم وأرجلهم استهوتهم قلوبهم واستحلته ألسنتهم ، وقالوا نعرض بني إسرائيل على هذا الكتاب ، فمن آمن به تركناه ، ومن كفر به قتلناه ، قال : فجعل رجل منهم كتاب الله في قرن ثم جعل القرن بين ثنودتيه ، فلما قيل له : أتؤمن بهذا ، قال : آمنت به ويومئ إلى القرن بين ثنودتيه ، وما لي لا أؤمن بهذا الكتاب ، فمن خير ملهم اليوم ملة صاحب القرن ^(٢) .

وقوله تعالى : ﴿ أَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ فيه إشارة إلى أن الله تعالى يلين القلوب بعد قسوتها ويهدي الحيارى بعد ضللتها ، ويفرج الكروب بعد شدتها ، فكما يحيي الأرض الميتة المجدبة الهامدة بالغيث الهتان الوابل ، كذلك يهدي القلوب القاسية ببراكين القرآن والدلائل ، ويولج إليها النور بعد أن كانت مقفلة لا يصل إليها الواصل ، فسبحان الهادي لمن يشاء بعد الضلال ، والمضل لمن أراد بعد الكمال ، الذي هو لما يشاء فعال ، وهو الحكيم العدل في جميع الفعال ، اللطيف الخبير الكبير المتعال .

﴿ إِنَّ الْأَمْثَلِينَ وَالْمُؤْتَقِنِينَ وَأَفْرَضُوا اللَّهَ قَرَضًا حَسَنًا يُضَعَّفَ لَهُمْ وَلَهُمْ أَجْرٌ كَرِيمٌ ۝ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ أُولَٰئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ وَالشَّهَادَةُ عِنْدَ رَبِّهِمْ لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ ۝ ﴾ .

يخبر تعالى عما يثيب به المصدقين والمصدقات بأموالهم على أهل الحاجة والفقر والمسكنة ﴿ وَأَفْرَضُوا اللَّهَ قَرَضًا حَسَنًا ﴾ أي دفعوه بنية خالصة ابتغاء مرضاة الله لا يريدون جزاء ممن أعطوه ولا شكورا ، ولهذا قال : ﴿ يُضَعَّفَ لَهُمْ ﴾ أي يقابل لهم الحسنة بعشر أمثالها ، ويزاد على ذلك إلى سبعمائة ضعف ، وفوق ذلك ﴿ وَلَهُمْ أَجْرٌ كَرِيمٌ ﴾ أي ثواب جزيل حسن ومرجع صالح ومآب

(١) أخرجه مسلم في التفسير (٢٤) وابن ماجه في السنن (٤٢٩٢) .

(٢) ذكره الطبري في تفسيره (٢٩٧/٢٧) .

كريم . وقوله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ أُولَٰئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ ﴾ هذا تمام الجملة ، وصف المؤمنين بالله ورسله بأنهم صديقون ، عن ابن عباس : قوله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ أُولَٰئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ ﴾ هذه مفصلة ، ﴿ وَالشَّهَادَةُ عِنْدَ رَبِّهِمْ لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ ﴾ وعن عبد الله بن مسعود في قوله تعالى : ﴿ أُولَٰئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ وَالشَّهَادَةُ عِنْدَ رَبِّهِمْ ﴾ قال : هم ثلاثة أصناف : يعني المصدقين والصدقين والشهداء ، كما قال تعالى : ﴿ وَمَنْ يُؤِخِّرِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَٰئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشَّهَادَةِ وَالصَّالِحِينَ ﴾ ففرق بين الصدّيقين والشهداء ، فدل على أنهما صنفان ولا شك أن الصديق أعلى مقاماً من الشهيد ، فعن أبي سعيد الخدري أن رسول الله ﷺ : قال « إن إهل الجنة ليتراءون أهل الغرف من فوقهم كما تتراءون الكوكب الدري الغابر في الأفق من المشرق أو المغرب لتفاضل ما بينهم » قال : يا رسول الله تلك منازل الأنبياء لا يبلغها غيرهم ؟ قال : « بلى والذي نفسي بيده رجال آمنوا بالله وصدقوا المرسلين » ^(١) .

وقوله تعالى : ﴿ وَالشَّهَادَةُ عِنْدَ رَبِّهِمْ ﴾ أي في جنات النعيم كما جاء في الحديث : « إن أرواح الشهداء في حواصل طير خضر تسرح في الجنة حيث شاءت ثم تأوي إلى تلك القناديل فاطلع عليهم ربك اطلاعة فقال : ماذا تريدون ؟ ! فقالوا : نحب أن تردنا إلى الدار الدنيا فنقاتل فيك كما قتلنا أول مرة ، فقال : إني قد قضيت أنهم إليها لا يرجعون » ^(٢) . وقوله تعالى : ﴿ لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ ﴾ أي لهم عند الله أجر جزيل ونور عظيم يسمى بين أيديهم وهم في ذلك يتفاوتون بحسب ما كانوا في الدار الدنيا من الأعمال ، وعن عمر بن الخطاب قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « الشهداء أربعة : رجل مؤمن جيد الإيمان لقي العدو فصدق الله فقتل فذاك الذي ينظر الناس إليه هكذا ورفع رأسه حتى سقطت قلنسوة رسول الله ﷺ وقلنسوة عمر ، والثاني مؤمن لقي العدو فكأنما يضرب ظهره بشوك الطلح جاءه سهم غرب فقتله فذاك في الدرجة الثانية ، والثالث : رجل مؤمن يخلط عملاً صالحاً وآخر سيئاً لقي العدو فصدق الله حتى قتل فذاك في الدرجة الثالثة ، والرابع : رجل مؤمن أسرف على نفسه إسرافاً كثيراً لقي العدو فصدق الله حتى قتل فذاك في الدرجة الرابعة » ^(٣) وقوله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ ﴾ لما ذكر السعداء ومآلهم عطف بذكر الأشقياء وبين حالهم .

﴿ اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَبِيسٌ وَمَوَدَّةٌ بَيْنَكُمْ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَكِبَارٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَبًا وَفِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعٌ الْعُرُورُ ۝ سَابِقُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّنَ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ ۚ ذَٰلِكُمْ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ۝ ﴾ .

يقول تعالى موتهاً أمر الحياة الدنيا ومحقرها لها ﴿ اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَبِيسٌ وَمَوَدَّةٌ بَيْنَكُمْ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَكِبَارٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ ﴾ أي إنما حاصل أمرها عند أهلها هذا ، ثم ضرب تعالى مثل الحياة الدنيا في أنها زهرة فانية ونعمة زائلة فقال : ﴿ كَمَثَلِ غَيْثٍ ﴾ وهو المطر الذي يأتي بعد قنوط الناس كما قال

(١) أخرجه البخاري في الرقاق (٦٥٥٥) ومسلم في الجنة وصفة نعيمها (١١) .

(٢) أخرجه الترمذي في السنن (١٦٤١) والمنذري في الترغيب والترهيب (٣١٦/٢) .

(٣) أخرجه الترمذي في السنن (١٦٤٤) وأحمد في مسنده (٢٣/١) .

تعالى : ﴿ وَهُوَ الَّذِي يُزِيلُ الْغَيْثَ مِنْ بَعْدِ مَا قَنَطُوا ﴾ .

وقوله تعالى : ﴿ أَعَجَبَ الْكُفَّارَ بَأَنَّهُ ﴾ أي يعجب الزراع نبات ذلك الزرع الذي نبت بالغيث ، وكما يعجب الزراع ذلك كذلك تعجب الحياة الدنيا الكفار ، فإنهم أحرص شيء عليها وأميل الناس إليها ﴿ ثُمَّ يَبْهِجُ فَتَرْثَى مُضْغَرًا ثُمَّ يَكُونُ حُطَمًا ﴾ أي يبهج ذلك الزرع فتراه مصفراً بعد ما كان خضرًا نضراً ، ثم يكون بعد ذلك كله حطامًا أي يصير ييشًا متحطمًا ، هكذا الحياة الدنيا تكون أولاً شابة ثم تكتهل ثم تكون عجوزًا شوهاء ، والإنسان يكون كذلك في أول عمره وعنفوان شبابه غصًا طريًا لين الأعطاف ، بهي المنظر ، ثم إنه يشرع في الكهولة فتتغير طباعه ويفقد بعض قواه ، ثم يكبر فيصير شيخًا كبيرًا ضعيف القوى ، قليل الحركة يعجزه الشيء اليسير كما قال تعالى : ﴿ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْئًا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْقَدِيرُ ﴾ ولما كان هذا المثل دالًا على زوال الدنيا وانقضائها وفراغها لا محالة ، وأن الآخرة كائنة لا محالة ، حذر من أمرها ورغب فيما فيها من الخير فقال : ﴿ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعٌ الْفُرُورِ ﴾ أي وليس في الآخرة الآتية القريبة إلا إما هذا وإما هذا : إما عذاب شديد ، وإما مغفرة من الله ورضوان .

وقوله تعالى : ﴿ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعٌ الْفُرُورِ ﴾ أي هي متاع فإن غار لمن ركن إليه ، فإنه يغتر بها وتعجبه حتى يعتقد أنه لا دار سواها ولا معاد وراءها ، وهي حقيرة قليلة بالنسبة إلى دار الآخرة . وعن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « موضع سوط في الجنة خير من الدنيا وما فيها ، اقرؤوا ﴾ ﴿ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعٌ الْفُرُورِ ﴾ ^(١) وعن عبد الله قال : قال رسول الله ﷺ : « للجنة أقرب إلى أحدكم من شرك نعله والنار مثل ذلك » ^(٢) . ففي هذا الحديث دليل على اقتراب الخير والشر من الإنسان ، وإذا كان الأمر كذلك ؛ فلماذا حثه الله تعالى على المبادرة إلى الخيرات من فعل الطاعات وترك المحرمات التي تكفر عنه الذنوب والزلات وتحصل له الثواب والدرجات فقال تعالى : ﴿ سَابِقُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ﴾ والمراد جنس السماء والأرض كما قال تعالى في الآية الأخرى ﴿ وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا أَسْمَوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ وقال ههنا ﴿ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴾ أي هذا الذي أهلهم الله له هو من فضله ومنه عليهم وإحسانه إليهم ، كما قدمنا في الصحيح أن فقراء المهاجرين قالوا : يا رسول الله ذهب أهل الدثور بالأجور : بالدرجات العلى والنعيم المقيم قال : « وما ذاك ؟ » قالوا : يصلون كما نصلي ، ويصومون كما نصوم ، ويتصدقون ولا نتصدق ، ويعتقون ولا نعتق . قال : « أفلا أدلكم على شيء إذا فعلتموه سبقتهم من بعدكم ولا يكون أحد أفضل منكم إلا من صنع مثل ما صنعتم . تسبحون وتكبرون وتحمدون دبر كل صلاة ثلاثًا وثلاثين » قال : فرجعوا فقالوا : سمع إخواننا أهل الأموال ما فعلنا ففعلوا مثله ، فقال رسول الله ﷺ : « ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء » ^(٣) .

(١) أخرجه البخاري في الرقاق (٦٤١٥) .

(٢) أخرجه البخاري في الرقاق (٦٤٨٨) وأحمد في مسنده (٣٨٧/١) .

(٣) أخرجه البخاري في الأذان (٨٤٣) ومسلم في المساجد (١٤٢) والدارمي في السنن (الصلاة ٩٠) وأحمد في مسنده (١٦٧/٥) .

﴿ مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنْفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴾ لِكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴿ الَّذِينَ يَبْتَغُلُونَ وَبِمُرْمِرٍ النَّاسَ بِالْبُغْلِ وَمَنْ يَتَوَلَّ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْغَنِيُّ ﴾ .

يخبر تعالى عن قدره السابق في خلقه قبل أن يبرأ البرية فقال : ﴿ مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنْفُسِكُمْ ﴾ أي في الآفاق وفي نفوسكم ﴿ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا ﴾ أي من قبل أن نخلق الخليقة ونبرأ النسمة . وقال بعضهم : من قبل أن نبرأها عائد على النفوس ، وقيل : عائد على المصيبة ، والأحسن عوده على الخليقة والبرية لدلالة الكلام عليها وقال قتادة : ﴿ مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ ﴾ هي السنون يعني الجذب ﴿ وَلَا فِي أَنْفُسِكُمْ ﴾ يقول : الأوجاع والأمراض ، قال : وبلغنا أنه ليس أحد يصيبه خدش عود ولا نكبة قدم ولا خلجان عرق إلا بذنب ، وما يعفو الله عنه أكثر .

وهذه الآية الكريمة العظيمة من أدل دليل على القدرية نفاة العلم السابق - فبحهم الله - عن عبد الله بن عمرو بن العاص قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « قدر الله المقادير قبل أن يخلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة » ^(١) . وقوله تعالى : ﴿ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴾ أي أن علمه تعالى الأشياء قبل كونها وكتابتها لها طبق ما يوجد في حينها سهل على الله ﷻ ؛ لأنه يعلم ماكان وما يكون وما لم يكن لو كان كيف كان يكون .

وقوله تعالى : ﴿ لِكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ ﴾ أي أعلمناكم بتقدم علمنا وسبق كتابتنا للأشياء قبل كونها ، وتقديرنا الكائنات قبل وجودها ، لتعلموا أن ما أصابكم لم يكن ليخطئكم وما أخطأكم لم يكن ليصيبكم ، فلا تأسوا على ما فاتكم لأنه لو قدر شيء لكان ﴿ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ ﴾ أي جاءكم ، وتفسير ﴿ آتَاكُمْ ﴾ أي أعطاكم وكلاهما متلازم ؛ أي لا تفخروا على الناس بما أنعم الله به عليكم ، فإن ذلك ليس بسعيكم ولا كدكم ، وإنما هو عن قدر الله ورزقه لكم فلا تتخذوا نعم الله أشرا وبطوا تفخرون بها على الناس ، ولهذا قال تعالى : ﴿ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴾ أي مختال في نفسه متكبر فخور أي على غيره . وقال عكرمة : ليس أحد إلا وهو يفرح ويحزن ولكن اجعلوا الفرح شكرا والحزن صبورا . ثم قال تعالى : ﴿ الَّذِينَ يَبْتَغُلُونَ وَبِمُرْمِرٍ النَّاسَ بِالْبُغْلِ ﴾ أي يفعلون المنكر ويحضون الناس عليه ﴿ وَمَنْ يَتَوَلَّ ﴾ أي عن أمر الله وطاعته ﴿ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ ﴾ كما قال موسى عليه السلام ﴿ إِنْ تَكْهَرُوا أَنْتُمْ مِنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا فَأَنَا اللَّهُ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ ﴾ .

﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنْفَعٌ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَنْ يَصِرُ وَمَنْ يَكْفُرْ بِالْقَبْلِ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴾ .

يقول تعالى : ﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ ﴾ أي بالمعجزات ، والحجج الباهرات ، والدلائل القاطعات ﴿ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ ﴾ وهو النقل الصدق ﴿ وَالْمِيزَانَ ﴾ وهو العدل ، وهو الحق الذي تشهد به العقول الصحيحة المستقيمة المخالفة للآراء السقيمة ولهذا قال ﴿ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ ﴾ أي بالحق والعدل وهو اتباع الرسل فيما أخبروا به وطاعتهم فيما أمروا به ، فإن الذي جاءوا به هو الحق

الذي ليس وراءه حق كما قال : ﴿ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ حَقًّا وَعَدْلًا ﴾ أي صدقاً في الأخبار وعدلاً في الأوامر والنواهي ، ولهذا يقول المؤمنون إذا تبوأوا غرف الجنات ، والمنازل العاليات ، والسرر المصفوفات ﴿ لَنَحْمُدَ اللَّهَ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ لَقَدْ جَاءَتْ رَسُولُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ ﴾ . وقوله تعالى : ﴿ وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ ﴾ أي وجعلنا الحديد رادعاً لمن أبى الحق وعانده بعد قيام الحججة عليه ، ولهذا أقام رسول الله ﷺ بمكة بعد النبوة ثلاث عشرة سنة توحى إليه السور المكية وكلها جدال مع المشركين وبيان وإيضاح للتوحيد وبيّنات ودلالات ، فلما قامت الحججة على من خالف شرع الله أمرهم بالهجرة وأمرهم بالقتال بالسيوف وضرب الرقاب والهوام لمن خالف القرآن وكذب به وعانده . عن ابن عمر قال : قال رسول الله ﷺ : « بعثت بالسيوف بين يدي الساعة حتى يعبد الله وحده لا شريك له ، وجعل رزقي تحت ظل رمحي ، وجعل الذلّة والصغار على من خالف أمري ، ومن تشبه بقوم فهو منهم » ^(١) ولهذا قال تعالى : ﴿ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ ﴾ يعني السلاح كالسيوف والحراّب والسنان والنصال والدروع ونحوها ﴿ وَمَنْفَعٌ لِلنَّاسِ ﴾ أي في معاشهم كالسكة والفأس والقدوم والمنشار والإزميل والمجرقة والآلات التي يستعان بها في الحراثة والحياكة والطبخ والخبز ، وما لا قوام للناس بدونه وغير ذلك . عن ابن عباس قال : ثلاثة أشياء نزلت مع آدم : السندان والكلبتان والميعة يعني المطرقة ، وقوله تعالى : ﴿ وَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ مَنْ يَصْرُوهُ ﴾ أي من نيته في حمل السلاح نصرة الله ورسوله ﴿ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴾ أي هو قوي عزيز ينصر من نصره ، من غير احتياج منه إلى الناس ، وإنما شرع الجهاد ليلو بعضهم ببعض .

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَاهِيمَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ فَمِنْهُمْ مُهْتَدٍ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ ﴾ ثُمَّ فَتَيْنَا عَلَىٰ عَادِثِهِمْ يُرْسُلَنَا وَفَقَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ وَآتَيْنَاهُ الْإِنْجِيلَ وَجَعَلْنَا فِي قُلُوبِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً وَرَهَابَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ابْتِغَاءَ رِضْوَانِ اللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا فَآتَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ .

يخبر تعالى أنه منذ بعث نوحاً عليه السلام لم يرسل بعده رسولاً ولا نبياً إلا من ذريته ، وكذلك إبراهيم عليه السلام ، لم ينزل من السماء كتاباً ولا أرسل رسولاً ولا أوحى إلى بشر من بعده إلا وهو من سلالة حتى كان آخر أنبياء بني إسرائيل عيسى ابن مريم الذي بشر من بعده بمحمد صلوات الله وسلامه عليهما ، ولهذا قال تعالى : ﴿ ثُمَّ فَتَيْنَا عَلَىٰ عَادِثِهِمْ يُرْسُلَنَا وَفَقَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ وَآتَيْنَاهُ الْإِنْجِيلَ ﴾ وهو الكتاب الذي أوحاه الله إليه ﴿ وَجَعَلْنَا فِي قُلُوبِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ رَأْفَةً ﴾ وهم الحواريون ﴿ وَرَحْمَةً ﴾ أي رقة وهي الخشية ﴿ وَرَحْمَةً ﴾ بالخلق . وقوله : ﴿ وَرَهَابَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا ﴾ أي ابتدعها أمة النصارى ﴿ مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ابْتِغَاءَ رِضْوَانِ اللَّهِ ﴾ أي ما شرعناها وإنما هم التزموها من تلقاء أنفسهم . وقوله تعالى : ﴿ إِلَّا ابْتِغَاءَ رِضْوَانِ اللَّهِ ﴾ فيه قولان أحدهما : أنهم قصدوا بذلك رضوان الله ، والآخر : ما كتبنا عليهم ذلك إنما كتبنا عليهم ابتغاء رضوان الله . وقوله تعالى : ﴿ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا ﴾ أي فما قاموا بما التزموه حق القيام ، وهذا ذم لهم من وجهين : أحدهما : الابتداع في دين

الله ما لم يأمر به الله ، والثاني : في عدم قيامهم بما التزموه مما زعموا أنه قربة يقربهم إلى الله ﷻ .
عن ابن مسعود قال : قال لي رسول الله ﷺ : « يا ابن مسعود » قلت : لبيك يا رسول الله . قال :
« هل علمت أن بني إسرائيل افترقوا على ثنتين وسبعين فرقة ، لم ينج منها إلا ثلاث فرق ، قامت بين
الملوك والجبابرة بعد عيسى ابن مريم ﷺ ، فدعت إلى دين الله ودين عيسى ابن مريم ، فقاتلت
الجبابرة فقتلت فصبرت ونجت ، ثم قامت طائفة أخرى لم تكن لها قوة بالقتال ، فقامت بين الملوك
والجبابرة فدعوا إلى دين الله ودين عيسى ابن مريم فقتلت ، وقطعت بالمناشير وحرقت بالنيران
فصبرت ونجت ، ثم قامت طائفة أخرى لم يكن لها قوة بالقتال ولم تطق القيام بالقسط ، فلحققت
بالجبال فتعبدت وترهبت وهم الذين ذكر الله تعالى : ﴿ وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ ﴾ ^(١) .

وعن سعيد بن عبد الرحمن بن أبي العمياء أن سهل بن أبي أمامة حدثه أنه دخل هو وأبوه على
أنس بن مالك بالمدينة زمان عمر بن عبد العزيز وهو أمير ، وهو يصلي صلاة خفيفة كأنها صلاة
مسافر أو قريئاً منها ، فلما سلم قال : يرحمك الله أرايت هذه الصلاة المكتوبة أم شيء تنفلته ؟ قال :
إنها لمكتوبة وإنها صلاة رسول الله ﷺ ما أخطأت إلا شيئاً سهوت عنه ، إن رسول الله ﷺ كان
يقول : « لا تشددوا على أنفسكم فيشدد عليكم ؛ فإن قوماً شددوا على أنفسهم فشدد عليهم ،
فتلك بقاياهم في الصوامع والديارات رهبانية ابتدعوها ما كتبناها عليهم » ثم غدوا من الغد فقالوا :
نركب فننظر ونعتبر ، قال : نعم فركبوا جميعاً فإذا هم بديار قفر قد باد أهلها وانقرضوا وفنوا خاوية
على عروشها ، فقالوا : أتعرف هذه الديار ؟ قال : ما أعرفني بها وبأهلها ، هؤلاء أهل الديار أهلكتهم
البغي والحسد ، إن الحسد يطفئ نور الحسنات والبغي يصدق ذلك أو يكذبه ، والعين تزني والكف
والقدم والحسد واللسان والفرج يصدق ذلك أو يكذبه ^(٢) . وعن أنس بن مالك أن النبي ﷺ قال :
« لكل نبي رهبانية » ورهبانية هذه الأمة الجهاد في سبيل الله ﷻ ^(٣) .

﴿ يَأْتِيهَا الَّذِينَ آمَنُوا اللَّهُ وَآمَنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيَجْعَلْ لَكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ وَيَغْفِرْ
لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ ^(٤) لَيْلًا بَعَثَ أَهْلَ الْكِتَابِ أَلَّا يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ وَأَنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ
يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴿

عن ابن عباس أنه حمل هذه الآية على مؤمني أهل الكتاب وأنهم يؤتون أجرهم مرتين كما في
الآية التي في القصص ، وعن أبي موسى الأشعري قال : قال رسول الله ﷺ : « ثلاثة يؤتون أجرهم
مرتين : رجل من أهل الكتاب آمن بنبيه وآمن بي فله أجران ، وعبد مملوك أدى حق الله وحق مواليه
فله أجران ، ورجل أدب أمتة فأحسن تأديبها ، ثم اعتقها وتزوجها فله أجران » ^(٤) وقال سعيد بن
جبير : لما افتخر أهل الكتاب بأنهم يؤتون أجرهم مرتين أنزل الله تعالى عليه هذه الآية في حق هذه
الأمة : ﴿ يَأْتِيهَا الَّذِينَ آمَنُوا اللَّهُ وَآمَنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ ﴾ أي ضعفين ﴿ مِنْ رَحْمَتِهِ ﴾ وزادهم

(١) أخرجه الطبراني في الكبير (٢١٢/١٠) .

(٢) أخرجه أبو داود في السنن (٤٩٠٤) والهيتمي في مجمع الزوائد (٢٥٦/٦) .

(٣) أخرجه أحمد في مسنده (٢٦٦/٣) .

(٤) أخرجه البخاري في العلم (٢٦٧٢) والترمذي في السنن (١١١٦) وأحمد في مسنده (٤٠٥/٤) والدارمي في السنن (١٥٥/٢) .

﴿ وَيَحْمِلُ لَكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ ﴾ يعني هدى يتبصر به من العمى والجهالة ويغفر لكم ، فضلهم بالنور والمغفرة .

وقال سعيد بن عبد العزيز : سأل عمر بن الخطاب حبراً من أحبار يهود أفضل ما ضعف لكم حسنة قال : كفل ثلاثمائة وخمسين حسنة ، قال : فحمد الله عمر على أنه أعطانا كفلين ، ثم ذكر سعيد قول الله ﷻ : ﴿ يُؤَيِّدُ كَفَّالَيْنِ مِنْ رَحْمَتِهِ ﴾ قال سعيد : والكفلان في الجمعة مثل ذلك ^(١) .

وما يؤيد هذا القول ما روي عن أبي موسى عن النبي ﷺ قال : « مثل المسلمين واليهود والنصارى كمثل رجل استعمل قومًا يعملون له عملاً يوماً إلى الليل على أجر معلوم ، فعملوا إلى نصف النهار فقالوا : لا حاجة لنا في أجرك الذي شرطت لنا وما عملنا باطل ، فقال لهم : لا تفعلوا أكملوا بقية عملكم وخذوا أجركم كاملاً ، فأبوا وتركوا ، واستأجر آخرين بعدهم فقال : أكملوا بقية يومكم ولكم الذي شرطت لهم من الأجر ، فعملوا حتى إذا كان حين صلوا العصر قالوا : ما عملنا باطل ولك الأجر الذي جعلت لنا فيه . فقال : أكملوا بقية عملكم فإنما بقي من النهار شيء يسير ، فأبوا . فاستأجر قومًا أن يعملوا له بقية يومهم فعملوا بقية يومهم حتى غابت الشمس ، فاستكملوا أجرة الفريقين كليهما فذلك مثلهم ومثل ما قبلوا من هذا النور » ^(٢) ولهذا قال تعالى : ﴿ إِنَّمَا يَتَلَدَّرُ أَهْلُ الْكِتَابِ أَلَّا يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ ﴾ أي ليتحققوا أنهم لا يقدرّون على رد ما أعطاه الله ولا إعطاء ما منع الله ﴿ وَأَنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴾ . قال ابن جرير ﴿ إِنَّمَا يَتَلَدَّرُ أَهْلُ الْكِتَابِ ﴾ أي ليعلم وقد ذكر عن ابن مسعود أنه قرأها (لكي يعلم) وكذا عطاء بن عبد الله وسعيد بن جبير . قال ابن جرير : لأن العرب تجعل لا صلة في كل كلام دخل في أوله أو آخره جحد غير مصرح ، فالسابق كقوله : ﴿ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْبُدَ ﴾ ، و ﴿ وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَا إِذَا جَاءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ ، بالله ﴿ وَحَرَدُمْ عَلَى قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا أَنَّهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴾ .

(١) ذكره الطبري في تفسيره (٣١٥/٢٧) .

(٢) أخرجه البخاري في الإجارة (٢٢٧١) والبيهقي في السنن (١١٩/٦) .

سورة المجادلة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ ﴾ .
 عن عائشة قالت الحمد لله الذي وسع سمعه الأصوات ، لقد جاءت المجادلة إلى النبي ﷺ تكلم
 وأنا في ناحية البيت ما أسمع ما تقوله ، فأنزل الله ﷻ ﴿ قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا ﴾ إلى
 آخر الآية ^(١) وعن عائشة أنها قالت : تبارك الذي أوعى سمعه كل شيء ، إني لأسمع كلام خولة
 بنت ثعلبة ويخفى علي بعضه وهي تشتكي زوجها إلى رسول الله ﷺ وهي تقول : يا رسول الله
 أكل مالي وأفنى شبابي ونثرت له بطني حتى إذا كبرت سني وانقطع ولدي ظاهر مني ، اللهم إني
 أشكو إليك ، قالت : فما برحت حتى نزل جبريل بهذه الآية ﴿ قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا ﴾ .
 قالت : وزوجها أوس بن الصامت .

﴿ الَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِنْكُمْ مِنْ نِسَائِهِمْ مَا هُنَّ أُمَّهَاتُهُمْ إِنْ أُمُّهُنَّ مِنْكُمْ مِنْ نِسَائِهِمْ مَا هُنَّ أُمَّهَاتُهُمْ إِلَّا الَّتِي وَلَدْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنْكَرًا مِنَ
 الْقَوْلِ وَزُورًا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَفُوضٌ غَفُورٌ ۝ وَالَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِنْ نِسَائِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَتَمَاسَّ
 ذَلِكَ ثَوَاعِلُكَ بِهِنَّ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ۝ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامَ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَتَمَاسَّ فَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ
 فَاِطْعَامَ سِتِينَ مِسْكِيًا ذَلِكَ لِتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَبِالَّذِمْ هَدَى اللَّهُ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ .

عن خولة بنت ثعلبة قالت : في والله وفي أوس بن الصامت أنزل الله صدر سورة المجادلة ،
 قالت : كنت عنده وكان شيخاً كبيراً قد ساء خلقه ، قالت : فدخل علي يوماً فراجعت به شيء ،
 فغضب فقال : أنت علي كظهر أُمي . قالت : ثم خرج فجلس في نادي قومه ساعة ، ثم دخل علي
 فإذا هو يريدني عن نفسي قالت : قلت : كلا ، والذي نفس خويلة بيده لا تخلص إلي ، وقد قلت
 ماقلت ، حتى يحكم الله ورسوله فينا بحكمه ، قالت : فواثني ، فامتنعت منه فغلته بما تغلب به
 المرأة الشيخ الضعيف ، فألقيته عني ، قالت : ثم خرجت إلى بعض جاراتي فاستعرت منها ثياباً ، ثم
 خرجت حتى جئت إلى رسول الله ﷺ فجلست بين يديه ، فذكرت له ما لقيت منه وجعلت أشكو
 إليه ما ألقى من سوء خلقه ، قالت : فجعل رسول الله ﷺ يقول : « يا خويلة ابن عمك شيخ كبير
 فاتقي الله فيه » . قالت : فوالله ما برحت حتى نزل في قرآن ، فتغشى رسول الله ﷺ ما كان يتغشاه
 ثم سري عنه فقال لي « يا خويلة قد أنزل الله فيك وفي صاحبك قرآناً - ثم قرأ علي ﴿ قَدْ سَمِعَ اللَّهُ
 قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ ﴾ إلى قوله ﴿ وَلِلْكَافِرِينَ
 عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ » قالت : فقال لي رسول الله ﷺ : « مريه فليعتق رقبة » قالت : فقلت يا رسول الله ما
 عنده ما يعتق ، قال : « فليصم شهرين متتابعين » قالت : فقلت : والله إنه لشيخ كبير ما به من صيام
 قال : « فليطعم ستين مسكيناً وسقا من تمر » قالت : فقلت : والله يا رسول الله ما ذاك عنده ،
 قالت : فقال رسول الله ﷺ : « فإنا سنعينه بفرق من تمر » قالت : فقلت : يا رسول الله وأنا سأعينه

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٤٦/٦) وأخرجه البخاري في (التوحيد) (باب ٩) تعليقا .

بفرق آخر قال : « قد أصبت وأحسن ، فاذهبي فتصدقني به عنه ، ثم استوصي بآبن عمك خيراً » قالت : ففعلت ^(١) . فقوله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِن نِّسَابِهِمْ ﴾ أصل الظهار مشتق من الظهر ، وذلك أن الجاهلية كانوا إذا ظاهر أحدهم من امرأته قال لها : أنت علي كظهر أمي ، ثم في الشرع كان الظهار في سائر الأعضاء قياساً على الظهر ، وكان الظهار عند الجاهلية طلاقاً فأرخص الله لهذه الأمة وجعل فيه كفارة ولم يجعله طلاقاً كما كانوا يعتمدونه في جاهليتهم ، هكذا قال غير واحد من السلف .

عن ابن عباس قال : كان الرجل إذا قال لامرأته في الجاهلية : أنت علي كظهر أمي حرمت عليه ، فكان أول من ظاهر في الإسلام أوس ، وكان تحت ابنة عم له يقال لها خويلة بنت ثعلبة ، فظاهر منها فأسقط في يديه ، وقال : ما أراك إلا قد حرمت علي ، وقالت له مثل ذلك ، قال : فانطلقني إلى رسول الله ﷺ ، فأنت رسول الله ﷺ فوجدت عنده ماشطة تمشط رأسه فقال : « يا خويلة ما أمرنا في أمرك بشيء » فأنزل الله على رسول الله ﷺ فقال : « يا خويلة أبشري » قالت : خيراً - فقرأ عليها ﴿ قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا ﴾ إلى قوله ﴿ وَالَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِن نِّسَابِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مِن قَبْلِ أَنْ يَتَمَاسَّ ﴾ قالت : وأي رقبة لنا ؟ والله ما يجد رقبة غيري ، قال : ﴿ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ ﴾ قالت : والله لولا أنه يشرب في اليوم ثلاث مرات لذهب بصره قال : ﴿ فَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فإِطْعَامُ سِتِّينَ مِسْكِينًا ﴾ قالت : من أين ؟ ما هي إلا أكلة إلى مثلها ، قال : فدعا بشطر وسق ثلاثين صاعاً ، والوسق ستون صاعاً فقال : « ليطعم ستين مسكيناً وليراجعك » ^(٢) .

وقال سعيد بن جبير : كان الإيلاء والظهار من طلاق الجاهلية ، فوقت الله الإيلاء أربعة أشهر وجعل في الظهار الكفارة ، وقد استدل الإمام مالك على أن الكافر لا يدخل في هذه الآية بقوله منكم فالخطاب للمؤمنين ، وأجاب الجمهور بأن هذا خرج مخرج الغالب فلا مفهوم له ، واستدل الجمهور عليه بقوله : ﴿ مِن نِّسَابِهِمْ ﴾ على أن الأمة لا ظهار منها ولا تدخل في هذا الخطاب .

وقوله تعالى : ﴿ مَا هُنَّ أُمَّهَاتُكُمْ إِنِ أُمَّهَاتُكُمْ إِلَّا اللَّائِي وَلَدْنَهُمْ ﴾ أي لا تصير المرأة بقول الرجل أنت علي كأمي أو مثل أمي أو كظهر أمي وما أشبه ذلك ، لا تصير أمه بذلك إنما أمه التي ولدته ، ولهذا قال تعالى : ﴿ وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنْكَرًا مِنَ الْقَوْلِ وَزُورًا ﴾ أي كلاماً فاحشاً باطلاً ﴿ وَإِنَّ اللَّهَ لَعَفُورٌ غَفُورٌ ﴾ أي عما كان منكم في حال الجاهلية ، وهكذا أيضاً عما خرج من سبق اللسان ، ولم يقصد إليه المتكلم ، كما روي أن رسول الله ﷺ سمع رجلاً يقول لامرأته يا أختي ، فقال : « أختك هي ؟ » ^(٣) فهذا إنكار ، ولكن لم يحرمها عليه بمجرد ذلك ؛ لأنه لم يقصده ولو قصده

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٤١٠/٦) .

(٢) أخرجه البيهقي في السنن (٣٨٣/٧) وذكره الطبري في تفسيره ٥/٢٨ .

(٣) أخرجه أبو داود في السنن (٢٢١٠) .

لحرمته عليه ؛ لأنه لا فرق على الصحيح بين الأم وبين غيرها من سائر المحارم من أخت وعمة وخالة وما أشبه ذلك .

وقوله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِنْ نِسَائِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا ﴾ اختلف السلف والأئمة في المراد بقوله تعالى : ﴿ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا ﴾ فقال بعض الناس : العود هو أن يعود إلى لفظ الظهار فيكرره ، وهذا القول باطل وهو اختيار ابن حزم وقول داود حكاه أبو عمر بن عبد البر عن بكير بن الأشج والفراء وفرقة من أهل الكلام ، وقال الشافعي : هو أن يمسكها بعد المظاهرة زماناً يمكنه أن يطلق فيه فلا يطلق ، وقال أحمد بن حنبل : هو أن يعود إلى الجماع أو يعزم عليه فلا تحل له حتى يكفر بهذه الكفارة ، وقد حكى عن مالك أنه العزم على الجماع أو الإمساك عنه ، وعنه أنه الجماع ، وقال أبو حنيفة : هو أن يعود إلى الظهار بعد تحريره ورفع ما كان عليه أمر الجاهلية ، فمتى ظاهر الرجل من امرأته فقد حرّمها تحريراً لا يرفعه إلا الكفارة ، وإليه ذهب أصحابه والليث بن سعد . وعن سعيد بن جبير : يعني يريدون أن يعودوا في الجماع الذي حرّمه على أنفسهم .

وقال الحسن البصري : يعني الغشيان في الفرج وكان لا يرى بأشأ أن يغشى فيما دون الفرج قبل أن يكفر ، وقال ابن عباس : ﴿ مَنِ بَدَّلَ أَنْ يَتَنَاسَأَ ﴾ والمس النكاح ، وقال الزهري : ليس له أن يقبلها ولا يمسه حتى يكفر . وقد روى أهل السنن من حديث عكرمة عن ابن عباس أن رجلاً قال : يا رسول الله ، إني ظاهرت من امرأتي فوقعت عليها قبل أن أكفر . فقال : « ما حملك على ذلك يرحمك الله » . قال : رأيت خلخالها في ضوء القمر ، قال : « فلا تقربها حتى تفعل ما أمرك الله ﷻ » (١) .

وقوله تعالى : ﴿ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ ﴾ أي فإعتاق رقبة كاملة من قبل أن يتماسا ، فهنا الرقبة مطلقة غير مقيدة بالإيمان وفي كفارة القتل مقيدة بالإيمان ، فحمل الشافعي رحمه الله ما أطلقه ههنا على ما قيد هناك لاتحاد الموجب وهو عتق الرقبة ، واعتضد في ذلك بما روي عن معاوية ابن الحكم السلمي في قصة الجارية السوداء ، وأن رسول الله ﷺ قال : « أعتقها فإنها مؤمنة » (٢) .

وعن ابن عباس ، قال : أتى رسول الله ﷺ رجل فقال : إني ظاهرت من امرأتي ثم وقعت عليها قبل أن أكفر ، فقال رسول الله ﷺ : « ألم يقل الله تعالى : ﴿ مَنِ بَدَّلَ أَنْ يَتَنَاسَأَ ﴾ ؟ » قال : أعجبتني ، قال : « أمسك حتى تُكْفَرَ » (٣) وفيه من الفقه أنه لم يأمره إلا بكفارة واحدة .

وقوله تعالى : ﴿ ذَلِكَ ثُعُظُوتَ بِهِ ﴾ أي تزجرون به ﴿ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴾ أي خير بما يصلحكم عليهم بأحوالكم ، وقوله تعالى ﴿ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامَ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَتَنَاسَأَ فَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَاِطْعَامَ سِتِّينَ مِسْكِينًا ﴾ ﴿ ذَلِكَ لِتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ﴾ أي شرعنا هذا لهذا . وقوله تعالى :

(١) أخرجه الترمذي في السنن (١١٩٩) والنسائي في السنن (١٦٧/٦) والطبراني في الكبير (٢٣٦/١١) .

(٢) أخرجه مسلم في المساجد (٣٣) وأحمد في مسنده (٣٨٨/٤) والبيهقي في السنن (٣٨٨/٧) .

(٣) أخرجه الحاكم في المستدرک (٢٠٤/٢) بنحوه والزيلعي في نصب الرأية (٢٤٦/٣) والسيوطي في الدر المنثور (١٨٣/٦) .

﴿وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ﴾ أي محارمه فلا تنتهكوها . وقوله تعالى : ﴿وَاللَّكَفِيرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ أي الذين لم يؤمنوا ولا التزموا بأحكام هذه الشريعة ، لا تعتقدوا أنهم ناجون من البلاء ، كلا ليس الأمر كما زعموا بل لهم عذاب أليم أي في الدنيا والآخرة .

﴿إِنَّ الَّذِينَ يُجَادُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ كُنُوا كَمَا كَتَبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَفَدَّ أَرْثُكُمْ بِأَيِّتٍ يَبَيِّنُ لِللَّكَفِيرِينَ عَذَابٌ مُهِينٌ ① يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا فَيُنْشِئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا أَحْصَاهُ اللَّهُ وَنُسُوهُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ② أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَقُولُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَاقِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَا آدَنَى مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ إِنْ كَانُوا ثُمَّ يَنْشِئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا يَوْمَ الْقِيَمَةِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ③﴾ .

يخبر تعالى عن شاقوا الله ورسوله وعاندوا شره ﴿كُنُوا كَمَا كَتَبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ أي أهينوا ولعنوا وأخزوا كما فعل بمن أشبههم من قبلهم ﴿وَقَدْ أَرْثُكُمْ بِأَيِّتٍ يَبَيِّنُ﴾ أي واضحات لا يعاندها ولا يخالفها إلا كافر فاجر مكابر ﴿وَاللَّكَفِيرِينَ عَذَابٌ مُهِينٌ﴾ أي في مقابلة ما استكبروا عن اتباع شرع الله والانقياد له والخضوع لديه .

ثم قال تعالى : ﴿يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا﴾ وذلك يوم القيامة يجمع الله الأولين والآخرين في صعيد واحد ﴿فَيُنْشِئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا﴾ أي فيخبرهم بالذي صنعوا من خير وشر ﴿أَحْصَاهُ اللَّهُ وَنُسُوهُ﴾ أي ضبطه الله وحفظه عليهم وهم قد نسوا ما كانوا عملوا ﴿وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ أي لا يغيب عنه شيء ولا يخفى ولا ينسى شيئا ، ثم قال تعالى مخبرا عن إحاطة علمه بخلقه وإطلاعه عليهم وسماعه كلامهم ، ورؤيته مكانهم حيث كانوا وأينما كانوا فقال تعالى : ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَقُولُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَاقِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَا آدَنَى مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ إِنْ كَانُوا﴾ أي مطلع عليهم يسمع كلامهم وسرهم ونجواهم ورسله أيضا مع ذلك تكتب ما يتناجون به مع علم الله به وسمعه له ولهذا حكى غير واحد الإجماع على أن المراد بهذه الآية معية علمه تعالى ولا شك في إرادة ذلك ، ولكن سمعه أيضا مع علمه محيط بهم وبصره نافذ فيهم ؛ فهو سبحانه وتعالى مطلع على خلقه لا يغيب عنه من أموره شيء ، ثم قال تعالى ﴿ثُمَّ يَنْشِئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا يَوْمَ الْقِيَمَةِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ قال الإمام أحمد : افتتح الآية بالعلم واختتمها بالعلم .

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نُهُوا عَنِ النَّجْوَى ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَيَتَنَجَّوْنَ بِالْأَنْبِيَاءِ وَالْعُلْدَانِ وَمَعْصِيَتِ الرَّسُولِ وَإِذَا جَاءَهُمْ حَيْكَةٌ مِنْكَ بِهِ اللَّهُ وَبُشْرًا لِلَّذِينَ يَنْتَظِرُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ لَوْلَا يُعَذِّبُهُمُ اللَّهُ بِمَا قَالُوا حَسْبُهُمْ جَهَنَّمُ بِمَا بَصُلُوا فِي تِلْكَ النَّجْوَى ءَامِنُوا إِنَّا تَنَجَّيْتُمْ فَلَا تَنْتَظِرُونَ بِالْأَنْبِيَاءِ وَالْعُلْدَانِ وَمَعْصِيَتِ الرَّسُولِ وَتَنَجَّوْا بِالَّذِينَ وَالْقَوَىٰ آلَ اللَّهِ الَّذِينَ يَنْتَظِرُونَ ④ إِنَّمَا التَّجْوَى مِنَ النَّجْوَى لِيُخْرِتَ الَّذِينَ ءَامِنُوا وَلَيْسَ بِصَارِهِمْ شَيْئًا إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ⑤﴾ .

عن مجاهد ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نُهُوا عَنِ النَّجْوَى ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا نُهُوا عَنْهُ﴾ قال : اليهود ، وكذا قال مقاتل بن حيان وزاد : كان بين النبي ﷺ وبين اليهود مودعة ، وكانوا إذا مر بهم الرجل من أصحاب النبي ﷺ جلسوا يتناجون بينهم حتى يظن المؤمن أنهم يتناجون بقتله أو بما يكره المؤمن ، فإذا رأى المؤمن ذلك خشيم فترك طريقه عليهم ، فنهاهم النبي ﷺ عن النجوى فلم ينتهوا وعادوا إلى النجوى ، فأنزل الله تعالى : ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نُهُوا عَنِ النَّجْوَى ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا نُهُوا عَنْهُ﴾ .

وقوله تعالى : ﴿ وَيَنْتَظِرُونَ بِالْإِنشِرَاءِ وَالْعُدُوبِ وَمَعْصِيَةِ الرَّسُولِ ﴾ أي يتحدثون فيما بينهم بالإثم وهو ما يختص بهم ﴿ وَالْعُدُوبِ ﴾ وهو ما يتعلق بغيرهم ، ومنه معصية الرسول ومخالفته يصرون عليها ويتواصون بها وقوله تعالى : ﴿ وَإِذَا جَاءُوكَ حَيَّوكَ بِمَا لَمْ يُحَيِّكَ بِهِ اللَّهُ ﴾ عن عائشة قالت : دخل على رسول الله ﷺ يهود فقالوا : السام عليك يا أبا القاسم فقالت عائشة : وعليكم السام قالت : فقال رسول الله ﷺ : « يا عائشة إن الله لا يحب الفحش ولا التفحش » قلت : ألا تسمعون يقولون : السام عليك ، فقال رسول الله ﷺ : « أو سمعت ما أقول وعليكم ؟ » ^(١) فأنزل الله تعالى : ﴿ وَإِذَا جَاءُوكَ حَيَّوكَ بِمَا لَمْ يُحَيِّكَ بِهِ اللَّهُ ﴾ .

وقوله تعالى : ﴿ وَيَقُولُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ لَوْلَا يُعَذِّبُنَا اللَّهُ بِمَا نَقُولُ ﴾ أي يفعلون هذا ويقولون مايحرفون من الكلام وإيهام السلام وإنما هو شتم في الباطن ، ومع هذا يقولون في أنفسهم لو كان هذا نبيًا لعذبنا الله بما نقول له في الباطن لأن الله يعلم ما نسره ، فلو كان هذا نبيًا حقًا لأوشك أن يعاجلنا الله بالعقوبة في الدنيا . فقال الله تعالى : ﴿ حَسْبُكُمْ جَهَنَّمُ ﴾ أي جهنم كفاتهم في الدار الآخرة ﴿ يَصَلُّونَهَا كَلَسَ الْمَصِيرُ ﴾ ، ثم قال الله تعالى مؤدبا عباده المؤمنين أن لا يكونوا مثل الكفرة والمنافقين ﴿ يَأْتِيهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّا تَنَجَيْتُمْ مِّنَّا تَنَجَيْتُمْ فَلَا تَنَجَوْنَ بِالْإِنشِرَاءِ وَالْعُدُوبِ وَمَعْصِيَةِ الرَّسُولِ ﴾ أي : كما يتناجى به الجهله من كفر أهل الكتاب ومن ملأهم على ضلالهم من المنافقين ﴿ وَتَنَجَوْنَ بِالْإِنشِرَاءِ وَالْعُدُوبِ وَتَنَقُّوا اللَّهَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴾ أي فيخبركم بجميع أعمالكم وأقوالكم التي قد أحصاها عليكم وسيجزيك بها ، وعن صفوان بن محرز قال : كنت أخذًا بيد ابن عمر ؛ إذ عرض له رجل فقال : كيف سمعت رسول الله ﷺ يقول في النجوى يوم القيامة ؟ قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « إن الله يدني المؤمن فيضع عليه كنفه ويستره من الناس ويقره بذنوبه ، ويقول له : أتعرف ذنب كذا ؟ أتعرف ذنب كذا ؟ أتعرف ذنب كذا ؟ حتى إذا قرره بذنوبه ورأى في نفسه أن قد هلك قال : فإني قد سترتها عليك في الدنيا ، وأنا أغفرها لك اليوم ، ثم يعطى كتاب حسناته ، وأما الكفار والمنافقون فيقول الأشهاد : هؤلاء الذين كذبوا على ربهم ألا لعنة الله على الظالمين » ^(٢) . ثم قال تعالى : ﴿ إِنَّمَا التَّوْحَىٰ مِنَ الشَّيْطَانِ لِيَحْزُنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَيْسَ بِضَارِّهِمْ شَيْئًا إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴾ أي إنما النجوى وهي المسارة حيث يتوهم مؤمن بها سوءًا ﴿ مِنَ الشَّيْطَانِ لِيَحْزُنَ الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ يعني إنما يصدر هذا من المتناجين عن تسويل الشيطان وتزيينه ﴿ لِيَحْزُنَ الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ أي ليسوءهم وليس ذلك بضارهم شيئًا إلا بإذن الله ، ومن أحس من ذلك شيئًا فليستعذ بالله وليتوكل على الله فإنه لا يضره شيء بإذن الله . وقد وردت السنة بالتهي عن التناجي حيث يكون في ذلك تأذ على مؤمن ، عن ابن عمر قال : قال رسول الله ﷺ : « إذا كنتم ثلاثة فلا يتناجى اثنان دون الثالث إلا بإذنه ، فإن ذلك يحزنه » ^(٣) .

﴿ يَأْتِيهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُوا فِي الْمَجَالِسِ فَأَتَسَّحُوا فَسَّحَ اللَّهُ لَكُمْ وَإِذَا قِيلَ أَنْشُرُوا فَأَنْشُرُوا يَرْفَعُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴾ .

(١) ذكره السيوطي في الدر المنثور (١٨٤/٦) . (٢) أخرجه البخاري في اللقطة (٢٤٤١) وأحمد في مسنده (٧٤/٢) .

(٣) أخرجه مسلم في السلام (٣٧) والترمذي في السنن (٢٨٢٥) وأحمد في مسنده (١٨/٢) .

يقول تعالى مؤدباً عباده المؤمنين وأمرًا لهم أن يحسن بعضهم إلى بعض في المجالس ﴿يَكْأْتِبُهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا قِيلَ لَكُمْ فَتَسَحُّوا فِي الْمَجَالِسِ﴾ ﴿وقرئ﴾ ﴿فِي الْمَجْلِسِ﴾ ^(١) ﴿فَافْتَحُوا يَسَّحَ اللَّهُ لَكُمْ﴾ وذلك أن الجزء من جنس العمل كما جاء في الصحيح : « من بنى لله مسجدًا بنى الله له بيتًا في الجنة » ^(٢) وفي الحديث الآخر : « ومن يسر على معسر يسر الله عليه في الدنيا والآخرة والله في عون العبد ما كان العبد في عون أخيه » ^(٣) ولهذا أشباه كثيرة ، ولهذا قال تعالى : ﴿فَافْتَحُوا يَسَّحَ اللَّهُ لَكُمْ﴾ قال قتادة : نزلت هذه الآية في مجالس الذكر ، وذلك أنهم كانوا إذا رأوا أحدهم مقبلاً ضنوا بمجالسهم عند رسول الله ﷺ فأمرهم الله تعالى أن يفسح بعضهم لبعض .

وقال مقاتل بن حيان : أنزلت هذه الآية يوم الجمعة ، وكان رسول الله ﷺ يومئذ في الصفة وفي المكان ضيق ، وكان يكرم أهل بدر من المهاجرين والأنصار فجاء ناس من أهل بدر وقد سبقوا إلى المجالس ، فقاموا حيال رسول الله ﷺ فقالوا : السلام عليك أيها النبي ورحمة الله وبركاته ، فرد النبي ﷺ عليهم ، ثم سلموا على القوم بعد ذلك فردوا عليهم ، فقاموا على أرجلهم ينتظرون أن يوسع لهم ، فعرف النبي ﷺ ما يحملهم على القيام فلم يفسح لهم ، فشق ذلك على النبي ﷺ فقال لمن حوله من المهاجرين والأنصار من غير أهل بدر : « قم يا فلان وأنت يا فلان » فلم يزل يقيمهم بعدة نفر الذين هم قيام بين يديه من المهاجرين والأنصار أهل بدر ، فشق ذلك على من أقيم من مجلسه وعرف النبي ﷺ الكراهة في وجوههم ، فقال المنافقون : ألستم تزعمون أن صاحبكم هذا يعدل بين الناس ؟ والله ما رأيناه قبل عدل على هؤلاء إن قومًا أخذوا مجالسهم وأحبوا القرب من نبيهم فأقامهم وأجلس من أبطأ عنه ، فبلغنا أن رسول الله ﷺ قال : « رحم الله رجلاً يفسح لأخيه » فجعلوا يقومون بعد ذلك سراعاً فيفسح القوم لإخوانهم ونزلت هذه الآية يوم الجمعة ^(٤) . وعن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال : « لا يقيم الرجل الرجل من مجلسه ثم يجلس فيه ولكن افسحوا يفسح الله لكم » ^(٥) .

وقد اختلف الفقهاء في جواز القيام للوارد إذ جاء على أقوال : فمنهم من رخص في ذلك محتجاً بحديث : « قوموا إلى سيدكم » ^(٦) ومنهم من منع من ذلك محتجاً بحديث : « من أحب أن يتمثل له الرجال قياماً فليتبوأ مقعده من النار » ^(٧) ومنهم من فصل فقال : يجوز عند القدوم من سفر وللحاكم في محل ولايته ، كما دل عليه قصة سعد بن معاذ ، فإنه لما استقدمه النبي ﷺ حاكماً في بني قريظة فرآه مقبلاً قال للمسلمين : « قوموا إلى سيدكم » وما ذاك إلا ليكون أنفذ لحكمه والله أعلم . فأما اتخاذه ديدناً فإنه من شعار العجم ، وقد جاء في السنن أنه لم يكن شخص أجّل إليهم من رسول الله ﷺ وكان إذا جاء لا يقومون له لما يعلمون من كراهته لذلك .

(١) قرأ عاصم ﴿الْمَجَالِسِ﴾ بالألف جمعا ، والباقون بغير ألف إفراداً . (انظر تقريب النشر ص : ١٧٩) .

(٢) أخرجه البخاري في الصلاة (٤٥٠) ومسلم في المساجد (٢٤) وأحمد في مسنده (٦١/١) .

(٣) أخرجه مسلم في البر والصلة (٥٨) وأحمد في مسنده (٩٢/٢) .

(٤) أورده السيوطي في الدر المنثور (٢٦٠/٣) . (٥) أخرجه أحمد في مسنده (٦٢٣/٢) .

(٦) أخرجه البخاري في المغازي (٤١٢١) ومسلم في الجهاد (٦٤) والترمذي في السنن (٨٥٦) .

(٧) أخرجه أبو داود في السنن (٥٢٢٩) والمنذري في الترغيب والترهيب (٤٣١/٣) .

وفي الحديث المروي في السنن أن رسول الله ﷺ كان يجلس حيث انتهى به المجلس ، ولكن حيث يجلس يكون صدر ذلك المجلس ، فكان الصحابة ﷺ يجلسون منه على مراتبهم ، فالصديق ﷺ يجلسه عن يمينه وعمر عن يساره ، وبين يديه غالباً عثمان وعلي لأنهما كانا ممن يكتب الوحي ، وكان يأمرهما بذلك ، وعن أبي مسعود قال : كان رسول الله ﷺ يسمح مناكبنا في الصلاة ويقول : « استوتوا ولا تختلفوا فتختلف قلوبكم ، ليليني منكم أولو الأحلام والنهي ، ثم الذين يلونهم ، ثم الذين يلونهم » قال أبو مسعود : فأنتم اليوم أشد اختلافاً (١) . وإذا كان هذا أمره لهم في الصلاة أن يليه العقلاء منهم والعلماء فبطريق الأولى أن يكون ذلك في غير الصلاة .

وعن عبد الله بن عمر أن رسول الله ﷺ قال : « أقيموا الصفوف ، وحاذوا بين المناكب ، وسدوا الخلل ، ولينوا بأيدي إخوانكم ، ولا تذروا فرجات للشياطين ، ومن وصل صفًا وصله الله ، ومن قطع صفًا قطعه الله » (٢) ولهذا كان أبي بن كعب سيد القراء إذا انتهى إلى الصف الأول انتزع منه رجلًا يكون من أفئدة الناس ، ويدخل هو في الصف المقدم ويحتج بهذا الحديث : « ليليني منكم أولو الأحلام والنهي » وأما عبد الله بن عمر فكان لا يجلس في المكان الذي يقوم له صاحبه عنه عملاً بمقتضى ما تقدم من روايته الحديث الذي أورده ، ولنقتصر على هذا المقدار من الأتموذج المتعلق بهذه الآية ، وإلا فبسطه يحتاج إلى غير هذا الموضع . وفي الحديث الصحيح : بينا رسول الله ﷺ جالس إذ أقبل ثلاثة نفر ، فأما أحدهم فوجد فرجة في الحلقة فدخل فيها ، وأما الآخر فجلس وراء الناس ، وأدير الثالث ذاهباً فقال رسول الله ﷺ : « ألا أنبئكم بخبر الثلاثة ؟ أما الأول فأوى إلى الله فأواه الله ، وأما الثاني فاستحيا فاستحيا الله منه ، وأما الثالث فأعرض فأعرض الله عنه » (٣) . وعن عبد الله بن عمرو أن رسول الله ﷺ قال : « لا يحل لرجل أن يفرق بين اثنين إلا بإذنهما » (٤)

وقد روي عن ابن عباس والحسن البصري وغيرهما أنهم قالوا في قوله تعالى : ﴿ إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَسَبَّحُوا لِلَّهِ فَقُلُوا تَسَبَّحُوا لِلَّهِ يَسْمَعُ الْغَيْبُ مِنْكُمْ ﴾ يعني في مجالس الحرب . قالوا : ومعنى قوله ﴿ وَإِذَا قِيلَ أَنْشُرُوا فَأَنْشُرُوا ﴾ أي انهضوا للقتال . وقال قتادة ﴿ وَإِذَا قِيلَ أَنْشُرُوا فَأَنْشُرُوا ﴾ أي إذا دعيت إلى خير فأجيبوا ، وقال مقاتل : إذا دعيت إلى الصلاة فارتفعوا إليها . وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم : كانوا إذا كانوا عند النبي ﷺ في بيته فأرادوا الانصراف ، أحب كل منهم أن يكون هو آخرهم خروجاً من عنده ، فربما يشق ذلك عليه ، عليه الصلاة والسلام وقد تكون له الحاجة ، فأمرؤا أنهم إذا أمروا بالانصراف أن ينصرفوا .

وقوله تعالى : ﴿ يَرْفَعُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴾ أي لا تعتقدوا أنه إذا فسح أحد منكم لأخيه إذا أقبل أو إذا أمر بالخروج فخرج ، أن يكون ذلك نقصاً في حقه بل هو رفعة ورتبة عند الله ، والله تعالى لا يضيع ذلك له ، بل يجزيه بها في الدنيا والآخرة فإن من تواضع لأمر الله رفع الله قدره ونشر ذكره ، ولهذا قال تعالى : ﴿ يَرْفَعُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ

(١) أخرجه مسلم في الصلاة (١٢٢) وابن خزيمة في صحيحه (١٥٤٢) .

(٢) أخرجه أبو داود في السنن (٦٦٦) والمنذري في الترغيب والترهيب (٣١٩/١) .

(٣) أخرجه البخاري في الصلاة (٤٧٤) . (٤) أخرجه أحمد في مسنده (٢١٣/٢) .

يقول الله تعالى منكراً على المنافقين في موالاتهم الكفار في الباطن ، وهم في نفس الأمر لا معهم ولا مع المؤمنين . ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ قَالُوا قَوْلًا غَيَّبَ اللَّهُ عَنْهُمْ ﴾ يعني اليهود الذين كان المنافقون يماثلونهم ويوالونهم في الباطن ثم قال تعالى : ﴿ تَأْتِيهِمْ سَكْرَاتٌ مِّنْ غَيْرِهِمْ ﴾ أي هؤلاء المنافقون ليسوا في الحقيقة منكم أيها المؤمنون ، ولا من الذين يوالونهم وهم اليهود ، ثم قال تعالى : ﴿ وَيَحْلِفُونَ عَلَى الْكَذِبِ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ يعني المنافقين يحلفون على الكذب ، وهم عالمون بأنهم كاذبون فيما حلفوا وهي اليمين الغموس ، ولا سيما في مثل حالهم اللعين عياداً بالله منه ، فإنهم كانوا إذا لقوا الذين آمنوا قالوا آمنا ، وإذا جاءوا الرسول حلفوا له بالله إنهم مؤمنون ، وهم في ذلك يعلمون أنهم يكذبون فيما حلفوا به ؛ لأنهم لا يعتقدون صدق ما قالوه وإن كان في نفس الأمر مطابقاً ، ولهذا شهد الله بكذبتهم في أيمانهم وشهادتهم لذلك .

ثم قال تعالى : ﴿ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ أي أرصد الله لهم على هذا الصنيع العذاب الأليم على أعمالهم السيئة وهي موالات الكافرين ونصحهم ومعاداة المؤمنين ، وغشهم ، ولهذا قال تعالى : ﴿ اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ أي أظهروا الإيمان وأبطنوا الكفر واتقوا بالأيمان الكاذبة ، فظن كثير من لا يعرف حقيقة أمرهم صدقهم فاغتر بهم ، فحصل بهذا صد عن سبيل الله لبعض الناس ﴿ فَالَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴾ أي في مقابلة ما امتنعوا من الحلف باسم الله العظيم في الأيمان الكاذبة الحائثة ، ثم قال تعالى : ﴿ لَنْ تَغْفِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ مِّنَ اللَّهِ شَيْئًا ﴾ أي لن يدفع ذلك عنهم بأساً إذا جاءهم ﴿ أُولَئِكَ أَحْصَى الْكَافِرُ فِيهَا خِلَافَهُمْ ﴾ ثم قال تعالى : ﴿ يَوْمَ يَبْعَثُ اللَّهُ جَيْمًا ﴾ أي يحشرهم يوم القيامة عن آخرهم فلا يغادر منهم أحداً ﴿ وَيَحْلِفُونَ لَهُمْ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكَ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَىٰ قَوْلٍ ﴾ أي يحلفون بالله ﴿ إِنَّهُمْ كَانُوا عَلَى الْهَدَىٰ وَالْإِسْقَامَةِ كَمَا كَانُوا يَحْلِفُونَ لِلنَّاسِ فِي الدُّنْيَا ؛ لَأَن مِّنْ عَاشٍ عَلَى شَيْءٍ مَاتَ عَلَيْهِ وَبَعَثَ عَلَيْهِ ، ويعتقدون أن ذلك ينفعهم عند الله كما كان ينفعهم عند الناس فيجرون عليهم الأحكام الظاهرة ولهذا قال : ﴿ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَىٰ قَوْلٍ ﴾ أي حلفهم بذلك لرُبهم .

ثم قال تعالى منكراً عليهم حسبانهم ﴿ آيَاتُهُمْ هُمُ الْكَافِرُونَ ﴾ فأكد الخبر عنهم بالكذب . وعن ابن عباس أن النبي ﷺ كان في ظل حجرة من حجره وعنده نفر من المسلمين قد كاد يقلص عنهم الظل قال : « إنه سيأتيكم إنسان ينظر بعيني شيطان فإذا أتاكم فلا تكلموه » فجاء رجل أزرق ، فدعاه رسول الله ﷺ فكلمه فقال « علام تشتمني أنت وفلان وفلان » نفر دعاهم بأسمائهم . قال : فانطلق الرجل فدعاهم فحلفوا له واعتذروا إليه ، قال : فأنزله الله ﷻ ﴿ وَيَحْلِفُونَ لَهُمْ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكَ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَىٰ قَوْلٍ ﴾ (١) .

وحال هؤلاء كما أخبر الله تعالى عن المشركين حيث يقول ﴿ ثُمَّ لَمْ يَكُنْ فِتْنَتُهُمْ إِلَّا أَن قَالُوا وَاللَّهِ رَبَّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ ﴾ انظر كيف كذبوا على أنفسهم وسدَّ عنهم ما كانوا يقولون ﴿ ثُمَّ قَالَ تَعَالَى ﴾ : ﴿ اتَّخَذُوا عَلَيْهِمُ الشَّيْطَانَ فَاغْتَايَهُمْ دَرْكُ اللَّهِ ﴾ أي استحوذ على قلوبهم الشيطان حتى أنساهم أن يذكروا الله ﷻ ، وكذلك يصنع بمن استحوذ عليه ، ولهذا قال أبو الدرداء : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « ما من ثلاثة في قرية ولا بدو لا تقام فيهم الصلاة إلا قد استحوذ عليهم الشيطان ، فعليك بالجماعة ؛ فإنما

يَأْكُلُ الذُّبَابُ الْقَاصِيَةَ» ^(١) قال زائدة : قال السائب : يعني الصلاة في الجماعة . ثم قال تعالى : ﴿أُولَئِكَ حِزْبُ الشَّيْطَانِ﴾ يعني الذين استحوذ عليهم الشيطان فأنساهم ذكر الله ثم قال تعالى : ﴿أَلَا إِنَّ حِزْبَ الشَّيْطَانِ هُمُ الْكَافِرُونَ﴾ .

﴿إِنَّ الَّذِينَ يُجَادُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ فِي الْآذِلِينَ﴾ ٥ كَتَبَ اللَّهُ لَأَعْلَيْكَ أَنَا وَرُسُلِي إِنَّكَ قَوْمٌ عَرِيزٌ ٦ لَا يَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُمْ بِرُوحٍ مِنْهُ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ أُولَئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ .

يقول تعالى مخبراً عن الكفار المعاندين المحادين لله ورسوله ، يعني الذين هم في حد والشرع في حد ، أي مجانبون للحق مشاقون له هم في ناحية والهدى في ناحية ﴿أُولَئِكَ فِي الْآذِلِينَ﴾ أي في الأشقياء المبعدين المطرودين عن الصواب الأذلين في الدنيا والآخرة . ﴿كَتَبَ اللَّهُ لَأَعْلَيْكَ أَنَا وَرُسُلِي﴾ أي قد حكم وكتب في كتابه الأول وقدره الذي لا يخالف ولا يمانع ولا يبدل ، بأن النصر له ولكتابه ورسوله وعباده المؤمنين في الدنيا والآخرة ﴿كَتَبَ اللَّهُ لَأَعْلَيْكَ أَنَا وَرُسُلِي إِنَّكَ قَوْمٌ عَرِيزٌ﴾ أي كتب القوي العزيز أنه الغالب لأعدائه ، وهذا قدر محكم وأمر مبرم أن العاقبة والنصرة للمؤمنين في الدنيا والآخرة ثم قال تعالى : ﴿لَا يَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ﴾ أي لا يوادون المحادين ولو كانوا من الأقربين . قال سعيد بن عبد العزيز وغيره : أنزلت هذه الآية ﴿لَا يَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ إلى آخرها في أبي عبيدة عامر بن عبد الله بن الجراح حين قتل أباه يوم بدر ، ولهذا قال عمر بن الخطاب ؓ حين جعل الأمر شورى بعده في أولئك الستة ؓ : ولو كان أبو عبيدة حيّاً لاستخلفته . وقيل في قوله تعالى : ﴿لَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ﴾ نزلت في أبي عبيدة قتل أباه يوم بدر ﴿أَوْ أَبْنَاءَهُمْ﴾ في الصديق . هم يومئذ بقتل ابنه عبد الرحمن ﴿أَوْ إِخْوَانَهُمْ﴾ في مصعب بن عمير قتل أخاه عبيد بن عمير يومئذ ﴿أَوْ عَشِيرَتَهُمْ﴾ في عمر قتل قريباً له يومئذ أيضاً ، وفي حمزة وعلي وعبيدة بن الحارث قتلوا عتبة وشيبة والوليد بن عتبة يومئذ .

قلت : ومن هذا القبيل حين استشار رسول الله ﷺ المسلمين في أسارى بدر ، فأشار الصديق بأن يفاذوا فيكون ما يؤخذ منهم قوة للمسلمين ، وهم بنو العم والعشيرة ، ولعل الله تعالى أن يهديهم ، وقال عمر : لا أرى ما رأى ، يارسول الله هل تمكنتني من فلان قريب لعمر فأقتله ، وتمكن علياً من عقيل وتمكن فلاناً من فلان ليعلم الله أنه ليست في قلوبنا مادة للمشركين . . . القصة بكمالها . وقوله تعالى : ﴿أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُمْ بِرُوحٍ مِنْهُ﴾ أي من اتصف بأنه لا يواد من حاد الله ورسوله ولو كان أباه أو أخاه ، فهذا ممن كتب الله في قلبه الإيمان أي كتب له السعادة وقررها في قلبه وزين الإيمان في بصيرته . قال السدي : ﴿كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ﴾ جعل في قلوبهم الإيمان . وقال ابن عباس ﴿وَأَيَّدَهُمْ بِرُوحٍ مِنْهُ﴾ أي قواهم .

(١) أخرجه أبو داود في السنن (٥٤٧) والنسائي في السنن (١٠٦/٢) .

وقوله تعالى : ﴿ وَيَذِخُّهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ﴾ كل هذا تقدم تفسيره غير مرة ، وفي قوله تعالى : ﴿ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ﴾ سر بديع وهو أنه لما سخطوا على القرائب والعشائر في الله تعالى عوضهم الله بالرضا عنهم وأرضاهم عنه بما أعطاهم من النعيم المقيم والفوز العظيم والفضل العميم . وقوله تعالى : ﴿ أُولَئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ أي هؤلاء حزب الله أي عباد الله وأهل كرامته . وقوله تعالى : ﴿ أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ تنويه بفلاحهم وسعادتهم ونصرتهم في الدنيا والآخرة في مقابلة ما ذكر عن أولئك بأنهم حزب الشيطان ثم قال : ﴿ أَلَا إِنَّ حِزْبَ الشَّيْطَانِ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴾ .

وعن الذيال بن عباد قال : كتب أبو حازم الأعرج إلى الزهري : اعلم أن الجاه جاهان : جاه يجريه الله تعالى على أيدي أوليائه لأوليائه ، وأنهم الخامل ذكرهم ، الخفية شخوصهم ، ولقد جاءت صفتهم على لسان رسول الله ﷺ : « إن الله يحب الأخفياء الأنقياء الأبرياء الذين إذا غابوا لم يفتقدوا ، وإذا حضروا لم يدعوا ، قلوبهم مصايح الهدى ، يخرجون من كل فتنة سوداء مظلمة » ^(١) فهؤلاء أولياء الله تعالى الذين قال الله ﴿ أُولَئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ .

(١) أخرجه ابن ماجه في السنن (٣٩٨٩) والحاكم في المستدرک (٤/١) .

سورة الحشر

عن سعيد بن جبير : قال : قلت لابن عباس : سورة الحشر ، قال : سورة بني النضير ^(١) .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴾ ۝ هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ دِيَارِهِمْ لِأَوَّلِ الْحَشْرِ مَا ظَنَنْتُمْ أَنْ يَخْرُجُوا وَظَنُّوا أَنَّهُمْ مَانِعَتُهُمْ حُصُونُهُمْ مِنَ اللَّهِ فَأَنَّهُمْ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْسِبُوا وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ يُخْرَوْنَ يَدِيَهُمْ وَآيَدِ الْمُؤْمِنِينَ فَاغْتَبَرُوا يَتَأَوَّلُوا الْآبَصْرَ ۝ وَلَوْلَا أَنْ كَتَبَ اللَّهُ عَلَيْهِمُ الْجَلَاءَ لَعَذَّبَهُمْ فِي الدُّنْيَا وَلَكُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابُ النَّارِ ۝ ذَلِكَ يَأْتِيهِمْ شَاقُوا اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَمَنْ يُشَاقِ اللَّهَ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ۝ مَا قَطَعْتُمْ مِنْ لَيْسَةٍ أَوْ نَزَعْتُمْهَا فَأَيْمَةٌ عَلَى أَسْوَلِهَا فَإِذَنْ اللَّهُ وَلِيُخْزِيَ الْفَاسِقِينَ ﴾ .

يخبر تعالى أن جميع ما في السموات والأرض من شيء يسبح له ويمجده ويقدسه ويصلي له ويوحده . وقوله تعالى : ﴿ وَهُوَ الْعَزِيزُ ﴾ أي منيع الجبابرة ﴿ الْكَبِيرُ ﴾ أي قدره وشرعه . وقوله تعالى : ﴿ هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ ﴾ يعني يهود بني النضير . قاله ابن عباس ومجاهد والزهري وغير واحد . كان رسول الله ﷺ لما قدم المدينة هادئهم وأعطاهم عهداً ودية على أن لا يقاتلهم ولا يقاتلوه ، فنقضوا العهد الذي كان بينهم وبينه ، فأحل الله بهم بأسه الذي لا مرد له ، وأنزل عليهم قضاءه الذي لا يصد ، فأجلاهم النبي ﷺ وأخرجهم من حصونهم الحصينة التي ما طمع فيها المسلمون ، وظنوا هم أنها مانعتهم من بأس الله ، فما أغنى عنهم من الله شيئاً وجاءهم من الله ما لم يكن ببالهم ، وسيرهم رسول الله ﷺ وأجلاهم من المدينة ، فكان منهم طائفة ذهبوا إلى أذرعات من أعالي الشام ، وهي أرض المحشر والمنشر ، ومنهم طائفة ذهبوا إلى خيبر ، وكان قد أنزلهم منها على أن لهم ما حملت إبلهم ، فكانوا يخبرون ما في بيوتهم من المنقولات التي لا يمكن أن تحمل معهم ، ولهذا قال تعالى : ﴿ يُخْرَوْنَ يَدِيَهُمْ وَآيَدِ الْمُؤْمِنِينَ فَاغْتَبَرُوا يَتَأَوَّلُوا الْآبَصْرَ ﴾ أي تفكروا في عاقبة من خالف أمر الله وخالف رسوله وكذب كتابه كيف يحل به من بأسه المخزي له في الدنيا مع ما يدره له في الآخرة من العذاب الأليم .

عن عبد الرحمن بن كعب بن مالك ، عن رجل من أصحاب النبي ﷺ : أن كفار قريش كتبوا إلى ابن أبي ومن كان معه يعبد الأوثان من الأوس والخزرج ، ورسول الله ﷺ يومئذ بالمدينة قبل رجعة بدر : إنكم أذنيتم صاحبنا وأنا نقسم بالله لنقاتلنه ، أو لنخرجنكم ، أو لنسيرن إليكم بأجمعنا حتى نقتل مقاتلتكم ونسي نساءكم ، فلما بلغ ذلك عبد الله بن أبي ومن كان معه من عبدة الأوثان أجمعوا لقتال النبي ﷺ ، فلما بلغ ذلك النبي ﷺ لقيهم فقال : « لقد بلغ وعيد قريش منكم المبالغ ما كانت تكيدكم بأكثر مما تريد أن تكيدوا به أنفسكم ، يريدون أن يقاتلوا أبناءكم وإخوانكم » فلما سمعوا ذلك من النبي ﷺ تفرقوا ، فبلغ ذلك كفار قريش فكتب كفار قريش بعد وقعة بدر إلى اليهود : إنكم أهل الحلقة والحصون وإنكم لتقاتلن مع صاحبنا أو لنفعلن كذا وكذا ، ولا يحول بيننا

(١) أخرجه البخاري في تفسير القرآن (٤٨٨٣) .

وبين خدم نساكم شيء وهو الخلاخيل ، فلما بلغ كتابهم النبي ﷺ أيقنت بنو النضير بالغدر ، فأرسلوا إلى النبي ﷺ : اخرج إلينا في ثلاثين رجلاً من أصحابك ليخرج منا ثلاثون حبراً حتى نلتقي بمكان النصف ، وليسفموا منك فإن صدقوك وآمنوا بك آمنا بك .

فلما كان الغد غدا عليهم رسول الله ﷺ بالكتائب فحصرهم فقال لهم : « إنكم والله لا تؤمنون عندي إلا بعهد تعاهدوني عليه » فأبوا أن يعطوه عهداً فقاتلهم يومهم ذلك ، ثم غدا من الغد على بني قريظة بالكتائب وترك بني النضير ودعاهم إلى أن يعاهدوه فعاهدوه ، فانصرف عنهم وغدا إلى بني النضير بالكتائب فقاتلهم حتى نزلوا على الجلاء ، فجلت بنو النضير واحتملوا ما أقلت الإبل من أمتعتهم وأبواب بيوتهم وخشبها ، وكان نخل بني النضير لرسول الله ﷺ خاصة أعطاه الله إياها وخصه بها فقال تعالى : ﴿ وَمَا آتَاكَ اللَّهُ عَنْ رَسُولِهِ مِثْمًا فَحَبَّطْنَاهُ عَلَيْهِمْ مِنْ حَبْلٍ وَلَا رِجَابَ وَلَكِنَّ ﴾ يقول : بغير قتال ، فأعطى النبي ﷺ أكثرها للمهاجرين قسمها بينهم وقسم منها لرجلين من الأنصار ، وكانا ذوي حاجة ولم يقسم من الأنصار غيرهما ، وبقي منها صدقة رسول الله ﷺ التي في أيدي بني فاطمة ^(١) . ولنذكر ملخص غزوة بني النضير على وجه الاختصار وبالله المستعان .

وكان سبب ذلك فيما ذكره أصحاب المغازي والسير أنه لما قتل أصحاب بئر معونة من أصحاب رسول الله ﷺ وكانوا سبعين وأقلت منهم عمرو بن أمية الضمري ، فلما كان في أثناء الطريق راجعاً إلى المدينة قتل رجلين من بني عامر ، وكان معهما عهد من رسول الله ﷺ وأمان لم يعلم به عمرو ، فلما رجع أخبر رسول الله ﷺ فقال له رسول الله ﷺ : « لقد قتلت رجلين لأديتهما » وكان بين بني النضير وبني عامر حلف وعهد ، فخرج رسول الله ﷺ إلى بني النضير ليستعينهم في دية ذينك الرجلين ، وكانت منازل بني النضير ظاهر المدينة على أميال منها شرقها .

قال ابن إسحاق : ثم خرج رسول الله ﷺ إلى بني النضير يستعينهم في دية ذينك القتيلين من بني عامر اللذين قتلها عمرو بن أمية الضمري للجوار الذي كان رسول الله ﷺ عقد لهما فيما حدثني يزيد بن رومان ، وكان بين بني النضير وبني عامر عقد وحلف ، فلما أتاها رسول الله ﷺ يستعينهم في دية ذينك القتيلين قالوا : نعم يا أبا القاسم نعينك على ما أحببت مما استعنت بنا عليه ، ثم خلا بعضهم ببعض فقالوا : إنكم لن تجدوا الرجل على مثل حاله هذه - ورسول الله ﷺ إلى جنب جدار من بيوتهم - فمن رجل يعلو على هذا البيت فيلقي عليه صخرة فيريحنا منه ، فانتدب لذلك عمرو بن جحاش بن كعب أخدهم فقال : أنا لذلك فصعد ليلقي عليه صخرة كما قال ، ورسول الله ﷺ في نفر من أصحابه فيهم أبو بكر وعمر وعلي رضي الله عنه ، فأتى رسول الله ﷺ الخبر من السماء بما أراد القوم فقام وخرج راجعاً إلى المدينة .

فلما استلبث النبي ﷺ أصحابه قاموا في طلبه فلقوا رجلاً مقبلاً من المدينة ، فسأله عنه ، فقال : رأيته داخلاً المدينة ، فأقبل أصحاب رسول الله ﷺ حتى انتهوا إليه ، فأخبرهم الخبر بما كانت يهود أرادت من الغدر به ، وأمر رسول الله ﷺ بالتهيؤ لحربهم والمسير إليهم ، ثم سار حتى نزل بهم فتحصنوا

(١) أخرجه أبو داود في السنن (٣٠٠٤) .

منه في الحصون ، فأمر رسول الله ﷺ بقطع النخل والتحريق فيها ، فنادوه أن يا محمد قد كنت تنهى عن الفساد في الأرض وتعييه على من يصنعه ، فما بال قطع النخل وتحريقها ، وقد كان رهط من بني عوف بن الخزرج منهم عبد الله بن أبي ابن سلول ووديعة ومالك بن أبي قوقل وسويد وداعس قد بعثوا إلى بني النضير أن اثبتوا وتمنعوا ، فإنا لن نسلمكم ، إن قوتلتهم قاتلنا معكم ، وإن خرجتم خرجنا معكم ، فترصبوا ذلك من نصرهم فلم يفعلوا ، فقفذ في قلوبهم الرعب ، فسألوا رسول الله ﷺ أن يجليهم ويكف عن دمائهم على أن لهم ما حملت الإبل من أموالهم إلا الحلقة ففعلوا ، فاحتملوا عن أموالهم ما استقلت به الإبل ، فكان الرجل منهم يهدم بيته عن إيجاف بابه فيضعه على ظهر بعيره فينطلق به ، فخرجوا إلى خيبر ومنهم من سار إلى الشام وخلوا الأموال لرسول الله ﷺ فكانت لرسول الله خاصة يضعها حيث يشاء ، فقسمها على المهاجرين الأولين دون الأنصار إلا سهل بن حنيف وأبا دجانة - سماك بن خرشة - ذكرا فقرا فأعطاهما رسول الله ﷺ ، قال : ولم يسلم من بني النضير إلا رجلان : يامين بن عمرو بن كعب عم عمرو بن جحاش ، وأبو سعد بن وهب أسلما على أموالهما فأحرزاها .

قال ابن إسحاق : وقد حدثني بعض آل يامين أن رسول الله ﷺ قال ليامين : « ألم تر ما لقيت من ابن عمك وما هم به من شأني ؟ » فجعل يامين بن عمرو لرجل جعلاً على أن يقتل عمرو بن جحاش فقتله فيما يزعمون . قال ابن إسحاق : ونزل في بني النضير سورة الحشر بأسرها بقوله تعالى ﴿ هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ ﴾ يعني بني النضير ﴿ مِنْ دِينِهِمْ لَأَوَّلُ الْحَشْرِ ﴾ عن ابن عباس قال : من شك في أن أرض المحشر ههنا يعني الشام - فليقرأ هذه الآية ﴿ هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ دِينِهِمْ لَأَوَّلُ الْحَشْرِ ﴾ قال لهم رسول الله ﷺ : « اخرجوا » قالوا : إلى أين ؟ قال : « إلى أرض المحشر » وقوله تعالى ﴿ مَا ظَنَنْتُمْ أَنْ يَخْرُجُوا ﴾ أي في مدة حصاركم لهم وقدرها وكانت ستة أيام مع شدة حصونهم ومنعتها ، ولهذا قال تعالى ﴿ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ مَانِعَتُهُمْ حُصُونُهُمْ مِنَ اللَّهِ فَأَتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا ﴾ أي جاءهم من أمر الله ما لم يكن لهم في بال . وقوله تعالى ﴿ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ ﴾ أي الخوف والهلع والجزع وكيف لا يحصل لهم ذلك وقد حاصروهم الذي نصر بالرعب مسيرة شهر صلوات الله وسلامه عليه . وقوله ﴿ يُخْرِجُونَ يَتُوتَهُمْ بِأَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ ﴾ وهو نقض ما استحسنته من سقوفهم وأبوابهم وتحملها على الإبل ، وقال مقاتل بن حيان : كان رسول الله ﷺ يقاتلهم فإذا ظهر على درب أو دار هدم حيطانها ليتسع المكان للقتال ، وكان اليهود إذا علوا مكاناً أو غلبوا على درب أو دار ؛ نقيبوا من أديارها ثم حصنوها ودربوها ، يقول الله تعالى ﴿ فَاعْتَبِرُوا يَأْأُولِ الْآبَصِرِ ﴾ . وقوله ﴿ وَلَوْلَا أَنْ كَتَبَ اللَّهُ عَلَيْهِمُ الْجَلَاءَ لَعَذَّبُوهُمْ فِي الْدُنْيَا ﴾ أي لولا أن كتب الله عليهم هذا الجلاء وهو النفي من ديارهم وأموالهم ؛ لكان لهم عند الله عذاب آخر من القتل والسبي ونحو ذلك ؛ لأن الله قد كتب عليهم أنه سيعذبهم في الدار الدنيا مع ما أعد لهم في الدار الآخرة من العذاب في نار جهنم . عن عروة بن الزبير قال : ثم كانت وقعة بني النضير ، وهم طائفة من اليهود على رأس ستة أشهر من وقعة بدر ، وكان منزلهم بناحية من المدينة فحاصروهم رسول الله ﷺ حتى نزلوا على الجلاء ، وأن

لهم ما أقلت الإبل من الأموال والأمتعة إلا الحلقة وهي السلاح ، فأجلاهم رسول الله ﷺ قبل الشام . قال : والجلاء أنه كتب عليهم في أي من التوراة وكانوا من سبط لم يصيبهم الجلاء قبل ما سلط عليهم رسول الله ﷺ وأنزل الله فيهم ﴿ سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ - إِلَى قَوْلِهِ - وَلِيُخْرِجَ الْفَاسِقِينَ ﴾ وقال عكرمة : الجلاء القتل ، وفي رواية عنه : الفناء ، وقال قتادة : الجلاء خروج الناس من البلد إلى البلد . وقال الضحاك : أجلاهم إلى الشام وأعطى كل ثلاثة بعيرًا وسقاء ، فهذا الجلاء .

وقوله تعالى : ﴿ وَلَكُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ النَّارِ ﴾ أي حتم لازم لا بد لهم منه . وقوله تعالى : ﴿ ذَلِكَ يَأْتِيهِمْ شَاقُوا اللَّهِ وَرَسُولَهُ ﴾ أي إنما فعل الله بهم ذلك وسلط عليهم رسوله وعباده المؤمنين ؛ لأنهم خالفوا الله ورسوله وكذبوا بما أنزل الله على رسله المتقدمين في البشارة بمحمد ﷺ وهم يعرفون ذلك كما يعرفون أبناءهم . ثم قال : ﴿ وَنَنُشِيقُ اللَّهَ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴾ . وقوله تعالى : ﴿ مَا قَطَعْتُمْ بَيْنَ يَدَيْهِ أَرَكْمْتُمْهَا قَائِمَةً عَلَى أُمُودِهَا فَإِذِنْ اللَّهُ وَلِيُخْرِجَ الْفَاسِقِينَ ﴾ اللين نوع من التمر وهو جيد ، قال أبو عبيدة : وهو ما خالف العجوة والبرني من التمر ، وقال كثيرون من المفسرين : اللينة ألوان التمر سوى العجوة . قال ابن جرير : هو جميع النخل . عن ابن عباس في قوله ﴿ مَا قَطَعْتُمْ بَيْنَ يَدَيْهِ أَرَكْمْتُمْهَا قَائِمَةً عَلَى أُمُودِهَا فَإِذِنْ اللَّهُ وَلِيُخْرِجَ الْفَاسِقِينَ ﴾ قال : يستزلونهم من حصونهم وأمروا بقطع النخل فحاك في صدورهم ، فقال المسلمون : قطعنا بعضًا وتركنا بعضًا فلنسألن رسول الله ﷺ هل لنا فيما قطعنا من أجر ، وهل علينا فيما تركنا من وزر ، فأنزل الله ﴿ مَا قَطَعْتُمْ بَيْنَ يَدَيْهِ ﴾ ^(١) وعن ابن عمر ، أن رسول الله ﷺ قطع نخل بني النضير وحرق ^(٢) . وعن ابن عمر ، قال : حاربت النضير وقريظة فأجلى بني النضير وأقر قريظة ومن عليهم حتى حاربت قريظة ، فقتل من رجالهم وسبى وقسم نسائهم وأولادهم وأموالهم بين المسلمين إلا بعضهم لحقوا بالنبي ﷺ فأمنهم وأسلموا وأجلى يهود المدينة كلهم بني قينقاع ، وهم رهط عبد الله بن سلام ويهود بني حارثة وكل يهود بالمدينة ^(٣) . وعن ابن عمر أن رسول الله ﷺ حرق نخل بني النضير ، وقطع ، وهي البويرة ، فأنزل الله ﷻ فيه ﴿ مَا قَطَعْتُمْ بَيْنَ يَدَيْهِ أَرَكْمْتُمْهَا قَائِمَةً عَلَى أُمُودِهَا فَإِذِنْ اللَّهُ وَلِيُخْرِجَ الْفَاسِقِينَ ﴾ ^(٤) . وعن ابن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ حرق نخل بني النضير وقطع وهي البويرة ، ولها يقول جسان بن ثابت رضي الله عنه :

وهان على سراة بني لؤي حريق بالبويرة مستطير
فأجابه أبو سفيان بن الحارث يقول :

أدام الله ذلك من صنيع وحرق في نواحيها السعير
ستعلم أينما منها بنزه وتعلم أي أرضينا نضير ^(٥)

وقد أورد ابن إسحاق رضي الله عنه أشعارًا كثيرة فيها آداب ومواعظ وحكم وتفصيل للقصة ، قال أبو

(٢) أخرجه أحمد في مسنده (٧/٢) .

(١) أخرجه الترمذي في السنن (٤٣٠٣) .

(٣) أخرجه البخاري في المغازي (٤٠٢٨) .

(٤) أخرجه البخاري في تفسير القرآن (٤٨٨٤) والترمذي في السنن (٣٣٠٢) .

(٥) أخرجه البخاري في المغازي (٤٠٣٢) .

إسحاق : كانت وقعة بني النضير بعد وقعة أحد وبعد بئر معونة . وعن عروة أنه قال : كانت وقعة بني النضير بعد بدر بستة أشهر ^(١) .

﴿ وَمَا آفَاةَ اللَّهِ عَلَى رَسُولِهِ مِنْهُمْ فَمَا أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ وَلَكِنَّ اللَّهَ يُسَلِّطُ رَسُولَهُ عَلَى مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ ﴿ مَا آفَاةَ اللَّهِ عَلَى رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى فَلِلَّهِ وَالرُّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ كُنْ لَا يَكُنْ دَوْلَةً بَيْنَ الْأَغْنِيَاءِ مِنْكُمْ وَمَا إِلَانَكُمْ الرَّسُولُ فَحِذُّوهُ وَمَا نَهَيْكُمْ عَنْهُ فَأَنْهَوْا وَأَنْتُمْ أَلَّهُ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴾ .
يقول تعالى مبيناً ما الفى وما صفته وما حكمه ، فالفىء كل مال أخذ من الكفار من غير قتال ولا إيجاب خيل ولا ركاب ؛ كأموال بني النضير هذه فإنها مما لم يوجف المسلمون عليه بخيل ولا ركاب ، أي لم يقاتلوا الأعداء فيها بالمبارزة والمصالحة بل نزل أولئك من الرعب الذي ألحق الله في قلوبهم من هيبة رسول الله ﷺ ، فأفاهه الله على رسوله ، ولهذا تصرف فيه كما يشاء ، فرده على المسلمين في وجوه البر والمصالح التي ذكرها الله ﷻ في هذه الآيات فقال تعالى : ﴿ وَمَا آفَاةَ اللَّهِ عَلَى رَسُولِهِ مِنْهُمْ ﴾ ، أي من بني النضير ﴿ فَمَا أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ ﴾ يعني الإبل ﴿ وَلَكِنَّ اللَّهَ يُسَلِّطُ رَسُولَهُ عَلَى مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ أي هو قدير لا يغالب ولا يمانع بل هو القاهر لكل شيء .

ثم قال تعالى : ﴿ مَا آفَاةَ اللَّهِ عَلَى رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى ﴾ أي جميع البلدان التي تفتح هكذا فتحكمها حكم أموال بني النضير ولهذا قال تعالى : ﴿ لِلَّهِ وَالرُّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ ﴾ إلى آخرها والتي بعدها فهذه مصارف أموال الفىء ووجوهه . عن عمر رضي الله عنه قال : كانت أموال بني النضير مما أفاء الله على رسوله مما لم يوجف المسلمون عليه بخيل ولا ركاب ، فكانت لرسول الله ﷺ خالصة ، فكان ينفق على أهله منها نفقة سنته ، وقال مرة : قوت سنته وما بقي جعله في الكراع والسلاح في سبيل الله ﷻ ^(٢) . وعن مالك بن أوس قال : أرسل إلي عمر بن الخطاب رضي الله عنه حين تعالى النهار فجمته فوجدته جالساً على سرير مفضياً إلى رماله فقال حين دخلت عليه : يا مالك إنه قد دف أهل آيات من قومك ، وقد أمرت فيهم بشيء فاقسم فيهم ، قلت : لو أمرت غيري بذلك ، فقال : خذه ، فجاءه يرفأ ، فقال : يا أمير المؤمنين هل لك في عثمان بن عفان وعبد الرحمن بن عوف والزيير بن العوام وسعد بن أبي وقاص ؟ قال : نعم . فأذن لهم فدخلوا ، ثم جاءه يرفأ فقال : يا أمير المؤمنين هل لك في العباس وعلي ؟ قال : نعم ، فأذن لهما فدخلوا ، فقال العباس : يا أمير المؤمنين اقض بيني وبين هذا يعني علياً ، فقال بعضهم : أجل يا أمير المؤمنين اقض بينهما وأرحهما ، قال مالك بن أوس : خيل إلي أنهما قدما أولئك النفر لذلك ، فقال عمر رضي الله عنه : اتد ثم أقبل على أولئك الرهط فقال : أنشدكم بالله الذي ياذنه تقوم السماء والأرض هل تعلمون أن رسول الله ﷺ قال : « لا نورث ما تركنا صدقة » قالوا : نعم . ثم أقبل على علي والعباس فقال : أنشدكما بالله الذي ياذنه تقوم السماء والأرض هل تعلمان أن رسول الله ﷺ قال : « لا نورث ما تركنا صدقة ؟ » فقالا : نعم . فقال : إن الله خص رسوله بخاصة لم يخص بها أحداً من الناس فقال تعالى : ﴿ وَمَا آفَاةَ اللَّهِ عَلَى رَسُولِهِ مِنْهُمْ فَمَا أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ وَلَكِنَّ اللَّهَ يُسَلِّطُ رَسُولَهُ عَلَى مَنْ يَشَاءُ ﴾

(١) أخرجه البخاري في المغازي (باب حديث بني النضير) . (٢) أخرجه أحمد في مسنده (٢٥/١) .

وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٦﴾ فكان الله تعالى أفاء على رسوله أموال بني النضير ، فوالله ما استأثر بها عليكم ولا أحرزها دونكم ، فكان رسول الله ﷺ يأخذ منها نفقة سنة أو نفقته ونفقة أهله سنة ، ويجعل ما بقي أسوة المال . ثم أقبل على أولئك الرهط فقال : أنشدكم بالله الذي ياذنه تقوم السماء والأرض ، هل تعلمون ذلك ؟ قالوا : نعم .

ثم أقبل على علي والعباس فقال : أنشدكما بالله الذي ياذنه تقوم السماء والأرض ، هل تعلمان ذلك ، قالوا : نعم . فلما توفي رسول الله ﷺ قال أبو بكر : أنا ولي رسول الله ﷺ ، فبحث أنت وهذا إلى أبي بكر تطلب أنت ميراثك من ابن أخيك ، ويطلب هذا ميراث امرأته من أبيها ، فقال أبو بكر ﷺ : قال رسول الله ﷺ : « لا نورث ما تركنا صدقة » والله يعلم إنه لصادق بار راشد تابع للحق فوليهما أبو بكر ، فلما توفي قلت : أنا ولي رسول الله ﷺ وولي أبي بكر فوليتهما ما شاء الله أن عليهما ، فبحث أنت وهذا وأنتما جميع وأمركما واحد فسألتماניהما ، فقلت : « إن شئتما فأنا أدفعهما إليكما على أن عليكما عهد الله أن تلياهما بالذي كان رسول الله ﷺ له يليها ، فأخذتماها مني على ذلك ثم جئتماني لأقضي بينكما بغير ذلك والله لا أقضي بينكما بغير ذلك ، حتى تقوم الساعة فإن عجزتما عنها فرداها إلي (١) .

عن أنس بن مالك عن رسول الله ﷺ قال : إن الرجل كان يجعل له من ماله النخلات أو كما شاء الله حتى فتحت عليه قريظة والنضير ، قال فجعل يرد بعد ذلك ، قال : وإن أهلي أمروني أن آتي النبي ﷺ فأسأله الذي كان أهله أعطوه أو بعضه ، وكان نبي الله ﷺ قد أعطاه أم أيمن أو كما شاء الله قال : فسألت النبي ﷺ فأعطانيهن ، فجاءت أم أيمن فجعلت الثوب في عنقي وجعلت تقول : كلا والله الذي لا إله إلا هو لا يعطينكمهن وقد أعطانيهن ، أو كما قالت فقال نبي الله : « لك كذا وكذا » قال وتقول كلا والله قال ويقول : « لك كذا وكذا » قال : وتقول : كلا والله ، قال : « ويقول لك كذا وكذا » قال : حتى أعطاهما - حسبت أنه قال : عشرة أمثاله أو قال قريباً من عشرة أمثاله ، أو كما قال (٢) . وهذه المصارف المذكورة في هذه الآية هي المصارف المذكورة في خمس الغنيمة .

وقوله تعالى : ﴿ كَيْ لَا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الْأَغْنِيَاءِ مِنْكُمْ ﴾ أي جعلنا هذه المصارف لمال الفتيء كيلا يبقى مأكلة يتغلب عليها الأغنياء ويتصرفون فيها بمحض الشهوات والآراء ، ولا يصرفون منه شيئاً إلى الفقراء . وقوله تعالى : ﴿ وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا ﴾ أي مهما أمركم به فافعلوه ومهما نهاكم عنه فاجتنبوه ، فإنه إنما يأمر بخير وإنما ينهى عن شر . عن عبد الله هو ابن مسعود قال : لعن الله الواشحات والمستوشحات والمتنصصات والمتفلجات للحسن ، المغيرات خلق الله ﷻ ، قال : فبلغ امرأة من بني أسد في البيت يقال لها : أم يعقوب ، فجاءت إليه فقالت : بلغني أنك قلت كيت وكيت ، قال : ما لي لا ألعن من لعن رسول الله ﷺ وفي كتاب الله تعالى ، فقالت إني لأقرأ ما بين لوحيه فما وجدته ، فقال : إن كنت قرأته فقد وجدته أما قرأت : ﴿ وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا ﴾ قالت : بلى . قال : فإن رسول الله ﷺ نهى عنه . قالت : إني لأظن أهلك

(١) أخرجه أحمد في مسنده (١٠/١) والبخاري في الاعتصام (٧٤٠٥) وأبو داود في السنن (٢٩٦٤) .

(٢) أخرجه أحمد في مسنده (٢١٩/٣) .

يفعلونه ، قال : اذهبي فانظري فذهبت فلم تر من حاجتها شيئاً ، فجاءت فقالت : ما رأيت شيئاً ، قال : لو كان كذا لما تجامعنا ^(١) . وعن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال : « إذا أمرتكم بأمر فأتوا منه ما استطعتم ، وما نهيتكم عنه فاجتنبوه » ^(٢) وعن عمر وابن عباس أنهما شهدا على رسول الله ﷺ أنه نهى عن الدباء والحتم والنقير والزفت ، ثم تلا رسول الله ﷺ ﴿ وَمَا أَمَّاكُمْ الرَّسُولُ فَحُذِرُوا وَمَا نَهَى عَنْهُ فَأَتُوهُ ﴾ وقوله تعالى : ﴿ وَأَتُوا اللَّهَ شِدِيدَ الْعِقَابِ ﴾ أي اتقوه في امتثال أوامره وترك زواجه فإنه شديد العقاب لمن عصاه وخالف أمره وأباه وارتكب ماعنه زجره ونهاه .

﴿ لِلْفَقْرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا وَيَنْصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ ﴾ ^(٣) وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِثُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَنْ يُوقِ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿ وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ ﴾ .

يقول تعالى مبيناً حال الفقراء المستحقين لمال الفيء أنهم ﴿ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا ﴾ أي خرجوا من ديارهم وخالفوا قومهم ابتغاء مرضاة الله ورضوانه ﴿ وَيَنْصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ ﴾ أي هؤلاء الذين صدقوا قولهم بفعلهم وهؤلاء هم سادات المهاجرين . ثم قال تعالى مادحاً للأَنْصار ومبيناً فضلهم وشرفهم وكرمهم ، وعدم حسدهم وإيثارهم مع الحاجة فقال تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ ﴾ أي سكنوا دار الهجرة من قبل المهاجرين وآمنوا قبل كثير منهم . قال عمر : وأوصي الخليفة بعدي بالمهاجرين الأولين أن يعرف لهم حقهم ويحفظ لهم كرامتهم ، وأوصيه بالأَنْصار خيراً الذين تبوءوا الدار والإيمان من قبل ، أن يقبل من محسنهم وأن يعفو عن مسيئهم ^(٤) .

قوله تعالى : ﴿ يُحِثُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ ﴾ أي من كرمهم وشرف أنفسهم يحبون المهاجرين ويواسونهم بأموالهم عن أنس قال : قال المهاجرون : يا رسول الله ما رأينا مثل قوم قدمنا عليهم أحسن مواساة في قليل ولا أحسن بذلاً في كثير ، لقد كفونا المؤنة ، وأشركونا في المنهأ حتى لقد خشينا أن يذهبوا بالأجر كله . قال : « لا ما أئتيتم عليهم ودعوتهم الله لهم » ^(٥) . وعن أنس بن مالك حين خرج معه إلى الوليد قال دعا النبي ﷺ الأَنْصار أن يقطع لهم البحرين . قالوا : لا إلا أن تقطع لإخواننا من المهاجرين مثله ، قال : « إما لا فاصبروا حتى تلقوني ؛ فإنه سيصيبكم أثره » ^(٦) .

﴿ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا ﴾ أي ولا يجدون في أنفسهم حسداً للمهاجرين فيما فضلهم الله به من المنزلة والشرف والتقديم في الذكر والرتبة . قال الحسن البصري : ﴿ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً ﴾ يعني الحسد ﴿ وَمِمَّا أُوتُوا ﴾ قال قتادة : يعني فيما أعطي لإخوانهم ومما يستدل به

(١) أخرجه البخاري في اللباس (٥٩٤٣) ومسلم في اللباس (١٢٠) وأحمد في مسنده (٤٣٣/١) .

(٢) أخرجه البخاري في الاعتصام (٧٢٨٨) ومسلم في الحج (٤١٢) وأحمد في مسنده (٥٠٨/٢) .

(٣) أخرجه البخاري في تفسير القرآن (٤٨٨٨) . (٤) أخرجه أحمد في مسنده (٢٠٠/٣) .

(٥) أخرجه البخاري في مناقب الأَنْصار (٣٧٩٤) .

على هذا المعنى ما رواه أنس قال : كنا جلوساً مع رسول الله ﷺ فقال : « يطلع عليكم الآن رجل من أهل الجنة » فطلع رجل من الأنصار تنطف لحيته من وضوئه قد علق نعليه بيده الشمال ، فلما كان الغد قال رسول الله ﷺ مثل ذلك ، فطلع ذلك الرجل مثل المرة الأولى ، فلما كان في اليوم الثالث قال رسول الله ﷺ مثل مقالته أيضاً ، فطلع ذلك الرجل على مثل حاله الأولى ، فلما قام رسول الله ﷺ تبعه عبد الله بن عمرو بن العاص فقال : إني لا حيث أبي فأقسمت أني لا أدخل عليه ثلاثاً ، فإن رأيت أن تؤويني إليك حتى تمضي فعلت قال « نعم » .

قال أنس : فكان عبد الله يحدث أنه بات معه تلك الليالي الثلاث فلم يره يقوم من الليل شيئاً غير أنه إذا تعار تقلب على فراشه ذكر الله وكبر حتى يقوم لصلاة الفجر ، قال عبد الله : غير أنني لم أسمعه يقول إلا خيراً ، فلما مضت الليالي الثلاث وكادت أن احتقر عمله ، قلت : يا عبد الله لم يكن بيني وبين أبي غضب ولا هجرة ، ولكن سمعت رسول الله ﷺ يقول لنا ثلاث مرات « يطلع عليكم الآن رجل من أهل الجنة » فطلعت أنت الثلاث المرات ، فأردت أن أوي إليك لأنظر ما عملك فأقتدي به ، فلم أرك تعمل كبير عمل ، فما الذي بلغ بك ما قال رسول الله ﷺ ؟ قال : ما هو إلا ما رأيت ، فلما وليت دعائي فقال : ما هو إلا ما رأيت غير أنني لا أجد في نفسي لأحد من المسلمين غشاً ولا أحسد أحداً على خير أعطاه الله إياه . قال عبد الله : فهذه التي بلغت بك وهي التي لا نطق ^(١) وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم في قوله تعالى : ﴿ وَلَا يَحْدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا ﴾ يعني مما أوتي المهاجرون ، قال : وتكلم في أموال بني النضير بعض من تكلم في الأنصار فعاتبهم الله في ذلك فقال تعالى : ﴿ وَمَا آتَاكَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْهُمْ فَمَا أَوْحَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خِبَلٍ وَلَا رِكَابٍ وَلَكِنَّ اللَّهَ يُسْطِطُ رُسُلَهُ عَلَى مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ قال : وقال رسول الله ﷺ : « إن إخوانكم قد تركوا الأموال والأولاد وخرجوا إليكم » فقالوا : أموالنا بيننا قطائع ، فقال رسول الله ﷺ : « أو غير ذلك ؟ » قالوا : وما ذاك يا رسول الله ؟ قال : « هم قوم لا يعرفون العمل فتكفونهم وتقاسمونهم الثمر » فقالوا : نعم يا رسول الله ^(٢) . وقوله تعالى : ﴿ وَيُؤْتُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ﴾ يعني حاجة أي يقدمون المحاويج على حاجة أنفسهم ويبدؤون بالناس قبلهم في حال احتياجهم إلى ذلك .

وقد ثبت في الصحيح عن رسول الله ﷺ أنه قال : « أفضل الصدقة جهد المقل » ^(٣) وهذا المقام أعلى من حال الذين وصف الله بقوله تعالى : ﴿ وَيُطِيعُونَ أَمْلَأَ عَلَى خَيْدٍ ﴾ ، وقوله ﴿ وَآتَى أَمْنًا عَلَى خَيْدٍ ﴾ فإن هؤلاء تصدقوا وهم يحبون ماتصدقوا به ، وقد لا يكون لهم حاجة إليه ولا ضرورة به ، وهؤلاء آثروا على أنفسهم مع خصاصتهم وحاجتهم إلى ما أنفقوه ، ومن هذا المقام تصدق الصديق ﷺ بجميع ماله ، فقال له رسول الله ﷺ : « ما أبقيت لأهلك ؟ » فقال ﷺ : أبقيت لهم الله ورسوله ^(٤) ، وهكذا الماء الذي عرض على عكرمة وأصحابه يوم اليرموك فكل منهم يأمر بدفعه إلى صاحبه ، وهو جريح مثقل أحوج ما يكون إلى الماء ، فردده الآخر إلى الثالث فما وصل إلى الثالث

(١) أخرجه أحمد في مسنده (١٦٦/٣) .

(٢) ذكره الطبري في تفسيره (٥٤/٢٨) .

(٣) ذكره الألباني في إرواء الغليل (٤١٤/٣) والصحيحة (٥٦٦) .

(٤) أخرجه الترمذي في السنن (٣٦٧٥) وأبو داود في السنن (١٦٧٨) والحاكم في المستدرک (٤١٤/١) .

حتى ماتوا عن آخرهم ولم يشربه أحد منهم ﷺ وأرضاهم .

وعن أبي هريرة قال : أتى رجل رسول الله ﷺ فقال : يا رسول الله أصابني الجهد ، فأرسل إلى نسائه فلم يجد عندهن شيئا ، فقال النبي ﷺ : « ألا رجل يضيف هذا الليلة ﷺ ؟ » فقام رجل من الأنصار فقال : أنا يا رسول الله ، فذهب إلى أهله فقال لامرأته : هذا ضيف رسول الله ﷺ لا تدخره شيئا ، فقالت : والله ما عندي إلا قوت الصبية . قال : فإذا أراد الصبية العشاء فنومهم ، وتعالى فأطفئ السراج ونطوي بطوننا الليلة ، ففعلت ، ثم غدا الرجل على رسول الله ﷺ فقال : « لقد عجب الله ﷻ - أو ضحك - من فلان وفلانة » وأنزل الله تعالى : ﴿ وَيُفْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ﴾ ^(١) وقوله تعالى : ﴿ وَمَنْ يُوقِ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ أي من سلم من الشح فقد أفلح وأنجح . فعن جابر بن عبد الله أن رسول الله ﷺ قال : « إياكم والظلم ؛ فإن الظلم ظلمات يوم القيامة ، واتقوا الشح ؛ فإن الشح أهلك من كان قبلكم ؛ حملهم على أن سفكوا دماءهم واستحلوا محارمهم » ^(٢) .

وعن أبي هريرة أنه سمع رسول الله ﷺ يقول : « لا يجتمع غبار في سبيل الله ودخان جهنم في جوف عبد أبدا ، ولا يجتمع الشح والإيمان في قلب عبد أبدا » ^(٣) وعن الأسود بن هلال قال : جاء رجل إلى عبد الله فقال : يا أبا عبد الرحمن إني أخاف أن أكون قد هلك ، فقال له عبد الله : وما ذاك ، قال : سمعت الله يقول ﴿ وَمَنْ يُوقِ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ وأنا رجل شحيح لا أكاد أن أخرج من يدي شيئا ، فقال عبد الله : ليس ذلك بالشح الذي ذكر الله في القرآن ، إنما الشح الذي ذكر الله في القرآن أن تأكل مال أخيك ظلما ، ولكن ذاك البخل ، وبس الشيء البخل . وعن أبي الهياج الأسدي قال : كنت أطوف بالبيت فرأيت رجلا يقول : اللهم قني شح نفسي . لا يزيد على ذلك ، فقلت له ، فقال : إني إذا وقيت شح نفسي لم أسرق ، ولم أزن ، ولم أفعل ، وإذا الرجل عبد الرحمن بن عوف ﷺ .

وقوله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًا لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ ﴾ هؤلاء هم القسم الثالث ممن يستحق فقراؤهم من مال الفئء وهم المهاجرون ثم الأنصار ثم التابعون لهم بإحسان فالتابعون لهم بإحسان هم المتبعون لأنارهم الحسنة وأوصافهم الجميلة الداعون لهم في السر والعلانية ، ولهذا قال تعالى : في هذه الآية الكريمة ﴿ وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ ﴾ أي قائلين ﴿ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًا ﴾ أي بغضا وحسدا ﴿ لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ ﴾ وما أحسن ما استنبط الإمام مالك رحمه الله من هذه الآية الكريمة أن الراضى الذي يسب الصحابة ليس له في مال الفئء نصيب ، لعدم اتصافه بما مدح الله به هؤلاء في قولهم ﴿ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ ﴾

(١) أخرجه البخاري في تفسير القرآن (٤٨٨٩) ومسلم في الأشربة (١٧٣) والحاكم في المستدرک (١٣٠/٤) .

(٢) أخرجه أحمد في مسنده (٣٢٣/٣) والحاكم في المستدرک (١١/١) والألباني في الصحيحة (٢٣٩/٢) .

(٣) أخرجه الترمذي في السنن (١٦٣٣) والنسائي في السنن (١٣/٦) وابن ماجه في السنن (٢٧٧٤) والحاكم في المستدرک (٧٢/٢) .

وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًا لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ ﴿١١﴾ .

وعن عائشة قالت : أمرتم بالاستغفار لأصحاب محمد ﷺ فسيبتموهم سمعت نبيكم ﷺ يقول : « لا تذهب هذه الأمة حتى يلعن آخرها أولها » ^(١) قال عمر ؓ : هذه لرسول الله ﷺ خاصة وقرى عرينة وكذا وكذا مما أفاء الله على رسوله من أهل القرى ، فله وللرسول ولذي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل - وللفقراء المهاجرين الذي أخرجوا من ديارهم وأموالهم - والذين تبوءوا الدار والإيمان من قبلهم - والذين جاءوا من بعدهم ، فاستوعبت هذه الآية الناس فلم يبق أحد من المسلمين إلا له فيها حق . إلا بعض من تملكون من أرقائكم ^(٢) . وعن مالك بن أوس بن الحدثان قال : قرأ عمر بن الخطاب ﴿ إِنَّمَا أَصَدَقْتُ لِلْفَقَرَةِ وَالْمَسْكِينِ - حَتَّى بَلَغَ - عَلَيْهِ حَكِيمٌ ﴾ ثم قال : هذه لهؤلاء ، ثم قرأ ﴿ وَأَعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ قَبْلِهِ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِلَّذِي الْفَرَقَ ﴾ الآية . ثم قال : هذه لهؤلاء ، ثم قرأ ﴿ مَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِلَّذِي الْفَرَقَ ﴾ - حتى بلغ ﴿ وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِ ﴾ - ﴿ وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَدْيِهِمْ ﴾ ثم قال : استوعبت هذه المسلمين عامة وليس أحد إلا وله فيها حق ، ثم قال : لئن عشت لياتين الراعي وهو بسرو حمير نصيبه فيها لم يعرق فيها جبينه ^(٣) .

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَّا أُنْزِلَتْ لَنُخْرِجَنَّكَ مِنْهُمْ وَلَا نَطِيعَ فِيكَ أَحَدًا أَبَدًا وَإِنْ قُوتِلْتُمْ لَنَنْصُرَنَّكَ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴾ ^(١) لَمَّا أُخْرِجُوا لَا يَجْرُونَ مَعَهُمْ وَلَكِنْ قُوتِلُوا لَا يَنْصُرُونَهُمْ وَلَكِنْ نَصْرُهُمْ لِيُؤْتِيَهُ الْأَذْبَرُ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ ^(٢) لَأَنْتَ أَشَدُّ رَهَبَةً فِي صُدُورِهِمْ مِنَ اللَّهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ ^(٣) لَا يَنْتَلُونَكُمْ جَمِيعًا إِلَّا فِي قُرَى مُحَصَّنَةٍ أَوْ مِنْ وَادٍ جَدْبٍ بِأَسْهُمٍ بَيْنَهُمْ سَدِيدٌ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّى ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْقِلُونَ ^(٤) كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ قَبْرًا ذَاتُوا أَمْوَالٍ وَلَكِنْ أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ فِيهِ آيَاتٌ لِلَّذِينَ يُهْتَدُونَ ^(٥) فَكَانَ عَقِبُنَّهَا آيَاتُنَا بِالنَّارِ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ ﴾ .

يخبر تعالى عن المنافقين كعبد الله بن أبي وأضرابه حين بعثوا إلى يهود بني النضير يعدونهم النصر من أنفسهم فقال تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَّا أُنْزِلَتْ لَنُخْرِجَنَّكَ مِنْهُمْ وَلَا نَطِيعَ فِيكَ أَحَدًا أَبَدًا وَإِنْ قُوتِلْتُمْ لَنَنْصُرَنَّكَ ﴾ قال الله تعالى : ﴿ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴾ أي لكاذبون فيما وعدوهم به إما لأنهم قالوا لهم قولا ومن نيتهم أن لا يفوا لهم به ، وإما لأنهم لا يقع منهم الذي قالوه ، ولهذا قال تعالى : ﴿ وَلَكِنْ قُوتِلُوا لَا يَنْصُرُونَهُمْ ﴾ أي لا يقاتلون معهم ﴿ وَلَكِنْ نَصْرُهُمْ ﴾ أي قاتلوا معهم ﴿ لِيُؤْتِيَهُ الْأَذْبَرُ ثُمَّ لَا يَنْصَرُونَ ﴾ وهذه بشارة مستقلة بنفسها ، ثم قال تعالى : ﴿ لَأَنْتَ أَشَدُّ رَهَبَةً فِي صُدُورِهِمْ مِنَ اللَّهِ ﴾ أي يخافون منكم أكثر من خوفهم من الله كقوله تعالى : ﴿ إِذَا رَأَوْا فَجَأَهُمْ يَخْشَوْنَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ اللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً ﴾ ولهذا

(١) أخرجه الطبراني في الصغير (٨٣/٢) وابن أبي شيبة في مصنفه (١٢٥/١٥) .

(٢) أخرجه النسائي في السنن (١٣٧/٧) .

(٣) أورده الطبراني في تفسيره (٤٨/٢٨) والسيوطي في الدر المنثور (١٠٢/٧) وعزه إلى عبد الرزاق وعبد بن حميد وأبو داود وابن المنذر وغيرهم .

قال تعالى ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ ﴾ ثم قال تعالى : ﴿ لَا يُغْنِي عَنْكُمْ جِيعَا إِلَّا فِي قُرَىٰ مُّحْصَنَةٍ أَوْ مِنْ وَرَاءِ جُدُرٍ ﴾ يعني أنهم من جنهم واهلهم لا يقدرّون على مواجهة جيش الإسلام بالمبارزة والمقابلة بل إما في حصون أو من وراء جدر محاصرين فيقاتلون للدفع عنهم ضرورة . ثم قال تعالى : ﴿ بِأَسْهُمٍ يَبْتَنَتُهُمْ شِدِيدٌ ﴾ أي : عداوتهم فيما بينهم شديدة ﴿ تَحْصِبُهُمْ جِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَقَّى ﴾ أي : تراهم مجتمعين فتحسبهم مؤتلفين وهم مختلفون غاية الاختلاف . قال إبراهيم النخعي : يعني أهل الكتاب والمنافقين ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْقِلُونَ ﴾ . ثم قال تعالى : ﴿ كَمَثَلِ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ قَرِيبًا ذَاقُوا وَبَالَ أَمْرِهِمْ وَلَمْ يَعْلَمِ عَذَابُ أَلِيمٍ ﴾ قيل : كمثل ما أصاب كفار قريش يوم بدر .

وقال ابن عباس : كمثل الذين من قبلهم يعني يهود بني قينقاع . وهذا القول أشبه بالصواب فإن يهود بني قينقاع كان رسول الله ﷺ قد أجلّاهم قبل هذا . وقوله تعالى : ﴿ كَمَثَلِ الشَّيْطَانِ إِذْ قَالَ لِلْإِنْسَانِ اكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنْ بَرِيءٌ مِنْكَ ﴾ يعني مثل هؤلاء اليهود في اغترارهم بالذين وعدوهم النصر من المنافقين وقول المنافقين لهم : لئن قوتلتم لننصرنكم ، ثم لما حقت الحقائق وجدّ بهم الحصار والقتال تخلّوا عنهم وأسلموهم للهلكة ، مثالهم في هذا كمثل الشيطان إذ سؤل للإنسان - والعياذ بالله - الكفر فإذا دخل فيما سوله له تبرأ منه وتنصل وقال : ﴿ إِنْ أَنْأْتُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ ﴾ . وقد ذكر بعضهم هنا قصة لبعض عبّاد بني إسرائيل هي كالمثال لهذا المثل لا أنها المرادة وحدها بالمثل بل هي منه مع غيرها من الوقائع المشاكلة لها ، عن عبد الله بن مسعود في هذه الآية ﴿ كَمَثَلِ الشَّيْطَانِ إِذْ قَالَ لِلْإِنْسَانِ اكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنْ بَرِيءٌ مِنْكَ ﴾ إِنْ أَنْأْتُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ ﴿ كانت امرأة ترعى الغنم وكان لها أربعة إخوة وكانت تأوي بالليل إلى صومعة راهب قال : فترى الراهب ففجر بها فحملت فأتاه الشيطان فقال له : اقتلها ثم ادفنها فإنك رجل مصدّق يسمع قولك ، فقتلها ثم دفنها . قال : فأتى الشيطان إخوانها في المنام فقال لهم : إن الراهب صاحب الصومعة فجر بأختكم فلما أحبلها قتلها ثم دفنها في مكان كذا وكذا فلما أصبحوا قال رجل منهم : والله لقد رأيت البارحة رؤيا ما أدري أقصها عليكم أم أترك ؟ قالوا : لا بل قصها علينا قال : فقصها ، فقال الآخر : وأنا والله لقد رأيت ذلك ، فقال الآخر : وأنا والله قد رأيت ذلك ؛ قالوا : فوالله ما هذا إلا لشيء ، قال : فانطلقوا فاستعدوا ملكهم على ذلك الراهب ، فأتوه فأنزلوه ثم انطلقوا به ، فلقبه الشيطان فقال : إني أنا الذي أوقعتك في هذا ولن ينجيك منه غيري فاسجد لي واحدة وأنجيئك مما أوقعتك فيه ، قال فسجد له ، فلما أتوا به ملكهم تبرأ منهم وأخذ فقتل ^(١) . وقوله تعالى : ﴿ فَكَانَ عَنِيَّتَهُمَا أَنْتَهُمَا فِي النَّارِ خَالِدَيْنِ فِيهَا ﴾ أي فكان عاقبة الأمر بالكفر والفاعل له ومصيرهما إلى نار جهنم خالدين فيها ﴿ وَذَٰلِكَ جَزَاؤُ الظَّالِمِينَ ﴾ أي جزاء كل ظالم .

﴿ يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اللَّهَ وَتَنْتَظِرُ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنْسَاهُمْ أَنْفُسَهُمْ أُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿ لَا يَسْتَوِي أَحَبُّ النَّارِ وَأَحَبُّ الْجَنَّةِ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمُ الْفَائِزُونَ ﴾ .

(١) أوردته الطبري في تفسيره (٦٤/٢٨) والسيوطي في الدر المنثور (١١٣/٧) وعزاه لابن أبي حاتم .

عن المنذر بن جرير عن أبيه قال : كنا عند رسول الله ﷺ في صدر النهار قال : « فجاءه قوم حفاة عراة مجتاعي النمار أو العباء متقلدي السيوف عامتهم من مضر بل كلهم من مضر ، فتغير وجه رسول الله ﷺ لما رأى بهم من الفاقة قال : فدخل ثم خرج فأمر بلالاً فأذن وأقام الصلاة فصلى ثم خطب فقال : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَجَعَلَ لَكُمُ الدِّينَ ۖ وَإِلَىٰ أَخِرِ الْآيَةِ وَقُرْ آيَةَ الَّتِي فِي الْحَشْرِ ﴾ وَلَتَنْظُرُنَّ نَفْسًا مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ ﴿ تَصَدَّقَ رَجُلٌ مِنْ دِينَارِهِ مِنْ دِرْهِمِهِ مِنْ تَوْبِهِ مِنْ صَاعٍ بُرِّهِ مِنْ صَاعٍ تَمْرِهِ ﴾ حتى قال : « وَلَوْ بِشِقِّ تَمْرَةٍ ﴾ قال : فجاء رجل من الأنصار بصرة كادت كفه تعجز عنها بل قد عجزت ، ثم تتابع الناس حتى رأيت كومين من طعام وثياب حتى رأيت رسول الله ﷺ يتהל وجهه كأنه مذهبة ، فقال رسول الله ﷺ : « مَنْ سَنَّ فِي الْإِسْلَامِ شُنَّةً حَسَنَةً ؛ فَلَهُ أَجْرُهَا وَأَجْرُ مَنْ عَمِلَ بِهَا بَعْدَهُ مِنْ غَيْرِ أَنْ يَنْقُصَ مِنْ أَجُورِهِمْ شَيْءٌ ، وَمَنْ سَنَّ فِي الْإِسْلَامِ شُنَّةً سَيِّئَةً كَانَ عَلَيْهِ وِزْرُهَا وَوِزْرُ مَنْ عَمِلَ بِهَا مِنْ غَيْرِ أَنْ يَنْقُصَ مِنْ أَوزَارِهِمْ شَيْءٌ » ^(١) . وقوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ ﴾ أمر بتقواه وهو يشمل فعل ما به أمر وترك ما عنه زجر .

وقوله تعالى : ﴿ وَلَتَنْظُرُنَّ نَفْسًا مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ ﴾ أي حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا ، وانظروا ماذا ادخرتم لأنفسكم من الأعمال الصالحة ليوم معادكم وعرضكم على ربكم ﴿ وَاتَّقُوا اللَّهَ ﴾ تأكيد ثان ﴿ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ أي اعلموا أنه عالم بجميع أعمالكم وأحوالكم لا تخفى عليه منكم خافية ولا يغيب عنه من أموركم جليل ولا حقير . وقوله تعالى : ﴿ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنْسَاهُمْ أَنْفُسَهُمْ ﴾ أي لا تنسوا ذكر الله تعالى فينسيكم العمل لمصالح أنفسكم التي تنفعكم في معادكم فإن الجزء من جنس العمل ولهذا قال تعالى : ﴿ أُولَٰئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ ﴾ أي الخارجون عن طاعة الله الهالكون يوم القيامة الخاسرون يوم معادهم . عن نعيم بن نمحة قال : كان في خطبة أبي بكر الصديق ؓ : أما تعلمون أنكم تغدون وتروحون لأجل معلوم ؟ فمن استطاع أن يقضي الأجل وهو في عمل الله ﷻ فليفعل ، ولن تنالوا ذلك إلا بالله ﷻ ، إن قومًا جعلوا آجالهم لغيرهم فنهاكم الله ﷻ أن تكونوا أمثالهم ﴿ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنْسَاهُمْ أَنْفُسَهُمْ ﴾ أين من تعرفون من إخوانكم ؟ قدموا على ما قدموا في أيام سلفهم وخلوا بالشقوة والسعادة ، أين الجبارون الأولون الذين بنوا المدائن وحصنوها بالحوائط ؟ قد صاروا تحت الصخر والآبار ، هذا كتاب الله لا تفنى عجائبه فاستضيئوا منه ليوم ظلمة ، واستضيئوا بسنائه وبيانه ، إن الله تعالى أثنى على زكريا وأهل بيته فقال تعالى : ﴿ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَوَهَبْنَا لَهُ يَحْيَىٰ وَآمَنَّا بِهِ لَمَّا نَبَّأَتْهُ كَانُوا بِسُورَتِهِ فِي الْخَيْبَةِ وَيَعْبُورُونَ رَعْبًا وَهَبْنَا وَكَانُوا لَنَا خٰشِعِينَ ﴾ لا خير في قول لا يراد به وجه الله ، ولا خير في مال لا ينفق في سبيل الله ، ولا خير فيمن يغلب جهله حلمه ، ولا خير فيمن يخاف في الله لومة لائم ^(٢) . وقوله تعالى : ﴿ لَا يَسْتَوِي أَحَبُّ النَّارِ وَأَحَبُّ الْجَنَّةِ ﴾ أي : لا يستوى هؤلاء وهؤلاء في حكم الله تعالى يوم القيامة كما قال تعالى : ﴿ أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٤٣٢/٤) ومسلم في الزكاة (٦٩) والطبراني في الكبير (٣٧٤/٢) .

(٢) أخرجه الطبراني في الكبير (٦٠/١) .

تَحِيَّهَتُمْ وَمَمَاتِهِمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿١٨﴾ وهناك آيات أخر دالات على أن الله تعالى يكرم الأبرار ويهين الفجار ولهذا قال تعالى ههنا : ﴿ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ الْفَائِزُونَ ﴾ أي الناجون المسلمون من عذاب الله ﷻ .
 ﴿ لَوْ أَنزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَّرَأَيْنَاَهُ خَشِيْعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَتِلْكَ الْأَمْثَلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ ﴿١٩﴾ هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ الْغَيْبُ وَالشَّهَادَةُ هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ ﴿٢٠﴾ هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلَامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيَّمِنُ الْعَزِيزُ الْحَبَارُ الْمُتَكَبِّرُ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٢١﴾ هُوَ اللَّهُ الْخَلِيقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٢٢﴾ .

يقول تعالى معظمًا لأمر القرآن ومبيّنًا علو قدره وأنه ينبغي أن تخشع له القلوب وتتصدع عند سماعه لما فيه من الوعد الحق والوعيد الأكيد : ﴿ لَوْ أَنزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَّرَأَيْنَاَهُ خَشِيْعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ اللَّهِ ﴾ . أي : فإذا كان الجبل في غلظته وقساوته لو فهم هذا القرآن فتدبر ما فيه فيه لخشع وتتصدع من خوف الله ﷻ ، فكيف يليق بكم يا أيها البشر أن لا تلين قلوبكم وتخشع وتتصدع من خشية الله وقد فهمتم عن الله أمره وتدبرتم كتابه ، ولهذا قال تعالى : ﴿ وَتِلْكَ الْأَمْثَلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ عن ابن عباس في قوله تعالى : ﴿ لَوْ أَنزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَّرَأَيْنَاَهُ خَشِيْعًا مُّتَصَدِّعًا ﴾ إلى آخرها يقول : لو أني أنزلت هذا القرآن على جبل حملته إياه لتصدع وخشع من ثقله ومن خشية الله فأمر الله الناس إذا نزل عليهم القرآن أن يأخذوه بالخشية الشديدة والتخشع . ثم قال تعالى : ﴿ وَتِلْكَ الْأَمْثَلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ وثبت في الحديث المتواتر أن رسول الله ﷺ لما عمل له المنبر ، وقد كان يوم الخطبة يقف إلى جانب جذع من جذوع المسجد ، فلما وضع المنبر أول ما وضع وجاء النبي ﷺ ليخطب فجاوز الجذع إلى نحو المنبر ، فعند ذلك حنَّ الجذع وجعل يئن كما يئن الصبي الذي يسكن لما كان يسمع من الذكر والوحي عنده . ففي بعض روايات هذا الحديث قال الحسن البصري بعد إيرادِه : فأنتم أحق أن تشناقوا إلى رسول الله ﷺ من الجذع .

وهكذا هذه الآية الكريمة : إذا كانت الجبال الصم لو سمعت كلام الله وفهمته لخشعت وتتصدعت من خشيته فكيف بكم وقد سمعتم وفهمتم ؟ ثم قال تعالى : ﴿ هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ الْغَيْبُ وَالشَّهَادَةُ هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ ﴾ أخبر تعالى أنه الذي لا إله إلا هو فلا رب غيره ولا إله للوجود سواه ، وكل ما يعبد من دونه فباطل ، وأنه عالم الغيب والشهادة أي يعلم جميع الكائنات المشاهدات لنا والغائبات عنا ، فلا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء من جليل وحقيق وصغير وكبير حتى الذر في الظلمات . وقوله تعالى : ﴿ هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ ﴾ المراد أنه ذو الرحمة الواسعة الشاملة لجميع المخلوقات فهو رحمن الدنيا والآخرة ورحيمهما وقد قال تعالى : ﴿ وَرَحِمَتِي وَسِعَتْ كُلُّ شَيْءٍ ﴾ . ثم قال تعالى : ﴿ هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْمَلِكُ ﴾ أي المالك لجميع الأشياء المتصرف فيها بلا ممانعة ولا مدافعة . وقوله تعالى : ﴿ الْقُدُّوسُ ﴾ : أي الطاهر ، وقيل : تقدّسه الملائكة الكرام ﴿ السَّلَامُ ﴾ أي من جميع العيوب والنقائص لكماله في ذاته وصفاته وأفعاله . وقوله تعالى : ﴿ الْمُؤْمِنُ ﴾ أي : آمن خلقه من أن يظلمهم . وقيل : آمن بقوله إنه حق . وقيل : صدق عباده المؤمنين في إيمانهم به . وقوله تعالى : ﴿ الْمُهِيمِنُ ﴾ أي الشاهد على خلقه بأعمالهم ،

بمعنى هو رقيب عليهم . وقوله تعالى : ﴿ أَلَمْزِيرٌ ﴾ أي الذي قد عز كل شيء فقهره وغلب الأشياء فلا ينال جنباه لعزته وعظمته وجبروته وكبريائه ولهذا قال تعالى : ﴿ أَلْجَبَّارُ الْمُنَكَّرُ ﴾ أي : الذي لا تليق الجبرية إلا له ولا التكبر إلا لعظمته كما تقدم في الصحيح : « الْعَظَمَةُ إِزَارِي وَالْكَبَرِيَاءُ رِدَائِي ، فَمَنْ نَازَعَنِي وَاحِدًا مِنْهُمَا عَذْبُهُ » ^(١) . وقال قتادة : الجبار الذي جبر خلقه على ما يشاء . وقال ابن جرير : ﴿ أَلْجَبَّارُ ﴾ المصلح أمور خلقه ، والمتصرف فيهم بما فيه صلاحهم . وقال قتادة : ﴿ الْمُنَكَّرُ ﴾ يعني عن كل سوء . ثم قال تعالى : ﴿ سُبْحَنَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ وقوله تعالى : ﴿ هُوَ اللَّهُ الْخَلِيقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ ﴾ الخالق : القدير والبرء هو : الفري وهو التنفيذ وإبراز ما قدره وقدره إلى الوجود وليس كل من قدر شيئاً وربته على تنفيذه وإيجاده سوى الله ﷻ .

وقوله تعالى : ﴿ أَلْخَلِيقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ ﴾ أي الذي إذا أراد شيئاً قال له : كن فيكون على الصفة التي يريد والصورة التي يختار ، ولهذا قال : ﴿ أَلْمُصَوِّرُ ﴾ أي الذي ينفذ ما يريد إيجاده على الصفة التي يريدتها وقوله تعالى : ﴿ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى ﴾ عن أبي هريرة عن رسول الله ﷺ : « إِنَّ لِلَّهِ تَعَالَى تِسْعَةً وَتِسْعِينَ مِائَةً اسْمًا إِلَّا وَاحِدًا مِنْ أَحْصَاهَا دَخَلَ الْجَنَّةَ ، وَهُوَ وَثَرٌ يُحِبُّ الْوَثَرَ » ^(٢) .

وقوله تعالى : ﴿ يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ كقوله تعالى : ﴿ تَسْبِيحٌ لَهُ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا عَلِيمًا غَفُورًا ﴾ وقوله تعالى : ﴿ وَهُوَ أَلْعَزِيزُ ﴾ أي فلا يرام جنباه ﴿ أَلْعَزِيزُ ﴾ في شرعه وقدره . عن معقل بن يسار عن النبي ﷺ قال : « مَنْ قَالَ حِينَ يُضَبِّحُ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ : أَعُوذُ بِاللَّهِ السَّمِيعِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ ، ثُمَّ قرأ ثلاث آيات من آخر سورة الحشر ؛ وَكَلَّ اللَّهُ بِهِ سَبْعِينَ أَلْفَ مَلَكٍ يُصَلُّونَ عَلَيْهِ حَتَّى يُنْسِيَ ، وَإِنْ مَاتَ فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ مَاتَ شَهِيدًا ، وَمَنْ قَالَهَا حِينَ يُنْسِي كَانَ بِتِلْكَ الْمَنْزِلَةِ » ^(٣) .

(١) أخرجه أبو داود في اللباس (٤٠٩٠) وابن ماجه في الزهد (٤١٧٤) وأحمد في مسنده (٣٧٦/٢) .

(٢) أخرجه البخاري في التوحيد (٧٣٩٢) ومسلم في الذكر والدعاء (٦) والترمذي في السنن (٣٥٠٦) وأحمد في مسنده (٢٥٨/٢) والحاكم في المستدرک (١٦/١) .

(٣) أخرجه أحمد في مسنده (٢٦/٥) والترمذي في السنن (٢٩٢٢) والمنذري في الترغيب والترهيب (٤٧٧/١) .

سورة الممتحنة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ لِّئَلَّا يَقُولُوا لِإِيَّاهُمْ بِالْمُؤَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءَكُمْ مِنَ الْحَقِّ يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ وَإِيَّكُمْ أَنْ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ رَبِّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَادًا فِي سَبِيلِي وَآيَاتِهِ مَرْضًا قُتِلْتُمْ إِيَّاهُمْ بِالْمُؤَدَّةِ وَأَنَا أَغَمُّ بِمَا آفَغْتُم مِمَّا أَعْلَنْتُمْ وَمَنْ يَقَعْلَهُ مِنْكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ ۝ إِنْ يَتَّقَوْكُمْ يَكُونُوا لَكُمْ أَعْدَاءً وَيَسْطَرُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَأَلْسِنَتُهُمْ بِالسُّوءِ وَوَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ ۝ لَنْ تَنْفَعَكُمْ أَرْحَامُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ يَقُولُ بَيْنَكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ۝﴾ .

كان سبب نزول من هذه السورة الكريمة قصة حاطب بن أبي بلتعة فعن عبيد الله بن أبي رافع أنه سمع علياً عليه السلام يقول : بعثني رسول الله ﷺ أنا والزبير والمقداد فقال : « انطَلِقُوا حَتَّى تَأْتُوا رَوْضَةَ خَاخ فَإِنَّ بِهَا ظَعِينَةً مَعَهَا كِتَابٌ فَخُذُوهُ مِنْهَا » ، فانطلقنا تعادى بنا خيلنا حتى أتينا الروضة فإذا نحن بالظعينة ، قلنا : أخرجني الكتاب ، قالت : ما معي كتاب ، قلنا : لتخرجن الكتاب أو لتلقين الثياب ، قال : فأخرجت الكتاب من عقاصها ، فأخذنا الكتاب فأتينا به رسول الله ﷺ ، فإذا فيه من حاطب بن أبي بلتعة إلى أناس من المشركين بمكة يخبرهم ببعض أمر رسول الله ﷺ . فقال رسول الله ﷺ : « يَا حَاطِبُ مَا هَذَا ؟ » . قال : لا تعجل عليّ إني كنت امرأ ملصقاً في قريش ولم أكن من أنفسهم . وكان من معك من المهاجرين لهم قرابات يحمون أهلهم بمكة ، فأحببت إذ فاتني ذلك من النسب فيهم أن أتخذ فيهم يداً يحمون بها قرابتي ، وما فعلت ذلك كفرة ولا ارتداداً عن ديني ولا رضا بالكفر بعد الإسلام . فقال رسول الله ﷺ : « إِنَّهُ صَدَقَكُمْ » . فقال عمر : دعني أضرب عنق هذا المنافق ، فقال رسول الله ﷺ : « إِنَّهُ قَدْ شَهِدَ بَذْرًا ، وَمَا يُذْرِيكَ لَعَلَّ اللَّهَ أَطَّلَعَ إِلَى أَهْلِ بَذْرِ فَقَالَ : اْعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ فَقَدْ غَفَرْتُ لَكُمْ » ^(١) . فأنزل الله السورة ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ ۝﴾ .

وقد ذكر ذلك أصحاب المغازي والسير فقال محمد بن إسحاق بن يسار فيما يرويه عن عروة بن الزبير وغيره من علمائنا قال : لما أجمع رسول الله ﷺ المسير إلى مكة كتب حاطب بن أبي بلتعة كتاباً إلى قريش يخبرهم بالذي أجمع عليه رسول الله ﷺ من الأمر في السير إليهم ثم أعطاه امرأة ، زعم محمد بن جعفر أنها من مزينة ، وزعم غيره أنها سارة مولاة لبني عبد المطلب ، وجعل لها جعلاً على أن تبلغه لقريش فجعلة في رأسها ثم قتلت عليه قرونها ثم خرجت به ، وأتى رسول الله ﷺ الخبر من السماء بما صنع حاطب ، فبعث علي بن أبي طالب والزبير ابن العوام فقال : « أَدْرِكَا امْرَأَةً قَدْ كَتَبَتْ مَعَهَا حَاطِبٌ كِتَابًا إِلَى قُرَيْشٍ يُحَذِّرُهُمْ مَا قَدْ أَجْمَعْنَا لَهُمْ مِنْ أَمْرِهِمْ » فخرجا حتى أدركاها بالحليفة حليفة بني أبي أحمد فاستنزلاها بالحليفة فالتمسا في رحلها فلم يجدا شيئاً ، فقال لها علي بن أبي طالب : إني أحلف بالله ما كذب رسول الله ﷺ وما كذبتنا ولتخرجن لنا هذا الكتاب أو لنكشفنك ، فلما رأت الجمد منه قالت : أعرض ، فأعرض فحلت قرون رأسها فاستخرجت الكتاب منها فدفعته إليه فأتى

(١) أخرجه البخاري في تفسير القرآن (٤٨٩٠) ومسلم في الفضائل (١٦١) وأحمد في مسنده (٧٩/١) والترمذي في السنن (٣٣٠٥) وروضة خاخ : موضع بين الحرمين بقرب صحراء الأسد من المدينة (انظر معجم البلدان) والمقاص : خيط تشد به المرأة أطراف ذواتها .

به رسول الله ﷺ فدعا رسول الله ﷺ حاطبًا فقال : « يَا حَاطِبُ مَا حَمَلَكَ عَلَى هَذَا ؟ » . فقال : يا رسول الله أما والله إني لمؤمن بالله وبرسوله ما غيرت ولا بدلت ولكني كنت امرأ ليس لي في القوم من أهل ولا عشيرة ، وكان لي بين أظهرهم ولد وأهل فصانعتهم عليهم ، فقال عمر بن الخطاب : يا رسول الله دعني فلاضرب عنقه فإن الرجل قد نافق . فقال رسول الله ﷺ : « وَمَا يُذْرِيكَ يَا عُمَرُ ؟ ! لَعَلَّ اللَّهَ قَدْ أَطْلَعَ إِلَى أَصْحَابِ بَذْرِ يَوْمٍ بَذَرِ فَقَالَ : اْعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ فَقَدْ غَفَرْتُ لَكُمْ » . فأنزل الله ﷻ في حاطب ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّبِعُوا عَدُوَّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ .. ﴾ إلى قوله : ﴿ قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءُؤُا مِنْكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحَدُّهُ ﴾ إلى آخر القصة (١) .

وعن حذيفة يقول : ضرب لنا رسول الله ﷺ أمثالا واحداً وثلاثة وخمسة وسبعة وتسعة وأحد عشر قال : فضرب لنا منها مثلاً وترك سائرهما قال : « إِنَّ قَوْمًا كَانُوا أَهْلَ ضَعْفٍ وَتَشَكُّبَةٍ فَأَتَلَهُمْ أَهْلُ تَجْبِيرٍ وَعِدَاءٍ ، فَأَظْهَرَ اللَّهُ أَهْلَ الضَّعْفِ عَلَيْهِمْ ، فَعَمَدُوا إِلَى عَدُوِّهِمْ فَاسْتَعْمَلُوهُمْ وَسَلَطُوهُمْ فَأَسْخَطُوا اللَّهَ عَلَيْهِمْ إِلَى يَوْمٍ يَلْقَوْنَهُ » (٢) . وقوله تعالى : ﴿ يُخْرِجُونَ الرُّسُولَ وَإِيَّاكُمْ ﴾ هذا مع ما قبله من التهيج على عداوتهم وعدم موالاتهم ؛ لأنهم أخرجوا الرسول وأصحابه من بين أظهرهم كراهة لما هم عليه من التوحيد وإخلاص العباداة لله وحده . ولهذا قال تعالى : ﴿ أَنْ تُوْمِنُوا بِاللَّهِ رِيبَكُمْ ﴾ أي : لم يكن لكم عندهم ذنب إلا إيمانكم بالله رب العالمين . وقوله تعالى : ﴿ إِنْ كُنْتُمْ حَرَجْتُمْ جِهَدًا فِي سَبِيلِي وَابْتِغَاءَ مَرْضَاتِي ﴾ أي : إن كنتم كذلك فلا تتخذوهم أولياء إن كنتم خرجتم مجاهدين في سبيلي باغين لمرضاتي عنكم فلا توالوا أعدائي وأعداءكم وقد أخرجوكم من دياركم وأموالكم حقاً عليكم وسخطاً لدينكم . وقوله تعالى : ﴿ تُشِيرُونَ إِلَيْهِمْ بِالْمَوَدَّةِ وَأَنَا أَغْلَى بِمَا أَحْبَبْتُمْ وَمَا أَعْلَنْتُمْ ﴾ أي : تفعلون ذلك وأنا العالم بالسرائر والضمائر والظواهر . ﴿ وَمَنْ يَعْمَلْ يَتَّكِلْ عَلَى نَفْسِهِ فَقَدْ سَلَ سَوَاءَ السَّبِيلِ ﴾ (٣) إن يتفقوكم يكونوا لكم أعداءً ويتسلطوا عَلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَأَلْسِنَتُهُمْ بِالْأَسْرِ ﴾ أي : لو قدروا عليكم لما اتقوا فيكم من أذى ينالونكم به بالمقال والفعال ﴿ وَوَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ ﴾ أي : ويحرصون على أن لا تنالوا خيراً فهم عداوتهم لكم كامنة وظاهرة ، فكيف توالون مثل هؤلاء ؟ وهذا تهيج على عداوتهم أيضاً . وقوله تعالى : ﴿ لَنْ تَنفَعَكُمْ أَرْحَامُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَقُولُ بَيْنَكُمْ وَاللَّهِ يَمَّا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ أي : قراباتكم لا تنفعكم عند الله إذا أراد الله بكم سوءاً ونفعهم لا يصل إليكم إذا ارضيتموهم بما يسخط الله ، ومن وافق أهله على الكفر ليرضيهم فقد خاب وخسر وضل عمله ولا ينفعه عند الله قرابته من أحد ولو كان قريباً إلى نبي من الأنبياء . عن أنس أن رجلاً قال : يا رسول الله أين أبي ؟ قال : « فِي النَّارِ » . فلما قُتِيَ دعاه فقال : « إِنَّ أَبِي وَأَبَاكَ فِي النَّارِ » (٤) . ﴿ قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءُؤُا مِنْكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحَدُّهُ ﴾ (٥) لَأَيُّو لَأَسْتَفِرَّنَّ لَكَ وَمَا أَمْلِكُ لَكَ مِنْ

(١) السيرة النبوية لابن هشام (٤٠/٤ - ٤١) .

(٢) أخرجه أحمد في مسنده (٤٠٧/٥) .

(٣) أخرجه مسلم في الإيمان (٣٤٧) وأحمد في مسنده (١٧٧/٣) وابن ماجه في السنن (١٥٧٣) والبيهقي في السنن (١٩٠/٧) .

اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ رَبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ ﴿١﴾ رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا وَاعْزِرْنَا رَبَّنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٢﴾ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَن كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ ﴿٣﴾ .

يقول تعالى لعباده المؤمنين الذين أمرهم بمصارمة الكافرين وعداوتهم ومجانبتهم والتبري منهم ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ﴾ أي : وأتباعه الذين آمنوا معه ﴿إِذْ قَالُوا لِنَبِيِّهِمْ إِنَّا بِهِمْ مُّؤْمِنُونَ﴾ أي تبرأنا منكم ﴿وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ كُفْرًا يَكُرُّ﴾ أي بدينكم وطريقكم ﴿وَبَدَأَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا﴾ يعني وقد شرعت العداوة والبغضاء من الآن بيننا وبينكم ما دمتم على كفركم ، فنحن أبدا نتبرأ منكم وبغضكم ﴿حَتَّى تَوَفِّيَهُ بَأَلَاءُ اللَّهِ حَتَّى تَدَّعُوهُ﴾ أي : إلى أن توحيدوا الله فتعبدوه وحده لا شريك له تخلعوا ما تعبدون معه من الأوثان والأنداد . وقوله تعالى : ﴿إِلَّا قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ﴾ أي : لكم في إبراهيم وقومه أسوة حسنة تتأسون بها إلا في استغفار إبراهيم لأبيه ؛ فإنه إنما كان عن موعدة وعدها إياه فلما تبين له أنه عدو لله تبرأ منه ، وذلك أن بعض المؤمنين كانوا يدعون لآبائهم الذين ماتوا على الشرك ويستغفرون لهم ويقولون : إن إبراهيم كان يستغفر لأبيه فأُنزل الله ﴿لَكَ﴾ : ﴿مَا كَانَتْ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَن يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولَىٰ قُرْبَىٰ مِن بَعْدِ مَا بُيِّنَ لَهُمُ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ﴾ وما كان استغفار إبراهيم لأبيه إلا عن موعدة وعدها إياه فلما تبين له أنه عدو لله تبرأ منه ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ﴾ . وقال تعالى في هذه الآية الكريمة : ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِنَبِيِّهِمْ إِنَّا بِهِمْ مُّؤْمِنُونَ﴾ إلى قوله تعالى : ﴿إِلَّا قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَا أَمْلِكُ لَكَ مِنَ اللَّهِ مِن شَيْءٍ﴾ أي ليس لكم في ذلك أسوة أي في الاستغفار للمشركين .

ثم قال تعالى مخبرا عن قول إبراهيم والذين معه حين فارقوا قومهم وتبرأوا منهم ، فلجأوا إلى الله وتضرعوا إليه : فقالوا ﴿رَبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ﴾ أي : توكلنا عليك في جميع الأمور وسلمنا أمورنا إليك وفوضناها إليك ﴿وَالَيْكَ الْمَصِيرُ﴾ أي المعاد في الدار الآخرة ﴿رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا﴾ قال مجاهد : معناه لا تعذبنا بأيديهم ولا بعذاب من عندك فيقولوا لو كان هؤلاء على حق ما أصابهم هذا ، وقال قتادة : لا تظهرهم علينا فيفتنوا بذلك ؛ يرون أنهم إنما ظهروا علينا لحقهم عليه . واختاره ابن جرير ، وقال ابن عباس : لا تسلطهم علينا فيفتنونا . وقوله تعالى : ﴿وَأَعِزَّنَا رَبَّنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ أي : واستر ذنوبنا عن غيرك واعف عنها فيما بيننا وبينك ﴿إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ﴾ أي الذي لا يضام من لاذ بجنايبك ﴿الْحَكِيمُ﴾ في أقوالك وأفعالك وشرعك وقدرك . ثم قال تعالى : ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَن كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ﴾ وهذا تأكيد لما تقدم ومستثنى منه ما تقدم أيضا ؛ لأن هذه الأسوة المثبتة ههنا هي الأولى بعينها ، وقوله تعالى : ﴿لِمَن كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ﴾ تهيج إلى ذلك لكل مؤمن بالله والمعاد . وقوله تعالى ﴿وَمَن يَتَوَلَّ﴾ أي : عما أمر الله به ﴿فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾ عن ابن عباس : ﴿الغنى﴾ الذي قد كمل في غناه وهو الله هذه صفة لا تنبغي إلا له ، ليس له كفؤ وليس كمثل شيء ، سبحانه الله الواحد القهار ، و ﴿الحميد﴾ المستحمد إلى خلقه أي هو المحمود في جميع أقواله وأفعاله لا إله غيره ولا رب سواه .

﴿عَسَى اللَّهُ أَن يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ الَّذِينَ عَادَيْتُم مِّنْهُم مَّوَدَّةً وَاللَّهُ قَدِيرٌ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ لا يَهْتَكُرُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ

لَمْ يُغْنِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِينِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ﴿١﴾ إِنَّمَا يَنْهَكُمُ اللَّهُ عَنِ الدِّينِ قَتْلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَالْخُرُوجُ مِنْ دِينِكُمْ وَظَهَرُوا عَلَيْكُمْ إِخْرَاجَكُمْ أَنْ تَوَلَّوهُمْ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاقِلُونَ ﴿٢﴾ .

يقول تعالى لعباده المؤمنين بعد أن أمرهم بعداوة الكافرين : ﴿ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ الَّذِينَ عَادَيْتُمْ مِنْهُمْ مَوَدَّةً ﴾ أي محبة بعد البغضة ومودة بعد النفرة وألفة بعد الفرقة ﴿ وَاللَّهُ ذَوِيٌّ ﴾ أي على ما يشاء من الجمع بين الأشياء المتنافرة والمتباينة والمختلفة ، فيؤلف بين القلوب بعد العداوة والقساوة فتصبح مجتمعة متفقة ، كما قال تعالى ممثلاً على الأنصار : ﴿ وَادْكُرُوا اللَّهَ عَلَيْهِمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنْتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا ﴾ الآية . وكذا قال لهم النبي ﷺ : « أَلَمْ أَجِدْكُمْ ضَلَالًا فَهَدَّاكُمْ اللَّهُ بِي وَكُنْتُمْ مُتَفَرِّقِينَ فَأَلَّفَكُمُ اللَّهُ بِي ؟ » ^(١) . وفي الحديث : « أَحَبُّ حَبِيبِكَ هَوْنًا مَا عَسَى أَنْ يَكُونَ بَغِيضَكَ يَوْمًا مَا ، وَأَبْغَضُ بَغِيضِكَ هَوْنًا مَا قَعَسَى أَنْ يَكُونَ حَبِيبَكَ يَوْمًا مَا » ^(٢) . وقال الشاعر :
وَقَدْ يَجْمَعُ اللَّهُ الشَّيْئَتَيْنِ بَعْدَ مَا يَظُنَّانِ كُلُّ الظَّنِّ أَنَّ لَا تَلَاقِيَا

وقوله تعالى : ﴿ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ أي يغفر للكافرين كفرهم إذا تابوا منه وأنبأوا إلى ربهم وأسلموا له وهو الغفور الرحيم بكل من تاب إليه من أي ذنب كان .

قال مقاتل بن حيان : إن هذه الآية نزلت في أبي سفيان صخر بن حرب ، فإن رسول الله ﷺ تزوج ابنته فكانت هذه مودة ما بينه وبينه ، وفي هذا الذي قاله مقاتل نظر ؛ فإن رسول الله ﷺ تزوج بأُم حبيبة بنت أبي سفيان قبل الفتح وأبو سفيان إنما أسلم ليلة الفتح بلا خلاف ، وأحسن من هذا ما رواه ابن شهاب أن رسول الله ﷺ استعمل أبا سفيان صخر بن حرب على بعض اليمن فلما قبض رسول الله ﷺ أقبل فلقي ذا الخمار مرتداً فقاتله ؛ فكان أول من قاتل في الردة وجاهد عن الدين ، قال ابن شهاب : وهو ممن أنزل الله فيه : ﴿ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ الَّذِينَ عَادَيْتُمْ مِنْهُمْ مَوَدَّةً ﴾ الآية .

وقوله تعالى : ﴿ لَا يَنْهَكُمُ اللَّهُ عَنِ الدِّينِ لَمْ يُغْنِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِينِكُمْ ﴾ ولم يظاهروا أي : يعانوا على إخراجكم أي : لا ينهاكم عن الإحسان إلى الكفرة الذين لا يقاتلونكم في الدين كالنساء والضعفة منهم ﴿ أَنْ تَبَرُّوهُمْ ﴾ أي : تحسنوا إليهم ﴿ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ ﴾ أي تعدلوا ﴿ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ﴾ . عن أسماء بنت أبي بكر ؓ قالت : قدمت أُمي وهي مشركة في عهد قريش إذ عاهدوا فأثبت النبي ﷺ فقلت : يا رسول الله إن أُمي قدمت وهي راغبة أفأصلها ؟ قال : « نَعَمْ صِلِي أُمَّكِ » ^(٣) . وقوله تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ﴾ وقد ورد في الحديث الصحيح : « الْمُقْسِطُونَ عَلَى مَنَابِرٍ مِنْ نُورٍ عَنِ عَرْشِ الدِّينِ يُغْدِلُونَ فِي حُكْمِهِمْ وَأَهْلِيهِمْ وَمَا وُلُّوا » ^(٤) .

وقوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا يَنْهَكُمُ اللَّهُ عَنِ الدِّينِ قَتْلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَالْخُرُوجُ مِنْ دِينِكُمْ وَظَهَرُوا عَلَيْكُمْ إِخْرَاجَكُمْ أَنْ تَوَلَّوهُمْ ﴾ أي : إنما ينهاكم عن موالة هؤلاء الذين ناصبوكم بالعداوة فقاتلوكم وأخرجوكم وعاونوا على إخراجكم ينهاكم الله ﷻ عن موالاتهم ويأمركم بمعاداتهم . ثم أكد الوعيد على موالاتهم فقال :

(١) أخرجه البخاري في المغازي (٤٣٣٠) .

(٢) أخرجه الترمذي في السنن (١٩٩٧) .

(٣) أخرجه أحمد في مسنده (٣٤٧/٦) والبخاري في الهبة (٢٦٢٠) ومسلم في الزكاة (٥٠) .

(٤) أخرجه أحمد في مسنده (٢٠٣/٢) والحاكم في المستدرک (٨٨/٤) والبيهقي في السنن (٨٧/١٠) .

﴿وَمَنْ يَأْتِكُمْ فَاُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ .

﴿يَأْتِيَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا جَاءَكُمْ الْمُؤْمِنَاتُ مُهَاجِرَاتٌ فَاَتَّخِذُوهُنَّ اللَّهُ أَعْلَمَ بِإِيمَانِهِنَّ فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَاتٍ فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى الْكُفَّارِ لَا مِنْ جِلٍّ لَكُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَكُمْ وَءَاوَيْتُمْ مَا أَنْفَقُوا وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ أَنْ تَنْكِحُوهُنَّ إِذَا آتَيْنَهُنَّ أَجْرَهُنَّ وَلَا تُنْسِكُوا بَعْضَ الْكُفَّارِ وَتَسْأَلُوا مَا أَنْفَقْتُمْ وَلَسْتُمْ لَهُمْ أَنْفَقُوا ذَلِكَ حُكْمُ اللَّهِ بِكُمْ يَنْصَحُكُمْ اللَّهُ عَالِمٌ حَكِيمٌ ﴿١٠﴾ وَإِنْ فَاتَكُمْ شَيْءٌ مِنْ أَرْزَاقِكُمْ إِلَى الْكُفَّارِ فَعَاقِبْتُمْ فَاتُوا الَّذِينَ ذَهَبَتْ أَرْزَاقُهُمْ يَنْدِلْ مَا أَنْفَقُوا وَأَنْفَقُوا اللَّهُ الَّذِي أَنْتُمْ بِهِ مُؤْمِنُونَ﴾ .

تقدم في سورة الفتح ذكر صلح الحديبية الذي وقع بين رسول الله ﷺ وبين كفار قريش ، فكان فيه : على أن لا يأتيك منا رجل وإن كان على دينك إلا رددته إلينا ، وفي رواية : على أنه لا يأتيك منا أحد وإن كان على دينك إلا رددته إلينا . فعلى هذه الرواية تكون هذه الآية مخصصة للسنة ، وهذا من أحسن أمثلة ذلك وعلى طريقة بعض السلف ناسخة ، فإن الله ﷻ أمر عباده المؤمنين إذا جاءهم النساء مهاجرات أن يمتحنوهن فإن علموهن مؤمنات فلا يرجعوهن إلى الكفار لا من حل لهم ولا هم يحلون لهن . وعن عبد الله بن أبي أحمد قال : هاجرت أم كلثوم بنت عقبة بن أبي معيط في الهجرة فخرج أخوها عماره والوليد حتى قدما على رسول الله ﷺ فكلماه فيها أن يردها إليهما فنقض الله العهد بينه وبين المشركين في النساء خاصة فمنعهم أن يردوهن إلى المشركين وأنزل الله آية الامتحان ^(١) . وعن أبي نصر الأسدي قال : سئل ابن عباس كيف كان امتحان رسول الله ﷺ النساء ؟ قال : كان يمتحنهن بالله ما خرجت من بغض زوج ، وبالله ما خرجت رغبة عن أرض إلى أرض ، وبالله ما خرجت التماس دنيا ، وبالله ما خرجت إلا حياء لله ولرسوله . ثم رواه من وجه آخر عن الأغر بن الصباح به . وكذا رواه البزار من طريقه وذكر فيه أن الذي كان يحلفهن عن أمر رسول الله ﷺ له عمر بن الخطاب ^(٢) .

وقال ابن عباس : كان امتحانهن أن يشهدن أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبد الله ورسوله ، وقال مجاهد : ﴿فَاَتَّخِذُوهُنَّ﴾ فاسألوهن عما جاء بهن فإن كان جاء بهن غضب على أزواجهن أو سخطه أو غيره ولم يؤمن فارجعهن إلى أزواجهن ، وقال عكرمة : يقال لها : ما جاء بك إلا حب الله ورسوله ، وما جاء بك عشق رجل منا ولا فرار من زوجك ، فذلك قوله ﴿فَاَتَّخِذُوهُنَّ﴾ وقال قتادة : كانت محنتهن أن يستحفلن بالله ما أخرجكن النشوز وما أخرجكن إلا حب الإسلام وأهله وحرص عليه ، فإذا قلن ذلك قبل منهن . وقوله تعالى : ﴿فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَاتٍ فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى الْكُفَّارِ﴾ فيه دلالة على أن الإيمان يمكن الاطلاع عليه يقيناً . وقوله تعالى : ﴿لَا مِنْ جِلٍّ لَكُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَكُمْ﴾ هذه الآية هي التي حرمت المسلمات على المشركين وقد كان جائزاً في ابتداء الإسلام أن يتزوج المشرك المؤمنة ، ولهذا كان أمر أبي العاص بن الربيع زوج ابنة النبي ﷺ زينب رضي الله عنها وقد كانت مسلمة وهو على دين قومه ، فلما وقع في الأسارى يوم بدر بعث امرأته زينب في فدائه بقلادة لها كانت لأُمها خديجة ، فلما رآها رسول الله ﷺ رق لها رقة شديدة ، وقال للمسلمين : «إِنْ رَأَيْتُمْ أَنْ تُطْلِقُوا لَهَا أُسَيْرَهَا فافْعَلُوا» ^(٣) ففعلوا ، فأطلقه رسول الله ﷺ على أن يعث ابنته إليه فوفى له بذلك وصدقه فيما وعده وبعثها إلى

(١) أخرجه البيهقي في السنن (٢٢/٩) والهيتمي في مجمع الزوائد (١٢٣/٧) .

(٢) ذكره الطبري في تفسيره (٨٦ ، ٨٥/٢٨) والسيوطي في الدر المنثور (١٣٧/٧) وعزاه إلى البزار وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه .

(٣) أخرجه أحمد في مسنده (٢٦١/١) وابن ماجه في السنن (٦٤٧/١) .

رسول الله ﷺ مع زيد بن حارثة ﷺ فأقامت بالمدينة من بعد وقعة بدر وكانت سنة اثنتين إلى أن أسلم زوجها أبو العاص بن الربيع سنة ثمان فردها إليه بالنكاح الأول ولم يحدث لها صداقاً . ومنهم من يقول بعد سنتين وهو صحيح ؛ لأن إسلامه كان يعد تحريم المسلمات على المشركين بستين .

وأجاب الجمهور عن حديث ابن عباس بأن ذلك كان قضية عين يحتمل أنه لم تنقض عدتها منه ؛ لأن الذي عليه الأكثر أنها متى انقضت للعدة ولم يسلم انفسخ نكاحها منه . وقال آخرون : بل إذا انقضت العدة هي بالخيار إن شاءت أقامت على النكاح واستمرت ، وإن شاءت فسخته وذهبت فتزوجت ، وحملوا عليه حديث ابن عباس والله أعلم . وقوله تعالى : ﴿ وَاتَّخِذُوا مِمَّا آتَتْكُمْ وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ أَنْ تَنْكِحُوهُنَّ إِذَا آتَيْتُوهُنَّ جُورَهُنَّ ﴾ يعني إذا أعطيتوهن أصدقتهن فأنكحوهن أي تزوجوهن بشرطه من انقضاء العدة والولي وغير ذلك . وقوله تعالى : ﴿ وَلَا تُنْكِحُوا بِعِصَمِ الْكَافِرِ ﴾ تحريم من الله ﷻ على عباده المؤمنين نكاح المشركات والاستمرار معهن .

عن المسور ومروان بن الحكم أن رسول الله ﷺ لما عاهد كفار قريش يوم الحديبية جاءه نساء من المؤمنات فأنزل الله ﷻ : ﴿ يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا جَاءَكُمْ الْمُؤْمِنَاتُ مُهَاجِرَاتٍ ﴾ إلى قوله : ﴿ وَلَا تُنْكِحُوا بِعِصَمِ الْكَافِرِ ﴾ فطلق عمر بن الخطاب يومئذ امرأتين تزوج إحداهما معاوية بن أبي سفيان والأخرى صفوان بن أمية ^(١) . وعن الزهري : أنزلت هذه الآية على رسول الله ﷺ وهو بأسفل الحديبية حين صالحهم على أنه من أتاه منهم رده إليهم فلما جاء النشأ نزلت هذه الآية وأمره أن يرد الصداق إلى أزواجهن وحكم على المشركين مثل ذلك ؛ إذا جاءتهم امرأة من المسلمين أن يردوا الصداق إلى أزواجهن وقال : ﴿ وَلَا تُنْكِحُوا بِعِصَمِ الْكَافِرِ ﴾ . قال الزهري : طلق عمر يومئذ قرية بنت أبي أمية بن المغيرة فتزوجها معاوية ، وأم كلثوم بنت عمرو بن جرجول الخزاعية وهي أم عبد الله فتزوجها أبو جهم ابن حذيفة بن غانم رجل من قومه وهما على شركهما ، وطلق طلحة بن عبد الله أروى بنت ربيعة ابن الحارث بن عبد المطلب فتزوجها بعده خالد بن سعيد بن العاص .

وقوله تعالى : ﴿ وَتَلَا مَا آتَفَقْتُمْ وَلَسْتُمْ بِمَأْنُقُوا ﴾ أي وطالبوا بما أنفقتم على أزواجكم اللاتي يذهبن إلى الكفار إن ذهبن ، وليطالبوا بما أنفقوا على أزواجهم اللاتي هاجرن إلى المسلمين . وقوله تعالى : ﴿ ذَلِكُمْ حَكْمُ اللَّهِ يَتَكَلَّمُ بَيْنَكُمْ ﴾ أي في الصلح واستثناء النساء منه ، والأمر بهذا كله هو حكم الله يحكم به بين خلقه ﴿ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ أي عليم بما يصلح عباده حكيم في ذلك ، ثم قال تعالى : ﴿ وَإِنْ فَانَكُ شَيْءٌ مِّنْ أَرْوَاحِكُمْ إِلَى الْكُفَّارِ فَمَا عَلَيْكُمْ فَنَاقُوا الَّذِينَ دَخَبَتْ أَرْوَاحُهُمْ مِّثْلَ مَا آتَفَقْتُمْ ﴾ قال مجاهد وقتادة : هذا في الكفار الذين ليس لهم عهد إذا فرت إليهم امرأة ولم يدفعوا إلى زوجها شيئاً ، فإذا جاءت منهم امرأة لا يدفع إلى زوجها شيء حتى يدفع إلى زوج الذاهبة إليهم مثل نفقته عليها . وقال الزهري : أقر المؤمنون بحكم الله فأدوا ما أمروا به من نفقات المشركين التي أنفقوا على نسائهم وأبى المشركون أن يقرؤا بحكم الله فيما فرض عليه من أداء نفقات المسلمين ، فقال الله تعالى للمؤمنين به : ﴿ وَإِنْ فَانَكُ شَيْءٌ مِّنْ

(١) أخرجه البخاري في الشروط (٢٧٣١) وأحمد في مسنده (٢٣١/٤) .

أَرْزَجُكُمْ إِلَى الْكُفَّارِ فَعَابْتُمْ فَنَادَا الْذِّبِ ذَهَبَتْ أَرْزَجُهُمْ يَثَلُ مَا أَنْفَقُوا وَأَنْفَقُوا اللَّهُ الَّذِي أَنْتُمْ بِهِ مُؤْمِنُونَ ﴿١﴾ فلو أنها ذهبت بعد هذه الآية امرأة من أزواج المؤمنين إلى المشركين رد المؤمنون إلى زوجها النفقة التي أنفق عليها من العقب الذي بأيديهم الذي أمروا أن يردوه على المشركين من نفقاتهم التي أنفقوا على أزواجهم اللاتي آمنن وهاجرن ، ثم ردوا إلى المشركين فضلاً إن كان بقي لهم ، والعقب ما كان بقي من صداق نساء الكفار حين آمنن وهاجرن . ﴿٢﴾ فَعَابْتُمْ ﴿٣﴾ أصبتم غنيمة من قریش أو غيرهم ﴿٤﴾ فَنَادَا الْذِّبِ ذَهَبَتْ أَرْزَجُهُمْ يَثَلُ مَا أَنْفَقُوا ﴿٥﴾ يعني مهر مثلها . وهذا لا ينافي الأول ؛ لأنه إن أمكن الأول فهو الأولى وإلا فمن الغنائم اللاتي تؤخذ من أيدي الكفار ، وهذا أوسع ، وهو اختيار ابن جرير والله الحمد والمنة .

﴿يَأْتِيَا النَّبِيَّ إِذَا جَاءَهُ الْكُفُومُتُ يَبَايَعُكَ عَلَى أَنْ لَا يُشْرِكَ بِاللَّهِ شَيْئًا وَلَا يَتَرَفَّقَ وَلَا يَزِينَنَّ وَلَا يَقْتُلَنَّ أَوْلَادَهُنَّ وَلَا يَأْتِيَنَّ بِبُهْتَانٍ يَفْتَرِينَهُ بَيْنَ أَيْدِيهِ وَأَرْجُلِهِنَّ وَلَا يَعْصِيَنَّكَ فِي مَعْرُوفٍ قَبَائِعُهُنَّ وَأَسْتَغْفِرُ لَكُنَّ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١﴾ .
عن عائشة زوج النبي ﷺ أن رسول الله ﷺ كان يمتحن من هاجر إليه من المؤمنات بهذه الآية ﴿يَأْتِيَا النَّبِيَّ إِذَا جَاءَهُ الْكُفُومُتُ يَبَايَعُكَ﴾ إلى قوله : ﴿غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ قالت عائشة : فمن أقر بهذا الشرط من المؤمنات قال لها رسول الله ﷺ : « قَدْ بَايَعْتُكَ » كلاماً ، ولا والله ما مسّت يده امرأة في المبايعة قط ، ما يبايعهن إلا بقوله : « قَدْ بَايَعْتُكَ عَلَى ذَلِكَ » ^(١) . وعن أميمة بنت رقيقة قالت : أتيت رسول الله ﷺ في نساء لنبايعه فأخذ علينا ما في القرآن أن لا نشرك بالله شيئاً الآية وقال : « فِيمَا اسْتَطَعْتُنَّ وَأَطَقْتُنَّ » . قلنا : الله ورسوله أرحم بنا من أنفسنا ، قلنا : يا رسول الله ألا تصافحنا ؟ قال : « إِنِّي لَا أَصَافِحُ النِّسَاءَ ، إِنَّمَا قَوْلِي لِمَرْأَةٍ وَاحِدَةٍ قَوْلِي لِمَاةٍ امْرَأَةٍ » ^(٢) .

وعن سلمى بنت قيس - وكانت إحدى خالات رسول الله ﷺ وقد صلت معه القبلتين ، وكانت إحدى نساء بني عدي بن النجار - قالت : جئت رسول الله ﷺ نبايعه في نسوة من الأنصار فلما شرط علينا ألا نشرك بالله شيئاً ولا نسرق ولا نزني ولا نقتل أولادنا ولا نأتي بيهتان نفتريه بين أيدينا وأرجلنا ولا نعصيه في معروف ، قال : « وَلَا تَغْتَشَيْنَ أَزْوَاجَكُنَّ » ، قالت : فبايعناه ، ثم انصرفنا ، فقلت لامرأة منهن : ارجعي فسلي رسول الله ﷺ : ما غش أزواجنا ؟ قال : فسألته فقال : « تَأْخُذُ مَالَهُ فَتُحَايِي بِهِ غَيْرُهُ » ^(٣) .

وعن أم عطية قالت : أخذ علينا رسول الله ﷺ عند البيعة أن لا نوح فمأ وفت منا امرأة غير خمس نسوة : أم سليم وأم العلاء وابنة أبي سبرة امرأة معاذ وامرأتان أو ابنة أبي سبرة وامرأة معاذ وامرأة أخرى ^(٤) . وقد كان رسول الله ﷺ يتعاهد النساء بهذه البيعة يوم العيد . وعن ابن عباس قال : شهدت الصلاة يوم الفطر مع رسول الله ﷺ وأبي بكر وعمر وعثمان فكلهم يصلونها قبل الخطبة ثم يخطب بعد ، فنزل نبي الله ﷺ فكانني أنظر إليه حين يجلس الرجال بيده ، ثم أقبل يشقههم حتى أتى النساء مع بلال فقال : ﴿يَأْتِيَا النَّبِيَّ إِذَا جَاءَكَ الْكُفُومُتُ يَبَايَعُكَ عَلَى أَنْ لَا يُشْرِكَ بِاللَّهِ شَيْئًا وَلَا يَتَرَفَّقَ وَلَا يَزِينَنَّ وَلَا يَقْتُلَنَّ أَوْلَادَهُنَّ وَلَا يَأْتِيَنَّ بِبُهْتَانٍ يَفْتَرِينَهُ بَيْنَ أَيْدِيهِ وَأَرْجُلِهِنَّ وَلَا يَعْصِيَنَّكَ فِي مَعْرُوفٍ﴾ حتى فرغ من الآية كلها ، ثم قال حين فرغ : « أَنْتُنَّ عَلَى ذَلِكَ ؟ » . فقالت امرأة واحدة ولم يجبه غيرها : نعم يا رسول

(١) أخرجه البخاري في تفسير القرآن (٤٨٩١) .

(٢) أخرجه أحمد في مسنده (٣٥٧/٦) .

(٣) أخرجه أحمد في مسنده (٣٧٩/٦) .

(٤) أخرجه البخاري في الجناز (١٣٠٦) .

اللَّهُ - لا يدري حسن من هي - قال : فَتَصَدَّقْ قال : وبسط بلال ثوبه فجعلن يلقين الفتيخ والخواثيم في ثوب بلال (١) . وعن عبادة بن الصامت قال : كنا عند رسول الله ﷺ في مجلس فقال : « ثَبَايَعُونِي عَلَى أَنْ لَا تُشْرِكُوا بِاللَّهِ شَيْئًا وَلَا تَشْرُقُوا وَلَا تَزْنُوا وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ - قرأ الآية التي أخذت على النساء ﴿ إِذَا جَاءَكَ الْمُؤْمِنَاتُ ﴾ فَمَنْ وَفَى مِنْكُمْ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ ، وَمَنْ أَصَابَ مِنْ ذَلِكَ شَيْئًا فَعُوقِبَ بِهِ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَهُ ، وَمَنْ أَصَابَ مِنْ ذَلِكَ شَيْئًا فَسْتَرَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ فَهُوَ إِلَى اللَّهِ إِنْ شَاءَ عَفْرٌ لَهُ ، وَإِنْ شَاءَ عَذْبَةٌ » (٢)

وعن عائشة قالت : جاءت هند بنت عتبة إلى رسول الله ﷺ لتبايعه فنظر إلى يدها فقال : « أَذْهَبِي فَعَرِّي يَدَكَ » فذهبت فغيرتها بحناء ثم جاءت فقال : « أَبَايُغْلِكَ عَلَى أَنْ لَا تُشْرِكِي بِاللَّهِ شَيْئًا » فبايعته وفي يدها سواران من ذهب فقالت : ما تقول في هذين السوارين ؟ فقال : « جَعَرَتَانِ مِنْ نَارِ جَهَنَّمَ » (٣) .

فقوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا جَاءَكَ الْمُؤْمِنَاتُ يَبَايَعُكَ ﴾ أي من جاءك منهن يبايع على هذه الشروط فبايعها على أن لا يشركن بالله شيئاً ولا يسرقن أموال الناس الأجانب ، فأما إذا كان الزوج مقصراً في نفقتها فلها أن تأكل من ماله بالمعروف ما جرت به عادة أمثاله وإن كان من غير علمه عملاً بحديث هند بنت عتبة أنها قالت : يا رسول الله ﷺ إن أبا سفيان رجل شحيح لا يعطيني من النفقة ما يكفيني ويكفي بني ، فهل علي جناح إن أخذت من ماله بغير علمه ؟ فقال رسول الله ﷺ : « خُذِي مِنْ مَالِهِ بِالْمَعْرُوفِ مَا يَكْفِيكَ وَيَكْفِي بَنِيكَ » (٤) . وقوله تعالى : ﴿ وَلَا يَزْنِ ﴾ عن عائشة قالت : جاءت فاطمة بنت عتبة تباع رسول الله ﷺ فأخذ عليها ﴿ أَنْ لَا يَشْرَكَ بِاللَّهِ شَيْئًا وَلَا يَشْرَفَ وَلَا يَزْنِ ﴾ الآية قال : فوضعت يدها على رأسها حياء فأعجبه ما رأى منها ، فقالت عائشة : أقرى أيتها المرأة فوالله ما بايعنا إلا على هذا ، قالت : نعمم إذا ، فبايعها بالآية (٥) . وعن عامر الشعبي قال : بايع رسول الله ﷺ النساء وعلى يده ثوب قد وضعه على كفه ثم قال : « ولا تقتلن أولادكن » . فقالت امرأة : تقتلن آباءهم وتوصي بأولادهم ؟ قال : وكان بعد ذلك إذا جاءت النساء يبايعنه جمعهن فعرض عليهن فإذا أقررن رجعن ، وقوله تعالى : ﴿ وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَادَهُنَّ ﴾ وهذا يشمل قتله بعد وجوده كما كان أهل الجاهلية يقتلون أولادهم خشية الإملاق ويعم قتله وهو جنين كما قد يفعله بعض الجهلة من النساء تطرح نفسها لثلاث تحيل إما لغرض فاسد أو ما أشبهه .

وقوله تعالى : ﴿ وَلَا يَأْبَى بَيْنَ بَيْتَيْهِ بَيْنَ أَيْدِيهِ وَأَرْسُلِهِ ﴾ قال ابن عباس : يعني لا يلحقن بأزواجهن غير أولادهم ، وعن أبي هريرة أنه سمع رسول الله ﷺ يقول حين نزلت آية الملاءنة : « أَيُّمَا امْرَأَةٍ أَذْخَلْتُ عَلَى قَوْمٍ مِنْ لَيْسَ مِنْهُمْ فَلَيْسَتْ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ ، وَلَنْ يُدْخِلَهَا اللَّهُ الْجَنَّةَ ، وَأَيُّمَا رَجُلٍ جَحَدَ وَلَكِنَّهُ وَهُوَ يَنْظُرُ إِلَيْهِ اخْتَجَبَ اللَّهُ مِنْهُ وَفَضَحَهُ عَلَى رُؤُوسِ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ » (٦) . وقوله تعالى : ﴿ وَلَا يَصْنَعَنَّكَ فِي مَعْرُوفٍ ﴾ يعني فيما أمرتهن به من معروف ونهيتهن عنه من منكر . عن

(١) أخرجه البخاري في تفسير القرآن (٤٨٩٥) .

(٢) أخرجه البخاري في تفسير القرآن (٤٨٩٤) ومسلم في الحدود (٤١) والترمذي في السنن (١٤٣٩) وأحمد في مسنده (٣١٤/٥) .

(٣) أورده الهيثمي في مجمع الزوائد (٣٧/٦) وأبو يعلى في مسنده (٤٧٥٤) .

(٤) أخرجه البخاري في النفقات (٥٣٧٠) ومسلم في الأقضية (٧) والنسائي في السنن (٢٤٧/٨) والدارمي في السنن (١٥٩/٢) .

(٥) أخرجه أحمد في مسنده (١٥١/٦) .

(٦) أخرجه الدارمي في السنن (١٥٣/٢) .

ابن عباس في قوله تعالى : ﴿ وَلَا يَصْصِيكَ فِي مَعْرُوفٍ ﴾ قال : إنما هو شرط شرطه الله للنساء ^(١) . وقال ميمون بن مهران : لم يجعل الله طاعة لنبيه إلا في المعروف والمعروف طاعة ، وقال ابن زيد : أمر الله بطاعة رسوله وهو خيرة الله من خلقه في المعروف . وعن ابن عباس وأنس بن مالك وسالم بن أبي الجعد وأبي صالح وغير واحد نهاهن يومئذ عن النوح . وعن أم عطية قالت : لما قدم رسول الله ﷺ جمع نساء الأنصار في بيت ، ثم أرسل إلينا عمر بن الخطاب رضي الله عنه فقام على الباب وسلم علينا فرددن أو فرددنا عليه السلام ثم قال : أنا رسول رسول الله ﷺ إليكن ، فقالت : فقلنا : مرحبًا برسول الله وبرسول رسول الله ، فقال : تباعين على أن لا تشركن بالله شيئًا ولا تسرقن ولا تزنين ، قالت : فقلنا : نعم ، قالت : فمد يده من خارج الباب أو البيت ومددنا أيدينا من داخل البيت ثم قال : اللهم اشهد ، قالت : وأمرنا في العيدين أن نخرج فيه الحيض والعواتق ولا جمعة علينا ، ونهانا عن اتباع الجنائز ، قال إسماعيل : فسألت جدتي عن قوله تعالى : ﴿ وَلَا يَصْصِيكَ فِي مَعْرُوفٍ ﴾ قالت : النياحة .

عن عبد الله بن مسعود قال : قال رسول الله ﷺ : « لَيْسَ مِثْلًا مَنْ ضَرَبَ الْحُدُودَ وَشَقَّ الْجُيُوبَ وَدَعَا بِدَعْوَى الْجَاهِلِيَّةِ » ^(٢) . وعن أبي موسى أن رسول الله ﷺ برئ من الصالقة والخالقة والشاقة ^(٣) . وعنه ﷺ قال : « أَرْبَعٌ فِي أَمْرِ الْجَاهِلِيَّةِ لَا يَتَوَكَّنُهُنَّ : الْفَخْرُ فِي الْأَحْسَابِ ، وَالطُّغْنُ فِي الْأَنْسَابِ ، وَالْاِسْتِشْقَاءُ بِالنُّجُومِ ، وَالنِّيَاحَةُ عَلَى الْمَيِّتِ » وقال : « النَّائِحَةُ إِذَا لَمْ تَتُبْ قَبْلَ مَوْتِهَا تُقَامُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَعَلَيْهَا سِرْبَالٌ مِنْ قَطْرَانٍ وَدِرْعٌ مِنْ جَرَبٍ » ^(٤) .

﴿ يَأْتِيَنَّ الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ قَدْ يَمْسُوا مِنَ الْآخِرَةِ كَمَا يَبِيسُ الْكَنْثَارُ مِنْ أَحْصَنِ الْقُبُورِ ﴾ .
ينهى تبارك وتعالى عن موالة الكافرين في آخر هذه السورة كما نهى عنها في أولها فقال تعالى : ﴿ يَأْتِيَنَّ الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ ﴾ يعني اليهود والنصارى ، وسائر الكفار من غضب الله عليه ولعنه واستحق من الله الطرد والإبعاد ، فكيف توالونهم وتتخذونهم أصدقاء وأحلاء وقد يمسوا من الآخرة ، أي من ثواب الآخرة ونعيمها في حكم الله ﷻ . وقوله تعالى : ﴿ كَمَا يَبِيسُ الْكَنْثَارُ مِنْ أَحْصَنِ الْقُبُورِ ﴾ فيه قولان أحدهما : كما يمس الكفار الأحياء من قراباتهم الذين في القبور أن يجتمعوا بهم بعد ذلك ؛ لأنهم لا يعتقدون بعثًا ولا نشورًا فقد انقطع رجاؤهم منهم فيما يعتقدونه . قال ابن عباس : ﴿ يَأْتِيَنَّ الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ ﴾ إلى آخر السورة يعني من مات من الذين كفروا فقد يمس الأحياء من الذين كفروا أن يرجعوا إليهم أو يعينهم الله ﷻ ، وقال الحسن البصري : ﴿ كَمَا يَبِيسُ الْكَنْثَارُ مِنْ أَحْصَنِ الْقُبُورِ ﴾ قال : الكفار الأحياء قد يمسوا من الأموات ، وقال قتادة : كما يمس الكفار أن يرجع إليهم أصحاب القبور الذين ماتوا ، وكذا قال الضحاك رواه ابن جرير . والقول الثاني : معناه كما يمس الكفار الذين هم في القبور من كل خير . وعن ابن مسعود قال : كما يمس هذا الكافر إذا مات وعين ثوابه واطلع عليه .

(١) أخرجه البخاري في تفسير القرآن (٤٨٩٣) .

(٢) أخرجه البخاري في المناقب (٣٥١٩) ومسلم في الإيمان (١٦٥) وأحمد في مسنده (٣٨٦/١) والبيهقي في السنن (٦٣/٤) .

(٣) أخرجه مسلم في الإيمان (١٦٥) .

(٤) أخرجه مسلم في الجنائز (٢٩) والترمذي في السنن (١٠٠١) وأحمد في مسنده (٤٥٥/٢) والبيهقي في السنن (٦٣/٤) .

سورة الصف

عن عبد الله بن سلام قال : قعدنا نفرًا من أصحاب رسول الله ﷺ فتذاكرنا قتلنا : لو نعلم أي الأعمال أحب إلى الله ﷻ لعملناه فأنزل الله تعالى : ﴿ سَبِّحْ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ ① يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَعْمَلُونَ ﴿ قال عبد الله بن سلام : فقرأها علينا رسول الله ﷺ قال أبو سلمة : فقرأها علينا ابن سلام . قال يحيى : فقرأها علينا أبو سلمة ، قال ابن كثير : فقرأها علينا الأوزاعي . قال عبد الله : فقرأها علينا ابن كثير ② .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ سَبِّحْ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ ① يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَعْمَلُونَ ﴿ كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَعْمَلُونَ ② إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقِيمُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَانَهُمْ بَيْنَ مَرْصُوسٍ ﴾ .

قوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَعْمَلُونَ ﴾ إنكار على من يعد وعدًا أو يقول قولًا لا يفي به ، ولهذا استدل بهذه الآية الكريمة من ذهب من علماء السلف إلى أنه يجب الوفاء بالوعد مطلقًا سواء ترتب عليه عزم للموعود أم لا ، واحتجوا أيضًا من السنة بما ثبت في الصحيحين أن رسول الله ﷺ قال : « آيَةُ الْمُتَافِقِ ثَلَاثَةٌ : إِذَا وَعَدَ أَخْلَفَ ، وَإِذَا حَدَّثَ كَذَبَ ، وَإِذَا أَوْثَقَ خَانَ » ③ . وفي الحديث الآخر : « أَرْبَعٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ كَانَ مُتَافِقًا خَالِصًا وَمَنْ كَانَتْ فِيهِ وَاحِدَةٌ مِنْهُنَّ كَانَتْ فِيهِ خَصَلَةٌ مِنْ نِفَاقٍ حَتَّى يَدْعَهَا » ④ . ولهذا أكد الله تعالى هذا الإنكار عليهم بقوله تعالى : ﴿ كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَعْمَلُونَ ﴾ . عن عبد الله بن عامر بن ربيعة قال : أتانا رسول الله ﷺ وأنا صبي فذهبت لأخرج لألعب ، فقالت أمي : يا عبد الله تعال أعطك ، فقال لها رسول الله ﷺ : « وَمَا أَرَدْتَ أَنْ تُعْطِيَهُ ؟ » فقالت : تمرًا ، فقال : « أَمَا إِنَّكَ لَوْ لَمْ تَفْعَلِي كُتِبَتْ عَلَيْكَ كَذِبَةٌ » ⑤ . وذهب الإمام مالك رحمه الله تعالى إلى أنه إذا تعلق بالوعد عزم على الموعود وجب الوفاء به ، كما لو قال لغيره تزوج ولك علي كل يوم كذا ، فتزوج ، وجب عليه أن يعطيه ما دام كذلك لأنه تعلق به حق آدمي وهو مبني على المضايقة . وذهب الجمهور إلى أنه لا يجب مطلقًا ، وحملوا الآية على أنها نزلت حين تمنوا فريضة الجهاد عليهم فلما فرض نكل عنه بعضهم . عن ابن عباس في قوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَعْمَلُونَ ﴾ قال : كان ناس من المؤمنين قبل أن يفرض الجهاد يقولون : لوددنا أن الله ﷻ دلنا على أحب الأعمال إليه فنعمل به ، فأخبر الله نبيه أن أحب الأعمال إيمان به لا شك فيه ، وجهاد أهل معصيته الذين خالفوا الإيمان ولم يقرؤا به . فلما نزل الجهاد كره ذلك ناس من المؤمنين وشق عليهم أمره ، فقال الله ﷻ : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَعْمَلُونَ ﴾ وهذا اختيار

(١) أخرجه الترمذي في السنن (٣٣٠٩) .

(٢) أخرجه البخاري في الإيمان (٣٣) ومسلم في الإيمان (١٠٧) وأحمد في مسنده (٣٥٧/٢) والبيهقي في السنن (٢٨٨/٦) .

(٣) أخرجه البخاري في الإيمان (٣٤) ومسلم في الإيمان (١٠٦) وأحمد في مسنده (١٨٩/٢) والبيهقي في السنن (٢٣٠/٩) .

(٤) أخرجه أحمد في مسنده (٤٤٧/٣) .

ابن جرير . وقال مقاتل بن حيان : قال المؤمنون : لو نعلم أحب الأعمال إلى الله لعملنا به ، فدلهم الله على أحب الأعمال إليه فقال : ﴿ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا ﴾ فبين لهم فابتلوا يوم أحد بذلك فولوا عن النبي ﷺ مدبرين فأنزل الله في ذلك ﴿ يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴾ وقال : أحبكم إلي من قاتل في سبيلي . ومنهم من يقول : أنزلت في شأن القتال يقول الرجل قاتلت ولم يقاتل ، وطعنت ولم يطعن ، وضربت ولم يضرب ، وصبرت ولم يصبر . وقال ابن زيد : نزلت في قوم من المنافقين كانوا يعدون المسلمين النصر ، ولا يقفون لهم بذلك . وعن أبي الأسود الديلي قال : بعث أبو موسى إلى قراء أهل البصرة فدخل عليه منهم ثلاثمائة رجل كلهم قد قرأ القرآن . فقال : أنتم قراء أهل البصرة وخيارهم . وقال : كنا نقرأ سورة كنا نشبهها بإحدى المسبحات فأنسيناها غير أنني قد حفظت منها ﴿ يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴾ فكتب شهادة في أعناقكم فتسألون عنها يوم القيامة ، ولهذا قال تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَأَنَّهُمْ بُيِّنٌ مَّرْضُوسٌ ﴾ فهذا إخبار من الله تعالى بمحبته عباده المؤمنين إذا صفوا مواجيهين لأعداء الله في حومة الوغى يقاتلون في سبيل الله من كفر بالله لتكون كلمة الله هي العليا ودينه هو الظاهر العالي على سائر الأديان .

عن أبي سعيد الخدري ؓ قال : قال رسول الله ﷺ : « ثَلَاثَةٌ يَضْحَكُ اللَّهُ إِلَيْهِمْ : الرَّجُلُ يَقُومُ مِنَ اللَّيْلِ ، وَالْقَوْمُ إِذَا صَفُّوا لِلصَّلَاةِ ، وَالْقَوْمُ إِذَا صَفُّوا لِلْقِتَالِ » (١) . وعن عبد الله بن الشخير قال : قال مطرف : كان يبلغني عن أبي ذر حديث كنت أشتهي لقاءه فلقيته فقلت : يا أبا ذر كان يبلغني عنك حديث فكنت أشتهي لقاءك ، فقال : لله أبوك فقد لقيت فهات . فقلت : كان يبلغني عنك أنك تزعم أن رسول الله ﷺ حدثكم أن الله يغيض ثلاثة ويحب ثلاثة . قال : أجل فلا أخالني أكذب على خليلي ﷺ . قلت : فمن هؤلاء الثلاثة الذين يحبهم الله ﷻ ؟ قال : رجل غزا في سبيل الله خرج محتسبا مجاهداً فلقى العدو وأتمت تجدونه في كتاب الله المنزل ثم قرأ : ﴿ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَأَنَّهُمْ بُيِّنٌ مَّرْضُوسٌ ﴾ وذكر الحديث . وقال سعيد بن جبير في قوله تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا ﴾ قال : كان رسول الله ﷺ لا يقاتل العدو إلا أن يصافهم ، وهذا تعليم من الله للمؤمنين . قال : وقوله تعالى : ﴿ كَأَنَّهُمْ بُيِّنٌ مَّرْضُوسٌ ﴾ أي ملتصق بعضهم في بعض ، من الصف في القتال ، وقال ابن عباس : مثبت لا يزول ملتصق بعضهم ببعض . وقال قتادة ﴿ كَأَنَّهُمْ بُيِّنٌ مَّرْضُوسٌ ﴾ ألم تر إلى صاحب البنيان كيف لا يحب أن يختلف بنيانه . كذلك الله ﷻ لا يحب أن يختلف أمره ، وإن الله صف المؤمنين في قتالهم وصفهم في صلاتهم فعليكم بأمر الله فإنه عصمته لمن أخذ به ، وعن أبي بحرية قال : كانوا يكرهون القتال على الخيل ويستحبون القتال على الأرض لقول الله ﷻ : ﴿ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَأَنَّهُمْ بُيِّنٌ مَّرْضُوسٌ ﴾ قال : وكان أبو بحرية يقول : إذا رأيتموني ألتفت في الصف فجثوا في لحي .

﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يُقَوِّمُ لِمَ تُوذَوْنَ وَيَقُولُونَ إِنَّا نَقُولُ مَا نَحْنُ بِأَعْيُنِنَا ﴾

﴿ وَإِذْ قَالَ يَسَى ابْنُ مَرْيَمَ بَنِي إِسْرَءِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنْ قُلُوبِهِمْ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴾

التَّوْرَةَ وَبِشْرًا بِأَيِّ مِنْ بَعْدِي أَنَّهُ أَحَدٌ فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ ﴿١﴾ .

يقول تعالى مخبراً عن عبده ورسوله وكليمه موسى بن عمران عليه السلام أنه قال لقومه : ﴿لِمَ تُوَدُّونَنِي وَقَدْ تَنَكَّرْتُمُ أَفَى رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ﴾ أي : لم تصلون الأذى إليّ وأنتم تعلمون صدقي فيما جئتكم به من الرسالة ، وفي هذا تسليّة لرسول الله عليه السلام فيما أصابه من الكفار من قومه وغيرهم وأمر له الصبر ، ولهذا قال : « رَحِمَهُ اللَّهُ عَلَى مُوسَى : لَقَدْ أُوذِيَ بِأَكْثَرٍ مِنْ هَذَا قَصِيرٌ » ^(١) . وفيه نهى للمؤمنين أن ينالوا من النبي عليه السلام أو يوصلوا إليه إذى . وقوله تعالى : ﴿لَمَّا رَأَوْا أَرْغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾ أي : فلما عدلوا عن اتباع الحق مع علمهم به ، أرغ الله قلوبهم عن الهدى وأسكنها الشك والحيرة والخذلان . ولهذا قال تعالى : ﴿وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾ . وقوله تعالى : ﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ بَنِي إِسْرَءِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَةِ وَبِشْرًا بِأَيِّ مِنْ بَعْدِي أَنَّهُ أَحَدٌ﴾ يعني التوراة قد بشرت بي وأنا مصداق ما أخبرت عنه وأنا مبشر بمن بعدي وهو الرسول النبي الأمي العربي المكي أحمد ، فعيسى عليه السلام هو خاتم أنبياء بني إسرائيل وقد أقام في ملأ بني إسرائيل مبشراً بمحمد وهو أحمد خاتم الأنبياء والمرسلين الذي لا رسالة بعده ولا نبوة ، وما أحسن ما قال جبير بن مطعم : سمعت رسول الله عليه السلام يقول : «إِن لِي أَسْمَاءً : أَنَا مُحَمَّدٌ ، وَأَنَا أَحْمَدُ ، وَأَنَا الْمَاحِي الَّذِي يَمْحُو اللَّهُ بِهِ الْكُفْرَ ، وَأَنَا الْحَاشِرُ الَّذِي يُخَشِّرُ النَّاسَ عَلَى قَدَمِي ، وَأَنَا الْعَاقِبُ » ^(٢) .

وعن أبي موسى قال : سئى لنا رسول الله عليه السلام نفسه أسماء منها ما حفظنا فقال : « أَنَا مُحَمَّدٌ ، وَأَنَا أَحْمَدُ ، وَالْحَاشِرُ ، وَالْمُقَفِّي ، وَنَبِي الرِّحْمَةِ وَالتَّوْبَةِ وَالْمَلْحَمَةِ » ^(٣) . وقد قال الله تعالى : ﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْنُوزَةً عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ﴾ الآية ، وقال تعالى : ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ لَمْ ءَاتَيْنَكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنْصُرُنَّهُ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِي قَالُوا أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ﴾ . قال ابن عباس : ما بعث الله نبياً إلا أخذ عليه العهد لئن بعث محمد وهو حي ليتبعه ، وأخذ عليه أن يأخذ على أمته لئن بعث محمد وهم أحياء ليتبعه وينصرنه . وعن العرياض بن سارية قال : قال رسول الله عليه السلام : «إِنِّي عِنْدَ اللَّهِ لَخَاتَمُ النَّبِيِّينَ ، وَإِنَّ آدَمَ لَمُنْجِدٌ فِي طَيْبَتِهِ وَسَائِبُكُمْ بِأَوَّلِ ذَلِكَ دَعْوَةُ أَبِي إِبْرَاهِيمَ وَبِشْرَارَةُ عِيسَى بِي وَرُؤْيَا أُمِّي الَّتِي رَأَتْ ، وَكَذَلِكَ أَهْهَاتِ النَّبِيُّنَ يَوْمَئِذٍ » ^(٤) .

وعن أبي أمامة قال : قلت : يا رسول الله ما كان بدء أمرك ؟ قال : « دَعْوَةُ أَبِي إِبْرَاهِيمَ ، وَبِشْرَى عِيسَى ، وَرَأَتْ أُمِّي أَنَّهُ يَخْرُجُ مِنْهَا نُورٌ أَضَاءَتْ لَهُ قُصُورُ الشَّامِ » ^(٥) . وعن عبد الله بن مسعود قال : بعثنا رسول الله عليه السلام إلى النجاشي ونحن نحو من ثمانين رجلاً منهم عبد الله بن مسعود وجعفر وعبد الله بن رواحة وعثمان بن مظعون وأبو موسى فأتوا النجاشي ، وبعثت قريش

(١) أخرجه البخاري في الأدب (٦٠٥٩) وأحمد في مسنده (٣٨٠/١) .

(٢) أخرجه البخاري في تفسير القرآن (٤٨٩٦) وأحمد في مسنده (٨٠/٤) والطبراني في الكبير (١٢٢/٢) .

(٣) أخرجه مسلم في الفضائل (٢٦) وأحمد في مسنده (٣٩٥/٤) والحاكم في المستدرک (٦٠٤/٢) .

(٤) أخرجه الحاكم في المستدرک (٦٠٠/٢) وأبو نعيم في دلائل النبوة (٩/١) والطبراني في الكبير (٢٥٣/١٨) .

(٥) أخرجه أحمد في مسنده (٢٦٢/٥) .

عمرو بن العاص وعمارة بن الوليد بهدية ، فلما دخلا على النجاشي سجدا له ثم ابتدراه عن يمينه وعن شماله ثم قالوا له : إن نفرًا من بني عمنا نزلوا أرضك ورغبوا عنا وعن ملتنا . قال : فأين هم ؟ قالوا : هم في أرضك فابعث إليهم . فبعث إليهم ، فقال جعفر : أنا خطيبكم اليوم ، فاتبعوه فسلم ولم يسجد ، فقالوا له : ما لك لا تسجد للملك ؟ قال : إنا لا نسجد إلا لله ﷻ . قال : وما ذاك ؟ قال : إن الله بعث إلينا رسوله فأمرنا أن لا نسجد لأحد إلا لله ﷻ ، وأمرنا بالصلاة والزكاة ، قال عمرو بن العاص : فإنهم يخالفونك في عيسى ابن مريم . قال : ما تقولون في عيسى ابن مريم وأمه ؟ قال : نقول كما قال الله ﷻ هو كلمة الله وروحه ألقاها إلى العذراء البتول التي لم يمسهما بشر ولم يعترضها ولد ، قال : فرفع عودًا من الأرض ثم قال : يا معشر الحبشة والقسيسين والرهبان والله ما يزيدون على الذي نقول فيه ما يساوي هذا ، مرحبًا بكم وبمن جئتم من عنده أشهد أنه رسول الله وأنه الذي نجد في الإنجيل وأنه الذي بشر به عيسى ابن مريم ، انزلوا حيث شئتم ، والله لولا ما أنا فيه من الملك لأتيته حتى أكون أنا أحمل نعليه وأوضعه ، وأمر بهدية الآخرين فردت إليهما ، ثم تعجل عبد الله بن مسعود حتى أدرك بدرًا وزعم أن النبي ﷺ استغفر له حين بلغه موته ^(١) . والمقصود أن الأنبياء ﷺ لم تزل تنعته وتحكيه في كتبها على أممها وتأمرهم باتباعه ونصره ومؤازرته إذا بعث ، وكان أول ما اشتهر الأمر في أهل الأرض على لسان إبراهيم الخليل والد الأنبياء بعده حين دعا لأهل مكة أن يبعث الله فيهم رسولًا منهم ، وكذا على لسان عيسى ابن مريم . ولهذا قالوا : أخبرنا عن بدء أمرك يعني في الأرض . قال : « دَعَا أَبِي إِبْرَاهِيمَ ، وَبَشَارَةَ عِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ، وَرُؤْيَا أُمِّي الَّتِي رَأَتْ » . أي ظهر في أهل مكة أثر ذلك ، والإرهاص فذكره صلوات الله وسلامه عليه .

﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُوَ يُدْعَى إِلَى الْإِسْلَامِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾ ^(١) يُرِيدُونَ يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَقْوَمِهِمْ وَاللَّهُ مُبْدِئُ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ ^(٢) هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ ﴿٣﴾ . يقول تعالى : ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُوَ يُدْعَى إِلَى الْإِسْلَامِ ﴾ أي لا أحد أظلم ممن يفترى الكذب على الله ، ويجعل له أندادًا وشركاء وهو يدعى إلى التوحيد والإخلاص . ولهذا قال تعالى : ﴿ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾ ثم قال تعالى : ﴿ يُرِيدُونَ يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَقْوَمِهِمْ ﴾ أي يحاولون أن يردوا الحق بالباطل ومثلهم في ذلك كمثل من يريد أن يطفى شعاع الشمس بفيه ، وكما أن هذا مستحيل كذاك ذلك مستحيل . ولهذا قال تعالى : ﴿ وَاللَّهُ مُبْدِئُ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ ﴾ ^(٤) هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ ﴿٥﴾ .

﴿ بَيَّنَّا الْآيَةَ لَأَنَّ هَآؤُلَآئِكَ عَلَىٰ سَبِيلِ اللَّهِ يُحَارِبُونَ فَبِخَيْرٍ يُسَبِّحُونَ ﴾ ^(٦) تَوَسَّلُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ مُحَمَّدٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْرٍ لَكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ ذَلِكَ خَيْرٌ لَّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٧﴾ يَقِفْ لَكُمْ دُونَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَسَيَسْكَنُ طَائِفَةٌ فِي جَنَّاتٍ عَذْيٍ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿٨﴾ وَأُخْرَىٰ يُحِبُّونَهَا نَصْرٌ مِنَ اللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ وَبَشِيرٌ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٩﴾ .

تقدم في حديث عبد الله بن سلام أن الصحابة رضوا أن يسألوا رسول الله ﷺ عن أحب الأعمال إلى الله ﷻ ليفعلوه فأنزل الله تعالى هذه السورة ومن جملة هذه الآية : ﴿ بَيَّنَّا الْآيَةَ لَأَنَّ هَآؤُلَآئِكَ ﴾

أَذْكُرْكَ عَلَىٰ نِعْمَتِكَ رَبِّكَ عَذَابَ أَلِيمٍ ﴿١﴾ ثُمَّ فَشَّرَ هَذِهِ التَّجَارَةَ الْعَظِيمَةَ الَّتِي لَا تَبُورُ ، الَّتِي هِيَ مُحْصَلَةٌ لِلْمَقْصُودِ وَمُزِيلَةٌ لِلْمَحْذُورِ فَقَالَ تَعَالَى : ﴿ تَوَيْتُنَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتَجَاهَدُنَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يَأْمُرُكَ وَأَنْفَيْكَ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكَ إِنْ كُنْتَ تَتَّقُونَ ﴾ أي من تجارة الدنيا والكد لها والتصدي لها وحدها ثم قال تَعَالَى : ﴿ يَقْبِضْ لَكَ دُونَكَ ﴾ أي : إن فعلتم ما أمرتكم به ودللتكم عليه غفرت لكم الزلات وأدخلتكم الجنَّات والمساكن الطيبات والدرجات العالية . ولهذا قال تَعَالَى : ﴿ وَدَخَلَكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَسَبَّحْتَ لِحَبْلِئَةٍ فِي جَنَّاتٍ عَدْنٍ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴾ ثم قال تَعَالَى : ﴿ وَأَعْرَضَ عَنْهُمْ ﴾ أي وأزيدكم على ذلك زيادة تحبونها وهي ﴿ نَصَرَ بَيْنَ اللَّهِ وَرَبِّهِ قَرِيبٌ ﴾ أي إذا قاتلتكم في سبيله ونصرتم دينه تكفل الله بنصركم ، وقوله تَعَالَى : ﴿ رَفَعَ قَرِيبٌ ﴾ أي عاجل فهذه الزيادة هي خير الدنيا موصول بنعيم الآخرة لمن أطاع الله ورسوله ونصر الله ودينه . ولهذا قال تَعَالَى : ﴿ وَبَشِّرَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ .

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا أَنْصَارَ اللَّهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّينَ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ فَأَمَّا نَظَائِفَةُ مِنْ بَنَاتِ إِسْرَءِيلَ وَكَثَرَتْ طَائِفَةُ فَأَيَّدَنَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَىٰ عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُوا ظَاهِرِينَ ﴾ .

يقول تَعَالَى آمراً عباده المؤمنين أن يكونوا أنصار الله في جميع أحوالهم بأقوالهم وأفعالهم وأنفسهم وأموالهم وأن يستجيبوا لله ولرسوله كما استجاب الحواريون لعيسى حين قال : ﴿ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ ﴾ أي : من معيني في الدعوة إلى الله ﷻ ﴿ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ ﴾ وهم أتباع عيسى ﷺ ﴿ نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ ﴾ أي نحن أنصارك على ما أرسلت به ومؤازرك على ذلك ، ولهذا بعثهم دعاء إلى الناس في بلاد الشام في الإسرائيليين واليونانيين ، وهكذا كان رسول الله ﷺ يقول في أيام الحج : « مَنْ رَجُلٌ يُؤْوِينِي حَتَّىٰ أَبْلُغَ رِسَالَةَ رَبِّي فَإِنِ قُرَيْشًا قَدْ مَنَعُونِي أَنْ أَبْلُغَ رِسَالَةَ رَبِّي » ^(١) . حتى قبض الله ﷻ له الأوس والخزرج من أهل المدينة فبايعوه ووازره وشارطوه أن يمينوه من الأسود والأحمر إن هو هاجر إليهم ، فلما هاجر إليهم بمن معه من أصحابه وفوا له بما عاهدوا الله عليه ، ولهذا سبَّاهم الله ورسوله الأنصار ، وصار ذلك علماً عليهم ﷺ وأرضاهم .

وقوله تَعَالَى : ﴿ فَأَمَّا نَظَائِفَةُ مِنْ بَنَاتِ إِسْرَءِيلَ وَكَثَرَتْ طَائِفَةُ ﴾ أي لما بلغ عيسى ابن مريم عليه الصلاة والسلام رسالة ربه إلى قومه ووازره من وازره من الحواريين اهتمت طائفة من بني إسرائيل بما جاءهم به وضلت طائفة فخرجت عما جاءهم به وجحدوا نبوته ورموه وأمه بالعظام ، وهم اليهود عليهم لعائن الله المتتابعة إلى يوم القيامة ، وغلت فيه طائفة ممن اتبعه حتى رفعوه فوق ما أعطاه الله من النبوة وافترقوا فرقاً وشيعاً ، فمن قائل منهم إنه ابن الله ، وقائل إنه ثالث ثلاثة : الأب والابن وروح القدس ، ومن قائل إنه الله ، وكل هذه الأقوال مفصلة في سورة النساء .

وقوله تَعَالَى : ﴿ فَأَيَّدَنَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَىٰ عَدُوِّهِمْ ﴾ أي : نصرناهم على من عاداهم من فرق النصارى ﴿ فَأَصْبَحُوا ظَاهِرِينَ ﴾ أي : عليهم وذلك ببعثة محمد ﷺ . عن ابن عباس ؓ قال : لما أراد الله ﷻ أن يرفع عيسى إلى السماء ، خرج إلى أصحابه وهم في بيت اثنا عشر رجلاً ، من عين في البيت ، ورأسه يقطر ماء فقال : إن منكم من يكفر بي انتني عشر مرة بعد أن آمن بي ، قال : ثم قال : أيكم

يلقى عليه شبهي فيقتل مكاني ويكون معي في درجتي ؟ قال : فقام شاب من أحدثهم سنًا فقال : أنا ، فقال له : اجلس ، ثم أعاد عليهم فقام الشاب فقال : أنا ، فقال له : اجلس . ثم عاد عليهم فقام الشاب فقال : أنا ، فقال : نعم أنت ذاك ، قال : فألقي عليه شبه عيسى ورفع عيسى عليه السلام من روزنة في البيت إلى السماء . قال : وجاء الطلب من اليهود فأخذوا شبهه فقتلوه وصلبوه وكفر به بعضهم اثنتي عشرة مرة بعد أن آمنوا به فتفرقوا فيه ثلاث فرق فقالت فرقة : كان الله فينا ما شاء ثم صعد إلى السماء وهؤلاء اليعقوية . وقالت فرقة : كان فينا ابن الله ما شاء ثم رفعه إليه وهؤلاء النسطورية . وقالت فرقة : كان فينا عبد الله ورسوله ما شاء الله ثم رفعه الله إليه ، وهؤلاء المسلمون فتظاهرت الكافرتان على المسلمة فقتلوها ، فلم يزل الإسلام طامسًا حتى بعث الله محمدًا صلى الله عليه وسلم ﴿ فَأَمَّا تِلْكَ الْأُمَّةُ مِنْ بَنِي إِسْرَءِيلَ وَكَفَرَتْ بِلِقَائِهِ ﴾ يعني الطائفة التي كفرت من بني إسرائيل في زمن عيسى والطائفة التي آمنت في زمن عيسى ﴿ فَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَىٰ عِدْوِهِمْ فَأَتَّبِعُوا لِقَائِهِ ﴾ بإظهار محمد صلى الله عليه وسلم دينهم على دين الكفار (١) . فأمة محمد صلى الله عليه وسلم لا يزالون ظاهرين على الحق حتى يأتي أمر الله وهم كذلك وحتى يقاتل آخرهم الدجال مع المسيح عيسى ابن مريم عليه السلام كما وردت بذلك الأحاديث الصحاح .

سورة الجمعة

عن ابن عباس وأبي هريرة رضي الله عنهما : أن رسول الله ﷺ كان يقرأ في صلاة الجمعة بسورة الجمعة والمنافقين ^(١) .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ يَسُبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ لِلَّذِينَ الْأَفْئُوسِ الْغَزِيرِ لِلْكَبِيرِ ① هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيَّةِ رُسُلًا مِنْهُمْ يُتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ② وَآخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا بِهِمْ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ③ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ④ .

يخبر تعالى أنه يسبح له ما في السموات وما في الأرض أي : من جميع المخلوقات ناطقها وجامدها ، ثم قال تعالى : ﴿ أَلَلِّكُمُ الْفُؤُوسِ ① أي : هو مالك السموات والأرض المتصرف فيهما بحكمه ، وهو المقدس أي المنزه عن النقائص الموصوف بصفات الكمال ﴾ الْغَزِيرِ لِلْكَبِيرِ ② تقدم تفسيرهما غير مرة ، وقوله تعالى ﴿ هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيَّةِ رُسُلًا مِنْهُمْ ﴾ الأميون هم العرب كما قال تعالى : ﴿ وَقَدْ لَعُنُوا أُولَئِكَ الْكِتَابَ وَالْأُمِّيَّةِ ③ أَسْلَمُوا فَقَدِ افْتَدُوا وَلَئِنْ قَوْلُوا قَدْ نَمَسْنَا عَلَيْكَ الْبَلْغُ وَاللَّهُ بِعَمْدٍ بِالْأَوْبَادِ ④ وتخصيص الأميين بالذكر لا ينفي من عداهم ولكن المنة عليهم أبلغ وأكثر وهو ذكر لغيرهم يتذكرون به ، وهذا لا ينافي قوله تعالى : ﴿ قَدْ يَأْتِيهَا النَّاسُ إِنْ رُسُلُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ⑤ وقوله تعالى لإخباراً عن القرآن : ﴿ وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ مِنْ الْأَحْزَابِ فَأَلَنَّا مَوْعِدَهُ ⑥ إلى غير ذلك من الآيات الدالة على عموم بعثته صلوات الله وسلامه عليه إلى جميع الخلق أحمرهم وأسودهم .

وهذه الآية هي مصداق إجابة الله لخليله إبراهيم حين دعا لأهل مكة أن يعث الله فيهم رسولاً منهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة ، فبعثه الله سبحانه وتعالى وله الحمد والمنة على حين فترة من الرسل وطموس من السبل ، وقد اشتدت الحاجة إليه وقد مقت الله أهل الأرض عربهم وعجمهم إلا بقايا من أهل الكتاب أي نزرًا يسيرًا ممن تمسك بما بعث الله به عيسى ابن مريم عليه السلام ، ولهذا قال تعالى : ﴿ هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيَّةِ رُسُلًا مِنْهُمْ يُتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ② وذلك أن العرب كانوا قديمًا متمسكين بدين إبراهيم الخليل عليه السلام فبدلوه وغيروه وقلوبه وخالفوه ، واستبدلوا بالتوحيد شركًا وباليقين شكًا ، وابتدعوا أشياء لم يأذن بها الله . وكذلك أهل الكتاب قد بدلوا كتبهم وحرفوها وغيروها وأولوها فبعث الله محمدًا صلوات الله وسلامه عليه بشرع عظيم كامل شامل لجميع الخلق ، فيه هدايتهم ، والبيان لجميع ما يحتاجون إليه من أمر معاشهم ومعادهم والدعوة لهم إلى ما يقربهم إلى الجنة ورضا الله عنهم والنهي عما يقربهم إلى النار وسخط الله تعالى ، حاكم فاصل لجميع الشبهات والشكوك والريب في الأصول والفروع ، وجمع له تعالى وله الحمد والمنة جميع المحاسن ممن كان قبله وأعطاه ما لم يعط أحدًا من الأولين ولا يعطيه أحدًا من الآخرين فصلوات الله وسلامه عليه دائمًا إلى يوم الدين ، وقوله

تعالى : ﴿ وَآخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا بِهِمْ ﴾ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿ . عن أبي هريرة ؓ قال : كنا جلوساً عند النبي ﷺ فأنزلت عليه سورة الجمعة ﴿ وَآخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا بِهِمْ ﴾ قالوا : من هم يا رسول الله ؟ فلم يراجعهم حتى سئل ثلاثاً وفيما سلمان الفارسي فوضع رسول الله ﷺ يده على سلمان الفارسي ثم قال : « لَوْ كَانَ الْإِيمَانُ عِنْدَ الثُّرَيَّا لَتَأَلَّهُ رِجَالٌ - أَوْ رَجُلٌ - مِنْ هَؤُلَاءِ » (١) .

ففي هذا الحديث دليل على أن هذه السورة مدنية وعلى عموم بعثته ﷺ إلى جميع الناس ؛ لأنه فسر قوله تعالى : ﴿ وَآخَرِينَ مِنْهُمْ ﴾ بفارس ولهذا كتب كتبه إلى فارس والروم وغيرهم من الأمم يدعوهم إلى الله ﷻ وإلى اتباع ما جاء به ولهذا قال مجاهد وغير واحد في قوله تعالى : ﴿ وَآخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا بِهِمْ ﴾ قال : هم الأعاجم وكل من صدق النبي ﷺ من غير العرب . وعن سهل بن سعد الساعدي قال : قال رسول الله ﷺ : « إِنَّ فِي أَصْلَابِ أَصْلَابِ رِجَالٍ وَنِسَاءٍ مِنْ أُمَّتِي يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ بِغَيْرِ حِسَابٍ » ثم قرأ ﴿ وَآخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا بِهِمْ ﴾ (٢) يعني بقية من بقي من أمة محمد ﷺ ، وقوله تعالى : ﴿ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ أي ذو العزة والحكمة في شرعه وقدره ، وقوله تعالى : ﴿ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴾ يعني ما أعطاه الله محمداً ﷺ من النبوة العظيمة وما خصَّ به أمته من بعثته ﷺ إليهم .

﴿ مَثَلُ الَّذِينَ خُمِلُوا الثَّورَةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا بِئْسَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَٰلِغِينَ ۝ قُلْ يَأَيُّهَا الَّذِينَ هَادُوا إِنْ زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِيَاءُ لِلَّهِ مِنْ دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوْا الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ۝ وَلَا يَتَمَنَّوْنَهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمْتْ أَيْدِيَهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْفَالِغِينَ ۝ قُلْ إِنْ أَمَوْتُ الْوَدَىٰ تَعْرِفُونَ مِنْهُ فَإِنَّهُ مَلَكٌ مُنْجِيكُمْ ثُمَّ تَرْدُونَ إِلَىٰ عَذَابِ الْعَذَابِ وَالشَّهَادَةُ فَيَنْشُكُّكُمْ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ .

يقول تعالى ذاكاً لليهود الذين أعطوه التوراة وحملوها للعمل بها ثم لم يعملوا بها مثلهم في ذلك كمثل الحمار يحمل أسفاراً ؛ أي كمثل الحمار إذا حمل كتباً لا يدري ما فيها فهو يحملها حملاً حسيّاً ولا يدري ما عليه ، وكذلك هؤلاء في حملهم الكتاب الذي أوتوه حفظوه لفظاً ولم يتفهموه ولا عملوا بمقتضاه ، بل أولوه وحرفوه وبدلوه ، فهم أسوأ حالاً من الحمير ؛ لأن الحمار لا فهم له هؤلاء لهم فهم لم يستعملوها ، وقال تعالى : ﴿ بئسَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَٰلِغِينَ ﴾ . عن ابن عباس قال : قال رسول الله ﷺ : « مَنْ تَكَلَّمَ يَوْمَ الْجُمُعَةِ وَالْإِمَامُ يَخْطُبُ فَهُوَ كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا ، وَالَّذِي يَقُولُ لَهُ أَنْصِتْ ؛ لَيْسَ لَهُ جُمُعَةٌ » (٣) . ثم قال تعالى : ﴿ قُلْ يَأَيُّهَا الَّذِينَ هَادُوا إِنْ زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِيَاءُ لِلَّهِ مِنْ دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوْا الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ أي : إن كنتم تزعمون أنكم على هدى ، وأن محمداً وأصحابه على ضلالة فادعوا بالموت على الضال من الفتيين إن كنتم صادقين ، أي فيما تزعمونه . قال الله تعالى : ﴿ وَلَا يَتَمَنَّوْنَهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمْتْ أَيْدِيَهُمْ ﴾ أي بما يعملون لهم من الكفر والظلم والفجور ﴿ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْفَالِغِينَ ﴾ عن ابن عباس قال : قال أبو جهل لعنه الله : إن رأيت محمداً عند الكعبة لأتينه حتى أطأ على عنقه قال : فقال رسول الله ﷺ :

(١) أخرجه البخاري في تفسير القرآن (٤٨٩٧) ومسلم في فضائل الصحابة (٢٣١) وأحمد في مسنده (٤١٧/٢) .

(٢) أخرجه الطبراني في الكبير (٢٤٨/٦) والهندي في كنز العمال (٣٤٥٧٢) .

(٣) أخرجه أحمد في مسنده (٢٣٠/١) .

« لَوْ فَعَلَ لِأَخَذْتَهُ الْمَلَائِكَةُ عَيْنَانَا ، وَلَوْ أَنَّ الْيَهُودَ تَمَتُّوا الْمَوْتَ لَمَاتُوا وَرَأَوْا مَقَاعِدَهُمْ مِنَ النَّارِ ، وَلَوْ خَرَجَ الَّذِينَ يَظَاهِلُونَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ لَرَجَعُوا لَا يَجِدُونَ أَهْلًا وَلَا مَالًا » (١) .

وقوله تعالى : ﴿ قُلْ إِنَّ الْمَوْتَ الَّذِي تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُ مُلَاقِيكُمْ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ . عن سمرة مرفوعا : « مَثَلُ الَّذِي يَفِرُّ مِنَ الْمَوْتِ كَمَثَلِ الثَّغْلِبِ تَطْلُبُهُ الْأَرْضُ بِدَيْنٍ ، فَجَاءَ يَسْعَى حَتَّىٰ إِذَا أَغْنَىٰ وَانْبَهَرَ دَخَلَ جِحْرَهُ فَقَالَتْ لَهُ الْأَرْضُ : يَا ثَغْلِبُ دَنَيْتِي فَخَرَجَ لَهُ حِصَاصٌ فَلَمْ يَزَلْ كَذَلِكَ حَتَّىٰ تَقَطَّعَتْ عُنُقُهُ فَمَاتَ » (٢) .

﴿ يَتَأْتِيَنَّ الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِنْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ (٣) فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانْتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللَّهِ وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَبِيرًا تَعْلَمُونَ ﴿ فَيُخْرِجُكُمْ ﴾ .
إنما سميت الجمعة جمعة لأنها مشتقة من الجمع ؛ فإن أهل الإسلام يجتمعون في كل أسبوع مرة بالمعابد الكبار وفيه كمل جميع الخلائق فإنه اليوم السادس من السنة التي خلق الله فيها السموات والأرض ، وفيه خلق آدم ، وفيه أدخل الجنة ، وفيه أخرج منها ، وفيه تقوم الساعة ، وفيه ساعة لا يوافقها عبد مؤمن يسأل الله فيها خيرا إلا أعطاه إياه (٤) . وعن سلمان قال : قال أبو القاسم ﷺ : « يَا سَلْمَانُ مَا يَوْمُ الْجُمُعَةِ ؟ » . قلت : الله ورسوله أعلم ، فقال رسول الله ﷺ : « يَوْمُ الْجُمُعَةِ يَوْمُ جَمَعَ اللَّهُ فِيهِ أَبْوَابُكُمْ - أَوْ أَبْوَابُكُمْ » (٥) . وقد كان يقال له في اللغة القديمة يوم العروبة ، وثبت أن الأمم قبلنا أمروا به فضلوا عنه ، واختار اليهود يوم السبت الذي لم يقع فيه خلق آدم ، واختار النصراني يوم الأحد الذي ابتدئ فيه الخلق ، واختار الله لهذه الأمة يوم الجمعة الذي أكمل الله فيه الخليقة ، وروي عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « نَحْنُ الْآخِرُونَ الشَّافِقُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ بَيْنَ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ قَبْلِنَا ، ثُمَّ إِنَّ هَذَا يَوْمُهُمْ الَّذِي فَرَضَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ فَاخْتَلَفُوا فِيهِ ، فَهَدَانَا اللَّهُ لَهُ ، فَالْتَأَسُّ لَنَا فِيهِ تَبَعٌ ، الْيَهُودُ غَدًا ، وَالنَّصَارَى بَعْدَ غَدٍ » (٦) . وفي لفظ : « أَضَلَّ اللَّهُ عَنِ الْجُمُعَةِ مَنْ كَانَ قَبْلَنَا فَكَانَ لِلْيَهُودِ يَوْمُ السَّبْتِ ، وَكَانَ لِلنَّصَارَى يَوْمُ الْأَحَدِ ، فَجَاءَ اللَّهُ بِنَا فَهَدَانَا لِيَوْمِ الْجُمُعَةِ ، فَجَعَلَ الْجُمُعَةَ وَالسَّبْتَ وَالْأَحَدَ وَكَذَلِكَ هُمْ تَبَعٌ لَنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ نَحْنُ الْآخِرُونَ مِنْ أَهْلِ الدُّنْيَا وَالْأَوَّلُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ الْمُقْضَى بَيْنَهُمْ قَبْلَ الْخَلَائِقِ » (٧) . وقد أمر الله المؤمنين بالاجتماع لعبادته يوم الجمعة فقال تعالى : ﴿ يَتَأْتِيَنَّ الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ ﴾ أي اقصدا واعمدوا واهتموا في سيركم إليها ، وليس المراد بالسعي ههنا المشي وإنما هو الاهتمام بها ، وكان عمر بن

(١) أخرجه البخاري في تفسير القرآن (٤٩٥٨) والترمذي في السنن (٣٣٤٨) وأحمد في مسنده (٣٦٨/١) .

(٢) أخرجه الطبراني في الكبير (٢٦٨/٧) والبيهقي في مجمع الزوائد (٣٢٠/٢) .

(٣) راجع الحديث في مسلم في الجمعة (١٧) وأبو داود في السنن (١٠٤٦) والترمذي في السنن (٤٩١) وأحمد في مسنده (٤٠١/٢) والنسائي في السنن (١١٤/٣) .

(٤) أخرجه الحاكم في المستدرك (٢٧٧/١) وابن خزيمة في صحيحه (١٧٤/٢) .

(٥) أخرجه البخاري في الجمعة (٨٩٦) ومسلم في الجمعة (١٩) وابن ماجه في السنن (٤٢٩٠) وأحمد في مسنده (٢٤٩/٢) .

(٦) أخرجه مسلم في الجمعة (٢٢) والنسائي في السنن (٨٧/٣) وابن ماجه في السنن (١٠٨٣) .

الخطاب وابن مسعود رضي الله عنهما يقرآنها - فامضوا إلى ذكر الله - فأما المشي السريع إلى الصلاة فقد نهي عنه لما روي عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « إِذَا أُقِيمَتِ الصَّلَاةُ فَلَا تَأْتُوهَا تَشْعَوْنَ ، وَلَكِنْ ائْتُوهَا تَمْشُونَ وَعَلَيْكُمْ السَّكِينَةُ وَالْوَقَارُ فَمَا أَدْرَكْتُمْ فَصَلُّوا ، وَمَا فَاتَكُمْ فَأْتُوا » ^(١) . قال الحسن : أما والله ما هو بالسعي على الأقدام ولقد نهوا أن يأتوا الصلاة إلا وعليهم السكينة والوقار ولكن بالقلوب والنية والخشوع . وقال قتادة في قوله : ﴿ فَاسْعَوْا إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ ﴾ يعني أن تسعى بقلبك وعملك وهو المشي إليها ، وكان يتأول قوله تعالى : ﴿ فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعَى ﴾ أي المشي معه .

ويستحب لمن جاء إلى الجمعة أن يغتسل قبل مجيئه إليها ، فعن عبد الله بن عمر أن رسول الله ﷺ قال : « إِذَا جَاءَ أَحَدُكُمْ الْجُمُعَةَ فَلْيَغْتَسِلْ » ^(٢) . وعن أبي سعيد رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « غُسْلُ يَوْمِ الْجُمُعَةِ وَاجِبٌ عَلَى كُلِّ مُحْتَلِمٍ » ^(٣) . وعن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « حَقُّ اللَّهِ عَلَى كُلِّ مُسْلِمٍ أَنْ يَغْتَسِلَ فِي كُلِّ سَبْعَةٍ أَيَّامٍ ، يَغْسِلُ رَأْسَهُ وَجَسَدَهُ » ^(٤) . وعن أوس بن أوس الثقفي قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « مَنْ غَسَلَ وَاغْتَسَلَ يَوْمَ الْجُمُعَةِ ، وَبَكَرَ وَاتَّكَرَ وَمَشَى وَلَمْ يَزَكَبْ ، وَدَنَا مِنَ الْإِمَامِ وَاسْتَمَعَ وَلَمْ يَلْغُ ، كَانَ لَهُ بِكُلِّ خُطْوَةٍ أَجْرُ سَنَةٍ ، صِيَامُهَا ، وَفِيَّامُهَا » ^(٥) . وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : إن رسول الله ﷺ قال : « مَنْ اغْتَسَلَ يَوْمَ الْجُمُعَةِ غُسْلَ الْجَنَائَةِ ثُمَّ رَاحَ فِي السَّاعَةِ الْأُولَى فَكَأَنَّمَا قَرَّبَ بَدَنَهُ ، وَمَنْ رَاحَ فِي السَّاعَةِ الثَّانِيَةِ فَكَأَنَّمَا قَرَّبَ بَقَرَةً ، وَمَنْ رَاحَ فِي السَّاعَةِ الثَّالِثَةِ فَكَأَنَّمَا قَرَّبَ كَبْشًا أَقْرَنَ ، وَمَنْ رَاحَ فِي السَّاعَةِ الرَّابِعَةِ فَكَأَنَّمَا قَرَّبَ دَجَاجَةً ، وَمَنْ رَاحَ فِي السَّاعَةِ الْخَامِسَةِ فَكَأَنَّمَا قَرَّبَ بَيْضَةً ، فَإِذَا خَرَجَ الْإِمَامُ خَضَرَتِ الْمَلَائِكَةُ يَسْتَمِعُونَ الذِّكْرَ » ^(٦) . ويستحب له أن يلبس أحسن ثيابه ويتطيب ويتسوك ويتنظف ويتطهر ، وعن أيوب الأنصاري سمعت رسول الله ﷺ يقول : « مَنْ اغْتَسَلَ يَوْمَ الْجُمُعَةِ وَمَسَّ مِنْ طِيبٍ أَهْلِهِ إِنْ كَانَ عَنْدَهُ ، وَلَبَسَ مِنْ أَحْسَنِ ثِيَابِهِ ثُمَّ خَرَجَ حَتَّى يَأْتِيَ الْمَسْجِدَ فَيَرْكَعُ إِنْ بَدَأَ لَهُ وَلَمْ يُؤْذَ أَحَدًا ، ثُمَّ أَتَصَتَّ إِذَا خَرَجَ إِمَامُهُ حَتَّى يُصَلِّيَ ؛ كَانَتْ كَفَّارَةً لِمَا بَيْنَهَا وَبَيْنَ الْجُمُعَةِ الْآخِرَى » ^(٧) .

وعن عائشة رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ خطب الناس يوم الجمعة فرأى عليهم ثياب النمار فقال : « مَا عَلَى أَحَدِكُمْ أَنْ يَجِدَ سَعَةً أَنْ يَتَّخِذَ ثَوْبَيْنِ لْجُمُعَةِ سِوَى ثَوْبَيْ مَهْنَتِهِ » ^(٨) . وقوله تعالى : ﴿ إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ ﴾ المراد بهذا النداء هو النداء الثاني الذي كان يفعل بين يدي رسول الله ﷺ إذا خرج فجلس على المنبر ؛ فإنه كان حينئذ يؤذن بين يديه فهذا هو المراد ، فأما النداء الأول الذي زاده أمير المؤمنين عثمان بن عفان رضي الله عنه فإنما كان هذا لكثرة الناس ، وعن السائب بن يزيد قال : كان النداء يوم

(١) أخرجه البخاري في الجمعة (٩٠٨) ومسلم في المساجد (١٥١) وأبو داود في السنن (٥٧٢) والترمذي في السنن (٣٢٧) .

(٢) أخرجه مالك في الموطأ (١٠٢) وأحمد في مسنده (١٠٥/٢) والدارمي في السنن (٣٦١/١) .

(٣) أخرجه البخاري في الجمعة (٨٧٩) ومسلم في الجمعة (٧) والنسائي في السنن (٩٣/٣) .

(٤) أخرجه أحمد في مسنده (٣٤٢/٢) .

(٥) أخرجه أحمد في مسنده (٢٠٩/٢) والحاكم في المستدرک (٨٢/١) .

(٦) أخرجه البخاري في الجمعة (٨٨١) ومسلم في الجمعة (١٠) والترمذي في السنن (٤٩٩) والنسائي في السنن (٩٩/٣) .

(٧) أخرجه أحمد في مسنده (٤٢٠/٥) . (٨) أخرجه ابن ماجه في السنن (١٠٩٦) .

الجمعة أوله إذا جلس الإمام على المنبر على عهد رسول الله ﷺ وأبي بكر وعمر ، فلما كان عثمان بعد زمن وكثر الناس زاد النداء الثاني على الزوراء^(١) يعني يؤذن به على الدار التي تسمى بالزوراء وكانت أرفع دار بالمدينة بقرب المسجد . وإنما يؤمر بحضور الجمعة الرجال الأحرار دون العبيد والنساء والصبيان ويعذر المسافر والمريض وقيم المريض وما أشبه ذلك من الأعذار كما هو مقرر في كتب الفروع .

وقوله تعالى : ﴿ وَذُرُوا الْبَيْعَ ﴾ أي : اسعوا إلى ذكر الله واتركوا البيع إذا نودي للصلاة ، ولهذا اتفق العلماء ﷺ على تحريم البيع بعد النداء الثاني ، واختلفوا هل يصح إذا تعاطاه متعاط أم لا ؟ على قولين وظاهر الآية عدم الصحة كما هو مقرر في موضعه . وقوله تعالى : ﴿ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ أي ترككم البيع وإقبالكم إلى ذكر الله وإلى الصلاة خير لكم ، أي في الدنيا والآخرة إن كنتم تعلمون . وقوله تعالى : ﴿ فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ ﴾ أي : فرغ منها ﴿ فَانْتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللَّهِ ﴾ لما حجر عليهم في التصرف بعد النداء وأمرهم بالاجتماع ، أذن لهم بعد الفراغ في الانتشار في الأرض والابتغاء من فضل الله كما كان عراك بن مالك ﷺ إذا صلى الجمعة انصرف فوقف على باب المسجد فقال : اللهم إني أجب دعوتك وصليت فريضتك وانتشرت كما أمرتني فارزقني من فضلك وأنت خير الرازقين . وروي عن بعض السلف أنه قال : من باع واشترى في يوم الجمعة بعد الصلاة بارك الله له سبعين مرة ، لقول الله تعالى : ﴿ فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانْتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللَّهِ ﴾ وقوله تعالى : ﴿ وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ أي : في حال بيعكم وشراكم وأخذكم وإعطائكم اذكروا الله ذكراً كثيراً ولا تشغلكم الدنيا عن الذي ينفعكم في الدار الآخرة . وقال مجاهد : لا يكون العبد من الذاكرين الله كثيراً حتى يذكر الله قائماً وقاعداً ومضطجعاً .

﴿ وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْوًا انفَضُّوا إِلَيْهَا وَتَرَكُوكَ قَائِمًا قُلْ مَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ مِنَ اللَّهْوِ وَمِنَ التِّجَارَةِ وَاللَّهُ خَيْرُ الرَّازِقِينَ ﴾ . يعاتب تبارك وتعالى على ما كان وقع من الانصراف عن الخطبة يوم الجمعة إلى التجارة التي قدمت المدينة يومئذ فقال تعالى : ﴿ وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْوًا انفَضُّوا إِلَيْهَا وَتَرَكُوكَ قَائِمًا ﴾ أي : على المنبر تخطب ، هكذا ذكره غير واحد من التابعين ، وزعم مقاتل بن حيان أن التجارة كانت لدحية بن خليفة قبل أن يسلم وكان معها طبل فانصرفوا إليها وتركوا رسول الله ﷺ قائماً على المنبر إلا القليل منهم وقد صح بذلك الخبر . فعن جابر قال : قدمت غير مرة المدينة ورسول الله ﷺ يخطب فخرج الناس وبقي اثنا عشر رجلاً فنزلت ﴿ وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْوًا انفَضُّوا إِلَيْهَا ﴾^(٢) . وعن جابر بن عبد الله قال : بينما النبي ﷺ يخطب يوم الجمعة فقدمت غير إلى المدينة فابتدروا أصحاب رسول الله ﷺ حتى لم يبق مع رسول الله ﷺ إلا اثنا عشر رجلاً . فقال رسول الله ﷺ : « وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَوْ تَابَعْتُمْ حَتَّى لَمْ يَبْقَ مِنْكُمْ أَحَدٌ لَسَالَكُمْ الْوَادِي نَارًا » ونزلت هذه الآية ﴿ وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْوًا انفَضُّوا إِلَيْهَا وَتَرَكُوكَ قَائِمًا ﴾^(٣) . وقال : كان في الاثني عشر الذين ثبتوا مع رسول الله ﷺ : أبو بكر وعمر ﷺ ، وفي قوله تعالى :

(١) أخرجه البخاري في الجمعة (٩١٢) .

(٢) أخرجه البخاري في تفسير القرآن (٤٨٩٩) وأحمد في مسنده (٣١٣/٣) .

(٣) أخرجه أبو يعلى في مسنده (١٩٧٩) بلفظه ، وبنحوه البخاري في الجمعة (٩٣٦) والترمذي في سننه (٣٣٠٨) والدارقطني في سننه (٥/٢) .

﴿ وَرَكَوعًا قَائِمًا ﴾ دليل على أن الإمام يخطب يوم الجمعة قائمًا . فعن جابر بن سمرة قال : كانت للنبي ﷺ خطبتان يجلس بينهما يقرأ القرآن ويذكر الناس ^(١) ولكن ههنا شيء ينبغي أن يعلم وهو أن القصة قد قيل إنها كانت لما كان رسول الله ﷺ يقدم الصلاة يوم الجمعة على الخطبة ، وعن أبي معاذ بكير بن معروف أنه سمع مقاتل بن حيان يقول : كان رسول الله ﷺ يصلي يوم الجمعة قبل الخطبة مثل العيدين حتى إذا كان يوم والنبي ﷺ يخطب وقد صلى الجمعة فدخل رجل فقال : إن دحية بن خليفة قد قدم بتجارة ، يعني فانفضوا ولم يبق معه إلا نفر يسير ^(٢) . وقوله تعالى : ﴿ قُلْ مَا عِنْدَ اللَّهِ ﴾ أي الذي عند الله من الثواب في الدار الآخرة ﴿ خَيْرٌ مِنَ اللَّهِو وَمِنَ النَّجْوَى وَاللَّهُ خَيْرُ الرَّزِقِينَ ﴾ أي لمن توكل عليه وطلب الرزق في وقته .

(١) أخرجه البيهقي في السنن (٢١٠/٣) .

(٢) ذكره السيوطي في الدر المنثور (٢٢٠/٦) .

﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ اللَّهِ لَوَّاْ رُءُوسَهُمْ وَرَأَيْنَهُمْ يَصُدُّونَ وَهُمْ مُسْتَكْبِرُونَ ۝ سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ۝ هُمْ الَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنْفِقُوا عَلَى مَنْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ حَتَّى يَنْفَضُوا ۝ وَاللَّهُ خَزَائِنُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَكِنَّ الْفَاسِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ ۝ يَقُولُونَ لِنْ رَجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَّ ۝ وَلِلَّهِ الْكَرَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلَّذِينَ آمَنُوا وَلِلَّذِينَ آمَنُوا وَلِلَّذِينَ آمَنُوا ۝ ﴾

يقول تعالى مخبراً عن المنافقين عليهم لعائن الله أنهم ﴿ إِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ اللَّهِ لَوَّاْ رُءُوسَهُمْ ﴾ أي صدوا وأعرضوا عما قيل لهم استكباراً عن ذلك واحتقاراً لما قيل لهم ولهذا قال تعالى : ﴿ وَرَأَيْنَهُمْ يَصُدُّونَ وَهُمْ مُسْتَكْبِرُونَ ﴾ ثم جازاهم على ذلك فقال تعالى : ﴿ سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴾ .

وقال سفيان ﴿ لَوَّاْ رُءُوسَهُمْ ﴾ قال ابن أبي عمر : حوّل سفيان وجهه على يمينه ونظر بعينه شزراً ثم قال : هو هذا . وقد ذكر غير واحد من السلف أن هذا السياق كله في عبد الله بن أبي ابن سلول . قال قتادة والسدي : أنزلت هذه الآية في عبد الله بن أبي وذلك أن غلاماً من قرابته انطلق إلى رسول الله ﷺ فحدثه بحديث عنه وأمر شديد ، فدعاه رسول الله ﷺ فإذا هو يحلف بالله ويتبرأ من ذلك وأقبلت الأنصار على ذلك الغلام فلاموه وعزلوه وأنزل الله فيه ما تسمعون ، وقيل لعدو الله : لو أتيت رسول الله ﷺ فجعل يلوي رأسه ، أي لست فاعلاً ^(١) .

وعن جابر بن عبد الله قال : كنا مع رسول الله ﷺ في غزاة فكسع رجل من المهاجرين رجلاً من الأنصار . فقال الأنصاري : يا للأنصار ، وقال المهاجري : يا للمهاجرين ، فقال رسول الله ﷺ : « مَا بَالُ دَعْوَى الْجَاهِلِيَّةِ ؟ دَعْوَاهَا فَإِنَّهَا مُتَّبَعَةٌ » ، وقال عبد الله بن أبي ابن سلول وقد فعلوها ، والله لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل ، قال جابر : وكان الأنصار بالمدينة أكثر من المهاجرين حين قدم رسول الله ﷺ ثم كثر المهاجرون بعد ذلك . فقال عمر : دعني أضرب عنق هذا المنافق ، فقال رسول الله ﷺ : « دَعُوهُ لَا يَخْذُلُ النَّاسَ أَنْ مُحَمَّدًا يَقْتُلُ أَصْحَابَهُ » ^(٢) .

وعن زيد بن أرقم قال : خرجت مع عمي في غزاة فسمعت عبد الله بن أبي ابن سلول يقول لأصحابه : لا تنفقوا على من عند رسول الله ، ولئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل ، فذكرت ذلك لعمي ، فذكره عمي لرسول الله ﷺ فأرسل إليّ رسول الله ﷺ فحدثته فأرسل إلى عبد الله بن أبي ابن سلول وأصحابه فحلفوا بالله ما قالوا ، فكذبني رسول الله ﷺ وصدقه فأصابني هم لا يصبني مثله قط وجلست في البيت فقال عمي : ما أردت إلا أن كذبك رسول الله ﷺ ومقتك ! قال : حتى أنزل الله : ﴿ إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ ﴾ قال : فبعث إليّ رسول الله ﷺ فقرأها رسول الله ﷺ علي ثم قال : « إِنَّ اللَّهَ قَدْ صَدَّقَكَ » ^(٣) .

(١) أسباب النزول للنيسابوري (ص : ٢٣٧ ، ٢٣٨) .

(٢) أخرجه البخاري في تفسير القرآن (٤٩٠٥) ومسلم في البر والصلة (٦٣) والترمذي في السنن (٣٣١٥) وأحمد في مسنده (٣٩٣/٣) .

(٣) أخرجه البخاري في تفسير القرآن (٤٩٠٠) .

وقوله تعالى : ﴿ كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَاهِ ﴾ قال : كانوا رجالاً أجمل شيء (١) .

وعن عروة بن الزبير وعمر بن ثابت الأنصاري أن رسول الله ﷺ غزا غزوة المريسيع وهي التي هدم رسول الله ﷺ فيها مائة الطاغية التي كانت بين قفا المشلل وبين البحر فبعث رسول الله ﷺ خالد بن الوليد فكسر مائة ، فاقتتل رجالان في غزوة رسول الله ﷺ تلك أحدهما من المهاجرين والآخر من بهز ، وهم حلفاء الأنصار فاستعلى الرجل الذي من المهاجرين على البهزي ، فقال البهزي : يا معشر الأنصار ، فنصره رجال من الأنصار . وقال المهاجري : يا معشر المهاجرين فنصره رجال من المهاجرين حتى كان بين أولئك الرجال من المهاجرين والرجال من الأنصار شيء من القتال ، ثم حجز بينهم ، فانكفأ كل منافق أو رجل في قلبه مرض إلى عبد الله بن أبي ابن سلول فقال : قد كنت ترجى وتدفع ، فأصبحت لا تضر ولا تنفع ، قد تناصرت علينا الجلابيب وكانوا يدعون كل حديث الهجرة الجلابيب ، فقال عبد الله بن أبي عبد الله : والله لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعرض منها الأذل . قال مالك بن الدخشن - وكان من المنافقين - : ألم أقل لكم لا تنفقوا على من عند رسول الله حتى ينفضوا ؟ فسمع بذلك عمر بن الخطاب فأقبل يمشي حتى أتى رسول الله ﷺ فقال : يا رسول الله ائذن لي في هذا الرجل الذي قد أفتن الناس أضرب عنقه - يريد عمر عبد الله بن أبي - فقال رسول الله ﷺ لعمر : « أَوْ قَاتِلُهُ أَنْتَ إِنْ أَمَرْتُكَ بِقَتْلِهِ ؟ » . قال عمر : نعم لئن أمرني بقتله لأضربن عنقه ، فقال رسول الله ﷺ : « اجلس » . فأقبل أسيد بن حضير وهو أحد الأنصار ثم أحد بني عبد الأشهل حتى أتى رسول الله ﷺ فقال : يا رسول الله ائذن لي في هذا الرجل الذي قد أفتن الناس أضرب عنقه . قال رسول الله ﷺ : « أَوْ قَاتِلُهُ أَنْتَ إِنْ أَمَرْتُكَ بِقَتْلِهِ ؟ » . قال : نعم والله لئن أمرني بقتله لأضربن بالسيف تحت قرط أذنيه ، فقال رسول الله ﷺ : « اجلس » . ثم قال رسول الله ﷺ : « إِذْثُوبًا بِالرَّحِيلِ » فهجر بالناس فصار يومه وليلته والغد حتى متع النهار ، ثم نزل ثم هجر بالناس مثلها حتى صبح بالمدينة في ثلاثة سارها من قفا المشلل ، فلما قدم رسول الله ﷺ المدينة أرسل إلى عمر فدعاه فقال له رسول الله ﷺ : « أَيُّ غَمْرٍ أَكُنْتُ قَاتِلُهُ لَوْ أَمَرْتُكَ بِقَتْلِهِ ؟ » قال عمر : نعم ، فقال رسول الله ﷺ : « وَاللَّهِ لَوْ قَتَلْتَهُ يَوْمَئِذٍ لَأَزَعَمْتُ أَنْتُوفَ رِجَالٍ لَوْ أَمَرْتُهُمْ الْيَوْمَ بِقَتْلِهِ لَقَتَلُوهُ ، فَيَتَحَدَّثُ النَّاسُ أَنِّي قَدْ وَقَعْتُ عَلَى أَصْحَابِي فَأَقْتُلُهُمْ صَبْرًا » . وأنزل الله ﷻ ﴿ هُمُ الَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنْفِقُوا عَلَى مَنْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ حَتَّى يَنْفَضُوا ﴾ إلى قوله : ﴿ يَقُولُونَ لَيْنَ رَجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ ﴾ (٢) الآية .

وعن عاصم بن عمر بن قتادة أن عبد الله بن عبد الله بن أبي لما بلغه ما كان من أمر أبيه أتى رسول الله ﷺ فقال : يا رسول الله إنه بلغني أنك تريد قتل عبد الله بن أبي فيما بلغك عنه ، فإن كنت فاعلاً فمرني به فأنا أحمل إليك رأسه ، فوالله لقد علمت الخزرج ما كان لها من رجل أبر بوالده مني ، إنني أخشى أن تأمر به غيري فيقتله فلا تدعني نفسي أنظر إلى قاتل عبد الله بن أبي

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٣٧٣/٤) .

(٢) سيرة ابن هشام (٣٠٣/٣ - ٣٠٤) .

يمشي في الناس فأقتله فأقتل مؤمناً بكافر ، فأدخل النار ، فقال رسول الله ﷺ : « بَلْ تَنَزَّعَتْ بِهِ وَتُحْسِنُ صُحْبَتَهُ مَا بَقِيَ مَعَنَا » . وذكر عكرمة وابن زيد وغيرهما أن الناس لما قفلوا راجعين إلى المدينة وقف عبد الله بن عبد الله هذا على باب المدينة واستل سيفه فجعل الناس يملكون عليه فلما جاء أبوه عبد الله بن أبي قال له ابنه : وراءك ، فقال : ما لك ويليک ؟ فقال : والله لا تجوز من ههنا حتى يأذن لك رسول الله ﷺ فإنه العزيز وأنت الذليل ، فلما جاء رسول الله ﷺ وكان إنما يسير ساقية فشكا إليه عبد الله بن أبي ابنه ، فقال ابنه عبد الله : والله يا رسول الله لا يدخلها حتى تأذن له فأذن له رسول الله ﷺ ، فقال : أما إذا أذن لك رسول الله ﷺ فجز الآن ^(١) .

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ۝ وَأَنْفِقُوا مِنْ مَا رَزَقْنَاكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِكُمْ أَلْمُوتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَا أَخَّرْتَنِي إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصْدَقَ وَكُنْ مِنَ الصَّالِحِينَ ۝ وَلَنْ يُؤَخَّرَ اللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَاءَ أَجَلُهَا وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ۝ ﴾ .

يقول تعالى أمراً لعباده المؤمنين بكثرة ذكره ، ونهايتهم عن أن تشغلهم الأموال والأولاد عن ذلك ، ومخبراً لهم بأنه من انتهى بمتاع الحياة الدنيا وزينتها عما خلق له من طاعة ربه وذكره فإنه من الخاسرين الذين يخسرون أنفسهم وأهلهم يوم القيامة ، ثم حثهم على الإنفاق في طاعته . فقال : ﴿ وَأَنْفِقُوا مِنْ مَا رَزَقْنَاكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِكُمْ أَلْمُوتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَا أَخَّرْتَنِي إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصْدَقَ وَكُنْ مِنَ الصَّالِحِينَ ۝ ﴾ فكل مفرط يندم عند الاحتضار ويسأل طول المدة ولو شيئاً يسيراً ليستعقب ويستدرك ما فاتته وهيئات ، كان ما كان أوتي ما هو آت ، وكل بحسب تفریطه ، أما الكفار فكما قال تعالى : ﴿ وَأَنْذِرِ النَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ الْعَذَابُ فَيَقُولُ الَّذِينَ ظَلَمُوا رَبَّنَا أَخِّرْنَا إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ نُجِبِ دَعْوَتَكَ وَنَتَّبِعِ الرَّسُولَ اأَوْفَعْنَا نَكُونُوا أَقْسَمْتُمْ مِنْ قَبْلِ مَا لَكُم مِّنْ زَوَالٍ ۝ ﴾ ثم قال تعالى : ﴿ وَلَنْ يُؤَخَّرَ اللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَاءَ أَجَلُهَا وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ۝ ﴾ أي : لا ينظر أحداً بعد حلول أجله . وهو أعلم وأخبر بمن يكون صادقاً في قوله وسؤاله ممن لو رد لعاد إلى شر مما كان عليه ، ولهذا قال تعالى : ﴿ وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ۝ ﴾ . عن ابن عباس قال : من كان له مال يبلغه حج بيت ربه أو تجب عليه فيه زكاة فلم يفعل سأل الرجعة عند الموت . فقال رجل : يا ابن عباس اتق الله فإنما يسأل الرجعة الكفار ، فقال : سأتلوا عليك بذلك قرآناً ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ۝ وَأَنْفِقُوا مِنْ مَا رَزَقْنَاكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِكُمْ أَلْمُوتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَا أَخَّرْتَنِي إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصْدَقَ وَكُنْ مِنَ الصَّالِحِينَ ۝ ﴾ إلى قوله : ﴿ وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ۝ ﴾ قال : فما يوجب الزكاة ؟ قال : إذا بلغ المال مائتين فصاعداً ، قال : فما يوجب الحج ؟ قال : الزاد والبعير ^(٢) .

(١) سيرة ابن هشام (٣/ ٣٠٥) .

(٢) أخرجه الترمذي في السنن (١٣١٦) .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَدُّ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١﴾ هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ فَتَكُونُ كَافِرٌ وَمِنْكُمْ مُؤْمِنٌ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٢﴾ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ ﴿٣﴾ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُنْصِرُونَ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿٤﴾ .

هذه السورة هي آخر المسبحات وقد تقدم الكلام على تسبيح المخلوقات لبارئها ومالكها ، ولهذا قال تعالى : ﴿لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَدُّ﴾ أي هو المتصرف في جميع الكائنات ، المحمود على جميع ما يخلقه ويقدره وقوله تعالى : ﴿وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ أي : مهما أراد كان بلا ممانع ولا مدافع وما لم يشأ لم يكن . وقوله تعالى : ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ فَتَكُونُ كَافِرٌ وَمِنْكُمْ مُؤْمِنٌ﴾ أي : هو الخالق لكم على هذه الصفة وأراد منكم ذلك فلا بد من وجود مؤمن وكافر ، وهو البصير بمن يستحق الهداية ممن يستحق الضلال ، وهو شهيد على أعمال عباده وسيجزيهم بها أتم الجزاء ، ولهذا قال تعالى : ﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ ثم قال تعالى : ﴿خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ﴾ أي بالعدل والحكمة ﴿وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ﴾ أي أحسن أشكالكم . وقوله تعالى : ﴿وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ﴾ أي المرجع والمآب . ثم أخبر تعالى عن علمه بجميع الكائنات السماوية والأرضية والنفسية فقال تعالى : ﴿يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُنْصِرُونَ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ .

﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ فَذَاقُوا وَبَالَ أَمْرِهمْ وَلَمْ يَكُنْ عَلَيْهِمْ آيَةٌ ﴿١﴾ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانَتْ تَأْتِيهِمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَقَالُوا أَبَشَرٌ يَهْدُونَنَا فَكُفِّرُوا وَتَوَلَّوْا وَاسْتَفْتَى اللَّهُ وَاللَّهُ عَنِّي حَيْدٌ ﴿٢﴾ .

يقول تعالى مخبراً عن الأمم الماضية وما حلَّ بهم من العذاب والنكال في مخالفة الرسل والتكذيب بالحق فقال تعالى : ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ﴾ أي : خبرهم وما كان من أمرهم ﴿فَذَاقُوا وَبَالَ أَمْرِهمْ﴾ أي : وخيم تكذيبهم ورديء أفعالهم ، وهو ما حلَّ بهم في الدنيا من العقوبة والحزى ﴿وَلَمْ يَكُنْ عَلَيْهِمْ آيَةٌ﴾ أي : في الدار الآخرة مضاف إلى هذا الدنيوي . ثم علل ذلك فقال : ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانَتْ تَأْتِيهِمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ﴾ أي بالحجج والدلائل والبراهين ﴿فَقَالُوا أَبَشَرٌ يَهْدُونَنَا﴾ أي استبعدوا أن تكون الرسالة في البشر وأن يكون هداهم على يدي بشر مثلهم ﴿فَكَفَرُوا وَتَوَلَّوْا﴾ أي : كذبوا بالحق ونكلوا عن العمل ﴿وَاسْتَفْتَى اللَّهُ﴾ أي عنهم ﴿وَاللَّهُ عَنِّي حَيْدٌ﴾ .

﴿زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ لَنْ يُعَذِّبَهُمُ اللَّهُ بِمَا عَمِلُوا وَلَئِنْ رَأَوْا وَعْدًا عَلَى اللَّهِ يُعِيدُهُ ﴿١﴾ قَالُوا يَا اللَّهِ رُسُلُهُمُ وَالَّذِي أَنزَلْنَا وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٢﴾ يَوْمَ يَجْمَعُكُمُ لِيَوْمِ الْجَمْعِ ذَلِكَ يَوْمُ الْقَائِمِ وَمَنْ يُؤْمِنِ بِاللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا يَكْفُرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ وَيُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿٣﴾ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ خَالِدِينَ فِيهَا وَبَشَ الْمَصِيرُ ﴿٤﴾ .

يقول تعالى مخبراً عن الكفار والمشركين والملحدين إنهم يزعمون أنهم لا يعذبون ﴿لَنْ يُعَذِّبَهُمُ اللَّهُ﴾ قل بلى وربِّي لَنُعَذِّبَنَّهمُ ﴿يَوْمَ يَجْمَعُكُمُ لِيَوْمِ الْجَمْعِ﴾ أي لتخبرن بجميع أعمالكم جليلها وحقيها ، صغيرها وكبيرها ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ خَالِدِينَ فِيهَا وَبَشَ الْمَصِيرُ﴾ أي لتخبرن بجميع أعمالكم جليلها وحقيها ، صغيرها وكبيرها ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ خَالِدِينَ فِيهَا وَبَشَ الْمَصِيرُ﴾ .

يَسِيرٌ ﴿١١﴾ أَي بَعَثَكُمْ وَمَجَازَاتِكُمْ ، وَهَذِهِ هِيَ الْآيَةُ الثَّلَاثَةُ الَّتِي أَمَرَ اللَّهُ رَسُولَهُ ﷺ أَنْ يَقْسِمَ بِرَبِّهِ ﷻ عَلَى وَقُوعِ الْمَعَادِ وَوُجُودِهِ ، فَالْأُولَى فِي سُورَةِ يُونس ﴿١٢﴾ وَيَسْتَأْذِنُكَ أَحَقُّ هُوَ قُلْ إِي وَرَبِّي إِنَّهُ لَحَقٌّ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ ﴿١٣﴾ وَالثَّانِيَةُ فِي سُورَةِ سَبَأٍ ﴿١٤﴾ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَأْتِينَا السَّاعَةُ قُلْ بَلَى وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ ﴿١٥﴾ الْآيَةُ ، وَالثَّلَاثَةُ هِيَ هَذِهِ ﴿١٦﴾ زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ لَنْ يُبْعَثُوا قُلْ بَلَى وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنْتَوْنَ بِمَا عَمِلْتُمْ وَذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴿١٧﴾ .

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى : ﴿ فَتَأْتُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ . وَالتُّورِ الَّتِي أَنْزَلْنَا ﴾ ﴿١٨﴾ يَعْنِي الْقُرْآنَ ﴿١٩﴾ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٢٠﴾ أَي فَلَا تَخْفَى عَلَيْهِ مِنْ أَعْمَالِكُمْ خَافِيَةٌ . وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ يَوْمَ يَجْمَعُكُمُ لِلْيَوْمِ الْجَمْعِ ﴾ وَهُوَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ سَمِي بِذَلِكَ لِأَنَّهُ يَجْمَعُ فِيهِ الْأَوَّلُونَ وَالْآخِرُونَ فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ يَسْمَعُهُمُ الدَّاعِي وَيُنْفِذُهُمُ الْبَصَرُ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ ذَٰلِكَ يَوْمُ التَّغَابُنِ ﴾ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ : هُوَ اسْمٌ مِنْ أَسْمَاءِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَذَلِكَ أَنَّ أَهْلَ الْجَنَّةِ يَغْبِنُونَ أَهْلَ النَّارِ . وَقَالَ مِقَاتِلُ بْنُ حَيَّانٍ : لَا غَبْنَ أَعْظَمُ مِنْ أَنْ يَدْخُلَ هَؤُلَاءِ إِلَى الْجَنَّةِ وَيَذْهَبَ بِأُولَئِكَ إِلَى النَّارِ . قُلْتُ : وَقَدْ فُسِّرَ ذَلِكَ بِقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ وَيَعْمَلْ سَلَامًا فَلْيَعْلَمْ إِنَّ اللَّهَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى سَمَائِهِ وَدُنْيَاهُ إِنَّ اللَّهَ يُخَبِّرُ نَبِيَّهَا بِمَا اتَّخَذَتْ خَلْدَيْكَ فِيهَا أَدْبَأُ ذَٰلِكَ الْقُرْآنَ الْعَظِيمَ ﴿٢١﴾ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ خَلْدِينَ فِيهَا وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴾ .

﴿ مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ اللَّهُ قَلْبَهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ ﴿٢٢﴾ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَإِنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا الْبَلَاءُ الْمُنِيبُ ﴿٢٣﴾ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَعَلَىٰ اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴿٢٤﴾ .

قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ : بِأَمْرِ اللَّهِ يَعْنِي عَنْ قُدْرَةِ وَمَشِيقَتِهِ ﴿ وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ اللَّهُ قَلْبَهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ أَي : وَمَنْ أَصَابَتْهُ مُصِيبَةٌ فَلَعَلَّهَا أَنَّهَا بِقَضَاءِ اللَّهِ وَقُدْرَةِ فَصِيرٍ وَاحْتِسَابٍ وَاسْتِسْلَامٍ لِقَضَاءِ اللَّهِ هَدَى اللَّهُ قَلْبَهُ . وَعَوَظُهُ عِمَّا فَاتَهُ مِنَ الدُّنْيَا هَدَىٰ فِي قَلْبِهِ وَيَقِينًا صَادِقًا ، وَقَدْ يَخْلَفُ عَلَيْهِ مَا كَانَ أَخَذَ مِنْهُ أَوْ خَيْرًا مِنْهُ . وَعَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ ﴿ وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ اللَّهُ قَلْبَهُ ﴾ يَعْنِي يَهْدِي قَلْبَهُ لِلْيَقِينِ فَيَعْلَمُ أَنَّ مَا أَصَابَهُ لَمْ يَكُنْ لِيَخْطِئْهُ وَمَا أَخْطَأَهُ لَمْ يَكُنْ لِيُصِيبْهُ .

وَعَنْ أَبِي ظَبْيَانَ قَالَ : كُنَّا عِنْدَ عُلُقَمَةَ فَقُرئَ عِنْدَهُ هَذِهِ الْآيَةُ ﴿ وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ اللَّهُ قَلْبَهُ ﴾ فَسُئِلَ لِمَنْ ذَلِكَ فَقَالَ : هُوَ الرَّجُلُ تَصْبِيهِهُ الْمَصِيبَةُ فَيَعْلَمُ أَنَّهَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ فَيَرْضَىٰ وَيُسَلِّمُ . وَقَالَ سَعِيدُ بْنُ جَبْرِ وَمِقَاتِلُ بْنُ حَيَّانٍ ﴿ وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ اللَّهُ قَلْبَهُ ﴾ يَعْنِي يَسْتَرْجِعُ يَقُولُ : ﴿ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ﴾ .

وَفِي الْحَدِيثِ الْمُتَّفَقِ عَلَيْهِ : « عَجَبًا لِلْمُؤْمِنِ لَا يَقْضِي اللَّهُ لَهُ قَضَاءً إِلَّا كَانَ خَيْرًا لَهُ ؛ إِنْ أَصَابَتْهُ ضَرَاءٌ صَبَرَ فَكَانَ خَيْرًا لَهُ ، وَإِنْ أَصَابَتْهُ سَرَاءٌ شَكَرَ فَكَانَ خَيْرًا لَهُ ، وَلَيْسَ ذَلِكَ لِأَحَدٍ إِلَّا لِلْمُؤْمِنِ » ^(١) .

وَعَنْ عِبَادَةَ بْنِ الصَّامِتِ قَالَ : إِنْ رَجَلًا أَتَى رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ : يَا رَسُولَ اللَّهِ أَيُّ الْعَمَلِ أَفْضَلُ ؟ قَالَ : « إِيْمَانٌ بِاللَّهِ وَتَصَدِيقٌ بِهِ وَجِهَادٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ » . قَالَ : أُرِيدُ أَهْوَنَ مِنْ هَذَا يَا رَسُولَ اللَّهِ . قَالَ : « لَا تَتَّبِعِ اللَّهَ فِي شَيْءٍ قَضَىٰ لَكَ بِهِ » ^(٢) .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ ﴾ ﴿٢٥﴾ أَمْرٌ بِطَاعَةِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ فِيمَا شَرَعَ وَفَعَلَ مَا بِهِ أَمْرٌ ، وَتَرَكَ مَا عَنْهُ نَهْيٌ وَزَجْرٌ ثُمَّ قَالَ تَعَالَى : ﴿ فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَإِنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا الْبَلَاءُ الْمُنِيبُ ﴾ أَي إِنْ نَكَلْتُمْ

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٢٤/٥) والألباني في الصحيحة (١٤٨) .

(٢) أخرجه أحمد في مسنده (٣١٨/٥) .

عن العمل فإنما عليه ما حمل من البلاغ وعليكم ما حملتم من السمع والطاعة . قال الزهري : من الله الرسالة وعلى الرسول البلاغ وعلىنا التسليم .

ثم قال تعالى مخبراً أنه الأحد الصمد الذي لا إله غيره فقال تعالى : ﴿ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴾ فالأول خبر عن التوحيد ومعناه معنى الطلب أي وحدوا الإلهية له ، وأخلصوها لديه ، وتوكلوا عليه .

﴿ يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنَ آزْوَاجِهِمْ وَآلِدِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ وَإِنْ تَعَفَّوْا وَتَصَفَّحُوا وَتَغْفِرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ (١) إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ وَاللَّهُ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ (٢) فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ وَأَسْمِعُوا وَأَطِيعُوا وَأَنِفُوا حَبْرًا لِأَنفُسِكُمْ وَمَنْ يُوَفِّ شَيْءَ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (٣) إِنْ تَقَرَّضُوا لِلَّهِ قَرْضًا حَسَنًا يَضَعِفْهُ لَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ شَكُورٌ حَلِيمٌ (٤) عَلَيْهِ الْعَقِيبُ وَالشَّهَادَةُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ .

يقول تعالى مخبراً عن الأزواج والأولاد أن منهم من هو عدو الزوج والولد بمعنى أنه يلتهم به عن العمل الصالح ولهذا قال تعالى ﴿ فَاحْذَرُوهُمْ ﴾ قال ابن زيد : يعني على دينكم ، وقال مجاهد : ﴿ إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ ﴾ قال : يحمل الرجل على قطيعة الرحم أو معصية ربه فلا يستطيع الرجل مع حبه إلا أن يطيعه . وسئل ابن عباس عن هذه الآية ﴿ يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنَ آزْوَاجِهِمْ وَآلِدِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ ﴾ قال : فهؤلاء رجال أسلموا من مكة فأرادوا أن يأتوا رسول الله ﷺ فأبى أزواجهم وأولادهم أن يدعوه ، فلما أتوا رسول الله ﷺ رأوا الناس قد فقهوا في الدين ، فهموا أن يعاقبهم ، فأنزل الله تعالى هذه الآية ﴿ وَإِنْ تَعَفَّوْا وَتَصَفَّحُوا وَتَغْفِرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ (١) .

وقوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ وَاللَّهُ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴾ يقول تعالى : إنما الأموال والأولاد فتنة أي اختبار وابتلاء من الله تعالى لخلقه ليعلم من يطيعه ممن يعصيه . وقوله تعالى ﴿ وَاللَّهُ عِنْدَهُ ﴾ أي يوم القيامة ﴿ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴾ عن أبي بريدة قال : كان رسول الله ﷺ يخطب فجاء الحسن والحسين رضي الله عنهما عليهما قميصان أحمران يمشيان ويعثران فنزل رسول الله ﷺ من المنبر فحملهما فوضعهما بين يديه ثم قال : « صَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ ، نَظَرْتُ إِلَى هَذَيْنِ الصَّبِيَّيْنِ يَمْشِيَانِ وَيَعْتَرَانِ ، فَلَمْ أَصْبِرْ حَتَّى قَطَعْتُ حَدِيثِي وَرَفَعْتُهُمَا » (٢) . وعن الأشعث بن قيس قال : قدمت على رسول الله ﷺ في وفد كندة فقال لي : « هَلْ لَكَ مِنْ وَلَدٍ ؟ » قلت : غلام ولد لي في مخرجي إليك من ابنة حمد ، ولوددت أن بمكانه سبع القوم فقال : « لَا تَقُولَنَّ ذَلِكَ ؛ فَإِنَّ فِيهِمْ قُوَّةَ عَيْنٍ وَأَجْرًا إِذَا قُبِضُوا » ، ثم قال : « وَلَئِنْ قُلْتَ ذَاكَ إِنَّهُمْ لِحَبَّةُ مَخْرَجَةٍ » (٣) . وعن أبي مالك الأشعري أن رسول الله ﷺ قال : « لَيْسَ عَدُوُّكَ الَّذِي إِنْ قَتَلْتَهُ كَانَ فَوْزًا لَكَ ، وَإِنْ قَتَلَكَ دَخَلْتَ الْجَنَّةَ ، وَلَكِنَّ الَّذِي لَعَلُّهُ عَدُوٌّ لَكَ وَلَذَلِكَ الَّذِي خَرَجَ مِنْ صُلْبِكَ ، ثُمَّ أَغْدَى عَدُوٌّ لَكَ مَالِكُ الَّذِي مَلَكَتْ يَمِينُكَ » (٤) .

(١) أخرجه الترمذي في السنن (٣٣١٧) .

(٢) أخرجه الترمذي في السنن (٣٧٧٤) وابن ماجه في السنن (٣٦٠٠) والحاكم في المستدرک (٢٨٧/١) وأحمد في مسنده (٣٥٤/٥) .

(٣) أخرجه أحمد في مسنده (٣٥/٥) .

(٤) أخرجه الطبراني في الكبير (٣٣٤/٣) والمنذري في الترغيب والترهيب (١٨٢/٤) .

وقوله تعالى : ﴿ فَانْقُرُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ ﴾ أي جهدكم وطاقتكم . عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « إِذَا أَمَرْتُكُمْ بِأَمْرٍ فَأَتُوا مِنْهُ مَا اسْتَطَعْتُمْ ، وَمَا نَهَيْتُكُمْ عَنْهُ فَاجْتَنِبُوهُ » ^(١) . وقد قال بعض المفسرين : إن هذه الآية ناسخة للتي في آل عمران وهي قوله تعالى : ﴿ يَتَأْتِيَ الَّذِينَ آمَنُوا أَنَّوَا اللَّهَ حَقَّ تَعَالِيهِ وَلَا تُؤْمِنُ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ﴾ . عن سعيد بن جبير في قوله ﴿ انْقُرُوا اللَّهَ حَقَّ تَعَالِيهِ وَلَا تُؤْمِنُ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ﴾ قال : لما نزلت هذه الآية اشتد على القوم العمل فقاموا حتى ورمت عراقيهم وتقرحت جباههم فأنزل الله تعالى هذه الآية تخفيفاً على المسلمين : ﴿ فَانْقُرُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ ﴾ فنسخت الآية الأولى . وقوله تعالى ﴿ وَأَسْمِعُوا وَأَطِيعُوا ﴾ أي : كونوا منقادين لما يأمركم الله به ورسوله ولا تحيدوا عنه بمنة ولا يسرة ، ولا تقدموا بين يدي الله ورسوله ولا تتخلفوا عما به أمرتم . ولا تركبوا ما عنه زجرتم . وقوله تعالى : ﴿ وَأَنْفِقُوا خَيْرًا لِّأَنْفُسِكُمْ ﴾ أي وابدلوا مما رزقكم الله على الأقارب والفقراء والمساكين وذوي الحاجات ، وأحسنوا إلى خلق الله كما أحسن الله إليكم . يكن خيراً لكم في الدنيا والآخرة ، وإن لا تفعلوا يكن شراً لكم في الدنيا والآخرة .

وقوله تعالى : ﴿ إِنْ تَقْرَضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُّضْعِفْهُ لَكُمْ وَيَقْفِرْ لَكُمْ ﴾ أي : مهما أنفقتم من شيء فهو يخلفه ، ومهما تصدقتم من شيء فعليه جزاؤه ، ونزل ذلك منزلة القرض له كما ثبت في الصحيحين : أن الله تعالى يقول : من يقرض غير ظلوم ولا عديم ^(٢) . ولهذا قال تعالى يضاعفه لكم ﴿ وَيَقْفِرْ لَكُمْ ﴾ أي ويكفر عنكم السيئات . ولهذا قال تعالى ﴿ وَاللَّهُ شَكُورٌ ﴾ أي يجزي على القليل بالكثير ﴿ حَلِيمٌ ﴾ أي يصفح ويغفر ويستر ويتجاوز عن الذنوب والزلات والخطايا والسيئات ﴿ عَلِيمٌ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ تقدم تفسيره غير مرة .

(١) أخرجه البخاري في الاعتصام (٧٢٨٨) ومسلم في الحج (٤١٢) وأحمد في مسنده (٥٠٨/٢) والدارقطني في السنن (٢٨١/٢) .

(٢) أخرجه البيهقي في السنن (٢/٣) .

سورة الطلاق

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِمَدَّتِهِنَّ وَأَحْصُوا الْعِدَّةَ وَاتَّقُوا اللَّهَ رَبَّكُمْ لَا تُخْرِجُوهُنَّ مِنْ بُيُوتِهِنَّ وَلَا يَخْرُجْنَ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَنَّ بِفَحِشَةٍ مُبَيَّنَةٍ وَذَلِكَ حُدُودُ اللَّهِ وَمَنْ يَعُدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ لَا تَدْرِي لَعَلَّ اللَّهَ يُخْدِثُ بَعْدَ ذَلِكَ أَمْرًا﴾ .

خوطف النبي ﷺ أولاً تشريعاً وتكريماً ، ثم خاطب الأمة تبعاً فقال تعالى : ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِمَدَّتِهِنَّ﴾ عن أنس قال : طلق رسول الله ﷺ حفصة فأنت أهلها ، فأنزل الله تعالى ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِمَدَّتِهِنَّ﴾ فقيل له : راجعها فإنها صوامه قوامه وهي من أزواجك ونساءك في الجنة ، وقد ورد من غير وجه أن رسول الله ﷺ طلق حفصة ثم راجعها .

عن عبد الله بن عمر أنه طلق امرأة له وهي حائض فذكر عمر لرسول الله ﷺ فتغيظ رسول الله ﷺ ثم قال : « لِيُرَاجِعْهَا ثُمَّ يَمْسِكُهَا حَتَّى تَطْهُرَ ثُمَّ يَحْيِضُ فَتَطْهُرَ فَإِنْ بَدَأَ لَهْ أَنْ يُطْلَقَهَا ؛ فَلْيُطْلَقْهَا طَاهِرًا قَبْلَ أَنْ يَمْسُهَا ، فَبَلَكَ الْعِدَّةَ الَّتِي أَمَرَ اللَّهُ ﷻ » ^(١) . وروي عن عبد الرحمن بن أيمن مولى عزة أنه سأل ابن عمر ، وأبو الزبير يسمع : كيف ترى في الرجل طلق امرأته حائضاً ؟ فقال : طلق ابن عمر امرأته حائضاً على عهد رسول الله ﷺ فقال رسول الله ﷺ : « لِيُرَاجِعْهَا » فردها وقال : « إِذَا طَهَّرْتَ فَلْيُطْلَقْ أَوْ يَمْسِكْ » . قال ابن عمر : وقرأ النبي ﷺ ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِمَدَّتِهِنَّ﴾ ^(٢) . وعن عبد الله في قوله تعالى : ﴿فَطَلِّقُوهُنَّ لِمَدَّتِهِنَّ﴾ قال : الطهر من غير جماع ، وقال ابن عباس : لا يطلقها وهي حائض ولا في طهر قد جامعها فيه ؛ ولكن يتركها حتى إذا حاضت وطهرت يطلقها تطليقة . وقال عكرمة : العدة الطهر ، والقرء : الحيضة أن يطلقها حبلى مستبينة حملها ، ولا يطلقها وقد طاف عليها ولا يدري حبلى هي أم لا ، ومن ههنا أخذ الفقهاء أحكام الطلاق وقسموه إلى طلاق سنة ، وطلاق بدعي ، فطلاق السنة : أن يطلقها طاهرة من غير جماع أو حاملاً قد استبان حملها ، والبدعي : هو أن يطلقها في حال الحيض أو في طهر قد جامعها فيه ولا يدري أحملت أم لا ، وطلاق ثالث لا سنة فيه ولا بدعة وهو طلاق الصغيرة والأيسة وغير المدخول بها ، وتحرير الكلام في ذلك وما يتعلق به مستقصى في كتب الفروع ، وقوله تعالى ﴿وَأَحْصُوا الْعِدَّةَ﴾ أي احفظوها واعرفوا ابتداءها وانتهاءها لئلا تطول العدة على المرأة فتمتنع من الأزواج ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ رَبَّكُمْ﴾ أي في ذلك . وقوله تعالى : ﴿لَا تُخْرِجُوهُنَّ مِنْ بُيُوتِهِنَّ وَلَا يَخْرُجْنَ﴾ أي : في مدة العدة لها حق السكنى على الزوج ما دامت معتدة منه ؛ فليس للرجل أن يخرجها ولا يجوز لها أيضاً وقوله تعالى : ﴿إِلَّا أَنْ يَأْتِيَنَّ بِفَحِشَةٍ مُبَيَّنَةٍ﴾ أي : لا يخرجن من بيوتهن إلا أن ترتكب المرأة فاحشة مبينة فتخرج من المنزل

(١) أخرجه البخاري في الأحكام (٧١٦٠) ومسلم في الطلاق (١٤) والنسائي في السنن (١٣٩/٦) .

(٢) أخرجه مسلم في الطلاق (١٠) .

والفاحشة المبينة تشمل الزنى ، وتشمل ما إذا نشزت المرأة أو بذت على أهل الرجل وآذتهم في الكلام والفعال ، وقوله تعالى : ﴿ وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ ﴾ أي شرائعه ومحارمه ﴿ وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ ﴾ أي : يخرج عنها ويتجاوزها إلى غيرها ولا ياتمر بها ﴿ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ ﴾ أي بفعل ذلك .

وقوله تعالى : ﴿ لَا تَدْرِي لَعَلَّ اللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَلِكَ أَمْرًا ﴾ أي إنما أبقينا المطلقة في منزل الزوج في مدة العدة لعل الزوج يندم على طلاقها ويخلق الله تعالى في قلبه رجعتها فيكون ذلك أيسر وأسهل . عن فاطمة بنت قيس في قوله تعالى : ﴿ لَا تَدْرِي لَعَلَّ اللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَلِكَ أَمْرًا ﴾ قالت : هي الرجعة ، ومن ههنا ذهب من ذهب من السلف ومن تابعهم كالإمام أحمد بن حنبل رحمه الله تعالى إلى أنه لا تجب السكنى للمبتوتة أي المقطوعة وكذا المتوفى عنها زوجها ، واعتمدوا أيضًا على حديث فاطمة بنت قيس الفهرية حين طلقها زوجها أبو عمرو بن حفص آخر ثلاث تطليقات وكان غائبا عنها باليمن ، فأرسل إليها بذلك ، فأرسل إليها وكيله بشعير يعني نفقة فسخطته فقال : والله ليس لك علينا نفقة ، فأتت رسول الله ﷺ فقال : « لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِ نَفَقَةٌ » وأمرها أن تعتد في بيت أم شريك ، ثم قال : « تِلْكَ امْرَأَةٌ يَغْشَاهَا أَصْحَابِي ، اغْتَدِي عِنْدَ ابْنِ أُمِّ مَكْتُومٍ ؛ فَإِنَّهُ رَجُلٌ أَعْمَى تَضَعِينَ ثِيَابَكَ » ^(١) .

﴿ فَإِذَا بَلَغَ أَجَلُهُنَّ فَامْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ فَارِقُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَأَشْهِدُوا ذَوَى عَدْلٍ مِّنكُمْ وَأَقِيمُوا الشَّهَادَةَ لِلَّهِ ذَلِكَ يُوَفِّقُ بَيْنَهُمْ وَلَوْلَا ذَلِكَ لَفَسَلَتِ الْأَعْرَابُ وَمَن يَبْتَئِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا ۖ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ ۚ إِنَّ اللَّهَ بَلِغٌ أَمْرِهِ ۚ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا ۝ .

يقول تعالى : فإذا بلغت المعتقدات أجلهن أي : شارفن على انقضاء العدة وقاربن ذلك ولكن لم تفرغ العدة بالكلية فحيث أن يعزم الزوج على إمساكها وهو رجعتها إلى عصمة نكاحه والاستمرار بها على ما كانت عليه عنده ﴿ بِمَعْرُوفٍ ﴾ أي محسنًا إليها في صحبتها ، ولما أن يعزم على مفارقتها بمعروف ، أي من غير مقابحة ولا مشاتمة ولا تعنيف بل يطلقها على وجه جميل وسبيل حسن .

وقوله تعالى : ﴿ وَأَشْهِدُوا ذَوَى عَدْلٍ مِّنكُمْ ﴾ أي على الرجعة إذا عزمتم عليها ، وعن عمران بن حصين أنه سئل عن الرجل يطلق المرأة ثم يقع بها ولم يشهد على طلاقها ولا على رجعتها فقال : طَلَّقْتَ لغير سنة ورجعت لغير سنة ، أشهد على طلاقها وعلى رجعتها ولا تعد ، وكان عطاء يقول : ﴿ وَأَشْهِدُوا ذَوَى عَدْلٍ مِّنكُمْ ﴾ قال : لا يجوز في نكاح ولا طلاق ولا رجاء إلا شاهدًا عدل كما قال الله ﷻ ﴿ إِلَّا أَنْ يَكُونَ مِنْ عَذْرِ ۚ ﴾ وقوله تعالى : ﴿ ذَلِكَ يُوَفِّقُ بَيْنَهُمْ وَلَوْلَا ذَلِكَ لَفَسَلَتِ الْأَعْرَابُ وَمَن يَبْتَئِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا ۖ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ۚ ﴾ أي ومن يتق الله فيما أمره به وترك ما نهاه عنه يجعل له من أمره مخرجًا ويرزقه من حيث لا يحتسب ، أي من جهة لا تخطر بباله . وعن أبي ذر قال : جعل رسول الله ﷺ يتلو علي

(١) أخرجه مسلم في الطلاق (٣٦) وأحمد في مسنده (٤١٢/٦) وأبو داود في السنن (٢٢٨٤) والبيهقي في السنن (١٧٧/٧) .

هذه الآية ﴿ وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا ۖ وَرِزْقَهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ﴾ حتى فرغ من الآية ثم قال : « يَا أَبَا ذَرٍّ لَوْ أَنَّ النَّاسَ كُلَّهُمْ أَخَذُوا بِهَا كَفْتَهُمْ » قال : فجعل يتلوها ويردها علي حتى نعتت ثم قال : « يَا أَبَا ذَرٍّ كَيْفَ تَصْنَعُ إِذَا خَرَجْتَ مِنَ الْمَدِينَةِ ؟ » قلت : إلى السعة والدعة أنطلق فأكون حمامة من حمام مكة قال : « كَيْفَ تَصْنَعُ إِذَا خَرَجْتَ مِنْ مَكَّةَ ؟ » قال : قلت : إلى السعة والدعة إلى الشام والأرض المقدسة ، قال : « وَكَيْفَ تَصْنَعُ إِذَا أُخْرِجْتَ مِنَ الشَّامِ » قلت : إذا والذي بعثك بالحق أضع سيفي على عاتقي ، قال : « أَوْ خَيْرٌ مِنْ ذَلِكَ ؟ » قلت : أو خير من ذلك . قال : « تَسْمَعُ وَتُطِيعُ وَإِنْ كَانَ عَبْدًا حَبِشِيًّا » ^(١) .

وعن عبد الله بن عباس قال : قال رسول الله ﷺ : « مَنْ أَكْثَرَ مِنَ الْاسْتِغْفَارِ ؛ جَعَلَ اللَّهُ لَهُ مِنْ كُلِّ هَمٍّ فَرْجًا ، وَمَنْ كُلِّ ضَيْقٍ مَخْرَجًا ، وَرِزْقَهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ » ^(٢) وقال ابن عباس : ﴿ وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا ۖ وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا ۖ يَقُولُ : يَنْجِيهِ مِنْ كُلِّ كَرْبٍ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ . وَقَالَ الرَّبِيعُ بْنُ خَيْثَمٍ ﴾ يَجْعَلُ لَهُ مَخْرَجًا : أي من كل شيء ضاق على الناس . وقال عكرمة : من طلق كما أمره الله يجعل له مخرجًا ، وقال ابن مسعود ومسروق : ﴿ وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا ۖ يَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ إِنْ شَاءَ أَعْطَى وَإِنْ شَاءَ مَنَعَ ﴾ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ أي من حيث لا يدري . وقال قتادة : ﴿ وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا ۖ أَي مِنْ شَبَهَاتِ الْأُمُورِ وَالْكَرْبِ عِنْدَ الْمَوْتِ ﴾ وَرِزْقَهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ من حيث لا يرجو ولا يأمل ، وقال السدي : ﴿ وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ ۖ يَطْلُقُ لِلْسِّنَةِ ، وَيَرْاجِعُ لِلْسِّنَةِ ، وَعَنْ ثَوْبَانَ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « إِنْ الْعَبْدَ لَيُخْرِجَنَّ الرِّزْقَ بِالدَّنْبِ يُصِيبُهُ ، وَلَا يَزِدُّ الْقَدْرَ إِلَّا الدُّعَاءُ ، وَلَا يَزِيدُ فِي الْعُمْرِ إِلَّا الْبِرُّ » ^(٣) وقال محمد بن إسحاق : جاء مالك الأشجعي إلى رسول الله ﷺ فقال له : أسر ابني عوف ، فقال له رسول الله ﷺ : « أُرْسِلَ إِلَيْهِ أَنْ رَسُولَ اللَّهِ يَأْمُرُكَ أَنْ تُكْثِرَ مِنْ قَوْلٍ لَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ » وكانوا قد شدوه بالقد فسقط القد عنه ، فخرج فإذا هو بناقاة لهم فركبها وأقبل فإذا بسرح القوم الذين كانوا قد شدوه ، فصاح بهم فاتبع أولها آخرها ، فلم يفجأ أبويه إلا وهو ينادي بالباب ، فقال أبوه : عوف ورب الكعبة ، فقالت أمه : واسوأته وعوف كيف يقدم لما هو فيه من القد ، فاستبقا الباب والخادم فإذا عوف قد ملأ الفناء إبلًا ، فقص على أبيه أمره وأمر الإبل ، فقال أبوه : قفا حتى آتي رسول الله ﷺ فأسأله عنها ، فأتى رسول الله ﷺ فأخبره بخير عوف وخبر الإبل ، فقال له رسول الله ﷺ : « اصْنَعْ بِهَا مَا أَحْبَبْتَ وَمَا كُنْتَ صَانِعًا بِمَالِكَ » ونزل ﴿ وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا ۖ وَرِزْقَهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ﴾ ^(٤) .

وعن عمران بن حصين قال : قال رسول الله ﷺ : « مَنْ انْقَطَعَ إِلَى اللَّهِ كَفَاهُ اللَّهُ كُلَّ مُؤْنَةٍ وَرِزْقَةٍ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ وَمَنْ انْقَطَعَ إِلَى الدُّنْيَا وَكَلَهُ إِلَيْهَا » ^(٥) . وقوله تعالى : ﴿ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ ﴾ عن عبد الله بن عباس أنه ركب خلف رسول الله ﷺ يوماً فقال له رسول الله ﷺ : « يَا غُلَامُ إِنِّي

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٢٧٨/٥) .

(٢) أخرجه أحمد في مسنده (٢٤٨/١) والحاكم في المستدرک (٢٦٢/٤) .

(٣) أخرجه المنذري في الترغيب والترهيب (٦١٩/٢) .

(٤) أخرجه أحمد في مسنده (٢٧٧/٥) .

(٥) أخرجه المنذري في الترغيب والترهيب (٥٣٧/٢) والطبراني في الصغير (١٦/١) والهيتمي في مجمع الزوائد (٣٠٣/١٠) .

مُعَلِّمَكَ كَلِمَاتٍ : اخْفِظِ اللَّهَ يَحْفَظْكَ ، اخْفِظِ اللَّهَ تَجْهَدْ تَجَاهَكَ ، إِذَا سَأَلْتَ فَاسْأَلِ اللَّهَ ، وَإِذَا اسْتَعَنْتَ فَاسْتَعِنْ بِاللَّهِ ، وَاعْلَمْ أَنَّ الْأُمَّةَ لَوِ اجْتَمَعُوا عَلَى أَنْ يَنْفَعُوكَ ؛ لَمْ يَنْفَعُوكَ إِلَّا بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللَّهُ لَكَ ، وَلَوْ اجْتَمَعُوا عَلَى أَنْ يَضُرُّوكَ لَمْ يَضُرُّوكَ إِلَّا بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللَّهُ عَلَيْكَ ، رُفِعَتِ الْأَقْلَامُ وَجَفَّتِ الصُّحُفُ» ^(١) .

وعن عبد الله قال : قال رسول الله ﷺ : « مَنْ نَزَلَ بِهِ حَاجَةٌ فَأَنْزَلَهَا بِالنَّاسِ كَانَ قَمَئًا أَنْ لَا تُسَهَّلَ حَاجَتُهُ ، وَمَنْ أَنْزَلَهَا بِاللَّهِ تَعَالَى أَنَاهُ اللَّهُ يَرْزُقِي عَاجِلِي أَوْ يَمْوِتُ آجِلِي » ^(٢) وقوله تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ بَلِّغُ أَمْرِهِ ﴾ أي منفذ قضاياه وأحكامه في خلقه بما يريد ويشاء ﴿ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا ﴾ كقوله تعالى : ﴿ وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدَارٍ ﴾ .

﴿ وَالَّتِي يَبَيِّنُ مِنَ الْمَحِيضِ مِنْ نِسَائِكُمْ إِنْ ارْتَبَتْ فَعِدَّتُهُنَّ ثَلَاثَةُ أَشْهُرٍ وَالَّتِي لَمْ يَحْضَنْ وَأُولَتْ الْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَنْ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْرًا ۝ ذَٰلِكَ أَمْرُ اللَّهِ أَنْزَلَهُ لِتَكُونَ مِنَ الَّذِينَ يُكْفَرُ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِمْ وَيُعْظَمَ لَهُ أَجْرُهُ ﴾ .

يقول تعالى مبيناً لعدة الآيسة وهي التي قد انقطع عنها الحيض لكبرها أنها ثلاثة أشهر عوضاً عن ثلاثة قروء في حق من تحيض كما دلت على ذلك آية البقرة ، وكذا الصغار اللاتي لم يبلغن سن الحيض أن عدتهن كعدة الآيسة ثلاثة أشهر ولهذا قال تعالى : ﴿ وَالَّتِي لَمْ يَحْضَنْ ﴾ . وقوله تعالى : ﴿ إِنْ ارْتَبَتْ ﴾ فيه قولان : أحدهما : وهو قول طائفة من السلف كمجاهد والزهري وابن زيد : أي إن رأين دماً وشككن في كونه حيضاً أو استحاضة وارتبتم فيه ، والقول الثاني : إن ارتبتم في حكم عدتهن ولم تعرفوه فهو ثلاثة أشهر ، وهذا مروي عن سعيد بن جبير وهو اختيار ابن جرير وهو أظهر في المعنى واحتج عليه بما رواه عمرو بن سالم قال : قال أبي بن كعب : يا رسول الله إن عدداً من عدد النساء لم تذكر في الكتاب الصغار والكبار وأولات الأحمال ، قال : فأنزل الله ﷻ ﴿ وَالَّتِي يَبَيِّنُ مِنَ الْمَحِيضِ مِنْ نِسَائِكُمْ إِنْ ارْتَبَتْ فَعِدَّتُهُنَّ ثَلَاثَةُ أَشْهُرٍ وَالَّتِي لَمْ يَحْضَنْ وَأُولَتْ الْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَنْ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ ﴾ ^(٣) .

وقوله تعالى : ﴿ وَأُولَتْ الْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَنْ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ ﴾ يقول تعالى : ومن كانت حاملاً فعدتها بوضعه ولو كان بعد الطلاق أو الموت بفوق ناقة في قول جمهور العلماء من السلف والخلف كما هو نص هذه الآية الكريمة وكما وردت به السنة النبوية ، وقد روي عن علي وابن عباس ؓ أنهما ذهبا في المتوفى عنها زوجها أنها تعدت بأبعد الأجلين من الوضع والأشهر عملاً بهذه الآية والتي في سورة البقرة . وعن أبي سلمة قال : جاء رجل إلى ابن عباس وأبو هريرة جالس فقال : أفنتي في امرأة ولدت بعد زوجها بأربعين ليلة ، فقال ابن عباس : آخر الأجلين ، قلت أنا : ﴿ وَأُولَتْ الْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَنْ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ ﴾ قال أبو هريرة : أنا مع ابن أخي - يعني أبا سلمة - فأرسل ابن عباس غلامه كريم إلى أم سلمة يسألها فقالت : قتل زوج سبيعة الأسلمية وهي ابنة فوضعت بعد موته بأربعين ليلة ، فخطبت فأنكحها رسول الله ﷺ وكان أبو السنايل فيمن خطبها ^(٤) . وعن عبيد الله بن عبد الله بن عتبة أن

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٢٩٣/١) والترمذي في السنن (٢٥١٦) والحاكم في المستدرک (٥٤١/٣) .

(٢) أخرجه أحمد في مسنده (٣٨٩/١) . (٣) تفسير الطبري (١٨٠/٢٨) .

(٤) أخرجه البخاري في تفسير القرآن (٤٩٠٩) وأحمد في مسنده (٣٢٧/٤) .

أباه كتب إلى عمر بن عبد الله بن الأرقم الزهري يأمره أن يدخل على سبيعة بنت الحارث الأسلمية فيسألها عن حديثها وعما قال لها رسول الله ﷺ حين استفتته ، فكتب عمر بن عبد الله يخبره أن سبيعة أخبرته أنها كانت تحت سعد بن خولة وكان ممن شهد بدرًا فتوفي عنها في حجة الوداع وهي حامل فلم تنشب أن وضعت حملها بعد وفاته ، فلما تعلت من نفاسها تجملت للخطاب ، فدخل عليها أبو السنابل بن بعكك ، فقال لها : مالي أراك متجملة ؟ لعلك ترجين النكاح ؟ إنك والله ما أنت بنكاح حتى تمر عليك أربعة أشهر وعشر ، قالت سبيعة : فلما قال لي ذلك جمعت علي ثيابي حين أمسيت فأتيت رسول الله ﷺ فسألته عن ذلك فأقناني بأني قد حللت حين وضعت حملي ، وأمرني بالتزويج إن بدا لي ^(١) .

وقوله تعالى : ﴿ وَمَنْ يَتَى اللَّهَ بِحَبْلٍ لَمْ يَنْتَهِ عَنْهُ يَسْتَكْفِرْ أَتَى بَشَرًا ﴾ أي يسهل أمره ويسره عليه ويجعل له فرجًا قريبًا ومخرجًا عاجلاً ثم قال تعالى : ﴿ ذَلِكَ أَمْرُ اللَّهِ أَنْزَلَهُ إِلَيْنَا ﴾ أي حكمه وشرعه أنزله إليكم بواسطة رسول الله ﷺ ﴿ وَمَنْ يَتَى اللَّهَ بِحَبْلٍ يُكْفِرْ عَنْهُ سِتْرًا وَمِنْ أَجْرِ ﴾ أي يذهب عنه المحذور ويجزل له الثواب على العمل اليسير .

﴿ أَتَى بَشَرًا ﴾ أي أتى بغيره ولا يُضَيِّقُ عَلَيْهِمْ وَإِنْ كُنْ أَتَى حَتَّى يَنْقُضُوا عَلَيْهِمْ حَتَّى يَضَعَنَّ حَمْلَهُنَّ فَإِنْ أَضَعْنَ لَكُمْ فَتَأْتِيَهُنَّ أَجُورُهُنَّ وَأَتَمُّوا بِبَنَاتِكُمْ بِمَعْرُوفٍ وَإِنْ تَمَسَّضْتُمْ فَسَرَّضْ لَهُنَّ أُخْرَى ﴿١﴾ لِيُنْفِقَ ذُو سَعَةٍ مِنْ سَعَتِهِ وَمَنْ قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ فَلْيُنْفِقْ مِمَّا آتَاهُ اللَّهُ لَا يَكُفِ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَّا آتَاهَا سَيَجْعَلُ اللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا .

يقول تعالى أمرًا عباده إذا طلق أحدهم المرأة أن يسكنها في منزل حتى تنقضي عدتها فقال : ﴿ أَتَى بَشَرًا ﴾ أي عندكم ﴿ مِنْ بَشَرٍ ﴾ قال ابن عباس ومجاهد وغير واحد : يعني سعتكم حتى قال قتادة : إن لم تجد إلا جنب بيتك فأسكنها فيه ، وقوله تعالى : ﴿ وَلَا تُضَيِّقُوا عَلَيْهِنَّ ﴾ قال مقاتل بن حيان : يعني يضاجرها لتفتدي منه بمالها أو تخرج من مسكنه ، وقال أبو الضحى : يطلقها فإذا بقي يومان راجعها ، وقوله تعالى : ﴿ وَإِنْ كُنْ أَتَى حَتَّى يَنْقُضُوا عَلَيْهِمْ حَتَّى يَضَعَنَّ حَمْلَهُنَّ ﴾ قال كثير من العلماء منهم ابن عباس وطائفة من السلف وجماعات من الخلف : هذه في البائن إن كانت حاملًا أنفق عليها حتى تضع حملها . قالوا : بدليل أن الرجعية تجب نفقتها سواء كانت حاملًا أو حائلاً ، وقال آخرون : بل السياق كله في الرجعيات وإنما نص على الإنفاق على الحامل وإن كانت رجعية ؛ لأن الحمل تطول مدته غالباً فاحتيج إلى النص على وجوب الإنفاق إلى الوضع لئلا يتوهم أنه إنما تجب النفقة بمقدار مدة العدة ، ثم اختلف العلماء ، هل النفقة لها بواسطة الحمل أم للحمل وحده ؟ على قولين منصوبين عن الشافعي وغيره ، ويتفرع عليها مسائل كثيرة مذكورة في علم الفروع .

وقوله تعالى : ﴿ فَإِنْ أَضَعْنَ لَكُمْ ﴾ أي إذا وضعن حملهن وهن طوالق فقد برن بانقضاء عدتهن ، ولها حينئذ أن ترضع الولد ولها أن تمتنع منه ، ولكن بعد أن تغذيه باللبأ وهو باكرة اللبن الذي لا قوام للمولود غالباً إلا به ، فإن أرضعت استحققت أجر مثلها ، ولها أن تعاقب أباه أو ليه على ما يتفقان عليه من أجره ، ولهذا قال تعالى : ﴿ فَإِنْ أَضَعْنَ لَكُمْ فَتَأْتِيَهُنَّ أَجُورُهُنَّ ﴾ وقوله تعالى : ﴿ وَأَتَمُّوا بِبَنَاتِكُمْ أَجْرَهُنَّ ﴾

بَعْرُوفٍ ﴿١﴾ أي ولتكن أموركم فيما بينكم بالمعروف من غير إضرار ولا مضارة .

وقوله تعالى : ﴿وَأَنْ تَقَاسَمْتُمْ فَتَضَعُ لَهُ أُخْرَى﴾ أي وإن اختلف الرجل والمرأة فطلبت المرأة في أجرة الرضاع كثيرا ولم يجبها الرجل إلى ذلك أو بذل الرجل قليلا ولم توافقه عليه فليسترضع له غيرها فلو رضيت الأم بما استوجرت به الأجنبية فهي أحق بولدها . وقوله تعالى : ﴿لِيُنْفِقَ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِ﴾ أي لينفق على المولود والده أو وليه بحسب قدرته ﴿وَمَنْ قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ فَلْيُنْفِقْ مِمَّا آتَاهُ اللَّهُ لَا يَكُفَّ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَاءً آتَاهَا﴾ . عن أبي سنان ، قال : سأل عمر بن الخطاب عن أبي عبيدة فقيل : إنه يلبس الغليظ من الثياب ، ويأكل أخشن الطعام ، فبعث إليه بألف دينار ، وقال للرسول : انظر ما يصنع بها إذا هو أخذها ؟ فما لبث أن لبس اللين من الثياب ، وأكل أطيب الطعام ، فجاءه الرسول فأخبره . فقال : رحمه الله تعالى تأول هذه الآية ﴿لِيُنْفِقَ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِ وَمَنْ قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ فَلْيُنْفِقْ مِمَّا آتَاهُ اللَّهُ﴾ (١) . وعن شريح بن عبيد بن أبي مالك الأشعري واسمه الحارث قال : قال رسول الله ﷺ : « ثَلَاثَةٌ نَفَرٍ كَانَ لِأَحَدِهِمْ عَشْرَةٌ دَنَانِيرٌ فَتَصَدَّقَ مِنْهَا بِدَيْنَارٍ ، وَكَانَ لِآخَرِ عَشْرِ أَوَاقٍ فَتَصَدَّقَ مِنْهَا بِأَوْقِيَّةٍ ، وَكَانَ لِآخَرِ مِائَةِ أَوَقِيَّةٍ فَتَصَدَّقَ مِنْهَا بِعَشْرِ أَوَاقٍ ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : هُمْ فِي الْأَجْرِ سَوَاءٌ ، كُلُّ قَدْ تَصَدَّقَ بِعَشْرِ مَالِهِ ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى ﴿لِيُنْفِقَ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِ﴾ (٢) » وقوله تعالى : ﴿سَيَجْعَلُ اللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا﴾ وعد منه تعالى ووعدته حق لا يخلفه . قال أبو هريرة : بينما رجل وامرأة له في السلف الخالي لا يقدران على شيء فجاء الرجل من سفره فدخل على امرأته جاثما قد أصابته مسغبة شديدة ، فقال لامرأته : عندك شيء ؟ قالت : نعم أبشر أتنا رزق الله ، فاستحثها ، فقال : ويحك ابتغي إن كان عندك شيء ، قالت : نعم هنيئة ترجو رحمة الله ، حتى إذا طال عليه الطول ، قال : ويحك قومي فابتغي إن كان عندك شيء فائتيني به فإني قد بلغت وجهدت ، فقالت : نعم ، الآن نفتح التنور فلا تعجل فلما أن سكنت عنها ساعة وتحينت أن يقول لها ، قالت من عند نفسها : لو قمت فنظرت إلى تنوري ، فقامت فنظرت إلى تنورها ملآن من جنوب الغنم ورحيها تطحنان ، فقامت إلى الرحي فنفضتها واستخرجت ما في تنورها من جنوب الغنم ، قال أبو هريرة فوالذي نفس أبي القاسم بيده هو قول محمد ﷺ : « لَوْ أَخَذْتُ مَا فِي رَحِيَّتِهَا وَلَمْ تَنْفُضْهَا لَطَحْنَتَا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ » (٣) .

﴿وَكَايْنٍ مِّن قَرْبَى عَنَّتْ عَن أَمْرِ رِبَّهَا وَرُسُلِهِ﴾ فَحَاسَبْنَهَا حِسَابًا شَدِيدًا وَعَذَّبْنَاهَا عَذَابًا ثَقِيرًا ﴿١﴾ فَذَاقَتْ وَكَالَ أَمْرِهَا وَكَانَ عَاقِبَةُ أَمْرِهَا خُسْرًا ﴿٢﴾ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا فَاتَّقُوا اللَّهَ فَإِنَّهُ يَتَقَوَّلُ أَلْفَ لَيْلٍ الَّذِينَ آمَنُوا مَأْمُرًا قَدْ أُنْزِلَ اللَّهُ إِلَيْكُمْ ذِكْرًا ﴿٣﴾ رَسُولًا يَتْلُوا عَلَيْهِكُمْ مَا يَكُنَّ اللَّهُ مُبْتَلًى لِّخُرَاجِ الَّذِينَ آمَنُوا وَكَيْلًا أَلْصَلِّحَاتِ مِنَ الظَّالِمَاتِ إِلَى التَّوَرِّ وَمَنْ يُؤْمِن بِاللَّهِ وَيَعْمَلْ صَالِحًا يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا قَدْ أَحْسَنَ اللَّهُ لَكُمْ رِزْقًا .

يقول تعالى متوعدا لمن خالف أمره وكذب رسله وسلك غير ما شرعه ومخبرا عما حل بالأمة السالفة بسبب ذلك فقال تعالى : ﴿وَكَايْنٍ مِّن قَرْبَى عَنَّتْ عَن أَمْرِ رِبَّهَا وَرُسُلِهِ﴾ أي تمردت وطلعت واستكبرت عن اتباع أمر الله ومتابعة رسله ﴿فَحَاسَبْنَهَا حِسَابًا شَدِيدًا وَعَذَّبْنَاهَا عَذَابًا ثَقِيرًا﴾ أي منكرًا فظيما

(١) تفسير الطبري (١٩٠/٢٨) .

(٢) أخرجه الطبراني في الكبير (٣٣١/٣) والهيتمي في مجمع الزوائد (١١١/٣) .

(٣) أخرجه أحمد في مسنده (٤٢١/٢) والهيتمي في مجمع الزوائد (٢٥٧/١٠) .

﴿ فَذَاقَتْ وَبَالَ أَمْرِهَا ﴾ أي غب مخالفتها وندموا حيث لا ينفعهم الندم ﴿ وَكَانَ عِقَبُ أَمْرِهَا حُسْرًا ﴾ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا ﴿ أي في الدار الآخرة مع ما محل لهم من العذاب في الدنيا ثم قال تعالى بعد ما قص من خبر هؤلاء : ﴿ فَاتَّقُوا اللَّهَ يَا أَُولِيَ الْأَلْبَابِ ﴾ أي : الأفهام المستقيمة لا تكونوا مثلهم فيصيبكم ما أصابهم يا أولي الأبواب : ﴿ الَّذِينَ ءَامَنُوا ﴾ أي : صدقوا بالله ورسله ﴿ قَدْ أَنزَلَ اللَّهُ إِلَيْكُمْ ذِكْرًا ﴾ يعني القرآن . وقوله تعالى : ﴿ رَسُولًا يَتْلُو عَلَيْكُمْ ءَايَاتِ اللَّهِ مُبَيِّنَاتٍ ﴾ قال بعضهم : ﴿ رَسُولًا ﴾ منصوب على أنه بدل اشتمال وملابسة لأن الرسول هو الذي بلغ الذكر . وقال ابن جرير : الصواب أن الرسول ترجمة عن الذكر يعني تفسيراً له ولهذا قال تعالى : ﴿ رَسُولًا يَتْلُو عَلَيْكُمْ ءَايَاتِ اللَّهِ مُبَيِّنَاتٍ ﴾ أي في حال كونها بينة واضحة جلية ﴿ لِيُخْرِجَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ ﴾ أي من ظلمات الكفر والجهل إلى نور الإيمان والعلم ، وقد سمى الله تعالى الوحي الذي أنزله نوراً لما يحصل به من الهدى كما سماه روحاً لما يحصل به من حياة القلوب .

وقوله تعالى : ﴿ وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ وَيَعْمَلْ صَالِحًا يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا قَدْ أَحْسَنَ اللَّهُ لَكَ رِزْقًا ﴾ قد تقدم تفسير مثل هذا غير مرة بما أغنى عن إعادته هنا .
﴿ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَنْزِلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِيَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا ﴾ .

يقول تعالى مخبراً عن قدرته التامة وسلطانه العظيم ليكون ذلك باعثاً على تعظيم ما شرع من الدين القويم ﴿ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ ﴾ كقوله تعالى إخباراً عن نوح أنه قال لقومه : ﴿ أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا ﴾ وقوله تعالى : ﴿ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ ﴾ أي سبعة أيضاً كما ثبت في الصحيحين : « مَنْ ظَلَمَ قِيدَ شِبْرِ مِنَ الْأَرْضِ طَوْفَهُ مِنْ سَبْعِ أَرْضِينَ » ^(١) . وقد ذكرت طرقه وألفاظه وعزوه في أول البداية والنهاية عند ذكر خلق الأرض ولله الحمد والمنة ومن حمل على سبعة أقاليم فقد أبعد النجعة وأغرق في النزاع وخالف القرآن والحديث بلا مستند . وعن ابن عباس في قوله تعالى : ﴿ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ ﴾ قال : لو حدثكم بتفسيرها لكفرتم ، وكفرتم تكذيبكم بها .

سورة التحريم

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ تَبْتَغِي مَرْضَاتَ أَزْوَاجِكَ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ١﴾ قَدْ فَرَضَ اللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَانِكُمْ وَاللَّهُ مَوْلَاكُمْ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ٢ وَإِذْ أَسْرَأَ النَّبِيُّ إِلَى بَعْضِ أَزْوَاجِهِ حَدِيثًا فَلَمَّا نَبَأَتْ بِهِ وَأَظْهَرَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ عَرَفَ بَعْضُهُمْ وَأَعْرَضَ عَنْ بَعْضٍ فَلَمَّا نَبَأَهَا بِهِ قَالَتْ مَنْ أَنْبَأَكَ هَذَا قَالَ نَبَأَنِيَ الْعَلِيمُ الْخَبِيرُ ٣ إِنْ نُنَبِّئُكَ أَنَّكَ فَقَدْ صَعَتْ قُلُوبُكُمْ وَإِنْ تَطَلَّعْنَا عَلَيْهِ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ مَوْلَاهُ وَجِبْرِيلُ وَصَلِّحُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمَلَائِكَةَ بَعْدَ ذَلِكَ ظَهِيرٌ ٤ عَنِ رَبِّهِ إِنْ طَلَّقْنَا أَنْ يَبْدُلَهُ أَزْوَاجًا خَيْرًا مِنْكُمْ مُسْلِمَتٍ مُؤْمِنَةٍ قَيْنَتٍ تَبْتَغِي عَيْدَتِ سَخِرَتْ نَيْبَتٍ وَأَبْكَارًا ٥ .

اختلف في سبب نزول صدر هذه السورة فقيل نزلت في شأن مارية وكان رسول الله ﷺ قد حرمها فنزل قوله تعالى : ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ تَبْتَغِي مَرْضَاتَ أَزْوَاجِكَ﴾ الآية .

عن أنس أن رسول الله ﷺ كانت له أمة يطؤها فلم تزل به عائشة وحفصة حتى حرمها فأنزل الله ﷻ ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ﴾ . وعن زيد بن أسلم أن رسول الله ﷺ أصاب أم إبراهيم في بيت بعض نسائه فقالت : أي رسول الله في بيتي وعلى فراشي ؟! فجعلها عليه حراما فقالت : أي رسول الله كيف تحرم عليك الحلال ؟! فحلف لها بالله لا يصيبها فأنزل الله تعالى : ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ﴾ قال زيد بن أسلم : فقله أنت علي حرام لغو^(١) وعن ابن عباس قال : قلت لعمر ابن الخطاب : من المراتان ؟ قال : عائشة وحفصة وكان بدء الحديث في شأن أم إبراهيم القبطية أصابها النبي ﷺ في بيت حفصة ، في نوبتها فوجدت حفصة فقالت : يا نبي الله لقد جئت إلي شيئا ما جئت إلى أحد من أزواجك في يومي وفي دوري وعلى فراشي ، قال : « أَلَا تَرْضَيْنَ أَنْ أُحَرِّمَهَا فَلَا أَقْرَبُهَا ؟ » . قالت : بلى . فحرمها ، وقال لها : « لَا تَذْكُرِي ذَلِكَ لِأَحَدٍ » ، فذكرته لعائشة فأظهره الله عليه فأنزل الله تعالى : ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ تَبْتَغِي مَرْضَاتَ أَزْوَاجِكَ﴾ الآيات كلها ، فبلغنا أن رسول الله ﷺ كفر عن يمينه وأصاب جاريته^(٢) .

وعن ابن عباس : في الحرام يمين تكفر . وقال ابن عباس ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾^(٣) . وعن ابن عباس : قال : نزلت هذه الآية ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ﴾ في المرأة التي وهبت نفسها للنبي ﷺ . وهذا قول غريب ، والصحيح أن ذلك كان في تحريمه العسل كما ورد عن عائشة قالت : كان النبي ﷺ يشرب عسلا عند زينب بنت جحش ويمكث عندها فنواطأت أنا وحفصة على أيتنا دخل عليها فلتقل له : أكلت مغافير إني أجد منك ريح مغافير . قال : « لَا وَلَكِنِّي أَشْرَبُ عَسَلًا عِنْدَ زَيْنَبَ بِنْتِ جَحْشٍ ، فَلَنْ أَغُودَ لَهُ وَقَدْ حَلَفْتُ لَا تُخْبِرِي بِذَلِكَ أَحَدًا »^(٤) . ﴿تَبْتَغِي مَرْضَاتَ أَزْوَاجِكَ﴾ والمغافير شبيه بالصمغ يكون في الرمث فيه حلاوة ، أغفر الرمث إذا ظهر فيه ، وأحدها

(١) أخرجه النسائي في السنن (٣٩٥٩) .

(٢) ذكره السيوطي في الدر المنثور (٢٣٩/٦) والهندي في كنز العمال (٤٦٦٨) وابن جرير في تفسيره (٢٠٢/٢٨) .

(٣) أخرجه البخاري في تفسير القرآن (٤٩١١) . (٤) أخرجه البخاري في تفسير القرآن (٤٩١٢) .

مغفور ، ويقال : مغاير . وهكذا قال الجوهري : وقد يكون المغفور أيضًا للعشر والثمام والسلم والطلح ، قال : والرمت بالكسر مرعى من مراعي الإبل وهو من الحمض ، قال : والعرفط شجر من العضاء ينضج المغفور .

وعن عائشة قالت : كان رسول الله ﷺ يحب الحلوى والعسل وكان إذا انصرف من العصر دخل على نسائه فيدنو من إحداهن ، فدخل على حفصة بنت عمر فاحتبس أكثر ما كان يحتبس ، فغرت فسألت عن ذلك فقيل لي : أهدت لها امرأة من قومها عكة عسل فسقت النبي ﷺ منه شربة . فقلت : أما والله لنحتالن له ، فقلت لسودة ابنة زمعة : إنه سيدنو منك فإذا دنا منك فقولني : أكلت مغاير ؛ فإنه سيقول لك لا ، فقولني له : ما هذه الريح التي أجد ، فإنه سيقول لك : سقتني حفصة شربة عسل فقولني : جرت نحل العرفط وسأقول ذلك ، وقولي له أنت يا صفية ذلك ، قالت : تقول سودة : فوالله ما هو إلا أن قام على الباب فأردت أن أنادي به بما أمرتني فرقا منك ، فلما دنا منها قالت له سودة : يا رسول الله أكلت مغاير ؟ قال : « لا » . قالت : فما هذه الريح التي أجد منك ؟ قال : « سقتني حفصة شربة عسل » ، قالت : جرت نحل العرفط ، فلما دار إلي قلت نحو ذلك فلما دار إلى صفية قالت له مثل ذلك ، فلما دار إلى حفصة قالت له : يا رسول الله ألا أسقيك منه ؟ قال : « لا حاجة لي فيه » ، قالت : تقول سودة : والله لقد حرمناه ، قلت لها : اسكتي ^(١) . وعن عائشة أن زينب بنت جحش هي التي سقته العسل وإن عائشة وحفصة تواطأتا وتظاهرتا عليه . وقد يقال إنهما واقعتان ولا بعد في ذلك إلا أن كونهما سببا لنزول هذه الآية فيه نظر ، ومما يدل على أن عائشة وحفصة رضي الله عنهما هما المتظاهرتان أن ابن عباس قال : لم أزل حريصا على أن أسأل عمر عن المراتين من أزواج النبي ﷺ اللتين قال الله تعالى : ﴿ إِنْ تَوْبَا إِلَى اللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا ﴾ حتى حج عمر وحججت معه ، فلما كان ببعض الطريق عدل عمر وعدلت معه بالإداوة ، فبرز ثم أتاني فسكبت على يديه فتوضأ ، فقلت : يا أمير المؤمنين من المراتن من أزواج النبي ﷺ اللتان قال الله تعالى : ﴿ إِنْ تَوْبَا إِلَى اللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا ﴾ ؟ فقال عمر : وا عجبا لك يا ابن عباس - قال الزهري : كره والله ما سأله عنه ولم يكتمه - قال : هي عائشة وحفصة .

قال : ثم أخذ يسوق الحديث قال : كنا معشر قريش قوما نغلب النساء ، فلما قدمنا المدينة وجدنا قوما تغلبهم نساؤهم ، فطفق نساؤنا يتعلمن من نساؤهم ، قال : وكان منزلي في دار أمية بن زيد بالعوالي ، قال : فغضبت يوما على امرأتي فإذا هي تراجعني ، فأنكرت أن تراجعني ، فقالت : ما تنكر أن أراجعك ؟ فوالله إن أزواج رسول الله ﷺ ليراجعنه وتهجره إحداهن اليوم إلى الليل ، قال : فانطلقت فدخلت على حفصة ، فقلت : أتراجعين رسول الله ﷺ ؟ قالت : نعم ، قلت : وتهجره إحداكن اليوم إلى الليل ؟ قالت : نعم . قلت : قد خاب من فعل ذلك منكن وخسر ، أفأتمن إحداكن أن يغضب الله عليها لغضب رسوله فإذا هي قد هلكت ؟ لا تراجعني رسول الله ﷺ ولا تسأليه شيئا وسليني من مالي ما بدا لك ، ولا يغرنك أن كانت جارتك هي أوسم - أي أجمل -

(١) أخرجه البخاري في الطلاق (٥٢٦٨) ومسلم في الطلاق (٢١) والبيهقي في السنن (٣٥٤/٧) .

وأحب إلى رسول الله ﷺ منك - يريد عائشة - قال : وكان لي جار من الأنصار وكنا نتناوب النزول إلى رسول الله ﷺ ينزل يوماً وأنزل يوماً فيأتيني بخبر الوحي وغيره وآتيه بمثل ذلك ، قال : وكنا نتحدث أن غسان تنعل الخيل لتغزونا ، فنزل صاحبي يوماً ثم أتى عشاء فضرب بابي ثم ناداني فخرجت إليه فقال : حدث أمر عظيم ، فقلت : وما ذاك أجاءت غسان ؟ قال : لا بل أعظم من ذلك وأطول ؛ طلق رسول الله ﷺ نساءه ، فقلت : قد خابت حفصة وخسرت ؛ قد كنت أظن هذا كائناً ، حتى إذا صليت الصبح شددت علي ثيابي ثم نزلت فدخلت على حفصة وهي تبكي ، فقلت : أطلقكن رسول الله ﷺ ؟ فقلت : لا أدري هو هذا معتزل في هذه المشربة ، فأتيته غلاماً له أسود فقلت : استأذن لعمر ، فدخل الغلام ثم خرج إلي فقال : ذكرت لك له فصمت ، فانطلقت حتى أتيت المنبر فإذا عنده رهط جلوس يبكي بعضهم فجلست عنده قليلاً ثم غلبنني ما أجد فأتيته الغلام فقلت : استأذن لعمر ، فدخل ثم خرج إلي فقال : قد ذكرت لك له فصمت ، فخرجت فجلست إلى المنبر ثم غلبنني ما أجد ، فأتيته الغلام فقلت : استأذن لعمر ، فدخل ثم خرج إلي فقال : قد ذكرت لك له ، فصمت ، فوليت مديراً فإذا الغلام يدعوني فقال : ادخل قد أذن لك ، فدخلت فسلمت على رسول الله ﷺ فإذا هو متكئ على رمال حصير - وقد أثر في جنبه فقلت : أطلقت يا رسول الله نساءك ؟ فرفع رأسه إلي ، وقال : « لَا » . فقلت : الله أكبر ! ولو رأيتنا يا رسول الله وكنا معشر قريش قومًا تغلب النساء ، فلما قدمنا المدينة وجدنا قومًا تغلبهم نساؤهم فطفق نساؤنا يتعلمن من نساؤهم ، فغضبت على امرأتي يوماً فإذا هي تراجعني فأنكرت أن تراجعني ، فقلت : ما تنكر أن أراجعك ؟ فوالله إن أزواج النبي ﷺ ليراجعنه وتهجره إحداهن اليوم إلى الليل ، فقلت : قد خاب من فعل ذلك منكن وخسرت ، أفأتمن إحداكن أن يغضب الله عليها لغضب رسوله فإذا هي قد هلكت ؟ فتبسم رسول الله ﷺ فقلت : يا رسول الله قد دخلت على حفصة فقلت : لا يغرنك أن كانت جارتك هي أوسم أو أحب إلى رسول الله ﷺ فتبسم أخرى ، فقلت : أستأنس يا رسول الله ؟ قال : « نَعَمْ » ، فجلست فرفعت رأسي في البيت فوالله ما رأيت في البيت شيئاً يرد البصر إلا أهبة مقامه ، فقلت : ادع الله يا رسول الله أن يوسع على أمتك فقد وسع علي فارس والروم وهم لا يعبدون الله ، فاستوى جالساً وقال : « أَفَبِي شَكُّ أَنْتَ يَا ابْنَ الْخَطَّابِ ؟ أَوَلَيْكَ قَوْمٌ عَجَّلَتْ لَهُمْ طَيِّبَاتُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا » ، فقلت : استغفر لي يا رسول الله ، وكان أقسم أن لا يدخل عليهن شهراً من شدة موجدته عليهن حتى عاتبه الله ﷻ (١) .

وعن أنس قال : قال عمر : اجتمع نساء النبي ﷺ في الغيرة عليه فقلت لهن : عسى ربه إن طلقكن أن يبدله أزواجاً خيراً منكن . فنزلت هذه الآية (٢) . وقد تقدم أنه وافق القرآن في أماكن منها في نزول الحجاب ، ومنها في أسارى بدر ، ومنها قوله لو اتخذت من مقام إبراهيم مصلى فأنزل الله تعالى : ﴿ وَأَتَّخِذُوا مِنْ مَّقَامِرِ بُرُوجِهِمْ مَسَاجِدَ ﴾ ومعنى قوله : ﴿ مُسَلِّمَاتٍ مُّؤْمِنَاتٍ قُنَّاتٍ تَنتَبِهْنَ عِلَدَهُنَّ ﴾ ظاهر . وقوله تعالى : ﴿ سَيَحْبَبْنَ ﴾ أي صائحات ، قاله أبو هريرة وعائشة وابن عباس وعكرمة

(٢) أخرجه البخاري في تفسير القرآن (٤٩١٦) .

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٣٣/١) .

ومجاهد وسعيد بن جبير وغيرهم . وقال زيد بن أسلم : ﴿ سَبَّحْتَ ﴾ أي مهاجرات ، وتلا عبد الرحمن ﴿ السَّابِقُونَ ﴾ أي المهاجرين والقول الأول أولى والله أعلم .

وقوله تعالى : ﴿ تَنَبَّتْ وَأَنْكَارًا ﴾ أي منهن ثيبات ومنهن أبكارا ليكون ذلك أشهى إلى النفس ؛ فإن التنوع ييسط النفس ولهذا قال : ﴿ تَنَبَّتْ وَأَنْكَارًا ﴾ . عن ابن بريدة عن أبيه ﴿ تَنَبَّتْ وَأَنْكَارًا ﴾ قال : وعد الله نبيه ﷺ في الآية أن يزوجه فالثيب آسية امرأة فرعون ، وبالأبكار مريم بنت عمران .

﴿ يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا قُرْءَانُكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَائِكَةٌ غِلَظٌ شِدَادٌ لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴾ يَأْتِيهَا الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَنْذِرُوا آلَئِمٍّ إِنَّمَا تُنذِرُونَ مَآ كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿ يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا تُوبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا عَنْهُمْ رَضِيَ عَنْهُمْ أَن يَكْفُرَ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيَخْلُصَكُمْ مِنْ تَحَرِيٍّ مِنْ تَحْتِهَا لَآ أَنْتَهَرُ يَوْمَ لَا يُخْرَى اللَّهُ النَّبِيَّ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ نُورُهُمْ يَسْعَى بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَنِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَتَيْمْنَا نَارًا وَنُورَنَا وَغَفِرْنَا لَنَا ذُنُوبَنَا وَأَنْتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ .

عن رجل عن علي عليه السلام في قوله تعالى : ﴿ قُرْءَانُكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا ﴾ يقول : أدبهم وعلموهم . وقال ابن عباس : اعملوا بطاعة الله واتقوا معاصي الله وأمروا أهليكم بالذكر ينجيكم الله من النار ، وقال مجاهد : اتقوا الله وأوصوا أهليكم بتقوى الله وقال قتادة : تأمرهم بطاعة الله وتنهاهم عن معصية الله وأن تقوم عليهم بأمر الله وتساعدهم عليه فإذا رأيت لله معصية قدعتهم عنها وزجرتهم عنها . وهكذا قال الضحاك ومقاتل : حق على المسلم أن يعلم أهله من قرابته وإمائه وعبيده ما فرض الله عليهم وما نهاهم الله عنه . عن عبد الملك بن الربيع بن سبرة عن أبيه عن جده قال : قال رسول الله ﷺ : « مُرُوا الصَّبِيَّ بِالصَّلَاةِ إِذَا بَلَغَ سَبْعَ سِنِينَ ، فَإِذَا بَلَغَ عَشَرَ سِنِينَ فَاضْرِبُوهُ عَلَيْهَا » (١) . قال الفقهاء : وهكذا في الصوم ليكون ذلك تمرينا له على العبادة لكي يبلغ وهو مستمر على العبادة والطاعة ومجانبة المعصية وترك المنكر ، والله الموفق .

وقوله تعالى : ﴿ وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ ﴾ ﴿ وَقُودُهَا ﴾ أي حطبها الذي يلقي فيها جثث بني آدم ﴿ وَالْحِجَارَةُ ﴾ قيل : المراد بها الأصنام التي تعبد ، وقيل : هي حجارة من كبريت ، أنتن من الجيمة ، وعن عبد العزيز بن أبي داود قال : بلغني أن رسول الله ﷺ تلا هذه الآية ﴿ يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا قُرْءَانُكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ ﴾ وعنده بعض أصحابه وفيهم شيخ فقال الشيخ : يا رسول الله حجارة جهنم كحجارة الدنيا ؟ فقال النبي ﷺ : « وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَصَخْرَةٌ مِنْ صَخَرِ جَهَنَّمَ أَعْظَمُ مِنْ جِبَالِ الدُّنْيَا كُلِّهَا » قال : فوقع الشيخ مغشيا عليه فوضع النبي ﷺ يده على فؤاده فإذا هو حي فناداه قال : « يَا شَيْخُ قُلْ : لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ » فقالها فبشره بالجنة قال : فقال أصحابه : يا رسول الله أمن بيننا ؟ قال : « نَعَمْ يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ ذَلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ ﴾ » (٢) وقوله تعالى : ﴿ عَلَيْهَا مَلَائِكَةٌ غِلَظٌ شِدَادٌ ﴾ أي طباعهم غليظة قد نزع من قلوبهم الرحمة بالكافرين بالله ﴿ شِدَادٌ ﴾ أي تركيبيهم في غاية الشدة والكثافة والمنظر المزعج . عن عكرمة أنه قال : إذا وصل أول

(١) أخرجه أبو داود في الصلاة (٤٩٤) ، والهيتمي في السنن (١١/٢) .

(٢) أورده السيوطي في الدر المنثور (٧٣/٤) .

أهل النار إلى النار وجدوا على الباب أربعمئة ألف من خزنة جهنم سود وجوههم ، كالحلة أنيابهم ، قد نزع الله من قلوبهم الرحمة ، ليس في قلب واحد منهم مثقال ذرة من الرحمة ، لو طير الطير من منكب أحدهم لطار شهرين قبل أن يبلغ منكبه الآخر ، ثم يجدون على الباب التسعة عشر ، عرض صدر أحدهم سبعون خريقاً ، ثم يهرون من باب إلى باب خمسمئة سنة ، ثم يجدون على كل باب منها مثل ما وجدوا على الباب الأول حتى ينتهوا إلى آخرها ، وقوله : ﴿ لَا يَصُومُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَقُولُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴾ . أي مهما أمرهم به تعالى يبادروا إليه لا يتأخرون عنه طرفة عين وهم قادرون على فعله ليس بهم عجز عنه وهؤلاء هم الزبانية - عباداً بالله منهم - وقوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَعْذِرُوا الْيَوْمَ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ أي يقال للكفرة يوم القيامة : لا تعتذروا فإنه لا يقبل منكم ولا تجزون اليوم إلا ما كنتم تعملون ، وإنما تجزون اليوم بأعمالكم ، ثم قال تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ثُبُوتُ إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا ﴾ أي توبة صادقة جازمة تمحو ما قبلها من السيئات ، وتلم شعت التائب وتجمعه وتكفه عما كان يتعاطاه من الدنئات .

وعن النعمان سئل عمر عن التوبة النصوح فقال : أن يتوب الرجل من العمل السيئ ثم لا يعود إليه أبداً .

ولهذا قال العلماء : التوبة النصوح هو أن يقلع عن الذنب في الحاضر ويندم على ما سلف منه في الماضي ويعزم على أن لا يفعل في المستقبل ، ثم إن كان الحق لآدمي رده إليه بطريقه . عن عبد الله بن مغفل قال : دخلت مع أبي على عبد الله بن مسعود فقال : أنت سمعت النبي ﷺ يقول : « التَّدْمُ تَوْبَةٌ » ؟ قال : نعم . وقال مرة : نعم سمعته يقول : « التَّدْمُ تَوْبَةٌ » ^(١) . عن أبي بن كعب قال : قيل لنا : أشياء تكون في آخر هذه الأمة عند اقتراب الساعة ، منها نكاح الرجل امرأته أو أمته في دبرها وذلك مما حرم الله ورسوله ويمقت الله عليه ورسوله ، ومنها نكاح الرجل الرجل وذلك مما حرم الله ورسوله ويمقت الله عليه ورسوله ، ومنها نكاح المرأة المرأة وذلك ما حرم الله ورسوله ويمقت الله عليه ورسوله ، وليس لهؤلاء صلاة ما أقاموا على هذا حتى يتوبوا إلى الله توبة نصوحاً ، قال زر : فقلت لأبي بن كعب : فما التوبة النصوح ؟ فقال : سألت رسول الله ﷺ عن ذلك فقال : « هُوَ التَّدْمُ عَلَى الذَّنْبِ حِينَ يَفْزُطُ مِنْكَ فَتَسْتَغْفِرَ اللَّهُ بِبَدَامَتِكَ مِنْهُ عِنْدَ الْحَاضِرِ ثُمَّ لَا تَعُودَ إِلَيْهِ أَبَدًا » ^(٢) وعن الحسن قال : التوبة النصوح أن تبغض الذنب كما أحببته وتستغفر منه إذا ذكرته ، فأما إذا جزم بالتوبة وصمم عليها فإنها تجب ما قبلها من الخطيئات كما ثبت في الصحيح : « الْإِسْلَامُ يَجِبُ مَا قَبْلَهُ ، وَالتَّوْبَةُ تَجِبُ مَا قَبْلَهَا » ^(٣) . وهل من شرط التوبة النصوح الاستمرار على ذلك إلى الممات - كما تقدم في الحديث وفي الأثر - ثم لا يعود فيه أبداً ، أو يكفي العزم على أن لا يعود في تكفير الماضي بحيث لو وقع منه ذلك الذنب بعد ذلك لا يكون ذلك ضاراً في تكفير ما تقدم لعموم قوله عليه الصلاة والسلام : « التَّوْبَةُ تَجِبُ مَا قَبْلَهَا » وللاول أن يحتج بما ثبت في الصحيح أيضاً « مَنْ

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٤٤٦/١) .

(٢) ذكره السيوطي في الدر المنثور (٢٤٥/٦) والهندي في كنز العمال (١٠٤٢٧) .

(٣) أخرجه أحمد في مسنده (٢٠٥/٤) .

أَحْسَنَ فِي الْإِسْلَامِ لَمْ يُؤَاخِذْ بِمَا عَمِلَ فِي الْجَاهِلِيَّةِ ، وَمَنْ أَسَاءَ فِي الْإِسْلَامِ أَخَذَ بِالْأَوَّلِ وَالْآخِرِ ^(١) .
فَإِذَا كَانَ هَذَا فِي الْإِسْلَامِ هُوَ الَّذِي أَقْوَى مِنَ التَّوْبَةِ فَالتَّوْبَةُ بِطَرِيقِ الْأَوَّلَى ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ .

وقوله تعالى : ﴿ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَنْ يُكَفِّرَ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُم جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ﴾ وعسى من الله موجبة ﴿ يَوْمَ لَا تَجْرِي اللَّهُ النَّيِّ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ ﴾ أي : ولا يخزيهم معه يعني يوم القيامة ﴿ تُورَثُهُمْ يَسْعَىٰ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَيَأْمَنُ بِهِمْ ﴾ قال مجاهد والضحاك والحسن البصري وغيرهم : هذا يقوله المؤمنون حين يرون يوم القيامة نور المنافقين قد طغى . وعن رجل من بني كنانة قال : صليت خلف رسول الله ﷺ عام الفتح فسمعتة يقول : « اللَّهُمَّ لَا تُخْزِنِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ » ^(٢) . وعن عبد الرحمن بن جبير بن نفير أنه سمع أبا ذر وأبا الدرداء قالا : قال رسول الله ﷺ : « أَنَا أَوَّلُ مَنْ يُؤْذَنُ لَهُ فِي السُّجُودِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، وَأَوَّلُ مَنْ يُؤْذَنُ لَهُ يَرْفَعُ رَأْسَهُ فَأَنْظُرَ بَيْنَ يَدَيَّ فَأَعْرِفُ أُمَّتِي مِنْ بَيْنِ الْأُتَمِّ ، وَأَنْظُرَ عَنْ يَمِينِي فَأَعْرِفُ أُمَّتِي مِنْ بَيْنِ الْأُتَمِّ ، وَأَنْظُرَ عَنْ شِمَالِي فَأَعْرِفُ أُمَّتِي مِنْ بَيْنِ الْأُتَمِّ » فقال رجل : يا رسول الله : وكيف تعرف أمتك من بين الأُمم ؟ قال : « غُرٌّ مُحَجَّلُونَ مِنْ آثَارِ الطُّهُورِ ، وَلَا يَكُونُ أَحَدٌ مِنَ الْأُتَمِّ كَذَلِكَ غَيْرِهِمْ ، وَأَعْرِفُهُمْ يُؤْتُونَ كُتُبَهُمْ بِأَيْمَانِهِمْ ، وَأَعْرِفُهُمْ بِسِيمَاهُمْ فِي وَجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ ، وَأَعْرِفُهُمْ بِنُورِهِمْ يَسْعَىٰ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ » ^(٣) .

﴿ يَتَأَيَّأُ النَّيِّ جَهْدَ الْكُفَّارِ وَالْمُنَافِقِينَ وَأَغْلَطَ عَلَيْهِمْ وَمَا وَبَهُمْ جَهَنَّمَ وَشَسَّ الْمَصِيرُ ﴾ ^(٤) صَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ كَفَرُوا أَمْرَاتٌ نُوحٌ وَأَمْرَاتٌ لُوطٌ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَقِيلَ ادْخُلَا النَّارَ مَعَ الدَّاسِيَيْنِ .

يقول تعالى أمرا رسوله ﷺ بجهد الكفار والمنافقين ، هؤلاء بالسلاح والقتال ، وهؤلاء بإقامة الحدود عليهم ﴿ وَأَغْلَطَ عَلَيْهِمْ ﴾ أي في الدنيا ﴿ وَمَا وَبَهُمْ جَهَنَّمَ وَشَسَّ الْمَصِيرُ ﴾ أي في الآخرة ، ثم قال تعالى : ﴿ صَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ أي في مخالطتهم المسلمين ومعاشرتهم لهم أن ذلك لا يجدي عنهم شيئا ولا ينفعهم عند الله إن لم يكن الإيمان حاصلًا في قلوبهم ، ثم ذكر المثل فقال : ﴿ أَمْرَاتٌ نُوحٌ وَأَمْرَاتٌ لُوطٌ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحَيْنِ ﴾ أي : نبين رسولين عندهما في صحبتيهما ليلا ونهارا يؤاكلانهما ويضاجعانهما ويعاشرانهما أشد العشرة والاختلاط ﴿ فَخَانَتَاهُمَا ﴾ أي في الإيمان لم يوافقاهما على الإيمان ولا صدقاهما في الرسالة ، فلم يجد ذلك كله شيئا ولا دفع عنهما محذورا . ولهذا قال تعالى : ﴿ فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ اللَّهِ شَيْئًا ﴾ أي لكفرهما ﴿ وَقِيلَ ﴾ أي للمرأتين ﴿ ادْخُلَا النَّارَ مَعَ الدَّاسِيَيْنِ ﴾ وليس المراد بقوله ﴿ فَخَانَتَاهُمَا ﴾ في فاحشة ، بل في الدين فإن نساء الأنبياء معصومات عن الوقوع في الفاحشة ، لحرمة الأنبياء ؛ فعن ابن عباس في هذه الآية ﴿ فَخَانَتَاهُمَا ﴾ قال : ما زنتا ، أما خيانة امرأة نوح فكانت تخبر أنه مجنون ، وأما خيانة امرأة لوط فكانت تدل قومها على أضيافه . وقد استدلل بهذه الآية الكريمة بعض العلماء على ضعف الحديث

(١) أخرجه مسلم في الإيمان (١٩٠) وأحمد في مسنده (٤٣١/١) وابن ماجه في السنن (٤٢٤٢) والبيهقي في السنن (١٢٣/٩) .

(٢) أخرجه أحمد في مسنده (٢٣٣/٤) .

(٣) أخرجه أحمد في مسنده (١٩٩/٥) والحاكم في المستدرک (٤٧٨/٢) والبيهقي في السنن (١٧٢/٦) .

الذي يَأْتِرُهُ كثير من الناس : من أكل مع مغفور له غفر له . وهذا الحديث لا أصل له وإنما يروى هذا عن بعض الصالحين أنه رأى النبي ﷺ في المنام فقال : يا رسول الله أنت قلت : من أكل مع مغفور له غفر له ؟ قال : لا ، ولكني الآن أقوله .

﴿ وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا امْرَأَتَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ابْنِ لِي عِنْدَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ وَنَجِّنِي مِنَ الْقَوْرِ الظَّالِمِينَ ۝ وَزَكَرَتْنَا ابْنَتَ عِمْرَانَ الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا وَصَدَقَتْ يَكْمَلَتِ رَبُّهَا وَكُتِبَ عَلَيْهَا مِن الْقَوَاتِلِ ۝ ﴾

وهذا مثل ضربه الله للمؤمنين أنهم لا تضرهم مخالطة الكافرين إذا كانوا محتاجين إليهم . قال قتادة : كان فرعون أعتى أهل الأرض وأكفرهم ، فوالله ما ضر امرأته كفر زوجها حين أطاعت ربها ، ليعلموا أن الله تعالى حكم عدل لا يؤاخذ أحداً إلا بذنبه . عن سلمان قال : كانت امرأة فرعون تعذب في الشمس فإذا انصرف عنها أظلمت الملائكة بأجنحتها وكانت ترى بيتها في الجنة . وعن القاسم بن أبي بزة قال : كانت امرأة فرعون تسأل من غلب ؟ فيقال : غلب موسى وهارون فتقول : آمنت برب موسى وهارون ، فأرسل إليها فرعون ، فقال : انظروا أعظم صخرة تجدونها فإن مضت على قولها فألقوها عليها وإن رجعت عن قولها فهي امرأتي ، فلما أتوها رفعت بصرها إلى السماء فأبصرت بيتها في الجنة فمضت على قولها وانتزعت روحها وألقيت الصخرة على جسد ليس فيه روح ^(١) . فقولها ﴿ رَبِّ ابْنِ لِي عِنْدَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ ﴾ قال العلماء : اختارت الجار قبل الدار ، وقد ورد شيء من ذلك في حديث مرفوع ﴿ وَنَجِّنِي مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ ﴾ أي خلصني منه فإني أبرأ إليك من عمله ﴿ وَنَجِّنِي مِنَ الْقَوْرِ الظَّالِمِينَ ﴾ وهذه المرأة هي آسية بنت مزاحم رضي الله عنها . عن أبي العالية قال : كان إيمان امرأة فرعون من قبل إيمان امرأة خازن فرعون ، وذلك أنها جلست تمشط ابنة فرعون فوق المشط من يدها . فقالت : تعس من كفر بالله ، فقالت لها بنت فرعون : ولك رب غير أبي ؟ قالت : ربي ورب أبيك ورب كل شيء الله ، فلطمتها بنت فرعون وضربتها وأخبرت أباه ، فأرسل إليها فرعون فقال : تعبدن رباً غيري ؟ قالت : نعم ربي وربك رب كل شيء الله وإياه أعبد ، فعذبها فرعون وأوتد لها أوتاداً فشد يديها ورجليها وأرسل عليها الحيات فكانت كذلك فأتى عليها يوماً فقال لها : ما أنت منتهية ؟ فقالت له : ربي وربك رب كل شيء الله . فقال لها : إني ذابح ابنك في فيك إن لم تفعلي . فقالت له : اقض ما أنت قاض ، فذبح ابنها في فيها ، وإن روح ابنها بشرها ، قال لها : أبشري يا أمه فإن لك عند الله من الثواب كذا وكذا ، فصبرت ، ثم أتى عليها فرعون يوماً آخر فقال لها مثل ذلك ، فقالت له مثل ذلك ، فذبح ابنها الآخر في فيها ، فبشرها روحه أيضاً ، وقال لها : اصبري يا أمه فإن لك عند الله من الثواب كذا وكذا ، قال : سمعت امرأة فرعون كلام روح ابنها الأكبر ثم الأصغر فآمنت امرأة فرعون وقبض الله روح امرأة خازن فرعون وكشف الغطاء عن ثوابها ومنزلتها وكرامتها في الجنة لامرأة فرعون حتى رأت فازدادت إيماناً وقيناً وتصديقاً فأطلع الله فرعون على إيمانها فقال للملأ : ما تعلمون من آسية بنت مزاحم ؟ فأثنوا عليها فقال لهم :

إنها تعبد غيري . فقالوا له : اقتلها ، فأوتد لها أوتاداً فشد يديها ورجليها ، فدعت آسية ربها فقالت : ﴿ رَبِّ ابْنِ لِي عِنْدَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ ﴾ فوافق ذلك أن حضرها فرعون فضحكت حين رأت بيتها في الجنة . فقال فرعون : ألا تعجبون من جنونها إنا نعدُّها وهي تضحك ، فقبض الله روحها في الجنة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا . وقوله تعالى : ﴿ وَمَرْيَمَ ابْنَتَ عِمْرَانَ الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا ﴾ أي حفظته وصانته ، والإحصان : هو العفاف والحرية ﴿ فَتَفَخَّنَا فِيهِ مِنْ زَوْجِنَا ﴾ أي : بواسطة الملك وهو جبريل ، فإن الله بعثه إليها فتمثل لها في صورة بشر سوي وأمره الله تعالى أن ينفخ فيه في جيب درعها فنزلت النفخة فولجت في فرجها فكان منه الحمل بعيسى عليه السلام ولهذا قال تعالى ﴿ فَتَفَخَّنَا فِيهِ مِنْ زَوْجِنَا وَصَدَقَتْ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا وَكُنْتِ مِنْ أُولَئِكَ ﴾ أي بقدره وشرعه ﴿ وَكَانَتْ مِنَ الْقَنِينِ ﴾ . عن ابن عباس قال : خط رسول الله ﷺ في الأرض أربعة خطوط وقال : « أَتَدْرُونَ مَا هَذَا ؟ » قالوا : الله ورسوله أعلم ، فقال رسول الله ﷺ : « أَفْضَلُ نِسَاءِ أَهْلِ الْجَنَّةِ : خَدِيجَةُ بِنْتُ خُوَيْلِدٍ ، وَقَاطِمَةُ بِنْتُ مُحَمَّدٍ ، وَمَرْيَمُ بِنْتُ عِمْرَانَ ، وَآسِيَةُ بِنْتُ مُزَاجِمٍ امْرَأَةُ فِرْعَوْنَ » ^(١) . وعن أبي موسى الأشعري عن النبي ﷺ قال : « كَمُلَ مِنَ الرِّجَالِ كَثِيرٌ وَلَمْ يَكْمُلْ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا آسِيَةُ امْرَأَةِ فِرْعَوْنَ ، وَمَرْيَمُ ابْنَةُ عِمْرَانَ ، وَخَدِيجَةُ بِنْتُ خُوَيْلِدٍ ، وَإِنْ فَضَّلَ عَائِشَةُ عَلَى النِّسَاءِ كَفَضَّلَ الثَّرِيدُ عَلَى سَائِرِ الطُّعَامِ » ^(٢) .

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٢٩٣/١) والحاكم في المستدرک (٥٩٤/٢) .

(٢) أخرجه البخاري في فضائل الصحابة (٣٧٦٩) ومسلم في فضائل الصحابة (٧٠) والترمذي في الترمذي (١٨٣٤) وأحمد في

مسنده (٣٩٤/٤) .

سورة الملك

عن أبي هريرة عن رسول الله ﷺ قال : « إِنَّ سُورَةَ فِي الْقُرْآنِ ثَلَاثِينَ آيَةً شَفَعَتْ لِصَاحِبِهَا حَتَّى غُفِرَ لَهُ : تَبَارَكَ الَّذِي يَبْدُوهُ الْمُلْكُ » ^(١) . وعن ابن عباس قال : ضرب بعض أصحاب النبي ﷺ خباءه على قبر وهو لا يحسب أنه قبر فإذا قبر إنسان يقرأ سورة الملك حتى ختمها فأُتِيَ النبي ﷺ فقال : يا رسول الله ضربت خبائي على قبر وأنا لا أحسب أنه قبر فإذا إنسان يقرأ سورة الملك : تبارك حتى ختمها ، فقال رسول الله ﷺ : « هِيَ الْمَانِعَةُ ، هِيَ الْمُنْجِيَةُ ، تُنْجِيهِ مِنْ عَذَابِ الْقَبْرِ » ^(٢) . وعن جابر أن رسول الله ﷺ كان لا ينام حتى يقرأ : ألم تنزيل وتبارك الذي بيده الملك ^(٣) ، وقال ليث عن طاوس : يفضلان كل سورة في القرآن بسبعين حسنة .

وعن ابن عباس أنه قال لرجل : ألا تحفك بحديث تفرح به ! قال : بلى ، قال : اقرأ تبارك الذي بيده الملك وعلمها أهلك وجميع ولدك وصبيان بيتك وجيرانك فإنها المنجية والمجادلة ، أو تخاصم يوم القيامة عند ربها لقارئها وتطالب له أن ينجيهِ من عذاب النار وينجي بها صاحبها من عذاب القبر . قال رسول الله ﷺ : « لَوَدِدْتُ أَنَّهَا فِي قَلْبِ كُلِّ إِنْسَانٍ مِنْ أُمَّتِي » ^(٤) .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ تَبَارَكَ الَّذِي يَبْدُوهُ الْمُلْكُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ۝ ۱ الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ ۝ ۲ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا مَا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِنْ تَفَوتٍ فَإِنَّهُمْ بَالِغٌ أَلْبَصَرُ ۝ ۳ ثُمَّ أَنِيعَ أَلْبَصَرُ كَرِّينَ يَنْقَلِبُ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ ۝ ۴ وَلَقَدْ رَزَقْنَاهُ الذُّبَابَ بِمَصْنُوعٍ وَجَعَلْنَاهُ رُجُومًا لِلشَّيَاطِينِ وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ السَّعِيرِ ۝ ۵ ﴾ .

يُجَدُّ تعالى نفسه الكريمة ويخبر أنه بيده الملك أي هو المتصرف في جميع المخلوقات بما يشاء لا معقب لحكمه ولا يُسأل عما يفعل لقهره وحكمته وعدله ولهذا قال تعالى : ﴿ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ ثم قال تعالى : ﴿ الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ ﴾ واستدل بهذه الآية من قال : إن الموت أمر وجودي لأنه مخلوق . ومعنى الآية أنه أوجد الخلائق من العدم ليلوهم أيهم أي يختبرهم أيهم أحسن عملًا فسمى الحال الأول وهو العدم موتًا ، وسمى هذه النشأة حياة ولهذا قال تعالى : ﴿ ثُمَّ يُبْشِرُكُمْ ثُمَّ يَحْيِيكُمْ ﴾ وقوله تعالى : ﴿ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴾ أي خير عملًا ولم يقل أكثر عملًا . ثم قال تعالى : ﴿ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ ﴾ أي هو العزيز العظيم المتبع الجناب وهو مع ذلك غفور لمن تاب إليه وأتاب بعد ما عصاه وخالف أمره وإن كان تعالى عزيزًا هو مع ذلك يغفر ويرحم ويصفح ويتجاوز . ثم قال تعالى : ﴿ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا ﴾ أي طبقة بعد طبقة وهل هن متواصلات بمعنى أنهن

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٤٢١/٢) والترمذي في السنن (٢٨٩١) وابن ماجه في السنن (٣٧٨٦) والحاكم في المستدرک (٤٩٧/٢) .

(٢) أخرجه الترمذي في السنن (٢٨٩٠) والمنذري في الترغيب والترهيب (٣٧٧/٢) والألباني في الصحيحة (١١٤٠) .

(٣) أخرجه الترمذي في السنن (٢٨٩٢) .

(٤) أخرجه الحاكم في المستدرک (٥٦٥/١) ، والمنذري في الترغيب والترهيب (٣٧٧/٢) .

علويات بعضهن على بعض ، أو متفصلات بينهن خلا ، فيه قولان أصحهما الثاني كما دل على ذلك حديث الإسراء وغيره ، وقوله تعالى : ﴿ مَا تَرَىٰ فِي خَلْقِ الرَّحْمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٍ ﴾ أي بل وهو مصطحب مستو ليس فيه اختلاف ولا تنافر ولا مخالفة ولا نقص ولا عيب ولا خلل ، ولهذا قال تعالى : ﴿ فَاتَّبِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ ﴾ أي : انظر إلى السماء فتأملها هل ترى فيها عينا أو نقصا أو خللا أو فطورا ؟ ﴿ فَاتَّبِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ ﴾ أي : شقوق وقال السدي : من خروق . وقال ابن عباس : من وهاء . وقال قتادة : هل ترى خللا يا ابن آدم ؟

وقوله تعالى : ﴿ ثُمَّ أَتَّبِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ ﴾ أي مرتين ﴿ يَنقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِئًا ﴾ قال ابن عباس : ذليلا . وقال مجاهد : صاغرا ﴿ وَهُوَ حَسِيرٌ ﴾ يعني وهو كليل ، وقال مجاهد والسدي : الحسير المنقطع من الإعياء ، ومعنى الآية : إنك لو كررت البصر مهما كررت لانقلب إليك أي لرجع إليك البصر ﴿ خَاسِئًا ﴾ عن أن يرى عينا أو خللا ﴿ وَهُوَ حَسِيرٌ ﴾ أي كليل قد انقطع من الإعياء من كثرة التكرار ولا يرى نقصا ، ولما نفى عنها في خلقها النقص يعن كمالها وزينتها فقال : ﴿ وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ ﴾ وهي الكواكب التي وضعت فيها من السيارات والثوابت . وقوله تعالى : ﴿ وَجَعَلْنَاهَا رُجُومًا لِلشَّيَاطِينِ ﴾ عاد الضمير في قوله : ﴿ وَجَعَلْنَاهَا ﴾ على جنس المصابيح لا على عينا ؛ لأنه لا يرمى بالكواكب التي في السماء ؛ بل بشهب من دونها ، وقد تكون مستمدة منها ، والله أعلم .

وقوله تعالى ﴿ وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ السَّعِيرِ ﴾ أي : جعلنا للشياطين هذا الخزي في الدنيا وأعتدنا لهم عذاب السعير في الآخرة . قال قتادة : إنما خلقت هذه النجوم لثلاث خصال : خلقها الله زينة للسماء ، ورجوما للشياطين ، وعلامات يهتدى بها ، فمن تأول فيها غير ذلك فقد قال برأيه وأخطأ حظه وأضاع نصيبه وتكلف ما لا علم له به .

﴿ وَلِلَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَيُسَّ السَّعِيرِ ۝ إِذَا أُلْقُوا فِيهَا سَمِعُوا لَهَا شَهِيقًا وَهِيَ تَفُورُ ۝ تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ الْقَيْظِ كُلَّمَا أُلْقِيَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ ۝ قَالُوا بَلَىٰ قَدْ جَاءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ كَبِيرٍ ۝ وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ ۝ فَأَعْرِضُوا بِذَنبِهِمْ فَسُحْقًا لِأَصْحَابِ السَّعِيرِ ۝ . يقول تعالى : ﴿ و ﴾ أعتدنا ﴿ وَلِلَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَيُسَّ السَّعِيرِ ﴾ أي بئس المآل والمنقلب ﴿ إِذَا أُلْقُوا فِيهَا سَمِعُوا لَهَا شَهِيقًا ﴾ قال ابن جرير : يعني الصباح ﴿ وَهِيَ تَفُورُ ﴾ قال الثوري : تغلي بهم كما يغلي الحب القليل في الماء الكثير . وقوله تعالى : ﴿ تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ الْقَيْظِ ﴾ أي تكاد ينفصل بعضها من بعض من شدة غيظها عليهم وحقها بهم ﴿ كُلَّمَا أُلْقِيَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ ۝ قَالُوا بَلَىٰ قَدْ جَاءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ كَبِيرٍ ﴾ يذكر تعالى عدله في خلقه وأنه لا يعذب أحدا إلا بعد قيام الحجة عليه وإرسال الرسول إليه ، وهكذا عادوا على أنفسهم بالملامة وندموا حيث لا تنفعهم الندامة فقالوا : ﴿ لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ ﴾ أي لو كانت لنا عقول نتفجع بها أو نسمع ما أنزل الله من الحق لما كنا على ما كنا عليه من الكفر بالله والاعتقار به ولكن لم يكن لنا فهم نعي به ما جاءت به الرسل ولا كان لنا عقل يرشدنا إلى اتباعهم . قال الله تعالى : ﴿ فَأَعْرِضُوا بِذَنبِهِمْ فَسُحْقًا لِأَصْحَابِ السَّعِيرِ ﴾ . عن أبي البحر الطائي قال : أخبرني من سمعه

من رسول الله ﷺ أنه قال : « لَنْ يَهْلِكَ النَّاسُ حَتَّى يُعْذِرُوا مِنْ أَنْفُسِهِمْ » ^(١) وفي حديث آخر : « لَا يَدْخُلُ أَحَدُ النَّارِ إِلَّا وَهُوَ يَعْلَمُ أَنَّ النَّارَ أَوْلَى بِهِ مِنَ الْجَنَّةِ » ^(٢) .

﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴾ ^(٣) وَأَيِّرُوا قَوْلَكُمْ أَوْ أَجْهَرُوا بِهِ إِنَّهُمْ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿ أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ﴾ ^(٤) هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذُلُولًا فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِن رِّزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ ﴿

يقول تعالى مخبراً عمن يخاف مقام ربه فيما بينه وبينه إذا كان غائباً عن الناس فينكف عن المعاصي ويقوم بالطاعات حيث لا يراه أحد إلا الله تعالى بأنه له مغفرة وأجر كبير ؛ أي تكفر عنه ذنوبه ويجازى بالثواب الجزيل كما ثبت في الصحيحين : « سَبْعَةٌ يُظِلُّهُمُ اللَّهُ تَعَالَى فِي ظِلِّ عَرْشِهِ يَوْمَ لَا ظِلَّ إِلَّا ظِلُّهُ » . فذكر منهم « رَجُلًا دَعَتْهُ امْرَأَةٌ ذَاتُ مَنْصِبٍ وَجَمَالٍ فَقَالَ : إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ ، وَرَجُلًا تَصَدَّقَ بِصَدَقَةٍ فَأَخْفَاهَا حَتَّى لَا تَعْلَمَ شِمَالُهُ مَا تُنْفِقُ يَمِينُهُ » ^(٥) . وعن أنس قال : قالوا : يا رسول الله إنا نكون عندك على حال فإذا فارقتك كنا على غيره ، قال : « كَيْفَ أَنْتُمْ وَرَبُّكُمْ ؟ » . قالوا : الله ربنا في السر والعلانية ، قال : « لَيْسَ ذَلِكُمْ التَّفَاقُّ » ^(٦) . ثم قال تعالى منبهاً على أنه مطلع على الضمائر والسرائر ﴿ وَأَيِّرُوا قَوْلَكُمْ أَوْ أَجْهَرُوا بِهِ إِنَّهُمْ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴾ أي بما يخطر في القلوب ﴿ أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ ﴾ أي ألا يعلم الخالق ، وقيل : معناه ألا يعلم الله مخلوقه . والأول أولى لقوله ﴿ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ﴾ ، ثم ذكر نعمته على خلقه في تسخيره لهم الأرض وتذليله لإياها لهم بأن جعلها قارة ساكنة لا تميد ولا تضطرب ؛ بما جعل فيها من الجبال ، وأنبع فيها من العيون ، وسلك فيها من السبل ، وهياً فيها من المنافع ومواضع الزروع والشمار ، فقال تعالى : ﴿ هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذُلُولًا فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا ﴾ أي فسافروا حيث شئتم من أقطارها ، وترددوا في أقاليمها وأرجائها في أنواع المكاسب والتجارات ، واعلموا أن سعيكم لا يجدي عليكم شيئاً إلا أن ييسره الله لكم ، ولهذا قال تعالى : ﴿ وَكُلُوا مِن رِّزْقِهِ ﴾ فالسعي في السبب لا ينافي التوكل . عن عمر بن الخطاب إنه سمع رسول الله ﷺ يقول : « لَوْ أَنْتُمْ تَتَوَكَّلُونَ عَلَى اللَّهِ حَقَّ تَوَكُّلِهِ لَرَزَقَكُمْ كَمَا يَرْزُقُ الطَّيْرَ ، تَغْدُو خِمَاصًا وَتَرْجُو بَطَانًا » ^(٧) . فأنبت لها رواحاً وغدواً لطلب الرزق مع توكلها على الله ﷻ وهو المسخر المسير المسبب ﴿ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ ﴾ أي المرجع يوم القيامة . قال ابن عباس ومجاهد والسدي وقتادة : مناكبها أطرافها وفجاجها ونواحيها ، وقيل : مناكبها الجبال . عن بشير بن كعب أنه قرأ هذه الآية ﴿ فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا ﴾ فقال لأم ولد له : إن علمت ما مناكبها فأنت عتيقة ، فقالت : هي الجبال ، فسأل أبا الدرداء فقال : هي الجبال .

﴿ مَا أَمْنُكُمْ مِّنَ السَّمَاءِ أَنْ يَخِفَّ بِكُمْ الْأَرْضُ إِذَا هِيَ تَنُورُ ﴾ ^(٨) أَمْ أَمْنُكُمْ مِّنَ السَّمَاءِ أَنْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا فَسَتَعْلَمُونَ كَيْفَ نَذِيرِ ﴿ وَلَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴾ ^(٩) أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَفَائِرٌ وَيَقْبِضُنَّ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا الرِّحْمَنُ إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ بَصِيرٌ ﴿

(١) أخرجه أبو داود في السنن (٤٣٤٧) وأحمد في مسنده (٢٩٣/٥) .

(٢) أخرجه الطبرني في الكبير (١٤١/١١) والهيثمي في مجمع الزوائد (١٢٧/٧) .

(٣) أخرجه البخاري في الزكاة (١٤٢٣) ومسلم في الزكاة (٩١) والترمذي في السنن (٢٣٩١) وأحمد في مسنده (٤٣٩/٢) .

(٤) ذكره أبو نعيم في حلية الأولياء (٣٣٢/٢) والسيوطي في الدر المنثور (٥٤/٤) .

(٥) أخرجه أحمد في مسنده (٣٠/١) والألباني في الصحيحة (٣١٠) وابن حبان في صحيحه (٢٥٤٨) .

وهذا أيضًا من لطفه ورحمته بخلقه أنه قادر على تعذيبهم بسبب كفر بعضهم به وعبادتهم معه غيره وهو مع هذا يحلم ويصفح ويؤجل ولا يعجل وقال ههنا : ﴿ مَا يَنْتُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ أَنْ يَخِفَّ بِكُمْ الْأَرْضُ إِذَا هِيَ تَهُوُّ ﴾ أي : تذهب وتجيء وتضطرب ﴿ أَمْ أَنْتُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ أَنْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا ﴾ أي : ريحا فيها حصباء تدمغكم ، وهكذا توعدهم ههنا بقوله ﴿ فَسَتَكُونُ كَيْفَ تَذِيرُ ﴾ أي : كيف يكون إنذارى وعاقبة من تخلف عنه وكذب به . ثم قال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ ﴾ أي من الأمم السالفة والقرون الخالية ﴿ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴾ أي : فكيف كان إنكارى عليهم ومعاقبتى لهم ، أي عظيمًا شديدًا أليما . ثم قال تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ بَرًّا إِلَىٰ آلِ الطَّيْرِ فَوَقَّهُمْ ضَرْبَهُ وَبَقِيعُ ﴾ أي تارة يصفن أجنحتهن في الهواء وتارة تجمع جناحا وتنشر جناحا ﴿ مَا يَسْكُهُنَّ ﴾ أي في الجو ﴿ إِلَّا الرَّحْمَنُ ﴾ أي بما سخر لهن من الهواء من رحمته ولطفه ﴿ إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُبِينٌ ﴾ أي : بما يصلح كل شيء من مخلوقاته .

﴿ أَمَّنْ هَذَا الَّذِي هُوَ جُنْدٌ لَكُمْ يَنْصَرُّكُمْ مِنْ دُونِ الرَّحْمَنِ إِنَّ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي غُرُوبٍ ﴾ أَمَّنْ هَذَا الَّذِي يَرْزُقُكُمْ إِنْ أَمْسَكَ رِزْقَهُ بَلْ لَجُّوا فِي عُتُوٍّ وَنُفُورٍ ﴿ أَمَّنْ يَمِشُ مَكَبًا عَلَىٰ وَجْهِهِ أَهْدَىٰ أَمَّنْ يَمِشُ سَوِيًّا عَلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾ قُلْ هُوَ الَّذِي أَنْشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿ قُلْ هُوَ الَّذِي ذَرَأَكُمْ فِي الْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴾ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿ قُلْ إِنَّمَا أَعْلِمُهُ عِنْدَ اللَّهِ وَلَئِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ ﴾ فَلَمَّا رَأَوْهُ زُلْفَةً سَيَّئَتْ وُجُوهُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَقِيلَ هَذَا الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تَدْعُونَ .

يقول تعالى للمشركين الذين عبدوا معه غيره يبتغون عندهم نصرا ورزقا منكرا عليهم فيما اعتقدوه ومخبرا لهم أنه لا يحصل لهم ما أملوه فقال تعالى : ﴿ أَمَّنْ هَذَا الَّذِي هُوَ جُنْدٌ لَكُمْ يَنْصَرُّكُمْ مِنْ دُونِ الرَّحْمَنِ ﴾ أي ليس لكم من دونه من ولي ولا واق ولا ناصر لكم غيره ، ولهذا قال تعالى : ﴿ إِنَّ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي غُرُوبٍ ﴾ ثم قال تعالى : ﴿ أَمَّنْ هَذَا الَّذِي يَرْزُقُكُمْ إِنْ أَمْسَكَ رِزْقَهُ ﴾ أي من هذا الذي إذا قطع الله عنكم رزقه يرزقكم بعده أي لا أحد يعطي ويمنع ويخلق ويرزق وينصر إلا الله وحده لا شريك له ، أي وهم يعلمون ذلك ومع هذا يعبدون غيره . ولهذا قال تعالى : ﴿ بَلْ لَجُّوا ﴾ أي استمروا في طغيانهم وإفكهم وضلالهم ﴿ فِي عُتُوٍّ وَنُفُورٍ ﴾ أي في معاندة واستكبار ونفور على إذبارهم عن الحق لا يسمعون له ولا يتبعونه ، ثم قال تعالى : ﴿ أَمَّنْ يَمِشُ مَكَبًا عَلَىٰ وَجْهِهِ أَهْدَىٰ أَمَّنْ يَمِشُ سَوِيًّا عَلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾ وهذا مثل ضربه الله للمؤمن والكافر ، فالكافر مثله فيما هو فيه كمثل من يمشي مكبا على وجهه أي يمشي منجينا لا مستويا على وجهه ، أي لا يدري أين يسلك ولا كيف يذهب ، بل تائه حائر ضال أهذا أهدي ﴿ أَمَّنْ يَمِشُ سَوِيًّا ﴾ أي منتصب القامة ﴿ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾ أي على طريق واضح بين وهو في نفسه مستقيم وطريقه مستقيمة ، هذا مثلهم في الدنيا وكذلك يكونون في الآخرة ، فالؤمن يحشر يمشي سويًا على صراط مستقيم مفض به إلى الجنة الفحاء ، وأما الكافر فإنه يحشر يمشي على وجهه إلى نار جهنم ﴿ تُحْشَرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجُهُمْ وَمَا كَانُوا يَبْتَغُونَ ﴾ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَأَمْدُومُ إِلَىٰ صِرَاطٍ لَّجِيمٍ ﴿ الْآيَاتِ ، أَزْوَاجِهِمْ أَشْبَاهِهِمْ . عن أنس بن مالك قال : قيل : يا رسول الله كيف يحشر الناس على وجوههم فقال : « أَلَيْسَ الَّذِي أَمْشَاهُمْ عَلَىٰ أَرْجُلِهِمْ قَادِرًا عَلَىٰ أَنْ يَمْشِيَهُمْ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ ؟ » ^(١) . وقوله تعالى : ﴿ قُلْ هُوَ

الَّذِي أَنْشَأَكُمْ ﴿٢٨﴾ أَيِ ابْتَدَأَ خَلْقَكُمْ بَعْدَ أَنْ لَمْ تَكُونُوا شَيْئًا مَذْكُورًا ﴿٢٩﴾ وَجَعَلَ لَكُمْ السَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ وَالْأَفْئِدَةَ ﴿٣٠﴾ أَيِ الْعُقُولَ وَالْإِدْرَاقَ ﴿٣١﴾ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿٣٢﴾ أَيِ قَلِمَا تَسْتَعْمَلُونَ هَذِهِ الْقُوَى الَّتِي أَنْعَمَ اللَّهُ بِهَا عَلَيْكُمْ فِي طَاعَتِهِ وَامْتِثَالِ أَمْرِهِ وَتَرْكِ زَوَاجِرِهِ ﴿٣٣﴾ قُلْ هُوَ الَّذِي ذَرَأَكُمْ فِي الْأَرْضِ ﴿٣٤﴾ أَيِ بَشِكُمْ وَنَشْرِكُمْ فِي أَقْطَارِ الْأَرْضِ وَأَرْجَائِهَا ، مَعَ اخْتِلَافِ أَلْسِنَتِكُمْ فِي لُغَاتِكُمْ وَالْوَانِكُمْ ، وَحِلَاكُمِ وَأَشْكَالِكُمْ وَصُورِكُمْ ﴿٣٥﴾ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٣٦﴾ أَيِ : تَجْمَعُونَ بَعْدَ هَذَا التَّفَرُّقِ وَالتَّشَاتِ بِجَمْعِكُمْ كَمَا فَرَقَكُمْ وَيُعِيدُكُمْ كَمَا بَدَأَكُمْ . ثُمَّ قَالَ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنِ الْكُفَّارِ الْمُنْكَرِينَ لِلْمَعَادِ الْمُسْتَبْعِدِينَ وَقَوْعِهِ ﴿٣٧﴾ وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٣٨﴾ أَيِ : مَتَى يَقَعُ هَذَا الَّذِي تَخْبِرُنَا بِكَوْنِهِ مِنَ الْجَمْعِ بَعْدَ هَذَا التَّفَرُّقِ ﴿٣٩﴾ قُلْ إِنَّمَا آيَاتُ اللَّهِ عِنْدَ اللَّهِ ﴿٤٠﴾ أَيِ لَا يَعْلَمُ وَقْتُ ذَلِكَ عَلَى التَّعْيِينِ إِلَّا اللَّهُ ﷻ وَلَكِنَّهُ أَمَرَنِي أَنْ أَخْبِرَكُمْ أَنْ هَذَا كَائِنٌ وَوَاقِعٌ لَا مُحَالَةَ فَاحْذَرُوهُ ﴿٤١﴾ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ ﴿٤٢﴾ أَيِ : وَإِنَّمَا عَلَيَّ الْبَلَاغُ وَقَدْ أَدَيْتُهُ إِلَيْكُمْ .

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿٤٣﴾ فَلَمَّا رَأَوْهُ زُلْفَةً سَيِّئَتْ وُجُوهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴿٤٤﴾ أَيِ لَمَّا قَامَتِ الْقِيَامَةُ وَشَاهَدُوا الْكُفَّارَ وَرَأَوْا أَنَّ الْأَمْرَ كَانَ قَرِيبًا ؛ لِأَنَّ كُلَّ مَا هُوَ آتٍ وَإِنْ طَالَ زَمَنُهُ ، فَلَمَّا وَقَعَ مَا كَذَبُوا بِهِ سَاءَهُمْ ذَلِكَ لَمَّا يَعْلَمُونَ مَا لَهُمْ هُنَاكَ مِنَ الْبُشْرَى ، أَيِ فَاحْطُاطَ بِهِمْ ذَلِكَ وَجَاءَهُمْ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ مَا لَمْ يَكُنْ لَهُمْ فِي بَالٍ وَلَا حِسَابٍ ﴿٤٥﴾ وَبَدَأَ لَهُمْ فِيكَ اللَّهُ مَا لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ ﴿٤٦﴾ . وَلِهَذَا يَقَالُ لَهُمْ عَلَى وَجْهِ التَّفْرِيعِ وَالتَّوْبِيخِ ﴿٤٧﴾ هَذَا الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تَدْعُونَ ﴿٤٨﴾ أَيِ تَسْتَعْمَلُونَ .

﴿٤٩﴾ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَهْلَكْنِي اللَّهُ وَمَنْ مَعِيَ أَوْ رَحِمَنَا فَمَنْ يُجِيرُ الْكَافِرِينَ مِنْ عَذَابِ أَلِيمٍ ﴿٥٠﴾ قُلْ هُوَ الرَّحْمَنُ أَمَنَّا بِهِ وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴿٥١﴾ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَاؤُكُمْ غَوْرًا فَمَنْ يَأْتِيكُمْ بِمَاءٍ مَعِينٍ ﴿٥٢﴾ .

يَقُولُ تَعَالَى : ﴿٥٣﴾ قُلْ يَا مُحَمَّدُ لَهُؤُلَاءِ الْمَشْرِكِينَ بِاللَّهِ الْجَاهِلِينَ لِنَعْمِهِ ﴿٥٤﴾ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَهْلَكْنِي اللَّهُ وَمَنْ مَعِيَ أَوْ رَحِمَنَا فَمَنْ يُجِيرُ الْكَافِرِينَ مِنْ عَذَابِ أَلِيمٍ ﴿٥٥﴾ أَيِ خَلَصُوا أَنْفُسَكُمْ فَإِنَّهُ لَا مَنْقَذَ لَكُمْ مِنَ اللَّهِ إِلَّا التَّوْبَةُ وَالْإِنَابَةُ وَالرَّجُوعُ إِلَى دِينِهِ ، وَلَا يَنْفَعُكُمْ وَقُوعُ مَا تَتَمَنُّونَ لَنَا مِنَ الْعَذَابِ وَالنَّكَالِ فَسَوَاءٌ عَذَبْنَا اللَّهُ أَوْ رَحِمْنَا فَلَا مَنَاصَ لَكُمْ مِنْ نِكَالِهِ وَعَذَابِهِ الْأَلِيمِ الْوَاقِعِ بِكُمْ . ثُمَّ قَالَ تَعَالَى : ﴿٥٦﴾ قُلْ هُوَ الرَّحْمَنُ أَمَنَّا بِهِ وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا ﴿٥٧﴾ أَيِ : آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا فِي جَمِيعِ أُمُورِنَا كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿٥٨﴾ فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ ﴿٥٩﴾ وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى : ﴿٦٠﴾ فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴿٦١﴾ أَيِ : مِنَّا وَمِنْكُمْ وَلَنْ تَكُونَ الْعَاقِبَةُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ، ثُمَّ قَالَ تَعَالَى إِظْهَارًا لِلرَّحْمَةِ فِي خَلْقِهِ ﴿٦٢﴾ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَاؤُكُمْ غَوْرًا ﴿٦٣﴾ أَيِ ذَاهِبًا فِي الْأَرْضِ إِلَى أَسْفَلِ فَلَا يَنَالُ بِالْفَوْزِ وَالْحَدَادِ وَلَا السَّوَادِ الشَّدَادِ ، وَالْغَائِرُ عَكْسُ النَّابِغِ ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى : ﴿٦٤﴾ فَمَنْ يَأْتِيكُمْ بِمَاءٍ مَعِينٍ ﴿٦٥﴾ أَيِ نَابِغٍ سَائِحٍ جَارٍ عَلَى وَجْهِ الْأَرْضِ ، أَيِ : لَا يَقْدِرُ عَلَى ذَلِكَ إِلَّا اللَّهُ ﷻ فَمَنْ فَضَّلَهُ وَكَرَّمَهُ أَنْ أَنْبَعَ لَكُمْ الْمِيَاهَ وَأَجْرَاهَا فِي سَائِرِ أَقْطَارِ الْأَرْضِ بِحَسَبِ مَا يَحْتَاجُ الْعِبَادُ إِلَيْهِ مِنَ الْقَلَّةِ وَالْكَثَرَةِ ، فَلِلَّهِ الْحَمْدُ وَالْمُنَّةُ .

سورة القلم

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ تَ وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ ﴾ ❶ مَا أَنْتَ بِمُعْجِزٍ ❷ وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ ❸ وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ ❹ فَسَتُبْصِرُ وَيُبْصِرُونَ ❺ بِأَبْصَارِكُمُ الْمَقْتُونُ ❻ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ صَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ❼ .

المراد بقوله ﴿ تَ ﴾ حوت عظيم على تيار الماء العظيم المحيط وهو حامل للأرضين السبع . عن ابن عباس قال : أول ما خلق الله القلم قال : اكتب . قال : وماذا أكتب ، قال : اكتب القدر ، فجرى بما يكون من ذلك اليوم إلى قيام الساعة ، ثم خلق النون ورفع بخار الماء ففتقت منه السماء ، وبسطت الأرض على ظهر النون فاضطرب النون فمادت الأرض فأثبتت بالجبال ، فإنها لتفخر على الأرض . روي عن أنس أن عبد الله بن سلام بلغه مقدم رسول الله ﷺ المدينة فأتاه فسأله عن أشياء قال : إني سائلك عن أشياء لا يعلمها إلا نبي ، قال ما أول أشراف الساعة ؟ وما أول طعام يأكله أهل الجنة ؟ وما بال الولد ينزع إلى أبيه ؟ وما بال الولد ينزع إلى أمه ؟ قال : « أَخْبِرْنِي بِهِنَّ جِبْرِيلُ أَنْفًا » . قال ابن سلام : فذاك عدو اليهود من الملائكة قال : « أَمَّا أَوَّلُ أَشْرَافِ السَّاعَةِ : فَتَأَرَّخَ تَحْشُرُهُمْ مِنْ الْمَشْرِقِ إِلَى الْمَغْرِبِ ، وَأَوَّلُ طَعَامٍ يَأْكُلُهُ أَهْلُ الْجَنَّةِ : زِيَادَةُ كَبِدِ الْحَوْتِ ، وَأَمَّا الْوَلَدُ فَإِذَا سَبَقَ مَاءُ الرَّجُلِ مَاءَ الْمَرْأَةِ نَزَعَ الْوَلَدَ ، وَإِذَا سَبَقَ مَاءُ الْمَرْأَةِ مَاءَ الرَّجُلِ نَزَعَتْ » ^(١) . وعن ثوبان أن حبراً سأل رسول الله ﷺ عن مسائل فكان منها أن قال : فما تحتهم - يعني أهل الجنة - حين يدخلون الجنة قال : « زِيَادَةُ كَبِدِ الْحَوْتِ » . قال : فما غذاؤهم على أثرها ؟ قال : « يُنْحَرُ لَهُمْ نَوْرُ الْجَنَّةِ الَّذِي كَانَ يَأْكُلُ مِنْ أَطْرَافِهَا » قال : فما شربهم عليه ؟ قال : « مِنْ عَيْنٍ فِيهَا تُسَمَّى سَلْسَبِيلًا » ^(٢) . وقيل : المراد بقوله ﴿ تَ ﴾ لوح من نور . وعن معاوية بن قرة عن أبيه قال : قال رسول الله ﷺ : ﴿ تَ وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ ﴾ لَوْحٌ مِنْ نُورٍ ، وَقَلَمٌ مِنْ نُورٍ ، يَجْرِي بِمَا هُوَ كَاتِبٌ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ » ^(٣) .

وقوله تعالى : ﴿ وَالْقَلَمِ ﴾ الظاهر أنه جنس القلم الذي يكتب به ، فهو قسم منه تعالى وتنبه لخلق على ما أنعم به عليهم من تعليم الكتابة التي بها تنال العلوم ، ولهذا قال : ﴿ وَمَا يَسْطُرُونَ ﴾ يعني وما يكتبون وقال السدي : ﴿ وَمَا يَسْطُرُونَ ﴾ يعني الملائكة وما تكتب من أعمال العباد . وقال آخرون : بل المراد ههنا بالقلم الذي أجراه الله بالقدر حين كتب مقادير الخلائق قبل أن يخلق السموات والأرضين بخمسين ألف عام ، وعن الوليد بن عباد بن الصامت قال : دعاني أبي حين حضره الموت فقال : إني سمعت رسول الله ﷺ يقول : « إِنَّ أَوَّلَ مَا خَلَقَ اللَّهُ الْقَلَمَ فَقَالَ لَهُ : اكْتُبْ . قَالَ : يَا رَبِّ وَمَا أَكْتُبُ ؟ قَالَ : اكْتُبِ الْقَدَرَ وَمَا هُوَ كَاتِبٌ إِلَى الْأَبَدِ » ^(٤) .

(١) أخرجه أحمد في مسنده (١٨٩/٣) والبخاري في مناقب الأنصار (٣٩٣٨) .

(٢) أخرجه مسلم في الحيف (٣٤) وأحمد في مسنده (١٨٩/٣) .

(٣) ذكره السيوطي في الدر المنثور (٢٥٠/٦) .

(٤) أخرجه أحمد في مسنده (٣١٧/٥) وأبو داود في السنن (٤٧٠٠) والبيهقي في السنن (٢٠٤/١٠) والترمذي في السنن (٣٣١٩) .

وعن مجاهد : ﴿ وَالْقَلَمِ ﴾ يعني الذي كتب به الذكر . وقوله تعالى ﴿ وَمَا يَسْطُرُونَ ﴾ أي : يكتبون كما تقدم .

وقوله تعالى : ﴿ مَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ ﴾ أي : لست ولله الحمد بمجنون كما يقوله الجهله من قومك المكذبون بما جتتهم به من الهدى والحق المبين فنسبوك فيه إلى الجنون : ﴿ وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ ﴾ أي : بل إن لك الأجر العظيم والثواب الجزيل الذي لا ينقطع ولا يبيد على إبلاغك رسالة ربك إلى الخلق وصبرك على أذاهم ، ومعنى غير ممنون ؛ أي غير مقطوع عنهم . وقال مجاهد : أي غير محسوب وهو يرجع إلى ما قلناه . وقوله تعالى ﴿ وَإِنَّكَ لَمَلَكٌ خَلْقٍ عَظِيمٍ ﴾ قال ابن عباس : وإنك لعلی دين عظيم وهو الإسلام . وقال عطية : لعلی أدب عظيم . قال قتادة : سئلت عائشة عن خلق رسول الله ﷺ قالت : كان خلقه القرآن تقول كما هو في القرآن ^(١) . وعن رجل من بني سواد قال : سألت عائشة عن خلق رسول الله ﷺ . فقالت : أما تقرأ القرآن ؟ ﴿ وَإِنَّكَ لَمَلَكٌ خَلْقٍ عَظِيمٍ ﴾ قال : قلت : حدثيني عن ذاك . قالت : صنعت له طعامًا وصنعت له حفصة طعامًا ، فقلت لجاريتي : اذهبي فإن جاءت هي بالطعام فوضعتہ قبل فاطمحي الطعام . فجاءت بالطعام . قالت : فألقت الجارية فوقعت القصعة فانكسرت وكان نطع ، قالت : فجمعه رسول الله ﷺ وقال : « اقتصوا - أو اقتصبي شك أسود - ظَرْفًا مَكَانَ ظَرْفِكَ » . قالت : فما قال شيئًا ^(٢) .

ومعنى هذا أنه عليه الصلاة والسلام صار امتثال القرآن أمرًا ونهيًا سجية له وخلقًا تطبعه وترك طبعه الجلي ، فمهما أمره القرآن فعله ومهما نهاه عنه تركه ، هذا مع ما جبله الله عليه من الخلق العظيم من الحياء والكرم والشجاعة والصفح والحلم وكل خلق جميل . عن أنس قال : خدمت رسول الله ﷺ عشر سنين فما قال لي أف قط ، ولا قال لشيء فعلته لم فعلته ؟ ولا لشيء لم أفعله ألا فعلته ؟ وكان ﷺ أحسن الناس خلقًا ، ولا ممسست خزًا ولا حريرًا ولا شيئًا كان ألين من كف رسول الله ﷺ ، ولا شممت مسكًا ولا عطرًا كان أطيب من عرق رسول الله ﷺ ^(٣) ، وعن أبي إسحاق قال : سمعت البراء يقول : كان رسول الله ﷺ أحسن الناس وجهًا وأحسن الناس خلقًا ، ليس بالطويل ولا بالقصير ^(٤) وعن عائشة قالت : ما ضرب رسول الله ﷺ بيده خادمًا له قط ولا ضرب امرأة ولا ضرب بيده شيئًا قط إلا أن يجاهد في سبيل الله ، ولا خير بين شيئين قط إلا أن كان أحبهما إليه أيسرهما حتى يكون إثمًا ، فإذا كان إثمًا ، كان أبعد الناس من الإثم ، ولا انتقم لنفسه من شيء يؤتى إليه إلا أن تنتهك حرمة الله فيكون هو ينتقم لله ﷻ ^(٥) . وعن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « إِنَّمَا بُعِثْتُ لِأَتَمِّمَ صَالِحَ الْأَخْلَاقِ » ^(٦) .

وقوله تعالى : ﴿ فَسَبِّحْ رَبَّكَ وَبُحِّرْ ﴾ ٥ بِأَيْتِكُمُ الْفُتُونُ ﴿ أي : فستعلم يا محمد وسيعلم مخالفوك ومكذبوك من المفتون الضال منك ومنهم ، قال ابن عباس في هذه الآية : ستعلم ويعلمون يوم القيامة .

(١) أخرجه أحمد في مسنده (١٦٣/٦) والبيهقي في السنن (٤٩٩/٢) .

(٢) أخرجه البخاري في الأدب (٦٠٣٨) .

(٣) أخرجه أحمد في مسنده (١١١/٦) .

(٤) أخرجه البخاري في المناقب (٣٥٤٩) .

(٥) أخرجه أحمد في مسنده (٣٨١/٢) .

(٦) أخرجه أحمد في مسنده (٣٨١/٢) .

وقال ابن عباس : ﴿ يَا أَيُّكُمُ الْمَفْتُونُ ﴾ أي المجنون . وقال قتادة وغيره : ﴿ يَا أَيُّكُمُ الْمَفْتُونُ ﴾ أي أولى بالشیطان . ومعنى المفتون : الذي قد افتتن عن الحق وضل عنه ، وإنما دخلت الباء في قوله : ﴿ يَا أَيُّكُمُ ﴾ لتدل على تضمين الفعل في قوله : ﴿ فَسَبِّحْهُ وَرَبِّعْهُ ﴾ وتقديره فستعلم ويعلمون أي فستخبر ويخبرون بأيكم المفتون ، والله أعلم . ثم قال تعالى : ﴿ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُنْتَهِينَ ﴾ أي هو يعلم تعالى أي الفريقين منكم ومنهم هو المهتدي ويعلم الحزب الضال عن الحق .

﴿ فَلَا تَطْعِ الْمُكَذِّبِينَ ﴾ ١ وَدُّوْا لَوْ تَذَنُّهُمْ يَكْذِبُونَ ٢ وَلَا تَطْعِ كُلَّ حَلَّاقٍ مُّهِينٍ ٣ هَمَّازٍ مَّشْلَمٍ بِنَمِيمٍ ٤ مَتَّاعٍ لِلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ ٥ عُثْلٌ بَعْدَ ذَلِكَ رَنِيمٍ ٦ أَنْ كَانَ ذَا مَالٍ وَنَدِيمٍ ٧ إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِ آيَاتُنَا قَالَ أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ٨ سَنَسِفُهُ عَلَى الْغُرُورِ ٩ .

يقول تعالى كما أنعمنا عليك وأعطيناك الشرع المستقيم والخلق العظيم ﴿ فَلَا تَطْعِ الْمُكَذِّبِينَ ﴾ ١ وَدُّوْا لَوْ تَذَنُّهُمْ يَكْذِبُونَ ٢ قال ابن عباس : لو ترخص لهم فيرخصون . وقال مجاهد : تركن إلى آلهتهم وترك ما أنت عليه من الحق . ثم قال تعالى ﴿ وَلَا تَطْعِ كُلَّ حَلَّاقٍ مُّهِينٍ ﴾ وذلك أن الكاذب لضعفه ومهانته إنما يتقي بأيمانه الكاذبة التي يجترئ بها على أسماء الله تعالى ، واستعمالها في كل وقت في غير محلها . قال ابن عباس : المهين الكاذب . وقال مجاهد : هو الضعيف القلب . قال الحسن :

﴿ كُلَّ حَلَّاقٍ ﴾ مكابر ﴿ مُّهِينٍ ﴾ ضعيف . وقوله تعالى : ﴿ هَمَّازٍ ﴾ قال ابن عباس وقاتدة : يعني الاغتيال ﴿ مَّشْلَمٍ بِنَمِيمٍ ﴾ يعني الذي يمشي بين الناس ويحرس بينهم وينقل الحديث لفساد ذات البين ، وهي الحالقة . عن ابن عباس قال : مر رسول الله ﷺ بقبرين فقال : « إِنَّهُمَا لَيُعَذَّبَانِ وَمَا يُعَذَّبَانِ فِي كَبِيرٍ ، أَمَا أَحَدُهُمَا : فَكَانَ لَا يَسْتَتِرُ مِنَ الْبُؤْسِ ، وَأَمَّا الْآخَرُ : فَكَانَ يَمْشِي بِالنَّمِيمَةِ » (١) . وعن حذيفة قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « لَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ قَتَاتٌ » (٢) . وعن أسماء بنت يزيد بن السكن أن النبي ﷺ قال : « أَلَا أُخْبِرُكُمْ بِخَيْرِ كَمْ ؟ » قالوا : بلى يا رسول الله . قال : « الَّذِينَ إِذَا رُؤُوا ذُكِرَ اللَّهُ ﷻ » ثم قال : « أَلَا أُخْبِرُكُمْ بِشَرِّ أَرْكَمِ الْمَشَافِقِ بِالنَّمِيمَةِ ، الْمُفْسِدُونَ يَتَنَ الْأَجْبَةِ الْبَاغُونَ لِلْبِرَاءِ الْعَنْتَ » (٣) .

وقوله تعالى : ﴿ مَتَّاعٍ لِلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ ﴾ أي : يمنع ما عليه وما لديه من الخير ﴿ مُعْتَدٍ ﴾ في تناول ما أحل الله له يتجاوز فيها الحد المشروع ﴿ أَثِيمٍ ﴾ أي : يتناول المحرمات ، وقوله تعالى : ﴿ عُثْلٌ بَعْدَ ذَلِكَ رَنِيمٍ ﴾ أما العثل : فهو الفظ الغليظ الصحيح الجموع النوع . عن حارثة بن وهب قال : قال رسول الله ﷺ : « أَلَا أُتْبِحُكُمْ بِأَهْلِ الْجَنَّةِ ؟ كُلُّ ضَعِيفٍ مُتَضَعِّفٍ لَوْ أَقْسَمَ عَلَى اللَّهِ لِأَبَوِهِ ، أَلَا أُتْبِحُكُمْ بِأَهْلِ النَّارِ ؟ كُلُّ عُثْلٍ جَوَاطٍ مُسْتَكْبِرٍ » (٤) . عون زيد بن أسلم قال : قال رسول الله ﷺ : « تَبْكِي السَّمَاءُ مِنْ عِبَادِ أَصْحَ اللَّهُ جِسْمَهُ ، وَأَرْحَبُ جَوْفَهُ ، وَأَعْطَاهُ مِنَ الدُّنْيَا هَضْمًا ، فَكَانَ لِلنَّاسِ ظُلُومًا . قال :

(١) أخرجه البخاري في الجائز (١٣٦١) والترمذي في السنن (٧٠) والنسائي في السنن (١٠٦/٤) وابن ماجه في السنن (٣٤٧) .

(٢) أخرجه البخاري في الأدب (٦٠٥٦) ومسلم في الإيمان (١٦٩) وأبو داود في السنن (٤٨٧١) والترمذي في السنن (٢٠٢٦) .

وأحمد في مسنده (٣٩٧/٥) . (٣) أخرجه أحمد في مسنده (٤٥٩/٦) .

(٤) أخرجه البخاري في تفسير القرآن (٤٩١٨) وأحمد في مسنده (٣٠٦/٤) .

فَذَلِكَ الْعُتْلُ الزَّيْنِمُ ^(١) . وأما الزنيم : فقال ابن عباس : رجل من قريش له زنمة مثل زنمة الشاة ، ومعنى هذا أنه كان مشهوراً بالسوء كشهرة الشاة ذات الزنمة من بين أخواتها ، وإنما الزنيم في لغة العرب هو الدعي في القوم : ومنه قول حسان بن ثابت يذم بعض كفار قريش :

وَأَنْتَ زَيْنِمٌ نِيْطُ فِي آلِ هَاشِمٍ كَمَا نِيْطُ خَلْفَ الرَّوَاقِبِ الْقَدَحُ الْفَرْدُ
عن ابن عباس في قوله : ﴿ زَيْنِمٌ ﴾ قال : الدعي الفاحش اللئيم . ثم قال ابن عباس :
زَيْنِمٌ تَدَاعَاؤُ الرِّجَالِ زِيَادَةُ كَمَا زِيدَ فِي عَرْضِ الْأَيْمِ الْأَكْرَاعِ

ويقال : الزنيم رجل كانت به زنمة يعرف بها ويقال : هو الأخنس بن شريق الثقفي حليف بني زهرة ، وزعم أناس من بني زهرة أن الزنيم الأسود بن عبد يغوث الزهري وليس به ، وعن ابن عباس أنه زعم أن الزنيم الملحق النسب ، وعن سعيد بن المسيب أنه سمعه يقول في هذه الآية ﴿ عُتْلٌ بَعْدَ ذَلِكَ زَيْنِمٌ ﴾ قال سعيد : هو الملحق بالقوم ليس منهم . وسئل عكرمة عن الزنيم قال : هو ولد الزنى ، وقال : يعرف المؤمن من الكافر مثل الشاة الزنماء ، والزنماء من الشياه التي في عنقها هنتان معلقتان في حلقتها . وعن سعيد بن جبير قال : الزنيم الذي يعرف بالشر كما تعرف الشاة بزنمتها ، والزنيم الملحق ، ويقال : هو اللئيم الملحق في النسب ، وقال مجاهد : الذي يعرف بهذا الوصف كما تعرف الشاة ، وقال أبو رزين : الزنيم علامة الكفر ، وقال عكرمة : الزنيم الذي يعرف باللؤم كما تعرف الشاة بزنمتها . والأقوال في هذا كثيرة . وترجع إلى ما قلناه وهو أن الزنيم هو المشهور بالشر الذي يعرف به من بين الناس وغالباً يكون دعياً ولد زنى ؛ فإنه في الغالب يتسلط الشيطان عليه ما لا يتسلط على غيره كما جاء في الحديث : « لَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ وَلَدُ زَنَى » ^(٢) . وفي الحديث الآخر : « وَلَدُ الزَّانِي شَرُّ الثَّلَاثَةِ إِذَا عَمِلَ بِعَمَلِ آبَائِهِ » ^(٣) .

وقوله تعالى : ﴿ أَنْ كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ ﴾ إِذَا تَنَلَّى عَلَيْهِ مَا نُنَاقِلُ قَالَ أَسْطِطِرُّ الْأَوَّلِينَ ﴿ يقول تعالى هذا مقابلة ما أنعم الله عليه من المال والبنين كفر بآيات الله ﷻ وأعرض عنها وزعم أنها كذب مأخوذ من أساطير الأولين . وقال تعالى ﴿ سَنَسِيحٌ عَلَى السَّرَابِ ﴾ قال ابن جرير : سنيح أمره بياناً واضحاً حتى يعرفوه ولا يخفى عليهم كما لا تخفى عليهم السمة على الخراطيم ، وهكذا قال قتادة ﴿ سَنَسِيحٌ عَلَى السَّرَابِ ﴾ شين لا يفارقه آخر ما عليه . وفي رواية عنه : سيما على أنفه ، وقال ابن عباس ﴿ سَنَسِيحٌ عَلَى السَّرَابِ ﴾ يقاتل يوم بدر فيخطم بالسيف في القتال ، وقال آخرون : ﴿ سَنَسِيحٌ ﴾ سمة أهل النار يعني نسود وجهه يوم القيامة وعبر عن الوجه بالخرطوم ، حكى ذلك كله أبو جعفر ابن جرير ومال إلى أنه لا مانع من اجتماع الجميع عليه في الدنيا والآخرة . وهو متجه . وعن عبد الله بن عمرو عن رسول الله ﷺ أنه قال : « إِنَّ الْعَبْدَ يُكْتَبُ مُؤْمِنًا أَحْقَابًا ثُمَّ يَمُوتُ وَاللَّهُ عَلَيْهِ سَاخِطٌ ، وَإِنَّ الْعَبْدَ يُكْتَبُ كَافِرًا »

(١) أورده السيوطي في الدر المنثور (٢٥٢/٦) والطبري في تفسيره (٣٠/٢٨) .

(٢) أخرجه البخاري في التاريخ الكبير (٢٥٧/٢) والبيهقي في السنن (٥٨/١٠) والدارمي في السنن (١١٢/٢) والألباني في الصحيحة (٢٨٥/٢) .

(٣) أخرجه أبو داود في السنن (٣٩٦٣) وأحمد في مسنده (٣١١/٢) والحاكم في المستدرک (١٠٠/٤) والبيهقي في السنن (٩١/٣) .

أَحْقَابًا ثُمَّ أَحْقَابًا ثُمَّ يَمُوتُ وَاللَّهُ عَلَيْهِ رَاضٍ ، وَمَنْ مَاتَ هَمَازًا لَمَّا زَا مُلْقَبًا لِلنَّاسِ ؛ كَانَ عَلَامَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَنَّ يَسْمُهُ اللَّهُ عَلَى الْخُرُوطِ مِنْ كِلَا الشُّفَتَيْنِ ^(١) .

﴿ إِنَّا بَلَوْنَهُمْ كَمَا بَلَوْنَا أَصْحَبَ الْفَنَاءِ إِذْ أَتَمُّوا بِصِرْمَتِهَا مُصِيبِينَ ﴾ ^(١) وَلَا يَسْتَنْتُونَ ﴿ نَطَافَ عَلَيْهَا طَائِفٌ مِنْ رَبِّكَ وَهُمْ نَائِبُونَ ﴾ ^(٢) فَأَصْبَحَتْ كَالصَّرِيمِ ﴿ تَنَادَوْا مُصِيبِينَ ﴾ ^(٣) أَيْنَ أَغْدُوا عَلَى حَرْبِكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿ فَانْطَلَقُوا وَهُمْ يَخْفَتُونَ ﴾ ^(٤) أَنْ لَا يَدْخُلَهَا الْيَوْمَ عَلَيْكُمْ نَسِيجٌ ﴿ وَغَدَا عَلَى حَرٍّ قَدِيدٍ ﴾ ^(٥) فَمَا رَأَوْا قَالُوا إِنَّا لَنَصَائِرُ ﴿ بَلْ نَحْنُ خَرُومٌ ﴾ ^(٦) قَالَ أَرْسَلْهُمْ أَوْ أَقُلْ لَكُمْ لَوْلَا تُسَبِّحُونَ ﴿ قَالُوا سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ ﴾ ^(٧) فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتْلَمِزُونَ ﴿ قَالُوا يَبْرَأَكَ إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ ﴾ ^(٨) عَسَى رَبَّنَا أَنْ يُبَيِّنَ لَنَا حَبْرًا مِثْلَ إِنَّا لَمْ نَرَبَّنَا رَغْبَتُونَ ﴿ كَذَلِكَ الْعَذَابُ وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴾ .

هذا مثل ضربه الله تعالى لكفار قريش فيما أهدى إليهم من الرحمة العظيمة وأعطاهم من النعمة الجسيمة وهو بعثة محمد ﷺ إليهم ، فقابلوه بالكذب والرد والحاربة . ولهذا قال تعالى : ﴿ إِنَّا بَلَوْنَهُمْ ﴾ أي اختبارناهم ﴿ كَمَا بَلَوْنَا أَصْحَبَ الْفَنَاءِ ﴾ وهي البستان المشتمل على أنواع الثمار والفواكه ﴿ إِذْ أَتَمُّوا بِصِرْمَتِهَا مُصِيبِينَ ﴾ أي حلفوا فيما بينهم ليجذب ثمرها ليلاً لئلا يعلم بهم فقير ولا سائل ليتوفر ثمرها عليهم ولا يتصدقوا منه بشيء ﴿ وَلَا يَسْتَنْتُونَ ﴾ أي : فيما حلفوا به ، ولهذا حنثهم الله في أيمانهم فقال تعالى : ﴿ نَطَافَ عَلَيْهَا طَائِفٌ مِنْ رَبِّكَ وَهُمْ نَائِبُونَ ﴾ أي : أصابها آفة سماوية ﴿ فَأَصْبَحَتْ كَالصَّرِيمِ ﴾ قال ابن عباس : أي كالليل الأسود . وقال الثوري والسدي : مثل الزرع إذا حصد أي هشيماً ييساً . وعن ابن مسعود قال : قال رسول الله ﷺ : « إِيَّاكُمْ وَالْمَعَاصِي ؛ إِنَّ الْعَبْدَ لَيُذْنِبُ الذَّنْبَ فَيُحْرَمُ بِهِ رِزْقًا قَدْ كَانَ هُمِيَّ لَهُ » . ثم تلا رسول الله ﷺ : ﴿ نَطَافَ عَلَيْهَا طَائِفٌ مِنْ رَبِّكَ وَهُمْ نَائِبُونَ ﴾ ^(١) فَأَصْبَحَتْ كَالصَّرِيمِ ﴿ ^(٢) قد حرموا خير جنتهم بذنبهم ﴾ تَنَادَوْا مُصِيبِينَ ﴿ أي لما كان وقت الصبح نادى بعضهم بعضاً ليذهبوا إلى الجذاذ أي القطع ﴾ أَيْنَ أَغْدُوا عَلَى حَرْبِكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿ أي : تريدون الصرام . قال مجاهد : كان حرثهم عنباً ﴾ فَانْطَلَقُوا وَهُمْ يَخْفَتُونَ ﴿ أي يتناجون فيما بينهم بحيث لا يسمعون أحداً كلامهم .

ثم فسر الله سبحانه وتعالى عالم السر والنجوى ما كانوا يتخافتون به فقال تعالى : ﴿ فَانْطَلَقُوا وَهُمْ يَخْفَتُونَ ﴾ ^(١) أَنْ لَا يَدْخُلَهَا الْيَوْمَ عَلَيْكُمْ نَسِيجٌ ﴿ أي : يقول بعضهم لبعض : لا تمسكوا اليوم فقيراً يدخلها عليكم . قال الله تعالى : ﴿ وَغَدَا عَلَى حَرٍّ قَدِيدٍ ﴾ أي قوة وشدة ، وقال مجاهد : جد ، وقال الشعبي : على المساكين ، وقال السدي : كان اسم قريتهم حرد . فأبعد السدي في قوله هذا ﴿ قَدِيدٍ ﴾ أي عليها فيما يزعمون ويرومون ﴿ فَمَا رَأَوْا قَالُوا إِنَّا لَنَصَائِرُ ﴾ أي : فلما وصلوا إليها وأشرفوا عليها وهي على الحالة التي قال الله ﷻ قد استحالت عن تلك النضارة والزهرة وكثرة الثمار إلى أن صارت سوداء مدلهمة لا ينتفع بشيء منها . فاعتقدوا أنهم قد أخطأوا الطريق ولهذا قالوا : ﴿ إِنَّا لَنَصَائِرُ ﴾ أي قد سلكننا إليها غير الطريق فتعنها عنها . قاله ابن عباس وغيره ، ثم رجعوا عما كانوا فيه وتيقنوا أنها هي فقالوا : ﴿ بَلْ نَحْنُ خَرُومٌ ﴾ أي بل هي هذه ولكن نحن لا حظ لنا ولا نصيب ﴿ قَالَ أَرْسَلْهُمْ ﴾ أي أعدلهم وخيرهم ﴿ أَوْ أَقُلْ لَكُمْ لَوْلَا تُسَبِّحُونَ ﴾ أي لولا تسبِّحون . قال السدي : وكان استنابهم في ذلك الزمان تسييحاً ، وقال ابن جرير : هو قول القائل إن شاء الله ، وقيل معناه : هلا تسبحون الله وتشكرونه على ما أعطاكم وأنعم به عليكم

(٢) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٦/٢٥٣ .

(١) أورده الهشبي في مجمع الزوائد (٧/٢١٣) .

﴿ قَالُوا سُبْحَنَ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ ﴾ ﴿٣٤﴾ أتوا بالطاعة حيث لا تنفع وندموا واعترفوا حيث لا ينجع .

ولهذا قالوا : ﴿ إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ ﴾ ﴿٣٥﴾ فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَلَوْنَ ﴿٣٦﴾ أي يلوم بعضهم بعضاً على ما كانوا أصروا عليه من منع المساكين من حق الجذاذ ، فما كان جواب بعضهم لبعض إلا الاعتراف بالخطيئة والذنب ﴿ قَالُوا يَبْرَأَ إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ ﴾ ﴿٣٧﴾ أي اعتدينا وبغينا وطغينا وجاوزنا الحد حتى أصابنا ما أصابنا ﴿ عَنِ رَبِّنَا أَنْ يَدْخُلَ حَيْكَةً مِنْهَا إِنَّا لَكَ رَبِّنَا رَغِبُونَ ﴾ ﴿٣٨﴾ قيل : رغبوا في بذلها لهم في الدنيا ، وقيل : احتسبوا ثوابها في الدار الآخرة ، والله أعلم . ثم قد ذكر بعض السلف أن هؤلاء قد كانوا من أهل اليمن ، قال سعيد بن جبير : كانوا من قرية يقال لها ضروان على ستة أميال من صنعاء . وقيل : كانوا من أهل الحبشة وكان أبوهم قد خلف لهم هذه الجئة وكانوا من أهل الكتاب ، وقد كان أبوهم يسير فيها سيرة حسنة ، فكان ما يستغل منها يرد فيها ما تحتاج إليه ويدخر لعياله قوت سنتهم ويتصدق بالفاضل ، فلما مات وورثه بنوه قالوا : لقد كان أبونا أحق ، إذ كان يصرف من هذه شيئاً للفقراء ، ولو أنا منعناهم لتوفر ذلك علينا ، فلما عزموا على ذلك عوقبوا بنقيض قصدهم ، فأذهب الله ما بأيديهم بالكلية : رأس المال والريح والصدقة فلم يبق لهم شيء ، قال تعالى ﴿ كَذَلِكَ آتَيْنَاهُ ﴾ أي هكذا عذاب من خالف أمر الله وبخل بما آتاه الله وأنعم به عليه ومنع حق المسكين والفقير وذوي الحاجات ويدل نعمة الله كفراً ﴿ وَلَكِنَّ الْآخِرَةَ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴾ ﴿٣٩﴾ أي هذه عقوبة الدنيا كما سمعتم وعذاب الآخرة أشق .

﴿ إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٍ النَّعِيمِ ﴾ ﴿٤٠﴾ أَنْتَجَلَ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُحْرِمِينَ ﴿٤١﴾ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿٤٢﴾ أَمْ لَكُمْ كِتَابٌ فِيهِ تَدْرُسُونَ ﴿٤٣﴾ إِنْ لَكُمْ فِيهِ مَا تَحْزَنُونَ ﴿٤٤﴾ أَمْ لَكُمْ آيَاتُنَا عَلَيْهَا بَلَاءٌ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ إِنْ لَكُمْ مَا تَحْكُمُونَ ﴿٤٥﴾ سَلَّمْتُ إِلَيْكُمْ بِالْكِتَابِ الَّذِي رَزَقْتُكُمْ إِنْ لَكُمْ شُرَكَاءُ فَلْيَأْتُوا بِشُرَكَائِهِمْ إِنْ كَانُوا صَادِقِينَ ﴿٤٦﴾ .

لما ذكر تعالى حال أهل الجنة الدنيوية وما أصابهم فيها من النعمة حين عصوا الله ﷻ وخالفوا أمره ، بين أن لمن اتقاه وأطاعه في الدار الآخرة جنات النعيم التي لا تبيد ولا تفرغ ولا ينقضي نعيمها ، ثم قال تعالى : ﴿ أَنْتَجَلَ الْمُسْلِمِينَ ﴾ أي أفنساوي بين هؤلاء وهؤلاء في الجزاء ؟ كلا ورب الأرض والسماء ، ولهذا قال : ﴿ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴾ أي كيف تظنون ذلك ؟ ثم قال تعالى : ﴿ أَمْ لَكُمْ كِتَابٌ فِيهِ تَدْرُسُونَ ﴾ ﴿٤٣﴾ إِنْ لَكُمْ فِيهِ مَا تَحْزَنُونَ ﴿٤٤﴾ يقول تعالى أفبأيديكم كتاب منزل من السماء تدرسونه وتحفظونه وتداولونه بنقل الخلف عن السلف متضمن حكماً مؤكداً كما تدعونه ؟ ﴿ إِنْ لَكُمْ فِيهِ مَا تَحْزَنُونَ ﴾ ﴿٤٥﴾ أَمْ لَكُمْ آيَاتُنَا عَلَيْهَا بَلَاءٌ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ إِنْ لَكُمْ مَا تَحْكُمُونَ ﴿٤٥﴾ أي أمعكم عهود منا ومواثيق مؤكدة ﴿ إِنْ لَكُمْ مَا تَحْكُمُونَ ﴾ أي أنه سيحصل لكم ما تريدون وتشتهون ﴿ سَلَّمْتُ إِلَيْكُمْ بِالْكِتَابِ الَّذِي رَزَقْتُكُمْ ﴾ أي : قل لهم من هو المتضمن المتكفل بهذا ؟ قال ابن عباس : أيهم لذلك كفيلاً ﴿ أَمْ لَكُمْ شُرَكَاءُ ﴾ أي : من الأصنام والأنداد ﴿ فَلْيَأْتُوا بِشُرَكَائِهِمْ إِنْ كَانُوا صَادِقِينَ ﴾ ﴿٤٦﴾ .

﴿ يَوْمَ يُكْشَفُ عَنْ سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى الشُّجُورِ فَلَا يَسْتَجِيبُونَ ﴾ ﴿٤٧﴾ خَشِيعَةً أَنْسَرُمُ تَرْفَعُهُمْ إِلَهُ وَقَدْ كَانُوا يَدْعُونَ إِلَى الشُّجُورِ وَهُمْ سَالِمُونَ ﴿٤٨﴾ فَذَرْنِي وَمَنْ يُكَلِّبُ بِهَذَا الْحَدِيثِ فَعَدَّيْهِمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٩﴾ وَأَنْتَ لَمْ يَكُنْ مِنْهُمْ أَمْ تَنْتَاهُهُمْ أَعْرَأَ فَمِنْ تَفَرِّقٍ مُتَّفَلُونَ ﴿٥٠﴾ أَمْ عِنْدَهُمُ الْغَيْبُ فَهُمْ يَكِيدُونَ ﴿٥١﴾ .

لما ذكر تعالى أن للمتقين عند ربهم جنات النعيم ؛ بين متى ذلك كائن وواقع فقال تعالى : ﴿ يَوْمَ

يَكْشِفُ عَنْ سَاقٍ وَيُدْعُونَ إِلَى السُّجُودِ فَلَا يَسْتَجِيبُونَ ﴿١﴾ يعني يوم القيامة وما يكون فيه من الأحوال والزلازل والبلاء والامتحان والأمور العظام . عن أبي سعيد الخدري قال : سمعت النبي ﷺ يقول : « يَكْشِفُ رَبُّنَا عَنْ سَاقِهِ فَيَسْجُدُ لَهُ كُلُّ مُؤْمِنٍ وَمُؤْمِنَةٍ ، وَيَبْقَى مَنْ كَانَ يَسْجُدُ فِي الدُّنْيَا رِيَاءً وَشَمْعَةً ، فَيَذْهَبَ لَيْسَ سَجْدَةً فَيُفَوِّدَ ظَهْرُهُ طَبَقًا وَاحِدًا ^(١) . وعن ابن عباس ﴿ يَوْمَ يُكْشَفُ عَنْ سَاقٍ ﴾ قال : هو يوم القيامة يوم كرب وشدة . وعن مجاهد : ﴿ يَوْمَ يُكْشَفُ عَنْ سَاقٍ ﴾ قال : شدة الأمر ، وقال ابن عباس : هي أشد ساعة تكون في يوم القيامة ، وقال مجاهد ﴿ يَوْمَ يُكْشَفُ عَنْ سَاقٍ ﴾ قال : شدة الأمر وجده . وقال ابن عباس : هو الأمر الشديد الفظيع من الهول يوم القيامة ، وقال أيضًا : حين يكشف الأمر وتبدو الأعمال ، وكشفه دخول الآخرة وكشف الأمر عنه . وقوله تعالى : ﴿ خَشِيتُ أَنْ تُصْرِمَ تَرْفَعَهُمْ إِلَّاهُ ﴾ أي : في الدار الآخرة بإجرامهم وتكبرهم في الدنيا فعوقبوا بنقيض ما كانوا عليه ، ولما دعوا إلى السجود في الدنيا فامتنعوا منه مع صحتهم وسلامتهم كذلك عوقبوا بعدم قدرتهم عليه في الآخرة ، إذا تجلى الرب ﷻ فيسجد له المؤمنون لا يستطيع أحد من الكافرين ولا المنافقين أن يسجد بل يعود ظهر أحدهم طبقًا واحدًا كلما أراد أحدهم أن يسجد خوًا لقفاه عكس السجود كما كانوا في الدنيا بخلاف ما عليه المؤمنون .

ثم قال تعالى : ﴿ فَذَرْنِي وَمَنْ يُكَذِّبُ هَذَا الْحَدِيثَ ﴾ يعني القرآن ، وهذا تهديد شديد أي دعني وإياه مني منه أنا أعلم به كيف أستدرجه وأمده في غيه وأنظره ثم أخذه أخذ عزيز مقتدر ، ولهذا قال تعالى : ﴿ سَنَسْتَدْرِجُهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ أي وهم لا يشعرون بل يعتقدون أن ذلك من الله كرامة وهو في نفس الأمر إهانة ولهذا قال : ﴿ وَأَنْتَ لَمَّا إِنَّ كَذِبِي مَتِينٌ ﴾ أي : وأوخرهم وأنظرهم وأمدهم وذلك من كيدي ومكري بهم ، ولهذا قال تعالى : ﴿ إِنَّ كَذِبِي مَتِينٌ ﴾ أي عظيم لمن خالف أمري وكذب رسلي واجترأ على معصيتي .

وفي الصحيحين عن رسول الله ﷺ أنه قال : « إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى لَيُعْلِي لِلظَّالِمِ حَتَّى إِذَا أَخَذَهُ لَمْ يُفْلِتْهُ » .

ثم قرأ : ﴿ وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرْآنَ مِنْ ظِلْمَةٍ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴾ ^(٢) . وقوله تعالى : ﴿ أَمْ تَسْأَلُهُمْ أَجْرًا فَهُمْ مِنْ مَغْرَمٍ مُثْقَلُونَ ۖ أَمْ عَنْدهُمْ الْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُمُونَ ﴾ والمعنى في ذلك أنك يا محمد تدعوهم إلى الله ﷻ بلا أجر تأخذه منهم بل ترجو ثواب ذلك عند الله تعالى وهم يكذبون بما جفتهم به بمجرد الجهل والكفر والعناد .

﴿ فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُنْ كَصَاحِبِ الْهُوتِ إِذْ نَادَىٰ وَهُوَ مَكْظُومٌ ۖ لَوْلَا أَنْ تَدَارَكُهُ رَبُّهُ مِنْ رَبِّهِ لَئِيدٌ بِالْعِلَّةِ وَهُوَ مَذْمُومٌ ۖ فَاجْتَنِبْ رَبُّهُ فَعَلِمَ مِنَ الصَّالِحِينَ ۖ وَإِنْ يَكَادُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَرِهِمْ لَنْ يَسْمَعُوا الْإِذْكَرَ يَقُولُونَ إِنَّهُمْ لَمَجْنُونٌ ۖ وَمَا هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ ۖ ﴾ .

يقول تعالى ﴿ فَاصْبِرْ ﴾ يا محمد على أذى قومك لك وتكذيبهم ؛ فإن الله سيحكم لك عليهم

(١) أخرجه البخاري في تفسيره (٤٩١٩) .

(٢) أخرجه مسلم في البر والصلة (١٦) والترمذي في السنن (٣١١٠) وابن ماجه في السنن (٤٠١٨) .

ويجعل العاقبة لك ولأتباعك في الدنيا والآخرة ﴿ وَلَا تَكُنْ كَصَاحِبِ آلُوتٍ ﴾ يعني ذا النون وهو يونس ابن متى عليه السلام حين ذهب مغاضباً على قومه فكان من أمره ما كان من ركوبه في البحر والتقام الحوت له وشروء الحوت به في البحار وظلمات غمرات اليم ، وسماعه تسييح البحر بما فيه للعلي القدير الذي لا يرد ما أنفذه من التقدير ، فحينئذ نادى في الظلمات ﴿ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ ﴾ وقال ههنا : ﴿ إِذْ نَادَىٰ وَهُوَ مَكْظُومٌ ﴾ وهو مغموماً ، وقيل : مكروب . عن عبد الله قال : قال رسول الله ﷺ : « لَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ أَنْ يَقُولَ أَنَا خَيْرٌ مِنْ يُوسُفَ بْنِ مَتَّى » ^(١) . وقوله تعالى : ﴿ وَإِنْ يَكَادُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَرِهِ ﴾ قال ابن عباس ومجاهد وغيرهما ﴿ لَيُزْلِقُونَكَ ﴾ لينفذونك ﴿ بِأَبْصَرِهِ ﴾ أي يعينونك بأبصارهم بمعنى يحسدونك لبغضهم إياك لولا وقاية الله لك وحمايته إياك منهم ، وفي هذه الآية دليل على أن العين إصابتها وتأثيرها حق بأمر الله ﷻ كما وردت بذلك الأحاديث المروية من طرق متعددة كثيرة .

عن أنس قال : قال رسول الله ﷺ : « لَا رُفِيَةَ إِلَّا مِنْ عَيْنٍ أَوْ حِمَةٍ أَوْ دَمٍ لَا يَزِقُّ » ^(٢) . وعن أبي ذر قال : قال رسول الله ﷺ : « إِنَّ الْعَيْنَ لَتَوُلِّغَ الرَّجُلَ بِإِذْنِ اللَّهِ فَيَتَصَاعَدُ خَالِقًا ثُمَّ يَرْتَدِي مِنْهُ » ^(٣) . وعن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال : « لَا بَأْسَ فِي الْهَامِ ، وَالْعَيْنُ حَقٌّ ، وَأَصْدَقُ الطَّيْرِ الْقَالَ » ^(٤) . وعنه ﷺ قال : « الْعَيْنُ حَقٌّ ، وَلَوْ كَانَ شَيْءٌ سَابِقَ الْقَدَرِ سَبَقَتْ الْعَيْنُ وَإِذَا اسْتَعْسَلْتُمْ فَأَغْسِلُوا » ^(٥) . وعن ابن عباس قال : كان رسول الله ﷺ يعوذ الحسن والحسين يقول : « أُعِذُّكُمَا بِكَلِمَاتِ اللَّهِ الثَّامَةِ مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ وَهَامَةٍ . وَمِنْ كُلِّ عَيْنٍ لَائِمَةٍ » . ويقول : « هَكَذَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يُعَوِّذُ إِسْحَاقَ وَإِسْمَاعِيلَ عَلَيْهِمَا السَّلَامُ » ^(٦) .

وعن أبي أمامة أسعد بن سهل بن حنيف قال : مر عامر بن ربيعة بسهل بن حنيف وهو يغتسل . فقال : لم أر كاليوم ولا جلد مخبأة . فما لبث أن لبط به فأتى به رسول الله ﷺ فقبل له : أدرك سهلاً صريعاً قال : « مَنْ تَتَّهِمُونَ بِهِ ؟ » . قالوا : عامر بن ربيعة ، قال : « عَلَامَ يَقْتُلُ أَحَدُكُمْ أَخَاهُ ؟ إِذَا رَأَى أَحَدَكُمْ مِنْ أَخِيهِ مَا يُعْجِبُهُ فَلْيَذْغُ لَهُ بِالْبَرَكَةِ » . ثم دعا بماء فأمر عامراً أن يتوضأ فيغسل وجهه ويديه إلى المرفقين وركبتيه وداخلته وإزاره ، وأمره أن يصب عليه ^(٧) . وعن أبي سعيد الخدري قال : كان رسول الله ﷺ يتعوذ من أعين الجان وأعين الإنس ، فلما نزلت الموعذتان أخذ بهما وترك ما سوى ذلك ^(٨) . وعن أبي سعيد أن جبريل أتى النبي ﷺ فقال : اشتكت يا محمد ؟ قال :

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٣٩٠/١) والبخاري في أحاديث الأنبياء (٣٤١٦) .

(٢) أخرجه أبو داود في السنن (٣٨٨٩) والترمذي في السنن (٢٠٥٧) وابن ماجه في السنن (٣٥١٣) وأحمد في مسنده (٤٣٨/٤) .

(٣) أخرجه أحمد في مسنده (١٦٧/٥) والألباني في الصحيحة (٨٨٩) .

(٤) أخرجه أحمد في مسنده (٦٧/٤) والترمذي في السنن (٢٠٦١) والطبراني في الكبير (١٩٢/٨) .

(٥) أخرجه أحمد في مسنده (٢٧٤/١) ومسلم في السلام (٤١) .

(٦) أخرجه أبو داود في السنن (٤٧٣٧) والترمذي في السنن (٢٠٦٠) .

(٧) أخرجه النسائي في السنن (القسامة ب ٤) والبيهقي في السنن (٣٦١/٩) .

(٨) أخرجه الترمذي في السنن (٢٠٥٨) .

« نَعَمْ » . قال : باسم الله أريقك ، من كل شيء يؤذيك ، من شر كل نفس وعين تشنيك ، والله يشفيك ، باسم الله أريقك » ^(١) .

وعن عبد الله بن عمرو قال : قال رسول الله ﷺ : « لَا عَدُوَّ ، وَلَا طَيْرَةَ ، وَلَا هَامَّةً ، وَلَا حَسَدَ ، وَالْعَيْنُ حَقٌّ » ^(٢) وعن علي عليه السلام أن جبريل أتى النبي فوافقه مغتثًا فقال : يا محمد ما هذا الغم الذي أراه في وجهك ؟ قال : « الْحَسَنُ وَالْحُسَيْنُ أَصَابَتْهُمَا عَيْنٌ » قال : صدق بالعين ، فإن العين حق ، أفلا عوذتهما بهؤلاء الكلمات ؟ قال : « وَمَا هُنَّ يَا جِبْرِيلُ ؟ » قال : قل : اللَّهُمَّ ذا السلطان العظيم والمن القديم ذا الوجه الكريم ولي الكلمات التامات والدعوات المستجابات عاف الحسن والحسين من أنفس الجن وأعين الإنس . فقالها النبي ﷺ فقاما يلعبان بين يديه فقال النبي ﷺ : « عَوِّذُوا أَنْفُسَكُمْ وَنِسَاءَكُمْ وَأَوْلَادَكُمْ بِهَذَا التَّغْوِيزِ فَإِنَّهُ لَمْ يَتَّعَوِّذِ الْمُتَّعَوِّذُونَ بِمِثْلِهِ » ^(٣) . وقوله تعالى : ﴿ يَقُولُونَ إِنَّمَا لَمْجُوتٌ ﴾ أي يزدرونه بأعينهم ويؤذونه بألسنتهم ويقولون إنه لمجنون أي لمحيثه بالقرآن ، قال الله تعالى : ﴿ وَمَا هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ ﴾ .

(٢) أخرجه أحمد في مسنده (٢٢٢/٢) .

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٤٤٦/٢) .

(٣) أورده الهندي في كنز العمال (٢٨٥٤٦) .

سورة الحاقة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ الْمَآئَةُ ﴾ ١ مَا الْمَآئَةُ ٢ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْمَآئَةُ ٣ كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِعَادٍ بِالْقَارِعَةِ ٤ فَأَتَا ثَمُودُ فَأَمْلِكُوا بِالطَّاغِيَةِ ٥
وَلَمَّا عَادَ فَأَمْلِكُوا بِرَبِيعٍ مَرْصَرٍ عَلَيْهِ ٦ سَخَرَمَا عَلَيْهِمْ سِنْعَ لَيْلٍ وَكَمِينَةَ آيَاتِهِ حُسُومًا فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا مَرْعًى
كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ ٧ فَهَلْ تَرَى لَهُمْ مِنْ بَاقِيَةٍ ٨ وَبَعَا فِرْعَوْنُ وَمَنْ قَبْلَهُ وَالْمُؤْتَفِكَاتِ بِالطَّاغِيَةِ ٩ فَفَصَّوْا رَسُولَ رَبِّهِمْ
فَأَخَذَهُمْ آخِذَةً رَابِيَةً ١٠ إِنَّا لَنَّا مُلْكًا لَمَّا هَمَلْتُمْ فِي اللَّيْلِ ١١ لِنَجْلِيَنَّ لَكُمْ نَذِيرَكُمْ وَنَقْبَهُمَا أُذُنٌ رَابِعَةٌ ١٢ .

﴿ الْمَآئَةُ ﴾ من أسماء يوم القيامة لأن فيها يتحقق الوعد والوعيد ، ولهذا عظم الله أمرها فقال :
﴿ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْمَآئَةُ ﴾ ثم ذكر تعالى إهلاكه الأمم المكذبين بها فقال تعالى : ﴿ فَأَتَا ثَمُودُ فَأَمْلِكُوا
بِالطَّاغِيَةِ ﴾ وهي الصيحة التي أسكتهم والزلزلة التي أسكتهم ، وقال مجاهد : الطاغية الذنوب ،
وقال السدي : ﴿ فَأَمْلِكُوا بِالطَّاغِيَةِ ﴾ قال : يعني عاقر الناقة ﴿ وَلَمَّا عَادَ فَأَمْلِكُوا بِرَبِيعٍ مَرْصَرٍ ﴾ أي
باردة ﴿ عَلَيْهِ ﴾ أي شديدة الهبوب . قال قتادة : عنت عليهم حتى نقتب عن أفدتهم . وقال
الضحَّاك ﴿ مَرْصَرٍ ﴾ باردة ﴿ عَلَيْهِ ﴾ عنت عليهم بغير رحمة ولا بركة . وقال علي وغيره : عنت
على الخزنة فخرجت بغير حساب . ﴿ سَخَرَمَا عَلَيْهِمْ ﴾ أي سلطها عليهم ﴿ سِنْعَ لَيْلٍ وَكَمِينَةَ آيَاتِهِ
حُسُومًا ﴾ أي كوامل متتابعات مشائيم . قال ابن مسعود وابن عباس ومجاهد وغيرهم : حُسُومًا
متتابعات . قال الربيع : وكان أولها الجمعة وقال غيره الأربعاء ويقال : إنها التي تسميها الناس
الأعجاز ، وكأن الناس أخذوا ذلك من قوله تعالى : ﴿ فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا مَرْعًى كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ ﴾
وقيل : لأنها تكون في عجز الشتاء ويقال : أيام العجوز ؛ لأن عجوزًا من قوم عاد دخلت سرًا فقتلها
الريح في اليوم الثامن ، قال ابن عباس : ﴿ خَاوِيَةٍ ﴾ خربة ، وقيل : بالية أي جعلت الريح تضرب
بأحدهم الأرض فيخر ميتًا على أم رأسه فينشذخ رأسه وتبقى جثته هامة كأنها قائمة النخلة إذا
خربت بلا أغصان . وقد ثبت عن رسول الله ﷺ أنه قال : « نُصِرْتُ بِالصُّبَا ، وَأُهْلِكْتُ بِعَادٍ
بِالدُّبُورِ » (١) . عن ابن عمر قال : قال رسول الله ﷺ : « مَا فَتَحَ اللَّهُ عَلَى عَادٍ مِنَ الرِّيحِ الَّتِي هَلَكُوا
بِهَا إِلَّا مِثْلَ مَوْضِعِ الْحَاتَمِ ، فَمَرَّتْ بِأَهْلِ الْبَادِيَةِ فَحَمَلَتْهُمْ وَمَوَاشِيَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ ، فَجَعَلَتْهُمْ بَيْنَ السَّمَاءِ
وَالْأَرْضِ ، فَلَمَّا رَأَى ذَلِكَ أَهْلُ الْحَاضِرَةِ مِنْ عَادٍ الرِّيحَ وَمَا فِيهَا ، قَالُوا : هَذَا عَارِضٌ نُمِطِرُنَا ، فَأَلْقَتْ
أَهْلُ الْبَادِيَةِ وَمَوَاشِيَهُمْ عَلَى أَهْلِ الْحَاضِرَةِ » (٢) . وعن مجاهد : الريح لها جناحان وذنب ﴿ فَهَلْ تَرَى
لَهُمْ مِنْ بَاقِيَةٍ ﴾ أي هل تحس منهم من أحد من بقاياهم أو ممن ينتسب إليهم بل بادوا عن آخرهم
ولم يجعل الله لهم خلفًا ثم قال تعالى : ﴿ وَبَعَا فِرْعَوْنُ وَمَنْ قَبْلَهُ ﴾ قرئ بكسر القاف أي : ومن عنده
من في زمانه من أتباعه من كفار القبط ، وقرأ آخرون بفتحها (٣) أي ومن قبله من الأمم المشبهين له .
وقوله تعالى : ﴿ وَالْمُؤْتَفِكَاتِ ﴾ وهم الأمم المكذبون بالرسول ﴿ بِالطَّاغِيَةِ ﴾ وهي التكذيب بما أنزل الله .

(١) أخرجه البخاري في الاستسقاء (١٠٣٥) وأحمد في مسنده (٣٥٥/١) والحاكم في المستدرک (٤٥٦/٢) .

(٢) أخرجه الطبراني في الكبير (٤٢/١٢) والهيتمي في مجمع الزوائد (١١٣/٧) .

(٣) قرأ البصريان والكسائي ﴿ من قبله ﴾ بكسر القاف وفتح الباء والباقون بفتح القاف وإسكان الباء (انظر : تقريب النشر ص ١٨٣) .

قال الريح : ﴿ إِنَّا لَنَّا طَالِمَةٌ ﴾ أي : بالمعصية . وقال مجاهد : بالخطايا . ولهذا قال تعالى : ﴿ فَمَعَا رَسُولَ رَبِّهِمْ ﴾ وهذا جنس أي كل كذب رسول الله إليهم ، ومن كذب برسول فقد كذب بالجميع ، وإنما جاء إلى كل أمة رسول واحد ولهذا قال ههنا : ﴿ فَمَعَا رَسُولَ رَبِّهِمْ فَآخِذْهُمْ أَخَذَ رَبِّيَّةٌ ﴾ أي عظيمة شديدة أليمة ، وقال مجاهد : شديدة . وقال السدي : مهلكة .

ثم قال تعالى : ﴿ إِنَّا لَنَّا طَالِمَةٌ ﴾ أي زاد على الحد ياذن الله وارتفع على الوجود ، وقال ابن عباس وغيره : طغى الماء كثر . وذلك بسبب دعوة نوح عليه السلام على قومه حين كذبوه وخالفوه فعيدوا غير الله فاستجاب الله له وعم أهل الأرض بالطوفان إلا من كان مع نوح في السفينة ، فالناس كلهم من سلالة نوح وذريته . عن علي بن أبي طالب قال : لم تنزل قطرة من ماء إلا بكيل على يدي ملك ، فلما كان يوم نوح أذن للماء دون الخزان فطغى الماء على الخزان فخرج ، فذلك قوله تعالى : ﴿ إِنَّا لَنَّا طَالِمَةٌ ﴾ أي زاد على الحد ياذن الله ﴿ حَمَلَتْكَ فِي لَبَآئِي ﴾ ولم ينزل شيء من الريح إلا بكيل على يدي ملك إلا يوم عاد ؛ فإنه أذن لها دون الخزان فخرجت ، فذلك قوله تعالى : ﴿ يَرْسِجُ صَرْصَرٌ عَلَيْهِ ﴾ أي عنت على الخزان ^(١) . ولهذا قال تعالى ممتثلاً على الناس : ﴿ إِنَّا لَنَّا طَالِمَةٌ ﴾ ^{الْمَاءُ حَمَلَتْكَ فِي لَبَآئِي} وهي السفينة الجارية على وجه الماء ﴿ لِيَتَصَلَّاهَا لَكُمُ الذِّكْرُ ﴾ عاد الضمير على الجنس لدلالة المعنى عليه ، أي وأبقينا لكم من جنسها ما تركبون على تيار الماء في البحار . وقال قتادة : أبقي الله السفينة حتى أدركها أوائل هذه الأمة ، والأول أظهر ، ولهذا قال تعالى : ﴿ رَبِّيَّاءُ أَذُنٌ رَّيِيَّةٌ ﴾ أي وتفهم هذه النعمة وتذكرها أذن وإعية ، قال ابن عباس : حافظة سامعة . وقال قتادة ﴿ أَذُنٌ رَّيِيَّةٌ ﴾ عقلت عن الله فانتفعت بما سمعت من كتاب الله . وقال الضحاك : أي : من له سمع صحيح وعقل رجيح ، وهذا عام في كل من فهم ووعى .

﴿ فَإِذَا نَفِخَ فِي الصُّورِ نَفْخَةٌ وَاحِدَةٌ ﴾ ﴿ وَجُمِلَتِ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَاحِدَةً ﴾ ﴿ فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ ﴾ ﴿ وَانْشَقَّتِ السَّمَاءُ فَهِيَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ ﴾ ﴿ وَالْمَلَكُ عَلَى أَرْجَائِهَا وَيَجْمَلُ عَرَشُ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَنِيَّةٌ ﴾ ﴿ يَوْمَئِذٍ تَعْرَضُونَ لَا تَخْفَى مِنْكُمْ خَافِيَةٌ ﴾ . يقول تعالى مخبراً عن أهوال يوم القيامة وأول ذلك نفخة الفزع ، ثم يعقبها نفخة الصعق حين يصعق من في السموات ومن في الأرض إلا من شاء الله ، ثم بعدها نفخة القيام لرب العالمين والبعث والنشور وهي هذه النفخة وقد أكدها ههنا بأنها واحدة ؛ لأن أمر الله لا يخالف ولا يمانع ولا يحتاج إلى تكرار ولا تأكيد ، وقال الريح : هي النفخة الأخيرة ، والظاهر ما قلناه ، ولهذا قال ههنا : ﴿ وَجُمِلَتِ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَاحِدَةً ﴾ أي فمدت مد الأديم العكاظي وتبدلت الأرض غير الأرض ﴿ فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ ﴾ أي : قامت القيامة ﴿ وَانْشَقَّتِ السَّمَاءُ فَهِيَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ ﴾ . عن علي قال : تنشق السماء من الجرة . وقال ابن عباس : متخرقة والعرش بحذائها ﴿ وَالْمَلَكُ عَلَى أَرْجَائِهَا ﴾ الملك اسم جنس أي الملائكة على أرجاء السماء أي حافاتهما وقال الضحاك : أطرافها . وقال الحسن البصري : أبوابها ، وقال الريح بن أنس : على ما استدق من السماء ينظرون إلى أهل الأرض . وقوله تعالى : ﴿ وَجُمِلُ عَرَشُ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَنِيَّةٌ ﴾ أي : يوم القيامة يحمل العرش ثمانية من الملائكة ،

ويحتمل أن يكون المراد بهذا العرش : العرش العظيم ، أو العرش الذي يوضع في الأرض يوم القيامة لفصل القضاء ، والله أعلم بالصواب . وفي حديث العباس بن عبد المطلب في ذكر حملة العرش أنهم ثمانية أوعال ، وقال عبد الله بن عمرو : حملة العرش ثمانية ما بين موق أحدهما إلى مؤخر عينه مسيرة مائة عام . وعن محمد بن المنكدر عن جابر قال : قال رسول الله ﷺ : « أَذِنَ لِي أَنْ أُحَدِّثَكُمْ عَنْ مَلِكٍ مِنْ حَمَلَةِ الْعَرْشِ بَعْدَ مَا يَسْنُ شَحْمَةُ أُذُنِهِ وَعَنْتِهِ مَخْفِقُ الطَّيْرِ سَبْعُمِائَةِ عَامٍ » (١) .

وعن سعيد بن جبير قال : ثمانية صفوف من الملائكة . وعن ابن عباس : الكروبيون ثمانية أجزاء كل جزء منهم بعدة الإنس والجن والشیاطین والملائكة . وقوله تعالى : ﴿ يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَى مِنْكُمْ خَافِيَةٌ ﴾ أي تعرضون على عالم السر والنجوى الذي لا يخفي عليه شيء من أموركم بل هو عالم بالظواهر والسرائر والضمائر ولهذا قال تعالى : ﴿ لَا تَخْفَى مِنْكُمْ خَافِيَةٌ ﴾ قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه : حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا ، وزنوا أنفسكم قبل أن توزنوا ، فإنه أخف عليكم في الحساب غداً أن تحاسبوا أنفسكم اليوم ، وتزينوا للعرض الأكبر ﴿ يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَى مِنْكُمْ خَافِيَةٌ ﴾ . عن أبي موسى قال : قال رسول الله ﷺ : « يَفْرَضُ النَّاسُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ثَلَاثَ عَرْضَاتٍ ، فَأَمَّا عَرْضَتَانِ فَجِدَالٌ وَمَعَاذِيرٌ ، وَأَمَّا الثَّالِثَةُ فَعِنْدَ ذَلِكَ تَطِيرُ الصُّحُفُ فِي الْأَيْدِي ، فَاحِذْ يَمِينَهُ ، وَاحِذْ شِمَالَهُ » (٢) .

﴿ فَأَمَّا مَنْ أَوْفَى كَيْفَئِهِ يَمِينَهُ فَيَقُولُ هَؤُلَاءِ اقْرَءُوا كِتَابِيهِ ﴾ (٣) إِنْ لَكُنْتَ أَتَى مُلْكِي حِسَابِي ﴿ فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ ﴾ (٤) فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ﴿ فُطُوهُنَا ذَايَةً ﴾ (٥) كَلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الْفَالِئَةِ ﴿ .

يخبر تعالى عن سعادة من يؤتى كتابه يوم القيامة يمينه وفرحه بذلك وأنه من شدة فرحه يقول لكل من لقيه ﴿ هَؤُلَاءِ اقْرَءُوا كِتَابِيهِ ﴾ أي خذوا اقراءوا كتابيه لأنه يعلم أن الذي فيه خير وحسنات محضه ، لأنه ممن بدل الله سيئاته حسنات . عن أبي عثمان قال : المؤمن يعطى كتابه يمينه في ستر من الله فيقرأ سيئاته فكلما قرأ سيئة تغير لونه حتى يمر بحسناته فيقرؤها فيرجع إليه لونه ثم ينظر فإذا سيئاته قد بدلت حسنات قال : فعند ذلك يقول : هَؤُلَاءِ اقراءوا كتابيه . عن عبد الله بن عبد الله حنظلة ، غسيل الملائكة قال : إن الله يوقف عبده يوم القيامة فيبيدي أي يظهر سيئاته في ظهر صحيفته فيقول له : أنت عملت هذا ؟ فيقول : نعم أي رب ، فيقول له : إني لم أفضحك به وإني قد غفرت لك ، فيقول عند ذلك : ﴿ هَؤُلَاءِ اقْرَءُوا كِتَابِيهِ ﴾ (٦) إِنْ لَكُنْتَ أَتَى مُلْكِي حِسَابِي ﴿ حين نجا من فضيحه يوم القيامة . وعن ابن عمر حين سئل عن النجوى فقال : سمعت رسول الله ﷺ : « يُذْنِي اللَّهُ الْعَبْدَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَيَقْرُؤُهُ بِذُنُوبِهِ كُلِّهَا ، حَتَّى إِذَا رَأَى أَنَّهُ قَدْ هَلَكَ ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : لِإِنِّي سَتَرْتُهَا عَلَيْكَ فِي الدُّنْيَا ، وَأَنَا أَغْفِرُهَا لَكَ الْيَوْمَ ، ثُمَّ يُعْطَى كِتَابَ حَسَنَاتِهِ يَمِينَهُ . وَأَمَّا الْكَافِرُ وَالْمُنَافِقُ فَيَقُولُ الْأَشْهَادُ : هَؤُلَاءِ الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى رَبِّهِمْ أَلَا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ » (٣) . وقوله تعالى : ﴿ إِنْ لَكُنْتَ أَتَى مُلْكِي حِسَابِي ﴾ أي قد كنت موقفاً في الدنيا أن هذا اليوم كائن لا محالة كما قال تعالى : ﴿ الَّذِينَ يَطْلُونُ أَنَّهُمْ ثُلُفُوا رَبِّهِمْ ﴾ قال الله تعالى : ﴿ فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ ﴾ أي مرضية ﴿ فِي جَنَّةٍ

(١) أخرجه أبو داود في السنن (٤٧٢٧) والالباني في الصحيحة (١٥١) .

(٢) أخرجه أحمد في مسنده (٤١٤/٤) والترمذي في السنن (٢٤٢٥) وأبو داود في السنن (٤٢٧٧) .

(٣) أخرجه البخاري في تفسير القرآن (٤٦٨٥) وأحمد في مسنده (١٠٥/٢) .

عَالِيَةً ﴿١﴾ أي رقيقة قصورها ، حسان حورها ، نعيمة دورها ، دائم حبورها .

وقد ثبت في الصحيح « إِنَّ الْجَنَّةَ مِائَةٌ دَرَجَةٍ مَا بَيْنَ كُلِّ دَرَجَتَيْنِ كَمَا بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ » ^(١) .
وقوله تعالى : ﴿ قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ ﴾ قال البراء بن عازب : أي قريبة يتناولها أحدهم وهو نائم على سريره . وقوله تعالى : ﴿ كَلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الْفَالِغَةِ ﴾ أي يقال لهم ذلك تفضلاً عليهم وامتناناً وإنعاماً وإحساناً وإلاً فقد ثبت في الصحيح عن رسول الله ﷺ أنه قال : « اَعْمَلُوا وَاسْدُدُوا وَقَارِبُوا ، وَاعْمَلُوا أَنْ أَحَدًا مِنْكُمْ لَنْ يُدْخِلَهُ عَمَلُهُ الْجَنَّةَ » قالوا : ولا أنت يا رسول الله ؟ قال : « وَلَا أَنَا ، إِلَّا أَنْ يَتَّعَمِدَنِي اللَّهُ بِرَحْمَةٍ مِنْهُ وَفَضْلٍ » ^(٢) .

﴿ وَأَمَّا مَنْ أَوْفَىٰ كَيْتِبٍ يُسْأَلُهُ فَيَقُولُ يَلَيِّنِي لَرَأُوتَ كَيْتِبِيَّةٍ ﴾ ^(٣) وَلَرَأُوتَ مَا حَسَايَةِ ^(٤) يَلَيِّنِيهَا كَانَتْ الْفَاضِيَّةُ ^(٥) مَا أَفْنَىٰ عَنِّي مَالِيَّةٌ ^(٦) هَلَكَ عَنِّي سُلْطَانِيَّةٌ ^(٧) خُذُوهُ فَتَلُوهُ ^(٨) تَرُ لَلْبَحِيمِ مَلُوهُ ^(٩) تَرُ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَاسْلُكُوهُ ^(١٠) إِنَّهُمْ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ الْعَلِيِّ ^(١١) وَلَا يَحْضُرُ عَلَىٰ طَعَامِ الْيَسْكِينِ ^(١٢) فَلَيْسَ لَهُ الْيَوْمَ هُنَا حَمِيمٌ ^(١٣) وَلَا طَعَامٌ إِلَّا مِنْ غَشِيلٍ ^(١٤) لَا يَأْكُلُهُ إِلَّا الْخَاطِئُونَ ^(١٥) .

وهذا إخبار عن حال الأشقياء إذا أعطي أحدهم كتابه في العرصات بشماله ، فحينئذ يندم غاية الندم ﴿ فَيَقُولُ يَلَيِّنِي لَرَأُوتَ كَيْتِبِيَّةٍ ﴾ ^(٣) وَلَرَأُوتَ مَا حَسَايَةِ ^(٤) يَلَيِّنِيهَا كَانَتْ الْفَاضِيَّةُ ^(٥) قال الضحاك : يعني مودة لا حياة بعدها . وقال قتادة : تمنى الموت ولم يكن شيء في الدنيا أكره إليه منه ﴿ مَا أَفْنَىٰ عَنِّي مَالِيَّةٌ ﴾ ^(٦) هَلَكَ عَنِّي سُلْطَانِيَّةٌ ^(٧) أي لم يدفع عني مالي ولا جامي عذاب الله وبأسه بل خلس الأمر لي وحدي فلا معين لي ولا مجير فعندها يقول الله ﷻ : ﴿ خُذُوهُ فَتَلُوهُ ﴾ ^(٨) تَرُ لَلْبَحِيمِ مَلُوهُ ^(٩) أي : يأمر الزبانية أن تأخذ عناقاً من المحشر فتغله أي تضع الأغلال في عنقه ثم تورده إلى جهنم فتصلبه إيها أي تغمره فيها . عن المنهال بن عمرو قال : إذا قال الله تعالى : خذوه ، ابتدره سبعون ألف ملك ، إن الملك منهم ليقول هكذا فيلقي سبعين ألفاً في النار . وقال الفضيل بن العياض : إذا قال الرب ﷻ ﴿ خُذُوهُ فَتَلُوهُ ﴾ ^(٨) ابتدره سبعون ألف ملك أيهم يجعل الغل في عنقه ﴿ تَرُ لَلْبَحِيمِ مَلُوهُ ﴾ ^(٩) أي اغمروه فيها ، وقوله تعالى : ﴿ تَرُ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَاسْلُكُوهُ ﴾ ^(١٠) قال ابن عباس : ﴿ فَاسْلُكُوهُ ﴾ تدخل في سته ثم تخرج من فيه ثم ينظمون فيها كما ينظم الجراد في العود حين يشوى . عن عبد الله بن عمرو قال : قال رسول الله ﷺ : « لَوْ أَنَّ رُضَاضَةَ مِثْلَ هَذِهِ - وأشار إلى جمجمة - أُرْسِلَتْ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ وَهِيَ مَسِيرَةُ خَمْسِمِائَةِ سَنَةٍ لَبَلَغَتِ الْأَرْضَ قَبْلَ اللَّيْلِ ، وَلَوْ أَنَّهَا أُرْسِلَتْ مِنْ رَأْسِ السُّلْسِلَةِ لَسَارَتْ أَرْبَعِينَ خَرِيفًا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ قَبْلَ أَنْ تَبْلُغَ قَعْرَهَا أَوْ أَضْلَهَا » ^(١١) . وقوله تعالى : ﴿ إِنَّهُمْ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ الْعَلِيِّ ^(١٢) وَلَا يَحْضُرُ عَلَىٰ طَعَامِ الْيَسْكِينِ ﴾ ^(١٣) أي لا يقوم بحق الله عليه من طاعته وعبادته ولا ينفع خلقه ويؤدي حقهم ، فإن لله على العباد أن يوحدوه ولا يشركوا به شيئاً ، وللعباد بعضهم على بعض حق الإحسان والمعاونة على البر والتقوى ، ولهذا أمر الله بإقام الصلاة وإيتاء الزكاة وقبض النبي ﷺ وهو يقول : « الصَّلَاةُ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ » ^(١٤) . وقوله تعالى : ﴿ فَلَيْسَ لَهُ الْيَوْمَ هُنَا حَمِيمٌ ﴾ ^(١٥)

(١) أخرجه الترمذي في السنن (٢٥٣٠) والبيهقي في السنن (١٥/٩) .

(٢) أخرجه البخاري في الرضى (٥٦٧٣) ومسلم في صفة الجنة (٧٥) وأحمد في مسنده (٢٦٤/٢) .

(٣) أخرجه الترمذي في السنن (٢٥٨٨) والحاكم في المستدرک (٤٣٨/٢) وأحمد في مسنده (١٩٧/٢) .

(٤) أخرجه ابن ماجه في السنن (٢٦٩٧) وأحمد في مسنده (١١٧/٣) .

وَلَا طَعَامَ إِلَّا مِنْ غُثَلٍ ۝ لَا يَأْكُلُهُ إِلَّا الْخَاطِئُونَ ﴿٣٨﴾ أي ليس له اليوم من ينقذه من عذاب الله تعالى لا حميم، وهو لقريب، ولا شفيع يطاع، ولا طعام له ههنا إلا من غسلين قال قتادة: وهو شر طعام أهل النار. وقال الضحاك: شجرة في جهنم، وقال ابن عباس: الدم والماء يسيل من لحومهم. وقال علي بن أبي طلحة: صديد أهل النار.

﴿ فَلَا أَقِيمَ بِمَا تُبْعِرُونَ ۝ وَمَا لَا تُبْعِرُونَ ۝ إِنَّهُمْ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ۝ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلًا مَّا تُؤْمِنُونَ ۝ وَلَا يَقُولُ كَاهِنٌ قَلِيلًا مَّا تَذْكُرُونَ ۝ نَزِيلٌ مِنْ رَبِّ الْأَعْلَى ۝ ﴾

يقول تعالى مقسمًا لخلقه بما يشاهدونه من آياته في مخلوقاته الدالة على كماله في أسمائه وصفاته وما غاب عنهم مما لا يشاهدونه من الغيبات عنهم إن القرآن كلامه ووحيه وتنزيله على عبده ورسوله الذي اصطفاه لتبليغ الرسالة وأداء الأمانة، فقال تعالى: ﴿ فَلَا أَقِيمَ بِمَا تُبْعِرُونَ ۝ وَمَا لَا تُبْعِرُونَ ۝ إِنَّهُمْ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴾ يعني محمدًا ﷺ، أضافه إليه على معنى التبليغ؛ لأن الرسول من شأنه أن يبلغ عن المرسل، ولهذا أضافه في سورة التكوين إلى الرسول الملكي ﴿ إِنَّهُمْ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ۝ ذِي قُوَّةٍ عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ ۝ مُطَاعٌ ثَمَّ أَمِينٍ ﴾. وهذا جبريل ﷺ، ثم قال تعالى ﴿ وَمَا صَاحِبُكُمْ بِبَشَرٍ ﴾ يعني محمدًا ﷺ ﴿ وَلَقَدْ رَآهُ بِالْأُفُقِ الْأَيْمَنِ ﴾ يعني أن محمدًا رأى جبريل على صورته التي خلقه الله عليها ﴿ وَمَا هُوَ عَلَى الْغَيْبِ بِضَنِينٍ ﴾ أي بمتهم ﴿ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَيْطَانٍ رَجِيمٍ ﴾ وهكذا قال ههنا: ﴿ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلًا مَّا تُؤْمِنُونَ ۝ وَلَا يَقُولُ كَاهِنٌ قَلِيلًا مَّا تَذْكُرُونَ ﴾ فأضافه الله تارة إلى قول الرسول الملكي، وتارة إلى الرسول البشري؛ لأن كلا منهما مبلغ عن الله ما أستاذمه عليه من وحيه وكلامه، ولهذا قال تعالى: ﴿ نَزِيلٌ مِنْ رَبِّ الْأَعْلَى ﴾ قال عمر بن الخطاب: خرجت أتعرض رسول الله ﷺ قبل أن أسلم فوجدته قد سبقني إلى المسجد، فقامت خلفه فاستفتح سورة الحاقة فجعلت أعجب من تأليف القرآن قال: فقلت: هذا والله شاعر كما قالت قريش، قال: فقرأ ﴿ إِنَّهُمْ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ۝ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلًا مَّا تُؤْمِنُونَ ﴾ قال: فقلت: كاهن، قال: فقرأ ﴿ وَلَا يَقُولُ كَاهِنٌ قَلِيلًا مَّا تَذْكُرُونَ ۝ نَزِيلٌ مِنْ رَبِّ الْأَعْلَى ۝ وَلَوْ نَفَقْنَا عَلَيْكَ بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ ۝ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ ۝ ثُمَّ لَقَطْنَا مِنْهُ الْوَيْنَ ۝ فَمَا يَنْكُرُ مِنْ أَذًى عَنْهُ حَنِيزٌ ﴾ إلى آخر السورة، قال: فوقع الإسلام في قلبي كل موقع (١)، هذا من جملة الأسباب التي جعلها الله تعالى مؤثرة في هداية عمر بن الخطاب ﷺ.

﴿ وَلَوْ نَفَقْنَا عَلَيْكَ بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ ۝ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ ۝ ثُمَّ لَقَطْنَا مِنْهُ الْوَيْنَ ۝ فَمَا يَنْكُرُ مِنْ أَذًى عَنْهُ حَنِيزٌ ۝ وَإِنَّهُ لَنَذِيرٌ لِلنَّاسِ ۝ وَإِنَّا لَنَعْلَمُ أَنَّ يَنْكُرُ مُكْذِبِينَ ۝ وَإِنَّهُمْ لَحَسَرَةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ ۝ وَإِنَّهُ لَحَقُّ الْيَقِينِ ۝ فَسَجَّ بِأَمْرِ رَبِّكَ الْأَعْظِيمِ ﴾

يقول تعالى: ﴿ وَلَوْ نَفَقْنَا عَلَيْكَ ﴾ أي محمد ﷺ لو كان كما يزعمون مفتريًا علينا فزاد في الرسالة أو نقص منها أو قال شيئًا من عنده فنسبه إلينا وليس كذلك لعاجلناه بالعقوبة، ولهذا قال تعالى: ﴿ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ ﴾ قيل: معناه لا نتعصبنا منه باليمين؛ لأنها أشد في البطش، وقيل: لأخذنا بيمينه ﴿ ثُمَّ لَقَطْنَا مِنْهُ الْوَيْنَ ﴾ قال ابن عباس: وهو نياط القلب وهو العرق الذي القلب معلق فيه، وقال محمد بن كعب: هو القلب ومراقه وما يليه. وقوله تعالى: ﴿ فَمَا يَنْكُرُ مِنْ أَذًى عَنْهُ حَنِيزٌ ﴾ أي فما يقدر أحد منكم على أن يحجز بيننا وبينه إذا أردنا به شيئًا من ذلك. والمعنى في هذا: بل هو صادق

بار راشد ؛ لأن الله ﷻ مقرر له ما يبلغه عنه ومؤيد له بالمعجزات الباهرات والدلالات القاطعات . ثم قال تعالى : ﴿ وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لِّلْمُتَّقِينَ ﴾ يعني القرآن ، ثم قال تعالى : ﴿ وَإِنَّا لَنَعْلَمُ أَنَّ مِنكُم مَّكَذِبِينَ ﴾ أي مع هذا البيان والوضوح سيوجد منكم من يكذب بالقرآن . ثم قال تعالى : ﴿ وَإِنَّهُ لَحَسْرَةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴾ قال ابن جرير : وإن التكذيب لحسرة على الكافرين يوم القيامة . عن أبي مالك ﴿ وَإِنَّهُ لَحَسْرَةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴾ يقول : لندامة ، ويحتمل عود الضمير على القرآن أي وإن القرآن والإيمان به لحسرة في نفس الأمر على الكافرين . ولهذا قال : ﴿ وَإِنَّهُ لَكَيْفٌ إِلَهِينَ ﴾ أي الخبر الصدق الحق الذي لا مرية فيه ولا شك ولا ريب ، ثم قال تعالى : ﴿ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ ﴾ أي الذي أنزل هذا القرآن العظيم .

سورة المعارج

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ سَأَلَ سَائِلٌ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ ﴿١﴾ لِلْكَافِرِينَ لَيْسَ لَهُ دَافِعٌ ﴿٢﴾ مِنْ اللَّهِ ذِي الْمَعَارِجِ ﴿٣﴾ تَنْجُو الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ ﴿٤﴾ فَأَصْبَرَ صَبْرًا جَبِيلًا ﴿٥﴾ إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُ بَيْدًا ﴿٦﴾ وَزَنَّهُ قَلِيلًا ﴿٧﴾ .

﴿ سَأَلَ سَائِلٌ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ ﴾ فيه تضمين دل عليه حرف الباء كأنه مقدر ، استعجل سائل بعذاب واقع ، أي وعذابه واقع لا محالة . عن ابن عباس في قوله تعالى : ﴿ سَأَلَ سَائِلٌ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ ﴾ قال : ذلك سؤال الكفار عن عذاب الله وهو واقع بهم ، وعن مجاهد : دعا داع بعذاب واقع يقع في الآخرة : وهو قولهم : ﴿ اَللّٰهُمَّ اِنْ كَانَتْ هَذِهِ حَقًّا مِنْ عِنْدِكَ فَاطْمَئِنْ عَلَيْنَا جِجَارَةً مِنْ السَّمَاءِ اَوْ اَنْتِنَا بِعَذَابٍ اَلِيمٍ ﴾ .

وقوله تعالى : ﴿ وَاقِعٍ ﴾ ﴿ لِلْكَافِرِينَ ﴾ أي مرصد معد للكافرين . وقال ابن عباس : ﴿ وَاقِعٍ ﴾ : جاء ﴿ لَيْسَ لَهُ دَافِعٌ ﴾ أي لا دافع له إذا أراد الله كونه ، ولهذا قال تعالى : ﴿ مِنْ اللَّهِ ذِي الْمَعَارِجِ ﴾ عن ابن عباس قال : ذو الدرجات ، وعنه قال : ﴿ ذِي الْمَعَارِجِ ﴾ يعني العلو والفضائل . وقال مجاهد : معارج السماء وقوله تعالى : ﴿ تَنْجُو الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ ﴾ عن قتادة : ﴿ تَنْجُو ﴾ تصعد . وأما الروح فقال أبو صالح : هم خلق من خلق الله يشبهون الناس وليسوا ناسًا ، قلت : ويحتمل أن يكون المراد به جبريل ويكون من باب عطف الخاص على العام ، ويحتمل أن يكون اسم جنس لأرواح بني آدم ؛ فإنها إذا قبضت يصعد بها إلى السماء .

وقوله تعالى : ﴿ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ ﴾ فيه أربعة أقوال : أحدها : أن المراد بذلك مسافة ما بين العرش العظيم إلى أسفل السافلين وهو قرار الأرض السابعة وذلك مسيرة خمسين ألف سنة ، هذا ارتفاع العرش عن المركز الذي في وسط الأرض السابعة ، وكذلك اتساع العرش من قطر إلى قطرة مسيرة خمسين ألف سنة وأنه من ياقوتة حمراء . عن ابن عباس قال : غلظ كل أرض خمسمائة عام ، وبين كل أرض إلى أرض خمسمائة عام ، فذلك سبعة آلاف عام ، وغلظ كل سماء خمسمائة عام ، وبين السماء إلى السماء خمسمائة عام ، فذلك أربعة عشر ألف عام ، وبين السماء السابعة وبين العرش مسيرة ستة وثلاثين ألف عام ، فذلك قوله تعالى : ﴿ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ ﴾ . القول الثاني : أن المراد بذلك مدة بقاء الدنيا منذ خلق الله هذا العالم إلى قيام الساعة . عن عكرمة قال : الدنيا من أولها إلى آخرها مقدار خمسين ألف سنة لا يدري أحدكم مضى ولا كم بقي إلا الله ﷻ . القول الثالث : أنه اليوم الفاصل بين الدنيا والآخرة وهو قول غريب جدًا . عن محمد بن كعب قال : هو يوم الفصل بين الدنيا والآخرة .

القول الرابع : أن المراد بذلك يوم القيامة . عن ابن عباس قال : هو يوم القيامة جعله الله تعالى على الكافرين مقدار خمسين ألف سنة ، وقد وردت أحاديث في معنى ذلك ، فعن أبي سعيد قال : قيل لرسول الله ﷺ : ﴿ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ ﴾ ما أطول هذا اليوم ، فقال رسول الله ﷺ : « وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ إِنَّهُ لَيُخَفَّفُ عَلَى الْمُؤْمِنِ حَتَّى يَكُونَ أَخَفُّ عَلَيْهِ مِنْ صَلَاةٍ مَكْتُوبَةٍ يُصَلِّيُهَا

فِي الدُّنْيَا» ^(١) . وعن أبي عمر العداني قال : كنت عند أبي هريرة فمر رجل من بني عامر بن صعصعة فقيل له : هذا أكثر عامري مالا ، فقال أبو هريرة : ردوه إلي ، فردوه فقال : نبئت أنك ذو مال كثير ، فقال العامري : أي والله إن لي لمائة حمرا ومائة أدم ، حتى عد من ألوان الإبل وأفنان الرقيق ورباط الخيل . فقال أبو هريرة : إياك وأخفاف الإبل وأظلاف النعم ، يردد ذلك عليه حتى جعل لون العامري يتغير . فقال : ما ذاك يا أبا هريرة ؟ قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « مَنْ كَانَتْ لَهُ إِبِلٌ لَا يُعْطِي حَقَّهَا فِي نَجْدَتِهَا وَرَشَلِهَا » قلنا : يا رسول الله ما نجدتها ورسليها ؟ قال : « فِي عَشْرِهَا وَيُسْرِهَا ؛ فَإِنَّهَا تَأْتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَأَغْذُ مَا كَانَتْ وَأَكْثَرُهُ وَأَسْمِيَهُ وَأَشْرَهُ ، حَتَّى يُنْطَحَ لَهَا بِقَاعَ قَرْقَرٍ فَتَقْطُوهُ بِأَخْفَافِهَا ، فَإِذَا جَاوَزَتْهُ أَخْرَاهَا أُعِيدَتْ عَلَيْهِ أَوْلَاهَا ، فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ ، حَتَّى يُقْضَى بَيْنَ النَّاسِ فَيَرَى سَبِيلَهُ ، وَإِذَا كَانَتْ لَهُ بَقَرٌ لَا يُعْطِي حَقَّهَا فِي نَجْدَتِهَا وَرَشَلِهَا فَإِنَّهَا تَأْتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَأَغْذُ مَا كَانَتْ وَأَكْثَرُهُ وَأَسْمِيَهُ وَأَشْرَهُ ثُمَّ يُنْطَحُ لَهَا بِقَاعَ قَرْقَرٍ فَتَقْطُوهُ كُلُّ ذَاتِ ظَلْفٍ بِظَلْفِهَا ، وَتَنْطَحُ كُلُّ ذَاتِ قَرْنٍ بِقَرْنِهَا لَيْسَ فِيهَا عَقْصَاءٌ وَلَا عُضْبَاءٌ إِذَا جَاوَزَتْهُ أَخْرَاهَا أُعِيدَتْ عَلَيْهِ أَوْلَاهَا فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ ، حَتَّى يُقْضَى بَيْنَ النَّاسِ فَيَرَى سَبِيلَهُ » . فقال العامري : وما حق الإبل يا أبا هريرة ؟ قال : أن تعطي الكريمة ، وتمنح الغزيرة ، وتفقر الظهر ، وتسقي الإبل ، وتطرق الفحل ^(٢) .

والغرض من إيراد ههنا قوله : « حَتَّى يُحْكَمَ اللَّهُ بَيْنَ عِبَادِهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ » . وسأل رجل ابن عباس عن قوله : ﴿ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ ﴾ فقال : ما يوم كان مقداره خمسين ألف سنة ، قال : فاتهمه ، فقال : إنما سألتك لتحذني ، قال : هما يومان ذكرهما الله ، الله أعلم بهما ، وأكره أن أقول في كتاب الله بما لا أعلم . وقوله تعالى : ﴿ فَاصْبِرْ صَبْرًا جَبِيلًا ﴾ أي اصبر يا محمد على تكذيب قومك لك واستعجالهم العذاب استبعادا لوقوعه ، ولهذا قال : ﴿ إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُ بَعِيدًا ﴾ أي وقوع العذاب وقيام الساعة يراه الكفرة بعيد الوقوع بمعنى مستحيل الوقوع ﴿ وَرَنَّهُ قَرِيبًا ﴾ أي المؤمنون يعتقدون كونه قريبا وإن كان له أمد لا يعلمه إلا الله ﷻ ، ولكن كل ما هو آت فهو قريب وواقع لا محالة . ﴿ يَوْمَ تَكُونُ السَّمَاءُ كَالْهَيْلِ ۝ وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ ۝ وَلَا يَسْتَلُ حِمِيمٌ حِمِيمًا ۝ يَبْصُرُونَهُ يَوْمَ بُدَّ الْمُنْجِمُ ۝ لَوْ يَفْتَدِي مِنْ عَذَابٍ يَوْمَئِذٍ بَنِيهِ ۝ وَصَحْبَهُ وَآجِيهِ ۝ وَصَلِيلُهُ إِلَىٰ تَوْبِهِ ۝ وَنَفْسٌ فِي الْأَرْضِ حَمِيمًا ثُمَّ يُنْجِيهِ ۝ كَلَّا إِنَّهَا لَأَقْصَىٰ ۝ نَزَاعَةٍ لِلْإِنْسَانِ ۝ نَدْعُوا مَنْ أَدْبَرَ وَتَوَلَّىٰ ۝ وَجَمَعَ فَأَوْعَىٰ ۝ » .

يقول تعالى العذاب واقع بالكافرين ﴿ يَوْمَ تَكُونُ السَّمَاءُ كَالْهَيْلِ ﴾ أي كدردي الزيت ﴿ وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ ﴾ أي كالصوف المنفوش . وقوله تعالى : ﴿ وَلَا يَسْتَلُ حِمِيمٌ حِمِيمًا ۝ يَبْصُرُونَهُ ﴾ أي لا يسأل

(٢) أخرجه أحمد في مسنده (٤٩٠/٢) .

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٧٥/٣) .

القريب قريه عن حاله وهو يراه في أسوأ الأحوال فتشغله نفسه عن غيره . قال ابن عباس : يعرف بعضهم بعضًا ويتعارفون بينهم ثم يفر بعضهم من بعض بعد ذلك . وقوله تعالى ﴿ يَوْمَ الْقِيَامَةِ لَو يَفْتَدِي مِنْ عَذَابِ يَوْمِهِمْ يَسِيرَةً ﴾ (١) وَصَدِيقُهُ وَأَخِيهِ ﴿ وَفَصِيلَتِهِ الَّتِي تُؤَيِّدُ ﴾ (٢) وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ يُنْجِيهِ ﴿ كَلَّا ﴾ (٣) أي لا يقبل منه فداء ولو جاء بأهل الأرض وبأعز ما يجده من المال ولو بملء الأرض ذهبًا أو من ولده الذي كان في الدنيا حشاشه كبده ، يود يوم القيامة إذا رأى الأحوال أن يفتدي من عذاب الله به ولا يقبل منه . قال مجاهد والسدي : ﴿ وَفَصِيلَتِهِ ﴾ قبيلته وعشيرته ، وقال عكرمة : فخذته الذي هو منهم . وقال أشهب عن مالك : أمه . وقوله تعالى : ﴿ إِنَّا لَنَظُنُّكَ ﴾ يصف النار وشدة حرها ﴿ نَزَاعَةً لِّلشَّوْءِ ﴾ قال ابن عباس ومجاهد : جلدة الرأس وقال العوفي عن ابن عباس : الجلود والهام ؛ وقال مجاهد : ما دون العظم من اللحم ، وقال سعيد بن جبير : للعصب والعقب . وقال أبو صالح : أطراف اليدين والرجلين ، وعنه قال : لحم الساقين . وقال الحسن البصري : مكارم وجهه ، وقال قتادة : نزاعة لهامته ومكارم وجهه وخلقه وأطرافه . وقال الضحَّاك : تبري اللحم والجلد عن العظم حتى لا تترك منه شيئًا . وقوله تعالى : ﴿ تَدْعُوا مَنْ أَدْبَرَ وَتَوَكَّلْ ﴾ (٤) وَجَمْعُ فَأَوْعَى ﴿ أَي تَدْعُو النَّارَ إِلَيْهَا أَبْنَاءَهَا الَّذِينَ خَلَقَهُمْ اللَّهُ لَهَا ، وقدر لها أنهم في الدار الدنيا يعملون عملها فتدعوهم يوم القيامة بلسان طلق ذلق ، ثم تلتقطهم من بين أهل المحشر كما يلتقط الطير الحب ، وذلك أنهم كما قال الله ﷻ كانوا ممن أدبر وتولى أي كذب بقلبه وترك العمل بجوارحه ﴾ (٥) وَجَمْعُ فَأَوْعَى ﴿ أَي جمع المال بعضه على بعض فأوعاه أي أوكاه ، ومنع حق الله منه من الواجب عليه في النفقات ومن إخراج الزكاة . وقد ورد في الحديث : « وَلَا تُوعِي فَيُوعِي اللَّهُ عَلَيْكَ » (١) . وقال الحسن البصري : يا ابن آدم سمعت وعيد الله ثم أوعيت الدنيا .

﴿ إِنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا ﴾ (٦) إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا ﴿ وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا ﴾ (٧) إِلَّا الْمُصَلِّينَ ﴿ الَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ دَائِمُونَ ﴾ (٨) وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ ﴿ لِّلسَّائِلِ وَالْمَحْرُورِ ﴾ (٩) وَالَّذِينَ يُصَدِّقُونَ بَيِّنَاتِ اللَّهِ وَالَّذِينَ هُمْ مِنْ عَذَابِ رَبِّهِمْ مُتَّقُونَ ﴿ إِنَّ عَذَابَ رَبِّهِمْ غَيْرُ مَأْمُونٍ ﴾ (١٠) وَالَّذِينَ هُمْ لِأُذُنِهِمْ فَهْمٌ ﴿ إِلَّا عَلَى أَرْوَاحِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ﴾ (١١) فَمَنْ أَتَيْنَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْعَادُونَ ﴿ وَالَّذِينَ هُمْ لِأَنْفُسِهِمْ وَعَهْدِهِمْ ذُرْعُونَ ﴾ (١٢) وَالَّذِينَ هُمْ بِشَهَادَتِهِمْ قَائِمُونَ ﴿ وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴾ (١٣) أُولَئِكَ فِي جَنَّاتٍ مُّكْرَمُونَ .

يقول تعالى مخبرًا عن الإنسان وما هو مجبول عليه من الأخلاق الدنيئة ﴿ إِنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا ﴾ ثم فسره بقوله : ﴿ إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا ﴾ أي إذا مسه الضر فزع وجزع وانخلع قلبه من شدة الرعب وأيس أن يحصل له بعد ذلك خير ﴿ وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا ﴾ أي إذا حصلت له نعمة من الله بخل بها على غيره ومنع حق الله تعالى فيها . عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « شَرُّ مَا فِي رَجُلٍ : شُحُّ هَالِغٍ ، وَجُبْنٌ خَالِغٌ » (٢) . ثم قال تعالى : ﴿ إِلَّا الْمُصَلِّينَ ﴾ أي الإنسان من حيث هو متصف بصفات الذم إلا من عصمه الله ووفقه وهداه إلى الخير ويسر له أسبابه وهم المصلون ﴿ الَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ دَائِمُونَ ﴾ قيل : معناه يحافظون على أوقاتها وواجباتها ، وقيل : المراد بالدوام ههنا السكون والخشوع ، ومنه الماء الدائم

(١) أخرجه البخاري في الزكاة (١٤٣٣) ومسلم في الزكاة (٨٩) وأحمد في مسنده (٣٤٦/٦) والبيهقي في السنن (١٨٧/٤) .

(٢) أخرجه أحمد في مسنده (٣٢٠/٢) .

وهو الساكن الراكد ، وهذا يدل على وجوب الطمأنينة في الصلاة ؛ فإن الذي لا يطمئن في ركوعه وسجوده ليس بدائم على صلاته ؛ لأنه لم يسكن فيها ولم يدم بل ينفرها ثقل الغراب فلا يفلح في صلاته ، وقيل : المراد بذلك الذين إذا عملوا عملاً داوموا عليه وأثبتوه . عن عائشة رضي الله عنها عن رسول الله ﷺ أنه قال : « أَحَبُّ الْأَعْمَالِ إِلَى اللَّهِ أَدْوَمُهَا وَإِنْ قُلَّ » ^(١) . قالت : وكان رسول الله ﷺ إذا عمل عملاً داوم عليه ، وفي لفظ : أثبته ^(٢) وقال قتادة في قوله تعالى : ﴿ الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ دَائِمُونَ ﴾ ذكر لنا أن دانيال عليه السلام نعت أمة محمد ﷺ فقال : يصلون صلاة لو صلاها قوم نوح ما غرقوا ، أو قوم عاد ما أرسلت عليهم الريح العقيم ، أو ثمود ما أخذتهم الصيحة ؛ فعليكم بالصلاة . فإنها خلق للمؤمنين حسن .

وقوله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ فِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى مَتْلُومٌ ۖ لَسَاءِ لِلَّذِينَ لَا تَحَرُّوهُمْ ﴾ أي في أموالهم نصيب مقرر لذوي الحاجات ، وقوله تعالى ﴿ وَالَّذِينَ يُضَيِّقُونَ يَوْمَ الَّذِينَ ﴾ أي يوقنون بالمعاد والحساب والجزاء ، فهم يعملون عمل من يرجو الثواب ويخاف العقاب . ولهذا قال تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ عَذَابٍ رَبِّهِمْ مُشْفِقُونَ ﴾ أي خائفون وجلون ﴿ إِنَّ عَذَابَ رَبِّهِمْ غَيْرُ مَأْمُونٍ ﴾ أي لا يأمنه أحد ممن عقل عن الله أمره إلا بأمان من الله تبارك وتعالى وقوله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ هُمْ لِزَجَرِهِمْ حَافِظُونَ ﴾ أي يكفونها عن الحرام ويمنعونها أن توضع في غير ما أذن الله فيه ، ولهذا قال تعالى : ﴿ إِلَّا عَلَىٰ أَرْجَائِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ ﴾ أي من الإماء ﴿ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ۚ فَمَنْ أَتَيْنَىٰ وَلََّكَ ذَلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْعَادُونَ ﴾ ﴿ وَالَّذِينَ هُمْ لِأَنفُسِهِمْ وَعَهْدِهِمْ ذَعُونَ ﴾ أي إذا أوتمنوا لم يخونوا ، وإذا عاهدوا لم يهدروا ، وهذه صفات المؤمنين وضدها صفات المنافقين كما ورد في الحديث الصحيح : « آيَةُ الْمُنَافِقِ ثَلَاثٌ : إِذَا حَدَّثَ كَذَبَ ، وَإِذَا وَعَدَ أَخْلَفَ ، وَإِذَا أُؤْتِمِنَ خَانَ » ^(٣) . وقوله تعالى ﴿ وَالَّذِينَ هُمْ بِشَهَادَتِهِمْ قَائِمُونَ ﴾ أي محافظون عليها لا يزيدون فيها ولا ينقصون منها ولا يكتُمونها . ثم قال تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ يَحْفَظُونَ ﴾ أي على مواقيتها وأركانها وواجباتها ومستحباتها فافتتح الكلام بذكر الصلاة واحتتمه بذكرها فدل على الاعتناء بها والتنويه بشرفها ﴿ أُولَٰئِكَ فِي جَنَّاتٍ مُّكْرَمِينَ ﴾ أي مكرمون بأنواع الملائد والمسار .

﴿ قَالِ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّكَ مُهْطِئِينَ ۚ عَنِ الْآيِينَ وَعَنِ الْقَمَالِ عِزِينَ ۚ أُنِطْعَ كُلُّ أَمْرٍ يُرَىٰ مِنْهُمْ أَنْ يَدْخُلَ جَنَّةَ نَعِيمٍ ۚ كَلَّا ۚ إِنَّا خَلَقْنَاهُمْ مِمَّا يَعْلَمُونَ ۚ فَلَا أَقِيمَ رَبِّ الشَّرِّ وَالْعَزِيزِ إِنَّا لَقَدِيرُونَ ۚ عَنِ أَنْ يُبَدِّلَ خَيْرًا مِنْهُمْ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ ۚ فَذَرْنَاهُمْ يَخْرُصُوا وَيَلْمِزُوا حَتَّىٰ يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي يُوعَدُونَ ۚ يَوْمَ يُخْرِجُونَ مِنَ الْجَنَّةِ سِرَاجًا كَانَتْهُمْ إِلَيْ نَفْسٍ يُوفُونَ ۚ خَشِيعَةً أَبْصَرُهُمْ تَرَهِقُهُمْ ذُلُّ ذَلِكَ الْيَوْمِ الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ ۚ .

يقول تعالى منكروا على الكفار الذين كانوا في زمن النبي ﷺ وهم مشاهدون له ولما أرسله الله به من الهدى وما أيده الله به من المعجزات الباهرات ، ثم هم مع هذا كله فارون منه متفرقون عنه ، شاردون يميناً وشمالاً فرقاً فرقاً ، وشيعاً شيعاً ، ﴿ قَالِ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّكَ مُهْطِئِينَ ﴾ أي فما لهؤلاء الكفار الذين عندك يا محمد ﴿ مُهْطِئِينَ ﴾ أي مسرعين نافرين منك وقال الحسن البصري : منطلقين ﴿ عَنِ الْآيِينَ وَعَنِ الْقَمَالِ عِزِينَ ﴾

(١) أخرجه مسلم في صلاة المسافرين (٢١٨) وأحمد في مسنده (١٦٥/٦) .

(٢) أخرجه مسلم في صلاة المسافرين (١٤١) وأبو داود في السنن (التطوع ب ٢٨) والبيهقي في السنن (٤٨٥/٢) .

(٣) أخرجه البخاري في الإيمان (٣٣) ومسلم في الإيمان (١٠٧) وأحمد في مسنده (٣٥٧/٢) والبيهقي في السنن (٢٨٨/٦) .

أَشْتَمَالَ عِزِينَ ﴿٣٦﴾ واحدها عزة أي متفرقين ، وهو حال من ﴿ مُهْطِينَ ﴾ أي في حال تفرقهم واختلافهم ، كما قال الإمام أحمد في أهل الأهواء فهم مخالفون للكتاب مختلفون في الكتاب ، متفقون على مخالفة الكتاب . وقال ابن عباس : قبلك ينظرون ﴿ عَنِ آلِيَيْنِ وَعَنِ أَشْتَمَالَ عِزِينَ ﴾ قال : العزين : العصب من الناس عن يمين وشمال معرضين يستهزئون به ، وعن الحسن في قوله : ﴿ عَنِ آلِيَيْنِ وَعَنِ أَشْتَمَالَ عِزِينَ ﴾ أي متفرقين يأخذون يميناً وشمالاً يقولون : ما قال هذا الرجل ؟ وقال قتادة : ﴿ مُهْطِينَ ﴾ عامدين ﴿ عَنِ آلِيَيْنِ وَعَنِ أَشْتَمَالَ عِزِينَ ﴾ أي فرقاً حول النبي ﷺ لا يرغبون في كتاب الله ولا في نبيه ﷺ . عن جابر بن سمرة : أن رسول الله ﷺ خرج عليهم وهم حلق فقال : « ما لي أراكم عِزِينَ ؟ » ^(١) . وقوله تعالى : ﴿ أَيُطِيعُ كُلُّ أَمْرٍ يَنْهَى أَنْ يَدْخَلَ جَنَّةَ نَعِيمٍ ۚ كَلَّا ۚ أَيُطِيعُ هَؤُلَاءِ وَالْحَالَةَ هَذِهِ مِنْ فِرَارِهِمْ عَنِ الرُّسُولِ ﷺ وَنَفَارِهِمْ عَنِ الْحَقِّ أَنْ يَدْخُلُوا جَنَّاتِ النَّعِيمِ ؟ كَلَّا بَلْ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ . ثُمَّ قَالَ تَعَالَى مَقْرَئاً لَوْ قُوعِ الْمَعَادِ وَالْعَذَابِ بِهِمُ الَّذِي أَنْكَرُوا كونه واستبعدوا وجوده مستدلاً عليهم بالبداية التي الإعادة أهون منها وهو معترفون بها فقال تعالى : ﴿ إِنَّا خَلَقْنَاهُمْ مِمَّا يَكُونُونَ ﴾ أي من المني الضعيف ، ثم قال تعالى : ﴿ فَلَا أَقِيمُ رَبِّيَ الشَّرِيفَ وَالْعَزِيزَ ﴾ أي الذي خلق السموات والأرض وجعل مشرقاً ومغرباً وسخر الكواكب تبدو من مشارقها وتغيب في مغاربها . وتقرير الكلام ليس الأمر كما تزعمون أن لا معاد ولا حساب ولا بعث ولا نشور ؛ بل كل ذلك واقع وكائن لا محالة ، ولهذا أتى بلا في ابتداء القسم ليدل على أن المقسم عليه نفي وهو مضمون الكلام ، وهو الرد على زعمهم الفاسد في نفي يوم القيامة ، وقد شاهدوا من عظيم قدرة الله تعالى ما هو أبلغ من إقامة القيامة وهو خلق السموات والأرض وتسخير ما فيهما من المخلوقات من الحيوانات والجمادات وسائر صنوف الموجودات . وقال : ﴿ فَلَا أَقِيمُ رَبِّيَ الشَّرِيفَ وَالْعَزِيزَ إِنَّا لَقَدِيرُونَ ۚ عَنَّا أَنْ نُبَدِّلَ خَيْرًا نَنْتُمْ ﴾ أي يوم القيامة نعيدهم بأبدان خير من هذه ، فإن قدرته صالحة لذلك ﴿ وَمَا نَحْنُ بِمُسَوِّينَ ﴾ أي بعاجزين . واختار ابن جرير ﴿ عَنَّا أَنْ نُبَدِّلَ خَيْرًا نَنْتُمْ ﴾ أي أمة تطيعنا ولا تعصينا . والمعنى الأول أظهر لدلالة الآيات الأخر عليه ، والله سبحانه وتعالى أعلم ، ثم قال تعالى : ﴿ فَذَرُّهُمْ ﴾ أي يا محمد ﴿ يَخُوضُوا وَيَلْعَبُوا ﴾ أي دعهم في تكذيبهم وكفرهم وعنادهم ﴿ حَتَّى يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي يَوعَدُونَ ﴾ أي فسيعلمون غيب ذلك ويدققون وباله ﴿ يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَعْدَانِ يَرْكَبُ كُلُّهُمْ إِلَىٰ نُصْبٍ يُؤْفَسُونَ ﴾ أي يقومون من القبور إذا دعاهم الرب تبارك وتعالى لموقف الحساب ينهضون سراعاً ﴿ كُلُّهُمْ إِلَىٰ نُصْبٍ يُؤْفَسُونَ ﴾ قال ابن عباس : إلى علم يسعون ، وقال أبو العالية : إلى غاية يسعون إليها ، وقد قرأ الجمهور : إلى نصب ، بفتح النون ، وإسكان الصاد ^(٢) . وهو مصدر بمعنى المنصب ، وقرأ الحسن البصري نصب بضم النون وهو الصنم أي كأنهم في إسراعهم إلى الموقف كما كانوا في الدنيا يهرولون إلى النصب إذا عاينوه ﴿ يُؤْفَسُونَ ﴾ يتدرون أيهم يستلمه أول . وقوله تعالى ﴿ خَشِيعَةً أَمْسَرُهُمْ ﴾ أي خاضعة ﴿ زَهَقَهُمْ ذَلَّةٌ ﴾ أي في مقابلة ما استكبروا في الدنيا عن الطاعة ﴿ ذَلِكَ الْيَوْمَ الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ ﴾ .

(١) أخرجه مسلم في الصلاة (١١٩) وأحمد في مسنده (١٠١/٥) والبيهقي في السنن (٢٣٤/٣) .

(٢) قرأ ابن عامر وحفص ﴿ نُصْبٍ ﴾ بضم النون والصاد ، والباقون بفتح النون وإسكان الصاد (انظر : تقريب النشر ص ١٨٣) .

سورة نوح

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ أَنْ أَنْذِرْ قَوْمَكَ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ١ ﴾ قَالَ يَقَوْمِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ ٢ أَنْ أَعْبُدُوا اللَّهَ وَأَنْتَقُوا ٣ وَيَغْفِرْ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُخْرِجَكُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ٤ إِنَّ أَجَلَ اللَّهِ إِذَا جَاءَ لَا يُؤَخَّرُ لَوْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ٥ .

يقول تعالى مخبراً عن نوح عليه السلام أنه أرسله إلى قومه أمراً له أن ينذرهم بأس الله قبل حلوله بهم فإن تابوا وأنبأوا رفع عنهم ، ولهذا قال تعالى ﴿ أَنْ أَنْذِرْ قَوْمَكَ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ١ ﴾ قَالَ يَقَوْمِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ ٢ أي بين النذارة ظاهر الأمر واضحه ﴿ أَنْ أَعْبُدُوا اللَّهَ وَأَنْتَقُوا ٣ ﴾ أي اتركوا محارمه واجتنبوا مآثمه ﴿ وَأَطِيعُوا ٤ ﴾ فيما أمركم به وأنهاكم عنه ﴿ وَيَغْفِرْ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ ٥ ﴾ أي إذا فعلتم ما أمركم به وصدقتم ما أرسلت به إليكم غفر الله لكم ذنوبكم ، ومن ههنا قيل : إنها زائدة ، ولكن القول بزيادتها في الإثبات قليل ، ومنه قول بعض العرب : قد كان من مطر ، وقيل : إنها بمعنى عن تقديره يصفح لكم عن ذنوبكم ، واختاره ابن جرير ، وقيل : إنها للتبعيض أي يغفر لكم الذنوب العظيمة التي وعدكم على ارتكابكم إياها الانتقام ﴿ وَيُخْرِجَكُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ٤ ﴾ أي يمد في أعماركم ويدراً عنكم العذاب الذي إن لم تجتنبوا ما نهاكم عنه أوقعه بكم ، وقد يستدل بهذه الآية من يقول : إن الطاعة والبر وصلة الرحم يزداد بها في العمر حقيقة كما ورد به الحديث : « صِلَةُ الرَّحِمِ تَزِيدُ فِي الْعُمُرِ » (١) . وقوله تعالى : ﴿ إِنَّ أَجَلَ اللَّهِ إِذَا جَاءَ لَا يُؤَخَّرُ لَوْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ٥ ﴾ أي بادروا بالطاعة قبل حلول النقمة ؛ فإنه إذا أمر تعالى بكون ذلك لا يرد ولا يمانع ؛ فإنه العظيم الذي قد قهر كل شيء . العزيز الذي دانت لعزته جميع المخلوقات .

﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا ٦ فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَايَ إِلَّا فِرَارًا ٧ وَإِنِّي كُنْتُ مِنَ الْمَدِينَةِ ٨ فَأَدْعَاهُمْ وَيَسْأَلُونَنِي بِآيَاتِهِمْ وَأَصْرُوا وَاسْتَكْبَرُوا سِتَاجًا ٩ ثُمَّ إِنِّي أَتَيْتُ بِمَاءٍ مَهِينٍ ١٠ وَجَعَلَنِي لَكُمْ لَذِيذًا ١١ فَاسْتَقْبَرُوا رَبِّيكُمْ إِذْ أَنْتُمْ كَانُوا عَافَا ١٢ يَرْسِلُ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ فِضْرًا مَدِيدًا ١٣ وَبَعَثْنَا فِي نِجْوَاتِهِمْ وَابْنًا زَيْنًا وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ ١٤ وَأَنزَلْنَا الْغَمَّ فِيهِمْ فَوَارُوا وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَرَابًا ١٥ وَجَعَلْنَا الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلْنَا الشَّمْسُ سِرَاجًا ١٦ وَاللَّهُ أَلْبَسَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ ثِيَابًا ١٧ ثُمَّ يُبْعَثُوكُمْ فِيهَا فِجَاجًا ١٨ وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ الْأَرْضَ سَاطِعًا ١٩ تَسْلُكُوا فِيهَا سُبُلًا فِجَاجًا ٢٠ .

يخبر تعالى عن عبده ورسوله نوح عليه السلام أنه اشتكى إلى ربه ﷻ ما لقي من قومه وما صبر عليهم في تلك المدة الطويلة التي هي ألف سنة إلا خمسين عامًا ، وما بين لقومه ووضح لهم ودعاهم إلى الرشد والسبيل الأقوم فقال : ﴿ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا ٦ ﴾ أي لم أترك دعاءهم في ليل ولا نهار امتثالاً لأمرك وابتغاءً لطاعتك ﴿ فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَايَ إِلَّا فِرَارًا ٧ ﴾ أي كلما دعوتهم ليقربوا من الحق فروا منه وحادوا عنه ﴿ وَإِنِّي كُنْتُ مِنَ الْمَدِينَةِ ٨ فَأَدْعَاهُمْ وَيَسْأَلُونَنِي بِآيَاتِهِمْ وَأَصْرُوا وَاسْتَكْبَرُوا سِتَاجًا ٩ ﴾ أي سدوا آذانهم لئلا يسمعوا ما أدعاهم إليه ﴿ وَاسْتَقْبَرُوا رَبِّيكُمْ ١٢ ﴾ قال ابن عباس : تنكروا له لئلا يعرفهم .

(١) أخرجه المنذري في الترغيب والترهيب (٣٢/٢) والألباني في الصحيحة (١٩٠٨) .

وقال سعيد بن جبير : غطوا رؤوسهم لئلا يسمعو ما يقول ﴿ وَاسْتَرُوا ﴾ أي استمروا على ما هم فيه من الشرك والكفر العظيم الفظيع ﴿ وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَارًا ﴾ أي واستكفوا عن اتباع الحق والانقياد له ﴿ ثُمَّ إِنَّ دَعْوَتَهُمْ جَهَارًا ﴾ أي جهرة بين الناس ﴿ ثُمَّ إِنَّ أَفْئُتَهُمْ لَمْ ﴾ أي كلاً ما ظاهراً بصوت عال ﴿ وَاسْتَرْزَتْ لَهُمْ ﴾ أي فيما بيني وبينهم ، فنوع عليهم الدعوة لتكون أنجع فيهم ﴿ فَتَلَّكَ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّكُمْ كَانُمْ ﴾ أي ارجعوا إليه وارجعوا عما أنتم فيه وتوبوا إليه من قريب ؛ فإنه من تاب إليه تاب عليه ، ولو كانت ذنوبه مهما كانت في الكفر والشرك ، ولهذا قال : ﴿ فَتَلَّكَ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّكُمْ كَانُمْ ﴾ أي متواصلة الأمطار ، ولهذا تستحب قراءة هذه السورة في صلاة الاستسقاء لأجل هذه الآية ، وهكذا روي عن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ؓ أنه صعد المنبر ليستسقي فلم يزد على الاستغفار وقراءة الآيات في الاستغفار ومنها هذه الآية ﴿ فَتَلَّكَ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّكُمْ كَانُمْ ﴾ يرسل السَّاءَ عَلَيْكُمْ يَذَرَاكَ ﴿ ثم قال : لقد طلبت الغيث بمجاذيع السماء التي يستنزل بها المطر . وقوله تعالى : ﴿ وَنُذِرُكُمْ بِاتُّمُولِ وَيَنِينَ لَكُمْ جَنَّتٍ وَيَجْعَلُ لَكُمْ أَنْهَارًا ﴾ أي إذا تبتم إلى الله واستغفرتموه وأطعتموه كثر الرزق عليكم وأسقاكم من بركات السماء ، وأنبت لكم من بركات الأرض ، وأنبت لكم الزرع ، وأدر لكم الضرع ، وأمدكم بأموال وبنين ، أي أعطاكم الأموال والأولاد ، وجعل لكم جنات فيها أنواع الثمار وغللها بالأنهار الجارية بينها ، هذا مقام الدعوة بالترغيب ، ثم عدل بهم إلى دعوتهم بالترهيب فقال : ﴿ مَا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا ﴾ أي : عظمة ، وقال ابن عباس : لا تعظمون الله حق عظمته أي لا تخافون من بأسه ونقمته ﴿ وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا ﴾ قيل : معناه من نطفة ثم من علقة ثم من مضغة .

وقوله تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَوَاتِرٍ لِّبَابًا ﴾ أي واحدة فوق واحدة ، وهل هذا يتلقى من جهة السمع فقط ؟ أو هو من الأمور المدركة بالحس مما علم من التسيير والكسوفات ، فإن الكواكب السبعة السيارة يكسف بعضها بعضاً ، فأدناها القمر في السماء الدنيا وهو يكسف ما فوقه ، وعطارد في الثانية ، والزهرة في الثالثة ، والشمس في الرابعة ، والمريخ في الخامسة ، والمشتري في السادسة ، وزحل في السابعة ، وأما بقية الكواكب وهي الثوابت ففي فلك ثامن يسمونه فلك الثوابت والمتشرون منهم يقولون : هو الكرسي ، والفلك التاسع وهو الأطلس والأثير عندهم الذي حركته على خلاف حركة سائر الأفلاك ، وذلك أن حركته مبدأ الحركات وهي من المغرب إلى المشرق ؛ وسائر الأفلاك عكسه من المشرق إلى المغرب ومعها يدور سائر الكواكب تبعاً ، ولكن للسيارة حركة معاكسة لحركة أفلاكها ؛ فإنها تسيير من المغرب إلى المشرق ، وكل يقطع فلكه بحسبه ، فالقمر يقطع فلكه في كل شهر مرة ، والشمس في كل سنة مرة ، وزحل في كل ثلاثين سنة مرة ، وذلك بحسب اتساع أفلاكها وإن كانت حركة الجميع في السرعة متناسبة ، وهذا ملخص ما يقولونه في هذا المقام على اختلاف بينهم في مواضع كثيرة لسنا بصدد بيانها ، وإنما المقصود أن الله سبحانه وتعالى : ﴿ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَوَاتِرٍ لِّبَابًا ﴾ وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ الشَّمْسُ رِيًّا ﴿ أي فاوت بينهما في الاستنارة فجعل كلاً منهما أمودجاً على حدة ليعرف الليل والنهار بمطلع الشمس ومغيبها ، وقدّر للقمر منازل وبروجاً وفاوت نوره ، فتارة يزداد حتى يتناهى ، ثم يشرع في النقص حتى يستسر ليدل على مضي الشهور والأعوام . وقوله تعالى :

﴿وَاللَّهُ أَنْبَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ بِآثَانَا﴾ هذا اسم مصدر والإتيان به ههنا أحسن ﴿ثُمَّ يُبْدِكُمْ فِيهَا﴾ أي إذا متم ﴿وَنُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا﴾ أي يوم القيامة يعيدكم كما بدأكم أول مرة ﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ الْأَرْضَ بِسَاطًا﴾ أي بسطها ومهدا وقررها وثبتها بالجلال الراسيات الشم الشامخات ﴿لِتَسْلُكُوا مِنْهَا سُبُلًا فِجَالًا﴾ أي خلقها لكم لتستقروا عليها وتسلكوا فيها أين شئتم من نواحيها وأرجائها وأقطارها ، وكل هذا مما ينبتهم به نوح عليه السلام على قدرة الله وعظمته في خلق السموات والأرض ونعمه عليهم فيما جعل لهم من المنافع السماوية والأرضية ، فهو الخالق الرزاق ، جعل السماء بناءً والأرض مهادًا وأوسع على خلقه من رزقه فهو الذي يجب أن يعبد ويوحّد ولا يشرك به أحد ؛ لأنه لا نظير له ولا عديل له ولا ند ولا كفاء ولا صاحبة ولا ولد ولا وزير ولا مشير بل هو العلي الكبير .

﴿قَالَ نُوحٌ رَبِّ إِنَّمَا عَصَوْتُ وَأَتَّبَعُوا مَن لَّرَ بِزَيِّدٍ مَّالْمٌ وَوَلَدُهُ إِلَّا خَسَارًا﴾ ﴿وَمَكَرُوا مَكْرًا كَبِيرًا﴾ ﴿وَقَالُوا لَا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا﴾ ﴿وَقَدْ أَضَلُّوا كَثِيرًا وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا ضَلَالًا﴾ .

يقول تعالى مخبرًا عن نوح عليه السلام أنه أنهى إليه ، وهو العليم الذي لا يعزب عنه شيء ، أنه مع البيان المتقدم ذكره والدعوة المتنوعة المشتملة على الترغيب تارة والترهيب أخرى ، أنهم عصوه وخالفوه وكذبوه واتبعوا أبناء الدنيا ممن غفل عن أمر الله ، ومتع بمال وأولاد وهي نفس الأمر استدراج وإنظار ، لا لإكرام ولهذا قال : ﴿وَأَتَّبَعُوا مَن لَّرَ بِزَيِّدٍ مَّالْمٌ وَوَلَدُهُ إِلَّا خَسَارًا﴾ قرئ وولده بالضم وبالفتح ^(١) . وكلاهما متقارب وقوله تعالى : ﴿وَمَكَرُوا مَكْرًا كَبِيرًا﴾ قال مجاهد : أي عظيمًا .

وقال ابن زيد : كبير والعرب تقول : أمر عجيب وعجاب وعجاب ، ورجل حسان وحسان وجَمَّال بالتخفيف والتشديد بمعنى واحد ، والمعنى في قوله تعالى : ﴿وَمَكَرُوا مَكْرًا كَبِيرًا﴾ أي باتباعهم في تسويلهم لهم أنهم على الحق والهدى كما يقولون لهم يوم القيامة ، ولهذا قال ههنا : ﴿وَمَكَرُوا مَكْرًا كَبِيرًا﴾ ﴿وَقَالُوا لَا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا﴾ وهذه أسماء أصنامهم التي كانوا يعبدونها من دون الله . وقال ابن عباس : صارت الأوثان التي كانت في قوم نوح في العرب بعد : أما ود فكانت لكلب بدومة الجندل ، وأما سواع فكانت لهذيل ، وأما يغوث فكانت مراد ثم لبني غطفان بالجرف عند سبأ ، وأما يعوق فكانت لهمدان ، وأما نسر فكانت لحمير لآل ذي كلاع ، وهي أسماء رجال صالحين من قوم نوح عليه السلام فلما هلكوا أوحى الشيطان إلى قومهم أن انصبوا إلى مجالسهم التي كانوا يجلسون فيها أنصابًا وسموها بأسمائهم ففعلوا ، فلم تعبد حتى إذا هلك أولئك ونسخ العلم عبت ^(٢) . عن أبي المطهر قال : ذكروا عند أبي جعفر وهو قائم يصلي يزيد بن المهلب ، قال : فلما انتقل من صلاته قال : ذكرتم يزيد بن مهلب ، أما إنه قتل في أول أرض عبد فيها غير الله ، قال : ثم ذكروا رجلًا مسلمًا وكان محببًا في قومه ، فلما مات اعتكفوا حول قبره في أرض بابل وجزعوا عليه ، فلما رأى جزعهم عليه تشبه في صورة إنسان ثم قال : إني أرى جزعكم على هذا الرجل فهل لكم أن أصور لكم مثله فيكون في ناديكُم فتذكرونه ؟ قالوا : نعم ،

(١) قرأ المدنيان وابن عامر وعاصم ﴿ولده﴾ بفتح الواو واللام والباوون بضم الواو وإسكان اللام (انظر : تقريب النشر ص ١٨٣) .

(٢) أخرجه البخاري في تفسير القرآن (٤٩٢٠) .

فصور لهم مثله قال : ووضعوه في ناديم وجعلوا يذكرونه ؛ فلما رأى ما بهم من ذكره ، قال : هل لكم أن أجعل في منزل كل رجل منكم تمثالاً مثله فيكون له في بيته فتذكرونه ؟ قالوا : نعم ، قال : فمثل لكل أهل بيت تمثالاً مثله فأقبلوا ، فجعلوا يذكرونه به . قال : وأدرك أنبأهم فجعلوا يرون ما يصنعون به . قال : وتناسلوا ودرس أمر ذكرهم إياه حتى اتخذها إلهاً يعبدونه من دون الله أولاد أولادهم ، فكان أول عبد من دون الله : الصنم الذي سموه ودًا .

وقوله تعالى : ﴿ وَقَدْ أَضَلُّوا كَثِيرًا ﴾ يعني الأصنام التي اتخذوها أضلوا بها خلقًا ، فإنه استمرت عبادتها في القرون إلى زماننا هذا في العرب والعجم وسائر صنوف بني آدم ، وقوله تعالى : ﴿ وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا ضَلَالًا ﴾ : دعاء منه على قومه لتمردهم وكفرهم وعنادهم كما دعا موسى على فرعون وملئه في قوله : ﴿ رَبَّنَا آتِنَا عَلَى أَمْوَالِنَا وَأَشْدِّدْ عَلَى قُلُوبِنَا فَلَا يُؤْمِنُوا حَتَّى يَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ﴾ وقد استجاب الله لكل من النبيين في قومه وأغرق أمته بتكذيبهم لما جاءهم به .

﴿ مِمَّا خَطَبْتَهُمْ أَغْرُقُوا فَأَدْخَلُوا نَارًا فَلَمْ يَجِدُوا لَهَا مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْصَارًا ﴾ ١٥ وَقَالَ نُوحٌ رَبِّ لَا تَذَرْنِي عَلَى الْأَرْضِ مِنْ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا ١٦ إِنَّكَ إِنْ تَذَرَهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا ١٧ رَبِّ آغْفِرْ لِي وَلِوَلَدَيَّ وَلِمَنْ دَخَلَ بَيْتِي مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا نَبَارًا ١٨ .

يقول تعالى : ﴿ مِمَّا خَطَبْتَهُمْ ﴾ وقرأ خطاياهم ^(١) ﴿ أَغْرُقُوا ﴾ أي من كثرة ذنوبهم وعتوهم وإصرارهم على كفرهم ومخالفتهم رسولهم ﴿ أَغْرُقُوا فَأَدْخَلُوا نَارًا ﴾ أي نقلوا من تيار البحار إلى حرارة النار ﴿ فَلَمْ يَجِدُوا لَهَا مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْصَارًا ﴾ أي : لم يكن لهم معين ولا مغيث ولا مجير ينقذهم من عذاب الله ﴿ وَقَالَ نُوحٌ رَبِّ لَا تَذَرْنِي عَلَى الْأَرْضِ مِنْ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا ﴾ أي لا تترك على وجه الأرض منهم أحدًا ولا ديارًا وهذه من صيغ تأكيد النفي ، قال الضحَّاك : ديارًا واحدًا . وقال السدي : الديار الذي يسكن الدار ، فاستجاب الله له فأهلك جميع من على وجه الأرض من الكافرين حتى ولد نوح لصلبه الذي اعتزل عن أبيه ، وقال : ﴿ سَتَأْتِيَ إِلَى جَبَلٍ يَخِيصُنِي مِنَ الْمَاءِ قَالَ لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلَّا مَنْ رَحِمَ وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ ﴾ عن ابن عباس قال : قال رسول الله ﷺ : « لَوْ رَحِمَ اللَّهُ مِنْ قَوْمِ نُوحٍ أَحَدًا لَرَجِمَ امْرَأَةً لَمَّا رَأَتْ الْمَاءَ حَمَلَتْ وَلَدَهَا ثُمَّ صَعِدَتْ الْجَبَلَ ، فَلَمَّا بَلَغَهَا الْمَاءُ صَعِدَتْ بِهِ مِنْكِبَهَا ، فَلَمَّا بَلَغَ الْمَاءُ مِنْكِبَهَا وَضَعَتْ وَلَدَهَا عَلَى رَأْسِهَا ، فَلَمَّا بَلَغَ الْمَاءُ رَأْسَهَا ، رَفَعَتْ وَلَدَهَا يَدَيْهَا ، فَلَوْ رَحِمَ اللَّهُ مِنْهُمْ أَحَدًا لَرَجِمَ هَذِهِ الْمَرْأَةَ » ^(٢) . ونجى الله أصحاب السفينة الذين آمنوا مع نوح عليه السلام وهم الذين أمره الله بحملهم معه .

وقوله تعالى : ﴿ إِنَّكَ إِنْ تَذَرَهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ ﴾ أي إنك إن أبقيت منهم أحدًا أضلوا عبادك أي الذين تخلقهم بعدهم ﴿ وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا ﴾ أي فاجرا في الأعمال كافر القلب ، وذلك لخبرته بهم ومكثه بين أظهرهم ألف سنة إلا خمسين عامًا ثم قال : ﴿ رَبِّ آغْفِرْ لِي وَلِوَلَدَيَّ وَلِمَنْ دَخَلَ بَيْتِي مُؤْمِنًا ﴾

(١) قرأ أبو عمرو ﴿ مما خطاياهم ﴾ بفتح والطاء والياء وألف بعدها من غير همز ولا تاء ، والباقون بكسر الطاء وياء ساكنة بعدها وهمزة مفتوحة بعد الياء بعدها ألف وتاء مكسورة (انظر تقريب النشر ص ١٨٣) .

(٢) أخرجه الحاكم في المستدرک (٣٤٢/٢) .

يَنُوحُ مُؤْمِنًا ﴿٢٥﴾ قَالَ الضُّحَّاكُ : يعني مسجدي ، ولا مانع من حمل الآية على ظاهرها وهو أنه دعا لكل من دخل منزله وهو مؤمن . عن أبي سعيد أنه سمع رسول الله ﷺ يقول : « لَا تَضْحَبُ إِلَّا مُؤْمِنًا ، وَلَا يَأْكُلْ طَعَامُكَ إِلَّا تَقِيٌّ » ^(١) . وقوله تعالى : ﴿ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ﴾ دعاء لجميع المؤمنين والمؤمنات وذلك يعم الأحياء منهم والأموات ، ولهذا يستحب مثل هذا الدعاء اقتداء بنوح عليه السلام وبما جاء في الآثار والأدعية المشهورة المشروعة ، وقوله تعالى : ﴿ وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا نَبَارًا ﴾ إلا هلاكًا ، وقال مجاهد : إلا خسارًا أي الدنيا والآخرة .

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٣٨/٣) والترمذي في السنن (٢٣٩٥) وأبو داود في السنن (٤٨٣٢) .

ذكر رسول الله ﷺ بمكة ، فأوانا المبيت إلى راعي غنم ، فلما انتصف الليل جاء ذئب فأخذ جملاً من الغنم ، فوثب الراعي فقال : يا عامر الوادي جارك ، فنادى مناد لا نراه يقول : يا سرحان أرسله . فأتى الحمل يشتد حتى دخل في الغنم لم تصبه كدمة . وأنزل الله تعالى على رسوله بمكة ﴿ وَأَنْتُمْ كَانُمْرًا مِنْ آتَيْنِ يَوْمَئِذٍ بِرِجَالٍ مِنَ الْإِنْسِ يَوْمَئِذٍ يَمَازُجُ الْبَينَ فَرَأَوْهُمْ رَهَقًا ﴾ وقد يكون هذا الذئب الذي أخذ الحمل وهو ولد الشاة كان جنياً حتى يرهب الإنسي ويخاف منه رده عليه لما استجار به ليضله ويهينه ويخرجه عن دينه ، والله أعلم ، وقوله تعالى : ﴿ وَأَنْتُمْ ظَنُّوا كَمَا ظَنَنْتُمْ أَنْ لَنْ يَبْعَثَ اللَّهُ أَحَدًا ﴾ أي لن يبعث الله بعد هذه المدة رسولاً .

﴿ وَأَنَا لَسْنَا السَّمَاءَ فَوَجَّدْنَاهَا ثُلُثًا حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهَبًا ۝ وَأَنَا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقْعِدَ اللَّسْتِمِ فَمَنْ يَسْمَعِ الْآنَ يَحِذُّ لَمْ شَهَابًا رَصَدًا ۝ وَأَنَا لَا نَدْرِي أَشَرُّ أَرِيدُ يَمِنْ فِي الْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا ۝ ﴾

يخبر تعالى عن الجن حين بعث الله رسوله محمداً ﷺ وأنزل عليه القرآن ، وكان من حفظه له أن السماء ملئت حرساً شديداً ، وحفظت من سائر أراجائها ، وطردت الشياطين عن مقاعدها التي كانت تقعد فيها قبل ذلك لئلا يسترقوا شيئاً من القرآن فيلقوه على ألسنة الكهنة فيلبس الأمر ويختلط ولا يدري من الصادق ، وهذا من لطف الله تعالى بخلقه ، ورحمته بعباده ، وحفظه لكتابه العزيز ، ولهذا قال الجن : ﴿ وَأَنَا لَسْنَا السَّمَاءَ فَوَجَّدْنَاهَا ثُلُثًا حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهَبًا ۝ وَأَنَا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقْعِدَ اللَّسْتِمِ فَمَنْ يَسْمَعِ الْآنَ يَحِذُّ لَمْ شَهَابًا رَصَدًا ﴾ أي من يروم أن يسترق السمع اليوم يجد له شهاباً مرصداً لا يتخطاه ولا يتعداه بل يحقه ويهلكه ﴿ وَأَنَا لَا نَدْرِي أَشَرُّ أَرِيدُ يَمِنْ فِي الْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا ﴾ أي ما ندري هذا الأمر الذي قد حدث في السماء ﴿ لَا نَدْرِي أَشَرُّ أَرِيدُ يَمِنْ فِي الْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا ﴾ وهذا من أدبهم في العبارة حيث أسندوا الشر إلى غير فاعل والخير أضافوه إلى الله ﷻ . وقد ورد في الصحيح « وَالشُّرُّ لَيْسَ إِلَيْكَ » ^(١) . وقد كانت الكواكب يرمي بها قبل ذلك ، ولكن ليس بكثير بل في الأحيان بعد الأحيان كما في حديث العباس : بينما جلوس مع رسول الله ﷺ إذا رمي بنجم فاستنار فقال : « مَا كُنْتُمْ تَقُولُونَ فِي هَذَا ؟ » فقلنا : كنا نقول : يولد عظيم ، يموت عظيم فقال : « لَيْسَ كَذَلِكَ ؛ وَلَكِنْ اللَّهُ إِذَا قَضَى الْأَمْرَ فِي السَّمَاءِ » ^(٢) وذكر تمام الحديث . وهذا هو السبب الذي حملهم على تطلب السبب في ذلك فأخذوا يضربون مشارق الأرض ومغاريها ، فوجدوا رسول الله ﷺ يقرأ بأصحابه في الصلاة ، فعرفوا أن هذا هو الذي حفظت من أجله السماء ، فآمن من آمن منهم وتمرد في طغيانه من بقي ، ولا شك أنه لما حدث هذا الأمر وهو كثرة الشهب في السماء والرمي بها ، هال ذلك الإنس والجن وانزعجوا له وارتاعوا لذلك وظنوا أن ذلك لحراب العالم كما قال السدي ، لم تكن السماء تحرس إلا أن يكون في الأرض نبي أو دين لله ظاهر ، فكانت الشياطين قبل محمد ﷺ قد اتخذت المقاعد في السماء الدنيا يستمعون ما يحدث في السماء من أمر ، فلما بعث الله محمداً ﷺ نبياً رجموا ليلة من الليالي ، ففزع لذلك أهل الطائف ، فقالوا : هلك أهل السماء لما رأوا من شدة النار في السماء واختلاف الشهب ، فجمعوا ليعتقون أرقاءهم ، ويسبيون مواشيهم ، فقال لهم عبد ياليل بن

(١) أخرجه مسلم في صلاة المسافرين (٢٠١) .

(٢) أخرجه أحمد في مسنده (٢١٨/١) والبيهقي في السنن (١٣٨/٨) والترمذي في السنن (٣٢٢٤) .

عمرو بن عمير : ويحكم يا معشر أهل الطائف ! امسكوا عن أموالكم وانظروا إلى معالم النجوم ، فإن رأيتموها مستقرة في أمكنتها فلم يهلك أهل السماء ، إنما هذا من أجل ابن أبي كبشة ، يعني محمداً ﷺ وإن نظرتهم فلم تروها ، فقد هلك أهل السماء ، فنظروا فرواها فكفوا عن أموالهم ، ففزعت الشياطين في تلك الليلة ، فأتوا إبليس فحدثوه بالذي كان من أمرهم فقال : اثنوني من كل أرض بقبضة من تراب أشمها ، فأتوه فشم فقال : صاحبكم بمكة ، فبعث سبعة نفر من جن نصيبين فقدموا مكة فوجدوا نبي الله ﷺ قائماً يصلي في المسجد الحرام يقرأ القرآن ، فدنوا منه حرصاً على القرآن حتى كادت كلاكلهم تصيبه . ثم أسلموا ، فأنزل الله تعالى أمرهم على رسوله ﷺ .

﴿ وَأَنَّا مِنَّا الصَّالِحُونَ وَمِمَّا دُونَ ذَلِكَ كُنَّا طَائِفًا قَدَدًا ﴾ ﴿ وَأَنَّا ظَنَنَّا أَن لَّنْ نُّعْجِزَ اللَّهَ فِي الْأَرْضِ وَلَكِن تَعَجَّرُوا هَرَبًا ﴾ ﴿ وَأَنَّا لَمَّا سَمِعْنَا الْمَدَائِدَ ءَامَنَّا بِهِ فَمَن يُؤْمِنُ بِرَبِّهِ فَلَا يَخَافُ بَحْصَ وَلَا رَهَقًا ﴾ ﴿ وَأَنَّا مِنَّا الْمُسْلِمُونَ وَمِمَّا الْقَاسِطُونَ فَمَن أَسْلَمَ فَأُولَئِكَ تَحَرَّوْا رَشَدًا ﴾ ﴿ وَأَمَّا الْقَاسِطُونَ فَكَانُوا لِجَهَنَّمَ حَطَبًا ﴾ ﴿ وَالَّذِي اسْتَفْتَمُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَهُمْ مَّاءً عَذَقًا لِّتَفْنِيَهُمْ فِيهِ وَمَن يُعْرِضْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِ يَسْلُكْهُ عَذَابًا صَعَدًا ﴾ .

يقول تعالى مخبراً عن الجن أنهم قالوا مخبرين عن أنفسهم ﴿ وَأَنَّا مِنَّا الصَّالِحُونَ وَمِمَّا دُونَ ذَلِكَ ﴾ أي غير ذلك ﴿ كُنَّا طَائِفًا قَدَدًا ﴾ أي طرائق متعددة وآراء متفرقة ، قال الأعمش : تروح إلينا جني فقلت له : ما أحب الطعام إليكم ؟ فقال : الأرز ، قال : فأتيناهم به فجعلت أرى اللقم ترفع ولا أرى أحداً ، فقلت : فيكم من هذه الأهواء التي فينا ؟ قال : نعم ، فقلت : فما الراضية فيكم ؟ قال : شرنا .

وقوله تعالى : ﴿ وَأَنَّا ظَنَنَّا أَن لَّنْ نُّعْجِزَ اللَّهَ فِي الْأَرْضِ وَلَكِن تَعَجَّرُوا هَرَبًا ﴾ أي نعلم أن قدرة الله حاكمة علينا وأنا لا نعجزه في الأرض ولو أمعنا في الهرب ؛ فإنه علينا قادر لا يعجزه أحد منا ﴿ وَأَنَّا لَمَّا سَمِعْنَا الْمَدَائِدَ ءَامَنَّا بِهِ ﴾ يفخرون بذلك وهو مفخر لهم وشرف رفيع وصفة حسنة ، وقولهم : ﴿ فَمَن يُؤْمِنُ بِرَبِّهِ فَلَا يَخَافُ بَحْصَ وَلَا رَهَقًا ﴾ قال ابن عباس وقتادة وغيرهما : فلا يخاف أن ينقص من حسناته أو يحمل عليه غير سيئاته ﴿ وَأَنَّا مِنَّا الْمُسْلِمُونَ وَمِمَّا الْقَاسِطُونَ ﴾ أي منا المسلم ومنا القاسط وهو الجائر عن الحق الناكب عنه ، بخلاف المقسط ، فإنه العادل ﴿ فَمَن أَسْلَمَ فَأُولَئِكَ تَحَرَّوْا رَشَدًا ﴾ أي طلبوا لأنفسهم النجاة ﴿ وَأَمَّا الْقَاسِطُونَ فَكَانُوا لِجَهَنَّمَ حَطَبًا ﴾ أي وقوداً تسعر بهم وقوله تعالى : ﴿ وَالَّذِي اسْتَفْتَمُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَهُمْ مَّاءً عَذَقًا لِّتَفْنِيَهُمْ فِيهِ ﴾ اختلف المفسرون في معنى هذا على قولين : أحدهما : وأن لو استقام القاسطون على طريقة الإسلام وعدلوا إليها واستمروا عليها ﴿ لَأَسْقَيْنَهُمْ مَّاءً عَذَقًا ﴾ أي كثيراً ، والمراد بذلك سعة الرزق وعلى هذا يكون معنى قوله : ﴿ لِّتَفْنِيَهُمْ فِيهِ ﴾ أي لنختبرهم ، وقيل : لنبتليهم من يستمر على الهداية ممن يتردد إلى الغواية . قال بهذا القول ابن عباس ومجاهد وقتادة كل هؤلاء أو أكثرهم قالوا في قوله : ﴿ لِّتَفْنِيَهُمْ فِيهِ ﴾ أي لنبتليهم به . وقال مقاتل : نزلت في الكفار قريش حين منعوا المطر سبع سنين .

والقول الثاني : ﴿ وَالَّذِي اسْتَفْتَمُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ ﴾ الضلال ﴿ لَأَسْقَيْنَهُمْ مَّاءً عَذَقًا ﴾ أي لأوسعنا عليهم الرزق استدراجاً ، وهذا قول أبي مجلز لاحق بن حميد ؛ فإنه قال في قوله تعالى : ﴿ وَالَّذِي اسْتَفْتَمُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ ﴾ : أي طريقة الضلالة وله اتجاه ويتأيد بقوله : لنفتنهم فيه . وقوله : ﴿ وَمَن يُعْرِضْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِ يَسْلُكْهُ عَذَابًا صَعَدًا ﴾ أي عذاباً مشقاً شديداً موجفاً مؤلماً وقال ابن عباس وعكرمة ومجاهد :

مشقة لا راحة معها ، وعن ابن عباس : جبل في جهنم . وعن سعيد بن جبیر : بئر فيها .

﴿ وَأَنَّ الْمَسْجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا ﴾ ١٨ وَأَنَّ لَّمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِيَدَا ١٩ قُلْ إِنَّمَا أَدْعُوا رَبِّي وَلَا أُشْرِكُ بِهِ أَحَدًا ٢٠ قُلْ إِنِّي لَا أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا رَشَدًا ٢١ قُلْ إِنِّي لَنْ يُجِيرَنِي مِنَ اللَّهِ أَحَدٌ وَلَنْ أَجِدَ مِنْ دُونِهِ مُلْتَحَدًا ٢٢ إِلَّا بَلَاغًا مِنَ اللَّهِ وَرِسَالَاتِهِ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدًا فِيهَا أَبَدًا ٢٣ حَتَّىٰ إِذَا رَأَوْا مَا يُوعَدُونَ فَيَسْأَلُونَ مَنْ أَعْصَفَ نَاصِرًا وَأَقَلَّ عَدَدًا ٢٤ .

يقول تعالى أمراً عباده أن يوحده في مجال عبادته ولا يدعى معه أحد ولا يشرك به ، كما قال قتادة في قوله تعالى : ﴿ وَأَنَّ الْمَسْجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا ﴾ قال : كانت اليهود والنصارى إذا دخلوا كنائسهم ويعلمهم أشركوا بالله فأمر الله نبيه ﷺ أن يوحده وحده . وعن ابن عباس في قوله : ﴿ وَأَنَّ الْمَسْجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا ﴾ قال : لم يكن يوم نزلت هذه الآية في الأرض مسجد إلا المسجد الحرام ومسجد إيليا بيت المقدس . وقال الأعمش : قالت الجن : يا رسول الله ائذن لنا فنشهد معك الصلوات في مسجدك ، فأنزل الله تعالى ﴿ وَأَنَّ الْمَسْجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا ﴾ يقول : صلوا لا تخالطوا الناس . وعن سعيد بن جبیر قال : قالت الجن لنبي الله ﷺ : كيف لنا أن نأتي المسجد ونحن ناءون - أي بعيدون - عنك ؟ وكيف نشهد الصلاة ونحن نأوون عنك ؟ فنزل ﴿ وَأَنَّ الْمَسْجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا ﴾ .

قال عكرمة : نزلت في المساجد كلها ، وقال سعيد بن جبیر : نزلت في أعضاء السجود أي هي لله فلا تسجدوا بها غيره . وعن ابن عباس ؓ قال : قال رسول الله ﷺ : « أُمِرْتُ أَنْ أَشْجِدَ عَلَى سَبْعَةِ أَعْظَمَ : عَلَى الْجَهَنَّمَ - أشار بيده إلى أنفه - وَالْيَدَيْنِ ، وَالرُّكْبَتَيْنِ ، وَأَطْرَافِ الْقَدَمَيْنِ » (١) . وقوله تعالى : ﴿ وَأَنَّ لَّمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِيَدَا ﴾ عن ابن عباس قال : لما سمعوا النبي ﷺ يتلو القرآن كادوا يركبونه من الحرص لما سمعوه يتلو القرآن ، ودنوا منه ، لم يعلم بهم حتى أتاه الرسول فجعل يقرئه ﴿ قُلْ أَوْحَىٰ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ الْجِنِّ ﴾ يستمعون القرآن . وعن سعيد بن جبیر عن ابن عباس قال : قال الجن لقومهم : ﴿ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِيَدَا ﴾ قال : لما رأوه يصلي وأصحابه يركعون يركعوه ويسجدون بسجوده قال : عجبوا من طوعية أصحابه له قال : فقالوا لقومهم ﴿ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِيَدَا ﴾ وقال الحسن : لما قام رسول الله ﷺ يقول : لا إله إلا الله ويدعو الناس إلى ربهم كادت العرب تلبد عليه جميعاً وقال قتادة : تلبدت الإنس والجن على هذا الأمر ليطفنوه فأبى الله إلا أن ينصره ويمضيه ويظهره على من ناوأه ، وهو اختيار ابن جرير وهو الأظهر ، لقوله بعده ﴿ قُلْ إِنَّمَا أَدْعُوا رَبِّي وَلَا أُشْرِكُ بِهِ أَحَدًا ﴾ أي قال لهم الرسول لما آذوه وخالفوه كذبوه وتظاهروا عليه ليبطلوا ما جاء به من الحق واجتمعوا على عداوته ﴿ إِنَّمَا أَدْعُوا رَبِّي ﴾ أي إنما أعبد ربي وحده لا شريك له وأستجير به وأتوكل عليه ﴿ وَلَا أُشْرِكُ بِهِ أَحَدًا ﴾ ، وقوله تعالى : ﴿ قُلْ إِنِّي لَا أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا رَشَدًا ﴾ أي إنما أنا بشر مثلكم يوحى إلي وعبد من عباد الله ليس إلي من الأمر شيء في هدايتكم

(١) أخرجه البخاري في الأذان (٨١٢) ومسلم في الصلاة (٢٢٨) والنسائي في السنن (٢٠٩/٢) وابن ماجه في السنن (٨٨٣) وأحمد في مسنده (٣٠٥/١) .

ولا غوايتكم بل المرجع في ذلك كله إلي الله ﷻ ، ثم أخبر عن نفسه أيضًا أنه لا يجيره من الله أحد أي لو عصيته فإنه لا يقدر أحد على إنقاضي من عذابه ﴿وَلَنْ أَجِدَ مِنْ دُونِهِ مُلْتَحَدًا﴾ قال قتادة : أي لا ملجأ . وقال أيضًا : أي لا نصير ولا ملجأ . وفي رواية : لا ولي ولا موئل .

وقوله تعالى : ﴿إِلَّا بَلَاغًا مِّنَ اللَّهِ وَرِسَالَةً﴾ قال بعضهم : هو مستثنى من قوله : ﴿قُلْ إِنِّي لَا أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا رَشَدًا﴾ ﴿إِلَّا بَلَاغًا﴾ ويحتمل أن يكون استثناء من قوله : ﴿لَنْ يُجِيرَنِي مِنَ اللَّهِ أَحَدٌ﴾ أي لا يجيرني منه ولا يخلصني إلا بإلاغي الرسالة التي أوجب أداءها علي . وقوله تعالى : ﴿وَمَنْ يَقُمْ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدًا فِيهَا أَبَدًا﴾ أي أنا أبلغكم رسالة الله فمن يعص بعد ذلك فله جزاء على ذلك نار جهنم ﴿خَالِدًا فِيهَا أَبَدًا﴾ ، أي : لا محيد لهم عنها ولا خروج لهم منها . وقوله تعالى : ﴿حَتَّىٰ إِذَا رَأَوْا مَا يُوعَدُونَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ أَضَعَفَ نَاصِرًا وَأَقَلَّ عَدَدًا﴾ أي حتى إذا رأى هؤلاء المشركون من الجن والإنس ما يوعدون يوم القيامة ، فسيعلمون يومئذ من أضعف ناصرًا وأقل عدداً ، هم أم المؤمنون الموحدون لله تعالى ؛ أي بل المشركون لا ناصر لهم بالكلية وهم أقل عدداً من جنود الله ﷻ .

﴿قُلْ إِنْ أَدْرَيْتُمْ أَقْرَبَ مَا تُوْعَدُونَ أَمْ يَجْعَلُ لَكُمْ رَحْمَةً أَمَدًا﴾ ﴿عَلَيْمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِ أَحَدًا﴾ ﴿إِلَّا مَنَ ارْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَدًا﴾ ﴿لِيَعْلَمَ أَن قَدْ أَبْلَغُوا رِسَالَاتِ رَبِّهِمْ وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ وَأَحْصَىٰ كُلَّ شَيْءٍ عَدَدًا﴾ .

يقول تعالى أمرا رسوله ﷺ أن يقول للناس إنه لا علم له بوقت الساعة ولا يدري أقرب وقتها أم بعيد ﴿قُلْ إِنْ أَدْرَيْتُمْ أَقْرَبَ مَا تُوْعَدُونَ أَمْ يَجْعَلُ لَكُمْ رَحْمَةً أَمَدًا﴾ أي مدة طويلة وفي هذه الآية الكريمة دليل على أن الحديث الذي يتداوله كثير من الجهلة من أنه عليه الصلاة والسلام لا يؤلف تحت الأرض كذب لا أصل له ولم نره في شيء من الكتب وقد كان ﷺ يسأل عن وقت الساعة فلا يجيب عنها ولما تبدى له جبريل في صورة أعرابي كان فيما سأل أن قال : يا محمد فأخبرني عن الساعة ؟ قال : « مَا الْمَسْئُولُ عَنْهَا بِأَعْلَمَ مِنَ السَّائِلِ » ^(١) . ولما ناداه ذلك الأعرابي بصوت جهوري فقال : يا محمد متى الساعة قال : « وَيَحْكُ إِنَّهَا كَأَنَّهُ قَعَا أَعْدَذَتْ لَهَا أ » . قال : أما إنني لم أعد لها كثير صلاة ولا صيام ولكنني أحب الله ورسوله قال : « فَأَنْتَ مَعَ مَنْ أُحْبِبْتُ » . قال أنس : فما فرح المسلمون بشيء فرحهم بهذا الحديث ^(٢) . وعن سعد بن أبي وقاص عن النبي ﷺ أنه قال : « إِنِّي لَأَرْجُو أَنْ لَا تَعْجَزَ أُمَّتِي عِنْدَ رَبِّهَا أَنْ يُؤَخَّرَهُمْ نِصْفَ نَوْمٍ » . قيل لسعد : وكم نصف يوم ؟ قال : خمسمائة عام ^(٣) .

وقوله تعالى : ﴿عَلَيْمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِ أَحَدًا﴾ ﴿إِلَّا مَنَ ارْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ﴾ إنه يعلم الغيب والشهادة وإنه لا يطلع أحد من خلقه على شيء من علمه إلا بما أطلعه تعالى عليه ولهذا قال ﴿عَلَيْمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِ أَحَدًا﴾ ﴿إِلَّا مَنَ ارْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ﴾ وهذا يعم الرسول الملكي والبشري . ثم قال تعالى : ﴿فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَدًا﴾ أي يخصه بمزيد معقبات من الملائكة يحفظونه من

(١) أخرجه البخاري في تفسير القرآن (٤٧٧٧) ومسلم في الإيمان (٥) وأحمد في مسنده (٤٢٦/٢) .

(٢) أخرجه البيهقي في السنن (٢٢١/٣) .

(٣) أخرجه أحمد في مسنده (١٧٠/١) وأبو داود في السنن (٤٣٥٠) والألباني في صحيحه (١٦٤٣) .

أمر الله ، ويساوقونه على ما معه من وحي الله ولهذا قال : ﴿ لَيَعْلَمَنَّ أَنْ قَدْ أَتَلَفُوا رِسَالَتِي رَبِّهِمْ وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ وَأَخْصَى كُلَّ شَيْءٍ عَدَدًا ﴾ وقد اختلف المفسرون في الضمير الذي في قوله ﴿ لَيَعْلَمَنَّ ﴾ إلى من يعود ؟ فقيل : إنه عائد إلى النبي ﷺ وعن سعيد بن جبير في قوله ﴿ عَلِيمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا ﴾ إِلَّا مَنْ أَرَادَ مِنْ رَسُولِي فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَدًا ﴾ قال : أربعة حفظة من الملائكة مع جبريل ﴿ لَيَعْلَمَنَّ ﴾ مُحَمَّد ﷺ ﴿ أَنْ قَدْ أَتَلَفُوا رِسَالَتِي رَبِّهِمْ وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ وَأَخْصَى كُلَّ شَيْءٍ عَدَدًا ﴾ وعن قتادة ﴿ لَيَعْلَمَنَّ أَنْ قَدْ أَتَلَفُوا رِسَالَتِي رَبِّهِمْ ﴾ قال : ليعلم نبي الله أن الرسل قد بلغت عن الله وأن الملائكة حفظتها ودفعت عنها ، وقيل غير ذلك ، وعن ابن عباس في قوله : ﴿ إِلَّا مَنْ أَرَادَ مِنْ رَسُولِي فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَدًا ﴾ قال : هي معقبات من الملائكة يحفظون النبي ﷺ من الشيطان حتى يتبين الذين أرسل إليهم ، وذلك حين يقول ليعلم أهل الشرك أن قد أبلغوا رسالات ربهم . وعن مجاهد قال : ليعلم من كذب الرسل أن قد أبلغوا رسالات ربهم ، وفي هذا نظر . وقال البغوي قرأ يعقوب ﴿ ليعلم ﴾ بالضم أي ليعلم الناس أن الرسل قد بلغوا . ويحتمل أن يكون الضمير عائداً إلى الله ﷻ ، وهو قول حكاه ابن الجوزي في زاد المسير ^(١) ، ويكون المعنى في ذلك أنه يحفظ رسله بملائكته ليتمكنوا من أداء رسالاته ويحفظ ما ينزله إليهم من الوحي ليعلم أن قد أبلغوا رسالات ربهم ، ويكون ذلك كقوله تعالى : ﴿ وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنْتَ عَلَيْهَا إِلَّا لِنَعْلَمَ مَنْ يَتَّبِعُ الرَّسُولَ مِمَّنْ يَنْقَلِبُ عَلَى عَقْبَيْهِ ﴾ إلى أمثال ذلك من العلم بأنه تعالى يعلم الأشياء قبل كونها قطعاً لا محالة ، ولهذا قال بعد هذا ﴿ وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ وَأَخْصَى كُلَّ شَيْءٍ عَدَدًا ﴾ .

(١) روى رويس ليعلم بضم الياء والباقون بفتحها . (تقريب النشر ١٨٤) .

سورة المزمل

عن عبد الله بن محمد بن عقيل بن جابر قال : اجتمعت قريش في دار الندوة فقالوا : سموا هذا الرجل اسماً يصد الناس عنه فقالوا : كاهن قالوا : ليس بكاهن قالوا : مجنون قالوا : ليس بمجنون قالوا : ساحر قالوا : ليس بساحر ، ففرق المشركون على ذلك فبلغ ذلك النبي ﷺ فتزمل في ثيابه وتدثر فيها . فأتاه جبريل عليه السلام فقال : ﴿ يَا أَيُّهَا الْمَزْمِلُ ﴾ ﴿ يَا أَيُّهَا الْمَذْمُورُ ﴾ .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ يَا أَيُّهَا الْمَزْمِلُ ﴾ ﴿ فُرِ أَيْلٌ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ ﴿ نَضَعُهُ أَوْ أَشْضَ مِنْهُ قَلِيلًا ﴾ ﴿ أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلًا ﴾ ﴿ إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا ﴾ ﴿ إِنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْأً وَأَقْوَمُ قِيلًا ﴾ ﴿ إِنَّ لَكَ فِي النَّهَارِ سَبْعًا وَطَوِيلًا ﴾ ﴿ وَادْكُرْ اسْمَ رَبِّكَ وَتَنَتَّلْ إِلَيْهِ تَتَبِيلًا ﴾ ﴿ رَبُّكَ الشَّرِيقُ وَالْمَغْرِبُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَاتَّخِذْهُ وَكِيلًا ﴾ .

يأمر تعالى رسوله ﷺ أن يترك التزمل وهو التغطي في الليل وينهض إلى القيام لربه ﷻ وكذلك كان ﷺ ممثلاً ما أمره الله تعالى به من قيام الليل وقد كان واجباً عليه وحده ﴿ وَرِنَ أَيْلٍ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَكَ عَسَى أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَحْمُودًا ﴾ وههنا بين له مقدار ما يقوم فقال تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الْمَزْمِلُ ﴾ ﴿ فُرِ أَيْلٌ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ قال السدي ﴿ يَا أَيُّهَا الْمَزْمِلُ ﴾ يعني يا أيها النائم ، قال قتادة : المزمل في ثيابه ، وعن ابن عباس : يا محمد زملت القرآن . وقوله تعالى : ﴿ نَضَعُهُ ﴾ بدل من الليل ﴿ أَوْ أَشْضَ مِنْهُ قَلِيلًا ﴾ ﴿ أَوْ زِدْ عَلَيْهِ ﴾ أي أمرناك أن تقوم نصف الليل بزيادة قليلة أو نقصان قليل لا حرج عليك في ذلك . وقوله تعالى : ﴿ وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلًا ﴾ أي اقرأه على تمهل فإنه يكون عروناً على فهم القرآن وتدبره . وكذلك كان يقرأ صلوات الله وسلامه عليه ، قالت عائشة رضي الله عنها كان يقرأ السورة فيرتلها حتى تكون أطول من أطول منها . وعن أنس أنه سئل عن قراءة رسول الله ﷺ فقال : كانت مدّاً ثم قرأ : ﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴾ ﴿ بِسْمِ اللَّهِ وَبِغَدِ الرَّحْمَنِ وَبِغَدِ الرَّحِيمِ ﴾ (١) وعن أم سلمة رضي الله عنها سئلت عن قراءة رسول الله ﷺ فقالت : كان يقطع قراءته آية آية ﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴾ ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ ﴿ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴾ ﴿ مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ ﴾ . وعن عبد الله بن عمرو عن النبي ﷺ قال : « يُقَالُ لِقَارِي الْقُرْآنِ : اقْرَأْ وَارْقُ وَرَتِّلْ كَمَا كُنْتَ تُرْتِّلُ فِي الدُّنْيَا فَإِنَّ مِثْلَكَ عِنْدَ آخِرِ آيَةِ تَقْرَأُهَا » (٢) . وقد قدما في أول التفسير الأحاديث الدالة على استحباب الترتيل وتحسين الصوت بالقراءة كما في الحديث و « لَقَدْ أَوْتِيَتْ هَذَا مِزْمَارًا مِنْ مِزَامِيرِ آلِ دَاوُدَ » (٣) . يعني أبا موسى فقال أبو موسى كنت أعلم أنك تسمع قراءتي لحبرته لك تحبيراً ، وعن ابن مسعود أنه قال : لا تشره نثر الرمل ولا تهذوه هذ الشعر قفوا عند عجائبه وحرخوا به القلوب ولا يكن هم أحدكم آخر السورة . وعن أبي وائل قال : جاء رجل إلى ابن مسعود

(١) أخرجه البخاري في فضائل القرآن (٥٠٤٦) وأحمد في مسنده (٣٠٢/٦) .

(٢) أخرجه أحمد في مسنده (٤٠/٣) وابن ماجه في سننه (٣٧٨٠) .

(٣) أخرجه مسلم في صلاة المسافرين (٢٣٦) والنسائي في السنن (١٨١/٢) وابن ماجه في السنن (١٣٤١) وأحمد في مسنده (٤٥٠/٢) .

فقال : قرأت الفصل الليلة في ركعة . فقال هذا كهد الشعر لقد عرفت النظائر التي كان رسول الله ﷺ يقرن بينهما فذكر عشرين سورة من الفصل سورتين في ركعة وقوله تعالى : ﴿ إِنَّا سَلَفْنَا عِيتِكَ قَوْلًا نَقِيلًا ﴾ قال الحسن وقتادة : أي العمل به وقيل : ثقل وقت نزوله من عظمته ، كما قال زيد بن ثابت رضي الله عنه أنزل على رسول الله ﷺ وفخذه على فخذي فكادت ترض فخذي .

وعن عائشة رضي الله عنها أن الحارث بن هشام سأل رسول الله ﷺ : كيف يأتيك الوحي ؟ فقال : « أحيانًا يأتي في مثل صلصلة الجرس وهو أشده عليّ فيفصم عني وقد وعيث عنه ما قال ، وأحيانًا يتمثل لي الملك رجلاً فيكلمني فأعي ما يقول » . قالت عائشة : ولقد رأيته ينزل عليه الوحي ﷺ في اليوم الشديد البرد فيفصم عنه وإن جبينه ليتفصد عرقاً ^(١) وعن هشام بن عروة عن أبيه أن النبي ﷺ كان إذا أوحى إليه وهو على ناقته وضعت جرائها فما تستطيع أن تحرك حتى يسرى عنه ^(٢) وهذا مرسل ، الجران هو باطن العنق ، واختار ابن جرير أنه ثقل من الوجهين معاً كما قال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم كما ثقل في الدنيا ثقل يوم القيامة في الموازين .

وقوله تعالى : ﴿ إِنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْناً وَأَقْرَبُ قِيلاً ﴾ عن ابن عباس : نشأ : قام بالحشية ، وقال عمر وابن عباس وابن الزبير : الليل كله ناشئة ، يقال : نشأ إذا قام من الليل وفي رواية عن مجاهد : بعد العشاء والغرض أن : ناشئة الليل هي : ساعاته وأوقاته وكل ساعة منه تسمى ناشئة وهي الآنات ، والمقصود أن قيام الليل وهو أشد مواطاة بين القلب واللسان وأجمع على التلاوة ، ولهذا قال تعالى : ﴿ هِيَ أَشَدُّ وَطْناً وَأَقْرَبُ قِيلاً ﴾ أي أجمع للخاطر في أداء القراءة وتفهمها من قيام النهار لأنه وقت انتشار الناس ولغط الأصوات وأوقات المعاش . وعن الأعمش أن أنس بن مالك قرأ هذه الآية - إن ناشئة الليل هي أشد وطناً وأصوب قيلاً - فقال له رجل : إنما نقرؤها وأقوم قيلاً ، فقال له : إن أصوب وأقوم وأهياً وأشبه هذا واحد . ولهذا قال تعالى : ﴿ إِنَّ لَكَ فِي النَّهَارِ سَبْعًا طَوِيلًا ﴾ قال عطاء بن أبي مسلم : الفراغ والنوم ، وقال سفيان الثوري : فراغاً طويلاً . وقال السدي : تطوعاً كثيراً وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم في قوله تعالى : ﴿ إِنَّ لَكَ فِي النَّهَارِ سَبْعًا طَوِيلًا ﴾ لحوائجك فأفرغ لدينك الليل ، قال : وهذا حين كانت صلاة الليل فريضة ثم إن الله تبارك وتعالى من على عباده فخففها ووضعها وقرأ ﴿ زُرْ أَبْئِلَ إِلَّا قِيلاً ﴾ إلى آخر الآية وعن سعيد بن هشام : أنه طلق امرأته ثم ارتحل إلى المدينة لبيع عقاراً له بها ويجعله في الكراع والسلاح ثم يجاهد الروم حتى يموت ، فلقي رهطاً من قومه فحدثوه أن رهطاً من قومه ستة أرادوا ذلك على عهد رسول الله ﷺ فقال : « أليس لكم في أسوة حسنة ؟ » . فنهاهم عن ذلك ، فأشهدهم على رجعتها ثم رجع إلينا فأخبرنا أنه أتى ابن عباس فسأله عن الوتر فقال : ألا أنبئك بأعلم أهل الأرض بوتر رسول الله ﷺ ؟ قال : نعم ، قال : ائت عائشة فسلها ثم ارجع إلي فأخبرني بردها عليك . قال فأتيت على حكيم بن أفلح فاستلحقته إليها فقال : ما أنا بقاربها إني نهيتها أن تقول في هاتين الشيعتين شيئاً فأبت فيهما إلا

(١) أخرجه البخاري في بدء الوحي (٢) وأحمد في مسنده (٢٥٧/٦) والترمذي في السنن (٣٦٣٤) .

(٢) أخرجه الحاكم في المستدرک (٥٠٥/٢) .

مضياً ، فأقسمت عليه فجاء معي فدخلنا عليها فقالت : حكيم وعرفته قال : نعم قالت : من هذا الذي معك ؟ قال : سعيد بن هشام . قالت : من هشام ؟ قال : ابن عامر . قال : فترحمت عليه وقالت : نعم المرء كان عامراً . قلت : يا أم المؤمنين أنبيئي عن خلق رسول الله ﷺ ؟ قالت : أأست تقرأ القرآن ؟ قلت : بلى . قالت : فإن خلق رسول الله ﷺ كان القرآن فهمت أن أقوم ثم بدا لي قيام رسول الله ﷺ قلت : يا أم المؤمنين أنبيئي عن قيام رسول الله ﷺ قالت : أأست تقرأ هذه السورة ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ ﴾ ؟ قلت : بلى . قالت : فإن الله افترض قيام الليل في أول هذه السورة ، فقام رسول الله ﷺ وأصحابه حولاً حتى انتفخت أقدامهم وأمسك الله خاتمها في السماء اثني عشر شهراً ثم أنزل الله التخفيف في آخر هذه السورة ، فصار قيام الليل تطوعاً من بعد فريضة . فهمت أن أقوم ثم بدا لي وتر رسول الله ﷺ فقلت : يا أم المؤمنين انبيئي عن وتر رسول الله ﷺ . قالت : كنا نعد له سواكه وطهوره فيبعثه الله لما شاء أن يبعثه من الليل فيتسوك ثم يتوضأ ثم يصلي ثمان ركعات لا يجلس فيهن إلا عند الثامنة ، فيجلس ويذكر ربه تعالى ويدعو ثم ينهض وما يسلم ، ثم يقوم ليصلي التاسعة ثم يقعد فيذكر الله وحده ثم يدعوه ثم يسلم تسليماً يسمعنا ، ثم يصلي ركعتين وهو جالس بعد ما يسلم فتلك إحدى عشرة ركعة يا بني ، فلما أسن رسول الله ﷺ وأخذ اللحم أوتر بسبع ثم صلى ركعتين وهو جالس بعد ما يسلم فتلك تسع يا بني ، وكان رسول الله ﷺ إذا صلى صلاة أحب أن يداوم عليها وكان إذا شغله عن قيام الليل نوم أو وجع أو مرض صلى من النهار ثنتي عشرة ركعة ولا أعلم نبي الله ﷺ قرأ القرآن كله في ليلة حتى أصبح ولا صام شهراً كاملاً غير رمضان . فأثبت ابن عباس فحدثه بحدِيثها فقال : صدقت أما لو كنت أدخل عليها لأثبتها حتى تشافهني مشافهة ^(١) .

وعن ابن عباس قال : أول ما نزل أول المزمل كانوا يقومون نحواً من قيامهم في شهر رمضان وكان بين أولها وآخرها قريب من سنة ، وقوله تعالى : ﴿ وَادْكُرْ آتَمَ رَيْكَ وَتَنَزَّلُ إِلَيْهِ تَبْيِلاً ﴾ أي أكثر من ذكره وانقطع إليه وتفرغ لعبادته إذا فرغت من أشغالك وما تحتاج إليه من أمور دنياك ، كما قال تعالى : ﴿ إِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ ﴾ أي فرغت من أشغالك فانصب في طاعته وعبادته لتكون فارغ البال . قال ابن عباس ومجاهد وأبو صالح وعطية والضحاك والسدي ﴿ وَتَنَزَّلُ إِلَيْهِ تَبْيِلاً ﴾ أي : أخلص له العبادة . وقال الحسن : اجتهد وأبتل إليه نفسك . وقال ابن جرير : يقال للعابد متبتل . ومنه الحديث المروي نهى عن التبتل يعني الانقطاع إلى العبادة وترك التزوج ^(٢) . وقوله تعالى : ﴿ رَبُّ الشَّرْقِ وَالْمَغْرِبِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَاتَّخِذْهُ وَكِيلًا ﴾ أي هو المالك المتصرف في المشرق والمغرب الذي لا إله إلا هو ، وكما أفردته بالعبادة فأفردته بالتوكل فاتخذهُ وَكِيلًا .

﴿ وَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَاهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَبِيلًا ﴾ ١ وَذَرْنِي وَالْمُكَذِّبِينَ أُولِي الْأَلْمَةِ وَهُمْ يَشِئُونَ قَيْلًا ٢ إِنَّ لَدَيْنَا أَنْكَالًا وَجَحِيمًا ٣ وَطَعَامًا ذَا غُصَّةٍ وَعَذَابًا أَلِيمًا ٤ يَوْمَ تَرْجُفُ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ وَكَانَتِ الْجِبَالُ كَيْلًا مَهِيلاً ٥ إِنَّا أَرْسَلْنَا إِلَيْكَ رَسُولًا شَاهِدًا عَلَيْكَ كَمَا أَرْسَلْنَا إِلَىٰ رِثْوَنَ رَسُولًا ٦ فَصْنَىٰ رِثْوَنَ الرَّسُولِ فَاتَّخِذْهُ أَخَذًا وَبَيْلًا ٧ فَكَيْفَ تَنْفِقُونَ ٨ إِن كَفَرْتُمْ يَوْمًا يَجْعَلُ الْوِلْدَانَ شِيبًا ٩ السَّمَاءُ مُنْفِطِرَةٌ بِئْسَ كَانَ عِزُّ الْمُفْقُولِ ١٠ .

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٥٤/٦) .

(٢) تفسير الطبري (١٦٤/٢٨) .

يقول تعالى أمرا رسوله ﷺ بالصبر على ما يقوله من كذبه من سفهاء قومه وأن يهجرهم هجرا جميلا وهو الذي لا عتاب معه ، ثم قال له شهدا لكفار قومه ومتوعدا وهو العظيم الذي لا يقوم لغضبه شيء ﴿ وَذَرْنِي وَالْمُكَذِّبِينَ أُولِيَ النَّفْسَةِ ﴾ أي دعني والمكذبين المترفين أصحاب الأموال فإنهم على الطاعة أقدر من غيرهم ، وهم يطالبون من الحقوق بما ليس عند غيرهم ﴿ وَهَلْ لَهُمْ لَبِيلٌ ﴾ أي رويذا . ولهذا قال ههنا ﴿ إِنَّ لَدَيْنَا أَنكَالًا ﴾ وهي القيود . ﴿ وَجَحِيمًا ﴾ وهي السعير المضطربة ﴿ وَطَمَازًا عَظِيمًا ﴾ قال ابن عباس : ينشب في الحلق فلا يدخل ولا يخرج ﴿ وَهَذَا إِلَيَّا ﴾ يَوْمَ تَرْجُفُ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ ﴿ أَي تزلزل ﴾ وَكَانَتْ الْجِبَالُ كَيْبًا مَهْلًا ﴿ أَي تصير ككتبان الرمل بعد ما كانت حجارة صماء ثم إنها تنسف نسفا فلا يبقى منها شيء إلا ذهب حتى تصير الأرض قاعا صافصفا لا ترى فيها عوجا أي واديا ولا أمثا أي رابية ومعناه لا شيء ينخفض ولا شيء يرتفع ثم قال تعالى مخاطبا لكفار قريش والمراد سائر الناس ﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَا إِلَيْكَ رَسُولًا شَاهِدًا عَلَيْكَ ﴾ أي بأعمالكم ﴿ كَمَا أَرْسَلْنَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ رَسُولًا ﴾ ﴿ فَصَىٰ فِرْعَوْنُ الرَّسُولَ فَأَخَذْتَهُ أَخْذًا وَبِيلًا ﴾ قال ابن عباس وعباس ومجاهد وقتادة والسدي والثوري ﴿ أَخْذًا وَبِيلًا ﴾ أي شديدا أي فاحذروا أنتم أن تكذبوا هذا الرسول فيصيبكم ما أصاب فرعون حيث أخذه الله أخذ عزيز مقتدر وأنتم أولى بالهلاك والدمار إن كذبتهم رسولكم لأن رسولكم أشرف وأعظم من موسى بن عمران .

وقوله تعالى : ﴿ فَكَيْفَ تَنفَعُونَ إِن كَفَرْتُمْ يَوْمًا يَجْعَلُ الْوِلْدَانَ شِيبًا ﴾ يحتمل أن يكون يوما معمولًا لتتقون كما حكاه ابن جرير عن قراءة ابن مسعود فكيف تخافون أيها الناس يوما يجعل الولدان شيئا إن كفرتم بالله ولم تصدقوا به ؟ ويحتمل أن يكون معمولًا لكفرتم فعلى الأول كيف يحصل لكم أمان من يوم هذا الفرع العظيم إن كفرتم ، وعلى الثاني كيف يحصل لكم تقوى إن كفرتم يوم القيامة وجحدتموه ، وكلاهما معنى حسن ولكن الأول أولى والله أعلم ، ومعنى قوله : ﴿ يَوْمًا يَجْعَلُ الْوِلْدَانَ شِيبًا ﴾ أي من شدة أهواله وزلازله وبلايله وذلك حين يقول الله لآدم : ابعث بعث النار فيقول : من كم ؟ فيقول : من كل ألف تسعمائة وتسعة وتسعون إلى النار وواحد إلى الجنة . وقوله تعالى : ﴿ أَلَسْنَا مُنَفِّظِينَ ﴾ أي بسببه من شدته وهوله ، ومنهم من يعيد الضمير على الله تعالى ، وقوله تعالى : ﴿ كَانَ وَعْدُهُ مَفْعُولًا ﴾ أي كان وعد هذا اليوم مفعولا أي واقعا لا محالة وكائنا لا محيد عنه .

﴿ إِنَّ هَذِهِ تَذَكُّرٌ ﴾ فَكُنْ شَاءَ أَخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلًا ﴿ إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَىٰ مِنْ ثُلَاثِي إِلِيلٍ وَيَصْنَعُ وَثْلَهُ وَطَائِفَةٌ مِنَ الَّذِينَ مَعَكَ وَاللَّهُ يُضِلُّ أَيْلًا وَالنَّهَارَ عِلْمَ أَنَّ لَّنْ تَحْصُوهُ فَاتَّبِعُوا مَا يَنْشُرُ مِنَ الْقُرْآنِ عِلْمَ أَنَّ سَيَكُونُ مِنْكُمْ مَّرْضَىٰ وَمَاخْرُونَ يَصْرِيُونَ فِي الْأَرْضِ يَتَّبِعُونَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ وَمَاخْرُونَ يَقُولُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَافْرَمُوا مَا يَنْشُرُ مِنْهُ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَافْرَمُوا اللَّهَ قُرْصًا حَسَنًا وَمَا تَقْدِرُوا لَأَنْفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ نَّحْدُوهُ عِنْدَ اللَّهِ هُوَ خَيْرٌ وَأَعْظَمُ أَجْرًا وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ .

يقول تعالى : ﴿ إِنَّ هَذِهِ ﴾ أي السورة ﴿ تَذَكُّرٌ ﴾ أي يتذكر بها أولو الألباب . ولهذا قال تعالى ﴿ فَكُنْ شَاءَ أَخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلًا ﴾ أي ممن شاء الله تعالى هدايته ، ثم قال تعالى : ﴿ إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَىٰ مِنْ ثُلَاثِي إِلِيلٍ وَيَصْنَعُ وَثْلَهُ وَطَائِفَةٌ مِنَ الَّذِينَ مَعَكَ ﴾ أي تارة هكذا وتارة هكذا وذلك كله من غير قصد منكم ولكن لا تقدرون على المواظبة على ما أمركم به من قيام الليل لأنه يشق عليكم ولهذا قال : ﴿ وَاللَّهُ يُضِلُّ أَيْلًا وَالنَّهَارَ ﴾ أي تارة يعتدلان وتارة يأخذ هذا من هذا وهذا من هذا ﴿ عَلَيْهِ أَنْ لَّنْ تَحْصُوهُ ﴾

أي الفرض الذي أوجبه عليكم ﴿ فَأَقْرَأُوا مَا يَنْشُرُ مِنَ الْقُرْآنِ ﴾ أي من غير تحديد بوقت أي ولكن قوموا من الليل ما تيسر ، وعبر عن الصلاة بالقراءة ، وقد استدلل أصحاب الإمام أبي حنيفة رحمته الله بهذه الآية وهي قوله : ﴿ فَأَقْرَأُوا مَا يَنْشُرُ مِنَ الْقُرْآنِ ﴾ على أنه لا يجب تعيين قراءة الفاتحة في الصلاة بل لو قرأ بها أو غيرها من القرآن ولو بآية أجزأه واعتضدوا بحديث المسيء صلاته : « ثُمَّ اقْرَأْ مَا يَنْشُرُ مَعَكَ مِنَ الْقُرْآنِ » ^(١) . وقد أجابهم الجمهور بحديث عبادة بن الصامت أيضا أن رسول الله ﷺ قال : « لَا صَلَاةَ لِمَنْ لَمْ يَقْرَأْ بِفَاتِحَةِ الْكِتَابِ » ^(٢) . وعن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال : « كُلُّ صَلَاةٍ لَا يَقْرَأُ فِيهَا بِأَمِّ الْقُرْآنِ فَهِيَ خِدَاجٌ فَهِيَ خِدَاجٌ غَيْرُ تَامٍ » ^(٣) . وقوله تعالى : ﴿ عَلِمَ أَنْ سَيَكُونُ مِنْكُمْ رَجُلٌ وَآخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي الْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ وَآخَرُونَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ أي علم أن سيكون من هذه الأمة ذوو أعذار في ترك قيام الليل من مرضى لا يستطيعون ذلك ومسافرين في الأرض يتتفنون من فضل الله في المكاسب والتاجر وآخرين مشغولين بما هو الأهم في حقهم من الغزو في سبيل الله ، وهذه الآية بل السورة كلها مكية ولم يكن القتال شرع بعد فهي من أكبر دلائل النبوة لأنه من باب الإخبار بالمغيبات المستقلة ولهذا قال تعالى : ﴿ فَأَقْرَأُوا مَا يَنْشُرُ مِنْهُ ﴾ أي قوموا بما تيسر عليكم منه .

عن أبي رجاء محمد قال : قلت للحسن : يا أبا سعيد ما تقول في رجل قد استظهر القرآن كله عن ظهر قلبه ولا يقوم به وإنما يصلي المكتوبة . وقال : يتوسد القرآن لعن الله ذاك ، قال الله تعالى للعبد الصالح : ﴿ وَإِنَّهُ لَدُوٌّ عَلَيْهِ لَمَّا عَلَنَهُ ﴾ ﴿ وَعَلِمْتُمْ مَا لَمْ يَأْمُرُوا أَنَّ يُعْلَمُوا وَلَا نَبَأَ بَالِ الْفِتَنِ ﴾ قلت : يا أبا سعيد قال الله تعالى ﴿ فَأَقْرَأُوا مَا يَنْشُرُ مِنَ الْقُرْآنِ ﴾ قال : نعم ولو خمس آيات وهذا ظاهر من مذهب الحسن البصري أنه كان يرى حقا واجبا على حملة القرآن أن يقوموا ولو بشيء منه في الليل ، ولهذا جاء في الحديث أن رسول الله ﷺ سئل عن رجل نام حتى أصبح فقال : « ذَاكَ رَجُلٌ بَالَ الشَّيْطَانُ فِي أَذْنِهِ » ^(٤) . فقيل : معناه نام عن المكتوبة ، وقيل : عن قام الليل ، وفي الحديث : « مَنْ لَمْ يُؤْتِزْ فَلَيْسَ مِنَّا » ^(٥) . وأغرب من هذا ما حكى عن أبي بكر بن عبد العزيز من الخنابلة من إيجابه قيام شهر رمضان فالله أعلم . وقوله تعالى : ﴿ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ ﴾ أي أقيموا صلاتكم الواجبة عليكم وآتوا الزكاة المفروضة ، وهنا يدل لمن قال بأن فرض الزكاة نزل بمكة لكن مقادير النصب والمخرج لم تبين إلا بالمدينة والله أعلم ، وقد قال ابن عباس وعكرمة ومجاهد وغير واحد من السلف : إن هذه الآية نسخت الذي كان الله قد أوجبه على المسلمين أولا من قيام الليل ، واختلفوا في المدة التي بينها على أقوال كما تقدم ، وقد ثبت أن رسول الله ﷺ قال لذلك الرجل : « خَفَسْ صَلَوَاتٍ فِي الْيَوْمِ وَاللَّيْلَةِ » . قال : هل علي غيرها ؟ قال : « لَا إِلَّا أَنْ تَطْوَعَ » ^(٦) . وقوله تعالى : ﴿ وَأَقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا ﴾ يعني من الصدقات فإن الله يجازي على ذلك أحسن الجزاء وأوفره ، وقوله تعالى : ﴿ وَنَا

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٤٧٢/٢) .

(٢) أخرجه البخاري في الأذان (٧٥٦) ومسلم في الصلاة (٣٤) والترمذي في السنن (٢٤٧) وأحمد في السنن (٣٢٢/٥) .

(٣) أخرجه أحمد في مسنده (٢٩٠/٢) .

(٤) أخرجه مسلم في صلاة المسافرين (٢٠٥) والنسائي في السنن (٢٠٤/٣) وأحمد في مسنده (٤٢٧/١) .

(٥) أخرجه أحمد في مسنده (٣٥٧/٥) .

(٦) أخرجه البخاري في الشهادات (٢٦٧٨) ومسلم في الإيمان (٨) وأبو داود في السنن (٣٩١) .

تَقْدِمُوا لِأَنْفُسِكُمْ بَيْنَ خَيْرٍ يَجِدُوهُ عِنْدَ اللَّهِ هُوَ خَيْرٌ وَأَعْظَمَ أَجْرًا ﴿١٠﴾ أَيَّ جَمِيعِ مَا تَقْدِمُوهُ بَيْنَ أَيْدِيكُمْ فَهُوَ لَكُمْ حَاصِلٌ وَهُوَ خَيْرٌ مِمَّا أَبْقَيْتُمُوهُ لِأَنْفُسِكُمْ فِي الدُّنْيَا ، وَقَالَ عَبْدُ اللَّهِ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « أَيُّكُمْ مَالُهُ أَحَبُّ إِلَيْهِ مِنْ مَالِ وَارِثِهِ ؟ » قَالُوا : يَا رَسُولَ اللَّهِ مَا مِنَّا مِنْ أَحَدٍ إِلَّا مَالُهُ أَحَبُّ إِلَيْهِ مِنْ مَالِ وَارِثِهِ . قَالَ : « اغْلَمُوا مَا تَقُولُونَ » . قَالُوا : مَا نَعْلَمُ إِلَّا ذَلِكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ ؟ قَالَ : « إِنَّمَا مَالُ أَحَدِكُمْ مَا قَدَّمَ وَمَالُ وَارِثِهِ مَا أَخَّرَ » ^(١) . ثُمَّ قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ أَيُّ أَكْثَرُوا مِنْ ذِكْرِهِ وَاسْتَغْفَرَهُ فِي أُمُورِكُمْ كُلِّهَا فَإِنَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ لِمَنْ اسْتَغْفَرَهُ .

قتادة : طهرها من المعاصي . وكانت العرب تسمي الرجل إذا نكث ولم يف بعهد الله إنه لدنس الثياب وإذا وفى وأصلح إنه لمطهر الثياب ، وقال عكرمة والضحاك : لا تلبسها على معصية . وقال الشاعر :

إِذَا الْمَرْءُ لَمْ يُدْثَسْ مِنَ اللَّؤْمِ عِزُّهُ فَكُلُّ رِذَاءٍ يَزِيدُهُ جَمِيلُ

وقال ابن زيد : كان المشركون لا يطهرون فأمره الله أن يطهر وأن يطهر ثيابه وهذا القول اختاره ابن جرير وقد تشمل الآية جميع ذلك مع طهارة القلب فإن العرب تطلق الثياب عليه كما قال امرؤ القيس :

أَفَاطِمُ مَهْلًا بَغَضَ هَذَا الشَّدْلُ وَإِنْ كُنْتُ قَدْ أَزْمَعْتُ هَجْرِي فَأَجْمِلِي

وَإِنْ تَكُ قَدْ سَاءَتْكَ مِثْي خَلِيقَةٌ فَسَلِّي ثِيَابِي مِنْ ثِيَابِكَ تَنْسَلِ

وقال سعيد بن جبير ﴿ وَبَابُكَ فَطَرُ ﴾ وقلبك ونيتك فطهر ، وقال محمد بن كعب القرظي والحسن البصري : وخلقت فحسناً ، وقوله تعالى : ﴿ وَالزَّجَرَ فَأَجْزِ ﴾ قال ابن عباس : والرجز وهو الأصنام فاهجر . وقال الضحاك : أي اترك المعصية ، وعلى كل تقدير فلا يلزم تلبسه بشيء من ذلك وقوله تعالى : ﴿ وَلَا تَتَنَنَّ تَسْتَكْثِرُ ﴾ قال ابن عباس : لا تعط العطية تلتمس أكثر منها وروي عن ابن مسعود أنه قرأ - ولا تمن أن تستكثر - وقال الحسن البصري : لا تمن بملكك على ربك تستكثره وقال مجاهد : لا تضعف أن تستكثر من الخير قال : تمن في كلام العرب تضعف ، وقال ابن زيد : لا تمن بالنبوة على الناس تستكثروهم بها تأخذ عليه عوضاً من الدنيا . فهذه أربعة أقوال والأظهر القول الأول والله أعلم .

وقوله تعالى : ﴿ وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ ﴾ أي اجعل صبرك على أذاهم لوجه ربك ﴿ تَكُ ﴾ . وقوله تعالى : ﴿ فَإِذَا نُفِرَ فِي الْأَنْفُورِ ۚ فَذَلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ ۚ عَلَى الْكَافِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ ﴾ ﴿ الْأَنْفُورُ ﴾ الصور . وهو كهيئة القرن ، وعن ابن عباس ﴿ فَإِذَا نُفِرَ فِي الْأَنْفُورِ ﴾ قال : قال رسول الله ﷺ : « كَيْفَ أَنْعَمَ وَصَاحِبُ الْقَرْنِ قَدْ التَّقَمَ الْقَرْنَ وَحَتَّى جَبْهَتُهُ يَنْتَظِرُ مَتَى يُؤْمَرُ فَيَنْفُخُ ؟ » . فقال أصحاب رسول الله ﷺ : فما تأمرنا يا رسول الله ؟ قال : « قُولُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا » ^(١) . وقوله تعالى : ﴿ فَذَلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ ﴾ أي شديد ﴿ عَلَى الْكَافِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ ﴾ أي غير سهل عليهم ، وعن زرارة بن أوفى قاضي البصرة أنه صلى بهم الصبح فقرأ هذه السورة فلما وصل إلى قوله تعالى : ﴿ فَإِذَا نُفِرَ فِي الْأَنْفُورِ ۚ فَذَلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ ۚ عَلَى الْكَافِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ ﴾ شفق شفقة ثم خر ميتاً ﷺ تعالى .

﴿ ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا ۚ وَجَعَلْتُ لَمْ مَالًا مَمْلُوكًا ۚ وَبَيْنَ شُهُودًا ۚ وَوَعَدْتُ لَمْ تَهِيَدًا ۚ ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أُزِيدَ ۚ كَلَّا إِنَّكُمْ كَأَنْ لَابِتُنَا عَيْنِدَا ۚ سَأَرْفَعُهُمْ صَعُودًا ۚ إِنَّهُمْ فَكَرٌ وَفَدَّرَ ۚ فَعِيلٌ كَيْفَ قَدَّرَ ۚ ثُمَّ قِيلَ كَيْفَ قَدَّرَ ۚ ثُمَّ نَظَرَ ۚ ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ ۚ ثُمَّ أَدْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ ۚ فَفَالَ إِنْ هَذَا إِلَّا يَحْمِرُ يُوَزَّرُ ۚ إِنْ هَذَا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ ۚ سَأُخْلِفُهُ سَقَرًا ۚ وَمَا أَذْرَكَ مَا سَقَرٌ ۚ لَا بُقِيَ وَلَا ذَرٌّ ۚ لَوَاسِمَةٌ لِلْبَشَرِ ۚ عَلَيْنَا نِعْمَةُ عَشَرٍ ۚ .

يقول تعالى متوعداً لهذا الخيث الذي أنعم الله عليه بنعم الدنيا فكفر بأنعم الله وبدلها كفرًا وقابلها بالجهود بآيات الله والافتراء عليها وجعلها من قول البشر وقد عدد الله عليه نعمه حيث قال تعالى : ﴿ ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا ﴾ أي خرج من بطن أمه وحده لا مال له ولا ولد ثم رزقه الله تعالى ،

﴿وَجَعَلْتَ لَهُ مَا لَا مَنُودَ﴾ أي واسعاً كثيراً قيل : ألف دينار ، وقيل : مائة ألف دينار ، وقيل : أرضاً يستغلها ، وقيل : غير ذلك ، وجعل له ﴿وَبَيْنَ شُهُودًا﴾ قال مجاهد : لا يغيبون أي حضوراً عنده لا يسافرون بالتجارات بل مواليتهم وأجراؤهم يتولون ذلك عنهم وهم قعود عند أبيهم يتمتع بهم ويتملى بهم ، وكانوا فيما ذكر ثلاثة عشر وقيل : كانوا عشرة وهذا أبلغ في النعمة وهو إقامتهم عنده ﴿وَمَهَّدْتَ لَهُ تَهَيِّدًا﴾ أي مكنته من صنوف المال والأثاث وغير ذلك ﴿ثُمَّ بَطَعُ أَنْ أَزِيدَ﴾ ١٠ ﴿كَلَّا إِنَّهُ كَانَ لِإِيْتِنَا عَنِيدًا﴾ أي معانداً وهو الكفر على نعمه بعد العلم ، قال الله تعالى : ﴿سَأَرْفِقُهُ مَعُودًا﴾ عن أبي سعيد عن رسول الله ﷺ قال : « **وَيْلٌ وَادٍ فِي جَهَنَّمَ يَهْوِي فِيهِ الْكَافِرُ أَرْبَعِينَ خَرِيفًا قَبْلَ أَنْ يَبْلُغَ قَعْرَهُ وَالصُّعُودُ جَبَلٌ مِنْ نَارٍ يَصْعَدُ فِيهِ الْكَافِرُ سَبْعِينَ خَرِيفًا ثُمَّ يَهْوِي بِهِ كَذَلِكَ فِيهِ أَبَدًا** » ^(١) . وعن ابن عباس : صعوداً صخرة في جهنم يسحب عليها الكافر على وجهه . وقال السدي : صعوداً صخرة ملساء في جهنم يكلف أن يصعد بها . وقال مجاهد ﴿سَأَرْفِقُهُ مَعُودًا﴾ أي مشقة من العذاب . وقال قتادة : عذاباً لا راحة فيه واختاره ابن جرير . وقوله تعالى : ﴿إِنَّهُ نَكَرٌ وَعَذَرٌ﴾ أي إنما أرهقناه صعوداً أي قربناه من العذاب الشاق لبعده عن الإيمان لأنه فكّر وقدر أي تروى ماذا يقول في القرآن حين سئل عن القرآن ففكّر ماذا يختلق من المقال ﴿وَعَذَرٌ﴾ أي تروى . ﴿فَقِيلَ كَيْفَ قَدَرٌ﴾ ١١ ﴿ثُمَّ قِيلَ كَيْفَ قَدَرٌ﴾ دعاء عليه ﴿ثُمَّ نَظَرَ﴾ أي أعاد النظرة والتروي ﴿ثُمَّ عَبَسَ﴾ أي قبض بين عينيه وقطب ﴿وَبَسَرَ﴾ أي كلعج وكره وقوله : ﴿ثُمَّ أَذْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ﴾ أي صرف عن الحق ورجع القهقري مستكبراً عن الانقياد للقرآن ﴿فَقَالَ إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْتَرُ﴾ أي هذا سحر ينقله محمد عن غيره ممن قبله ويحكيه عنهم ولهذا قال : ﴿إِنْ هَذَا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ﴾ أي ليس بكلام الله وهذا المذكور في هذا السياق هو الوليد بن المغيرة المخزومي أحد رؤساء قريش لعنه الله وكان من خبره في هذا ما روي عن ابن عباس قال : دخل الوليد بن المغيرة على أبي بكر ابن أبي قحافة فسأله عن القرآن فلما أخبره خرج على قريش فقال : يا عجباً لما يقول ابن أبي كبشة فوالله ما هو بشعر ولا بسحر ولا بهذي من الجنون وإن قوله لمن كلام الله . فلما سمع بذلك النفر من قريش اثتمروا وقالوا : والله لئن صبا الوليد لتصبوا قريش ، فلما سمع بذلك أبو جهل بن هشام قال : أنا والله أكفيكم شأنه فانطلق حتى دخل عليه بيته ، فقال للوليد : ألم تر إلى قومك قد جمعوا لك الصدقة ؟ فقال : ألسنت أكثرهم ما لا ولداً فقال له أبو جهل : يتحدثون أنك إنما تدخل على ابن أبي قحافة لتصيب من طعامه ، فقال الوليد : أقدر تحدث به عشيرتي ! فلا والله لا أقرب ابن أبي قحافة ولا عمر ولا ابن أبي كبشة وما قوله إلا سحر يؤثر . فأنزل الله على رسوله ﷺ : ﴿ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا﴾ - إلى قوله - ﴿لَا بَقِيَّ وَلَا نَذْرٌ﴾ وقال قتادة : زعموا أنه قال : والله لقد نظرت فيما قال الرجل فإذا هو ليس بشعر وإن له لحلاوة ، وإن عليه لطلاوة ، وإنه ليعلو وما يعلى عليه وما أشك أنه سحر . فأنزل الله ﴿فَقِيلَ كَيْفَ قَدَرٌ﴾ الآية ﴿ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ﴾ قبض ما بين عينيه وكلعج .

قال الله تعالى : ﴿سَأُخْلِفُ سَقَرًا﴾ أي سأعمره فيها من جميع جهاته ، ثم قال تعالى : ﴿وَمَا أَذْرَبُكَ مَا سَقَرٌ﴾ وهذا تهويل لأمرها وتفخيم ، ثم فسر ذلك بقوله تعالى : ﴿لَا بَقِيَّ وَلَا نَذْرٌ﴾ أي تأكل

(١) أخرجه الترمذي في السنن (٣١٦٤) وأحمد في مسنده (٧٥/٣) .

لحومهم وعروقهم وعصبهم وجلودهم ثم تبدل غير ذلك وهم في ذلك لا يموتون ولا يحيون .
 وقوله تعالى ﴿ تِلْكَ الْبَشَرُ ﴾ قال مجاهد : أي للجلد ، وقال أبو رزين : تلفح الجلد لفحة فتدعه أسود من الليل ، وقال زيد بن أسلم : تلوح أجسادهم عليها . وقال قتادة : أي حراقة للجلد . وقال ابن عباس : تحرق بشرة الإنسان . وقوله تعالى : ﴿ عَلَيْنَا سِتْرَةٌ عَنَّا ﴾ أي من مقدمي الزبانية عظيم خلقهم غليظ خلقهم .
 وعن جابر بن عبد الله رضي الله عنه قال : جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال : يا محمد ، غلب أصحابك اليوم فقال : « يَا أَيُّ شَيْءٍ » . قال : سألتهم يهود هل أعلمكم نبيكم عدة خزنة أهل النار ؟ قالوا : لا نعلم حتى نسأل نبينا ﷺ قال رسول الله ﷺ : « أَقْلَبْتُ قَوْمٌ يُسْأَلُونَ عَمَّا لَا يَعْلَمُونَ » فَقَالُوا : لَا نَعْلَمُ حَتَّى نَسْأَلَ نَبِيَّنَا ﷺ ؟ عَلَيَّ بِأَعْدَاءِ اللَّهِ لِكَيْتُهُمْ قَدْ سَأَلُوا نَبِيَّهُمْ أَنْ يُرِيَهُمُ اللَّهُ جَهَنَّمَ » . فأرسل إليهم فدعاهم قالوا : يا أبا القاسم كم عدة خزنة أهل النار ؟ قال : « هَكَذَا » . وطبق كفيه ثم طبق كفيه مرتين وعقد واحدة وقال لأصحابه : « إِنَّ سَعِثَكُمْ عَنْ تَرَبَةِ الْجَنَّةِ فَهِيَ الدَّرْمُكُ » . فلما سألوه فأخبرهم بعدة خزنة أهل النار قال لهم رسول الله ﷺ : « مَا تُرَبُّهُ الْجَنَّةُ » . فنظر بعضهم إلى بعض ، فقالوا : خبزة يا أبا القاسم فقال : « الْخُبْزُ مِنَ الدَّرْمُكِ » ^(١) .

﴿ وَمَا جَعَلْنَا أَحْسَبَ النَّارِ إِلَّا مَلَائِكَةً وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا لِيَسْتَفِينَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَرَدَادَ الَّذِينَ آمَنُوا مِنَّا وَلَا يُزَادَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْمُؤْمِنُونَ وَلَيَقُولَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَمٌ وَالْكَافِرُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا شَيْئًا كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَمَا يُغَلِّجُ جُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ وَمَا هِيَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْبَشَرِ ۝ كَلَّا وَالْقَمَرِ ۝ وَاللَّيْلِ إِذَا أَدْبَرَ ۝ وَالصُّبْحِ إِذَا أَشْفَرُ ۝ إِنَّمَا لِحِجْدَى الْكَلْبِ ۝ نَذِيرًا لِلْبَشَرِ ۝ لَنْ نَسْأَلَ سِئْرًا أَنْ يَتَّقَدَّمَ أَوْ يَتَأَخَّرَ ۝ .

يقول تعالى : ﴿ وَمَا جَعَلْنَا أَحْسَبَ النَّارِ ﴾ أي خزانها ﴿ إِلَّا مَلَائِكَةً ﴾ أي زبانية غلاظا شداذا ؛ وذلك رد على مشركي قريش حين ذكر عدد الخزنة . فقال أبو جهل : يا معشر قريش أما يستطيع كل عشرة منكم لواحد منهم فتغلبونهم ، فقال الله تعالى : ﴿ وَمَا جَعَلْنَا أَحْسَبَ النَّارِ إِلَّا مَلَائِكَةً ﴾ أي شديدي الخلق لا يقاومون ولا يغالبون ، وقد قيل : إن أبا الأشدين واسمه كلداء بن أسيد بن خلف قال : يا معشر قريش اكفوني منهم اثنين وأنا أكفيكم منهم سبعة عشر إعجابا منه بنفسه ، وكان قد بلغ من القوة فيما يزعمون أنه كان يقف على جلد البقرة ويجاذبه عشرة لينزعه من تحت قدميه فيتمزق الجلد ولا يتزحزح عنه ، قال السهيلي : وهو الذي دعا رسول الله ﷺ إلى مصارحته وقال : إن صرعتني آمنت بك فصصره النبي ﷺ مرارا فلم يؤمن . قال : وقد نسب ابن إسحاق خبر المصارعة إلى ركانة بن عبد يزيد بن هاشم بن المطلب قلت : ولا منافاة بين ما ذكره والله أعلم ، وقوله تعالى : ﴿ وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ أي إنما ذكرنا عدتهم أنهم تسعة عشر اختبارا منا للناس ﴿ لِيَسْتَفِينَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ ﴾ أي يعلمون أن هذا الرسول حق فإنه نطق بمطابقة ما بأيديهم من الكتب السماوية المنزلة على الأنبياء قبله ، وقوله تعالى : ﴿ وَرَدَادَ الَّذِينَ آمَنُوا مِنَّا ﴾ أي إلى إيمانهم بما يشهدون من صدق إخبار نبيهم محمد ﷺ ﴿ وَلَا يُزَادَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْمُؤْمِنُونَ وَلَيَقُولَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَمٌ ﴾ أي من

المنافقين ﴿ وَالْكَافِرُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلًا ۖ ﴾ أي يقولون ما الحكمة في ذكر هذا ههنا ؟ قال الله تعالى : ﴿ كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَنِ بَشَاءَ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ ﴾ أي من مثل هذا وأشباهه يتأكد الإيمان في قلوب أقوام ويتزلزل عند آخرين وله الحكمة البالغة والحجة الدامغة ، وقوله تعالى : ﴿ وَمَا يَلْمِزُ جُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ ﴾ أي ما يعلم عددهم وكثرتهم إلا هو تعالى لئلا يتوهم أنهم تسعة عشر فقط كما قد قاله طائفة من أهل الضلالة والجهالة من الفلاسفة اليونانيين ومن شايعهم من الملتين سمعوا هذه الآية فأرادوا تنزيلها على العقول العشرة والنفوس التسعة التي اخترعوا دعواها وعجزوا عن إقامة الدلالة على مقتضاها ، فأفهموا صدر هذه الآية وقد كفروا بآخرها وهو قوله : ﴿ وَمَا يَلْمِزُ جُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ ﴾ وقد ثبت في حديث الإسراء عن رسول الله ﷺ أنه قال في صفة البيت المعمور الذي في السماء السابعة « فَإِذَا هُوَ يَدْخُلُهُ فِي كُلِّ يَوْمٍ سَبْعُونَ أَلْفَ مَلَكٍ لَا يَعُودُونَ إِلَيْهِ أَحَرَّ مَا عَلَيْهِمْ » .

وعن أبي ذر قال : قال رسول الله ﷺ : « إِنِّي أَرَى مَا لَا تَرَوْنَ وَأَسْمَعُ مَا لَا تَسْمَعُونَ أَطَّتِ السَّمَاءُ وَحَقَّ لَهَا أَنْ تَيْطَّ مَا فِيهَا مَوْضِعَ أَرْبَعِ أَصَابِعٍ إِلَّا عَلَيْهِ مَلَكٌ سَاجِدٌ لَوْ عَلِمْتُمْ مَا أَغْلَمَ لَصَحَحْتُمْ قَلِيلًا وَلَبَكَّيْتُمْ كَثِيرًا وَلَا تَلْدُذْتُمْ بِالنِّسَاءِ عَلَى الْفُرْشَاتِ ، وَلَخَرَجْتُمْ إِلَى الصُّعْدَاتِ تَجَارُونَ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى » . فقال أبو ذر : والله لوددت أني شجرة تعضد ^(١) . وعن جابر بن عبد الله قال : قال رسول الله ﷺ : « مَا فِي السَّمَوَاتِ السَّبْعِ مَوْضِعٌ قَدَمٍ وَلَا شِبِيرٍ وَلَا كَفٍّ إِلَّا وَفِيهِ مَلَكٌ قَائِمٌ أَوْ مَلَكٌ سَاجِدٌ أَوْ مَلَكٌ رَاكِعٌ ، فَإِذَا كَانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ قَالُوا جَمِيعًا : سُبْحَانَكَ مَا عَبْدْنَاكَ حَقَّ عِبَادَتِكَ إِلَّا أَنَّا لَمْ نُشْرِكْ بِكَ شَيْئًا » ^(٢) . وعن عباد بن منصور قال : سمعت عدي بن أرطاة وهو يخطبنا على منبر المدائن قال : سمعت رجلاً من أصحاب النبي ﷺ عن رسول الله ﷺ قال : « إِنَّ لِلَّهِ تَعَالَى مَلَائِكَةً تُرْعَدُ فَرَائِضُهُمْ مِنْ خِيفَتِهِ مَا مِنْهُمْ مَلَكٌ تَغْطُرُ مِنْهُ دَمْعَةٌ مِنْ عَيْنِهِ إِلَّا وَقَعَتْ عَلَى مَلَكٍ يُصَلِّي وَإِنَّ مِنْهُمْ مَلَائِكَةً سُجُودًا مِنْذُ خَلَقَ اللَّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لَمْ يَزِفُوا رُؤُوسَهُمْ وَلَا يَزِفُونَهَا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ ، وَإِنَّ مِنْهُمْ مَلَائِكَةً رُكُوعًا لَمْ يَزِفُوا رُؤُوسَهُمْ مِنْذُ خَلَقَ اللَّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَا يَزِفُونَهَا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ ، فَإِذَا رَفَعُوا رُؤُوسَهُمْ نَظَرُوا إِلَى وَجْهِ اللَّهِ ﷻ قَالُوا : سُبْحَانَكَ مَا عَبْدْنَاكَ حَقَّ عِبَادَتِكَ » ^(٣) .

وقوله تعالى : ﴿ وَمَا هِيَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْبَشَرِ ﴾ قال مجاهد وغير واحد ﴿ وَمَا هِيَ ﴾ أي النار التي وصفت ﴿ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْبَشَرِ ﴾ ثم قال تعالى : ﴿ كَلَّا وَالْقَمَرِ ۖ ۝ وَاللَّيْلِ إِذَا تَذَنَّبَ ۖ ۝ أَيُّ وَلِيِّي ۖ وَالصُّبْحِ إِذَا أَشْرَقَ ۖ ۝ أَيُّ أَشْرَقَ ۖ ۝ إِنَّمَا لِمَنْ لَدَى الْكَفْرِ ۖ أَيُّ الْعِظَامِ يَعْنِي النَّارَ ، ﴿ نَذِيرًا لِلْبَشَرِ ۖ ۝ لِمَنْ شَاءَ يَنْذَرُ ۖ ۝ أَيُّ مَنْ شَاءَ أَنْ يَقْبَلَ النَّذَارَ وَيَهْتَدِيَ لِلْحَقِّ أَوْ يَتَأَخَّرَ عَنْهَا وَيُولِي وَيُرْدهَا .

﴿ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَجِيئةٌ ۖ ۝ إِلَّا أَصْحَابَ الْآلَيْنِ ۖ ۝ فِي جَنَّاتٍ يَسَّاءُونَ ۖ ۝ عَنِ الْمُتَجَرِّبِينَ ۖ ۝ مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرٍ ۖ ۝ قَالُوا لَوْ نَكُنْ مِنَ الْفَاسِقِينَ ۖ ۝ وَلَوْ نَكُنْ نَاطِقِينَ ۖ ۝ وَكُنَّا نَحْوُكُمْ مَعَ الْفَاسِقِينَ ۖ ۝ وَكُنَّا نَكْذِبُ بِبُيُوتِ الدِّينِ ۖ ۝ حَتَّى أَتَيْنَا آلِيَيْنِ ۖ ۝ فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَاعَةُ الشَّافِعِينَ ۖ ۝ فَمَا لَهُمْ عَنِ التَّذْكِيرِ مُعْرِضِينَ ۖ ۝ كَانَهُمْ حُمُرٌ مُشْتَفِرَّةٌ ۖ ۝ فَزَيَّنَ مِنْ فُتُورِهِمْ ۖ ۝ بَلْ

(١) أخرجه الترمذي في السنن (٢٣١٢) وابن ماجه في السنن (٤١٩٠) وأحمد في مسنده (١٧٣/٥) والحاكم في المستدرک (٥١٠/٢) .

(٢) أخرجه الهيثمي في مجمع الزوائد (٥١/١) والهندي في كنز العمال (٢٨٩٣٩) والألباني في الصحيحة (١٠٥٩) .

(٣) أورده الهندي في كنز العمال (٢٩٨٣٦) .

يُرِيدُ كُلُّ امْرِئٍ مِنْهُمْ أَنْ يُؤْتَى صُحُفًا مُنَشَّرَةٌ ﴿٥٦﴾ كَلَّا بَلْ لَا يَخَافُونَ الْآخِرَةَ ﴿٥٧﴾ كَلَّا إِنَّهُمْ تَذْكِرَةٌ ﴿٥٨﴾ فَمَنْ شَاءَ ذَكَرْهُ ﴿٥٩﴾ وَمَا يَذْكُرُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ هُوَ أَهْلُ الْقُرْآنِ وَالْغَفَرَةُ ﴿٦٠﴾ .

يقول تعالى مخبراً أن ﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ﴾ أي : معتقلة ، بعملها يوم القيامة . ﴿إِلَّا أَصْحَابَ الْإِيمَانِ﴾ فإنهم ﴿فِي جَنَّاتٍ يَسَاءَلُونَ﴾ عَنِ الْمُنْجِينَ ﴿أَي : يسألون المجرمين وهم في الفترات وأولئك في الدركات قائلين لهم ﴿مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرٍ﴾ قَالُوا لَوْ نَكُنَّ مِنَ الْمُصَلِّينَ ﴿وَلَوْ نَكُنَّا مِنَ الْمُنْتَكِبِينَ﴾ أي : ما عبدنا ربنا ولا أحسنا إلى خلقه من جنسنا . ﴿رَكْعَتًا نَحْمُودُكَ يَا أَيُّهَا الْكَافِرِينَ﴾ أي : نتكلم فيما لا نعلم . وقال قتادة : كلما غوى غاو غوينا معه ﴿رَكْعَتًا نَكْذِبُ بِبُيُوتِ الْإِيمَانِ﴾ حَتَّى أَتَنَّا الْيَتِيمَ ﴿يعني الموت كقوله تعالى : ﴿وَأَعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ﴾ وقال رسول الله ﷺ : « أَمَّا هُوَ - يَعْنِي عُثْمَانَ بْنَ مَطْثُونٍ - فَقَدْ جَاءَهُ الْيَقِينُ مِنْ رَبِّهِ » ^(١) قال تعالى : ﴿فَمَا تَنْفَعُهُمْ شَفَاعَةُ الشَّافِعِينَ﴾ أي من كان متصفاً بمثل هذه الصفات فإنه لا تنفعه يوم القيامة شفاعة شافع فيه ، لأن الشفاعة إنما تنجح إذا كان المحل قابلاً فأما من وافى الله كافراً يوم القيامة فإن له النار لا محالة خالداً فيها ، ثم قال تعالى : ﴿فَمَا لَمْ يَنْتَفِعُوا مِنَ التَّوَكُّلِ مُعْرِضِينَ﴾ أي فما لهؤلاء الكفرة الذين قبلك عما تدعوهم إليه وتذكرهم به معرضين ﴿كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُسْتَنَفِرَةٌ﴾ قَرَّتْ بَيْنَ قَسْوَرَةٍ ﴿أي كأنهم في نفاهم عن الحق وإعراضهم عنه حمر من حمر الوحش إذا فرت ممن يريد صيدها من أسد ، وقال ابن عباس : الأسد بالعربية ، ويقال له بالحشية : قسورة ، وبالفارسية : شير ، وبالنبطية : أوبا . وقوله تعالى : ﴿بَلْ يُرِيدُ كُلُّ امْرِئٍ مِنْهُمْ أَنْ يُؤْتَى صُحُفًا مُنَشَّرَةٌ﴾ أي بل يريد كل واحد من هؤلاء المشركين أن ينزل عليه كتاب كما أنزل على النبي ﷺ وفي رواية عن قتادة يريدون أن يؤتوا براءة بغير عمل فقوله تعالى : ﴿كَلَّا بَلْ لَا يَخَافُونَ الْآخِرَةَ﴾ أي : إنما أفسدهم عدم إيمانهم بها وتكذيبهم بوقوعها .

ثم قال تعالى : ﴿كَلَّا إِنَّهُمْ تَذْكِرَةٌ﴾ أي : حقاً إن القرآن تذكرة ﴿فَمَنْ شَاءَ ذَكَرْهُ﴾ وَمَا يَذْكُرُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ ﴿وقوله تعالى : ﴿هُوَ أَهْلُ الْقُرْآنِ وَالْغَفَرَةُ﴾ أي هو أهل أن يخاف منه وهو أهل أن يغفر ذنب من تاب إليه وأناب . وعن أنس بن مالك ؓ قال : قرأ رسول الله ﷺ هذه الآية ﴿هُوَ أَهْلُ الْقُرْآنِ وَالْغَفَرَةُ﴾ وقال : « قَالَ رَبُّكُمْ أَنَا أَهْلُ أَنْ أَتَقَى ، فَلَا يُجْعَلُ مَعِيَ إِلَهٌ فَمَنْ اتَّقَى أَنْ يُجْعَلَ مَعِيَ إِلَهًا كَانَ أَهْلًا أَنْ أَغْفِرَ لَهُ » ^(٢) .

(١) أخرجه البخاري في الجنايز (١٢٤٣) والبيهقي في شرح السنة (٢٤٣/١٢) .

(٢) أخرجه أحمد في مسنده (١٤٢/٣) والدارمي في السنن (٣٠٣/٢) .

سورة القيامة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ لَا أَقِيمُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ ﴾ ❶ وَلَا أَقِيمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَامَةَ ❷ ائْتَسِبَ الْإِنْسَانُ أَنْ يَجْمَعَ عِظَامَهُ ❸ بَلَى قَدِيرِينَ عَلَيَّ أَنْ تُسَوَّى بَنَاتُهُ ❹ بَلَى يُرِيدُ الْإِنْسَانُ لِيَفْجُرَ أَمَانَهُ ❺ يَنْتَلِ أَيَّانَ يَوْمَ الْقِيَمَةِ ❻ فَإِنَّا بِرَأْيِ الْبَصَرِ ❼ وَخَسَفَ الْقَمَرُ ❽ وَجُمِعَ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ ❾ يَقُولُ الْإِنْسَانُ يَوْمَئِذٍ أَيْنَ الْمَفَرُّ ❿ كَلَّا لَا وَدَّ ⓫ إِنَّكَ يَوْمَئِذٍ لِلشَّعَرِ ⓬ يُبْئَا الْإِنْسَانُ يَوْمَئِذٍ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ ⓭ بَلَى الْإِنْسَانُ عَلَى نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ ⓮ وَلَوْ أَلْفَى مَعَاذِيرَهُ ⓯ .

قد تقدم غير مرة أن المقسم عليه إذا كان منتفياً جاز الإتيان بلا قبل القسم لتأكيد النفي . والمقسم عليه ههنا هو إثبات المعاد والرد على ما يزعمه الجهلة من العباد من عدم بعث الأجساد ؛ ولهذا قال تعالى : ﴿ لَا أَقِيمُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ ﴾ ❶ وَلَا أَقِيمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَامَةَ ❷ قال الحسن : أقسم يوم القيامة ولم يقسم بالنفس اللوامة ، وقال قتادة : بل أقسم بهما جميعاً ، وعن الحسن والأعرج أنهما قرأ - لأقسم يوم القيامة (١) - وهذا يوجه قول الحسن ؛ لأنه أثبت القسم يوم القيامة ونفى القسم بالنفس اللوامة ، والصحيح أنه أقسم بهما جميعاً معاً ، فأما يوم القيامة فمعروف ، وأما النفس اللوامة ، قال الحسن البصري في هذه الآية : إن المؤمن والله ما نراه إلا يلوم نفسه : ما أردت بكلمتي ، ما أردت بأكلمتي ، ما أردت بحديث نفسي ، وإن الفاجر يمضي قدماً قدماً ما يعاتب نفسه ، وعن جوير عن الحسن البصري قال : ليس أحد من أهل السموات والأرضين إلا يلوم نفسه يوم القيامة . وقال عكرمة : يلوم على الخير والشر لو فعلت كذا وكذا ، وقال سعيد بن جبير : تلوم على الخير والشر ، وقال مجاهد : تندم على ما فات وتلوم عليه ، وقال ابن عباس : ﴿ اللَّوَامَةُ ﴾ المذمومة ، وقال قتادة : ﴿ اللَّوَامَةُ ﴾ الفاجرة . قال ابن جرير : وكل هذه الأقوال متقاربة المعنى ، والأشبه بظاهر التنزيل أنها التي تلوم صاحبها على الخير والشر وتندم على ما فات . وقوله تعالى : ﴿ ائْتَسِبَ الْإِنْسَانُ أَنْ يَجْمَعَ عِظَامَهُ ﴾ ؟ أي يوم القيامة أيظن أنا لا نقدر على إعادة عظامه وجمعها من أماكنها المتفرقة ؟ ﴿ بَلَى قَدِيرِينَ عَلَيَّ أَنْ تُسَوَّى بَنَاتُهُ ﴾ قال ابن عباس : أن نجعله خفّاً أو حافراً . ووجه ابن جرير : بأنه تعالى لو شاء لجعل ذلك في الدنيا ، والظاهر من الآية أن قوله تعالى : ﴿ قَدِيرِينَ ﴾ حال من قوله تعالى : ﴿ يَجْمَعُ ﴾ أي أيظن الإنسان أنا لا نجتمع عظامه ؟ بلى سنجمعها . قادرين على أن نسوي بنانه ، أي قدرتنا صالحة لجمعها ولو شئنا لبعثناه أزيد مما كان فنجعل بنانه وهي أطراف أصابعه مستوية . وقوله : ﴿ بَلَى يُرِيدُ الْإِنْسَانُ لِيَفْجُرَ أَمَانَهُ ﴾ قال ابن عباس : يعني يمضي قدماً ويقال : هو الكفر بالحق بين يدي القيامة . وقيل : ليمضي أمامه راكباً رأسه ، وقيل : لا يلقى ابن آدم إلا تنزع نفسه إلى معصية الله قدماً قدماً إلا من عصمه الله تعالى ، وروي أنه هو الذي يعجل الذنوب ويسوّف التوبة وقيل : هو الكافر يكذب يوم الحساب ؛ ولهذا قال بعده : ﴿ يَنْتَلِ أَيَّانَ يَوْمَ الْقِيَمَةِ ﴾ أي يقول : متى يكون يوم القيامة وإنما سؤاله سؤال استبعاد لوقوعه وتكذيب لوجوده . ﴿ فَإِنَّا بِرَأْيِ الْبَصَرِ ❼ وَخَسَفَ الْقَمَرُ ❽ وَجُمِعَ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ ❾ ﴾ قرأ أبو عمرو بن العلاء : يرق بكسر الراء أي حار . وقرأ آخرون برق بالفتح وهو قريب في

(١) قرأ ابن كثير ﴿ لأقسم ﴾ وقرأ الباقون (لا أقسم) . انظر حجة القراءات ص ٧٣٥ .

أَقْرَأَهُ ^(١) . وعن ابن عباس ﴿ لَا تَحْزَنْ بِهِ لِسَانُكَ لِيَتَبَذَلَ بِهِ ﴾ قال : كان لا يفتر من القرآن مخافة أن ينساه فقال الله تعالى : ﴿ لَا تَحْزَنْ بِهِ لِسَانُكَ لِيَتَبَذَلَ بِهِ ﴾ ^(٢) إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ ﴿ أَي : نجمعه لك ﴾ وَقَوْلُهُ أَن نَقْرُوكَ فَلَا تَنْسَى ، وقال ابن عباس وعطية العوفي : ﴿ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ ﴾ تبين حلاله وحرامه وكذا قال قتادة . وقوله تعالى : ﴿ كَلَّا بَلْ تُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ ﴾ وَتَذُورُونَ الْآخِرَةَ ﴿ أَي : إنما يحملهم على التكذيب يوم القيامة ومخالفة ما أنزله الله ﷻ على رسوله ﷺ من الوحي الحق والقرآن العظيم إنما همتهم إلى الدار الدنيا العاجلة وهم لاهون متشاغلون عن الآخرة . ثم قال تعالى : ﴿ دُجُوا بِمِيزَانٍ ﴾ من النضارة أي حسنة بهيمة مشرقة مسرورة ﴿ إِنَّ رَبَّهَا نَاطِرَةٌ ﴾ أي تراه عياناً كما رواه البخاري : « إِنَّكُمْ سَتَرُونَ رَبَّكُمْ عَيْنَانَا » ^(٣) . وقد ثبتت رؤية المؤمنين لله ﷻ في الدار الآخرة في الأحاديث الصحاح من طرق متواترة عند أئمة الحديث لا يمكن دفعها ولا منعها وعن جرير قال : نظر رسول الله ﷺ إلى القمر ليلة البدر فقال : « إِنَّكُمْ تَرَوْنَ رَبَّكُمْ كَمَا تَرَوْنَ هَذَا الْقَمَرَ ، فَإِنْ اسْتَطَعْتُمْ أَنْ لَا تَقْلَبُوا عَلَى صَلَاةٍ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَلَا قَبْلِ غُرُوبِهَا فَافْعَلُوا » ^(٤) . وعن أبي موسى قال : قال رسول الله ﷺ : « جَنَّتَانِ مِنْ ذَهَبٍ آتِيَهُمَا وَمَا فِيهِمَا ، وَجَنَّتَانِ مِنْ فِضَّةٍ آتِيَهُمَا وَمَا فِيهِمَا ، وَمَا يَبْنِي الْقَوْمَ وَيَبْنِي أَنْ يَنْظُرُوا إِلَى اللَّهِ ﷻ إِلَّا رِذَاءَ الْكِبَرِيَاءِ عَلَى وَجْهِهِ فِي جَنَّةٍ عَذْنٍ » ^(٥) . وعن صهيب عن النبي ﷺ قال : « إِذَا دَخَلَ أَهْلُ الْجَنَّةِ الْجَنَّةَ - قَالَ - يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى : تُرِيدُونَ شَيْئًا أَزِيدُكُمْ ؟ فَيَقُولُونَ : أَلَمْ تُبَيِّضْ وُجُوهَنَا ؟ أَلَمْ تُدْخِلْنَا الْجَنَّةَ وَتُنَجِّنَا مِنَ النَّارِ ؟ فَيَكْشِفُ الْحِجَابَ ، فَمَا أُعْطُوا شَيْئًا أَحَبَّ إِلَيْهِمْ مِنَ النَّظَرِ إِلَى رَبِّهِمْ وَهِيَ الزِّيَادَةُ » . ثم تلا هذه الآية : ﴿ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا لِمُتَى زِيَادَةٌ ﴾ ^(٦) .

وعن جابر « أَنَّ اللَّهَ يَنْجَلِي لِلْمُؤْمِنِينَ يَضْحَكُ » . يعني في عرصات القيامة ففي هذه الأحاديث أن المؤمنين ينظرون إلى ربهم ﷻ في العرصات روضات الجنات . عن ابن عمر قال : قال رسول الله ﷺ : « إِنَّ أَدْنَى أَهْلِ الْجَنَّةِ مَنْزِلَةٌ لَيَنْظُرُ فِي مُلْكِهِ أَلْفِي سَنَةٍ يَرَى أَقْصَاهُ كَمَا يَرَى أَدْنَاهُ ، يَنْظُرُ إِلَى أَزْوَاجِهِ وَخَدَمِهِ ، وَإِنَّ أَفْضَلَهُمْ مَنْزِلَةً فِي وَجْهِ اللَّهِ كُلُّ يَوْمٍ مَرَّتَيْنِ » ^(١) . ولولا خشية الإطالة لأوردنا الأحاديث بطرقها وألفاظها من الصحاح والحسان والمسانيد والسنن ، ولكن ذكرنا ذلك مفرقا في مواضع من هذا التفسير وبالله التوفيق ، وهذا بحمد الله مجمع عليه بين الصحابة والتابعين وسلف هذه الأمة كما هو متفق عليه بين أئمة الإسلام . وهذا الأنام ، ومن تأوّل ذلك بأن المراد يالي مفرد الآلاء وهي النعم ﴿ وَبِجُودِهِ يُؤَيِّدُ بَاسِرَةً ﴾ تَقُلُّ أَنْ يُفَعِّلَ بِهَا فَافِرَةً ﴿ هذه وجوه الفجار تكون يوم القيامة باسرة ، قال قتادة : كالحلة وقال السدي : تغير ألوانها وقال ابن زيد ﴿ بَاسِرَةً ﴾ أي عابسة ﴿ تَقُلُّ ﴾ أي تستيشن ﴿ أَنْ يُفَعِّلَ بِهَا فَافِرَةً ﴾ قال مجاهد : داهية ، وقال قتادة : شر . وقال السدي : تستيقن أنها

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٣٤٣/١) وبنحوه البخاري في تفسير القرآن (٤٩٢٨) .

(٢) أخرجه البخاري في التوحيد (٧٤٣٥) . (٣) أخرجه البخاري في تفسير القرآن (٤٨٥١) .

(٤) أخرجه البخاري في تفسير القرآن (٤٨٧٨) .

(٥) أخرجه مسلم في الإيمان (٢٩٧) والحاكم في المستدرک (٨٢/١) .

(٦) أخرجه أحمد في مسنده (٦٤/٢) والترمذي في السنن (٣٣٣٠) .

هالكة وقال ابن زيد : تظن أن ستدخل النار .

﴿ كَلَّا إِذَا بَلَغَتِ الرَّاقِيَّةُ ١١ وَقِيلَ مَنْ رَاقٍ ١٢ وَظَنَّ أَنَّهُ الْفِرَاقُ ١٣ وَالْقَبْطِ السَّاقِ بِالسَّاقِ ١٤ إِنَّ رَبَّكَ يَوْمَئِذٍ لَّسَّاقٌ ١٥ ﴾
فَلَا صَدَقَ وَلَا سَلَ ١٦ وَلَكِنَّ كَذَبَ دَوَّكُ ١٧ ثُمَّ ذَهَبَ إِلَيْ أَهْلِهِ يَنْتَقِلُ ١٨ أَوَّلَ لَكَ فَأَوَّلُ ١٩ ثُمَّ أَوَّلَ لَكَ فَأَوَّلُ ٢٠ أَيْحَسِبُ
الْإِنْسَانُ أَن يُتْرَكَ سُدًى ٢١ أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِن مَّنِيٍّ يَتَنَّى ٢٢ ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَثَلَاثَ مَسْوًى ٢٣ فَجَلَّ مِنْهُ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنثَى ٢٤ أَلَيْسَ ذَلِكَ بِقْدِرٍ عَلَيَّ أَن يُخَيَّرَ النَّوْكَ ٢٥ .

يخبر تعالى عن حالة الاحتضار وما عنده من الأهوال ثبتنا الله هنالك بالقول الثابت فقال تعالى :
﴿ كَلَّا إِذَا بَلَغَتِ الرَّاقِيَّةُ ١١ ﴾ إن جعلنا كلاً راحة فمعناها لست يا ابن آدم هناك تكذب بما أخبرت به ، بل صار
ذلك عندك عياناً ، وإن جعلناها بمعنى حقاً فظاهر أي حقاً إذا بلغت التراقي ، أي انتزعت روحك من
جسدك وبلغت تراقيك ، والتراقي جمع ترقوة وهي العظام التي بين ثغرة النحر والعاقل ﴿ وَقِيلَ مَنْ رَاقٍ ١٢ ﴾
أي من راق يرقى ، وقيل : من طبيب شاف عن ابن عباس : ﴿ وَقِيلَ مَنْ رَاقٍ ١٢ ﴾ قيل من يرقى بروحه ملائكة
الرحمة أم ملائكة العذاب ؟ فعلى هذا يكون من كلام الملائكة ، وعنه في قوله ﴿ وَالْقَبْطِ السَّاقِ بِالسَّاقِ ١٤ ﴾
قال : التفت عليه الدنيا والآخرة وعنه يقول : آخر يوم من أيام الدنيا وأول يوم من أيام الآخرة فتلقتني
الشدة بالشدة إلا من رحمته . وقال عكرمة : ﴿ وَالْقَبْطِ السَّاقِ بِالسَّاقِ ١٤ ﴾ الأمر العظيم بالأمر العظيم ، وقال
مجاهد : بلاء بلاء ، وقال الحسن البصري : هما ساقاك إذا التفتا ، وقيل : هو لفهما في الكفن ، وقال
الضحاك : ﴿ وَالْقَبْطِ السَّاقِ بِالسَّاقِ ١٤ ﴾ اجتمع عليه أمران : الناس يجهزون جسده ، والملائكة يجهزون روحه
وقوله تعالى : ﴿ إِنَّ رَبَّكَ يَوْمَئِذٍ لَّسَّاقٌ ١٤ ﴾ أي المرجع والمآب ، وذلك أن الروح ترفع إلى السموات فيقول
الله ﷻ : ردوا عبدي إلى الأرض فإني منها خلقتهم وفيها أعيدهم ومنها أخرجهم تارة أخرى .

وقوله جلَّ وعلا : ﴿ فَلَا صَدَقَ وَلَا سَلَ ١٦ وَلَكِنَّ كَذَبَ دَوَّكُ ١٧ ﴾ هذا إخبار عن الكافر الذي كان في
الدار الدنيا مكذباً للحق بقلبه متولياً عن العمل بقلبه فلا خير فيه باطناً ولا ظاهراً ولهذا قال تعالى :
﴿ فَلَا صَدَقَ وَلَا سَلَ ١٦ وَلَكِنَّ كَذَبَ دَوَّكُ ١٧ ﴾ ثُمَّ ذَهَبَ إِلَيْ أَهْلِهِ يَنْتَقِلُ ١٨ أي جذلان أشراً بطراً كسلاناً لا همة
له ولا عمل . عن ابن عباس ﴿ ثُمَّ ذَهَبَ إِلَيْ أَهْلِهِ يَنْتَقِلُ ١٨ ﴾ أي : يختال . وقال قتادة وزيد بن أسلم :
يتبخر قال الله تعالى : ﴿ أَوَّلَ لَكَ فَأَوَّلُ ١٩ ﴾ ثُمَّ أَوَّلَ لَكَ فَأَوَّلُ ٢٠ وهذا تهديد ووعد أكيد من الله تعالى
للكافر به المتبخر في مشيه أي يحق لك أن تمشي هكذا وقد كفرت بخالقك وبارئك ، كما يقال
في مثل هذا على سبيل التهكم والتهديد كقوله تعالى : ﴿ ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْكَرِيمُ ٢٥ ﴾ .

وعن سعيد بن جبيرة قال : قلت لابن عباس ﴿ أَوَّلَ لَكَ فَأَوَّلُ ١٩ ﴾ ثُمَّ أَوَّلَ لَكَ فَأَوَّلُ ٢٠ ؟ قال : قاله
رسول الله ﷺ لأبي جهل ثم أنزله الله ﷻ ، وقوله تعالى : ﴿ أَيْحَسِبُ الْإِنْسَانُ أَن يُتْرَكَ سُدًى ٢١ ﴾ . يعني لا
يعت وقيل : يعني لا يؤمر ولا ينهى ، والظاهر أن الآية تعم الحالين ، أي ليس يترك في هذه الدنيا
مهملاً لا يؤمر ولا ينهى ، ولا يترك في قبره سدى لا يعث ، بل هو مأمور منه في الدنيا محشور
إلى الله في الدار الآخرة ، والمقصود هنا إثبات المعاد والرد على من أنكروه من أهل الزيغ والجهل
والعناد ، ولهذا قال تعالى مستدلاً على الإعادة بالبداة فقال تعالى : ﴿ أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِن مَّنِيٍّ يَتَنَّى ٢٢ ﴾
أي : أما كان الإنسان نطفة ضعيفة من ماء مهين ﴿ يَتَنَّى ٢٢ ﴾ يراق من الأصلاب في الأرحام . ﴿ ثُمَّ

كَانَ عِلْقَهُ فَنَلَقَ نَسَوَى ﴿١﴾ أَي فصار علقه ثم سُكِّلَ ونفخ فيه الروح فصار خلقاً آخر سوياً سليم الأعضاء
 ذكراً أو أنثى بإذن الله وتقديره . ولهذا قال تعالى : ﴿ جَعَلَ مِنْهُ الذَّكَرَ وَالْأُنثَى ﴾ ثم قال تعالى :
 ﴿ أَلَيْسَ ذَلِكَ بِقَدِيرٍ عَلَيَّ أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَ ﴾ أي أما هذا الذي أنشأ هذا الخلق السوي من هذه النطفة الضعيفة
 بقادر على أن يعيده كما بدأه . وتناول القدرة للإعادة إما بطريق الأولى بالنسبة إلى البداءة وإما مساوية
 على القولين في قوله تعالى : ﴿ وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ ﴾ والأول أشهر . وعن
 موسى بن أبي عائشة قال : كان رجل يصلي فوق بيته فكان إذا قرأ ﴿ أَلَيْسَ ذَلِكَ بِقَدِيرٍ عَلَيَّ أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَ ﴾
 قال : سبحانك فبلى . فسأله عن ذلك فقال : سمعته من رسول الله ﷺ . ، وعن أبي هريرة : قال
 قال رسول الله ﷺ : « مَنْ قَرَأَ مِنْكُمُ بِالتَّائِينَ وَالزَّائِرِينَ فَانْتَهَى إِلَى آخِرِهَا ﴾ ﴿ أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعَزَّ لِمَنْ حَكَمَ ﴾
 فَلْيَقُلْ : بَلَى وَأَنَا عَلَى ذَلِكَ مِنَ الشَّاهِدِينَ ، وَمَنْ قَرَأَ ﴿ لَا أَقِيمُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ ﴾ فَانْتَهَى إِلَى قَوْلِهِ ﴿ أَلَيْسَ ذَلِكَ
 بِقَدِيرٍ عَلَيَّ أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَ ﴾ فَلْيَقُلْ : بَلَى ، وَمَنْ قَرَأَ : ﴿ وَالتَّرْسَلَتِ ﴾ فَلْيَقُلْ : ﴿ فَإِنِّي حَدِيثٌ بَعْدُ يُؤْمِنُونَ ﴾ فَلْيَقُلْ :
 آمَنَّا بِاللَّهِ ^(١) وعن قتادة قوله تعالى : ﴿ أَلَيْسَ ذَلِكَ بِقَدِيرٍ عَلَيَّ أَنْ يُحْيِيَ ﴾ ذكر لنا أن رسول الله ﷺ كان إذا
 قرأها قال : « سُبْحَانَكَ وَبَلَى » ^(٢) .

(١) أخرجه البيهقي في السنن (٣١٠/٢) والبخاري في شرح السنة (١٠٤/٣) .

(٢) أورده السيوطي في الدر المنثور (٣٦٣/٨) وعزاه إلى عبد الرزاق وعبد بن حميد .

سورة الإنسان

عن ابن عباس أن رسول الله ﷺ كان يقرأ في صلاة الصبح يوم الجمعة ﴿الذِّكْرُ﴾ تَبْدِيلُ السجدة و ﴿هَذَا أَقْ عَلَى الْإِنْسَانِ﴾ (١) .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ هَذَا أَقْ عَلَى الْإِنْسَانِ حِينَ مَنَ الْذَّهْرِ لَمْ يَكُنْ شَيْئًا مَّذْكُورًا ﴾ ﴿ إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ تُطْفَئَةِ أَمْشَاجٍ نَبْتِيلِهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا ﴾ ﴿ إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ﴾ .

يقول تعالى مخبراً عن الإنسان أنه أوجده بعد أن لم يكن شيئاً مذكوراً ، ثم بين ذلك فقال ﷺ : ﴿ إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ تُطْفَئَةِ أَمْشَاجٍ ﴾ أي أخلاط ، والمشح والمشيح : الشيء المختلط ببعضه في بعض ، قال ابن عباس في قوله تعالى : ﴿ مِنْ تُطْفَئَةِ أَمْشَاجٍ ﴾ يعني ماء الرجل وماء المرأة إذا اجتماعا واختلطا ، ثم ينتقل بعد من طور إلى طور وحال إلى حال ولون إلى لون . وقوله تعالى ﴿ تَبْتَلِيهِ ﴾ أي نختبره ﴿ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا ﴾ أي جعلنا له سمعاً وبصراً يتمكن بهما من الطاعة والمعصية ، وقوله جل وعلا : ﴿ إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ ﴾ أي بيناه له ووضحناه وبصرناه به . كقوله ﴿ وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ ﴾ أي بيناه له طريق الخير وطريق الشر . وقيل خروجه من الرحم وهذا قول غريب ، والصحيح المشهور الأول . وقوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ﴾ منصوب على الحال من الهاء في قوله : ﴿ إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ ﴾ تقديره فهو في ذلك إما شقي وإما سعيد ، فغن أبي مالك الأشعري قال : قال رسول الله ﷺ : « كُلُّ النَّاسِ يَغْدُو فَبَائِعٌ نَفْسَهُ فَمُوبِقُهَا أَوْ مُغْتَفِقُهَا » (٢) .

وعن جابر بن عبد الله أن النبي ﷺ قال لكعب بن عجرة : « أَعَاذَكَ اللَّهُ مِنْ إِمَارَةِ السُّفَهَاءِ » . قال : وما إِمَارَةُ السُّفَهَاءِ ؟ قال : « أَمْرَاءُ يَكُونُونَ مِنْ بَغْدِي لَا يَهْتَدُونَ بِهَدَايَ ، وَلَا يَسْتَشُونَ بِسُنَّتِي فَمَنْ صَدَّقَهُمْ بِكَذِبِهِمْ وَأَعَانَهُمْ عَلَى ظُلْمِهِمْ فَأُولَئِكَ لَيُشَوَّاهُنِي وَلَسْتُ مِنْهُمْ وَلَا يَرِدُونَ عَلَيَّ حَوْضِي ، وَمَنْ لَمْ يُصَدِّقْهُمْ بِكَذِبِهِمْ وَلَمْ يُعَنْهُمْ عَلَى ظُلْمِهِمْ فَأُولَئِكَ مِنِّي وَأَنَا مِنْهُمْ ، وَسَيَرِدُونَ عَلَيَّ حَوْضِي يَا كَعْبُ بْنُ عَجْرَةَ : الصُّومُ جَنَّةٌ وَالصَّدَقَةُ تُطْفِئُ الْحَاطِيَةَ ، وَالصَّلَاةُ قُرْبَاتٌ - أَوْ قَالَ بُرْهَانٌ - يَا كَعْبُ بْنُ عَجْرَةَ إِنَّهُ لَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ لَحْمٌ نَبَتْ مِنْ شُحْبٍ ، النَّارُ أَوْلَى بِهِ ، يَا كَعْبُ : النَّاسُ غَادِيَانِ فَمُبْتَاعٌ نَفْسَهُ فَمُغْتَفِقُهَا ، وَبَائِعٌ نَفْسَهُ فَمُوبِقُهَا » (٣) .

وعن أبي هريرة ؓ عن النبي ﷺ قال : « مَا مِنْ خَارِجٍ يَخْرُجُ إِلَّا بِبَايَةِ رَائِيَانِ ، رَايَةُ بَيْدٍ مَلَكٍ وَرَايَةُ بَيْدٍ شَيْطَانٍ ، فَإِنْ خَرَجَ لِمَا يُحِبُّ اللَّهُ اتَّبَعَهُ الْمَلَكُ بِرَايَةِ ، فَلَمْ يَزَلْ تَحْتَ رَايَةِ الْمَلَكِ حَتَّى يَرْجِعَ إِلَى بَيْتِهِ ؛ وَإِنْ خَرَجَ لِمَا يُشْخِطُ اللَّهُ اتَّبَعَهُ الشَّيْطَانُ بِرَايَةِ ، فَلَمْ يَزَلْ تَحْتَ رَايَةِ الشَّيْطَانِ حَتَّى يَرْجِعَ إِلَى بَيْتِهِ » (٤) .

(١) أخرجه ابن ماجه في السنن (٨٢١) وأحمد في مسنده (٣٣٤/١) والبيهقي في السنن (٢٠٠/٣) .

(٢) أخرجه مسلم في الطهارة (١) والترمذي في السنن (٣٥١٧) وابن ماجه في السنن (٢٨٠) وأحمد في مسنده (٣٤٣/٥) .

(٣) أخرجه أحمد في مسنده (٣٢١/٣) والمذني في الترغيب والترهيب (١٩٤/٣) .

(٤) أخرجه أحمد في مسنده (٣٢٣/٢) وابن خزيمة في صحيحه (١٩٣) .

﴿ إِنَّا أَغْنَيْنَا السَّكِينَةَ وَأَغْنَيْنَا السَّعِيرَ ﴾ ١ إِنَّ الْأَبْرَارَ يَشْرُونَ مِنْ كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا ٢ عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا ٣ يُؤُوتُونَ بِالنَّذْرِ وَيَنَاقُونَ ٤ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيرًا ٥ وَيُطِيعُونَ أَلْطَمًا عَلَى حُبِّهِ ٦ وَيَتَكَبَّرُونَ ٧ وَإِنَّمَا يُظْمِئُكُمْ بِوَجْهِ اللَّهِ لَا رَيْبَ مِنْكُمْ جَزَاءُ وَلَا شُكُّورًا ٨ إِنَّا نَخَافُ مِنْ رَبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَتَطِيرًا ٩ فَوَقَّعَهُمُ اللَّهُ شَرَّ ذَلِكَ الْيَوْمِ وَلَقَّعَهُمْ نَصْرَهُ وَزَسَّرُوا لَهَا صَبْرًا جَنَّةً وَحَرِيرًا ١٠ .

يخبر تعالى عما أرصده للكافرين من خلقه به من السلاسل والأغلال والسعير وهو اللهب والحريق في نار جهنم ولما ذكر ما أعدده لهؤلاء الأشقياء من السعير قال بعده : ﴿ إِنَّ الْأَبْرَارَ يَشْرُونَ مِنْ كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا ﴾ وقد علم ما في الكافور من التبريد والرائحة الطيبة مع ما يضاف إلى ذلك من اللذابة في الجنة . قال الحسن : برد الكافور في طيب الزنجبيل ؛ ولهذا قال : ﴿ عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا ﴾ أي هذا الذي مزج لهؤلاء الأبرار من الكافور هو عين يشرب بها المقربون من عباد الله صرفًا بلا مزج ويروون بها ؛ ولهذا ضمن يشرب معنى يروي حتى عداه بالباء ونصب عينًا على التمييز ، قال بعضهم هذا الشراب في طيبه كالكافور ، وقال بعضهم : هو من عين كافور ، وقال بعضهم : يجوز أن يكون منصوبًا يشرب ، حكى هذه الأقوال الثلاثة ابن جرير . وقوله تعالى : ﴿ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا ﴾ أي يتصرفون فيها حيث شاءوا وأين شاءوا قصورهم ودورهم ومجالسهم ومحالهم ، والتفجير هو الإنباع ، وقال مجاهد : ﴿ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا ﴾ يقودونها حيث شاءوا ، وقال الثوري : يصرفونها حيث شاءوا ، وقوله تعالى : ﴿ يُؤُوتُونَ بِالنَّذْرِ وَيَنَاقُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيرًا ﴾ أي يتعبدون لله فيما أوجبه عليهم من فعل الطاعات الواجبة بأصل الشرع وما أوجبه على أنفسهم بطريق النذر . عن عائشة رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ قال : « مَنْ نَذَرَ أَنْ يُطِيعَ اللَّهَ فَلْيُطِعهُ ، وَمَنْ نَذَرَ أَنْ يَقْصِيَ اللَّهَ فَلَا يَقْصِهْ » ^(١) . ويتركون المحرمات التي نهاهم عنها خيفة من سوء الحساب يوم المعاد ، وهو اليوم الذي يكون شره مستطيرًا ، أي منتشرًا عامًا على الناس إلا من رحم الله ، قال ابن عباس : فاشيًا ، وقال قتادة : استطار والله شر ذلك اليوم حتى ملأ السموات والأرض ، وقوله تعالى : ﴿ وَيُطِيعُونَ أَلْطَمًا عَلَى حُبِّهِ ﴾ قيل على حب الله تعالى ، وجعلوا الضمير عائداً إلى الله ﻋَﻠَﻴْهِ لدلالة السياق عليه ، والأظهر أن الضمير عائداً على الطعام أي ويطعمون الطعام في حال محبتهم وشهوتهم له ، عن نافع قال : مرض ابن عمر فاشتبه عنباً أول ما جاء العنب ، فأرسلت صفيّة يعني امرأته فاشتريت عنقوداً بدرهم فاتبع الرسول سائل فلما دخل به قال السائل : السائل ، فقال ابن عمر : أعطوه إياه ، فأرسلت بدرهم آخر فاشتريت عنقوداً فاتبع الرسول السائل فلما دخل قال السائل : السائل فقال ابن عمر : أعطوه إياه ، فأعطوه إياه ، فأرسلت صفيّة إلى السائل فقالت : والله إن عدت لا تصيب منه خيراً أبداً ، ثم أرسلت بدرهم آخر فاشتريت به ^(٢) . وفي الصحيح : « أَفْضَلُ الصَّدَقَةِ أَنْ تَصَدَّقَ وَأَنْتَ صَاحِبُ شَيْءٍ تَأْمُلُ الْغِنَى وَتَخْشَى الْفَقْرَ » ^(٣) . أي في حال محبتك للمال وحرصك عليه وحاجتك إليه ولهذا قال تعالى : ﴿ وَيُطِيعُونَ أَلْطَمًا عَلَى حُبِّهِ يَتَكَبَّرُونَ وَيَتَكَبَّرُونَ ٧ وَإِنَّمَا يُظْمِئُكُمْ بِوَجْهِ اللَّهِ لَا رَيْبَ مِنْكُمْ جَزَاءُ وَلَا شُكُّورًا ٨ إِنَّا نَخَافُ مِنْ رَبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَتَطِيرًا ٩ فَوَقَّعَهُمُ اللَّهُ شَرَّ ذَلِكَ الْيَوْمِ وَلَقَّعَهُمْ نَصْرَهُ وَزَسَّرُوا لَهَا صَبْرًا جَنَّةً وَحَرِيرًا ١٠ .

(١) أخرجه أبو داود في السنن (٣٢٨٩) والترمذي في السنن (١٥٢٦) وأحمد في مسنده (٤١/٦) .

(٢) أخرجه البيهقي في الكبرى (١٨٥/٤) .

(٣) أخرجه مسلم في الزكاة (٩٢) .

تقدم بيانهما وصفتهما ، وأما الأسير فقال سعيد بن جبير والحسن والضحاك : الأسير من أهل القبلة ، وقال ابن عباس : كان أسراؤهم يومئذ مشركين ويشهد لهذا أن رسول الله ﷺ أمر أصحابه يوم بدر أن يكرموا الأسارى فكانوا يقدمونهم على أنفسهم عند الغداء . وقال عكرمة : هم العبيد ، واختاره ابن جرير لعموم الآية للمسلم والمشرک ، وقد وصى رسول الله ﷺ بالإحسان إلى الأرقاء في غير ما حديث حتى أنه كان آخر ما أوصى أن جعل يقول : « الصَّلَاةُ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ » ^(١) . قال مجاهد : هو المحبوس أي يطعمون الطعام لهؤلاء وهم يشتهونه ويحبونه قائلين بلسان الحال ﴿ إِنَّمَا تُطِمُّوهُ لِيَوْمِ اللَّهِ ﴾ أي رجاء ثواب الله ورضاه ﴿ لَا تَبْذُرُوا مَتَكُورًا وَلَا شَكُورًا ﴾ أي لا تطلب منكم مجازاة تكافؤنا بها ولا أن تشكرونا عند الناس .

قال سعيد بن جبير : أما والله ما قالوه بألسنتهم ولكن علم الله به من قلوبهم فأثني عليهم به ليرغب في ذلك راغب ﴿ إِنَّمَا تَخَافُ مِنْ رَبِّنَا يَوْمًا غَيبًا قَطَرًا ﴾ أي إنما نفعل هذا لعل الله أن يرحمنا ويتلقانا بلطفه في اليوم العبوس القمطرير . قال ابن عباس : عبوساً ضيقاً ، قمطريراً طويلاً ، قال ابن جرير : والقمطرير هو الشديد يقال هو يوم قمطرير ويوم قماطر ويوم عصيب وقد اقمطر اليوم يقمطر اقمطراراً وذلك أشد الأيام وأطولها في البلاء والشدة ومنه قول بعضهم :

بَنِي عَمَّنَا هَلْ تَذْكُرُونَ بَلَاءَنَا ؟ عَلَيْنَا إِذَا مَا كَانَ يَوْمٌ قَمَاطِرٌ ^(٢)

قال الله تعالى : ﴿ فَوَقَّعَهُمُ اللَّهُ شَرَّ ذَلِكَ الْيَوْمِ وَلَقَّعَهُمْ نَصْرَهُ وَسَوَّارًا ﴾ وهذا من باب التجانس البليغ ﴿ فَوَقَّعَهُمُ اللَّهُ شَرَّ ذَلِكَ الْيَوْمِ ﴾ أي آمنهم مما خافوا منه ﴿ وَلَقَّعَهُمْ نَصْرَهُ ﴾ أي في وجوهم ﴿ وَسَوَّارًا ﴾ أي في قلوبهم ، وذلك أن القلب إذا سر استنار الوجه ، قال كعب بن مالك في حديثه الطويل وكان رسول الله ﷺ إذا سر استنار وجهه ^(٣) حتى كأنه فلقه قمر ، وقوله تعالى : ﴿ وَجَعَلْنَاهُمْ نَجْمًا صَبِيرًا ﴾ أي بسبب صبرهم أعطاهم ونولهم وبؤاهم ﴿ جَنَّةَ وَحْيِرًا ﴾ ، أي منزلاً رجباً وعيشاً رغداً ولباساً حسناً .

﴿ مُتَّكِينَ فِيهَا عَلَى الْأَرْكَانِ لَا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْسًا وَلَا زَمْهَرِيرًا ﴾ ^(٤) وَدَائِيَّةٌ عَلَيْهِمْ ظِلُّهَا تُلْهَاهُمُ طُفُوفُهَا تَهْلِيلًا ^(٥) وَطُفُوفٌ عَلَيْهِمْ زَايِجَةٌ مِّنْ فِضَّةٍ وَأَكْوَابُ كَانَتْ قَوَارِيرًا ^(٦) قَوَارِيرًا مِّنْ فِضَّةٍ قَدَّرُوهَا فَنَدِيرًا ^(٧) وَنُفُوفٌ فِيهَا كَالْحَافِئِ كَانَتْ رِجَاجُهَا زَجْجِيلًا ^(٨) عَيْنًا فِيهَا تُسَمَّى سَلْسِيلًا ^(٩) وَطُفُوفٌ عَلَيْهِمْ وَلَهُنَّ أَمْوَاجٌ مَّخْلُودَةٌ إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَبِطَتْ لُؤْلُؤًا تَتَوَلَّوْا مُنْجِبًا ^(١٠) وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ رَأَوْا كَلِمًا تَسْمَعُ عَلَيْهِمْ ثِيَابٌ ^(١١) سَنُذِيقُهُمْ فَتُوًّا أَشَدَّ وَهُمْ لَا يُنصَرُونَ ^(١٢) وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ رَأَوْا كَلِمًا تَسْمَعُ عَلَيْهِمْ ثِيَابٌ ^(١٣) سَنُذِيقُهُمْ فَتُوًّا أَشَدَّ وَهُمْ لَا يُنصَرُونَ ^(١٤) وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ رَأَوْا كَلِمًا تَسْمَعُ عَلَيْهِمْ ثِيَابٌ ^(١٥) سَنُذِيقُهُمْ فَتُوًّا أَشَدَّ وَهُمْ لَا يُنصَرُونَ ^(١٦) .

يخبر تعالى عن أهل الجنة وما هم فيه من النعيم المقيم وما أسبغ عليهم من الفضل العظيم فقال تعالى : ﴿ مُتَّكِينَ فِيهَا عَلَى الْأَرْكَانِ ﴾ وقد تقدم الكلام على ذلك في سورة الصافات وذكر الخلاف في الاتكاء هل هو الاضطجاع أو التمرق أو التربع أو التمكن في الجلوس ، وأن الأرائك هي السرر تحت الحجال وقوله تعالى : ﴿ لَا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْسًا وَلَا زَمْهَرِيرًا ﴾ أي ليس عندهم حر مزعج ولا برد مؤلم ، هي مزاج واحد دائم سرمدى لا يغيون عنها حولاً ﴿ وَدَائِيَّةٌ عَلَيْهِمْ ظِلُّهَا ﴾ أي قرية إليهم أغصانها ﴿ وَتُلْهَاهُمُ طُفُوفُهَا تَهْلِيلًا ﴾

(١) أخرجه أحمد في مسنده (١١٧/٣) وابن ماجه في السنن (٢٦٩٧) .

(٢) معاني القرآن للفراء (ص ٣٥١) ، تفسير الطبري (٢٦٢/٢٨) .

(٣) أخرجه البخاري في المنقب (٣٥٥٦) ومسلم في التوبة (٥٣) والحاكم في المستدرک (٦٠٥/٢) وأحمد في مسنده (٣٩٠/٦) .

فَطَرُفَهَا نَذِيلًا ﴿١٣﴾ أي متى تعاطاه دنا القطف إليه تدلى من أعلى غصنه كأنه سامع طائع ، قال مجاهد : ﴿ وَذَلِكَ فَطَرُفَهَا نَذِيلًا ﴾ . إن قام ارتفعت معه بقدر ، وإن قعد تذللت له حتى ينالها ، وإن اضطجع تذللت له حتى ينالها ، فذلك قوله تعالى ﴿ نَذِيلًا ﴾ وقال قتادة : لا يرد أيديهم عنها شوك ولا بعد ، وقال مجاهد أرض الجنة من ورق وترابها المسك ، وأصول شجرها من ذهب وفضة ، وأفنانها من اللؤلؤ الرطب والزبرجد والياقوت والورق ، والثمر بين ذلك فمن أكل منها قائمًا لم تؤذه ، ومن أكل منها قاعدًا لم تؤذه ، ومن أكل منها مضطجعًا لم تؤذه . وقوله جلّت عظمتة : ﴿ وَطَائِفٌ عَلَيْهِمْ يَتَابِعُونَ فِضَّةً وَأَكْوَابَ ﴾ أي يطوف عليهم الخدم بأواني الطعام وهي من فضة وأكواب الشراب وهي الكيزان التي لا عرى لها ولا خراطيم وقوله : ﴿ قَوَارِيرًا ۖ قَوَارِيرًا مِّنْ فِضَّةٍ ﴾ فالأول منصوب بخبر كان أي كانت قوارير ، والثاني منصوب إما على البدلية أو تمييز ؛ لأنه يشبه بقوله جل وعلا ﴿ قَوَارِيرًا مِّنْ فِضَّةٍ ﴾ قيل : يياض الفضة في صفاء الزجاج والقوارير لا تكون إلا من زجاج ، فهذه الأكواب هي من فضة وهي مع هذا شفاقة يرى ما في باطنها من ظواهرها وهذا مما لا نظير له في الدنيا .

وعن ابن عباس : ليس في الجنة شيء إلا قد أعطيت في الدنيا شبهه إلا قوارير من فضة . وقوله تعالى : ﴿ فَتَرَوْهَا مُتَبَدِّلًا ﴾ أي على قدر ريقهم لا تزيد عنه ولا تنقص ، بل هي معدة لذلك مقدرة بحسب ري صاحبها ، وهذا أبلغ في الاعتناء والشرف والكرامة ، وقال الضحاك : على قدر كف الخادم وهذا لا ينافي القول الأول فإنها مقدرة في القدر والري .

وقوله تعالى : ﴿ وَتُسْقَوْنَ فِيهَا كَأْسًا كَانَ رِزَاقُهَا زَيْجِلًا ﴾ أي ويسقون : يعني الأبرار أيضًا في هذه الأكواب ﴿ كَأْسًا ﴾ أي خمرا ﴿ كَانَ رِزَاقُهَا زَيْجِلًا ﴾ فتارة يمزج لهم الشراب بالكافور وهو بارد ، وتارة بالزنجبيل وهو حار ليعتدل الأمر ، وهؤلاء يمزج لهم من هذا تارة ، ومن هذا تارة ، وأما المقربون فإنهم يشربون من كل منهما صرفًا كما قاله قتادة وغير واحد . وقد تقدم قوله جل وعلا : ﴿ عَنَّا يَتُوبَ إِلَىٰ عِبَادِ اللَّهِ ﴾ وقال ههنا : ﴿ عَنَّا فِيهَا شِسْيٌ سَلْسِيلًا ﴾ أي الزنجبيل عين في الجنة تسمى سلسيلاً . قال عكرمة : اسم عين في الجنة ، وقال مجاهد : سميت بذلك لسلاسة مسيلها وحدة جريها : وقوله تعالى : ﴿ وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤًا مَّنثورًا ﴾ أي يطوف على أهل الجنة للخدمة ولدان من ولدان الجنة ﴿ مُّخَلَّدُونَ ﴾ أي على حالة واحدة مخلدون عليها لا يتغيرون عنها لا تزيد أعمارهم عن تلك السن ، ومن فسره بأنهم مخرصون في آذانهم الأقربة فإنما عبر عن المعنى بذلك لأن الصغير هو الذي يليق له ذلك دون الكبير .

وقوله تعالى : ﴿ إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤًا مَّنثورًا ﴾ أي إذا رأيتهم في انتشارهم في قضاء حوائج السادة وكثرتهم وصباحة وجوههم وحسن ألوانهم وثيابهم وحليهم حسبتهم لؤلؤًا منثورًا ، ولا يكون في التشبيه أحسن من هذا ولا في المنظر أحسن من اللؤلؤ المنثور على المكان الحسن . عن عبد الله بن عمرو : ما من أهل الجنة من أحد إلا يسعى عليه ألف خادم كل خادم على عمل ما عليه صاحبه . وقوله جل وعلا : ﴿ وَإِذَا رَأَيْتَ ﴾ أي وإذا رأيت يا محمد ﴿ نَمَّ ﴾ أي هناك يعني في الجنة ونعيمها وسعتها وارتفاعها وما فيها من الخبرة والسرور ﴿ رَأَيْتَ نَيْمًا وَمَلَكًا كَرِيمًا ﴾ أي مملكة لله هنالك عظيمة

وسلطاناً باهراً . وثبت أن الله تعالى يقول لآخر أهل النار خروجاً منها . وآخر أهل الجنة دخولاً إليها : إن لك مثل الدنيا وعشرة أمثالها . وعن ابن عمر قال : قال رسول الله ﷺ : « إِنَّ أَذْنَى أَهْلِ الْجَنَّةِ مَنْزِلَةً لَمَنْ يَنْظُرُ فِي مُلْكِهِ مَسِيرَةَ أَلْفِي سَنَةٍ يَنْظُرُ إِلَى أَقْصَاهُ كَمَا يَنْظُرُ إِلَى أَذْنَاهُ » (١) .

وقوله ﷺ : ﴿ عَلَيْهِمْ يَابُ سُدُنٍ خُضْرٌ وَإِسْتَبَقَ ﴾ أي لباس أهل الجنة فيها الحرير ومنه سندس وهو رفيع الحرير كالقمصان ونحوها مما يلي أبدانهم ، والإستبرق منه ما فيه بريق ولمعان وهو مما يلي الظاهر كما هو المعهود في اللباس ﴿ وَكُلُوا أَشَارَ مِنْ فِضَّةٍ ﴾ وهذه صفة الأبرار ، وأما المقربون فكما قال تعالى : ﴿ تَحْكُمُونَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ ﴾ ولما ذكر تعالى زينة الظاهر بالحرير والحلي قال بعده : ﴿ وَسَنَنُهُمْ رُئُوسًا شَرَابًا طَهُورًا ﴾ أي طهر بواطنهم من الحسد والحقد والغل والأذى وسائر الأخلاق الرديئة ، كما روينا عن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام أنه قال : إذا انتهى أهل الجنة إلى باب الجنة وجدوا هنالك عينين فكأنما ألهموا ذلك فشربو من إحداهما فأذهب الله ما في بطونهم من أذى ثم اغتسلوا من الأخرى فجرت عليهم نضرة النعيم ، فأخبر سبحانه وتعالى بحالهم الظاهر وجمالهم الباطن وقوله تعالى : ﴿ إِنَّ هَذَا كَانَ لَكُنَّ جَزَاءً وَكَانَ سَعْيُكَ مَشْكُورًا ﴾ أي يقال لهم ذلك تكريمًا لهم وإحسانًا إليهم . قال تعالى ﴿ كَلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الْفَالِغَةِ ﴾ وقوله تعالى : ﴿ وَكَانَ سَعْيُكَ مَشْكُورًا ﴾ أي جزاكم الله تعالى على القليل بالكثير .

﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ تَنْزِيلًا ﴾ فَأَصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تُطِعْ مِنْهُمْ ءَائِمًا أَوْ كُفْرًا ﴿ وَأَذْكُرْ أَنْتَ رَبَّكَ بِكُرْهِ وَأَصِيلًا ﴾ وَمِنْ آيَاتِ الْقُرْآنِ أَنْ تَسْتَجِدَّ لَهُمْ وَسِيحَةً لَيْلًا طَوِيلًا ﴿ إِنَّ هَؤُلَاءِ يُجِبُونَ الْعَاجِلَةَ وَيَذُرُونَ وَرَاءَهُمْ يَوْمًا نَبِيلًا ﴾ نَحْنُ خَلَقْنَاهُمْ وَشَدَدْنَا أَسْرَهُمْ وَإِذَا شِئْنَا بَدَّلْنَا أَثْنُلَهُمْ تَبْدِيلًا ﴿ إِنَّ هَذِهِ تَذْكِرَةٌ فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذْ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلًا ﴾ وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿ يَدْخُلُ مَنْ يَشَاءُ فِي رَحْمَتِهِ وَالظَّالِمِينَ أَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴾ .

يقول تعالى ممتثًا على رسوله ﷺ بما أنزله عليه من القرآن العظيم تنزيلًا ﴿ فَأَصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ ﴾ أي كما أكرمك بما أنزلت فاصبر على قضائه وقدره واعلم أنه سيدبرك بحسن تدييره ﴿ وَلَا تُطِعْ مِنْهُمْ ءَائِمًا أَوْ كُفْرًا ﴾ أي لا تطع الكافرين والمنافقين إن أرادوا صدك عما أنزل إليك ، بل بلغ ما أنزل إليك من ربك وتوكل على الله فإن الله يعصمك من الناس ، فالآثم هو الفاجر في أفعاله ، والكفور هو الكافر قلبه . ﴿ وَأَذْكُرْ أَنْتَ رَبَّكَ بِكُرْهِ وَأَصِيلًا ﴾ أي أول النهار وآخره ﴿ وَمِنْ آيَاتِ الْقُرْآنِ أَنْ تَسْتَجِدَّ لَهُمْ وَسِيحَةً لَيْلًا طَوِيلًا ﴾ كقوله تعالى : ﴿ وَمِنْ آيَاتِ الْقُرْآنِ أَنْ تَسْتَجِدَّ لَهُمْ نَافِلَةً لَيْلًا طَوِيلًا ﴾ ثم قال تعالى منكروا على الكفار ومن أشبههم في حب الدنيا والإقبال عليها والانصباب إليها وترك الدار الآخرة وراء ظهورهم ﴿ إِنَّ هَؤُلَاءِ يُجِبُونَ الْعَاجِلَةَ وَيَذُرُونَ وَرَاءَهُمْ يَوْمًا نَبِيلًا ﴾ يعني يوم القيامة ثم قال تعالى : ﴿ نَحْنُ خَلَقْنَاهُمْ وَشَدَدْنَا أَسْرَهُمْ ﴾ قال ابن عباس ومجاهد وغير واحد : يعني خلقهم ﴿ وَإِذَا شِئْنَا بَدَّلْنَا أَثْنُلَهُمْ تَبْدِيلًا ﴾ أي وإذا شئنا بعثناهم يوم القيامة وبدلناهم فأعدناهم خلقًا جديدًا ، وهذا استدلال بالبداة على الرجعة ثم قال تعالى : ﴿ إِنَّ هَذِهِ تَذْكِرَةٌ ﴾ يعني هذه السورة تذكرة ﴿ فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذْ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلًا ﴾ أي طريقًا ومسلكًا أي من شاء اهتدى بالقرآن ، ثم قال تعالى : ﴿ وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴾

نَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ ﴿٢٣﴾ أَي لَا يَقْدِرُ أَحَدٌ أَنْ يَهْدِيَ نَفْسَهُ وَلَا يَدْخُلَ فِي الْإِيمَانِ وَلَا يَجْرَ لِنَفْسِهِ نَفْعًا ﴿٢٤﴾ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٢٥﴾ أَي عَلِيمٌ بِمَنْ يَسْتَحِقُّ الْهَدَايَةَ فَيَسْرِهَا لَهُ وَيَقْبِضُ لَهُ أَسْبَابَهَا ، وَمَنْ يَسْتَحِقُّ الْغَوَايَةَ فَيَصْرِفُهُ عَنِ الْهَدَى . وَلَهُ الْحِكْمَةُ الْبَالِغَةُ ، وَالْحُجَّةُ الدَّامِغَةُ وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى : ﴿٢٦﴾ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٢٧﴾ ثُمَّ قَالَ : ﴿٢٨﴾ يَدْخُلُ مَنْ يَشَاءُ فِي رَحْمَتِي وَالْكَافِرِينَ أَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٢٩﴾ أَي يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَيَضِلُّ مَنْ يَشَاءُ فَمَنْ يَهْدِهِ فَلَا مَضِلَّ لَهُ وَمَنْ يَضِلُّ فَلَا هَادِيَ لَهُ .

سورة المرسلات

عن عبد الله - هو ابن مسعود - رضي الله عنه قال : بينما نحن مع رسول الله ﷺ في غار بمنى إذ نزلت عليه ﴿وَالْمُرْسَلَاتِ﴾ فإنه ليتلوها وإنني لأتلقاها من فيه وإن فاه لرطب بها إذ وثبت علينا حية ، فقال النبي ﷺ : « أَقْتُلُوهَا » . فابتدرناها فذهبت . فقال النبي ﷺ : « وَقِيَتْ شُرُوكُمْ كَمَا وَقِيَتْمْ شَوْهَا » ^(١) . وعن ابن عباس أن أم الفضل سمعته يقرأ ﴿وَالْمُرْسَلَاتِ عُرْفًا﴾ فقالت : يا بني أذكرتني بقراءتك هذه السورة إنها لآخر ما سمعت من رسول الله ﷺ يقرأ بها في المغرب ^(٢) .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿وَالْمُرْسَلَاتِ عُرْفًا﴾ ١ ﴿فَالْعَصْفَاتِ عَصْفًا﴾ ٢ ﴿وَالنَّشِيرَاتِ تَشْرًا﴾ ٣ ﴿فَالْمُرْسَلَاتِ عُرْفًا﴾ ٤ ﴿عُذْرًا أَوْ نَذْرًا﴾ ٥ ﴿إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَوَفْعٍ﴾ ٦ ﴿فَإِذَا الْكُتُوبُ أُنْزِلَتْ﴾ ٧ ﴿وَإِذَا السَّمَاءُ فَُتِحَتْ﴾ ٨ ﴿وَإِذَا الْجِبَالُ سُيِّتَتْ﴾ ٩ ﴿وَإِذَا الْأَرْضُ أُفْنِتْ﴾ ١٠ ﴿لَا يَأْتِي يَوْمَ أُفْنِتْ ١١ يَوْمَ الْقَصْرِ ١٢ وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمَ الْقَصْرِ ١٣ وَيَلَّ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ﴾ .

عن أبي هريرة رضي الله عنه ﴿وَالْمُرْسَلَاتِ عُرْفًا﴾ قال : الملائكة ، وقيل : هي الرسل ، وهكذا قال أبو صالح في العاصفات والناشرات والفارقات والملقيات أنها الملائكة . وعن أبي العبيدين قال : سألت ابن مسعود عن المرسلات عرفاً قال : الريح ، وكذا قال في ﴿فَالْعَصْفَاتِ عَصْفًا﴾ ٢ والنشيرات تشراً ٣ إنها الريح وكذا قال ابن عباس ومجاهد وقتادة وتوقف ابن جرير في ﴿وَالْمُرْسَلَاتِ عُرْفًا﴾ هل هي الملائكة إذا أرسلت بالعرف أو كعرف الفرس يتبع بعضهم بعضاً ، أو هي الرياح إذا هبت شيئاً فشيئاً ؟ وقطع بأن العاصفات عصفاً الرياح وقوله تعالى : ﴿فَالْمُرْسَلَاتِ عُرْفًا﴾ ٤ ﴿فَالْمُرْسَلَاتِ عُرْفًا﴾ ٥ ﴿عُذْرًا أَوْ نَذْرًا﴾ يعني الملائكة ولا خلاف ههنا : فإنها تنزل بأمر الله على الرسل تفرق بين الحق والباطل ، والهدى والغى ، والحلال والحرام ، وتلقي إلى الرسل وحياً فيه إعدار إلى الخلق وإنذار لهم عقاب الله إن خالفوا أمره .

وقوله تعالى : ﴿إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَوَفْعٍ﴾ هذا هو المقسم عليه بهذه الأقسام أي ما وعدتم به من قيام الساعة والنفخ في الصور وبعث الأجساد وجمع الأولين والآخرين في صعيد واحد ومجازاة كل عامل بعمله إن خيراً فخير وإن شراً فشر ، إن هذا كله لواقع ، أي لكائن لا محالة . ثم قال تعالى : ﴿فَإِذَا الْكُتُوبُ أُنْزِلَتْ﴾ أي ذهب ضوؤها . ﴿وَإِذَا السَّمَاءُ فَُتِحَتْ﴾ أي انفطرت وانشقت وتدلّت أرجاؤها ووهت أطرافها ﴿وَإِذَا الْجِبَالُ سُيِّتَتْ﴾ أي ذهب بها فلا يبقى لها عين ولا أثر . وقوله تعالى : ﴿وَإِذَا الْأَرْضُ أُفْنِتْ﴾ : جمعت . وقيل : أجلت . وقيل : أوعدت ثم قال تعالى : ﴿لَا يَأْتِي يَوْمَ أُفْنِتْ ١١ يَوْمَ الْقَصْرِ ١٢ وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمَ الْقَصْرِ ١٣ وَيَلَّ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ﴾ يقول تعالى لأي يوم أجلت الرسل وأرجىء أمرها حتى تقوم الساعة . ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمَ الْقَصْرِ ١٣ وَيَلَّ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ﴾ أي ويل لهم من عذاب الله غداً وقد قدمنا في الحديث أن ويل واد في جهنم ، ولا يصح .

﴿أَلَمْ تَكُنْ مِنَ الْأَوَّلِينَ ١٤ ثُمَّ نَبَّهْتُمُ الْآخِرِينَ ١٥ كَذَلِكَ نَفْعُ الْغَافِرِينَ ١٦ وَيَلَّ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ ١٧ أَلَمْ تَخْلُقْهُمْ مِنْ

(١) أخرجه البخاري في تفسير القرآن (٤٩٣٤) ومسلم في السلام (١٣٧) والسنائي في السنن (٢٠٨/٥) وأحمد في مسنده (٤٢٨/١) .

(٢) أخرجه أحمد في مسنده (٣٣٨/٦) .

مَّاؤُهُمْ ۖ فَجَعَلْنَاهُ فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ ۖ إِنَّكَ قَدَرٌ مَّتَلْوِيرٍ ۖ قَدَّرْنَا فَيْعَمَ الْقَدَرُونَ ۖ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ ۖ أَلَمْ تَجْعَلِ الْأَرْضَ كِفَاتًا ۖ أَحْيَاةً وَأَمْوَاتًا ۖ وَجَعَلْنَا فِيهَا رِوْشِي شَجَاجَةٍ وَأَسْقَيْنُكُمْ مَاءً فُرَاتًا ۖ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ ۖ

يقول تعالى : ﴿ أَلَمْ تَجْعَلِ الْأَرْضَ كِفَاتًا ﴾ يعني من المكذبين للرسل المخالفين لما جاؤوهم به ﴿ ثُمَّ نُنْعِمُهُمُ الْآخِرِينَ ﴾ أي ممن أشبههم . ولهذا قال تعالى : ﴿ كَذَلِكَ نَفْعَلُ بِالْمُجْرِمِينَ ۖ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ ﴾ ثم قال تعالى ممتثلاً على خلقه ومحتجاً على الإعادة بالبداة ﴿ أَلَمْ تَخْلُقْ مِنْ مَّاءٍ مَّهْمِينَ ﴾ أي ضعيف حقير بالنسبة إلى قدرة الباري عز وجل . ﴿ فَجَعَلْنَاهُ فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴾ يعني جمعناه في الرحم وهو قرار الماء من الرجل والمرأة والرحم معد لذلك حافظ لما أودع فيه من الماء . وقوله تعالى : ﴿ إِنَّكَ قَدَرٌ مَّتَلْوِيرٍ ﴾ يعني إلى مدة معينة من ستة أشهر أو تسعة أشهر . ولهذا قال تعالى : ﴿ قَدَّرْنَا فَيْعَمَ الْقَدَرُونَ ۖ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ ﴾ ثم قال تعالى : ﴿ أَلَمْ تَجْعَلِ الْأَرْضَ كِفَاتًا ۖ أَحْيَاةً وَأَمْوَاتًا ﴾ قال ابن عباس : ﴿ كِفَاتًا ﴾ ، كُتَا . وقال مجاهد : يكفت الميت فلا يرى منه شيء . وقال الشعبي : بطنها لأمواتكم وظهرها لأحيائكم ﴿ وَجَعَلْنَا فِيهَا رِوْشِي شَجَاجَةٍ ﴾ يعني الجبال أرسى بها الأرض لئلا تتمد وتضطرب ﴿ وَأَسْقَيْنُكُمْ مَاءً فُرَاتًا ﴾ أي عذبا زلالا من السحاب أو مما أنبعه من عيون الأرض ﴿ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ ﴾ أي لمن تأمل هذه المخلوقات الدالة على عظمة خالقها ثم بعد هذا يستمر على تكذيبه وكفره .

﴿ أَطْلِقُوا إِلَّكَ مَا كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ ۖ أَطْلِقُوا إِلَّكَ ظِلِّي ذِي ثَلَاثِ شُعَبٍ ۖ لَا ظِلِيلٍ وَلَا يُغْنِي مِنَ الْهَبِ ۖ إِنَّهَا تَرْمِي بِشَكْرٍ كَالْقَصْرِ ۖ كَأَنَّهُ جِمَلَتٌ صُفْرٌ ۖ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ ۖ هَذَا يَوْمٌ لَا يَنْطِقُونَ ۖ وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ ۖ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ ۖ هَذَا يَوْمٌ الْقَصَلِ جَمَعْتُمْكُمُ وَالْأَوَّلِينَ ۖ فَإِنْ كَانَ لَكُمْ كَيْدٌ فَيَكِيدُونَ ۖ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ ۖ

يقول تعالى مخبراً عن الكفار المكذبين بالمعاد والجزاء والجنة والنار أنهم يقال لهم يوم القيامة : ﴿ أَطْلِقُوا إِلَّكَ مَا كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ ۖ أَطْلِقُوا إِلَّكَ ظِلِّي ذِي ثَلَاثِ شُعَبٍ ﴾ يعني لهب النار إذا ارتفع وصعد معه دخان ، فمن شدته وقوته أن له ثلاث شعب ﴿ لَا ظِلِيلٍ وَلَا يُغْنِي مِنَ الْهَبِ ﴾ أي ظل الدخان المقابل للهب ﴿ لَا ظِلِيلٍ ﴾ هو في نفسه ﴿ وَلَا يُغْنِي مِنَ الْهَبِ ﴾ يعني ولا يقيهم حرّ الלב . وقوله تعالى : ﴿ إِنَّهَا تَرْمِي بِشَكْرٍ كَالْقَصْرِ ﴾ أي يتطاير الشر من لهبها كالقصر . قال ابن مسعود : كالحصون ، وقال ابن عباس وغيره يعني أصول الشجر ﴿ كَأَنَّهُ جِمَلَتٌ صُفْرٌ ﴾ أي كالإبل السود . وقيل يعني حبال السفن ، وقيل قطع نحاس . وعن ابن عباس رضي الله عنه ﴿ إِنَّهَا تَرْمِي بِشَكْرٍ كَالْقَصْرِ ﴾ قال : كنا نعد إلى الخشبة ثلاثة أذرع ، وفوق ذلك نرفعه للثناء فنسميه القصر ﴿ كَأَنَّهُ جِمَلَتٌ صُفْرٌ ﴾ حبال السفن تجمع حتى تكون كأوساط الرجال ﴿ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ ﴾ ثم قال تعالى : ﴿ هَذَا يَوْمٌ لَا يَنْطِقُونَ ﴾ أي لا يتكلمون ﴿ وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ ﴾ أي لا يقدرّون على كلام ولا يؤذن لهم فيه ليعتذروا ، بل قد قامت عليهم الحجة ، ووقع القول عليهم بما ظلموا فهم لا ينطقون ، وعرصات القيامة حالات والرب تعالى يخبر عن هذه الحالة تارة وعن هذه الحال تارة ليدل على شدة الأهوال والزلازل يومئذ ، ولهذا يقول بعد كل فصل من هذا الكلام ﴿ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ ۖ

وقوله تعالى : ﴿ هَذَا يَوْمٌ الْقَصَلِ جَمَعْتُمْكُمُ وَالْأَوَّلِينَ ۖ فَإِنْ كَانَ لَكُمْ كَيْدٌ فَيَكِيدُونَ ﴾ وهذه مخاطبة من الخالق تعالى لعباده يقول لهم : ﴿ هَذَا يَوْمٌ الْقَصَلِ جَمَعْتُمْكُمُ وَالْأَوَّلِينَ ﴾ يعني أنه جمعهم بقدرته في صعيد

واحد يسمعهم الداعي وينفذهم البصر . وقوله تعالى : ﴿ فَإِنْ كَانَ لَكُمْ كَيْدٌ فَكِدُونِ ﴾ تهديد شديد ووعيد أكيد أي إن قدرتم على أن تخلصوا من قبضتي وتنجوا من حكمي فافعلوا فإنكم لا تقدرون على ذلك . وقد قال تعالى : ﴿ وَلَا تَصْرُوهَا سِتًّا ﴾ وفي الحديث : « يَا عِبَادِي إِنَّكُمْ لَنْ تَبْلُغُوا نَفْعِي فَتَنْفَعُونِي وَلَنْ تَبْلُغُوا ضَرْوِي فَتَضُرُّوَنِي » ^(١) .

﴿ إِنَّ الْأَشْقِينَ فِي ظِلَالٍ وَعُيُونٍ ۝ وَفُوكَا يَمَّا يَشْتَهُونَ ۝ كُؤَا وَاشْرَبُوا هَيْتًا يَمَّا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ۝ إِنَّا كَذَّاكَ بِنَجْرِي ۝ وَالْحَسِينَ ۝ وَيَلَّ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ ۝ كُؤَا وَتَمَنَّوْا قَلِيلًا إِنَّكُمْ تُجْرَمُونَ ۝ وَيَلَّ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ ۝ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ارْكَعُوا لَا يَرْكَعُونَ ۝ وَيَلَّ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ ۝ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدُ يُؤْمِنُونَ ۝ .

يقول تعالى مخبراً عن عباده المتقين الذين عبدوه بأداء الواجبات ، وترك المحرمات ، لإنهم يوم القيامة يكونون في جنات وعيون أي بخلاف ما أولئك الأشقياء فيه من ظل اليعحوم وهو الدخان الأسود المنتن ، وقوله تعالى : ﴿ وَفُوكَا يَمَّا يَشْتَهُونَ ﴾ أي ومن سائر أنواع الشمار مهما طلبوا وجدوا ﴿ كُؤَا وَاشْرَبُوا هَيْتًا يَمَّا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ أي يقال لهم ذلك على سبيل الإحسان إليهم . ثم قال تعالى مخبراً خبراً مستأنفاً ﴿ إِنَّا كَذَّاكَ بِنَجْرِي ۝ وَالْحَسِينَ ﴾ أي هذا جزاؤنا لمن أحسن العمل ﴿ وَيَلَّ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ ﴾ وقوله تعالى : ﴿ كُؤَا وَتَمَنَّوْا قَلِيلًا إِنَّكُمْ تُجْرَمُونَ ﴾ خطاب للمكذبين بيوم الدين وأمرهم أمر تهديد ووعيد فقال تعالى : ﴿ كُؤَا وَتَمَنَّوْا قَلِيلًا ﴾ أي مدة قليلة قصيرة ﴿ إِنَّكُمْ تُجْرَمُونَ ﴾ أي ثم تساقون إلى نار جهنم التي تقدم ذكرها ﴿ وَيَلَّ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ ﴾ : ﴿ تَمَنُّهُمْ قَلِيلًا ثُمَّ نَضَّطَّرَّهُمْ إِلَيْكَ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴾ وقوله تعالى : ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ارْكَعُوا لَا يَرْكَعُونَ ﴾ أي إذا أمر هؤلاء الجهلة من الكفار أن يكونوا من المصلين مع الجماعة امتنعوا من ذلك واستكبروا عنه . ولهذا قال تعالى : ﴿ وَيَلَّ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ ﴾ ثم قال تعالى : ﴿ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدُ يُؤْمِنُونَ ﴾ أي إذا لم يؤمنوا بهذا القرآن ، فبأي كلام يؤمنون به ؟ .

سورة النبأ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

[illegible]

يقول تعالى منكراً على المشركين في تساؤلهم عن يوم القيامة إنكاراً لوقوعها ﴿عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ﴾ عن التَّيْمِ الْعَظِيمِ ﴿أَيُّ عَنِ أَيِّ شَيْءٍ يَتَسَاءَلُونَ؟﴾ عن أمر القيامة ، وهو النبأ العظيم ، يعني الخبر الهائل المفظع الباهر . ﴿الَّذِي هُوَ فِيهِ تُخْلِفُونَ﴾ يعني الناس فيه على قولين : مؤمن به وكافر . ثم قال تعالى متوعداً لمنكري القيامة ﴿كَلَّا سَيَمْكُونُ﴾ ﴿كَلَّا سَيَكُونُونَ﴾ وهذا تهديد شديد ووعيد أكيد . ثم شرع تبارك وتعالى يبيِّن قدرته العظيمة على خلق الأشياء الغريبة والأمور العجيبة الدالة على قدرته على ما يشاء من أمر المعاد وغيره فقال : ﴿أَلَمْ تَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهْدًا﴾ أي مهدة للخلائق ذلولاً لهم قارة ساكنة ثابتة ﴿وَالْجِبَالَ أَوْتَادًا﴾ أي جعلها لها أوتاداً أرساها بها وثبتها وقررها حتى سكنت ولم تضطرب بمن عليها . ثم قال تعالى : ﴿وَخَلَقْنَاهُ زَوْجًا﴾ يعني ذكرًا وأنثى يتمتع كل منهما بالآخر ويحصل التناسل بذلك وقوله تعالى : ﴿وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا﴾ أي قطعاً للحركة لتحصل الراحة من كثرة الترداد والسعي في المعاش في عرض النهار . ﴿وَجَعَلْنَا أَيْلًا يَاسًا﴾ أي يغشى الناس ظلامه وسواده وقيل سكناً . وقوله تعالى : ﴿وَجَعَلْنَا أَثَارَ مَعَاثٍ﴾ أي جعلناه مشرقاً نيرًا مضيئاً ليتمكن الناس من التصرف والذهاب والجيء للمعاش والتكسب والتجارات وغير ذلك .

وقوله تعالى : ﴿ وَبَيْنَنَا وَفُوقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا ﴾ يعني السموات السبع في اتساعها وارتفاعها وإحكامها وإتقانها وتزينها بالكواكب الثوابت والسيارات . ولهذا قال تعالى : ﴿ وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَّاجًا ﴾ يعني الشمس المنيرة على جميع العالم ، التي يتوهج ضوءها لأهل الأرض كلهم . وقوله تعالى : ﴿ وَأَنْزَلْنَا مِنْ أَلْفِ مِائَةِ مَاءٍ نَجَّابًا ﴾ قال ابن عباس : المعصرات : الرياح . ومعنى هذا القول أنها تستدر المطر من السحاب ، وقال ابن عباس ﴿ مِنْ أَلْفِ مِائَةِ مَاءٍ ﴾ أي من السحاب واختاره ابن جرير ، وقال الفراء : هي السحاب التي تتحلب المطر بعد ، كما يقال امرأة معصر إذا دنا حيضها ولم تحض . قوله جل وعلا : ﴿ مَاءٌ نَجَّابًا ﴾ أي منصبًا وقيل : متابعًا . وقيل : كثيرًا قال ابن جرير : ولا يعرف في كلام العرب في صفة الكثرة الثج وإنما الثج الصب المتتابع ومنه قول النبي ﷺ : « أَفْضَلُ الْحَجِّ الْعَجْجُ وَالثَّجْجُ » ^(١) . يعني صب دماء البدن هكذا قال ، قلت وفي حديث المستحاضة حين قال لها رسول الله ﷺ : « أَنْعَتْ لِكَ الْكِرْسَفِ » ^(٢) . يعني أن تحتشي بالقطن . فقالت : يا رسول الله هو أكثر من ذلك إنما أئج ثجًا . وهذا فيه دلالة على استعمال الثج في الصب المتتابع الكثير ، وقوله تعالى : ﴿ لِنُخْرِجَ بِهِ نَجًّا

(١) أخرجه الهيثمي في مجمع الزوائد (٢٢٤/٣) .

(٢) أخرجه البيهقي في السنن (٣٨٨/١) والكُزُوفُ القطرُ . المعجم الوسيط (٨١٤) .

وَنَبَاتًا ﴿١٧﴾ وَجَنَّاتٍ أَلْفَافًا ﴿١٨﴾ أَي لَنُخْرِجَ بِهَذَا الْمَاءِ الْكَثِيرِ الطَّيِّبِ الْمُبَارَكِ ﴿١٧﴾ حَبًّا ﴿١٨﴾ يَدْخُرُ لِلْأَنَاسِي وَالْأَنْعَامِ ﴿١٩﴾ وَنَبَاتًا ﴿٢٠﴾ أَي خَضِرًا يُوَكِّلُ رَطْبًا ﴿٢١﴾ وَجَنَّاتٍ ﴿٢٢﴾ أَي بساتين وحدائق من ثمرات متنوعة وألوان مختلفة وطعوم وروائح متفاوتة ، وإن كان ذلك في بقعة واحدة من الأرض مجتمعا ، ولهذا قال : وجنات ألفافا ، قال ابن عباس وغيره : ألفافا : مجتمعة .

﴿ ٢٣ ﴾ إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ كَانَ مِيقَاتٍ ﴿٢٤﴾ يَوْمَ يُنْفَخُ فِي السُّورِ فَأَتَوْنَ آبُوبَابًا ﴿٢٥﴾ وَفُتِحَتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ أَبْوَابًا ﴿٢٦﴾ وَسُيِّرَتِ الْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَابًا ﴿٢٧﴾ إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا ﴿٢٨﴾ لِلطَّاغِينَ فِيهَا أَعْقَابًا ﴿٢٩﴾ لَا يَدْخُلُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلَا شَرَابًا ﴿٣٠﴾ إِلَّا حِيمًا وَغَسَّاقًا ﴿٣١﴾ جَزَاءً وَفَاقًا ﴿٣٢﴾ إِنَّهُمْ كَانُوا لَا يَرْجُونَ حِسَابًا ﴿٣٣﴾ وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كِذَابًا ﴿٣٤﴾ وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ كِتَابًا ﴿٣٥﴾ فَذُوقُوا فَلَنْ نَزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا ﴿٣٦﴾ .

يقول تعالى مخبرا عن يوم الفصل وهو يوم القيامة أنه مؤقت بأجل معدود لا يزداد عليه ولا ينقص منه ولا يعلم وقته على التعيين إِلَّا اللَّهُ ﷻ ﴿٢٣﴾ يَوْمَ يُنْفَخُ فِي السُّورِ فَأَتَوْنَ آبُوبَابًا ﴿٢٤﴾ قال مجاهد : زمرا زمرا . قال ابن جرير يعني تأتي كل أمة مع رسولها . عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « مَا يَتَيْنِ التَّفْخِيتَيْنِ أَرْبَعُونَ » . قالوا : أربعون يوما ؟ قال : « آتَيْتُ » . قالوا : أربعون شهرا ؟ قال : « آتَيْتُ » . قالوا : أربعون سنة ؟ قال : « آتَيْتُ » قال : « ثُمَّ يُنْزَلُ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مَاءٌ فَيُجْبِثُونَ كَمَا يُجْبِثُ الْبَقْلُ لَيْسَ مِنَ الْإِنْسَانِ شَيْءٌ إِلَّا يَتَلَى إِلَّا عَظْمًا وَاحِدًا وَهُوَ عَجْبُ الذَّنْبِ وَمِنْهُ يُرْكَبُ الْخَلْقُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ » ^(١) . ﴿٢٥﴾ وَفُتِحَتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ أَبْوَابًا ﴿٢٦﴾ أي طرقات ومسالك لنزول الملائكة ﴿٢٧﴾ وَسُيِّرَتِ الْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَابًا ﴿٢٨﴾ كقوله تعالى : ﴿ وَزَيَّ الْجِبَالُ تَحْتَهَا جَائِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ ﴾ وقال ههنا ﴿ فَكَانَتْ سَرَابًا ﴾ أي يخيل إلى الناظر أنها شيء وليست بشيء وبعد هذا تذهب بالكلية فلا عين ولا أثر . وقوله تعالى : ﴿ إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا ﴾ أي مرصدة معدة ﴿ لِلطَّاغِينَ ﴾ وهم المردة العصاة المخالفون للرسول ﴿ مَنَابًا ﴾ أي مرجعا ومنقلبا ومصيرا ونزلا .

وقوله تعالى : ﴿ لَيْتِينَ فِيهَا أَحْقَابًا ﴾ أي ماكنين فيها أحقابا وهي جمع حقب وهو المدة من الزمان ، قال علي بن أبي طالب لهلال الهجري : ما تجدون الحقب في كتاب الله المنزل ؟ قال : نجده ثمانين سنة ، لكل سنة اثنا عشر شهرا ، كل شهر ثلاثون يوما ، كل يوم ألف سنة . وعن عبد الله بن عمرو : الحقب أربعون سنة كل يوم منها كألف سنة مما تعدون . وقال بشير بن كعب : ذكر لي أن الحقب الواحد ثلاثمائة سنة ، كل سنة ثلاثمائة وستون يوما ، كل يوم منها كألف سنة . عن ابن عمر عن النبي ﷺ أنه قال : « وَاللَّهِ لَا يَخْرُجُ مِنَ النَّارِ أَحَدٌ حَتَّى يَمُكِّثَ فِيهَا أَحْقَابًا » . قال والحقب بضع وثمانون ، كل سنة ثلاثمائة وستون يوما مما تعدون ^(٢) وقد قال مقاتل بن حيان إن هذه الآية منسوخة بقوله تعالى ﴿ فَذُوقُوا فَلَنْ نَزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا ﴾ وقال خالد بن معدان هذه الآية وقوله تعالى : ﴿ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ ﴾ في أهل التوحيد . ثم قال ويحتمل أن يكون قوله تعالى : ﴿ لَيْتِينَ فِيهَا أَحْقَابًا ﴾ متعلقا بقوله تعالى : ﴿ لَا يَدْخُلُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلَا شَرَابًا ﴾ ثم يحدث الله لهم بعد ذلك عذابا من شكل آخر ونوع آخر ثم قال : والصحيح أنها لا انقضاء لها ، وعن سالم سمعت الحسن يسأل عن قوله تعالى ﴿ لَيْتِينَ فِيهَا أَحْقَابًا ﴾

(١) أخرجه البخاري في تفسير القرآن (٤٩٣٥) ومسلم في الفتى (١٤١) .

(٢) أخرجه الهيثمي في مجمع الزوائد (٣٩٥/١٠) والبيهقي في مسنده (٣٥٠٣) .

أَحْقَابًا ﴿٣١﴾ قال : أما الأحقاب فليس لها عدة إلا الخلود في النار ، ولكن ذكروا أن الحقب سبعون سنة كل يوم منها كآلف سنة مما تعدون ، وقال الربيع بن أنس ﴿لَيَبِينَ فِيهَا أَحْقَابًا﴾ لا يعلم عدة هذه الأحقاب إلا الله ﷻ ، وذكر لنا أن الحقب الواحد ثمانون سنة ، والسنة ثلاثمائة وستون يوماً كل يوم كآلف سنة مما تعدون . وقوله تعالى : ﴿لَا يَذُرُونَ فِيهَا يَرْدًا وَلَا شَرْبًا﴾ أي لا يجدون في جهنم بردًا لقلوبهم ولا شرابًا طيبًا يتغذون به ولهذا قال تعالى : ﴿إِلَّا حَيْمًا وَعَسًا﴾ قال أبو العالية استثنى من البرد الحميم ومن الشراب الغساق فأما الحميم فهو الحار الذي قد انتهى حره وحموه ، والغساق هو ما اجتمع من صديد أهل النار وعرقهم ودموعهم وجروحهم فهو بارد لا يستطيع من برده ولا يواجه من نتته ، قال ابن جرير : وقيل المراد بقوله : ﴿لَا يَذُرُونَ فِيهَا يَرْدًا﴾ يعني النوم كما قال الكندي :

بَرَدَتْ مَرَاشِفُهَا عَلَيَّ فَصَدْنِي عَنْهَا وَعَنْ قُبُلَاتِهَا الْبَرْدُ

وقوله تعالى : ﴿جَزَاءً وَفَاءً﴾ أي هذا الذي صاروا إليه من هذه العقوبة وفق أعمالهم الفاسدة التي كانوا يعملونها في الدنيا . ثم قال تعالى : ﴿إِنَّهُمْ كَاثِرُوا لَا يَرْجُونَ حِسَابًا﴾ أي لم يكونوا يعتقدون أن ثم دارًا يجازون فيها ويحاسبون ﴿وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كِذَابًا﴾ أي وكانوا يكذبون بحجج الله ودلائله على خلقه التي أنزلها على رسله صلى الله عليه وسلم فيقابلونها بالتكذيب والمعاندة وقوله : ﴿كِذَابًا﴾ أي تكذيبًا ، وهو مصدر من غير الفعل ، قالوا : وقد سمع أعرابي يستفتي الفراء على المروة : الخلق أحب إليك أو القصار ؟

وقوله تعالى : ﴿وَكُلُّ شَيْءٍ أَخَصَيْنَاهُ كِتَابًا﴾ أي وقد علمنا أعمال العباد كلهم وكتبناهم عليهم وسنجزئهم على ذلك إن خيرًا فخير وإن شرًا فشر ، وقوله تعالى : ﴿فَذَرُونَا فَلَنُزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا﴾ أي يقال لأهل النار : ذوقوا ما أنتم فيه فلن نزيدكم إلا عذابًا من جنسه وآخر من شكله أزواج . وعن عبد الله بن عمرو قال : لم ينزل على أهل النار آية أشد من هذه الآية ﴿فَذَرُونَا فَلَنُزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا﴾ قال : فهم في مزيد من العذاب أبدًا .

﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا ﴿٣٢﴾ حَتَّىٰ وَاعْتَبَا ﴿٣٣﴾ وَكَوَاعِبَ أَتْرَابًا ﴿٣٤﴾ وَكَأْسًا دِهَاقًا ﴿٣٥﴾ لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا كِذَابًا ﴿٣٦﴾ جَزَاءً مِمَّنْ رَزَاكَ عَمَلَهُمْ حِسَابًا﴾ .

يقول تعالى مخبرًا عن السعداء وما أعد الله تعالى لهم من الكرامة والنعيم المقيم فقال تعالى : ﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا﴾ قال ابن عباس والضحاك : منتزهًا . وقال مجاهد وقتادة : فازوا فنجوا من النار . والأظهر ههنا قول ابن عباس ؛ لأنه قال بعده ﴿حَتَّىٰ وَاعْتَبَا﴾ والحدائق البساتين من النخيل وغيرها ﴿وَاعْتَبَا﴾ و﴿كَوَاعِبَ أَتْرَابًا﴾ أي وحوارًا كواعب ، قال ابن عباس ومجاهد وغير واحد ﴿وَكُوَاعِبَ﴾ أي نواهد ، يعنون أن ثديهن نواهد لم يتدلين ؛ لأنهن أبكار عرب أتراب ، أي في سن واحد ، وعن أبي أمامة أنه سمعه يحدث عن النبي ﷺ أنه قال : «إِنَّ قُمْصَ أَهْلِ الْجَنَّةِ لَتَبْدُو مِنْ رِضْوَانِ اللَّهِ ، وَإِنَّ السَّحَابَةَ لَتَمْزُ بِهِنَّ فَتَنَادِيهِنَّ : يَا أَهْلَ الْجَنَّةِ مَاذَا تُرِيدُونَ أَنْ أُمْطِرْكُمْ ؟ حَتَّىٰ إِنَّهَا لَتَمْطِرُهُمُ الْكُوَاعِبُ الْأَتْرَابُ» ^(١) وقوله تعالى : ﴿وَكَأْسًا دِهَاقًا﴾ قيل : مملوءة متتابعة . وقيل : صافية ، وقيل : المملأى

المتبعة ، وقيل : هي المتابعة . وقوله تعالى : ﴿ لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا كِذْبًا ﴾ كقوله : ﴿ لَا تَقْرَأُ فِيهَا وَلَا نَذِيرٌ ﴾ أي ليس فيها كلام لا عار عن الفائدة ولا إثم كذب ، بل هي دار السلام وكل ما فيها سالم من النقص . وقوله : ﴿ جَزَاءُ مَن رَّزَقَكَ عَطَاءً حِسَابًا ﴾ أي هذا الذي ذكرناه جازاهم الله به وأعطاهموه بفضلهم ومنه وإحسانه ورحمته ﴿ عَطَاءً حِسَابًا ﴾ أي كافيا وافيا سالما كثيرا ، تقول العرب : أعطاني فأحسني أي كفاني ومنه حسبي الله أي الله كافي .

﴿ رَبِّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا الرَّحْمَنُ لَا يَمْلِكُونَ مِنْهُ خِطَابًا ﴾ يَوْمَ يَوْمِ الرُّوحِ وَالْمَلَائِكَةُ صَفًّا لَا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَن أُوذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَقَالَ صَوَابًا ﴿ ذَلِكَ الْيَوْمُ الْخَلْقُ فَمَنْ شَاءَ اخْتَدِ إِلَىٰ رَيْبِهِ مَتَابًا ﴾ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ عَذَابًا قَرِيبًا يَوْمَ يَنْظُرُ الْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ وَيَقُولُ الْكَافِرُ يَلَيْتَنِي كُنْتُ تُرَابًا ﴾ .

يخبر تعالى عن عظمته وجلاله وأنه رب السموات والأرض وما فيه وما بينهما وأنه الرحمن الذي شملت رحمته كل شيء ، وقوله تعالى : ﴿ لَا يَمْلِكُونَ مِنْهُ خِطَابًا ﴾ أي لا يقدر أحد على ابتداء مخاطبته إلا بإذنه . وقوله تعالى : ﴿ يَوْمَ يَوْمِ الرُّوحِ وَالْمَلَائِكَةُ صَفًّا لَا يَتَكَلَّمُونَ ﴾ اختلف المفسرون في المراد بالروح ههنا ما هو ؟ على أقوال أحدها : أنهم أرواح بني آدم ، الثاني : هم بنو آدم ، الثالث : أنهم خلق من خلق الله على صور بني آدم وليسوا بملائكة - ولا يبشر وهم يأكلون ويشربون . الرابع : هم جبريل ويستشهد لهذا القول بقوله ﴿ نَزَّلَ بِهِ الرُّوحَ الْأَمِينُ ﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ وقال مقاتل بن حيان : الروح هو أشرف الملائكة وأقربهم إلى الرب ﷻ وصاحب الوحي . الخامس : أنه القرآن . والسادس : أنه ملك من الملائكة بقدر جميع المخلوقات ، عن ابن عباس قوله : ﴿ يَوْمَ يَوْمِ الرُّوحِ ﴾ قال : هو ملك عظيم من أعظم الملائكة خلقا .

والأشبه عندي والله أعلم أنهم بنو آدم . وقوله تعالى : ﴿ إِلَّا مَن أُوذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ ﴾ كقوله : ﴿ يَوْمَ يَأْتِي لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِ ﴾ وكما ثبت في الصحيح « وَلَا يَتَكَلَّمُ يَوْمَئِذٍ إِلَّا الرُّسُلُ » (١) . وقوله تعالى : ﴿ وَقَالَ صَوَابًا ﴾ أي حقًا ومن الحق لا إله إلا الله ، وقوله تعالى : ﴿ ذَلِكَ الْيَوْمُ الْخَلْقُ ﴾ أي الكائن لا محالة ﴿ فَمَنْ شَاءَ اخْتَدِ إِلَىٰ رَيْبِهِ مَتَابًا ﴾ أي مرجعا وطريقا يهتدي إليه ومنهجًا يمر به عليه وقوله تعالى : ﴿ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ عَذَابًا قَرِيبًا ﴾ يعني يوم القيامة لتأكد وقوعه صار قريبا ؛ لأن كل ما هو آت آت ﴿ يَوْمَ يَنْظُرُ الْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ ﴾ أي يعرض عليه جميع أعماله خيرا وشرا ، قديمها وحديثها ﴿ وَيَقُولُ الْكَافِرُ يَلَيْتَنِي كُنْتُ تُرَابًا ﴾ أي يود الكافر يومئذ أنه كان في الدار الدنيا ترابا ولم يكن خلق ولا خرج إلى الوجود ، وذلك حين عاين عذاب الله ونظر إلى أعماله الفاسدة قد سطرت عليه بأيدي الملائكة السفرة الكرام البررة ، وقيل : إنما يود ذلك حين يحكم الله بين الحيوانات التي كانت في الدنيا فيفصل بينها بحكمه العدل الذي لا يجور حتى إنه ليقصص للشاة الجماء من القراء ، فإذا فرغ من الحكم بينها قال لها : كوني ترابا فتصير ترابا فعند ذلك يقول الكافر : ﴿ يَلَيْتَنِي كُنْتُ تُرَابًا ﴾ أي كنت حيوانا فأرجع إلى التراب .

سورة النازعات

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿وَالنَّازِعَاتِ غَرْقًا﴾ ❶ وَالنَّشِيطَاتِ تَشَفُّعًا ❷ وَالسَّيِّحَاتِ سَبًّا ❸ فَالْمُذِيرَاتِ أُنْمَا ❹ يَوْمَ تَرْجُفُ ❺ الرَّاجِفَةُ ❻ تَتَّبِعُنَا الرَّادِفَةُ ❼ قُلُوبٌ يَوْمِيذٍ وَاجِعَةٌ ❽ أَبْصَرُهَا خَشِيعَةٌ ❾ يَقُولُونَ أَوَنَّا لَمُرْدُوذُونَ فِي الْخَافِرَةِ ❿ أَوْذَا كُنَّا عِظْمًا تَحْرُورًا ⓫ قَالُوا يَلَّكَ إِذَا كَرَّةٌ خَاسِرَةٌ ⓬ فَلَنَمَّا هِيَ زَجْرَةٌ وَجِدَةٌ ⓭ فَإِذَا هُمْ بِالسَّاهِرَةِ ⓮ .

﴿وَالنَّازِعَاتِ غَرْقًا﴾ : الملائكة يعنون حين تنزع أرواح بني آدم فمنهم من تأخذ روحه بعسر فتغرق في نزعها ، ومنهم من تأخذ روحه بسهولة وكأنما حلته من نشاط ، وهو قوله : ﴿وَالنَّشِيطَاتِ تَشَفُّعًا﴾ عن ابن عباس قيل : هي أنفس الكفار تنزع ثم تغرق في النار . وقيل : الموت ، وقيل : هي النجوم ، وقيل : هي القسي في القتال . والصحيح الأول وعليه الأكثرون . وأما قوله تعالى : ﴿وَالسَّيِّحَاتِ سَبًّا﴾ قيل : هي الملائكة ، وقيل : الموت وقيل : هي النجوم ، وقيل : هي السفن . وقوله تعالى ﴿فَالْمُذِيرَاتِ أُنْمَا﴾ يعني الملائكة ، قال الحسن سبقت إلى الإيمان والتصديق . وقيل : الموت وقيل : هي النجوم وقيل : هي الخيل في سبيل الله .

وقوله تعالى : ﴿فَالْمُذِيرَاتِ أُنْمَا﴾ هي : الملائكة تدبر الأمر من السماء إلى الأرض يعني بأمر ربها ﷻ ولم يختلفوا في هذا ، ولم يقطع ابن جرير بالمراد في شيء من ذلك إلا أنه حكى في المديرات أمرا أنها الملائكة ولا أثبت ولا نفى . وقوله تعالى : ﴿يَوْمَ تَرْجُفُ الرَّاجِفَةُ﴾ تَتَّبِعُنَا الرَّادِفَةُ ﴿قال ابن عباس : هما النفختان الأولى والثانية . وعن مجاهد أما الأولى وهي قوله جل وعلا : ﴿يَوْمَ تَرْجُفُ الرَّاجِفَةُ﴾ فكقوله جلَّتْ عظمته ﴿يَوْمَ تَرْجُفُ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ﴾ الثانية : وهي الرادفة فهي كقوله : ﴿وَجَلَّتِ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ فَكَانَا دَكَّةً وَجِدَةً﴾ عن أبي بن كعب قال : قال رسول الله ﷺ : «جاءتِ الرَّاجِفَةُ تَتَّبِعُنَا الرَّادِفَةُ ، جاء الموت بما فيه » . فقال رجل : يا رسول الله أرأيت إن جعلت صلاتي كلها عليك ؟ قال : «إِذَا يَكْفِيكَ اللَّهُ مَا أَهَمَّكَ مِنْ دُنْيَاكَ وَآخِرَتِكَ» (١) . وقوله تعالى : ﴿قُلُوبٌ يَوْمِيذٍ وَاجِعَةٌ﴾ قال ابن عباس : يعني خائفة . ﴿أَبْصَرُهَا خَشِيعَةٌ﴾ أي أبصار أصحابها وإنما أضيفت إليها للملابسة أي ذليلة حقيرة مما عاينت من الأحوال .

وقوله تعالى : ﴿يَقُولُونَ أَوَنَّا لَمُرْدُوذُونَ فِي الْخَافِرَةِ﴾ يعني : مشركي قريش ، ومن قال بقولهم في إنكار المعاد يستبعدون وقوع البعث بعد المصير إلى الخافرة وهي القبور ، وبعد تمزق أجسادهم وتفتت عظامهم ونخورها . ولهذا : قالوا ﴿إِذَا كُنَّا عِظْمًا تَحْرُورًا﴾ وقرئ ﴿تَحْرُورًا﴾ (٢) أي بالية وهو العظم إذا بلي ودخلت الريح فيه ﴿قَالُوا يَلَّكَ إِذَا كَرَّةٌ خَاسِرَةٌ﴾ وعن ابن عباس وغيره : ﴿الْخَافِرَةُ﴾ الحياة بعد الموت ، وقال ابن زيد : الخافرة النار وما أكثر أسماءها ! هي النار والجحيم وسقر وجهنم والهواية

(١) أخرجه أحمد في مسنده (١٣٦/٥) والمنذري في الترغيب والترهيب (٥٠٠/٢) .

(٢) قرأ حمزة والكسائي وخلف وأبو بكر ورويس ﴿تَحْرُورًا﴾ بالألف ، والباقون بغير ألف والوجهان عن الدوري عن الكسائي والعمل على الحذف (تقريب النشر ص ١٨٦) .

والحافرة ولظي والحطمة ، وأما قولهم ﴿ يَأْتِيكَ إِذَا كَرَّ غَايِرَةٌ ﴾ فقال محمد بن كعب : قالت قريش : لعن أحيانا الله بعد أن نموت لنخسرن . قال الله تعالى : ﴿ فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ ﴾ ﴿ فَإِذَا هُمْ بِالسَّاهِرَةِ ﴾ أي وإنما هو أمر من الله لا مثوية فيه ولا تأكيد فإذا الناس قيام ينظرون وهو أن يأمر تعالى إسرافيل فينفخ في الصور نفخة البعث فإذا الأولون والآخرون قيام بين يدي الرب ﷻ ينظرون . قال مجاهد : ﴿ فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ ﴾ صيحة واحدة . وقال الحسن البصري : زجرة من الغضب . وعن الربيع بن أنس : هي النفخة الآخرة . وقوله تعالى : ﴿ فَإِذَا هُمْ بِالسَّاهِرَةِ ﴾ قال ابن عباس : الساهرة الأرض كلها . وقال ابن زيد : الساهرة وجه الأرض . وقال الثوري : أرض الشام ، وقال عثمان بن أبي العاتكة : الساهرة أرض المقدس وهذه أقوال كلها غريبة ، والصحيح أنها الأرض وجهها الأعلى ، وعن سهل بن سعد الساعدي ﴿ فَإِذَا هُمْ بِالسَّاهِرَةِ ﴾ قال : أرض يضاء عفراء خالية كالخيزة النقي .

﴿ هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَى ﴾ إِذْ نَادَاهُ رَبُّهُ بِالْوَادِئِ الْقَدَسِ طَوًى ﴿ أَذْهَبَ إِلَيْكَ فِرْعَوْنُ إِنَّهُ كَفَرْتَنِي ﴾ قُلْ هَلْ لَكَ إِلَهٌ إِلَّا أَنَا تَزَكَّى ﴿ وَأَهْدِيكَ إِلَى رَبِّكَ فَتَخْتَنِي ﴾ فَأَرَاهُ الْآيَةَ الْكُبْرَى ﴿ فَكَذَّبَ وَعَصَى ﴾ ثُمَّ أَذْبَرَ يَتَخَنَّي ﴿ فَخَسَرَ فَأَدَّى ﴾ فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى ﴿ فَأَخَذَهُ اللَّهُ نَكَالَ الْآخِرَةِ وَالْأُولَى ﴾ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِّمَن يَتَخَنَّى .

يخبر تعالى رسوله محمداً ﷺ عن عبده ورسوله موسى عليه السلام أنه ابتعثه إلى فرعون ، وأيده الله بالمعجزات ومع هذا استمر على كفره وطغيانه حتى أخذه الله أخذ عزيز مقتدر ، وكذلك عاقبة من خالفك وكذب بما جئت به . ولهذا قال في آخر القصة : ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِّمَن يَتَخَنَّى ﴾ فقولته تعالى : ﴿ هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَى ﴾ أي : هل سمعت بخبره ﴿ إِذْ نَادَاهُ رَبُّهُ ﴾ أي كلمه نداء ﴿ بِالْوَادِئِ الْقَدَسِ ﴾ أي المطهر ، ﴿ طَوًى ﴾ وهو اسم الوادي على الصحيح فقال له : ﴿ أَذْهَبَ إِلَيْكَ فِرْعَوْنُ إِنَّهُ كَفَرْتَنِي ﴾ أي تجبر وتمرد وعتا ﴿ قُلْ هَلْ لَكَ إِلَهٌ إِلَّا أَنَا تَزَكَّى ﴾ أي قل له : هل لك أن تجيب إلى طريقة ومسلك تزكى به ، وتسلم وتطيع ﴿ وَأَهْدِيكَ إِلَى رَبِّكَ ﴾ أي أدلك إلى عبادة ربك ﴿ فَتَخْتَنِي ﴾ أي فيصير قلبك خاضعاً له مطيعاً خاشعاً بعد ما كان قاسياً خبيثاً بعيداً من الخير ﴿ فَأَرَاهُ الْآيَةَ الْكُبْرَى ﴾ يعني فأظهر له موسى مع هذه الدعوة الحق حجة قوية ودليلاً واضحاً على صدق ما جاءه به من عند الله ﴿ فَكَذَّبَ وَعَصَى ﴾ أي فكذب بالحق وخالف ما أمره به من الطاعة ، وحاصله أنه كفر قلبه فلم يفعل لموسى بباطنه ولا بظاهره وعلمه بأن ما جاء به حق لا يلزم منه أنه مؤمن به ؛ لأن المعرفة علم القلب والإيمان عمله وهو الانقياد للحق والخضوع له . وقوله تعالى : ﴿ ثُمَّ أَذْبَرَ يَتَخَنَّي ﴾ أي في مقابلة الحق بالباطل وهو جمعه السحرة ليقابلوا ما جاء به موسى عليه السلام من المعجزات الباهرات ﴿ فَخَسَرَ فَأَدَّى ﴾ أي في قومه ﴿ فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى ﴾ قال ابن عباس ومجاهد : وهذه الكلمة قالها فرعون بعد قوله : ﴿ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَهِ غَيْرِي ﴾ بأربعين سنة . قال الله تعالى : ﴿ فَأَخَذَهُ اللَّهُ نَكَالَ الْآخِرَةِ وَالْأُولَى ﴾ أي انتقم الله منه انتقاماً جعله به عبرة ونكالاً لأمثاله من المتمردين في الدنيا وهذا هو الصحيح في الآية معنى أن المراد بقوله ﴿ نَكَالَ الْآخِرَةِ وَالْأُولَى ﴾ أي الدنيا والآخرة وقيل : المراد بذلك كلماته الأولى والثانية ، وقيل : كفره وعصيانه ، والصحيح الذي لا شك فيه الأول ، وقوله : ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِّمَن يَتَخَنَّى ﴾ أي لمن يتعظ وينزجر .

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ خُلُقًا أَمْ لَمَّا أَرَاكُمُ اسْتَأْتَمَرْتُمْ بَيْنَهُمَا ﴾ رَفَعَ سَمَكَهَا فَسَوَّاهَا ﴿ وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَاهَا ﴾ وَالْأَرْضُ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا ﴿

أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا وَمَرْعَاهَا ﴿٥٥﴾ وَالْجِبَالِ أَرْسُنَهَا ﴿٥٦﴾ مَنَّا لَكُمْ وَلَاتُغْنِيَكُمْ ﴿٥٧﴾ .

يقول تعالى محتجاً على منكري البعث في إعادة الخلق بعد بدئه ﴿مَنَّا لَكُمْ﴾ أيها الناس ﴿لَاتُغْنِيكُمْ﴾ أشد خلقاً أَرِ السَّمَاءَ ﴿يعني بل السماء أشد خلقاً منكم﴾ ، وقوله تعالى : ﴿بَنَّا﴾ فسرهُ بقوله : ﴿رَفَعَ سَكَكَهَا﴾ أي جعلها عالية البناء بعيدة الفناء مستوية الأرجاء مكللة بالكواكب في الليلة الظلماء . وقوله تعالى : ﴿وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَاهَا﴾ أي جعل ليلها مظلمة أسود حالكة ، ونهارها مضيئاً مشرقاً نيراً واضحاً ، قال ابن عباس : أغطش ليلها أظلمه ، ﴿وَأَخْرَجَ ضُحَاهَا﴾ أي أنار نهارها . وقوله تعالى : ﴿وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا﴾ فسرهُ بقوله تعالى : ﴿أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا وَمَرْعَاهَا﴾ وقد تقدم في سورة السجدة أن الأرض خلقت قبل خلق السماء ولكن إنما دحيت بعد خلق السماء بمعنى أنه أخرج ما كان فيها بالقوة إلى الفعل . عن ابن عباس ﴿دَحَاهَا﴾ ودحيتها أن أخرج منها الماء والمرعى وشقق فيها الأنهار وجعل فيها الجبال والرمال والسبل والآكام . فذلك قوله : ﴿وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا﴾ وقوله تعالى : ﴿وَالْجِبَالِ أَرْسُنَهَا﴾ أي قررها وأثبتها وأكدها في أماكنها وهو الحكيم العليم . الرؤوف بخلقه الرحيم . وعن أنس بن مالك عن النبي ﷺ قال : «لَمَّا خَلَقَ اللَّهُ الْأَرْضَ جَعَلَتْ تَمِيدُ فَخَلَقَ الْجِبَالَ فَأَلْقَاهَا عَلَيْهَا فَاسْتَقَرَّتْ فَتَعَجَّبَتِ الْمَلَائِكَةُ مِنْ خَلْقِ الْجِبَالِ ، فَقَالَتْ : يَا رَبِّ ، فَهَلْ مِنْ خَلْقِكَ شَيْءٍ أَشَدُّ مِنْ الْجِبَالِ ؟ قَالَ : نَعَمْ ، الْحَدِيدُ . قَالَتْ : يَا رَبِّ فَهَلْ مِنْ خَلْقِكَ شَيْءٍ أَشَدُّ مِنْ الْحَدِيدِ ؟ قَالَ : نَعَمْ ، النَّارُ . قَالَتْ : يَا رَبِّ فَهَلْ مِنْ خَلْقِكَ شَيْءٍ أَشَدُّ مِنَ النَّارِ ؟ قَالَ : نَعَمْ ، الْمَاءُ . قَالَتْ : يَا رَبِّ فَهَلْ مِنْ خَلْقِكَ شَيْءٍ أَشَدُّ مِنَ الْمَاءِ ؟ قَالَ : نَعَمْ ، الرِّيحُ ، قَالَتْ : يَا رَبِّ فَهَلْ مِنْ خَلْقِكَ شَيْءٍ أَشَدُّ مِنَ الرِّيحِ ؟ قَالَ : نَعَمْ ، ابْنُ آدَمَ يَتَصَدَّقُ بِبَيْعِيهِ يُخْفِيهَا عَنْ شِمَالِهِ » (١) .

وقوله تعالى : ﴿مَنَّا لَكُمْ وَلَاتُغْنِيكُمْ﴾ أي دحا الأرض فأنبع عيونها ، وأظهر مكنونها ، وأجرى أنهارها ، وأثبت زروعها وأشجارها وثمارها ، وثبت جبالها لتستقر بأهلها ، كل ذلك متاعاً لخلقها ولما يحتاجون إليه من الأنعام التي يأكلونها ويركبونها مدة احتياجهم إليها في هذه الدار إلى أن ينتهي الأمد وينقضي الأجل .

﴿فَإِذَا جَاءَ الظَّامَةُ الْكُبْرَى﴾ ﴿يَوْمَ يَتَذَكَّرُ الْإِنْسَانُ مَا سَعَى﴾ ﴿وَوُزِنَتْ الْحَبِيبَةُ لِمَنْ رَى﴾ ﴿فَأَمَّا مَنْ طَغَى﴾ ﴿وَآثَرَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾ ﴿فَإِنَّ الْحَبِيبَ هِيَ الْمَأْوَى﴾ ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى﴾ ﴿فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى﴾ ﴿يَتَشَلُّوكَ عَنِ النَّاسَةِ أَيَّانَ مَرُسَهَا﴾ ﴿فِيمَ أَنْتَ مِنْ ذِكْرِنَا﴾ ﴿إِلَّا رِيكٌ مُنْتَهَبًا﴾ ﴿إِنَّمَا أَنْتَ مُنْذِرٌ مَّنْ يَخْشَاهَا﴾ ﴿كَانَتْهُمْ يَوْمَ يُوزَنُوا لَوْ يَلْبِسُوا إِلَّا عِيشَةً أَوْ ضَحَا﴾ .

يقول تعالى : ﴿فَإِذَا جَاءَ الظَّامَةُ الْكُبْرَى﴾ وهو يوم القيامة ، قاله ابن عباس سميت بذلك ؛ لأنها تطم على كل أمر هائل مقطع ، ﴿يَوْمَ يَتَذَكَّرُ الْإِنْسَانُ مَا سَعَى﴾ أي حيثئذ يتذكر ابن آدم جميع عمله خيره وشره . ﴿وَوُزِنَتْ الْحَبِيبَةُ لِمَنْ رَى﴾ أي أظهرت للنظرين فرآها الناس عياناً ﴿فَأَمَّا مَنْ طَغَى﴾ أي تمرد وعنا ﴿وَآثَرَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾ أي قدمها على أمر دينه وأخراه ﴿فَإِنَّ الْحَبِيبَ هِيَ الْمَأْوَى﴾ أي فإن مصيره إلى

الرحيم وإن مطعمه من الزقوم ومشربه من الحميم ﴿ وَأَنَا مِنْ خَافٍ مَقَامٍ رَئِيءٍ وَهِيَ النَّفْسُ عَنِ الْهَوَىٰ ﴾ أي خاف القيام بين يدي الله ﷻ وخاف حكم الله فيه ونهى نفسه عن هواها وردّها إلى طاعة مولاهما ﴿ فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْأَوَّلَىٰ ﴾ أي منقلبته ومصيره ومرجعه إلى الجنة الفيحاء ثم قال تعالى : ﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا ﴾ ﴿ فِيمَ أَنْتَ مِنْ ذِكْرِنَهَا ﴾ ﴿ إِنَّ رَبَّكَ مُنْهَبَهَا ﴾ أي ليس عملها إليك ولا إلى أحد من الخلق ، بل مردّها ومرجعها إلى الله ﷻ فهو الذي يعلم وقتها على التعيين ؛ ولهذا لما سأل جبريل رسول الله ﷺ عن وقت الساعة قال : « مَا الْمَسْئُولُ عَنْهَا بِأَعْلَمَ مِنَ السَّائِلِ » ^(١) . وقوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا أَنْتَ مُنذِرٌ مَنِ يَحْسَبْنَهَا ﴾ أي إنما بعثتك لتنذر الناس وتحذّرهم من بأس الله وعذابه فمن خشى الله وخاف مقامه ووعيده اتبعك فأفلح ، وأنجح والحيّة والخسار على من كذّبك وخالفك . وقوله تعالى : ﴿ كَانَتْهُمْ يَوْمَ يُؤْتَوْنَ بِرُوحِنَا لَوْ يَلْبِثُونَ إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحًى ﴾ أي إذا قاموا من قبورهم إلى المحشر يستقصرون مدة الحياة الدنيا حتى كأنها عندهم كانت عشيّة من يوم أو ضحى من يوم ، عن ابن عباس ﴿ كَانَتْهُمْ يَوْمَ يُؤْتَوْنَ بِرُوحِنَا لَوْ يَلْبِثُونَ إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحًى ﴾ أما عشيّة فما بين الظهر إلى الغروب الشمس ﴿ أَوْ ضُحًى ﴾ ما بين طلوع الشمس إلى نصف النهار وقال قتادة : وقت الدنيا في أعين القوم حين عاينوا الآخرة .

(١) أخرجه مسلم في الإيمان (١) وأحمد في مسنده (٤٢٦/٢) .

سورة عبس

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ عَبَسَ وَتَوَلَّى ۝ أَنْ جَاءَهُ الْأَخْمَى ۝ وَمَا يُدْرِيكَ لَمَلَمَ يَرَى ۝ أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنْفَعُمُ الذِّكْرَى ۝ أَمَّا مَنِ اسْتَغْنَى ۝ فَأَنْتَ لَهُ صَدِّقَى ۝ وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَرْبَى ۝ وَأَمَّا مَن جَاءَكَ يَسْعَى ۝ وَهُوَ يَخْشَى ۝ فَأَنْتَ عَنْهُ تَلَهَّى ۝ كَلَّا إِنَّمَا تَذَكَّرُ ۝ فَتَن شَاءَ ذَكَرُ ۝ فِي صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ ۝ مَرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍ ۝ بِأَيْدِي سَفَرَةٍ ۝ كِرَامٍ بَرَرَةٍ ۝ .

ذكر غير واحد من المفسرين أن رسول الله ﷺ كان يوماً يخاطب أحد عظماء قريش وقد طمع في إسلامه فبينما هو يخاطبه ويناجيه إذ أقبل ابن أم مكتوم وكان ممن أسلم قديماً فجعل يسأل رسول الله ﷺ عن شيء ويلح عليه ، وود النبي ﷺ أن لو كف ساعته تلك ؛ ليتمكن من مخاطبة ذلك الرجل طمعاً ورغبة في هدايته . وعبس في وجه ابن أم مكتوم وأعرض عنه وأقبل على الآخر ، فأنزل الله تعالى : ﴿ عَبَسَ وَتَوَلَّى ۝ أَنْ جَاءَهُ الْأَخْمَى ۝ وَمَا يُدْرِيكَ لَمَلَمَ يَرَى ۝ أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنْفَعُمُ الذِّكْرَى ۝ أَمَّا مَنِ اسْتَغْنَى ۝ فَأَنْتَ لَهُ صَدِّقَى ۝ وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَرْبَى ۝ وَأَمَّا مَن جَاءَكَ يَسْعَى ۝ وَهُوَ يَخْشَى ۝ فَأَنْتَ عَنْهُ تَلَهَّى ۝ كَلَّا إِنَّمَا تَذَكَّرُ ۝ فَتَن شَاءَ ذَكَرُ ۝ فِي صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ ۝ مَرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍ ۝ بِأَيْدِي سَفَرَةٍ ۝ كِرَامٍ بَرَرَةٍ ۝ .

أي أما الغني فأنت تعرض له لعله يهتدي ﴿ وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَرْبَى ﴾ أي ما أنت بمطالب به إذا لم يحصل له زكاة ﴿ وَأَمَّا مَن جَاءَكَ يَسْعَى ۝ وَهُوَ يَخْشَى ﴾ أي يقصدك ويؤمك ليهتدي بما تقول له ﴿ فَأَنْتَ عَنْهُ تَلَهَّى ﴾ أي تتشاغل ، ومن ههنا أمر الله تعالى رسول الله ﷺ أن لا يخص بالإنذار أحداً ، بل يساوي فيه بين الشريف والضعيف والفقير والغني والسادة والعبيد والرجال والنساء والصغار والكبار . ثم الله تعالى يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم وله الحكمة البالغة والحجة الدامغة .

عن عائشة قالت : أنزلت ﴿ عَبَسَ وَتَوَلَّى ﴾ في ابن أم مكتوم الأعمى أتى إلى رسول الله ﷺ فجعل يقول : أرشدني . قالت : وعند رسول الله ﷺ رجل من عظماء المشركين . قالت : فجعل النبي ﷺ يعرض عنه ويقبل على الآخر ويقول : « أَتَرَى بِمَا أَقُولُ بَأْسًا ؟ » . فيقول : لا ! ففي هذا أنزلت ﴿ عَبَسَ وَتَوَلَّى ﴾ وعن هشام بن عروة عن أبيه قال : أنزلت عبس وتولى في ابن أم مكتوم ولم يذكر فيه عن عائشة (١) .

قلت : كذلك هو في الموطأ . وعن عبد الله بن عمر يقول : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « إِنَّ بِلَالًا يُؤْذَنُ لَيْلِلَ فَكُلُّوا وَاشْرَبُوا حَتَّى تَشْمَعُوا أَذَانَ ابْنِ أُمِّ مَكْتُومٍ » (٢) . وهو الأعمى الذي أنزل الله تعالى فيه ﴿ عَبَسَ وَتَوَلَّى ۝ أَنْ جَاءَهُ الْأَخْمَى ۝ وَمَا يُدْرِيكَ لَمَلَمَ يَرَى ۝ أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنْفَعُمُ الذِّكْرَى ۝ أَمَّا مَنِ اسْتَغْنَى ۝ فَأَنْتَ لَهُ صَدِّقَى ۝ وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَرْبَى ۝ وَأَمَّا مَن جَاءَكَ يَسْعَى ۝ وَهُوَ يَخْشَى ۝ فَأَنْتَ عَنْهُ تَلَهَّى ۝ كَلَّا إِنَّمَا تَذَكَّرُ ۝ فَتَن شَاءَ ذَكَرُ ۝ فِي صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ ۝ مَرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍ ۝ بِأَيْدِي سَفَرَةٍ ۝ كِرَامٍ بَرَرَةٍ ۝ .

فلم يك يؤذن حتى يقول له الناس حين ينظرون إلى بزوغ الفجر : أذن . وذكر عروة بن الزبير ومجاهد وغير واحد من السلف والخلف : أنها نزلت في ابن أم مكتوم والمشهور أن اسمه عبد الله ويقال : عمرو والله أعلم ، وقوله تعالى : ﴿ كَلَّا إِنَّمَا تَذَكَّرُ ﴾ أي هذه السورة أو الوصية بالمساواة بين الناس في إبلاغ العلم بين شريفهم ووضيعهم ، وقال قتادة والسدي : ﴿ كَلَّا إِنَّمَا تَذَكَّرُ ﴾ يعني القرآن ﴿ فَتَن شَاءَ ذَكَرُ ﴾ أي فمن شاء ذكر الله تعالى في جميع أموره ويحتمل عود الضمير إلى الوحي لدلالة الكلام عليه .

(١) أخرجه الترمذي في السنن (٣٣٣١) .

(٢) أخرجه البخاري في الأذان (٦١٧) ومسلم في الصيام (٣٧) والترمذي في السنن (٢٠٣) والنسائي في السنن (١٠/٢) وأحمد في مسنده (٥٧/٢) .

وقوله تعالى : ﴿ فِي ضُحًى تَنَضُّعٍ ﴾ ﴿ تَنُضُّوعٌ شَطَهَرٌ ﴾ أي هذه السورة أو العظة وكلاهما متلازم بل جميع القرآن ﴿ فِي ضُحًى تَنَضُّعٍ ﴾ أي معظمة موقرة ﴿ تَنُضُّوعٌ ﴾ أي عالية القدر ﴿ شَطَهَرٌ ﴾ أي من الدنس والزيادة والنقص ، وقوله تعالى : ﴿ بِأَيْدِي سَفَرٍ ﴾ : هي الملائكة . وقال وهب بن منبه : هم أصحاب محمد ﷺ وقال قتادة : هم القراء ، وقال ابن جرير : والصحيح أن السفارة الملائكة ، والسفيرة يعني بين الله تعالى وبين خلقه ومنه السفير الذي يسعى بين الناس في الصلح والخير .

وقال البخاري : سفرة : الملائكة ، سفرت أصلحت بينهم وجعلت الملائكة إذا نزلت بوحى الله تعالى وتأديته كالسفير الذي يصلح بين القوم . وقوله تعالى : ﴿ زَكَاةً يُبَرِّئُ ﴾ أي خلقهم كريم حسن شريف ، وأخلاقهم وأفعالهم بارة وطاهرة كاملة ، ومن ههنا ينبغي لحامل القرآن أن يكون في أفعاله وأقواله على السداد والرشاد . عن عائشة رضي الله عنها قالت : قال رسول الله : « الَّذِي يَقْرَأَ الْقُرْآنَ وَهُوَ مَاهِرٌ بِهِ مَعَ الشَّفَرَةِ الْكَرَامِ الْبَرَّةِ ، وَالَّذِي يَقْرَأُهُ وَهُوَ عَلَيْهِ شَاقٌ ، لَهُ أَجْرَانِ » (١) .

﴿ قِيلَ الْإِنْسَانُ مَا أَكْفَرُ ﴾ ١ من أي شيء خلقه ٢ من تَلَفَعُ خَلَقَهُ فَقَدَرُ ٣ ثُمَّ أَلْسَيْلَ يَسَّرَ ٤ ثُمَّ أَمَانَهُ فَأَقْبَرُ ٥ ثُمَّ إِذَا شَاءَ أَشْرَرُ ٦ كَلَّا لَنَا بَقِيضٌ مَا أَمْرُ ٧ فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ إِلَى طَلَامِيهِ ٨ أَنَا صَبَبْتُ الْمَاءَ صَبًّا ٩ ثُمَّ شَفَقْنَا الْأَرْضَ شَفًّا ١٠ فَأَبْقَيْنَا فِيهَا جَنًّا ١١ وَعَبَّأْنَا وَقْصًا ١٢ وَزَيَّنَّا وَنَحْلًا ١٣ وَحَدَّيْنِ عَلَا ١٤ وَفَكَّيْنَا وَابًّا ١٥ مَتَمَّا لَكُمُ الْوَعْدُ ١٦ .

يقول تعالى ذا لما لمن أنكر البعث والنشور من بني آدم ﴿ قِيلَ الْإِنْسَانُ مَا أَكْفَرُ ﴾ قال الضحاك عن ابن عباس ﴿ قِيلَ الْإِنْسَانُ ﴾ لعن الإنسان ، وهذا لجنس الإنسان المكذب لكثرة تكذيبه بلا مستند بل بمجرد الاستبعاد وعدم العلم ، قال ابن جريج ﴿ مَا أَكْفَرُ ﴾ أي ما أشد كفره ، وقال ابن جرير : ويحتمل أن يكون المراد أي شيء جعله كافرًا أي ما حملة على التكذيب بالمعاد . وقال قتادة : ما ألعنه ، ثم بين تعالى له كيف خلقه من الشيء الحقير وأنه قادر على إعادته كما بداه فقال تعالى : ﴿ مِنْ أَيْ شَيْءٍ خَلَقْتَهُ ٢ مِنْ تَلَفَعُ خَلَقَهُ فَقَدَرُ ٣ ﴾ أي قدر أجله ورزقه وعمله وشقي أو سعيد ﴿ ثُمَّ أَلْسَيْلَ يَسَّرَ ﴾ قال ابن عباس ثم يسر عليه خروجه من بطن أمه ، واختاره ابن جرير ، وهذا هو الأرجح والله أعلم وقوله تعالى : ﴿ ثُمَّ أَمَانَهُ فَأَقْبَرُ ﴾ أي أنه بعد خلقه له أمانته فأقبره أي جعله ذا قبر ، والعرب تقول : قبرت الرجل إذا ولي ذلك منه ، وأقبره الله ، وعصبت قرن الثور وأعصبه الله وبترت ذنب البعير وأبتره الله ، وطردت عني فلانًا وأطرده الله ، أي جعله طريدًا ، قال الأعشى :

لَوْ أَشْنَدْتُ مَيِّتًا إِلَى صَدْرِهَا عَاشَ وَلَمْ يُنْقَلْ إِلَى قَابِرِ

وقوله تعالى : ﴿ ثُمَّ إِذَا شَاءَ أَشْرَرُ ﴾ أي بعثه بعد موته ومنه يقال : البعث والنشور . وعن أبي هريرة عنه ﷺ قال : « كُلُّ ابْنِ آدَمَ يَتَلَيَّ إِلَّا عَجَبُ الذَّنْبِ مِنْهُ خُلِقَ وَفِيهِ يُرْكَبُ » (٢) .

وقوله تعالى : ﴿ كَلَّا لَنَا بَقِيضٌ مَا أَمْرُ ﴾ قال ابن جرير : يقول جل ثناؤه : ﴿ كَلَّا ﴾ ليس الأمر كما يقول هذا الإنسان الكافر من أنه قد أدى حق الله عليه في نفسه وماله ﴿ لَنَا بَقِيضٌ مَا أَمْرُ ﴾ يقول : لم يؤد ما فرض عليه ﷻ من الفرائض لربه ﷻ . وعن مجاهد : لا يقضي أحد أبدًا كل ما أفترض

(١) أخرجه البخاري في التفسير (٤٩٣٧) وأحمد في مسنده (٤٨/٦) وأبو داود في السنن (١٤٥٤) .

(٢) أخرجه مسلم في الفتن (١٤٢) والنسائي في السنن (١١/٤) وابن حبان في صحيحه (٢٥٧٤) .

عليه ، ولم أجد للمتقدمين فيه كلاماً سوى هذا ، والذي يقع لي في معنى ذلك والله أعلم أن المعنى ﴿ ثُمَّ إِذَا شَاءَ أَنْشَرَهُ ﴾ أي بعثه ﴿ كَلَّا لَنَأْيُضَ مَا أَمَرُ ﴾ أي لا يفعله الآن حتى تنقضي المدة ويفرغ القدر من بني آدم ممن كتب الله أن سيوجد منهم ، ويخرج إلى الدنيا ، وقد أمر به تعالى كوناً وقدرًا فإذا تناهى ذلك عند الله أنشر الله الخلائق وأعادهم كما بدأهم . روي عن وهب بن منبه قال : قال عزيز **عليه السلام** : قال الملك الذي جاءني : فإن القبور هي بطن الأرض ، وإن الأرض هي أم الخلق ، فإذا خلق الله ما أراد أن يخلق وتمت هذه القبور التي مد الله لها انقطعت الدنيا ومات من عليها ولفظت الأرض ما في جوفها وأخرجت القبور ما فيها ، وهذا شبيه بما قلنا من معنى الآية والله سبحانه وتعالى أعلم بالصواب . وقوله تعالى : ﴿ فَيَنْظُرُ الْإِنْسَانُ إِلَى طَعَامِهِ ﴾ فيه امتنان وفيه استدلال بإحياء النبات من الأرض الهامدة على إحياء الأجسام بعدما كانت عظاماً بالية وتراباً متمزقاً ﴿ إِنَّا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبًّا ﴾ أي أنزلناه من السماء على الأرض ﴿ ثُمَّ شَقَقْنَا الْأَرْضَ شَقًّا ﴾ أي أسكنناه فيها فيدخل في تخومها وتخلل في أجزاء الحب المودع فيها فنبت وارتفع وظهر على وجه الأرض ﴿ فَأَلْبَنَّا فِيهَا حَبًّا ﴾ فالحب كل ما يذكر من الحبوب ، والعنب معروف ، والقضب هو الفصفصة التي تأكلها الدواب رطبة ويقال لها : القت أيضاً . وقال الحسن البصري : القضب العلف ﴿ وَزَيَّنَّا ﴾ وهو معروف وهو آدم وعصيره آدم ويستصبح به ويدهن به ﴿ وَتَحَلَّى ﴾ يؤكل بلحاً ويسراً ورطباً وتَمْرًا أو نَيْقًا ومطبوخًا ويعتصر منه رب وخل ﴿ وَحَدَّائِقَ غَلْبًا ﴾ : أي بساتين وقال قتادة : ﴿ غَلْبًا ﴾ نخل غلاظ كرام ، وقال ابن عباس : كل ما التف واجتمع . وقال عنه : الشجر الذي يستظل به ، وقال عكرمة : غلاظ الرقاب ، ألم تر إلى الرجل إذا كان غليظ الرقبة قيل : والله إنه لأغلب ، وأنشد ابن جرير للفرزدق :
عَوَى فَأَتَّارٌ أَغْلَبَ ضَيْغَمِيًّا فَوَيْلُ ابْنِ الْمَرَاغَةِ مَا اسْتَشَارَا

وقوله تعالى : ﴿ وَفَكَّهُمْ وَأَنَا ﴾ أما الفاكهة فكل ما يتفكه به من الثمار . وقال ابن عباس : كل ما أكل رطبًا ، والأب ما أنبت الأرض مما تأكله الدواب ولا يأكله الناس ، وهو الحشيش للبهائم . وقال مجاهد وسعيد بن جبير : الأب : الكلاء . وقال الحسن : الأب للبهائم كالفاكهة لبني آدم ، وقال عطاء : كل شيء نبت على وجه الأرض فهو أب ، وعن ابن عباس : الأب نبت الأرض مما تأكله الدواب ولا يأكله الناس . وعن أنس قال : قرأ عمر بن الخطاب **عليه السلام** ﴿ عَبَسَ وَتَوَلَّى ﴾ فلما أتى هذه الآية ﴿ وَفَكَّهُمْ وَأَنَا ﴾ قال : قد عرفنا الفاكهة فما الأب ؟ . فقال : لعمر ك يا ابن الخطاب إن هذا لهو التكلف . وهذا محمول على أنه أراد أن يعرف شكله وجنسه وعينه وإلا فهو وكل من قرأ هذه الآية يعلم أنه من نبات الأرض لقوله ﴿ فَأَلْبَنَّا فِيهَا حَبًّا ﴾ ﴿ وَصَبَّأَ وَقَصَّبًا ﴾ ﴿ وَزَيَّنَّا وَتَحَلَّى ﴾ ﴿ وَحَدَّائِقَ غَلْبًا ﴾ ﴿ وَفَكَّهُمْ وَأَنَا ﴾ وقوله تعالى : ﴿ مَنَّامَا لَكُمْ وَلَوْلَاكَ ﴾ أي عيشة لكم ولأنعامكم في هذه الدار إلى يوم القيامة .

﴿ فَإِذَا جَاءَتِ الصَّلَاةُ ﴾ يَوْمَ يَغُرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَبِيهِ ﴿ وَأُيُودِيهِ وَأُيُودِيهِ ﴾ وَلِئَلَّيْكُمْ أَمْرٌ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُنْبِئُهُ ﴿ وَجُودٌ يَوْمَئِذٍ شَفِيرَةٌ ﴾ ضَائِكَةٌ مُسْتَشِيرَةٌ ﴿ وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيَّاءُ ﴾ تَرْفَعُهَا قَدْرُهُ ﴿ أُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرَةُ الْفَجِرَةُ ﴾ .
قال ابن عباس : ﴿ الصَّلَاةُ ﴾ اسم من أسماء يوم القيامة عظمه الله وحذره عباده . قال ابن جرير : لعله اسم للنفخة في الصور ، وقال البغوي : ﴿ الصَّلَاةُ ﴾ يعني صيحة يوم القيامة سميت بذلك ؛ لأنها

تصخ الأسماع أي تبالغ في إسماعها حتى تكاد تصمها ﴿يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ۝ وَأُخُوهُ وَأَبَوَهِ ۝ وَصَنِيْعِهِ﴾ أي يراهم ويفر منهم يتعد عنهم ؛ لأن الهول عظيم والخطب جليل ، قال عكرمة : يلقي الرجل زوجته فيقول لها : يا هذه أي بعل كنت لك ؟ فتقول : نعم البعل كنت ، وتثني بخير ما استطاعت فيقول لها : فإني أطلب إليك اليوم حسنة واحدة تهيبها لي لعلني أنجو مما ترين . فتقول له : ما أسير ما طلبت ولكن لا أطيق أن أعطيك شيئاً أتخوف مثل الذي تخاف .

قال : وإن الرجل ليلقى ابنه فيتعلق به ، فيقول : يا بني أي والد كنت لك ؟ فيثني بخير . فيقول له : يا بني إنني احتجت إلى مثقال ذرة من حسناتك لعلني أنجو بها مما ترى . فيقول ولده : يا أبت ما أسير ما طلبت ولكنني أتخوف مثل الذي تتخوف فلا أستطيع أن أعطيك شيئاً . يقول الله تعالى : ﴿يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ۝ وَأُخُوهُ وَأَبَوَهِ ۝ وَصَنِيْعِهِ وَبَنِيْهِ﴾ . وفي الحديث الصحيح في أمر الشفاعة أنه إذا طلب إلى كل من أولي العزم أن يشفع عند الله في الخلائق يقول : نفسي نفسي ، لا أسألك اليوم إلا نفسي ، حتى إن عيسى ابن مريم يقول : لا أسأله اليوم إلا نفسي لا أسأله مريم التي ولدتها ؛ ولهذا قال تعالى : ﴿يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ۝ وَأُخُوهُ وَأَبَوَهِ ۝ وَصَنِيْعِهِ وَبَنِيْهِ﴾ قال قتادة : الأحب فالأحب والأقرب فالأقرب : من هول ذلك اليوم . وقوله تعالى : ﴿لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ﴾ أي هو في شغل شاغل عن غيره ، عن ابن عباس عن النبي ﷺ قال : « تُحْمَشِرُونَ حَفَاةَ غُرَاةٍ غُرُولاً » . فقالت امرأة : أيبصر أو يرى بعضنا عورة بعض ؟ قال : « يَا فَلَانَةُ لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ » (١) . عن عائشة أن رسول الله ﷺ قال : « يَبْعَثُ النَّاسُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حَفَاةَ غُرَاةٍ غُرُولاً » . فقالت عائشة : يا رسول الله فكيف بالعمورات ؟ فقال : « لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ » (٢) . وقوله تعالى : ﴿رُجُوعُهُمْ يُوعَظُ بِهِ ۝ وَسُنُورُهُ ۝ مَسَاجِدُ مُتَبَشِّرَةٌ ۝﴾ أي يكون الناس هنالك فريقين وجوه مسفرة أي مستبشرة ﴿مَسَاجِدُ مُتَبَشِّرَةٌ ۝﴾ أي مسرورة فرحة من السرور في قلوبهم ، قد ظهر البشر على وجوههم وهؤلاء هم أهل الجنة ﴿رُجُوعُهُمْ يُوعَظُ بِهِ ۝ وَسُنُورُهُ ۝ مَسَاجِدُ مُتَبَشِّرَةٌ ۝﴾ أي يعلوها وتغشاها قرة أي سواد ، قال رسول الله ﷺ : « يَلْجَأُ الْكَافِرُ الْعَرَقُ ثُمَّ تَقَعُ الْعَبْرَةُ عَلَى وَجْهِهِ » قال فهو قوله تعالى : ﴿رُجُوعُهُمْ يُوعَظُ بِهِ ۝ وَسُنُورُهُ ۝ مَسَاجِدُ مُتَبَشِّرَةٌ ۝﴾ أي يغشاها سواد الوجوه وقوله تعالى : ﴿أُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُ الْعَبْرُ ۝﴾ أي الكفرة قلوبهم الفجرة في أعمالهم .

(١) أخرجه البخاري في أحاديث الأنبياء (٣٤٤٧) والترمذي في السنن (٣٣٣٢) والحاكم في المستدرک (٢٥١/٢) .

(٢) أخرجه النسائي في السنن (١١٤/٤) والحاكم في المستدرک (٥٦٤/٤) .

سورة التكوير

عن ابن عمر قال : قال رسول الله ﷺ : « مَنْ سَرَّه أَنْ يَنْظُرَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ كَأَنَّهُ رَأَى عَيْنَ فَلْيَقْرَأْ : ﴿ إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ ﴾ و ﴿ إِذَا النُّجُومُ انْفَطَرَتْ ﴾ و ﴿ إِذَا الْبُحُورُ انْفَجَرَتْ ﴾ » (١) .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ ﴾ ١ وَإِذَا النُّجُومُ انْكَدَرَتْ ٢ وَإِذَا الْجِبَالُ سُيِّرَتْ ٣ وَإِذَا الْعِشَارُ عُطِّلَتْ ٤ وَإِذَا الْوُحُوشُ حُشِرَتْ ٥ وَإِذَا الْبِحَارُ سُجِّرَتْ ٦ وَإِذَا النُّفُوسُ زُوِّجَتْ ٧ وَإِذَا الْمَوْءِدَةُ سُيِّتَتْ ٨ بِأَيِّ ذَنْبٍ قُتِلَتْ ٩ وَإِذَا الشُّجَفُ تُشِرَتْ ١٠ وَإِذَا النُّعْمَةُ كُتِلَتْ ١١ وَإِذَا الْجَحِيمُ سُعِّرَتْ ١٢ وَإِذَا الْجَنَّةُ أُزْلِفَتْ ١٣ عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا أَحْضَرَتْ .

عن ابن عباس ﴿ إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ ﴾ : يعني أظلمت . وقال العوفي : ذهب . وقال مجاهد : اضمحلت وذهبت . وقال الضحاك : ذهب ضوءها . وقال الربيع : رمي بها . قال ابن جرير : والصواب من القول عندنا في ذلك أن التكوير جمع الشيء بعضه على بعض ، ومنه تكوير العمامة وجمع الثياب بعضها إلى بعض . فمعنى قوله تعالى ﴿ كُوِّرَتْ ﴾ جمع بعضها إلى بعض ثم لفت قُرْمِيَّ بها ، وإذا فعل بها ذلك ذهب ضوءها . وعن ابن عباس : إذا الشمس كورت قال : يكور الله الشمس والقمر والنجوم يوم القيامة في البحر ويبعث الله ريحا دبوراً فتضرمها نارا . وعن أبي هريرة عن النبي ﷺ : « الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ يُكْوَرَانِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ » (٢) .

وقوله تعالى : ﴿ وَإِذَا النُّجُومُ انْكَدَرَتْ ﴾ أي انثرت كما قال تعالى : ﴿ وَإِذَا الْكَوَاكِبُ انْتَثَرَتْ ﴾ وأصل الانكدار الانصباب . عن أبي بن كعب قال : ست آيات قبل يوم القيامة ، بينا الناس في أسواقهم إذ ذهب ضوء الشمس فبينما هم كذلك إذ تناثرت النجوم فبينما هم كذلك إذ وقعت الجبال على وجه الأرض فتحركت واضطربت واختلطت ففرغت الجن إلى الإنس والإنس إلى الجن ، واختلطت الدواب والطير والوحوش فماجوا بعضهم في بعض ﴿ وَإِذَا الْوُحُوشُ حُشِرَتْ ﴾ قال : اختلطت ﴿ وَإِذَا الْعِشَارُ عُطِّلَتْ ﴾ قال : أهملها أهلها ﴿ وَإِذَا الْبِحَارُ سُجِّرَتْ ﴾ قال : قالت الجن : نحن نأتيكم بالخبر . قال : فانطلقوا إلى البحر فإذا هو نار تتأجج ، قال : فبينما هم كذلك إذ تصدعت الأرض صدعة واحدة إلى الأرض السابعة السفلى وإلى السماء السابعة العليا ، قال : فبينما هم كذلك إذا جاءتهم الرياح فأماتتهم . وقوله تعالى : ﴿ وَإِذَا الْجِبَالُ سُيِّرَتْ ﴾ أي زالت عن أماكنها ونسفت فركت الأرض قاعاً صفصفاً .

وقوله : ﴿ وَإِذَا الْعِشَارُ عُطِّلَتْ ﴾ تركت وسييت وقال أبي بن كعب : أهملها أهلها . وقال الربيع ابن خيثم : لم تحلب ولم تصر تخلى منها أربابها . وقال الضحاك : تركت لا راعي لها ، والمعنى في هذا كله متقارب ، والمقصود أن العشار من الإبل وهي خيارها والحوامل منها التي قد وصلت في حملها إلى الشهر العاشر - واحدتها عشرة . ولا يزال ذلك اسمها حتى تضع - قد اشتغل الناس عنها وعن كفالتها والانتفاع بها بعد ما كانوا أرغب شيء فيها ، بما دهمهم من الأمر العظيم المفضع

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٣٦/٢) والترمذي في السنن (٣٣٣٣) والألباني في الصحيحة (١٠٨١) .

(٢) أخرجه البخاري في بدء الخلق (٣٢٠٤) .

الهائل وهو أمر يوم القيامة وانعقاد أسبابها ووقوع مقدماتها ، وقيل بل يكون ذلك يوم القيامة يراها أصحابها كذلك لا سبيل لهم إليها ، وقد قيل في العشار : إنها السحاب تعطل عن المسير بين السماء والأرض لخراب الدنيا وقيل إنها الأرض التي تعشر ، وقيل : إنها الديار التي كانت تسكن تعطلت لذهاب أهلها . حكى هذه الأقوال كلها الإمام أبو عبد الله القرطبي في كتابه التذكرة ، ورجح أنها الإبل وعزاه إلى أكثر الناس . قلت : لا يعرف عن السلف والأئمة سواه . وقوله تعالى : ﴿ وَإِذَا الْخُوشُ حُشِرَتْ ﴾ أي جمعت . قال ابن عباس : يحشر كل شيء حتى الذباب . وكذا قال قتادة في تفسير هذه الآية : إن هذه الخلائق موافية فيقضي الله فيها ما يشاء ، وقال عكرمة : حشرها موتها . وقال ابن عباس في قوله : ﴿ وَإِذَا الْخُوشُ حُشِرَتْ ﴾ قال : حشر البهائم موتها وحشر كل شيء الموت غير الجن والإنس ، فإنهما يوقفان يوم القيامة .

وقوله تعالى : ﴿ وَإِذَا الْيَحَاذُ سُجِرَتْ ﴾ قال علي ؓ لرجل من اليهود : أين جهنم ؟ قال : البحر . فقال : ما أراه إلا صادقاً ﴿ وَالْبَحْرِ الْمَسْجِرِ ﴾ . ﴿ وَإِذَا الْيَحَاذُ سُجِرَتْ ﴾ . وقال مجاهد والحسن بن مسلم : سجرت أوقدت . وقال الحسن : ييسر . وقال قتادة : غاض ماؤها فذهب فلم يبق فيها قطرة . وقال السدي : فتحت وصيرت . وقال الربيع بن خيثم : سجرت فاضت . وقوله تعالى : ﴿ وَإِذَا النُّفُوسُ رُجِبَتْ ﴾ أي جمع كل شكل إلى نظيره ، عن النعمان بن بشير أنه قال : قال رسول الله ﷺ : « ﴿ وَإِذَا النُّفُوسُ رُجِبَتْ ﴾ - قال - الضُّرْبَاءُ كُلُّ رَجُلٍ مَعَ كُلِّ قَوْمٍ كَانُوا يَفْعَلُونَ عَمَلَهُ » ^(١) . وذلك بأن الله ﷻ يقول : ﴿ وَكُنْتُمْ أَزْوَاجًا ثَلَاثَةً ۖ فَأَصْحَابُ الْيَمِينِ مَا أَصْحَابُ الْيَمِينِ ۖ وَأَصْحَابُ الشِّمَالِ مَا أَصْحَابُ الشِّمَالِ ۖ وَالنَّافِقُونَ الثَّانِيُونَ ﴾ . قال : هم الضرباء ، عن النعمان قال : سئل عمر عن قوله تعالى ﴿ وَإِذَا النُّفُوسُ رُجِبَتْ ﴾ قال : يقرن بين الرجل الصالح مع الرجل الصالح ، ويقرن بين الرجل السوء مع الرجل السوء في النار ، فذلك تزويج الأنفس . وعن مجاهد ﴿ وَإِذَا النُّفُوسُ رُجِبَتْ ﴾ قال : الأمثال من الناس جمع بينهم . واختاره ابن جرير وهو الصحيح .

قول آخر في قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا النُّفُوسُ رُجِبَتْ ﴾ عن ابن عباس قال : يسيل واد من أصل العرش من ماء فيما بين الصيحتين ومقدار ما بينهما أربعون عامًا ، فينبت منه كل خلق بلي من الإنسان أو طير أو دابة ، ولو مر عليهم مارٌ قد عرفهم قبل ذلك لعرفهم على وجه الأرض قد نبتوا ثم ترسل الأرواح فتزوج الأجساد فذلك قول الله تعالى : ﴿ وَإِذَا النُّفُوسُ رُجِبَتْ ﴾ وقيل : زوج المؤمنون بالخور العين وزوج الكافرون بالشياطين . حكاه القرطبي في التذكرة . وقوله تعالى : ﴿ وَإِذَا الْمَوْءُودَةُ سُئِلَتْ بِأَيِّ ذَنْبٍ قُتِلَتْ ﴾ الموءودة هي التي كان أهل الجاهلية يدسونها في التراب كراهية البنات ، فيوم القيامة تسأل الموءودة على أي ذنب قتلت ليكون ذلك تهديدًا لقاتلها فإنه إذا سئل المظلوم فما ظن الظالم إذا ؟ وقد وردت أحاديث تتعلق بالموءودة ، فعن عائشة عن جذامة بنت وهب أخت عكاشة قالت : حضرت رسول الله ﷺ في ناس وهو يقول : « لَقَدْ هَمَمْتُ أَنْ أَنْهَى عَنِ الْغِيلَةِ فَتَنَزَّهْتُ فِي الرُّومِ وَقَارَسَ فَإِذَا هُمْ يُغِيلُونَ أَوْلَادَهُمْ وَلَا يَصْرُو أَوْلَادَهُمْ ذَلِكَ شَيْئًا » . ثم سأله عن الغزل فقال رسول الله

(١) ذكره السيوطي في الدر المنثور (١٥٤/٦) والطبري في تفسيره (٨٨/٢٩) .

ﷺ : « ذَلِكَ الْوَاذُ الْخَفِيُّ وَهُوَ الْمَوْعُودَةُ سُيْلَتْ » ^(١) . وعن سلمة بن يزيد الجعفي قال : انطلقت أنا وأخي إلى رسول الله ﷺ فقلنا : يا رسول الله إن أمنا مليكة كانت تصل الرحم وتقري الضيف وتفعل ، هلك في الجاهلية فهل ذلك نافعها شيئاً ؟ قال : « لَا » قلنا : فإنها كانت وأدت أحثاً لنا في الجاهلية فهل ذلك نافعها شيئاً قال : « الْوَائِدَةُ وَالْمَوْعُودَةُ فِي النَّارِ إِلَّا أَنْ يُذْرِكَ الْوَائِدَةُ الْإِسْلَامُ فَيَغْفِرَ اللَّهُ عَنْهَا » ^(٢) قال ابن عباس : أطفال المشركين في الجنة فمن زعم أنهم في النار فقد كذب . يقول الله تعالى ﴿ وَإِذَا الْمَوْعُودَةُ سُيْلَتْ ﴾ ^(٣) يَأْتِي ذَنْبٌ يُبْلِتُ ﴿ قال ابن عباس : هي المدفونة . وعن عمر بن الخطاب في قوله تعالى ﴿ وَإِذَا الْمَوْعُودَةُ سُيْلَتْ ﴾ قال : جاء قيس بن عاصم إلى رسول الله ﷺ فقال : يا رسول الله إني وأدت بنات لي في الجاهلية قال : « أَغْنَيْ عَنْ كُلِّ وَاحِدَةٍ مِنْهُنَّ رَقَبَةً » قال يا رسول الله : إني صاحب إبل قال : « فَأَنْخِزْ عَنْ كُلِّ وَاحِدَةٍ مِنْهُنَّ بَدَنَةً » ^(٤) .

وقوله تعالى : ﴿ وَإِذَا الشُّخُفُ نُشِرَتْ ﴾ قال الضحاك : أعطي كل إنسان صحيفته يمينه أو بشماله . وقال قتادة : يا ابن آدم تملي فيها ثم تطوى ثم تنشر عليك يوم القيامة فلينظر رجل ماذا يملئ في صحيفته . وقوله تعالى : ﴿ وَإِذَا السَّمَاءُ كُشِطَتْ ﴾ قال مجاهد : اجتذبت ، وقال السدي : كشفت ، وقال الضحاك تنكشط فتذهب .

وقوله تعالى : ﴿ وَإِذَا الْجَبَبِمْ سَعَرَتْ ﴾ قال السدي : أحميت ، وقال قتادة : أوقدت ، قال : وإنما يسعرها غضب الله وخطايا بني آدم . وقوله : ﴿ وَإِذَا الْجَنَّةُ أُنزِلَتْ ﴾ قال الضحاك وغيره قربت إلى أهلها ، وقوله تعالى : ﴿ عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا أَحْضَرَتْ ﴾ هذا هو الجواب أي إذا وقعت هذه الأمور حيث تعلم كل نفس ما عملت وأحضر ذلك لها . عن زيد بن أسلم عن أبيه قال : لما نزلت ﴿ إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ ﴾ قال عمر : لما بلغ ﴿ عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا أَحْضَرَتْ ﴾ قال : لهذا أجري الحديث .

﴿ فَلَا أُقِيمُ بِالْفَنَنِ ﴾ الْجَوَارِ الْكُنَّيْ ١ وَالْإِلَّ إِذَا عَمَسَ ٢ وَالْفُجِجَ إِذَا نَفَسَ ٣ إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ٤ ذِي قُوَّةٍ عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ ٥ تُطَاعُ ثَمَّ أَمِينٍ ٦ وَمَا سَاجِدُكُمْ يَسْجُدُونَ ٧ وَلَقَدْ رَآهُ بِالْأَفْنَى الْمَكِينِ ٨ وَمَا هُوَ عَلَى الْغَيْبِ بِضَنِينٍ ٩ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَيْطَانٍ رَجِيزٍ ١٠ فَأَبَى تَذَهُبُونَ ١١ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ ١٢ لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَسْتَقِيمَ ١٣ وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ١٤ .

عن عمرو بن حريث قال : صليت خلف النبي ﷺ الصبح فسمعتة يقرأ ﴿ فَلَا أُقِيمُ بِالْفَنَنِ ﴾ الْجَوَارِ الْكُنَّيْ ١ وَالْإِلَّ إِذَا عَمَسَ ٢ وَالْفُجِجَ إِذَا نَفَسَ ٣ وعن أبي إسحاق عن رجل من مراد عن علي ﴿ فَلَا أُقِيمُ بِالْفَنَنِ ﴾ الْجَوَارِ الْكُنَّيْ ١ قال : هي النجوم تخنس بالنهار وتظهر بالليل . وعن خالد عن علي قال : هي النجوم ، وقال بعض الأئمة : إنما قيل للنجوم : الخنس أي في حال طلوعها ثم هي جوار في فللكها وفي حال غيوبتها يقال لها كنس . ومن قول العرب : أوى الظبي إلى كناسه إذا تغيب فيه . وقال الأعمش عن إبراهيم قال : قال عبد الله ﴿ فَلَا أُقِيمُ بِالْفَنَنِ ﴾ قال : بقر الوحش ،

(١) أخرجه مسلم في النكاح (١٤١) وأبو داود في السنن (٣٨٨٢) وأحمد في مسنده (٤٣٤/٦) والترمذي في السنن (٢٠٧٧) .

(٢) أخرجه أحمد في مسنده (٤٧٨/٣) .

(٣) أخرجه البيهقي في السنن (١٦/٨) والطبراني في الكبير (٣٣٨/١٨) .

وقال ابن عباس : هي الظباء ، وعن إبراهيم ومجاهد أنهما تذاكرا هذه الآية ﴿ فَلَا أَقِيمُ بِالْحَنِينِ ﴾ الْجَوَارِ الْكُنَّسِ ﴿ فقال إبراهيم لمجاهد : قل فيها بما سمعت ، قال : فقال مجاهد : كنا نسمع فيها شيئا وناس يقولون إنها النجوم ، قال : فقال إبراهيم : قل فيها بما سمعت ، قال : فقال مجاهد : كنا نسمع أنها بقر الوحش حين تكنس في حجرتها ، قال : فقال إبراهيم : إنهم يكذبون عليّ على هذا ، كما رووا عن علي أنه ضمن الأسفل الأعلى والأسفل . وتوقف ابن جرير في المراد بقوله : ﴿ بِالْحَنِينِ ﴾ الْجَوَارِ الْكُنَّسِ ﴿ هل هو النجوم أو الظباء وبقر الوحش قال : ويحتمل أن يكون الجميع مرادا ، وقوله تعالى ﴿ وَإِلَّيْكَ إِذَا عَسَسَ ﴾ فيه قولان أحدهما : إقباله بظلامه ، والثاني : إذا أدبر عن أبي عبد الرحمن السلمي قال : خرج علينا علي ؑ حين ثوب الثوب بصلاة الصبح فقال : أين السائلون عن الوتر ﴿ وَإِلَّيْكَ إِذَا عَسَسَ ﴾ وَالصُّبْحُ إِذَا تَنَفَّسَ ﴿ هذا حين أدبر حسن . وقد اختار ابن جرير أن المراد بقوله ﴿ إِذَا عَسَسَ ﴾ إذا أدبر قال لقوله ﴿ وَالصُّبْحُ إِذَا تَنَفَّسَ ﴾ أي أضاء واستشهد بقول الشاعر أيضا :
حَتَّى إِذَا الصُّبْحُ لَهُ تَنَفَّسًا وَانْجَابَ عَنْهَا لَيْلُهَا وَعَسَسَا ^(١)

أي أدبر وعندني أن المراد بقوله ﴿ إِذَا عَسَسَ ﴾ إذا أقبل وإن كان يصح استعماله في الإدبار أيضا لكن الإقبال ههنا أنسب ، كأنه أقسم بالليل وظلامه إذا أقبل وبالفجر وضياؤه إذا أشرق ، كما قال تعالى : ﴿ وَإِلَّيْكَ إِذَا يَنْتَهَى ﴾ وَالنَّهَارُ إِذَا تَجَلَّى ﴿ . وغير ذلك من الآيات ، وقال كثير من علماء الأصول : إن لفظة عسس تستعمل في الإقبال والإدبار على وجه الاشتراك فعلى هذا يصح أن يراد كل منهما والله أعلم . وقال ابن جرير : وكان بعض أهل المعرفة بكلام العرب يزعم أن عسس دنا من أوله وأظلم ، وقوله تعالى : ﴿ وَالصُّبْحُ إِذَا تَنَفَّسَ ﴾ قال الضحاك : إذا طلع ، وقال قتادة : إذا أضاء وأقبل . وقال سعيد بن جبير : إذا نشأ وهو المروي عن علي . وقال ابن جرير : يعني ضوء النهار إذا أقبل وتبين . وقوله تعالى : ﴿ إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴾ يعني إن هذا القرآن لتبليغ رسول كريم أي ملك شريف حسن الخلق بهي المنظر وهو جبريل عليه الصلاة والسلام . ﴿ ذِي قُوَّةٍ ﴾ أي شديد الخلق شديد البطش والفعل ﴿ عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ ﴾ أي له مكانة عند الله ﷻ ومنزلة رفيعة ، قال أبو صالح في قوله تعالى : ﴿ عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ ﴾ قال جبريل يدخل في سبعين حجابا من نور بغير إذن ﴿ مُطَاعٌ ﴾ أي له وجاهة وهو مسموع القول مطاع في الملأ الأعلى . قال قتادة : ﴿ مُطَاعٌ ﴾ أي في السموات يعني ليس هو من أفناء الملائكة بل هو من السادة والأشراف معتنى به انتخب لهذه الرسالة العظيمة . وقوله تعالى : ﴿ أَمِينٌ ﴾ صفة لجبريل بالأمانة وهذا عظيم جدا أن الرب ﷻ يزكي عبده ورسوله الملكي كما زكى عبده ورسوله البشري محمدا ﷺ بقوله تعالى ﴿ وَمَا سَاجِدُكُمْ بِمَجْنُونٍ ﴾ يعني محمدا ﷺ ، وقوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ رَآهُ بِالْأُتُنِ الْآتِينَ ﴾ يعني ولقد رأى محمدا جبريل الذي يأتيه بالرسالة عن الله ﷻ على الصورة التي خلقه الله عليها له ستمائة جناح ﴿ بِالْأُتُنِ الْآتِينَ ﴾ أي البين وهي الرؤية الأولى التي كانت بالبطحاء ، والدليل عليه أن المراد بذلك جبريل عليه السلام ، والظاهر والله أعلم أن هذه السورة نزلت قبل ليلة الإسراء لأنه لم يذكر فيها إلا هذه الرؤية وهي الأولى ، وأما

(١) البيت من شواهد الفراء في معاني القرآن (ص : ٣٠) والطبري في تفسيره (٩٨/٢٩) .

الثانية وهي المذكورة في قوله تعالى ﴿ وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ۖ عِنْدَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهَىٰ ۚ عِنْدَهَا جَنَّةُ الْأَنْوَارِ ۚ إِذْ يَسْقَى الْغُلَّةَ مَاءً يَمُّشً ۚ ﴾ . فذلك إنما ذكرت في سورة النجم وقد نزلت بعد سورة الإسراء . وقوله تعالى : ﴿ وَمَا مَوْعِدُ الْعَقِيبِ بِظَنِّينَ ۚ ﴾ أي وما محمّد على ما أنزله الله إليه ﴿ بِظَنِّينَ ۚ ﴾ أي بجهنم . ومنهم من قرأ ذلك بالضاد ^(١) أي يخيّل بل يبذله لكل أحد . قال سفيان بن عيينة : ظنين وضمين سواء أي ما هو بكاذب وما هو بفاجر . والظنين المتهم والضمين البخيل . وقال قتادة : كان القرآن غيباً فأنزله الله على محمّد فما ضنّ به على الناس بل نشره وبلغه وبذله لكل من أراه ، واختار ابن جرير قراءة الضاد قلت : وكلاهما متواتر ومعناه صحيح كما تقدّم ، وقوله تعالى : ﴿ وَمَا مَوْعِدُ الْكَافِرِينَ ۚ ﴾ أي وما هذا القرآن بقول شيطان رجيم أي لا يقدر على حمله ولا يريده ولا ينبغي له ، وقوله تعالى : ﴿ فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ ۚ ﴾ أي فأين تذهب عقولكم في تكذيبهم بهذا القرآن مع ظهوره ووضوحه وبيان كونه حقاً من عند الله ﷻ كما قال الصديق رضي الله عنه لو فد بني حنيفة حين قدموا مسلمين وأمرهم قتلوا عليه شيئاً من قرآن مسيلمة الكذاب الذي هو في غاية الهذيان والركاكة فقال : ويحكم أين تذهب عقولكم ؟ والله إن هذا الكلام لم يخرج من إل ، أي من إله ، وقال قتادة : ﴿ فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ ۚ ﴾ أي عن كتاب الله وعن طاعته .

وقوله تعالى : ﴿ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ ۚ ﴾ أي هذا القرآن ذكر لجميع الناس يتذكرون به ويتعظون ﴿ لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَسْتَقِيمَ ۚ ﴾ أي لمن أراد الهداية فعليه بهذا القرآن فإنه مناجاة له وهداية ، ولا هداية فيما سواه ﴿ وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ۚ ﴾ أي ليست المشيئة موكولة إليكم فمن شاء اهتدى ومن شاء ضل بل ذلك كله تابع لمشيئة الله تعالى رب العالمين . عن سليمان بن موسى لما نزلت هذه الآية ﴿ لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَسْتَقِيمَ ۚ ﴾ قال أبو جهل : الأمر إلينا إن شئنا استقمنا وإن شئنا لم نستقم فأنزل الله تعالى ﴿ وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ۚ ﴾ .

(١) قرأ ابن كثير وأبو عمرو والكسائي (بظنين) وقرأ الباقرن (بضمين) (حجة القراءات ص ٧٥٢) .

سورة الانفطار

عن جابر قال : قام معاذ فوصلى العشاء الآخرة فطوّل فقال النبي ﷺ : « أَتَنَانُ أَنْتَ يَا مُعَاذُ ؟ أَيْنَ كُنْتَ عَنْ سَبْحِ إِسْمِ رَبِّكَ الْأَعْلَى ، وَالضُّحَى ، وَإِذَا السَّمَاءُ انْفَطَرَتْ ! » (١) .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ إِذَا السَّمَاءُ انْفَطَرَتْ ۝ وَإِذَا الْكَوَاكِبُ انْتَرَتْ ۝ وَإِذَا الْيَبَاوُءُ نْفِرَتْ ۝ وَإِذَا الْبُحُورُ بُعِثَتْ ۝ عَلِمْتَ مَا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ ۝ يَتَأَيَّأُ الْإِنْسَانُ مَا غَرَّهُ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ ۝ الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّدَكَ فَمَدَّكَ ۝ فِي أَيِّ صُورَةٍ مَا شَاءَ رَكَّبَكَ ۝ كَلَّا بَلْ تُكَذِّبُونَ بِالْحَقِّ ۝ وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ ۝ كِرَامًا كَبِيرِينَ ۝ يَعْلَمُونَ مَا تَعْمَلُونَ ۝ ﴾ .
يقول تعالى : ﴿ إِذَا السَّمَاءُ انْفَطَرَتْ ﴾ أي انشقت ﴿ وَإِذَا الْكَوَاكِبُ انْتَرَتْ ﴾ أي تساقطت ﴿ وَإِذَا الْيَبَاوُءُ نْفِرَتْ ﴾ : فجر الله بعضها في بعض وقال الحسن : فجر الله بعضها في بعض ، فذهب ماؤها . وقال قتادة : اختلط عذبا بمالحها .

﴿ وَإِذَا الْبُحُورُ بُعِثَتْ ﴾ قال ابن عباس : بحث ، وقال السدي : تبعثر تحرك فيخرج من فيها ﴿ عَلِمْتَ مَا قَدَّمْتَ وَأَخَّرْتَ ﴾ أي إذا كان هذا حصل هذا ، وقوله تعالى : ﴿ يَتَأَيَّأُ الْإِنْسَانُ مَا غَرَّهُ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ ﴾ هذا تهديد لا كما يتوهمه بعض الناس من أنه إرشاد إلى الجواب حيث قال الكريم حتى يقول قائلهم غره كرمه بل المعنى في هذه الآية : ما غرك يا ابن آدم بربك الكريم أي العظيم حتى أقدمت على معصيته وقابلته بما لا يليق وقال قتادة : ﴿ مَا غَرَّهُ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ ﴾ شيء ، ما غر ابن آدم غير هذا العدو الشيطان . وقال الفضيل بن عياض : لو قال لي ما غرك بي لقلت : ستورك المرخاة . وقال أبو بكر الوراق : لو قال لي ما غرك بربك الكريم لقلت : غرني كرم الكريم . وقال بعض أهل الإشارة : إنما قال ﴿ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ ﴾ دون سائر أسمائه وصفاته كأنه لقنه الإجابة ، وهذا الذي تخيله هذا القائل ليس بباطل لأنه إنما أتى باسمه الكريم لينبه على أنه لا ينبغي أن يقابل الكريم بالأفعال القبيحة وأعمال الفجور . وقد حكى البغوي عن الكلبي ومقاتل أنهما قالوا : نزلت هذه الآية في الأسود بن شريق ضرب النبي ﷺ ولم يعاقب في الحالة الراهنة فأنزل الله تعالى ﴿ مَا غَرَّهُ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ ﴾ .

وقوله تعالى : ﴿ الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّدَكَ فَمَدَّكَ ﴾ أي ما غرك بالرب الكريم ﴿ الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّدَكَ فَمَدَّكَ ﴾ أي جعلك سوياً مستقيماً معتدلاً القائمة منتصبها في أحسن الهيئات والأشكال ، عن بشر ابن جحاش القرشي أن رسول الله ﷺ بصق يوماً في كفه فوضع عليها أصبعه ثم قال : « قَالَ اللَّهُ ﷻ : يَا ابْنَ آدَمَ أَنِّي تُعْجِزُنِي وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِنْ مِثْلِ هَذِهِ ؟ حَتَّى إِذَا سَوَّيْتُكَ وَعَدَلْتُكَ مَشَيْتَ يَسْرَ بُرْدَيْنِ ، وَلِلْأَرْضِ مِنْكَ وَبَيْدٌ فَجَمَعْتُ وَمَنَعْتُ حَتَّى إِذَا بَلَغْتَ الثَّرَاقِي قُلْتُ أَتَصَدَّقُ وَأَتَى أَوَانُ الصَّدَقَةِ ؟ » (٢) . وعن أبي هريرة أن رجلاً قال : يا رسول الله إن امرأتي ولدت غلاماً أسود ، قال : « هَلْ لَكَ مِنْ إِبِلٍ ؟ » . قال : نعم ، قال : « فَمَا أَلَوَاتُهَا » . قال : حمر . قال : « فَهَلْ فِيهَا مِنْ »

(١) أخرجه مسلم في الصلاة (١٧٨) وأحمد في مسنده (٢٩٩/٣) والنسائي في السنن (١٦٨/٢) وابن خزيمة في صحيحه (١٦١١) .

(٢) أخرجه أحمد في مسنده (٢١٠/٤) .

أَوْزَقَ . قال : نعم ، قال : « فَأَتَى أَتَاهَا ذَلِكَ » . قال : عسى أن يكون نزرعه عرق قال : « وَهَذَا عَسَى أَنْ يَكُونَ نَزْعُهُ عِرْقٌ » ^(١) ﴿ فِي أَيِّ صُورَةٍ مَا شَاءَ رَكَّبَكَ ﴾ قال عكرمة إن شاء في صورة كلب وإن شاء في صورة حمار وإن شاء في صورة خنزير . ومعنى هذا القول عند هؤلاء أن الله ﷻ قادر على خلق النطفة على شكل قبيح من الحيوانات المنكرة الخلق ، ولكن بقدرته ولطفه وحلمه يخلقه على شكل حسن مستقيم معتدل تام حسن المنظر والهيئة .

وقوله تعالى : ﴿ كَلَّا بَلْ تُكَذِّبُونَ بِالَّذِينَ ﴾ أي إنما يحملكم على مواجهة الكريم ومقابلته بالمعاصي تكذيب في قلوبكم بالمعاد والجزاء والحساب ، وقوله تعالى : ﴿ وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ ۝ كِرَامًا كَثِيرِينَ ۝ يَحْلُومُونَ مَا تَعْمَلُونَ ﴾ يعني وإن عليكم للملائكة حفظة كرامًا فلا تقابلوهم بالقباح فإنهم يكتبون عليكم جميع أعمالكم .

﴿ إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ ۝ وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ ۝ يَصَلُّونَ يَوْمَ الَّذِينَ ۝ وَمَا تُمْ عَنْهَا بِقَائِلِينَ ۝ وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمَ الَّذِينَ ۝ ثُمَّ مَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمَ اللَّزِيَّةِ ۝ يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِنَفْسٍ شَيْئًا ۝ وَالْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ ۝ ﴾ .

يخبر تعالى عما يصير الأبرار إليه من النعيم وهم الذين أطاعوا الله ﷻ ولم يقابلوه بالمعاصي . ثم ذكر ما يصير إليه الفجار من الجحيم والعذاب المقيم ولهذا قال : ﴿ يَصَلُّونَ يَوْمَ الَّذِينَ ﴾ أي يوم الحساب والجزاء والقيامة ﴿ وَمَا تُمْ عَنْهَا بِقَائِلِينَ ﴾ أي لا يغيثون عن العذاب ساعة واحدة ، ولا يخفف عنهم من عذابها ، ولا يجابون إلى ما يسألون من الموت أو الراحة ولو يومًا واحدًا ، وقوله تعالى : ﴿ وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمَ الَّذِينَ ﴾ تعظيم لشأن يوم القيامة ثم أكد به بقوله تعالى : ﴿ ثُمَّ مَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمَ اللَّزِيَّةِ ﴾ ، ثم فسره بقوله ﴿ يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِنَفْسٍ شَيْئًا ﴾ أي لا يقدر أحد على نفع أحد ولا خلاصه مما هو فيه إلا أن يأذن الله لمن يشاء ويرضى ، ونذكر ههنا حديث : « يَا بَنِي هَاشِمٍ اتَّقُوا أَنْفُسَكُمْ مِنَ النَّارِ لَا أَمْلِكُ لَكُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا » ^(٢) . ولهذا قال : ﴿ وَالْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ ﴾ قال قتادة ﴿ يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِنَفْسٍ شَيْئًا وَالْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ ﴾ والأمر والله اليوم لله ولكنه لا ينازعه فيه يومئذ أحد .

(١) أخرجه البخاري في الاعتصام (٧٣١٤) ومسلم في اللعان (١٨) والترمذي في السنن (٢١٢٨) وأحمد في مسنده (٤٠٩/٢) .

(٢) أخرجه مسلم في الإيمان (٣٤٨) والنسائي في السنن (٢٤٨/٦) وأحمد في مسنده (٥١٩/٢) .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ ۝١ أَلَيْسَ إِذَا أَكَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ ۝٢ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَوْ وَزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ ۝٣ أَلَا يَظُنُّ أُولَٰئِكَ أَنَّهُمْ مَبْعُوثُونَ ۝٤ لِيَوْمٍ عَظِيمٍ ۝٥ يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ۝﴾ .

عن ابن عباس قال : لما قدم النبي ﷺ المدينة كانوا من أخبث الناس كيلاً فأنزل الله تعالى : ﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ﴾ فحسنوا الكيل بعد ذلك ^(١) . وعن عبد الله قال : قال له رجل يا أبا عبد الرحمن إن أهل المدينة ليوفون الكيل قال : وما يمنهم أن يوفوا الكيل وقد قال الله تعالى : ﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ - حتى بلع - يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ والمراد بالتطفيف ههنا البخس في المكيال والميزان إما بالازدياد إن اقتضى من الناس وإما بالنقصان إن قضاهم ولهذا فسر تعالى المطففين الذين وعدهم بالحسار والهلاك وهو الويل بقوله تعالى : ﴿أَلَيْسَ إِذَا أَكَالُوا عَلَى النَّاسِ﴾ أي من الناس ﴿يَسْتَوْفُونَ﴾ أي يأخذون حقهم بالوافي والزائد ﴿وَإِذَا كَالُوهُمْ أَوْ وَزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ﴾ أي ينقصون ، والأحسن أن يجعل كالوا ووزنوا متعديًا ويكون هم في محل نصب ، ومنهم من يجعلها ضميرًا مؤكدًا للمستتر في قوله كالوا ووزنوا ويحذف المفعول لدلالة الكلام عليه وكلاهما متقارب . وقد أمر الله تعالى بالوفاء في الكيل والميزان فقال تعالى : ﴿وَأَوْفُوا الْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ وَزَنُوا بِالْقِسَاسِ أَلَمْسْتُمْ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾ وأهلك الله قوم شعيب ودمرهم على ما كانوا يخسون الناس في الميزان والمكيال . ثم قال تعالى متوعداً لهم : ﴿أَلَا يَظُنُّ أُولَٰئِكَ أَنَّهُمْ مَبْعُوثُونَ ۝٤ لِيَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ أي ما يخاف أولئك من البعث والقيام بين يدي من يعلم السرائر والضمائر في يوم عظيم الهول كثير الفرع جليل الخطب من خسر فيه أدخل ناراً حامية ؟ وقوله تعالى : ﴿يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ أي يقومون حفاة عراة غرلاً في موقف صعب حرج ضيق ضنك على الجرم ويغشاهم من أمر الله تعالى ما تعجز القوى والحواس عنه .

عن ابن عمر أن النبي ﷺ قال : « يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ حَتَّى يَغِيبَ أَحَدُهُمْ فِي رَشْحِهِ إِلَى أَنْصَافِ أَذُنَيْهِ » ^(٢) .

عن المقداد بن الأسود الكندي قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « إِذَا كَانَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَذْنَيْتَ الشَّمْسُ مِنَ الْعِبَادِ حَتَّى تَكُونَ قَدَرٌ مِّبْلٍ أَوْ مِثْلَيْنِ - قال - فَتَصْهَرُهُمُ الشَّمْسُ فَيَكُونُونَ فِي الْعَرَقِ كَقَدْرِ أَعْمَالِهِمْ ، مِنْهُمْ مَنْ يَأْخُذُهُ إِلَى عَقِبَتِهِ وَمِنْهُمْ مَنْ يَأْخُذُهُ إِلَى رُكْبَتَيْهِ وَمِنْهُمْ مَنْ يَأْخُذُهُ إِلَى حَقْوَيْهِ وَمِنْهُمْ مَنْ يُلْجِمُهُ إِلْجَامًا » ^(٣) . وعن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ لبشير الغفاري : « كَيْفَ أَنْتَ صَانِعٌ فِي يَوْمٍ يَقُومُ النَّاسُ فِيهِ ثَلَاثُمِائَةِ سَنَةٍ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ مِنْ أَيَّامِ الدُّنْيَا لَا يَأْتِيهِمْ فِيهِ خَبَرٌ مِنَ السَّمَاءِ وَلَا يُؤْمَرُ فِيهِمْ بِأَمْرٍ ؟ » قال بشير : المستعان الله ، قال : « فَإِذَا أُوْتِيتَ إِلَى

(١) أخرجه النسائي في السنن (٤٥٩٠) .

(٢) أخرجه البخاري في تفسير القرآن (٤٩٣٨) وأحمد في مسنده (٦٤/٢) .

(٣) أخرجه أحمد في مسنده (٣/٦) والترمذي في السنن (٢٤٢١) .

فَرِيشَكَ فَتَعُوذُ بِاللَّهِ مِنْ كُرْبِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَشَوْءِ الْحِسَابِ » ^(١) . وعن ابن مسعود : يقومون أربعين سنة رافعي رؤوسهم إلى السماء لا يكلمهم أحد قد ألجم العرق برؤسهم وفاجرهم ، وعن ابن عمر : يقومون مائة سنة ، وعن عائشة أن رسول الله ﷺ كان يفتح قيام الليل : يكبر عشرا ويحمد عشرا ، ويسبح عشرا ويستغفر عشرا ويقول : « اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي وَاهْدِنِي وَارْزُقْنِي وَعَافِنِي » . ويتعوذ من ضيق المقام يوم القيامة ^(٢) .

﴿ كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الْفُجَارِ لَفِي سِجِّينَ ۝ وَمَا أَزْكَ مَا سِجِّينَ ۝ كِتَابٌ مَرْبُومٌ ۝ وَيَلْ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ۝ الَّذِينَ يَكْذِبُونَ يَوْمَ ۝ الَّذِينَ ۝ وَمَا يَكْذِبُ بِهِ إِلَّا كُلُّ مُتَعَبٍّ أَثِيرٍ ۝ إِذَا نُلِّلَ عَلَيْهِ مَائِدَاتُهَا قَالَ أَسْطِيزُ الْأَوَّلِينَ ۝ كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ۝ كَلَّا إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُورُونَ ۝ ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصَالُوا الْجَحِيمِ ۝ ثُمَّ يُقَالُ هَذَا الَّذِي كُنْتُمْ بِدِهِ تَكْذِبُونَ ۝ .

يقول تعالى حقا ﴿ إِنَّ كِتَابَ الْفُجَارِ لَفِي سِجِّينَ ﴾ أي أن مصيرهم ومأواهم لفي سجين فعيل من السجن وهو الضيق كما يقال فسيق وشريب وخمير وسكير ونحو ذلك ؛ ولهذا عظم أمره فقال تعالى : ﴿ وَمَا أَزْكَ مَا سِجِّينَ ﴾ أي هو أمر عظيم وسجن مقيم وعذاب أليم ، ثم قد قال قائلون : هي تحت الأرض السابعة ، وقد تقدم في حديث البراء بن عازب في حديثه الطويل : يقول الله ﷻ في روح الكافر اكتبوا كتابه في سجين . وسجين هي تحت الأرض السابعة وقيل صخرة تحت السابعة خضراء ، وقيل بئر في جهنم ، وعن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال : « الْفُلُقُ جُبٌّ فِي جَهَنَّمَ تُعْطَى وَأَمَّا سِجِّينُ فَمَقْتُوحٌ » ^(٣) . والصحيح أن سجيناً مأخوذ من السجن وهو الضيق فإن المخلوقات كل ما تسافل منها ضاق وكل ما تعالى منها اتسع فإن الأفلاك السبعة كل واحد منها أوسع وأعلى من الذي دونه وكذلك الأرضون كل واحدة أوسع من التي دونها حتى ينتهي السفول المطلق والمحل الأضيّق إلى المركز في وسط الأرض السابعة ولما كان مصير الفجار إلى جهنم وهي أسفل السافلين كما قال تعالى : ﴿ ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ ۝ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ﴾ وقال ههنا ﴿ كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الْفُجَارِ لَفِي سِجِّينَ ۝ وَمَا أَزْكَ مَا سِجِّينَ ﴾ وهو يجمع الضيق والسفول كما قال تعالى : ﴿ وَإِذَا أُلْقُوا مِنْهَا مَكَانًا ضَيِّقًا مُقَرَّرِينَ دَعَوْا هُنَالِكَ ثُبُورًا ﴾ وقوله تعالى : ﴿ كِتَابٌ مَرْبُومٌ ﴾ ليس تفسيراً لقوله : ﴿ وَمَا أَزْكَ مَا سِجِّينَ ﴾ وإنما هو تفسير لما كتب لهم من المصير إلى سجين أي مرقوم مكتوب مفروغ منه لا يزداد فيه أحد ولا ينقص منه أحد . قاله محمد بن كعب القرظي .

ثم قال تعالى : ﴿ وَيَلْ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴾ أي إذا صاروا يوم القيامة إلى ما أوعدهم الله من السجن والعذاب المهيّن ، وقد تقدم الكلام على قوله ويل بما أغنى عن إعادته وأن المراد من ذلك الهلاك والدمار كما يقال : ويل لفلان ، وكما جاء عن معاوية بن حيدة قال : قال رسول الله ﷺ : « وَيَلْ لِلَّذِي يُحَدِّثُ فَيَكْذِبُ لِيُضْحِكَ النَّاسَ وَيَلْ لَهُ » ^(٤) . ثم قال تعالى مفسراً للمكذبين الفجار الكفرة ﴿ الَّذِينَ يَكْذِبُونَ يَوْمَ الَّذِينَ ﴾ أي لا يصدقون بوقوعه ولا يعتقدون كونه ويستبعدون أمره ، قال الله تعالى :

(١) أورده السيوطي في الدر المنثور (٣٢٤/٦) .

(٢) أخرجه ابن ماجه في السنن (١٣٥٦) وأحمد في مسنده (١٤٣/٦) والنسائي في السنن (٢٨٤/٨) .

(٣) أخرجه أحمد في مسنده (٦١/٣) .

(٤) أخرجه أحمد في مسنده (٧/٥) والدارمي في السنن (٢٩٦/٢) وأبو داود في السنن (٤٩٩٠) .

﴿ وَمَا يَكْذِبُ بِهِ إِلَّا كُلُّ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ ﴾ أي معتد في أفعاله من تعاطي الحرام والمجازة في تناول المباح ، والأثيم في أقواله إن حدث كذب ، وإن وعد أخلف ، وإن خاصم فجر ، وقوله تعالى : ﴿ إِذَا تَنَالَى عَلَيْهِ بَاسُنَا قَالَ أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴾ أي إذا سمع كلام الله تعالى من الرسول يكذب به ويظن به ظن السوء ، فيعتقد أنه مفتعل مجموع من كتب الأوائل . قال الله تعالى : ﴿ كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾ أي ليس الأمر كما زعموا ولا كما قالوا إن هذا القرآن أساطير الأولين بل هو كلام الله ووحيه وتنزيله على رسوله ﷺ وإنما حجب قلوبهم عن الإيمان به ما عليها من الرين الذي قد لبس قلوبهم من كثرة الذنوب والخطايا ، ولهذا قال تعالى : ﴿ كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾ والرین يعترى قلوب الكافرين ، والغيم للأبرار والغين للمقربين . وقد روى عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « إِنَّ الْمُؤْمِنَ إِذَا أَذْنَبَ كَانَتْ نُكْتَةٌ سَوْدَاءَ فِي قَلْبِهِ فَإِنْ تَابَ وَتَزَعَّ وَاسْتَغْفَرَ صَقَلَ قَلْبُهُ فَإِنْ زَادَ زَادَتْ حَتَّى تَغْلُو قَلْبُهُ وَذَلِكَ الرَّأْيُ الَّذِي ذَكَرَ اللَّهُ فِي الْقُرْآنِ ﴾ ﴿ كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾ ^(١) . وقال الحسن البصري هو الذنب على الذنب حتى يعمى القلب فيموت . وقوله تعالى : ﴿ كَلَّا إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُورُونَ ﴾ أي لهم يوم القيامة منزل ونزل سجين ثم هم يوم القيامة مع ذلك محجوبون عن رؤية ربهم وخالقهم ، قال الإمام أبو عبد الله الشافعي : وفي هذه الآية دليل على أن المؤمنين يرونه عز وجل يومئذ وهذا الذي قاله الإمام الشافعي رحمه الله في غاية الحسن وهو استدلال يفهم هذه الآية . كما دل عليه منطوق قوله تعالى : ﴿ ذُيُوبُهُمْ يَوْمَئِذٍ نَاصِرَةٌ ﴾ ﴿ إِنَّهَا نَاصِرَةٌ ﴾ وكما دلت على ذلك الأحاديث الصحاح المتواترة في رؤية المؤمنين ربهم ﷻ في الدار الآخرة رؤية بالأبصار في عرصات القيامة وفي روضات الجنان الفاخرة . وعن الحسن في قوله تعالى : ﴿ كَلَّا إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُورُونَ ﴾ قال : يكشف الحجاب فينظر إليه المؤمنون والكافرون ثم يحجب عنه الكافرون ، وينظر إليه المؤمنون كل يوم غدوة وعشية أو كلاهما هذا معناه ، وقوله تعالى : ﴿ ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصَالُوا الْجَحِيمِ ﴾ أي ثم هم مع هذا الحرمان عن رؤية الرحمن من أهل النيران ﴿ ثُمَّ بَالٌ لَّهَا الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تَكْتَبُونَ ﴾ أي يقال لهم ذلك على وجه التقريع والتوبيخ والتصغير والتحقير .

﴿ كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الْأَنْبَارِ لَفِي عِلِّيَّينَ ﴾ ﴿ وَمَا أَدْرَاكَ مَا عِلِّيُّونَ ﴾ ﴿ كِتَابٌ مَرْقُومٌ ﴾ ﴿ يَشْهَدُهُ الْمُرْسَلُونَ ﴾ ﴿ إِنَّ الْأَنْبَارَ لَفِي نَيْمٍ ﴾ ﴿ عَلَى الْأَرْبَابِكِ يَنْظُرُونَ ﴾ ﴿ تَرَوْنَهُ فِي رُجُومِهِمْ نَضْرَةَ النَّيْمِ ﴾ ﴿ يُسْقَوْنَ مِنْ رَحِيقٍ مَخْتُومٍ ﴾ ﴿ خِتَمُهُمْ يَسْكُوْنَ ﴾ ﴿ فِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ ﴾ ﴿ وَمَرَاجُئُ مِنْ تَسْنِيمٍ ﴾ ﴿ عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا الْمُعْرِضُونَ ﴾ .

يقول تعالى حقاً إن كتاب الأبرار وهم بخلاف الفجار ﴿ لَفِي عِلِّيَّينَ ﴾ أي مصيرهم إلى عليين وهو بخلاف سجين . عن ابن عباس في قوله ﴿ كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الْأَنْبَارِ لَفِي عِلِّيَّينَ ﴾ يعني الجنة . وفي رواية العوفي عنه : أعمالهم في السماء عند الله ، وقال قتادة : عليون ساق العرش اليمنى ، وقال غيره : عليون عند سدة المنتهى والظاهر أن عليين مأخوذ من العلو ، وكلما علا الشيء وارتفع عظم واتسع ولهذا قال تعالى معظماً أمره ومفخماً شأنه ﴿ وَمَا أَدْرَاكَ مَا عِلِّيُّونَ ﴾ ثم قال تعالى مؤكداً لما كتب لهم ﴿ كِتَابٌ مَرْقُومٌ ﴾ ﴿ يَشْهَدُهُ الْمُرْسَلُونَ ﴾ وهم الملائكة . وقال ابن عباس : يشهده من كل سماء مقربوها . ثم

قال تعالى : ﴿ إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ ﴾ أي يوم القيامة هم في نعيم مقيم وجنات فيها فضل عظيم ﴿ عَلَى الْأَرَائِكِ ﴾ وهي السرور تحت الحجاب ﴿ يَنْظُرُونَ ﴾ قيل معناه ينظرون في ملكهم وما أعطاهم الله من الخير والفضل الذي لا ينقضي ولا يبيد وقيل معناه ﴿ عَلَى الْأَرَائِكِ يَنْظُرُونَ ﴾ إلى الله ﷻ ، وهذا مقابل لما وصف به أولئك الفجار ﴿ كَلَّا إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُورُونَ ﴾ فذكر عن هؤلاء أنهم يباحون النظر إلى الله ﷻ وهم على سررهم وفرشهم ورد في حديث ابن عمر : « إِنَّ أَدْنَى أَهْلِ الْجَنَّةِ مَثَرَةٌ لِمَنْ يَنْظُرُ فِي مَلِكِهِ مَسِيرَةَ أَلْفِي سَنَةٍ يَرَى أَقْصَاهُ كَمَا يَرَى أَذْنَاهُ وَإِنْ أَغْلَاهُمْ لَمَنْ يَنْظُرُ إِلَى اللَّهِ ﷻ فِي الْيَوْمِ مَرَّتَيْنِ » (١) .

وقوله تعالى : ﴿ تَرَوْنَهُمْ نَضْرَ النَّعِيمِ ﴾ أي تعرف إذا نظرت إليهم في وجوههم نضرة النعيم أي صفة الترافة والحشمة والسرور والدعة والرياسة مما هم فيه من النعيم العظيم . وقوله تعالى : ﴿ يَسْقُونَ مِنْ رِجْقٍ مَخْثُورٍ ﴾ أي يسقون من خمر من الجنة والريحق من أسماء الخمر . عن عطية العوفي عن أبي سعيد الخدري أراه قد رفعه إلى النبي ﷺ قال : « أَيُّمَا مُؤْمِنٍ سَقَى مُؤْمِنًا شَرْبَةً مَاءٍ عَلَى طَهًا سَقَاهُ اللَّهُ تَعَالَى يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنَ الرَّجِيقِ الْمَخْثُومِ ، وَأَيُّمَا مُؤْمِنٍ أَطْعَمَ مُؤْمِنًا عَلَى جُوعٍ أَطْعَمَهُ اللَّهُ مِنْ ثَعَارِ الْجَنَّةِ ، وَأَيُّمَا مُؤْمِنٍ كَسَا مُؤْمِنًا ثَوْبًا عَلَى عَرِي كَسَاهُ اللَّهُ مِنْ خَضِرِ الْجَنَّةِ » (٢) . وقال ابن مسعود في قوله : ﴿ خِتْمُهُ مِسْكٌ ﴾ أي خلطه مسك ، وقال ابن عباس : طيب الله لهم الخمر فكان آخر شيء جعل فيها مسك ختم بمسك ، وقال إبراهيم والحسن : ختامه مسك أي عاقبته مسك وعن أبي الدرداء ﴿ خِتْمُهُ مِسْكٌ ﴾ قال : شراب أبيض مثل الفضة يختمون به شرابهم ولو أن رجلاً من أهل الدنيا أدخل أصبعه فيه ثم أخرجها لم يبق ذو روح إلا وجد طيبها . وقوله تعالى : ﴿ وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ ﴾ أي وفي مثل هذا الحال فليتنافخ المتنافخون وليتباهى ويكاثر ويستبق إلى مثله المستبقون وقوله تعالى : ﴿ وَرِجَائُهُمْ مِنْ تَنْبِيهِ ﴾ أي ومزاج هذا الرحيق الموصوف من تسنيم أي من شراب يقال له تسنيم وهو أشرف شراب أهل الجنة وأعلاه ، ولهذا قال : ﴿ عَيْنَا يَتَمَتَّعُ بِهَا الْقَمَرُونَ ﴾ أي يشربها المقربون صرفاً وتمزج لأصحاب اليمين مزجاً قاله ابن مسعود وابن عباس ومسروق وقتادة وغيرهم .

﴿ إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا كَانُوا مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا يَضْحَكُونَ ۝ وَإِذَا مَرُّوا بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ ۝ وَإِذَا انْقَلَبُوا إِلَىٰ أَهْلِهِمْ انْقَلَبُوا فَكِهِينَ ۝ وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوا إِنَّ هَٰؤُلَاءِ لَضَالُّونَ ۝ وَمَا أُرْسِلُوا عَلَيْهِمْ حَافِظِينَ ۝ فَالْيَوْمَ الَّذِينَ آمَنُوا مِنَ الْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ ۝ عَلَى الْأَرَائِكِ يَنْظُرُونَ ۝ هَلْ تُؤِيبُ الْكَفَّارَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ۝ » .

يخبر تعالى عن المجرمين أنهم كانوا في الدار الدنيا يضحكون من المؤمنين أي يستهزئون بهم ويحتقرونهم ، وإذا مروا بالمؤمنين يتغامزون عليهم أي محتقرين لهم ﴿ وَإِذَا انْقَلَبُوا إِلَىٰ أَهْلِهِمْ انْقَلَبُوا فَكِهِينَ ﴾ أي وإذا انقلب أي رجع هؤلاء المجرمون إلى منازلهم انقلبوا إليها فاكهين أي مهما طلبوا وجدوا ومع هذا ما شكروا نعمة الله عليهم بل اشتغلوا بالقوم المؤمنين يحتقرونهم ويحسدونهم ﴿ وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوا إِنَّ هَٰؤُلَاءِ لَضَالُّونَ ﴾ أي لكونهم على غير دينهم قال الله تعالى : ﴿ وَمَا أُرْسِلُوا عَلَيْهِمْ حَافِظِينَ ﴾ أي وما بعث هؤلاء المجرمون حافظين على هؤلاء المؤمنين ما يصدر منهم من أعمالهم وأقوالهم ولا كلفوا بهم ؟ فلم اشتغلوا بهم وجعلوهم نصب أعينهم ؟ ولهذا قال : ﴿ فَالْيَوْمَ ﴾ يعني

(٢) أخرجه أحمد في مسنده (١٣/٣) .

(١) سبق تخريجه .

يوم القيامة ﴿ الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنَ الْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ ﴾ أي في مقابلة ما ضحك بهم أولئك ﴿ عَلَى الْأَرَآئِكِ يَنْظُرُونَ ﴾ أي إلى الله ﷻ في مقابلة من زعم فيهم أنهم ضالون ليسوا بضالين بل هم من أولياء الله المقربين ينظرون إلى ربهم في دار كرامته . وقوله تعالى : ﴿ هَلْ تُؤِيبُ الْكَفَّارُ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴾ أي هل جوزي الكفار على ما كانوا يقابلون به المؤمنين من الاستهزاء والتنقيص أم لا ، يعني قد جوزوا أوفر الجزاء وأتمه وأكمله .

سورة الانشقاق

عن أبي رافع قال : صليت مع أبي هريرة العتمة فقرأ ﴿ إِذَا السَّمَاءُ انشَقَّتْ ﴾ فسجد فقلت له فقال : سجدت خلف أبي القاسم عليه السلام فلا أزال أسجد بها حتى ألقاه ^(١) .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ إِذَا السَّمَاءُ انشَقَّتْ ① وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُفَّتْ ② وَإِذَا الْأَرْضُ مُدَّتْ ③ وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتْ ④ وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُفَّتْ ⑤ يُتَابِعُهَا الْإِنْسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَاقِيهِ ⑥ فَأَمَّا مَنْ أُوَفِّيٰ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ ⑦ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا ⑧ وَنَقِلَتْ إِلَيْهِ أُهْلِيهِ سُرُورًا ⑨ وَأَمَّا مَنْ أُوَفِّيٰ كِتَابَهُ بِزُورٍ ⑩ فَسَوْفَ يَدْعُوا ثُبُورًا ⑪ وَيَصْلَىٰ سَعِيرًا ⑫ إِنَّهُ كَانَ فِي أَهْلِهِ مُسْرُورًا ⑬ إِنَّهُ ظَنَّ أَنْ لَنْ يَحُورَ ⑭ بَلَىٰ إِنَّ رَبَّهُ كَانَ بِهِ بَصِيرًا ⑮ .

يقول تعالى : ﴿ إِذَا السَّمَاءُ انشَقَّتْ ﴾ وذلك يوم القيامة ﴿ وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا ﴾ أي استمعت لربها وأطاعت أمره فيما أمرها به من الانشقاق وذلك يوم القيامة ﴿ وَحُفَّتْ ﴾ أي وحق لها أن تطيع أمره لأنه العظيم الذي لا يمانع ولا يغالب بل قد قهر كل شيء وذل له كل شيء ثم قال : ﴿ وَإِذَا الْأَرْضُ مُدَّتْ ﴾ أي بسطت وفرشت ووسعت .
عن علي بن الحسين أن النبي عليه السلام قال : « إِذَا كَانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ مَدَّ اللَّهُ الْأَرْضَ مَدَّ الْأَدِيمِ حَتَّى لَا يَكُونَ لِيَشْرَ مِنَ النَّاسِ إِلَّا مَوْضِعُ قَدَمَيْهِ فَأَكُونُ أَوَّلُ مَنْ يُدْعَى وَجَبْرِيلُ عَنْ يَمِينِ الرَّحْمَنِ وَاللَّهُ مَا رَأَاهُ قَبْلَهَا فَأَقُولُ يَا رَبِّ إِنَّ هَذَا أَخْبَرَنِي أَنَّكَ أَرْسَلْتَهُ إِلَيَّ ، فَيَقُولُ اللَّهُ ﷻ صَدَقَ ، ثُمَّ أَشْفَعُ فَأَقُولُ يَا رَبِّ عَبْدُكَ عَبْدُكَ فِي أَطْرَافِ الْأَرْضِ - قال - وَهُوَ الْمَقَامُ الْحَمْدُودُ » ^(٢) وقوله تعالى : ﴿ وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتْ ﴾ أي ألقت ما في بطنها من الأموات وتخلت منهم . وقوله ﴿ يُتَابِعُهَا الْإِنْسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا ﴾ أي إنك ساع إلى ربك سعيًا وعامل عملًا ﴿ فَمُلَاقِيهِ ﴾ ثم إنك ستلقى ما عملت من خير أو شر . ويشهد لذلك ما روي عن جابر قال : قال رسول الله ﷺ : « قَالَ جِبْرِيلُ يَا مُحَمَّدُ عِشْ مَا شِئْتَ فَإِنَّكَ مَيِّتٌ ، وَأُخْبِئْتُ مَنْ شِئْتَ فَإِنَّكَ مُفَارِقُهُ ، وَاَعْمَلْ مَا شِئْتَ فَإِنَّكَ مُلَاقِيهِ » ^(٣) . ومن الناس من يعيد الضمير على قوله ﴿ رَبِّكَ ﴾ أي فملاق ربك ومعناه فيجازيك بعملك ويكافئك على سعيك ، وعلى هذا فكلما القولين متلازم . قال تعالى : ﴿ فَأَمَّا مَنْ أُوَفِّيٰ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ ⑦ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا ⑧ ﴾ أي سهلاً بلا تعسير أي لا يحقق عليه جميع دقائق أعماله فإن من حوسب كذلك هلك لا محالة . وعن عائشة رضي الله عنها قالت : قال رسول الله ﷺ : « مَنْ نُوقِشَ الْحِسَابَ عُذِّبَ » . قالت : فقلت : أفليس قال الله تعالى : ﴿ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا ⑧ ﴾ قال : « لَيْسَ ذَلِكَ بِالْحِسَابِ وَلَكِنَّ ذَلِكَ الْعَرُضَ ، مَنْ نُوقِشَ الْحِسَابَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عُذِّبَ » ^(٤) . وعن عائشة قالت : سمعت رسول الله ﷺ يقول في بعض صلواته :

(١) أخرجه البخاري في الأذان (٧٦٦) وأبو داود في السنن (١٤٠٨) .

(٢) ذكره الهندي في كنز العمال (٣٩٠٩٤) .

(٣) هذا الحديث من الأحاديث المشهورة على ألسنة الناس وهو من الأحاديث الموضوعة ، فقد ذكره السيوطي في اللآلئ المصنوعة في الأحاديث الموضوعة (١٦/٢) والفتني في تذكرة الموضوعات (٢٠٠) والمجلوني في كشف الحفاء (٧٨/٢) .

(٤) أخرجه البخاري في الرقاق (٦٥٣٦) وأحمد في مسنده (٤٧/٦) والترمذي في السنن (٣٣٣٧) ومسلم في الجنة وصفة نعيمها (٧٩) .

« اللَّهُمَّ حَاسِبْنِي حِسَابًا يَسِيرًا » . فلما انصرف قلت يا رسول الله ما الحساب اليسير ؟ قال : « أَنْ يُنْظَرَ فِي كِتَابِهِ فَيُتَجَاوَزَ لَهُ عَنْهُ إِنَّهُ مَنْ نُوقِشَ الْحِسَابَ يَا عَائِشَةُ يُؤَمِّدُ هَلَكَ » ^(١) . وقوله تعالى : ﴿ وَنَبَلِّغُكَ إِلَىٰ أَهْلِهِ مَسْرُورًا ﴾ أي ويرجع إلى أهله في الجنة ، مسرورًا أي فرحًا مغتبطًا بما أعطاه الله ﷻ .

عن ثوبان مولى رسول الله ﷺ أنه قال : إنكم تعملون أعمالًا لا تعرف ويوشك الغائب أن يثوب إلى أهله فمسرورًا أو مكظوم ^(٢) . وقوله تعالى : ﴿ وَأَمَّا مَنْ أُوْقِيَ كِتَابَهُ وَرَّاهَ ظَهْرَهُ ﴾ أي بشماله من وراء ظهره تنثني يده إلى ورائه ويعطى كتابه بها كذلك ﴿ فَسَوْفَ يَدْعُوا ثُبُورًا ﴾ أي خسارًا وهلاكًا ﴿ وَيَصِلَىٰ سَعِيرًا ﴾ إِنَّهُ كَانَ فِي أَهْلِهِ مَسْرُورًا أي فرحًا لا يفكر في عواقب ولا يخاف مما أمامه فأعقبه ذلك الفرح اليسير الحزن الطويل . ﴿ إِنَّمَا ظَنَّ أَنَّ لَنْ يَحُورَ ﴾ أي كان يعتقد أنه لا يرجع إلى الله ولا يعيده بعد موته قاله ابن عباس وقتادة وغيرهما ، والخور هو الرجوع قال الله : ﴿ بَلَىٰ إِنَّ رَبَّهُ كَانَ بِهِ بَصِيرًا ﴾ يعني بلى سيعيده الله كما بدأه ويجازيه على أعماله خيرا وشرا فإنه كان به بصيرًا أي عليما خبيرًا .

﴿ فَلَا أَقْسِمُ بِالشَّفَقِ ﴾ وَاللَّيْلِ وَمَا وَسَقَ ﴿ وَالْقَمَرِ إِذَا اتَّسَقَ ﴾ لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عَن طَبَقٍ ﴿ فَبَا لِمَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ وَإِذَا قُرِئَ عَلَيْهِمُ الْقُرْآنُ لَا يَسْمَعُونَ ﴿ بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا يَكْذِبُونَ ﴾ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُوعُونَ ﴿ فَيَنْزِلُهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ﴿ .

روي عن علي وابن عباس وعبادة بن الصامت وأبي هريرة وشداد بن أوس وابن عمر وغيرهم أنهم قالوا : الشفق الحمرة . وعن أبي هريرة قال : الشفق البياض ، فالشفق هو حمرة الأفق إما قبل طلوع الشمس ، وإما بعد غروبها ، كما هو معروف عند أهل اللغة . قال الخليل بن أحمد : الشفق : الحمرة من غروب الشمس إلى وقت العشاء الآخرة فإذا ذهب قيل غاب الشفق . وقال الجوهري : الشفق بقية ضوء الشمس وحمرتها في أول الليل إلى قريب من العتمة . وكذا قال عكرمة : الشفق الذي يكون بين المغرب والعشاء . وفي الصحيح عن عبد الله بن عمرو عن رسول الله ﷺ أنه قال : « وَقْتُ الْمَغْرِبِ مَا لَمْ يَغِبِ الشَّفَقُ » ^(٣) . ففي هذا كله دليل على أن الشفق هو كما قاله الجوهري والخليل . ولكن صح عن مجاهد أنه قال في هذه الآية ﴿ فَلَا أَقْسِمُ بِالشَّفَقِ ﴾ : هو النهار كله وفي رواية عنه أيضًا أنه قال الشفق الشمس ، وإنما حملة على هذا قرنه بقوله تعالى ﴿ وَاللَّيْلِ وَمَا وَسَقَ ﴾ أي جمع كأنه أقسم بالضياء والظلام . قال ابن جرير : أقسم الله بالنهار مديرا وبالليل مقبلا .

وقد قال عكرمة : ﴿ وَاللَّيْلِ وَمَا وَسَقَ ﴾ يقول : ما ساق من ظلمة إذا كان الليل ذهب كل شيء إلى ماواه . وقوله تعالى : ﴿ وَالْقَمَرِ إِذَا اتَّسَقَ ﴾ قال ابن عباس : إذا اجتمع واستوى ، وعن سعيد بن جبير ومسروق وأبو صالح والضحاك وابن زيد ﴿ وَالْقَمَرِ إِذَا اتَّسَقَ ﴾ إذا استوى . وقال قتادة : إذا استدار . ومعنى كلامهم أنه إذا تكامل نوره وأبدر جعله مقابلا لليل وما وسق ، وقوله تعالى : ﴿ لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عَن طَبَقٍ ﴾ قال ابن عباس ﴿ لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عَن طَبَقٍ ﴾ حالا بعد حال قال هذا

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٢٠٦/٦) ومسلم في الجنة وصفة نعيمها (٨٠) والترمذي في السنن (٢٤٢٦) .

(٢) أخرجه الطبراني في الكبير (٨٩/٢) .

(٣) أخرجه البيهقي في السنن (٣٦٦/١) .

نبيكم ﷺ^(١)، وعن الشعبي قال : لتركبن يا محمد سماء بعد سماء . قلت يعنون ليلة الإسراء ؟ وقال ابن عباس : ﴿ طَبَقًا عَنْ طَبَقٍ ﴾ منزلاً على منزل ، قلت : كأنه أراد معنى الحديث الصحيح : « لَتَرْكَبُنَّ سَنَنَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ حَذَرَ الْقَذَّةِ بِالْقَذَّةِ حَتَّى لَوْ دَخَلُوا بِجَحْرٍ ضَبٍّ لَدَخَلْتُمُوهُ » . قالوا : يا رسول الله : اليهود والنصارى قال « فَمَنْ ؟ »^(٢) . وهذا محتمل .

قال عبد الله : السماء تنشق ثم تحمر ثم تكون لوناً بعد لون . وقال الحسن البصري ﴿ طَبَقًا عَنْ طَبَقٍ ﴾ يقولان حالاً بعد حال ، رخاء بعد شدة وشدة بعد رخاء ، وغنى بعد فقر وفقراً بعد غنى ، وصحة بعد سقم ، وسقماً بعد صحة ، ثم قال ابن جرير بعدما حكى أقوال الناس في هذه الآية من القراء والمفسرين : والصواب من التأويل قول من قال لتركبن أنت يا محمد حالاً بعد حال وأمرأ بعد أمر من الشدائد والمراد بذلك إن كان الخطاب موجهاً إلى رسول الله ﷺ جميع الناس وأنهم يلقون من شدائد يوم القيامة وأحواله أهوالاً . وقوله تعالى : ﴿ فَمَا لَكُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ وَإِذَا قُرِئَ عَلَيْهِمُ الْقُرْآنُ لَا يَسْجُدُونَ ﴿ أي فماذا يمنعهم من الإيمان بالله ورسوله واليوم الآخر وما لهم إذا قرئت عليهم آيات الله وكلامه وهو هذا القرآن لا يسجدون إعظاماً وإكراماً واحتراماً . وقوله تعالى : ﴿ بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا يَكْذِبُونَ ﴾ أي من سجيتهم التكذيب والعناد والمخالفة للحق ﴿ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُوعُونَ ﴾ أي يكتُمون في صدورهم ﴿ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ أي فأخبرهم يا محمد بأن الله ﷻ قد أعد لهم عذاباً أليماً . وقوله تعالى : ﴿ إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ﴾ هذا استثناء منقطع يعني لكن الذين آمنوا أي بقلوبهم ﴿ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ﴾ أي بجوارحهم ﴿ لَكُمْ أَجْرٌ ﴾ أي في الدار الآخرة ﴿ غَيْرُ مَمْنُونٍ ﴾ أي غير منقوص ، وقال مجاهد والضحاك : غير محسوب وحاصل قولهما أنه غير مقطوع . وقال السدي : منقوص ، وقال بعضهم : غير ممنون عليهم وهذا القول الأخير عن بعضهم قد أنكره غير واحد فإن الله ﷻ له المنّة على أهل الجنة في كل حال وآن ولحظة ، وإنما دخلوها بفضلهم ورحمته لا بأعمالهم ، فله عليهم المنّة دائماً سرمداً ، والحمد لله وحده أبداً ؛ ولهذا يلهمون تسبيحه وتحميده كما يلهمون النفس ، وآخر دعواهم أن الحمد لله رب العالمين .

(١) أخرجه البخاري في تفسير القرآن (٤٩٤٠) .

(٢) أخرجه الحاكم في المستدرك (٤٥٥/٤) وأحمد في مسنده (٣٤٠/٥) .

فيه نارا وأعدوا لها وقودا يسعرونها به ثم أرادوهم فلم يقبلوا منهم فخذفهم فيها ، ولهذا قال تعالى : ﴿ قِيلَ اصْحَبِ الْأَخْدُودِ ۝ النَّارِ ذَاتِ الْوُوقِ ۝ إِذْ هُرِّعَتْ عَلَيْهِمُ أَعْمَالُهُمْ ۝ وَهُمْ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ بِالْمُتَوَكِّلِينَ شُهُودٌ ۝ أَيْ مُشَاهِدُونَ لِمَا يَفْعَلُ بِأَوْلَئِكَ الْمُؤْمِنِينَ . قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَنْ يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ ۝ أَيْ وَمَا كَانَ لَهُمْ عِنْدَهُمْ ذَنْبٌ إِلَّا بِإِيمَانِهِمْ بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الَّذِي لَا يَضَامُ مِنْ لَازِ بِجَنَابِهِ الْمُنِيعِ الْحَمِيدِ فِي جَمِيعِ أَقْوَالِهِ وَأَفْعَالِهِ وَشَرْعِهِ وَقَدَرِهِ ، وَإِنْ كَانَ قَدْ قَدَّرَ عَلَىٰ عِبَادِهِ هَؤُلَاءِ الَّذِي وَقَعَ بِهِمْ بِأَيْدِي الْكُفَّارِ بِهِ فَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَمِيدُ ، وَإِنْ خَفِيَ سَبَبُ ذَلِكَ عَلَى كَثِيرٍ مِنَ النَّاسِ . ثُمَّ قَالَ تَعَالَى : ﴿ الَّذِي لَهُ مَلَكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ۝ مِنْ تَمَامِ الصِّفَةِ أَنَّهُ الْمَالِكُ لَجَمِيعِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا فِيهِمَا وَمَا بَيْنَهُمَا ۝ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ۝ أَيْ لَا يَغِيبُ عَنْهُ شَيْءٌ فِي جَمِيعِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَا تَخْفَى عَلَيْهِ خَافِيَةٌ .

وقد اختلف أهل التفسير في أهل هذه القصة من هم فعن علي أنهم أهل فارس حين أراد ملكهم تحليل تزويج المحارم فامتنع عليه علماءؤهم فعمد إلى حفر أخدود فخذف فيه من أنكر عليه منهم واستمر فيهم تحليل المحارم إلى اليوم . وعنه أنهم كانوا قوماً باليمن اقتتل مؤمنوهم ومشركوهم فغلب مؤمنوهم على كفارهم ، ثم اقتتلوا فغلب الكفار المؤمنين فخذوا لهم الأخاديد وأحرقوهم فيها ، وعنه أنهم كانوا من أهل الحبشة واحداهم حبشي ، وقال ابن عباس ﴿ قِيلَ اصْحَبِ الْأَخْدُودِ ۝ النَّارِ ذَاتِ الْوُوقِ ۝ قَالَ : نَاسٌ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ خَدَوْا أَخْدُودًا فِي الْأَرْضِ ثُمَّ أَوْقَدُوا فِيهِ نَارًا ثُمَّ أَقَامُوا عَلَىٰ ذَلِكَ الْأَخْدُودِ رِجَالًا وَنِسَاءً فَعَرَضُوا عَلَيْهَا . وَزَعَمُوا أَنَّهُ دَانِيَالُ وَأَصْحَابُهُ . وَهَكَذَا قَالَ الضَّحَّاكُ بْنُ مَزَاحِمٍ وَقِيلَ غَيْرُ ذَلِكَ .

عن صهيب الرومي أن رسول الله ﷺ قال : « كَانَ فِيمَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ مَلِكٌ وَكَانَ لَهُ سَاحِرٌ فَلَمَّا كَبُرَ السَّاحِرُ قَالَ لِلْمَلِكِ : إِنِّي قَدْ كَبُرَ سِنِّي وَخَضِرَ أَجْلِي فَادْفَعْ إِلَيَّ غُلَامًا لِأَعْلَمُهُ السَّحْرَ ، فَدَفَعَ إِلَيْهِ غُلَامًا كَانَ يُعَلِّمُهُ السَّحْرَ ، وَكَانَ بَيْنَ السَّاحِرِ وَبَيْنَ الْمَلِكِ رَاهِبٌ ، فَأَتَى الْغُلَامُ عَلَى الرَّاهِبِ فَسَمِعَ مِنْ كَلَامِهِ فَأَعْجَبَهُ نَحْوُهُ وَكَلَامُهُ ، وَكَانَ إِذَا أَتَى السَّاحِرَ ضَرَبَتْهُ وَقَالَ : مَا حَبَسَكَ ، وَإِذَا أَتَى أَهْلَهُ ضَرَبُوهُ وَقَالُوا : مَا حَبَسَكَ ، فَشَكَا ذَلِكَ إِلَى الرَّاهِبِ فَقَالَ : إِذَا أَرَادَ السَّاحِرُ أَنْ يَضْرِبَكَ فَقُلْ حَبَسَنِي أَهْلِي وَإِذَا أَرَادَ أَهْلُكَ أَنْ يَضْرِبُوكَ فَقُلْ حَبَسَنِي السَّاحِرُ . قَالَ : فَبَيْنَمَا هُوَ ذَاتَ يَوْمٍ إِذْ أَتَى عَلَى دَابَّةٍ فَظِيعةٌ عَظِيمَةٌ قَدْ حَبَسَتْ النَّاسَ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ أَنْ يَجُوزُوا . فَقَالَ : الْيَوْمَ أَعْلَمُ أَمْرَ الرَّاهِبِ أَحَبُّ إِلَيَّ اللَّهُ أَمْ أَمْرُ السَّاحِرِ ، قَالَ : فَأَخَذَ حَجَرًا فَقَالَ : اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ أَمْرُ الرَّاهِبِ أَحَبُّ إِلَيْكَ وَأَرْضِي مِنْ أَمْرِ السَّاحِرِ فَأَقْتُلْ هَذِهِ الدَّابَّةَ حَتَّى يَجُوزَ النَّاسُ ، وَرَمَاهَا فَاقْتُلَهَا وَمَضَى النَّاسُ فَأَخْبَرَ الرَّاهِبَ بِذَلِكَ فَقَالَ : أَيْ بُنَيَّ أَنْتَ أَفْضَلُ مِنِّي وَإِنَّكَ سَتَبْتَلِي فَإِنْ ابْتَلَيْتَ فَلَا تَدُلْ عَلَيَّ ، فَكَانَ الْغُلَامُ يُبْرِئُ الْأَكْمَةَ وَالْأَبْرَصَ وَسَائِرَ الْأَدْوَاءِ وَيَشْفِيهِمْ ، وَكَانَ لِلْمَلِكِ جَلِيسٌ فَعَمِيَ فَسَمِعَ بِهِ فَأَتَاهُ بِهَدَايَا كَثِيرَةٍ فَقَالَ : أَشْفِنِي وَلَكَ مَا هُنَا أَجْمَعُ فَقَالَ : مَا أَنَا أَشْفِي أَحَدًا إِنَّمَا يَشْفِي اللَّهُ ﷻ فَإِنْ آمَنْتَ بِهِ دَعَوْتُ اللَّهَ فَشَفَاكَ ، فَأَمَرَ فَدَعَا اللَّهَ فَشَفَاهُ ، ثُمَّ أَتَى الْمَلِكَ فَجَلَسَ مِنْهُ نَحْوَ مَا كَانَ يَجْلِسُ فَقَالَ لَهُ الْمَلِكُ : يَا فُلَانُ مَنْ رَدُّ عَلَيْكَ بَصْرَكَ ؟ فَقَالَ : رَبِّي ؟ فَقَالَ : أَنَا ! قَالَ : لَا ، رَبِّي وَرَبُّكَ اللَّهُ ، قَالَ : وَلَكَ رَبٌّ غَيْرِي ؟ قَالَ : نَعَمْ رَبِّي وَرَبُّكَ اللَّهُ فَلَمْ يَزَلْ يُعَذِّبُهُ حَتَّى دَلَّ عَلَى الْغُلَامِ فَبَعَثَ إِلَيْهِ فَقَالَ : أَيْ بُنَيَّ بَلَّغْ مِنْ سَخِرِكَ أَنَّ تُبْرِئَ

الْأَكْمَةَ وَالْأُيْرَاصَ وَهَذِهِ الْأَدْوَاءُ ! قَالَ : مَا أَشْفِي أَحَدًا إِنَّمَا يَشْفِي اللَّهُ ﷻ ، قَالَ : أَنَا ، قَالَ : لَا . قَالَ : أَوَّلَكَ رَبِّ غَيْرِي ؟ قَالَ : رَبِّي وَرَبُّكَ اللَّهُ ، فَأَخَذَهُ أَفْضًا بِالْعَذَابِ ، فَلَمْ يَزَلْ بِهِ حَتَّى دَلَّ عَلَى الرَّاهِبِ فَأَتَى بِالرَّاهِبِ . فَقَالَ : ارْجِعْ عَنْ دِينِكَ ، فَأَتَى فَوَضَعَ الْمِنَشَارَ فِي مَفْرَقِ رَأْسِهِ حَتَّى وَقَعَ شِقَاؤُهُ ، وَقَالَ لِلْأَعْمَى : ارْجِعْ عَنْ دِينِكَ فَأَتَى فَوَضَعَ الْمِنَشَارَ فِي مَفْرَقِ رَأْسِهِ حَتَّى وَقَعَ شِقَاؤُهُ إِلَى الْأَرْضِ . وَقَالَ لِلْغُلَامِ : ارْجِعْ عَنْ دِينِكَ فَأَتَى فَبَعَثَ بِهِ مَعَ نَفَرٍ إِلَى جَبَلٍ كَذَا وَكَذَا وَقَالَ : إِذَا بَلَغْتُمْ ذُرُوتَهُ فَإِنْ رَجَعَ عَنْ دِينِهِ وَإِلَّا فَذْهِبُوا بِهِ ، فَذْهَبُوا بِهِ فَلَمَّا عَلَوْا بِهِ الْجَبَلَ قَالَ : اللَّهُمَّ اكْفَيْهِمْ بِمَا شِئْتَ ، فَزَجَفَ بِهِمُ الْجَبَلُ فَذْهِبُوا أَجْمَعُونَ وَجَاءَ الْغُلَامُ يَتَلَمَّسُ حَتَّى دَخَلَ عَلَى الْمَلِكِ . فَقَالَ : مَا فَعَلَ أَصْحَابُكَ ؟ فَقَالَ : كَفَانِيهِمُ اللَّهُ تَعَالَى فَبَعَثَ بِهِ مَعَ نَفَرٍ فِي قَرْقُورٍ ، فَقَالَ : إِذَا لَجَجْتُمْ بِهِ الْبَحْرَ فَإِنْ رَجَعَ عَنْ دِينِهِ وَإِلَّا فَعَرِّقُوهُ فِي الْبَحْرِ ، فَلَجَجُوا بِهِ الْبَحْرَ ، فَقَالَ الْغُلَامُ : اللَّهُمَّ اكْفَيْهِمْ بِمَا شِئْتَ فَعَرِّقُوا أَجْمَعُونَ ، وَجَاءَ الْغُلَامُ حَتَّى دَخَلَ عَلَى الْمَلِكِ ، فَقَالَ : مَا فَعَلَ أَصْحَابُكَ ؟ فَقَالَ : كَفَانِيهِمُ اللَّهُ تَعَالَى ، ثُمَّ قَالَ لِلْمَلِكِ : إِنَّكَ لَسْتَ بِقَاتِلِي حَتَّى تَفْعَلَ مَا أَمْرُكَ بِهِ فَإِنْ أَنْتَ فَعَلْتَ مَا أَمْرُكَ بِهِ قَتَلْتَنِي وَإِلَّا فَإِنَّكَ لَا تَسْتَطِيعُ قَتْلِي ، قَالَ : وَمَا هُوَ ؟ قَالَ : تَجْمَعُ النَّاسُ فِي صَبْعِي وَاحِدٍ ، ثُمَّ تَصْلُبْنِي عَلَى جَذَعٍ وَتَأْخُذُ سَهْمًا مِنْ كِتَابَتِي ، ثُمَّ قُل : بِاسْمِ اللَّهِ رَبِّ الْغُلَامِ ، فَإِنَّكَ إِذَا فَعَلْتَ ذَلِكَ قَتَلْتَنِي ، ففعل ووضعه السهم في كبده قوسه ثم رماه ، وَقَالَ : بِاسْمِ اللَّهِ رَبِّ الْغُلَامِ ؛ فَوَقَعَ السَّهْمُ فِي صَدْغِهِ فَوَضَعَ الْغُلَامُ يَدَهُ عَلَى مَوْضِعِ السَّهْمِ وَمَاتَ . فَقَالَ النَّاسُ : آمَنَّا بِرَبِّ الْغُلَامِ . فَقِيلَ لِلْمَلِكِ : أَرَأَيْتَ مَا كُنْتَ تَحْذَرُ ؟ فَقَدْ وَاللَّهِ نَزَلَ بِكَ ، قَدْ آمَنَ النَّاسُ كُلُّهُمْ ، فَأَمَرَ بِأَقْوَاهِ السَّكِكِ فَخُذَّتْ فِيهَا الْأَخَادِيدُ وَأُضْرِمَتْ فِيهَا النَّيِّرَانُ وَقَالَ : مَنْ رَجَعَ عَنْ دِينِهِ فَذَعُوهُ وَإِلَّا فَأَقْحِمُوهُ فِيهَا ، قَالَ : فَكَانُوا يَتَعَادُونَ فِيهَا وَيَتَدَفَّقُونَ ، فَجَاءَتِ امْرَأَةٌ بِابْنٍ لَهَا تُرَضِعُهُ ، فَكَانَتْهَا تَقَاعَسَتْ أَنْ تَقَعَ فِي النَّارِ ، فَقَالَ الصَّبِيُّ : اضْبِرِّي يَا أُمُّهُ فَإِنَّكَ عَلَى الْحَقِّ » (١) .

وقال ابن إسحاق : فيما يرويه عن محمد بن عمرو بن حزم أنه حدث أن رجلاً من أهل نجران كان في زمان عمر بن الخطاب حفر خربة من خرب نجران ليعض حاجته فوجد عبد الله بن الثامر تحت دفن فيها قاعداً واضعاً يده على ضربة في رأسه ممسكاً عليها بيده فإذا أخذت يده عنها تنبعت دماً ، وإذا أرسلت يده ردت عليها فأمسكت دمه وفي يده خاتم مكتوب فيه ربي الله فكتب فيه إلى عمر بن الخطاب يخبره بأمره فكتب عمر إليهم أن أقروه على حاله وردوا عليه الذي كان عليه ففعلوا (٢) . وروي عن عبد الله بن جعفر عن بعض أهل العلم أن أبا موسى لما افتتح أصبهان وجد حائطاً من حيطان المدينة قد سقط فبناه فسقط ثم بناه فسقط ، ف قيل له : إن تحته رجلاً صالحاً ، فحفر الأساس فوجد فيه رجلاً قائماً معه سيف فيه مكتوب : أنا الحارث بن مضاض نقيمت على أصحاب الأخدود ، فاستخرجه أبو موسى ، وبني الحائط فثبت ، قلت : هو الحارث بن مضاض بن عمرو بن مضاض الجرهمي أحد ملوك جرهم الذين ولوا أمر الكعبة بعد ولد ثابت بن إسماعيل بن إبراهيم ، وولد

(١) أخرجه أحمد في مسنده (١٧/٦) والترمذي في السنن (٣٣٤٠) ورواه مسلم بنحوه عن هبة بن خالد عن حماد بن سلمة في

الزهد (٧٣) . (٢) السيرة النبوية لابن هشام (٣٧/١ ، ٣٨) .

الحارث هذا هو عمرو بن الحارث بن مضاض هو آخر ملوك جرهم بمكة لما أخرجتهم خزاعة وأجلوهم إلى اليمن وهو القاتل في شعره الذي قال ابن هشام إنه أول شعر قالته العرب :
 كَأَنْ لَّمْ يَكُنْ بَيْنَ الْحُجُونِ إِلَى الصَّفَا أَنَيْسَ وَلَمْ يَسْمُرْ بِمَكَّةَ سَامِرُ
 بَلَى نَحْنُ كُنَّا أَهْلَهَا فَأَبَادَنَا صُرُوفُ اللَّيَالِي وَالْجُدُودُ الْعَوَائِرُ ^(١)

وهذا يقتضي أن هذه القصة كانت قديمًا بعد زمان لإسماعيل عليه السلام بقرب من خمسمائة سنة أو نحوها وما ذكره ابن إسحاق يقتضي أن قصتهم كانت في زمن الفترة التي بين عيسى ومحمد عليهما من الله السلام وهو أشبه والله أعلم .

وقد يحتمل أن ذلك قد وقع في العالم كثيرًا . قال أسباط عن السدي في قوله تعالى ﴿ قَدْ أَفْلَحَ الْاُخْدُودُ ﴾ قال : كانت الأخدود ثلاثة : خد بالعراق ، وخذ بالشام ، وخذ باليمن . وعن مقاتل قال : كانت الأخدود ثلاثة : واحدة بنجران باليمن والأخرى بالشام والأخرى بفارس حرقوا بالنار ، أما التي بالشام فهو انطنانوس الرومي ، وأما التي بفارس فهو بختنصر ، وأما التي بأرض العرب فهو يوسف ذو نواس ، فأما التي بفارس والشام فلم ينزل الله تعالى فيهما قرآنًا وأنزل في التي كانت بنجران . وقوله تعالى ﴿ لَأَنَّا الَّذِينَ تَتَّبِعُوا الْفَرِيقَ الْاُولَىٰ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ﴾ أي حرقوا ﴿ ثُمَّ لَمْ يَبْقَا ﴾ أي لم يقلعوا عما فعلوا ويندموا على ما أسلفوا ﴿ فَلَهُمْ عَذَابٌ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ الْاَلْوَيْنِ ﴾ وذلك أن الجزاء من جنس العمل . قال الحسن البصري انظروا إلى هذا الكرم والجود قتلوا أوليائه وهو يدعوهم إلى التوبة والمغفرة .

﴿ إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْاَنْهَارُ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْكَبِيرُ ﴾ ^(١) إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ ^(٢) إِنَّهُمْ هُمُ الْبَئِثُ وَبِئْسَ ^(٣) وَهُوَ الْفَوْزُ الْاَوْدُودُ ^(٤) ذُو الْعَرْشِ الْجَبَدِ ^(٥) قَالُوا لِمَا يَرِيدُ ^(٦) هَلْ اُنْذِرُكَ حَدِيثُ الْاُخْدُودِ ^(٧) فَرَعَوْنَ ^(٨) وَتَمُودَ ^(٩) بَلِ الْاَلْبَيْنُ كُفْرًا فِي تَكْذِيبِ ^(١٠) وَاللَّهُ مِنْ وَرَائِهِمْ مُحِيطٌ ^(١١) بَلْ هُوَ قُرْءَانٌ مَجِيدٌ ^(١٢) فِي لَوْجٍ مَحْفُوظٍ ^(١٣) .

يخبر تعالى عن عبادته المؤمنين أن ﴿ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْاَنْهَارُ ﴾ بخلاف ما أعد لأعدائه من الحريق والجحيم ولهذا قال : ﴿ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْكَبِيرُ ﴾ ثم قال تعالى : ﴿ إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ ﴾ أي إن بطشه وانتقامه من أعدائه الذين كذبوا رسله وخالفوا أمره لشديد عظيم قوي ، فإنه تعالى ذو القوة المتين الذي ما شاء كان كما يشاء في مثل لمح البصر أو هو أقرب . ولهذا قال تعالى : ﴿ إِنَّهُمْ هُمُ الْبَئِثُ وَبِئْسَ ﴾ أي من قوته وقدرته التامة يبدئ الخلق ويعيده كما بدأه بلا مانع ولا مدافع ﴿ وَهُوَ الْفَوْزُ الْاَوْدُودُ ﴾ أي يغفر ذنب من تاب إليه وخضع لديه ولو كان الذنب من أي شيء كان ، والودود قال ابن عباس وغيره هو الحبيب ﴿ ذُو الْعَرْشِ ﴾ أي صاحب العرش العظيم العالي على جميع الخلائق والمحيد فيه قراءتان الرفع على أنه صفة للرب عز وجل والجر على أنه صفة للعرش وكلاهما معنى صحيح ﴿ قَالُوا لِمَا يَرِيدُ ﴾ أي مهما أراد فعله لا معقب لحكمه ولا يسأل عما يفعل لعظمته وقهره وحكمته وعدله ، كما روينا عن أبي بكر

(١) كان السبب في قول هذا الشعر : أن عمرو بن الحارث ضلت له إبل فبحث عنها حتى أتى الحرم ، فأراد دخوله ليأخذ إبله ، فنادى عمرو ابن لحي : من وجد جرهميًا فلم يقتله قطعت يده ، فسمع بذلك عمرو ، وأشراف على جبل من جبال مكة فرأى إبله تنحر ويوزع لحمها ، فانصرف بائسًا خائفًا ، وأبعد في الأرض ، وبغريته يضرب المثل ، ثم قال هذا الشعر (انظر : السيرة النبوية ١٢٠/١) .
 والحجون : جبل بأعلى مكة ، والجدودة الحظوظ .

الصدِّيق أنه قيل له وهو في مرض الموت هل نظر إليك الطبيب ؟ قال : نعم . قالوا : فما قال لك ؟ قال : قال لي إني فعال لما أريد وقوله تعالى : ﴿ هَلْ أُنَبِّئُكَ حَدِيثُ الْجُنُودِ ۖ فِرْعَوْنَ وَثَمُودَ ۚ ﴾ أي هل بلغك ما أحل الله بهم من البأس وأنزل عليهم من النعمة التي لم يردوها عنهم أحد ؟ وهذا تقرير لقوله تعالى : ﴿ إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ ﴾ أي إذا أخذ الظالم أخذه أخذًا أليمًا شديدًا أخذ عزيز مقتدر . عن عمرو بن ميمون قال : مرَّ النبي ﷺ على امرأة تقرأ ﴿ هَلْ أُنَبِّئُكَ حَدِيثُ الْجُنُودِ ﴾ فقال يستمع فقال : « نَعَمْ قَدْ جَاءَنِي » . وقوله تعالى : ﴿ بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي تَكْذِيبٍ ﴾ أي هم في شك وريب وكفر وعناد ﴿ وَاللَّهُ يَنْزِلُ فِي تَبْيِينٍ ﴾ أي هو قادر عليهم قاهر لا يفوتونه ولا يعجزونه ﴿ بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَجِيدٌ ﴾ أي عظيم كريم ﴿ فِي لَوْحٍ مَحْفُوظٍ ﴾ أي هو الملأ الأعلى محفوظ من الزيادة والنقص والتحريف والتبديل .

سورة الطارق

عن خالد بن أبي حبل العدواني عن أبيه أنه أبصر رسول الله ﷺ في مشرق ثقيف وهو قائم على قوس أو عصا ، حين أتاهاهم يتغني عندهم النصر فسمعتة يقول : ﴿ وَالسَّمَاءِ وَالطَّارِقِ ﴾ . حتى ختمها . قال : فوعيتها في الجاهلية وأنا مشرك ثم قرأتها في الإسلام . قال : فدعنتني ثقيف . فقالوا : ماذا سمعت من هذا الرجل ؟ فقرأتها عليهم ، فقال من معهم من قريش : نحن أعلم بصاحبنا لو كنا نعلم ما يقول حقاً لاتبعناه ^(١) . وعن جابر قال : صلى معاذ المغرب فقرأ البقرة والنساء فقال النبي ﷺ : « أَفَتَأْتَانِ أَنْتَ يَا مُعَاذُ ! مَا كَانَ يَكْفِيكَ أَنْ تَقْرَأَ بِالسَّمَاءِ وَالطَّارِقِ وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا وَنَحْوَهَا ؟ » ^(٢) .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ وَالسَّمَاءِ وَالطَّارِقِ ١ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الطَّارِقُ ٢ اَلنَّجْمُ الثَّاقِبُ ٣ إِنْ كُلُّ نَفْسٍ لَّمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ ٤ فَيَنْظُرُ الْإِنْسَانُ يَمَّ خُلُقٍ ٥ خُلُقٍ مِنْ مَلَأَ دَافِقٍ ٦ يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ ٧ إِنَّهُ عَلَى رَجِئِهِ لَقَادِرٌ ٨ يَوْمَ بُدِيَ السَّرَائِرُ ٩ فَا لَمْ مِنْ قُوَّةٍ وَلَا نَاصِرٍ ١٠ ﴾ . يقسم تبارك وتعالى بالسماوات وما جعل فيها من الكواكب النيرة ، ولهذا قال تعالى : ﴿ وَالسَّمَاءِ وَالطَّارِقِ ﴾ ثم قال : ﴿ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الطَّارِقُ ﴾ ثم فسره بقوله : ﴿ اَلنَّجْمُ الثَّاقِبُ ﴾ قال قتادة وغيره : إنما سمي النجم طارقاً لأنه إنما يرى بالليل ويختفي بالنهار ويؤيده ما جاء في الحديث الصحيح نهى أن يطرق الرجل أهله طروقاً ^(٣) أي يأتيهم فجأة بالليل ، وفي الحديث الآخر المشتمل على الدعاء « إِلَّا طَارِقًا بِخَيْرٍ يَا رَحْمَنُ » ^(٤) . وقوله تعالى : ﴿ اَلنَّجْمُ الثَّاقِبُ ﴾ قال ابن عباس : المضيء وقال السدي : يثقب الشياطين إذا أرسل عليها وقال عكرمة : هو مضيء ومحرق للشيطان .

وقوله تعالى : ﴿ إِنْ كُلُّ نَفْسٍ لَّمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ ﴾ أي كل نفس عليها من الله حافظ يحرسها من الآفات ، وقوله تعالى : ﴿ فَيَنْظُرُ الْإِنْسَانُ يَمَّ خُلُقٍ ﴾ تنبيه للإنسان على ضعف أصله الذي خلق منه ، وإرشاد له إلى الاعتراف بالمعاد ؛ لأن من قدر على البداء فهو قادر على الإعادة بطريق الأولى ، وقوله تعالى : ﴿ خُلُقٍ مِنْ مَلَأَ دَافِقٍ ﴾ يعني المني يخرج دفقاً من الرجل ومن المرأة فيتولد منهما الولد بإذن الله ﷻ ولهذا قال : ﴿ يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ ﴾ يعني صلب الرجل وترائب المرأة وهو صدرها . وعن ابن عباس قال : هذه الترائب ووضع يده على صدره . وقال عطية عن ابن عباس : تربية المرأة موضع القلادة ، وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس : الترائب بين ثدييها ، وعن مجاهد : الترائب ما بين المنكبين إلى الصدر وعنه أيضاً : الترائب أسفل من التراقي ، وقال سفيان الثوري : فوق الثديين وعن سعيد بن جبير : الترائب أربعة أضلاع من هذا الجانب الأسفل . وعن الضحاك : الترائب بين الثديين والرجلين والعينين ، وعن معمر بن أبي حبيبة المدني أنه بلغه في قول الله ﷻ : ﴿ يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ ﴾ قال : هو عصابة القلب من هناك يكون الولد . وعن قتادة : ﴿ يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ ﴾ من بين صلبه ونحره وقوله تعالى : ﴿ إِنَّهُ عَلَى رَجِئِهِ لَقَادِرٌ ﴾ فيه قولان :

(٢) أخرجه أحمد في مسنده (٢٩٩/٣) .

(٤) أخرجه أحمد في مسنده (٤١٩/٣) .

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٣٣٥/٥) .

(٣) أخرجه البخاري في العمرة (١٨٠١) .

أحدهما : على رجوع هذا الماء الدافق إلى مقره الذي خرج منه لقادر على ذلك ، والقول الثاني : إنه على رجوع هذا الإنسان المخلوق من ماء دافق أي إعادته وبعثه إلى الدار الآخرة لقادر ؛ لأن من قدر على البداءة قدر على الإعادة ، وقد ذكر الله ﷻ هذا الدليل في القرآن في غير ما موضع ، ولهذا قال تعالى : ﴿ يَوْمَ ثُتِي الْأَشْرَارُ ﴾ أي يوم القيامة تبلى فيه السرائر أي تظهر وتبدو ويبقى السر علانية والمكنون مشهوراً ، وعن ابن عمر أن رسول الله ﷺ قال : ﴿ يُزْفَعُ لِكُلِّ غَادِرٍ لَوَاءٌ عِنْدَ اسْتِثْنَائِهِ ﴾ : هَذِهِ غَدْرَةُ فُلَانِ ابْنِ فُلَانٍ ^(١) . وقوله تعالى ﴿ قَاتِلْهُ ﴾ أي الإنسان يوم القيامة ﴿ مِنْ قُوَّةٍ ﴾ أي في نفسه ﴿ وَلَا نَاصِرَ ﴾ أي من خارج منه أي لا يقدر على أن ينقذ نفسه من عذاب الله ولا يستطيع له أحد ذلك . ﴿ وَاللَّيْلَ ذَاتَ الْوَجْهِ ﴾ ١١ ﴿ وَالْأَرْضِ ذَاتِ الصَّنِيعِ ﴾ ١٢ ﴿ إِنَّهُ لَقَوْلُ فَصْلٍ ﴾ ١٣ ﴿ وَمَا هُوَ إِلَّا نَزْلٌ ﴾ ١٤ ﴿ إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا ﴾ ١٥ ﴿ وَكَيْدُهُمْ ﴾ ١٦ ﴿ فَيَهْلِكُ الْكَافِرِينَ أَنَّهُمْ رَوْدًا ﴾ ١٧ .

قال ابن عباس : الرجوع المطر وعنه هو السحاب فيه المطر وعنه ﴿ وَاللَّيْلَ ذَاتَ الْوَجْهِ ﴾ تمطر ثم تمطر ، وقال قتادة : ترجع رزق العباد كل عام ، ولولا ذلك لهلكوا وهلك مواشيهم ، وقال ابن زيد : ترجع نجومها وشمسها وقمرها يأتين من ههنا ﴿ وَالْأَرْضِ ذَاتِ الصَّنِيعِ ﴾ قال ابن عباس : هو انصداعها عن النبات . وقوله تعالى : ﴿ إِنَّهُ لَقَوْلُ فَصْلٍ ﴾ قال ابن عباس : حق ، وقيل : حكم عدل ﴿ وَمَا هُوَ إِلَّا نَزْلٌ ﴾ أي بل هو جد حق ، ثم أخبر عن الكافرين بأنهم يكذبون به ويصدون عن سبيله فقال : ﴿ إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا ﴾ أي يمكرون بالناس في دعوتهم إلى خلاف القرآن ثم قال تعالى : ﴿ فَيَهْلِكُ الْكَافِرِينَ ﴾ أي أنظرهم ولا تستعجل لهم ﴿ أَنَّهُمْ رَوْدًا ﴾ أي قليلاً أي وسترى ماذا أحل بهم من العذاب والنكال والعقوبة والهلاك .

(١) أخرجه البخاري في الجزية (٣١٨٦) ومسلم في الجهاد (١١ - ١٤) وأحمد في مسنده (٤٦/٣) والبيهقي في السنن (١٦٠/٨) .

سورة الأعلى

سورة سبح مكية والدليل على ذلك ما روي عن البراء بن عازب قال : أول من قدم علينا من أصحاب النبي ﷺ مصعب بن عمير ، وابن أم مكتوم ، فجعلنا يقرئنا القرآن ثم جاء عمار وبلال وسعد ثم جاء عمر بن الخطاب في عشرين ثم جاء النبي ﷺ فما رأيت أهل المدينة فرحوا بشيء فرحهم به حتى رأيت الولائد والصبيان يقولان هذا رسول الله ﷺ قد جاء فما جاء حتى قرأت ﴿سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى﴾ في سور مثلها ^(١) . وعن علي عليه السلام قال : كان رسول الله ﷺ يحب هذه السورة ﴿سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى﴾ . وثبت في الصحيحين أن رسول الله ﷺ قال لمعاذ : « هَلَّا صَلَّيْتَ بِسَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى ، وَالشُّنْسِ وَضَحَاهَا وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَى » ^(٢) . وعن النعمان بن بشير أن رسول الله ﷺ قرأ في العيدين بسبِّح اسم ربك الأعلى وهل أتاك حديث الغاشية ، وإن وافق يوم الجمعة قرأهما جميعاً

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى﴾ ^(١) الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى ^(٢) وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى ^(٣) وَالَّذِي أَخْرَجَ الْمَرْعَى ^(٤) فَجَعَلَ غُلَّةً فَخَوَّى ^(٥) سُبْحَانَكَ لَا تَسْبِيحُ إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ إِنَّهُمْ يَعْلَمُونَ الْجَهْرَ وَمَا يَخْفَى ^(٦) وَيَسْئُرُكَ لِلْإِشْرَى ^(٧) فَذَكَّرَ إِنْ نَفَعَتِ الذِّكْرَى ^(٨) سَيَذَكَّرُ مَنْ يَخْشَى ^(٩) وَتَجَنَّبَا فَانْتَقَى ^(١٠) الَّذِي يَصْلَى النَّارَ الْكُبْرَى ^(١١) ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَى ^(١٢) .

عن إياس بن عامر : سمعت عقبة بن عامر الجهني لما نزلت ﴿سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى﴾ قال لنا رسول الله ﷺ : « اجْعَلُوهَا فِي رُكُوعِكُمْ » . فلما نزلت ﴿سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى﴾ قال : « اجْعَلُوهَا فِي سُجُودِكُمْ » ^(٣) . وعن ابن عباس أن رسول الله ﷺ كان إذا قرأ ﴿سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى﴾ قال : « سُبْحَانَ رَبِّي الْأَعْلَى » ^(٤) . وعن عبد خير قال : سمعت علياً قرأ ﴿سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى﴾ فقال : سبحان ربي الأعلى . وعن أبي إسحاق الهمداني أن ابن عباس كان إذا قرأ ﴿سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى﴾ يقول : سبحان ربي الأعلى وإذا قرأ ﴿لَا أَقِيمُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ﴾ فأتى على آخرها ﴿الَّذِي ذَلَّلَ بِقُدْرَةٍ عَلَى أَنْ يُجِئَ الْوَكُّ﴾ يقول : « سُبْحَانَكَ وَبَلَى » ، وقال قتادة : ذكر لنا أن نبي الله ﷺ كان إذا قرأها قال : « سُبْحَانَ رَبِّي الْأَعْلَى » ، وقوله تعالى : ﴿الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى﴾ أي خلق الخليقة وسوى كل مخلوق في أحسن الهيئات .

وقوله تعالى : ﴿وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى﴾ قال مجاهد : هدى الإنسان للشقاوة والسعادة وهدى الأنعام لمراتها . وهذه الآية كقوله تعالى إخباراً عن موسى أنه قال لفرعون ﴿رَبَّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى﴾ أي قدر قدرًا وهدى الخلائق إليه . وعن عبد الله بن عمرو أن رسول الله ﷺ قال : « إِنَّ اللَّهَ قَدَّرَ مَقَادِيرَ الْخَلَائِقِ قَبْلَ أَنْ يَخْلُقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِخَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ » ^(٥) . وقوله تعالى : ﴿وَالَّذِي أَخْرَجَ الْمَرْعَى﴾ أي من جميع صنوف النباتات والزرع ﴿فَجَعَلَ غُلَّةً فَخَوَّى﴾ قال ابن عباس : هشيماً متغيراً . قال ابن جرير : وكان بعض أهل العلم بكلام العرب يرى أن ذلك من المؤخر

(١) أخرجه البخاري في تفسير القرآن (٤٩٤١) .

(٢) أخرجه أحمد في مسنده (٢٧١/٤) .

(٣) أخرجه أحمد في مسنده (٥٥/٤) .

(٤) أخرجه أحمد في مسنده (٢٣٢/١) وأبو داود في السنن (افتتاح الصلاة : ٣٨٥) والبيهقي في السنن (٣١٠/٢) .

(٥) أخرجه أحمد في مسنده (٥٠١/٣) .

الذي معناه التقديم وأن معنى الكلام والذي أخرج المرعى ، أحوى أخضر إلى السواد فجعله غشاء بعد ذلك ثم قال ابن جرير : وهذا وإن كان محتملاً إلا أنه غير ضواب لمخالفته أقوال أهل التأويل ؛ وقوله تعالى : ﴿ سَتَرْتُكَ ﴾ أي يا محمد ﴿ فَلَا تَسْئَلْ ﴾ وهذا الخبر من الله تعالى ووعد منه له ، بأنه سيقربه قراءة لا ينساها ﴿ إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ ﴾ وهذا اختيار ابن جرير وقال قتادة : كان رميول الله ﷺ لا ينسى شيئاً إلا ما شاء الله وقيل المراد بقوله ﴿ فَلَا تَسْئَلْ ﴾ طلب وجعلوا معنى الاستثناء على هذا ما يقع من النسخ أي لا تنسى ما نقرئك إلا ما يشاء الله رفعه فلا عليك أن تتركه . وقوله تعالى : ﴿ إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ وَمَا يَخْفَى ﴾ أي يعلم ما يجره به العباد وما يخفونه من أقوالهم وأفعالهم لا يخفى عليه من ذلك شيء . وقوله تعالى : ﴿ وَيَنْذِرُكَ لِلْعَذَابِ ﴾ أي نسهل عليك أفعال الخير وأقواله ونشر لك شرعاً سهلاً سمحاً مستقيماً عدلاً لا اعوجاج فيه ولا حرج ولا عسر . وقوله تعالى : ﴿ فَذَكِّرْ لَكَ نَعَمَ الذِّكْرِ ﴾ أي ذكر حيث تنفع التذكرة ، ومن ههنا يؤخذ الأدب في نشر العلم فلا يضعه عند غير أهله ، كما قال أمير المؤمنين علي عليه السلام : ما أنت بمحدث قومًا حديثًا لا تبلغه عقولهم إلا كان فتنة لبعضهم ، وقال : حدث الناس بما يعرفون ، أتحبون أن يكذب الله ورسوله . وقوله تعالى : ﴿ سَيَذَكِّرْكَ مِنْ يُحْشَى ﴾ أي سيتعظ بما تبلغه يا محمد من قلبه يخشى الله ويعلم أنه ملاقيه ﴿ وَنَجِّنَا الْأَشْقَى ﴾ الذي يصل آثار الكبرياء ﴿ ثُمَّ لَا يَبُورُ فِيهَا وَلَا يُجِنُّ ﴾ أي لا يموت فيستريح ولا يحيى حياة تنفعه ، بل هي مضرة عليه لأن بسببها يشعر ما يعاقب به من أليم العذاب وأنواع النكال . وعن أبي سعيد قال : قال رسول الله ﷺ : « أَمَا أَهْلُ النَّارِ الَّذِينَ هُمْ أَهْلُهَا فَإِنَّهُمْ لَا يَمُوتُونَ فِيهَا وَلَا يَحْيَوْنَ ، وَأَمَّا أَنْفُسُ يُرِيدُ اللَّهُ بِهِمُ الرَّحْمَةَ فَيُمِيتُهُمْ فِي النَّارِ فَيَدْخُلُ عَلَيْهِمُ الشُّفَعَاءُ فَيَأْخُذُ الرَّجُلُ الصَّبْرَةَ فَيُنَبِّئُهُمْ - أَوْ قَالَ - يُنَبِّئُونَ فِي نَهْرِ الْحَيَاةِ - أَوْ قَالَ الْحَيَاةِ ، أَوْ قَالَ الْحَيَوَانِ ، أَوْ قَالَ نَهْرِ الْحَيَّةِ فَيُنَبِّئُونَ نَبَاتَ الْحَيَّةِ فِي حِمِيلِ الشَّيْلِ » . قال : وقال النبي ﷺ : « أَمَا تَرَوْنَ الشَّجَرَةَ تَكُونُ خَضِرَاءَ ثُمَّ تَكُونُ صَفْرَاءَ ثُمَّ تَكُونُ خَضِرَاءَ ؟ » . قال : فقال بعضهم كأن النبي ﷺ كان بالبادية ^(١) .

﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى ﴾ ^(١) وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى ^(٢) بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ^(٣) وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَى ^(٤) إِنَّ هَذَا لَفِي الصُّحُفِ الْأُولَى ^(٥) صُحُفٍ إِنْشَاهُمْ وَمُوسَى ^(٦) .

يقول تعالى : ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى ﴾ أي طهر نفسه من الأخلاق الرذيلة وتابع ما أنزل الله على الرسول صلوات الله وسلامه عليه ﴿ وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى ﴾ أي أقام الصلاة في أوقاتها ابتغاء رضوان الله وطاعة لأمر الله وامتنالاً لشرع الله . وعن جابر بن عبد الله عن النبي ﷺ ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى ﴾ قال : « مَنْ شَهِدَ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَخَلَعَ الْأَثَدَا وَشَهِدَ أَنِّي رَسُولُ اللَّهِ » . ﴿ وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى ﴾ قال : « هِيَ الصَّلَاةُ الْحَمْسُ وَالْحَافِظَةُ عَلَيْهَا وَالِافْتِمَامُ بِهَا » ^(٢) . وعن أبي خلدة قال : دخلت على أبي العالية فقال لي : إذا غدوت غداً إلى العيد فمر بي . قال : فمررت به . فقال : هل طعمت شيئاً ؟ قلت : نعم قال : أفضت على نفسك من الماء ؟ قلت : نعم . قال : فأخبرني ما فعلت زكاتك !

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٥/٣) .

(٢) ذكره الهيثمي في مجمع الزوائد (١٣٧/٧) والبراز في مسنده (٢٢٨٤) .

قلت : قد وجهتها . قال : إنما أردتك لهذا ثم قرأ ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى ﴾ وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى ﴿ وقال : إن أهل المدينة لا يرون صدقة أفضل منها ومن سقاية الماء قلت : وقد روينا عن أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز أنه كان يأمر الناس بإخراج صدقة الفطر ويتلو هذه الآية ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى ﴾ وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى ﴿ وقال أبو الأحوص : إذا أتى أحدكم سائل وهو يريد الصلاة فليقدم بين يدي صلاته زكاة فإن الله تعالى يقول : ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى ﴾ وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى ﴿ وقال قتادة في هذه الآية : زكى ماله وأرضى خالقه .

ثم قال تعالى : ﴿ بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ﴾ أي تقدمونها على أمر الآخرة وتبدونها على ما فيه نفعكم وصلاحكم في معاشكم ومعادكم ﴿ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَى ﴾ أي ثواب الله في الدار الآخرة خير من الدنيا وأبقى ، فإن الدنيا دانية فانية والآخرة شريفة باقية ، فكيف يؤثر عاقل ما يفنى على ما يبقى ويهتم بما يزول عنه قريئاً ويترك الاهتمام بدار البقاء والخلد . وعين عائشة قالت : قال رسول الله ﷺ : « الدُّنْيَا دَارٌ مَن لَّا دَارَ لَهُ ، وَمَالٌ مَّن لَّا مَالَ لَهُ ، وَلَهَا يَجْمَعُ مَن لَّا عَقْلَ لَهُ » ^(١) . وعن عرفة الشقفي قال : استقرأت ابن مسعود ﴿ سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى ﴾ - فلما بلغ - ﴿ بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ﴾ ترك القراءة وأقبل على أصحابه وقال : آثرنا الدنيا على الآخرة ، فسكت القوم . فقال : آثرنا الدنيا لأننا رأينا زينتها ونساءها وطعامها وشرابها وزويت عنا الآخرة فآخترنا هذا العاجل وتركنا الآجل ، وهذا منه على وجه التواضع والهضم أو هو إخبار عن الجنس من حيث هو والله أعلم . وعن أبي موسى الأشعري أن رسول الله ﷺ قال : « مَن أَحَبَّ دُنْيَاهُ أَضَرَّ بِآخِرَتِهِ ، وَمَن أَحَبَّ آخِرَتَهُ أَضَرَّ بِدُنْيَاهُ فَاتَّبِعُوا مَا يَتَّقَى عَلَى مَا يَفْتَنِي » ^(٢) . وقوله تعالى : ﴿ إِنَّ هَذَا لَفِي الصُّحُفِ الْأُولَى ﴾ ﴿ صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى ﴾ قال النبي ﷺ : « كَانَ كُلُّ هَذَا - أَوْ كَانَ هَذَا - فِي صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى » . وعن عكرمة في قوله تعالى : ﴿ إِنَّ هَذَا لَفِي الصُّحُفِ الْأُولَى ﴾ ﴿ صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى ﴾ يقول : الآيات التي في سبِّح اسم ربك الأعلى ، وقال أبو العالية : قصة هذه السورة في الصحف الأولى ، واختار ابن جرير أن المراد بقوله ﴿ إِنَّ هَذَا ﴾ إشارة إلى قوله ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى ﴾ وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى ﴿ بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ﴾ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَى ﴿ ثم قال تعالى : ﴿ إِنَّ هَذَا ﴾ أي مضمون هذا الكلام ﴿ لَفِي الصُّحُفِ الْأُولَى ﴾ ﴿ صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى ﴾ وهذا الذي اختاره حسن قوي .

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٧١/٦) والمنذري في الترغيب والترهيب (١٧٨/٤) .

(٢) أخرجه أحمد في مسنده (٤١٢/٤) .

سورة الغاشية

عن النعمان بن بشير أن رسول الله ﷺ كان يقرأ بسبح اسم ربك الأعلى والغاشية في صلاة العيد ويوم الجمعة . وعن عبيد الله بن عبد الله أن الضحاك بن قيس سأل النعمان بن بشير بم كان رسول الله ﷺ يقرأ في الجمعة مع سورة الجمعة ؟ قال : هل أتاك حديث الغاشية (١)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْغَاشِيَةِ ۝ وَجُوهٌُ يُوَسَّدُونَ خَشِيمَةً ۝ عَالِمَةٌ نَّاصِيَةٌ ۝ تَصَلَّى نَارًا حَامِيَةً ۝ تُشَقَّى مِنْ عَيْنٍ عَيْنٍ ۝ لَيْسَ لَمْ طَعَامٌ إِلَّا مِنْ ضَرِيعٍ ۝ لَا يَسِينُ وَلَا يَنْفِي مِنْ جُوعٍ ۝ ﴾ .

الغاشية من أسماء يوم القيامة ؛ لأنها تغشى الناس وتعمهم ، فمن عمرو بن ميمون قال : مر النبي ﷺ على امرأة تقرأ ﴿ هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْغَاشِيَةِ ﴾ فقام يستمع ويقول : « نعم قد جاءني » . وقوله تعالى : ﴿ وَجُوهٌُ يُوَسَّدُونَ خَشِيمَةً ﴾ أي : ذليلة . قال ابن عباس : تخشع ولا ينفعها عملها وقوله تعالى : ﴿ عَالِمَةٌ نَّاصِيَةٌ ﴾ أي قد عملت عملاً كثيراً ونصبت فيه ، وصليت يوم القيامة ناراً حامية . وعن أبي عمران الجوني يقول : مر عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه بدير راهب فناداه ، يا راهب فأشرف ، قال : فجعل عمر ينظر إليه ويكي قفيل له : يا أمير المؤمنين ما ييكك من هذا ؟ قال ذكرت قول الله ﷻ في كتابه ﴿ عَالِمَةٌ نَّاصِيَةٌ ۝ تَصَلَّى نَارًا حَامِيَةً ﴾ فذاك الذي أبكاني . وقال ابن عباس ﴿ عَالِمَةٌ نَّاصِيَةٌ ﴾ النصارى (٢) ، وعن عكرمة والسدي عاملة في الدنيا بالمعاصي ناصبة في النار بالعذاب والإهلاك ، ﴿ تَصَلَّى نَارًا حَامِيَةً ﴾ أي حارة شديدة الحر ﴿ تُشَقَّى مِنْ عَيْنٍ عَيْنٍ ﴾ أي قد انتهى حرها وغليناها . وقوله تعالى : ﴿ لَيْسَ لَمْ طَعَامٌ إِلَّا مِنْ ضَرِيعٍ ﴾ قال ابن عباس : شجر من نار ، وقال سعيد بن جبير : هو الزقوم ، وقال قتادة : هو الشبرق ، وقال عكرمة : وهو شجرة ذات شوك لاطقة بالأرض . وقال مجاهد : الضريع نبت يقال له الشبرق يسميه أهل الحجاز الضريع إذا يس وهو سم (٣) ، وعن قتادة أيضاً قال : من شر الطعام وأبشعه وأخبثه ؛ وقوله تعالى : ﴿ لَا يَسِينُ وَلَا يَنْفِي مِنْ جُوعٍ ﴾ يعني لا يحصل به مقصود ولا يندفع به محذور .

﴿ وَجُوهٌُ يُوَسَّدُونَ نَاعِمَةً ۝ لَسَعِيهَا رَاضِيَةٌ ۝ فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ۝ لَا تَسْعُ فِيهَا لَبِئَةٌ ۝ فِيهَا عَيْنٌ جَارِيَةٌ ۝ فِيهَا سُرُرٌ مَرْفُوعَةٌ ۝ وَأَكْوَابٌ مَوْشُوعَةٌ ۝ وَنَارٌ مِصْرُوعَةٌ ۝ وَزَلَّاتٌ مَبْنُوعَةٌ ۝ ﴾ .

لما ذكر حال الأشقياء ثنى بذكر السعداء فقال : ﴿ وَجُوهٌُ يُوَسَّدُونَ ﴾ أي يوم القيامة ﴿ نَاعِمَةً ﴾ أي يعرف النعيم فيها ، وإنما حصل لها ذلك بسعيها ، وقال سفيان ﴿ لَسَعِيهَا رَاضِيَةٌ ﴾ قد رضيت عملها . وقوله تعالى : ﴿ فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ﴾ أي رفيعة بهية في الغرفات آمنون ﴿ لَا تَسْعُ فِيهَا لَبِئَةٌ ﴾ أي لا تسمع في الجنة التي هم فيها كلمة لغو ، ﴿ فِيهَا عَيْنٌ جَارِيَةٌ ﴾ أي مبارحة وهذه نكرة في سياق الإثبات ، وليس المراد بها عيناً واحدة وإنما هذا جنس يعني فيها عيون جاريات ، وعن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « أَنَّهُائُرُ

(١) أخرجه البيهقي في السنن (٢٠١/٣) وأحمد في مسنده (٢٧٠/٤) .

(٢ ، ٣) أخرجه البخاري في (تفسير سورة الغاشية) .

الْجَنَّةِ تُفَجَّرُ مِنْ تَحْتِ تِلَالٍ - أَوْ مِنْ تَحْتِ جِبَالٍ - الْمِشْكِ ^(١) . ﴿ فِيهَا سُرُرٌ مَرْفُوعَةٌ ﴾ أي عالية ناعمة كثيرة الفرش ، مرتفعة السمك عليها الحور العين . قالوا فإذا أراد ولي الله أن يجلس على تلك السرر العالية تواضعت له ﴿ وَكَأَكْبَابٌ مَوْضُوعَةٌ ﴾ يعني أواني الشرب معدة مرصدة لمن أرادها من أربابها ﴿ وَكَأَرْقُفٌ مَقْشُوفَةٌ ﴾ : النمارق الوسائد . وقوله تعالى : ﴿ وَزَوَّجْنَاهُ بِمَنْثُورَةٍ ﴾ : الزرابي البسط ، ومعنى مبثوثة أي ههنا وههنا لمن أراد الجلوس عليها ؛ ونذكر ههنا هذا الحديث الذي رواه أسامة بن زيد يقول : قال رسول الله ﷺ : « أَلَا هَلْ مِنْ مُشْمِرٍ لِلْجَنَّةِ فَإِنَّ الْجَنَّةَ لَا خَطَرَ لَهَا ، هِيَ وَزَوْجُ الْكَعْبَةِ نُورٌ يَتَلَأَلُ ، وَرَيْحَانَةٌ تَهْتَرُ ، وَقَصْرٌ مُشِيدٌ ، وَنَهْرٌ مُطَرَّدٌ وَثَمَرَةٌ نَضِيجَةٌ ، وَزَوْجَةٌ حَسَنَاءُ جَمِيلَةٌ ، وَحُلُلٌ كَثِيرَةٌ ، وَمَقَامٌ فِي أَيْدٍ فِي دَارِ سَلِيمَةٍ ، وَفَاكِهَةٌ وَخَضِرَةٌ ، وَحَبْرَةٌ وَنَعْمَةٌ ، فِي مَحَلَّةٍ عَالِيَةٍ بَهِيَّةٍ ؟ » . قالوا : نعم يا رسول الله نحن المشمرون لها ، قال : « قُولُوا إِنَّ شَاءَ اللَّهِ » . قال القوم : إِنَّ شَاءَ اللَّهِ ^(٢) .

﴿ أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبْلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ﴾ وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ ﴿ وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ ﴾ وَإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ ﴿ فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ ﴾ لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيِّرٍ ﴿ إِلَّا مَنْ تَوَلَّى وَكَفَرَ ﴾ يُعَذِّبُهُ اللَّهُ الْعَذَابَ الْأَكْبَرَ ﴿ إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ ﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُمْ .

يقول تعالى آمراً عباده بالنظر في مخلوقاته الدالة على قدرته وعظمته ﴿ أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبْلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ﴾ فإنها خلق عجيب وتركيبها غريب ، فإنها في غاية القوة والشدة ، وهي مع ذلك تلين للحمل الثقيل وتنقاد للقائد الضعيف وتؤكل وينتفع بوبرها ويشرب لبنها ، ونهبوا بذلك لأن العرب غالب دوابهم كانت الإبل ، وكان شريح القاضي يقول : اخرجوا بنا حتى ننظر إلى الإبل كيف خلقت وإلى السماء كيف رفعت ! أي كيف رفعها الله ﷻ عن الأرض هذا الرفع العظيم ﴿ وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ ﴾ أي جعلت منصوبة فإنها ثابتة راسية لئلا تميد الأرض بأهلها ، وجعل فيها ما جعل من المنافع والمعادن ﴿ وَإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ ﴾ أي كيف بسطت ومدت ومهدت ، فنبه البدوي على الاستدلال بما يشاهده من بعيره الذي هو راكب عليه ، والسماء التي فوق رأسه ، والجبل الذي تجاهه والأرض التي تحته على قدرة خالق ذلك وصانعه وأنه الرب العظيم الخالق المالك المتصرف وأنه الإله الذي لا يستحق العبادة سواه ؛ وهكذا أقسم ضمما في سؤاله على رسول الله ﷺ فعن أنس قال : كنا نهينا أن نسأل رسول الله ﷺ عن شيء فكان يعجبنا أن يجيء الرجل من أهل البادية العاقل فيسأله ونحن نسمع فجاء رجل من أهل البادية فقال : يا محمد إنه أتانا رسولك فرعم لنا أنك تزعم أن الله أرسلك ، قال : « صَدَقَ » . قال : فمن خلق السماء ! قال : « الله » قال : فمن خلق الأرض ؟ قال : « الله » قال : فمن نصب هذه الجبال وجعل فيها ما جعل ! قال : « الله » . قال : فبالذي خلق السماء والأرض ونصب هذه الجبال آله أرسلك ؟ قال : « نَعَمْ » . قال : وزعم رسولك أن علينا خمس ضلوات في يومنا وليلتنا ؟ قال : « صَدَقَ » . قال : فبالذي أرسلك ، آله أمرك بهذا ؟ قال : « نَعَمْ » . قال : وزعم رسولك أن علينا زكاة في أموالنا ؟ قال : « صدق » . قال : فبالذي أرسلك آله أمرك بهذا ؟ قال : « نعم » . قال : وزعم رسولك أن علينا حج البيت من استطاع إليه سبيلا . قال :

(٢) أخرجه ابن ماجه في الزهد (٤٣٣٢) .

(١) أخرجه ابن حبان في صحيحه (٢٦٢٢) .

(٣) أخرجه أحمد في مسنده (٢٥٨/٥) .

سورة الفجر

عن جابر قال : صلى معاذ صلاة فجاء رجل فصلى معه فطول في ناحية المسجد ثم انصرف فبلغ ذلك معاذاً فقال : منافق . فذكر ذلك لرسول الله ﷺ فسأل الفتى فقال : يا رسول الله جئت أصلي معه فطول علي فانصرفت وصليت في ناحية المسجد فعلفت ناقتي . فقال رسول الله ﷺ : « أَفَتَأْتِيَا مُعَاذُ ؟ أَتَيْنَ أَنْتَ مِنْ سَبْحِ اسْمِ رَبِّكَ الْأَعْلَى ، وَالشُّمُسِ وَضُحَاهَا ، وَالْفَجْرِ ، وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَى » (١) .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ وَالْفَجْرِ ① وَلَيْلٍ عَشِيرٍ ② وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ ③ وَاللَّيْلِ إِذَا يَسِرُ ④ هَلْ فِي ذَلِكَ قَسَمٌ لِذِي حَجْرِ ⑤ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِمَاءِ ⑥ إِذْ ذَاتَ الْوَعْدِ ⑦ أَلَمْ يَكُنْ يَنْتَقِلْ يَنْتَقِلُهَا فِي الْبَلَدِ ⑧ وَتَمُودَ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَعَدِ ⑨ وَفِرْعَوْنَ ذِي الْأَوْدَادِ ⑩ الَّذِينَ طَعَنُوا فِي الْبَلَدِ ⑪ فَآكُرُوا فِيهَا الْفَسَادَ ⑫ فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ ⑬ إِنَّ رَبَّكَ لَإِلْمَرَصَدٍ ⑭ ۝

أما الفجر : فمعروف وهو الصبح ، والمراد به فجر يوم النحر خاصة وهو خاتمة الليالي العشر ، وقيل المراد بذلك الصلاة التي تفعل عنده وقال عكرمة : المراد به جميع النهار . والليالي العشر المراد بها عشر ذي الحجة ، وعن ابن عباس مرفوعاً « مَا مِنْ أَيَّامٍ الْعَمَلُ الصَّالِحُ أَحَبُّ إِلَى اللَّهِ فِيهِنَّ مِنْ هَذِهِ الْأَيَّامِ » . يعني عشر ذي الحجة قالوا : ولا الجهاد في سبيل الله ؟ قال : « وَلَا الْجِهَادُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ إِلَّا رَجُلًا خَرَجَ بِنَفْسِهِ وَمَالِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْجِعْ مِنْ ذَلِكَ بِشَيْءٍ » (٢) . وقيل المراد بذلك العشر الأول من المحرم حكاه أبو جعفر بن جرير ولم يعزه إلى أحد ، وقد روي عن ابن عباس ﴿ وَلَيْلٍ عَشِيرٍ ﴾ قال : هو العشر الأول من رمضان ، والصحيح القول الأول . وعن جابر عن النبي ﷺ قال : « إِنَّ الْعَشْرَ عَشْرُ الْأَضْحَى ، وَالْوَتْرُ يَوْمُ عَرَفَةَ وَالشَّفْعُ يَوْمُ النَّحْرِ » (٣) . وقوله تعالى : ﴿ وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ ﴾ قد تقدم في هذا الحديث أن الوتر يوم عرفة لكونه التاسع وأن الشفع يوم النحر لكونه العاشر . قول ثان . عن واصل بن السائب قال : سألت عطاء عن قوله تعالى : ﴿ وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ ﴾ قلت : صلاتنا وترنا هذا ؟ قال : لا ولكن الشفع يوم عرفة والوتر ليلة الأضحية . قول ثالث : عن أبي سعيد بن عوف قال : سمعت عبد الله بن الزبير يخطب الناس فقام إليه رجل فقال : يا أمير المؤمنين أخبرني عن الشفع والوتر . فقال : الشفع قول الله تعالى : ﴿ فَمَنْ تَعَجَّلَ فِي يَوْمَيْنِ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ ﴾ والوتر قوله تعالى : ﴿ وَمَنْ تَأَخَّرَ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ ﴾ وقال محمد بن المرتفع أنه سمع ابن الزبير يقول : الشفع أوسط أيام التشريق والوتر آخر أيام التشريق . وعن أبي هريرة عن رسول الله ﷺ : « إِنَّ لِلَّهِ تِسْعَةً وَتِسْعِينَ اسْمًا مِائَةً إِلَّا وَاحِدًا مَنْ أَحْصَاهَا دَخَلَ الْجَنَّةَ وَهُوَ وَتْرٌ يُحِبُّ الْوَتْرَ » (٤) . قول رابع : قال الحسن البصري : الخلق كلهم شفع ووتر أقسم تعالى بخلقه وهو رواية عن مجاهد والمشهور عنه الأول . وقال ابن عباس : ﴿ وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ ﴾ قال : الله وتر واحد وأنتم شفع . ويقال : الشفع صلاة الغداة والوتر صلاة المغرب .

(١) أخرجه النسائي في السنن (١٦٨/٢) والبيهقي في السنن (١١٢/٣) .

(٢) أخرجه ابن ماجه في السنن (١٧٢٧) وأحمد في مسنده (٢٢٤/١) والبيهقي في السنن (٤٨٤/٤) .

(٣) أخرجه أحمد في مسنده (٣٢٧/٣) .

(٤) أخرجه البخاري في التوحيد (٧٣٩٢) ومسلم في الذكر والدعاء (٦) والترمذي في السنن (٣٥٠٦) .

قول خامس : عن مجاهد ﴿ وَالشَّفْعَ وَالْوَتْرَ ﴾ قال : الشفع الزوج ، والوتر : الله ﷻ . وقال : الله الوتر وخلق الشفع الذكر والأنثى . وقال مجاهد : كل شيء خلقه الله شفع . السماء والأرض والبحر والجن والإنس والشمس والقمر ونحو هذا ، ونحا مجاهد في هذا ما ذكره في قوله تعالى : ﴿ وَمَنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ أي لتعلموا أن خالق الأزواج واحد . قول سادس : عن الحسن ﴿ وَالشَّفْعَ وَالْوَتْرَ ﴾ : هو العدد منه شفع ومنه وتر . قول سابع في الآية الكريمة : عن جابر أن رسول الله ﷺ قال : « الشَّفْعُ الْيَوْمَانِ ، وَالْوَتْرُ الْيَوْمُ الثَّالِثُ » ^(١) . وقال أبو العالية والريبع بن أنس وغيرهما : هي الصلاة منها شفع كالرباعية والثنائية ومنها وتر كالمغرب فإنها ثلاث وهي وتر النهار ، وكذلك صلاة الوتر في آخر التهجد من الليل . وعن عمران بن حصين أن رسول الله ﷺ سئل عن الشفع والوتر فقال : « هِيَ الصَّلَاةُ بَعْضُهَا شَفْعٌ ، وَبَعْضُهَا وَتْرٌ » ^(٢) . وقوله تعالى : ﴿ وَاللَّيْلِ إِذَا يَسَّرَ ﴾ أي إذا ذهب ، وقال عبد الله بن الزبير : حتى يذهب بعضه بعضاً ، وقال ابن زيد : إذا سار ، ويحتمل أن يكون المراد إذا سار أي أقبل وقد يقال إن هذا أنسب لأنه في مقابلة قوله : ﴿ وَالنَّجْمِ ﴾ فإن الفجر وهو إقبال النهار وإدبار الليل فإذا حمل قوله : ﴿ وَاللَّيْلِ إِذَا يَسَّرَ ﴾ على إقباله كان قسماً بإقبال الليل وإدبار النهار وبالعكس وقال عكرمة ﴿ وَاللَّيْلِ إِذَا يَسَّرَ ﴾ يعني ليلة جمع ليلة المزدلفة . وعن كثير بن عبد الله بن عمرو قال : سمعت محمد بن كعب القرظي يقول في قوله : ﴿ وَاللَّيْلِ إِذَا يَسَّرَ ﴾ قال : اسر يا سار ولا تبيتن إلا بجمع ، وقوله تعالى : ﴿ هَلْ فِي ذَلِكَ قَسَمٌ لِذِي حِجْرٍ ﴾ أي لذي عقل ولب ودين وحجا ، وإنما سمي العقل حجراً لأنه يمنع الإنسان من تعاطي ما لا يليق به من الأفعال والأقوال ، ومنه حجر البيت لأنه يمنع الطوائف من اللصوق بجداره الشامي ، ومنه حجر اليمامة ، وحجر الحاكم على فلان إذا منعه التصرف ﴿ وَيَقُولُونَ حِجْرًا مَحْجُورًا ﴾ كل هذا من قبيل واحد ، ومعنى متقارب ، وهذا القسم هو بأوقات العبادة وبنفس العبادة من حج وصلاة وغير ذلك من أنواع القرب التي يتقرب بها إليه عباده المتقون المطيعون له الخائفون منه المتواضعون لديه الخاشعون لوجهه الكريم ، ولما ذكر هؤلاء وعبادتهم وطاعتهم قال بعده : ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِمَادٍ ﴾ وهؤلاء كانوا متمردين عتاة جبارين خارجين عن طاعته ، مكذبين لرسله جاحدين لكتبه ، فذكر تعالى كيف أهلكهم ودمرهم وجعلهم أحاديث وعبراً فقال : ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِمَادٍ ۖ إِمْرَءَاتُ الْيَمَادِ ﴾ وهؤلاء عاد الأولى وهم ولد عاد بن إرم بن عوص بن سام بن نوح قاله ابن إسحاق وهم الذين بعث الله فيهم رسوله هوذا آلهم فكذبوه وخالفوه ، فأنجاه الله من بين أظهرهم ومن آمن معه منهم ، وأهلكهم ﴿ يَرْيِبُ سَرَّسِرٌ عَلَيْهِمْ ۖ سَخِرَ مَا عَلَيْهِمْ سَجٌّ لَيَالٍ وَتَنَبَّأَ أَنبَاءُ حُسُومًا قَرَّبَى الْقَوْمَ فِيهَا مَرْعًى كَانَتْهُمْ أَعْبَازًا تَتَخَلَّى خَائِبَةً ۖ فَهَلْ تَرَى لَهُمْ مِنْ بَاقِيَةٍ ﴾ وقد ذكر الله قصتهم في القرآن في غير ما موضع ليعتبر بمصرعهم المؤمنون فقوله تعالى : ﴿ إِمْرَءَاتُ الْيَمَادِ ﴾ عطف بيان زيادة تعريف بهم وقوله تعالى ﴿ ذَاتِ الْيَمَادِ ﴾ لأنهم كانوا يسكنون بيوت الشعر التي ترفع بالأعمدة الشداد وقد كانوا أشد الناس في زمانهم خلقة وأقواهم بطشاً ، ولهذا ذكرهم هود بتلك النعمة وأرشدهم إلى أن يستعملوها في طاعة ربهم الذي خلقهم

(١) أخرجه احمد في مسنده (٣٢٧/٣) ، والحاكم في المستدرک (٢٢٠/٤) .

(٢) أخرجه الترمذي في السنن (٣٣٤٢) .

فقال : ﴿ وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِي الْأَرْضِ تَتَخَذُونَ مِنْ شُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ الْجِبَالَ بُيُوتًا فَاذْكُرُوا آلَاءَ اللَّهِ وَلَا تَمْنُوا فِي الْأَرْضِ مُقِيدِينَ ﴾ وقال ههنا : ﴿ أَلَيْسَ لِمَنْ يَخْلُقُ مِثْلَهَا فِي الْإِلَهِدِ ﴾ أي القبيلة التي لم يخلق مثلها في بلادهم لقوتهم وشدتهم وعظم تركيبتهم ، قال مجاهد : إرم ، أمة قديمة يعني : عاذا الأولى ، قال قتادة بن دعامة والسدي : إن إرم بيت مملكة عاد ، وهذا قول حسن جيد قوي ، وقال مجاهد وقاتدة والكلبي في قوله ﴿ ذَاتِ الْوَعْدِ ﴾ كانوا أهل عمد لا يقيمون ، وقال ابن عباس : إنما قيل لهم ذات العماد لطولهم ، واختار الأول ابن جرير وزد الثاني فأصاب ، وقوله تعالى : ﴿ أَلَيْسَ لِمَنْ يَخْلُقُ مِثْلَهَا فِي الْإِلَهِدِ ﴾ أعاد ابن زيد الضمير على العماد لارتفاعها وقال : بنوا عمداً بالأحقاف لم يخلق مثلها في البلاد ، وأما قتادة وابن جرير فأعاد الضمير على القبيلة أي لم يخلق مثل تلك القبيلة في البلاد يعني في زمانهم ، وهذا القول هو الصواب ، وقول ابن زيد ومن ذهب مذهبه ضعيف لأنه لو كان المراد ذلك لقال التي لم يعمل مثلها في البلاد وإنما قال ﴿ لَمْ يَخْلُقْ مِثْلَهَا فِي الْإِلَهِدِ ﴾ عن المقدم عن النبي ﷺ أنه ذكر إرم ذات العماد فقال : « كَانَ الرَّجُلُ مِنْهُمْ يَأْتِي عَلَى الصَّخْرَةِ فَيَحْمِلُهَا عَلَى الْحَيِّ فَيَهْلِكُهُمْ » ^(١) . وعن ثور بن زيد الديلي قال : قرأت كتاباً وقد سمي حيث قرأه أنا شداد بن عاد ، وأنا الذي رفعت العماد ، وأنا الذي شددت بذراعي نظر واحد ، وأنا الذي كترت كنزاً على سبعة أذرع لا يخرج إلا أمة محمد ﷺ . قلت : فعلى كل قول سواء كانت العماد أبنية بنوها أو أعمدة بيوتهم للبدو أو سلاحاً يقاتلون به أو طول الواحد منهم ، فهم قبيلة وأمة من الأمم وهم المذكورون في القرآن في غير ما موضع المقرونون بشمود كما ههنا والله أعلم .

ومن زعم أن المراد بقوله : ﴿ إِرَمَ ذَاتِ الْوَعْدِ ﴾ مدينة إما دمشق أو إسكندرية ففيه نظر فإنه كيف يلثم الكلام على هذا ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِمَادِ ﴾ إِرَمَ ذَاتِ الْوَعْدِ ﴿ إن جعل ذلك بدلاً أو عطف بيان ، فإنه لا يتسق الكلام حيثئذ ، ثم المراد إنما هو الإخبار عن إهلاك القبيلة المسماة بعاد وما أحل الله بهم من بأسه الذي لا يرد لا أن المراد الإخبار عن مدينة أو إقليم . وإنما نهت على ذلك لئلا يغتر بكثير مما ذكره جماعة من المفسرين عند هذه الآية من ذكر مدينة يقال لها : إرم ذات العماد ، مبنية ببلن الذهب والفضة قصورها ودورها وبساتينها ، وأن حصباءها لآلئ وجواهر ، وترابها بنادق المسك وأنهارها سارحة وثمارها ساقطة ودورها لا أنيس بها وسورها وأبوابها تصفر ليس بها داع ولا مجيب ، وأنها تتقل فتارة تكون بأرض الشام ، وتارة باليمن ، وتارة بالعراق ، وتارة بغير ذلك من البلاد فإن هذا كله من خرافات الإسرائيليين ، من وضع بعض زنادقتهم ليختبروا بذلك عقول الجهلة من الناس أن تصدقهم في جميع ذلك .

وذكر الثعلبي وغيره أن رجلاً من الأعراب وهو عبد الله بن قلابة في زمان معاوية ذهب في طلب أباعر له شردت فبينما هو بتيه في ابتغائها إذ اطلع على مدينة عظيمة لها سور وأبواب فدخلها فوجد فيها قرية مما ذكرناه من صفات المدينة الذهبية التي تقدم ذكرها وأنه رجع فأخبر الناس فذهبوا معه إلى المكان الذي قال فلم يروا شيئاً ، فهذه الحكاية ليس يصح إسنادها ولو صح إلى ذلك الأعرابي فقد يكون اختلق ذلك أو أنه أصابه نوع من الهوس والخيال فأعتقد أن ذلك له حقيقة في الخارج

(١) ذكره السيوطي في الدر المنثور (٣٤٧/٦) .

وليس كذلك ، وهذا مما يقطع بعدم صحته ، وهذا قريب مما يخبر به كثير من الجهلة والطامعين والمتحيلين من وجود مطالب تحت الأرض فيها قناطر الذهب والفضة وألوان الجواهر والياقوت واللائي والإكسير الكبير ، ولكن عليها موانع تمنع من الوصول إليها والأخذ منها فيحتالون على أموال الأغنياء والضعفة والسفهاء فيأكلونها بالباطل في صرفها في بخاخير وعقاقير ونحو ذلك من الهذيانات ويطنزون بهم ، والذي يجزم به أن في الأرض دفائن جاهلية وإسلامية وكنوزاً كثيرة من ظفر بشيء منها أمكنه تحويله ، فأما على الصفة التي زعموها فكذب وافتراء وبهت ولم يصح في ذلك شيء مما يقولون إلا عن نقلهم أو نقل من أخذ عنهم والله سبحانه وتعالى الهادي للصواب .

وقول ابن جرير يحتمل أن يكون المراد بقوله ﴿ إِنْ ذَاكَ الْيَمَادِ ﴾ قبيلة أو بلدة كانت عاد تسكنها فلذلك لم تصرف فيه نظر ، لأن المراد من السياق إنما هو الإخبار عن القبيلة ، ولهذا قال بعده ﴿ وَتُؤَدُّ الَّذِينَ جَاءُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ ﴾ يعني يقطعون الصخر بالوادي . قال ابن عباس : ينحتونها ويخرقونها ، ومنه يقال : مجتاعي النمار إذا خرقتها واجتأب الثوب إذا فتحه ومنه الجيب أيضاً ، وقال ابن إسحاق : كانوا عرباً وكان منزلهم بوادي القرى . وقوله تعالى : ﴿ وَرَبِّكَ ذِي الْأَرْوَاحِ ﴾ قال ابن عباس : الأوتاد الجنود الذين يشدون له أمره ، ويقال : كان فرعون يوتد أيديهم وأرجلهم في أوتاد من حديد يعلقهم بها . وقال السدي : كان يربط الرجل كل قائمة من قوائمه في وتد ثم يرسل عليه صخرة عظيمة فيشدخه وقال قتادة : بلغنا أنه كان له مظال وملاعب يلعب له تحتها من أوتاد وحبال . وعن أبي رافع : قيل لفرعون ذي الأوتاد لأنه ضرب لامرأته أربعة أوتاد ثم جعل على ظهرها رحي عظيمة حتى ماتت . وقوله تعالى : ﴿ الَّذِينَ طَفَوْا فِي الْآلِدِ ﴾ فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفَسَادَ ﴾ أي تمردوا وعثوا وعاثوا في الأرض بالفساد والأذية للناس ﴿ فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ ﴾ أي أنزل عليهم رجزاً من السماء وأحل بهم عقوبة لا يردّها عن القوم المجرمين .

وقوله تعالى : ﴿ إِنْ رَبِّكَ لَبَاسٍ ﴾ قال ابن عباس : يسمع ويرى يعني يرصد خلقه فيما يعملون ويجازي كلّ بسعيه في الدنيا والأخرى وسيعرض الخلائق كلهم عليه فيحكم فيهم بعدله ويقابل كلّ بما يستحقه وهو المنزه عن الظلم والجور .

﴿ فَأَمَّا الْإِنْسَانُ إِذَا مَا ابْتَلَاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ ۝ وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلَاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهْنَنِ ۝ كَلَّا بَلْ لَا تَكْزُمُونَ الْآيَةَ ۝ وَلَا تَحْضُرُونَ عَلَى طَعَامِ الْيَسِينِ ۝ وَتَأْكُلُونَ الثَّرَاتِ أَكْثَرًا لَكُمُ ۝ وَتُحِبُّونَ الْمَالَ حُبًّا جَمًّا ۝ ﴾ .

يقول تعالى منكراً على الإنسان في اعتقاده إذا وسّع الله تعالى عليه في الرزق ليختبره في ذلك فيعتقد أن ذلك من الله إكرام له ، وليس كذلك بل هو ابتلاء وامتحان ، وكذلك في الجانب الآخر إذا ابتلاه وامتحنه وضيق عليه في الرزق يعتقد أن ذلك من الله إهانة له قال الله تعالى : ﴿ كَلَّا ﴾ أي ليس الأمر كما زعم لا في هذا ولا في هذا فإن الله تعالى يعطي المال من يحب ومن لا يحب ، ويضيق على من يحب ومن لا يحب ، وإنما المذار في ذلك على طاعة الله في كل من الحالين إذا كان غنياً بأن يشكر الله على ذلك وإذا كان فقيراً بأن يصبر . وقوله تعالى : ﴿ بَلْ لَا تَكْزُمُونَ الْآيَةَ ﴾

فيه أمر بالإكرام له كما جاء عن أبي هريرة عن النبي ﷺ « خَيْرُ يَتِيمٍ فِي الْمُسْلِمِينَ يَتِيمٌ فِيهِ يَتِيمٌ يُحْسَنُ إِلَيْهِ وَشَرُّ يَتِيمٍ فِي الْمُسْلِمِينَ يَتِيمٌ يُسَاءُ إِلَيْهِ - ثُمَّ قَالَ بِأَصْبَحِهِ - أَنَا وَكَافِلُ الْيَتِيمِ فِي الْجَنَّةِ هَكَذَا » ^(١) . وعن سهل يعني ابن سعيد أن رسول الله ﷺ قال : « أَنَا وَكَافِلُ الْيَتِيمِ كَهَاتَيْنِ فِي الْجَنَّةِ » . وقرن بين أصبعيه الوسطى والتي تلي الإبهام ^(٢) . ﴿ وَلَا تَحْضُوتَ عَلَى طَعَامِ الْمَسْكِينِ ﴾ يعني لَا يَأْمُرُونَ بِالْإِحْسَانِ إِلَى الْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ وَيَحْتَثُّ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ فِي ذَلِكَ ﴿ وَتَأْكُلُونَ الثَّرَاتِ ﴾ يعني الميراث ﴿ أَكْثَلًا لَمَّا ﴾ أي من أي جهة حصل لهم من حلال أو حرام ﴿ وَتَحْضُوتَ أَلْمَالِ حُبًّا جَمًّا ﴾ أي كثيرًا زاد بعضهم فاحشًا .

﴿ كَلَّا إِذَا دُكَّتِ الْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا ﴾ وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا ﴿ وَجِئَتْهُمُ الْجِبَاطُ فَيُحْمِلُهُنَّ الْمَوَازِي ﴾ يَقُولُ يَلَيَّتَنِي قَدَمْتُ لِيَابَتِي ﴿ فَيَوْمَئِذٍ لَا يُعَذِّبُ عَذَابُهُ أَحَدًا ﴾ وَلَا يُؤْتِيهِمْ وَقَافَهُ أَحَدٌ ﴿ يَتَأَيَّاتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ ﴾ أَرْجِئِ إِنَّ رَبِّكَ رَاضِيَةٌ مَرْثِيَةٌ ﴿ فَأَدْخِلْنِي عَذَابَهُ ﴾ وَأَدْخِلْنِي جَنَّتِي .

يخبر تعالى عما يقع يوم القيامة من الأحوال العظيمة فقال تعالى : ﴿ كَلَّا ﴾ أي حقًا ﴿ إِذَا دُكَّتِ الْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا ﴾ أي وطئت ومهدت وسويت الأرض والجبال وقام الخلائق من قبورهم لربهم ﴿ وَجَاءَ رَبُّكَ ﴾ يعني لفصل القضاء بين خلقه وذلك بعدما يستشفعون إليه بسيد ولد آدم على الإطلاق محمّد صلوات الله وسلامه عليه بعد ما يسألون أولي العزم من الرسل واحدًا بعد واحد ، فكلهم يقول : لست بصاحب ذاكم حتى تنتهي النوبة إلى محمّد ﷺ فيقول : « أَنَا لَهَا ، أَنَا لَهَا » ^(٣) . فذهب فيشفع عند الله تعالى في أن يأتي لفصل القضاء ، فيشفعه الله تعالى في ذلك وهي أول الشفاعات ، وهي المقام المحمود كما تقدم بيانه في سورة سبحان فيجيء الرب تبارك وتعالى لفصل القضاء كما يشاء ، والملائكة يجيئون بين يديه صفوفًا صفوفًا وقوله تعالى : ﴿ وَجِئَتْهُمُ الْجِبَاطُ فَيُحْمِلُهُنَّ الْمَوَازِي ﴾ عن عبد الله هو ابن مسعود قال : قال رسول الله ﷺ : « يُؤْتَى بِجَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لَهَا سَبْعُونَ أَلْفَ زِمَامٍ مَعَ كُلِّ زِمَامٍ سَبْعُونَ أَلْفَ مَلِكٍ يَجْرُؤُنَهَا » ^(٤) .

وقوله تعالى : ﴿ يَوْمَئِذٍ يَنْذِكُرُ الْإِنْسَانَ ﴾ أي عمله وما كان أسلفه في قديم دهره وحديثه ﴿ وَأَنَّى لَهُ الذِّكْرَى ﴾ أي وكيف تنفعه الذكرى ﴿ يَقُولُ يَلَيَّتَنِي قَدَمْتُ لِيَابَتِي ﴾ يعني يندم على ما كان سلف منه من المعاصي إن كان عاصيًا ويود لو كان ازداد من الطاعات إن كان طائعًا ، وعن محمّد بن عمرة وكان من أصحاب رسول الله ﷺ قال : لو أن عبدًا خر على وجهه من يوم ولد إلى أن يموت في طاعة الله لحقره يوم القيامة ولو أنه رد إلى الدنيا كيما يزداد من الأجر والثواب . قال الله تعالى : ﴿ فَيَوْمَئِذٍ لَا يُعَذِّبُ عَذَابُهُ أَحَدًا ﴾ أي ليس أحد أشد عذابًا من تعذيب الله من عصاه ﴿ وَلَا يُؤْتِيهِمْ وَقَافَهُ أَحَدٌ ﴾ أي وليس أحد أشد قبضًا ووثقًا من الزبانية لمن كفر بربههم ﷻ وهذا في حق المجرمين من الخلائق والظالمين ، فأما النفس الزكية المطمئنة وهي الساكنة الثابتة الدائرة مع الحق فيقال لها : ﴿ يَتَأَيَّاتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ ﴾ أَرْجِئِ

(١) أخرجه ابن ماجه في السنن (٣٦٧٩) والمنذري في الترغيب والترهيب (٣٤٨/٣) .

(٢) أخرجه البخاري في الأدب (٦٠٠٥) وأبو داود في السنن (٥١٥٠) .

(٣) أخرجه أحمد في مسنده (٢٨٢/١) . (٤) أخرجه الحاكم في المستدرک (٥٩٥/٤) .

إِلَىٰ رَبِّكَ ﴿١﴾ أَيُّ إِلَىٰ جَوَارِهِ وَثَوَابِهِ وَمَا أَعَدَّ لِعِبَادِهِ فِي جَنَّتِهِ ﴿٢﴾ رَاضِيَةً ﴿٣﴾ أَيُّ فِي نَفْسِهَا ﴿٤﴾ مَرْهِيَةً ﴿٥﴾ أَيُّ قَدْ رَضِيتَ عَنِ اللَّهِ وَرَضِي عَنْهَا وَأَرْضَاهَا ﴿٦﴾ فَادْخُلِي فِي عِبْدِي ﴿٧﴾ أَيُّ فِي جَمَلَتِهِمْ ﴿٨﴾ وَادْخُلِي جَنَّتِي ﴿٩﴾ وَهَذَا يَقَالُ لَهَا عِنْدَ الْإِحْتِضَارِ وَفِي يَوْمِ الْقِيَامَةِ أَيْضًا كَمَا أَنَّ الْمَلَائِكَةَ يَبْشِرُونَ الْمُؤْمِنَ عِنْدَ احْتِضَارِهِ وَعِنْدَ قِيَامِهِ مِنْ قَبْرِهِ فَكَذَلِكَ هَهُنَا .

ثم اختلف المفسرون فيمن نزلت هذه الآية . فن ابن عباس نزلت في عثمان بن عفان . وعن بريدة بن الحصيب نزلت في حمزة بن عبد المطلب ؑ . وقال العوفي عن ابن عباس : يقال للأرواح المطمئنة يوم القيامة ﴿١٠﴾ يَأْتِيَنَّهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ ﴿١١﴾ أَرْجِيْ إِلَىٰ رَبِّكَ ﴿١٢﴾ يعني صاحبك وهو بدنّها الذي كانت تعمّرهُ فِي الدُّنْيَا ﴿١٣﴾ رَاضِيَةً مَّرْهِيَةً ﴿١٤﴾ وروى عنه أنه كان يقرؤها ﴿١٥﴾ فَادْخُلِي فِي عِبْدِي وَادْخُلِي جَنَّتِي ﴿١٦﴾ وكذا قال عكرمة والكليبي واختاره ابن جرير وهو غريب والظاهر الأول لقوله تعالى : ﴿١٧﴾ ثُمَّ رُدُّوا إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمُ الْحَقُّ ﴿١٨﴾ أَيُّ إِلَىٰ حُكْمِهِ وَالْوَقُوفُ بَيْنَ يَدَيْهِ . وعن ابن عباس في قوله تعالى : ﴿١٩﴾ يَأْتِيَنَّهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ ﴿٢٠﴾ أَرْجِيْ إِلَىٰ رَبِّكَ رَاضِيَةً مَّرْهِيَةً ﴿٢١﴾ قال : نزلت وأبو بكر جالس فقال : يا رسول الله ما أحسن هذا : فقال : «أَمَّا إِنَّهُ سَيُقَالُ لَكَ هَذَا» . وعن سعيد بن جبیر قال : مات ابن عباس بالطائف فجاء طير لم يرد على خلقته فدخل نعشه ثم لم ير خارجا منه فلما دفن تليت هذه الآية على شفير القبر لا يدرى من تلاها ﴿٢٢﴾ يَأْتِيَنَّهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ ﴿٢٣﴾ أَرْجِيْ إِلَىٰ رَبِّكَ رَاضِيَةً مَّرْهِيَةً ﴿٢٤﴾ فَادْخُلِي فِي عِبْدِي ﴿٢٥﴾ وَادْخُلِي جَنَّتِي ﴿٢٦﴾ . وعن أبي أمامة أن رسول الله ﷺ قال لرجل : « قُلِ اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ نَفْسًا بِكَ مُطْمَئِنَّةٌ تُؤْمِنُ بِلِقَائِكَ وَتَرْضَى بِقَضَائِكَ وَتَقْنَعُ بِعَطَائِكَ » (١) .

(١) ذكره السيوطي في الدر المنثور (٣٥١/٦) ، والهندي في كنز العمال (٣٧٣٥) .

سورة البلد

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ لَا أَقْسِمُ بِهَذَا الْبَلَدِ ﴾ ① وَأَنْتَ حِلٌّ بِهَذَا الْبَلَدِ ② وَالْوَالِدَ وَمَا وَلَدَ ③ لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي كَبَدٍ ④ ائْحَسْبُ أَنْ لَنْ يَقْدَرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ ⑤ يَقُولُ أَهْلَكْتُ مَالًا لُبَدًا ⑥ ائْحَسْبُ أَنْ لَمْ يَرَهُ أَحَدٌ ⑦ أَلَمْ نَجْعَلْ لَمْ عَيْنَيْنِ ⑧ وَلِسَانًا وَمَشْفَيْنِ ⑨ وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ ⑩ .

هذا قسم من الله تبارك وتعالى بمكة أم القرى في حال كون الساكن فيها حلالاً لينبته على عظمة قدرها في حال إحرام أهلها ، عن مجاهد : ﴿ لَا أَقْسِمُ بِهَذَا الْبَلَدِ ﴾ لا رد عليهم . أقسم بهذا البلد ، وقال ابن عباس ﴿ لَا أَقْسِمُ بِهَذَا الْبَلَدِ ﴾ يعني مكة ﴿ وَأَنْتَ حِلٌّ بِهَذَا الْبَلَدِ ﴾ قال : أنت يا محمد يحل لك أن تقاتل به ، وقال مجاهد : ما أصبت فيه فهو حلال لك وقال قتادة : أنت به من غير حرج ولا إثم ، وقال الحسن البصري : أحلها الله له ساعة من نهار ، وهذا المعنى قد ورد به الحديث المتفق على صحته : « إِنَّ هَذَا الْبَلَدَ حَرَمَةُ اللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فَهُوَ حَرَامٌ بِحُرْمَةِ اللَّهِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَا يُغْضَدُ شَجَرُهُ وَلَا يُخْتَلَى خَلَاهُ ، وَإِنَّمَا أُحِلَّتْ لِي سَاعَةٌ مِنْ نَهَارٍ وَقَدْ عَادَتْ حُرْمَتُهَا الْيَوْمَ كَحُرْمَتِهَا بِالْأَمْسِ أَلَا فَالْيَبْلُغُ الشَّاهِدُ الْعَائِبُ » . وفي لفظ آخر « فَإِنْ أَحَدٌ تَرَحَّصَ بِقِتَالِ رَسُولِ اللَّهِ فَقُولُوا إِنَّ اللَّهَ إِذِنْ لِرَسُولِهِ وَلَمْ يَأْذَنْ لَكُمْ » ^(١) . وقوله تعالى : ﴿ وَالْوَالِدَ وَمَا وَلَدَ ﴾ الوالد الذي يلد وما ولد العاقر الذي لا يولد له ، وقال عكرمة : الوالد العاقر ، وما ولد الذي يلد . وقيل : يعني بالوالد آدم وما ولد ولده ، وهذا حسن قوي لأنه تعالى لما أقسم بأُم القرى وهي المساكن أقسم بعده بالسّاكن وهو آدم أبو البشر وولده .

وقال ابن جرير : أنه عام في كل والد وولده وهو محتمل أيضًا ، وقوله تعالى : ﴿ لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي كَبَدٍ ﴾ روي عن ابن مسعود وابن عباس وعكرمة وغيرهم : يعني منتصبًا زاد ابن عباس في رواية عنه منتصبًا في بطن أمه والكبد الاستواء والاستقامة ، ومعنى هذا القول : لقد خلقناه سويًا مستقيماً . وعن ابن عباس : ﴿ فِي كَبَدٍ ﴾ قال : في شدة خلق ألم تر إليه وذكر مولده ونبات أسنانه . وقال مجاهد ﴿ فِي كَبَدٍ ﴾ : نطفة ثم علقه ثم مضغة يتكبد في الخلق . قال مجاهد : وهو كقوله تعالى : ﴿ حَمَلَتْهُ أُمُّكُ كُرْماً وَوَضَعَتْهُ كُرْماً ﴾ وأرضعته كرهاً ومعيشته كره فهو يكابد ذلك . وقال سعيد بن جبيرة : في شدة وطلب معيشة . وقال عكرمة : في شدة وطول وقال قتادة : في مشقة .

وروي أن الحسن قرأ هذه الآية ﴿ لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي كَبَدٍ ﴾ قال : يكابد أمراً من أمر الدنيا وأمراً من أمر الآخرة ، وفي رواية يكابد مضايق الدنيا وشدائد الآخرة . واختار ابن جرير أن المراد بذلك مكابدة الأمور ومشاقها . وقوله تعالى ﴿ ائْحَسْبُ أَنْ لَنْ يَقْدَرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ ﴾ قال الحسن البصري : يعني يأخذ ماله . وقال قتادة : ابن آدم يظن أن لن يسأل عن هذا المال من أين اكتسبه وأين أنفق . وقوله تعالى : ﴿ يَقُولُ أَهْلَكْتُ مَالًا لُبَدًا ﴾ أي يقول ابن آدم أنفقت مالا لبداً أي كثيراً ﴿ ائْحَسْبُ أَنْ لَمْ يَرَهُ

(١) أخرجه البخاري في الحج (١٥٨٧) ومسلم في الحج (٤٤٥) .

أَحَدٌ ﴿١﴾ قَالَ مجاهد : أي أحسب أن لم يره الله ﷻ وقوله تعالى : ﴿ أَلَمْ نَجْعَلْ لَهُ عَيْنَيْنِ ﴾ أي ينصر بهما ﴿٢﴾ وَلَسْنَا ﴿٣﴾ أي ينطق به فيعبر عما في ضميره ﴿٤﴾ وَشَفَقْنِي ﴿٥﴾ يستعين بهما على الكلام وأكل الطعام وجمالاً لوجهه وفمه .

﴿ وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ ﴾ : الطريقين ، وعن عبد الله بن مسعود قال : الخير والشر ، وعن أنس بن مالك قال : قال رسول الله ﷺ : « هُمَا نَجْدَانِ ، فَمَا جَعَلَ نَجْدَ الشَّرِّ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنْ نَجْدِ الْخَيْرِ » ^(١) . وعن ابن عباس في قوله تعالى : ﴿ وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ ﴾ قال : الشدين . ورواه ابن جرير ثم قال : والصواب القول الأول .

﴿ فَلَا أَقْنَمَ الْمَعْبَةَ ١١ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْمَعْبَةُ ١٢ فَكُ رَبَّةٌ ١٣ أَوْ إِبْلَمَةٌ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبٍ ١٤ يَبِيئًا ذَا مَقْرَبَةٍ ١٥ أَوْ مَسْكِينًا ذَا مَتْرَبٍ ١٦ ثُمَّ كَانَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا بِالرَّحْمَةِ ١٧ أَذْلِكَ أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ ١٨ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَنَبَّأُونَ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ ١٩ عَلَيْهِمْ نَارٌ مُّؤَصَّدَةٌ ٢٠ .

عن ابن عمر في قوله تعالى : ﴿ فَلَا أَقْنَمَ ﴾ أي دخل ﴿ الْمَعْبَةُ ﴾ قال : جبل في جهنم . وقال الحسن البصري : ﴿ فَلَا أَقْنَمَ الْمَعْبَةَ ﴾ قال : عقبة في جهنم . وقال قتادة : إنها عقبة قحمة شديدة فاقترحوها بطاعة الله تعالى . وقال قتادة : ﴿ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْمَعْبَةُ ﴾ ثم أخبر تعالى عن اقتحامها فقال : ﴿ فَكُ رَبَّةٌ ١٣ أَوْ إِبْلَمَةٌ ﴾ أي أفلا سلك الطريق التي فيها النجاة والخير ثم بينها فقال تعالى : ﴿ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْمَعْبَةُ ١٢ فَكُ رَبَّةٌ ١٣ أَوْ إِبْلَمَةٌ ﴾ قرئ فك ربة بالإضافة وقرئ على أنه فعل وفيه ضمير الفاعل والربة مفعوله وكلتا القراءتين معناهما متقاربان ^(٢) . وعن أبي هريرة يقول : قال رسول الله ﷺ : « مَنْ أَعْتَقَ رَقَبَةً مُّؤَمِّنَةً أَعْتَقَ اللَّهُ بِكُلِّ إِزْبٍ - أي عضو - مِنْهَا إِزْبًا مِنْهُ مِنَ النَّارِ ، حَتَّى إِنَّهُ لَيُعْتِقُ بِالْيَدِ الْيَدَ وَالرَّجْلَ الرَّجْلَ وَالْفَرْجَ الْفَرْجَ » . فقال علي بن الحسين : أنت سمعت هذا من أبي هريرة ؟ فقال سعيد : نعم فقال علي بن الحسين لغلام له أفره غلماناً ادع مطرفاً فلما قام بين يديه قال : اذهب فأنت حر لوجه الله ^(٣) وعند مسلم أن هذا الغلام الذي أعتقه علي بن الحسين زين العابدين كان قد أعطي فيه عشرة آلاف درهم ، وعن أبي نجيح قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « أَيُّمَا مُسْلِمٍ أَعْتَقَ رَجُلًا مُّسْلِمًا فَإِنَّ اللَّهَ جَاعِلٌ وَفَاءً كُلَّ عَظْمٍ مِنْ عِظَامِهِ عَظْماً مِنْ عِظَامِ مُخْرَجِهِ مِنَ النَّارِ وَأَيُّمَا امْرَأَةٍ مُّسْلِمَةٍ أَعْتَقَتْ امْرَأَةً مُّسْلِمَةً فَإِنَّ اللَّهَ جَاعِلٌ وَفَاءً كُلَّ عَظْمٍ مِنْ عِظَامِهَا عَظْماً مِنْ عِظَامِهَا مِنَ النَّارِ » ^(٤) .

وعن عمرو بن عبسة أنه حدثهم أن النبي ﷺ قال : « مَنْ بَنَى مَسْجِدًا لِيَذْكُرَ اللَّهُ فِيهِ بَنَى اللَّهُ لَهُ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ ، وَمَنْ أَعْتَقَ نَفْسًا مُّسْلِمَةً كَانَتْ فِدْيَتُهُ مِنْ جَهَنَّمَ ، وَمَنْ شَابَ شَيْبَةً فِي الْإِسْلَامِ كَانَتْ لَهُ ثَوْرًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ » ^(٥) .

وعن أبي أمامة عن عمرو بن عبسة : قال السلمي قلت له : حدثنا حديثاً سمعته من رسول الله ﷺ ليس فيه انتقاص ولا وهم قال : سمعته يقول : « مَنْ وُلِدَ لَهُ ثَلَاثَةُ أَوْلَادٍ فِي الْإِسْلَامِ فَمَاتُوا قَبْلَ

(١) ذكره السيوطي في الدر المنثور (٣٥٣/٦) .

(٢) قرأ نافع وابن عامر وعاصم وحمة وأبو جعفر ويعقوب وخلف العاشر ﴿ فك ﴾ برفع الكاف ، وقرأ الباقون ﴿ فك ﴾ بفتح الكاف

(المهذب ص ٤٥٨) . (٣) أخرجه أحمد في مسنده (٤٢٢/٢) .

(٤) أخرجه البخاري في العتق (٢٥١٧) ومسلم في العتق (٢٤) والترمذي في السنن (١٥٤٧) .

(٥) أخرجه أحمد في مسنده (٣٨٦/٤) .

أَنْ يَتْلُغُوا الْحَنْتَ أَذْخَلَهُ اللَّهُ الْجَنَّةَ بِفَضْلِ رَحْمَتِهِ إِيَّاهُمْ ، وَمَنْ شَابَ شَيْئَةً فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَانَتْ لَهُ نُورًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، وَمَنْ رَمَى بِسَهْمٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بَلَغَ بِهِ الْعَدُوُّ أَصَابَ أَوْ أَخْطَأَ كَانَ لَهُ عِتْقٌ رَقَبَةٍ وَمَنْ أَعْتَقَ رَقَبَةً مُؤِمَّةً أَعْتَقَ اللَّهُ بِكُلِّ غُضُوٍّ مِنْهُ غُضُوًّا مِنْهُ مِنَ النَّارِ ، وَمَنْ أَنْفَقَ زَوْجَيْنِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَإِنَّ لِلْجَنَّةِ ثَمَانِيَةَ أَبْوَابٍ يُدْخِلُهُ اللَّهُ مِنْ أَيِّ بَابٍ شَاءَ مِنْهَا » ^(١) .

وعن العريف بن عياش الديلمي قال : أتينا واثلة بن الأسقع فقلنا له : حدثنا حديثا ليس فيه زيادة ولا نقصان فغضب وقال : إن أحدكم ليقرا ومصحفه معلق في بيته فيزيد وينقص ، قلنا إنما أردنا حديثا سمعته من رسول الله قال : أتينا رسول الله ﷺ في صاحب لنا قد أوجب يعني النار بالقتل فقال : « أَعْتِقُوا عَنْهُ يُعْتِقَ اللَّهُ بِكُلِّ غُضُوٍّ مِنْهُ غُضُوًّا مِنَ النَّارِ » ^(٢) .

وعن البراء بن عازب قال : جاء أعرابي إلى رسول الله ﷺ فقال : يا رسول الله علمني عملا يدخلني الجنة ، فقال : « لَيْسَ كُنْتُ أَقْصَرْتُ الْخُطْبَةَ لَقَدْ أَعْرَضْتُ الْمَسْأَلَةَ ، أَعْتَقِ النَّسَمَةَ وَفُكَّ الرَّقَبَةَ » . فقال : يا رسول الله أو ليستا بواحدة ، قال : « لَا إِنَّ عِتْقَ النَّسَمَةِ أَنْ تَنْفَرِدَ بِعَتَقِهَا ، وَفُكَّ الرَّقَبَةِ أَنْ تُعَيِّنَ فِي عَتَقِهَا ، وَالْمِئْخَةَ الْوُكُوفَ ، وَالْقِيَاءَ عَلَى ذِي الرَّجَمِ الظَّالِمِ فَإِنْ لَمْ تُطِيقْ ذَلِكَ فَأَطْعِمِ الْجَائِعَ ، وَاسْقِ الظَّمْآنَ وَأَمُرُ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنْكَرِ ، فَإِنْ لَمْ تُطِيقْ ذَلِكَ فَكُفَّ لِسَانَكَ إِلَّا مِنْ الْخَيْرِ » ^(٣) . وقوله تعالى : ﴿ أَوْ إِطْعَمٌ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْجَرٍ ﴾ قال ابن عباس : أي ذي مجاعة ، وقال إبراهيم النخعي : في يوم الطعام فيه عزيز ، وقال قتادة : في يوم مشتهى فيه الطعام .

وقوله تعالى : ﴿ يَتَسَاءَلُونَ أَيَّ أَطْعَمَ فِي مِثْلِ هَذَا الْيَوْمِ يَتَسَاءَلُونَ ﴾ أي ذا قرابة منه كما جاء في الحديث عن سلمان بن عامر قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « الصَّدَقَةُ عَلَى الْمِسْكِينِ صَدَقَةٌ وَعَلَى ذِي الرَّجَمِ اثْنَتَانِ ، صَدَقَةٌ وَصِلَةٌ » ^(٤) . وقوله تعالى : ﴿ أَوْ مَسْكِينًا ذَا مَتْرَبٍ ﴾ أي فقيرا مدقعا لاصقا بالتراب وهو الدقعاء أيضا . قال ابن عباس : ذا متربة هو المطروح في الطريق ، الذي لا بيت له ولا شيء يقيه من التراب . وفي رواية هو الذي لصق بالدقعاء من الفقر والحاجة ليس له شيء . وفي رواية عنه : هو البعيد التربة ، قال ابن أبي حاتم : يعني الغريب عن وطنه . وقال عكرمة : هو الفقير المديون المحتاج ، وقال سعيد بن جبير : هو الذي لا أحد له . وقال ابن عباس وسعيد وقاتلة ومقاتل : هو ذو العيال ، وكل هذه قريبة المعنى . وقوله تعالى : ﴿ تَذَكَّرَ كَانَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ أي ثم هو مع هذه الأوصاف الجميلة الطاهرة مؤمن بقلبه محتسب ثواب ذلك عند الله ﷻ وقوله تعالى : ﴿ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا بِالرَّحْمَةِ ﴾ أي كان من المؤمنين العاملين صالحا ، المتواصين بالصبر على أذى الناس وعلى الرحمة بهم كما جاء في الحديث « الرَّاحِمُونَ يَرْحَمُهُمُ الرَّحْمَنُ ، ارْحَمُوا مَنْ فِي الْأَرْضِ يَرْحَمْكُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ » ^(٥) .

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٣٨٦/٤) .

(٢) أخرجه الحاكم في المستدرك (٢١٢/٢) وأبو داود في السنن (٣٩٦٤) وأحمد في مسنده (٤٩١/٣) .

(٣) أخرجه أحمد في مسنده (٢٩٩/٤) .

(٤) أخرجه أحمد في مسنده (٢١٤/٤) .

(٥) أخرجه أبو داود في السنن (٤٩٤١) والترمذي في السنن (١٩٢٤) وأحمد في مسنده (١٦٠/٢) .

وعن عبد الله بن عمرو يرويه قال : من لم يرحم صغيرنا ويعرف حق كبيرنا فليس منا ^(١) . وقوله تعالى : ﴿ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْمُنَنَّى ﴾ أي المتصفون بهذه الصفات من أصحاب اليمين . ثم قال : ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا هُمْ أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ ﴾ أي أصحاب الشمال ﴿ عَلَيْهِمْ نَارٌ مُّؤَصَّدَةٌ ﴾ أي مطبقة عليهم فلا محيد لهم عنها ولا خروج لهم منها . قال أبو هريرة وابن عباس وعكرمة وسعيد بن جبيرة ومجاهد وغيرهم ﴿ مُّؤَصَّدَةٌ ﴾ أي مطبقة وقال ابن عباس : مغلقة الأبواب ، وقال الضحاك ﴿ مُّؤَصَّدَةٌ ﴾ حيط لا باب له وقال قتادة : مطبقة فلا ضوء فيها ولا فرج ولا خروج منها آخر الأبد ، وقال أبو عمران الجوني : إذا كان يوم القيامة أمر الله بكل جبار وكل شيطان وكل من كان يخاف الناس في الدنيا شره فأوثقوا بالحديد ثم أمر بهم إلى جهنم ثم أوصدوها عليهم أي أطبقوها قال : فلا والله لا تستقر أقدامهم على قرار أبدًا ، ولا والله لا ينظرون فيها إلى أديم سماء أبدًا ولا والله لا تلتقي جفون أعينهم على غمض نوم أبدًا ، ولا والله لا يذوقون فيها بارد شراب أبدًا .

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٢٢٢/٢) والحاكم في المستدرک (١٧٨/٤) .

الضحاك والثوري : ألهمها الخير والشر . وقال ابن زيد : جعل فيها فجورها وتقواها . وعن أبي الأسود الديلي قال : قال لي عمران بن حصين : أرأيت ما يعمل الناس فيه ويتكادحون فيه ؟ شيء قضى عليهم ومضى عليهم من قدر قد سبق ، أو فيما يستقبلون مما أتاهم به نبيهم ﷺ وأكدت عليهم الحجة ؟ قلت : بل شيء قضى عليهم ، قال : فهل يكون ذلك ظلمًا ؟ قال : ففرغت منه فرعًا شديدًا قال : قلت له ليس شيء إلا وهو خلقه ومملك يده لا يسأل عما يفعل وهم يسألون . قال : سدّدك الله إنما سألتك لأخبر عقلك إن رجلاً من مزينة أو جهينة أتى رسول الله ﷺ فقال : يا رسول الله أرأيت ما يعمل الناس فيه ويتكادحون شيء قضى عليهم ومضى عليهم من قدر قد سبق أم شيء مما يستقبلون مما أتاهم به نبيهم ﷺ وأكدت به عليهم الحجة ، قال : « بَلْ شَيْءٌ قَدْ قُضِيَ عَلَيْهِمْ » . قال : ففيم نعمل ؟ قال : « مَنْ كَانَ اللَّهُ خَلَقَهُ لِإِخْدَى الْمُتَرَلِّينَ يُهَيِّئُهُ لَهَا وَتَصْدِيقَ ذَلِكَ فِي كِتَابِ اللَّهِ تَعَالَى ﴿ وَتَنْزِيلٍ وَمَا سَوَّيْنَاهَا ﴾ فَأَلَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ﴾ » (١) .

وقوله تعالى : ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَنْ ذَكَرَهَا ﴾ وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّنَهَا ﴿ يحتمل أن يكون المعنى ، قد أفلح من زكى نفسه أي بطاعة الله ، كما قال قتادة وطهرها من الأخلاق الدنيئة والردائل ، ﴿ وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّنَهَا ﴾ أي دسّسها أي أخلعها ووضع منها بخذلانه إياها عن الهدى حتى ركب المعاصي وترك طاعة الله ﷻ . وقد يحتمل أن يكون المعنى قد أفلح من زكى الله نفسه ، وقد خاب من دسّى الله نفسه . وعن ابن عباس قال : كان رسول الله ﷺ إذا مر بهذه الآية ﴿ وَتَنْزِيلٍ وَمَا سَوَّيْنَاهَا ﴾ فَأَلَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ﴿ وقف ثم قال : « اللَّهُمَّ آتِ نَفْسِي تَقْوَاهَا ، أَنْتَ وَلِيَّهَا وَمَوْلَاهَا ، وَخَيْرٌ مَنْ زَكَّاهَا » (٢) . وعن عائشة أنها فقدت النبي ﷺ من مضجعه فلمسته بيدها فوقعت عليه وهو ساجد وهو يقول : « رَبِّ أَعْطِ نَفْسِي تَقْوَاهَا ، وَزَكَّاهَا أَنْتَ خَيْرٌ مَنْ زَكَّاهَا ، أَنْتَ وَلِيَّهَا وَمَوْلَاهَا » (٣) .

وعن زيد بن أرقم قال : كان رسول الله ﷺ يقول : « اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنَ الْعَجْزِ وَالْكَسَلِ ، وَالْهَرَمِ وَالْجُبْنِ وَالْبُخْلِ وَعَذَابِ الْقَبْرِ . اللَّهُمَّ آتِ نَفْسِي تَقْوَاهَا ، وَزَكَّاهَا أَنْتَ خَيْرٌ مَنْ زَكَّاهَا ، أَنْتَ وَلِيَّهَا وَمَوْلَاهَا . اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنْ قَلْبٍ لَا يَخْشَعُ ، وَمِنْ نَفْسٍ لَا تَشْبَعُ . وَعِلْمٍ لَا يَنْفَعُ وَدَعْوَةٍ لَا يُسْتَجَابُ لَهَا » . قال زيد : كان رسول الله ﷺ يعلمناهن ونحن نعلمكوهن (٤) .

﴿ كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَاهَا ﴾ إِذِ انْبَعَثَ أَشْقَاهَا ﴿ فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ نَاقَةَ اللَّهِ وَسُقْيَاهَا ﴾ فَكَذَّبُوهُ فَفَقَرُوا فَدَمَدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُمْ بِذُنُوبِهِمْ فَسَوَّاهَا ﴿ وَلَا يَخَافُ عُقْبَاهَا ﴾ .

يخبر تعالى عن ثمود أنهم كذبوا رسولهم بسبب ما كانوا عليه من الطغيان والبغي ، فأعقبهم ذلك تكذيبًا في قلوبهم بما جاءهم به رسولهم عليه الصلاة والسلام من الهدى واليقين ﴿ إِذِ انْبَعَثَ أَشْقَاهَا ﴾ أي أشقى القبيلة وهو قدار بن سالف عاقر الناقة وهو أحيمر ثمود وهو الذي قال الله تعالى : ﴿ فَادَّوَّا صُلَاحِمَ قَطَاطٍ مَقَرَّ ﴾ الآية وكان هذا الرجل عزيزًا فيهم شريفًا في قومه نسيبًا رئيسًا

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٤٣٨/٤) .

(٢) أخرجه مسلم في الذكر والدعاء (٧٣) وأحمد في مسنده (٣٧١/٤) .

(٣) أخرجه أحمد في مسنده (٢١٩/٦) .

(٤) أخرجه أحمد في مسنده (٣٧١/٤) .

مطاعًا ، وعن عبد الله بن زمعة قال : خطب رسول الله ﷺ فذكر الناقة وذكر الذي عقرها فقال : « إِذْ انْبَعَثَ أَشْقَاهَا انْبَعَثَ لَهَا رَجُلٌ غَارِمٌ عَزِيزٌ مَنِيْعٌ فِي زَهْطِهِ مِثْلُ أَبِي زُمْعَةَ » ^(١) وقوله تعالى : ﴿ فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ ﴾ يعني صالحًا ^(٢) ﴿ نَاقَةَ اللَّهِ ﴾ أي احذروا ناقة الله أن تمسوها بسوء ﴿ وَسَقَيْنَهَا ﴾ أي لا تعتدوا عليها في سقياها فإن لها شرب يوم ، ولكم شرب يوم معلوم . قال الله تعالى : ﴿ فَكَذَّبُوهُ فَمَقَرُّوْهَا ﴾ أي كذبوه فيما جاءهم به فأعقبهم ذلك أن عقروا الناقة التي أخرجها الله من الصخرة آية لهم وحجة عليهم ﴿ فَدَمَدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُمْ بِذُنُوبِهِمْ ﴾ أي غضب عليهم فدمر عليهم ﴿ فَسَوَّاهَا ﴾ أي فجعل العقوبة نازلة عليهم على السواء . قال قتادة : بلغنا أن أحيمر ثمود لم يعقر الناقة حتى تابعه صغيرهم وكبيرهم وذكرهم وأنثاهم ، فلما اشترك القوم في عقرها دمدم الله عليهم بذنوبهم فسواها . وقوله تعالى : ﴿ وَلَا يَخَافُ ﴾ وقرئ ﴿ فَلَا يَخَافُ ﴾ ^(٣) ﴿ عُقْبَهَا ﴾ قال ابن عباس : لا يخاف الله من أحد تبعة . وقال السدي : لم يخف الذي عقرها عاقبة ما صنع ، والقول الأول أولى لدلالة السياق عليه والله أعلم .

(١) أخرجه أحمد في مسنده (١٧/٤) .

(٢) قرأ نافع وابن عامر وأبو جعفر ﴿ فلا يخاف ﴾ بالفاء والباقون بالراء (المذهب ص : ٤٥٩) .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰ ۝ وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ ۝ وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالْأُنثَىٰ ۝ إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّىٰ ۝ فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ ۝ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ ۝ فَسَنِيَرُهُ لِلْعُسْرَىٰ ۝ وَأَمَّا مَنْ خَلَّ وَاسْتَفْتَىٰ ۝ وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَىٰ ۝ فَسَنِيَرُهُ لِلْيُسْرَىٰ ۝ وَمَا يُغْنِي عَنْهُ مَالُهُ إِذَا تَرَدَّىٰ ۝﴾ .

عن علقمة أنه قدم الشام فدخل مسجد دمشق فصلى فيه ركعتين وقال : اللهم ارزقني جليسا صالحا قال : فجلس إلى أبي الدرداء فقال له أبو الدرداء : ممن أنت ؟ قال : من أهل الكوفة ، قال : كيف سمعت ابن أم عبد يقرأ ﴿وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰ ۝ وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ﴾ قال علقمة ﴿الذَّكَرَ وَالْأُنثَىٰ﴾ فقال : أبو الدرداء : لقد سمعتها من رسول الله ﷺ فما زال هؤلاء حتى شككوني ثم قال : ألم يكن فيكم صاحب السواد وصاحب السر الذي لا يعلمه أحد غيره ، والذي أجبر من الشيطان على لسان محمد ﷺ ؟ ^(١) وعن إبراهيم قال : قدم أصحاب عبد الله على أبي الدرداء فطلبهم فوجدهم ، فقال : أيكم يقرأ علي قراءة عبد الله ؟ قالوا : كلنا ، قال : أيكم أحفظ ؟ فأشاروا إلى علقمة فقال : كيف سمعته يقرأ ﴿وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰ﴾ - قال - ﴿الذَّكَرَ وَالْأُنثَىٰ﴾ قال : أشهد أنني سمعت رسول الله ﷺ يقرأ هكذا وهو لا يريدني على أن أقرأ ﴿وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالْأُنثَىٰ﴾ والله لا أتابعهم ^(٢) . هكذا قرأ ذلك ابن مسعود وأبو الدرداء ورفعهم أبو الدرداء ، وأما الجمهور فقرأوا ذلك كما هو المثبت في المصحف الإمام العثماني في سائر الآفاق ﴿وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالْأُنثَىٰ﴾ فأقسم تعالى ﴿وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰ﴾ أي إذا غشى الخليفة بظلامه ﴿وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ﴾ أي بضياؤه وإشراقه ﴿وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالْأُنثَىٰ﴾ كقوله تعالى : ﴿وَنَلَقْنَكَ زَوْجًا﴾ : ولما كان القسم بهذه الأشياء المتضادة كان المقسم عليه أيضًا متضادًا ولهذا قال تعالى : ﴿إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّىٰ﴾ أي أعمال العباد التي اكتسبوها متضادة أيضًا ومتخالفة ، فمن فاعل خيرًا ومن فاعل شرًا قال الله تعالى : ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ﴾ أي أعطى ما أمر بإخراجه واتقى الله في أموره ﴿وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ﴾ أي بالمجازاة على ذلك ، وقال خصيف : بالثواب . وقال زيد بن أسلم : بالخلف . وقال الضحاك : بلا إله إلا الله ، وقال عكرمة : بما أنعم الله عليه ، وفي رواية عن زيد بن أسلم قال : الصلاة والزكاة والصوم ، وعن أبي بن كعب قال : سألت رسول الله ﷺ عن الحسنى قال : «الحسنى : الجنة» ^(٣) .

وقوله تعالى : ﴿فَسَنِيَرُهُ لِلْيُسْرَىٰ﴾ قال ابن عباس : يعني للخير ، وقال زيد بن أسلم : للجنة وقال بعض السلف : من ثواب الحسنة الحسنة بعدها ، ومن جزاء السيئة السيئة بعدها ، ولهذا قال تعالى : ﴿وَأَمَّا مَنْ خَلَّ﴾ أي بما عنده ﴿وَاسْتَفْتَىٰ﴾ أي بخل بماله واستغنى عن ربه ﷻ ﴿وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَىٰ﴾ أي بالجزاء في الدار الآخرة ﴿فَسَنِيَرُهُ لِلْيُسْرَىٰ﴾ أي لطريق الشر كما قال تعالى ﴿وَنَقَلِبْ أَيْدِيَهُمْ وَأَصْغُرْهُمْ كَمَا تَرَوْهُمْ يَوْمَ أَوَّلِ مَرَّةٍ وَتَذَرُهُمْ فِي طَافَيْهِمْ يَمْهُونَ﴾ والآيات في هذا المعنى كثيرة دالة على أن الله ﷻ يجازي من قصد الخير بالتوفيق له ، ومن قصد الشر بالخذلان ، وكل ذلك بقدر مقدر .

(٢) أخرجه البخاري في تفسير القرآن (٤٩٤٤) .

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٤٤٩/٦) .

(٣) ذكره السيوطي في الدر المنثور (٣٠٥/٣) .

والأحاديث الدالة على هذا المعنى كثيرة ؛ فعن عبد الله بن عبد الرحمن بن أبي بكر الصديق قال : سمعت أبي يذكر أن أباه سمع أبا بكر وهو يقول : قلت لرسول الله ﷺ : يا رسول الله أنعمل على ما فرغ منه أو على أمر مؤتلف ؟ قال : « بَلْ عَلَى أَمْرٍ قَدْ فُرِغَ مِنْهُ » . قال : ففيم العمل يا رسول الله ؟ قال : « كُلُّ مَيْسَرٍ لِمَا خَلَقَهُ » ^(١) . وعن علي بن أبي طالب عليه السلام قال : كنا مع رسول الله ﷺ في بقيع الغرقد في جنازة فقال : « مَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا وَقَدْ كُتِبَ مَقْعَدُهُ مِنَ الْجَنَّةِ وَمَقْعَدُهُ مِنَ النَّارِ » . فقالوا : يا رسول الله أفلا نتكل ؟ فقال : « اَعْمَلُوا فَكُلُّ مَيْسَرٍ لِمَا خُلِقَ لَهُ » . ثم قرأ ﴿ فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى ۝ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى ۝ إِلَى قَوْلِهِ - فَسَيَسِّرُ لِّلْمُسْرَى ۝ ﴾ ^(٢) .

وعن أبي الدرداء قال : قال رسول الله ﷺ : « مَا مِنْ يَوْمٍ غَزَبَتْ فِيهِ شَمْسُهُ إِلَّا وَبَجْنِيَّتِهَا مَلَكَانِ يُتَادِيَانِ يَسْمَعُهُمَا خَلْقُ اللَّهِ كُلُّهُمْ إِلَّا الثَّقَلَيْنِ : اللَّهُمَّ أَعْطِ مُتَّفَقًا خَلْفًا وَأَعْطِ مُتَّسِكًا تَلَفًا » ^(٣) . وأنزل الله في ذلك القرآن ﴿ فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى ۝ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى ۝ فَسَيَسِّرُ لِّلْمُسْرَى ۝ ﴾ . وعن ابن عباس أن رجلاً كان له نخيل ، ومنها نخلة فرعها في دار رجل صالح فقير ذي عيال ، فإذا جاء الرجل فدخل داره ف يأخذ الثمرة من نخلته فتسقط الثمرة فيأخذها صبيان الرجل الفقير ، فينزل من نخلته فينتزع الثمرة من أيديهم ، وإن أدخل أحدهم الثمرة في فمه أدخل أصبعه في حلق الغلام ونزع الثمرة من حلقه ، فشكا ذلك الرجل إلى النبي ﷺ أخبره بما هو فيه من صاحب النخلة ، فقال له النبي ﷺ : « إِذْهَبْ » ، ولقي النبي ﷺ صاحب النخلة فقال له : « أَعْطِنِي نَخْلَتَكَ الَّتِي فَرَعُهَا فِي دَارِ فُلَانٍ وَلَكَ بِهَا نَخْلَةٌ فِي الْجَنَّةِ » ، فقال له : لقد أعطيت ولكن يعجبني ثمرها وإن لي لنخلًا كثيرًا ما فيها نخلة أعجب إلي ثمرة من ثمرها ، فذهب النبي ﷺ فتيهه رجل كان يسمع الكلام من رسول الله ﷺ ومن صاحب النخلة فقال الرجل : يا رسول الله إن أخذت النخلة فصارت لي النخلة فأعطيتك إياها أتعطيني ما أعطيت بها نخلة في الجنة ؟ قال : « نَعَمْ » . ثم إن الرجل لقي صاحب النخلة ولكلاهما نخل : فقال له : أخبرك أن محمدًا أعطاني بنخلي المائلة في دار فلان نخلة في الجنة فقلت له : قد أعطيت ولكن يعجبني ثمرها ، فسكت عنه الرجل ، فقال له : أراك إذا بعثها قال : لا ، إلا أن أعطى بها شيئًا ولا أظنني أعطاه قال : وما منك ؟ قال : أربعون نخلة . فقال الرجل : لقد جئت بأمر عظيم نخلتك تطلب بها أربعين نخلة ، ثم سكنا وأنشأ في كلام آخر ، ثم قال : أنا أعطيتك أربعين نخلة . فقال : اشهد لي إن كنت صادقًا ، فأمر بأناس فدعاهم فقال : اشهدوا أنني قد أعطيت من نخلي أربعين نخلة بنخلته التي فرعها في دار فلان ابن فلان ثم قال : ما تقول ؟ فقال صاحب النخلة : قد رضيت ، ثم قال بعد : ليس بيني وبينك بيع لم نفرق فقال له : قد أقالك الله ولست بأحمق حين أعطيتك أربعين نخلة بنخلتك المائلة . فقال صاحب النخلة : قد رضيت على أن تعطيني الأربعين على ما أريد . قال : تعطينيها على ساق ثم مكث ساعة ثم قال : هي لك على ساق ، وأوقف له شهودًا وعد له أربعين نخلة على ساق ففترقا ، فذهب الرجل إلى رسول الله ﷺ

(٢) أخرجه البخاري في تفسير القرآن (٤٩٤٥) .

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٥/١) .

(٣) أخرجه المنذري في الترغيب والترهيب (١١٩/٤) .

فقال : يا رسول الله إن النخلة المائلة في دار فلان قد صارت لي فهي لك ، فذهب رسول الله ﷺ إلى الرجل صاحب الدار فقال له : « النَّخْلَةُ لَكَ وَلِعِيَّاكَ » . وقال عكرمة قال ابن عباس : فأنزل الله ﷻ **﴿ وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَى - إِلَى قَوْلِهِ - فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى ۝ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى ۝ فَسَنِيَرُهُ لِلْعُسْرَى ۝ وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَى ۝ كَذَبَ بِالْحُسْنَى ۝ فَسَنِيَرُهُ لِلْعُسْرَى ۝ إِلَى آخِرِ السُّورَةِ .**

قال ابن جرير وذكر أن هذه الآية نزلت في أبي بكر الصديق رضي الله عنه ، فعن عامر بن عبد الله بن الزبير قال : كان أبو بكر رضي الله عنه يعتق على الإسلام بمكة فكان يعتق عجائز ونساء إذا أسلمن ، فقال له أبوه : أي بني أراك تعتق أناسا ضعفاء فلو أنك تعتق رجالا جلداء يقومون معك ويمنعونك ويدفعون عنك . فقال : أي أبت إنما أريد - أظنه قال - ما عند الله ، قال فحدثني بعض أهل بيتي أن هذه الآية أنزلت فيه **﴿ فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى ۝ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى ۝ فَسَنِيَرُهُ لِلْعُسْرَى ۝** ، وقوله تعالى **﴿ وَمَا يُغْنِي عَنْهُ مَالُهُ إِذَا تَرَدَّى ۝** قال مجاهد : أي إذا مات . وقال زيد بن أسلم : إذا تردى في النار .

﴿ إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَى ۝ وَإِنَّ لَنَا لَلْآخِرَةَ وَالْأُولَى ۝ فَأَنذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّى ۝ لَا يَسْلَمُهَا إِلَّا الْأَنْثَى ۝ **﴿** **الَّذِي كَذَّبَ وَتَوَلَّى ۝ وَسَيُجَنَّبُهَا الْأَتْقَى ۝** **﴿** **الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ يَتَزَكَّى ۝ وَمَا لِأَحَدٍ عِنْدَهُ مِنْ نِعْمَةٍ تُجْزَى ۝ إِلَّا إِيَّاهُ وَبِهِ رِيبٌ ۝** **﴿** **الَّذِي يَتُوبُ ۝**

قال قتادة **﴿** **إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَى ۝** أي نبين الحلال والحرام ، وقيل : من سلك طريق الهدى وصل إلى الله وجعله كقوله تعالى : **﴿ وَتَلَى اللَّهُ قَبْضَ السَّيْلِ ۝** وقوله تعالى : **﴿ وَإِنَّ لَنَا لَلْآخِرَةَ وَالْأُولَى ۝** أي الجميع ملكنا وأنا المتصرف فيهما ، وقوله تعالى : **﴿ فَأَنذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّى ۝** قال مجاهد : أي توهج . وعن النعمان بن بشير خطب قال : سمعت رسول الله ﷺ يخطب يقول : « **إِنَّ أَهْلَ النَّارِ عَذَابًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ رَجُلٌ تَوَضَّعَ فِي أَحْمَصِ قَدَمَيْهِ جُمُرَتَانِ يَغْلِي مِنْهُمَا دِمَاعُهُ** » ^(١) . وقوله تعالى : **﴿ لَا يَسْلَمُهَا إِلَّا الْأَنْثَى ۝** أي لا يدخلها دخولا يحيط به من جميع جوانبه إلا الأنثى ، ثم فسره فقال : **﴿** **الَّذِي كَذَّبَ ۝** أي بقلبه **﴿** **وَتَوَلَّى ۝** أي عن العمل بجوارحه وأركانه .

وعن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « **لَا يَدْخُلُ النَّارَ إِلَّا شَقِيٌّ** » . قيل : ومن الشقي قال : « **الَّذِي لَا يَعْمَلُ بِطَاعَةٍ وَلَا يَتَزَكَّى لِلَّهِ مَغْصِيَةً** » ^(٢) .

وعن أبي هريرة أيضا قال : قال رسول الله ﷺ : « **كُلُّ أُمَّتِي تَدْخُلُ الْجَنَّةَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِلَّا مَنْ أُنِيَ** » . قالوا : ومن يأني يا رسول الله ؟ قال : « **مَنْ أَطَاعَنِي دَخَلَ الْجَنَّةَ ، وَمَنْ عَصَانِي فَقَدْ أُنِيَ** » ^(٣) .

وقوله تعالى : **﴿ وَسَيُجَنَّبُهَا الْأَتْقَى ۝** أي وسيزحزح عن النار التقي النقي الأتقي ، ثم فسره بقوله : **﴿** **الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ يَتَزَكَّى ۝** أي يصرف ماله في طاعة ربه ليزكي نفسه وماله وما وهبه الله من دين ودنيا **﴿** **وَمَا لِأَحَدٍ عِنْدَهُ مِنْ نِعْمَةٍ تُجْزَى ۝** أي ليس بذله ماله في مكافأة من أسدى إليه معروفا فهو يعطي في مقابلة ذلك وإنما دفعه ذلك **﴿** **إِيَّاهُ وَبِهِ رِيبٌ ۝** أي طمعا في أن يحصل له رؤيته في الدار الآخرة في روضات الجنات قال الله تعالى : **﴿** **وَلَسَوْفَ يَرْضَى ۝** أي ولسوف يرضى من اتصف بهذه الصفات ،

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٢٧٢/٤) .

(٢) أخرجه ابن ماجه في السنن (٤٢٩٨) وأحمد في مسنده (٤٣٩/٢) .

(٣) أخرجه أحمد في مسنده (٣٦١/٢) .

وقد ذكر غير واحد من المفسرين أن هذه الآيات نزلت في أبي بكر الصديق رضي الله عنه ، حتى أن بعضهم حكى الإجماع من المفسرين على ذلك ، ولا شك أنه داخل فيها وأولى الأمة بعمومها ، فإن لفظها لفظ العموم ، وهو قوله تعالى : ﴿ وَسُجِّنَتْهَا آلَانَقَى ﴾ الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ يَتَزَكَّى ﴿ وَمَا لِأَحَدٍ عِنْدُكَ مِنْ نِعْمَةٍ تُجْزَى ﴾ ولكنه مقدم الأمة وسابقتهم في جميع هذه الأوصاف وسائر الأوصاف الحميدة ، وكان صديقاً تقيّاً كريماً بذالاً لأمواله في طاعة مولاه ونصرة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فكم من دراهم ودنانير بذلها ابتغاء وجه ربه الكريم ، ولم يكن لأحد من الناس عنده منة يحتاج إلى أن يكافئه بها ، ولكن كان فضله وإحسانه على السادات والرؤساء من سائر القبائل . ولهذا قال له عروة بن مسعود وهو سيد ثقيف يوم صلح الحديبية : أما والله لولا يدك لك عندي لم أجرك بها لأجبتك ، وكان الصديق قد أغلظ له في المقابلة . فإذا كان هذا حاله مع سادات العرب ورؤساء القبائل فكيف بمن عداهم ، ولهذا قال تعالى : ﴿ وَمَا لِأَحَدٍ عِنْدُكَ مِنْ نِعْمَةٍ تُجْزَى ﴾ إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الْأَعْلَى ﴿ وَلَسَوْفَ يَرْضَى ﴾ . وفي الصحيحين أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « مَنْ أَنْفَقَ زَوْجَيْنِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ دَعَتْهُ خَزَنَةُ الْجَنَّةِ يَا عَبْدَ اللَّهِ هَذَا خَيْرٌ » ، فقال أبو بكر : يا رسول الله ما على من يدعى منها ضرورة فهل يدعى منها كلها أحد ؟ قال : « نَعَمْ وَأَرْجُو أَنْ تُكُونَ مِنْهُمْ » ^(١) .

(١) أخرجه البخاري في بدء الخلق (٣٢١٦) ومسلم في الزكاة (٨٥) .

سورة الضحى

عبد الله بن أبي بزة المقرئ قال : قرأت على عكرمة بن سليمان وأخبرني أنه قرأ على إسماعيل بن قسطنطين وشبل بن عباد فلما بلغت والضحى قالوا لي : كبر حتى تختتم مع خاتمة كل سورة ، فإنا قرأنا على ابن كثير فأمرنا بذلك ، وأخبرنا أنه قرأ على مجاهد فأمره بذلك ، وأخبره مجاهد أنه قرأ على ابن عباس فأمره بذلك ، وأخبره ابن عباس أنه قرأ على أبي بن كعب فأمره بذلك ، وأخبره أبي أنه قرأ على رسول الله ﷺ فأمره بذلك . فهذه سنة تفرد بها أبو الحسن أحمد بن محمد بن عبد الله البزي من ولد القاسم بن أبي بزة وكان إماماً في القراءات . فأما في الحديث فقد ضعفه أبو حاتم الرازي وقال : لا أحدث عنه . وكذلك أبو جعفر العقيلي قال : هو منكر الحديث لكن حكى الشيخ شهاب الدين أبو شامة في شرح الشاطبية عن الشافعي أن سمع رجلاً يكبر هذا التكبير في الصلاة فقال : أحسنت وأصبت السنة وهذا يقتضي صحة هذا الحديث . ثم اختلف القراء في موضع هذا التكبير وكيفيته فقال بعضهم : يكبر من آخر ﴿ وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَى ﴾ ، وقال آخرون : من آخر ﴿ وَالضُّحَى ﴾ ، وكيفية التكبير عند بعضهم أن يقول : الله أكبر ويقتصر ، ومنهم من يقول : الله أكبر لا إله إلا الله والله أكبر . وذكر القراء في مناسبة التكبير من أول سورة الضحى أنه لما تأخر الوحي عن رسول الله ﷺ وفتر تلك المدة ثم جاء الملك فأوحى إليه ﴿ وَالضُّحَى ﴾ ١ وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَى ٢ السورة بتمامها كبر فرحاً وسروراً .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ وَالضُّحَى ١ وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَى ٢ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى ٣ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَى ٤ وَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى ٥ أَلَمْ يَجْعَلْكَ يَتِيمًا فَتَارَى ٦ وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَى ٧ وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَى ٨ فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَهْزَأْ ٩ وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ ١٠ وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ١١ ﴾ .

عن الأسود بن قيس قال : سمعت جندباً يقول : اشتكى النبي ﷺ فلم يقم ليلة أو ليلتين ، فأتت امرأة فقالت : يا محمد ما أرى شيطانك إلا قد تركك . فانزل الله ﷻ ﴿ وَالضُّحَى ١ وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَى ٢ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى ٣ ﴾ ١ وعن الأسود بن قيس أنه سمع جندباً يقول : رمي رسول الله ﷺ بحجر في أصبعه فقال : « هَلْ أَنْتَ إِلَّا أَضْبَعُ دُؤَيْبٍ ، وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ مَا لَقِيت » ٢ .

قال : فمكث ليلتين أو ثلاثاً لا يقوم . فقالت له امرأة : ما أرى شيطانك إلا قد تركك . فنزلت ﴿ وَالضُّحَى ١ وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَى ٢ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى ٣ ﴾ والسياق لأنني سعيد قيل إن هذه المرأة هي أم جميل امرأة أبي لهب ، وذكر أن أصبعه ﷺ دميت ، وقوله هذا الكلام الذي اتفق أنه موزون ثابت في الصحيحين ولكن الغريب ههنا جعله سبباً لتركه القيام ونزول هذا السورة .

وقد ذكر بعض السلف منهم ابن إسحاق أن هذه السورة هي التي أوحاها جبريل إلى رسول الله ﷺ حين تبدى له في صورته التي خلقه الله عليها ودنا إليه وتدلى منهبطاً عليه وهو بالأبطح ﴿ فَأَوْحَى ﴾

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٣١٢/٤) .

(٢) أخرجه البخاري في الجهاد (٢٨٠٢) ومسلم في الجهاد (١١٢) والترمذي في السنن (٣٣٤٥) .

إِلَىٰ عَبْدِي مَا أُوتِيَ ﴿١﴾ قَالَ : قَالَ لَهُ هَذِهِ السُّورَةُ ﴿٢﴾ وَالضُّحَىٰ ﴿٣﴾ وَاللَّيْلُ إِذَا سَجَىٰ ﴿٤﴾ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ : لَمَّا نَزَلَ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ الْقُرْآنُ أَبْطَأَ عَنْهُ جَبْرِيلُ أَيَّامًا فَتَغَيَّرَ بِذَلِكَ . فَقَالَ الْمُشْرِكُونَ : وَدَعَهُ رَبُّهُ وَقَلَاهُ فَأَنْزَلَ اللَّهُ ﷻ ﴿٥﴾ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ﴿٦﴾ وَهَذَا قِسْمٌ مِنْهُ تَعَالَى بِالضُّحَىٰ وَمَا جَعَلَ فِيهِ مِنَ الضِّيَاءِ ﴿٧﴾ وَاللَّيْلُ إِذَا سَجَىٰ ﴿٨﴾ أَيُّ سَكَنٍ فَأَظْلَمَ وَادْلَهَمَ ، وَذَلِكَ دَلِيلٌ ظَاهِرٌ عَلَى قُدْرَةِ خَالِقِ هَذَا وَهَذَا ، وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿٩﴾ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ ﴿١٠﴾ أَيُّ مَا تَرَكَكَ ﴿١١﴾ وَمَا قَلَىٰ ﴿١٢﴾ أَيُّ وَمَا أَبْغَضَكَ ﴿١٣﴾ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَىٰ ﴿١٤﴾ أَيُّ وَلِلدَّارِ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لَّكَ مِنْ هَذِهِ الدَّارِ ، وَلِهَذَا كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أَزْهَدَ النَّاسِ فِي الدُّنْيَا وَأَعْظَمَهُمْ لَهَا اطِّمَاحًا كَمَا هُوَ مَعْلُومٌ بِالضَّرُورَةِ مِنْ سِيرَتِهِ ، وَلَمَّا خَيَّرَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ فِي آخِرِ عَمَرِهِ بَيْنَ الْخُلْدِ فِي الدُّنْيَا إِلَى آخِرِهَا ثُمَّ الْجَنَّةِ ، وَبَيْنَ الصَّيْرُورَةِ إِلَى اللَّهِ ﷻ اخْتَارَ مَا عِنْدَ اللَّهِ عَلَى هَذِهِ الدُّنْيَا الدُّنْيَا . وَعَنْ عَبْدِ اللَّهِ ﷻ هُوَ ابْنُ مَسْعُودٍ قَالَ : اضْطَجَعَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَلَى حَصِيرٍ فَأَثَرٌ فِي جَنْبِهِ فَلَمَّا اسْتَيْقَظَ جَعَلَتْ أَمَحَ جَنْبَهُ وَقُلْتُ : يَا رَسُولَ اللَّهِ أَلَا أَذْنَتُنَا حَتَّى نَبْسُطَ لَكَ عَلَى الْحَصِيرِ شَيْئًا ؟ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷻ : « مَا لِي وَلِلدُّنْيَا إِنَّمَا مَتَلَيٌّ وَمَثَلُ الدُّنْيَا كَرَائِبٍ ظُلٌّ تَحْتَ شَجَرَةٍ ثُمَّ رَاحَ وَتَرَكَهَا ^(١) .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿١٥﴾ وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرَىٰ ﴿١٦﴾ أَيُّ فِي الدَّارِ الْآخِرَةِ يُعْطِيهِ حَتَّى يَرْضِيهِ فِي أُمَّتِهِ وَفِيمَا أَعَدَّهُ لَهُ مِنَ الْكِرَامَةِ ، وَمَنْ جَمَلَتَهُ نَهْرُ الْكُوثرِ الَّذِي حَافَاهُ قَبَابُ اللَّوْثِ الْمَجُوفِ ، وَطِينُهُ مَسْكٌ أَذْفَرُ ، وَعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَبَّاسٍ عَنْ أَبِيهِ قَالَ : عَرَضَ وَعَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ مَا هُوَ مَفْتُوحٌ عَلَى أُمَّتِهِ مِنْ بَعْدِهِ كَنْزًا كَنْزًا فَفَسَّرَ بِذَلِكَ فَأَنْزَلَ اللَّهُ ﷻ ﴿١٧﴾ وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرَىٰ ﴿١٨﴾ فَأَعْطَاهُ فِي الْجَنَّةِ أَلْفَ أَلْفِ قَصْرِ فِي كُلِّ قَصْرٍ مَا يَنْبَغِي لَهُ مِنَ الْأَزْوَاجِ وَالْخُدَمِ . وَعَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ مِنْ رِضَاءِ مُحَمَّدٍ ﷺ أَنْ لَا يَدْخُلَ أَحَدٌ مِنْ أَهْلِ بَيْتِهِ النَّارَ . وَقَالَ الْحَسَنُ : يَعْنِي بِذَلِكَ الشَّفَاعَةَ ، وَعَنْ عَبْدِ اللَّهِ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷻ : « إِنَّا أَهْلُ بَيْتِ اخْتَارَ اللَّهُ لَنَا الْآخِرَةَ عَلَى الدُّنْيَا ، ﴿١٩﴾ وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرَىٰ ﴿٢٠﴾ » ^(٢) .

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى يُعَدِّدُ نِعَمَهُ عَلَى عَبْدِهِ وَرَسُولِهِ مُحَمَّدٍ صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ ﴿٢١﴾ أَلَمْ يَجِدَكَ يَتِيمًا فَخَازٍ ﴿٢٢﴾ وَذَلِكَ أَنَّ أَبَاهُ تَوَفَّى وَهُوَ حَمْلٌ فِي بَطْنِ أُمِّهِ ، وَقِيلَ بَعْدَ أَنْ وَلَدَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ ، ثُمَّ تَوَفَّيَتْ أُمُّهُ أَمْنَةً بَنَتْ وَهَبَ وَلَهُ مِنَ الْعُمُرِ سِتُّ سِنِينَ ، ثُمَّ كَانَ فِي كِفَالَةِ جَدِّهِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ إِلَى أَنْ تَوَفَّى وَلَهُ مِنَ الْعُمُرِ ثَمَانِ سِنِينَ فَكَفَلَهُ عَمُّهُ أَبُو طَالِبٍ ، ثُمَّ لَمْ يَزَلْ يَحُوطُهُ وَيَنْصُرُهُ وَيَرْفَعُ مِنْ قُدْرِهِ وَيُوقِرُهُ وَيَكْفِي عَنْهُ أَذَى قَوْمِهِ بَعْدَ أَنْ ابْتَعَثَهُ اللَّهُ عَلَى رَأْسِ أَرْبَعِينَ سَنَةً مِنْ عَمَرِهِ ، هَذَا وَأَبُو طَالِبٍ عَلَى دِينِ قَوْمِهِ مِنْ عِبَادَةِ الْأَوْثَانِ ، وَكُلُّ ذَلِكَ بِقَدْرِ اللَّهِ وَحَسَنِ تَدْيِيرِهِ إِلَى أَنْ تَوَفَّى أَبُو طَالِبٍ قَبْلَ الْهَجْرَةِ بِقَلِيلٍ فَأَقْدَمَ عَلَيْهِ سَفْهَاءُ قُرَيْشٍ وَجَهَالُهُمْ ، فَاخْتَارَ اللَّهُ لَهُ الْهَجْرَةَ مِنْ بَيْنِ أَظْهَرِهِمْ إِلَى بِلَدِ الْأَنْصَارِ مِنَ الْأَوْسِ وَالْخَزَرِجِ ، كَمَا أَجْرَى اللَّهُ سُنَّتَهُ عَلَى الْوَجْهِ الْأَتَمِّ الْأَكْمَلِ فَلَمَّا وَصَلَ إِلَيْهِمْ آوَوْهُ وَنَصَرُوهُ وَحَاطُوهُ وَقَاتَلُوا بَيْنَ يَدَيْهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ أَجْمَعِينَ ، وَكُلُّ هَذَا مِنْ حِفْظِ اللَّهِ لَهُ وَكَلَاءَتِهِ وَعِنَايَتِهِ بِهِ ، وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿٢٣﴾ وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَىٰ ﴿٢٤﴾ وَمِنْهُمْ مَنْ قَالَ إِنَّ الْمُرَادَ بِهَذَا أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ ضَلَّ فِي شِعَابِ مَكَّةَ وَهُوَ صَغِيرٌ ثُمَّ رَجَعَ ، وَقِيلَ إِنَّهُ ضَلَّ وَهُوَ مَعَ عَمِّهِ فِي طَرِيقِ الشَّامِ وَكَانَ رَاكِبًا نَاقَةً فِي اللَّيْلِ فَنَجَّاهُ

(١) أَخْرَجَهُ أَحْمَدُ فِي مُسْنَدِهِ (٣٩١/١) .

(٢) أَخْرَجَهُ الطَّبْرَانِيُّ فِي الْكَبِيرِ (١٠٤/١٠) وَابْنُ أَبِي شَيْبَةَ (٢٤٨/١٤) .

إبليس فعدل بها عن الطريق ، فجاء جبريل فنفع إبليس نفخة ذهب منها إلى الحبشة ثم عدل بالراحلة إلى الطريق .

وقوله تعالى : ﴿ وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَى ﴾ أي كنت فقيرًا ذا عيال فأغناك الله عمن سواه فجمع له بين مقامي الفقير الصابر والغني الشاكر صلوات الله وسلامه عليه . وقال قتادة في قوله : ﴿ أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَكَارَى ﴾ ① وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَى ② وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَى ﴾ قال : كانت هذه منازل رسول الله ﷺ قبل أن يعثه الله ﷻ . وعن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « لَيْسَ الْغِنَى عَنْ كَثْرَةِ الْعَرَضِ وَلَكِنَّ الْغِنَى عَنْ النَّفْسِ » ③ . وعن عبد الله بن عمرو قال : قال رسول الله ﷺ : « قَدْ أَفْلَحَ مَنْ أَسْلَمَ وَرَزَقَ كَفَافًا وَفَتَعَهُ اللَّهُ بِمَا آتَاهُ » ④ . ثم قال تعالى : ﴿ فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ ﴾ أي كما كنت يتيماً فأواك الله فلا تقهر اليتيم ، أي لا تذله وتنهره وتهنه ولكن أحسن إليه وتلطف به ، قال قتادة : كن لليتيم كالأب الرحيم ﴿ وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ ﴾ أي وكما كنت ضالاً فهداك الله فلا تنهر السائل في العلم المسترشد . قال ابن إسحاق : فلا تكن جباراً ولا متكبراً ولا فحاشاً ولا فظاً على الضعفاء من عباد الله وقال قتادة : يعني رد المسكين برحمة ولين ﴿ وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ﴾ أي وكما كنت عائلاً فقيراً فأغناك الله فحدث بنعمة الله عليك ، وعن أبي نضرة ، قال : كان المسلمون يرون أن من شكر النعم أن يحدث بها .

عن أنس أن المهاجرين قالوا : يا رسول الله ذهب الأنصار بالأجر كله قال : « لَا مَا دَعَوْتُمُ اللَّهَ لَهُمْ وَأَتَيْتُمُ عَلَيْهِمْ » ⑤ . وعن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال : « لَا يَشْكُرُ اللَّهَ مَنْ لَا يَشْكُرُ النَّاسَ » ⑥ . وعن جابر بن عبد الله قال : قال رسول الله ﷺ : « مَنْ أُعْطِيَ عَطَاءً فَوَجَدَ فَلْيُجْزِ بِهِ ، فَإِنْ لَمْ يَجِدْ فَلْيُتْنِ بِهِ ، فَمَنْ أُنْتِيَ بِهِ فَقَدْ شَكَرَهُ ، وَمَنْ كَتَمَهُ فَقَدْ كَفَرَهُ » ⑦ . وقال مجاهد : يعني النبوة التي أعطاك ربك . وفي رواية عنه القرآن ، وعن الحسن بن علي ﴿ وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ﴾ قال : ما عملت من خير فحدث إخوانك ، وقال محمد بن إسحاق : ما جاءك من الله من نعمة وكرامة من النبوة فحدث بها واذكرها وادع إليها . قال : فجعل رسول الله ﷺ يذكر ما أنعم الله به عليه من النبوة سرّاً إلى من يطمنن إليه من أهله وافترضت عليه الصلاة فصلّى .

(١) أخرجه مسلم في الزكاة (١٢٠) والترمذي في السنن (٢٣٧٣) وأحمد في مسنده (٢٦١/٢) .

(٢) أخرجه مسلم في الزكاة (١٢٥) وأحمد في مسنده (١٧٣/٢) .

(٣) أخرجه أبو داود في السنن (٤٨١٢) والترمذي في السنن (٢٤٨٧) والحاكم في المستدرک (٦٣/٣) .

(٤) أخرجه أبو داود في السنن (٤٨١١) وأحمد في مسنده (٢٠٣/٢) والبيهقي في السنن (١٨٢/٦) .

(٥) أخرجه الترمذي في السنن (٢٠٣٤) والبيهقي في السنن (١٨٢/٦) والألباني في الصحيحة (٦١٧) .

سورة الشرح

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ﴾ ❶ وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ ❷ أَلَيْسَ آنَفَضَ ظَهْرَكَ ❸ وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ ❹ فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ❺ إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ❻ فَإِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ ❼ وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَارْغَبْ ❽ .

يقول تعالى : ﴿ أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ﴾ يعني أنا شرحنا لك صدرك أي نورناه وجعلناه فسيحًا رحيبًا واسعًا ، وكما شرح الله صدره ، كذلك جعل شرعه فسيحًا واسعًا سمحًا سهلًا لا حرج فيه ولا إصر ولا ضيق . وقيل المراد بقوله ﴿ أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ﴾ شرح صدره ليلة الإسراء كما تقدم من رواية مالك ابن صعصعة وقد أورده الترمذي ههنا وهذا وإن كان واقعا ليلة الإسراء كما رواه مالك بن صعصعة ولكن لا منافاة فإن من جملة شرح صدره ليلة الإسراء وما نشأ عنه من الشرح المعنوي أيضًا فالله أعلم . وعن أبي بن كعب أن أبا هريرة كان جريئًا على أن يسأل رسول الله ﷺ عن أشياء لا يسأله عنها غيره . فقال : يا رسول الله ما أول ما رأيت من أمر النبوة ؟ فاستوى رسول الله ﷺ جالسًا وقال : « لَقَدْ سَأَلْتُ يَا أَبَا هُرَيْرَةَ ، إِنِّي فِي الصُّخْرَاءِ ابْنُ عَشْرٍ سِنِينَ وَأَشْهُرَ ، وَإِذَا بِكَلَامٍ فَوْقَ رَأْسِي وَإِذَا رَجُلٌ يَقُولُ لِرَجُلٍ : أَهْوْ هُوَ ؟ فَاسْتَقْبَلَنِي بِوُجْهِهِ لَمْ أَرَهَا قَطُّ ، وَأَزْوَاجُ لَمْ أَجِدْهَا مِنْ خَلْقِي قَطُّ ، وَثِيَابٌ لَمْ أَرَهَا عَلَى أَحَدٍ قَطُّ ، فَأَقْبَلَا إِلَيَّ تَمِيشِيَانِ حَتَّى أَخَذَ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا بِعَضْدِي لَا أَجِدُ لِأَحَدِهِمَا مَسًّا فَقَالَ أَحَدُهُمَا لِصَاحِبِهِ : أَضْجِعْهُ ، فَأَضْجَعَانِي بِلَا قَضِرٍ وَلَا هَضِرٍ ، فَقَالَ أَحَدُهُمَا لِصَاحِبِهِ : أَفْلِقْ صَدْرَهُ ، فَهَوَى أَحَدُهُمَا إِلَى صَدْرِي فَقَلَقَهُ فِيمَا أَرَى بِلَا دَمٍ وَلَا وَجَعٍ . فَقَالَ لَهُ : أَخْرِجِ الْغِلَّ وَالْحَسَدَ . فَأَخْرَجَ شَيْئًا كَهَيْئَةِ الْعَلَقَةِ ، ثُمَّ نَبَذَهَا فَطَرَحَهَا . فَقَالَ لَهُ : أَدْخِلِ الرَّأْفَةَ وَالرَّحْمَةَ . فَإِذَا مِثْلُ الَّذِي أَخْرَجَ شَبَّهِ الْفِضَّةِ ، ثُمَّ هَرَأَ بَيْنَهُمَا رِجْلِي الْيَمْنَى ، فَقَالَ : أَعَدَّ وَأَسْلَمَ ، فَزَجَعْتُ بِهَا أَغْدُو رِقَّةً عَلَى الصَّغِيرِ ، وَرَحْمَةً لِلْكَبِيرِ » ❶ . وقوله تعالى : ﴿ وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ ﴾ بمعنى ﴿ لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ ﴾ ❷ ﴿ أَلَيْسَ آنَفَضَ ظَهْرَكَ ﴾ الإنقاض الصوت وقال غير واحد من السلف : أي أثقلت حمله ، وقوله تعالى ﴿ وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ ﴾ قال مجاهد : لا أذكر إلا ذكرت معي أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمدًا رسول الله وقال قتادة : رفع الله ذكره في الدنيا والآخرة فليس خطيب ولا متشهد ولا صاحب صلاة إلا ينادي بها أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله .

وعن ابن عباس قال : قال رسول الله ﷺ : « سَأَلْتُ رَبِّي مَسْأَلَةً وَوَدِدْتُ أَنِّي لَمْ أَسْأَلْهُ ، قُلْتُ : قَدْ كَانَ قَبْلِي أَنْبِيَاءُ مِنْهُمْ مَنْ سُحِرَتْ لَهُ الرِّيحُ وَمِنْهُمْ مَنْ يُخَيِّي الْمَوْتَى ، قَالَ : يَا مُحَمَّدُ أَلَمْ أَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَيْتُكَ ؟ قُلْتُ : بَلَى يَا رَبِّ . قَالَ : أَلَمْ أَجِدْكَ ضَالًّا فَهَدَيْتُكَ ؟ قُلْتُ : بَلَى يَا رَبِّ . قَالَ : أَلَمْ أَجِدْكَ عَائِلًا فَاعْتَمَيْتُكَ ؟ قُلْتُ : بَلَى يَا رَبِّ . قَالَ : أَلَمْ أَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ؟ أَلَمْ أَرْفَعْ لَكَ ذِكْرَكَ ؟ قُلْتُ : بَلَى يَا رَبِّ » ❶ . وعن ابن عباس ومجاهد أن المراد بذلك الأذان يعني ذكره فيه وأورد من شعر حسان بن ثابت :

(١) أخرجه أحمد في مسنده (١٣٩/٥) .

(٢) أخرجه الطبراني في الكبير (٤٥٥/١١) .

أَعْرِ عَلَيْهِ لِلنُّبُوءَةِ خَاتَمٌ مِّنَ اللَّهِ مِنْ نُورٍ يَلُوحُ وَيُشْهَدُ
وَضَمُّ إِلَهِ اسْمِ النَّبِيِّ إِلَى اسْمِهِ إِذَا قَالَ فِي الْخَمْسِ الْمُؤَذِّنُ أَشْهَدُ
وَسَقُّ لَهُ مِنْ اسْمِهِ لِيُجِلَّهُ قَدُّو الْعَرْشِ مَحْمُودٌ وَهَذَا مُحَمَّدُ

وقال آخرون : رفع الله ذكره في الأولين والآخرين ، ونوه به حين أخذ الميثاق على جميع النبيين أن يؤمنوا به وأن يأمرُوا أممهم بالإيمان به ، ثم شهر ذكره في أمته فلا يذكر الله إلا ذكر معه ، وقوله تعالى : ﴿ فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ۝ إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ۝ ﴾ أخبر تعالى أن مع العسر يوجد اليسر ثم أكد هذا الخبر . وعن أنس بن مالك يقول : كان النبي ﷺ جالسًا وحياله جحر فقال : « لَوْ جَاءَ الْعُسْرُ فَدَخَلَ هَذَا الْجَحْرُ لَجَاءَ الْيُسْرُ حَتَّى يَدْخُلَ عَلَيْهِ فَيُخْرِجَهُ » ^(١) . فأنزل الله ﷻ ﴿ فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ۝ إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ۝ ﴾ وعن الحسن قال : خرج النبي ﷺ يومًا مسرورًا فرحًا وهو يضحك وهو يقول : « لَنْ يَغْلِبَ عُسْرٌ يُسْرَيْنِ ، لَنْ يَغْلِبَ عُسْرٌ يُسْرَيْنِ ﴾ ﴿ فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ۝ إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ۝ ﴾ ^(٢) . ومعنى هذا أن العسر معرف في الحالين فهو مفرد واليسر منكر فتعدد ؛ ولهذا قال : « لَنْ يَغْلِبَ عُسْرٌ يُسْرَيْنِ » . يعني قوله : ﴿ فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ۝ إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ۝ ﴾ فالعسر الأول عين الثاني واليسر تعدد . وما يروى عن الشافعي أنه قال :

صَبْرًا جَمِيلًا مَا أَقْرَبَ الْفَرْجَا مَن رَاقَبَ اللَّهَ فِي الْأُمُورِ نَجَا
مَن صَدَّقَ اللَّهَ لَمْ يَنْلُهُ أَدَى وَمَن رَجَاهُ يَكُونُ حَيْثُ رَجَا

وقال آخر :

وَلَوْ بَ نَازِلَةٍ يَضِيقُ بِهَا الْفَتَى دَرَعًا وَعِنْدَ اللَّهِ مِنْهَا الْخَرَجُ
كَمَلْتُ فَلَمَّا اسْتَحْكَمْتُ خَلْقَانَهَا فَرِحْتُ وَكَانَ يَظُنُّهَا لَا تُفْرَجُ

وقوله تعالى : ﴿ فَإِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ ۝ وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَارْغَبْ ۝ ﴾ أي إذا فرغت من أمور الدنيا وأشغالها وقطعت علاقتها فانصب إلى العبادة وقم إليها نشيطًا فارغ البال وأخلص لربك النية والرغبة ، ومن هذا القبيل قوله ﷺ في الحديث المتفق على صحته « لَا صَلَاةَ بِخَضِرَةِ طَعَامٍ وَلَا وَهُوَ يُدَافِعُهُ الْأَخْبَثَانِ » ^(٣) . وقوله ﷺ : « إِذَا أُقِيمَتِ الصَّلَاةُ وَخَضِرَ الْعَشَاءُ فَأَبْدُوْا بِالْعَشَاءِ » ^(٤) . قال مجاهد في هذه الآية : إذا فرغت من أمر الدنيا فقممت إلى الصلاة فانصب لربك ، وفي رواية عنه : إذا قمت إلى الصلاة فانصب في حاجتك . وعن ابن مسعود : إذا فرغت من الفرائض فانصب في قيام الليل . وقال زيد بن أسلم والضحاك : ﴿ فَإِذَا فَرَغْتَ ۝ ﴾ أي من الجهاد ﴿ فَانصَبْ ۝ ﴾ أي في العبادة ﴿ وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَارْغَبْ ۝ ﴾ قال الثوري : اجعل نيتك ورغبتك إلى الله ﷻ .

(١) أخرجه الحاكم في المستدرک (٢٥٥/٢) .

(٢) أخرجه مسلم في المساجد (٦٧) والبيهقي في السنن (٧٣/٣) .

(٣) أخرجه الطبراني في الصغير (٨٤/٢) .

(٤) أخرجه الحاكم في المستدرک (٢٥٥/٢) .

سورة التين

عن البراء بن عازب كان النبي ﷺ يقرأ في سفره في إحدى الركعتين بالتين والزيتون فما سمعت أحدا أحسن صوتا أو قراءة منه .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ وَالزَّيْتُونِ ۝ وَطُورِ سِينِينَ ۝ وَهَذَا الْبَلَدِ الْأَمِينِ ۝ لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ۝ ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ ۝ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ۝ فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعْدَ بِالذِّينِ ۝ أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَحْكَمَ الْحَاكِمِينَ ۝ ﴾ .

اختلف المفسرين ههنا على أقوال كثيرة فقول : المراد بالتين مسجد دمشق . وقيل : وهي نفسها . وقيل : الجبل الذي عندها . وقال القرطبي : هو مسجد أصحاب الكهف . وعن ابن عباس : أنه مسجد نوح الذي على الجودي ، وقال مجاهد : هو تينكم هذا ﴿ وَالزَّيْتُونِ ﴾ قال كعب الأحبار وقادة : هو مسجد بيت المقدس . وقال مجاهد وعكرمة : هو هذا الزيتون الذي تعصرون ﴿ وَطُورِ سِينِينَ ﴾ وقيل : هو الجبل الذي كلم الله عليه موسى ﷺ ﴿ وَهَذَا الْبَلَدِ الْأَمِينِ ﴾ يعني مكة قاله ابن عباس ومجاهد وغيرهما ولا خلاف في ذلك ، وقال بعض الأئمة : هذه محال ثلاثة بعث الله في كل واحد منها نبيا مرسلًا من أولي العزم أصحاب الشرائع الكبار فالأول محله التين والزيتون وهي بيت المقدس التي بعث الله فيها عيسى ابن مريم ﷺ والثاني طور سينين وهو طور سيناء الذي كلم الله عليه موسى بن عمران والثالث مكة وهو البلد الأمين الذي من دخله كان آمنا ، وهو الذي أرسل فيه محمدا ﷺ . قالوا وفي آخر التوراة ذكر هذه الأماكن الثلاثة : جاء الله من طور سيناء - يعني الذي كلم الله عليه موسى بن عمران - وأشرق من ساعير - يعني جبل بيت المقدس الذي بعث الله منه عيسى - واستعلن من جبال فاران - يعني جبال مكة التي أرسل الله منها محمدا ﷺ فذكرهم مخبرا عنهم على الترتيب الوجودي بحسب ترتيبهم في الزمان ، ولهذا أقسم بالأشرف ثم الأشرف منه ثم بالأشرف منهما .

وقوله تعالى : ﴿ لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ﴾ هذا هو المقسم عليه وهو أنه تعالى خلق الإنسان في أحسن صورة وشكل منتصب القائمة سوي الأعضاء حسنها ﴿ ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ ﴾ أي إلى النار ، قاله مجاهد وأبو العالية وغيرهما ثم بعد هذا الحسن والنضارة مصيرهم إلى النار إن لم يطع الله ويتبع الرسل . ولهذا قال : ﴿ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ﴾ وقال بعضهم ﴿ ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ ﴾ أي إلى أرذل العمر ، وروي هذا عن عكرمة قال : من جمع القرآن لم يرد إلى أرذل العمر واختار ذلك ابن جرير ، ولو كان هذا هو المراد لما حسن استثناء المؤمنين من ذلك ، لأن الهرم قد يصيب بعضهم ، وإنما المراد ما ذكرناه . وقوله تعالى : ﴿ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ﴾ أي غير مقطوع كما تقدم ، ثم قال : ﴿ فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعْدَ بِالذِّينِ ﴾ أي يا ابن آدم ﴿ بَعْدَ بِالذِّينِ ﴾ أي بالجزاء في المعاد ولقد علمت البداية وعرفت أن من قدر على البداية فهو قادر على الرجعة بطريق الأولى ، فأني شيء يحملك على التكذيب بالمعاد وقد عرفت هذا . عن منصور قال : قلت لمجاهد ﴿ فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعْدَ بِالذِّينِ ﴾ عني به النبي ﷺ قال : معاذ الله ، عني به الإنسان . وقوله تعالى : ﴿ أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَحْكَمَ الْحَاكِمِينَ ﴾ أي أما هو أحكم الحاكمين الذي لا يجرور ولا يظلم أحدا ومن عدله أن يقيم القيامة فينتصف للمظلوم في الدنيا من ظلمه .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ أَقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ۝ خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ ۝ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ ۝ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ۝ عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَكُنْ يَعْلَمُ ۝ ﴾ .
 عن عائشة قالت : أول ما بدئ به رسول الله ﷺ من الوحي الرؤيا الصادقة في النوم ، فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح ، ثم حُبَّ إليه الخلاء فكان يأتي حراء فيتحنث فيه - وهو التعب - الليالي ذوات العدد ويتزود لذلك ، ثم يرجع إلى خديجة فيتزود لمثلها ، حتى فجأه الوحي وهو في غار حراء ، فجاءه الملك فيه فقال : اقرأ ، قال رسول الله ﷺ : « فقلْتُ : مَا أَنَا بِقَارِيءٍ - قال - فَأَخَذَنِي فَغَطَّنِي حَتَّى بَلَغَ مِنِّي الْجُهْدُ ثُمَّ أَرْسَلَنِي فَقَالَ : اقْرَأ . فقلْتُ : مَا أَنَا بِقَارِيءٍ ، فَغَطَّنِي الثَّانِيَةَ حَتَّى بَلَغَ مِنِّي الْجُهْدُ ثُمَّ أَرْسَلَنِي فَقَالَ : اقْرَأ فقلْتُ : مَا أَنَا بِقَارِيءٍ فَغَطَّنِي الثَّالِثَةَ حَتَّى بَلَغَ مِنِّي الْجُهْدُ ثُمَّ أَرْسَلَنِي فَقَالَ : ﴿ أَقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ﴾ - حتى بلغ - ﴿ مَا لَمْ يَكُنْ يَعْلَمُ ۝ ﴾ . قال : فرجع بها ترجف بوادره حتى دخل على خديجة فقال : « زَمَلُونِي زَمَلُونِي » . فرملوه حتى ذهب عنه الروع فقال : « يَا خَدِيجَةُ مَا لِي ؟ » . وأخبرها الخبر وقال : « قَدْ خَشِيتُ عَلَى نَفْسِي » . فقالت له : كَلَّا أَبْشِرْ فَوَاللَّهِ لَا يَخْزِيكَ اللَّهُ أَبَدًا ، إِنَّكَ لَتَصِلَ الرَّحْمَ وَتَصْدُقَ الْحَدِيثَ وَتَحْمِلَ الْكُلَّ وَتَقْرِيَ الضَّيْفَ وَتَعِينَ عَلَى نَوَائِبِ الْحَقِّ ، ثم انطلقت به خديجة حتى أتت به ورقة بن نوفل بن أسد بن عبد العزى بن قصي وهو ابن عم خديجة أخي أبيها وكان امرأً قد تنصر في الجاهلية وكان يكتب الكتاب العربي وكتب بالعربية من الإنجيل ما شاء الله أن يكتب وكان شيخًا كبيرًا قد عمي . فقالت خديجة : أي ابن عم اسمع من ابن أخيك . فقال ورقة : ابن أخي ما ترى ؟ فأخبره رسول الله ﷺ بما رأى ، فقال ورقة : هذا الناموس الذي أنزل على موسى ليتني فيها جذعًا ليتني أكون حيًا حين يخرجك قومك ، فقال رسول الله ﷺ : « أَوْ مُخْرِجِي هُمْ ؟ » فقال ورقة : نعم لم يأت رجل قط بما جئت به إلا عودي وإن يدركني يومك أنصرك نصرًا مؤزرًا . ثم لم ينشب ورقة أن توفي وفتر الوحي فترة حتى حزن رسول الله ﷺ فيما بلغنا حزنا غداً منه مرارًا كي يتردى من رؤوس شواهق الجبال ، فكلما أوفى بذروة جبل لكي يلقي نفسه منه تبدى له جبريل فقال : يا محمد إنك رسول الله حقًا ، فيسكن بذلك جأشه وتقر نفسه فيرجع ، فإذا طالت عليه فترة الوحي غدا لمثل ذلك فإذا أوفى بذروة الجبل تبدى له جبريل فقال له : مثل ذلك ^(١) . فأول شيء نزل من القرآن هذه الآيات الكريمة المباركات ، وهي أول رحمة رحم الله بها العباد وأول نعمة أنعم الله بها عليهم ، وفيها التنبيه على ابتداء خلق الإنسان من علقة ، وأن من كرمه تعالى أن علم الإنسان ما لم يعلم فشرفه وكرمه بالعلم وهو القدر الذي امتاز به أبو البرية آدم على الملائكة ، والعلم تارة يكون في الأذهان . وتارة يكون في اللسان وتارة يكون في الكتابة بالبتان ذهني ولفظي ورسمي . والرسم يستلزمهما من غير عكس . فلهذا قال : ﴿ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ ۝ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ۝ عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَكُنْ يَعْلَمُ ۝ ﴾ وفي الأثر قيدوا العلم بالكتابة ، وفيه أيضًا من عمل بما علم ورثه الله علم ما لم يكن يعلم .

﴿ كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنَّاظٍ ۚ (١) إِنَّ رَدَاهُ اسْتَنْتَجَ (٢) إِنَّ لَكَ رَبَّكَ الرَّحْمَنَ (٣) أَرَهَيْتَ الَّذِي يَنْهَى (٤) عَبْدًا إِذَا صَلَّى (٥) أَرَهَيْتَ (٦) إِنْ كَانَ عَلَى الْمَذْهَبِ (٧) أَوْ أَمَرَ بِالْقَوَىٰ (٨) أَرَهَيْتَ إِنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ (٩) أَرَىٰ يَوْمَئِذٍ أَنْ يَبْلُغَ الْإِنْسَانَ بِأَنَّهُ يَرَىٰ (١٠) كَلَّا لَئِنْ لَّمْ يَنْتَهِ لَنَسْفَعًا بِالنَّاصِيَةِ (١١) نَاصِيَةٍ كَذِبَةٍ خَائِلَةٍ (١٢) فَلْيَنْصَبْ نَاصِيَتَهُ (١٣) سَنَنْتُ الزَّيْبَانَةَ (١٤) كَلَّا لَا تُلْمِظُهُمْ فَتُنْكَبَ (١٥) وَأَقْرَبَ ۚ ﴾ .

يخبر تعالى عن الإنسان أنه ذو فرح وأشر وبطر وطغيان إذا رأى نفسه قد استغنى وكثر ماله ، ثم تهدده وتوعده ووعظه فقال ﴿ إِنَّ لَكَ رَبَّكَ الرَّحْمَنَ ﴾ أي إلى الله المصير والمرجع وسبحاسبك على مالك من أين جمعته وفيه صرفته . عن عون قال : قال عبد الله : منهومان لا يشبعان صاحب العلم وصاحب الدنيا ولا يستويان فأما صاحب العلم فيزداد رضى الرحمن وأما صاحب الدنيا فيتمادى في الطغيان ، قال ثم قرأ عبد الله ﴿ إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنَّاظٍ ۚ (١) إِنَّ رَدَاهُ اسْتَنْتَجَ ﴾ وقال للآخر : ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ ﴾ وقد روي هذا مرفوعاً إلى رسول الله ﷺ « مَثْنُومَانِ لَا يَشْبَعَانِ طَالِبٌ عِلْمٍ وَطَالِبٌ دُنْيَا » (١) ثم قال تعالى : ﴿ أَرَهَيْتَ الَّذِي يَنْهَى (٤) عَبْدًا إِذَا صَلَّى ﴾ نزلت في أبي جهل لعنه الله ، توعده النبي ﷺ على الصلاة عند البيت فوعظه تعالى بالنهي هي أحسن أولاً فقال : ﴿ أَرَهَيْتَ إِنْ كَانَ عَلَى الْمَذْهَبِ ﴾ أي فما ظنك إن كان هذا الذي تنهاه على الطريق المستقيمة في فعله ﴿ أَوْ أَمَرَ بِالْقَوَىٰ ﴾ بقوله وأنت تزجره وتوعده على صلاته ولهذا قال : ﴿ أَرَى يَوْمَئِذٍ أَنْ يَبْلُغَ الْإِنْسَانَ بِأَنَّهُ يَرَى ﴾ أي أما علم هذا الناهي لهذا المهتدي أن الله يراه ، ويسمع كلامه وسيجازهه على فعله أتم الجزاء . ثم قال تعالى متوعداً ومتهدداً ﴿ كَلَّا لَئِنْ لَّمْ يَنْتَهِ لَنَسْفَعًا بِالنَّاصِيَةِ ﴾ أي لنسمنها سواذا يوم القيامة . ثم قال : ﴿ نَاصِيَةٍ كَذِبَةٍ خَائِلَةٍ ﴾ يعني ناصية أبي جهل كاذبة في مقالها خاطئة في أفعالها ﴿ فَلْيَنْصَبْ نَاصِيَتَهُ ﴾ أي قومه وعشيرته أي ليدعهم يستنصر بهم ﴿ سَنَنْتُ الزَّيْبَانَةَ ﴾ وهم ملائكة العذاب حتى يعلم من يغلب أحزبنا أو حزبه ؟ وعن ابن عباس قال : قال أبو جهل : لئن رأيت محمداً يصلي عند الكعبة لأطأن على عنقه ، فبلغ النبي ﷺ فقال : « لَئِنْ فَعَلَ لَأُحْدِثَنَّ الْمَلَأَكَةَ » (٢) . وعن أبي هريرة قال : قال أبو جهل : هل يعفر محمد وجهه بين أظهركم . قالوا : نعم ، قال : فقال : واللات والعزى لئن رأته يصلي كذلك لأطأن على رقبته ولأعفرن وجهه في التراب ؛ فأتى رسول الله ﷺ وهو يصلي ليطأ على رقبته ، قال : فما فجأهم منه إلا وهو ينكص على عقبيه ويتقي بيديه ، قال : فقيل له ما لك ؟ فقال : إن بيني وبينه خندقاً من نار وهو لا وأجنحة قال : فقال رسول الله ﷺ : « لَوْ دَنَا مِنِّي لَأَخْطَفْتُهُ الْمَلَائِكَةُ غُضُوءًا غُضُوءًا » . قال وأنزل الله لا أدري في حديث أبي هريرة أم لا ﴿ كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنَّاظٍ ﴾ إلى آخر السورة (٣) ، وقوله تعالى : ﴿ كَلَّا لَا تُلْمِظُهُ ﴾ يعني يا محمد لا تطعه فيما ينهاك عنه من المداومة على العبادة وكثرتها وصل حيث شئت ، ولا تباله فإن الله حافظك وناصرك وهو يعصمك من الناس ﴿ وَأَسْبَدَ وَأَقْرَبَ ﴾ كما ثبت في الصحيح عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال : « أَقْرَبُ مَا يَكُونُ الْعَبْدُ مِنْ رَبِّهِ وَهُوَ سَاجِدٌ فَأَكْثِرُوا الدَّعَاءَ » (٤) . وتقدم أيضاً أن رسول الله ﷺ كان يسجد في ﴿ إِذَا التَّمَاءُ انشَقَّتْ ﴾ و ﴿ أَقْرَأْ بِأَسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ﴾ .

(١) أخرجه الحاكم في المستدرک (٩٢/١) والطبراني في الكبير (٢٢٣/١٠) .

(٢) أخرجه الترمذي في السنن (٣٣٤٨) وأحمد في مسنده (٢٤٨/١) . (٣) أخرجه مسلم في صفات المنافقين (٣٨) .

(٤) أخرجه مسلم في الصلاة (٢١٥) وأبو داود في السنن (٧٨٥) وأحمد في مسنده (٢٤١/٢) .

سورة القدر

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ ۝ وَمَا أَدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ ۝ لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ ۝ نَزَّلَ الْمَلَكُ الْوَحْشَ فِيهَا يَأْذُنُ بَيْنَهُمْ مِنْ كُلِّ أُمٍّ ۝ سَلَّمَ مِنْ حَتَّى مَطْلَعِ الْفَجْرِ ۝ ﴾ .

يخبر تعالى أنه أنزل القرآن ليلة القدر ، وهي الليلة المباركة التي قال الله ﷻ : ﴿ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ تُبْرَكَةٍ ﴾ وهي ليلة القدر وهي من شهر رمضان كما قال تعالى : ﴿ شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ ﴾ قال ابن عباس وغيره : أنزل الله القرآن جملة واحدة من اللوح المحفوظ إلى بيت العزة من السماء الدنيا ثم نزل مفصلاً حسب الوقائع في ثلاث وعشرين سنة على رسول الله ﷺ ثم قال تعالى معظماً لشأن ليلة القدر : التي اختصها بإنزال القرآن العظيم فيها فقال : ﴿ وَمَا أَدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ ۝ لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ ﴾ . عن القاسم بن الفضل الحداني عن يوسف بن سعد قال : قام رجل إلى الحسن ابن علي بعدما بايع معاوية فقال : سودت وجوه المؤمنين أو يا مسود وجوه المؤمنين فقال : لا تؤنبنني رحمك الله ، فإن النبي ﷺ أرى بني أمية على منبره فسأه ذلك فنزلت ﴿ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ ۝ وَمَا أَدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ ۝ لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ ﴾ يعني نهراً في الجنة ونزلت ﴿ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ ۝ وَمَا أَدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ ۝ لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ ﴾ يملكها بعدك بنو أمية يا محمد ، قال القاسم : فعددنا إذا هي ألف شهر لا تزيد يوماً ولا تنقص .

قلت : وقول القاسم بن الفضل الحداني إنه حسب مدة بني أمية فوجدها ألف شهر لا تزيد يوماً ولا تنقص ليس بصحيح ، فإن معاوية بن أبي سفيان ؓ استقل بالملك حين سلم إليه الحسن بن علي الإمرة سنة أربعين ، واجتمعت البيعة لمعاوية وسمي ذلك عام الجماعة ، ثم استمروا فيها متتابعين بالشام وغيرها لم تخرج عنهم إلا مدة دولة عبد الله بن الزبير في الحرمين والأهواز وبعض البلاد قريباً من تسع سنين ، ولكن لم تزل يدهم عن الإمرة بالكلية بل عن بعض البلاد إلى أن استلبهم بنو العباس الخلافة في سنة اثنتين وثلاثين ومائة ، فيكون مجموع مدتهم اثنتين وتسعين سنة ، وذلك أزيد من ألف شهر فإن الألف شهر عبارة عن ثلاث وثمانين سنة وأربعة أشهر ، وكأن القاسم بن الفضل أسقط من مدتهم أيام ابن الزبير وعلى هذا فيقارب ما قاله الصحة في الحساب والله أعلم ، ومما يدل على ضعف هذا الحديث أنه سيق لزم دولة بني أمية ، ولو أريد ذلك لم يكن بهذا السياق ، فإن تفضيل ليلة القدر على أيامهم لا يدل على ذم أيامهم ، فإن ليلة القدر شريفة جداً ، والسورة الكريمة إنما جاءت لمدح ليلة القدر ، فكيف تمدح بتفضيلها على أيام بني أمية التي هي مذمومة بمقتضى هذا الحديث وهل هذا إلا كما قال القائل :

أَلَمْ تَرَ أَنَّ السَّيْفَ يَنْقُصُ قَدْرَهُ إِذَا قِيلَ إِنَّ السَّيْفَ أَمْضَى مِنَ الْعَصَا

وقال آخر :

إِذَا أَنْتَ فَضَّلْتَ امِرّاً ذَا بَرَاعَةٍ عَلَى نَاقِصٍ كَانَ الْمَدِيحُ مِنَ النَّقْصِ

ثم الذي يفهم من الآية أن الألف شهر المذكورة في الآية هي أيام بني أمية ، والسورة مكية فكيف يحال على ألف شهر هي دولة بني أمية ولا يدل عليها لفظ الآية ولا معناها والمنبر إنما صنع

بالمدينة بعد مدة من الهجرة ، فهذا كله مما يدل على ضعف الحديث ونكارتة ^(١) ، والله أعلم .
وقال سفيان الثوري : بلغني عن مجاهد ليلة القدر خير من ألف شهر قال : عملها صيامها وقيامها
خير من ألف شهر . وعن مجاهد : ليلة القدر خير من ألف شهر ليس في تلك الشهور ليلة القدر . وقال
عمرو بن قيس الملائي : عمل فيها وخير من عمل ألف شهر ، وهذا القول بأنها أفضل من عبادة ألف
شهر ليس فيها ليلة القدر . وهو اختيار ابن جرير وهو الصواب لا ما عدها وهو كقوله ﷺ : « رِبَاطُ لَيْلَةٍ
فِي سَبِيلِ اللَّهِ خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ لَيْلَةٍ فِيمَا سِوَاهُ مِنَ الْمَنَازِلِ » ^(٢) . وكما جاء في قاصد الجمعة بهيئة حسنة ،
ونية صالحة أنه يكتب له عمل سنة أجر صيامها وقيامها إلى غير ذلك من المعاني المشابهة لذلك .

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : لما حضر رمضان قال رسول الله ﷺ : « قَدْ جَاءَكُمْ شَهْرُ رَمَضَانَ شَهْرٌ
مُبَارَكٌ افْتَرَضَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ صِيَامَهُ ، تَفْتَحُ فِيهِ أَبْوَابُ الْجَنَّةِ وَتُغْلَقُ فِيهِ أَبْوَابُ الْجَحِيمِ ، وَتُغْلَقُ فِيهِ
الشَّيَاطِينُ ، فِيهِ لَيْلَةٌ خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ مَنْ حَرَّمَ خَيْرَهَا فَقَدْ حَرَّمَ » ^(٣) . ولما كانت ليلة القدر تعدل
عبادتها عبادة ألف شهر ثبت عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال : « مَنْ قَامَ لَيْلَةَ الْقَدْرِ إِيمَانًا
وَاحْتِسَابًا غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ » ^(٤) ، وقوله تعالى : ﴿ نَزَّلَ الْمَلَكُ وَالرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ مِنْ كُلِّ
أَمْرٍ ﴾ أي تنزل الملائكة في هذه الليلة لكثرة بركتها ، والملائكة يتنزلون مع تنزل البركة والرحمة كما
يتنزلون عند تلاوة القرآن ويحيطون بحلق الذكر ويضعون أجنحتهم لطالب العلم بصدق تعظيمها له
وأما الروح فقيل المراد به ههنا جبريل عليه السلام فيكون من باب عطف الخاص على العام وقيل هم ضرب
من الملائكة وقوله تعالى : ﴿ يَنْ كُلُّ أَمْرٍ ﴾ قال مجاهد : سلام هي من كل أمر . وعنه في قوله
﴿ سَلَّمَ هِيَ ﴾ قال : هي سالمة لا يستطيع الشيطان أن يعمل فيها سوءًا أو يعمل فيها أذى ، وقال قتادة
وغیره : تقضى فيها الأمور وتقدر الآجال والأرزاق . كما قال تعالى : ﴿ فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ ﴾ .
وقوله تعالى : ﴿ سَلَّمَ هِيَ حَتَّى مَطْلَعِ الْفَجْرِ ﴾ عن الشعبي في قوله تعالى : ﴿ يَنْ كُلُّ أَمْرٍ ﴾ سَلَّمَ هِيَ
حَتَّى مَطْلَعِ الْفَجْرِ قال : تسليم الملائكة ليلة القدر على أهل المساجد حتى يطلع الفجر . وقال قتادة
وابن زيد في قوله ﴿ سَلَّمَ هِيَ ﴾ يعني هي خير كلها ليس فيها شر إلى مطلع الفجر ، ويؤيد هذا المعنى
ما روي عن عبادة بن الصامت أن رسول الله ﷺ قال : « لَيْلَةُ الْقَدْرِ فِي الْعَشْرِ الْبَوَاقِي ، مَنْ قَامَهُنَّ
اِتِّفَاءً حِسْبَتِهِنَّ فَإِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ وَمَا تَأَخَّرَ وَهِيَ لَيْلَةٌ وَتُرَّى : تَشَعُّقٌ أَوْ سَبْعٌ أَوْ خَامِسَةٌ أَوْ
ثَالِثَةٌ أَوْ آخِرُ لَيْلَةٍ » . وقال رسول الله ﷺ : « إِنَّ أَمَارَةَ لَيْلَةٍ أَنَّهَا صَافِيَةٌ بِلُجَّةٍ كَأَنَّ فِيهَا قَمَرًا سَاطِعًا
سَاكِئَةً سَاجِدَةً لَا يَرَدُّ فِيهَا وَلَا خَرٌّ وَلَا يُجَلُّ لِكُؤْكَبٍ يُؤْمَى بِهِ حَتَّى يُصْبِحَ ، وَأَنَّ أَمَارَتَهَا أَنَّ الشَّمْسَ صَبِيحَتِهَا
تَخْرُجُ مُسْتَوِيَةً لَيْسَ لَهَا شُعَاعٌ مِثْلُ الْقَمَرِ لَيْلَةَ الْبَدْرِ وَلَا يَجُلُّ لِلشَّيْطَانِ أَنْ يَخْرُجَ مَعَهَا يَوْمَئِذٍ » ^(٥) .

فصل : اختلف العلماء هل كانت ليلة القدر في الأمم السالفة أو هي من خصائص هذه الأمة ؟ على

(١) انظر الحديث في الترمذي في السنن (٣٣٥٠) .

(٢) أخرجه الترمذي في السنن (١٦٦٤) وأحمد في مسنده (٧٥/١) .

(٣) أخرجه أحمد في مسنده (٢٣٠/٢) .

(٤) أخرجه البخاري في الصوم (١٩٠١) .

(٥) أخرجه أحمد في مسنده (٣٢٤/٥) .

قولين . قال مالك : أنه بلغه أن رسول الله ﷺ أرى أعمار الناس قبله أو ما شاء الله من ذلك فكأنه تقاصر أعمار أمته أن لا يبلغوا من العمل الذي بلغ غيرهم في طول العمر فأعطاه الله ليلة القدر خيراً من ألف شهر . وهذا الذي قاله مالك يقتضي تخصيص هذه الأمة بليلة القدر وقد نقله صاحب العدة أحد أئمة الشافعية عن جمهور العلماء قاله أعلم . وحكى الخطابي عليه الإجماع ونقله الرازي جازماً به عن المذهب ، والذي دل عليه الحديث أنها كانت في الأمم الماضية كما هي في أمتنا .

وعن مرثد قال : سألت أبا ذر قلت : كيف سألت رسول الله ﷺ عن ليلة القدر ؟ قال : أنا كنت أسأل الناس عنها قلت : يا رسول الله أخبرني عن ليلة القدر أفي رمضان هي أو في غيره ؟ قال : « بَلْ هِيَ فِي رَمَضَانَ » . قلت : تكون مع الأنبياء ما كانوا فإذا قبضوا رفعت أم هي إلى يوم القيامة ؟ قال : « بَلْ هِيَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ » . قلت : في أي رمضان هي قال : « التَّمِشُّوْهَا فِي الْعَشْرِ الْأَوَّلِ وَالْعَشْرِ الْآخِرِ » . ثم حَدَّثَ رسول الله ﷺ و حَدَّثَ ثم اهتبلت غفلته ، قلت : في أي العشرين هي ؟ قال : « إِتَّبِعُوهَا فِي الْعَشْرِ الْآخِرِ ، لَا تَسْأَلْنِي عَنْ شَيْءٍ بَعْدَهَا » . ثم حَدَّثَ رسول الله ﷺ ثم اهتبلت غفلته فقلت : يا رسول الله أقسمت عليك بحقي عليك لما أخبرني في أي العشر هي ؟ فغضب علي غضباً لم يغضب مثله منذ صحبتته وقال : « إِتَّبِعُوهَا فِي السَّبْعِ الْآخِرِ ، لَا تَسْأَلْنِي عَنْ شَيْءٍ بَعْدَهَا » ^(١) . ففيه دلالة على ما ذكرناه وفيه أنها تكون باقية إلى يوم القيامة في كل سنة بعد النبي ﷺ لا كما زعمه بعض طوائف الشيعة من رفعها بالكلية على ما فهموه من الحديث الذي سنورده بعد من قوله عليه الصلاة والسلام « فَرَفَعْتُ وَعَسَى أَنْ يَكُونَ خَيْرًا لَكُمْ » . لأن المراد رفع علم وقتها عيئاً . وفيه دلالة على أن ليلة القدر يختص وقوعها بشهر رمضان من بين سائر الشهور ، لا كما روي عن ابن مسعود ومن تابعه من علماء أهل الكوفة من أنها توجد في جميع السنة وترتجى في جميع الشهور على السواء . وقد ترجم أبو داود في سننه على هذا فقال : باب بيان أن ليلة القدر في كل رمضان . عن عبد الله ابن عمر قال : سئل رسول الله ﷺ وأنا أسمع عن ليلة القدر . فقال : « هِيَ فِي كُلِّ رَمَضَانَ » ^(٢) .

فصل : ثم قد قيل إنها تكون في أول ليلة من شهر رمضان ، وقيل : إنها تقع ليلة سبع عشرة وروى فيه أبو داود حديثاً مرفوعاً عن ابن مسعود وروى موقوفاً عليه وعلى زيد بن أرقم وعثمان بن أبي العاص وهو قول عن محمد بن إدريس الشافعي ، ويحكي عن الحسن البصري ، ووجهه بأنها ليلة بدر وكانت جمعة هي السابعة عشرة من شهر رمضان ، في صبيحتها كانت وقعة بدر وهو اليوم الذي قال الله تعالى فيه : ﴿ يَوْمَ الْفُرْقَانِ ﴾ وقيل : ليلة تسع عشرة ، وقيل : ليلة إحدى وعشرين ؛ لحديث أبي سعيد الخدري قال : اعتكف رسول الله ﷺ في العشر الأول من رمضان واعتكفنا معه فأتاه جبريل فقال : إن الذي تطلب أمامك فاعتكف العشر الأوسط فاعتكفنا معه فأتاه جبريل فقال الذي تطلب أمامك ثم قام النبي ﷺ خطيباً صبيحة عشرين من رمضان ، فقال : « مَنْ كَانَ اعْتَكَفَ مَعِيَ فَلْيَرْجِعْ فَإِنَّ لَيْلَةَ الْقَدْرِ وَإِنِّي أَنْسِيَهَا وَإِنِّي فِي الْعَشْرِ الْآخِرِ فِي وَثْرٍ وَإِنِّي رَأَيْتُ كَأَنِّي

(١) أخرجه أحمد في مسنده (١٧١/٥) والحاكم في المستدرک (٤٣٣/١) .

(٢) أخرجه أبو داود في السنن (١٣٨٧) والبيهقي في السنن (٣٠٧/٤) .

أَسْجُدُ فِي طِينٍ وَمَاءٍ » . وكان سقف المسجد جريداً من النخل وما نرى في السماء شيئاً فجاءت قرعة فمطرنا فصلّى بنا النبي ﷺ حتى رأيت أثر الطين والماء على جبهة رسول الله ﷺ تصديق رؤيا . وفي لفظ : في صبح إحدى وعشرين ^(١) قال الشافعي : وهذا الحديث أصح الروايات ، وقيل ليلة ثلاث وعشرين لحديث عبد الله بن أنيس وهو قريب السياق من رواية أبي سعيد فالله أعلم ، وقيل ليلة أربع وعشرين . عن أبي سعيد أن رسول الله ﷺ قال : « لَيْلَةُ الْقَدْرِ لَيْلَةُ أَرْبَعٍ وَعَشْرِينَ » ^(٢) . وقد تقدم في سورة البقرة حديث واثلة بن الأسقع مرفوعاً « إِنَّ الْقُرْآنَ أُنْزِلَ لَيْلَةَ أَرْبَعٍ وَعَشْرِينَ » . وقيل تكون ليلة خمس وعشرين لما رواه عبد الله بن عباس أن رسول الله ﷺ قال « التمسوها في العشر الأواخر من رَمَضَانَ فِي تَاسِعَةٍ تَبْقَى فِي سَابِعَةٍ تَبْقَى فِي خَامِسَةٍ تَبْقَى » ^(٣) . فسرّه كثيرون بليالي الأوتار وهو أظهر وأشهر ، وحمله آخرون على الأشفاق . عن أبي سعيد أنه حمّله على ذلك والله أعلم ، وقيل إنها تكون ليلة سبع وعشرين لما رواه أبي فقال : والله الذي لا إله إلا هو إنها لفي رمضان يحلف ما يستثني والله إنني لأعلم أي ليلة القدر هي التي أمرنا رسول الله ﷺ بقيامها هي ليلة سبع وعشرين ، وأمارتها أن تطلع الشمس في صبيحتها يضاء لا شعاع لها ، وفي الباب عن معاوية وابن عمر وابن عباس وغيرهم عن رسول الله ﷺ أنها ليلة سبع وعشرين وهو قول طائفة من السلف وهو الجادة من مذهب الإمام أحمد بن حنبل رَحِمَهُمُ اللَّهُ وهو رواية عن أبي حنيفة أيضاً وقد حكى عن بعض السلف أنه حاول استخراج كونها ليلة سبع وعشرين من القرآن من قوله ﴿ هِيَ ﴾ لأنها الكلمة السابعة والعشرين من السورة فالله أعلم .

قال ابن عباس : دعا عمر بن الخطاب أصحاب محمد ﷺ فسألهم عن ليلة القدر فأجمعوا أنها في العشر الأواخر ، قال ابن عباس : فقلت لعمر : إنني لأعلم - أو إنني لأظن - أي ليلة القدر هي فقال عمر : وأي ليلة هي ؟ فقلت : سابعة تمضي - أو سابعة تبقى - من العشر الأواخر فقال عمر : من أين علمت ذلك قال ابن عباس فقلت : خلق الله سبع سموات وسبع أرضين وسبعة أيام ولأن الشهر يدور على سبع وخلق الإنسان من سبع ويأكل من سبع ويسجد على سبع والطواف بالبيت سبع ورمي الجمار سبع لأشياء ذكرها . فقال عمر : لقد فطنت لأمر ما فطنا له ، وعن عبادة بن الصامت أنه سأل رسول الله ﷺ عن ليلة القدر فقال رسول الله ﷺ : « فِي رَمَضَانَ فَالْتَمِسُوهَا فِي الْعَشْرِ الْأَوَاخِرِ فَإِنَّهَا فِي وَثْرٍ إِحْدَى وَعَشْرِينَ أَوْ ثَلَاثَ وَعَشْرِينَ أَوْ خَمْسَ وَعَشْرِينَ أَوْ سَبْعَ وَعَشْرِينَ أَوْ تِسْعَ وَعَشْرِينَ أَوْ فِي آخِرِ لَيْلَةٍ » ^(٤) . وعن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال في ليلة القدر : « إِنَّهَا فِي لَيْلَةِ سَابِعَةٍ أَوْ تَاسِعَةٍ وَعَشْرِينَ وَإِنَّ الْمَلَائِكَةَ تِلْكَ اللَّيْلَةَ فِي الْأَرْضِ أَكْثَرَ مِنْ عَدَدِ الْحَصَى » ^(٥) . وعن أبي بكرة أن رسول الله ﷺ قال : « فِي تِسْعٍ يَبْقَيْنَ أَوْ سَبْعٍ يَبْقَيْنَ أَوْ خَمْسٍ يَبْقَيْنَ أَوْ ثَلَاثٍ أَوْ آخِرِ لَيْلَةٍ يَغْنِي التَّمَسُّو لَيْلَةَ الْقَدْرِ » . وعن أبي هريرة عن النبي ﷺ في ليلة القدر « إِنَّهَا آخِرُ لَيْلَةٍ » .

(١) أخرجه البخاري في الاحتكاف (٢٠٤٠) والبيهقي في السنن (٢٨٥/٢) .

(٢) أخرجه أحمد في مسنده (١٢/٦) .

(٣) أخرجه البخاري في ليلة القدر (٢٠٢١) .

(٤) أخرجه أحمد في مسنده (٣٢٠/٥) .

(٥) أخرجه أحمد في مسنده (٥١٦/٢) .

فصل : قال الشافعي في هذه الروايات : صدرت من النبي ﷺ جواباً للسائل إذا قيل له أنلتمس ليلة القدر في الليلة القلانية ؟ يقول : « نَعَمْ » . وإنما ليلة القدر ليلة معينة لا تنتقل . وروي عن أبي قلابة أنه قال : ليلة القدر تنتقل في العشر الأواخر وهذا الذي حكاه عن أبي قلابة نص عليه مالك والثوري وأحمد بن حنبل وغيرهم . وهو محكي عن الشافعي وهو الأشبه والله أعلم . وقد يستأنس لهذا القول بما ثبت عن عبد الله بن عمر أن رجلاً من أصحاب النبي ﷺ أروا ليلة القدر في المنام في السبع الأواخر من رمضان ، فقال رسول الله ﷺ : « أَرَى رُؤْيَاكُمْ قَدْ تَوَاطَتْ فِي السَّبْعِ الْأَوَاخِرِ فَمَنْ كَانَ مُتَحَرِّبَهَا فَلْيَتَحَرَّهَا فِي السَّبْعِ الْأَوَاخِرِ » ^(١) . وفيها أيضاً عن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ : « تَحَرَّوْا لَيْلَةَ الْقَدْرِ فِي الْوَتْرِ مِنَ الْعَشْرِ الْأَوَاخِرِ مِنْ رَمَضَانَ » ^(٢) . ويحتج للشافعي أنها لا تنتقل وأنها معينة من الشهر ، بما رواه عبادة بن الصامت قال : خرج رسول الله ﷺ ليخبرنا بليلة القدر فتلاحى رجلان من المسلمين فقال : « خَرَجْتُ لِأُخْبِرَكُمْ بِلَيْلَةِ الْقَدْرِ فَتَلَاخَى فُلَانٌ وَفُلَانٌ فَرَفَعَتْ وَعَسَى أَنْ يَكُونَ خَيْرًا لَكُمْ فَالْتِمِسُوهَا فِي الثَّاسِعَةِ وَالسَّابِعَةِ وَالْخَامِسَةِ » ^(٣) . وجه الدلالة منه أنها لو لم تكن معينة مستمرة التعيين لما حصل لهم العلم بعينها في كل سنة ؛ إذ لو كانت تنتقل لما علموا تعيينها إلا ذلك العام فقط ، اللهم إلا أن يقال : إن إنما خرج ليعلمهم بها تلك السنة فقط . وقوله : « فَتَلَاخَى فُلَانٌ وَفُلَانٌ فَرَفَعَتْ » . فيه استئناس لما يقال إن الممارسة تقطع الفائدة والعلم النافع كما جاء في الحديث « إِنَّ الْعَبْدَ لَيُحْرَمُ الرِّزْقَ بِالدَّنْبِ يُصِيبُهُ » ^(٤) . وقوله : « فَرَفَعَتْ » . أي رفع علم تعيينها لكم لا أنها رفعت بالكلية من الوجود ، كما يقوله جهلة الشيعة لأنه قد قال بعد هذا « فَالْتِمِسُوهَا فِي الثَّاسِعَةِ وَالسَّابِعَةِ وَالْخَامِسَةِ » . وقوله : « وَعَسَى أَنْ يَكُونَ خَيْرًا لَكُمْ » . يعني عدم تعيينها لكم فإنها إذا كانت مبهمة اجتهد طلابها في ابتغائها في جميع رجائها فكان أكثر للعبادة بخلاف ما إذا علموا عينها ، فإنها كانت الهمم تنقاصر على قيامها فقط ، وإنما اقتضت الحكمة إبهامها لتعم العبادة جميع الشهر في ابتغائها ، ويكون الاجتهاد في العشر الأخير أكثر ، ولهذا كان رسول الله ﷺ يعتكف العشر الأواخر من رمضان حتى توفاه الله ﷻ ثم اعتكف أزواجه من بعده ^(٥) ، وقالت عائشة : كان رسول الله ﷺ إذا دخل العشر أحيا الليل وأيقظ أهله وشد المنزر ^(٦) ، ولمسلم عنها كان رسول الله ﷺ يجتهد في العشر ما لا يجتهد في غيره ^(٧) ، وهذا معنى قولها وشد المنزر ، وقيل المراد بذلك اعتزال النساء ويحتمل أن يكون كناية عن الأمرين لما روي عن عائشة قالت : كان رسول الله ﷺ إذا بقي عشر من رمضان شد منزره واعتزل نسائه ^(٨) . وقد حكى عن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ جَمِيعَ لَيَالِي الْعَشْرِ فِي تَطَلُّبِ لَيْلَةِ الْقَدْرِ عَلَى السَّوَاءِ لَا يَتَرَجَّحُ مِنْهَا لَيْلَةٌ عَلَى أُخْرَى ، والمستحب الإكثار من

(١) أخرجه مسلم في الصيام (٢٠٥) وأحمد في مسنده (٥/٢) .

(٢) أخرجه البخاري في فضل ليلة القدر (٢٠١٧) ومسلم في الصيام (٢١٩) .

(٣) أخرجه البخاري في فضل ليلة القدر (٢٠٢٣) . (٤) أخرجه أحمد في مسنده (٨٠/٥) .

(٥) أخرجه مسلم الاعتكاف (١) والبخاري في الاعتكاف (٢٠٣٣) .

(٦) أخرجه البخاري في فضل ليلة القدر (٢٠٢٤) ومسلم في الاعتكاف (٧) .

(٧) أخرجه مسلم في الاعتكاف (٨) والترمذي في السنن (٧٩٦) .

(٨) أخرجه أحمد في مسنده (٦٧/٦) .

الدعاء في جميع الأوقات ، وفي شهر رمضان أكثر وفي العشر الأخير منه ، ثم في أوتاره أكثر .
 والمستحب أن يكثر من هذا الدعاء : اللهم إنك عفو تحب العفو فاعف عني . فعن عائشة قالت :
 قلت يا رسول الله أرأيت إن علمت أي ليلة ليلة القدر ما أقول فيها ؟ قال : « قولي : اللَّهُمَّ إِنَّكَ عَفُوٌّ
 تُحِبُّ الْعَفْوَ فَاعْفُ عَنِّي » ^(١) .

(١) أخرجه الترمذي في السنن (٢٥١٣) وابن ماجه في السنن (٣٨٥٠) وأحمد في مسنده (١٨٣/٦) .

سورة البينة

عن أنس بن مالك قال : قال رسول الله ﷺ لأبي بن كعب : « إِنَّ اللَّهَ أَمَرَنِي أَنْ أَقْرَأَ عَلَيْكَ : ﴿لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ﴾ » . قال : وسماني لك ؟ قال ^(١) : « نَعَمْ » . فبكى .
وعن أبي بن كعب قال : إن رسول الله ﷺ قال لي : « إِنَّ اللَّهَ أَمَرَنِي أَنْ أَقْرَأَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ - قال : فقرأ ﴿لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ﴾ - قال : فقرأ فيها - وَلَوْ أَنَّ آدَمَ سَأَلَ وَادِيًا مِنْ مَالٍ فَأُعْطِيَهُ لَسَأَلَ ثَانِيًا ، وَلَوْ سَأَلَ ثَانِيًا فَأُعْطِيَهُ لَسَأَلَ ثَالِثًا ، وَلَا يَمْلَأُ جَوْفَ ابْنِ آدَمَ إِلَّا الثَّرَابُ ، وَيَثُوبُ اللَّهُ عَلَى مَنْ تَابَ ، وَإِنَّ ذَاتَ الدِّينِ عِنْدَ اللَّهِ الْحَيِيفَةُ غَيْرُ الْمُشْرِكَةِ وَلَا الْيَهُودِيَّةِ وَلَا النَّصْرَانِيَّةِ ، وَمَنْ يَفْعَلْ خَيْرًا فَلَنْ يَكْفُرَهُ » ^(٢) .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ مُنْفِكِينَ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ ۝ رَسُولٌ مِنَ اللَّهِ يَتْلُو صُحُفًا مُطَهَّرَةً ۝ فِيهَا كُتُبٌ قَيِّمَةٌ ۝ وَمَا تَفَرَّقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ الْبَيِّنَةُ ۝ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ ۝﴾ .

أما أهل الكتاب فهم اليهود والنصارى والمشركون عبدة الأوثان والنيان من العرب ومن العجم ، وقال مجاهد : لم يكونوا ﴿مُنْفِكِينَ﴾ يعني متهمين حتى يتبين لهم الحق . وهكذا قال قتادة ﴿حَتَّى تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ﴾ أي هذا القرآن ولهذا قال تعالى : ﴿لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ مُنْفِكِينَ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ﴾ . ثم فسر البينة بقوله ﴿رَسُولٌ مِنَ اللَّهِ يَتْلُو صُحُفًا مُطَهَّرَةً﴾ يعني محمدًا ﷺ وما يتلوه من القرآن العظيم الذي هو مكتوب في الملاء الأعلى في صحف مطهرة . وقوله تعالى : ﴿فِيهَا كُتُبٌ قَيِّمَةٌ﴾ قال ابن جرير : أي في الصحف المطهرة كتب من الله قيمة عادلة مستقيمة ليس فيها خطأ لأنها من عند الله ﷻ وقوله تعالى ﴿وَمَا تَفَرَّقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ الْبَيِّنَةُ﴾ يعني بذلك أهل الكتب المنزلة على الأمم قبلنا بعد ما أقام الله عليهم الحجج والبيانات تفرقوا واختلفوا في الذي أراده الله من كتبهم واختلفوا اختلافاً كثيراً كما جاء في الحديث « إِنَّ الْيَهُودَ اخْتَلَفُوا عَلَى إِحْدَى وَسَبْعِينَ فِرْقَةً وَإِنَّ النَّصَارَى اخْتَلَفُوا عَلَى ثَلَاثِينَ وَسَبْعِينَ فِرْقَةً وَتَفْتَرِقُ هَذِهِ الْأُمَّةُ عَلَى ثَلَاثٍ وَسَبْعِينَ فِرْقَةً كُلُّهَا فِي النَّارِ إِلَّا وَاحِدَةً » قالوا : من هم يا رسول الله ؟ قال : « مَا أَنَا عَلَيْهِ وَأَصْحَابِي » ^(٣) .

وقوله تعالى : ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ كقوله ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِيَ إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾ ولهذا قال ﴿حُنَفَاءَ﴾ أي متحنفين من الشرك إلى التوحيد ﴿وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ﴾ وهي أشرف عبادات البدن ﴿وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ﴾ وهي الإحسان إلى الفقراء والمحاويج ﴿وَذَلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ﴾ أي الملة القائمة العادلة أو الأمة المستقيمة المعتدلة ، وقد استدلل كثير من الأئمة كالزهري والشافعي بهذه الآية الكريمة على أن الأعمال داخلة في الإيمان ولهذا قال : ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ ۝﴾ .

(١) أخرجه البخاري في تفسير القرآن (٤٩٥٩) وأحمد في مسنده (١٣٠/٣) .

(٢) أخرجه البخاري في تفسير القرآن (٤٩٦٠) . (٣) أخرجه أحمد في مسنده (١٤٥/٣) .

﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أُولَئِكَ هُمْ شَرُّ الْبَرِيَّةِ ﴾ ① إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ ② جَزَاءُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ عَدْنٌ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُ ③ .

يخبر تعالى عن مآل الفجار من كفر أهل الكتاب والمشركين المخالفين لكتب الله المنزلة وأنبياء الله المرسلة أنهم يوم القيامة في نار جهنم خالدين فيها ، أي ماكثين فيها لا يحولون عنها ولا يزولون ﴿ أُولَئِكَ هُمْ شَرُّ الْبَرِيَّةِ ﴾ أي شر الخليقة التي برأها الله وذراها . ثم أخبر تعالى عن حال الأبرار الذين آمنوا بقلوبهم ، وعملوا الصالحات بأبدانهم ، بأنهم خير البرية ، وقد استدل بهذه الآية أبو هريرة وطائفة من العلماء على تفضيل المؤمنين من البرية الملائكة لقوله : ﴿ أُولَئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ ﴾ ثم قال تعالى : ﴿ جَزَاءُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ ﴾ أي يوم القيامة ﴿ جَنَّاتٌ عَدْنٌ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ﴾ أي بلا انفصال ولا انقضاء ولا فراغ ﴿ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ﴾ ومقام رضاه أعلى مما أوتوه من النعيم المقيم ﴿ وَرَضُوا عَنْهُ ﴾ فيما منحهم من الفضل العميم . وقوله تعالى : ﴿ ذَلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُ ﴾ أي هذا الجزاء حاصل لمن خشي الله واتقاه حق تقواه ، وعبداه كأنه يراه ، وعلم أنه إن لم يره فإنه يراه . عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « أَلَا أُخْبِرُكُمْ بِخَيْرِ الْبَرِيَّةِ ؟ » قالوا : بلى يا رسول الله قال : « رَجُلٌ أَخَذَ بِعِتَانِ فَرَسِهِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ، كُلَّمَا كَانَتْ هَيْعَةً اسْتَوَى عَلَيْهِ . أَلَا أُخْبِرُكُمْ بِخَيْرِ الْبَرِيَّةِ ؟ » قالوا : بلى يا رسول الله . قال : « رَجُلٌ فِي ثَلَاثَةِ مِائَةِ نَفْسٍ يُقِيمُ الصَّلَاةَ وَيُؤْتِي الزَّكَاةَ ، أَلَا أُخْبِرُكُمْ بِخَيْرِ الْبَرِيَّةِ ؟ » قالوا : بلى . قال : « الَّذِي يُشَالُ بِاللَّهِ وَلَا يُعْطَى بِهِ » ① .

سورة الزلزلة

عن عبد الله بن عمرو قال : أتى رجل إلى رسول الله ﷺ فقال : أقرئني يا رسول الله . قال له : « إقرأ ثلاثاً من ذَوَاتِ الرِّاءِ » فقال له الرجل : كبر سني واشتد قلبي وغلظ لساني ، قال : « فاقْرَأْ مِنْ ذَوَاتِ حَم » فقال مثل مقالته الأولى ، فقال : « إقرأ ثلاثاً مِنَ الْمَسْتَحَاتِ » فقال مثل مقالته ، فقال الرجل : ولكن أقرئني يا رسول الله سورة جامعة فأقراه ﴿ إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا ﴾ حتى إذا فرغ منها قال الرجل : والذي بعثك بالحق نبياً لا أزيد عليها أبداً ثم أدبر الرجل . فقال رسول الله ﷺ : « أَفْلَحَ الرَّوْجِيُّ ، أَفْلَحَ الرَّوْجِيُّ - ثم قال - عَلَيَّ بِهِ - فجاءه فقال له - أَمِرتُ بِيَوْمِ الْأَضْحَى جَعَلَهُ اللَّهُ عِيداً لِهَذِهِ الْأُمَّةِ » فقال له الرجل : أرأيت إن لم أجد إلا منيحة أنثى فأضحى بها ، قال : « لَا وَلَكِنَّكَ تَأْخُذُ مِنْ شَعْرِكَ وَتَقْلَمُ أَظْفَارَكَ وَتَقْصُ شَارِبَكَ وَتَخْلِقُ عَانَتَكَ فَذَاكَ تَمَامُ أَضْحِيَّتِكَ عِنْدَ اللَّهِ ﷻ » ^(١) وعن أنس قال : قال رسول الله ﷺ : « قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ تَعْدِلُ ثَلَاثَ الْقُرْآنِ ، وَإِذَا زُلْزِلَتْ تَعْدِلُ رُبْعَ الْقُرْآنِ » ^(٢) وعن ابن عباس قال : قال رسول الله ﷺ : « إِذَا زُلْزِلَتْ تَعْدِلُ نِصْفَ الْقُرْآنِ ، وَقُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ تَعْدِلُ ثَلَاثَ الْقُرْآنِ ، وَقُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ تَعْدِلُ رُبْعَ الْقُرْآنِ » ^(٣) وعن أنس بن مالك أن رسول الله ﷺ قال لرجل من أصحابه : « هَلْ تَزَوَّجْتَ يَا فَلَانُ » قال : لا والله يا رسول الله ولا عندي ما أتزوج ؟ قال : « أَلَيْسَ مَعَكَ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ؟ » قال : بلى قال : ثلث القرآن - قال : أَلَيْسَ مَعَكَ إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ - قال : بلى ، قال : رُبْعَ الْقُرْآنِ - قال : أَلَيْسَ مَعَكَ قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ ؟ - قال : بلى قال : رُبْعَ الْقُرْآنِ - قال أَلَيْسَ مَعَكَ إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ - قال : بلى ، قال : رُبْعَ الْقُرْآنِ ، تَزَوَّجُ ^(٤) .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا ﴾ ١ ﴿ وَخُرْجَتِ الْأَرْضُ أَنْفَالَهَا ﴾ ٢ ﴿ وَقَالَ الْإِنْسَانُ مَا لَهَا ﴾ ٣ ﴿ يَوْمَئِذٍ تُخَدِّثُ أَخْبَارَهَا ﴾ ٤ ﴿ يَأْنِ رَبُّكَ أُتُوْحَ لَهَا ﴾ ٥ ﴿ يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ النَّاسُ أَشْتَاتًا لِيُرَوْا أَعْمَلُهُمْ ﴾ ٦ ﴿ فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ﴾ ٧ ﴿ وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ﴾ ٨ .

قال ابن عباس : ﴿ إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا ﴾ أي تحركت من أسفلها ﴿ وَخُرْجَتِ الْأَرْضُ أَنْفَالَهَا ﴾ يعني ألفت ما فيها من الموتى . عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « تُلْقَى الْأَرْضُ أَفْلَادَ كَبِدِهَا أَمْثَالِ الْأَشْطَوَانِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ فَيَجِيءُ الْقَاتِلُ فَيَقُولُ فِي هَذَا قَتَلْتُ ، وَيَجِيءُ الْقَاطِعُ فَيَقُولُ فِي هَذَا قَطَعْتُ رَجِيمِي ، وَيَجِيءُ الشَّارِقُ فَيَقُولُ فِي هَذَا قَطَعْتُ يَدَيَّ ، ثُمَّ يَدْعُوهُ فَلَا يَأْخُذُونَ مِنْهُ شَيْئاً » ^(٥) وقوله ﷻ ﴿ وَقَالَ الْإِنْسَانُ مَا لَهَا ﴾ أي استنكر أمرها بعدما كانت قارة ساكنة ثابتة وهو

(١) أخرجه أحمد في مسنده (١٦٩/٢) وأبو داود في السنن (١٣٩٩) والحاكم في المستدرک (٥٣٢/٢) .

(٢) أخرجه مسلم في صلاة المسافرين (٢٥٩) والترمذي في السنن (٢٨٩٩) والنسائي في السنن (٢٥٠/٢) ، وأحمد في مسنده (٤١٨/٥) .

(٣) أخرجه الترمذي في السنن (٢٨٩٤) والحاكم في المستدرک (٥٦٦/١) .

(٤) أخرجه الترمذي في السنن (٢٨٩٥) .

(٥) أخرجه مسلم في الزكاة (٢) والترمذي في السنن (٢٢٠٨) .

مستقر على ظهرها ، أي تقلبت الحال فصارت متحركة مضطربة قد جاءها من أمر الله تعالى ما قد أعده لها من الزلزال الذي لا محيد لها عنه ثم ألقت ما في بطنها من الأموات من الأولين والآخرين وحينئذ استنكر الناس أمرها وتبدل الأرض غير الأرض والسموات وبرزوا لله الواحد القهار ، وقوله تعالى : ﴿ يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا ﴾ أي تحدث بما عمل العاملون على ظهرها . عن أبي هريرة قال : قرأ رسول الله ﷺ هذه الآية ﴿ يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا ﴾ قال : « أَتَذَرُونَ مَا أَخْبَارُهَا ؟ » قالوا : الله ورسوله أعلم قال : « فَإِنَّ أَخْبَارَهَا أَنْ تَشْهَدَ عَلَى كُلِّ عَبْدٍ وَأَمَةٍ بِمَا عَمِلَ عَلَى ظَهْرِهَا ، أَنْ تَقُولَ عَمِلَ كَذَا وَكَذَا يَوْمَ كَذَا وَكَذَا فَهَذِهِ أَخْبَارُهَا » ^(١) .

وقوله تعالى : ﴿ بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَى لَهَا ﴾ قال البخاري : أوحى لها وأوحى إليها ووحى لها ووحى إليها واحد . وكذا قال ابن عباس أوحى لها أي أوحى إليها . والظاهر أن هذا مضمن بمعنى أذن لها . وقال ابن عباس ﴿ يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا ﴾ قال : قال لها ربها قولي فقالت ، وقال مجاهد : أوحى لها أي أمرها . وقال القرظي أمرها أن تنشق عنهم . وقوله تعالى : ﴿ يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ النَّاسُ أَشْتَاتًا ﴾ أي يرجعون عن موقف الحساب أشتاتاً أي أنواعاً وأصنافاً ما بين شقي وسعيد مأمور به إلى الجنة ومأمور به إلى النار ، قال ابن جريج : يتصدعون أشتاتاً فلا يجتمعون آخر ما عليهم . وقال السدي أشتاتاً فرقاً . وقوله تعالى : ﴿ يُرَوِّا أَعْمَلَهُمْ ﴾ أي ليعلموا ويجازوا بما عملوه في الدنيا من خير وشر لهذا قال : ﴿ فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ﴾ ^(٢) وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ^(٣) . وعن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال : « الْخَيْلُ لثَلَاثَةٍ ؛ لِرَجُلٍ أَجْرٌ ، وَلِرَجُلٍ سِتْرٌ ، وَعَلَى رَجُلٍ وَزْرٌ . فَأَمَّا الَّذِي لَهُ أَجْرٌ فَرَجُلٌ رَبَطَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَأَطَالَ طِيلَهَا فِي مَزْجِ أَوْ رَوْضَةٍ ، فَمَا أَصَابَتْ فِي طِيلِهَا ذَلِكَ فِي الْمَزْجِ وَالرَّوْضَةِ كَانَ لَهُ حَسَنَاتٌ ، وَلَوْ أَنَّهَا قَطَعَتْ طِيلَهَا فَاسْتَنْتَشَتْ شَرْقًا أَوْ شَرْقَيْنِ كَانَتْ آثَارُهَا وَأَزْوَاجُهَا حَسَنَاتٍ لَهُ . وَلَوْ أَنَّهَا مَرَّتْ بِنَهْرٍ فَشَرِبَتْ مِنْهُ وَلَمْ يردْ أَنْ تُسْقَى بِهِ كَانَ ذَلِكَ حَسَنَاتٍ لَهُ ، وَهِيَ لِذَلِكَ الرَّجُلِ أَجْرٌ . وَرَجُلٌ رَبَطَهَا تَغْنِيًا وَتَعْفَا وَلَمْ يَنْسَ حَقَّ اللَّهِ فِي رِقَابِهَا وَلَا ظُهُورِهَا فَهِيَ لَهُ سِتْرٌ ، وَرَجُلٌ رَبَطَهَا فَخَرًا وَرِيَاءً وَنَوَاءً فَهِيَ عَلَى ذَلِكَ وَزْرٌ » فستل رسول الله ﷺ عن الحمر فقال : « مَا أَنْزَلَ اللَّهُ فِيهَا شَيْئًا إِلَّا هَذِهِ الْآيَةُ الْفَاذَةُ الْجَامِعَةُ ﴾ ^(٤) فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ^(٥) وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ^(٦) . ^(٧)

وعن صعبعة بن معاوية عم الفرزدق أنه أتى النبي ﷺ فقرأ عليه ﴿ فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ﴾ ^(٨) وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ^(٩) قال حسيبي لا أبالي أن لا أسمع غيرها . وعن عدي مرفوعاً « إِتَّقُوا النَّارَ وَلَوْ بِشِقِّ تَمْرَةٍ وَلَوْ بِكَلِمَةٍ طَيِّبَةٍ » ^(١٠) وله أيضاً « لَا تَحْقِرَنَّ مِنَ الْمَعْرُوفِ شَيْئًا وَلَوْ أَنْ تُفْرِغَ مِنْ دَلْوِكَ فِي إِنَاءِ الْمُشْتَقِي وَلَوْ أَنْ تَلْقَى أَحَاكَ وَوَجْهَكَ إِلَيْهِ مُتَبَسِّطٌ » ^(١١) وفي الصحيح : « يَا مَعْشَرَ نِسَاءِ الْمُؤْمِنَاتِ لَا تَحْقِرَنَّ جَارَةً لَجَارَتِهَا وَلَوْ فَرَسَنَ شَاةٍ » يعني ظلفها ^(١٢) . عن

(١) أخرجه الترمذي في السنن (٣٣٥٣) وأحمد في مسنده (٣٧٤/٢) والحاكم في المستدرک (٢٥٦/٢) .

(٢) أخرجه البخاري في الجهاد والسير (٧٣٥٦) والترمذي في السنن (١٦٣٦) والبيهقي في السنن (١٥/١٠) .

(٣) أخرجه البخاري في الرقاق (٦٥٦٣) ومسلم في الزكاة (٦٨) والنسائي في السنن (٧٥/٥) .

(٤) أخرجه أحمد في مسنده (٦٤/٥) والألباني في الصحيحة (١٣٥٢) .

(٥) أخرجه مسلم في الزكاة (٩٠) والترمذي في السنن (٢١٣٠) .

عائشة أن رسول الله ﷺ قال : « يَا عَائِشَةُ اسْتَبْرِي مِنَ النَّارِ وَلَوْ بِشِقِّ تَمْرَةٍ فَإِنَّهَا تَشُدُّ مِنَ الْجَائِعِ مَسَدَهَا مِنَ الشُّبْعَانِ » ^(١) . وروى عن عائشة أنها تصدقت بعينة وقالت : كم فيها من مثقال ذرة . وعن عبد الله بن عمرو بن العاص أنه قال : لما أنزلت ﴿ إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالًا ﴾ وأبو بكر الصديق رضي الله عنه قاعد فبكى ، حين أنزلت ، فقال له رسول الله ﷺ : « مَا يُبْكِيكَ يَا أَبَا بَكْرٍ » قال : يبكي هذه السورة . فقال له رسول الله ﷺ : « لَوْلَا أَنْتُمْ تُخْطِئُونَ وَتُذَيِّبُونَ فَيَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ لَخَلَقَ اللَّهُ أُمَّةً يُخْطِئُونَ وَيُذَيِّبُونَ فَيَغْفِرُ لَهُمْ » ^(٢) .

وعن سعيد بن جبير في قول الله تعالى ﴿ فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ﴾ ^(٣) وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ﴿ وذلك لما نزلت هذه الآية : ﴿ وَيَطْمَئِنُّ الْقَلَمُ عَلَى حَيْدٍ وَسَكِينَةٍ وَيُنْشِئُ لَكُمْ أَنْبَاءَ ﴾ كان المسلمون يرون أنهم لا يؤجرون على الشيء القليل إذا أعطوه ، فيجيء المسكين إلى أبوابهم فيستقلون أن يعطوه التمرة والكسرة والجوزة ونحو ذلك فيردونه ويقولون : ما هذا بشيء إنما تؤجر على ما نعطي ونحن نحبه ، وكان آخرون يرون أنهم لا يلامون على الذنب اليسير : الكذبة والنظرة والغيبة وأشياء ذلك يقولون : إنما وعد الله النار على الكبائر فرغبهم في القليل من الخير أن يعملوه فإنه يوشك أن يكثر ، وحذرهم اليسير من الشر فإنه يوشك أن يكثر فنزلت ﴿ فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ ﴾ يعني وزن أصغر النمل ﴿ خَيْرًا يَرَهُ ﴾ يعني في كتابه ويسره ذلك قال يكتب لكل بر وفاجر بكل سيئة سيئة واحدة ، وبكل حسنة عشر حسنة ، فإذا كان يوم القيامة ضاعف الله حسنات المؤمنين أيضًا بكل واحدة عشرًا ويمحو عنه بكل حسنة عشر سيئات فمن زادت حسناته على سيئاته مثقال ذرة دخل الجنة . وعن عبد الله بن مسعود أن رسول الله ﷺ قال : « إِيَّاكُمْ وَمُحَقَّرَاتِ الذُّنُوبِ فَإِنَّهُنَّ يَجْتَمِعْنَ عَلَى الرَّجُلِ حَتَّى يُهْلِكَهُ » وإن رسول الله ﷺ ضرب لهن مثلًا كمثل قوم نزلوا أرض فلاة فحفر صنيع القوم ، فجعل الرجل ينطلق فيجيء بالعود والرجل يجيء بالعود حتى جمعوا سوادًا وأججوا نازًا وأنضجوا ما قذفوا فيها ^(٤) .

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٧٩/٦) والمنذري في الترغيب (١٠/٢) والألباني في الصحيحة (٥٢٣) .

(٢) ذكره الهيثمي في مجمع الزوائد (١٤١/٧) . (٣) أخرجه أحمد في مسنده (٤٠٢/١) .

سورة العاديات

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ وَالْعَادِيَاتِ ضَبْحًا ﴾ ١ ﴿ فَالْمُورِيَاتِ قَدْحًا ﴾ ٢ ﴿ فَالْمُغِيرَاتِ صُبْحًا ﴾ ٣ ﴿ فَأَنْزَنَ بِهِنَّ نَعْقًا ﴾ ٤ ﴿ فَأَسْطَنَ بِهِِنَّ جَمْعًا ﴾ ٥ ﴿ إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ ﴾ ٦ ﴿ وَإِنَّهُ عَلَىٰ ذَٰلِكَ لَشَهِيدٌ ﴾ ٧ ﴿ وَإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ ﴾ ٨ ﴿ أَفَلَا يَعْلَمُ إِذَا بُعِثَ رَاسُهُ أَلْفُورٌ ﴾ ٩ ﴿ وَحُصِّلَ مَا فِي الصُّدُورِ ﴾ ١٠ ﴿ إِنَّ رَبَّهُم بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّخَبِيرٌ ﴾ ١١ .

يقسم تعالى بالخيول إذا أجريت في سبيله فعدت وضبحت وهو الصوت الذي يسمع من الفرس حين تعدو ﴿ فَالْمُورِيَاتِ قَدْحًا ﴾ يعني اصطكاك نعالها للصخر فتقذح منه النار ﴿ فَالْمُغِيرَاتِ صُبْحًا ﴾ يعني الإغارة وقت الصباح كما كان رسول الله ﷺ يغير صباحًا ويستمتع الأذان فإن سمع أذانًا وإلا أغار . وقوله تعالى : ﴿ فَأَنْزَنَ بِهِنَّ نَعْقًا ﴾ يعني غبارًا في مكان معترك الخيول ﴿ فَأَسْطَنَ بِهِِنَّ جَمْعًا ﴾ أي توسطن ذلك المكان كلهن جمع . وعن سعيد بن جبير عن ابن عباس حدثه قال : بينا أنا في الحجر جالسًا جاءني رجل فسألني عن : ﴿ وَالْعَادِيَاتِ ضَبْحًا ﴾ فقلت له : الخيل حين تغير في سبيل الله ثم تأوي إلى الليل فيصنعون طعامهم ويورون نارهم . فانفتل عني فذهب إلى علي ؓ وهو عند سقاية زمزم ، فسأله عن العاديات ضبحًا فقال : سألت عنها أحدًا قبلي ؟ قال : نعم سألت ابن عباس فقال : الخيل حين تغير في سبيل الله . قال : اذهب فادعه لي فلما وقف على رأسه قال : أتفتي الناس بما لا علم لك . والله لئن كان أول غزوة في الإسلام بدر وما كان معنا إلا فرسان فرس للزبير وفرس للمقداد فكيف تكون العاديات ضبحًا . إنما العاديات ضبحًا من عرفة إلى المزدلفة ومن المزدلفة إلى منى ، قال ابن عباس : فتزعت عن قولتي ورجعت إلى الذي قال علي ؓ ، ﴿ فَالْمُورِيَاتِ قَدْحًا ﴾ يعني : بحوافرها وقيل : أسعرت الحرب بين ركبائهن ، وقال مجاهد : يعني : مكر الرجال وقيل : هو إيقاد النار إذا رجعوا إلى منازلهم من الليل . وقيل المراد بذلك نيران القبائل . وقال من فسرهما بالخيول هو إيقاد النار بالمزدلفة . قال ابن جرير : والصواب الأول : أنها الخيل حين تقذح بحوافرها .

وقوله تعالى : ﴿ فَالْمُغِيرَاتِ صُبْحًا ﴾ قال ابن عباس وقتادة : يعني : إغارة الخيل صبحًا في سبيل الله ، وقال من فسرهما بالإبل هو : الدفع صبحًا من المزدلفة إلى منى . وقالوا كلهم في قوله : ﴿ فَأَنْزَنَ بِهِنَّ نَعْقًا ﴾ هو : المكان الذي حلت فيه أثارت به الغبار إما في حج أو غزو . وقوله تعالى : ﴿ فَأَسْطَنَ بِهِِنَّ جَمْعًا ﴾ يعني : جمع الكفار من العدو ويحتمل أن يكون فوسطن بذلك المكان جميعًا ويكون جمعًا منصوبًا على الحال المؤكدة . وقوله تعالى : ﴿ إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ ﴾ هذا هو المقسم عليه بمعنى أنه لنعم ربه لكفور جحود . قال أنس وابن زيد : الكنود الكفور . قال الحسن : الكنود هو الذي يعد المصائب وينسى نعم الله عليه . وقوله تعالى ﴿ وَإِنَّهُ عَلَىٰ ذَٰلِكَ لَشَهِيدٌ ﴾ قال قتادة وسفيان الثوري : وإن الله على ذلك لشهيد ويحتمل أن يعود الضمير على الإنسان فيكون تقديره : وإن الإنسان على كونه كنودًا لشهيد أي بلسان حاله أي : ظاهر ذلك عليه في أقواله وأفعاله . وقوله تعالى : ﴿ وَإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ ﴾ أي : وإنه لحب الخير وهو المال لشديد ، وفيه مذهبان : أحدهما أن المعنى إنه لشديد المحبة للمال والثاني : وإنه لحريص بخيل من محبة

المال وكلاهما صحيح . ثم قال تبارك وتعالى مزهدًا في الدنيا ومرغبًا في الآخرة ومنبهاً على ما هو كائن بعد هذه الحال وما يستقبله الإنسان من الأهوال ﴿ أَفَلَا يَتْلُمُ إِذَا بَعِثَ مَا فِي الْقُبُورِ ﴾ أي : أخرج ما فيها من الأموات . ﴿ وَحُصِّلَ مَا فِي الصُّدُورِ ﴾ قال ابن عباس وغيره يعني أبرز وأظهر ما كانوا يسرون في نفوسهم ﴿ إِنَّ رَبَّهُمْ بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّخَبِيرٌ ﴾ أي : لعالم بجميع ما كانوا يصنعون ويعملون ومجازيهم عليه أوفر الجزاء ولا يظلم مثقال ذرة .

سورة القارعة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ الْقَارِعَةُ ١ مَا الْقَارِعَةُ ٢ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْقَارِعَةُ ٣ يَوْمَ يَكُونُ النَّاسُ كَالْفَرَاشِ الْمَبْثُوثِ ٤ وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ الْمَنْفُوشِ ٥ فَأَمَّا مَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ ٦ فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ ٧ وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ ٨ فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ ٩ وَمَا أَدْرَاكَ مَا هِيَةٌ ١٠ نَارُ حَامِيَةٍ ١١ ﴾ .

القارعة من أسماء يوم القيامة كالخاقة والطامة والصاخة والغاشية وغير ذلك . ثم قال تعالى معظمًا أمرها ومهولًا لشأنها ﴿ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْقَارِعَةُ ﴾ ثم فسر ذلك بقوله : ﴿ يَوْمَ يَكُونُ النَّاسُ كَالْفَرَاشِ الْمَبْثُوثِ ﴾ أي في انتشارهم وتفرقهم وذهابهم ومحيثهم من حيرتهم مما هم فيه كأنهم فراش مبثوث . وقوله تعالى : ﴿ وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ الْمَنْفُوشِ ﴾ يعني صارت كأنها الصوف المنفوش الذي قد شرع في الذهاب والتمزق . ثم أخبر تعالى عما يؤول إليه عمل العاملين ، وما يصيرون إليه من الكرامة والإهانة بحسب أعمالهم فقال : ﴿ فَأَمَّا مَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ ﴾ أي رجحت حسناته على سيئاته ﴿ فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ ﴾ يعني في الجنة ﴿ وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ ﴾ أي رجحت سيئاته على حسناته ، وقوله تعالى : ﴿ فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ ﴾ قيل : معناه فهو ساقط هارٍ بأُمِّ رأسه في نار جهنم وعبر عنه بأمه يعني دماغه . وقال قتادة : يهوي في النار على رأسه ، وقيل : معناه فأمه التي يرجع إليها ويصير في المعاد إليها هاربة وهي اسم من أسماء النار ، قال ابن جرير : إنما قيل للهابية أمه لأنه لا مأوى له غيرها ، عن الأشعث بن عبد الله الأعمى قال : إذا مات المؤمن ذهب بروحه إلى أرواح المؤمنين فيقولون : روحوا أخاكم ، فإنه كان في غم الدنيا ، قال فيسألونه : ما فعل فلان ، فيقول : مات ، أو ما جاءكم ؟ فيقولون : ذهب به إلى أمه الهاربة . وقوله تعالى : ﴿ نَارُ حَامِيَةٍ ﴾ أي حارة شديدة الحرارة قوية اللمب والسمير . عن أبي هريرة أن النبي ﷺ قال : « نَارُ بَنِي آدَمَ الَّتِي تُوقَدُونَ جُزْءًا مِنْ سَبْعِينَ جُزْءًا مِنْ نَارِ جَهَنَّمَ » قالوا : يا رسول الله إن كانت لكافية ؟ فقال : « إِنَّهَا قُضِلَتْ عَلَيْهَا بِتِسْعَةِ وَسِتِّينَ جُزْءًا » ^(١) وعن يحيى بن جعدة . . عن أبي هريرة عن النبي ﷺ : « إِنْ تَارَكُكُمْ هَذِهِ جُزْءٌ مِنْ سَبْعِينَ جُزْءًا مِنْ نَارِ جَهَنَّمَ وَضُرِبَتْ بِالْبَحْرِ مَوْتَيْنِ ، وَلَوْلَا ذَلِكَ مَا جَعَلَ اللَّهُ فِيهَا مَنَفَعَةً لِأَحَدٍ » ^(٢) وعن أبي هريرة ﷺ عن النبي ﷺ قال : « هَذِهِ النَّارُ جُزْءٌ مِنْ مِائَةِ جُزْءٍ مِنْ جَهَنَّمَ » ^(٣) وعن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « أُوقِدَ عَلَى النَّارِ أَلْفَ سَنَةٍ حَتَّى اخْمَرَتْ ثُمَّ أُوقِدَ عَلَيْهَا أَلْفَ سَنَةٍ حَتَّى ائِضْضَتْ ثُمَّ أُوقِدَ عَلَيْهَا أَلْفَ سَنَةٍ حَتَّى اسْوَدَّتْ فِيهَا سَوْدَاءُ مُظْلِمَةٍ » ^(٤) وعن أبي هريرة عن النبي ﷺ أنه قال : « إِنْ أَهْوَنَ أَهْلُ النَّارِ عَذَابًا مِنْ لَهُ نَغْلَانِ يَغْلِي مِنْهُمَا دِمَاقُهُ » ^(٥) وثبت أن رسول الله ﷺ قال : « اسْتَكْبَتِ النَّارُ إِلَى رَبِّهَا فَقَالَتْ : يَا رَبِّ ، أَكُلْ

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٤٦٧/٢) ومالك في الموطأ (٩٩٤) .

(٢) أخرجه أحمد في مسنده (٢٤٤/٢) والدرامي في السنن (٣٤٠/٢) وابن ماجه في السنن (٤٣١٨) .

(٣) أخرجه أحمد في مسنده (٣٧٩/٢) .

(٤) أخرجه الترمذي في السنن (٢٥٩١) .

(٥) أخرجه مسلم في الإيمان (٤٦٣) .

بَعْضِي بَعْضًا فَأَذِنَ لَهَا بِنَفْسَيْنِ نَفْسٌ فِي الشِّتَاءِ وَنَفْسٌ فِي الصَّيْفِ فَأَشَدُّ مَا تَجِدُونَ فِي الشِّتَاءِ مِنْ
 بَرْدِهَا وَأَشَدُّ مَا تَجِدُونَ فِي الصَّيْفِ مِنْ حَرِّهَا ^(١) وقال : « إِذَا اشْتَدَّ الْحَرُّ فَأَبْرِدُوا عَنِ الصَّلَاةِ فَإِنَّ
 شِدَّةَ الْحَرِّ مِنْ فَيْحِ جَهَنَّمَ » ^(٢) .

(١) أخرجه البخاري في مواقيت الصلاة (٥٣٧) ، مسلم في المساجد (١٨٥) والترمذي في السنن (٥٩٢) .
 (٢) أخرجه البخاري في مواقيت الصلاة (٥٣٣) مسلم في المساجد (١٨٠) وأبو داود في السنن (٤٠٢) .

سورة التكاثر

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ أَلْهَنَكُمْ التَّكَاثُرُ ﴾ ① حَتَّى دُرِّمْتُمُ الْمَقَابِرَ ② ﴿ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ③ ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ④ كَلَّا لَوْ تَقْلَمُونَ ⑤ عِلْمَ الْيَقِينِ ⑥ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ الْيَقِينِ ⑦ ثُمَّ لَتَسْتَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّبِيِّ ﴾ .

يقول تعالى : أشغلكم حب الدنيا ونعيمها وزهرتها عن طلب الآخرة وابتغائها ، وتمادى بكم ذلك حتى جاءكم الموت وزرتم المقابر وصرتم من أهلها .

عن زيد بن أسلم قال : قال رسول الله ﷺ : « ﴿ أَلْهَنَكُمْ التَّكَاثُرُ ﴾ عَنِ الطَّاعَةِ ﴾ حَتَّى دُرِّمْتُمُ الْمَقَابِرَ ﴾ حَتَّى يَأْتِيَكُمُ الْمَوْتُ » وقال الحسن البصري : ﴿ أَلْهَنَكُمْ التَّكَاثُرُ ﴾ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ ، وعن أنس بن مالك عن أبي بن كعب قال : كنا نرى هذا من القرآن حتى نزلت ﴿ أَلْهَنَكُمْ التَّكَاثُرُ ﴾ يعني : « لَوْ كَانَ لابْنِ آدَمَ وَاِدٌ مِنْ دَهَبٍ » ^(١) وعن عبد الله بن الشخير قال : انتهيت إلى رسول الله ﷺ وهو يقول : « ﴿ أَلْهَنَكُمْ التَّكَاثُرُ ﴾ يَقُولُ ابْنُ آدَمَ مَالِي ، مَالِي ، وَهَلْ لَكَ مِنْ مَالِكَ إِلَّا مَا أَكَلْتُ فَأَقْنَيْتَ أَوْ لَبِسْتَ فَأَبْلَيْتَ أَوْ تَصَدَّقْتَ فَأَمْضَيْتَ » ؟ ^(٢) وعن أنس بن مالك : قال رسول الله ﷺ : « يَنْبَغُ الْمَيْتَ ثَلَاثَةَ فَيُزَجَّعُ اثْنَانِ وَيَتَقَى مَعَهُ وَاحِدٌ : يَنْبَغُهُ أَهْلُهُ وَمَالُهُ وَعَمَلُهُ فَيُزَجَّعُ أَهْلُهُ وَمَالُهُ وَيَتَقَى عَمَلُهُ » ^(٣) وعن أنس أن النبي ﷺ قال : « يَهْرُمُ ابْنُ آدَمَ وَيَتَقَى مَعَهُ اثْنَتَانِ : الْحَرُصُ وَالْأَمَلُ » ^(٤) وذكر في ترجمة الأحنف بن قيس واسمه الضحاك أنه رأى في يد رجل درهما فقال : لمن هذا الدرهم ؟ فقال الرجل : لي ، فقال : إنما هو لك إذا أنفقتة في أجر أو ابتغاء شكر ، ثم أنشد الأحنف متمثلاً قول الشاعر :

أَنْتَ لِلْمَالِ إِذَا أَنْسَكْتَهُ فَيَاذَا أَنْفَقْتَهُ فَالْمَالُ لَكَ

وعن ابن بريدة في قوله : ﴿ أَلْهَنَكُمْ التَّكَاثُرُ ﴾ قال : نزلت في قبيلتين من قبائل الأنصار بني حارثة وبني الحارث تفاخروا وتكاثروا فقالت إحداهما : فيكم مثل فلان بن فلان وفلان . وقال الآخرون مثل ذلك تفاخروا بالأحياء ثم قالوا : انطلقوا بنا إلى القبور فجعلت إحدى الطائفتين تقول : فيكم مثل فلان يشيرون إلى القبور ومثل فلان . وفعل الآخرون مثل ذلك فأنزل الله : ﴿ أَلْهَنَكُمْ التَّكَاثُرُ ﴾ ① حَتَّى دُرِّمْتُمُ الْمَقَابِرَ ② لقد كان لكم فيما رأيتم عبرة وشغل . وقال قتادة : ﴿ أَلْهَنَكُمْ التَّكَاثُرُ ﴾ ① حَتَّى دُرِّمْتُمُ الْمَقَابِرَ ② كانوا يقولون : نحن أكثر من بني فلان ، ونحن أعدو من بني فلان وهم كل يوم يتساقطون إلى آخرهم والله ما زالوا كذلك حتى صاروا من أهل القبور كلهم . والصحيح أن المراد بقوله : ﴿ دُرِّمْتُمُ الْمَقَابِرَ ﴾ أي : صرتم إليها ودفنتم فيها . كما في الصحيح أن رسول الله ﷺ دخل على رجل من الأعراب يعودُه فقال : « لَا بَأْسَ طَهُورٍ إِنْ شَاءَ اللَّهُ » فقال : قلت : طهور بل هي حمى تفور ، على شيخ كبير تزيه القبور ،

(١) أخرجه البخاري في الرقاق (٦٤٤٠) . (٢) أخرجه أحمد في مسنده (٢٤/٤) .

(٣) أخرجه البخاري في الرقاق (٦٥١٤) ومسلم في الزهد (٥) والترمذي في السنن (٢٣٧٩) .

(٤) أخرجه الترمذي في السنن (٢٣٣٩) وأحمد في مسنده (١٩٢/٣) والطبراني في الكبير (٢٥٨/٧) .

قال : « فَتَعَمَّ إِذَنْ » ^(١) . وعن علي قال : ما زلنا نشك في عذاب القبر حتى نزلت : ﴿ أَلَمْ نَكُنْ أَلَمْ نَكُنْ ﴾ .
 حَتَّى زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ ﴿ وَعَن مِّمُونِ بْنِ مَهْرَانَ قَالَ : كُنْتُ جَالِسًا عِنْدَ عُمَرَ بْنِ عَبْدِ الْعَزِيزِ فَقَرَأَ : ﴿ أَلَمْ نَكُنْ أَلَمْ نَكُنْ ﴾ حَتَّى زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ ﴿ فَلَبِثْتُ هُنِيئَةً ثُمَّ قَالَ : يَا مِمْوْنُ مَا أَرَى الْمَقَابِرَ إِلَّا زِيَارَةً وَمَا لِلزَّائِرِ بِدَ مِنْ أَنْ يَرْجِعَ إِلَى مَنْزِلِهِ . قَالَ أَبُو مُحَمَّدٍ يَعْنِي أَنْ يَرْجِعَ إِلَى مَنْزِلِهِ أَيْ : إِلَى جَنَّةٍ أَوْ إِلَى نَارٍ . وَهَكَذَا ذَكَرَ أَنَّ بَعْضَ الْأَعْرَابِ سَمِعَ رَجُلًا يَتْلُو هَذِهِ الْآيَةَ ﴿ حَتَّى زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ ﴾ فَقَالَ : بَعَثَ الْيَوْمَ رَبُّبِ الْكَعْبَةِ أَيْ أَنَّ الزَّائِرَ سَيَرْحَلُ مِنْ مَقَامِهِ ذَلِكَ إِلَى غَيْرِهِ . وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴾ ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿ . قَالَ الْحَسَنُ الْبَصْرِيُّ : هَذَا وَعِيدٌ بَعْدَ وَعِيدٍ . وَقَالَ الضَّحَّاكُ : ﴿ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴾ يَعْنِي أَيُّهَا الْكَافِرُ ﴿ ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴾ يَعْنِي أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ . وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ ﴾ أَيْ : لَوْ عَلِمْتُمْ حَقَّ الْعِلْمِ لِمَا أَلْهَاكُمْ التَّكَاثُرُ عَنْ طَلَبِ الدَّارِ الْآخِرَةِ حَتَّى صَرَفْتُمْ إِلَى الْمَقَابِرِ . ثُمَّ قَالَ : ﴿ لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ ﴾ ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ الْيَقِينِ ﴿ هَذَا تَفْسِيرُ الْوَعِيدِ الْمُتَقَدِّمِ وَهُوَ قَوْلُهُ : ﴿ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴾ ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿ .
 تَوَعَّدُهُمْ بِهَذَا الْحَالِ وَهُوَ رُؤْيَا أَهْلِ النَّارِ الَّتِي إِذَا زُفِرَتْ زُفْرَةٌ وَاحِدَةٌ خَرَّ كُلُّ مَلَكٍ مُقَرَّبٍ وَنَبِيٍّ مُرْسَلٍ عَلَى رُكْبَتَيْهِ مِنَ الْمَهَابَةِ وَالْعَظَمَةِ وَمَعَانِيَةِ الْأَهْوَالِ عَلَى مَا جَاءَ بِهِ الْأَثَرُ الْمُرَوِّى فِي ذَلِكَ . وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ ثُمَّ لَتَنْتَأَنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّصِيرِ ﴾ أَيْ : ثُمَّ لَتَسْأَلَنَّ يَوْمَئِذٍ عَنْ شُكْرِهِ مَا أَنْعَمَ اللَّهُ بِهِ عَلَيْكُمْ مِنَ الصَّحَّةِ وَالْأَمْنِ وَالرِّزْقِ وَغَيْرِ ذَلِكَ مَا إِذَا قَابَلْتُمْ بِهِ نِعْمَهُ مِنْ شُكْرِهِ وَعِبَادَتِهِ . عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ؓ قَالَ : بَيْنَمَا أَبُو بَكْرٍ وَعُمَرُ جَالِسَانِ إِذْ جَاءَهُمَا النَّبِيُّ ﷺ فَقَالَ : « مَا أَجْلَسَكُمَا هَهُنَا ؟ » قَالَا : وَالَّذِي بَعَثَكَ بِالْحَقِّ مَا أَخْرَجَنَا مِنْ بَيْوتِنَا إِلَّا الْجُوعُ ، قَالَ : « وَالَّذِي بَعَثَنِي بِالْحَقِّ مَا أَخْرَجَنِي غَيْرُهُ » . فَاِنْطَلَقَا حَتَّى أَتَوَا بَيْتَ رَجُلٍ مِنَ الْأَنْصَارِ فَاسْتَقْبَلَتْهُمُ الْمَرْأَةُ ، فَقَالَ لَهَا النَّبِيُّ ﷺ : « أَتَيْنَ فُلَانٌ ؟ » فَقَالَتْ : ذَهَبَ يَسْتَعِذُّ لَنَا مَاءَ فِجَاءٍ صَاحِبِهِمْ يَحْمِلُ قَرْبَتَهُ ؛ فَقَالَ : مَرَجِبًا . مَا زَارَ الْعِبَادَ شَيْءٌ أَفْضَلَ مِنْ نَبِيِّ زَارَنِي الْيَوْمَ ، فَعَلَّقَ قَرْبَتَهُ بِكَرْبِ نَخْلَةٍ ، وَانْطَلَقَ فِجَاءَهُمْ بِعِذْقٍ ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ : « أَلَا كُنْتُ اجْتَنَيْتُ ؟ » فَقَالَ : أَحْبَبْتُ أَنْ تَكُونُوا الَّذِينَ تَخْتَارُونَ عَلَى أَعْيُنِكُمْ ، ثُمَّ أَخَذَ الشَّفْرَةَ فَقَالَ لَهُ النَّبِيُّ ﷺ : « إِيَّاكَ وَالْحُلُوبُ » فَذَبَحَ لَهُمْ يَوْمَئِذٍ فَأَكَلُوا فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ : « لَتَسْأَلَنَّ عَنْ هَذَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ . أَخْرَجَكُمْ الْجُوعُ فَلَمْ تَرْجِعُوا حَتَّى أَصَبَّيْتُمْ هَذَا فَهَذَا مِنَ النَّعِيمِ » ^(٢) . وَعَنْ أَبِي عَسِيبٍ - مَوْلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ - قَالَ : خَرَجَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ لَيْلًا فَمَرَّ بِي فَدَعَانِي فَخَرَجْتُ إِلَيْهِ ثُمَّ مَرَّ بِأَبِي بَكْرٍ فَدَعَاهُ فَخَرَجَ إِلَيْهِ ثُمَّ مَرَّ بِعُمَرَ فَدَعَاهُ فَخَرَجَ إِلَيْهِ ، فَاِنْطَلَقَ حَتَّى دَخَلَ حَائِطًا لِبَعْضِ الْأَنْصَارِ فَقَالَ لَصَاحِبِ الْحَائِطِ : « أَطْعِمْنَا » فَجَاءَهُ بِعِذْقٍ فَوَضَعَهُ فَأَكَلَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَأَصْحَابُهُ ثُمَّ دَعَا بِمَاءٍ بَارِدٍ فَشَرِبَ وَقَالَ : « لَتَسْأَلَنَّ عَنْ هَذَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ » قَالَ : فَأَخَذَ عُمَرُ الْعِذْقَ فَضْرَبَ بِهِ الْأَرْضَ حَتَّى تَنَاقَرَتِ الْبُسْرُ قَبْلَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ثُمَّ قَالَ : يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنَّا لِمَسْئُولُونَ عَنْ هَذَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ ؟ قَالَ : « نَعَمْ إِلَّا مِنْ ثَلَاثَةٍ : خِزْفَةُ لَفٍّ بِهَا الرَّجُلُ عَوْرَتَهُ ، أَوْ كِسْرَةُ سِدِّ بِهَا جَوْعَتُهُ ، أَوْ جُحُورٌ يَدْخُلُ فِيهِ مِنَ الْحَرِّ وَالْقَرِّ » ^(٣) .

وعن جابر بن عبد الله قال : أكل رسول الله ﷺ وأبو بكر وعمر رطبًا وشربوا ماء فقال رسول

(١) أخرجه البخاري في التوحيد (٧٤٧٠) والبيهقي في السنن (٣٨٣/٣) والطبراني في الكبير (٣٤٢/١١) .

(٢) أخرجه مسلم في الأشربة (١٤٠) . (٣) أخرجه أحمد في مسنده (٨١/٥) .

اللَّهُ : « هَذَا مِنَ النَّعِيمِ الَّذِي تُسْأَلُونَ عَنْهُ » ^(١) وعن محمود بن الربيع قال : لما نزلت : ﴿ أَلَمْ يَكُنْ لَهُ الْكُتُبُ ﴾ فقرأ حتى بلغ ﴿ لَتَسْتَخْلَنَ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ ﴾ قالوا : يا رسول الله عن أي نعيم نسأل ؟ وإنما هما الأسودان الماء والتمر وسيوفنا على رقابنا والعدو حاضر فعن أي نعيم نسأل ؟ قال : « أَمَّا إِنَّ ذَلِكَ سَيَكُونُ » ^(٢) وعن أبي هريرة ؓ قال : قال النبي ﷺ : « إِنَّ أَوَّلَ مَا يُسْأَلُ عَنْهُ - يَغْنِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ - الْعَبْدُ مِنَ النَّعِيمِ أَنْ يُقَالَ لَهُ أَلَمْ نُصِصْ لَكَ بَدَنَكَ وَنَزَوَّكَ مِنَ الْمَاءِ الْبَارِدِ ؟ » ^(٣) وعن ابن مسعود عن النبي ﷺ في قوله : ﴿ ثُمَّ لَتَسْتَخْلَنَ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ ﴾ قال : « الْأَمْنُ وَالصُّحَّةُ » ^(٤) وقال زيد بن أسلم عن رسول الله ﷺ : ﴿ ثُمَّ لَتَسْتَخْلَنَ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ ﴾ يعني : شبع البطون وبارد الشراب وظلال المساكن واعتدال الخلق ولذة النوم .

وقال سعيد بن جبير : حتى عن شربة عسل . وقال مجاهد : عن كل لذة من لذات الدنيا . وقال الحسن البصري : من النعيم الغذاء والعشاء . وقال أبو قلابة : من النعيم أكل السمن والعسل بالخبز النقي . وقول مجاهد أشمل هذه الأقوال ، وقال علي بن أبي طلحة ، عن ابن عباس : ﴿ ثُمَّ لَتَسْتَخْلَنَ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ ﴾ قال : النعيم صحة الأبدان والاسماع والأبصار ، يسأل الله العباد فيما استعملوها وهو أعلم بذلك منهم وهو قوله تعالى : ﴿ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا ﴾ . وعن ابن عباس قال : قال رسول الله ﷺ : « نِعْمَتَانِ مَغْبُونٌ فِيهِمَا كَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ : الصُّحَّةُ وَالْفَرَاغُ » ^(٥) . ومعنى هذا أنهم مقصرون في شكر هاتين النعمتين لا يقومون بواجبهما ومن لا يقوم بحق ما وجب عليه فهو مغبون . عن أبي هريرة ؓ عن النبي ﷺ قال : « يَقُولُ اللَّهُ ﷻ - قَالَ عِفَانُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ - : يَا ابْنَ آدَمَ حَمَلْتُكَ عَلَى الْخَيْلِ وَالْإِبِلِ وَزَوَّجْتُكَ النِّسَاءَ وَجَعَلْتُكَ تَرْبِعَ وَتَرَأْسَ فَأَيْنَ شُكْرُ ذَلِكَ ؟ » ^(٦)

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٣٥١/٣) .

(٢) أخرجه الترمذي في السنن (٣٣٥٨) .

(٣) أخرجه الترمذي في السنن (٢٣٠٤) وابن ماجه في السنن (٤١٧٠) وأحمد في مسنده (٣٤٤/١) .

(٤) أخرجه أحمد في مسنده (٤٩٢/٢) .

(٥) أخرجه أحمد في مسنده (١٦٤/١) .

(٦) ذكره السيوطي في الدر المنثور (٣٨٨/٦) .

سورة العصر

ذكروا أن عمرو بن العاص وفد على مسيلمة الكذاب وذلك بعد ما بعث رسول الله ﷺ وقبل أن يسلم عمرو فقال له مسيلمة : ماذا أنزل على صاحبكم في هذه المدة ! فقال : لقد أنزل عليه سورة وجيزة بليغة ، فقال : وما هي ؟ فقال : ﴿ وَالْعَصْرِ ۝ إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ ۝ إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ۚ وَتَوَّصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَّصَوْا بِالصَّبْرِ ۝ ﴾ ففكر مسيلمة هنيهة ثم قال : وقد أنزل علي مثلها ، فقال له عمرو وما هي ؟ فقال : يا وبر يا وبر وإنما أنت أذنان وصدر وسائرك حفر نقر ، ثم قال : كيف ترى يا عمرو ؟ فقال له عمرو : والله إنك لتعلم أنني أعلم أنك تكذب . والوبر دوية تشبه الهر أعظم شيء فيه أذناه وصدره وباقيه دميم فأراد مسيلمة أن يركب من هذا الهذيان ما يعارض به القرآن . فلم يخرج ذلك على عابد الأوثان في ذلك الزمان . وعن عبيد الله بن حفص قال : كان الرجلان من أصحاب رسول الله إذا التقيا لم يفترقا إلا على أن يقرأ أحدهما على الآخر سورة العصر إلى آخرها ثم يسلم أحدهما على الآخر . وقال الشافعي رحمه الله : لو تدبر الناس هذه السورة لوسعتهم .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ وَالْعَصْرِ ۝ إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ ۝ إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ۚ وَتَوَّصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَّصَوْا بِالصَّبْرِ ۝ ﴾ .
العصر : الزمان الذي يقع فيه حركات بني آدم من خير وشر . وقال مالك عن زيد بن أسلم : هو العصر ، والمشهور الأول فأقسم تعالى بذلك على أن الإنسان لفي خسر أي في خسارة وهلاك ﴿ إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ۚ ﴾ فاستثنى من جنس الإنسان عن الخسران الذين آمنوا بقلوبهم وعملوا الصالحات بجوارحهم ، ﴿ وَتَوَّصَوْا بِالْحَقِّ ﴾ وهو : أداء الطاعات ، وترك المحرمات ﴿ وَتَوَّصَوْا بِالصَّبْرِ ﴾ أي : على المصائب والأقدار وأذى من يؤدي ممن يأمرونه بالمعروف وينهونه عن المنكر .

سورة الهمزة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ﴾ ❶ الَّذِي جَمَعَ مَالًا وَعَدَّدَهُ ❷ يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُ أَخْلَدَهُ ❸ كَلَّا لَيَكْبَدَنَّ فِي الْخُطْمَةِ ❹ وَمَا أَذْرَكَ مَا الْخُطْمَةُ ❺ نَارُ اللَّهِ الْمَوْقُودَةُ ❻ الَّتِي تَطْلُعُ عَلَى الْأَفْقِ ❷ إِنِّهَا عَلَيْهِمْ مُّوَصَّدَةٌ ❸ فِي عَمْرِ مُّذَذَّتُمْ ❹ .

الهماز بالقول واللماز بالفعل يعني : يزدرى الناس ويتقص بهم ، قال ابن عباس : ﴿هُمَزَةٌ لُّمَزَةٌ﴾ طعان معياب . وقال الربيع بن أنس : الهمزة يهززه في وجهه ، واللمزة من خلفه . وقال قتادة : الهمزة واللمزة لسانه وعينه ويأكل لحوم الناس ويطعن عليهم . وقال مجاهد : الهمزة باليد والعين واللمزة باللسان ، وهكذا قال ابن زيد . وقال مالك عن زيد بن أسلم : همزة لحوم الناس . ثم قال بعضهم : المراد بذلك الأخنس بن شريق ، وقيل غيره . وقال مجاهد : هي عامة . وقوله تعالى : ﴿الَّذِي جَمَعَ مَالًا وَعَدَّدَهُ﴾ ❶ أي : جمعه بعضه على بعض وأحصى عدده ، وقال محمد بن كعب : ألهاه ماله بالنهار هذا إلى هذا فإذا كان الليل نام كأنه جيفة منتنة . وقوله تعالى : ﴿يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُ أَخْلَدَهُ﴾ ❷ أي : يظن أن جمعه المال يخلده في هذه الدار . ﴿كَلَّا﴾ ❸ أي : ليس الأمر كما زعم ولا كما حسب . ثم قال تعالى : ﴿لَيَكْبَدَنَّ فِي الْخُطْمَةِ﴾ ❹ أي : ليلقين هذا الذي جمع مالا فعدده في الخطمة ، وهي : اسم صفة من أسماء النار ؛ لأنها تحطم من فيها . ولهذا قال : ﴿وَمَا أَذْرَكَ مَا الْخُطْمَةُ﴾ ❺ نَارُ اللَّهِ الْمَوْقُودَةُ ❻ الَّتِي تَطْلُعُ عَلَى الْأَفْقِ ❷ قال ثابت البناني : تحرقهم إلى الأفق وهم أحياء ، ثم يقول : لقد بلغ منهم العذاب ثم ييكي . وقال محمد بن كعب : تأكل كل شيء من جسده حتى إذا بلغت فؤاده حذو حلقه ترجع على جسده . وقوله تعالى : ﴿إِنِّهَا عَلَيْهِمْ مُّوَصَّدَةٌ﴾ ❸ أي مطبقة . وقوله تعالى : ﴿فِي عَمْرِ مُّذَذَّتُمْ﴾ ❹ : عمد من حديد ، وقال السدي : من نار ، وقال ابن عباس : يعني : الأبواب هي المدة ، وقال قتادة في قراءة عبد الله بن مسعود - إنها عليهم مؤصدة بعمد ممددة - وقال ابن عباس : أدخلهم في عمد ممددة عليهم بعماد في أعناقهم السلاسل فسدت بها الأبواب . وقال قتادة : كنا نحدث أنهم يعذبون في النار . واختاره ابن جرير . وقال أبو صالح ﴿فِي عَمْرِ مُّذَذَّتُمْ﴾ ❹ : يعني : القيود الثقالة .

سورة الفيل

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ ۝ أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدُهُمْ فِي تَضَلِيلٍ ۝ وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ ۝ تَرْمِيهِمْ بِحِجَارٍ مِّن سِجِيلٍ ۝ فَجَعَلْنَاهُمْ نَصِيبًا مِّلًّا ۝ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ ۝ ﴾

هذه من النعم التي امتن الله بها على قريش فيما صرف عنهم من أصحاب الفيل الذين كانوا قد عزموا على هدم الكعبة ومحو أثرها من الوجود فأبادهم الله وأرغم أنافهم وخيب سعيهم وأضل عملهم وردهم بشرّ خيبة . وكانوا قومًا نصارى وكان دينهم إذ ذاك أقرب حالًا مما كان عليه قريش من عبادة الأوثان ، ولكن كان هذا من باب الإرهاص والتوطئة لمبعث رسول الله ﷺ فإنه في ذلك العام ولد على أشهر الأقوال ولسان حال القدر يقول : لم ننصركم يا معشر قريش على الحبشة لخيرتكم عليهم ، ولكن صيانة للبيت العتيق الذي سنشرفه ونعظمه ونوقره ببعثة النبي الأمي محمد صلوات الله وسلامه عليه خاتم الأنبياء . وهذه قصة أصحاب الفيل على وجه الإيجاز والاختصار والتقريب ، قد تقدم في قصة أصحاب الأخدود : أن ذا نواس وكان آخر ملوك حمير وكان مشركًا ، وهو الذي قتل أصحاب الأخدود وكانوا نصارى وكانوا قريثًا من عشرين ألفًا ، فلم يقلت منهم إلا دوس ذو ثعلبان فذهب فاستغاث بقيصر ملك الشام وكان نصرانيًا فكتب له إلى النجاشي ملك الحبشة لكونه أقرب إليهم ، فبعث معه أميرين أرياط وأبرهة بن الصباح أبا يكسوم في جيش كثيف ، فدخلوا اليمن فجاسوا خلال الديار ، واستلبوا الملك من حمير ، وهلك ذو نواس غريقًا في البحر . واستقل الحبشة بملك اليمن وعليهم هذان الأميران أرياط وأبرهة فاختلفا في أمرهما وتصاولا وتقاتلا وتصافًا ، فقال أحدهما للآخر : إنه لا حاجة بنا إلى اصطدام الجيشين بيننا ، ولكن ابرز إلي وأبرز إليك فأينا قتل الآخر استقل بعده بالملك ، فأجابته إلى ذلك فتبارزا وخلف كل واحد منهما قناة فحمل أرياط على أبرهة فضربه بالسيف فشرم أنفه وفمه وشق وجهه ، وحمل عتودة مولى أبرهة على أرياط فقتله ورجع أبرهة جريحًا فداوى جرحه فبرأ واستقل بتدبير جيش الحبشة باليمن فكتب إليه النجاشي يلومه على ما كان منه ويتوعده ويحلف ليطأن بلاده ويجزئ ناصيته ، فأرسل إليه أبرهة يترقب له ويصانعه وبعث مع رسوله بهدايا وتحف وبجراب فيه من تراب اليمن وجز ناصيته فأرسلها معه ويقول في كتابه : ليطأ الملك على هذا الجراب فيبرق قسنه وهذه ناصيتي قد بعثت بها إليك ، فلما وصل ذلك إليه أعجبه منه ورضي عنه وأقره على عمله ، وأرسل أبرهة يقول للنجاشي : إني سأبني لك كنيسة بأرض اليمن لم ين قبلها مثلها ، فشرع في بناء كنيسة هائلة بصنعاء ربيعة البناء عالية الفناء مزخرفة الأرجاء سمتها العرب : القليس ؛ لارتفاعها ؛ لأن الناظر إليها تكاد تسقط قلنسوته عن رأسه من ارتفاع بنائها ، وعزم أبرهة الأشرم على أن يصرف حج العرب إليها كما يحج إلى الكعبة بمكة ونادى بذلك في مملكته فكرهت العرب العدنانية والقحطانية ذلك ، وغضبت قريش لذلك غضبًا شديدًا حتى قصدوا بعضهم وتوصل إلى أن دخلها ليلاً فأحدث فيها وكّر راجعًا ، فلما

رأى السدنة ذلك الحدث رفعوا أمره إلى ملكهم أبرهة ، وقالوا له : إنما صنع هذا بعض قريش غضبنا لبيتهم الذي ضاهيت هذا به . فأقسم أبرهة ليسيرن إلى بيت مكة وليخربنه حجرًا حجرًا .

وذكر مقاتل بن سليمان أن فتية من قريش دخلوها فأججوا فيها نارًا وكان يومًا فيه هواء شديد فاحترقت وسقطت إلى الأرض فتأهب أبرهة لذلك ، وسار في جيش كثيف عرمرم لئلا يصدده أحد عنه واستصحب معه فيلاً عظيمًا كبير الجثة لم ير مثله يقال له : محمود . وكان قد بعثه إليه النجاشي ملك الحبشة لذلك . ويقال : كان معه ثمانية أفيال وقيل : اثنا عشر فيلاً غيره فالله أعلم . يعني : ليهدم به الكعبة بأن يجعل السلاسل في الأركان وتوضع في عنق الفيل ، ثم يجرز ليلقى الحائط جملة واحدة ، فلما سمعت العرب بمسيره أعظموه ذلك جدًا ، ورأوا أن حقًا عليهم المحاجة دون البيت ، ورد من أراده بكيد فخرج إليه رجل من أشراف أهل اليمن وملوكهم ، يقال له : ذو نفر فدعا قومه ومن أجابه من سائر العرب إلى حرب أبرهة وجهاده عن بيت الله وما يريد من هدمه وخرابه ، فأجابوه وقاتلوا أبرهة فهزمهم لما يريد الله ﷻ من كرامة البيت وتعظيمه وأسر ذو نفر فاستصحبه معه ثم مضى لوجهه حتى إذا كان بأرض خثعم اعترض له نفيل بن حبيب الخثعمي في قومه شهران وناهس ، فقاتلوه ، فهزمهم أبرهة ، وأسر نفيل بن حبيب فأراد قتله ثم عفا عنه واستصحبه معه ليدله في بلاد الحجاز ، فلما اقترب من أرض الطائف خرج إليه أهلها ثقيف وصانعوه خيفة على بيتهم الذي عندهم الذي يسمونه اللات فأكرمهم ، وبعثوا معه أبا رغال دليلًا فلما انتهى أبرهة إلى المخمس وهو قريب من مكة نزل به وأغار جيشه على سرح أهل مكة من الإبل وغيرها فأخذوه وكان في السرح مائتا بعير لعبد المطلب ، وكان الذي أغار على السرح بأمر أبرهة أمير المقدمة وكان يقال له : الأسود بن مقصود ، فهجاه بعض العرب فيما ذكره ابن إسحاق ، وبعث أبرهة حنطة الحميري إلى مكة وأمره أن يأتيه بأشراف قريش وأن يخبره أن الملك لم يجيء لقتالكم إلا أن تصدوه عن البيت ، فجاء حنطة فدل على عبد المطلب بن هاشم وبلغه عن أبرهة ما قال ، فقال له عبد المطلب : والله ما نريد حربه وما لنا بذلك من طاقة ، هذا بيت الله الحرام وبيت خليله إبراهيم فإن يمنعه منه فهو بيته وحرمة ، وإن يخلي بينه وبينه فوالله ما عندنا دفع عنه . فقال له حنطة : فاذهب معي إليه ، فذهب معه فلما رآه أبرهة أجله ، وكان عبد المطلب رجلًا جسيمًا حسن المنظر ، ونزل أبرهة عن سريه وجلس معه على البساط ؛ وقال لترجمانه : قل له : ما حاجتك ؟ فقال لترجمانه : إن حاجتي أن يرد عليَّ الملك مائتي بعير أصابها لي ، فقال أبرهة لترجمانه : لقد كنت أعجبني حين رأيتك ، ثم قد زهدت فيك حين كلمتي ، أتكلمني في مائتي بعير أصبتها لك ؟ وتترك بيتًا هو دينك ودين آبائك قد جئت لهدمه لا تكلمني فيه ، فقال له عبد المطلب : إني أنا رب الإبل وإن للبيت ربًا سيمنعه . قال : ما كان ليمنع مني قال : أنت وذاك ، ويقال إنه ذهب مع عبد المطلب جماعة من أشراف العرب فعرضوا على أبرهة ثلث أموال تهامة على أن يرجع عن البيت فأبى عليهم ، ورد أبرهة على عبد المطلب إبله ورجع عبد المطلب إلى قريش فأمرهم بالخروج من مكة والتحصن في رؤوس الجبال تخوفًا عليهم من معرفة الجيش ، ثم قام عبد المطلب فأخذ بحلقة باب الكعبة ، وقام معه نفر من قريش يدعون الله ويستنصرونه على أبرهة وجنده ، فقال عبد المطلب وهو أخذ بحلقة باب الكعبة :

لَا هُمْ إِنَّ الْمَرْءَ يَمْ
نَع رَحْلَهُ فَامْتَنِع رِحَالُكَ
لَا يَغْلِبَنَّ صَالِبُهُمْ
وَمِحَالُهُمْ أَبَدًا مِخَالُكَ

قال ابن إسحاق : ثم أرسل عبد المطلب حلقة الباب ثم خرجوا إلى رؤوس الجبال . وذكر مقاتل بن سليمان أنهم تركوا عند البيت مائة بدنة مقلدة لعل بعض الجيش ينال منها شيئاً بغير حق فينتقم الله منهم . فلما أصبح أبرهة تهيأ لدخول مكة وهياً فيه وكان اسمه محموداً ، وعبأ جيشه فلما وجهوا الفيل نحو مكة أقبل نفيل بن حبيب حتى قام إلى جنبه ثم أخذ بأذنه وقال : ابرك محمود وارجع راشداً من حيث جئت ، فإنك في بلد الله الجرام ثم أرسل أذنه ، فبرك الفيل وخرج نفيل بن حبيب يشند حتى أصعد في الجبل ، وضربوا الفيل ليقوم فأبى فضربوا في رأسه بالطبرزين وأدخلوا محاجن لهم في مراقه فتزعوها ليقوم فأبى فوجهوه راجعاً إلى اليمن . فقام يهرول ، ووجهوه إلى الشام ففعل مثل ذلك ، ووجهوه إلى المشرق ففعل مثل ذلك ، ووجهوه إلى مكة فبرك . وأرسل الله عليهم طيراً من البحر أمثال الخطاطيف والبلسان ، مع كل طائر منها ثلاثة أحجار يحملها : حجر في منقاره وحجران في رجليه أمثال الحمص والعدس لا يصيب منهم أحداً إلا هلك وليس كلهم أصابت ؟ وخرجوا هارين يتتدرون الطريق ويسألون عن نفيل ليدلهم على الطريق ، هذا ونفيل على رأس الجبل مع قريش وعرب الحجاز ينظرون ماذا أنزل الله بأصحاب الفيل من النعمة ، وجعل نفيل يقول :

أَيَّنَ الْمَقْرُ وَالْإِلَهَ الطَّالِبُ
وَالْأَشْرَمَ الْمُغْلُوبَ لَيْسَ الْعَالِبُ

قال ابن إسحاق وقال نفيل في ذلك أيضاً :

أَلَا حُيِّيتَ عَنَّا يَا وَدِينَا
وَدِينَةَ لَوْ رَأَيْتَ وَلَا تَرِيهِ
إِذَا لَعَنَ زَيْنِي وَحَمِدْتَ أَمْرِي
حَمِدْتُ اللَّهَ إِذْ أَبْصَرْتُ طَيْرًا
فَكُلُّ الْقَوْمِ تَسْأَلُ عَنْ نَفِيلٍ
نَعْمَنَا كُمْ مَعَ الْإِضْبَاحِ غَيْثَا
لَدَى جَنْبِ الْمُحْصَبِ مَا رَأَيْنَا
وَلَمْ تَأْسِنِي عَلَى مَا فَاتَ بَيْنَا
وَجِئْتُ حِجَارَةً تُلْقَى عَلَيْنَا
كَأَنَّ عَلَيَّ لِلْحُبَشَانِ دَيْنَا (١)

وذكر الواقدي بإسناده أنهم لما تعبوا لدخول الحرم ، هبوا الفيل جعلوا لا يصرفونه إلى جهة من سائر الجهات إلا ذهب فيها فإذا وجهوه إلى الحرم يبيض وصاح ، وجعل أبرهة يحمل على سائس الفيل وينهره ويضربه ليقهر الفيل على دخول الحرم وطال الفصل في ذلك ، هذا وعبد المطلب وجماعة من أشرف مكة فيهم المطعم بن عدي وعمرو بن عائد بن عمران بن مخزوم ومسعود بن عمرو الثقفي على حراء ينظرون ما الحبشة يصنعون ، وماذا يلقون من أمر الفيل وهو العجب العجائب ، فبينما هم كذلك إذ بعث الله عليهم طيراً أبابيل أي : قطعاً قطعاً صفراً دون الحمام وأرجلها حمر ومع كل طائر ثلاثة أحجار وجاءت فحلقت عليهم وأرسلت تلك الأحجار ، عليهم فهلكوا . وقال محمد بن إسحاق : جاؤا بفيلين فأما محمود فريض ، وأما الآخر فشجع فحصب .

وقال وهب بن منبه : كان معهم فيلة ، فأما محمود وهو فيل الملك فربض ليقتردي به بقية الفيلة ، وكان فيها فيل تشجع فحصب فهربت بقية الفيلة . وقال عطاء بن يسار وغيره : ليس كلهم أصابه العذاب في الساعة الراهنة ، بل منهم من هلك سرياً ومنهم من جعل يتساقط عضواً عضواً وهم هاربون . وكان أبرهة ممن تساقط عضواً عضواً حتى مات ببلاد خثعم . وقال ابن إسحاق : فخرجوا يتساقطوا بكل طريق ويهلكون على كل منهل وأصيب أبرهة في جسده وخرجوا به معهم يسقط أئمة أئمة حتى قدموا به صنعاء وهو مثل فرخ الطائر . فما مات حتى انصدع صدره عن قلبه فيما يزعمون . وذكر مقاتل بن سليمان أن قريشاً أصابوا مالاً جزيلاً من أسلابهم وما كان معهم ، وأن عبد المطلب أصاب يومئذ من الذهب ما ملأ حفرة . قال ابن إسحاق : وحدثني يعقوب بن عتبة أنه حدث أن أول ما رثيت الحصبة والجدرى بأرض العرب ذلك العام ، وأنه أول ما رئي به مرائر الشجر الحرمل والحنظل والعسر ذلك العام ، وهكذا روي عن عكرمة من طريق جيد . قال ابن إسحاق : فلما بعث الله محمداً ﷺ كان فيما يعد به على قريش من نعمته عليهم وفضله ما رد عليهم من أمر الحبشة لبقاء أمرهم ومدتهم فقال : ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ ۚ أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ ۚ وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ ۚ تَرْمِيهِمْ بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ ۚ فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ ۚ ﴾ قال ابن هشام : الأبايل الجماعات ولم تتكلم العرب بواحدة . قال : وأما السجيل فعن يونس النحوي وأبي عبيدة أنه عند العرب الشديد الصلب . قال وذكر بعض المفسرين أنهما كلمتان بالفارسية جعلتهما العرب كلمة واحدة وإنما هو سنج وجل يعني بالسنج الحجر والجل الطين . يقول الحجابة من هذين الجنسين الحجر والطين قال : والعصف ورق الزرع الذي لم يقضب ، واحدته عصفه انتهى ما ذكره . وعن عبد الله وأبي سلمة بن عبد الرحمن ﴿ طَيْرًا أَبَابِيلَ ﴾ قال : الفرق . وقال ابن عباس والضحاك : أبابيل يتبع بعضها بعضاً . وقال الحسن البصري وقتادة : الأبايل الكثيرة . وقال مجاهد : شتى متتابعة مجتمعة . وقال ابن زيد : الأبايل المختلفة تأتي من ههنا ومن ههنا أتتهم من كل مكان ، وقال الكسائي : سمعت بعض النحويين يقول : واحد الأبايل إليل .

عن ابن عباس ﴿ وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ ﴾ قال : لها خراطيم كخراطيم الطير وأكف كأف الكلاب . عن عكرمة في قوله تعالى : ﴿ طَيْرًا أَبَابِيلَ ﴾ قال : كانت طيراً خضراً خرجت من البحر لها رؤوس كرؤوس السباع . وعن عبيد بن عمير قال : هي طيور سود بحرية في مناقيرها وأظافيرها الحجارة . وقال سعيد بن جبيرة : كانت طيراً خضراً لها مناقير صفر تختلف عليهم . وعن ابن عباس ومجاهد وعطاء : كانت الطير الأبايل مثل التي يقال لها : عنقاء مغرب ، وعن عبيد بن عمير قال : لما أراد الله أن يهلك أصحاب الفيل بعث عليهم طيراً أنشئت من البحر أمثال الخطاطيف ، كل طير منها يحمل ثلاثة أحجار مجزعة حجرين في رجليه وحجراً في منقاره . قال : فجاءت حتى صفت على رؤوسهم ثم صاحت ، وألقت ما في أرجلها ومناقيرها فما يقع على رأس رجل إلا خرج من دبره ولا يقع على شيء من جسده إلا خرج من الجانب الآخر وبعث الله ريحاً شديدة فضربت الحجارة فزادتها شدة فأهلكوا جميعاً .

وقوله تعالى : ﴿ فَجَعَلْنَاهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ ﴾ قال سعيد بن جبیر : يعني التبن الذي تسميه العامة هبور ، وقال سعيد : ورق الحنطة وعنه : العصف التبن والمأكول القصيل يجز للدواب . وعن ابن عباس : العصف القشرة التي على الحبة كالغلاف على الحنطة .

وقال ابن زيد : العصف ورق الزرع ووزق البقل إذا أكلته البهائم فرائثه فصار دريئاً ، والمعنى : أن الله سبحانه وتعالى أهلكهم ودمرهم وردهم بكيدهم وغيظهم لم ينالوا خيراً وأهلك عامتهم ولم يرجع منهم مخبر إلا وهو جريح كما جرى للملكهم أبرهة فإنه انصدع صدره عن قلبه حين وصل إلى بلده صنعاء وأخبرهم ماذا جرى لهم ثم مات . فملك بعده ابنه يكسوم ، ثم من بعده أخوه مسروق ابن أبرهة . ثم خرج سيف بن ذي يزن الحميري إلى كسرى فاستعانه على الحيشة فأنفذ معه من جيوشه ، فقاتلوا معه فرد الله إليهم ملكهم وما كان في آبائهم من الملك ، وجاءته وفود العرب بالتهنئة . وعن عائشة قالت : لقد رأيت قائد الفيل وسائسه بمكة أعميين مقعدين يستطعمان .

قلت : كان اسم قائد الفيل أنيساً . وقد ذكر الحافظ أبو نعيم في كتاب دلائل النبوة قصة أصحاب الفيل ولم يذكر أن أبرهة قدم من اليمن ، وإنما بعث على الجيش رجلاً يقال له : شمر بن مقصود وكان الجيش عشرين ألفاً وذكر أن الطير طرقتهم ليلاً فأصبحوا صرعى . وهذا السياق غريب جداً وإن كان أبو نعيم قد قواه ورجحه على غيره . والصحيح أن أبرهة الأشرم الحبشي قدم مكة كما دل على ذلك السياقات والأشعار . وهكذا روي عن عروة أن أبرهة بعث الأسود بن مقصود على كتيبة معهم الفيل ولم يذكر قدوم أبرهة نفسه ، والصحيح قدومه ولعل ابن مقصود كان على مقدمة الجيش والله أعلم . ثم ذكر ابن إسحاق شيئاً من أشعار العرب فيما كان من قصة أصحاب الفيل فمن ذلك شعر عبد الله بن الزبيري :

تَنَكَّلُوا عَنْ بَطْنِ مَكَّةَ إِنَّهَا
لَمْ تَخْلُقِ الشُّعْرَى لِيَالِي حَرَمَتْ
سَائِلُ أَمِيرِ الْجَيْشِ عَنْهَا مَا رَأَى
سَيِّئُونَ أَلْفَا لَمْ يَوْوَبُوا أَرْضَهُمْ
كَانَتْ بِهَا عَادٌ وَجَزُهُمْ قَبْلَهُمْ
كَانَتْ قَدِيمًا لَا يُرَامُ حَرِيمُهَا
إِذْ لَا عَزِيزَ مِنَ الْأَنْامِ يَزُومُهَا
فَلَسَوْفَ يُنْبِي الْجَاهِلِينَ عَلَيْهَا
بَلْ لَمْ يَعِشْ بَعْدَ الْإِيَابِ سَقِيمُهَا
وَاللَّهُ مِنْ قَوْقِ الْعِبَادِ يُقِيمُهَا

وقد قدمنا في تفسير سورة الفتح أن رسول الله ﷺ لما أطل يوم الحديبية على الثنية التي تهبط به على قريش بركت ناقته فزجروها فألحت فقالوا : خلأت القصواء أي : حرنت فقال رسول الله ﷺ : « مَا خَلَّاتِ الْقَصَوَاءُ وَمَا ذَاكَ لَهَا بِخُلَّتِي وَلَكِنْ حَبَسَهَا حَابِسُ الْفِيلِ - ثم قال - وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَا يَسْأَلُونِي الْيَوْمَ خُطَّةَ يُعْظَمُونَ فِيهَا حُرُمَاتِ اللَّهِ إِلَّا أَجَبْتُهُمْ إِلَيْهَا » ثم زجرها فقامت (١) ، وروي أن رسول الله ﷺ قال يوم فتح مكة : « إِنَّ اللَّهَ حَبَسَ عَنْ مَكَّةَ الْفِيلَ ، وَسَلَطَ عَلَيْهَا رَسُولَهُ وَالْمُؤْمِنِينَ ، وَإِنَّهُ قَدْ عَادَتْ حُرُمَتُهَا الْيَوْمَ كَحُرُمَتِهَا بِالْأَمْسِ ، أَلَا فَلْيُبَلِّغِ الشَّاهِدُ الْغَائِبَ » (٢) .

(١) أخرجه أبو داود في السنن (٢٦٧٥) والبيهقي في السنن (٢١٩/٩) .

(٢) أخرجه مسلم في الحج (٤٤٧) وأبو داود في السنن (٢٠١٧) والدارمي في السنن (٢٦٥/٢) .

سورة قريش

ذكر حديث غريب في فضلها : عن أم هانئ بنت أبي طالب أن رسول الله ﷺ قال :
 « فَضَّلَ اللَّهُ قُرَيْشًا بِسَبْعٍ خِلَالٍ : إِنِّي مِنْهُمْ ، وَإِنَّ الثُّبُوءَ فِيهِمْ ، وَالْحِجَابَةَ وَالشَّقَايَةَ فِيهِمْ ، وَإِنَّ اللَّهَ
 نَصَرَهُمْ عَلَى الْفِيلِ ، وَإِنَّهُمْ عَبَدُوا اللَّهَ ﷻ عَشْرَ سِنِينَ لَا يَعْبُدُهُ غَيْرُهُمْ ، وَإِنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ فِيهِمْ سُورَةَ مِنَ
 الْقُرْآنِ - ثم تلا رسول الله ﷺ : ﴿ يَسْمِعُ أَقْوَمَ الْكَلِمِ ﴾ ﴿ لَا إِلَافَ قُرَيْشٍ ﴾ ﴿ إِلَّا فِيهِمْ ﴾
 رَحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ ﴾ ﴿ فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ ﴾ ﴿ الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَءَامَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ ﴾ » ^(١) .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ لَا إِلَافَ قُرَيْشٍ ﴾ ﴿ إِلَّا فِيهِمْ رَحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ ﴾ ﴿ فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ ﴾ ﴿ الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ
 جُوعٍ وَءَامَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ ﴾ .

هذه السورة مفصلة عن التي قبلها في المصحف الإمام كتبوا بينهما سطر بسم الله الرحمن
 الرحيم وإن كانت متعلقة بما قبلها كما صرح بذلك محمد بن إسحاق وعبد الرحمن بن زيد بن
 أسلم ؛ لأن المعنى عندهما : حبسنا عن مكة الفيل وأهلكنا أهله لإيلاف قريش أي لائتلافهم
 واجتماعهم في بلدهم آمنين ، وقيل : المراد بذلك ما كانوا يألفونه من الرحلة في الشتاء إلى اليمن
 وفي الصيف إلى الشام في التاجر وغير ذلك ثم يرجعون إلى بلدهم آمنين في أسفارهم لعظمتهم عند
 الناس لكونهم سكان حرم الله فمن عرفهم بل احترامهم بل من صوفي إليهم وسار معهم أمن بهم ،
 وهذا حالهم في أسفارهم ورحلتهم في شتائهم وصيفهم ، وأما في حال إقامتهم في البلد فكما قال
 الله تعالى : ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا آمِنًا وَيُخَفِّطُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ ﴾ . ولهذا قال تعالى : ﴿ لَا إِلَافَ
 قُرَيْشٍ ﴾ ﴿ إِلَّا فِيهِمْ ﴾ بدل من الأول ومفسر له ولهذا قال تعالى : ﴿ إِلَّا فِيهِمْ رَحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ ﴾ .
 وقال ابن جرير : الصواب : أن اللام لام التعجب كأنه يقول : اعجبوا لإيلاف قريش ونعمتي عليهم
 في ذلك . قال : وذلك لإجماع المسلمين على أنهما سورتان مستقلتان . ثم أرشدهم إلى شكر هذه
 النعمة العظيمة فقال : ﴿ فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ ﴾ أي : فليوحدوه بالعبادة كما جعل لهم حرماً آمناً
 وبيتاً محرماً . وقوله تعالى : ﴿ الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ ﴾ أي : هو رب البيت وهو الذي أطعمهم
 من جوع ﴿ وَءَامَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ ﴾ أي : تفضل عليهم بالأمن والرخص ، فليفردوه بالعبادة وحده لا
 شريك له ، ولا يعبدوا من دونه صنماً ولا نذاً ولا وثناً . ولهذا من استجاب لهذا الأمر جمع الله له
 بين أمن الدنيا وأمن الآخرة ، ومن عصاه سلبها منه ، عن أسماء بنت يزيد قالت : سمعت رسول
 الله ﷺ يقول : « وَيَلْ لَكُمْ قُرَيْشٌ لِإِيلَافِ قُرَيْشٍ » ^(٢) .

(١) أخرجه الحاكم في المستدرک (٥٣٦/٢) والألباني في الصحيحة (١٩٤٤) .

(٢) أخرجه أحمد في مسنده (٤٦٠/٦) والطبراني في الكبير (١٧٧/٢٤ - ١٧٨) .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالْقُرْآنِ ۚ فَذَلِكَ الَّذِي يَدْعُ الْيَتِيمَ ۙ وَلَا يُحْصِ عَلَى طَعَامِهِ الْيَتِيمِينَ ۝ فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ ۝ الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهَوْنَ ۝ الَّذِينَ هُمْ يُرَاكِبُونَ ۝ وَيَسْتَمْتُونَ الْمَاعُونَ ۝ ﴾ .

يقول تعالى : أَرَأَيْتَ يا محمد الذي يكذب بالدين وهو المعاد والجزاء والثواب . ﴿ فَذَلِكَ الَّذِي يَدْعُ الْيَتِيمَ ﴾ أي : هو الذي يقهر اليتيم ويظلمه جقه ولا يطعمه ولا يحسن إليه . ﴿ وَلَا يُحْصِ عَلَى طَعَامِهِ الْيَتِيمِينَ ﴾ يعني الفقير الذي لا شيء له يقوم بأوده وكفايته . ثم قال تعالى : ﴿ فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ ۝ الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهَوْنَ ﴾ . قال ابن عباس وغيره : يعني المنافقين الذين يصلون في العلانية ولا يصلون في السر . ولهذا قال : ﴿ لِلْمُصَلِّينَ ﴾ الذين هم من أهل الصلاة ، وقد التزموا بها ثم هم عنها ساهون . إما عن فعلها بالكلية كما قاله ابن عباس ، وإما عن فعلها في الوقت المقدر لها شرعاً فيخرجها عن وقتها بالكلية . وقال عطاء بن دinar : الحمد لله الذي قال : ﴿ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهَوْنَ ﴾ ولم يقل : في صلاتهم ساهون . وإما عن وقتها الأول فيؤخرها إلى آخره دائماً أو غالباً ، وإما عن أدائها بأركانها وشروطها على الوجه المأمور به ، وإما عن الخشوع فيها والتدبر لمعانيها ، فاللفظ يشمل ذلك كله . ولكل من اتصف بشيء من ذلك قسط من هذه الآية ، ومن اتصف بجميع ذلك فقد تم له نصيبه وكمل له النفاق العملي . كما ثبت أن رسول الله ﷺ قال : « تِلْكَ صَلَاةُ الْمُنَافِقِ ، تِلْكَ صَلَاةُ الْمُنَافِقِ يَجْلِسُ يَزُقُّ الشَّمْسَ حَتَّى إِذَا كَانَتْ يَتَنَّى قَوْني الشَّيْطَانِ قَامَ فَتَقَرَّ أَرْبَعًا لَا يَذْكُرُ اللَّهَ فِيهَا قَلِيلًا » ^(١) فهذا آخر صلاة العصر التي هي الوسطى كما ثبت به النص إلى آخر وقتها وهو وقت كراهة ، ثم قام إليها فنقرها نقر الغراب لم يطمن ولا خشع فيها أيضاً ؛ ولهذا قال : لا يذكر الله فيها إلا قليلاً ولعله إنما حملة على القيام إليها مراعاة الناس لا ابتغاء وجه الله فهو كما إذا لم يصل بالكلية : ﴿ الَّذِينَ هُمْ يُرَاكِبُونَ ﴾ عن عمرو بن مرة قال : كنا جلوساً عند أبي عبيدة فذكروا الرياء فقال رجل يكنى بأبي يزيد : سمعت عبد الله ابن عمرو يقول : قال رسول الله ﷺ : « مَنْ سَمِعَ النَّاسَ بِعَمَلِهِ سَمِعَ اللَّهُ بِهِ سَامِعٌ خَلْقِهِ وَحَقَرُهُ وَصَغُرُهُ » ^(٢) ، ومما يتعلق بقوله تعالى : ﴿ الَّذِينَ هُمْ يُرَاكِبُونَ ﴾ أن من عمل عملاً لله فاطلع عليه الناس فأعجبه ذلك أن هذا لا يعد رياء . والدليل على ذلك ما روي عن أبي هريرة ؓ قال : قال رجل : يا رسول الله يعمل الرجل يعمل يسره فإذا اطلع عليه أعجبه قال : قال رسول الله ﷺ : « لَهُ أَجْرَانِ : أَجْرُ السِّرِّ وَأَجْرُ الْعَلَانِيَةِ » . وعن أبي هريرة الأسلمي قال : قال رسول الله ﷺ : لما نزلت هذه الآية : ﴿ الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهَوْنَ ﴾ ، « اللَّهُ أَكْبَرُ هَذَا خَيْرٌ لَكُمْ مِنْ أَنْ لَوْ أُعْطِيَ كُلُّ رَجُلٍ مِنْكُمْ مِثْلَ جَمِيعِ الدُّنْيَا ، هُوَ الَّذِي إِنْ صَلَّى لَمْ يَوْجِ خَيْرَ صَلَاتِهِ وَإِنْ تَرَكَهَا لَمْ يَخَفْ رَبُّهُ » ^(٣)

(١) أخرجه مسلم في المساجد (١٩٥) وأبو داود في السنن (٤١٣) وأحمد في مسنده (١٤٩/٣) .

(٢) ذكره الطبري في تفسيره (٤٠٤/٣٠) .

(٣) أخرجه أحمد في مسنده (٢١٢/٢) .

وعن سعد بن أبي وقاص قال : سألت رسول الله ﷺ عن الذين هم عن صلاتهم ساهون قال : « هُمُ الَّذِينَ يُؤَخِّرُونَ الصَّلَاةَ عَنْ وَقْتِهَا » ^(١) قلت : وتأخير الصلاة عن وقتها يحتمل تركها بالكلية ويحتمل صلاتها بعد وقتها شرعاً أو تأخيرها عن أول الوقت .

وقوله تعالى : ﴿ وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ ﴾ أي : لا أحسنوا عبادة ربهم ولا أحسنوا إلى خلقه حتى ولا بإعارة ما ينتفع به ويستعان به مع بقاء عينه ورجوعه إليهم . فهؤلاء لمنع الزكاة وأنواع القربات أولى وأولى . وعن مجاهد قال علي : الماعون الزكاة . قال الحسن البصري : إن صلى راعى ، وإن فاتته لم يأس عليها ، ويمنع زكاة ماله . وفي لفظ : صدقة ماله . وقال زيد بن أسلم : هم المنافقون ظهرت الصلاة فصلوها ، وخفيت الزكاة فمنعوها . سأل عبد الله بن مسعود عن الماعون فقال : هو ما يتعاوره الناس بينهم من الفأس والقدر . عن عبد الله قال : كنا مع نبينا ﷺ نقول : الماعون منع الدلو وأشباه ذلك . عن ابن عباس ﴿ وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ ﴾ : يعني : متاع البيت . وقال : لم يجئ أهلها بعد . وقال ابن عباس : اختلف الناس في ذلك فمنهم من قال : يمنعون الزكاة ، ومنهم من قال : يمنعون الطاعة ، ومنهم من قال : يمنعون العارية . وعن علي : الماعون منع الناس الفأس والقدر والدلو . وقال عكرمة : رأس الماعون زكاة المال وأدناه المنخل والدلو والإبرة . وهذا الذي قاله عكرمة حسن فإنه يشمل الأقوال كلها وترجع كلها إلى شيء واحد وهو ترك المعاونة بمال أو منفعة . ولهذا قال محمد بن كعب : ﴿ وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ ﴾ : المعروف . ولهذا جاء في الحديث : « كُلُّ مَغْرُوفٍ صَدَقَةٌ » ^(٢) . وعن الزهري ﴿ وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ ﴾ قال : بلسان قریش المال . وعن علي بن فلان النميري : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « الْمُسْلِمُ أَخُو الْمُسْلِمِ إِذَا لَقِيَهُ بَجَاءٍ بِالسَّلَامِ وَيَزِدُّ عَلَيْهِ مَا هُوَ خَيْرٌ مِنْهُ لَا يَمْتَنِعُ الْمَاعُونَ » . قلت : يا رسول الله ما الماعون ؟ قال : « الْحَجَرُ وَالْحَدِيدُ وَأَشْبَاهُ ذَلِكَ » ^(٣) .

(١) أخرجه البيهقي في السنن (٢١٤/٢) والهيتمي في مجمع الزوائد (٣٢٥/١) .

(٢) أخرجه البخاري في الأدب (٦٠٢١) ومسلم في الزكاة (٥٢) .

(٣) ذكره الهندي في كنز العمال (٧٥٤) والسيوطي في الدر المنثور (٤٠٠/٦) .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ إِنَّا أَعْطَيْنَكَ الْكَوْثَرَ ۝ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ ۝ إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ ۝ ﴾ .

عن أنس بن مالك قال : أغفى رسول الله ﷺ لإغفائه فرفع رأسه متبسماً إما قال لهم وإما قالوا له : لم ضحكت ؟ فقال رسول الله ﷺ : « إِنَّهُ أُنْزِلَتْ عَلَيَّ آيَةُ شُورَةٍ » فقرأ ﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ إِنَّا أَعْطَيْنَكَ الْكَوْثَرَ ﴾ حتى ختمها فقال : « هَلْ تَذَرُونَ مَا الْكَوْثَرُ ؟ » قالوا : الله ورسوله أعلم . قال : « هُوَ نَهْرٌ أُعْطَيْنَاهُ رَبِّي ﷻ فِي الْجَنَّةِ عَلَيْهِ خَيْرٌ كَثِيرٌ تَرُدُّ عَلَيْهِ أُمْنِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ آيَتُهُ عَدَدُ الْكَوَاكِبِ يَخْتَلِجُ الْعَبْدُ مِنْهُمْ فَأَقُولُ : يَا رَبِّ إِنَّهُ مِنْ أُمْنِي ، فَيَقَالُ : إِنَّكَ لَا تَذَرِي مَا أَخَذْتُوا بِغَدِّكَ » ^(١) وقد ورد في صفة الحوض يوم القيامة أنه يشخب فيه ميزابان من السماء من نهر الكوثر ، وأن آيته عدد نجوم السماء .

وقد استدل كثير من القراء على أن هذه السورة مدنية ، وكثير من الفقهاء على أن البسمة من السورة وأنها منزلة معها . فأما قوله تعالى : ﴿ إِنَّا أَعْطَيْنَكَ الْكَوْثَرَ ﴾ فقد تقدم في هذا الحديث أنه نهر في الجنة . وعن أنس قال : قال رسول الله ﷺ : « دَخَلْتُ الْجَنَّةَ فَإِذَا أَنَا بِنَهْرٍ حَافَتَاهُ خِيَامُ اللَّوْلُؤِ فَضَرَبْتُ يَدَيَّ إِلَى مَا يَجْرِي فِيهِ الْمَاءُ فَإِذَا مِثْلُ أَذْفَرٍ ، قُلْتُ : مَا هَذَا يَا جِبْرِيلُ ؟ قَالَ : هَذَا الْكَوْثَرُ الَّذِي أُعْطَاكَهُ اللَّهُ ﷻ » ^(٢) . وعنه قال : لما عرج بالنبي ﷺ إلى السماء قال : « أُتِيتُ عَلَى نَهْرٍ حَافَتَاهُ قِيَابُ اللَّوْلُؤِ الْجَوْفِ : فَقُلْتُ مَا هَذَا يَا جِبْرِيلُ ؟ قَالَ : هَذَا الْكَوْثَرُ » ^(٣) وعن أنس أن رجلاً قال : يا رسول الله : ما الكوثر ؟ قال : « هُوَ نَهْرٌ فِي الْجَنَّةِ أُعْطَيْنَاهُ رَبِّي لَهُوَ أَشَدُّ بَيَاضًا مِنَ اللَّبَنِ وَأَخْلَى مِنَ الْعَسَلِ ، فِيهِ طَيْرٌ أَعْنَاقُهَا كَأَعْنَاقِ الْجَزْرِ » . قال عمر : يا رسول الله ، إنها لناعمة . قال : « أَكَلُهَا أَنْعَمُ مِنْهَا يَا عُمَرُ » ^(٤) . وعن عائشة قالت : الكوثر نهر في الجنة شاطئاه در مجوف . وقال إسرائيل : نهر في الجنة عليه من الآنية عدد نجوم السماء . وعن ابن عباس ؓ أنه قال في الكوثر : هو الخير الذي أعطاه الله إياه ، قال أبو بشر : قلت لسعيد بن جبير : فإن ناساً يزعمون أنه نهر في الجنة ، فقال سعيد : النهر الذي في الجنة من الخير الذي أعطاه الله إياه . عن ابن عباس ؓ قال : الكوثر الخير الكثير . وهذا التفسير يعم النهر وغيره لأن الكوثر من الكثرة ، وهو الخير الكثير ومن ذلك النهر . وقال مجاهد : هو الخير الكثير في الدنيا والآخرة . وقال عكرمة : هو النبوة والقرآن وثواب الآخرة . وقد صح عن ابن عباس أنه فسر به بالنهر ، فقال : الكوثر نهر في الجنة حافته ذهب وفضة يجري على الياقوت والدر ، ماؤه أبيض من الثلج وأحلى من العسل . عن ابن عمر قال : قال رسول الله ﷺ : « الْكَوْثَرُ نَهْرٌ فِي الْجَنَّةِ حَافَتَاهُ مِنْ ذَهَبٍ وَالْمَاءُ يَجْرِي عَلَى اللَّوْلُؤِ وَمَاؤُهُ أَشَدُّ بَيَاضًا مِنَ اللَّبَنِ وَأَخْلَى مِنَ الْعَسَلِ » ^(٥) .

(١) أخرجه أحمد في مسنده (١٠٢/٣) . (٢) أخرجه أحمد في مسنده (١١٥/٣) والحاكم في المستدرک (٨٠/١) .

(٣) أخرجه البخاري في تفسير القرآن (٤٩٦٤) . (٤) أخرجه أحمد في مسنده (٢٢٠/٣) .

(٥) أخرجه الترمذي في السنن (٣٣٦١) وأحمد في مسنده (١٥٨/٢) والحاكم في المستدرک (١٧١/٣) .

عن أسامة بن زيد أن رسول الله ﷺ أتى حمزة بن عبد المطلب يوماً ، فلم يجده ، فسأل عنه امرأته وكانت من بني النجار . فقالت : خرج يا نبي الله أنفاً عامداً نحوك فأظنه أخطأك في بعض أزقة بني النجار ، أو لا تدخل يا رسول الله ؟ فدخل ، فقدمت إليه حيساً فأكل منه فقالت : يا رسول الله هنيئاً لك ومريئاً ، لقد جئت وأنا أريد أن آتيك فأهنيك وأمريك أخبرني أبو عمارة أنك أعطيت نهراً في الجنة يدعى الكوثر فقال : « أَجَلْ وعرضته - يعني أرضه - يَأْقُوثُ وَمَرْجَانٌ وَزَبَرْجَدٌ وَلَوْلُؤُ » ^(١) . وقوله تعالى : ﴿ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ ﴾ أي : كما أعطيناك الخير الكثير في الدنيا والآخرة ومن ذلك النهر الذي تقدم صفته ، فأخلص لربك صلاتك المكتوبة والنافلة ، وتحرك فاعبده وحده لا شريك له وانحر على اسمه وحده لا شريك له . ويعني بذلك نحر البدن ونحوها . وهذا بخلاف ما كان عليه المشركون من السجود لغير الله والذبح على غير اسمه . وقيل : المراد بقوله : ﴿ وَانْحَرْ ﴾ وضع اليد على اليسرى تحت النحر ، يروى هذا عن علي ولا يصح . وعن أبي جعفر الباقر : رفع اليدين عند افتتاح الصلاة ، وقيل : استقبل بنحر القبل . ذكر هذه الأقوال الثلاثة ابن جرير . وقد روي عن علي بن أبي طالب قال : لما نزلت هذه السورة على النبي ﷺ ﴿ إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ ﴾ ﴿ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ ﴾ قال رسول الله ﷺ : « يَا جَبْرِيلُ مَا هَذِهِ التَّحِيْرَةُ الَّتِي أَمَرَنِي بِهَا رَبِّي ؟ » فقال : ليست بنحيرة ولكنه يأمرك إذا تحرمت للصلاة ارفع يديك إذا كثرت وإذا ركعت وإذا رفعت رأسك من الركوع ، وإذا سجدت ، فإنها صلاتنا وصلاة الملائكة الذين في السموات السبع ، وإن لكل شيء زينة ، وزينة الصلاة رفع اليدين عند كل تكبيرة ^(٢) .

وعن عطاء الخراساني : ارفع صلبك بعد الركوع واعتدل وأبرز نحرك يعني به الاعتدال . وكل هذه الأقوال غريبة جداً . والصحيح القول الأول : أن المراد بالنحر ذبح المناسك ؛ ولهذا كان رسول الله ﷺ يصلي العيد ، ثم ينحر نسكه . ويقول : « مَنْ صَلَّى صَلَاتَنَا ، وَنَسَكَ نُسُكَنَا فَقَدْ أَصَابَ النُّسُكَ ، وَمَنْ نَسَكَ قَبْلَ الصَّلَاةِ فَلَا نُسُكَ لَهُ » . فقام أبو بردة بن نيار فقال : يا رسول الله إني نسكت شاتي قبل الصلاة وعرفت أن اليوم يوم يشتهى فيه اللحم قال : « شَاتُكَ شَاةُ لَحْمٍ » ، قال : فإن عندي عناقاً هي أحب إلي من شاتين أفتجزئ عني ؟ قال : « تَجْزِيكَ وَلَا تَجْزِي أَخْذَا بَقْدَكَ » ^(٣) . قال أبو جعفر بن جرير : والصواب قول من قال إن معنى ذلك : فاجعل صلاتك كلها لربك خالصاً دون ما سواه من الأنداد والآلهة ، وكذلك نحرك اجعله له دون الأوثان شكراً له على ما أعطاك من الكرامة والخير الذي لا كفاء له وخصك به . وهذا الذي قاله في غاية الحسن .

قوله تعالى : ﴿ إِنَّكَ شَانِئُكَ هُوَ الْأَبْتَرُ ﴾ أي : إن مبغضك يا محمد ، ومبغض ما جئت به من الهدى والحق والبرهان الساطع والنور المبين ، هو الأبتر الأذل المنقطع ذكره . قال ابن عباس ومجاهد وسعيد بن جبير وقتادة : نزلت في العاص بن وائل . وعن يزيد بن رومان : قال : كان العاص بن وائل إذا ذكر رسول الله ﷺ يقول : دعوه فإنه رجل أبتر لا عقب له ، فإذا هلك انقطع

(١) أخرجه الطبراني في الكبير (١٦٧/٣) والهيتمي في مجمع الزوائد (٣٦٣/١٠) .

(٢) أخرجه الحاكم في المستدرک (٥٣٨/٢) . (٣) أخرجه البخاري في العيدين (٩٨٣) .

ذكره . فأنزل الله هذه السورة . وقال شمر بن عطية : نزلت في عقبة بن أبي معيط . وقال ابن عباس وعكرمة : نزلت في كعب بن الأشرف وجماعة من كفار قريش . وعن ابن عباس قال : قدم كعب بن الأشرف مكة فقالت له قريش : أنت سيدهم ألا ترى إلى هذا الصنبر المنبت من قومه ؟ يزعم أنه خير منا ونحن أهل الحجيج وأهل السدانة وأهل السقاية ، فقال : أنتم خير منه . قال : فنزلت : ﴿ إِنَّكَ شَانِئُكَ هُوَ الْأَبْتَرُ ﴾ وعن عطاء نزلت في أبي لهب وذلك حين مات ابن لرسول الله ﷺ فذهب أبو لهب إلى المشركين فقال : بتر محمد الليلة ، فأنزل الله في ذلك : ﴿ إِنَّكَ شَانِئُكَ هُوَ الْأَبْتَرُ ﴾ . وعن ابن عباس : نزلت في أبي جهل ، وعنه ﴿ إِنَّكَ شَانِئُكَ ﴾ يعني : عدوك وهذا يعم جميع من اتصف بذلك ممن ذكر وغيرهم . وقال عكرمة : الأبر الفرد ، وقال السدي : كانوا إذا مات ذكور الرجل قالوا : بتر ، فلما مات أبناء رسول الله ﷺ قالوا : بتر محمد فأنزل الله : ﴿ إِنَّكَ شَانِئُكَ هُوَ الْأَبْتَرُ ﴾ وهذا يرجع إلى ما قلناه من أن الأبر الذي إذا مات انقطع ذكره ، فتوهموا لجهلهم أنه إذا مات بنوه انقطع ذكره ، وحاشا وكلا ، بل قد أبقي الله ذكره على رؤوس الأشهاد ، وأوجب شرعه على رقباه العباد ، مستمرا على دولم الآباد ، إلى يوم المحشر والمعاد ، صلوات الله وسلامه عليه دائما إلى يوم التناد .

سورة الكافرون

عن ابن عمر أن رسول الله ﷺ قرأ في الركعتين قبل الفجر والركعتين بعد المغرب بضعة وعشرين مرة ، أو بضع عشرة مرة ، قل يا أيها الكافرون وقل هو الله أحد ^(١) . وعن ابن عمر قال : رمقت النبي ﷺ أربعاً وعشرين أو خمسين مرة يقرأ في الركعتين قبل الفجر والركعتين بعد المغرب بقل يا أيها الكافرون وقل هو الله أحد ^(٢) . وعن ابن عمر قال : رمقت النبي ﷺ شهراً وكان يقرأ في الركعتين قبل الفجر قل يا أيها الكافرون وقل هو الله أحد ^(٣) . وقد تقدم في الحديث أنها تعدل ربع القرآن ، وعن فروة بن نوفل - هو ابن معاوية - عن أبيه أن رسول الله ﷺ قال له : « هَلْ لَكَ فِي رَبِيبَةٍ لَنَا تَكْفُلُهَا ؟ » قال : أَرَأَاهَا زَيْنَبُ قال : ثم جاء فسأله النبي ﷺ عنها قال : « مَا فَعَلْتَ الْجَارِيَّةُ ؟ » قال : تركتها عند أمها قال : « فمجيء ما جاء بك » قال : جئت لتعلمني شيئاً أقوله عند منامي قال : « اقْرَأْ ﴿ قُلْ يَتَّخِذُ الْكَافِرُونَ ﴾ ثُمَّ نَمْ عَلَى خَاتَمَتِهَا فَإِنَّهَا بَرَاءَةٌ مِنَ الشُّرُوكِ » ^(٤) .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ قُلْ يَتَّخِذُ الْكَافِرُونَ ﴾ ١ لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ٢ وَلَا أَنْتَ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ ٣ وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَّا عَبَدْتُمْ ٤ وَلَا أَنْتَ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ ٥ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ ٦ .

هذه السورة سورة البراءة من العمل الذي يعمله المشركين ، وهي آمرة بالإخلاص فيه فقولہ تعالى : ﴿ قُلْ يَتَّخِذُ الْكَافِرُونَ ﴾ يشمل كل كافر على وجه الأرض ، ولكن المواجهون بهذا الخطاب هم كفار قريش . وقيل : إنهم من جهلهم دعوا رسول الله ﷺ إلى عبادة أوثانهم سنة ويعبدون معبوده سنة . فأنزل الله هذه السورة وأمر رسوله ﷺ فيها أن يتبرأ من دينهم بالكلية فقال : ﴿ لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ﴾ يعني : من الأصنام والأنداد . ﴿ وَلَا أَنْتَ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ ﴾ وهو الله وحده لا شريك له ، فما ههنا بمعنى من ، ثم قال : ﴿ وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَّا عَبَدْتُمْ ﴾ وَلَا أَنْتَ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ ٥ أي : ولا أعبد عبادتكم أي لا أسلكها ولا أقندي بها ، وإنما أعبد الله على الوجه الذي يحبه ويرضاه ؛ ولهذا قال : ﴿ وَلَا أَنْتَ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ ﴾ أي : لا تقتدون بأوامر الله وشرعه في عبادته بل قد اخترعتم شيئاً من تلقاء أنفسكم فتبرأ منهم في جميع ما هم فيه ، فإن العابد لا بد له من معبود يعبدہ وعبادة يسلكها إليه فالرسول ﷺ وأتباعه يعبدون الله بما شرعه ؛ ولهذا كان كلمة الإسلام : لا إله إلا الله محمد رسول الله أي : لا معبود إلا الله ولا طريق إلا بما جاء به الرسول ﷺ ، والمشركون يعبدون غير الله عباة لم يأذن بها الله ؛ ولهذا قال لهم الرسول ﷺ ﴿ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ ﴾ قال البخاري : يقال ﴿ لَكُمْ دِينُكُمْ ﴾ الكفر ﴿ وَلِيَ دِينِ ﴾ الإسلام ، ولم يقل : ديني لأن الآيات بالنون فحذف الياء كما قال : ﴿ فَهَوَّ يَهُودَ ﴾ وقال غيره : لا أعبد ما تعبدون الآن ، ولا أجيئكم بما بقي

(٢) أخرجه أحمد في مسنده (٩٩/٢) .

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٢٤/٢) .

(٣) أخرجه أحمد في مسنده (٩٤/٢) .

(٤) أخرجه أحمد في مسنده (٤٥٦/٥) والبيهقي في السنن (٢٤١/٨) .

من عمري ولا أنتم عابدون ما أعبد ، وهم الذين قال : ﴿ وَلَزِيدُكَ كَيْدًا يَنْتَهُم مَّا أَنْزَلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ طُغْيَانًا وَكُفْرًا ﴾ انتهى ما ذكره .

ونقل ابن جرير عن بعض أهل العربية أن ذلك من باب التأكيد ، كقوله : ﴿ فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ﴾ . فهذه ثلاثة أقوال : أولها : ما ذكرناه أولاً ، الثاني : ما حكاه البخاري وغيره من المفسرين أن المراد ﴿ لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ﴾ ❶ وَلَا أَنْتَ عَابِدُونَ مَّا أَعْبُدُ ﴿ في الماضي ﴾ وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَّا عَبَدْتُمْ ❷ وَلَا أَنْتَ عَابِدُونَ مَّا أَعْبُدُ ﴿ في المستقبل ، الثالث : أن ذلك تأكيد محض . وثم قول رابع : وهو أن المراد بقوله : ﴿ لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ﴾ نفى الفعل لأنها جملة فعلية ﴾ وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَّا عَبَدْتُمْ ﴿ نفى قبوله لذلك بالكلية ؛ لأن النفي بالجملة الاسمية أكد ، فكأنه نفى الفعل وكونه قابلاً لذلك ومعناه نفى الوقوع ونفي الإمكان-الشرعي أيضاً . وهو قول حسن أيضاً والله أعلم . وقد استدل الإمام أبو عبد الله الشافعي وغيره بهذه الآية الكريمة : ﴿ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ ﴾ على أن الكفر كله ملة واحدة ، فورث اليهود من النصارى وبالعكس إذا كان بينهما نسب أو سبب يتوارث به لأن الأديان ما عدا الإسلام كلها كالشيء الواحد في البطلان . وذهب أحمد بن حنبل ومن وافقه إلى عدم تورث النصارى من اليهود وبالعكس لحديث عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده قال : قال رسول الله ﷺ : « لَا يَتَوَارَثُ أَهْلُ مِلَّتَيْنِ شَتَّى » (١)

(١) أخرجه الترمذي في السنن (٢١٠٨) والحاكم في المستدرک (٢٤٠/٢) وأحمد في مسنده (١٩٥/٢) والدارقطني في السنن (٧٢/٤) .

سورة النصر

عن عبد المجيد بن سهيل عن عبيد الله بن عتبة قال : قال لي ابن عباس : يا ابن عتبة أتعلم آخر سورة من القرآن نزلت ؟ قلت نعم : ﴿ إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ ﴾ قال : صدقت . وعن ابن عمر قال : أنزلت هذه السورة : ﴿ إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ ﴾ على رسول الله ﷺ أوسط أيام التشريق فعرفت أنه الوداع فأمر براحلته القصواء فرحلت ثم قام فخطب الناس ، وعن ابن عباس قال : لما نزلت ﴿ إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ ﴾ دعا رسول الله ﷺ فاطمة وقال : « إِنَّهُ قَدْ نُعِيَتْ إِلَيَّ نَفْسِي » فبكيت ثم ضحكك وقالت : أخبرني أنه نعت إليه نفسه فبكيت . ثم قال : « اضْبِرِّي فَإِنَّكَ أَوَّلُ أَهْلِي لِحَوْقًا بِي » فضحكك ^(١) .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ ۝ وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا ۝ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّكَ كَانَ تَوَّابًا ۝ ﴾ .

عن ابن عباس قال : كان عمر يدخلني مع أشياخ بدر ، فكان بعضهم وجد في نفسه فقال : لم يدخل هذا معنا ولنا أبناء مثله ، فقال عمر : إنه ممن قد علمتم ، فدعاهم ذات يوم فأدخله معهم فما رأيت أنه دعاني فيهم يومئذ إلا ليربهم فقال : ما تقولون في قول الله ﷻ : ﴿ إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ ﴾ ؟ فقال بعضهم : أمرنا أن نحمد الله ونستغفره إذا نصرنا وفتح علينا وسكت بعضهم فلم يقل شيئاً . فقال لي : أكذلك تقول يا ابن عباس ؟ فقلت : لا ، فقال : ما تقول ؟ فقلت : هو أجل رسول الله ﷺ أعلمه له قال : ﴿ إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ ﴾ فذلك علامة أجلك . ﴿ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّكَ كَانَ تَوَّابًا ﴾ فقال عمر بن الخطاب : لا أعلم منها إلا ما تقول ^(٢) . وعن ابن عباس قال : بينما رسول الله ﷺ في المدينة إذ قال : « اللَّهُ أَكْبَرُ اللَّهُ أَكْبَرُ ، جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ ، جَاءَ أَهْلُ الْيَمَنِ - قيل : يا رسول الله وما أهل اليمن ؟ قال : قَوْمٌ رَقِيقَةٌ قُلُوبُهُمْ لِيَنَّةٍ طِبَاعُهُمْ ، الْإِيمَانُ يَمَانٍ ، وَالْفِقْهُ يَمَانٍ ، وَالْحِكْمَةُ يَمَانِيَّةٌ » ^(٣) .

وعن ابن عباس قال : لما نزلت ﴿ إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ ﴾ علم النبي ﷺ أن قد نُعِيَتْ إِلَيْهِ نفسه فقيل : إذا جاء نصر الله والفتح السورة كلها ^(٤) ، وعن ابن عباس قال : آخر سورة نزلت من القرآن جميعاً ﴿ إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ ﴾ وعن أبي سعيد الخدري أنه قال : لما نزلت هذه السورة : ﴿ إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ ﴾ قرأها رسول الله ﷺ حتى ختمها فقال : « النَّاسُ خَيْرٌ وَأَنَا وَأَصْحَابِي خَيْرٌ - وقال - لَا هِجْرَةَ بَعْدَ الْفَتْحِ وَلَكِنْ جِهَادٌ وَبَيْتَةٌ » فقال له مروان : كذبت وعنده رافع بن خديج وزيد بن ثابت قاعدان معه على السرير فقال أبو سعيد : لو شاء هذان لحدثاك ولكن هذا يخاف أن تنزعه عن عرافة قومه ، وهذا يخشى أن تنزعه عن الصدقة . فرفع مروان عليه الدرة ليضربه فلما رآيا ذلك قالوا : صدق ^(٥) .

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٢١٧/١) والطبراني في الكبير (١١٩٠٧) .

(٢) أخرجه البخاري في تفسير القرآن (٤٩٧٠) . (٣) ذكره الهيثمي في موارد الظمآن (٢٢٩٩) .

(٤) أخرجه أحمد في مسنده (٣٤٤/١) . (٥) أخرجه أحمد في مسنده (٢٢/٣) .

وعن ابن عباس أن رسول الله ﷺ قال يوم الفتح : « لَا هِجْرَةَ وَلَكِنْ جِهَادٌ وَبِئْتَهُ ، وَلَكِنْ إِذَا اسْتَشْفَرْتُمْ فَأَنْفِرُوا » ^(١) . فالذي فسر به بعض الصحابة من جلساء عمر رضي الله عنه أجمعين من أنه قد أمرنا إذا فتح الله علينا المدائن والحصون أن نحمد الله ونشكره ونسبحه ، يعني نصلي له ونستغفره . معنى ملبح صحيح وقد ثبت له شاهد من صلاة النبي ﷺ يوم فتح مكة وقت الضحى ثماني ركعات ، فقال قائلون : هي صلاة الضحى وأجيبوا بأنه لم يكن يواظب عليها فكيف صلاها ذلك اليوم ، وقد كان مسافراً لم ينو الإقامة بمكة ؟ ولهذا أقام فيها إلى آخر شهر رمضان قريباً من تسعة عشر يوماً ، يقصر الصلاة ، ويفطر هو وجميع الجيش ، وكانوا نجواً من عشرة آلاف . قال : هؤلاء وإنما كانت صلاة الفتح قالوا : فيستحب لأمر الجيوش إذا فتح بلد أن يصلي فيه أول ما يدخله ثماني ركعات ، وهكذا فعل سعد بن أبي وقاص يوم فتح المدائن .

ثم قال بعضهم : يصلها كلها بتسليمة واحدة . والصحيح أنه يسلم من كل ركعتين كما ورد في سنن أبي داود أن رسول الله ﷺ كان يسلم يوم الفتح من كل ركعتين . وأما ما فسر به ابن عباس وعمر رضي الله تعالى عنهما من أن هذه السورة نعي فيها إلى رسول الله ﷺ روحه الكريمة ، واعلم أنك إذا فتحت مكة وهي قريتك التي أخرجتك ودخل الناس في دين الله أفواجا فقد فرغ شغلنا بك في الدنيا ، فتهياً للقدوم علينا والوفود إلينا فالآخرة خير لك من الدنيا ، ولسوف يعطيك ربك فترضى . ولهذا قال : ﴿ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْ لَهُ إِنَّكَ كَانَ تَوَّابًا ﴾ .

وعن مسروق قال : قالت عائشة : كان رسول الله ﷺ يكثر في آخر أمره من قول : « سُبْحَانَ اللَّهِ وَبِحَمْدِهِ اسْتَغْفِرُ اللَّهَ وَأَتُوبُ إِلَيْهِ » وقال : « إِنَّ رَبِّي كَانَ أَخْبَرَنِي أَنِّي سَأَرَى عَلَامَةً فِي أُمَّتِي وَأَمْرَنِي إِذَا رَأَيْتُهَا أَنْ أَسْبِّحَ بِحَمْدِهِ وَاسْتَغْفِرَ لَهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا ، فَقَدْ رَأَيْتُهَا ﴾ إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ ﴿ وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا ﴾ ﴿ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْ لَهُ إِنَّكَ كَانَ تَوَّابًا ﴾ ^(٢) . وعن عبد الله قال : لما نزلت على رسول الله ﷺ ﴿ إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ ﴾ كان يكثر إذا قرأها وركع أن يقول : « سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ رَبَّنَا وَبِحَمْدِكَ اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي إِنَّكَ أَنْتَ الثَّوَابُ الرَّجِيمُ » ثلاثاً ^(٣) ، والمراد بالفتح ههنا فتح مكة قولاً واحداً ، فإن أحياء العرب كانت تتلوم بإسلامها فتح مكة يقولون : إن ظهر على قومه فهو نبي ، فلما فتح الله عليه مكة دخلوا في دين الله أفواجا ، فلم تمض سنتان حتى استوسقت جزيرة العرب إيماناً ، ولم يبق في سائر قبائل العرب إلا مظهر للإسلام ولله الحمد والمنة . وعن جابر بن عبد الله قال : قدمت من سفر فجاءني جابر بن عبد الله فسلم علي ، فجعلت أحدثه عن افتراق الناس وما أحدثوا ، فجعل جابر يكي ثم قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « إِنَّ النَّاسَ دَخَلُوا فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا وَسَيَخْرُجُونَ مِنْهُ أَفْوَاجًا » ^(٤) .

(١) أخرجه البخاري في الجهاد والسير (٢٧٨٣) ومسلم في الإمامة (٨٥) والترمذي في السنن (١٥٩٠) .

(٢) أخرجه أحمد في مسنده (٣٥/٦) .

(٣) أخرجه البخاري في تفسير القرآن (٤٩٦٧) ومسلم في الصلاة (٢١٧) والنسائي في السنن (٢١٩/٢) وأحمد في مسنده (٤٩٤/٢) .

(٤) أخرجه أحمد في مسنده (٣٤٣/٣) .

سورة المسد

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ۝ مَا أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ ۝ سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ۝ وَامْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ ۝ فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ ۝ ﴾ .

عن ابن عباس أن النبي ﷺ خرج إلى البطحاء ، فصعد الجبل فنادى : « يَا صَبَاحَاهُ » فاجتمعت إليه قريش فقال : « أَرَأَيْتُمْ إِنْ حَدَّثْتُكُمْ أَنَّ الْعَدُوَّ مُصْبِحُكُمْ أَوْ مُمَسِّكُمْ أَكُثُّمُ تُصَدِّقُونِي ؟ - قالوا : نعم ، قال : فَإِنِّي نَذِيرٌ لَّكُمْ يَبْنَ يَدَيَّ عَذَابٌ شَدِيدٌ » فقال أبو لهب : ألهذا جمعنا ، بئَا لك فأنزل الله : ﴿ تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ﴾ إلى آخرها ^(١) . وفي رواية : فقام ينفض يديه وهو يقول : بئَا لك سائر اليوم ألهذا جمعنا ؟ فأنزل الله : ﴿ تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ﴾ الأول : دعاء عليه والثاني : خبر عنه ، فأبو لهب هذا هو أحد أعمام رسول الله واسمه عبد العزى بن عبد المطلب ، وكنيته أبو عتيبة ، وإنما سمي أبا لهب لإشراق وجهه ، وكان كثير الأذية لرسول الله ﷺ والبغضة له والازدراء به والتنقص له ولدينه . عن أبي الزناد قال : أخبرني رجل يقال له : ربيعة بن عباد من بني الدليل وكان جاهلياً فأسلم قال : رأيت النبي ﷺ في الجاهلية في سوق ذي الحجاز وهو يقول : « يَا أَيُّهَا النَّاسُ قُولُوا لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ تَفْلِحُوا » . والناس مجتمعون عليه ورائه رجل وضيء الوجه أحول ذو غديرتين يقول : إنه صابئ كاذب يتبعه حيث ذهب فسألت عنه فقالوا : هذا عمه أبو لهب ^(٢) . فقوله تعالى : ﴿ تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ ﴾ أي خسرت وخابت وضل عمله وسعيه ﴿ وَتَبَّ ﴾ أي : وقد تبَّ تحقق خسارته وهلاكه . وقوله تعالى : ﴿ مَا أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ ﴾ قال ابن عباس وغيره : ﴿ وَمَا كَسَبَ ﴾ يعني : ولده ، وذكر عن ابن مسعود أن رسول الله ﷺ لما دعا قومه إلى الإيمان قال أبو لهب : إن كان ما يقول ابن أخي حقاً ، فإنني أفندي نفسي يوم القيامة من العذاب بمالي وولدي ، فأنزل الله تعالى : ﴿ مَا أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ ﴾ . وقوله تعالى : ﴿ سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ﴾ أي : ذات شرر ولهب وإحراق شديد ﴿ وَامْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ ﴾ وكانت زوجته من سادات نساء قريش ، وهي أم جميل واسمها أروى بنت حرب بن أمية وهي أخت أبي سفيان ، وكانت عوناً لزوجها على كفره وجحوده وعناده ، فلهذا تكون يوم القيامة عوناً عليه في عذابه في نار جهنم . ولهذا قال تعالى : ﴿ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ ۝ فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ ﴾ يعني : تحمل الحطب فنلقي على زوجها ، ليزداد على ما هو فيه . هي مهيأة لذلك مستعدة له ، قال مجاهد والسدي : كانت تمشي بالنميمة وقال الضحاک : كانت تضع الشوك في طريق رسول الله ﷺ قال ابن جرير : وقيل : كانت تعير النبي ﷺ بالفقر ، وكانت تحتطب فعيرت بذلك والصحيح الأول والله أعلم . قال سعيد بن المسيب : كانت لها قلادة فاخرة فقالت : لأنفقته في عداوة محمد يعني : فأعقبها الله منها حبلاً في جيدها من مسد النار . وروي عن الشعبي : المسد الليف ، وعن عروة : المسد : سلسلة ذرعها سبعون ذراعاً ،

(٢) أخرجه أحمد في مسنده (٣٤١/٤) .

(١) أخرجه البخاري في تفسير القرآن (٤٩٧٢) .

وعن الثوري : هو قلادة من نار طولها سبعون ذراعاً . وعن مجاهد : طوق من حديد ، ألا ترى أن العرب يسمون البكرة مسداً ؟ وعن أسماء بنت أبي بكر قالت : لما نزلت ﴿ تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ﴾ أقبلت العوراء أم جميل بنت حرب ولها ولولة ، وفي يدها فهر وهي تقول :

مُذَمَّمَا أَبِييْنَا وَدِينُهُ قَلْبِيْنَا وَأَنْزَرُهُ عَصِيْنَا

ورسول الله ﷺ جالس في المسجد ومعه أبو بكر ، فلما رآها أبو بكر قال : يا رسول الله قد أقبلت وأنا أخاف عليك أن تراك ، فقال رسول الله ﷺ : « إِنَّهَا لَنْ تَرَانِي » وقرأ قرآناً اعتصم به . كما قال تعالى : ﴿ وَلَئِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ جَبَابًا مَشْهُورًا ﴾ فأقبلت حتى وقفت على أبي بكر ولم تر رسول الله ﷺ ، فقالت : يا أبا بكر ، إني أخبرت أن صاحبك هجاني قال : لا ورب هذا البيت ما هجاك . فولت وهي تقول : قد علمت قريش أنني ابنة سيدها . قال : وقال الوليد في حديثه أو غيره : فعثرت أم جميل في مرطها وهي تطوف بالبيت فقالت : تعس مذمم ، فقالت أم حكيم بنت عبد المطلب : إني لخصان فما أكلم ، وثقاف فما أعلم . وكلتانا من بني العم ، وقريش بعد أعلم ^(١) . وقد قال بعض أهل العلم في قوله تعالى : ﴿ فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ ﴾ أي : في عنقها حبل من نار جهنم ، ترفع به إلى شفيرها ثم ترمي إلى أسفلها . ثم لا تزال كذلك دائماً ، قال العلماء : وفي هذه السورة معجزة ظاهرة ودليل واضح على النبوة فإنه منذ نزل قوله تعالى : ﴿ سَيَصْلَى نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ۝ وَأَمْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ ۝ فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ ﴾ فأخبر عنهما بالشقاء ، وعدم الإيمان ، لم يقيض لهما أن يؤمنا ، ولا واحد منهما لا باطنًا ولا ظاهرًا ، ولا مسرًا ولا معلنًا ، فكان هذا من أقوى الأدلة الباهرة الباطنة على النبوة الظاهرة .

(١) أخرجه الحاكم في المستدرک (٣٦١/٢) وأبو يعلى في مسنده (٢٣٥٨) .

سورة الإخلاص

ذكر سبب نزولها وفضلها

عن أبي بن كعب أن المشركين قالوا للنبي ﷺ : يا محمد ، انسب لنا ربك ؛ فأنزل الله تعالى : ﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ۝ اللَّهُ الصَّمَدُ ۝ لَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا شَيْءٌ ۝ لَمْ يَكُنْ لَهُ يَدٌ ۝ لَمْ يَكُنْ لَهُ يَمِينٌ ۝ لَمْ يَكُنْ لَهُ قَبْلُ ۝ لَمْ يَكُنْ لَهُ بَعْدٌ ۝ لَا يَكُنْ لَهُ كُفُوًا شَيْءٌ ۝ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ۝ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ۝ ﴾ (١) . زاد ابن جرير والترمذي قال : ﴿ الصَّمَدُ ﴾ الذي لم يلد ولم يولد ، لأنه ليس شيء يولد إلا سيموت ، وليس شيء يموت إلا سيورث ، وإن الله ﷻ لا يموت ولا يورث . ﴿ لَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ ﴾ ولم يكن له شبهه ولا عدل وليس كمثله شيء (٢) .

عن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أن النبي ﷺ بعث رجلاً على سرية ، وكان يقرأ لأصحابه في صلاتهم فيختم بقل هو الله أحد ، فلما رجعوا ذكروا ذلك للنبي ﷺ فقال : « سَلُّوهُ لِأَيِّ شَيْءٍ يَصْنَعُ ذَلِكَ ؟ » فسأله فقال : لأنها صفة الرحمن ، وأنا أحب أن أقرأ بها . فقال النبي ﷺ : « أَخْبِرُوهُ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى يُحِبُّهُ » (٣) .

وعن أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال : كان رجل من الأنصار يؤمهم في مسجد قباء ، فكان كلما افتتح سورة يقرأ بها لهم في الصلاة مما يقرأ به افتتح بقل هو الله أحد ، حتى يفرغ منها . ثم كان يقرأ سورة أخرى معها ، وكان يصنع ذلك في كل ركعة ، فكلّمه أصحابه فقالوا : إنك تفتتح بهذه السورة ، ثم لا ترى أنها تجزئك حتى تقرأ بالأخرى ، فإما أن تقرأ بها ، وإما أن تدعها وتقرأ بأخرى ، فقال : ما أنا بباركها إن أحببت أن أوكمكم بذلك فعلت ، وإن كرهتم تركتكم . وكانوا يرون أنه من أفضلهم وكرهوا أن يؤمهم غيره . فلما أتاهم النبي ﷺ أخبروه الخبر فقال : « يَا فَلَانُ ، مَا يَمْنَعُكَ أَنْ تَفْعَلَ مَا يَأْمُرُكَ بِهِ أَصْحَابُكَ وَمَا حَمَلَكَ عَلَى لُزُومِ هَذِهِ السُّورَةِ فِي كُلِّ رَكْعَةٍ ؟ » قال : إني أحبها ، قال : « حُبُّكَ إِيَّاهَا أَذْخَلَكَ الْجَنَّةَ » (٤) . وعن أبي سعيد أن رجلاً سمع رجلاً يقرأ ﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ﴾ يرددها فلما أصبح جاء إلى النبي ﷺ فذكر ذلك له وكان الرجل يتقالها ، فقال النبي ﷺ : « وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ إِنَّهَا لَتَعْدِلُ ثُلُثُ الْقُرْآنِ » (٥) وعن أبي سعيد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال : قال رسول الله ﷺ لأصحابه : « أَيَعْجِزُ أَحَدُكُمْ أَنْ يَقْرَأَ ثُلُثَ الْقُرْآنِ فِي لَيْلَةٍ ؟ » . فشق ذلك عليهم ، وقالوا : آئنا يطيق ذلك يا رسول الله . فقال : « اللَّهُ الْوَاحِدُ الصَّمَدُ ثُلُثُ الْقُرْآنِ » (٦) وعن أبي سعيد الخدري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال : بات قتادة بن النعمان يقرأ الليل كله بقل هو الله أحد فذكر ذلك للنبي ﷺ فقال : « وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ إِنَّهَا لَتَعْدِلُ نِصْفَ الْقُرْآنِ - أو ثلثه - » (٧) .

وعن عبيد بن حنين قال : سمعت أبا هريرة يقول : أقبلت مع النبي ﷺ فسمع رجلاً يقرأ : قل هو الله أحد فقال رسول الله : « وَجَبَتْ - قلت : وما وجبت ؟ قال - الجنة » (٨) وعن عبد الله بن حبيب قال :

(١) أخرجه أحمد في مسنده (١٣٣/٥) . (٢) أخرجه الترمذي في التفسير (٥) .

(٣) أخرجه البخاري في التوحيد (٧٣٧٥) ومسلم في صلاة المسافرين (٢٦٣) .

(٤) أخرجه البخاري (٧٤٨٨) والترمذي في السنن (٢٩٠١) والبيهقي في السنن (٢٤١/١) .

(٥) أخرجه البخاري في التوحيد (٧٣٧٤) . (٦) أخرجه البخاري في فضائل القرآن (٥٠١٥) .

(٧) أخرجه أحمد في مسنده (١٧٣/٢) .

(٨) أخرجه الترمذي في السنن (٢٨٩٧) وأبو داود في السنن (١٧١/٢) والحاكم في المستدرک (٥٦٦/١) .

أصابنا عطش وظلمة فانتظرنا رسول الله ﷺ يصلي بنا فخرج فأخذ بيدي فقال : « قل » فسكت قال : « قل » قلت : ما أقول ؟ قال : « قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ وَالْمَعُودَتَيْنِ حِينَ تُمْسِي وَحِينَ تُصْبِحُ ثَلَاثًا ، تَكْفِيكَ كُلَّ يَوْمٍ مَرَّتَيْنِ » ^(١) وعن تميم الداري رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « مَنْ قَالَ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَاحِدًا أَحَدًا صَدَدًا لَمْ يَتَّخِذْ صَاحِبَةً وَلَا وَلَدًا وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُورًا أَحَدٌ عَشَرَ مَرَّاتٍ كَتَبَ اللَّهُ لَهُ أَرْبَعِينَ أَلْفَ حَسَنَةٍ » ^(٢) .

وعن معاذ بن أنس الجهني عن رسول الله ﷺ قال : « مَنْ قَرَأَ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ حَتَّى يَخْتَمَهَا عَشَرَ مَرَّاتٍ بَنَى لَهُ قَصْرًا فِي الْجَنَّةِ » فقال عمر : إذا نستكثر يا رسول الله ، فقال رسول الله ﷺ : « اللَّهُ أَكْثَرُ وَأَطْيَبُ » ^(٣) وروي عن النبي ﷺ قال : « مَنْ أَرَادَ أَنْ يَتِمَّ عَلَى فِرَاشِهِ قَتَامٌ عَلَى يَمِينِهِ ثُمَّ قَرَأَ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ مِائَةً مَرَّةً فَإِذَا كَانَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَقُولُ لَهُ الرَّبُّ ﷻ : يَا عَبْدِي ادْخُلْ عَلَى يَمِينِكَ الْجَنَّةَ » ^(٤) .

حديث آخر في الدعاء بما تضمنته من الأسماء : عن بريدة : أنه دخل مع رسول الله ﷺ المسجد ، فإذا رجل يصلي يدعو يقول : اللهم إني أسألك بأنني أشهد أن لا إله إلا أنت الأحد الصمد الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا أحد . قال : « وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَقَدْ سَأَلَهُ بِاسْمِهِ الْأَعْظَمِ الَّذِي إِذَا سُئِلَ بِهِ أُعْطِيَ وَإِذَا دُعِيَ بِهِ أُجَابَ » ^(٥) . وعن جابر بن عبد الله قال : قال رسول الله ﷺ : « ثَلَاثٌ مَنْ جَاءَ بِهِنَّ مَعَ الْإِيمَانِ دَخَلَ مِنْ أَيِّ أَبْوَابِ الْجَنَّةِ شَاءَ ، وَزُوجَ مِنَ الْحُورِ الْعِينِ حَيْثُ شَاءَ : مَنْ عَفَا عَنْ قَاتِلِهِ ، وَأَدَّى دَيْنًا خَفِيًّا ، وَقَرَأَ فِي دُبُرِ كُلِّ صَلَاةٍ مَكْتُوبَةٍ عَشَرَ مَرَّاتٍ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ » قال : فقال أبو بكر : أو إحداهن يا رسول الله ؟ قال : « أَوْ إِحْدَاهُنَّ » ^(٦) .

حديث في الإكثار من قراءتها في سائر الأحوال : عن أنس قال : نزل جبريل على النبي ﷺ فقال : مات معاوية بن معاوية الليثي ، فتحب أن تصلي عليه ؟ قال : « نعم » فضرب بجناحه الأرض فلم تبق شجرة ولا أكمة إلا تضعضعت ، فرفع سريره فنظر إليه فكبّر عليه ، وخلفه صفان من الملائكة في كل صف سبعون ألف ملك فقال النبي ﷺ : « يَا جَبْرِيلُ بِمَ نَالَ هَذِهِ الْمُنْزِلَةُ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى » قال : بحبه قل هو الله أحد وقراءته إياها ذاهبًا وجائئًا قائمًا وقاعدًا وعلى كل حال ^(٧) .

حديث آخر في فضلها مع المعوذتين : عن عقبة بن عامر قال : لقيت رسول الله ﷺ فابتدأتها فأخذت بيده فقلت : يا رسول الله بِمَ نَجاة المؤمن ؟ قال : « يَا عُقْبَةُ أَخْرِسْ لِسَانَكَ ، وَلَيْسَعَكَ يَتِّشَكَ ، وَابْكْ عَلَى خَطِيئَتِكَ » . قال : ثم لقيني رسول الله ﷺ فابتدأني فأخذ بيدي فقال : « يَا عُقْبَةُ بْنَ عَامِرٍ أَلَا أَعْلَمُكَ خَيْرَ ثَلَاثِ سُورٍ أَنْزَلْتُ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالزَّبُورِ وَالْقُرْآنِ الْعَظِيمِ » . قال : قلت : بلى جعلني الله فداك قال : فَأَقْرَأْنِي : ﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ﴾ و ﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ ﴾ و ﴿ قُلْ أَعُوذُ

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٣١٢/٥) والترمذي في السنن (٣٥٧٥) .

(٢) أخرجه أحمد في مسنده (١٠٣/٤) . (٣) أخرجه أحمد في مسنده (٤٣٧/٣) .

(٤) أخرجه الترمذي في السنن (٢٨٩٨) والمنذري في الترغيب والترهيب (٤١٦/١) .

(٥) أخرجه الترمذي في السنن (٣٤٧٥) وأحمد في مسنده (٣٤٩/٥) .

(٦) أخرجه المنذري في الترغيب والترهيب (٤٠٥/٣) والهيتمي في مجمع الزوائد (٣٠١/٦) .

(٧) أخرجه أحمد في مسنده (١٤٨/٤) .

يَرَبِّ النَّاسِ ﴿ ثُمَّ قَالَ : « يَا عُقْبَةُ لَا تَنْسَهُنَّ وَلَا تَيْتَ لَيْلَةً حَتَّى تَقْرَأَهُنَّ » قَالَ : فَمَا نَسِيْتَهُنَّ مِنْذُ قَالَ : لَا تَنْسَهُنَّ ، وَمَا بَتَّ لَيْلَةً قَطُّ حَتَّى أَقْرَأَهُنَّ ، قَالَ عُقْبَةُ : ثُمَّ لَقِيتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فَأَبْتَدَأْتُهُ فَأَخَذْتُ بِيَدِهِ فَقُلْتُ : يَا رَسُولَ اللَّهِ أَخْبِرْنِي بِغَوَاضِلِ الْأَعْمَالِ فَقَالَ : « يَا عُقْبَةُ صِلْ مَنْ قَطَعَكَ ، وَأَعْطِ مَنْ حَزَمَكَ ، وَأَغْرِضْ عَمَّنْ ظَلَمَكَ » ^(١) .

حديث آخر في الاستشفاء بهن ؛ عن عائشة أن النبي ﷺ كان إذا أوى إلى فراشه كل ليلة ، جمع كفيه ، ثم نفث فيهما وقرأ فيهما : قل هو الله أحد ، وقل أعوذ برب الفلق ، وقل أعوذ برب الناس ، ثم يمسح بهما ما استطاع من جسده ، يبدأ بهما على رأسه ووجهه ، وما أقبل من جسده ، يفعل ذلك ثلاث مرات ^(٢) .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ۝ اللَّهُ الصَّمَدُ ۝ لَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ ۝ ﴾ .
قال عكرمة : لما قالت اليهود : نحن نعبد عزير ابن الله ، وقالت النصارى : نحن نعبد المسيح ابن الله ، وقالت المجوس : نحن نعبد الشمس والقمر ، وقالت المشركون : نحن نعبد الأوثان ؛ أنزل الله على رسوله ﷺ ﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ﴾ يعني هو الواحد الأحد الذي لا نظير له ولا وزير ولا نديد ولا شبيه ولا عدل ، ولا يطلق هذا اللفظ على أحد في الإثبات إلا على الله ﷻ ؛ لأنه الكامل في جميع صفاته وأفعاله . وقوله تعالى : ﴿ اللَّهُ الصَّمَدُ ﴾ : يعني : الذي يصمد إليه الخلائق في حوائجهم ومسائلهم ، وعن ابن عباس : هو السيد الذي قد كمل في سؤدده ، والشريف الذي قد كمل في شرفه ، والعظيم الذي قد كمل في عظمته ، والحليم الذي قد كمل في حلمه ، والعليم الذي قد كمل في علمه ، والحكيم الذي قد كمل في حكمته . وهو الذي قد كمل في أنواع الشرف والسؤدد ، وهو الله سبحانه ، هذه صفته لا تنبغي إلا له ، ليس له كفء وليس كمثل شيء ، سبحانه الله الواحد القهار ، وعن الحسن : هو الباقي بعد خلقه . وعنه أيضًا : الحي القيوم الذي لا زوال له ، وعن عكرمة : الذي لم يخرج منه شيء ، ولا يطعم ، وعن الربيع بن أنس : هو الذي لم يلد ولم يولد كأنه جعل ما بعده تفسيرًا له وهو قوله : ﴿ لَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ ﴾ وهو تفسير جيد . وعن أبي رباح وعطية العوفي وغيره : ﴿ الصَّمَدُ ﴾ الذي لا يأكل الطعام ولا يشرب الشراب .

وقد قال الحافظ أبو القاسم الطبراني في كتاب السنة له بعد إيراده كثيرًا من هذه الأقوال في تفسير الصمد : وكل هذه صحيحة ، وهي صفات ربنا ﷻ ، هو الذي يصمد إليه في الحوائج ، وهو الذي قد انتهى سؤدده . وهو الصمد الذي لا جوف له ولا يأكل ولا يشرب ، وهو الباقي بعد خلقه . وقوله تعالى : ﴿ لَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ ﴾ : أي : ليس له ولد ولا والد ولا صاحبة . قال مجاهد : ﴿ لَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ ﴾ يعني : لا صاحبة له . وفي الحديث « لَا

(١) أخرجه أحمد في مسنده (١٤٨/٤) .

(٢) أخرجه البخاري في الطب (٥٧٤٨) وأبو داود في السنن (٥٠٥٦) والترمذي في السنن (٣٤٠٢) .

أَحَدٌ أَضْبَرُ عَلَى أَدَى سَمِعَهُ مِنَ اللَّهِ ، إِنَّهُمْ يَجْعَلُونَ لَهُ وَلَدًا وَهُوَ يُرْزُقُهُمْ وَيُعَافِيهِمْ » ^(١) . وعن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال : « قَالَ اللَّهُ ﷻ : كَذَّبَنِي ابْنُ آدَمَ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ ذَلِكَ ، وَشَتَمَنِي وَلَمْ يَكُنْ لَهُ ذَلِكَ ، فَأَمَّا تَكْذِيبُهُ إِيَّايَ فَقَوْلُهُ لَنْ يُعِيدَنِي كَمَا بَدَأَنِي وَلَيْسَ أَوَّلُ الْخَلْقِ بِأَهْوَنَ عَلَيَّ مِنْ إِعَادَتِهِ ، وَأَمَّا شَتْمُهُ إِيَّايَ فَقَوْلُهُ : اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا وَأَنَا الْأَحَدُ الصَّمَدُ لَمْ أَلِدْ وَلَمْ أُولَدْ وَلَمْ يَكُنْ لِي كُفُوًا أَحَدٌ » ^(٢) .

(١) أخرجه مسلم في صفات المنافقين (٤٩) وأحمد في مسنده (٣٩٥/٤) .

(٢) أخرجه البخاري في تفسير القرآن (٤٤٨٢) والنسائي في السنن (١١٢/٤) .

سورة الفلق

عن زر بن حبیش قال : قلت لأبي بن كعب : إن ابن مسعود لا يكتب المعوذتين في مصحفه فقال : أشهد أن رسول الله ﷺ أخبرني أن جبريل عليه السلام قال له : قل أعوذ برب الفلق فقلتها ، قال : قل أعوذ برب الناس فقلتها ، فنحن نقول ما قال النبي ﷺ ^(١) . وعن عقبة بن عامر قال : قال رسول الله ﷺ : « أَلَمْ تَرَ آيَاتِ أَنْزَلْتُ هَذِهِ اللَّيْلَةَ لَمْ يُرْ مِثْلَهُنَّ قَطُّ . ﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ ﴾ و ﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ ﴾ » ^(٢) وعن عقبة بن عامر قال : بينا أنا أقود برسول الله ﷺ في نخب من تلك النقاب إذ قال لي : « يَا عُقْبَةُ أَلَا تَرْكُبُ » قال ، فأشفقت أن تكون معصية قال : فنزل رسول الله ﷺ وركبت هنية ثم ركب ثم قال : « يَا عُقْبَةُ أَلَا أُعَلِّمُكَ سُورَتَيْنِ مِنْ خَيْرِ سُورَتَيْنِ قَرَأَ بِهِمَا النَّاسُ » قلت : بلى يا رسول الله فأقرأني : ﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ ﴾ و ﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ ﴾ ثم أقيمت الصلاة ، فتقدم رسول الله ﷺ يقرأ بهما ، ثم مر بي فقال : « كَيْفَ رَأَيْتَ يَا عُقْبَةُ أَفَرَأَى بِهِمَا كُلَّمَا نَمَتَ وَكُلَّمَا قُمْتُ » ^(٣) وعن عقبة بن عامر أنه قال : إن رسول الله ﷺ أهديت له بغلة شهباء ، فركبها ، فأخذ عقبة يقودها له ، فقال رسول الله ﷺ : « أَفَرَأَى قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ » فأعادها له حتى قرأها ، فعرف أنني لم أفرح بها جداً فقال : « لَعَلَّكَ تَهَاوَنْتَ بِهَا ؟ فَمَا قُمْتُ تَصَلِّي بِشَيْءٍ مِثْلِهَا » ^(٤) وعن عقبة بن عامر قال : اتبعت رسول الله ﷺ وهو راكب ، فوضعت يدي على قدميه ، فقلت : أقرئتني سورة هود أو سورة يوسف فقال : « لَنْ تَقْرَأَ شَيْئًا أَنْفَعَ عِنْدَ اللَّهِ مِنْ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ » ^(٥) . وعن أبي عبد الله بن عباس الجهني أن النبي ﷺ قال له : « يَا ابْنَ عَابِسٍ أَلَا أَدُلُّكَ - أَوْ أَلَا أَخْبِرُكَ - بِأَفْضَلِ مَا يَتَعَوَّذُونَ بِهِ ؟ » قال : بلى يا رسول الله ، قال : ﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ ﴾ ، و ﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ ﴾ هَاتَانِ السُّورَتَانِ ^(٦) .

وعن أبي العلاء قال : قال رجل : كنا مع رسول الله ﷺ في سفر ، والناس يعتقبون وفي الظهر قلة ، فحانت نزلة رسول الله ﷺ ونزلتي ، فلحقني فضرب منكبي فقال : ﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ ﴾ فقرأها رسول الله ﷺ فقرأتها معه . ثم قال : ﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ ﴾ فقرأها رسول الله ﷺ فقرأتها معه فقال : « إِذَا صَلَّيْتَ فَاقْرَأْ بِهِمَا » ^(٧) الظاهر أن هذا الرجل هو عقبة بن عامر والله أعلم .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ ① مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ ② وَمِنْ شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ ③ وَمِنْ شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ ④ وَمِنْ شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ ⑤ .

عن جابر قال ﴿ الْفَلَقِ ﴾ الصبح وعن ابن عباس ﴿ الْفَلَقِ ﴾ الخلق ، أمر الله نبيه أن يتعوذ من

(٢) أخرجه أحمد في مسنده (١٤٤/٤) .

(١) أخرجه أحمد في مسنده (١٢٩/٥) .

(٣) أخرجه أحمد في مسنده (١٤٤/٤) .

(٤) أخرجه النسائي في السنن (٢٥٤/٨) وأحمد في مسنده (١٤٩/٤) .

(٥) أخرجه النسائي في السنن (١٥٨/٢) وأحمد في مسنده (١٥٩/٤) .

(٦) أخرجه النسائي في السنن (٢٥٢/٨) وأحمد في مسنده (١٤٤/٤) والألباني في الصحيحة (١١٠٤) .

(٧) أخرجه أحمد في مسنده (٢٤/٥) .

الخلق كله ، وقال كعب الأحبار : ﴿ أَلْفَلَقَ ﴾ بيت في جهنم ، إذا فتح صاح جميع أهل النار من شدة حره . وقيل : جب في قعر جهنم ، عليه غطاء ، فإذا كشف عنه خرجت منه نار تضيئ منه جهنم من شدة حر ما يخرج منه .

قال ابن جرير : والصواب القول الأول : إنه فلق الصبح وهذا هو الصحيح ، وهو اختيار البخاري في صحيحه رحمه الله تعالى . وقوله تعالى : ﴿ مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ ﴾ أي : من شر جميع المخلوقات ، وقال ثابت البناني والحسن البصري : جهنم وإبليس وذريته مما خلق ﴿ وَ مِنْ شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ ﴾ : قال مجاهد : غاسق الليل إذا وقب غروب الشمس ، وقال ابن نجيم وقتادة : إنه الليل إذا أقبل بظلامه . وقال الزهري : الشمس إذا غربت ، وعن عطية وقتادة : الليل إذا ذهب . وعن أبي هريرة : الكوكب . وعن ابن زيد : كانت العرب تقول : الغاسق سقوط الثريا ، وكانت الأسقام والطواعين تكثر عند وقوعها ، وترتفع عند طلوعها . عن أبي هريرة عن النبي ﷺ : ﴿ وَ مِنْ شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ ﴾ النجم الغاسق . قلت وهذا الحديث لا يصح رفعه إلى النبي ﷺ ، قال ابن جرير ، وقال آخرون : هو القمر ، قلت : وعمدة أصحاب هذا القول ما روي عن عائشة رضي الله عنها قالت : أخذ رسول الله ﷺ بيدي فأراني القمر حين طلع وقال : ﴿ تَعَوَّذِي بِاللَّهِ مِنْ شَرِّ هَذَا ، هَذَا الْغَاسِقُ إِذَا وَقَبَ ﴾ ^(١) قال أصحاب القول الأول : وهو آية الليل إذا ولج . وهذا لا ينافي قولنا ؛ لأن القمر آية الليل ، ولا يوجد له سلطان إلا فيه ، وكذلك النجوم لا تضيئ إلا بالليل ، فهو يرجع إلى ما قلناه ، والله أعلم .

وقوله تعالى : ﴿ وَ مِنْ شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ ﴾ : يعني السواحر . قال مجاهد : إذا رقين ونفنن في العقد . وعن طاوس قال : ما من شيء أقرب من الشرك من رقية الحية والجمانين . وعن عائشة قالت : كان رسول الله ﷺ سحر حتى كان يرى أنه يأتي النساء ، ولا يأتيهن ، قال سفيان : وهذا أشد ما يكون من السحر إذا كان كذا . فقال : « يَا عَائِشَةُ أَعْلِمْتِ أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَفْتَانِي فِيمَا اسْتَفْتَيْتُهُ فِيهِ ؟ أَتَانِي رَجُلَانِ فَقَعَدَ أَحَدُهُمَا عِنْدَ رَأْسِي وَالْآخَرُ عِنْدَ رِجْلِي فَقَالَ الَّذِي عِنْدَ رَأْسِي لِلْآخَرِ : مَا بَالُ الرَّجُلِ ؟ قَالَ : مَطْبُوبٌ ، قَالَ : وَمَنْ طَبَّهَ ؟ قَالَ : لَيْدٌ بِنُ أَعْصَمَ رَجُلٌ مِنْ بَنِي زُرَيْقٍ خَلِيفُ الْيَهُودِ كَانَ مُنَافِقًا ، قَالَ : وَفِيمَ ؟ قَالَ : فِي مَشْطٍ وَمِشَاطَةٍ ، قَالَ : وَأَيْنَ ؟ قَالَ : فِي جُفِّ طَلْعَةِ ذَكَرٍ تَحْتَ رَاغُوفَةٍ فِي بَيْرِ ذُرْوَانَ » قالت : فأتى البئر حتى استخرجه فقال : « هَذِهِ بَيْرُ اللَّهِ أَرَيْتَهَا وَكَأَنَّ مَاءَهَا نِقَاعَةُ الْحَيَاءِ ، وَكَأَنَّ تَخْلَعَهَا رُؤُوسُ الشَّيَاطِينِ » . قال : فاستخرج ، فقلت : أفلا تنشرت ؟ فقال : « أَمَّا اللَّهُ فَقَدْ شَفَانِي وَأَكْرَهُ أَنْ أُبَيَّرَ عَلَى أَحَدٍ مِنَ النَّاسِ شَرًّا » ^(٢) .

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٦١/٦) .

(٢) أخرجه البخاري في الطب (٥٧٦٣) .

سورة الناس

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ ﴿١﴾ مَلِكِ النَّاسِ ﴿٢﴾ إِلَهِ النَّاسِ ﴿٣﴾ مِنْ سَرِّ الْأَسْوَابِ الْخَنَاسِ ﴿٤﴾ الَّذِي يُوسِّسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ ﴿٥﴾ مِنَ الْغِيَةِ وَالنَّاسِ ﴾ .

هذه ثلاث صفات من صفات الرب ﷻ : الربوبية والملك والإلهية ، فهو رب كل شيء ومليكه وإلهه فجميع الأشياء مخلوقة له مملوكة عبيد له ، فأمر المستعيز أن يتعوذ بالمتصف بهذه الصفات من شر الوسواس الخناس وهو الشيطان الموكل بالإنسان ، فإنه ما من أحد من بني آدم إلا وله قرين يزين له الفواحش ، ولا يألوه جهداً في الخبال ، والمعصوم من عصمه الله .

وقد ثبت في الصحيح : « مَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا وَقَدْ وَكَلَ بِهِ قَرِينُهُ » قالوا : وأنت يا رسول الله قال : « نَعَمْ إِلَّا أَنَّ اللَّهَ أَعَانَنِي عَلَيْهِ فَأَسْلَمَ فَلَا يَأْمُرُنِي إِلَّا بِخَيْرٍ » ^(١) . وثبت عن أنس في قصة زيارة صفية للنبي ﷺ وهو معتكف وخروجه معها ليلاً ليردها إلى منزلها فلقيه رجلان من الأنصار فلما رأيا النبي ﷺ أسرعوا فقال رسول الله ﷺ : « عَلَى رِسْلِكُمَا إِنَّهَا صَفِيَّةُ بِنْتُ حُجَيٍّ » فقالا : سبحان الله يا رسول الله فقال : « إِنَّ الشَّيْطَانَ يَجْرِي مِنْ ابْنِ آدَمَ مَجْرَى الدَّمِ وَإِنِّي خَشِيتُ أَنْ يَقْدِفَ فِي قُلُوبِكُمَا شَيْئًا - أَوْ قَالَ شَرًّا - » ^(٢) .

عن رديف رسول الله ﷺ قال : عثر بالنبي ﷺ حماره فقلت : تعس الشيطان فقال النبي ﷺ : « لَا تَقُلْ تَعَسَ الشَّيْطَانُ فَإِنَّكَ إِذَا قُلْتَ تَعَسَ الشَّيْطَانُ تَعَاطَمَ . وقال : يَقُوْتِي صَرَغْتُهُ وَإِذَا قُلْتَ بِاسْمِ اللَّهِ تَصَاغَرَ حَتَّى يَصِيرَ مِثْلَ الذُّبَابِ » ^(٣) ، وفيه دلالة على أن القلب متى ذكر الله تصاغر الشيطان وغلب ، وإن لم يذكر الله تعاطم وغلب . وعن أبي هريرة ؓ قال : قال رسول الله ﷺ : « إِنَّ أَحَدَكُمْ إِذَا كَانَ فِي الْمَسْجِدِ جَاءَ الشَّيْطَانُ فَأَبْسَ بِهِ كَمَا يُبْسُ الرَّجُلُ بِدَائِيهِ ، فَإِذَا سَكَنَ لَهُ زَنْقُهُ أَوْ أَلْجَمَةُ » قال أبو هريرة ؓ : وأنتم ترون ذلك أما المزنون فتراه مائلاً كذا لا يذكر الله ، وأما الملجم ففاح فاه لا يذكر الله ﷻ ^(٤) . وقال ابن عباس في قوله : ﴿ الْأَسْوَابِ الْخَنَاسِ ﴾ قال : الشيطان جائم على قلب ابن آدم فإذا سها وغفل وسوس فإذا ذكر الله خنس . وقال المعتمر بن سليمان عن أبيه : ذكر لي أن الشيطان الوسواس ينث في قلب ابن آدم عند الحزن وعند الفرح ، فإذا ذكر الله خنس . وقال العوفي عن ابن عباس : هو الشيطان يأمر فإذا أطع خنس .

وقوله تعالى : ﴿ الَّذِي يُوسِّسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ ﴾ هل يختص هذا ببني آدم كما هو الظاهر أو يعم بني آدم والجن ؟ فيه قولان ويكونون قد دخلوا في لفظ الناس تغليبا . وقال ابن جرير : وقد

(١) أخرجه مسلم في صفات المنافقين (٦٩) وأحمد في مسنده (٣٨٥/١) .

(٢) أخرجه البخاري في بدء الخلق (٣٢٨١) ومسلم في الإسلام (٢٤) وأبو داود في السنن (٢٤٧٠) .

(٣) أخرجه أحمد في مسنده (٥٩/٥) .

(٤) أخرجه أحمد في مسنده (٣٣٠/٢) والهيثم في مجمع الزوائد (٢٤٢/١) .

استعمل فيهم رجال من الجن فلا بدع في إطلاق الناس عليهم . وقوله تعالى : ﴿ يَنْ أَلْجَنَّةِ وَأَلْكَائِ ﴾ هل هو تفصيل لقوله : ﴿ أَلَّذِي يُوسُوفُ فِي صُدُورِ الْكَائِ ﴾ ثم يبيّنهم فقال : ﴿ يَنْ أَلْجَنَّةِ وَأَلْكَائِ ﴾ وهذا يقوي القول الثاني وقيل : قوله : ﴿ يَنْ أَلْجَنَّةِ وَأَلْكَائِ ﴾ تفسير للذي يوسوس في صدور الناس ، من شياطين الإنس والجن ، وعن أبي ذر قال : أتيت رسول الله ﷺ وهو في المسجد ، فجلست فقال : « يَا أَبَا ذَرٍّ هَلْ صَلَّيْتَ ؟ » قلت : لا قال : « قُمْ فَصَلِّ » قال : فقممت فصليت ثم جلست فقال : « يَا أَبَا ذَرٍّ تَعُوذُ بِاللَّهِ مِنْ شَرِّ شَيَاطِينِ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ » . قال : فقلت : يا رسول الله وللإنس شياطين ؟ قال : « نَعَمْ » قال : فقلت : يا رسول الله الصلاة ؟ قال : « خَيْرٌ مَوْضُوعٍ مَنْ شَاءَ أَقَلُّ وَمَنْ شَاءَ أَكْثَرُ » قلت : يا رسول الله فالصوم ؟ قال : « فَرَضٌ مُجْزِئٌ وَعِنْدَ اللَّهِ مَزِيدٌ » . قلت : يا رسول الله فالصدقة ؟ قال : « أَضْعَافٌ مُضَاعَفَةٌ » قلت : يا رسول الله أيها أفضل ؟ قال : « جُهْدٌ مِنْ مُقِلٍّ أَوْ سِرٌّ إِلَى فَقِيرٍ » قلت : يا رسول الله أي الأنبياء كان أول ؟ قال : « آدَمَ » قلت : يا رسول الله ونبيا كان ؟ قال : « نَعَمْ نَبِيٌّ مُكَلَّمٌ » قلت : يا رسول الله كم المرسلون ؟ قال : « ثَلَاثُمِائَةٍ وَبِضْعَةَ عَشَرَ جَمًّا غَفِيرًا » وقال مرة « خَمْسَةَ عَشَرَ » قلت : يا رسول الله أيما أنزل عليك أعظم ؟ قال : « آيَةُ الْكَزْبِيِّ ﴾ ﴿ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ ﴾ ^(١) وعن ابن عباس قال : جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال : يا رسول الله إني لأحدث نفسي بالشيء لأن آخر من السماء أحب إلي من أن أتكلم به قال : فقال النبي ﷺ : « اللَّهُ أَكْبَرُ اللَّهُ أَكْبَرُ ، الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي رَدَّ كَيْدَهُ إِلَى الْوَسْوَاسَةِ » ^(٢) .

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٢٦٥/٥) والهيتمي في مجمع الزوائد (١٥٩/١) .

(٢) أخرجه أحمد في مسنده (٢٣٥/١) وأبو داود في السنن (٥٠٤) .

الفهارس والمراجع

- فهرس القراءات القرآنية
- فهرس الأحاديث
- فهرس الآثار
- المراجع
- فهرس المجلد الثالث

فهرس القراءات القرآنية

الآية	السورة	رقم الآية	الصفحة
﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾	الفاتحة	٢	٣٢
﴿ مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ ﴾	الفاتحة	٤	٣٤
﴿ أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ﴾	الفاتحة	٦	٣٦
﴿ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ ﴾	البقرة	١٠	٥٢
﴿ أَهْطُوا بِضُرٍّ ﴾	البقرة	٦١	٨٥
﴿ مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسَاهَا ﴾	البقرة	١٠٦	١١٩
﴿ وَلَا تَنْتَهِ عَنْ أَهْصَابِ الْبَحْرِ ﴾	البقرة	١١٩	١٣٠
﴿ وَوَصَّى بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ ﴾	البقرة	١٣٢	١٤٥
﴿ يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَذْعُلُوا فِي آلِيسِرِ كَافَّةً ﴾	البقرة	٢٠٨	٢٠٠
﴿ وَتَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلِ الْغَفَرُ ﴾	البقرة	٢١٩	٢٠٧
﴿ وَأَنْظُرْ إِلَى الظَّالِمِ كَيْفَ تُنْشِرُهَا ﴾	البقرة	٢٥٩	٢٥١
﴿ كَمْ لَكَ بِنَعْمَةِ رَبِّكَ ﴾	البقرة	٢٦٥	٢٥٤
﴿ وَكَثِيرٌ عَنْكُمْ مِنْ سَعْيِكُمْ ﴾	البقرة	٢٧٠	٢٥٨
﴿ فَلَمَّا وَصَّيْنَاهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَصَّيْتُنِي أَنْتَ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَصَّيْتَنِي ﴾	آل عمران	٣٦	٢٨٩
﴿ بِمَا كُنْتُمْ تَقُولُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنْتُمْ تَدْرُسُونَ ﴾	آل عمران	٧٩	٣٠٥
﴿ قُلْ مَعَهُ رَيْثُونَ كَثِيرٌ ﴾	آل عمران	١٤٦	٣٣٢
﴿ وَمَا كَانَ لِي بِهِ أَنْ يُعَلَّ ﴾	آل عمران	١٦١	٣٤٠
﴿ فَلَا تَحْسَبَنَّاهُمْ بِمَقَارِفٍ مِنَ الْعَذَابِ ﴾	آل عمران	١٨٨	٣٥٤
﴿ وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسْتَعِينُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ ﴾	النساء	١	٣٦٣
﴿ فَإِذَا أَحْبَبَ إِنْ أَتَيْتَ بِتَحِيَّاتٍ فَلْتَيْنِ نِصْفُ مَا عَلَى الْمُحْصَنَاتِ مِنَ الْعَذَابِ ﴾	النساء	٢٥	٣٨٧
﴿ إِلَّا أَنْ تَكُونَ بِحَبْرَةٍ عَنْ رَاضٍ مِنْكُمْ ﴾	النساء	٢٩	٣٩١
﴿ أَوْ لَتَسْمُ الْإِنْسَاءُ ﴾	النساء	٤٣	٤٠٨
﴿ وَأَرْحَلَكُمْ إِلَى الْكَمْبَيْنِ ﴾	المائدة	٦	٥٠٢
﴿ قَالَ رَجُلَانِ مِنَ الَّذِينَ يَخَافُونَ ﴾	المائدة	٢٣	٥١٣
﴿ وَكُنَّا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنْ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ وَالْعَيْنَ بِالْعَيْنِ ﴾	المائدة	٤٥	٥٣٠
﴿ وَلِيَخْبَرُوا أَهْلَ الْإِنجِيلِ ﴾	المائدة	٤٧	٥٣٢

الآية	السورة	رقم الآية	الصفحة
﴿ وَيَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا أَهَؤُلَاءِ الَّذِينَ أَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ	المائدة	٥٣	٥٣٥
﴿ لَئِنْ لَمُتْكُمْ لَيَأْكُلُنَّ لَحْمَكُمِ فَأَتِيَهُمْ فَأَصْبَحُوا خَاسِرِينَ ﴾	المائدة	٥٧	٥٣٨
﴿ يَنْ أَلَيْسَ الْأَوْثَانُ الْكَذِبُ مِنَ قَبْلِكُمْ وَالْكَافَرُ	المائدة	٦٠	٥٣٩
﴿ وَعَبْدُ الظُّلُمُوتِ ﴾	المائدة	٩٥	٥٥٧
﴿ فَجَزَاءٌ يَنْزِلُ مَا قُلْنَا مِنَ النَّعْمِ ﴾	المائدة	١٠٦	٥٦٧
﴿ وَلَا تَكْفُرْ شَهَادَةَ اللَّهِ	المائدة	١٠٧	٥٦٨
﴿ مِنْ الَّذِينَ اسْتَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْأَوْثَانُ ﴾	المائدة	١١٢	٥٧١
﴿ يَكْفُرُ ابْنُ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ	الأنعام	٥٥	٥٩٠
﴿ وَلِتَسَيِّبَنَّ سَيْلُ الْمُنْجَرِينَ ﴾	الأنعام	٧٤	٥٩٨
﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ أَرِئِي مَا تَعْبُدُ أَصْنَامًا مِثْلِي	الأنعام	٨٣	٦٠٢
﴿ وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ نَرْفَعُ	الأنعام	٩٤	٦٠٦
﴿ دَرَجَاتٍ مَنْ نَشَاءُ ﴾	الأنعام	١٠٥	٦١١
﴿ لَقَدْ نَقَطَعَ بَيْنَكُمْ	الأنعام	١٠٩	٦١٣
﴿ وَلِيَقُولُوا دَرَسْتَ	الأنعام	١١١	٦١٤
﴿ أَنَّهُمَا إِذَا جَاءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾	الأنعام	١١٩	٦١٦
﴿ وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلًا ﴾	الأنعام	١٢٥	٦٢٢
﴿ وَمَا لَكُمْ أَلَّا تَأْكُلُوا مِمَّا ذُكِّرَ عَلَيْكُمْ وَقَدْ	الأنعام	١٥٢	٦٣٦
﴿ فَوَصَّلَ لَكُمْ مَا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ ﴾	الأعراف	٢٧	٦٥٧
﴿ وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا	الأعراف	٥٤	٦٧٠
﴿ ذَلِكُمْ وَمَنْكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾	الأعراف	٥٧	٦٧١
﴿ وَلِبَاسُ الْقَوَى ذَلِكَ خَيْرٌ	الأعراف	١٠٥	٦٨٣
﴿ يَطْلُبُهُ حِينًا وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالْجُودُ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ	الأعراف	١٢٧	٦٨٦
﴿ وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَّحَ بُشْرًا	الأعراف	١٤٣	٦٩١
﴿ حَقِيقٌ عَلَى أَنْ لَا أَقُولَ عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقُّ	الأعراف	١٤٩	٦٩٤
﴿ وَقَالَ لِلَّذِينَ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَنْدَرُونَ مُوسَى وَاقَوْمَهُ لِيُفْسِدُوا	الأعراف	١٦٤	٧٠١
﴿ فِي الْأَرْضِ وَيَذَرِكَ وَالْهَيْكَلُ			
﴿ جَعَلَهُ دَكًّا			
﴿ وَذَاقُوا أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّوا قَالُوا لَيْنَ لَمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا			
﴿ وَيَغْفِرَ لَنَا			
﴿ مَذْمُورَةٌ إِلَّا رَبُّكُمْ			

الآية	السورة	رقم الآية	الصفحة
﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ﴾	الأعراف	٢٠١	٧١٩
﴿يَأْتِي مِنَ الْمَلَكِ مَدْوِينٌ﴾	الأنفال	٩	٧٣٠
﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا مَا لَكَرَ مِنْ دَلِيلِهِمْ﴾	الأنفال	٧٣	٧٦٥
﴿مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَنْ يَعْمُرُوا مَسْجِدَ اللَّهِ﴾	التوبة	١٧	٧٧٤
﴿وَجِلَّةَ الْمُعَذَّرُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ﴾	التوبة	٨٩	٨١٢
﴿وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ﴾	التوبة	١٠٠	٨١٥
﴿إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ﴾	التوبة	١٠٣	٨١٧
﴿هُنَالِكَ تَبْلَوْا كُلُّ نَفْسٍ مَّا أَشْلَفَتْ﴾	يونس	٣٠	٨٤٥
﴿وَقَالَ مُوسَى رَبَّنَا إِنَّكَ مَاتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأْتَ زِينَةً وَأَمْوَالًا فِي الْخَالِقَةِ الدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلَّوْا عَنْ سَبِيلِكَ﴾	يونس	٨٨	٨٥٧
﴿وَسَيَعْلَمُ الْكَافِرُ لِمَنْ عَقَّبَى الدَّارِ﴾	الرعد	٤٠	٩٤١
﴿اللَّهُ الَّذِي لَمْ يَكُنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾	إبراهيم	٢	٩٤٣
﴿وَلِنْ كَانَتْ مَكْرُمُهُمْ لِيَنْزِلَ مِنْهُ الْجِبَالُ﴾	إبراهيم	٤٦	٩٥٩
﴿كَذَلِكَ يُبَيِّنُ رَحْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَسْلِمُونَ﴾	النحل	٨١	٩٩٨
﴿وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَوْمًا فَرَيْنَا أَمْرًا مُّتَرَفِعًا﴾	الإسراء	١٦	١٠٢٤
﴿وَرَزَّوْا بِالْقِسْطِ﴾	الإسراء	٣٥	١٠٣٠
﴿لَقَدْ عَلِمْتَ مَا أَنْزَلَ هَؤُلَاءِ إِلَّا رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ بِصَافِرٍ﴾	الإسراء	١٠٢	١٠٥٤
﴿وَقَوْمًا فَرَّقْنَاهُ لِيَقْرَأُوا عَلَى النَّاسِ عَلَى مِثْقَلِ وَزْنِهِ نَزِيلًا﴾	الإسراء	١٠٥	١٠٥٥
﴿كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ﴾	الكهف	٥	١٠٦٠
﴿هُنَالِكَ الْوَلِيَّةُ لِلَّهِ الْحَقُّ﴾	الكهف	٤٤	١٠٧٢
﴿وَكَانَ وَدَّاهُمْ مَلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا﴾	الكهف	٧٩	٩٤٧
﴿فَنَادَاهَا مِنْ تَحْتِهَا﴾	مريم	٢٤	١٠٩٩
﴿وَأَذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مَوْسَى إِذْ كَانَ مُخْلَصًا﴾	مريم	٥١	١١٠٤
﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ الْأَرْضَ مَهْدًا﴾	طه	٥٣	١١٣٢
﴿وَنَرَى النَّاسَ سُكَارَى﴾	الحج	٢	١١٧٥
﴿الرُّجَاةُ كَأَنَّهُمْ كَوَّكِبٌ دُرِّيٌّ﴾	النور	٣٥	١٢٥٢
﴿مَا كَانَ يَنْبَغِي لَنَا أَنْ نَتَّخِذَ مِنْ دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَاءَ﴾	الفرقان	١٨	١٢٧٣
﴿إِنْ هَذَا إِلَّا خُلُقُ الْأَوَّلِينَ﴾	الشعراء	١٣٧	١٣٠١

الآية	السورة	رقم الآية	الصفحة
﴿ أَلَا يَسْجُدُوا لِلَّهِ ﴾	النمل	٢٥	١٣١٩
﴿ بَلِ أَدْرَكَ عَلَيْهِمْ فِي الْآخِرَةِ ﴾	النمل	٦٦	١٣٢٩
﴿ وَقَالَ إِنَّمَا اتَّخَذْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ أَوْثَنًا مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴾	العنكبوت	٢٥	١٣٦١
﴿ وَالْعَنَتُمْ لَنَا كَثِيرًا ﴾	الأحزاب	٦٨	١٤٥٩
﴿ فَقَالُوا رَبَّنَا بَعْدَ بَيْنَ أَسْفَارِنَا وَظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ﴾	سبأ	١٩	١٤٧١
﴿ وَلَقَدْ أَسْلَمْنَا مِنكُم مِّثْلَ هَٰذَا كَثِيرًا ﴾	يس	٦١	١٥١١
﴿ يَرْثِيهِ الْكَاكِبُ ﴾	الصفافات	٦	١٥١٩
﴿ هَٰذَاكَ لِمَن الْمَصْدِقِينَ ﴾	الصفافات	٩٥	١٥٢٤
﴿ سَلِّمْ عَلَيَّ إِلَى يَابِسِينَ ﴾	الصفافات	١٣١	١٥٣٢
﴿ قَالَ فَالْحَقُّ وَالْحَقُّ أَقُولُ ﴾	ص	٨٤	١٥٥٠
﴿ أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ ﴾	الزمر	٣٦	١٥٥٩
﴿ إِنِّي أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَن يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادَ ﴾	غافر	١٦	١٥٧٧
﴿ لَوْلَا فَصَلَّتْ إِنَّهُ يُغْنِي عَنِّي ﴾	فصلت	٤٤	١٦٠١
﴿ وَبِهَا مَا تَشْتَهِي الْأَنفُسُ ﴾	الزخرف	٧١	١٦٢٩
﴿ أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ ﴾	النجم	١٩	١٧٣٣
﴿ يُرْسَلُ عَلَيْهَا شَوَاطِلٌ مِّن نَّارٍ وَتُهَوِّسُ فَلَا تَنْصَرِفَانِ ﴾	الرحمن	٣٥	١٧٥٢
﴿ فَبِئْنَ خَبَرْتُ ﴾	الرحمن	٧٠	١٧٥٦
﴿ وَخَوَّرُ عَيْنٍ ﴾	الواقعة	٢٢	١٧٦٤
﴿ فَرُوحٌ وَرِجَاحٌ ﴾	الواقعة	٨٩	١٧٧٤
﴿ فِي الْمَجَالِسِ ﴾	المجادلة	١١	١٧٩٤
﴿ وَجَاءَ فِرْعَوْنُ وَمَنْ قَبْلَهُ ﴾	الحاقة	٩	١٨٧٢
﴿ يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْنَاثِ سِرًّا كَأَنَّهُمْ إِلَى نُصُبٍ يُوفِصُونَ ﴾	المعارج	٤٢	١٨٨٢
﴿ وَاتَّبِعُوا مَن لَّرَ بَزْدَهُ مَالُهُ رَوَّلَهُ إِلَّا خَسَارًا ﴾	نوح	٢١	١٨٨٥
﴿ لِّعَلَّاهُمْ ﴾	الجن	٢٨	١٨٩٣
﴿ يَمَّا خَطَّ بِثَنِيهِمْ أُغْرِقُوا فَأَدْنَلُوا نَارًا ﴾	نوح	٢٥	١٨٨٦
﴿ لَا أَقِيمُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ ﴾	القيامة	١	١٩٠٦
﴿ إِذَا كُنَّا عِظْمًا تَخِرَّةً ﴾	النازعات	١١	١٩٢٤
﴿ وَمَا هُوَ عَلَى الْقَيْبِ بِضَنِينٍ ﴾	التكوير	٢٤	١٩٣٦

فهرس الأحاديث

الصفحة	الحديث	الصفحة	الحديث
	أتريدون أن تقولوا كما قال أهل الكتابين		[حرف الألف]
٢٧٠	من قبلكم	١١٤٢ ، ٢٤٦	أتى تحت العرش
١٧٦٠	أتدرون من السابقون إلى ظل الله		آخر آية نزلت من القرآن هذه الآية ﴿ لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ ﴾
١٩٠٢	أترى بما أقول بأساً	٨٣٤	آمن شعره وكفر قلبه
٤٣٤	أتشهدين أن لا إله إلا الله	١٥١٤	أمين أمين أمين
٦٥٢ ، ٦٣٦	أتعجبون من دقة ساقيه	١٠٢٦	آية المنافق ثلاث إذا حدث كذب وإذا عاهد
١٢٦٣	أتعرف الحيرة		أبدأ بما بدأ الله به
٢٥٩	اتقوا فراسة المؤمن	٨٠٨ ، ١٦٦	أبدأ بنفسك فتصدق عليها فإن فضل شيء
١٩٦٨	اتقوا النار ولو بشق تمرة	١٨٢٣ ، ١٥٧	فلأهلك
٦٩٧	أتقولون هذا أضل أم بعيره	٢٠٧	أبشر يا أبا بكر هذا جبريل
١١٩٠	أتى رسول الله ﷺ بكبشين	٧٣٢	أبغض الحلال إلى الله الطلاق
١٩٨٧	أتيت على نهر حافته من ذهب	٤٥٧	أبغض الناس إلى الله من يتغني في الإسلام
٢٦١	أتيت ليلة أسري بي على قوم بطونهم	٥٣٥	ابن آدم أنفق أنفق عليك
٨٦١	أثقل الصلاة على المنافقين صلاة العشاء	٢٠١	ابنك هذا ؟
٥٠٨	اثنا عشر كعدة نقيب بني إسرائيل	١٥٣	أتاني الليلة آتيان
٩٠	اجتنبوا الخمر فإنها أم الخبائث	٨١٧	أتاني وفد جن نصيبين فسألوني الزاد
٧٣٥ ، ٣٦٩ ، ٢٩٣	اجتنبوا السبع الموبقات	١٦٥٧	أترون هذه تلقى ولدها في النار
١٧٧٤	اجعلوها في ركوعكم	١٤٣٩	أتألفهم
٦٤	أجل إنها صلاة رغب ورهب	٧٩٨	أتاني جبريل فبشرني
١٩٨٨	أجل ، وعرضته ياقوت ومرجان	٦٣٤	أتاني ربي في أحسن صورة
٧٧٧	أجل يا بلال أسرج لي فرس	٧٤	أتدرون فيما انتطحتا
١٠٣٠	اجلس .. أتعبه لأملك	٣٧	أتدرون لمن هذا ؟
١٧٥٧	أجلوا الله يغفر لكم	٦٧٧	أتدرون ما هذان الكتابان
٩٦	اجمعوا لي من كان من اليهود ههنا	١٦٠٦	أتدرون ما أخبارها
١٤٣٥	أحب أهلي إلي فاطمة بنت محمد	١٩٦٨	أتدرون ما هذه الرياح
١٨١٧	أحب حبيك ههنا ما عسى أن يكون بغيضك يومئذ	١٦٩٩	أتدرون ما يوم الجمعة
١٥٤٠	أحب الصلاة إلى الله تعالى صلاة داود	٣٩٢	أتدري أين تذهب الشمس
٣٧٠	أخرج مال الضعيفين	٦٣٩	أتدري لم بحث إليك
١٣٩٩	أحسنهم خلقاً	٣٤١	أتدري ما حق الله على العباد
١٥٣٣	احفظ الله يحفظك	٥٩٠	أتدري ما حق الله على عباده
١٢٤٥	احفظ عورتك	٤٠١ ، ٥٨	أتدري ما حق الله على عباده
٦٨٧ ، ٤٨٩ ، ١٦٣	أحل لنا ميتتان ودمان	٢٢٠	أتدري ما حق الله على عباده
١٨٦٩	أحياناً يأتي مثل صلصلة الجرس	١٤٣٩	أترون هذه تلقى ولدها في النار
١٣٦٢	أخبرك أن الله تعالى يجمع الأولين	٣٧١ ، ١٥١	أترون هذه طارحة ولدها في النار
١٣٨٠	أخبركم لم سمي الله إبراهيم خليله		

- أخبرني بهذا جبريل أنفاً ١٠٥
 أخبروها أنها لا تدخلها وهي عجوز ١٧٦٦
 اختصمت الجنة والنار ٨٩٠
 أختك هي ؟ ١٧٩١
 أخرج متاعك فضعه في الطريق ٤٦٤
 اخرج يا أبا بكر فهذا حينك ١٠٤١
 أخر عني يا عمر ٨١١
 اخرج يا فلان فإنك منافق ٨١٦ ، ٨٠١
 أخلص دينك يكفك القليل من العمل ٨٦٣
 أئعن اسم عند الله رجل تسمى بملك الملوك ٣٥
 أد الأمانة إلى من ائتمنك ٤١٨
 أدخلت ذلك منك في ذلك منها ١٦٩٩
 ادعوا الله تبارك وتعالى وأنتم موقنون بالإجابة ١٥٧٥
 ادعوا لي المقداد ٤٣٨
 أدهم أن يتكلموا بكلمة تدن لهم بها العرب ١٥٣٨
 أدنى أهل الجنة منزلة الذي له ١٧٥٦
 ﴿إِذْ أَتَيْتَ أَثَقَنِهَا﴾ انبعث لها رجل ٢٩٤٦
 إذا أتى أحدكم خادمه بطعامه ٤٠٣
 إذا أتاكم من ترضون دينه وخلقه ٧٦٦
 إذا أتيت الصلاة فلا تأتوها وأنتم تسعون ١٩٩
 إذا أرسل الرجل كلبه وسمى فأمسك ٤٩٦
 إذا أرسلت كلبك وذكرت الله ٤٩٦ ، ٤٩١
 إذا استأذن أحدكم ثلاثاً ١٢٤٢
 إذا استشار أحدكم أخاه ٣٤٠
 إذا استيقظ أحدكم من نومه فلا يدخل يده ٥٠٠
 إذا اشتهى المؤمن الولد في الجنة ١٧١٠
 إذا اشتد الحر فأبردوا ١٩٩٩
 إذا التقى المسلمان بسيقيهما ٦٤١
 إذا أعجبك حسن عمل امرئ مسلم فقل ٨١٨ ، ٨٠٣
 إذا أقبل الليل من ها هنا ١٥٠٧ ، ١٨٧
 إذا أقيمت الصلاة فلا تأتوها سعيًا ١٨٣٢
 إذا أمرتكم بأمر ١٨٠٦
 إذا أمرتكم بأمر فأتوا نه ما استطعتم ١٨١٦
 إذا انتهى أحدكم إلى المجلس ١٢٦٨
 إذا أوى أحدكم إلى فراشه فلينفذه ١٥٦٠
 إذا أيقظ الرجل امرأته من الليل ١٤٣٢
 إذا تباع الرجلان فكل واحد منهما بالخيار ٤٨٦
 إذا تبايعتم بالعينة ٧٧٦
- إذا تقابل المسلمان بسيقيهما ٥١٧
 إذا توضأ أحدكم فليجعل في منخره ٥٠١
 إذا جاء أحدكم الجمعة ١٨٣٢
 إذا حدثكم أهل الكتاب فلا تصدقوهم ٧١٦
 إذا خلاص المؤمن من النار حبسوا بفنطرة ١٦٦٥ ، ٦٦٤
 إذا دخل أحدكم المسجد فليسلم ١٢٥٦
 إذا دخل أحدكم المسجد فليقل ١٢٥٦
 إذا دخل أحدكم المسجد فليقل : اللهم افتح لي ٨٨٣
 إذا دخل أهل الجنة الجنة قال الله هل تشتنون ٨٤٤ ، ٨٠٤
 إذا دخل الرجل بيته فذكر الله ٤٩٧
 إذا دخل أهل الجنة الجنة يقول الله تعالى :
 تريدون شيئاً أزيدكم ١٨٨٢
 إذا دخل الرجل الجنة سأل عن أبيه ١٧٢٢
 إذا دعا أحدكم أخاه فليجب ١٤٤٨
 إذا دعا الرجل امرأته إلى فراشه ٣٩٩
 إذا دعا المسلم لأخيه بظهر الغيب ١٥٧٣ ، ١٦٩٦
 إذا ذبح المسلم ولم يذكر اسم الله ٦٨٨
 إذا رأى أحدكم ما يحب فليحدث به ٨٩٤
 إذا رأيت الله يعطي العبد ١٦٢٦ ، ٤٥
 إذا رأيتم الذين يتبعون ما تشابه منه ٤٠
 إذا رأيتم الذين يجادلون فيه ٢٧٧
 إذا رأيتم الرجل يعتاد المسجد ٧٧٤
 إذا رجعت فطلق لإحداهما ٣٨٤
 إذا رميت بالمراض ٤٩٠
 إذا زنت أمة أحدكم ٣٧٦ ، ٣٩٠
 إذا زنت فاجلدوها ٣٨٨
 إذا سألت الله الجنة فاسأله الفردوس ١٢٠٩ ، ١٣٣
 إذا سرك إن تعلم جهل العرب ٦٢٨
 إذا سلم عليكم اليهود ٤٣١
 إذا سلمتم علي فسلموا على المرسلين ١٥٣٦
 إذا سمع الأذان أدبر وله ضراط ٥٣٨
 إذا سمعتم الحديث عني تعرفه قلوبكم ٨٨٣ ، ٦٩٨
 إذا سمعتم المؤذن فقولوا مثلما يقول ٨٠٣ ، ٥٢٤
 إذا صدقكم ضربتموها ١٤٥٣
 إذا صلى أحدكم فليبدأ بتمجيد الله ١٤٥١
 إذا صلت المرأة خمسها ٣٩٩
 إذا صليتم علي فسلوا الله لي الوسيلة ٨٠٣

- ١٨١٩ أرسل إليه أن رسول الله يأمر أن تكثر
 ٣٣٦ ارم فذاك أي وأمي
 ١٤٧٠ ارموا بني إسماعيل فإن أباكم كان راميا
 ٧٥٨ ارموا واركبوا
 ١٥٥ أرواح الشهداء في حواصل طير خضر
 ٣٤٤ أرواحهم في جوف طير خضر
 ٥٠٤ أسبغ الوضوء وخلل بين الأصابع
 ٥٠٣ أسبغوا الوضوء ، ويل للأعقاب
 ٨١١ استغفروا لأخيك واسألوا له التثبيت
 ٦٦٣ استغيثوا بالله من عذاب القبر
 ٧١٨ استأذن الحر لعينة
 ٢١٢ استحيوا إن الله لا يستحي من الحق
 ١٢٠٨ استقيموا ولن تحصوا
 ١٢٤ استلم رسول الله ﷺ الركن
 ١٦٩٤ استووا حتى أثنى على ربي
 ١٧٩٥ استووا ولا تختلفوا
 ١٥٧ اسعوا فإن الله كتب عليكم السعي
 ٤٢٣ اسق يا زبير ثم أرسل الماء
 ١٨٥٤ الإسلام يجب ما قبله
 ٢٤٨ ، ٧٩٣ أسلم وإن كنت كارها
 ٢٩٨ أسلما قالا : قد أسلمنا
 ٢٨٧ اسم الله الأعظم الذي إذا دعي به أجاب
 ١٥٩ اسم الله الأعظم في هاتين الآيتين
 ٦١٧ اسم الله على كل مسلم
 ١٦٩٤ الإسلام علانية والإيمان في القلب
 ٨٠٩ أسمع ربي قد رخص لي فيهم
 ٣٤٣ سمعت بلالاً ينادي
 ٤٢٠ اسمعوا وأطيعوا وإن أمر عليكم
 ٣٣٦ اشتد غضب الله على من دمي وجهه
 ٣٣٦ اشتد غضب الله على من قتل رسول الله
 ٨٢٢ ، ٨٠٦ اشترط لربي أن تعبدوه
 ١٩٨٩ اشتكت النار إلى ربيها
 ١٣٥٧ أشد الناس بلاء الأنبياء
 ٨٦ أشد الناس عذابا يوم القيامة رجل قتل نبي
 ٥١٣ أشيروا علي أيها المسلمون
 ٣٤٠ أشيروا علي معشر المسلمين
 ٦٤٢ أصبحنا على ملة الإسلام
 ١٨٤٥ اصنع بها ما أحببت
- ٧٣٩ إذا ظهرت المعاصي في أمتي
 ٥٤ إذا فرغ الله من القضاء بين الخلق
 ٤٩ إذا قال أحدكم في الصلاة آمين
 ١٣٠٨ إذا قضى الله الأمر في السماء
 ١٤٧٤ إذا قضى الله تعالى الأمر في السماء
 ٢٣٩ إذا كان بأرض وأنتم بها فلا تخرجوا
 ١٩٣٩ إذا كان يوم القيامة أدنيت الشمس من العباد
 إذا كان يوم القيامة دفع الله لكل مسلم
 ١٢٠٩ يهوديا
 ١٩٤٤ إذا كان يوم القيامة مد الله الأرض
 ١٥١٢ إذا كان يوم القيامة أمر الله تعالى جهنم
 ١٢٤١ إذا كان يوم القيامة عرف الكافر
 ١٦١٣ إذا كثرت ذنوب العبد ولم يكن له ما يكفرها
 ١٧٩٣ إذا كنتم ثلاثة فلا يتناجى اثنان
 ٧٨٤ إذا كنز الناس الذهب
 ٤٩٥ إذا لم تصطبحووا ولم تتغبقوا
 ١٢٦ ، إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث
 ١٧٢٤ ، ١٥٠١
 ٤٦٣ إذا نزلتم يقوم فأمروا لكم بما ينبغي للضيف
 ٤٠٧ إذا نس أحدكم وهو يصلي
 ١٨٧ إذا نودي للصلاة صلاة الصبح
 ٤٩٣ إذا هم أحدكم بالأمر فليركع ركعتين
 ٢٤ إذا وضعت جنبك على الفراش
 ١٦٩٢ اذهب إليه فقل له : إنك لست من أهل النار
 ٧٢٣ اذهب فاطرحه في القبض
 ٨٢٤ اذهب فواره ولا تحدثن شيئا
 ١٨٢١ اذهبي فغيري يدك
 ١٩٨٩ أرى رؤياكم قد تواطأت
 ١١٩٤ أريت في المنام دار هجرتكم
 ١٥٦ أرايت قول الله تعالى : ﴿ إِنَّ الصَّغَا ﴾
 ١٤٨٠ أرايت لو أخبرتكم أن العدو يصيحكم
 ٨٨٨ أرايت لو أن بياض أحدكم نهرا
 ١٤٥٧ أرى الربا عند الله استحلال عرض امرئ مسلم
 ١٤٦٣ أربع إذا كن فيك فلا عليك
 ١٨٢٢ ، ٧٩٦ أربع في أمتي من أمر الجاهلية
 ١٨٢٣ أربع من كن فيه كان منافقا
 ٥٠٣ أرجع فأحسن وضوءك
 ٣٢٩ ارحموا ترحموا

٦٦٨	أفضل الصدقة الماء	٢٠٩	اصنعوا كل شيء إلا النكاح
١٨٥٧	أفضل نساء أهل الجنة خديجة	١٣٥٧	أصدق كلمة قالها شاعر
١٥٥٩	أفزع من هدي إلى الإسلام وكان عيشه كفافاً	٣٧٤	الإضرار في الوصية من الكبائر
١٦٧٤	أفلا أكون عبداً شكوراً	١٨٣١	أضل الله عن الجمعة من كان قبلنا
١٨٥٢	أفي شك أنت يا ابن الخطاب ؟	١٥٣٥	أطت السماء وحق لها أن تغط
٩٠	أفي القرآن سجدة	١٢٤٥	أطرق بصرك
١١٩٤	أقام رسول الله ﷺ عشر سنين يضحي	٢٠٠١	أطعمنا
٢١١	أقبل وأدير واتق الدبر والحبيضة	٨٦٣	اطلبوا الخير دهركم كله
٧٤٧	أقتله بعد ما قال لا إله إلا الله ؟	١٩١١	أعاذك الله من إمارة السفهاء
٤٣	اقرأ يا حضير	١٩٣٤	أعنت عن كل واحدة منهن رقبة
٤٠٥	اقرأ علي	٨٤٠	أعنى الناس على الله رجل قتل نبياً
٢٠٢٦	اقرأ ﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ ﴾	٧٩٨	أعنت النعمة
١٧١٩	أقرني رسول الله إني أنا الرزاق	٥٥١	أعتقها فإنها مؤمنة
	أقرني رسول الله ﷺ ﴿ ذلك أن منهم	١٩٦٨	أعتقوا عنه
٥٤٨	قسيسين ﴾	١٨٦	اعتمر ﷺ أربع عمر كلها في ذي القعدة
١٩٨٤	أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد	٧٦٤	أعد من المال طائفة وقم بما تطيق
٥٢٦	اقطعوا في ربع دينار	١٤٩٥	أعذر الله إلى امرئ أخر عمره حتى بلغ ستين سنة
٥٢٦	اقطعوا يدها اليمنى	١٩٧٤	أعطيني نخلتك التي فرعها في دار فلان
٧٩٩	أقم حتى تأتينا الصدقة	٩٠١	أعطي يوسف وأمه شطر الحسن
١٧٩٥	أقيموا الصفوف وحاذوا بين المناكب	٧٠٠	أعطيت خمسا لم يعطهن أحد من الأنبياء
١٦٨١ ، ٣٢	اكتب بسم الله الرحمن الرحيم	٢٧٢	أعطيت خواتيم سورة البقرة
١٦٨١	اكتب باسمك اللهم		أعطيت خمسا لم يعطهن أحد قبلي ٩٢ ، ٧٢٥ ،
٦٨٧	أكثر جنود الله لا أكله ولا أمر به	١٤٧٦ ، ٧٦٢ ، ٤١١ ، ٣٣٣	
٦٢٢	أكثرهم ذكراً للموت	٤٤	أعطيت الشيع الطول مكان التوراة
١٤٣٨	أكثروا ذكر الله تعالى	٣١٦	أعطيت ما لم يعط أحد من الأنبياء
١٧٠٠ ، ٨٩٣	أكرمهم عند الله أتقاهم	٣٤٠	أعظم الغلول عند الله ذراع من الأرض
٥٣	أكره أن يتحدث العرب أن محمداً يقتل أصحابه	١٤٩٥	أعمار أمتي ما بين الستين إلى السبعين
٥٠٦	أكل ولدك نحل		اعملوا وسددوا وقاربوا واعلموا أن أحداً
٦٦٠	اليسوا من ثيابكم البياض	٦٤٠	لن يدخله عمله الجنة
١١٣٠	التقى آدم وموسى	١٦٠٠	أعوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم
١٢٥	التمس لي غلاماً من غلمانكم	١٢٥٥	أعوذ بالله العظيم
١٩٨٨	التمسوها في العشر الأوآخر	٦٣	أعوذ بوجهك
١٩٨٧	التمسوها في العشر الأول	٧٦٥ ، ١٩٠	اغزوا في سبيل الله
٤٨٢	ألحقوا الفرائض بأهلها	٣٤١	أف لك ، أف لك
١٩٢٩	الذي يقرأ القرآن وهو ماهر به مع السفره	١٩٦٠ ، ١٩٥٢ ، ١٩٣٧	أفان أنت يا معاذ
١٥٦٣	ألست تشهد أن لا إله إلا الله	٣٣	أفضل الذكر لا إله إلا الله
٢٠٢٩	الله أكبر الله أكبر الحمد لله الذي رد كيده	١٦٥	أفضل الصدقة أن تصدق وأنت صحيح
٢٥	الله أكبر ثلاثاً - الحمد لله ثلاثاً	١٨٠٧	أفضل الصدقة جهد المقل

- اللهم لك الملك كله ٦٧٠
 اللهم هذا عن أمتي ١١٩١
 اللهم هذا قسمي فيما أملك ١٤٤٤ ، ٤٥٧
 اللهم لا ترسل على أمتي عذابا ٦٤
 اللهم لا نبغيها ١١٢
 ألم أجدكم ضلالا فهداكم الله ١٨١٧ ، ٨٠٦
 ألم أزوجك ؟ ألم أكرمك ٦٦٨ ، ٧٧
 ألم تر آيات أنزلت هذه الليلة ٢٠٢٦
 ألم تر أن قومك حين بنوا البيت ١٢٦
 ألم تعلم أن الله تعالى قال : ﴿ يَا أَيُّهَا
 الرَّسُولُ بَلِّغْ ﴾ ٦٧
 ألم يقل الله تعالى : ﴿ مَن قِيلَ أَن يَنصَرْنَا ﴾ ١٧٩١
 ﴿ أَلَمْ يَكُنْ أَفْكَارُ ﴾ عن الطاعة ١٩٧٤
 ﴿ أَلَمْ يَكُنْ أَفْكَارُ ﴾ يقول ابن آدم مالي ١٩٧٤
 إلى أقربهم منك بابا ٤٠٢
 إلى عباد الله ٧٧٧ ، ٣٣٥
 إلا أن تروا كفرا بواحا ٦٨
 إلا أن تصلوا ما بيني وبينكم من القرابة ١٦١٠
 أليس تشهد أن لا إله إلا الله ٤١٤
 أظنوا بإيذا الجلال والإكرام ١٧٥٧
 أليس لكم في أسوة حسنة ١٨٩٥
 أم القرآن هي السبع المثاني ٩٧٤
 أما الله شغاني ١١٨
 أما أهل النار الذين هم أهلها ١١٣٦ ، ٧٣
 أما إن ذلك سيكون ٢٠٠٢
 أما إن ملكا بينكما ١٢٨٣
 أما إنكم ستعرضون على ربكم ١٧١١
 أما إنه سيقال لك هذا ١٩٦٥
 أما إنه لو ذكر اسم الله لكفاكم ٤٩٧
 أما إنه ليس من أهل هذه الأديان أحد ٣١٩
 أما بعد أيها الناس إنا أنا بشر ١٦١١ ، ١٤٣٠
 أما بعد أيها الناس فإن الله تعالى بعث
 محمدا ١٢٢٧
 أما بعد أيها الناس فلو كنت متخذا من أهل الأرض ٤٥٤
 أما بعد فإني أهلك من كان قبلكم ٥٢٧
 أما بعد - فإن هذا اليوم الحج الأكبر ١٩٤
 أما ترضون أن تكونوا ربيع أهل الجنة ٣١٨
 أما الروضة فروضة الإسلام ٢٤٩
 الله أكبر هذا كما قالت بنو إسرائيل ٦٩٠
 الله في أصحابي لا تتخذوهم غرضا ١٤٥٧
 اللهم آت نفسي تقواها ١٩٧١
 اللهم اجعل أوسع رزقك علي ٢٥٥
 اللهم اجعل صلاتك ورحمتك على آل سعد ١٢٤٣
 اللهم اجعل في قلبي نورًا ١٩٤
 اللهم اجعل له لسانًا ذاكرًا ٨١٦
 اللهم أحيينا مسلمين ١٢٩٥
 اللهم أسألك الغفر والعافية ٦٥٥ ، ٦٣٩
 اللهم أعم بصره ٩٧٨
 اللهم اغفر للأتباع ولأبناء الأنصار ٨٠٥
 اللهم اغفر لي خطيئتي وجهلي ١٤٦٨
 اللهم اغفر لي واهدني ١٩٤٠
 اللهم اغفر لي ذنوبي وافتح لي أبواب رحمتك ١٤٥٣
 اللهم ألف بين قلوبنا وأصلح ذات بيننا ١٦٥١
 اللهم إليك أشكو ضعف قوتي ١٦٥٥
 اللهم أنت خولتي عبدًا من عبادك ٧٥٨
 اللهم أنت الملك لا إله إلا أنت ٦٤٣
 اللهم أنجز لي ما وعدتني ٧٧٧ ، ٧٢٩
 اللهم إن تهلك هذه العصابة ٧٣٥
 اللهم إن هؤلاء أهل بيتي وخاصتي ١٤٢٩
 اللهم إنا نعوذ بك من شرورهم ١٥٧٨
 اللهم أنت السلام ومنك السلام ١٧٥٧
 اللهم إني أبرأ إليك مما صنع خالد ٤٣٤
 اللهم إني أعوذ بك من العجز والكسل ١٩٧١
 اللهم إني أعوذ بك من الهرم ١٢٢٢
 اللهم اهدني فيمن هديت وعافني فيمن عافيت ١٤٥٤
 اللهم أيد حسان بروح القدس ٩٩
 اللهم بارك لنا في تمرنا ١٢٥
 اللهم حاسبني حسابًا يسيرًا ١٩٤٥
 اللهم حبب إليهم الخير حسًا ١٤٣٢
 اللهم رب جبريل وميكائيل وإسرافيل ٢٠٢ ، ١٠٧
 اللهم ربنا آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة ١٩٧
 اللهم الرفيق الأعلى ١٢٩٥
 اللهم زدنا ولا تنقصنا ١٢٠٧
 اللهم صل على آل أبي أوفى ٨١٧ ، ٨٠٢
 اللهم فقهه في الدين وعلمه التأويل ٢٧٨
 اللهم لك الحمد كله ولك الملك كله ٣٤

- ١٥٠ أنت بما تقول
١٦٠٨ أنت مع من أحببت
٣١٦ ، ٧٨ أنتم توفون سبعين أمة أنتم خيرها
١٨٢٠ انتن على ذلك
٧٤٣ أنزل الله علي أمانين
أنزلت علي أنفًا سورة بسم الله الرحمن الرحيم ﴿إنا أعطيناك الكوثر﴾
٢٠١٣ أنزلت هذه الآية على رسول الله وهو بأسفل الحديبية
١٨١٩ أنزلت هذه الآية على عبد الله بن أبي
١٨٣٦ أنزلت صحف إبراهيم في أول ليلة
١٨٥ انسك شاة أو أطعم ستة مساكين
١٨٨ أنشدك بالذي أنزل التوراة هل تجد
٦٩٧ انشق القمر على عهد رسول الله
١٧١٦ انصر أخاك ظالماً أو مظلوماً
١٦٩٥ ، ٤٨٨ انضحوا الخيل عنا
٣٢٢ انطلقا فبشرا ولا تنفرا
١٤٤٠ انطلقوا حتى تأتوا روضة خاخ
١٨١٤ انظر فإنك لست بخير من أحمر
١٧٠٠ انظرون من إخوانكن
٢٢٦ انظروا إلى هذا المحرم ما يصنع
١٩٢ أنفق بلالاً ولا تخش من ذي العرش إقلالاً
٢٠١ أنفقي هكذا وهكذا
١٠٢٨ إن آدم لما أهبطه الله
١١٠ إن أبا سفيان قد أصاب منكم طرفاً
٣٣٠ إن إبراهيم خليل الله قد استغفر لأبيه
٨٢٤ إن إبراهيم يلقي أباه آزر
٧٤ إن أبغض الرجال إلى الله الألد
١٩٩ إن ابني آدم ضربا لهذه الأمة
٥١٩ إن ابني مات في الثدي .. إن له مرضعاً
٢٢٦ إن ابني هذا سيد
١٦٩٥ ، ٨٥ إن أبي وأباك في النار
١٨١٥ إن أتخذ المنبر فقد اتخذه إبراهيم
١٢٢ إن أحب الأعمال إلى الله تعجيل الصلاة
٢٣٣ إن أحب الصلاة إلى الله تعالى صلاة
داود
١٤٦٨ ، ١٢١٥ إن أحدكم إذا كان في المسجد جاء الشيطان
٢٠٢٨ إن أحدكم إذا مات عرض عليه مقعده
١٥٨٢٠ إن أحق ما أخذتم عليه أجرًا كتاب الله
٧٤ أما صاحبكم هذا فقد غامر
٦٩٩ أما ما رأيته من الطريق السهل الرحب
١٧٦٢ أما مررت بواد محمل
٩١ أما معاوية فصعلوك
١٦٩٨ أما هو - يعني عثمان بن مظعون - فقد
جاءه اليقين
١٩٠٥ أما والذي نفسي محمد بيده ليعثن منكم
٣١٨ أما والله إني لأمين من في السماء
٩٧٤ إما لا فاصبروا
١٨٠٦ أمان أمتي من الغرق
١٢٢٦ ، ٨٧٣ أمر أن يقرأ بالسموات في العشاء
١٩٢١ أمرت أن أسجد على سبعة أعظم
١٨٦٥ أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا
١٩٠ ، ٧٧٠ ، ١٦٨٢ امكثي في بيتك حتى يبلغ الكتاب أجله
٢٣٨ أمتهوكون فيها يا ابن الخطاب ؟
٨٩٥ أمرنا رسول الله ﷺ إذا لقينا المداحين
١٧١١ أمرنا رسول الله ﷺ أن نستشرف العين
٤٨٧ أمرنا رسول الله ﷺ أن نشترك في الإبل
١٨٧ أمرني بخمسين صلاة في كل يوم وليلة
٣٩١ أمرني خليلي بسبع
٥٣٧ أمك وأباك وأختك وأخاك ثم أدناك أدناك
١٠٢٧ ، ٢٠٣ أمك ثم أمك
٩٧ أنا أفصح من نطق بالضاد
٣٩ إنا أمة أمية لا نكتب
٢٦٧ أنا أول من تشق عنه الأرض
١٧١٢ أنا أول من يؤذن له بالسجود
١٧٧٩ ، ١٠٣٤ أنا أول من يؤذن له في السجود يوم القيامة
١٨٥٥ إنا أولى الناس بابن مريم
٥١٠ أنا رسول الله وأنا محمد
١٦٨٨ أنا سيد الناس يوم القيامة
١٠٤٥ أنا سيد ولد آدم يوم القيامة
١٠٤٦ إنا على سفر
٨١٩ أنا لها . أنا لها
١٠٤٣ أنا محمد وأنا أحمد
١٨٢٥ أنا النبي لا كذب
٧٧٨ أنا وكافل اليتيم في الجنة
١٩٦٤ أنت أحب بلاد الله إلى الله
١٦٦٦

- ٣١ إن الله رفيق يحب الرفق
 ٧٨٣ إن الله زوى لي الأرض
 ٥٨ إن الله ﷻ أمر يحيى بن زكريا بخمس كلمات
 ٨٠٥ إن الله ﷻ قد أنثى عليكم في الطهور
 ٧٣٨ إن الله ﷻ لا يعذب العامة بعمل الخاصة
 ٨٦٨ إن الله ﷻ يدني المؤمن فيضع عليه كنفه
 ٣١٢ إن الله فرض على المسلمين حج البيت
 ١٠٢٨ إن الله قال لي : أنفق أنفق عليك
 ٤٤١ إن الله قال : من انتدب خارجا في سبيلي
 ٨٠٥ إن الله قد أحسن عليكم الثناء
 ٧٦٦ ، ٣٧٤ إن الله قد أعطى كل ذي حق حقه
 ٧٦١ إن الله قد أمكنكم منهم
 ١٨١٠ إن الله قد صدقك
 ٧٠٩ إن الله قدر مقادير
 ١٩٥٤ إن الله قدر مقادير الخلائق
 ١٣٥٣ ، ٨٨٨ ، ٢٥٥ إن الله قسم بينكم أخلاقكم
 ٢٧١ إن الله كتب الحسنات والسيئات
 ٨٦٢ إن الله كتب كتب كتابا فهو عنده
 ١٧٤٧ إن الله كتب مقادير الخلق قبل أن يخلق السماوات
 ١٤٢٧ إن الله لم يعثني معنفا
 ٧٩٧ إن الله لم يرض يحكم نبي ولا غيره
 ٨٣٤ إن الله لم يحرم حرمة إلا وقد علم
 ٥٣٩ إن الله لم يهلك قوما
 ١٣٦٣ إن الله لو عذب أهل سماواته
 ١٧٢٢ إن الله ليرفع الدرجة للعبد الصالح
 ١٠٤٦ إن الله ليزع بالسلطان ما لا يزع بالقرآن
 ٢٤٣ إن الله ليصلح بصلاح الرجل المسلم ولده
 ٧٦١ إن الله ليلين قلوب رجال
 ٤١٩ إن الله مع الحاكم مالم يجر
 ٦٣٢ إن الله ورسوله حرم بيع الخمر
 ٦١٨ ، ٢٧٣ إن الله وضع عن أمتي الخطأ والنسيان
 ٣١٨ إن الله وعدني أن يدخل الجنة
 ١٤٢٣ إن الله وملائكته يصلون على ميامن الصفوف
 ٤٠٥ إن الله لا يظلم المؤمن حسنة
 ٧٩٥ لا إن الله لا يمل حتى تملوا
 ١٤٩٦ ، ٢٤٦ ، ١٦١٨ إن الله لا ينام ولا يبغي له
 ٢٦٣ ، ٥٤ إن الله لا ينظر إلى صوركم
- ١٩٩ ، ١١٤ إن أخوا لكم بالحبشة قد مات
 ١٨٠٧ إن إخوانكم قد تركوا الأموال
 ١٩١٥ ، ١٩٤٢ ، ١٩٠٨ ، ١٦٢٩ ، ١١٤٧ إن أدنى أهل الجنة منزلة لينظر في ملكه
 ١٧٨٣ إن أرواح الشهداء في حواصل طير
 ٧٣ إن إسرائيل قد التقم الصور
 ٤٩٤ إن الإسلام بدأ غريتا
 ١٦٤ إن الذي يأكل أو يشرب في آتية الذهب
 ٦٦٧ إن أصحاب الأعراف قوم
 ٤٥٢ إن أصدق الحديث كلام الله وخير الهدى
 ١٢١ إن أعظم المسلمين جرما
 ٨١٨ ، ٨٠٣ إن أعمالكم تعرض على أقاربكم
 ٤٩١ إن أكل فلا تأكل فإني أخاف أن يكون أمسك
 ٤٣٥ إن الله أبى على من قتل مؤمنا
 ٧٦ إن الله أخذ الليثاق من ظهر آدم
 ٤٠٤ إن الله إذا أنعم نعمة على عبد
 ٦٢١ إن الله اصطفى من ولد إبراهيم إسماعيل
 ١٨٠ إن الله أعطى كل ذي حق حقه
 ١٩٩١ إن الله أمرني أن أقرأ عليك القرآن
 ٨٣٣ إن الله بعث فينا رسولا منا
 ٦٩٩ ، ٢٧١ إن الله تجاوز لي عن أمتي ما حدثت به
 ١٤٩١ إن الله تعالى إذا رضي عن العبد أنثى عليه
 ١٤٦٠ إن الله تعالى أمرني أن آمركم أن تتقوا الله
 ١٥٤٥ ، ١٤٨٤ إن الله تعالى خلق خلقه في ظلمة
 ١٨٧ إن الله تعالى ليستحي أن يسط العبد إليه يده
 ١٧٨٠ إن الله تعالى يدعو الناس
 ١٥٨٩ إن الله تعالى : يقبل توبه العبد مالم يفرغ
 ٧٥٦ إن الله تعالى يقول : يا عبادي إني حرمت
 ١٥١٧ إن الله تعالى يقول : يا عبادي كللكم مذنب
 ١٧١٥ إن الله تعالى ينزل كل ليلة
 ٧٥٦ إن الله تعالى يقول : يا عبادي إني حرمت
 ٢٥٢ إن الله جعل حسنة ابن آدم إلى عشر أمثالها
 ٢٠٠٩ إن الله حيس عن مكة الفيل
 ٢٢٢ إن الله حد حدودا فلا تعتدوها
 ٤٨٩ إن الله حرم بيع الخمر
 ١١٤٦ إن الله خلق آدم رجلا طوالا
 ١٣٨٢ إن الله خلق آدم من قبضة
 ٦٢٠ إن الله خلق خلقه في ظلمة

١٧٠٦ ، ١٠٣٠ ، ٦٣٥ . . .

- ٤٥ إن الجماء لتقتص
 ٨٥١ أن تعبد الله كأنك تراه
 ٥٤٥ إن الجنة لا يدخلها إلا نفس مسلمة
 ١٤٧٨ إن جهنم لما سيق إليها تلقاهم لهابها
 ١١١ إن حبيبي نهاني أن أصلى بأرض المقبرة
 ٧٠٩ إن الحمد لله نحمده ونستعينه
 ٢٦٢ إن الحلال بين والحرام بين
 ٢٢٨ إن خلق أحدكم يجتمع في بطن أمه أربعين
 ٧٨٦ إن خليلي عهد إلي أن أيما ذهب أو فضة
 ١٨٥ إن خير دينكم أيسره
 ١٢١٥ إن داود كان يأكل من كسب يده
 ١٦٨٩ إن دماءكم وأموالكم وأعراضكم
 ٨٣٨ ، ٦٤٤ إن الدنيا حلوة خضرة
 ١٥٧٥ إن الدعاء هو العبادة
 ١٨١٨ إن رأيتم أن تطلقوا لها أسيرها
 ٣٣٥ إن رأيتمونا نخطفنا الطير
 ١٦٠٨ إن ربكم أنذركم ثلاثاً
 ٣١٧ إن ربي أعطاني سبعين ألفاً يدخلون الجنة
 ١٣٦٠ إن ربي أمرني أن أعلمكم ما جهلتم
 ٤١٤ إن ربكم ﷻ خيرني
 ٦٤١ إن ربكم رحيم . . .
 ١٨٧ أن رجلاً من المنافقين في عهد رسول الله
 ١٣٥ إن رجلاً أذنب دنياً
 ١٧١٠ إن الرجل في الجنة ليتكئ في الجنة
 إن الرجل ليأتي يوم القيامة بحسنات أمثال
 ١٣٥٩ الجبال
 إن الرجل ليتكلم بالكلمة من رضوان الله ١٦٩٢ ،
 ١٧٠٦
 ١٧١٣ إن الرجل ليتكئ المتكأ مقدار أربعين سنة
 ٣٧٥ ، ١٨١ إن الرجل ليعمل بعمل أهل الخير
 ٥٣٠ أن الرجل يقتل بالمرأة
 ٦٥٢ إن الرجل يؤتى به ويوضع له في كفه
 ١٥١٦ إن رجلاً حضره الموت فلما أيس من الحياة
 ١٩٣٨ أن رجلاً قال : يا رسول الله إن امرأتي
 ١٤٣٧ إن الرسالة والنبوّة قد انقطعت
 ٤٩٨ إن رسول الله أضافه يهودي
 ١٨٢٢ إن رسول الله برئ من الصالفة

١٧٠٠ ، ١٤٧٨

- ٧٩١ إن الله يجزي بالجنة ألف حسنة
 ١٧٩٩ إن الله يحب الأتقياء
 ٤٩٤ إن الله يحب أن تؤتى رخصه
 ٤٠٣ إن الله يحب ثلاثة ويغض ثلاثة
 ١٩٠٨ إن الله يتجلى للمؤمنين يضحك
 ١٧٩٣ إن الله يذني المؤمن فيضع
 ١٧٩٦ إن الله يرفع بهذا الكتاب
 ٣١٤ إن الله يرضى لكم ثلاثاً ويسخط لكم ثلاثاً
 ١١٥٦ إن الله يستخلص رجلاً من أمتي
 ٢٣٩ إن الله يضاعف الحسنة ألف ألف
 ٣٧٧ إن الله يقبل توبة العبد قبل أن يموت يوم
 ٣٧٦ إن الله يقبل توبة العبد مالم يغفر
 ٣٧٧ إن الله يقبل توبة العبد مالم يقع الحجاب
 ٨١٨٠ ، ٨٠٢ إن الله يقبل الصدقة ويأخذها يمينه
 ٨٠٤ إن الله يقول لأهل الجنة : يا أهل الجنة
 ١٢٦ ، إن الله يملئ للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته
 ١٠٣٤ ، ٨٨٧ ، ٨٧٠
 ١٩٩٨ إن أهون أهل النار عذاباً من له نعلان
 ٥٠١ إن أمتي يدعون يوم القيامة غرّاً
 ٤٦٩ إن الأنبياء إخوة لعلات
 ١٧٠٠ إن أنسابكم ليست بمسبة على أحد
 ٨٠٣ ، ٤٢٤ إن أهل الجنة ليرتأون الغرف
 ٨٣٧ إن أهل الجنة يلهمون التسييح
 ١٠٢٧ إن أهل الدرجات العلى يرون أهل عليين
 ٤٩٨ إن أهل خير أهدوا لرسول الله شاة مصلية
 ١١٣٦ ، ٧٢٧ إن أهل عليين ليرون من قومهم
 ٣١٥ إن أهل الكتائب افترقوا في دينهم
 ٨١٠ إن أهون أهل النار عذاباً
 ١٣٠٧ إن أول الآيات خروجا طلوع الشمس من مغربها
 ١٧٥٥ إن أول زمرة تدخل الجنة على صورة القمر
 ١٥١٢ إن أول عظم من الإنسان يتكلم
 ٥٤٦ إن أول ما دخل النقص على بني إسرائيل
 ٢٠٠٢ إن أول ما يسأل عنه العبد من النعيم
 ٢٢٦ إن أول من جحد آدم
 ١٣٨ إن بني إسرائيل قالوا : يا رسول الله ﷺ هل يصغ ربك
 ٤٣٩ إن بالمدينة أقواماً ما سرتهم من مسير
 ٢٩٣ ، ١٦٠ أن تجعل لله نداً وهو خلقك

- ١٣٥ إن الغضب من الشيطان
 ١٨٣٠ إن في أصلاب أصلاب رجال
 ١٧٥٦ إن في الجنة خيمة من لؤلؤة مجوفة
 ١٧٦٧ إن في الجنة لمجتمعاً للحوار العين
 ١٥٦٩ إن في الجنة ثمانية أبواب باب منها يسمى الريان
 ١٧٦٥ ، ٤١٨ إن في الجنة شجرة يسير الراكب
 ١٤٧٨ ، إن في الجنة غرقاً يرى ظاهرها
 ١٧١٥ ، ١٥٥٥
 ١٥٤٧ إن في الجنة قصرًا يقال له عدن
 ٨٠٣ إن في الجنة لغرقاً يرى ظاهرها من باطنها
 ٤٣٩ ، ٤٣٠ إن في الجنة مائة درجة أعدها الله للمجاهدين
 ٢٣٥ إن في الصلاة لشغلًا
 ٢٤٦ إن فيها اسم الله الأعظم
 ٢٧٧ إن القرآن لم ينزل ليكذب بعضه بعضًا
 ١٨١٥ ، ١٩٠ إن قومًا كانوا أهل ضعف
 ١٨٩٦ إن قمص أهل الجنة لتبدو
 ١٣٦٣ إن الكريم ابن الكريم ابن الكريم يوسف
 ٣٣٤ إن لك أجر رجل ممن شهد بدرًا
 ١٨١٣ ، ٣٠ إن لله تسعة وتسعين اسمًا
 ٣٠٣ إن لله تعالى عبادًا لا يكلمهم يوم القيامة
 ١٤٥٥ إن لله ملائكة سياحين في الأرض
 ١٣٩٨ إن لقمان الحكيم كان يقول
 ١٥٨٦ إن لربكم في بقية أيام دهركم نفحات
 ١٥٢٩ إن لكل نبي دعوة مستجابة
 ٢٥٦ إن للشيطان لمة بآدم
 ١٨٣٥ إن للمنافقين علامات
 ٨٠٣ إن للمؤمن في الجنة لخيمة من لؤلؤة
 ٣٠٠ إن لكل نبي ولاية من النبيين
 ١٤٣٧ إن لي أسماء أنا محمد وأنا أحمد وأنا الماحي
 ١٥٣٨ إن المتكبرين يحشرون يوم القيامة أشباه الذر
 ٧١١ إن من أمتي قومًا على الحق
 ١٥٤٣ إن ما بين مصرعين في الجنة
 ١٧٢٩ إن المرأة من نساء أهل الجنة ليرى بياض ساقها
 ١٤٠٢ إن المرأة عورة فإذا خرجت استشرفها الشيطان
 ٥١ إن المؤمن إذا أذنب ذنبًا كانت نكته
 ١٩١٥ إن المؤمن إذا أذنب كان نكته سوداء
 ٨٥٢ أن المؤمن إذا حضره الموت جاءه ملائكة
 ١٠٤٠ إن المؤمن لينفي شياطينه
 ١٩٣ أن رسول الله خرج ذات ليلة
 ١٨٥٠ أن رسول الله ركب على حمار عليه قطيفة
 ١٨٠٤ أن رسول الله قطع نخل بني النضير
 ٨٣٤ أن رسول الله أتاه ملكان فيما يرى النائم
 ٧٨٠ أن رسول الله أخذ الجزية من المجوس
 ١٩٦ إن رسول الله اعتمر أربع عمر
 ٥٢٥ أن رسول الله قطع في مجن
 ١٠٠٥ أن رسول الله لما بناه وأمه
 ١٩٢٨ أن رسول الله يومًا يخاطب أحد عظماء قريش
 ١٣٨٦ إن الفاجر إذا مات يستريح منه
 ١٣٢ إن الرجل ليعمل بعمل أهل الجنة
 ٣٨١ إن الرضاة تحرم ما تحرم الولادة
 ١٦١٨ إن روح القدس نفث في روعي
 ٤٨٦ إن الزمان قد استدار كهيئته
 ٣٨٨ إن زنت فحدوها
 ٧١٣ إن الساعة تهيج بالناس
 ١٥٤٥ إن سليمان سأل الله تعالى ثلاثًا
 ١٨٥٨ إن سورة في القرآن ثلاثين آية
 ٧١٩ إن شئت دعوت الله فشفاك
 ١٣٤٠ ، ١٨٥ إن شئت فصم وإن شئت فأفطر
 ٧٩٧ إن شئتما أعطيتكما ولا حظ فيها لغني
 ١٠٣٦ إن الشمس والقمر آيتان
 ١٠٤٥ أن الشمس لتدونا حتى يبلغ العرق نصف الأذن
 ٧٧٤ إن الشيطان ذئب الإنسان كذئب الغنم
 ٧٤٣ إن الشيطان قال : وعزتك يا رب
 ٤٩٣ إن الشيطان قد يئس أن يعبد
 ٦٥٤ ، ٦٣٨ إن الشيطان قعد لابن آدم بطرقه
 ١١٢ إن الشيطان ليضع عرشه على الماء
 إن الشيطان يستحل الطعام إذا لم يذكر
 اسم الله عليه
 ٤٩٧ إن الصدقة لا تحمل لمحمد
 ٧٩٧ إن طير الجنة كأمثال البخت
 ١٧٦٣ إن العالم يستغفر له كل شيء
 ١٥٨ إن العبد ليحرم الرزق بالذنوب
 ١٩٨٩ ، ١٨٤٥ أن عبدًا من عباد الله قال : يا رب لك الحمد
 ٣٣ إن عذاب الدنيا أهون من عذاب الآخرة
 ١١٤٥ إن العشر عشر الأضحى
 ١٩٦٠ إن عفريتًا من الجن تفلت علي البارحة
 ١٥٤٤

١٦٩٧	إنك إن اتبعت عورات الناس	٢٦٠	إن المسلم إذا أنفق على أهله
٤٣٠	إنك لم تدع لنا شيئاً	٨٩١	إن المسلم إذا توضأ فأحسن الوضوء
٢٦٠	إنك لن تنفق نفقة تبتغي بها	١٢٦	إن مكة حرمها الله
٤٤٦	إنكم تختصمون إليّ	١٧٥٧	إن من إجلال الله إكرام ذي الشيبة
١٥٩٦	إنكم تدعون يوم القيامة مقدماً	١٥١٥ ، ١١٦	إن من البيان سحراً
١٩٠٨	إنكم ترون ربكم كما ترون هذا القمر	٢٠١	أن ملكين ينزلان من السماء صبيحة كل يوم
١٩٠٨	إنكم سترون ربكم عياناً	١٦١٣	إن من عبادي من لا يصلحه إلا الغنى
١١٤٥	إنكم سترون ربكم كما ترون هذا القمر		إن من كان قبلكم كان أحدهم يوضع
١٨٠١	إنكم والله لا تؤمنون عندي	٢٠٣	المنشار على مفروق رأسه
٦٣٦	إنكم وليتم أمراً هلكت فيه الأمم	١٧١٣	إن من ورائكم الكذاب المضل
١٤٨١	إنكم لا تدعون أصمّاً ولا غائباً	٦٠	إن الميت تحضره الملائكة
١٣٩٩	إنكم لا تسمعون الناس بأموالكم	١٤٥٩	إن موسى كان رجلاً حَيِّثاً سَتِيّاً
٥٠٠ ، ٤٤٠	إنما الأعمال بالنيات	١٩٧٢	إن ناركم هذه جزء من سبعين
٨٩	إنما أمروا بأدنى بقرة	٢٠٠	إن الناس إذا اهتموا لموقفهم في العرصات
١٤١٦	إنما أنا لكم بمنزلة الوالد	٦٤١	إن الناس أربعة والأعمال ستة
٧٥٠	إنما بنو هاشم وبنو المطلب شيء واحد	٢٠١٩	إن الناس دخلوا في دين الله أفواجاً
١٢٥	إنما بنيت المساجد لما بنيت له	٦٢٩	إن النبي ﷺ أمر من كل جاف عشرة أوسق
٢٤٠ ، ٢٢٠	إنما جعل الإمام ليؤتم به	٢٤٤	إن النبي جاءهم في صفة المهاجرين
١٩٨	إنما جعل الطواف بالبيت	١٦٨٩	إن الهدي الصالح والسمت الصالح
٧٥١	إنما خرج رسول الله ﷺ والمسلمون يريدون العير	١٧٢٥	إن هذا الأمر في قريش
٨١١	إنما خيرني الله تعالى فقال : ﴿ أَسْتَغْفِرُكُمْ .. ﴾	١٩٤٠	إن هذا البلد حرمه الله
٤١٠	إنما كان يكفيك	٨٤	إن هذا الوجع والسقم رجز
٩٧٦	إنما مثلي ومثل ما بعثني الله به	٢٣٩	إن هذا السقم عذب به الأمم قبلكم
٢٧٨	إنما هلك من كان قبلكم بهذا		إن هذه الصلاة عرضت على الذين
١٥٤٢	إنما هي توبة نبي	٢٣٤	من قبلكم فضيعوها
١٣٣٠	إنه أرحم إليّ أن تواضعوا	٨٣٣	إن هذا الدين يسر
٨٢٤	إنه أوله	١٧٧	إن وسادك إذا عريض
٧٨٣	إنه ستفتح لكم مشارق الأرض	١٢٦ ، ١٩٠	إن هذا البلد حرمه الله
١٩٣٨	إنما سماهم الله الأبرار لأنهم يروا	١٣٠٨ ، ٧٨٧	
٨٠٥	إنه سيأتيكم إنسان فينظر إليكم	٧٤٨	إن هذه من غنائمكم
٧٥٩	إنه سيكون اختلاف	٧٢٣	إن هذا السيف لا لك ولا لي
٦٧١	إنه سيكون قوم يعتذرون في الماء	١٣٩٨	إن اليسير من الرياء شرك
١٣٦٧	إنه سينهاه ما تقول	٥٤١	إن يمين الله ملأى
١٧٠٣	إنه طرأ عليّ حزبي	٧١٣	إن يعيش هذا لا يدركه الهرم
١٤٤٧	إنه قد أذن لكن أن تخرجن	٨٦٠	إن اليهود اختلفوا على اثنين وسبعين فرقة
١٨٣	إنه قد سن لكم معاذ	٨٩٠	إن اليهود اختلفت على إحدى وسبعين
٢٠١٨	إنه قد نعت إلى نفسي	١٩٩١	إن اليهود اختلفوا على إحدى وسبعين فرقة
١٦١٦	إنه كان معك ملك يرد عنك	٧٨٢	إن اليهود مغضوب عليهم

- ٧٩٨ إني لأعطي الرجل وغيره أحب إلي
١٣٦٩ إني مبتليك بك ومنزل عليك كتاباً
٢١٣ إني والله إن شاء لا أحلف على يمين
١٥١٣ إني والله ما أنا بشاعر
٤٠٧ إني لا أحل المسجد لحائض
١٨٢٠ إني لا أصافح النساء
٩٩ اهجهن وجبريل معك
١٨٧ أهدي النبي ﷺ مرة غنماً
٣٨٣ أوتحين ذلك
١٦٠ أوثقوا إلي لمن دعوت ربي
٧٠٩ أو غير ذلك يا عائشة
١٦٢٠ أو في شك أنت يا ابن الخطاب
١٨٣٧ أو قاتله أنت إن أمرتك
٨١٠ أوقد الله على النار ألف سنة
١٧٦٧ ، ١٥٦٨ أول زمرة يدخلون الجنة على صورة القمر
١٥٥٨ أول الخصمين يوم القيامة جاران
١٤٥٢ أولى الناس بي يوم القيامة أكثرهم علي صلاة
٤٣٥ أول ما يقضى بين الناس يوم القيامة في الدماء
٦٦٦ أولئك أصحاب الأعراف
٢٦٩ أو ليس قد ابتعته منك
١٧٠١ أو مسلم
٢٩٨ ألا أبغض معكم رجلاً أميناً
١٣٧٧ ألا احتطت يا أبا بكر فإن يضع ما بين
٤٥٠ ألا أخيركم بأفضل من درجة الصيام والصلاة
٢٦٨ ألا أخيركم بخير الشهداء
٢٩٣ ألا إن أولياء الله المصلون
٤٩٢ ألا إن الزكاة في الحلق واللثة
٧٨٦ ألا إن الزمان قد استدار كهيئته
٢٢٣ ألا إن العسيلة الجماع
٧٥٨ ألا إن القوة الرمي
٢٦٤ ألا إن كل ربا كان في الجاهلية موضوع
٢٩٣ ألا أنبئكم بأكبر الكبائر
١٧٩٥ ألا أنبئكم بخير الثلاثة ؟
١٤٣٨ ألا أنبئكم بخير أعمالكم وأزكاها عند مليكم
١٨٨ ألا إنما أنا بشر
١٤ ألا إني أوتيت القرآن ومثله معه
٥٢٠ ألا تخرجون مع راعينا في إبله
١٥١٩ ، ٧٢١ ألا تصفون كما تصف الملائكة
- ١١٤ إنه كان يصلي حيث توجهت به راحلته
٧٤٢ إنه كان يقول في كتاب الله
٤٢٠ إنه لم يكن نبي من قبلي إلا كان حقاً عليه
٨٠ إنه ليس الذي تعنون
١٣٩٥ إنه ليس بذلك
إنه يخرج من النار من كان في قلبه أدنى
مثقال ذرة
٤٣٦ إنها حق فادرسوها
١٥٤٩ إنها ستكون هجرة بعد هجرة
١٣٦٢ إنها طيبة وإنها تنفي الخبث
٤٣١ إنها في ليلة سابعة أو تاسعة وعشرين
١٩٨٨ إنها لن تراني ١٠٣٢ ، ١٩٩٥
١١٩ إنها مما نسخ وأنسي
١٩٥٨ أنهار الجنة تفجر من تحت تلال
٦٢ أنهار الجنة تفجر من تحت تلال
١٣٧٦ إنهم افترقوا على ثنتين وسبعين فرقة
٦٦٦ إنهم قوم خرجوا عصاة
إنهم لا يحسدونا على شيء كما
يحسدونا على يوم الجمعة
١٥٠ إنهما ليعذبان وما يعذبان في كبير
١٠٣٢ إني أخبرت عن غير أبي سفيان
٧٢٧ إني أرى صفة رسول الله
٣٣٩ إني أرى ما لا ترون وأسمع ما لا تسمعون
١٩٠٤ إني أعرف كلمة لو قالها لذهب عنه
٧١٩ إني أمرت بالعمو فلا تقاتلوا القوم
٤٢٦ إني تارك فيكم الثقلين
١٦١١ إني خلقت عبادي حنفاء
٦٨٢ ، ١٣٨٣ إني ذاكر لك أمراً
١٤٢٦ إني رأيت الجنة فتناولت منها عنقوداً
١٧٦٥ إني رأيت في المنام كأن جبريل عند رأسي
٨٤٣ إني سألت ربي ﷻ في الاستغفار لأمي
٨٢٤ إني عمداً فعلته يا عمر
٥٠٠ إني عند الله لخاتم النبيين
١٢٧ ، ١٨٢٥ إني قد خبأت خبأً فما هو
١٦٣٣ إني قد عرفت أن أناساً من بني هاشم
٧٦٢ إني لأرجو أن تكونوا ربع أهل الجنة
١٧٦١ إني لأرجو أن لا تعجز أمتي
١٨٩٢ إني لأعرف حجراً بمكة كان يسلم علي
٩٢

أما داع إلى شيء كان موقوفًا معه ١٥٢١
 [حرف الباء]
 بايع رسول الله ﷺ النساء وعلى يده ثوب ١٨٢١
 يخ ، ذلك مال رابع ٣٠٨
 بسم الله الرحمن الرحيم من محمد رسول
 الله إلى هرقل ١١٣١ ، ٢٩٩
 بسم الله الرحمن الرحيم هذا كتاب من الله ٤٨٥
 بشر المشائين إلى المساجد ١٢٥٥
 بشر هذه الأمة بالسنة والرفعة ١٢٦٣ ، ١٦٠٩
 بشروا ولا تنفروا ... ١٧٤ ، ٦٩٩ ، ١٢٠٥
 بعث رسول الله ﷺ بأربعة أسياف ٨٠٤
 بعث إلى الأحمر والأسود ١٣ ، ١٢٠٧ ، ١٣٤٩
 بعث أناو الساعة كهاتين ٧١٣ ، ١٧٤١
 بعث بالحنيفية السمحة ١٨٦ ، ٢٧٣ ،
 ٨٣٣ ، ٦٩٩
 بعث بالسيف بين يدي الساعة حتى
 يعبد الله وحده ١٧٨٦
 بعث بين يدي الساعة بالسيف ١١٨
 بعث من خير قرون بني آدم ٦٢١
 بعثنا رسول الله ﷺ إلى النجاشي ١٨٢٦
 بعثني أبو بكر في تلك الحجة في المؤذنين ٧٦٨
 بعثني أبو بكر فيمن يؤذن ٧٦٨
 البقرة وآل عمران يأتيان يوم القيامة ٦٣٦ ، ٦٥٢
 البقرة سنم القرآن وذروته ٤٣ ، ١٤٩٩
 بكروا بالصلاة في يوم النعيم ٢٣٤
 البلاد بلاد الله والعباد عباد الله ١٣٧١
 بل أنا قاتله ٣٣٦
 بل أستأن بهم ١٠٣٦
 بل نزل نزلته للحرب والمكيدة ٧٣٢
 بل شيء قضى عليهم ١٩٧١
 بل هو من أهل الجنة ١٦٩٢
 بلغوا عني ولو آية وحدثوا عن ١٥
 بلى ١٦٩٢
 بلى ، فأخبرت أنك تأتين عامك هذا ؟ ١٦٩٢
 بم تحكم ؟ ١٦٩١
 بم كان رسول الله ﷺ يقرأ في الجمعة ١٩٥٧
 بني الإسلام على خمس ٤٨
 البيت قبله لأهل المسجد ١٥٢

ألا رجل يضيف هذا الليلة ؟ ١٨٠٨
 ألا من مشمر إلى الجنة ٨٠٤
 ألا هل من مشمر للجنة ١٥١١
 ألا لا يحجن بعد العام مشرك ١١٣
 أي آية في كتاب الله أعظم ٢٤٤
 أي شيء تحبون أن آتيكم به ١٠٩
 أي عم قل لا إله إلا الله ٨٢٣
 أي والذي نفس محمد بيده إنه لفتح ١٦٧٣
 إياك وإسبال الإزار ٤٠٣
 إياك ومكر السيئ فإنه لا يحق المكر السيئ ١٤٩٧
 إياكم والشح فإنه أهلك من كان قبلكم ٤٠٤
 إياكم والظن فإن الظن أكذب الحديث ٣٧٤ ،
 ١٠٣٠ ، ١٦٩٧ ، ١٧٣٥
 إياكم ومحقرات الذنوب ٩٦ ، ١٧٣٩
 إياكم وهاتان الكبعتان ٩٠
 إياكم والدخول على النساء ١٤٢١
 أيام التشريق أيام أكل وشرب وذكر الله ١٨٩
 أيسغفر الرجل لأبويه وهما مشركان ٨٢٣
 أيعجز أحدكم أن يقرأ ثلث القرآن ٢٠٢٢
 أيكم مال وارثه أحب إليه ٣٢٦
 أيكم ماله أحب إليه من مال وارثه ١٨٩٩
 أيكم يبايعني على ثلاث ٦٣٤
 أيكم يبايعني على هؤلاء الثلاث ٦٣٧
 أيما امرأة أدخلت على قوم من ليس منهم ١٨٢١
 أيما عبد تزوج بغير إذن مولاه ٣٨٧
 أيما مسلم أعتق رجلاً مسلماً ١٩٦٧
 أيما مسلم شهد له أربعة بخير أدخله الله الجنة ١٥١
 أيما مؤمن سقى مؤمناً شربة ماء ١٩٤٢
 أيها الناس أربعوا على أنفسكم ٦٧٠
 أيها الناس إن الله طيب ١٦٢
 أيها الناس إنكم قد أسرعت في حظائر يهود ٩٨٣
 أيها الناس إنكم مسئولون عني ٥٤٢ ، ٦٧٣
 أيها الناس تدرن مثلي ومثلكم ١٤٨٠
 أيها الناس السكينة السكينة ١٩٤
 أيها الناس عليكم بقولكم ولا يستهوينكم
 الشيطان ٤٧٨
 أيها الناس قد فرض عليكم الحج ٣١١
 أين السائل ١٨٦

- ٥٢٥ تقطع يد السارق في ربيع دينار
٧٦٥ تقيم الصلاة وتؤتي الزكاة
٧٩٢ تكفل الله للمجاهد في سبيله
١٨٤٤ تلك امرأة يفشاهأ أصحابي
١٩٩٣ تلقي الأرض أفلاذ أكبادها
٤٦٢ تلك صلاة المنافق
٨٥٢ تلك عاجل بشرى المؤمن
٢٠٩ تنكح المرأة لأربع : لمالها ولحسبها
٤٠٩ توضع الموازين يوم القيامة
٥٠١ توفى رسول الله ﷺ ودرعه مرهونة عند يهودي
١١٥٨ [حرف التاء]
٤٣٥ ثكلته أمه - رجل قتل رجلاً
٦٣٩ ثلاث إذا خرجن لا ينفع نفس إيمانها
٣٢٧ ثلاث أقسم عليهن
٢٢٤ ثلاث جدهن جد وهزلهن جد
١٢٤٩ ثلاثة حق على الله عونهم
١٤١٥ ثلاث في الناس كفر
١٦٩٧ ثلاث لازمات لأمتي
٢٠٢٣ ثلاث من جاء بهن مع الإيمان
١٧٧٦ ثلاث من فعلهن فقد طعم الإيمان
٢٢٤ ثلاث من قالهن لاعتياً أو غير لاعب
٥٧ ثلاث من كن فيه كان منافقاً خالصاً
٧٤٠ ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الإيمان
١٧٥٠ ، ٧١٨ ثلاثة حق على الله عونهم
١٧٦ ثلاثة لا ترد دعوتهم
١٦٤ ثلاثة لا يكلمهم الله ولا ينظر إليهم
٣٩٤ ، ٢٥٣ ، ١٦٤ ثلاثة لا يكلمهم الله يوم القيامة
١٧٧١ ثلاثة لا يمنعن : الماء والكلاء والنار
٢٦٩ ثلاثة يدعون الله فلا يستجاب لهم
١٨٢٤ ثلاثة يضحك الله إليهم
١٧٨٧ ، ١٣٤٩ ، ٣٥٧ ، ٤٩ ثلاثة يؤتون أجرهم مرتين
١٧٠ الثلث والثلث كثير
١٧٢١ ثم رفع بي إلى البيت المعمور
٧٠٩ ثم يبعث الله إليك الملك
[حرف الجيم]
١٠٤٧ جاء الحق وزهق الباطل
- ٤٨٦ ، ٣٩٢ البيعان بالخيار ما لم يتفرقا
٤٧٣ بينما أنا نائم أطوف بالكعبة
١٥٤٦ بينما أيوب يقتسل عرياناً
١٣٥٣ بينما رجل يجر إزاره إذ خسف به
١٠٣٠ بينما رجل يمشي فيمن كان قللكم
[حرف التاء]
٤٢٤ التاجر الصدوق الأمين مع الصديقين
١٧٨٩ تبارك الذي أوعى سمعه كل شيء
١٨٢١ تبايعوني على أن لا تشركوا
٦٥٩ تبعث كل نفس على ما كانت عليه
١٤٩٣ تبلغ الحلية من المؤمن حيث يبلغ الوضوء
٣٠٦ تحييء الأعمال يوم القيامة
١٧٠٩ ، ٦١ تحاجت الجنة والنار
٨٢٥ تحب ذلك ؟
١٩٨٩ تحروا ليلة القدر في الوتر من العشر الأواخر
٧٥١ تحروها لإحدى عشر ييقين
١٩٣١ تحشرون حفاة عراة غرلاً
١٧٧٨ تحفرون صلاتكم مع صلاتهم
١٠٢٧ تخرج الزكاة من مالك إن كان
٢٢٤٩ ، ٢٨١ تزوجوا الودود الولود فإني مكاثر
٧١٤ تسألوني عن الساعة وإنما علمها عند الله
١٧٨ تسحرنا مع رسول الله ﷺ ثم قمنا
١٨٧ ، ١٧٨ تسحرنا مع رسول الله ﷺ وكان النهار
١٧٧ تسحروا فإن في السحور بركة
٧٤١ تشاورت قريش ليلة بمكة
١٠٤٤ تشهد ملائكة الليل وملائكة النهار
١٨١١ تصدق رجل من ديناره
٧٩٩ تصدقوا عليه
٩٧٩ تطلع عليكم عند الساعة سحابة سوداء
١٢٢٨ تعافوا الحدود
٣١٢ تعجلوا إلى الحج
١٦٦٥ تعس عبد الدينار تعس عبد الدرهم
٤٤ تعلموا سورة البقرة وآل عمران
٣٧٠ تعلموا الفرائض وعلموه الناس
٤٣ تعلموا القرآن وأقرأوه ، فإن مثل القرآن
٦١٤ تعوذ يا أبا ذر من شياطين الإنس والجن
٢٠٢٧ تعوذ بالله من شر هذا
١٧٣٨ تفكروا في الخلق ولا تفكروا في الخالق

- الحمد لله الذي وسع سمعه الأصوات ١٧٨٩
الحمد لله الذي وفق رسول رسول الله ١٥
الحمد لله رب العالمين أم القرآن ٢١
الحنيفية السمحة ٦٤٢

[حرف الحاء]

- الحالة بمنزلة الأم ٢٩٠ ، ١٤١٤
خذ بعض مالها وفارقها ٢١٩
خذ الدية بارك الله لك فيها ٥٣١
خذوا الشيطان ١٣٠٨
خذوا عني ، خذوا عني ، قد جعل الله لهن سبيلاً ٣٨٩
خذي من ماله بالمعروف ١٨٢١
خرجت لأخبركم بليلة القدر ١٩٨٩
خرجت من نكاح ٨٣٣
خرجنا مع رسول الله ﷺ فشهدت معه بدرًا ٧٢٣
خرجنا مع عبد الله بن عمر فقال : هذا
قبل أن تنزل الزكاة ٥٨٤
خفف على داود القرآن ١٠٣٥
خلق الله التربة يوم السبت وخلق الجبال ٦٦ ، ١٥٩٤
خلق الله تعالى الخلق فلما فرغ ١٦٦٩
خلقت الملائكة من نور ٦٣٨ ، ٦٥٣ ، ١٧٥٠
خمس صلوات في اليوم والليلة ١٨٩٨
خمس فواسق يقتلن في الحل والحرم ٦٣
خمس من جاء بهن يوم القيامة مع إيمان ١٤٦٢
خيرًا ٣٨٠
خيركم خيركم لأهله ٣٧٩
خير الأصحاب عند الله خيرهم لصاحبه ٤٠٢
خير بيت في المسلمين بيت فيه يتيم ١٩٦٤
خير الشهداء الذي يأتي بالشهادة ٤٥٩
خير الصدقة ما كانت عن ظهر غنى ٢٠٧
خير القرون قرني ثم الذين يلونهم ١٧٦١
خير مال امرئ له مهرة مأمورة ٢٨٢
خير الناس أقرؤهم وأتقاهم لله ٣١٦ ، ١٧٠٠
خير نساء ركب الإبل ٢٩١
خير نسائها مريم ٢٩٢
خير يوم طلعت فيه الشمس ٧٢
خيرني رسول الله ﷺ بين الهجرة والنصرة ٧٦٤
الخيل لثلاثة ٧٥٨
الخيل لثلاثة : لرجل أجر ١٩٩٤

- جاءت الراجفة تتبعها الرادفة ١٩٢٤
جاءني به جبريل من عند الله ١٠٤٩
جاءت فاطمة بنت عتبة تبائع رسول الله ﷺ ١٨٢١
الجاهر بالقرآن كالجاهر بالصدقة ٢٥٧
جعل أبو عبيدة بن الجراح ينعت له الآلهة ٧٧٦
جعل الله الألهة مواقيت للناس ١٨١
جعل الله الرحمة مائة جزء ٦٤٥
جنبا المساجد صبيانكم ١٢٥٤
الجنة مائة درجة ١١٣٦
جنتان من ذهب أنيتهما ٨٠٣
جنتان من ذهب أنيتهما وما فيهما ١٩٠٨
جنتان من فضة أنيتهما وما فيهما ١٧٥٣
الجيران ثلاثة : جار له حق واحد ٤٠٢

[حرف الحاء]

- حاج موسى آدم ١١٤٤
حافظوا على الصلوات والصلاة الوسطى
وسماها صلاة العصر ٢٣٣
حبب إلي النساء والطيب ٢٨١
حبس الأصل وسبل الثمر ٣٠٨
حبك الشيء يعمي ويصم ١٠٢ ، ٦٩٤
حتى تبرأ ٥٣١
الحج عرفات - ثلاثًا - فمن أدرك عرفة ١٩٣
حجتي واشترطي ١٨٧
حد الساحر ضربة بالسيف ١١٢
حدثوا عن بني إسرائيل ولا حرج ٧١٦ ، ١٧٠٤
حدثوا عني ولا تكذبوا علي ١١٥
الحرب خدعة ١١٦
حرثك اثت حرثك أنى شئت ٢١١
حرموا من الرضاغة من يحرم من النسب ١٤١٤
حسب امرئ من الشر إلا من عصم ١٣٩٨
حسبنا الله ونعم الوكيل ٣٤٨
الحسنى الجنة ١٩٧٣
حق الله على كل مسلم أن يغتسل ١٨٣٢
حق له أن يؤمن ٢٧٣
حقًا عليه أن يدخله الجنة ٨٠٣
الحلال ما أحل الله ١٦٣
الحمد لله الذي جعلك يا بنية ٢٩٠
الحمد لله الذي رزقني من الرياش ٦٤١ ، ٦٥٧

- ٤٧٣ رأيت موسى وعيسى وإبراهيم
 ٣٣٦ رأيت يد طلحة شلاء
 ١٩٧١ رب أعط نفسي تقواها
 ٢٤٠ رب زد أمتي
 ٢٦٢ الربا ثلاثة وسبعون باباً
 ١٩٦٠ رباط ليلة في سبيل الله خير من ألف ليلة
 ١٩٩ ربح البيع صهيب
 ٧٢٥ رجلان من أمتي جثيا بين يدي رب العزة
 ٣٣٣ رحم الله رجلاً ردهم عنا
 ١٦٨٧ ، ١٨٦ رحم الله الخلقين
 ٨٨٢ رحمة الله على لوط لقد كان يأوي إلى ركن شديد
 ١٨٢٥ ، ١٤٦٠ رحمة الله على موسى لقد أودى
 ٣٤٨ ردوا علي الرجل
 ٨٩٠ ردوه علي
 ٧٤٩ رغبت لكم عن غسالة الأيدي
 ١٥٢٨ رؤيا الأنبياء في المنام وحى
 ٨٥٢ الرؤيا الصالحة يشرها المؤمن
 ٧٤ زوجتكها بما معك من القرآن
 ١٦٩٨ زينب ؟
 [حرف السين]
 ٨٢٣ السائحون هم الصائمون
 ١٠٥٠ سأل أهل الكتاب عن الروح
 ٥٩٣ سألت ربي ثلاثاً
 ١٩٨٠ سألت ربي مسألة وددت أنني لم أسأله
 ١٨١ سأل الناس رسول الله ﷺ عن الأهلة
 ٣٩٤ ، ١٩١ سباب المسلم فسوق
 ١٦٨١ سبحان الله إن للموت لسكرات
 ٣٢٦ سبحان الله ! فأين الليل
 سبحانك اللهم وبحمدك وتبارك
 ٢٥ اسمك وتعالى جدك
 ١٤٠٦ ، ٢٥٨ سبعة يظلمهم الله في ظله
 ١٧٥٢ سبق درهم مائة ألف
 ١٥٤٢ سبقك بها عكاشة
 ٢٧٧ ستفرق هذه الأمة على ثلاث وسبعين فرقة
 ٤٥٣ سدودا وقاربوا فإن في كل ما يصاب
 ٣٩٧ سلوا الله من فضله
 ١٠٤ سلوا عما شئتم

- ٧٥٨ الخليل معقود في نواصيها الخير
 [حرف الدال]
 ٤٨٨ الدال على الخير كفعله
 ٤٨١ دخل علي رسول الله ﷺ وأنا مريض
 ٢٠٦٣ دخلت الجنة فإذا أنا بنهر
 ٤٣٢ دعوه ، ما تريد ؟
 ٢٦٢ دع ما يريك إلى ما لا يريك
 ٧٤٠ دعه فإنه قد شهد بدراً
 ١٨٣٦ دعه لا يتحدث الناس أن محمداً يقتل أصحابه
 ١٧٧٨ دعوا لي صاحبي
 ١٨٢٦ ، ١٨٢٥ ، ١٤٤ دعوة أبي إبراهيم
 ٢١٧ دعي الصلاة أيام أقرئت
 ١٩٥٦ الدنيا دار من لا دار له
 الدنيا دار من لا دار له ، ومال من
 لا مال له ٢٠١ ، ١٧٣٥
 ٢٨١ الدنيا متاع وخير متاعها المرأة الصالحة
 ٤١٣ الدواوين عند الله ثلاثة
 [حرف الذال]
 ٢٧١ ذاك صريح الإيمان
 ٦١٧ ذبيحة المسلم حلال
 ١٢١ ذروني ما تركتكم
 ٣٥٧ ذرني أتعبد لربي
 ٤٨٦ ذكاة الجنين ذكاة أمه
 ١٦٩٧ ، ١٤٥٧ ذكرك أخاك بما يكره
 ٨٠٦ ذكر لنا أن رجالاً حضروا فوجدوا الدخان
 ٧١١ ذكر لنا أن نبي الله كان على الصفا
 ١٨٩٨ ذاك رجل بال الشيطان في أذنه
 ١٩٣٤ ذلك الواد الخفي وهو الموءودة سفلت
 ٨٥١ الذين إذا رأوا ذكر الله
 [حرف الزاء]
 ١٩٦٨ الراحمون يرحمهم الرحمن
 ١٧٣٠ رأى رسول الله ﷺ جبريل في صورته
 ٤١٠ رأيت رسول الله ﷺ يول
 ١٦٠٩ رأيت عمرو بن لحي بجر قصبه
 ١١٤٩ رأيت الليلة كأنما في دار عقبة
 ٧١٢ رأيت ليلة أسري بي كذا
 ٨٠٦ رأيت المسجد الذي بني ضراباً

- ٤٠٣ الصلاة الصلاة وما ملكت
٦٣٤ ، ٩٧ الصلاة على وقتها
٨٢٠ صلاة في مسجد قباء كعمرة
٢٣٢ ، ١٢٠٨ الصلاة في وقتها
١٢٥٦ صلاة المرأة في بيتها أفضل
٢٠٢١ صلاة المنافق
١٩١٣ الصلاة وما ملكت أيمانكم
٨٩٠ ، ١٢٢ الصلوات الخمس والجمعة إلى الجمعة
١٤٥٢ صلوا علي فإنها زكاة لكم
٨١٧ ، ٣٠٨ صلى الله عليك وعلى زوجك
٧٧ الصوم نصف الصبر
١٧١ صيام رمضان كتبه الله على الأمم
[حرف الضاد]
٦٣٧ ، ٣٧ ضرب الله مثلا صراطا مستقيما
٤١٠ ضربة للوجه والكفين
٧٢٤ ضعه من حيث أخذته
[حرف الطاء]
٢١٦ طلاق الأمة تطليقتان وعدتها حيضتان
٦٨٧ الطوفان الموت
١٧٢١ طوفي من وراء الناس
[حرف الطاء]
٤١٣ الظلم ثلاثة
[حرف العين]
١٦٩٨ العائد في هبته كالكلب بقيء ثم يعود
٣٧٠ عادني رسول الله
٣٥٦ العار والتخزية تبلغ من ابن آدم
١٦٥٠ العبد المسلم إذا بلغ أربعين سنة
٣١٢ العج والثج
٣٠٦ ، ٢٤٨ عجب ربك من قوم يقادون
١٤٠٧ عجب ربنا من رجلين
١٥٥ ، ٦٨١ ، عجباً للمؤمن لا يقضي الله له قضاء
١٣٨٥ ، ٨٣٨
١٥٩٥ عجبت من مجادلة العبد ربه
٨٢ العجوة من الجنة
٧٨ العدل الفدية
٤١٩ عدل يوم كعبادة أربعين سنة
٨٦٠ عرض علي الأنبياء فجعل النبي يمر
- ٣٠٨ سلوني عما شئتم ولكن اجعلوا لي ذمة الله
١٠٤٩ سلوه عن الروح
١٤٢١ السلام عليكم أهل البيت
٤٢٠ السمع والطاعة على المرء المسلم
١٤٥٧ سمع الله لمن حمده اللهم ربنا لك الحمد
٧٦٣ سمعت أنين عمي العباس
سمعت رسول الله ﷺ يقرأ : فروح
وريحان
١٧٤٧ سما أنتم وكلوا
٦١٨ سما عليه أنتم وكلوا
٦١٧ سيد الاستغفار أن يقول العبد
١٩٦ سيكون في أمتي أقوام يكذبون بالقدر
١٧٢٠ [حرف الشين]
٨١١ شأنكم بها
٧٣٥ شامت الوجوه
٢٣٣ شغلونا عن الصلاة الوسطى
١٤٦٥ شفاعتي لأهل الكبائر من أمتي
١٧٥٧ الشهداء أربعة
٣٤٥ الشهداء على بارق نهر
٣٩٧ شهدت حلف المطيبين وأنا غلام
٣٤٦ شاهدنا أحداً مع رسول الله
٢١٤ الشهر تسع وعشرون
٤٠٥ شهيداً عليهم ما دمت فيهم
١٧٣٣ شيتني هود والواقعة
[حرف الصاد]
٥٥٥ صبح أناس غداة أحد
صدق الله ورسوله إنما أموالكم وأولادكم
١٨٤١ فتنه
٦٠١ صدق والذي بعثني بالحق
٧٣١ وصدقت ذلك من مدد السماء الثالثة
١٥٩٦ صدقت صدقت كيف يقدس الله قوماً
٤٤٢ صدقة تصدق الله بها عليكم
٤٠١ ، ١٦٥ الصدقة على المسكين صدقة
٣٧ الصراط المستقيم كتاب الله
٤١٠ الصعيد الطيب طهور المسلم
١٧٦٦ صفاؤه من صفاء الدر
٩٧٧ صل قائماً فإن لم تستطع
٤٧٥ الصلاة خير موضوع

١٢٢٣ فاطمة بضعة متي يفيظني
٦٥٩ فأما من كان من أهل الشقاوة
١٨٩٦ فإن خلق رسول الله ﷺ كان القرآن
١١٦ فإن كل محدثة بدعة
١٨١٠ فينما أنا أمشي إذ سمعت صوتاً في السماء
١٨٧ الفجر فجران
١٧٠٠ فخيركم في الجاهلية خيركم في الإسلام
٦٩١ فساخ الجبل
٢٠١٠ فضل الله قريش بسبع خلال
١٠٤٢ فضل صلاة الجميع على صلاة الواحد
١٢٠٥ فضلت سورة الحج بسجدين
١٤١١ فضلت على الأنبياء بست
٤١٠ ، ٢٧٢ فضلنا على الناس بثلاث
١٥٣٥ ، ١٥١٩
٦٣٦ فطاشت السجلات
١٢٢ الفطرة خمس
١٠٤٣ ققلت : اللهم اغفر لأمي
١٩٨٣ ققلت ما أنا بقارئ
١٥٨٠ فلا أدري في أي القبضتين أنا
١٠٢ فلعل بعضكم ألحن بحجته
٤٩٧ فلعلكم تأكلون متفرقين
٤٣ فله قرأ سورة البقرة
١٩٤٠ الفلق جب في جهنم
١٧٣٠ فلم أر عبقرئاً يفري فريه
١٤٢ فلم لا أخذتم مسكها
٤٣٧ فليعتق رقبة
٦٥٩ فوالذي لا إله غيره إن أحدكم ليعمل
٨٠٦ في أصحاحي اثنا عشر منافقاً
١٥١ في الأنعام آيات محكمات
١٦٤٠ في الجنة بحر اللبن وبحر الماء
١٧٧ في المال حق سوى الزكاة
٦٥١ ، ٦٣٦ فيأتي المؤمن شاب حسن اللون
٧٢٣ فينا أصحاب بدر نزلت
١٤٠٨ فيها ما لا عين رأت
[حرف القاف]
٧٢ قال آدم عليه السلام : أرأيت يا رب
٣٧٧ ، ١٣٥ قال إبليس : يا رب وعزتك لا أزال
٢٥٩ قال رجل : لأتصدقن الليلة بصدقة

٨٤٩ عرضت علي أمتي البارحة
عرضت علي الأم فأريت النبي ومعه
١٧٦٨ ، ٣١٧ الرهيط
٣١٧ عرضت علي الأنبياء الليلة بأجمعها
٣٢٩ عرف الحق لأهله
١٣٣ عشر من الفطرة
١٨١٣ العظمة إزار ي
١٧١ علمها بلالاً
٧١٣ علمها عند ربي
١٢٠ علي أفضانا وأني أقرؤنا
١٨٠ على رسلكم إنها صفية
٨٨٧ على شيء قد فرغ منه يا عمر
١١٩٤ على كل أهل بيت في كل عام أضحية
٨٠١ علي بهؤلاء النفر
١٤٣١ ، ٨٢٩ عليكم بالصدق
١٧٤ عليكم برخصة الله التي رخص لكم
١٦٦٨ ، ٣٢٦ عليكم بلا إله إلا الله
٣٣٦ عليكما صاحبكما
١٨٦ عمرة في رمضان تعدل حجة
١٧٩٧ علام تشتمني أنت وفلان ؟
١١٤ العين حق
[حرف العين]
٣٣٤ غبت عن أول قتال النبي ﷺ
٦٨٧ غزونا مع رسول الله ﷺ سبع غزوات
١٨٣٢ غسل يوم الجمعة واجب على كل محتلم
٣٣٨ غشنا النعاس ونحن في مصافنا
٤٥٢ غفر الله لك يا أبا بكر
[حرف الفاء]
٢١ فاتحة الكتاب شفاء من كل سم
٢١٨ فاتقوا الله في النساء ، فإنكم أخذتموهن
٤٧٩ فأدخل علي ربي في داره
٩٠١ فإذا هو قد أعطي شطر الحسن
١٩٠٤ فإذا هو يدخله كل يوم سبعون ألف ملك
١٧٦٥ فإذا ورقها كأذان الفيلة
٢٨٩ فإذا يحيى وعيسى وهما ابنا الخالة
١٤٧٤ فأسجد لله تعالى فيدعني ما شاء الله
٢٣٠ فإذا حللت فأذنيني
١٢٢٣ فاطمة بضعة متي يريني

- قسمت الصلاة بيني وبين عبدي ٢١ ، ٢٣ ، ٣٥
 قل أعوذ برب الفلق ٢٠٢٦
 قل : بسم الله وكل يمينك ٢٩
 قل : ربي الله ثم استقم ١٥٩٨
 قل : اللهم إني أسألك نفساً ١٩٦٥
 قل : اللهم إني ظلمت نفسي ظلمًا كثيرًا ١٩٦ ، ١٤٥٩
 قل : لا إله إلا الله وحده لا شريك له ١٧٣٣
 قل : اللهم غارت النجوم وهدأت العيون ١٣٨١
 قل : قل هو الله أحد ﴿ تعدل ثلث القرآن ١٩٩٣
 قل ﴿ قل هو الله أحد ﴿ والمعوذتين
 حين تمسي وحين تصبح ٢٠٢٣
 القلوب أربعة ، قلب أجرد ٥٧
 قم فصل فإن الصلاة شفاء ١٢٥٣ ، ٧٧
 قم يا فلان ١٧٩٤
 القنطار اثنا عشر ألف أوقية ٢٨٢
 قولوا : الله مولانا ولا مولى لكم ١٦٦٥
 قولوا : اللهم صلى على محمد وعلى
 آل محمد ١٤٥٠ ، ٨٨٠
 قلني : اللهم إنك عفو تحب العفو ... ١٩٩٠
 قوموا إلى جنة عرضها السماوات والأرض ٧٦٠
 قوموا إلى سيدكم ١٧٩٤ ، ١٤٢٥
 قيام العبد من الليل ١٤٠٨
 قيحي ١٦٩٨
 قيل لبني إسرائيل : ادخلوا الباب سجداً ٨٤
 قيل لي : أنت منهم ٩٠
 [حرف الكاف]
 كان إذا أوى إلى فراشه كل ليلة ٢٠٢٤
 كان إذا دعا لرجل أصابته وأصابته ولده ٨١٦
 كان إذا حزبه أمر صلى ١٥٣
 كان بين آدم ونوح عشرة قرون ١٠٢٤
 كان خلق رسول الله ﷺ القرآن ١٢٠٧
 كان داود عليه السلام فيه غيرة شديدة ١٢٩٣
 كان الرجل منهم يأتي على الصخرة فيحملها ١٩٦٢
 كان رسول الله إذا تلا ﴿ عِبْرَ الْمَنْصُورِ ﴿ ٤٠
 كان رسول الله إذا حزبه أمر صلى ٧٧
 كان رسول الله ﷺ إذا فرغ من الصلاة
 يستغفر الله ثلاثاً ١٩٦
 كان رسول الله ﷺ أكثر ما يصلي

- قال الله : إذا تحدث عبدي بأن يعمل حسنة ٢٧١
 قال الله : إني خلقت عبادي حنفاء ٧٩
 قال الله : كذبني ابن آدم ولم يكن له ذلك ٢٠٢٥
 قال الله تعالى : ابن آدم أنى تعجزني ١٥١٦
 قال الله تعالى : أنا الرحمن ١٦٦٩ ، ٣١
 قال الله تعالى : أربع خصال واحدة منهن
 لي ١٥٨٥
 قال الله تعالى : شمتني ابن آدم ٩٨٧
 قال الله تعالى : يا آدم لا تعجز عن أربع ركعات ٩٧٦
 قال الله تعالى : يا ابن آدم تفرغ لعبادتي ١٧١٩
 قال الله ﷻ : أنفق أنفق عليك ٨٦٦
 قال الله ﷻ : كل يوم هو في شأن ١٧٥١
 قال الله ﷻ : يا ابن آدم إن ذكرتني ١٥٢
 قال الله : يا ملك الموت قبضت ولد
 عبدي ١٥٦
 قال جبريل : يا محمد عش ما شئت فإنك ميت ١٩٤٤
 قال ربكم أنا أهل أن أتقى ١٩٠٥
 قالت الملائكة : رب وذاك أن عبدك يريد
 قاتلهم الله لقد علموا أنهم لم يستقيما ٤٩٣
 القبر كقطع الليل المظلم ١٥٨٢
 قتل الصبر لا يمر بذنوب ٥١٧
 القتل في سبيل الله يكفر الذنوب كلها ١٤٦٢
 قد أثنى الله عليكم في الطهور ٨٢١
 قد أفلح من أسلم ورزق كفافاً ١٤٧٩
 قد أمرني ربي بالقتال فقاتلوا ٤٢٩
 قد بايعتك ١٨٢٠
 قد جاءكم شهر رمضان شهر مبارك ١٩٨٦
 قد قد ٧٤٣
 قد كنت أنهاك عن حب يهود ٥٣
 قدمت عبيد مرة إلى المدينة والرسول يخطب ١٨٣٣
 قدر الله المقادير ١٧٨٥
 قدم رسول الله المدينة وليس ١٦٩٦
 قرصت نبيّاً من الأنبياء نملة فأمر بقرية
 النمل ١٣١٦
 قرأ رسول الله ﷺ سورة النجم ١٧٤٠
 قرأ رسول الله عام الفتح في مسيره سورة
 الفتح ١٦٧٣
 قرن ينفخ فيه ٧٣ ، ١١٤٣

- ٨٢٠ كان يزور مسجد قباء راكباً و ماشياً
 ١٨٧ كان يعتكف العشر الأواخر
 كان يقرأ في صلاة الصبح يوم الجمعة ﴿حـم تنزيل﴾
 ١٩١١ كان يقرأ في العشاء الآخرة بالسماء ذات
 البروج
 ١٩٤٧ كان ينهى عن قيل وقال
 ١٠٨ كانت بنو إسرائيل تسوسهم الأنبياء
 ٤٢٠ كانت تأتيتهم يوم السبت فإذا كان المساء
 ٧٠٣ كانت الشياطين تفرق بين الصفا والمروة
 ١٥٨ كانت صفية من الصفي
 ٧٤٩ كانت قراءة رسول الله سداً
 ١٨٩٤ كانت للنبي خطبتان
 ١٨٣٤ كانت ليلة الفرقان يوم التقى الجمعان
 ٧٥١ كان نساء المؤمنين يشهدن الفجر
 ١٢٥٧ كأنك تريد أن ترجعي إلى رفاعة
 ٢٢٣ كانوا إذا أحرموا في الجاهلية أتوا البيت
 ١٨٨ كأنني أراكم حاتين بالكوم دون جهنم
 ١٦٤٤ الكبر بطر الحق و غمط الناس
 ١٦٩٧ ، ٨٦ كذب أعداء الله ما من شيء كان في الجاهلية
 ٣٠٢ كذبت يهود وهم على الله أكذب
 ١٥٨٢ الكرم ابن الكرم ابن الكرم
 ٨٩٥ كفارة الذنب الندامة
 ١٥٦٤ كفى بالمرء إثماً أن يحبس عمن يملك قوتهم
 ٤٠٣ كفى بالمرء كذباً أن يحدث بكل ما سمع
 ٤٢٩ كل ابن آدم يلى إلا عجب الذنب
 ١٩٠٣ ، ١٤٨٥ كل ابن آدم يلقي الله بذنب يعذبه
 ٢٩١ كل أمي تدخل الجنة إلا من أبي
 ١٩٧٥ كل أهل النار يرى مقعده من الجنة
 ١٥٦٤ كل أهل الجنة يرى مقعده من النار
 ٦٦٥ كل إنسان يغدو بفائع نفسه
 ٦٥٩ كل تقي
 ٧٤٤ كل حرف في القرآن ذكر فيه القنوت
 فهو الطاعة
 ١٣٨٢ ، ٢٩٢ ، ١١٦ كل ذنب عسى الله أن يفره
 ٤٣٦ ، ٤١٣ كل شيء خلق من ماء
 ١١٥٥ كل صلاة لا يقرأ فيها بأمر القرآن فهي خداج
 ١٨٩٨

- ١٣٥ الركعتين اللتين قبل الفجر
 ٧٤٨ كان رسول الله إذا بعث سرية
 ٣٧٥ كان رسول الله إذا نزل عليه الوحي
 كان ﷺ لا يعرف فصل السورة
 ٢٨ كان رسول الله يقطع قراءته (بسم الله)
 ٢٨ كان رسول الله يفتح الصلاة بالتكبير
 ٢٩ كان رسول الله يتوضأ ثم يقبل ثم يصلي
 ٤٠٩ كان رسول الله وأصحابه يعفون عن المشركين
 ١١٨ كان رسول الله يأمرني فأغسل رأسه
 وأنا حائض
 ٢٠٩ كان رسول الله يجهر بيسم الله
 ٢٨ كان رسول الله كثيراً ما كان يحدث
 من امرأة في الجاهلية
 ١٩٥٩ كان رسول الله يحب الحلوى
 ١٨٥١ كان رسول الله يديني إلي رأسه
 ١٨٧ كان رسول الله يصلي على أثر
 كل صلاة مكتوبة ركعتين
 ١١٨٦ كان رسول الله يعالج من التنزيل
 شدة
 ١٩٠٧ كان رسول الله يصلي نحو بيت المقدس
 ١٤٩ كان رسول الله يصلي يوم الجمعة
 قبل الخطبة
 ١٨٣٤ كان رسول الله يقرأ عشر آيات
 من سورة آل عمران
 ١٩٤ كان رسول الله يؤتى بالغنيمة
 ١٧٧٣ كان رسول الله يسمح مناكينا
 ١٧٩٥ كان ﷺ يسير العنق فإذا
 ١٩٤ كان في بني إسرائيل رجلان
 ٤١٤ كان فيمن كان قبلكم ملك
 ١٩٤٨ كان المسلمون قبل أن تنزل هذه الآية
 ١٨٧ كان النبي إذا سلم من صلاته إلى بيت المقدس
 ١٥٢ كان النبي بمكة فأنزل الله ﴿وما
 كان الله ليعذبهم﴾
 ٧٤٤ كان النبي يقرأ في الفجر يوم الجمعة السجدة
 ١٤٠٥ كان النبي يحرس حتى نزلت هذه الآية
 ٦٧ كان في عماء ما تحته هواء
 ٨٦٦ كان فيما أنزل القرآن (عشر رضعات)
 ٣٨٢ كان هذا الراكب إياكم يريد
 ٧٩

- كل عرفات موقف وارفعوا عن عرفات ١٩٥
كل غلام مرتهن بعقيقته ٢٨٩
كل مخمر خمر ٩٠
كل مسكر خمر ٩٠
كل المسلم على المسلم حرام ١٦٩٨
كل معروف صدقة ٢٠١٢
كل من أحب أن يعبد من دون الله ١٦٢٧
كل مولود يولد على الفطرة ، ٤٥١ ، ٧٩ ، ٧٠٥ ، ٦٨٢ ، ٦٥٩
١٩٤٤ ، ٨٦٧
كل الناس يغدو فبائع نفسه ١٩١١
كلا يا عمر إنه سيأتي على الناس زمان ١٥٩٩
الكلب الأسود شيطان ٢٧
كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته ٦٥١
كلكم مغفور له إلا صاحب الجمل الأحمر ١٦٧٧
كلمتان خفيفتان على اللسان ١١٥٨ ، ١٧٧٤
كلوا الزيت وادهنوا ١٢١٢
كلوا واشربوا والبسوا ١٣٤ ، ٦٦٠
كلوه إن شئتم فإن ذكاته ذكاة أمه ٤٨٦
الكمة من المن وماؤها شفاء ٨٢
كما أنه لا يجتنى من الشوك العنب ١٦٤٣
كم ينحرون كل يوم ٢٨٠
كمل من الرجال كثير ولم يكمل من النساء ٢٩٢ ، ١٨٣١
كنا عند رسول الله ﷺ في صدر النهار ١٨١١
كنا نخبر أنهم أربعة عشر ٨٠٦
كنا نخرج مع رسول الله ﷺ فمنا الصائم ١٨٥
كنا نسمع تسييح الطعام وهو يؤكل ١٠٣٢
كنت أسقي أبا عبيدة وأبي ٩٠
كنت مع علي بن أبي طالب حين بعثه ٧٦٦
رسول الله ﷺ
الكوثر نهر في الجنة ٢٠١٣
الكيس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت ٣٥
كيف أصبحت يا حارث ٧٢٧
كيف أنت صانع في يوم يقوم الناس فيه ١٩٣٩
كيف أنت يا فلان ٣١٣
كيف أنتم ورعب الجنة ٣١٨
كيف أنعم وصاحب القرن قد التقم القرن ١٦٩
١١٤٣ ، ١٧٠٧
- كيف أنعم وصاحب القرن قد التقم القرن ١٩٥
كيف بكم إذا نزل فيكم المسيح ابن مريم ٤٦٩
كيف تجدك ١٥٥٣
كيف تيكم ١٢٣٤
كيف يفلح قوم فعلوا هذا بنبيهم ٣٢٥
[حرف اللام]
لأعلمنك أعظم سورة في القرآن ٢٢
لئن أنتم اتبعتم أذناب البقر وتباعدتم ١٣٦٣
لئن فعل لأخذته الملائكة ١٩٨٤
لئن كنت أقصرت الخطبة ١٩٦٨
لبنة ذهب ولبنة فضة ٨٠٣
لبيك وسعديك والخير في يديك ١٠٤٤
لتأتين يوم القيامة بسبعمائة مخطومة ٢٥٢
لتأتينكم أجوركم ولو كنتم في حجر ثعلب ٨١٦
لتأخذوا عني مناسككم ١٥٧ ، ١٩٤
لتأمرن بالمعروف وتنهون عن المنكر ٥٤٧
لتتبع كل أمة ما كانت تعبد ٣٠ ، ١٠٤٢
لتركبن سنن من كان قبلكم ١٩٤٦
لزوال الدنيا أهون عند الله من قتل رجل مسلم ٤٣٥
للسائل حق وإن جاء على فرس ١٦٦ ، ١٧٠٥ ، ١٧١٥
للصائم عند إفطاره دعوة مستجابة ١٧٦
لعلك قبلت أو لمست ٤٠٩
لعن الله آكل الربا وموكله ٤٦٢ ، ٦٣٢
لعن الله السارق يسرق ٣٨
لعن الله الواشحات ١٨٠٥
لعن الله اليهود حرمت عليهم الشحوم ٢٦٢
لعنت الخمر على عشرة أوجه ٥٥٤
لغدوة في سبيل الله أو روحه خير من الدنيا ١٧٥٥
اللغو في اليمين هو كلام الرجل في بيته ٢١٤
لقد أوتى هذا مزمارًا من مزامير آل داود ١٤٦٧
لقد حجرت واسعا ١٤٥١
لقد خبت وخسرت إن لم أكن أعدل ٢٧٧ ، ٧٩٦
لقد سألت عن عظيم وإنه ليسير على من يسره الله عليه ٧٧ ، ١٤٠٨
لقد سألت يا أبا هريرة ١٩٨٠
لقد صدق الله تعالى قولك يا زيد ١٦٩٣
لقد عجب الله من فلان ١٨٠٨

- ٢٠٢٦ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ ﴿
- ١٤٩٤ لن يدخل أحدًا منكم عمله الجنة
- ١٩٨١ لن يغلب عسر يسرين
- ٣٩٩ لن يفلح قوم ولو أمرهم امرأة
- ١١٤٧ لن يلج النار أحد على قبل
- ٢٠١١ له أجران : أجر السر وأجر العلانية
- ٣٤٠ لو اجتمعتما في مشورة ما خالفكما
- ١٨٤٨ لو أخذت ما في رحبيها
- ٢١٣ ، ٢٩ لو أن أحدكم إذا أراد أن يأتي أهله
- ٨٠٣ ، ١٠٥ لو أن أحدكم يعمل في صخرة صماء
- ١٦٨٩ ، ١٣٩٧
- ١٠٣٨ لو أن أحدهم إذا أراد أن يأتي أهله
- ١٦٣٩ لو أن حوراء بزت في بحر لحي لعزب
- ١٥٤٨ لو أن دلوًا من غساق يهراق في الدنيا
- ١٠٣ لو أن اليهود تموتوا لموت لما تواتوا
- لو أنكم تكونون على كل حال على الحال
- ١٥٥٥ ، ٣٢٨ التي أنتم عليها
- ١٣٩ ، ١٢٦ لو تركته لكان الماء طاهرًا
- ١٩٨١ لو جاء العسر فدخل هذا الحجر
- ٤٢٠ لو دخلتموها ما خرجتم منها أبدًا
- ١٤٤٨ لو دعيت إلى ذراع لأجبت
- ١٩٨٤ لو دنا مني لاخطفته الملائكة
- ٨٧٥ لو رحم الله من قوم نوح أحدًا لرحم أم الصبي
- ١٢٧٤ لو شئت لأجرى الله معي جبال الذهب
- ٤٩٢ لو طلعت في فخذها لأجزأ عنك
- ١٨٣٠ ، ٢٩٨ لو فعل لأخذته الملائكة عيانًا
- ١٨٣٠ لو كان الإيمان عند الشرا لنا له رجال
- ١٣٦٩ لو كان القرآن في إهاب ما أحرقه النار
- ٥٤٢ لو كان محمد ﷺ كاتمًا شيئًا
- ١٦٢٤ لو كانت الدنيا ترن عند الله جناح بعوضة
- ٣٩٩ لو كنت أمرًا أحدًا بالسجود لأحد
- ٤٢٣ لو نزلت لكان ابن أم عبد منهم
- ٦٤٣ ، ٣٤ لو يعلم المؤمن ما عند الله من العقوبة
- ١٨٥٨ لوددت أنها في قلب كل إنسان
- ٧٧١ لولا أن الرسل لا تقتل
- ١٤٠ ، ١٢٦ لولا أن قومك حديثو عهد بجاهلية
- ٧٨٣ ليلغن هذا الأمر ما بلغ الليل والنهار
- ١٤٣ ليحجن البيت وليعتمرن بعد خروج بأجوج
- ١٦٩٨ لقد قلت كلمة لو مزجت
- ١٧١٠ لقد كان تنورنا وتنور النبي واحد
- ٥٩١ لقد لقيت من قومك وكان أشد ما لقيت
- ١٩٣٣ لقد هممت أن أنهى عن الغيلة
- ٨١٤ لقد هممت أن لا أقبل هدية إلا من قرشي
- ٤٧٠ لقيت ليلة أسري بي إبراهيم وموسى
- ١٨٠٥ لك كذا وكذا
- ٥٤٩ لكنني أصوم وأفطر
- ٢٩٥ لكل نبي حوارى وحوارى الزبير
- ١٧٨٧ لكل نبي رهبانية
- ٢٤٥ لكل شيء سنام وسنام القرآن سورة البقرة
- ٦١٧ لكم كل عظم ذكر اسم الله عليه
- ٧٥٨ للجنة أقرب إلى أحدكم
- ٧٦٢ لم تحمل الغنائم لسود الرؤوس غيرنا
- ١١٨ لم يتعوذ المتعوذ بمثلها
- ٨٠٨ لم يبق أحد غيرك
- ٦٣٦ لما أنزل الله ﴿وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ﴾
- ٦٩١ لما تجلى الله للجبال طارت لعظمته
- ٥٣٦ لما حاربت بنو قينقاع رسول الله
- ٨٧٤ لما حمل نوح فى السفينة من كل زوجين
- ٧٠٦ ، ١٧٢ لما خلق الله آدم مسح ظهره
- ٢٥٨ لما خلق الله الأرض جعلت تميد فخلق الجبال
- ٦٣٤ لما خلق الله الخلق كتب فى كتاب
- ١٩٢٦ لما خلق الله الأرض وجعلت تميد
- ١٨٤ لما سار رسول ﷺ معتمرًا
- ١٦٩٨ لما عرج بي مرت بقوم لهم أظفار
- ٨٥٩ لما قال فرعون أمنت أنه لا إله إلا الله
- لما قدم رسول الله من جمع نساء الأنصار
- ١٨٢٢ فى بيت
- لما قدم النبي ﷺ المدينة كانوا أخبث الناس
- ١٩٣٩ كيلاً
- ٣٤٣ لما كان يوم أحد من العام المقبل عوقبوا
- ٣٣٤ لما كان يوم أحد هزم المشركون
- ٧٩ لما نزلت آية الصدقة كنا
- ٧٦١ لما نزلت إن يكن منكم عشرون صابرون
- ٥٤٦ لما وقعت بنو إسرائيل فى المعاصي
- ٧١٥ لما ولدت حواء طاف بها إبليس
- لن تقرأ شيئًا أنفع عند الله من ﴿قُلْ

- ١٣٨٦ ما بال أقوام جاوزهم القتل اليوم
 ٧٦ ما بال أقوام يتناولون الذرية
 ٨٧ ما بال أقوام يقول أحدهم كذا وكذا
 ١٨٣٦ ما بال دعوى الجاهلية
 ١٦٠ ما بال العامل نبعثه على عمل
 ٤٩٦ ما بالهم وبال الكلب اقتلوا منها
 ١٣٧٧ ما يضع سنين عندكم
 ٨٣٤ ما بقي شيء يقرب من الجنة
 ١٠٥٠ ما بي ما تقولون
 ١١٤ ما بين المشرق والمغرب قبلة
 ١٥٦٧ ما بين النفختين أربعون
 ١٣٥ ما تجرع عبد من جرعة أفضل أجزا
 ١٧٩٧ ما ترى ديناراً ؟
 ٥١٧ ما ترك القاتل على المقتول
 ٢٨١ ما تركت بعدي فتنة أضرب على الرجال
 ٥٢٨ ما تجدون في التوراة في شأن الرجم
 ٨٨٣ ما تقول أو قد قالوها
 ٤٠٢ ما تقولون في الزنا
 ٢٩٣ ما تكلم أحد في صفه إلا
 ١٤٥٣ ما جلس قوم مجلساً لم يذكروا الله فيه
 ١٨٠ ما حق امرئ مسلم له شيء يوصي فيه
 ١٦١٥ ، ٨٠٠ ما حملك على ذلك
 ١٨٩ ما حملك على ما صنعت
 ٣٦٩ ما خالطت الصدقة مالا
 ٢٥٨ ما خلفت وراءك لأهلك يا عمر
 ٢٠٠٩ ما خلأت القصواء
 ٧٩٠ ما الدنيا في الآخرة إلا كما يجعل أحدكم
 ٧٥٥ ما رأيي إبليس يوماً هو فيه أصفر
 ٤٠٢ ما زال جبريل يوصيني بالجار
 ١٠٠ ما زالت أكلة خبير تعاودني
 ٢٤٧ ما السموات السبع في الكرسي
 ٨٣٠ ما ضرب ابن عفان ما عمل بعد اليوم
 ١٦٢٨ ما ضل قوم بعد هدى كانوا عليه
 ١٨٣٢ ما على أحدكم إن وجد سعة
 ١٦٦٤ ما عندكم يا ثمامة
 ما فتح على عاد من الريح إلا مثل موضع
 ١٦٥٤ الخاتم
 ٨٢٦ ما فعل كعب بن مالك
- ١٧٢٩ ليدخل الجنة بشفاعه رجل ليس نبي مثل الحسين
 ١١٦ ليس بالكذاب من ينم خيراً
 ١٣٧١ ليس ذاك الكبير إنما الكبير
 ٣٢٦ ليس الشديد بالصرعة
 ١٠٣٤ ليس على أهل لا إله إلا الله وحشة
 ١٠٢٠ ليس من عمل يوم إلا وهو يختم عليه
 ١٧٨ ليس الفجر المستطيل في الأفق
 ٤٤٩ ليس الكذاب الذي يصلح بين الناس
 ليس لنا مثل السوء العائد في هبته
 كالكلب
 ١٣٩٧ ، ٧٠٩ ليس المسكين بالطواف الذي ترده ٦٠ ، ١٦٦ ،
 ١٧١٥ ، ٧٩٧
 ليس المسكين الذي ترده التمرة والتمران ٢٥٩
 ليس من البر الصيام في السفر ١٧٤
 ليس من فرس عربي إلا يؤذن له ٢٨٢
 ليس من ليلة إلا البحر يشرف فيها
 ثلاث مرات ١٧٢٢
 ليس منا من ضرب الحدود ١٧٩٦
 ليتتهين رجال أو لأحرقن بيوتهم ٢٣٣
 [حرف الميم]
 ما أبالي ما أوتيت إن أنا شربت ترياقا ١٥١٤
 ما أبقيت لأهلك ١٨٠٧
 ما أجلسكما ههنا ٢٠٠١
 ما أحب أنني حكيت لإنساناً ١٦٩٨
 ما أحسن محسن من مسلم أو كافر إلا أثابه الله ١٥٨٢
 ما إخاله سرق ٥٢٦
 ما استفاد المرء بعد تقوى الله خيراً ٤٧
 ما شأنكم ٤٧١
 ما اصطفى الله للملائكة ٦٨
 ما أصبر من استغفر ١٣٧
 ما أطعمته إذا كان جائعاً ١٧٢
 ما أطيبك وأطيب ريحك ١٦٩٧
 ما أعماركم في أعمار من مضى ١٧٤١
 ما انتقم رسول الله لنفسه قط ١٦١٤
 ما أنزل الله علي فيهما شيئاً ٧٥٨
 ما أنزل الله في التوراة ولا في الإنجيل ٢٢
 ما أنعم الله على عبده نعمة ٣٣
 ما أنهر الدم وذكر اسم الله عليه فكلوه ٤٩٠ ، ٤٩٢

- ١٨٦ ما من مسلم يدعو الله بدعوة
٨٤٧ ما من نبي من الأنبياء إلا وقد أوتي
٨٤٣ ما من يوم طلعت فيه الشمس إلا
١٠٣٠ ما من يوم يصبح العباد فيه إلا وملكان ينزلان
٧٣٧ ما منعك أن تأتيني
١٥٦٩ ، ١٥٤٣ ما منكم من أحد يتوضأ فيلغ أو فيسغ
٥٠٤ ما منكم من أحد يقرب وضوءه ثم يتمضمض
١٦٠٢ ، ١٣٠٥ ما المسؤول عنها بأعلم من السائل
٨٧٥ ما هذا الصوم
٨٢٠ ما هذا الطهور الذي أثنى الله عليكم
٨٥٩ ، ٨٠ ما هذا اليوم الذي تصومون
٧١٧ ما هذا يا جبريل
١٠١٣ ما هذان النهران يا جبريل
٦٦٢ ما هذه الروح الخبيثة
١٧١٠ ما هذه ؟ هذه الجمعة
١٠٣٠ ، ٤٦٤ ما نقص مال من صدقة
٦٥١ ما هلك قوم حتى يعذروا من أنفسهم
٧٨٦ ما يسرني أن عندي مثل أحد
٥٤ ما ينبغي للمؤمن أن يذل نفسه
٨٠٦ ، ٥٩ ما ينقم ابن جميل إلا أن كان فقيراً ..
١٨٣ مالي أراك قد جهدت جهداً شديداً
١٦٥٩ مالي أراكم سكوتاً
١٦٠ مالي فيه مثل ما لأحدكم
٦٣ ما من قوم يكون بين أظهرهم من يعمل
المتضرع
٨٢٤ مثل البخيل والمنفق كمثل رجلين عليهما
١٠٢٩ مثل الذي يفر من الموت مثل الثعلب
١٨٣١ ، ١٧٠٧
٩٠ مثل الذي يلعب بالنرد ثم يقوم
٦٧٢ مثل ما بعثني الله به من العلم
٨٠٢ ، ٩٨ مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم
١٦٩٦ ، ١٦٨٩
مثل المسلمين واليهود والنصارى كمثل
١٧٨٨ رجل استعمل قوماً
٣٥ مثل الملوك على الأسرة
٤٦٢ مثل المنافق كمثل ثاغية بين غنمين
١٤٣٧ مثلي في النبيين كمثل رجل بنى داراً
١٧٣٩ مثلي ومثل الساعة كهاتين
٨٣ محمد وأمه هم الشاهدون
- ٢١٠ ما فوق الإزار والتعفف عن ذلك أفضل
١٧٦٥ ما في الجنة شجرة إلا ساقها من ذهب
ما في السماوات السبع موضع قدم
ولا شبر ولا كف إلا فيه ملك
١٩٠٤ ما كان رسول الله ﷺ يقرأ في العيد
١٧٠٣ ما كان من حلف في الجاهلية فتمسكوا به
٣٩٧ ما الكرسي في العرش إلا كحلقة
٢٤٧ ما كلم الله أحداً إلا من وراء حجاب
١٦١٨ ما المسؤول عنها بأعلم علم من
السائل
١٩٢٧ ، ١٨٩٠
ما معك يا فلان
٤٣ ما ملأ ابن آدم وعاء شراً من بطنه
٦٦٠ ما من أحد يمر بقبر أخيه المسلم
١٣٩٠ ما من أحد إلا وله منزل في الجنة
١٦٣٠ ما من إمام يموت وهو غاش لرعيته
١٥٧٩ ما من امرئ مسلم يغزل أمراً
١٦٩٩ ما من امرئ مسلم يرد عن عرض أخيه
١٣٨٩ ما من امرئ مسلم يركب دابة فيصنع
١٧٢٠ ما من أيام العمل الصالح أحب إلى الله
فيه من هذه الأيام
١٩٦٠ ما من ثلاثة في قرية
١٧٩٨ ما من خارج يخرج إلا بياحه رايتان
١٩١١ ما من ذنب أخرى أن يعجل الله عقوبته
١٦٦٩ ، ٨٤٢ ما من ذنب أعظم عند الله من سوء الخلق
١٣٩٩ ما من رجل لا يؤدي زكاة ماله
٧٨٥ ما من رجل يذنب ذنباً فيتوضأ
١٣٥ ما من صدقة أحب إلى الله من قول معروف
٢٥٣ ما من عبد إلا وله في السماء بابان
١٦٣٦ ما من عبد تصيبه مصيبة
١٥٦ ما من عبد يريد أن يرتفع في الدنيا
١٠٢٥ ما من مسلم يذنب ذنباً فيتوضأ
٤٤٨ ، ٨٨٨ ما من مسلم يشاك شوكه فما فوقها
٦٣ ما من مؤمن إلا وأنا أولى الناس به
١٤١٦ ما من مولود يولد إلا على الفطرة
١٣٨٥ ما من مولود يولد ألا معه الشيطان
٢٨٩ ما من نبي إلى وقد أوتي من الآيات
١١٤٧ ، ١٤٢١ ما من نبي يمرض إلا خير
٤٢٤ ما من نفس تموت لها عند الله
١٦٩

٢٥٢ من أرسل بنفقة في سبيل الله .
 ٢١٣ من استبج في أهله يمين فهو أعظم إثماً
 ٦٥٧ من استجد ثوباً فليس به
 ٢٥٩ من استعف أعفه الله
 ٧٢١ من استمع إلى آية من كتاب الله
 ١٣٤٩ من أسلم من أهل الكتائب فله أجره مرتين
 ٢٦٦ من أسلف فليسلف في كيل موزون
 ١٧٢ من أصاب منه من حاجة
 ١٠٢٥ من أصابته فاقة فأنزلها بالناس
 من أصبح منكم معافى في جسده آمناً
 في سره
 ٥١٢ من أصيب بقتل أو خبل
 ١٧٩ من أطاعني فقد أطاع الله ...
 ٤٢٨ ، ٤٢١ من أعان باطلاً ليدحض به حقاً
 ١٥٧٢ من أعان على قتل المسلم ولو بشطر كلمة
 ٤٣٥ من أعان مجاهداً في سبيل الله
 ٢٦٥ من أعتق رقبة مسلمة فهي فداؤه
 ١٩٦٧ ، ١٠٢٦ من أعطي فشكر ومنع فصبر
 ٨٣ من اغتسل يوم الجمعة غسل الجنابة
 ١٨٣٢ من اغتسل يوم الجمعة ومس الطيب
 ١٨٣٢ من أغلق بابه فهو آمن
 ١٩٠ من أفضل أيامكم يوم الجمعة
 ١٤٥٤ من أكبر الكبائر أن يلعن الرجل والديه
 ٣٩٤ من أنا ... أنا محمد بن عبد الله
 ١٢٤ من انتسب إلى تسعة آباء كفار
 ٤٦٠ من أنظر معسراً فله بكل مثله صدقة
 ٢٦٥ ، ١٣٥ من أنعم الله عليه نعمة
 ١٥٢ من أنفق زوجين من ماله في سبيل الله
 ١٥٦٩ من أنفق نفقة فاضلة في سبيل الله
 ٢٥٢ من بلغ ذا سلطان حاجة
 ١٦٦٥ من بني مسجداً يتغي به وجه الله
 ١٢٥٤ من تعار من الليل فقال : لا إله إلا الله
 ١٧٢٧ من تكلم يوم الجمعة والإمام يخطب
 ١٨٣٠ من تواضع لله رفعه الله
 ١٠٣٠ من تواضع على طهر كتب الله له به عشر
 ٥٠٠ من تواضع فليستشقى
 ٥٠١ من تواضع نحو وضوئي هذا
 ٥٠٢ من جاءكم وأمركم جميع يريد أن يفرق بينكم
 ٦٨

المرء مع من أحب ٤٢٤ ، ٧٦٦
 مر ملأ من قریش على رسول الله
 ٥٠ المستبان ما قال : فعلى البادئ منهما
 ٤٦٣ المسجد الحرام .. بيت المقدس
 ١٣٢ المسلم أخو المسلم لا يظلمه
 ١٠٣٦ ، ١٦٩٧ المسلم يكفيه اسمه
 ١٢٠ المسلمون تتكافأ دماؤهم
 ٥٣٠ المسلمون شركاء في ثلاثة : الماء
 ١٧٧١ مسروون بالذهب والفضة
 ١٤٩٣ مع كل إنسان ملك إذا نام
 ٦٠ معاذ الله أن نعيد غير الله
 ٣٠٤ معلمين ، وكان سيما الملائكة يوم بدر
 ٣٢٤ مفاتيح الغيب خمس
 ٥٥ المقسطون على منابر من نور
 ١٨١٧ المقسطون عند الله على منابر من نور
 ١٦٩٥ ، ١٧٤٧ مكتوب بين عينيه كافر
 ١٣٧١ ملعون من سب والديه
 ١٠٨ من آمن بالله ورسوله وأقام الصلاة
 ٤٢٩ ، ٨٠٣ من أبطأ به عمله لم يسرع به نسبه
 ١٣٣ من أتى حائضاً أو امرأة في دبرها
 ٢١٢ من أتى عرافاً أو كاهناً فقد كفر
 ١٠٢ من أحب أن يزحزح عن النار ويدخل
 الجنة ١٨٥ ، ٣١٣
 من أحب أن يكون أقوى الناس فليتوكل
 على الله
 ١٥٦٠ من أحب بشيء من جسده فركه
 ٤٥ من أحب ديناه ضر بأخرته
 ١٩٥٦ من أحب لقاء الله أحب الله لقاءه
 ١٧٧٤ من احتكر على المسلمين طعامهم
 ضربه الله بالإفلاس
 ٢٦٣ من أحسن الصلاة حيث يراه الناس
 ٤٦١ من أحسن في الإسلام لم يؤاخذ بما عمل
 ٧٤٦ من أذنب ذنباً في الدنيا فعوقب
 ٥٢٢ من أراد أن تستجاب دعوته
 ٢٦٥ من أراد أن ينام على فراشه فنام على يمينه
 ثم قرأ
 ٢٠٢٣ من أراد أن ينظر إلى رجل من أهل الجنة
 فليُنظر
 ١٥٣

- من صنع كذا وكذا ٧٢٣
 من ضم يتيماً من أبوين مسلمين ١٠٢٦
 من ظلم قيد شبر من الأرض طوقه ١٨٤٩
 من عادى لي ولياً فقد بارزني بالحرب ٩٧
 من عبد الله لا يشرك به شيئاً ٢٩٣
 من غسل واغتسل يوم الجمعة ١٨٣٢
 من عقد عقدة ونفث فيها ١٠٢
 من عمل عملاً ليس عليه أمرنا فهو رد ٢٨٨ ، ١١١
 من فاتته صلاة العصر فكأنما ٢٣٤
 من فارق الدنيا على الإخلاص لله ٧٧٢
 من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا ١٩٠ ، ٧٤٦ ،
 من قال اللهم فاطر السماوات والأرض ١٥٦١
 من قال حين يسمع النداء : اللهم رب
 هذه الدعوة ١٠٤٣
 من قال حين يصبح : أعوذ بالله السميع ١٨١٣
 من قال : سبحان الله العظيم ١٧٧٤
 من قال علي مالم أقل فليتبوأ مقعده ٩
 من قال في القرآن برأيه ١٧
 من قال فيمن سمع النداء اللهم رب هذه الدعوة ٥٢٣
 من قال : لا إله إلا الله واحداً أحداً ٢٠٢٣
 من قام ليلة القدر إيماناً واحتساباً ١٩٨٦
 من قتل عبده قتلناه ١٧٨
 من قتل نفسه بحديدة فحديده في يده ٣٩٢
 من قرأ آية الكرسي وأول حم المؤمن ١٥٧١
 من قرأ ألف آية في سبيل الله ٤٢٤
 من قرأ بالآيتين من آخر سورة البقرة ٢٧٢
 من قرأ بمائة آية في ليلة كتب له قنوت ليلة ١٥٥٤
 من قرأ حم الدخان في ليلة ١٦٣٣
 من قرأ ﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ﴾ حتى
 يختمها ٢٠٢٣
 من قرأ منكم بالتين والزيتون ١٩١٠
 من كل الليل قد أوتر رسول الله ٢٨٣
 من قرأ يس في ليلة أصبح مغفوراً له ١٤٩٩
 من قعدت منكن في بيتها ١٤٢٨
 من القوم ٧٣٤
 من كان عنده من هذه الخمر شيء ٩
 من كان له إمام فقرأه الإمام له قراءة ٢٤ ، ٤١ ، ٧٢١
 من جامع المشرك ٧٦٦ ، ٤٤٠
 من جر ثوبه خيلاء لم ينظر الله إليه ١٣٩٩
 من جلس في مجلس فكثر فيه لغطه ١٧٢٧
 من جمع بين صلاتين من غير عذر ٣٩٤
 من حدثك أن محمداً كتم شيئاً ٦٧
 من حلف بالأمانة فليس منا ١٤٦٣
 من حلف على يمين كاذبة ٣٠٣
 من حمى مؤمناً من منافق يفتابه ١٦٩٩
 من خاف أدلج ومن أدلج بلغ ١٧٥٥
 من خرج من بيته مجاهد في سبيل الله ٤٤١
 من خلع يداً من طاعة لقي الله يوم القيامة ٤٢٠
 من دعى على من ظلمه فقد انتصر ١٦١٦
 من دعي إلى هدى كان له من الأجر ٩٨٦ ، ٤٨٨
 من ذبح قبل أن يصلي فليذبح ١٢٠
 من رأى منكم منكراً فليغيره ٧٩ ، ٣١٥
 من رأى من أميره شيء فكرهه فليصبر ٤٢٠
 من رأيتموه يعمل عمل قوم لوط ٣٧٦
 من رجل يؤويني ؟ ١٨٢٧
 من رمى بسهم فله أجره ٤٣٩
 من رجل يؤويني حتى أبلغ كلام ربي ٢٩٤
 من سأل وله قيمة أوقية فهو ملحف ٢٦٠
 من سأل وله ما يغنيه جاءت مسألته ٢٦٠
 من سئل عن علم فكتمه ١٨ ، ١٥٩ ، ١٨٧
 من ستر عورة مؤمن فكأنما ١٦٩٧
 من سره أن يظله الله يوم لا ظل إلا ظله ٢٦٤
 من سره أن ينظر إلى يوم القيامة ١٩٣٢
 من سلك طريقاً يطلب فيه علماً ١٤٨٣
 من سمع سمع الله به ومن راى راى الله به ٤٦١
 من سمع الناس بعلمه سمع الله به ٢٠١١
 من سن في الإسلام سنة حسنة ١٥٠١
 من سيدكم ٧٩٤
 من شهد أن لا إله إلا الله ٤٧٩
 من شهد أن لا إله إلا الله وخلع الأنداد ١٩٥٥
 من شهد الجنائزة حتى تصلي عليها ٨١١
 من صام ثلاث أيام من كل شهر ١٦٠
 من صلى صلاة لم يقرأ فيها بأم القرآن ٢٣
 من صلى صلاتنا ونسك نسكنا ٢٠١٤

- ١٦٩٤ منعت الزكاة وأردت قتل رسولي
 ١٩٣٤ منهومان لا يشبعان
 ٤٢٨ مهلاً يا قوم بهذا أهلكت الأمم
 ١٧٧ المؤمن إذا عمل حسنة سرته
 ٤٨٨ المؤمن الذي يخالط الناس ويصبر على أذاهم
 ١٧٧٨ المؤمن القوي خير وأحب إلى الله
 ١٦٨٩ المؤمن للمؤمن كالبنيان ٨٠٢ ،
 ١٧٠١ المؤمنون في الدنيا على ثلاثة أجزء
 ٦٨١ موت الفجأة رحمة للمؤمنين
 ١٧٨٤ موضع سوط في سبيل الله
 ١٨٥ موضع سوط من الجنة خير

[حرف النون]

- ١٩٩٨ نار بني آدم التي توقدون جزء
 نار بني آدم التي يوقدون جزء من
 سبعين ٨٠٨ ، ١٧٧٠
 ٧٧٨ ناولني كفاً من تراب
 ٤٠٧ ناوليني الخمرة من المسجد
 ٢٥١ نحن أحق بالشك من إبراهيم
 نحن الآخرون السابقون يوم القيامة ٢٠٢ ، ٢١٣ ،
 ١٧٦٠ ، ٣١٨
 ١٩٥ نحن أعلم بهذه الآية منكم
 نحن معاشر الأنبياء أولاد علات ١٣٣ ، ١٥٩ ،
 ٨٥٤ ، ١٦٢
 ١٣١٥ نحن معاشر الأنبياء لا نورث
 ٨٤٥ نحن يوم القيامة على كرم فوق الناس
 ٢٧٨ نزل القرآن على سبعة أحرف
 ٧٣٢ نزل النبي ﷺ حين سار إلى بدر
 ١٧٤٦ نزلت في أناس من أمتي يكونون في آخر الزمان
 ٧٦٠ نزلت في المتحابين في الله
 نزلت هذه الآية في أهل قباء ﴿ فِيهِ رِجَالٌ
 يُخَيَّرُونَ ﴾ ٨٢٠
 ١٧٦٦ نساء عجائز كن في الدنيا عمشاً رمصاً
 ١٦٩ نسمة المؤمن طائر يعلق في شجر الجنة
 ٧٧٩ نصرت بالعرب وأوتيت جوامع الكلم
 ١٧١٧ ، ١٤١٨ نصرنا بالصبا وأهلكنا عاد بالدبور
 ١٧٥٦ نظرت إلى الجنة فإذا الرمانة
 ١٤٩٠ نعم صبيحاً لا ينفض أحمر وأصفر
 ١٨١٧ نعم صلي أمك

- ١٨٦ من كان معه هدي فليله بحج وعمره
 ١٨٩ من كان منكم أهدى فإنه لا يحل شيء حرم
 ١٤٤ من كان يعبد محمداً فإن محمداً قد مات
 من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يجلس
 على مائدة ٤٦١
 من كانت له امرأتان فمال إلى أحدهما
 ٤٥٧ من كتم علماً يعلمه ألجم يوم القيامة
 ٢٦٨ من كثرت صلاته بالليل ١٦٨٩
 من كذب علي متعمداً فليتبوأ مقعده
 ١٠٢ من كسر أو وجع أو عرج فقد حل
 ١٨٧ من كف غضبه كف الله عنه عذابه
 ١٣٣ من ليس الحرير في الدنيا
 ١٤٩٣ من لزم الاستغفار جعل الله له من كل هم فرجاً
 ٨٧٨ من لعب بالنرد فقد عصى الله ٩٠ ، ٤٨٩
 من لم تنهه صلاته عن الفحشاء والمنكر
 ١٣٦٨ من لم يحمد الله على ما عمل من عمل صالح
 ٦٧٠ من لم يدع الله غضب عليه
 ١٥٨٦ من لم يسأل الله بغضب عليه
 ٣١ من لم يقبل رخصة الله كان عليه من الإثم
 ١٨٥ من لم يوتر فليس منا ١٨٩٨
 من مات لا يشرك بالله شيئاً دخل الجنة
 ١٥١ من محمد رسول الله إلى بني زهير
 ٧٤٩ من ملك ذا رحم محرم عتق عليه
 ٢٢٧ من نذر أن يطيع الله فليطعه
 ١٩١٢ من نزل به حاجة فأنزلها بالناس
 ١٨٤٦ من نوقش الحساب عذب
 ١٩٤٤ من هم بحسنة فلم يعملها
 ١٦٠ من هم بسيئة فلم يعملها ١٠٨
 من وجدتم في متاعه غلولا فأحرقوه
 ١٦٠ من وجدتموه يعمل عمل قوم لوط ٦٧٩ ، ٨١٨
 من ولد له ثلاثة أولاد في الإسلام
 ١٩٦٧ من ولي لنا عملاً وليس له منزل
 ١٦٠ من يتصدق بصدقة أشهد له بها يوم القيامة
 ٨٠٨ من يدخل الجنة ينعم لا يبأس
 ١٤٠٨ من يرد الله به خيراً يفقهه في الدين
 ٤١٥ من يطع الله ورسوله فقد رشد
 ٤٢٨ من يعمل سوءاً في الدنيا يجز به
 ٤٥٣ من يقوم فينظر لنا ما فعل القوم
 ١٤١٩

٨٢٥	هل تسمعون ما أسمع
٧٣	هل تعلمون أن إسرائيل يعقوب
٤٩٥	هل عندك غنى يغنيك ؟
١٤٤٢	هل عندك من شيء تصدقها
٧٢٠	هل قرأ أحد منكم معي أنفأ
٥٣٧	هل لك إلى بيعة ولك الجنة
٨٥٠	هل لك مال ؟
٧٩٤	هل لك يا جد العام في جلاذ بني الأصفر
١٤٢	هلم إلي ثوباً
٤٠٣	هم لإخوانكم خولكم
١٧٢٣	هما في النار
٧٤٣	هو أبو جهل ابن هشام
٣١٤	هو جبل الله المتين
٤٨٩ ، ١٦٢	هو الطهور ماؤه الحل ميتته
٨٢١	هو مسجدي هذا
١٠٤٦	هو المقام الذي أشفع لأمتي
١٠١٧	هي رؤيا عين أريها رسول الله
٨٥٢	هي الرؤيا الصالحة يراها الرجل
١٠٤٦	هي الشفاعة

[حرف الواو]

٧٤٩	وأمركم بأربع وأنهاكم عن أربع
٤٠٠	واتقوا الله في النساء
٣٨٠	واستوصوا بالنساء خيراً
١٧٤٦	واعلم أن الأمة لو اجتمعوا على أن ينفعوك
٦٦٥	واعلموا أن أحدكم لن يدخله عمله الجنة
١٣٥	واقفت ربي في ثلاث
٨١٤	وأملك إن كان الله نزع منكم الرحمة ؟
٥١١	وإن ربي أمرني أن أعلمكم
١٧٥٣	وإن رغم أنف أبي الدرداء
١٥٠١	وأنا أقول ذلك
٨٦٥	وإنك لن تنفق نفقة
١٧٠٩	والذي نفسي بيده إن شرابه أبيض
٧٣٨ ، ٣١٥	والذي نفسي بيده لتأمرن بالمعروف
٨٠١	والذي نفسي بيده لتبين سنن الذين قبلكم
٨٠١	والذي نفسي بيده لتبينهم
	والذي نفسي بيده لوتابعتم حتى لم يبق
١٨٣٣	منكم أحد
٤٦٩	والذي نفسي بيده ليوشكن أن ينزل فيكم

١٥٨٢	نعم عذاب القبر حق
١٤٢٠	نعم قولوا اللهم استر عورتنا
	نعم كيف قلت ؟ لمن قال أرايت إن قتلت
١٩٥	في سبيل الله
	نعم ليكررن عليكم حتى يؤدي إلى كل ذي
١٥٥٨	حق حقه
٤٠٥	نعم هو في ضحضاح من نار
١٧٦٦	نعم وعامة عشيرتك
١٧٧٩ ، ٢٣٩	نعم يا أبا الدحداح
٢٠٢٣	نعم يا جبريل بم نال هذه المنزلة
١٥١٦	نعم يمتك الله تعالى ثم يبعثك
٢٠٠٢	نعمتان مغبون فيهما كثير من الناس
١٧٧٢	نهى أن يسافر بالقرآن إلى أرض العدو
١٩٥٢	نهى أن يطرق الرجل أهله
٩٨٠	نهى رسول الله ﷺ عن أكل لحوم الخيل
١٣٢٥	نهى رسول الله عن كسر سكة المسلمين
١٧٦٤	نهر أعطانيه ربي ﷻ في الجنة
١٠٨	نهيئنا أن نسأل رسول الله ﷺ عن شيء
١٧٣١	نور أنى أراه

[حرف الهاء]

٣٥٣	هذا أمر قد توجه
٧١٣	هذا جبريل أتاكم يعلمكم دينكم
١٣٨ ، ٩٢	هذا جبل يحينا ونحيه
٦٣٥	هذا سبيل الله مستقيماً
٦٧٧	هذا قبر أبي رغال
١٦٨٨	هذا ما قاضى عليه محمد بن عبد الله
٢٠٠٢	هذا من النعيم الذي تسألون عنه
٥٠٣	هذا وضوء لا يقبل الله الصلاة إلا به
١٦٧٢	هذا وقومه ، ولو كان الدين
٧٦٩	هذا يوم الحج الأكبر
٣٧٩	هذه بتلك
١٧٦٠	هذه للجنة ولا أبالي
٧١١	هذه لكم قد أعطى القوم بين أيديكم
٥٠١	هكذا أمرني ربي
٦٧٥	هل بينكم وبين تميم شيء
١٧٧٥	هل تدرون ما هذا ؟
١٧٢١	هل تدرون ما البيت المعمور ؟
١٧٢٢ ، ٨٤٢	هل تدرون ماذا قال ربكم

الأول كفل ١٣٦١
وما يدريك أن الله تعالى أكرمه ١٦٤٨ ، ١٧٩
ومن أحب قومًا فهو منهم ٧٦٦
ومن كان بينه وبين قوم عهد فلا يحلن عقده ٧٥٧
ومن يسر على معسر يسر الله عليه ١٧٩٤
والنجوم أمانة للسماء ١٦٢٤
ونزل فيهم قرآنًا قرآنه ٣٤٦
ولا تزكوا أنفسكم إن الله أعلم بأهل البر ١٧٣٦
ولا تغش أزواجكن ١٨٢٠
ولا يتكلم يومئذ إلا الرسل ٨٨٥
ولا يحل لي من غنائمكم مثل هذه ٧٤٨
ويحك قطعت عنق صاحبك ٤١٥
ويحك يا بلال ٣٥٧
ويل للأعقاب وبطون الأقدام من النار ٥٠٣
ويل للعراقب من النار ٥٠٣
ويل واد في جهنم ٩٥
ويلك قطعت عنق صاحبك ١٧٣٧

[حرف اللام ألف]

لا ٣٦٩
لا أحد أغير من الله ٦٦١ ، ٦٣٥
لا أحصي ثناء عليك ٦١٠
لا أخاف على أمتي : إلا ثلاث خلال ٢٧٧
لا إذن تتركون جميعًا ١٦٦٩
لا أسألكم على ما آتيتكم من البيئات ١٦١٠
لا أشك ولا أسأل ٨٦٠
لا أقول إلا حقًا ١٠٧١
لا ألفين أحدكم يجيء يوم القيامة ٣٤١
لا ألفين أحدكم يضع إحدى رجله ٤٣
لا إله إلا أنت سبحانك أستغفرك ٢٧٩
لا إله إلا الله ١٦٨٢ ، ٤١٩
لا إله إلا الله وحده صدق وعده ونصر عبده ١٤٢٤
لا إنما هي أربعة أشهر وعشرا ٢٢٩
لا إلا نكاح رغبة لا نكاح دلسة ٢٢٣
لا إنه لم يقل يومًا من الدهر ٤٠٤ ، ٣٠٧
لا بأس إذا كان في صمام واحد ٢١١
لا بد لي أن أذهب بها أنا ٧٦٨
لا ، بل للأبد ٣١١
لا تبدأوا اليهود والنصارى بالسلام ٧٨١

والذي نفسي بيده ما أسر أحد سريرة ٦٥٥
والذي نفسي بيده ما بقي من الدنيا فيما مضى ١٧٤١
والذي نفسي بيده ما من عبد يصلى ٣٩٣
والذي نفسي بيده ما يصيب المؤمن من نصب ١٦١٣
والذي نفسي بيده لا تدخلوا الجنة حتى تؤمنوا ٤٣١
والذي نفسي بيده لا يدخل قلب الرجل الإيمان ١٦١١
والذي نفسي بيده لا يسألوني اليوم شيئًا ١٦٧٤
والذي نفسي بيده لا يسمع بي رجل ١٧ ، ٨ ، ٢٨٥ ، ٨٦٩ ، ٨٦٧ ، ٧٠٠ ، ٢٨٥
والذي نفسي بيده لا يصيب المؤمن هم ٨٦٨ ، ٤٢٧
والذي نفسي بيده لا يقضي الله للمؤمن قضاء ٨٦٨
والذي نفسي بيده لا يؤمن أحدكم
حتى أكون ١٤١٦ ، ٧٤١
والله إنك لخير أرض الله ١٦٠٥ ، ٣١١
والله في عون العبد ١٦٩٦
والله لا أجد ما أحملكم عليه ٨١٣
والله ما الحياة الدنيا في الآخرة إلا كما
يفمس أحدكم أصبعه في اليم ١٣٥١
والله ما الدنيا في الآخرة إلا كما يفمس ٣٥٠
وتجعلون رزقكم يقول : شكركم ١٧٧٢
وتكفل الله لمن خرج في سبيله ٨٢٢
وجهت وجهي للذي فطر السموات ٦٤٣
وحدثوا عن بني إسرائيل ولا حرج ١٧٠٤
وذاك ؟ ١٧١١
ورجل ذكر الله تعالى خاليًا ففاضت عيناه ١٧١٠
وستفترق هذه الأمة على ثلاث وسبعين فرقة ٥٩٤
وضع رسول الله ذفتي على منكبيه ٦٤٢
وكل ربًا في الجاهلية موضوع ٢٦١
ولم ؟ لمن قال : إنه لا يصلح لك ٧٢٩
الولد عبد لك والصدوق ٣٨٠
ولد لي الليلة ولد سميت به باسم أبي إبراهيم ٢٨٩
ولدت من نكاح لا من سفاح ٣٨٠
ولو أن تلقى أخاك ووجهك إليه منبسط ١٣٩٧
ولي عقدة النكاح الزوج ٢٣٢
وماذا أردت أن تعطية ١٨٢٣
وما ذاك ؟ ١٧٨٤
وما تصدق أحد بعدل تمرة من كسب طيب ١٣٨٨
وما قتلت نفس ظلمًا إلا كان على ابن آدم

١٦٩٧	لا تقاطعوا ولا تدابروا	١٦٣	لا تبرح مكانك
٥٢٦	لا تقطع يد السارق في دون المجن	١٤٥٥	لا تتخذوا قبوري عيداً
١٧٦٠	لا تقولين زرعت	٣٣٠	لا تتمنوا لقاء العدو
١١٨	لا تقولوا للغب الكرم	١٦٩٧	لا تجسسوا ولا تمسسوا ولا تباغضوا
٤٧٢ ، ٦٣٩	لا تقوم الساعة حتى تروا عشر آيات	٤٣ ، ١٤٥٥	لا تجعلوا بيوتكم قبوراً
٦٣٩	لا تقوم الساعة حتى تطلع الشمس من مغربها	٣٨١	لا تحرم الإملاجة ولا الإملاجاتان
١٦٧٩	لا تقوم الساعة حتى تقاتلوا قوماً صغار الأعين	٣٨١	لا تحرم المصة ولا المصتان
٩٣	لا تكثروا الكلام بغير ذكر الله	١٣٠٤ ، ٩٧	لا تحقرن من المعروف شيئاً
٢٠٤	لا تكهرن أحداً على السير معك من أصحابك	٧٩٩	لا تحل الصدقة إلا خمسة
١٥٩	لا تلعن فإنه يحب الله ورسوله	٧٩٩ ، ٧٩٧	لا تحل الصدقة لغني
١٤٠٢ ، ١٢٥٦	لا تمنعوا إماء الله مساجد الله	٧٦٢	لا تخيروني على موسى
٩٠	لا تمتع المرأة لزوجها	١٠٢١ ، ٨٣٨	لا تدعوا على أنفسكم
٢٠٩	لا تنكحوا النساء الحسنهن	١٧٢٧	لا تدعوها وإن طردتكم الخيل
٦٤٠	لا تنقطع الهجرة ما دام العدو يقاتل	١٨٠٩	لا تذهب هذه الأمة حتى يلعن أولها آخرها
١٧٩	لا تواصلوا	٨٩	لا تركبوا ما ارتكبت اليهود
١٣٨٨	لا تيأسا من الرزق	٦٤	لا ترجعوا بعدي كفاراً
٣١٤	لا يجتمعان في قلب عبد في هذا الوطن	٧٨	لا تزال أمتي بخير
٣٧٥	لا حيس بعد سورة النساء	١٤٤	لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق
٢٢٣ ، ٢٢٢	لا ، حتى تذوق عسيلته ويذوق عسيلتها	١٧٦١ ، ١٦٣
٣٩٦ ، ٢٥٧	لا حسد إلا في اثنتين	١٣٧ ، ١٢٠	لا تزال طائفة من أمتي يقاتلون على الحق
٣٩٨	لا حلف في الإسلام	٢١٩	لا تسأل المرأة زوجها الطلاق
٢٢٦	لا رضاع بعد فصال ولا يتم بعد احتلام	٦٧٦	لا تسألوا الآيات فقد سألها قوم صالح
٣٥ ، ٢٣	لا صلاة لمن لم يقرأ بفاتحة الكتاب	١٧٧٨ ، ١٦٩٠	لا تسبوا أصحابي
١٣٦٩	لا صلاة لمن لم يقطع الصلاة	١٦٣٨	لا تسبوا تبعاً
١٣٤ ، ١٢٤	لا طاعة إلا في المعروف	١٦٠١	لا تسوا الليل والنهار
٣٢١	لا طاعة في معصية الله	٤٦٣	لا تسبخي عنه
٨١٨	لا عليكم أن تعجبوا	٣٢١	لا تستضيفوا بنار المشركين
٧٠	لا لو كنت أمراً بشراً أن يسجد لبشر	١٧٨٧	لا تشددوا على أنفسكم
٨٦	لا ليس ذلك من البغي	٤٩٨	لا تصحب إلا مؤمناً
١٦٧٦	لا تبرح حتى نناجز القوم	١٣٧٠	لا تصدقوا أهل الكتاب
٢٢٥	لا نكاح إلا بولي مرشد وشاهدي عدل	٤٠٠	لا تضربوا إماء الله
١٨٠٤	لا نورث ما تركناه صدقة	٤٧٨	لا تطروني كما أطرت النصارى عيسى ابن مريم
٣١١	لا هجرة ، ولكن جهاد ونية	٢٥٦	لا تطعموهم مما لا تأكلون
٢٠٣	لا هجرة بعد الفتح ولكن جهاد ونية	٦٤٢	لتعلم يهود أن في ديننا فسحة
١٦٩٤	لا والذي بعث محمدًا بالحق	٣٢٧	لا تغضب
٥٠٠	لا وضوء لمن لم يذكر اسم الله عليه	١٠٣٥	لا تفضلوا بين الأنبياء
٢٩	لا وضوء لمن لم يذكر اسم الله	٢٤٣	لا تفضلوني على الأنبياء
١٢٢ ، ١٠٨	لا ولو قلت نعم لوجبت	٥١٨	لا تقتل نفس ظلمًا إلا كان

لا يمين عليك ولا نذر في معصية الرب ٢١٤
 لا ينظر الله يوم القيامة إلى من جرأزاره ١٣٩٩
 لا ينكح الزاني المجلود إلا مثله ٤٩٩
 لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من نفسه ٧٧٦
 [حرف الياء]

يا أبا بكر ألا أقرئك آية ٤٥٣
 يا أبا بكر هل بلغك ما طوي ١٧٦٤
 يا أبا بكر قل : اللهم فاطر السماوات ١٥٦٢
 يا أبا بكر ما ظنك باثنين الله ثالثهما ؟ ٧٩١
 يا أبا الحباب ما بخلت به من ولاية يهود ٥٣٦
 يا أبا ذر ٤١٣
 يا أبا ذر إني أراك ضعيفًا ١٠٣١
 يا أبا أمامة إن من من المؤمنين من يلين ٣٣٩
 يا أبا ذر هل تدري أين تغرب الشمس ١٥٠٧ ، ١٤٠١
 يا أبا ذر هل صليت ؟ ٢٤٤ ، ٦١٣ ، ١٥٠٧
 يا أبا جهل ابن هشام ويا عتبة ٦٧٧
 يا أبا رزين ، أما مررت بوادي قومك ١٤٨٥
 يا أبا سعيد من رضي بالله ربًا ... ٤٣٠
 يا أبا عبد الرحمن ألا تصنع ما ذكر الله ٧٤٦
 يا أبا عبد الله هذه مؤمنة ٢٠٨
 يا أبا هريرة ما فعل أسيرك ٢٤٥
 يا ابن الخطاب ألا أقرئك آيات ١٠٦
 يا ابن مسعود هل علمت أن بني إسرائيل افرقوا ١٧٨٧
 يا إخوان القردة والخنازير ٩٤
 يا أسلع مالي أرى ٤١١
 يا أصحاب سورة البقرة ٤٥
 يا أيها الناس ابكوا ٨١٠
 يا أيها الناس أربعوا على أنفسكم ١٧٤
 يا أيها الناس أطعموا الطعام وصلوا الأرحام ١٧١٥
 يا أيها الناس أفضوا السلام ٨٣٩
 يا أيها الناس انصرفوا فقد عصمنا الله ٥٤٣
 يا أيها الناس إنكم تحشرون إلى الله ٦٥٨
 يا أيها الناس إني كنت أذنت لكم في الاستمتاع ٣٨٦
 يا أيها الناس أي يوم هذا ؟ ٥٤٢
 يا أيها الناس من عمل لنا ٣٤١
 يا أيها الناس لا تمنوا لقاء العدو ٧٥٣
 يا بنية هل عندك شيء آكله ٢٩٠
 يأتي على الناس زمان يأكلون فيه الربا ٢٦٢

لا والله ما مست يد رسول الله ﷺ يد
 امرأة ١٧٧١
 لا والله ما يلقي حبيبة في النار ٥١٠
 لا والله لا تذرون منه درهما ٧٦٣
 لا يبقى بجزيرة العرب دينان ١١٣ ، ١٢٦
 لا يبلغ العبد أن يكون من المتقين ٤٦
 لا يتوارث أهل ملتين ٨٦٥
 لا يتم بعد حلم ١٦٦
 لا يحرم من الرضاع إلا ما كان في الحولين ٢٢٦
 لا يحقرن أحدكم نفسه ١٤٣٧ ، ٥٣٧
 لا يحل دم امرئ مسلم إلا بإحدى ثلاث ٦٣٥
 لا يحل دم امرئ مسلم يشهد ٤٣٣ ، ٦٣٥
 لا يحل دم امرئ مسلم يشهد أن لا إله ٦٣٥
 إلا الله ١٠٢٩
 لا يحل لإمرأة تؤمن بالله ٢٢٨ ، ٢٢٩
 لا يحل لرجل أن يفرق بين اثنين ١٧٩٥
 لا يدخل الجنة عاق ٢٥٣
 لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال ١٣٩٩ ، ٧٣
 ذرة من كبر
 لا يدخل النار إن شاء الله ١٦٧٨
 لا يدخلن علينا قسبة المدينة إلا مؤمن ٩٣
 لا يذهب الليل والنهار حتى تعبد اللات والعزى ٧٨٣
 لا يرث المسلم الكافر ٧٦٥
 لا يزال البلاء بالمؤمن ٦٨١
 لا يزال الناس بخير ما عجلوا الفطر ١٧٩
 لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن ١٤٠٥
 لا يشبع الرجل دون جاره ٤٠٢
 لا يشير أحدكم إلى أخيه ١٠٣٤
 لا يصلين أحد منكم العصر إلا في بني
 قريظة ٢٣٦ ، ١٤٢٥
 لا يفرك مؤمن مؤمنة ٣٧٩
 لا يقاتلن أحد حتى تأمره ٣٢٢
 لا يقتل مسلم بكافر ١٦٧
 لا يقيم الرجل الرجل ١٧٩٥
 لا يمس القرآن إلا طاهر ١٧٨٢
 لا يمنعكم أذان بلال من سحورك ١٧٨
 لا يموتن أحد منكم إلا وهو يحسن بالله
 الظن ٣١٣ ، ١٥٩٦

يا فاطمة بنت محمد يا صفية ١٣٠٦
يا فلان أما علمت أن الله حرّمها ٥٥٤
يا فلان قل : لا إله إلا الله ٢٨٥
يا فلان مالي أراك محزونًا ٤٢٤
يا فلان ما منعك أن تصلي مع القوم ٤٠٩
يا فلان ما يمنعك أن تفعل ما يأمرك ٢٠٢٢
يا ليتة مات في غير مولده ١٥٠٢
يا محمد اثنتا بكتاب تنزله علينا ١٢٢
يا محمد إن كنت رسولاً من الله ١٣٠
يا محمد لتنتهين عن سيئك ألهتنا ٦١١
يا محمد ما نعلم أن الله أنزل على بشر من شيء بعد موسى ٤٧٥
يا معشر الأنصار ألم أجدكم ضلالًا ، ٧٦٠ ،
١٧٠٢ ، ٣١٤
يا معشر الشباب من استطاع منكم البائة ١٤٣٢ ، ١٢٤٩ ، ١٧١
يا معشر قريش أرأيتم لو أخبرتكم أن خيلًا تضيفكم ٨٦٥
يا معشر المسلمين إياكم والزنا ٥٤٧
يا معشر اليهود أسلموا ٢٨٠
يا معشر النساء تصدقن ٢٦٨
يا معشر من آمن بلسانه ولم يدخل الإيمان قلبه ١٦٩٨
يا مقلب القلوب ثبت قلوبنا ٧٣٨ ، ٢٧٨
يا ملك الموت ارفق بصاحبي ١٤٠٦
يعث الناس يوم القيامة فأكون أنا وأمتي ١٠٤٤
يعث الناس يوم القيامة والسماء تطش ١٧٥٢
يتبع الميت ثلاثة ٢٠٠٠
يتعاقبون عليكم ملائكة بالليل ١٠٤٢
يجاء بصاحبها يوم القيامة ٢٨٤
يجزيك الثلث أن تصدق به ٧٣٩
يجتمع المؤمنون يوم القيامة فيقولون : لو استشفعنا ٦٩
يجتمع المؤمنون يوم القيامة فيلهمون ١٠٤٦
يجيء المقتول يوم القيامة آخذًا رأسه ٤٣٥
يحرم من الرضاع ما يحرم من النسب ٣٨٤
يحشر المتكبرون يوم القيامة أمثال الذر ١٠١ ، ١٥٦٠
يحضر الجمعة ثلاثة نفر ٦٤١
يخرب الكعبة ذو السويقتين ١٤٣
يخرج الدجال في أمتي فيمكث أربعين ٤٧٢ ،
١٥٦٦ ، ١٣٤٤

يأتي القرآن صاحبه ٦٥٢
يا بني آدم إن كنتم تعقلون فعدوا ٦٢٥
يا بني لا ينبغي لي ولا لك ٣٤٦
يا جابر مالي أراك مهتئًا ٣٤٥
يا جبريل وما يوم المزيد ١٧١٠
يا حذيفة اذهب فادخل ١٤١٩
يا حمزة نفس تحبها أحب إليك ٥١٩
يا خالد هذا ابن عمك ١٦٨١
يا خالد لا تسب عمارًا ٤٢١
يا خويلة ابن عمك شيخ كبير ١٧٨٩
يا خويلة ما أمرنا في أمرك بشيء ٧٦٤
يا رسول الله إني إذا أكلت من هذا اللحم ٥٤٩
يا رسول الله لو قصصت علينا ٨٩٥
يا رسول الله لا نسمع الله ذكر النساء ٣٥٧
يا سعد أطلب مطعمك تكن مستجاب ١٦١
يا سلمان ما يوم الجمعة ؟ ١٨٣١
يا سلمان هم أهل النار ٨٦
يا شيبه يا شيبه ادن مني ٧٧٩
يا عائشة أبشري ١٢٤٠
يا عائشة إن الدنيا لا تنبغي لمحمد ١٦٦١
يا عائشة إن الله لا يحب الفحش ١٧٩٣
يا عائشة إياك ومحقرات الذنوب ١٧٤٧
يا عائشة ما يؤمنني أن يكون فيه عذاب ١٦٥٤
يا عائشة هذه مبايعه الله للعبد ٤٥٣
يا عبادي إني حرمت الظلم على نفسي ٨٤٨
يا عبادي لو أن أولكم وآخركم وإنسكم ١٥٢٧
يا عباس إنكم خاصمتم فخصمتم ٤٤٠
يا عبد الرحمن بن سمره لا تسأل الإمارة ٢١٣
يا عدي أسلم تسلم ٨٨٣
يا عقبة بن عامر ألا أعلمك خير ثلاث سور ٢٠٢٣
يا عقبة أخرس لسانك وليسعك بيتك ٢٠٢٣
يا عقبة ألا تركب ٢٠٢٦
يا عقبة صل من قطعك ٧١٨
يا عكراش هذا الوضوء مما غيرت النار ١٧٦٣
يا عم قل لا إله إلا الله ١٣٥٠
يا عمرو صليت بأصحابك وأنت جنب ؟ ٣٩٢
يا عويش قولني : اللهم رب النبي محمد ٧٧٣
يا غلام إني معلمك كلمات ١٩٤٦

يقول الله تعالى للملك الموت : انطلق ١٧٧٣
 يقول الله تعالى : من ذكرني في نفسه ١٤٣٩
 يقول الله تعالى : من عادى لي وليًا ١٥٨٤
 يقول الله تعالى : من يقرض غير عديم ٢٣٩
 يقول الله تعالى : يا ابن آدم تفرغ ١١٤٧
 يقول الله تعالى : يا ابن آدم إنك ما دعوتني ٦٣٤
 يقول الله تعالى : يا ابن آدم واحدة لك ١٧٦
 يقول الله تعالى : يا أهل الجنة ... ١١٤٦
 يقول الله تعالى : يا عبادي لو أن أولكم ١٢٩٧
 يقول الله تعالى : يؤذني ابن آدم ١٦٤٤
 يقول الله ﷺ : من عمل حسنة ٦٤١
 يقول الله ﷻ : يا ابن آدم حملتك على الخيل ١٩٧٦
 يقول الله لبعض العبيد يوم القيامة : ألم أزوجك ١٦٤٥
 يقول الله : وعزتي وجلالي لا يجاوزني ١١٤٢
 يقول الله : يؤذني ابن آدم ، يسب الدهر ١٤٥٧
 يكفيك آية الصيف ... ٤٨١
 يكون للمسلمين ثلاثة أمصار ٤٧٠
 يكون النسم طيرًا يلحق ١٨٧٤
 يلقي في النار وتقول : هل من مزيد ١٧٠٩
 ينزل الله تبارك وتعالى في كل ليلة ٢٨٣
 ينصب لكل غادر لواء ٩٨٥ ، ٦٢٢
 يهديكم الله ويصلح بالكم ١٦٦٣
 يهرم ابن آدم ويبقى معه اثنان ٢٠٠٠
 يؤتى بأنعم أهل الدنيا ٨٤٣
 يؤتى بحسنات العبد وسياته ٣٧٦ ، ١٤٠٩
 يؤتى بالرجل من أهل النار ٥٢٥
 يؤتى بالموت في صورة كبش أملح ١٦٣٩ ، ٨٨٦
 يؤتى يوم القيامة بالرجل السمين ٦٥٢
 يؤذيك هوام رأسك ١٨١
 يوشك أن يرفع العلم ٥٤١
 يوشك أن يكون خير مال الرجل غنم ٨٢٣
 اليوم الموعود يوم القيامة ١٩٤٧
 يوم يقوم الناس لرب العالمين حتى يغيب أحدهم ١٩٣٩

يخرج قوم من أمتي يسيئون الأعمال ١٣٦٥
 يدخل أهل الجنة جردًا ١٧٦٨ ، ١٢١ ، ١٢٠
 يدعو الله لصاحب الدين القيامة ٧٩٩
 يدعى أحدهم فيعطى كتابه يمينه ١٠٤٠
 يدعى نوح يوم القيامة فيقال له ١٥٠
 يدنو المؤمن من ربه ﷻ حتى يضع عليه عاتقه ٢٧٢
 يرفع إليه عمل الليل قبل النهار ١٧٧٦ ، ٦٧
 يرفع لكل غادر لواء ١٩٥٣
 يريدون أن يسجنوني ٧٤١
 يسرق البيضة فتقطع يده ٥٢٦
 يسمعه كل شيء إلا الثقلين ١٧٥٢
 يسير في ظل الفتن منها الراكب مائة سنة ١٧٥٤
 يطلع عليكم الآن رجل من أهل الجنة ١٨٠٧
 يعرفني الله نفسه يوم القيامة ١٧٠٩
 يعطى المؤمن في الجنة قوة كذا وكذا ١٧٦٧
 يعظم أهل النار في النار ٤١٨
 يغفر للشهيد كل شيء إلا الدين ١٦٦٤
 يقال لأهل الجنة : إن لكم أن تصحوا ١٦٤٠
 يقال لقارئ القرآن اقرأ وارتق ١٨٩٤
 يقال للرجل من أهل النار ٣٠٨
 يقبض الله الأرض ويطوي السماء يمينه ٣٥
 يقبض الله الأرض وتطوى السماء يمينه ١٥٦٦
 يقطع الصلاة الحمار والمرأة والكلب الأسود ٢٦ ، ٤٩٦
 يقول ابن آدم : مالي مالي ٢٠١ ، ٦٠٦ ، ١٧٧٧
 يقول الله : إني خلقت عبادي حنفاء ١٠٤٠
 يقول الله تعالى : ابن آدم أني تعجزني ٩٨٢
 يقول الله تعالى : إذا هم عبد بحسنة ٩٠١
 يقول الله تعالى : أعددت لعبادي ١٣٥٤
 يقول الله تعالى : أنا عند ظن عبدي ١٧٥
 يقول الله تعالى : إن كل مال منحه عبادي ١٦١
 يقول الله تعالى : أنفق أنفق عليك ١٤٧٩
 يقول الله تعالى : إني خلقت عبادي حنفاء ٦٥٩ ، ٦٨٩
 يقول الله تعالى : العظمة إزاري ١٦٤٦
 يقول الله تعالى : كذبنني عبيدي ١٣٧٤

فهرس الآثار

الصفحة

قائله

الأثر

[حرف الألف]

٣٥٧	أم سلمة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا	آخر آية نزلت هذه الآية ﴿ فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ ﴾
١٣٢	ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ	ابتلاء بالطهارة خمس في الرأس
١٣٣	سعيد بن المسيب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ	إبراهيم أول من اختن
٣٥٤	ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ	أت قريش اليهود فقالوا : بما جاءكم موسى ؟
٦٢٧	عاصم بن أبي النجود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ	أتدري ما في قوله : ﴿ وَأَنْعَمُ حَرَمَت ﴾
١٥٣	عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ	أتعرف محمداً كما تعرف ولدك
١٦٥٣	علي بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ	الأحقاف واد بحضرموت
٣٨٣	ابن عباس ، وعثمان بن عفان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا	أحلتها آية وحرمتها آية
٥٢٢	عبادة بن الصامت رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ	أخذ علينا رسول الله كما أخذ على النساء
٤٥٦	علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ	ادنه ادنه فالله يحكم بينكم
٢١٩	ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ	إذا طلق رجل امرأته تطليقتين
٣٨٢	زيد بن ثابت رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ	إذا طلق الرجل امرأته قبل أن يدخل
٢٢١	سفيان الثوري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ	إذا كان الخلع بغير لفظ الطلاق
١٣٦٧	ابن عون الأنصاري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ	إذا كنت في صلاة فأنت في معروف
٨٩	ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ	إذا لم يجد هدنياً فعليه صيام ثلاثة أيام
١٦١١	ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا	ارقبوا محمداً ﷺ في أهل بيته
١٤٧	قتادة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ	الأسباط بنو يعقوب
١٤٧	البخاري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ	الأسباط قبائل بني إسرائيل
٧٣٢	علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ	أصابنا من الليل طش من المطر
١٣٩٧	ابن جرير رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ	أصل الصعر داء يأخذ الإبل
٣٣٦	ابن إسحاق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ	أصببت رباعية رسول الله ﷺ
٧٥١	عمير بن إسحاق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ	أقبل أبو سفيان في الركب من الشام
٧٨٨	قتادة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ	اقتل رجلان جهني وأنصاري
٢١٧	علقمة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ	الأقراء الحيض
٢٣٢	ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا	أقربهما للفقوى الذي يعفو

٣٨٩	علي بن أبي طالب ؑ	أقضي فيهما بقضاء رسول الله
٣٧٣	أبو بكر الصديق ؑ	أقول فيها برأيي
٣٩٤	بريدة	أكبر الكبائر الشرك بالله
٦٨٦	ابن عباس وابن مسعود ؓ	التقى موسى وأمير السحرة
٧٨٤	عكرمة ؑ	اللهم إني أسمع آية
١٧٢٤	عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا	اللهم من علينا وقتنا عذاب السموم
٨٨٥	سليمان ؑ	أما إنه لم يكن بالزنى
١٨١١	أبو بكر ؑ	أما تعلمون أنكم تغدون وتروحون
٥٨١	ابن عباس ؑ	أما قوله : والله ربنا
٧٧٠	ابن مسعود ؑ	أمرتم بإقامة الصلاة
٧٤	سعيد بن جبير ؑ	إن آياته كتابه الذي أنزله
٦٢٦	ابن عباس ؑ	إن أعداء الله كانوا إذا أحرقوا
٦٥٩	ابن عباس ؑ	إن الله تعالى بدأ خلق ابن آدم
١٧٢٣	ابن عباس ؑ	إن الله ليرفع ذرية المؤمن في درجته
٦٦٤	السدي ؑ	إن أهل الجنة إذا سيقوا إلى الجنة
١٦٧	سعيد بن جبير ؑ	إن حين من العرب اقتتلوا
٤١٥	ابن مسعود ؑ	أن الرجل ليغدو بدينه
٧٦٠	ابن عباس ؑ	إن الرحم لتقطع
١٤٣٥	أنس بن مالك ؑ	إن زينب بنت جحش كانت تفخر
٤١٨	ابن مسعود ؑ	أن الشهادة تكفر كل ذنب إلا الأمانة
٨١٨	ابن مسعود ؑ	إن الصدقة تقع في يد الله ﷻ
٣٥٥	لقمان ؑ	إن طول الوحدة ألهم للفكرة
١٣٧١	أبو مالك الأشعري ؑ	إن في الجنة غرقاً يرى ظاهرها من باطنها
١٢٦	ابن عباس ؑ	إن قريباً منعوا النبي ﷺ الصلاة
١٢٢	البراء بن عازب ؑ	إن كان ليأتي علي السنة
١٢٣	عبد الله بن كعب ؑ	إن كعب بن الأشرف كان شاعراً وكان يهجو النبي
١٥٧١	عبد الله بن مسعود ؑ	إن لكل شيء لباباً
٤٤٦	ابن عباس ؑ	إن للصلاة وقت كوقت الحج
٧٦	ابن عباس ؑ	إن لم تخش أن تفتضح بثلاث آيات
٧٧٥	ابن عباس ؑ	إن المشركين قالوا : عمارة بيت الله

١٣٦	عائشة <small>رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا</small>	إن المقام كان زمان رسول الله وزمان أبي بكر ملتصقًا بالبيت
٧٤١	ابن عباس <small>رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ</small>	أن نفراً من قريش من أشرف كل قبيلة
٥٢٤	يزيد الفقير	أن ناشأ يخرجون من النار
١٤٩٢	عبد الله بن مسعود <small>رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ</small>	إن هذه الأمة ثلاث ثلاث أثلاث
٩٩	الربيع بن أنس <small>رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ</small>	إن اليهود سألوا محمداً <small>صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ</small> زماناً عن أمور من التوراة
٦٤٠	مجاهد	إن اليهود والنصارى اختلفوا
٥٠٤	جرير بن عبد الله البجلي <small>رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ</small>	أنا أسلمت بعد نزول المائدة
٧٣٨	مطرف <small>رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ</small>	إنا قرأنا على عهد النبي <small>صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ</small>
٢١٢	ابن عمر <small>رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ</small>	إنا كنا معشر قريش نحبي النساء
٥٨٩	سلمان <small>رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ</small>	إنا نجد في التوراة عطفتين
٤٤٣	أمية بن عبد الله <small>رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ</small>	إنا نجد في كتاب الله قصر صلاة الخوف
٥٠٦	بعض الصحايات <small>رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ</small>	أنت أفظ وأغلظ من رسول الله
٤٨٥	عبد الله بن عمرو <small>رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ</small>	أنزلت على رسول الله سورة المائدة وهو راكب
١٣٢٧	قتادة	إنما جعل الله هذه النجوم لثلاث خصال
٢٩٠	قتادة	إنما سمي يحيى لأن الله أحياه
٢١٥	عائشة <small>رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا</small>	إنما اللغو في المزاحه
٤٨٩	عائشة <small>رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا</small>	إنما نهى عن الدم السافح
١٠١١	ابن مسعود <small>رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ</small>	إنهن من العتاق الأول
٥٠٤	عثمان <small>رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ</small>	أنه خلل بين أصابعه
٢٠٦	عمر <small>رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ</small>	إنه كل ما خامر العقل
٨٧٩	قتادة <small>رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ</small>	إنه والله يا هؤلاء ما أعلم على وجه الأرض أهل بلد أخبت
٨٢٤ ، ٨٠٩	سعيد بن جبير <small>رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ</small>	إنه يتبرأ منه يوم القيامة
٤٨٥	أسماء بنت يزيد <small>رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا</small>	إني لآخذة بزمام العضباء
٢١٨	ابن عباس <small>رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ</small>	إني لأحب أن أتزين للمرأة
٤٨٣	عمر <small>رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ</small>	إني لأستحي أن أخالف فيه أبا بكر
٢٠٧	عائشة <small>رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا</small>	إني لأكره أن يكون مال اليتيم عندي
٢٦٢	عمر <small>رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ</small>	إني لعلي أنهاكم عن أشياء تصلح لكم
٢٥١	ابن عباس <small>رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ</small>	أوثقهن ، فلما أوثقهن ذبحن
٩٨٤	زيد بن أسلم <small>رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ</small>	أول جبار كان في الأرض النمرود
١٧٢٩	عبد الله <small>رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ</small>	أول سورة أنزلت فيها سجدة ﴿وَالنَّجْمِ﴾

١٢٧	ابن عباس ؓ	أول ما نسخ لنا من القرآن شأن القبلة
١٣٥	مجاهد ؓ	أول من أخرج المقام إلى موضعه عمر
٨٥٠	قتادة	ألا تنصرون أخاكم ؟
٣٧٩	عمر ؓ	ألا لا تغالوا في صداق النساء
٧٤٨	الحسن ؓ	ألا أرضى من مالي بما رضي الله
١٦٩٠	واصل الأحذب ؓ	ألا أرى رزقي في السماء وأنا أطلبه
٧٢١	طلحة بن عبيد الله ؓ	ألا تستمعان إلى الذكر
٣٨١	البراء بن عازب ؓ	أي عم ، أين بعثك النبي ؟
١٩٧	ابن عباس ؓ	أيام التشريق أربعة أيام
٢٣٠	ابن عمر ؓ	أيما امرأة نكحت في عدتها
٧٨٤	ابن عمر ؓ	أيما مال أدبت زكاته فليس بكنز
٣٣٢	ابن مسعود ؓ	أيها الناس غلوا المصاحف
٣٥٨	شداد بن أوس	أيها الناس لا تتهموا الله في قضائه

[حرف الباء]

٥٠٤	همام	بال جرير ثم توضع ومسح
٧٨٦	الأحنف ؓ	بشر الكنازين برضف يحمي عليه
٦٠٣ ، ٨٥	أبو حرب	بلغني أنك تزعم أن الحسن والحسين من ذرية
١١٤٩	ابن عباس ؓ	بنو إسرائيل والكهف ومريم
١٣٥٥	أبو سعيد ؓ	بينما رجل ممن كان قبلكم خرج في بردين
١٤٩	ابن عمر ؓ	بينما الناس بقاء في صلاة الصبح

[حرف التاء]

٣٨٤	علي بن أبي طالب ؓ	تعتق التي كنت تطأ ثم تطأ الأخرى
٥٣١ ، ٤٥	ابن عباس ؓ	تقتل النفس بالنفس
٨٨٣	مسروق	تنهى عن الواصلة

[حرف اللاء]

٢٣٧	عطاء ؓ	ثم جاء الميراث فنسخ السكنى
-----	--------	----------------------------

[حرف الجيم]

٧٥٥	ابن عباس ؓ	جاء إبليس يوم بدر في جند من الشياطين
-----	------------	--------------------------------------

٥٨٩ ، ٥٣

عكرمة ؓ

جاء عتبة بن ربيعة وشيبة بن ربيعة

١٩٢

الجدال في الحج أن تماري صاحبك حتى تفضبه ابن مسعود ؓ

[حرف الحاء]

٣٥

عمر ؓ

حاسبوا أنفسكم قبل أت تحاسبوا

٦٢٧ ، ١٣٦

ابن عباس ؓ

الحجر الحرام مما حرموا من الوسيلة

١٣٥ ، ١٢٥

سعيد بن جبير ؓ

الحجر مقام إبراهيم نبي الله

٤٨٥

جبير بن نفير ؓ

حجبت فدخلت على عائشة

٢١١

ابن عباس ؓ

الحرث موضع الولد

٣١١

ابن عباس ؓ

الحرم كله مقام إبراهيم

٣٨٤

علي بن أبي طالب ؓ

حرمتها آية وأحلتها آية

١٧٠٧

عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا

حضرت أبي وهو يموت

٢٥٧

ابن عباس ؓ

الحكمة القرآن

[حرف الحاء]

٨٧٩

السدي

خرجت الملائكة من عند إبراهيم نحو قرية لوط

٤٤٢

أنس ؓ

خرجنا مع رسول الله من المدينة إلى مكة

٤١١

عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا

خرجنا مع النبي في بعض أسفاره

٤٥٦

ابن عباس ؓ

خشيت سودة أن يطلقها رسول الله

٧٤٨

عطاء بن رباح ؓ

خمس الله ورسوله واحد

١٧٤١

ابن مسعود ؓ

خمس قد مضين الروم والدخان

[حرف الدال]

٣٨

ابن عباس ؓ

دخل أبو بكر بيت المدراس

[حرف الراء]

٢٥٧

ابن مسعود ؓ

رأس الحكمة مخافة الله

٧٣٨

عبد الرحمن بن أبي ليلى

رأيت فيما يرى النائم كأن سبيًا دلي

١٣٥

أنس بن مالك ؓ

رأيت المقام فيه أصابعه

١٥٤

مجاهد

رب إنني أجد في الألواح أمة خير أمة

٣٠٥

عمر ؓ

رضينا بالله ربًا وبالإسلام دينًا

١٩١

ابن عمر ؓ

الرفث إتيان النساء

- ركعتان مقتصدتان في تفكر ابن عباس ؓ ٣٥٤
رؤيا الأنبياء وحي ابن عباس ؓ ٨٩٤

[حرف السين]

- السائق من الملائكة والشهيد الإنسان ابن عباس ؓ ١٧٠٧
سأل أهل الكتاب عن الروح عكرمة ١٠٥٠
سئل أي الأجلين قضى موسى محمد بن كعب ؓ ١٣٤١
السجدة في ﴿ ص ﴾ ليست من عزائم السجود ابن عباس ؓ ١٥٤١
سمعت سعد بن أبي وقاص يقرأ ﴿ مَا نَسَخَ ﴾ الحسن ؓ ١٢٠
سياحة هذه الأمة الصيام عائشة رضى الله عنها ٨٢٣

[حرف الشين]

- شهد أبو أيوب مع رسول الله ﷺ بدرًا محمد ؓ ٧٩٢
شهدت اليرموك وعليها خمسة أمراء عياض الأشعري ٣٢٣

[حرف الصاد]

- صاحب اليمين يكتب الخير الأحنف ؓ ١٧٠٦
الصبر اعتراف العبد لله سعيد بن جبیر ؓ ٧٧
الصبر صبران عمر بن الخطاب ؓ ٧٧
الصفاء والبروة والهدي والبدن مجاهد ٤٨٦
الصلاة الوسطى صلاة الصبح جابر بن عبد الله رضى الله عنه ٢٣٣
صلاته تبارك وتعالى سبوح قدوس عطاء بن أبي رباح رضى الله عنه ١٤٤٩
صلى ابن مسعود فسمع ناسًا بشير بن جابر ؓ ٧٢
صنع لنا عبد الرحمن بن عوف طعامًا علي ؓ ٤٠٧

[حرف الضاد]

- ضرب مثلاً بعمل ، قال عمر : أي عمل ابن عباس ؓ ٢٥٤

[حرف الطاء]

- طلاق الأمة ست ابن عباس ؓ ٣٨٥
طلق رجل امرأته وهو يلعب ابن عباس ؓ ٢٢٤

[حرف الظاء]

- ظهر بختنصر على الشام فخرّب بيت المقدس ابن عباس ؓ ١٠١٨

[حرف العين]

٢٤٨	مجاهد	العروة الوثقى الإيمان
١٧٥٠	ابن عباس ؓ	العصف ورق الزرع الأخضر
١٣٦٦	عمرو بن العاص ؓ	عقلت عن رسول الله ألف مثل
٣٧٠	عبد الله بن عمرو ؓ	العلم ثلاثة
١٣٥٣	سعيد بن جبير ؓ	العلو البغي

[حرف الغين]

٣٤٢	عمر ؓ	الغال يجمع رحله فيحرق
٣٩	عدي بن حاتم ؓ	غير المغضوب عليهم هم اليهود

[حرف الفاء]

٧٥٥	مجاهد	ففة من قریش
٢٣٦	ابن عباس ؓ	فرض الله الصلاة على لسان نبيكم
٤٤٢	عائشة رضى الله عنها	فرضت الصلاة ركعتين ركعتين
١٩١	ابن عمر ؓ	الفسوق ما أصيب من معاصي الله
٢٣٢	الثوري	الفضل أن تعفو المرأة عن شطرها
٤٦٣	ابن مسعود ؓ	في توايت من نار
٧٦٣	ابن عباس ؓ	ففي نزلت ﴿ مَا كَانَتْ لِنَبِيِّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أَمْرٌ ﴾
٦٦٥	علي ؓ	فينا والله أهل بدر نزلت ﴿ وَزَعَمْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ ﴾

[حرف الفاف]

١٢٦ ، ١٤٠	عطاء ؓ	قال آدم : إني لا أسمع أصوات الملائكة
٨١٣	أبو ثمامة ؓ	قال الحواريون : يا روح الله
١٣٣ ، ١٤٧		قال عبد الله بن سوريا الأعور لرسول الله : ما الهدى
٧١ ، ٥٩٦	السدي ؓ	قال المشركون للمسلمين : اتبعوا سبيلنا
٧٧ ، ٥٩٩	محمد بن إسحاق	قال ذلك حين خرج من السرب
١٣٧٣	الشعبي	قال عيسى ابن مريم : إنما الإحسان أن نحسن
٣٢٠	ابن عمر ؓ	قد اتخذت إذا بطانة من دون المؤمنين
١٠٠ ، ١١٠	عائشة رضى الله عنها	قدمت علي امرأة من أهل دومة الجندل
١٦٩٦		قدم رسول الله المدينة وليس

١٧٤٠	عبد المطلب بن أبي وداعة ؓ	قرأ رسول الله ﷺ سورة النجم
١٦٧٣	عبد الله بن مغفل ؓ	قرأ رسول الله عام الفتح في مسيره سورة الفتح
١٨٠٩	مالك بن أوس	قرأ عمر بن الخطاب ﴿ إِنَّمَا أَلَمِدْتُ ﴾
١٧٢٢	عمر ؓ	قسم ورب الكعبة حق
١٤٨٧	عكرمة ؓ	القطمير هو اللغافة
١٠٠	حذيفة ؓ	القلوب أربعة
٣٧	ابن عباس ؓ	قل يا محمد : اهدنا الصراط المستقيم
١٤٠ ، ١٢٦		القواعد التي كانت قواعد البيت قبل ذلك
١٦٩٥	أنس ؓ	قيل للنبي ﷺ : لو أتيت عبد الله بن أبي

[حرف الكاف]

١٦٩١	ابن أبي مليكة ؓ	كاد الخير أن يهلكا
٢٧٤	معاذ ؓ	كان إذا فرغ من هذه السورة ﴿ فَأَنْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴾
١٧٦	البراء بن عازب ؓ	كان أصحاب النبي ﷺ إذا كان الرجل صائما
١٥٢	ابن عباس ؓ	كان أول ما نسخ من القرآن القبلة
٣٨٠	ابن عباس ؓ	كان أهل الجاهلية يحرمون ما حرم الله إلا امرأة الأب
٢٨	ابن عباس ؓ	كان ﷺ لا يعرف فصل السورة
٢٨	ابن عباس ؓ	كان رسول الله ﷺ يجهر بيسم الله
٢٨	أم سلمة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا	كان رسول الله يقطع قراءته (بسم الله)
٢٩	عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا	كان رسول الله يفتح الصلاة بالتكبير
٤٠٩	عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا	كان رسول الله ﷺ يتوضأ ثم يقبل ثم يصلي
٦٦٠ ، ٣١	ابن عباس ؓ	كان رجال يطوفون بالبيت عراة
٦٦٠ ، ٣١	السدي	كان الذين يطوفون بالبيت عراة يحرمون عليهم الودك
٩٩	ابن عباس ؓ	كان حين ذهب ملك سليمان ارتد فقام من الجن
١٢٢ ، ٣٨	ابن عباس ؓ	كان حيي بن أخطب .. من أشد يهود العرب حسدا
٣٨٢	عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا	كان فيما أنزل القرآن (عشر رضعات)
١٧٢	معاذ ؓ	كان في ابتداء الأمر من قاء صام
٧٦٣	ابن عباس ؓ	كان العباس أسر يوم بدر
١٣٩٥	عمرو بن قيس ؓ	كان لقمان عبدا أسود
٦١١ ، ١٠٩	قادة	كان المسلمون يسبون أصنام قريش

١١٨	السدي	كان المسلمون يحسبون أن الأنبياء
١٢٥ ، ١٣٦	سفيان بن عيينة ؓ	كان المقام من سقع البيت على عهد رسول الله
١٣١٧	ابن عباس ؓ	كان الهدهد مهندساً
٢٩١	ابن عباس ؓ	كان يحيى وعيسى ابني خالة
٨٣١	ابن عباس ؓ	كان ينطلق من كل حي من العرب
٣٤٦	ابن إسحاق ؓ	كان يوم أحد يوم السبت
١٨١٠	ابن مسعود	كانت امرأة ترعى الغنم
٧١٥	ابن عباس ؓ	كانت حواء تلد لآدم ؑ أولاً
٤٤٤	البخاري	كانت ذات الرقاع بعد الخندق
١٩٣	ابن عباس ؓ	كانت عكاظ ومجنة وذو المجاز
٣٨٣	مالك بن أوس ؓ	كانت عندي امرأة فتوفيت
٧٤٨	ابن عباس ؓ	كانت الغنيمة تخمس
١٣٧٥	عبد الله بن مسعود ؓ	كانت فارس ظاهرة على الروم
١١٥	عائشة ؓ	كانت قريش ومن دان دينها يقفون بالمزدلفة
٣٢	ابن عباس ؓ	كانت قريش يطوفون بالبيت عراة
٢٩٢	مجاهد ؓ	كانت مريم ؑ تقوم حتى تتورم كعباها
٦٦٠	ابن عباس ؓ	كانوا يطوفون بالبيت عراة
١٨٢٤	أبو بحرية	كانوا يكرهون القتال على الخيل
٢٤٧	ابن جرير	الكرسي موضع القدمين
٢٤٧	الحسن البصري	الكرسي هو العرش
١٣٥ ، ١٤٧	ابن عباس ؓ	كل الأنبياء من بني إسرائيل إلا عشرة
٧٧	مجاهد ؓ	كل ظن في القرآن فهو علم
١٢٢ ، ١٣٣	ابن عباس ؓ	الكلمات التي ابتلي إبراهيم بهن
٢١٦	عمر بن الخطاب ؓ	كم أكثر ما تصبر المرأة عن زوجها
٤١٤	عبد الله بن عمر	كنا أصحاب النبي ﷺ لا نشك في قاتل النفس
١٠٢٦	سعيد بن المسيب	كنا نعد الأبواب الحفيظ أن يقول : اللهم اغفر لي
٨١٣	قتادة ؓ	كنت أكتب لرسول الله ﷺ
٤٢٦	ابن عباس ؓ	كنت أنا وأمي من المستضعفين
٧٣٢	طلحة ؓ	كنت ممن أصابه النعاس يوم أحد
١٩	أوس بن حذيفة ؓ	كيف تمزبون القرآن

[حرف اللام]

٣٤٠	ابن عباس ؓ	لعل رسول الله ﷺ أخذها
٢٢٣	ابن مسعود ؓ	لعن رسول الله ﷺ الواشمة والمستوشمة
٧٥٣	ابن مسعود ؓ	لقد قللوا في أعيننا يوم بدر
١٧٢٧	عائشة	لم يكن رسول الله ﷺ على شيء من التوافل أشد تعاهدًا منه
٢٨١	عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا	لم يكن شيء أحب إلى رسول الله من النساء
٤٦٧	ابن عباس ؓ	لما أراد الله أن يرفع عيسى
٦٨٨	سعيد بن جبير ؓ	لما أتى موسى ﷺ فرعون
١٧٨٨	ابن إسحاق	لما أجمع رسول الله ﷺ المسير إلى مكة
١٨٠١	ابن عباس ؓ	لما أراد الله أن يرفع عيسى
٨٧٩	السدي ؓ	لما أصبح قوم لوط نزل جبريل
٧٤٥	الحصين ؓ	لما أصيب قريش يوم بدر
٧٥٣	كعب الأحبار	لما خرجت قريش من مكة إلى بدر
٧٥٥	ابن عباس ؓ	لما دنا القوم بعضهم من بعض قلل
٣٤٦	عكرمة ؓ	لما رجع المشركون من أحد قالوا : لا محمد قتلتم
٥٣٦	عبادة بن الصامت ؓ	لما حاربت بنو قينقاع رسول الله ﷺ
١٢٥	ابن عباس ؓ	لما قدم أهل نجران من النصارى على رسول الله
٧٢٨	ابن عباس ؓ	لما شاور النبي ﷺ لقاء العدو
٧٥٥	ابن عباس ؓ	لما كان يوم بدر سار إبليس
١٦٨١	أنس بن مالك ؓ	لما كان يوم الحديبية هبط على رسول الله
٣٥٩	عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا	لما مات النجاشي كنا نتحدث
٣٤٨	ابن عباس ؓ	لما نزل قوله تعالى : ﴿ مَنْ ذَا الَّذِي ﴾
٨٣١	عكرمة ؓ	لما نزلت ﴿ إِلَّا نَنْفِرُوا ﴾ قال المنافقون
١٢٨	مجاهد ؓ	لما نزلت ﴿ ادْعُوْنِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ ﴾
٧١٨	عبد الرحمن بن زيد ؓ	لما نزلت ﴿ خُذِ أَلْمَنُو ﴾
١٨١٩	المسور	لما عاهد كفار قريش يوم الحديبية
٥٩٢	ابن عباس ؓ	لملك الموت أعوان من الملائكة
٢٤٧	ابن عباس ؓ	لو أن السموات السبع والأرضين السبع
٣٥٥	بشر الحافي ؓ	لو تفكر الناس في عظمة الله

١٣٤ ، ١٢٥	ابن عباس ؓ	لو لم يحج الناس هذا البيت
١٨٢٤	قتادة	لو نعلم أحب الأعمال إلى الله
١٨٢٣	عبد الله بن سلام ؓ	لو نعلم أي الأعمال أحب إلى الله
٦٣١ ، ١٤٣	عكرمة	لولا هذه الآية لتتبع الناس ما في العروق
٥٨٣ ، ٣١	السدي ؓ	ليس من رجل ظالم يدخل قبره
٤٠٦	سعيد بن المسيب ؓ	ليس من يوم إلا يعرض فيه على النبي ﷺ

[حرف الميم]

٧٢	ابن عباس ؓ	ما أسكن آدم الجنة إلا ما بين صلاة العصر إلى
٣٨٣	عمر بن الخطاب ؓ	ما أحب أن أجيزهما جميعًا
١٥١	البراء بن عازب ؓ	مات قوم كانوا يصلون نحو بيت المقدس
١٣٩٨	إبراهيم بن أدهم ؓ	ما صدق الله من أحب الشهرة
٥٩١ ، ٥٥	عبد الله بن الحارث ؓ	ما في الأرض من شجرة لا تغرز إبرة
١١٤٩	ابن عباس ؓ	ما لكم تسألون أهل الكتاب عما بأيديهم
٩٧٥	ابن مسعود ؓ	ما منكم من أحد إلا سيخلو الله به يوم القيامة
٢٠٩	مسروق ؓ	ما يحل للرجل من امرأته إذا كانت حائضًا
٧٠٢ ، ١٦٤	عكرمة	ما ييكك يا ابن عباس
٧٨٤	ابن عمر ؓ	ما أدي زكاته فليس بكنز
١٦٥٢	عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا	ما أنزل الله فينا شيئًا من القرآن إلا أن أنزل عذري
١٦٨٩	عثمان ؓ	ما أسر أحد سريرة إلا أبداها الله
		ما سمعت رسول الله يقول لأحد يمشي على
١٦٤٩	عامر بن سعد ؓ	وجه الأرض أنه من أهل الجنة
٨٧٦	السدي ؓ	ما بعث نبي بعد عاد إلا لعنوا على لسانه
٨٢٤	ابن عباس ؓ	ما زال إبراهيم يستغفر لأبيه حتى مات
٧٣٢ ، ١١	علي ؓ	ما كان فينا فارس يوم بدر غير المقداد
٧٣٨	ابن مسعود ؓ	ما منكم من أحد إلا وهو مشتمل على فتنة
١٧٢ ، ١٦٣	عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا	ما ذبح لذلك اليوم فلا تأكلوا منه
١٨٥ ، ١٧٥	ابن عباس ؓ	ما كنا نعرف انقضاء صلاة رسول الله إلا بالتكبير
٣٥٨	ابن مسعود ؓ	ما من نفس برة ولا فاجرة إلا الموت خيرًا لها
٣٥٨	أبو الدرداء ؓ	ما من مؤمن إلا والموت خير له

١٣٨٦	ابن عباس ؓ	المراد بالسبر هاهنا الفيافي
٢٣١	الحسن البصري ؓ	المس النكاح
١٣٤	ابن عباس ؓ	مقام إبراهيم الحج كله
١٢٥ ، ١٣٥	السدي ؓ	المقام الحجر الذي وضعت زوجته إسماعيل
٩٧٤	عبد الرحمن بن زيد بن أسلم ؓ	المقتسمون أصحاب صالح الذين تقاسموا بالله
٧٥٣	كعب الأحبار	ما من شيء أحب إلى الله تعالى من قراءة القرآن
٦٣٤ ، ١٥١	ابن مسعود ؓ	من أراد أن ينظر إلى وصية رسول الله ﷺ
٢٤٢	ابن عباس ؓ	من اغترف منه يده روي ومن شرب
٨١٥	محمد بن كعب	من أقرأك هذا ؟
١٨٣٣	بعض السلف	من باع واشترى في يوم الجمعة
٣٧٦	عبد الله بن عمر ؓ	من تاب قبل موته بنام تيب عليه
١٥٨٧	ابن عباس ؓ	من قال لا إله إلا الله فليقل على أثرها
٥٠٩	ابن عباس ؓ	من كفر بالرجم فقد كفر بالقرآن
٣١١	ابن عباس ؓ	من عاذ بالبيت أعاده الله
٥٥٢ ، ١٠	ابن عمر ، ابن عباس ؓ	الميسر هو القمار

[حرف النون]

٩٨١	أسماء بنت أبي بكر ؓ	نحزنا على عهد رسول الله فرشا
٣٥٩	الزبير بن العوام ؓ	نزل بالنجاشي عدو
٤٠٦	سعد ؓ	نزلت في أربع آيات
٧٣٢	ابن مسعود ؓ	النعاس في الرأس والنوم
١٢٩	عمر ؓ	نعمت البدعة هذه

[حرف الهاء]

١٨١٨	عبد الله بن أحمد	هاجرت أم كلثوم بنت عقبة
٦٩٨	الأقرع ؓ	هل تجدني في الكتاب ؟
٧١٥	ابن عباس ؓ	هل تدريان ما يولد لكما
٦٧٣	علي ؓ	هل رأيت كتيبا أحمر ؟
٦٩٨	محمد بن جبير ؓ	هل عندكم رجل نبيا ؟
٨٢٠	ابن عباس ؓ	هم أناس من الأنصار
٥٤٨	جائمة بن رثاب ؓ	هم الرهبان الذين في الصوامع

٢٩١	الربيع بن أنس ؓ	هو الذي لا يولد له
٤٥٥	عائشة رضى الله عنها	هو الرجل تكون عنده اليتيمة
٧٨٤	ابن عمر ؓ	هو المال الذي لا تؤدى زكاته
٣٨٢	علي ؓ	هي بمنزلة الريبة

[حرف الواو]

١٦١١	أبو بكر ؓ	والله لقراءة رسول الله ﷺ أحب إلي
٨١٧	أبو بكر ؓ	والله لو منعوني عناقاً كانوا يؤدونها

[حرف اللام ألف]

١٥٨٧	عبد الله بن الزبير ؓ	لا إله إلا الله وحده
٢١٣	ابن عباس ؓ	لا تجعلن عرضة ليمينك أن لا تصنع الخير
١٤٤٣	عكرمة ؓ	لا تحمل الموهوبة لغيرك
١٧١٣	علي ؓ	لا تسألوني عن آية في كتاب الله
٤١	بلال ؓ	لا تسبقني بآمين
٣١٧	بريدة بن الحصيب رضى الله عنه	لا رقية إلا من عين
٣٨١	ابن عمر ؓ	لا يحرم أقل من ثلاث رضعات
١٨٣٣	مجاهد	لا يكون العبد من الذاكرين الله كثيراً حتى يذكر الله قائماً
٢١٣	الشمي	لا يمين في معصية

[حرف الياء]

٣٥٤ ، ١٩٠	عيسى عليه السلام	يا ابن آدم الضعيف اتق الله
٣٥٤	الحسن البصرى	يا ابن آدم كل في ثلث بطنك
٣٤٧	عائشة رضى الله عنها	يا ابن أخي كان أبوك منهم
٢٣٧	ابن الزبير ؓ	يا ابن أخي لا أغير شيئاً منه من مكانه
١٠٢١	ابن الكواء	يا أمير المؤمنين ما هذه اللطخة التي في القمر
٣٧٤		يا أمير المؤمنين هب أن أبانا
١٥٤ ، ١٥١	زيد بن أسلم ؓ	يا رب كيف أشكرك
٤٣٨	ابن أم مكتوم ؓ	يا رسول الله أنا ضير
٤٠	ابن عباس ؓ	يا رسول الله ما معنى آمين
١٢٢	وهب بن زيد ؓ	يا محمد اثنتا بكتاب تنزله علينا
١٣٠	ابن عباس ؓ	يا محمد إن كنت رسولاً من الله

٦١١	ابن عباس ؓ	يا محمد لتنتهين عن سبك آلهتنا
٤٧٥	عدي بن زيد ؓ	يا محمد ما نعلم أن الله أنزل على بشر من شيء بعد موسى
٨١٣	الأوزاعي	يا معشر من حضر لستم مقرين بالإساءة
١٧١٢	كعب الأحبار	يأمر الله تعالى ملكًا أن ينادي على صخرة بيت المقدس
٣٨٨	علي بن أبي طالب ؓ	يا أيها الناس أقيموا الحد على إمائكم
١٠٣٨	ابن مسعود ؓ	يا أيها الناس إن ربكم يستعيبكم
١٥٥٠	عبد الله بن مسعود ؓ	يا أيها الناس من علم شيئًا فليقل به
٦٦٦ ، ٤٦	ابن مسعود ؓ	يحاسب الناس يوم القيامة فمن كانت حسناته أكثر
٥٨٣ ، ٣١	أبو مرزوق	يستقبل الكافر أو الفاجر عند خروجه من قبره
١٨٩	البخاري	يقال إنه عمر
٤٦١	ابن عباس ؓ	يكره أن يقوم الرجل إلى صلاته وهو كسلان
٤٥٦	علي ؓ	يكون الرجل عنده المرأة فتنبو عيناه
٤٠٥	عبد الله بن مسعود ؓ	يؤتى بالعبد أو الأمة يوم القيامة

المصادر والمراجع

- الإحسان بترتيب صحيح ابن حبان للأثير علاء الدين علي بن بلبان الفارسي (ت : ٧٣٩ هـ) تحقيق : كمال يوسف الحوت . مؤسسة الكتب الثقافية ١٩٨٧ م .
- إرواء الغليل في تخريج أحاديث منار السبيل لمحمد ناصر الدين الألباني . المكتب الإسلامي ١٩٨٥ م .
- أسباب النزول لأبي الحسن علي بن أحمد الواحدي النيسابوري (ت : ٤٦٨ هـ) . دار الفكر بيروت (١٩٩٨ م) .
- تحفة الأحوذى بشرح جامع الترمذي للمباركفوري (ت ١٣٥٣ هـ) ط . دار الاتحاد العربي للطباعة . القاهرة . بدون تاريخ .
- الترغيب والترهيب للحافظ زكي الدين عبد العظيم بن عبد القوي المنذري (ت : ٦٥٦ هـ) تحقيق : مصطفى محمد عمارة . دار إحياء التراث العربي - ١٩٦٨ م .
- جامع البيان عن تأويل آي القرآن للإمام الطبري (ت : ٢١٠ هـ) ط . المكتبة التجارية ١٩٩٥ م .
- الجامع الصحيح للإمام محمد بن إسماعيل البخاري (ت : ٢٥٦ هـ) ط . دار الفكر ١٩٩٤ م .
- الجامع الصحيح للإمام أبي عيسى محمد بن عيسى بن سورة الترمذي (ت : ٢٧٩ هـ) ط . دار إحياء التراث العربي . بيروت . بدون تاريخ .
- الجامع لأحكام القرآن للإمام القرطبي (ت : ٦٧١ هـ) ط . دار الفكر ١٩٨٧ م .
- الجامع الصغير وزيادته لمحمد ناصر الدين الألباني . المكتب الإسلامي ١٩٧٩ م .
- الدر المنثور في التفسير بالمأثور للإمام السيوطي (ت : ٩١١ هـ) ط . دار المعرفة . بيروت . بدون تاريخ .
- زاد المسير في علم التفسير للإمام ابن الجوزي (ت : ٥٩٧ هـ) ط . المكتب الإسلامي ١٩٨٤ م .
- سلسلة الأحاديث الضعيفة لمحمد ناصر الدين الألباني . المكتب الإسلامي ١٩٨٥ م .
- سلسلة الأحاديث الصحيحة لمحمد ناصر الدين الألباني . المكتب الإسلامي ١٩٨٥ م .
- سنن ابن ماجه للإمام ابن ماجه (ت : ٢٧٠ هـ) ط . دار الفكر العربي ١٩٥٤ م .
- سنن أبي داود للإمام سليمان بن الأشعث السجستاني (ت : ٢٧٥ هـ) ط . دار الكتب العلمية . بيروت . بدون تاريخ .
- سنن الدارقطني للإمام علي بن عمر الدارقطني ط . دار المحاسن للطباعة . مصر ١٩٦٦ م .
- السنن الكبرى للحافظ أبي بكر أحمد بن الحسن البيهقي (ت : ٤٥٨ هـ) ط . دار الفكر . بدون تاريخ .
- سنن النسائي للإمام أبي عبد الرحمن أحمد بن شعيب . ط . مكتبة المطبوعات الإسلامية . حلب ١٩٨٦ م .
- السيرة النبوية لابن هشام . تحقيق : مصطفى السقا وآخرين . دار إحياء التراث العربي - بيروت - بدون تاريخ .
- شرح السنة للإمام الحسين بن مسعود البغوي (ت : ٥١٦ هـ) تحقيق شعيب الأرنؤوط

ومحمد زهير الشاويش . المكتب الإسلامي ١٩٨٣ م .

- صحيح ابن خزيمة للإمام أبي بكر محمد بن إسحاق بن خزيمة السلمي النيسابوري (ت: ٣١١ هـ) تحقيق د. محمد مصطفى الأعظمي . المكتب الإسلامي ١٩٧٥ م .
- غريب الحديث لأبي القاسم بن سلام (ت: ٢٢٥ هـ) ط . حيدر آباد . بدون تاريخ .
- كشف الخفاء ومزيل الإلباس عما اشتهر من الأحاديث على ألسنة الناس لإسماعيل بن محمد العجلوني الجراحي (ت: ١١٦٢ هـ) . تحقيق أحمد القلاش . مؤسسة الرسالة ١٩٨٥ م .
- كنز العمال في سنن الأقوال والأفعال لعلاء الدين المتقي بن حسام الدين الهندي ، (ت: ٩٧٥ هـ) تحقيق : بكري حياني ، وصفوة السقا - مؤسسة الرسالة ١٩٨٩ م .
- لسان العرب لابن منظور الأنصاري (ت: ٧١١ هـ) ط . دار المعارف . بدون تاريخ .
- مختار الصحاح للرازي (ت: ٦٦٦ هـ) ط . دار البصائر ١٩٨٥ م .
- المستدرک على الصحيحين لأبي عبد الله محمد بن عبد الله المعروف بالحاكم النيسابوري (ت: ٤٠٥ هـ) . دار الكتاب العربي . بيروت . بدون تاريخ .
- مسند أبي يعلى الموصلي للحافظ أحمد بن علي بن المثنى التميمي (ت: ٣٠٧) تحقيق : حسين سليم أسد - دار المأمون للتراث ١٩٨٤ م .
- مسند أبي عوانة للإمام أبي عوانة يعقوب بن إسحاق الإسفرائيني (ت: ٣١٦ هـ) . دار المعرفة - بيروت - بدون تاريخ .
- المسند للإمام أحمد بن حنبل (ت: ٢٤١ هـ) ط . المكتب الإسلامي ١٩٨٣ م .
- مشكاة المصابيح لمحمد بن عبد الله الخطيب التبريزي . تحقيق : محمد ناصر الدين الألباني . المكتب الإسلامي ١٩٨٥ م .
- المصباح المنير للفيومي (ت: ٧٧٠ هـ) المطبعة الأميرية . مصر . ط الثالثة ١٩١٢ م .
- المصنف لأبي بكر عبد الرزاق بن همام الصنعاني (ت: ٢١١ هـ) تحقيق : حبيب الرحمن الأعظمي - المكتب الإسلامي ١٩٨٣ م .
- مجمع الزوائد ومنبع الفوائد للحافظ نور الدين علي بن أبي بكر الهيثمي (ت: ٨٠٧) . مكتبة القدسي - بدون تاريخ .
- المعجم الأوسط لأبي القاسم سليمان بن أحمد بن أيوب اللخمي الطبراني (ت: ٣٦٠ هـ) تحقيق د. محمود الطحان . مكتبة المعارف الرياض ١٩٨٥ م .
- المعجم الصغير لأبي القاسم سليمان بن أحمد بن أيوب اللخمي الطبراني (ت: ٣٦٠ هـ) تحقيق : عبد الرحمن محمد عثمان . دار الفكر بيروت ١٩٨١ م .
- المعجم الكبير لأبي القاسم سليمان بن أحمد بن أيوب اللخمي الطبراني (ت: ٣٦٠ هـ) تحقيق : حمدي عبد المجيد السلفي - بدون تاريخ .
- المعجم الوسيط . مجمع اللغة العربية ط . الثالثة ١٩٨٥ م .
- النهاية في غريب الحديث لابن الأثير (ت: ٦٠٦ هـ) ط . الخيرية . بدون تاريخ .

١٧٧٥	تفسير سورة الحديد	١٣١٥	تفسير سورة النمل
١٧٨٩	تفسير سورة المجادلة	١٣٣٥	تفسير سورة القصص
١٨٠٠	تفسير سورة الحشر	١٣٥٧	تفسير سورة العنكبوت
١٨١٤	تفسير سورة المحتحنة	١٣٧٥	تفسير سورة الروم
١٨٢٣	تفسير سورة الصف	١٣٩٣	تفسير سورة لقمان
١٨٢٩	تفسير سورة الجمعة	١٤٠٥	تفسير سورة السجدة
١٨٣٥	تفسير سورة المنافقون	١٤١٣	تفسير سورة الأحزاب
١٨٣٩	تفسير سورة التغابن	١٤٦٥	تفسير سورة سبأ
١٨٤٣	تفسير سورة الطلاق	١٤٨٣	تفسير سورة فاطر
١٨٥٠	تفسير سورة التحريم	١٤٩٩	تفسير سورة يثس
١٨٥٨	تفسير سورة المللك	١٥١٩	تفسير سورة الصافات
١٨٦٣	تفسير سورة القلم	١٥٣٧	تفسير سورة ص
١٨٧٢	تفسير سورة الحاقة	١٥٥١	تفسير سورة الزمر
١٨٧٨	تفسير سورة المعارج	١٥٧١	تفسير سورة غافر
١٨٨٣	تفسير سورة نوح	١٥٩١	تفسير سورة فصلت
١٨٨٨	تفسير سورة الجن	١٦٠٥	تفسير سورة الشورى
١٨٩٤	تفسير سورة الزمل	١٦١٩	تفسير سورة الزخرف
١٩٠٠	تفسير سورة المدثر	١٦٣٣	تفسير سورة الدخان
١٩٠٦	تفسير سورة القيامة	١٦٤١	تفسير سورة الجاثية
١٩١١	تفسير سورة الإنسان	١٦٤٧	تفسير سورة الأحقاف
١٩١٧	تفسير سورة المرسلات	١٦٦٣	تفسير سورة مُحَمَّد
١٩٢٠	تفسير سورة النبأ	١٦٧٣	تفسير سورة الفتح
١٩٢٤	تفسير سورة النازعات	١٦٩١	تفسير سورة الحجرات
١٩٢٨	تفسير سورة عبس	١٧٠٣	تفسير سورة ق
١٩٣٢	تفسير سورة التكوير	١٧١٣	تفسير سورة الذاريات
١٩٣٧	تفسير سورة الانفطار	١٧٢١	تفسير سورة الطور
١٩٣٩	تفسير سورة المطففين	١٧٢٩	تفسير سورة النجم
١٩٤٤	تفسير سورة الانشقاق	١٧٤١	تفسير سورة القمر
١٩٤٧	تفسير سورة البروج	١٧٤٩	تفسير سورة الرحمن
١٩٥٢	تفسير سورة الطارق	١٧٥٩	تفسير سورة الواقعة

٢٠٠٠	تفسير سورة التكاثر	١٩٥٤	تفسير سورة الأعلى
٢٠٠٣	تفسير سورة العصر	١٩٥٧	تفسير سورة الغاشية
٢٠٠٤	تفسير سورة الهُمة	١٩٦٠	تفسير سورة الفجر
٢٠٠٥	تفسير سورة الفيل	١٩٦٦	تفسير سورة البلد
٢٠١٠	تفسير سورة قريش	١٩٧٠	تفسير سورة الشمس
٢٠١١	تفسير سورة الماعون	١٩٧٣	تفسير سورة الليل
٢٠١٣	تفسير سورة الكوثر	١٩٧٧	تفسير سورة الضحى
٢٠١٦	تفسير سورة الكافرون	١٩٨٠	تفسير سورة الشرح
٢٠١٨	تفسير سورة النصر	١٩٨٢	تفسير سورة التين
٢٠٢٠	تفسير سورة المسد	١٩٨٣	تفسير سورة العلق
٢٠٢٢	تفسير سورة الإخلاص	١٩٨٥	تفسير سورة القدر
٢٠٢٦	تفسير سورة الفلق	١٩٩١	تفسير سورة البينة
٢٠٢٨	تفسير سورة الناس	١٩٩٣	فسير سورة الزلزلة
٢٠٣١	الفهارس والمراجع	١٩٩٦	تفسير سورة العاديات
		١٩٩٨	تفسير سورة القارعة

رقم الإيداع

2000/2608

I. S. B. N الترقيم الدولي

977-5146-84-4